التفسير – المستوى الأول
الشيخ/ د. عبد العظيم بدوي

البدء في شرح سورة الكهف

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد – صلى الله عليه وسلم – وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار .

أيها المشاهدون الكرام، إن القرآن الكريم هو حبل الله المتين، والصراط المستقيم، عصمة لكل من تمسك به، ونجاة لمن اتبعه ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[هود:١] ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت:٤١،٤٢] فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، مَن تركه مِن جبار؛ قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره؛ أضله الله، وقد تكفل الله تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، فقال تعالى ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾[طه:١٢٣–١٢٧] .

وقراءة القرآن –أيها الأخوة– قربة من أعظم القرب، وعبادة من أجلِّ العبادات، يعطي الله – تبارك وتعالى – عليها من الأجر والثواب ما لا يعطي على غيرها، وقد بين النبي – صلى الله عليه وسلم – كثرة هذا الأجر بقوله (من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول الم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف) وحتى تتصور –أيها المسلم– كثرة هذا الأجر الذي يتفضل الله به عليك على قراءتك القرآن، أقول لك: سورة الفاتحة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيها مائة وثلاثة عشر حرفا، فإذا قرأت الفاتحة مرة أعطاك الله – تبارك وتعالى – ألفاً ومائة وثلاثين حسنة، ألف ومائة وثلاثين حسنة يتفضل الله عليك بها على قراءتك الفاتحة مرة واحدة.

فتأمل –أيها المسلم– عظيم فضل الله عليك، وسل نفسك كم مرة تقرأ الفاتحة في الصلوات المفروضة؟ وكم مرة تقرأها لو أنك صليت السنن الرواتب القبلية والبعدية؟ فكم مليون حسنة تحصلها على قراءة الفاتحة وحدها، فكيف لو أنك جعلت لنفسك ورداً من القرآن تقرأه كل يوم، كم من الأجر تحصل! ولذلك كانت قراءة القرآن من التجارات الرابحة، كما قال الله – تبارك وتعالى – ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر:٢٩–٣٠] .

ولقد كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يحث على الاجتماع على قراءة القرآن ومدارسته فكان – صلى الله عليه وسلم – يقول (وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله تعالى، ويتدارسونه فيما بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده).

فلابد من قراءة القرآن، ومدارسته، ولابد من الاجتماع على ذلك؛ لأن المطلوب من القرآن الكريم هو العمل به: أن نحل حلاله، ونحرم حرامه، ونقف عند حدوده، المقصود من تنزيل القرآن الكريم أن يكون هذا القرآن دستوراً لنا، نطبقه في حياتنا كلها، ولا يمكن ذلك إلا بتفسير القرآن الكريم، وتحليل ألفاظه، ومعرفة أسباب نزوله، والناسخ والمنسوخ منه، وقد قامت قناة المجد الفضائية مشكورة على سعيها هذا بتخصيص حلقة من حلقاتها العلمية لمادة التفسير، وقد رأينا أن نبدأ هذه الحلقات من أول سورة الكهف، وسورة الكهف سورة مكية جاءت لتصحح العقائد الفاسدة، والمفاهيم الخاطئة، واعتمدت في أسلوبها على القصص وضرب الأمثال، فذكر الله – سبحانه وتعالى – في سورة الكهف ثلاث قصص :

قصة أصحاب الكهف .

وقصة موسى والخضر – عليهما السلام –

وقصة ذو القرنين .

وضرب الله – تبارك وتعالى – فيها المثل للغني المستكبر وكيف كانت نهاية كبره، وضرب فيها المثل للحياة الدنيا حتى لا يغتر الناس بها، وهذه السورة –سورة الكهف– سورة عظيمة الفضل، فقد جاء في فضلها عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال (من حفظ عشر آيات من آخر سورة الكهف؛ عُصم من الدجال) وفى رواية (من قرأ عشر آيات من أول سورة الكهف؛ عُصم من الدجال) .

وكان النبي – صلى الله عليه وسلم – يحث على قراءة سورة الكهف كل يوم جمعة، وصح عنه – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: (من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة؛ أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعة الآخرى) وفى رواية (أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق) .

وسورة الكهف في ترتيبها في سور القرآن الكريم جاء بعد سورة الإسراء، وهناك مناسبة لوجود سورة الكهف بعد سورة الإسراء، من هذه المناسبة أن سورة الإسراء، افتتحت بقول ربنا ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾[الاسراء: ١] وافتتحت سورة الكهف بقول ربنا ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾[الكهف: ١] .

وهناك علاقة وطيدة بين التسبيح والتحميد؛ ولذلك يقرن الله – تبارك وتعالى – بينهما في الأمر بهما فيقول ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾[طـه: ١٣٠] ونحن نقول في ذلك سبحان الله، والحمد لله، كما نقول سبحان الله وبحمده.

ومن المناسبة أيضاً أن سورة الإسراء اختتمت بالحمد لله ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ﴾ [الاسراء:١١١] .

وافتتحت سورة الكهف بـ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا ﴾ [الكهف:١] .

اختتمت سورة الإسراء بتنزيه الله – تبارك وتعالى – عن اتخاذ الولد ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ﴾ وافتتحت سورة الكهف بإنذار الذين قالوا اتخذ الله ولدا .

ونبدأ أولاً بالاستماع إلى الآيات المباركات، التي سنعيش معها في حلقتنا هذه –إن شاء الله تعالى– قبل الخوض في تفاصيلها، سائلين الله – عزّ وجلّ – أن ينجز لنا ما وعدنا، حيث قال ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[الأعراف:٢٠٤] .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا * وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا * مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا * فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا * إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف : ١-٨].

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص:٢٩].

﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر:٢١].

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر:٢٣].

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ الحمد هو الثناء على الله بعظيم صفاته، وكثرة آلائه ونعمه التي أسبغها على عباده، فالله – سبحانه وتعالى – محمود على عظيم صفاته، وجلال كبريائه – سبحانه وتعالى – وهو –أيضاً– محمود على ما أنعم به على العباد من نعمه الظاهرة والباطنة، والدينية والدنيوية، ونعم الله – سبحانه وتعالى – كثيرة كما قال – عزّ وجلّ – ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾[ابراهيم: ٣٤] ولكن أعظم هذه النعم هي نعمه تنزيل الكتاب، أجلّ النعم على الإطلاق، وأعظم النعم على الإطلاق نعمة تنزيل الكتاب؛ ولذلك حمد الله نفسه عليها قبل أن يحمده من أنزل عليهم هذا الكتاب، فقال ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ .

فنعم الله – سبحانه وتعالى – عظيمة، وأعظمها على الإطلاق نعمة تنزيل الكتاب؛ لأنه بهذا الكتاب أخرج الله – تبارك وتعالى – الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى، ومن الحيرة والقلق إلى الطمأنينة واليقين، وكيف لا تكون هذه النعمة أعظم النعم وهذا الكتاب ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[المائدة:١٦].

فتنزيل الكتاب نعمة عظيمة جداً، يجب علينا أن نكثر من حمد الله – تبارك وتعالى – علينا، ولذلك حين ترى الله – سبحانه وتعالى – يمنُّ على عباده بنعمه، ويذكرهم بها، تراه يستفتح بذكر نعمة تنزيل الكتاب، في سورة الرحمن وهي سورة النعم، ذكّر الله – تبارك وتعالى – فيها الثقلين بآلائه وإنعامه، استفتح الله – تبارك وتعالى – بذكر نعمة التنزيل نعمة القرآن فقال – عزّ وجلّ – ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ فقدم ذكر نعمة القرآن قبل نعمة الخلق؛ لأن الإنسان بلا قرآن لا قيمة له ولا وزن له، وإنما بالقرآن يرتفع قدر الإنسان، ويرتفع ذكره، ويكون له الذكر الحسن في الدنيا، والجزاء الحسن في الآخرة، ولذلك قال الله تعالى للنبي – صلى الله عليه وسلم – ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أي القرآن ﴿ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾[الزخرف:٤٤] .

وقال لمن أنزل عليهم ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾[الانبياء:١٠] .

فالحمد لله على نعمة تنزيل هذا القرآن الكريم ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ المراد بالعبد محمد – صلى الله عليه وسلم – وإضافة الاسم عبد إلى ضمير الله – عزّ وجلّ – ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ فيها من التكريم والتشريف للنبي – صلى الله عليه وسلم – ما فيها، والعبودية لقب عظيم جداً لقب الله – سبحانه وتعالى – به نبيه – صلى الله عليه وسلم – في المقامات العظيمة الشريفة، لقبه به في مقام التنزيل فقال ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ

عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ ولقبه به في مقام الدعوة فقال ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ [الجن:١٩] .

ولقبه به في مقام الإسراء فقال ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ .

ولقبه به في مقام التحدي فقال: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾[البقرة:٢٣] فالعبودية لله شرف عظيم جداً للعبد؛ ولذلك كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يحب هذا اللقب، ويحب أن ينادى به، وكان يقول: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله)وكان – صلى الله عليه وسلم – يقول (أيها الناس،ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله – تبارك وتعالى – إن الله اتخذني عبداً قبل أن يتخذني نبيا).

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ والله – سبحانه وتعالى – حين أنزل على عبده محمد – صلى الله عليه وسلم – الكتاب إنما أنعم على البشرية كلها بهذا الكتاب، فلماذا خص النبي – صلى الله عليه وسلم – بالذكر في الحمد ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ ولم يقل: الحمد لله الذي أنزل الكتاب، وإن كان نزول الكتاب نعمة على الإنسانية كلها؟

إنما خص النبي – صلى الله عليه وسلم – بالذكر؛ لأن نعمة الله عليه في اصطفائه واجتبائه لتنزيل الكتاب عليه أعظم من نعمة التنزيل على غيره، الكتاب نُزّل على الناس كلهم، ولكنه هو الذي تلقاه، وأوحاه الله – تبارك وتعالى – إليه، فكانت نعمة الله على نبيه محمد – صلى الله عليه وسلم – في التنزيل أعظم من نعمة من نُزل عليهم الكتاب؛ ولذلك حسدته قريش على هذه النعمة ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[الزخرف:٣١] فقال الله تعالى ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾[الزخرف:٣٢] فيجب علينا أن نكثر من حمد الله – سبحانه وتعالى – على هذه النعمة نعمة تنزيل الكتاب، وأن نعنى بهذا الكتاب تلاوة، وتدبراً، وفهماً، وعملاً، وتعليماً، ودعوة، ومدارسة.

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ الكتاب هكذا معرف، وكأن هذا القرآن من العربية بمكان بحيث إذا قيل الكتاب انصرف الذهن إلى هذا القرآن الذي أنزله الله – تبارك وتعالى – على نبيه محمد – صلى الله عليه وسلم – ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ فهو كتاب معلوم، وكتاب معهود، وكتاب معروف، بحيث إذا قيل الكتاب علم السامع أن المراد به القرآن المجيد.

ثم وصف الله – تبارك وتعالى – هذا الكتاب بوصفين، قال ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا* قَيِّماً ﴾ وصف الله تعالى الكتاب الذي أنزله على عبده محمد – صلى الله عليه وسلم – بوصفين: لم يجعل له عوجا، والوصف الثاني: قيما، فنفى الله – تبارك وتعالى – العوج عن القرآن الكريم، نفى الله تعالى العوج عن الكتاب المبين، فهو كتاب بيّن واضح لا عوج فيه، لا عوج في ألفاظه، ولا عوج في تراكيبه، ولا عوج في معانيه، القرآن الكريم على طوله –مائة وأربع عشرة سورة– الاستقامة هي عنوانه، الاستقامة هي سابغته من أول ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الفاتحة:٢] إلى ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ [الناس:١] .

والاستقامة ظاهرة في كل حرف، وفى كل لفظ، وفى كل خبر من أخبار هذا القرآن الكريم، لم يجعل الله – تبارك وتعالى – في هذا الكتاب عوجا، فهو كتاب قيّم ومستقيم من أوله إلى آخره، وهذه الاستقامة في الكتب لا تكون إلا في كتاب الله – عزّ وجلّ – هذه الاستقامة في الكتاب من أوله إلى آخره لا توجد إلا في كتاب الله – عزّ وجلّ – .

ترى كتاباً مؤلفاً، ألفه إنسان ما، فتعجب به؛ فتقرأه، فترى فيه مواضيع في قمة القوة، مواضيع حيوية أعجبتك، وملكتك، ورضيت عنها، فتقرأ فيه مواضيع أخرى، فترى أن بها من الضعف ما يجعلها تنزل إلى مرتبة أدنى عن مرتبة المواضيع السابقة، مواضيع في منتهى القوة، ومواضيع في منتهى الضعف؛ لأن هذا صنع البشر، ترى كتاباً تقرأ فيه موضوعاً سيملك، ويستولي عليك، ويسيطر عليك؛ فتعجب بهذا الكتاب، وتظن أنه هكذا على هذه الوتيرة دائماً، فتريد أن ترجع إليه في موضوع آخر، وأنت على أمل أن يشفي غليلك، ويروي غليلك، وإذا بهذا الكتاب لم تخرج منه بأي فائدة في هذا الموضع الذي قصدته في المرة الثانية بعدما سيطر عليك الموضوع الأول، لماذا ؟ لأن هذا هو شأن الكتب المؤلفة التي يؤلفها البشر .

ولذلك رُوي عن الإمام الشافعي – رضي الله عنه – أنه لما فرغ من كتابة كتابه العظيم الأم، قال لأحد تلاميذه: اقرأ علي، فقرأ عليه، فأخذ يصحح ما كتب حتى فرغ من القراءة، ثم قال: أعد علي القراءة، اقرأ مرة ثانية، فقرأ فجعل يصحح حتى فرغ منه، ثم قال: أعد القراءة للمرة الثالثة: فأعادها التلميذ، والإمام يصحح، فبعدما فرغ من التصحيح للمرة الثالثة، قال: حسبك –يا بني– أبى الله أن يكون كتاباً كاملاً إلا كتابه .

فكتاب الله – عزّ وجلّ – نفى الله تعالى عنه العوج ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾ فهو كتاب مستقيم من أوله إلى آخره، القوة في أقصر سورة، كما هي في أطول سورة، والقوة في أقصر آية، كما هي القوة في أطول آية؛ لأنه كتاب الله رب العالمين.

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قَيِّمًا ﴾ قال بعض العلماء: هذا الوصف الثاني قيم مستفاد من الوصف الأول وهو نفي العوج، لما نفى عنه العوج أفاد أنه قيم، لكن الله – سبحانه وتعالى – صرح بالوصف الثاني، قيما ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قَيِّمًا ﴾ لماذا جمع بين الوصف بالقيم ومع نفي العوج ؟

قال العلماء: الشيء تراه فتظنه مستقيماً، فإذا دققت فيه النظر وقفت فيه على بعض العوج، قد ترى الشيء فتظنه مستقيماً، فإذا دققت فيه النظر اطلعت فيه على عوج؛ فأراد الله – سبحانه وتعالى – حين نفى العوج عن كتابه أن يقول: إنكم مهما دققتم النظر، وأعدتم النظر وكررتم النظر في هذا الكتاب، فستجدوه على هذه الاستقامة، ولن تجدوا فيه عوجاً أبداً؛ لأنه كلام الله رب العالمين، وليس كلام البشر المخلوقين؛ ولذلك الله – سبحانه وتعالى – لفت أنظارنا إلى إحكام خلقه في السماوات والأرض فقال ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ ﴾[الملك:٣-٤] فلعله فاتك في المرة الأولى ما تجده في المرة الثانية، النتيجة مع تكرار النظر إلى السماوات للحصول فيها على أي خلل ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير، وكذلك مهما قرأ أهل اللغة وأهل البلاغة القرآن الكريم لن يجدوا فيه عوجاً أبداً، لأن الله قال ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قَيِّمًا ﴾.

ولذلك قال الله – تبارك وتعالى – في سورة طه ﴿ طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى * تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا ﴾ فأراد الله – سبحانه وتعالى – أن يستدلوا على إحكام التنزيل بإحكام الخلق، قال: هذه السماوات أمامكم مرفوعة، وهذه الأرض تحتكم موضوعة، انظروا هل تجدوا فيها من خلل ؟ لن تجدوا في السماوات والأرض أي خلل، فهو خَلْقُ الله المحكم، وكذلك القرآن تنزيل الله المحكم؛ ولذلك قال تعالى ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[هود:١] .

ثم ذكر الله – سبحانه وتعالى – وظيفة القرآن وحكمة تنزيله، فقال – سبحانه وتعالى – ﴿ لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ﴾.

فوظيفة القرآن أنه نذير وبشير، هكذا وصفه الله –تعالى– هنا في سورة الكهف، ووصفه أيضاً في سورة الإسراء في قوله تعالى، ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً * وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾[الإسراء:٩-١٠] .

وقال هنا في سورة الكهف ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قَيِّمًا ﴾ لماذا أنزل الله على عبده الكتاب؟ ﴿ لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فوظيفة القرآن الإنذار والتبشير، فهو نذير وبشير.

﴿ لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ ﴾ البأس هو العذاب، ووصفه الله تعالى بالشدة، وأكد على شدة العذاب بقوله ﴿ مِنْ لَدُنْهُ ﴾ ﴿ لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ ﴾ من عند الله – سبحانه وتعالى – وإنما قيد العذاب والبأس الشديد بأنه من عند الله؛ ليفيد قوته وشدته؛ لأن الله –تعالى– قال ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾[الفجر:٢٥-٢٦] .

وقال ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾[البروج:١٢] .

وقال ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[هود:١٠٢] .

وقد أنكر الله – سبحانه وتعالى – على الكفار الذين استعجلوا العذاب في الدنيا قبل الآخرة فقال تعالى ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾[المعارج:١-٣] .

وأقسم – سبحانه وتعالى – على وقوع هذا العذاب بمستحقيه فقال – سبحانه وتعالى – ﴿ وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾[الطور : ١-٨].

﴿ لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ومن هم المؤمنون الذين يستحقون هذه البشارة؟ ﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ﴾ والعمل لا يكون صالحاً حتى تتوفر فيه ثلاثة شروط :

الشرط الأول : الإخلاص لله – سبحانه وتعالى – .

فبالإخلاص أمر الأولين والآخرين، فقال عن الأولين ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾[البينة:٥] .

وقال لنا نحن الآخرين آخر الأمم ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾[غافر:١٤] .

وقال ﴿ هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[غافر:٦٥] .

وقال للنبي – صلى الله عليه وسلم – ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ * أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ [الزمر:٢-٣] .

والنبي – صلى الله عليه وسلم – يقول (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه) فلابد لكل عامل إذا أراد أن يعمل عملاً يتقرب به إلى الله أن يخلص النية لله – سبحانه وتعالى – وأن يجردها من شوائب الشرك، والنفاق والرياء .

الشرط الثاني لكون العمل صالحا: متابعة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وموافقة هديه في هذا العمل، فإن الله – تبارك وتعالى – أمر باتباع النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال ﴿ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[الأعراف: ١٥٨] .

وقال ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[آل عمران:٣١] فلابد أن يكون العمل الذي تعمله لله على هدي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لأن النبي – صلى الله عليه وسلم – لم يدعنا إلى صالح العمل نظرياً، وإنما دعانا إليه نظرياً، وعلمنا إياه عملياً، دعا بوضوء؛ فتوضأ أمام أصحابه، ثم قال (من توضأ نحو وضوئي هذا) وصلى، وقال (صلوا كما رأيتموني أصلى) ولما أراد الحج أذن في الناس أنه حاج؛ فجاؤه من كل فج عميق، فقال (خذوا عني مناسككم) فلابد من موافقة السنة في عملك الذي تتقرب به إلى الله بعد إخلاصك فيه لله – عزّ وجلّ – وفى ذلك يقول النبي – صلى الله عليه وسلم – (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا؛ فهو رد) وفى رواية (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه؛ فهو رد) .

فلابد من الإخلاص لله، ولابد من المتابعة لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – فهما توحيدان لا نجاة للعبد إلا بهما: توحيد المرسِل بالعبادة والطاعة، وتوحيد المرسَل – صلى الله عليه وسلم – بالاتباع.

ثم هناك شرط ثالث؛ ليكون العمل صالحاً: وهو أن يكون العامل مؤمنا قال الله تعالى ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾[النحل:٩٧] وقال ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ﴾[غافر: ٤٠] فلابد بعد الإخلاص والمتابعة من أن يكون العامل مؤمناً بالله – عزّ وجلّ – ومؤمنا بكل ما أمر الله بالإيمان به .

فالكافر بالله – عزّ وجلّ – لا يكون عمله مقبولا، كما قال الله تعالى ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ ﴾[إبراهيم:١٨] .

﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ ما الأجر الحسن ؟ الجنة، قال الله تعالى ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾[يونس:٢٦] والحسنى هي الجنة والزيادة هي النظر إلى وجه الله – عزّ وجلّ – ﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ يعني الجنة، كما قال –تعالى– ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾[البقرة: ٢٥] ولذلك سماها الله الحسنى ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ ﴿ مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً ﴾ يعني إذا دخلوا الجنة ماكثين فيها أبداً ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾[الكهف:١٠٨] ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[الحجر:٤٨] وهذا الخلود في الجنة، وهذه الدوام هو الذي يسعد أهل الجنة بنعيمها الذي يسعد أهل الجنة هو البقاء، والخلود، وطول المكث، وعدم الخروج؛ لأن الإنسان في الدنيا إذا وسع الله –تعالى– عليه في الرزق، وبسط له فيه، إذا كان من المنعمين المترفين، لا يلتذ بهذا النعيم، ولا يطمئن، ولا يفرح به الفرح الشديد، لماذا ؟ لأنه يعلم أن هذا النعيم ربما يزول، وإن بقي هذا النعيم سيفنى ويموت، فصاحب النعيم في الدنيا قلق على ما هو فيه من النعيم، مضطرب خائف من الموت الذي سيخرجه من هذا النعيم، وخائف منه إذا طال عمره أن يسلب هذا النعيم قبل الموت؛ فلذلك المنعمون في الدنيا المترفون فيها غير مطمئنين، بل هم في قلق دائم، أما أهل الجنة، فإنهم إذا دخلوها نودوا مبشرين بالخلود، (إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يؤتى بالموت على صورة كبش أملح، فيوضع على سور بين الجنة والنار، ونودي يا أهل الجنة، فيشرأبون ينظرون، ويا أهل النار، فيشرأبون ينظرون، قال: أتعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، إنه الموت فيذبح هذا الكبش الذي يمثل الموت، وينادى يا أهل الجنة، خلود بلا موت، ويا أهل النار، خلود بلا موت.)

وفى الحديث عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة، ناداهم مناد يا أهل الجنة، إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وأن تصحوا فلا تسقموا أبدا، وأن تشبوا في تهرموا أبدا) .

فإيمان أهل الجنة ببقاء النعيم ودوامه، وعدم موتهم الذي يحرمهم من النعيم، هو الذي يجعلهم يجدون اللذة والمتعة في نعيم الجنة؛ ولذلك حكى الله – تبارك وتعالى – في سورة الصافات بعد أن ذكر نعيم أهل الجنة: أن رجلا من أهل الجنة، قال لإخوانه في الجنة: إني كان لي قرين، كان لي في الدنيا صديق ملحد كافر، يحثني على الكفر، ويصدني عن الإيمان ﴿ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ [الصافات : ٥٢-٥٣] ثم أقبل على إخوانه أهل الجنة قائلا ﴿ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴾[الصافات:٥٤] ألا تطلعون معي على النار لننظر أين ذهب صاحبي هذا الملحد؟ الذي كان يشككني في ديني وفى الإيمان في الدنيا ﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾[الصافات:٥٥] قال: وقد رأى صاحبه معذبا ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾[الصافات:٥٦،٥٧].

فلما رأى العذاب بعدما رأى النعيم الذي هو فيه، أراد أن يطمئن على دوام نعيمه، وبقائه، وخلده؛ فأقبل على إخوانه أهل الجنة ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾[الصافات:٥٨،٥٩] قالوا: نعم ، قال ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[الصافات:٦٠] .

فالقرآن أنزل ﴿ لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا * ﴾

وأنزل القرآن لينذر ﴿ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ .

الفرق بين الإنذار الأول، والإنذار الثاني، أن الإنذار الأول عام لينذر جميع الكافرين بأساً شديداً من عند الله – عزّ وجلّ – عذاباً شديداً ينتظرهم إن هم أصروا على الكفر، ولم يقلعوا عنه .

وأما الإنذار الثاني: ﴿ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾فهذا خاص بالذين زعموا لله الولد –وتعالى الله عن اتخاذ الولد– ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾.

الله – سبحانه وتعالى – لا والد له، ولا ولد له ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[الشورى: ١١].

فقول لله ولد هذا قول عظيم جداً، انظر إلى توبيخ الله – تبارك وتعالى – لقائليه ﴿ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا * مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ .

كبرت كلمة تخرج من أفواههم، ما لهم به من علم ولا لأبائهم، على ما استندوا في ادعاء الولد لله – عزّ وجلّ – أي دليل، أي حجة، أي برهان؛ ولذلك قال الله تعالى ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا ﴾ والسلطان هو البرهان والحجة ﴿ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾[يونس:٦].

إن الكلام الذي لا ينبني على علم كلام مردود على صاحبه كما قال القائل :

والدعاوى إذا لم تقم عليها ... بينات أبناؤها أدعياء

الذين قالوا اتخذ الله ولدا، ما حجتهم، ما دليلهم، ما برهانهم ؟ ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ ﴾ عظمت ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ إنها كلمة عظيمة: كلمة لله ولد كلمة عظيمة، قال الله فيها ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ

كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا* لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم : ٩٠-٩٥].

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ .

ولقد كان النبي – صلى الله عليه وسلم – حريصاً كل الحرص على إيمان الناس؛ ليخلّصوا أنفسهم بهذا الإيمان من عذاب الله – عزّ وجلّ – الذي خوفهم منه، وأنذرهم إياه، فطر الله –تعالى– نبيه – صلى الله عليه وسلم – على رحمة عظيمة جداً، فكان من شدة رحمته يحزن على كفر الكافرين، وتكذيب المكذبين، وإعراض المعرضين، كان يحزن جداً حتى كاد يقتله الحزن؛ فنهاه الله – سبحانه وتعالى – عن ذلك فقال: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ فلعلك يا نبينا باخع نفسك: أي قاتل نفسك، ومهلكها على آثارهم؛ بسبب أنهم لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً عليهم ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[فاطر: ٨] .

لا تحزن عليهم إن عليك إلا البلاغ، وقد بلغت فلا يحزنك كفرهم، ولا يحزنك إعراضهم قد حملت رسالة، وقمت ببلاغها أو بتبليغها على أكمل وجه، فمن اتبعك فقد أنجى نفسه، ومن كذبك وعصاك فقد أوبق نفسه، فلا يحزنك كفرهم يا نبينا ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ عليهم، يقول – صلى الله عليه وسلم – (مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها، وهو يذبهن عنها، وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنت تفلتون من يدي) – صلى الله عليه وسلم – .

نسأل الله – سبحانه وتعالى – كما رزقنا الإيمان بمحمد – صلى الله عليه وسلم – أن يرزقنا اتباعه، واقتفاء أثره، والالتزام بمنهجه، والعمل بسنته، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

– فاصل –

الأخ كان يسأل عن بدايتكم في طلب العلم ؟

درست في الأزهر منذ الصغر، ابتداءً بالكتاب ثم المرحلة الإعدادية، ثم المرحلة الثانوية، ثم المرحلة الجامعية، إلى أن حصلت على الدكتوراه في الدعوة والثقافة الإسلامية من كلية أصول الدين من جامعة الأزهر بالقاهرة، فتعلمت في الأزهر على أيدي علماء أجلاء –جزاهم الله خيراً– وهاجرت إلى الأردن فتعلمت من شيخنا الألباني رحمة الله عليه، وشيخنا محمد إبراهيم شقرا بمالك، وشيخنا محمد نسيب الرفاعي رحمة الله عليه .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، شيخنا الفاضل، ما أفضل طريقة لحفظ كتاب الله مع ضبط معانيه ؟

ننصح من أراد حفظ كتاب الله – عزّ وجلّ – بالإخلاص لله – عزّ وجلّ – في نيته أولاً وأن يقبل على هذا القرآن للحفظ طمعاً في رفعة الدرجة في الآخرة، كما جاء في الحديث (يقال لقارئ القرآن يوم القيامة: اقرأ وارقَ ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأه) يخلص النية لله – سبحانه وتعالى – ثم يقوي العزم، ويشحذ الهمم، ويقرر لنفسه ورداً من القرآن كل يوم يحفظه، يكون هذا الورد بمنزلة وجبة الطعام التي لا يستغني عنها الإنسان، بحيث أنه لو دخل فراشه ليلا ولم يحفظ ورده، يترك الفراش وينزل يتوضأ ويحفظ ورده، فبهذا الإلزام يستمر، ومشكلتنا هي في عدم الاستمرار، فلو وجد الاستمرار بلغ النهاية بإذن الله وإن طالت المدة .

وننصح من أراد الحفظ بالحفظ من حزب المفصل، من "ق" إلى "الناس"، هذه الأربعة أجزاء حفظها سهل وميسور، ثم بعدها يأتي من "يس" إلى "ق" ثم من "الكهف" إلى "يس" ثم النصف الأعلى بإذن الله – عزّ وجلّ – لأن النصف الأول من القرآن الكريم السبع الطوال فيه، كلها سور مدنية، ومليئة بالأحكام الشرعية، وهي لا تقرأ كثيراً ولا تسمع كثيرا؛ فيصعب حفظها، والعزيمة ليست بتلك العزيمة التى تقوي الإنسان على المضي قدماً فيفتر فيترك الحفظ ويتوقف، لكنه إذا بدأ –إن شاء الله– بحزب المفصل، ثم ارتقى هذا الترتيب الذي رتبته بإذن الله يوفق ويستمر.

تقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، بارك الله فيكم، هل هناك حكمة معروفة من قراءة سورة الكهف بالذات يوم الجمعة دون أي سورة أخرى وجزاكم الله كل خير ؟

لا ليس عندي علم، لماذا وصانا النبي – صلى الله عليه وسلم – بقراءة سورة الكهف يوم الجمعة؟

يقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أشهد الله على حبكم –يا شيخ– أرجو أن توضح لنا على عجل معنى قيمًا؛ لأني لم أستمع إليها جيداً وشكراً لكم وأثابكم الله

قلنا: الله – سبحانه وتعالى – نفى العوج عن الكتاب، ولم يجعل له عوجا ليس في القرآن عوج، لا، في تراكيبه، ولا في ألفاظه، ولا في معانيه، ولا في أخباره، على طوله مائة وأربع عشرة سورة كلها في القوة وفى البلاغة والفصاحة على وتيرة واحدة، أقصر سورة كأطول سورة، وأقصر آية كأطول آية، ونفي العوج يستلزم الاستقامة، ولكن الله – سبحانه وتعالى – لم يكتفِ بنفي العوج، حتى قال ﴿ قَيِّماً ﴾ لماذا أتى بالوصف الثاني مع أن الوصف الأول تضمنه ؟

قلنا: لأنك قد ترى الشيء مستقيماً يخيل إليك أنه مستقيم، فإذا دققت فيه النظر اكتشفت فيه عوجا، لكن كتاب الله – سبحانه وتعالى – مهما دققت فيه النظر، ومهما كررت قراءته وتلاوته؛ لترى فيه عوجاً، لن ترى فيه عوجاً أبدا؛ لأنه كلام الله القيم .

لقد ذكرت يا شيخنا من شروط العمل الصالح الاتباع للرسول – صلى الله عليه وسلم – فهل المحبة توجب الاتباع؟

حقيقة المحبة هي الاتباع، كيف نعرف المحب من غير المحب، يتميز المحب باتباعه لمحبوبه؛ ولهذا قال الحسن البصري – رضي الله عنه – ادعى قوم محبة الله – عزّ وجلّ – فابتلاهم الله بهذه الآية ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي ﴾[آل عمران:٣١] فالاتباع هو عنوان المحبة، ليست المحبة شعارات ترفع، ولا رايات ترفع، ولا كلمات تقال، وإنما المحبة اتباع للمحبوب، فإذا كنت تحب الله؛ فأحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فاتبع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فاتباعك لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – هو عنوان حبك لله – عزّ وجلّ – .

تقول بسم الله الرحمن الرحيم، جزاكم الله خيرا وبارك الله في جهودكم، ورد فضل حفظ أو قراءة العشر الآيات الأولى من سورة الكهف، والبعض يقول أنها الأخيرة من السورة فأيهما آكد ؟

الروايتان صحيحتان (من حفظ عشر آيات من أول الكهف) و (من آخر الكهف) الروايتان صحيحتان، والمسلم إن واظب إن شاء الله تعالى على قراءة سورة الكهف كل جمعة حفظها كلها، إن شاء الله .

يقول ذكرتم شروط قبول العمل: الإخلاص، والاتباع، فهل تفضلتم بذكر شروط الاتباع ؟

الاتباع حقيقته اقتفاء أثر المتبع – صلى الله عليه وسلم – أن تتعلم السنة، وأن تعمل بها، أن تتعلم سنة النبي – صلى الله عليه وسلم – وهديه وأنصحك في ذلك بكتاب زاد المعاد في هدي خير العباد، تتعلم هديه – صلى الله عليه وسلم – في حياته اليومية، وفى عبادته، وتلتزم بالعمل بما تعلمته من هديه – صلى الله عليه وسلم – حينئذ تكون متبعاً .

عندي سؤالين يا شيخ: السؤال الأول: بالنسبة لإضافة الله – سبحانه وتعالى – لنبيه – صلى الله عليه وسلم – في القرآن الكريم، ذكرت هذه المسألة فلعلك يا شيخ تعيد هذه المسألة، المسألة الثانية: أنك قلت أن المراد بأجراً حسنا أن المراد بالأجر هو الجنة، والحسن هو الزيادة، فهل هذا هو المراد الصحيح يا شيخ أحسن الله لكم ؟

قال الله تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ عبد مضاف، والضمير مضاف إليه، فأضاف الله – سبحانه وتعالى – عبودية نبيه – صلى الله عليه وسلم – إليه وفى هذه الإضافة تكريم وتشريف للنبي – صلى الله عليه وسلم – لأنه عبد الله ورسوله – صلى الله عليه وسلم – .

السؤال الثاني: كان يتعلق بأجراً حسنا

الأجر الحسن: هو الجنة قال الله تعالى ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾[البقرة: ٢٥] وسمى الله الجنة الحسنى فقال ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾[يونس: ٢٦] فسر النبي – صلى الله عليه وسلم – الحسنى بالجنة والزيادة بالنظر إلى وجه – عزّ وجلّ – .

يقول هل ثبت في السنة مواضع أخرى من غير صلاة الجمعة، يستحب فيها قراءة سورة الكهف، وهل حفظها يكفي للوقاية من فتنة المسيح الدجال أم أنه يشترط الفهم ؟

لا، لم أعلم في السنة إرشاد إلى قراءة سورة الكهف في غير يوم الجمعة، والحمد لله أن الأجر على قراءة القرآن ليس متوقفا على الفهم، كما روي عن الإمام أحمد أنه سئل عن ذلك فقال: بفهم وبغير فهم، من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، قال الإمام أحمد: بفهم وبغير فهم، وإن كان المقصود الأعظم من القراءة هو الفهم، لكن إذا قرأت وكان قلبك مشغولاً، وأجريت الألفاظ على لسانك بلا عوج ولا تغيير ولا تبديل، فأنت مأجور على القراءة إن شاء الله تعالى .

يقول شيخنا الفاضل، ما سبب نزول هذه السورة ؟

ذكر المفسرون في سبب نزولها سبباً، ولكن لم يصح عند المحدثين؛ فلذلك أضربنا صفحاً عن ذكره .

يقول فضيلة الشيخ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ما أفضل كتاب يتحدث عن صلة السورة، بالسورة وصلة الآية بالآية ؟

البحر المحيط في ذلك جيد إن شاء الله تعالى .

تقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فضيلة الشيخ، سورة الكهف ليلة الجمعة وقراءتها في يوم الجمعة نهاراً، هل هناك اختلاف؛ لأنه ورد فيها حديثان صحيحان في كليهما، وإن كان فضل القراءة ليلاً و نهاراً مختلفان، فهل نقرأها مرتان جزاكم الله خيرا ؟

القراءة المقصود بها يوم الجمعة، واليوم يكون بعد طلوع الفجر وليست في ليلة الجمعة نعم.

تقول: ما المقصود بالنور الذي يكون في يوم الجمعة ؟

أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعة الأخرى، يعني أن الله – سبحانه وتعالى – يجعل له نوراً في قلبـــه، وفى سمعه، وفى بصره، فيكون موفقاً في حياته مجتهداً في طاعة ربه، في هذا الأسبوع .

يقول أن هناك الكثير من الناس يعتقدون أن الرجل الذي رافق موسى –عليه السلام وعلى رســولنا أفــضل الصلاة وأتم التسليم– هو الخضر، أرجو توضيح هذه المسألة وجزاكم الله خيرا

باختصار: نعم، هو الخضر، وسيأتي الحديث عنه في موضعه من السورة إن شاء الله تعالى.

السلام عليكم، ما السر في عدم ذكر خلود المشركين في النار، مع ذكر هذه النسبة للمؤمنين، وجزاكم الله خيرا ؟

قد جاء ذكر الخلود للفريقين فريق في الجنة، وفريق في السعير، جاء ذكر خلود الفريقين في مواضع أخر من كتاب ربنا – سبحانه وتعالى – .

تقول أحسن الله إليكم، شيخنا قال الله تعالى ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ هل جميع أهل الجنة ســيرون وجه الله تعالى أم البعض فقط، وإن لم يكن الكل فمن سيرى وجه الله تعالى؟

بإذن الله – عزّ وجلّ – كل المؤمنين إذا دخلوا الجنة يرون ربهم – سبحانه وتعالى – نــسأل الله أن يجعلنـــا منهم .

يقول: ما الأفضل السرعة بكثرة أو بتأني مع القلة ؟

لا، القراءة بتؤدة وطمأنينة وتدبر وفهم أفضل من القراءة بسرعة، فقد قيل لابن عباس – رضي الله عنهما – أيهما أفضل رجلان صليا ركعتين في وقت واحد، قرأ أحدهما بالبقرة وآل عمران، وقرأ الثاني بالبقرة وحــدها، وكان ركوعهما وسجودهما سواء، فأيهما أعظم أجرا؟ قال الذي قرأ البقرة وحدها .

لماذا الذي قرأ البقرة وحدها أعظم أجرا؟ لأنه قرأها بتؤدة، وطمأنينة، وتدبر، وفهم، وهــذا هــو المقــصود الأعظم من القراءة، وكان ابن مسعود – رضي الله عنه – ينكر على الذين يسرعون في القراءة، وحدثه رجل أنه قام بكذا وكذا سورة في الليلة، فقال هزاً كهز الشعر؛ فننصح المسلمين إذا قرأوا القرآن أن يــستجيبوا لقــول الله تعالى ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾[المزمل:٤]

بسم الله الرحمن الرحيم، جزاكم الله خير الجزاء فضيلة الشيخ، قلتم في تفسير كلمة الكتاب: أن الكتاب إذا قيل يعني يطلق أو يعرف ويلتفت النظر إلى كتاب الله – سبحانه وتعالى – ولكن هناك البعض من العلماء سموا كتاباً ألفوه بالكتاب بالتعريف كيف نرى هذا ؟

ليس هناك في المؤلفات كلها كتاب مشهور باسم الكتاب، فقط، ما فيه مؤلفات حسبما اطلعت على مؤلف اسمه الكتاب، تأليف فلان الفلاني، أبداً لكن كل مؤلف له مسمى، أما الكتاب في القرآن الكريم، فالمراد به كتاب الله – عزّ وجلّ – القرآن المجيد .

تقول: لماذا بدأتم بتفسير سورة الكهف دوناً عن السور الأخرى، وهل صحيح أنه لابد من ختم سورة الكهف قبل آذان المغرب يوم الجمعة؛ لكي يحصل العبد على أجرها المترتب على قراءتها يوم الجمعة بأن تكون له نوراً ما بين الجمعتين ؟

أما لماذا بدأنا بسورة الكهف؟ فقد ذكرنا أنه هكذا شرح الله الصدور، ووقع الاختيار ليست هناك أي علة ونسأل الله – سبحانه وتعالى – كما بدأنا أن يرزقنا النهاية الحسنة، وننتهي من القرآن كله إن شاء الله تعالى من الفاتحة إلى الناس .

أما قراءة الكهف يوم الجمعة ينبغي أن تكون قبل المغرب؛ لأن يوم الجمعة ينتهي بغروب الشمس، فإذا غربت الشمس، انتهي يوم الجمعة، فإذا قرأت بعد غروب الشمس يوم الجمعة قرأت ليلة السبت، ولم تقرأ يوم الجمعة.

يقول ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ من المقصود في هذه الآية ؟

الذين قالوا اتخذ الله ولدا، ما لهم بهذا القول من علم، ولا عندهم به برهان ولا حجة ولا سلطان .

تقول هل يمكن الاستعانة بشرح السور من كتب أخرى إلى جانب تفسير ابن كثير ؟

من أراد أن يستزيد بعد ابن كثير، فعليه بتفسير السعدي رحمة الله، وتفسير الجزائري حفظه الله، ومحاسن التأويل للقاسمي .

السلام عليكم، السؤال يا شيخ متى تبدأ الساعة الأولى من يوم الجمعة، والسؤال الثاني: سورة الكهف هل إذا قرأتها بعد صلاة الفجر تجزء أم بعد الآذان الأول ؟

الساعة الأولى فيها اختلاف بين العلماء، ولعل الراجح هو ما جرى عليه عمل المسلمين في ذلك اليوم، متى يذهب أوائل الناس السابقون متى يسبقون إلى المسجد يوم الجمعة، يعني ما شاهدنا أحد يذهب إلى يوم الجمعة الساعة السابعة صباحاً، ولا الثامنة صباحاً، لكن في العادة انظر إلى المسجد اذهب مبكراً، وانظر كم سبقك ثلاثة أربعة، إذاً تأتي في الجمعة القادمة قبل ذلك فتكون قد أتيت في الساعة الأولى بإذن الله – عزّ وجلّ – .

إذا قرأ الكهف بعد الآذان الأول يوم الجمعة الآذان الأول هو من الليل، أما الآذان الثاني هو طلوع الفجر، واليوم يبدأ بطلوع الفجر فمن قرأها بعد الآذان الأول يكون قد قرأها ليلاً، لكن إذا قرأها بعد طلوع الفجر وهو الآذان الثاني يكون قد قرأها يوم الجمعة .

يقول: قال الله تعالى ﴿ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً ﴾[الكهف :٤] من المخاطب في هذه الآيات؟

الذين قالوا اتخذ الله ولدا، ثلاثة أصناف:

المشركون، مشركو العرب جعلوا الملائكة بنات الله .

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾[التوبة:٣٠].

تقول كيف أثبت العلم؛ لأنني درست كثيرا، وأشعر أنني ما زلت جاهلة، وأنسى كثيراً، أرجو الرد، وجزاكم الله خيراً ؟

لابد لطالب العلم أن يتعاهد دروسه دائماً بالمراجعة، لا يدرس ثم يترك ويهمل، بل لابد لكل مادة درسها أن يتعاهدها بين الحين والحين، ومما يعين على التثبيت تزاور طلاب العلم ومذاكرتهم بعضهم مع بعض، فقد قال بعض السلف: تزاوروا وتذاكروا العلم، فإنكم إن لم تفعلوا يدرس، فلابد لطالب العلم أن يتعاهد علمه دائما بالمراجعة؛ ليحيه بتلك المراجعة إن شاء الله .

تقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، هل يؤجر من يتلو القرآن مع التكرار من أجل الحفظ، لكل حرف يكرره عشر حسنات مثل أجر من يتلو دون تكرار بختم القرآن وجزاكم الله خيراً ؟

هو كذلك إن شاء الله، الطالب الذي يحفظ يأخذ السورة، ويكرر خمس آيات منها كلما كرر له أجر –إن شاء الله تعالى– حتى ولو كرر الآية الواحدة عشر مرات، له بكل حرف منها عشر حسنات بإذن الله – عزّ وجلّ – .

تقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، سجلت في دورة لحفظ القرآن، وطلبوا منا حفظ كتاب كلمات القرآن تفسير وبيان للشيخ محمد حسنين مخلوف، ما رأيكم في هذا التفسير وهل تنصحون بالاستمرار في حفظه، بارك الله فيكم ؟

لا بأس بهذا الكتاب في المفردات إن شاء الله تعالى .

يقول: هل قصة يأجوج ومأجوج مع سورة الكهف صحيحة، أنهم يهدمون سوراً أو شيئاً وإذا قرأ المسلم سورة الكهف أعاد الله بناء ما هدموه، ما قولكم يا شيخنا ؟

لا، حفرهم للسد صحيح ثابت في حديث صحيح عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنهم يحفرون كل يوم حتى إذا غربت الشمس، أو كادت قالوا: اتركوه وتعودون غداً فتحفروه فيأتون غداً، فيجدونه قد ردم فيحفرون وهكذا إلى غروب الشمس، ويتركونه فيأتون يوم الثالث فيجدونه قد ردم وهكذا، فإذا أراد الله خروجهم ألهم القائم عليهم أن يقول ترجعون غدا فتفتحونه إن شاء الله، فإذا قال إن شاء الله، رجعوا فوجدوه كما تركوه، فاتموا ما بقي وخرجوا على الناس، لكن ما علمنا من حديث صحيح أن قراءة سورة الكهف يوم الجمعة تمنعهم من حفر السد .

يقول فضيلة الشيخ: هناك بعض الروايات تقول: أن سبب التنزيل هو أن قريش سألت اليهود عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – فقالوا: اسألوه عن فتية ذهبوا في الدهر والرجل الذي ملكه الله الأرض وعن الروح ؟

هكذا كما أشرت سابقاً جاء هذا السبب في بعض كتب التفاسير، ولكننا إن شاء الله تعالى نعتمد في تفسيرنا على الصحيح الثابت، ونترك غير الصحيح الثابت، نترك الضعيف، فهذه الرواية ضعيفة؛ ولذلك لم نتحدث فيها عن سبب النزول .

تقول هل يحرم رسم لكل ما له روح كالإنسان أو الحيوان، وهل يحرم استخدامنا لهذه الصور بغرض التعليم وجزاكم الله خير ؟

الذي نتعلمه أن التصوير لكل ذي روح حرام، كما نص على ذلك الإمام النووي رحمه في شرح صحيح مسلم في كتاب اللباس، أن التصوير بعمومه لكل ذي روح حرام، إنسان كان أو طيراً أو حيواناً، وإن كان لابد فاعلا فلما لا روح له .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته هل الآية تكون في منتصف المصحف ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً ﴾[الكهف:٤٤] ؟

لا، قالوا إن منتصف المصحف عند قوله تعالى في قصة أصحاب الكهف وليتلطف، قالوا هذا هو نصف المصحف وليس فيما سأل عنه .

يقول: هل قوله تعالى ﴿ أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ فيه دليل على إثبات العلو لله – عزّ وجلّ – لأن العلو لا يكون إلا من فوق إلى تحت ؟

لا شك في ذلك –وجزاه الله خيراً على سلامة عقيدته وصحة معتقده، أن الله – سبحانه وتعالى – في السماء فوق العرش استوى، بائن من خلقه، فهكذا النزول لا يكون إلا من أعلى لأسفل .

تقول: هل صحيح أن تفسير ابن كثير مليء بالإسرائليات، وكيف يميز طالب العلم تلك الإسرائليات ؟

أنصح السائلة وغيرها من المسلمين والمسلمات بقراءة مختصر ابن كثير لشيخنا الشيخ محمد نسيب الرفاعي رحمة الله عليه، فقد حذف من الأصل الضعيف والموضوع وأثبت فيه الصحيح الثابت عن النبي – صلى الله عليه وسلم – .

يقول هل ذو القرنين هو نبي أم رجل صالح حفظكم الله ؟

نرجو من الإخوة الكرام ألا يتعجلوا بالفوائد فنحن في بداية أول حلقة في التفسير والسورة طويلة، لكن تعجيلاً بالفائدة ليس ذو القرنين نبياً إنما كان ملكاً صالحاً .

تقول: هل من نصيحة شيخنا الفاضل للتفريق بين الآيات التي تتشابه حفظاً فقد بدأت حفظ سورة البقرة وشارفت على الانتهاء من حفظها وأصبحت الآيات تختلط علي أفادكم الله وجزاكم الله خيراً ؟

يخرج الطالب ورقة ويكتب فيها الآيات المتشابهات في السورة، ويكتب رقم هذه، ورقم هذه، وينظر في هذه الورقة كثيراً يثبت ذلك في قلبه بإذن الله .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، في البداية أحب أن أركز على سؤال، هل قراءة سورة الكهف تسلم بعد الفجر، أو من بعد الآذان الأول، ولعل يقصد بالآذان الأول من يوم صلاة الجمعة؛ لأن عندنا في السعودية بعض المدن يكون هناك فارق بين الآذان الأول في صلاة الجمعة الفارق يقرب من ساعة، أما سؤالي إذا كان يا شيخ تنتهي قراءة سورة الكهف بغروب الشمس يوم الجمعة، هل ستكون البداية من غروب شمس الخميس يعني من ليلة الجمعة تكون بداية قراءتها وحفظ الله ؟

الحديث يقول (من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة) فاليوم يطلق على النهار لا يدخل فيه الليل كما في الغسل (غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم) الغسل لا يكون إلا في اليوم بعد طلوع الفجر، لا يكون ليلة الجمعة، فكذلك القراءة وما جاء من صالح الأعمال وفضلها في يوم الجمعة. اليوم يكون المراد به النهار وليس الليل .

قصة أصحاب الكهف

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد – صلى الله عليه وسلم – وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار .

ثم مرحباً بكم في هذا اللقاء الجديد مع تفسير سورة الكهف، والآيات المباركات التي معنا اليوم تضمنت من المعاني ما يلي:

أولاً: بيان حقيقة الحياة الدنيا .

ثاني: ذكر شئ من عجائب خلق الله – سبحانه وتعالى – .

ثالث: حث الشباب على اغتنام شبابهم وأوقاتهم وصحتهم .

رابعاً: الإيمان يزيد وينقص .

خامساً: كيف حفظ الله – تبارك وتعالى – أصحاب الكهف وهم في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا .

وهذا بإيجاز عرض سريع لأهم ما تضمنته الآيات المباركات التى سنعيش في رحابها ساعتنا هذه إن شاء الله تعالى.

فلنستمع إلى هذه الآيات المباركات أولاً قبل الخوض في تفاصيلها سائلين الله – عزّ وجلّ – أن ينجز لنا ما وعدنا، حيث قال ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[الأعراف:٢٠٤] .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا * أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا * هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا * وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا * وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا * وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾[الكهف: ٧–١٨].

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[ص:٢٩].

﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر:٢٣].

إخوة الإسلام يقول الله تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلً﴾.

ما، في قوله تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ ﴾ للعموم فكل ما على الأرض من إنسان وحيوان وقصور وأنهار وبحار وجبال وأشجار، كل ذلك جعله الله – تبارك وتعالى – زينة للأرض يقول الله تعالى ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[الكهف:٤٦] ويقول تعالى ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾[النحل:٨] .

ويقول تعالى ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾[آل عمران:١٤] .

لماذا زين الله – تبارك وتعالى – الأرض، ولماذا خلقها وما عليها ؟

قال تعالى في بيان حكمة الخلق، حكمة الإيجاد ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلً﴾ .

والابتلاء معناه الاختبار والامتحان، لنبلوهم أيهم أحسن عملا، وقد تكرر ذكر هذه الحكمة من الخلق والإيجاد، في موضوعين آخرين غير هذا الموضع .

في سورة الملك قال الله – تبارك وتعالى – ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾[الملك:١–٢] .

وفى سورة هود قال تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾[هود:٧] .

وهنا في سورة الكهف قال تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلً﴾ .

فنص الله – تبارك وتعالى – في المواضع الثلاث على أن حكمة الخلق والإيجاد، ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ .

ولم يقل ربنا – سبحانه وتعالى – لنبلوهم أيهم أكثر عملا ، وإنما قال ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ لأن الإسلام لا يهتم بالكم، وإنما يهتم الإسلام بالكيف.

فركعتان تصليهما تسبغ وضوءهما وتحسن قراءتهما، وتطمئن في ركوهما وسجودهما، وتقبل بقلبك على الله – عزّ وجلّ – فيهما خير من مائة ركعة لا تكون على هذا النحو ولا على هذه الكيفية، ولذلك قيل لابن عباس رضي الله عنهما، رجلان صليا ركعتان جميعاً، فكان قيامهما وركوعهما وسجودهما سواء، صلى رجلين ركعتين أخذا وقتاً واحداً كبرا للإحرام معاً وانصرفا بالسلام معاً، إلا أن أحدهما قرأ في قيامه البقرة وحدها، والآخر قرأ

البقرة وآل عمران فأيهما أحب إليك ؟ أيهما أفضل، وأيهما أعظم أجراً وأكثر ثواباً ؟ قال ابن عباس الــذي قــرأ بالبقرة وحدها، لماذا؟ لأن الذي قرأ بالبقرة في وقت قرأ فيه الآخر بالبقرة وآل عمران، كان الثاني مسرعاً فــي قراءته يهز القراءة هزا، وأما الذي قرأ البقرة وحدها في وقت قرأ صاحبه سورتين، كان يقرأ بتــؤدة وترتيــل وتجويد وتدبر وهذا هو المراد ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[ص:٢٩] .

فالله – سبحانه وتعالى – قال في حكمة الخلق والإيجاد ليبلوهم أيهم أحسن عملا، ولم يقل أكثر عملاً، حتــى نهتم دائماً بالكيف لا بالكم، ولعلنا نستطرد من هذا فنقول ، في رمضان في القيام، في التراويح تجد كثيــراً مــن المساجد إحدى عشر ركعة بسورة والضحى والليل إذا سجى، وربما صلوا ثلاثاً وعشرين ركعة بسورة الملك كل ركعة بآية، وربما جعلوا الركعة على آيتين .

نقول: لا، لو أنهم صلوا ركعتين أو أربعاً كان ذلك أحسن وأعظم أجراً من العشرين والثلاث والعشرين، انظر ماذا قالت عائشة – رضي الله عنها – في صفة قيام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قالــت – رضــي الله عنها – (ما زاد رسول الله في رمضان ولا في غير رمضان عن إحدى عشرة ركعة) ثم وصفت الصلاة فقالت (يصلي أربعاً لا تسل عن حسنهن وطولهن) .

فعلينا أن ننتبه الإسلام يهتم بالكيف لا بالكم، ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ .

قال الفضيل بن عياض لنبولهم أيهم أحسن عملاً قال يعني أخلصه وأصوبه، فلا يكون العمل مقبولاً حتى يكون خالصاً وصواباً، فإن كان خالصاً وليس بصواب لم يقبل، وإن كان صواباً وليس بخالص لم يقبل حتــى يكــون خالصاً وصوابا، قالوا يا أبا علي، ما الخالص؟ وما الصواب؟ قال: الخالص: ما ابتغي به وجه الله، والصواب: ما وافق هدي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فعليك أن تكون حريصاً في عملك، أن تكون خالص النية، لله – سبحانه وتعالى – وأن تكون متبعاً في عملك هدي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وعليه كما يقول ابن القيم رحمه الله ينبغي على كل من عزم على عمل أن يسأل نفسه قبل العمل سؤالين: لم وكيف، لــم تعمــل؟ وكيــف تعمل؟ الجواب الصحيح، على السؤال الأول لم؟ لله، والجواب الصحيح على السؤال الثاني كيف؟ على طريقــة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فإذا سألت نفسك لم تريدين العمل ؟ قالت: لله وهي صادقة .

وكيف تعملين؟ على طريقة رسول الله .

نقول لك فإذا عزمت فتوكل على الله، بادر بهذا العمل الصالح، الذي أخلصت فيه النية، ووافقت فيه الــسنة، وأما إذا كان الجواب عن السؤال الأول– لم؟– للناس، رأيت فلانا فعل كذا فمدحه الناس وأحبوه وأنزلوه منزلــة عالية، فأنا أريد أن أعمل هذا العمل؛ لأكسب المحبة في قلوب الناس، كما كسبها فلان، نقول لــك: لا إنهــم أي الناس، لن يغنوا عنك من الله شيئا .

فيقول الله تعالى في الحديث القدسي (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيــري تركته وشركه .

فإذا قلت لم ؟ قلت لله، سألناك كيف تعمل، قلت كما يفعل الناس، نفعل كما يفعل الناس نــصلي كمــا يــصلي الناس، ونحج كما يحج الناس، نقول لك وفر جهدك ووقتك فإن العمل الذي لا يكون علــى طريقــة رســول الله مردود على صاحبه، كما قال – صلى الله عليه وسلم – (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ .

لما زين الله – تبارك وتعالى – الأرض بما عليها من زينة لا شك أن النفوس تعلقت بها وأن الأنظار انصرفت إليها فأراد الله – سبحانه وتعالى – أن يحذر عباده من التعلق بالدنيا، والركون إليها والحرص على زينتها، فأخبرهم أن زينة الحياة الدنيا تفنى وأن الأرض كلها تزول بما عليها فقال – عزّ وجلّ – ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ﴾ .

والجرز: الأرض السوداء الجرداء التي لا زرع فيها ولا ماء ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ ﴾[السجدة:٢٧] فالأرض تكون جرداء سوداء، لا زرع فيها فإذا نزل المطر بإذن الله أنبت الله النبات وأحيا الأرض الميتة بعدما كانت ميتة أحياها بالماء الذي أنزله من السماء ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾[فصلت:٣٩].

فالله – سبحانه وتعالى – لما أخبر عن زينة الحياة الدنيا أخبر أنها زينة فانية سريعة الفناء سريعة الزوال حتى لا تتعلق النفوس بها فقال ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ﴾.

اسمع ما يقول الله – تبارك وتعالى – في ذلك ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ﴾ [يونس:٢٤] .

ويقول تعالى ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾[الحاقة: ١٣–١٦].

ويقول تعالى ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴾[الواقعة: ١–٥].

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْأِكْرَامِ ﴾[الرحمن:٢٦–٢٧].

فلما أخبر الله – تبارك وتعالى – عن الأرض وزينتها أخبر أهلها أنها لن تدوم هكذا مزينة بل ستفنى وتزول، وينتقلون إلى عالم آخر فيه نار حامية ، أو نعيم مقيم .

وأمرهم أن يتسابقوا إلى فعل الخيرات، التي تجعلهم ينجون من النار ويفوزون بالجنة فقال تعالى ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً ﴾ هذه حقيقة الدنيا ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد:٢٠].

فإذا علمتم هذا ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحديد:٢١] .

ومع ذلك أبى كثير من الناس إلا أن يتعلقوا بالدنيا، وأن يحرصوا عليها، فجعلوها أكبر همهم، ولم تكن لهم همة في الآخرة ولا رغبة فيها، ولا تطلع إليها، حتى إن الله تعالى وصفهم بأنهم إذا أتوا البيت الحرام في موسم الحج حيث تستجاب الدعوات، لم يكن لهم هم في الدعاء إلا الإلحاح على الله – عزّ وجلّ – بسؤال الدنيا، قال تعالى ﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ﴾[البقرة:٢٠٠] .

يقول تعالى ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[هود:١٥-١٦].

ويقول تعالى ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً ﴾ [الاسراء:١٨-١٩] .

والنبي – صلى الله عليه وسلم – يقول (من جعل الآخرة أكبر همه جعل الله غناه في قلبه وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن جعل الدنيا أكبر همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له) .

فعلينا أن نحذر من الركون إلى الدنيا، والإغترار بها والحرص عليها، نأخذ منها ما قسم الله – تبارك وتعالى – لنا ونحن نتطلع إلى نعيم دائم عظيم أعظم من نعيم الدنيا وهو نعيم الجنة، الذي وصفه النبي – صلى الله عليه وسلم – بقوله (فيها من النعيم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر) .

مع العلم بأن الحرص على الآخرة لا يمنع الإنسان من التمتع بطيبات الحياة الدنيا فإنه – سبحانه وتعالى – قال ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [لأعراف:٣٢] .

وقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾[المائدة:٨٧-٨٨] .

لكن المهم اجعل الآخرة أكبر همك، بحيث إذا ضاق الوقت عن عمل الدنيا وعمل الآخرة، قدمت عمل الآخرة على عمل الدنيا؛ لأن الوقت إذا مضى مضى معه عمل الآخرة، وأما إذا مضى الوقت ومضى معه عمل الدنيا، فتستطيع أن تدّارك ما فاتك من الدنيا، لكن ما فاتك من عمل الآخرة لن تستطيع أن تدّاركه .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ .

ثم أخذ الله – تبارك وتعالى – في الحديث عن أصحاب الكهف وبدأ بمجمل، ثم أتي على المجمل بعد ذلك بالتفصيل، وهذه سنة الله – تبارك وتعالى – في القرآن الكريم، يذكر المجمل ثم يأتي بعد ذلك بالتفصيل، كذلك فعل الله – تبارك وتعالى – في القرآن كله، فاستفتحه بسورة الفاتحة وجعلها مجملة لما تضمنه القرآن الكريم كله، ثم جاء القرآن الكريم كله يفصل ما أجمله الله – تبارك وتعالى – في سورة الفاتحة، كذلك لما أراد الله – تبارك وتعالى – أن يقص علينا نبأ أصحاب الكهف، بدأ بمجمل فقال لنبيه – صلى الله عليه وسلم – ولكل من يصلح للخطاب ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾[الكهف:٩-١٢] هذا هو المجمل ثم أخذ في التفصيل فقال ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ ثم قص الله – تبارك وتعالى – علينا من نبأهم ما قص في هذه السورة الكريمة المباركة، وقد ذكر كثير من المفسرين في تفسير هذه القصة –قصة أصحاب الكهف– روايات طويلة وأخباراً كثيرة، لا تصح أبدا، ضربنا عن ذكرها صفحا؛ لأن الله – سبحانه وتعالى – أغنانا عن هذه الروايات الباطلة، والقصص الواهية بقوله ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ فماذا تبتغي بعد هذا الحق الذي قصه الله – تبارك وتعالى – عليك، والله – سبحانه وتعالى – لا يتتبع الاحداث فيسردها حدثاً، ولا يتتبع الوقائع فيسردها واقعة واقعة، وإنما الله – تبارك وتعالى – سنته في القصص القرآني أن يقص علينا ما فيه العبرة، والعظة والدرس، ولذلك سيأتي معنا في السورة الكريمة في قصة ذو القرنين ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً ﴾ [الكهف:٨٣]

سأتلوا عليكم من نبأ ذي القرنين ما فيه ذكرى وعبرة وعظة ودرس، وما ليس فيه عبرة ولا فائدة ولا منفعة لن أقصه عليكم ولن أذكره لكم، إذاً من هم أصحاب الكهف؟ كم كان عددهم؟ وكيف كان لون كلبهم؟ وما كان اسم كلبهم؟ وأين كانوا يعيشون؟ وفى أي زمان كانوا يعيشون؟ وهل كانوا قبل موسى عليه السلام أم بعده ؟ كل هذا سكت الله – تبارك وتعالى – عنه؛ لأنه لا فائدة في تعيينه، ولا في ذكره، فلنسكت عما سكت الله – تبارك وتعالى – عنه، لكن الله يقول لنبيه – صلى الله عليه وسلم – ولكل من يصلح للخطاب أم حسبت يا نبينا أم حسبت يا أيها المخاطب ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً ﴾ [الكهف:٩] ما الكهف وما الرقيم ؟

الكهف: هو النقب الواسع في الجبل، النقب الواسع في الجبل يسمى كهفاً، فإذا كان ضيقاً سمي غارا .

وأما الرقيم: فالرقم معناه الكتابة، والرقيم فعيل بمعنى مفعول أي مكتوب، الرقيم يعني المكتوب كما قال تعالى ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين:١٨]﴿ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾[المطففين:٢٠] .

وأصح ما جاء في تفسير الرقيم، أنها لوحة معدنية، أو حجر من الرخام كتب عليه أسماء أصحاب الكهف .

الأصح في تفسير الرقيم، أنه لوحة معدنية أو حجرية كتب عليها أسماء الفتية الذين دخلوا هذا الكهف، ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً ﴾ حين تسمع الأن فتية دخلوا الكهف فناموا فيه ثلاثة مائة سنين وازدادوا تسعاً، ثم بعثهم الله تتعجب، تقول: سبحان الله، ينامون ثلاثة مائة سنين ثم يبعثهم الله تتعجب من هذا، لم تتغير أجسامهم، ولم تبلَ، ولم يصبهم مرض ولا عاهة، ينامون ثلاثة مائة سنين ثم يبعثهم الله كما كانوا، تتعجب من هذا، الله يقول لك إذا رأيت أن بعث أصحاب الكهف بعد هذه السنين عجباً، فليس بعجب فلله من الخلق عجائب كثيرة ﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾[الغاشية:١٧] .

أليست هذه الإبل في خلقتها التي هي عليها آية عجيبة من عجائب قدرة الله سبحانه وتعالى ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾[الغاشية: ١٧-٢٠].

فإذًا عجيب كيف يحيي الله – تبارك وتعالى – فتية لبثوا نائمين ثلاثة مائة سنين، فلا تعجب فقدرة الله فوق كل ذلك وتأمل في خلق الله ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾[غافر:٥٧] .

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ .

الفتية جمع فتى، فتىً تثنيته فَتَيان، وجمع فِتْيان، ولكن جمع فتيان يسمى في اللغة جمع كثرة كصبي وصبيان جمع كثرة، وصبية في جمع القلة فالله – سبحانه وتعالى – قال ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ ﴾ أشار لنا بهذا اللفظ إلى قلة عدد أصحاب الكهف أنهم كانوا دون العشرة جمع قلة فتية دون العشرة ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ ﴾ وفى ذكرهم بالفتوة والشباب والقوة والصحة، ما يفيد الشباب إلى أنه يجب عليهم أن يعتبروا بقصة هؤلاء الفتية، وأن يعتبروا بها وأن يحرصوا على اغتنام شبابهم، وأن يقدموا لدينهم ما يستطيعون في وقت شبابهم، فإن الشباب هو أجمل سن العمر، الشباب هو زمن العطاء، وزمن البذل، والجهد والتضحية في وقت الشباب، تستطيع أن تقوم الليل، وتصوم النهار، وتغدو وتروح في الأوقات الخمس إلى الجماعة في المسجد، فيجب عليك أن تغتنم هذا كما وصاك النبي – صلى الله عليه وسلم – حيث قال (اغتنم شبابك قبل هرمك) يجب عليك أن تغتنم شبابك، وأن تأخذ منه زاداً عظيماً من التقوى ومن الأعمال الصالحة التي إذا طال بك العمر، ستعجز عنها في زمن الشيخوخة، فتقول مردداً مع الشيوخ:

ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب

فأنت أيها الشاب ما زلت في شبابك، ما زلت في صحتك ما زلت في مقتبل عمرك، فاغتنم شبابك قبل هرمك، وتزود .

تزود من التقوى فإنك لا تدري إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر

فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكاً وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري

وكم من صغار يرتجي طول عمرهم وقد أدخلت أجسادهم ظلمة القبر

وكم من عروس زينوها لزوجها وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر

وكم من صحيح مات من غير علة وكم من عليل عاش حيناً من الدهر

فاغتنم شبابك قبل هرمك، ولا تؤجل عمل اليوم إلى الغد، وإذا اصبحت فقل يا نفس اجتهدى في طاعة الله فلعل اليوم، آخر الأيام .

وإذا أمسيت فقل يا نفس اجتهدي في طاعة الله، فلعل الليل آخر الليالي وهكذا؛ حتى تسلم نفسك إلى خالقها وباريها راضية مرضية، فتسمع هذا النداء الحلو العذب ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾[الفجر: ٢٧-٣٠] .

﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ ﴾ أي لجأوا إلى الكهف فراراً بدينهم من الفتن؛ لأنهم نظروا في قومهم فرأوهم يعبدون الأصنام من دون الله – عزّ وجلّ – وجدوا الشرك متفشياً في قومهم وكانوا فتية دون العشرة لا يستطيعون تغيير هذا المنكر بأيديهم، والإنسان إذا عجز عن تغيير المنكر بيده، حسبه أن يغيره بقلبه، وأن يعتزل هذا المنكر .

فالله – تبارك وتعالى – قد وسع علينا في تغيير المنكر فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده) وذلك التغير باليد لا يسكون إلا في محل الولاية، ومحل السلطة، لا يكون في الشارع العام ولا مع عامة الناس، إنما يكون في محل الولاية والسلطة (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان) .

فلما رأى هؤلاء الفتية قومهم وماهم فيه من الشرك، ولم يستطيعوا أن يغيروا الواقع، اعتزلوهم ولجأوا فراراً بدينهم إلى كهف في جبل .

أين كان هذا الكهف ؟ في أي بلد ؟ وأين يقع ؟ سكت الله عن ذلك؛ لأن تعيين المكان ليس فيه كثير فائدة .

﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ ﴾ من عندك أنت يا رب ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ واهدنا سبيل الرشاد، قال تعالى ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ﴾ [الكهف:١١] .

كم كانت هذه السنون ؟ سنعرف إن شاء الله تعالى بعد ذلك، ولكن قوله تعالى ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ ﴾ لماذا ضرب الله تعالى على آذانهم، إن الله – تبارك وتعالى – أراد أن يناموا في هذا الكهف سنين عدداً، أراد أن

يناموا ولا يستيقظوا سنين عددا، والأصوات المزعجة توقظ النائم، فضرب الله على آذانهم حتـــى لا تـــزعجهم، الأصوات فيستيقظون من نومهم إلا في الوقت الذي أراده الله – تبارك وتعالى – بعد السنين التي عدها لهم عدا ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ﴾ ثم بعثناهم من نومهم بعد ثلاثة مائة سنين، ﴿ بَعَثْنَاهُمْ لِـــنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ .

ما المراد بالحزبين؟ ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ما المراد بالحزبين؟ قال بعـــض المفـــسرين: انقسم أهل البلد في هؤلاء الفتية على قسمين، وكم لبثوا في كهفهم؟ وقال بعض المفسرين –وهـــو الأرجـــح والله تعالى أعلم:– أن الفتية أنفسهم لما بعثهم الله تعالى من نومهم انقسموا على أنفسهم حزبين كم لبثوا في كهفهم؟ فلما بعثهم الله تساءلوا كم لبثتم؟ ثم لما علموا أنه لا فائدة من معرفة كم لبثوا فوضوا الأمر لله – عزّ وجلّ – ﴿ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾[الكهف: ١٩] .

﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ وهكذا أجمل الله تعالى قصة أصحاب الكهف في هاتين الآيتين .

ما هي قصة أصحاب الكهف ؟ ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ ناموا وبعثوا هذا مجمل القصة، ثم إليك البيان والتفصيل ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ [الكهف:١٣]

والمتكلم الله – سبحانه وتعالى – ولكنه يتكلم بأسلوب العظمة؛ لأنه العلي العظيم، إذا كان مـــن دأب الملـــوك وعاداتهم في الخطاب أن يقول الملك: نحن ملك الدولة الفلانية، إذا هذا جاز لبشر من خلق الله – عزّ وجلّ – فما بالك بملك الملوك – سبحانه وتعالى – فالله واحد أحد صمد، لكنه يتكلم عن نفسه بأسلوب العظمة، بأسلوب الجمع تعظيما، نحن نقص عليك يا نبينا كما نقص على من يبلغهم الخبر والقصص نقص عليك نبأهم بالحق، فإذا أردت الحق المتعلق بأصحاب الكهف فلا تأخذه إلا من القرآن الكريم؛ لأن الله هو الذي يقص عليك، يقـــصه بـــالحق، ودائما يقص الله علينا بالحق، ويخبرنا بالحق؛ ولذلك قال في قصة موسى وفرعون ﴿ طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَـــابِ الْمُبِينِ * نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[القصص:١–٣] .

ولما قص علينا قصة عيسى مع أمه عليهما السلام قال ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾[آل عمران:٦٢] .

فإذا أردت أن تعرف الحق المتعلق بأصحاب الكهف فخذه من الله الحق، فالله هو الحق وقوله الحق، وقد قـــال في القرآن الكريم ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾[الإسراء:١٠٥].

إنهم أصحاب الكهف ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ نظروا في الواقع فوجدوه مراً وجدوا قـــومهم يعبدون الأصنام من دون الله – عزّ وجلّ – أو يعبدونها مع الله، يعبدون الله ويعبدون معه غيره من الأصـــنام، فتبرأوا منهم ومما يعبدون من دون الله، إنهم فتية آمنوا بالله – عزّ وجلّ – الواحد الأحد، فتيـــة آمنـــوا بـــربهم وزدناهم هدى، فلما آمنوا زادهم الله هدى، فالإيمان سبب من أسباب الزيادة في الإيمان، والهدى سبب من أسباب الزيادة في الهدى .

قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾[يونس:٩] الباء الداخلة على إيمانهم باء السببية ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ فلما تقبل دعوة الرسل وتؤمن بالله – عزّ وجلّ – يزيدك الله إيماناً، ولما تتبع الهدى الذي جاء به الرسل يزيدك الله هدى ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُـــوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً ﴾[محمد:١٧] .

فمن قبل دعوة الرسل وآمن بهم زاده الله إيمانا، ومن اتبع الهدى الذي جاءت به الرسل زاده الله هدى، ومن رفض دعوة الرسل وكفر بهم زاده الله ضلالا كما قال تعالى ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾[الصف: ٥] .

وقال تعالى ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[الأنعام: ١١٠].

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا ﴾ لما بلغ خبرهم الملك استدعاهم؛ ليتعرف على هؤلاء النفر الذين خرجوا عن دينه إلى دين لا يعرفه، فلما استدعاهم الملك، تعلمون أن الملك له هيبة وله مخافة وخشية، فالله – سبحانه وتعالى – يقول ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا ﴾ يعني إذ قاموا بين يدي الملك حتى لا يخافوه ولا يهابوه .

والربط: المقصود به تثبيت الشيء، حين تربط متاعك تقصد بربطه أن تثبته، فالربط على القلوب معناه تثبيتها؛ ليذهب عنها الخوف والقلق ويحلها الأمن والطمأنينة والأمان، الله – سبحانه وتعالى – يقول في غزو الأحزاب ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً * إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾[الأحزاب:٩-١٠] من شدة الخوف، بلغت القلوب الحناجر، ويقول تعالى في الخوف الذي يصيب الناس يوم القيامة ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ ﴾[غافر:١٨] فالخوف يقلق، إذا دخل الخوف القلب وجدت ضربات قلبك قد زادت، وجدت جسمك يرتعد ويرتعش دخل الخوف قلبك، وهؤلاء فتية الملك استدعاهم، والحاشية عن يمينه وعن شماله والشرطة عن يمينه وشماله، فالله تعالى ثبتهم فقال ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا ﴾ أي ثبتهم الله – تبارك وتعالى – حين قاموا بين يدي الملك، فلم يخافوه ولم يهابوه؛ ولذلك أعلنوا دينهم وعقديتهم صريحة بين يدي الملك، بلا خشية ولا هيبة .

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ .

فذكر هؤلاء الفتية في قولهم هذا توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية؛ لأن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية .

إذا آمنت بأن الله رب السماوات والأرض الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك، إذا آمنت بأن الله هو الذي خلقك وهو الذي يرزقك، وهو الذي يحيك ويميتك، وهو الذي يشفيك إذا مرضت، وجب عليك أن تعبد هذا الرب – سبحانه وتعالى –

فإقرارك بتوحيد الربوبية يلزمك بالإقرار بتوحيد الألوهية؛ لذلك كثيراً ما يلزم الله – تبارك وتعالى – على مشركي العرب بتوحيد الألوهية بإقرارهم بتوحيد الربوبية .

لقد كان مشركو العرب مقرين بتوحيد الربوبية، مَن الخالق ؟ الله، مَن الرازق ؟ الله، مَن المحيي ؟ الله ، مَن المميت ؟ الله ، مَن المعطي ؟ الله ، مَن المانع ؟ الله .

فإذا قيل لهم لا إله إلا الله، أي اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، قالو: أنجعل الآلهة إلهاً واحداً، فتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، وكان مشركو العرب مقرين بتوحيد الربوبية منكرين للألوهية، فقال الله – تبارك وتعالى – ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة:٢١-٢٢] .

أنه لا ند له في الربوبية فيجب أن تعلموا أنه لا ند له في الألوهية، فرب العالمين يجب أن يكون إله العالمين فلا إله إلا الله، أي لا معبود بحق إلا الله .

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾.

نسأل الله – تبارك وتعالى – أن يربط على قلوبنا كما ربط على قلوب هؤلاء الفتية، وأن يثبتنا على الإيمان ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمه إنك أنت الوهاب.

– فاصل –

عليكم السلام ورحمة الله وبركاته سؤالي هو إعراب كلمة ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أريد أن أعرف موقع كَلِمَةً من الإعراب .

لا شك أن لكم دروس إعراب ودروس نحو، فنحيل السؤال في الإعراب على مادته المتخصصة .

تقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ما الوصايا التي تنصحون بها الشباب والفتيات في هذا الوقت لاستغلال أوقاتهم بما يعود عليهم بالنفع بارك الله فيكم ؟

الله – تبارك وتعالى – حل للشباب والفتيات مشكلة الفراغ بآية واحدة من كتابه وهي قوله تعالى ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ﴾[الشرح:٧] فقال العلماء إذا فرغت من العبادة فانصب في عمل الدنيا وإذا فرغت من عمل الدنيا فانصب في العبادة، ولا تكن سبهلله لا عمل لك في الدنيا، ولا عمل لك في الآخرة .

فعلى الشباب والفتيات أن ينظموا أوقاتهم، فتنظيم الوقت مما يعين على الانتفاع به، وضع جدول منهجي للدراسة اليومية ولعمل اليوم، المطلوب اليوم علمه كذا وكذا وكذا، يشترط الإنسان على نفسه إذا أصبح المطلوب عمله اليوم، ثم يكتبه في ورقة، وإذا أمسى حاسب نفسه على ما اشترط عليها في أول النهار، ماذا أنجز من أعماله؟ وماذا لم ينجز منها، وبهذه المشارطة والمحاسبة يستطيع الشاب والفتاة أن يستغلوا أوقاتهم ويحققوا مرادهم بإذن الله – عزّ وجلّ – .

السلام عليكم، فضيلة الشيخ ذكرتم بارك الله فيكم أن العمل لا يكون صالحاً مقبولاً إلا إذا توافر فيه شرط الإخلاص والمتابعة، وقد قرأت في أحد كتب الشيخ ابن العثيمين أن الاتباع لا يسمى اتباعاً إلا إذا وافق السنة من ستة وجوه أو ستة أشياء وهي: السبب ، والجنس، والعدد، والزمان، والكيفية، والمكان فهل ممكن أن تشرحوا لنا هذه الأمور الستة ؟

نأخذها واحدة واحدة، الأول السبب

العبادة توقيفية عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لا يجوز لإنسان أن يتعبد الله بغير ما جاء به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والعبادة إما أن تكون محددة الكم أو مطلقة، والكيف طبعاً لابد أنه ثابت، فلابد أن تكون في كمك وكيفك ووقتك، إذا كانت العبادة مؤقتة ملتزماً في هذا هدي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فالصلوات الخمس قال تعالى ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً ﴾[النساء: ١٠٣] .

فلا تصح الصلاة قبل وقتها ولا بعد وقتها إلا من عذر، والصبح ركعتان، لا يصح ثلاثاً ولا واحدة، والظهـر أربعاً لا يصح ثلاثاً ولا اثنتين إلا في السفر، فإن المسافر يصلي الرباعية اثنتين، فملخص كلام الشيخ رحمة الله عليه أن الاتباع لابد أن تقيد نفسك بكل ما بلغك عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في جنس العبادة وكيفها وكمها ووقتها.

فمثلاً سنة الصبح، حتى السنة الراتبة، وليست الفريضة فقط السنة الراتبة ركعتان لا يجوز لك أن تصلي أربعاً بنية سنة الصبح؛ لأن النبي – صلى الله عليه وسلم – وقتها وحددها بأنها ركعتان وهكذا، هذا هو مجمل ما ذكره عن الشيخ رحمة الله عليه .

قد ذكرتم فضيلتكم حفظكم الله – عزّ وجلّ – أن الله – عزّ وجلّ – سكت عن كثير من تفاصيل قصة أصحاب الكهف، والسؤال هنا هل الله يسكت ؟ أي هل يثبت لله – عزّ وجلّ – صفة السكوت ؟ وجزاكم الله خيرا

وإياكم الله إن شاء الله تعالى، يقول العلماء هناك فرق بين إثبات الصفة وبين الأخبار، فحين نصف الله – سبحانه وتعالى – فلا نصفه إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله – صلى الله عليه وسلم – أما في باب الإخبار عن الله – عزّ وجلّ – فالأمر في ذلك واسع .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أريد أسماء كتب تفسير لك في السوق أو أشرطة تسجيلية حتى نتمكن من الاستفادة منها أكثر

جزاك الله خيراً وزادك الله حرصاً بالنسبة للتفسير الحمد لله أنا انتهيت من تفسير القرآن كله في مسجدنا في قريتنا، فالقرآن عندنا كله مسجل على أشرطة، لكن لم يطبع منه في كتب إلا تفسير الفاتحة، فسورة الفاتحة مطبوعة وسورة البقرة وسورة النساء وسورة الحجرات .

هذه سور كتبتها وهي مطبوعة وموجودة في الأسواق، سورة البقرة عنوانها دين الفطرة كما بينته سورة البقرة عقيدة وعبادة ومعاملة .

وسورة النساء عنوان كتابها قواعد الإصلاح والبناء كما بينتها سورة النساء، وسورة الحجرات اسمه كتاب معالم المجتمع المسلم كما بينته سورة الحجرات .

هذه كتب طبعت والحمد لله، وهناك كتاب آخر سميته من جوامع الكلم في القرآن الكريم فسرت فيه أربعين آية من جوامع الكلم في القرآن الكريم .

ونسأل الله – تبارك وتعالى – أن يعيننا على الانتهاء من كتابة التفسير كله إن شاء الله .

تقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ما تعني كلمة ﴿ صَعِيدًا ﴾ ؟

﴿ صَعِيدًا ﴾ وجه الأرض، الله – سبحانه وتعالى – قال ﴿ فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً ﴾[النساء: ٤٣] الصعيد وجه الأرض قال تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا ﴾ ثم قال ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ﴾ [الكهف:٨] يعني أرض خلاء مستوية ليس شيء عليها مما كان عليها قبل ذلك .

السلام عليكم، ما الحكمة من إيراد قصة أهل الكهف مجملة في البداية ثم فصلها؟

هذا من باب التشويق والترغيب بدلاً من أن تعطي المستمع الشيء دفعة واحدة تشوقه وترغبه وتعطيه مجملاً فيشتاق بسماع هذا المجمل إلى تفصيله، فإذا جاء التفصيل أقبل عليه وحرص على الانتفاع به .

أنا مشكلتي إن الحفظ أنساه بكثرة، فهل أجر التلاوة –إن شاء الله– أناله رغم أنني أخطئ في التجويد

اقرئي إن شاء الله تعالى ولا حرج عليك إذا أخطأتي، لكن لا تتمادي في ذلك حاولى أن تتعلمي، واجتهدي أن تتعملي النطق الصحيح، والحمد لله عندكم في البلاد المقدسة المباركة جمعيات خيرية كثيرة لتحفيظ القرآن الكريم، فحاولي أن تلتحقي بأي جمعية خيرية إن شاء الله وتتعلمي فيها، لكن حتى تتعلمي إن شاء الله لا حرج عليك إذا أخطأتي ففى الحديث عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال (الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن وهو يتتعتع فيه وعليه شاق له أجران) .

يقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ما صحة قول أن أصحاب الرقيم هم أصحاب الغار المذكورين في السنة، الذين دعوا الله بخالص أعمالهم ففرج عنهم تلك الصخرة ؟

لا، الحديث (انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار ...) الحديث بطوله أصحاب هذا الغار ليسوا هم أصحاب الكهف المذكورين في هذه القصة في القرآن الكريم .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، شيخنا الفاضل أين يستقر الإيمان لكي يزيد أو ينقص ؟

الإيمان محله القلب، والزيادة تكون بالاجتهاد في الطاعة والابتعاد عن المعاصي، فكلما اجتهد الإنسان في الطاعة صلاة وصيام وقراءة وبر والدين وصلة أرحام وفعل الخيرات وترك المنكرات زاد إيمانه إن شاء الله تعالى، مع الإلحاح على الله تعالى بالسؤال فالنبي – صلى الله عليه وسلم – وهو عظيم المهتدين كان يقول: اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى، وكان يقول (اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها) فالهدى يزيد بالاجتهاد في الطاعة والابتعاد عن المعصية، مع الإلحاح على الله – جلّ جلاله – بالسؤال سؤال الهداية .

فضيلة الشيخ جزاكم الله خيراً ذكرت أن الفتية عندما عجزوا عن إنكار المنكر هجروا المكان، فهل يقتدى بهم في ذلك أم أن الأفضل أن يبقى في مكانه وينكر المنكر بقلبه، وجزاكم الله خيراً ؟

تهجر المكان الذي يكون فيه المنكر، لا تجلس معهم لا تجالسهم ولا تخالطهم ولا تعاشرهم إذا ابتليت بقوم على منكر فواجبك الديني يحتم عليك أن تنهاهم، فإن انتهوا كان خيراً، وإذا لم يتنهوا تركتهم أي هجرت مكانهم، وإلا فقل لي بالله عليك في هذا الزمان الذي كثر فيه الخبث إلى أين نهاجر ؟ الله – سبحانه وتعالى – يقول ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ﴾[النساء:١٤٠] .

نسأل الله السلامة والعافية .

فضيلة الشيخ، ما حكم الإكثار من القصص في المحاضرات والمواعظ من غير القصص الواردة في القرآن والسنة الصحيحة، وهل ثبت أنه ذات مرة كان الصحابة في معركة فلما شاهدهم الكفار يستاكون بالسواك فروا وظنوا أنهم يحدون أسنانهم لأكلهم، حيث أن هذه القصة يذكرها الكثير من الناس للحث على التمسك بالسنة خاصة سنة الاستياك ؟

نحن ذكرنا في درس اليوم، أنه يجب علينا أن نكتفي بالقرآن الكريم في القصص والحديث، ففي أسباب نزول سورة يوسف ورد أن أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ملو ملة فقالوا (يا رسول الله لو حدثتنا فأنزل الله تعالى ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ ﴾[الزمر:٢٣] .

ثم ملوا ملة فقالوا يا رسول الله لو قصصت علينا، فقال الله تعالى ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾[يوسف:٣] .

إذاً أردنا الحديث فعلينا بالقرآن الكريم، وإذا أردنا القصص فعلينا بالقرآن الكريم والحمد لله كتاب ربنا مليء بقصص كثيرة جداً جداً .

وفى السنة أحاديث صحيحة ثابتة في القصص، ولعل هناك بعض من ألف في القصص النبوي في الأحاديث الصحيحة الثابتة .

فإذا وجدنا الصحيح الثابت فليس بنا حاجة إلى الضعيف الواهي الذي لا يصح، ثم علينا أن نذكر القائل بأن الله قال ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾[الاسراء:٣٦] .

فيجب أن تقدر الكلمة حق قدرها، ولا تقول قال الله قال رسول الله إلا وأنت متثبت من هذا القول وإلا فإن النبي – صلى الله عليه وسلم – يقول (إن كذب عليّ ليس ككذب على أحد من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)

وهذه الرواية رواية السواك فهذه نسمعها كثيراً ولا نعلم لها أصلا .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أمي الحفظ يتفلت منها فهل أجر التلاوة عندها مثل أجر الحفظ ؟

هو يسأل هل أجر التلاوة مثل أجر الحفظ؛ لأن أمه ضعيفة الذاكرة، ويتفلت منها الحفظ وتنسى كثيراً، نقول لا يكلف الله نفساً إلا وسعها والله تعالى يقول ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن:١٦] .

وقال النبي – صلى الله عليه وسلم – (إنما الأعمال بالنيات) فما دامت هذه المرأة التي هي ضعيفة الذاكرة تجاهد نفسها على الحفظ فتحفظ وتنسى فقد وقع أجرها على الله – عزّ وجلّ – لكن لا شك أن هناك فرقاً بين من يحفظ وبين من يتلو .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، إذا كنت في مكان فيه منكر وتركت هذا المكان ولم أنكر هذا المنكر فهل أكون آثمة في هذا التصرف؟

الحمد لله كما ذكرت وسع الله علينا في تغيير المنكر فجعله على ثلاث مراتب وليس على مرتبة واحدة، (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) وفى رواية (وليس وراء ذلك مثقال حبة خردل من إيمان، فالأخت تقول أنها كانت في مكان فيه منكر فتركته ولم تنكره، وواضح منها أنها أنكرته بقلبها؛ لأنها لم تجالسهم ولم تخالطهم، فلما رأت المنكر هجرتهم وتركتهم فهذا هو الإنكار بالقلب، لكنها لم تستطع أن تواجهم بالإنكار باللسان، فلا حرج عليها إن شاء الله .

تقول كيف أتعامل مع تفسير ابن كثير رحمه الله عند قراءته لما قيل أنه يحتوي على إسرائليات وأحاديث ضعيفة؟

قلنا ننصح المبتدئين بعدم القراءة في ابن كثير الأصل، وإنما ننصحهم بالقراءة في مختصر ابن كثير لشيخنا محمد نسيب الرفاعي عليه رحمة الله، هو طبعة دار المعارف في الرياض ومتوفر بفضل الله – عزّ وجلّ – فهذا مختصر، مختصر نافع جداً حذف فيه الشيخ رحمة الله عليه، كل الضعيف والمردود .

يقول كثرة الأسئلة عن موقع مكان الكهف، اختصاراً يقولون يا شيخ هل صحيح أن الكهف موجود في الأردن ؟ هل الصحيح أنهم كانوا في الأدرن ؟

وفقنا الله وإياهم، كما نبهت، الله – سبحانه وتعالى – لم يعين المكان ولم يعين الزمان فسواء كان هو الذي في الأردن أم كان هو في غيرها، هذا لا يهمنا إن شاء الله؛ لأن الموعظة حاصلة والفائدة وقعت بما قصه الله علينا .

يقول قال الله تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا ﴾ إلى نهاية الآية هل يمكن حصر فهم الآية على ما هو فوق الأرض فحسب ؟

يعني يريد أن يسأل هل في باطنها زينة أيضاً أو لا ؟ والله إذا قلنا في باطنها زينة إذا يكون هناك زينة ظاهرة وزينة باطنة .

نحن وقفنا مع ظاهر الآية ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا ﴾ ما عليها ولم يتكلم ربنا عما تحتها .

يقول سؤال أهل الكهف بينهم لا يدل على تغير أشكالهم ، حيث كان السؤال كم لبثنا ولم تتغير أشكالهم، أوضح لنا؟

نحن أشرنا إلى أن الله – سبحانه وتعالى – حفظهم فلم يتغيروا بأي شيء ولذلك قال ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً ﴾[الكهف:٩] .

قلنا أنك حين تسمع نفراً ناموا ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا، ثم قاموا ولم يتغير شكلهم تتعجب تقول سبحان الله، كيف ينامون هذا الزمن الطويل ويقومون ولم تبلى ثيابهم ولم تتعفن أجسادهم وكذا وكذا .

نقول هذا شيء عجيب نعم، لكن في خلق الله ما هو أعجب من ذلك ﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْأِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾[الغاشية:١٧] إلى آخر ما ذكرنا .

قول الله – عزّ وجلّ – ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً ﴾[الكهف:١٢] لفظة لِنَعْلَمَ تفسيرها من ناحية العقيدة

نعم نحن نؤمن بالقدر ولا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر كما صح الحديث بذلك عن النبي – صلى الله عليه وسلم – ومن الإيمان بالقدر الإيمان بعلم الله السابق على الموجودات كلها فالله علم الأشياء وقدرها، ثم في الزمن الذي قدر الله وجودها فيه وجدت كما أرادها وكما قدرها – سبحانه وتعالى – فقوله تعالى لِنَعْلَمَ أي في الظاهر وفى الواقع بعد أن علمنا في السابق علم الباطن أردنا أن نعلم ويعلم الناس ما قدره الله – سبحانه وتعالى – .

تقول دعاء فتية الكهف ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدَ﴾ [الكهف:١٠] هل هذ الدعاء مجمل أم هل له معنى محدود قصده الفتية بالرحمة والرشاد ؟

الدعاء واضح ربنا هب لنا وأعطنا من عندك رب رحمة ترحمنا بها في الدنيا وفى الآخرة، وتنجنا فيها من قومنا الظالمين الذين عبدوا غيرك، وتهيء لنا من أمرنا رشداً فلا نضل ولا نزيغ .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، سمعت بمقالة يا شيخ أنه ما يدخل الجنة من الحيوانات إلا كلب أصحاب الكهف فما صحة هذا الكلام يا شيخ ؟ والسؤال الثاني ما معنى كلمة رقيم ؟

الله – سبحانه وتعالى – بين أن كل المخلوقات تحشر يوم القيامة ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾[الأنعام:٣٨] .

وقال تعالى ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾[التكوير:٥] .

فكل المخلوقات تحشر حتى البهائم والحيوانات والطيور والسباع تحشر يوم القيامة ولكن الله – سبحانه وتعالى – يقضي بينها قبل أن يقضي بين الخلائق يقضى بينها في المظالم التي كانت بينها كما قال النبي – صلى الله عليه وسلم – (لتؤدن الحقوق لأهلها يوم القيامة حتى يقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء) فالله – سبحانه وتعالى – يوم القيامة إذا حشر الجميع قضى بين الخلائق ومنها البهائم والدواب فقضى بينها ورد المظالم، ثم قال لها كوني ترابا، فتكون كلها ترابا، وهذا معني قول الكافر يوم القيامة ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً ﴾[النبأ: ٤٠] .

لما عاين الكافر مصير البهيمة ومصيره، البهيمة مصيرها إلى الفناء انتهي أمرها، وهو مصيره إلى النار والعياذ بالله فتمنى لو كان الأبعد من ذوي الأربع حتى يصير مصيرها ولا يصير إلى النار .

وأما استثناء ما سأل عنه السائل أن هذا الكلب يستثنى فيدخل الجنة، هذا لا يجوز أن يقال إلا بدليل قوي ثابت في القوة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – ولا نعلم في هذا دليلا .

وأما معنى الرقيم فقد شرحناه وقلنا أن الرقيم فعيل بمعنى مفعول، يعني مكتوب فالرقم هو الكتابة، والرقيم فعيل بمعني مفعول أي مكتوب، قلنا أن الراجح من أقوال العلماء الرقيم لوحة معدنية أو من الرخام كتب عليها أسماء أصحاب الكهف، كما يكتبون الآن في اللوحات التذكارية يسمونها النصب ويكتبون على الرخام أسماء الزائرين أو أسماء من فتح هذا العمل وهكذا فهذا معنى الرقيم والله أعلم .

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، متى يعمل بقول الله – عزّ وجلّ – ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾[المائدة:١٠٥] خاصة وقد انتشر المنكر في كل مكان،حتى أننا نركب السيارة الآن ونجد كثير من الناس يفعل أفعال كثيرة تخالف شرع الله – عزّ وجلّ – ونسير في الشوارع أيضاً ونرى كثيرًا كذلك، فأحياناً لا نقدر على الإنكار، ونترك المكان وأحياناً أخرى يمكن أن نضرب ويفعل بنا الأفاعيل، فماذا يفعل بقول الله – عزّ وجلّ – و يطبق هذا القول ؟

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ فهم منها بعض الناس أنه ما دام مهتدياً في نفسه فيكفيه هذا ولا يلزمه أن يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر وهذا مفهوم خاطئ، صححه وصوبه خليفة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ورضى الله عن خليفة رسوله أبو بكر الصديق، قال: أيها الناس تقرأون هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ وإني سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده) ومصداق هذا القول النبوي قول ربنا في كتابه ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾[الأنفال:٢٥] .

فالأمر بالمعروف وإنكار المنكر واجب كل ذلك في ضوء الأصول والقواعد الشرعية ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[النحل:١٢٥] وقد ذكرنا أكثر من مرة في هذا اللقاء أن الله وسع علينا ولم يضيق (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يتسطع فبقلبه)

فأنت تسير بالسيارة كما يقول السائل فترى منكر يجب أن يرتعد قلبك وينتفض، قلبك بغضاً لهذا المنكر وأهلـــه وحمية لله – عزّ وجلّ – فقد جاء في الصحيح عن النبي – صلى الله عليه وسلم – (أنه كان لا يغضب لنفــسه، ولكن كان يغضب إذا انتهكت محارم الله) فهذا الغضب في قلبه هذا نوع من أنواع إنكار المنكر. والحمد لله وسع الله عليك ما دام قلبك يرفض هذا المنكر ويغضب لله عليه فأنت بريء ولست مؤاخذاً بإذن الله – عزّ وجلّ – .

الشرح من قوله "إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها"

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد – صلى الله عليه وسلم – وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار .

ثم مرحباً بكم في هذا اللقاء الجديد مع تفسير سورة الكهف، والآيات المباركات التي معنا هذه الساعة إن شاء الله تعالى تضمنت من المعاني ما يلي:

أولاً : ثبوت التوحيد وبطلان الشرك.

ثانياً : الفرار من الفتن واعتزال أهل الشر.

ثالثاً : كيف حفظ الله – تبارك وتعالى – أهل الكهف في كهفهم.

رابعاً : من يهدي الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا.

خامساً : شرف صحبة أهل الذكر ومجالستهم .

سادساً : بعث الله – تبارك وتعالى – لأهل الكهف كيف كان ؟

سابعاً : حرص أصحاب الكهف على الحلال الطيب من الطعام .

ثامناً : تواصي أصحاب الكهف بالثبوت على الإيمان .

وأخيراً : حكمة بعثهم والنهي عن اتخاذ القبور مساجد .

و هذا بإيجاز أهم ما تضمنته الآيات المباركات التى معنا الآن من سورة الكهف من المعاني .

فلنستمع إليها أولاً قبل الخوض في تفاصيلها سائلين الله – عزّ وجلّ – أن ينجز لنا ما وعدنا، حيث قال ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[الأعراف:٢٠٤].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ

لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا ﴿١٦﴾ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿٢١﴾ ﴾[الكهف:٧-٢١].

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[ص:٢٩].

﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر:٢١].

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر:٢٣].

انتهينا في الدرس السابق إلى قول الله – تبارك وتعالى – ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾.

وقلنا أن هؤلاء الفتية لما قاموا بين يدي الملك بعدما علم بمخالفتهم دينه استدعاهم فقاموا بين يديه فربط الله على قلوبهم وثبتهم، فلم يدخل قلوبهم أي شيء من الخوف والمهابة من الملك والسلطان، وأعلنوا دعوتهم صريحة وصرحوا بمعتقدهم قائلين ﴿ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ فجمعوا بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، فتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، فمن أقر بأن الله ربه الذي خلقه فسواه، وصوره فأحسن صورته، ورزقه من الطيبات، يجب أن يقر ويعتقد ويعمل بعبادة الله – سبحانه وتعالى – وحده لا شريك له، ولذلك كثيراً ما يقيم الله تعالى الحجة على المشركين، باستخراج، الإقرار منهم بالألوهية بناء على إقرارهم بالربوبية فقد كان المشركون مقرين بأن الله رب العالمين لكنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون، فقال الله – تبارك وتعالى – لهم ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ فقال الله تعالى ﴿ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ﴾ [يونس:٣١-٣٢] الذي يستحق العبادة هو ربكم الحق الذي خلقكم وخلق الأولين والآخرين من بعدكم هو الذي يستحق العبادة ولذلك قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً ﴾ [البقرة : ٢١-٢٢] في العبادة ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنه لا ند له في الربوبية؛ لأنهم كانوا مقرين بتوحيد الربوبية، فنهاهم عن الشرك به في الألوهية ما دام الله خلق وحده، يجب أن يعبد وحده ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾[النحل:١٧] .

﴿ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً ﴾[الكهف:١٤] لو قلنا أن هناك إلهاً غير الله أو أن هناك إلهاً مع الله لقد قلنا قولاً شططاً أي بعيداً في الكذب، والضلال والظلم، والجور، الشطط في

القول هو البعد فيه، القول الشطط هو البعيد عن الحق والبعيد عن الصواب وكذلك، لما استمع نفر من الجن إلى القرآن الكريم فآمنوا به قالوا منزهين الله تعالى عن الصاحبة والولد ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَداً ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ [الجن:٣-٥] .

فالشطط في القول البعد فيه وهو البعيد عن الحق والصواب الموغر في الضلال والكذب والزور والظلم .

ثم قال الفتية ﴿ هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ﴾ أي من دون الله ﴿ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ نحن ربنا رب السماوات والأرض، وهؤلاء قومنا اتخذوا من دون الله آلهة عبدوها مع الله – سبحانه وتعالى – لولا يأتون على قولهم هذا وصحة معتقدهم بسلطان أي ببرهان بين، وحجة ثابتة قاطعة؛ لأن الاعتقاد لا يجوز أن يبني على غير دليل، لا يجوز أن يبنى الاعتقاد إلا على دليل صحيح ثابت وحجة قوية قاطعة، فنحن حين نقول لا إله إلا الله معنا الدليل على ذلك، بل معنا أدلة نقلية وعقلية كثيرة على صحة قولنا أنه لا إله إلا الله .

ومنها ما ذكره ربنا – سبحانه وتعالى – في قوله ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ في كل ذلك ﴿ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[البقرة:١٦٣-١٦٤] .

ومن هنا قال القائل :

فواعجبا كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شيء له آية تدل على أنه واحد

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾[الغاشية : ١٧-٢٠].

﴿ قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾[عبس:١٧-٣٢].

فهذا دليل التوحيد الذي ندين به لله رب العالمين رب السماوات والأرض، فما دليل قومنا على اتخاذهم آلهة مع الله – سبحانه وتعالى – ﴿ هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ ولا يمكن أبداً أن ترى أي دليل يفيد صحة الشرك بالله – سبحانه وتعالى – لأن من المعلوم أن الله – سبحانه وتعالى – هو الخالق وحده، وكل ما سواه مخلوق والمخلوق لا يمكن أن يكون رباً ولا يمكن أن يكون إلها، لولا يأتون عليهم بسلطان بين، ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾، أي لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا فزعم أن له صاحبة وولداً أو زعم أن له شريكاً في الملك .

لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا، فزعم أن له صاحبة وولداً أو زعم أن له شريكاً في الملك.

ثم قالوا ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً ﴾.

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ ﴾ معطوف على الضمير المفعول في قولهم ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ ﴾ ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ ﴾ اعتزلتم معبوداتهم التي يعبدونها إلا الله – سبحانه وتعالى – مما يدل على أن قومهم كانوا يعبدون الله ولكن كانوا به مشركين، يعبدون معه غيره، وهذا هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله – تبارك وتعالى – ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً ﴾[النساء:٤٨] فلما تبرأ الفتية الذين آمنوا بربهم من قومهم ومما يعبدون أثبتوا ولاءهم لله – سبحانه وتعالى – وحده ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ أي إلا الله أي اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فهو وليكم وإلهكم الحق الذي تعبدونه، وقد كان ابن مسعود – رضي الله عنه – يقرأها وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون من دون الله ، وهذه القراءة كالتفسير للآية ، ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ كان ابن مسعود – رضي الله عنه – يقرأها وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون من دون الله، وهذه ليست من القراءات الثابتة التي وجه من وجوه القراءات الصحيحة، ولكن هذه القراءة كتفسير ابن مسعود لقولهم " إلا الله " وهذا اللفظ وهو من دون الله، قد صرح به الخليل إبراهيم – عليه السلام – لأبيه حين قال له، ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلّاً جَعَلْنَا نَبِيّاً ﴾[مريم:٤٨–٤٩].

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً ﴾.

يقولون ما دمتم اعتزلتم قومكم بأرواحكم وقلوبكم وتبرأتم منهم ومن معتقداتهم الباطلة فاعتزلوهم أيضاً بأبدانكم، ما دمتم اعتزلتم قومكم بقلوبكم وأرواحكم، فاعتزلوهم أيضاً بأبدانكم ﴿ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً ﴾ .

فأووا إلى الكهف وتوجهوا إلى الله تعالى بالدعاء ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا، قال تعالى ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ﴾ فحبس الله – تبارك وتعالى – عنهم الأصوات فناموا نوماً ثقيلا حتى لا يستيقظوا إلا في الأجل الذي سماه الله وفي الوقت الذي حدده الله – تبارك وتعالى – لبعثهم من نومهم هذا، دخلوا الكهف وناموا فيه نوماً عميقاً نوماً ثقيلا، كيف حفظهم الله تعالى في الكهف وهم نيام قال تعالى ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ﴾ لما دخل هؤلاء الفتية الكهف لم يأووا إلى ركن من أركانه، ولا إلى زاوية من زواياه، وإنما ناموا في وسطه في مدخله في مدخل الكهف، لم يميلوا جهة اليمين ولا جهة الشمال وإنما ناموا في المدخل لأن الكهف كما عرفناه نقب في الجبل فليس فيه شبابيك ولا أبواب وليس له إلا هذا المدخل الواحد، فناموا في مدخله ليكونوا قريبين من الهواء ناموا في المدخل، فكان الله – سبحانه وتعالى – إذا طلعت الشمس أمرها أن تحيد عنهم ذات اليمين وإذا غربت أمرهم أن تحيد عنهم ذات الشمال لماذا؟ لأن الحر يوقظ النائم، كما أن الصوت القوي المزعج يوقظ النائم، فالله – تبارك وتعالى – ضرب على آذانهم حتى لا تزعجهم الأصوات، ثم أمر الشمس فكانت إذا طلعت تزاور عن عمد وقصد استجابة لأمر ربها، ذات اليمين، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال هذا التزاور من الشمس، وهذا الميل عن عمد منها واستجابة لأمر ربها آية من آيات الله – سبحانه وتعالى – أمر الله الشمس فكانت إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين حتى لا تؤذيهم بحرها وإذا غربت كذلك تزاور عن كهفهم ذات الشمال حتى لا تؤذيهم بحرها ذلك من آيات الله، ذلك التحول من الشمس عن قصد واستجابة لأمر الله – سبحانه وتعالى – ﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً ﴾.

فالهدى والضلال من الله – سبحانه وتعالى – ولكن الله سبحانه يهدي من يشاء ويعصم ويعافي فضلا، ويضل من يشاء، ويخذل ويبتلي عدلا، فمن آمن بالله – عز وجل – وقبل الهدى الذي بعث الله به الرسل، زاده الله تعالى هدى ومن حاد وزاغ وضل ورفض الهدى الذي أرسل به الرسل زاده الله ضلالا وخذلاناً والعياذ بالله كما قال

تعالى عن أصحاب الكهف ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً ﴾ وقال تعالى عن قوم آخرين ضالين ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الصف: ٥] .

﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ هم نائمون لكنك إذا اطعلت عليهم حسبتهم أيقاظا لماذا؟ لأنهم ناموا وكانت أعينهم مفتحة، ونحن نعلم أن الغالب على الناس أنهم إذا ناموا أغمضوا أعينهم، فتغميض العين وإطباق الجفنين دليل على النوم .

ولذلك أنت إذا دخلت على أخيك مثلاً، لتوقظه فنظرت في وجهه فرأيته مفتح العينين تركته وانصرفت ولم تكلمه ظناً منك أنه مستيقظ وفى الحقيقة أنه نائم ولكن هذه حالات نادرة أن ينام الإنسان وعيناه مفتوحتان .

فأصحاب الكهف ناموا نوماً عميقاً ثقيلاً جداً لكن كانت أعينهم مفتحة، ولذلك قال ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ .

أنت حين تنام ست ساعات أو سبع ساعات، لا تستطيع أن تنام على جنب واحد، والمريض عافك الله إذا نام على فراشه حتى ولو كان عاجزاً عن الحركة، لابد أن يقلبه أهله ذات اليمين وذات الشمال، لأن الأرض تأكل الجثة، تأكل الجسد الذي لامسها والتصق بها سنين عددا فالله – سبحانه وتعالى – من رحمته بأصحاب الكهف حتى يحفظ عليهم جثثهم وأجسادهم من البلى والأذى، قال ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ فكان الله – سبحانه وتعالى – يقلبهم وهم نيام، ذات اليمين وذات الشمال على هذا الجنب تارة وعلى هذا الجنب تارة ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ صحبهم الكلب فنام بالوصيد أي بفناء الكهف، الوصيد هو فناء الكهف ، مدخل الكهف ، بسط ذراعية على الأرض ونام أمام مدخل الغار .

قال العلماء ، ما قيمة الكلب؟ لا قيمة له ، أخسأ المخلوقات وأحطها، لكن الكلب لما حرص على صحبة أهل الذكر كان له ذكر، لما حرص الكلب على صحبة أهل الذكر صار له ذكر مما يدلنا على شرف صحبة الصالحين وشرف مجالستهم مما يدلنا على أننا لابد أن نحرص من نخالط ومن نصاحب ومن نعاشر ومن نجالس ، فإذا صحبت الصالحين شرفت بشرفهم وإذا صاحبت العلماء رفع ذكرك بذكرهم، فالكلب مع أنه أحط الحيوانات وأخسأها إلا أنه ذكره الله تعالى بسبب صحبته لأهل الكهف ﴿ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ ذكر الكلب وهو لا قيمة له إكراماً له؛ لأنه رافق الطيبين، الصالحين .

والنبى – صلى الله عليه وسلم – يقول (مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يعطيك، وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً كريهة) ﴿ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ حارس لا يدخل أحد عليهم، لأن الكلب في مدخل الكهف ثم إن الله – سبحانه وتعالى – ألقى عليهم المهابة وجعل على وجوههم الرعب ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً ﴾ فالكلب في مدخل الكهف حارس لهم، لا يستطيع سارق أن يدخل لأنه يرى الكلب في مدخل الكهف، ولو قدر وتسلل لص أو سارق أو غيره ودخل عليهم وجد عليهم من المهابة، ما يجعله يركض ويخرج سريعاً من عندهم ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً ﴾ .

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ بعدما المدة التي قضوها في النوم بإذن الله بعثهم الله – تبارك وتعالى – ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ لما استيقظوا تساءلوا كم لبثتم ؟ فنظروا إلى الشمس وإذا هي تتضيف للغروب فتذكروا أنهم قد دخلوا الكهف في أول النهار عند طلوع الشمس فقالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم، فقال قائل منهم هذا الكلام لا ينفعكم والواجب أن تنشغلوا بما ينفع عما لا ينفع، كم لبثتم هذا لا يفيدكم كثيراً، فوضوا الأمر إلى الله – تبارك وتعالى – واسكتوا عنه، ربكم أعلم بما لبثتم، وهذا يدلك على أنك إما أن تتكلم بدليل وبرهان

وإما أن تسكت عن الكلام؛ لأن الله تعالى نهانا عن تكلف ما لا نعلم قال ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾[الاسراء:٣٦] .

قال بعض السلف لا تقل سمعت وأنت لم تسمع ولا تقل رأيت وأنت لم ترَ ولا تقل علمت وأنت لم تعلم، فإذا أردت أن تتكلم ومعك الدليل والبرهان والحجة، فتكلم ومرحباً بك وأهلا وأما إذا لم يكن معك دليل فاسكت عن الكلام وفوض العلم إلى الله – سبحانه وتعالى – .

﴿ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً ﴾ .

أحياناً تستيقظ من نومك شاعراً بالجوع، تستعجل أهل البيت بالفطور، عجلوا بالفطور إني جائع، إني أشتكي من الجوع، تحس أحياناً إذا نمت ست سبع ساعات، تستيقظ تشعر بالجوع، أصحاب الكهف لبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً فقاموا وبهم جوع فقالوا ابعثوا أحدكم واحد منكم بورقكم هذه، الورق هي الفضة وهي العملة القديمة كان الناس قديما يتعاملون بالدينار والدرهم بالذهب وبالفضة، قالوا فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة، إذاً هم الآن خارج المدينة، الكهف خارج المدينة؛ لأنهم اعتزلوا قومهم لما اعتزلوا شركهم وكفرهم اعتزلوهم بأبدانهم وأووا إلى الكهف قالوا ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً ﴾ قال العلماء أزكى أي أطيب وأطهر فلابد أن يحرص الإنسان في طعامة على أن يكون حلالا طيباً؛ لأن الله قال ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً ﴾[البقرة:١٦٨] والحيوانات منها الطيب في نفسه ومنها الخبيث، فالخنزير خبيث في ذاته حتى ولو ذبح على الطريقة الإسلامية لا يزكى فهو في نفسه رجس خبيث في ذاته، والأنعام والطيور التي أباحها الله – تبارك وتعالى – لنا طيبة في ذاتها ولكن لا تحل إلا بالتزكية أو بالذبح على الطريقة الإسلامية فقال ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً ﴾ يأتينا بطعام طيب ومذبوح على الطريقة الإسلامية غير مخنوق لأن المنخنقة حرام فليأتكم برزق منه ثم ليحرص على أن يتخفى من الناس وليتطلف في سيره وليتطلف في دخوله وخروجه ولا يشعرن بكم أحد، لا يشعر بأحد من الناس لماذا؟ إنهم أي قومكم إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم، ولن تفلحوا إذاً أبداً إن قومكم إذا علموا بكم واطلعوا عليكم فإما أن يقتلوكم شر قتلة رمياً بالحجارة أي يرجموكم بالحجارة حتى الموت، أو يعيدوكم في ملتهم يعني لن يقبلوا منكم إلا واحداً من اثنين إما الردة وإما القتل فذلك وصف من تبعثون، بألا يشعر بكم أحدا .

وهكذا تواصوا أهل الكهف بالثبات على الدين والثبات على الإيمان الذي هداهم الله – تبارك وتعالى – إليه .

والله – سبحانه وتعالى – قد وصانا نحن المؤمنين بالثبات على الإيمان والدين وحذرنا من الردة والخروج عن الإسلام قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[آل عمران:١٠٢] .

وقال محذراً من الردة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ﴾[المائدة:٥٤] .

وقال عن الكافرين ﴿ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[البقرة: ٢١٧] .

فالله تعالى وصانا بالثبات على الدين، وحذرنا من الردة ومن التخلى عن الإيمان والرجوع عنه .

وكذلك وصانا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالثبات على الدين مهما تعرض الإنسان للبلاء ومهما تعرض للفتن ومهما تعرض للتعذيب قال – صلى الله عليه وسلم – (لا تشرك بالله شيئا وإن قُطعت أو حُرقت) .

قالوا ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً ﴾ أطيب وأطهر ﴿ فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً ﴾ لو تراجعتم إلى ملتهم وتركتم الإيمان الذي من الله عليكم به ﴿ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً ﴾ لأن الله تعالى قال إنه لا يفلح الكافرون، قال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ يقال عثر على الشئ إذا اطلع عليه وأعثر على الشيء إذا أطلع غيره عليه عثر هو على الشيء هو عثر عليه اطلع عليه ، وأعثر عليه أي أطلع عليه غيره فالله تعالى يقول ﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ فالله – سبحانه وتعالى – هو الذي أراد وقدر أن يطلع أهل المدينة على أخبار الفتية، وكان في ذلك حكمة ما هي لماذا بعث الله تعالى أهل الكهف وأطلع عليهم قومهم بعدما اعتزلوهم ثلاث مائة وازدادوا تسعا ؟ ﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ الله – تبارك وتعالى – إذا وعد فلا يخلف وعده أبدا ﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا ﴾ كيف يعلمون أن الساعة لا ريب فيها ؟ ما وجه الاستدلال على بعث الفتية من نومهم على بعث الناس من قبورهم ؟

مما يستدل به على البعث بعد الموت النوم واليقظة بعده، أنت تنام فتموت وتستيقظ فتبعث فهذا من أدلة إمكان بعث الموتى من قبورهم يوم القيامة، أنت تنام فتموت، النوم أخو الموت هكذا قال النبي – صلى الله عليه وسلم – والله تعالى يقول ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمّىً ﴾[الأنعام:٦٠] فسمى الله تعالى النوم وفاة واليقظة بعده بعثاً وقال تعالى ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ النوم واليقظة بعده ﴿ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر:٤٢] .

فلماذا تنكر أن تبعث بعد الموت ؟ وأنت تموت وتبعث في اليوم مرتين أو أكثر كلنا ينام بالليل، وأكثرنا ينام بالنهار، تنام فتموت وتستيقظ فتبعث فهذا من أدلة وبراهين إمكان البعث بعد الموت، ولذلك كان النبي – صلى الله عليه وسلم – إذا أوى إلى فراشه يقول (باسمك اللهم أموت وأحيا) يريد بالموت النوم وبالحياة اليقظة بعد النوم وكان – صلى الله عليه وسلم – إذا استيقظ من نومه يقول (الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور، الحمد لله الذي رد علي روحي، وعافاني في جسدي وأذن لي بذكره) فمن حكمة بعث أصحاب الكهف من نومهم أن يستدل الناس على أن الله يحيي الموتى ويبعث من في القبور، والله – سبحانه وتعالى – قد قص علينا في كتابه المجيد قصص أناس ماتوا حقيقة وأحياهم الله تعالى في الدنيا لحكمة أرادها وهي أن يستدل مشاهدوهم على أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها اقرأ في سورة البقرة قصة البقرة وقول الله تعالى ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾[البقرة :٧٢–٧٣] فضربوه فقام حياً فسألوه من قتلك ؟ قال فلان ابن أخي قتلني ليرثني ثم عاد ميتاً ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ ﴾ أي كما أحيا الله هذا القتيل ﴿ كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

واقرأ أيضاً قول الله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾[البقرة:٢٤٣] .

واقرأ أيضا قول الله – تبارك وتعالى – ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى

عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة:٢٥٨-٢٥٩] .

فكل هذه الآيات مع آيات سورة الكهف التي أخبرنا الله فيها أنه بعث أهل الكهف من نومهم بعد ثلاث مائة سنين كان من حكمة ذلك ﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا ﴾ قال النبي – صلى الله عليه وسلم – (من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وأن البعث حق وأن الجنة حق وأن النار حق أدخله الله الجنة على ما كان من عمل) ونحن نشهد بذلك كله ونرجو الله – تبارك وتعالى – به أن يدخلنا الجنة على ما كان منا من عمل .

هذا و الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

يقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، السؤال هو هل أسماء السور وترتيبها توقيفي أم اجتهادي ؟

أما ترتيب السور فهو توقيفي ، ترتيب السور على ما هي عليه في المصحف الآن هو توقيفي عن النبي – صلى الله عليه وسلم – ولذلك لا تجوز مخالفة هذا الرسم ولا إبدال السور بسورة في مكانها لكن في القراءة، لا بأس إن قدم القارئ سورة على سورة في القراءة فقد ثبت أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قام ذات ليلة فقرأ البقرة والنساء وآل عمران، فترتيب المصحف في الرسم والكتابة توقيفي لا تجوز مخالفته ولا يجوز تغييره، لكن في القراءة إذا قدم سورة على سورة وأما أسماء السور فهل هي توقيفيه أو هذا ما عليه الصحابة ، فالله تعالى أعلم في ذلك .

تقول هل إذا قرأنا القرآن بيننا وبين أنفسنا أي بصوت لا نسمعه هل نؤجر عليه كما أخبر المصطفي – صلى الله عليه وسلم – بكل حرف عشر حسنات أم يجب علينا أن نسمع أنفسنا عند القراءة؟

القراءة هي حركة اللسان والشفتين، أما بعض الناس يأخذ المصحف وينظر فيه دون أن يحرك شفيته ولا لسانه فلا يكون قارئا إنما هو ناظر فالقراءة لابد أن تتحرك الشفتان مع اللسان، الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ، أما أن يكون الصوت مرتفعاً أو أن يغض من صوته ، فليس هناك إشكال الأجر يترتب على حركة اللسان والشفتين، رفع صوته أم غض من صوته .

يقول ما الفرق بين اللفظان تزاور وتقرضهم ؟

اللفظان بمعنى واحد تزاور أي تميل وتقرضهم بمعني أي تميل عنهم أيضاً .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، نريد نصيحة منك في حفظ كتاب الله وما العوامل التي تساعدنا على ذلك ؟

زادك الله حرصا ووفق وأكرمك بحفظ كتابه إن ربي على كل شيء قدير ، دائماً ننصح إخواننا الذين تدخل قلوبهم الرغبة في حفظ كتاب الله – عزّ وجلّ – بأن يخصلوا النية لله – سبحانه وتعالى – وأن يشحذوا الهمم ويقووا العزائم، وأن يلزموا أنفسهم بمقرر يومي في الحفظ يعني اليوم سأحفظ خمسة أسطر عشرة أسطر، سأحفظ وجهاً أو صفحة هذا المقرر اعتبره وجبة غذائية، لا يمضى اليوم إلا وقد تناولت هذه الوجبة فإذا أويت إلى فراشك فتذكرت أنك لم تتناول وجبة الحفظ هب من فراشك وانزل إلى الأرض وتوضأ واجلس وخذ وجبتك من الحفظ .

فإذا أردت الحفظ فلا تبدأ بالبقرة فإن البقرة جزءان ونصف طويلة وهي فيها أطول آية، آية المداينـة وكلهـا أحكام، والأحكام لا تقرأ كثيراً ولا تسمع كثيراً فيصعب حفظها .

أما حفظ المفصل وهو من ق إلى الناس ، فهذا الحزب سمع كثيرا وحفظ في الصغر وآياته قصيرة وسـوره قصيرة وهو في الترغيب والترهيب والجنة والنار والعقائد فهذا حفظه سهل بإذن الله ميسور، فابدأ بمراجعة جزء عم ثم جزء تبارك ثم قد سمع ثم ق ثم انتقل واحفظ من يس إلى ق وهكذا حتى تتم حفظك بإذن الله .

ودائماً ألح على الله تعالى أن يجعلك من أهل القرآن، اللهم أكرمني بالقرآن اللهم حفظني القرآن، اللهم ذكرني منه ما نسيت اللهم علمني منه ما جهلت، فالله يستجيب الدعوات ويقضي الحاجات .

السلام عليكم بالنسبة لأهل الكهف لما أرسلوا واحداً منهم إلى المدينة، هل وجدوهم قد آمنوا بالله أم بقوا علـى كفرهم ؟

لما ذهب أحدهم إلى المدينة ليشتري الطعام ذهب بالورق بالعملة التي دخلوا بها الكهف قبل ثلاث مائة سنة ، فتصور واحد جاء إليك بعملة لها أكثر من ثلاثمائة سنة، فمجرد أن أعطاها لصاحب الطعام عرف أن هذا الرجل ليس من هذا الجيل ولا الذي قبله من قرون قد خلت فتحدث الناس به فأقبلوا عليه فلما أخذوه أقر وأخبر بإخوانه الذين في الكهف فجاءوا معه إلى الكهف ليأخذوه وإخوانه فسبقهم إلى الكهف فأخبر إخوانه فأماتهم الله – سبحانه وتعالى – وإلى هنا وقفنا ولم نتم ماذا حدث وسنأتي عليه في الحلقة القادمة إن شاء الله .

السلام عليكم، عندي سؤالين السؤال الأول ما معنى يتلطف؟ الذي أرسل إلى المدينة ، السؤال الثاني ممكن أن نعرف موقعهم ولو تقريبي؟

وليتطلف في سيره، وليتطلف في معاملة الناس، إنسان غريب وليتلطف يكن لطيف المعاملة حسن الخلق معهم حتى لا يلفت النظر إليهم فيشعروا أنه غريب عنهم فيقبضون عليه.

وكان سؤاله الثاني عن موقعهم

أما موقعهم فقد ذكرنا أن هناك بعض الكتب ذكرت أن الرقيم موجود في الأردن، وبعضهم قال موجـود فـي تركيا وبعضهم قال موجود في كذا، وقلنا أن الله – سبحانه وتعالى – لم يعين هذا المكان ، ولذلك كل قول يعين هذا المكان سيكون رجماً بالغيب ولا دليل عليه ولذلك ضربنا صفحاً عنه .

قد علمنا يا شيخ أن الدعاء هو العبادة، والنذر والاستغاثة والذبح من العبادة فما حكم هؤلاء الذين ينتسبون إلى الإسلام، الذين يطوفون بقبور آل البيت من الموتى ويدعونهم ويتقربون إليهم بالذبح ، وهل يعد كلام أهل العلـم من خلال هذه الحلقات أو شرائط الكاسيت أو الاسطوانات، تعد إقامة حجة عليهم ، أما مـاذا يـا شـيخ نرجـو التوضيح ؟

بارك الله فيك وهل تظن أن أمثال هؤلاء يستمعون إلينا ويشاهدوننا الآن حتى نقول إن كلامنا حجة علـيهم ، هذه الأعمال أعمال شرك، الطواف بالقبور والاستغاثة بها دعاؤها من دون الله الذبح لها هذه أعمال شركية .

لكننا إذا أطلقنا أن قول كذا شرك وقول كذا كفر وفعل كذا شرك وفعل كذا كفر ، نقول هذا حكم عام ولا ننزل الأحكام العامة على الأشخاص المعينين إلا بعد إقامة الحجة عليهم ممن هم أهل الحجة وهم العلماء المعتبـرون الذين لهم كلمة .

فإذا أقيمت عليهم الحجة أن هذا شرك وكفر بالله – عزّ وجلّ – فلا أظن أن مسلماً يقول لا إله إلا الله يقال هذا الفعل شرك ويصر عليه وما أظن أن مسلماً يقول لا إله إلا الله هذا كفر ويصر عليه .

فإذا أقيمت له الحجة وبين له الأمر إن شاء الله ينتهون .

أما إذا لم ينتهوا فهؤلاء مردهم إلى أهل الحل والعقد وأولو الأمر الذين بأيديهم السلطة الذين يقولون فيهم قولهم وينفذون فيهم حكمهم .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، قراءة سورة الكهف يوم الجمعة هل الحديث أنه يكون له نور من الجمعة إلى الجمعة صحيح ؟

أي نعم صحيح إن شاء الله صححه شيخنا الألباني رحمة الله عليه.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته لدي استفسار بالنسبة ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ ﴾ هل الرقيم اسم للكلب ؟ .

لا ليس الرقيم اسماً للكلب وإنما قلنا أصح أقوال العلماء في تفسير الرقيم أنها لوحة من المعدن أو الرخام كتبت عليها أسماء أصحاب الكهف وعلقت في مدخل الكهف، كما يفعل بما يسمونه النصب التذكارية .

الرقيم اللوحة التي كتبت عليها أسماء أهل الكهف وليس فيه اسماً لكلبهم .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته نحن نعلم أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلباً أو صورة كما ثبت في الصحيح ونعلم كذلك أن الملائكة خلقها الله تعالى لتنفيذ أوامره، فكيف نفسر هذا خاصة وأنه لا شك في أن الملائكة هي التي حفظت أصحاب أهل الكهف بأمر ربها ؟

تنفيذ الملائكة لأمر الله – عزّ وجلّ – لا يتوقف على حلولهم في المكان نفسه فلهم من القدرة التي بها ينفذون أمر الله ولو عن بعد فلا يشترط أن يكونوا قد دخلوا الكهف أو كانوا قريبين من الكلب أنه لا يشترط .

ثم إن نبينا – صلى الله عليه وسلم – هو الذي قال لنا (لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب أو صورة) فهذا قبل نبينا – صلى الله عليه وسلم – فلعل هذا يكون خاصاً بنا والله تعالى أعلى وأعلم .

السلام عليكم ، عندي سؤالين ، السؤال الأول: في قول الله – سبحانه وتعالى – ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ هل يمكن أن يكون المعني هم لا يعبدون إلا الله جملة اعتراضية ، السؤال الثاني: في مسألة نوم أصحاب الكهف وهم مفتوحي الأعين ما الحكمة منها ؟

لا هذه ليست جملة اعتراضية ولكنها من ضمن كلام أهل الكهف، لأنهم كما قلت كان قومهم مشركين يعبدون الله ويعبدون معه آلهة فتبرأوا من قومهم ومما يعبدون من دون الله ، يعني أثبتوا الولاية لله – تبارك وتعالى – وحده كما قال الخليل إبراهيم – عليه السلام – لقومه ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾[الشعراء :٧٥-٧٧].

فهو وليي فأنا عدو لكم ولمن عبدتموهم من دون الله إلا الله فهو وليي ، وأنا وليه فليست هذه جملة اعتراضية ولكنه من تمام كلام أهل الكهف .

أي نعم قلنا من باب الهيبة والرعب لمن يطلع عليهم لأنه كما قلت إذا رأيت إنساناً نائماً فنظرت في وجهه فوجدته مفتوح العين ظننته يقظاناً، فالله – تبارك وتعالى – ترك أعينهم مفتوحه حتى يلقي الرعب على من يراهم ويطلع عليهم كما قال ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً ﴾[الكهف: ١٨].

وعليكم السلام ورحمة الله ، ذكرت فضل مصاحبة أهل الذكر فما رأيكم في الجرأة على أهل الذكر بدون علم؟

لا حول ولا قوة إلا بالله الحقيقة أن هذا مما ابتلينا به في هذا الزمان وتتطاول الصغار على الكبار ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ولا أجد ما أذكر به هؤلاء إلا كلام الحافظ ابن عساكر رحمه الله حيث قال في ذلك : فاعلم أخي وفقني الله وإياك لمرضاته وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته أن لحوم العلماء مسمومة وعادة الله في الانتقام من منتقصيهم معلومة، ومن أطلق لسانه في العلماء بالسلب ابتلاه الله قبل موته بموت القلب، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم .

فنقول لهؤلاء الذين أطلقوا ألسنتهم في كبار العلماء اتقوا الله وأمسكوا ألسنتكم فإن الله تعالى قال في مثل ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾[النور: ١٥] فإذا الله تعالى قال في غيبة المؤمنين ﴿ وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً ﴾[الحجرات: ١٢]، فكيف بلحوم العلماء وقد قال ابن عساكر أنها مسمومة ، نسأل الله للجميع الهداية والتوفيق .

يقول قوله تعالى ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً ﴾ ظاهر الآية أن المكره غير معذور هل كان هذا الحكم شرع من قبلنا ؟

لا شك أن هذا شرع من قبلنا ولكن ليس هناك توضيح، كأنهم إن أُكرهوا هل يؤاخذوا أو لا يؤاخذوا لكنهم يريدوا أن يقولوا أن قومكم لن يتركوكم على دينكم الذي دخلتم فيه واعتزلتموهم وما يعبدون من دون الله، فإما أن ترتدوا عن دينكم وتكونوا بظاهركم معهم وتقيموا على عبادة غير الله وإما قتلوكم .

أما المكره سابقاً معفي عنه أم غير معفي فهذا الله تعالى أعلم به .

تقول ما حكمة نومهم كل هذه المدة وهل ذهابهم إلى الكهف هل هو أمر من الله أم هم اختاروا الذهاب إلى الكهف ؟

كل شيء يجري في الكون فإنما يجري بتقدير الله تعالى ومشيئته ثم الله – سبحانه وتعالى – يهدي الخلق لما قدره لهم وشاءه منهم فكان توجههم إلى الكهف باختيارهم وإرادتهم لكن قبل ذلك بتقدير الله تعالى وتدبيره لهم ذلك .

يقول كيف يمكن الجمع بين حديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – الذي في معناه لا تشرك بالله لو حرقت أو قطعت ، والآية الكريمة ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْأِيمَانِ ﴾[النحل:١٠٦] ؟

المراد بوصية النبي – صلى الله عليه وسلم – (لا تشرك بالله شيئا وإن قطعت أو حرقت) أن تقبل الشرك وترضى به وتترك الدين من أجل ما ابتليت به من عذاب، أن ترفض الدين وترضى به بالكلية أما من أكره وقال كلمة الشرك لكن قلبه مطمئن بالإيمان فهذا ليس كافرا.

يقول هل يمكن فتح الأعين من باب الإعجاز العلمي حتى لا تفسد أعينهم ؟

هذه تحتاج إلى الأطباء المتخصصين .

يقول ما أفضل كتاب في التفسير للمبتدئين ؟

أفضل كتاب تفسير للمبتدئين تفسير الجزائري حفظه الله ، ثم تفسير السعدي رحمة الله عليه ، ثم مختصر ابن كثير لشيخنا محمد نسيب الرفاعي رحمة الله عليه .

وبهذه المناسبة نذكر الإخوة الكرام بأنهم بعد سماع هذه المحاضرة يستطيعون أن يراجعوا مختصر ابن كثير لشيخنا الرفاعي فيجدون فيه مجمل ما ذكرناه إن شاء الله تعالى .

يقول ما معني تزاور وما معنى تقرض، ولمَ قال تزاور وقال تقرض؟ والسؤال الثاني أن الله تعالى ذكر أمراً خارقاً وهو تزاور الشمس، فما الحكمة من ذكر تقرير أفعال أصحاب الكهف ذات اليمين وذات الشمال، مع قدرة الله تعالى على تغيير طبيعة مخلوقاته، وتغيير قانون الأرض بألا تأكل أجسادهم ؟

الله – سبحانه وتعالى – له أن يفعل ما يشاء كيف يشاء بأسباب ومن غير أسباب، فالله تعالى قادر على حفظهم دون أن يقلبهم لكنه كان يقلبهم والله تعالى أعلم بمراده – عزّ وجلّ –.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ما معنى قوله ﴿ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً ﴾؟

المراء هو الجدال فلا تجادل فيهم بعدما بين لك الله – سبحانه وتعالى – نبأهم وسيأتي التفصيل في الدرس القادم إن شاء الله تعالى .

تقول كيف يكون أخذ العبرة من قصة أصحاب الكهف ؟

نحن بفضل الله – عزّ وجلّ – الآن شرحنا ثلاث دروس في كل درس نشرح الآية ونقول ما يستفاد منها والعبرة المأخوذة منها، فعلى الأخت السائلة أن تتابعنا وتتابع ما نقوله ، فتجد الدروس والعبر والعظات المأخوذة من هذه السورة إن شاء الله .

السلام عليكم ، بالنسبة لمذاكرة مادة التفسير الطريقة الجيدة المساعدة للحفظ ؟

كما نشرح تقرأ الآيات التي تريد أن تذاكرها تقرأها ثم تأتي عليها آية آية ثم تكتب ما فهمت من الآيات كأنها تحضر الدرس لتلقيه على غيرها ، فبذلك تستفيد إن شاء الله تعالى .

تقول هل يكون أجر من يقرأ من التفسير كمن يقرأ من المصحف علماً بأن القراءة من التفسير لعذر شرعي ؟

القرآن هو القرآن سواء كان مكتوباً في المصحف أم في كتب التفسير، فلو أن إنساناً أخذ كتاب التفسير وقرأ منه القرآن الكريم فهو قارئ القرآن الكريم ، فهو ومن يقرأ من المصحف سواء بإذن الله تعالى فأجر واحد ووقع الأجر على الله تعالى .

يقول ما رأي الشيخ في تفسير الكشاف وهل تنصح المبتدئ بقراءته ؟

لا ، لا ينصح المبتدأ بالقراءة في الكشاف ولا في التفسير الكبير للرازي لأن فيهما من العقائد الفاسدة الكثير الكثير ، والطالب المبتدئ ربما وقع على هذه العقائد الفاسدة وهو لا يعرفها ولا يحيط بها علماً فتفسد عقيدته من حيث أراد تصحيحها .

فلا ينصح المبتدئ بقراءة الكشاف ولا التفسير الكبير .

ذكرت أن مشركي العرب كانوا يؤمنون بتوحيد الربوبية ونعلم أن من مقتضى الإيمان بتوحيد الربوبية الإيمان بأن الله – عزّ وجلّ – هو الآمر والناهي والمشرع ، فكيف يكونوا قد آمنوا بذلك ؟

هذا من توحيد الألوهية ولذلك هم استكبروا عن لا إله إلا الله لماذا؟ لأنهم يعلمون أنه إذا آمنوا بلا إله إلا الله يجب أن يسمعوا و يطيعوا ، فكانوا مقرين بتوحيد الربوبية أن الله خلقهم ورزقهم ويعطيهم ويجيب دعائهم ويكشف ضرهم ، فإذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ، لأنهم يعلمون أن مقتضى إقرارهم بها أن يدينوا لله بالوحدة بالسمع والطاعة في كل ما يأمر به وينهى عنه .

السلام عليكم ، الآية هي ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[التوبة:١٠٣] ؟

تريد تفسيرها، هذه الآية من سورة التوبة يأمر الله – تبارك وتعالى – فيها نبيه – صلى الله عليه وسلم – أن يأخذ الصدقة والمراد بها الزكاة الواجبة من الأغنياء وأمر الله تعالى رسوله – صلى الله عليه وسلم – إذا أخذ الصدقة من أهلها أن يدعو لهم وأن يصلي عليهم ولذلك قال (اللهم صلي على آل أبي أوفي) لما جاءه بصدقته قبلها منه وقال (اللهم صلى على آل أبي أوفى) فقوله تعالى ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ فإخراج الصدقة يزكي النفس ويطهرها من الدنس دنس البخل والشح ، ويقوي فيها حب الله تعالى والدار الآخر ، والإيمان والاحتساب ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ ﴾ ورحمة لهم ، هذا معنى الآية والله أعلم .

تقول هل صحيح أن الفاتحة مجملة وتفصيلها في باقي سور القرآن ؟

أي نعم هذا ما قلناه في أول درس أو في تفسير قوله تعالى ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ ﴾ قلنا أن هذا مجمل يفصله ما بعده وهذه سنة الله تعالى في القرآن الكريم، جعل الفاتحة مجملاً للقرآن الكريم ثم فصل ما تضمنته الفاتحة في باقي السور كلها .

تقول هل نفهم من اعتزال أصحاب الكهف لقومهم أن نعتزل أهل الفسق ومن في دينهم ضعف أم هناك حدوداً وثوابت في هذه المسألة ؟

نعتزلهم في وقت فعل المنكر والشر والمعاصي ونخالطهم من أجل الدعوة إذا أمنا على أنفسنا إذا وجدنا في أنفسنا قوة وعلمنا أننا الذين نرجو الله أن نؤثر فيهم وأمنا أنهم لن يؤثروا علينا فحينئذ نخالطهم من أجل الدعوة .

أما الإنسان المبتدأ الضعيف الذي يخشى على نفسه إذا خالط أهل المعاصي والفسوق ليدعوهم أن يصحبوه معهم ويردوه إلى طريقتهم فهذا لا يجب عليه أمرهم ولا نهيهم بل يجب عليه أن يعتزلهم والبعد عنهم حفظاً على سلامة نفسه .

تقول لدي نسخة من ابن كثير للصابوني، هل يمكنني الاعتماد عليها كمبتدئة ؟

لا ننصح بهذا الكتاب وإنما أنصح بما قلنا بمختصر ابن كثير لشيخنا محمد نسيب الرفاعي رحمة الله عليه .

هناك مسلمون مقيمون في بلاد لا يذبح فيها على الطريقة الشرعية، فهل يجوز لهؤلاء أن يأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ولم يتم ذبحها على الطريقة الشرعية ؟

إذا ثبت للمسلم سواء كان مقيماً في بلاد الإسلام أو في غير بلاد الإسلام أن هذه الذبيحة لم يـذكر اسـم الله عليها أو ذبحت على غير الطريقة الإسلامية فهي حرام عليه لا يجوز أن يأكل منها ﴿ وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُـذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾[الأنعام:١٢١] لكن الأصل عندنا أن طعام أهل الكتاب حل لنا والمراد بأهل الكتـاب اليهود والنصارى فالله – تبارك وتعالى – أحل لنا ذبائح اليهود وذبائح النصارى وهو يعلم ماذا يقولون فالأصل في طعامهم الحل ، إلا إذا ثبت ما يفيد المخالفة فحينئذ ننتهي .

نريد أن نربط مع ما لقيه أصحاب الكهف من تكالب المشركين عليهم بما يلقاه اليوم إخواننا المجاهدين الـذين يجاهدون في سبيل الله وأقصد بالمجاهدين الذين يجاهدون في سبيل الله ويسعون لإعلاء كلمة الله فلعلكم توجهون كلمة لهم ومما يتعرضون اليوم من تكالب المشركين والكافرين عليهم ووصفهم بالإرهاب وأخـص بالمجاهـدين وأكرر الذين يجاهدون في سبيل الله ويسعون لإعلاء كلمة الله في كل مكان

ونحن جميعاً لا نملك إلا ندعو للمجاهدين في سبيل الله حقاً كما أكدت أنت في كلامك، ندعو للمجاهدين فـي سبيل الله حقاً أن ينصرهم الله – سبحانه وتعالى – وأن يمكن لهم في الأرض وننصحهم بالثبات على ديـن الله ، مهما لقوا في سبيل الله – عزّ وجلّ – .

تقول هل اتضح على أجساد أهل الكهف أثر السنين من تجاعيد وشيب وغيرها ؟

لا طبعاً من ظاهر الآيات أن الله حفظهم فلم يتغير منهم شيء بعثوا كما ناموا، ولذلك ﴿ قَالُوا لَبِثْنَـا يَوْمـاً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ .

تقول هل على الإنسان شيء إن حاول أن يفسر لشخص ما معنى آية ما على حسب ما فهمه من معنى بدون رجوع للتفسير ؟

عندما نقول في سورة الفاتحة الحمد لله رب العالمين ، نقول الله – سبحانه وتعالى – حمد نفـسه وأمرنـا أن نحمده ، وهو الرحمن الرحيم رحمة الله واسعة ، وصف نفسه باسمين ، الرحمن الرحيم ، وهو – سبحانه وتعالى – مالك يوم الدين، الذي له الأمر يوم القيامة، وأمثال هذا الكلام وهذه الآيات الظاهرة المعاني ، التى لا تحتـاج إلى بحث وروية ولا فكر ما في مشكلة أن أتكلم فيها .

أما المشكل الذي لا نعرف معناه لا يجوز لنا أن نخوض إلا أن نرجع إلى أقوال المفسرين.

تقول هل من الممكن أن تبينوا لنا معنى قوله تعالى ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً ﴾[الكهف: ١٨] هل الرعب هو لهيبتهم من الإيمان أم في هيئتهم ؟

في هيئتهم الله – سبحانه وتعالى – يقول عن موسى عليه السلام ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ﴾[طـه: ٣٩] .

الله – تبارك وتعالى – ألقى على موسى وهو في المهد صبياً حين لقته

ألقته أمه في الصندوق في اليم ألقى الله عليه المحبة ، فكل من يراه يحبه ، وكذلك ألقى الله على أهل الكهـف وهم نيام المهابة، فلو قدروا واطلع عليهم أحد لولوا منهم فرارا، ولملئ منهم رعباً .

هل يؤجر على الذكر بالقلب دون تحريك اللسان ؟

في الحديث – صلى الله عليه وسلم – أن الله تعالى قال (أنا عند حسن ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرنـــي، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه) فالذكر يكون بالقلب ويكون باللسان ، أما القراءة فلا تكون إلا باللسان .

الشرح من قوله "وكذلك أعثرنا عليهم"...

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، اللهم صلي وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. ثم مرحبا بكم جميعا في هذا اللقاء الجديد من دروس تفسير سورة الكهف والآيات المباركات التي معنا، منها هذه الساعة المباركة إن شاء الله تعالى تضمنت من المعاني ما يلي:

أولا: لماذا بعث الله تعالى أصحاب الكهف من نومهم.

ثانيا: النهي عن اتخاذ القبور مساجد.

ثالثا: عدة أصحاب الكهف.

رابعا: النهي عن استفتاء الجاهل.

خامسا: بركة قول إن شاء الله تعالى.

سادسا: فضل تلاوة القرآن الكريم.

سابعا: الحرص على صحبة الصالحين ومجالستهم ولو كانوا فقراء.

وأخيرا: جزاء الظالمين والمؤمنين في الآخرة يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وهذا بإيجاز عرض سريع لأهم ما تضمنته الآيات المباركات التي معنا من سورة الكهف من المعاني والتي نعيش في رحابها ساعتنا هذه إن شاء الله تعالى، فلنستمع إلى هذه الآيات المباركات أولا قبل الخوض في تفاصيلها، سائلين الله عز وجل أن ينجز لنا ما وعدنا حيث قال ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠٤]

﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴿٢٧﴾ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ

فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾[الكهف: ٢١-٣١].

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آَيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآَنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١]،

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣].

إخوة الإسلام: ذكرنا في اللقاء السابق أن الله سبحانه وتعالى لما بعث أهل الكهف من نومهم أمروا أن يذهب أحدهم إلى المدينة؛ ليأتهم برزق منه، ووصوه أن يتلطف في سعيه ومدخله ومخرجه ولا يشعرن بهم أحدا؛ مخافة أنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا، فذهب أحدهم إلى المدينة ليأتي منها برزق يأكلونه، فاطلعوا على أمرهم وجاءوا مع هذا الشاب إلى الكهف؛ ليحصلوا على إخوانه المتخلفين هناك، فلما اقتربوا من الكهف سبقهم ذلك الشاب فدخل على إخوانه في الغار فأماتهم الله جميعا.

الله سبحانه وتعالى يقول ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾، أي أطلعنا الناس عليهم ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾، فهذا دليل حسي ملموس على أن الله تعالى يحي الموتى ويبعث من في القبور، فهؤلاء فتية ناموا في الكهف ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ومع ذلك حفظهم الله تبارك وتعالى فلم تبلى أجسادهم، ولم تأكل الأرض أجسامهم ولم يتغير منهم شيء ثم بعثهم الله تبارك وتعالى كما كانوا؛ ليعلم الناس أن الله سبحانه وتعالى يحي الموتى ويبعث من في القبور وأن البعث للإنسان كإنسان من حيث البدن والروح، وليس البعث للأرواح وحدها وإنما كما بعث الله تبارك وتعالى أصحاب الكهف من نومهم بعد ثلاثمائة سنين، كذلك يبعث الله تبارك وتعالى الموتى من قبورهم بأجسادهم وأرواحهم،﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾.

فلما انتهوا إلى الكهف ودخل ذلك الذي كان قد أتى المدينة أماتهم الله الموتة التي كتبها على بني آدم، فوقفوا يتنازعون بينهم أمرهم، قالوا هؤلاء قوم صالحون من أولياء الله الصالحين كيف ينامون ثلاثمائة سنين ثم يحييهم الله تبارك وتعالى، هؤلاء قوم صالحون هؤلاء من أولياء الله هؤلاء طيبون هؤلاء قدسيون يجب أن نصنع لهم شيئا نحفظ به ذكراهم وسيرتهم ﴿ إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا ﴾ بنيانا يكون أثرا من الآثار ومزارا من المزارات التي يزورها الناس بعد ذلك.

﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ ﴾ والغلبة دائما تكون للسلطان ولذوي السلطة والأمر والنهي للملك وحاشيته وأتباعه﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾، وذلك على طريقة اليهود والنصارى أنهم كانوا يبنون على قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ترى في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن أم حبيبة وأم سلمة رضي الله عنهما ذكرتا لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأينها بأرض الحبشة وما فيها من تصاوير فقال النبي صلى الله عليه وسلم (أولئك كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح بنو على قبره مسجدا واتخذوا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة) أولئك الذين يتخذون المساجد على القبور أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة، فاتخاذ القبور، فاتخاذ المساجد على القبور والبناء فوق القبور محرم، ولا يجوز أبدا، لا يجوز أن يبنى القبر نفسه ولا يبنى عليه فضلا عن أن يبنى عليه مسجد يركع فيه ويسجد لله سبحانه وتعالى، ولقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن اتخاذ القبور مساجد حتى وهو في سكرات الموت لم تشغله سكرات الموت من

تحذير أمته عن اتخاذ القبور مساجد؛ ولذلك جاء في الصحيح أيضا عن عائشة رضي الله عنهـا أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال في مرضه الذي لم يقم منه(لعنة الله على اليهود والنصارى اتخـذوا قبـور أنبيـائهم مساجد)، قالت ولولا ذلك لأبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجدا.

(لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)، قالت ولولا ذلك النهي لاتخذ قبـره مـسجدا ولبني عليه لكنه نهى عن ذلك صلى الله عليه وسلم وعنها رضي الله عنها وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي مات فيه اتخذ قطعة من القطيفة فوضعها على وجهه فإذا اغتم كشفها فقال وهو كذلك (لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)، يحذر من ذلك، يعني يلعن اليهود والنصارى على اتخاذهم القبور مساجد يريد بهذا اللعن أن يحذر أمته من اتخاذ القبور مساجد وعن جندب ابـن عبد الله رضي الله عنه قال (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخـذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا لقبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك) فلا يجوز للمسلمين أن يبنـوا فوق القبور، لا يبنوا القبور نفسها فبناء القبور محرم في الشريعة ولا يبنون فوقها أي بنيان كان فضلا عن بناء المساجد التي يسبح فيها بحمد الله سبحانه؛ وذلك لأن اتخاذ القبور مساجد دائما يفضي إلى الوقوع فـي الـشرك وعبادة أهلها من دون لله تعالى فمن باب سد الذرائع نهى الإسلام عن البناء فوق القبور وعن اتخاذهـا مـساجد ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْـنَهُمْ أَمْـرَهُمْ ﴾ وهـم قائمون على باب الغار بعد أن وجدوهم قد ماتوا أجمعين ﴿ إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَـيْهِمْ بُنْيَانًـا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾.

فلما ماتوا وقفوا يتكلموا على عدتهم؛ لأنه لم يطلعوا إلا على واحد فأخذوا يتكلمون وهم على باب الغار، كم كان هؤلاء الفتية، فالله تبارك وتعالى ذكر أقوالهم، وأشار في الذكر إلى الباطل والصواب من هذه الأقوال قـال تعالى ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾، هذا رأي،﴿ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ هـذا رأي، ﴿ وَيَقُولُـونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، فاختلفت الآراء في عدة أصحاب الكهف كم كانوا؟ فهناك رأي يقول ﴿ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾، ورأي ثان يقول:﴿ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ ورأي وثالث يقول: ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، الله تعالى أشار في هذه الآية إلى بطلان قولين ورأيين وصواب الرأي الثالث فقال﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾، ولم يقل في هذا الرأي الثالث رجما بالغيب، فلما وصف الرأيين الأولين بقوله رجما بالغيب أشار بذلك إلى بطلان هذين الرأيين، ولما لم يصف بذلك الوصف الرأي الثالث أشار إلى صحته ورجحانه.

ومعنى الرجم بالغيب أن الذي يرجم بالحجر من مكان بعيد لا يصيب هدفا، وكذلك الذي يتكلم بـلا علـم ولا هدى ولا كتاب منير لا يصيب الحق أبدا، فالحق هو ما قام على الدليل، فمن تكلم بالدليل فقوله الحق، ومن تكلم بغير دليل ولا حجة ولا برهان فقوله باطل مردود عليه، فالله سبحانه حكى الثلاثة أقوال وأشار إلى الباطل منها والراجح، فوصف رأيين بقوله رجما بالغيب يعني لم يصب الذين قالوا هذين القولين لم يصيبوا الحقيقة، وسـبعة ثامنهم كلبهم ولم يقل في ذلك رجما بالغيب، فكان ذلك إشارة إلى صحة هذا القول، وأن عدة أصـحاب الكهـف كانوا سبعة وثامنهم كلبهم ومع ذلك يقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ﴾ مع أن الله تعالى أشار إلى القول الراجح في عدتهم إلا أنه أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يفوض الأمر فـي علـم عدتهم إلى الله تبارك وتعالى﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ﴾ فيستفيد من هذا أنك إذا رجحت بين الآراء بلا حجـة ولا برهان وإنما بالاجتهاد والاستنباط فيجب عليك أن تقول في قولك الله أعلم لأنك رجحت بناء على الظن لا علـى اليقين، فإذا رجحت بغير دليل تقول هذا هو الراجح والله أعلم ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ﴾ ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ ﴾ يعني من الناس إلا قليل، فالله تعالى يعلم عدة أصحاب الكهف وهناك قلة قليلة من الناس يعلمون عدتهم أيضا، وقد كان ابن عباس – رضي الله عنه – يقول: أنا من القليل الذين يعلمون عدتهم، كانوا سبعة وثامنهم كلبهم.

﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ فلا تمار المراء هو الجدال فلا تمار يا رسولنا أهل الكتاب في أصحاب الكهف بعد ما أوحى الله إليك من شأنهم ما أوحى، فلست محتاجا إلى الجدال إلا جدالا بالتي هي أحسن، تخبرهم بما أوحاه الله تعالى إليك من نبأ أصحاب الكهف فبلغ ما أوحاه الله إليك واعرضه عليهم وجادلهم به بالتي هي أحسن ولا تكثر المراء ولا تكثر الجدال ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ أي لا تستفت في أهل الكهف من أهل الكتاب أحدا؛ لأنهم لا يعلمون ما علمته أنت عن طريق الوحي وعن طريق القرآن، فلما نهى الله تبارك وتعالى نبيه – صلى الله عليه وسلم – عن استفتاء أهل الكتاب في نبأ أصحاب الكهف علمنا أنه لا يجوز للمستفتي أن يستفتي الجاهل، إذا نزلت بك نازلة أو وقعت بك واقعة وأردت أن تعرف حكمها من الشرع فلا بد أن تتحرى العلماء، الربانيين المتخصصين الذين تعلموا الكتاب والسنة لتسألهم عما وقع بك من الوقائع ونزل بك من النوازل فالله تبارك وتعالى قال: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء]، وهنا ننبه على خطأ يقع فيه كثير من العامة حين يريدون أن يعرفوا أحكام الشريعة أنهم يتوجهون إلى المساجد فيسألون من وجدوا دون أن يعلموا هل المسؤول هو الإمام العالم إمام مسجد أم أنه عامل في المسجد ليس عنده علم؟ فلا بد أن تتحرى بسؤالك العلماء المتخصصين،﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾، بعد ما أوحاه الله تبارك وتعالى إليك.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾، إذا قال لك أخوك: ستأتيني غدا، فقل سآتيك غدا إن شاء الله، ولا تقل سآتيك غدا وتسكت لماذا؟ لأن كل شيء يجري بتقدير الله تعالى ومشيئته، ومشيئته تنفذ لا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم فما شاء لهم كان وما لم يشأ لم يكن، والله تبارك وتعالى يقول﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ [لقمان:٣٤]، أنت ما تدري ما يكون لك في الغد، لا تدري ماذا خبأه لك الغيب فإذا قلت سأفعل كذا غدا، فلا بد أن تقرن ذلك بقولك – إن شاء الله – تعالى؛ لأنك لا تدري هل ستحيى إلى الغد أم لا تحيى؟ وهل ستتمكن من فعل ما وعدت به أم لا تتمكن عليه؟ وقديما قيل لرجل أعرابي: بم عرفت ربك؟ قال: بنقض العزائم وصرف الهمم.

كثيرا ما تعزم على الشيء عزما أكيدا ثم تصرف عنه ولا تفعله، وأحيانا تصرف عن الشيء بعدما هممت به وقبل أن تعزم عليه، من الذي صرفك؟ الله سبحانه وتعالى الذي بيده قلوب العباد يقلبها كيف يشاء، فلذلك من الأدب أن تقول إذا تحدثت عن المستقبل – إن شاء الله تعالى – وبهذه المناسبة نذكر إخواننا الإعلاميين في المرئيات والمسموعات حينما يخبروننا بدرجات الحرارة المتوقعة غدا على البلاد نذكرهم بضرورة قول – إن شاء الله تعالى– لأن هذا ظن يظنونه، قد يقولون درجة الحرارة غدا كذا فترتفع أو تنقص؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو مصرف الكون.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴾، يقول النبي – صلى الله عليه وسلم – (قال سليمان بن داوود – عليهما السلام – : لأطوفن الليلة على تسعين امرأة تلد كل منهن مجاهدا أو فارسا يقاتل في سبيل الله ونسي أن يقول إن شاء الله فلم تلد منهن إلا واحدة وضعت شق إنسان وليس إنسانا كاملا، قال النبي صلى الله عليه وسلم: أما إنه لو قال إن شاء الله، لم يحنث وكان دركا لحاجته) لو قال لأطوفن الليلة على تسعين امرأة تلد كل منهن فارسا يقاتل في سبيل الله – إن شاء الله – لكان دركا لحاجته أي لأعطاه الله تبارك وتعالى ما تمناه ولكنه نسي أن يقول – إن شاء الله –، وقد أخبرنا النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يأجوج ومأجوج كما سيأتي ذكرهم في آخر السورة الكريمة إن شاء الله يحفرون السد كل يوم حتى إذا كادوا أن يخرجوا غربت عليهم الشمس، فقالوا: لقد غربت الشمس فارجعوا وتأتون غدا فتتمون عملكم وتفتحون السد، فيرجعون فيجدون السد قد عاد كما كان قبل الحفر فيحفرون حتى إذا كادوا أن يخرجوا غربت الشمس فيقولون: ترجعون غدا فتتمونه فيرجعون فيأتونه كما كان مردوما، فإذا أراد الله خروجهم،عملوا في الحفر حتى نقبوا نقبا كبيرا في هذا السد فإذا غربت الشمس قال قائلهم ترجعون غدا فتفتحونه– إن شاء الله – فيتركون العمل ويبيتون، فإذا أصبحوا وجدوا السد كما تركوه في العمل فأتموا ما بقي من الحفر وخرجوا على الناس كما سيأتي كيفية خروجهم في آخر السورة – إن شاء الله

تعالى – والشاهد أن من الأدب إذا تحدثت عن الغد أن تقول – إن شاء الله – سآتيك غدا – إن شاء الله – سأفعل كذا غدا – إن شاء الله – فإن لهذه الكلمة بركة عظيمة والله سبحانه وتعالى قد قال لنبيه وأصحابه ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ [الفتح: ٢٧]، اللام لام القسم من الله سبحانه وتعالى فهذا وعد من الله لرسوله وأصحابه لا بد أن يتحقق ولا يخلف، ومع شدة التأكيد على هذا الوعد يقول تعالى ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آَمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ﴾، ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴾ إلا مقرونا بقولك إن شاء الله ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾، في زحمة المواصلات وزحمة العمل قال لك أخوك: تذكر موعدنا غدا؟ قلت: أذكره، قال: ستأتي؟ قلت: سآتي ولم تقل إن شاء الله ثم، ثم تذكرت أنك لم تقل – إن شاء الله – فقل – إن شاء الله – حتى في اليمين لو أنك حلفت أن تفعل الشيء وقلت إن شاء الله فإذا لم تفعله لم تحنث ولم يكن عليك كفارة يمين، ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾، إن قلت سآتيك غدا ونسيت أن تقول إن شاء الله ثم تذكرت أنك لم تقل إن شاء الله فألحقها بقولك إن شاء الله، ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾، لبثوا ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا، هذه الزيادة التسع سنين تتعلق بماذا؟ قال المفسرون: لبثوا ثلاثمائة سنين من السنين الشمسية، وازدادوا على الثلاثمائة تسعا من السنين القمرية؛ لأن السنة الشمسية تزيد على السنة القمرية كل عام أحد عشر يوما، أحد عشر يوما فرقا بين السنة الشمسية والسنة القمرية فقال الله تعالى ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾، مع ذلك أيضا مع أن الله أخبرنا أنهم لبثوا ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يرد علم ما لبثوا إلى الله ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُو﴾ وهو الذي أخبرنا وقوله الحق كما قال في أول السورة ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾، الله سبحانه وحده هو الذي يعلم الغيب ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾[النمل:٦٥]، إن الله يعلم غيب السماوات والأرض إن الله عالم غيب السماوات والأرض﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴾، فلا يعلم ما في غد إلا الله سبحانه وتعالى.

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصا كل الحرص على استقرار هذه العقيدة في نفوس أصحابه، عقيدة أنه لا يعلم الغيب إلا الله، دخل على عروس صبيحة بنائها وعندها جوار يغنين، فقالت إحداهن: وفينا رسول يعلم ما في غد، فقال لها: (دعي هذا وقولي الذي كنت تقولين، لا تقولي وفينا رسول يعلم ما في غد؛ لأنني لا أعلم الغيب لا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى) ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾، هذا تعجب من إحاطة الله تعالى بالمرئيات بصرا، وبالمسموعات سمعا والمعنى ما أبصره وما أسمعه.

فالله سبحانه وتعالى أحاط بالمرئيات بصرا وأحاط بالمسموعات سمعا وأحاط بكل شيء علما فلا يخفي على ربنا سبحانه وتعالى شيء في الأرض ولا في السماء كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾، و قال الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ ﴾، ما للظالمين من دون الله نصير ينصرهم من عذاب الله، ويدفع عنهم بأس الله تعالى، ﴿ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدً﴾، الله سبحانه وتعالى له الحكم ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾[يوسف: ٤٠]،﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدً﴾.

والحكم نوعان:

١–حكم شرعي ديني ٢–حكم كوني قدري، قال الله تعالى في سورة الممتحنة بعد ما ذكر حكمه عز وجل في المؤمنات المهاجرات بعد صلح الحديبية قال ﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾[الممتحنة:١٠]، فهذا حكم شرعي

ديني والحكم الكوني القدري منه قول واحد من إخوة يوسف ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾[يوسف: ٨٠]، فهذا حكم كوني قدري، فالحكم نوعان:

حكم شرعي ديني، وحكم كوني قدري، والله سبحان وتعالى ليس له شريك في الحكم الشرعي، وليس له شريك في الحكم الكوني القدري؛ ولذلك قال ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾[الأعراف: ٥٤]، فكما أنه الخالق وحده لا شريك معه في الخلق، فالأمر له وحده لا يجوز أن يكون له شريك في الأمر﴿ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾.

ثم قال تعالى ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ﴾، انتبه هذه الجملة معطوفة على ما قبلها وهو قوله تعالى ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾، ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ﴾، لا تستفت يا نبينا أهل الكتاب في أصحاب الكهف، لا تستفتهم، فإن عندك من العلم ما لم يأتهم، قد جاءك من الله علم لم يعلمه أهل الكتاب في كتبهم السابقة، فاستغن يانبينا بما أوحيناه إليك من نبأ أصحاب الكهف عن سؤال أهل الكتاب، ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ﴾، والأمر بالتلاوة يأتي بمعنى الأمر بالقراءة ويأتي بمعنى الأمر بالاتباع، فالتلاوة ليس معناها القراءة، فقط ولكن التلاوة تشمل القراءة والاتباع، أما الأمر بالقراءة التلاوة التي هي قراءة فمنه قوله ربنا عز وجل آمرا رسوله أن يقول ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ﴾ [النمل:٩١،٩٢]، فالتلاوة هنا معناها القراءة، ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ [النمل: ٩٢]، وتأتي التلاوة بمعنى الاتباع، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ [فاطر: ٢٩]، فالتلاوة هنا معناها الاتباع والعمل بما في هذا الكتاب، ولذلك لما ذكر التلاوة ذكر أهم الأعمال الصالحة وهي الصلاة وإيتاء الزكاة، فالتلاوة تأتي بمعنى القراءة وتأتي بمعني الاتباع، أما القراءة: فتلاوة القرآن قربة من أعظم القرب، وعبادة من أجل العبادات، يعطي الله تبارك وتعالى عليها من الأجر والثواب ما لا يعطي على غيرها.

وقد بين النبي صلى الله عليه و سلم كثرة هذا الأجر بقوله: (من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول آلم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف). ولكن مجرد التلاوة وترديد الألفاظ بلا عمل ولا اتباع لا يسمن ولا يغني من جوع، بل يكون حجة على القارئ، إذا قرأ القارئ القرآن بلفظه ولم يتبع أحكامه، لم يحل حلاله، ولم يحرم حرامه، ولم يعظم شعائره ولم يقف عند حدوده كان القرآن حجة عليه، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (والقرآن حجة لك أو عليك)، حجة لك إذا أنت تلوته لفظا وتلوته عملا، يعني قرأته باللفظ واتبعت ما جاء فيه من الأحكام، من تحليل الحلال وتحريم الحرام، وتعظيم الحدود والعمل بكل ما في القرآن يكون حجة لك وإذا أنت قرأت القرآن بلفظه ولم تتبعه فيما أمر به ونهى، يكون القرآن حينئذ حجة عليك، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم (إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة ثلاث، رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال فما عملت فيها: قال قاتلت في سبيلك حتى قتلت. قال: كذبت إنما قاتلت ليقال جريء، وقد قيل فأمر به فسحب على وجهه فألقي في نار جهنم، ورجل تعلم العلم، وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه الله نعمه فعرفها، قال فما عملت فيها قال تعلمت فيك العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، إنما تعلمت ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال قارئ، وقد قيل، فأمر به فسحب على وجهه فألقي في نار جهنم، ورجل آتاه الله تعالى من جميع أصناف المال فعرفه نعمه فعرفها، قال فما عملت فيها: قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق لك فيها إلا أنفقت لك فيها، قال: كذبت، إنما أنفقت ليقال جواد ليقال كريم وقد قيل فأمر به فسحب على وجهه فألقي في نار جهنم).

إذا المقصود الأعظم من القرآن الكريم أن نتلو ألفاظه وأن نتبع أحكامه فيا أيها المسلم اقرأ وتدبر وافهم واعمل واتبع، وحينئذ تدخل في عموم هذه الشهادة العظيمة من الله لك بالإيمان ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ

أولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [البقرة: ١٢١]، ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾، يمكن أن يراد بالكلمات الوعد والوعيد، اتل يانبينا ما أوحي إليك من كلام ربك واعمل به واتبعه، فإن الله وعد من تلاه وعمل به واتبعه بالجنة وبالهدى ولا تشغل بالك بالذين أعرضوا عن القرآن الكريم ولم يعملوا به، فإن الله توعدهم بالخزي في الدنيا، و العذاب في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾، فالله سبحانه وتعالى وعد من قرأ واتبع بالجنة، وتوعد من أعرض وأدبر بالنار ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾، أي لا مبدل لوعده ووعيده و﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وإذا أريد بالكلمات القرآن الكريم نفسه فلا مبدل ولا مغير في كتاب الله عز وجل؛ لأن الله تعالى تولى بنفسه حفظ هذا الكتاب فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، فالقرآن محفوظ بفضل الله من التغيير والتبديل، ولذلك بين الحين والحين نسمع عن طبعة للمصحف عثر فيها على أخطاء ولو كان خطأ واحدا في المصحف كله بفضل الله يكشف ويطلع عليه الصغار قبل الكبار؛ لأن الله تعالى قيض لهذا الكتاب حفظة حفظوه في صدورهم فحفظ الله بذلك كتابه من التغيير والتبديل، ولقد كان المشركون إذا تلي عليهم الكتاب يقولون للنبي

– صلى الله عليه وسلم –: ﴿ ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ [يونس:١٥]، فأمره الله أن يقول: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥]، فالنبي – صلى الله عليه وسلم – كان أمينا جدا على وحي الله تبارك وتعالى بلغه كما أوحي إليه بلا زيادة ولا نقصان والدليل على ذلك أن الله تعالى قال: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٤–٤٧]، فلما لم يفعل الله بنبيه شيئا من هذا الوعيد دل على أنه لم يتقول على الله شيئا ولم يغير ولم يبدل فيما أوحاه الله تبارك وتعالى إليه، ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾، الملتحد: الموئل والملجأ والمكان الذي يأوي إليه الإنسان ويهرب فيه، يعني يانبينا: لو تقولت على ربك أو غيرت أو بدلت فيما أوحاه الله إليك لعذبك الله لن تجد من دونه ملتحدا أي ملجأ تلجأ إليه وتنجو فيه من عذاب الله، لكنه عليه الصلاة والسلام لم يتقول ولم يغير ولم يبدل كيف وهو الأمين كما قال: (ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء)، ائتمنه الله تعالى على وحيه والله هو القائل ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فما اختاره إلا وهو يعلم أنه أمين على وحيه.

ولقد كان المشركون يطالبون رسول الله – صلى الله عليه وسلم –

بطرد الفقراء والضعفاء والمساكين من حوله؛ لأن أول من اتبع النبي – صلى الله عليه وسلم – وآمن به هم الفقراء والضعفاء والمساكين وهذه سنة الله في أتباع الرسل، أتباع الرسل دائما هم الضعفاء والفقراء والمساكين، ولذلك لما كتب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى هرقل كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام، قال ائتوني بمن في البلاد من العرب، فكان أبو سفيان في قافلة تجارية في بلاد الروم، فجيء به إلى هرقل وسأله عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عدة أسئلة كان منها: أفقراء الناس يتبعونه أم أغنيائهم؟ قال: بل فقراءهم، قال هرقل: سألتك أفقراء الناس يبتعونه أم أغنياءهم؟ فقلت فقراءهم وهم أتباع الرسل.

فالأكابر من أهل مكة الأغنياء أصحاب الجاه والمال والثراء عرضوا على رسول الله عرض، قالوا له يا محمد: إننا نريد أن نجلس إليك وندنوا منك ونستمع إليك، لكنك يجلس عندك الفقراء والضعفاء والمساكين ولا يليق بنا أن نجلس بينهم ونخالطهم، هم ما خالطونا قبل أن تجيء، فكيف يخالطوننا الآن، فنهى الله تبارك وتعالى رسوله – صلى الله عليه وسلم – عن طاعة هؤلاء فقال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ

وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾، نعوذ بالله من الخذلان ونسأله الهداية والتوفيق هذا والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نستقبل أسئلة المستمعين:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، السؤال:

الحديث الذي ذكر عن ابن عباس رضي الله عنهم(أن عليا رضي الله عنه أتى النبي – صلى الله عليه وسلم – وأخبره أن القرآن تفلت من صدره فعلمه النبي – صلى الله عليه وسلم – كلمات تثبت ما تعلم في صدره) فما مدى صحته والعمل به وجزاك الله خيرا؟

روي حديث ضعيف لا يصح في الاستعانة على حفظ القرآن الكريم، تصلى ركعتين وتقرأ فيهما بالأولى كذا وفي الثانية كذا هذا الحديث ضعيف لا يصح، والعمل به لا يجوز لكننا ننصح إخواننا الذين منَّ الله عليهم بالقرآن الكريم بوصية الرسول نفسه – صلى الله عليه وسلم – (تعاهدوا هذا القرآن) فالنبي – صلى الله عليه وسلم – أخبرنا أن القرآن يتفلت من الصدور، فإذا أراد صاحب القرآن أن يثبت القرآن في صدره فعليه أن يتعاهده بالمراجعة الدائمة، وأنا أنصح دائما الذين منَّ الله عليهم بالقرآن الكريم أن يكون لهم ورد كل يوم لا يقل عن ثلاثة أجزاء في اليوم الواحد، الحافظ ينبغي أن يكون له ورد من القرآن يقرأه كل يوم، لا يقل عن ثلاثة أجزاء في اليوم الواحد، بحيث يختم كل عشرة أيام خاتمة، فيختم في الشهر ثلاث خاتمات فبذلك يثبت القرآن في صدره – إن شاء الله –.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،نرجو منكم إعطائنا طريقة جيدة سهلة لحفظ كتاب الله ومعرفة أحكامه وتدبره، وبماذا توصي به من كتب التفسير للقرآن الكريم وأحكامه؟

نحن نحمد الله سبحانه وتعالى حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، ونرجوه سبحانه وتعالى أن ينفع بهذه الحلقات وبهذه الدروس، السؤال الحمد لله تقريبا بدأنا الآن أربع حلقات تقريبا سئل هذا السؤال لثلاث مرات الحمد لله من إخوة متفرقين من الرجال والنساء، فهذا شيء طيب أن يقع حب حفظ القرآن في قلوب إخواننا وأخواتنا من المسلمين المسلمات، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يستخدمهم وأن يجعلهم من أهل كتابه إنه ولي ذلك والقادر عليه، ونقول دائما ما قلناه: ننصح من أراد حفظ القرآن الكريم بإخلاص النية لله عز وجل، أولا أن يرغب في الحفظ طمعا في الأجر والثواب إيمانا واحتسابا، يقال لقارئ القرآن يوم القيامة: (اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند أخر آية تقرأه).

فهذا فضل عظيم، فحين يشعر المؤمن بذلك أن درجته في الجنة تتحدد يوم القيامة على قدر ما في صدره من القرآن يتنافس في حفظ الكتاب، فإذا رزق النية الصالحة المجردة لله سبحانه وتعالى عليه أن يشحذ الهمة ويقوي العزيمة ويأخذ الكتاب بقوة، يغتنم الأوقات ويستبق الخيرات، ما دام الله قذف في قلبك حب الحفظ فبادر واغتنم

الفرص، فإن الله تبارك وتعالى يعاقب الإنسان إذا عرضت له فرصة من الخير ولم يغتنمها يعاقبه بعدم تمكينـــه منها بعد ذلك، كما قال تعالى ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ [الأنفال:٢٤]، فما دام الله ألقى في قلبك حب حفظ الكتاب؛ فبادر من اليوم، اجعل لنفسك مقررا تحفظه كل يوم خمس آيات، نصف صفحة، صفحة، عشر آيات والزم نفسك بهذا المقرر يوميا واعتبره كالوجبة الغذائية التي لا تستغني عنها أبدا، بحيث إنك لـــو دخلـــت فراشك ليلا لتنام وتذكرت أنك لم تحفظ تترك الفراش وتنزل فتتوضأ وتأخذ في حفظ ذلك المقرر الذي ألزمت به نفسك يوميا؛ فبذلك بهذه الاستمرارية وهذا الدوام تصل إلى النهاية – إن شاء الله – وننصح أن يكون الحفظ أولا من حزب المفصل، يعني من آخر القرآن الكريم حسب ترتيب المصحف، لا تبدأ بحفظ البقرة؛ لأن البقرة طويلة جزءان ونصف وكلها أحكام وهذه السورة غير مسموعة كثيرا ولا مقروءة كثيرا ولم تحفظ من قبـــل فيـــصعب عليك حفظها وتتعثر فيها لكن حزب المفصل أكثرت حفظه وأنت صغير في المدرسة أو في الكُتَّاب وتقرأه كثيرا وتسمعه كثيرا في المساجد في الصلوات فيسهل عليك إذا بدأت بحزب المفصل أن تحفظ – إن شاء الله –.

وأخيرا أقول لو أننا التزمنا بأن نحفظ الآيات التي نشرحها في كل درس – إن شاء الله– لكان ذلك كافيا وليس بعسير ليس بعسير الآيات التي نفسرها كل يوم نفسر خمس آيات ست آيات عشر آيات نلزم أنفسنا بحفظهـــا والله يعيننا وإياكم ويجعلنا وإياكم من أهل القرآن الكريم.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

نصلى وراء إمام يقرأ في سورة الفاتحة يقف عند مالك يوم الدين يقرأ مالك يوم الدين يسكن الكاف ما الحكم؟

أنا ليس عندي علم في القراءات لا أدري هل ﴿مَالِكْ﴾ قراءة ثابتة، تصح القراءة بها أم لا فإذا كانـــت هـــذه القراءة ثابتة فلا مانع وأما إذا لم تكن هناك قراءة صحيحة بهذا اللفظ يجب أن يعلم هذا الإنسان القراءة الصحيحة الثابتة.

سؤال: هناك شخص يحاول أن يحفظ كتاب الله ولكن يخاف من حديث (أول من تسعر بهم النار ثلاثة...إلـــى آخر الحديث)

عافانا الله وإياه والمسلمين، هذه يا إخوان شبهة يلقيها إبليس على الناس ليصدهم عن كتاب الله، يقع في قلبـــك حب الحفظ وتأخذ في البداية فيأتيك الشيطان فيقول: لا ألا تعلم أن القرآن سيكون حجة عليك، أنت لا تستطيع أن تعمل بالقرآن كله، لا تستطيع أن تحفظ القرآن، فإذا حفظت كان حجة عليك لكن لن تستطيع العمل به كلـــه فـــلا تحفظ حتى لا يكون حجة عليك.

يا أخا الإسلام الحجة ليست متوقفة على الحفظ، فالقرآن كله حجة علينا لأنه بلغنا، فوجب علينا جميعا أن نعمل به نحل حلاله ونحرم حرامه ونقف عند حدوده، لا فرق في ذلك بين الحافظ وغير الحافظ، فلا يخدعنك الشيطان ولا يصدنك عن آيات الله وتوكل على الله وابدأ والله يهديك سواء السبيل.

سؤال: بالنسبة للأكاديمية هل هناك اختبارات وهل تمنح الأكاديمية شهادة؟

نعم هناك اختبارات ونهاية الفصل الدراسي تمنح شهادة.

سؤال: يا شيخ جزاكم الله خيرا في الدرس الماضي عندما سئلت عن ترتيب السور هل هو توقيفي؟ فأجبت أنه توقيفي عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يجوز مخالفة الرسم في ترتيب السور، وهذا واضح، ولكن تساؤلي عن الترتيب في القراءة وقلت أنه ثبت عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قام ذات ليلة فقرأ بالبقرة والنساء وآل عمران فقدم النساء على آل عمران، وأنا سمعت شيخا يقول: أن تقديم سورة على سورة في الصلاة مكروه كما هي كراهية تقديم آيات على آيات في سورة واحدة فتقديم الآيات واضحة كراهيته؛ لأنه يخل بالمعنى لكن في السور قال أنه كذلك مكروها، وأعطى مثالا كأن تقرأ في الركعة الأولى سورة الناس وفي الركعة الثانية سورة الإخلاص، وقال: أن في ذلك عكس لترتيب المصحف، وأنت قلت: يا شيخنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قام ذات ليلة أي كان يصلى، فما الصحيح؟ هل أنه مكروه أو لا بأس به نفعنا الله بعلمكم.

آمين، جزاها الله خيرا وزادها الله حرصا.

الصحيح هو الذي قلناه، أنه لا بأس في القراءة بتقديم سورة على أخرى، في الحديث الصحيح الثابت هذا حديث في الصحيحين (أنه قام ذات ليلة فقرأ فافتتح البقرة ثم النساء ثم عاد إلى آل عمران، فهذا يدل على جواز تقديم سورة على أخرى في القراءة إن شاء الله، فلا حرج أن تقرأ في الركعة الأولى بالضحى ثم تقرأ في الثانية بالشمس، ومثل هذا لا حرج فيه – إن شاء الله – تعالى.

هل هناك أحد من الشباب له أي سؤال أو استفسار؟

جزاكم الله خيرا فضيلة الشيخ، هناك بعض الناس يؤمنون بجواز التوسل بالأموات الصالحين، ويستدلون في ذلك بالأدلة من الكتاب والسنة أو بأفعال الأئمة الكبار، مثل قولهم بأن الشافعي صلى في المسجد الذي فيه قبر أبي حنيفة وتوسل به، أو مثل هذه الأشياء القصص التي لا نعلم لها دليل، فما حكم ذلك وإذا كان هذا خطأ، فما الخطأ في المنهج الاستدلالي في التفسير مثل هذه الأدلة لكي نتجنب ذلك.

التوسل لا يجوز إلا بعملك، لا يجوز أن تتوسل إلى الله إلا بعمل تعمله أنت أو بطلب الدعاء من أخيك المسلم فيدعو لك، أما التوسل بالذوات وبالأشخاص في غيبتهم أوفي حضورهم فهذا ليس صحيحا، وهو توسل بدعي، مروي عن عمر رضي الله عنه أنهم لما حبست عنهم السماء فخرجوا يستسقون، قال عمر (اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا يا عباس ادع لنا، فقام العباس ودعا الله سبحانه تعالى فسقاهم الله سبحانه وتعالى، فلو كان التوسل بذات النبي فضلا عن غيره لو كان التوسل بذوات الأشخاص جائزا لما ترك

عمر – رضي الله عنه – التوسل برسول الله – صلى الله عليه وسلم – وتوسل بدعاء العباس، لكن عمر قال كنا نتوسل إليك بنبينا، يعني وهو بين أظهرنا حي، كنا نقول: يا رسول الله أجدبت البلاد ادع الله لنا، فكان الرسول يستسقى فيسقو، والآن قد مات الرسول ولا نستطيع أن نتوسل به؛ لأنه مات، فنحن الآن نتوسل بعمه لا بذاته، أيهم أفضل عند الله النبي أم العباس؟ النبي – صلى الله عليه وسلم – أعظم جاها أفضل جاها في حياته وبعد مماته، فليس وإنا نتوسل إليك بعم نبينا نتوسل بذاته وإنما بدعائه: يا عباس ادع لنا فدعا العباس فسقو بفضل الله عز وجل، فمن التوسل المشروع أن تتوسل إلى الله بصالح عملك، وتتوسل إلى الله بدعاء الصالحين لك، أقول لك يا أخي ادع الله لي لا حرج في ذلك، لكن لا تقول:اللهم إني أتوسل إليك بنبيك – صلى الله عليه وسلم – ولا تقول: اللهم إني أتوسل إليك بالإمام أحمد، ولا بالإمام الشافعي، ولا عبد القادر الجيلاني، ولا بالبدوي؛ لأن هذا توسل بدعي لا يجوز، والله تعالى يقول: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ [النجم:٣٦-٣٩]، فمن سعيك تقول مثلا في التوسل: اللهم إني أتوسل إليك بحبي لنبيك – صلى الله عليه وسلم– اللهم إني أتوسل إليك باتباعي لنبيك – صلى الله عليه وسلم – اللهم إني أتوسل إليك بإحيائي لسنة نبيك – صلى الله عليه وسلم – ومن التوسل المشروع أن تتوسل إلى الله بصالح عمل، تصوم يوما ثم تقول اللهم إني أتوسل إليك بصيام هذا اليوم إن كان خالصا لوجهك وابتغاء مرضاتك أن تقضي حاجتي، تتصدق بصدقة وتقول اللهم إني أتوسل إليك بهذه الصدقة إن كانت خالصة لوجهك وابتغاء مرضاتك أن تقضي حاجتي، كما في حديث الغار المشهور (انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار حتى دخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذا الصخر إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم، فقال: أحدهم اللهم إنه كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق) أي لا أسقي لبن المساء (قبلهما أهلا ولا مالا فنأى بي طلب الشجر يوم) خرجت مع الغنم فابتعدت (فلم أرح عليهما حتى ناما، فرجعت فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهم) يعني ليشربا وأن أسقي قبلهما أهلا أو مالا فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون تحت قدمي) يعني العيال يبكون من الجوع لم يتعشى الصبية الصغار،وهو لا يريد أن يأكلوا قبل أبيه وأمه (فاستيقظا عند طلوع الفجر فقال: تفضلا، فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة شيئا لا يستطيعون الخروج معه، وقال الثاني: اللهم إنه كانت لي ابنة عم وكنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء فراودتها عن نفسها فامتنعت مني حتى ألمت بها سنة) أي حاجة (من السنين، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينارًا على أن تخلي بيني وبين نفسه) فتحت إلحاح الحاجة رضخت واستسلمت، (فلما قعدت بين رجليها قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقمت عنها وهي أحب النساء إلى وتركت الذهب الذي أعطيتها اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج، فقال الثالث: اللهم إني كنت استأجرت أجراء فأعطيت كل أجير أجره غير رجل واحد ترك الذي له وذهب فنميت له أجره حتى كان منه واد من الإبل وواد من البقر وواد من العبيد، فجاءني فقال يا فلان أعطني أجري، فقلت كل ما ترى من أجرك، قال يا فلان لا تستهزئ بي) أنا عملت عندك يوما لي عندك عشرة ريالات عشرين ريالا أعطنيها ولا تتهكم بي (فقلت إني لا أستهزئ بك كل ما ترى من أجرك فاستاقه كله فذهب به ولم يترك منه شيئا، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون) وهكذا يكون التوسل الشرعي، أما التوسل بالذوات وبالأشخاص وبجاه فلان ولو كان نبيا من الأنبياء فهذا توسل بدعي لم يعرفه إلا المتأخرون والله تعالى أعلم.

السلام عليكم ورحمة الله ، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. سؤال: أقول حديث وأقول التحريف في الحديث بما أني لا أحفظه فأخاف في هذه الحالة أن أكون حرفت الحديث مع أني أعرف الحديث إلا أنني لا أحفظه؟

قال الحافظ بن حجر – رحمه الله – في نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر (ولا تجوز الرواية بالمعنى إلا لعالم بما يحيل المعاني) يعني إنسان فصيح بليغ عنده لغة، يعرف أنه إذا استبدل لفظة بلفظة سيؤدي الغرض

ويحقق المعنى فمن لم يكن كذلك لا تجوز له رواية المعنى مخافة أن يغير لفظة بلفظة فيغير المعنى كله؛ ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم- يدعو لمن حفظ ما سمع وبلغه كما سمعه يقول: (نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فبلغها كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع).

حتى فضيلة الشيخ لو لم تكن له قدرة على حفظ الأحاديث؟

ولو لم تكن له قدرة على حفظ الأحاديث،

الحمد لله الله تعالى يسر لنا حفظ القرآن وحفظ السنة؛ لأن السنة هي المبينة للقرآن الكريم، والله تعالى قال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ [القمر:١٧]، تكررت هذه الآية في سورة القمر مرات، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾، قال بعض السلف (فهل من طالب علم فيعان عليه)، فالعلم الحمد له ميسر حفظ القرآن ميسور وحفظ الأحاديث كذلك ميسور بإذن الله عز وجل.

سؤال: ذكرت فضيلة الشيخ مسألة النهي عن اتخاذ القبور مساجد فبماذا نرد على الذين يقولون: إن زيارة قبور الصالحين لمجرد التبرك بهم بدون إخراجهم بنسك أو توسل محبب أمر جائز؟

قال النبي – صلى الله عليه وسلم – (كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تذكركم الآخرة) فهذه هي الحكمة المشروعة من زياة القبور والمراد من القبور هنا القبور العامة مدفن المسلمين، مقابر المسلمين العامة مقبرة البلد كلها، وليس هناك خصوص في مقابر الصالحين ولكن زوروا القبور فإنها تذكر الآخرة ومن الخطأ أن يفرد من يظن في صلاح بقبر بعيد عن مقابر المسلمين، فهذه المقابر البعيدة غالبا ما يبنى عليها ويقام لها الموالد وتوقد عليها السرج، ويفعل عندها ما يشرك بالله عز وجل، فهذه المقابر التي تكون على هذه الحالة لا يجوز للمسلم أن يقصدها حتى للزيارة؛ لأنه سيكون مكثرا لسواد أهل البدع والضلالة والعياذ بالله.

سؤال: السلام عليكم ورحمة الله. إذا قرأنا كتاب الله ومررنا على أحد الآيات وفيها أمر يجب اتباعه، ولكني لم أطبقه لنسياني هذه الآية ولكن لو ذكرت بها سوف أتراجع عن الذنب، فهل هذا يكون حجة علي؟

الحمد لله جزاها الله خيرا وزادها حرصا، لا يمنع المسلم العمل بالحق إلا الجهل به، فإذا علم المسلم أن هذا حق وهو خير يحبه الله عمل به فلا شيء عليها إن شاء الله تعالى.

سؤال: السلام عليكم ورحمة الله ، هل نقوم بالحفظ من كتاب مختصر تفسير ابن كثير أم نحفظ من شرحكم؛ لأن المحاضرات الأخيرة ليست مفرغة كتابة، فهل نحفظ من مختصر ابن كثير؟

من أراد أن يقتصر فليقتصر على مختصر بن كثير لشيخنا الرفاعي ومن أراد أن يزداد فليحاول أن يسجل هذا المحاضرات ويفرغها بيده كتابة عنده ينفعه الله بما فيها من الزيادة على ابن كثير إن شاء الله تعالى.

سؤال: ذكرت لإخواني أن قوله تعالى: ﴿ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعً﴾، تعني ثلاثمائة سنة شمسية تساوي ثلاثمائة وتسع سنين قمرية والإخوة طلبوا مني إسناد وليس لي إسناد جزاكم الله خيرا.

جزاه الله خيرا، راجع كتب التفاسير ستجد هذا المعنى إن شاء الله، أما العلماء قالوا: أن الثلاثمائة هي مراد بها السنين الشمسية، وازدادوا تسعا هي زيادة السنيين الشمسية عن القمرية؛ لأن السنة الشمسية تزيد عن السنين القمرية أحد عشر يوما.

سؤال: ما العبرة في موت الكلب مع أصحاب الكهف جزاكم الله خيرا؟

الله تعالى أعلم.

سؤال: ما الحكم فيما لو جرى على اللسان قول – الله يعين إن شاء الله – وأن ننكر على من سمعناه يقول هذا، وكانت هذه عادته؟

لا والحمد لله أحيانا المسلم حين يتعود كلمة – إن شاء الله – فتجري على لسانه أحيانا في موضع ليس مناسبا أن يعلق على المشيئة، لكن لا حرج في ذلك إن شاء الله.

سؤال: كيف نميز بين العلماء الربانيين وغيرهم؟

الله تبارك وتعالى بفضله وكرمه رفع لأهل السنة ذكرهم فلا يخفون على الناس، (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين حتى يأتي وهم كذلك)، الحمد لله، الله تعالى رفع لأهل السنة ذكرهم في كل مكان وإن قلوا لكنهم معروفون فلا يلتبس أهل السنة بأهل البدعة، فالناس الحمد لله تميز السنية من المبتدع، فليس في ذلك خفاء إن شاء الله تعالى، وإذا كان الإنسان لا يعرف عالما يسأله يسأل إخوانه، يقول: يا أخي فلان عندي مسألة أريد أن أسأل فيها من أسأل جزاك الله خير، إخوانه يدلونه على العلماء الربانيين، أهل السنة ومرجع الفتيا بإذن الله عز وجل.

سؤال: في قول الله عز وجل ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾، ما سبب نزول هذه الآية الكريمة على الرسول – صلى الله عليه وسلم– وهل لها علاقة بأهل الكهف؟

كل ما تقرءون في كتب التفاسير من أسباب نزول سورة أو آية أسكت عنه أنا فغالبا سكوتي لا يكون إلا لضعف ذلك الذي نزل في سبب النزول، وقد ورد في سبب نزول هذه الآية أنهم لما سئلوا النبي – صلى الله عليه وسلم – سؤال عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، النبي قال لهم: سآتيكم بالجواب غدا، ولم يقل إن شاء الله وكان يطمع أن ينزل عليه الوحي، فتأخر عليه الوحي ولم يجبهم كما وعدهم، فلما نزلت السورة بالجواب قال الله تعالى لرسوله – عليه الصلاة والسلام – و﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾، ولكن هذا لا يصح.

سؤال: ذكرت فضيلة الشيخ مسألة النهي عن اتخاذ القبور مساجد فبماذا نرد على الذين يقولون إن زيارة قبور الصالحين لمجرد التبرك بهم بدون إخراجهم بنسك أو توسل محبب أمر جائز؟

العلوم تحيا بالمدارسة والمذاكرة، العلم يحيا في القلب ويحيا فيه بالمدارسة والمذاكرة، سمعت هذه المحاضرة اليوم، حاول أن تسمعها غدا وبعد غد، وفرغها واكتبها وعاود النظر فيها بين الحين والحين، فبذلك يثبت العلم من التفسير وغيره، في صدرك إن شاء الله تعالى.

سؤال: هل التنازع الذي حدث في عدد أصحاب الكهف كان بين من عاصروا الحدث أم بعد ذلك؟ لأنني فهمت منكم أنه حدث فيمن تبع الفتى المؤمن، فكيف لم يستطيعوا معرفة العدد وهم يستطيعون الدخول إلى الكهف عليهم؟

حفظ الله تعالى أهل الكهف في نومهم فلم يدخل عليهم أحد وهم نيام وحفظهم بعد موتهم فلم يدخل عليهم أحد بعد موتهم، فلذلك لم يستطيعوا أن يعرفوا عددهم.

سؤال: أود أن أعرف أيهم أصح في الكتابة؟ إنشاء الله أو إن شاء الله.

أصحهما ما هو في المصحف فانظري المصحف وكيف كتبت هذه اللفظة، فيكون هذا هو أصح أوضاع الكتابة إن شاء الله تعالى.

السؤال الثاني: أن يخبرنا الشيخ عن صحة هذه الرواية، من فوائد سورة الكهف يحكى أن أحد العلماء كان يحث ابنه ويوصيه على قراءة القرآن منذ أن كان صغيرا وكان يعلمه حفظ القرآن وطريقة تجويده، وفي يوم من الأيام دعا العالم ابنه وقال له سأخبرك بسر من أسرار سورة الكهف، إنها آيات إذا قرأتها قبل نومك فإنها توقظك عند أذان الفجر، شرط أن تغمض عينيك وتقرأ هذه الآيات وبعد ذلك تنام، استغرب الابن قول أبيه مع أنه لا غريب في القرآن، قرر الولد تجربة وصية أبيه، وعندما حل الظلام وحان وقت النوم قرأ الولد تلك الآيات وبالفعل استيقظ عند أذان الفجر، فما كان من الابن إلا أن شكر والده وشكر ربه على هذه النعمة وهذه الآيات هي: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾.

هكذا سمعنا هذه الرواية، ولم نقرأها في كتب ولكن سمعناها، وهي لا أصل لها ولا تصح والتعبد بالقرآن الكريم لا يكون إلا بتوقيف من الرسول – صلى الله عليه وسلم – والأدعية والأذكار والسور والآيات التي كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يقرأها ورغب في قرأتها عند النوم صحيحة ثابتة معلومة، ولم نقرأ في صحيح السنة أن النبي – صلى الله عليه وسلم – رغب في قراءة خواتيم سورة الكهف عند النوم.

سؤال: هل يفيد أن أقول إن شاء الله بعد فترة من الحلف؟

بعد فترة قصيرة لو قلت والله لأفعلن كذا، وسكت برهة من الزمان ثم تداركت فقلت – إن شاء الله – فهنا الكلام متصل، أما بعد ربع ساعة ونصف ساعة لا يكون هناك اتصال ففيه انقطاع فلا يلحق الاستثناء اليمين أو الكلام.

سؤال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، هل قول عسى في اللفظ القرآني يفيد التحقيق؟

هي – إن شاء الله تعالى– من الله موجبة كما يقول المفسرون، ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾[التوبة:١٨].

عسى في اللغة للترجي، لكن المفسرين قالوا: هي من الله إن شاء الله موجبة ولكن الله أتى بها حتى يقطع الإنسان نظره عن عمله ولا يتكأ عليه يعني مع عملك الصالح عسى أن تكون من المفلحين وعسى أن تكون من المهتدين، حتى يكون الطمع في رحمة الله لا اتكالا على العلم؛ لأن النبي– صلى الله عليه وسلم – قال (لن يدخل أحدكم عمله الجنة، قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل).

سؤال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،هل العملة الورقية التي معهم هي التي بينت وقت مكثهم أم هناك رواية من الحديث الشريف؟

لا ليست هناك رواية ما السبب في أنهم اطلعوا عليه وأمسكوه، لكن اختلاف العملة جعل الرجل يشك، لأن الرجل كل يوم يتعامل مع الناس، فوجد عملة تختلف عن عملة كل الناس، ولو كانت العملة هي العملة لا اختلاف فيها ما اطلع عليهم، ولكن الله قدر ذلك؛ ليطلعهم عليهم كما قال عز وجل ﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي أطلعنا الناس عليهم، للحكمة التي بيناها، ﴿ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَ﴾.

سؤال: هل ذكر المشيئة دائما يعتبر من عدم التوكل أم من التوكل التام؟

لا نحن نتوكل على الله ونقول -إن شاء الله- ونحن على يقين أن كل شيء يجري بتقدير الله ومشيئته لا بمشيئتنا نحن فقد قال بعضهم:

فما شئت كان وإن لم أشأ   وما شئت إن لم تشأ لم يكن

فكل شيء يجري بتقيد الله تعالى ومشيئته ومشيئة الإنسان مرتبطة بمشيئة الله، ليس كل ما تشاءه يكون، لا يكون ذلك إلا لله عز وجل كل ما شاءه الله كان.

سؤال: بالنسبة لكلمة بإذن الله وإذا أراد الله، هل تنطبق عليه البركة التي ذكرتها في كلمة إن شاء الله؟

هي بمعنى إن شاء الله بإذن الله إن أراد الله هي بمعنى إن شاء الله.

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد – صلى الله عليه وآله وسلم – وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار .

ثم مرحباً بكم في هذا اللقاء الجديد من دروس تفسير سورة الكهف، والآيات المباركات التـــي معنـــا اليـــوم تضمنت من المعاني ما يلي:

أولاً: الأمر بصحبة الصالحين ولو كانوا فقراء.

ثانياً: ما على الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلا البلاغ .

ثالثاً: جزاء الكافرين والمؤمنين في الآخرة.

رابعاً: مثل الغني الكافر والفقير الشاكر.

خامساً: كثرة الأموال والأولاد لا تدل على رضا الله – عزّ وجلّ – .

سادساً: إبطال اعتقاد الكافرين أن لهم في الآخرة مثل ما لهم في الدنيا .

سابعاً: استحباب قول ما شاء الله لا قوة إلا بالله عند رؤية النعمة .

وأخيراً: جواز الدعاء على الظالم نفسه بزوال نعمة الله تعالى عنه .

و هذا بإيجاز عرض سريع لأهم ما تضمنته الآيات المباركات الآن من سورة الكهف من المعـــاني، والتـــي نعيش في رحابها ساعتنا هذه إن شاء الله تعالى .

فلنستمع إلى هذه الآيات المباركات أولاً قبل الخوض في تفاصيلها سائلين الله – عزّ وجلّ – أن ينجز لنا مـــا وعدنا، حيث قال ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[الأعراف:٢٠٤].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ

لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾[الكهف : ٢٨-٤٤].

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[ص:٢٩].

﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر:٢١].

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر:٢٣].

إخوة الإسلام للناس قيم وموازين يقيمون بها بعضهم بعضا ويزنون بها بعضهم بعضا، مرد هذه القيم والموازين إلى كثرة المال والولد وعظمة الجاه والسلطان، فمن كان كثير المال كثير الولد، عزيز الجانب، عظيم الجاه والسلطان كان عند الناس ذا مكانة ومنزلة عالية، ومن قل ماله وولده، ولم يكن له نصيب من الجاه والسلطان كان عند الناس وضيعاً لا يأبه له ولا يسمع لقوله .

وهذه القيم والموازين خاطئة و باطلة ومردودة جاء الإسلام ليصححها، ويضع مكانها القيم والموازين الصحيحة الثابتة المعتبرة .

قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[الحجرات:١٣].

وظل – النبي صلى الله عليه وسلم – يعمل جاهداً لإبطال هذه القيم والموازين الباطلة الخاطئة وترسيخ القيم والموازين الصحيحة الثابتة.

بينما – صلى الله عليه وسلم – جالس وعنده رجل إذ مر بهما رجل، فقال – النبي صلى الله عليه وسلم – لجليسه (ما تقول في هذا ؟ قال يا رسول : هذا رجل من أغنياء الناس، هذا والله حري إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يشفع، وإن قال أن يسمع لقوله، فسكت – النبي صلى الله عليه وسلم – حتى مر بهما رجل آخر فقال لجليسه ما تقول في هذا ؟ قال يا رسول الله : هذا رجل من فقراء الناس هذا والله إن خطب حري ألا ينكح وإن شفع ألا يشفع وإن قال ألا يسمع لقوله، فأشار – صلى الله عليه وسلم – إلى الرجل الثاني الفقير، وقال: هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا).

هذا الفقير خير عند الله – عز وجل – من ملء الأرض من مثل هذا الغني، لماذا؟ لأن الله تعـالى لا يـزن الناس بميزان الأموال والجاه والسلطان، وإنما يزنهم بميزان التقوى ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ .

ومن عادة ذوي الجاه والسلطان والثراء والغنى أنهم يأنفون من مجالسة الفقـراء ويـأنفون مـن مخـالطتهم ومصاحبتهم، ولذلك جاء الملأ من قريش إلى – النبي صلى الله عليه وسلم – فقالوا يا محمد اطرد عنك هـؤلاء الفقراء ونحن نجلس إليك فنحن أغنى وأكثر أموالاً وأولاداً منهم، هم لا ينفعونك إذا جالسوك، ولكننا ننفعـك إذا جالسناك، فاطرد عنك هؤلاء الفقراء ونحن خير لك منهم نجالسك ونستمع إليك، فنهاه الله – تبارك وتعالى – عن ذلك فقال ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَـةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴿٢٨﴾﴾[الكهف:٢٨].

فأمر الله تعالى رسوله – صلى الله عليه وسلم – أن يصبر نفسه مع الفقراء .

والصبر في اللغة الحبس، ترى رجلاً مبتلى، يتكلم بكلام السخط، والفزع والشكاية فتنهاه عـن ذلـك فتقـول اصبر، اصبر أي احبس هذه الشكاية، واحبس هذا الضجر والفزع ولا تتعرض، ولا تعترض على قـضاء الله – تبارك وتعالى – فالصبر في اللغة معناه الحبس .

فأمر الله تعالى رسوله – صلى الله عليه وسلم – أن يحبس نفسه مع هؤلاء الفقراء والمساكين﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ إن هؤلاء الفقراء المساكين يدعون الله – تبارك وتعالى – ويذكرونـه ويسبحون بحمده بكرة وأصيلا، بالغداة والعشي، وهم مخلصون لله – تبارك وتعالى – في ذلك وفى مخالطتـك ومعاشرتك ومجالستك لا يقصدون بمخالطتك ومعاشرتك أي غرض دنيوي وإنما يريدون فقط وجه الله – تبارك وتعالى – فاصبر نفسك معهم ﴿ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ لا تلتفت بعينـك إلـى مـا فيـه الأغنياء من الجاه والسلطان وكثرة المال والولد فهذا كله من زينة الحياة الدنيا .

وقد أخبرناك فيما سبق في أول السورة ما نحن صانعون بزينة الحياة ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَـا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾[الكهف:٧–٨].

فما هم فيه من المال والولد والجاه والسلطان إلى فناء وإلى زوال فلا تعدو عينـاك عـن هـؤلاء الفقـراء والمساكين إلى الأغنياء تريد زينة الحياة الدنيا .

وقال تعالى ﴿ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمّىً ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُـونَ وَسَـبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴿١٣٠﴾ وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَـكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾[طـه:١٢٩–١٣٢].

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَـاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾.

لا تطع هؤلاء الأغنياء الذين دعوك إلى طرد الفقراء والمساكين من مجلسك لتستبدل بهم أي بالفقراء هـؤلاء الأغنياء والأثرياء لا تطعهم فيما دعوك إليه فهل الله – تبارك وتعالى – هو الذي أغفل قلوب الأغنياء الكفـار عن ذكره؟ نعم.

فلماذا يعاقبهم وهو الذي أغفل قلوبهم عن ذكره ؟ ﴿ وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ إن الله – تبارك وتعالى – أمرهم بذكره وأمرهم بالتسبيح بحمده آناء الليل وأطراف النهار ولكنهم كما وصفهم الله – تبارك وتعالى – ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾[الحشر:١٩] ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾[التوبة: ٦٧] ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[الصف: ٥].

فالله – تبارك وتعالى – أمر بذكره وأمر بالتسبيح بحمده، ولكن هؤلاء الأغنياء الأثرياء أعرضوا عن ذكر الله وعطلوا حواسهم عن استخدامها فيما خلقت له من طاعة الله – تبارك وتعالى – فعاقبهم الله تعالى فأغفل قلوبهم عن ذكره فلا يستطيعون ذكره ولا يتمكنون منه أبداً.

﴿ وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ واتباع الهوى يفضي بالإنسان إلى الهلاك والخسران والضياع، ولذلك قال ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾ أي ضياعاً وهلاكاً وخساراً والهوى عدو من أعدى أعداء الإنسان كما قال الشاعر الحكيم :

إني بليت بأربع ما سلطوا إلا لشدة شقوتي وعنائي

إبليس والدنيا ونفسي والهوى كيف الخلاص وكلهم أعدائي؟

فهوى النفس من أعدى أعداء الإنسان، ولن ينجح الإنسان، ولن يفوز، ولن يسعد في الدنيا والآخرة إلا بمخالفة هواه كما قال تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾﴾[النازعات:٣٧-٤١].

فليحذر الإنسان أن يكون متبعاً لهواه من حيث لا يشعر ولا يدري، وعليه أن يزن نفسه بين الحين والحين بميزان الكتاب والسنة، فإن رأى نفسه متبعاً للكتاب والسنة فهو على الهدى، وإن رأى منه مخالفة للكتاب والسنة فهو متبع هواه ولابد؛ لأنه إما أن يكون متبعاً للهدى، وإما أن يكون متبعاً للهوى كما قال تعالى لرسوله – صلى الله عليه وسلم – ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾[القصص:٥٠] .

﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[الكهف:٢٨-٢٩].

يا رسولنا ما عليك إلا البلاغ فلا تهتم بمن أعرض عنك، ولا تعرض عمن أقبل عليك، ولكن من أقبل عليك فأقبل عليه، ومن اهتم بك فاهتم به، ومن أعرض عنك فاعرض عنه، وما عليك إلا أن تصدع بالحق الذي أوحاه الله إليك، وأن تقول: الحق من ربكم.

والحق إما أن يكون فاعلاً لفعل محذوف تقديره: قد جاءكم الحق من ربكم، وإما أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف تقديره: هذا الذي أتلوه عليكم هو الحق من ربكم ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ هذا الذي أتلوه عليكم وهذا الذي جئتكم به هو الحق من عند الله – سبحانه وتعالى – فمن شاء فليؤمن بعد سماع الحق، وبعد سماع القرآن، وبعد بلوغ الحجة، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، فلا إكراه في الدين لماذا ؟ لأنه قد تبين الرشد من الغي، لا إكراه في الدين ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[يونس: ٩٩] فلا إكراه في الدين ولكن حرية واختيار مطلق، من أراد أن يختار الإيمان لنفسه فليختاره، ومن أراد أن يختار الكفر فليختاره، ولكن هذا القول وهذا الأمر خرج مخرج الترغيب والترهيب، خرج مخرج الترغيب والتخويف والتهديد، من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، يعني فإنا مجازون المؤمن بإيمانه خيرا، ومجازون الكافر بكفره شرا، كما قال تعالى ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[فصلت: ٤٠] .

من شاء أن يفعل الخير فليفعله ومن شاء أن يفعل الشر فليفعله، فمرد الجميع إلى الله – تبارك وتعالى – يوم القيامة لتجزى كل نفس كسبت، وتوفى كل نفس ما عملت .

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ ثم مرد الجميع إلى الله يوم القيامة؛ ليجزي الكافرين بكفرهم، ويجزي المؤمنين بإيمانهم .

فبدأ – سبحانه وتعالى – بذكر جزاء الكافرين فقال ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً ﴾[الكهف: ٢٩].

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا ﴾ أعتدنا فعل ماضٍ، فالنار أعدت وخلقت ووجدت فهي الآن موجودة، كما أن الجنة الآن موجودة، ولذلك قال الإمام الطحاوي –رحمه الله:– في شرح عقيدته عقيدة أهل السنة والجماعة، التي نسبت إليه العقيدة الطحاوية قال : والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبداً ولا تبيدان .

فالجنة خلقت وهي موجودة الآن، والنار خلقت وهي موجودة الآن، تنتظر كل منهما أهلها يوم القيامة، يوم الآزفة يوم يخرجون من الأجداث سراعاً فداخل الجنة وداخل النار .

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً ﴾ المراد بالظالمين هنا الكافرون، المشركون، فإن الله – تبارك وتعالى – قال ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[البقرة: ٢٥٤] وقال تعالى ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[لقمان: ١٣].

فقوله تعالى ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ ﴾ المراد بالظالمين هنا الكافرون، المشركون .

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ أحاطت النار بأهلها من جميع الجهات: من فوقهم، ومن تحتهم، ومن بين أيديهم، ومن خلفهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم، نسأل الله العافية .

كما قال تعالى ﴿ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾[الزمر:١٦] وقال تعالى ﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾[الأعراف:٤١] .

وقال تعالى ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ ﴾[الانبياء:٣٩] فالنار تحيط بأهلها من الجهات الست، من فوقهم، ومن تحتهم، ومن بين أيديهم، ومن خلفهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم، وهذا معنى قوله تعالى ﴿ اصْلَوْهَا ﴾ يعني ادخلوها دخولاً فتحيط بكم من الجهات كلها، وتغمركم من جميع جهاتكم.

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا ﴾ يطلبوا الغوث والإغاثة مما هم فيه من هذا العذاب، وإن يستغيثوا ويستصرخوا ويطلبوا من يخلصهم من العذاب أو يصرفهم عنهم ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا ﴾ ولكن بما يغاثون ؟

﴿ يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ نسأل السلامة والعافية، بماء كالمهل، والمهل: هو الزيت في وقت غليانه، الزيت في القدر يغلي فيرتفع أسفله إلى أعلاه وينزل أعلاه أسفله دواليك، كالمهل يغلي في البطون ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ ﴾ إذا أدناه من وجهه أسقط لحم وجهه ببخاره والعياذ بالله ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ فإذا دنا هذا الماء من وجه الكافر الظالم وهو في النار أسقط لحم وجهه فماذا يفعل إذاً إذا شربه؟! إذا كان إذا أدناه من وجهه أسقط لحم وجهه، فماذا يصنع إذا دخل بطنه؟! قال تعالى ﴿

وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾[محمد: ١٥] ﴿ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴾[الحج:١٩-٢٠] عافانا الله والمسلمين .

﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا ﴾ ولكن بم يغاثوا ؟ ﴿ يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ شراب القوم في جهنم ﴿ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ قال ابن عباس ساءت منزلا .

فهذا المنزل منزل الكافرين في النار بئس المنزل، شر المنازل على الإطلاق النار وساءت مرتفقا.

ثم ذكر الله – تبارك وتعالى – جزاء المؤمنين فقال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ وجملة أحسن عملا، قد مضت معنا في أول السورة ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾[الكهف:٧] فالآن الله – تبارك وتعالى – يبين لنا جزاء من أحسن عملا فيقول ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ إذاً إحسان العمل لا يكون إلا بالإيمان التام في القلوب، والعمل الصالح على الجوارح، إن الذين آمنوا يعني بقلوبهم الإيمان التام المستلزم لصالح العمل بجوارحهم.

فإن الإيمان إذا كمل في القلب وتم؛ استلزم صالح العمل كما قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[ابراهيم:٢٤-٢٥] فهذا مثل الكلمة الطيبة كلمة التقوى كلمة التوحيد، حين تستقر في القلب وتضرب جذورها في أرضه، ترتفع أغصانها بثمارها إلى سماء القلب، وتمتد الثمار على الجوارح الظاهرة أعمالاً صالحة تصعد إلى السماء كل صباح ومساء.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ روي أن المسيح عيسى بن مريم – عليه السلام – قال لبني إسرائيل: من عمل منكم عملاً صالحاً فليلهو عنه فإن الله لا يضيعه، ومن عمل منكم عملاً سيئا فليعده، وهذا الكلام روي مثله عن عبد الله ابن مسعود – رضي الله عنه – وقد بلغه أن رجالاً اجتمعوا في المسجد حلقة وبين يدي أحدهم مجموعة من الحصى، فهو يقول للحاضرين معه سبحوا مائة، فيقولون: سبحان الله، سبحانه الله، وهو يعد بالحصى فإذا أتموا مائة تسبيحة قال كبروا مائة، فيقولون: الله أكبر، الله أكبر، وهو يعد بالحصى وهكذا، فلما بلغ ذلك ابن مسعود – رضي الله عنه – قال لمن بلغه إذا رأيتهم فأعلمني إذا رأيتهم اجتمعوا مرة ثانية على هذه الطريقة المبتدعة من الذكر فأعلمني، فلما اجتمعوا ناداه فقام عليهم وقال: أنتم أهدى من محمد وصحبه، أو مفتتحوا باب ضلالة، أنتم تعملون عملاً لم يعمله محمد وأصحابه، فإما أن تكونوا أهدى من محمد وصحبه، وهذا لا تزعمونه، وإلا كنتم مفتتحي باب ضلالة، فقالوا يا أبا عبد الرحمن والله ما أردنا إلا الخير قال: كم من مريد للخير لم يبلغه، ثم قال: القول الموافق لقول المسيح – عليه السلام – يا معشر الناس عدوا سيئاتكم وأنا ضامن ألا يضيع الله من حسناتكم شيئا .

لماذا؟ لأن الله تعالى قال ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ﴾[النساء:٤٠] وقال ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾[الانبياء:٤٧] .

وهنا يقول تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ إذاً إذا عملت عملاً صالحاً فالهو عنه، يعني لا تلفت إليه ولا تعده ولا تهتم به لماذا؟ لأنك لو عددت حسناتك لو أحصيت صالح عملك سيحملك ذلك على أن تستكثر ما قدمت لله – تبارك وتعالى – والله تعالى قد نهى عن ذلك فقال ﴿ وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾[المدثر:٦] .

إذاً اجتهد في صالح العمل ولا تعده؛ لأن الله تعالى أحصاه وعده وحفظه ولم يضيعه أبداً، أما إذا عملت عملاً سيئاً فعده واحفظه ودائماً ذكر نفسك به لا تنسَ سيئاتك أبداً، انسَ حسناتك، فإن الله تعالى لن ينساها ولن يضيعها، لكن سيئاتك اذكرها وتذكرها دائماً وذكر نفسك بها حتى تراها كالجبل تخاف أن يقع عليك فيحملك ذلك على ترك السيئات، والابتعاد عن الخطايا والذنوب .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ وما هو أجرهم يا رب الذي وعدتهم به ؟ ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ يعني جنات إقامة وخلود وبقاء لا يبغون عنها حولا وما هم منها بمخرجين ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾ أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ يحلون يعني أهل الجنة، والجنة يدخلها الرجال والنساء، فهل الرجال في الجنة داخلون في هذا الوعد يحلون فيها من أساور من ذهب ؟ نعم، ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ إن الله – تبارك وتعالى – حرم علينا نحن الرجال في الدنيا حرم علينا التحلي بالذهب والحرير، فلبس الحرير الخالص الطبيعي حرام على الرجال، ولبس الذهب حرام على الرجال، فمن استجاب وترك لبس الحرير والذهب في الدنيا لبسهما في الآخرة؛ لأن من ترك شيئا لله عوضه الله خيراً منه، ومن لبس الذهب والحرير في الدنيا لم يلبسهما في الآخرة وإن دخل الجنة.

كما أن من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة وإن دخل الجنة.

فأهل الجنة جميعاً يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق .

والنبى – صلى الله عليه وسلم – يقول (تبلغ الحلية من المؤمن مبلغ الوضوء) ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾[المائدة: ٦] فهذا مبلغ الوضوء، فمبلغ الوضوء هذا تلبس فيه الحلي من الذهب في الجنة إن شاء الله تعالى، وتلبس الثياب من سندس وإستبرق متكئين فيها على الآرائك، والاتكاء جلسة خلو البال وصفاء المزاج، إنسان صفا مزاجه وخلا باله وذهبت همومه وغمومه فجلس على الأريكة متكئا، فالاتكاء على الأرائك جلسة خلو البال وصفاء المزاج .

وأهل الجنة ليس عندهم في الجنة ما يعكر صفوهم ولا يشغل بالهم .

ولذلك حكى الله – تبارك وتعالى – عنهم أنهم لما دخلوا الجنة قالوا ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾[فاطر:٣٤-٣٥] .

﴿ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ في مقابل النار ﴿ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ وهذه الجنة ونعيمها وحسنت مرتفقا .

نعم المنزل الجنة، وبئس المنزل النار، اللهم إنا نسألك رضاك والجنة، ونعوذ بك من سخطك والنار .

ثم قال الله تعالى لرسوله – صلى الله عليه وسلم – ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا ﴾ اضرب لهؤلاء الأغنياء الذين دعوك إلى طرد الفقراء من مجلسك ليجلسوا هم إليك، اضرب لهم مثلا ليعرفوا أن القيم والموازين التي يقيمون بها ويزنون لا وزن لها عند الله – تبارك وتعالى – واضرب لهم مثلاً رجلين أحدهما: غني كافر، والثاني: فقير شاكر، ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ اسمع وتصور وتخيل جمال الجنة ﴿ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ .

إذاً أنت الآن أمام جنة والجنة هي البستان العظيم، أمام بستان عظيم، بستان مليء بشجر عنب داخله العنب وسوره الذي يحيط به من نخيل، وبين العنب زرع مختلف الأشكال والألوان .

إذاً أنت الآن أمام بستان عظيم محاط بسور كبير من النخل وداخل البستان العنب وبين العنب زرع مختلف الأشكال والألوان، والله – سبحانه وتعالى – فجر لذلك الرجل في جنته نهرا، فجره الله تعالى له في الجنة، فهذا النهر شق الجنة إلى جنتين عن اليمين وعن الشمال فهي جنة واحدة ولكن في وسطها نهر شقها جنتين، ولذلك قال ﴿ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ ﴾ ثم قال بعد ذلك ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ ﴾ فهي جنة واحدة ولكن النهر في وسطها شقها نصفين فكانتا كالجنتين ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾

كل من الجنتين آتت وأعطت ثمارها كاملة غير منقوصة؛ لأن الله أذن لها في ذلك، الله تعالى أذن لهذه الأرض أرض الجنتين أن تؤتي ثمارها ولا تمسك شيئا، فآتت أكلها وأطاعت ربها ولم تظلم منه شيئا.

فسبحان الله انظر كيف أطاعت الجنة الجماد التي لا عقل لها كيف أطاعت أمر ربها وكيف عصى الإنسان العاقل ربه وجحد فضله، ودخل جنته وهو ظالم لنفسه .

﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ من النخل والعنب والزرع على اختلاف أشكاله وألوانه .

هذا الغنى وهذا الثراء وهذه السعة حملت هذا الإنسان على الكفر والأشر والبطر، والله تعالى يقول ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ﴾ متى ؟ ﴿ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾[العلق:٦-٧] ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ﴿٦﴾ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾[العلق:٦-٧].

فالرجل نظر إلى ماله وكثرته وكثرة ثماره؛ فطغى وتكبر وتعالى على صاحبه المؤمن الفقير، ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿ ٣٤﴾﴾ مالي أكثر من مالك، وأولادي أكثر من أولادك، فأنا أعلى منك جاهاً وسلطاناً، وأرفع منك قدراً وأعلى منك شأناً ومنزلة ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿ ٣٤﴾﴾ ودخل جنته حالة كونه ظالماً لنفسه ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ فنظر فيها وما فيها من الثمار والزروع المختلفة الأشكال والألوان فنظر فيها نظرة الطويل الأمل الذي لا يخطر الموت على باله أبداً.

قال: وهو ينظر في جنتيه عن اليمين والشمال ﴿ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾ هل يعقل أن تزول هذه الجنة ؟ هل يعقل أن تبيد هذه الجنة؟ هل يعق أن يأتي يوم علي أفقد فيه هذه الجنة وهذا البستان ما أظن، ﴿ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ الساعة القيامة التي يحدثني عنها صاحبي ويزعم أن بعد هذه الحياة حياة أخرى نحيا فيها بعد مماتنا ونجزى فيها بأعمالنا، أنا ما أظن أن كلام صاحبي حقاً وما أظن الساعة قائمة، ولئن رددت لو سلمت فرضا وجدلا أن كلام صاحبي هذا حق وأن بعد الموت بعث وأن بعد الموت حياة وأن هناك نعيم مرة ثانية بعد هذا النعيم ولئن رددت إلى ربي لأجدن بخيراً منها منقلبا .

مساكين أهل الدنيا يظنون أن كثرة الأموال والأولاد عنوان رضا الله – تبارك وتعالى – عنهم ، أبداً ليست كثرة الأموال والأولاد عنوان رضا الله – تبارك وتعالى – وإنما الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، ولذلك لما قالوا ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾[سبأ:٣٥] أمر الله – تبارك وتعالى – رسوله – صلى الله عليه وسلم – أن يقول ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾[سبأ:٣٦-٣٧].

ولذلك قال تعالى ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ ﴾[المؤمنون:٥٥-٥٦] .

وقال تعالى ﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾[آل عمران:١٧٨] .

وقال تعالى ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾[الفجر:١٥-١٦] قال تعالى ﴿ كَلا ﴾ ليس الأمر كما تظنون ليس الأول الذي وسعت عليه بمكرم، وليس الثاني الذي قدرت عليه رزقه بمهان، كلا وإنما الأول مبتلى بالغنى، والثاني مبتلى بالفقر .

الله تعالى ابتلى الغني بالغنى؛ ليرى أيشكر أم يكفر، وابتلى الفقير بالفقر؛ ليرى أيصبر أم يجزع، والمهم أن تنجح وليس المهم مادة الامتحان، مادة الامتحان ليست من الأهمية بمكان المهم هو النتيجة، فالغني مبتلى، والفقير مبتلى، والمهم أن تنجح إن كنت غنياً فتشكر الله – سبحانه وتعالى – أو تنجح إن كنت فقيراً فترضى بما قسم الله – تبارك وتعالى – لك وتعلم أن المال والأولاد لا يغنوا عن أصحابهما شيئاً يوم القيامة ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾[سبأ:٣٧] .

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً ﴾[الكهف:٣٥] وما أظن الساعة قائمة كما يزعم صاحبي، ولو سلمت فرضاً وجدلاً ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً قال تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ يعني يوم القيامة ﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ ﴾ فعلم أن له عند الله يوم القيامة مالاً وولداً ﴿ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ أن يعطيه في الآخرة كما أعطاه في الدنيا؟ كلا، لا هذا ولا هذا ﴿ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾[مريم:٧٧-٨٠].

يتبع الميت ثلاثة: أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان ويبقى واحد، يرجع أهل وماله ويبقى عمله، ولذلك قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ [الأنعام:٩٤] .

لن تخرج من هذه الدنيا بمال، ولن تخرج منها بسلطان ولا بجاه، وإنما لن تخرج منها إلا بالعمل الصالح، فإن وفقت لذلك فزت بنعيم الجنة أبداً، ومن لم يوفق للعمل الصالح خاب وخسر في الدنيا والآخرة .

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ ﴾ المؤمن الفقير ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ ﴾ إن هذا لشيء عجاب ﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ إن هذا لشيء عجاب، ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[البقرة:٢٨].

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيم ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾[الانفطار:٦-٨].

﴾ لماذا قال خلقك من تراب، وهو مخلوق من نطفة ؟ لأن هذا الإنسان ابن أبيه آدم وأبوه آدم خلقه الله تعالى من تراب، فهو وإن كان خلق من نطفة إلا أن له نصيباً في خلق أبيه ﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ إن هذا لشيء عجاب كما قال القائل :

فواعجبا! كيف يعصى الإله   أم كيف يجحده الجاحد ؟

وفى كل شيء له آية   تدل على أنه واحد

رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد – صلى الله عليه وسلم – نبيا ورسولاً، هذا والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تقول السلام عليكم، أسأل عن صاحب الجنة هل كان كافراً مشركاً، أم كافراً للنعمة وهل كان بعدما نزل الاستدراج؟

كان كافراً بالله مشركاً به فلم يكن كافراً للنعمة أبداً، لأنه قال ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ فكان كافراً بالله وباليوم الآخر وكفى بذاك كفراً والعياذ بالله .

السلام عليكم، أسأل كيف الله – سبحانه وتعالى – أمر نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – عن أن يجالس الفقراء ولا يسمع الأغنياء ؟ وكيف أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – تعاذى من الفقر ؟

الكفار عرضوا على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يطرد الفقراء من مجسله ولا يقبلهم وأن يستبدل بهم الأغنياء فنهى الله – تبارك وتعالى – رسوله – صلى الله عليه وسلم – عن ذلك لكن النبى – صلى الله عليه وسلم – ما ترك مجالستهم للدعوة إلى الله تعالى وإقامة الحجة، فالآية فيها أمر بالصبر على مجالسة الصالحين، ولو كانوا فقراء وفيها نهي عن مجالسة الأغنياء، إذا كانوا ضعاف الإيمان فضلاً عن أن يكونوا كفار، ولذلك ذكر العلماء في شروط من يختار للصحبة، قالوا أن يكون عاقلاً حسن الخلق غير فاسق ولا مبتدع ولا حريص على الدنيا هكذا اشترط العلماء لمن تختار صحبته .

أن يكون عاقلاً غير فاسق ولا مبتدع ولا حريص على الدنيا؛ لأنك إذا جالست الحريص على الدنيا كلما جالسته لا تسمع منه: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا تسمع منه إلا بعنا اشترينا، ارتفع الرصيد نقص الرصيد، ومثل هذا الكلام يقسي القلب والعياذ بالله .

فالنبى – صلى الله عليه وسلم – نُهي أن يستبدل الفقراء الأغنياء أما أن يجيئوه ويسمعون منه ويقبلون إليه، ويعلمون أن أكرمكم عند الله أتقاكم، ولا يأنفون من مخالطة الفقراء، فمرحباً وحيهلا .

السلام عليكم، لدي تعليق على سورة الكهف، ربنا – سبحانه وتعالى – في سورة الكهف أجمل لنا حال أهل الكهف في آيتين ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً ﴾[الكهف:١١-١٢] ثم فصل الله – سبحانه وتعالى – ذلك في آيات بعد ذلك من قوله – سبحانه وتعالى – ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ ﴾[الكهف:١٧] ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ ﴾[الكهف: ١٨] ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾[الكهف: ١٩] ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ ﴾ ﴿ وَلَبِثُوا﴾ .

والتعليق الثاني: أن في سورة البقرة لما ذكر الله قصة العزير قال ﴿ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ﴾[البقرة: ٢٥٩] وجاء عن أهل الكهف فلم يذكر الله – سبحانه وتعالى – في سورة الكهف قول الموت أبداً ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً ﴾ هذه أول ملحوظة .

والملحوظة الثانية: أن أصحاب الكهف حينما دخلوا الكهف كانت فتحة الكهف جهة الشمال، ولما رقدوا كان عن يمينهم الشرق، وعن يسارهم الغرب، فلما تشرق الشمس كانوا في منجاة من حرها، وهذا قول الله – سبحانه وتعالى – ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ﴾ .

أما قول الله – سبحانه وتعالى – ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾[الكهف:٢٨] فهو أمر بمصاحبة الصالحين أن نصبر نفوسنا معهم حتى يهدينا الله وإياهم .

إنما إن كانوا من أهل الغفلة ﴿ وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾[الكهف:٢٨] .

أما القول الثالث: وهو الأهم عندي ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾[الكهف:٢٣-٢٤].

قول الله – سبحانه وتعالى – ﴿ إِنِّي فَاعِلٌ ﴾ هذا الفعل هو حدث في زمن والحدث في الزمن له فاعل ومفعول به ويحدث في زمن، فأنا لا أملك الفاعل، ولا أملك المفعول، ولا أملك الزمن، فإذا قلت لفلان إني سوف ألقاك غداً الساعة كذا فأنا لا أملك هذا كله، ولذلك وجب علينا أن نقول إن شاء الله

السلام عليكم ورحمة الله، عندي إشكال، الجمع بين قول النبي – صلى الله عليه وسلم – (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث) والحديث الذي ذكرتموه (أن الميت يتبعه ثلاث يرجع اثنان ويبقى معه واحد وهو عمله) وقول الله – عزّ وجلّ – ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾[النجم:٣٩] ؟

يتبع الميت ثلاثة: أهله، وماله، وعمله، عمله الذي قدمه في حياته، ومما أخره بعد مماته ولد صالح يدعو له أو علم ينتفع به أو أثر خير تركه في الناس يقتدون به، فكل هذا يلحقه بعد مماته وقول الله تعالى ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ ليس هناك تعارض في الظاهر بين الآية وبين الحديث، فالعلم النافع الذي يخلفه الإنسان من سعيه والولد الصالح الذي يخلفه الإنسان من سعيه، ولذلك كان أثرهما ونفعهما في صحيفته بعد موته .

يقول لماذا قال الله تعالى ﴿ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ ﴾[الكهف: ٢٨] وقال ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾[الكهف: ٢٨] ؟

هو اتبع هواه فعصى مولاه فختم الله على قلبه، وأغفل قلبه عن ذكره، فكان اتباع للهوى هو السبب في أن الله أغفل قلبه عن ذكره؛ لأن تعالى أمره بذكره فلم يطع وخالف وعصى واتبع هواه فعاقبه الله – تبارك وتعالى – بالختم على قلبه وبالغفلة .

قوله تعالى ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[الكهف: ٢٩] فيه إثبات لمشيئة العبد هل هذه الآية صريحة في الرد على من يزعم أن العبد مجبور على جميع ما يفعله ؟

هذه الآية ليس فيها دليل على الجبر، والآية تقول ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ فتركت له المشيئة، ولكننا نؤكد على أن مشيئة العبد مرتبطة بمشيئة الله – تبارك وتعالى – كما قال – سبحانه وتعالى – ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾[التكوير:٢٨-٢٩].

وقال تعالى ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾[الانسان:٢٩-٣٠] ولكن اسمع لمسك الختام ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾[الانسان: ٣٠] .

فمن علم فيه خيرا وعلم منه سلامة القلب وصلاحية لقبول الإيمان منّ عليه بالإيمان ومن لم يعلم الله – تبارك وتعالى – في قلبه خيراً حجبه الإيمان، ولذلك قال تعالى ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾[الأنفال:٢٣] .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ما الفرق بين اتباع الشيطان واتباع الهوى واتباع النفس فعندي التباس خاصة بين النفس والهوى ؟

الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر، والنفس أمارة بالسوء، والهوى يوافق ما دعا إليه الشيطان وما دعت إليه النفس الأمارة بالسوء، لأن النفس تحب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وتحب الملذات والشهوات، والدين عليها ثقيل وشاق، فإذا استجاب للشيطان فهو متبع لهواه، لماذا استجاب للشيطان؛ لأن في اتباع الشيطان تحقيقاً لهواه والنفس الأمارة بالسوء تأمره مثلاً بشرب الخمر وبالزنا وبالفواحش، وكل هذه شهوات النفس تحبها وتهواها فهو حين يستجيب للشيطان وهي النفس الأمارة بالسوء، إنما يستجيب لاتباع هواه والعياذ بالله.

هل استخدام المسباح يعتبر من العمل الغير حسن ؟

أي نعم نحن نعده من العمل الغير حسن، ونقول ما ذكرناه أن عبد الله بن مسعود أنكر على الناس الذين اجتمعوا وأخذوا يعدون التسبيح والتكبير بالحصى، والنبي – صلى الله عليه وسلم – أمر بالتسبيح بالأنامل وقال (إنهن مسئولات مستنطقات) وخير الهدي هدي محمد – صلى الله عليه وسلم – ما نُقل عنه أنه كان يسبح بالمسبحة أبداً .

فاتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم، هكذا قال ابن مسعود – رضي الله عنه – .

يقول سمعت مدرس للغة العربية وهو يقول أن في القرآن كلمات أعجمية، وضرب لذلك مثلا، سندس وإستبرق، فقلت له قوله تعالى ﴿ قُرْآناً عَرَبِيّا ﴾ و ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ فقال هذا محمل الغالب فهل قوله صحيح ؟

لا أدري، ومن قال لا أدري فقد أفتى .

يقول كيف نوفق بين عدم ذكر الحسنات وبين قوله تعالى ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[الضحى:١١] ؟

التحدث بنعمة الله – سبحانه وتعالى – شكر هكذا قال النبي – صلى الله عليه وسلم – والتوفيق للطاعات من أجل النعم، فأنا أتحدث بالنعمة شكراً لله تعالى على وجه الإجمال لكن لا أحصي أعمالي، ولا أعدها .

هناك بعض الناس يقول أنا اليوم سبحت مائة، كبرت مائة، هللت مائة، صليت عشر ركعات تصدقت بعشرة جنيهات، يحصى أعمالاً صالحة.

نقول له يا أخي لا تشغل بالك بإحصاء أعمالك الصالحة؛ لأن الله أحصاها وعدها عداً ولن يضيعها، كما قال ولكن عد سيئاتك؛ لأن هذا هو المطلوب أن تتذكر سيئاتك دائماً حتى يحملك تذكرك إياها على الإقلاع منها وعدم العودة إليها.

قد ذكرتم فضيلتكم حفظكم الله حديث النبي – صلى الله عليه وسلم – في تحريم الذهب والحرير على الرجال، وقلتم بارك الله فيكم أن لبس الحرير الخالص الطبيعي حرام على الرجال فهل هذا الكلام المفهوم: أي أن الثياب المختلطة بمختلف الأقمشة ومنها الحرير يجوز استخدامها ؟

أردت أن أؤكد على ما يحرم على الرجال وهو الحرير الطبيعي، لأن هناك ملابس في السوق اسمها حرير، وليست هي بحرير يقصدون بالحرير أي الناعمة ناعمة مثل الحرير فهي ليست حريراً هذه الملابس التي نستعملها ليست حريرا، الحرير المحرم هو الخالص الصافي الطبيعي حرير دودة القز، هذا هو الحرير الخالص الذي يحرم على الرجال، أما الملابس الناعمة الخفيفة فليست بحرير فلا تحرم .

يقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، هل هذه القصة تنطبق على من يغترون بذكائهم وثروتهم ؟

هو كذلك ويجب دائماً كما انتهينا في التفسير عند قوله تعالى ﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ فيجب على الإنسان إذا رأى على نفسه خيراً ونعمة أو على غيره أو ولده أن يعرف أن الفضل كله لله – سبحانه وتعالى – فينسب النعمة والفضل لله – سبحانه وتعالى – ولا يكون كقارون الذي قال ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾[القصص: ٧٨]

فالذكاء والمهارة وقوة الجسم وقوة الذاكرة ونحو ذلك، كل هذا من نعم الله، فالإنسان يحمد الله – تبارك وتعالى – ويشكره ولا يرد الفضل إلى نفسه؛ لأنه ليس له من نفسه إلا الخذلان ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[آل عمران:١٦٠] .

تقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، هل صاحب الجنة تأول بأن له عند الله يوم القيامة جنة خير منها يعني أنه ادعى علم الغيب أم ماذا؟ وضح لنا وجزاكم الله خيرا

هو قال ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ أنا اعتقادي أن هناك قيامة هذا ما أظن، ليس فيه قيامة ولا بعث بعد الموت، ولكن لو سلمت فرضاً وجدلاً أن فيه قيامة وبعث فسيكون لي في الآخرة مثل ما كان لي في الدنيا، فقاس نعيم الآخرة على نعيم الدنيا، واعتقد أنه كما أكرم في الدنيا بالتوسعة عليه لابد إن كان آخرة أن يكرم بها ونسي قول الله – تبارك وتعالى – ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾﴾[الواقعة:١-٣] أي تخفض أقواماً كانوا في الدنيا فوق وترفع أقواماً كانوا في الدنيا تحت .

فموازين الآخرة غير موازين الدنيا تماماً والله تعالى يعطي الدنيا من أحب ومن لا يحب ولا يعطي الآخرة إلا لمن يحب .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أريد أن أسأل في مسألة الذهب المحلق بالنسبة للنساء؟

جمهور الفقهاء على إباحة الذهب المحلق للنساء.

سأل عن ماهية الصلاة على النبي – صلى الله عليه وسلم –

حين نقول اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد، فالصلاة من الله تعالى الثناء عليه في الملأ الأعلى، الصلاة من الله تعالى على نبيه أو على عباده الصالحين معناه الثناء عليهم في الملأ الأعلى .

يقول: ما معنى الكلمات التالية: سرادقها، وسندس، وإستبرق، وحففناهما ؟

حففناهما، جعلناها على الحافة، النخل على حافة البستان، على الحد عليه فهو كالسور له الواقي لما بداخله .

والسندس والإستبرق من ثياب أهل الجنة من الحرير .

والسرادق الإحاطة، سرادقها يعني حدودها، أحاطت به من جميع الجهات، كالسرادق الذي يقام في البدع فيحيط بالناس.

يقول: ما معنى جنات عدن ؟

جنات عدن أي جنات إقامة، فمن دخل الجنة لا يخرج منها أبدا، وإذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، أتي بالموت على صورة كبش أملح فوضع على سور بين الجنة والنار ثم نودي: يا أهل الجنة فيشرأبون ينظرون، ويا أهل النار فيشرأبون ينظرون فيقال: أتعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، إنه الموت، وكلنا يعرفه فيذبح هذا الكبش الذي يمثل الموت، وينادى: يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت .

قال الحق جل شأنه ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩] فلما قدم جزاء الكافرين بعد ذلك وقال ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ على جزاء المؤمنين؟

الله تعالى أعلم بأسرار كلامه، لماذا قدم جزاء الكافرين على جزاء المؤمنين، وفى موضع آخر قدم جزاء المؤمنين على جزاء الكافرين، فالله تعالى أعلم بالسر في التقديم .

لكن العبرة والخلاصة والدرس المستفاد هو الترغيب والترهيب.

الترهيب: بذكر جزاء الظالمين .

والترغيب: بذكر جزاء المؤمنين .

تقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فضيلة الشيخ قلت في حديثك: إن من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ولو دخل الجنة، وكذلك شرب الخمر، هل يدخل في هذا سماع الغناء؟ وهل معنى هذا أن من فعل ذلك يدخل الجنة مع معصيته، أم معنى ذلك بعد التوبة أرجو التوضيح، حتى لا يحدث تساهل في المعصية ؟

هكذا صحت الأحاديث كلها في هذا الذي ذكرت في لبس الذهب والحرير وشرب الخمر وكذلك سماع الأغاني صحت الأحاديث عن النبي – صلى الله عليه وسلم – في ذلك أن من متع نفسه بالحرام الذي حرمه الله عليه في الدنيا عوقب بحرمانه منه في الجنة؛ لأن الله تعالى قال في الكافرين ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ﴾ [الاحقاف:٢٠] ولا يجوز للمؤمن أن يتشبه بالكافرين أن يتمتع بطيبات الحياة وتكون هي أكبر همه ولو كانت محرمة هذا خطأ؛ لذا نأخذ ما حل وندع ما حرم، فمن أخذ الحرام في الدنيا الذي حرم عليه ومتع نفسه به في الدنيا عوقب بحرمانه منه في الآخرة .

كذلك صحت الأحاديث عن النبي – صلى الله عليه وسلم – .

هل الصبر على الطاعة يعادل الصبر على المعصية ؟ في الجزاء ؟

أي نعم إن شاء الله تعالى أن تصبر على الطاعة حتى تؤديها، وتصبر عن المعصية حتى لا تقع فيهـا كلـه صبر وكله له جزاؤه والله تعالى قال ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[الزمر: ١٠] .

في قول الحق – سبحانه وتعالى – كما تفضلت حضرتكم هو لفظ الظالمين هل معنى ذلك أننا نحمـل جميـع ألفاظ القرآن الكريم التي حصل فيها تكرار على القول الغالب بمعنى مثلا لفظ الزينة كرر أكثر مـن مـرة فـي القرآن، هل معنى ذلك أننا نحمله على غالب معناه في القرآن، أم على حسب موضعه في الآية ؟

الظلم كما بوب البخاري رحمه الله في صحيحية باب كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، فهناك كفر أكبر وكفـر أصغر وظلم أكبر وظلم أصغر .

سيدنا يونس عليه السلام لما دخل بطن الحوت ﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِـنَ الظَّالِمِينَ ﴾[الانبياء: ٨٧] .

والأبوان آدم وحواء لما أكلا من الشجرة ﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾[الأعراف:٢٣] .

وموسى – عليه السلام – لما قتل القبطي ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾[القصص:١٦] .

فهذا ظلم أصغر المعاصي ظلم أصغر .

وأما الكفر فهو ظلم أكبر، وتستطيع أن تعرف ما المراد بالظلم هو الأكبر أم الأصغر من خلال السياق .

سؤال عن قول الله ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾[الكهف: ٣٩] هل هو المقصود في الدعاء بمن يرى شيء يعجبه ؟

هو كذلك من رأى شيئاً فأعجبه من نفسه أو ماله أو ولده أو أهله أو الناس فليبادر بقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله حتى يدفع بذلك أثر عين السيء .

يقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ذكرتم في معرض تفسيركم فقلتم ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾[التوبة: ٦٧] فقولكم نسيهم فهل يجوز قول هذا في حق الله – عزّ وجلّ – ولو في معرض التفسير ؟

هذه بارك الله فيك لفظ آية في القرآن الكريم، وليست من كلامنا نحن ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَـافِقِينَ هُـمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[التوبة: ٦٧] هذه في سورة التوبة هذه آية وليست من كلامنا إنما هي آية .

ولكن النسيان في حق الله – عزّ وجلّ – معناه الترك، نسيهم أي تركهم من رحمته ولم يجعل منهـا نـصيبا، وليس المراد بالنسيان الذي هو ضد الذكر، فنحن نؤمن بقول الله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَـسِيّاً ﴾ [مـريم: ٦٤] ونؤمن بقول موسى – عليه السلام – لفرعون ﴿ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى ﴾[طـه:٥٢] .

فهنا النسيان المنفي هو الذي ضد الذكر، وأما النسيان المثبت فهو معناه الترك أن الله تعالى تركهم من رحمته ولم يجعل لهم فيها نصيب .

تقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أتمنى إعادة معنى ﴿ بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ ﴾ ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ ؟

قلنا: في قوله تعالى في حق أهل النار ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ ﴾ قلنا والعياذ بالله المهل هو الزيت في وقت غليانه، الزيت وهو على النار يغلي يرتفع أسفله وينزل أعلاه وهكذا، هذا هو الماء قال الله فيه ﴿ بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ ﴾ والعياذ بالله .

الذي يسمع الأغاني في الدنيا ويشرب الخمر أو يلبس الحرير لا يلبسه في الجنة حتى وإن تاب يا شيخ فإن التوبة تجب ما قبلها ؟

هذه الأحاديث أيها الأحبة حتى لا تشق عليكم هذه الأحاديث موجودة في صحيح الترغيب والترهيب، الترغيب والترهيب للمنذري، وأنا أقول صحيح الترغيب والترهيب لشيخنا الألباني رحمه الله، من أراد أن يراجع هذه الأحاديث فليراجعها في صحيح الترغيب والترهيب، ولكننا نحملها على الذين لم يتوبوا.

أما من تاب تاب الله عليه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له .

يقول هل الفقير الشاكر أحب إلى الله من الغني الشاكر ؟

هذه مسألة طال فيها بحث العلماء، أيهما أفضل الغني الشاكر أم الفقير الصابر، طال البحث فيها جداً، ولكني كما قلت في أثناء الكلام المهم ليس بمادة الامتحان ولكن المهم بالنتيجة.

هذا ابتلي بالغنى وهذا ابتلي بالفقر، المهم أن ينجح الغني في غناه وأن ينجح الفقير في فقره ويكون مثوى الجميع الجنة إن شاء الله – تبارك وتعالى .

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، اللهم صلى وسـلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محـدثاتها، وكـل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم مرحبا بكم في هذا اللقاء الجديد مـن دروس تفـسير سورة الكهف، و الآيات المباركات التي معنا منها هذه الساعة المباركة – إن شاء الله تعـالى- تـضمنت مـن المعاني ما يلي:

أولاً: استحباب قول ما شاء الله لا قوة إلا بالله عند رؤية النعمة.

ثانياً: جواز الدعاء على الظالم نفسه بزوال النعمة.

ثالثاً: مثل الحياة الدنيا.

رابعاً: لماذا شبهت الدنيا بالماء؟

خامساً: السعادة تكون بالأعمال لا بالأموال.

سادساً: أهوال يوم القيامة.

سابعاً: صفة العرض على الله عز وجل.

ثامناً: التحذير من موالاة الشيطان.

وهذا بإيجاز عرض سريع لأهم ما تضمنته الآيات المباركات التي معنا من سورة الكهـف، مـن المعـاني فلنستمع إليها أولا قبل الخوض في تفاصيلها، سائلين الله عز وجل أن ينجز لنا ما وعدنا حيث قال: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الأعراف: ٢٠٤]

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَـى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُـمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُـوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِـنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَـهُ فِئَـةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ مَثَـلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ

نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾[الكهف:٣٥-٥٠].

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[ص: ٢٩]، ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١]، ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣].

قلنا أن كثرة الأموال والأولاد ليست عنوان رضا الله -تبارك وتعالى- عن ذلك الإنسان، إنما هو ابتلاء من الله -سبحانه وتعالى-، يبتلى من يشاء بالغنى؛ ليرى أيشكر أم يكفر؟ ويبتلي من يشاء بالفقر؛ ليرى أيصبر أم يجزع؟ لكن أكثر الناس إذا رأو الله -سبحانه وتعالى- قد وسع عليهم وأعطاهم، استدلوا بهذا العطاء في الدنيا على العطاء في الآخرة، وأنهم كما كانوا في الدنيا أكثر مالا وولدا فسيكونون كذلك في الآخرة، وهذا ما حكاه الله -سبحانه وتعالى- عن هذا الرجل الذي ضربه الله مثلا للغني الكافر ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ فرد عليه صاحبه الفقير المؤمن قال له: ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ ﴾ إن الكفر بالله الخالق لشيء عجاب ﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ وذكر خلقه من تراب وإن لم يكن هو من تراب؛ لأنه ابن آدم، وآدم من تراب؛ فأبناء آدم لهم نصيب من التراب الذي هو أصل خلق أبيهم ﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار:٦-٨]، ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة:٢٨]، إن هذا الكفر لشيء عجاب، تعجب من ذلك المؤمن، وتعجب من ذلك الشاعر حين قال:

واعجبا كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴾، ثم استدرك فقال: ﴿ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي ﴾، إذا أنت كفرت بالله الذي خلقك فسواك، فأنا لن أكفر بالله -سبحانه وتعالى-، إنما أنا مؤمن بالله ربي الذي خلقني فسواني ورباني بنعمه وآلائه، وتفضل علي بنعم لا تعد ولا تحصى ﴿ وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾، فلم يقتصر على إثبات الربوبية حتى أتبعها بإثبات الألوهية، فإنه لا ينفع ولا يكفي أن يقر الإنسان بربوبية الله -سبحانه وتعالى- وحده ثم يذهب ويعبد معه غيره، أو يعبد غيره استقلالا، إنما يجب على من أقر واعترف أن الله ربه الذي خلقه فسواه وعدله وصوره فأحسن صورته، ورباه بنعمته وآلائه، يجب على من أقر بالربوبية أن يقر كذلك لله بالألوهية، وأن يعلم أنه لا إله إلا الله أي لا معبود بحق إلا الله -سبحانه وتعالى- فيعبد الله -عز وجل- ولا يشرك به أحدا، وهذا ما قال المؤمن الفقير لصاحبه الغني الكافر: ﴿ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾.

﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾، لولا أي هلا، وهو أسلوب حض من المؤمن الفقير لصاحبه الكافر الغني يحضه على الاعتراف بفضل الله -سبحانه وتعالى- والإقرار بأن ما به من نعمة من الله وحده لا شريك له، ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ ﴾، تبرأت من حولك وقوتك وعلمت: أن الحول والقوة لله -عز وجل- وحده، فقلت: ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾، أي ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فما في هذه الجنة وما في هذه

البستان من نخيل وأعناب وثمار وأنهار إنما كان بإرادة الله ومشيئته، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾، لا قوة لأحد على أي عمل، ولا قدرة لأحد على أي عمل -ديني كان أو دنيوي- لا قوة إلا بالله؛ ولذلك قال النبي – صلى الله عليه وسلم – لأبي موسى الأشعري (ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ قال: بلى يا رسول الله، قال لا حول ولا قوة إلا بالله)، فلا تحول لأحد ولا حركة لأحد عن معصية الله إلا بمعونة الله، ولا قدرة لأحد ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله إلا بتوفيق الله -سبحانه وتعالى-،والإنسان لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، إنما ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[الصافات: ٩٦]، ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ ﴾ ورأيت ما أعجبك فيها من الزروع والثمار والنخيل والأعناب والأنهار، فتبرأت من حولك وقوتك، واستعنت بحول الله – تعالى- وقوته، وعلمت أن هذه النعم إنما هي فضل الله -تبارك وتعالى- عليك؛ فخررت لله -تعالى- ساجدا عليها شكرا لله على ما أنعم عليك ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾؛ لأن هذه الثمار وهذه الزروع التي تنبت في أرضنا في حقولنا ومزارعنا وبساتيننا لا ينبتها إلا الله -سبحانه وتعالى- ولذلك قال عز وجل: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾[الواقعة:٦٣-٧٠]، وقال تعالى: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾[عبس: ٢٤-٣٢]،كل هذا كان بحول الله وقوته لا بحول الإنسان وقوته؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: ٣٣-٣٥]،وما نافية، فالواجب على الإنسان أن يتبرأ من حوله وقوته وأن يعلم أنه لا حول ولا قوة إلا بالله، فإذا رأى نعمة الله -تبارك وتعالى- عليه في مال أو ولد أو نحوهما، فليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله؛ اعترافا بفضل الله واستعانة بحول الله -تعالى- وقوته وتبرأ من حوله وقوته، وهذه الكلمة المباركة ذكر العلماء أنها إذا قيلت عند رؤية النعمة على النفس أو الولد أو المال أو على الغير فإنها تدفع العين بإذن الله -عز وجل؛

فيستحب لمن رأى نعمة على نفسه أو على غيره أن يبادر بقول: ماشاء الله لاقوة إلى بالله، ثم قال المؤمن الفقير لصاحبه الغني الكافر: ﴿ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾، إن ترن يا صاحبي أنا أقل منك مالا وولدا، إن كنت تراني فقيرا مسكينا قليل المال قليل الولد؛ فلذلك تقول: أنا أعز منك أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا؛ فأنا يا صاحبي إنما أعتز بعقيدتي وأطلب الغنى بافتقاري إلى الله ربي، فأنا عزيز بطاعتي لله، وغني بافتقاري لله – تعالى- ﴿ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ وأنا أرجو أن يعطيني الله -تبارك وتعالى- جنة خير من جنتك ﴿ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ ﴾ فإن ربي على كل شيء قدير، ودوام الحال من المحال، فإن غني اليوم قد يكون غدا فقيرا، وفقير اليوم قد يكون غدا غنيا، فإن كنت ياصاحبي غنيا فلا تتكبر علي بغناك، وتواضع حتى تدوم عليك النعمة، فإن دوام الحال من المحال ﴿ فَعَسَى رَبِّي ﴾ أرجو ربي -سبحانه وتعالى- ﴿أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ ﴾ ويرسل على جنتك حسبانا من السماء أي عذابا من السماء فتصبح صعيدا زلقا، فتصبح أرضا ملساء ناعمة سوداء جرداء لا زرع فيها ولا ماء، أو يأتيها العذاب من أسفل منه﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبً﴾، هكذا قال المؤمن الفقير لصاحبه الغني الكافر:﴿ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا ﴾أي على جنتك ﴿ حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ ﴾، أي عذابا من السماء،﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا ﴾ [الملك:٣٠]، أي إذا غار الماء في أسفل الأرض وذهب فيها بعيدا فكيف تستطيعون إخراجه وكيف تطلبونه ﴿ فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾، واستجاب الله تعالى لعبده المؤمن الصالح الفقير ونزل العذاب بجنة الغني ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾.

ومن هنا نعلم أنه يجوز الدعاء على الظالم نفسه بزوال النعمة، إذا كانت النعمة أطغته، وجعلته يتكبر على خلق الله، ويتعالى عليهم، ولا يحترمهم، ولا يوقرهم، يرى نفسه فوق الثريا وهم دونه تحب الثرى؛ يجوز حينئذ

الدعاء أن يذهب الله تعالى بهذه النعمة من عند هذا الإنسان، هكذا فعل المؤمن الفقير دعا الله –سبحانه وتعالى– أن يذهب بالنعمة من عند صاحبه الغني الكافر، ومن قبل ذلك دعا موسى – عليه السلام – على فرعون وملأه بزوال نعمة الله –تبارك وتعالى– منهم ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾[يونس: ٨٨]، قال الله تعالى: ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾، ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ أي نزل العذاب من السماء فأحاط بهذا البستان من جميع جهاته؛ فأباده كله، ولم يترك منه شيئا، كما يحيط العدو بعدوه وحاصره من جميع الجهات، فقد تمكن منه فإذا تسلط عليه مع القدرة فلن يترك منه أحدا، ولن يبقي منه شيئا، وكذلك فعل العذاب بجنة ذلك الكافر الغني الذي حمله الغنى على الأشر والبطر والاستكبار في الأرض بغير الحق.

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ نادما كما يفعل النادم، النادم أحيانا يضرب كفا على كف، وأحيانا يعض أصابع الندم ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ على ما أنفق في هذه الجنة في هذا البستان من مال وجهد ووقت، ثم ذهب كل هذا مع الرياح سدى، ولم يبق منه شيئا ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا ﴾ والجنة ﴿ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ ويقول مع هذا الندم: يا ليتني، ولكن ما تنفع يوما ليت ﴿ وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ قال تعالى: ﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ﴾ لم تكن له فئة: أي جماعة من الجنود والحاشية ولا من الأولاد، لم تكن له فئة تدفع عنه عذاب الله، وتنصره من بأس الله إذا جاءه، وما كان هو من نفسه منتصرا على ما جاءه من عذاب الله –عز وجل– فلم تكن له هو قوة ذاتية تدفع عنه عذاب الله، ولم يكن له قوة خارجية تمنعه من بأس الله –عز وجل– كما قال الله عن قارون: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴾ [القصص:٨١].

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ﴾ في مثل هذه الساعة ساعة نزول العذاب بالكافرين المستكبرين المفسدين في الأرض، هنالك تكون الولاية لله الحق، الكافرون تبرءوا من الله –عز وجل– وتولوا غيره، فإذا نزل بهم عذاب الله؛ تبرءوا من كل الذين تولونهم، وأثبتوا ولايتهم لله وحده، ولكن لا ينفعهم هذا بعد أن نزل بهم العذاب، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾[غافر:٨٤–٨٥]، وقال تعالى عن فرعون: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ فقيل له: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾[يونس: ٩٢:٩٠].

فقوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ﴾ أي في مثل هذه الساعة التي ينزل فيه عذاب الله بالكافرين المفسدين في الأرض هنالك يتبرءون من كل الذين تولونهم من دون الله، ويثبتون الولاية لله –سبحانه وتعالى– وحده، ولكن لا يقبل منهم هذا، ولا ينفعهم إيمانهم بعد أن آتاهم عذاب ربهم.

﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ ﴾ –سبحانه وتعالى– ﴿ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا، ثواب الله لمن آمن وعمل صالحا خير من ثواب غيره، وعاقبة الطاعة خير العاقبة ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾[الرعد:٢٣:٢٤]، وهكذا رأينا أن الكفر بالله –عز وجل– وكفر نعمته، يتسبب هذا الكفر في زوال النعمة فلا يبقى منها شيئا عند صاحبها، إذ كفر بالله وكفر نعمة الله –تبارك وتعالى– والله –سبحانه وتعالى– قد أخبرنا مثل هذا كثيرا في كتابه قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴿١٧﴾ ﴾ [سبأ: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ

آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [النحل: ١١٢:١١٣]، فإذا علمتم ذلك وتبينت لكم هذه الحقيقة أن المعاصي تزيل النعم ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾[النحل: ١١٤]؛ ولذلك قال القائل:

إذا كنت في نعمة فارعه فإن المعاصي تزيل النعم

وحافظ عليها بشكر الإله فإن الإله سريع النقم

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾[إبراهيم:٧:٨]، فعلى الذين أنعم الله تبارك و تعالى عليهم ووسع عليهم وآتاهم من جميع أصناف المال أن يتواضعوا لعباد الله الفقراء المساكين، وأن يأتوهم من مال الله الذي آتاهم، وأن ينفقوا في سبيل الله هكذا وهكذا وهكذا، حتى يزيدهم الله –تعالى– من فضله، وحتى يكافئهم في الآخرة بجنة فيها من النعيم مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر.

ثم قال تعالى لنبيه – صلى الله عليه وسلم – ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ واضرب لهم يانبينا، اضرب لهؤلاء الأغنياء المستكبرين في الأرض بغير الحق، اضرب لهؤلاء الأغنياء الذين غرتهم الحياة الدنيا، ودخلت قلوبهم، واستحوذت عليهم، فأنستهم ذكر الله –تعالى–، اضرب لهم مثل الحياة الدنيا في زوالها وفنائها وعدم بقائها، ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ﴾ وهكذا في ثلاث كلمات لخص الله –تبارك وتعالى– لنا بداية الدنيا ونهايتها وما بين البداية والنهاية ﴿ كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ﴾ وتأمل كيف جاء الله –تبارك وتعالى– بحرف الفاء الذي يفيد الترتيب مع التعقيب الذي يخالف ثم، فإن ثم تفيد الترتيب مع التراخي، أما الفاء تفيد الترتيب مع التعقيب.

﴿ كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ﴾ أتى الله –تبارك وتعالى– بحرف الفاء؛ ليفيد سرعة الفناء وسرعة الزوال، حتى لا تتعلق قلوب الناس بهذه الدنيا الفانية السريعة الزوال.

ولماذا شبه الله –تبارك وتعالى– الدنيا بالماء؟ ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ لماذا شبه الله تعالى الحياة الدنيا بالماء؟ قال العلماء: شبه الله –تعالى– الحياة الدنيا بالماء؛ لأن الماء لا يستقر في مكان، وكذلك الدنيا لا تدوم عند إنسان، وشبه الله –تعالى– الدنيا بالماء ؛لأن الماء لا يثبت على حال، الماء لا يثبت على حال، وكذلك الدنيا لا تدوم على حال، فقد قيل: دوام الحال من المحال، وشبه الله تعالى الدنيا بالماء؛ لأن من دخل الماء ابتل، ولا بد وكذلك من دخل الدنيا أصابته الفتن ولا بد، فلا ينجو من الفتن أحد في الدنيا أبدا، وشبه الله –تعالى– الدنيا بالماء؛ لأن الماء إذا كان بقدر نفع بإذن الله –عز وجل–، فإذا زاد وطغى وخرج عن قدره أضر وأحدث المصائب والبلاء، وكذلك الدنيا إذا كانت على قدر وكان الرزق كفافا وقوتا كان ذلك خيرا للإنسان، فإذا وسع الله –تبارك وتعالى– عليه وآتاه من جميع أصناف المال خشي عليه الفتنة كما قال –تعالى:– ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن: ١٥]، ولما كان هذا المثل من أروع الأمثلة وأحسنها لا جرم كرره الله –تبارك وتعالى– في القرآن في مواضع، هذا المثل الذي ضربه الله –تعالى–للحياة الدنيا من أحسن الأمثال وأروعها على الإطلاق لذلك كرره الله –تبارك وتعالى– في مواضع من كتابه في سورة يونس قال الله –تبارك وتعالى– ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[يونس: ٢٤]، وفي سورة الزمر قال الله –تعالى:– ﴿ أَلَمْ تَرَ

أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٢١]، وفي سورة الحديد قال الله –تعالى:- ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ فإذا علمتم ذلك ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: ٢٠:٢١]، ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ﴾ اليوم يحرث الفلاح، ويبذر، ثم ينزل الماء من السماء أو من مجراه الذي يجري فيه من الأنهار، ينزل على البذرة، فتنبت بإذن الله، وبعد أيام ترى العود الأخضر خرج فوق الأرض بعدما كانت البذرة ميتة تحت الأرض أحياها الله –تعالى– فخرج العود فوق الأرض، ثم استوى على سوقه فحان حصاده، فما هي إلا شهور حتى ترى الزرعة حصدت، وذهب بها من الحقل إلى الدار، وكأن الحقل لم يكن فيه زرع بالأمس، كذلك حقيقة الحياة الدنيا بدأت وستنتهي في الأجل الذي سماه الله –تبارك وتعالى– لها، فعلينا أن نكون على حذر من الدنيا، لا نركن إليها، ولا نطمئن لها، ولا نأثرها على الآخرة، فإن الله –تعالى قال:- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾[فاطر: ٥]، والنبي – صلى الله عليه وسلم – يقول: (الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله، ومن والاه، وعالما أو متعلم).

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ﴾ وتفرقه الرياح هاهنا، وهاهنا أرأيت الفلاح وهو يدرس القمح كيف يتطاير التبن من الماكينة هكذا وهكذا ﴿ تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ لا يعجز ربنا عن شيء، ولا يعجزه شيء ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴾[فاطر: ٤٤].

ثم قال تعالى: ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَ﴾ الحياة الدنيا التي ضربنا لكم مثلها في الزوال والفناء والانتهاء، المال والنون زينة هذه الحياة الدنيا الفانية، فإذا فنت الدنيا كلها، وزالت الدنيا كلها، فهل تبقى زينتها؟ ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ والدنيا فانية منتهية، فهل إذا انتهت الدنيا تبقى الزينة؟ لا يمكن أبدا.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾ [الكهف: ٨:٧]، ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ ﴾[الصافات: ٦]، ويوم القيامة إذا زالت السماء نفسها فأين تذهب زينتها؟ ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (٢) ﴾[الانفطار: ٢:١]، ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلً﴾ ما الباقيات الصالحات؟ يجب إبقائها على إطلاقها وعمومها، كما أطلقها ربنا –سبحانه وتعالى–، لا يجوز تخصيص الباقيات الصالحات بأنها نوع من العبادة ولا الذكر؛ لأن الله –تبارك وتعالى– أطلق وعم ولم يخصص ولم يقيد ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ إذًا لا تقل الباقيات الصالحات: هي الصلوات، ولا تقل الباقيات الصالحات: هي الزكاة ولا تقل الباقيات الصالحات هي سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، كل هذا إنما كالمثال للباقيات الصالحات، فالصلاة من الباقيات الصالحات، والزكاة من الباقيات الصالحات، والحج من الباقيات الصالحات، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا اله والله أكبر من الباقيات الصالحات، وبر الوالدين من الباقيات الصالحات، وصلة الأرحام من الباقيات الصالحات، وطلب العلم وتعليمه من الباقيات الصالحات.

﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلً﴾ إن الذين أعطاهم الله –تعالى– المال والولد علقوا آمالا كبيرة على المال والولد، والمؤمنون المتقون الصالحون علقوا آمالهم على الباقيات الصالحات، فأي الأملين يتحقق؟ هل يتحقق أمل الأغنياء الذين بنوا أملهم على كثرة المال والولد؟ أم يتحقق أمل المؤمنين الصالحين الذين لم يتعلقوا بالدنيا كلها وما فيها من مال وبنين، وإنما تعلقوا بما يرضي الله –تبارك وتعالى– من صالح العمل ﴿

وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ لقد ظن ذوو الأموال والأولاد أن أموالهم وأولادهم تنفعهم عند الله –تبارك وتعالى– يوم القيامة فنفى الله –تعالى– ذلك عنهم فقال: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى ﴾[سبأ: ٣٧]، ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ ﴾[المسد: ٢:١]، وما كسب يعني ولده، ما أغنى عنه ماله، وما أغنى عنه ولده، قال تعالى: ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴿١١﴾ ﴾[الليل: ١١]، فالأموال والأولاد لا تحقق الآمال في الدنيا ولا في الآخرة، ولا تحقق سعادة الدنيا ولا سعادة الآخرة، إنما السعادة في الدنيا تحقق بالاجتهاد في العمل الصالح بعد الإيمان بالله –عز وجل– يقول –تعالى:– ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾[النحل:٩٧]، فهذه سعادة الدنيا تتحقق بالإيمان بالله –عز وجل– والعمل الصالح، وكذلك سعادة الآخرة تتحقق بالإيمان بالله –عز وجل– والعمل الصالح ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر: ٤٠]، فالسعادة لا تتحقق بالأموال ولا بالأولاد مهما كثرت، وإنما السعادة تتحقق بالإيمان بالله –عز وجل– وبالعمل الصالح الذي يرضاه الله –تعالى– ولذلك قال بعضهم:

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقي هو السعيد

وتقوى الله خير الزاد زخر وعند الله للأتقى مزيد

فإذا أردت سعادة الدنيا فعليك بالإيمان والعمل الصالح، وإذا أردت سعادة الآخرة فعليك بالإيمان والعمل الصالح، ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ والدنيا فانية فالمال والبنون منتهون مع الدنيا منتهون بنهايتها ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾.

ثم ذكر الله –تبارك وتعالى– أهوال يوم القيامة لما ذكر الدنيا وزوالها وسرعة فنائها حدثنا عن الآخرة وبدأ بذكر أهوالها فقال: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ هذه الجبال الرواسي الشامخات الثوابت يوم القيامة تسير من أماكنها ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾﴾[الطور: ٩:١٠]، ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾[النمل: ٨٨]، ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾[الحاقة: ١٣–١٥]، ماذا يحدث قال تعالى ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ﴿٦﴾﴾[الواقعة: ١–٦]، ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿٥﴾﴾[القارعة: ٤:٥]، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾[طه: ١٠٥–١٠٧].

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ بارزة ليس فيها عوج ولا أمت، ولا عليها ربوة ولا تل ولا جبل، إنما الأرض بارزة وظاهرة ليس عليها ما يكن، وليس عليها ما يستر شيئا، أنت حين تكون في سفر وتنزل في الوادي فتكون الجبال عن يمينك وعن شمالك تحجب الجبال الرؤية عنك؛ فلا ترى ما ورائها عن يمينك ولا عن شمالك، وأما إذا خرجت من الوادي إلى الأرض البارزة المسطحة زالت الجبال ورأيت كل شيء كان مخبأ عليك وأنت في الوادي بين الجبال، يوم القيامة ينسف ربي الجبال نسفا ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ فلا يكون شيء مخبوء ولا يكون شيء مخفي وإنما ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾إبراهيم: ٤٨]، ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [المرسلات: ٣٨]، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٤٩:٥٠].

نسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يسترنا يوم تبلى السرائر، يوم نحشر إلى ربنا حفاة عراة غرلا ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٨]، هذا والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

السلام عليكم ورحمة الله، ألم يحدد النبي – صلى الله عليه وسلم – الباقيات الصالحات في حديث؟

الأخ يسأل عن الباقيات الصالحات ما هي؟

لم يحددها النبي – صلى الله عليه وسلم – في حديث: يعني ليس هناك حديث مرفوع صحيح يحدد الباقيات الصالحات، وإنما رويت آثار لا تصح أن الباقيات الصالحات: هي سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وهذا كما قلت يجب إبقاء الآية على عمومها لا نخصصها الله قال:- ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ فكل ما ضربناه مثلا من الصلاة والزكاة وبر الوالدين والحج والجهاد كل ذلك –إن شاء الله– من الباقيات عند الله، لكن جاء في فضل هذه الكلمات حديث فقد قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – (لئن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إلى مما طلعت عليه الشمس)

سؤالي ياشيخ هل يجوز الجزم بأن كل ما حدث للبلدان من الكوارث هو بسبب المعاصي والظلم.

يقول الله –تبارك وتعالى–: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠]، ويقول تعالى: ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ [النساء:٧٩]، فما يبتلى به الناس في أموالهم وأهليهم وبلدانهم إنما هو بسبب كثرة الذنوب والمعاصي، وإن أصاب البلاء بعض الصالحين المؤمنين الطيبين فإنما هذا ابتلاء لهم من الله –سبحانه وتعالى– والنبي – صلى الله عليه وسلم – يقول: (يغزو جيش الكعبة حتى إذا كانو ببيداء من الأرض خسف بأولهم وآخرهم، قالت عائشة يا رسول الله: كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم، قال: يخسف بأولهم وأخرهم ثم يبعثون على نياتهم) والله تعالى يقول: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥]، فما يصيب البلدان من كوارث من زلازل من خسف من نحو هذا البلاء إنما هو من آيات الله يخوف الله بها عباده كما قال: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء: ٥٩]، وذلك من رحمة الله بالعباد وإن كان الظاهر العذاب، إلا أن هذا العذاب من رحمة الله بالعباد؛ لأن الله –سبحانه وتعالى– يريد أن يذكّر من نجا من هذا العذاب أن يتوب إلى الله ويرجع إليه، وهذا ما ذكره ربنا –سبحانه– في قوله: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة: ٢١]، والعذاب الأكبر هو عذاب يوم القيامة، فمن رحمة الله –تعالى– بالناس أنه يعذبهم في الدنيا بأنواع من البلاء والمصائب ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾ [طه: ١١٣]، فيقلعون عن المعاصي ويندمون عليها ويستغفرون الله –تبارك وتعالى– فيغفر لهم ويرحمهم وينجيهم من عذاب الآخرة، ولعذاب الآخرة أكبر ولعذاب الآخرة أشق؛ ولذلك قال الله –تعالى:- ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف: ١٦٨].

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أريد أن أسأل عن أشياء أولها: الأولى في جواز الدعاء على الظالم، هل ﴿ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَى رَبِّي﴾ هل هذا جواب شرط وفيه صيغة دعاء لفظ ﴿ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾ بأن النبي – صلى الله عليه وسلم – نهي عن الدعاء على الكافرين ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٢٨]، .

نعم، قلنا يجوز الدعاء على الظالم الطاغي الذي طغى بنعمة الله –عز وجل– وأساء بها إلى خلقه الله –سبحانه وتعالى– يجوز الدعاء عليه بزوال نعمته لعله يرجع إلى الله –تعالى– كما حدث مع ذلك الغني الكافر لما زالت

النعمة ندم واستعتب وتمنى أن لم يكن أشرك بربه أحدا، وقد قلنا أن الله –سبحانه وتعالى– حكى عن موسى – عليه السلام – وهارون أنهما دعوا على فرعون وملأه بزوال النعمة، وأما قول الله –تعالى– للنبي – صلى الله عليه وسلم – ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾، ونهي الله تعالى عن الدعاء عن الكافرين فهذه واقعة عين، كان النبي – صلى الله عليه وسلم – أرسل خير أصحابه، كانوا يسمون بالقراء إلى جماعة من العرب يدعونهم إلى الإيمان فغاروا عليهم وقتلوهم فلم يتركوا منهم شيئا، فقنت النبي – صلى الله عليه وسلم –عليهم شهرا يدعو عليهم، وبعد شهر قال له الله –تعالى:– ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ والقول بالجواز لا يستلزم الاستحباب فضلا عن الفرضية إنما هذا جواز، جواز الدعاء على الظالم نفسه بنعمة ما أن تزول لعله أن يتوب إلى الله؛ لأن الغنى أطغاه فلعله إذا زالت النعمة أن يرجع إلى الله – –سبحانه وتعالى– –.

الاستفسار الآخر هل تشبيه الحياة الدنيا بالماء، أم التشبيه كاملا بالماء الذي ﴿ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ المثل كامل، أم المثل على الماء فقط؟

الله –سبحانه وتعالى– شبه الحياة الدنيا بالماء، وليس بالماء وحده ولكن بما يتبع نزول الماء، ﴿ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمً﴾ أن ينزل الماء، فتنبت البذرة فيخرج العود فوق الأرض فيستوى فيحصد وتزول البذرة من الأرض، فهذا مثل الزرع هذا كله هو مثل الحياة الدنيا في عدم بقائها ودوامها.

السؤال الثالث: كان عن حديث الباقيات الصالحات، الأثر الوارد فيه أخرجه الشيخ أحمد شاكر في المسند بإسناد صحيح عن معنى الباقيات الصالحات

إذا صح حديث عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أن الباقيات الصالحات: هي سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فليس هذا الحديث وإن صح يفيد الحصر كما قلت وإنما اللفظ عام، كل الأعمال الصالحة هي الباقيات الصالحات.

السلام عليكم ورحمة الله، كنت أريد أن أقول للشيخ عبد العظيم أنه في أول حلقة ذكر أحد الحاضرين أن هناك مؤلف اسمه الكتاب ودكتور عبد العظيم قال: أنه لا يوجد كتاب اسمه بعنوان الكتاب لكن هناك كتاب لسيبويه كتاب في علم النحو والصرف اسمه الكتاب، وألفه قبل وفاته فأطلق عليه لفظ الكتاب.

جزاكم الله خيرا للتوضيح.

وإياك وهو الآن يدرس في الدراسات العليا في جامعة الأزهر في قسم اللغة العربية.

جزاكم الله خير

هناك استفسار لفضيلة الشيخ أريد أن أعرف أي طبعة للدكتور محمد نسيب الرفاعي.

مختصر ابن كثير لشيخنا محمد نسيب الرفاعي طبعة دار المعارف بالرياض بالمملكة.

الأخ يسأل: هل لا بد تسجيل كل شيء من المحاضرة أم نسجل ما فهمناه من المحاضرة.

أنا أنصح أنه يسجل كل شيء يسجل المحاضرة ويفرغها كتابة ويدرسها إن شاء الله تعالى.

الأخ يسأل: هل أسلم واتعظ صاحب الجنة بعد هلاك جنته؟ وبعد أي نبي حدثت هذه القصة؟

أما بعد أي نبي حدثت، فالله تعالى أعلم في أي زمان كانت هذه القصة، وأما هل أسلم بعد زوال النعمة فهو ندم ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدً﴾ هو ندم على شركه لكن هل دخل في التوحيد الله تعالى أعلم.

الأخت تقول: إذا رأيت ما يعجبني في نفسي ومالي وذريتي أقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله، فإذا رأيت ما يعجبني لدى غيري فماذا أقول.

هو نفس القول قلنا إذا رأيت ما يعجبك من مالك أو ولدك أو أهلك أو على غيره فقل ما شاء الله لا قوة إلا بالله فإن هذه الكلمة تدفع العين بإذن الله.

الأخ يسأل: هل الدعاء على الظالم يكون عند رؤية الظلم أم بعد نصيحة الظالم؟ وهل مهما كان الظالم مسلما أو كافرا يجوز لنا أن ندعو عليه؟

ندعو عليه كما قلت رجاء أن يتوب الله عليه بعد نصحه وتذكيره ووعظه ودعوته إلى الله -عز وجل-، وإلى الإيمان بالله -عز وجل- وإلى الإقلاع عما هو عليه من كبر وطغيان وإفساد في الأرض كما فعل الرجل المؤمن، هو ناظر صاحبه وناظره ودعاه فلما يئس منه دعا عليه بزوال النعمة وكان بهذا الدعاء رجاء أنه يتواضع بعد زوال النعمة؛ لأن من شأن المصائب أنها تهز الإنسان ومن شأن البلاء أنه يوقظ الفطرة الراكدة في قلب الإنسان، ولذلك الإنسان لا يعرف ربه إلا في وقت الشدة كما قال الله -تعالى- عن الكافرين: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، فمن شأن الشدائد أنها توقظ القلب الغافل وتجعل الإنسان يرجع إلى الله تعالى -سبحانه وتعالى-، فالدعاء على الظالم بعد وعظه ودعوته يدعى عليه بزوال النعمة رجاء أن يتواضع ويتوب إلى الله -تعالى- بعد أن يصير فقيرا.

هل يجوز أن يدعو عليه بشر

الدعاء قلنا يدعو عليه بزوال نعمته؛ لأن النعمة هي التي أفسدته، كما قال الله -تعالى:- ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ﴿٦﴾ أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى ﴿٧﴾﴾[العلق: ٦:٧]،فيدعو عليه بزوال النعمة التي أفسدته رجاء أن يصلحه الله -تعالى- بزوالها.

الأخ يقول هل مثل الرجلين مثل واقعي بالفعل، أعتقد في القصة .

الله تعالى قال:- ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا ﴾ قال العلماء: هل هذا المثل وقع وكان هناك رجلين هذا فقير هذا حاله وكان بينهما ما وقع في الصورة أم كان هذا مثلا ضربه الله -تعالى- لا حقيقة له في الواقع؟ اختلف المفسرون في ذلك والله -تعالى- أعلم بالحقيقة، لكننا يهمنا العبرة والعظة والدروس المستفادة من هذا المثل الذي ضربه الله -تعالى- لنا.

ما نوع العقاب الذي وقع على الرجل الكافر في البستان.

نزلت نارمن السماء فأحرقت البستان.

الأخ يسأل: يقال على المظلوم أن يستعين على الظالم بسهام الليل، فما سهام الليل؟

يعني الدعاء عليه في السحر، النبي - صلى الله عليه وسلم - قال (واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب).

الأخ يسأل: قلت جواز الدعاء على الظالم لنفسه بزوال النعمة، فهل نجد ذلك في سنة النبي – صلى الله عليه وسلم–

لا يحضرني الآن مثال النبي – صلى الله عليه وسلم – مثال، لكن تذكرت الآن، أن النبي – صلى الله عليه وسلم – لما استعصت عليه قريش ورفضت الدعوة في أول ميلادها قال: اللهم أعني عليه بسبع كسبع يوسف، ما سبع يوسف؟ السبع سنين الجدب والقحط، فالنبي – صلى الله عليه وسلم –د عا على قريش أن يصيبهم بسبع كسبع يوسف، يصيبهم الجدب والقحط والبلاء لماذا؟ للحكمة التي ذكرناها جواز الدعاء على الظالم بزوال النعمة؛ لعله يتوب إلى الله تعالى، فلما أجدبوا جاءوا النبي – صلى الله عليه وسلم – يسألونه هو أن يدعو الله –تبارك وتعالى– لهم ودعا الله –تبارك وتعالى– لهم.

سؤال يقول: كيف يكون شكر النعمة وما جزاء من يبخل بماله؟

شكر النعمة يكون باستخدامها في طاعة الله –تعالى– أن تستخدم نعمة الله فيما يقربك من الله –سبحانه وتعالى–، أما البخيل فحسبه قول الله –تعالى:– ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ قال النبي – صلى الله عليه وسلم – (من آتاه الله مالا لم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له ذبيبتان يأخذ بلهزمتيه –أي شدقيه– ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك ثم تلا هذه الآية.)

أيهما أولى الدعاء بالهداية أو الدعاء عليه، ولو كان الظالم مسلما كيف يكون الدعاء عليه وهناك ملك يقول ولك مثل ذلك.

يجب أن نقول إن الدعاء على الظالم جائزا لكن يجب أن نتعلم من هدي السلف أن نكون منصفين في دعائنا، سعد بن أبي وقاص لما شكاه أهل الكوفة أنه يفعل ويفعل ولا يحسن أن يصلى، بعث عمر – رضي الله عنه – إلى الكوفة من يتحرى عن هذه الأخبار ومدى صحتها، فدخل الرجل المساجد كلها في الكوفة فأثنو على سعد خيرا، فدخل مسجد وسئل، فقال رجل أما وقد نشدتنا بالله فإن سعدا يفعل ويفعل وسعد بريء، انتبه إلى ما أقول من الإنصاف في الدعاء على الظالم، لم يدع سعد على هذا الإنسان الذي اتهمه مجرد الدعاء أو مطلق الدعاء وإنما قام فقال:"اللهم إن كنت تعلم أن عبد ك هذا قام مقام رياء وسمعة وقد ظلمني بما قال فافعل به وافعل" فاستجاب الله دعوة سعد – رضي الله عنه – فهذا من أدب الإنصاف إذا أردت أن تدعو على من ظلمك، فربما تظن أنه ظلمك ولم يظلمك، فكن منصفا وقل: اللهم إن كان فلان ظلمني فافعل به وافعل، فإذا لم تصادف الدعوة محلا لا ترجع إليك؛ لأن الدعوة إذا خرجت فلم توافق محلا رجعت على الداعي فتعلم الإنصاف في دعائك حتى تسلم بإذن الله –تعالى:–

إن الغني إذا رزقه ربه يجب عليه أن يعرف كيف ينفق ماله، والفقير إذا لم يعطه فيصبر على هذه لكي يحصل على الأخرة إن شاء الله، وهل للدعاء على المسلم ما للدعاء على الظالم.

الدعاء على الكافر جائز كما شرحنا والدعاء على الظالم المسلم أيضا جائز بما قيدناه.

كيف نحسن التوفيق بين قوله تعالى: ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ [القصص: ٧٧]،.

لو أذن لنا أن نقول: بقول بعض السلف أن ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ أن نصيبك من الدنيا هو ما ينفعك في الآخرة، وليس على ظاهره أنه حظوظك من الدنيا وشهواتك، لكن لو نزلنا نقول: احرص على ما ينفعك ولا

تنس نصيبك من الدنيا، فالدعوة إلى الزهد والدعوة إلى إيثار الآخرة، ليست معناها دعوة إلى ترك الدنيا بالكلية والإعراض عنها، ولكنها دعوة إلى أن نعيش كما كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يعيش، كان إذا وجد أكل شبع وكان إذا فقد صبر واحتسب ولم يكن يتكلف غير الموجود، – صلى الله عليه وسلم – فإذًا ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ يعنى خذ من الدنيا ما أباح الله لك ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾[الأعراف: ٣٢]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾[المائدة:٨٧:٨٨]، ومع ذلك اعلم أنه ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ [مريم: ٧].

في قول الله تعالى ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَ﴾ فما زينة من لا يملك مالا ولا بنون في هذه الحياة؟

قال الله تعالى ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآَبِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾[آل عمران: ١٤:١٥]، وتكفيهم هذه العندية للذين اتقوا عند ربهم الذين لم يعطوا من زينة الدنيا شيئا ﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آَمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾[آل عمران: ١٥-١٧]، نسأل الله –تعالى– أن يجعلنا منهم.

سؤال يقول: نرجو التكرم بإعادة أمثلة تشبه الدنيا بالماء وكثرت الأسئلة في هذه الجزئية.

قلنا ذكر العلماء والمفسرون ومنهم القرطبي –رحمه الله– في تفسيره، لماذا شبهت الدنيا بالماء قالوا: هناك وجوه شبه كثيرة.

أولاً: لأن الماء لا يستقر في مكان، وكذلك الدنيا لا تستقر عند إنسان.

ثانياً: الماء لا يثبت على حال، وكذلك الدنيا، دوام الحال من المحال.

ثالثاً: من دخل الماء ابتل، وكذلك من دخل الدنيا لم يخرج منها سالما.

وأخيراً: الماء إذا كان بقدر نفع، وإذا زاد عن قدره ضر، الطوفان أغرق الله –تعالى– به أمة كاملة، وأنجى نوحا ومن آمن به، فالماء إذا كان بقدر نفع وإذا زاد عن قدره ضر، وكذلك الدنيا كلما كان رزق الإنسان فيها كفافا وقوتا، كلما كان ذلك أقرب إلى سلامته ونجاته، وكلما فتحت الدنيا على الإنسان، كلما كان قريبا من الهلاك والضياع، لأنه لا ينجو مع كثرة المال إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم، لأن الله حكم على عامة الناس ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ﴿٦﴾أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى ﴿٧﴾﴾[العلق: ٦:٧].

هل يجوز أن يدعوا الإنسان على من ظلمه أمام الناس أم بينه وبين نفسه وهل يجوز التشهير به؛ لأنه يظن أنه ظلمه،وقد لا يكون ظلمه.

وقالت: إنه يظن أنه ظلمه وهو لم يظلمه، وأعود فأقوله في حق سعد بن أبي وقاص –رضي الله عنه– أنه قال: "اللهم إن كان عبدك هذا ظلمني، وقام مقام رياء وسمعة فافعل به وافعل" فحتى يكون الإنسان منصفا ويسلم

من عودة الدعوة عليه أن يقول: اللهم إن كان فلان قد ظلمني وهذا جائز وإن كان الأولى والأفضل والمستحب الصبر ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾[آل عمران: ١٤٣]، وعن مسألة التشهير.

أما التشهير فلا يجوز التشهير بالناس ولا يجوز تجريحهم ولا يجوز أن يغتابوا بما يسيئهم إلا للمصلحة والضرورة، هند بنت عتبة قالت: " يارسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح، أفيجوز أن آخذ من ماله ما يكفيني وولدي" فوصفته بالبخل والشح فهذا جهرت به من أجل المصلحة، فغيبة الناس لا تجوز إلى لمصالح ومنها هو هذا السؤال الذي ذكرناه كمثال عن هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان.

السؤال الثاني: عندما تقول: أحد المسلمات أن الله ابتلاني بكذا وكذا أقول لها: هذا الابتلاء للمؤمنين والصالحين فلا بد أن نعتبر أن هذا عقابنا على ذنوبنا فهل أنا مخطئة بكلامي هذا أم غير مخطئة.

نحن لا نقول أن الابتلاء جزاء مكافأة أو لا يكون البلاء جزاء ومكافأة، الله يكافؤنا بالعافية ويكافؤنا بالنعيم في الدنيا والآخرة إن شاء الله ، أما الابتلاء يكون بذنوبنا حتى نرجع إلى ربنا ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾[الأعراف: ١٦٨]، ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾[الأنبياء: ٣٥]،

هل يمكن أن نقول: أن الباقيات الصالحات هي العبادة بالرجوع إلى تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– للعبادة بقوله أن العبادة قول جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال الظاهرة والباطنة .

هي عممت ما عممناه فهي تشاركنا الرأي في أن الباقيات الصالحات عامة في كل عبادة يحبها الله تعالى في الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

ما معنى هشيما؟

العود الأخضر إذا يبس صار ضعيفا هشا لا وزن له قال تعالى ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾ ﴾[الأعلى: ١–٥].

هل عندما يرزق الإنسان بالمال والأولاد مع الشكر الدائم يكون هذا من نعم الله في الدني؟

لا شك أن الله –سبحانه وتعالى– إذا أنعم على الإنسان بالمال والبنين، ثم وفقه للشكر لا شك أن هذه من أجل النعم، والنبي – صلى الله عليه وسلم – يقول: (لا بأس بالغنى لمن اتقى، والعافية خير من الغنى) ويقول: (نعم المال الصالح للرجل الصالح) فإذا رزق الإنسان المال والبنين ووفق لشكر الله تعالى فالله تعالى أنعم عليه من النعم الدينية والدنيوية معا.

هل إذا رأى الإنسان من النعم الحسنة يقول اللهم – صلى الله عليه وسلم – يجزيء عن قول ما شاء الله أو لا يجزيء

الأذكار توقيفية ابن عمر سمع رجلا يقول في موضع أتى بذكر غير الذكر المشروع في هذا المكان فنهاه عن ذلك، فالأذكار توقيفية كل ذلك يقال في مناسبة، فكلمة الصلاة على النبي محمد عند رؤية الشيء لم نقرأها في حديث مرفوع ولا أثر موقوف، فينبغي الوقوف على ما ذكرناه ما شاء الله ولا قوة إلا بالله.

كيف تكون الأرض بارزة؟

لما زالت جبالها صارت بارزة لا تخفي شيئا ولا يخفى منها شيء.

هل المقصود بالبنين الأولاد والبنات؟

لا، البنين المعلوم أن البنين هم الذكور وإنما خص الله -سبحانه وتعالى- اللفظ بالبنين؛ لأنه معلوم طبيعة الناس في حب الذكور من الجنسين، فالمال والبنون المراد بالبنين الذكور من الأولاد.

الدعوة على الكافر باللعنة وإذا كان يجوز هل يكون بالفرد أو العموم؟

نحن ننصح المسلم ألا يكون لعانا وأن يكون مهذبا ولا يخرج منه إلا الطيب، فإذا لعن فلا يعين وإنما يقول: لعنة الله على الكافرين، لعنة الله على الظالمين، كما قال الله في كتابه: ﴿ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾[البقرة: ٨٩]، ﴿ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾[الأعراف: ٤٤]، لأن المعين لا يدرى بما يختم له لعله يرزق التوبة قبل الممات.

بماذا تنصح من كان معلما لمادة التفسير لطلاب المرحلة الثانوية سواء في التحضير أو الشرح أو التدريس؟

الأخ أيمن من المملكة جزاهم الله خيرا ونحن على يقين أن مادة التفسير عندهم وضعها علماء أجلاء معتبرون، فننصحه أن يعتمد على ما كتب له في المقرر، وأن يلتزم به وإن شاء الزيادة إذا أراد أن يضيف معلومات زائدة عن المقرر فليرجع إلى مختصر ابن كثير الذي نبهن عليه مرارا وإلى محاسن التأويل للقاسمي، وإلى تفسير العلامة السعدي رحمة الله عليه.

هل يمكن القول بأن الله أراد بهذا الظالم خيرا لأنه عجل له العقوبة في الدنيا

إن كان قد أسلم وآمن بالله -عز وجل- ودخل في التوحيد فلا شك أن البلاء كان خيرا له .

هل تحتوى بعض التفاسير على أحاديث غير صحيحة؟

لا شك في ذلك أكثر كتب الأحاديث فيها أحاديث غير صحيحة؛ ولذلك ننصح من يقرأ في كتب التفاسير أن لا يعتمد على مجرد وجود الحديث في الكتاب وإنما يرجع إلى المحدثين المعتبرين ويرى حكمهم على هذا الحديث.

هل عندما نرى ما يعجبنا هل نقول: الآية ما شاء الله لا قوة إلا بالله أم نقول ما ورد في السنة اللهم بارك لهم .

أنا لا أعلم الحديث الذي ذكره اللهم بارك لهم، فإن كان هو قد اطلع عليه وصح عنده؛ فنقول: ما جاء في الكتاب وفي السنة.

كيف استنتج الرجل الصالح كفر صاحب الجنة

الرجل صرح بكفره قال: ﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾هذا إنكار لليوم الآخر والكفر باليوم الآخر كفر بالله -عز وجل-، ﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾﴾[الرعد: ٥].

هل يمكن شرح آية ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ﴾فما الولاية؟.

الولاء ضد البراء، الكافرون تبرأوا من الله -عز وجل-، وتولوا ما كانوا يعبدون من دون الله، فحين ينزل بهم عذاب الله في الدنيا ويرون من تولهم لا ينفعوهم، حينئذ يتبرءون من الذين تولهم، ويثبتون الولاية لله -تعـالى- كما قال -تعالى:- ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [غافر: ٨٤].

إذا كان قوم فاسقون ولا تملك أن تغير ما بهم أو وقع منك تقصير وأتاهم عذاب من الله وأنت معهـم فكيـف تكون عاقبتك في الآخرة.

كما شرحنا في حديث عائشة (ثم يبعثون على نياتهم) إذا نزل البلاء فعم المذنبين وغير المذنبين عم الصالحين وعم الطالحين، عم المصلحين والمفسدين، فإنهم يموتون جميعا ثم يوم القيامة يتميزون يبعثون على نياتهم.

من قوله تعالى "ويوم نسير الجبال"

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم مرحبا بكم في هذا اللقاء الجديد من دروس تفسير سورة الكهف، و الآيات التي معنا منها هذه الساعة المباركة – إن شاء الله تعالى- تضمنت من المعاني ما يلي:

أولاً: أهوال يوم القيامة .

ثانياً: التحذير من التهاون بصغائر الذنوب.

ثالثاً: التحذير من موالاة الشيطان.

رابعاً: ثبوت التوحيد وبطلان الشرك .

خامساً: ما يجوز من الجدال وما لا يجوز .

سادساً: التحذير من الإعراض عن القرآن الكريم .

سابعاً: وربك الغفور ذو الرحمة .

وأخيراً: وجوب الاعتبار بهلاك الظالمين .

وهذا بإيجاز عرض سريع لأهم ما تضمنته الآيات المباركات التي معنا من سورة الكهف من المعاني والتي سنعيش معها ساعتنا هذه إن شاء الله تعالى، فلنستمع إلى هذه الآيات المباركات أولا قبل الخوض في تفاصيلها، سائلين الله عز وجل أن ينجز لنا ما وعدنا حيث قال: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[الأعراف: ٢٠٤]

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ

الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آَيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُـــزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآَيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُـــوهُ وَفِي آَذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾[الكهف:٤٧-٥٩].

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آَيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[ص: ٢٩].

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآَنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَـــضْرِبُهَا لِلنَّـــاسِ لَعَلَّهُـــمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُـــوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣].

إخوة الإسلام لما ذكر الله – تبارك وتعالى – فناء الدنيا وزوالها، ورغب في الباقيات الصالحات التي تنفع في الآخرة، أتبع ذلك بذكر أهوال يوم القيامة التي لا ينفع فيها مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم فقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ وتسيير الجبال من أماكنها بعد ثبوتها واستقرارها يكون يوم القيامة بعد النفخ في الصور، كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ [النمل:٨٧-٨٨].

قال تعالى ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً ﴿١٠﴾﴾[الطور:١٠] .

وقال تعالى ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٤﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّـــةً وَاحِـــدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾ [الحاقة:١٣-١٥].

فإذا وقعت الواقعة ماذا يحدث للجبال وللأرض وما عليها ؟

قال تعالى: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّـــا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ﴿٦﴾ ﴾[الواقعة:١-٦].

وقال تعالى: ﴿ وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً ﴿١٠٥٤﴾ فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً ﴿١٠٦﴾ لا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً ﴿١٠٧﴾﴾[طـــه:١٠٥-١٠٧].

وكذلك قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ ليس عليها ما يكنُّ، وليس عليها ما يـــوارى، وليس عليها ما يستر، لماذا؟ ﴿ وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً ﴿١٠٥﴾ فَيَـــذَرُهَا قَاعـــاً صَفْـــصَفاً ﴿١٠٦﴾ لا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً ﴿١٠٧﴾﴾ فظهر كل ما عليها ولم يجد شيءٌ شيئاً يستتر وراءه ويختبئ فيه.

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾

الحشر معناه: الجمع، وحشرناهم: أي جمعناهم بعد البعث بعد النفخ في الصور، جمعناهم أجمعين فلم نتـــرك منهم أحداً .

كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾[الواقعة:٤٩-٥٠].

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾[التغابن:٩].

حتى إن الله - سبحانه وتعالى - يحشر البهائم والدواب والطيور، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾[التكوير:٥] .

وقال تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾[الأنعام:٣٨] .

﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا ﴾ هذه المليارات من البشر منذ أن نزل آدم إلى الأرض إلى آخر نفس قامت عليها الساعة حشرت وجمعت في أرض واحدة بارزة، فكيف يسيرون؟ وكيف يمشون؟ وأنت ترى المئات من الناس يخرجون من المسجد يوم الجمعة في زحام متفرقين أوزاعاً متفرقين، هذا هكذا، وهذا هكذا، وهذا للناحية هذه، وهذا للناحية الأخرى، فيه هرج ومرج، فيه مئات من البشر يخرجون من مكان واحد مثلاً يوم الجمعة، فكيف يكون الناس يوم القيامة؟! كلهم أجمعون مليارات من البشر، كيف يخرجون من الأجداث سراعاً؟! وكيف يقفون في أرض المحشر ؟!

قال تعالى: ﴿ وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا ﴾ فهناك ترتيب وهناك نظام ﴿ وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا ﴾ قال تعالى: ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر:٢١-٢٢].

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفّاً ﴾[النبأ:٣٨].

﴿ وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً ﴾[الكهف:٤٨]، هذا تبكيت وتوبيخ للكفرة الفجرة الذين زعموا أنه لا قيام ولا بعث ولا حساب ولا جزاء ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ﴾[التغابن:٧]، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ﴾[سبأ:٣].

وبالغوا في الجرأة والوقاحة؛ فأقسموا بالله على ذلك ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ﴾[النحل:٣٨] .

فالله - تبارك وتعالى - يقول لهم توبيخاً وتبكيتاً على رؤوس الأشهاد، وقد حشروا وجمعوا، وصار الحشر والجمع رأس العيان يقول لهم: ﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ هذا التشبيه ﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ يعني كما أنشأناكم أول مرة، فنحن قد أنشأناكم النشأة الآخرة، كما قال - تبارك وتعالى - ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ ﴾[الواقعة:٦٢] .

فتعلمون أن الذي أنشأكم أول مرة قادر على أن ينشأكم مرة ثانية ﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ [الانبياء: ١٠٤] ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[الروم:٢٧] .

لقد خلقناكم أي للنشأة الثانية كما خلقناكم في النشأة الأولى، ﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ وجئتمونا كما أخرجناكم من بطون أمهاتكم لأول مرة، خرج الإنسان من بطن أمه لا يملك شيئاً، بل ليس عليه كساء يستر عورته، وكذلك يخرج من بطن الأرض يوم القيامة كما خرج من بطن أمه إلى الدنيا، إنكم محشورون إلى الله

تعالى يوم القيامة حفاة عراة غرلاً كما بدأنا أول خلق نعيده، وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم – عليه السلام –.

﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾ .

فقد كذبتم في زعمكم هذا، وتبين لكم أنكم كنتم كاذبين، فالله – سبحانه وتعالى – وعدكم أن ينشأكم النشأة الآخرة، وها هو – سبحانه وتعالى – قد أنشأكم النشأة الآخرة، وجمعكم في أرض المحشر أجمعين ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾[المرسلات:٣٨-٤٠] .

﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ والمراد به كتاب الأعمال؛ لأن الله – سبحانه وتعالى – وكل بكل إنسان كراماً كاتبين: ملكان عن اليمين وعن الشمال يكتبان أعمال الإنسان من خير أو شر، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَاماً كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[الانفطار:١٠-١٢]، وقال تعال ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴾[القمر:٥٣]، وقال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾[يّس:١٢] .

﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ يعني كتاب الأعمال، يقول الحسن البصري: يا ابن آدم بسطت لك صحيفة، ووكل لك ملكان كريمان: أحدهما: عن يمينك يكتب حسناتك، والآخر: عن شمالك يكتب سيئاتك، فإذا مت طويت صحيفتك، وجعلت معك في عنقك تلقاها يوم القيامة كتابا منشورا، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا.

﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ ﴾ الظالمين الكافرين المشركين ﴿ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ ﴾ خائفين ﴿ مِمَّا فِيهِ ﴾ أي مما رأوه في هذا الكتاب ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ ﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا ﴾ أي ويلة تأنيث الويل، والويل هو الهلاك والموت، فلما رأوا مصيرهم وعاينوا قدر الله فيهم من العذاب المهين؛ دعوا على الهلاك أن يحضرهم، ودعوا على الموت أن يحضرهم؛ حتى يموتوا قبل أن يصيروا إلى ما ينتظرهم من العذاب المهين في الجحيم والعياذ بالله، كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ ﴾[الحاقة:٢٥-٢٧] كانت الموتى التي لا بعث بعدها ولا حساب ولا جزاء .

﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا ﴾ احضري فهذا أوانك خلصينا مما ينتظرنا من العذاب المهين .

﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾.

قال بعض السلف : لم يشتكوا ظلما وإنما اشتكوا الإحصاء، لم يشتكوا ظلما؛ لأن الله لم يظلم مثقال ذرة، وإنما اشتكوا من الإحصاء: أن هذا الكتاب قد أحصى أعمالهم، وأقوالهم وعدها عداً، حتى إنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

قال الفضيل بن عياض رحمه الله : ضجوا من الصغائر قبل الكبائر، فقالوا: ﴿ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾.

والذنوب قسمان: صغائر، وكبائر. والكبائر: جمع كبيرة، والكبيرة ما ترتب عليها حد في الدنيا، أو عقوبة في الآخرة، فالزنا كبيرة، قال الله تعالى: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾[النور:٢]، وقذف

المحصنات الغافلات المؤمنات كبيرة ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾[النور:٤]، والسرقة كبيرة ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾[المائدة:٣٨]. فهذه الكبائر؛ لأنه ترتب عليها حد في الدنيا، والقتل كبيرة قال الله تعالى ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾[النساء:٩٣].

فالكبيرة: ما ترتب عليه حد في الدنيا أو عقوبة في الآخرة .

والصغيرة: ضد الكبيرة ما لم يترتب عليه حد في الدنيا ولا عقوبة في الآخرة.

والصغائر: أشد ضرراً على الإنسان من الكبائر، صغائر الذنوب أشد ضرراً على الإنسان من كبائر الذنوب، لماذا؟

لأن المسلم بالفطرة مهما كان به من فسوق، ومهما كان به من عصيان، إلا أنه يحذر الكبائر ويخافها، وإذا ارتكبها كانت مرات ارتكابها معدودة، فإذا زنا كان هذا الذنب منه معدوداً، وإذا سرق كان الذنب معدودا، والقتل قد لا يوجد أصلاً، وإذا حدث كان أقل من الزنا والسرقة؛ لأن النفس المسلمة بفطرتها تحذر الكبائر وتخاف كبيرة، أعوذ بالله يحجم عنها ولا يقع فيها، ولا أن يلم بها لمة .

أما الصغائر: فالإنسان يستهين بها ولا يحذرها كما يحذر الكبائر، فيتكلم بالكلمة فتقول له: اتق الله هذا لا يجوز، يقول لك الله – سبحانه وتعالى – قال: ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾[النساء:٣١]، ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾[النجم:٣٢] فهذا من اللمم لا حرج علينا فيه، فهو يستهين بالصغائر ولا يحذرها كما يحذر الكبائر فيسرف منها، ويكثر منها، فتجتمع عليه هذه الصغائر التي استهان بها حتى تهلكه والعياذ بالله .

ولقد ضرب – النبي صلى الله عليه وسلم – للصحابة مثلاً قال: (إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه) ثم ضرب مثلاً فقال: كقوم مسافرين أرادوا أن ينضجوا طعامهم، فذهب هذا فجاء بعود، وذهب هذا فجاء بعود، وذهب الثالث فجاء بعود، فجمعوا من العود الواحد عيدان كثيرة وحطباً كثيراً فأوقدوا ناراً وأنضجوا طعامهم .

فكذلك الصغائر ذنب بعد ذنب تكثر هذه الصغائر فتجتمع على الرجل حتى تهلكه والعياذ بالله؛ ولذلك قال الشاعر الحكيم موصياً بترك المعاصي كلها صغيرها وكبيرها قال:

خل الذنوب صغيره وكبيرها ذاك التقي

خل الذنوب، اترك الذنوب صغيرها وكبيرها لا تنظر إلى صغر الذنب، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت، هذا ذنب صغير، ولكن أنت بارتكابك هذا الذنب الصغير خالفت أمر من ؟

خالفت أمر العلي العظيم – سبحانه وتعالى – فكفاك بهذا .

فخل الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى

واصنع كماش فوق أرض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

هذه الجدران في العمارات، الجدار الذي يكون عشرون متراً وثلاثون وأربعون، هذا الجدار الطويل العالي أصله طوبة واحدة ارتفاعها عشرة سم وضعت طوبة فوق طوبة فوق طوبة فتكون منها هذا الجدار العالي المرتفع، وكذلك الصغائر صغيرة فوق صغيرة تكثر وتكبر؛ تسود بها الصحيفة، ويسود منها الوجه يوم القيامة والعياذ بالله، وقد ضرب العلماء للصغائر مثلاً فقالوا:

لو أنك تركت حنفية المياه لم تحكم إغلاقها سينزل الماء من هذه الحنفية قطرة قطرة، فلو أنك تركت هذه الحنفية على هذا الوضع تقطر قطرة بعد قطرة فجئت بعد أسبوعين أو ثلاثة ونظرت في البلاط الحجر الصلب، الذي تحت هذه الحنفية لوجدت هذه النقطة مع تكرارها أثرت في الحجر وخذقته وخرمته، في حين أنك لو جئت بخزان ماء مترين مكعب أو متر مكعب ثم صببته مرة واحدة على البلاط لم يؤثر فيه، وكذلك الكبائر يلم بها الإنسان لماً ثم يقلع عنها .

أما الصغائر فلأنه لا يحذرها ويستهين منها فيسرف فيها فتكثر عليه فتجتمع عليه حتى تهلكه والعياذ بالله، فيجب على كل مسلم أن يحذر من الصغائر أن يحذر من التهاون بها :

فخل الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى

واصنع كماش فوق أرض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً ﴾ [الكهف:٤٩].

وقال ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ ﴾[آل عمران:٣٠].

وقال – سبحانه وتعالى – في الحديث القدسي (يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)

﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾.

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾[فصلت: ٤٦] .

في الحديث القدسي أن الله تعالى قال (يا عبادي إن حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً) .

﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ بلا زيادة ولا نقصان ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ﴾[النساء:٤٠] .

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾[الانبياء:٤٧].

ولذلك قال لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾[لقمان:١٦].

وفي الحديث عن أنس عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: (إن الله تعالى سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعين سجلا، كل سجل منها مثل مد البصر)، هذه سجلات الذنوب الخطايا والسيئات التي كتبتها الملائكة، هذا هو كتاب الأعمال .

(إن الله تعالى سيخلص رجلاً من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعين سجلا، كل سجل منها مثل مد البصر فيقول أتنكر من هذا شيئا) هل رأيت في هذا الكتاب زيادة؟ أتنكر من هذا شيئا، أظلمك كتبتي الحافظون فكتبوا عليك ما لم تقل أو تعمل زادو أو نقصوا؟ أتنكر من هذا شيئاً؟ (أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب) اسمع (فيقول: ألك عذر أو حسنة؟ فيقول: لا يا رب) والشاهد هو اللآتي (فيقول: تعالى بلى، إن لك عندنا حسنة، فتخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، – صلى الله عليه وسلم – فيقال: احضر وزنك، فيقول: يا رب وما تغني هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنه لا ظلم عليك، احضر وزنك) قال – صلى الله عليه وسلم – (فوضعت البطاقة في كفة والسجلات في كفة فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله تعالى شيء) .

وفى هذه المعاني يقول الشاعر الحكيم :

مثل وقوفك يوم الحشر عريان مستوحشاً قلق الأحشاء حيران

واقرأ كتابك يا عبدي على مهل فهل ترى فيه حرفاً غير ما كان

لما قرأت ولم تنكر قراءته إقرار من عرف الأشياء عرفان

نادى الجليل خذوه يا ملائكتي وامضوا بعبد عصى للنار عطشان

المشركون غداً في النار يلتهبوا والمؤمنون لدار الخلد سكان

﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً ﴾[الكهف:٤٩] بلا زيادة ولا نقص ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ .

ثم يقول تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ واذكر يا نبينا إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم سجود احترام وإجلال وتحية وتقدير ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ لأن الملائكة وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[التحريم: ٦] اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يسجد؛ لأنه لم يكن من الملائكة، إنما كما قال تعالى ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ﴾ فهو عالم غير عالم الملائكة، فرق النبي – صلى الله عليه وسلم – بين العالمين: عالم الملائكة، وعالم الجن، فقال: (خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم) فإبليس لم يكن من الملائكة، إنما كما قال ربنا كان من الجن ففسق أي خرج عن أمر الله – تبارك وتعالى – ولم يطع الله – تبارك وتعالى – أبى واستكبر وكان من الكافرين كان من الجن فخانه أصله وغلب عليه طبعه، ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾[الأعراف: ١٢] .

﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ قد يقول قائل فإذا كان إبليس من الجن ولم يكن من الملائكة فلماذا عذبه الله تعالى على ترك السجود لآدم والأمر كان للملائكة، ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ فلماذا عذب الله تعالى إبليس على ترك السجود لآدم وهو من الجن كما قال تعالى وليس من الملائكة؟ الجواب: الله – سبحانه وتعالى – قال لإبليس ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾[الأعراف:١٢] إذاً كان هناك أمر لأبليس،

سواء كان هذا الأمر أمراً خاصاً به: يعني أمر الله الملائكة أمراً عاماً وأمر إبليس أمراً خاصاً، فالله صرح بقوله ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ أو يكون لما كان إبليس من الجن كان مقيماً مع الملائكة في العالم العلوي وكان يعبد الله – تبارك وتعالى – ويسبح بحمد الله كما تعبد الملائكة وتسبح بحمد الله – عزّ وجلّ – والإنسان إذا وجد في بيئة ولو كان غريباً عليها وأجنبياً عنها إلا أنه يجب عليه أن يحترم الأوامر والقوانين والأنظمة التي تطبق على هذه البيئة التي يعيش فيها.

نحن الآن في هذا الزمان وفى هذا العصر، سافر البشر أسفاراً كثيرة واختطلت الجنسيات بعضها ببعض في أراض مختلفة، فلو أن أجنبياً يقيم في وطن غير وطنه، هل يجوز له أن يخالف الأنظمة والقوانين والأوامر بحجة أنه غريب ؟ أم يجب عليه ما دام يقيم فوق أرض هذا الوطن أن يحترم أنظمته وقوانينه وينفذ تعليماته ؟ الثاني هو الصواب: أن من وجد فوق أرض في بيئة غير بيئته كان غريباً عليها وليس منها إلا أنه احتراماً لهذا الوطن، واحتراماً لهذا البلد؛ يجب عليه أن يحترم أنظمته وتعاليمه وقوانينه، فإبليس لم يكن من الملائكة كان من الجن، لكنه كان معهم في العالم العلوي فلو فرضنا أن الله لم يخصه بأمر كان الأمر للملائكة أمر له .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ ﴾ أي خرج عن أمر ربه وعصى الله تعالى ولم يطعه بالسجود لآدم، فمن هنا ظهرت عداوة إبليس لربنا بارينا، كما ظهرت عداوته لآدم أبينا، فهل يليق بنا أن نوالي عدو ربنا ؟! وهل يليق بنا أن نوالي عدو أبينا؟!

إن إبليس حين أبى أن يسجد لأبينا آدم أظهر بذلك عداوته لله بارينا، وأظهر عداوته لآدم أبينا، فلا يجوز أن نواليه بعد أن عادانا، ومع ذلك فإن خلقاً كثيرين من بني آدم قد تولوا الشيطان، ولم يتولوا الله الرحمن، فالله ينكر عليهم هذه الولاية فيقول: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ أتوالون الشيطان وهو عدو لكم عدو ربكم وعدو أبيكم أتوالونه؟ ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ بئس البدل بدل الظالمين الكافرين الذين استبدلوه، استبدلوا ولاية الشيطان بولاية الرحمن فتولوا الشيطان وتبرأوا من الرحمن – سبحانه وتعالى – بئس للظالمين بدلا .

ثم يقول تعالى في إنكاره على أولياء الشيطان وعبّاده لما تعبدون الشيطان من دون الله ؟ و لما تتولون الشيطان من دون الرحمن ؟ ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ إن الإله الحق الذي يجب أن يفرد بالعبادة هو الذي خلق فسوى وقدر فهدى، الله يقول: ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ لم يكن الشيطان موجوداً أصلاً حين خلق الله تعالى السماوات والأرض، لم يشهد خلقهما فضلاً عن أن يخلقهما هو ابتداء أو أن يشترك في خلقهما؛ لأنه حين خلق الله السماوات والأرض لم يكن إبليس أصلاً موجوداً، فكيف توالون الشيطان ؟ توالون المخلوق وتعادون الخالق ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾[النحل:١٧] .

ولذلك قال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾[الأنعام:١] يعني الله – سبحانه وتعالى – خلق السماوات والأرض وحده، وجعل الظلمات والنور وحده، ومع ذلك أبى الظالمون إلا كفورا؛ فسووا المخلوق بالخالق في العبادة والمحبة والتوكل والإنابة وغير ذلك، عبدوهم كما يعبدون الله كيف عبدتم من لا يخلق ؟ ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾؛ ولذلك يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ ربكم من ﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أي وخلق الذين من قبلكم اعبدوه؛ لعلكم تتقون؛ لأنه الذي خلقكم وهو الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً في العبادة وأنتم تعلمون أنه لا ند له في الخلق .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾[فاطر:٤٠].﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾[لقمان:١١] فاعبدوا الله وحده ولا تعبدوا غيره؛ لأن كل ما سوى الله مخلوق مملوك مربوب لله – سبحانه وتعالى – ولا يمكن أن يسوى المخلوق بخالقه أبدا ﴿

أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم:٤٠] .

فقوله تعالى ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾[الكهف:٥١] يعني أن الشيطان الذين توليتموه من دون الله لم يخلق السماوات والأرض، ولم يخلق نفسه فضلاً عن أن يخلق غيره؛ فهو لا يستحق العبادة أبداً، ولا يستحق العبادة غيره. لا إله إلا الله أي لا معبود بحق إلا الله.

﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾

أصل العضد: هو المسافة ما بين المرفق إلى الكتف، هذا يسمى عضد، وهذا العضد هو القوة والبأس والشدة في عضده، فاستعير العضد وهو محل القوة إلى المعين والنصير، فمعنى قوله تعالى ﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾: أي أعواناً و نصراء، لم أتخذ منهم معيناً ولا نصيراً.

﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾ واذكر يا نبينا يوم يقول الله تعالى للمشركين: نادوا شركائي الذين زعمتم، لقد زعمتم أن لله شركاء وكنتم تعبدونهم في الدنيا رجاء أن ينفعوكم في الآخرة، فها أنتم الآن في دار الآخرة أنتم أحوج ما تكونون إلى شركائكم الذين زعمتموهم لله – تبارك وتعالى – فالآن ادعوهم استغيثوا بهم ليغيثوكم الآن ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ والله – سبحانه وتعالى – قد أخبرهم في الدنيا أنهم لن يستجيبوا لهم في الدنيا ولا في الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾[الاحقاف:٥-٦]. وقال تعالى ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّىً ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾[فاطر:١٤].

فيا أيها المسلم إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وإذا دعوت فادعو الله، ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك، فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين أي المشركين، إذا دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك، إذا سألت غير الله ما لا يقدر عليه إلا الله إذا سألت المخلوقين أو الأموات أشياء لا يملكونها فقد أشركت بالله – سبحانه وتعالى – ﴿ وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[يونس:١٠٦] أي من المشركين .

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ ولم يغيثوهم، ولم يعطوهم ما سألوا، ولم يحققوا لهم ما كانوا يرجون من الشفاعة عند الله – سبحانه وتعالى – وتقريبهم عند الله زلفى، وجعلنا بينهم: بين الشركاء وشركائهم، بين المشركين وشركائهم ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴾ الموبق: اسم مكان موبقا أي مهلكاً. (اجتنبوا السبع الموبقات) أي المهلكات.

قال بعض المفسرين: المراد بالموبق ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴾ واد واسع من النار تسيل النار من حافتيه: يعني فرق الله – تبارك وتعالى – وباعد بين المشركين وشركائهم بعد المشرق والمغرب، فجعل بينهم موبقا: أي مهلكاً واد من النار واسع عميق مليء من النار، فلا يمكن لشركائهم أن يعبروا إليهم؛ ليخلصوهم، ولا يمكن لهم أن يعبروا إلى شركائهم؛ لينفعوهم ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾

﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾[الشعراء:٩١] ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً ﴾[الكهف:١٠٠] .

فلما رأوها ظنوا، والظن هنا ليس معناه الشك والتردد، وإنما هو بمعنى اليقين والجزم ﴿ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ ينصرفون إليه ويهربون منها إليه لم يجدوا ولا موئلا ولا ملجأ يلجأون إليه فراراً من عذاب الله – عزّ وجلّ – .

فمن أراد أن يفر من عذاب الله؛ فليفر في الدنيا إلى الله – تبارك وتعالى – ولذلك قال – تبارك وتعالى – ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴾[الشورى:٤٧].﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ [الذريات:٥٠-٥١]. ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ .

هذا والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجميعن.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، سؤالي هو: معروف أن سيدنا محمدا – صلى الله عليه وسلم – لم يرَ ربنا لما طلع إلى الله قال (نور أنى أراه) وسيدنا موسى لما طلب من ربنا رؤيته، قال: انظر إلى الجبل الآية، السؤال إبليس الحوار الذي بينه وبين الله هل هو حوار نفسي أم تم رؤية بينه وبين الله مواجهة ؟

لم نقرأ أن هذا كان كفاحاً يعني ليس من وراء حجاب، وعلى أي حال كان هذا في العالم العلوي قبل نزول آدم وإبليس إلى الأرض، فالله – تبارك وتعالى – أعلم .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، عندي سؤالين وعندي استفسار، السؤال الأول: هل الأنبياء يعني يخرجون من قبورهم يوم القيامة مستورين، يعني يخرجون مثل الناس أو أن الله يسترهم؟ أما الشق الثاني: ما رأيكم في تفسير سيد قطب في ظلال القرآن، وهناك بعض الناس من يخطئ هذا التفسير حتى يسمونه في ضلال القرآن وكذا، ما توجيهكم لهؤلاء الشباب الذين ينتهجون هذا المنهج؟

أي نعم ذكرنا في أثناء التفسير قول النبي – صلى الله عليه وسلم – (إنكم محشورون إلى الله تعالى حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده) ثم قال – صلى الله عليه وسلم – (ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام).

رحم الله الأستاذ سيد قطب وجزاه خيراً على ما قدم للإسلام، والشيخ رحمة الله عليه بشر شأنه شأن البشر يخطئون ويصيبون، وكتابه في ظلال القرآن لا شك أنه كما كتب كثير من علمائنا فيه أخطاء كثيرة منها في العقيدة؛ فلذلك نحن لا ننصح الطلاب المبتدئين بالقراءة في هذا الكتاب، كما حذرنا في حلقة سابقة الطلاب من القراءة في تفسير الرازي والزمخشري؛ لأن فيها أيضاً أخطاء عقائدية، فنحن لا ننصح المبتدئين بالقراءة في هذه الكتب، وإنما بعد أن يقطع شوطاً كبيراً في التفاسير المأثورة التفاسير السلفية الصحيحة، ويعلم التفاسير الصحيحة والعقائد الصحيحة، لا حرج عليه بعد ذلك إذا قرأ فإنه بعد سعة اطلاعه سيستطيع أن يميز بين الغث والسمين، والحق والباطل فيأخذ ما ينفعه ويترك ما يضره.

وعلينا أن نكون منصفين دائماً حين نخطئ إنساناً لا يجب أن نسلط عليه السهام سهام الشتم ونحو ذلك، فالمسلم ليس بلعان ولا بصخاب، ربنا قال: ﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ [الحج:٢٤].

نقول أخطأ سيد قطب في كذا، وأخطأ في كذا، والرجل قد أفضى إلى ربه، والله – تبارك وتعالى – أولى به .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فيما مضى من حياتي كنت أشاهد التلفاز والعياذ بالله باستمرار والأفلام والأغاني، ولله الحمد الآن تبت توبة نصوحة عن مشاهدتها، أسأل الله الثبات، وكنت في الفترة الماضية كنت ولله الحمد أنفق من مالي في الأعمال الصالحة لى ولأهلي لأعمال جارية، هل مشاهدتي السابقة في حياتي الماضية تجعل أعمالي التي فاتت الصالحة هباءً منثوراً، بمعني: أني كنت أشاهد التلفزيون وأعمل أيضاً أعمالاً صالحة هل تصبح أعمالي منثوراً؟ والسؤال الآخر كيف أحتسب عند مشاهدتي الآن لهذه للبرامج الطيبة بإذن الله كيف أحتسب الأجر عند الله ؟ .

نبشرها بتوبة الله عليها ونسأل الله – سبحانه وتعالى – الثبات حتى اللقاء بإذن الله – عزّ وجلّ – ونبشرها بأن التوبة بدلت السيئات حسنات لم تضع حسناتها السابقة بسيئاتها هباء منثوراً بالعكس، الله – سبحانه وتعالى – لما تابت إليه بدل سيئاتها حسنات، وحسناتها القديمة كما هي محفوظة عند الله – عزّ وجلّ – لأن الله تعالى قال ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾[الفرقان:٧٠]

وفى الصحيح أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: (إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخر أهل النار خروجاً منها، يؤتى برجل فيقول الله – تبارك وتعالى – للملائكة نحو عنه كبار ذنوبه، واسألوه عن صغارها فيفعلون، فيقول: هذه سيئاتك وقد بدلها الله حسنات) وكان هو وهم يسألونه عن صغار ذنوبه يتمنى ألا يسألوه عن الكبار، فلما سألوه صغار ذنوبه (وقالوا هذه سيئاتك قد بدلت حسنات، قال: يا رب إن لي ذنوبا كباراً لا أراها هاهنا) يعني اعترف بذنوبه الكبار حتى تبدل حسنات.

فنبشر الأخت الكريمة الطيبة بتوبة الله تعالى عليها وأن الله حافظ لها أعمالها السابقة وأن سيئاته قد بدلت حسنات بإذن الله – عزّ وجلّ – ، جزاها الله خيراً، وزادها الله حرصاً، الآن ماذا نصنع نحن نفسر كلام الله – عزّ وجلّ – وسائر الحلقات حلقات في العقيدة، حلقات في الفقه، حلقات في مصطلح الحديث، وهذا هو العلم الشرعي الذي فرض الله تعالى علينا طلبه (طلب العلم فريضة على كل مسلم) (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين) فهذه الأخت، وسائر المشاهدين حين يجلسون معنا أمام التلفاز؛ لرؤية هذه الحلقات العلمية يطلبون العلم، والنبى – صلى الله عليه وسلم – يقول: (من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة) .

الحافظ ابن رجب يقول: إن سلوك طلب العلم نوعان : إما أن تخرج وتسعى إلى المحاضرات بقدميك، وإما أن تجلس على الكتاب تطلب العلم.

فإخواننا المشاهدون الآن معنا سواء فتحوا الكتب، أو استمعوا إلينا فهم يطلبون العلم، فبذلك إذا خلصت نواياهم وطلبوا هذا العلم لله – عزّ وجلّ – لا شك أنهم في عبادة نسأل الله أن يتقبل منا ومنهم .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، عندي سؤالين: الأول: كيفية الإلمام بكل ما تقولونه في التفسير؟

أنا أنصحك إذا أرادت أن تلم بكل ما تسمع مني –وزادك الله حرصاً– أن تسجل هذه الحلقة ثم تفرغها بنفسك، أو تكلف أحد إخوانك بتفريغها لك كتابة، وبذلك تحتفظ بهذا التفسير مكتوباً إن شاء الله .

عندي مختصر ابن كثير للشيخ محمد نسيب الرفاعي، والمصباح المنير للشيخ هاني الحاج، أيهم أركز عليه ؟

نركز على الأول، لشيخنا الشيخ محمد نسيب الرفاعي رحمة الله عليه .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، هل استطاع المفسرون أن يحددوا وجهة الغار من الآية الكريمة ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾[الكهف:١٧] ؟

كما قلنا: نحن لا نهتم في تفسيرنا بتعيين الأماكن والجهات؛ لأنه ليس فيها كثير فائدة .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، السؤال الأول: نعلم أن الله تعالى لا يحاسب المؤمن على ما نوى من سيئات ولم يقوم بها، وذلك من رحمة الله، ولا يحاسب العبد على وسوسة الشيطان في نفسه ما لم يحدث بها، إذًا كيف يا شيخ نربط بين هذا وبين هذه الآية ﴿ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَو تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾[البقرة:٢٨٤]

ذكر العلماء في الآية التي سألت عنها أن المحاسبة لا تستلزم الجزاء، فإذا حاسبنا عليها لا يلزم أن يعاقبنا ويؤاخذنا بها.

وتقول نعلم أن لكل حرف نقرأه من القرآن حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، فهل يجب قراءة الآيات علانية، وهل نؤجر لو قرأنا القرآن في صدورنا دون التلفظ به، وهل نؤجر عندما نقرأ بعضاً من آيات في كتاب أو جريدة أو أي شيء آخر، أم الأجر فقط من تلاوته من المصحف ؟

التلاوة من المصحف وغيره بشرط العبادة، والقراءة لا تكون بالقلب فقط: أن يجري الإنسان المعاني على قلبه دون أن يحرك بها لسانه، هذه لا تسمى قراءة، القراءة لابد فيها من تحريك اللسان والشفتين .

لها سؤالين السؤال الأول، كم هي المدة التي إن لم نقرأ فيها القرآن نعتبر ممن هجر القرآن؟

أقل ينبغي للمسلم أن يختم القرآن كل شهر مرة، يقرأ كل يوم جزءاً فيختم القرآن في الشهر مرة هذا أقل شيء، لا ينبغي أن يزيد على ثلاثين يوماً في الختمة .

إذا أردنا القيام بعمل دروس تفسير ونحن كما تعلم مبتدئين بطلب العلم، فبما تنصحنا ونحن نريد أجر الدعوة والكثير من العامة لا يعرف تفسير سورة الفاتحة التي يرددها في صلاته ؟

ننصح بالتدريس من كتاب أيسر التفاسير لشيخنا الجزائري حفظه الله، فهو كتاب سهل التناول كثير الفائدة والنفع إن شاء الله تعالى .

تقول نعلم أن الله يغفر الذنوب لمن استغفره، فهل تغفر الذنوب بمجرد الاستغفار، فنحن في أحيان كثيرة نستغفر بدون حضور القلب، فهل علينا شيء، وقد سمعت أن العبد لو هم بسيئة، فإن الملك عن شماله لا يكتبها فينزله وقتاً لعله يستغفر فهل هذا صحيح ؟

أي نعم الحديث صحيح والاستغفار المقصود هو الذي يعزم فيه الإنسان على ألا يعود للذنب، يقول: أستغفر الله، بعد أن أقلع عن الذنب، وندم عليه، وعزم ألا يعود إليه فهذا هو استغفار التوبة النصوح التي أمر الله – تبارك وتعالى – بها .

أما إذا كنت أنا أتعبد بقول: أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله، كما أتعبد بقول: سبحان الله، سبحان الله، فأنا مأجور على هذا الذكر حتى لو غفل القلب أحياناً.

هناك بعض الكلمات الدارجة في المجتمعات: وهي في أصلها سب وقذف للآباء والأمهات بالزنا عياذاً بالله، فهل يندرج هذا تحت كبيرة قذف المحصنات؟

نسأل الله أن يتوب على الجميع هذا الذي أستطيع أن أقوله؛ لأن القذف حكم شرعي يترتب عليه عقوبة شرعية، فنسأل الله أن يتوب على الجميع، وأن يهذب أخلاقنا وأخلاق الجميع.

هل الإصرار على الصغيرة تعد كبيرة ؟

هكذا قال بعض العلماء: الإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة، إن لم يجعلها كبيرة في ذاتها، فالإسراف منها كما قلنا سيجعلها كبيرة بعد ذلك، تكثر حتى تكبر .

هل في يوم القيامة هناك فرق بين أعمال الكفار المذكورة في كتاب الله، يشبه القرآن هذه الأعمال بالظلمات، وشبهها في بعض المواضع بالسواد، وشبهها في موضع بالرياح الشديدة الباردة، وشبهها في موضع ثالث بالرماد الذي جاءته ريح عاصف فذرته في كل مكان؟

على أية حال كل هذه الأمثلة التي ضربها الله – تبارك وتعالى – لأعمال الكفار المـــراد منهـــا: أن أعمـــال الكافرين الصالحة لا تنفعهم في الآخرة إذا ماتوا كافرين، يعني قد يطعم الكافر مسكينا، قد يكسو عريانا، وأحياناً يبني مسجداً فهذه أعمال صالحة، إن مات على كفره لا تنفعه في الآخرة، وليس لها ثوابا، لكن لو من الله تعـــالى عليه بالإسلام وأسلم، كتب الله صالح عمله الذي عمله في الكفر.

تقول نرجو مثال عن الصغائر ؟

النظرة نسأل الله أن يعيننا على غض أبصارنا ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْـــصَارِهِمْ ﴾[النـــور:٣٠] ﴿ وَقُـــلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾[النور: ٣١].

فنظرة الشهوة محرمة، لكن لم يرد في الكتاب والسنة عقوبة من النظر، من زنا اجلـــدوه إن كـــان أعـــزب، وارجموه إن كان محصنا.لكن من نظر ليس هناك عقوبة عليها .

هل تقصد بالكبيرة بقولك التي يترتب عليها حد في الدنيا وعقوبة في الآخرة، أي عقوبة منصوص عليها فـــي الكتاب والسنة، وكذلك بالنسبة للصغيرة التي لا يترتب عليها حد أو عقوبة هل تعني أي عقوبة لم ينص عليهـــا؛ لأن المعروف أن الصغيرة يستحق العقاب فاعلها، ويستحق الثواب تاركها، امتثالاً لأمر الله أرجو البيان؟

ضربنا مثلاً للصغيرة الآن، وضربنا مثلاً للكبيرة أثناء الشرح، ما ترتب عليه حد في الدنيا وذكرنـــا الـــسرقة والزنا، وما ترتب عليه عقوبة في الآخرة القتل، فهذه أمثلة للصغائر وهذه أمثلة للكبائر .

تقول إذا كانت الصغائر ليس لها حد في الدنيا ولا عقاب في الآخرة فكيف يكون جزاؤها يوم القيامة ؟

نقصد بالعقاب في الآخرة أنه لم يأتِ نص بتعيين عقوبة معينة، وهذا مقصدنا بأنه: لم يأتِ نص بتعيين عقوبة معينة لفاعل هذا الذنب، لكن يعقاب وإذا أراد الله أن يعفو عنه .

أحد الشيوخ استدل بهذه الآية وفسروها لقوله تعالى ﴿ مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾[الكهف:٤٩] فأتى بمثل أن الذي يأكل لحم أخيه، ولم يتب سيأكل لحم أخيه ميتاً يوم القيامة وهو يرى، فهل هذا صحيح المثل بالاستدلال ؟

لم أقرأه فيما قرأت من التفاسير .

تقول أيهما أفضل عند الله: مرتكب الكبائر ثم تاب، أم المؤمن الذي لم يرتكب الكبائر؟

قال بعض الصالحين في هذه المسألة، في الفرق بين التائب من ذنبه، والذي لم يتب، قال: هب أن المسيء قد عفي عنه، أليس قد فاته ثواب المحسنين ؟ فكيف يلحق هذا بالثاني ؟ هب أن المسيء الذي ارتكب الكبائر تاب الله عليه أليس قد فاته في وقت ذنبه وارتكاب ذنبه وقت لو كان أنفقه في الطاعة أخذ حسنات كما قضاها الآخر في الطاعة ؟

فالله تعالى أعلم لا يستويان .

يقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته هل يغني كتاب مختصر تفسير ابن كثير للشيخ أحمد شاكر رحمه الله عن مختصر الشيخ نسيب الرفاعي ؟

شيخنا أحمد شاكر محدث، إمام علم فإذا وجدت له مختصراً كاملاً يغنيك إن شاء الله تعالى.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، معنى كلمة المهل يشوي الوجوه؟

نسأل الله العافية كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم، يقول يرد كثيراً تفسير ابن كثير يعني كالزيت المغلي أرأيت الإناء يوضع فيه الزيت ويوضع الإناء على النار فيغلي الزيت، كيف يغلي الزيت وأنت تراه على النار، فهذا والعياذ بالله مثال لأهل جهنم وهم يشربون من هذا الماء نسأل الله العافية ﴿ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان:٤٦].

والأخت التي سألت أول سؤال قالت: كلام الله مع إبليس هل هو حوار نفسي؟ نريد من الشيخ أن ينبه: أن هذا قول بعض الأشاعرة الظاهر، والكلام عند أهل السنة باللفظ والصوت؟

جزاه الله خيراً الأخ الكريم على حرصه على سلامة المعتقد وصحة الاعتقاد في القرآن، فكلام الله تعالى كلام، تكلم الله – تبارك وتعالى – به، الله تكلم بهذا الكلام، لكننا لم نسمعه يقول الكلام نفسه، وكانت تسأل هل كان من وراء حجاب أو كان مواجهة، فقلنا: الله – تبارك وتعالى – أعلم، أما القرآن أن تقول كلام نفسي يعني أن الله – تبارك وتعالى – ما تكلم بهذا الكلام فهذه عقيدة باطلة، القرآن كلام الله منه بدأ بلا كيفية قولاً، وأنزله على رسله وحياً، وصدقه المؤمنون بعد ذلك حقا، وأيقنوا بأنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس لمخلوق ككلام البرية، هكذا قال الإمام الطحاوي رحمه الله في عقيدته .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، كيف نفهم قول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن عائشة (من نوقش الحساب عذب) ؟

الحديث ورد أن السيدة عائشة – رضي الله عنها – كانت لا تسمع شيئاً لا تفهمه إلا سألت عنه، فسمعت النبي – صلى الله عليه وسلم – يقول (من نوقش الحساب عذب) وسمعت ربها – سبحانه وتعالى – يقول ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾ [الانشقاق:٨] قالت: فكيف هذا يا رسول الله؟ من نوقش الحساب عذب، والله يقول: ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾ قال: الحساب اليسير ذاك العرض، أن يعرض على الله فيتجاوز الله عنه، ويغفر له، أما من نوقش الحساب ودقق معه في الحساب كانت نهايته العذاب والعياذ بالله، فهذا معنى الحديث.

يقول: ما رأي الشيخ في صفوة التفاسير للدكتور الصابوني نفعنا الله بعلمكم ؟

صفوة التفاسير شأنه شأن الكتب التي حذرنا منها فيها أخطاء نبه عليها مشايخنا وعلماؤنا الأجلاء، فلا يقرأ في هذا الكتاب إلا كان معه التنبيهات على ما فيها من أخطاء والاستغناء عنه خير له .

يقول: هل هناك تعارض بين ما ذكرتم من شريف علمكم من أن إبليس جن، وبين قول الله – عزّ وجلّ – في سورة البقرة ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾[البقرة:٣٤]

ليس هناك تعارض إنما هنا زيادة في الكهف فصل في القضية ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ﴾[الكهف: ٥٠] .

يعني ولم يكن من الملائكة لاختلاف الأصلين كما ذكرنا حيث قال النبي – صلى الله عليه وسلم – (خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار) فهو عالم آخر غير عالم الملائكة، وغير عالم الإنس .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، علمت أن الكلام على المرأة المحصنة عند الله كهدم الكعبة أعاذنا الله، فهل المقولة صحيحة، وهل تكرار الصغائر متعمداً يعتبر من الكبائر وجزاكم الله خيرا؟

أما المقولة الأولى فلم أسمعها ولم أقرأها، وإن كان قذف المحصنات الغافلات، الله – سبحانه وتعالى – شدد فيه كما هو معلوم في سورة النور.

وأما الشق الثاني : الإصرار على الصغيرة قلنا قال العلماء: الإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة.

ذكرتم فضيلتكم حديث البطاقة التي تنفع الموحد بطاقة لا إله إلا الله، فهل إن قال قائل أنا أوحد الله وأقول لا إله إلا الله ولكن أعلم أن محمداً رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأعلم أن عيسى رسول، وأن موسى رسول، فهل تنفعني هذه أم لا تنفعني فماذا نقول ؟

هذه كلمة الكفر إذا قال أنا أعلم أنهم رسل الله ولن أتبعهم، هذه كلمة الكفر والعياذ بالله، ما فائدة الإيمان بأن محمداً رسول الله أن يؤمن به ويصدقه ويتبعه على ما جاء به من عند الله – عزّ وجلّ – .

السلام عليكم، أسأل عن إخلاص النية في العمل، مثلا لو عملت عملا وأخلصت النية لله، وشككت أني نافقت، هل سيؤثر ذلك على العمل أم لا؟

هذا بوب عليه الإمام النووي رحمه الله في رياض الصالحين، أو في بعض كتبه قال باب ما يظن أنه من الرياء و ليس من الرياء .

فالشيطان لعنه الله كل همه أن يصرف الإنسان عن العمل الصالح، فإذا وجد من الإنسان هماً بالعمل الصالح أراد أن يثنيه عنه، فإذا غلبه وقهره وعزم على العمل وبدأ فيه جاءه من هذا المدخل الثاني أنت تفعل هذا رياءً أنت تفعل هذا نفاقاً، هو يريد أن يصدك عن العمل الصالح، فحسبك أن تعلم من نفسك أنك حين انبعثت في أول دفعة إنما انبعثت من أجل الله – عزّ وجلّ – إيمانا واحتسابا، فلا تلتفت للعوارض التي تعرض عليك بعد هذا، فإنما هي من الشيطان يريد أن يقعدك عن العمل .

إذا عملت عملا إداري وأخلصت النية لله وأخلصت النية للإدارة، فهل هذا ضربا من ضروب النفاق؟

الإخلاص لله أولاً هذا الذي يثاب عليه الإنسان بإذن الله – جلّ جلاله – ونخلص النية؛ لأن الله أمرنا أن نخلص أعمالنا كلها حتى الدنيوية أمرنا الله – سبحانه وتعالى – أن نحسنها وأن نتقنها وألا نقصر فيها، ولا نقعد

عن بذل أي وسع نستطيعه حتى يكون عملنا على أكمل الوجوه. فحين يفعل الإنسان عمله بإخلاص وإتقان يثاب عليه ولو كان عملاً دنيوياً .

هل نعتبر الإصرار على بعض الصغائر دليل على ضعف الإيمان، وإذا كان الشخص ملتزماً محباً ومتبعاً بل وداعية لله ؟

لا شك أن من عقيدة أهل السنة أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، ولا شك أن الإصرار على صغيرة ينقص من إيمانه بقدر ما يرتكب منها.

فننصح إخواننا جميعاً بالتوبة والإكثار من الاستغفار؛ استجابة لأمر النبي – صلى الله عليه وسلم – (يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة) .

يقول ماذا تقول يا شيخ لمن يقول أن الشيطان ليس بكافر والذي يقول هذه المقولة يدعي على نفسه أنه داعية ؟

نسأل الله أن يهدينا وإياه سواء السبيل، ويكفي هذا للبيب الفطن، هذا ما يقوله عاقل فضلا عن أن يقوله مسلم.

الشرح من قوله تعالى "ما أشهدتم خلق السموات والأرض"

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ثم مرحبا بكم في هذا اللقاء الجديد مع دروس تفسير سورة الكهف، و الآيات التي معنا منها هذه الساعة المباركة – إن شاء الله تعالى– تضمنت من المعاني ما يلي:

أولا: ثبوت التوحيد وبطلان الشرك .

ثانيا: ما يجوز من الجدال ومالا يجوز .

ثالثا: التحذير من الإعراض عن القرآن الكريم.

رابعا: وربك الغفور ذو الرحمة.

وأخيراً: وجوب الاعتبار بوحدة مصير المكذبين الظالمين.

وهذا بإيجاز عرض سريع لأهم ما تضمنته الآيات المباركات التي معنا ساعتنا هذه إن شاء الله تعالى من المعاني والتى سنعيش في رحابها فلنستمع إليها أولا قبل الخوض في تفاصيلها، سائلين الله عز وجل أن ينجز لنا ما وعدنا حيث قال: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[الأعراف: ٢٠٤]

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾[الكهف:٥١–٥٩].

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[ص: ٢٩].

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣].

لما أنكر الله – تبارك وتعالى – على الظالمين اتخاذهم الشياطين أولياء من دونه كما قال – سبحانه وتعالى – ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلً﴾ [الكهف:٥٠] لما أنكر الله – تبارك وتعالى – على الظالمين اتخاذهم الشياطين أولياء من الله، بيّن أن الشياطين لا تستحق الولاية، ولا تستحق العبادة؛ لأنهم لم يخلقوا شيئاً، والإله الحق هو الذي خلق فسوى وقدر فهدى، فقال تعالى ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ يعني إن هؤلاء الشياطين الذي عبدتموهم من دون الله واتخذتموهم أولياء من دون الله ولايتكم إياهم باطلة، وعبادتكم إياها باطلة؛ لأنهم لم يشهدوا خلق السماوات والأرض، لأن الله – تبارك وتعالى – خلق السماوات والأرض قبل خلق الخلق، فإبليس لم يكن موجوداً حين خلق الله – سبحانه وتعالى – السماوات والأرض لم يشهد خلقهما، فلم يكن له فيهما شركة فضلاً عن أن يستقل بخلق شيء من السماوات والأرض .

والذي يستحق العبادة هو الله الخالق وما دام الشيطان لم يخلق فلا يستحق أن يعبد، ولذلك قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾[الحج:٧٣] .

فالذي لا يخلق عاجز والعاجز لا يصلح أن يكون إلهاً فبطل أن يكون إبليس إلها.

﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ ولذلك يكثر ربنا – سبحانه وتعالى – من أمر النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يقول للمشركين ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ [لقمان:١١].

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾[فاطر:٤٠] .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾[الاحقاف:٤] .

فالذين توليتموهم من دون الله وعبدتموهم من دون الله لم يخلقوا شيئا بل هم مخلوقون مملوكون مرددون لله – تبارك وتعالى – فكيف تتولونهم وتعبدونهم من دون الله – سبحانه وتعالى –؟! بئس للظالمين بدلا .

ولذلك يقول تعالى ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[الروم:٤٠] .

ولما أمر – سبحانه وتعالى – الناس أجمعين بعبادته وحده بيّن أنه يستحق العبادة لكونه الذي خلق فقال – سبحانه وتعالى – ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً ﴾ يعني في العبادة ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١-٢٢] أنه لا ند له في الخلق والتقدير والتدبير.

﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ ﴾ الذين يضلون عن سبيل، ويصدون عن سبيل الله، والشياطين على رأسهم ﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ وأصل العضد ما بين المرفق إلى الكتف في الإنسان، فهذا الجزء هو العضد، وهو محل القوة، فاستعير للمعين والنصير، استعير العضد للمعين والنصير.

ولذلك لما قال موسى – عليه السلام – ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾[القصص:٣٤] قال الله تعالى ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾[القصص:٣٥] أي سنقويك ونعينك بأخيك ونجعله لك عوناً ونصيراً .

فالله – سبحانه وتعالى – يقول: ﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ ﴾ أي أعواناً وأنصاراً، فالله – سبحانه وتعالى – هو القوي العزيز، وهو الغالب على أمره، وهو القادر على كل شيء لا يعجز ربنا عن شيء، ولا يعجزه – سبحانه وتعالى – شيء.

ثم قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴾ واذكر يا نبينا يوم يقول الله – تبارك وتعالى – للمشركين الظالمين الذين اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله وجعلوهم شركاء لله، اذكر يا نبينا يوم يقول الله تعالى لهم: ادعوا شركائي الذين زعمتم، لقد زعمتم أن لله شركاء توليتموهم وعبدتموهم من دون الله، ترجون بذلك أن ينفعوكم في الآخرة بشافعتهم لكم عند الله – سبحانه وتعالى – فالآن أنتم في الآخرة هذا يوم البعث الذي كنتم به تكذبون، أنتم الآن أحوج ما تكونون إلى شركائكم الذين جعلتموهم شركاء لله تعالى فادعوهم استغيثوا بهم، استنصروهم حتى يدفعوا عنكم عذاب الله، أو يردوا عنكم بأس الله، أو يشفعوا لكم عند الله – سبحانه وتعالى –

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴾ موبقا، اسم مكان بمعنى مهلكاً، وهو مأخوذ من قولهم وبق يبقوا، كوعد يعد، ومن قوله تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ ﴾ أي يهلكهن ﴿ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى:٣٢-٣٤] ومنه قول النبي – صلى الله عليه وسلم – (اجتنبوا السبع الموبقات) أي المهلكات وقوله – صلى الله عليه وسلم – (الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملئ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور والصدقة برهان، والصبر ضياء والقرآن حجة أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها) أي مهلكها .

فقوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين المشركين وشركائهم، جعلنا بينهم، وفصلنا بينهم، وفرقنا بينهم، وميزنا بينهم ﴿ مَوْبِقًا ﴾ أي مهلكاً .

قال المفسرون: المراد بالموبق الذي جعله الله بين الشركاء وشركائهم واد واسع عميق من النار، تسيل النار من حافتيه والعياذ بالله، فلا يمكن أن يعبر هؤلاء إلى أولئك، ولا يعبر أولئك إلى هؤلاء ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴾.

وقد أخبر الله – سبحانه وتعالى – وهو العليم الخبير عبادة أجمعين في الدنيا الذين يدعونهم من دون الله لا يستجيبون لهم في الدنيا ولا ينفعونهم في الآخرة قال تعالى ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾[الاحقاف:٥-٦].

وقال تعالى عن نفسه: ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّىً ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾[فاطر:١٣-١٤] .

فيجب عليك –أيها المسلم– أن تسمع وتطيع لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – حين وصاك (إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ، لم ينفعوك إلا بشئ قد

كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشئ، لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف) .

فلا تدعو من دون الله، ولا تسأل الله غير الله، ولا تدعو من دون الله ﴿ وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[يونس:١٠٦] يعني المشركين .

فدعاء غير الله شرك بالله – سبحانه وتعالى – وسؤال غير الله ما لا يقدر عليه إلا الله شرك بالله – سبحانه وتعالى – .

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴾ أي مهلكاً حال بينهم وبين ما يشتهون .

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ ﴾ حين برزت للغاوين حين جيء بها كما قال النبي – صلى الله عليه وسلم – (يؤتى يومئذ بجهنم لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها)

يقول تعالى: ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً ﴾[الكهف:١٠٠] فلما رأوها أيقنوا بالهلاك، وأيقنوا أنه لا خلاص لهم ولا فكاك ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا ﴾ والظن هنا بمعنى الاعتقاد الجازم بمعنى اليقين ﴿ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ ينصرفون إليه ولا ملجأ يلجأون إليه .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ ولقد صرفنا ونوعنا في هذا القرآن للناس من كل مثل، والحكمة كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[الزمر:٢٧-٢٨].

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً ﴾[طه:١١٣].

فالله – تبارك وتعالى – نوع في القرآن الكريم فجعل فيه القصص والأخبار والحكايات والأمثال والأوامر والنواهي، والترغيب والترهيب والحكمة، من كل ذلك لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا، ومع ذلك أبى أكثر الناس إلا كفورا، ولم ينتفعوا بالآيات المنزلة التي صرفها الله – تبارك وتعالى – ونوعها لعلهم ينتفعون بها ويستفيدون؛ فيخلصوا أنفسهم من عذاب الله – عزّ وجلّ –.

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾

هذا إخبار من الله – تبارك وتعالى – عن طبيعة الإنسان، أن الإنسان بفطرته وبطبيعته وبجبلته يحب الجدال ويحب المراء ويحب المناظرة ويحب الخصومة، وهذا الوصف للإنسان لا يذم به الإنسان مطلقاً، هل هذا الوصف للإنسان أنه أكثر جدلاً هذا الوصف لا يذم به الإنسان هذا خبر عن طبيعة الإنسان التي خلقه الله – تبارك وتعالى – عليها، لا يذم بمجرد كونه مجادلا إلا إذا كان جداله بالباطل؛ لدحض الحق، كما قال بعد ذلك على الكافرين ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾[غافر: ٥].

فالجدال ليس ممنوعاً مطلقاً، ولا مباحاً مطلقاً، وإنما الجدال منه الجائز، ومنه الممنوع، منه المباح، ومنه المحذور، ولذلك الله – سبحانه وتعالى – قال للنبى – صلى الله عليه وسلم – ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[النحل:١٢٥].

وقال لنا نحن المسلمين: ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[العنكبوت:٤٦].

فالجدال الجائز: هو الجدال الذي يكون بالحسنى من أجل إحقاق الحق، وإبطال الباطل، من أجل نصرة المظلوم، ونصر الظالم، بمنعه من ظلمه .

هذا الجدال هو الجدال الجائز المباح .

أما الجدال بالسوء، أما الجدال لدحض الحق وإحقاق الباطل، أما الجدال للتنصل من حق ثابت على الإنسان، يريد أن يدافع عن نفسه ويتنصل من الحق الثابت عليه، فهذا هو الجدال المنهي عنه وهذا هو الجدال المحظور .

والنبي – صلى الله عليه وسلم – يرشدنا إلى أن الإنسان إذا جادل مستخدما الجدال أسلوباً إلى الدعوة إلى الله ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ عليه أن يستمر في جداله ما رأى من الخصم قبولاً ورفقاً ولينا، فأما إذا رأى من الخصم عناداً وإصراراً واستكبارا، فإن الاستمرار في الجدال مع هذا الحال يؤدي إلى مضيعة الوقت وقسوة القلب، فعلى صاحب الحق إذا رأى إصرارا وعناداً واستكباراً من خصمه أن ينهي الجدال وينصرف من مناظرته .

يقول النبي – صلى الله عليه وسلم – (أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا) .

وقيل للإمام مالك رحمه الله، الرجل يكون عالماً بالسنة أيجادل عنها ؟ قال: لا، وإنما يعلمها فإن قبلت منه وإلا سكت .

﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى ﴾ ما الذي منع الناس من الإيمان بالله – عزّ وجلّ – وبرسوله – صلى الله عليه وسلم – بعد إذ جاءهم بالهدى من عند الله – تبارك وتعالى – ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴾.

انتبه الله – سبحانه وتعالى – قال في سورة الإسراء قبل ذلك ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً ﴾[الاسراء:٩٤].

وهنا في سورة الكهف يقول تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴾.

يقول العلماء : المانع من الإيمان نوعان:

مانع عادي، ومانع حقيقي، الذي منع الناس من الإيمان نوعان، مانع عادي، ومانع حقيقي.

المانع العادي: هو المذكور في سورة الإسراء ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً ﴾ فهذا مانع منع الناس من الإيمان ولكنه مانع عادي، إذا زال دخل الناس في الإيمان فهذه شبهة عرضت للناس كلهم، كلما جاءهم رسول من عند الله قالوا ﴿ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً ﴾ ﴿ لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ﴾[فصلت: ١٤] فهذه شبهة عرضت لكثير من الناس منعتهم من الإيمان بالله – عزّ وجلّ – لماذا ؟ لأن الله – عزّ وجلّ – بعث بشراً رسولا، وهم يظنون أنه لا يمكن أن يبعث الله بشراً رسولا، لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإذا أراد الله – تبارك وتعالى – بعبد خيرا زالت عنه هذه الشبهة على أيدي العلماء والدعاة إلى الله – عزّ وجلّ – على بصيرة فدخل في الإسلام، ودخل في الإيمان، واتبع الهدى الذي جاء به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – .

أما المانع الحقيقي الذي منع الناس من الإيمان: فهو المذكور في سورة الكهف ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴾. والمعنى إن الذي منع الناس من الإيمان هو أنه حقت عليهم كلمة العذاب، والذين حقت عليهم كلمة العذاب لا يمكن أن يؤمنوا أبداً كما قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُون ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾[يونس:٩٦-٩٧].

فهؤلاء الذين حقت عليهم كلمة العذاب لا يؤمنون أبداً، وما ينتظرون إلا أن تأتيهم سنة الأولين: أي أن يعذبهم الله تعالى بعذاب في الدنيا كما عذب الكافرين الظالمين من قبلهم كما قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾[الفجر:٦-١٤]. لكل ظالم أو لكل طاغية

فهؤلاء منعهم من الإيمان أنهم حقت عليهم كلمة العذاب، فلا يؤمنون إلا أن تأتيهم سنة الأولين: أي يأخذهم الله بعذاب في الدنيا كما أخذ الذين من قلبهم، أو يأتيهم عذاب يوم القيامة قبلاً، أو مواجهة ومباشرة .

وإذا آتاهم عذاب الدنيا آمنوا ولا ينفعهم إيمانهم، وإذا آتاهم عذاب الآخرة آمنوا ولا ينفعهم أيضا إيمانهم، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾[غافر:٨٤-٨٥].

وقال تعالى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾[الأنعام:١٥٨] .

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾

وما نرسل المرسلين إلا مبشرين لمن آمن بهم واتبعهم على الهدى الذي جاءوا به من عند الله مبشرين للذين آمنوا وعملوا الصالحات بجنة عرضها الأرض والسماوات فيها من النعيم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر .

ومنذرين للذين أصروا واستكبروا استكبارا، ولم يقلعوا عن الكفر فأبوا إلا كفورا، تنذرهم الرسل عذاب الله – سبحانه وتعالى – يوم القيامة الذي قال فيه: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾[الفجر:٢٥-٢٦] .

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾

هذا شأن الكافرين وهم من البشر، وكان الإنسان أكثر شيء جدلا، لكن الكافر دائماً يجادل بالباطل لا يجادل بالحق، يجادل بالباطل؛ ليدحضوا: أي يزيلوا ويذهبوا بجدالهم هذا الحق والله – تبارك وتعالى – يتوعدهم بالعذاب المهين فيقول – سبحانه وتعالى – ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾[الحج:١٠].

جادلوا بالباطل الحق يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، إنهم يجادلون بالباطل من أجل أن يدحضوا به الحق والله من ورائهم محيط، فمهما علا الباطل وارتفع فلابد أن يقع ويزول، والدوام للحق بإذن الله وأهله كما قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾[الرعد: ١٧].

﴿ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آَيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا ﴾ ثم يتوعدهم الله – سبحانه وتعالى – على إعراضهم عن القرآن الكريم وآيات الذكر الحكيم، فيصفهم بالظلم الشنيع الفظيع فيقول – سبحانه وتعالى :– ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآَيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ ومن أظلم أي لا أحد أظلم ﴿ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآَيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ .

والله – سبحانه وتعالى – قد وصف المعرضين عن الذكر الحكيم والكتاب المبين بالظلم والجريمة فقال – سبحانه وتعالى – ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴾[السجدة:٢٢] .

فوصف الله – تبارك وتعالى – المعرضين عن القرآن بالظلم والإجرام، وتوعدهم بالانتقام ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴾ ينتقم الله – تبارك وتعالى – من المعرضين عن الذكر الحكيم والكتاب المبين في الدنيا والآخرة .

أما في الدنيا فقد قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾[طه:١٢٤] من أعرض عن القرآن الكريم يصبح في همٍّ، ويمسي في غمٍّ، ويمسي في نكد، ويصبح في حزن، لا يطمئن قلبه، ولا يهدأ باله، ولا يرتاح ضميره، ولا يجد للسعادة طعماً ولا لذة أبداً، بل ولا يعرف السعادة أصلاً؛ لأنه أعرض عن الذكر الحكيم الذي هو أساس السعادة وأصلها وأساس طمأنينة القلب وراحة الضمير، وهدوء الأعصاب ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾[الرعد:٢٨].

فمما ينتقم الله – تبارك وتعالى – به من المعرضين عن كتابه: أنه يسلط عليهم البؤس، والشقاء، والنكد، والهم، والغم، والحزن، فلا تطمئن قلوبهم، ولا يهدأ بالهم ولا أعصابهم، ولا تقر أعينهم أبداً، بل دائماً في هم وغم، لا ينفكون عن ذلك أبداً .

ومن انتقام الله – تبارك وتعالى – من المعرضين عن كتابه ما ذكره تعالى في قوله: ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف:٣٦–٣٧].

إذا بلغ القرآن الإنسان فأعرض عنه وأدبر، ولم ينتفع به، ولم يقبل هدى الله الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، فإن الله تعالى يسلط على هذا الإنسان الشيطان؛ فيكون له الشيطان قرينا، ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا، يصده هذا الشيطان عن سواء السبيل، ويصده عن الصراط المستقيم، ومع ذلك يزين له سوء عمله فيراه حسنا، ﴿ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾[الأعراف:٣٠] .

فإذا أوغل في الضلال؛ ختم الله على قلبه وعلى سمعه، وجعل على بصره غشاوة؛ فلم يهتدوا إذا أبداً، كما قال في الآية التي معنا: ﴿ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾. فلن يهتدوا إذاً أبداً لماذا؟ لأن الله – تبارك وتعالى – ختم على قلوبهم وعلى سمعهم ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾[الجاثية:٢٣].

وقد يقول قائل: فإذا كان الله تعالى هو الذي ختم على قلوبهم وعلى سمعهم، وجعل على أبـصارهم غـشاوة، فلماذا يؤاخذهم بذنوبهم؟ ولماذا يعاقبهم عليها ؟ نقول إن الله – تبارك وتعالى – لما خلقهم وهبهم هذه الحـواس؛ حتى ينتفعوا بها، ويتعرفوا على آيات الله المنزلة، وآياته الكونية ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُـونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾[النحل:٧٨] ولكنهم عطلوا هذه الحواس عن وظيفتها، ولم ينتفعوا بها، فلما عطلوها منعهم الله – تبارك وتعالى – من الانتفاع بها.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ وفى ذلك يقول تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾[المنافقون:٣] فالطبع على قلوبهم إنما جاء بعد كفرهم، وكما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥] فهم الذين زاغوا أولاً، وهم الذين حادوا عن الصراط المستقيم أولا، وهم الذين جعلوا أصابعهم في آذانهم؛ حتى لا يسمعوا كلمة الحق، واستغشوا ثيابهم؛ حتى لا يروا دلائل الحق، وأمثال هـؤلاء لا يمكن أن يهديهم الله – تبارك وتعالى – بعد أن رفضوا الهدى بعد إذ جاءهم من عند ربهم. هذا انتقام الله تعـالى من الذين أعرضوا عن القرآن في الدنيا، ومن انتقامه – سبحانه وتعالى – منهم في الآخرة ما ذكره – سـبحانه وتعالى – ﴿ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ حِمْـلاً ﴾[طـه:١٠٠-١٠١]، وما ذكره الله تعالى أيضا في قوله ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَـالَ رَبِّ لِـمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾[طـه: ١٢٤-١٢٧].

فإياك إياك والإعراض عن كتاب الله – عزّ وجلّ – إياك إياك والإعراض عن آيات الذكر الحكيم، ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾[الجاثـية:٧-٩].

نسأل الله – تبارك وتعالى – أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وأن يجعلنا من القائمين به آناء الليل وأطراف النهار.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ من الذنوب والمعاصـي والخطايـا والسيئات، وانتبه، أذكرك بما قلته عند قول الله – تبارك وتعالى – ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الـصَّالِحَاتِ إِنَّـا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾[الكهف:٣٠] قلنا رُوي عن المسيح عيسى ابن مريم – عليه السلام – مـن عمـل منكم عملاً صالحاً فليلهو عنه، يعني فلينسه؛ فإن الله لن يضيعه، ومن عمل منكم عملاً سـيئا فليحـصه؛ حتـى يستغفر منه، ويتوب بإذن الله – عزّ وجلّ – .

فهنا الله – سبحانه وتعالى – يذم الذين نسوا ما قدمت أيديهم ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ لا من العمل الصالح، بل من الأعمال السيئة، نسوا ذنوبهم وخطايـاهم، حتـى إن الله – سبحانه وتعالى – أخبر عنهم أنه يوم يبعثهم الله جميعاً، فيحلفون له كما يحلفون لكم: يعني يحلفون بالله ما عملوا هذه الخطايا، ولا ارتكبوا هذه السيئات. قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[المجادلة:٦].

فإذا أذنبت ذنباً فلا تنسه، بل اجعله دائماً نصب عينيك؛ لأنك مطالب بتجديد التوبة والاستغفار من ذلك الذنب كلما تذكرته ، اجعل سيئاتك وخطاياك نصب عينيك، فكلما تذكرتها قلت: أستغفر الله، وأتوب إليه ﴿ وَمَنْ أَظْلَـمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ ولذلك إن تدعهم يا نبينا أو غيرك إلى الهدى ﴿ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾ وقد أخبرنا – سبحانه وتعالى – أن رحمته واسعة ومغفرته، واسعة قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِـرَةِ ﴾[الـنجم: ٣٢]. وقال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[الأعراف: ١٥٦]. وهو – سبحانه وتعالى – واسع المغفرة وواسـع

الرحمة ولكنه – سبحانه وتعالى – بين أهل رحمته وأهل مغفرته فقال تعالى ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى ﴾[طـه:٨٢]. وقال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾[الأعراف:١٥٦-١٥٧].

فهذه هي مؤهلات الرحمة، وهذه هي مؤهلات المغفرة، فمن أراد أن يدخله الله تعالى في رحمته؛ فليتأهل بمؤهلات الرحمة، ومن أراد أن يدخله الله تعالى في مغفرته؛ فليتأهل بمؤهلات المغفرة، أما أن يقول الإنسان: ربنا غفور رحيم، رحمة الله واسعة، الله رحمن رحيم، سيرحمنا ربنا إن شاء الله تعالى، وهو لا يعمل بعمل صالح يوجب له رحمة الله، فهذا نوع من التمني لا يمكن أن يتحقق أبدا.

وفي ذلك يقول القائل :

ما بال دينك ترضى أن تدنسه وثوبك الدهر مغسول من الدنس

ترجو النجاة ولم تسلك طريقته إن السفينة لا تجري على اليبس

الله – سبحانه وتعالى – واسع المغفرة، وواسع الرحمة، ولكنه – سبحانه وتعالى – أخبر على المؤهلات التي تؤهل الإنسان لرحمة الله، كما أخبر على المؤهلات التي تؤهل الإنسان لمغفرة الله – عزّ وجلّ – .

كما أنه – سبحانه وتعالى – لما أخبر أنه واسع المغفرة، وواسع الرحمة أخبر أنه سريع العقاب وشديد العقاب، فقال – سبحانه وتعالى – ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[الأعراف: ١٦٧]. وقال تعالى ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ [الحجر:٥٠].

فالله – سبحانه وتعالى – غفور رحيم لكنه أيضاً شديد العقاب، سريع العقاب، ومعنى هذه الأسماء والصفات لله – سبحانه وتعالى – أنه يلزم المسلم أن يكون راجيا خائفاً، لما علم أن الله غفور رحيم، هذه الأسماء تحمله على أن يعظم رجاؤه في مغفرة الله ورحمته، ولما علم أن الله شديد العقاب، سريع العقاب، شديد العقاب ذي الطول، هذه الصفات توجب للإنسان أن يحذر غضب الله تعالى وسخطه وعقابه، فيعمل بطاعة الله على نور من الله، يرجو رحمة الله ويترك معصية الله على نور من الله، يخشى عقاب الله ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ﴾. ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ [النحل:٦١]. ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾[فاطر:٤٥] .

ولكنه حليم صبور، يحلم على العاصي، ويصبر عليه، ويمهل له، ويملي له؛ لعله يتوب؛ فيتوب عليه، ويستغفر؛ فيغفر له .

فالواجب على الإنسان العاصي المذنب المسرف على نفسه في الذنوب والمعاصي ألا يغتر بإمهال الله – تبارك وتعالى –، فالله – سبحانه وتعالى – يمهله؛ حتى يتوب، حتى يستغفر، يمهله لعله يتدارك ما فات، فإن تدارك ما فات بالتوبة والاستغفار؛ قبله الله وتاب عليه، وإلا إن أصر واستكبر؛ أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وفي ذلك يقول النبي – صلى الله عليه وسلم – (إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[هود:١٠٢]) .

فإذا كنت تعصي الله، وترى الله تعالى يستر عليك، ويحلم عليك، فلا تظنن هذه غفلة، فإن الله تعالى: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء ﴾[ابراهيم:٤٢-٤٣].

فواجب عليك إذا أمهلك الله تعالى، ومد لك في العمر، أن تستبق الخيرات، وأن ترفع أكف الضراعة إلـــى الله تعالى تائباً مستغفرا، لعل الله تعالى يتوب عليك، والنبي – صلى الله عليه وسلم – يرغب في التوبـــة والإنابـــة، والرجوع إلى الله – عزّ وجلّ – فيقول – صلى الله عليه وسلم – (إن الله تعالى يبسط يده بالليل؛ ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار؛ ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها) .

﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾ إن الله – سبحانه وتعالى – جعل للأمم آجالا، كما جعل للأفراد آجالا، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً ﴾ [آل عمران:١٤٥]. وكذلك قال ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٤] .

فالله – سبحانه وتعالى – سمى لإهلاك الظالمين موعدا، لولا هذه التسمية لذلك الموعد لعجل الله تعالى العذاب لمستحقيه كما قال تعالى ﴿ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمّىً ﴾[طــه:١٢٩] وفى الكلام تقديم وتأخير تقديره: ولولا كلمة سبقت من ربك بتأخير العذاب عنهم وأجل مسمى سماه الله لكان العذاب لزاماً لهـــم، ولكن الله – سبحانه وتعالى – ضرب لهم موعدا فلا يستأخرون عنه ولا يستقدمون؛ ولذلك قال تعـــالى لنبيـــه – صلى الله عليه وسلم – ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً ﴿٨٣﴾ فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُـــدُّ لَهُمْ عَدّاً ﴾[مريم:٨٣-٨٤].

﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَـــوْئِلاً ﴾. ومن أراد الاعتبار، ومن أراد الاتعاظ؛ فلينظر إلى الأمم التي أهلكت من قبل ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَـــاهُمْ لَمَّـــا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴿٨﴾ وَثَمُـــودَ الَّـــذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾[الفجر:٦-١٤]. لكل ظالم ولكل طاغيـــة ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾[ابراهيم:٤٢].

فالاعتبار بوحدة مصير المكذبين الظالمين واجب، حين تقرأ في التاريخ، وترى الله – سبحانه وتعالى – أهلك أمماً وأبادها بعذاب الاستئصال، يجب أن تأخذ حذرك، وأن تفر إلى الله – سبحانه وتعالى – مخافة أن يـــصيبك مثل ما أصابهم؛ ولذلك لما عرض الله تعالى على الكافرين مصارع المكذبين الظالمين في سورة القمـــر، فوجـــه إليهم في آخر السورة بالخطاب، فقال – سبحانه وتعالى – ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِـــي الزُّبُـــرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالـــسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ [القمر:٤٣-٤٦].

نعوذ بالله من الخذلان، ونسأله الهداية والتوفيق، هذا والحمد لله رب العالمين،وصلى الله وسلم وبـــارك علـــى نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، إن الإنسان من أكبر الظالمين، أنا أريد أن أسأل، يعني أنا شديدة الغضب، أنا لما أغضب أعوذ بالله أتلفظ بألفاظ أسيء بها إلى الله – عزّ وجلّ – يعني أحد يقول لي صلي علـــى النبـــي، أقول: ما أنا مصلية، أحد يقول: مثلا تعرفين الله، أقول: ما أعرف الله، أغضب من أولادي كثيراً، من زوجـــي، فما أعرف، فأعوذ بالله هل أدخل تحت إني أنا من الظالمين؟ هل يقبل الله عز وجل مني التوبة؟ وجه لي نصيحة أستعين بها على هذا الغضب ؟

نسأل الله لها مزيداً من الحلم، ونسأل الله أن يعافيها من هذا الغضب الذي يجعلها تنطق بكلمة الكفر والعياذ بالله، والنبي – صلى الله عليه وسلم – قال: (إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم) فكلنا لم يولد عالماً، ولكن لما تعلمنا تعلمنا، فكذلك الإنسان إذا وجد من نفسه أن الغضب يغلب عليه، فليجتهد في قراءة فضل كظم الغيظ، وفضائل الحلم، وليجتهد على نفسه أن يتحلم، فيتحلم مرة بعد مرة حتى يصير الحلم له سجية وطبعاً بإذن الله – عزّ وجلّ – لكن عليها طبعاً إذا غضبت وتكلمت بمثل هذه الكلمات التي ذكرتها بعد الغضب عليها أن تتوضأ وتصلي ركعتين وتستغفر الله – عزّ وجلّ – وتقرأ شيئاً من القرآن الكريم حتى يغفر الله لها ما سلف من ذنبها؛ لأن تعالى قال: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾[هود:١١٤] .

والنبي – صلى الله عليه وسلم – قال (وأتبع السيئة الحسنة تمحوها) وعليها أن تكثر من قول: اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت، اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، لا شك أن القرآن عظيم، وهذا شخص حافظته ممتازة في القرآن، لكن إذا سمَّع هو لنفسه يعني لا يخطئ؛ لأنه بعدما يسمَّع لنفسه يرجع ينظر خلال الصفحة يجد أنه ما أخطأ في شيء، يعني إلا نادرًا، ولكن إذا سمَّع له آخر يخطئ بشئ أكبر فما تفسيركم لهذا يعني ما السبب في هذا ؟

التفسير أن للآخرين هيبة، الإنسان إذا جلس يسمع على غيره من الرهبة والهيبة والمهابة والخشية هو لا يريد أن يخطيء فخوفه من الخطأ يجعله يخطأ، هو حافظ وهذا يحدث مع كبار الحفظة وليس مع المبتدئين، لكن بالتجربة يتعود الإنسان على هذا يسمع مرة بعد مرة بعد مرة سيكون في كل مرة متأخرة أحسن من التي سبقتها إن شاء الله.

هذه باحثة تريد أن تأخذ كتاب دفع إيهام الاضطراب للشيخ محمد أمين الشنقيطي ، الشيخ يذكر مجموعة من الأقوال، تريد أن تتخير القول الراجح وتخير بمرجحات حسب المذهب الحق، هل هذا نافع ومجزي، أم أنها تترك هذا، نريد نصيحة الشيخ؟

دفع إيهام الاضطراب للعلامة الشيخ الشنقيطي –رحمة الله عليه – كتاب جيد أنصحها به وبالاستمرار في بحثها فيه، والشيخ رحمه الله مفسر محقق يجمع الأقوال ويرجح بينها مما يدل عليه الكتاب والسنة.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أريد أن أعرف طريقة ميسرة وسهلة للحفظ، وأريد أن أعرف: لماذا كلما أقرأ في القرآن كل آية أقرأها تستوقفني آيات كثيرة في القرآن، وعندما أقرأها للمرة الثانية كأني أقرأها لأول مرة، فهل هذه تعتبر من معجزة القرآن؟ وكنت أريد أن أعرف ما هو عذاب القبر ؟.

لا شك أن من إعجاز القرآن: أن الإنسان يقرأه مرات ومرات، فيفتح الله تبارك وتعالى عليه في مرة متأخرة، ما لم يفتح عليه في مرة سابقة، وهذا حدث كثيرا للسلف الصالح رضوان الله عليهم عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – سمع سورة الطور من النبي – صلى الله عليه وسلم – كثيرا، ولكنه في ليلة من الليالي كان يتحسس أحوال الرعية، ويسير في طرقات المدينة فسمع قارئا يقر ﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ [الطور: ١–٣]، فجلس يستمع إليه فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ ﴾[الطور: ٧:٨]، أخذه خوف شديد وعاد إلى بيته يعوده الناس ولا يعرفون ما سبب مرضه.

فمن إعجاز القرآن أنه دائما متجدد، والله سبحانه وتعالى يفتح على الإنسان في مرات دون مرات وهكذا، تقرأ أحيانا فلا تجد قلبك ولا تتأثر، فتقرأ حينا آخر فتجد قلبك وتتأثر، فذلك من فتوحات الله تعالى على عباده.

أما الطريقة المثلى لحفظ القرآن الكريم التي دائما ننصح بها، وقد كررنا قولها في هذا البرنامج المبارك إن شاء الله تعالى، أننا ننصح إخواننا وأخواتنا الذين رغبوا في حفظ القرآن الكريم أن يبدءوا بحفظ حزب المفصل الذي هو من ق إلى الناس، من ق إلى الناس أربعة أجزاء، هذه الأربعة أجزاء الأخيرة قرئت كثيرا، وسمعت كثيرا، وحفظناها ونحن صغار، فإذا أراد الإنسان أن يحفظ وبدأ بها كان سهلا عليه أن يجمعها في وقت قريب جدا وقليل جدا، فننصحها وسائر المستمعين بأن يبدءوا بالحفظ من حزب المفصل، يبدأ بحفظ جزء عم، ثم تبارك، ثم قد سمع، ثم ق، ثم ينتقل من يس إلى ق وهكذا، حتى يرتقي فيختم المصحف كله إن شاء الله، مع ضرورة العناية بالمراجعة -مراجعة المحفوظ-؛ لأن هناك خطأ يشترك فيه أكثر الحفاظ: وهو أنهم يجدون في الحفظ، ويتركون مراجعة الماضي، فبعد أن يمشي شهرا في الحفظ يحفظ خمسة ستة أجزاء، يرجع للوراء ليسمع ما حفظه فلا يجده؛ لأنه حفظ وترك، لا، نحن نقول: من حفظ فلا بد أن يتعاهد القرآن المحفوظ بالمراجعة، كل يوم يقرأ المحفوظ ما دام أقل من ثلاثة أجزاء، فإذا زاد على ثلاثة أجزاء يقرأ كل يوم ثلاثة أجزاء وهكذا حتى يثبت الله تعالى القرآن في صدره.

هناك أربعة أسئلة: السؤال الأول: ما حكم إهداء قراءة القرآن للميت؟

كما ذكر هو في سؤاله أنه اختلف العلماء في ذلك، لكن دائما نحن لا بد أن نخرج من الخلاف بالترجيح بين أقوال العلماء بالأدلة، فالراجح الذي هدانا الله سبحانه وتعالى إليه هو ما ذكره الإمام الشافعي رحمه الله ونقله عنه ابن كثير رحمه الله في تفسيره في سورة النجم في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾﴾ [النجم: ٣٦-٤٠]، فدل الإمام الشافعي رحمه الله تعالى كما نقله ابن كثير في تفسير هذه الآية، فدل بهذه الآية أنه لا ينفع الميت إهداء ثواب قراءة القرآن من عامة المسلمين؛ لأن هذه القراءة ليست من سعيه، والله تعالى قال: ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ ﴾ فما جرت به عادة الناس أنهم يقرءون شيئا من القرآن، وربما اجتمعوا ووزعوا أجزاء من القرآن على مجموعة من الناس، فإذا قرءوا كانوا كأنهم قرؤا القرآن كله، ثم يهدون ثواب ما قرءوا إلى أمواتهم وأموات المسلمين عامة بل وإلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وهذا أمر لا أراه جائزًا، بل إن الإنسان عليه أن يقرأ وهو على وجل من الله عز وجل وخوف ألا يثيبه، أنت تقول: أهديت ثواب ما قرأت إلى أبي وأمي وفلان وفلان، هل أنت جزمت بأنك أثبت على قراءتك؟ كيف تهدي شيئا لا تملكه؟ والله يقول في حق عباده الصالحين: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[المؤمنون: ٦٠]،أي خائفة، قالت عائشة - رضي الله عنها: يا رسول الله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ أهو الذي يزني ويسرق ويخاف؟ قال: (لا يابنة الصديق، ولكنه الذي يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف ألا يتقبل الله منه).

فإهداء ثواب قراءة القرآن للأموات لا يجوز، لكننا نبشر السائل وغيره من المسلمين: بأن كل عمل صالح يعمله الولد فلأبويه خاصة دون عامة المسلمين من الأجر مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء، وذلك للآية التي ذكرناها آنفا ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ ﴾ فالولد من سعي أبويه، كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - (إن أفضل ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه) فإذا كان الولد من كسب أبيه، فمن فضل الله تعالى أن كل عمل صالح: صلاة، صيام، صدقة، قراءة قرآن، حج، عمرة، كل هذا يكون من الولد في صحيفة أبويه وهم أحياء وبعد مماتهما، من غير أن يقول: أهديت ثواب ما قرأت، أو وهبت ما عملت لأبي أو لأمي.

كان سؤاله الثاني: عن حكم ترتيل الأحاديث؟

لا أرى ترتيل الأحاديث كما يرتل القرآن ويجود لا أرى ذلك، لا بد من التفريق بين كلام الله سبحانه وتعالى، وكلام النبي – صلى الله عليه وسلم – فربما اشتبه الأمر على سامع يسمع إنسانا يرتل حديثا فيظن أنه يقرأ قرآنا، فردًّا ودفعا لهذه الشبهة، نقول: لا ترتل الاحاديث، ولكن تقرأ قراءة عادية.

السؤال الثالث: عن الراديو أو الكاسيت يشغل بالقرآن بصوت مسموع، مع عدم الاستماع إليه بنية طرد الشيطان من البيت.

جرت عادة الطيبين – وما أكثرهم – بأنهم يتركون المذياع أو الكاسيت يقرأ القرآن في الإذاعة أو التسجيل في البيت طول النهار أو في المحلات، حتى إن بعض أصحاب المحلات إذا غادروا المحلات أغلقوا المحل وتركوا الراديو يقرأ القرآن، نحن نقول: ما تعبدنا بهذا وهذا شيء لم يفعله السلف إنما أمرنا ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾[الأعراف:٢٠٤]، أنا موجود في البيت موجود في المحل شغلت الراديو بجواري شغلت التسجيل أنا أستمع، قد أنشغل أحيانا لكنني يصل الصوت إلى أستمع، قد تنفعني آية لا حرج في ذلك، لكن عند النوم وعند مغادرة المحلات والبيوت تغلق هذه الكاسيتات والراديو.

سؤاله الرابع: هل من يستمع القرآن من خلال الشريط، ولم يقرأه مع استطاعته، هل يعتبر هاجرا للقرآن؟

لا شك أنه هاجر للقرآن؛ لأننا أمرنا بتلاوة القرآن أمرا أشد من الأمر من بالاستماع به، فيجب عليه أن يستمع، ويجب عليه أن يقرأ.

السلام عليكم ورحمة الله: عندي ثلاثة أسئلة: السؤال الأول: ما حكم المجادلة وإن كانت في الحق؟

قلنا: إن الجدال نوعان: جدال مباح أو مشروع، وقد يتعين وقد يستحب، وجدال مذموم منهي عنه، أما الجدال المنهي عنه: فهو الجدال بالسوء والجدال بالباطل لدحض الحق، أما الجدال المشروع قد يكون متعينا لنشر الدعوة، وتبليغ الحق، والجدال بالحسنى من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل.

السؤال الثاني عن الإنسان العاصي الذي يتحجج بقول الله تعالى:﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٣]،

نعم، نحن نقول ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ومن أصدق من الله حديثا ومن أصدق من الله قيلا، لكن كما نبهنا لما أخبر الله تبارك وتعالى أنه واسع المغفرة، أخبر المغفرة تعم من ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴿٨٢﴾ ﴾[طه: ٨٢]، ما فيه إنسان الآن يتقدم لمسابقة، لوظيفة، لعمل، إلا وهو لا يحمل المؤهلات التي طلبت لمن يتقدم لهذا العمل، لا يعقل أبدا أن يعلن عن مسابقة مطلوب من يحمل هذه المؤهلات يتقدم، لا يعقل أن يتقدم إنسان لا يحمل هذه المؤهلات، فكذلك الأمر الذي يريد أن يطلب رحمة الله تعالى لا بد أن يتأهل بمؤهلات التي تؤهله لرحمة الله ومغفرته .

السؤال الثالث: أنا أريد حفظ القرآن، ولكن لا أتقن التجويد، أريد طريقة صحيحة لإتقان التجويد؟

التجويد لا يؤخذ إلا من أفواه المشايخ، إذا أردت أن تتعلم التجويد؛ فابحث عن رجل من أهل القرآن المجودين المتقنين فجالسه وتعلم عليه، فإن القرآن لا يؤخذ إلا بالمشافهة.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ذكرت سابقا أن الموت يؤتى به على هيئة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار، هل هو المكان الذي يطلق عليه العرف الذي يقف عليه أهل الأعراف يوم القيامة؟

لا ندري هل هو هذا أم لا، النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: (يؤتى بالموت على هيئة كبش أملح فيوضع على سور بين الجنة والنار) ولم يسم هذا السور هل هو الأعراف، أم غيره الله. تعالى أعلم.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ما ردك على من يقول: إن أهل النار يعذبون بموتتين، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى في سورة غافر ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾[غافر:١١]، وأن أهل الجنة لهم موتة واحدة؛ لقوله تعالى في سورة الدخان: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦].

قول أصحاب النار: عافانا الله ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ سموا الموتتين وسموا حياتين، المراد بالموتة الأولى: العدم الذي كان فيه الإنسان قبل خلقه، والمراد بالموتة الثانية: الموت المعروف الذي يموته الإنسان بعد استيفاء أجله، والمراد بالحياة الأولى: هذه الحياة التي نحياها، والمراد بالحياة الثانية: الحياة التي نحياها بعد البعث –إن شاء الله تعالى–وأما قول الله تعالى عن أهل الجنة ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ فهي الموتة التي ذكرناها، فالعدم الذي سبق الوجود يسمى موتا ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ كنا عدما فأحييتنا، كنا موتى فأحييتنا هذه الموتة الأولى، ثم لما استوفو آجالهم توفاهم الله هذه الموتة الثانية.

سؤال: لماذا بدأ الشيخ بتفسيرسورة الكهف بما أن هذه بداية الأكاديمية، فلماذا لم يبدأ بالبقرة أو الناس حتى يساعد بالفهم والحفظ

نحن جرينا –نرجو الله سبحانه وتعالى التوفيق – جرينا على سنة الله تعالى في التنزيل تقول أمنا عائشة – رضي الله عنها– كان أول ما نزل من القرآن أيات من المفصل فيها ذكر الجنة و النار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول ما نزل: لا تزنوا؛ لقالوا: لا ندع الزنا أبدا، ولو نزل أول ما نزل: لا تشربوا الخمر؛ لقالوا: لا نترك الخمر أبدا. فالله سبحانه وتعالى أنزل أول ما أنزل آيات من حزب المفصل الذي ذكرناه فيها الجنة والنار، فهو لم يبدأ بالبقرة، ولم يبدأ بالأنفال، ولم يبدأ بالتوبة، إنما كانت هذه متأخرة في النزول، فجريا على سنة الله تبارك وتعالى أن نبدأ بالعقيدة أولا، وبالجنة والنار والترغيب والترهيب.

شرح الله صدور النابهين أن تكون البداية في هذه الأكاديمية المباركة –إن شاء الله– من أول سورة الكهف، ولعل الله يمد في الأعمار، وننتهي إلى الناس، ونرجع إلى الفاتحة والبقرة إن شاء الله.

سؤال: إذا حفظ الإنسان من القرآن ثم نسيه هل يحشر يوم القيامة أعمى كما جاء في الآية؟

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾[طه: ١٢٤–١٢٦]، النسيان هنا ليس هو ضد الذكر، ولكن النسيان هنا بمعنى الهجر والترك وعدم الإيمان وعدم العمل، وليس ضد الذكر.

ولكني أقول إن من أوتي القرآن أو شيئا منه ثم نسيه أقول إن لم يعاقب في الآخرة فكفاه عقاب الدنيا أن الله وهبه نعمته ثم أخذها منه؛ لأنك حين تحفظ القرآن أو تحفظ سورة من القرآن فإن هذه نعمة الله أنعم عليك بها، فإذا نسيتها الله استرد نعمته منك، لم يجدك أهلا لهذه النعمة فاسترد نعمته منك فأي عقوبة أشد من هذه العقوبة؛ فلذلك ننصح إخواننا وأخواتنا الذين انعم الله عليهم بالقرآن أو أجزاء منه أن يتعاهده بالمراجعة حتى لا يتفلت من صدورهم.

هل يثاب الأب والأم على عمل الابن، حتى لو لم يربياه على الالتزام بالشرع؟ وهل عليهم وزر علـــى مـــا يرتكبه الابن من إثم؟

كل عمل صالح يعمله الولد فلأبويه من الأجر مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء، وإن لـــم يكونـــا تسببا في ما هو عليه من الخير، إنهما كانا سببا في وجوده في هذه الحياة أصلا هما سبب وجودك في هذه الحياة، فكفاهما بهذا الفضل فضلا، فكل ما يعمله الولد من العمل الصالح فلأبويه من الأجر مثل أجره، وإن لم يكونا هما سببا في عمله الصالح هذا وهذا فضل الله، وأما عدل الله فهو ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾[الإســراء: ١٥]، فإذا عمل الولد عملا سيئا لا يحمل على أبويه من وزره وإذا عمل الآباء عملا سيئا فلا يحمل على أبنائهم مـــن وزره.

سؤال:هل نستطيع أن نجزم أن كل من مات كافرا أنه من أهل النار

لا شك في ذلك أن كل من مات كافرا، ولم تبلغنا عنه توبة، ولم نعرف عنه إسلاما، لا شك أننا نقول: إنه في النار.حتى ولو كان عين نعم، كل كافر علمنا أنه مات كافرا، ولم نعرف عنه إسلاما فهو في النار.

هل المقصود بذكر الله تلاوة القرآن فقط، أم يلحق بها التسبيح، والتهليل، والتكبير، والاستغفار، وقراءة أذكار الصباح والمساء

لا شك أن الذكر لفظ عام يشمل القراءة، والتسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير، لكن أفضل الـــذكر قـــراءة القرآن.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته: ذكرتم فضيلتكم أنه يجب ألا يهجر القرآن ويختم كل شهر، هل من يحفـــظ ويراجع وليس عنده وقت للختم في هذه المدة فيعتبر ممن هجره؟

أنا أنصح المنشغل بالحفظ أن يقرأ كل يوم ثلاثة أجزاء مما حفظ، ومما لم يحفظ، يعني يبدأ في الختمة من أو الفاتحة ِإلى الناس، ما لم يحفظه يقرأه من المصحف وما حفظه يقرأه عن ظهر قلب مرة ومن المـــصحف مـــرة أخرى، فبذلك يسهل عليه حفظ الغير محفوظ حين يأتي؛ ليحفظ سورة وقد قرأها كثير يسهل عليه حفظهـــا، ولا يجوز له أن يهجر بقية القرآن حتى يحفظ منه ما تيسر.

البعض يقولون: أن الله عز وجل خالق كل شيء، لكنهم يجعلون له آلهة آخرى، نرجو من فضيلتكم توضـــيح ثبوت التوحيد وبطلان الشرك للرد على هؤلاء القوم

شرحنا ذلك في الحلقة بالتفصيل، ونجمله في أنه إلهنا الحق الذي نعبده الذي خلقنا، كل ما سوى الله مخلـــوق مملوك مربوب لله، ولا يمكن للمخلوق أن يكون إلها أبدا؛ ولذلك سيدنا إبراهيم عليه السلام لما تبرأ مـــن قومـــه ومما يعبدون من دون الله ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّـــا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧]، لماذا تبرأ من الألهة التبي يعبدها قومه وأثبت ولايته لله وحده لله قال لأنه ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾[الشعراء: ٧٨-٨٢].هل أحد غير الله يملك شيئا من ذلك لا إله إلا الله.

سؤال: هل من الإعراض عن القرآن ترك قراءته ؟

نعم، قلنا: من الإعراض عن القرآن ترك قراءته، وترك الاستماع إليه، وترك التدبر، وترك العمل، كل هـذا من الإعراض عن القرآن الكريم.

السلام عليكم، ما الأشياء المطالبين بحفظها لوقت الاختبار، هل هو الشرح كاملا أم شرح المفردات فقط؟

لا، مطالبون إن شاء الله تعالى في الامتحان أن تعتمدوا على مختصر ابن كثير لشيخنا الرفاعي في المذاكرة، وإن لم نوفق في أن نوجد لكم هذا الشرح مكتوبا، فسنفرد لهذا الشرح سؤالا سيأتيكم سؤالا من هذا الشرح؛ حتى نفرق بهذا السؤال بين من استوعب الشرح وبين من اعتمد على قراءة الكتاب فقط، فانتبهوا لذلك كل ما أقولـه احفظوه وذاكروه وادرسوه مع مختصر ابن كثير.

هل تفسير الشيخ ابن عثيمين يجزئ للمذاكرة؟

لم أعلم للشيخ رحمة الله عليه تفسيرا كاملا، إن كان له تفسيرا كاملا، فذلك خير وبركة.

أرجو من الشيخ بيان معنى كلمة أكنة؟

أكنة: أي أغطية.

هل كلمة أرجوك خطأ؛ لأن الرجاء يصرف لله تعالى وحده فقط ؟

لا، أنت ترجو مني، وأنا أرجو منك، ما أقدر عليه، وما تقدر أنت عليه، ولكن لا أرجو منك ما لا تقدر عليه، هذا يرجى من الله تعالى، لكن أن ترجو مني ما أقدر عليه، وأنا أرجو منك ما تستطيعه لا حرج في ذلك إن شاء الله.

نعلم شيخنا أن الله تعالى يعلم ما كان، وما يكون، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، فذكرت: أن الله تعالى ختم على قلوبهم، وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم، فلعلم الله بفساد قلوبهم؛ ختم على قلوبهم؟

لعلم الله بهم وباطلاعه على إصرارهم وعنادهم وكفرهم ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آَمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾[النافقون: ٣]، وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[الأنفال: ٢٢: ٢٣]، فليس من الحكمة أن يسمعهم، والمراد بالسمع هنا: هو سمع الانتفاع والاتعاظ والعمل وليس سمع الأذن.

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم مرحبا بكم في هذا اللقاء الجديد من دروس تفسير سورة الكهف، ونحن على موعد اليوم مع البدء في تفسير القصة الثانية التي وردت في السورة الكريمة: وهي قصة موسى والخضر التي قصها الله – تبارك وتعالى – علينا في سورة الكهف، تبين لنا أن الرحلة في طلب العلم من هدي النبيين، وعباد الله الصالحين، فلنستمع إلى آيات من هذه القصة كما جاءت في هذه السورة الكريمة المباركة قبل الخوض في تفاصيلها، سائلين الله – عزّ وجلّ – أن ينجز لنا ما وعدنا، حيث قال: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[الأعراف: ٢٠٤]

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾[الكهف:٦٠-٧٠].

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[ص: ٢٩].

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣].

إخوة الإسلام هذه آيات مباركات من سورة الكهف، من أول قصة موسى والخضر – عليهما السلام –، وقبل أن ندخل في تحليل الألفاظ والآيات، واستنباط العبر والدروس والأحكام منها، رأيت أن نقرأ حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في تفسير هذه الآيات أولاً.

فإن الله –تعالى– وكل إلى رسوله – صلى الله عليه وسلم – مهمة بيان كتابه ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[النحل: ٤٤] .

فإن شاء الله تعالى في هذه الساعة المباركة نستمع إلى قراءة الحديث كما رواه البخاري -رحمه الله- في كتاب التفسير، ثم نقرأ شرح الحافظ ابن حجر -رحمه الله- لهذا الحديث، ونستخرج منه من أحكام ودروس .

بوب البخاري -رحمه الله تعالى- في كتاب التفسير، فقال: باب فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا. قال: سربا يعني: مذهبا، يسرب يعني: يسلك، ومنه قوله تعالى ﴿ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾[الرعد:١٠]، ثم قال البخاري -رحمه الله:- حدثنا إبراهيم بن موسى، قال: أخبرنا هشام بن يوسف: أن ابن جريج أخبرهم: قال: أخبرنا يعلى بن مسلم، وعمرو ابن دينار، عن سعيد بن جبير، يزيد أحدهما على صاحبه .

ابن جريج يقول: أخبرني يعلى بن مسلم، وعمرو بن دينار بهذا الحديث الذي سيحكيه لنا الآن، يزيد أحدهما على صاحبه في الرواية وغيرهما، قد سمعته يحدث عن سعيد بن جبير قال: إنا لعند ابن عباس في بيته، إذ قال: سلوني قلت -أي أبا عباس-: جعلني الله فداءك بالكوفة رجل قاص -القاص: هو الذي يقص على الناس القصص والحكايات والأخبار- بالكوفة رجل قاص يقال له: نوف، يزعم أنه ليس بموسى بني إسرائيل.

قال ابن جريج: أما عمرو فقال لي: قد كذب عدو الله، وأما يعلي فقال لي: قال ابن عباس: حدثني أبي بن كعب قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- : (موسى رسول الله -عليه السلام- قال: ذكَّر الناس يوماً حتى إذا فاضت العيون، ورقت القلوب، ولى، فأدركه رجل فقال أي رسول الله هل في الأرض أحد أعلم منك؟ قال: لا؛ فعتب عليه إذ لم يرد العلم إلى الله.

قيل: بلى .

قال: أي رب فأين ؟

قال: بمجمع البحرين .

قال: أي رب اجعلي علماً أعلم ذلك منه .

فقال لي عمرو: قال: حيث يفارقك الحوت.

وقال لي يعلي: قال: خذ نوناً ميتاً حيث ينفخ فيه الروح.

(فأخذ حوتاً فجعله في مكتل، فقال لفتاه لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت.

قال ما كلفت كثيراً.

فذلك قوله جل ذكره ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ ﴾ يوشع بن نون)، وهذه ليست عند سعيد أو عن سعيد.

قال: (فبينما هو في ظل صخرة في مكان ثريان إذ تضرب الحوت وموسى نائم.

فقال فتاه لا أوقظه، حتى إذا استقظ نسي أن يخبره، وتضرب الحوت حتى دخل البحر فأمسك الله عنه جرية البحر حتى كان أثره في حجر) .

قال لي عمر: هكذا كان أثره في حجر وحلق بين أبهمتيه واللتين تليانهما .

﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ قال: قد قطع الله عنك النصب، هذه ليست عن سعيد، أخبره فرجع، فوجدا خضرا.

قال لي عثمان بن أبي سليمان: على طنفسة خضراء على كبد البحر.

قال سعيد بن جبير: مسجى بثوبه: قد جعل طرفه تحت رجليه، وطرفه تحت رأسه، (فسلم عليه موسى، فكشف عن وجهه، وقال: هل بأرضي من سلام من أنت ؟

قال: أنا موسى .

قال: موسى بني إسرائيل ؟

قال: نعم .

قال: فما شأنك ؟

قال: جئت؛ لتعلمني مما علمت رشدا.

قال: أما يكفيك أن التوراة بيديك وأن الوحي يأتيك؟

يا موسى، إن لي علماً لا ينبغي لك أن تعلمه، وإن لك علماً لا ينبغي لي أن أعلمه، فأخذ طائر بمنقاره من البحر فقال: والله، ما علمي، وما علمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر.

حتى إذا ركبا في السفينة، وجداً معابر صغاراً تحمل أهل هذا الساحل، إلى أهل هذا الساحل الآخر، فعرفوه، فقالوا: عبد الله الصالح ؟

قال: قلنا لسعيد: خضر؟

قال: نعم .

(قالوا: عبد الله الصالح، لا نحمل بأجر، فخرقها ووتد فيها وتدا.

قال: موسى أخرقتها؛ لتغرق أهلها؟ لقد جئت شيئاً إمرا) .

قال مجاهد: إمراً يعني منكراً .

(قال: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً .

قـــــال: كانـــــت الأولـــــى نـــــسياناً، والوســـــطى شـــــرطاً، والثالثـــــة عمـــــداً .

قال: ﴿لا تؤاخذني بما نسيت، ولا ترهقني من أمري عسراً﴾ . لقيا غلاماً فقتله) .

قال يعلى، قال سعيد: وجد غلماناً يلعبون، فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً، فأضجعه ثم ذبحه بالسكين، قال: أقتلــت نفسا زكية بغير نفس، لم تعمل بالحنث.

وكان ابن عباس قرأها زكية زاكية مسلمة، كقولك غلاماً زكياً .

(انطلقا فوجدا جداراً يريد أن ينقض فأقامه) .

قال سعيد: بيده هكذا، ورفع يده فاستقام الجدار .

قال يعلى: حسبت أن سعيدًا، قال: فمسحه بيده فاستقام .

(قال: لو شئت لاتخذت عليه أجرا).

قال سعيد: أجراً نأكله .

وكان ورائهم، وكان أمامهم، قرأها ابن عباس: أمامهم، (وكان ورائهم ملك) يزعمون عن غير سعيد: أنه هُدَد بن بُدَد. والغلام المقتول اسمه يزعمون جيسور.

(ملك يأخذ كل سفينة غصبا فأردت إذا هي مرت به أن يدعها لعيبها، فإذا جاوزوا أصلحوها فـــانتفعوا بهـــا، ومنهم من يقول: سدوها بقارورة، ومنهم من يقول: بالقار، كان أبواه مؤمنين، وكان كافرا؛ فخشينا أن يرهقهمـــا طغيانا وكفرا: أن يحملهما حبه على أن يتابعه على دينه، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما، لقوله أقتلت نفساً وزكية، وأقرب رحما هما به أرحم منهما بالأول الذي قتل الخضر، وذهب غير ســـعيد: أنهمـــا أبدلا جارية، وأن داود بن أبي عاصم قال: عن غير واحد إنها جارية) .

هكذا أورد البخاري –رحمه الله– هذا الحديث.

وأراد ابن عباس أن يردَّ على نوف البكالي الذي يزعم: أن موسى صاحب الخضر ليس موســـى رســـول الله الذي بعثه الله إلى بني إسرائيل .

قال الحافظ ابن حجر –رحمه الله:– قوله ﴿ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾ يعني مذهباً، يقال يـــسرب يعني يسلك .

ومنه قوله تعالى ﴿ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾[الرعد:١٠].

قال أبو عبيدة في قوله تعالى ﴿ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾ أي مسلكاً ومذهبا يسرب فيه . وفي أية أخرى ﴿ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ وقال أيضاً: في قوله: ﴿ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ سالك في سربه أي مذهبه، ومنه أصبح فلان آمناً في سربه، وفى الحديث عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: (من أصبح منكم آمنا في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها) .

قوله: بينما نحن عند ابن عباس إذ قال سلوني، يقول الحافظ: قول ابن عباس سلوني فيه جواز قـول العـالم ذلك، يجوز للعالم إذا اجتمع عنده الطلاب، أو غيرهم من عامة الناس أن يبتدأهم هو فيقول: سلوني، قال الحافظ: ومحل ذلك إذا أمن العجب، أو دعت الضرورة إليه كخشية نسيان العلم، يعني: يجوز للعـالم أن يبتـدأ النـاس، فيقول: اسألوني، إذا لم يسألوه هم. قال: ولكن محل ذلك إذا أمن على نفسه الفتنة من العجب: بأن يعجب بنفسه، أو أن تأخذه العزة والكبرياء، أو أن العالم يخاف أن يندرس العلم ويذهب وينساه الناس، فيقول: سلوني؛ ليتجـدد العلم في قلوبهم.

قوله: جعلني الله فداك فيه حجة لمن أجاز، خلافاً لمن منعه، يجوز للرجل أن يقـول: للفاضـل أو للخيـر أو للرجل المبارك جعلني الله فداك.

وقوله: إن بالكوفة رجل قاصاً القاص: هو الذي يقص على الناس الأخبار من المواعظ وغيرها، قوله يزعم أنه ليس بموسى بني إسرائيل هكذا جاءت في هذه الرواية: يزعم أنه بالضمير، ولم يصرح بالاسم، وفى روايـة سفيان: يزعم أن موسى صاحب الخضر، ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل .

فقال ابن عباس منكراً على نوف: كذب عدو الله، قال الحافظ: هذان القولان: كذبا عدو الله محمولان على أن ابن عباس أراد المبالغة في الزجر والتنفير عن تصديق تلك المقالة، لما قيل له: إن نوفاً يزعم أن موسى صاحب الخضر، ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل، أراد أن ينفر الناس من قوله حتى لا يصدقوه، فقال: كذبا عـدو الله، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – (ذكّر موسى بنى إسرائيل) ذكّر: أي وعظهم، وفى رواية ابـن إسحاق عند النسائي قال: (فذكرهم بأيام الله) .

وأيام الله: نعمائه، ولمسلم من هذا الوجه يذكرهم بأيام الله، وآلاء الله، ونعمائه، وبلاؤه، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك في تفسير سورة إبراهيم .

وفى رواية سفيان (قام موسى خطيباً في بني إسرائيل حتى إذا فاضت العيون، ورقـت القلـوب) سـمعوا موعظة بليغة، كما قال أحد أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم :– وعظنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – موعظة بليغة، وجلت منها القلوب، وزرفت منها العيون، كذلك فعل بنو إسرائيل مع موسى، وهـو يـذكرهم ويعظهم، كانت موعظة بليغة، فاضت العيون، ورقت القلوب، فولى موسى: أي قطع الخطبة والموعظة، وتـرك المجلس وانصرف.

قال الحافظ فيه: إن الواعظ إذا أثر وعظه في السامعين؛ فخشعوا، وبكوا، ينبغي أن يخفف لئلا يملوا. إذا حدث المحدث، ووعظ الواعظ، وذكر مذكر؛ فتأثر الناس بالخطبة، وتأثروا بالموعظة، ورقت قلوبهم، وفاضت أعينهم من خشية الله، ينبغي للواعظ أن يقطع موعظته، وأن ينهيها حتى لا يشق عليهم، ويملوا حديثه، محافظـة علـى سلامة قلوبهم، فأدركه رجل لما ولى موسى –عليه السلام– قطع الخطبة وانصرف، تبعه رجل فقال له: هل في الأرض أحد أعلم منك ؟ قال: لا.

وفى رواية سفيان: أي الناس أعلم ؟ فقال: أنا .

فعتب عليه أن لم يرد العلم إلى الله – سبحانه وتعالى – وأخبره الله أن هناك عبداً من عباد الله عنده علم ليس عند موسى، فقال: أي رب فأين ؟ أين هذا الذي عنده علم ليس عندي ؟

في رواية سفيان: أي رب فكيف لي به؟

وفى رواية النسائي: فادلنني على هذا الرجل حتى أتعلم منه .

قال: اجعلي علماً، أي علامة أعرف بها موضع ومكان ذلك الرجل الذي عنده علم ليس عندي، أعلم ذلك بـه أي المكان الذي أطلبه فيه.

قال: حيث يفارقك الحوت، يعني فهو ثم .

وفي رواية سفيان عن عمر قال: تأخذ معك حوتا فتجعله في مكتل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم.ذذ

قال: خذ حوتاً، وفي رواية نوناً، وفي رواية أبي إسحاق عند مسلم، فقيل له تزود للسفر، أنت ستسافر، والسفر بحاجة إلى زاد .

تزود حوتاً مالحاً، فإنه حيث تفقد الحوت، ويستفاد من هذه الرواية أن الحوت الذي تزود به موسى لطعامـه كان ميتا؛ لأنه لا يملح السمك وهو حي، وهنا تأتي المعجزة مع أن الحوت ميت إلا أنه في المكـان الـذي فيـه الخضر ستدب فيه الحياة، وسيهرب من موسى –عليه السلام– فحيث فقدته فهو ثم، أو حيث يفارقك الحوت فهو ثم، فبينما هو في ظل صخرة، وفى رواية سفيان: حتى إذا أتيا الصخرة، وضعا رووسهما، موسى ومن ؟ وفتـاه وضعا رؤوسهما فناما في مكان ثريان، يعني مبلول. ومنه حديث الرجل الذي وجد كلباً يلهث الثرى، الثرى هو السراب المبلول. في مكان ثريان أي مبلول إذ تضطرب الحوت، أي تفعل من الضرب في الأرض وهو السير.

وفى رواية سفيان اضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر. وفي رواية أبو إسحاق عند مسلم فاضطرب الحوت في الماء. فهنا رواية اضطرب في المكتل، وفي رواية أخرى اضطرب فـي البحـر، قـال الحافظ: ولا مغايرة بينهما؛ لأنه اضطرب أولاً: في المكتل، فلما سقط في الماء اضطرب أيضاً في الماء، إذاً دبت الحياة في الحوت وهو في المكتل، فلما تحركا نزل في البحر فاضطرب في البحر. فاضطرابه الأول: وقع فـي مبدأ حياته، واضطرابه الثاني: وقع في سيره في البحر حيث اتخذ فيه مسلكاً. وفي رواية قتيبة عن سليمان: في الباب الذي يليه من الزيادة، قال سفيان: وفى غير حديث عمر، وفى أصل الصخرة عين يقال لها: الحياة، عـين ماء اسمها: عين الحياة، لا يصيب من مائها أي شيء ميت إلا أحياه الله – تبارك وتعالى –.

فأصاب الحوت من ماء تلك العين، فتحرك وانسل من المكتل، فدخل البحر، وكان موسى نائماً، فيوشـع رأى الحوت، وقد اتخذ سبيله في البحر سربا، فلم يشأ أن يوقظ موسى .

قال: بدل أن أوقظه، أو أزعجه، أتركه حتى يستيقظ هو، فإذا استيقظ أخبرته، وموسى نائم، فقـال فتـاه: لا، أوقظه حتى إذا استيقظ، فاستيقظ موسى، فنسي الفتى أن يخبره .

وأما قوله تعالى ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ فنسب النسيان إليهما تغليبا، لكن الناسي في الحقيقة هو الفتى؛ لأن موسـى كلفه متى فقد الحوت يخبره، والناسي هو الفتى نسي أن يخبر موسى كما في هذا الحديث، وقيل: بل المـراد أن الفتى نسي أن يخبر موسى بقصة الحوت، ونسي موسى أن يستخبره عن شأن الحوت بعد أن استيقظ؛ لأنه حينئذ لم يكن معه، وكان بصدد أن يسأله أين هو؟ فنسي ذلك.

قوله: فأمسك الله عنه جرية البحر حتى كان أثره في حجر، قال: قال لي عمر، والقائل هو ابن جريج، قال لي عمر: كان أثره في حجر وحلق بين إبهميه واللتان تليانهما يعني السبابتين، يعني: الحوت لما خرج من المكتـل اتخذ سبيله في البحر سربا، وترك في الصخرة أثر عظيم بحلقة مدورة، شبهها عمرو بحلقتي إبهاميـه واللتـين تليانهما.

وفى رواية سفيان عن عمر: فصار عليه مثل الطاق: وهو يفسر ما أشار إليه من الصفة. وفي رواية أبي إسحاق عند مسلم فاضطرب الحوت في الماء فجعل لا يلتئم عليه، لما مشى في الماء هو شق الماء، الماء في العادة عندما تشقه السفينة يلتئم ورائها، الحوت شق الماء، ولكن الماء لم يلتئم، ولم ينضم بعضه إلى بعض بعد أن مشى فيه الحوت، فاضطرب الحوت في الماء فجعل لا يلتئم عليه صار مثل الكوة.

﴿ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً ﴾[الكهف:٦٤]. أي رجعا يقصان آثارهما أي آثار سيرهما؛ لأن الأقدام تؤثر في الأرض الرملية، أو في الأرض المبلولة، إذا أعطيت أرضاً رملية تجد قدمك قدماً قدماً وراءك. فرجعا يقصان آثارهما: أي يتبعان أثار سيرهما حتى انتهيا إلى الصخرة، زاد النسائي في رواية له التي فعل فيها الحوت ما فعل، وهذا يدل على أن الفتى لم يخبر موسى حتى سارا زمانا، يعني الفتى لم يتذكر أن يخبر موسى أنه ما فقد الحوت إلا بعد أن مشى مسافة طويلة، إذ لو أخبره أول ما استيقظ ما احتاجا إلى أن يقتصا آثارهما. اقتصاص آثارهما دليل على أنهما كانا قد بعدا مسافة بعيدة؛ فخشيا أن يضلا الطريق، فرجعا يقتصان آثار أقدامهما حتى يرجعا إلى الصخرة، فلما وجدا الخضر نائماً كان مسجى بالثوب مغطى كله ليس هناك شيء ظاهر منه، جعل طرف الثوب تحت رأسه والطرف الآخر تحت رجليه فسلم موسى –عليه السلام– على الخضر السلام عليكم، فالخضر تعجب ما هذه التحية التي لم يسمعها في أرضه قبل ذلك، قال وهل بأرضي سلام ؟ عندما سمع السلام عليكم كشف وجهه، وقال: وهل بأرضي من سلام؟

وفى رواية سفيان قال: وأنى بأرضك السلام؟ وهي بمعني أين أو كيف، وهو استفهام واستبعاد يدل على أن أهل تلك الأرض لم يكونوا إذ ذاك مسلمين؛ لأن السلام عليكم هي تحية المسلمين؛ ولذلك نحذر إخواننا المسلمين من التقصير في تحية الإسلام، واستبدال الأدنى بالذي هو خير، نستبدل تحيات غير إسلامية: صباح الخير، ومساء الخير، بدل السلام عليكم، وهذا لا يجوز، إن السلام عليكم تحيتنا، والنبي – صلى الله عليه وسلم – يقول: (السلام اسم الله، وضعه بينكم في الأرض فأفشوه بينكم) وعظم – صلى الله عليه وسلم – أمر السلام فقال: (لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم: أفشوا السلام بينكم) وبيَّن – صلى الله عليه وسلم – أن الذي يقول لأخيه: السلام عليكم يؤجر بعشر حسنات، فإذا قال: ورحمة الله أعطى عشرين حسنة، فإذا قال: وبركاته أعطي ثلاثين حسنة، صح هذا في حديث عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه جاءه رجل، فقال: السلام عليكم، قال: (اجلس عشر) فقال الثاني: السلام عليكم ورحمة الله، قال: (اجلس عشرين) فقال الثالث: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، زاد وبركاته: قال: (اجلس ثلاثين) .

وقد سمى الله – تبارك وتعالى – السلام تحية من عند الله مباركة طيبة، فالسلام عليكم هي تحية المسلمين؛ ولذلك استنبط من إنكار الخضر السلام في هذه الأرض: أن أهل هذه الأرض لم يكونوا مسلمين؛ لأنه لم يكن يسمع فيهم قول السلام عليكم .

قال: من أنت ؟ قال: أنا موسى .

قال: موسى بني إسرائيل ؟ قال: نعم .

وسقط من رواية سفيان قوله: من أنت؟ وفي رواية أبي إسحاق، قال: من أنت؟ قال: موسى، قال: من موسى ؟ قال: موسى بنى إسرائيل، ويجمع بينهما بأن الخضر أعاد ذلك تأكيدا. من أنت؟ قال: موسى. قال: موسى بني إسرائيل ؟ قال: موسى بني إسرائيل، تأكيدا .

قال: ما شأنك، ما الذي جاء بك يا موسى، أنت في بني إسرائيل، ما الذي جاء بك إلى هنا ؟

ما شأنك؟ أي ما جاءك؟ أما يكفيك أن التوراة بيديك، وأن الوحي يأتيك، ثم قال الخضر: يا موسى إن لي علماً لا ينبغي لك أن تعلمه، أي لا ينبغي لك أن تعلم كل العلم الذي عندي، وإن لك علماً لا ينبغي لي أن أعلمه، وأنا أيضاً لا ينبغي لي أن أعلم كل ما أوتيت من العلم.

وتقدير ذلك تقدير الجميع على علم متعين؛ لأن الخضر كان يعرف من الحكم الظاهر ما لا غنى بالمكلف عنه، وموسى كان يعرف من الحكم الباطن ما يأتيه من طريق الوحي، ووقع في رواية سفيان: يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وهو بمعنى الذي قبله.

وفي رواية سفيان قال: إنك لن تستطيع معي صبرا، كذا أطلق بالصيغة الدالة على استمرار نفي موسى للصبر.

إنك لن تستطيع معي صبرا، يعني لن تستطيع أن تصبر أن ترى من أحوالي ما لا صبر لك عليه، لما أطلعه الله عليه من أن موسى لا يصبر على ترك الإنكار، إذا رأى ما يخالف الشرع علم الخضر: أن موسى إذ رأى فعلاً يخالف الشرع، لابد أن ينكر على فاعله ولو كان الخضر.

فقال له: إنك لن تستطيع معي صبرا؛ لأن ذلك شأن عصمته، المعصوم موسى -عليه السلام- لا يجوز أن يرى منكرًا ويسكت عنه، ولذلك لم يسأله موسى عن شيء من أمور الديانة، بل مشى معه؛ ليشاهد منه ما اطلع به على منزلته في العلم الذي اختص به.

وقوله: وكيف تصبر؟ استفهام عن سؤال تقديره: لما قلت إني لا أصبر ؟

يعني يتوقع أن موسى سأله: كيف تقول: إنني لن أصبر؟ أنا سأصبر، فقال: وكيف تصبر على ما تحط به خبرا؟

﴿ حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ ﴾ انتهيا إلى شاطئ البحر، وجدا معابرًا، المعابر: هي السفن الصغار، فأصحاب السفينة رأوا الخضر فعرفوه، قالوا: العبد الصالح، عبد الله الصالح، الخضر فحملوه بغير أجرة، وهذا ماش من ذلك اليوم، وسائر في الناس إلى اليوم: أن الناس إذا ركبوا في أي مركب، ورأوا من الصالحين بينهم أو أحد العلماء، فإما أن صاحب السيارة نفسه لا يأخذ الأجرة، وإما أن يدفع له بعض الحاضرين إكراما. فحملوه بغير أجر، فلم يلبث أن خرقها، خرق السفينة، ووتّد بتشديد التاء، وتّد فيها وتدا أي جعل فيها وتدا.

وفي رواية سفيان فلما ركبوا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم، قال: والجمع بين الروايتين أنه قلع اللوح، وجعل مكانه وتدا.

قال ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً ﴾ قال مجاهد أي أمراً منكرا. وعن قتادة إمراً أي: عجبا، ومن طريق أبي صخر في قول إمرا، قال أي: عظيما.

وفى رواية الربيع بن أنس عند ابن أبي حاتم أن موسى لما رأى ذلك امتلأ غضبا، وشد ثيابه، وقال: أردت إهلاكهم، أخرقتها لتغرق أهلها؟! ستعلم أنك أول هالك، فقال له يوشع فتاه: ألا تذكر العهد ألا تبادره بالسؤال حتى يحدثك هو. فأقبل عليه الخضر فقال: ألم أقل لك، فأدرك موسى الحلم، فقال: لا تؤاخذني، وأن الخضر لما خلصوا، قال لصاحب السفينة: إنما أردت الخير، فحمدوا رأيه وأصلحها الله على يده.

قوله كان أبواه مؤمنين، وكان كافرا يعني الغلام الذي قتله الخضر –عليه السلام– وفى رواية سفيان: وأما الغلام فطبع يوم طبع كافرا، وكان أبواه قد عطفا عليه أحباه وتعلقا به حب الفطرة مع كونه كافرا.

﴿ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً ﴾ أي يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه، خشينا أن يفتنهما في دينهما فيرتدا عن دينهما غلبة الحب له.

قال: هذا من تفسير ابن جريج، عن يعلى بن مسلم، عن سعيد بن زبير، وأخرج ابن المنذر من طريق سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير مثله .

وقال أبو عبيدة: في قوله يرهقهما أي: يغشاهما.

قال الحافظ ابن حجر بعد أن شرح الألفاظ والكلمات: وفى الحديث من الفوائد غير ما تقدم: استحباب الحرص على الازدياد من العلم، أن تكون حريصاً على أن تزداد كل يوم علماً جديداً، أن تكون ذا همة عالية لا ترضى باليسير من العلم، وفى إمكانك أن تحصل على الكثير .

فقد قال بعضهم :

ولم أرَ في عيوب الناس عيباً كعجز القادرين على التمام

يعني أن تكون قادراً، والفرصة متاحة وميسرة، والعلم بين يديك، ثم تكتفى من العلم بالنذر اليسير، وتكون همتك دون لا ترضى، أو لا تطمع في أن تحصل علماً كثيراً هذا خطأ.

إنما من قصة موسى والخضر نستفيد استحباب الحرص على الازدياد من العلم، ولو أدى ذلك إلى أن تسافر في البلاد، وتخرج من بلد إلى بلد في طلب العلم، فافعل ذلك .

فموسى –عليه السلام– مع أنه كليم الله من أولى العزم من الرسل، لما علم أن بالأرض الفلانية رجل عنده علم ليس عنده سافر إليه، وتحمل المشاق؛ ليزيد علماً، أو ليكسب علماً، إلى علمه .

واستحباب لقاء المشايخ، والخروج للقاء العلماء، وطلب العلم على أيديهم، فإن لطلب العلم طريقين: الطريق الأول: الأخذ من الكتب وهذا ليس نافعاً إلا بشروط ذكرها الإمام الشاطبي –رحمه الله– في مقدمة من المقدمات التي كتبها في كتابه الموافقات، وأما الطريق الثاني: فهو طريق المشافهة، وهذا هو أنفع الطرق في طلب العلم، طريق المشافهة: أن تأخذ العلم من أفواه المشايخ.

قالوا: لأن الله – تبارك وتعالى – جعل بين العالم والطالب خاصية في سرعة الفهم، وضربوا على ذلك مثالاً: أن الطالب يسهر الليل في مذاكرة مسألة، فلا يفتح عليه في فهمها، فيقول إذاً في الصباح آتي شيخي فأسأله عن المسألة التي عجز عن فهمها، فإذا أصبح توجه إلى شيخه؛ ليسأله فبينما هو في الطريق يقذف الله في قلبه بفهم المسألة، وربما انتهى إلى الشيخ ورفع أصبعه يستأذن في السؤال، فلما أذن له الشيخ بالسؤال حكى السؤال، فألقى الله الفهم على قلبه وهو يتكلم بالسؤال .

فعلينا أن نحرص إذا استطعنا أن نأخذ العلم من أفواه المشايخ، وتجشم المشاق في ذلك، وتحمل الصعاب في السفر إلى العلماء، والاستعانة في ذلك بالأتباع، يعني لا حرج إذا أراد الإنسان أن يسافر أن يأخذ خادماً يخدمه في السفر، كما فعل موسى –عليه السلام– .

وإطلاق اسم الفتى على التابع أن يقال للخادم فتى واستخدام الحر، الحر ضد العبد، والعبد: هو الرقيق المملوك، فيجوز استخدام الحر فضلاً عن استخدام الرقيق، وطواعية الخادم لمخدومه: أن الخادم يطيع مخدومه، وينفذ أوامره، وعذر الناس؛ لأن الفتى نسي أن يخبر موسى بما فعله الحوت، وقد كان قال له: لا أريد منك شيئاً أكثر من أنك حين تفقد الحوت تقول لي فقدنا الحوت، فقال له: هذه ليست صعبة، هذا أمر بسيط سهل، ومع ذلك فقد نسي أن يخبره فعذره موسى –عليه السلام– والحمد لله – تبارك وتعالى – أنه رفع عنا أيضاً المؤاخذة بالنسيان، وفي الحديث أنه لما نزل قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾[البقرة:٢٨٦] قال الله تعالى نعم.

وفيه قبول الهدية من غير المسلم، يجوز للمسلم أن يقبل الهدية من الكافر، والشاهد عليها أن أصحاب السفينة كانوا كافرين، ولما رأوا الخضر العبد الصالح حملوه بلا أجرة، وأقرهم الخضر على ذلك، ولم يلح عليهم في قبول الأجرة، ففيه جواز قبول الهدية من غير المسلم .

ونبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – كان يقبل الهدية من غير المسلمين ، وقصة الشاة المسمومة أهدتها له يهودية، كما تعلمون في غزوة خيبر، أهدته يهودية شاة مسمومة، وقبلها إلا أن الله حفظه وعصمه وأخبرته الشاة أنها مسمومة .

واستدل به على أن الخضر نبي لعدة معاني منها قوله: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ وكتباع موسى رسول الله له؛ ليتعلم منه، فالخضر ليس كما يقال: ولي من أولياء الله الصالحين ؟ لا، ليس الخضر ولياً، إنما هو نبي من الأنبياء؛ لأنه ليس لموسى الكليم الذي يأتيه الوحي من السماء، ليس له أن يتعلم من ولي، وكيف يتعلم الولي من النبي؟ والولي لا يأتيه الوحي، والنبي يأتيه الوحي، فاتباع موسى للخضر دليل من الأدلة التي يستدل بها على أن الخضر كان نبيا. وكإطلاق الخضر أنه أعلم من موسى، وكإقدامه على قتل النفس الزكية لما شرحه بعد وغير ذلك.

وقال ابن بطال: قول الخضر: وأما الغلام فكان كافراً هو باعتبار ما يؤول إليه أمره: أن لو عاش حتى يبلغ؛ لأن الغلام صبي صغير لم يبلغ الحلم بعد، إذًا هو على إسلامه إسلام الفطرة، (ما من مولود إلا يولد على الفطرة) فكان الغلام صبي صغيراً إذا هو على إسلام بالفطرة، ولكن كان كافراً هذا باعتبار ما سيؤول إليه أمره لو طالت حياته، واستحباب مثل هذا القتل أن يقتل غلام مخافة أن يكبر فيكفر، لا يعلم ذلك إلا الله – سبحانه وتعالى – ولله أن يحكم في خلقه بما يشاء قبل البلوغ وبعده .

ويحتمل أن يكون جواز تكليف الصبي المميز كان مشروعاً في شريعة من قبلنا، يعني كان في شريعة من قبلنا يكلف الغلام ويجري عليه القلم، ويؤاخذ بأفعاله بالتمييز، التمييز يكون في سن سبع سنين أو ثمان سنين، أما في شريعتنا فقد رفع القلم عن الصبي إلى متى حتى يحتلم .

قال: وفيه جواز الإخبار بالتعب، ويلحق به الألم من مرض ونحوه، موسى قال: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا، نحن تعبنا جداً من هذا السفر، ففي هذا جواز الإخبار بالتعب، ويلحق به الألم من مرض ونحوه، إذا كان إنساناً مريضاً فزاره زوار، وعاده العواد، فلا مانع أن يقول: أنا مريض، شريطة إذا كان هذا الإخبار على غير سخط القدر.

بعض الطيبين إذا زاره العواد وهو مريض يتحرج أن يشتكي، ويتحرج أن يخبر على نوع مرضه، ويتحرج أن يخبر عن الألم الذي يجده، وزواره يريدون أن يطمئنون عليه، هل يتألم أم لا؟ فيتحرج مخافة أن يكون في الإخبار شكاية، أو اعتراضاً على القدر. يجوز الإخبار بالمرض، والتعب، ونحو ذلك، ما لم يكن على سبيل الاعتراض .

وفيه أن المتوجه إلى ربه يعان فلا يسرع إليه النصب والجوع، بخلاف المتوجه إلى غيره، كما في قصة موسى في توجهه لميقات ربه، وذلك في طاعة ربه، فلم ينقل عنه أنه تعب، ولا طلب غداءً، ولا رافق أحدا، وأما في توجهه إلى مدين فكان في حاجة نفسه فأصابه الجوع، وفى توجهه إلى الخضر، كان لحالة نفسه أيضاً فتعب وجاع، فكلما كان خروج الإنسان في سبيل الله، وابتغاء مرضات الله؛ يسر الله عليه الطريق، وهون عليه السفر، ولم يجد منه النصب، وفيه جواز طلب القوت، وطلب الضيافة؛ لأن موسى والخضر عرضا على أهل القرية أن يطعماهم، ففيه جواز طلب الطعام، وطلب الضيافة، وفيه قيام العذر بالمرة الواحدة، وقيام الحجة بالسارية؛ لأن موسى لما اعتذر عن أول مرة قبل الخضر عذره، وفى المرة الثانية قامت عليه الحجة، وفيه حسن الأدب مع الله، وألا يضاف إلى الله ما يستهجن لفظه، وإن كان الكل بتقدير الله وخلقه، والدليل على ذلك أن الخضر قال عن السفينة: ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ فنسب العيب إليه، وقال عن الجدار ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ ومنه قول الخليل إبراهيم – عليه السلام– ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾[الشعراء:٧٨–٨٠]

فنسب المرض إليه .

ومنه قول نبينا – صلى الله عليه وسلم – (والخير بيدك، والشر ليس إليك) .

وهذا ما ذكره الحافظ ابن حجر –رحمه الله– في هذا الباب في كتاب التفسير، في شرح قصة موسى والخضر من الفوائد والدروس .

وإلى اللقاء القادم إن شاء الله مع تفسير الآيات، وتحليل الكلمات، واستنباط أيضاً العبر والعظات من الآيات التي قصها الله –تعالى– علينا في قصة موسى والخضر في سورة الكهف .

هذا والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين .

تقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، يا شيخنا، توجيهكم على من يسأل عن مسألة قد يشرحها أستاذ آخر، فنجد هذا الأستاذ يجيب بإجابة فيها اختلاف، فلا نعلم أيهما الصواب، وتلتبس علينا الأمور خاصة المبتدئين ؟

إذا اختلفت الفتية من عالم لآخر، واختلف الجواب عن سؤال واحد من عالم لآخر، فعلى العامي الذي يسأل أهل العلم، أن يقلد أعلم العالمين، ومن يظن بهما الخير، والتقى وبذلك تبرأ ذمته، شريطة أن يخالف هواه، وألا يتبع قول هذا؛ لأنه وافق هواه ويخالف القول الثاني: لأنه وافق هواه، بل يأخذ بالأحوط في دينه، وأبرأ ذمته.

سؤالها الثاني: تقول هل لابد من حفظ جميع الأدلة التي تذكرونها؟

لا شك أنه في الامتحان، أن الذي يأتي بأدلة كثيرة غير الذي يأتي بأدلة قليلة، فنهيب بجميع الطلاب بأن يعنوا بكل ما ذكرناه، ولا سيما والحمد لله أن المحاضرات أو بعضها الآن موجود على موقع الأكاديمية مفرغاً، فيستطيع كل طالب أن يسحب هذه الدروس مفرغة، وأن يذاكر منها إن شاء الله تعالى .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، قلتم بأن الخضر نبي ورجل صالح، فما الثابت ؟ السؤال الثاني سؤال عن الخضر سمعت من بعض الناس أنه حي وسيخرج مع المهدي وغيره فهل هذا صحيح ؟

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، عندي ثلاثة أسئلة: السؤال الأول: هل هناك فرق بين مجلس العلم ومجلس الذكر؟

نعم مجالس الذكر هي مجالس العلم، هكذا قال عطاء -رحمه الله- مجالس الذكر: هي مجالس العلم، كيف تبيع؟ وكيف تشتري؟ وكيف تنكح؟ وكيف تطلق؟ وكيف تتوضأ؟ وكيف تصلي؟ فمجالس العلم هي مجالس الذكر .

السؤال الثاني: هل أخذ العلم من خلال الأجهزة الحديثة كما نحن الآن يعد أخذاً بالمشافهة ؟

لا شك أن هذا الأسلوب الآن في المحاضرات عن طريق هذه الأكاديمية المباركة -إن شاء الله- أن هذا من أخذ العلم مشافهة، وإن بعدت بيننا المسافات، إلا أننا كأننا على مائدة واحدة تسمعني، وتراني، وتأخذ العلم مني، ومن غيري من المشايخ مشافهة، فهذا من الطريق المحمودة: وهي أخذ العلم من أفواه المشايخ.

السؤال الثالث: ما الشروط التي تضمن لنا قبول هذه العبادة أي عبادة طلب العلم عند الله إن شاء الله ؟

الشرط لقبول العبادة -إن شاء الله- علماً كان أو غيره الإخلاص لله - تبارك وتعالى - فأنت تتطلب العلم؛ امتثالاً لأمر الله ورسوله عليه الصلاة والسلام بطلب العلم، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[التوبة:١٢٢].

فأمر الله -تعالى- من يستطيع أن يسافر، ويطلب العلم أن يسافر، ويغزو، ويتعلم ثم يرجع معلماً، والنبي - صلى الله عليه وسلم - يقول: (طلب العلم فريضة على كل مسلم) فأنت حين تطلب العلم تبتغي بذلك وجه الله، لا شك -بإذن الله- أنك مقبول عند الله، ومأجور على عبادتك هذه وهي طلب العلم .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، كتاب صفوة التفاسير من حيث الأخطاء العقدية أو العلمية التي فيه كي يعرفها الناس أو بعضها

هذه كنا ادخرناها للتفسير فإن شئت أجبناه وإن شأت أخرناها ؟ نؤخرها .

هذا من صلب التفسير، في حلقة التفسير -إن شاء الله- من صلب الموضوع أننا سنتكلم عن حياة الخضر، هل هو حي إلى الآن كما يزعم بعض الناس أم ماذا ؟ وهل هو نبي أو لي ؟ سنستفيض بذلك إن شاء الله في الحلقة القادمة .

عندي شبهة في حديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) والحديث الثاني (من طلب الآخرة فعليه بالقرآن ، ومن طلب الدنيا فعليه بالقرآن ومن طلبهما معاً فعليه بالقرآن) فأنا لو طلبت بحفظ القرآن الكريم، أو طلب العلم شئ من الدنيا، ومن الآخرة، أو الشيء الذي يأتيني في الدنيا من الآخرة، هل أنا طلبت العلم هكذا للدنيا ؟

الحديث الآخر ضعيف لا يصح (من أراد الآخرة فعليه بالقرآن، ومن أراد الدنيا فعليه بالقرآن، ومن أرادهما معاً فعليه بالقرآن) هذا ليس بصحيح وبهذا ينتهي الإشكال .

من المهم جداً للحافظ اتخاذ ورد يومي دائماً، لابد لا يقل عن ثلاثة أجزاء، بحيث يختم الحافظ كل عشرة أيام مرة؛ حتى يثبت القرآن في صدره، فهي أحياناً تقول تقرأ أربعة خمسة أجزاء في اليوم وأحياناً تقرأ جزء واحد، وأحياناً لا تقرأ.

تنظيم الوقت من عوامل النجاح في الحياة، فعليها أن تنظم وقتها، وتعلم أو تنظر في وقت الفـراغ عنـدها؛ فتجعله لهذا الورد ثلاثة أجزاء يوميا بعد صلاة الفجر، ما بين المغرب والعشاء، في وقت الضحى بعد أن يخرج أبناؤها إلى المدارس وتتفرغ، المهم لابد أن تقرأ ثلاثة أجزاء أقل شيء حتى يثبت الله القرآن في صدرها .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، نصيحتكم يا شيخ، فإني قد ختمت كتاب الله حفظاً، ولكـن لا أسـتطيع أن أسير على ورد ثابت، هل على إثم ؟ السؤال الثاني: أقوم بتعليم بعض الأخوات وتمر بنا آية السجدة، ولم تـسجد هل على سجود في هذه الحالة أم لا ؟

أولاً: سجود التلاوة ليس واجباً، وإنما هو مستحب، فالقارئ بالخيار إن شاء سجد، وإن شاء لم يسجد، ولـيس هناك بديل كما هو مشهور عند البعض: أنه إذا لم يسجد، يقول: سبحان الله، والحمـد لله، ولا إلـه إلا الله، والله أكبر، هذا البدل ليس في الشرع، ليس في السنة، لم يرشدنا النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى أنه من لم يسجد يقول: كذا .

فالقارئ بالخيار إما أن يسجد سجدة التلاوة، وإما ألا يسجد، وللعلم أن سجود التلاوة ليس صلاة، فلا يشترط له ما يشترط للصلاة، ويصح في أي وقت. فإذا ثبت سجد، وإن لم تتثبت فلا شيء، لكن إذا كانت واحدة أول مـرة واحدة تقرأ، فهذه القارئة إمامه للأخريات إن سجدت القارئة سجدنا، وإن لم تسجد لم يسجدوا .

تقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، هل يفهم من قصة موسى والخضر: أن ما يحدث للمسلم من أمور في ظاهرها شر أن يكون في طياتها الخير مثل خرق السفينة بغرض نجاة أهل السفينة من الملك والغلام والجـدار إلى آخره ؟

لا شك في ذلك، والله – سبحانه وتعالى – قال: ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة:٢١٦].

فليس في الدنيا هناك أجمل من الرضا والاستسلام لله – سبحانه وتعالى – والرضا بقضاء الله – عزّ وجلّ – ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ والله – سبحانه وتعالى – حين ابتدأ الحديث في براءة أمنا عائشة – رضـي الله عنها – حين ابتدأوها بحادثة الإفك، ابتدأ القصة والحديث بقوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ [النور:١١] .

وطبعاً القذف قذف المحصن الغافل المؤمنة العفيفة الطاهرة لا أن ذلك في ظاهره شر محض يقال أي خير في هذا عفيفة طاهرة رميت الله يقول ﴿ لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ فعلى المسلم أن يوطن نفـسه دائمـاً على الاستسلام لله –تعالى– والرضا بقضائه، وأن يعلم أن الله أبر به من نفسه، وأرحم به مـن نفـسه، وأعلـم بالمصلحة من نفسه.

يقول: مجمع البحرين هل هو مجمع البحر الأبيض المتوسط، والمحيط الأطلسي أي موقع مدينة طنجة ؟

سنتكلم إن شاء الله عن ذلك في الحلقة القادمة .

يقول هل فعلاً حديث موسى الرجل الصالح بأخبار نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – وأخبار أمته وتمنـى موسى –عليه السلام– أن لو كان من أمة محمد – صلى الله عليه وسلم – ؟

لم يصح إلا ما جاء في كتاب ربنا – سبحانه وتعالى – فقط .

يقول: في أي كتاب نجد رواية البخاري لقصة موسى -عليه السلام- والخضر ؟

على أية حال نحن قرأنا في فتح الباري المجلد الثامن في كتاب التفسير في صحيح البخاري بدون الفتح، وفى الفتح ستجده في الجزء الثامن .

تقول: ما رأي فضيلتكم في كتابي أحكام القرآن للجصاص والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ؟

كتابان جيدان .

يقول: قال الله - عزّ وجلّ :- ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾ هل هذه الآية دليل على أن الصبر على أمر من الأمور يقتضى العلم به ؟

العلم يعين على الصبر؛ لأن موسى لم يكن عالما، لماذا خرق الخضر السفينة؟ لماذا قتل الغلام؟ لماذا أقام الجدار الذي يريد أن ينقض ولم يأخذ أجره ؟

فلم يكن عالماً بالحكمة الخفية في ذلك؛ فلذلك لم يصبر، لكن لو الإنسان علم الأشياء، فالعلم مما يعين على الصبر .

يقول: ما الفرق بين العلم الباطن، والعلم الظاهر الذي عند موسى -عليه السلام- والخضر ؟

العلم الباطن: الذي عند الخضر الذي فعله، هذا بالنسبة لموسى علم باطن غير ظاهر؛ لأن الخضر يعلم: لماذا خرق السفينة؟ لماذا قتل الغلام؟ لماذا أقام الجدار؟ فهذا شيء خفي عن موسى -عليه السلام- .

فلا يقال هنا علم باطن، وعلم ظاهر، وهذا لا نوافقه على ذلك، لكن كان كما عند الخضر من العلم بالنسبة لموسى علماً باطناً أي خفياً .

يقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، هل تعتبر طريقتنا هذه في طلب العلم يعني عبر الإنترنت من المشافهة أم علينا أن نجالس العلماء ؟

هذا نوع من المشافهة، ومجالسة العلماء -إن شاء الله تعالى- ولا تقتصر على ذلك، بل حيثما وجدت أهل العلم من أهل السنة فزاحمهم بالركب أينما كنت .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ما جزاء تارك طلب العلم، الذي يتفلت منه القرآن؟

نحن نبهنا قبل ذلك أن قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ﴾ [طـه:١٢٦].

هذه العقوبة كانت على نسيان الترك، يعني: عدم العلم بالقرآن، وعدم اتباعه، وعدم العلم به.

وأما النسيان: الذي هو ضد الذكر، حفظ ثم نسي وتفلت منه القرآن، فنحن قلنا إن لم تكن هناك عقوبة منصوص عليها فحسب ذلك الإنسان رجل كان أو امرأة، أن الله -تعالى كان قد أنعم عليه بنعمة ثم سلبه هذه النعم وأي عقوبة من هذا ؟ أن يمن الله عليك بحفظ شيء من كتابه، أو حفظ كتابه كله ثم تسلب هذه النعمة، لو لم تكن هناك عقوبة غير هذا السلب لكان كافياً أن يحذر إنسان أن يتفلت منه القرآن بعد أن يؤتيه .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، بالنسبة للأطفال هل هم مكلفين أو غير مكلفين إلى سن الحلم، أنا الآن أعلم أولادي القرآن، الصلاة، والصيام، وكل ما أمرنا الله به أعلمهم إياه، فهل هم يجزون على كل ما أعلمهم حتى يبلغوا الحلم، أم بعدما يبلغوا الحلم ؟

نشكر له حرصه على حسن تربية أولاده، ونسأل الله أن يبارك له فيهم، ويجعلهم من الصالحين، وأبناء المسلمين، معنى كون الصبي غير مكلف: أنه كل عمل صالح يعمله قبل بلوغه يكتب له أجره، وكل عمل غير صالح يفعله فلا يكتب عليه وزره إلا بعد بلوغ الحلم .

فقراءة أبنائك للقرآن، وصلاتهم معك في المسجد، وصيامهم معك في رمضان وفى النوافل، كل هذا لهم أجر عليه، وهم أيضاً في صحيفتك مثل أجرهم –إن شاء الله تعالى– .

أما معنى كونهم غير مكلفين: أنهم لا يؤاخذون بالسيئات، لا تحمل عليهم الأوزار على المعاصي حتى يبلغوا الحلم .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، السؤال: شخص مريض بمرض نفسي، فهل يكتفي بالرقية، أم يعالج بالأدوية مع الرقية أفضل ؟ السؤال الثاني: حكم طاعة الوالدين في ترك المستحب ، يعني شخص يريد أن يفعل سنة، وأبوه ينهاه عن فعلها بدون مبرر شرعي، فهل يكون مخالفته، أو إصراره على فعل السنة معصية لوالده ؟

نحن نستحب ما دام هناك طب متخصص في هذا المرض أن يذهب إلى الأطباء المتخصصين، لكن لا يحرم نفسه من الرقية الشرعية.

تقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، كيف يكون السلام على أهل الكتاب والكفار، هل نبدأهم بالسلام، وهل يكون السلام عليكم هي تحيتنا معهم ؟

أهل الكتاب يبدأون بغير السلام كيف حالكم؟، صباح الخير، مساء الخير، لكن لا يبدأون بالسلام عليكم .

تقول السلام عليكم ورحمة الله وبركات، هل نستنبط من هذه القصة الكريمة استحباب ألا يسأل طالب العلم شيخه أو معلمه عن كل شيء؟

في أثناء المحاضرة ننصح الطالب: بألا يقطع على شيخه حديثه، وأن ينصت له تماماً حتى يفرغ من المحاضرة؛ لأنه في أثناء المحاضرة تجول في أذهان الطلاب أسئلة كثيرة، يأتي عليها الشيخ في أثناء كلامه، فليصبر الطالب حتى ينتهي الشيخ من حديثه، فإن فرغ ولم يأتِ على ما في ذهنه فليسأله عنه، أما إذا أتى عليه فقد كفاه الله تعالى المؤنة، فهذا يعني أن الطالب لا يسأل، لكن يسأل إذا احتاج إلى سؤال يسأل عنه، لكن بعد أن يفرغ الشيخ من حديثه.

هل يجوز للمسلم أن يهدي الكافر مقارنة بجواز قبول المسلم للهدية من الكافر ؟

لا شك في ذلك، عن أسماء بنت أبي بكر – رضي الله عنهما – قالت: قدمت أمي وهي مشركة، فقلت: يا رسول الله إن أمى قدمت، أفأصل أمي ؟ قال: (نعم، صلي أمك) .

يقول: قال النبي – صلى الله عليه وسلم – ذات يوم (رحمة الله علينا وعلى موسى: لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب؛ ولكنه قال ﴿ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً ﴾) ماذا يقصد الرسول – صلى الله عليه وسلم – بهذا الحديث ؟

كان يتمنى – صلى الله عليه وسلم – أن يصبر موسى على الخضر حتى يرى أكثر مما رأى، هو رأى ثلاثة أمور، فلو صبر ولم يتعجل بالإنكار على الخضر، ولم يقل له لا تصاحبني بعدها، لكان رأى أشياء كثيرة استفاد منها، واستفدنا نحن منها بعد وصولها إلينا عن طريق رسولنا – صلى الله عليه وسلم – .

يقول: هل تعتبر طريقتنا هذه في طلب العلم من العلم الشرعي ؟

أي نعم إن شاء الله مأجورون أيها المشاهدون رجالاً ونساءً على حرصكم على هذه المحاضرات، ولكن أخلصوا لله نياتكم.

تقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، هل تفسير العلامة السعدي للامتحان مفيد ؟

لا شك أن تفسير العلامة السعدي من الكتب النافعة بإذن الله تعالى – عزّ وجلّ – تنفع الطالب الذي معنا، وتنفع العامة بإذن الله .

يقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، هل هناك رواية تذكر أن الخضر عندما قتل الطفل قام بكسر رقبته، وهناك رواية تقول أنه ذبحه فأي الروايات أصح ؟

كلها روايات صحيحة، وإن شئت الجمع بينها فراجع فتح الباري الذي قرأنا منه آنفاً.

يقول هل يستنبط من معاملة الخضر لموسى –عليهما السلام– ضرورة تعامل المعلم في البداية بقساوة مع المتعلم ؟

ليست هناك قسوة، لكن موسى هو الذي خالف شيخه، ومعلمه، الخضر اشترط عليه ألا يبدأه بالسؤال، حتى يبدأه هو بالحديث عنه، ولكن لما تجاوز موسى –فلكل فعل رد فعل– فوجد من الخضر ما وجده؛ لأنه هو الذي ابتدأ بالقسوة في الإنكار عليه والغلظة .

يقول: هل اسمه الخَضِر أم الخَضْر ؟

لا، بكسر الضاد، لا بسكونها .

يقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، هل فتى موسى هو نبي بني إسرائيل بعد موسى ؟

هو يوشع بن نون.

وهل كان مع موسى والخضر في السفينة ؟ مع أن الضمير في الآية للمثنى أفيدونا جزاكم الله خيرا ؟

لا شك أنه كان مع مخدومه، صاحب موسى –عليه السلام–؛ ليخدمه، فلا شك أنه كان معه، ولكن الله سكت عنه؛ لأن المقصود بالذكر هو موسى والخضر .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، بالنسبة لسجود التلاوة، هل يقوم التسبيح مقام سجود التلاوة إذا جاء سجود التلاوة، وهناك محاضرة ولا يريد أن يسجد؟

قلنا إن سجود التلاوة ليس واجباً، هو مستحب وليس بواجب، فمن سجد سجد ومن لم يسجد فلا شيء عليه ولا بديل للسجود، يعني ليس هناك بديل عن السجدة.

يقول: ما هي آداب العالم المتعلم في ضوء قصة موسى والخضر –عليهما السلام– ؟

نشكره على هذا السؤال، هذا سؤال لا يحتاج إلى جواب، لكننا نقول: للطلاب اهتموا بأدب المتعلم بارك الله فيكم، اهتموا بالأدب، العلماء –رحمهم الله– اهتموا بالأدب اهتماماً كبيراً، فكل من جمع سنة النبي – صلى الله عليه وسلم – أدخل فيها كتاباً سماه كتاب الأدب، والإمام البخاري –رحمه الله– لم يكتفِ بما أدخل في الصحيح من كتاب الأدب حتى أفرد له كتاباً مستقلاً سماه كتاب الأدب المفرد. والعلماء –رحمهم الله– ألفوا في الأدب مؤلفات مستقلة، ومصنفات مستقلة؛ فننصح الطلاب جميعاً بالاهتمام بهذا الأمر، أمر آداب العالم والمتعلم، وننصح في هذا الباب بثلاث رسائل مختصرة :

الأولى: أخلاق العلماء للأجروي.

والثانية: آداب العالم والمتعلم للإمام النووي .

والثالثة: حلية طالب العلم للشيخ بكر أبو زيد حفظه الله .

هذه ثلاث رسائل مستقلة مختصرة في أدب الطلب، على الطلاب أن يعنوا بها، ثم عليهم أن يرتقوا في المؤلفات الطويلة والمصنفات الواسعة، فليراجعوا الجامع لأخلاق الرواي وآداب السامع للخطيب البغدادي، وجامع بيان العلم وفضله للحافظ ابن عبد البر، ومفتاح دار السعادة لابن القيم –رحمه الله– .

فإن الأدب هو بداية الطلب وهو نهايته، فإنما نتعلم لنتأدب وقديما قال الشاعر الحكيم :

والعلم إن لم تكتنفه شمائل تعليه كان مطية الإخفاق

لا تحسبن العلم ينفع وحده ما لم يتوج ربه بخلاق

وقال الآخر :

كن ابن من شئت واكتسب أدب يغنيك محموده عن النسب

فهذه نصيحة لما ينبغي للطالب أن يأخذ نفسه به من تعلم أدب العلم وأدب الطالب .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، الخضر حي أم ميت ؟ هذا أولا، الثاني: هل هو نبي أو رجل صالح ؟ الثالث: بعض الناس يقولون أنك إذا فرغت من الصلاة وسلمت على من بيمينك قد تسلم على الخضر، نريد ردكم عليهم ؟

في الحلقة القادمة إن شاء الله تعالى سنبين بالتفصيل هل الخضر نبي أم ولي ؟ وهل حي أم ميت؟ سنبين هذا .

أما قوله إن الناس بعد الانصراف من الصلاة السلام عليكم السلام عليكم يصافح بعضهم بعضا، ويقولون: إنك لو صافحت أخاك فإنك صافحت الخضر، هو صافح أخاه أم الخضر؟

هو صافح أخاه، وهذه المصافحة بدعة، بدعة من بدع المصلين، المصافحة بعد الانصراف من الصلاة، ومن ضررها أن تعطل الإنسان عن الأذكار المشروعة دبر كل صلاة ، فهذه بدعة .

تسأل وتقول: ما هو الوتد؟

الوتد: قطعة من الخشب يكون أسفلها منحدراً بسمك أقل، ومن أعلى واسع، يدق في الأرض؛ لتثبت به الحبال ونحوها مما نربط فيها الحيوانات وغير ذلك .

في الحديث الأول (من أراد الدنيا فعليه بالقرآن) هل هذا قول أحمد بن حنبل أو قول الرسول – صلى الله عليه وسلم – ؟ والحديث الثاني (اطلبوا العلم ولو في الصين) ؟

الحديث الأول ليس حديثاً، قوله قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – (من أراد الدنيا فعليه بالقرآن، ومن أراد الآخرة فعليه بالقرآن، ومن أرادهما معاً فعليه بالقرآن)

قوله قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هذا لا يصح؛ لأن هذا ليس حديثاً مرفوعاً أبداً .

أما القول الثاني: (اطلبوا العلم ولو في الصين) فليس حديثاً مرفوعاً أيضاً .

هل يجوز للمرأة الحائض والنفساء أن تمس كتاباً من كتب التفسير ؟

لا مانع أن تمس الحائض والنفساء والجنب كتب التفسير –إن شاء الله تعالى–؛ لأنها لا تأخذ حرمة المصحف .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، محفظة تبدأ بالتحفيظ للمتعلمين من سورة البقرة، وأما غير المتعلمات فتبدأ لهم من سورة النور، فذكرنا لها رأيكم في هذه القضية فرفضت فبما تفيدونا ؟

قديماً قالوا: لكل شيخ طريقة، فالمهم أن نحفظ، وطبعاً الطالب يلتزم بطريقة الشيخ الذي يتلقى منه، فنحن نصحنا نصيحة عامة، لكن ما دامت الأخت تلتزم مع أختها كما تحفظها، فعليها أن تطيع المحفظة، وتسمع كلامها؛ لأنها تمشى على خطتها إن شاء الله تعالى.

تابع قصة موسى والخضر عليهما السلام

إنَّ الحمدَ لله، نحمدهُ، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يهده اللهُ فلا مضلَّ له، ومَنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهد أنَّ لا إله إلا الله، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، اللهم صلِّ وسـلِّمْ وباركْ عليه ، وعلى آلهِ وصحبِه، ومَنْ تبعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، أمَّا بعدُ:

فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهدي هدي محمدٍ ــ صلى الله عليه وسلم ــ وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعة ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النارِ.

ثُمَّ إنَّ مما قرأناه في كتب أدب الطلب قولَ العلماء:(العالمُ: من أضاف علمَ غيره إلى علمِ نفسه ، ولا يـزال العالم عالماً مَا طَلَبَ العلم ، فإذا ظنَّ أنَّه استغنى فقدْ جَهِلَ .

وقِيلَ للإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ إلى متى تحمِلُ المَحبَرَة ؟ كلَّ يوم تغدو وتروح بدواة الحبر والدفتر والقرطـاس والدفتر والكتاب .

إلى متى تحمل المَحبَرَة ؟ قال إلى المقبرة، سأظلُّ أطلبُ العلم حتى أموتَ وأُدفنَ فينقطعَ العملُ، لكن ما دامت فيّ حياة فسأظل أطلب العلم .

حَولَ هذه المعاني ــ الاستزادة من العلم ، وكسب علمِ الغير إلى علم النفس، والارتحال فـي طلـب العلـم ،وتحمل المشاق من أجل ذلك ، نعيشُ ساعتَنَا هذه ــ إن شاء الله تعالى ــ مع القصة الثانية التـي قـصها الله – تبارك وتعالى – علينا في سورةِ الكهف، وهي قصة موسى والخَضِرِ – عليهما السلامُ – والآيات المباركات التي معنا اليومَ تضمنتْ من المعاني ما يلي :

أولاً : سببُ ارتحالِ موسى إلى الخضر .

ثانياً : وجوبُ التزودِ للسفر .

ثالثاً : جوازُ اصطحابِ الخادم في السفر .

رابعاً : لا يزالُ العالمُ عالماً ما طلب العلم .

خامساً : استحبابُ إكرام الخادم .

سادساً : الله – سبحانه وتعالى – يُيَسِّرُ لطالب العلم أمرَهُ ويهوِّن عليه سفره .

سابعاً : هل كان الخَضِرُ نبياً أم ولياً ؟

ثامناً : هل مات الخَضِرُ أم مازالَ حياً ؟

وأخيراً ما هي آداب الطالب مع شيخه ؟

وهذا ــ بإيجازٍ ــ عرضٌ سريع لأهمِّ ما تضمنته الآياتُ المباركات التي معنا اليوم من سورة الكهف ،والتــي سنعيش في رحابها ساعتَنَا هذه ــ إنْ شاء الله تعالى فلنستمعْ إلى هذه الآيات المباركات أولاً قبل الخــوض فــي تفاصيلها، سائلينَ اللهَ – عزَّ وجلَّ – أنْ يُنجزَ لنا ما وعدنا، حيث قال: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[الأعراف: ٢٠٤]

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾[الكهف:٦٠-٧٠].

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[ص: ٢٩].

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣].

إخوةَ الإسلامِ :عرفنا من الحديث الذي قرأناه في صحيح البخاريِّ في الحلْقةِ السابقة سببَ ارتحالِ موسى إلى الخَضِر ــ عليهما السلامُ ــ وهو ــ كما سمعنا ــ في الحديث أنَّ موسى – عليه السلامُ – قامَ يوماً خطيباً في بني إسرائيلَ، فذكَّرَهم ،و وَعَظَهُم، وكانتْ موعظةً بليغةً وَجِلَتْ منها القلوبُ وذَرَفَتْ منها العيونُ، فلمَّا رأى موسى – عليه السلامُ – تأثُّرَ القوم بموعظته ،وخشيتَهم، وحزنَهم ،وخوفَهم رقَّ لهم، ورَحِمَهُم ،فأنهي حديثَه وقطعَ موعظتَه ثُمَّ انصرفَ، فأدركَه رَجُلٌ من الذين استمعوا إليه ،وتأثروا بخطبتِه وموعظتِه ،فقال له: يا موسى هل على وجه الأرض أحدٌ أعلمَ منك ؟ فقال موسى – عليه السلامُ – لا ، ليس على وجه الأرض أحدُ أعلمَ مني .

فعَتَبَ الله عليه أنْ لم يردَّ العلمَ إلى الله – سبحانه وتعالى – فكان الأوْلَى أنْ يقولَ موسى في جوابه لمَنْ سأله هل على وجه الأرض أحد أعلم منك؟ كان الأوْلَى أن يقول: لا والله أعلم، أو يقولَ: الله أعلم، فإمَّا أنْ ينفيَ ويردَّ العلم إلى الله – سبحانه وتعالى – وإمَّا ألا ينفي ويردَّ العلمَ إلى الله – سبحانه وتعالى – فعتب الله ــ تعالى ــ عليه أنْ لم يردَّ العلم إليه وأخبره أنَّ بالأرض مَنْ هو أعلم من موسى ــ عليه السلام ــ فلما عَلِمَ موسى – عليه السلام – أنَّ على وجه الأرض من هو أعلم منه سأل اللهَ – سبحانه وتعالى – أنْ يَدُلَّهُ عليه ،وأنْ يهديه إلى كيفية لقائه ليتعلمَ منه .

وفى هذا دليلٌ على أنَّ الإنسانَ ــ مهما بلغ من العلم ــ ينبغي أنْ يكونَ حريصاً على أنْ يتعلم من غيره ما ليس عنده .

ـــ مهما علا كعبُ الإنسان في العلم، و ارتفعتْ درجتُه فيه إلا أنَّه سيظل هناك من هو أعلمُ منه ولو في بعض العلوم فإن الله – تبارك وتعالى – قال ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾[يوسف: ٧٦].

ـــ فموسى – عليه السلام – على جلالة قدره لمَّا علم أنَّ على وجه الأرض من هو أعلم منه سَأَلَ الوصـــولَ إليه وخرج إليه وطلب لقاءه ليتعلم منه .

قد تتخصصُ في علمٍ أو علمينِ أو ثلاثةٍ فتتقنَ هذه العلوم وتفوقَ فيها غيرَك، لكنَّ التخصص دائماً في بعــض العلوم يكون على حساب علومٍ أخرى ،فتفوقك في علم أو علمين أو ثلاثة يجعلك دُونَ هذه المرتبةِ في العلوم التي لم تتخصص فيها، فيجب عليك مهما كَثُرَ علمُك في تخصصك أنْ تضيفَ علم الآخرين مـــن المتخصـــصين ـــ أيضاًـــ إلى علمك لتستفيد منه .

يقول العلامة السعدي ـــ رحمه الله ـــ في تفسيره في هذه الآية : فلو كان هناك فقيهٌ مُحِّدث تقدَّم فـــي الفقـــه ،والحديث ،وفاق فيهما غيره ،إلا أنَّه لم يكن في النحو ،والصرف في مثل هذا المستوى من الفقه والحديث ،وعلم أنَّ هناك مَنْ هو أعلمُ بالنحو ،والصرف منه، فينبغي له أنْ يتواضعَ ،وأنْ يأتيَ العالمَ الذي هو أعلم منه بـــالنحو والصرف ليستفيدَ مِنْ علمه ويتعلمَ منه ولا يأنفَ من الجلوس إليه لطلب العلم ،وإنْ كان هو متفوقاً ومتقدماً عليه في الفقه والحديث .

فموسى ـــ عليه السلام ـــ على جلالة قدره ـــ لمَّا علم أنَّ على وجه الأرض من هو أعلم منـــه ســـأل الله أنْ يهديه إليه ،وأن يَدُلَّه عليه كيف يصل إليه.

فقال الله ـــ تعالى ـــ له خُذْ حوتاً في مِكْتَلٍ فحيثما فقدته فهو ثَمَّ. والحوتُ : معروفٌ سمكُ البحـــر. والمِكْتَـــلُ :وعاءٌ من الخُوْص يحمِل فيه الناس أمتعتَهم.

خذ حوتاً في مكتل أي خذ سمكةً كبيرةً لتتزودَ منها، وتأكل منها في سفرك فتعلَّمَ من هذا: أنه يجب على مـــن أراد السفر أنْ يتزودَ بالمال والطعام والشراب إنْ علم أنه ليس في طريقه طعامٌ ولا شرابُ، فإنَّ كليم الله موسى – عليه السلام – مع أنه من المتوكلين إلا أن الله أمره أن يتزوَّدَ.

فالأخذ بالأسباب لا ينافي التوكلَ، فلا يجوز لك أنْ تخرجَ في سفرٍ بلا مال ولا زاد ثم تزعم أنَّك متوكلٌ على الله، هذا لا يجوز. لقد كان بعض حجاج اليمن إذا خرجوا إلى الحجِّ لا يتزودون لسفرهم، ويقولون نحن ضيوف الرحمن يطعمنا، ويسقينا، فأنكرَ الله – تبارك وتعالى – عليهم هذا وأمر بالتزوُّدِ في سفرهم للحج ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾[البقرة:١٩٧].

(خذ حوتاً في مِكْتَل) أي: سمكة كبيرة؛ تأكل منها أثناء سفرك، فحيثما فَقَدَّتَ هـــذه الـــسمكة فَـــثَمَّ ذاك العبـــد الصالح، الذي قصدتَّه لتتعلم منه .

فقال موسى – عليه السلام – لفتاه ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾.

واذكر يا نبينَا : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾ والمراد بالفتى: الخادم، وسُمِّيَ الخادم فتىً :لأنه جرت العادة أنَّ الخادمَ لا يكون شيخاً مسناً هَرِمَاً ؛لأنَّ المقصود من الخادم أنْ يتحمل الأعباء، والصعاب ،والمشاق ،وأن يقضيَ حوائج مخدومه ،فلابد أن يكون الخادم قوياً صحيحاً معافىً حتَّى يستطيع أداء هذه الوظيفة .

ولمَّا كان الشباب هو محلَّ الفُتوَّة ،والقوة أُطلَقَ على الخادم فتىً ؛لأنه جرت العادة أن يكون الخادم في سن الفتوة والقوة وهو سن الشباب ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبً﴾ ﴿٦٠﴾.

لا أزال سائراً ماشياً في الطريق إلى أنْ أصل مجمعَ البحرين، ولو قطعتُ في هذا السفر والمشي حُقُبَاً من الزمان. والحُقُب ُ:جمع حُقْب، والحُقْب: قال فيه بعض السلف :أنه سبعون سنة وقال بعضهم: ثمانون سنة. والمعنى: أنَّ موسى ــ عليه السلام ــ حرص كل الحرص على لقاء ذلك العبد الصالح ليتعلم منه ــ مهما كلفه السفر إليه ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾.

(مَجْمَع): اسم مكان(مجمع البحرين) مكان يلتقي فيه البحران أيُّ البحرين ؟ البحرُ الأبيض والبحرُ الأحمر، البحرُ الأسود والبحرُ الأصفر، أيُّ البحرين ؟ لم يعين الله – تبارك وتعالى – البحرين ؛ولذلك إذا قرأتَ في التفاسير ترى في تعيين البحرين أقوالاً كثيرةً، كثرتُها تدل على اضطرابها وعدم صحتها، لأنها ليست مبنية على الدليل. فتعيين مجمع البحرين أين هو ؟ وما المراد بالبحرين؟ كل هذا من الرجم بالغيب. فالواجب علينا كما ذكرنا مراراً :أنْ نسكت عمَّا سكت الله – تبارك وتعالى – عنه؛ لأنَّ ذكر الأزمنة والأمكِنَةِ ليس فيه كثيرُ فائدة، ولذلك يكست الله ــ تعالى ــ عن الزمان والمكان الذي تكون فيه القصة، وتقع فيه الحوادث والأخبار لأنَّ الله – تبارك وتعالى – علم أنه ليس في تعيين الزمان والمكان كثيرُ فائدة .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾﴿٦٠﴾.

وأمره أن يأخذ حوتاً في مِكتَل، كما أمره الله – سبحانه وتعالى – ليَطعم منه أثناء سفرهما وكلف هذا الخادم: أنه متى فقد هذا الحوت أن يخبره. كلُّ الوظيفة التي اصطحب لها موسى ــ عليه السلام ــ ذلك الفتى :أنه متى فقد الحوت من المكتل أن يقول لموسى: فقدت الحوت. فاستصغر الفتى هذا التكليف ،وقال: ما كلفتَ عسيراً لقد كلفتَ أمراً يسيراً متى أفقده أقلْ لك ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾ نزل – عليه السلام – وفتاه عند مجمع البحرين فنام موسى – عليه السلام – إِذِ اضطرب الحوت في المكتل بعد أن دَبَّتْ فيه الحياة واتخذ سبيله في البحر سرباً، أخذ يَسْرُبُ في البحر سرباً أي يسلك فيه مسلكاً. وقد قرأناه في الحديث من البخاري أنَّ أحد الرواة قال :فأمسك الله عنه جَرْيَةَ الماء حتى كانت هكذا وحلَّقَ بإصبعيه الإبهام واللتين تليانهما السبابتين .

فجرى الحوت في البحر وأمسك الله ــ تعالى ــ عنه جَرْيَةَ الماء فكان الماء كأنه صلب ،حتى أن الطاقة التي فتحها الحوت وهو يسري في البحر لم تلتئم بعد أنْ سلكها فلما نظر الغلام فوجد الحوت قد نزل في البحر ، نظر إلى موسى ليخبره كما كلفه فرآه نائماً فَشَقَّ عليه أن يوقظه ليخبره، قال :أتركه حتى يستريح، ومتى استيقظ أخبرته .

فلما استيقظ موسى – عليه السلام – نسيَ الغلام أن يخبره أنه فَقَدَ الحوت، ونسيَ موسى – عليه السلام – أن يسأله عن الحوت ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ نسب الله – سبحانه وتعالى – النسيان إلى موسى والغلام .

أمَّا الغلام: فقد نسي أن يخبر موسى كما كلفه وأمَّا موسى :فقد نسي بعد أن استيقظ أن يسأل الغلام عن الحوت ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ ﴾ أي اتخذ الحوتُ ﴿ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾.

قال النبي – صلى الله عليه وسلم – (فساراً يومهما) أو بقية يومهما (وليلتَهما) مشياً بقية النهار والليلة التي استقبلاها .

معنى ذلك أنهما قطعا مسافة طويلة وبَعُدَا عن هذا المكان بُعْدَاً شاسعاً.

﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾.

قال العلماء في طلب موسى – عليه السلام – من الغلام أن يأتي بغدائهما ﴿ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾ في ذلك تواضع موسى – عليه السلام – حيث لم يقل: للفتى آتني غدائي، ولم يقل: أحضر لي الطعام وإنما قال: ﴿ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾ فيستفاد من ذلك: أنه ينبغي لمن وَّسع الله تعالى عليه واتخذ الخادم في الحضر أو في السفر أنْ يُكرم هذا الخادم وأن يحسن صحبته وأن يطعمه مما يأكل وأن يكسوه مما يكسى، فإن النبي – صلى الله عليه وسلم – أمرنا بذلك، أمر النبي – صلى الله عليه وسلم – بإكرام الخادم وإطعامه وكسوته .

حتى إن بعض الصحابة رأى أبا ذر – رضي الله عنه – ومعه غلام له ،على أبي ذر حُلَّةٌ، وعلى الغلام حُلَّةٌ مثلُها، فكأنه أُنكر على أبي ذر أنه كسى غلامه مما كسى نفسه، فقال: إني سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول (إخوانكم خَوَالُكُم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطمعه مما يأكل وليَلْبِسَه مما يَلبس) .

فعلى الذين وسع الله – تبارك وتعالى – عليهم واتخذوا الخادم في الحضر أو في السفر أن يكرموا هذا الخادم وأن يحسنوا صحبته وأن يعاشروه بالمعروف وألا يكلفوه من العمل ما لا يطيق وإذا كلفوه أن يعينوه .

هذه وصايا الإسلام للذين وسع الله – تبارك وتعالى – عليهم واتخذوا الخدم .

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾.

النصب: التعب ،والمشقة واللغوب. وهذا: اسم إشارة عائد على السفر القريب وهو بَعد تجاوزهما مجمع البحرين، قال ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا ﴾ هذا السفر الأخير بعدما تركا الصخرة التي نزل عندها بمجمع البحرين وفقدا حوتهما قال ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ فلم يجد موسى – عليه السلام – النصب، والتعب، والمشقة في سفره منذ خرج لأنه حين خرج ــ أول ما خرج ــ خرج في سبيل الله – تبارك وتعالى – طالباً للعلم والاستزادة منه، فيسر الله عليه سفره وهون عليه سفره وطوى عنه البعد، فلما جاوزا المكان الذي فيه العالم الذي سيتعلم منه وجدا من السفر الثاني التعب والمشقة .

فقال العلماء: يستفاد من ذلك أنَّ الله – تبارك وتعالى – ييسر لكل إنسان خرج في سبيل الله أمره ويهون عليه سفره ،ولذلك أدل دليل على ذلك سفر الحج. سفر الحج تستيطع أن ترى فيه كيف ييسر الله – تبارك وتعالى – للناس أمرهم ويهون عليهم أسفارهم.

ترى الرجل في بلده قبل الحج ضعيفاً مريضاً وترى المرأة عجوزاً لا تستيطع الحركة وإذا بهما إذا سافرا إلى الحج أفاض الله – تبارك وتعالى – عليهما القوة والصحة والعافية فأدَّيَا مناسكهما على أكمل الوجوه .

هذا من تيسير الله – تبارك وتعالى – لأن سفر الحج سفرٌ في سبيل الله – تبارك وتعالى – كذلك طالب العلم إذا خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله ييسر الله – تبارك وتعالى – له أمره ويهون عليه سفره .

قال بعض العلماء: ولعل هذا التيسير لطالب العلم إنما هو بسبب وضع الملائكة أجنحتها كما في الحديث (وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضىً بما يصنع) فهذا مما يستفاد من قول موسى لفتاه ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ

سَفَرِنَا هَذَا ﴾ فاسم الإشارة يعود على السفر القريب بعدما نام عند الصخرة بمجمع البحرين، وجاوزها وجد التعب والنصب بعد تجاوزه .

وفى قول موسى – عليه السلام – ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ جواز الإخبار بالتعب والمشقة وجواز الإخبار بالجوع فلا بأس بأن تقول لصاحبك لقد غلبني الجوع لقد جعت كثيراً، ولا بأس أن تقول لصاحبك، لقد نصبت وتعتب من هذا السفر، ولا بأس للمريض أن يخبر عُوَّادَهُ وزُوَّارَه بما يجد من الألم ما دام هذا الإخبار ليس على سبيل الشِكاية والاعتراض على قدر الله – تبارك وتعالى – لأن بعض الطيبين قد يتحرج وهو مريض أن يخبر عواده وزواره بحاله وأنت تعلم أن العائد والزائر إما أن يكون من الأهل وإما أن يكون من الأصدقاء والخلان وكلاهما يريد أن يطمئن على المريض وحاله فيسألونه كيف حالك اليوم ؟ ما هي أخبارك ؟ كيف تجدك ؟ هل تجد الألم أم لا تجد الألم ؟

فقد يتحرج بعض المرضى أن يصرح بحاله مخافة أن يكون شكاية . لا. التصريح ما دام مَعْرِضاَ وتسليماً لقدر الله – سبحانه وتعالى – فهذا جائز .

قال موسى ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ .

وحكى الله عن أيوب – عليه السلام – أنه قال ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الانبياء:٨٣].

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً ﴾[الكهف:٦٢].

هنا تذكَّرَ الفتى: أنه نسي الحوت ونسي أن يخبر موسى – عليه السلام – بما كان من أمر الحوت وأنه فقده حيث نزلا عند الصخرة .

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ ﴾ أرأيت إذ نزلنا عند صخرة فنمت عندها فإن نسيت الحوت، إن الحوت قد خرج من المكتل ونزل في البحر واتخذ سبيله في البحر سرباً، لكنك كنت نائماً فكرهت أن أوقظك فتحملت حتى تستيقظ فأخبرك لكني بعد استيقاظك نسيت أن أخبرك .

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾

فنسب النسيان إلى الشيطان. فالنسيان الذي هو ضد الذكر يتسلط على الإنسان بسبب الشيطان وكذلك نسب الله – تبارك وتعالى – النسيان إلى الشيطان في قوله – عزّ وجلّ – ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[الأنعام:٦٨].

فنسب الله ــ تعالى ــ النسيان إلى الشيطان ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ لأنك أيها المسلم منهي عن مجالسة الذين يخوضون في آيات الله .أنت منهي عن مجالس الغيبة وعن مجالس النميمة وعن مجالس السوء وعن المجالس التي يُعصى فيها الله – تبارك وتعالى – لأن الله قال :﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ ﴾[النساء:١٤٠]. في الوزر والإثم أنتم وهم سواء .

فإذا اُبتليتَ بمجلس فيه غيبه أو فيه نميمة أو فيه معصية أو فيه مخالفة لأمر الله – عزّ وجلّ – فأنت منهي عن مجالسة هؤلاء فإما أن تنهاهم ،وإما أن تقوم عنهم ولا تجالسهم، فإذا لم تنههم وجالستهم فكأنك مُقر لهم على ما يأتون من المعاصي فقد شاركتهم في الإثم والوزر .

ولذلك حكى شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه الله – أنه أُتي عمر بن عبد العزيز – رضي الله عنه – بقوم قد شربوا الخمر فقال: اجلدوهم، اجلدوهم حد الشرب فقالوا: إن كان فيهم فلاناً كان صائماً قال :به فابدؤوا، ابدؤوا بهذا الصائم في الجلد أولاً؛ كان صائماً فلماذا جالس الذين يشربون الخمر؟ به فابدؤوا فإذا أنت جلست في مجلس فيه معصية لله – عزّ وجلّ – ونسيت ؛أنساك الشيطان أن تقوم واسترسلتَ في الجلوس ،وأطلت فيه ثم تذكرت فلابد أن تنصرف ﴿ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾.

كذلك نسب الله – عزّ وجلّ – النسيان إلى الشيطان في قوله – عزّ وجلّ – عن المنافقين ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾[المجادلة:١٩].

فالنسيان يكون من الشيطان، وماذا يفعل الإنسان إذا نسي؟

قال العلماء في قوله تعالى ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾[الكهف:٢٤] .

يعني إذا نسيت شيئاً فاذكر الله – تبارك وتعالى – تذكر ما نسيت، لماذا ؟

لأن النسيان من الشيطان كما ذكرنا، والشيطان– لعنه الله– وصفه الله بكونه وسواساً خناساً يوسوس عند الغفلة ويخنس عند الذكر، فإذا نسيت شيئاً فمعني ذلك: أن الشيطان استحوذ عليك، فاذكر اسم الله – تبارك وتعالى – تطرد الشيطان، وإذا طردت الشيطان تذكرت ما كنت نسيته أو نُسيته .

هذا وجه من وجوه التفسير في هذه الآية لم نذكره نحن سابقاً عند تفسيرها ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً ﴿٢٣﴾ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾[الكهف:٢٣-٢٤] .

نحن في تفسير هذه الآية ذكرنا أرجح أقوال العلماء فيها وهو أنه إذا قال لك صاحبك ستأتيني غداً فقلت سآتيك غداً ونسيت أن تقول إن شاء الله فإذا تذكرت أنك قلت لصاحبك سآتيك غداً ولم تقل إن شاء الله فقل إن شاء الله ولو بعد حين .

هذا أرجح وجوه التفسير في هذه الآية.

لكن من وجوه التفسير ما ذكرناه آنفاً أن النسيان من الشيطان، والشيطان الله تعالى وصفه بكونه وسواس خناس، يوسوس عند غفلة الإنسان عن ذكر الله فإذا ذكر الإنسان ربه انخنس الشيطان وبعد عنه فإذا نسيت شيئاً فاذكر الله – تبارك وتعالى – تطرد الشيطان فتعود إليك ذاكرتك وتذكر ما كنت نسيته .

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً ﴿٦٣﴾﴾.

قال النبي – صلى الله عليه وسلم – (اتخذ سبيله في البحر سرباً وكان لموسى وفتاه عجباً) تعجب موسى كما تعجب الفتى، كيف أن الحوت الميت الذي أكلا منه نصفه كيف دبت فيه الحياة مرة ثانية ؟ فكان اتخاذ الحوت في البحر سرباً له يسلكه ،عجباً لموسى – عليه السلام – وفتاه كيف يحي هذا الحوت بعدما كان ميتاً وأكلنا نصفه ؟

فلما نزل الحوت في البحر أحياه الله – سبحانه وتعالى – حتى إنَّ بعض أهل العلم ذكر أن من نسل هذا الحوت ما هو موجود في السوق اليوم من أنواع السمك الذي يسمى(سمك موسى)، ترى السمكة عبارة عن نصف سمكة سلسلة الظهر على أحدى جانبيها لحم وعلى الجانب الثاني قشرة رقيقة فوق العظم أو فوق الشوكة ليس عليها لحم .

قالوا هذا السمك من نسل حوت موسى – عليه السلام – فكان اصطحبه في السفر وأكل منه وفى مجمع البحرين أحياه الله – تبارك وتعالى – ليستدل موسى بحياته على وجود العبد الصالح الذي خرج لهم .

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾

﴿٦٣﴾أحي

ماذا يفعل موسى مع الفتى هل وبخه هل عاتبه ؟

وقد قلنا: إنه لم يكلفه في سفره إلا أنه متى فقد الحوت يخبره به والفتى استصغر هذا التكليف وقال: ما كلفتَ عسيراً، هذا طلب سهل بسيط متى أفقد الحوت أخبرك، ومع ذلك نسي فعفا عنه موسى ولم يوبخه ولم يعنفه ولم يعاتبه لأن هذا شأن الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– بالنسبة لما مضى، ما كانوا يعنفون ولا يوبخون وإنما كانوا يقولون: قدر الله وما شاء فعل .

في الحديث عن أنس – رضي الله عنه – قال (خدمت النبي – صلى الله عليه وسلم – عشر سنين فما قال لي أفٍّ قط، وما قال لشيء فعلته لما فعلته، ولا قال لشيء تركته لما تركته ولكن كان يقول:قدر الله وما شاء فعل) .

فنستفيد من هذا أن نوطن أنفسنا وأن نعود ألسنتنا هذه الكلمة الطيبة،(قدر الله وما شاء فعل) إذا كلفت امرأتك بشئ فلم تفعله فسألتها قالت: نسيت، قل: قدر الله وما شاء فعل، إذا كلفت ولدك بشيء فنسي أن يفعله فسألته لماذا لم تفعله ؟ قال نسيت قل: قدر الله وما شاء فعل. لم يعنف موسى – عليه السلام – الفتى على أنه نسي أن يخبره ،مع أن نسيانه تسبب في أنه وجد النصب والتعب والمشقة في السفر كما شرحنا ما زاد موسى على قوله ﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ هذا الذي نريده، هذا الذي نريده وهذا الذي خرجنا من أجله وهذا الذي قصدناه من سفرنا ﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾﴿٦٤﴾ أي رجعا يقتصان ويتتبعان آثار أقدامهما في الرمال حتى لا يضلا الطريق فينحرفا يمنياً أو شمالاً عن الصخرة التي هي في مجمع البحرين التي قصداها.

﴿ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾﴿٦٤﴾ حتى انتهيا إلى تلك الصخرة بمجمع البحرين، فرأى موسى – عليه السلام – رجلاً نائماً .

قرأنا في الحديث أنه قد سَجَّى نفسه بثوبه، وضع طرفه تحت رأسه وطرفه الآخر تحت رجليه فهو مُسجىً كله لا يرى منه شئ فقال موسى: السلام عليكم، فلما سمع ذلك العبد كلمة(السلام عليكم) كشف عن وجهه وقال: وأنَّى بأرضك السلام ؟ مِنْ أين أتيت بهذه التحية، هذه التحية لم أسمعها في هذه البلد وفى هذه الأرض. من أين أتيتَ بهذه التحية تحية: السلام عليكم ؟ قال أنا موسى، قال موسى صاحب بني إسرائيل ؟ قال نعم .

قال ما الذي جاء بك يا موسى ؟

قال جئت لأتعلم من علمك.

قال يا موسى أنت على علم علمك الله لا أعلمه، وأنا على علم علمنيه الله لا تعلمه .

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمً﴾ ﴿٦٥﴾.

هذا العبد هو الخَضِرُ – عليه السلام – ما اسمه وما نسبه ؟ لا نعرف عن اسمه ونسبه شيئاً، لم يُسمَ في القرآن إلا بعبد من عباد الله ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ ولم يسميه النبي – صلى الله عليه وسلم – ولكنه لقبه بالخضر، وسبب تلقيبه بهذا اللقب الخضر، أنه كان إذا جلس على أرض يابسه اهتزت تحته خضراء يانعة، فلقب بالخضر، فهذا الذي نعرفه عن هذا العبد الصالح، أنه يلقب بالخضر، لكن ما اسمه ما نسبه ؟ سكت الله تعالى أيضاً عن ذلك ولم يسميه النبي – صلى الله عليه وسلم – ولم يذكر له نسباً .

هل كان نبياً يوحى إليه، أم كان ولياً ؟

الراجح من أقوال العلماء أن العبد الصالح هو الخَضِر – عليه السلام – كان نبياً ولم يكن ولياً فقط لماذا ؟

أولاً : لأن موسى – عليه السلام – جاء ليتعلم منه. موسى – عليه السلام – وهو كليم الله ومن أولى العزم من الرسل الخمسة المعروفين ، جاء موسى – عليه السلام – على جلالة قدره– ليتعلم من هذا العبد. ولا يصلح أبداً أن يكون هذا العبد مجرد ولي لأنه ما كان لنبي أن يتعلم من ولي، لأن النبى أفضل من الولي ونقول: نبي واحد أفضل من جميع الأولياء .

فلم يكن العبد الصالح ولياً فقط وإنما كان ولياً من أولياء الله.

الدليل على كونه نبياً من هذه الآيات أن الله – سبحانه وتعالى – قال ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ والمراد بالرحمة النبوة فإن الله – سبحانه وتعالى – سمى النبوة بالرحمة في مواضع من كتابه فقال في حق النبي – صلى الله عليه وسلم – ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ فقال الله تعالى منكراً عليهم ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف:٣١–٣٢].

هل رحمة الله– يعني بها النبوة– بأيديهم يقسمونها كيفما شاءوا فينبئون هذا ولا وينبؤون الآخر؟ ولما قالوا أيضاً ﴿ أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ قال الله تعالى ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴾[ص:٨–٩].

فهنا الله تعالى قال ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ المراد بالرحمة هنا النبوة .

الدليل الثاني قوله تعالى ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ والعلم اللدني الذي يؤخذ من الله – سبحانه وتعالى – بلا اكتساب من الإنسان هذا لا يكون إلا للأنبياء، لا يكون أبداً لبشر – من غير أنبياء– أن يمسي جاهلاً، ويصبح عالماً لا يمكن أبداً.

إنما كما قال النبي – صلى الله عليه وسلم – (إنما العلم بالتعلم) والله تعالى يقول ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ [النحل:٧٨] هذه الحواس التي هي وسائل التعلم فتتعلمون، أما العلم اللدني فهذا خاص بالأنبياء كما قال الله تعالى لنبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾[النساء:١١٣] حيث علمك ما لم تكن تعلم .

أيضا مما يستدل على نبوة الخضر، قوله عن الغلام الذي قلته ﴿ وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُــؤْمِنَيْنِ فَخَــشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً ﴾ [الكهف:٨٠].

هذا الغلام لم يبلغ الحُلُمَ بعد قتله الخضرُ، ثم اعتذر عن قتله بأنه علم أن هذا الغلام لو كبر وبلغ مبلغ الرجال سيكفر بالله – عزّ وجلّ – وأبواه يحبانه حباً شديداً ويتعلقان به تعلقاً كبيراً فيخشى على الأبوين من هذا الولد إذا كبر وكفر بالله أن يتعلقا به ويتبعانه على الكفر بالله – عزّ وجلّ –.

من أين لهذا العبد الصالح أنه علم أن هذا الغلام لو كبر يكفر بالله ويخشى على والديه منه أن يكفرا ؟(كلمــة غير مفهومة) هذا غيب ولا يعلم الغيب إلا الله – عزّ وجلّ – ﴿ قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [النمل:٦٥].

لكن الله تعالى قال ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً ﴾[الجــن:٢٦] ثم استثنى فقال ﴿ إِلَّا مَنِ ارْتَــضَى مِنْ رَسُولٍ ﴾[الجــن:٢٧].

فكون الخضر علم أن هذا الغلام لو كبر يكفر بالله – عزّ وجلّ – هذا من علم الغيب الذي أطلعــه الله عليــه والله لا يطلع على الغيب أوليائه، إنما يطلع على الغيب من ارتضى من رسول كما قال الله – سبحانه وتعالى – .

ثم إن الخضر – عليه السلام – صرح في نهاية القصة بقوله ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾[الكهف: ٨٢] إذا كان الأمر ممن ؟ من الله – سبحانه وتعالى – لأنه لا يجوز عقلاً ولا شرعاً لأي بشر– مهما كان– أن يلقى غلاماً في الطريق فيقتله فإذا سُئِلَ لما قتلته ؟

يقول لقد علمت أنه لو كبر لكفر بالله – عزّ وجلّ – فأنا قتلته قبل أن يكفر هذا لا يجوز لأحــد فعلــه إلا أن يكون رسولاً من الله يوحي الله – تبارك وتعالى – إليه .

فهذه أدلة تدل على أن الخضر كان نبياً من أنبياء الله ولم يكن مجرد ولي .

النقطة الثانية التي وعدنا ببيانها في الحلقة السابقة: هل ما زال الخضر حياً أم مات ؟

والراجح أيضاً من أقوال العلماء أن الخضر – عليه السلام – قد مات وأنه مات قبل بعثة النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – والدليل على أنه مات، قول الله لنبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَــشَرٍ مِــنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾[الانبياء:٣٤-٣٥] .

فقوله ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ ﴾ نكرة في سياق النفي والنكرة في سياق النفي ، فتعم كل بشر كان قبــل النبــي – صلى الله عليه وسلم – والخضر بشر ممن كان قبل النبي – صلى الله عليه وسلم – والله لم يجعل الخلــد لنبيــه فمعنى ذلك أن الخضر مات، كما يموت البشر .

دليل ثاني : أن النبي – صلى الله عليه وسلم – في يوم بدر وأنتم تعلمون من أحداث السيرة كيف كان حــال المسلمين يوم بدر ثلاثمائة غير مسلحين واجهوا ألفاً مسلحاً، فالنبي – صلى الله عليه وسلم – دخل الصومعة التي بنيت له، وأخذ يرفع يديه إلى الله – عزّ وجلّ – ويستغيثه ويقول في الاستغاثة:(اللهم إن تَهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلن تعبد في الأرض) يعني يا رب ليس على وجه الأرض مسلم إلا هذه العصابة التي معي تقاتــل في سبيلك الآن فإن شئت يا رب قتلتهم؛ فلا تعبد بعدهم في الأرض. فلو كان الخضر حياً لكان يعبد الله. والنبــي – صلى الله عليه وسلم – يقول :إن شئت لا تعبد إذا أهلكت هذه العصابة اليوم فمعنى ذلك أنه لم يكن أحد علــى

وجه الأرض يومئذ يعبد الله غير هذه العصبة القليلة المؤمنة التي كانت تقاتل مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يوم بدر .

ثالثاً : من الأدلة التى يستدل على وفاة الخضر – عليه السلام – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – صلى بأصحابه العشاء ذات ليلة متأخراً ثم قال لهم (أرأيتكم ليلتكم هذه فإنه على رأس مائة سنة سنة لا يبقى ممن هو على ظهرها أحد) .

يعني إن هذا الجيل وهذا القرن سيسفنى بعد مائة سنة، فلا يبقى من هذا الجيل أحد بعد مائة سنة، فلو فرضنا أن الخضر – عليه السلام – كان على ظهر الأرض في هذه الليلة إذاً لقد عَمَّه قوله: بعد مائة سنة لا يبقى على وجهها أحد .

ثم من الأدلة التي يستدل بها على وفاة الخضر أن الخضر كما دللنا كان نبياً، وقد أخذ الله تعالى من النبيين ميثاقهم إذا جاءهم رسول من الله – عزّ وجلّ – أن يؤمنوا به ويتبعوه، فلو كان الخضر حياً إلى بعثة النبي – صلى الله عليه وسلم – للزمه أن يأتيه، ويبايعه على الإسلام، ويتبعه عليه، ويقاتل معه أعداء الله، ولم يثبت أبداً أن الخضر أتى النبي – صلى الله عليه وسلم – وبايعه على الإسلام واتبعه عليه ،فمعنى ذلك: أن الخضر كان قد مات قبل بعثة النبي – صلى الله عليه وسلم – .

ونكتفى بهذا القدر سائلين الله – تبارك وتعالى – أن يرزقنا وإياكم علماً نافعاً وعملاً مقبلاً، وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب .

هذا والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فضيلة الشيخ قلتم في تفسير قوله تعالى ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً ﴾ قلتم: إن (هذ)اسم إشارة للقريب. بمعنى: أنهم أصابهم التعب الشديد بعدما تجاوزا الصخرة التى عندها اصطحب (كلمة غير مفهومة) وأن الله – سبحانه وتعالى – سهل الجزء الأول من سفرهم لأنه كان في سبيل الله. سؤالي الآن: هل يحاسب الله تعالى سيدنا موسى نسيانه ولا يقف معه في تيسير سفره في الجزء الثاني على الرغم من أنه ليس له يد في هذ النسيان ؟

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته بالنسبة عندما قال سيدنا موسى: أنا أعلم أهل الأرض من باب دخول وسوسة الشيطان ، أو من باب الإعجاب بالنفس، أو من باب الخطأ لأننا نعرف أن الأنبياء معصومون ؟.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، علمنا من فضيلتكم بالأدلة أن الخضر – عليه السلام – كان نبياً ولكن قرأنا على شاشة التلفزيون في هذه الحلقة وفى الحلقة الماضية عبارة:أن أول عقدة تحل من الزندقة أن الخضر كان نبياً فما هي الزندقة وما المقصود بهذه العبارة ؟

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، سؤالي: الحديث الذي ورد فيه المسيح الدجال وبقاؤه حياً في الجزيرة هل يتنافى مع ما ذكره الشيخ في بقائه حياً ؟

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، هل لابد من الوضوء بالنسبة للمصحف، وهل يجوز للحائض لمس المصحف مع العلم أن لي ورد يومي ، ولا أستطيع أن أجلس إلا هذه المدة مدة الحيض ؟

ليس محاسبه على نسيانه فالله – سبحانه وتعالى – لا يحاسب على النسيان، ولكن المراد هو التفريق بين خروج الإنسان في سبيل الله – عزّ وجلّ – مهتدياً بهدى الله وبين خروجه في سفره أي سفر ليس في سبيل الله – سبحانه وتعالى – وهذا شيء قرأناه في الدرس السابق في الفوائد المستفادة من الحديث كما كان في فتح الباري شرح صحيح البخاري .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، في قصة موسى والخضر موسى لم يصبر على ما فعله الخضر هل هذا الصبر على العلم أم الصبر على البلاء وكيف نصبر أنفسنا بالبلاء وخصوصاً بلاء تعدد الزوجات وهل الشكوى في هذا الأمر من باب عدم الصبر ؟

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، عندي ملاحظة وسؤالاً أما الملاحظة فهي أنني غير في هذا الدرس أنكم متقيدون بمنهج ابن كثير في التفسير أكثر من تقيدكم بمادة تفسيره أحياناً فإن كان الأمر كذلك فما هو تعليقكم؟ وأما السؤال فهو كيف نتعامل مع كثرة الروايات والأخبار الواردة في تفسير بعض الألفاظ والآيات في كتاب ابن كثير وغيره؟ فكلمة الرقيم مثلاً وجدت لها أكثر من ثمان روايات، فما هي نصيحتكم لنا، السؤال الثاني والأخير: ذكرت في الدرس السابق أن أخذ العلم من الكتب يكون بشروط فما حكم بعض الأشخاص الذي يقرأون كتباً ويفتون بما قرأوه بل هناك من يفسر القرآن بما اطلع عليه من دون الأخذ عن شيوخ؟

الجملة لا شك فيها إشكال لغوي وبسط الكلمات لغوياً يساعد على الفهم المراد منها، فلعلنا نطلع على هذه الجملة ونرى المقصود منها إن شاء الله .

أما الزندقة فهو لفظ يراد به الإلحاد والكفر والشرك بالله – سبحانه وتعالى – .

كلمة زنديق: تطلق على الملحد الكافر المشرك .

حديث الجساسة رواه مسلم وغيره وهو يفيد أن المسيح الدجال الذي سيخرج آخر الزمان وحذرنا النبي – صلى الله عليه وسلم – منه ومن إتيانه واتباعه وأمرنا أن نستعيذ بالله دبر كل صلاة من شره (اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن شر فتنة المسيح الدجال) .

دل حديث الجساسة وغيره على أن المسيح الدجال مقيد بسلاسل في جزيرة إلى أن يأذن الله له بالخروج، فهنا تأتي شبهة. نحن استدللنا بقول النبي – صلى الله عليه وسلم – (أرأيتم ليلتكم هذه فإن على رأس مائة سنة لا يبقى ممن هو على ظهرها أحد) فهنا كان المسيح الدجال موجوداً في هذه الليلة وهو موجود إلى أن يخرج فهنا يقول العلماء في هذا الحديث أنه من العام المخصوص، خرج المسيح الدجال من هذا العام بالأحاديث الصحيحة الثابتة، ولم يخرج الخضر لأنه لم يأتي أحاديث صحيحة تدل على حياته – عليه السلام – .

جمهور الفقهاء على منع المحدثة حدثاً أصغر فضلاً عن الأكبر أن يمس المصحف، ولكن ذهب كثير من العلماء إلى الجواز ولا سيما إذا خافت الحائض من النسيان إذا كانت دورتها تطول أيامها وتكثر وخشيت من النسيان إذا هي لم تراجع فرخصوا لها أن تراجع القرآن ولو مع حدثها.

الصوت كان فيه ضعف قليل من الأخ لكنه نستطيع أن نوجه كلامه، يعني كيف تقولون أنكم ملتزمون في الأكاديمية بمنهج الحافظ بن كثير وتأتون في المحاضرة بأشياء ليست موجودة في ابن كثير، هذا توجيه القول يكون مقبولاً حينئذ ونقول للأخ وغيره أننا نصحنا بضرورة العناية بكل ما يسمعون منا في هذه المحاضرة والحمد لله الدروس مفروغة على موقع الأكاديمية على النت يستطيع الطالب أن يسحب هذه الدروس وبذلك إذا

قرأ في ابن كثير وجد الفوائد التي زدناها على ابن كثير فاستفاد منها وأضافها إلى موقعها في التفسير بإذن الله – عزّ وجلّ – .

العلماء قالوا إن الأخذ من الكتب، أخذ العلم من بطون الكتب جائز بشروط :

الشرط الأول : أن يكون هذا الطالب أخذ مفاتيح الكتب من العلماء فقد قالوا كان العلم في صدور الرجال ثم انتقل منها إلى الكتب وبقيت مفاتيحه بأيدي الرجال، فالكتاب هذا كنز وكل كنز له مفتاح مفتاح الكنز هذا مع العلماء .

فينبغي لمن أراد أن يأخذ من الكتب أن يكون أولاً صاحب العلماء وجالسهم واستفاد منهم وتعلم كيف يدخل على هذه الكتب وكيف يحصل منها .

فالشرط الأول: أن يكون قد أخذ مفاتيح الكتب من العلماء .

ثانياً : أن يعتمد على كتب السلف الصالح النافعة التي أتفق على صلاحيتها وكثير فائدتها ونفعها بإذن الله – عزّ وجلّ – .

الشرط الثالث: ألا يعتزل العلماء وألا يبتعد عنهم بل يجب عليهم أن يظل متصلاً بالعلماء مع أخذه من الكتب، يرجع إليهم فيما يشكل عليه وفيما يعجز عن فهمه، يسألهم ويستفيد من علمهم، فبهذه الشروط ينتفع الطالب من الأخذ من الكتب وبغيرها. قد يضل ويضل إذا اعتمد على الكتب دون أن يرجع إلى المشايخ سابقاً ولاحقاً .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته تقول: عندما أسمع آيات الله تعالى يلين قلبي وخصوصاً إذا كان من قارئ خاشع وأحياناً تدمع عيني لآيات التبشير بالجنة رجاء ما عند الله، أما آيات الوعيد فقط أخاف ويلين قلبي ولا تدمع عيني هل هذا يدل على قسوة في قلبي؟أفيدوني .

نسأل الله لها المزيد من التوفيق والحرص على الخير إن شاء الله تعالى، دموع العينين ليست بيد الإنسان ولكنها فتوحات ورقة يقذفها الله – سبحانه وتعالى – في قلب من يشاء من عباده متى شاء – سبحانه وتعالى – وبالمجاهدة والمراوضة تصل إلى ما تريد بإذن الله – عزّ وجلّ –.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، هل إن نسبة العلم إلى نفسه هو كان سبباً في أمر المولى – عزّ وجلّ – موسى بالسفر إلى الخضر – عليه السلام – ؟

السبب أنه سئل:هل على وجه الأرض أحد أعلم منك ؟

فقال: لا، فعتب الله عليه أن لم يرد العلم إليه، هو لا يعلم من على وجه الأرض كلهم فكان الأولى به أن يقول الله أعلم، أو يقول لا والله أعلم .

فلما لم يرد العلم إلى الله كان ذلك سبباً في أن الله قال له: إن بمجمع البحرين عبداً عنده علم ليس عندك فخرج إليه .

يقول ما هو العلم اللدني الذي يوصف به الخضر – عليه السلام – ؟

ما علمه الله إياه في أن هذا الغلام سيكبر ويكون كافراً، هذا علم لدني من الله – سبحانه وتعالى – ومع غيره من علوم النبوة التي تعملها مما ذكر في الحديث والقرآن ومما لم يذكر .

تقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، سؤال هو ما الحكمة من عدم صبر موسى – عليه السلام – على ما كان يفعله الخضر – عليه السلام – وهل كل ما كان يفعله الخضر له حكمه وإن كانت الحكمة بينة نرجو منكم توضحياً ؟

كل هذا سيرد في الحلقة القادمة إن شاء الله تعالى .

تقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، عندما تذكرون بداية الأدلة من القرآن الكريم أكتب بداية الآية وأضع نقاطاً وأكتب نهاية الآية من أجل إدراك كتابة جميع الآيات، فما رأيكم؟

جزاها الله خير إن شاء الله، وبعد المحاضرة تكمل المحاضرة إن شاء الله تعالى .

يقول بالنسبة لموضوع نسيان الحوت أخذ طريقه للبحر هل كان الحوت يرافق سيدنا موسى وكيف كان ذلك بعيداً عن المياه وهذا أنا لا أفهم هذا الجزء أرجو التوضيح ؟

لما قال موسى – عليه السلام – لرب العزة – عزّ وجلّ – كيف لي إليه أو أنى لي به كيف أصل إلى هذا العبد الذي عنده علم ليس عندي، قال: خذ حوتاً في مكتل يعني خذ سمكة ميتة صالحة للطعام، سمكة ميتة ضعها في وعاء في مكتل واذهب بها إلى المكان فالحوت ليس ماشياً في البحر يمشي و سيدنا موسى يمشى على الحائط، لا، الحوت كان ميتاً سمكة ميتة مشوية مملحة صالحة للطعام .

لكن كانت المعجزة في أن الله – عزّ وجلّ – قال له، متى تفقدها، يعني متى تدب الحياة في الحوت وينزل البحر تفقد هذا فتعلم أن هذا العبد في هذا المكان، لعله يكون الأمر اتضح بعد ذلك إن شاء الله .

لا شك أن مسألة الخضر هو نبياً أم ولياً وهل هو حياً أم ميتاً قد قتلتموها بحثاً ورفعتم عنها الإشكالات التي تواجه بعض المسلمين، غير أننا نريد كلمة توضحون فيها كيف تفهم نصوص الكتاب والسنة بصفة عامة، وخاصة النصوص المتعلقة بالاعتقاد؟ لا سيما أنه قد ضل من ضل وحاد عن الطريق من حاد وإنا لله وإنا إليه راجعون

نحن نرفع شعار الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، كيف نفهم القرآن آيات القرآن، كيف نفهمها ؟ الأحاديث النبوية كيف نفهمها، فهمي وفهمك سبب من أسباب الضلال الذي يحكمني ويحكمك ويجعلني وإياك نتفق على ما اختلفنا إليه هو فهم سلف الأمة والمراد بسلف الأمة الصحابة والتابعون لهم بإحسان – رضي الله عنهم أجمعين – لأن الصحابة أنزل الله – تبارك وتعالى – القرآن بلغتهم ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[يوسف:٢].

والصحابة هم الذين تلقوا هذا القرآن غضاً طرياً من في الرسول – صلى الله عليه وسلم – وهم الذين سمعوا السنة من في الرسول – صلى الله عليه وسلم – غضة طرية، وبصفتهم عرب قح لا يخفى عليهم أي لفظ يسمعونه، فكانوا يعلمون المعنى المراد فإذا أشكل عليهم المعنى المراد سألوا النبي – صلى الله عليه وسلم – عن ذلك المعنى الذي أشكل عليه، لذلك نقول النصوص من الوحيين، القرآن والسنة. تفهم بفهم سلف الأمة ومعنى ذلك أننا يجب أن نرجع إلى ما كتبه السلف الصالح في كل فن، في التفسير،في الحديث،في الفقه ، في هذه العلوم ونأخذ بأقوالهم.

وأما الترجيح بين الأقوال والترجيح بين الأدلة فهذا علم خاص يدرس في الأصول سواء كان أصول الفقه أو أصول مصطلح الحديث .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، هل هناك حديث صحيح في فضل سورة الكهف قراءتها يوم الجمعة، السؤال الثاني بعض التفاسير والطباعة والمحققين (كلام غير مفهوم) السؤال الثالث بعض الناس لا يقول الله أعلمخشية التشكيك في علمهم نريد نصيحة للأمة بأكمله

نعم هناك حديثان صحيحان قدمناهما في أول حلقة في فضل السورة (من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة، أضاء له ما بينه وبين البيت العتيق) وفي رواية (فيما بينه وبين الجمعة التي تليها) فهذان حديثان صحيحان في فضل سورة الكهف ، ومن الأحاديث الصحيحة في الصحيح (أن من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال) وفى رواية (من آخر الكهف).

أنا لست مطلعاً كثيراً على أحوال السوق والمكتبات .

نحن نصح كل من يتعرض للفتيا بألا يستحيي من قول لا أدري، وألا يستحيي من قول الله أعلم فإن الملائكة لم تستحي حين قال الله – تبارك وتعالى – لها ﴿ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[البقرة:٣١]. لم يستحوا أن يقولوا ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾[البقرة:٣٢].

والنبي – صلى الله عليه وسلم – وهو الذي كان يأتيه الوحي من ربه كان كثيراً ما يسأل فيقول:لا أدري أو يقول الله أعلم، فعلى الطالب أن يدين لله – تبارك وتعالى – بالتواضع وأن يعرف قدر نفسه، فكلما تواضع لله رفع الله قدره .

أليس من الصبر الجميل عدم الشكوى ؟

لا شك من الصبر الجميل عدم الشكوى، لكن لم نقل نحن بجواز الشكوى، نحن قلنا بجواز إخبار المريض عن مرضه شريطة ألا يكون الإخبار مصحوباً بشكوى، يعني كيف حالك ؟ الحمد لله، ماذا قال الطبيب ؟ ماذا قال في المرض الذي تجده ؟ قال كذا وقال كذا .

فأنت الآن تجد ألم أم الحمد لله مستريح الآن، أنا الحمد لله أحسن حالاً اليوم،التعب يعني أخف أقل وهكذا، فهذا إخبار جائز شريطة ألا يكون فيه شكوى، واعتراض على القدر .

يقول أنا أعاني كثيراً من النسيان لما طلبته من علم فهل تتكرمون بارك الله فيكم بنصحية لحفظي ما تعلمته رفع الله قدركم ؟

ننصحه بتعاهد العلم، كل العلوم التي حفظها بحاجة إلى أن يتعاهدها حتى لا تنفلت من صدره ابتداء بالقرآن الكريم وانتهاء بكل العلوم الشرعية التي حفظها ودرسها .

العلم إن لم يراجع ويتعاهد بالمراجعة يدرس ولذلك روي عن علي – رضي الله عنه – أنه كان يقول لأصحابه تزاوروا وتذاكروا هذا العلم فإنكم إن لم تفعلوا يدرس، فحياة العلم مدراسته، فأكثر من المدارسة والمذاكرة والقراءة والاطلاع والمذاكرة واستعن بالله – عزّ وجلّ – واسأل الله أن يسرع حفظك ويقوي ذاكرتك .

تقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، سؤالي هو: ما حكم الاقتباس من القرآن إن نسيت أمراً ما أن أقول: ما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ؟

هذا النطق والاقتباس جائز لأنه استقبال جيد وفى موضعه، لكن بعض الناس يسيئون استخدام النصوص القرآنية في بعض الأماكن من باب الدعابة والمزاح وهذا لا يجوز، يجب أن ننزه كلام الله عن ذلك، يعني بعض الناس يقول ادخلوها بسلام، هذا غداؤنا، هذا رزقنا، من مثل هذه الاستدلالات، التي يقتبسونها في القرآن لبعض المواقف والمشاهد، لا أرى هذا .

لكن مثل ما ذكرت هي هذا في محله وجائز إن شاء الله .

تقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، هل ورد في كتاب الله موضع آخر لسيدنا الخضر غير هذا وأكرمكم الله ؟

لا لم يرد لسيدنا الخضر – عليه السلام – ذكر في القرآن إلا هذا الموضع .

يقول ما حكم من يقدم ويفضل الولي عن النبى وقد يكون أعلم من النبى ويدعي عصمة الأولياء مثل الرافضة هداهم الله وماذا نرد عليهم ؟

هذه مسألة خطيرة جداً تطعن في العقيدة وننصح أمثال هؤلاء بمراجعة كتاب شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله:(الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان)، فيستدلون بهذا الكتاب ويستفيدون منه إن شاء الله تعالى .

تقول أين قبر الخضر – عليه السلام – ؟

يقول شيخ الإسلام بن تيميه رحمه الله: إن من رحمة الله– تعالى– بعباده أنه لا يعرف على وجه الأرض قبر أي نبي من الأنبياء السابقين، ولا يقال هذا قبر فلان إلا قبر الخليلين، إبراهيم ومحمد – صلى الله عليه وسلم – قبر الخليل محمد باليقين أنه مدفون في حجرته في المدينة المنورة يقيناً، وقبر الخليل إبراهيم –على شك– أنه في مدينة الخليل في فلسطين حفظها الله تعالى وأهلها، وما سوى ذلك من الأنبياء ليس هناك معرفة لقبورهم وهذا من رحمة الله بالناس حتى لا يتخذوا قبور الأنبياء أصناماً وأوثاناً يعبدونها من دون الله .

ما تقولون في إيراد أخبار بني إسرائيل لتفسير كتاب الله لا سيما فيما يتعلق بالقصص؟

عندنا من الصحيح الثابت في السنة ما في القصص النبوي ما يغنينا عن الإسرائيليات .

هل يجوز أن نعبر بالعلم اللدني هذا أو لا ؟

العلم اللدني خاص بالأنبياء لا يكون لغيرهم. الله تعالى يوحي إلى أنبياءه، معنى العلم اللدني يعني من لدن الله عن طريق الوحي إلى رسل الله هذا العلم من الله مباشرة بالوحي لا يكون إلا للأنبياء، كما قلت في حديثي لا يعقل أبداً أن يمسى الرجل جاهل ويصبح يقول: أنا تعلمت الليلة، من أين تعلمت ؟ تعلمت من الله – سبحانه وتعالى – هذا كذب وافتراء لا يتعلم أحد من الله إلا الأنبياء بوسطة الوحي الذي ينزله الله – تبارك وتعالى – عليهم .

كيف نرد على بعض الناس المتمسكين بهذه الآية ويفضلون الولاية على النبوة ؟

نقول في معتقد أهل السنة كما قال الإمام الطحاوي– رحمه الله – نبي واحد أفضل من جميع الأولياء .

يقول من ادعى وجود الخضر – عليه السلام – إلى الآن؟

هذه مسألة خلافية بين العلماء ومنصوص عليها في الكتب في تفسير القرطبي وغيره يعني ليست المسألة سهلة، لا. العلماء تكلموا في ذلك وقالوا أنه حي، لكننا رجحنا بالأدلة التي ذكرناها أنه قد مات، وهذا هو القول الراجح فإذا أراد أن يقف على من قال بحياته فيراجع تفسير القرطبي وغيره فسيرى من قال بحياة الخضر – عليه السلام – من العلماء السابقين .

تقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته هل الخضر كان متبعاً لشريعة موسى – عليه السلام – أم أن موسى – عليه السلام – كانت شريعته لبني إسرائيل فقط ؟

لا كانت شريعة موسى لنبي إسرائيل فقط، وكان الخضر في مكان غير مكان موسى – عليه السلام – ولم يكن مأموراً باتباع موسى، وإلا لآتاه هو، لكن موسى ذهب إليه يتعلم منه لما أخبره الله تعالى أن عنده علم ليس عنده .

يوجد من يقول: إن الخلد لله وحده هل يوصف الله بالخلد أم أنه لا يوصف بهذه الصفة ؟

نقول في حق الله ما قاله الله تعالى في حقه ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ﴾[الحديد:٣].

قال النبي – صلى الله عليه وسلم – (اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء) .

إن الحمد لله نحمد ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، واشهد أن محمدا عبده ورسوله ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فإن اصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد – صلى الله عليه وسلم – وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار ، ثم مرحبا بكم في اللقاء الجديد من دروس تفسير سورة الكهف ، والآيات المباركات التي معنى اليوم تضمنت من المعاني ما يلي :

أولاً : أدب الطالب مع العالم .

ثانياً : ضرورة الصبر لطالب العلم .

ثالثاً : المشاهد التي لم بصبر عليها موسى مع الخضر عليهما السلام .

رابعا : من هو المسكين .

خامسا : تفسير الخضر لموسى عليه السلام " ما لم يسطع عليه صبرا " .

سادسا : ليس شيء أنفع للإنسان من الرضا بقضاء الله تبارك وتعالي .

وأخيرا : صلاح الآباء ينفع الأبناء في الدنيا وفي الآخرة .

وهذا بإيجاز عرض سريع لأهم ما تضمنته الآيات المباركات من سورة الكهف من المعاني والتي نعيش في رحابها ساعتنا هذه إن شاء الله تعالي فلنستمع إليها أولا قبل الخوض في تفاصيلها سائلين الله عز وجل أن ينجز لنا ما وعدنا حيث قال ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٤]

الشيخ :

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴿١٩﴾ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:١٩ – ٢٠]

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣]

لما لقي موسى الخضر عليهما السلام قال له هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا انظـر إلـي حـسن الأدب في حسن العرض حسن أدب موسى عليه السلام وهو في مقام طالب العلم مع الخضر عليه السلام وهـو في مقام المعلم هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا .

فيجب على الطالب أن يتعلم كيف يتأدب مع شيخه وكيف يحترمه ويجله وكيف يوقره فـإن تـوقير العلمـاء واحترامهم واجب وقد تبرأ النبي صلي الله عليه وسلم من الذين لا يحترمون العلماء ولا ينزلونهم منازلهم فقـال صلي الله عليه وسلم (ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويجل كبيرنا ويعرف لعالمنا حقه) ولقد اهتم علماء السلف رضوان الله عليهم أجمعين بأدب الطالب مع الشيخ حتى صنفوا فيه مصنفات المختصرة والمطولة وأهيب بكـل طالب أن يعمى بهذه المؤلفات المختصرة والمطولة حتى يتعلم كيف يتأدب مع نفسه أولا وكيف يتأدب مع شيخه وكيف يتأدب مع أقرانه وكيف يتأدب مع أهله وكيف يتأدب مع الناس أجمعين فقديما قال القائل :

والعلم إن لم تكتنفه شمائل

تعليه كان مطية الإخفاق

لا تحسبن العلم ينفع وحده

ما لم يتوج ربه بخلاق .

ومن أمتع هذه المختصرات في أدب الطالب أخلاق العلماء للإمام الأجوري رحمـه الله وآداب الطالـب آداب العالم والمتعلم للإمام النووي رحمه الله وحلية طالب العلم للشيخ الدكتور بكر أبو زيد حفظه الله هـذه الرسـائل الثلاث أنصح طالب العلم أن يعنى بها وأن يهتم بها فقديما قالوا تعلموا العلم وتعلموا للعلم الأدب موسـى عليـه السلام في مقام المتعلم وهو رسول الله وكليمه لكنه يتأدب بأدب الطالب مع الشيخ فيحسن عرض نفـسه علـى المعلم الذي يريد أن يصحبه ليتعلم منه هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت منه رشدا فقال الخضر عليه السلام ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾[الكهف: من الآية٦٧] والطالب بحاجة إلي الصبر حتى يتعلم وأنا أعلم أنك لـن تستطيع معي صبرا فكيف تتعلم ، والطالب لابد له من الصبر حتى يتعلم ولذلك قال القائل :

أخي لن تنال العلم إلا بستة سأنبيك منها مخبرا ببيان

ذكاء وحرص واصطبار وبلغة وصحبة أستاذ وطول زمان .

فمن أهم عوامل نجاح الطالب في الطلب أن يتحلى بالصبر أن يصبر على مشاق الطلب أن يصبر على كل ما يلقاه في سبيل تعلمه فإذا لم يكن معه زاد عظيم من الصبر لن يستطيع أن يتعلم وإذا استعجل الطلب فلن يحصل شيئا فقديما قالوا من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه فلابد للطالب أن يصبر على مـشاق الطلـب وأن يصبر سنين طوال في التحصيل والتعلم حتى يصلح أن يقال له بعد ذلك طالب علم فضلا عن أن يعطـى لقـب العالم ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴿٦٧﴾وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً﴾ [الكهف:٦٧- ٦٨] .

إنك سترى مني أشياء في ظاهرها المنكر وهي لما أعلمه أنا مما علمني الله معروف وأنت كرسول لا تستطيع أن ترى ما ظاهره المنكر ولا تنكره لا تستطيع أن ترى ما ظاهره قبح وتسكت عليه فإنك لن تستطيع معي صبرا

لماذا ؟ سترى مني أشياء في ظاهرها المنكر فلابد أن تنكرها لأنك رسول ل تسكت على المنكــر الــذي تــراه ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً﴾ (الكهف:٦٨)

قال موسى عليه السلام :﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾ [الكهف:٦٩]

وقد تكلمنا عن قوله تعالي﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾[الكهف:٢٣– ٢٤]

وذكرنا بركة هذه الكلمة ومن بركتها أن الإنسان إذا وعد وعلق الوعد على المشيئة فلم يفي به فلا حرج عليه بل إنه إذا حلف أن يفعل وعلق الأمر على المشيئة ولم يفعل لم يحنث فلا تلزمه كفارة اليمين ﴿قَالَ سَــتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾ [الكهف:٦٩]

فإن لم يصبر بعد ذلك لم يكذب ولم يحنث ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّــهُ صَــابِراً وَلا أَعْــصِي لَــكَ أَمْــراً﴾ [الكهف:٦٩]

قال فإن اتبعتني على ما ألزمت نفسك به ﴿ فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْــراً﴾[الكهــف: مــن الآية٧٠] إذا صاحبتني ورافقتني على هذا الشرط أن تصبر على ما تراه في الظاهر مخالفا للشريعة أن تــصبر على ذلك فرافقني شريطة أن لا تسألني عن شيء اتركني أنا حتى أحدثك عن ما فعلته وأبين لك سره وحقيقتــه التي أعلمني الله تبارك وتعالي بها قال لك ذلك فانطلقا فأرادا أن يعبرا البحر من الساحل الذي هــم عليــه إلــي الساحل الآخر فرأيا معابر يعبر الناس بها والمعابر هي المراكب الصغيرة التي يستعملها الناس في الانتقال مــن شاطئ إلي شاطئ فعرف أهل هذه السفينة الخضر عليه السلام فقالوا الخضر عبد الله الصالح فحملوهما ولم يأخذا منهما أجرة إكراما للخضر عليه السلام لأنهم يعرفون الخضر ولكن لا يعرفون صاحبه قالوا الخــضر عبــد الله الصالح فحملاهما ولم يأخذا منهما أجرة فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة وهما في وسط البحر جــاء عــصفور فوقف على شاطئ السفينة ثم نقر بمنقاره في البحر فأخذ قطرة ماء فقال الخضر لموسى عليهما السلام ما علمي وعلمك وعلم الناس كلهم بالنسبة إلي علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور من ماء البحر وبينما السفينة تمشي فــي هدوء وأمان تجري بها ريح طيبة إذا بالخضر عليه السلام يعمد إلي السفينة وينزع لوحا من الخشب من أخشابها ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾[الكهف: من الآية٧١] .

وهنا السفينة إذا خرقت وهي في البحر دخلها الماء وإذا امتلئت بالماء تعرضت للهلاك والغرق فلــم يــستطع موسى عليه السلام أن يصبر على ما رآه من الخضر ﴿ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾[الكهف: من الآية٧١] .

لأنه معلوم مادامت قد خرقت فإن الماء سيدخله وإذا ملئها الماء غرقت وهلك من فيها ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْــرِقَ أَهْلَهَا﴾[الكهف: من الآية٧١] .

قال بعض المفسرين سبحان من جبل الأنبياء على الرحمة بعباده قال موســى للخــضر ﴿أَخَرَقْتَهَــا لِتُغْــرِقَ أَهْلَهَا﴾[الكهف: من الآية٧١] ولم يقل أخرقتها لتغرقنا في وسط الزحام نسي نفسه وكان حرصه أشد على غيــره وصدق الله العظيم حيث قال في نبينا محمد صلي الله عليه وسلم بالمؤمنين رؤوف رحيم وقال :﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾[آل عمران: من الآية١٥٩] فهكذا فطر الله تعالي الأنبياء على رحمة عظيمة حتى اســتطاعوا أن يتحملوا أذى الناس وأن يصبروا على كل ما يلاقونه منهم الاضطهاد والأذى والتعذيب حتى يبلغوهم رســالة الله سبحانه ﴿ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾[الكهف: من الآية٧١] وهو وإياه في السفينة فلو غرق أهلها غرق معهــم لكنه في وسط الزحام من شدة رحمته التي فطره الله عليها نسي نفسه من شدة حرصه على نجاة الآخرين ﴿ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً﴾[الكهف: من الآية٧١] .

قالوا العرب تسمي الداهية العظيمة والمصيبة الكبيرة إمراً ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً﴾[الكهف: من الآية٧١] أي لقد جئت بداهية عظيمة ومصيبة كبيرة تغرق الناس بلا ذنب ولا جريرة ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً﴾[الكهف: من الآية٧١]فقال له الخضر عليه السلام ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ [الكهف:٧٢]

﴿قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾[الكهف: من الآية٧٣] فكانت هذه الأولي من موسى عليه السلام نسيانا وكانت الثانية شرطا وكانت الثالثة عمدا هكذا قال النبي صلي الله عليه وسلم قال كانت الأولي من موسى نسيانا وهو قوله ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً﴾[الكهف: من الآية٧١] وكان قد اشترط عليه ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً﴾ [الكهف:٧٠]

فلما رآه خرق السفينة نسي الشرط الذي التزمه به مع الخضر ﴿ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً﴾[الكهف: من الآية٧١] ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ [الكهف:٧٢]

﴿قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً﴾ [الكهف:٧٣]

إن الله تبارك وتعالي تجاوز لعباده عما نسوه سواء كان واجبا مطلوبا فعله أو كان محرما مطلوبا تركه إذا ترك الإنسان الواجب ناسيا لا يؤاخذ وإذا فعل المحرم ناسيا لا يؤاخذ من الله سبحانه وتعالي فأولى الناس ألا يؤاخذ بعضهم بعضا على ما نسوه أولى الناس ألا يؤاخذ بعضهم بعضا بما نسوا ﴿قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً﴾ [الكهف:٧٣]

فانطلقا حتى إذا نزل من السفينة وصار يمشيان في الطريق في الشاطئ المقابل نظروا فوجدوا صبيانا يلعبون في الشارع فنظر الخضر إلي أحسن الصبيان وجها وأجملهم صورة وعمد إليه فقتله ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاماً فَقَتَلَهُ﴾[الكهف: من الآية٧٤] موسى عليه السلام لم يصبر حين خرق السفينة مخافة حدوث الموت فكيف يصبر وقد رأي الموت قد نزل بغلام بلا ذنب يرتكبه فغضب أشد الغضب وقال ﴿أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً﴾[الكهف: من الآية٧٤] .

فكان صوته في المرة الثانية أعلي من صوته في المرة الأولي ولكل فعل رد فعل ولذلك علا صوت الخضر على موسى واشتد غضبه وإنكاره عليه في الإنكار ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ [الكهف:٧٥]

فاشترط موسى للخضر على نفسه إن هو سأله بعد ذلك عن شيء أن يكون آخر عهده به وأن يفارقه ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ [الكهف:٧٥]

﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً﴾ [الكهف:٧٦]

لقد صبرت علي وتحملتني وعذرتني في المرتين لك علي إن حدثت المر الثالثة أن يكون آخر عهدي بك وأن أفارقك وأنت معذور على فراقك لي لأنني لم أصبر عليك ، فانطلقا وقد ذكرنا أن موسى عليه السلام حين خرج للسفر تزود ماذا كان زاده الحوت ، الحوت المملح أكلا منه في أثناء سفرهما فلما دب فيه الحياة نزل في البحر ولم يبقي مع موسى عليه السلام طعام يأكله في أثناء السفر فبينما هما يمشيان غلبهما الجوع فدخلا قرية فطلبا من أهلها أن يضيفوهما وأن يطعمهما فلم يستجيبا ومنعوهما حق الضيافة ولم يكرماهما بالطعام .

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾[الكهف: من الآية٧٧] أي طلبا منهم الطعام أن يطعموهما ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾[الكهف: من الآية٧٧]

وجد الخضر عليه السلام في هذه القرية جدارا في بناء من البنيان يريد الجدار أن ينقض قد مال الجدار شيئا قليلا وهو يريده أن يقع على الأرض ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾[الكهف: من الآية٧٧] يريد أن ينقض هل الجدار له إرادة هكذا قال الله سبحانه وتعالي ألم يقل الله سبحانه ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء: من الآية٤٤] ألم يقل الله سبحانه وتعالي ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ﴾[الأنبياء: من الآية٧٩] .

فإذا كانت الجبال والجمادات والأحجار تسبح بحمد الله سبحانه وتعالي تسبيحا لا نفقهه فلها إدراك وعقل وتمييز وإرادة يليق بها ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾[الكهف: من الآية٧٧].

قال المفسرون كيف أقامه هل هدمه ثم بناه قالوا لا إنما أشار إليه بيده هكذا أن اثبت مكانك فثبت الجدار مكانه بعد أن أراد أن ينقض أشار إليه الخضر بيده هكذا أن مكانك فثبت مكانه وهذه معجزة للخضر ولا نقول كرامة لأننا اتفقنا على أن الخضر عليه السلام كان نبيا والمعجزات تختص بالأنبياء أما الكرامات فتختص بالأولياء كونه يرى جدار يريد أن يقع فيشير إليه أن اثبت مكانك فيسمع الجدار كلامه ويثبت مكانه هذه معجزة للخضر عليه السلام فلما رأى موسى عليه السلام الخضر أقام الجدار ولم يأخذ عليه أجرا عاتب عليه أن لم يأخذ عليه أجرا ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾[الكهف: من الآية٧٧] قوم استطعمناهم فلم يطعمونا ولم يكرمونا ولم يعطونا حق الضيافة وأنت تقيم الجدار الذي كان سيقع بلا أجرة ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾[الكهف: من الآية٧٧] .

فكانت هذه الثالثة التي اشترطها موسى على نفسه ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾[الكهف: من الآية٧٨] ، كما اشترط أنت على نفسك ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾ [الكهف:٧٨]

ما هو تأويل الخضر عليه السلام لهذه المشاهد التي لم يصبر عليها موسى عليه السلام وأنكرها على الخضر في الثلاث مرات قال أما السفينة التي خرقتها فقلت أنت أخرقتها لتغرق أهلها ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾[الكهف: من الآية٧٩] فكانت لمساكين ، المساكين جمع مسكين ﴿ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾[الكهف: من الآية٧٩] .

الله سبحانه وتعالي قال :﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾[التوبة: من الآية٦٠] وقال في كفارة اليمين :﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾[المائدة: من الآية٨٩] .

حين يحنث إنسان في يمينه ويأتي يسأل ما الحكم ويأتي يسأل ما الحكم نقول له أطعم عشرة مساكين يقول من أين أتي بعشرة مساكين لا أستطيع أن أجد ولا أعثر على عشرة مساكين لماذا يقول هذ لأنه لا يعرف من هو المسكين الذي جعل الله له حقا في الزكاة وجعل من كفارات اليمين أن يطعم عشرة مساكين من هو المسكين ؟

قال العلماء قوله تعالي ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾[التوبة: من الآية٦٠] الفقير هو المعدم الذي لا يملك شيئا والمسكين من له دخل لا يكفيه فالمسكين أحسن حالا من الفقير ، الفقير هو المعدم الذي لا يملك شيئا والمسكين من له دخل لا يكفيه إنسان يعمل في عمل ما راتبه مائة جنيه مائتا جنيه في الشهر وعنده ثلاثة أربعة من الولد ويسكن في شقة يدفع لها إيجارا وكهرباء ومياه ماذا تفعل له المئتا جنيه والثلاث مائة جنيه في هذا الزمان فهذا يسمى مسكينا لأنه له دخل ولكن لا يكفيه لنفقته ونفقة من تلزم نفقته فهو مسكين إن كانت له سفينة تعمل في البحر مسكين وإن كانت له سيارة يعمل بها أو يعمل عليها ليكسب عليها فالمسكين من له دخل لا يكفيه ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾[الكهف: من الآية٧٩] فالعمل في البحر لكسب الأرزاق جائز لجميع أنواع العمل سواء إن كان عن طريق صيد السمك أو الغوص في البحار أو كذا أو كذا العمل في البحر جائز ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾[الكهف: من الآية٧٩] .

أردت أن أحدث فيها عيبا لماذا ؟﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾[الكهف: من الآية٧٩] .

وكان وراءهم لو حملنا وراء على ظاهره لقلنا لما يخرقها هو يخشى أن الملك يستوي عليها وهم قد تجاوزوه لأنه كان وراءهم قال العلماء الوراء هنا التي تطلق على الشيء وضده فالوراء في ظاهره الخلف وقد يطلق الوراء ويراد به الأمام قال تعالي ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾١٥﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ ﴾[ابراهيم: من الآية١٦] .

هل جهنم وراء الكفرة أم أمامهم الآن تنتظرهم ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً﴾ (النبأ:٢١)

جهنم أمامهم تنتظرهم يلقونها يوم القيامة ويدخلونها مدحورين لكن الله قال ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ ﴾[ابراهيم: من الآية١٦] .

فأطلق الوراء وأراد به الأمام فهكذا قال الخضر عليه السلام وكان وراءهم يعني أمامهم ﴿ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾[الكهف: من الآية٧٩] .

حين تنظر في هذا العموم " يأخذ كل سفينة " تقول إذن لما أراد الخضر أن يعيبها لأن الملك سيأخذ كل سفينة معيبة كانت أو غير معيبة قال العلماء في الكلام حذف تقديره وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا أما إذا كانت معيبة فإنه لا يأخذها وهذا كما قال تعالي ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[الاسراء: من الآية٥٨].

قال العلماء في الآية وصف للقرية حذف للدلالة عليه وتقدير الكلام وإن من قرية ظالمة إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أم من أين أتينا ذاك التقدير من قولك على ذلك "لم يكن ربك مهلك القرى بإيه بظلم فقال تعالي ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا ﴾[الاسراء: من الآية٥٨] .

فقلنا تقدير الكلام وإن من قرية ظالمة إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة كذلك قول الخضر ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾[الكهف: من الآية٧٩] .

كل سفينة تمر عليه يغتصبها من أصحابها فإذن تقدير الكلام يأخذ كل سفينة صالحة غصبا فأراد الخضر أن يجعل في هذه السفينة الصالحة عيبا حتى إذا رآها الملك معيبة تركها لمساكين ولم يغتصبها منهم ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾٧٩﴿وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾٨٠﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾ [الكهف:٨١]

ذكرنا في الأدلة التي استشهدنا بها على نبوة الخضر أن مما يدل على نبوته هذا الخبر منه ﴿وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾ [الكهف:٨٠]

خشيت إذا كبر هذا الغلام وبلغ مبلغ الرجال وكفر بالله عز وجل أن يتسبب في فتنة أبويه وأن يجعلهما يرجعان ويرتدان عن دينهما من شدة تعلقهما بهما وهذا الغلام كان لم يبلغ الحلم بعد فقتله قبل أن يبلغ من للخضر أن هذا الغلام لو كبر لكفر بالله هذا وحي أوحاه الله تعالي إليه لأن الله تعالي قال ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً﴾٢٦﴿ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾[الجن: من الآية٢٧] .

قال مطرف رحمه الله: لقد فرحا بهذا الغلام حين ولد وحزنا عليه حين قتل ولو عاش لأرهقهما طغيانا وكفرا فليرضي كل امرئ بما قدر الله له فإن قضاء الله لعبده المؤمن فيما يكره خير له من قضاء الله له فيما يحب قال مطرف رحمه الله لقد فرحا به حين ولد هذه فطرة كلنا يفرح إذا ولد له ولد ولاسيما إذا كان ذكر لقد فرحا به حين ولد وحزنا عليه حين قتل ولو بلغ المبلغ الرجال لأرهقهما طغيانا وكفرا فليرضى كل امرئ بما قدر الله له فإن قضاء الله لعبده المؤمن فيما يكره خير له في قضائه في ما يحب يقول تعالي ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦]

ويقول النبي صلي الله عليه وسلم عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له فليوطن كل منا نفسه على الرضا بقضاء الله سبحانه وتعالي خيره وشره فإن ذلك هو أساس السعادة الرضا بالقضاء والقدر أساس السعادة وأساس راحة البال وراحة الضمير وهدوء الأعصاب وطمأنينة القلب وقرة العين فليوطن كل إنسان منا على الرضا بقضاء الله تبارك وتعالي دائما وأن يعلم أن الله لا يقضي لعبده المؤمن قضاء إلا وهو خيرا له فليجتهد في ذلك حتى يكون شعاره في هذه الحياة مل قاله ذلك الرجل الطيب :

يا رب ما مسني قدر بكره أو رضا إلا اهتدين به إليك طريقا

أمضي القضاء على الرضا مني به إني علمتك في البلاء رفيقا .

فكن أيها المؤمن على يقين من أن الله أبر بك من نفسك وأرحم بك من نفسك وألطف بك من نفسك وأعلم بمصلحتك من نفسك ففوض الأمر لله سبحانه وتعالي وتبرأ من حولك وقوتك واستعن بحول الله وقوته فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله .

﴿وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾٨٠﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾ [الكهف:٨١]

فإذا أخذ الله منك الولد فلتصبر ولتحتسب ولتسترجع وإذا وقبل أن تقول ولدي يجب أن تعلم أن الله قال عبدي

وأنا أحق به إذا ابتليت بموت ولد من أولادك فاصبر واحتسب واسترجع وقبل أن تقول ولدي اعلم أن الله قال عبدي وأنا أحق به في الصحيح أن بنتا من بنات النبي صلي الله عليه وسلم أرسلت إليه تقول يا أبتاه إن ابني قد احتضر فاشهدنا يا أبتاه ابني يموت فتعالي كن معنا في هذه الساعة إن ابني قد احتضر فاشهدنا فرد عليها مع من أرسلته يقول لها إن لله ما أخذ وله ما أعطي وكل شيء عنده بأجل مسمي فمرها فلتصبر ولتحتسب فإذا أصبت في نفسك فاصبر واحتسب وإذا أصبت في مالك فاصبر واحتسب وإذا أصبت في أهلك فأصبر واحتسب وإذا أصبت في ولدك فأصبر واحتسب واعلم أن قضاء الله لك خير من اختيارك لنفسك ، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: من الآية٢١٦] .

ثم قال له وأما الجدار الذي كان يريد أن ينقض فأقامته ولم أخذ عليه أجرة وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما كان هذا الجدار تحته كنز لغلامين يتيمين فلو وقع الجدار انكشف الكنز وأهل القرية إذا رأو الكنز لم يصبروا عليه فيهجمون عليه ويأخذونه فيضيع بذلك حق هؤلاء اليتامى ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً﴾[الكهف: من الآية٨٢] .

فقيضني الله تبارك وتعالي لهما بسبب صلاح أبيهما حتى أقيم الجدار لأحفظ لهما كنزهما حتى إذا بلغا أشدهما وبلغا مبلغ الرجال استخرجا كنزهما كان ذلك رحمة من ربك بهما بسبب صلاح أبيهما ففي هذا إشارة إلـي أن صلاح الآباء ينفع الأبناء في الدنيا وينفعهم في الآخرة صلاح الآباء ينفع الأبناء في الدنيا كما رأينا ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً﴾[الكهف: من الآية٨٢].

وصلاح الآباء ينفع الأبناء في الآخرة فإن الله تبارك وتعالي قال ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾[الطور: من الآية٢١].

قال الله تعالي ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾[الرعد: من الآية٢٣] .

فإذا دخل المسلمون الجنة وكان الأب في درجة أعلى من درجة الأبناء فهو أعلى وأبنائه أدني منه فهذا فيـه تفريق للشمل ومن تمام النعمة جمع الشمل أن يكون الأبناء مع أبيهم وأن تكون الأزواج مع أزواجهم فإذا كـان الأب في منزلة أعلى في الجنة والأبناء دونه فإن الله تبارك وتعالي يتفضل على الأبناء فيرفع منازلهم إلي منزلة الآباء وذلك بسبب صلاح الآباء ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ ﴾[الطور: من الآية٢١].

ولكن كانوا في درجة أدني من درجته في الجنة ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾[الطور: من الآية٢١] فصلاح الآباء ينفع الأبناء في الدنيا وفي الآخرة قال تعالي ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُـمَّ اسْـتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ﴾[فصلت: من الآية٣٠] .

عند الموت في هذه الساعة العصيبة الحرجة ساعة القلق والحزن والاضطراب والخوف ينظر يمينـا يـرى البنين يبكون وينظر شمالا يرى البنات يبكين وينظر تحت رجليه يرى الأزواج يصحن تتنزل عليهم الملائكة في هذه الساعة بهذه البشارة العظيمة ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾٣٠﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾٣١﴿نُـزُلاً مِـنْ غَفُـورٍ رَحِـيمٍ] (فصلت:٣٠- ٣٢)

يقول النبي صلي الله عليه وسلم احفظ الله يحفظك احفظ الله بأن تحفظ الأوامر بـالأداء والنـواهي بـالترك والاجتناب والحدود بالوقوف عندها وعدم تجاوزها وتعديها وإذا حفظت الله في ذلك حفظك الله في دينك فثبتـك بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة وحفظك الله في صحتك فمتعك بسمعك وبصرك وقوتك طول حياتـك وحفظك في ذريتك وأهلك بعد مماتك ولذلك كان بعض الصالحين يقول لابنه يا بني إني لأزيد في صلاتي رجاء أن يحفظني الله فيك يا بني إني لأزيد في صلاتي أصلي بالليل وأصلي بالنهار وأكثر من الأعمال الصالحة رجاء أن يحفظني الله فيك فصلاح الآباء ينفع الأبناء في الدنيا وفي الآخرة وهذا هو طريق التأمين على الحياة لمستقبل الأولاد هذا المستقبل الذي أزعج الآباء كثيرا كل أب قلق ومضطرب كيف يأمن مستقبل أولاده كيف يطمئن على أولاده بعد مماته التأمين على الحياة وتأمين المستقبل للأولاد ذكره الله تعالي في قوله ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُـوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ [النساء:٩]

فصلاح الآباء ينفع الأبناء في الدنيا والآخرة وكذلك العكس صلاح الأبناء ينفع الآباء أيضا في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فصلاح الولد هو سبب قرة عين أبيه فليس هناك شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى ابنـه صـالحا مستقيا تقيا على الجادة على صراط الله الذي رسمه له وفي الآخرة ينفع صلاح الأبناء آبائهم كما قال النبي صلي الله عليه وسلم (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعوا له) أو ولد صالح لم يقل أو ولد يدعوا له لأن الولد غير الصالح أصلا لن يذكر أباه بالدعاء الولد الفـاجر الفاسـق أصلا لن يذكر أباه بالدعاء وإذا دعا مع فسقه وفجوره لا يتقبل الله منه إنما يتقبل الله من المتقين فقال صـلي الله عليه وسلم (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعوا له) .

وفي الحديث أيضا أن النبي صلي الله عليه وسلم قال(إن الرجل لترفع درجاته في الجنة حين مات دخل درجة معينة حين دخل أدخل درجة من درجات الجنة فبينما هو بعد سنين إذا بالملائكة يقولون له هيا بنا ترتقي درجة أعلى ونرفعك في درجة أعلى من الجنة إن الرجل لترفع درجته في الجنة فيقول يا رب بما هذا هذا الرقي وهذا الارتفاع وهذه الترقية ما سببها وقد مت وانقطع عملي يا رب بما هذا فيقال باستغفار ولدك لك) فصلاح الآباء ينفع الأبناء في الدنيا والآخرة وكذلك صلاح الأبناء ينفع الآباء في الدنيا وفي الآخرة ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾(الكهف: من الآية٨٢) ثم قال الخضر ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾(الكهف: من الآية٨٢) كل هذا الذي رأيته مني وأنكرته علي ولم تصبر على رؤيته من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار بلا أجرة كل هذا ما فعلته عن أمري إنما كان عن أمر الله تبارك وتعالي وهذا أيضا من الأدلة التي استدللنا بها على نبوة الخضر عليه السلام ثم قال له ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾(الكهف: من الآية٨٢)انتبه وفرق في الألفاظ ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ ﴾[بتاء قبل الطاء] ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾(الكهف: من الآية٧٨) ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ ﴾(الكهف: من الآية٨٢) بالطاء بلا تاء قبلها ما الفرق بين اللفظين وما سر زيادة التاء قبل الطاء في اللفظة الأولي دون الثانية قال العلماء الجهل يكون ثقيلا على الإنسان فموسى عليه السلام لما رأى ما رأى وأنكره وهو لا يعلم حقيقته ولا يعرف السر ورائه كان ذلك ثقيلا على نفسه ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾(الكهف: من الآية٧٨) فلما أنبئه تعلم بعد أن كان جاهلا فزال الحمل عن نفسه وذهب الثقل الذي كان على عاتقه بسبب الجهل فقال ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾(الكهف: من الآية٧٨) كما قال الله تعالي بعد ذلك عن الجدار الذي بناه ذي القرنين ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ (الكهف:٩٧)

بلا تاء في اللفظة الأولي وبتاء في اللفظة الثانية ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾(الكهف: من الآية٩٧) يعني لم يستطيعوا أن يرتقوا فوق الجدار بسلم مثلا وينزل من الجهة الثانية ، وما استطاعوا أن ينقبوه ويخرجوا منه ومعلوم أن الارتقاء والعلو والارتفاع أسهل من النقب لأن النقب يحتاج إلي عمل وأما الرقي فيحتاج إلي سلم فقط ليوضع ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ (الكهف:٩٧)

قال النبي صلي الله عليه وسلم يرحم الله موسى لوددنا أن صبر مع الخضر حتى نرى من أمرهما عجبا لكن موسى لم يصبر فحرمنا من العجب الذي كان سيراه لو أنه صبر فنعود ونؤكد على ما ذكرناه أنه لابد لطالب العلم من الصبر .

أخي لن تنال العلم إلا بستة سأتيك منها مخبرا ببيان

ذكاء وحرص واصطبار وبلغة وصحبة أستاذ وطول زمان

نسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يرزقنا علما نافعا وعملا متقبلا ورزقا طيبا إنه ولي ذلك والقادر عليه هذا والحمد لله رب العالمين وصلي الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سؤال

ذكر المختصر الشيخ محمد الرفاعي رحمه الله أقولا في كيفية قتل الخضر للغلام فما رأيك يا شيخ أن أرجح الأقوال هي الذي قوله هو اقتلعه بيده لأن ورد في البخاري عن بقية الأقوال ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

كل ذلك جاء في روايات ونحن ضربنا صفحا عن ذكر كيفية القتل لأنها لا تنبني عليها كثير فائدة المهم أنه قتله اقتلع رأسه وضعه بين حجرين فضربه بهما أو غير ذلك كل ذلك صحيح ووارد ولكننا لم نتعرض في الشرح لأن الكيفية لا ينبني عليها كثير فائدة .

قوله عز وجل أيضا من المختصر يا شيخ الأسئلة الأربعة ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾ (الكهف:٨١)

قال المختصر أي ولدا أزكى من هذا وهما أرحم به منه لماذا لم يقل أيضا أي ولد يكون راحما بوالده لماذا جعل الولد أزكي أهم أرحم به

سؤال : لماذا لم يكن كل التفسير على الولد ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

الذي قتل ، لا يقال هذا لماذا لم يكن هذا قدر الله وما شاء فعل ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الانبياء:٢٣) .

سؤال : هنا يا شيخ يقول المفسر "ما فعلته عن أمري " لكني ليس به وقفت عليه هل المراد وقفت عليه أم المراد وفقت إليه .

وما فعلته عن أمري ولكن هذا الذي أطلعني الله عليه ووفقني إليه ووفقت إليه يعني أطلعني الله عليه ووفقت إليه .

يقول إنما الخضر كما جاء في البخاري لأنه جلس على فروة فإذا هي تحتج للخضراء بل المراد يا شيخ أنه جلس مرة واحدة على الخضراء تهتز من الخضراء ولماذا قال للخضراء وأنا سمعتك يا شيخ تقول أنه كلما جلس على هشيم أو هكذا أنه يتحول إلي خضار هذا هو دائما أم هو جلس مرة واحدة فإذا هي تهتز من خضراء وإيه معني قول من خضراء ؟

الله أعلم هل كان كلما تكرر منه ذلك أم تكرر مرة واحدة إنما العلة في تسمية الخضر أنه جلس فاهتزت تحته خضراء ، هل هكذا كلن دائما كلما جلس أم هذه مرة واحدة فأطلق عليه اللقب هذا لقب الخضر الله تعالي أعلم .

سؤال: بالنسبة لأدب طالب العلم مه أستاذه يعني أنا معلمتي نحسبها على خير في تعليمي تقريبا كل شيء بس أنا في المعاملة الطبيعية ما بيننا بتقع في غيبة دائما فامش عرفة إيه الصح يعني المفروض أن أخذ من علمها وده

أسيبه يعني الغيبة اللي هي بتعملها ماليش دعوة بيها وأتفرغ للعلم منها بس ده اللي أخذه منها وبالنسبة بـــرده إن ساعات الواحد يجد شيوخ نحسبهم على خير و(كلمة غير مفهومة) حياتهم العادية حاجات مش كويسة يعني ؟

تطرح عليها سؤلا بحسن عرض في حسن أدب يا أستاذتي يا معلمتي أنا أبتلي بمجالس نساء تكون فيها الغيبة كثيرا يذكرن الغائبات بما يكرهن كثيرا فماذا أفعل أنا مع هذه النسوة التي أبتلي بالجلوس معهن واللبيب بالإشارة يفهم فلعل في هذا السؤال يكون فيه تذكرة لهذه المعلمة أن تقلع عن هذه العادة السيئة وهي عادة غيبة (كلمة غير مفهومة) الناس .

سؤال : بالنسبة للغلام اللي قتله الخضر عايزة أعرف أن السبب بس أن ممكن يموت طفل للواحد إنه ممكـــن يكون سبب للأذى ليه ولا هو ممكن يكون ابتلاء أنا ربنا رزقني بأربع أطفال وبيموتو في وقت معـــين يـــاترى ممكن يكون بسبب حقيقي سبب لكفر لينا أو أذى لينا ولا هو بس السبب دة ممكن يكون ابتلاء ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

لاشك أن موت الأولاد مصيبة ولكنها مصيبة عظيمة الأجر فقد صح في الحديث عن النبي صـــلي الله عليـــه وسلم (أنه ما من مسلم يموت له ثلاثا من الولد لم يبلغوا الحلم إلا شفعوا فيه يوم القيامة) وفي الحديث أنـــه إذا مات ولد العبد المؤمن قال الله تعالي لملائكته أقبضتوا روح ولد عبدي يقولوا نعم يقول ماذا قال عبدي يقولـــون حمدك واسترجع فيقول الله تعالي يا ملائكتي ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد ، فالصبر على مـــوت الأولاد أجره عظيما جدا بإذن الله عز وجل والله سبحانه وتعالي أعلم بهم وبما كانوا عاملين كما قال النبي صلي الله عليه وسلم والنبي صلي الله عليه وسلم يقول لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وأهله ومالـــه وولـــده حتى يلقى الله وما عليه خطيئة .

سؤال :

إذا كان الأب غير صالح فهل يضر الولد ، وهل يعاقبه ربنا في ولده إن كان الولد صالح ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

انتفاع الآباء بصلاح الأبناء والعكس هذا فضل الله سبحانه وتعـــالي والعـــدل أنـــه ﴿ وَلا تَـــزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾(الأنعام: من الآية١٦٤) ولذلك دفع لهذا الظن لما قال تعالي ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾(الطور: من الآية٢١)لما ذكر الفضل دفع الظن الذي قد يقع كمـــا سأل أخونا ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾(الطور: من الآية٢١) بما كسب من السيئات ، ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾(الطور: من الآية٢١) فلا يحمل الأب وزر ابنه ولا يحمل الابن ورز أبيه ولكن من فـــضل الله تبـــارك وتعالي أن صلاح الآباء ينفع الأبناء وصلاح الأبناء ينفع الآباء .

سؤال :

ما معني قوله تعالي ﴿ لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا ﴾(البقرة: من الآية١٠٤)؟

أجاب فضيلة الشيخ :

يقول تعالي في سورة البقرة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾(البقرة: من الآية١٠٤) راعنا بمعني أمهلنا انتظرنا فكانوا الصحابة رضي الله عليهم يقول راهنا بمعني أمهلنا وانتظرنا واصبر علينا وكانت اليهود الذين كانوا موجودين في المدينة يستعملون هذه الكلمة مع النبي عليه الصلاة والسلام ويريدون بها معني سيئا يؤذون به النبي صلي الله عليه وسلم فنهى الله تعالي المؤمنين عن التشبه باليهود حتى في الكلام فقال لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا ما دمت تريدون بقولكم راعنا انظرنا فاتركوا راعنا سدا للذرائع حتى تغلقوا هذا الباب على اليهود الذي دخلوا منه على أذية الرسول وقولوا أنظرنا .

سؤال :

بما أنك تحدثت في بداية الدرس عن أدب الطالب مع العالم نريد نصيحة لبعض الشباب الذي لا يحترم العلماء وينقص من شأنهم ولا يأخذ بفتواهم التي فيها مصلحة عامة للأمة ويأخذ ما يوافق هواه مثلا إذا كان في أمر الجهاد إذا تكلم العالم بفتوى لا توافق هواه أو لا توافق هوي بعض الشباب لا يأخذها إلا إذا وافق هواه ، جزاكم الله خيرا ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

نحن نؤكد دائما في دروسنا على الأدب وتقريبا تكررت نصيحتنا بأن يرى رسائل ثلاث في الأدب مرات ومرات وذلك أن الأدب شأنه عظيم اهتم به العلماء قديما وحديثا فكل من جمع حديث النبي صلي الله عليه وسلم سن كتابا في هذه السنن كتاب الأدب كما أن هناك كتاب الطهارة وكتاب الصلاة وكتاب الإيمان هناك كتاب الأدب والإمام البخاري رحمه الله من شدة حرصه على الأدب أفرض للأدب كتابا مستقلا فسماه كتاب الأدب المفرد وذلك من شدة حرصه رحمه الله على الأدب فنحن نصح الشباب بأن يتأدبوا تعلموا العلم وتعلموا للعلم الأدب لا يزال الشباب بخير ما التزموا بالمشايخ وما رجعوا إلي المشايخ وما رجعوا إلي كبار علمائنا فإذا ظن الشباب أنهم قد استغنوا عن مشايخهم فقد هلكوا والله ما ابتلي الشباب بشر إلا بشر بعدهم عن علمائهم واعتزالهم إياهم وزهدهم فيهم واتهامهم بأنهم لا يفقهون الواقع ولا يعلمون كذا ولا كذا ولا كذا هذا من سوء الظن بالعلماء وهذا من سوء الأدب فنسأل الله سبحانه وتعالي أن يصلحنا وشبابنا وأن يرزقنا وإياهم الأدب والعلم النافع .

سؤال :

لقد جاء في بعض التفاسير أن الغلام الذي قتله الخضر كان شابا وقد يطلق العرب لفظة غلام على من بلغ بدليل أن سيدنا موسى قال للخضر أقتلت نفسا بغير نفس فإن كان الغلام لم يبلغ لم يجب قتله بنفس وأيضا بدليل قراءة أبي وبن عباس وأما الغلام كان كافرا وكان أبواه مؤمنين والكفر والإيمان من صفات المكلفين ولا يطلق على غير مكلف إلا بحكم التبعية لأبويه وأبوا الغلام كانا مؤمنين بالنص فلا يصدق عليه اسم الكافر إلا بعد البلوغ وأما الغلامان صاحبا الجدار فكانا تحت سن البلوغ لوصفهما باليتم أرجو من فضيلتكم التوضيح وجزاكم الله خيرا ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

الحافظ بن حجر رحمه الله أجاب عن هذا حين قرأنا شرح الحديث في فتح الباري وقال أنه كان غلاما لم يبلغ الحلم وذكر مسألة هنا التكليف يكون قبل الكلم قال لعل هذا شريعة من كانوا قبلنا وليس بشريعتنا في شريعتنا رفع القلم عن الصبي حتى يحتلم فالراجح أنه كان غلاما أي صبيا لم يبلغ الحلم بعد وخشي إذا هو بلغ أن يرهقهما طغيانا وكفرا فهذا ما رجحه الحافظ وهذا ما أجاب به كما قرأناه في الدرس السابق .

سؤال :

هل نستفيد من ذلك عدم التسرع في إنكار المنكر ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

لا ليس في هذا أي دليل على أن يسكت الإنسان عما يراه من منكر بل من رأى منك منكرا فليغيره وليس لأحد في هذا الزمان أن يفعل ما ظاهره المنكر وما ظاهره الباطل ثم يقول لا تنكروا علي كما لم يمكر موسى على الخضر أنا أفعل أشياء ظاهرها شيء وباطنها شيء ليس هناك ظاهر وباطن في هذا الزمان ما فعله الخضر صرح بأنه وما فعلته عن أمري كان ظاهره مخالفا للشريعة ولذلك أنكره موسى عليه السلام لكن في الباطن والحقيقة كان الخضر متأولا في أفعال هذه بوحي الله تبارك وتعالي إليه فليس لأحد هذا الزمان أن يقتل أو أن يخرق سفينة أو أن يعيب صالحا أو أن يفسد صالحا ثم يقول لا تنكروا علي أنا عندي علم ليس عندكم هذا العلم الذي ليس عندنا إنما هو خاص بالأنبياء ولا نبي بعد محمد صلي الله عليه وسلم إذن قوله عليه الصلاة والسلام (من رأي منكم منكرا هذا عام ، من رأي منكم منكرا فليغيره) ولكن نقول كما وجه النبي عليه الصلاة والسلام فليغيره بيده وهذا في محل الولاية والسلطة فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان وقد قال بعض السلف وقد سمع بحديث الحمد لله الذي جعل في الأرض سعة إن عجزت حتى عن تغير المنكر باللسان فأنكره بقلبك وأنت تبرأ بذلك ما دام الله يعلم أنك غير قادر على إنكاره باللسان .

سؤال :

هل عند كتابة آيات القرآن للاستشهاد لابد أن تكتب كما هي في المصحف بنفس الحروف أم تكتب حسب النطق وجزاكم الله خيرا ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

كلما اجتهد الطالب في حفظ القرآن برسمه رسم المصحف العثماني كان خيرا له ولكن إذا لم يحفظ الرسم وفي الامتحان كتب كما ينطق فلا حرج عليه إن شاء الله تعالي .

سؤال :

أنا طالبة علم وبأمس الحاجة لنصيحتكم أنا غير صبورة على طلب العلم ما هي الوسائل المعينة على ذلك ثم كيف أجاهد النية فينفل هذا الأمر أرجوك يا شيخنا دلني على الطريقة المثلي ل تهملوا رسالتي فالأمر جد خطير ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

أسأل الله أن يرزقنا وإياها حسن الخلق وحسن الأدب وأن يرزقها مزيدا من الصبر قال النبي صلي الله عليه وسلم (ومن يتصبر يصبره الله) فالذي لا يجد في نفسه صبرا على طلب العلم ولا صبرا على البلاء ولا صبرا على الطاعة ولا صبرا على المعصية عليه أن يتصبر ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾(الأعراف: من الآية١٢٦)والنبي يقول (ومن يتصبر يصبره الله) فعلينا أن نلح على الله تعالي بالدعاء وأن نمارس أنفسنا ونجاهدها ونراوضها على الصبر على المشاق كلها كما قال النبي صلي الله عليه وسلم (إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم) فعلى الإنسان أن يتفقد جميل الأخلاق ومحاسن الآداب فما يفقده من نفسه فعليه أن يستجلبه بالمراودة والمجاهدة والله تبارك وتعالي يقول ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت:٦٩) .

سؤال :

بينت لنا آداب الطالب مع العالم فهل تذكر لنا صفات العالم لأنه قد ظهر على الساحة كثيرا من الناس يدعون العلم ويفتون بما لم ينزل به سلطانا ولا حول ولا قوة إلا بالله ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

العالم الذي نؤكد على احترامه وتوقيره وإتباعه هو كما ذكر السلف العالم الرباني ولا يكون العالم ربانيا إلا إذا تعلم العلم وعمل به في نفسه وعلمه غيره فمن تعلم وعمل وعلم فذلك يدعى في ملكوت السماوات عظيما فهذا هو العالم الرباني الذي يجب علينا أن نحترمه أن نجله واحترامه هذا من الإسلام وتبرا النبي عليه الصلاة والسلام من الذين لا يحترمون العلماء كما ذكرنا .

سؤال :

أين كان أصحاب السفينة حين خرقها الخضر وهل رأوه ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

نعم كانوا في السفينة القادة يسألون عن سفينة ورأوه ولكنهم صبروا عليه ثم حمدوه وشكروه بعد ما العلة وهي ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾(الكهف: من الآية٧٩) .

سؤال :

هل يجوز أن أقطع وعدا وأقدم المشيئة وأنا أنوي عكس ما وعدت به وجزاكم الله خيرا ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

لا هذا لا يجوز الكذب المتعمد مع سبق الإصرار أن تقول سآتيك وأنت تنوي ألا تأتيني هذا كذب لا يجوز أن يتصف به المسلم حتى لو قال إن شاء الله لبد أن ينوي الفعل ويعزم عليه ويرد ذلك إلي مشيئة الله فإن كان صادقا عازما على الوفاء وصادقا في عزمه ثم لم يستطع الوفاء يغتفر له أنه لم يأتي لكن أن يعد وفي نيته ابتداء إلا يفي هذا لا يجوز أن يتصف به المسلم .

سؤال :

هل يجوز وضع المصاحف وكتب العلم أثناء التدارس على الأرض في المسجد إذ ليس هناك ما نرفعه عليه ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

لا مانع أثناء المدارسة ونحن في حلقة قرآن في المسجد نقرأ القرآن ونتعلم ونتدارس والمصحف في يدي أرهقت يدي من حمل المصحف لا مانع إذ لم يكن عندي حامل أن أضعه على الأرض أمامي أثناء القراءة واثناء النظر والمتابعة أو كتاب تفسير أو كتاب حديث أو ذلك فإذا انتهت الحلقة انتهينا حملنا مصاحفنا وكتبنا ورفعناها إلي أماكنها اللائقة بها .

سؤال :

هل تجب كفارة مع قوله إن شاء الله ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

لا من بركة إن شاء الله أنه إذا قال والله لأفعلن إن شاء الله ثم لم يفعل من بركة إن شاء الله أنها ترفع عنه كفارة .

سؤال :

في قول الله تعالي ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾الكهف: من الآية٧٧ في لفظة يريد ألا تحمل هذه اللفظة على أنها كناية على أن الجدار كاد أو أوشك أن ينقض وهل قول الله تعالي ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ (الإسراء: من الآية٤٤)يستلزم منا أن نثبت تلك للجمادات الإرادة فمعني لو أثبتنا للجمادات الإرادة معني ذلك أن نثبت لها مثلا الحب والخضوع والإقبال وغيرها من الصفات ولو أثبتا لها هذه الصفات لزم أن نثبت لها العقل ولو أثبتنا لها العقل لزم أن تحاسب كما يحاسب الأحياء ممن وهبه الله العقل نرجوا التوضيح وجزاكم الله خيرا ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

هذا الأخير بارك الله فيك لكن صفة الحب أثبتها النبي صلي الله عليه وسلم ألم تسمع أن النبي قال أحد جبل يحبنا ونحبه ألم تسمع بهذا الجبل يحب يحبنا ونحجبه فله إرادة وله عقل وله إدراك كما يليق به .

سؤال :

لماذا لم يصبر موسى عليه السلام رغم أنه وعد الخضر بذلك ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

لأنه رأى ما لا يطيق الصبر عليه فنفذ صبره .

سؤال :

هل التقدير الذي في الآية يأخذ كل سفينة غصبا هل هذا ما نسميه الحذف بالإيجاز أكرمكم الله ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

لا أدرى السؤال ولا أدري الجواب والله أعلم .

سؤال :

قلت يا شيخ أن المعجزة تخص الأنبياء وأن الكرامات تخص الأولياء هناك يا شيخ رسائل تأتي في الجوال تقول أن رجلا رأي النبي صلي الله عليه وسلم في المنام فقال له اقرأ أمتي مني السلام ثم يقول أرسلها لعشرة أشخاص فمن يفعل ذلك يجد أمرا يسره ومن لم يفعل يجد أمرا يحزنه فهل هذا صحيح يا شيخ ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

للأسف أن عامة المسلمين عاطفيين ، ما وراء العواطف في عقيدتهم وفي دينهم هذه الرسائل في الجوال هذه الأيام أشبه ما تكون برسالة الشيخ أحمد خادم الحجرة النبوية اللي هي تقريبا في من كل موسم ما يسمونه ، هذه البدعة وراء الرسول وقال له الرسول عليه الصلاة والسلام إذا قال أحد أن الرسول أتاه ونصحه بخير في المنام وأمره أن يبلغه الناس هذا في الحقيقة يتهم النبي بالكتمان كون النبي مات ولم يبلغنا هذا الخير في حياته مات ولم يبلغ وهذه مصيبة أن يتهم النبي بالكتمان ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَه﴾ (المائدة: من الآية٦٧) ما مات عليه ، عليه الصلاة والسلام إلا بعد أن بلغ دينه كما أوحاه الله تعالي إليه بلا زيادة ولا نقصان فإذا يجيء جاء ويقول رأيت في المنام أتاني الرسول في المنام فقال أخبر الأمة أن يفعلوا كذا حتى يصله الخير ولا يفعل كذا حتى لا يصله الشر هذا كذب وهراء لا يجوز للمسلمين أن يجروا وراء نشر هذه الغوائيات والكذب والدجل .

سؤال :

المسكين هو من ليس له دخل يكفيه فما ضابط الكفاية وهل تشمل الضروريات فقط أم يدخل فيها الحاجيـات والتحسينات ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

أقلها الضروريات لأن الضرورة ما إذا فقد أصاب الناس حرجا ومشقة في حياتهم وأما الكماليات والتحسينيات فلا يصيب الناس بفقدها حرجا ومشقة وإن كان يجدون بعض الحرج لكن لا يصيبهم حرج ومشقة كما يـصيبهم إذا فقدوا الضرورة فهو ما لا يجد ما لا يكفيه لضرورياته .

سؤال :

علمنا أن الخضر عليه السلام نبيا فلمن أرسل الخبر ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

لم يسمى الله تبارك وتعالي قوم الخضر ولم يذكر عنه أي شيء في كتابه إلا في هذا الموضع فقط والله تبارك وتعالي قال ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾(النساء: من الآية١٦٤) .

سؤال :

هل كان الفتي مع موسى عليه السلام حين صحب الخضر عليهما السلام ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

سكت الله تبارك وتعالي عن ذكر الفتي بعد أن صحب موسى الخضر ولكنه في الغالب كان معهما لمـا أيـن يتركه موسى .

سؤال :

في زماننا هذا نجد الكثير من الناس قد علت منازلهم أطواق استقبال الفضائيات ولديهم التلفاز والهاتف وكثير من الأمور غير الأساسية للحياة بل ومنها المحرم فيكون دخلهم لا يكفي هل نعتبرهم مساكين ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

هذا مما عمت به البلوى للأسف نسأل الله السلامة والعافية يغني تجد الرجل لا يجد ما يأكله ومع ذلك يؤثر أن يشتري مثل هذه الأشياء فأما مما عمت به البلوى فنقول صاحب الأموال صاحب الزكاة صاحب الـصدقة يبـدأ بتحري الصالحين من عباد الله الذين يستعينون بمال الله على طاعة الله قم إذا بقي عندهم مال فائض عن حالـة

الصالحين فاليبدأ بالذين يلونهم ثم الذين يلونهم أما لو قلنا إذا من كان عنده تلفاز لا يعطى من الزكاة إذن لن تجد من يقبل زكاتك ويريد الفقير الذي يقبل الزكاة في الأصل رحمة بالغني أن يكون هناك فقير يقبل الزكاة ولـــذلك حثنا النبي صلي الله عليه وسلم على المبادرة بالصدقة قبل أن يأتي يوم بصدقته فلا يجد من يقبلها .

سؤال :

لماذا كان الخضر هو السبب الذي أرسله الله لكي يقبض أجل الولد ، ولماذا لم يجعل سبب موته بعيـــدا عـــن الخضر مثلا أن يغرق ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

نقول يا أخوان أذكروا دائما قال الله عن نفسه ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الانبياء:٢٣)

فالقضاء والقدر هذا لا يسأل عنه لماذا لم يكن كذا ولماذا لم يكن كذا ولماذا كان هذه محل هذا فهذا لا يـــسأل ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الانبياء:٢٣)

سؤال :

إرادة الجدار هل تدل على وجود المجاز في القرآن وما الأحكام المترتبة على ذلك؟

أجاب فضيلة الشيخ :

لا نحن فسرنا الإرادة على ظاهرها حتى نهرب من المجاز ومن أراد أن يقف على هذه الحقيقة فليراجع تفسير أضواء البيان للشيخ الشنقيطي رحمة الله عليه فله كلام طيب جدا في مسألة المجاز هذه فنحن فسرنا الإرادة على حقيقتها حتى نهرب من القول ووجود المجاز في القرآن الكريم ؟

سؤال :

هل من الممكن أن نتصدق على الكفار مع أنهم من الممكن أن يشتروا المحرمات أو ربما الأفـــضل شـــراء الطعام أو أشياء لهم أليس كذلك جزاكم الله خيرا ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

قال النبي صلي الله عليه وسلم تصدقوا على أهل الكتاب وهذا من سماحة الإسلام ويسر الإســـلام أن النبـــي صلي الله عليه وسلم أمر المسلمين أن يتصدقوا على غير المسلمين تصدقوا أهل الكتاب والمراد بالصدقة هنا هي صدقة التطوع وليس بالزكاة فإن النبي صلي الله عليه وسلم قال في الزكاة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقـــرائهم

لكن قوله عليه الصلاة والسلام تصدقوا على أهل الكتاب المراد صدقة تطوع فإذا رأيت كتابيا بحاجة وخشيت إذا أعطيته مالا أن يسيء استعماله فاشترى له ما تراه بحاجة إليه من الطعام والكسوة وغير ذلك لا حرج في ذلك .

سؤال :

هل كل مولود يولد على الفطرة ولم يبلغ الحلم يدخل الجنة فإذا كان الجواب بنعم فهل هذا الغلام الـذي قتلـه الخضر عليه السلام من هؤلاء ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

سئل النبي صلي الله عليه وسلم عن أطفال المشركين الذين يموتون قبل أن يبلغوا الحلم في الجنة أم في النار قال الله أعلم بما كانوا عاملين فهذا الحديث يشمل هذا الغلام الذي قتله الخضر الله أعلم بما كانوا عاملين ؟

سؤال :

كيف نوفق بين حديث الجساسة والذي رواه مسلم والذي تحدث عن قصة (كلمة غير مفهومة) عـن المـسيح الدجال في تلك الجزيرة مع الجساسة والذي من نص الحديث إني مخبركم عني إني أنا المسيح وإني أوشـك أن يؤذن لي في الخروج فأخرج فأسير في القرية إلي آخر الحديث وبين الحديث الذي استدللنا عليه بأن الخـضر لا يمكن أن يكون حيا لأن الجيل هذا لن يكون حيا يبعد مائة سنة وجزاكم الله خيرا ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

قلنا أن قوله صلي الله عليه وسلم أرأيتكم ليلتكم هذه فإن على رأسي مائة سنة لا يبقي ممن هو على ظهر أحد هذا لفظ عام ، أن يخصص إلا بمخصص صحيح فحديث تميم الداري في قصة الجثاثة حديث صحيح فخص هذا العام خرج الدجال من هذا العموم لهذا النص الصريح وأما الخضر فليس هناك نص صحيح صريح فـي بقائـه فلذلك أدخلناه في عموم الحديث ؟

سؤال :

بالنسبة لقصة الجدار ألا يتبين لنا أن الله لطيف باليتيمين هنا نرى الصفة بأعيننا ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

جزاه الله خيرا ونرجوا أن نستفيد جميعا وألا نقلق على مستقبل أبنائنا كما شرحنا ولنتق الله ولنتركهم لله بعـد مماتنا كما تولاهم في حياتنا .

وصلى اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم صلِ وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم مرحباً بكم في هذا اللقاء الجديد من دروس تفسير سورة الكهف.

ومع القصة الثالثة التي قصها الله – تبارك وتعالى – علينا في هذه السورة وهي قصة ذي القرنين، وقد تضمنت الآيات المباركات من المعاني ما يلي :

أولاً : من السائلون عن ذي القرنين؟

ثانياً : هدي القرآن في القصص التركيز على مواطن العبر ؟

ثالثاً : من هو ذو القرنين ؟

رابعاً : هل كان ذو القرنين نبياً أم عبداً صالحاً ؟

خامساً : فضل الله على ذي القرنين .

سادساً : الحث على علو الهمة .

سابعاً : الرحلة الأولى لذي القرنين .

ثامناً : الرحلة الثانية .

تاسعاً : الرحلة الثالثة .

وأخيراً : من علامات الساعة خروج يأجوج ومأجوج .

وهذا بإيجاز عرض سريع لأهم ما تضمنته الآيات المباركات التي معنا اليوم من سورة الكهف من المعاني فلنستمع إلى هذه الآيات المباركات أولاً قبل الخوض في تفاصيلها، سائلين الله – عزّ وجلّ – أن ينجز لنا ما وعدنا، حيث قال: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[الأعراف: ٢٠٤]

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ

عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ ﴾[الكهف: ٦٠-٧٠].

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[ص: ٢٩].

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١].

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣].

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾ من السائلون الذين سألوا النبي – صلى الله عليه وسلم – عن ذي القرنين ؟

يحتمل أن يكونوا كفار قريش، ويحتمل أن يكونوا اليهود، ويحتمل أن يكون كفار قريش أوعزوا إلى اليهود أن يسألوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، والعكس كذلك محتمل أن يكون اليهود هم الذين أرسلوا إلى كفار قريش فقالوا لهم سلوه عن ملكٍ مَلَكَ البلاد . عن ذي القرنين .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾ يسألونك عن حاله، وخبره ،وأمره، لا يسألونك عن اسمه ونسبه وحسبه وهيئته إنما يسألونك عن حاله وشأنه وخبره وأمره ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾ قل لهم يا نبينا وهذا هو التقدير الواجب عند تقدير المحذوف الذي خوطب بالخطاب مِن الخطأ أن تقول قل يا محمد لأن الله – سبحانه وتعالى – لم يخاطب نبيه – صلى الله عليه وسلم – باسمه المجرد أبداً فمن الخطأ أن تقول قل يا محمد بل تقول قل يا نبينا، بل تقول قل يا نبينا قل لهم يا رسولنا، قل: سأتلوا، أي: سأقرأ عليكم منه أي: من خبر ذي القرنين ذكراً أي قرآناً، لن أجيبكم بشيء من عندي وإنما سأتلوا عليكم منه ذكراً أي قرآناً أنزله الله عليّ وأوحاه إليّ .

فإذا كان الجواب من الله – سبحانه وتعالى – فلا شك أنه أحسن الجواب وإذا كان القول من الله – سبحانه وتعالى – فلا شك أنه أصدق القول وقد استفتح الله – تبارك وتعالى – القصة الأولى في السورة الكريمة قصة أصحاب الكهف بقوله ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ [الكهف:١٣].

فحين يقول الله تعالى لنبيه – صلى الله عليه وسلم – ﴿ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ ﴾ أي سأنبأكم عن أخباره بالقرآن الذي أوحاه الله تعالى إلي فهو خبر صدق لا يقبل التكذيب ولا يقبل الشك أبداً، ﴿ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ ﴾ .

ودائماً نقول:إن من هدي القرآن الكريم في القصص أنه لا يعنى بالأزمنة ولا بالأمكنة ولا بأسماء الأشخاص كما لا يعنى بالأحداث والوقائع، ولا يتتبعها تتبعاً، فالقرآن ليس كتاب تاريخ وإنما القرآن يقص علينا من القصص ما فيه الذكرى والعبرة والعظة .

ولذلك قال ﴿ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣ ﴾ ﴾ فإن ذكر الأزمنة والأمكنة وأسماء الأشخاص لا يترتب عليه كثير فائدة والقرآن يريد بما يقصه على الناس من أحسن القصص أن يأخذوا من هذا القصص الدروس والعبر والعظات والفوائد ولذلك قال الله – تبارك وتعالى – في خاتمة سورة يوسف التي سماها أحسن القصص ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[يوسف:١١١].

﴿ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣ ﴾ ﴾ إذاً من هو ذو القرنين ما اسمه؟ ما نسبه؟ ما حسبه؟ ما الزمان الذي عاش فيه؟ أين عاش على وجه الأرض ؟

كل هذه الأشياء سكت عنها ربنا – سبحانه وتعالى – ولم يخبر بها نبيه – صلى الله عليه وسلم – لقلة الفائدة المترتبة عليها فلماذا لقب بذي القرنين ؟

أيضاً ذكر المفسرون في ذلك أقوالاً كثيرة وكثرتها تدل على اضطرابها لعدم وجود دليل صحيح يثبت ما سر هذا اللقب لذي القرنين.

هل كان ذو القرنين نبياً أم كان عبداً صالحاً ؟

ذهب البعض إلى أن ذا القرنين كان نبياً ومما استدلوا به على نبوته قول الله – تبارك وتعالى – ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾[الكهف:٨٤].

قالوا والتمكين يكون للدين ويكون في الدنيا. وأجلُّ نعم الله – سبحانه وتعالى – الدينية هي النبوة فقوله تعالى ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ يدل على نبوته وكذلك استدلوا على نبوته بقول الله – تبارك وتعالى – ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴾[الكهف:٨٦] قالوا: الله – سبحانه وتعالى – كلمه قال ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ ﴾ فهذا الكلام من الله له يدل على نبوته.

والحقيقة أن هذه الأقوال ليست في القوة كالأدلة التي استدللنا بها على نبوة الخضر – – عليه السلام – .

أما الدليل الأول: وهو التمكين في الأرض، فالتمكين في الأرض لا يكون للأنبياء وحدهم بل يكون للأنبياء وأتباعهم من عباد الله المؤمنين الصالحين ولذلك قال الله تعالى ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ﴾[النور:٥٥].

فالتمكين في الدين لا يكون للأنبياء وحدهم وإنما يكون للأنبياء وأتباعهم المؤمنين عباد الله الصالحين، فلا يصلح هذا الدليل للإستدلال به على نبوة ذي القرنين.

وأما الدليل الثاني: وهو قول الله – تبارك وتعالى – له ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ ﴾ فإن هذا القول لا يستلزم أن يكون الكلام مخاطبةً من الله – تعالى – لذي القرنين وإنما يحتمل أن يكون هذا القول من الله لذي القرنين عن طريق نبي ذلك الزمان الذي كان يعيش فيه ذو القرنين، كما قال الله – تبارك وتعالى – عن بني إسرائيل: ﴿ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ ﴾[النساء:١٥٤].

ولم يقل أحد: إن هذا القول من الله – تبارك وتعالى – لبني إسرائيل كان مواجهة من الله لهم، وإنما هذا القول قاله الله – تبارك وتعالى – لبني إسرائيل عن طريق موسى– كليمه ورسوله – عليه الصلاة والسلام – .

ثم إن أعلى ما يمكن أن يقال في قوله تعالى ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ ﴾ إن لم يكن بواسطة نبي ذلك الزمان، فإنه يكون بواسطة الإلهام، ألهمه الله – تبارك وتعالى – هذا القول . والإلهام لا ينتهض أن يكون دليلاً لمن ألهم هذا القول؛ فإن الله – سبحانه وتعالى – سمى الإلهام الذي ألهمه أم موسى وحياً ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي ﴾ [القصص:٧].

فهذا الوحي لم يكن وحي نبوة وإنما كان وحي إلهام ومع ذلك لم يقل أحد من الناس إن أم موسى كانت نبية .

فالراجح من أقوال المفسرين: أن ذا القرنين لم يكن نبياً ولكن كان ملكاً صالحاً من أولياء الله الصالحين .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ وأتيناه من كل شيء يحتاجه لتوطيد ملكه وتثبيت مملكته آتيناه من كل شيء يحتاجه في المملكه سبباً يتبعه لتثبيت ملكه وتثبيت عرشه .

وذلك كما قال الهدهد لسليمان – عليه السلام – عن بلقيس ﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[النمل:٢٣].

أوتيت من كل شيء يحتاجه الملوك لتثبيت مملكتهم وتثبيت عرشهم .

فالله – سبحانه وتعالى – تفضل على ذي القرنين بالتمكين في الأرض وبإعطاءه من كل شيء يحتاج إليه لذلك سبباً ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ مع أن ذي القرنين كان ملكاً إلا أنه لم يُقصر في الأخذ بالأسباب وإنما اغتنم الأسباب التي هيأها الله – تبارك وتعالى – وأخذ بها وتوكل على الله – سبحانه وتعالى – فالأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله – عزّ وجلّ – ولا يجوز لأحد أن يترك الأخذ بالأسباب المشروعة ويزعم أنه متوكل على الله – تبارك وتعالى – فإن سيد الأنبياء محمداً – صلى الله عليه وسلم – كان سيد المتوكلين ومع ذلك كان يعد لكل شيء عدته، ويأخذ لكل شيء سببه الذي جعله الله – تبارك وتعالى – سبباً له .

فالأخذ بالأسباب واجب واغتنام الفرص المتاحة أيضاً واجب، فإن ذا القرنين لما هيأ الله – تبارك وتعالى – له الأسباب أخذ بها حتى بلغ ما بلغ من الرفعة والتمكين في الأرض . فأنت أيها الإنسان إذا تهيأت لك أسباب الأشياء النافعة الصالحة فلا تضيعها واغتنم هذه الفرص وخذ بهذه الأسباب، فإن ترك الأخذ بالأسباب المتاحة التي تمكنك من الوصول إلى ما يمكن الوصول إليه من العلو، والرفعة، والعزة، والتمكين في الأرض، ترك الأخذ بالأسباب المتاحة عيب رآه الشاعر الحكيم لا عيب مثله فقال :

ولم أرى في عيوب الناس عيباً كعجز القادرين على التمام .

إذا مكن الله لك في الأرض وهيأ لك الأسباب مثلاً في طلب العلم ، فمن الخور،والضعف، والمهانة، والكسل المذموم أن تقعد على الأخذ بهذه الأسباب ولا تسعى في طلب العلم حتى تبلغ فيه مبلغه، وإذا هيأ الله لك أسباب الرقى والتقدم والرفعة فلم تأخذ بها وخلدت إلى الأرض وغلبت عليك البطالة والكسل ، فإن هذا أيضاً مذموم . يجب علينا أن نغتنم الفرص، وأن نأخذ بالأسباب التى أتاحها الله – سبحانه وتعالى – لنا نأخذ بالأسباب التى أتاحها للتعلم، ونأخذ بالأسباب التي أتاحها للتمكين في الأرض، ونأخذ بالأسباب التي أتاحها للرفعة والظهور والغلبة ، وأن نكون من أقوى الناس .

إن النبي – صلى الله عليه وسلم – حثنا على علو الهمة حين قال:(إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة) هكذا يعلمنا النبي – صلى الله عليه وسلم – علو الهمة (إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وسقفه عرش الرحمن) لكنه للأسف ترك كثيرٌ من المسلمين همتهم ضعيفه بل ميتة يقول لك القائل: يقول الله تعالى
﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾[آل عمران:١٨٥] فحسبنا أن نزحزح عن النار .

ما هذه الهمة الضعيفة ؟ ما هذه الهمة الميتة ؟ النبي – صلى الله عليه وسلم – يحثك على علو الهمة ، وقوة الرجاء في رحمة الله – تبارك وتعالى – (إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وسقفه عرش الرحمن) .

فالله – سبحانه وتعالى – تفضل على ذي القرنين بالتمكين في الأرض ، وآتاه الأسباب التي تعينه على تثبيت مملكته ودوام ملكه ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾ .

أخذ ذو القرنين بالأسباب التي أتاحها الله – سبحانه وتعالى – له وقام بثلاث رحلات :

كانت الرحلة الأولى إلى الغرب والثانية إلى الشرق، والثالثة قال الله تعالى ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ .

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾ هذه هي الرحلة الأولى التي قام بها ذو القرنين ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾ المغرب : اسم مكان للمكان الذي تغرب فيه الشمس، ومغرب الشمس: يختلف في كل مكان من حيث الرائي فأنت في أي مكان تقف فيه ساعة الأصيل ساعة تتضيف الشمس للغروب يخيل إليك أن الشمس غربت في المكان الذي أنت فيه .

إذا كنت في ساعة الغروب على البحر ترى الشمس سقطت فيخيل إليك أنها سقطت في البحر وإذا كنت ساعة الغروب في الصحراء المترامية الأطراف لا ترى شيئاً على مد بصرك يخيل إليك أن الشمس غربت في الرمال .

وإذا كنت داخل المدينة عن يمينك عمارات وعن شمالك عمارات ونظرت ساعة الغروب يخيل إليك أن الشمس تغرب خلف العمارة فهذا معنى ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾ أي بالنسبة له ورؤيته لها في هذه الساعة ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ الحَمِئَة: مؤنث الحَمَأ والحَمَأ هو الطين اللازب الذي خلق الله – تبارك وتعالى – منه الإنسان قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾[الحجر:٢٦].

وقال تعالى ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ ﴾[الصافات:١١].

والطين الازب :هو الطين الذي يلصق بعضه ببعض والطين الذي يلصق باليد حين تأخذ به فهذا هو الحمأ هو الطين اللازب .

وهو الطين الذي يلصق بعضه ببعض، ويلصق باليد إذا أخذته، ونحن إذا رأينا مكان ماء جف منه الماء ترى الطين الباقي في المكان الذي جف منه الماء تراه أسود ناعماً ملساً فهذا هو الحمأ. ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ﴾ عند هذه العين قوماً فمكنه الله – سبحانه وتعالى – منهم مكن الله تعالى ذا القرنين من القوم الموجودين عند هذه العين التي رأى الشمس تغرب فيها فقال الله – تبارك وتعالى

– له ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ إما أن تعذب هؤلاء الناس ، و إمـــا أن تتخذ فيهم حسناً بالعفو عنهم، ولا شك أن من قدر على تعذيب إنسان ثم عفا عنه لا شك أنه بهذا العفو قد أحسن إليه فالله – سبحانه وتعالى – خير ذلك الملك الصالح – ذا القرنين – في هؤلاء القوم الذين وجدهم، ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ يعني بالعفو عنهم .

انظر ماذا كان جواب الملك الصالح تأمل هذا الجواب الذي يدل على العدل والإنصاف، ﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَـمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ والمراد بقوله أما من ظلم، أما من ظلم نفسه بالكفر بالله والشرك به ورفض قبول دعوته له إلى الإسلام والإيمان، أما من ظلم نفسه بالكفر والشرك وأصر عليه ورفض الدعوة إلى الإسلام والإيمان ﴿ أَمَّا مَـنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ فسوف نعذبه بأيدينا في الدنيا عذاباً شديداً ثم يرد إلى ربه في الأخرة فيعذبه عذاباً نكراً .

﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ من قبل دعوتنـا إلـى الإيمان ، من قبل دعوتنا إلى الإسلام،من قبل دعوتنا إلى التوحيد ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَـالِحًا فَلَـهُ جَـزَاءً الْحُسْنَى ﴾ والحسنى هي الجنة كما قال الله تعالى ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى ﴾ [الرعد:١٨].

وكما قال الله تعالى ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾[يونس:٢٦] والحسنى هي الجنة والزيادة هي النظر إلى وجه الله – عزّ وجلّ – .

قال ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ سنقول له قولاً يسيراً سنقول له كلمة طيبة نقول له جزاك الله خيرا، تقبل الله منك أحسن الله إليك.

وانتبه هنا للتقديم والتأخير في الجزائين، لما ذكر ذو القرنين الجزاء الأول جزاء من كفر وظلم نفسه بـالكفر بدأ بعذابه هو وأخر ذكر عذاب الآخرة، ولما ذكر جزاء من آمن وعمل صالحاً قدم ذكر جزاء الآخرة وأخر ذكر جزاء نفسه هو .

﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨٧﴾ فتعذيب ذي القـرنين للظـالمين الكافرين المشركين هو العذاب الأدنى لأن تعذيب ذو القرنين دون عذاب الله – تبارك وتعالى – يوم القيامة فإن الله تعالى قال ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾[الفجر:٢٥-٢٦].

ولذلك قال ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾[القلم:٣٣].

وقال تعالى ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ﴾[الرعد:٣٤].

فبدأ ذو القرنين في ذكر الجزاء للظالمين بالعذاب الأدنى وأخر العذاب الأكبر وأمـا فـي جـزاء المـؤمنين الصالحين الذين قبلوا الدعوة واتبعوه على الإيمان بالله، وأسلموا معه لله – عزّ وجلّ – فبدأ بذكر الجزاء الأعظم جزاء الآخرة وأخر جزاءه هو .

قال ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾

وفى هذا الجواب من الملك الصالح – ذي القرنين – رضي الله عنه – تعليم للملـوك إذا فتحـوا الـبلاد أن يحترموا أهلها وأن ينصفوهم من أنفسهم وألا يسعوا في الأرض فساداً بالقتل والنهب والسلب وانتهاك الأعراض، كما قالت ملكة بلقيس ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ وأقرها الله – عـزّ وجلّ – على ذلك الوصف فقال ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [النمل:٣٤].

فالملوك الجائرون ، الملوك الظالمون إذا فتحوا بلاداً تسلطوا على أهلها فساموهم سـوء العـذاب شـردوهم تشريداً، وقتلوهم قتلا انتهكوا أعراضهم وسلبوا أموالهم وسبوا نساءهم وذراريهم، لكن الملك الصالح – ذا القرنين يقول ﴿ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴿٨٧ ﴾ وَأَمَّا مَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨ ﴾.

كذلك في هذا الجواب تعليم للملوك الذين يمكن الله – تبارك وتعالى – لهم في الأرض أن من الواجب عليـهم أن يشكروا من أحسن، وأن يعاقبوا من أساء وأن يقربوا منهم المحسنين وأن يطردوا عنهم المسيئين قال: وأما من آمن وعمل صالحاً فله من الله – تبارك وتعالى – في الآخرة جزاء هو الحسنى وسنقول له من أمرنا نحن يسراً، كلاماً طيباً نشكره على ذلك، جزاك الله خيراً أحسن الله إليك تقبل الله منك، ونحو هذا الكلام الطيب.

فالملك الصالح هو من يشكر للمحسن إحسانه ويعاقب المسيء على إساءته . الملك الصالح: هو الذي يجعـل بطانته من عباد الله الصالحين، المؤمنين المحسنين الطيبين المتقين، ويطرد عنه المسيئين فإن بهذه السياسة تصلح الأرض ويصلح أهله . وحين يرى الناس أن الملك لا يقرب منه إلا الصالحين سيجتهدون في الصلاح، وحـين يرى الناس أن الملك يطرد عنهم المسيئين لن يحاول أحد أن يسيء لأن كل الناس يحبون القرب من الملك .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾﴿٨٩ ﴾ للمرة الثانية يؤكد الله – تبارك وتعالى – على أخذ ذى القرنين بالأسباب واغتنامها مع التوكل على الله – سبحانه وتعالى – ثم أتبع سبباً فجاء من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَـغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠ ﴾ ﴾ .

إذا وجد هؤلاء الناس الشمس تطلع عليهم وليس عندهم شيء يكنهم ولا يسترهم ولا يواريهم من الشمس منـذ طلوعها إلى غروبها وهم متعرضون لها ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠ ﴾ كَذَلِكَ ﴾ .

ما معنى قول ربنا ﴿ كَذَلِكَ ﴾ ؟ كذلك مكناه من القوم الذين وجدهم عند مطلع الشمس كما مكناه قبل من القوم الذين وجدهم عند مغرب الشمس .

ذو القرنين حين بلغ مغرب الشمس مكنه الله – تبارك وتعالى – من القوم الذين وجدهم عندها ﴿ قُلْنَـا يَـا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦ ﴾ ﴾ لما قال ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩ ﴾ حَتَّى إِذَا بَلَـغَ مَطْلِـعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠ ﴾ ﴾ قال الله تعالى ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي كذلك مكناه من هؤلاء القوم الذين وجدهم عند مطلع الشمس، كما مكناه من قبل من القوم الذين وجدهم عند مغرب الـشمس، أي قلنا له أيضاً يا ﴿ يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ وكان جوابه في الثانية هو جوابه في الأولى ﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨٧ ﴾ وَأَمَّا مَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَـالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨ ﴾ ﴾.

قوله تعالى ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١ ﴾ ﴾.

يعني أن رحلة ذو القرنين إلى الشرق وإلى الغرب وما فعل بالناس في الشرق وما فعل بالناس في الغرب كل ذلك كان بمرأى ومسمع وعلم من الله – تبارك وتعالى – ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١ ﴾ ﴾ أي:أحطنا خبراً بأحوال ذي القرنين كلها فلم يخفَ علينا شأن من شئونه ولا أمر من أموره لأن الله – سبحانه وتعالى – لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، بل هو – سبحانه وتعالى – قد أحاط بكل شيء علماً ووسع كل شيء علماً .

﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١ ﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢ ﴾ ﴾.

للمرة الثالثة يؤكد الله – تبارك وتعالى – على أخذ ذي القرنين بالأسباب ويمدحه على ذلك تعليماً لنا للأخذ بالأسباب والتوكل على الله – سبحانه وتعالى – فلا ينافي التوكل الأخذ بالأسباب أبداً، تأخذ بالأسباب المتاحة، وتتوكل على الله – سبحانه وتعالى – في ترتب النتائج التي على هذه الأسباب التي أخذت بها .

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣ ﴾ ﴾.

حتى إذا بلغ بين السدين المراد بالسدين جبلين متجاورين بينهما فتحة وجد أمام السدين قوماً يسكنون ، فقراء، ضعاف، مساكين، الفقر ظاهر عليهم والضعف بادٍ عليهم ووجد من وراء السدين قوماً جبابرة طغاة ظالمين ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣ ﴾ ﴾ لغتهم غير لغته لسانهم غير لسانه فهم لا يكادون يفقهون قوله ولكن من فضل الله على ذي القرنين أنه أعطاه القدرة على فهم مراد هؤلاء الناس، مع أن لسانهم غير لسانه ولغتهم غير لغته إلا أنه بفضل الله استطاع أن يفهم ماذا يريدون .

﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤ ﴾ ﴾.

لما مر ذو القرنين – رضي الله عنه – على هؤلاء القوم الذين هم دون السدين ورأوه رأوا أبهة ورأوا عظمة ورأوا ملكاً كبيراً في ملك عظيم، فعلموا أن هذا الملك قادر على أن يكفيهم شر الناس الذين وراء السدين .

﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ يأجوج ومأجوج مأخوذان من مادة النار لأنك تقول أججت النار يعني أوقدتها وأسعرتها وأشعلتها .

فسميت هاتان القبيلتان يأجوج ومأجوج لكثرة شرهما وفسادهما وضررهما والعياذ بالله ؟

من هم يأجوج ومأجوج ؟ هل هم عالم آخر غير عالم الإنس وعالم الجن وعالم الملائكة ؟

أما حقيقة يأجوج ومأجوج وما أصلهم ؟

يأجوج ومأجوج للأسف هم إخواننا في الآدمية، فهم من أولاد آدم – عليه السلام – كما في الحديث عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال (يقول الله تعالى لآدم يوم القيامة: يا آدم فيقول: لبيك وسعديك يقول ابعث بعث النار من ذريتك، فيقول يا رب كم ؟

فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين في النار وواحد في الجنة)

)

قال – صلى الله عليه وسلم – فحينئذ يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .

فكأن ذلك ثقل على الصحابة فقالوا يا رسول الله وأينا ذلك الواحد ؟

تسعمائة وتسعة وتسعين في النار وواحد في الجنة أينا ذلك الواحد ؟

فقال (منكم الواحد ومن يأجوج ومأجوج الألف) .

فدل هذا الحديث على أن يأجوج ومأجوج من ذرية آدم لكنهم يختلفون سبحان الله في الخلقة وفى الطبيعة وفى الفطرة فهم قوم قد جبلوا على الشر والظلم والفساد في الأرض ولذلك استغاث هؤلاء القوم بذي القرنين من شرهم .

﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ أي عطاء فالخرج، والخراج:معناهما العطاء يقول الله تعالى لنبيه محمد – صلى الله عليه وسلم – منكراً على قومه عدم اتباعهم له ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً ﴾[المؤمنون:٧٢] لماذا لا يتبعونك؟ هل سألتهم من أموالهم حتى تعلمهم الدين فثقل عليهم المطلوب فعجزوا عن دفعه فلم يتبعوك ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾[المؤمنون:٧٢].

فالخرج والخراج معناهما العطاء ﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ أي نجمع لك من أموالنا ونعطيك عطية على أن تجعل بيننا وبين هؤلاء القوم سداً يحول بينهم وبين الخروج إلينا ؟

وهل يطمع ذو القرنين الملك الصالح – الذي وسع الله – تبارك وتعالى – عليه – في عطاء يأخذه من الناس ولا سيماً وقد رأى علامات الفقر والضعف ظاهرة عليهم .

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ كما قال سليمان – عليه السلام – وقد أرسلت إليه بلقيس بهديتها ﴿ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾[النمل:٣٦].

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ مما تريدون أن تعطوني إياه ما مكني فيه ربي خير كل الذي أريده منكم أن تعينوني بعمال برجال يعملون معي قال ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾ المراد بالقوة هنا الرجال الأقوياء الذي يستطيعون العمل في بناء السد .

﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥ ﴾ ﴾.

أعينوني بقوة من الرجال يعملون أجعل بينكم وبين يأجوج ومأجوج ردماً فلا يستطيعون الخروج عليكم بعد بناءه .

ثم قال ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ والمراد بالزبر القطع قطع الحديد، أعطوني زبر الحديد كتل الحديد الكبيرة فهو إذاً لن يبني السد كما نبني نحن الآن الخرسانة أسمنت وزلط ومسلح حديد .لا.

سيجعل السد كله حديداً، كتلة خرسانية لا، كتلة حديدية كاملة .

﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ فجعل يجيء بالحديد ويرصه فيما بين السدين على قدر الفتحة يرصه فيما بين السدين يرصه رصة ثم يضع فوقها الحطب ثم يرص الحديد ويضع فوقه الحطب ثم يرص الحديد ويضع فوقه الحطب حتى إذا رفع هذا البناء على آخر فتحة في الجبلين من أعلاها وقد بدأ من أسفلها ﴿ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا ﴾ انفخوا النار حتى ينصهر الحديد فأوقدوا النار في الحديد وبين كل طبقة من طبقات الحطب فأوقدوا النار في هذا الحطب فاشتعل الحديد حتى انصهر ﴿ حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦ ﴾ ﴾

والقطر هو النحاس المذاب، وتصور الحديد في هذا السد ويصب عليه النحاس المذاب؟ نحاس مع حديد يعطـوه قوة شديدة جداً فهكذا بنى ذو القرنين هذا السد من الحديد والنحاس .

﴿ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرً﴿٩٦ ﴾ ﴾ .

فلما بناه عجز يأجوج ومأجوج أن يرتقوه وينزلوا من الناحية الثانية وعجزوا أن ينقبوه ويخرجوا منه ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧ ﴾ ﴾.

وقد قلنا في الدرس السابق إن الخضر – عليه السلام – لما قال لموسى :﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴾ [الكهف:٧٨] بالتاء قبل الطاء ، فلما نبأه بتأويل ما لم يستطع عليه صبرا قال: ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴾[الكهف:٨٢] بدون تاء .

قلنا إن الفرق بين اللفظين: أن التاء قبل الطاء فيها ثقل في النطق يقابل ثقل الجهل الذي كان يعاني منه موسى – عليه السلام – لأنه كان جاهلاً بالأحوال التي دعت الخضر إلى فعل ما فعل فلما علمه زال الجهل وذهب هذا الثقل الذي كان على عاتقه فقال ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴾ وهنا يقول: ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧ ﴾ لأنهم إن يأتوا بسلم ،فييضعونه على الجدار وينزلون من الناحية الثانية ، هذا أسهل من أن ينقبوا؛ لأن النقب يحتاج إلى عمل دؤوب وشغل كثير لكنَّ الارتقاء بالسلم أسهل قال: ﴿ فَمَا اسْـطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾.

فلما نظر ذو القرنين ورأى السد قد ارتفع بفضل الله شكر الله – سبحانه وتعالى – واعترف له بالفضل والمنة ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ﴾.

هذا السد إنما هو رحمة من الله – عزّ وجلّ – بهؤلاء الناس رحمهم الله– تعالى– بالسد فحال بيـنهم وبـين يأجوج ومأجوج ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧ ﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّـي ﴾ وهكـذا اعترف بفضل الله ومنته وإحسانه على أن رحمه هو فأعانه و وفقه لبناء هذا السد ، ورحم بالسد هؤلاء القوم من شر يأجوج ومأجوج . وهكذا الصالحون دائماً يردون الفضل في كل شيء إلى الله – سبحانه وتعالى – بخـلاف الطغاة الظلمة الجبابرة المفسدين في الأرض فإنهم ينسون فضل الله – عزّ وجلّ – عليهم ولا يذكرون إلا أنفسهم كما قال قارون – وقد نصحه قومه وذكروه ووعظوه أن يحمد الله – سبحانه وتعالى – على ما آتاه من فضله ﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾[القصص:٧٧] – فمـا كـان جوابه إلا أن قال: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾[القصص:٧٨].

أما ذو القرنين فبعد أن بنى السد وحبس به يأجوج ومأجوج عن هؤلاء القوم لم يفتخر على الضعفاء الفقـراء ولم يطلب منهم أجرة ولم يطلب منهم شكراً وإنما اعترف بفضل الله وبرحمته ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ﴾ إلى متى تظل هذه الرحمة؟ وإلى متى يحال بين يأجوج ومأجوج أن يخرجوا على الناس من وراء هذا السد قـال :﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨ ﴾.

والمراد بوعد الرب – سبحانه وتعالى – هنا هو الآخرة ﴿ فَـإِذَا جَـاءَ وَعْـدُ الْـآخِرَةِ جِئْنَـا بِكُـمْ لَفِيفـاً ﴾[الاسراء:١٠٤].

الله – سبحانه وتعالى – يقول في سورة الأنبياء ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦ ﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾[الانبياء:٩٦–٩٧].

فالله – سبحانه وتعالى – أخبر أن هذا السد سيظل قائماً إلى اقتراب ﴿ الوعد ﴾ وهو القيامة والنفخ في الصور .

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ﴾ لأنه إذا قامت القيامة دكَّ الله – تبارك وتعالى – الأرض كلها دكاً كما قال – عزّ وجلّ – ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكّاً دَكّاً ﴿٢١ ﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ﴾[الفجر:٢١-٢٢].

وقال تعالى ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣ ﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤ ﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥ ﴾ ﴾[الحاقة:١٣-١٥].

﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً ﴿٩٨ ﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ تركنا يأجوج ومأجوج يموجون في الناس ويختلطون بهم بعد أن كان الله– تعالى – مانعهم وحاجزهم وراء السد .

وقد أخبرنا النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يأجوج ومأجوج كل يوم يحاولون نقب السد ، فيعملون في النقب حتى إذا غربت الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فتفتحونه غداً ، فيرجعون ويتركونه بعد أن نقبوا فيه ما نقبوا، فيأتون في اليوم التالي فيجدون السد قد عاد كما كان قبل النقب فينقبون طول النهار حتى إذا كادت الشمس أن تغرب قال الذي عليهم ارجعوا: فتفتحونه غداً فيرجعون فيجدونه قد عاد قبل النقب وهكذا .

حتى إذا أراد الله لهم الخروج ألهم كبيرهم أن يقول آخر النهار بعد أن نقبوا فيه ما نقبوا:ارجعوا فتفتحونه غداً– إن شاء الله– فإذا قال : إن شاء الله رجعوا في اليوم التالي فوجدوا السد كما نقبوه فأتموا نقبه في الباقي ثم خرجوا على الناس ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩ ﴾ ﴾.

نسأل الله السلامة والعافية ونعوذ بالله من الخذلان ونسأله الهداية والتوفيق .

هذا والحمد لله رب العالمين وصلِ الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً ﴾ يقول المفسر: أي ولداً أزكى من هذا وهما–أي الوالدين – أرحم به منه فجعل الزكاة للولد وأقرب رحما للوالين، فما الذي جعله يفرق في العطف ولماذا لا يكون العطف يعني أقرب رحما أي ولداً راحماً بولديه، ولداً أزكى من هذا هو راحم بوالديه ؟ يقول الشيخ: يأجوج ومأجوج في بلاد الترك ماذا يقصد المفسر ببلاد الترك؟ هل هم أحياء إلى الآن يأجوج ومأجوج ؟

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ألا يحتمل أن يكون ذو القرنين مَلِك، وأيضاً في نفس الوقت أن يكون نبي، لأن هناك بعض الشواهد قد تكون تدل على أنه نبي، وذلك أنه دعا إلى الإيمان لأنه قال﴿ أما من آمن ﴾ وهذا واضح ؟

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، هل يمكن أن يلبس الشيطان على الإنسان : أنَّ عمله الصالح فيه رياء ؟ إذا أخطأ شيخ في الخطبة هل ممكن أن أحداً يقاطعه وينبهه لهذا الخطأ أم بعد اللقاء ؟

أخطأ في ماذا؟ في القرآن الكريم أم في الموضوع ؟

في موضوع الخطبة، وهل خروج يأجوج ومأجوج في وقت معين؟ وأي وقت ؟

نحن نشكر لها حرصها وعنايتها بالكتاب أثناء المحاضرة ونهيب بجميع المشاهدين رجالاً ونساءً أن يكونـــوا كذلك أن يكون مع كل أخ وأخت الكتاب ، أن يتابعوا معنا في الشرح – بإذن الله عزّ وجلّ – .

هي تقول: إن المؤلف قال: في قوله تعالى ﴿ أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً ﴾ أن يكون الولد أزكى من الولد القتيل وأن يكون الوالدان أقرب رحماً بالولد المبدل منه بالولد القتيل هكذا قال المصنف– رحمـــه الله– وهي ترى أن يكون أزكى وأرحم من الولد . الولد أزكى في نفسه وأرحم بأبويه من القتيل، نقول لهـــا: لا مانع من هذا الفهم –إن شاء الله– وهو محتمل– بإذن الله عزّ وجلّ – .

لعلها تقصد أن بعض المفسرين ذكر: أن هذا السد الذي وراءه يأجوج ومأجوج في بلاد الترك، ولكننا قلنا إن الله – سبحانه وتعالى – لم يخبرنا بمكان هذا السد فلذلك لا يفيدنا – كثيراً –تعيين المكان الذي بني فيه السد .

– أي نعم – هم آدميون؛ فهم أحياء إلى الآن وسيخرجون في آخر الزمان وخروجهم علامة مـــن علامـــات الساعة الكبرى ولعل الوقت يتسع في الحلقة القادمة – إن شاء الله –أن نتم ما سكتنا عنه لضيق الوقت اليوم .

النبوة :لا تثبت لأحد إلا بدليل صحيح صريح، ولم نقف على دليل صيح صريح يفيـــد نبـــوة ذي القـــرنين – رضي الله عنه – فالقول بأنه ملك صالح هو الأرجح – بإذن الله عزّ وجلّ – .

الشيطان– لعنه الله– كل همه أن يحول بين المسلم وبين صالح العمل، فإذا أراد أن يعمل المسلم عملاً صالحاً أتاه في طريقه ليحول بينه وبين هذا العمل. فإذا كانت العزيمة قوية وصاحب هذا المـــسلم التوفيـــق مـــن الله – سبحانه وتعالى – ومضى في طريق هذا العمل الشيطان لا يتركه، وإنما يأتيه من ناحية أخرى يلبس عليه أنـــك تفعل هذا رياءً لا تفعله خالصاً لوجه الله، يريد بذلك كله أن يصده عن هذا العمل حتى لا يعمله مرة ثانية، وقـــد بوب الإمام النووي –رحمه الله– في كتاب رياض الصحالين باب ما يظن أنه رياء وليس رياء، فعلى المسلم أن يعلم من نفسه أنه إذا اندفع نحو هذا العمل الصالح إيماناً واحتساباً، فإذا اندفعت نحو هذا العمل الـــصالح إيمانـــاً واحتساباً فلا تلتفت إلى الشبهات والشكوك والتلبيسات الشيطانية التي تأتيك بعد أن عزمت علـــى هـــذا العمـــل وباشرته.

سيخرجون في آخر الزمان بعد نزول سيدنا عيسى بن مريم –عليه السلام – وسيأتي الكلام مفصلاً في الحلقة القادمة– إن شاء الله تعالى– .

تقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أنا أراجع المحفوظ عندي من القرآن الكريم في صلواتي، وقبـــل أن أنام أصلي بحزب من المحفوظ ولكني أقرأه من المصحف . فهل تنفع هذه الطريقة للمراجعة؟ وهل هذا يعتبـــر قيام ليل لأني أخاف إن أخرت القيام إلى آخر الليل لا أصحو؟

زادها الله حرصاً وبارك الله فيها وتقبل الله منا ومنها وأنا لا أرى القراءة من المصحف في الـــصلاة ؛ لأنـــه ينبغي للمصلي أن ينشغل بربه – سبحانه وتعالى – عن كل شيء وحين يفتح المصحف سينشغل بـــالنظر فـــي المصحف السطر الأعلى والسطر الذي يليه والسطر الأسفل وقلب الصفحة فسينشغل بذلك عن الصلاة .

فلذلك أرى أن تقرأ من حفظها الجيد في الصلاة وأن تجعل المراجعة في المصحف في خارج الصلاة .

يقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . سمعت منذ مدة طويلة أحد العلماء – رحمه الله– في تفسير الآية ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً ﴾ أنها إعجاز علمي حيث إن ثلاثمائة سنة تعادل ثلاثمائة وتسع

سنوات قبطية ولكن أنا أشعر في نفسي بدون علم أنها فعلاً ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعاً من نفس نوع السنوات وليس كما سمعت أرجو الإفادة بما يرفع الشك وجزاكم الله خيراً ؟

قول المفسرين في الآية أنها ثلاثمائة سنين شمسية وازدادو تسعاً من السنين القمرية فهي ثلاثمائة وتسع سنين قمرية وثلاثمائة فقط شمسية وهذا قول معتبر ومقبول-بإذن الله عزّ وجلّ - .

يقول هل يصح قول بعض العلماء: إن ذا القرنين قد يكون هو الإسكندر الأكبر وهل يحق هذا فيه حيث إن الإسكندر عرف بالظلم والبطش ؟

إذا كان الإسكندر عرف بالظلم والبطش فلا شك أنه ليس ذا القرنين لأن ذا القرنين كان ملكاً صالحاً ولياً من أولياء الله الصالحين .

يقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته هل من السنة قراءة سورة الكهف ليلة الجمعة أفيدونا بارك الله فيكم ؟

نعم يستحب لكل مسلم ومسلمة قراءة سورة الكهف يوم الجمعة .

هل يصح قول بعض المفسرين في عمر ذي القرنين أنه يبلغ ثلاثة آلاف وستمائة سنة ؟

ذكرنا أن للمفسرين أقوالاً كثيرة في تعيين اسمه وزمانه وعمره وكل هذه لا دليل صحيح عليها فلهذا سكتنا عنها لعدم صحة أدلتها .

ما صحة حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - (من كل مائة من أمة محمد تسعة وتسعين في النار وواحد في الجنة) ؟

أنا لا أعرف هذا الحديث، الحديث الذي أعرفه هو الذي ذكرته في يأجوج ومأجوج (يا آدم ابعث بعث النار من ذريتك، يقول يا رب كم ؟ يقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين) فلما شق ذلك على أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - قالوا : وأينا ذلك الواحد ؟

قال (منكم الواحد ومن يأجوج ومأجوج الألف) .

قال الله - عزّ وجلّ - في كتابه الكريم على لسان ذي القرنين ﴿ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً ﴾ وقال الله - عزّ وجلّ - في كتابه الكريم ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ فهل هذا العذاب يقصد أما من ظلم أي أما من كفر بالله ولم يتبع الدعوة فهل هذا العذاب كان فيه شريعة من قبلنا؟ وكيف كان العذاب ؟

كان في شريعة من قبلنا لا يقبل إما الإسلام وإما القتل وسيكون ذلك أيضاً في آخر زماننا في شريعتنا أيضاً كما سينزل عيسى بن مريم - عليه السلام - لا يقبل إلا الإسلام أو القتل لكن في عهد نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - كان إما الإسلام وإما الجزية فإن أبوا الإثنين فالقتل .

يقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته من هو النبى الذي كان في عصره ؟

لا ندري أي نبي كان في زمن ذي القرنين فلذلك سكتنا عن ذلك .

فضيلة الشيخ هل تصح السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته ؟

جزاك الله خيراً.

ذكر علماؤنا– رحمهم الله –أن زيادة مغفرته إنما تزاد في الرد لا في الابتداء فأقصى الابتداء: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فإذا قال لك أخوك: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته قلت له: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ومغفرته.

يقول هل يأجوج ومأجوج موجودون بالصين كما قيل وهل يمكن اكتشافهم بالأجهزة كما يكتشف ما تحت الأنقاض من أحياء بواسطة الأجهزة المتطورة ؟

الله – سبحانه وتعالى – غيبهم وحال بينهم وبين الناس، وحال بين الناس وبينهم لحكمة أرادها وليس كل موجود يعني لا يشترط أن يكون كل موجود يُرى أو يمكن اكتشافه .

فبنوا إسرائيل دخلوا التيه أربعين سنة في صحراء سيناء والناس يغدون ويروحون إلى فلسطين وإلى مصر ومع ذلك لم يشأ الله – سبحانه وتعالى – أن يطلع أحد من الناس على بني إسرائيل ولم يطلع بنو إسرائيل على الناس وهم في التيه حتى إذا انقضت المدة التي قدرها الله – سبحانه وتعالى – وخرجوا. فهم– يأجوج ومأجوج – موجودون وراء السد. أين هذا السد؟ وكيف لا نراه ؟كل هذا لا يطعن في كلام ربنا ونحن نؤمن بكلام ربنا – سبحانه وتعالى –وقيل :إنهم موجودون وراء السد إلى أن يشاء الله – سبحانه وتعالى – .

تقول هل نطلق على ذي القرنين بالرجل الصالح أو الولي الصالح أو الملك الصالح؟

كان رجلاً ملكاً ولياً صالحاً .

تقول لو سمحت تعيد لنا وصف حال القوم الذين رآهم ذو القرنين في الرحلة الثانية ؟

قال الله تعالى ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً ﴾[الكهف:٩٠] يعني وجد ناساً في عراء تام ليس عندهم أي شيء يكنهم عن حر الشمس ولا يظلهم منه، منذ أن تطلع إلى أن تغرب وهم متعرضون للشمس وهذا كل ما ذكره الله – تبارك وتعالى – عن هذه الرحلة الثانية .

تقول كيف استطاع ذو القرنين أن يبلغ المشرق والمغرب وما هي الأسباب التي اتبعها ؟

أعطاه الله – تبارك وتعالى – الأسباب المناسبة لذلك السفر الطويل الشاق واستخدمها.

أما تعيينها فلم يعينه الله – سبحانه وتعالى – ولم يعينها رسوله – صلى الله عليه وسلم – .

تقول هل يأجوج ومأجوج موجودان في هذا الزمان وأين مكانهما ؟

موجودون وراء السد الذي بناه ذو القرنين أين مكان السد في الأرض ؟ سكت الله – تعالى– عن ذلك.

ما قيل: إنهم في تركيا ما قيل: إنهم في الصين ما قيل: إنهم في كذا في كذا، كل هذا رجم بالغيب لا دليل عليه فنؤمن بما أخبرنا الله – تبارك وتعالى – به عنهم ونسكت عما سكت الله– تعالى عنه–.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته لو سمحت ممكن نعرف المكان الذي كان فيه يأجوج ومأجوج حين بنى ذو القرنين السد ؟ نريد أن نعرف هل خروج يأجوج ومأجوج قبل خروج المسيح الدجال أم بعده ؟

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته سؤالي: هل كثرة سؤالنا عن موسى والخضر – في أشياء لم يذكرها النبي – صلى الله عليه وسلم – ولم يسأل عنها الصحابة – رضي الله عنهم – عندما أخبرهم النبي – صلى الله عليه وسلم – بالقصة– تعد فضولاً أو من الأشياء التي لا يجب أن نخوض فيها ؟

كانوا وراء السد، وراء الجبلين، كان هناك جبلان بينهما فتحة. هما كانوا وراء هذه الجبال وكانوا يغيرون من هذه الفتحة على الناس الذين أمام السد .

بعد نزول المسيح عيسى بن مريم – عليه السلام – كما سنقص ذلك– إن شاء الله تعالى– في الحلقة القامة .

نعم سيدنا عيسى بن مريم سينزل –أصلاً– والمسيح الدجال موجود ويقتله، وبعد قتل سيدنا المسيح بن مـريم للمسيح الدجال، يخرج يأجوج ومأجوج وعيسى بن مريم موجود في الأرض .

ليس جدالاً– إن شاء الله– أن يطلب الإنسان المزيد من العلم لا يعار عليه، لكن عليه إذا رزق العلم الذي كان يقصده ويطلبه أن يحمد الله على ذلك، وإذا لم يصل إلى معرفة جديدة ولا زيادة علم فهل يسكت عما سـكت الله تعالى عنه .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته بالنسبة لقراءة سورة الكهف هل تجزئ قراءتها بعد غروب الشمس من يوم الخميس ليلة الجمعة؟ السؤال الثاني بالنسبة للكتب الخاصة في الدرس هل فيه فقط كتاب التفسير لنسيب الرفاعي ؟

نرجو أن تجزئ– إن شاء الله تعالى – وإن كان الأفضل أن تؤخر ليوم الجمعة .

نحن لا نقتصر في هذا الشرح على مختصر ابن كثير فقط بل نحن نحضر هذا الدرس مما توفر لنا من كتب التفسير كلها ثم نجمع الفوائد والنكات الحسنة فيها، ثم نلقيها على إخواننا، وإذا كنا ننصح الأخوة بكتاب مختصر ابن كثير لأنهم لا يستطيعون أن يرجعوا إلى كل ما نرجع إليه في المحاضرة ولكننا ننبه علـى أن المحاضـرة مفرغة على موقع الأكاديمية ويستطيع كل طالب وطالبة الحصول على المحاضرة مفرغة من الأكاديمية إن شاء الله تعالى .

سؤال يقول:هل القوم الذين لا يفقهون قولا هم يأجوج ومأجوج؟ وهل السد موجود الآن ؟

لا، الذين لا يكادون يفقهون قولاً غير يأجوج ومأجوج الذي لا يكادون يفقهون قولاً هم الذين استغاثوا بالملك الصالح أن يغيثهم من يأجوج ومأجوج .

تقول هل مكان السد معروف الآن ؟ وأين هو ؟

لا نستيطع أن نجزم بوجود السد في أي مكان في الأرض، لكننا نؤمن بوجوده وإن كنا لم نطلع عليه .

هل القرآن فصَّل كل شيء عن قصة يأجوج ومأجوج أم أن للسنة شأناً في تفصيل ذلك ؟ وإن كان للسنة شأن في تفصيل أمور لم يأتِ بها القرآن فنريد منكم تعريفاً جامعاً مانعاً لتعريف السنة لاسيما وقد اختلط مفهوم الـسنة عند كثير من المسلمين ؟

ماذا تعني بمفهوم السنة ؟

يعني أقصد هل هي كما- يعني- يندرج في بعض عقول المسلمين أنها مندوبات ومستحبات فقط أم أنها مصدر تشريع مثلها مثل القرآن في التشريع ؟

السنة في عرف العامة تطلق على ما يقابل الفرض يكون هذا سنة وهذا فرض، صيام رمضان فرض وصيام الاثنين والخميس سنة .في عرف العامة السنة هي ما يقابل الفرض المطلوب فعله.

وأما السنة عند العلماء فلها تعريف آخر تستطيعون أن تتعرفوا عليه من مادة مصطلح الحديث إن شاء الله تعالى، فهذا هو موضوع التخصص مصطلح الحديث .

تقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، هل يأجوج ومأجوجح عددهم كبير حتى أنه يخشى منهم على الناس أو المقصود هو خشية القوة فقط نرجو تفصيل هذه الجزئية ؟

لا، هم كثيرو العدد حتى سيأتي- إن شاء الله- في الدرس القادم- أنهم إذا خرجوا يكون أولهم بالشام وآخرهم بالعراق، أو أولهم بالعراق وآخرهم بالشام، انظر كم بين الشام والعراق من مسافة وهم ملؤوا هذه المسافة كلها، فهم كثيرو العدد وذووا قوة وبطش شديدين .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته سمعت مرة أن قراءة سورة الكهف يوم الجمعة هو سبب من أسباب عدم خروج يأجوج ومأجوج وأنه سيأتي يوماً وينسى الناس جميعاً هذه السنة فيكون هذا سبب خروجهم فهل ورد بهذا أثر صحيح ؟وجزاكم الله خيراً.

لابد للقول بهذا من دليل صحيح صريح وأنا شخصياً لم أطلع على حديث صحيح صريح في هذا الموضوع فنقول سورة الكهف تقرأ لفضلها الذي ورد في الحديث.

أما كونها تمنع خروج يأجوج ومأجوج وأن الله إذا أراد ذلك نسى الناس سورة الكهف هذا لابد له من دليل وأنا لم أطلع على هذا الدليل .

يقول أحسن الله إليكم فضيلة الشيخ قلت: إن يأجوج ومأجوج قد جبلوا على الشر فكيف نوفق بين ذلك وبين ما قاله – سبحانه وتعالى – ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ لا سيماً وأنهم بشر وهل وصلهم نبي ليقيم الحجة عليهم ؟

لا شك أنهم قصروا في تزكية أنفسهم فالله – سبحانه وتعالى – قال ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾[الشمس:٧-١٠].

فيأجوج ومأجوج من الذين دسوا أنفسهم ولم يزكوها أما كونهم جاءهم نبي أو جاءهم رسول وأقيمت عليهم الحجة فإن الله تعالى قال ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[فاطر:٢٤] وقال ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[الرعد:٧] فالحجة قد قامت عليهم ولذلك يستحقون العذاب في الآخرة كما جاء في الحديث السابق .

تقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. هل يوجد علاقة بين القصص الأربعة أهل الكهف والجنتين وموسى والخضر وذي القرنين وما علاقتهم من الحماية من المسيخ الدجال ؟

أولاً: نقول شاع بين عامة المسلمين أنه إذا ذكر الدجال قالوا المسيخ الدجال بالخاء وذكر الحافظ ابن حجر أن هذا تصحيف وتحريف هو المسيح الدجال بالحاء كما يقال لعيسى بن مريم المسيح كذلك الدجال أيضاً يقال له المسيح الدجال .

وأما أن هناك علاقة بين القصص المذكور في السورة كلها وبين خروجه وعدم خروجه فهذا لم أقـرأه فيما قرأت من كتب التفاسير .

يقول كيف نوفق بين ما وصل إليه العلم اليوم من استخدام الأقمار الصناعية ودقتها في تعيين المواقع وبين وجود قوم يأجوج ومأجوج على الأرض وهم كما يفهم من الحديث عددهم كبير جداً؟

الله – سبحانه وتعالى – قال ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾[البقـرة:٢٥٥] فـالله – سـبحانه وتعالى – لم يشأ للناس أن يطلعوا على يأجوج ومأجوج وقد ذكرت آنفاً أن بنى إسرائيل لما كتب علـيهم التيـه أربعين سنة يتيهون في الأرض في صحراء سيناء الناس يروحون إلى فلسطين ويجيئون من فلسطين يخرجـون من مصر إلى فسلطين ويجيئون من فلسطين إلى مصر ومع ذلك مع كثرة الأسفار وكثرة الناس وهم في التيـه يروحون ويجيئون أيضاً لم يرَ بنو إسرائيل مسافرين ولم يرهم مسافرون، هكذا حجب الله – تبـارك وتعـالى – الرؤية عنهم حتى يتم لهم المدة التي كتبها،كذلك حجب الله – تبارك وتعالى – يأجوج ومأجوج عن الناس إلـى الأجل الذي سماه الله – تبارك وتعالى – فإذا جاء وعد ربي ساعتها سيرونهم عين اليقين بإذن الله – عزّ وجلّ – .

التفسير من أول قوله تعالى "قال هذا رحمة من ربي"

إن الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، اللهم صلي وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلي يوم الدين .

أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار ، ثم مرحبا بكم في هذا اللقاء الجديد من دروس تفسير سورة الكهف وهو إن شاء الله تعالي أخر درس في تفسيرها وقد تضمنت الآيات المباركات التي معنا منها من المعاني ما يلي:

أولا : من علامات الساعة خروج يأجوج ومأجوج .

ثانيا : براءة الصالحين ممن عبدوه من دون الله .

ثالثا : جزاء الكافرين وجزاء المؤمنين .

رابعا : النهي عن الغلو في النبي صلى الله عليه وسلم .

خامسا : التوحيد هو دعوة الرسل أجمعين .

أخيرا : شروط قبول الأعمال .

وهذا بإيجاز عرض سريع لأهم ما تضمنته الآيات المباركات الخواتيم لسورة الكهف من المعاني والتي سنعيش في رحابها ساعتنا هذه إن شاء الله تعالي .

الآيات :

(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) (صّ:٢٩)

(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (الحشر:٢١)

(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) (الزمر:٢٣)

تحدثنا في الدرس السابق عن رحلات ذي القرنين الثلاث :

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ)(الكهف: من الآية٨٦)

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ)(الكهف: من الآية٩٠)

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْماً لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً) (الكهف:٩٣)

(قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً) (الكهف:٩٤)

(قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً) (الكهف:٩٥)

(آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً) (الكهف:٩٦) أي نحاس مذابا (فَمَا اسْطَاعُوا)(الكهف: من الآية٩٧)أي ما استطاعت يأجوج ومأجوج (أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً)(الكهف: من الآية٩٧)

فلما فرغ من بناء السد نظر إليه حامدا الله شاكرا قال هذا أي هذا السد الذي أعنت على بناءه) هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي)(الكهف: من الآية٩٨) رحم الله تبارك وتعالي الخلائق كلهم من يأجوج ومأجوج بسبب بناء هذا السد ، والله سبحانه وتعالي حافظ هذا السد ومبقيه إلي أجل مسمى عنده سبحانه وتعالي ، (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي)(الكهف: من الآية٩٨) أي إذا انتهي هذا الأجل المسمى عند الله تبارك وتعالي لبقاء هذا السد (جَعَلَهُ دَكَّاءَ)(الكهف: من الآية٩٨) وهذا وعد لا يخلف) وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً)(الكهف: من الآية٩٨) (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ)(الكهف: من الآية٩٩) المراد بهذا الوعد فإذا جاء وعد ربي " المراد به قرب قيام الساعة ، فمن علامات الساعة خروج يأجوج ومأجوج من وراء السد الذي بناه ذو القرنين ، وقد أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أنه منذ بني هذا السد وهم يعملون في نقبه كل يوم حتى إذا غربت الشمس وكادوا أن ينتهوا منه قال كبيرهم ارجعوا فتأتون غدا فتتمونه فيرجعون غدا فيجدونه قد عاد كما كان قبل العمل ، وهكذا كل يوم حتى إذا جاء وعد ربي وأراد الله سبحانه وتعالي خروجهم ألهم كبيرهم أن يقول ارجعوا فتفتحونه غدا إن شاء الله تعالي ، فإذا قال إن شاء الله رجعوا في صباح اليوم التالي فوجدوا السد على هيئة ما تركوه عليه ، فأتموا عملهم وخرجوا يقول تبارك وتعالي (حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ) (الانبياء:٩٦)

والحدب : هو الأرض المرتفعة العالية .

(مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ)(الانبياء: من الآية٩٦) والنسلان هو المشي السريع

(وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا)(الانبياء: من الآية٩٧) وقد أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن خروج يأجوج ومأجوج إنما يكون بعد نزول عيسى بن مريم عليه السلام من السماء وقبله الدجال لعنه الله ، فالدجال سيخرج في آخر الزمان كما هو معلوم من الأحاديث الصحيحة ، وسينزل عيسى بن مريم عليه السلام من السماء فيقتل الدجال بباب لد بفلسطين ، ثم في زمن نزول عيسى بن مريم يخرج يأجوج ومأجوج فيوحي الله تبارك وتعالي إلي عيسى بن مريم عليه السلام إني قد أخرجت عبادك لا يدان لأحد بهم أي لا قدرة لأحد بهم ولا طاقة لأحد بهم فحرر عبادي إلي الطور هكذا يوحي الله تبارك وتعالي إلي عيسى بن مريم عليه السلام أن ينحاز بالمؤمنين معه إلي جبل الطور ويترك الأرض والبلاد والطرقات ليأجوج ومأجوج ، فيخرجون وهم من كل حدب ينسلون كما أخبرنا ربنا سبحانه وتعالي ، وجاء في الأحاديث أن أولهم يكون بالشام وأخرهم بالعراق ، وأنهم يمرون على بحيرة طبرية يمر أولهم ببحيرة طبرية فيشربونها كلها يشربون الماء كله لا يتركون منه شيئا ، حتى إذا جاء أخرهم إلي بحيرة طبرية نظروا فيها فلم يجدوا ماء فقالوا لقد كان في هذه البحيرة يوما ماء ، ثم خرجوا إلي المدينة فلم يجدوا أحدا في الطرقات ولا في البلاد ولا في المساكن والدور لأن الله تبارك وتعالي أمر عيسى بن مريم عليه السلام أن ينحاز بالمؤمنين معه في الجبال ، فلما وجدوا الطرقات

خالية والبلاد خالية اغتروا بأنفسهم وقالوا ها نحن قد غلبنا أهل الأرض ، تعالوا نغلب أهل السماء فيأخذون السهام فيرمونها إلي أعلى يحاربون بها أهل السماء فتعود إليهم ملطخة بالدماء زيادة فتنة لهم والعياذ بالله .

كل ذلك وعيسى بن مريم عليه السلام في الجبل منحاز بمن معه من عباد الله المؤمنين ، فيدعوا عيسى بن مريم عليه السلام ربه أن يخلص الناس من شر هؤلاء الناس يأجوج ومأجوج ، فيبعث الله تبارك وتعالي عليهم دودا يسمى النغف تدخل الدودة في قفا الإنسان فتصرعه فيصرعون جميعا موتة رجل واحد وعيسى بن مريم عليه السلام في الجبل يريد أن يطمئن على أحوال هؤلاء الناس يأجوج ومأجوج فيقول لمن معه من منكم يبيع نفسه لله فيخرج فينظر ماذا فعل القوم ، فيجبر الناس كلهم على الخروج لأن كل الناس قد هربوا منه فكيف يخرج لهم واحد فقط فيقول أيكم يبيع نفسه لله يخرج فينظر ماذا فعل القوم ، وهو رفيقي في الجنة فيقوم رجل فيخرج قد باع نفسه وغلب على ظنه أنه لن يعود ولن يرجع ، يخرج يتحسس أخبار القوم فإذا بهم ميتين موتة رجل واحد في الطرقات على كثرتهم ، فيرجع إلي عيسى عليه السلام فيخبره فيخرج عيسى والناس فيجدون الطرقات كلها ملئا بجسس القوم وهي نتنا ، لا يستطيعون أن يدفنوهم فيتوسل عيسى بن مريم عليه السلام إلي الله تبارك وتعالي ويدعوه أن يخلصهم من هذه الجسس المنتنة ، فيرسل الله تبارك وتعالي عليهم مطرا شديدا يحملهم إلي البحار ويخلص الناس منهم .

ثم يمكث عيسى عليه السلام في الأرض سنين تخرج الأرض بركتها وتعم الألفة والمحبة والمودة والأخوة الناس أجمعين حتى لا يبقي بين اثنين خصومة ولا شحناء ولا عداوة ولا بغضاء ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم (طوبى لعيش مع عيسى بن مريم) هكذا أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم عن وقت خروج يأجوج ومأجوج .

وقد كثرت الأسئلة في الدرس السابق عن مكان وجودهم ومكان هذا السد وكيف لا يعرفه الناس الآن مع أن العالم كله أصبح كالقرية الواحدة بوسائل الاتصالات الحديثة ووسائل الاستطلاعات الحديثة والأقمار الصناعية ونحو ذلك نقول أيها الأحبة ،

أولا : هذا كلام الله عز وجل أخبرنا عن وجودهم وراء السد ومن أصدق من الله قيلا ، ومن أصدق من الله حديثا فنحن كمؤمنين بهذا القرآن أنه كلام الله عز وجل نؤمن بأن يأجوج ومأجوج وراء السد كما أخبرنا الله وإن لم نطلع عليهم وإن لم نعرف أين يقع هذا السد ، هذا شيء .

ثانيا : أنه ليس كل موجود يرى ، فأقرب شيء إليك عقلك فهل ترى عقلك لا تراه ولا تستطيع أن تجزم بأنك غير عاقل فأنت تجزم بوجود عقلك وتزعم أنك عاقل ومع ذلك أنت لم ترى عقلك .

ثالثا : هناك عوالم من عوالم الغيب آمنا بوجودها لإخبار الله تبارك وتعالي لنا بوجودها ونحن لم نرها ، أليس الملائكة موجودين ، أليس الجن موجودين ، فلماذا نقول أن الجن غير موجودين لأننا لا نراهم ، الجن موجودون ونحن لا نراه والملائكة موجودون ونحن لا نراه ، ومما قلناه في الدرس السابق أن بني إسرائيل لما استعصوا على موسى عليه السلام وأبوا أن يدخلوا الأرض المقدسة قال الله تعالي (قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ)(المائدة: من الآية٢٦)

فكانوا في صحراء سيناء تائهين في الأرض لا يهتدون سبيلا للخروج للعودة إلي مصر ولا لدخول فلسطين ومع ذلك كانت الرحلات التجارية والقوافل السفرية مستمرة السير لم يطلع الناس على بنى إسرائيل ولم يطلع بنوا إسرائيل على الناس

حتى انتهى الأجل وهو (أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ)(المائدة: من الآية٢٦)فمكنهم الله تعالي من الاهتداء إلي الطريق ودخول الأرض المقدسة ، كذلك ياجوج ومأجوج رحم الله تعالي الناس بحبسهم وراء السد (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ (أي جعل السد) دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً)(الكهف: من الآية٩٨) (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي (الكهف:٩٩) قوله تعالي (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ)(الكهف: من الآية٩٩) عقب قوله (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ)(الكهف: من الآية٩٩)يدلك على اقتراب خروج يأجوج ومأجوج من قيام الساعة وأن خروجهم من علامات الساعة الكبرى ، إذا نزل عيسى بن مريم وقتل الدجال وخرج يأجوج ومأجوج فلم يبقي من الدنيا إلا القليل (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً)(الكهف: من الآية٩٩) (وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً) (الكهف:١٠٠)

(وَرَأى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً) (الكهف:٥٣)

(إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً) (الفرقان:١٢)

(وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً) (الفرقان:١٣)

(لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً) (الفرقان:١٤)

(الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً) (الكهف:١٠١)

كانوا لا يرون آيات الله عز وجل ولا يسمعونها فهل هم بذلك معذورون ؟ لا إن الله سبحانه وتعالي لم يسلبهم السمع ولم يسلبهم البصر ، ولكن الله سبحانه وتعالي أعطاهم السمع وأعطاهم البصر وأمرهم أن ينظروا في الملكوت من حولهم ليروا مشاهد التوحيد ودلائل التوحيد وأمرهم أن يسمعوا بآذانهم إلي آيات الله منزلة ومع ذلك كانوا كما قال نوح عليه السلام (جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً)(نوح: من الآية٧)فلما عطلوا هذه الحواس عن الاستخدام فيما خلقت له من التعرف على آيات الله الكونية وسماع آيات الله المنزلة عاقبهم الله سبحانه وتعالي فحال بينهم وبين الانتفاع بآذانهم وحال بينهم وبين الانتفاع بأبصارهم جزاء وفاقا ولا يظلم ربك أحدا ، كما قال سبحانه(وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) (الأنعام:١١٠)

وكما قال الله تعالي (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)(الصف: من الآية٥)

وقال تعالي (صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ)(التوبة: من الآية١٢٧) (وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً) (الكهف:١٠٠)

(الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً) (الكهف:١٠١)

أما السمع الذي قامت به الحجة فقد سمعوه ، وأما سمع الانتفاع فقد حال الله بينهم وبين كما قال عز وجل (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ) (لأنفال:٢٢)

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)(لأنفال: من الآية٢٣) أي سماع انتفاع فالمنفي عنهم هو سماع الانتفاع ، أما السماع الذي قامت به الحجة فقد تم وتحقق ولذلك قامت حجة الله تبارك وتعالي عليهم كما قال عز وجل (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)(الاسراء: من الآية١٥)

(الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً) (الكهف:١٠١)

ثم يبين الله تبارك وتعالي براءة عباد الله الصالحين من الملائكة والنبيين وغيرهم ممن عبدوهم في الدنيا من دون الله تبارك وتعالي فيقول (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً) (الكهف:١٠٢)

أفحسب الذين جعلوا مع الله إله أخر ، أفحسب الذين عبدوا الملائكة من دون الله ، أو عبدوا المسيح بن مريم من دون الله أو عبدوا أولياء الله الصالحين من دون الله ، (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ)(الكهف: من الآية١٠٢) أنهم بعبادتهم إياهم يرضون عنهم ويتولونهم من دون الله ، كلا ، كلا (كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً) (مريم:٨٢) ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ،(قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ) (سبأ:٤١) فإذا كان الكافرون الذين عبدوا الملائكة وبن مريم وأولياء الله الصالحين من دون الله يظنون أن الذين عبدوهم من دون الله راضين عن عبادتهم وأنهم يتولونهم بهذه العبادة فقد أخطأو في هذا الظن .)أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً) (الكهف:١٠٢) وقال بعض المفسرين (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ)(الكهف: من الآية١٠٢)ثم لا أعاقبهم على ذلك ولا أعذبهم ، أظنوا أن يشركوا بالله شيئا ويجعلوا مع الله آلهة أخرى ثم الله تبارك وتعالي لا يعاقبهم ولا يعذبهم على هذا الكفر والشرك كلا :) إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً)(الكهف: من الآية١٠٢)

وقال بعض المفسرين : (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ)(الكهف: من الآية١٠٢)وأن ذلك نافعهم يوم القيامة :لا قال تعالي (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ) (الاحقاف:٥)

(وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ) (الاحقاف:٦)

(أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً) (الكهف:١٠٢)

ثم يقول الله تعالي لنبيه صلى الله عليه وسلم قل لهم يا نبينا (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً) (الكهف:١٠٣) من هم أخسر الناس أعمالا (الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً) (الكهف:١٠٤)

هو ضال وهو يظن أنه مهتدى ومفسد في الأرض ويظن أنه مصلح ، هو سفيه ويزعم أنه مؤمن كما قال تعالي (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ) (البقرة:١١)

(أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ) (البقرة:١٢)

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ) (البقرة:١٣)

(الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً) (الكهف:١٠٤)

قال تعالي (إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ)(لأعراف: من الآية٣٠)

وقال تعالي (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) (الزخرف:٣٦) وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ، ومن كيد الشيطان بالإنسان أنه إذا أضل اجتهد على إقناعه أنه مهتدى لأن

الإنسان إذا اعتقد أنه ضال ربما رجع عن طريق الضلال إلي طريق الهدى لكن الشيطان حتى يحكم قبضته على أتباعه وأوليائه يضلهم عن سواء السبيل ويقنعهم تماما مائة في المائة أنهم مهتدون ، فهؤلاء هم أخسر الناس صفقة وأخسر الناس عمل (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً) (الكهف:١٠٣)

(الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً) (الكهف:١٠٤)

ترى من هم أولئك الناس ، من هم الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، قال تعالي (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ)(الكهف: من الآية١٠٥) فالذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا هم الكفار (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ)(الكهف: من الآية١٠٥) ولكن كل مسلم ضال مبتدع له نصيب من هذه الآية على قدر ضلاله وبدعته ، ومن هنا يجب على كل عاقل أن يزن نفسه دائما بين الحين والحين بميزان الكتاب والسنة ليرى أين هو من الكتاب والسنة فربما لبس على الإنسان فخيل إليه أنه على السنة وهو على البدعة ، ربما لبس على الإنسان فخيل له أنه على الصراط المستقيم ، وبينه وبين الصراط المستقيم بعد المشرقين فمن أراد النجاة فليحاسب نفسه بين الحين والحين وليزن نفسه دائما بميزان الكتاب والسنة حتى يعلم أنه على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً) (الكهف:١٠٣)

(الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً) (الكهف:١٠٤)

(أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ (الكهف:١٠٥)

فالكفر بالله عز وجل من محبطات الأعمال ، لا يقبل الله تبارك وتعالي من كافر عملا صالحا لا يقبل الله تعالي من كافر برا ولا خيرا ، إن عمل الكافر عملا صالحا ، إن فعل فعل خير إن فعل ، فعل بر لا يقبل منه هذا العمل ولا يثاب عليه أبدا ما دام كافرا بالله عز وجل .

يقول تعالي (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ) (ابراهيم:١٨)

ويقول تعالي (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (النور:٣٩)

(أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَ(من شدة الظلمة) وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ) (النور:٤٠)

(أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ)(الكهف: من الآية١٠٥) لأن الأعمال لا يقام لها وزن إلا بالإيمان ، ولا يثاب العامل على صالح عمله إلا إذا كان مؤمنا بالله عز وجل ، ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها يا رسول الله بن جدعان رجل من مشايخ العرب القدامى ، بن جدعان كان يقر الضيف ، ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه ؟

كان بن جدعان في الجاهلية يكرم الضيوف ويطعم المسكين ويطعم الجائع فهل ذلك نافعه فقال صلى الله عليه وسلم لا ينفعه لماذا ؟ قال إنه لم يقل يوما رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً) (الكهف:١٠٥)

ذلك أنه ليس شيء أثقل في الميزان من الإيمان بالله عز وجل فالكافرين لا يقيم الله تبارك وتعالي لهم يوم القيامة وزنا .

(ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ)(الكهف: من الآية١٠٦) جزاء الكافرين جهنم بما كفروا (ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ)(الكهف: من الآية١٠٦) بسبب بما كفروا (وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً)(الكهف: من الآية١٠٦)كانوا يستهزئون بآيات الله ويسخرون من رسل الله فكفروا برسل الله وبآيات الله فكان جزائهم جهنم (ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً) (الكهف:١٠٦)

هذا هو جزاء الكافرين في الآخرة ، فما جزاء المؤمنين

قال تعالي (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً) (الكهف:١٠٧)

إن الذين آمنوا بقلوبهم الإيمان التام المستلزم لعمل الصالحات بالجوارح ، الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ، فالإيمان ليس مجرد كلمات تنطق ولا حراف يترجمها اللسان ، ولكن لإيمان عقيدة وعمل ، عقيدة صالحة سليمة من شوائب الشرك تستقر في القلب ،وعمل صالح سليم من شوائب البدعة يظهر على الجوارح صباح مساء يصعد في السماء .

يقول تعالي (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ) (ابراهيم:٢٤)

(تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (ابراهيم:٢٥)

وهذا مثل الكلمة الطيبة كلمة التقوى ، كلمة الإيمان ، كلمة التوحيد ، كلمة لا إله إلا الله حين تتمكن من القلب وتضرب بجذورها في أرضه ترتفع أغصانها بثمارها في سماء القلب فتظهر على الجوارح أعمالا صالحا صباح مساء تصعد في السماء ، إن الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بجوارحهم (كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً)(الكهف: من الآية١٠٧) وجنة الفردوس هي أعلى درجات الجنة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وسقفه عرش الرحمن) (خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً) (الكهف:١٠٨)

وقد قلنا أن شعور الإنسان بدوام النعمة وأنه من زوالها من أسباب سعادته ومن أسباب التمتع بالنعمة أن يضمن الإنسان بقائها وأن يأمن من زوالها وفنائها ، كثير من الناس في الدنيا أنعم الله تبارك وتعالي عليهم ووسع عليهمولكنهم لا يهنئون ولا يتمتعون بهذا النعيم لماذا ؟ شبح الموت دائما يهددهم والخوف من زوال هذه النعمة دائما يعرض لهم ، فهم في قلق غير آمنين ولا مطمئنين لذلك لا تتم الفرحة بنعيم الدنيا ، أما أهل الجنة فإنهم إذا دخلوها نودو إن لكم أن تحيو فلا تموتوا أبدا وأن تصحوا فلا تسقموا أبدا وأن تشبوا فلا تهرموا أبد

ويوتى بالموت على صورة كبش أملح فيوضع على صور بين الجنة والنار فينادى يا أهل الجنة فيشرئبون ينظرون ويا أهل النار فيشرئبون ينظرون فيقال للجميع أتعرفون هذ يقول نعم إنه الموت فيذبح هذا الكبش الذي يمثل الموت وينادى يا أهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت . (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً) (الكهف:١٠٧)

خالدين فيها وما هم منها بمخرجين ومع طول الحياة وطول المدة وطول البقاء لا تتطلع أنفسهم إلي التحول ولا إلي التغيير والتبديل . (لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً)(الكهف: من الآية١٠٨)يعني هم لن يخرجوا من الجنة لن

يخرجهم مخرج من الجنة ، دخلوها لن يخرجوا منها ، مع طول البقاء وطول الألفة ومدى الحياة حياة دائمة لا نهاية لها هل يصيبهم سئامة وملل أو يخطر ببالهم أن ينتقلوا من هذه الدار إلي دار أخرى كلا (لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلً)(الكهف: من الآية١٠٨) ، أنت في الدنيا دائما تتطلع إلي التغيير ، تكون في المدينة تسكن في الفلل وفي القصور إلا أنك أحيانا تشتاق إلي أن تخرج في البرية وتقيم في الصحراء ببيت من (كلمة غير مفهومة) تجلس فيه في الفضاء الواسع ، وأحيانا تنزل من المدينة إلي القرية ذات الدور من الطين وغير مؤسسة وغير مجهزة ، أنت أحيانا تمل وتسأم من طول بقائك في القصور والفلل والعمارات فتحاول أن تغير أحيانا ، أما أهل الجنة فمع طول البقاء ودوام البقاء وعدم النهاية (لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلً)(الكهف: من الآية١٠٨)

ثم يقول تعالي لنبيه صلى الله عليه وسلم قل لهم يا نبينا (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً) (الكهف:١٠٩)

المدد : الزيادة والبحر اسم جنس ليس مراده بحرا معينا وإنما البحر اسم جنس ولذلك قال (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ (والسبعة بالمثال وليس بالحرف أيضا ولنا كناية عن الزيادة) مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ) (لقمان:٢٧) لأن البحر والمداد والأقلام لها نهاية وكلمات الله لا نهاية لها ولا نسبة بين ما ينتهي مع ما لا ينتهي أبدا .

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً) (الكهف:١٠٩)

وتختم السورة بقول الله تعالي لنبيه صلى الله عليه وسلم

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)(الكهف: من الآية١١٠) قل لهم يا نبينا (إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)(الكهف: من الآية١١٠) أعجز عن ما تعجزون عنه ، وقد عجزتم مجتمعين عن الإتيان بسورة من مثل هذا القرآن ، فكيف أقدر أنا الواحد على ما عجزتم عنه جميعا (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)(الكهف: من الآية١١٠) جئتكم بهذا القرآن من عند الله ، فزعمتم أنني افتريته من عند نفسي ، أنا بشر مثلكم أعجز عن ما تعجزون عنه وأضعف عن ما تضعفون عنه وقد طلبت منكم أن تأتوا بسورة من مثل هذا القرآن ، فلو اجتمعتم فعجزتم فأنا بالتالي أعجز عن أن أتى بمثل هذا القرآن من عند نفسي ، فدل عجزكم على عجزي فثبت أن القرآن وحي الله تبارك وتعالي إلي ، وقد أخبرتكم في هذه السورة سورة الكهف بقصص كقصة أصحاب الكهف ، وقصة ذي القرنين ، وفيها من علم الغيب ما لا يعلمه إلا الله وما كان لي أن أعلم هذا القصص وأنبائه وأخباره إلا بوحي الله تبارك وتعالي إلي كما قال عز وجل (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً) (الجن:٢٦)

(إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)(الجن: من الآية٢٧) (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)(الكهف: من الآية١١٠) هذا توجيه ، والتوجيه الثاني : (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)(الكهف: من الآية١١٠) فكيف تقترحون علي أن آتيكم بآية أي بمعجزة (وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)(غافر: من الآية٧٨) لماذا تقترحون علي الآيات (نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً)(الاسراء: من الآية٩٠) لماذا تطلبون مني هذه الآيات (قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً)(الاسراء: من الآية٩٣) أنا بشر مثلكم لا أستطيع أن آتي بآية إلا بإذن الله عز وجل (وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)(غافر: من الآية٧٨) فلا تسألوني ما لا أملك ولا تسألوني ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالي .

ثم توجيه ثالث : (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)(الكهف: من الآية١١٠)قل يا نبينا لأصحابك (إنما أنا بشر مثلكم فلا تطروني كما أطرت النصارى بن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله) ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر من نهي عن أصحابه عن اطرائه وعن الغلو فيه ، جاءه رجل يقول ما شاء الله وشئت يا رسول الله فغضب وقال أجعلتني لله ندا قل ما شاء الله وحده ، يقول أنس بن مالك رضي الله عنه لم يكن شخص أحب إلي

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع ذلك كان إذا دخـل علـيهم لا يقومون له لما يعلمون من كراهيته لذلك (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)(الكهف: من الآية١١٠) لكنني تميـزت علـيكم بشيء وهو الوحي (يُوحَى إِلَيَّ)(الكهف: من الآية١١٠) هذا هو الذي فضلني الله به عليكم إنما أنا وأنـتم فـي البشرية سواء لكن الله فضلني عليكم بأن اصطفاني لوحيه (يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُـمْ إِلَـهٌ وَاحِـدٌ)(الكهـف: مـن الآية١١٠)

وهذا هو وحي الله تبارك وتعالي إلي جميع الأنبياء والمرسلين ، فالتوحيد هو دعوة جميع الرسـل ، ولـذلك اتفقت كلمة الأنبياء على(يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)(لأعراف: من الآية٥٩) قال تعالي (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) (الانبياء:٢٥)

وقال سبحانه (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) (النحل:١)

(يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ) (النحل:٢)

فالتوحيد هو دعوة جميع الرسل كلهم دعوا إلي إفراد الله تبارك وتعالي بالعبادة (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً) (الكهف:١١٠)

هذا الجزء الأخير من الآية تضمن شروط قبول الأعمال وأن شروط قبول الأعمال ثلاثة : الإيمان ، والمتابعة ، والإخلاص .

الإيمان : دل عليه قوله تعالي (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ)(الكهف: من الآية١١٠) لأن الكافر لا يرجوا لقـاء ربه (إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ) (يونس:٧)

(أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (يونس:٨)

فقوله تعالي (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ)(الكهف: من الآية١١٠) دل على اشـتراط الإيمـان لقبـول الأعمال (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ)(الكهف: من الآية١١٠) من كان يرجوا رؤية الله ويرجوا ثـواب الله فليعمل ، أما أن ترجوا رؤية الله وترجوا ثواب الله بلا عمل فهذه أماني بعيدة التحقق ، ما بال دينك ترضـى أن تدنسه ، وثوبك الزهر مغسول من الدنس ، ترجوا النجاة ولم تسلك طريقتها ، إن السفينة لا تجري على اليبس .

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ)(الكهف: من الآية١١٠) يقول الحسن البصري رحمه الله (ليس الإيمـان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل)

)مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)(الكهف: من الآية١١٠) والعمل الصالح هو الموافق للـسنة ، هو ما كان على هدى النبي صلى الله عليه وسلم .

والشرط الثالث الإخلاص وقد دل عليه قول ربنا : (وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)(الكهف: من الآية١١٠)شركا أكبر ولا شركا اصغر (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)(الكهف: مـن الآية١١٠) فإذا رزقت أيها المؤمن الإيمان بفضل الله عز وجل فاجتهد في الشرطين الأخيـرين ، اجتهـد فـي الإخلاص لله ، والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإن عدم الإخلاص يمنع القبول ، وعدم موافقة الـسنة يمنع القبول أيضا يقول النبي صلى الله عليه وسلم قال الله تعالي (أنا أغني الشركاء عن الشرك من عمل عمـلا

أشرك فيه معي غيري تركته وشركه) ويقول في متابعة السنة (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) نسأل الله تبارك وتعالي أن يرزقنا الإخلاص في أقوالنا وأعمالنا وأن يرزقنا حب نبينا واتباعه حتى يرضي عنا ويتقبل أعمالنا إنه ولي ذلك والقادر عليه ، هذا والحمد لله رب العالمين وصلي اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سؤال :

لقد قلتم أن عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام حينما ينزل فإنما أن يسلم الإنسان أو أن يقتل فلا يوجد جزية ولكن قال الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث طويل عن عيسى يقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية فهل هذا الحديث صحيحا ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

يضعها بمعني يرفعها ، يضعها لا بمعني يفرضها وإنه معني يرفعها لأن الجزية مفروضة في شريعة محمد صلى الله عليه وسلم على لسان مجمد صلى الله عليه وسلم فإذا جاء عيسى وضعها أي رفعها ونسخها ، وهذا بشرع محمد صلى الله عليه وسلم وليس بشريعة عيسى لأن عيسى عليه السلام حين ينزل لم ينزل نبيا مشرعا ، وإنما ينزل عاملا بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم فالنبي عليه الصلاة والسلام هو الذي أخبرنا بأن الجزية مقبولة من الكفار عند الجهاد حتى ينزل عيسى فإذا نزل عيسى لم يقبل جزية إما الإسلام وإما القتل ، ونبشر أخانا السائل من سورية بأن عيسى بن مريم عليه السلام أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أنه سينزل عندهم عند المنارة البيضاء شرقي دمشق .

سؤال :

ذكرت يا شيخ حديث حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم لصحابته الواحد منكم والألف من يأجوج ومأجوج لما كبر عليهم قول الله سبحانه وتعالي لآدم عليه السلام (أخرج أهل النار من ذريتك من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون في النار) سؤالي يا شيخ إن كان الواحد الذي يدخل وهو من المؤمنين والتسعمائة وتسعة وتسعين الذين يدخلون النار هم يأجوج ومأجوج ، فماذا عن الكفار ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

لعل هذا ليس هذا نفيا لعدم دخول الكفار النار ولكن المراد بهذا الحديث بيان كثرة عدد يأجوج ومأجوج ، وأما الكافرون من يأجوج ومأجوج ومن غير يأجوج ومأجوج هم في النار أيضا)إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ)(المائدة: من الآية٧٢).

سؤال :

ما الفرق بين اسطاعوا واستطاعوا ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

هي من حيث المعني واحد من جهة الاستطاعة والقدرة والتمكن ولكن فرقنا في اللفظين بأنه في الأولى بدون تاء تخفيفا على اللسان وفي الثانية تاء من باب الثقل لأن ارتقاء السد وعلوه والنزول من الناحية الأخرى هذا أسهل من النقب الذي يحتاج إلي آلات وحفر وعمل أياما كثيرة فقال (فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ)(الكهف: من الآية٩٧) لأن أن يظهروه أسهل من أن ينقبوه ، قال (وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْب)(الكهف: من الآية٩٧).

سؤال :

هل هناك شروط خاصة للتوبة من التوسل الشركي الذي قد يقع حين البعض من خلال إفراد بعض الصالحين بعبادة (كلمة غير مفهومة) ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

التوبة شروطها عامة ، التوبة من جميع الذنوب شروطها عامة وهي الإقلاع من الذنب ، والندم عليه ، والعزم على ألا يعود ، أيا كان هذا الذنب كفرا أو شركا أو توسلا بدعيا أو توسلا شركيا ، أو الزنا أو القتل ، أيا كان الذنب فشروطه كما قال العلماء إقلاع من الذنب ، والندم عليه ، والعزم ألا يعود إليه .

لكن الله سبحانه وتعالي قال (وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) (هود:١١٤) وقال الرسول صلى الله عليه وسلم وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، فقال العلماء على التائب من الذنب أن يكثر من ضده من الطاعة ، كان إنسان مبتلي بسماع الأغاني المحرمة فإذا تاب يكثر من سماع القرآن الكريم ، كان إنسان مبتلي بالتوسل الشركي وتوسل بدعي فإذا تاب يكثر من التوسل السني الصالح الموافق للشريعة وهكذا يكثر من ضد الذنب الذي تاب منه ، والله يتوب عليه .

سؤال :

نرجو تفسير واضح لقوله تعالي (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَد) (الكهف:١٠٩)

أجاب فضيلة الشيخ :

الكلام صفة من صفات الله عز وجل فلو أن الله سبحانه وتعالي تكلم بكلام وكتب هذا الكلام بأقلام من أشجار الأرض كلها ومداد من بحار الأرض كلها لنفذت الأقلام والبحار قبل أن ينفذ كلام الله سبحانه وتعالي .

سؤال :

بالنسبة للمؤمنين اللي هيكونوا مع المسيح في نهاية الوقت من أهل الشام والعراق المؤمنين اللي موجودين في المنطقة دي بس ولا الأرض كافة ، وهل لهذا علاقة بتحرير بيت المقدس ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

عيسى عليه السلام سينزل في زمان محمد بن عبد الله المهدي رضي الله عنه ومحمد بن عبد الله المهدي رضي الله عنه سيكون سيجعل القدس عاصمة الخلافة الإسلامية في زمانه ومعلوم أن الناس تبعا لخليفتهم وأميرهم وإن بعدت بينهم المسافات فينزل عيسى بن مريم في زمان المهدي بفلسطين فيكون عيسى بفلسطين

ونحن نحبه ونتبعه وإن كنا بعيدين عنه بأجسامنا ، ومن أدرك ذلك الزمان واستطاع أن يهاجر إلي فلسطين ليقيم مع المهدي وعيسى بن مريم فهنيئا له .

سؤال :

الأسباب المعينة على الصبر في التعلم ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

أولا : كثرة القراءة فيما جاء في فضل العلم والاشتغال به من القرآن الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم .

ثانيا : قراءة سير أعلام النبلاء من علماء الأمة الذين رفع الله تبارك وتعالي ذكرهم ، قراءة سيرتهم والنظر في حياتهم وكيف كانوا يؤثرون طلب العلم على كل شيء حتى أنه مما قرأناه أنه كان بعض الطلاب يجتمعون لمدارسة فيضعون الطعام بين أيديهم ، تمضي الليلة وهم لا ينتبهون إلي الطعام من انشغالهم بالمدارسة والمداركة والمذاكرة ، فقراءة ما جاء في القرآن الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم في فضل العلم والاشتغال به وقراءة سيرة السلف الصالح والعلماء كل ذلك إن شاء الله يقوي العزائم ويعين على الصبر والتضحية من أجل تحصيل العلم .

سؤال :

قالت لي معلمتي أنه لا يجوز إن الإنسان يقرأ من أول البقرة حتى الناس ، هو لا يصح هذه القراءة ، حتى لا يقع في اللحن الجلي ، وأنا صححت مع معلمتي عشرة أجزاء فتقول اقرأيهم واجعليهم وردا لكي ولا عليكي أن تقرأى من البقرة وتختمي كل شهر القرآن فاقرئى الذي صححتيه على معلمتك فقط لأن كام قارئ للقرآن والقرآن يلعنه ، فهل هذا صحيح ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

هي حفظت عشرة أجزاء وصححتها ما أظن أن من صحح عشرة أجزاء وعلم أحكام التجويد فيها ما أظنه يصعب عليه أن يصحح قراءته بدون معلمه في الأجزاء الباقية ، فلذلك أنصح هذه السائلة بألا تحرم نفسها من قراءة القرآن ومن ختمه ولو مرة في الشهر مع التركيز على المحفوظ من أجل مراجعته إن شاء الله ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول (الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران) أجر القراءة وأجر التعتعة .

سؤال :

كما ذكرت أنه هناك (كلمة غير مفهومة) شديدة (كلمة غير مفهومة) تكون في اقناع العاصي الذي يعرف أنه يرتكب معصية لكن ناتج فعلا صعوبة شديدة في إقناع المبتدع الذي يظن أنه على حق ولذلك لتمكن الشيطان منه كما ذكرت فضيلتكم فهل حضرتك تنصحنا بنقاط عملية نبتدئها (كلمة غير مفهومة) لمساعدة هؤلاء الضالين وإقناعهم بضالتهم خاصة إذا كان هذا (كلمة غير مفهومة) من الحافظين لكتاب الله والدارسين العلم الشرعي ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

النصيحة بأننا نتنزه عن الجدال فإذا رأينا إنسانا على بدعة وذهبنا إليه لنذكره بدعته والإقلاع عنها فرأينا منه سهولة ولينا وقبولا واستماعا فهذا نستمر معه في النصيحة والتذكرة ونأتيه بالكتب الصغيرة والكبيرة وأشـــرطة العلماء في التحذير من البدع وأهلها حتى يأخذ الله تبارك وتعالي بيديه ، أما إذا رأينا من المبتدع جدالا ومحاولة الرد علينا فقد قيل للإمام مالك رضي الله عنه الرجل يكون عالما بالسنة أيجادل عنها ؟ قال لا وإنما يطرحها فإن قبلت وإلا سكت ، فهذا هو شأننا مع المبتدعة إن وجدنا لينا وقبولا وحسن استماع وإنصات استمرينا في الدعوة والنصيحة ، وإن وجدنا جدالا وإصرارا على البدعة تركناهم وشأنهم والله الهادي إلي سواء السبيل .

سؤال :

ورد في الحديث أنه من يحفظ عشر آيات من أول الكهف فإنه يعصم من الدجال ، وفي رواية أخرى من أخر سورة الكهف ، ما هو القول الصحيح ، هل هو من أول السورة أم من أخرها ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

الروايتان صحيحتان فإذا جاءت رواية بمن حفظ عشر آيات من أول الكهف ورواية بمن حفظ عشر آيات من أخر الكهف ، يلزمنا نحفظ عشرا وعشرا وعشرة وعشرة يبقي عشرين يبقي بقي في السورة ثمانين أو تسعين آية فلنجتهد على حفظها وما أسهل حفظ سورة الكهف مع كثرة تلاوتنا وقرائتنا لها إن شاء الله تعالي .

سؤال :

قال الشيخ أن عيسى والمؤمنون سيكونون وراء الجبل احتماء من يأجوج ومأجوج فأين سيكون الكافرين مـــن أهل الأرض ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

الله تعالي أعلم .

سؤال :

هل هناك حديث يخرج الأعور الدجال من خرسان ومعه سبعين ألف لواء يهودي ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

أي نعم حديث صحيح .

سؤال :

عندما سئلت عن الزندقة في درس سابق أجبت أن الزنديق لفظ يراد به الإلحاد والكفر والشرك بالله ســبحانه وتعالي ،وقلت مطلق لفظة زنديق على الملحد الكافر المشرك ونحن علمنا في مجمل اعتقاد أهل السنة والجماعة أن هناك قول للعلماء من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، والزنادقة هم الذين يزعمون أنه يكفيهم حب الله عن عبادته ولا يقرنون المحبة بالخوف والرجاء بل يعبدون الله بالحب وحده ، وقيل التزندق هو الاستهتار بالدين فلا ينتهي عما نهى الله عنه ، فهل لك من تعليق يا شيخ على هذا ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

التعليق أنه هو ما ذكرته إنما هو أمثلة للكفر والشرك الذي يستغني عن عبادة الله بادعاء حب الله يقول أنا أحب الله ولا أعبده يكفيني أنا أحبه أليس هذا كفرا ، والذي يستهزأ بالآيات وأحكام الشريعة أليس هذا كفرا ، فهي ما ذكرته إنما هي أمثلة ونحن أجملنا قلنا أن الزنديق لفظ يطلق على الملحد والمشرك والكافر وما ذكرته هي إنما هي أمثلة لأنواع من الكفر .

سؤال :

من الراجح في أقوال العلماء أنه لا يقرأ القرآن سواء حفظا عن ظهر قلب أو مسا للمصحف من لديه عذر شرعي إلا لضرورة هل قراءة سورة الكهف يوم الجمعة ضرورة وهل يقراها حفظا من لديه عذر شرعي ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

زادها الله حرصا ، لا أرى مانعا من قراءة سورة الكهف في يوم الجمعة مع وجود العذر الشرعي عند المرأة .

سؤال :

لماذا لم يخبر الخضر موسى عليه السلام بتأويل كل حادثة عند حدوثها ربما لو سمع موسى تأويل الحادثة الأولى لم يسأل بعدها وتعلم أكثر ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

الله تعالي أعلم .

سؤال :

هل القوم الذين لم يدعوا الله لهم من دونها سترا يعني أنهم كانوا أيضا عراة ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

ذكر ذلك بعض المفسرين ولكننا لا ندري مدى صحته .

سؤال :

القوم الذين لا يكادون يفقهون شيئا ، كيف استطاع ذي القرنين أن يفهمهم ؟ أجاب فضيلة الشيخ :

من تمكين الله لهم في الأرض .

سؤال :

رأيت في برنامج يحكي قصص شخصيات إسلامية أن أول مرة عندما بلغ المسلمون القطب الشمالي تعجب) الخليفة في ذلك الزمان من خبر شروق الشمس طويلا لمدة ستة أشهر بدون غياب قال له علماء عصره أن الله تبارك وتعالي قال (حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا) (الكهف:٩٠)

أي أن ذو القرنين ذهب للقطب ووجد حين ذهابه الشمس في فترة شروقها لستة أشهر لكني مع الأسف لم أتذكر عصر الخليفة ومن هو ومن أفتاه بهذا فهل هذه القصة لها أصل ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

لا أعرفها .

وهل أنا آثمة برواية هذه القصة على ملأ من الأخوات وقد ضمنت صحتها حتى بحثت في كتب التفسير لم أجد لها أثرا في أقوال السلف .

أجاب فضيلة الشيخ :

ليست آثمة إن شاء الله وزادها الله حرصا ، والحرص على طلب العلم والبحث محمود وليس مذموم فهي محمودة على حرصها وبحثها ومحاولتها الزيادة من العلم وليست مذمومة فضلا على أن تكون أثمة إن شاء الله .

سؤال :

هل يجوز عامة أن يحمل تفسير آية من كتاب الله (كلمة غير مفهومة) يخبر به السلف الصالح في القرون المفضلة ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم هكذا قال بن مسعود رضي الله عنه .

سؤال :

هل يصلح ما أمر الله سبحانه وتعالي به عيسى بن مريم أنه قد (كلمة غير مفهومة) دليل على أنه إذا واجه المسلمون قوم لا طاقة لهم بمحاربتهم على المنع من مواجهتهم ، وما توجيهكم إذا حدث هذا بفئة أو بشعبة من شعوب المسمون في مكان قد حصروا فيه ، فالحال كما نراه أن الحدود التي تحد بلاد المسلمين قد حاصرتهم وقد يسعى عدوهم استفزازهم وهم لا طاقة لهم بمحاربته ولا مكان لهم يتحرزون فيه من عدوهم هل يصبرون على أذى عدوهم ؟ وإن كان هذا (كلمة غير مفهومة) العدو على الشعب المسلم قتل أنفس أو تدمير بيوت أو قطع طرق وتضييق (كلمة غير مفهومة) أن يكون بجهاد عدوهم لما قد يشفي شيئا من غليلهم مع أنه لا يؤدي إلي توقف عدوهم عن الاعتداء بل قد يستفزهم إلي المزيد من القتل والتدمير والتضييق ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

فرج الله الكرب وعجل بالنصر الله تبارك وتعالي قال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (آل عمران:٢٠٠)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم (واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العس يسرا) فاصبروا واحتسبوا عسى أن يكون الفرج قريبا إن شاء الله .

سؤال :

قرأت في الكتاب عن أبي هريرة الذي قال النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال فتح اليوم (كلمة غير مفهومة) يأجوج ومأجوج مثل هذا وعقد التسعين أخرجه البخاري ومسلم من حديث (كلمة غير مفهومة) فما مدى موافقة ذلك هل كبيرهم قال إن شاء الله في ذلك الوقت ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

دخل النبي صلى الله عليه وسلم على إحدى نسائه ذات ليلة وهو يقول لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من رم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها يعني السبابة ، ومثل هذه الحلقة حين تفتح من السد لا تسمح بخروج جزء من رجل فضلا عن رجل أو رجال فهذا لا ينفي ما ذكرناه من أنهم ينقبون كل يوم فهذا حديث رواه بن ماجة وصححه شيخنا الألباني رحمه الله أنهم ينقبون كل يوم حتى إذا كادت الشمس أن تغرب قال كبيرهم ارجعوا ستفتحونه غدا وهكذا كل يوم إلا أن يأذن الله بخروجهم فيقول ستفتحونه غدا إن شاء الله فيأتونه فيجدونه على الهيئة التي تركوها عليه فيتموا النقب والعمل ثم يخرجون ، فهذا حديث أيضا وليس مجرد كلام ، والجمع بين الحديثين أن ما فتح هكذا لا يمكن إنسان أن يخرج يده فضلا عن يخرج هؤلاء الجمع الغفير الكثير من يأجوج ومأجوج .

سؤال :

هل نحن على اثم في الاستماع ، هل استماعنا وتطبيقنا لهذه الأوامر والنواهي هل احنا على اثم في ذلك أو لا ؟ لأن الشيخ قال لنا إما أن يكون حجة أو أن هذا (٩ قد يكون (كلمة غير مفهومة) ، هل على اثم في ذلك ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

كأنها تريد أننا قلنا في حديث النبي صلى الله عليه وسلم قال والقرآن حجة لك أو عليك ، كأنها تريد أن تقول متى يكون القرآن حجة علينا ، ومتى يكون حجة لنا ؟ والجواب أننا بفضل الله عز وجل نتعلم ونستعين بالله تبارك وتعالي على العمل فإذا رزقنا العلم والعمل معا فذلك فضل الله تبارك وتعالي وإن قصرنا أحيانا فتركنا بعض ما تعلمناه من الواجبات أو ارتكبنا يعض ما تعلمناه من المحرمات فإننا نستغفر الله تبارك وتعالي ونتوب إليه وحين إذن يكون القرآن هو كل ما نتعلم علوم شرعية حجة لنا بإذن الله ، أما الذي هو حجة عليه هو الذي يتعلم ولا يعمل أبدا والعياذ بالله ويكون عالما بأنه غير عامل ويصر على عدم العمل فذلك هو الذي يكون علمه حجة عليه نعوذ بالله من الخذلان ونسأله الهداية والتوفيق .

سؤال :

كثير من الناس يفهمون حديث إنما الأعمال بالنيات أن المهم هو النية السليمة بغض النظر عن صلاح العمل هذا يظهر كثيرا في إنكار المنكر ، فماذا تستطيع أن نقول لهم ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

كثير من الناس يرون حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم إن الله لا ينظر إلي أجسامكم ولا غلي صـــوركم ولكن ينظر إلي قلوبكم ، وينتهون عند هذا اللفظ فنقول لهم هذا الحديث فيه نقص فيه زيادة غيـــر موجـــودة لـــم تبلغوها وانتم بهذا فالقارئ يقرأ فيقول فويل للمصلين ويسكت لو قرأت فويل للمصلين فلابد أن تقول الذين هم عن صلاتهم ساهون ، وكذلك قولهم إن الله لا ينظر إلي أجسامكم ولا إلي صوركم ولكن ينظر إلي قلـــوبكم ، فربنـــا رب قلوب المهم إن النية تكون سليمة ، فمثلا إنسان يصافح امرأة فإذا قلت له المصافحة حرام يقولك ربنـــا رب قلوب والله أنا نيتي سليمة ، النية هنا لا تسمن ولا تغني من جوع ، الحديث إن الله لا ينظر إلي صوركم ولا إلي أجسامكم ولكن بنظر إلي قلوبكم وأعمالكم ، فلابد من العمل مع النية ، اللهم إلا أن تنوي خيرا ثم تعجز عنه فإنك مأجور بنيتك ومن هنا قيل نية المرء خير من عمله ، متي إذا عزمت على فعل الخير ثم عجـــزت عنـــه فأنـــت مأجور بالنية كما قال النبي صلى الله عليه وسلم إذا أوى الرجل إلي فراشه وهو ينوى أن يقوم من الليل يـــصلي فغلبته عينه كتب له أجره وكان نومه صدقة من الله عليه يعني أنت كمسلم حين تنام بالليل تقول أنا إن شـــاء الله أقوم قبل الفجر بساعة أصلي قيام الليل وتعزم على ذلك وتأتني بالمنبه فتضبط الوقت على قبل الفجر بساعة وتنام عازم على أن تقوم قلب الفجر بساعة تصلي فإذا بك لا تستيقظ إلا مع طلوع الفجر وربما أحيانا بعد طلوع الفجر أنت نمت عازما على أن تقوم بالليل تصلي فيكتب الله لك أجرك ويكون نومك صدقة من الله عليك وقال النبـــي صلى الله عليه وسلم إنما الدنيا لأربعة نفر رجل أعطاه الله علما ومالا فهو يعمل بعلمه في ماله يتقي فيـــه ربـــه ويصل فيه رحمه فهذا بأعلى المنازل ، ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا فهو يقول لو أن لي مثل مـــال فـــلان لعملت به أو فيه بعمل فلان فهما في الأجر سواء ، هذه معني نية المرء خير من عمله مش على الإطلاق تقول أنا نيتي سليمة ثم لا تعمل الخير أبدا أو تفعل الشر المحرم الذي حرم الله عليك وتقول نيتي سليمة هذا كلام خطأ يجب أن يصحح للعامة بالحكمة والموعظة الحسنة .

سؤال :

المفسرين المعاصرين يقولون في قول الله سبحانه وتعالي " حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج " كلمة فتحـــت لا تحتمل لغة أن يكون م سيفتح هو السد جاء في الحديث الشريف أن الرسول صلى الله عليه وسلم استيقظ من نومه فزعا وقال ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من رمي يأجوج ومأجوج إلي أخر الحديث وهذا يشير إلـــي تزامن بدايات انهيار السبت مع بداية مرحلة العالمية واختلاط الأمم التي جاء الإسلام ليحققها ولا شك أن كلمـــة يختلط لا تفي هنا بالغرض بل يموج لأن الاختلاط لا يدل على الكثرة الهائلة وكل ذلك بعض إيحـــاءات كلمـــة يموج أما كلمة تركنا في قوله تعالي (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ)(الكهف: من الآية٩٩) فتوحي بالمنع السابق تستمر مرحلة موج الأمم في بعضها إلي يوم القيامة (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِـــخَ فِـــي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْع) (الكهف:٩٩)

ولكن هذا الموج لا يذهب بخصوصيات الأمم وتميزها بدليل أن يأجوج ومأجوج الذين أفسدوا في مرحلة تبلور شخصيات وخصوصيات الأمم سيعاودون الكرة فيكون الوقت الذي تقترب فيه وظيفة الدين الدنيوية من نهايتهـــا تقترب نهاية وظيفة العرب أيضا ، فما نصيحتكم لنا لمثل هذه التفسيرات ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

إحذروا مثل هذه التفسيرات فهذا تحريف للكلم عن مواضعه كما حرفوا الدجال وكما حرفوا بعـــض أمـــارات الساعة الثابتة في القرآن والسنة فهذا من تحريف الكلم عن مواضعه فيجب على المسلم أن يكون حذرا من مثـــل هذه التفسيرات ، النصوص باقية على ظواهرها ولا يجوز تأويلها بغير تأويل السلف لها ، السلف كـــانوا أعلـــم وعلمهم كان أحكم .

سؤال :

القوم الذين لا يفقهون قولا طلبوا من ذي القرنين أن يبنوا لهم سدا لكن ذي القرنين قال سأبني لكم ردما ، هل هناك فرق بين السد والردم ، أم المعني واحد ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

لما بنى السد ردم ما بين الجبلين ردم الفتحة فأغلقها فكان سدا فالسد والردم معني واحد .

سؤال :

كيف يا شيخنا الوقت قصير بعد خروج يأجوج ومأجوج وعيسى عليه السلام يقعد سنين كما قلت بالناس حتى يموت يأجوج ومأجوج ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

لو تصورت مثلا أن بعد عيسى بن مريم يعيش الناس مائة سنة ما قيمة المائة سنة بالنسبة لما مضى من العمر الدنيا وأمثالها ، لا شيئا فكون عيسى يعيش في الأرض بعد خروج يأجوج ومأجوج سنين أربعين أو أكثر أو اقل هذا ليس معناه أنه اقترب الوعد الحق كما قال ربنا سبحانه وتعالي ، الله سبحانه وتعالي منذ أن أنزل القرآن قبل أربعة عش قرنا اقتربت الساعة فهذا قرب له معناه ، واقترب الوعد الحق بعد خروج يأجوج ومأجوج (كلمة غير مفهومة) قرب له معناه .

سؤال :

هل يجب لطالب العلم أن يبدأ بحفظ أجزاء القرآن الكريم قبل دراسة مواد الأكاديمية من فقه وعقيدة وحديث إلي أخر العلوم برجاء النصيحة ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

كان السلف الصالح رضوان الله عليهم إذا جاءهم الطالب يطلب العلم سألوه هل حفظت القرآن فإن قال لا ردوه وإن قال نعم امتحنوه ، فحفظ القرآن الكريم أولا لكن الآن نحن تأخرنا في طلب العلم طلبنا العلم ونحن كبار فهناك الآن عندنا من (كلمة غير مفهومة) من العلم الكثير الكثير العقيدة في أربعين ، الفقه في العبادات العينية في أربعين وهكذا فلا نقول اتركوا طلب العلم حتى تحفظوا القرآن الكريم ولكن نقول ابدأو بحفظ القرآن الكريم وطلب العلم الذي فرضه الله عليكم مها اطلبوه معا وأعطوا القرآن أولوية حتى تنتهوا من حفظه إن شاء الله تعالي .

سؤال :

ما نصيحتكم للروافض الذين فسروا الآيات التي نزلت في الكفار وهم جعلوها في أبي بكر وعمر رضي الله عنهم وهذه الآية التي ذكرتها قول الله عز وجل (الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْع) (الكهف:١٠٤)

يقولون نزلت في أبي بكر وعمر وما حكم من يسب (كلمة غير مفهومة) الصحابة الكرام وما ردكم ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

نقول حسبنا الله ونعم الوكيل ورضي الله عن أصحاب النبي (كلمة غير مفهومة) أجمعين وهدى الله من سبهم ولعنهم لا شك أن لعن الصحابة كبيرة من أكبر الكبائر نسأل الله للجميع الهداية والتوفيق .

سؤال :

ما هي المحبطات للأعمال غير الكفر وهل عقوق الوالدين محبط للعمل ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

نسأل الله السلامة والعافية نعم عقوق الوالدين من محبطات الأعمال فقد جاء رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أرأيت إن صليت الخمس وصمت رمضان وأعطيت زكاة مالي وحججت البيت ءأدخل الجنة قال نعم إلا أن تعق والديك ، فعقوق الوالدين من محبطات الأعمال فعلى المبتلى بالعقوق أن يبادر بالتوبة إلي الله سبحانه وتعالي وإن كان الوالدان ما زال على قيد الحياة فليبدل عقوقهم برا وإحسانا لهما حتى يرضين عنه ، وإن كان قد ماتا فعليه مع الاستغفار والتوبة أن يكثر من الدعاء والترحم عليهما ، عسى الله أن يتوب عليه وعلى أبويه .

سؤال :

هل يوم القيامة لازم أن يكون يوم جمعة ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم في الأحاديث الصحيحة أنه لا تقوم الساعة إلا يوم الجمعة .

التفسير من أول قوله تعالى "قال هذا رحمة من ربي"

إن الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، اللهم صلي وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلي يوم الدين .

أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار ، ثم مرحبا بكم في هذا اللقاء الجديد من دروس تفسير سورة الكهف وهو إن شاء الله تعالي أخر درس في تفسيرها وقد تضمنت الآيات المباركات التي معنا منها من المعاني ما يلي:

أولا : من علامات الساعة خروج يأجوج ومأجوج .

ثانيا : براءة الصالحين ممن عبدوه من دون الله .

ثالثا : جزاء الكافرين وجزاء المؤمنين .

رابعا : النهي عن الغلو في النبي صلى الله عليه وسلم .

خامسا : التوحيد هو دعوة الرسل أجمعين .

أخيرا : شروط قبول الأعمال .

وهذا بإيجاز عرض سريع لأهم ما تضمنته الآيات المباركات الخواتيم لسورة الكهف من المعاني والتي سنعيش في رحابها ساعتنا هذه إن شاء الله تعالي .

الآيات :

(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) (صّ:٢٩)

(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (الحشر:٢١)

(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) (الزمر:٢٣)

تحدثنا في الدرس السابق عن رحلات ذي القرنين الثلاث :

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ)(الكهف: من الآية٨٦)

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ)(الكهف: من الآية٩٠)

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْماً لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً) (الكهف:٩٣)

(قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً) (الكهف:٩٤)

(قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً) (الكهف:٩٥)

(آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً) (الكهف:٩٦) أي نحاس مذابا (فَمَا اسْطَاعُوا)(الكهف: من الآية٩٧)أي ما استطاعت يأجوج ومأجوج (أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً)(الكهف: من الآية٩٧)

فلما فرغ من بناء السد نظر إليه حامدا الله شاكرا قال هذا أي هذا السد الذي أعنت على بناءه) هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي)(الكهف: من الآية٩٨) رحم الله تبارك وتعالي الخلائق كلهم من يأجوج ومأجوج بسبب بناء هذا السد ، والله سبحانه وتعالي حافظ هذا السد ومبقيه إلي أجل مسمى عنده سبحانه وتعالي ، (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي)(الكهف: من الآية٩٨) أي إذا انتهي هذا الأجل المسمى عند الله تبارك وتعالي لبقاء هذا السد (جَعَلَهُ دَكَّاءَ)(الكهف: من الآية٩٨) وهذا وعد لا يخلف) وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً)(الكهف: من الآية٩٨) (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ)(الكهف: من الآية٩٩) المراد بهذا الوعد فإذا جاء وعد ربي " المراد به قرب قيام الساعة ، فمن علامات الساعة خروج يأجوج ومأجوج من وراء السد الذي بناه ذو القرنين ، وقد أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أنه منذ بني هذا السد وهم يعملون في نقبه كل يوم حتى إذا غربت الشمس وكادوا أن ينتهوا منه قال كبيرهم ارجعوا فتأتون غدا فتتمونه فيرجعون غدا فيجدونه قد عاد كما كان قبل العمل ، وهكذا كل يوم حتى إذا جاء وعد ربي وأراد الله سبحانه وتعالي خروجهم ألهم كبيرهم أن يقول ارجعوا فتفتحونه غدا إن شاء الله تعالي ، فإذا قال إن شاء الله رجعوا في صباح اليوم التالي فوجدوا السد على هيئة ما تركوه عليه ، فأتموا عملهم وخرجوا يقول تبارك وتعالي (حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ) (الانبياء:٩٦)

والحدب : هو الأرض المرتفعة العالية .

(مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ)(الانبياء: من الآية٩٦) والنسلان هو المشي السريع

(وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا)(الانبياء: من الآية٩٧) وقد أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن خروج يأجوج ومأجوج إنما يكون بعد نزول عيسى بن مريم عليه السلام من السماء وقبله الدجال لعنه الله ، فالدجال سيخرج في آخر الزمان كما هو معلوم من الأحاديث الصحيحة ، وسينزل عيسى بن مريم عليه السلام من السماء فيقتل الدجال بباب لد بفلسطين ، ثم في زمن نزول عيسى بن مريم يخرج يأجوج ومأجوج فيوحي الله تبارك وتعالي إلي عيسى بن مريم عليه السلام إني قد أخرجت عبادك لا يدان لأحد بهم أي لا قدرة لأحد بهم ولا طاقة لأحد بهم فحرر عبادي إلي الطور هكذا يوحي الله تبارك وتعالي إلي عيسى بن مريم عليه السلام أن ينحاز بالمؤمنين معه إلي جبل الطور ويترك الأرض والبلاد والطرقات ليأجوج ومأجوج ، فيخرجون وهم من كل حدب ينسلون كما أخبرنا ربنا سبحانه وتعالي ، وجاء في الأحاديث أن أولهم يكون بالشام وأخرهم بالعراق ، وأنهم يمرون على بحيرة طبرية يمر أولهم ببحيرة طبرية فيشربونها كلها يشربون الماء كله لا يتركون منه شيئا ، حتى إذا جاء أخرهم إلي بحيرة طبرية نظروا فيها فلم يجدوا ماء فقالوا لقد كان في هذه البحيرة يوما ماء ، ثم خرجوا إلي المدينة فلم يجدوا أحدا في الطرقات ولا في البلاد ولا في المساكن والدور لأن الله تبارك وتعالي أمر عيسى بن مريم عليه السلام أن ينحاز بالمؤمنين معه في الجبال ، فلما وجدوا الطرقات

خالية والبلاد خالية اغتروا بأنفسهم وقالوا ها نحن قد غلبنا أهل الأرض ، تعالوا نغلب أهل السماء فيأخذون السهام فيرمونها إلي أعلى يحاربون بها أهل السماء فتعود إليهم ملطخة بالدماء زيادة فتنة لهم والعياذ بالله .

كل ذلك وعيسى بن مريم عليه السلام في الجبل منحاز بمن معه من عباد الله المؤمنين ، فيدعوا عيسى بن مريم عليه السلام ربه أن يخلص الناس من شر هؤلاء الناس يأجوج ومأجوج ، فيبعث الله تبارك وتعالي عليهم دودا يسمى النغف تدخل الدودة في قفا الإنسان فتصرعه فيصرعون جميعا موتة رجل واحد وعيسى بن مريم عليه السلام في الجبل يريد أن يطمئن على أحوال هؤلاء الناس يأجوج ومأجوج فيقول لمن معه من منكم يبيع نفسه لله فيخرج فينظر ماذا فعل القوم ، فيجبر الناس كلهم على الخروج لأن كل الناس قد هربوا منه فكيف يخرج لهم واحد فقط فيقول أيكم يبيع نفسه لله يخرج فينظر ماذا فعل القوم ، وهو رفيقي في الجنة فيقوم رجل فيخرج قد باع نفسه وغلب على ظنه أنه لن يعود ولن يرجع ، يخرج يتحسس أخبار القوم فإذا بهم ميتين موتة رجل واحد في الطرقات على كثرتهم ، فيرجع إلي عيسى عليه السلام فيخبره فيخرج عيسى والناس فيجدون الطرقات كلها ملئا بجسس القوم وهي نتنا ، لا يستطيعون أن يدفنوهم فيتوسل عيسى بن مريم عليه السلام إلي الله تبارك وتعالي ويدعوه أن يخلصهم من هذه الجسس المنتنة ، فيرسل الله تبارك وتعالي عليهم مطرا شديدا يحملهم إلي البحار ويخلص الناس منهم .

ثم يمكث عيسى عليه السلام في الأرض سنين تخرج الأرض بركتها وتعم الألفة والمحبة والمودة والأخوة الناس أجمعين حتى لا يبقي بين اثنين خصومة ولا شحناء ولا عداوة ولا بغضاء ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم (طوبى لعيش مع عيسى بن مريم) هكذا أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم عن وقت خروج يأجوج ومأجوج .

وقد كثرت الأسئلة في الدرس السابق عن مكان وجودهم ومكان هذا السد وكيف لا يعرفه الناس الآن مع أن العالم كله أصبح كالقرية الواحدة بوسائل الاتصالات الحديثة ووسائل الاستطلاعات الحديثة والأقمار الصناعية ونحو ذلك نقول أيها الأحبة ،

أولا : هذا كلام الله عز وجل أخبرنا عن وجودهم وراء السد ومن أصدق من الله قيلا ، ومن أصدق من الله حديثا فنحن كمؤمنين بهذا القرآن أنه كلام الله عز وجل نؤمن بأن يأجوج ومأجوج وراء السد كما أخبرنا الله وإن لم نطلع عليهم وإن لم نعرف أين يقع هذا السد ، هذا شيء .

ثانيا : أنه ليس كل موجود يرى ، فأقرب شيء إليك عقلك فهل ترى عقلك لا تراه ولا تستطيع أن تجزم بأنك غير عاقل فأنت تجزم بوجود عقلك وتزعم أنك عاقل ومع ذلك أنت لم ترى عقلك .

ثالثا : هناك عوالم من عوالم الغيب آمنا بوجودها لإخبار الله تبارك وتعالي لنا بوجودها ونحن لم نرها ، أليس الملائكة موجودين ، أليس الجن موجودين ، فلماذا نقول أن الجن غير موجودين لأننا لا نراهم ، الجن موجودون ونحن لا نراه والملائكة موجودون ونحن لا نراه ، ومما قلناه في الدرس السابق أن بني إسرائيل لما استعصوا على موسى عليه السلام وأبوا أن يدخلوا الأرض المقدسة قال الله تعالي (قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ)(المائدة: من الآية٢٦)

فكانوا في صحراء سيناء تائهين في الأرض لا يهتدون سبيلا للخروج للعودة إلي مصر ولا لدخول فلسطين ومع ذلك كانت الرحلات التجارية والقوافل السفرية مستمرة السير لم يطلع الناس على بنى إسرائيل ولم يطلع بنوا إسرائيل على الناس

حتى انتهى الأجل وهو (أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ)(المائدة: من الآية٢٦)فمكنهم الله تعالي من الاهتداء إلي الطريق ودخول الأرض المقدسة ، كذلك ياجوج ومأجوج رحم الله تعالي الناس بحبسهم وراء السد (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ (أي جعل السد) دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً)(الكهف: من الآية٩٨) (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي (الكهف:٩٩) قوله تعالي (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ)(الكهف: من الآية٩٩) عقب قوله (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ)(الكهف: من الآية٩٩)يدلك على اقتراب خروج يأجوج ومأجوج من قيام الساعة وأن خروجهم من علامات الساعة الكبرى ، إذا نزل عيسى بن مريم وقتل الدجال وخرج يأجوج ومأجوج فلم يبقي من الدنيا إلا القليل (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً)(الكهف: من الآية٩٩) (وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً) (الكهف:١٠٠)

(وَرَأى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً) (الكهف:٥٣)

(إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً) (الفرقان:١٢)

(وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً) (الفرقان:١٣)

(لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً) (الفرقان:١٤)

(الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً) (الكهف:١٠١)

كانوا لا يرون آيات الله عز وجل ولا يسمعونها فهل هم بذلك معذورون ؟ لا إن الله سبحانه وتعالي لم يسلبهم السمع ولم يسلبهم البصر ، ولكن الله سبحانه وتعالي أعطاهم السمع وأعطاهم البصر وأمرهم أن ينظروا في الملكوت من حولهم ليروا مشاهد التوحيد ودلائل التوحيد وأمرهم أن يسمعوا بآذانهم إلي آيات الله منزلة ومع ذلك كانوا كما قال نوح عليه السلام (جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً)(نوح: من الآية٧)فلما عطلوا هذه الحواس عن الاستخدام فيما خلقت له من التعرف على آيات الله الكونية وسماع آيات الله المنزلة عاقبهم الله سبحانه وتعالي فحال بينهم وبين الانتفاع بآذانهم وحال بينهم وبين الانتفاع بأبصارهم جزاء وفاقا ولا يظلم ربك أحدا ، كما قال سبحانه(وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) (الأنعام:١١٠)

وكما قال الله تعالي (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)(الصف: من الآية٥)

وقال تعالي (صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ)(التوبة: من الآية١٢٧) (وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً) (الكهف:١٠٠)

(الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً) (الكهف:١٠١)

أما السمع الذي قامت به الحجة فقد سمعوه ، وأما سمع الانتفاع فقد حال الله بينهم وبين كما قال عز وجل (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ) (لأنفال:٢٢)

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)(لأنفال: من الآية٢٣) أي سماع انتفاع فالمنفي عنهم هو سماع الانتفاع ، أما السماع الذي قامت به الحجة فقد تم وتحقق ولذلك قامت حجة الله تبارك وتعالي عليهم كما قال عز وجل (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)(الاسراء: من الآية١٥)

(الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً) (الكهف:١٠١)

ثم يبين الله تبارك وتعالي براءة عباد الله الصالحين من الملائكة والنبيين وغيرهم ممن عبدوهم في الدنيا من دون الله تبارك وتعالي فيقول (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً) (الكهف:١٠٢)

أفحسب الذين جعلوا مع الله إله أخر ، أفحسب الذين عبدوا الملائكة من دون الله ، أو عبدوا المسيح بن مريم من دون الله أو عبدوا أولياء الله الصالحين من دون الله ، (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ)(الكهف: من الآية١٠٢) أنهم بعبادتهم إياهم يرضون عنهم ويتولونهم من دون الله ، كلا ، كلا (كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً) (مريم:٨٢) ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ،(قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ) (سبأ:٤١) فإذا كان الكافرون الذين عبدوا الملائكة وبن مريم وأولياء الله الصالحين من دون الله يظنون أن الذين عبدوهم من دون الله راضين عن عبادتهم وأنهم يتولونهم بهذه العبادة فقد أخطأو في هذا الظن .)أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً) (الكهف:١٠٢) وقال بعض المفسرين (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ)(الكهف: من الآية١٠٢)ثم لا أعاقبهم على ذلك ولا أعذبهم ، أظنوا أن يشركوا بالله شيئا ويجعلوا مع الله آلهة أخرى ثم الله تبارك وتعالي لا يعاقبهم ولا يعذبهم على هذا الكفر والشرك كلا :) إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً)(الكهف: من الآية١٠٢)

وقال بعض المفسرين : (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ)(الكهف: من الآية١٠٢)وأن ذلك نافعهم يوم القيامة :لا قال تعالي (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ) (الاحقاف:٥)

(وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ) (الاحقاف:٦)

(أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً) (الكهف:١٠٢)

ثم يقول الله تعالي لنبيه صلى الله عليه وسلم قل لهم يا نبينا (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً) (الكهف:١٠٣) من هم أخسر الناس أعمالا (الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً) (الكهف:١٠٤)

هو ضال وهو يظن أنه مهتدى ومفسد في الأرض ويظن أنه مصلح ، هو سفيه ويزعم أنه مؤمن كما قال تعالي (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ) (البقرة:١١)

(أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ) (البقرة:١٢)

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ) (البقرة:١٣)

(الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً) (الكهف:١٠٤)

قال تعالي (إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ)(لأعراف: من الآية٣٠)

وقال تعالي (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) (الزخرف:٣٦) وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ، ومن كيد الشيطان بالإنسان أنه إذا أضل اجتهد على إقناعه أنه مهتدى لأن

الإنسان إذا اعتقد أنه ضال ربما رجع عن طريق الضلال إلي طريق الهدى لكن الشيطان حتى يحكم قبضته على أتباعه وأوليائه يضلهم عن سواء السبيل ويقنعهم تماما مائة في المائة أنهم مهتدون ، فهؤلاء هم أخسر الناس صفقة وأخسر الناس عمل (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً) (الكهف:١٠٣)

(الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً) (الكهف:١٠٤)

ترى من هم أولئك الناس ، من هم الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، قال تعالي (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ)(الكهف: من الآية١٠٥) فالذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا هم الكفار (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ)(الكهف: من الآية١٠٥) ولكن كل مسلم ضال مبتدع له نصيب من هذه الآية على قدر ضلاله وبدعته ، ومن هنا يجب على كل عاقل أن يزن نفسه دائما بين الحين والحين بميزان الكتاب والسنة ليرى أين هو من الكتاب والسنة فربما لبس على الإنسان فخيل إليه أنه على السنة وهو على البدعة ، ربما لبس على الإنسان فخيل له أنه على الصراط المستقيم ، وبينه وبين الصراط المستقيم بعد المشرقين فمن أراد النجاة فليحاسب نفسه بين الحين والحين وليزن نفسه دائما بميزان الكتاب والسنة حتى يعلم أنه على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً) (الكهف:١٠٣)

(الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً) (الكهف:١٠٤)

(أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ (الكهف:١٠٥)

فالكفر بالله عز وجل من محبطات الأعمال ، لا يقبل الله تبارك وتعالي من كافر عملا صالحا لا يقبل الله تعالي من كافر برا ولا خيرا ، إن عمل الكافر عملا صالحا ، إن فعل فعل خير إن فعل ، فعل بر لا يقبل منه هذا العمل ولا يثاب عليه أبدا ما دام كافرا بالله عز وجل .

يقول تعالي (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ) (ابراهيم:١٨)

ويقول تعالي (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (النور:٣٩)

(أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَ(من شدة الظلمة) وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ) (النور:٤٠)

(أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ)(الكهف: من الآية١٠٥) لأن الأعمال لا يقام لها وزن إلا بالإيمان ، ولا يثاب العامل على صالح عمله إلا إذا كان مؤمنا بالله عز وجل ، ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها يا رسول الله بن جدعان رجل من مشايخ العرب القدامى ، بن جدعان كان يقر الضيف ، ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه ؟

كان بن جدعان في الجاهلية يكرم الضيوف ويطعم المسكين ويطعم الجائع فهل ذلك نافعه فقال صلى الله عليه وسلم لا ينفعه لماذا ؟ قال إنه لم يقل يوما رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً) (الكهف:١٠٥)

ذلك أنه ليس شيء أثقل في الميزان من الإيمان بالله عز وجل فالكافرين لا يقيم الله تبارك وتعالي لهـم يـوم القيامة وزنا .

(ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ)(الكهف: من الآية١٠٦) جزاء الكافرين جهنم بما كفروا (ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ)(الكهف: من الآية١٠٦) بسبب بما كفروا (وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً)(الكهف: من الآية١٠٦)كانوا يـستهزئون بآيـات الله ويسخرون من رسل الله فكفروا برسل الله وبآيات الله فكان جزائهم جهنم (ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً) (الكهف:١٠٦)

هذا هو جزاء الكافرين في الآخرة ، فما جزاء المؤمنين

قال تعالي (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً) (الكهف:١٠٧)

إن الذين آمنوا بقلوبهم الإيمان التام المستلزم لعمل الصالحات بالجوارح ، الـذين آمنـوا بقلـوبهم وعملـوا الصالحات بجوارحهم ، فالإيمان ليس مجرد كلمات تنطق ولا حراف يترجمها اللسان ، ولكن لإيمان عقيدة وعمل ، عقيدة صالحة سليمة من شوائب الشرك تستقر في القلب ،وعمل صالح سليم من شوائب البدعة يظهـر علـى الجوارح صباح مساء يصعد في السماء .

يقول تعالي (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْـلُهَا ثَابِـتٌ وَفَرْعُهَـا فِـي الـسَّمَاءِ) (ابراهيم:٢٤)

(تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (ابراهيم:٢٥)

وهذا مثل الكلمة الطيبة كلمة التقوى ، كلمة الإيمان ، كلمة التوحيد ، كلمة لا إله إلا الله حين تتمكن من القلب وتضرب بجذورها في أرضه ترتفع أغصانها بثمارها في سماء القلب فتظهر على الجوارح أعمالا صالحا صباح مساء تصعد في السماء ، إن الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بجوارحهم (كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـاتُ الْفِـرْدَوْسِ نُزُلاً)(الكهف: من الآية١٠٧) وجنة الفردوس هي أعلى درجات الجنة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وسقفه عرش الرحمن) (خَالِـدِينَ فِيهَـا لا يَبْغُـونَ عَنْهَـا حِـوَلاً) (الكهف:١٠٨)

وقد قلنا أن شعور الإنسان بدوام النعمة وأنه من زوالها من أسباب سعادته ومن أسـباب التمتـع بالنعمـة أن يضمن الإنسان بقائها وأن يأمن من زوالها وفنائها ، كثير من الناس في الدنيا أنعم الله تبارك وتعالي عليهم ووسع عليهمولكنهم لا يهنئون ولا يتمتعون بهذا النعيم لماذا ؟ شبح الموت دائما يهددهم والخوف من زوال هذه النعمـة دائما يعرض لهم ، فهم في قلق غير آمنين ولا مطمئنين لذلك لا تتم الفرحة بنعيم الدنيا ، أما أهل الجنة فإنهم إذا دخلوها نودو إن لكم أن تحيو فلا تموتوا أبدا وأن تصحوا فلا تسقموا أبدا وأن تشبوا فلا تهرموا أبد

ويوتى بالموت على صورة كبش أملح فيوضع على صور بين الجنة والنار فينادى يا أهل الجنة فيـشرئبون ينظرون ويا أهل النار فيشرئبون ينظرون فيقال للجميع أتعرفون هذ يقول نعم إنه الموت فيذبح هذا الكبش الـذي يمثل الموت وينادى يا أهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت . (إِنَّ الَّـذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً) (الكهف:١٠٧)

خالدين فيها وما هم منها بمخرجين ومع طول الحياة وطول المدة وطول البقاء لا تتطلع أنفسهم إلي التحـول ولا إلي التغيير والتبديل . (لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً)(الكهف: من الآية١٠٨)يعني هم لن يخرجوا مـن الجنـة لـن

يخرجهم مخرج من الجنة ، دخلوها لن يخرجوا منها ، مع طول البقاء وطول الألفة ومدى الحياة حياة دائمـــة لا نهاية لها هل يصيبهم سئامة وملل أو يخطر ببالهم أن ينتقلوا من هذه الدار إلي دار أخرى كلا (لا يَبْغُونَ عَنْهَـــا حِوَلاً)(الكهف: من الآية١٠٨) ، أنت في الدنيا دائما تتطلع إلي التغيير ، تكون في المدينة تسكن في الفلل وفـــي القصور إلا أنك أحيانا تشتاق إلي أن تخرج في البرية وتقيم في الصحراء ببيت من (كلمة غير مفهومة) تجلـــس فيه في الفضاء الواسع ، وأحيانا تنزل من المدينة إلي القرية ذات الدور من الطين وغير مؤسسة وغير مجهزة ، أنت أحيانا تمل وتسأم من طول بقائك في القصور والفلل والعمارات فتحاول أن تغير أحيانا ، أما أهل الجنة فمع طول البقاء ودوام البقاء وعدم النهاية (لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً)(الكهف: من الآية١٠٨)

ثم يقول تعالي لنبيه صلى الله عليه وسلم قل لهم يا نبينا (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْـلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً) (الكهف:١٠٩)

المدد : الزيادة والبحر اسم جنس ليس مراده بحرا معينا وإنما البحر اسم جنس ولذلك قال (وَلَـــوْ أَنَّمَـــا فِـــي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ (والسبعة بالمثال وليس بالحرف أيضا ولنا كناية عـــن الزيادة) مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ) (لقمان:٢٧) لأن البحر والمداد والأقلام لها نهاية وكلمات الله لا نهاية لها ولا نسبة بين ما ينتهي مع ما لا ينتهي أبدا .

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً) (الكهف:١٠٩)

وتختم السورة بقول الله تعالي لنبيه صلى الله عليه وسلم

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)(الكهف: من الآية١١٠) قل لهم يا نبينا (إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)(الكهف: من الآية١١٠) أعجز عن ما تعجزون عنه ، وقد عجزتم مجتمعين عن الإتيان بسورة من مثل هذا القرآن ، فكيـــف أقـــدر أنـــا الواحد على ما عجزتم عنه جميعا (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)(الكهف: من الآية١١٠) جئتكم بهذا القرآن من عند الله ، فزعمتم أنني افتريته من عند نفسي ، أنا بشر مثلكم أعجز عن ما تعجزون عنه وأضعف عن ما تضعفون عنه وقد طلبت منكم أن تأتوا بسورة من مثل هذا القرآن ، فلو اجتمعتم فعجزتم فأنا بالتالي أعجز عن أن أتى بمثل هذا القرآن من عند نفسي ، فدل عجزكم على عجزي فثبت أن القرآن وحي الله تبارك وتعالي إلي ، وفد أخبرتكم في هذه السورة سورة الكهف بقصص كقصة أصحاب الكهف ، وقصة ذي القرنين ، وفيها من علم الغيـــب مـــا لا يعلمه إلا الله وما كان لي أن أعلم هذا القصص وأنبائه وأخباره إلا بوحي الله تبارك وتعالي إلي كما قـــال عـــز وجل (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً) (الجـــن:٢٦)

(إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)(الجـــن: من الآية٢٧) (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)(الكهف: من الآية١١٠) هذا توجيه ، والتوجيه الثاني : (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)(الكهف: من الآية١١٠) فكيف تقترحون علـــي أن آتـــيكم بآيـــة أي بمعجزة (وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)(غافر: من الآية٧٨) لماذا تقترحون علي الآيات (نُـــؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً)(الاسراء: من الآية٩٠) لماذا تطلبون مني هذه الآيات (قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً)(الاسراء: من الآية٩٣) أنا بشر مثلكم لا أستطيع أن آتي بآية إلا بإذن الله عز وجل (وَمَـــا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)(غافر: من الآية٧٨) فلا تسألوني ما لا أملك ولا تسألوني ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالي .

ثم توجيه ثالث : (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)(الكهف: من الآية١١٠)قل يا نبينا لأصحابك (إنما أنا بشر مثلكم فلا تطروني كما أطرت النصارى بن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله) ولذلك كان النبي صلى الله عليـــه وسلم يكثر من نهي عن أصحابه عن اطرائه وعن الغلو فيه ، جاءه رجل يقول ما شاء الله وشئت يا رســـول الله فغضب وقال أجعلتني لله ندا قل ما شاء الله وحده ، يقول أنس بن مالك رضي الله عنه لم يكن شخص أحب إلـــي

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع ذلك كان إذا دخل عليهم لا يقومون له لما يعلمون من كراهيته لذلك (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)(الكهف: من الآية١١٠) لكنني تميزت عليكم بشيء وهو الوحي (يُوحَى إِلَيَّ)(الكهف: من الآية١١٠) هذا هو الذي فضلني الله به عليكم إنما أنا وأنتم في البشرية سواء لكن الله فضلني عليكم بأن اصطفاني لوحيه (يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)(الكهف: من الآية١١٠)

وهذا هو وحي الله تبارك وتعالي إلي جميع الأنبياء والمرسلين ، فالتوحيد هو دعوة جميع الرسل ، ولذلك اتفقت كلمة الأنبياء على(يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)(لأعراف: من الآية٥٩) قال تعالي (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) (الانبياء:٢٥)

وقال سبحانه (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) (النحل:١)

(يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ) (النحل:٢)

فالتوحيد هو دعوة جميع الرسل كلهم دعوا إلي إفراد الله تبارك وتعالي بالعبادة (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً) (الكهف:١١٠)

هذا الجزء الأخير من الآية تضمن شروط قبول الأعمال وأن شروط قبول الأعمال ثلاثة : الإيمان ، والمتابعة ، والإخلاص .

الإيمان : دل عليه قوله تعالي (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ)(الكهف: من الآية١١٠) لأن الكافر لا يرجوا لقاء ربه (إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ) (يونس:٧)

(أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (يونس:٨)

فقوله تعالي (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ)(الكهف: من الآية١١٠) دل على اشتراط الإيمان لقبول الأعمال (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ)(الكهف: من الآية١١٠) من كان يرجوا رؤية الله ويرجوا ثواب الله فليعمل ، أما أن ترجوا رؤية الله وترجوا ثواب الله بلا عمل فهذه أماني بعيدة التحقق ، ما بال دينك ترضى أن تدنسه ، وثوبك الزهر مغسول من الدنس ، ترجوا النجاة ولم تسلك طريقتها ، إن السفينة لا تجري على اليبس .

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ)(الكهف: من الآية١١٠) يقول الحسن البصري رحمه الله (ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل)

)مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)(الكهف: من الآية١١٠) والعمل الصالح هو الموافق للسنة ، هو ما كان على هدى النبي صلى الله عليه وسلم .

والشرط الثالث الإخلاص وقد دل عليه قول ربنا : (وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)(الكهف: من الآية١١٠)شركا أكبر ولا شركا اصغر (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)(الكهف: من الآية١١٠) فإذا رزقت أيها المؤمن الإيمان بفضل الله عز وجل فاجتهد في الشرطين الأخيرين ، اجتهد في الإخلاص لله ، والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإن عدم الإخلاص يمنع القبول ، وعدم موافقة السنة يمنع القبول أيضا يقول النبي صلى الله عليه وسلم قال الله تعالي (أنا أغني الشركاء عن الشرك من عمل عملا

أشرك فيه معي غيري تركته وشركه) ويقول في متابعة السنة (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) نسأل الله تبارك وتعالي أن يرزقنا الإخلاص في أقوالنا وأعمالنا وأن يرزقنا حب نبينا واتباعه حتى يرضي عنا ويتقبل أعمالنا إنه ولي ذلك والقادر عليه ، هذا والحمد لله رب العالمين وصلي اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سؤال :

لقد قلتم أن عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام حينما ينزل فإنما أن يسلم الإنسان أو أن يقتل فلا يوجد جزية ولكن قال الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث طويل عن عيسى يقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية فهل هذا الحديث صحيحا ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

يضعها بمعني يرفعها ، يضعها لا بمعني يفرضها وإنه معني يرفعها لأن الجزية مفروضة في شريعة محمد صلى الله عليه وسلم على لسان مجمد صلى الله عليه وسلم فإذا جاء عيسى وضعها أي رفعها ونسخها ، وهذا بشرع محمد صلى الله عليه وسلم وليس بشريعة عيسى لأن عيسى عليه السلام حين ينزل لم ينزل نبيا مشرعا ، وإنما ينزل عاملا بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم فالنبي عليه الصلاة والسلام هو الذي أخبرنا بأن الجزية مقبولة من الكفار عند الجهاد حتى ينزل عيسى فإذا نزل عيسى لم يقبل جزية إما الإسلام وإما القتل ، ونبشر أخانا السائل من سورية بأن عيسى بن مريم عليه السلام أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أنه سينزل عندهم عند المنارة البيضاء شرقي دمشق .

سؤال :

ذكرت يا شيخ حديث حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم لصحابته الواحد منكم والألف من يأجوج ومأجوج لما كبر عليهم قول الله سبحانه وتعالي لآدم عليه السلام (أخرج أهل النار من ذريتك من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون في النار) سؤالي يا شيخ إن كان الواحد الذي يدخل وهو من المؤمنين والتسعمائة وتسعة وتسعين الذين يدخلون النار هم يأجوج ومأجوج ، فماذا عن الكفار ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

لعل هذا ليس هذا نفيا لعدم دخول الكفار النار ولكن المراد بهذا الحديث بيان كثرة عدد يأجوج ومأجوج ، وأما الكافرون من يأجوج ومأجوج ومن غير يأجوج ومأجوج هم في النار أيضا)إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ)(المائدة: من الآية٧٢).

سؤال :

ما الفرق بين اسطاعوا واستطاعوا ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

هي من حيث المعني واحد من جهة الاستطاعة والقدرة والتمكن ولكن فرقنا في اللفظين بأنه في الأولى بدون تاء تخفيفا على اللسان وفي الثانية تاء من باب الثقل لأن ارتقاء السد وعلوه والنزول من الناحية الأخرى هذا أسهل من النقب الذي يحتاج إلي آلات وحفر وعمل أياما كثيرة فقال (فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ)(الكهف: من الآية٩٧) لأن أن يظهروه أسهل من أن ينقبوه ، قال (وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْب)(الكهف: من الآية٩٧).

سؤال :

هل هناك شروط خاصة للتوبة من التوسل الشركي الذي قد يقع حين البعض من خلال إفراد بعض الصالحين بعبادة (كلمة غير مفهومة) ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

التوبة شروطها عامة ، التوبة من جميع الذنوب شروطها عامة وهي الإقلاع من الذنب ، والندم عليه ، والعزم على ألا يعود ، أيا كان هذا الذنب كفرا أو شركا أو توسلا بدعيا أو توسلا شركيا ، أو الزنا أو القتل ، أيا كان الذنب فشروطه كما قال العلماء إقلاع من الذنب ، والندم عليه ، والعزم ألا يعود إليه .

لكن الله سبحانه وتعالي قال (وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) (هود:١١٤) وقال الرسول صلى الله عليه وسلم وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، فقال العلماء على التائب من الذنب أن يكثر من ضده من الطاعة ، كان إنسان مبتلي بسماع الأغاني المحرمة فإذا تاب يكثر من سماع القرآن الكريم ، كان إنسان مبتلي بالتوسل الشركي وتوسل بدعي فإذا تاب يكثر من التوسل السني الصالح الموافق للشريعة وهكذا يكثر من ضد الذنب الذي تاب منه ، والله يتوب عليه .

سؤال :

نرجو تفسير واضح لقوله تعالي (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَد) (الكهف:١٠٩)

أجاب فضيلة الشيخ :

الكلام صفة من صفات الله عز وجل فلو أن الله سبحانه وتعالي تكلم بكلام وكتب هذا الكلام بأقلام من أشجار الأرض كلها ومداد من بحار الأرض كلها لنفذت الأقلام والبحار قبل أن ينفذ كلام الله سبحانه وتعالي .

سؤال :

بالنسبة للمؤمنين اللي هيكونوا مع المسيح في نهاية الوقت من أهل الشام والعراق المؤمنين اللي موجودين في المنطقة دي بس ولا الأرض كافة ، وهل لهذا علاقة بتحرير بيت المقدس ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

عيسى عليه السلام سينزل في زمان محمد بن عبد الله المهدي رضي الله عنه ومحمد بن عبد الله المهدي رضي الله عنه سيكون سيجعل القدس عاصمة الخلافة الإسلامية في زمانه ومعلوم أن الناس تبعا لخليفتهم وأميرهم وإن بعدت بينهم المسافات فينزل عيسى بن مريم في زمان المهدي بفلسطين فيكون عيسى بفلسطين

ونحن نحبه ونتبعه وإن كنا بعيدين عنه بأجسامنا ، ومن أدرك ذلك الزمان واستطاع أن يهاجر إلي فلسطين ليقيم مع المهدي وعيسى بن مريم فهنيئا له .

سؤال :

الأسباب المعينة على الصبر في التعلم ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

أولا : كثرة القراءة فيما جاء في فضل العلم والاشتغال به من القرآن الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم .

ثانيا : قراءة سير أعلام النبلاء من علماء الأمة الذين رفع الله تبارك وتعالي ذكرهم ، قراءة سيرتهم والنظر في حياتهم وكيف كانوا يؤثرون طلب العلم على كل شيء حتى أنه مما قرأناه أنه كان بعض الطلاب يجتمعون لمدارسة فيضعون الطعام بين أيديهم ، تمضي الليلة وهم لا ينتبهون إلي الطعام من انشغالهم بالمدارسة والمداركة والمذاكرة ، فقراءة ما جاء في القرآن الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم في فضل العلم والاشتغال به وقراءة سيرة السلف الصالح والعلماء كل ذلك إن شاء الله يقوي العزائم ويعين على الصبر والتضحية من أجل تحصيل العلم .

سؤال :

قالت لي معلمتي أنه لا يجوز إن الإنسان يقرأ من أول البقرة حتى الناس ، هو لا يصح هذه القراءة ، حتى لا يقع في اللحن الجلي ، وأنا صححت مع معلمتي عشرة أجزاء فتقول اقرأيهم واجعليهم وردا لكي ولا عليكي أن تقرأى من البقرة وتختمي كل شهر القرآن فاقرئى الذي صححتيه على معلمتك فقط لأن كام قارئ للقرآن والقرآن يلعنه ، فهل هذا صحيح ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

هي حفظت عشرة أجزاء وصححتها ما أظن أن من صحح عشرة أجزاء وعلم أحكام التجويد فيها ما أظنه يصعب عليه أن يصحح قراءته بدون معلمه في الأجزاء الباقية ، فلذلك أنصح هذه السائلة بألا تحرم نفسها من قراءة القرآن ومن ختمه ولو مرة في الشهر مع التركيز على المحفوظ من أجل مراجعته إن شاء الله ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول (الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران) أجر القراءة وأجر التعتعة .

سؤال :

كما ذكرت أنه هناك (كلمة غير مفهومة) شديدة (كلمة غير مفهومة) تكون في اقناع العاصي الذي يعرف أنه يرتكب معصية لكن ناتج فعلا صعوبة شديدة في إقناع المبتدع الذي يظن أنه على حق ولذلك لتمكن الشيطان منه كما ذكرت فضيلتكم فهل حضرتك تنصحنا بنقاط عملية نبتدئها (كلمة غير مفهومة) لمساعدة هؤلاء الضالين وإقناعهم بضالتهم خاصة إذا كان هذا (كلمة غير مفهومة) من الحافظين لكتاب الله والدارسين العلم الشرعي ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

النصيحة بأننا نتنزه عن الجدال فإذا رأينا إنسانا على بدعة وذهبنا إليه لنذكره بدعته والإقلاع عنها فرأينا منه سهولة ولينا وقبولا واستماعا فهذا نستمر معه في النصيحة والتذكرة ونأتيه بالكتب الصغيرة والكبيرة وأشـــرطة العلماء في التحذير من البدع وأهلها حتى يأخذ الله تبارك وتعالي بيديه ، أما إذا رأينا من المبتدع جدالا ومحاولة الرد علينا فقد قيل للإمام مالك رضي الله عنه الرجل يكون عالما بالسنة أيجادل عنها ؟ قال لا وإنما يطرحها فإن قبلت وإلا سكت ، فهذا هو شأننا مع المبتدعة إن وجدنا لينا وقبولا وحسن استماع وإنصات استمرينا في الدعوة والنصيحة ، وإن وجدنا جدالا وإصرارا على البدعة تركناهم وشأنهم والله الهادي إلي سواء السبيل .

سؤال :

ورد في الحديث أنه من يحفظ عشر آيات من أول الكهف فإنه يعصم من الدجال ، وفي رواية أخرى من أخر سورة الكهف ، ما هو القول الصحيح ، هل هو من أول السورة أم من أخرها ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

الروايتان صحيحتان فإذا جاءت رواية بمن حفظ عشر آيات من أول الكهف ورواية بمن حفظ عشر آيات من أخر الكهف ، يلزمنا نحفظ عشرا وعشرا وعشرة وعشرة يبقي عشرين يبقي بقي في السورة ثمانين أو تسعين آية فلنجتهد على حفظها وما أسهل حفظ سورة الكهف مع كثرة تلاوتنا وقرائتنا لها إن شاء الله تعالي .

سؤال :

قال الشيخ أن عيسى والمؤمنون سيكونون وراء الجبل احتماء من يأجوج ومأجوج فأين سيكون الكافرين مـــن أهل الأرض ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

الله تعالي أعلم .

سؤال :

هل هناك حديث يخرج الأعور الدجال من خرسان ومعه سبعين ألف لواء يهودي ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

أي نعم حديث صحيح .

سؤال :

عندما سئلت عن الزندقة في درس سابق أجبت أن الزنديق لفظ يراد به الإلحاد والكفر والشرك بالله ســـبحانه وتعالي ،وقلت مطلق لفظة زنديق على الملحد الكافر المشرك ونحن علمنا في مجمل اعتقاد أهل السنة والجماعة أن هناك قول للعلماء من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، والزنادقة هم الذين يزعمون أنه يكفيهم حب الله عن عبادته ولا يقرنون المحبة بالخوف والرجاء بل يعبدون الله بالحب وحده ، وقيل التزندق هو الاستهتار بالدين فلا ينتهي عما نهى الله عنه ، فهل لك من تعليق يا شيخ على هذا ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

التعليق أنه هو ما ذكرته إنما هو أمثلة للكفر والشرك الذي يستغني عن عبادة الله بادعاء حب الله يقــول أنـــا أحب الله ولا أعبده يكفيني أنا أحبه أليس هذا كفرا ، والذي يستهزأ بالآيات وأحكام الشريعة أليس هذا كفرا ، فهي ما ذكرته إنما هي أمثلة ونحن أجملنا قلنا أن الزنديق لفظ يطلق على الملحد والمشرك والكافر وما ذكرته هي إنما هي أمثلة لأنواع من الكفر .

سؤال :

من الراجح في أقوال العلماء أنه لا يقرأ القرآن سواء حفظا عن ظهر قلب أو مسا للمصحف من لديـــه عـــذر شرعي إلا لضرورة هل قراءة سورة الكهف يوم الجمعة ضرورة وهل يقراها حفظا من لديه عذر شرعي ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

زادها الله حرصا ، لا أرى مانعا من قراءة سورة الكهف في يوم الجمعة مع وجود العذر الشرعي عند المرأة .

سؤال :

لماذا لم يخبر الخضر موسى عليه السلام بتأويل كل حادثة عند حدوثها ربما لو سمع موسى تأويـــل الحادثـــة الأولى لم يسأل بعدها وتعلم أكثر ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

الله تعالي أعلم .

سؤال :

هل القوم الذين لم يدعوا الله لهم من دونها سترا يعني أنهم كانوا أيضا عراة ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

ذكر ذلك بعض المفسرين ولكننا لا ندري مدى صحته .

سؤال :

القوم الذين لا يكادون يفقهون شيئا ، كيف استطاع ذي القرنين أن يفهمهم ؟ أجاب فضيلة الشيخ :

من تمكين الله لهم في الأرض .

سؤال :

رأيت في برنامج يحكي قصص شخصيات إسلامية أن أول مرة عندما بلغ المسلمون القطب الشمالي تعجب) الخليفة في ذلك الزمان من خبر شروق الشمس طويلا لمدة ستة أشهر بدون غياب قال له علماء عصره أن الله تبارك وتعالي قال (حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا) (الكهف:٩٠)

أي أن ذو القرنين ذهب للقطب ووجد حين ذهابه الشمس في فترة شروقها لستة أشهر لكني مع الأسف لم أتذكر عصر الخليفة ومن هو ومن أفتاه بهذا فهل هذه القصة لها أصل ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

لا أعرفها .

وهل أنا آثمة برواية هذه القصة على ملأ من الأخوات وقد ضمنت صحتها حتى بحثت في كتب التفسير لم أجد لها أثرا في أقوال السلف .

أجاب فضيلة الشيخ :

ليست آثمة إن شاء الله وزادها الله حرصا ، والحرص على طلب العلم والبحث محمود وليس مذموم فهي محمودة على حرصها وبحثها ومحاولتها الزيادة من العلم وليست مذمومة فضلا على أن تكون أثمة إن شاء الله .

سؤال :

هل يجوز عامة أن يحمل تفسير آية من كتاب الله (كلمة غير مفهومة) يخبر به السلف الصالح في القرون المفضلة ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم هكذا قال بن مسعود رضي الله عنه .

سؤال :

هل يصلح ما أمر الله سبحانه وتعالي به عيسى بن مريم أنه قد (كلمة غير مفهومة) دليل على أنه إذا واجه المسلمون قوم لا طاقة لهم بمحاربتهم على المنع من مواجهتهم ، وما توجيهكم إذا حدث هذا بفئة أو بشعبة من شعوب المسمون في مكان قد حصروا فيه ، فالحال كما نراه أن الحدود التي تحد بلاد المسلمين قد حاصرتهم وقد يسعى عدوهم استفزازهم وهم لا طاقة لهم بمحاربته ولا مكان لهم يتحرزون فيه من عدوهم هل يصبرون على أذى عدوهم ؟ وإن كان هذا (كلمة غير مفهومة) العدو على الشعب المسلم قتل أنفس أو تدمير بيوت أو قطع طرق وتضييق (كلمة غير مفهومة) أن يكون بجهاد عدوهم لما قد يشفي شيئا من غليلهم مع أنه لا يؤدي إلي توقف عدوهم عن الاعتداء بل قد يستفزهم إلي المزيد من القتل والتدمير والتضييق ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

فرج الله الكرب وعجل بالنصر الله تبارك وتعالي قال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (آل عمران:٢٠٠)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم (واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العس يسرا) فاصبروا واحتسبوا عسى أن يكون الفرج قريبا إن شاء الله .

سؤال :

قرأت في الكتاب عن أبي هريرة الذي قال النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال فتح اليوم (كلمة غير مفهومة) يأجوج ومأجوج مثل هذا وعقد التسعين أخرجه البخاري ومسلم من حديث (كلمة غير مفهومة) فما مدى موافقة ذلك هل كبيرهم قال إن شاء الله في ذلك الوقت ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

دخل النبي صلى الله عليه وسلم على إحدى نسائه ذات ليلة وهو يقول لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من رم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها يعني السبابة ، ومثل هذه الحلقة حين تفتح من السد لا تسمح بخروج جزء من رجل فضلا عن رجل أو رجال فهذا لا ينفي ما ذكرناه من أنهم ينقبون كل يوم فهذا حديث رواه بن ماجة وصححه شيخنا الألباني رحمه الله أنهم ينقبون كل يوم حتى إذا كادت الشمس أن تغرب قال كبيرهم ارجعوا ستفتحونه غدا وهكذا كل يوم إلا أن يأذن الله بخروجهم فيقول ستفتحونه غدا إن شاء الله فيأتونه فيجدونه على الهيئة التي تركوها عليه فيتموا النقب والعمل ثم يخرجون ، فهذا حديث أيضا وليس مجرد كلام ، والجمع بين الحديثين أن ما فتح هكذا لا يمكن إنسان أن يخرج يده فضلا عن يخرج هؤلاء الجمع الغفير الكثير من يأجوج ومأجوج .

سؤال :

هل نحن على اثم في الاستماع ، هل استماعنا وتطبيقنا لهذه الأوامر والنواهي هل احنا على اثم في ذلك أو لا ؟ لأن الشيخ قال لنا إما أن يكون حجة أو أن هذا (٩ قد يكون (كلمة غير مفهومة) ، هل على اثم في ذلك ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

كأنها تريد أننا قلنا في حديث النبي صلى الله عليه وسلم قال والقرآن حجة لك أو عليك ، كأنها تريد أن تقول متى يكون القرآن حجة علينا ، ومتى يكون حجة لنا ؟ والجواب أننا بفضل الله عز وجل نتعلم ونستعين بالله تبارك وتعالي على العمل فإذا رزقنا العلم والعمل معا فذلك فضل الله تبارك وتعالي وإن قصرنا أحيانا فتركنا بعض ما تعلمناه من الواجبات أو ارتكبنا يعض ما تعلمناه من المحرمات فإننا نستغفر الله تبارك وتعالي ونتوب إليه وحين إذن يكون القرآن هو كل ما نتعلم علوم شرعية حجة لنا بإذن الله ، أما الذي هو حجة عليه هو الذي يتعلم ولا يعمل أبدا والعياذ بالله ويكون عالما بأنه غير عامل ويصر على عدم العمل فذلك هو الذي يكون علمه حجة عليه نعوذ بالله من الخذلان ونسأله الهداية والتوفيق .

سؤال :

كثير من الناس يفهمون حديث إنما الأعمال بالنيات أن المهم هو النية السليمة بغض النظر عن صلاح العمل هذا يظهر كثيرا في إنكار المنكر ، فماذا تستطيع أن نقول لهم ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

كثير من الناس يرون حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم إن الله لا ينظر إلي أجسامكم ولا غلي صـــوركم ولكن ينظر إلي قلوبكم ، وينتهون عند هذا اللفظ فنقول لهم هذا الحديث فيه نقص فيه زيادة غيـــر موجـــودة لـــم تبلغوها وانتم بهذا فالقارئ يقرأ فيقول فويل للمصلين ويسكت لو قرأت فويل للمصلين فلابد أن تقول الذين هم عن صلاتهم ساهون ، وكذلك قولهم إن الله لا ينظر إلي أجسامكم ولا إلي صوركم ولكن ينظر إلي قلـــوبكم ، فربنـــا رب قلوب المهم إن النية تكون سليمة ، فمثلا إنسان يصافح امرأة فإذا قلت له المصافحة حرام يقولك ربنـــا رب قلوب والله أنا نيتي سليمة ، النية هنا لا تسمن ولا تغني من جوع ، الحديث إن الله لا ينظر إلي صوركم ولا إلي أجسامكم ولكن بنظر إلي قلوبكم وأعمالكم ، فلابد من العمل مع النية ، اللهم إلا أن تنوي خيرا ثم تعجز عنه فإنك مأجور بنيتك ومن هنا قيل نية المرء خير من عمله ، متي إذا عزمت على فعل الخير ثم عجـــزت عنـــه فأنـــت مأجور بالنية كما قال النبي صلى الله عليه وسلم إذا أوى الرجل إلي فراشه وهو ينوى أن يقوم من الليل يـــصلي فغلبته عينه كتب له أجره وكان نومه صدقة من الله عليه يعني أنت كمسلم حين تنام بالليل تقول أنا إن شـــاء الله أقوم قبل الفجر بساعة أصلي قيام الليل وتعزم على ذلك وتأتني بالمنبه فتضبط الوقت على قبل الفجر بساعة وتنام عازم على أن تقوم قلب الفجر بساعة تصلي فإذا بك لا تستيقظ إلا مع طلوع الفجر وربما أحيانا بعد طلوع الفجر أنت نمت عازما على أن تقوم بالليل تصلي فيكتب الله لك أجرك ويكون نومك صدقة من الله عليك وقال النبـــي صلى الله عليه وسلم إنما الدنيا لأربعة نفر رجل أعطاه الله علما ومالا فهو يعمل بعلمه في ماله يتقي فيـــه ربـــه ويصل فيه رحمه فهذا بأعلى المنازل ، ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا فهو يقول لو أن لي مثل مـــال فـــلان لعملت به أو فيه بعمل فلان فهما في الأجر سواء ، هذه معني نية المرء خير من عمله مش على الإطلاق تقول أنا نيتي سليمة ثم لا تعمل الخير أبدا أو تفعل الشر المحرم الذي حرم الله عليك وتقول نيتي سليمة هذا كلام خطأ يجب أن يصحح للعامة بالحكمة والموعظة الحسنة .

سؤال :

المفسرين المعاصرين يقولون في قول الله سبحانه وتعالي " حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج " كلمة فتحـــت لا تحتمل لغة أن يكون م سيفتح هو السد جاء في الحديث الشريف أن الرسول صلى الله عليه وسلم استبقظ من نومه فزعا وقال ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من رمي يأجوج ومأجوج إلي أخر الحديث وهذا يشير إلـــي تزامن بدايات انهيار السبت مع بداية مرحلة العالمية واختلاط الأمم التي جاء الإسلام ليحققها ولا شك أن كلمـــة يختلط لا تفي هنا بالغرض بل يموج لأن الاختلاط لا يدل على الكثرة الهائلة وكل ذلك بعض إيحـــاءات كلمـــة يموج أما كلمة تركنا في قوله تعالي (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ)(الكهف: من الآية٩٩) فتوحي بالمنع السابق تستمر مرحلة موج الأمم في بعضها إلي يوم القيامة (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِـــخَ فِـــي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً) (الكهف:٩٩)

ولكن هذا الموج لا يذهب بخصوصيات الأمم وتميزها بدليل أن يأجوج ومأجوج الذين أفسدوا في مرحلة تبلور شخصيات وخصوصيات الأمم سيعاودون الكرة فيكون الوقت الذي تقترب فيه وظيفة الدين الدنيوية من نهايتهـــا تقترب نهاية وظيفة العرب أيضا ، فما نصيحتكم لنا لمثل هذه التفسيرات ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

إحذروا مثل هذه التفسيرات فهذا تحريف للكلم عن مواضعه كما حرفوا الدجال وكما حرفوا بعـــض أمـــارات الساعة الثابتة في القرآن والسنة فهذا من تحريف الكلم عن مواضعه فيجب على المسلم أن يكون حذرا من مثـــل هذه التفسيرات ، النصوص باقية على ظواهرها ولا يجوز تأويلها بغير تأويل السلف لها ، السلف كـــانوا أعلـــم وعلمهم كان أحكم .

سؤال :

القوم الذين لا يفقهون قولا طلبوا من ذي القرنين أن يبنوا لهم سدا لكن ذي القرنين قال سأبني لكم ردما ، هل هناك فرق بين السد والردم ، أم المعني واحد ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

لما بنى السد ردم ما بين الجبلين ردم الفتحة فأغلقها فكان سدا فالسد والردم معني واحد .

سؤال :

كيف يا شيخنا الوقت قصير بعد خروج يأجوج ومأجوج وعيسى عليه السلام يقعد سنين كما قلت بالناس حتى يموت يأجوج ومأجوج ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

لو تصورت مثلا أن بعد عيسى بن مريم يعيش الناس مائة سنة ما قيمة المائة سنة بالنسبة لما مضى من العمر الدنيا وأمثالها ، لا شيئا فكون عيسى يعيش في الأرض بعد خروج يأجوج ومأجوج سنين أربعين أو أكثر أو اقل هذا ليس معناه أنه اقترب الوعد الحق كما قال ربنا سبحانه وتعالي ، الله سبحانه وتعالي منذ أن أنزل القرآن قبل أربعة عش قرنا اقتربت الساعة فهذا قرب له معناه ، واقترب الوعد الحق بعد خروج يأجوج ومأجوج (كلمة غير مفهومة) قرب له معناه .

سؤال :

هل يجب لطالب العلم أن يبدأ بحفظ أجزاء القرآن الكريم قبل دراسة مواد الأكاديمية من فقه وعقيدة وحديث إلي أخر العلوم برجاء النصيحة ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

كان السلف الصالح رضوان الله عليهم إذا جاءهم الطالب يطلب العلم سألوه هل حفظت القرآن فإن قال لا ردوه وإن قال نعم امتحنوه ، فحفظ القرآن الكريم أولا لكن الآن نحن تأخرنا في طلب العلم طلبنا العلم ونحن كبار فهناك الآن عندنا من (كلمة غير مفهومة) من العلم الكثير الكثير العقيدة في أربعين ، الفقه في العبادات العينية في أربعين وهكذا فلا نقول اتركوا طلب العلم حتى تحفظوا القرآن الكريم ولكن نقول ابدأو بحفظ القرآن الكريم وطلب العلم الذي فرضه الله عليكم مها اطلبوه معا وأعطوا القرآن أولوية حتى تنتهوا من حفظه إن شاء الله تعالي .

سؤال :

ما نصيحتكم للروافض الذين فسروا الآيات التي نزلت في الكفار وهم جعلوها في أبي بكر وعمر رضي الله عنهم وهذه الآية التي ذكرتها قول الله عز وجل (الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْع) (الكهف:١٠٤)

يقولون نزلت في أبي بكر وعمر وما حكم من يسب (كلمة غير مفهومة) الصحابة الكرام وما ردكم ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

نقول حسبنا الله ونعم الوكيل ورضي الله عن أصحاب النبي (كلمة غير مفهومة) أجمعين وهدى الله من سبهم ولعنهم لا شك أن لعن الصحابة كبيرة من أكبر الكبائر نسأل الله للجميع الهداية والتوفيق .

سؤال :

ما هي المحبطات للأعمال غير الكفر وهل عقوق الوالدين محبط للعمل ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

نسأل الله السلامة والعافية نعم عقوق الوالدين من محبطات الأعمال فقد جاء رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أرأيت إن صليت الخمس وصمت رمضان وأعطيت زكاة مالي وحججت البيت ءأدخل الجنة قال نعم إلا أن تعق والديك ، فعقوق الوالدين من محبطات الأعمال فعلى المبتلى بالعقوق أن يبادر بالتوبة إلي الله سبحانه وتعالي وإن كان الوالدان ما زال على قيد الحياة فليبدل عقوقهم برا وإحسانا لهما حتى يرضين عنه ، وإن كان قد ماتا فعليه مع الاستغفار والتوبة أن يكثر من الدعاء والترحم عليهما ، عسى الله أن يتوب عليه وعلى أبويه .

سؤال :

هل يوم القيامة لازم أن يكون يوم جمعة ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم في الأحاديث الصحيحة أنه لا تقوم الساعة إلا يوم الجمعة .

بداية تفسير سورة مريم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فــلا مضل له ومن يضلل ولا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورســوله ، اللهم صلي وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلي يوم الدين .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

ثم مرحبا بكم في هذا اللقاء الجديد من لقاءات دروس التفسير وقد انتهينا بفضل الله تبارك وتعالي من تفــسير سورة الكهف ، واليوم موعدنا مع البدء في تفسير سورة مريم ولكن قبل أن نبدأ في هذا الدرس الجديد من دروس تفسير سورة مريم نريد أن نطرح ثلاثة أسئلة على إخواننا المشاهدين والمشتركين معنا في هذه الأكاديمية العلمية المباركة حتى نطمئن على الحرص على المتابعة والمشاركة وعلى تحقق الاستفادة بإذن الله .

سؤال : ما هي المناسبة بين سورة الكهف وسورة الإسراء ؟

سؤال : ماذا استفدت من قوله تعالي ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف:٣٠]

سؤال : ما هي شروط قبول الأعمال ؟

ثم نقول هذه الآيات المباركات التي معنا اليوم من سورة مريم تضمنت من المعاني ما يلي .

أولا : المناسبة بين السورة الكريمة وبين سابقتها وهي سورة الكهف .

ثانيا : موضوع السورة .

ثالثا : آداب الدعاء .

رابعا : نحن معاشر الأنبياء لا نورث .

خامسا : الحرص على صلاح الذرية .

سادسا: الحث على الاستمساك بالكتاب .

أخيرا : فضائل يحيى بن زكريا عليهما السلام .

وهذا بإيجاز أهم ما تضمنته الآيات المباركات من سورة مريم من المعاني والتي نعيش في رحابها ساعتنا هذه إن شاء الله تعالي .

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [صّ:٢٩]

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر:٢١]

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾[الزمر:٢٣]

سورة مريم تأتي في ترتيب المصحف عقب سورة الكهف والمناسبة بين السورتين أن الله سبحانه وتعالي قص علينا في سورة الكهف كما تعلمنا قصصا من أعجب القصص ، قص علينا قصة أهل الكهف ، وقصة موسى مع الخضر ، وقصة ذي القرنين ، وقد استفتح أول قصة بقوله ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ [الكهف:٩]

وقص الله تبارك وتعالي علينا في هذا القصص القرآني في سورة الكهف عجبا من آياته ودلائل قدرته سبحانه وتعالي .

كذلك قص علينا ربنا سبحانه وتعالي في سورة مريم من القصص العجيب ، قص علينا قصة ميلاد يحيى بن زكريا عليه السلام وهذا أمر عجيب حيث لم تجري العادة بأن الشيخ الكبير يولد له بعد سبعين سنة أو ثمانين سنة ، ولم تجري العادة أن المرأة العجوز تلد بعد ستين أو سبعين سنة فكان في ميلاد يحيى بن زكريا عليهما السلام أمر عجب ، وأعجب منه ما كان في القصة الثانية في سورة مريم وهي قصة ميلاد عيسى بن مريم عليه السلام ، إذا كان عجبا أن يلدا الشيخان الكبيران العجوزان المسنان فأعجب من ذلك أن تلد امرأة دون أن يمسها بشر في حلال أو حرام ، فلما قص الله تبارك وتعالي علينا في سورة الكهف عجبا فيما قصه علينا ناسب أن يأتي بسورة مريم عقب سورة الكهف لما فيها أيضا من العجب فيما اشتملت عليه من القصص .

وأما موضوع السورة فسورة مريم سورة مكية شأنها شأن السور المكية في الاهتمام بترسيخ العقيدة وبيان أصول الدين وأركان الإيمان ، وقد ركزت السورة الكريمة على الأصل الأول وهو التوحيد وعرضت علينا عن طريق القصص أن التوحيد كان دعوة جميع المرسلين ، وفي أخر السورة حدثنا الله تبارك وتعالي في عن أهوال اليوم الأخر وورود الناس النار وإنجاء الله تبارك وتعالي للمتقين وحبسه للظالمين في نار جهنم وختمت السورة بتنزيه الله تبارك وتعالي عن الولد كما زعمه المشركون ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً ﴾٨٨﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ﴾٨٩﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً ﴾٩٠﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً ﴾٩١﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾٩٢﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً ﴾٩٣﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً ﴾٩٤﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً ﴾ [مريم:٨٨- ٩٥]

وسردت علينا السورة الكريمة قصصا من قصص الأنبياء والمرسلين قصة ميلاد يحيى بن زكريا عليهما السلام ، قصة ميلاد عيسى بن مريم عليهما السلام ، قصة إبراهيم عليه السلام ودعوته آبائه وقومه إلي التوحيد والإسلام ، وأطالت في هذه القصص الثلاث ثم جاءت إشارات مجملة إلي مجموعة من النبيين والمرسلين عليهم الصلاة والسلام .

واستفتحت السورة الكريمة بقوله تعالي ﴿كهيعص ﴾ [مريم:١]

وكثيرا ما استفتح الله تبارك وتعالي بعض سور القرآن بمثل هذا الاستفتاح بالحروف المقطعة فهناك سور استفتحت بحرف واحد وسور استفتحت بحرفين وسور استفتحت بثلاثة أحرف وسور استفتحت بأكثر من ذلك ،

وقد اختلف العلماء في سر استفتاح الله تبارك وتعالي هذه السور القرآنية بمثل هذه الحروف المقطعة ورجح شيخ الإسلام بن تيميه رحمه الله أن سر ذلك والله تعالي أعلم بمراده هو الرد على المشركين الذين زعموا أن القـرآن أساطير الأولين اكتتبها محمد صلى الله عليه وسلم فهي تملي عليه بكرة وأصيلا ، أو أن القرآن أفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، فأراد الله سبحانه وتعالي إبطال ذلك الزعم ورد هذا الادعاء وإثبات أن القرآن كـلام الله رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليكون من المنذرين، بلسان عربي مبـين ، فاستفتح الله تبارك وتعالي بعض سور القرآن بحرف وبحرفين وبثلاثة من الحروف الأبجدية التي يتكون منهـا كلام العرب ، وكأن الله سبحانه وتعالي يريد بهذا الاستفتاح أن يقول للذين زعموا أن القرآن أفك افتراه محمد من عند نفسه وليس وحيا أوحاه الله إليه كأن الله أراد أن يقول لهم إن هذا القرآن مؤلف من هذه الحروف التي يتألف منها كلامكم ومحمد الذي جاء بهذا القرآن واحد منكم فلإن كان محمد افتراه من عند نفسه فلن يعجز فـصحائكم وأهل البلاغة منكم فرادى أو مجتمعين أن يأتوا بشيء من مثل ما أتي به محمد صلى الله عليه وسلم فإذا عجزتم فرادى ومجتمعين أن تأتوا بشيء من مثل هذا القرآن كان محمد أعجز منكم فثبت بعجزكم عن الإتيان بشيء مثل القرآن أنه كلام الله تعالي أوحاه إلي رسوله صلى الله عليه وسلم يقول تعالي ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾٢٣﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ﴾في الحاضـر وقت الطلب ﴿وَلَنْ تَفْعَلُو ﴾ في المستقبل إلي يوم القيامة ، فالتحدي قائم إلي يوم القيامة والمعجزة باقية إلي يـوم القيامة فإن لم تفعلوا في الحاضر ولن تفعلوا أبدا ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَـارَةُ ﴾ بالإيمـان بـأن القرآن كلام الله رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليكون مـن المنـذرين بلسان عربي مبين .

يدلك على رجحان هذا القول في سر استفتاح الله تبارك وتعالي بعض سور القرآن بالحروف المقطعة أنك لا ترى سورة افتتحت بهذه الحروف المقطعة إلا رأيت الله تبارك وتعالي في مطلعها ينتصر لكتابه ويشيد به ويشير إلي علوا شأنه وارتفاع مكانته فإذا قرأت البقرة مثلا رأيت الله تبارك وتعالي يقول ، ألم ثم يقول ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾[البقرة: من الآية٢] لاشك ولا مرية أنه من عند الله عز وجل .

فإذا قرأت آل عمران رأيت الله تبارك وتعالي يقول ﴿الم ﴾ [آل عمران:١]

﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [آل عمران:٢]

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْأِنْجِيلَ ﴾٣﴿مِنْ قَبْلُ هُـدىً لِلنَّـاسِ وَأَنْـزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾[آل عمران: ٣-٤]

فإذا نزلت إلي الحواميم رأيت الله تبارك وتعالي يقول " حم "﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [غافر:٢]

"حم "﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [فصلت:٢]

"حم "﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [الجاثـية:٢]

فهذا هو الراجح من أقوال العلماء في سر استفتاح الله تبارك وتعالي بعض سور القرآن بمثل هذه الحـروف المقطعة .

﴿كهيعص ﴾ [مريم:١]

وبعد هذا الاستفتاح يقول تعالي ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّ ﴾ [مريم:٢]

ذكر مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا ذكر كما قال تعالي في مواضع ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ [الأنبياء:٥٠] فأتي بالمبتدأ والخبر فقوله تعالي ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّ ﴾ [مريم:٢]

"ذكر " مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا ذكر رحمة ربك عبده زكريا ، قال الإمام البغوي رحمه الله في تفسيره وفي الكلام تقديم وتأخير تقديره هذا زكر ربك عبده زكريا برحمتى ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّ ﴾ [مريم:٢]

المراد بالرحمة هنا قبول الدعاء وإجابة السؤال ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّ ﴾ [مريم:٢]

المراد بالرحمة إجابة زكريا فيما دعا وإعطائه ما سأل وكأن الله سبحانه وتعالي يقول إن من رحمة الله بالعبد أن يجيبه إذا دعاه وأن يعطيه إذا سأله ، ومن علامات الشقاء أن يدعوا العبد ربه يجيبه وأن يسأله فلا يعطيه ، لكن من رحمة الله تبارك وتعالي بالعبد أن يجيبه إذا دعاه وأن يعطيه إذا سأله كما قال تعالي ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾٨٣﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَ ﴾ [الانبياء:٨٤] رحمة من عندنا بأيوب عليه السلام استجاب الله تبارك وتعالي دعائه وكشف ما به من ضر وآتاه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين .

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّ ﴾ [مريم:٢]

وزكريا نبي من أنبياء بي إسرائيل المشهورين والمعروفين وفي وصف الله تبارك وتعالي له بالعبودية إشارة إلي أن عبودية الأنبياء لله تبارك وتعالي أشرف ما يصفهه الله تبارك وتعالي به ولذلك قلنا في أول سورة ، في أول آية في سورة الكهف ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ [الكهف:١]

قلنا أن الله تبارك وتعالي وصف نبيه صلى الله عليه وسلم بالعبودية في أشرف المواضع فالأنبياء غاية ما يتطلعون إليه أن يبلغوا من العبودية بالله تبارك وتعالي مبلغا لم يبلغوا غيرهم من خلق الله سبحانه وتعالي .

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّ ﴾٢﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّ ﴾ [مريم:٣]

انتبه لكلمة الرب في هذه الايات المباركات وأحصي كم مرة ذكرت ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّ ﴾٣﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّ ﴾٤﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّ ﴾٥﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّ ﴾ [مريم:٥- ٦]

في هذه الآيات جملة من آداب الدعاء ، الدعاء هو العبادة هكذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم الدعاء هو العبادة ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:٦٠]

فالدعاء هو العبادة هذا الدعاء حين تدعو الله سبحانه وتعالي هناك آداب ينبغي أن تتحلى بها وأنت تدعوا الله سبحانه وتعالي رجاء أن يكون دعائك مجابا ومقبولا .

من آداب الدعاء : أن يلح الداعي على الله سبحانه وتعالي بندائه بوصف الربوبية (يا رب ، يا رب ، يا رب) فإن زكريا عليه السلام تقرر منه هذا النداء مرات كما أحصيناها آنفا في هذه الآيات المباركات وهذا هو هدي نبينا في الدعاء .

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾[الانبياء: من الآية٨٣]

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾[الانبياء: من الآية٨٩]

وهذا أيضا هو هدي عباد الله الصالحين في الدعاء ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾١٩٠﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (استمع) رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾١٩١﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾١٩٢﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾١٩٣﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران:١٩٤]

ماذا قال الله تعالي ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾[آل عمران: من الآية١٩٥]

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلي السماء يا رب ، يا رب ، يا رب .

فمن أدب الدعاء أن تلح على الله تبارك وتعالي في دعائك بوصف الربوبية لأن الربوبية تستلزم الفضل والمنة والعطاء والإحسان فكأنك حين تقول يا رب تقول يا رب أنا عبدك وأنت ربي ربيتني بفضلك وعودتني على إحسانك وجودك وكرمك فلا تجعلني ربي بدعائك شقيا .

﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً ﴾ [مريم:٣]

لم يسمعه أحد من الخلق لماذا أخفى زكريا عليه السلام دعائه عن الناس ؟

لأن الإخفاء والإعلان بالنسبة لله تبارك وتعالي سواء قال تعالي ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾[الرعد: من الآية١٠] فإذا كان الجهر والإسرار بالنسبة لله تبارك وتعالي سواء فلا داعي للجهر بالدعاء لأن الدعاء كلما كان في الخفاء وفي السر كلما كان أقرب إلي الإخلاص وكلما كان أقرب إلي الإخلاص كان أقرب إلي الإجابة من الله سبحانه وتعالي ، فحاول دائما أن تخفي دعائك وأن تخفي مسألتك ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعراف:٥٥]

لماذا تجهر بالدعاء ويسمعك أبعد الناس منك ، الله تبارك وتعالي منك قريب فأخفي دعائك عن الناس لأن الله سميع قريب ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[البقرة:١٨٦]

﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً ﴾ [مريم:٣]

فمن أدب الدعاء أن تلح على الله تعالي بالنداء بوصف الربوبية يا رب ، يا رب .

ومن أدب الدعاء أن تخفيه عن الخلق ،وأن تخفيه عن الناس .

قال ربي ، ماذا قال في دعائه الخفي الذي أخفاه عن الناس ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴾[مريم:٤]

هذا من أدب الدعاء أيضا ، من أدب الدعاء أن يظهر الداعي وأن يظهر السائل لله تبارك وتعالي عجزه وضعفه وذله وافتقاره وانكساره أن تطرح نفسك بين يدي ربك سبحانه وتعالي وأنت تسأله وتدعوه ذليلا منكسرا فقيرا تظهر لله تعالي ضعفك وعجزك وافتقارك وشدة حاجتك إليه سبحانه وتعالي .

أنت ترى السائل في الطريق يعترضك فيظهر لك من الذل والمسكنة والفقر والحاجة ما يستثير به عطفك حتى تعطيه وهو مخلوق مثلك عبد لله مثلك لا فرق بينك وبينه ومع ذلك يظهر لك من الفقر والضعف والعجز وقد يكون أقوى منك وقد يكون أصح جسما منك لكنه يظهر لك ضعفه وذله لأنه اعترضك بالسؤال ، وأنت في الحقيقة بالنسبة لله فقير عاجز ضعيف فأنت أولى وأحق حين تسأل الله تبارك وتعالي أن تظهر له ضعفك وعجزك وافتقارك وذلك له سبحانه وتعالي حتى يجيبك الله .

قال العلماء أظهر زكريا عليه السلام لله تبارك وتعالي ضعفه وعجزه الباطني والظاهري ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾[مريم: من الآية٤] وهن أي ضعف ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾[مريم: من الآية٤]وإذا وهن العظم وهن البدن كله لأن هذا اللحم إنما تحمله العظام ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾١٢﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾١٣﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ﴾ [المؤمنون:١٢- ١٤] فهذا اللحم الذي في بدنك تحمله العظام .

فزكريا يظهر ضعفه الباطني يقول ﴿ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾[مريم: من الآية٤] فإذا كان الضعف الداخلي بدأ يبقي الضعف الظاهري أولي ﴿إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾[مريم: من الآية٤] ثم أظهر عجزه وضعفه الظاهر ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾[مريم: من الآية٤] رأسه ابيضت كلها وبياض شعر الرأس دليل الضعف والعجز ودليل اقتراب الموت ﴿إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾[مريم: من الآية٤]ثم توسل إلي الله تبارك وتعالي ليجيبه ويعطيه سؤاله قال ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴾[مريم: من الآية٤]ولم أكن بدعائك ربي محروما لأننا قلنا من رحمة الله بالداعي أن يجيبه ومن رحمة الله بالسائل أن يعطيه والشقي هو المحروم الذي يدعوا فلا يستجاب له ويسأل فلا يعطى والعياذ بالله فزكريا يقول يا رب أسألك وأدعوك ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴾[مريم: من الآية٤] لقد عودتني الكرم والجود والفضل والإحسان أيام شبابي وقوتي وصحتي وعافيتي ، ما سألتك إلا أعطيتني وما دعوتك إلا أجبتني فهذا الكرم والجود الذي عودتني عليه يا رب في شبابي وصحتي يجعلني أطمع الآن.

ألا تخيب رجائي فيك قد اشتعل الرأس شيبا ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴾[مريم: من الآية٤]

ذكر بعض المفسرين عند هذه الآية أن رجلا دخل على حاتم الطائي فسأله وأنتم تعلمون كرم حاتم ، دخل رجل على حاتم الطائي فسأله من مال الله الذي آتاه فقال حاتم للرجل من أنت فقال الرجل أنا الذي أحسنت إلي عام أول ، ألا تذكرني لقد سألتك العام قبل الماضي فأعطيتني فسر حاتم بجواب السائل وقال مرحبا بمن توسل بنا إلينا ، الرجل يسأل حاتم من مال الله فحاتم يقول من أنت فالرجل يقول أنا الذي أحسنت إلي عام أول فيعترف له بإحسانه السابق حتى يحثه على إحسانه لاحق وكذلك فعل زكريا عليه السلام ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴾ [مريم:٤]

فمن آداب الدعاء أن تتوسل ‘لي اله تبارك وتعالي بجوده وكرمه وأسمائه وصفاته حتى يجيب دعائك ويعطيك سؤالك والله تبارك وتعالي يقول ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف:١٨٠] فمن أحسن أنواع التوسل أن تتوسل إلي الله تبارك وتعالي بأسمائه الحسنى ، يا رزاق ارزقني ، يا شافي اشفني ، يا غفار اغفر لي يا تواب تب علي وهكذا .

ومن أحسن ما يتوسل به أيضا إلي الله تبارك وتعالي الإيمان بالله عز وجل من أحسن ما يتوسل به إلي الله تبارك وتعالي ، ولذلك إذا تتبعت آيات القرآن ودعوات عباد الله المؤمنين الصالحين ترى أنهم يتوسلون إلي الله في الدعاء بإيمانهم بالله ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾[المؤمنون: من الآية١٠٩] ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران:٥٣]

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[آل عمران: من الآية١٦]

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّ ﴾ [آل عمران: من الآية١٩٣]فمن أدب الدعاء أن تتوسل إلي الله تبارك وتعالي بأسمائه الحسنى وصفاته العلا .

لقد سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يقول اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، فقال صلى الله عليه وسلم لقد سأل الله بإسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً ﴾٣﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴾٤﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً ﴾٥﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ [مريم:٣-٦]ما المراد بالموالي ، المراد بالموالي عصبة الإنسان أقاربه الذين يرثونه حين لا يكون له فرع وارث وزكريا يقول ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي ﴾[مريم: من الآية٥]هل كان زكريا عليه السلام ذا مال كثير وليس له ولد فخاف أن يذهب هذا المال إلي اخوانه وأعمامه وأبناء أعمامه فأراد أن يرزقه الله الولد حتى يرث ماله ؟ لا لا ليس هذا المقصد إن الأنبياء ناصحون لأممهم في حياتهم وبعد مماتهم ، لقد نظر زكريا عليه السلام في حال بني إسرائيل من حوله فلم يجد فيهم أحدا يصلح للنبوة قد ظهر فيهم الفساد ، وكثر فيهم فخاف زكريا عليه السلام أن يموت وتنقطع النبوة بموته من بني إسرائيل فأراد أن يرزقه الله تبارك وتعالي ولداً وأن يجعل الله تعالي هذا الولد نبيا من أنبياء بني إسرائيل لتستمر النبوة في بني إسرائيل وتستمر الدعوة ويستمر لتوحيد ويبقي الدين ظاهرا ، فلم يكن زكريا عليه السلام خائفا على ماله من أن يرثه العصبة من غير الفرع الوارث وإنما كان يخاف على أن تنقضي النبوة من بني إسرائيل لأنه رأي في بني إسرائيل فسادا لا يجعلهم صالحين يجعلهم غير صالحين للنبوة فقال ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً ﴾ [مريم:٥] انتبه ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ﴾[مريم: من الآية٥]يا رب الأسباب الظاهرة التي جرت العادة أن يكون بسببها الولد هذه الأسباب الظاهرة قد انقطعت مني ، أنا شيخ كبير ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ﴾[مريم: من الآية٤]وامرأتي عجوز عقيم فأنا أطمع في الولد مع انقطاع الأسباب لأنني أرجو الولد من عندك من لدنك يا رب وإن انقطعت الأسباب فهذا يعلمك أنه من آداب الدعاء أيضا أن يقوى رجائك في الله سبحانه وتعالي ، وأنت تدعو الله وأنت كما وصاك رسول الله صلى الله عليه وسلم (ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة) مع انقطاع الأسباب يقوى الرجاء في الله سبحانه وتعالي ربما لو كانت الأسباب متوفرة يكون من الإنسان بعض الركون إلي الأسباب لكن عند انقطاع الأسباب يقوى الرجاء والله تعالي يقول في الحديث القدسي (أنا عند حسن ظن عبدي بي) فزكريا عليه السلام يقول ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ﴾[مريم: من الآية٥] من عندك يا رب وإن كانت الأسباب من عندي قد انقطعت تماما ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً ﴾[مريم: من الآية٥]وكان الدافع لزكريا عليه السلام إلي هذه الدعوة ما ذكره الله تبارك وتعالي في سورة آل عمران أنه كان قد تكفل بمريم وهي طفلة صبية في المهد ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ﴾ من الذي يأتيكي بالرزق ولا أحد يدخل عليك غيري ؟ أنَّا هذا الطعام والشراب ما أتيتك به أين لك هذا ولم يدخل عليك غيري ؟﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[آل عمران: من الآية٣٧]

فعلى وجه السرعة دار في عقل زكريا عليه السلام أنه وإن لم يكن صالحا للإنجاب وإن كانت امرأته عاقرا عقيما غير صالحة للإنجاب إلا أن الله قادر على أن يرزقهما الولد وإن انقطعت منهما الأسباب كما يرزق مريم الطفلة وهي في المهد بلا سبب﴿هُنَالِكَ ﴾[آل عمران: من الآية٣٨]حين سمع منها قولها ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[آل عمران: من الآية٣٧] ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [آل عمران:٣٨]

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴾٤﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً ﴾٥﴿ يَرِثُنِي ﴾ [مريم:٦] في ماذا ؟ لا يرث المال فإن نبينا

صلى الله عليه وسلم قال نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة ولذلك لما مات النبي صلى الله عليه وسلم على فاطمة رضي الله عنها أرسلت إلي أبي بكر تسأله ميراث النبي صلى الله عليه وسلم فقال أما علمتي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، وفي الحديث الأخر يقول النبي صلى الله عليه وسلم إن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر ، ولذلك دخل أبو هريرة رضي الله عنه السوق يوما فوجد الصخب والضجيج والانشغال في البيع والشراء والتجارة واللهو كذا فقال يا معشر الناس أنتم ها هنا وميراث محمد يقسم ، فأنصت الناس فقال أنتم ها هنا وميراث محمد يقسم قالوا أين يقسم ميراث محمد قال في مسجده في المسجد النبوي فتركوا السوق وركضوا ركضا إلي المسجد ينظرون هذا الميراث الذي يقسم فلم يجدوا إلا قوما في مجلس علم يذكرون الله تبارك وتعالي ، فرجعوا إليه يا أبا هريرة لقد قلت أنتم ها هنا وميراث محمد يقسم قال أتيتم المسجد ، قالوا أتيناه قال فماذا رأيتم فيه قالوا رأينا قوما يذكرون الله تبارك وتعالي ويتدارسون كتابا قال هذا هو ميراث محمد صلى الله عليه وسلم .

فزكريا عليه السلام لم يعني بقول ﴿يَرِثُنِي ﴾[مريم: من الآية٦]يرثني في الدنيا وفي المال وإنما أراد يرثني في النبوة ويقوم في بني إسرائيل مقام الأنبياء يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ويدعوا إلي الخير ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّ ﴾٥﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾[مريم: من الآية٦] جملة ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾[مريم: من الآية٦] تؤكد لك ما ذكرته من أن المراد ميراث النبوة لا ميراث المال لأن يعقوب هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام أبوا يوسف عليه السلام ، وكم بين زكريا عليه السلام وبين يعقوب وزكريا يقول ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾[مريم: من الآية٦] فليس يحيى من ورثة يعقوب في الدني وإنما أراد﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾[مريم: من الآية٦] في النبوة التي قال فيها يعقوب عليه السلام ليوسف عليه السلام ﴿ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾٥﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ﴾ [يوسف:٥-٦] فلما نظر زكريا عليه السلام في بني إسرائيل فلم يرى فيهم من يصلح للنبوة خاف إن هو مات وليس هناك نبيا أن تنقطع النبوة ، ومن كمال نصحه وشفقته ببني إسرائيل سئل الله تبارك وتعالي ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّ ﴾٥﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ [مريم:٥-٦]

ثم استمع إليه وهو يقول ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّ ﴾[مريم: من الآية٦]اجعله ربي عبدا رضيا ترضى عنه ويرضى عنك ويرضى عن الناس ويرضى الناس عنه يكون عبدا مرضيا عندك وعند الناس ، وهذا الدعاء يدلك على أننا معشر الأباء يجب إذا حرصنا على الذرية أن نحرص على الذرية لا لمجرد الأبوة والبنوة وإنما يجب أن نحرص على الذرية لتكون ذرية طيبة صالحة تعبد الله سبحانه وتعالي وتحقق الغاية من خلقها ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذريات:٥٦]

زكريا عليه السلام حين سأل الله الولد لم يسأل مطلق الولد وإنما قال :﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّ ﴾[مريم: من الآية٦] وفي آل عمران قال :﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾[آل عمران: من الآية٣٨]كذلك فعل الخليل إبراهيم عليه السلام من قبل ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾٩٩﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الصافات:٩٩- ١٠٠]

فيجب علينا إذا حرصنا على الذرية ألا نحرص عليها لمجرد أن نكون آباء وأن يكون لنا أبناء ، بل يجب علينا أن يكون حرصنا على صلاح الذرية أن تكون ذرية طيبة صالحة عبد الله –سبحانه وتعالى – وتدعو الناس إلى عبادة الله – عز وجل – وانظر إلى سليمان بن داود عليه السلام وهو يقول (لأطوفن الليلة على تسعين امرأة تلد كل منهن فارسا يجاهد في سبيل الله) انظر إلى هذه الغاية من المعاشرة الزوجية ، انظر إلى هذا الهدف السامي النبيل الذي يحرث عليه سليمان عليه السلام (لأطوفن الليلة على تسعين امرأة تلد كل منهن فارسا يجاهد في

سبيل الله) ولقد أوثر عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قوله "أني لأكره نفسي على الجماع رجاء أن يخرج مني من يعبد الله – سبحانه وتعالى "

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّ ﴾٤﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّ ﴾٥﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّ ﴾ [مريم:٤–٦]

وتأتي البشارة عقب الدعوة مباشرة ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّ ﴾ [مريم:٧]من المنادي ؟﴿يَا زَكَرِيَّ ﴾[مريم: من الآية٧] هذا نداء ، وزكريا منادى ، من الذي ناداه ؟ الله تبارك وتعالى قال في آل عمران ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى ﴾[آل عمران: من الآية٣٩] فالملائكة هم الذين نادوا زكريا عليه السلام ، وهم الذين بشروه بهذه البشارة بأمر الله تبارك وتعالى لهم أن يبشروه بها ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾[مريم: من الآية٧]وانتبه للبشارة وما فيها من الكرم والجود﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ ﴾[مريم: من الآية٧] لفظ غلام عين جنس الولد ، لم يقل (إنا نبشرك بولد) لأن لفظ الولد يشمل الذكر والأنثى ، لفظ الولد يطلق على الجنسين ، أما الغلام فيطلق على الذكر فقط ، فبشره الله تبارك وتعالى بالولد ، وأنه سيكون ذكرا ، وسماه الله له قبل أن يولد ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى ﴾[مريم: من الآية٧] وانتبه لهذا الاسم الحسن الجميل (يحي) فهو يحي ولا يموت في صغره ، ثم يحي ويشب ويكبر ، حتى ينبأ ، ويحي حياة طيبة ، ويحي حياة ملؤها السعادة والطمأنينة والأنس والرضا بقضاء الله – سبحانه وتعالى – (يحي) ومن هنا يجب علينا أيها الأحبة إذا ولد لنا ولد أن نحسن اسمه ، وأن نختار لها اسماً حسناً ، فإن لكل ولدٍ نصيبٍ من اسمه ، وإني لأحزن على المسلمين والمسلمات حين يتركون أسماء الصحابة والصحابيات ، ثم يذهبون شرقاً وغرباً يستوردون لنا أسماء ما أنزل الله بها من سلطان ، والكل يريد أن يسمي باسمٍ لم يجعل له من قبل سميا ، يا أخي هذه خاصة بيحي عليه السلام ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّ ﴾[مريم: من الآية٧] ووقعت البشارة من زكريا عليه السلام موقعها ، وهنالك تعجب ، كيف سيكون الولد ؟ كيف سيعطى الولد ، طيف ستكون الولادة ؟ هل يخلق الله تعالى هذا الولد بكن فيكون ؟ أم كيف ستكون الولادة وكيف ستكون العطية ، وكيف ستكون الهبة ؟﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّ ﴾ [مريم:٨] أنا شيخ كبير هرم ﴿اشتعل الرأس شيباً ﴾ ، ﴿وهن العظم مني ﴾ ، وامرأتي كانت في شبابها في زمن الولادة ، زمن صلاح الولادة ، كانت عاقراً عقيماً لا تلد ، فلآت يا رب وقد بشرتني ، كيف ستتحقق هذه البشارة ؟ وهذا منه ليس اعتراضاً على أمر الله – سبحانه وتعالى – ، ولا شكاً في قدرته ، وإنما كما قال إبراهيم الخليل عليه السلام ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾[البقرة: من الآية٢٦٠] فهكذا أراد زكريا عليه السلام بقوله ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ ﴾[مريم: من الآية٨] أن يطمئن قلبه نسأل الله العظيم رب العرش العظيم ، أن يبارك لنا في أزواجنا ، وأن يصلح لنا ذرياتنا ، ربنا هب لنا من أزواجنا وذريتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إمام هذا والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

سؤال : قال إحدى الأخوات أنها تعلمت عشرة أجزاء قراءة ، وقالت لها معلمتها بألا تقرأ الأجزاء الباقية ، لأنها لم تتعلم أحكامها ، واستشهدت بحديث (رب قاريء للقرآن والقرآن يلعنه) ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

الأخت جزاها الله خيراً أرادت أن تنبه المسلمين والمسلمات الذين يستدلون بالآيات والأحاديث في غير موضعها ، تلك المعلمة التي منعت السائلة من تقرأ غير العشرة أجزاء التي حفظتها ، قال لها (كم من قاريء

للقرآن والقرآن يلعنه) وهذا ليس بحديث أصلاً ، ثانياً : يجب على المسلم أن يحذر من أن يستدل بنص على شيء ليس النص دليلا عليه ، فلا يتكلم الإنسان إلا بعلم .

فنشكر الأخت المعلقة ، ونشكر الأخت السائلة في الحلقة الماضية أن تكون سمعت واستفادت هي وغيرها من المسلمين والمسلمات .

سؤال : لماذا بشر عيسى عليه السلام برسول اسمه "أحمد" ولم يقل "محمد" ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

يقول النبي – صلى الله عليه وسلم – (لي خمسة أسماء : أنا أحمد ، وأنا محمد ، وأنا العاقب ، وأنا الماحي وأنا الحاشر) فأحمد هم محمد – صلى الله عليه وسلم – لا فرق .

سؤال : إنسان بإمكانه أن يتعلم الأحكام ويقرأ بالقراءة العادية ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

ينبغي لمن أتيحت له فرصة تعلم التجويد وتصحيح القراءة أن يغتنم هذه الفرصة ، وأن يحرص على تعلم التجويد وتصحيح قراءته ، لكننا نقول : أنه حتى يتعلم معذور إن أخطأ حتى يتعلم ، لكن ما دامت الفرصة متاحة لا ينبغي أن يقصر ويهمل ، ويترك الفرصة تضيع عليه .

سؤال : ما هو فضل ختمة القرآن ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

القرآن ، قلنا في بداية حديثنا أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : (من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها لا أقول ألق لام ميم حرف ، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف) فمن فضائل الختمة انظر كم في القرآن الكريم كله من حرف ، ولك على كل حرف عشر حسنات ، هذا شيء ، الشيء الثاني أننا حين نختم القرآن نكون وصلنا ما أمرنا الله به أن يوصل ، الله سبحانه وتعالى أمرنا أن نصل ما بيننا وبين القرآن الكريم ، فمن الوصل أن نختمه كل شهر مرة على الأقل ، وبالختمة تستطيع أن تأتي على كل ما في القرآن الكريم من سور وأحكام وآداب وأخلاق وتستعين بالله على العمل إن شاء الله تعالى ، لكنك لو جعلت لك ورداً معيناً من سور معينة أو أجزاء معينة تقرأها ولم تقرأ ما بقي من القرآن الكريم فأنت هجرن الجزء الذي لم تقرأه ، وبذلك تكون وقعت في محذور وهو هجر القرآن الكريم .

سؤال : كيف يعرف السورة المكية من المدنية ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

الحمد لله هناك كثير من طبعات المصاحف موجود مكتوب مثلا سورة مريم مكية وعدد آياتها كذا آية ، وهكذا .

سؤال : كيف يجازي الله الكافرين على أعمالهم الصالحة في الدنيا ؟ وخاصة أنن الكافرين جنـــازاتهم قيمـــة بخلاف المؤمنين ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

الله تبارك وتعالى لا يظلم الناس شيئاً فأيما كافر عمل عمل خير وبر أثابه الله تعالى عليه في الدنيا ، يعطـــه مالاً ، يعطه صحةً ، يعطه ولداً ، يعطه جاهاً ، يعطه منصباً ، يعطه من حسنات الدنيا ، ربنا قال ﴿فَمِنَ النَّـــاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ [البقرة :٢٠٠] ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الـــدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [البقرة :٢٠١]

فحسنة الدنيا كل ما يحب الإنسان ويتمنى من الخير ، فالكاف إذا عمل عملاً صالحاً ، جزاه الله عليه بحـــسنة الدنيا ، فإذا من الله على هذا الكافر بالإسلام بعد ذلك أعطاه حسنة الآخرة مع ما سبق له من حسنة الدنيا ، وأمـــا إذا مات على كفره فقد أثيب على عاجل دنياه على صالح عمله ولا ثواب له في الآخرة .

سؤال : ما حكم قولي لمن يسألني وقال : من أين لك هذا ؟ أقول هو من عند الله ، إن الله يزق من يشاء بغير حساب ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

لا شك أن هذا جواب يكفي في التعريض إذا لم تشأ أن تصرح من أين لها هذا ، إذا كان السائل له دلال عليها ومودة ، وأعرف من أين أتت بهذا الشيء فأرادت أن تخفي عليه الجهة التي أتت منها بهذا الشيء ، فقالت هـــو من عند الله ، فهذا جواب فيه تعريض وتورية ولا حرج في ذلك إن شاء الله .

سؤال : يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان زكريا عليه السلام ﴿ وإني خفت الموالي من ورائي ﴾ الآية ، نريد من سيادتكم توضيح الفرق بين الخوف الجبلي والخوف الشركي ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

ليس هذا موضع الخوف الجبلي ، والخوف الشركي ، إنما كما قلت أنه نظر في حال بني إسرائيل فوجـــدهم غير صالحين للنبوة ، فخاف أن تنقطع النبوة بموته ، وقلنا أن النبي – صلى الله عليه وسلم – ينصح لأمته فـــي حياته وبعد مماته ، فسأل الله أن يرزقه من صلبه ولداً صالحاً يصلح لأن يخلفه في ميراث النبوة .

سؤال : ما هي صلة القرابة بين نبي الله عيسى ونبي الله يحيي ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

ذكر بعض المفسرين أنهما ابنا خالة ، وصح ذلك في حديث النبي – صلى الله عليه وسلم – فـــي الإســـراء والمعراج (لما استفتح السماء الدنيا قال : إذا أنا بآدم فلما عرج به إلى السماء الثانية قال : فإذا أنا بيحيي وعيسى ابني خالة).

وصلى اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فضائل يحي ومريم عليهما السلام

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فــلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، اللهم صلي وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلي يوم الدين .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محــدثاتها وكــل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار ثم مرحبا بكم في هذا اللقاء الجديد من دروس تفسير سورة مريم وقبل أن نبدأ في الدرس الثاني نطرح أسئلة في الدرس السابق ونرجو الإجابة عليها كما تم ذلك في الحلقة السابقة .

سؤال : ما هو سر الحروف المقطعة في أوائل السور ؟

سؤال : ما هي آداب الدعاء ؟

سؤال : ما المراد بالرحمة في قوله تعالي ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّ ﴾ [مريم:٢] ؟

أما الآيات المباركات التي معنا اليوم من سورة مريم عليها السلام فقد تضمنت من المعاني ما يلي :

أولا : الحث على الإستمساك بالكتاب .

ثانيا : فضائل يحيى عليه السلام .

ثالثا : المناسبة بين ميلاد يحيى وعيسى عليهما السلام .

رابعا : فضائل مريم بنت عمران عليها السلام .

خامسا خروج مريم من بيت المقدس .

سادسا : اقتحام جبريل عليها خلوتها .

سابعا : التقوى تحول بين الإنسان وبين الحرام .

ثامنا : حكمة خلق الله تبارك وتعالي عيسى من مريم دون أب .

تاسعا : كلام عيسى عليه السلام في المهد .

أخيرا : الأخذ بالأسباب واجب .

وهذا بإيجاز عرض سريع لأهم ما تضمنته الآيات المباركات من سورة مريم من المعاني والتي سنعيش في رحابها ساعتنا هذه إن شاء الله تعالي .

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص:٢٩]

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر:٢١]

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر:٢٣]

دعا زكريا عليه السلام ربه ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾[آل عمران: من الآية٣٨] فنادته الملائكة وهو يصلي في المحراب أن الله يبشرك ، ومع أنه هو الذي طلب الولد من الله تبارك وتعالي إلا أن البشارة كانت مفاجئة له فجعلته يتعجب ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّ ﴾[مريم: من الآية٨] ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾[مريم: من الآية٩] الأمر كما سمعت ﴿ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾[هود: من الآية١٧] ﴿ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾[مريم: من الآية٩] بدليل ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ [مريم: من الآية٩] فلما استقر في قلب زكريا عليه السلام أن الله تبارك وتعالي أجابه وأنه سيعطيه غلاما زكيا ، أراد من الله سبحانه وتعالي أن يجعل آية تدله على استقرار الحمل في أوائل مراحله ذلك أن أمرات الحمل لا تظهر على المرأةإلا بعد شهرين أو ثلاثة فأراد زكريا عليه السلام أن يرى آية تدل على استقرار الحمل وثبوته في بطن امرأته ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً ﴾ [مريم:١٠]

الآية والعلامة التي تستدل بها على استقرار الحمل وثبوته في بطن امرأتك هي أن يحبس لسانك عن الكلام مع الناس حالة كون لسانك سويا أي سليما لم تصبه آفة ولم تصبه علة ولا مرض ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً ﴾[مريم: من الآية١٠] أي حالة كونك سويا سليم الأعضاء ولسانك سليم مئة المئة إلا أن الله سبحانه وتعالي يحبس لسانك عن كلام الناس ، أما إذا أردت أن تذكر الله وتسبح وتحمد فلسانك ينطلق بذكر الله ويحبس عن الكلام مع الناس ثلاث ليال وقد قال في آل عمران ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ﴾[آل عمران: من الآية٤١] فلما يقول ثلاثة أيام يفهم أنها بلياليهن ولما يقول أنها ثلاث ليال يفهم أنها بأيامهن ﴿آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ ﴾[مريم: من الآية١٠] حالة كون لسانك سويا سليما ليست به آفة ولا مانع يمنعه من الكلام إلا أن الله سبحانه وتعالي جعل حبس لسانك عن الكلام مع الناس آية لك تدل على ثبوت الحمل واستقراره ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ ﴾[مريم: من الآية١١] فحبس لسانه على الكلام﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ ﴾[مريم: من الآية١١] أي أشار إليهم كما قال في آل عمران﴿ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً ﴾[آل عمران: من الآية٤١] إلا إشارة ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾[مريم: من الآية١١] اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا على هذه النعمة التي أنعم الله بها علي وعليكم وقد قلنا أن زكريا عليه السلام حين سأل الولد إنما سأل الولد ليرثه في النبوة لأنه نظر في الناس من حوله فلم يرى فيهم من يصلح للنبوة بعده فخاف إن هو مات أن تنقطع النبوة من بني إسرائيل فسأل الله أن يرزقه ولداً ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً ﴾ [مريم:٦]

ولا شك أن في إجابة الله تبارك وتعالي لزكريا نعمة عليه لأن الله أعطاه الولد بعد ما كان ممنوعا منه وفي إعطاء زكريا الولد نعمة على بني إسرائيل لأن يحيى سيقوم في بني إسرائيل كما قام الأنبياء ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾[آل عمران: من الآية١٦٤] ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى ﴾ [مريم:١١] أي أشار إليهم ﴿أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾[مريم: من الآية١١]﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾[مريم: من الآية١٢] انتبه لهذه النقلة وما حبس بين الآيات ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾[مريم: من الآية١٢] سكت الله تبارك

وتعالي عن مدة الحمل وعن ساعة الوضع وعن مدة الرضاع وعن سنين الصبا ليحيى حتى شب في صباه ونطق وتعالم الكلام سكت الله تبارك وتعالي عن ذلك كله لأنه كما ذكرنا مرارا القرآن ليس كتاب وقائع وأحداث يسرد الأحداث سردا إنما القرآن يركز في الأحداث على ما فيه الفائدة والعبرة والعظة كما قلنا في قوله تعالي ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْر ﴾ [الكهف:٨٣] سأقص عليكم من أنبائه ما فيه ذكرى ومنفعة لكم وسأسكت عن ذلك ، ولذلك هنا ما إن بشر زكريا عليه السلام بيحيى حتى انتقل الكلام من البشارة إلي النداء على يحيى مباشرة ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾[مريم: من الآية١٢] وما أحوجنا إلي هذه الوصية ، يا مسلمون خذوا الكتاب بقوة ، استمسكوا بالكتاب عضوا عليه بالنواجذ ، فهكذا أمر الله تعالي يحيى عليه السلام ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾[مريم: من الآية١٢] وهكذا أمر الله تعالي نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم فقال عز وجل ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾ [الزخرف:٤٣] ومدح الله تبارك وتعالي الذين يستمسكون بالكتاب فقال ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف:١٧٠]

﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾[مريم: من الآية١٢] ما أحوجنا نحن المسلمين إلي هذه الوصية أن نستمسك بكتاب ربنا ،أن نعض عليها بالنواجذ ، وأن نقبل عليه نتلوه أناء الليل وأطراف النهار تلاوة تدبر وفهم تدعونا بعد ذلك وتدفعنا إلي العمل بكل ما جاء في هذا القرآن من أوامر ونواهي فهذا هو حق التلاوة الذي شهد الله لأهلها بالإيمان في قوله ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ ﴾[البقرة: من الآية١٢١]

﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ ً ﴾ [مريم:١٢] والحكمة والفهم وقوة الإدراك وشدة الذكاء ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّ ﴾[مريم: من الآية١٢] أي في صباه وفي صغره منّ الله تعالي على يحيى عليه السلام بقوة الذاكرة وسرعة الفهم والقدرة على الإستنباط استنباط الأحكام والحكم بها ، ولذلك قال معمر قيل ليحيى عليه السلام وهو في صغره صبيا هيا بنا نلعب فقال للصبيان ما للعب خلقنا وهذه من الحكمة التي أعطاه الله تبارك وتعالي يحيى عليه السلام ، قال له صبيان هيا بنا نلعب فقال ما للعب خلقنا ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّ ﴾ [مريم:١٢]

﴿وَحَنَان ﴾[مريم: من الآية١٣] أي وأعطيناه حنانا من لدنا وحنانا وعطفا وشفقة ورحمة، وهذه هي صفات الداعية الناجح الذي يستطيع أن يوصل رسالة ربه وأن يقيم الحجة لله تبارك وتعالي على خلقه ، لابد للداعية من حنان كثير ورحمة عظيمة وشفقة على خلق الله وعطف عليهم حتى يتحمل أذاهم ويصبر على ما يلقاه منهم فلا يمل ولا يَكَل ولا يفطر ولا يقعد عن تبليغ رسالة ربه .

﴿وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً ﴾[مريم: من الآية١٣] أي زكيناه تزكيا وطهرناه طهارة من دنس الذنوب والمعاصي والخطايا فكان عليه الصلاة والسلام معصوما من الذنوب والمعاصي شأنه في ذلك شأن الأنبياء أجمعين .

﴿وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّ ﴾ [مريم:١٣]﴿وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ ﴾[مريم: من الآية١٤] جعل الله تعالي يحيى عليه السلام برا بوالديه ولم يكن جبارا بالناس وإنما كان برا بوالديه وبرا بالناس ولم يكن عصيا لله تبارك وتعالي وإنما كان تقيا ، يأتمر لأوامر الله عز وجل وينتهي عن نواهيه . ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّ ﴾١٢﴿وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّ ﴾١٣﴿وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّ ﴾١٤﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ ﴾[مريم: من الآية١٥]الله تبارك وتعالي يسلم على يحيى بن زكريا عليه السلام ﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّ ﴾ [مريم:١٥]

قال سفيان بن عيينة رحمه الله ما من أيام أوحش على الإنسان من هذه الأيام الثلاث ، أوحش الأيام التي تمر على الإنسان هذه الأيام الثلاثة ، يوم ميلاده ، ويوم موته ، ويوم بعثه من القبور ، مع سائر الناس ، أما يوم الميلاد فإن الطفل يخرج من بطن أمه إلي عالم جديد عليه غريب لم يره قبل ذلك ولم يعرف عنه شيئا فيكون صعبا عليه جدا ولذلك يخرج من بطن أمه باكيا .

وأما يوم وفاته فإنه من أوحش الأيام لأنه قبل أن تخرج روحه يعاين ملائكة الموت وهو عالم لم يـره ولـم يشاهده ، وبعد موته ينتقل إلي عالم البرزخ وهو عالم لم يعرفه ولم يشاهده ، ثم يوم البعث ينتقل من القبر مـن البرزخ إلي أرض المحشر مع الأهوال التي تصحب الناس والشدائد التي تصيبهم في هذا اليوم .

فنجى الله تبارك وتعالي يحيى عليه السلام من هذه الأهوال كلها ، نجاه من أهوال الميلاد وأهوال المـوت ، وأهوال البعث فقال ﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّ ﴾ [مريم:١٥]

وبذلك تنتهي هذه القصة الأولى في سورة مريم عليها السلام وهي قصة ميلاد يحيى بن زكريا عليه السلام .

ثم يتبعها الله تبارك وتعالي بقصة ميلاد عيسى بن مريم عليهما السلام، وبين القصتين علاقة وتناسب ، فـإن في خلق يحيى من زكريا عليه السلام وقد وهن عظمه واشتعل رأسه شيبا ، وكانت امرأته عاقرا لا شك أن فـي خلق يحيى من الشيخين الكبيرين العجوزين المسنين هذا عجب لأنه لم تجرى العادة في الناس أن يلد الرجـل أو المرأة وقد بلغا من الكبر عتيا ، فالمرأة عندها في سنها سنين تعرف بسن اليأس ، يقال بلغت المرأة سن اليـأس أي يأست من الحيض ، انقطع حيضها ويأست من الولادة بعد بلوغها هذا السن ، وكذلك الرجل وإن هو يعنـي تكثر سني ميلاده إلي أكثر من المرأة لكنه أيضا بعد السبعين وبعد الثمانين لم تجرى العادة أن يلد الشيخ الكبير .

فخلق الله تبارك وتعالي ليحيى من زكريا الشيخ الكبير ومن امرأته العاقر العقيم لا شك أن في هـذا عجـب ولكن أعجب من ذلك القصة الثانية وهي قصة ميلاد عيسى بن مريم عليه السلام أن يخلق الله تبارك وتعالي من امرأة خلقا دون أن يمسها رجل بحلال أو حرام هذا هو أعجب من القصة السابقة ، ولذلك ترى الله عـز وجـل كثيرا ما يجمع في القرآن الكريم بين القصتين بين قصة ميلاد يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم عليهم الـصلاة والسلام ، جمع الله تبارك وتعالي بينهما في آل عمران ، وجمع بينهما هنا في مريم ، وجمع بينهما أيـضا فـي الأنبياء ، ذلك أن في القصتين دلالة على عجيب قدرة الله تبارك وتعالي .

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ﴾ [مريم:١٦] واذكر يا نبينا في الكتاب والمراد به القرآن الكريم والذكر الحكـيم ، واذكر يا نبينا لقومك من آمن منهم ومن لم يؤمن واذكر لهم في الكتاب الذي أنزلناه عليك مريم ، وفي هذا الذكر لمريم عليها السلام مما يدل على فضلها وعظيم شرفها أن يذكر إنسان في الذكر الحكيم ، أن يذكر إنـسان فـي القرآن الكريم لا شك أن هذا شرف عظيم وثناء عظيم جدا أن يسمي الله تبارك وتعالي إنسانا باسمه ويقص على الناس من نبأه في القرآن الكريم ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم خير نساء العالمين مريم ابنة عمـران ، ويقول النبي عليه الصلاة والسلام [كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران وآسيا امرأة فرعون وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام] .

ومريم هي مريم بنت عمران من سلالة داود بن سليمان عليهما السلام يقص الله تبارك وتعالي علينا هنا فـي سورة مريم قصة ولادتها لبنها عيسى بن مريم عليه السلام وقد قص الله تبارك وتعالي علينا قبل ذلك في سورة آل عمرانقصة ميلاد مريم نفسها عليها السلام ، يقول تعالي في سورة آل عمران ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحـاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران:٣٣]

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣٤]

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ الـسَّمِيعُ الْعَلِـيمُ ﴾ [آل عمران:٣٥]

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ [آل عمران:٣٦] فليس قولها إني وضعتها أنثى إعلاما لله تبارك وتعالي بجنسها ، فالله تبارك وتعالي هو الذي خلقها وهو الذي أحاط بها علما قبل ولادتها ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك:١٤]

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى ﴾[آل عمران: من الآية٣٦] في القوة والجلد والتحمل والقدرة على خدمة بيت المقدس ، وقد كانت نذرت ما في بطنها لخدمة بيت المقدس وكانت ترجوا أن يكون ذكرا ليقوى على خدمة بيت المقدس ويجتهد في خدمة بيت الله عز وجل ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى ﴾[آل عمران: من الآية٣٦] في القوة والجلد والصبر والتحمل والقيام بخدمة بيتك ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾[آل عمران: من الآية٣٦] ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا ﴾ [آل عمران:٣٧] وزكريا عليه السلام هو زوج أختها فيحيى وعيسى ابنا خالة ، ﴿زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[آل عمران: من الآية٣٧] فمريم ابنة عمران وضعت في بيت المقدس تحت رعاية الأنبياء وعباد الله الصالحين منذ ولادتها ، وكفلها الله تبارك وتعالي زكريا فكان كفيلها وكان راعيها ومربيها ومعلمها ومؤدبها فنشأت نشأة إيمانية محضة وعاشت في رحاب بيت المقدس بين العابدين الحامدين الذاكرين لله تبارك وتعالي وبينما هي بعد كبرها في بيت المقدس إذا عرضت لها حاجة عارضة أخرجتها من بيت المقدس ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً ﴾ [مريم:١٦]

ما هي الحاجة التي دفعت مريم للخروج من بيت المقدس ؟ لا يعنينا كثيرا تعين هذه الحاجة التي ألجأت مريم للخروج من بيت المقدس ، والخوض فيها رجم بالغيب ، لا ينبغي عليه عمل ونحن نركز دائما على أن الله تبارك وتعالي في القصص يسكت عما لا فائدة من تعينه من الزمان والمكان والحوائج ، المهم أن مريم نشأت في بيت المقدس ، في رحاب بيت الله عز وجل بين الأنبياء العابدين الحامدين الذاكرين وليس هناك تربية أحسن من هذه التربية ولا تنشئة أحسن من هذه التنشئة .

فلما بلغت سنا معينا كانت بها حاجة أخرجتها من بيت المقدس ﴿ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً ﴾[مريم: من الآية١٦] في هذه الآية عين الله تبارك وتعالي لنا الجهة التي خرجت إليها مريم والمسافة التي انتهت إليها .

عين لنا الجهة بأنها مكانا شرقيا ، شرقية بيت المقدس ، وحدد لنا المسافة التي خرجت إليها مريم من بيت المقدس وهي [فانتبذت] والمراد أنها خرجت من بيت المقدس مسافة رمي بحجر فالنبذ معناه الرمي والطرح [فنبذوه وراء ظهورهم] فالنبذ معناه الرمي والطرح .

﴿ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ﴾[مريم: من الآية١٦] أي أنها خرجت من أهلها مسافة رمي الحجر ، إذا مسكت حجرا هكذا ورميت به مهما كانت قوتك انتهى إلي مسافة فهذه المسافة مسافة رمية الحجر خرجت إليها مريم عليها السلام وكانت في الجهة الشرقية .

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً ﴾ [مريم:١٦]

ومع كونها بعدت عن الناس وغابت عن أنظارهم إلا أنها لحشمتها ووقارتها وعفتها وصيانتها عليها السلام احتاطت بقدر ما يمكنها من الاحتياط ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاب ﴾[مريم: من الآية١٧] أي من دونهم حجابا بينها وبين الناس واختبأت ورائه حتى لا يراها أحد .

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً ﴾ [مريم:١٧]

لم يروعها وهي في خلوتها وراء حجابها إلا ورجل إنسان سوي بشر جميل الصورة حسن المنظر بين يديها في خلوتها وليس عندها أحد .

﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾[مريم: من الآية١٧] المراد جبريل عليه السلام سماه الله تعالي روحا في أكثر من آية ، سمى الله تبارك وتعالي جبريل روحا في أكثر من آية لماذا ؟ لأن جبريل كان حامل الوحي ، والوحي سماه الله تعالي روحا ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ﴾[الشورى: من الآية٥٢] فسمي الحامل باسم ما يحمل ، سمى الله تبارك وتعالي جبريل روحا لأنه يحمل الروح الذي هو الوحي ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً ﴾ [مريم:١٧] ومعلوم أن للملائكة القدرة على تشكل بأشكال مختلفة متباينة فتشكل جبريل في صورة بشر واقتحم على مريم خلوتها .

لماذا تمثل لها بشرا سويا ولم يظهر لها على أصل خلقته الملائكية ؟

المقصود من ذلك الله تعالي أعلم ، ألا تنزعج انزعاجا وألا تفزع فزعا ، لأنها إذا فوجئت بشبح غريب بصورة غريبة غير مألوفة ولا معهودة فيكون خوفها أشد وقلقها أكثر فستخرج من خلوتها تركد ركدا حيث الناس فأراد الله تبارك وتعالي أن يهدئ من روعتها وأن يطمئن قلبها فأمر جبريل أن يتمثل لها بشرا حتى يكون الخوف قليلا والقلق قليلا ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً ﴾[مريم: من الآية١٧] فلما رأت نفسها بين يدي إنسان في خلوة وليس عندها أحد لم تجد ملجأ تلجأ إليه إلا الله سبحانه وتعالي فلجأت إلي الله واعتصمت بالله واستجارت بالله ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ ﴾ [مريم:١٨] أعوذ بالله ألجأ إلى الله ألتصق بجناب الله سبحانه وتعالي ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ ﴾[مريم: من الآية١٨] لأنه لا ملجأ ولا منجى إلا إلي الله سبحانه وتعالي في كل أمر ، وفي الشدائد والخطوب لا يلجأ إلا إلي الله سبحانه وتعالي فلجأت إلي الله لينجيها ويخلصها من هذا الإنسان الذي اقتحم عليها خلوتها لأنه من المعلوم بداهة حين تكون فتاة في خدرها أو وراء حجابها في خلوة ليس معها أحد وتفاجأ بإنسان تسور المحراب ودخل عليها خلوتها بداهة ماذا يريد هذا الرجل من هذه المرأة الخلوة إلا ما يريد الرجل من المرأة ، فاستعاذت بالله عز وجل ولجأت إليه وفرت إليه ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ ﴾[مريم: من الآية١٨] ثم ذكّرته بالله عز وجل وتقواه قائلة ﴿إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً ﴾[مريم: من الآية١٨] وانتبه جملة ﴿ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً ﴾[مريم: من الآية١٨] جملة شرطية جواب الشرط محذوف بعدها وليس هذا الشرط متعلقا بالاستعاذة ﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ ﴾[مريم: من الآية١٨] هذه جملة تامة انتهت ، وأما قولها ﴿إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً ﴾[مريم: من الآية١٨] فليس شرطا للاستعاذة لا وإنما هي تقول له ﴿إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً ﴾[مريم: من الآية١٨] فارجع عما جئت له ولا تمسني بسوء فعلمت عليها السلام أن التقي ذو نُهية ، علمت أن الإنسان التقي إذا ذكر بالله تبارك تذكر وخاف من الله عز وجل وأقلع عما هم عليه أو به من المعاصي كما قال الله تعالي ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠١]

أحيانا يهم الإنسان بالسيئة ثم تنزاح عنه الغمة وينكشف عنه الغطاء ويرجع إليه نور الإيمان فيغلب ظلمة المعصية فيذكر الله فيخاف الله تعالي فيرجع عما هم به من السوء ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠١]

فالتقوى تحول بين الإنسان وبين الحرام ، التقوى إذا حلت القلب حالت بين الإنسان وبين الوقوع في الحرام ، التقوى تحول بين الإنسان وبين الوقوع في الزنا ، علمت ذلك مريم فذكرت الذي أمامها وهي لا تعرفه إن كنت تقيا فارجع عما جئت له ، وما أردته مني من السوء .

وفي حديث الغار ؛الثلاثة الذين انطلقوا فآواهم المبيت إلي الغار قال أحدهم وهو يتوسل إلي الله تبارك وتعالي اللهم إنه كانت لي ابنة عم وكنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء فأردتها على نفسها فامتنعت مني حتى ألمّت بها سنة من السنين فجائتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها فرجعت ولم

تفعل في أول مرة رجعت وتركت الذهب لم تقبله مقابل عرضها لم تساوم على عِرضها وشرفها ، فلما ضغطت عليها الحاجة وزادت عليها الحاجة جاءته تسأله فأعطاها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بينها وبينه وبين نفسها فرضخت تحت ضغط الحاجة فلما قعد بين رجليها ذكرته بالله قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه فانصرف الرجل عنها ، فالتقوى حين تعمر القلب وتملؤه تحول بين الإنسان وبين الوقوع في الزنا ، وإذا حلت التقوى القلب حالت بين الإنسان وبين سفك الدماء المحرم بين ازهاق الأرواح البريئة وقتل الأنفس الطاهرة كما قال تعالي ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ ﴾ يعني الذي لم يتقبل منه لأخيه الذي تقبل الله منه ﴿قال لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة:٢٧] ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة:٢٨]

فالتقوى تحول بين الإنسان وبين الوقوع في الحرام ، علمت ذلك مريم فذكرت من أمامها وهي لا تعرفه بتقوى الله عز وجل ﴿ إِنْ كُنْتَ تَقِيّ ﴾[مريم: من الآية١٨] جملة شرطية جوابها محذوف تقديره فارجع عما جئت إليه ولا تمسني بسوء .

فكشف لها عن هويته ، وأعلمها بحقيقته ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴾[مريم: من الآية١٩] وبهذه الجملة اطمئنت بعض الشيء ولكنها لم تكد تطمئن حتى عاد القلق يساورها بالجملة الأخيرة حين سمعته يقول ﴿أَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّ ﴾ [مريم: من الآية١٩] ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّ ﴾ [مريم:١٩]

فعاد الشك يساورها والقلق يزعجها مرة ثانية ، ترى هل هذا الإنسان صادق أم غير صادق يقول ﴿أَنَا رَسُولُ رَبِّك ﴾ ثم يقول ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّ ﴾[مريم: من الآية١٩] من أين يكون الغلام إلا بأن يمس الرجل المرأة وهي امرأة غير ذات زوج وهي امرأة عفيفة طاهرة فلم تمس بحلال ولا حرام فمن أين يكون هذا الولد ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّ ﴾ [مريم:١٩]

انتبه لقوله ﴿أَهَبَ لَكِ ﴾[مريم: من الآية١٩] من الذي يهب الأولاد للناس ؟ الله سبحانه وتعالي هو الوهاب ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ [الشورى:٤٩]

فالوهاب هو الله سبحانه وتعالي ولكن كيف يقول جبريل ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّ ﴾[مريم: من الآية١٩] قال لأكون سببا في هبة الله لك غلاما زكيا ، أرسلني الله إليكي لأكون سببا في هبة الله لك غلاما زكيا ولذلك هناك قراءة ثانية " قال إنما أنا رسول ربك ليهب لك غلاما زكيا " قالت متعجبة منكرة ما تسمع ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ [مريم:٢٠] بحلال ولا حرام وإلي هذه الساعة لم يعرف في الناس أن تلد امرأة دون مس دون جماع دون معاشرة سواء كان حلال أم حرام ﴿قَالَتْ أَنَّى ﴾[مريم: من الآية٢٠] كيف ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾[مريم: من الآية٢٠] بحلال ولا حرام ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيّ ﴾[مريم: من الآية٢٠] قولها ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيّ ﴾[مريم: من الآية٢٠] هذا تخصيص بعد تعميم لأن قولها لم يمسني بشر يشمل الحلال ولحرام لكنها تقول أنا غير متزوجة ليمسني رجل في الحلال ولست بغية والبغي هي الفاجرة العاهرة الزانية التي تمكن الرجال منها في الحرام فأنا لست بغيا حتى يمسني أحد في الحرام ولست متزوجة فمن أين يكون الولد ؟ قال كما قال لزكريا من قبل ﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾[مريم:٢١] ﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾[مريم: من الآية٢١] وقول الله تبارك وتعالي هو الحق والله تبارك وتعالي إذا أراد شيئا قال له كن فيكون كما قال في آل عمران ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران:٤٧]

﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم:٢١] والحكمة من خلق الولد منك دون أن يمسكِ رجل والحكمة في ذلك ﴿وَلِنَجْعَلَهُ ﴾[مريم: من الآية٢١] أي هذا الولد الذي تلدينه ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاس ﴾[مريم: من الآية٢١] آية للناس تدلهم على كمال قدرة الله –سبحانه وتعالي– وعجيب صنعته –عز وجل –، ولنجعل هذا الغلام الذي تلدينه

آية للناس يستدلون بها على كمال قدرة الله تبارك وتعالي وعجيب صنعته ، فإن الله تبارك وتعالي خلق آدم أول ما خلقه من تراب من غير ذكر ولا أنثي ثم خلق الله تبارك وتعالي حواء من آدم فخلق من ذكر بلا أنثى ثم خلق الله تبارك وتعالي من آدم وحواء الذرية المعهودة فخلق من ذكر وأنثى فهذه ثلاث دوائر خلق من غير ذكر وأنثى ، وخلق من ذكر بلا أنثى ، وخلق من الذكر والأنثى فأراد الله أن تكتمل الدائرة الرباعية التي تدل علــى كمــال قدرة الله وعظيم صنعته فخلق من الأنثى بلا ذكر وهو عيسى عليه السلام ، فهذا معنى قوله تعالي﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَــةً لِلنَّاسِ ﴾[مريم: من الآية٢١]

﴿ وَرَحْمَةً مِنَّ ﴾[مريم: من الآية٢١] أي ولنجعل هذا الولد الذي تلدينه رحمة منا ، رحمة مــن الله بــالمولود ورحمة من الله بالوالدة ورحمة من الله بالناس أجمعين ، أما رحمة الله تبارك وتعالي بالمولود فهو أن الله سبحانه وتعالي اصطفى عيسى واجتباه وجعله رسولا بنيا من أولي العزم من الرسل وهذه رحمة من الله سبحانه وتعالي ، ونحن قد فسرنا الرحمة في سورة الكهف التي أعطاها الله تعالي للخضر عليه السلام ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَــا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَ ﴾[الكهف: من الآية٦٥] فسرنا الرحمة بالنبوة فرحمة الله بعيسى هو أن اجتباه واصــطفاه واختاره وجعله رسولا نبيا وجعله من أولي العزم الرسل ، فهذه رحمة من الله بعيسى ، ورحمة الله بأم عيــسى بمريم عليها السلام أنه لا شك في هذه الولادة كانت سببا لذكرى بالذكر الحسن والثناء الجميل ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ﴾[مريم: من الآية١٦] كل هذا بسبب هذه الولادة ، وأما رحمة الله للناس بعيسى فكونه جعله رسولا يتلــوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ولا شك أن هذا من رحمة الله تعالي بالناس أن يبعث إليهم ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾[النساء: من الآية١٦٥] .

وكان أمرا ، كان هذا الحمل وهذه الولادة أمرا مقضيا لأن الله تبارك وتعالي قضاه والله تعالي إذا قضى شيئا فلا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ولا غالب لأمره ﴿ وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّ ﴾[مريم: من الآية٢١] ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّ ﴾ [مريم:٢٢]

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ [مريم:٢٣] بشرت بالولد بعد البشارة حملتــه فانتبــذت بــه فأجاءهــا المخاض ذهب بعض المفسرين إلي أن ولادة عيسى عليه السلام لم تكن كشأن ولادة سائر النساء لم يكن الحمــل تسعة أشهر ولم تكن ولادة طبيعية ولكن ما إن بشرت حتى نفخ جبريل في درعها فذهبت النفخة إلي محل الولادة فكانت سببا للحمل فحملته فانتبذت فأجائها المخاض ، فقالوا لم يكن الحمل كحمل النساء تسعة اشهر مستدلين بأن الفاء العاطفة تفيد التعقيب في الترتيب بلا فاصل زمني والراجح أن الفاء هنا وفي بعض المواضع لا تفيد التعقيب في الترتيب فقد سبق معنا في سورة الكهف قول ربنا عز وجل ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ﴾ [الكهف:٤٥] ومعلوم أن بين نــزول المــاء مــن السماء على البذرة وبين خروج البذرة من الأرض زمن ، وبين استواء العود على سوقه وحمله للحب زمن وبين حصاده زمن لكن جاء الترتيب بالفاء هنا لم تفد التعقيب ، فكذلك الأمر في فاء الترتيب هنا لم تفد التعقيب وإنمــا الله سبحانه وتعالي قضى أن يكون الحمل حملا طبيعيا تسعة أشهر كما تحمل النساء بأولادهن ، ولو كان الحمل مرة واحدة حملت فولدت لكانت هذه معجزة كبيرة ومعجزة كبيرة خارقة للعادة فكانت أولى أن يصرح الله تبارك وتعالي بها في القرآن الكريم ، فلما لم يصرح الله تبارك وتعالي بأن حمل عيسى لم يكن على خلاف العادة حملن الحمل على ما جرت به عادة النساء ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّ ﴾ [مريم:٢٢]

لما انقضت التسعة شهور مدة الحمل المعهودة وحست مريم بقرب وضعها خرجت بحملها وانتبــذت أيــضا ولكن مكانا قصيا ، فبعدت هذه المرة أبعد من بعدها حين خرجت أول مرة لحاجتها ﴿انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَــا مَكَانــاً شَرْقِيّ ﴾[مريم: من الآية١٦] ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّ ﴾ [مريم:٢٢]

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾[مريم: من الآية٢٣] ﴿فَأَجَاءَهَ ﴾ [مريم: من الآية٢٣] أي ألجأها واضطرها المخاض والمخاض هو الطلق ، والطلق هو وجع الولادة المخاض ، والطلق وجع الولادة سمي مخاضا من الخض والخض هو شدة التحريك وسمي وجع الولادة مخاضا لأن الولد إذا إذن الله تبارك وتعالي له بالخروج من بطن أمه ضرب بيديه ورجليه في بطن أمة بقوة فحركها تحريكا وهزها هزا شديدا فسمي الطلق ووجع الولادة مخاض لأن الولد حين يضرب بيديه ورجليه في أمه يريد الخروج يحركها تحريكا شديدا ووجع الولادة الطلق والمخاض وجع شديد أسأل الله أن يهون على نسائنا ونساء المسلمين أجمعين ولذلك رأى ابن عمر رضي الله عنهما رجلا يطوف بالكعبة وقد حمل أمَّه على ظهره يطوف بها ويقول إني لها بعيرها المذلل إن ذعرت ، فلما رأى الرجل ابن عمر قال يا ابن عمر أتراني كافئتها وجزيتها قال لا ولا بطلقة واحدة من طلقة الولادة ووجع الولادة ، قال لا ولا بطلقة واحدة .

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ ﴾[مريم: من الآية٢٣]أي ألجأها وجع الولادة إلي جذع النخلة ، كانت نخلة قيل: كانت يابسا ليست فيها حياة ، وقيل: كانت نخلة حية ولكن ليس عليها بلح ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾[مريم: من الآية٢٣] وهنا لما جلست تنتظر الوضع أخذت تفكر في المستقبل كيف ستواجه قومها ، وماذا تقول لها ، فتمنت الموت قبل هذه الساعة ﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّ ﴾[مريم: من الآية٢٣] .

ما المراد بالنسي المنسي : النسي المنسي هو ما ينساه المسافر في محطة نزوله للاستراحة ، المسافرون تكون لهم محطات استراحة ينزلوا فيها للاستراحة للطعام للشراب للصلاة ، فإذا نزلوا منزلا ثم ساروا منه بعد مسافة يتذكر إنسان أنه نسي شيئا فلان يقول نسيت الحطة ، هل هذه الحطة تستحق أن يرجع إليها المسافرون للبحث عنها ؟ لا تستحق ، فلان أعزك الله يقول نسيت النعال لا تستحق أن يرجعوا من أجلها ، فالنسي المنسي الشيء الذي ينساه المسافرون في محطة نزولهم ويتركونه فإذا تذكروه لم يعبأو به ولم يهتموا به ولم يرجعوا إليه بخلاف ما إذا يقول المسافر نسيت الحقيبة ، نسيت حقيبة المال هذا لابد أن يرجعوا إليه .

فلما ألجئَها المخاض وجلست تنتظر نزول ابنها من بطنها تمنت الموت ولا تواجه هذا الموقف الصعب عليها ﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّ ﴾ [مريم:٢٣] ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّ ﴾ [مريم:٢٤]

﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّ ﴾ [مريم:٢٥]

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّ ﴾ [مريم:٢٦]

﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَ ﴾[مريم: من الآية٢٤] بكسر الميم في مِن وبكسر التاء في تحتِها على إن "من" حرف جر و"تحتها" مجرور وفي قراءة " فناداها مَن تحتَها "

بفتح الميم على إنها اسم موصول وفتح التاء في تحتها على أنها ظرف مكان ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَ ﴾[مريم: من الآية٢٤] على القراءتين من تحتها ومن تحتها اختلف المفسرون في المنادي ، من الذي نادى مريم عليها السلام ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَ ﴾[مريم: من الآية٢٤] بعض المفسرين أن المنادي هو جبريل عليه السلام وهذا قول مرجوح ، والراجح أن الذي ناداها هو ابنها عيسى عليه السلام يدل على رجحان كون المنادي عيسى عليه السلام أن جبريل لم يذكر أو لم يرد له ذكر في هذا الخروج الثاني ، جاء ذكر جبريل في الخروج ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّ ﴾[مريم: من الآية١٧]لكن في الخروج الثاني ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّ ﴾ [مريم:٢٢]

لم يرد ذكر لجبريل هنا ثم إن الضمائر كلها في هذا السياق تعود على عيسى ﴿فحملته ﴾ عيسى ﴿ فَانْتَبَذَتْ بِهِ ﴾[مريم: من الآية٢٢]عيسى ﴿فَنَادَاهَ ﴾[مريم: من الآية٢٤] عيسى عليه السلام فالراجح أن الذي نادى مريم بعد وضعها هو ابنها عيسى ، ناداها ساعة ولادته ليطمئنها أولا لأنه قال لها كما سمعنا ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّ ﴾[مريم: من الآية٢٦] إذا واجهت قومك فلا تتكلمي معهم واتركي الكلام لمولودك هذا ، فكانت الحكمة تقتضي أن تسمع كلام المولود أولا حتى تكون على يقين تام أنها إذا أشارت إليه ليكلمهم تكون على يقين أنه قادر على كلامهم ، فأنطق الله تعالي عيسى ساعة ولادته ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي ﴾[مريم: من الآية٢٤]انظري من حولك ترى الله سبحانه وتعالي قد أحاطك بالآيات والدلائل الكثيرة ، أولا أنا ذا ابنك أكلمك ، ولم تجرى العادة بأن ينطق المولود عند ولادته ولا ينطق الولد كلاما فصيحا بعد سنة ولا بعد سنتين ولا بعد ثلاث لكن ها أنا ذا أكلمك ساعة الولادة لتعلمي أن ولادتي أمر غريب خارج عن السنن الكونية هذا شيء ، ﴿ أَلَّا تَحْزَنِي ﴾[مريم: من الآية٢٤] `

ثانيا : ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّ ﴾[مريم: من الآية٢٤] كانت في جذع نخلة ولم يكن عندها ماء فأنبع الله تبارك وتعالي لها عين ماء نهرا جاريا أجراه من حينه حتى تشرب منه ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّ ﴾[مريم: من الآية٢٤] لتشربي .

ثم ثالثا : ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّ ﴾ [مريم:٢٥]

قالوا النخلة كانت ميتة أو كانت حيا لكن ليس بها رُطَب ومع ذلك الله تعالي قال لها ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّ ﴾ [مريم:٢٥]

سقوط الرطب بهز الجذع هذه كرامة خارقة للعادة لأنه لو اجتمع عشرة رجال ليهزوا جزع النخلة لا يمكن بهذا الهز أن يتساقط الرطب من أعلى النخلة فكيف يتساقط الرطب بهز مريم النفساء الضعيفة كيف تمسك بالجزع وتهزه فيتساقط الرطب فهذه كرامات أحاطك الله بها لتعلمي أنك بعين الله تبارك وتعالي وفي حفظه ورعايته فلا تحزني ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّ ﴾ [مريم:٢٤]

﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّ ﴾ [مريم:٢٥]

قال العلماء في هذا تعليم لنا بالأخذ بالأسباب لطلب الرزق فلا يجوز أن نخلد إلي الأرض ونركن إليها ونقول: الله يرزقنا ، الله يرزقنا نعم ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذريات:٥٨]

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذريات:٢٢]

﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ [الذريات:٢٣]

لكن الله قال ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾[الملك: من الآية١٥]

وعلمنا الأخذ بالأسباب في أمره مريم وهي النفساء الضعيفة أن تبذل ما في وسعها من الأسباب وإن كانت ضعيفة ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّ ﴾ [مريم:٢٥]

وفي ذلك يقول بعض الحكماء ألم ترى أن الله قال لمريم وهزي أليك بجذع النخلة تساقط رطب ، ولو شاء أسقطه من غير هزها ولكن كل شيء له سبب ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي ﴾[مريم: من الآية٢٦]كلي هنيئا واشربي

هنيئا وقري عين يقال قر الله عينك أي أراها ما يسرها ، والإنسان إذا سر نزلت دموعه ولكن دموع الفرح والسرور دموع باردة بخلاف دموع الحزن والهم فإنها دموع ساخنة ، فقال ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً ﴾ [مريم:٢٦]

﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً ﴾[مريم: من الآية٢٦]عن الكلام فلن أتكلم فكيف تقول لهم إني نذرت صوماً ، قال فقولي أي بالإشارة كما أشار زكريا لقومه فأوحى إليهم كذلك أنتي إذا واجهتِ الناس فلا تتكلمي أشيري إلى مولودك هذا ليتكلم عنك ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً ﴾[مريم: من الآية٢٦] وكان الصيام عن الكلام في شريعة من قبلنا ونسخ في شريعتنا فلا يجوز لأحد اليوم أن يقول أنا صائم عن الكلام ، لا الصيام عن المباح ليس من شريعتنا بينما النبي صلى الله عليه وسلم يخط إذ رأي رجلا قائما في الشمس فقال من هذا قالوا هذا أبوا إسرائيل نذر أن يقوم فلا يقعد ، وأن يضحي فلا يستظل وأن يسكت فلا يتكلم وأن يصوم ، قال مروه فليقعد وليستظل وليتكلم ،﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً ﴾ [مريم:٢٦]

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾[مريم: من الآية٢٧] كيف واجهتهم ؟ وكيف واجهوها ؟ وماذا رد عليهم عيسى بن مريم ؟ وكيف دافع عيسى عن أمه ؟ هذا ما سنعرفه في الحلقة القادمة بإذن الله عز وجل ونسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور صدونا وجلاء أحزاننا وذهاب همومنا وغمومنا هذا والحمد لله رب العالمين وصلي الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سؤال :

هل من الممكن يا شيخ أن توضح لنا ما قلته في الحلقة الماضية في جواز الدعاء بصوت مرتفع مع جواز تأمين الناس عليه مع العلم أنه لم يثبت ولا عن الصحابة ولا عن السلف ذلك إلا في موضع الاستسقاء ولم يرد في قنوت الوتر كما يحدث اليوم فبعض الأئمة اليوم في العشر الأخير من رمضان دعاء ربما استمر على ما يزيد في النصف ساعة وفيه من السجع والتكلف الكثير برجاء التوضيح ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

نحن تكلمنا قلنا أن من آداب الدعاء اخفاء الدعاء فلما سأل سائل عن الجهر قلنا إلا في ما ثبت فيه الجهر وما على ذلك في قنوت الوتر والقنوت في الوتر ثابت وهو سنة طول العام وليس في رمضان فقط ، وإنما القنوت في الوتر سنة طول العام يأخذ به الإنسان ويترك فإذا اجتمع المسلمون في رمضان وقنت إمامهم فإنهم يؤمنون على دعائه أما ما أرشد إليه جزاه الله خيرا من أن بعض الأئمة الآن يطيلون في القنوت يتكلفون السجع في الدعاء وغير ذلك هذا الحقيقة كما ذكر مخالف للسنة وليس من أدب الدعاء .

سؤال :

هناك النصارى يستدلون أن سيدنا عيسى إله لأنه بلا أب كيف الرد على هذه الشبهة ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

الله سبحانه وتعالي واحد أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[الشورى: من الآية١١] ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً ﴾ [الاسراء:١١١]

الولد جزء أبيه ، الله سبحانه وتعالي صمد لا يتجزأ أبدا فعيسى بن مريم ليس ابن الله وإنما كما سيأتي في الحلقة القادمة إن شاء الله تعالي أنه قال حين أنطقه الله في المهد ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾[مريم: من الآية٣٠] وإذا كيف إذا كانت المشكلة في أن عيسى ابن الله لكونه ولد بغير أب فلماذا لم تأتي هذه الشبهة في آدم الذي ولد بغير أب ولا أم هذة شبهة داحضة مردودة ونسأل الله للجميع الهداية إلي الإسلام.

سؤال :

مثل هذه القصص التي ذكرتها قبل قليل قصة مريم في الحقيقة الطريقة التي نتبعها في قراءة التفاسير من أجل تعلق القلب للقرآن الكريم حتى نعمل بهذا القرآن القرآن ؟

أجاب فضيلة الشيخ

يعني كأنني فهمت جزاه الله خيرا أنه يريد يقول يعني كيف نستطيع أن نقرأ في الكتب ونجمع أقوال المفسرين ونستفيد منها والله تعالي ماذا مقصوده ، الحقيقة أنني في طريقة تحضيري الدرس آتي بما تيسر لي من كتب التفسير أضعها بين يدي عن شمالي وأخذ منها ثم أضع ما قرأته عن يميني وهكذا ، كتب التفسير كلها تتفق في المعني العام في اتفاق بين المفسرين جميعا لكن هناك فتوحات من الله سبحانه وتعالي يفتح بها على من يشاء من عباده فعلى القارئ وهو يقرأ أن يركز المعنى العام يفهمه حين يرى عجيبة أو نقطة غريبة فإذا حسن في الكتاب يعلم عليها ويشير إليها إما في الكتاب نفسه وإما في ورقة خارجية في الكتاب الفلاني الجزء كذا سطر كذا صفة كذا يرتب أول الكلام الذي أعجبه ثم هكذا حتى ينتهي من كل ما قرأ فسيخرج بمحاسن هذه الكتب التي قرأها كلها فيستطيع أن يرتبها يضع هذه الحسنة في أول الدرس وهذه في وسطه وهذه في نهايته هكذا تكون طريقة تحضير وهكذا يجمع محاسن التفاسير كلها في درس واحد إن شاء الله تعالي ، ونسأل الله أن ينفعنا وإياه بالقرآن وأن يجعلنا من أهله والمسلمين أجمعين .

سؤال :

هل يجوز مشاهدة المسلسلات الدينية التي تمثل قصة السيدة مريم وأصحاب الكهف وغيرها أم لا يجوز ذلك ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

لا، لا يجوز هذا التمثيل ولا تجوز مشاهدته .

سؤال :

كيف نجمع بين قوله تعالي " ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر "

وبين عدم معرفة معنى الحروف المقطعة ؟

سؤال :

هل سكت الصحابة رضي الله عنهم عن معرفة معنى هذه الحروف المقطعة أم ثبت مثلا أثار تدل على أنهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم في معناها أو تسائلوا فيما بينهم ؟

سؤال :

هل بأقوال أخري بأهل العلم في تفسير الحروف المقطعة بخلاف ما ذكره الشيخ وما هي ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

الله سبحانه وتعالي قال ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ [القمر:١٧]

أي فهل من طالب علم فيعان عليه فالقرآن ميسر ومفهوم الصحابة رضوان الله عليهم لم يسألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذا فيما أعرف أنا لم اقف على حديث موقوف أو مرفوع أن الصحابة سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن معاني هذه الحروف لأن الله قال ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف:٢]

وهما عرب والقرآن نزل بلغتهم فيعرفون هذا فيسألوا عنه ولذلك قلت أسألتهم للنبي صلى الله عليه وسلم عما لم يعرفوه في القرآن يسألونك ، يسألونك هذه محصورة في القرآن الكريم لكن لا أعرف أن الصحابة سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذه الحروف ، أما كون أن هناك أقوال أخرى مفسرين في هذا الحروف فلا شك أن هناك أقوال كثيرة من أراد أن يقف عليها فليرجع إلي كتب التفسير سيجد أقوال كثيرة جدا للسلف في هذه الحروف المقطعة لكننا قلنا أن الراجح ما رجحه شيخ الإسلام ابن تيميه وذكرناه هذا الذي نراه راجح ونحن نضرب صفحا عن كل الأقوال ونأتي للراجح حتى يتعلم الطالب أن يأخذ أقوى ما ثبت عنده .

سؤال :

كيف نجمع بين ترديد الدعاء وبين محبة العبد لربه إنه يعجل له الدعوة وبين إنه يأخرها محبة له ؟

أجاب فضيلة الشيخ

التعجيل والتأجيل هذا مرده إلي علم الله تعالي وحكمته " الله لطيف بعباده " فحين يدعوا الإنسان بشيء ما فإذا علم الله سبحانه وتعالي أن لعبده مصلحة في التعجيل عجل له دعائه وسؤاله وإذا علم أن مصلحته في التأجيل أجله نضرب على ذلك مثال موسى عليه السلام حين كلفه الله تعالي بالدعوة ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾٢٤﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾٢٥﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾٢٦﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴾٢٧﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾٢٨﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي ﴾٢٩﴿هَارُونَ أَخِي ﴾٣٠﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴾٣١﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾٣٢﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً ﴾٣٣﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً ﴾٣٤﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً ﴾٣٥﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ [طـه:٢٤-٣٦]

لم يقل استجبت قال: قد أوتيت أعطيك ما سألت لماذا لأن هذا الذي سأله يهمه جدا لوظيفته التي كلف بها وهي تبليغ الرسالة فعلم الله تعالي أن المصلحة تقتضي تعجيل الإجابة فعجله ، لما أتى موسي فرعون ودعاه إلـــي الله سبحانه وتعالي وأصر فرعون واستكبر استكبارا موسى دعا على فرعون ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَــوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَـــى قُلُــوبِهِمْ فَــلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس:٨٨]

قال قد أجيبت دعوتكما ولكن متي دمر الله تعالي ما كان يصنع فرعون وقومه قال المفسرون كانت بين تحقيق إجابة وبين إجابتها أربعون سنة فالله تعالي عليم حكيم إذا علم أن المصلحة العبد في التعجيل عجل له مـــا ســـأله وإذا علم أن مصلحته في التأخير أخره له وهوالرؤف بالناس الرحيم بهم سبحانه وتعالي .

سؤال :

هل يجوز القول بأن مريم عليها السلام نبية من الأنبياء وهل يجوز أن نقول مريم عليها الــصلاة والــسلام ولماذا ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

لا يجوز القول بأن مريم نبية الله تعالي قال ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَال ﴾[يوسف: من الآية١٠٩]لم تكــن النبوة في النساء أبدا إنما النبوة في الرجال ، ثم إن الله تبارك وتعالي بيّن مرتبة مريم في قوله

" ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة " والصديقية درجة دون درجـــة النبـــوة وفوق درجة الشهادة ، قال الله تعالي ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَــيْهِمْ مِــنَ النَّبِيِّــينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾[النساء: من الآية٦٩]فالصديقين غير النبيين ، وأمه صديقة فأحسن ما وصلت إليه مريم عليها السلام أنها صديقة ،

أما جواز القول أن يقال عليها السلام فهذا يجوز لها ولغيرها من الناس كلهم إذا قيل لك فلان يقرأك الــسلام ماذا تقول تقول عليه السلام فهذا مفيش منه مانع إن شاء الله .

سؤال :

كم كان عمر سيدتنا مريم عندما حملت ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

لم أقف على شيء لتعيين سنها حين حملت عليها السلام .

سؤال :

هل تعلم الفائدة أو الحكمة التي من أجلها ذكر الله عز وجل الجهة أو المسافة التي مشتها مريم عليها السلام ؟

أجاب فضيلة الشيخ

الحكمة من تعين الجهة أو المسافة التي مشتها مريم عليها السلام المسافة حددت برمية حجر والجهة الجهة الشرقية هذا خبر عن الواقع ، لا نعلم الحكمة في ذكر هذا خبر عن الواقع ، خرجت إلي الجهة الشرقية ومشت مسافة رمي الحجر .

سؤال :

ذكرتم في تفسير الآية الكريمة ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّ ﴾ [مريم:١٨] أن قوله تعالي ﴿ إِنْ كُنْتَ تَقِيّ ﴾ [مريم: من الآية١٨] يعتبر استئناف معنى جديد غير مرتبط بالاستعاذة التي في أول الآية وهي جملة شرطية جوابها محذوف تقديره فكف أو ارجع عن السوء فعلى ذلك هل يجوز الوقف في التلاوة على منك وهل يعتبر وقفا واجبا لأجل توضيح انفصال المعني الوارد في أول الآية وعن آخرها ؟

أجاب فضيلة الشيخ

كما قيل أهل التجويد ليس هناك في القرآن وقف واجب ، كلمة واجب لا ، هناك في القرآن وقف يسمى وقف لازم لماذا لأنك لو وصلت اختل المعني تأتي على "إنما يستجيب الذين يسمعون والموتي يبعثهم الله ثم إليه يرجعون " فهنا الوقف على "يسمعون" لازم ومع ذلك لو لم تقف لا تأثم فليس هناك وقف يسمى وقفا واجبا يجب الوقف ، لكن العلم بأحكام الوقف يعطي الإنسان القدرة على إيصال المعاني للمستمعين، حينما يكون القارئ عالماً بأحكام الوقف؛ يقف على المعاني يبتدأ بها وينتهي إليها، فيبرز المعنى للمستمعين للقراءة، فيكون قارئا ومفسرا في نفس الوقت، لعلمه بأحكام الوقف.

سؤال:

بالنسبة ليأجوج ومأجوج نعرف أن مكانهم من الغيبيات ، ولكن هناك خبر في إحدى لقنوات باكتشاف قرية فيها بقايا امرأة لا يزيد طولها عن ثلاثة أقدام، وأن هؤلاء الأقزام عاشوا في القرية قبل ثمانية عشر ألف سنة، وهناك دلائل على وجودهم في الحاضر بشهادة أهل القرية الأندونيسية ، ويقول السكان الأصليين بأن أجدادهم يحكون لهم عن أقزام يعيشون في أعالى البراكين ويسمونهم بأبو جوج ومعناه الحرفي : العجوز التى تأكل كل شيء ، وهذا الخبر موجود على موقع القناة على شبكة الإنترنت، فهل هذا دليل على قرب الساعة أو على مكان وجودها.

فأجاب فضيلة الشيخ:

أما قرب الساعة فربنا قال قبل أربعة عشر قرن: اقتربت الساعة.

وأما عن يأجوج ومأجوج فذكرنا في دروسنا أنهم يخرجون في زمان عيسى بن مريم عليه السلام، إذن نحن ننتظر مقدم المهدي عليه السلام من عند الله، وبعده الدجال، وبعده ننتظر نزول عيسى ابن مريم لقتـل الـدجال، وبعدين ننتظر خروج يأجوج ومأجوج ، فليس الوقت وقت خروجهم .

سؤال :

ما معني قصيا في قوله تعالي ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّ ﴾ [مريم:٢٢]

أجاب فضيلة الشيخ

أي بعيد

سؤال :

هل يجوز تمني الموت عند نزول الفتنة كما قالت مريم ؟

أجاب فضيلة الشيخ

ل في شريعتهم ليس في شريعتنا قال: النبي صلى الله عليه وسلم "لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به فـإن كان لابد فاعلا فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني ما كانت الوفاة خيرا لي ".

سؤال :

ممكن تقولون لنا لماذا سمي جبريل بالروح لأن المعلوم النصارى يقولون " بالتثليث الآب والإبـن و الـروح القدس والروح القدوس هو جزء من أجزاء الله فيجمعون بين هذه الإجزاء وهو الله " فممكن تبينون لنا لما سمي جبريل بالروح وهل الروح المذكور هو جبريل ؟

أجاب فضيلة الشيخ

المراد بالروح هو جبريل عليه السلام سماه الله تعالي روحا في أكثر من آية ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾[النحل: من الآية١٠٢]

﴿ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ ﴾[النبأ: من الآية٣٨]﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَ ﴾ [القدر:٤]

الروح هو جبريل عليه السلام ، لماذا سمي جبريل روحا لأن جبريل هو أمين الوحي أمين الله علـى وحيـه الأنبياء ، والوحي سماه الله تعالي روحا ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ ﴾[الشورى: من الآية٥٢]فسمي الله تعالي الحامل باسم المحمول سمي جبريل روحا لأنه يحمل الروح وهو الوحي إلي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وصلى اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

تنزيه الله عن إتخاذ الولد ، فضائل الخليل ابراهيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلي وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلي يوم الدين .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

ثم مرحباً بكم في هذا اللقاء الجديد من دروس تفسير سورة مريم ، وقبل البدء في درس اليوم نطرح عليكم أسئلة الحلقة الماضية وهي :

سؤال : من الذي نادى مريم من تحتها ؟

سؤال : كيف تستدل من قصة مريم عليها السلام على وجوب الأخذ بالأسباب؟

سؤال : التقوى تحول بين الإنسان وبين الحرام ، بَيِّنْ ذلك ؟

أما الآيات المباركات التي معنا اليوم فقد تضمنت من المعاني ما يلي :

أولاً : مريم في مواجهة قومها .

ثانياً : من هو هارون الذي نسبوها إلي أخوته .

ثالثاً : فضائل عيسى بن مريم عليهما السلام .

رابعاً : تنزيه الله تعالي عن اتخاذ الولد .

خامساً : اختلاف بني إسرائيل في عيسى عليه السلام .

سادساً : يوم القيامة يوم الحسرة والندامة .

سابعاً : فضائل الخليل إبراهيم عليه السلام .

ثامناً : من هو الصديق ؟

وأخيراً : دعوة الخليل إبراهيم عليه السلام لأبيه .

وهذا بإيجاز : عرض سريعٌ لأهم ما تضمنته الآيات المباركات التي معنا اليوم من سورة مريم من المعاني ، والتي نعيش في رحابها ساعتنا هذه إن شاء الله تعالي .

فلنستمع إلى هذه الآيات المباركات أولاً قبل الخوض في تفاصيلها ، سائلين المولى – عز وجل – أن ينجز لنا ما وعدنا حيث قال ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠٤]

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً [٢٧] يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً [٢٨] فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً [٢٩] قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً [٣٠] وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً [٣١] وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً [٣٢] وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً [٣٣] ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ [٣٤] مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ [٣٥] وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ [٣٦] فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ [٣٧] أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ [٣٨] وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ [٣٩] إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ [٤٠] وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً [٤١] إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً [٤٢] يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً [٤٣] يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً [٤٤] يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً [٤٥] قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً [٤٦] قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً [٤٧] وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيّاً [٤٨] فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلّاً جَعَلْنَا نَبِيّاً [٤٩] وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً ﴾ [مريم :٢٧–٥٠]

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص:٢٩]

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر:٢١]

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر:٢٣]

عرفنا في الدرس الماضي كيف ولدت مريم عيسى بن مريم عليهما السلام ، وكيف أنها من شدة ذهولها وعجزها عن مواجهة قومها تمنت الموتَ قبل هذه الساعة ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّ ﴾ [مريم:٢٣]

فأراد الله سبحانه وتعالي أن يطمئنها ويذهب عنها القلق والاضطراب والحزن فأنطق عيسى ابنها ساعة ولادته ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّ ﴾٢٤﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّ

﴿٢٥فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً ﴾ [مريم:٢٤– ٢٦]

فلما رأت هذه الكرامات التي تدل على أنها في رعاية الله وكلأه وعنايته وحفظه ، اطمئن قلبها ، وعلمت أن الله سبحانه وتعالي سيبرئها بنطق ابنها في المهد صبيا، ﴿فَأَتَتْ بِهِ ﴾ أي بولدها بعيسى بن مريم عليهما السلام ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾(مريم:٢٧)

فما هم أن رأوها حتى بادروا بالاتهام والإنكار ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً ﴾[مريم: من الآيـة٢٧] ، والافتراء هو الكذب والاختلاق ، وهذا كناية عن الزنا كما قال الله تعالي في بيعة النساء ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ [الممتحنة:١٢] فهذا الافتراء هو أن تفجر المرأة ، فتحمل من غير زوجها ، ثم تنسب هذا الولد الذي أتت به إلي زوجها وليس منه ، فتكون بذلك قد أتت بافتراء وكذب ، قالت لزوجها هذا منك وهو ليس منها .

فمعني قولهم ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً ﴾[مريم: من الآية٢٧] يعني لقد جئت بكذب واختلاق عظيم ، ما هذا الذي فعلتيه وما هذا الذي عملتيه ؟﴿ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً ﴾[مريم: من الآية٢٧] ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾ [مريم:٢٨]

من هو هارون الذي نسبوها إلي أخوته ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾[مريم: من الآية٢٨] هناك إشكال أن مريم هي بنت عمران وموسى عليه السلام بن عمران وأخوها هارون بن عمران ، فظن بعض الناس أن هارون المذكور في قصة ولادة مريم لعيسى هو أخو موسى عليهما السلام ، فظنوا أن مريم أخت هارون يعني أخت موسى ، وبين موسى وعيسى عليهما السلام مئات السنين ، فإذن ليس هارون المذكور في هذه القصة هو أخا موسى عليهما السلام ، ولكنَّ القوم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم وصالحيهم ، وكان هارون هذا رجلاً صالحاً في بني إسرائيل ، وكانوا يشبهون به غيره في الصلاح والبر والتقوى .

هارون كان رجلا صالحا في بني إسرائيل كانوا يشبهون به غيره في البر والتقوى والصلاح ، والعرب تطلق لفظ الأخ على النظير والشبيه فيقولون فلان ليس له أخ في صنعته يعني هو متفرد في هذه الصنعة ، ليس له فيها نظير ولا شبيه ولا مثيل ، والله تبارك وتعالي أطلق الأخوة على النظير والشبيه فقال سبحانه وتعالي ﴿ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً ﴾[الاسراء: من الآية٢٦] ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾[الاسراء: من الآية٢٧].

ومعلوم بداهة أن له ليس المراد بهذه الأخوة أخوة النسب بين المبذرين والشياطين ولكن ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾[الاسراء: من الآية٢٧] المراد بهذه الأخوة أنهم نظرائهم وأشباههم وأمثالهم في الإسراف والتبذير ومعصية الله والخروج عن أمر الله سبحانه وتعالي ، كذلك قال الله تعالي في الآيات والمعجزات التي أيد بها موسى عليه السلام وأنكرها فرعون وملئه قال تعالي ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾[الزخرف: من الآية٤٨] أي من نظيرتها وشبهها فإذن الأخوة هنا أطلقت على النظير والشبيه فمعني قولهم ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾[مريم: من الآية٢٨] .

يعني يا شبيهة هارون في البر والتقوى والصلاح لقد كنا نحسن الظن بك حتى شبهناك بهذا الرجل الصالح هارون فما الذي كان منك وما هذا الذي افتريتيه ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾ [مريم:٢٨]

يعنون أنكي من بيت طاهر من بيت عفيف من سلالة طيبة من ذرية صالحة أبوك رجل صالح وأمك كذلك ما كانت بغيا ، والبغي هي الزانية فكيف نشزت أنت وخرجت عن سلوك وسير آبائك وأمهاتك وخالفتيهم في السلوك والسير فاقترفتي هذا البهتان الذي وقعتي فيه .

والسيئة من أهل الحسن تكون أسوء ما تكون بينما السيئة من أهل السوء لا تستقبح ولا تنكر ، إذا رأينا فتـــاة من بيئة سيئة ليس لها أب صالح ولا أم صالحة إنما البيت كله بيت سوء لو رأينا أن هذه الفتاة أخطـــأت وذلــت الناس لا يشتد إنكارهم لهذا لأنهم يقولون من أشبه آباه فما ظلم ، لكن أن تكون فتاة من أسرة طيبة صالحة ملتزمة ، أبوها رجل صالح وأمها امرأة صالحة قانتة ثم تشز هذه الفتاة عن سلوك وسير الأسرة وتأتي بالمحرمات فهنا يستنكر منها ويستقبح فعله منها ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾ [مريم:٢٨]

فكيف وقعت أنتي في هذه الخطيئة واقترفتي هذا الذنب ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾[مريم: من الآية٢٨] فبكل ثقة وبكل هدوء أعصاب وبكل طمأنينة قلب أشارت إليه قالت لا تكلموني كلموه هو فهو الذي سيبرئني ويعبر عن حقيقته ويكشف عن هويته لكم﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾[مريم: من الآية٢٩] كما وصاها ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً ﴾[مريم: من الآية٢٦] .

فلما واجهوها بهذه المواجهة وبهذا الإنكار ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾ [مريم:٢٨]

التزمت وصيته لها لا تتكلمي ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً ﴾ [مريم:٢٩]

كيف تأمرينا أن نكلم هذا الصبي المولود ولم تجرى العادة قبل بأن يتكلم مثل هذا المولود في المهد صبيا قال بعض المفسرين قالوا لسخريتها بنا حيث تأمرنا أن نكلم ولدها أشد علينا من زناها ، يعني إذا كان زناها شديدا إلا أن أمرها إيانا أن نكلم هذا الغلام في المهد هذا أشد علينا من زناها لسخريتها بنا حيث تأمرنا أن نكلمه أشد علينا من زناها .

كيف نكلمه وهذا المولود لم تجرى العادة بكلامه ، كانت هذه المقدمة كاستخراج الدليل منهم على أن المولـــود لا يتكلم فإذا سمعوا هذا المولود يتكلم قامت عليهم الحجة وعلموا أن كلامه أمر خارق للعادة فهو إذن من عند الله تبارك وتعالي فيستدلون على كلامه في المهد صبيا وبخرقه للعادة عدم كلام الصبيان بكلامه يستدلون كذلك على أن مريم إذا كانت ولدته بغير أب فهذا أمر خارق للعادة وهو من عند الله سبحانه وتعالي .

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾[مريم: من الآية٢٩] قالوا منكرين عليها الإشارة والأمر بكلامه ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً ﴾[مريم: من الآية٢٩] فأنطق الله تعالي عيسى بن مريم عليه السلام وهو حديث عهد بولادة ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ [مريم:٣٠] اسمعوها من أول لحظة اسمعوها قبل أن تضلوا فيا وقبل أن تنسبوا إلي ما لست لـــه أهــل ، اسمعوها مني ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾[مريم: من الآية٣٠] ولست إله ولا ابن الله ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ ﴾[مريم: من الآية٣٠] يعني الإنجيل ﴿ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ﴾[مريم: من الآية٣٠] وهذا كلامه في المهد صبيا قال ﴿ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ﴾[مريم: من الآية٣٠] وهو لم يؤتي بعد الكتاب ولم ينبى لكن لما كان تنبيهه أمرا محققـــا وتنزيـــل الكتاب عليه أمرا محققا عبر عنه بلفظ الماضي وكأنه حصل لأن كل ما يخبر الله به أنه سيكون فلابد أن يكـــون كما أخبر الله فإذا عبر عنه بالماضي فالمراد إفادة تحقق هذا الذي أخبر الله عنه .

كما قال الله تعالي ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾[القمر: من الآية١]

﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾[النحل: من الآية١]والأمر لم يأتي لأن المراد بالأمر القيامة ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾[النحل: من الآية١] ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾[الزمر: من الآية٦٨] نفخ بلفظ الماضي وهو لم ينفخ في الصور بعد لكن لما كان لابد أن ينفخ فيه أتى بلفظ الماضي لإفادة تحقق هذا الذي أخبر به .

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ﴾ [مريم:٣٠]

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴾[مريم: من الآية٣١] وجعلني الله تبارك وتعالي مباركا أين ما كنت وأين ما حللت وأينما نزلت ، قال جمهور المفسرين قوله تعالي ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴾[مريم: من الآية٣١] من بركته عليه الصلاة والسلام كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر في كل مكان ينزله ولا شك أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيه بركة عظيمة تحل على الناس الذين يجدون من يأمروهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر فمن بركته عليه الصلاة والسلام أنه كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ومن بركته عليه الصلاة والسلام أنه كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله ، ومن بركته عليه الصلاة والسلام أنه أحل لبني إسرائيل بعض ما كان محرما عليهم .

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي ﴾ربي سبحانه وتعالي وأوصاني ﴿بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً ﴾ [مريم:٣١]

وصاني الله تبارك وتعالي بالصلاة وهي أعظم حق لله تبارك وتعالي على العباد وأوصاني بالزكاة وهي حق الفقراء والمساكين على الأغنياء ، الله تبارك وتعالي وصاني بالإحسان في ما بيني وبينه بالقيام بحقه عز وجل ووصاني بالإحسان في ما بيني وبين الناس بالقيام بحقهم ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً ﴾[مريم: من الآية٣١] وهذه الوصية من الله تعالي لعيسى عليه السلام كقوله تعالي لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩]

يعني الموت ، فما دام الإنسان حيا عاقلا فهو مكلف شرعا لا يسقط التكليف عن إنسان حي عاقل أبدا ، فما دام حي عاقلا فهو مكلف شرعا لا يسقط عنه التكليف إلا بالجنون والعياذ بالله أو يموت فينتهي التكليف وهذا معني قوله تعالي لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩]

وهذا معني قول عيسى عليه السلام ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً ﴾[مريم: من الآية٣١] .

﴿وَبَرّاً بِوَالِدَتِي ﴾[مريم: من الآية٣٢] أي وجعلني الله تبارك وتعالي برا بوالدتي .

وانتبه للتفرقة بين عيسى ويحيى عليهما السلام فإن الله قال في يحيى ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ ﴾[مريم: من الآية١٤] لأن يحيى كان له أبوان أبوه وأمه .

أما في عيسى قال ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَتِي ﴾[مريم: من الآية٣٢] لأنه لم يكن له أب ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي ﴾ربي سبحانه وتعالي ﴿جَبَّاراً شَقِيّاً ﴾ [مريم:٣٢]

وإنما جعلني برا بأمي وبرا بالناس ومطيعا وتقيا لله سبحانه وتعالي ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ [مريم:٣٣]

وقد سلمه الله تعالي عند ولادته كما في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم (ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان عند ولادته فيستهل صارخا إلا مريم وابنها إقرأو إن شئتم قول الله عز وجل ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾[آل عمران: من الآية٣٦] فسلمه الله يوم ولادته وسيسلمه إن شاء الله تعالي يوم يموت وسيسلمه أيضا يوم يبعث حيا .

وانتبه لهذه اللفتة الزكية من عيسى عليه السلام حين يقول لبني إسرائيل ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ [مريم:٣٣]

فأنا ولدت كما ولدتم وسأموت كما تموتون وسأبعث يوم القيامة حيا كما يبعث الله تبارك وتعالي جميع الناس يوم القيامة أحياء ، فليس لي من الأمر شيء وإنما أنا كما قلت لكم ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾[مريم: من الآية٣٠] ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ [مريم:٣٣]

الله سبحانه وتعالي يقول ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ [مريم:٣٤]

لماذا كان هذا القول في عيسى هو قول الحق ؟ لأنه قول الله الحق ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴾ [صّ:٨٤]

فكان هذا القول في خبر عيسى عليه السلام وفي حقيقته وفي قصته كان هذا القول هو القول الحق لأنه قول الله تعالي الحق ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾[الأنعام: من الآية٧٣] .

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ [مريم:٣٤]

أي يشكون ويرتابون فالله تعالي بين لهم الحقيقة في هذه القضية في عيسى بن مريم عليه السلام ، وأنه ما مثله إلا كمثل آدم كما قال عز وجل ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران:٥٩]

وهكذا أراد الله تعالي أن يخلق عيسى من مريم دون أن يمسها بشر لتكمل الدائرة الرباعية كما شرحنا في الدرس السابق ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾[مريم: من الآية٢١] خلق الله تبارك وتعالي الإنسان الأول آدم من غير ذكر ولا أنثى ثم خلق حواء من آدم فخلق من الذكر بلا أنثى ثم خلق من آدم وحواء رجالا كثيرا ونساء فأراد الله تبارك وتعالي أن تكتمل الدائرة الرباعية فخلق من الأنثى بلا ذكر .

﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ [مريم:٣٣]

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾[مريم: من الآية٣٤]هذا هو القول الفصل فيه هذا هو القول الحق في شأن عيسى بن مريم ﴿ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾[مريم: من الآية٣٤] .

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ ﴾[مريم: من الآية٣٥] ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ ﴾[مريم: من الآية٣٥]لا يليق بالله ولا ينبغي بجلال الله ولا يحق لله تبارك وتعالي ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ ﴾[مريم: من الآية٣٥] تعالي وتقدس وتنزه عن اتخاذ الولد ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [يونس:٦٨]

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾[يونس: من الآية٦٨] فليس بحاجة إلي اتخاذ الولد أنا وأنت نحتاج إلي الولد ليحمل اسمنا وذكرنا بعد مماتنا والله تعالي حي لا يموت ، وأنا وأنت نحتاج إلي الولد لنأكل من كسبه

إذا كبر ولنعتمد عليه إذا ضعفنا ، والله تبارك وتعالي هو الغني وهو القوى ، ثم إن الولد لا يكون في العادة الجارية إلا من الرجل والمرأة فالرجل إذا أراد لولد لابد أن يتزوج اتخاذ الزوجة دليل ضعف الإنسان ، من دلائل ضعف الإنسان أنه يحتاج إلي الزوجة فا لا يرضى أن يعيش أعزب بل هو يكافح ويجد ويجتهد حتى يتزوج مهما كلفه الزواج فالله سبحانه وتعالي قوي عزيز غني قادر سبحانه وتعالي ليس بحاجة إلي صاحبة ولم يكن له ولدا .

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾ [الاسراء:١١١]

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [مريم:٣٥]

وهذا الذي قضاه وأراده في عيسى بن مريم عليه السلام ، قضى الله وقدر وأراد أن يولد عيسى من مريم بلا أب ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩]

﴿سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[مريم: من الآية٣٥]

هذه الآيات كالجملة المعترضة في أثناء كلام عيسى عليه السلام هذه الآيات من أول قوله تعالي ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾ [مريم:٣٣]

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم:٣٤]

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ] [مريم:٣٥]

هاتان الآيتان كالجملة المعترضة في كلام عيسى بن مريم عليه السلام لأن قوله تعالي بعد ذلك ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ [مريم:٣٦] هذا من تمام كلام عيسى بن مريم عليه السلام ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾ [مريم:٣٣]

﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾[مريم: من الآية٣٦] هذا هو كلام عيسى بن مريم عليه السلام فجاءت الآيتان اللتان تخللت هذه الآيات وهذا الكلام كالجملة المعترضة .

فقوله تعالي ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾[مريم: من الآية٣٦] هذا من كمال وتمام كلام عيسى بن مريم عليه السلام ، يأمر بني إسرائيل إن يعبدوا الله تبارك وتعالي لأنه ربهم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي﴾[مريم: من الآية٣٦] الذي خلقني وفطرني وهو يطعمني ويسقيني ويرزقني ويميتني ويحيني ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾[مريم: من الآية٣٦] فربط بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية كما ، دائما توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية والمشركون كانوا مقرين بالربوبية منكرين للألوهية ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[الزخرف: من الآية٨٧] ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[العنكبوت: من الآية٦١] ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾[يونس: من الآية٣١] فإذا قيل لهم لا إله إلا الله أي لا معبود بحق إلا الله ، عن هذا ويقولون ﴿وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ [الصافات:٣٦]

فعيسى بن مريم أمرهم بتوحيد العبودية بناء على توحيد الربوبية ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾[مريم: من الآية٣٦]فإذا أقررتم بأن الله ربكم لزمكم أن تعبدوه وحده سبحانه وتعالي ، كما قال تعالي ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:٢١]

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٢]

﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [مريم:٣٦]

فالصراط المستقيم أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا وأن يكفر بكل ما يعبد من دون الله سبحانه وتعالي وهذا معني لا إله إلا الله الكفر بكل ما عبد من دون الله والإيمان بألوهية الله تبارك وتعالي وحدة .

ولذلك يوم القيامة الله تبارك وتعالي يأمر المجرمين المستكبرين عن عبادته أن يمتازوا عن عباده المؤمنين العابدين ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ [يّـس:٥٩]

ثم يقبل عليهم بالتوبيخ على رؤس الأشهاد فيقول ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [يّـس:٦٠]

﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [يّـس:٦١]

فالصراط المستقيم الذي أمر الله تعالي الناس أجمعين بسلوكه والسير عليه والالتزام به في قوله تعالي ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾[الأنعام: من الآية١٥٣] الصراط المستقيم أن يعبد الله وحده لا يشرك به غيره وأن يكفر بكل ما يعبد من دونه سبحانه وتعالي ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [مريم:٣٦]

قال تعالي ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾[مريم: من الآية٣٧]اختلف بنو إسرائيل في شأن عيسى بن مريم عليه السلام من هذا ، ومن هو ، من هذا الذي يكلمنا ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾[مريم: من الآية٣٧] فمن بنو إسرائيل انقسموا قسمين اليهود والنصارى أما اليهود ففرطوا في حق عيسى عليه السلام فرطوا في حقه ونسبوه إلي الزنا نسبوا أمه إلي الزنا ونسبوه إلي السفاح وقالوا عنه ساحر هذا هو موقف اليهود من عيسى بن مريم عليه السلام رموها بالزنا ورموه هو بالسحر واتهموه أنه من سفاح لا من نكاح من سفاح ، وأما النصارى فغلوا في حق عيسى عليه السلام يعني قابلوا تفريط اليهود بالإفراط في عيسى عليه السلام فمنهم من جعله إلها ومنه من جعله ابنا لله ومن من قال ثالث ثلاثة ، ومنهم فريق آمنوا به وبما أخبرهم به عن نفسه ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾[مريم: من الآية٣٠]فقالوا هو عبد الله ورسوله ولذلك ربنا قال ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم:٣٧]

ولم يقل فويل لهم ، ولم يقل فويل للأحزاب وإنما قال ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُو ﴾ [مريم: من الآيــة٣٧] أي من الأحزاب لأن هناك حزبا آمن بعيسى بن مريم أنه عبد الله ورسوله ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[مريم: من الآية٣٧] ويل لهم يوم يبعثون ويل لهم يوم يردون إلي الله تبارك وتعالي ، وقد قيل إن الويل واد في جهنم تستغيث جهنم بالله من شدة حره فكيف بساكنه .

إذن بنو إسرائيل لما وقفوا من عيسى هذا الموقف استحقوا العذاب لكن الله سبحانه وتعالي برحمته أمهلهم ولم يعجل لهم العذاب لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرى ، فإن تابوا ورجعوا عن هذه العقيدة الفاسدة تاب الله عليهم

وغفر لهم وإن لم يتوبوا وماتوا على هذه العقيدة الفاسدة ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[مريم: من الآية٣٧] .

يقول النبي صلى الله عليه وسلم إن الله لا يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلت ثم قال ، قال ربه ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود:١٠٢]

فبنوا إسرائيل الذين فرطوا في عيسى والذين أفرطوا وغلوا فيه كلاهما استحقا العذاب ولكن الله تبارك وتعالي برحمته أخر عنهم العذاب لعلهم يتوبون فيتوب عليهم ويستغفرون فيغفر لهم فإن لم يتوبوا ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[مريم: من الآية٣٧]يوم ﴿ كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ﴾[الانسان: من الآية٧]

يوما ﴿عَبُوساً قَمْطَرِيراً ﴾[الانسان: من الآية١٠]

فويل لهم من يوم ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً ﴾[المزمل: من الآية١٧]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج:١]

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج:٢]

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم:٣٧] ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم: من الآية٣٨] معني الكلام ما أسمعهم وما أبصرهم يوم يأتوننا ، يعني إنهم في يوم القيامة يسمعون جيدا ويرون الأشياء على حقيقتها ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾[مريم: من الآية٣٨] لكن كيف حالهم في الدني﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾[مريم: من الآية٣٨] هم في الدنيا لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولم آذان لا يسمعون بها ، أما يوم القيامة ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [قّ:٢٢]

ولذلك تعجب الله تبارك وتعالي من سمعهم وبصرهم فقال ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾[مريم: من الآية٣٨] يعني ما أسمعهم وما أبصرهم يوم يأتوننا ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾[مريم: من الآية٣٨] فإذا ماتوا انكشف الغطاء وظهرت الحقائق وتجلت الأمور كما قال تعالي﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا ﴾ أي يقولون ربن﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:١٢]

قال تعالي : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة:١٣]

﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٤]

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ [مريم:٣٨]

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [مريم:٣٩]

الإنذار معناه الإعلام المصحوب بالتخويف ، أنذرهم يا نبينا أي خوفهم من عذاب الله عز وجل ، أنذرهم بأسا شديدا لعلهم يخافون فيقلعون عما هم فيه من الكفر والشرك الذي استحقوا به العذاب أنذرهم وخوفهم ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [مريم:٣٩]

فسر النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية فقال يؤتي بالموت يوم القيامة على صورة كبش أملح فيوضع على صور بين الجنة والنار ، ثم ينادى يا أهل الجنة فيشرئبون ينظرون ، ويا أهل النار فيشرئبون ينظـــرون فيقـــال أتعرفون هذا فيقولون نعم إنه الموت فيذبح هذا الكبش الذي يمثل الموت ثم ينادى يا أهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت ثم قرأ صلى الله عليه وسلم قول ربه ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [مريم:٣٩]

والمعني أن الحسرة ستصيب المتحسرين يوم القيامة بعد دخولهم النار ورؤيتهم دخول المـــؤمنين الـــصالحين الجنة فإذا رأو الناس دخلوا الجنة وهم في النار تحسروا حين إذن حسرة ما بعدها حسرة وندموا ندامة ما بعـــدها ندامة .

ثم يقول تعالي ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [مريم:٤٠]

انتبه لصيغة الكلام ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [مريم:٤٠]

أربع ضمائر للمتكلم بأسلوب الجمع والله تبارك وتعالي واحد لا ثاني له ، وإنما يتكلم بأسلوب عظمة والعـــزة والكبرياء لأنه العزيز وأنه المتكبر وأنه العلي العظيم ، إذا كانت قد جرت عادة الملوك إذا خاطبوا الناس يقـــول نحن الملك فلان ، نحن رئيس الدولة الفلانية هذا البشر حين يتكلم عن نفسه يتكلم بأسلوب العظمة نحن رئـــيس الدولة نحن ملك المملكة ، فالله سبحانه وتعالي هو ملك الملوك وهو العلي العظيم فالكلام بأسلوب الجمع تعظيمـــا لله العلي العظيم ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَ ﴾[مريم: من الآية٤٠] ﴿ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَـــهُ لَـــهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[القصص: من الآية٨٨] ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن:٢٦]

﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْأِكْرَامِ ﴾ [الرحمن:٢٧]

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [مريم:٤٠]

يوم القيامة لا يملكون شيئا ، وإلينا يرجعون يوم القيامة ليس معهم مما ملكوه في الدنيا شيء كما قال تعـــالي ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾[الأنعام: من الآية٩٤]

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (يطوي الله سبحانه وتعالي السماوات بيمينه ويأخذ الأراضين بشماله ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض أين الجبارون أين المتكبرون ، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار)

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [مريم:٤٠]

وهكذا تنتهي قصة ميلاد عيسى بن مريم عليها السلام ، وما أجمل تعقيب الله تبارك وتعالي على هذه القـــصة في سورة آل عمران ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّـــهُ وَإِنَّ اللَّـــهَ لَهُـــوَ الْعَزِيـــزُ الْحَكِـــيمُ ﴾ [آل عمران:٦٢]

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ [آل عمران:٦٣]

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِـــذَ بَعْـــضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٦٤]

يقول النبي صلى الله عليه وسلم من شهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلي مريم وروح منه وأن البعث حق وأن الجنة حق وأن النار حق أدخله الله الجنة على ما كان من عمل .

ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ونشهد أن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلي مريم وروح منه ونشهد أن البعث حق ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، ونرجو الله سبحانه وتعالي أن يؤتينا ما وعدنا على لسان رسولنا أن يدخلنا الجنة على ما كان من عمل .

ثم تأتي القصة الثالثة في هذه السورة الكريمة المباركة سورة مريم وهي قصة إبراهيم الخليل عليه السلام :

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّ ﴾ [مريم:٤١]

واذكر يا نبينا في هذا الكتاب والمراد به القرآن الكريم والذكر الحكيم أشرف الكتب على الإطلاق والمهيمن عليها كما وصفه الله تبارك وتعالي ، واذكر يا نبينا في الكتاب إبراهيم أي واتلوا عليهم نبأ إبراهيم كما قال الله تبارك وتعالي كذلك في آية ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴾[الشعراء:٦٩]

فمحمد صلى الله عليه وسلم هو الذي سيتلو على قومه نبأ إبراهيم فهذا النبأ هو من عند الله سبحانه وتعالي ، فالذاكر لإبراهيم في الكتاب هو الله تبارك وتعالي ، فأي شرف أعظم من هذا الشرف وأي ذكر أحسن من هذا الذكر أن يذكر الله تبارك وتعالي إبراهيم عليه السلام في هذا الكتاب المهيمن على الكتب السابقة ، الخالد إلي يوم القيامة والناس كلهم يذكرون إبراهيم عليه السلام بتلاوة نبئه في هذا القرآن الكريم والذكر الحكيم ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [مريم:٤١]

وإبراهيم عليه السلام هو أبو العرب ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾[الحج: من الآية٧٨] هو أبو العرب وكان العرب ينازعون اليهود والنصارى شرف الانتساب إلي إبراهيم عليه السلام ، كان اليهود والنصارى والعرب يتنازعون شرف الانتساب إلي إبراهيم عليه السلام .

كان اليهود يقولون نحن أحق بإبراهيم من غيرنا ، كان يهوديا .

وكانت النصارى يقولون نحن أحق بإبراهيم من غيرنا ، كان نصرانيا .

وكان مشركو العرب يزعمون أنهم على ملة إبراهيم وأنهم أحق بإبراهيم من غيرهم فبرأه الله مما قالوا فقال ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران:٦٧]

ثم بين سبحانه وتعالي وقوله الحق من أولى وأحق بإبراهيم فقال سبحانه ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:٦٨]

فالمراد من هذا الذكر ، ذكر نبأ إبراهيم في القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالي يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم اذكر يا نبينا لقومك في الكتاب نبأ أبيهم إبراهيم وقل لهم لماذا ترفضون اتباعي على ما جئت به من عند الله ، أنتم تزعمون أنكم حريصون على دين آبائكم فلذلك رفضتم أن تتبعوني على ما جئت به من عند الله وأنتم تقولون إن أشرف آبائكم هو إبراهيم عليه السلام فلإن كنتم متبعون آبائكم على دينهم فإن أولى آبائكم بالاتباع على دينه هو إبراهيم عليه السلام ، فاتبعوا ملة إبراهيم فإنكم إذا اتبعتم ملة إبراهيم كنتم متبعي لأنني في الأصل على ملة إبراهيم عليه السلام كما قال الله تعالي لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل:١٢٣]

فالنبي يقول لهم إذا كنتم امتنعتم عن اتباعي على ما جئت به من عند الله حرصا على تمسككم بدين آبـــائكم ، وإبراهيم هو أشرف آبائكم فاتبعوا ملة أبيكم إبراهيم فأنا في الأصل على ملة أبيكم إبراهيم .

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ﴾[مريم: من الآية٤١] ثم إنكم يا معشر العرب إما أن تكونوا مقلدين أو مستدلين ، لأن الناس قسمان عامي مقلد ، وطالب علم متبع .

فالعامي الوجه في حقه كما قال تعالي ﴿ فَاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾[النحل: من الآية٤٣] فالعامي مقلد للعلماء .

وأما طالب العلم فليس مقلدا وإنما هو متبع ، طالب العلم بما أوتي من العلم يستطيع أن يعرض الأقوال كلهـــا على الأدلة فما كان عليه الدليل قبله ، وما لم يكن عليه الدليل رده فيكون بذلك متبعا .

فالنبي يقول لهم لمشركي العرب إما أن تكونوا من العامة مقلدين ، وإما أن تكونوا مستدلين ، فإن كنتم مقلدين آبائكم فإن أولى آبائكم بالتقليد إبراهيم

﴿ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيف ﴾ [آل عمران: من الآية٩٥]

وإذا كنتم مستدلين أي كان عنكم أثارة من العلم تستطيعون أن تميزوا بها بين الأدلة وترجحوا بعضها علـــى بعض فاتبعوا إبراهيم في ذلك واسمعوا هذه الأدلة والبراهين التي حاج بها إبراهيم آباه أزر .

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّ ﴾ [مريم:٤١]

من هو الصديق ؟

الصديق هو من كثر صدقه وتصديقه ، الصديق هو الذي إذا حدث الناس صدقهم ، وإذا حـــدثوه صـــدقهم ، فالصديق هو من كثر صدقه وتصديقه .

ولذلك لقب أبو بكر رضي الله عنه بهذا اللقب دون غيره فقيل له ولذلك لكثرة صدقه وتصديقه .

أما صدقه هو في نفسه فكان لا يتحرى الكذب أبدا ، وأما تصديقه فكان من أشد الناس تـــصديقا لرســـول الله صلى الله عليه وسلمولذلك لما جاءوه صبيحة الإسراء بعد أن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أسرى به الليلة مـــن المسجد الحرام بمكة إلي المسجد الأقصى بفلسطين أتوا أبا بكر فقالوا أما سمعت ما قال صاحبك قال وماذا قال ، قالوا يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة ثم أصبح بيننا ، فقال وأي الغرابة في ذلك إن كان قال فقد صـــدق ، إنـــي لأصدقه في الخبر يأتيه من السماء في لحظة فكيف لا أصدقه في ذلك ، فالشاهد أن الصديق هو من كثر صـــدقه وتصديقه.

والله تبارك وتعالي يقول ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر:٣٣]

والنبي صلى الله عليه وسلم يقول (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلي البر وإن البر يهدي إلي الجنـــة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا) .

والصديقية مرتبة دون مرتبة النبوة وفوق مرتبة الشهادة ، قال الله تعالي ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ [النساء:٦٩]

الصديقين مرتبة دون مرتبة النبوة وفوق درجة الشهادة ، ولذلك قال تعالي ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ [الحديد:١٩]

ثم قال :﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾[الحديد: من الآية١٩] فالشهداء شيء والصديقون شيء أخر ، صنف ثاني ، الصديقون صنف والشهداء صنف أخر .

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً ﴾ [مريم:٤١]

انتبه من هذا الترتيب في وصف الخليل إبراهيم عليه السلام ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً ﴾[مريم: من الآية٤١] وقد قلنا إن الصديقية مرتبة دون مرتبة النبوة ، فالله تبارك وتعالي استعمل أسلوب الارتقاء في المدح من الأدنى إلي الأعلى ، فإذا أردت أن تمدح إنسانا فأتي بأدنى صفاته وارتقي منها إلي الأعلى فهذا هو أسلوب المدح الحسن ، لكن لو بدأت بأعلى ما تمدح به ثم نزلت إلي أدنى منه وأقل لم يكن ذلك مدحا حسنا ، المدح الحسن أن ترتقي من الأدنى إلي الأعلى وهذا ما فعله الله تعالي في قوله ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً ﴾[مريم: من الآية٤١] ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً ﴾ [مريم:٤١]

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ ﴾ [مريم:٤٢] تكررت منه عدو مرات ، انتبه لهذه اللفظة ﴿ يَا أَبَتِ ﴾[مريم: من الآية٤٢] التاء في كلمة يا أبت التاء عوض عن ياء الإضافة ، ﴿ يَا أَبَتِ ﴾[مريم: من الآية٤٢] كلمة أب قم اتصلت بها التاء ، هذه التاء ﴿يَا أَبَتِ ﴾[مريم: من الآية٤٢] عوض عن ياء الإضافة تقدير كلام يا أبي لكن لفظة ﴿ يَا أَبَتِ ﴾[مريم: من الآية٤٢] فيها من الحنان والعطف والرفق واللين والرقة ما فيها

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً ﴾ [مريم:٤٢]

يا أبت لما تعبد حجرا ؟ لما تعبد وثنا ؟ لما تعبد شجرا ؟ لما تعبد صنما ؟ ل يسمعك إذا دعوته ، ولا يراك وأنت تتذلل له وتخضع وتظهر له فقرك وضعفك وانكسارك بين يديه عند السؤال ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً ﴾[مريم: من الآية٤٢] لا يجلب لك نفعا ، ولا يدفع عنك ضرا ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً ﴾ [مريم:٤٢]

قال أهل السنة في هذه الآية دلالة على أن الله سميع بصير لأن إبراهيم عليه السلام أنكر على أبيه عبادة ما لا يسمع ولا يبصر فلم يرد آزر على ولده الإنكار ، لم يرد عليه إنكاره ، ولم يقل له ما الفرق بيني وبينك أنا أعبد ما لا يسمع ولا يبصر وأنت كذلك تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ، لم يرد آزر على ابنه الإنكار لأنه كان يعلم أن الله سميع بصير .

قال أهل السنة فكان آزر مع كفره أعلم بالله وأسمائه وصفاته من المعطلة الذين عطلوا صفات الله تبارك وتعالي ، الله تعالي يقول : ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [غافر:٢٠]

ويقول سبحانه ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة:١]

لما نزلت هذه الآيات قالت عائشة رضى الله عنها تبارك الذي وسع سمعه الأصوات كلها ، لقد جاءت المجادلة تجادل رسول الله في زوجها وتشتكي إلي الله وأنا في الحجرة أسمع بعض كلامها ويخفى علي بعضه ولكن الله سمع كلامها من فوق سبع سماوات .

فمن أهم صفات الله عز وجل التي يجب أن نؤمن بها لله السمع والبصر .

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ [مريم:٤٢]

المفروض في الداعي حين يدعوا أنه يكون على يقين من أن من يدعوه يسمعه ، وأن من يدعوه يـــراه ، وأن من يدعوه قادر قوي غني فكيف أنت تدعو ﴿مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾[مريم: من الآية٤٢]

مرة ثانية يستدر عطفه وحنانه بالنداء بلفظ يا أبت ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْــدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً﴾ [مريم:٤٣]

يتلطف إبراهيم عليه السلام في دعوة أبيه ويرفق به فلا يغلو في مدح نفسه ولا يفرط في حق أبيه ، فلا ينسب لنفسه العلم ولا ينسب إلي أبيه الجهل لم يقل له أنا عالم وأنت جاهل أو لم يقل له أنا أعلم وأنت لا تعلم إنما قال : ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾[مريم: من الآية٤٣] وإن كان قد آتاك شيء من العلم وإن كنت على حظ من العلم إلا أنني آتاني من الله تبارك وتعالي علم ليس عندك ، والواجب على العالم إذا بلغه أن فلانـــا مـــن الناس عنده علم ليس عنده أن يقصد هذا العالم وأن يستفيد علمه إلي علم نفسه ، كما فعل موسى حين سافر إلـــي الخضر عليه السلام ليأخذ منه العلم الذي لم يكن يعلمه موسى عليه السلام .

فإبراهيم يتلطف مع أبيه في الدعوة حتى يستجيب له ويقبل دعوته ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾[مريم: من الآية٤٢] ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَـــوِيّاً﴾ [مريم:٤٣]

مرة ثالثة﴿يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾[مريم: من الآية٤٤]وهل كان آزر أبو إبراهيم يعبد الشيطان ؟ إنه كـــان يعبد الأصنام والأوثان كان يعبد الحجارة فلم يكن يعبد الشيطان ، كان يعبد الحجارة والأوثان بتزيين الـــشيطان فالشيطان هو الذي دعاه إلي عبادة الأصنام والأوثان من دون الله ، فلما اتبعه وأطاعه في عبادة الأحجـــار مـــن دون الله كان كأنه عبد الشيطان ، ولذلك قال له ﴿يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلـــرَّحْمَنِ عَـــصِيّاً﴾ [مريم:٤٤]

الشيطان عصى الله تبارك وتعالي وعصيانه ظهر معنا في سورة الكهف في قوله تعالي ﴿وَإِذْ قُلْنَـــا لِلْمَلائِكَـــةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف:٥٠]

﴿يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً﴾ [مريم:٤٤]

والعاصي لله لا يجوز أن يطاع في ما يدعو إليه لمعصية الله عز وجل ، ثم العاصي لا يكون إلا جاهلا كمـــا قال الله تعالي ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾[النساء: من الآية١٧]

فكل من عصي الله فهو جاهل وإن كان عالما ، العالم إذا عصي الله لم ينفعه علمه فهو جاهـــل فالعاصـــي لا يطاع والجاهل لا يطاع ، ولذلك قال الله تبارك وتعالي لموسى وهارون عليه السلام وقد دعوا علـــى فرعـــون ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس:٨٨]

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٨٩]

فالذي لا يعلم جاهل ، الجاهل لا يتبع وقال الله تعالي لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية:١٨]

وقال له في سورة الكهف كما سبق معنا ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾[الكهف: من الآية٢٨]

فإبراهيم عليه السلام يقول لأبيه يا أبت ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً ﴾ [مريم:٤٤] فكيف تتبعه وكيف تطيعه وقد عصي الله سبحانه وتعالي .

ومرة رابعة ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ﴾ [مريم:٤٥]

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾[مريم: من الآية٤٥] أنا لا أجزم بأنه قد حقت عليك كلمة العذاب أنت مازلت حيا ومازلت أطمع في إيمانك وإسلامك وهدايتك ، فأنا لا أجزم أنه قد حقت عليك كلمة العذاب وأن الله لن يهديك لكنني أخاف عليك إن أنت سرت في ما أنت فيه من الكفر والعناد ولم تتبعني ﴿ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ﴾[مريم: من الآية٤٥] والشيطان لا ينصر أوليائه بل يخذلهم ويتبرأ منهم أحوج ما يكونون إليه ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ﴾ [مريم:٤٥]

والشيطان هذا لن يستطيع أن يدفع عنك عذاب الله تبارك وتعالي بل سيتبرأ منك ومن سائر الذين تبعوه أحوج ما يكونون إليه .

الشيطان لا ينصر أتباعه وإنما يخذلهم ويتبرأ منهم في الدنيا وفي الآخرة ، الشيطان يخذل أوليائه ويتبرأ منهم في الدنيا وفي الآخرة .

في الدنيا قال الله تعالي ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الحشر:١٦]

﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ [الحشر:١٧]

ويوم بدر زين للمشركين سوء أعمالهم ورغبهم في الخروج لقتال المسلمين ﴿ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[الأنفال: من الآية٤٨]

ويوم القيامة يخذل الشيطان أيضا أعوانه وأوليائه ويتبرأ منهم كما قال الله تعالي ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [ابراهيم:٢٢]

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ﴾ [مريم:٤٥]

كيف أجاب آزر آباه إبراهيم عليه السلام ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ [مريم:٤٦] هكذا يا إبراهيم مع أن إبراهيم لم يقل يا آزر وإنما يا أبت ، يا أبت ، يا أبت ، يا أبت فلم يراعي آزر لابنه حرمة ولم يراعي حق القرابة ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ ﴾ أي عن سبها وهجرها ودعوتي إلي هجرها ﴿

لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ أي لأرجمنك بالحجارة حتى الموت فإذا أردت السلامة فاهجرني واعتلني وابتعد عني ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيّ ﴾[مريم: من الآية٤٦]

فلم يقابل الخليل إبراهيم عليه السلام جهل أبيه بجهل ولا إساءة أبيه بإساءة ولا قسوة أبيه بقسوة ، وإنما قابل الجهل بالحلم وقابل الإساءة بالإحسان وقابل الغلظة والفظاظة بالرفق والرحمة ﴿قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ ﴾ [مريم:٤٧]

وهذا هو هدي النبيين وعباد الله الصالحين حين يؤذون في الله عز وجل ، لا يجهلون على من جهل عليهم ، ولا يسيئون إلي من أساء إليهم وإنما كما فعل الخليل إبراهيم ووصف الله تعالي عباده عباد الرحمن ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلام ﴾ [الفرقان:٦٣]

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [القصص:٥٥]

حين يؤذى الإنسان في الله فيتأدب بهذا الأدب ألا يقابل جهل الجاهل بالجهل وإساءة المسيء بالإساءة يوكل الله تبارك وتعالي له ملكا يدافع عنه .

فقد صح أن أبا بكر رضي الله عنه كان ذات يوم جالسا نع النبي صلى الله عليه وسلم فأقبل عليه رجل فأخذ يسبه ابتدأ أبا بكر بالسب بدل السلام فما زاد أبا بكر على قوله سلام عليكم والرجل يسب وهو يقول سلام عليكم والرجل يسب وهو يقول سلام عليكم حتى إذا نفذ صبر الصديق أبي بكر رضي الله عنه ورد على الرجل بمثل قوله ، قام النبي صلى الله عليه وسلم من المجلس وانصرف فلحقه أبا بكر وقال يا رسول الله كنت جالسا والرجل يسبني حتى إذا رددت عليه بعض قوله قمت وانصرفت عني قال يا أبا بكر كلن الله قد وكل بك ملكا يرد عليه كلما قلت له سلام عليك قال بل أنت سلام عليك هو لا يستحق السلام أنت المستحق للسلام فلما رددت عن نفسك انصرف الملك وحضر الشيطان وما كنت لأجلس في مجلس فيه شيطان .

﴿قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّ ﴾ [مريم:٤٧]

الله تبارك وتعالي عودني البر والحنان والرحمة والعطف وإجابة الدعاء وإعطاء السؤال وأنا سأستغفر لك ربي ، وأرجو ربي أن يغفر لك بسبب استغفاري لك ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّ ﴾[مريم: من الآية٤٧]

لما مات أبو طالب على الكفر والشرك حزن النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك حزنا شديدا وقال والله يا عمي لأستغفرن لك ما لم أنهى عن ذلك فأنزل الله تعالي عليه قوله ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيم ﴾ [التوبة:١١٣]

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة:١١٤]

إذن قول إبراهيم لأبيه ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾[مريم: من الآية٤٧] وعده أن يستغفر الله له فاستغفر له في حياته ، فلما مات على كفره وشركه وظهرت عداوته لله تبارك وتعالي تبرأ ابنه إبراهيم منه ولم يستغفر له .

فلا يجوز لأحد أن يستغفر لأبية المشرك أو لأمه المشركة محتجا باستغفار إبراهيم لأبيه فإن الله قال ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾ [التوبة:١١٤]

ولذلك قال تعالي : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ ثم قال تعالي مستثنيا من التأسي ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الممتحنة:٤]

فهذا ليس فيه تأسي بإبراهيم لماذا ؟ ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة:١١٤]

﴿قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً ﴾ [مريم:٤٧]

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [مريم:٤٨]

لم يبقي لوجودي بينكم فائدة وقد أصررتم على الكفر وأبيتم إلا الشرك ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً ﴾ [مريم:٤٨]

أنا أعتزلكم وما تعبدون من دون الله وأعبد الله وحده لا أشرك به شيئا ﴿وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً ﴾[مريم: من الآية٤٨]

انتبه في هذا الكلام تلميح لهم يقول أنا أدعو ربي ولن أكون بدعاء ربي شقيا وأنتم عبدتم غير الله ودعوتم غير الله فستكون عبادتكم لغير الله سببا لشقائكم في الدنيا وفي الآخرة ، هذا معني الكلام ولكن الخليل إبراهيم عليه السلام يستعمل التلميح محل التصريح ، ويستعمل التعريض محل المواجهة كما فعل موسى وهارون عليهما السلام حين أتيا فرعون وقد قال الله لهما ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طـه:٤٤]

ثم قال : ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرائيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ ﴾ انتبه ﴿وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾ [طـه:٤٧]﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ [طـه:٤٨]

انتبه وتعلم هذا الأسلوب في الدعوة لا تواجه الناس بإنذار وبالترهيب والتخويف ، استخدم مع الناس دائما التلميح ما دام يغني عن التصريح ، واستخدم التعريض بدلا من المواجهة ، فهذا هدي الأنبياء لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يقوم على المنبر فيقول لماذا فعلت كذا يا فلان ؟ ولماذا فعلتم كذا يا بني فلان وإنما كان إذا بلغه شيء عن قوم هرع إلي المنبر فقال ما بال أقوام يقولون كذا ، ما بال أقوام يفعلون كذا ، إبراهيم يقول لأبيه وقومه ﴿ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً ﴾[مريم: من الآية٤٨] يقول لهم أنا لم أشقى ما دمت أعبد الله وحده ، لكنكم تعبدون غير الله فلابد أن تشقوا في الدنيا وفي الآخرة لكن لا يوجه لهم هذا التوجيه وإنما يلمح لهم تلميحا ، فتتعلم من هذا أيها الداعية وأيها الطالب أن تكون هينا لينا مع الناس ، لا تواجه الناس بإنكار ، ولا تسمي الناس بأخطائهم وعيوبهم ، ولكن أهتدي بهدي الأنبياء واقتدى بهم ، ما بال أقوام يقولون وما بال أقوام يفعلون .﴿ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى ﴾[مريم: من الآية٤٨]

وهذا منه هضم لنفسه وتفويض لربه سبحانه وتعالي ﴿عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً ﴾[مريم: من الآية٤٨] لأنه يعلم أنه لا يجب على الله لأحد شيء .

﴿عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً ﴾[مريم: من الآية٤٨] أنا أرجو لأنه لا يجب على الله لأحد شيء وإنما الله تعالي هو الذي يتفضل على عباده بالإجابة إذا دعوه وبالعطاء إذا سألوه وهو الذي يتفضل عليهم أيضا برحمتهم يوم القيامة فيدخلهم الجنة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (لن يدخل أحدكم عمله الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل).

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّ ﴾ [مريم:٤٨]

فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله انتبه سمى الله الدعاء عبادة قال ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي ﴾[مريم: من الآية٤٨] ثم قال ربنا فلنا اعتزلهم وما يعبدون من دون الله ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم الدعاء هو العبادة ثم قرأ قول ربه ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ [غافر:٦٠]

فذكر الدعاء ثم سماه عبادة ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:٦٠]

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾[مريم:٤٩] وذلك بعد إسماعيل عليه السلام ، وهبنا له إسحاق ويعقوب بن إسحاق ذلك بعد إسماعيل عليه السلام ، وكلا من إسحاق ويعقوب ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّ ﴾ [مريم:٥٠]

والمراد باللسان الذكر الحسن والثناء الجميل ، سمي الذكر الحسن والثناء الجميل لسان لأنه يكون باللسان ، والعرب تسمي الشيء باسم ما يكون به من الجوارح ، العرب تقول للنعمة والإحسان والفضل يد يقولون لفلان عندي يد يعنون النعمة لأن النعمة والإحسان يكون باليد ، فأطلق اللسان وأراد به الثناء الحسن والذكر الجزيل لأن الثناء الحسن والذكر الجزيل يكون باللسان فلا يذكر إبراهيم وأبنائه عليهم الصلاة والسلام إلا بالثناء الحسن والذكر الجميل وهم يستحقون ذلك فعلا ، ولذلك قال ﴿ لِسَانَ صِدْقٍ ﴾[مريم: من الآية٥٠] أنا وأنت حين نمدح قد نمدح بالباطل بما ليس فينا وحين نمدح قد نمدح الغير بما ليس فيه لكن الخليل إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب إذا مدحوا فإنما يمدحون بالحق ولذلك قال :﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّ ﴾[مريم: من الآية٥٠] .

اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

هذا والحمد لله رب العالمين وصلي اله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سؤال :

كم عدد الذين تكلموا في المهد غير عيسى عليه السلام ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

هناك حديث مشهور لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة عيسى بن مريم ، وجريج ، وبينما امرأة ترضع ولدها الحديث ، هذا الحديث قال العلماء لم يرد به الحصر لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة ليس المراد بهذا الحصر ، حصر الكلام في الصغر في هؤلاء الثلاثة فإن هناك أحاديث أخرى صحت عن النبي صلى الله عليه وسلم في كلام بعض الصبيان في مهدهم ، فكم عددهم على الحصر لا نعلم ولكن نقول إذا صح الحديث فنقبل بإذن الله عز وجل .

سؤال :

كم كان عمر عيسى عليه السلام حين رفع إلي السماء ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

كان عمره ثلاثا وثلاثين سنة وهو إن شاء الله تعالي سن أهل الجنة حين يدخلون الجنة يكونون على سن عيسى حين رفع ثلاث وثلاثين سنة .

سؤال :

هل عيسى عليه السلام من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

لا عيسى عليه السلام من بني إسرائيل ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرائيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾[الصف: من الآية٦] ولكنه سينزل في أخر الزمان ويحكم بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم فيكون من أتباع محمد بعد نزوله إن شاء الله .

سؤال : كيف رفع إلي السماء ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

رفعه الله تعالي حيا ، رفع الله تعالي عيسى لما أراد اليهود أن يقتلوا عيسى عليه السلام ألقى الله تعالي شبه عيسى على أحد من الناس فدخلوا فوجدوا الشبه فأخذوه وهم يظنون أنه عيسى فقتلوه وقالوا إنا قتلنا المسيح بن مريم رسول الله قال تعالي :﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء:١٥٨]

ألقى الله تعالي عليه النوم وهذا معني قوله تعالي ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾[آل عمران: من الآية٥٥]الوفاة هنا معناها النوم فالله سبحانه وتعالي سمى النوم وفاة في أكثر من آية في مثل قوله تعالي ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾[الأنعام: من الآية٦٠] فقوله تعالي ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾[آل عمران: من الآية٥٥] يعني أصلط عليك النوم ثم أرفعك حيا إلي السماء ، فعيسى رفع حيا إلي السماء وسينزل إن شاء الله تعالي في آخر الزمان بعد ظهور المهدى محمد بن عبد الله رضي الله عنه وخروج الدجال ينزل عيسى بن مريم عليه السلام من السماء عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ثم يتوجه إلي بيت المقدس ويقتل الدجال .

سؤال : ما معني إني متوفيك ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

هذا الذي ذكرته سبقت بالإجابة إني متوفيك الوفاة هنا معناها النوم .

سؤال :

لماذا بادر الله سبحانه وتعالي مريم بقوله ﴿نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً ﴾[مريم: من الآية٢٦]بدون أن تسأل هي كيف تفعل بأمرها ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

لطفا من الله ورحمة وجهها ماذا تفعل ، ولا سيما وقد أصابها ذلك القلق التي عبرت عنه بقولها ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً ﴾[مريم: من الآية٢٣] .

وصلى اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

من أول قوله : "واذكر في الكتاب موسى" ...

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، اللهم صلي وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلي يوم الدين .

أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد عليه الصلاة والسلام وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

ثم مرحبا بكم في هذا اللقاء الجديد من دروس تفسير سورة مريم .

ونبدأ بثلاثة الأسئلة للحلقة السابقة :

السؤال الأول : ما هو الصراط المستقيم ؟

السؤال الثاني : من هو الصديق ؟

السؤال الثالث : استدل أهل السنة بقول إبراهيم لأبيه ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ ﴾[مريم: من الآية٤٢] على أن الله سميع بصير فما وجه الاستدلال ؟

أما الآيات المباركات التي معنا اليوم من سورة مريم فقد تضمنت من المعاني ما يلي :

أولا : فضائل موسى عليه السلام .

ثانيا : فضائل إسماعيل عليه السلام .

ثالثا : الحث على صدق الوعد والوفاء بالعهد .

رابعا : واجب الرجل نحو أهل بيته .

خامسا : فضائل إدريس عليه السلام .

سادسا : خوف النبيين من رب العالمين .

سابعا : التحذير من إضاعة الصلاة .

أخيرا : التائب من الذنب كمن لا ذنب له .

وهذا بإيجاز عرض سريع لأهم ما تضمنته الآيات المباركات التي معنا اليوم من سورة مريم من المعاني والتي نعيش في رحابها ساعتنا هذه إن شاء الله تعالي .

فالنستمع إليها أولا قبل الخوض في تفاصيلها سائلين الله عز وجل أن ينجز لنا ما وعدنا حيث قال ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠٤]

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [صّ:٢٩]

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر:٢١]

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر:٢٣]

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى ﴾ [مريم:٥١]

واذكر يا نبينا في الكتاب الذي أنزلناه عليك وهو القرآن الكريم والذكر الحكيم ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى ﴾[مريم: من الآية٥١] وهو موسى بن عمران كليم الله عز وجل عليه الصلاة والسلام ، وقد قلنا أن ذكر أي إنسان في هذا الذكر الحكيم شرف ما بعده شرف ، وثناء ما بعده ثناء .

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَص ﴾[مريم: من الآية٥١] القراءة المشهورة لفتح اللام على أنه اسم مفعول ﴿ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً ﴾[مريم: من الآية٥١] وهناك قراءة ثانية بكسر اللام على أنه اسم فاعل " إنه كان مخلصا " والقراءتان صحيحتان ، ولا شك أن الإخلاص هو سبب الاستخلاص ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَص ﴾[مريم: من الآية٥١] فأخلص لله سبحانه وتعالي فاستخلصه الله تعالي لنفسه فكان عليه الصلاة والسلام مخلصا ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّ ﴾ [مريم:٥١]

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ﴾ [مريم:٥٢] نادى الله تبارك وتعالي موسى عليه السلام بالوادي المقدس طوى عند جبل الطور هو جبل معروف بسيناء ، وكان هذا النداء أثناء عودة موسى عليه السلام من بلاد مدين بعد ما قضى فيها لصهره أبر الأجلين وأوفاهما عشر سنين كما هو معلوم مما قصه الله تبارك وتعالي علينا في صورة القصص إذ خرج موسى عليه السلام من مصر هاربا من بني إسرائيل فلما انتهى إلي بلاد مدين وانتهى إلي ذلك الرجل الصالح والد المرأتين اللتين سقى لهما موسى غنمهما ، ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ [القصص:٢٦]

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [القصص:٢٧]

﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [القصص:٢٨]

قال النبي عليه الصلاة والسلام سألت جبريل عليه السلام أي الأجلين قضى موسى قال قضى أبرهما وأوفاهما ، فلما قضى موسى عليه السلام لصهره أبر الأجلين وأوفاهما ألقى الله تبارك وتعالي في قلب موسى حب العودة إلي الوطن وحب الرجوع إلي الأهل فاستأذن صهره وخرج بأهله ، وبينما هو بذلك المكان المقدس طوى وعند جبل الطور ناداه الله تبارك وتعالي ، ولم يذكر الله تبارك وتعالي ماذا نادى به موسى لكنه فسره وفصله في سورة طه حيث قال تعالي ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ [طـه:٩]

﴿إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً ﴾ [طـه:١٠]

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى ﴾ [طــه:١١]

﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً ﴾ [طــه:١٢]

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾ [طــه:١٣]

﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾ [طــه:١٤]

إلي أخر ما ذكره الله تبارك وتعالي من هذا النداء في سورة طه .

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ [مريم:٥٢]

والنداء يكون للبعيد ، والمناجاة تكون للقريب وفي الحديث أن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام قــالوا يــا رسول الله أبعيد ربنا فنناديه أم قرين فنناجيه فنزل قول الله تعالي ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيــبٌ أُجِيــبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة:١٨٦]

فالله سبحانه وتعالي نادى موسى ثم ناجاه وناجاه موسى عليه السلام ، وفي هذه الآية إثبات صفة الكلام لله عز وجل إذ أن الله تبارك وتعالي نادى موسى وسمع موسى كلام الله تبارك وتعالي فكان موسى كليم الله ، ولقد أكد الله تبارك وتعالي على كلامه لموسى بالمفعول المطلق المؤكد حيث قال ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً ﴾[النساء: مــن الآية١٦٤] فموسى عليه السلام كلمه الله تبارك وتعالي وناجاه وناداه .

فالكلام صفة من صفات الله عز وجل .

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً ﴾ [مريم:٥١]

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ [مريم:٥٢]

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً ﴾ [مريم:٥٣]

وذلك أن الله تبارك وتعالي لما كلف موسى عليه السلام بالرسالة رسالته إلي فرعون قال موسى عليه الــسلام ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ [طــه:٢٥]

﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ [طــه:٢٦]

﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴾ [طــه:٢٧]

﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ [طــه:٢٨]

﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي ﴾ [طــه:٢٩]

﴿هَارُونَ أَخِي ﴾ [طــه:٣٠]

﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴾ [طــه:٣١]

﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ [طــه:٣٢]

﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِير ﴾ [طــه:٣٣]

﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِير ﴾ [طــه:٣٤]

﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِير ﴾ [طــه:٣٥]

قال الله تعالي ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ [طــه:٣٦]

وفي سورة القصص قال الله تعالي حكاية عن موسى أنه قال ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ [القصص:٣٤]

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ [القصص:٣٥] فموسى عليه السلام سأل الله تبارك وتعالي أن ينبأ له أخاه هارون حتى يكون وزير صدق له ، ويشد عضده به ، فاستجاب الله تبارك وتعالي له ونبأ هارون وأرسله مع أخيه موسى إلي فرعون وملئه فهذا معني قوله ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّ ﴾ [مريم:٥٣]

وكانت هذه الهبة هبة النبوة لهارون بناء على سؤال موسى وشفاعته عند ربه لأخيه ، ولذلك قال بعض السلف ما من شفاعة شفعها أحد لأحد مثل شفاعة موسى لهارون ، وقال بعضهم ما نفع أخ أخاه مثل ما نفع موسى أخاه هارون ذلك أن الله سبحانه وتعالي نبأ هارون إكراما لأخيه موسى ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّ ﴾ [مريم:٥٣]

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ﴾ [مريم:٥٤] واذكر يا نبينا في الكتاب الذي أنزلناه إليك وهو القرآن الكريم والذكر الحكيم ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ﴾[مريم: من الآية٥٤] وإسماعيل هو بن إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام وقد سبق في السورة قول الله تعالي ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلّاً جَعَلْنَا نَبِيّ ﴾ [مريم:٤٩]

ومعلوم أن الله سبحانه وتعالي وهب لإبراهيم إسماعيل أولا ، وهب الله تبارك وتعالي إبراهيم إسماعيل قبل إسحاق وقبل يعقوب فيعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، فالله سبحانه وتعالي وهب لإبراهيم إسماعيل وإسحاق ، فالله سبحانه وتعالي قدم ذكر إسماعيل وإسحاق على ذكر إسماعيل وأخر إسماعيل وأفرده بالذكر ، قال العلماء إفراد الشيء عن جنسه بالذكر إنما يكون من باب التكريم والتشريف له ، فالله سبحانه وتعالي ذكر إسحاق ويعقوب في سياق واحد ثم أخر ذكر إسماعيل وذكره وحده ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ﴾[مريم: من الآية٥٤]فكان إفراد إسماعيل عليه السلام بالذكر وحده دون أخيه وبن أخيه من باب التكريم والتشريف له .

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ ﴾[مريم: من الآية٥٤] والصدق صفة من الصفات الواجبة للأنبياء والمرسلين أجمعين فلا يكون النبي إلا صادقا ، فالصدق صفة مشتركة يشترك فيها جميع الأنبياء والمرسلين إلا أن الله تبارك وتعالي خص إسماعيل عليه السلام بذكر صدقه لأنه عليه السلام بلغ في الصدق مرتبة عالية حيث إنه عليه السلام وعد أباه أن يسلم له نفسه ليذبحه طاعة لله تبارك وتعالي ، ثم التزم كلمته وصدق في وعده ووفى بعهده لأبيه قال الله تعالي عن إبراهيم عليه السلام ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الصافات:٩٩]

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الصافات:١٠٠]

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات:١٠١]

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات:١٠٢]

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ [الصافات:١٠٣]

﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ [الصافات:١٠٤]

﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات:١٠٥]

فإسماعيل عليه السلام بلغ في صفة الصدق وخلق الصدق مبلغا فاق فيه غيره ، لذلك خصه الله تبارك وتعالي بالذكر ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾[مريم: من الآية٥٤] وهذا أحسن مثال يستدل به على صدق إسماعيل في وعده إلا أن بعض المفسرين ذكروا مثال أخر فقالوا دخل إسماعيل عليه السلام وصاحب له البرية لقضاء حاجة فعرضت لهما حاجة وهما في البرية ، فقال إسماعيل لصاحبه إما أن تأتي المدينة فتقضي حاجتنا وأنتظرك ، وإما أن تنتظرني وأدخل المدينة فأقضى الحاجة ، فقال الصاحب بل انتظرني وأنا أتيك بحاجتك ، فترك صاحب إسماعيل ، إسماعيل في البرية ودخل المدينة فلما دخل المدينة ورأى الناس والسوق انشغل بالسوق والناس نسي إسماعيل عليه السلام ، فظل إسماعيل في مكانه لم يفارقه ثلاثة أيام حتى تذكر صاحبه بعد ثلاثة أيام أنه كان قد وعد إسماعيل أن يرجع إليه ، فأتاه بعد ثلاثة فوجده في مكانه لم يبرحه ، فقال أنت هنا منذ فارقتك ؟ قال لقد قلت لك سأنتظرك ، وما كان لي حتى لو تأخرت أكثر من ذلك ما كان لي أن أخلف وعدي وأخرج من البرية حتى تأتيني بعد حين .

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾[مريم: من الآية٥٤] وهكذا أثنى الله تبارك وتعالي على إسماعيل لصدق وعده ووفائه بعهده ، وكذلك مدح الله تبارك وتعالي المؤمنين على خلق الصدق والوفاء فقال تعالي ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيل ﴾ [الأحزاب:٢٣]

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال ، غاب عمي أنس بن النضر عن غزوة بدر والنبي عليه الصلاة والسلام لم يعاتب أحدا على التخلف عن غزوة بدر لأنه لم يكن أصلا قد خرج للقتال كما تعلمون من السيرة ، يقول أنس بن مالك غاب عمى أنس بن النضر عن غزوة بدر فقال يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت فيه المشركين ، لأن الله أشهدني قتال المشركين لايرين الله ما أصنع وهكذا أجمل وأطلق قال لأن الله أشهدني قتال المشركين في غزوة أخرى غير غزوة بدر ليرين الله ما أصنع ، لم يقل سافعل وأفعل وأفعل لأن الذين يقولون غالبا لا يفعلون ، لأن الذين يفعلون ويكثرون الكلام غالبا لا يفعلون ، لكن أنس بن النضر قال لإن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع ، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال أنس اللهم إلي أعتذر إليك عن ما صنع هؤلاء يعني المسلمين ، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعني المشركين ثم تقدم فلقيه سعد بن معاذ ، فقال يا سعد الجنة ورب النضر إني لأجد ريح الجنة من دون أحد ، قال سعد بن معاذ فوالله ما استطعت يا رسول الله يومئذ ما صنعت ، ما استطعت أن أصنع كما صنع أنس بن النضر فتقدم نحو المشركين فما زال يقاتلهن حتى قتلوه ، قال أنس ووجدنا به بضعا وثمانين ما بين رمية بسهم وطعنة برمح وضربة بسيف ، ووجدناه قد قتل ومثل به المشركون فلم يعرفه أحد منا إلا أخته عرفته ببنانه فكنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾[الأحزاب: من الآية٢٣] فصدق الوعد والوفاء بالعهد من شيم النبيين وأتباعهم عباد الله المؤمنين ، وكما مدح الله تبارك وتعالي النبيين والمؤمنين على صدق الوعد والوفاء بالعهد فقد ذم سبحانه وتعالي الذين لا يصدقون إذا وعدوا ولا يوفون إذا عاهدوا ، وجعل ذلك من

خصائص الكافرين الفاسقين والمنافقين فقال تعالي " ومنهم " أي ومن المنافقين فهذه الآية في سورة التوبة سورة براءة وبن عباس قد قال لا تقل التوبة ، ولكن قل الفاضحة سورة التوبة هي الفاضحة لأنها فضحت المنافقين ما زال ينزل فيها ومنهم ، ومنهم ، ومنهم حتى ظن كل واحد منهم لابد مفضوح ، ومنهم أي من المنافقين ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [التوبة:٧٥]

﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [التوبة:٧٦]

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة:٧٧]

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [التوبة:٧٨]

فكان خلف الوعد والغدر وعدم الوفاء بالعهد من شيم المنافقين ، وبالمناسبة ننبه على بطلان قصة رويت في بعض كتب التفاسير في تفسير هذه الآيات من سورة التوبة " ومن من عاهد الله " هناك قصة لعلها لا تخطى عليكم وهي ما سموها بقصة حمامة المسجد ونسبوها إلي تعلبة بن أبي حاطب الأنصاري رضي الله عنه وقالوا إن تعلبة كان فقيرا فقال يا رسول الله ادعوا الله أن يوسع علي ولإن وسع الله علي لأنفقن هكذا وهكذا فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام يا تعلبة قليل يكفيك خير من كثير يضغيك ، قال يا رسول الله ادعوا الله لي ولله علي عهد لإن آتاني من فضله لأصدقن ولأكونن من الصالحين ، فدعا له رسول الله عليه الصلاة والسلام فوسع الله عليه فكان له غنم ، فكان في أول عهده يسرح بالغنم وينزل الصلاة ، حتى إذا كثرت الغنم بعد في المرعى فلم يعد ينزل لصلاة الجماعة ، ثم كثرت فلم يعد ينزل لصلاة الجمعة ، ثم نزلت آية الصدقة فأرسل إليه عليه الصلاة والسلام هذه صدقتك فقال ما هذه الصدقة ما هذه إلا جزية فنزلت فيه هذه الآيات ، فلما نزلت الآيات ندم على ما كان منه وأتي النبي عليه الصلاة والسلام يعرض عليه زكاته فلم يقبلها منه ومات رسول الله عليه الصلاة والسلام فجاء بزكاته لأبي بكر فلم يقبلها ثم مات أبو بكر وجاء بصدقته إلي عمر فلم يقبلها ، هذه القصة باطلة سندا ومتنا ، هذه القصة أولا نسبت إلي تعلبة بن أبي حاطب الأنصاري ، وتعلبة بن أبي حاطب الأنصاري رجل من أفاضل الصحابة شهد بدرا واستشهد في أحد فكيف ينسب إليه هذا الفعل الذي لا يليق به رضي الله عنه ، ثم إن القصة جعلت هذا الرجل عاش بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام صدقته لكنه مات شهيدا في غزوة أحد رضي الله عنه ، ثم إن الله سبحانه وتعالي قال لنبيه عليه الصلاة والسلام ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾[الأنفال:٣٨] الكافر الأصلي الله يناديهم إلي الإسلام ويعدهم أن يغفر لهم ما قد سلف فكيف بالمسلم لو ارتد ثم تاب وعاد إلي دينه هو أولى بقبوله وأولى بتوبة الله تبارك وتعالي عليه .

ثم إن النبي عليه الصلاة والسلام قال في الزكاة من أعطاها مأتجرا فإنا آخذوها وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا يعني من أعطاها مأتجرا فله اجرها ومن منعها فإنا آخذوها وسنعاقبه بعد أخذها بأخذ نصف ماله عقوبة على منعه الزكاة ، فإذا كان هذا فكيف يترك النبي عليه الصلاة والسلام تعلبة بن حاطب ولا يأخذ منه الزكاة قهرا ، فهذه القصة التي وردت في تفسير آيات باطلة سندا ومتنا ، لكنها كما قلت في المنافقين ومنهم أي ومن المنافقين ، والشاهد أن خلف الوعد وعدم الوفاء بالعهد من شيم المنافقين ولذلك قال عليه الصلاة والسلام آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا عاهد غدر .

فإذا كان الصدق بالوعد والوفاء بالعهد من شيم النبيين وعباد الله المؤمنين فيجب علينا أن نهتدي بهديهم وأن نقتضي بهم وأن نحترم مواعيدنا وأن نحترم عهودنا فإذا أعطى أحدنا موعدا يجب أن يلتزم به مهما كلفه الالتزام وإذا أعطى أحدنا عهدا يجب أن يفي به مهما كلفه الوفاء ، لكن مما يؤسف له تهاون كثير من المسلمين بمواعيدهم وعهودهم ، يعطيك الرجل الموعد فتلتزم أنت به وتفرغ نفسك في هذا الوقت له وتعطل مصالحك ولا ترضى أن تأخذ أي موعد في نفس الوقت من رجل أخر لأنك أعطيت هذا الوقت لفلان ، وربما كان الموعد في بلد غير بلدك فتسافر وتتكلف من عناء السفر وكلفة السفر ومشقة السفر وفاء منك بوعدك لأخيك ثم هو لا يبالي

بموعده الذي حدده وقطع على نفسه ، ولا يأتيك فيه ، ثم بعد حين تلقاه فتعاتبه فلا يقول إلا قدر الله وما شاء فعل ، اعفوا عفا الله عنك ، نعم قدر الله وما شاء فعل لكننا مسؤولون عن مواعيدنا التي أعطيناها لابد أن نحترم مواعيدنا ، ولابد أن نفي بعهودنا لأننا حين نلتزم مع بعض الناس بمواعيد كلفنا هؤلاء الناس كثيرا جدا ، كلفناهم من أوقاتهم ، وكلفناهم من أموالهم ، وكلفناهم من أموالهم ، ثم بكل سهولة لا نحترم مواعيدنا ولا نلتزم بها ، هذا خطأ يجب علينا أن نقتضي بإسماعيل عليه السلام ، وأن نهتدي بهدية في الصدق بالوعد والوفاء بالعهد الذي استحق أن يمدحه الله به ويذكره به في القرآن الكريم إلي يوم الدين ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّ ﴾[مريم: من الآية٥٤] ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ ﴾ [مريم:٥٥] تمام النجاة ، تمام نجاة العبد في أن يكمل نفسه وأن يسعى في تكميل غيره ، فلا يكفي أن تكون مهتديا حتى تكون هاديا ، ولا يكفي أن تكون صالحا حتى تكون مصلحا ، ولا يكفي أن تكون فاعلا للمعروف تاركا للمنكر حتى تكون آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر قال الله تعالي بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَالْعَصْرِ ﴾ [العصر:١]

﴿إِنَّ الْأِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ [العصر:٢]

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ [فكملوا أنفسهم] وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر:٣] لتكميل غيرهم .

والله تبارك وتعالي يقول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾[المائدة: من الآية١٠٥]يعني إذا كنتم مهتدين في أنفسكم ودعوتم غيركم إلي الهدى فضلوا لا يضركم من ضر ما دمتم أنتم دعوتموهم إلي الهدى ، هذا هو معني الآية ، ومن الخطأ أن يظن أن معني الآية أنه يكفي أن تكون مهتديا في نفسك ولا يضرك ضلال غيرك وإن لم تدعه إلي الهدى .

لا إذا كنت مهتديا في نفسك ورأيت الضالين ولم تدعهم إلي الهدى ضرك ضلالهم ، يقول النبي عليه الصلاة والسلام [مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فكان بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم قالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا لم نؤذي من فوقنا ، لو خرقنا في أسفل السفينة خرقنا فتناولنا منه الماء من البحر ولم نصعد إلي أعلى درجة العليا درج السطح ولا نؤذي جيراننا ، كل ساعة نصعد وننزل بالماء فنؤذي الجيران ، لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا فلم نؤذي من فوقنا فلو تركوهم وما أرادوا لهلكوا جميعا ، ولو أخذوا على أيديهم فنجوا ونجوا جميعا ، ولذلك قام أبو بكر رضي الله عنه على المنبر يوما وصحح للناس هذا المفهوم الخاطئ ، وقال أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾[المائدة: من الآية١٠٥] ألا وإني سمعت رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول إن الناس إذا رأو ظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده ويشهد لذلك قول ربنا سبحانه ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾[لأنفال: من الآية٢٥] فإذا أخذت على نفسك العهد أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتدعو الناس إلي الخير فبمن تبدأ في الدعوة ، إذا علمت منزلة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والدعوة إلي الخير ، وأخذت على نفسك العهد أن تأمر بالمعروف وتنهر عن المنكر وتدعوا إلي الخير فبمن تبدأ في الدعوة ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ ﴾[مريم: من الآية٥٥] فأهلك الزوجة والأولاد ثم الأقرب فالأقرب هم أولى الناس بدعوتك وعم أولى الناس بهدايتك ، وهم أولى الناس بأمرك لهم ونهيك إياهم ، وبهذا أمر الله تعالي نبينا محمدا عليه الصلاة والسلام ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤]

وقال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ﴾ [الأحزاب:٥٩]

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ ﴾[الأحزاب: من الآية٥٩] لأن الزوجة أقرب الأهل إلي الزوج ، ثم وبناتك ثم ونساء المؤمنين ، فيبدأ الداعية بأهله أولا الزوجة والأولاد ثم الأخوة والأخوات والأقرب فالأقرب ثم يخرج إلي

المجتمع كله كما كان يفعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا أراد أن يخرج للناس يأمرهم وينهاهم جمع أهل بيته فقال إني خارج على الناس آمرهم بكذا وأنهاهم عن كذا ، والله لتكونن أول من يأتمر وأول من ينتهي وإلا فالعصا فالواجب على الداعية أن ينتبه لهذا الأمر أحق الناس وأولاهم بدعوتك وجهدك في الدعوة أهلك أهل البيت ، الأسرة أولا لأن أسرتك هي مرآتك ، فكل ما تريده من المجتمع لأن يفعله فاجعل أسرتك مرآة للمجتمع يرى المجتمع فيها ما تريد أن يفعله المجتمع من الخير وما تريد أن يتركه من الشر .

لكن كثيرا من الدعاة وطلاب العلم قد قصروا في دعوة أهليهم ودعوة أسرهم بحجة الانشغال بواجب الدعوة ، فترى الرجل يشرق ويغرب ويعطي للناس كلهم من وقته ومن جهده ، ثم إذا طلبت منه الزوجة علمني يقول ما عندي وقت أعلمك وإذا طلب منه الولد علمني ، يقول ما عندي وقت أعلمك هذا خطأ .

ابدأ بنفسك أولا ، ابدأ بامرأتك وأهلك وأولادك علمه أولا وما بقي من وقت فأعطه للمجتمع ، أما أن تنشغل بدعوة الناس كلهم عن دعوة أهل بيتك فأين أنت من قول الله تعالي ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾[طه: من الآية١٣٢]

وأين أنت من قول الله تعالي ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم:٦] كيف تقي نفسك من النار بإقامة دين الله عز وجل بفعل الواجبات ، وترك المحرمات ، وكيف تقي أهلك من النار ؟ تأمرهم وتنهاهم ، تأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر ، تأمرهم بفعل ما أوجب الله عليهم ، وتنهاهم عما حرم الله تبارك وتعالي عليهم [كلك راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، فالرجل في بيته راع وهو مسؤول عن رعيته ، فلنقدر هذه المسؤولية حق قدرها ، ولنعطى أولادنا ونسائنا من أوقاتنا ونفرغ لهم إن لم يكن كل يوم ففي الأسبوع مرتين أو ثلاثة ، نجعل لهم حلقة علم ، نجتمع على كتاب الله تارة وتفسيره تارة وحديث النبي تارة وشرح أحاديثه تارة والعقيدة تارة وهكذا حتى يكون البيت بيتا مسلما حقا كما أراد الله تبارك وتعالي .

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً ﴾ [مريم:٥٤]

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ ﴾[مريم: من الآية٥٥] حين يؤذن للصلاة لا تخرج وتترك المرأة والأولاد ولكن أيقظ المرأة عند الفجر من فراشها من نومها وبناتها قومي يا أم فلان ، صلي بارك الله فيك ، أيقظي البنات وصلي بهن في بيتك ، وأيقظ الصبيان واصطحبهم معك إلي المسجد وهكذا افعل في كل وقت ، إذا أذن للصلاة قومي يا أم فلان صلي أنت والبنات بارك الله فيك وهيا يا أولاد نصلي في المسجد جماعة ، فإذا رجعت من الصلاة السلام عليكم هل صليتي يا أم فلان ؟ نعم جزاك الله خير وبارك الله فيك ، تقبل الله منك ، لا والله ما صليت جزاك الله خير ، شغلت طب هيا الآن قومي إلي الصلاة .

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ ﴾[مريم: من الآية٥٥] إذا كانت المرأة ذات مال ، إذا كان للمرأة ذمة مالية خاصة لها مال بلغ النصاب وجبت فيه الزكاة كل سنة فأنت أيها الزوج ، أنت أيها الراعي ، أنت أيها الرجل مسؤول عن امرأتك تحفظ لها حولها ، تحفظ لها وقت وجوب الزكاة عليها ، وقبل أن يحول الحول بأيام بأسبوع ، بأسبوعين يا أم فلان انتبهي حال الحول ، وجبت عليك الزكاة بادري بارك الله فيكي في إخراج زكاتك هذا حقها عليك .

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً ﴾ [مريم:٥٥]

ولاشك أن من كان بهذه الصفات كان عند ربه مرضيا . ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً ﴾ [مريم:٥٤]

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّ ﴾ [مريم:٥٥]

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّ ﴾ [مريم:٥٦]

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّ ﴾ [مريم:٥٧]

وإدريس عليه السلام من الأنبياء الذين لم يفصل الله تبارك وتعالي لنا قصتهم في القرآن كما فصل لنا مـثلا قصة موسى وعيسى وإبراهيم وغيرهم من الأنبياء ، وإنما أجمل ذكره في هذه الآيات

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّ ﴾ [مريم:٥٦]

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّ ﴾ [مريم:٥٧]

هذا المكان الذي رفعه الله تعالي إليه هو السماء الرابعة ففي حديث المعراج أن النبي عليه الصلاة والسلام لما عرج به إلي السماوات العلا رأى في السماء الدنيا آدم عليه السلام ، ورأى في السماء الثانية يحيى وعيسى ابني الخالة ، ورأي في السماء الثالثة هارون ، ورأى في السماء الرابعة إدريس عليه السلام ، ولما حدث بذلك أنـه رأى إدريس في السماء الرابعة قرأ قول ربه ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّ ﴾ [مريم:٥٦]

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّ ﴾ [مريم:٥٧]

بعد هذا التفصيل لقصص بعض الأنبياء والإجمال للقصص الآخر يقول الله تبارك وتعالي ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ ﴾ [مريم:٥٨]

ويأتي بالإشارة اسم الإشارة الذي يدل على البعد أولئك ليفيد ارتفاع شأنهم وعلو مكانتهم عند ربهم عز وجـل وصلي الله وسلم عليهم أجمعين ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرائيلَ ِ ﴾ [مريم:٥٨]

من ذرية آدم نوح عليه السلام ، فنوح عليه السلام هو أول رسول بعثه الله تعالي إلي أهل الأرض كما جـاء ذلك في الصحيح ، ﴿ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾[مريم: من الآية٥٨] إبراهيم وإدريس ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴾[مريم: من الآية٥٨] إسماعيل وإسحاق ويعقوب ، ﴿وَإِسْرائيلَ ﴾[مريم: من الآية٥٨] وهو يعقوب عليه السلام .

﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ﴾[مريم: من الآية٥٨] هؤلاء الأنبياء كانوا ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّ ﴾[مريم: من الآية٥٨] كان أولئك الأنبياء ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا ﴾ لله تعالي ﴿ سُجَّداً وَبُكِيّ ﴾[مريم: من الآية٥٨] يبكون من خشية الله عز وجل .

لماذا يخشون الله عز وجل ؟ ومن أي شيء يخشونه ؟ وأي شيء يحذرون ويخافونه؟ ونحن نعلم أن الأنبيـاء معصومون من المعاصي والذنوب قبل النبوة وبعدها لأنه لو جاء رجل معروف بغير حسن سيرته وسلوكه قبـل النبوة وجاء يدعي النبوة لكان ماضيه السيئ أقرب شيء للطعن فيه في صدقه وفي نبوته فالله سـبحانه وتعـالي عصم الأنبياء من الذنوب والمعاصي قبل النبوة وبعدها ومع ذلك يصفهم بأنهم ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَـاتُ الـرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّ ﴾[مريم: من الآية٥٨] مع كونهم معصومين من الخطأ يخرون للأذقان سجدا ، ويبكون مـن خشية الله تبارك وتعالي .

بل اخبرنا الله سبحانه وتعالي أيضا أن الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، قال الله تبارك وتعالي عنهم ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل:٥٠]

حتى إن النبي عليه الصلاة والسلام وصف شدة خوف جبريل من ربه فقال عليه الصلاة والسلام مررت ليلة أسري بي على جبريل كالحلف البالي من خشية الله ، والحلف الشيء القديم يوضع تحت الشيء الجديد ليحفظ الجديد من الأرض ، الحلف شيء قديم يفرش على الأرض مباشرة فيحفظ الشيء القديم الذي فوقه من البلى ، ومعني القديم إنه ضعيف جدا ، الحلف البالي القديم ضعيف ، فجبريل يراه النبي عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج كالحلف البالي من خشية الله فإذا كان هذا خوف الملائكة والنبيين من رب العالمين وهم لا يعصون الله ما أمرهم فكيف يكون خوفن نحن المسرفين على أنفسنا في المعاصي والذنوب .

كما روى عن بعض السلف أنه خلا بنفسه ذات يوم ثم تذكر مقام ربه ثم قال السنة ثلاث مائة وستون يوما ، في كل يوم أربع وعشرون ساعة ، في كل ساعة ذنب فكم ذنب في السنة ، وكم ذنب ارتكبته في ستين سنة عشتها ثم خر مغشيا عليه فمات رحمه الله .

فالواجب علينا أن ننمي في قلوبنا الخوف من الله عز وجل لأن الله سبحانه وتعالي خوفنا قال عن أهل النار ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ [الزمر:١٦]

فالخوف سوط يسوق به الله به عباده إلي طاعته ، فيجب عليك أن تقوي في قلبك وتنمي في قلبك خشية الله والخوف من الله حتى يحول الخوف من الله بينك وبين معصية الله عز وجل .

﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّ ﴾[مريم: من الآية٥٨] هذا موضع من مواضع سجود التلاوة في القرآن الكريم ، وسجود التلاوة ليس واجبا لا في صلاة ولا في خارج الصلاة ، إذا مررت بآية سجدة في القرآن الكريم فأنت بالخيار إن شئت أن تسجد ، وإن شئت لن تسجد ، والدليل على ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام قرأت عليه آية سجدة وهي في آخر النجم فسجد وقرأت عليه مرة ثانية فلم يسجد وخطب عليه الصلاة والسلام ذات يوم في الجمعة فمر بآية سجدة فنزل فسجد ، وفي الجمعة التي بعدها قرأ نفس الآية فلم ينزل ولم يسجد ، وقد قال عمر إن الله لم يكتب علينا السجود التلاوة إلا أن نشاء ، فسجود التلاوة تطوع مستحب وليس واجبا فإذا مررت بآية سجدة وأنت بالصلاة أو خارج الصلاة فإما أن تسجد وإما ألا تسجد ، وإذا سجدت فالدعاء المستحب في سجود التلاوة تقول [سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين ، اللهم اكتب لي بها أجرا وحط عني بها وزرا واجعلها لي عندك زخرا ، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود] فإن حفظت هذا الدعاء فإتيانك به خير لك وإن لم تحفظه فسبح بحمد ربك قول سبحان ربي الأعلى ثلاثا وهذا أدناه ثم ارفع رأسك ، فإما إذا أردت ألا تسجد فليس هناك بديل عن السجدة ، بعض الناس يقولون إذا لم تسجد فقل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر يغنيك عن السجدة لا هذا الذكر لا يدل على مشروعيته دليل فإما أن تسجد وإما أن تمضي مرور الكرام ولا تسجد ولا شيء عليك .

كان هذا حال السلف من النبيين وعباد الله الصالحين كانوا ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّ ﴾[مريم: من الآية٥٨]

فكيف صار حال الخلف قال الله تعالي ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ ﴾ [مريم:٥٩] والصلاة هي عمود الدين كما قال النبي عليه الصلاة والسلام رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وزروة سنامه الجهاد وهي أول ما فرض من العبادات ، فرضها الله تبارك وتعالي بنفسه على نبيه ليلة المعراج مخاطبة منه لرسوله بلا

واسطة وهي أول ما يحاسب عليه العبد من عمله يوم القيامة ، أمر الله تبارك وتعالي بالمحافظة عليها صــراحة في كتابه فقال ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [البقرة:٢٣٨]

ومدح سبحانه وتعالي الذين هم على صلواتهم يحافظون ووعدهم أعلى درجات الجنة الفردوس فقــال تعــالي ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون:٩]

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ [المؤمنون:١٠]

﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون:١١]

وكما أمر الله سبحانه وتعالي بالمحافظة على الصلاة ، ومدح المحافظين عليها فقد نهى وحذر مــن إضــاعة الصلاة وذم مضيعيها فقال هنا ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَــيّاً ﴾ [مريم:٥٩]

وللمفسرين في تفسير الغي أقوال ، قالوا الغي هو الشر وقالوا الغي : هو الخسران ، وقيل الغــي : واد فــي جهنم تستغيث جهنم بالله من شدة حره فكيف بساكنه والعياذ بالله .

والمراد بإضاعة الصلاة هنا ليس تركها بالكلية ولكن التهاون بها وإخراجها عن وقتها أحيانا بمعني أن يصلي الفجر بعج طلوع الشمس ، وأن يصلي الظهر بعد العصر ، أن يصلي العصر بعد المغرب ، وأن يجمع الصلوات كلها في يوم من الأيام حسب أعماله وأشغاله ، يدلك على ذلك قوله تعالي ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ [الماعون:٤]

﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون:٥]

فهم يصلون لا يتركون الصلاة أبدا ، ولكن يسهون عن الصلاة أحيانا ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَــلاتِهِمْ سَــاهُونَ ﴾ [الماعون:٥]

فلو كانوا تاركيها بالكلية ما سماهم مصلين إنما قال ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ [الماعون:٤]

﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون:٥]

هم يصلون ولكن يسهون عن الصلاة أحيانا ، والويل أيضا قيل في واد في جهنم تستغيث جهنم بالله من شــدة حره فكيف بساكنه .

أما الذين إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ، والذين لا يسجدون أبدا وهم قادرون على السجود فأولئك مــأواهم سقر ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴾ [المدثر:٢٧]

﴿لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ ﴾ [المدثر:٢٨]

﴿لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴾ [المدثر:٢٩]

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر:٣٠]

قال تعالي : ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر:٣٨]

﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ [المدثر:٣٩]

﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [المدثر:٤٠]

﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [المدثر:٤١]

أهل الجنة لما أخذوا منازلهم في الجنة واتكأوا على أسرتهم أقبل بعضهم على بعض يتساءلون عن أهل النار المجرمين لماذا دخلوا النار ؟ قالوا اسألوهم ، فاطلعوا فسألوهم ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾ [المدثر:٤٢]

﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾ [المدثر:٤٣]

فالله الله عباد الله ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [البقرة:٢٣٨]

واسجدوا لله تبارك وتعالي وأنتم قادرون مستطيعون قبل أن تؤمروا بالسجود فتريدون السجود فيحال بينكم وبين ما تريدون ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [القلم:٤٢]

﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾ [القلم:٤٣]

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ ﴾[مريم: من الآية٥٩]ما الذي جعلهم يضيعون الصلوات ؟ اتباع الشهوات ﴿أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ﴾[مريم: من الآية٥٩] والشهوات فسرها الله تبارك وتعالي في آل عمران في قوله ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾ [آل عمران:١٤] لوكان لابن آدم وادى من ذهب لتمنى أن يكون له ثاني ولو كان له اثنان لتمني أن يكون له الثالث ، فالناس حرصوا على شهوات الدنيا ، حرصوا على جمع المال ، ولم يبالوا من حلال أم من حرام وانشغلوا بطلب الرزق وجمع المال عن الصلاة ، تسأل أحدهم يا فلان لماذا لا نراك في المسجد يقول والله أخرج مبكرا وأعود متأخرا ، هذا لا يبيح لك أن تترك الصلاة ، كيف تنشغل بشيء ضمنه الله تبارك وتعالي لك وتكفل به لك عن فريضة هي أعظم فريضة فرضها الله تبارك وتعالي عليك .

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً ﴾ [مريم:٥٩]

ولما كان الله تبارك وتعالي بالناس رؤفا رحيما هو سبحانه وتعالي يفتح باب التوبة أمام الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، يفتح لهم باب التوبة لعلهم يتوبون ويحافظون على الصلاة ويستغفرون الله تعالي لما سلف فيغفر الله لهم .

يقول ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾[مريم: من الآية٦٠]

الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وماتوا على ذلك فسوف يلقون غية ، أما ﴿ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً ﴾[مريم: من الآية٦٠]

يصف الله تبارك وتعالي هذه الجنة التي وعد بها التائبين بأنها جنات عدن أي جنات إقامة وجنات خلد ﴿ لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾[الكهف: من الآية١٠٨] ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾[الحجر: من الآية٤٨] كما سبق أن ذكرنا مرارا أنه بعد أن يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ينادى يا أهل الجنة خلود بلا موت ، ويا اهل النار خلود بلا موت .

جنات عدن : أي جنات إقامة ﴿لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلَ ﴾[الكهف: من الآية١٠٨] ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾[الحجر: من الآية٤٨] ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ﴾[مريم: من الآية٦١] الله سبحانه وتعالي أرسل إلينا رسلا دعونا إلي الأيمان بالله ووعدوا عن الله عز وجل إذا آمنا بهم واتبعناهم أن يدخلنا الله تبارك وتعالي جنات عالية فيها من النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّ ﴾ [مريم:٦١]

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾[آل عمران: من الآية٩]ولذلك حكى الله تبارك وتعالي عن أهل الجنة أنهم لما دخلوها حمدوه سبحانه على صدق وعده فقال عز وجل ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾[الزمر:٧٣]

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [الزمر:٧٤]

فالله تبارك وتعالي أرسل رسله بالهدى ودين الحق يدعون الناس إلي توحيده وإفراده بالعبادة ووعد من استجاب أن يدخله جنات عالية فيها من النعيم ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، والله يقول عن هذا الوعد ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّ ﴾[مريم: من الآية٦١]ثم يصف شيئا من نعيم الجنة فيقول ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْو ﴾[مريم: من الآية٦٢] لقد كان المؤمنون في الدنيا يكرهون اللغو وينزهون أنفسهم عنه ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [القصص:٥٥]

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَام ﴾[الفرقان: من الآية٧٢]

المسلم طيب لا يقول إلا طيب ولا يحب أن يسمع إلا الطيب ، فإذا سمع الخبيث من الكلام أعرض عنه وبنفسه عنه فلما عرف الله منهم كراهيتهم للغو والرفث والخنا والزور أكرمهم في الجنة فنزه أسماعهم عن كل ما كانوا يكرهون سماعه في الدنيا فقال ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلام ﴾[مريم: من الآية٦٢] كل ما يسمعون في الجنة سلاما سلامة ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ ﴾[الأحزاب: من الآية٤٤] ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ ﴾[ابراهيم: من الآية٢٣] والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد:٢٤]

﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّ ﴾ [مريم:٦٢]

يعني يأتيهم الرزق في الجنة في كل يوم مرتين أول النهار ، وأخر النهار ﴿بُكْرَةً وَعَشِيّ ﴾[مريم: من الآية٦٢] فطور وعشا ، وليس عند ربنا شمس ولا قمر ، وليس عند ربنا ليل ولا نهار فكيف ستعرف الأوقات ؟ هذا شيء يكون بالتقدير والتخمين ، خدام أهل الجنة يقدرون الوقت وكلما حان وقت الفطور أتوهم به ، وكلما حان وقت العشاء أتوهم به .

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[البقرة: من الآية٢٥]

﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّ ﴾ [مريم:٦٢]

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ ﴾[مريم: من الآية٦٣] التي وصف الله تعالي بعض نعيمها ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ ﴾[مريم: من الآية٦٣] من يستحقها ، ومن يرثها ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيّ ﴾ [مريم:٦٣]

فالجنة لا يدخلها إلا تقي ، قد صرح ربنا سبحانه وتعالي في ذلك أو بذلك في أكثر من آية ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٣]

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيّ ﴾ [مريم:٦٣]

فلا يدخل الجنة إلا تقي ، وجماع التقوى فعل الواجبات وترك المحرمات ، وقد تزداد التقوى في القلب حتى يفعل التقي المستحبات مع الواجبات ويترك المكروهات مع المحرمات ، والله تبارك وتعالي جمع خصال التقوى كلها في آية جامعة من سورة البقرة فقال عز وجل في تعريف المتقين من هم ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٧٧]

فالمتقون أهل الجنة الذين وعدهم الله تعالي بالجنة هم أصحاب العقيدة الصالحة السليمة من شوائب الشرك ، وأصحاب العمل الصالح السليم من شوائب البدعة .

قال تعالي :﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾[البقرة: من الآية١٧٧] وهذه هي العقيدة ، ثم ذكر صالح العمل ، ثم شهد لمن جمع صالح العقيدة وصالح العمل بالصدق والتقوى فقال ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾[البقرة: من الآية١٧٧] .

اللهم آت نفوسنا تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها ، هذا والحمد لله رب العالمين ، وصلي الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سؤال :

كما تعلمون فضيلة الشيخ أن المنكرات أصبحت في كل مكان في البيت وفي الشارع وفي العمل ، فهل إذا اكتفى الإنسان بإنكار المنكر بقلبه مع القدرة على الإنكار باللسان يجزئه ذلك ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

الحمد لله وسع الله تبارك وتعالي علينا في مراتب تغير المنكر فقال النبي عليه الصلاة والسلام من رأى منكم منكرا فاليغيره بيده وقد نبهنا قبل ذلك أن التغيير باليد يكون لكل ذي ولاية في ولايته ، ولكل ذي سلطان في سلطانه ، الرجل في بيته ، المعلم في مدرسته ، المدير في إدارته ، وهكذا كل ذي سلطان يكون التغير باليد، فمن لم يستطع فابلسانه ، فمن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان ، نقول وأنت تسير في الشارع مع كثرة المنكرات لو أنك تتبعت المنكرات بالتغيير باللسان واستوقفت كل من يفعل منكرا في الشارع لتنكر عليه باللسان أنت لم تغدوا ولن تروح ولن تقضي مصالحك ، فحسبك أن تنكر بقلبك وأن تشهد الله من قلبك أنك منكر لهذا المنكر ولا ترضى ، لكن لو أنك في عملك مثلا وبين زملائك وقال أحدهم كلمة اخطأ فيها ، كلمة تخالف العقيدة أو فعل فعلا محرما فلا مانع أن تقول له بالحكمة والموعظة الحسنة يا فلان الله يجزيك الخير الله يصلح لنا حالك قلت كذا وقد سمعت العلماء جزاهم الله خير أن هذا لا يجوز ، فعلت هكذا وقد سمعت العلماء يقولون أن هذا لا يجوز جزاك الله خير ربنا يهدينا وإياك ، لا مانع من ذلك ، اللهم إلا أن يغلب عليه أن الطرف المقابل لن يقبل النصيحة يعني يغلب عليه من الخبرة والمعرفة أنه لن يقبل النصيحة فهناك متسع له في قوله تعالي ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ [الأعلى:٩]

فما دام لا يرجوا منفعة فلينكر بقلبه والله حسيبه .

سؤال :

هل يشترط لسجود التلاوة الطهارة واستقبال القبلة ، وإذا لم يسجد القارئ هل يسجد المستمع أم لابد من سجود القارئ ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

سجود التلاوة ليس صلاة لأن جزء الصلاة لا يسمى صلاة ، هذه سجدة هي جزء من الصلاة لكن لا تسمى صلاة .

الصلاة اصطلاحا عند الفقهاء : لا يطلق لفظ الصلاة على أقل من ركعة ، ركعة الوتر ، هذا أقل ما يطلق عليه لفظ الصلاة من أول الله أكبر والقراءة والركوع والرفع منه والسجدتين وما يقال بينهما والتشهد هذا ركعة فهذا ما يسمى صلاة ، جزء الصلاة لا يسمى صلاة ، جزء الصلاة خارج الصلاة لا يسمي صلاة فسجدة التلاوة ليست صلاة فلذلك لا يشترط لها ما يشترط للصلاة من الطهارة واستقبال القبلة ونحو ذلك ، إنما تجزأ بطهارة وبغير طهارة وإلي القبلة وإلي غير القبلة .

أما إذا كان في مجلس يقرأ فيه القرآن يقرأ القارئ والآخرون يستمعون فالقارئ هو الإمام ، القارئ هو إمام الجالسين فإذا سجد القارئ سجد الجالسون ، وإذا لم يسجد القارئ لم يسجد الجالسون .

سؤال :

أن الشيخ ذكر أن الرسل معصومون قبل البعثة وبعد البعثة وهنا أيضا يرد بعض الآيات التي قد يفهم منها خلاف هذا وهي قول الله عز وجل لنبيه ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾[محمد: من الآية١٩] فأثبت له شيء من هذا ، وأيضا قصة موسى عليه السلام حينما قتل القبطي هذا القضية ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

أما قتل موسى للقبطي فمعلوم أنه كان قتله خطأ ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾[القصص: من الآية١٥] ومع ذلك عدها موسى عليه السلام ذنبا واستغفر منه قال ربي إني ظلمت نفسى فاغفر لي فغفر له إنه غفور رحيم .

وأما قول الله تعالي ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾[محمد: من الآية١٩] فلا يستلزم أن يكون الذنب معصية من المعاصي ، وإنما على حد ما يقال وحسنات الأبرار سيئات المقربين فعلى قدر منزلة العبد عند ربه عز وجل يرى أن ما يباح لغيره لا يباح له ، ويرى أن فعل غيره وإن كان مباحا ليس مباحا في حقه فهذا معني ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾[محمد: من الآية١٩] وإلا فمعلوم أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يرتكب من الذنوب التي نعرفها نحن من الذنوب ونعدها من الذنوب شيئا أبدا ، لكن قبل النبوة ولا بعدها ، والله اعلم .

سؤال :

للمبتدئ أفضل تفسير الجلالين أو تفسير بن كثير ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

لا ننصح بتفسير الجلالين وإنما ننصح بتفسير أيسر التفاسير للشيخ حفظه الله ، أو تفسير السعدي رحمة الله عليه ، أو كلمات القرآن للشيخ محمد لمن أراد أن يعرف المفردات فقط ، أما تفسير الجلالين ففيه أخطاء عقائدية نخشى من المبتدئ إذا نظر فيها لا يعرفها ويعتقدها والشيء إذا تمكن من القلب صعب إخراجه .

سؤال :

لو سمحت يا شيخ على حديث من غشنا فليس من ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

تعرف حديث النبي عليه الصلاة والسلام من غشنا فليس منا ، وهي غشت في مادة في الامتحان ماذا تفعل تتوب إلي الله تعالي وتستغفره ولا تعد إلي هذا الذنب أبدا ، وبهذه المناسبة ونحن على أبواب الامتحانات وربما بدأت الامتحانات في بعض المدارس والجامعات ننصح أبنائنا الطلاب والطالبات أن يهتموا بدراستهم ومذاكراتهم ، وأن يعتمدوا على الله عز وجل ثم على جهودهم الشخصية ، وأن ينأوا بأنفسهم عن الغش في الامتحان ، فالغش في الامتحان هذا خيانة وكذب وتدليس وتزوير ، ثم بعد ذلك يحصل على شهادة مزورة وهو ليس لها أهلا ويعمل بعمل بشهادة مزورة وهو ليس لها أهلا ، وترتب عليه كما أفتى بعض المشايخ حفظهم الله أنه يكون المرتب الذي يتقاضاه من العمل حراما فننصح الطلاب والطالبات وهم في البداية أن ينأوا بأنفسهم عن مسألة الغش في الامتحان حتى لو طلب من الطالب المجتهد أن يغشش الآخرين يجب عليه أن يمتنع يقول لا أغش أحدا [من غشنا فليس منا] .

سؤال :

هذا السؤال متعلق في الآية الكريمة مريم رضي الله عنها لما قالت ﴿ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّ ﴾[مريم: من الآية١٨] ألا يمكن يعني حمل جملة ﴿ إِنْ كُنْتَ تَقِيّ ﴾[مريم: من الآية١٨] على معني النفي بمعني ما كنت تقيا ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

نقول لم اقرأ هذا الاحتمال لأحد من المفسرين ، لكن الكلام على أحسن وجوهه هو ما ذكرت أنها لجئت إلي الله عز وجل واستعاذت به أولا لأنه ل ملجأ لها ولا منجأ في هذه الحالة ولا في غيرها إلا الله سبحانه وتعالي ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ ﴾[مريم: من الآية١٨] ثم لما التجأت إلي الله واعتصمت به أرادت أن تذكره هو بما يحول بينه وبين الحرام فقالت ﴿ إِنْ كُنْتَ تَقِيّ ﴾[مريم: من الآية١٨] يعني إن كنت من المتقين فارجع عما جئت له ولا تمسني بسوء فإن هذا لا يحل لك ، والتقي إذا ذكر بالله تذكر كما قال تعالي ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠١]

سؤال :

نحن في مسجد ونقرأ سويا من كتاب تفسير صفوة التفاسير هل الكتاب لأن فيه بعض الأخطاء العقدية فياريت يا شيخ توضح لنا بعضها على أساس أننا نتخذ موقف أو نوضح للناس إن شاء الله تعالي ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

بالنسبة لكتاب صفوة التفاسير فمشايخنا وعلمائنا حفظهم الله ردوا على الشيخ حفظه الله في مسائل عقدية كثيرة واردها في الكتاب تختص بالعقيدة والتأويل منها مثلا في قوله تعالي في سورة الفجر ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾[الفجر: من الآية٢٢] بأن يقال مثلا وجاء أمر ربك ، ويد الله توصف اليد على أنها القدرة وهذا تعطيل لصفات الله عز وجل ، إنما أهل السنة ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾[الفجر: من الآية٢٢] يجيء ربنا سبحانه وتعالي كيفما شاء ويأتي كيف يشاء ، كما ينزل في السماء الدنيا في ثلث الأخير من الليل كيف يشاء سبحانه وتعالي ، ويد الله ، يد الله نقول لله تعالي يد لا كأيدينا كما قال السلف الصالح رضوان الله عليهم فهذه الأمثلة من المسائل التي أخذها العلماء حفظهم الله على هذا الكتاب .

سؤال :

ذكرت قصة سيدنا موسى قلت إن الرسول عليه الصلاة والسلام سئل جبريل أي حضرتك ممكن تعيدوها علينا بعد إذنكم ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

قلنا أن الرجل الصالح في مدين وأقول الرجل الصالح ولا أقول شعيب لأن بعض الناس يعتقد أن الذي زوج موسى ابنته هو شعيب النبي ، ليس شعيب النبي ، الرجل الصالح في مدين لما عرض على موسى أن يزوجه ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ﴾ [أي تعمل عندي أجيرا ﴿ ثَمَانِيَ حِجَجٍ ﴾ [ثمان سنين ده مهرك] فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً [إن جعلت الثمانية عشرة ، زودت اثنين من عندك﴿ فَمِنْ عِنْدِكَ ﴾[فهذا فضل منك] [القصص: من الآية٢٧] ربن قال ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ ﴾[القصص: من الآية٢٩] أي الأجلين ؟ ما يرشد عن الثمانية ولا العشرة ففسر النبي عليه الصلاة والسلام بالآية المبهمة هنا المجملة قال سئلت جبريل أي الأجلين قضى موسى يعني الثمانية ولا العشرة ؟ قال قضى أبرهما وأوفاهما يعني قضى عشر سنين ، زاد لصهره سنتين زيادة عما طلب منه وهذا من مكارم الأخلاق .

سؤال :

ما المقصود بالدليل في المرة الماضية عندما أجبنا عن سؤال من الذي نادى مريم من تحتها أجبنا من غير دليل هل تقصد الدليل آية من القرآن وإذا كان الأمر كذلك ما هي الآية ، وهل عندما يطلب منا في الاختبار دليل تكون الأدلة كلها من القرآن الكريم وضحه جزاك الله خير أ ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

قلنا لما شرحنا الآيات وفسرناها أن أرجح أقوال العلماء في أن الذي نادى مريم هو عيسى عليه السلام لماذا رجحنا هذا القول وقلنا أن الذي ناداها عيسى وليس جبريل ، قلنا لأن جبريل لم يرد له ذكر في هذا الخروج الثاني ، ورد ذكر جبريل في الخروج الأول ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّ ﴾ [مريم:١٦]

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّ ﴾ [مريم:١٧]

ولم يرد ذكره في الخروج الثاني ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّ ﴾ [مريم:٢٢]

ليس لجبريل ذكر في الخروج الثاني .

ثانيا كل الضمائر الموجودة في هذا السياق تعود على عيسى عليه السلام ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّ ﴾[مريم: من الآية١٩]

﴿وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّ ﴾[مريم: من الآية٢١]

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ ﴾[مريم: من الآية٢٢]

﴿فَنَادَاهَا ﴾[مريم: من الآية٢٤]

فكل هذه الضمائر تعود على عيسى عليه السلام ، فهذه هي الأدلة التي رجحنا بها أن المنادي هو عيسى بن مريم عليه السلام .

فليس بلازم أن يكون الدليل آية أو حديث .

سؤال :

هل يكفي المذاكرة للاختبار من كتاب اختصار تفسير بن كثير، أم يلزمنا المذاكرة مما كتبناه معك بارك الله فيك ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

لاشك أننا قلنا أنه من اختصر عن بن كثير فيحصل على درجة النجاح إن شاء الله تعالي ، لكن الذي يأتي بما قلناه ويأتي بما ذكرناه في الدروس لاشك أن هذا درجته ستكون أعلى من درجة من لم يأتي بها ، ولذلك .. طلاب والطالبات أن يعنوا بالدروس المفرغة على الموقع .

سؤال :

هل المقصود بالخرور بالسجود على الركبتين ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

﴿ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّ ﴾[مريم: من الآية٥٨] يعني نزلوا سجدوا لله تعالي .

وصلى اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

من أول قوله " ومانتنزل إلا بأمر ربك"

إنَّ الحمدَ لله، نحمدهُ، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يهده اللهُ فلا مضلَّ له، ومَنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهد أنَّ لا إله إلا الله، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، اللهم صلِّ وسلِّمْ وباركْ عليه ، وعلى آلهِ وصحبِه، ومَنْ تبعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، أمَّا بعدُ:

فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهدي هدي محمدٍ ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعة ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النارِ.

ثم مرحبا بكم في هذا اللقاء الجديد من دروس تفسير سورة مريم وقبل أن نبدأ في حديثنا نطرح عليكم الأسئلة الثلاث في الحلقة السابقة.

السؤال الأول قال الله تعالى ﴿ وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً ﴾ [مريم: ٥١].

بين القراءات الثابتة في قوله تعالى ﴿ مُخْلَصاً ﴾. ووجه المعاني على كل قراءة.

السؤال الثاني ماذا تعلمت من قول الله تعالى في حق إسماعيل عليه السلام ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِياً (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ ﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥].

السؤال الثالث ما حكم سجود التلاوة.

أما الآيات المباركات التي معنا اليوم من سورة مريم فقد تضمنت من المعاني ما يلي:

أولاً: سبب نزول قوله تعالى ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ [مريم: ٦٤].

ثانيًا: استحباب مجالسة الصالحين ومحبتهم وزيارتهم وطلب الزيارة منهم.

ثالثًا: الحث على الصبر على العبادة.

رابعًا: دلائل إمكان البعث.

خامسًا: ورود النار معناه دخولها.

سادسًا: سعة الرزق لا تستلزم الهداية.

سابعًا: وجود الاعتدال بوحدة مصير المكذبين.

وأخيرا الهداية تزيد وتنقص. وهذا بإيجاز عرض سريع بأهم ما تضمنته الآيات المباركات من سورة مريم من المعاني والتي نعيش في رحابها ساعتنا هذه إن شاء الله تعالى فلنستمع إلى هذه الآيات المباركات أولا قبل الخوض في تفاصيلها سائلين الله عز وجل أن ينجز لنا ما وعده حيث قال ﴿ وَإِذَا قُرِئَ القُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

(﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِياً (٦٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِياً (٦٥) وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَياً (٦٦) أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِياً (٦٨) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِياً (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِياً (٧٠) وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِياً (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِياً (٧٢) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِياً (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً (٧٤) قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَداً حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا العَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضْعَفُ جُنداً (٧٥) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَداً (٧٦ ﴾ [مريم: ٦٤– ٧٦].)

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

يقول الله تبارك وتعالى ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾. جاء في الصحيح في سبب نزول هذه الآية أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لجبريل عليه السلام (يا جبريل ما منعكم أن تزورنا أكثر مما تزورن) جبريل هو معلم النبي صلى الله عليه وسلم الوحي كما قال تعالى ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴾ [النجم: ٥، ٦]. والنبي صلى الله عليه وسلم أحب جبريل وتعلق به وكان إذا تأخر عنه اشتاق إليه فهو عليه الصلاة والسلام يقول لجبريل أنت تتأخر علي وأنا أشتاق إليك لماذا لا تكثر من زيارتك لنا لماذا تتنزل علي كثير يا جبريل ما منعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا فنزل جبريل عليه بهذه الآية ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾. يعني أن نزول جبريل عليه السلام من السماء على النبي صلى الله عليه وسلم بالوحي ليس له في أية إرادة ولا أية مشيئة وإنما جبريل عبد الله ينفذ أوامر الله تبارك وتعالى متى يأذن الله له في النزول ينزل ومتى يمنعه يمتنع وقد دلت هذه الآية على استحباب مجالسة الصالحين ومحبتهم وزيارتهم وطلب الزيارة منهم قد دلت هذه الآية على استحباب مجالسة الصالحين ومحبتهم وزيارتهم وطلب الزيارة منهم أن تدين لله تبارك وتعالى بحب الصالحين وأن تكثر من مجالستهم ومخالطتهم وأن تزورهم في بيوتهم وأن تدعوهم لزيارتك في بيتك وقد رغب النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك كله حيث قال (مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريح طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا كريهة) وكان صلى الله عليه وسلم يحث على التزاور في الله والمخالطة لله عز وجل والبذل والعطاء لله وفي الله فكان صلى الله عليه وسلم يقول (من عاد مريضا أو زار أخا له في الله ناداه مناد أن طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزل) وقال صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى (وجبت محبتي للمتحابين في والمتباذلين في والمتجالسين في والمتزاورين في) وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أن رجل خرج من قريته إلى قرية أخرى لزيارة أخ له في الله فأرصد الله تعالى له تعالى له على مدرجته ملكا خرج رجل من قريته يزور أخا له في قرية أخرى فأرسل الله إليه ملك وقف له بالطريق فلما أتى عليه قال أين تريد قال أريد هذه القرية قال لما قال أزور أخا لي فيها لله قال هل بينك وبينه نسب أو بينك وبينه معاملة أو بينك وبينه علاقات تجارية أو دنيوية لماذا خرجت من قريتك لزيارة هذا الرجل في القرية الأخرى تسافر ما الدافع لهذه الزيارة وما الحامل لك عليها قال لا شيء غير أني أحببته في الله فقال الملك فإني رسول الله إليك أخبرك أن الله قد أحبك بحبك لأخيك أو غفر الله لك بزيارتك لأخيك فيجب علينا أن نقدر هذه الأعمال الصالحة حق قدرها مجالسة الصالحين محبة الصالحين مخالطة الصالحين زيارة الصالحين طلب الزيارة من الصالحين زيارة الإخوان في الله فإن هذا التزاور أصبح شبه مفقود هذا الزمان التزاور في الله انشغل الناس بأعمالهم وبدنياهم فلم يعودوا يتزاورون إلا للمصالح إذا كان

له عندك حاجة أتاك وأنت إذا كنت لك عنده حاجة ذهبت إليه إذا انقضت الحاجات لا تزورهم ولا يزورك أما أن يخرج إنسان من بيته لزيارة أخ له في الله لا لشيء إلا ابتغاء وجه الله فهذه الزيارة صارت شبه معدومة فينبغي لنا أن نحي هذا التزاور أن نحي هذا العمل الصالح وأن ننشره فيما بينا أن نتجالس لله وأن نتعاطى لله وأن نتزاور في الله وأن نتحب في الله فإن الله تعالى يقول (وجبت محبتي للمتحابين في للمتجالسين في للمتزاورين في للمتبادلين في) نسأل الله تعلى أن يعيننا على ذلك وعلى صالح الأعمال كلها ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾. للمفسرين في هذه الآية قولان ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ القول الأول الله سبحانه وتعالى يعلم ما بين أيدينا من المستقبل ويعلم ما وراءنا من الماضي ويعلم ما بين ذلك من الحاضر الله سبحانه وتعالى أحاط علما بنا من كل ناحية ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ من المستقبل ﴿ وَمَا خَلْفَنَا ﴾ من الماضي ﴿ وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ من الحاضر كما قال تعالى ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ [طه: ١١٠]. والقول الثاني ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ القول الثاني في تفسير هذه الآية أن لله تبارك وتعالى ملك السماوات والأرض وما بينهما لأن الله تبارك وتعالى قال في آية أخرى ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ [سبأ: ٩]. فقوله تعالى ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ أي لله ملك السماوات والأرض وما بينهما كما قال تعالى ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦) ﴾ [طه: ٥، ٦]. وكما قال تعالى ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [الشورى: ٤٨]. فإذا كان هذا ملكه فأين ملك غيره إذا كان الله سبحانه وتعالى ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾ فأين ملك غيره فالحقيقة أن الملك كله لله الواحد القهار وما نتملك نحن من ممتلكات إنما نتملكه على وجه العارية لأنه في الأصل ملك لله تبارك وتعالى والله سبحاته وتعالى تفضل علينا وملكناه ثم يوم القيامة يرد كل إلى الله عز وجل كما قال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [مريم: ٤٠]. وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ واعلم يا رسول الله أنني إذا تأخرت عنك في النزول فليس هذا عن نسيان من الله لك ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِياً ﴾ فإذا تأخرت عنك ولم آتك فليس هذا عن نسان من الله عز وجل ﴿ وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) ﴾ [الضحى: ١-٣]. ولكن الله تعالى يفعل ما يشاء لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ولا غالب لأمره ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِياً ﴾ فنفى الله تبارك وتعالى عن نفسه النسيان في حين أنه قال في آية أخرى ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة: ٦٧] وقال تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ﴾ [السجدة:١٢- ١٤] فنسب الله تبارك وتعالى النسيان إليهما ونفاه في الآية التي معنا ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِياً ﴾ ولإزالة هذا التعارض الظاهر بين الآيات نقول: النسيان المنفي عن الله تبارك وتعالى هو الذي ضد الذكر فالله تعالى لا ينسى شيئا ولا يغفل عن شيء وإنما ربنا سبحانه وتعالى قد أحاط بكل شيء علما وأما قوله تعالى ﴿ إِنَّا نَسِينَاكُمْ ﴾ النسيان هنا معناه الترك والترك مستلزم النسيان لأنك إذا نسيت شيئا تركته وأنت تجهز نفسك للسفر وتعد أوراقك تجمع منها ما تشاء ثم تنسى شيئا تفاجئ وأنت في الطريق وأنت تتفقد أوراق أن الورقة الفلانية قد نسيتها كيف نسيتها تركتها لما نسيتها تركتها فالله سبحانه تعالى يقول لأهل النار ﴿ إِنَّا نَسِينَاكُمْ ﴾ النسيان هنا ليس الذي ضد الذكر وإنما المراد به الطرد من رحمه الله عز وجل فلما طردتهم من رحمته صاروا كأنهم منسيون والله تبارك وتعالى لا ينسى النسيان الذي هو ضد الذكر ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِياً (٦٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ رب العالمين الذي ربى الخلائق بنعمه وتفضل عليهم بآلائه وإحسانه وكرمه ومنه وأعطاهم مما سألوه ومما لم يسألوه فالله سبحانه وتعالى ربى الجميع بنعمه وآلائه وفضله وإحسانه فيجب على الجميع أن يفرد الله تبارك وتعالى بالعبادة شكرا على ما أنعم به عليهم من النعم الظاهرة والباطنة لكونه رب العالمين فذلك يستلزم أن يكون إلها الذي يعبد دون غيره لأن الله الذي خلقنا ورزقنا وهو الذي يحيينا ويميتنا هو الذي يعطينا إذا سألناه ويجيبنا إذا

دعاه وهو الذي يكشف الضر عن المضطرين ولا يملك ذلك غيره كما قال تعالى ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الروم: ٤٠]. لا سبحانه وتعالى عما يشركون فإذا كان الله تبارك وتعالى هو الذي ربى العالمين بنعمه وآلائه وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة فيجب أن يعبدوه وحده لا يشركوا به شيئا كما قال تبارك وتعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]. أي نظراء وأشباه تعبدونهم كما تعبدون الله وأنتم تعلمون أن الله لا ند له ولا نظير ولا شبيه ولا مثيل سبحانه وتعالى ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ [مريم: ٦٥]. والعبادة هي الغاية من خلق الخالق كما قال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ (٥٨) ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨]. فالله تبارك وتعالى خلق الخلق لوظيفة واحدة وهي أن يعبدوه وحده لا يشركوا به شيئا والعبادة كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله العبادة ربنا يقول ﴿ فَاعْبُدْهُ ﴾ ما هي العبادة يقول شيخ الإسلام رحمه الله عليه "العبادة لفظ جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة) فالشهادتان والصلاة والصيام والزكاة والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصلة الأرحام والإحسان إلى الجيران وبر الوالدين كل هذا من الأعمال الظاهرة والإنابة والخشية والتوكل والرجاء والرهبة والمحبة والإخلاص واليقين والتوكل كل هذا من الأعمال الباطنة التي يحبها الله تبارك وتعالى فهذا معنى العبادة التي خلق الله الخلق من أجلها ﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ اصبر على عبادة الله سبحانه وتعالى فإن العبادة تكليف والتكليف لا يخلو من مشقة فاستعن على عبادة الله عز وجل بالصبر عليها ﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه: ١٣٢] إن الطريق طويل والتكاليف كثيرة وإذا لم يكن مع الإنسان زاد عظيم من الصبر نفذ صبره في بداية الطريق أو في وسط الطريق فرجع عنه وتخلى عنه كما هو الواقع المشاهد نسأل الله السلامة والعافية كثيرا ما تجد إنسانا دخل المسجد وتعلق به وسار من رواده وفجأة ينقطع عن المسجد والجماعة لماذا نفذ صبره وكثيرا ما ترى طالبا بدأ بحفظ القرآن الكريم وقطع فيه شوطا ثم يتوقف لماذا نفذ صبره بل كثير ما يخوض الطالب ميدان الجهاد جهاد الدعوة ويصعد المنابر ويعطي الدروس والمحاضرات وفجأة يغيب عن الساحة لماذا نفذ صبره فالصبر يجب أن يكون رفيقك في حياتك كلها إلى أن تلقى الله تبارك وتعالى على ما يحبه الله ويرضاه ولذلك فإن الله تبارك وتعالى حين كلف رسوله صلى الله عليه وسلم لأول مرة بالدعوة كلفه بالصبر ﴿ يَا أَيُّهَا المُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) ﴾ [المدثر: ١-٧]. أمره بالصبر مع أمره بالدعوة ليفيده ويعلمه من أول وهلة أن الطريق طويل وأن التكاليف شاقة وأنك ستبذل من وقتك ومن صحتك ومن مالك في سبيل الله ابتغاء مرضات الله فوطن نفسك على الصبر حتى تؤدي المهمة التي كلفك الله تبارك وتعالى بها فيا أيها السالك لا تستوحش من قلة السالكين وتزود من الصبر فإنه خير ما يعطاه الإنسان ومن يتصبر يصبره الله وما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر وكن كعابدة مكة كانت امرأة متعبدة في مكة إذا أصبحت تقول يا نفس اجتهدي فإن هذا اليوم قد يكون آخر الأيام فتقضي النهار كله في الطاعة والعبادة فإذا أمست قالت يا نفس اجتهدي فإن هذه الليلة قد تكون آخر الليالي فتقضي ليلها في العبادة وهكذا حتى أسلمت نفسها لفاطرها وبارئها وهي تسمع هذا النداء الحلو العذب ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠) ﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠]. ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٦]. ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِياً ﴾ هل تعلم لله سبحانه وتعالى سمي اسمه الله غير الله هل تعلم لله نظير هل تعلم لله شبيه هل تعلم لله مثل أو كفأ يستحق العبادة كما يستحقها الله سبحانه وتعالى كلا ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]. ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ (٤) ﴾ [الإخلاص] ثم ذكر الله تبارك وتعالى إنكار المنكرين للبعث ورد عليهم بذكر أدلة إمكان البعث وتوعدهم إن هم أصروا على هذا التكذيب بلقاء الله بنار حامية يصلونها يوم القيامة قال تعالى ﴿ويقول الإنسان أأذا ما مت لسوف أخرج حيا ﴾ [ ]. ﴿ ويقول الإنسان ﴾ المراد بالإنسان الكافر الذي ينكر البعث والقيام الذي ينكر الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى الذي يكذب بيوم الدين ﴿وإن تعجب فعجب قولهم ....هم فيها خالدون

﴾ [ ] الله تبارك وتعالى يقول منكرا على هذا الإنسان الذي يستبعد البعث بعد الموت ﴿ وَيَقُولُ الإِنسَانُ ﴾ متعجبا ومنكرا ومتسائلا سؤال الإنكار ﴿ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَياً ﴾ كيف يحيين الله تبارك وتعالى بعد ما أموت وأبلى وأفنى ويأكل الدود والأرض عضمي ولحمي كيف يعيدني الله تبارك وتعالى بشرا سويا بعد ما أصير ترابا ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ (١٧) ﴾ [الصافات: ١٦، ١٧]. ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ [ق: ٣]. وقد تجرأ أحد الكفرة فأتى النبي صلى الله عليه وسلم بقطعة عظم قديمة والعظم كلما قدم كلما بلي وضعف العظم حين ينسلخ من اللحم جديدا يكون قويا يابسا ليس من السهل أن تكسره وكلما مضت عليه الأيام كلما ضعف ورق فأتى كافر من الكفار من منكري البعث النبي صلى الله عليه وسلم ومعه قطعة عظم قديمة بالية ففتها في يده ثم ذرها في الهواء وقال يا محمد تزعم أن ربك يحيي هذا العظم بعد ما رم فقال صلى الله عليه وسلم (نعم ويبعثك ويدخلك جهنم) الله تعالى يقول منكرا على هذا الرجل الذي ينكر البعث بعد الموت ﴿ وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَياً ﴾. قال تعالى مبينا أدلة إمكان البعث ﴿أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ﴾ [ ]. العملية سهلة جدا ويسيرة لو تذكر الإنسان لكنه ناسا هو ناسا وإلا لو تذكر لعلم أن البعث أسهل على الله وأهون من النشأة الأولى ﴿ أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ أفلا يستدل بالنشأة الأولى على النشأة الثانية كما قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٢]. لقد علمتك كيف أنشأكم الله تبارك وتعالى أول مرة من تراب ثم من نطفة فلولا تذكرون فتعلمون أن الذيت أنشأكم أول مرة قادر على أن ينشأكم المرة الثانية ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧] أي العود أهون على الله من البدء وهذا مثل ضربه الله للناس لعلهم يعقلون وإلا فليس على الله شيء أهون وشيء هين وشيء صعب وشيء أصعب كلا ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]. لكنه مثل يضربه الله للناس لعلهم يعقلون ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ ﴿ وَهُوَ ﴾ أي العود ﴿ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾. فالذي أنشأ أول مرة لن يعجز أن يعيدك بعد موتك مرة ثانية وهذا دليل من أدلة إمكان البعث وفي خواتيم سورة ياسين نزلت بسبب ذلك الرجل الذي قال يا محمد أتزعم أن ربك يحيي هذا العظم بعد ما رم أنزل الله فيه قوله ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الخَلاَّقُ العَلِيمُ (٨١) ﴾ [يس: ٧٧- ٨١]. فأضاف الله تبارك وتعالى في آيات ياسين دليلا ثانيا من أدلة إمكان البعث الدليل في مريم وفي ياسين هو أن الله خلق الإنسان أول مرة فلن يعجز عن إعادة خلقه مرة ثانيا الدليل الذي زاد في ياسين يستدل به على إمكان البعث أن الله تبارك وتعالى خلق السماوات والأرض وهما أشد خلقا من الإنسان كما قال تعالى ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧]. فالله تبارك وتعالى خلق السماوات والأرض وما فيهما وهما أشد وأكبر وأعظم خلق من الإنسان فإذا قدر على الأكبر كيف يعجز عن الأصغر لا يعجز الله تبارك وتعالى بعد ما خلق السماوات والأرض أن يحيي الإنسان بعد موته حياة ثانية ولذلك قال تعالى ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ المَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: ٣٣]. وقال تعالى ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ ﴾. الجواب السماء فالله ﴿ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) ﴾ [النازعات: ٢٧-٣٠] فكيف يعجز من خلق السماوات والأرض أن يعيدكم بعد موتكم حياة ثانية فهذان دليلان هناك دليل ثالث يستدل به على إمكان البعث وهو أنك أيها الإنسان تموت وتحيا في اليوم الواحد مرة أو مرتين أنت تموت والله يبعثك في اليوم الواحد مرة أو مرتين كيف أنت تنام فتموت فتستيقظ فتبعث الله سبحانه وتعالى سمى النوم وفاة وسمى اليقظة بعد النوم بعثا فقال عز وجل ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ [الأنعام: ٦٠]. فسمى النوم أول الليل وفاة وسمى اليقظة آخر الليل بعثة ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أوى إلى فراشه وضع يمينه تحت خده ثم قال (بسمك اللهم أموت وأحي) وكان إذا استيقظ قال صلى الله عليه وسلم (الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور الحمد الله الذي رد علي روحي وعافاني في جسدي وأذن لي بذكره) فأنت تنام فتموت وتستيقظ فتبعث في اليوم الواحد مرة أو مرتين فكيف تستبعد على الله

عز وجل أن يحييك بعد الموت الكبرى فالنوم أخو الموت هكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم النوم أخو الموت فالله يتوفاك في النوم ثم يبعثك بعده وكذلك يميتك ثم يبعثك يوم القيامة إذا شاء سبحانه وتعالى دليل رابع على إمكان البعث هو أن الله سبحانه وتعالى يحيي الأرض الميتة بالماء ينزل عليها كما قال تعالى ﴿ مِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي المُوتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩]. فكما يحيي الله تبارك وتعالى الأرض الميتة بالماء ينزل عليها من السماء كذلك يحيي الله تبارك وتعالى الموتى يوم القيامة فهذه أربع براهين يستدل بها على أن الله يحيي الموتى ويبعث من القبور ﴿ وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَياً (٦٦) أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ ثم أقسم ربنا سبحانه وتعالى على البعث والحشر فقال ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ [ ]. والحشر معناه الجمع ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ [ ]. فأقسم الله تبارك وتعالى بربوبيته وأضافها إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم تكريما له وتشريفا ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ [ ]. فخبر الله صدق بغير يمين فكيف إذا أكده باليمين ومع ذلك أقسم ربنا على البعث وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقسم بربوبية ربه على البعث أيضا قال تعالى ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [يونس: ٥٣]. وقال تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ [سبأ: ٣]. وقال تعالى ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ [التغابن: ٧]. فأقسم الله تبارك وتعالى بربوبيته على أن البعث حق وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقسم بربه على أن البعث حق فمن كذب الله ورسوله بعد ذلك وكذب بالبعث فالنار أولى به من كذب الله ورسوله بعد هذا القسم المؤكد أن الله يبعث الموتى ويحييهم ويحاسبهم من كذب الله ورسوله بعد ذلك فالنار أولى به ولذلك قال تعالى ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً (١١) إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً (١٣) ﴾ [الفرقان: ١١-١٣]. فقيل لهم ﴿ لاَ تَدْعُوا اليَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً ﴾ [الفرقان: ١٤]. فيا أيها العاقل كن على يقين من أنك إلى الله راجع وبين يدي الله موقوف وأمام الله مسئول فأعد للسؤال جوابا فأعد للسؤال جوابا ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ﴾. نحشرهم والشياطين والشياطين الذين أضلوهم وأغووهم وجعلوهم يكذبون الله ورسوله وينكرون البعث بعد الموت ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِياً ﴾. أي على ركبهم كما قال تعالى ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ [الجاثية: ٢٨]. أي على ركبها ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا اليَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٨]. يحشرهم الله تبارك وتعالى جميعا الشياطين والكفرة حول جهنم جثيا على ركبهم ثم يأمر الله تبارك وتعالى زبانية النار فتتخطف من شياطين الإنس والجن أكابرهم الذين أضلوا غيرهم عن سواء السبيل ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِياً ﴾. ما من أمة ضالة إلا وفيها أكابر متبوعون وأصاغر تابعون فالله تبارك وتعالى يحشرهم جميعا يوم القيامة حول جهنم جثيا ثم يأمر زبانية النار أن تتخطف العتل الجوار المستكبر الأكابر والسادة الذين ضلوا وأضلوا الناس عن سواء السبيل ينزعونهم من أممهم ثم يلقونهم أولا في النار ثم يلحقون بهم الأصاغر التابعون الذين تبعوهم على الفساد والضلال والكفر بالله والعياذ بالله ولذلك قال تعالى ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً ﴾ [الأعراف: ٣٨]. حتى إذا لحق الأصاغر بالأكابر ﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ ﴾ [ ]. أي قال الأصاغر للأكابر ﴿ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨]. ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِياً (٦٨) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِياً (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِياً (٧٠) ﴾. والصلى معناه أنهم يدخلون النار فتغمرهم وتحيط بهم من جميع الجهات كما ينزل الإنسان في الماء ويغطس فيه ويغطيه الماء ويحيط به من جميع جهاته كذلك الكفرة الفجرة والعياذ بالله يصلونها أي يدخلون النار فتغمرهم وتحيط بهم من جميع الجهات ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر: ١٦]. ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف: ٤١]. ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ [الكهف: ٢٩]. ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ ﴾ [الأنبياء: ٣٩]. ولذلك قال تعالى ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ المَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧) ﴾ [إبراهيم: ١٥-١٧]. ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِياً ﴾. ثم قال تعالى ﴿ وَإِن

مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِياً ﴾. قال بعض المفسرين الواو في قوله تعالى ﴿ وَإِن مِّنكُمْ ﴾. الواو واو القسم والمعنى والله إن منكم إلا واردها والله ما منكم من أحد إلا واردها واستدلوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم (ما منكم من أحد يموت له ثلاثة من الولد فتمسه الله إلا تحلة القسم) قالوا تحلة القسم هو القسم في هذه الآية ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِياً ﴾ كان هذا الأمر قضاء مقضيا قد فرض منه فلابد أن يكون كما قضاه الله تبارك وتعالى وما معنى ورود النار ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ ما معنى ورود النار ورود النار معناه دخولها ورود النار معناه دخولها وورود النار غير ورود الماء الله تبارك وتعالى قال في سورة القصص حكاية عن موسى عليه السلام ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ [القصص: ٢٣]. ورود الماء شيء وورود النار شيء آخر وورود الماء معروف ورد فلان البئر انتهى إلى شفا البئر فأدلى دلوه واستقى الماء الذي يريد أن يستقي الماء من البئر لا يدخل في البئر ولا ينزل فيه وإنما يكون على شفاها فيدلي دلوه ويخرج الماء هذا ورود الماء لكن ورود النار ما جاء في القرآن الكريم إلا بمعنى الدخول من ذلك قوله تعالى عن فرعون وملأه ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ [هود: ٩٨]. الورود هنا معناه الدخول كما تقدم فرعون أمام ملأه في الدنيا فاقتحم بهم في البحر فتبعوه فأغرقوا أجمعون كذلك يوم القيامة يتقدمهم فيردهم النار يدخل هو أمامهم ويدخلون وراءه ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾. وقال تعالى لكفار قريش عبدة الأصنام والأوثان ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) ﴾ [الأنبياء: ٩٨، ٩٩]. فالورود هنا معناه الدخول ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾. يعني داخلون لو كان هؤلاء الحجارة والأصنام التي عبدتوها من دون الله لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها أي ما دخلوها وكل فيها خالدون فكل ورود للنار في القرآن فمعناه الدخول إذن فقوله تعالى هنا ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾. أي داخلها وفي السياق نفسه ما يدل على أن الدخول الورود معناه الدخول وهو قوله تعالى ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِياً ﴾. فالكل ورد البر والفاجر والمسلم والكافر والظالم والعادل الكل ورد ثم يقول تعالى ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾. فنخرجهم من النار ﴿ وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِياً ﴾. فكلهم كانوا فيها لكن الله ينجي المتقين ﴿ وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِياً ﴾ فالورود في الآية معناه الدخول ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِياً ﴾. لكن يردها الناس كلهم فتكون على المؤمنين بردا وسلاما كما كانت في الدنيا على إبراهيم الخليل بردا وسلام ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨]. جمعوا الحطب وأوقدوا النار وأججوها وقيدوا إبراهيم بالحبال وألقوه فيها صدر الأمر من الله تعالى ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩]. فعلى قدر صالح عمل الإنسان الوارد تكون سرعة خروجه من النار وعدم مس النار له وعدم إيذائها له وكلما كثرت ذنوب الإنسان والعياذ بالله كلما ذاق حر النار وأذاه لهيبها ومنهم من يكردس فيها فيعذب ثم يخرج بعد ذلك برحمة الله وشفاعة الشافعين أما الظالمون الكافرون فهم فيها خالدين أبدا وما هم منها بمخرجين ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِياً (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِياً ﴾. ذكر بعض السلف أن عالما مر على مجموعة من الشباب وهم يلهون ويلعبون فإذا فيهم شاب يضحك بملء فيه يقهقه فأتاه العالم وهمس في أذنه كلمة أسرها إليه قال هل أتاك من الله خبر أنك وارد النار العالم ماشي فوجد شباب يلعبون ويلهون وأحدهم يضحك بملء فيه يقهقه فأتاه ثم أسرها إليه هل أتاك خبر من الله أنك وارد النار فانتبه الشاب وقال نعم ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾. فقال العالم فهل أتاك خبر من الله أنك صادر أتاك الخبر أنك وارد فهل أتاك الخبر أنك صادر فقال لا فما رؤي الشاب بعدها ضاحكا أبدا فأنت أيها الإنسان كيف تلهو وتلعب وتضحك بملء فيك والنار أمامك ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ قسم من الله عز وجل لابد أن يتحقق ﴿ كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِياً ﴾ ولم يأتك الخبر بأنك من الناجين ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ فهل أنت منهم أم لا في علم الله عز وجل فإن كنت على يقين أنك وارد النار ولست على يقين من النجاة منها فلما اللهو ولما الضحك ولما اللعب ولما الغفلة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) ﴾ [الحشر: ١٨-٢٠]. نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِياً (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِياً (٧٢) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ

قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِياً (٧٣) ﴾ لقد ذكرنا في سورة الكهف في قصة صاحب الجنتين أن أهل الدنيا استدلوا بعطاء الله تبارك وتعالى على رضاه استدلوا بعطاء الله على رضاه وظنوا أن العطاء عنوان الرضا وأن الله سبحانه وتعالى وقد أعطاهم خير الدنيا فلابد أن يعطيهم خير الآخرة ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ ﴾. فرضا وجدلا ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً ﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦]. فأهل الدنيا ولاسيما الكفرة والفجرة يستدلون بسعة الدنيا يستدلون بكثرة الرزق يستدلون بكثرة الأموال يستدلون بما أوتوا من القوة أنهم أهدى سبيلا من المؤمنين لأنهم رأوهم على كفرهم وفسقهم في سعة من الرزق وبسطة من العيش وكثرة من المال والولد والجاه والسلطان الكلمة كلمتهم والرأي رأيهم ورأي المسلمين من الضعف والفقر والعجز بمكان فنسبوا ذلك إلى أنهم أهدى من المسلمين سبيلا ولو كان المسلمون على هدى لكان الله وسع عليهم فلما وسع الله على الكفرة وضيق على المسلمين استدل أهل الدنيا بذلك على من أهدى سبيلا من المؤمنين ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ [الأحقاف: ١١]. لو كان الذي جاء به محمد خيرا ما سبقنا إلى اتباعه هؤلاء الفقراء الضعفاء لو كان خيرا لكنا نحن أولى به وأحق لأن الله أعطانا خير الدنيا فنحن أيضا أحق بخير الدين والآخرة أما كوننا لم نتبع محمدا معناه أن هذا ليس خيرا لو كان خيرا ما سبقونا إليه قال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا ﴾ [الأنعام: ٥٣]. أهؤلاء الفقراء الضعفاء من الله عليهم بالهداية والإيمان من بيننا نحن أهدى سبيلا منهم لأننا أكثر أموالا وأولادا ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ﴾. بينات واضحات ظاهرات الدلالة ﴿ ﴾ [ ]. ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾. الأغنياء أصحاب الأموال والأولاد والجاه والكلمة والرأي للذين آمنوا من الفقراء والمساكين ﴿ أَيُّ الفَرِيقَيْنِ ﴾. نحن أم أنتم ﴿ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِياً ﴾ يا جماعة فرقوا انظروا إلينا وانظروا إليكم ﴿ أَيُّ الفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِياً ﴾. بيوتنا خيرا من بيوتكم منازلنا خيرا من منازلنا أساسنا في المنازل خيرا من أساسكم نوادينا أكثر واردا من نواديكم فكيف تزعمون أنكم أهدى منا من الأولى بالهدى نحن الأغنياء أم أنتم الفقراء ونسوا أن سنة الله تبارك وتعالى في اتباع الرسل أن يكونوا من الفقراء والضعفاء كما في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث إلى هرقل كتابا يدعوه فيه للإسلام قالوا ائتوني بمن بأرضنا من العرب فأتوه بأبي سفيان في نفر من العرب كانوا في قافلة تجارية بأرض الروم فقال هرقل لأبي سفيان إني سائلك عن هذا الذي يزعم فيكم أنه نبي فأجبني فسأله عدة أسئلة كان منها أفقراء الناس يتبعونه أم أغنياءهم فقال أبو سفيان بل فقراءهم فقال هرقل بعد أن انتهى من الأسئلة سألتك أفقراء الناس يتبعون أم أغنيائهم فقلت بل فقراءهم وهم أتابع الرسل فأهل الدنيا ظنوا أن الله ما دام قد أعطاهم الدنيا يبقى هذا لرضاه عنهم فكل خيرا في الدين فهم أولى به ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الفَرِيقَيْنِ ﴾. نحن أم أنتم ﴿ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِياً ﴾ قال الله تعالى ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً ﴾. أفلا يعتبرون أفلا يتعظون وكم سؤال للتكفير ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم ﴾ [ ]. قبل هؤلاء الكفار أهل الدنيا ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ القُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ﴾ [الإسراء: ١٧]. ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً ﴾ [ ]. يعني الكفرة الفجرة السابقون الذين عذبهم الله وأهلكهم وأبادهم كانوا أكثر أموالا وأكثر أولادا وأعز نفرا وأقوى جاها وقوى عدة وعتادا من الكفار المعاصرين ولذلك يقول تعالى ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي ﴾ [سبأ: ٤٥]. فكيف كان نكيري عليهم لما كذبوا رسلي أفلا يعتبر الكفار المعاصرون بما أصاب الكفار السابقين وأن يحذروا أن يأخذهم الله كما أخذ الذين من قبلهم ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي البِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) ﴾ [الفجر: ٦-١٣]. ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ [العنكبوت: ٤٠]. ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلائِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (٤٦) ﴾ [القمر: ٤٣- ٤٦]. ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِياً (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً (٧٤) ﴾. ثم يأمر الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يدعو

المشركين الضالين إلى المباهلة ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَداً ﴾. إذا أصريتم أنكم على الهدى ونحن على الضلالة تعالوا نأتي بنساءنا ونساءكم وأولادنا وأولادكم وأنفسنا وأنفسكم ونخرج في الصحراء نبتهل إلى الله ونتضرع إليه اللهم زد المهتدي هدى وزد الضال ضلالة ولم يجيبوه لأنهم يعلمون حقيقة أنهم هم الضالون ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَداً حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا العَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ ﴾. حتى إذا رأى هؤلاء الكافرون أهل الدنيا ما وعدهم الله به من العذاب في الدنيا من القتل والأسر والآفات السماوية التي يسلطها الله عليهم ونحو ذلك حتى إذا أتاهم العذاب في الدنيا أو وكل عنهم عذاب الدنيا فأتتهم الساعة ولابد أنهم معذبون يوم القيامة ﴿ حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا العَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ ﴾ [ ]. فعندها سيعلمون ﴿ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضْعَفُ جُند ﴾. محمد وصحبه أم هؤلاء الكفرة الضالون المشركون حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب في الدنيا وإما تأتيهم الساعة يوم القيامة عندنا سينكشف عنهم الغطاء ويرون الحقائق بأم أعينهم ﴿ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضْعَفُ جُنداً (٧٥) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾. ويزيد الله الذين اهتدوا واتبعوا رسوله صلى الله عليه وسلم على ما جاء به من عند الله لما اهتدوا بقول الدعوة لما اهتدوا بقبول الإيمان واتباع القرآن يزيد الله الذين اهتدوا هدى فالهداية تزيد وتنقص ولذلك أمرنا الله تبارك وتعالى أن نسأله في كل ركعة من ركعات الصلاة الزيادة من الهداية ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ ﴾. في كل ركعة تصليها تسأل الله الزيادة من الهداية قال بعض المفسرين في قوله تعالى في الفاتحة ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ ﴾ قالوا الذين يصلون مهتدون فمعنى سؤالهم الهداية الثبات على ما هداهم الله إليه اهدنا أي ثبتنا على ما هديتنا إليه وهذا قول مرجوح والراجح أن سؤال الهداية هو طلب الزيادة منها ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ ﴾ أي زدنا يا رب هدى لأن ما فات الإنسان من الهداية أضعاف أضعاف ما حصله ما حصلته من الهداية جزء يسير وفاتك منه أو منها الكثير والكثير فأنت بحاجة إلى مزيد الهداية فلذلك في ركعة تصليها تسأل ربك ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ ﴾ فالإيمان يزيد وينقص يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية هذه حقيقة قررها ربنا في القرآن الكريم في أكثر من آية ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَداً ﴾. وقد فسرنا هذه الآية سابقا في سورة الكهف عند قوله تعالى ﴿ المَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ [الكهف: ٤٦]. وقلنا أن الراجح من أقوال المفسرين إبقاء الصالحات على عمومها لتشمل كل عمل صالح يحبه الله تعالى ويرضاه فالصلاة من الباقيات الصالحات والزكاة وبر الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلى الجيران والصدق في المعاملة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وغيرهم من الأذكار المشروعة كل ذلك من الباقيات الصالحات إن شاء الله ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَداً ﴾. اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك هذا والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إجابة السؤال الأول ﴿ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً ﴾. قرئت بكسر النان وبفتح النان من الإخلاص لله في الأعمال ويؤدي إلى خلوص التام لله عز وجل وهو الاصطفاء وبالفتح يعني الخلوص والاصطفاء والقراءتان صحيحتان.

والجواب أيضا صحيح والحمد لله وشكر الله لهما.

إجابة السؤال الثاني ﴿ كَانَ صَادِقَ الوَعْدِ ﴾. في قصته مع أبيه إبراهيم عليه السلام عندما قال ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢]. فصدق في ذلك فصدق الوعد فقيل كذلك عندما كان مع صاحبه في البداية ونهج عنه صاحبه وتأخر وانتظر حتى جاء وبقي في مكانه.

لعل السؤال أشكل على السامعين كان السؤال ماذا تعلمت من قول الله تعالى عن إسماعيل ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوَعْدِ ﴾. فهذا تفسير صدق الوعد من إسماعيل ماذا تعلمنا تعلمنا أن نصدق الوعد وأن نفي بالعهد وأن يحترم أحدنا كلمته وأن يصدقها في وعوده ولا يخلفها إلا من عذر قهري يمنعه من الوفاء بعده وعهده فهذا هو المقصود

بالسؤال ماذا تعلمت من قوله تعالى لإسماعيل ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوَعْدِ ﴾. فالجواب كان تفسير لصدق وعد إسماعيل كيف كان صادق الوعد لكننا أردنا ماذا أردنا من هذا .

الشق الثاني إجابة السؤال الثالث الشق الثاني من السؤال الثاني وقيل كذلك عندما كان مع صاحبه

لأ وماذا تعلمت من قوله تعالى ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ ﴾.

لم يجب أحدا عليه يا شيخ

هو واضح أن السؤال حصل فيه لبث في الفهم أردنا ماذا تعلمت من قول الله تعالى عن إسماعيل ﴿ وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِياً وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ ﴾. تعلمنا أن نصدق إذا وعدنا وأن نفي إذا عاهدنا وأن يجتهد كل منا على أهله وأن يقوم فيهم بالمسؤولية التي جعلها الله على عاتقه (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) كل واحد فينا مأمور أن يأمر أهله بالصلاة والزكاة.

إجابة السؤال الثالث سجود التلاوة مستحب وليس بواجب وليس هناك حرج على من يسجد للتلاوة.

إي نعم الجواب صحيح إن شاء الله تعالى .

استأذنك يا فضيلة الشيخ في اتصالين الأول من الأخ زياد من تونس السلام عليكم ورحمه الله وعليكم السلام ورحمه الله وبركاته ما هي آداب الزيارة كما جاء في القرآن والسنة السؤال الثاني لماذا اعتبر بعض العلماء الصبر على الطاعة أفضل من الصبر على المعصية وبارك الله فيكم.

هل الفقر دليل كامل على قبول الله للعبد.

آداب الزيارة هذه تحتاج إلى محاضرة كاملة لكننا نذكر الأخ الكريم السائل والأخوة الحاضرين وجميع المشاهدين بقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا ﴾ [النور: ٢٧]. وأفسر حتى تستأنسوا بأنها حتى تختاروا الوقت المناسب للزيارة التي يحصل فيه الأنس بكم لأهل البيت وبالتالي يؤنسكم أهل البيت وهذا أدب من الآداب المفقودة في الزيارة كثيرا ما يهجم بعضها على بعض في أوقات لا يكون الإنسان فيها مستعد لأي قادم فلذلك لا يعطي الزائر حقا إن لم يكن له ارجع لم يقل له ارجع لا يعطيه حقا من الكرم والترحيب والتهليل لأنك هجمت عليه في وقت هو غير مستعد لاستقبالك فمن أهم آداب الزيارة هو قوله تعالى ﴿ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا ﴾ معناها تستأذنوا ولكن اللفظ أفاد الاستئذان مع فائدة أخرى هي أن يكون الاستئذان في وقت يحصل فيه أنس بك لأهل البيت فيجم فإذا تركت عليه البيت تهللت وجوههم ورحبوا بك ومدوا إليك أيديهم فرحين بزيارتك حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها فمن أراد الوقوف على بقية الآداب فليراجع هذه الآيات في التفسير إن شاء الله.

الصبر على الطاعة والصبر على المعصية لم أقرأ أن أحدهم قال الصبر على الطاعة أفضل على الصبر من المعصية لكن قرأت أن الصبر عن المعصية أفضل من الصبر على الأقدار المؤلمة الصبر ثلاثة أنواع صبر على الطاعة وصبر عن المعصية وصبر عن الأقدار المؤلمة الصبر على الأقدار المؤلمة تبتلى في نفسك في أهلك في مالك في ولدك تصبر وتحتسب أما الصبر عن المعصية أن تكون المعصية في متناول يدك وتصبر عنها وتحول بينها وبين نفسك ولا ترتكبها مخافة الله عز وجل هذا صبر عن المعصية أفضل من الصبر على الأقدار المؤلمة وذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في صبر يوسف على إخوته وفي صبره على امرأة

العزيز قال إن صبره على إخوته كان صبر اضطراري أما صبره عن امرأة العزيز كان صبر اختياري فكان صبره عن المرأة اللي هي عن المعصية أفضل من صبره عن الأقدار المؤلمة والله أعلم.

لا ينبغي أن يفهم أن الفقر عنوان الرضا كما لا ينبغي أن يفهم أن الغنى عنوان الرضى الله تعالى قال ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ ﴾. انتبه ﴿ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ [الفجر: ١٥]. انتبه لنفس اللفظة ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ [الفجر: ١٦]. قال تعالى ﴿ كَلاَّ ﴾ الله تبارك وتعالى لم يكرم من وسع عليه ولم يهن من قدر عليه رزقه ولكن الله ابتلى الأول بالغنى ليرى أيشكر أم يكفر وابتلى الثاني للفقر ليرى أيصبر أم يجزع فليس الغنى عنوان الرضا وليس الفقر أيضا عنوان الرضا إنما عنوان الرضا التوفيق للطاعة فالغني إذا وفق لطاعة الله تبارك وتعالى وعرف حق الله في ماله فأنفق منه هاهنا وهاهنا ووصل به رحمه فهذا التوفيق للطاعة في حالة الغنى عنوان الرضا عنوان أن هذا الغنى كان نعمة وكذلك التوفيق للفقر إذا كنت في فقر ورأيت نفسك موفقا للصبر والرضا بقضاء الله والاجتهاد في طاعة الله فهذا التوفيق هو عنوان الرضا ولكن الرضا ليس بلازم للغنى وليس بلازم للفقر.

معنا اتصال فضيلة الشيخ من الأخ أشرف كمال من مصر سؤالي هل يجوز زيارة أهل الكتاب وتهنأتهم بأعيادهم وأفراحهم وشهود جنائزهم إن كان في قصد الدعوة وكذلك مجاملة لهم خاصة إذا كانوا زملاء في العمل وهل يقدح ذلك في الولاء والبراء السؤال الثاني نرجو من فضيلتكم توجيه نصيحة إلى العالم الإسلامي وإلى هؤلاء الذين يفسرون القرآن بآرائهم وأهوائهم دون الرجوع إلى منهج السلف الصالح في التفسير بحجة التفسير العصري للقرآن الكريم والذين تعج بهم القنوات الفضائية صباح ومساء وجزاكم الله خير.

بر أهل الكتاب وإكرامهم والإحسان إليهم أذن الله تبارك وتعالى لنا فيه فقال عز وجل ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨]. عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أنها قالت قدمت علي أمي وهي راغبة أي راغبة في صلتي وبري وإكرامي وهي مشركة فلم تفعل معها شيء من البر والإحسان حتى استفتت النبي صلى الله عليه وسلم قالت يا رسول الله إن أمي قدمت وهي راغبة أفأصل أمي قال (نعم صلي أمك) إذا دخل عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما فوجدهم قد ذبحوا شاة فقال "أهديتهم لجارنا اليهودي هذه الشاة التي ذبحتموها أهديتم منها إلى جارنا اليهودي فقالوا لا قالوا ابعثوا إليه منها فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه) فبر غير المسلم إكراما وإحسانا وتأليفا لقلبه وتظهير في الإسلام أذن الله لنا في ذلك ولم ينهانا عنه لكن ما لا يفعله الرسول عليه الصلاة والسلام لا نفعله فمثلا بالنسبة لشهود جنائزهم النبي عليه الصلاة والسلام لما مات عمه أبو طالب وكلنا يعرف أبو طالب بالنسبة للنبي عليه الصلاة والسلام وماذا قدم له جاء علي فقال يا رسول الله إن عمك الشيخ الضال قد مات (قال اذهب فواره) روح ادفنته ولم يشهد جنازته فالبر متوقف على موافقة بالشرع ولا يجوز لنا أن نتوسع في دائرة البر حتى نقع في مخالفة الشرع والله تعالى أعلم.

أظن أن في قراءة السؤال هو الذي أعطاه من نفسه النصيحة.

الأخت أم شريفة من السعودية تقول ما هي أفضل طريقة لاستذكار التفسير وجزاكم الله خير.

دائما حياة العلم مذاكرته دائما نستمع إلى هذا الشريط مرة ثانية إذا كان عندنا مسجلا نقرأ هذه الحلقة من التفسير إذا سحبناه مفرغة من الموقع كل يوما نستمع كل يوم نقرأ فبذلك يحي العلم في صدورنا وتتحقق الفائدة إن شاء الله من التفسير ومن غيره من العلوم الشرعية.

الأخت فاطمة صالح من السعودية تقول كيف يمكنني أن أثق الشخص الذي أجالسه أنه من الصالحين وما هي الأسباب التي تعينوني على الحث على مجالستهم.

الصلاح الحمد لله ظاهر من أعظم أمارات الصلاح المحافظة على الصلاة ثم اللسان يعبر عن صاحبه اللسان يعبر عن صاحبه الله تعالى قال عن المؤمنين الصالحين ﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ القَوْلِ ﴾ [الحج: ٢٤]. فإذا جالستي امرأة تعرفين أنها من أهل الصلاح فلاشك أنها من أهل الصلاح جالستيها ولم تسمعي منها في الجلسة إلا كل خير وكل كلام طيب فهي من أهل الصلاح إن شاء الله وإما إذا جالستي امرأة ثم وجدتيها لا يكف لسانها عن الغيبة وعن الكلام البذيء وعن اللعن والسب وذكر الناس بما يكرهون فهذه امرأة لا خير فيها تتركين مجالستها وتقوي في قلبك حب الصالحين ومجالستهم وزيارتهم بقراءة ما ورد في ذلك في الفضاء وأحسن كتاب ينصح به في ذلك هو كتاب رياض الصالحين إن شاء الله تعالى.

الأخ حسن الحربي من السعودية يقول فضيلة الشيخ بعض العامية يدعون بهذا الدعاء يدعون ربي لا تنساني يوم أنساك هل في هذا الدعاء شيئا نرجو التوضيح وجزاء الله خير.

دائما نقول الاتباع في العبادات يؤدي إلى السلامة من الآفات فإذا تتبعنا الدعوات المأثورة ودعونا بها سلمنا من الأخطاء ومن الذلل وأنا أول مرة أسمع هذه الدعوة لكن نرجو الله تبارك وتعالى أن يعيننا على حفظ الدعوات المأثورة في الكتاب وفي السنة فندعو الله تبارك وتعالى بها لأن الله تعالى قال في الدعاء ﴿ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠]. فهناك اعتداء في الدعاء قد يقع الإنسان في الاعتداء في الدعاء وهو لا يشعر بجهله فنسأل الله أن يعيننا على حفظ الدعوات المأثورة في الكتاب والسنة.

الأخ رضا من مصر يقول أنا ملتزم من جديد وأتمنى أن أكون ملتزما وسؤالي إني أحاول حفظ وقراءة القرآن ولكني أخطأ في القراءة وأنسى الحفظ فماذا أفعل وإن كان هناك دعاء يساعدني على ذلك لأني أحب القرآن فما رأيكم.

الدعاء قل اللهم اجعلني من أهل القرآن اللهم أكرمني بحفظ القرآن اللهم فقهني في الدين وعلمني التأويل ثم عليك بالبحث على المساجد التي فيها حلقات تعليم القرآن الكريم ابحث عن هذه المساجد والتزم الشيوخ الذين فرغوا أنفسهم لتحفيظ كتاب الله وتعليمه فتعلم منهم إن شاء الله إنما العلم بالتعلم فإذا جالست هؤلاء الناس في المساجد ستستفيد منهم وتصحح قراءتك بإذن الله عز وجل.

الأخ كريم من فرنسا يقول إذا كنا في حلقة علمية ودخل علينا أحد ثم ألقى السلام هل الأولى عدم الرد أفيدونا أحسن الله إليكم.

لا يجب الرد إذا دخل أي داخل على أناس في حلقة ذكر لمدارسة العلم فعليه أن يبدأ بالسلام وعليهم أن يردوا والرد كما تعلمون فرد كفاية فيكفي أن يرد واحد أو اثنين أو ثلاثة لكن لا يجوز نحن في حلقة علم لا تفشي السلام علينا أو يفشي السلام عليهم فلا يردون هذا خطأ إفشاء السلام من أهم الأعمال التي حث عليها النبي عليه الصلاة والسلام وجعلها من موجبات المحبة التي هي من موجبات الجنة (والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم) فمن خطأ العابدين أن يكون الإنسان يقرأ في القرآن الكريم في المسجد أو في البيت فيدخل الداخلي يقول السلام عليكم يشير إليه بيده ولا يرد بلسانه لماذا مشغول بما هو فيه من القراءة أو العلم هذا خطأ رد السلام لا يكون بالإشارة إلا في الصلاة إذا كنت في صلاة ودخل داخل فقال السلام عليكم فمن السنة أن ترد هكذا بالإشارة بيدك كانوا يسلمون على النبي صلى الله عليه وسلم في أول الأمر قبل أن ينهوا عن الكلام في الصلاة وكان يرد عليهم السلام فلما نزل قوله تعالى ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨]. أي ساكتين كانوا يسلمون

عليه وهو يصلي فيرد عليهم بالإشارة أما غير المصلي قارئا للقرآن مذاكرا للعلم مشغول بأي أمـر رد السلام بالإشارة خطأ ولا تبرأ ذمته بل يجب أن يرد السلام وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

الأخت زينب من سوريا تقول لماذا لم يستطع موسى الصبر على الخضر عليهم السلام رغم أنه قال إن شاء الله أرجو الجواب إذا سمحتم.

لا حول ولا قوة إلا بالله قال الإمام الطحاوي رحمه الله في العقيدة الطحاوية نقول لا حيلة لأحـد ولا تحـول لأحد عن معصية الله إلا بمعونة الله ولا قدرة لأحد على إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بتوفيق الله فهكذا قـدر الله عز وجل لموسى أن ينتهي صبره في هذه المرحلة .

الأخت منى من مصر تقول في قوله تعالى ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ [مريم: ٢٥]. هي كتبت ﴿تُـسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِياً ﴾ هل في هذه الآية دليل على أن عيسى عليه السلام ولد في فصل الصيف لأن النخل تثمر في الصيف ولو كان كذلك هل هو دليل على خطأ احتفال النصارى بميلاد المسيح في أول يناير وهـو فـي فـصل الشتاء وجزاءكم الله خير.

لا إحنا قلنا إن النخلة كانت يابسة يعني ليس فيها رطب ولا بلح فمن الكرامات التي أكرم الله بها مـريم أنـه أمرها أن تهز جزع هذه النخلة اليابسة فتساقط عليها الرطب فهذا من الكرامات كما أكرمها وجعل تحتها سـريا أي نهرا جارية أكرمها بسقوط الرطب من نخلة يابسة كل ذلك حتى تطمئن حين ترى هذه الخـوارق للعـادات حولها نهر أجري في ساعته رطب يتساقط من نخلة وليست بحاملة رطب فتطمئن أن ولادتها لعيسى أمر خارق للعادة كما خرق الله لها العادة فتطمئن ولا تأسى ولا تحزن.

الأخت منال محمد من مصر تقول هل الورود هو دخول النار بالفعل أم المرور على الصراط.

الصراط هو في وسط جهنم وهو الطريق إلى الجنة إذا أذن الله تبارك وتعالى لأهل الجنة في دخولها فالطريق إلى الجنة هو الصراط في وسط جهنم وليس فوقها كالجسر المعلق لا إنما هو في وسط جهنم فالكل يدخل أهـل النار يدخلون حتى يمكثوا فيها وأهل الجنة يدخلون حتى يعبروها ويكون العبور على ما ذكرنا منهم السالم ومنهم المخدوش السالم ومنهم المكدس على وجهه في النار كما جاء في صفة الورود وصفة الصراط يوم القيامة.

إنَّ الحمدَ لله، نحمدهُ، ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يهده اللهُ فلا مضلَّ له، ومَنْ يضللْ فلا هاديَ له، وأشهد أنَّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، اللهم صلِّ وسلِّمْ وباركْ عليه ، وعلى آلهِ وصحبِه، ومَنْ تبعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، أمَّا بعدُ:

فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهدي هدي محمدٍ ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعة ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النارِ.

ثم مرحبا بكم في هذا اللقاء الجديد والأخير من دروس تفسير سورة مريم وقبل أن نبدأ في الآيـــات الجديـــدة نطرح عليكم الأسئلة الثلاث في الحلقة السابقة.

السؤال الأول ما سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ [مريم: ٦٤].

السؤال الثاني اذكر حديثين في فضل زيارة الصالحين

السؤال الثالث ما معنى ورود النار المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إلاَّ وَارِدُهَا ﴾ [مريم: ٧١].

أما الآيات المباركات التي معنا اليوم من سورة مريم فقد تضمنت من المعاني ما يلي:

أولاً: سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا ﴾ [مريم: ٧٧].

ثانيًا: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨].

ثالثًا: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعاً ﴾ [فاطر: ١٠].

رابعًا: تسلط الشياطين على الكافرين.

خامسًا: لكل أمة أجل.

سادسًا: صفة حشر المؤمنين والكافرين.

سابعًا: أسعد الناس بالشفاعة يوم القيامة.

ثامنًا: تنزيه الله تعالى عن الولد.

تاسعًا: إذا أحب الله عبدًا حببه إلى عباده.

وأخيرًا وجوب الاعتبار بوحدة مصير المكذبين.

وهذا بإيجاز عرض سريع لأهم ما تضمنته الآيات المباركات من سورة مريم من المعاني والتي نعـــيش فـــي رحابها ساعتنا هذه إن شاء الله تعالى فلنستمع إلى هذه الآيات المباركات أولا قبل الخوض في تفاصيلها ســـائلين

الله عز وجل أن ينجز لنا ما وعدنا حيث قال ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿ أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً (٧٧) أَطَّلَعَ الغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً (٧٨) كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العَذَابِ مَدّاً (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً (٨٠) وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً (٨١) كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً (٨٣) فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً (٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ المُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً (٨٥) وَنَسُوقُ المُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً (٨٦) لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً (٨٧) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدّاً (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَرْداً (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً (٩٦) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ المُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً (٩٨) ﴾ [مريم: ٧٧– ٩٨].

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩]. ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١].

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣].

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً (٧٧) كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العَذَابِ مَدّاً (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً﴾ [مريم: ٧٧–٨٠].

جاء في الصحيح في سبب نزول هذه الآيات أن خباب بن الأرت رضي الله عنه كان حدادا بمكة فصنع للعاصي ابن وائل شيئا من الحديد على أجل ثم جاء يتقاضاه فقال له العاص لا أقضيك حتى تكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم فقال خباب والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث فقال له العاص وإني لمبعوث بعد الموت؟ قال نعم قال إذا سيكون لي هناك مال وولد فأقضيك هناك فنزلت هذه الآيات ﴿ أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ﴾. لأنه قالها على سبيل الاستخفاف والاستهزاء أنت تقول أننا مبعوثون نعم خباب يقول بالبعث ويؤمن به وأما العاص فهو كافر بالبعث كافر بالله عز وجل فهو يقول إذا هناك أقضيك يقولها على سبيل الاستخفاف والسخرية والاستهزاء فنزلت هذه الآيات تعجيبا منه ومن قوله أفرأيت يا نبينا ويصلح الخطاب أن يكون لكل عاقل ﴿ أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ﴾. وقد ذكرنا في تفسير سورة الكهف وما سبق من سورة مريم أن الكفار ربطوا الآخرة بالدنيا وقاسوا الآخرة على الدنيا وظنوا أن عطاء الله تبارك لهم في الدنيا عنوان رضا الله تبارك وتعالى عنهم وكما رضي عنهم في الدنيا وأعطاهم فسيرضى عنهم في الآخرة ويعطيهم كما قال صاحب الجنتين ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ [الكهف: ٣٦]. هذه عقيدته أنه لا بعث بعد الموت ولكن لو فرضنا جدلا على سبيل التسليم لهؤلاء الذين يقولون بالبعث بعد الموت ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً ﴾ [الكهف: ٣٦]. هكذا قال العاص لخباب أيضا لئن بعثني الله تعالى سيكون لي مالي فأقضيك دينك هناك في الآخرة ﴿ أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ﴾. على ما استند في هذا القول فالدعاوى إذا لم تقيموا عليها بينات أبناءها أدعياء ما مستند في هذا القول وما دليله وما حجته ﴿ أَطَّلَعَ الغَيْبَ ﴾ . ولا يعلم الغيب إلى الله سبحانه وتعالى ﴿ عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً ﴾ [الجن: ٢٦]. هل اطلع الغيب وكشفت عنه الحجب ورأى الآخرة وما فيها ورأى أن له فيها

مالا وولدا ﴿ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً ﴾. أن الله سبحانه وتعالى إذا بعثه يوم القيامة يؤتيه في الآخرة مالا وولدا كما آتاه في الآخرة مالا وولدا ﴿ أَطَّلَعَ الغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً كَلاَّ ﴾. كلمة زجر ووعيد ونفي لما سبق فهو لم يطلع الغيب ولم يتخذ عند الرحمن عهدا ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾. فهذه الكلمة التي قالها كتبها الله تبارك وتعالى عليه شأنها في ذلك شأن كل الكلام الذي يتكلم الإنسان به قال الله تعالى ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨]. ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى المُتَلَقِّيَانِ عَنِ اليَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) ﴾ [ق: ١٦- ١٨]. فكل كلمة يتفوه بها الإنسان يكتبها الملكان إن خير وإن شرا إن حسنة وإن سيئة يكتبانها ثم الله سبحانه وتعالى يجزي به يوم القيامة ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. وحين يؤمن الإنسان بكتابة الأقوال مع الأعمال يجب عليه أن يصون لسانه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت) قال العلماء الكلام أربعة أقسام خير محض وشر محض وخير مشوب بالشر والخير أغلب وشر مشوب بخير والشر أغلب فالنبي صلى الله عليه وسلم يأمرنا (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت) فأذن لنا في ربع الكلام وأمرنا بالسكون عن ثلاثة أرباع الكلام ولذلك قالوا خلق الله تعالى للإنسان أذنين ولسان واحد ليسمع أكثر مما يتكلم ﴿ كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العَذَابِ مَداً ﴾. المدد الزيادة ستندخله جهنم يصلاها مذموما مدحورا يذوق فيها العذاب ثم هو دائما في زيادة من هذا العذاب ﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العَذَابِ مَداً ﴾. كما قال تعالى : ﴿ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً ﴾ [الإسراء: ٩٧]. وكما قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العَذَابَ ﴾ [النساء: ٥٦]. وكما قال تعالى : ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً ﴾ [النبأ: ٣٠]. ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العَذَابِ مَداً (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ ﴾. هذا المال الذي غره وهؤلاء الأولاد الذين اغتر بهم وأعجب بماله وولده الله سبحانه وتعالى سيرثه في كل ما يقول لأن الله سبحانه وتعالى قال ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾. وقال النبي صلى الله عليه وسلم (يتبع الميت ثلاثة أهله وماله وعمله فيرجع اثنان ويبقى واحد يرجع أهله وماله ويبقى عمله) ولذلك قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ [الأنعام: ٩٤]. ﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً ﴾. ثم يقول تعالى ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزاً ﴾. هؤلاء المشركون عبدوا من دون الله آلهة يطلبون بعبادتها العزة ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِز﴾ والعزة الغلبة والمنعة والظهور والرياسة والمجد والريادة ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزاً ﴾ لقد أخطئوا الطريق وطلبوا العزة من غير مالكها لأن العزة لله جميعا كما قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعاً ﴾ [فاطر: ١٠]. وفي تقديم الجار والمجرور ﴿ فَلِلَّهِ ﴾ يفيد الحصر والقصر من لم يقل فالعزة لله وإنما قال ﴿ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعاً ﴾ فمن أراد العزة فليطلبها من الله تبارك وتعالى بعبادته وحده لا شريك له فإن الله هو العزيز وهو الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء كما قال تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ المُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ﴾ [آل عمران: ٢٦]. فالكافرون اتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا والمنافقون تولوا الكافرين أيضا طلبا للعزة وكلاهما أخطأ الطريق ﴿ بَشِّرِ المُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ المُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ العِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً (١٣٩)﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩]. من كان يريد العزة فالله العزة جميعا أي فليطلبها من الله سبحانه وتعالى فهو العزيز وهو الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء أما الكافرون الذين اتخذوا لهم من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزة فقد ضلوا الطريق وكذلك المنافقون الذين طلبوا العزة بولاية الكافرين قد ضلوا الطريق ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزاً (٨١) كَلاَّ ﴾. لن يكونوا لهم كما تمنوا بل سيكفرون بعبادتهم هؤلاء الآلهة التي عبدوها من دون الله يوم القيامة يكفرون بشركهم كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦)﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]. سيكفرون بعبادتهم ويتبرءون منهم كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُباً لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ العَذَابَ أَنَّ القُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا العَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ

النَّارِ (١٦٧)﴾ [البقرة: ١٦٥– ١٦٧]. سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا كما قال الخليل إبراهيم عليه السلام لقومه المشركين ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [العنكبوت: ٢٥]. المودة بينكم فقط في الحياة الدنيا ﴿ ثُمَّ يَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٥]. كما قال تعالى : ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف: ٣٨]. وذكر سبحانه وتعالى أنه يقال لأفواج النار وهم يلقون فيها ويكبون ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لاَ مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لاَ مَرْحَباً بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ القَرَارُ (٦٠) ﴾ [ص: ٥٩، ٦٠]. ﴿ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِداً ﴾. فلم يعزوهم في الدنيا ولن يمنعوهم من عذاب الله في الآخرة ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزاً (٨١) كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِداً ﴾ [مريم: ٨١– ٨٢]. لن يعزوهم في الدنيا ولن يمنعوهم من عذا الله في الآخرة كما قال تعالى : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ (٧٥) ﴾ [يس: ٧٤، ٧٥]. أي في العذاب المهين يوم القيامة ثم قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزاً ﴾. الأز هو الهز الأز هو الهز والهز معروف هو تحريك الشيء بشدة فالأز هو الهز والله تبارك وتعالى يقول معجبا من تسلط الشياطين على الكافرين ألم تر يا نبينا ولم تر أيها العاقل السامع ﴿ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزاً ﴾. أي تزعجهم إلى المعصية إزعاجا وتدفعهم إليها دفعا ولذلك لا ترى الكافر إلا سريعا في معصية الله بطيئا عن طاعته لا ترى الكافر إلا سريعا في معصية الله لماذا؟ لأن الشياطين تؤزهم أزا تدفعهم إلى الشر تدفعهم إلى الخطيئة تدفعهم إلى المعصية دفعا ﴿ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزاً ﴾.

وقد يعتذر بعضهم عن هؤلاء الكافرين ويلتمس لهم العذر إذ أن الله سبحانه هو الذي أرسل الشياطين عليهم تؤزهم أزا إلى المعصية إذا هم معذورون هم مدفوعون دفعا إلى المعصية بأز الشياطين لهم والجواب أنهم ليسوا معذورين لأن هذا الأز وهذا الهز وهذا الدفع إلى المعصية إنما كان بعد أن أعرضوا عن الله سبحانه وتعالى وعن الهدى الذي بعث به رسوله صلى الله عليه وسلم ولذلك قال ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٧) ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

فتسلط الشياطين على الكافرين لم يكن إلا بعد براءة الكافرين من رب العالمين وتولهم الشيطان ولو أنهم تبرءوا من الشياطين وتولوا رب العالمين سبحانه وتعالى وأخلصوا له لاستخلصهم الله تبارك وتعالى ولحفظهم من شر الشياطين فإن الله تبارك وتعالى قال للشيطان ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر: ٤٢]. والشيطان اعترف بذلك فقال ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٣]. والله تبارك وتعالى يقول ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ ﴾. أي الشيطان ﴿ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٨– ١٠٠]. فهؤلاء الكافرون هم الذين تولوا الشياطين من دون الله رب العالمين فوكلهم الله إلى الشيطان الذي تولوه من دون الله عز وجل ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزاً (٨٣) فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾. لا تستعجل هلاكهم ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. ﴿ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَداً ﴾. الله سبحانه وتعالى جعل لكل أمة أجل هكذا قال ربنا ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [الأعراف: ٣٤]. فكما أن الأفراد لكل فرد أجل فكذلك الأمم ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ وكما أن الإنسان إذا جاء أجله لا يتقدم ولا يتأخر فكذلك الأمم إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فالأمم الظالمة الله سبحانه وتعالى سمى لها أجلا فلن تزول ولن تبيد قبل هذ الأجل مهما استعجل المسلمون هلاك الظالمين فلن يهلكوا ولن يبادوا حتى يستوفوا آجالهم التي كتبها الله تبارك وتعالى لهم والله يقول ﴿ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَداً ﴾. فهو أجل معلوم لا يزاد فيه ولا ينقص منه والشيء الذي لا يزاد إذا أخذ منه نقص الشيء الذي إذ لا يزاد فيه كلما أخذ منه نقص والله تعالى يقول ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَداً ﴾ فهو أجل مسمى والله يعده ومنذ وجود الأمم وهم في عد آجالهم ونقصان أجلهم إلى أن تنتهي فيحيق بهم عذاب الله سبحانه وتعالى ﴿ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَداً ﴾ والشيء المعدود هو الشيء القليل أم الشيء

الكثير هو الذي ليس له حصر ولا عدد ولذلك قال تعالى : في قصة يوسف عليه السلام ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ [يوسف: ٢٠]. ما هو هذا الثمن البخس ﴿ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾. فالشيء المعدود قليل فالأمم الظالمة لها أجال معلومة ومعدودة فلا تستعجلوا هلاك الظالمين ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَداً ﴾. كان ابن عباس رضي الله عنهما إذا قرأ هذه الآية بكى ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَداً ﴾ ويقول ما بعد العد إلا الموت وما بعد العد إلا فراق الأهل وما بعد العد إلا دخول القبر ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَداً ﴾ ما بعد العد إلا الموت إذا انتهى العدد وانتهى الأجل جاء الموت وما بعد العد إلا فراق الأهل وما بعد العد إلا دخول القبر ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزاً (٨٣) فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾. لا تستعجلوا هلاك الظالمين فإن الله سمى لهم أجلا فلن يبادوا قبل نهاية الأجل ولكن إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴿ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَداً ﴾. ثم ذكر الله تعالى أهوال يوم القيامة وصفة حشر المؤمنين المتقين وصفة حشر الكافرين المجرمين فقال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً (٨٥) وَنَسُوقُ المُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً (٨٦)﴾. الوفد جمعا واحده وافد كركب وراكب فالراكب واحد وجمعه ركب والوافد واحد وجمعه وفد ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً ﴾. ومن عادة الوفد أنه إذا وفد وفد راكبه من عادة الوفد أنه إذا قدم قدم راكبا ومن عادة الوفد أنه إذا أتى لشيء جاء وكله أمل وكله رجاء في قضاء ما جاء له وفي إعطائه ما يسأله فالمتقون يحشرون يوم القيامة ركبانا في هيئة الوفود الراكبة وكلهم أمل ورجاء وطمع في رحمه الله تبارك وتعالى ومغفرته ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً ﴾. أي ركبانا وكلهم أمل ورجاء وطمع في رحمه الله تبارك وتعالى ومغفرته والله تبارك وتعالى يقول (أنا عند حسن ظني بي) فهم يرجون رحمة الله تبارك وتعالى وسيكون الله عند حسن ظنهم إن شاء الله ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً (٨٥) وَنَسُوقُ المُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً (٨٦) ﴾. قال بعض المفسرين ﴿ وِرْداً ﴾ في مقابل ﴿وَفْد﴾ فالوفد الراكب والورد الماشي الوفد الراكب والورد الماشي وقال بعض المفسرون ﴿وِرْداً ﴾ أي عطاشا ﴿ وَنَسُوقُ المُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾ أي عطاشا لأن الله سبحانه وتعالى إذا حشر الناس في أرض المحشر بعد بعثهم من قبورهم إذا حشر الله تعالى وجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد الشمس فوق الرءوس دانية وجهنم بالموقف محيطة والزحام شديد هنالك في هذه الساعة الله تبارك وتعالى يكرم المؤمنين في أرض الموقف فيطعمهم ويسقيهم يطعمهم يقول النبي صلى الله عليه وسلم (تكون الأرض يوم القيامة كالخبزة يتكفأها الجبار بيمينه كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفر) فالله تبارك وتعالى يجعل الأرض المبدلة يوم القيامة خبزة يطعم منها المتقين في أرض المحشر ويسقيهم من حوض النبي صلى الله عليه وسلم فهم يساقون إلى الجنة وقد شبعوا وذهب ظمأهم وزال أما المجرمين فالله يقول ﴿ وَنَسُوقُ المُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾. فقال بعض المفسرين ﴿ وِرْداً ﴾ في مقابل ﴿ وَفْداً ﴾ فالوفد الراكب والورد الماشي وقال بعضهم الورد أي العطاش يحشرون عطاشا مشاة ولا مانع من إطلاق تفسير الآية أو اللفظ بالقولين ويجمع بينهما أنهم يحشرون إلى جهنم مشاة وهم أشد ما يكونون عطشا وظمأ والعياذ بالله ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً (٨٥) وَنَسُوقُ المُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً (٨٦) لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً (٨٧)﴾ المشركون اتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا فقال سبحانه وتعالى ﴿ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِداً ﴾. ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨]. فقال تعالى : ﴿ لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ ﴾ هؤلاء الذين عبدتموهم من دون الله لا يملكون الشفاعة فكيف ترجون شفاعتهم وهم لا يملكون الشفاعة إنما قال تعالى : ﴿ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً ﴾ [الزمر: ٤٤]. فالشفاعة ملك الله سبحانه وتعالى ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. لا أحد فالله تبارك وتعالى هو مالك الشفاعة وهو الذي يأذن للشافع إكراما له وإظهارا لفضله على رءوس الأشهاد يأذن لفلان من الناس أن يشفع وتكون الشفاعة محددة في هؤلاء الناس وتكون في المشفوع رحمة به تكون الشفاعة في للشافع إظهارا لفضله ومنزلته عند الله سبحانه وتعالى وتكون رحمة بالمشفوع فيه لكنها كلها لله تبارك وتعالى لا يستطيع أحد أن يشفع من غير إذن الله والشافع إذا أذن الله له في الشفاعة لن تكون له حرية الاختيار يشفع في من وإنما ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. ولذلك ذكر النبي صلى الله عليه وسلم عن الشفاعة (فيحد لي ربي حدا فأخرجهم من النار ثم أعود فأشفع فيشفعني ربي فيحد لي حدا فأخرجهم من النار) فالله سبحانه وتعالى هو الذي يأذن للشافع إظهارا لفضله وشرفه على رءوس الأشهاد يوم القيامة ويحد له ويسمي له من يشفع فيهم إذا من أراد الشفاعة فليطلبها من مالكها وهو الله سبحانه وتعالى والله يقول ﴿ لاَ يَمْلِكُونَ

الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً ﴾. فمن اتخذ عند الرحمن عهدا أن يشفع الله تبارك وتعالى فيه الشافعين فهذا الذي ستكون له الشفاعة ومن لم يتخذ عند الرحمن عهدا فالله تعالى قال ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [المدثر: ٤٨]. وما هو العهد الذي يحق للإنسان الشفاعة يوم القيامة العهد هو لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله خالصا مخلصا بها قلبه فهذا تناله الشفاعة يوم القيامة كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال قلت يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة فقال صلى الله عليه وسلم (لقد ظننت يا أبا هريرة ألا يسألك عنها أحدا قبلك لما رأيت من حرصك على الحديث) حين قال من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة يا رسول الله قال (يا أبا هريرة أنا كنت أعلم أنه لم يسألني هذا السؤال قبلك لأني رأيت منك الحرص على الحديث أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إلا الله مخلصا بها قلبه) إذن الشفاعة يوم القيامة تكون لأهل التوحيد لأهل لا إله إلا الله الذين عاشوا عليها وماتوا عليها أما الذين ماتوا مشركين وماتوا كافرين فهم الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾. ﴿ يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾ [طه: ١٠٩]. والله لا يرضى إلا عن قول لا إله إلا الله وحده لا شريك له فمن قال لا إله إلا الله مخلصا به قلبه نالته شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ومن الوسائل التي تنال بها شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم أن تصلي عليه عقب الأذان وأن تسأل الله له الوسيلة كما في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال (إذا سمعتم المؤذن يؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي فإن من صلى علي مرة صلى الله عليه بها عشرة ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل الله لي الوسيلة حلت له الشفاعة) ﴿ لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ ﴾ أي هؤلاء الذين عبدهم المشركون من دون الله ﴿ لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً ﴾. فالله عز وجل أو على الله عز وجل فضلا وتكرم له أن يشفع فيه من شاء من الشافعين من النبيين والمؤمنين والملائكة وغيرهم كما هو مذكور في كتب السنة في موضع الشفاعة.

﴿ لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً ﴾ ثم قال تعالى : منكرا على المشركين الذين نسبوا لله الولد تعالى وتقدس عن اتخاذ الولد ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً (٨٩) ﴾. الإد عند العرب معناه الداهية العظيمة الداهية العظيمة الأمر العظيم الثقيل جدا ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ﴾ ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً ﴾ [الكهف: ٥]. ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً (٨٩) ﴾ . من ثقله وعظمته ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدّاً ﴾ مع قوتها وشدتها ومكانتها ﴿ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدّاً ﴾ بسبب قولهم ﴿ اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً ﴾ ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدّاً (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً (٩٢) ﴾. ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ﴾ [الأنعام: ١٠١]. الله سبحانه وتعالى لم يتخذ صاحبة أي لم يتخذ زوجة والإنسان حين يريد الولد لابد أن يتزوج فالولد لا يأتي إلا من زوجة للرجل الرجل لا يأتيه ولد إلا إذا تزوج الله سبحانه وتعالى لم يتخذ زوجة لأن اتخاذ الزوجة عنوان الضعف وعنوان العجز والله سبحانه وتعالى يقول عن أعدائنا ﴿ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً (٢٨)﴾ [النساء: ٢٧، ٢٨]. ﴿ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً ﴾ وراء الشهوات وأعظمها وأشدها على الإنسان الشهوة الجنسية ولذلك قال ﴿ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً ﴾ أمام هذه الشهوة فاتخذا الزوجة هذا من الضعف والعجز الشاب إذا بلغ الحلم صار يفكر في الزواج تفكيره في الزواج عنوان ضعفه وعجزه لا يستطيع أن يصبر عن النساء والله سبحانه وتعالى هو القوي العزيز القادر القاهر فوق عباده فليس به ضعف يدعوه إلى اتخاذ صاحبة ولا ولدا سبحانه وتعالى ﴿ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾ لأنه لم تكن له صاحبة ثم إن الولد جزء أبيه والله سبحانه وتعالى أحد صمد ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ (٤) ﴾ [الإخلاص: ٣-٤] والوالد غالبا يشبه أباه والله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] ثم إن كل من في السماوات والأرض عبيد لله تبارك وتعالى ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً ﴾. فما داموا عبيده يستحيل أن يكون منهم ولد يستحيل أن يكون منهم ولد لأنه لو كان ولدا لم يكن عبدا فلما كان عبدا انتفى أن يكون ولدا لأنه في سنتنا نحن البشر لو أن رجلا عنده أمة فوطأها بملك اليمين فأنجبت له ولدا الولد أبوه

حر وأمه أمة مملوكة إذا ولد الولد من أمة من رجل حر فهل يتبع أمه في العبودية أو في الرق أو يتبع أباه في الحرية؟ يتبع أباه في الحرية فإذا استولد السيد أمته فولدت له ولدا ألحق بأبيه في الحرية فما دام ولدا ينتفي أن يكون عبدا فإذا كان هذا في حقكم أنتم فكذلك الله سبحانه وتعالى أولى بكل كمال من عليكم به فلو كان لله ولد لم يكن عبدا والله يقول ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً ﴾. فما داموا كلهم عبيده انتفى أن يكون له منهم ولد ﴿ وَقُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً ﴾ [الإسراء: ١١١].

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَداً (٩٤)﴾. أحصا الله تبارك وتعالى من في السماوات ومن في الأرض وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا كل إنسان سيعرض على الله تبارك وتعالى وحده يوم القيامة كما قال ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَرْداً ﴾. وقال تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١)﴾ [ق: ٢٠، ٢١]. وقال النبي صلى الله عليه وسلم (ما منكم من أحد إلا وسيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر أشئم منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة) ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَرْداً ﴾. كما قال ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٤]. ثم قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُداً ﴾. إن الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم فالإيمان التام يستلزم العمل الصالح كل ما ازداد الإيمان ازداد المؤمن طاعة لله عز وجل وكلما نقص الإيمان كثرت المعاصي وقلت الطاعات يقول النبي صلى الله عليه وسلم (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يشرب الخمر يشربها حين يشربها وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن) فكلما ازداد الإيمان في القلب كان المؤمن سريعا إلى طاعة الله بطيئا عن معصيته وكلما نقص الإيمان في القلب رأيت ذلك الإنسان سريعا إلى المعصية بطيئا عن الطاعة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾. أي الإيمان التام المستلزم بصالح العمل بجوارحه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾. من عاجل ثوابهم في الدنيا من عاجل ثواب الإيمان والعمل الصالح في الدنيا أن الله تبارك وتعالى سيجعل لهم الرحمن ودا أي محبة في قلوب العباد لأنهم تقربوا إلى الله سبحانه وتعالى بطاعته ومن تقرب من الله تقرب الله منه من تقرب مني شبرا تقربت إليه ذراعا ومن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا هكذا قال ربنا سبحانه وتعالى فالمؤمنون بصالح عملهم يتقربون إلى الله وهذا التقرب يوجب له محبة الله عز وجل كما في الحديث القدسي أن الله تعالى قال (ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي إلا ما افترضت إليه ولا زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه ولأن استعاذني لأعيذنه) ، فإذا أحب الله تبارك وتعالى هذا المؤمن الصالح الذي يتحبب إلى الله ويتقرب إليه إذا أحبه الله حببه الله تعالى إلى عباده كما في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (إذا أحب الله عبدا نادى جبريل يا جبريل إني أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادي جبريل في أهل السماء يا أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض) اللهم إنا نسألك حبك وحب من يحبك وحب كل شيء يقربنا إلى حبك اللهم أحبنا وحبب إلينا عبادك وحبب صالحي عبادك إلينا.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُداً ﴾.

ثم تختم السورة بقوله تعالى : للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾. فإنما يسرنا القرآن يا نبينا كما قال ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ٢٢]. قال ابن عباس رضي الله عنهما لولا أن الله يسره ما استطاعت الألسن أن تنطق بحرف منه لأن هذا كلام الله القرآن كلام الله لولا أن الله يسره فجرت به ألسنتنا ما استطاعت الألسن أن تنطق بحرف واحد من كلام الله ولكن الله أنعم علينا به وأنعم علينا بتيسيره ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ . لماذا ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ المُتَّقِينَ ﴾. تبشرهم بما أعد الله لهم في جنات ونهر في مقعد صدق عند

مليك مقتدر مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وحين تدقق النظر وتتأمل ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ المُتَّقِينَ ﴾. وتنظر في سابق الآيات فترى الله تعالى يقول ﴿ تِلْكَ الجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِياً ﴾ [مريم: ٦٣]. ثم تراه يقول ﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ﴾ . ثم ننجي من ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾. ثم في آخر السورة يقول ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ المُتَّقِينَ ﴾. فتعلم إنما مدار السعادة في الدنيا والآخرة على تقوى الله سبحانه وتعالى مدار السعادة في الدنيا والآخرة على تقوى الله عز وجل كما قال ذلكم الرجل الصالح الحكيم ولست أرى السعادة جمع مالا ولكن التقي هو السعيد وتقوى الله خير الزاد ذخرا وعند الله للأتقى مزيد حين تعلم أن مدار السعادة في الدنيا والآخرة على التقوى تجتهد في التقوى وجماع التقوى الجماع بالواجبات وترك المحرمات القيام بالواجبات وترك المحرمات ثم قد تزيد التقوى في القلب حتى يفعل الإنسان مع الواجبات المستحبات ويترك مع المحرمات المكروهات وهذه أعلى درجات التقوى أعلى درجات التقوى أن يفعل المرء المستحبات مع الواجبات وأن يترك المكروهات مع المحبوبات ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ المُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّداً ﴾ . وقد قلنا الإنذار هو الإعلام بالتخويف ﴿ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّداً ﴾ . يجادلونك بالباطل ليدحضوا به الحق والله سبحانه وتعالى من وراءهم محيط ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢]. ومرة ثانية يلفت أنظار الكافرين المعاصرين إلى وجوب الاعتبار بوحدة مصير المكذبين من قبلهم ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾. وقد قلنا أن هذا السؤال للتكفير ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ القُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ﴾ [الإسراء: ١٧]. ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ﴾. فوجب على الكافرين المعاصرين الذين يكذبونك يا رسولنا أن يحذروا أن يصيبهم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي البِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣)﴾ [الفجر: ٧-١٣]. ﴿ فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ [العنكبوت: ٤٠]. إن ربك لبالمرصاد لكل ظالم ولكل طاغية ولكل كافر معاند إن ربك لبالمرصاد فعتبروا يا أولي الأبصار وبهذا نصل إلى ختام تفسير سورة مريم سائلين الله سبحانه وتعالى أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء أحزاننا وذهاب غمومنا وغمومنا اللهم ذكرنا منه ما نسينا وعلمنا منه ما جهلنا وشفعه فينا واجعله حجة لنا لا علينا وارزقنا تلاوته آلاء الليل وآلاء النهار لعلك ترضى عنا هذا والحمد لله رب العالمين وصلى الله وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إجابة السؤال الأول أن جبريل عليه السلام تأخر عن النبي صلى الله عليه وسلم ليلة فحزن النبي صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما (ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا فقال فتنزلت الآية أي أن نزول جبريل بإذن الله تعالى.

أي نعم الجواب صحيح وجزاه الله خيرا.

إجابة السؤال الثاني: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلا زار أخا له في قرية أخرى فأرصد الله على مدرجته ملكا فلما أتى عليه قال أين تريد قال أريد أخا لي في هذه القرية قال هل لك عليه من نعمة قال لا غير أني أحببته في الله تعالى قال فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته وفيه رواه مسلم وعنه أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من عاد مريضا أو زار أخا له في الله ناداه مناد بأن طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزل) رواه الترمذي.

الجواب صحيح وجزاهم الله خيرا.

إجابة السؤال الثالث معنى ورود النار يعني دخولها وتكون على المؤمنين بردا وسلاما وينجي الله المؤمنين.

الجواب صحيح وينقصه الأدلة لأن عندنا لا يقبل شيئا إلا بدليل فنرجو من الأخوة أن ينتبهوا لهذا في الامتحان إن شاء الله إذا أجابوا لابد أن يتبعوا ذلك بالدليل الورود هو الدخول ما الدليل على أن الورود هو الدخول تذكر أدلة على ما ذكرنا إن شاء الله تعالى.

فضيلة الشيخ الوالد حفظكم الله تعالى أرجو من فضيلتكم النصيحة العاجلة فأنا بفضل الله مواظبة على دروس الأكاديمية إلى حد كبير ولكن هذا يتعارض مع بعض واجباتي كأمة وكزوجة فهل أقوم بتأجيل الدراسة حتى يقبل الأطفال مع الحرص مع سماع بعض الدروس فقط أرجو النصيحة.

قال صلى الله عليه وسلم (احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز) فزادك الله حرصك وأعانك وقواك على مسؤولياتك لكن اغتنمي الفرصة ولا تفوتيها فإن الله قال ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً ﴾ [لقمان: ٣٤].

الأخ أبو أنس من السعودية السؤال الأول كيف نجمع بين قاعدتين أن الله إذا أحب عبدا قذف في قلوب العباد محبة هذا العبد وبين تكذيب وبغض وعدم محبة كثير من المجتمعات التي أرسل إليها الرسل لهؤلاء الرسل. السؤال الثاني ما رأي فضيلة الشيخ في تفسير الشيخ الشعراوي وشكرا.

وإياكم وجزاك الله خيرا.

الأخت أم ناصر من الكويت بالنسبة للاستغفار ما هي صفات المؤمنين وخصوصا المؤمنات.

الأسئلة الفقهية في برنامج الجواب الكافي.

معنا اتصال آخر من الأخ إسلام السيد من مصر كيفية تحقيق التقوى في هذا الكم من الاختلاط الفاحش في الجامعة وغيره.

ما ذكره من أن أكثر الناس كذبوا رسلهم وعصوا أمرهم وخالفوهم فلم يحبوهم يجعلنا نقول أن المراد بالمحبة في قلوب الصالحين المؤمنين فلا ترى المؤمن إلا يحب الصالحين وأما الكفار فهم أولا عادوا الله سبحانه وتعالى فلن يوالوا أولياء الله عز وجل.

الشيخ عليه رحمة الله لم يسمي تفسيره تفسيرا ولكن سماه خواطر الشيخ الشعراوي رحمة الله عليه.

السؤال يعني أظنه غير واضح ولكن إذا كانت تريد أن تسأل كيف يكون المسلم مسلما وكيف تكون المسلمة مسلمة ما هي الصفات التي يجب أن تتوفر في المسلمة حتى تكون مسلمة حقا فأعظم آية جمعت الصفات التي يجب على المسلم أن يتحلى بها هي آية الأحزاب ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. إلى آخر الآية فهذه الآية جمعت الصفات التي يجب أن يتحلى بها كل مسلم ومسلمة.

اتصال من الأخ زياد من تونس هناك كثير من الناس لم يفهم الشفاعة فهما سطحيا وبسيطا مما يدفعه عن التواكل والقعود عن العمل فنرجو من فضيلة الشيخ أن يوجه نصيحة عامة في هذا الشأن.

أظننا قررنا مسألة العمل وأكدنا عليها في هذا البرنامج أكثر من مرة وذكرنا هذا القول الحكيم ما بال دينك ترضى أن تدنسه وثوبك الدهر مغسول من الدنس ترجو النجاة ولم تسلك طريقتها إن السفينة لا تجري على اليبس فترك العمل توكل على الشفاعة هذا خطأ عظيم جدا الشفاعة لمن قال لا إله إلا الله مخلصا بها قلبه ولا تتمكن هذه الكلمة من قلب إلا وتثمر العمل الصالح ولابد كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً

طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥]. فعلى كل راج شيئا أن يأخذ بالأسباب التي تؤدي به إلى تحقيق رجاءه أما الرجاء مع عدم الأخذ بالأسباب فهذا تمني والتمني لا يتحقق أبداً.

سؤالي هو نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة مهداة فكيف يقول له المولى الكريم ﴿ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾. هل كان صلوات الله وسلامه عليه يتعجل عذاب وعقاب الكافرين أرجو التوضحي وجزاكم الله خيرا.

لا شك أن الفطرة البشرية ولاسيما في وقت الاستضعاف والاضطهاد والتعذيب تتطلع إلى تعجل النصر تتطلع إلى تعجل النصر كفطرة بشرية لكن الله سبحانه وتعالى دائما كان يوجه النبي إلى الصبر ويحثه عليه والنبي صلى الله عليه وسلم بدوره كان يحث أصحابه على الصبر ويرغبهم فيه فالتطلع إلى النصر وإلى هلاك الظالمين هذه فطرة بشرية قد لا يستطيع الإنسان دفعها كما هو واقعنا اليوم كلنا نتطلع إلى الخلاص وكلنا ننتظر الفرج من الله سبحانه وتعالى لكننا نصبر أنفسنا حتى يأذن الله عز وجل.

الأخ عبد الحميد من الجزائر يقول ما الفرق بين أز الشيطان للكافرين ووسوسته للمؤمنين.

نسأل الله العافية الشيطان إذا تسلط على الكافر قلنا دفعه إلى المعاصي دفعا فلا ترى الكافر إلا سريعا في معصية الله بطيئا عن طاعته أما المؤمن فالشيطان يوسوس له لكن لا يؤزه ولا يدفعه يوسوس له ثم الإيمان والتقوى في القلب حسب قوتها وضعفها تدفع هذه الوسوسة وتضدها كما ذكرنا كما ذكرنا قبل قول الله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

اتصال من الأخ عبد العزيز من السعودية الله يقول في سورة المؤمنون ذكر الله عز وجل في الأقواس الخمسة الإنسان وختم بها قول الله تعالى ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤]. هل هناك معنى يا شيخ أو هناك سبب في اختيار الله عز وجل في هذه الكلمة يعني مثلا ما اختار الله عز جل قال سبحان الله أحسن الخالقين.

يعني سؤال عن لفظة تبارك وأحسن يعني. لا هذا القرآن لا يسأل ولا يورد ولا يسأل عن كلام الله بهذا الكلام.

اتصال من الأخ مبارك من مصر سؤالنا أمامنا مسجد يصلي به أحد المبتدعة هل يجوز لي الصلاة وراءه وشكر.

المبتدع لا يصلى وراءه إلا عند الضرورة إذا تعين بمعنى أننا في الصلوات الخمس المساجد والحمد لله كثيرة تقام فيها الجماعة فإذا ابتليت بمسجد قريب منك وإمامه مبتدع فاتركه وتجاوزه إلى إمام آخر من أهل السنة وإن بعدت المسافة فلك بكل خطوة حسنة لكن أحيانا يتعين علينا أن نصلي وراء المبتدع مثل لو كانت مثلا سنة التجميع تجميع الجمعة في المسجد مقامة والقرية ليس فيها إلا مسجد واحد تقام فيه الجمعة أو مثل صلاة العيد تقام في الخلاء وكل البلد يصلون خلف إمام واحد ففي مثل هذه الصلاة في مسجد الجمعة وفي صلاة العيد في الخلاء إذا ابتليت بإمام مبتدع لزمك أن تصلي وراءه ولا يجوز لك أن تترك الصلاة خلفه لأجل بدعته لأنك في هذه الحالة إما أن تصلى وإما أن تصلي فلزمك الصلاة لأن الصحابة رضوان الله عليهم صلوا خلف كل بر وفاجر وهذا من عقيدة أهل السنة والجماعة كما قال الإمام الطحاوي رحمه الله ونرى الصلاة خلف كل بر وفاجر وذلك إذا تعينوا لكن عند السعة نتركهم ولا نصلي وراءهم لكن إذا تعينوا لا يجوز أن نترك الصلاة خلف مبتدع من أجل بدعته والله تعالى أعلم.

اتصال من الأخت أم سارة من السعودية

جزاها الله خيرا ونشكر لها حرصها واطلاعها هناك حديث (لا يرد القدر إلا الدعاء) وهناك حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أن أم حبيبة بنت أبي سفيان قالت اللهم متعني بأبي سفيان وأخي معاوية وزوجي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لقد سألت الله لآجال معلومة أو مضروبة لكنه ثبت عنه صلى الله عليه وسلم دعا لأنس بن أبي مالك بطول العمر وقد وردت أحاديث (من أحب أن ينسأ له في أثره ويبسط له في رزقه فلصل رحمه) فتكلم العلماء على مسألة زيادة العمر ونقصه بالتعاطي وبالمعاصي وهل هي زيادة حسية ونقص حسي أم زيادة معنوية بمعنى من اجتهد في طاعة الله في بر الوالدين وصلة الأرحام ونحو ذلك الله يبارك له في عمره وإن قصره فيفعل في العمر القصير ما لا يفعله غيره في العمر الكثير أم أنه يكون عمره ستين عاما أو ستين سنة فالله سبحانه وتعالى يجعلها بزيادة بالدعاء وبالأعمال الصالحة سبعين مثلا أو تسعين تكلم العلماء في الزيادة كما قلت هل هي حسية أو هي معنوية والأرجح أنها زيادة حسية ولكن هذا بالنسبة لما في أيدي الملائكة من الصحف أما اللوح المحفوظ فقد سبق فيها بعلم الله وقضائه كل ما هو كائن إلى يوم القيامة لا مبدل لكلمات الله عز وجل لكن الله سبحانه وتعالى في أيدي الصحف التي بأيدي الملائكة يقول يا ملائكتي فلان هذا إذا وصل رحمه وإذا لم يصل رحمه يكون علمه كذا وقد سبق في علم الله أنه سيصل ويكون عمره كذا أن أنه لم يصل ويكون عمره كذا والله تعالى أعلم فهذا معنى ما سألت عنه الأخت الفاضلة وجزاها الله خيرا.

اتصالين الأول من الأخ أبو يحيى من مصر شيخنا قلتم في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾. إن الورد هو الدخول وقلتم بارك الله فيكم في قوله تعالى : ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾. أن الورد هو المشي أو العطش فالسؤال كيف نفرق بين المعنيين في الكلمة الواحدة في القرآن وما هو الظابط الذي يظبط هذه الفروق بين المعاني في الكلمة الواحدة المعاني المختلفة في الكلمة الواحدة.

جزاكم الله خيرا أخي فضيلة الشيخ معنا اتصال آخر من الأخ أمجد من مصر بالنسبة لقول الله سبحانه وتعالى ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤]. يعني معنى كلمة أحسن الخالقين.

هو في الظاهر عندنا اختلاف في الكلمتين وارد وورد وارد هذا هو الورود (كلمة غير واضحة) أما الورد فهذا الذي فسره العلماء بأنه المشي أو العطش فهناك اختلاف في اللفظتين ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾. ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾. ففيه لفظة وفيه فارق لفظي في الكلمتين.

أحسن الخالقين هل هناك خالق إلا الله وهو يقول ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾. هل هناك خالق غير الله حتى يكون ربنا أحسن الخالقين الجواب أن الخلق هنا بمعنى التقدير ولذلك كان من معجزات عيسى ابن مريم عليه السلام قوله ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٤٩]. أخلق لكم أي أقدر هنا فالخلق معناه التقدير ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ أي أحسن المقدرين فلا خالق بمعنى الخلق الذي هو الإيجاد من العدم إلا الله سبحانه وتعالى.

اتصال من الأخت أم هيثم من مصر أسأل عن قول (كلام غير واضح) وهل هو قول العلماء.

لا هذا حديث هذا حديث مرفوع وتستطيعين أن تحصلوا عليه إذا فتحتي رياض الصالحين في باب الأمانة ستجدي هذا الحديث بلفظه هذا إن شاء الله.

اتصال من الأخ محمد بكري من مصر رأي الشيخ عن تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا والشيخ محمد عبده.

تفسير الشيخ رشيد رضا تفسير رائع وجيد إلا أن هناك بعض الهفوات لا تقدح في التفسير ولا تعيبه وكـذلك القول في تفسير الإمام محمد عبده رحمه الله هناك تفسير جيد لكن مع الحذر منه ولذلك نحن نقول على الطالـب أن يبتدئ القراءة التي يثق فيها تمام الثقة حتى إذا أشرب قلبه هذا العلم كان علما صحيحا لأن الإنسان إذا بـدء بالقراءة من أي كتاب أشرب قلبه ما قرء ثم قد يكون فيه شيء غير صحيح فيصعب أن يخلص نفسه منه بعد ذلك فلذلك لا نقول للطلاب لا تبدءوا بالكتب الكبيرة هذه ولا الكتب التي لا تطمئنوا إليها ابدءوا كما قلنـا بمختـصر تفسير ابن كثير لشيخنا الرفاعي ابدءوا بتفسير السعدي ابدءوا بتفسير الجزائري مشايخ أهل السنة المشاهير الذين تأخذ منهم وأنت مطمئن بإذن الله عز وجل.

فضيلة الشيخ استأذنكم إذا كان أحد من الشباب لديه أي سؤال أو أي استفسار تفضل يا أخي فـضيلة الـشيخ فضيلتكم عندما كنتم تشرحون ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾. فجاء على خاطري سورة الزمر في آخرها يقول الله الرحمن تبارك وتعالى ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَـراً ﴾ [الزمر: ٧١]. وبعدها بآية ﴿وَسِيقَ الذينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الجَنَّةِ زُمَراً ﴾ [الزمر: ٧]. فسياق المجرمين معروف أو سياق الكفرة معروف لأنهم لا يريدون أن يدخلونها مما فيها من العذاب فما يكون الداعي لأن يساق المتقين إلـى هذه الجنة ويعلمون ما فيها من الخير السؤال الثاني أنه في آخر سورة مريم ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾. فهل يكون المقصود باللسان اللغة لغة العرب أو غيرها وجزاكم الله خير.

السؤال الأول ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً ﴾ ﴿وَسِيقَ الذينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الجَنَّةِ زُمَراً ﴾. هـؤلاء سيقوا وهؤلاء سيقوا نحن قلنا في سورة الكهف في قصة الخضر ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾ [الكهف: ٧٩]. قلنا الوراء معناه الخلف فإذا حملنا اللفظ على ظاهره الوراء بمعنى الخلف قد يكون الملك وراءهم إذن هم تجاوزوه لماذا يعمد الخضر إلـى عيـب السفينة وهم تجاوزوا الملك وانتهى قلنا أن الوراء من الألفاظ التي تطلق على الشيء وضده وراء بمعنى الخلف وراء بمعنى الأمام وهي هنا بمعنى الأمام وكذلك لفظ سيق في الموضعين في الموضع الأول جيء في موضـع الإهانة والإذلال والموضع الثاني جاء في موضع التكريم والتشريف.

أما السؤال الثاني سؤالك الثاني ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾. قلنا اللسان يطلق على اللغة وعلى الكـلام ولـذلك سبق في السورة في حق الأنبياء عليهم السلام ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ﴾. قلنا المراد باللسان الثناء عبر عـن الثناء باللسان لأنه يكون باللسان كما أن العرب تطلق على النعمة اليد يقول لفلان عندي يد أي نعمة لأن النعمـة تكون باليد.

فضيلة الشيخ جزاكم الله خيرا ولكن لي استفسار بسيط في السؤال الأول من بعض المشايخ سمعت أن هنـاك المؤمنين عندما يقفون أمام الجنة سينظرون وراءهم وينظرون ويبحثون عن أناس كانوا معهم فـي مـساجد الله فيتأخرون عن الدخول فيساقون إلى الجنة تسوقهم الملائكة إلى الجنة فهل في هذا شيء ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم.

أنا لا أعرف هذا لا أعرف الذي ذكرت أنهم يتفقدون إخوانهم قبل دخول الجنة فإنما في الحديث الصحيح أنهم يتفقدون إخوانهم عند دخول الجنة إذا دخل أهل الجنة الجنة تفقدوا إخوانا لهم حتى إنه قال يعني ما أنـتم بأشـد مناجاة يعني في معنى الكلام يعني أنهم يجادلون الله تبارك وتعالى ويناشدونه في إخوانهم أشد من مجادلة الرجل أخاه في حق له عنده يقولون ربنا كانوا يصلون معنا ويصومون معنا فما يزالون بالله حتى يشفعهم فيه هذا التفقد في الحديث إنما يكون بعد دخولهم الجنة.

اتصال من الأخ جمال فاروق من مصر هل من مزيد في الكتب والوصايا المنبرية.

أي نعم الأربعنيات وصلت إلى عشرة أربعينيات لو تتبعت ستجد إن شاء الله أخ جمال جزاء الله خيرا.

اتصال من الأخت أم محمد من الكويت سؤالي بالنسبة للصراط المستقيم بالنسبة للورود إلى جهنم هل هو يعني هو مفهومي من قبل أن الورود يكون ماشي على الصراط من تحت جهنم أو هو دخول جهنم نفسه.

نسأل الله أن يجعلنا والسائلة وجميع المسلمين ممن ينجيهم الله سبحانه وتعالى كما قال ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَواْ ﴾. المرور يكون في وسط جهنم ثم إنها تكون بردا وسلاما على المؤمنين كما كانت على الخليل إبراهيم في الدنيا وكل على حسب عمل كل على حسب أعماله منهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كطرف العين ومنهم من يمر كراكب جواد ومنهم من يمر يجري على رجليه ومنهم من يحبو ومنهم من يقع نسأل الله السلامة والعافية فالورود معناه الدخول لكن المؤمنون على حسب أعمالهم يكون إحساسهم بالنار حتى إنه ورد في بعض الآثار لكنها ضعيفة أن المؤمنين لما يجوزوا الصراط ويعدوا الناحية الثانية من النار يسألون إحنا هل مررنا على جهنم هل عبرنا الصراط لأنهم لا يشعرون بها تماما فنرجو من الأخوة أن لا يبلغ بهم الخوف مبلغا شديدا يعني يجعلهم يردون القول لكن نقول هذا من أرجح أقوال المفسرين أن الورود هو الدخول لكن إن شاء الله تكون النار بردا وسلاما على المؤمنين بإذن الله عز وجل.

الأخت ناني إبراهيم من السعودية تقول أرجو منك مشكورة عرض مشكلتي على الشيخ فأنا مشغوفة بطلب العلم ومنذ افتتاح قناة المجد العلمية بارك الله فيها وأنا مشغولة بمتابعة الدروس ليلا ونهارا لدرجة أنني لا أجد وقتا لقراءة القرآن الكريم تلاوة وحفظا كذلك صلاة أربع ركعات قبل العصر تركتها لأن الوقت لا يكفي حتى أنني أجد قساوة في قلبي ما العمل لا تقل خصصي وقتا فمشاغل البيت والوظيفة تزاحمني أيضا أرشدني أرشدك الله.

نسأل الله أن يهدينا سبيل الرشاد مما وصى به علماء السلف طلاب العلم أن يحفظوا القرآن أولا أن يبدءوا بحفظ القرآن ثم وصوا من فرغ من حفظ القرآن ألا ينشغل بطلب العلم عن حفظ القرآن الكريم بل يجب التعاهد وتجب المراجعة هكذا وصوا السلف رضوان الله عليهم بطلب العلم يبدأ أولا بحفظ القرآن الكريم فإذا أنعم الله عليه به فلابد أن يتعاهد القرآن ولا يجوز له أن ينشغل عن القرآن بأي علم أبدا بل يجب أن يتعهد القرآن بمراجعة كل يوم ورد مهما كانت الأشغال ومهما كانت الواجبات والمسؤوليات وبعدين ﴿ مَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ﴾ [الطلاق: ٤].

فضيلة الشيخ الأخت سمية من السعودية تقول هل محبة الناس للصالحين دليل مطلق على أنهم من المتقين.

يعني نقول أن محبة الناس وأعني بالناس المؤمنين الصادقين نريد المحبة الدينية لا المحبة العاطفية التي تكون للبر وللفاجر لأ المحبة الإيمانية في قلوب المؤمنين لإنسان تقي تدل على أن هذا من حب الله سبحانه وتعالى أحبه الله فحببه إلى عباده والمحبة ما دام الله أحب وحببه إلى عباده فلا شك أنه عند الله مقبول بإذن الله عز وجل.

الشيخ/ د. عبد البديع أبو هاشم

الدرس الأول
طه (الآيات ١– ٨)

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه، وبعد:

إن شاء الله تعالى نستفتح الدروس بالتعريف بسورة طه ، ثم ببيان معاني المفردات التي تبدوا فيها غرابة في الآيات الثمانية الأولى من هذه السورة، ثم تناول ما يعتبر سبباً للنزول في هذه الآيات، وبعد ذلك: المعنى العام للآيات الثمانية الأولى من هذه السورة، باعتبار ترابطها حول موضوع واحد، ثم في النهاية دروس وعبر مستفادة من خلال هذه الآيات. ونستمع إلى الآيات الثمانية الأولى:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ طه ﴿١ ﴾مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢ ﴾إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٣ ﴾تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ العُلَى ﴿٤ ﴾الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥ ﴾لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦ ﴾وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧ ﴾اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى ﴿٨ ﴾ ﴾ [طه: ١–٨].

الحمد لله الذي خلق الأرض وطحاها ورفع سمك السماء وسواها، وبرأ ما بينهما من مخلوقات وأحصاها، وكل شيء منه – سبحانه وتعالى – مبداها وإليه منتهاها، وهو الله الذي له من الأسماء أحسنها ومن الصفات أعلاها، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ذلكم النبي – صلى الله عليه وسلم– الذي علم الأمة كل شيء حتى الطير في سماها،وبعد.

سورة طه إحدى سور القرآن الكريم وهي سورة نبدأ بتعريفها أولاً، فهكذا عرفت منذ أن أنزلها الله تعالى باسم طه، والراجح عند العلماء أن الذي سمى سور القرآن بأسمائها إنما هو الله– سبحانه– وهذا ما يقال عنه: إن أسماء السور توقيفية، أوقفنا الله عليها فليس لنا أن نتقدم عليها أو نتأخر بتغيير أو بتبديل إلا على سبيل بيان أمر معين في السورة أو أن السورة ركزت على هذا الموضوع، فبعض العلماء أحياناً يقولون على بعض السور: إنها سورة كذا، كما قالوا على سورة طه: إنها سورة موسى؛ لما فصل الله تعالى في هذه السورة من خبر نبيه موسى– عليه السلام– ولأن موسى هو الكليم فقال بعض العلماء: سورة الكليم، أما الاسم التوقيفي الذي أوقفنا الله عليه وعرفت به السورة من لدن عهد النبوة إلى الآن، إلى أن تقوم الساعة وثبتت به في المصاحف هو اسم "طه".

هذه السورة جاءت بهذا الحجم الذي كتب في المصاحف، وحفظه الحفاظ، ويقرؤه القراء؛ غير أن تقسيم هذا القدر إلى آيات اختلف العلماء، وتنوعت أقوالهم في تقسيم هذا القدر إلى آيات، فبعضهم عد هذه السورة مائة وثلاثاً وأربعين آية، وبعضهم وصل بها إلى مائة واثنتين وثلاثين آية وما بين ذلك.[١٣٢–١٤٣]

هذا نريد أن ننبه إليه حيث لا يضر ولا ينفع أو لا يؤثر في فصاحة القرآن ولا في قداسة القرآن أن يختلف عد العلماء لآيات سورة معينة حيث إن الاختلاف يأتي في العدد وليس في المعدود، المعدود واحد فلو جاء عالم من هنا وعالم من هناك ولو جئنا بمصحف من هنا ومصحف من هناك، لو جئنا بمصحف منذ عهد سيدنا عثمان –

رضي الله عنه- أو من عهد العلماء من بعد ذلك إلى الآن ومصحف من بلد آخر فنجد نص السورة نصاً واحداً لا يزيد كلمة ولا ينقص كلمة، الكل يقرأ نصاً واحداً، المصاحف كلها اشتملت على نص واحد، إنما اختلف العلماء وتنوعت أقوالهم في عد هذا القدر كم آية؟ وهذا كان له مبرره أو سببه، حيث إن بعضهم رأى أن الحروف المفردة في أوائل السور مثل حرفي: «طه» في أول هذه السورة و «الم» في أوائل بعض السورة وغيرها ونحوها رأوا أن هذه الأحرف تعتبر آية مستقلة، لأنها تقرأ على خلاف ما تقرأ به بقية السورة، فبعضهم عدها آية، وبعضهم رأى أنها حروفاً فلا تستقل بكونها آية ومن هنا اختلف العدد بين العلماء، بين واحد يعتبرها آية وآخر لا يعتبرها آية.

كذلك نظروا في البسملة هل هي آية من كل سورة تعد ضمن عدد آيات السورة أم أنها مجرد استفتاح لكل سورة عدا سورة براءة؟ هذا الاختلاف أيضاً حول البسملة – وهو اختلاف معتبر وله مبرراته- ترتب عليه زيادة العدد هنا مرة ونقص العدد هناك مرة أخرى.

ثالثاً: اعتبارهم لما وقف عليه النبي – صلى الله عليه وسلم – أثناء قراءته للآيات، هل كل وقف يعتبر آية؟ لا... النبي – صلى الله عليه وسلم – ورد عنه أنه كان يقف عند رؤوس الآيات فبعضهم عد كل وقف ورد عن النبي – صلى الله عليه وسلم- رأس آية فزاد العدد عنده، وبعض العلماء سلم أن النبي – صلى الله عليه وسلم – فعل ذلك في أول الأمر فقط حتى يعلم الصحابة فواصل الآيات وخواتيمها، فلما أدرك الصحابة ذلك وتعلموه صار يقرأ قراءة تتوقف أو تتجه إلى بيان المعنى أكثر حيث إنه ربما قرأ آية مستقلة ووقف عند نهايتها، وربما قسم الآية على جزئين وربما قرأ آيتين معاً في قراءة واحدة فبالتالي لم يعد كل وقف للنبي – صلى الله عليه وسلم – آية كما عدها الآخرون، إنما اعتبر في ذلك فواصل الآيات وما يشبهها، ولهذه الأسباب تعددت كلمات العلماء في عد آيات بعض السور فهذا الاختلاف كما رأينا لا يضر حيث إنهم – جميعاً باختلافهم هذا- يقرؤون نصاً واحداً للسورة الواحدة دون اختلاف بينهم إنما الاختلاف فقط وقع في تقسيم هذا القدر من القرآن إلى آيات، فحينما نقرأ هذا في كتب التفسير لا ننزعج له ولا يذهب بنا الظن إلى أن عدد آيات السورة يزيد هنا وينقص هنا، إنما هو عدد فقط، يختلف فيه وحوله العلماء أما نص السورة فهو نص واحد وبالتالي فكلمات القرآن كلها واحدة عند جميع العلماء لا يختلف في شيء منها.

سورة طه سورة مكية، وأرجح الأقوال والاعتبارات عند العلماء في المكي والمدني: أن المكي هو ما نزل قبل هجرة النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى المدينة. والمدني هو ما نزل بعد هجرة النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى المدينة. فهذه السورة مكية يعني: نزلت قبل الهجرة النبوية، والعلماء اهتموا بهذا وببيانه، حيث إن ما نزل من القرآن في العهد المكي كان له طابعه وكان له خصائصه، إنه يناقش قضايا معينة ويواكب فكراً معيناً ويواجه أحداثاً مخصوصة في ذلك العصر قبل الهجرة، ويعد الأمة في طفولتها وبدايتها؛ ولذلك تجد القرآن أو ما نزل من القرآن قبل الهجرة يراعي أموراً معينة ويخاطب مخاطبة مخصوصة تتلاءم مع المخاطب الموجود في العهد المكي: كافر صريح، جريء يصرح بالكفر عن نفسه دونما كتمان ودون تعريض إنما صراحة وينكر إنكاراً صريحاً فهذا يحتاج إلى مخاطبة معينة بخلاف المخاطب في المدينة، كان ما بين مسلم يقول: سمعنا وأطعنا، وما بين منافق يقول: سمعنا وفي الباطن يخفي الكفر ولا يتبع. وأهل كتاب من بني إسرائيل يتظاهرون أيضاً بالموافقة على هذا الحق المبين، ولكن قلوبهم أيضاً منكرة وجاحدة، فيختلف أسلوب الخطاب من مخاطب إلى آخر. راعى القرآن هذا الأمر ونزل في كل مرحلة بما يتناسب مع المخاطب، البيئة التي يعيش فيها وطبيعة معاملته ومقابلته للقرآن النازل عليه، ولا عجب فالقرآن كلام الله والله هو الحكيم – سبحانه وتعالى – ففعله وقوله كله حكمة متناسبة مع مقامها وظروفها، فكانت هذه السورة – سورة طه – سورة مكية؛ ولذلك كما سيتبين من محاورها سنجد أنها تراعي الأحوال الموجودة في العهد المكي.

سورة طه وغيرها من السور يتساءل حولها العلماء عادة في نقطة ومسألة من المسائل ألا وهي فضل السورة، هل لسورة طه أو لسورة كذا فضل؟ يقصد بهذا السؤال: هل لها خاصية من بين السور؟

أثبت الله لبعض السور فضائل مخصوصة كسورة النور مثلاً قال الله في شأنها ﴿ سورة أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النور: ١] هذا تكريم وتشريف من الله لسورة النور، فكل القرآن سور أنزلها الله، وسرد الله أحكامها وجعل فيها آيات بينات، فكونه ينص على هذا في خصوص سورة معينة يدل على شرف وفضل هذه السورة بشكل زائد. هذه خاصية من خواصها. وحين يمتن الله تعالى على النبي – صلى الله عليه وسلم– بإنزال الفاتحة مع إنزال القرآن الكريم، ولكن يذكر الفاتحة ذكراً خاصاً مع ذكر عمومها كما قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ المَثَانِي وَالْقُرْآنَ العَظِيمَ ﴿٨٧ ﴾ ﴾ [الحجر٨٧] لو قال: ولقد آتيناك القرآن العظيم فهذا يكفي يشمل سورة الفاتحة وغيرها، ولكن حين يخص سورة الفاتحة مع ذكر عمومها وهو القرآن فهذا يدل على شرف سورة الفاتحة، كما بينت السنة شرف فضائل بعض السور، ويؤخذ في ذلك ويعتمد فيه على الأحاديث الصحيحة فقط، في بيان خصائص بعض السور كخاصية سورة البقرة وآل عمران وسورة الزلزلة وسورة الصمد والمعوذتين وهكذا. أما السور التي لم يرد في فضلها شيء مخصوص فليس معنى ذلك أنها مفضولة فلا نقول: سورة كذا أفضل من سورة كذا، إنما القرآن كله فاضل غير أننا نذكر خصائص بعض السور.

سورة طه لم يرد في فضلها– فيما أعلم– حديثاً صحيحاً يقال فيها، ولكن ثبت لها من الفضل الفضلُ العام للقرآن كله، فهي سورة من كلام الله، وكلام الله غير مخلوق وكلام الله أعلى كلام، والقرآن أحسن حديث تكلم الله به كما قال: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ ﴾[الزمر: ٢٣] ومنه سورة طه والقرآن كله متعبد بتلاوته لا تصح الصلاة إلا به ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾ [المزمل: ٢٠] وسورة طه تصلح للصلاة بها، وهذا أيضاً من فضلها أيضاً ومن شرفها (ومن قرأ من القرآن حرفاً فله بكل حرف حسنة، والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف) وكذلك الطاء حرف والهاء حرف وكل حرف من سورة طه يقرأ فعليه حسنة والحسنة بعشر أمثالها ويضاعف الله لمن يشاء وهكذا يثبت لسورة طه ولغيرها الفضل العام الثابت للقرآن الكريم .

سورة طه وكل سور القرآن الكريم سور متعانقة كحلقات في سلسلة واحدة بحيث تنتقل من سورة إلى سورة فلا تشعر بخلل ولا تشعر بقطع، إنما تنتقل بك السورة إلى التي تليها وكأنك تقرأ في سورة واحدة، وتقرأ في كلام متصل مع الأخذ في الاعتبار أنه ربما كانت السورة المنتهية السابقة مدنية مثلاً والسورة التي بعدها مكية أو العكس من سورة مكية إلى سورة مدنية وكأنك تقرأ كلاماً واحداً متصلاً لم يكن نازلاً على فترات هكذا وكأنه قيل في ساعة واحدة.

فهذا يضفي على القرآن تناسقاً وتناسباً عظيماً كما قال ربنا– سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ﴿٨٢ ﴾ ﴾ [النساء: ٨٢]، سورة طه بين سورة مريم وبين سورة الأنبياء في مكانها المناسب الحكيم جداً، مما يدلنا على غاية حكمة الله تعالى وعظمة حكمته، فسورة مريم ليس المقصود منها ذكر مريم وإنما ذكر منبت نبي الله عيسى– عليه السلام– من أين نشأ؟ ومن أين جاء؟ وكيف جاء الله به بطريقة عجيبة، فسورة مريم حديث عن سيدنا عيسى بن مريم– عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام– وأنه كان نبياً ولم يكن إلهاً، وأنه كان بشراً إلى آخر الحديث عن عيسى كما في سورة مريم.

وسورة طه يدور حديثها – كما سنعرف إن شاء الله– حول نبوة سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم– بالأدلة التي تؤيد ذلك، لكن هذا محور حديثها، وبعد ذلك سورة الأنبياء السابقين وهكذا الأمور متصلة، هذا هو عيسى آية الله وهذا هو موسى كليم الله في سورة طه كدليل وبرهان على نبوة سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم– وبعد ذلك سورة الأنبياء، فما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وهو حلقة من هذه السلسلة المباركة

المضيئة، وهكذا تتناسب السورة بموضوعاتها الرئيسة وبمحورها الأساس التي تدور حوله بآياتها وموضوعاتها ولذلك – كما سيتبين إن شاء الله– هدف هذه السورة هو إثبات نبوة سيدنا محمد –صلى الله عليه وسلم– بالأدلة التي تؤكد ذلك هذا هو هدفها المجمل، أما محاورها التي دارت حولها ويسميها بعض المفسرين: موضوعات السورة. السورة تكاد لا تخرج عن محاور ثلاثة:

المحور الأول: هو الذي نتحدث عنه في هذه المحاضرة وفي هذا اللقاء وهو: إثبات رسالة النبي محمد– صلى الله عليه وسلم – الإخبار بذلك مع ما يؤكده.

المحور الثاني: عرض قصة موسى– عليه السلام– عرضاً مفصلاً بما يشير ويوضح أن بعثة النبي محمد– صلى الله عليه وسلم – ليست عجيبة من الأمر وليست بدعاً من القول ولا بدعاً من الرسالات، إنما هي حلقة موصولة بالرسالات السابقة قبلها كما جاءت ملخصة في قول الله تعالى ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعلى: ١٨،١٩] أي أن ما نزل على محمد – صلى الله عليه وسلم – من أصل الديانة وهو التوحيد ومن أصول الفضائل والفرائض وما إلى ذلك إنما هو موجود في رسالة السابقين، فدين الله واحد هو الاستسلام لله – تبارك وتعالى– بالشريعة التي شرعها.

المحور الثالث: وأخيراً في محاور السورة: قضية البشرية مع الوحي: لماذا يوحي الله تعالى إلى البشرية؟ وما دور البشرية تجاه هذا الوحي؟ من خلال عرض مختصر لموقف من حياة سيدنا آدم – عليه السلام– حين أدخله الله الجنة وعرض عليه الأمر والنهي: كُلْ من الجنة كما شئت رغداً، ولا تأكل من هذه الشجرة فقط مثال للحلال الكثير، ومثال للحرام القليل، وقدر الله على آدم دون غيره من البشر، قدر على آدم فقط تقديراً أن يخطئ فيأكل من الشجرة بقدر الله؛ حتى يعلمنا الله تعالى أن الذي يوقعنا في الشر وفي العصيان إنما هو الشيطان بوسوسته وإغوائه و ما إلى ذلك، وكيف ننهض من كبوتنا من الشيطان بالتوبة، ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [البقرة: ٣٧]، وكيف أننا خلقنا لا للأرض وإنما للجنة وإنما جعلت هذه الأرض تمهيداً ومزرعة للآخرة ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٤] ، أي لهي الحياة الحقيقية، فخلقنا الله في الأرض لنستثمر ما أعطانا الله من نعم في الحصول على أسباب دخول الجنة والترقي فيها بفضله وكرمه سبحانه وتعالى.

هذه مقدمة نتعرف من خلالها على سورة طه، وهكذا برزت في ثلاث محاور وحول موضوع واحد أو هدف أساس وهو ثبوت نبوة سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم .

نبدأ هذه السورة بتناول الآيات الثماني الأولى منها ونبدأ الحديث في ذلك ببيان بعض المفردات التي تبدوا غريبة في هذه الآيات:

كلمة (طه) الصحيح فيها أنها حروف: حرف الطاء وحرف الهاء، هذا هو ما يظهر منها، أما كلمة(لتشقى) فالشقاء من الشقاوة فأصل هذه الهمزة منقلبة عن واو، شقاء. والشقاء هو فرط التعب من العمل، من عمل وكد وتعب فقد شقي بعمله والشقاء كذلك – الشقاء المعنوي– هو هم وغم يصيب النفس، ويكون في القلب فيتعب البدن بناء على ذلك، وكأن القرآن أنزل لرفع الشقاء عن البدن وعن القلب، كما سيتبن تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى.

﴿ إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴾التذكرة: هي استظهار ما في الباطن من أمور قد نسيها الإنسان، وهكذا جاء القرآن يذكرنا بما فينا من فطرة كأننا ننساها ولا ننتبه إليها فقد جعل الله تعالى فطرة في البشرية وفي المخلوقات تهتدي بها إلى الله، ولكن البيئة التي ينشأ فيها الإنسان قد تنسي الإنسان هذه الفطرة وعواملها ومظاهرها وما تؤدي إليه من معارف، فإذا بهذا الدين يذكرنا بهذه الفطرة ولذلك تجد الدين مع الفطرة متجاوباً دائماً، سأل النبي – صلى الله عليه وسلم– الرجل الذي أراد أن يباح له الزنا: أترضاه لأمك؟ لأختك؟ لابنتك؟ لعمتك؟ لخالتك؟ قال: لا. لا. لا.

قال: وكذلك الناس فاقتنع الرجل بالفطرة فحينما يأتيه القرآن ويقول له: ﴿ وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى ﴾[الإسراء: ٣٢] يتجاوب النهي القرآني مع ما نطقت به فطرة هذا الرجل الذي كان يريد أن يستبيح الزنا بإذن شرعي من رسول الله– صلى الله عليه وسلم– لكن حدثه عن الزواج، فإذا بنفسه تستجيب وفطرته تتلاءم مع الأمر بالزواج، فجاء الدين بالقرآن والسنة يذكر البشرية بما فيها من فطرة سليمة قد عماها وغماها عن الإنسان ما يعيش فيه من أحداث وبيئة وأسرة ونحو ذلك كما قال النبي – صلى الله عليه وسلم–(ما من مولود إلا يولد على الفطر فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) يعني يغيران الفطرة أي يطمسانها ويغطيان عليها بأمور أخرى، يوم أن تأتي الآيات الشرعية تزيح ذلك الغطاء فتبدوا الفطرة وتتجاوب وتتلاقى مع الشريعة، فالتذكرة هي استظهار ما في النفس من أمور قد نسيها الإنسان ﴿ إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴾ الخشية: يبدوا منها دائماً وغالباً معنى الخوف فيقال: خشي بمعنى خاف، لا.. ليس بهذا الصورة قد تؤدي إلى الخوف.. نعم، لكن الخشية: هي حسن التقدير للأشياء بما يؤدي إلى حسن الانتفاع بها، حينما أعرف الشيء الذي أمامي وأحسن تقدير قيمته وأثره وفعاليته أحسن استخدامه وأحسن التعامل معه. كشخص لا يعرف من أمامه فيعامل هذا كهذا ولا يميز بين الناس، ولكن حينما يعرف قدر هذا أنه عالم وهذا رجل كبير في السن، وهذا والد وهذا والدة، وهذا قريب وهذا غريب، وهذا مؤمن وهذا كافر وهكذا، عرف قيمة كل ما حوله فيستطيع حينئذ أن يعطي كل ذي حق حقه. الخشية هكذا ولذلك دعى سيدنا موسى – عليه السلام– فرعون عليه اللعنة بتوجيه من الله سبحانه وتعالى: ﴿ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى ﴿١٨ ﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿١٩ ﴾ ﴾ هل الأنبياء يدعون الناس ليخيفوهم، الدين جاء ليخيفنا إنما جاء ليعطينا صورة حقيقية لما أمامنا وما حولنا فنتعامل مع كل شيء بقدره.

فرعون كان يؤله نفسه على الناس وليس بإله وكان يعبد آلهة من وراء الناس قال له الوزراء ﴿ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧] إذن كانت له آلهة يعبدها، حينما كان الناس لا يعرفون حقيقته عبدوه، حينما جهلوا أنه يعبد آلهة ظنوا أنه الإله الأعلى والأكبر كما ادعى عليهم، فموسى – عليه السلام– يدعو فرعون ليزيح الغشاوة من على عينيه وليزيح الريب من قلبه، فيرى أن الله الذي خلق السماوات وخلق الأرض وخلق الخلق وفعل كذا وأنعم بكذا، وجاد بكذا، هو الذي يحيي ويميت، حينما يعلمه عن الله علماً حقيقياً يعرف أن الله هو الرب الأعلى والإله الأوحد – سبحانه وتعالى– ويكف عن قوله: أنا ربكم الأعلى ، ماعلمت لكم من إله غيري.

لكن حينما غابت عنه هذه الحقائق ولو بكبره وطغيانه استطاع أن يقول هذا الادعاء الكاذب الذي تعجب منه الشيطان.

فالخشية هي حسن التقدير للأشياء عن علم ومعرفة وبالتالي نستطيع أن نتعامل معها بمعاملة حقيقية فنعطي كل ذي حق حقه.

كلمة الثرى: الثرى هو التراب وما تحته. كلمة العرش ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ﴾ العرش: خلق من خلق الله لم نره ولا نعلم حقيقته إلا بما ورد في السنة النبوية مما يصف العرش فهو عرش يليق بذات الله تبارك وتعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴿١١ ﴾ ﴾ [الشورى: ١١]، استوى عليه استواء يعلمه الله ويليق بجلال الله – عز وجل– أما العرش فيما نفهم كبشر وخلق فالعرش هو ما يجلس عليه الملك حين يحكم في قضايا الناس، هو كرسي الملك كما قال الله تعالى عن بلقيس ملكة سبأ: ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣ ﴾ ﴾ [النمل: ٢٣]، كرسي عظيم للملك تجلس عليه حينما تكلم وزراءها تستشيرهم في أمورها وهكذا.

الأسماء الحسنى: الأسماء جمع اسم والاسم هنا هو ما يطلق على الشخص أو على الشيء لتمييزه عن غيره، الواحد منا له اسم واحد وربما اسمان اسم حقيقي رسمي واسم شهرة مثلاً، لكن الذي له الأسماء هو الله– سبحانه وتعالى– الأسماء كلها الأسماء الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى هو الله وحده، أما أنا فلي اسم أو اسمان أما الذي

له الأسماء هو الله – سبحانه وتعالى– وأسماؤه كلها حسنى وحسنى مؤنث أحسن تقول: الشيء الفلاني أحسن من كذا، هذا الكتاب أحسن من الكتاب الآخر وهذه الورقة أحسن من الورقة الأخرى هي الورقة الحسنى إذا أردت أن تأخذ القمة في التحسين تقول: هذه الورقة هي الحسنى يعني أحسن الأوراق، فحسنى مؤنث أحسن ككبرى مؤنث أكبر.

الله– سبحانه– صفاته كلها حسنى تصفه سبحانه بالجلال والكمال وتنفي عنه كل نقص لا يليق بذاته سبحانه وتعالى.

هذه مفردات في الآيات الثمانية الأولى بيَّنا معانيها حتى إذا دخلنا في معاني الآيات كنا على ذكر لهذه المعاني.

أما سبب نزول هذه الآيات: فلا يشترط لكل آية سبب نزول فالله تعالى قد أنزل القرآن كله على سبب عام وهو هداية الخلق وإعجازهم أي إثبات عجزهم عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن هذا سبب عام وليتعبدوا به.

أما بعض الآيات وهو بعض قليل بالنسبة لبقية القرآن بعض الآيات وبعض السور بكاملها وخاصة في قصار السور نزلت على أسباب خاصة لحكمة أرادها الله– تبارك وتعالى– في تعليم هذه الأمة وتربيتها وربط الآية النازلة بحدث معين وهذا يكثر في آيات الأحكام وذلك ليعلمنا الله تعالى الحكم بطريقة عملية تطبيقية على حادثة مخصوصة بياناً عملياً وهذا أسلوب تربوي عالٍ نستفيده من القرآن الكريم.

وأسباب النزول مصدرها الوحيد الرواية، ولذلك لابد أن تكون الرواية صحيحة، وفي هذا المقام أنبه إلى ما نبه إليه الإمام ابن كثير –رحمه الله تعالى– حين ذكر رواية وكأنه أشار إلى ضعفها حين أخرج الإمام الطبري – رحمه الله تعالى– بغير إسناد عن الإمام مقاتل بن سليمان أحد المفسرين من التابعين –رحمهم الله تعالى– قال: قال: أبو جهل والنضر بن الحارث قالوا للنبي – صلى الله عليه وسلم– إنك لشقي بترك ديننا وذلك لما رأوا من جوده في بالعبادة واشتغاله بالرسالة وتبليغها وبذله العظيم من أجل ذلك، فقالوا له: إنك لشقي بترك ديننا. دين الجاهلية عموماً أي دين يخالف الدين السماوي هو دين يقتصر على الأكل على مراسم بسيطة لا يكلف الإنسان شيئاً ليس فيه تكاليف شرعية، فدين مريح جداً دين يدعو إلى النوم والكسل وترك العمل سواء في الدنيا أو في الدين، أما ديننا فدين يقيم الإنسان على قدمين وساقين عاملاً جاداً في حياته الدنيا والدينية فهو دائماً يدعونا إلى العمل من أجل عمارة الأرض، ومن أجل ادخار فرصة تدخلنا الجنة في الآخرة فلما رأوا جهد النبي –صلى الله عليه وسلم– في العبادة وفي تبليغ الدعوة والرسالة قالوا: له إنك لشقي بترك ديننا فأنزل الله تعالى: ﴿ طـه ﴿١ ﴾مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢ ﴾ ﴾ ولكن– كما سبق القول– هذا القول عن مقاتل –رحمه الله تعالى– كان بغير إسناد وما جهل إسناده يجهل الحكم عليه فلا يعتمد على مثل هذا.

المعنى العام لهذه الآيات يكون صياغة بما يستعمل في خطبة منبرية أو درس عام يقتصر على ذلك، أما تفسير الآيات فلا يحسن في هذا المقام الدعوي.

فالمعنى العام لهذه الآيات أن نقول مثلاً: إن الله تبارك وتعالى يخبر في هذه الآيات الأولى من سورة طه يخبر خبراً صادقاً صحيحاً يثبت فيه رسالة النبي محمد– صلى الله عليه وسلم– وكأنها مُسلَّمة من المسلمات أي قضية مسبقة لا خلاف عليها؛ ولذلك ترك التصريح بها إلى الإخبار عن حكمة إنزال القرآن وأنها ليس الشقاوة ولكن السعادة التي تفوز بها البشرية العاملة بهذا القرآن في الدنيا والآخرة، ثم يبين الله تعالى مصدر هذه الرسالة ﴿ تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ فالخالق سبحانه وتعالى أو الخلاق الذي خلق كل شيء هو الذي أنزل الرسالات السماوية على مر العصور وختمها برسالة القرآن الكريم أنزلها على النبي محمد – صلى الله عليه وسلم– ولئلا يقول قائل يركب عقله ويتبع هواه ورأيه: لماذا ينزل الآيات ويشرع الأحكام دون غيره؟ ولماذا يتأخر العقل عن النص

الشرعي فلا يتحكم فيه إلا بفهم وتلقي؟ فبين الله تعالى مبررات أنه هو الله الواحد الذي ينزل الرسالات والآيات ويشرعها فقال سبحانه وتعالى ﴿ تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ العُلَى ﴾ وأنه استوى على عرشه وهو الرحمن صاحب الرحمة العظيمة الذي لا يملك مثلها أحد وما بين الخلق جميعاً جزء واحد من مائة جزء من رحمة الرحمن سبحانه وتعالى وأنه ملك كل شيء فله ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى وأنه يعلم كل شيء يعلم السر وهو ما يسره الإنسان في نفسه عن غيره وأخفى من السر وهو ما يخفى على الإنسان الذي أسر في نفسه فإنه يسر عن غيره وهناك أسرار لا يعلمها هو، الله يعلم كل ذلك.

لأن الله تعالى بذلك الوصف العظيم وبذلك الكمال الكامل الذي ليس كمثله شيء استحق عند العقلاء أن يكون هو الإله الأوحد الذي ينزل الآيات ويشرع الأحكام سبحانه وتعالى فتنتهي الآيات إلى قوله ﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى ﴾ طالما هو هكذا فلا يعبد غيره، ولا يقدس سواه سبحانه وتعالى.

هذا معنى عام للآيات وبقيت لنا الدروس والعبر في هذه الآيات:

أولاً: طه: حرفان من الحروف الهجائية ك(الم) وغيرها مجموعها مختصرة أو مجموعها مع حذف المكرر أربعة عشر حرفاً افتتح الله بها تسعاً وعشرين سورة أربعة عشر حرفاً على نفس عدد الحروف الهجائية على أنها ثمانية وعشرين حرفاً في تسع وعشرين سورة على عدد الحروف الهجائية على من عدها تسعة وعشرين حرفاً بجعل الألف ألف مد وألفاً مهموزة وهذا سر من أسرار هذه الحروف ولذلك جمعها العلماء في جملة قالوا فيها: نص حكيم قاطع له سر هذه الجملة تجمع الأربعةعشر حرفاً.

تتلخص آراء وأقوال العلماء في هذه الحروف حيث كانت من السور في قولين: قول للسلف –رضي الله عنهم– وهو أن هذه الحروف سر من أسرار الله في كتابه، نؤمن بأنها قرآن وأنها من كلام الله ونفوض المعنى فيها إلى الله سبحانه وتعالى.

والأجواء الإيمانية عند السلف كانت تساعد على ذلك، وهذا مذهب أسلم وأكرم وأبعد عن الشطط ثم جاء الخلف من بعد ذلك وكثرت التساؤلات عما في القرآن من مبهمات، حتى سألوا عن نملة سيدنا سليمان عليه السلام هل كانت ذكراً أم أنثى؟ ومن أي نوع كانت؟ وعن كلب أصحاب الكهف وما اسمه؟ وما نوعه؟ وكان كلب من؟ وهكذا. كذلك سألوا عن هذه الأحرف ما معناها؟ ما مؤداها؟ ولماذا تقرأ هكذا على خلاف قراءة الحروف والكلمات الأخرى؟ فـ (الم) في أول البقرة وغيرها تقرأ على خلاف ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ ﴾ [الشرح:١]، هي الحروف نفسها ولكن تقرأ هنا ألف لام ميم وهناك تقرأ (ألم نشرح) ، (ألم تر كيف فعل ربك) وهكذا فتساءلوا فاضطر العلماء إلى وضع معانٍ لهذا الحروف، فقالوا كلاماً وآراء عدة منها: أن هذ الأحرف إنما هي رموز لبعض أسماء الله تعالى ورموز لبعض أسماء النبي – صلى الله عليه وسلم– حتى قيل – وليس بصحيح – إن طه ويس من أسماء النبي – صلى الله عليه وسلم– وهذا ليس صحيحاً إنما الراجح فيها عند العلماء أنها حروف: الطاء هي الطاء والهاء هي الهاء مما نعرف في الأحرف، والمراد منها في وضعها هكذا الإعجاز بمعنى: أن الله تعالى يعجز ويثبت عجز البشرية عن الإتيان بمثل هذ القرآن بواسطة هذه الأحرف. حين قال الكفار ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ [النحل:١٠٣] هذا القرآن جاء به من عند البشر وحينما قالوا أيضاً ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) ﴾ [المدثر: ٢٤] أي يأثره عن رَأيٍ من الجن يتلقاه عن جني ويلقيه على الناس ويقرأه وبعضهم قال ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ﴾ [النحل: ١٠١] أي أن النبي –صلى الله عليه وسلم– كان يفتري هذا القرآن من عنده، لما نسبوا القرآن لكلام الخلق، الله تعالى ناظرهم وحاجهم بالحجة فقال: الم، كهيعص، حم عسق، وهكذا طه يس ق ن ص هذه هي الكلمات التي ركبت منها كلمات القرآن وهي الحروف التي تركبون منها كلامكم فإن كان القرآن من عند الخلق فأنتم من أبرع الخلق في صناعة الكلام كانوا من أرباب البلاغة والفصاحة. أولئكم العرب الأولون كانوا أرباب الفصاحة والبلاغة وصناعة الكلام. كلامهم– بغض النظر عن موضوعه– يدرس إلى الآن في هذه

القرون المتحضرة تحت عنوان الأدب والنصوص، فكانوا بلغاء فصحاء فإن كان القرآن من عند الخلق والبشر ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور: ٣٤] عجزوا ولم يقم أحد لهذا التحدي، قال تعالى: ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ [هود: ١٣]، لم يقم أحد لهذا، قال الله تعالى: ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) ﴾ [البقرة: ٢٣] عجزوا حتى عن الإتيان بسورة واحدة ولو مثل أقصر سورة في القرآن وهي سورة الكوثر سطر واحد من ثلاث آيات كلماتها وحروفها أقل حروف في سورة من القرآن عجزوا عن الإتيان بشيء من ذلك مع امتلاكهم لصناعة الكلام ومادة الكلام وهي هذه الأحرف، فثبت عجزهم عن الإتيان بمثل هذا القرآن وبالتالي فالقرآن كلام الله – سبحانه وتعالى – لا يستطيع أحد أن يصل إليه لا بتأليفه ولا بمضاهاته ولا بمحاكاته – تبارك ربنا سبحانه وتعالى وتباركت آياته – هذه هي الأحرف التي في أوائل السور وسميت في كتب التفسير بالأحرف المقطعة، ولي تعقيب على هذا: أرى أن تسمى بالأحرف المفردة، فالمقطع هو ما كان موصولاً ثم قطع، لكن المفردة هو ما كان مفرداً وأصل هذه الحروف مفردة ثم تركب منها الكلمات، يضم حرف إلى حرف فتكون كلمة فأرى أن الألطف في ذلك أن تسمى بالأحرف المفردة ولا مشاحة في الاصطلاح على كل حال.

في هذه الآيات المباركات يقول الله تعالى: ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾الخطاب المباشر للنبي – صلى الله عليه وسلم– ولكن الأمة مخاطبة بما خوطب به النبي – صلى الله عليه وسلم– في غير خصائصه، فالقرآن نزل عليه ونزل علينا كذلك، نزل إليه ونزل إلينا فالخطاب للكل أي ما أنزلنا عليكم القرآن لنشقيكم فالأحكام الشرعية والتكاليف الشرعية ليس المقصود منها إرهاق الخلق ولا إتعاب الأمة ولا إشقاءها وإنما المقصود من إنزال القرآن هو إسعاد الخليقة؛ لأن الله تعالى هو الذي خلق السماوات والأرض كما عرفنا وخلق البشر فيما بينهما ويعلم ما يضرهم وما ينفعهم فشرع لهم ما يضبط لهم حركتهم في هذا الكون، وصولاً بهم إلى السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ ولذلك جاء في ثنايا السورة فيما بعد ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه: ١٢٣] إذن: من اتبع الهدى وهو القرآن اتباعاً للنبي – صلى الله عليه وسلم– فإنه لا يضل ولا يشقى، وطالما لم يضل فلن يشقى؛ لأن الشقاء هو نهاية الضلال، ومن أعرض عن ذكر الله وعن القرآن فإن له معيشة ضيقة ضنكاً فيها النكد والتعب والعناء في الدنيا ويوم القيامة يحشر أعمى وتخيل رجلاً أعمى العين في الآخرة بين هذا الزحام الشديد في طريقه إلى النار – والعياذ بالله – كيف يسلك طريقه والملائكة وراءه تسوقه–نعوذ بالله من الضلال ومن الشقاء.

فالقرآن الكريم والسنة المطهرة المراد من ورائها هو سعادة الخلق وبذلك نحسن الظن في الله سبحانه وتعالى: ﴿ تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴾ كما أشرنا سابقاً وبتفصيل أقول: إن هذا القرآن تنزيل أي نزل والنزول يكون من أعلى إلى أسفل، إذن لم يكن من الأرض منبت القرآن، لم يكن من عند بشر ولا من عند النبي محمد – صلى الله عليه وسلم– إنما كان القرآن نازلاً من أعلى، والعلو الكامل لله– تبارك وتعالى– فهو من عند الله وكلام عالٍ ينبغي أن يحكم الناس ويضبط حركتهم وسكنتهم في حياتهم فهو الأولى بذلك من أي كلام آخر؛ لأنه كلام الله الذي خلق الكل ويعلم كل شيء سبحانه وتعالى ﴿ تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ هل رأت الدنيا خالقاً غير الله أو مع الله يقول الله تعالى متحدياً: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ يعني ليس هناك خالق غير الله تعالى في الحقيقة، وعند تحرير هذه المسألة ومناقشتها واقعياً لا تجد خالقاً مع الله ولا من دون الله لا شريك في الخلق ولا خالق يخلق خلقاً لم يخلقه الله، إنما الخلاق الوحيد هو الله سبحانه وتعالى الواحد الأحد.

وبالتالي احتج الله تعالى بكونه خالقاً ليكون إلهاً، وهذه قضية تغيب على كثير ممن يريدون إثبات ألوهية الله . صف الله لمن أردت أن تصفه إليه بأنه هو الخلاق فلن تجد أحداً يشابه الله أو يشاركه في هذه الصفة، والله استعملها كثيراً فقال في أول ما أنزل: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾ [العلق: ١] ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴿١﴾ ﴾ [الأعلى: ١] مجده واعبده ووحده ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ثم طرح على العقلاء

أطروحة يفكرون فيها بعقولهم ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾[النحل: ١٧] هل يستويان هل تعبد من يخلق وتعبد من لا يخلق؟ أو هل تعبد من لا يخلق وتترك الخلاق؟ هذا لا يستقيم في عقل ولا في فكر، ثم تحدى فقال: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ [لقمان: ١١] ثم تحدى الآلهة المزعومة من دونه سبحانه وتعالى فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣ ﴾ ﴾ [الحج: ٧٣] وإذا قيل: إن الإله فلان كفرعون مثلاً الذي ألهه الناس إن فرعون أضعف من الذباب فهذه إهانة عظيمة وتحقير عظيم لفرعون حين نوازن بينه وبين الذباب ونقارنه بالذباب قال القائل:

ألا ترى أن السيف ينقص قدرُه *** إذا قيل إن السيف أمضى من العص

لو قارنت بين السيف والعصا فقد أهنت السيف فليست العصا من جنس السيف وليس السيف من جنس العصا نعم يضرب بكل منهما ولكن تختلف الجنسية وتختلف القوة، فإذا قارنت السيف بالعصا والعصا بالسيف فقد أهنت السيف، فإذا قارن الله تعالى الآلهة المزعومة عند الناس بالذباب الضعيف ذلك المخلوق الضعيف ففي ذلك تحقير عظيم لهذه الآلهة وبيان لقدرها أنها أضعف من ذلك الذباب وهذه حقيقة وليست مبالغة فالذباب سمي ذباباً لتذبذبه وكثرة حركته، وسرعة تحركه أما الصنم فإنه لا يتحرك، أما الإله الذي عبده الناس وخروا له سجداً كعجل بني إسرائيل ثابت مكانه ولا يملك من نفسه حركة، حينما كسر إبراهيم – عليه السلام– الأصنام عند قومه لم يستطع واحد من تلك الآلهة المزعومة أن يدفع عن نفسه ولا أن يدفع عنه غيره ولذلك سَخِر إبراهيم من قومه فقال: ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣ ﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، استهزاءً بالقوم وهكذا ربنا– سبحانه وتعالى– قال: ﴿ تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ ليدلنا على أن الذي خلق من حقه أن يأمر وينهى، من حقه أن يقنن للخلق حياتهم وأمورهم كما اختصرها الله في جزء من آية فقال: ﴿ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾.

﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون آية: (١٤) يزعم بعض الناس أن هناك خالقاً غير الله من خلال هذه الفاصلة في الآية إذن هناك خالقون آخرون. لا... لكن الله تعالى يكلم منكرين وكافرين يعتقدون أن الطبيعة تخلق وأننا وجدنا صدفة أو نشوءاً وتطوراً من قرد فصرنا آدميين وهكذا كما يزعم البعض، وأن هناك أشياء تخلق من دون الله فالله – عز وجل– كأنه يقول لهم – ولكن ضاعت اللغة منا فلا نستطيع أن نصل إلى هذا الفهم إلا بمراجعة التفاسير أما لغة اليوم فلا تعيننا على الوصول لهذا الفهم– كأن الله يقول لهم: على فرض المحال ونسلم لكم جدلاً أن هناك خالقين غير الله فانظر فيما خلق الله وما خلق غيره، فتجد الله أحسن الخالقين والعقل يقول لك: إذا عبدت فاعبد أحسن الخالقين، ففي النهاية أيضاً لا يعبد غير الله ولا يعبد مثل الله سبحانه وتعالى، الله تعالى فيما بقي من آيات بين لماذا هو الذي يشرع؟ فلأنه خلق كل شيء قال عن نفسه: ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، فما من شيء إلا والله خالقه – سبحانه وتعالى– ما من شيء خلق نفسه وما من شيء خلقه غير الله، كذلك لأن الله تعالى مستوٍ على عرشه فوق سماواته بائن من خلقه يعني مغاير لهم لا يشابهه شيء ولا يناله شيء من خلقه أبداً، لا يبلغه ضرهم ولا نفعهم ولا يصل إليه أحد سبحانه وتعالى، إله بهذا الوصف وبهذا العلو العظيم حقيق بأن يشرع بأن يقنن بأن ينزل آيات فيها أحكام يلتزم بها الخلق ويلتزم بها العبيد لسيدهم الذي خلقهم فوصف الله نفسه بأنه استوى على عرشه استواء يليق بذاته – سبحانه وتعالى– واستواء يكمل به وصف الله – عز وجل– ويخالف به خلقه مهما استوى الملوك على عروشهم فاستواء الله يخالف ذلك كله وكل ما خطر ببالك فالله فوق ذلك، قال القائل: فالله غير ذلك، ولكن أرى أن يقال فالله فوق ذلك أي أعلى من ذلك وأسمى سبحانه وتعالى، فإذا استوى الملك ملك الملوك سبحانه وتعالى على عرشه فلا كلام لأحد ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ ثم إنه لم يستو على عرشه خلافة في الملك فقط لفترة لكن له ملك كل شيء ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾ فما من شيء إلا وهو في ملك الله – تبارك وتعالى تعالى– ويعلم كل شيء أيضا ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴿٧ ﴾ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى

﴾وتلك هي النتيجة وتلك هي الغاية من إرسال الرسالة وبعثة الرسل أن يعبد الله وحده، أن يقال في كـل زمـان وفي كل مكان: لا إله إلا الله لأنه لا خالق ولا ملك ولا عليم إلا الله سبحانه وتعالى.

إذن لا إله إلا الله ومن الله: له الأسماء الحسنى فاسماؤه كلها حسنى ولا تعد ولا تحصى أما قول النبي –صلى الله عليه وسلم– (إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة) قال العلماء في شرح هذا الحـديث: أي أن لله من أسمائه الحسنى التي لا تعد ولا تحصى تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة، وليست تسعة وتسعين اسماً مخصوصة وإنما الأمرعلى المشاع. الله يوفق لها من شاء من الطالبين الراغبين في معرفـة ذلـك فمـن أحصاها معرفة وحفظاً وعملاً بمقتضاها فإن الله– عز وجل– يرزقه الجنة فنسأل الله تعالى أن يسعدنا بـالقرآن الكريم وأن يهدينا إلى أسمائه الحسنى لندعوه بها ولنسعد بها في جنة الرضوان إن ربنا هو البر الـرحيم، هـذا وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

نستقبل اسئلتكم

تقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته: ما علاقة طه كحروف مقطعة بالسورة الكريمة؟

علاقة هذه الأحرف –حيث كانت من السور– بسورتها تكلم فيها البعض بشي من المبالغة أو بـشيء لـيس بمستطرد في كل السور قالوا : إن اختيار الأحرف المعينة في سورة معينة كاختيار الطاء والهاء في بداية هـذه السورة سورة طه ؛ لأن الطاء والهاء هي أكثر الحروف دوراناً في كلمات هذه السورة ، وكذلك قـل فـي ص: فحرف صاد هو أكثر دوراناً في سورة ص يعني حينما تحصي أحرف السورة تجد هذه الأحرف هو أكثر عـدداً من الأحرف الأخرى ولكن هذا اتفق في بعض السور ولم يتوفر في بعض آخر من السور فلا يعتمـد إلا علـى إحصائية كاملة مستطردة يعني: توفي لنا في كل سورة. إنما الأمر أبعد [من ذلك]– فيم أرى والله أعلم– أن هذه الأحرف رغم أنها تقرأ حروفاً مفردة ولا تقرأ ككلمة إلا أن اجتماع حرفين أو حروفٍ من نوع خاص في بدايـة سورة محددة ذلك –والله أعلم– يتصل بموضوعها. فكلمة طه مثلا في بعض اللغات كما نبه بعـض المفـسرين تعني: يا رجل، فهي نداء على بعض اللغات على الإنسان عموماً بدءاً بأشرف الإنسانية جميعا نبينا محمد –صلى الله عليه وسلم– وانتهاء بكل رجل عاقل يصلح خطابه بالقرآن الكريم، وبالتالي فكأن الله تعـالى ينـادي بهـذه الأحرف على كل إنسان رجلاً كان أو امرأة يكون أهلاً للتكليف وأهلاً للخطاب فيكلفه الله تعالى بمـا فـي هـذه السورة ويخاطبه بما فيها يعني يا رجل أو يا إنسان اعلم أن محمداً بن عبد الله – صلى الله عليه وسلم– نبي حق ورسول صدق بعثه الله تعالى كغيره من الرسل من قبل رحمة لأمته ورحمة للعالمين منذ بعثته إلـى أن تقـوم الساعة فهذا الربط فيما أرى يكون أولى. كما في سورة ص كلمة صاد وصف للبعير الذي أصابه شيء في أنفه فيرفع أنفه؛ لأنه إذا أصابه هذا الداء نزل وسال من أنفه شيء من السوائل فلئلا يسيل ويؤذيه ويتعبه يرفع أنفـه إلى أعلى، فكانت كلمة صاد بهذه الكلمة المعروفة عند العرب تشبيهاً للكافرين في صدودهم وعنادهم وتكبرهم في رفع أنوفهم ورؤوسهم عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وعما معه من الحق والقرآن تشبيهاً لهم في هـذه الحالة بصورة الجمل المريض أي أنكم أنتم المعلولون وفيكم العلة كالجمل الذي أصابته تلك العلة فيرفـع أنفـه فالجمل معذور لكنكم غير معذورين في هذا تتطاولون بغير طول وتتكبرون بغير كبر فالعيب فـيكم والـصدود عندكم إنما هذا القرآن هو الحق وهذا النبي – صلى الله عليه وسلم– رسول صدق. وفي كل مقام ينظر في أمـر الأحرف التي افتتح بها السورة المخصوصة والله أعلم.

معنا سؤالين: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته: ما توجيه فضيلتك في قوله تعالى ﴿ فَتَبَـارَكَ اللَّـهُ أَحْـسَنُ الخَالِقِينَ ﴾هل تقتضي أن هناك فاضل ومفضول؟

سؤال آخر: ذكرتم فضيلة الشيخ في بداية الدرس أن القرآن الكريم كله متصل ببعضه ولـه علاقـة ببعـضه كسلسلة واحدة فنرجوا من فضيلتكم زيادة توضيح علاقة سورة طه بما قبلها وما بعدها من سورة مريم والأنبياء

وكذلك أن تدلنا على بعض كتب العلم التي تتكلم عن هذا الموضوع وهو علاقة كل سور القرآن بما قبلـه ومـا بعده؟

كان يطلب منكم توجيه في قوله تعالى ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم هذه الفاصلة في الآية أي خاتمة آية ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ ﴾ شبه بها بعـض المغرضين على الإسلام يعني: صنعوا منها شبهة ليشككوا فيها المسلمين الذين يؤمنون بـالقرآن ويقولـون: إن القرآن يثبت أن هناك من خلق غير الله أن الله خالق وهناك خالقون آخرون وهذا كلام غير صحيح إنما الخـالق والخلاق هو الله- سبحانه وتعالى- كما سبق القول، فقلت في رد هذه الشبهة: إن المسألة تتعلق بـأدب الحـوار وأسلوب الجدل الصحيح الموصل إلى نتيجة سليمة، فالمجادل والمخاصم للقرآن الكريم وللدين الحـق يعتقـد أن هناك خالقاً غير الله - عز وجل- الله خالق وكذا خالق وكذا خالق وهؤلاء كافرون يعتقدون هـذا، كمـا اعتقـد البعض أن الدهر هو الذي يخلقنا والصدفة هي التي أنشأتنا وادعى البعض أن الإنسان كان أصله قرداً ثم سـقط ذيله وارتفعت رجلاه المقدمتان فمشى على قدمين فقط فتقدم في خلقه وشكله فصار إنساناً، هذا كلـه يـدعون أن هناك من يخلق غير الله - سبحانه وتعالى- فالله- عز وجل- يقول: ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ ﴾ أي علـى فرض وعلى احتمال احتملتموه أن هناك خالقاً غير الله فالله أحسنهم، هذا خالق وكذا خالق وكذا خالق، الله أحسن الخالقين كلهم يعني يلزمكم- أيها العقلاء- ألا تعبدوا إلا الله؛ لأن الله تعالى خلق خلقاً لم يخلقه أحـد، خلـق الله السماوات، خلق الله الأرض، خلق الله الجن والإنس والملك، خلق الله النجوم والأفلاك، خلق الله البحار، خلق الله ما في الأرض من درر وما في البحار من أسرار، خلق الله كل ذلك فأين ما خلقه من تقولون عنه إنه خالق؟ فالله أحسن الخالقين على الإطلاق على فرض أن هناك من خلق غير الله سبحانه وتعالى، وبالمثال لعله يتضح المقال حينما يكون الإنسان له عدة أصحاب، هذا صاحبي وهذا صاحبي وهذا صاحبي، ففضلت الصاحب الأدون علـى الصاحب الأعلى هناك صاحب وفيّ صدوق جداً، صاحب لم يحفظ صحبتي دائماً ولا يوفي لـي علـى الـدوام ففضلت الصاحب الأدني على الصاحب الأعلى فعتِب عليّ الصاحب الأعلى فقال: تفضل على فلاناً وتقدم علـى فلاناً وتصطحب فلاناً وتتركني وتعترف بفضل فلان وأنا لا؟ أنا أحسن أصحابك يعني يجب عليك أن تكون فـي صحبتك لنا أوفى معي وأصدق معي وأصلح معي من غيري، ولله المثل الأعلى وليس كمثله شيء، على فرض لو سلمنا جدلاً واحتمالاً أن هناك خالقين غير الله فالله أحسنهم والله أعلاهم والله أحكمهم خلقاً وبالتالي وجب على الناس أيضاً أن يعبدوا أحسن الخالقين وأكمل الخالقين وأحكم الخالقين - سبحانه وتعالى- ولكن الحقيقـة أنـه لا خالق إلا الله سبحانه والله أعلم.

كان سؤاله عن قولكم أن القرآن متصلا يريد زيادة في التوضيح خاصة سورة طه بما قبلها وما بعدها وما هي الكتب التي تتحدث عن هذا

التناسب بين الآيات والسور وخاصة بين السور كما بينا في سورة طه له عند العلماء مسلكان: مسلك مشهور وشائع عند المفسرين فيقولون مثلا في هذا المسلك رابطين بين أمور ظاهرة في السورتين مثلا يقولون سـورة مريم بدأت بالأحرف المفردة كهيعص وسورة طه بدأت أيضاً ببعض الأحرف المفردة إذن تشابهت السورتان من هذا الجانب. في سورة مريم ذكر الله نبيه عيسى - عليه السلام- وهو خاتم أنبياء ورسل بني إسرائيل وذكـر الله في سورة طه سيدنا موسى- عليه السلام- وهو أول رسل بني إسرائيل، وعلى هذا يأتي الأمـر علـى سـورة الأنبياء مع سورة طه فيقولون مثلاً: هذه السورة فيها ذكر نبي الله محمد - صلى الله عليه وسلم- وفيهـا ذكـر سيدنا موسى - عليه السلام- وسيدنا آدم -عليه السلام- وفي سور الأنبياء ذكر أنبياء آخرين ورسل آخرين لـم يذكروا في سورة طه، يقول مثلا سورة طه نوهت في آخرها عن الدار الآخرة بالوعد والوعيد وكذلك في سورة الأنبياء في آخرها أيضا ذكر ووعد ووعيد بالآخرى وما فيها من عذاب، هذا مسلك ظاهر يقارن فيه المفسر بين أمور ظاهرة في هذه السورة وأمور ظاهرة في السورة المجاورة ويعقد بذلك مناسبة بين السورتين وهذا وجه حسن

ولكن أرى أن أحسن منه أن تعقد الصلة بين موضوعي السورة أو هدفي السورة كما قلت سورة مريم دارت حول محور معين وهو إثبات أن عيسى نبي الله ورسول الله حيث إن قومه أعلوه إلى درجة الألوهية فأعاده الله تعالى إلى نصابه الصحيح، ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِياً ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَياً (٣١)وَبَراً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِياً (٣٢) ﴾ [مريم: ٣٠] وسورة طه فيها أن الكافرين من أهل مكة ومن هذه الأمة إلى أن تقوم الساعة نزلوا بمحمد بن عبد الله عن درجة النبوة يدعون أنه مفتر وأنه يأخذ هذا الكلام من جني وأنه يسحر وأنه مجنون وأنه شاعر وأنه كذا كما ورد في آيات كثيرة من كتاب الله فنزلوا بنبي من أنبياء الله عن مرتبته الصحيحة وجعلوه كواحد من الخلق، واحد من البشر العاديين كما نزل بنوا إسرائيل أيضاً بموسى وآذوه وحاولوا قتله فالله تعالى رفع نبينا محمداً – صلى الله عليه وسلم– إلى مكانه الصحيح كما رفع موسى – عليه السلام – إلى مكانه الصحيح قبل ذلك كما جاء في قول الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً (٦٩) ﴾

[الأحزاب: ٦٩]، أي لا تؤذوا نبيكم كما آذت بنو إسرائيل نبيهم موسى– عليه السلام– فسورة مريم تنزل بسيدنا عيسى من درجة الألوهية إلى درجة النبوة والبشرية وسورة مريم وسورة طه ترتقي بنبي الله محمد وتخبر عن ارتقاء الله بسيدنا موسى– عليه السلام– مما وضعه به قومه وأمته إلى مكانه الصحيح أنه كليم الله ونبينا – صلى الله عليه وسلم– رسول الله وخاتم الأنبياء والمرسلين وهكذا فالربط بين هذين الموضوعين يكون أوثق ويكون أدق وأعمق، ومن الكتب التي اهتمت بهذا كتاب نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين البقاعي – رحمه الله تعالى– وتفسير الإمام الفخر الرازي اهتم أيضاً بذكر هذه المناسبات بين السور وكذا بين الآيات وتبعه على ذلك الإمام محمود الألوسي في كتابه روح المعاني وللسيوطي كتاب في هذا المجال أيضاً في تناسب الآيات والسور هذا مثال للكتب التي اهتمت والأئمة الذين عنوا بهذه المسألة وهي عقد المناسبات بين الآيات بعضها ببعض وبين السور بعضها ببعض والله أعلم.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته: أرجو توضيح الفرق بين اعتقاد السلف وأهل السنة والجماعة في مسألة الاستواء على العرش وبين الفرق المنحرفة في هذا الباب من الأشاعرة والمفوضة. ثانياً: وأقترح أن التفسير بطريقة منهجية تناسب مستوى طالب العلم بخلاف طريقة ذكر المتن المعنى العام الإجمالي وإنما عن طريق ذكر كلام صاحب التفسير الإمام ابن كثير والتعليق عيها وجزاكم الله خير

يرجو أن توضح اعتقاد السلف في الاستواء والاعتقادات الآخرى المنحرفة

اعتقاد السلف في مسألة الاستواء وغيرها من الأمور المشتبهة أو المتشابهة أن السلف كانوا يثبتون ما أثبته الله تعالى لنفسه مع تفويض العلم بحقيقة هذا الشيء إلى الله تعالى حيث لا علم لنا به وأزيد جزئية فهماً عن العلماء – رحمهم الله تعالى– وعدم فتح ملفات هذه الآيات وخاصة على الملأ كما فعل الإمام مالك –رحمه الله تعالى– حين دخل عليه رجل فسأله عن قول الله تعالى ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ﴾ فقال – رحمه الله تعالى– "الاستواء معلوم" نعلم أن الله استوى على عرشه كما أخبرنا في القرآن "والكيف مجهول" كيفية استواء الله على عرشه مجهول لم نره ولم ينقل لنا وصفه أكثر من هذا ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ﴾ "والإيمان به واجب" لأنه خبر في القرآن فلابد أن نؤمن بالأخبار القرآنية أن نصدق بها فلا بد أن نصدق أن الرحمن مستوٍ على عرشه وإن لم نعلم طبيعة هذا الاستواء والإيمان به واجب "والسؤال عنه بدعة" فكأنه يدعو إلى عدم التفصيل في هذه الأمور وخاصة بعيداً عن المتخصصين أما في المجالس العامة والمحافل العامة والخطب والدروس التي يحضرها بسطاء الناس لا يحسن الكلام في هذا مع أني أظن وأعتقد أن الحاضرين للإمام مالك طلاب العلم عنده لعلهم أعلم من علماء عصرنا ومع ذلك قال فيما بينهم: والسؤال عنه بدعة وقال أيضاً:"ولا أظنك إلا رجل سوء أخرجوه عني". وطرده من مجلسه فنؤمن بها كما جاءت دون تفصيل فيها، استوى الرحمن على عرشه بما لا نعلمه، وبما يليق بذاته سبحانه وتعالى وهذا هو المذهب السلفي وهو أحكم وأفضل وأسلم، أما الجزئية الثانية في

السؤال وهو اقتراحك أن يكون التفسير بطريقة منهجية إنما هذه هي الطريقة المنهجية العلمية أن يعرض التفسير هكذا، أما قراءة كتاب محدد إذن فنقصر علمنا وفهمنا على كتاب معين في التفسير ولعلك تدري أو لا تــدري أن كل مفسر له صناعة أصلية، الإمام ابن كثير -رحمه الله تعالى- كان محدثاً قبل أن يكون مفسراً، الإمام القرطبي كان فقيهاً قبل أن يكون مفسراً، الإمام الرازي كان عالماً في العقيدة ومسائل الاعتقاد قبل أن يكون مفسراً. حينما فسروا القرآن غلبت عليهم صناعاتهم فلو اقتصرنا على كتاب واحد وأوقاتنا لا تتسع لاستعراض كل الكتب فنأخذ تفسيراً واحداً فقط ومشرباً واحداً ورأياً واحداً وما ميزته عن غيره حتى نستأثر به عن غيره، إنما هذه الطريقــة يتم فيها جمع ما قاله المفسرون أو معظمهم على الأقل وصياغة ذلك في أسلوب موحد فمن استمع إلى هذا الدرس وقرأ بعد ذلك في ابن كثير يجد لما سمعه صدى وإذا قرأ في غيره كالقرطبي أو الرازي أو الألوسي أو نحو ذلك من التفاسير الأخرى يجد لما استمع في المحاضرة ظلاً من الظلال موجودا وهكذا فالمعلومة هنا تكون أعم وأسع وأشمل وكل يقرأ في التفاسير بما يستطيع وبما يتمكن فكل يتيسر له تفسير ولا يتيسر له تفسير آخر فنرى أن هذه هي الطريقة الأمثل من القراءة بتفسير معين إنما القراءة بتفسير خاص هذا يكون على يد عالم ومن متعلم يقــرأ هذا التفسير ثم يقرأ غيره، يدرس مدارس التفسير على مفسر معين، وأوقاتنا في هذه الأيام لا يتيسر فيهــا ذلــك نرجوا أن ييسر الله لنا ولك وللسامعين جميعا الخير.

تسأل: السلام عليكم ورحمة الله: يقولون إن طه هو اسم من أسماء الرسول -صلى الله عليه وسلم- فما قولكم في هذا؟

لعله قد سبق القول في هذه المسألة قولاً سريعاً أو إشارة سريعة أنه ممن قالوا في معاني هذه الأحرف قــالوا: إنها أسماء للسور، قالوا أيضا: إن "الم" الألف من الله واللام من جبريل والميم مــن محمــد - عليــه الــصلاة والسلام- يعني هي رموز لأسماء كريمة وشريفة وفاضلة كذلك قالوا: إن طه ويس أسماء للرسول - صــلى الله عليه وسلم- إنما ذلك لم يصح الله تعالى يقول: طه كما قال: الم كما قال: ص إذا قلنا: طه اسم من أسماء النبي - صلى الله عليه وسلم- فــ كهيعص اسم مَن وحم اسم مَن وطس اسم مَن فهذا قول لم يصح وليس عليــه دليــل صحيح وديننا يعتمد على الدليل، وقد ورد في صحيح الإمام مسلم -رحمه الله تعالى- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- عدد أسماءه فقال (أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي يمحو الله بي الكفر وأنا العاقب فلا نبي بعــدي وأنــا الحاشر يحشر الناس على قدمي يوم القيامة) وأنا كذا وأنا كذا فهذه أسماء سمى بها نفسه وما ينطق عن الهوى ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى (٤) ﴾ [النجم: ٤] ولكن لم يَرِد أنه سمى نفسه بــ" طه" ولا بــ"يس" ولم يرد ذلــك عــن الصحابة -رضي الله عنه- في نداءاتهم عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فكانوا يقولون: يا نبي الله ويا محمــد ومحمد فعل كذا ولم يرد عنهم أنهم قالوا: طه أو يس كاسم يطلق على النبي -صلى الله عليه وسلم- فلنا ما يــرد وما لم يرد فالكف عنه أولى وأسلم والله أعلم.

الدرس (٢) طه (الآيات ٩- ١٦)

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد.

فكنا في المحاضرة السابقة مع الآيات الثمانية الأولى مع سورة طه، ونطرح حول هذه الآيات ثلاثة أسئلة:

السؤال الأول:

اختصر أقوالَ العلماء حول الحروف المفردة في أوائل السور؟

السؤال الثاني:

اذكر بعض الصفات التي اتصف الله تعالى بها من خلال الآيات السابقة في أول سورة طه؟

السؤال الثالث:

يزعم البعض أن اسم طه من أسماء الرسول – صلى الله عليه وسلم–، ناقش هذا الزعم؟

وسنتحدث اليوم إن شاء الله تعالى عن الآيات الثمانية الأخرى من الآية التاسعة حتى الآية السادسة عشرة.

من خلال هذه العناصر :

أولاً: معاني المفردات الغريبة في الآيات .

ثانياً : المعنى العام المجمل للآيات .

ثالثاً: ثم نتحدث عن فوائد القصص في القرآن الكريم بشكل مجمل بمناسبة ذكر قصة سيدنا موسى – عليه السلام– .

وفي خلال هذه القصة كما ورد في الآيات نتناول :

١- عودة موسى – عليه السلام– من مَدْيَنَ إلى مصرَ .

٢- ثم نداء الله لموسى – عليه السلام– بالنبوة .

٣- وبعد ذلك حديثٌ عن يوم القيامة، من خلال الآيات كركن من أركان العقيدة، وأساس من أسس الدين كله، الذي أنزله الله من السماء للبشرية كلها .

٤- ثم أخيراً وجوبُ ثبات المؤمن أمام التحديات الصادة عن العقيدة الصحيحة .

هذه هي العناصر التي نتناولها إن شاء الله تعالى من خلال الآيات الثمانية الثانية.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٥﴾ فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٦﴾﴾ [طه: ٩- ١٦] .

تبارك ربنا من قائل حكيم، نحمده -سبحانه وتعالى- على نعمة الدين، ونعمة القرآن .

أولاً: مع بيان المعاني للمفردات الغربية في هذه الآيات .

١- يقول الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ كلمة حديث هنا معناها الخبر، أي: هل أتاك خبر موسى - عليه السلام-؟ والحديث في الأصل : هو اسم للكلام الذي يُحكى به أمرٌ حدث.

٢- ﴿فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُو﴾ امكثوا : من المكث وهو البقاء في المكان، وقد يكون لأجل أو لغير أجل، كما في شأن أهل النار ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف آية: (٧٧)]، أي باقون خالدون أبداً .

٣- قول سيدنا موسى - عليه السلام- لأهله ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾، آنست : من الإيناس، وهو الإبصار البَين الذي لا شبهة فيه أي رأيت ناراً حقيقيةً لا شك فيها ولا سراب في رؤيتها.

٤- أما قوله ﴿آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ فالقبس : هو ما يؤخذ من النار مع بقاء أصلها، كأن تؤخذ شعلة من نار، تبقى النار على أصلها، وتؤخذ منها هذه الشعلات، والواحد منها قبس.

٥- أو ﴿أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ الهدى : دلالة الإنسان على طريقه، وعلى بغيته في الدنيا وفي الأرض، ولكن إذ نسب الهدى إلى الله سبحانه وتعالى فيقصد به : الدلالة على ما يوصل إلى السعادة في الدنيا والآخرة . وسيدنا موسى - عليه السلام- قصد حينما رأى النار قصد الهداية المحسوسة المعروفة في الدنيا، أن أجد عند النار صاحبها الذي يدلني على طريقي الذي ضل مني، ولكنه وجد هناك من هدى المهتدين من العالمين جميعاً، وهو الله سبحانه وتعالى ناداه بأمر النبوة، فنال بذلك هداية طريقة في الدنيا، وهداية طريقة إلى الجنة في الآخرة هو ومن آمن به .

٦- ﴿اخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ النعلان : هما شيءٌ يلبس في القدم، وما يلبس في القدم أنواع وأشكال، لكن ما يسمى بالنعل هو شيء من الجلد الغليظ، يجعل تحت القدم ويشد برباط من جلد أو نحوه من فوق القدم لوقاية الرجل من ألم المشي على التراب والحصى، وهذه الصورة تدل على البساطة في اتخاذ متاع الدنيا من ملبس ونحوه، وعدم التكلف في ذلك، وكان نبي الله موسى - عليه السلام- مع فضله وخيرته وشرفه كان ينتعل وكان النبي - صلى الله عليه وسلم- أيضا وهو أشرف الخلق كان يلبس النعل، ولذلك قال: (صلوا في نعالكم فإنهم لا يصلون في نعالهم) من باب المخالفة للأمم من غيرنا فأبيح لنا ذلك .

٧- أما قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ فكلمة طوى : اسم وقيل وصف للمكان الذي نودي فيه موسى - عليه السلام- بالنبوة، قيل : اسم لهذا المكان، وادي اسمه طوى، وقيل : وصف له بمعنى أنه مقدس كله، وقيل: من الطي، أي: مقدس مرة بعد مرة، فقد قدس الله ذلك الوادي أكثر من مرة، بإنزال النبوات فيه، وقيل غير ذلك، يأتي تفصيلة في الشرح إن شاء الله.

٨- أخيرا كلمة الهوى ﴿اتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ اتبع هواه، الهوى : كلمة مقصورة أو بألف مقصورة بخلاف هواء فهي بألف ممدودة، هوى، الهوى : هو كل ما مالت إليه النفسُ البشرية في مخالفة ما شرع الله -سبحانه وتعالى .

ثانياً : المعنى العام والمجمل لهذه الآيات :

والتي إن كانت موضوعَ خطبة أو درسٌ عام، فهذا هو تناولها، فنقول مثلا: -فليس نصاً ولكن هذا على سبيل المثال في التعبير بالمعنى - فنقول وبالله التوفيق :

في هذه الآيات المباركات، ربنا -سبحانه وتعالى- يُقَدم ويقص قصة سيدنا موسى - عليه السلام- على سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم- وهو في بداية عهد النبوة في مكة المكرمة، يقدم له قصة موسى بأسلوب بليغ يبدأه بالسؤال ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ حتى ينتبه السامع والمخاطب - صلى الله عليه وسلم- .

ثم يذكره بماضي الزمان ﴿فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾ كان في عودته - عليه السلام- من أرض مدين إلى مصرَ بعد غياب طال قرابة العشر سنوات أو يزيد، قضاها مع حميه ووالد زوجته سيدنا شعيب - عليه السلام- كما قيل في ذلك، وقيل رجل صالح اسمه شعيب غير النبي، أيا ما كان، قضى هذه العشر سنوات مع حميه وفي بيت زوجه هناك ثم عاد بها إلى أرض مصر وهي موطنه الأول، وهي مسقط رأسه الذي ولد فيه، فبالحنان الفطري إلى مسقط الرأس، وبالتوجيه والتدبير الإلهي لإجراء قدره سبحانه وتعالى، عاد موسى بعد هذا الأجل .

وهو في طريقة في ليلة شاتية ممطرة باردة، ولذلك لما رأى النار قال ﴿لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ القبس يُضيء الطريق في الظلام .

أو أجد على النار هدا : دل ذلك على أنه ضل طريقه في هذه الليلة المظلمة، وهذا شأن البشر أن يضل طريقه في الظلام ولا يهتدي إليه .

وفي آية أخرى مرادفة لهذه القصة أيضا قال: ﴿أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧]، تصطلون : يعني تستمتعون وتنتفعون بالنار من خلال فوائدها التي جعلها الله فيها، كما قال الله سبحانه وتعالى ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٧٤] .

ثم إذا جاء إلى النار وأتى إلى مكانها وهي في قمة جبل في نهاية الوادي، إذا بصوت يناديه ولا يعرف من أين هذا الكلام ولا كلام من، ولذلك قال الله تعالى: ﴿نُودِيَ يَا مُوسَى﴾ نودي، ولم يقل : ناداه الله، لأن موسى - عليه السلام- أول ما وصله النداء ما كان من المناي عليه، فنسب الفعل إلى مجهول ﴿نُودِيَ يَا مُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾ .

هكذا يؤهله فيعرفه من المنادي ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ وقال له : ربك . لكي يؤانسه في هذه الوحشة وفي هذه الظلمة وفي هذه الغربة، ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ لأن الوادي مقدس، وينبغي أن تخلع نعليك في الأرض المقدسة . وقيل : غير ذلك من أن موسى - عليه السلام- كان يلبس نعلين اتخذتا من جلد حمار ميت، ورد هذا كما ذكره ابن كثير عن علي بن أبي طالب وغيره من السلف، وقيل : غير ذلك . في النهاية هو إشعار لموسى - عليه السلام- بجلال الموقف، وقداسة المكان، وجلال وهيبة الخطاب مع الله سبحانه وتعالى، فأمره أن يخلع نعليه وليس في ذلك دليل على أن نخلع نعلينا عند الصلاة، هذا له حكم آخر وله استدلال آخر، أما هنا فكان موقفاً خاصاً بنبي الله موسى - عليه السلام- ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾ .

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ اختاره الله تعالى للنبوة والرسالة ولكلامه من بين العالمين ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ يهيئة نفسيا لتلقي رسالة سوف توحى إليه .

والوحي يكون بإشارة خفية سريعة يفهم منها كلام يقين .

ثم طرح عليه ربنا سبحانه وتعالى أصول الأمر، فذكر ثلاثة أصول:

أولا: الوحدانية.

ثانيا: الأمر باشتغال العبد بعباة ربه.

ثالثا: ثبوت يوم القيامة كحقيقة لا بد منها .

فيقول الله تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾ [طه : ١٤]، وخص الصلاة من بين العبادات مع أنها أشرفها؛ لأن الصلاة لها خصوصية فهي عبادة دائمة لا تسقط أبدا ولا تقوم على الاستطاعة إنما الكل يقدر عليها، على أية حال كان، حتى أن من عجز عن القيام والقعود فيها صلى راقداً، أو صلى بحركة قلبة، حتى إن من فقد طهورها من ماء وتيمم بالتراب يصلي على حالها أيضاً ولا يترك الصلاة حتى من كان في خضم الحرب والاشتباك مع العدو لا يتركها، وإنما يصلي على حاله ومعروفة صلاة المجاهدين بصلاة الخوف، وفي كل حال وعلى أي وضع لا بد للعاقل القادر على أداء الصلاة بشكل ما أن يؤديها ولا تسقطع عن أحد أبدا .

ولذلك رأى بضع العلماء ورأيهم أميل إليه أنه لا تقضى الصلاة عمن فوتها، بل يرى الإمام بن تيمية –رحمه الله تعالى– أن من ترك الصلاة عمداً لا يسمح له بالقضاء فتظل في رقبته يعفو الله عنه أن يحاسبه عليها ولكن يعوض نقص ذلك بما تيسر له من السنن والنوافل، أخذا بحديث النبي – صلى الله عليه وسلم– (من نام عن صلاة أو نسيها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك) فالصلاة لا تترك إلا نسياناً أو أن تترك نوماً أما أن يتركها اليقظ والمتذكر لها فهذا ممنوع، ولذلك يعاقب بعدم السماح له بقضائها، فخص الله الصلاة هنا لشرفها من بين العبادات الأخرى .

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ آتية لا محالة، لا ريب فيها، ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ ولا أظهرها في الدنيا بعلمها، وتحديد وقتها لأحد، ولا لنبي من الأنبياء، ولا لملك من الملائكة، إنما اقتصر الله –سبحانه وتعالى– على الإحاطة بعلمها، ولكنه يظهرها في حينها وفي وقتها لا يجليها لوقتها إلا هو سبحانه وتعالى .

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ ولماذا الساعة والقيامة ؟ يبين الله حكمتها ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ بما كسبت من خير، وبما اكتسبت من شر، كلٌ يعاقب أو يحاسب و يثاب على عمله ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ ﴿٨﴾﴾.

وبالتالي فينبغي على كل مسلم عبر الزمان كله ومع الأنبياء أجمعين بدءاً بالأنبياء وانتهاءا بالبسطاء من العامة، الكل ينبغي أن يتمسك بهذه العقيدة، وأن يصر عليها، ويثبت عندها، ولا يصرفه عنها أي صارف، ولا يصده عنها أي صاد بشبهة يثيرها أو بحجة يدعيها، فإن يوم القيامة حق، ومن كفر بيوم القيامة والحساب والجنة والنار فقد كفر وهلك .

﴿فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [طه : ١٦]، ومن خلال ذلك يبين الله تعالى أن الدين يصدون عن العقيدة السليمة هم أؤلئك الذين يتبعون أهوائهم بالبدع والخرافات والآراء الشخصية والتعصبات المذهبية، سلمنا الله وعافانا من هذا الذلل.

هذا بالنسبة للمعنى العام للآيات من خلال هذه الآيات .

ثالثاً : من خلال هده الآيات تتضح لنا بعض الدروس:

أولا : تعليق على القصص في القرآن الكريم لماذن يذكر الله القصة في القرآن؟

لابد أن نعلم أن ذلك ليس لمجرد التسلية، ولا لمجرد التحكي ولا فقط لإثبات بعض الوقائع التاريخية، لا، وإن كان يؤخذ من القرآن كل هذا .

فقصص القرآن جميل للتسلية، إذا سلينا به أنفسنا، وقضينا معه أوقاتنا بيننا وبين أولادنا، بدلاً من قصص خرافي يخيفهم أو يفزعهم قبل النوم، أو يشغلهم بمعلومات خيالية لا تفيدهم، فلو شغلناهم بقصة النملة التي كانت في عهد سليمان – عليه السلام– بقصة الهدهد، بقصة نبي الله موسى، رجل خرج من مصر لكذا وذهب إلى كذا وتزوج كذا، قصة جميلة، والله تعالى يصف قصة سيدنا يوسف – عليه السلام– بأنها أحسن القصص، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، فالقصص القرآني جميل، ومن أجمله قصة نبي الله يوسف – عليه السلام، وأجمل من كل ذلك ما ورد من قصة نبي الله محمد – صلى الله عليه وسلم– فهو خير الخلق وحبيب الحق –عليه الصلاة والسلام.

لكن قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، فقصص القرآن يفيد في الإفادات العامة، ولكن الغرض الأول منه هو بعض أمور، تجتمع حول كلمة العبرة :

١– منها توضيح أسس الدعوة إلى الله عند جميع الأنبياء :

ليعرف الناس ممن يقرأون القرآن أن الدين واحد عند الله كما قال : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ليس إسلامنا بالقرآن، وإنما الاستسلام لله تبارك وتعالى على حسب الشريعة التي شرعها في كل زمان، وبمجيئ شريعة القرآن والسنة، بمجيئ شريعة بني الله محمد – صلى الله عليه وسلم– وجب الاستسلام لله على منوال هذه الشريعة الخاتمة، لا يقبل الله شريعة أخرى غيرها، إنما نصدق بالحق الذي سبقنا، تصديقاً مجملاً، أما تفصيل الأحكام وتفصيل الدين فنأخذه من الشريعة الخاتمة، القصص القرآني نجد فيه ومن خلاله أن أصول الاعتقاد أصول الأحكام أصول العبادات أصول الأخلاق والمعاملات ثابتة واحدة، منذ نبي الله نوح – عليه السلام– إلى نبي الله محمد – صلى الله عليه وسلم– الكل اشتركوا في ذلك الكل اعتقدوا وحدانية الله تبارك وتعالى بعد وجوده.

ثانيا: اعتقدوا جميعا في الرسول الذي أرسل إليهم وآمنوا به وآمنوا بالرسالة التي معه، الكل آمن بيوم القيام كحقيقة ضرورية، وركن من أركان العقيدة، وهكذا .

٢– كذلك القصة في القرآن من شأنها أن تثبت قلب النبي – صلى الله عليه وسلم– كمتحمل للرسالة، المتحمل للرسالة ومكلف بإبلاغها لقوم فيهم المؤمن وفيهم الكافر وفيهم المنافق تقابله عقبات ومعوقات قد تصرفه وتقعده

عن مواصلة الأمر، فالداعي إن لم يجد ما يثبته ويعينه ويحفزه ربما تفتر عزيمته وينقطع نفسه فلا يصل إلى غايته .

أما الرسل عليهم الصلاة والسلام جميعا فإن الله تعالى قد ثبتهم وأيدهم، فحينما يقص الله على نبيه محمد – عليه الصلاة والسلام– قصة نبيه موسى أو غيره، وكيف أن الله ثبته في مواجهة قومه ؟ وكيف صبره الله تعالى ليتحمل أذى قومه ؟ وكيف وكيف ؟ فإن هذا يثبت قلب رسول الله عليه الصلاة والسلام .

ويجد أنه لم يحدث له مثل ما حدث لمن كان قبله، وأن من كان قبله صبروا كثيراً، فينبغي عليه أن يصبر أيضا كما قال الله تعالى : ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف : ٣٥]، أمره أن يصبر كما صبر السابقون .

ونهاه أن يتعجل كما تعجل يونس بن متى –عليه سلام الله– قال تعالى: ﴿وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨] .

وهكذا فالقصة تثبت قلب صاحب الرسالة –عليه الصلاة والسلام –في تحملها وفي أدائها وفي مواجهة الناس بهذه الرسالة وهذه الشريعة الجديدة عليهم .

٣– كذلك نحن كمؤمنين حينما تقص علينا قصة في القرآن نجد فيها ما يثبتنا على الإيمان فالمؤمن يصاب دائماً في دينه، بمعنى : في سبيل دينه كما قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]، لا بد أن يفتن الإنسان في سبيل دينه، كان يثبت أو لا، الله يعلم المؤمن الصادق من المؤمن الكاذب ولكن يريد الله سبحانه وتعالى أن يظهر أحدنا أمام نفسه، وأن يكشف له غطائه عن قلبه، فربما يدعي الإيمان وما هو بمؤمن، وربما يظن في نفسه أنه ليس على إيمان وعلى شيء، وبعض الصحابة كان يقول يا رسول الله ! هلكنا، لأمر بسيط وقع فيه ربما ضحك مع أهله، ولم يبكي مع أهله كما بكى عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فيشدد على نفسه، فالقصة تبين له أنه مؤمن وأن الله تعالى يقبل منه عمله هذا، تثبت المؤمنين على أي وضع كانوا، تثبتهم على الإيمان، وتجعلهم كذلك يتحملون الأذى في سبيل الله، كما حدث للمؤمنين السابقين مهما كانوا قلة، مهما كانوا مستضعفين، فالله سبحانه وتعالى ختم لهم حياتهم في الدنيا بالنصر، وجعل مواقفهم كلها في ميزان حسناتهم، فيثبت المؤمن بقراءة قصة من القصص القرآني الذي يحكي حال المؤمنين مع أنبيائهم .

٤– الكافر المعاند والغافل الجاحد حينما تعرض عليه قصة من القرآن قراءة أو سماعا، لو أنه ألقى سمعه واستشهد قلبه، لو أنه نظر في هذه القصة، وأخذ منها العبرة لعلم أن مصيره محتوم بالهلاك، ومختوم بالدمار والردى فيأخذ لنفسه عبرة، وينتهي لنفسه عما هو فيه، ويراجع حساباته مع نفسه، ليجد أنه كان على ضلال مبين، فيعز نفسه بالإسلام والاستسلام لله رب العالمين، وبالاتباع لنبيه –عليه الصلاة والسلام– فالقصة في القرآن لها فوائد عظيمة جدا .

٥– وهنا بالمناسبة سؤال قد يدور بالأذهان، لماذ كانت قصة موسى – عليه السلام؟ ولماذن كثر الحديث عن موسى في القرآن ؟ حتى قيل : كاد القرآن أن يكون لموسى يعني أن يكون كله حديثا عن موسى – عليه السلام– فقد مات موسى – عليه السلام– قبل نزول القرآن فلن يكون له بمعنى أنه شريعته، إنما يكون كله حديثا عن موسى – عليه السلام، وعن بني إسرائيل.

نقول لأن موسى – عليه السلام– هو آخر رسول قبل رسول الله محمد – صلى الله عليه وسلم، وما عيسى إلا نبي من أنبياء بني إسرائيل، لكن لما أنزل الله مع عيسى لوح المواعظ وهو الإنجيل، الذي كسر، أو محاه الله في

زمان موسى وحرم منه بني إسرائيل الماديين الذين لم يردوا بعبادة إله لأنه غائب عن أعينهم، وأرادوا إلــه محسوساً ملموساً حتى قالوا لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، فلما نهرهم وزجرهم في ذلك، استغيبوه وهو في لقاء ربه ليتلقى التوراة، واتخذوا عجلاً جسداً له خوار، وقالوا عنه : هــذا إلهكــم وإلــه موسى فنسي، وأخذوا يعبدونه من دون الله عز وجل، هؤلاء الماديون لهذا الحد البعيد المفرط لهذا الحد الــضال، الله تعالى حرمهم من المواعظ التي كانت في التوراة ليزدادوا غياً في ماديتهم، جزاءا من جنس العمل، ثم بعثــه مع عيسى – عليه السلام– لمؤخرة بني إسرائيل، فُيعتبر صاحب الرسالة الأساس هو موسى – عليه السلام .

وموسى – عليه السلام– لقي من بني إسرائيل عنتاً وشقائاً وإذىً لم يلقه عيسى – عليه السلام– ولم يلقه غيره من الأنبياء، فكان مثالاً قائماً مليئاً بالأمثلة والمقامات التي يعتبر بها رسول الله – صلى الله عليه وسلم .

وأمته أمة بني إسرائيل هي أخر أمة قبلنا، وأولادهم وأحفادهم يعايشوننا في هذا الزمان، وإلى ذلك الوقــت، فالعبرة فيهم أوضح، والنظر فيهم أقرب من أن يضرب الله المثل في مثل هذا المقام بقوم نوح البعيدين أو مــن بعدهم من الأمم الأخرى فكان ذكر موسى – عليه السلام– أكثر مناسبة في مثل هذا المقام .

ثانياً : والله تبارك وتعالى يستفتح هذه القصة بسؤال: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ .

وليس هذا هو المقام الوحيد، إنما كثيراً ما يبدأ الله تقديم المعلومة بسؤال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]، ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾ [الإنسان: ١]، ﴿أَلَمْ تَــرَ كَيْــفَ فَعَــلَ رَبُّــكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ﴾ [الفيل: ١]، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]، وهكذا، أسئلة.

عرف العلماء حديثاً وقد سبقهم القرآن، أن المعلومة التي تقدم عن طريق سؤال تكون أوقع في الــنفس ؛ لأن السؤال ينبه السامع ويحفز انتباهه ويستحضر ويستشهد قلبه، فإذا ما ألقيت عليه المعلومة رســخت فــي قلبــه، وسكنته دون أن تخرج مرة ثانية .

واستعمل النبي – صلى الله عليه وسلم– هذا الأسلوب التعليمي الرائع، قبل أن يعرفه علماء التربية والتعلــيم، عرفه النبي – صلى الله عليه وسلم– وقدمه .

وذات مرة من مرات كثيرة أيضا، يقول لأصحابه ويريد أن يضرب لهم مثلا للمؤمن، فقال : (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وهي مثل المؤمن) يسأل الصحابة ما هي هذه الشجرة، فجال الناس في شــجر البــوادي، فيقول ابن عمر رضي الله عنهما راوي الحديث : فوقع في نفسي أنها النخلة، ولكني كرهت أن أتكلم وفي القــوم أبو بكر وعمر، ودلَ ذلك على فضل ابن عمر وأدبه رغم صغر سنه، حيث تورع أن يتكلم بالجواب الــصحيح، وإن كان يعلمه ؛ لأن في القوم أبا بكر وعمر وهما الشيخان من الصحابة –رضي الله عنهما– فــلا يحــسن أن يسكت أبو بكر وعمر ولا يدريان الجواب، ويتكلم واحد صغير مثل ابن عمر رضوان الله عليه.

وهكذا استفتح النبي – صلى الله عليه وسلم– الملعومة بسؤال، حتى ينبه الناس، فيلقى على أســماعهم وفــي قلوبهم أن النخلة مثل للمؤمن في رفعتها، وعلوها وفي ترفعها عن الدنايا وعن الأذى وعما في الأرض من أذى، وعن أذى الناس حيث يلقونها بالحجر فتلقيهم بأحسن الثمر إلى آخر ذلك من فوائد.

هكذا كانت بداية هذه القصة أو عرض هذه القصة، الذي يبدأ بعودة موسى – عليه السلام– من أرض مــدين إلى أرض مصر .

ثالثاً: كان قد خرج من مصر فاراً من ظلم فرعون، الذي بلغ البلاد والآفاق وعرفوه، ذهب إلى أرض مدين، وهناك قدر الله له أن يلتقي بذلك الرجل الذي يسمى بشعيب إن كان هو النبي أو غيره، على قولين عند المفسرين، وقدر الله له أن يتزوج بابنة من ابنتيه، وعاش معهما أكرم الأجلين وأكبرهما عشر سنوات، ثم عاد إلى مصر، وفي عودته ناداه الله تعالى في ذلك الوادي، ناداه بنداء النبوة، كانت هذه العودة عودة فطرية من حيث أن الإنسان يميل إلى مسقط رأسه، ولعل أمه كانت هناك وأخته في مصر كما تعلمون، وكان قومه كذلك بني إسرائيل في مصر لا يزالون تحت ظلم الفراعنة، فعاد إلى قومه وإلى أرضه التي ولد فيها، وفي الطريق في الوادي المقدس ناداه ربه سبحانه وتعالى بالنداء الذي سنستعرضه الآن إن شاء الله تعالى.

رابعاً: هذا النداء كان نداء فيه لطف من الله عز وجل، حيث استدرج موسى – عليه السلام– إلى أعلى الوادي، لأن المقام علي، ولأنه يخاطب من الله عز وجل الذي وصف بالعلو فوق خلقه جميعاً علو يليق بذاته سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء، وهناك استدرج موسى بنار، والنار كان يتخذها الناس قديماً فيشعلونها ويورونها فوق الجبال وفي قمم الجبال والوديان حتى يراها السالك في الطريق، فيستضيئ بها، ينتفع بها، يستدفئ بها، يجد عندها هدى، وبعض الكرماء –وكان الكرماء قديماً كثيرين– كانوا يشعلون ناراً حتى يمر بها عابر السبيل فيلجأ إلى صاحبها فيكرمه ويعطيه ما يحتاج إلى القرى والضيافة، – قرى يعني: إكرام الضيف – والضيافة والطعام والشراب، وربما احتاج إلى راحلة فأعطاه إكرام ابن السبيل الذي كان موجوداً قديماً وأكد الإسلام على كرمه وإن كان هدم الآن، وليس له حق في غالب الأحيان، ناداه الله نداءاً لطيف .

خامساً: فلما أتاها نودي أن يا موسى، في وصف القرآن لموقف موسى – عليه السلام– يعطينا أيضا درساً على الطريق وعلى الهامش، كيف نحفظ أهلنا في سفر؟ فأجلسهم في مكانهم وهو الذي ذهب إلى النار ربما يجد هناك شيء غير متوقع، فيكون أهله في سلامة ﴿فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾ الرجل هو الذي يتحمل العناء والشقاء من أجل خدمة أهله في الدنيا، فهو الراعي عليهم، وهو الكفيل لهم، وهو الذي يشقى بنفقتهم، وذلك كله في ميزان حسناته، إن كسبه من حلال وطلبه من الله سبحانه وتعالى شديد المحال، وأنفقه في خير حلال، فكل ذلك يكون في ميزان حسناته، ويكون درهم أنفقه على أهله خير من ألف درهم أنفقه في سبيل الله .

سادساً:ثم ناداه الله عز وجل ﴿يَا مُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ هذا اسمه نداء النبوة يعني ليس فيه تكليف، إنما إخبار بالنبوة، ليس فيه تكليف بإبلاغ الرسالة، إن كان فيه تكليف فهو تكليف شخصي، ﴿يَا مُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ إني أنا ربك، هذا الأسلوب المؤكد، هذه الجملة فيها إن، إني حرف توكيد، وأنا ربك، أنا ضمير والضمائر من الأسماء، وربك اسم أيضاً، تعريف الطرفين كما يقول العلماء، هذا يدل على تأكيد المعنى في الجملة أن يكون طرفاها اسمين ﴿أَنَا رَبُّكَ﴾، وأضاف الربوبية إلى ضمير موسى – عليه السلام– كأن موسى يشعر من خلال هذا الخطاب، أن الله هو ربي أنا كله لي، ومن كان الله له فماذا يحتاج بعد ذلك ففيها إيناس شديد، استعمل هذا الأسلوب سيدنا يوسف – عليه السلام– حينما استوحش أخوه من خلال ما صنع له من غطاء الملك في متاعه ثم أخذ به في ديوان الملك على أنه سارق، جلس يوسف إلى أخيه وأسر إليه ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ [يوسف: ٦٩]، ولم يقل إني أنا يوسف، نعم أنت يوسف ولكنك ملك وأنا متهم بالسرقة، فليس فيها إيناس لكن حينما يقول له : إني أنا أخوك، كأنه قصر أخوته عليه، ففي هذا إزالة للوحشة وملءٌ لقلبه بالإيناس العظيم، ولله المثل الأعلى .

الله تعالى يؤانس موسى في تلك الليلة المظلمة الموحشة الشاتية الباردة، وفي ذلك السفر المنقطع به في السبيل، فقد ضل طريقه، قال: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾، تخيل كم يكون موسى مطمئنا بمثل هذا التعريف؟ فعرف الله اسم كليمه، فهو خلقه، ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤]، يعلم أن هذا هو موسى، ويعلم كل شيء عنه وعن غيره، ولكن لا يعرف موسى من المنادي عليه، فعرفه الله بنفسه، ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾، فمن أراد أن يتعرف إلى إنسان بدأ أولاً بتعريف اسمه، يقول : أنا فلان . ثم يتكلم بعد ذلك، هذا من سنن التعريف .

سابعاً: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾، كما قيل : لأن النعلين كانتا من جلد حمار ميت .

والجلود يجوز اتخاذها والانتفاع بها إذا كانت لحيوان يؤكل لحمه، ولو كان ميتاً، والحمار لأنه لا يؤكل لحمه، فربما كان جلده كذلك، وفي ذلك تفصيل للفقهاء .

ولكن أجمعوا تقريبا على أن الخنزير كل ما فيه حرام، شعره وذفره وذهنه ولحمه وجلده، كل ما فيه حرام وإن أباحوا اتخاذ الجلود الأخرى ولنا شريعتنا ولمن سبق شريعتهم.

لكن هذا قول ذكره الإمام ابن كثير -رحمه الله تعالى- عن بعض من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، وغيرهم من السلف .

ثامناً : كما ذكر أيضاً أن الوادي مقدس، وقال البعض : لأن الله تعالى تجلى على الوادي، فتقديس لله وتعظيما فليكن موسى حافيا بغير نعلين، لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى، أمره أن يخلع نعليه، وعلل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ .

ذكر علي بن أبي طلحة رحمه الله تعالى عن ابن عباس رضي الله عنهما في تلك الصحيفة المباركة، صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وهي أصح ما ورد عن ابن عباس في التفسير ذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما أن طوى اسم للوادي، وهذا هو الظاهر، ولكن قيل طوى تعني الضيق الغائر، يعني وادي سحيق أو نازل بعض الشيء، وضيق في مساحته ليس متسع، وقيل لأن موسى طواه مشيا، حتى وصل إلى أعلاه ليكلمه ربه سبحانه وتعالى .أقوال في هذا أظهرها أنه اسم للوادي .

تاسعاً: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ فالنبوة بدليل هذه الجملة من الآية اختيار من الله تعالى، ليس فيها تمرن، ولا تمرس، ولا تدريب، ولا شيء، إنما هي اختيار واصطفاء من الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤] .

والإمام ابن كثير رحمه الله تعالى، ذكر قولاً غير منسوب لأحد، بلفظ قيل، وكلمة قيل، عند المحدثين كابن كثير، تشير إلى التضعيف والتمريض، لكنه قول لا يضر ولا ينفع، إنما قد يفيد إفادة لو ثبت من سند صحيح .

فقال رحمه الله تعالى : فقيل: إن الله تعالى قال : أتدري لما خصصتك بالكيم من بين الناس؟ لماذا جعلت المكلم من بين الناس ؟ قال موسى: لا. قال ربنا سبحانه وتعالى: لأني لم يتواضع إلي أحد تواضعك .

فلما كان تواضع موسى – عليه السلام- تواضع شديدا جداً، خصه الله بالكليم وكان تواضع نبينا عليه الصلاة والسلام ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ولكن نثبت الحق، لما كان تواضعه أعظم كان تكليم الله لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام أعظم، فكلم الله موسى على الأرض، على الجبل، ولكن كلم الله نبيه محمد عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج في السماوات العلى وأمره بالصلاة له ولقومه .

كلم الله موسى من وراء حجاب حتى أنه طلب النظر قال: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ومنع من النظر لكن أذن للنبي عليه الصلاة والسلام أو كأنه أذن له بالنظر وسئل، والحديث في مسلم، هل رأيت ربك، قال (رايت نورا) وقال عليه الصلاة والسلام في رواية أخرى (نور أنى أراه)، كيف أراه؟ حجبه نور الله عز وجل أن يرى الله فالله عز وجل ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، فكان إكرام الله تعالى لنبيه محمد -عليه الصلاة والسلام- أعظم من إكرامه لنبي الله

موسى – عليه السلام، لكن اختار الله موسى على من كان في زمانه فكان أفضلهم وأشرفهم جمعيا، ونبينا عليه الصلاة والسلام أفضل الخلق أجمعين.

تاسعاً: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾، استمع لما أوحيه إليك الآن وبالتالي ومن باب الأولى، ينبغي أن يستمع وهو تلقائيا سيستمع لما سيوحى إليه بعد ذلك بعد أن يعرف أنه صار نبيا مكلما من الله تبارك وتعالى.

عاشراً: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾ جملة مؤكدة تأكيداً عظيماً، تخبر بوحدانية الله عز وجل، وهذه هي أعظم الحقوق لله على العبيد أن يعبدوه وحده لا شريك، لا وجود لإله في الأرض ولا في السماء إلا الله، سبحانه وتعالى، ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، يعني : هو المعبود وحده في السماء، يعبده أهل السماء، ويؤلهونه وهو المعبود كذلك في الأرض يؤلهه من يؤلهه من أهل الأرض، وهو الواجب له العبادة بالتوحيد في السماء بين ملأها، وفي الأرض بين ملأها، لا يعبد غيره ومن عبد من سواه فإنها هي عبادة باطلة، وفاعلها مبطل على غير حق.

الحادي عشر : ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾ هذا هو حق الله على العبيد أعظم حق وبه دخول الجنة مهما كانت الذنوب، وإن كانت التوبة مطلوبة، لكن جاء من رحمة الله في الأحاديث القدسية قوله سبحانه وتعالى فيما رواه عنه رسولنا – صلى الله عليه وسلم–: (يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا، لأتيتك بقرابها مغفرة) والحديث حسن كما نبه على ذلك أهل الفن.

الثاني عشر: ثم قال: ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ العمل الذي ينبغي أن يشتغل به الخلق إنما هو العبادة عباة الله وحده لا شريك له، العباة على أساس لا إله إلا الله، والعبادة ليست الصلوات والزكوات والصيام والحج فقط، إنما هي كل عمل صالح ينفع الخلق ويرضي الرب سبحانه وتعالى ويبتغى وجه الله، فالإنسان قد يعبد ربه بلقمة يأكلها حين يبدأ بتسمية وينتهي بتحميد ويأكل على هدي النبي – صلى الله عليه وسلم– ما استطاع، ويأكل بيده اليمنى وينوي بطعامه هذا التقوي على الطاعة ويأكله من حلال ويتفكر ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ [عبس: ٢٤]، يتفكر في طعامه كيف خلقه الله وأنبته من الأرض ؟ أو جعله في حيوان ؟ كيف أساغه له ؟ وجعله سهلا في التناول ؟ سهلا في الأكل؟ سهلا في التذوق؟ سهلا في الهضم؟ جعل له مخرجاً في كل مكانظ كل شيء منه وكل عنصر يذهب إلى مكانه.

نعم كثيرة، من فعل ذلك فقد عبد الله بطعامه، وقد عبد الله بنومه، وقد عبد الله بعبادات مشروعة وبعادات يفعلها كل الخلق، لكنه يحول حياته كلها عبادة لله كما قال ربنا: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] .

الثالث عشر : لكن أدوم العبادات، ومن أشرف العبادات، ومن أفضل العبادات الصلاة ؛ فهي عبادة شاملة، فيها يصوم الإنسان فلا يجوز فيها الأكل والشرب، الأكل والشرب نسياناً في الصيام يعفى عنه، الأكل والشرب نسياناً في الصلاة يبطلها، فصيام الصلاة أشد من صيام الصيام، في الصلاة لابد من استقبال القبلة، وهي الكعبة المباركة وهي التي يقصدها الناسك بالحج والعمرة، في الصلاة زكاة حين نغلق محالنا ونترك محالنا ونترك كسب أرزاقنا لوقت ما لنؤدي الصلاة، فكأننا تصدقنا بهذا الوقت، وما يمكن أن يكون فيه من كسب أو عمل، تلك الحركات التي نؤديها تزيكة، بخضوعنا لله عز وجل عن أبداننا وعن صحاتنا فيها النطق بالشهادتين، فيها أركان الإسلام جميعاً، وفيها أخلاق جميلة، حتى قيل إن الصلاة مدرسة دينية شرعية.

والمجال لا يتسع لتفصيل ذلك، ولكن مع التفكر نجد ذلك، وخاصة عند من خص هذا الكلام بتفسير في كتاب أو بحث مستقل، إنما هذه إشارة تشير إلى حكمة تخصيص الله تعالى للصلاة .

وقد خصت الصلاة كثيراً، تذكر دائما مثالا للعبادات، ومعها الزكاة في أحيان كثيرة ولكن هنا خص الصلاة وحدها، فقال : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ .

الرابع عشر : وهذا يدل على أن أصل الصلاة موجود في كل الشرائع السابقة، كانت موجودة عند سيدنا موسى – عليه السلام–، موجودة هكذا عندنا، لكن ربما تختلف الهيئة في كم فريضة ؟ وكيف تصلى ؟ وكذا . وفي أي مكان ؟ فالأمر فيه شيء من التنوع، من فضل الله ورحمته بما يتنساب ويتلائم مع ظروف كل أمة، لكن أصل الصلاة موجود في كل شريعة كما كلف الله موسى بذلك، وقال عيسى – عليه السلام– لدى ولادته ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَياً﴾ [مريم: ٣١]، وهكذا.

الخامس عشر : ثم ختام أركان العقيدة المهمة، الأركان المهمة المذكورة في هذه الآيات، الأصول الأساس في هذه العقيدة، الإيمان باليوم الآخر ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ الساعة هي القيامة، التي يقوم فيها الناس لرب العالمين، ولما كانت في ساعة، أي : في توقيت محدد معين سميت بالساعة، ولما كانت حقا لا ريب فيه سميت بالحاقة، ولما كانت تقرع الناس بأحداث وأهوال عظيمة سميت بالقارعة، وهكذا لها أسماء كثيرة ولكل اسم معناه .

وتعدد الأسماء هنا يدل على ضخامة هذا الحدث، فيوم القيامة يوم لا يوم مثله، كما قال ربنا: ﴿ذَلِكَ اليَوْمُ الحَقُّ﴾ [النبأ: ٣٩]، كل يوم له نهاية أما يوم القيامة فلا نهاية له، يوم طويل مديد حياة مستمرة أبدية، ما خلقنا الله إلا لها، ولكن منا من يختار الجنة، جعلنا الله فيها، ومن الناس من يختار الدنيا والنار نعوذ بالله .

السادس عشر : وأخفى الله وقت الساعة لحكمة ؛ لأن الإنسان لو علم متى ستكون الساعة لما التزم بأمر ولا بنهي شرعي، حتى إذا اقتربت الساعة فعلاً، لتاب إلى الله قبلها بقليل وأصلح أمره وعاد إلى دينه، كما يقول بعض الناس : حينما أكبر وأتزوج وتسير لي أسرة أبد الصلاة إن شاء الله، حتى انتهي من هذه الهموم أولا .

تقول المرأة : لما أتزوج أتحجب . تؤجل الحجاب إلى ما بعد الزواج، ويكون مسؤلاً، وهكذا عن بيت،يؤجل الصلاة حتى يظهر المشيب فيه، يقول: أني ما زلت شباباً، أريد أن أفرح بشبابي، وبعد شبابه يريد أن يتوب .

وهل ضمنت أن تبلغ ذلك المدى ؟ إن الساعة العامة مجهولة، لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى ولا تحديد لها عندنا إلا أنها تأتي يوم جمعة، فقط، أية جمعة؟ الله أعلم .

قد يقول القائل: إذاً أنا فيما أريد طول الأسبوع، ويوم الجمعة أغتسل وأصلي أنه قد تقوم الساعة، لا ! قد تقوم ساعتي أنا كفرد في أي يوم، ونرى من الناس من يموت يوم السبت أو يوم الأحد أو الاثنين أو كذا، في أي يو، م غير يوم الجمعة، فهناك ساعة عامة للكون كله والموجودين فيه وهي الساعة الأخيرة وهناك لكل إنسان ساعة، (ومن مات قامت قيامته) كما روي ذلك في حديث فيه شيء من الضعف، ولكن معناه صحيح .

من مات قامت قيامته الخاصة به فيعرف مصيره ويعرض عليه مقعده من الجنة أو النار ويعرف حسابه وهكذا إلى أن تقوم الساعة العامة الطامة الصاخة.

السابع عشر : الساعة والقيامة، أمر ضروري أنكره كثير من السفهاء، من ينكره فهو سفيه لم يستعمل عقله وإن كان له عقل؛ ذلك لأن العمل والسعي والنعم لا بد عليها من حساب، ولو لم يكن هناك من حساب لكانت الدنيا عبساً، هذا بصحته يعيش بها ويموت عليها، وهذا بمرضه يعيش مريضاً ويموت مريضاً، هذا غني عاش يتمرغ في غناه، وذاك فقير تعذب وشقي بفقره، وهذا وهذا، اختلاف الفرص بين الناس .

هذا صبر وذاك شكر أم لم يشكر، أيها خير، لا بد أن يأتي يوم تتكافئ فيه الفرص وتتعادل فيه المقامات .

كذلك قالها مفكر كافر لما تفكر في أحوال الخلق، في حياتهم وفي موتهم، نتج عنده أنه لابد من يوم تتكافأ فيه الفرص، وتتعادل فيه المقامات وبالتالي يجد كلُ إنسان مساواته بالآخر.

فلو كان فقير تعذب بفقره في الدنيا أو مريض ونحوه ولكنه صبر على قضاء الله فإنه يوم القيام خير من غني ذي أموال أو ذي سلطان أو ذي صحة وعافية لم يشكر الله على نعمه، فالصابر يكون خيراً من عدم الشاكر يوم القيامة، ولو صبر هذا وشكر ذاك لكان كلاهما على خير.

الثامن عشر : فينبغي على المؤمن أن يثبت على هذه العقيدة، توحيد الله عز وجل، عبادة الله وحده لا شـريك له بإخلاص وباتباع للنبي – صلى الله عليه وسلم– الإيمان بيوم القيامة، لأن الإيمان بيوم القيامة يـصلح الفـرد وبالتالي يصلح المجتمع، قال تعالى: ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ﴾ [التكاثر: ٥، ٦]، لـو أن علم العقيدة الصحيحة وعلم يوم القيامة يدرس للناس في المدارس في الإعلام يذيع بينهم في كل مقام حتى يصل إلى درجة اليقين لتخيل كلُ إنسان القيامة بين تعينيه، فيرى الجنة والنار .

وتخيل موظفاً يرى الجنة والنار أمامه، هل تمتد يده إلى رشوة ؟! لا يمكن أبداً، هل يعصي الله عـاص؟! إلا سفيها، فليس من القوم، إلا سفيها سفه نفسه وضل عن طريقه ولم يرى ما يجري أمامه من آيات عظـام، لـذلك دعانا الله إلى التمسك بهذه العقيدة فقال: ﴿فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [طـه: ١٦]، لا يصدنك عنها، أي : عن هذه العقيدة، وخاصة عن يوم القيامة من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى .

التاسع عشر : وهنا ننتبه إلى شيء أخير، وهو أن المعركة بين الحق والباطل قائمة لا تخمد أبدا، وأن هنـاك من شياطين الإنس والجن من يفسد على الناس عقائدهم، بالبدع والخرافات والضلالات وإبعادهم عـن العقيـدة السلمية حتى يقعوا في الحرج وفي الحرمان من جنة الله سبحانه وتعالى، فينبغي الحذر على الأقل من هـؤلاء، وإلا فالتصدي لهم بالثبات عن العقيدة وبنشر العقيدة الصحيحة التي كان عليها رسولنا – صلى الله عليه وسـلم– والسلف الصالح من بعده .

نسأل الله أن يرزقنا حسن الاتباع والثبات على الأمر والرتشد وأن يرزقنا الله عز وجل حسن الخاتمة حتـى نكون مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمـد وعلى آله وصحبه وسلم.

إجابات الأسئلة التي عرضها الشيخ في أول الحلقة :

إجابة السؤال الأول:

أن هذه الحروف سر من أسرار الله تعالى في كتابه نؤمن بأنها قرآن وأنها من كلام الله ونفوض المعنى فيهـا إلى الله تعالى، وهي أحرف من جنس ما نتكلم به، والمراد منها في وضعها الإعجاز.

إجابة السؤال الثاني:

أن الله خالق السماوات والأرض، ثانيا: الرحمن . ثالثا : مستوي على العرش استواءً يليق بجلاله . رابعـاً: يعلم السر وأخفى . خامساً: لا إله إلا هو، سادسا، له الأسماء الحسنى.

إجابة السؤال الثالث:

إذا قلنا : طه اسم من أسماء النبي – صلى الله عليه وسلم. فـ كهيعص اسم من، وحم اسم من ؟! وطس اسم من؟! فهذا قول لم يصح وليس عليه دليل صحيح، وديننا يعتمد على الدليل، وقد ورد في صحيح الإمام مسلم أن النبي – صلى الله عليه وسلم– عدد أسماؤه فقال: أنا محمد وأنا أحمد وأنا العاقب وأنا الحاشر يحشر الناس على قدمي يوم القيامة وأنا كذا وأنا كذا، فهذه أسماء سمى بها نفسه، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣، ٤]، ولكن لم يرد أنه سمى نفسه بطه ولا بياسين، ولم يرد ذلك عن الصحابة رضي الله عنهم في ندائاتهم للنبي – صلى الله عليه وسلم– فكانوا يقولون: يا نبي الله! ويا محمد ! ومحمد فعل كذا، ولم يرد عنهم أنهم قالوا، طه أو يس، كإسم يطلق على النبي – صلى الله عليه وسلم– فلنا ما يرد وما لم يرد فالكف عنه أولى وأسلم والله أعلم .

أسئلة المشاهدين :

سؤال :

كيف نوفق بين : أن الهوى ما مالت إليه النفس مخالفاً لما شرع الله، وبين قول النبي – صلى الله عليه وسلم– (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

لا تعارض بين هاذين القولين، مع التنبيه في البداية على أن هذا الحديث ضعفه أهل فن علم الحديث (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به) وإن كان ضعف الإسناد لا يعني ضعف المعنى .

فالهوى : ما مالت إليه النفس في مخالفة شرع الله سبحانه وتعالى . هذا هو الهوى المذموم في القرآن والسنة وفي العقل وفي كل شيء .

أما إذن كان الهوى تابعا لما جاء به النبي –عليه الصلاة والسلام– يعني نفسي لا تميل إلا لما سنه النبي – صلى الله عليه وسلم– فهنا ميل النفس في موافقة شرع الله فهذا لا حرج فيه، نفسي تميل إلى الأكل باليمين، نفسي تميل إلى الصلاة بالليل نفسي تميل إلى قراءة القرآن نفسي تميل إلى الصلاة بالليل، نفسي تميل إلى التيمن في كل شيء، وهكذا نفسي تميل إلى ما جاء في الشريعة، فهذا هوى طوع لشرع الله عز وجل، فهذا هوى محمود، لكن إذا استقل الهوى باتجاه مخالف لاتجاه الدين، فهذا هو الهوى المذموم المنهي عنه.

سؤال :

قلتم أن عيسى – عليه السلام : نبي من أنبياء بني إسرائيل . كيف يكون ذلك ؟ وهو من أولي العزم من الرسل ؟ وقد قال الله عز وجل : ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف : ٣٥]، وكذلك حديث الشفاعة يثبت أن رسول فكيف توجهون ذلك

أجاب فضيلة الشيخ :

لو تدبرت الأمر ورجعت إلى الكلام، الحديث في المحاضرة، قلت : أنه في الأصل قلت إنه في الأصل نبي من أنبياء بني إسرائيل، ولكن لما أوتي الإنجيل فكان به رسولا، يعني نال الرسالة بنزول الإنجيل عليه، لكن هو أصل متمم لرسالة موسى – عليه السلام– وليس مبعوثا برسالة مستقلة ولذلك الإنجيل كله مواعظ فقط، لا تجد فيه أحكاماً، والشريعة لا تخلو من أحكام، وبهذا يكون عيسى – عليه السلام– نبياً باعتباره داعياً برسالة سيدنا موسى – عليه السلام– ويعتبر رسولاً كذلك ثبتت له الرسالة، بأنه أوتي رسالة الإنجيل، فجمع بين الوصفين، لكن أردت أن أنبه إلى ذلك النقطة فقدمت النبوة على الرسالة، والله أعلم.

سؤال :

الكثير يعتقد أنه ما دام مسلماً ويعيش وسط المسلمين فحتماً ولا بد أن يموت على الإسلام،وبالتالي فهو من أهل الجنة حتى ولو عذب في النار قبل ذلك، ويبنى على ذلك ترك كثير من الأعمال بناءً على هذا الاعتقاد، فكيف يواجه طلب العلم بالأدلة هذا الأمر عند دعاوى المسلمين؟

أجاب فضيلة الشيخ :

هده لفته طيبة لواقع عريض بين الناس فعلاً : يظن الكثيرون أنهم طالما كانوا مولدين في مسلمة وحملوا أسماء المسلمين وسجل في هوايتاتهم وبطاقاتهم وأوراقهم الشخصية أن الديانة مسلم يزعم بذلك أنه مسلم ومؤمن وموحد بالله عز وجل وأنه على خير وأن محمداً عليه الصلاة والسلام سوف يأخذ بشفاعته، إلى آخر ذلك من الآمال العريضة .

وكما يدعون أنه حسن ظن بالله، ولكن ورد في الحديث أن من أحسن الظن بالله أحسن العمل (ولو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل) الإيمان ليس بالتمني كما ورد في الحديث، (ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل) لا بد أن يكون قلبي مقراً بالإيمان، ووقر، يعني : ثبت لثقله، شيءٌ ثقيل، وقر في القلب وثبت فيه وصدقه العمل بالبدن والجوارح .

فمسلم ولا يصلي، مسلمة ومتبرجة، مسلم يصلي ويستبيح بعض المحرمات، أو يترك عمداً بعض الواجبات المفروضة، فهذا تناقض يتناقض مع نفسه، فطالب العلم عليه أن يبين هذا للناس بقدر استطاعته وبقدر ما يفهمه الناس، فلا بد أن يدخل لكل مدعو من مدخله الصحيح بقدر ما يفهم ويعي، فمن كان يفهمُ المعاني القرآنية، والمعاني الحديثية، يقدم له الدليل .

من كان لا يعي هذا أو ربما تعلم المجادلة فيظن أنك تفسر القرآن وتشرح الحديث على وفق هواك، وعلى حسب ما ترى من فكر، فقدم له الحجة العقلية، بعد أن تقرأ الآية أو الحديث، اطرح عليه استدلال العقل فهذا قد يقنعه وصولاً به إلى الهداية بهذا تواجه مثل هذا الصنف من الناس، وضربُ الأمثلة في ذلك نافعٌ جداً .

فلو اقترضت منك مثلا ذهبا، واقترضت منك فضة واقترضت منك ريالات، ودينارات، ثم قضيت دينك الذي عندي في الذهب والفضة فقط، وباقي العملات قلت لك هذا كفاية، أنا قضيت دينك هكذا وأديت ما علي، أهذا يكفيك ؟ الكل يقول : لا يكفيني . لا بد أن آخذ حقي بكامله، كذلك فرض الله علينا فروضاً وواجبات لابد أن تؤدى جميعاً، ونهانا عن أمور لابد أن تجتنب جمعيا ولا بد أن يؤخذ الدين كله ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ العَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥]، نسأل الله أن يهديهم وأن يجري الحجة على ألسنتنا بين أيديهم. اللهم آمين.

سؤال :

تقول الآية في سورة هود: ﴿وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩]، فسيدنا شعيب قريب جداً من قوم لوط، فكيف يكون هو شعيب الذي في قصة سيدنا موسى ؟ فأرجوا التوضيح ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

قلت أن هذا قول من الأقوال أنه نبي الله شعيب، ولكن القرآن لم يثبت واحداً بعينه ولنا ما ثبت في القرآن، يعني : القرآن في قصته وفي سرده للأحداث يترك أسماء الشخص وأسماء المكان يبهم هذه الأشياء لأنه لا تتعلق بها فائدة، بغض النظر إن كان شعيب النبي أو شعيب آخر، فهذا لا يفيد ولا يضر، ولكن قول يقوله بعض المفسرين ربما اطلع عليه والآخر لم يثبت عنده مثل ذلك، فقالا : رجل صالح اسمه شعيب، فتحديد المبهمات في القرآن الكريم أولاً لا بد أن يكون تحديداً قائماً على نص ثابت، وطالما سكت عنه القرآن فتحديده غالباً لا يفيد، أو لا تتعلق به الفائدة، فلا يفيد إفادةً إصيلةً في العبرة التي سيقت من أجلها القصة، فلا نزاع في هذا سواء كان هو أو غيره الرأيان مذكوران عند المفسرين، والله أعلم.

سؤال :

هل قدسية وادي طوى قدسية خاصة في شريعة موسى – عليه السلام؟ أم تدخل في شريعتنا أيضا؟

أجاب فضيلة الشيخ :

إذا كان وادي طوى قد شرف بتكليم الله لموسى هناك وإنزال بعض الرسالات هناك فيبقى المكان مقدساً عندنا وعند من سبقنا ؛ لأنه حدث فيه ما هو خير وما شرفه الله به، فالمكان يشرف بما وقع فيه من وقائع طيبة، فلا مانع أن نقدسه أيضاً كما قُداس في زمان موسى – عليه السلام– والله أعلم .

سؤال :

ما الفرق بين ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ و ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ﴾ ولماذا استعمل الله هذه في الآية والآخرى في الآية التي تليها ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

ملحظ جميل، البداية كما قلنا: كان موسى في وحشة ووحدة وغربة وضلال عن الطريق الذي يسير فيه، وفي ظلمة، فيحتاج إلى مآنسة ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ تؤنس عن قول الله ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ﴾ ؛ لأن كلمة رب تطلق على الراعي المربي الذي ينعم ويتفضل ويقضي الحوائج ويجبر الكسور .

ومن ذلك رب الأسرة، ورب المال يرعاه ويستثمره ويحافظ عليه، ورب العمل، فحينما بدأ الله موسى بأول كلام ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ فذكْر لفظ الرب هنا أنسب من ذكر كلمة الله، ذلك الاسم الذي اختص الله تعالى به، ولم يتسمى به غيره سبحانه وتعالى، وفيه الجلال والهيبة والمهابة، كما قال تعالى ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٣٥]، ولم يقل الذين إذا ذكر ربهم.

فإذا ذكر الله ينبغي أن توجل القلوب وهو الرب نعم، لكن كلمة الله لها جلالها لها مهابتها لها أثرلها على النفس.

أما كلمة رب، ففيها معنى الرحمة، والربابة، والرعاية، والعناية، مما يؤنس سيدنا موسى – عليه السلام– في مثل هذا الموقف الموحش الذي كان فيه .

لكن حينما أعلن الله عن نفسه كإله: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ﴾ يعني أن الله الواحد الذي لم يتسمى بهذا الاسم ولم يعرف بهذا العنوان غيري، فكان هذا مقام إعلان التوحيد فسمى الله نفسه باسمه الذي لم يتسمى به سواه. والله أعلم.

سؤال :

ماذا لو أن شخص كان تاركاً للصلاة لفترة من الزمن، ثم رجع وتاب وأقام الصلاة واجتهد بالنوافل ألا تجب توبته ما قبلها

أجاب فضيلة الشيخ :

ورد عن النبي – صلى الله عليه وسلم– (التوبة تجب ما قبلها) يعني تمسح ما قبلها، هنا في تارك الصلاة، تمسح ذنبه من حيث ترك الصلاة، لكن تلك الصلوات التي فاتت ما تعويضها التوبة مسحت الذنب نفسه، ولكن بقي لهذا التائب أن يعوض ما فاته من رصيد عظيم ضيعه، فكيف يعوضه، وهنا يقول كما أشرت سابقا، الإمام ابن تيمية وتبعه ابن القيم، وغيرهم، قال: " إنه لا يسمح له بقضاء الصلاة التي ضيعها عمدا وإنما يعوض ذلك بكثرة النوافل " فكما جاء في الحديث في الحساب يوم القيامة (أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة) ثم جاء فيه فإن وجد في صلاته نقصا قال: (انظروا هل لعبدي من تطوع) فإن كان له عوض نقص الفريضة بما له من تطوع أو كما جاء في الحديث .

وبعض الفقهاء رأي : تارك الصلاة لفترة طويلة لا تعرف هكذا، يقضي مع كل فريضة فريضة أخرى مما سبق، حتى يطمئن أنه قضى ما عليه، فالرأي الأول أقرب إلى الدليل والثاني أقرب إلى العقل، وأكثر طمأنينية

لنفس تارك الصلاة، حينما يشعر أنه أدى الفرائض التي فاتت أو كثيرًا منها فهذا يعني يعطيه طمأنينة، لكن الذي أميل إليه أنه يكثر من النوافل. والله أعلم.

سؤال :

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [طه: ١٥]، لماذا استخدم لفظ أكاد دون غيره ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

قال المفسرون : في اللفظ في استعمال كاد هنا إشكال، لأن كاد فعل من أفعال المقاربة، يعني اقتربت من أن أخفيها، هذا هو المعنى اللغوي، ونقيس عليه أيضا ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [الأحزاب: ٢٤]، حينما نقول : كان محمد وكان علي وكان إبراهيم وكان فلان طيبًا . وكان زيد كريماً، كان الزمان يتحكم في المخلوق في الإنسان يحده، لكن الله تعالى لا يحده زمان ولا يحده مكان .

وبالتالي فتفسير الكلمة في جنب الله يختلف في تفسيرها في جنب الخلق ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [الأحزاب: ٢٤]، كان ولا يزال، لا ينقطع وصفه ولا ينتهي عند حد معين، فلا نقول كان هذا كان لفظاً ماضياً والماضي يأتي بعده مضارع والمضارع يقتضي التجدد والحدوث، فربما تغير هذا الوضع، لا، هذا نقوله في الخلق، أما في الله عز وجل فكان كما يقول في الماضي والحاضر والمستقبل، كله بالنسبة لله واحد حيث لا يحده زمان .

أيضاً كاد الله تعالى لا يوشك أن يقترب من الشيء إنما يفعله أو لا يفعله يحققه سبحانه وتعالى، فالله عز وجل يقول ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾، يعين أخفيتها، وقال أبو علي الفارسي أحد علماء اللغة، قال : إن معنى ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ للإشكال الموجود في هذا الاستعمال، أي : أكاد أظهرها، يعني أوشك ظهورها، أي اقتربت الساعة من أن تظهر، هذا معنى ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ يعني كدت أظهرها ما بقي عليها إلا القليل، فهي التي اقتربت لكن الله يقيمها الآن أو بعد فترة قصيرة أو طويلة كما يشاء سبحانه وتعالى فليس فيها ما يفهم عن طريق الخلق كما تقول كما تقول في قول الله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٨]، قد يعلم هذه معناها عندنا في حقنا نحن المخلوقين، قد يعلم، وقد لا يعلم، طالما قد يعلم، إذن فقد لا يعلم، لكن في حق الله قد يعلم يعني حقا يعلم، كما هي القاعدة المعروفة قد قبل الفعل الماضي تفيد التحقيق، قد علم علم بالفعل، قد يعلم، يعني ربما يعلم وربما لا يعلم، هذا في شأن المخلوقين، لكن إذن أضيفت إلى الله عز وجل فلا يراد بها إلا التحقيق، فمعناها دائما حقا يعلم الله المعوقين منكم، حقا يعلم الله المتسللين منكم وهكذا. والله أعلم.

سؤال :

ما قولك في العقيدة الأشعرية؟ وما نصيحتكم لي ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

خير الهدي هدي محمد – صلى الله عليه وسلم– وقال – صلى الله عليه وسلم– عن افتراق الأمة كما افترق السابقون، قال: (وتفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة . قالوا : انعتهم لنا يا رسول الله . قال: من كان على ما أنا عليه وأصحابي) فكن على عقيدة السلف مهما كانت، ولا تكن مع مخالفها تضمن الطريق السليم، وتأمن على نفسك من الفتن، ومن السقوط في البدع، وخاصة في مجال العقيدة، فإنها بدعتها أخطر من بدعة العبادة، وأخطر من بدعة المعاملات ؛ فبدع العقيدة قد تدخل في الكفر، فاحذر منها، وكن على ما

كان عليه النبي – صلى الله عليه وسلم– وأصحابه وسلف الأمة رضوان الله تعالى عليهم، جعلها الله على الاعتقاد الصحيح دائم حتى نلقاه وهو راضي عنا.

سؤال :

ما أقوى القولين أن شعيب هو نبي الله شعيب أم نبي صالح

أجاب فضيلة الشيخ :

بعدما ذكرنا أنه لا فائدة في تحديد هذا الإبهام، لا ينبغي مثل هذه السؤال، لو كانت فائدة تتعلق بذكر اسمه لذكره الله باسمه وشخصه في القصة، ولكن ذكره الله بلفظ رجل وانتهى الأمر على ذلك، أو بوصف آخر، لكن ما حدد الله اسمه، فلا داعي للجري وراء ما سكت عن القرآن، فما سكت عنه إلا لأنه لا تتعلق به الفائدة أو العبرة، ونسلك هذا في كثير من مبهمات القرآن، أو في كل مبهمات القرآن إلا ما طلبته الحاجة، ولا داعي للإسراف في هذا لأنه يجرنا إلى كلام يضيع الوقت، وقال عنه العلماء : علم لا ينفع وجهل لا يضر .

حمار العزيز، أو الحمار الذي مر على قرية، ونملة سليمان، وهدهده، وكلب أصحاب الكهف، وفيل أبرهة، وكذا كانوا من أي نوع، وكانوا بأي شكل، وكانوا بأي حجم، هذا كلام وصل إلى أن تكلم فيه المفسرون وذلك فيما أظن والله أعلم، تكلموا في هذا من باب إشباع رغب الناس، ومحاولة الجواب على تساؤلاتهم البعيدة التي ما كان السلف يسألون عنها.

الله قال : إنه رجل من الصالحين وذكر طرفا من قصته، وانتهى الأمر من هو هذا لا يفيدنا إنما يفيدنا خلقه، كيف كان مع موسى – عليه السلام– كيف استقبله ؟ كيف اختاره زوجاً لإحدى ابنتيه ؟ كيف عرض عليه الأمر ؟ كيف وكيف؟ هذه هي المواقف التي يجب أن نلتفت إليها في قصة القرآن بعيدا عن مكان القصة تاريخ القصة بالضبط، القرية التي كانت فيها الشخص الذي كان بطلا فيها أو كان له دورا فيها، كل هذا لا يفيد إفادة ضرورية إفادة ضرورية في العبرة والقصة التي أراد الله تعالى أن يعلمنا إياها . والله أعلم.

سؤال :

كيف كان تواضع موسى – عليه السلام– لله تعالى ؟

أجاب فضيلة الشيخ :

كيف بالتفصيل، هذا لا يُعلم، ما قرأت فيه شيئاً، لكنَ الإمامَ ابنَ كثير رحمه الله تعالى ذكر هذا القول وكما قلت ذكره بصيغة التضعيف، لكن ذكر من أخبار موسى – عليه السلام– أنه كان الذكر لله تبارك وتعالى، وعظيم الشكر له، ذكر عنه أنه شديد البر بأمه وكانت له فضائله الكثيرة كان ستورا على نفسه، يستر نفسه مع أنه سترا مبالغ فيه، حتى لا يظهر شيء حتى من فوق عورته، يعني ما زاد عن عورته كان يغطيه أيضا، حتى قال فيه بني إسرائيل: إنه ما يستر نفسه هذا التستر إلا لعيب فيه، في جسده من الداخل، فذات يوم الله برأه فجعله يغتسل في شاطئ بحر ووضع قميصه على حجر ثم خرج بعد اغتساله ليلبس ملابسه، فإذا بالحجر بأمر الله يجري من أمامه والملابس عليه وهو يجري وراءه بعصاه وهو يقول اثبت حجر، اثبت حجر، اثبت حجر، يعني قف يا حجر، ولكن الحجر مأمور من الله وليس مأمور من موسى – عليه السلام–، فانطلق الحجر يجري يسبق موسى، حتى وقف بأمر الله على قوم، مجموعة من بني إسرائيل جالسن فأراهم الله سبحانه وتعالى موسى كما ولدته أمه، ليعلموا أنهم مفترون كذابون أفكاون افتروا على نبي الله موسى ما ليس فيه، كآية من آيات الله .

ذكر هذا في شأن موسى – عليه السلام– وقال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩]، فكان – عليه السلام، عظيم الصلة بالله تبارك وتعالى، أما تفصيل ذلك، فما وجدته بتفصيل، والله أعلم، وتكثر فيه أخبار بني إسرائيل التي لا يعتمد عليها.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين وصلِّ علينا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

إخواني وأخواتي المستمعين والمستمعات طلبة العلم، علمنا الله وإياكم الخير، أحييكم في هذا اللقاء، لنقضي جولة جديدة مع سورة طه، ونبدؤها بطرح الأسئلة على المحاضرة السابقة.

يقول السؤال الأول: ماذا يعني بدء حديث موسى بالسؤال عنه؟ ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ [طه: ٩] ؟

السؤال الثاني : ماذا نفهم من قول الله تعالى: ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا ﴾ [طه: ١٤]؟ في أول كلام الله مع موسى -عليه السلام-؟

السؤال الثالث : استخرج من الآيات السابقة أصولاً ثلاثة؟ هي أسس في كل الشرائع؟

وفي هذه الحلقة - إن شاء الله تعالى- وفي هذا الدرس نتناول من الآية السابعة عشرة وحتى قول الله تعالى: ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ [طه: ٤١] نتناولها من خلال ثلاثة عناصر:

العنصر الأول: إعداد الله تعالى لموسى -عليه السلام- لتلقي المعجزة.

العنصر الثاني أوالموضوع الثاني: هو استعداد موسى -عليه السلام- لممارسة الدعوة روحياً ومادياً.

الدرس الثالث والأخير: تثبيت الله تعالى لفؤاد موسى -عليه السلام- بتذكيره بنعمته.

ونسأل الله تعالى التوفيق والسداد.

ونبدأ بسماع الآيات من أخينا الأستاذ عبد الرحمن فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴿١٧ ﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴿١٨ ﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ﴿١٩ ﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠ ﴾ قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى ﴿٢١ ﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴿٢٢ ﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣ ﴾ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٤ ﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥ ﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦ ﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧ ﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨ ﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩ ﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠ ﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١ ﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢ ﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً ﴿٣٣ ﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً ﴿٣٤ ﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً ﴿٣٥ ﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴿٣٦ ﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧ ﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ﴿٣٨ ﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴿٣٩ ﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴿٤٠ ﴾ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١ ﴾ ﴾ [طه: ١٧- ٤١].

تبارك ربنا –سبحانه وتعالى– من رب عظيم حليم كريم، حيث يقدم لنا هذه القصة التي احتشدت فيها العبر ونبدأ حديثنا – كما تعودنا– ببيان معاني بعض المفردات التي تساهم في فهم الآيات بعد ذلك.

وردت كلمة ﴿ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ﴾ التوكؤ على الشيء هو الاعتماد عليه عند المشي ونحوه، ولذلك لا يقال: أتوكأ على الجدار إنما أستند إلى الجدار. إنما التوكؤ يكون على العصا ونحوها، وجاء في وصف العصا ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي ﴾ الهش أن يجعل الراعي عصاه المعقوفة يقال عنها في لغة مصر: العكاز التي التوى طرفها أن يضع عصاه المعقوفة في غصن الشجرة، ويهز الغصن حتى تتساقط الأوراق فتأكلها الأغنام والأنعام.

فكان موسى –عليه السلام– يهش بعصاه الأشجار حتى يوفر الطعام للأغنام التي يرعاها وما من نبي إلا ورعى الغنم –عليهم جميعاً الصلاة والسلام– وقال في وصفها أيضًا ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴾ مآرب جمع مأربة كمظالم جمع مظلمة، وهي الحاجةُ والغرض أي لي فيها منافع وحاجات أخرى أقضيها بواسطة العصا.

قال الله لموسى ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ ﴾ الجناح من الإنسان هو العضد وما تحته إلى الإبط العضد الذي هو أعلى الذراع، ارتباط الذراع مع الكتف هذا هو العضد وما تحته من الإبط.

وسمي جناحاً لأنه موضع الجناح من الطير. الجناح يكون في هذا المكان عند الطيور.

قول الله تعالى: ﴿ آيَةً أُخْرَى ﴾ آية أخرى يعني معجزة أخرى، كانت المعجزة الأولى في هذا اللقاء هي العصا، وكانت المعجزة الثانية في هذا اللقاء والأخرى هي اليد، كما سنتعرف على تفصيل ذلك إن شاء الله.

﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ الطغيانُ هو الزيادة عن الحد. وفرعون لم يكفر كفراً عادياً، مجرد إنكار لله –سبحانه وتعالى– أو رد لرسالته أو تكذيب لرسوله موسى –عليه السلام– بل ادعى أنه إله وادعى أنه الرب الأعلى والإله الأوحد –لا إله إلا الله– فكان كفره طغياناً عظيماً، كما طغى على الخلق في ظلمهم واستعباد بني إسرائيل.

دعا موسى ربه فقال: ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ شرح الصدر المقصود به توسعته بنزع ما فيه من خواطر تضيقه وقد شرح الله صدر رسولنا – صلى الله عليه وسلم– مادياً ومعنوياً أما الشرح هنا فهو معنوي فقط.

وكأن موسى –عليه السلام– يطلب من ربه –سبحانه وتعالى– أن ينزع من قلبه شدة الغضب، وكان غضوباً في الحق، شديد الغضب لله، وللعدل، فكأنه في مواجهته لفرعون أراد أن يكون حليماً ليصبر على أذاه ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ اجعله واسعاً يتحمل ما ألاقي من فرعون وقومه.

﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴾ كان سيدنا موسى –عليه السلام– ذا عقدة في لسانه عقد لسانه يعني: عن نطق بعض الحروف، وقيل: عن بعض الكلمات فلا يبينها كما يبين بقية الكلام، فربما لا يفهمه من تعود على كلامه، ومن طالت عشرته.

فدعى ربه –سبحانه وتعالى– أن يحل هذه العقدة أو يحل منها لكي يفهمه قومه والمدْعوُّون إذا أمرهم بطاعة الله وأمرهم بشريعة الله سبحانه ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴾.

وقال أيضاً: ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي ﴾ ليست كلمة وزير بالمعنى الوظيفي المعروف في زماننا؛ إنما بمعناها الواقعي الفعلي ،أي: اجعلي مؤازراً، مقوياً، معيناً، ومنها قوله تعالى: ﴿ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴾ أصل الأزر هو الظهر، والإنسان إذا أراد أن يتقوى على عملٍ ما شدَّ أزره وربط ظهره برباط، يلف حول وسطه شيئاً ما

يشده على ظهره ليتقوى على ذلك على العمل، وسمي الثوب الذي يستر أسفل البدن إزاراً؛ لأنه يعقد عند الأزر أي عند أول الظهر.

قال الله -سبحانه وتعالى- لأم موسى: ﴿ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ ﴾ التابوت: مقصود به صندوق من الخشب على قدر طول الإنسان ليوضع فيه، وكان معروفاً في بني إسرائيل ﴿ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ اليم: مقصود به البحر، وسمي به البحر؛ لأن اليم في الأصل هو الماء، ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ﴾ الساحل: هو الشاطئ، ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ أهل مدين- كما عرفنا عرضاً في حلقة سابقة- هم قوم نبي الله شعيب -عليه السلام- كانت تلك القرية هناك وبعث فيهم سيدنا شعيب -عليه السلام- وأصل مدين: ولد من أولاد نبي الله إبراهيم -عليه السلام-

قول الله تعالى لموسى ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً ﴾ الفتنة تطلق على الاختبار، وقد يكون الاختبار بالنعمة وقد يكون بالمصيبة كما قال تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء: ٣٥] ويرجح أن المراد بها هنا في قصة موسى -عليه السلام-ما كان من شدة في حياة موسى -عليه السلام- إنه لقي شدة في حياته قال بعض العلماء - كما ذكر الإمام ابن كثير- رحمه الله- "كانت هذه الشدة عقوبة له على قتل الرجل القَبَطِيّ وإن كان لا يقصد القتل لذاته".

هذا بيان حول المعاني لبعض المفردات الغريبة في بعض الآيات التي استمعنا إليها.

ويقال في المعنى العام: إن الله -تبارك وتعالى- لما نادى موسى -عليه السلام-بالنبوة وقال له: ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴾ [طه: ١٢] وعلمه الأصول فقال: ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ ﴾ [طه: ١٤، ١٥] وبهذا يبعثه إلى أمة من الأمم وإلى خلق يدلهم على وحدانية الله -تبارك وتعالى- وجدية الحياة الدنيا بدليل أن هناك قيامة وحساباً يحاسب الله فيه العباد.

ولا بد لكل نبي أو رسول يبعث إلى الناس من معجزة فعلم الله تعالى موسى وأراه من آياته الكبرى آيتين: آية العصى حيث حولها له ثعباناً وحية عظيمة. كما جعل يده التي هي سوداء في لونها أو تميل إلى السواد حولها إلى بيضاء من غير سوء، أو أذى أو مرض من برص ونحوه إنما بقدرة الخلاق -سبحانه وتعالى- بمجرد أن ضمها إلى جناحه وجعلها في جنبه أو وضعها في جيبه كما أمره الله -سبحانه- وبهذا التأييد العظيم يقوي الله تعالى قلب موسى -عليه السلام- ليوجهه فيقول: ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ فلما رأى موسى أنه مبعوث إلى طاغية وهو يعرف ذلك الطاغية وكم طغيانه وعظيم بغيه خشي على نفسه من مواجهته أنه لا يقوى على هذه المواجهة، فتقوى، وهذا نبل من سيدنا موسى -عليه السلام- أن يعرف قدر نفسه وأن يتزود لمهمته فالمسألة ليست عنترية ولا شجاعة شعارية يطلقها بشعار إنما المسألة واقع ومواجهة حقيقية ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ [طه: ٢٥، ٢٦] هذا في نفسه أما مع الناس فقال: ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ ﴾ [طه: ٢٧- ٣١] قوي به ظهري أي: قوني به في هذا الأمر وعلى هذه المهة ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ [طه:٣٢] أي اجعله نبياً مثلي ولكن ليس رسولاً فموسى رسول وهارون نبي عليهما السلام.

حتى نصل بهذا يا ربنا إلى ذكرك وتسبيحك بشكل يليق بك شكل عظيم، وذكراً كثيراً يملأ طول يومنا وطول ليلتنا فنكون دائماً على ذكرٍ لك.

استجاب الله لموسى -عليه السلام- ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ ولكي يؤكد له ذلك ولكي يطمئنه من هذا الخوف ويثبته في تلك الوحشة حين يقابل فرعون قص الله على موسى خبراً ربما لم يكن يعرفه حتى هذه الساعة بهذه التفاصيل الدقيقة فقال له بما يرسخ في قلب موسى -عليه السلام: إننا اعتنينا بك عناية عظيمة وصنعناك على أعيننا أو على عيننا صناعة تحميك من فرعون وبطشه وظلمه، فالذي حماك وأنت طفل صغير لا

حول لك ولا قوة ولا يملك أحد لك شيئاً يحميك عند مواجهته بالدعوة. فقص الله عليه هذا الخبر ليثبت فؤاده ويطمئنه إلى مستقبل أمره ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾ في هذا الجو العدائي في هذا الجو الغادر ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ فأحبتك امرأة فرعون وسكت عنك فرعون ورفعت عن المدى والسكاكين التي كانت تذبح كل ذكرٍ يولد في بني إسرائيل فحمى الله – تعالى– نبيه موسى وهو طفل صغير بسياج من المحبة ألقاه في القلوب، فكان كل من رآه أحبه وذلك ليصنع على عين الله ترعاه عين الله –تبارك وتعالى– ويلاحظه الله بعينه ويراه فيحميه من كل شيء يقترب منه أو يؤذيه وهكذا، حتى أصابتك المخافة العظيمة حين قتلت نفساً من بني فرعون ومن ملأ القَبَطين –وهم أهل مصر يومها– كانوا يسمون قَبَطَاً بغض النظر عن دينهم، فلم تكن هناك يومها يهودية ولا نصرانية ولا إسلام إنما بدأ موسى يدخل مصر ليدعوهم إلى الله –تبارك وتعالى– مما عرف بعد ذلك بدين اليهودية فكان أهل مصر في ذلك الزمان يسمون بالقَبَط، فلما قتلت هذه النفس توعدك فرعون بالقتل وتتبع خطاك وأثرك فنجيناك من الغم وفتناك فتونا بالخروج من مصر وترك أمه وأهله وملأه من بني إسرائيل والغربة في أرض مدين وما لاقى في الطريق من مصاعب وما لقي هناك من غربة حتى آواه الله تعالى وأكرمه بزواجه وصحبته للرجل الصالح ثم بالنبوة في عودته وهكذا يكرم الله تعالى الأنبياء. ولأتباع الأنبياء حظ وافر من إكرام الله – عز وجل–

هذا عن المعنى العام للآيات، وهو مرور سريع عليها وأخذ الفائدة الضرورية منها وهذا ما يعرف بالتفسير الإجمالي.

أما العناصر التي قدمناها والموضوعات التي قسمنها حولها الآيات فكان الموضوع الأول: إعدادَ الله لموسى –عليه السلام– لتلقي المعجزة.

موسى –عليه السلام– في هذا الموقف الأول، ما كان يعرف رسالة ولا نبوة كما قال الله لنبيا –عليه الصلاة والسلام– ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ ﴾ [الشورى: ٥٢]، ما كان يدري شيئاً عن شيء في هذا المجال مجال النبوة والرسالة وما كان يتوقع أنه سيكون رسولاً وقال: (أتاني آتٍ) ولا يعرف ما هو هكذا كان نبي الله موسى –عليه السلام– ذهب إلى النار ليقتبس منها قبساً أو يأخذ جذوة أو يجد على النار هدىً، فإذا به ينادى ﴿ يَا مُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴾ [طه: ١١، ١٢] كانت المسألة مفاجأة وبغتة، ولذلك مثله يندهش، والبشر يخاف في هذه الوحشة ومنادٍ خفيّ ينادي عليه باسمه الذي لا يعرفه في هذا المكان أحد، وفي ظلمة لا يراه فيها أحد، فكان الأمر مدهشاً لنبي الله موسى ومخيفاً –عليه السلام– فناداه الله –تعالى– وعرفه بنفسه أنه: هو الله لا إله إلا هو... إلى آخره ثم أراد الله – عز وجل–- أن يؤيده ويثبته ويعلمه كيف تكون المعجزة، فقال الله تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ ولم يسمها الله لم يقل ما تلك العصى وإلا فقد أجاب، ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ ما هذه التي في يمينك؟ قلنا قبل ذلك: طالماً كان السائل يعرف الجواب، فالسؤال المقصود منه ليس الاستفهام والاستعلام والاستخبار إنما خرج مقصود السائل إلى أمر آخر، السائل هنا هو الله – تبارك وتعالى– يعلم الغيب والشهادة، ويعلم ما في يمين موسى وما بين يديه وما خلفه وما بين ذلك، ولكن يسأل ليقرر موسى بما في يده، وليلفت نظر موسى إلى ما في يده، موسى قادم من طريق وعر في صحراء وفي جبال، ونزل في طريقه في منازل، فربما وضع عصاه وحين أراد الذهاب مرة أخرى، ربما أخذ شيئاً غير العصا وهو لا يدري، فربما أمسك ثعباناً ميتاً أو حياً أو نحو ذلك من أشياءَ أخرى ولم يدرِ أنه أخذ شيئاً غير العصا فحينما يرى ما في يده انقلب إلى حية ربما يطرأ في ذهنه أنه أمسك بشيء غير العصا، فأراد الله أن يحقق له ما في يده أولاً، وأن يقرر هو بما في يده، فقال موسى وكأني به ينظر إلى ما في يمينه ليتحقق منها فقال ﴿ هِيَ عَصَايَ ﴾ وأضافها إلى نفسه أي: عصاي التي أعرفها وأعهدها عصاي التي أنتفع بها في مآرب كثيرة، ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴾ فإذا ما جعلها الله بعد ذلك ثعباناً يعلم موسى أن هذا الثعبان كان عصاه، وكان في يده عصا بالفعل، وهذا الموقف يذكرنا بموقف سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم– حينما

جاءه جبريل أول مرة في الغار مأموراً من الله -تبارك وتعالى- أن يقول له: اقرأ الله؟ يعلم أن نبيه لا يقرأ. الله يعلم أن محمداً بن عبد الله لا يقرأ وجبريل يعلم ذلك أيضاً، ومع ذلك يأمره بما لا يستطيع، ومعروف أن الأمر بما لا يستطاع عبث والعبث محال على الله -تبارك وتعالى- إذن أراد الله أمراً آخر: أراد الله بقوله ﴿ اقْرأْ ﴾ [العلق: ١] ليؤكد في نفس النبي -عليه الصلاة والسلام- وفي نفس من تقص عليه هذه القصة أنه - صلى الله عليه وسلم- كان لآخر لحظة قبل النبوة لا يقرأ ولا يعرف قراءة وليس عنده في حفظه ما يقرؤه فإذا ما علم شيئاً يقرؤه شيئاً عظيماً أيقن أن هذا من عند الله، فلم يرَ رؤيا ثم قام وتكلم بها ولم يلقن علماً ثم قام ليعلمه وإنما جاءه جبريل يقظة وقال له اقرأ، قال: ما أنا بقارئ ويضمه جبريل ضمة شديدة تبلغ من رسول الله -عليه الصلاة والسلام- الجهد والتعب، ضمة ملك ثم يرسله، أي: يتركه من بين ذراعيه ليكرر عليه الأمر ثانية ﴿ اقْرأْ ﴾، يقول: (ما أنا بقارئ) ويضمه ثم يرسله ﴿ اقْرأْ ﴾ الثالثة (ما أنا بقارئ) ويضمه ثم يرسله ثم يقول له: ﴿ اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق: ١- ٥] ينطلق النبي -عليه الصلاة والسلام- إلى بيته حيث خديجة وهو يرتعد وترتعد فرائسه أي أعلى كتفه من شدة الخوف وهول المفاجأة ليقول: حدث كذا وكذا وكذا، وأقرأني ﴿ اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ويقرأ الآيات التي سمعها، من أين؟ لم تكن من حفظه أولاً ولم تكن عنده قبل ذلك، إنما جاءته هذه الساعة فيعلم أنها من قبل هذا المصدر وليست في نفسه قبل ذلك، وليست من تعليم أحد له غير هذا الآتي الذي أتاه وعرف بعد ذلك أنه الوحي وأنه جبريل -عليه السلام-

فكان السؤال ﴿ اقْرأْ ﴾ تقريراً وتحقيقاً أنه - صلى الله عليه وسلم- ما كان يقرأ ولا يعرف القراءة إلى تلك اللحظة التي جاءته فيها النبوة.

كذلك سيدنا موسى -عليه السلام- يقول الله له: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ الله يعلمها وموسى يعملها وكان السؤال لتحقيق موسى من العصا وليتأكد ويستوثق مما في يمينه فيوقن بأنها عصاه التي يعرفها، فإذا ما انقلبت حية أو ثعباناً يسعى يعلم أن هذا تغير من عند الله، وتحويل بإعجاز الله -تبارك وتعالى- ولم يحمل شيئا خطأ أو سهوا من الأرض.

وهنا نلاحظ أن موسى -عليه السلام- استطرد أو أطال بعض الشيء في الحديث قال: ﴿ هِيَ عَصَايَ ﴾، وكان هذا يكفي ولكن قال: ﴿ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴾ ولعل القرآن أوجز حديثاً كان أطول من ذلك، هذا هو الذي ورد في القرآن. والقرآن قائم على الإيجاز والاختصار بلاغة عظيمة، قال العلماء في ذلك: إن موسى -عليه السلام- لما آنس ربه، أحب لقائه فأطال الحديث مع الله، كما يلقى الحبيب حبيبه فيحب الحيث معه ولله المثل الأعلى ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ﴾ عرفنا التوكأ هو الاعتماد على الشيء عند المشي ونحوه أتوكأ عليها وما من نبي إلا وحمل العصا -عليهم الصلاة والسلام- كانوا يحملونها قبل النبوة لطبيعة الأرض وطبيعة الحياة هناك، وبعد النبوة تمسكوا بها فإن كانت عادة صارت سنة بعد النبوة تصير سنة عن الأنبياء وحملها يه بركة وفيه نفع، لكن الأعراف التي تتغير تنكر بعض السنين نسأل الله الهداية والثبات.

فالعصا من عادة الأنبياء ومن سننهم ونبينا -عليه الصلاة والسلام- كان يحمل العصا يغرزها في الرمال أحياناً بين يديه ليصلي إليها كسترة ويضعها أحياناً ويضع عليها الثوب كالرداء الذي يكون على الكتفين ونحوه من ثوب يستتر وراءه ليقضي حاجته أحياناً في الخلاء، وأحياناً كان يمسكها وهو يفكر أو يحدث أصحابه فينكت بها في الأرض كما ورد في الأحاديث فلها فوائد عظيمة.

فسيدنا موسى -عليه السلام- كان يتوكأ على هذه العصا من ضمن المنافع ويهش بها على غنمه ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي ﴾ إذن كان يرعى الأغنام، ونبينا -عليه الصلاة والسلام- كان يرعى الغنم أيضاً لقومه على قراريط أي على أموال قليلة.

وعرفنا أن الهش هو إسقاط أوراق الأشجار حتى تأكلها الأنعام والأغنام حين لا يكون هناك عشب في الأرض ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴾ يدفع بها الأذى، يرد بها من اعتدى، يتناول بها الشيء البعيد، يتحسس بها في الظلام، وهكذا لها منافع كثيرة في حياة الإنسان، يعرفها من أمسك بها ومن اصطحبها في حياته ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴾ قال أي: -رب العزة والجلال- قال: ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ﴾ ألق هذه العصا الإلقاء: هو طرح الشيء أي: اطرحها اتركها من يدك ﴿ فَأَلْقَاهَ ﴾ استجابة فورية لأمر الله - تعالى- وإن كان موسى وقد صار نبياً مكلماً لا يعلم حكمة إلقاء العصا فلم يقل: ولماذا ألقيها يا رب؟ وهذا درس نستفيده في الطاعة لله - سبحانه وتعالى- أنه ينبغي إذا سمعن[قال الله ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-] ينبغي أن نطيع فوراً واستسلاماً وإن لم نعلم الحكمة من الأمر أو الحكمة من النهي ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا ﴾ وحرف الفاء في العطف يدل على الترتيب والتعقيب أي السرعة، استجاب موسى بسرعة ولم يفكر؛ لأن الله يكلمه ثقة في الله - عز وجل- ألقى عصاه، وهذا شأن المؤمنين دائماً يقولون: سمعنا وأطعنا ﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾ فجأة إذا الفجائية فوجئ موسى -عليه السلام- بأن عصاه التي تحقق منها وعرفها وعهدها صارت حية تسعى وفي بعض الآيات الأخرى ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٠٧] ثعبان أم حية؟ بعض المشككين يشككون بهذا يقولون: القرآن تعارض، فقال مرة ثعباناً ومرة حية، ما المانع أن يكون الله جعلها مرة حية ومرة ثعباناً؟ ولكن الجنس حيات، والثعبان واحد من الحيات فالحية تشمل الذكر والأنثى، وهنا أنبه إلى أن الخطأ في التفسير وكذلك في فهم السنة أحياناً كثيرة يَعرضُ لنا ونقع فيه بسبب أننا نفسر الآية أو الحديث بلغتنا المعاصرة التي تواضعت جداً عن اللغة العربية التي أنزل بها القرآن ونطق بها الحديث النبوي الشريف إنما ينبغي أن يفهم كلام الله باللغة التي أنزل الله بها كلامه، ويفهم كلام رسول الله -عليه الصلاة والسلام- باللغة التي كان يتكلم بها، وقد أوتي جوامع الكلم، وقرر العلماء قاعدة قالوا: ينبغي أن يُفهم الكلام عند قائله، يعني بلغة قائله، وبما يريده قائله، لا بما يريده السامع ولا بما يفهمه السامع.

هكذا فالثعبان أو الحية الجنس واحد لا خلاف ولا تعارض فإذا هي حية تسعى أي تجري على الأرض، قال الله - تعالى-: ﴿ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ ﴾ فقد خاف موسى كما جاء في آيات أخرى ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ [النمل: ١٠]، أي: ولى ولم يلتف ولم ينوِ الرجعة فناداه الله - تعالى- وثبته ﴿ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ ﴾ فطالما قال الله - تعالى- لا تخف فلا خوف. فمال إليها موسى وتناولها وفي ذلك بعض الكلام الذي في غنى عن ذكره وإن كان قد سطر في بعض كتب التفاسير من أن الحية كانت شكلها كذا طولها كذا أنيابها كذا أنها أكلت شجرة بقطمة واحدة، ابتلعت حجراً مثل كذا كل هذا كلام سكت عنه القرآن والاكتفاء بما ذكر الله أولى وأحسن إلا أن يأتي ذلك من طريق صحيحة يُطمأن إليها ومن رواية صحيحة يعتمد عليها في هذا الجانب.

أما هذه التفاصيل فلا داعي لها - علم لا ينفع وجهل لا يضر- أخذها موسى فإذا بها عصا وهي عصاه التي عهدها قبل ذلك، عادت كما قال تعالى: ﴿ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى ﴾ بمجرد أن لسمتها يده عادت الحية عصا كما كانت وذلك ليتعلم موسى أن الله - عز وجل- حينما يفعل المعجزة؛ أو يؤدي المعجزة لرسوله ويجريها على يده يعلم أن المعجزة تغيير للحقائق؛ فهي تخالف السحر، السحر تخييل للعين بتغيير حقيقة الشيء ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ [طه: ٦٦]، لكن هذا ما كان تخيلاً كان سعياً حقيقياً، فالسحر تخييل للعين وإظهار للشيء على غير صورته الحقيقية إنما المعجزة قلب للحقيقة أو تحويل للحقيقة من صورة إلى صورة أخرى ربما لم تكن من جنسها فالحية ليست من جنس العِصي، فليست عصا، وليست العصا من الحيات حول الله شيئاً إلى شيء آخر.

والمعجزة كما عرفها العلماء: أمر خارق للعادة، يعني لا يفعله أي إنسان لم يتعود علي الناس لو ألقت الـدنيا كلها عصياً في الأرض لن يتحول شيء من ذلك إلى حية حقيقية أو ثعبان حقيقي وقد حدث هـذا مـع سـحرة فرعون كما سنعلم -إن شاء الله- اجتمع السحرة وألقوا حبالهم وعصيهم ولكن لم تتحول إنما خيل إلـى النـاس الناظرين لهذا المشهد خيل إليهم وإلى موسى -عليه السلام- من سحرهم أي: من سحر السحرة، أنها تسعى شكل كشكل السعي حركة وهمية إنما ما كان من عصا موسى هذه المرة وفيما يأتي من مرات كان تحـويلاً حقيقيـاً لأصل الشيء.

فالمعجزة: أمر خارق للعادة يظهره الله -تعالى- على يد أنبيائه ورسله تأييداً لهم.

قد يكون هذا قبل النبوة أو بعدها إلا أنه قبل النبوة يسمى: إرهاصاً. الإرهاص: هو المعجزة قبل النبوة، ولكن تسمى إرهاصاً، أي: تمهيداً وبشرى بأن هذا الإنسان بأن هذا الرجل سوف يكون نبياً، أما بعد النبوة وبعد إتيـان الرسالة فتكون معجزة.

وعكس المعجزة الإهانة: هي أمر خارق للعادة أيضاً للعادة يظهره الله -تعالى- على يد مدعي النبـوة كـذباً إهانة له، كما وقع ذلك لمسيلمة الكذاب حينما سمع أن نبي الله محمداً -عليه الصلاة والـسلام- رد عـين أحـد أصحابه التي أخرجت ردها مكانها وتفل فيها من ريقه الشريف فصحت وعادت كما كانت حتى يقول صـاحبها: والله لكانت أصح من السليمة أي: من العين التي لم تصب، فظن مسيلمة أن المسألة بتفلة وبشيء مـن الريـق، فراح يعمل لنفسه معجزة، فتفل في عين رجل المصابة فعميت العين السليمة، من المفترض والأمر الطبعي أنه لا تصاب العين السليمة بما وقع في العين المريضة من أذى، هذا الاتصال لا يكون مباشراً إلا في ظروف ضيقة أو ربما حالات نادرة كما يحدد ذلك أهل الطب، إنما تصاب عين تبقى العين الأخرى كما هي ربما يصيبها شيء من الأذى الخفيف، لكن أن تعمى هذا مخالف للعادة وخارق لها فحينما تفل مسيلمة- لعنه الله- فـي عـين الرجـل المصابة أعمى الله عينه السليمة وما ذنبه؟ أنه وقف لدجال لكي يعالجه إنما العلاج يكون لأهل العلاج، فأظهر الله على يد مسيلمة أمراً خارقاً للعادة؛ لكي يهينه بذلك، وليعلم الناس أنه ليس نبياً وليست هذه معجزة فكانت العـصا معجزة لنبي الله موسى -عليه السلام- حين حولها الله – تعالى- إلى حية تسعى وكانت هي المعجزة الكبرى كما جاء في سورة النازعات ﴿ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴿٢١ ﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴾ [النازعات: ٢٠] وعرفنا مـن قبـل أن الكبرى مؤنث أكبر المذكر أكبر والمؤنث كبرى، فهذه الآية الكبرى؛ لأن الله بدأه بها وكان حالها عجيباً العـصا استعملها سيدنا موسى -عليه السلام- حينما ناظر بها السحرة ألقى ما في يده ﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَـا يَـأْفِكُونَ ﴾ [الأعراف: ١١٧]، أكلت حبال وعصي السحرة مع كثرتها أكواماً كثيرة فذُكر أن السحرة كـانوا مئـات الآلاف جمعوا من أنحاء مصر فعندهم حبال وعصي كثيرة جداً ابتلعتها حية موسى ثم عادت عصا مرة أخرى بـالحجم الأول التي كانت عليه، فكانت معجزة عظيمة، ضرب بها الحجر – بإذن الله وأمره- حين استـسقى لقومـه ﴿ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً ﴾ [البقرة: ٦٠]، ضرب بها البحر – بأمر ربه ووحيه- ﴿ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِـرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء: ٦٣]، ولذلك كانت العصا هي الآية الكبرى أكبر معجزة أوتيها سيدنا موسى -عليـه السلام- ثم أعطاه الله معجزة أخرى ولعل هذه المعجزة الأخرى في هذا الموقف إشارة إلى أن العصا ليست هي المعجرة الوحيدة ولا المعجزة الأخيرة يعني سنأيدك بمعجزة بعد معجزة فاطمئن يا موسى فقـال لـه -سـبحانه وتعالى- ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ ﴾ [طه: ٢٢]، واضمم يدك إلى جناحك أي ضعها تحت إبطك، فعرفنـا أن الجناح: العضد ما تحت الإبط أي خبئها تحت إبطك أو ضعها في جيبك كما في آية أخرى والجيب عادة، نجعلها تحت الإبط، أو في فتحة قميصك فالجيب يطلق أيضاً هذا اللفظ يطلق على فتحة القميص الذي يدخل منه الـرأس عند لبس الثياب، المهم دون اختلاف في هذا كله أمر الله موسى -عليه السلام- أن يخبئ يده ثم يخرجها ليراهـا بيضاء على غير العادة، وذكر الإمام ابن كثير -رحمه الله تعالى- عن الإمام الحـسن البـصري -رحمـه الله تعالى- أن يده كانت كالمصباح، رآها بيضاء مشعة فيها بياض شديد من غير برص فالبرص بيـاض يـصيب الجسم، هذا بياض سليم آية من آيات الله تعالى، ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُـوءٍ ﴾ أي

من غير مرض أو علة ﴿ آيَةً أُخْرَى ﴾ لنريك من آياتنا الكبرى وهذا وعد بآيات وآيات وقد آتى الله موسى -عليه السلام- تسع آيات يأتي تفصيلها - إن شاء الله تعالى- في حينه وموعده، ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾، هذا تكليف من الله تعالى وتوجيه إلى موسى -عليه السلام- وهو عائد من أرض مدين أن يحدد وجهته: توجه إلى فرعون أولاً لتدعوه ولتخلص بني إسرائيل من تحت وطأته، لكي يأخذ بني إسرائيل بعد ذلك إلى أرض أخرى فيعلمهم توحيد الله- سبحانه- والتبعية لرسوله -عليه السلام- والانتظام مع منهج الله في هذا الحياة فيرقى بهم ويسموا وليعزهم ويحررهم بعد استعبادهم تحت أقدام الفراعنة ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ وهنا قال موسى -عليه السلام- ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ هنا طلب موسى -عليه السلام- الاستعداد لهذه المهمة، الدعوة من المهام الثقيلة جداً، من أعظم المهام ومن أثقل المأموريات ولذلك لم يكلها الله - تعالى- إلى آحاد الناس إنما اختار لها رجالاً رجالاً رجالاً اصطفاهم من بين خلقه وحملهم رسالته كل رجل في قومه حتى بعث محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم- للبشرية جميعاً منذ أن أذن الله له بالرسالة ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ [الأعراف: ١٥٨] ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فهؤلاء الأنبياء والرسل، هؤلاء الدعاة الأول في الأقوام: رجال، رجال اصطفاهم الله تعالى واختارهم، ليس لأحد من الخلق مثل ما لهم من صفات الكمال البشري والرجولة والقوة والصبر والرحمة والصفات العظيمة التي يسموا بها الإنسان، فلو حققت بين أي رسول من الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وبين أفراد قومه جميعاً وأفراد أمته لن تجد له نظيراً في أمته فهو أصفاهم وأعلاهم وأحسنهم وأفضلهم وأكرمهم بكل المقاييس، ثم من بعد ذلك يصطفي الله تعالى للدعوة رجالاً آخرين، يدعون بدعوة الأنبياء والمرسلين؛ ولذلك من الدعاة من يجمع الله عليه الناس ومن الدعاة من لا يجد قبولاً عند الناس هذا أمر الله -تبارك وتعالى- يصطفي الله لدينه من يشاء، فمهمة الدعوة ثقيلة ولذلك ينبغي أن نعين الدعاة وأقل عون نعينهم به: الدعاء، أن ندعوا لهم بالثبات والحفظ وأن يحفظهم الله -تعالى- بعينه كما حفظ الأنبياء وأن يقويهم الله -تعالى- وأن يثبتهم وأن يدفع الأذى عنهم وأن يمكنهم من قولة الحق وهداية الخلق، وهكذا وإلا فباب المعونة والمساعدة كثير أو كثيرة جداً وباب واسع نستطيع أن نعاونهم بقدر ما نستطيع وكان الصحابة -رضي الله عنهم- يعرضون أنفسهم وأموالهم وحياتهم على رسول الله -عليه الصلاة والسلام- ويوفرونها لخدمة هذه الدعوة العظيمة الدعوة إلى توحيد الله تبارك وتعالى، ولهذا طلب موسى من ربه أن يعينه ويقويه فطلب إمداداً وإعداداً روحانياً وإعداداً ووإمداداً مادياً أما الروحاني فقال فيه ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ كان موسى -عليه السلام- شديد الغضب في الحق كما قلنا، وكان قوياً في البدن قوياً جداً بلغت قوته إلى أنه حينما وكز الرجل القِبْطِي وكزه يبعده هكذا: تنح لا تتشاجر مع الإسرائيلي يبعده ويقصيه فقط سقط المصري ومات إذن كانت وكزة موسى قاتلة وكزة شديدة طبيعته هكذا -عليه السلام- وكان شديد الغضب في الحق لا يتحمل أن يرى منكراً أو ظلماً ولذلك حينما أمره الله بالتوجه إلى فرعون ويعرف فرعون وظلمه وتخيل ماذا يكون في هذه المواجهة. قال: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي ﴾ ليس لأنهم كذبوه ولكن لأنهم كذبوا رسالة الله، فربما لا يتحمل هذا الموقف فيعجل بشيء لا يرضي الله - عز وجل- أو لا يكون ملائماً لمقام النبوة ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي ﴾ [الشعراء: ١٢، ١٣] من الغضب ينعقد اللسان فلا ينطق النطق المفهم ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴾ [الشعراء: ١٣] وهنا يقول: ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ عرفنا أن شرح الصدر المطلوب فيه والمقصود منه توسعة الصدر من الخواطر التي تضيقه ومنها الغضب ومنها شدة الغضب ومنها سرعة الغضب ومنها القوة فهذا كله يجعل الصدر ضيقاً أحياناً، خاصة عندما يرى الإنسان ما لا يحسن وكان نبينا -عليه الصلاة والسلام- لا يغضب لنفسه أبداً كان على حلم عظيم ولكن كان يغضب حتى يظهر الغضب في وجهه ويحمر وجهه لو رأى حرمة من حرمات الله تنتهك ولو كان أمراً يستصغره الناس في أعينهم، دخل حجرته يوماً عند عائشة وهو على الباب رأت مفاجأة أعدتها له كزوجة رأى وسادة موضوعة في مقابل الباب ليراها أول ما يدخل غير أن الوسادة وغطاء الوسادة كانت عليه صورة، فغضب -عليه الصلاة والسلام- حتى عرفت عائشة الغضب في وجهه فقامت إلى الوسادة وجذبتها وأخذت غطاءها وأزالت هذه الصورة بشكل أو بآخر حتى رضي النبي - صلى الله عليه وسلم- فكان يغضب إذا انتهكت حرمة من حرمات الله، ولكن لا بد مع الغضب ما يضبطه أو مما يضبطه من الحكمة والأناة وسعة الصدر والحلم وهكذا ولذلك يطلب موسى أن يزوده ربه بهذه الكرامة ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي

صَدْرِي ﴿٢٥﴾وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ فعلاً الدعوة صعبة، الطبيب يعالج المريض أمامه جثة وقد درس وجرب هو ومن قبله أن العقار الفلاني ينفع في الداء الفلاني كذا يعالج كذا ويتفاعل مع كذا فيتم الشفاء- إن شاء الله- لكن الداعي يخاطب قلباً يخاطب خاطراً فلا يدري الداعي إن كان المدعو معه بقلبه أو ينصرف عنه فيستجيب أو لا يستجيب ويقول الله تعالى لرسولنا محمد – صلى الله عليه وسلم- في شأن عبد الله ابن أم مكتوم –رضي الله عنه- حينما جاءه فانصرف عنه انشغالاً بكبار قريش يقول : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴿٣ ﴾ ﴾ [عبس: ٣] وقال: وما يدريك: فعل مضارع يدل على التجدد والحدوث أي ستظل جاهلاً دائماً يا نبي الله بأن هذا المدعو يتزكى أو لا يتزكى، ينتفع أو لا ينتفع، لا يستطيع النبي – صلى الله عليه وسلم- ولا الداعي مهما كان علمه أن يصل إلى معرفة: إن كان هذا المدعو يستجيب أو لا يستجيب، يتذكر أو لا يتذكر، يهتدي أو لا يهتدي. ما يعرف هذا، لكي يواصل جهده في الدعوة.

وهنا يطلب نبي الله موسى –عليه السلام- أن ييسر الله له هذا الأمر فطمأنه الله –تبارك وتعالى- على ما سأل ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩ ﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠ ﴾ ﴾ أجابه الله في هذا فقال: ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴿٣٦ ﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧ ﴾ ﴾ وذلك حينما كان طفلاً وأراد فرعون أن يقتله كما كان يقتل ذكور بني إسرائيل الغلمان الصغار فحماه الله –تعالى- بسياج رقيق من المحبة ألقاه في قلب امرأة فرعون ولم يستطع فرعون أن يتكلم بغير هذا مع امرأته فتركه ليكون قرة عين لامرأته حيث كانت لا تنجب وربى الله موسى على عينه في بيت عدوه وعلى مائدة عدوه فرعون اللعين وحتى كَبِرَ وصار شاباً كبيراً وحدث منه ما حدث من قتل الرجل القِبْطيّ فدله الله –تعالى- بواسطة رجل خرج لينصحه بأن فرعون يريد قتله فخرج موسى –عليه السلام- من مصر قاصداً أرضاً أخرى فكان التوجه بفضل الله وتدبيره إلى أرض مدين وبهذا نال غربة وكربة في السفر والانتقال وهذا كان كالعقوبة له على قتل هذه النفس، واستفاد العلماء من هذا تعظيم الله تعالى لقدر النفس البشرية وإن كانت على غير دين التوحيد فالنفس لا تقتل إلا بحق لأن هذا الرجل الذي قتل وإن كان بغير قصد لم يكن صاحب شريعة ولم توجه له رسالة ليكفر بها أو يؤمن إنما كان –كما يقال- من أهل الفطرة يعني: لم يبعث له نبي فنفسه نفس معصومة حتى يخاطب بالرسالة فيكفر فيستباح الجهاد معه هذا والله تعالى أعلى وأعلم. ونسأل الله تعالى أن ينفعنا بما علمنا ونعوذ به من علم لا ينفع، ربنا زدنا علماً نافعاً وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

إجابات الأسئلة

إجابة السؤال الأول:

بدأ الحديث بالسؤال لجذب الانتباه.

نعم، جيد.

إجابة السؤال الثاني :

بدأ الله حديثه بقوله تعالى: ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا ﴾ [طه: ١٤] على أن أول ما يريده الله من عباده توحيده وإفراده بالعبادة وهو دليل على عظمته -سبحانه وتعالى-

بارك الله فيكم.

إجابة السؤال الثالث:

الأصول الثلاثة:

الأصل الأول: الوحدانية توحيد الله.

الأصل الثاني: الأمر باشتغال العبد بعبادة ربه.

الأصل الثالث: ثبوت يوم القيامة. والله تعالى أعلم.

نعم هذه هي الأصول الثلاثة المشترطة هي توحيد الله -تبارك وتعالى- والعبادة من الخلق والاعتقاد في يوم القيامة كيوم حساب.

ما سبب العقدة التي كانت في لسان موسى -عليه السلام- ؟

﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ ﴾ [لقمان: ١١] يخلقنا الله- تبارك وتعالى- خلقاً على هيئة معينة والأصل أننا نخلق بخلقة كاملة أما ما يصيب الخلقة من نقص أو عجز في بعض الأجزاء والأطراف وما إلى ذلك، هذا غالباً ما يكون بسبب علة من البشر تحدث في الحمل أو قبل الحمل أو نحو ذلك أو أي إصابة لكن شأن الله -تبارك وتعالى- أن يخلق المخلوق كاملاً هذا شأنه في الخلق جميعاً، ولعل الشاهد والمصدق على هذا قول النبي – صلى الله عليه وسلم- : (ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تلد البهيمة بهيمة جمعاء لا ترون أو قال: لا تجدون من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونه) الشاهد في قوله تعالى (كما تلد البهيمة بهيمة جمعاء) يعني: كاملة الخلقة (لا تجدون فيها من جدعاء) أي من قطع، من نقص (حتى تكونوا أنتم تجدعونه) حتى تكونوا أنتم تقطعونها، كما كانوا في الجاهلية يقطعون أذن البهيمة التي أرادوا تقديسها، وتعظيمها وربما يجدعون أنف البعير، يقطعون جزءاً من أنف البعير لعلة عندهم.

أقول: إذا خلق الله البهيمة خلقاً كاملاً فمن باب أولى أن يخلق الخلق الذي كرمه خلقة كاملة، إنما هذه الأمور التي نراها في خلقة الإنسان من نقص أو عيب أو فوات أو ما إلى ذلك هذا غالباً يرجع إلى أسباب مادية أثناء الحمل أو أثناء الولادة أو ما بعد ذلك. أما سبب لثغة موسى –عليه السلام– فهذا أمر لم نجد له طريقاً صحيحة ولم نجد له رواية تعتمد عليها ربما وجدت بعض أخبار إسرائيلية تنقل هذا الكلام.

لكن كخبر صحيح يعتمد عليه أظنك غير واجد لهذا ومعرفته أيضاً لا تفيد في شيء إنما هكذا خلق موسى – عليه السلام– والله أعلم.

كما هو معلوم من عقيدة أهل السنة والجماعة أن القرآن غير مخلوق تكلم الله به حقيقة منه المحكم ومنه المتشابه إلى آخر المعتقد، فهل تكرار قصة موسى مع فرعون من متشابه القرآن؟ وما الحكمة من تكرار قصة موسى مع فرعون كثيراً في القرآن الكريم وفي مواضع شتى دون غيره من الأنبياء؟

السؤال الثاني: جاء في قوله تعالى عن موسى ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ فما صحة قصة أن سبب العقدة في لسان موسى أن فرعون أراد اختباره وهو طفل صغير بين تمرة وجمرة، فتناول الجمرة فأدت إلى العقدة في لسان موسى ؟

نرى كثيراً من المسلمين من يضع آيات قرآنية في ألواح تعلق على الحائط فهل يجوز ذلك؟ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

من هم أهل الفترة؟ وما مصيرهم يوم القيامة؟

بالنسبة لتربية موسى –عليه السلام– في قصر الملك أنه لما أخذته امرأته الملك قالت هذا قرة عين، سمعت أن زوجته قالت أجعله قرة عين لي ولك. قال فرعون: قرت عين لكي. وفعلاً أصبح قرة عين لها بحيث أنها دخلت في الدين ولكن فرعون لم يدخل وهذا دائماً يدل على أن البلاء موكل بالمنطق هل هذا صحيح؟

إجابة السؤال الأول:

القرآن الكريم كلام الله غير مخلوق تكلم الله به حقيقة ومنه المحكم والمتشابه، المحكم بمعنى الواضح المعنى الذي لا يشتبه معناه وهذا في الآيات في آيات التكليف، حتى لا يشتبه معناها علينا فنعلم ماذا يريد الله منا، بالأمر والنهي، ومن المتشابه الذي اشتبه معناه، أي نعرف معناه اللغوي عندنا نحن الخلق ونعرف أن الله – تعالى– وصف به نفسه أما كيفيته بالنسبة لله فأمر متشابه؛ لأننا لا نعلمه كوصف الله باليد والوجه ونحو ذلك، هذا متشابه

﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٧]، إنما نعلم أن لله يداً أن لله وجهاً، أن الله استوى على عرشه استواءً يليق به –سبحانه وتعالى– كيف؟ الله أعلم، كيفية ذلك لا يعلمها إلا الله –سبحانه وتعالى– قصة موسى –عليه السلام– ليست من هذا المتشابه؛ لأنها واضحة وصريحة وليس فيها ما يشتبه فيه إنما قد تكون من المتشابه بمعنى آخر فكلمة متشابه في اللغة تطلق على ما أشبه بعضه بعضاً، وقصة موسى تكررت في القرآن كثيراً، في مواقف وبأشكال تكاد تكون متشابهة، يعني تكاد تكون قصة موسى في سورة كذا شبيهة بسورة كذا شبيهة بسورة كذا، ولكن بينها اختلافات ففي كل مقام يسوق الله تعالى من القصة، ما يتناسب مع الحكمة المرادة في هذا المقام والمعنى المطلوب في هذه السورة فليس المسألة سرد تاريخ لفلان إنما اقتطاف من القصة الطويلة مواقف معينة بطريقة معينة، أحياناً يذكر الله تعالى هذا الموقف بتفصيل وأحياناً يختصره فقصة موسى في سورة النازعات مثلاً غير سورة طه، غير سورة الأعراف، غير سورة يونس، غير سورة كذا، كل سورة لها طبيعة في عرض القصة، وذلك حسب ما فيها من مراد وهدف السورة تهدف إليه ويريد الله أن يعلمنا هذا المراد من خلال تلك السورة، فإن قلنا: إن قصة موسى متشابهة مع عرضها هنا وهنا وهنا، فهذا ممكن، لكن ليست من المتشابه المعروف الذي استأثر الله بعلمه، إنما هي من المحكم المعلوم الواضح.

هذا كان في السؤال الأول. أما فيما ذكر في سبب لثغة سيدنا موسى –عليه السلام– وأن فرعون عرض عليه في صغره جمرة وغيرها فأخذ الجمرة ووضعها في فمه وظن أنها شيء يؤكل ولم يأخذ التمرة، فلسعت لسانه وأثرت فيه بحيث لا يستطيع نطق بعض الأحرف فيما بعد ذلك، هذا وارد في القصة كقصة، لكن مصدره بنو إسرائيل وهذا– كما قلنا– يعني لا يلتفت إليه طالما سكت الله عنه ولا تتوقف عليه القصة أو الفائدة والعبرة فينبغي السكوت عنه أحسن، هذا كان حدث في نبي الله موسى –عليه السلام– وحينما جاءته الرسالة طلب من ربه أن يفصح في لسانه فأفصح الله لسانه وجعله يتكلم بوضوح بشكل يجعل من يخاطبه موسى ومن يكلمه يفهم خاطبه وكلامه.

إجابة السؤال الثالث: ما حكم وضع الآيات على الحائط؟

تعليق الآيات على الجدران الآيات القرآنية هو لون من ألوان تعظيم القرآن ولكن يصاحبه إهانة للآيات المعلقة، حينما نضع الآيات فوق رؤوسنا، على الجدران فهذا إعلاء للقرآن نعم ولكن ما أنزل القرآن ليعلق على الجدران ولا ليحمل في أوراق مقطعة كما يحمل البعض أجزاءً من القرآن للبركة والحفظ والصيانة وكذا إن كان ولا بد فليحمل مصحفاً كاملاً ربما قرأ فيه ساعة أو مرة.

تعليق الآيات على الجدران يصيبها بوقوع الغبار عليها ويتقادم الزمان بالورقة المكتوب عليها أو باللوحة فتقطع وربما تلقى هنا أو هناك أو تسقط على الأرض يوماً أو ما إلى ذلك فالقرآن نزل لنعلقه في قلوبنا ولنظهره في أعمالنا منهجاً كاملاً للحياة يضبط حركتنا وسكنتنا ولم ينزل القرآن لنعلقه فوق الجدران، وإن كان مظهر هذا التعليق تعظيماً للقرآن فالأحسن عدم تعليق الآيات القرآنية وإن كان ولا بد فلتعلق صور الأشياء الطبعية صورة الشمس صورة– ليس الشمس وضحاها– إنما صورة الشمس في إشراقها أو غروبها كذلك صورة البحار، الجبال وما إلى ذلك من طبيعة الكون التي خلقها الله –سبحانه وتعالى–، فتذكر بقدرة الله وعظمة الله وتزين المكان أما القرآن فهو زينة للقلب وزينة للحياة كلها وليس للجدران والله أعلم.

أهل الفترة من هم ؟ وما مصيرهم يوم القيامة؟

أما من هم أهل الفترة ؟ فهذا سؤال وجيه نعرفه ونتلمس إجابته فأهل الفترة هم الذين لم يأتهم رسول ولم تنزل إليهم رسالة، فلم يحضروا وصول رسول إليهم ليكلمهم برسالة الله ماتوا قبل بعثة رسول معين فيما بين رسولين ولم يأتهم رسول في حياتهم لم يسمعوا بدعوة السماء فهؤلاء أهل فترة يعني أهل زمان فتر فيه الوحي وانقطع، فلم يحضروا وحي السماء لا من سابق ولا من لاحق.

فمثلاً الناس في زماننا لم يروا رسولاً ولم يحضروا نزول رسالة ولكن هم مخاطبون بالرسالة التي أنزلت على نبي الله محمد – صلى الله عليه وسلم– نحن مكلفون بذلك.

أما ما مصيرهم، طبعاً مثلهم مثل والد النبي – صلى الله عليه وسلم– وأمه والذين ماتوا قبل أن يكون محمد بن عبد الله رسولاً ماتوا من العرب قبل مجيئ الرسالة الخاتمة هؤلاء اسمهم أهل فترة أي لم يأتهم وحي، مصيرهم: والله لا أرى لهذا فائدة، يعني أولى من أن نبحث عن مصير أهل الفترة نبحث عن مصيرنا نحن وينشغل كل واحد منا أين سيصير؟ إلى جنة – نسأل الله ذلك وأن يجمعنا جمعاً طيباً– أو إلى الأخرى– نعوذ بالله منها– فهذا هو ما نهتم به، أما أهل الفترة فالله – تعالى– سيحكم بينهم يوم القيامة ويفصل بينهم والعلماء لم يصلوا إلى حد متفق عليه بينهم إنما اختلفت فيه الآراء لعدم ورود نص ثابت في ذلك وهذا والله أعلم.

كان السؤال الثاني: هل البلاء موكل بالمنطق؟

أنا أذكر بسؤال الأخت سؤال بالمنطق قصدها بالنطق، فقط للتذكير أي:كلمة تقال قد يقع القدر بسببها بالإنسان

كلام الله لموسى، البعض يتكلم أن الكلام هذا كان معنوياً أو كان أن الله خلقه في السماء ثم تكلم الكلام لم يكن كلاماً بصوت وحرف من الله إلى موسى، فنرجوا من سماحة الشيخ التوضيح؟

قلتم: إن الله تعالى بعث موسى باليهودية وكنت قد سمعت بعض المشايخ يقولون: إن الله تعالى بعث موسى بالإسلام وبعث عيسى بالإسلام ولما حرفه الناس تسموا باليهودية والنصرانية فأي القولين أصح يا شيخنا؟ وجزاك الله خيراً

هل كان كلام الله موسى –عليه السلام– كلاما معنوياً أم كان كلاماً حقيقياً؟

الله تعالى قال: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً ﴾ [النساء: ١٦٤] وكان من شرف سيدنا موسى –عليه السلام– أن الله – تعالى– كلمه فلا بد أن يكون كلمه، تكلم الله وسمع موسى من وراء حجاب، أما أن نقول بلفظ وبحرف الله أعلم، ما سمعنا، وهذا يحتاج إلى نص ثابت صحيح.

إنما كلمه الله تعالى كلاماً يليق بذاته – سبحانه– لا نعرف طبيعته أما أن يكون كلاماً قلبياً فهذا لا ميزة فيه، فقد كلم الله تعالى غير موسى كذلك.

فقول الله تعالى ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً ﴾ [النساء: ١٦٤]، هذا يؤكد على أن الله كلم موسى كلاماً صريحاً يليق بذاته –سبحانه وتعالى– يعلم الله طبيعته وحقيقته وكيفيته. والله أعلم.

هل بعث الله جميع الأنباء بدين الإسلام أم أن لكل رسول دين معين؟.

لعلي قلت جزاك الله خيراً على هذا التعليق ولكن لعلي قلت فيما أذكر: سميت بعد ذلك اليهودية لم يبعث الله موسى باليهودية ولا عيسى بالنصرانية وإنما هذه التسميات جاءت فيما بعد سمي دين موسى باليهودية فيما بعد موسى، وسمي شريعة عيسى بالنصرانية فيما بعد نسبة إلى الناصرة، لكن الدين الذي بعثه الله تعالى للبشرية جميعاً وبعث به الأنبياء هو دين الإسلام قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ ﴾ [آل عمران: ١٦]، وقال الله –تبارك وتعالى– على لسان نبيه إبراهيم الخليل –عليه السلام– : ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢]، اسم الدين كله الإسلام وهو دين واحد، دين الله دين واحد ليست هناك أديان سماوية، باللفظ الدقيق ليست هناك أديان سماوية إنما هو دين سماوي واحد له شرائع متعددة كل شريعة

لأمة، فالمتعدد هو الشرائع وليس الدين فالدين واحد واسمه الإسلام بمعنى: الاستسلام لله –تبارك وتعالى– حسب الشريعة التي شرعها لنا من كان من زمان نوح يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن نوحاً رسول الله. في زمان إبراهيم وأن إبراهيم رسول الله وأن موسى رسول الله وأن عيسى رسول الله كل يؤمن برسوله الذي بعث إليه، وكلما جاء رسول إلى أمة طولبوا أن يحققوا لله التوحيد في العبادة لا إله إلا الله وأن يحققوا التوحيد في الرسالة بألا يتبعوا وألا يقلدوا إلا من بعثه الله رسولاً إليهم فالدين ما بلغهم إياه، حتى جاء نبينا محمد –عليه الصلاة والسلام– فكان الكل كل من حضره وشهده مطالباً بأن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله وهذا هو الإسلام الاستسلام لله على شريعة القرآن التي جاءتنا أما كلمة يهودية وكلمة نصرانية فهذه تسميات حديثة تسمى بها اليهود في زمانهم بعد موسى –عليه السلام– وتسمى بها النصارى إلى اليوم وربما رفضوها وسموا أنفسهم بشيء آخر. والله أعلم.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، هل كلمة –عليه السلام– تقال للأنبياء خاصة أم حتى للصالحين؟ وجزاكم الله خيرا؟

كلمة –عليه السلام– وردت في القرآن الكريم على الأنبياء. وورد في شأن رسولنا –عليه الصلاة والسلام– : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، فنقول – صلى الله عليه وسلم– أما الأنبياء فحدهم أن يقال: –عليه السلام– كما جاء في القرآن: ﴿ وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وَلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ [مريم: ٣٣]، ﴿ وَسَلامٌ عَلَيْهِ ﴾ [مريم: ١٥]، كذا ويذكر الله الأنبياء كما في سورة الصافات ﴿ سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الصافات: ١٠٩]، ﴿ سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي العَالَمِينَ ﴾ [الصافات: ٧٩]، لم يقل: صلاة وسلام.

يجوز كذلك إطلاق السلام على بعض الناس أو آحاد الناس كما نقول: السلام عليكم يسلم بعضهم على بعض، لكن لا يحسن أن يكثر هذا حتى لا يختلط الأنبياء بغيرهم فنقول: مثلا المهدي –عليه السلام– أو الشيخ فلان – عليه السلام– ندعوا له بدعاء آخر كما جاء في شأن الصحابة –رضي الله عنهم– وهم علية أمتنا ورد فيهم ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [المجادلة: ٢٢] أو رضي الله عنهم مثلا، فنقول هكذا بدعوة ندعوها لمن نذكره من إخواننا المسلمين لكن كلمة –عليه السلام– تكاد تكون مشيرة إلى الأنبياء السابقين عدا نبينا – عليه الصلاة والسلام– والله أعلم.

من المعروف عن حياة الفراعنة تجمعهم حول نهر النيل فهل لفظ اليم يحتمل أن يكون نهر النيل؟ وهل قصر أحد اليم في هذه الآية على نهر النيل وهل الساحل يمكن أن يكون شاطئ النيل أم أن الساحل هو ساحل البحر فقط؟

السؤال الثاني: ﴿ أَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي ﴾ الظاهر بالنسبة للغتنا المتردية أن مثل ما يفعل رعاة الغنم يعني يوجهون الغنم، وحرف الجر على يساعد على هذا المعنى فهل الآية تحتمل هذا المعنى أم أنه كما قلت فقط وجزاك الله خيراً ؟

أما الجزئية الأولى: فالمقصود باليم هو نهر النيل فعلا وهذا كان فيه.

أما الهش فهو كما ذكرت من خلال ما ذكر العلماء أنه إسقاط أوراق الشجر على الأغنام لكن يستعمل هذا اللفظ في زماننا في لغتنا غير المنضبطة – أو كما ذكرت– بمعنى توجيه الشيء، فنهش كذا ونهش كذا حتى نهش الذباب ونهش الدجاج ونهش الدابة نقول لها: هش يعني: نطردها بهذه الكلمة كلمة طرد وتوجيه ولو إلى غير وجهة هذا من الاستعمال العادي العام في زماننا أما معنى الكلمة هو "هش الأشجار" ولذلك كلمة "على" تساعد على المعنى الذي ذكر، فعلى تفيد الفوقية ﴿ أَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي ﴾ لو كانت بالمعنى الذي سألت عنه لكانت الآية وأهش بها غنمي فقال أهش كذا لكن أهش على كذا إذن أهش شيئاً على غنمي والمهشوش هنا هو الأشجار، أي وأهش الشجر على غنمي حتى أوفر لهم الأوراق الخضراء ليأكلوها. والله أعلم.

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على نبينا ورسولنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد.

ففي هذه المحاضرة نتناول الآيات: من الثانية والأربعين وحتى الآيات: السادسة والخمسين؛ بمشيئة الله تعالى وعنايته وتوفيقه.

وكما تعودنا نتعرف بداية على معاني المفردات التي تبدو غريبة، وبعد ذلك نتناول التفسير الإجمالي للآيات المذكورة، ثم تحليل الآيات أو التفسير التحليلي للآيات باعتماد على تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير -رحمه الله تعالى- مع ذكر ما يسر الله تعالى من فوائد أخرى وذلك من خلال عناصر معينة.

العنصر الأول: من آداب الدعوة، وذلك من خلال الآيات وإلا فآداب الدعوة كثيرة وتكلمت فيها آيات عديدة وأحاديث أخرى من كلام النبي -صلى الله عليه وسلم- مثل كثرة ذكر الله، تحديد الداعي لهدف الدعوة ومنطلقها، الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، الحرص على الهداية والتأميل فيها.

العنصر الثاني: اللقاء بين موسى وفرعون، وأول موقف للدعوة بينهما.

العنصر الثالث: تعريف موسى بربه - سبحانه وتعالى- أمام فرعون.

وبداية قبل أن ندخل في هذه التفاصيل نستمع إلى الآيات المباركات من أخينا الأستاذ عبد الرحمن فليتفضل مشكورا.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢ ﴾ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣ ﴾ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٤ ﴾ قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى ﴿٤٥ ﴾ قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿٤٦ ﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى ﴿٤٧ ﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ العَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٤٨ ﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴿٤٩ ﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠ ﴾ قَالَ فَمَا بَالُ القُرُونِ الأُولَى ﴿٥١ ﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى ﴿٥٢ ﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣ ﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى ﴿٥٤ ﴾ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٥ ﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٥٦ ﴾ ﴾ [طه: ٤٢: ٥٦].

نعوذ بالله من التكذيب والإباء على الله -عز وجل- ونسأله الهداية والتوفيق.

معاني بعض المفردات الغريبة في هذه الآيات: وردت كلمة ﴿ وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾

تنيا: من ونى يني، وهو الإبطاء في فعل الشيء والتأخر عن أدائه وأحياناً كثيرة يكون هذا عن ضعف، فلذلك يراد بتنيا أي ولا تضعفا، ولا تتأخرا في ذكري أو عن ذكري ولا تضعفا في ذلك ، وورد هذا المعنى وذاك عن ابن عباس -رضي الله عنهما- من رواية علي بن أبي طلحة والطبري من طريق مجاهد كما ذكر الإمام ابن كثير -رحمه الله. قال الله -تعالى- لموسى وأخيه ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً ﴾ كلمة لين: أصلها في الأجسام المادية

والجسم اللين هو ناعم الملمس، يقال له: لين، وكذلك الشيء الذي يطوى ويثنى ليس صلباً ولا قاسياً، فهذا أيضاً يقال له: شيء لين وعود لين، ثم أخذت هذه الكلمة ووصفت بها المعاني فقال الله -تعالى- ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً ﴾ هو كلام يشتمل على ترغيب، وحسن عرض، دون تسفيه للمخاطب أو تجهيل، هذا الكلام يقال له: كلام لين وقول لين ، وقيل لفلان الذي حسنت عشرته قيل عنه: لين الجانب لتواضعه وحسن خلقه. قال موسى وأخوه والكلام لموسى، وأخوه تابع وهو هارون -عليه السلام- ﴿ قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا ﴾ يفرط من فرط، بمعنى سبق، والفرط هو السابق، وجاء في حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وأنا فرطكم على الحوض أو قال: إلى الحوض) يعني أسبقكم إلى الحوض الشريف يوم القيامة- نسأل الله أن يسقينا من يده الشريفة.

فالفرط هو الشيء السابق، والمعنى المراد في الآية ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ ﴾ أي: أن يسبق إلينا بأذى قبل أن نتكلم، وكثير من الكافرين كان يفعل ذلك يبدأ الداعي بالصدود وبالعناد وبالإيذاء قبل أن يسمع من الداعي ما معه من دعوة، جاء على لسان فرعون اللعين أنه سأل موسى قائلاً: ﴿ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى ﴾ فما بال؟ البال: هو الحال المهمة والله تعالى يقول: ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٢]، أي: وأصلح حالهم، والبال أصله ما يخطر بالقلب فإذا هدأ القلب وحسن ما يخطر عليه من الخواطر فإن حال الإنسان يحسن ويستقر وتقر عينه ومعنى ﴿ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى ﴾ أي: فما حالهم؟ وموسى يعرف برب العزة -سبحانه وتعالى- قال: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً ﴾ المهد في أصله هو ما يجعل للطفل من لفافة وملابس ناعمة رقيقة دافئة تتناسب مع نعومة جسمه وليونة بدنه، فإذا ما وضع في مهده استراح ونام، الله -تعالى- جعل لنا الأرض مع أنها من حصى ومن تراب وحجارة وسهول وجبال ووديان، جعلها مهداً أي هي بالنسبة لنا في السكنى والحياة كحال المهد بالنسبة للطفل وجاء في ذكر عيسى -عليه السلام- حينما أتت به مريم تحمله وقابلت قومها بذلك، وقالوا لها قولتهم المشينة فأشارت إليه: رداً عليه ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ [مريم: ٢٩]، أي كلموه هو: قالوا: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً ﴾ [مريم: ٢٩]، فالمهد مهد الصبي والصبي المراد به الطفل الصغير الذكر أما البنت فتسمى جارية، والأرض مهد لنا أي: مريحة هذا يمشي فوقها وهذا يقعد وهذا يرقد وهذا يبني ويعلو بالبناء وهذا يحفر وينزل في باطنها وهذا يأخذ منها وهذا يضع فوقها كل يفعل حاجته فوق الأرض وفي الأرض وهي مذللة هادئة ناعمة لا تعصى على فاعل؛ لأن الله -تعالى- ذللها لبني آدم.

﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ سلك: أي أدخل شيئاً في شيء، كما يسلك العقد فتوضع حباته في الخيط، فيقال: فلان سلك العقد، أي جعل حباته في السلك والله -تبارك وتعالى- أخذ هذه الهيئة الحسية المادية ليصور لنا عذاب الكافر في النار فقال: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحاقة: ٣٠- ٣٢]، اسلكوه: أي ضعوا هذه السلسلة في داخله في جوفه، يغل فيها كما تغل الحبة وتسلك في سلكها عند نظم العقد، فالسلك هو إدخال شيء في شيء، فأدخل الله -تعالى- في الأرض حين خلقها فجاجاً وسبلاً ليسلكها الناس، الله -تعالى- جعل الأرض مهيأة لحياتنا فجل فيها فجاجا وسبلا تصلح لحياتنا وتبلغنا مقاصدنا. ﴿ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴾ كلمة أزواج - لعله سبق بيانها في مرة أخرى أو مرة سابقة- أزواج معناها أنواع وأصناف، وكل ما تقابل وتلاءم مع غيره فهو زوج له، فالليل والنهار زوجان والسماء والأرض زوجان والله تعالى يقول: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩]، فمعنى أن الله تعالى أخرج وأنبت لنا أزواجاً من نبات شتى، أي أصنافاً كثيرة بأشكال وأنواع وأحجام وطعوم مختلفة من النبات وهذا من حكمة الله -تعالى- ومن عظمته، ومعنى ﴿ شَتَّى ﴾ أي كثيرة، وهي كلمة جمع والواحد منها شتيت وجمعه شتى على وزن مريض ومرضى، من هذا الباب مريض ومرضى شتيت وشتى، وهو المشتت الكثير وإذا تشتت الشيء كثر فالمراد بهذا اللفظ هنا إظهار الكثرة،أي أن الله جعل من أصناف النبات الشيء الكثير جداً الذي يعظم على الحصر من حيث أشكاله وأنواعه وأصنافه وأطعامه وما إلى ذلك.

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى ﴾ كلمة النهى، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ليليني منكم أولوا الأحلام والنهى) يقصد في الصلاة، في الصف الأول من خلفه يكون أولوا الأحلام والنهى وهم أهل العقول،

والنهى درجة من درجات العقل تنهى صاحبها عن فعل ما يسوءه هذه الحالة وهذه الصفة تسمى بالنهى، وهي اسم جمع، والواحد منها نهية، وتسمى كما جاء في القرآن تسمى عقلاً، وتسمى كما جاء في سورة الفجر حجراً ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ [الفجر: ٥]، أي هل هذا القسم والفجر وليال عشر إلى آخره هل هذا القسم فيه كفاية لذي عقل، لذي حجر؛ لأنه يحجر على صاحبه أيضاً أن يفعل ما يسوء فيكون الإنسان صاحب النهى وصاحب العقل وصاحب الحجر إنساناً قيماً ذا مروءة.

هذه بعض المفردات التي تبدوا غريبة في هذه الآيات المباركة.

المعنى العام للآيات:

وإجمالها في التفسير أن يقال: إنه بعدما أجاب الله موسى -عليه السلام- حين قال ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴾ إلى آخر هذا الدعاء وكان هذا الدعاء استعانة على المهمة التي قال الله فيها لموسى: ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ فرد موسى بهذا الدعاء قبل أن يذهب وقبل أن يلقى أخاه هارون -عليهما السلام- فأخبره الله تعالى أنه أجابه لهذا قال: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧﴾ ﴾ [طه: ٣٦، ٣٧]، وفصل له هذه المرة حيث رعاه وصنعه على عينه حين كان صغيراً ووليداً إلى أن كبر وصار مؤهلاً للنبوة فهذه هي المرة الأخرى وإن كانت سابقة.

لما بين الله هذا البيان أنه أجابه على هذا السؤال وأكرمه وعني به أو اعتنى به قبل أن يسأل ودون أن يسأل فيما مضى، عاد الله تعالى إلى الأمر الذي أمره قبل ذلك، فقال: ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ فهذا استئناف لما سبق وإعادة له لأنه هو الأمر المطلوب، فأمر الله تعالى موسى -عليه السلام- وقد لقي أخاه هارون ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ لا تتأخرا ولا تتباطآ عن ذكري ولا تقصرا ولا تفوتا من ذكري شيئاً أي داوما على ذكري أثناء الدعوة.

ثم وجههما -سبحانه وتعالى- للقول الذي ينبغي أن يقولاه له والرسالة التي ينبغي أن يبلغاها بالطريقة التي ينبغي أن يلتزم بها في الدعوة ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ وجاء في هذا البيان ﴿ إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾ إلى آخر ما أمر الله موسى -عليه السلام- وعلمه أن يقول لفرعون ودار الحوار بينهما حينما لقي موسى فرعون، والله -تبارك وتعالى- يطوي بعض مراحل هذا الطريق اختصاراً وإيجازاً في القرآن والإيجاز نوع من أنواع البلاغة فخير الكلام ما قل ودل وأحسن الحديث هو كلام الله رب العالمين -سبحانه وتعالى- فلم يقل: فأتياه فاستأذنا عليه فوقفا طويلاً حتى أذن لهما. كل هذا معروف أنهما سيستأذنان، ورجل طاغية لن يأذن بسرعة وهكذا، لكن طوى الله هذا لأنه يفهم ولأن الله يخاطب بهذا القرآن أمة وصفها بأنها أولو الألباب فقال: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى ﴾ فالله يخاطب العقلاء أما المجنون والسفيه فلا تكليف عليه، ولذلك ينبغي على المسلم أن يعلم أنه أذكى الناس وأنه مخاطب بإشارة مع العبارة الله يعبر بعبارة لا يعرفها الإنسان ثم يشير إليه بإشارة حيث يعرف مضمون هذا الكلام وذلك ليوجز الله تعالى في الكلام مع عباده.

فذكر الله حواراً عظيماً كان فيه فرعون معانداً، حينما سأل موسى فقال له: ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ ولم يقل: فمن ربي؟ مع أن موسى قال له قبل ذلك: ﴿ إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ ﴾ فكان ينبغي عليه أن يقول: فمن ربي الذي تدعيه، لكن قال بعناد وصلف وجحود قال: ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا ﴾ ونسب الربوبية أو نسب الرب إلى موسى وهارون وكأنه يتبرأ من ذلك- لعنه الله.

ثم كان محاوراً مجادلاً مرائياً من المراء، كان يماري بالباطل ويجادل ليصرف موسى عن وجهته لا ليصل إلى حق معه، ولذلك لما عرف موسى ربه، قال: ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى ﴾ أخذ الجواب الكافي في هذا السؤال لو أنه كان يعقل ويريد أن يسمع وينتفع ولكنه لا يريد، فخرج بموسى في حواره إلى دائرة بعيدة لا تفيد، ولم يدعِ موسى أنه يعلمها وليست من محل النزاع ولا من مقام الدعوة ولا دخل لنا ولا لموسى ولا لفرعون في ذلك ما لنا وما للسابقين؟ إلا أن ننتفع بأخبار الصالحين ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى ﴾ وفي هذا الحوار يظهر ذكاء موسى –عليه السلام– فمهما كان فرعون مراوغاً وممارياً إلا أن أنبياء الله أذكى الخلق وأحلم الخلق، ولذلك حينما دعا موسى فرعون، قال له: ﴿ إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ ﴾ ولم يقل له: إنا رسولا ربنا، ولكن أراد أن يلقنه أن ربنا هو ربك، ولما سأل فرعون قال: ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ أشار إليه بإشارة لا تغضب الطاغية فالطاغية يغضب بسرعة فأشار إليه إشارة لطيفة فقال: ربنا الذي تسأل عنه ﴿ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ﴾ وأنت شيء من الأشياء من المفترض أن يفهمها ومن الواجب أن يفهمها ويلمحها لو كان يعقل أو كان من المبصرين ﴿ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ أي هو الذي صنعك يا فرعون، وهو الذي خلقك وأعطاك هذه الصورة التي تفخر بها وتزعم بها أنك إله ، ثم لما جادل وماري فرعون بسؤاله الآخر وقال: ﴿ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى ﴾ أجابه موسى إجابة تكتمه وتسكته ولا يجعله يبدل حديثاً بعد ذلك، ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾ الله أعلم، لست مكلفاً ببيان هذا وليس هذا من مهامي ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى ﴾ وهنا تظهر براعة موسى –عليه السلام– وكان لإبراهيم مع النمروذ جدال عظيم كهذا ظهر فيه ذكاء إبراهيم ولنبينا –صلى الله عليه وسلم– الحظ الوافر من هذا الذكاء في دعوته مع خصومه ومع الأمة حين وجه إليها دعوة الله.

ثم واصل موسى التعريف بربه فقال: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴾ وقال أيضاً: إنه –سبحانه وتعالى– هو الذي خلق لكم النبات من الأرض تأكلون منه وأنعامكم تأكل، والنعمة في النهاية ترجع بطعمها ولذتها وفائدتها إليكم ﴿ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ [النازعات: ٣٣]، والأنعام في النهاية ذبيحة للإنسان فالمتعة كلها للإنسان، كل هذا تذكير بنعم الله –سبحانه وتعالى– ومواصلة للتعريف به أمام فرعون، وكأنه يثيره من بعيد ولكن يثير فيه الذكاء والنباهة والعقل فيقول: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى ﴾ إن كنت من أولي النهى يا فرعون هذا بتلميح وليس بتصريح لئلا يغضب و لئلا يفرط عليهم بالعقاب، كأنه يقول: إن كنت من أولي النهى والعقل والرجاحة تفهم هذه الآيات وتعتبرت بها فالذي خلقني أولى بعبادتي وليس له مثيل –سبحانه وتعالى– طالما هو الخلاق، طالما كان هو الرزاق، طالما فعل هذا الفعل العظيم وصنع هذا الصنع الكبير من الكون وما فيه من سماء ينزل منها ماء ومن أرض فيها فجاج وفيها نبات وفيها نعم كل هذا من الآيات التي يلمحها ويستفيد بها أولو النهى والعقول الراجحة.

ثم خرج معه موسى –عليه السلام– من هذا البيان عن رب العزة –جل وعلا– ومن هذه الدنيا التي فيها المتاع للإنسان والأنعام إلى الدار الآخرة ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ ﴾ [طه: ٥٥]، ويقدم هذا لأنه واقع ثم يقدم ما يشمئذ منه مثل فرعون من الموت ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ [طه: ٥٥]، ولكن ذكر الخلق أولاً يعمي فرعون وأمثاله عن الغضب بالثانية والثالثة، ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ [طه: ٥٥]، ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴾ [طه: ٥٦]، كان موقف فرعون اللعين في النهاية هو التكذيب والإباء أي الرفض لهذه الدعوة والله –تبارك وتعالى– في هذا الموقف يشير إلى أن فرعون كان على هذا الموقف الكفري إلى منتهى القصة، وإلى منتهى حياته ولذلك قال وأشار بذلك قال: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴾ [طه: ٥٦]، ولم يكن فرعون يومها قد رأى الآيات كلها وإنما رأى العصا واليد فقط، كما فعلها موسى وقدمها له ولكن رأى الآيات الأخرى مع الأيام مثل الدم ومثل آية البحر وما إلى ذلك والضفاضع والجراد والقمل كل هذه آيات أرسلها الله مع موسى –عليه السلام– ومعجزات ولكن رغم كل هذا لم يؤمن فرعون– عليه اللعنة.

هذا حول المعنى الإجمالي للآيات ثم نتناول الآيات بشيء من التفصيل مما يعرف بالتفسير التحليلي وهو الوقوف عند دقائق الآيات وإشاراتها بقدر ما يتسع المقام–ونسأل الله –تعالى– التوفيق والسداد.

التفسير التحليلي:

أولاً: كثرة ذكر الله للداعية:

نرى في هذه الآيات موقفاً عظيماً للدعاة ينبغي أن يقفوا عنده فإن الله –تعالى– يلقن موسى وهارون –عليهما السلام– طريقة الدعوة وأسلوب الدعوة وعدة وزاد الدعاة، ومن ذلك – كما أشرت سابقاً– بعض هذه الآداب ليست على الحصر وإلا فهي كثيرة وإنما نذكر بعضها إشارة وبما يتناسب مع الإيجاز في هذه الآيات المكية.

أولاً: يقول الله –تعالى–: ﴿ وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ ذكر اللهِ وأثره في الدعوة، لابد للداعية أن يكون أكثر الناس ذكراً لله فإنه يأمر الناس بهذا ولذلك ينبغي أن يكون أكثرهم ذكراً لله هكذا أوصى الله وأمر موسى وهارون ﴿ وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ يعني لا تتوانى لا تتأخر لا تتباطأ لا تتكاسل عن ذكر الله –عز وجل– لا تكتفي بالدعوة على أنها هي العمل الذي تدخل به الجنة فقط، لا، بل ما ندعوا إليه الناس ينبغي أن نلتزم ونمتثل به في أنفسنا والأنبياء من قبلنا والرسل –عليهم الصلاة والسلام– هم رسل يبلغون الناس ويأمرونهم وهم أنبياء قدوة في أنفسهم وكان رسولنا –صلى الله عليه وسلم– ألزم الناس وأطوع الناس لدين الله –عز وجل– ولشريعة الله. وتعلمون حديث الرهط الثلاثة الذين جاءوا إلى بيوت النبي –صلى الله عليه وسلم– يسألون عن عبادته فلم يجدوه ووجدوا عائشة– رضي الله تعالى عنها– الفقيهة فسألوها عن عبادتها فأخبرتهم فنظروا إلى العبادة النبوية وجدوها قليلة فكأنهم تقالوها وكأنهم قالوا: هذا نبي فليفعل ما تيسر، يكفيه العمل القليل أما نحن فلم يغفر ذنبنا المتقدم والمتأخر ولم نعصم ولم نبشر بالجنة في أشخاصنا وإن بشرنا بشرى عامة للأمة فنحتاج إلى عبادة أكبر وأكثر من عبادة النبي –عليهم الصلاة والسلام– تصوروا هذا التصور وهذا الفهم (فقال أحدهم: أما أنا فأقوم الليل ولا أرقد) لن أنام أبداً بقية عمري سأقيم الليل لله دائماً (وقال الثاني: وأما أنا، فأصوم النهار ولا أفطر) سأبقى طول عمري المتبقي صائماً كل يوم، كل يوم أصوم، حتى أصل إلى رضوان الله –عز وجل– (وقال الثالث: وأما أنا فأعتزل النساء ولا أتزوج) هذه المتعة التي أباحها الله –عز وجل– سأحرم نفسي منها طاعةً لله وتقرباً إلى الله – سبحانه وتعالى– وقيل: كان معهم رابع (قال: وأما أنا فلا آكل اللحم) رجال يقدرون على أنفهسم فيمنعونها مما تشتهي ومما تحب ، كل اختار الأمر الذي يصعب على نفسه فعله أو مفارقته، فعله كالصيام والقيام أمر صعب على النفس أن تستجيب لصاحبها في هذا، وترك الزواج وترك أكل اللحم شهوة نفسية تحبها فحينما نمنعها من ذلك فإنها تتأذى وتتألم وتدفع الإنسان إلى تحصيل هذه الشهوات والرغبات (فلما جاء النبي –عليهم الصلاة والسلام– وأخبرته عائشة –رضي الله تعالى عنها– بذلك استدعاهم وقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ ، قالوا: نعم قال – عليهم الصلاة والسلام–: أما إني أخشاكم لله وأتقاكم له وإني أقوم وأرقد وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني) فكان النبي –عليهم الصلاة والسلام– أخشى الناس لله وأتقى الناس وأطوع الناس لله – تبارك وتعالى– وهكذا الأنبياء جميعاً وورد عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أنه كان يذكر الله على كل أحيانه ، وسيدنا موسى –عليه السلام– ورد عنه (أنه سأل ربه يا رب علمني شيئاً أذكرك به) لأنه رأى أن كل الناس يقولون ما يقول من الذكر فيريد ذكرا خاصا يذكر الله به ولا يذكره به غير موسى –عليه السلام–، هذا يدل على مدى حبه لذكر الله وجهده العظيم في ذلك (فقال الله: يا موسى قل لا إله إلا الله، فقال –عليه السلام– كل الناس يقولونها يا ربن) ولا إله إلا الله كلمة مستمرة في الأجيال ومتكررة في الأمم كل أمة مطالبة بأن تقولها ولكن تقول: أشهد أن نبينا فلاناً رسول الله –عليهم جميعاً الصلاة والسلام– فقال الله تعالى–: (لو وضعت لا إله إلا الله في كفة والسماوات والأرض في كفة لرجحت بهن لا إله إلا الله) أعظم ما يذكر به الله: لا إله إلا الله،

وقال النبي -عليهم الصلاة والسلام-: فيما نسب إليه (أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله) فذكر الله عظيم وخاصة في مقام الدعوة؛ لأن الداعي يواجه مواجهة صعبة ربما يتعرض لأذى ربما يصاب بشيء ربما يضرب ربما يسجن ربما ربما وقال الله -تعالى- على لسان الحكيم لقمان -عليه رحمة الله ورضوانه- قال: ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ﴾ [لقمان: ١٧]، فذكر الله يهون على الداعي هذا الأذى ويستعين به على ذلك والله تعالى قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥ ﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٥]، فذكر الله زاد للداعية، وعرفت أذكار الصباح والمساء وأذكار الأحوال عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو ما يعرف بذكر اليوم والليلة فكان يذكر الله على كل أحيانه حتى قال العلماء في حكمة ما روي عن رسول الله -عليهم الصلاة والسلام- والحديث فيه ضعف كما نبه بعض أهل العلم ولكن يعني لا مانع من العمل به لأنه في الفضائل وفي ذكر الله سبحانه وتعالى- (أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان إذا خرج من الخلاء قال: غفرانك غفرانك غفرانك)، فالعلماء -جزاهم الله خيراً- تحدثوا في حكمة الاستغفار بعد قضاء الحاجة فما كان الإنسان يفعل ذنباً حتى يستغفر منه فقالوا: كأن النبي -عليهم الصلاة والسلام- يستغفر الله تعالى عن هذه الفترة التي مضت منه دون أن يستطيع ذكر الله فيها، لأنه لا يجوز الكلام في الحمام ولا ذكر الله في هذا المقام، فلأنه سكت -وإن كان مضطراً هذه الفترة وإن كانت قصيرة- إلا أنه يستغفر بعدها فيقول: غفرانك غفرانك . غفرانك- والله أعلم بحقيقة الأمر.

هذا درس أو أدب من آداب الدعوة وهو: كثرة ذكر الله للداعية.

ثانياً: تحديد الهدف عند الداعي:

من الآداب أيضاً في هذه الآيات تحديد الهدف عند الداعي والمنطلق الذي ينطلق منه، أين أذهب؟ وأين أدعو؟ وفيمن أضع التذكرة والموعظة؟ لابد أن أحدد الوجهة، لا أقابل أي إنسان، لا أكلم أي واحد بالنصيحة والموعظة، لا أعرض هذا الدين على كل إنسان هكذا وإنما ينبغي أن أضعه في مكانه اللائق، النبي -عليه الصلاة والسلام- جلس مع كبار قريش حينما طلبوا مجلساً خاصاً، وطمع بذلك في تأليف قلوبهم وجاءه الأعمى عبد الله بن أم مكتوم- رضي الله عنه- جاء؛ بقدر الله وبترتيب الله؛ ليقول للنبي -عليه الصلاة والسلام- علمني مما علمك الله. والنبي -عليه الصلاة والسلام- منشغل بهذا الأمر ولو نظر للأعمى أو كلمه وانصرف عن وجهاء قريش لانصرفوا عنه ، ولفاتت هذه الفرصة التي يطمع فيها النبي -عليه الصلاة والسلام- بخير كثير ولكن عبد الله أولى لأنه مسلم وجاء يطلب العلم فلا بد أن يجاب، ثم إنه رجل أعمى- بقدر الله – هو الذي جاء حتى لا يرى ما أمامه فيسأل ويكرر السؤال، عند ذلك ترك النبي -عليه الصلاة والسلام- عبد الله وتشبث بهذه الفرصة التي لو أسلم فيها كبراء قريش لأسلمت مكة كلها فتكون ضربة عظيمة يربح بها الإسلام خيراً كثيراً حسب التصور البشري ولكن الله -تعالى- يريد أن يعلمنا بدءاً من رسولنا -عليه الصلاة والسلام- أننا لا نضع الدين عند من يكرهه، عند من يبغضه، على حد قول القائل: لا تعلقوا الدر في أعناق الخنازير ستهينون الدر بهذا ولن ترفعوا قدر الخنزير فهو خنزير وهو رجس لا تعلقوا الدر في أعناق الخنازير فقال الله للنبي -عليه الصلاة والسلام- بعد معاتبته ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١ ﴾ أن جَاءَهُ الأَعْمَى ﴿٢ ﴾ ﴾ [عبس: ١، ٢]، إلى آخره قال: ﴿ كَلاً ﴾ [عبس: ١١]، وكأنه يرفض هذا العمل ﴿ كَلاً إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ [عبس: ١١]، أي ذكر فقط لكن لا تلح عليهم في قبول الدين، ودخول الإسلام ليس بالإلحاح ولا بكثرة الطلب إنما مجرد تذكرة وعرض، ﴿ كَلاً إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١ ﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢ ﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣ ﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤ ﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥ ﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦ ﴾ ﴾ [عبس: ١١- ١٦]، الدين عليّ عظيم، فلا يأخذه إلا من طلبه ومن سعى إليه فكان عبد الله بن أم مكتوم وهو أعمى خيراً من ملء الأرض من مثل كبراء قريش.

وقصة الثلاثة الذين جاءوا إلى النبي -عليه الصلاة والسلام- وهو في المسجد فدخل أحدهم فوجد فرجة في الحلقة حول النبي -عليه الصلاة والسلام- فجلس فيها ثم دخل بعده الثاني فلم يجد فرجة واستحيى أن يفرق بين

اثنين أو صاحبين فجلس منشئاً حلقة جديدة حول الحلقة الأولى، وأما الثالث فأعرض وانصرف، فقال النبي –عليه الصلاة والسلام– ألا أخبركم بخبر الثلاثة؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال –عليه الصلاة والسلام–: (أما الأول أو أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله وأما الثاني: فاستحيى فاستحيى الله منه وأما الثالث: فأعرض فأعرض الله عنه) قال تعالى: ﴿ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾ [التغابن: ٦]، فلابد أن نحدد فيمن أدعو ولمن أقول ومن أعلم فربما نصحت من لا ينصح ربما أعطيت الدين لمن لم يرغب فيهين الدين، لابد أن أعظم الدين وأعزه، أرغب فيه من بعيد وأعرضه عرضاً جميلاً حسناً ولو بالقدوة الفعلية والحركة الواقعية في نفسي حتى إذا رغبه إنسان سيسألني ماذا تفعل؟ أراك ذاهباً وآيباً هكذا كم مرة تمر علينا ونحن نجلس في هذا المجلس على قارعة الطريق أين تذهب؟ وأين ترجع؟ قل له: أذهب أصلي ، أصلي لربي فإذا ما رغب في الصلاة، كلمه، كذا وكذا، فرصة، إذا ما جاءني وسألني هكذا أو رأيت فيه علامة القبول فأذكره بالله –سبحانه وتعالى– وأعطيه النصيحة.

كذلك لابد من تحديد المنطلق لماذا توجهت إلى فلان بعينه؟ لماذا توجهت بالدعوة والنصيحة إلى هؤلاء القوم؟ إذن لا بد من دراسة المدعوين أولاً ومعرفة حالهم فرجل متشبث بالدنيا لا ألعن له الدنيا لن يقبل دعوتي إنما أذهب إليه وأذكره بأن يوظف دنياه من أجل آخرته، وكما يبني دنياه يبني آخرته وهكذا درس عظيم يحتاجه الدعاة على طريق الدعوة.

قال الله –تعالى–: ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ اذهبا إلى فرعون لماذا فرعون؟ لأنه طغى، فحدد لهم الوجهة وحدد لهم المنطلق أن فرعون طغى وزاد عن الحد في كفره وعناده ومثل هذا يحتاج إلى من يذكره، فذهب موسى وهارون طائعين لله –تبارك وتعالى– ولقيا فرعون وبلغاه رسالة ربه –سبحانه وتعالى– إن كان يقبلها أو لا يقبلها.

ثالثاً: لين القول:

وهنا نجد ربنا – سبحانه وتعالى– من رحمته يعلمنا الصورة التي ندعوا بها وهو الأدب الثالث في آداب الدعوة هنا لين القول، فرعون طاغية عظيم جبار، صاحب قوة وسلطة قالوا: كان أعظم في القوة وأعظم في الجبروت وليس أعظم من العظمة والتعظيم إنما أعظم في القوة والسلطان وكذا من ملوك زمانه وكان أطولهم فترة في الحكم فهو من أقدمهم ومن حاضرهم ولذلك كانت الدعوة معه لابد أن تكون بطريقة معينة ربما لا يهتدي إليها موسى بنفسه فعلمه الله تعالى: ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ قولاً ليناً كما قال ربنا لنا ولنبينا –عليه الصلاة والسلام–: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم ﴾ [النحل: ١٢٥]، أي إن تطلب الأمر الجدال والجدال هنا هو الحوار الحوار للوصول إلى الحق، أما الجدال بالباطل كما فعل فرعون فإنه المراء وقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: (أنا زعيم ببيت بربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محق) أنا زعيم: أي كفيل. ببيت بربض الجنة: أي بأرض الجنة وتربتها. لمن ترك المراء وإن كان محقاً.

يعني حينما يدخل الأمر في الجدال بالباطل أنسحب، لا أقر خصمي على الباطل الذي هو عليه، ولكن لا أبادله الكلام، أكف عن الحوار عند ذلك، هذا أسلم لي وأحفظ وأعظم للحق الذي معي، ولكن الجدال بالحق فهذا خير، وكما ذكر عن الإمام الشافعي– رحمه الله– أنه كان إذا ناظر أحداً قال: « اللهم أظهر الحق على لسان خصمي » فغرضه إظهار الحق، ولا أطلب أن يكون الحق على لساني، لكن المهم أن يظهر الحق ولو على لسان خصمي.

ذكر الإمام ابن كثير –رحمه الله تعالى– عن وهب بن منبه– رحمه الله– وهو من التابعين، قول ربنا –سبحانه وتعالى– في القول اللين، ما هو القول اللين الذي أراد الله أن يتكلم به موسى وهارون؟ وأعتقد أن هذا من باب التمثيل من هؤلاء العلماء يعني ذكروا للناس عبارات كمثال، تعتبر كمثال للقول اللين فقال وهب بن منبه: « قولا له إني إلى العفو والمغفرة أقرب مني إلى الغضب والعقوبة » وذكر كذلك الإمام ابن كثير عن الحسن البصري –

رحمه الله- في هذا القول [اعذرا إليه] يعني قدموا الإنذار لينقطع عذره [عرفناك وعلمناك] فلا عذر لك بعد ذلك [اعذرا إليه وقولا له إن لك رباً ولك معاداً وإن من بين يديك جنة ونار] أي أمامك جنة ونار وكأنه مثال أيضاً للقول اللين، لكن أن يكون هذا الكلام هو بالتحديد الذي طلب الله أن يقال لفرعون فهذا يحتاج إلى نص يعتمد عليه يكون صحيحاً كما ذكر ابن كثير أيضاً عن ابن أبي حاتم -رحمه الله تعالى- وهو من أئمة الجرح والتعديل وله كتاب تفسير قيم في التفسير بالمأثور روي عنه أو ذكر عنه أثراً موقوفاً قال فيه: [لما بعث الله - عز وجل- موسى إلى فرعون قال: أي موسى: رب أي شيء أقول؟ - ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً ﴾ قال موسى: رب أي شيء أقول؟ قال الله تعالى: قل: أهيا شراهيا] وهذه لغة سريانية، ولذلك يستعملها السحرة كتسمية كاستفتاح لكلامهم ويزعمون أنها لغة سريانية وأنهم يعلمونها وهذه دجل منهم، لكن ذكر الإمام ابن أبي حاتم هذا، ونقله عنه ابن كثير -رحمه الله- وقال الإمام الأعمش وهو إمام لغوي قال: وفسر ذلك، أي: ومعنى أهيا شراهيا، أن الله - تعالى- هو الحي قبل كل شيء والحي بعد كل شيء] يعني كأن معناها هو الأول والآخر قال:[فسر ذلك: الحي الذي قبل كل شيء والحي بعد كل شيء فهو حي قبل أن يكون الأحياء وحي بعد أن يموت الأموات وبعد أن يفنى الخلق] هذا طبعاً كما ذكرت وأكرر وأنبه هذا لعله كالأمثلة التي ضربها العلماء لكلمة القول اللين، يعني كيف يكون القول ليناً، هذه نماذج على هذا القول ولا نستطيع أن نعتمد قولاً منها أنه هو كلام الله لموسى -عليه السلام-.

لكن نلاحظ في الآيات بعض مظاهر لين القول كيف كان موسى لين القول مع فرعون أو كيف علم الله - تعالى- موسى ليونة القول مع فرعون -عليه اللعنة- قال الله -تعالى-: ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ ﴾ [النازعات: ١٧، ١٨] هل لك: مجرد عرض وهذه ليونة لم يلزمه، لم يجبره على ذلك، لم يضطره إلى قبول الدعوة إنما قال: هل لك؟ هل ترغب؟ وهذه ليونة في الخطاب ﴿ أن تَزَكَّى ﴾ والتزكية: هي الطهارة أن تزكى وأهديك: الهداية شيء جميل يحبه كل إنسان ويكره الضلال وإن كان بعض الناس على ضلال ويزعم أنه على هدى، ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٠]، فكل إنسان يزعم الهدى في نفسه لأنه يحبه، يحب الهداية ويبغض الضلال فذكر له موسى الهداية وأهديك إلى ربك: كلمة رب -كما مر بنا- كلمة فيها رحمة وفيها رعاية وفيها ربابة وفيها إنعام وإكرام فهذه كلمة مرغبة ولم يقل: فأهديك إلى الله فتخشى، وعرفنا أن الخشية هي التقدير على علم، تقدير الأشياء على علم، فيعظم في النفس قدر هذه الأشياء يكون كل شيء بقدره ولذلك قال الله -تعالى- ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨]، فالعلماء هم أعرف الناس بقدر الله وبحق الله العظيم ولذلك هم أكثر الناس خشية لله والأنبياء أعلم من العلماء ولذلك كان نبينا -عليه الصلاة والسلام- أخشى الناس وأتقى الناس لله -سبحانه وتعالى-.

كما جاء في الآيات التي معنا قال موسى : ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ ولم يقل له: إن لم تصدق وإن لم تؤمن يا فرعون فلك العذاب الأليم، وسينزل الله عليك سخطه وعذابه وعقابه ، فهذا يثير فرعون ويزيده عناداً ولكن قال بهذه الليونة ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ لعلك تلمح- أخي طالب العلم، أختي طالبة العلم- لعلكم تلمحون هذه الليونة في الخطاب ، واحد يقول لآخر: صلِّ لماذا لا تصلي؟ أنت كافر وفي النار، وآخر يقول له: لو صليت دخلت الجنة. الدعوة واحدة، ولكن هذا يدعو بلطف وبليونة وذلك يصد يقول: خلاص انتهينا بشرتني بالنار إذن خذ أنت الجنة وفز بها. ويعاند فالنفس طبيعتها هكذا ، فلا بد من الليونة في الخطاب وفي الدعوة حتى تؤتي الدعوة ثمارها، وقال موسى أثناء الكلام وفي ثنايا الخطاب والحوار ﴿ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾ ذكر كلمة السلام وهي كلمة مرغبة للنفس ومحببة فيها ولكن لم يسلم على فرعون فإنه لا يستحق السلام بكفره وطغيانه هذا، ولكن يظهر هنا ذكاء الداعي إنه ذكر السلام ولكن صرفه إلى من إلى من يتبع الهدى، أي والسلام عليك يا فرعون إن اتبعت الهدى وإن لم تتبع فلا سلام ولا كلام.

وذكر في أخبار هارون الرشيد –رحمه الله تعالى– أن رجلاً قال له في موسم حج قابله فيه:[هل تأذن لي يا أمير المؤمنين أن أنصحك أو أن أعظك وأغلظ عليك؟ قال: لا..] أنصحك وأعظك وأغلظ عليك: يعني أشدد في الدعوة وفي الموعظة والنصيحة، فهذا أمير [فقال لا. قال: ولمَ؟ قال: لأن الله بعث من هو خير منك لمن هو شر مني وقال ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾] فالداعي تجمل دعوته طالما كانت حسنة وبقول لين.

الحرص على الهداية والتأميل فيها:

من آداب الدعوة في هذه الآيات وهذا آخر أدب في هذه الآداب ذكراً فقط، وإلا فالله تعالى يعطي المتدبرين ما يشاء من فضله: الحرص على الهداية والتأميل فيها، ينبغي على الداعية أن يكون حريصاً على هداية الناس، ليس همه فقط أن يلقي بالتذكرة وأن يقدم النصيحة بأي شكل، المهم أنني بلغت وانتهى الأمر ولتفعلوا ما تفعلون ولكم الجنة أو لكم النار، أنا أديت ما علي وانتهى الأمر. لا.. لا يكن هكذا إنما ينبغي أن أكون حريصاً على الدعوة وعلى أن تفيد هذه الدعوة فيمن أدعوهم.

كما جاء في شأن النبي –صلى الله عليه وسلم– في القرآن الكريم ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ [التوبة: ١٢٨]، والخطاب هنا للكفار قال: ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ أي من العنت والتعب والشقاء في الحياة هذا يصعب على النبي –عليه الصلاة والسلام– كان يتأذى لأن قومه شقوا بالكفر والعياذ بالله كان يتأذى من أجلهم حريص على هدايتهم ودخولهم في الإسلام، فيبذل في ذلك كل ما يملك من قوة وجهد ودعوة أما شأنه مع المؤمنين ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨] –صلى الله عليه وسلم– فالداعي يكون حريصاً ولذلك تجد الحرص في موسى –عليه السلام– إذ يقول الله تعالى له: ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ اذهبا أمر، وموسى فعلاً يأخذ أخاه ويذهب إلى فرعون رغم شدة الموقف ورغم تخوفه من ذلك، والتأمين في الدعوة قول الله تعالى: ﴿ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ التذكر: أن يذكر الفطرة وأن يتجاوب مع الدعوة والنصيحة أو يخشى أن يقدر الأمر، على الأقل موسى هذا رسول من رب العالمين وفرعون كافر به لكن فلنترك موسى لحاله، موسى ادع كما شئت وليتبعك من اتبعك لا نتدخل في أمرك ولا شأن لنا بك والحرية ينبغي أن تشمل العقيدة كل يختار من الدين ما يشاء أما من اختار دين الإسلام فلا بد أن يلتزم به ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، عند عرضه على الكافرين هذا من المفروض وهذا مما يطرحه العقل أن يترك لصوت الحق مجال يتكلم من خلاله كما يترك لصوت الباطل مجال ومجالات يعلن عن نفسه من خلالها فاذهب يا موسى وقل للناس ما شئت، أما أنا فلا أتبعك مثلاً هذا إذا خشي فيقدر أن موسى هذا رسول والرسول عليه أن يبلغ فلا يملك من أمره نفسه شيئاً فيعطيه الفرصة ليبلغ الناس ويسمعه من يسمعه ويعرض عنه من يعرض عنه، لكن نلاحظ هنا كلمة لعل: فالداعي مهما كان ذكياً ونبيهاً ومهما كان قريباً من الله تعالى حتى الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– لا يستطيع أحدهم أن يحدد إن كان هذا المدعو سيستجيب لي أو لا يستجيب لي إن كانت موعظتي هذه ستقيم الناس من هذا المجلس مقبلين على الله –عز وجل– أو معرضين أو منصرفين أو غير ذلك الله أعلم؛ ولذلك قال الله للنبي –عليه الصلاة والسلام–: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى ﴿٤﴾ ﴾ [عبس: ٣، ٤]، وما يدريك كل ما في القرآن من قول الله تعالى: وما يدريك، فلم يدره. الله ما أجاب النبي –صلى الله عليه وسلم– بإجابة على المسألة التي قال عنها: وما يدريك، أما ما قال فيه: ما أدراك فقد أدراه وأجابه، كل ما قال الله فيه: ما أدراك أجابه، أجاب النبي –عليه الصلاة والسلام– فيه ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الإنفطار: ١٦– ١٩]، لكن ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴾ لم يقل كيف يزكى أو كان سيتزكى أو لا فلا يستطيع أحد أن يحدد إنما هي في دائرة الرجاء أنصح وأعظ وأرجو من الله تعالى أن يهدي القوم بنصيحتي وبموعظتي.

كذلك هذا الرجاء يجعلني أواظب على الدعوة ودائماً أنظر إلى الأمل، لكن لو علمت أن هؤلاء الناس لن يستجيبوا فلن أنصح ولن أعظ ولو رأيتهم مرة صدوا فلن أعاودهم بالدعوة، بل كان النبي –عليه الصلاة

والسلام- يعاود الناس في موسم الحج وفي غيره من المواسم ويعرض عليهم دين الله تعالى اليوم يقبل عليه اثنان وثلاثة وغداً وفي العام المقبل يقبل عليه أكثر وهكذا، فلابد من التأميل في الدعوة والله تعالى يقول ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ [الأعلى: ٩]، وإن: معناها الشك يعني لو كان أملك في انتفاع الناس بهذه التذكرة ولو أملاً ضعيفاً فذكر ولا تترك التذكرة.

هذا حول هذه الدروس المهمة في الدعوة، وجاء في كلام موسى -عليه السلام- ﴿ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى ﴾ وهذا السلام لم يكن للتحية فموسى لا يحيي فرعون وهو كافر، طاغية وإنما يرغبه في السلام. ودين الله دائماً يدعو إلى السلام الحقيقي الذي يضمن لكل إنسان كرامته وعزته وحريته المنضبطة بما شرع الله من حلال وحرام، ولذلك استعمل النبي -عليه الصلاة والسلام- هذه الكلمة في رسالته إلى هرقل عظيم الروم وإلى مسيلمة الكذاب، حينما عرض على النبي -عليه الصلاة والسلام- أن يدعو أهل المدن وأن يترك له أهل البادية والأعراب فقال: لك المدر ولي الوبر. فرد عليه النبي -عليه الصلاة والسلام- في رسالة وجاء فيها في ثنايا الكلام أيضاً (﴿ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى ﴾) عرف موسى بربه -سبحانه وتعالى- حينما ناقشه فرعون فقال موسى -عليه السلام- ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ في هذه الآيات وفي ذكر الله أنه خلق الأرض وسلك فيها سبلاً وأنه أنزل من السماء ماءً وأنبت النبات وجعل النعم وأنه أحيا الناس من الأرض وفيها يعيدهم بالموت والقبر ويخرجهم مرة أخرى للعرض والحساب يوم القيامة. هذا التعريف من أجمل التعاريف التي ينبغي أن يعرف الداعية الناس بربهم بواسطتها من أراد أن يعرف الناس على ربهم فليعرفه إليهم بنعمه، بقدرته، بعظمته، بجلاله ، بإنعامه -سبحانه وتعالى-، فإذا ما علم الإنسان أن وجوده في هذه الحياة الجميلة التي يحبها ويقبل عليها ويفتن بها، وجوده هذا كله إنما هو بدءاً من الله وتفضلاً من الله، ثم إذا علم أن كل نعمة ينعم بها ويتنعم بها إنما هي من الله ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣]، فهذا يدعو الإنسان إلى الإقبال على الله والاعتراف إلى الله تعالى بالجميل والفضل فيشكره على ذلك بعبادته وحده لا شريك له.

وأولى النعم وأفضلها وأعظمها، وأساسها، نعمة الخلق، لولا أن الله خلقني ما انتفعت بنعمة من النعم ولا رأيت الحياة، ولا عرفت أحداً ولا عرفني أحد، فبداية الإنعام الخلق ﴿ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ خلق فسوى ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ ﴾ [الأعلى: ٢، ٣]، خلق الخلق وسواهم في صور جميلة وقدر لكل مخلوق مهمة ودوراً في هذه الحياة وهيأه لذلك وجعله قادراً عليه وهداه إليه قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، دورنا أن نعبد الله -سبحانه وتعالى- وأن نوحده لا شريك له في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله نوحده توحيداً كاملاً شاملاً عظيماً، فيه استسلام كامل لله -سبحانه وتعالى- هذا هو دورنا في الحياة وهدانا الله إليه بالفطرة التي تتعرف على ذلك من خلال الآيات الكونية وهدانا أيضاً بشريعة تفصل لنا الأمر أعظم تفصيل قال تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلاَ اقْتَحَمَ العَقَبَةَ ﴿١١﴾ ﴾ [البلد: ١٠، ١١]، أي فهلا يقتحم العقبة؟ بما معه من علم شرعي -نسأل الله تعالى أن يعافينا من العقبات وأن يصحح إيماننا حتى نلقاه وهو راضٍ عنا غير غضبان إن ربنا هو الرحمن الرحيم- أشكر لحضراتكم إخواني طلبة العلم حسن الاستماع وحسن المتابعة وجزاكم الله خيراً ونفعنا الله وإياكم بهذه المجالس الطيبة وسلام الله عليكم ورحمته وبركاته.

أسئلة وإجابات:

١-السؤال الأول: نريد يا شيخ أن تتكلم عن الصبر في سبيل الدعوة إلى الله؟

السؤال الثاني: الأطفال الذين معهم قد تكون في الثانية عشر والثالثة عشر ولكنهم لا يصلون إلا وهم مكرهين على هذه الشيء ويتأسفون. وإذا رأوا غيرهم يقرؤن القرآن ولا يريدون أن يذهبوا إلى التحفيظ فكيف ندعوهم ونتعامل معهم لنحببهم في الخير وفي الصلاة ؟

٢-السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، بعض طلبة العلم للأسف يكون عندهم الله يسلمك خطأ في التعامل مع الناس فعنده علم ما شاء الله يستطيع أن ينفع به الأمة لكن للأسف عنده نقص في الأدب، بحيث إنه عندما يعطي دعوته تجده يكشر في الناس ما يسلم عليهم، فيعطي صورة لطلبة العلم وللناس سوء الهيئة فنتمنى من فضيلتكم أن توصوا طلبة العلم بالمحافظة على الأدب قبل العلم؟

فضيلة الشيخ الأخت في السؤال الأول كانت تريد منكم كلمة عن الصبر على سبيل الدعوة؟

بسم والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد، الصبر عدة للدعاة، لأنه في طريق الدعوة أشواك وعقبات وعوائق وأعظم الدعاة -صلى الله عليه وسلم- أوذي أيذاءً عظيماً لا يطيقه أحدنا، رمي بالحجارة وضع على ظهره سلخ الشاة والتراب، سال دمه الشريف من قدميه في الطائف ومن وجهه الشريف في إحدى الغزوات وكل ذلك ويمسح النبي -عليه الصلاة والسلام- الدم عن وجهه ويقول: (كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم) أي جرحوا وجه نبيهم -صلى الله عليه وسلم- ولم يدعُ عليهم ولم يلعنهم إنما صبر على أذاهم ليعاودهم بالدعوة مرة أخرى وفي الطائف رفض أن يطبق عليهم ملك الجبال الأخشبين أي الجبلين، وأن يهلكم الله تعالى جزاء ما آذوه.

قراءة هدي الأنبياء والمرسلين في ذلك من خلال القرآن الكريم والسنة المطهرة يعطي للداعية زاداً عظيماً وقدوة كريمة في هذا الطريق وفي هذا المجال لابد للداعية قبل أن يتصدى للدعوة أن يتوقع هذا أن يتوقع هذا الخطر، فتوقع الخطر يخففه ويجعله هيناً على النفس بخلاف ما يقابلني فجأة بخلاف ما يقابلني بغتة فهذا يكون أثقل على النفس فإذا ما توقعت الخطر قبل وقوعه فهذا يكون أخف على نفسي وأوصل لدعوتي وكذلك نقرأ عن الصحابة -رضوان الله عليهم- وما لاقوه من شدة وعناء في حمل هذه الرسالة وفي أدائها لمن بعدهم ومن بعدهم كذلك التابعون -رحمهم الله- والعلماء وما بذلوا في ذلك وتعلمون كم أوذي الأئمة كالإمام أحمد -رحمه الله تعالى- حين ضرب في السجن في الفتنة التي سجن من أجلها وسجن الإمام الشافعي -رحمه الله- وسجن نبي الله يوسف وهكذا طريق الدعوة محفوف بالمخاطر، ولذلك يتوقع الإنسان هذه المخاطر ويدعو الله بالعافية والسلامة وإن وقع شيء فليصبر عليه ومما يعينه على الصبر قراءته ومذاكرته لأحوال الدعاء السابقين بدءاً من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- إلى العلماء الذين كانوا في سلف الأمة فهذا كله يصبر الداعية على ما يلقى من الأذى وحين يذكر أيضاً أن هذا كله له أجره المقابل عند الله -عز وجل- يوم القيامة فإنا تذكر أو ذكرى الجزاء الحسن يصبر الإنسان على ما في الدنيا من بلاء. نسأل الله -تعالى- أن يرزقنا جميعا الصبر على حياتنا كلها وعلى تكبد الطاعة لله وخاصة على طاعة الدعوة وأن يجعلنا من الدعاة العاملين المخلصين المقبولين.

كان سؤالها الثاني فضيلة الشيخ على الأطفال من سن الثالثة عشر والرابعة عشر ولا يصلون ولا يريدون الذهاب إلى حفظ القرآن الكريم فكيف ندعوهم؟

عفواً أختنا الكريمة، لكن ذكرتي السن ثلاث عشرة سنة واثنتى عشرة سنة بدأنا بالسؤال في وقت متأخر بعد فوات مراحل التربية، إنما ينبغي أن نلتزم بالهدي النبوي في التربية هذا يريحنا كثيراً كما قال النبي -عليه الصلاة والسلام- (مروا -في رواية- علموا أودلاكم الصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع) فإذا تتبعنا هذه المراحل استطعنا أن نجتاز بالولد مرحلة خطيرة إنه في الأول يقلد ويستجيب ويخاف ويرهب، لكن في هذه السن في الثانية عشرة في الثالثة عشرة في الرابعة عشرة وهكذا إلى ما فوق يبدأ ينضج،

ويكبر جسمه وتعظم قوته شيئا فشيئا فيكون له رأي ويكون له رد خاصة في هذه الآونة التي تشيع فيها بين الناس كلمة ونداء وشعار الحرية، والناس لا يعرفون معنى الحرية. الله تعالى أعطانا حرية عظيمة جداً ولكن حرية منضبطة حتى البشر حين قننوا لأنفسهم الحرية قننوا حرية ولم يستطيعوا أن ينفلتوا بها يقولون أنت حر ما لم تضر إذن هناك ضوابط لا بد أن توضع حول مسألة الحرية لا نعطي أولادنا الحرية هكذا إنما لا بد أن يتربى الولد على افعل ولا تفعل خذ ولا تأخذ هكذا علمنا الله من خلال قصة آدم –عليه السلام– ﴿ وَكُلاً مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ [البقرة: ٣٥]، كل ما تشاء من هنا ولا تأكل من هذه بالذات تربية نفسية على طاعة الله –تبارك وتعالى– وعلى تقويم النفس حتى لا تأثرها شهواتها ونزواتها فالطفل من البداية يقلد بل نحن ندعوه فيما قبل السابعة ندعوه إلى التقليد ندعوه إلى المشاركة ليس في الصلاة فقط بل في الصلاة وذكرت الصلاة كرمز للعبادات كلها وأفعال الخير وأخلاق البر ثم إذا بلغ السبع نبدأ نعلمه ونأمره لكن فيما قبل كان يفعل ولا يفعل لا نحرج عليه ولا نضيق فعل خير وبركة نشجعه بكلمة طيبة لم يفعل ممكن نعاتبه بكلمة لكن عند السابعة نأمره ومع الأمر زجر وتعليم حتى يؤدي على علم ويعلم فوائد هذه الطاعة الصلاة أو غيرها منافعها وخيرها وبركتها فيفعل على قناعة إذا بلغ العاشرة إذن علمناه وأمرناه فترة تدريبية ثلاث سنوات على خصال الخير وأعمال الفضل عند العاشرة ينبغي أن يزجر بما هو أقوى من ذلك لو احتاج الأمر إلى الضرب فليضرب والضرب ليس كما يفهم أو كما يشيع عنا أعداؤنا تضربون الأولاد الصغار وعندهم يأخذون الطفل من أبويه إذا ضرباه أو ضربه أحدهما أنت لا تصلح لتربية الأولاد لا تضربه لا تجبره على شيء نحن نعيش حياة الحرية ويأخذونه منهما من الأبوين ويحرمونهما من ولدهما لأن أحدهما ضربه على فعل سيء فعله أو شيء طيب تركه، تأديباً له، إنما الضرب في الإسلام ضرب تخويف لا يكسر عظماً، ولا يخدش لحماً ولا يسيل دماً، ليس هذا مقصوداً أبداً في الإسلام نسمع بعض الناس ربما ألقى بولده من مكان عالٍ يرفعه فوق رأسه ثم يلقيه على الأرض يضربه بخشبة كبيرة ضربة لا يقوى عليها كبير لا.. ليس هكذا إنما المسألة تخويف فقط أن نرفع فوق رأسه العصا فإذا رآها خاف خلاص انتهيت يا أبي سأصلي سأفعل كذا كما تريد، خاف، هذا هو المطلوب وكذلك بالمناسبة ضرب الزوج لزوجته إن احتاج الأمر إلى ذلك هو ضرب تخويف وتقويم فقط ليس ضرب إهانة ولا ضرب تقبيح ولا ضرب تسفيه ولا ضرب تكسير ولا شيء مما يسمع عن بعض الناس هذه أخطاء شخصة أما في الإسلام فأباح هذا كأسلوب تربية في التعليم والتربية وعند ذلك أيضاً يفرق بينهم في المضاجع فإذا بلغ الطفل الثانية عشرة أو الثالثة عشرة وما فوق ذلك فإنه يكون قد تربى وتأدب فأتكلم هذا الكلام– أختنا أكرمك الله– من خلال وقائع شهدناها في الناس أنهم يتركون أولادهم كل هذه المراحل لا يقدمون لهم نصحاً وهو صغير يقولون: غداً يكبر ويعرف لا يزال صغيراً ويسامحونه وصار في العاشرة ويقول: صغير سامحوه لأنه طفل بريء لا يقصد لا يعلم لا كذا علموه وبعد أن يكبر يدخل في الثانية عشرة والثالثة عشر والخامسة عشرة ويرد على أبيه صلِّ يقول: لا أصلي مالك ومالي أنا حر ، كل يحاسب على نفسه، فإذا ما قال هذا قيل له: ولدك احفظ ولدك ارعاه انتبه ولدك يفلت منك يقول: هو كبر خلاص، كبر ويستطيع أن يتعلم بنفسه ففي الصغر لم يعلمه وقال غداً يكبر ويعرف وحينما كبر لم يعلمه وتركه يتعرف بنفسه فلا يجد ربما المجال والمناخ مناسباً للتعليم وإنما هناك مفاسد ومخاطر كثيرة ولا ينبغي أن نغفل عن التحديات الحادة والقاسية تجاه الأجيال القادمة من أولادنا وأحفادنا نسأل الله لهم الهداية والثبات ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ [الفرقان: ٧٤]، ومن كانت سبباً في هذا الكلام وفي هذه النصيحة أختنا الكريمة، نسأل الله أن يهدي لها أولادها إن كان عندها من تشكو منه وأن يهدي لنا أولادنا جميعاً. اللهم أمين.

كان الأخ الكريم كان يحكي خطأ بعض طلبة العلم ونقص الأدب والتكشير وعدم السلام إلى آخره من تلك الأخلاق فما رأيكم؟

والله في القرآن الكريم وفي السنة وفي سيرة النبي –صلى الله عليه وسلم– هيكل إن صح التعبير ونظام ومنهج عظيم جداً للدعوة وفقه بعيد للداعية لو فقهه لأفاد وأجاد ولكن فعلاً هذا ملاحظ أن كثيراً من بعض الشباب الذين يحبون الدعوة ويرغبون في إصلاح الناس والأخذ بأيديهم تغلب عليهم الغضبة في وجوههم والقسوة في

كلامهم أحياناً مع من يدعونه وربما هجروه ويقول الهجر والزجر في الله قبل أن يعلمه وأن يكلمه ما علمه شيئاً ولا نصحه ولكن يقول: أهجره في الله ولا يسلم عليه حتى، هذا تسبيق بالشر، تسبيق بالفرار من مقام الدعوة إن لم تدعو هذا فمن تدعو إذن، تريد واحداً ليناً هيناً طيباً يصلي معك تنصحه تقول له: أنت لا تضع كذا هكذا ضعها هكذا وهناك من يشرك بالله ولم تعلمه التوحيد وهناك من لا يصلي أصلاً ولا يسجد لله وتتركه في غيه وترك الصلاة ذاك أولاً من هاك إذا نظرنا إلى بدن الأمة جميعاً إلى المجتمع والحي الذي أعيش فيه والمعارف الذين أعرفهم فتارك الصلاة أولى بالنصيحة ممن يصلي ويخطئ فأقدم هذا على هذا وكل في حينه، لا أترك هذا ولا هذا ولكن أقدم الأولويات في الدعوة فالداعية كما قال أهل الدعوة كالطبيب غير أن مهمته أخطر لأن الطبيب يعالج جثة أمامه على السرير فيضع السماعة هنا ويتحسس بيده ويعرف علة البدن، أما الداعية فإنه يخاطب قلباً غيبياً لا يراه ولا يحسه ولذلك فمهمته في تشخيص الداء وفي وصف الدواء وإعطائه مهمة في غاية الصعوبة في غاية الشدة، فلابد للداعية أن يكون بشوشاً ضحوكاً كان نبينا -عليه الصلاة والسلام- يتبسم وكان ضحكه التبسم وكان يلاطف الناس ويكلمهم ويستقبلهم ويعرض نفسه عليهم كنبي وصاحب رسالة -عليه الصلاة والسلام- فأرجو من إخواني الذين يتصدون للدعوة أن يبشوا في وجه الناس (إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين) (بشر ولا تنفر ويسر ولا تعسر) وديننا يسر ولكن في التزام أوامره وأخذ شرائعه أو شعائره أخذها هذا هو اليسر أما الفظاظة والقسوة والغضبة والعبوس في الوجه فهذا ينفر من حال الداعية ويجعل الناس لا يستجيبون طبعاً بدون تفريط لا المسألة لها ضابط أيضاً بدون تفريط لا نخالط الناس في باطلهم حتى يسمعوا كلامنا في دعوتنا كعلماء بني إسرائيل كانوا يناصحون الناس لا تشربوا الخمر لا تزنوا لا تفعلوا كذا ثم يؤاكلونهم ويشاربونهم ويجالسونهم أنت ماذا تفعل هذا حرام يا شيخ حرام عليك هذا لا يجوز، تعالى تعالى نأكل ويأتي بالأكل، أما سمعت ما حصل؟ ويحكي له قصة ويجلس معه أتذهب معي إلى المكان الفلاني؟ ويذهب معه فلعنهم الله تعالى وقال: ﴿ كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ [المائدة: ٧٩]، مع أنهم نهوا أو نهى بعضهم بعضا فتناهوا لكن مع اعتبر الله بهذا التناهي ولا أعده أو ولا اعتبره تناهياً ولا نصيحة، إنما قال ﴿ كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ لأن هذا التناهي لا يأتي بثمرة فلا بد أن ينضبط الأمر فنبش في وجه الناس ونيسر لهم ونبشرهم بالخير ولكل مقام مقال كما قيل في ذلك، وتعلمنا من حياة الدعاة يفيدنا في هذا وأن نتعلم تقديم الشيء على الآخر لأن هذا أولى من ذاك هذا والله أعلم.

٤- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ما دمت أتابع الدروس عن طريق قناة المجد العلمية هل من الأفضل لي أن أحفظ كتاب الله -تعالى- برواية حفص، أم أستمر بالحفظ برواية ورش مع العلم أنني درست قواعد التجويد الخاصة برواية ورش لمدة ثلاثة سنوات والحمد لله؟

أختنا الكريمة، أسأل الله أن يعافينا وإياكِ وطلبة العلم جميعاً من التردد، فالتردد أمر يقطع طريق طلب العلم، إنما انظري الأولى، والأحب إلى النفس، الأولى أولاً والأحب إلى النفس أو الأرغب إلى النفس ثانياً من العلوم، قراءة ورش أو حفص، كلها خير، لكن خذي جهة، وحددي الغرض إن كان قومك يقرؤون بقراءة ورش تعلمي قراءة ورش أولاً أو رواية ورش أولاً وإن كان قومك وأهلك يقرءون بقراءة حفص عن عاصم، فخذي بهذه القراءة خذي بقراءة قومك أولا تعلميها وانشديها واحفظيها ودققي فيها حتى إذا انتهيتي انطلقي إلى أي قراءة أخرى وأرجو لو أعانك الله -سبحانه وتعالى- نسأل الله أن يعيننا وإياك والجميع أن تأخذي قراءة من القراءات المهجورة فورش عن نافع ربما كانت كثيرة وهكذا القراءة الثانية خذيها من القراءات غير المعروفة حتى تحفظ كل القراءات في الأمة بك وبغيرك وبهذا وذاك كل يحفظ قراءة ، مع العلم ولعلك تعلمين هذا أن المسلم والمسلمة لا يطالب بأكثر من قراءة ولا بأن يجمع القراءات كلها لكن إذا جمعها فخير وبركة جمع بعضها فلا مانع اكتفى بقراءة واحدة قال النبي -عليه الصلاة والسلام- (بأيها قرأت أجزأك) وقال (كلها كاف شاف) فخذي قراءة قومك أولاً وأتقنيها ثم ثني بقراءة أخرى ثم ثلثي بقراءة بعدها وهكذا قراءة فقراءة لكن بداية بقراءة قومك، لأن هذه هي التي تسمعينها من الناس، وربما تعلمينها لغيرك والناس يطلبون تعلمها وكذلك في العلوم أيضاً واحد يقول: أتعلم علم الحديث أولاً ثم تجد بعد ذلك يقول التفسير جميل، ثم ينطلق من التفسير فيقول: لا.. لا.. علم العقيدة هو

الأساس وهكذا. لا مانع أن نجمع هذا مع هذا، من كان عنده جهد ووقت وفراغ وهمة فليجمع إن كان يستطيع وإلا فليبدأ بأي علم ترغب فيه نفسك ويكون أسرع في تحصيله، ثم بعد ذلك يأتي بعلم ثانٍ وثالث ورابع وهكذا كما فعل علماؤنا –رحمهم الله تعالى– علمنا الله وإياكم الخير.

فضيلة الشيخ هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه الحلقة على الإخوة والأخوات من طلبة الأكاديمية العلمية حتى يستطيعوا الإجابة عليها في الدرس المقبل – إن شاء الله –.

أثناء المذاكرة نحاول أن نعد الجواب على هذه التساؤلات التي تذكرنا بما قيل أثناء المحاضرة أو ببعضه.

السؤال الأول: كيف تستفيد كداعية من خلال آيات هذه المحاضرة؟

السؤال الثاني: اذكر شيئاً –شيئاً يعني ما يحضرك وما تستطيعه فليس له حد معين– اذكر شيئاً من ملامح دقة الحوار وأدبه كما عرضه القرآن بين موسى وفرعون؟ طبعاً في حدود هذه الآيات؟

ثالثاً وأخيراً: حتى لا نشق عليكم، ما فائدة الذكر للداعية؟ ما فائدة ذكر الله للداعية؟

ونسأل الله تعالى أن يفهمنا وإياكم العلم وأن يلهمكم حسن الجواب وشكر الله لكم وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

الدرس (٥) طه (الآيات ٥٧- ٦٧)

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم- وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه وبعد:

ففي هذه المحاضرة – بعون الله تعالى- نتناول الآيات من سورة طه من الآية السابعة والخمسين، وحتى الآية السادسة والسبعين وهذه الآيات المباركات حوت موضوعات ثلاثة بارزة:

الموضوع الأول: رد فرعون – اللعين- لمعجزة موسى –عليه السلام-.

الموضوع الثاني: يوم الزينة وما وقع فيه.

الموضوع الثالث ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وفي النهاية دروس وعبر من خلال هذه الموضوعات نتعايش مع الآيات من السابعة والخمسين إلى السادسة والسبعين بعد ما نستمع إلى قراءتها من أخينا عبد الرحمن ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴿٥٨﴾قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴿٦٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى﴿٦٧﴾ قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴿٧١﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُل﴿٧٥ ﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى﴾ [طه: ٥٧: ٦٧].

نسأل الله – تبارك وتعالى- أن يجعلنا من أهل الجنات والدرجات العلى.

موقف فرعون من معجزة موسى –عليه السلام-:

في هذه الآيات المباركات موضوع أول وهو: موقف فرعون من معجزة موسى –عليه السلام- وهي معجزة باهرة وخاصة المعجزة الكبرى "العصا" ووصلاً بما سبق كنا قد وقفنا عند قول الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ [طه: ٥٦] قدم موسى تعريفاً كاملاً وعظيماً بالله – سبحانه وتعالى- ليعرفه فرعون بالعظمة والقوة والغلبة والهيمنة والواحدانية والإنعام والإكرام ليخضع ويؤمن ويتزكى، لكنه رغم الدعوة اللينة، رغم الآيات المعجزة إلا أنه كذب بكل ذلك وأبى الإيمان ورفضه، فتواصل الآيات بيان هذا الموقف حيث قال فرعون لموسى: ﴿ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴾ اتهمه أولاً: بأنه جاء بسحر ولم يأتِ بمعجزة لما رأى بين السحر والمعجزة من انقلاب الصور فظن أن ما فعله موسى هو تحويل للشكل الظاهر في الشيء أو تخييل

للعين فعل عجيب كما تعود من السحرة فلهذه الشبهة وصف فرعون -عليه اللعنة- معجزة موسى -عليه السلام- بأنها سحر واتهمه كذلك بتهمة هو منها براء، اتهمه بأنه جاء لينازعه الحكم والملك والأرض، التهمة التي يتهم بها الداعي إلى الحق دائماً، وما هو كذلك إنما بعثه الله لينقذ بني إسرائيل من تحت سلطان فرعون الظالم، وبعد أن ادعى عليه هذا أنكر عليه ما يريد أن يفعل قال: ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴾ ثم توعده بأنه سيأتي بمثل ما جاء به لينازعه أمره وليظهر بطلانه وسحره كما ادعى فرعون -عليه اللعنة- ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ ﴾ فلنأتينك: هكذا يذكر الله – تعالى- هذه الكلمة عن فرعون مؤكدة واللام فيها تشير إلى القسم فكأنه أقسم وعزم الأمر على أنه سيفعل ذلك وأنه سيحاد موسى ويضاده بشيء مثل ما رأى وما له ذلك[ذلك له] بمستطاع ولكنه يدعي ذلك، فطلب من موسى أن يفرض وأن يضرب موعدًا في مكان وزمان موحد يكون بينهما ﴿ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴾ فاجعل بيننا وبينك موعدًا لا نخلفه نحن ولا أنت: وهكذا يدعي أنه لا يُخلف الوعد ولأنه يزعم القوة والغلبة ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾ أي مكاناً مستوياً نحن وأنت سواء في ذلك الموعد فلا يخلفه أحدنا ولا يتخلف عنه أو ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾ أي مكاناً مستوياً نلتقي في مكان مستوٍ وفي أرض فضاء بحيث لا يختفي فوقها شيء فيرى الناس كل شيء ويظهر عملك يا موسى ويظهر عملنا وسحرنا ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴾ وهنا يجيب موسى -عليه السلام- بذكاء عظيم وهكذا دعاة الحق يرزقون الحيلة ولا سيما الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فإنهم يوحى إليهم، فيبدو أن موسى أجاب من عند نفسه ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ ﴾ اقتراح من موسى -عليه السلام- من فكره من بُنيَّات عقله من تخطيطه وتدبيره ومكره بفرعون كما يمكر به فرعون فاختار موسى يوم الزينة وذكر ابن كثير عن وهب بن منبه -رحمهما الله تعالى- « أن ذلك كان بوحي من الله – سبحانه وتعالى- أن الله – عز وجل- أوحى إلى موسى أن يضرب مع فرعون هذا الموعد أيامًّا كان [أياً ما كان] فهذا هو منطق الحق بوحي من الله أو باستلهام من موسى -عليه السلام- اختار يوم الزينة، ويوم الزينة كان يوم عيد عندهم عند القبط ويقال له: يوم النوروز ثم لمَّا عُربت الكلمة صارت يوم النيروز، وهو يوم عيد وهو أول يوم في عامهم كانوا يحتفلون فيه ويجتمعون فيه ويكون بينهم من البيع والشراء والمتاجرة كالسوق الكبيرة ويترك الناس أعمالهم وأشغالهم وهكذا يجتمع الناس بطبيعة الحال، اختار موسى -عليه السلام- هذا اليوم بالذات وكان موافقاً كما ذكر ابن كثير -رحمه الله – عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه كان موافقاً ليوم عاشوراء من الأشهر القمرية وكما جاء في الحديث الصحيح (أنه هو اليوم الذي أهلك الله فيه فرعون) أيضاً يوم أن أهلكه يوم عاشوراء.

اختار موسى هذا اليوم ليجتمع الناس بل اشترط ذلك ونص عليه ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ وسمي بيوم الزينة؛ لأنه يوم عيد – كما عرفنا- فكانوا يزدانون له ويتخذون الزينة في بيوتهم وشوارعهم وهكذا فسمي بيوم الزينة، ﴿ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ﴾ أي أن يجمع الناس، صاحب الحق لا يخاف من المواجهة وصاحب الباطل يعميه غروره وعنفوانه فلا يرى فلم يدرك فرعون لماذا اختار موسى يوم الزينة حتى يرى الناس جميعا هذا الإفضاح لأمر فرعون ولألوهية فرعون المدعاة وأنه ليس إلهاً وأن ما مع موسى ليس سحراً إنما هو إعجاز من الله – سبحانه وتعالى- ونظير ذلك في غلام بني إسرائيل الذي أراد أن يقتله الملك حين لم يتمكن منه ونجاه الله – تعالى- بالدعاء قال الغلام للملك: أتريد أن تقتلني قال: نعم قال: اجمع الناس في فناء القصر ثم أقف لك هناك عند الشجرة وتضربني بسهمك أو ترميني بسهمك وتقول بصوت مسموع: بسم الله رب الغلام، ولم يفطن الملك بملكه وعنفوانه، وهيلمانه، لماذا اختار الغلام جمع الناس مع أنه سيقتل، ذلك لأن داعي الحق يريد أن يعرف الناس يريد أن يعلن على الناس الحق من الباطل وكل يختار ما شاء، فيكون قد دعا إلى الله – عز وجل- دعوة عامة عظيمة وفعلاً كان موسى -عليه السلام- هكذا بهذا الذكاء وبهذه الحيلة بعيدة المدى فقال: ﴿ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ﴾ ومن ثقته بربه لأنه على نبوة صحيحة صادقة قال: ضحى: والضحى جزء من النهار، ساعة من النهار هي أوضح ساعات النهار رؤية ففيها الشمس بضوئها اللطيف، ربما في الظهيرة لا يستطيع الإنسان الرؤية كاملة من شدة أثر حرارة الشمس وأشعتها على العين وربما في الأصيل وفي آخر النهار لا يستطيع أيضاً الرؤية – كما ينبغي- لقدوم الليل، لكن هذا هو أول النهار وظهور الشمس في الضحى ألطف أوقات اليوم فلذلك اختاره موسى ليكون الأمر بارزاً ظاهراً لا خفاءَ فيه ﴿ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ وانتهى هذا

الاتفاق بين موسى – عليه السلام- وبين فرعون -عليه اللعنة- ورضوا هذا الموعد وأن يكونوا في مكان سواء بينهم.

الموضوع الثاني: يوم الزينة

انطلق فرعون بسرعة وهذا هو الموضوع الثاني: يوم الزينة، الإعداد له: انطلق فرعون دون توانٍ ولا تراخٍ للإعداد لذلك اليوم فإنه سيجمع السحرة وكان يكفي أن يأتي بأبرز السحرة بأقواهم بأعلمهم ومما ينبغي أن أنبه إليه هنا أن السحر في حياة الناس قديماً وفي أيام القبط وفي أيام الفراعنة كان أمراً رائجاً شائعاً محموداً، بل كانوا يصفون الساحر بالعلم، فطلب فرعون أن يأتوه بكل ساحر عليم وبنو إسرائيل قالوا: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ﴾ يطلبون منه الدعاء كيف يقولون: ساحر ويطلبون منه الدعاء قصدوا: يا أيها العالم يا أيها الساحر الذي بلغ في سحره العلم ودرجة العلم ادع لنا ربك حينما ضاقت بهم الضائقة طلبوا منه ونادوه بهذا النداء؛ لأن السحر ارتبط في ذهنهم بالعلم وهذا يكون في الجاهليات عموماً عندما يجهل الناس بدين الله ويجهلون بالفارق بين العالم والجاهل والعالم وغيره، حتى في أيامنا هذه ربما يزعم كثير من الناس أن الساحر هذا عالم ولذلك يقال: فلان يعرف ماذا يعرف؟ لا يعرف شيئاً إنما هو يخمن، إنما هو يظن، ويخرص بالقول، لكن يدعي الناس أن فلاناً يعرف الأشياء المغيبة والأشياء الضالة الضائعة ويعرف ماذا في بيتي وماذا يجري لي في سري وفي نجواي، وهذا كفر بالله أو شرك بالله -والعياذ بالله- لأنه ادعاء بأن الساحر يعلم الغيب -والعياذ بالله- وهذه كبيرة من الكبائر نعوذ بالله منها.

فهنا فرعون تولى بسرعة والله تعالى يقول: ﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾ فتولى هذه الفاء حرف العطف: تدل هذه الفاء على السرعة على الترتيب والتعقيب أنه بسرعة وفي عقب ما اتفق مع موسى -عليه السلام- خرج مسرعاً وأصدر أوامره وبعث رجاله وجنده إلى أنحاء مصر ليأتوه بكل ساحر عليم حتى جمعوا له عدداً غفيراً كبيراً قال فيه- كما ذكر ابن كثير- محمد بن كعب القرضي -رحمه الله تعالى- قال: كانوا ثمانين ألفاً وقال قاسم بن أبي بزة: كانوا سبعين ألفاً وقال السدي: كانوا بضعاً وثلاثين ألفاً وقال الثوري عن أبي ثمامة: كانوا تسعة عشر ألفاً وقال ابن إسحاق: كانوا خمسة عشر ألفاً وقال كعب الأحبار: كانوا اثني عشر ألفاً وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وهذا أصح: أنهم كانوا سبعين رجلاً. وهذا يكفي لمناظرة ساحر أو رجل واحد، هو ساحر في نظر فرعون -اللعين- يكفي في مناظرته أن يُجمع عليه سبعون ساحرًا وسبعون رجلاً من أهل هذا الفن، لكن هذه الأعداد كلها أقوال لا تهم في الموضوع ولا تقدم ولا تؤخر المهم أنهم كانوا كثرة كبيرة وعدداً عظيماً أراد فرعون أن يقابل بهم معجزة موسى -عليه السلام- أيًّا كان العدد فإن فرعون جاء بهذا الحشد العظيم ولهذا تجد الفعل الأخير معطوفاً بـ (ثم) ﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾ فتولى بسرعة فجمع بسرعة ﴿ ثُمَّ أَتَى ﴾ فجمع كيده أي ما يكيد به لموسى -عليه السلام- من تصديه له بالسحر والسحرة، ثم تدل على الترتيب والتراخي أي البعد والمسافة قد تكون مسافة حسية في الزمان أو المكان وقد تكون مسافة معنوية يسمى البعد الرتبي أي بعد في الرتبة فالأمر المعطوف عليه- الأمر الذي بعد "ثم"- هذا يكون أكبر في القدر والقيمة أو في الخطر والشأن من الأمر الذي قبلها، فلأن فرعون حين ذهب وإن كان بسرعة وأصدر أوامره وبعث رجاله لكن هذا استغرق وقتًا بلا شك في زمانهم استغرق وقتاً وزماناً ولو بضعة أيام فهنا قال: ﴿ثُمَّ أَتَى﴾ أي جاء إلى الموعد الموعود وقالوا: كان هذا الموعد بعد الاتفاق بحوالي أربعين يومًا إذن مجيء ثم هنا مناسب جداً ويدل على فصاحة القرآن ودقة التعبير فيه، قال تعالى ﴿ فَتَوَلَّى﴾ لأنه كان بسرعة ﴿فَجَمَعَ﴾ لأنه كان بسرعة ﴿ثُمَّ أَتَى﴾ لأن هناك فترة زمانية بين الموعد وبين الاتفاق عليه أو لأن مجيء فرعون بنفسه ليحضر هذا اللقاء ومجيئه بسبعين رجلاً أو أكثر من ذلك هذا أمر كان أعظم من أنه ذهب يجمعهم كونه ذهب يجمع السحرة هذا أمر هين لكن كان أكبر منه في نفوس الناس وأعظم منه في واقع الأمر أنه يأتي بنفسه ويجلس على كرسي ملكه ويقف حوله الحراس والحشد ويصطف السحرة وهكذا هذا كان في القيمة والمنظر أخطر وأعظم ولذلك عُطف هذا الأمر بحرف: ثم ﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴾.

وعند ذلك استقبلهم فرعون وحثهم ولكنهم جاءوا يؤدون عملاً مقابل أجرة ﴿ أَإِنَّ لَنَا لأَجْـرًا إِن كُنَّـا نَحْـنُ الْغَالِبِينَ﴿٤١﴾قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١، ٤٢] أخذ يمنيهم بالعطاء والتقريب منـه وأنهـم ستكون لهم مكانة عظيمة ويأخذون العطايا والهدايا لو أنهم غلبوا في هذا اليوم ولكن موسى -عليه السلام- قـام يعظ رغم رهبة الموقف وبطش فرعون وظلمه وشدة المعارضين له وكثرتهم إلا أن الدعوة لا يمنعها شيء لتبلغ كلمة الله إلى كل إنسان فقال موسى لهم: ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَـذَابٍ وَقَـدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴾ الويل: هو العذاب الشديد في جهنم -والعياذ بالله- كما قال الله تعالى: ﴿ وَيْـلٌ لِّكُـلِّ هُمَـزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١] ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١] ويلكم يعني: يا ويلكم والويل لكم إن تبعـتم فرعـون ﴿ لاَ تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا ﴾ الافتراء هو الاختلاق اختلاق الكلام اختلاق الشيء وادعاؤه كذباً اسمه افتراء من الفـري وهو القطع فالافتراء شيء مقطوع لا أصل له أو لا يمت إلى أصل لا تفتروا على الله كذباً ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَـذَابٍ﴾ الإسحات: هو الإهلاك هلاكاً كاملاً حتى لا تبقى بقية فيسحتكم بعذاب أي فيهلككم هلكة لا تبقى منكم بقية بعدها، وهنا يقول: ﴿ بِعَذَابٍ﴾ وهي كلمة نكرة والتنكير هنا للتعظيم أي بعذاب عظيم، ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَـرَى ﴾ وقـد خاب: أي خسر من افترى: عموماً الافتراء جريمة لا ربح فيها ولا كسب منها إنما عاقبتها الخيبة دائماً.

لما قال لهم موسى ذلك هؤلاء السحرة كانوا هم كلهم أو بعضهم على الأقل كان في قلوبهم خير ولكن نـشأوا في هذا الجو وتعلموا السحر بأمر من فرعون أمر باختيار عدة رجال وتعليمهم السحر تعليماً عظيماً لا يعلمه أحد حتى يكونوا سحرة له في ملكه وفي حياته فأكرهوا على هذا العمل ففي قلوبهم خير ولكن البيئة التي حولهم لـم تساعدهم على هذا الخير ولم تظهره من قلوبهم فبان منهم الشر فلما كلمهم موسى -عليه السلام- بهذه الموعظة كأنهم خافوا كأنهم اضطربوا في موقفهم ولكن كيف يرجعون عن هذا الأمر وفرعون أمامهم وبطـش فرعـون معروف وهذا أمر ملكي من فرعون فعصيانه عندهم مخيف ومرعب وثقتهم في موسى مجرد شبهة، كلامه مقنع، كلامه جميل، كلامه حق، ولكن ليسوا على يقين لم يروا معجزة بأعينهم ولذلك تراجعوا خوفاً من فرعون بعد أن قال لهم هذه الموعظة ﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ ﴾ أي اختلفوا قال بعضهم: هذا ساحر وقال بعضهم: لا.. هذا نبي قـال بعضهم: هذا لا ساحر ولا نبي. اختلفوا في شأن موسى -عليه السلام- ولكن انتهوا في النهاية إلى اتفاق علـى شيء واحد وذلك أنهم يجمعون كيدهم وسحرهم وأن يأتوا صفاً واحداً في مقابلة موسى حتى يستطيعوا مواجتـه، ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ أخفوا هذا الكلام فيما بينهم ﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَـاكُم مِّـنْ أَرْضِـكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ يعني نعم: هذان ساحران إن: هنا قول للعلماء بأن معناها نعم وأجل وبالتالي فلا إشكال في الإعراب، أو ﴿ إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ أي: ما هذا إلا ساحران وهذا على لهجة في العرب كـانوا يستعملون كلمة هذا على وضعها سواء أفردت أو ثنيت أو جمعت لا يغيرونها بعلامات الإعراب فـلا تنـصب وتجر بالياء إنما تبقى على حالها هكذا فلم تؤثر فيها إن عندهم وفيها قراءة أخرى قراءة صحيحة بتـشديد نـون [إن] ﴿ إِنَّ هَذَينِ لَسَاحِرَانِ ﴾ وهذا هو الوجه المشهور عندنا في اللغة العربية عندنا نحن أهل هذا العـصر وإلا فعند العرب وجوه أخرى مشهورة ومعروفة ولكن هذا هو الذي يعرفه الناس ولذلك يشبه بعض المغرضين على القرآن بأن هذا خطأ في لغة القرآن ﴿ إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ كان ينبغي أن يقال: إن هذين لـساحران لا.. هـذه لهجة في لغة العرب وفيها قراءة إنَّ هذين على المشهور فيما نعلم من اللغة فهذا موجود وهذا موجود.

وقال بعض العلماء: إنَّ إن هنا بمعنى أجل ونعم في استعمال بعض العرب كانوا يستعملوان إن بمعنى أجـل ونعم هذان لساحران واللام للتأكيد ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَ﴾ نلاحظ هنا أن السحرة وهم كفرة إلى تلك اللحظة قالوا: ﴿يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ دائماً الكفرة ينسبون الأرض إليهم ولا ينسبونها إلى الرسـل وإن كانوا منهم موسى مولود في مصر وعاش في مصر فترة طويلة وخدم فيها هو وأهله وقومه خدمة عظمية ومع ذلك ينفون عنه نسبته إلى مصر وقبل ذلك الرسل جميعاً كان الكفار يقولون لهم: ﴿ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّـنْ أَرْضِـنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [الرعد: ١٣] لنخرجنكم من أرضنا مع أنها أرض الرسل أيضاً فمكة بلد النبي محمد -صـلى الله عليه وسلم- الذي ولد فيه وعاش فيه وتربى فيه ونشأ فيه وهي أحب بلاد الله إلى الله وإلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومع ذلك أخرجوه منها وهكذا.

﴿ يُرِيدَانِ أن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ تنوعت كلمات المفسرين من السلف حول كلمة ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ ما المراد بها، لكنها كلمات لا تتعارض، كلمات في مجملها تصف الطريقة المثلى كلها، البعض قالوا: ويذهبا بطريقتكم المثلى في السحر فيكون موسى وأخوه أسحر منكم وأمكن منكم في السحر وبالتالي ينالون الوجاهة والقربة والعطاء عند فرعون بدلاً منكم، وقالوا: الطريقة المثلى هي الوجاهة بين الناس والسمعة- كما قلنا الآن- كانوا يقولون عن الساحر: عالماً، كانوا يقولون عن الساحر إنه عالم بل يصفونه بأنه عليم مبالغة في علمه، وقال البعض: إن الطريقة المثلى مقصود بها الملك والمال والرياسة في البلاد ظنوا هذا، فقالوا: ﴿ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾وما كان موسى وأخوه هارون -عليهما السلام- يسعيان لشيء من هذا أبداً إنما أرادا إظهار الحق وتبليغ رسالة الحق إلى من وجههم الله -تعالى- إليهم هذا كان هدفهم ﴿ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ يقول بعضهم لبعض سراً: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ إن استعليتم أنتم وكنتم الأعلى أو الأعلين تكونون أنتم المفلحين وإلا أخذها منكم موسى وهارون فقد أفلح اليوم من ما استعلى ثم انطلقوا إلى موسى وبدأت المواجهة في هذا اليوم وهو يوم الزينة.

بدأت المواجهة فقال السحرة لموسى -عليه السلام-: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾ العرض فيه دهاء وفيه خبث وفيه حب ورغبة في البدء أولاً، قالوا: يا موسى إما أن تلقي وإما أن نلقي. هذا هو الواجب لكن قالوا: وإما أن نكون أول من ألقى كما في آية أخرى: ﴿ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٥] أي الملقين أولاً والسابقين بالإلقاء فقال لهم موسى: ما يريدون، أعطاهم ما يريدون ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ﴾ لن ألقي ولكن ألقوا أنتم فألقوا ما في أيديهم من حبال وعصي كل واحد منهم كان معه حبل وعصا ألقوه في ميدان واحد فكان شيئًا عظيماً ضخماً وكانوا قد جعلوا عليه شيئًا من الزئبق مع حرارة الشمس بدا الشيء كأنه يتحرك، بدت الحبال والعصيان كأنها تسعى كالحيات والثعابين فخاف المشهدُ كله حتى أصاب الخوف موسى – عليه السلام- وخيلوا للناس أن هذه حياتٌ تسعى وتتحرك فخاف الناس منها كما قال تعالى: ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وهنا ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ خيل إلى موسى -عليه السلام- كما خيل إلى غيره، من سحرهم ومن شدة سحرهم ومكرهم أنها تسعى ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى ﴾ خاف ألا يستطيع مواجهة هذا الكم الكبير. هو لا يشك في ربه ولا في إمداد ربه – سبحانه وتعالى- ولكن إن أصابه الخوف فمن نفسه هو، من غلبة هذا الموقف وشدته. وقال ابن كثير -رحمه الله- وهذا تفسير يبعد الأمر عن الشبهة قال: « إنما خاف على الناس من أن يفتتنوا بهذا التخييل فيظنوا أن السحرة علماء وعلى حق فيفتتنوا بهم ويتبعوهم ولا يتبعونه هو » إذن: احتمال أن تكون الخشية من هذا السحر فموسى بشر والسحر يخيل إلى العين شيئاً غير الحقيقة فلما رأى حيات كثيرة وبدا في عينه ثعابين تتحرك خاف كأي إنسان كما خاف في المرة الأولى حينما قال الله له: ﴿ أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى﴾ [طه: ١٩: ٢١]، فهذا خوف فطري ولكن ما لبث أن أمنه الله وطمأنه وما قاله ابن كثير يعتبر أرجح وأحسن وهو: « أنه خاف على الناس من أن يصدقوا السحرة وأن يفتتنوا بما جاءوا به من سحر عظيم » فأوحى الله إلى موسى -عليه السلام- ﴿ قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى﴾.

قضية مسلمة وقولاً واحداً إنك أنت الأعلى هذه جملة مؤكدة بالمؤكدات اللغوية يفهم منها موسى -عليه السلام- وعداً صادقاً من الله – عز وجل- وإن كان الأمر لا يحتاج إلى تأكيد ولكن الله يطمئن رسوله موسى ويثبت قلبه على أنه سيعلو فوق السحرة ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ﴾ ماذا في يمينه ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ هي العصا التي سبق ذكرها ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ﴾ أي: تلتهم بسرعة كل ما صنعوا ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ﴾ إنما صنعوا أي: إن الذي صنعوه هذا كيد ساحر، ليس أمراً حقيقياً وليس حقيقة يعتمد عليها ولكنه مجرد كيد، تخييل مكر وخداع، ﴿ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ ولا يفلح الساحر: قال ابن كثير: « ولا يصدق حيث جاء أو حيث وجد » في أي مكان الساحر يوجد فيه فإنه لا يصدق ولا يفلح هذا بين أهل الدين، بين أهل الإيمان، بين من معه شيء من الحق لو قدر أن جلس في مجلسك ساحر ولكنك أنت لا تجلس إليه ولا تذهب إليه لكن قدر أن جلس إليك ساحر أو وجد في مجلسك ساحر فاقرأ في نفسك سورة الفاتحة- آية الكرسي-

قل هو الله أحد- المعوذتين- ما تيسر من القرآن ماتيسر من ذكر الله – عز وجل- من الأذكار فإن ذلك يعطل عمله ويفسد خطته ويغيب خادمه الذي يعتمد عليه شيطانه لا يستطيع الشيطان أن يحضر في مجلس يُقرأ فيه قرآن ولو في نفس الإنسان ولو في السرِّ وفعل ذلك الإمام ابن تيمية –رحمه الله – مع رجل أذيع عنه أنه يطير في الهواء فذهب إليه ليرى كما ورد إليه الخبر وهناك طار الرجل كما كان يطير في الهواء وفجأة على غير ما تعود الناس سقط الرجل مرة واحدة من فوق على الأرض فضج الناس بالسؤال ما هذا؟ ما الذي حدث؟ قال لهم: قرأت في نفسي سورة الفاتحة فخلا به شيطانه في الهواء فسقط أو فهوى، لا يقوى الشيطان على حضور مجلس فيه قرآن ولو في القلب، ولذلك الساحر حيث وجد لا يُفلح سحره أبداً ﴿ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ ولا يصدق إنما يصدقه أهل الجهل وأهل الضلال نعوذ بالله من ذلك ﴿ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ روى في ذلك الإمام ابن أبي حاتم والإمام الترمذي عن جندب بن عبد الله البجلي –رضي الله تعالى عنه- قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: (إذا أخذتم الساحر فاقتلوه، ثم قرأ ﴿ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ قال: لا يؤمَنُ به حيث وجد) ذكر هذا الحديث الإمام ابن كثير- رحمة الله تعالى عليه- وهنا ينتهي الموقف الثاني والموضوع الثاني عند التهام عصا موسى لكل ما ألقاه السحرة، وكان العجب أن التهمت العصا وهي على شكل ثعبان كبير، ذكر ابن كثير –رحمه الله- أنه كان تنيناً عظيماً ضخماً له قوائم، من عادة الثعبان أو الحيات أنها تزحف لكن كان هذا له قوائم، وكان له أضراس، وله رأس عظيم وكبير، فالتهم كل هذا، ثم عاد إلى سيرته الأولى عصًا وأخذ موسى عصاه، دون أن تتضخم دون أن يحدث لها شيء، هي العصا القديمة المعتادة التي كانت معه فأين ذهبت حبال وعصي السحرة الكثيرة ؟ بهذا الشكل العظيم فكانت آية مبهرة وآية معجزة ظهر للسحرة أنها ليست سحرًا وأنها ليست تخييلاً وإلا فالساحر يعرف صاحبه، ويكشفه ويفضحه ولكن رأى السحرة شيئاً لم يعهدون ولم يعرفوه في السحر فلذلك ما كان منهم إلا أن آمنوا. وهنا نعنون لهذا الموضوع ولهذه الآيات المتبقية بقول الله –تعالى-:

﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١١٨].

عند ذلك آمن السحرة سحرة فرعون، آمنوا بموسى وبمعجزته، إيماناً عجيباً له الدهشة، وفيه الغرابة ذلك أنهم ألقوا لِتوِّهِمْ وبسرعة حينما رأوا آية موسى ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا ﴾ الفاء تدل على السرعة –كما قلنا- وعلى التعقيب فكأنهم لم يتوانوا، لم يفكروا، لم يتراجعوا أو يترددوا كما فعلوا عندما وعظهم موسى في بداية الموقف وفي أول النهار ولكن عندما رأوا هذه الآية أيقنوا أنها معجزة من عند الله –تبارك وتعالى- ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا ﴾ سجوداً لله –تبارك وتعالى- خضوعاً لموسى اتباعاً له مؤمنين به وبالحق الذي جاء به، قالوا: لم يكن فعلاً فقط، أو حركةً فقط، بل كان بالحركة وبالقول: ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ هنا قد يتساءل البعض لماذا قدم هارون على موسى في هذا المقام، وفي آية أخرى ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٤٧، ٤٨]، يقول المفسرون عن مثل هذا: إنه مراعاة للفاصلة، ربما نجد هذه العبارة في بعض الكتب المطولة، تأخر ذكر موسى مراعاة للفاصلة، الفاصلة: هي آخر جملة في الآية وآخر حرف في هذه الجملة تسمى أيضاً الفاصلة، فاصلة الآية فتطلق على الجملة وعلى الحرف فاصلة هذه السورة سورة طه، ﴿ طه ﴿١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَّخْشَى ﴿٣﴾ ﴾ ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ فلو قال: برب موسى وهارون اختل الوزن وزن الكلام ونسقه الجميل لم يكن على نفس الوتيرة فأجمل في الإيقاع على الأذن أن تكون هكذا- هارون وموسى- وفيما أرى –والله أعلم- أن هذا يعني أمر ظاهر ولكن في القرآن ما هو أبعد من ذلك فالله ﴿ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الملك: ١]، قادر على أن يوفق الفاصلة دون تأخير ولا تقديم فيقدم موسى لأنه هو الرسول الأصلي ويؤخر ذكر هارون لأنه هو النبي التابع دون أن يحتاج إلى مراعاة فاصلة فالفاصلة يمكنه – سبحانه وتعالى- ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الملك: ١] أن يأتي بها منتظمة متناسقة، ولكن أقول دائماً: إن في مثل هذا التقديم والتأخير سرًا ينبغي أن يتدبر وينبغي أن يلتفت إليه مع القول بمراعاة الفاصلة، تقديرًا لقول علمائنا- رحمهم الله تعالى-.

وذلك في هذا الموقف كأن السحرة يعاندون فرعون بإيمانهم أو يريدون أن يخبروا بخبرٍ مبالغ فيه عن إيمانهم، قالوا: ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ موسى رسول نعم، وهارون هذا هو الأمر الطبعي التلقائي لكن نحن آمنا برب هارون قبل موسى، فهارون ليس رسولاً، ليس مؤيدًا بالمعجزات، إنما ذلك لموسى، فآمنا بالنبي التابع، ومن باب الأولى، آمنا بالنبي الأصلي وبالرسول صاحب الرسالة فكان في تقديم هارون هنا تنبيه على تمكنهم من الإيمان وعلى إيمانهم الكامل بموسى وهارون ولذلك نقدم هارون أولاً، على ذكر موسى –عليه السلام– والله أعلم بالحكمة البالغة هذا ما يبدو والله أعلم بحقيقة الأمر، لكن لله حكمة في مثل هذا التقديم والتأخير دائماً.

﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ قال فرعون وقد أُسقط في يده وقد واجه موقفاً عظيماً ما كان يتوقعه أن ينفصل عنه جنده، إلى الجهة الأخرى وإلى خصمه فهذا موقف لا يحسد عليه، موقف مهين جدًا، ولذلك قام بطغيانه وقام بأوتاده وقوته يعارض أهل الإيمان، إذن: كنت من ذي قبل ومنذ لحظات كنت تعتقد أن هؤلاء علماء وسحرة وجئت بهم قوة لك فلماذا الآن تنكر قوتهم وعلمهم؟، فواجههم وقال: ﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ الآن صار موسى ساحرًا وهم سحرة أيضاً، ﴿الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ وأخذ يتوعدهم بأنه سيقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وسوف يصلبهم في جذوع النخل ليعلموا شدته وقوته ﴿ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ وهكذا ولكن كل هذه التهديدات المخيفة الرعيبة لم تؤثر في السحرة. وإيمانهم وليد الساعة وليد اللحظة إيمانٌ لم ير إلا آية واحدة و، لكنها آية معجزة مبهرة ولهذا قالوا: ﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾ لن نؤثرك يعني لن نفضلك ولن نقدمك على ما جاءنا من الحق من هذه المعجزة والرسالة التي مع موسى والذي رأيناه بأعيننا وعرفناه بعلومنا لن نؤثرك عليه ﴿ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾ أي: قسماً بالذي فطرنا نقسم على ذلك وهو الله – سبحانه وتعالى– وهنا أدركوا أن الله – تعالى– هو الذي فطرهم وخلقهم لأول مرة وانزاحت عنهم الغشاوة التي كان يجعلها فرعون على قلوب العباد في القبط.

﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾ أو لن نؤثرك على ما جاءنا من الحق كما أننا لن نؤثرك على الله الذي خلقنا وأنت لم تخلقنا فسنفضل الله دائماً عليك ونقدمه عليك فهو الرب الحقيقي وهو الإله الواحد الأحد لا شريك له فلن نقدمك عليه أبدًا.

﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ﴾ افعل ما تشاء ﴿ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ماذا تفعل بنا؟ تقتلنا؟ سنموت بك أو بغيرك على يدك أو على يد غيرك، سنموت، الموت نهاية الحياة، في الدنيا، ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ﴾ أي: ما أنت قاضيه، افعل ما تشاء، بنا فلن يردنا هذا عن إيماننا ﴿ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ قضاؤك وحكمك وقوتك في الدنيا فقط، أما الآخرة، فهذه لا تملك فيها شيئاً وهي الدار الحقيقية والحياة الأبقى، ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ نحن آمنا لكي يطهرنا الله ويزكينا من الخطايا وما أكرهتنا عليه من جريمة السحر، الجريمة التي تستوجب القتل، آمنا بربنا ليطهرنا من هذه الذنوب وليرضى عنا وليقبلنا عبيداً له مخلصين موحدين، ذلك؛ لأن الآخرة فيها جنة ونار، –سبحان الله– انقلب السحرة إلى دعاة ودعاة في وجه من؟ في وجه فرعون، بكل قوة وبكل حزم، وبكل أدب، دون تسفيه ولا تجهيل. قالوا: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى﴾ من يأت ربه مجرماً يعني يوم القيامة أما من أجرم في الدنيا وتاب إلى الله –تعالى– وجاء إلى ربه في مسجد أو في خلوة وقال: يا رب أذنبت فاغفر لي، فالله يباهي به أهل السماء (علم عبدي أن له ربًا يغفر الذنب أشهدكم يا ملائكتي أني قد غفرت له)، أما الآية فتقصد من يأتي ربه يوم القيامة من يأتي ربه من يأتيه الموت، فقيامة كل إنسان تبدأ من لحظة موته ووفاته، ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا ﴾ أي كافرًا مشركًا ﴿ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ ﴾ كأنها له لا لغيره لا يشاركه فيها غيره ﴿ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى ﴾ لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة هنيئة إنما يشرف على الموت ثم يعود إلى الحياة.. يشرف على الموت ويعود إلى الحياة، ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ [الرعد: ١٧] ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ [النساء: ٥٦]، وهكذا– نعوذ بالله– ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا ﴾ مصدقاً

به وبوعده وبرسله وبكتبه ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلا ﴾ ولعلنا نلاحظ دائماً اقتران الإيمان بالعمل الصالح؛ فلا يقبل إيمان بدون عمل ولا قيمة للعمل على غير إيمان، إنما التلازم قائم بين هذا وذاك، بين الإيمان والعمل الصالح ولذلك عرف العلماء الإيمان بأنه « ما وقر في القلب وصدقه العمل » نعم، وقر يعني: ثبت واستقر دون أن يتزلزل أو يتحرك من مكانه، لأن الوقر هو الحمل الثقيل والشيء الثقيل فإيمان ثقيل ثبت في القلب ووقر فيه، دون أن يخرج منه أو يتحرك من مكانه فلا تحدث ردة بعد إيمان ولا شك بعد ثقة ويقين ما وقر في القلب وصدقه العمل، بالبدن أما أولئك الذين يدعون الإيمان ويقولون: نحن مؤمنون موحدون بالله، وهم لم يركعوا لله ركعة ولا يعرفوا للقبلة جهة، ولا يعرفوا لله حقًا فهؤلاء يعني مخدوعون، يغررون بأنفسهم، ويخدعون أنفسهم، وما يضرون إلا أنفسهم، ويأتي يوم التغابن ليروا نتيجة هذا الخداع، الذي خدعوه لأنفسهم في الدنيا، فعليهم أن ينتبهوا قبل أن يفوت الأوان، ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلا ﴾ ذكر ابن كثير –رحمه الله تعالى– عن الإمام أحمد –رحمة الله تعالى عليه– عن عبادة بن الصامت –رضوان الله عليه– عن النبي – صلى الله عليه وسلم– قال: (الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض والفردوس أعلاها درجة –نسأل الله أن تكون مكاننا ومستقرنا– ومنها تخرج تخرج الأنهار الأربعة والعرش فوقها. إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس) وفي الصحيحين (أن أهل عليين وهم الأبرار ليرون من فوقهم –وهم السابقون الأولون– ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء) – كما نرى النجم هناك في أفق السماء العالي، الأبرار في الجنة ينظرون ويرون الذين هم سبقوا ودخلوا الجنة بغير حساب، السابقون الأولون هؤلاء، ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الواقعة: ١٠، ١١]، فالأبرار ينظرون إلى المقربين فيرونهم والمسافة بينهم بالتقريب الذي قربه الله كأنها المسافة التي بيننا ونحن في الأرض إلى نجم غابر في أفق السماء.

حينما قال السحرة هذا الكلام وواجهوا فرعون بهذه الدعوة الظالم لم يتركهم والطاغية لم يفلتهم ولكن قتلهم وقضى عليهم، وهكذا الظلم والطغيان والكفر دائماً لو تدبرنا حياة الناس في التاريخ عبر الدنيا نجد الكفر يصادر على أعظم حق للإنسانية، وهو حق اختيار العقيدة، الإسلام لا يجبر أحدًا على قبوله إنما يُعرض فقط على الكفار يقبله من يقبله ويرفضه من يرفضه ويوم القيامة يوم الحساب ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، العرض يكون على الكفار فقط، وهكذا جاء الأنبياء جميعاً يعرضون دين الله وشريعته على أممهم ولكن من قبل الإسلام ومن قبل التوحيد لا يجوز له أن يقول: أنا حر أصلي أو لا أصلي أزكي أو لا أزكي، قبلت الإسلام اقبل كل ما فيه، لكن الكفار فقط هم الذين يعرض عليهم الدين أما من انتسب إلى الإسلام فلابد أن يلتزم بكل أوامره، ولذلك كان السحرة ثابتين على إيمانهم لما آمنوا ونفذ فيهم فرعون ما توعدهم به فلم يرجعوا عن إيمانهم فيقول فيهم ابن عباس وغيره –رحمهم الله تعالى ورضي عنهم–: « لما خر السحرة سجدًا رفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها » أراهم الله بشرى في سجودهم، وقال بعض السلف أيضاً من التابعين، قال بعض التابعين: « رأوا منازلهم تبنى لهم وهم في سجودهم، أظهر الله لهم أماكنهم في الجنة وهم في سجودهم، لأنه كأنه كان يقتلهم وهم سُجدًّ، أو هم يقتلهم في تلك اللحظة فالله تعالى طمأنهم وبشرهم فقاموا يقولون له هذا الكلام وهذه الدعوة دون خوف أو تردد.

كان هذا من السحرة موقفاً عظيماً جدا وموقفاً إيمانياً ثابتاً يثبت الذين آمنوا ويثبت ضعاف القلوب حينما يتدبرون هذا الموقف وهو إيمان وليد، عمره قصير، لم يؤمنوا إلا الساعة ومع ذلك كان موقفهم بهذا الشكل العظيم.

هذا حول هذه الآيات من خلال هذه الموضوعات الثلاثة، وفي الآيات دروس يلتفت إليها ويتدبر فيها، – كما أشرنا في التعبير بالفاء وثم في قوله الله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴾– هذا يدل على دقة القرآن في تعبيره وعلى عظمة لغة القرآن ولا عجب فإنه كلام الله – سبحانه وتعالى– قول الله – تعالى– ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴾ الافتراء دائماً والكذب عاقبته وخيمة والنبي – صلى الله عليه وسلم– قال: (إن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار ولا يزال

الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاب) فالافتراء عاقبته الخيبة. تنازع السحرة في أمر موسى – عليه السلام– حين اختلفوا وترددوا هل هو نبي هل هو ساحر هذا شأن الكافرين ويعكس لنا حالهم أنهم حين يكفرون لا يكونون على أرض ثابتة ولا يكونون على عقيدة واحدة أو على رأي واحد وإنما تردد وحيرة كما فعلوا مع النبي –عليه الصلاة والسلام– قالوا: شاعر وساحر وكاهن وكذاب ومفترٍ ويتلقى هذا الكلام عن شيطان ﴿ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ [المدثر: ٢٤]، وقالوا: ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ [النحل: ١٠٣]، الله –تعالى– يشير إلى أقوالهم هذه ويقول: ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء: ٤٨]، انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا: لم يتفقوا على شيء لم يتوحدوا على أمر وذلك لأنهم ليسوا على يقين من كفرهم.

والسحر عمل باطل، وكله تخييل وينبغي على جماهير الناس أن تعلم أن السحر عمل فاسد باطل لا يضر إلا من أذن الله –تعالى– أن يختبره بشيء قال تعالى: ﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٠٢]، والعصمة من السحر ليست بالذهاب إلى السحرة ولا بحمل ما يسمى بتحويطة أو حجاب أو تميمة أو نحو ذلك إنما التحصن من السحر باللجوء إلى الله والاعتصام بذكر الله – عز وجل– كثرة قراءة القرآن المحافظة على أذكار الصباح والمساء كون الإنسان في يوم وليلته مع الله هذا يعصمه من كل شر يؤذيه إلا شيئاً أراد الله تعالى أن يصيبه به ليكفر عنه خطيئة لم يتب منها أو ليرفعه درجة أراد أن يرفعه بها.

فعلينا أن نعتصم بالله – سبحانه وتعالى– وأن نلتزم بذكره وقرآنه حتى نعصم من هذا السحر ولا ينبغي لمسلم أن يذهب إلى ساحر؛ لأن هذا يبطل عمله وهذا يحبط ثواب صلاته ولو صدقه فيما قال فإنه يُكَفِّره –والعياذ بالله– والساحر كافر فحده أن يقتله ولي الأمر فنسأل الله – تعالى– أن يحق الحق وأن يبطل الباطل هذا وبالله التوفيق وصلِّ الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

إجابات المشاهدين:

كانت إجابة السؤال الأول: يستفيد الداعية أولاً: وجوب الإنكار على الظالم والدليل قوله تعالى: ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾

ثانيًا: الخوف في ذي السلطة لا يعيب الداعي، ولا ينقص من قدره ولا يقدح في توكله على الله والدليل قوله تعالى: ﴿ قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى ﴾.

ثالثاً: الحرص على الدعوة ولو بإشراك الغير في العمل الدعوي.

رابعاً: الدعوة في أول نشأتها تحتاج إلى الجو الهادي ومسالمة العدو.

خامساً: حاجة الدعوي الماسة إلى الزاد الإيماني وأوله الذكر..

طيبة ما شاء الله دروس مفيدة للداعية واستنباط مشكور للإخوة والأخوات الذين أجابوا بهذه الإجابات واستفادوا هذه الدروس من خلال الآيات السابقة.

السؤال الثاني: اذكر شيئاً من ملامح دقة الحوار وأدبه كما عرضه القرآن بين موسى –عليه السلام– وفرعون؟

كانت الإجابة:

عرض القرآن من آداب الحوار بين موسى –عليه السلام– وفرعون.

أولاً: الحوار بالحسنى والدليل قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾.

ثانياً: حسن اختيار العبارات والدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ العَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾.

ثالثاً: اللباقة والأب والدليل قوله تعالى: ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً ﴾.

رابعاً: التواضع وعدم الغضب وحسن الاستماع والدليل قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ القُرُونِ الأُولَى ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ﴿٥٢﴾ ﴾ انتهت إجابة السؤال الثاني

هذا طيب ما شاء الله ونضيف إليه ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾ أن الداعية والعالم لا حرج أن يقول: الله أعلم فيما لا يعلمه، فإذا كان لا يعلم شيئاً أو لا يريد أن يتكلم فيه فيقول: الله أعلم، وهذا تسليم طيب، ينبغي أن يقبله السائل لو أُجيب به فليعلم أن هذا المجيب لا يعلم هذا الجواب وهذا لا يعيبه فشأن العالم أن يعلم شيئاً وتغيب عنه أشياء. وإما أنه لا يريد أن يتحدث في هذا الموضوع لما يترتب عليه من فتنة أو شبهة أو نحو ذلك، عند من يسمع الجواب فلابد أن يقدر السائل أيضاً قدر إجابة المجيب كما قال موسى –عليه السلام– ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى ﴾.

السؤال الثالث: ما فائدة الذكر للداعية؟ وكانت الإجابة:

من فوائد الذكر للداعية:

أولاً: تثبيت وحماية من التأثر بالبيئة الفاسدة.

ثانياً: الذكر قوة واتصال بالله– تعالى–.

ثالثاً: في الذكر إقرار بربوبية وألوهية الله –تعالى– وعبودية العبد لربه.

هذا والله شيء يشرح الصدر. هذه الإجابات الطيبة، التي تفضل بها إخواننا وأخواتنا نشكركم عليها ونتمنى لكم مزيدًا من التوفيق والسداد والعلم النافع، تقبل الله منا ومنكم.

شيخنا الفاضل في درس يوم ١٠/ ٦ يعني الدرس الماضي، قلتم أريد

بالنسبة لتكليم الله لموسى: هل هو بصوت أو هو بحرف؟ أم لا؟

كان كلام الله لموسى كلاماً حقيقياً بلفظ وبحرف لعل لفظي في الكلام أو كلامي يومها كنت أقصد أن كلام الله – تبارك وتعالى– لا يشتبه بلفظنا ولا بكلامنا لكن كلام الله كما ثبت في الأحاديث الصحيحة كان بلفظ وحرف، والله أعلم.

لكن يا شيخ بصوت وبحرف، قلتم: ليس بصوت وحرف، ماذا تقصدون بهذه العبارة؟

كنت أقصد ليس بصوت وحرف يشبهنا، لكن يمكن العبارة لم تتضح.

يبقى مثلا بصوت وحرف، طبعاً يمكن يكون فهمنا خاطئ يعني أنت تعلم بتوهم عقيدة الأشاعر بارك الله فيك

هو يعني: سبق اللسان وارد، وعدم الانتباه وارد، فقد يكون مني أو من المستمع أو شيء، هذا كله وارد لكن هذا هو معتقد أهل السنة والجماعة ونحن إن شاء الله –تعالى– عليه ونسأل الله –تعالى– أن يتوفنا عليه.

الأخ الكريم من مصر: السلام عليكم ورحمه الله وبركاته كما هو معلوم فضيلة الشيخ أن السحر تعلمه والعمل به حرام وهو كبيرة من الكبائر فهل يجوز فك السحر عن المسحور بالاستعانة بالجن المؤمن حيث أن بعض الإخوة المعالجين بالقرآن والأذكار الشرعية يستعينون بالجن المؤمن ويعالجون الكثير من الحالات المصروعة والمسحورة؟ فما رأيكم في ذلك؟

السؤال الثاني: هل من تحصن بالأذكار الشرعية لا يصيبه سحر ولا عين مطلقًا أم قد يحصل ذلك– بإذن الله– وجزاكم الله خيرا؟

أما السؤال الأول: وهو معالجة المسحور بواسطة جن مسلم أو مؤمن هذا لا أراه، وأرى أنه لا يجوز، وذلك لما يترتب عليه من مفاسد

أولاً: شبه حال من يعالج بالجن المسلم بحال الساحر، فكل يستعين بجن.

ثانياً: فقدان من يعالج بجن للتوكل على الله فهو معتمد على أنه يستحضر صاحبه من عالم الجن بقراءة سورة أو نحو ذلك والجن سيقوم بالمهمة وهو جالسٌ يشرب كوب شاي أو نحو ذلك لا يتعب في شيء، فلا يكلف نفسه أن يدعو الله – عز وجل– قبل أن يباشر الرقية أو أنه مثلاً يصلي ركعتين بنية قضاء الحاجة أو يستعين بالله بشكل أو بآخر هو لا يهتم بهذا لأن قوته صارت في هذا الجن واعتماده صار على هذا الجن الذي يزعم أنه مسلم وأنا لا أراه –الله أعلم– ربما كان مسلمًا حقًا وربما كان مدعياً، وكيف يعالج هذا الجني وأنا لا أرى كيفية معالجته. وبعد هذا كله أقول: عندنا في القرآن غَنَاءٌ والحمد لله، غَنَاءٌ يعني: غِنَى، عن كل هذا، وذلك أن يقرأ الإنسان بنفسه القرآن، إن كان سليماً صحيحاً فالقرآن يحفظه بإذن الله –تبارك وتعالى– يحفظ بالقرآن أعظم رقية وأعظم وقاية وأعظم تحصين، وإن كان مصاباً بشيء من ذلك من مس أو سحر فإن القرآن بفضل الله –تبارك وتعالى– كما وصفه الله– شفاء ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾ [الإسراء: ٨٢]، ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾ [فصلت: ٤٤]، فالقرآن شفاء وليس علاجاً فيكفي أن نقرأه فقط، وقائع كثيرة في واقع الحياة قرؤوا القرآن – بفضل الله تعالى– بأنفسهم سورة البقرة ونحوها من السور التي لها خصوصيات صحيحة في السنة قرؤوا هذه السور وتلك الآيات وشفاهم الله –تبارك وتعالى– شفاية عظيمة وأعظم ما في هذا الشفاء أنهم شعروا بالانتصار الشخصي والذاتي على الشيطان فلذلك أنصح إخواني جميعاً بعدم الجري وراء هذه المسألة وعدم الافتتان بها، ويقول: أنا جن مسلم أساعدك وأعاونك، لا.. كن في نفسك مسلماً وعالج المسلمين كما شئت في

عالمك الغيبي واتركني أنا في حالي في عالمي المادي الحسي، كل يقدم ما يستطيع من نفع للمسلمين وللإسلام أنا أرقي بالقرآن وأرقي نفسي أولاً وأرقي غيري- إن احتاج الأمر- بعد أن أوجهه ليرقي نفسه أولاً ، فأفضل رقية أن يرقي الإنسان نفسه فإنها بمقام الدعاء والافتقار إلى الله -تعالى- فصوت الراقي المريض - فيما أظن- أقرب عند الله تعالى وإلى الله من صوت الراقي الذي يرقي مريضاً آخر لقول الله - عز وجل-: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ المُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل: ٦٧]، فهذا هو المضطر ويدعو الله بكلامه العظيم فهو أقرب إلى الاستجابة -إن شاء الله- ونسأل الله المعافاة من الفتن.

سؤاله الثاني: فضيلة الشيخ، التحصن بالأذكار الشرعية هل يبعد السحر والعين؟

الأصل أن الإنسان طالماً كان متصلاً بالله -تبارك وتعالى- بالأذكار الشرعية والصلوات والحياة التي شرعها الله -تعالى- للمسلم وصورها لنا النبي -عليه الصلاة والسلام- من خلال حياته الواقعية العملية، في الأصل أن هذا حصانة عظيمة للمسلم من أن يصيبه مكروه ولكن أحياناً تصيبنا أوقات غفلة فرغم صلواتنا وأذكارنا، أحياناً نفرح بإفراط، أحياناً نحزن بإفراط، أحياناً ننسى أن ننام على ذكر، أحياناً ننام في أماكن نهينا عن النوم فيها أو نحو ذلك أو نفعل أفعالاً نهينا في السنة عن فعلها هذا كله يجعلنا عرضة أحياناً.. أحياناً وربما وليس بالتأكيد ولكن ربما.. وأحياناً يصيبنا شيء وحينما يصيبنا شيء ونحن فيما نرى - والحمد لله- ملتزمون بما ينبغي أن يلتزم به فلنعلم أن هذا ابتلاء من الله - سبحانه وتعالى- قدره علينا ﴿ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ﴾ [النساء: ١٩]، وقد ثبت في الواقع فعلاً أن بعض هذه الإصابات لكثير من الناس كانت فاتحة خير، ما كانوا يصلون، ما كانوا يعرفون شيئًا عن الدين، ما كانوا يلمسون المصحف أو يقتربون منه صاروا -ما شاء الله- على صلة طيبة بالله - عز وجل- بسبب ابتلاء مثل هذا، والله تعالى يقول: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ العَذَابِ الأَدْنَى دُونَ العَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة: ٢١]، فهذا ابتلاء من الله - سبحانه وتعالى- ونصبر عليه وقد ثبت في صحيح البخاري أن النبي -عليه الصلاة والسلام-(سحر بواسطة اليهود سحر له لبيد بن الأعصم اليهودي وأنزل الله جبريل -عليه السلام- فرقاه بالمعوذتين ودله على مكان السحر وشفاه الله - عز وجل-) وكأني بهذه الواقعة يعلمنا الله من خلالها أن محمدًا -صلى الله عليه وسلم- بشر ليس إلهاً ولا ابن الإله ولا مخلوقاً من نور ولا كل هذا الكلام الذي يدعى حول رسول الله -عليه الصلاة والسلام- لا.. إنما هو بشر يقع له في بشريته مثلما يقع لكم. وهذا السحر مهما كانت مدته فلم يؤثر في الوحي فلا نفرق بين شيئين ملتصقين: الوحي من عند الله، وإصابة النبي -عليه الصلاة والسلام- وإصابة غيره كذلك قدر من عند الله فالجهة واحدة وبالتالي أو المصدر واحد وبالتالي فلن يؤثر السحرُ على الوحي لأن الله هو الذي قدر السحر على رسوله -عليه الصلاة والسلام- وهو الذي يوحى إليه فلا يؤثر السحر في الوحي أبداً. كان هذا شيئاً وكان ذاك شيئاً آخر ففعل هذا برسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى نتعلم بشريته، ونتعلم كيف إذا أُصبنا بشيء من هذا كيف نتعالج وكيف نتخلص منه بقراءة القرآن وبالتعوذ به كما قال النبي -عليه الصلاة والسلام- (يا أبا ذر تعوذ بهم) أي: بالمعوذتين سورة الفلق وسورة الناس، (تعوذ بهما فإنه ما تعوذ أحد بمثلهم) (يا أبا ذر تعوذ بهما فإنه ما تعوذ أحد بمثلهم) هذا والله أعلم.

الأخ الكريم من السعودية يقول: ذكرتم -حفظكم الله- في درس سابق أن موسى -عليه السلام- كان رسولاً أما هارون -عليه السلام- فكان نبياً فقط، والآية في سورة طه تقول: ﴿فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ﴾ ألا يدل هذا على أن هارون كان رسولاً أيضاً؟

هذا من باب المشاكلة الأصل: أن موسى هو الرسول -عليه سلام الله- وأن هارون نبي تابع لموسى وداعٍ بدعوته فليست لهارون رسالة مستقلة، وهذا هو التعريف الصحيح للنبي أنه هو من يبعث ليدعو بدعوة رسول سابق عليه، النبي: هو الذي يبعث ليدعو بدعوة رسول سابقٍ عليه، كأنبياء بني إسرائيل ومنهم هارون -عليه السلام- أما موسى فهو صاحب الرسالة والأصل فيها، ولكن هذا اللفظ ﴿ إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ ﴾ أي: مرسلان من

ربك لنأخذ بني إسرائيل فتغليباً لوصف موسى على وصف هارون قيل: رسولا هذا من باب التغليب ويغلب الأقوى على الأضعف، والأعلى على الأدنى والأكثر على الأقل وهكذا كما هو كثير في القرآن في تغليب الذكورة على الأنوثة يأمر الله جمع الرجال أو جمع الذكور ويدخل فيهم في الأحكام أيضاً جمع الإناث – يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذاولا تفعلوا كذا– والمؤمنات داخلات في هذه الأحكام كلها، دون ذكر خاص بهن، و دون فصل بين الذكورة والأنوثة، لكن هذا من باب التغليب وكذلك سمي هارون رسولاً من باب المشاكلة أي المشابهة لموسى وتغليباً لوصف موسى على وصف هارون لأن موسى هو الأصل في الرسالة والله أعلم.

الأخ الكريم من الولايات المتحدة الأمريكية يقول: هل ما يسمى بخفة اليد أو الألعاب السحرية من السحر المحرم إذ أن بعضهم قد أفتى بجواز هذا وأنه ليس من السحر الذي ورد تحريمه؟

هو فعلاً خفة اليد هذا ليس من السحر الذي يقتل صاحبه، إنما السحر الذي يقتل صاحبه هو التعامل مع الشياطين والتعوذ بالتعاويذ السحرية والطلاسم والحروف والأرقام وما إلى ذلك وحساب الجُمل ذلك لأن فيه كفرا بالله – عز وجل– وفيه استعانة بغير الله وفيه أشياء كثيرة –والعياذ بالله– جرائم كبيرة تُوصل الساحرَ إلى مرتبة الكفر وتوجب له القتل، أما خفة اليد والحركات الخفيفة هذه التي يفعلها بعض الناس إثارة للآخرين فإن كانت لمصلحة أو لفائدة راجحة فلا مانع منها، أما لجمع المال أو نحو ذلك فهذا لون من النصب والكذب ولا يجوز أيضاً. والله أعلم.

في الآية السادسة والسبعين قول الله تعالى: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ [طه: ٧٦]، نقرأ في آيات أخرى: ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ [إبراهيم: ٢٣]، وأيضاً في آية أخرى ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ ﴾ [التوبة: ١٠٠]، بدون "من" فكيف نجمع بين هذه الآيات؟

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ و ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا ﴾ هذا اسمه عند علماء البلاغة تلوين في الأسلوب، التعبير عن الشيء الواحد بأكثر من أسلوب حتى لا يَملَّ القارئ أو السامع أسلوباً واحداً متكرراً فيكون تكراراً إنما هذا التنويع يرفع السآمة عن أذن السامع وعن قلبه فلا يمل الحديث مع زيادة أوصاف في مقامات معينة ولكل مقام مقال يناسبه فجنات عدن هي ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ هي هي، ولكن هنا زاد فيها وصف الإقامة عدن: أي إقامة، عدن بالمكان إذا أقام فيه، فجنات عدن أي جنات الإقامة والخلود لا خروج منها ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ كل ما في القرآن فيه ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ إلا آية في سورة التوبة: ﴿ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ ﴾ واحدة فقط، وفيها قراءة صحيحة ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ قراءتان هما ولما نسخ سيدنا عثمان –رضي الله عنه– المصاحف في زمانه حرص وأكد على أن تكتب كلمات القرآن بخط وبرسم يَحْتَمل القراءات المختلفة، فتقرأ الكلمة مثل كلمة ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ [الفاتحة: ٤]، مكتوبة في المصحف عندنا إلى اليوم ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ولكن بعد الميم إشارة صغيرة أو قصيرة إلى الألف ذلك لأنها تقرأ "ملك" وتقرأ "مالك"، وكان من عادة العرب كثيراً يحذفون الألف في كثير من المواضع التي تعرف فيها، معروف أن هنا ألفاً، فيحذفونها من الكتابة، تساهلاً في الكتابة مع علمهم أن هنا ألفاً تنطق فيطقونها رغم عدم وجودها، كما كتب القرآن بغير نَقْط ولا شكل لا نقطة النون ولا تحت الباء ولا ثلاثة فوق الثاء ولا فتحة ولا ضمة ولا كسرة حتى يستطيع كل صاحب قراءة سمعها من رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أن يقرأ المصحف بالقراءة التي عَرفها وتلقاها من رسول الله –عليه الصلاة والسلام– فكان من الكلمات التي استعصت على الكتابة برسم واحد هذه الجملة ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ و ﴿ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ ﴾ قراءتان صحيحتان ولكن لا يمكن رسمهما برسم واحد إما أن نكتب من وإما أن نحذفها فكتبت في بعض المصاحف بمن وفي بعض المصاحف بدون من، كما وصلنا في بلادنا هذا المصحف فهي في مصاحف أخرى في بلاد أخرى موافقة للقراءة الأخرة ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ فلا تعارض بين هذا وذاك إنما هو تلوين في الأسلوب وتنبيه إلى أوصاف أخرى تتصف بها الجنة، وموافقة لقراءات مختلفة في الآية. والله أعلم.

فضيلة الشيخ هل تفضلتم بإلقاء الأسئلة.

مع إخواننا وأخواتنا طلبة العلم -جزاكم الله خيراً- هناك بعض الأسئلة على هذه المحاضرة، نستمع إلى إجاباتها -إن شاء الله- في المحاضرة القادمة وفقكم الله.

السؤال الأول: ما شبهة فرعون في معجزة موسى -عليه السلام- حتى وصفها بالسحر؟

السؤال الثاني: بكلمات موجزة عرف بيوم الزينة . فالكلام فيه يطول ولكن كلمات قليلة تعرف بهذا اليوم وما كان فيه.

السؤال الثالث: من خلال إيمان السحرة قدم موعظة مختصرة للمعرضين عن التوحيد.

ونسأل الله لكم ولنا وللجميع التوفيق والسداد.

الدرس السادس
طه : ٧٧-٨٢

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على نبينا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه وبعد.

في هذه المحاضرة - التي نسأل الله -تعالى- فيها التوفيق والسداد- نتناول موضوعاً يعتبر خطوة على طريق نبي الله موسى -عليه السلام- في قصته مع بني إسرائيل، وذلك تذكيراً للنبي محمد -صلى الله عليه وسلم- بما كان قبل ذلك، وتعليماً لهذه لأمة الوليدة الجديدة كيف يتحملون الأذى حينما يقرؤون هذه القصة ويسمعون أحداثها وذلك من خلال الآية السابعة والسبعين إلى الآية الثانية والثمانين من سورة طه، ونتناول هذه الآيات من خلال منظورات ثلاثة:

الموضوع الأول: والجهة الأولى: إسراء موسى ببني إسرائيل من مصر.

ثانيًا: موسى وبنو إسرائيل بين البحر وبين فرعون -عليه اللعنة-.

ثالثًا: تذكير بني إسرائيل ببعض نعم الله عليهم: كنعمة النجاة من فرعون، وتكليم الله لموسى، ونزول التوراة ونعمة المن والسلوى.

رابعًا: دروس وعبر في الآيات نستلهم فيها توفيق الله -تعالى- وتسديده فالقرآن العظيم مليء بمثل هذه الدروس التي تنفعنا في الدين والحياة.

وبداية نستفتح هذه المحاضرة بتلاوة للآيات المذكورة من أخينا الشيخ فليتفضل:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي البَحْرِ يَبَساً لاَّ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تَخْشَى ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ اليَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴿٧٩﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ المَنَّ وَالسَّلْوَى ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلاَ تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه: ٧٧- ٨٢].

نسأل الله - تعالى- مغفرته وتوبته وهداه، وأن يجمعنا جميعاً بسبب هذا العمل النافع الطيب في جنات عدن تجري من تحتها الأنهار.

في هذه الآيات - كما سبقنا بالقول- ثلاث موضوعات أو ننظر إليها من ثلاث جهات:

الأولى: إسراء موسى -عليه السلام- ببني إسرائيل من مصر إلى سيناء.

الله -تبارك وتعالى- بعد أن رأى من فرعون هذا الصدود وهو يعلمه مسبقاً ولكن ليقيم على فرعون الحجة أرسل إليه رسولاً وأمره أن يكلمه كلاماً ليناً لعله يتذكر أو يخشى- فيما يظن البشر- لكن الله يعلم أنه لن يؤمن أبداً، ولما جاء موسى إلى فرعون وأراه الآية الكبرى وكذب فرعون وعارض بالسحر فهزمه الله - تعالى- وأخزاه وآمن السحرة بموسى وهارون، وظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون عند ذلك لم تكن هناك فائدة في

معاودة الدعوة مع فرعون –عليه اللعنة– لأنه صد عن كل شيء كما قال ربنا قبل ذلك: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴾ [طه: ٥٦].

فأمر الله –تعالى– وحياً، أمر موسى –عليه السلام– أن يخرج ببني إسرائيل في مصر سراً ولهذا أمره أن يسري بهم ليلاً ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ وفي آية أخرى ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً ﴾ [الدخان: ٢٣] فالإسراء: هو المشي بالليل. الإسراء والسرى، هو المشي بالليل والمشي في الصباح الباكر اسمه: الغدو، وفي الظهيرة اسمه: التهجير، هجر فلان، إذا مشى ظهراً، وفي آخر النهار يسمى المشي: رواحاً، أما بالليل فاسمه: الإسراء كما قال ربنا: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى ﴾ [الإسراء: ١] ونسب الله –تعالى– الإسراء إلى الليل في مثل قوله: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ [الفجر: ٤] أصلها: والليل إذا يسري، ولكن قال العلماء: لما كان الليل زماناً للمشي والإسراء ولا يمشي هو بنفسه، فلما نسب الفعل إلى غير فاعله جاء اللفظ على غير هيئته فأصله والليل إذا يسري: ولكن كتبت في المصحف وقرئت هكذا ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ تقف عليها هكذا ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ ولكن ترقق لأنها على غير نهاية الكلمة الحقيقية فتقول: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ مخالفة لما قبلها ولطبيعة الراء في الترقيق والتفخيم فنسب الإسراء إلى الليل والليل لا يسري وإنما يسرى فيه فجاء اللفظ محذوفاً منه حرف وهو الحرف الأخير إشارة إلى هذا المعنى، فإسراء موسى يعني: خروجه ليلاً من مصر ببني إسرائيل والله –تبارك وتعالى– قادر على كل شيء فقادر على أن يأمر موسى بأن يجمع بني إسرائيل وأن يخرج جهارًا نهارًا لا يخشى شيئًا من فرعون وجنوده والله –تعالى– قادر على عصمة موسى وقومه من أي خطر يعترضهم كما عصمهم عند البحر وأهلك عدوهم، ولكن الله –عز وجل– يعود عباده على أن يتبعوا الأسباب في الأرض الأسباب التي رتب عليها الأمور ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ﴾ [الكهف: ٨٤] فيتبع الإنسان الأسباب حتى إذا تعطلت الأسباب رفع يديه ودعا رب الأرباب – سبحانه وتعالى– فتفتح له الأبواب وتقضى الحاجات، لكن على الأصل نمشي حسب الأسباب التي وضعها الله – تعالى– في الكون كما خرج النبي –عليه الصلاة والسلام– ليلاً وسراً في الهجرة واختبأ في غار وكان الله قادراً على أن يحميه في وضح النهار من أعتى الكفار دون أن يصيبه شيء منهم، ولكنها حكمة لله بالغة، يبدو لي فيها أمران:

الأول: رحمة بموسى ومن معه من بني إسرائيل فإنهم قلة مستضعفون فارون فكأن الله أراد أن يفاديهم شدة المواجهة مع فرعون لو خرجوا بالنهار، فلو خرجوا نهاراً ما تركهم فرعون. خرجوا ليلاً وما تركهم فما بالنا لو خرجوا نهاراً أمام أعين فرعون وعيونه وجواسيسه، فكأن الله أراد أن يحفظهم؛ لأنهم نواة لأمة جديدة ولأنهم مستضعفون ولأنهم مختارون في ذلك الوقت، وهم أفضل الناس في ذلك الزمان، والله –تعالى– فضلهم على العالمين في ذلك الوقت حيث جعل فيهم النبوة فحماهم وحفظهم بأسبابه التي وضعها في كونه –سبحانه وتعالى– دون أن يعرضهم لمواجهة ليسوا أهلاً لها وليس لهم بها قبل.

أما الأمر الآخر: في خروج موسى ليلاً وسراً فإنه لطف من الله وإمهال من الله لفرعون –عليه اللعنة– وكأنه بقيت لفرعون في عمره بقية لا يريد الله – تعالى– أن يقدمه عنها أو يستعجله فيها، إنما ترك له هذه المرة وأمهله حتى الصباح فموعد موته عند الله ليس بالليل وأرض موته ومصرعه ليس هنا في اليابسة إنما قبره في البحر أو مصرعه في البحر قدر الله له ذلك ولا بد أن ينفذ الأمر حسبما قدره الله –سبحانه وتعالى– فكأن الله أمهله هذه الليلة لعله يتوب ويرجع، لعله يحاسب نفسه خرج موسى، وبنو إسرائيل معه، كان الأحرى بفرعون لو كان عاقلاً أن يقول: زال عنا همٌّ، خرج من بلادنا هذا الكم الكبير، سيوفرون لنا أماكن وسكنًا وموارد طبيعية كانوا يستعملونها ويستنفذونها، خروجهم رحمة وتوسعة علينا في مصر.

ولكنه كره خروجهم مع أنه كان يكره بقاءهم ويخاف منهم، فتناقض في حياة فرعون، فكان الأحرى به والأولى أن يتذكر في تلك اللحظة وفي تلك الليلة وأن يعيد حساباته ولا يخرج وراء موسى –عليه السلام– خرج موسى فليخرج إلى حيث شاء، أخذ قومه وانصرف مالِ فرعون ومالِ جنود فرعون ولكن الظلم يدفع صاحبه إلى

المهاوي والمهالك كما فعل كفار مكة، ظلوا يطاردون النبي – صلى الله عليه وسلم– حتى لقنهم الله درساً يـوم بدر لم يروا مثله وضربوا ضربة ظل أولادهم حزانى عليهم وتاركين للشراب– شراب الخمر– وللغناء مدة سبع سنين تقريباً، حتى فتح النبي – عليه الصلاة والسلام– مكة، ودخلها الإسلام من جديد.

وهكذا الظلم يدفع صاحبه إلى هذا الطغيان. فأجَّلَ الله فرعون هذه الليلة التي بقيت له من عمره ولو أنه واجه موسى لاعترضه ومنعه من الخروج ولن يتركه الله سيهلكه ويمكن موسى من إتمام رحلته إلى طور سيناء وهكذا كانت لله حكمة بالغة في إخراج موسى –عليه السلام– ليلاً وإسراءً وسراً، وكان خروجهم هذا بعد أربعمائة سنة وست وعشرين سنة، منذ أن دخلوها مع أبيهم يعقوب وهو إسرائيل –عليه السلام– يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم– جميعاً وعلى نبينا الصلاة والسلام– حين دخلوا على يوسف أيام أن كان عزيزاً وخازناً لخزانة مـصر، من يومها إلى أن خرج بهم موسى– عليه السلام– وأنقذهم من فرعون – بفضل الله– كان قد مضى بـين هـذا وذاك – كما ذكر ابن كثير– رحمه الله– أربعمائة عام وست وعشرون عاماً.

لم يسكت فرعون – كما عرفنا– ولكنه أعد عدته للخروج وراءهم ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَـوْنُ ﴾ فـأتبعهم فرعـون بجنوده ، أرسل في المدائن حاشرين، يجمعون له الجنود والأبطال والرجال، فجمعوا له جيشاً عظيماً جداً، بلـغ تعداده – كما عده العلماء، وذكر ابن كثير هذا العدد– مليونًا وستمائة ألف رجل، يعني حوالي: مليون ونـصف ويزيد من الرجال ومعهم مائة ألف من الخيول التي يركبونها، جيش عرمرم، جيش جرار كبير ضخم هائـل لا ينبغي أن يعد كل هذا لمثل موسى ومن معه ؛ قوم ضعاف أذلاء مطرودون هاربون من بطش فرعون ولكن هكذا يكون الجبن والخوف والرعب في قلوب الكافرين فيحتاطون لأنفسهم بالجمع الكثير، كما خرج كفار قريش بألف في مقابل ثلاثمائة رجل من المسلمين ، جمع فرعون هذا الجيش الكبير ولكي يجمعه لابد أن يقنع الناس، بحقيقة مزيفة ولو مزيفة ولو مزينة لابد أن يقنعهم بالخروج حتى يخرجوا على ثبات وعلى قناعـة وهكـذا البـسطاء ينخدعون بالكلام العام، بالكلام المنمق نادى في الناس ﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ [الشعراء: ٥٤] موسى ومن معه شرذمة قليلون ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الشعراء: ٥٥]– سبحان الله– في ركوب الناس طبقاً عن طبق وتبدل الأحوال، هكذا دخل بنو إسرائيل مصر أعزة مكرمين محمولين على أكف الاحترام والتقدير، لما دخلوا على مصر أمر عزيز مصر يوسف –عليه السلام– أن يستقبلهم في بلبيس – إحدى مناطق شرق مصر– وذلك لكثرة خيرها يومئذ بما فيها من زراعة وأشجار وثمار ومياه طيبة وما إلى ذلك، فيها المقام والحياة طيبة ورغدة وقريبة من حيث طريقهم إلى مدخل مصر دخلوا وقال لهم يوسف –عليه السلام–: ﴿ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٩] لأنها مسألة لا يأمنها بنفسه فعلقها بمـشيئة الله – تبـارك وتعالى– تأدباً مع الله ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ وعاشوا فيها آمنين مكرمين معززين ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْـهِ عَلَى العَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً ﴾ [يوسف: ١٠٠] إلى آخر ذلك من آيات التكريم ، اليوم مع موسى يخرجون هكذا مقهورين مطاردين من فرعون –عليه اللعنة– ويصفهم بهذه الأوصاف حتى يغري الناس بهم ويحث الناس على الحقد عليهم والحنق عليهم حتى إذا قتلوا أو ضربوا لا يألوا أحد على هذا ولا يلومن أحد فرعون على ما فعـل ببني إسرائيل بل يقول: إنهم يستحقون. قال: ﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ [الشعراء: ٥٤] وإذا كـانوا قليلـين فلماذا تنقم منهم يا فرعون وأنت كثير بجندك وقوتك؟ ماذا تخشى منهم؟ جنودك فقط الذين جمعتهم في الجـيش: مليون وستمائة ألف رجل وهؤلاء كلهم ستمائة ألف رجل، قليل من كثير، فلماذا تخشى منهم؟ ولماذا تتابعهم؟ إنما هو الرعب الذي يلقيه الله – تعالى– في قلوب الكافرين وتدبير الظالم إلى حتفه ومصرعه وهو لا يدري، هكـذا جمع فرعون عدته ونادى في الناس بهذا النداء ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ وهذا شيء معروف، أن الكـافر يغتـاظ بالمؤمن يرى حاله، صورته، هيئته إنه يغتاظ منها، يرى صلاته عبادته قرآنه طاعتـه لله يغتـاظ لـذلك كـان الكافرون واليهود على عهد النبي – صلى الله عليه وسلم– يغتاظون جداً حين يرون حب الصحابة لرسول –عليه الصلاة والسلام– وحب الصحابة وأخوتهم مع بعضهم البعض حينما يروا التزامهم بأمر النبي –عليـه الـصلاة والسلام– وهكذا، هذا شأن عام في جميع عصور الدنيا ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الشعراء: ٥٥] هذا كلام كذب يكذب به فرعون على قومه. مما تحذر؟ ماذا مع موسى غير العصا ؟ ليس

معه سلاح وليست معه قوة وليس له جيش وقومه عبيد مستضعفون عندكم فليس هناك مجال للحذر ولكن هكــذا يعبئ فرعون القوم والشعب بكلام يجعلهم يحنقون ويغضبون من موسى وقومه ويرضون بما يقع لهم من أخطار.

وهنا وصل كل في طريقه فرعون بجيشه وراء موسى وقومه، وصل موسى وبنو إسرائيل إلى البحر ليجدوا حيلة إلى أن يجتازوا إلى الجهة الأخرى، إلى أرض سيناء، وإذا بهم ينظرون خلفهم فيرون فرعــون وجنــوده قادمين بكل قوة وهمة، وساعتها أسقط في أيديهم ورأوا أنهم قد هلكوا ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء: ٦١] جملة مؤكدة بعدة مؤكدات ليقينهم أنهم هلكى، فإنهم كثير نعم ولكن أمامهم بحــر وليسوا سَفَنَاً ليسوا ممن يحسنون ركوب البحر، وليس معهم سفن يركبونها وهذا العدو وراءهم يقــترب مــنهم شيئاً فشيئاً بصورة سريعة، ماذا يفعلون؟ إنه الهلاك المحتم، ولكن ساعتها يقول موسى –عليه السلام– بكل ثقــة وبكل يقين وبكل إيمان بأن الله – تعالى– لا تحد قدرته الأسباب ولا تتوقف حكمته على الأسباب، إنما يتركنا الله للأسباب حتى إذا أراد أن يقضي أمراً خلا الأسباب وأبعدها وعطلها وقال للشيء: كن فيكون، ولهذا قال موســى –عليه السلام: ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦٢] مواجهة خطرة واطمئنان عجيــب فــي موقــف عصيب من موسى –عليه السلام– بنو إسرائيل لم يتعجبوا من قول موسى إنما هو الأمل الوحيد وليس عنــدهم غير ذلك فلا بد أن يرضوا بما قال ﴿ كَلاَّ ﴾ يعني: لن يدركونا ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّــي سَــيَهْدِينِ ﴾ [الــشعراء: ٦٢] سيهدين هداية إلى طريق النجاة وإلى وسيلة الخلاص وليست هداية إلى شيء في الدين، فلم يكن ضالاً فالهدايــة هداية في الأرض هداية في الماديات كما قال الله –تعالى– عن نبينا –عليه الصلاة والسلام–: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى ﴿٧﴾ ﴾ [الضحى: ٦، ٧] لم يكن ضالاً بمعنى: ضلال الدين والفطرة إنما كان ضالاً لا يعرف وجهاً له ولا طريقة ولذلك ترك جاهلية الناس وصعد إلى غار حراء يتعبد ويتحنث هناك يخلــو بنفسه حتى يوجهه ربه –سبحانه وتعالى– فكانت النبوة والرسالة فهذا هو الضلال المادي غير الضلال عن الدين، والأنبياء لا يضلون عن الدين أبداً، ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ إلى طريق أتخلص به من هذه الأزمة وننفك بــه من هذا الحصار، وهكذا ثبت الله – تعالى– موسى –عليه السلام– وقنع بنو إسرائيل ولو مؤقتاً ولو اضطراراً بما سمعوا إلى أن يروا ماذا سيفعل الله – تعالى– بهم، وماذا سيكون من أمر، وهذا كان في باكورة النهــار، أســفر الصبح وطلعت الشمس وأدركهم فرعون ساعة الشروق، في وضح النهار حتى يرى الناس الحدث الذي سيحدثه الله فلم يكن لبثاً ولم يكن تزييفاً ولا تزويراً ولا خدعة ولا غشاوة على العين وإنما في وضح النهار وفي أوضح أوقات النهار كما قلنا قبل ذلك في وقت الضحى كما طلبها موسى قبل ذلك عند المناظرة.

وهنا يأتي الدور على المشهد الثاني أو الموضوع الثاني من هذه الخطوة حيث موسى وقومــه أمــام البحــر وفرعون من خلفهم والموقف بهذه الشدة العظيمة.

أوحى الله – تعالى– إلى موسى –عليه السلام– ﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ البَحْرَ ﴾ [الشعراء: ٦٣] ولم تذكر هذه في الآيات معنا فسورة طه، من السور التي اختصرت القصة، وكما قلنا قبل ذلك في أول السورة: الله – تعالى– يذكر القصة الواحدة بصور عديدة وبأشكال متنوعة في كل مقام بما يتناسب معه، وذلك ليأخذ الناس العبرة مــن هنا وهناك يأخذونها من هذا الموقع ومن هذا المشهد ومن هذا المقام ومن هذا التصرف في كل مرة يذكر القصة مركزاً ومشيراً إلى موقف معين من هذه القصة هو صلب الموضوع وهو موضع العبرة، فاختصر الموقف هنــا ولكن الذي حدث أن الله – تعالى– أوحى إلى موسى ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَــى أَنِ اضْــرِب بِّعَــصَاكَ البَحْــرَ ﴾ [الشعراء: ٦٣] العصا ألقاها أول مرة ﴿ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾ [طه: ٢٠] ألقاها على ما ألقاه السحرة ﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٥] واليوم يضرب بالعصا ماء فإذا بالماء يتجمد ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ البَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ العَظِيمِ ﴾ [الشعراء: ٦٣] بحر هائل عظيم يضرب بالعصا فإذا بالماء يتجمد كما قال الله له في هذه الآيات: ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي البَحْرِ يَبَساً ﴾ [طه: ٧٧] فاضرب لهم طريقا في البحر أي بضرب البحر بالعصا يتجمد البحر طريقا يبساً أي يابساً ﴿ لاَّ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تَخْــشَى ﴾ لا تخــاف دركاً: من خلف ظهرك ولا تخشى: من الطريق الذي تسير عليه ولا من مؤخرته التي لا تراها فالطريق أمــان

والطريق معدة وممهدة ﴿ لاَّ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تَخْشَى ﴾ فذكر ابن كثير – رحمه الله تعالى– أن موسى ضرب البحر بالعصا وقال: له انفلق بإرادة الله أو بإذن الله فانفق البحر لأنه مأمور من قبل الله –عز وجل– ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ العَظِيمِ ﴾ كان كل اتجاه، أو كل جزء من البحر – اليمين والشمال– كان كالجبل العظيم من الماء المتجمد وسلك موسى –عليه السلام– ببني إسرائيل هذا الطريق إلى أن اجتازوا الجهة الآخرى ولكن هنا نريد أن نلحظ موقفاً إيمانياً عظيماً ولعله من ركائز الإيمان وهو: التسليم لله – تعالى– ولو من وراء القلب ولو من فوق مدركات العقل، إذا أمر الله بأمر فلابد من الاستجابة له لا نعرضه على العقل أولاً، وإنما نقبله بالإيمان أولاً، والتصديق والتسليم ثم بعد ذلك نتفكر فيه بعقولنا عسى أن نتلمس شيئاً من حكمة الله من وراء هذا الأمر ومن وراء هذا التشريع.

أوحى الله لموسى وأمره أن يضرب البحر بعصاه ليتجمد البحر، لعل تجميد الماء لم يكن معروفاً على عهد موسى –عليه السلام– كما في أيامنا مثلاً، وإن كان فلا تكن العصا وسيلة إلى تجميد الماء في المعتاد عندهم فكانت هذه معجزة خارقة للعادة فبالعقل هذا أمر لا يصدق كيف أضرب البحر بعصا ليتجمد وليضرب فيه طريق يبس لو تركنا العقل يناقش هذا الأمر ما كان أبدًا، هذا في الأنبياء، في غير الأنبياء الله – تعالى– أوحى إلى أم موسى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القصص: ٧] أوحينا يعني: ألهمنا، أم موسى بعثنا خاطراً في نفسها ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ لأنها لم تكن نبية ولم يكن في الأنبياء امرأة، ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ وهذا أمر عادي محبب إلى الأم ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليَمِّ ﴾ [القصص: ٧] مسألة متناقضة عقلاً إذا خافت الأم على وليدها الصغير الرضيع تلقيه في اليم وفي وسط تابوت من الخشب – كما عرفنا من قبل– فهذه متناقضة عقلاً، لكن طالما نطق الله بها وأمر الله بها فهو المتكفل بها – سبحانه وتعالى– فلا نعرضها على عقولنا إنما نسلم، افعل كذا سمعنا وأطعنا لا تفعل كذا سمعنا وأطعنا، أمر الله مريم – عليها رحمة الله – وهي في آلام المخاض بعيسى –عليه السلام– أمرها وهي امرأة أنثى في آلام المخاض ضعف فوق ضعف، وأمرها بعمل صعب شاق: ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ [مريم: ٢٥] لو كانت مريم رجلاً قوياً عاتياً وهزَّ رأس النخلة ربما لا يستطيع أن يسقط رطبة واحدة، لكن هذه امرأة ضعيفة تعاني من آلام وتهز جزع النخلة مما يليها من أسفل، ومع ذلك استجابت أم موسى فكان الخير، نجا الله موسى –عليه السلام– وحماه وصار اليوم نبيا نذكر سيرته، وهزت مريم جزع النخلة طاعة لأمر الله وإن كان أمراً لا يتسع له العقل ولكنها أطاعت أمر ربها – سبحانه وتعالى– وصدقت فكانت من القانتين وتساقط عليها الربط فعلاً فقال الله لها: ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً ﴾ [مريم: ٢٦] وهكذا التسليم لله –عز وجل– يأتي كله بالخير مهما سلمت لله في أمرك وإن كنت لا تعقله أو لا تفهمه فتسليمك خير وعاقبته خير، سيدنا موسى –عليه السلام– سلَّم لله في هذا الأمر وضرب البحر بالعصا ﴿ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ العَظِيمِ ﴾ [الشعراء: ٦٣] وجاوز ببني إسرائيل البحر إلى جهة الأمان وبر السلامة.

فلا مجال ولا سمع لقول من يقولون: اقنعني أولاً، فهمني أولاً. يريد أن يقتنع أولاً بأمر الله فإذا كان قلبي ضيقاً وعقلي قاصراً وصدري لا يتسع لفهم أمر الله، أعطل أمر الله في نفسي ولا أتبعه ولا أفهم، فالعيب في والحق موجود، فلا بد من التسليم لله –تبارك وتعالى– أولاً، ثم بعد ذلك نترك العقل يجول متفكراً متدبراً في حكمة الله من وراء هذا التشريع.

لما جاوز موسى البحر إلى الجهة الأخرى أراد أن يضرب البحر بالعصا ضربة أخرى تعيده سائلاً حتى لا يسلك فرعون هذا المسلك أيضاً وهذا الطريق فأوحى الله إليه أن اتركه كما هو: ﴿ وَاتْرُكِ البَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ [الدخان: ٢٤] وكان تدبير الله – تعالى– أعلى من تدبير موسى وتفكيره هذا شيء طبعي فعلم الإله لا يقارنه علم البشر وإن كان البشر نبياً فموسى –عليه السلام– أراد أن يقطع الطريق على فرعون، أن يغلق البوابة، وبهذا يبقى فرعون حياً، وراء البحر نجا موسى نعم، ولكن نجاة مؤقتة ما أدرانا؟ ربما يأتي بعد ذلك بحيلة أو بوسيلة يركب بها البحر ويصل بها إلى موسى ومن معه، لكن كان تدبير الله –تعالى– إهانة لفرعون وهلاكاً له وقطعاً لدابره ودابر جنوده فتركه الله يمشي في الوهم ويدخل في هذا الطريق اليبس حتى إذا كان في

وسط البحر أعاد الله – تعالى– البحر لسيرته الأولى وجاءه الخطر من حيث يأمن، جاء لفرعون الخطر من حيث يأمن ونزلوا في عمق البحر وغطتهم الأمواج ويعبر الله عن هذه الحال ويصورها بقوله: ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ اليَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ [طه: ٨٧] هذا التعبير في اللغة معناه: فغشيهم من اليم– أي من الماء من فوقهم غطاهم من الماء– الشيء الكثير الذي غطاهم وكأنه شيء كثير يفوق عن الحصر ويزيد عن التقدير، الله –تعالى– يقدر كل شيء ويستطيع أن يقول لنا: كذا وكذا، كذا متر من الماء كذا عمق كذا سعة كذا ولكن ربما عقولنا لا تتسع لهذا، وإبهام هذا الشيء يفخمه ويضخمه أكثر من الإفصاح عنه وتبيينه برقم معين فقال –تعالى–: ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ اليَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ تبقى أنت وأنا وكل متفكر يتخيل ماذا كان فوق فرعون وجنوده من الماء؟ يا ترى وصلوا إلى عمق كم في البحر؟ كم متراً من الماء كان فوقهم؟ كم وكم وكم؟ كلها تخيلات يسبح فيها العقل سبحاً لا نهاية له ولو تخيل متخيل أنهم نزلوا إلى عمق البحر ما كان مبالغاً فالنص يساعده على هذا ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ اليَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ وهذا أسلوب استعمله القرآن في أكثر من مرة كما قال الله – تعالى– عن سدرة المنتهى: ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ [النجم: ١٦] لكن هذا غير هذا هنا ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ اليَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ معروفة في البحر لكن ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ﴾ السدرة شجرة في السماوات العلى رآها النبي –عليه الصلاة والسلام– ليلة المعراج، يغشاها هناك عند حضرة الإله – سبحانه وتعالى– من ماذا ؟ لم يذكر الله – تعالى– ليبقى الأمر أيضاً غيبياً بالنسبة لنا، فقال العلماء: من البهاء، من الجمال، من الجلال، من الروعة، من الحسن، من النور ﴿ مَا يَغْشَى ﴾ أي: ما يغشاها ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ شجرة السدرة: الشيء الكثير الذي يغشاها من كل هذه الأشياء التي يذهب فيها قلب الإنسان كل مذهب ويتخيل فيها كل خيال، من جمالها وروعتها وحسنها ولما أهلك الله – تعالى– قوم لوط، فأمر جبريل –عليه السلام– فحمل القرية على طرف من جناحه وصعد بها إلى السماء الدنيا حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم وصياح أطفالهم ثم كفأها على رأس من فيها قال –تعالى–: ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴿٥٤﴾ ﴾ [النجم: ٥٣، ٥٤] فغشاها: الشيء الكثير الذي غشاها من ماذا؟ من حجارة البيوت، من ترابها كفأ القرية هكذا بأرضها بترابها بمتاعها وأثاثها فغطاهم من كل هذا الشيء الكثير فكأنهم نزلوا مقبورين في الأرض، هلكوا وماتوا ودفنوا في الوقت نفسه ﴿ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴾ وهنا يقول الله – تعالى– مصوراً هول هذا الموقف الذي أهلك فيه فرعون ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ اليَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ [طه: ٨٧] وكانت هلكة عظيمة وقبل أن يغرق فرعون أو قبل أن يموت وهو في ساعة الغرق حاول أن يعبث، وسبحان الله من هذا العناد العظيم العناد الخبيث حتى وهو في ساعات الغرق والغرغرة بخروج الروح نطق كلمة يريد أن يتظاهر بها بالإيمان ولم تكن نيته سليمة ولا قصده حسناً بدليل قوله ولفظه فلو كانت نيته حسنة في طلب الإيمان– والله أعلم– إن كان يقبل الله منه الإيمان هنا عند الغرغرة أو لا يقبل فأصل الأمر أن الله لا يقبل التوبة من العبد إذا غرغر أما من لم يغرغر فتوبته مقبولة قبل أن تخرج منه الروح وقبل: أن يأتيه ملك الموت فباب التوبة مفتوح فإذا جاءته ساعته ليموت فيها أغلق باب التوبة ولكن كان لمثل فرعون في هذه اللحظات العاجلة التي يغرق فيها والموت أمام عينه فإنها تحتاج إلى كلمة وعند الخطر ينبغي الإيجاز في الكلام أقول لك: يا فلان احذر الأسد، إذا كان بعيداً عنك فإذا اقترب منك أقول لك: احذر الأسد ولا داعي: يا فلان وكل من سمع يحذر، أما إذا اقترب جداً أقول لك: الأسد، وأنت تفهم ما بعد ذلك؛ لأن الوقت عاجل ، فكان لمثل فرعون في مثل هذه العجلة أن يقول: آمنت بالله رب العالمين، كما قالها السحرة حين آمنوا: ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٤٧] أن يقول: آمنت أنه لا إله إلا الله سريعة عاجلة حسب الوقت والزمان ولكنه دار دورة خبيثة قال: ﴿ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ المُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٩٠] ولذلك قال الله له مكذباً له وراداً له ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾ [يونس: ٩١] وفي هذا المد اللازم الطويل الذي هو أطول أنواع المد إشارة لطيفة إلى طول عمر فرعون، أبعد كل هذا العمر الطويل يا فرعون جئت الآن تنطق بكلمة إيمان؟ وهي كلمة غير صادقة وغير صحيحة: آمنت بإله بني إسرائيل وليس إلهك أنت، لم يعترف أنه إلهه فقال: ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴾ لأنه في وقت الغرغرة ولأنه لم ينطق بكلمة صحيحة ولا في هذا الإيمان.

فأغرق فرعون فليس هناك من ينقذهم ولا من يستخرجهم إلا جثة فرعون خاصة أراد الله أن تخرج على الساحل قال الله – تعالى– ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ [يونس: ٩٢] فاليوم ننجيك ببدنك: لا

بروحك روحه فاضت إلى ربها وخالقها – سبحانه وتعالى– فما عاد إلا جثة فاليوم ننجيك ببدنك وقيد الله وهيأ من يحمل الجثة ومن يحنتها ومن يضعها في بعض المعارض أو بعض المتاحف حتى يراها الناس ومن ينصب له أنصبة تذكارية حتى يراه الناس ويعتبروا ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ كما قال – تعالى: ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٢٦﴾ ﴾ [النازعات: ٢٥، ٢٦] إن في ذلك لعبرة، فنجَّاه الله فقط لئلا يدعي الناس بعده – كما يدعى على عظام الناس وأهل الهيئة وأهل السلطان– أن فلاناً لم يمت إنه كان إلهاً عظيماً، إنما هو غاب ليظهر من جديد هذا يدعونه عادة أهل البدع فربما يدعى مثل هذا على فرعون فأراد الله أن يقطع هذه الشبهة بهذه الحجة الواضحة: هذا هو إلهكم الذي كنتم تعبدونه والذي كان يزعم أنه هو الرب الأعلى هاهوذا ميت لا يمك أن يحرك نفسه ولا أن يحرك شيئا من أعضائه ولا أن يتنفس نفس هواء هذا هو ميت لا قوة ولا حول بعد أن كان ذا الأوتاد عبرة عظيمة تركها الله – تعالى– فيمن كان من بعد ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ [يونس: ٩٢] وهنا انتهى المشهد أو الموقف الثاني حيث نجاة موسى ومن معه من بني إسرائيل إلى أرض سيناء وهلكة فرعون إلى الأبد وجنوده وذكر بعض المؤرخين أن نساء مصر يومها بعد أن مات هؤلاء الرجال الكثيرون من مصر ومن القبط لم يجد النساء من يتزوجنه من بعد رجالهن، فتزوجن عبيدهن وخدمهن فبقي الزوج مكسور العين خفيض الجناح أمام زوجته فبقيت هذه صفة في النسل المتوالي بعد ذلك، إلى أن صار زمان عمَّ فيه هذا الخلق العالم كله ﴿ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ [النمل: ٣٣] ولكن الشرع جعل القوامة للرجل مع اعتبار كرامة المرأة قال الله – تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨] درجة القيادة، درجة السيادة حتى تسير هذه السفينة في الحياة بنظام واعتدال لا يقودها إلا واحد دون منازع يعطل حركة هذه السفينة فالمسألة تنظيمية ومن الله – سبحانه وتعالى– صاحب الأمر وصاحب الملك، فنسأل الله صلاح الحال.

هذا ليبدأ المشهد الثالث أو الموقف الثالث: وهو تذكير بني إسرائيل بنعم الله – تبارك وتعالى– عليهم.

نعم الله على الخلق كثيرة، نعم الله على الخلق لا تعد ولا تحصى، ولكن في هذا الموقف يذكر الله –تعالى– بني إسرائيل أو ذكرهم بالنعم اللصيقة بهم القريبة منهم التي حصلت الساعة لم يفارق مذاقها مذاقهم لا يزالون يشعرون بطعمها الحلو وبأثرها الطيب، فهذا أوقع لأن يعتبروا ولأن يتعظوا ولأن يعترفوا بنعم الله –تبارك وتعالى– عليهم.

قال الله – تعالى– ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ المَنَّ وَالسَّلْوَى ﴾ [طه: ٨٠] هذه نعم عظيمة وجليلة ولعل الداعي إلى ذلك كان أن بني إسرائيل رغم ما كانوا فيه من خير ونعم من الله – سبحانه وتعالى– وما رأوا من آيات وعجائب ومعجزات لم تطمئن قلوبهم إلى الله، إنما تبعوا موسى طلباً للخلاص من فرعون فموسى أو نار موسى خير من جنة فرعون ولنخرج مع موسى ثم يكون ما يكون بعد ذلك، ولذلك بعد أن تجاوز بهم موسى البحر وهم في الطريق قريباً من البحر مروا على قرية فيها بعض الناس يعبدون الأصنام ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ البَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ [الأعراف: ١٣٨]– سبحان الله– أليس لكم إله؟ ألم ينجكم من فرعون؟ ألم ينقذكم من البحر؟ ألم يخلصكم من خطر واقع لا محالة قلتم فيه: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء: ٦١] أنسيتم هذا الإعجاز؟ أنسيتم عصا موسى؟ أنسيتم نبوة موسى أن جعل الله النبوة فيكم؟ أن جعلكم قوماً مختارين وفضلكم على العالمين في زمانكم؟ فذكرهم الله –تعالى– بنعمته ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ والنعم داع من دواعي توحيد الله –تبارك وتعالى– والخضوع له والتسليم له والله –تعالى– يتودد إلى عباده بالنعم مع أن العباد يتباغضون إلى الله بالمعاصي يعني: يكثرون من المعاصي التي تبغضهم عند الله والله ينعم عليهم أيضاً ولا تضره معصية عاصٍ ولكن لو منع الله عنا نعمته لأضرنا ذلك ضرراً بالغاً فيه الهلكة والدمار– نعوذ بالله من الحرمان ومن السلب بعد العطاء.

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ ﴾ هذه النعمة الأولى واستعرضنا كيف نجاهم الله بهــذه الإعجــاز العظيم، فما كان لمثلهم أبداً أن يتطلعوا إلى إله صنم من الحجر يعبده الناس ولكن كان بنو إسرائيل قوماً مــاديين إلى حد بعيد حتى عطل ذلك عندهم تصديقهم بالغيب فقالوا لموسى قولتهم المعروفة: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَــرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة: ٥٥] يريدون إلهاً يرونه بأعينهم ويلمسونه بأيديهم ولذلك لما رأوا هؤلاء يعبدون صنماً أمام أعينهم هكذا أغراهم هذا المنظر ولفت قلوبهم إليه فطلبوه من موسى فقال: ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨] أنتم قوم جهلة لا تعرفون معنى الإله ولا قيمة الإله ولا حقيقة الإله حيث سووا على الأقل أو فضلوا صنماً على رب البرية – سبحانه وتعالى– فمضى بهم موسى –عليه السلام– وكان الله – تعالى– قد واعــدهم جانــب الطور الأيمن يعني: الجانب الأيمن من جبل الطور في سيناء أن يذهبوا إلى هناك هذا مستقرهم؛ لكي يــنعم الله عليهم هناك بالرسالة والتوراة وما شاء من نعم – سبحانه وتعالى– ولكنهم نسوا هذه النعمة في ساعتها بعد ذلــك علمهم موسى –عليه السلام– وعالجهم بالوحي إلى أن صار بعضهم مؤمنين وتوارثت الأجيال منهم هذه النعمــة والذكر بها وإن نسيها الكثيرون أيضاً، ولذلك صح في صحيح البخاري ومسلم رحمهما الله –تعالى– عــن ابــن عباس –رضي الله تعالى عنهما– قال: « لما قدم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– المدينة، وجد اليهود تــصوم يوم عاشوراء فسألهم قالوا: هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى) يعني: نصره وأظهره على فرعون (هذا اليــوم الذي أظفر الله فيه موسى على فرعون، فقال النبي –عليه الصلاة والسلام– نحن أولى بموسى فصوموه) أمــر أمته وأصحابه أن يصوموا يوم عاشوراء ووعد الله على صيام يوم عاشوراء بتكفير ذنوب سنة ماضية فهو يوم فضيل عندنا كذلك وقول النبي –عليه الصلاة والسلام– (نحن أولى بموسى) وفي رواية (أولى بموسى مــنكم) أي: نحن أصح إيماناً بموسى من بني إسرائيل؛ لأن بني إسرائيل آذوه ونحن لم نؤذه ولن نؤذيه – إن شاء الله – تعالى– ولا بذكر سيء يسيء إليه.

فصام النبي –عليه الصلاة والسلام– يوم عاشوراء وأمر الصحابة بصيامه فكان بعضهم يشكر هــذه النعمــة نعمة الإنجاء من فرعون نعمة نصرة موسى وإعلائه وهلاك فرعون من بعده.

النعمة الثانية: كانت تكليم موسى –عليه السلام– وإنزال التوراة والألواح عليه. تكليم موسى وما لبني إسرائيل في تكليم موسى هل لهم فائدة في ذلك؟ نعم.. فائدة عظيمة أن كان الكليم منهم فهذا شرف، كانت قريش مع كفــر بعضها بالنبي – صلى الله عليه وسلم– تفخر وتقول لغيرها من العرب: منا نبي وكان بنو هاشــم علــى وجــه الخصوص يفخرون على قبائل قريش ويقولون: منا نبي، رغم أن بعضهم كأبي لهب وأبي طالب كانــا كــافرين برسول –عليه الصلاة والسلام– لم يؤمنا ويفخران مع غيرهم برسول الله –عليه الصلاة والسلام– فكون الكلــيم من بني إسرائيل ولم يكن من أمة أخرى كالفراعنة مثلاً أو القبط فهذا فضل عظيم من الله وتشريف كريم لبنــي إسرائيل كلها أن كان كليم الله منهم وأن كلم الله واحداً منهم تكليماً حقيقياً فهذا شرف عظيم ينبغي أن يفخروا بــه ونعمة يحق لله – تعالى– أن يمتن بها عليهم.

ونعمة يحق لله – تعالى– أن يمتن بها عليهم. واحد منا لو كلمه فلان من علية القوم فخر بذلك وربما ســجل شريطًا من الكاسيت أو نحو ذلك يحفظ به هذه الذكرى العظيمة التي شرف بها ويسمعه لهذا وذاك كنت مع فلان وكلمني وكلمته وجالسته وجالسني وربما يفخر أبي بذلك وتفخر أمي وتفخر عائلتي أن أكلم فلاناً فما بالك بمــن كلمه رب الناس ورب العالمين – سبحانه وتعالى– هذا فخر عظيم لبني إسرائيل ونعمة ينبغي أن يشكروا الله – تعالى– عليها.

﴿ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ ﴾ [طه: ٨٠] وهناك كان تكليم موسى حين كلم الله موسى على الجبل وقال موسى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي ﴾ [الأعراف: ١٤٣] إلى آخر هذا الأمر كما أنزل الله علــى موسى التوراة وحين ينعم الله –تعالى– على أمة ضالة عقلياً وفكرياً لذلك قال لهم موسى: ﴿ قَــالَ إِنَّكُــمْ قَــوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨] لا يعرفون الفرق بين صنم لا يتحرك ولا يملك لنفسه شيئاً وبين إله جمــد البحــر

حول العصا إلى حية أكلت ما ألقاه السحرة فعل وفعل وفعل من الآيات العظام واليوم ينزل توراة وينـــزل كتابـــاً تشريعاً حين ينزل الله – تعالى– قانوناً لأمة تمشي به في وفي حياتها وتنظم به حركتها وسكنتها فـــي الوجـــود لترشد فهذه نعمة. أحدنا لو اشترى جهازاً ثم نسي الكتالوج فلم يأخذه ربما عاد مشوراً طويلاً ليحصل عليه مـــن جديد حتى يحسن استعمال هذا الجهاز وربما لو أدرك عدم وجوده ساعتها لطالب البائع به، وبدونه يفسد الجهاز ولا نحسن استخدامه– ولله المثل الأعلى – الشرائع التي ينزلها الله – تعالى– والكتب التي يوحيها إلى الأنبيـــاء إنما هي تعريف بالحركة الرشيدة في هذه الحياة ماذا نفعل مع خالق هذا الكون؟ ومن نعبد؟ وكيف نعبد؟ ومـــاذا نفعل مع أنفسنا ومع بعضها ومع المخلوقات من حولنا؟ قال الصحابة –رضي الله تعالى عنهم– (علمنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم– كل شيء حتى الطير في السماء) وقال الله – تعالى–: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨] فكل سؤال في الدين أو في الدنيا عليه جواب في قرآن ربنا وسنة نبينا –عليه الصلاة والسلام– فالشريعة والكتاب المقدس نزوله على الناس نعمة ما أجلها وما أعظمها وما أخطرها وما أعظم شكرها ينبغي أن يشكر الناس هذه النعمة شكراناً عظيماً لا أن يتركوا هذه النعمة ويهملوا فيها، وينحوها عن حياتهم ولا يستعملونها فهذا جهل بقيمة هذه النعمة كالطفل يمسك بالذهب فيلقيه في التراب وبين الأحجار حينما يفيق الطفل ويعظم ويكبر في عقله وفكره يعظم هذه الأشياء ويقدرها بقدرها، أنزل الله –تعالى– التوراة على موسى وسماها الألواح، وفيها منهج كامل متكامل لقيادة حياة بني إسرائيل حياة طيبة هادئة جميلة كما قالها الله لنا في القرآن وهي منذ أن كانت أول الدنيا الله – تعالى– وضع هذا القانون حينما كانت قصة آدم – كما سنعرف في نهاية السورة –إن شاء الله – ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيـــشَةً ضَنكاً ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤] الله – تعالى– يريد للناس أن يعيشوا في الدنيا قبل الآخرة في حياة واسعة فيها بحبوحة فيها راحة فيها طمأنينة ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٦] ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَـــوْمٌ تَجْهَلُـــونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨] هكذا قالها موسى لقومه يومها أنزل الله التوراة وسماها بالألواح وفيها كل شيء يحتاجه بنـــو إسرائيل وامتن الله عليهم وقال: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ المَنَّ وَالسَّلْوَى ﴾ أعطاهم غذاء الروح في التوراة أعطاهم نظام الحياة يريدون طعامـــاً يريـــدون شـــراباً يريدون كساء الماديات لم ينسوها في حياتهم أيضاً لم يهملها الله –عز وجل– فالله لم يخلق خلقاً وينسى رزقه ولم يخلق خلقاً وينقصه شيئاً من حقه الذي رسمه الله له –سبحانه وتعالى– فالله –تعالى– نزل عليهم المن والـــسلوى وقال لهم ممتناً عليهم مؤذناً لهم: ﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلاَ تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِـــلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴾ ما المن والسلوى؟ المن والسلوى: طعام وشراب وحلاوة وغذاء تكفل الله – تعالى– به لم تشارك فيه يد بشر ولا يد خلق فالمن: كما ذكر ابن كثير –رحمه الله –تعالى– عن المفسرين من السلف ذكر عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس –رضي الله عنهما– وأذكر بأن هذه الصحيفة موجودة في المكتبات باسم تفسير القرآن العظيم لابن كثير، هذه أصح ما ورد عن ابن عباس من رواية علي بن أبي طلحة قال ابن عباس – رضي الله عنهما– في المن: « كان المن ينزل عليهم على الأشجار » وذكر غيره أنها كانت أشجار الزنجبيل أياً كان الأمر فكان ينزل المن على الأشجار مثل الندى كقطرات الندى فيغدون أي: يخرجون متى؟ في الغـــدو أي: صباحاً في الصباح المبكر فيغدون صباحاً فيأكلون منه ما يشاءون وذكر ابن كثير أيضاً عن قتادة أن هذا المـــن كان ينزل كسقوط الثلج أشد بياضاً من اللبن وأحلى مذاقاً من العسل كان عظيماً جداً وذكر الربيع بـــن أنـــس – رحمه الله –تعالى– أنه شراب كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ويشربونه وقال عامر الـــشعبي: « عسلكم هذا –العسل الذي نأكله– عسلكم هذا جزء من سبعين جزءاً من المن » .

كان المن إذن: شيئاً عظيماً جداً، عقب الإمام ابن كثير –رحمه الله –تعالى– على هذه الأقوال وغيرها بقوله: « والغرض أن عبارة المفسرين في هذا متقاربة ليس بينها تعارض كلها كلمات متداخلة كل يعبر بأسلوبه تـــدور حول محور واحد كلها متقاربة في شرح المن فمنهم من جعله طعاماً ومنهم من جعله شـــرابًا والظـــاهر –والله أعلم– أنه كل ما امتن الله به على بني إسرائيل من طعام وشراب وغير ذلك مما ليس لهم فيه عمل ولا كد. مـــا كانوا يتعبون في شيء إنما كانت منة من الله فالمن من المنة، أي: شيء من عند الله، يأتي طعاماً يـــأتي شـــراباً

يأتي نحو ذلك لكنه من الله –عز وجل– ليس لبني إسرائيل فيه تدخل لا في صنعه ولا في إعداده ولا في شـــيء ينزل فيأكلونه.

فالمن يقول ابن كثير: « فالمن مشهور إن أكل وحده كان طعاماً يشبع من الجوع، وحلاوة مذاقه حلو أحلى من العسل يعني: أكل وحلى وإن مزج مع الماء صار شراباً طيباً وإن ركب مع غيره صار نوعاً آخر يعني كـــانوا يأكلونه وحده أحياناً ليشبعوا يخلطونه بغيره ليكون شراباً بالماء مثلاً أو بغيره ليكون نوعاً آخر من الأطعمة ولكن ليس المن في الآية نوعاً واحداً بدليل ما رواه البخاري وغيره عن سعيد بن زيد –رضي الله تعالى عنه– قـــال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (الكمأة من المن) هذا كلام النبي –عليه الصلاة والسلام– (الكمـــأة مـــن المن وماؤها شفاء للعين) والكمأة: شيء كان ينبت في أرض العرب شيء أبيض ينبت في الأرض أو يخرج من الأرض النبي –عليه الصلاة والسلام– أخبر أنه من المن، وماؤه شفاء للعين، وهو شيء دهني يخرج من الأرض لونه أبيض كان العرب ينتفعون به ولفت النبي –صلى الله عليه وسلم– النظر إلى ما فيه من شفاء للعين.

هذا عن المن، وهو كافٍ في نظري وفي نظر العاقلين كافٍ طالما يوفر الطعام والشراب والحلوى فهذا كاف جمع للإنسان كل ما تشتهي نفسه في هذا الجانب، بل أنزل الله أيضا السلوى، والسلوى: نوع آخر من الطعام قال ابن عباس فيما رواه علي بن أبي طلحة: « طائر شبيه بالسماني » طائر السمان معروف عندنا أو مشهور هـــو شيء شبيه به وقاله كذلك السدي ومجاهد والشعبي والضحاك والحسن وكثير من السلف قالوا مثـــل كـــلام ابـــن عباس –رضي الله تعالى عنهما– وقال عكرمة: « هو كطير يكون بالجنة أكبر من العصفور » وقال البعض: هو كالحمام يعني ليس كبيراً جداً ولكنه لذيذ الطعم شهي المذاق يربيه الله – تعالى– حيث شاء ويأتي أنيساً أليفاً لبني إسرائيل فيكون عند الرجل فيأخذ منه ما شاء ويذبح ويأكل لكن كان هذا المن والسلوى كان مشروطاً بشرط: ألا يأخذ الواحد أكثر من قوت يومه لا يأخذ لا من المن ولا من السلوى فإن أخذ فسد عنده فلا ينتفع به هـــذا كـــان شرطاً في المن والسلوى وهكذا يمتن على بني إسرائيل بهذه النعم بغذاء روح وبغذاء بدن وبعزة ونجاة ونـــصرة وهلكة عدو نعم كثيرة تستوجب أن يؤمن بنو إسرائيل بموسى –عليه السلام– وألا يـــسقطوا فـــي الهـــوى وألا يخضعوا لغضب الله –عز وجل– وحلوله عليهم، وقول الله –تعالى–: ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَـــدْ هَـــوَى ﴾ [طه: ٨١] قال ابن عباس: أي فقد شقي: أي أصابه الشقاء كما قال –تعالى–: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾ [طه: ١٢٤] وروى ابن أبي حاتم –رحمه الله –تعالى– أثراً موقوفاً « إن في جهنم قصراً يرمى الكافر من أعلاه فيهوي في جهنم أربعين خريفاً وذلك قوله –تعالى–: ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَـــدْ هَـــوَى ﴾ [طه: ٨١] » إذن هوى يعني: سقط أو ألقي به من فوق هذا القصر العالي في جهنم وهذا أيضاً فيه شقاء إلقـــاؤه فقط ولو على أرض طيبة شقاء من هذا المكان العالي، وإلقاؤه في النار شقاء آخر فتتلاقى أقوال المفسرين وهذا يسمى اختلاف وتنوع حيث إنه لا تعارض فيه.

ويختم الله –تعالى– هذه الآيات بقوله: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَـــدَى ﴾ مـــا أجمـــل رحمة الله وما أعظم حلمه على عباده وإن عصوه وإن أعرضوا عنه فهؤلاء يطمعون في إله مـــادي يعبدونـــه وهؤلاء أغراهم صنم يعكف عليه الناس، وهؤلاء سيعبدون عجلاً كما سيأتي في الآيات التي بعد ذلك والمواقـــف التالية ورغم ذلك الله –تعالى– يفتح لهم باب رحمته ويقول: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ ﴾ ولو على الكفر ﴿ وَآمَـــنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ ثبت على ذلك وأحسن، وهذ قانون رباني وسنة شرعية عند الله لكـــل الأمـــم ولكـــل البشرية– فنسأل الله أن نكون ممن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى وأن يختم الله لنا أمورنا كلها وحياتنا بخير وأن ينفعنا بهذا العلم ونعوذ بالله من علم لا ينفع وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آلـــه وصـــحبه وأشكر لحضراتكم حسن الاستماع والمتابعة.

ما هي حدود التعامل مع من لا يستجيب للدعوة والموعظة خاصة إذا كان جاهلاً وأمياً؟

هل يمكن اعتبار أمر الله لموسى بالإسراء ببني إسرائيل أمراً له بالهجرة خوفاً على الدين؟ وإذا كان الأمر كذلك فما هي شروط الهجرة للخائف على دينه خاصة في الوقت الراهن؟

الأخ الكريم من الكويت: السلام عليكم ورحمه الله وبركاته، سؤال يا شيخ هو في سورة طه، معنى الآية ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه: ٥] على العرش استوى ماذا تعني؟

بسم الله الرحمن الرحيم لقد أفاض وأجاد سلفنا الصالح رحمهم الله – تعالى– والعلماء من بعدهم –علماء أهل السنة والجماعة – في بيان هذا السؤال ويمكن المراجعة وسبق الحديث عنه في بداية السورة فيمكن أيضاً الرجوع لما تيسر من ذلك لكن مثل هذه الآيات التي هي من متشابه القرآن فكما قال الإمام أحمد: أمروها كما جاءت ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ﴾ استواء يعلمه الله –سبحانه وتعالى– يعلم كيفيته نحن نؤمن بأن الله استوى على عرشه، والمقصود من ذلك علوه فوق خلقه، أما الكيفية فلا سبيل إلى معرفتها فلنفوض الأمر فيها إلى الله ولنسلم لله وهذا أمر لا يترتب عليه عمل حتى نربح عليه أجراً يدخلنا الجنة إنما يكفي منا فقط الإيمان بذلك مع التسليم في كيفية هذه الصفة لله –سبحانه وتعالى– وهذا أجمل ما يقال بعيداً عن الخلافات والأقوال التي توقع الإنسان في حرج مهما كان أمره، هذا والله أعلم.

الآخ الكريم من تونس كان يسأل عن حدود التعامل مع من لا يستجيب للدعوة مع كونه أمياً أو جاهلاً؟

كون المدعو أمياً أو جاهلاً هذا أدعى للصبر عليه فإمكانياته في استقبال الدعوة إمكانات ضعيفة فنعذره بذلك ونلح على دعوته ونحتال في دعوته ونصبر على عدم فهمه واستيعابه ولكن أفرق بين داعٍ يبلغ شيئاً وداع يعمل بالدعوة فأخص بالكلام ذلك الداعي الذي يقال عنه: داعية أي أنه يشتغل بالدعوة ولو أن يدعو الأشخاص والأفرد هذا ينبغي أولاً قبل أن يبلغ الدعوة قبل أن يقدم الموعظة ينبغي أن يدرس شخصية من يدعوه إن كان فرداً يصاحبه مصاحبة على طرف حتى يعرف شخصيته ويتعرف على مداخله من أين أدخل له؟ وماذا يحب في حياته؟ وماذا يضايقه؟ وهكذا حتى أسلك إلى قلبه طريقاً ممهدة وإن كان جمعاً كأن كان يدعو في مسجد أو نحو ذلك في جمع من الناس فلا بد أن أتعرف أيضاً على أحوال هؤلاء الناس فأعمل معهم أولاً: في الترغيب والترهيب حتى أدرس أحوالهم وأنظر فيما يفكرون وماذا يشغلهم وطلب الأسئلة من الناس قد يكون معيناً على معرفة أحوالهم وأفكارهم واتجاهاتهم ومن هنا أتعرف على الشخصية التي أخاطبها والملامح العامة لهذه المجموعة التي أدعو إلى الله فيها ومن خلال هذه الخلفية التي أسبق بها أدخل إلى المدعوين بما يتناسب معهم فسأجد عندهم أولويات، عندهم أشياء في الشرك، وعندهم أشياء في الفسوق فأقدم الكلام في الشرك أولاً لأنه أخطر وأترك الفسوق بعض الشيء يعني سوء في الأخلاق هذا يصبر عليه ويتحمل بعض الشيء حتى نعالج الصور الشركية الموجودة لأن الشرك يحبط العمل كله، أما الذنوب العادية هذه وإن كانت كبيرة فتغفر بالتوبة وقد يغفرها الله – تعالى– لمن شاء بدون توبة إذا كان موحداً.

فلا بد أن نتابع الأمر ولا ننتظر من الناس أن يستجيبوا لنا من أول وهلة فلسنا أنبياء ولا رسلاً وليست معنا معجزات ولو كنا كذلك فالرسل والأنبياء أصحاب المعجزات –عليهم الصلاة والسلام– لم يكن الناس يستجيبون لهم من أول مرة وانظر إلى أي رسول بعثه الله ––تعالى– تجد قومه وأقرب الناس إليه كذبوه في بداية الأمر وعارضوه وناقضوه وقصة سيدنا موسى كثيرة في القرآن كما نبهنا قبل ذلك لما لاقى موسى من أذى وعنت شديد من بني إسرائيل رغم الآيات المبهرة والمعجزات التي تحرك القلب وتبعث في الوجدان نبض الإيمان إلا أنهم كانوا لا يحسون بهذا النبض ويتمادون في طغيانهم وفي إيذاء أنبيائهم ورسولهم موسى –عليه السلام– حتى إنهم قتلوا عدداً من الأنبياء وهموا بقتل الآخرين حتى نال شرهم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فأطعموه سماً لولا أن عصمه الله حتى مات به في عامه القابل لذلك إن كان الأنبياء والمرسلون –عليه الصلاة والسلام– لم يستجب الناس لهم من أول مرة فلنصبر نحن كذلك من باب الأولى نحن لا يستجاب لنا من أول مرة فإن كانت

فالحمد لله وإلا فلنصبر ولنعاود الدعوة ونتهم أنفسنا لعل أسلوبي لم يكن حسناً لعل دعوتي كانت غليظة لعلي لم آته من مدخله الصحيح لعل ولعل أحاول أن أجدد في نفسي وأغير في نفسي، في دعوتي معه حتى أوافق ما عندهم من استعداد لاستقبال الدعوة وساعتها ينفع الله من ينتفع ومن أعرض فلا عليك منه ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ [النمل: ٧٠] إنما تبلغ دعوة الله –تعالى– ابتغاء مرضات الله ولتعذر لنفسك عند الله حتى إذا سألك قلت: يا رب بلغت، بلغت كما أمرت (بلغوا عني ولو آية) بلغت يا رب ودعوت إليك قدر استطاعتي أما هداية القلب فهذه عند الله، غير أن الداعي ينبغي أن يكون حريصاً على أن تنفع دعوته بمثل هذا التفقد لدعوته ولأحوال الناس ولماذا لا يستجيب الناس؟ ولماذا ينصرفون عني؟ ولماذا ولماذا؟ هذا كله، يعطيني مدخلاً صحيحاً إلى الناس ويصحح مساري إلى قلوبهم فيستجيبون – إن شاء الله –تعالى– وفقنا الله وإياك والدعاة جميعًا إلى الخير.

إجابة الحلقة الماضية:

السؤال الأول: ما شبهة فرعون في معجزة موسى –عليه السلام– حتى وصفها بالسحر؟

كانت الإجابة:

شبهة فرعون في معجزة موسى حتى وصفها بالسحر هو ما لاحظه من اشتراكها مع السحر في تغيير صورة الأشياء غير أن المعجزة تكون تغييراً حقيقياً أما السحر فهو تخييل

نعم هذه إجابة جيدة فعلاً، هو رأى أن المعجزة تفعل شيئاً عجيباً وتغير صورة الشيء في عينه كما يخيل إليه من السحرة فقال عنها: إنها سحر وهكذا قال الكفار وكان من أول ما قالوا عن القرآن وعن النبي –صلى الله عليه وسلم–: إنه ساحر وقوله: سحر ذلك لأنهم رأوه إذا قرأ القرآن على قوم ولو من غير رسول الله –عليه الصلاة والسلام– إذا بالقلوب تتفتح وإذا بالصدور تنشرح وإذا بالوجه يظهر فيه نور الإيمان فيعود الرجل إلى قومه مؤمناً فيقولون وقد رأوه من بعيد وهم كفار وهو قد آمن: لقد رجع علينا فلان بوجه غير الذي ذهب به، ذهب ليصد عن سبيل الله فلما استمع إلى القرآن خالط الإيمان والقرآن قلبه فآمن فرجع إلى قومه رأوا علامة الإيمان وبشاشة الإيمان في وجهه فقالوا قولتهم هذه فلما رأى الكفار تأثير القرآن العاجل، السريع، العجيب في تحويل الإنسان من عدو إلى حبيب ومن منكر إلى مصدق قالوا: هذا سحر فهذه إجابة صحيحة –إن شاء الله–.

السؤال الثاني: بكلمات موجزة، عرف بيوم الزينة؟

وكانت الإجابة:

يوم الزينة كان يوم عيد عند القبط ويقال له: يوم النيروز وهو يوم عيد وأول يوم في عامهم، ويحتفلون به ويبيعون ويشترون ويستمعون قال ابن عباس –رضي الله عنهما–: « وكان يوم الزينة يوم عاشوراء وسمي بيوم الزينة لأنهم كانوا يتزينون له فهو يوم عيد »

نعم هذا صحيح – إن شاء الله –.

السؤال الثالث: من خلال إيمان السحرة قدم موعظة مختصرة للمعرضين عن التوحيد؟

أقول لهم: يا أيها المعرضون عن التوحيد ويلكم لا تفترون على الله كذباً ها هم السحرة سحرة فرعون وقد حشدهم لمواجهة جند الحق ورسل الله وهم اعتدى جنود الباطل وقوته الضاربة الصادة عن سبيل الله ها هم يواجهون رسل الله أو رسول الله موسى -عليه السلام- في هذا الموقف العظيم والمشهد المهيب وها هو قد تجمع الناس يشهدون هذه المواجهة الكبرى بين الحق والباطل وها هو موسى قد قام خطيباً أمام السحرة يعظهم ويخوفهم بالله ولكنهم يؤثرون الحياة الدنيا، ويتأهبون لمواجهته فأجمعوا كيدهم وأتوا صفاً ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً ﴾ [طه: ٦٤] وبدؤوا موسى بالتحدي فألقوا حبالهم وعصيهم وسحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم حتى أن كليم الله موسى أوجس في نفسه خيفة من هول ما رأى فماذا حدث؟ هل انهزم الحق واندحر أم هل اندثر الباطل وانتعش؟ لا والله وكيف يكون ذلك؟ والله ولي المؤمنين وهو ناصرهم ومعينهم ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات: ١٧١- ١٧٣] فها هو موسى يثبته الله ويوحي إليه أن يلقي عصاه فإنه وكل المؤمنين هو الأعلى وهو المنصور بإذن الله – تعالى-.

ما شاء الله إجابة عظيمة وتعبير جيد دقيق وإلمام بالمعلومة ونشكر إخواننا وأخواتنا على هذه المشاركة الطيبة وهذه المتابعة الصادقة الصحيحة ونحمد الله -تعالى- على هذا التوفيق وهذا التسديد ونسأله -سبحانه وتعالى- من ذلك المزيد.

الأخ الكريم من الولايات المتحدة الأميركية يقول: فضيلة الشيخ: كيف كانت نبوة هارون؟ وهل كانت بإخبار موسى له أو أوحى الله له؟

نبوة هارون -عليه السلام- كانت أولاً بإخبار موسى له كما ذكر ذلك ابن كثير -رحمه الله- أن موسى -عليه السلام- هو الذي أخبر هارون بنبوته وبمشاركته له في هذا الأمر العظيم ولا مانع أن يكون الله -تعالى- قد أوحى له بعد ذلك بعض الأمور فهو نبي من الأنبياء ويصلح لتلقي الوحي، ويذكر في ذلك من الأحذار اللطيفة وهو ما يسمى في عالمنا بالفوازير فالإسلام أباح والحق دائماً يبيح بعض اللطائف وهذه يسميها العلماء نكتة أو لطيفة لأنها تضحك وتسعد القلب قيل: من أكثر الناس إسعاداً لأخيه في العالم أو في البشرية والإجابة طبعا، سيدنا موسى -عليه السلام- لأنه تمنى لأخيه أن يكون نبياً مثله، فلو أن كل أخي تمنى لأخيه في أسرته ثم لأخيه في أمته الخير الذي هو عليه لسعدت الدنيا وهكذا تكون الأخوة الصادقة سواء من النسب أو في الدين وعلاقة الدين أقوى من علاقة النسب.

هل ما ذكره الله عن بني إسرائيل دليل على عدم أخذ معهم الوعود والعهود؟

مما ذكر؟

مما ذكر من نقدهم مع الله -سبحانه وتعالى- مع سيدنا موسى؟

هو ذكر الله -تعالى- أن بني إسرائيل نقضوا عهدهم مع الله ومع موسى -عليه السلام- في مواقف عديدة خلال عرض هذه القصة عبر القرآن الكريم هذا بلا شك إثبات لصفة في بني إسرائيل تكاد تكون غريزة فيهم وخصلة ملازمة لهم وعلى أهل الحق أن يلحظوا هذا وأن يعلموا هذه المعلومة من خلال هذا العرض الطيب الصادق في كتاب ربنا -سبحانه وتعالى- فإن من نقض عهده مع الله ونقض عهده مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لم يكن ليصدق معي ومعك، إنما ينبغي أن أكون ذكياً لماحاً وهكذا يخاطب الله المؤمنين بأنهم ﴿ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩] وهذه صفة تمدح العقل والقلب بالذكاء والنماء والفهم والتفتح كما قال النبي -عليه

الصلاة والسلام-: (لا يلدغ المؤمن من جرح مرتين) لدغ إخواننا قديما من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من بني إسرائيل ولدغ غيرهم ممن دونهم كالصحابة -رضي الله عنهم- من بني إسرائيل أنلدغ من بعدهم فينبغي أن يكون المؤمن فضلاً عن العاقل العاقل على الأقل وإلا فالمؤمن من باب الأولى ينبغي أن يكون لماحاً يلتقط هــذه الإشارات من خلال كتابنا العظيم قرآن ربنا دستور حياتنا فإذا ذكر عن قوم وصف مثل هذا بشكل مكثف وبشكل متكرر في مواقف عديدة في عهود ومواثيق شديدة مع الله رب العالمين -سبحانه وتعالى- في أمرهم يوم السبت وفي نقضهم ميثاقهم في عدة مرات وفي عدة أشياء هذا أدعى لأن ينقضوا عهدهم مع من دون هؤلاء فعلى العاقل أن يحظر وعلى المسلم من باب الأولى أن يحتاط لنفسه عند التعامل مع قوم هذه صفتهم من كاليهود والمنــافقين والكافرين بشكل عام ويستفيد بالآيات التي وصفت هؤلاء الأقوام يستفيد من خلال هذه الآيات باستخراج واستنباط طريقة معينة يتعامل بها على حذر وعلى حيطة حتى لا يقع في مغبة ولا يلدغ من الجحر مرتين فهــذه إشــارة طيبة وسؤال مهم يفيدنا هذه الإفادة وهو أن ننتفع بما في القرآن من إشارات ولمحات نبه إليها العلماء كثيرا فــي خلال التفاسير وغيرها من كتب العلم جزى الله عنا علماءنا كل خير.

فضيلة الشيخ هلا تفضلتم بإلقاء أسئلة هذه المحاضرة ؟

في هذه المحاضرة نلقي بعض الأسئلة عليها وعلى ما قيل فيها:

السؤال الأول: ما معنى قوله الله -تعالى-: ﴿ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾؟ وما حكمة خروج موسى إسراءا؟

السؤال الثاني: اذكر أقوال السلف في المن والسلوى؟ وكيف تجمع بينها؟

ثالثا وأخيرا: ما حكمة تخصيص النعم المذكورة بالذكر في هذا المقام؟

طبعا هذا في قوله الله -تعالى-: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّــورِ الأَيْمَــنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴾ لماذا هذه النعم بالذات؟ ونعم الله على بني إسرائيل كثيرة لا تعــد ولا تحــصى، ونسأل الله لنا ولكم التوفيق والسداد وحسن المقال وصادق الأفعال، الله أمين.

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه وتمسك بسنته إلى يوم الدين وبعد.

ففي هذه المحاضرة المباركة التي نلتقي فيها مع حضراتكم حول تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير -رحمه الله تعالى- وهذه هي الحلقة السابعة نتناول فيها:

خروج سيدنا موسى -عليه السلام- إلى ميقات ربه حتى يعود من الميقات إلى قومه وما يجري في هذا الأمر، وذلك من خلال بعض العناصر التي قُسمت عليها الآيات المباركة.

الموضوع الأول: عجلة موسى إلى ميقات ربه.

الموضوع الثاني: رجوع موسى -عليه السلام- من ميقات ربه غضبان أسفاً.

الموضوع الثالث: ملامة موسى لأخيه هارون -عليه السلام- في ضلال بني إسرائيل.

الموضوع الرابع: مراجعة موسى -عليه السلام- للسامري - لعنه الله- فيما فعل.

الموضوع الخامس والأخير: حكم الله على السامري جزاءَ جريمته.

وقبل تفصيل القول في هذه الموضوعات وهذه العناصر نستمع إلى الآيات المباركات من أخينا فليتفضل:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ العَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ القَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩١﴾ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الحَيَاةِ أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي اليَمِّ نَسْفاً ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴿٩٨﴾ ﴾ [طه: ٨٣- ٩٨].

الموضوع الأول: عجلة موسى إلى ميقات ربه:

- سبحانه وتعالى- عليم بكل شيء، لا إله إلا هو، وحده لا شريك له، في هذه الآيات الطيبات يُسجل الله ويذكر لنا تلك الوقائع عبر الطريق بعد أن تجاوز موسى -عليه السلام- ببني إسرائيل البحر، ذاهباً إلى ميقات

ربه كما واعد الله بني إسرائيل وموسى، وعرفنا أن هذا كان من النعم التي امتن الله بها على بني إسرائيل ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ المَنَّ وَالسَّلْوَى ﴾ [طـه: ٨٠]، فكان من النعم أن الله -تبارك وتعالى- واعدهم أن يذهبوا إلى هناك لينزل عليهم من نعمه وليفيض عليهم من كرمه حيث سيكلم موسى -عليه السلام- وينزل عليه التوراة هداية ورحمة لبني إسرائيل.

موسى -عليه السلام- كما سبقت الإشارة في إطالته الحديث- بعض الشيء- عندما قال الله له: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴿١٨﴾ ﴾ [طه: ١٧، ١٨]، وكان يكفي أن يقول: هي عصاي ولكن إطالته للحديث دلت على محبته وأنسه بربه - سبحانه وتعالى- ومن ذلك أنه وهو في طريقه إلى ميقات ربه لم يصبر أن يذهب مع القوم، بل تركهم يذهبون على طاقتهم وتعجل هو ليسارع إلى ربه - سبحانه وتعالى- مبالغة في الإرضاء له ومبالغة في نوال رضا الله -عز وجل- أكثر وأكثر، فترك هارون -عليه السلام- خليفة من بعده على بني إسرائيل ليرعى أمرهم، حتى يصل بهم إلى جانب الطور الأيمن وأوصاه ببني إسرائيل خيرًا وذهب موسى حتى وصل إلى مكان الميقات وهناك كلمه الله -عز وجل- وقال له: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴾ ما الذي جعلك تتعجل عن قومك وتتركهم خلفك ولم تبق معهم حتى تصل بهم إلى هنا؟ الله -عز وجل- يعلم كل شيء ولكن يجري الله الأمور على ما يعرف العباد، يسأل وموسى يجيب فيكون الكلام على حسب ما في نفس موسى لا على حسب ما علم الله منه، وهما لا يفترقان ولكن هذا يكون أوقع في إدارة القصة وفي حكايتها فيكون هذا على حسب ما تعود الناس في فهم الأحداث.

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾ ﴾ هم أولاء على أثري أي:مقبلون على أثري وماضون ورائي، فالأثر:هو ما يتركه الماشي خلفه بسبب وضع قدمه على الأرض أو التراب،فتلك العلامة التي يتركها قدم الإنسان عند المشي أو حافر الدابة أو خفها عند المشي هذا يسمى:أثر الشيء،يسمى بالأثر، قال: ﴿قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ على أثري أي:يتبعون أثري يأتون في طريقي، ورائي ويصلون -إن شاء الله- قريباً حسب معلومات موسى -عليه السلام- فأخبره الله -تعالى- بما كان لا يتوقع، بما كان لا يتحسب من قومه، ولا يظن فيهم ذلك، أخبره بخبر أغضبه وأحزنه: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ وهنا نلاحظ أنها أيام قليلة ترك موسى فيها قومه، حتى وصل إلى ميقات ربه وهم لا يزالون في الطريق فهي أيام قليلة تُعد على الأصابع يترك الراعي رعيته من بني إسرائيل أياماً قليلة وعليهم خليفة يَخلف الرسول الأصلي -عليه السلام- وإذا بهم يضلون هذا الضلال، وفتنا يعني: أوقعناهم في الفتنة والله- تعالى- لا يفعل هذا ابتداءً من عنده ولكن من سلك طريق شر بعدما سمع المواعظ ورأى الموانع الشرعية فإن الله -تعالى- يساعده على ما اختار ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾ ﴾ [الليل: ٩- ١٠]، فاختاروا اختياراً سيئاً قال لهم هارون -عليه السلام-: اجمعوا ما معكم من ذهب وكانوا عند خروجهم من مصر استعار كل واحد منهم من جيرانه ما عندهم من ذهب على أنه عارية يردونها مرة أخرى، فأخذوا الذهب وذهبوا بالليل وانصرفوا بذهب القبط فتعتبر سرقةً، ولذلك قال لهم هارون: اجمعوا هذا الذهب في حفيرة حتى يرجع إلينا موسى فيرى رأيه في هذا، ماذا نفعل به؟ فلا يعرف أحد لنفسه ذهباً إنما الذهب ذهب الكل إما أن يقسمه أو يرى فيه رأياً من خلال ما يوحى إليه ويحكم فيه بحكم الله - سبحانه وتعالى- كان فيهم رجل يقال له: السامري، قيل: كان من بني إسرائيل وقيل: كان من القبط ولكنه صحبهم في رحلتهم هذا تعلقاً بهم، خرج معهم وكان حينما نزل جبريل -عليه السلام- لهلاك فرعون وإغراقه، رأى السامري جبريل -عليه السلام- أو رأى ما يركبه من فرس أو شيء يشبه الفرس فرأى حافر الفرس على الأرض فأخذ من أثر الفرس- ويُعتبر أثر الرسول جبريل -عليه السلام- أي ما كان من أثر الفرس على الأرض- أخذ قبضة من التراب حيث أُلقي في روعه يومها أنه لو قبض قبضة من أثر الرسول- جبريل - عليه السلام- فألقاها في شيء وقال لها: كوني لكانت بأمر الله فأخذ هذه القبضة واحتفظ بها حتى ألقى بنو إسرائيل الذهب في هذه الحفيرة أي الحفرة الصغيرة، فألقى السامري أيضًا ما في يده، ودعا ربه - سبحانه

وتعالى- وأجابه الله إملاءً له وهكذا يشتد غضب الله -تعالى- على الظالم، فالسامري كان رجلاً فيه صلاح، وكان معه من الآيات التي بعثها الله في قلبه والإلهامات التي جعلته رجلاً صالحاً، وسمع من موسى ما سمع ولكن ترك كل ذلك، ورجع إلى أصله - كما قيل- إنه كان من قوم يعبدون البقر، أصل قومه قوم كانوا يعبدون البقر فانقلب إلى عقيدته الأولى، وصنع لهؤلاء عجلاً جسدًا لا روح فيه من هذا الذهب وأوحى إليهم أي: أفهمهم وعلمهم أن هذا إلهكم وإله موسى فأخذوا هذا العجل إلهاً من دون الله -عز وجل- فكانت فتنة عظيمة، السبب المباشر فيها: السامري، حيث قال الله -تعالى- ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ هو الذي صنع لهم إلهاً من ذهب على صورة عجل وأوهمهم أن هذا إله فقبلوا الكلام منه وقبلوا هذه العقيدة الباطلة ونسوا عقولهم ونسوا حقيقة الإله وعظمة الإله لم يقارنوا ولم يوازنوا بعقولهم ولم يفكروا ولا لحظة، وبالتالي سقطوا في هذه الفتنة، لما اختاروها ولم يرعوا ما نصحهم به هارون -عليه السلام- كما سيأتي الحديث في ذلك- لم يسمعوا لصوت الحق ولم يذكروا أن الله الحق الواحد - سبحانه وتعالى- قد أنجاهم من عدوهم وأنجاهم من البحر، وخلصهم من فرعون، لم يذكروا كل ذلك ونسوه وأرادوا عجلاً جسدًا إلهاً ظاهرًا أمامهم يمسونه ويحسونه بأيديهم ويرونه بأبصارهم فاتخذوا العجل من دون الله فكانت جريمة نكراء، فلما اختاروا هذا الله - تعالى- فتنهم به وأوقعه في قلوبهم.

كان هذا هو الموضوع الأول، وهو خروج موسى -عليه السلام- عاجلاً إلى ربه أو متعجلاً إلى ربه، وكان غرضه من ذلك أن يرضى عنه ربه أكثر وأكثر، فكان مقصوده حسناً ولكن لا نعيب على الأنبياء، وإنما الأنبياء بشر وحين يفكرون ويزنون الأمور بعقولهم فلابد أن تسقط منهم السقطات الدقيقة التي لا تعتبر ذنباً إلا في حق الأنبياء وموسى وإن تعجل لمرضات ربه إلا أنه ترك قومه ويعتبر في ميزان الله -تعالى- قصر إلى حد ما في مهمته حيث استخلفه الله على قومه فاستخلف هو أخاه هارون وكان ينبغي والأولى أن يبقى معهم ولا مانع من صدور مثل هذا من الأنبياء والمرسلين ولا ينقص من قدرهم شيئاً، فنبينا -صلى الله عليه وسلم- أعرض عن عبد الله بن أم مكتوم وعبس في وجهه محاولة منه أن يفوز بكبراء مكة وكبار قريش فلو أسلموا دخلت مكة كلها في الإسلام - حسب تقدير النبي -عليه الصلاة والسلام- لموقف الدعوة- ولكن كان عند الله أمر آخر فعاتبه الله وقال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١ ﴾ أَن جَاءَهُ الأَعْمَى ﴿٢ ﴾ ﴾ [عبس: ١، ٢].

الموضوع الثاني: رجوع موسى -عليه السلام- من ميقات ربه غضبان أسفاً:

وننتقل بهذا إلى الموضوع الثاني وهو: رجوع موسى من ميقات ربه غضبان آسفاً، وذلك بعد أن تلقى ألواح التوراة، كتب الله له ألواح التوراة بطريقة يعلمها الله - سبحانه وتعالى- وذكر ابن كثير -رحمه الله- أن جبريل أتى ورفع موسى إلى السماء الدنيا حتى سمع صرير الأقلام وهي تكتب الألواح كل هذا من الزيادات التي لا تؤثر في الموضوع الذي نتكلم فيه والعبرة التي تسوقها الآيات.

تلقى موسى الألواح وأخذها ورجع إلى قومه بسرعة متعجلاً أيضاً، ولكنه غاضب وأسيف، الغضب: هو انفعال في النفس يكون مما يسوء الإنسان، وربما لا يُخيفه، شيء يسيئه ولكن لا يخيفه، فهذا الإنسان يغضب مما أساء إليه وإن كان أمرًا غير مخيف، أما الأسى: فهو الحزن وهو انفعال في النفس أيضًا، لكن يكون من أثر ما يكره الإنسان، يرى الإنسان ما يكرهه فيأسف لذلك، ويحزن، وقول الناس لبعضهم: أنا آسف يعني: أنا حزين لخطئي في حقك أشاطرك الأحزان فيما أحزنتك به فالأسف هو الحزن.

رجع موسى -عليه السلام- غضبان من قومه أنهم لم يتمسكوا بالإله الحق وعدلوا عنه إلى إله باطل أو إلى باطل يقولون عنه: إنه إله، غضب من قومه أنهم تركوا الإله الواحد وأشركوا معه غيره مما لا يستحق شيئًا من الألوهية ولا مما دونها فقد عبدوا عجلاً حيواناً ليس إنساناً، فكان ضلالهم مع فرعون أخف وطأة من ضلالهم مع العجل ثم إنه ليس عجلاً حقيقياً إنه صنم إنه وثن ليس عجلاً حقيقياً فلذلك كان ضلالهم هذه المرة ضلالاً عظيماً مغضباً لموسى -عليه السلام- وكان أسفاً يعني: حزينا لأن قومه لم يتبعوه ولم يكونوا على طريقه ولم يستجيبوا

للموعظة التي ألقاها هارون ولا للعهد الذي عهده إليهم موسى -عليه السلام- عن ربه - سبحانه وتعالى- فرجع بهذا الغضب وذاك الأسى ليقول لهم: يا قومي ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً ﴾، وهذا سؤال فيه استنكار أي: إن الله وعدكم وعداً حسناً، فلماذا تركتموه؟ لماذا نسيتموه؟ لماذا لم تنتظروا؟ ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَن ﴾ وهو ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ ﴾ وهذا الوعد لا يستطيع تحقيق مثله ذلكم العجل ولا أقل منه ولا أدنى ولا مقارنة في هذا بالمرة فإلهكم يتكلم ربكم يوحي إلى الأنبياء الله -عز وجل- يُشَرِّع وهذا عجل لا يملك ضراً ولا نفعاً، ولا يرجع إليكم قولاً، فقال لهم: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَن ﴾ لماذا فعلتم هذا ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ العَهْدُ ﴾ استبطأتم واستأخرتم عهد الله ووعده الله، هل تأخر الله عليكم بوعده ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ العَهْدُ ﴾ أم: بمعنى بل، بل أردتم ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ يعني: بل أردتم ولكنكم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم ﴿ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴾ بفعلكم هذا، سلكتم مسلك من يريد أن ينزل الله وأن يحل الله عليه غضبه وسخطه، ممثلاً في عقوبة عظيمة وعذاب أليم، وما كان لكم أن تفعلوا هذا ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ العَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴾ وهنا ينسب الموعد له لنفسه هو مع أنه قال في البداية ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ ﴾ لأن موسى ما كان له أن يعد قومه وهو رسول إلا أن يكون الوعد من عند الله -تبارك وتعالى- ولأن الذي وعد أصلاً هو الله وموسى -عليه السلام- هو الذي بلغ قومه عن الله هذا الموعد ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴾.

قاموا يعتذرون إليه باعتذار واهٍ باعتذار لا حقيقة فيه ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَ ﴾ وقرأت: بِمُلْكِنا، وقرأت: بِمِلْكِنا، والثلاثة قراءات بمعنى واحد، ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَ ﴾ أي: بإرادتنا وطوعنا واختيارنا ما اخترنا ذلك، وكأنهم يقولون: أجبرنا على خُلْف الوعد، واضطررنا لذلك، ولكن هذا ليس بحق، ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ولَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ القَوْمِ ﴾ أي حملنا أحمالاً ثقيلة من زينة القبط، من الذهب والفضة ونحو ذلك، وكأن أحداً أوصاهم بهذا وليس هو موسى -عليه السلام- ولا هارون فليس لنبي أن يوصي بسرقة ولا بخيانة أمانة، ولا لنبي أن يفعل ذلك، إنما يبدو أن بعضهم أوصى بعضًا بهذا، ولعل بعض المغرضين منهم، وبعض الذين يشعرون بالظلم قالوا: ننتقم من آل فرعون فنأخذ ما عندهم من زينة ولذلك هنا يقولون: ﴿حُمِّلْنَ ﴾، أي: حملنا غيرنا، لم نحمل بأنفسنا وإنما حملنا غيرنا ﴿حُمِّلْنَا أَوْزَار ﴾ ولم يجبروا على هذا حتى وإن قال لهم أحد هذا فليس الإنسان مجبرًا على أخذ مال الغير، ليسوا في هذا الوضع مكرهين، ﴿ولَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ القَوْمِ ﴾ والوزر: هو الحمل الثقيل، وسمي الذنب وزراً لأنه حمل ثقيل، مهما كان في عين الإنسان صغيرًا، ومهما كان يشعر به الإنسان أنه خفيف إلا أنه عند الله عظيم، ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٥]، ﴿ولَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ القَوْمِ فَقَذَفْنَاهَ ﴾ أي: في الحفرة كما قال لنا هارون وقيل: سول لهم السامري هذا، ﴿فَقَذَفْنَاهَ ﴾ أي: ألقيناها في الحفرة، ﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾، السامري فعل ذلك أيضًا ولكن ماذا ألقى السامري، السامري ألقى ما قبضه من أثر الرسول أي: من تراب من أثر جبريل -عليه السلام- أي من المكان الذي كان فيه، وألهم بذلك، وأخذ هذه القبضة، والقبضة تكون بالكف وتكون بالأصابع أو ببعضها، فقد تكون القبضة بأصبعين أخذ هذه القبضة من التراب وألقاها ودعا الله -تعالى- وسأل هارون أن يدعو له أن تستجاب دعوته فدعا له هارون دون أن يعرف ما دعوته، فليس الإنسان مكلفاً أن يسأل من سأله الدعاء ماذا تريد، يقول بعض الناس: نسألكم الدعاء، لا أقول له: ماذا تريد؟ ماذا عندك من المشاكل أدعو لك فيها؟ لا.. إنما أدعو له اللهم اقض له حاجته. فدعا له هارون أن يقضي الله له حاجته على ما نفسه فهو أدرى بحاجته وما قصد هارون إلا خيراً، بينما كان السامري يضمر الشر، فألقى السامري ما في يده، قيل: تحول الذهب بالدعاء إلى عجل وقلنا: هذا من إملاء الله للسامري الله -تعالى- قد يهيء ويساعد بعض الناس على معصيتهم ذلك من شدة غضبه عليهم- نعوذ بالله- والمؤمن الطائع لا يوفق لمعصية، الله -تعالى- يجعل في طريقه من الموانع ما يصرفه مهما ضعفت نفسه أو دعته المغريات فالله -تعالى- يحفظه كما قال الله -تعالى- عن يوسف -عليه السلام-: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ [يوسف: ٢٤]، وقال يوسف: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الجَاهِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣٣]، بالبشرية قد يميل الإنسان إلى المخالفة إلى المعصية إلى الشهوة، ولكنَّ العصمة من عندك يا رب، فالله تعالى قد يمنع بعض المؤمنين من المعاصي مهما

اشتهتها أنفسهم وربما ييسر لبعض الكافرين العاصين المعاصي التي يريدونها من باب الإملاء لهم، والإمهال لهم لأنه ساق لهم المواعظ فلم يتعظوا وبيَّن لهم الحق فلم يتبعوا.

وذكر الإمام ابن كثير -رحمه الله تعالى- عن ابن أبي حاتم -رحمه الله تعالى- عن ابن عباس -رضي الله عنه- أن هارون -عليه السلام- مرَّ بالسامري وهو ينحت العجل فقال له: ما تصنع؟ قال: أصنع ما يضر ولا ينفع فقال له هارون: اللهم اعطه ما سأل على ما في نفسه، ولم يسأل ماذا يصنع بالضبط ولم يتبين هذا الأمر لعله من باب ترك ما لا يعنيه أو عدم التدخل في أمور الآخرين حيث ما كان يظن أن هذا العمل يصل إلى هذه الفتنة ببني إسرائيل.

وكان بنو إسرائيل قد اعتادوا في مصر مع الفراعنة عبادة العجل وكان لهم عجل اسمه: إيبيس يعبدونه من ضمن الآلهة، فلعل السامري اختار هذه الصورة اختار هذا الشكل لتعود بني إسرائيل على ذلك في مصر مع الفراعنة ولأنه كان من أصل ومن قوم يعبدون البقر، فهذه هي الفكرة التي جاءته ليصنع عليها عجلاً ليوحي لبني إسرائيل أن هذا إلههم ليعبدوه من دون الله -عز وجل- ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ ﴾ جسداً لا روح فيه لأنه لا ينفخ الروح في الأجساد إلا الله - سبحانه وتعالى- وذلك هو السر الذي يميز إلهنا رب العالمين عن كل من ادُّعي أنه إله، وتلك هي الحجة التي احتج بها إبراهيم -عليه السلام- على النمروذ عليه اللعنة قال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، قال النمروزذ: ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، ظن أن الإحياء والإماتة مسألة قتل أو إطعام وتوفير أسباب الحياة أو أسباب استمرار الحياة فجاء بشخصين وأجاعهما حتى أشرفا على الموت من الجوع ثم أطعم أحدهما وترك الآخر يموت جوعاً فقال: هكذا أحييت هذا وأمت ذاك. فرأى إبراهيم أن النمروذ لا يفهم ولا يعقل تملكه الغباء والسفه فانتقل به من هذه الآية التي يجادل فيها بالباطل إلى آية لا يملك فيها كلاماً، ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ المَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] بُهتَ أي: قطع قطع كلامه قطعت حجته فلم يبدل كلاماً مع إبراهيم بعد ذلك، لكن هذا كان فهمه عن الإحياء والإماته، إنما الإحياء والإماتة أمر آخر أن يكون جسد ميتاً أو لا حركة فيه كما كان جسد آدم أولاً جسداً من طين ثم نفخ الله فيه من روحه، أو كان جسد الرجل الذي قُتل في بني إسرائيل فبعث الله فيه الحياة ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ المَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٣]، قام الميت المقتول حياً- بإذن الله -تعالى- الله -تعالى- رد إليه سر حياة حتى يقوم ويخبر عن قاتله، ويفصل في القضية التي كانت في بني إسرائيل، هذا هو الإحياء: أن يحيى الموات، شيء ميت جسد لا حركة فيه، ويوهب الحياة، أو أنه يكون جسداً متحركاً ثم تسلب منه الحياة سلباً مع توفر الطعام والشراب والراحة وكل أسباب استمرار الحياة متوفرة ومحيطة به، ومع ذلك يموت، كما نرى الموت فيما بيننا يموت السليم قبل المريض، ويموت الصغير قبل الكبير، ويموت من يؤمل في الدنيا، قبل من يؤمل في الموت، ويموت الرجل على فراشه ولا يموت المحارب في الحرب وهكذا ﴿وَيَأْتِيهِ المَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ [الرعد: ١٧]، ذلك في النار والله- تعالى- يمنع عنه الموت مع توفر أسباب الموت.

فهذا من خصائص الله -تبارك وتعالى- الإحياء والإماتة، أما السامري فلم يستطع أكثر من صنع جسد عجل، ﴿لَّهُ خُوَارٌ ﴾ أي له صوت والخوار صوت البقر، يقال له: خوار، وذلك أنه جعله بوضع معين بحيث إذا هبت الريح دخلت في دبر العجل من الخلف فخرجت من فمه فأحدثت صفيرًا فيوحي بهذا إلى بني إسرائيل إيحاءً نفسيًا أن العجل حي ويحدث صوتًا ورغاءً فيزدادون أو فيزدادوا يقيناً بهذا الإله المزعوم ويزدادوا ضلالاً بعبادته وبحبه، حتى وقع العجل في قلوب بني إسرائيل لم يعبدوه مجرد عبادة أو لفترة أو نحو ذلك إنما أحبوه حبًا شديدًا، كما قال تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [البقرة: ٩٣]، وصل العجل في قلوب بني إسرائيل أو في عبادتهم وتقديسهم إلى أن سكن القلب، أن سكن القلب كأن شيئًا من الشراب شربه الإنسان فصار في جوفه: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [البقرة: ٩٣].

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴾ بعد أن صنع العجل علَّمَ بني إسرائيل هذا العلم الباطل وهذا الشرك المحض الخالص قال: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى ﴾ وهذا من الطغيان لم يقــل: هــذا إلهكم فقط بل، هو إله نبيكم موسى –عليه السلام– وذلك حتى يقنعهم بالعجل أكثر وأكثر حتى يعطيهم يقينـــا أن هذا هو إله موسى إذن: من باب الأولى يكون إلهاً لكم ﴿فَنَسِيَ ﴾ أي فنسي السامري الفاعل هنا محذوف، الفاعل في فنسي محذوف، ولذلك يحتمل فيه قولان، أن يكون الناسي هنا هو السامري، فنسي بمعنى نسي ما كان معــه من هدى من قبل ذلك، أو نسي بمعنى: ضيع فالنسيان والسهو يطلق على التضييع كما قــال تعــالى: ﴿فَوَيْــلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الماعون: ٤، ٥]، يعني: الذين هم لصلاتهم مضيعون، يقول: الآن أصلي، بعد وقت قصير أصلي بعد أن أنتهي مما في يدي أصلي حتى يؤذن للفريضة التاليــة، ويضيع الفريضة الأولى، وإن كان ناوياً أن يصليها وحريصاً على صلاتها وأدائها ولكنه أجلها فنسيها وسها عنها فضيعها، لأن النسيان هنا سبب للتضييع فيطلق عليه من إطلاق السبب على المسبب فإما أنه نسي ما كان عليــه من هدى وإما أنه نسي بمعنى: ضيع ما كان معه من هدى، والمعنيان مقبولان ولا يتعارضان، وإما أن يكــون الفاعل للنسيان، موسى –عليه السلام– فنسي موسى، وهذا يكون من تمام كلام السامري، أن يقول السامري لبني إسرائيل: هذا إلهكم وإله موسى فنسي موسى أن يذكركم به، وتعجل وراح يبحث عن هذا الإله عند جبل الطــور فأوهمهم أن موسى يعرف أن هذا العجل هو الإله، هو الرب الذي أنجاكم وكلمكم وواعدكم ومَنَّ عليكم، هذا هو، ولكن موسى نسي أن مكانه هنا ونسي أن يذكركم به ويعلمكم إياه، وذهب مُسرعًا يتلمس العجل عند جبل الطور وهذا من الإمعان في الضلال والافتراء على نبي الله موسى – عليه السلام–.

وهنا نلاحظ في اعتذار بني إسرائيل عن جريمتهم أنه اعتذار واهٍ ويبدو أن الذين ردوا علــى موســى قــوم يعتبرون أصلح بني إسرائيل في ذلك الوقت، هم ضلوا مع الضالين ولكن كانوا في أصلهم طيبين مؤمنين فلمــا غلبتهم الكثرة بعبادة العجل انخرطوا فيهم واختلطوا بهم وعملوا بعملهم ولذلك قالوا: ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَــا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾، اعتذروا اعتذاراً واهياً، ﴿حُمِّلْــنَ ﴾ يعنـــي: سُرقنا، أمرنا بسرقة ذهب وَحُلِّي القبط، وكأنهم يندمون على هذا العمل، فيعتذرون عن سرقة، والعذر هو أنهــم أشركوا بالله –عز وجل– يعني: الذي دفعنا إلى ذلك هو سرقتنا وذلك مثّل له البعض بما ورد عن ابن عمــر – رضي الله تعالى عنهما– في الحديث الصحيح:(أن رجلاً قابله في موسم حج فسأله عن حكم قتل الــذباب فــي الحرم فقال: من أين الرجل؟ فقال: من العراق. قال: انظروا أيها الناس إلى أهل العراق أهــدروا دم الحــسين – عليه رضوان الله– ويسألون عن حكم دم الذباب في الحرم) ففعل الكبيرة الشنيعة ولم يشعر بها ولم يجرمها فــي حق نفسه ويسأل عن الصغيرة التي ربما لا قيمة لها، فهؤلاء سُرِّقُوا سَرقة كبيرة من الكبائر أما الشرك فلو ماتوا عليه فهو كفر ونار وهلاك ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَّشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٨].

الله –تبارك وتعالى– أجرى على لسان موسى –عليه السلام– دليلاً عقلياً يوبخ به بني إسرائيل في الجريمــة التي فعلوها، وعلى الذنب الذي ارتكبوه قال: ﴿أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَــراً وَلاَ نَفْــع ﴾ يعني: كان ينبغي عليهم أن يشعروا أن هذا العجل لا يملك ضرًا ولا نفعًا لا لنفسه ولا لغيره، وأنه لا حياة فيــه، ولا كلام له فلا يرد عليهم قولاً لو كلموه لا يسمعهم ولا يجيبهم ولا هو يكلمهم من نفسه وهذا فيه إشارة إلى أن الإله الحق لابد أن يكون متكلمًا فكلام الله بيننا في القرآن الكريم وكلام الله –تعالى– للأمم السابقة فــي الكتــب السابقة وتكليم الله لموسى –عليه السلام– ولنبينا –صلى الله عليه وسلم– ليلة المعراج كل هذا دليل على أن مــن نعبده إله حق إله يتكلم – سبحانه وتعالى– كلاماً يليق بذاته –عز وجل–.

الموضوع الثالث: ملامة موسى لأخيه هارون –عليه السلام– في ضلال بني إسرائيل:

ثم التفت موسى -عليه السلام- إلى أخيه هارون- وهذا هو الموقف الثالث والموضوع الثالث- يلومه على ما قصر- في نظر موسى- في حق بني إسرائيل أنه قصر في هذه الرعية ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ ﴾ قبل أن يحكي الله ويقص ملامة سيدنا موسى -عليه السلام- لهارون -عليه السلام- عَـذَرَ لهارون أولاً، ذكر الله -تعالى- ما لم يحضره وما لم يشهده موسى من هارون وذلك حين اتخذ بنو إسرائيل العجل فهارون لم يسكت قاومهم وذكرهم ونصحهم حتى كادوا يقتلونه هو يكلمهم، بالحسنى ويعظهم بالموعظة الحسنة وهم يحاولون قتله، كادوا يقتلوه وصار القوم فريقين فريقًا يؤيد هارون وفريقًا لا يؤيده يعارضه ويضاده فبنو إسرائيل ستفترق بعد أن تركهم موسى أمة واحدة وجماعة واحدة ستفترق فسكت هارون حتى يرجع موسى لقومه ويرى فيهم رأيه ولئلا يقتلوه فأراد أن ينجو من خطرهم فربنا يعذر لهارون أولاً فيقول: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ﴾ ليس هذه حقيقة ولا هذا إله إنما فتنتم به ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾ اتبعوني لأني نبي مع موسى وأطيعوا أمري لأني نبي أتكلم مع موسى بالوحي الذي يوحي الله -تبارك وتعالى- به، فكان ردهم عليه ردًا قاسيًا ردًا حادًا ﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴾ لن نبرح أي: لن نترك العكوف على هذا الإله وهذا العجل والعكوف ومنه الاعتكاف وهو الانقطاع للعبادة، أي: سننقطع ونستمر على عبادة هذا العجل حتى يرجع إلينا موسى.

إذن: هارون -عليه السلام- أدى دوره، ولكن لم يشهد موسى هذا المشهد فلما رجع ووجد القوم هكذا، وكلمهم في أمر جريمتهم التفت إلى أمر هارون ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ ﴾ ما الذي منعك يا هارون حين رأيتهم ضلوا هكذا أن تأتي إلي لتخبرني بهذا لأرجع إليهم وأقاومهم؟ فهارون ما كان ليترك بني إسرائيل وينصرف إلى موسى فسيتم المراد من الشر، وما استطاع مقاومتهم ولا صدهم، ومن غضب موسى -عليه السلام- وقد عرفنا أنه شديد الغضب في الحق تثور ثورته- أخذ بشعر رأس أخيه وأخذ بشعر لحيته، وهذا يدل على أن هارون كان بلحية ومن باب الأولى أن موسى كان ذا لحية أيضًا، وهذه شيمة الرجال عموماً وخاصة الأنبياء هم أولى الناس بهذا، هذه فطرة في الرجال كما خلقهم الله على ذلك وجاء الشرع في كل زمان يحث على إعفائها وتركها ولذلك نرى رجال الدين في كل شريعة مبقون على اللحية محتفظون بها وإن قصر في ذلك بقية الأتباع، فأخذ موسى برأس ولحية هارون من باب غضبه عليه أنه لم يحفظ بني إسرائيل كما ينبغي.

قال هارون له ﴿يَا بْنَؤُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي ﴾ يا ابن أم، لماذا لم يقل: يا ابن أبي؟ ولماذا لم يقل: يا أخي؟ ذكر له الصلة التي بينهما والتي مضمونها الرحمة، والرأفة أنا وأنت كنا في رحم أمٍّ واحدة، ففيها العطف والحنان والرحمة فهي رمز لذلك فكأنه يسترحمه بذكر أمه يا ابن أم وقرأت: يا ابن أمِ والمعنى واحد، ﴿يَا بْنَؤُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي ﴾لا تعنفني ولا تعاقبني هكذا، اسمع لعذري، واعتذر له هارون: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ إني خشيت أي: قدرت وخفت هذا المقام فالخشية- كما قلنا قبل ذلك- هي: تقدير المواقف حق قدرها وإعطاؤها حقها، في التقدير: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ لو ظل يقاومهم لافترق بني إسرائيل إلى فريقين: فريق مؤيد لهارون على التوحيد وبطلان هذا العجل، وفريق مؤيد للعجل والسامري فخشي هارون أن يفرق الأمة من بعد موسى فرضي اجتماعهم على ضلالة خير من أن يفرقهم فصبر حتى يرجع موسى على ذلك، ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ أي: أن تقول: إنك لم ترقب قولي ولم تتبع قولي في بني إسرائيل حين قلت لك: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾، هكذا اعتذر هارون -عليه السلام- وينتهي هذا الموقف بين موسى وهارون ليلتفت موسى -عليه السلام- إلى السامري- صاحب الجريمة الشنعاء- فهذا هو أس الفساد وهو سبب هذه الجريمة وفاعلها وهنا مراجعة موسى للسامري كأنه يحقق معه فيما فعل قال: أي: موسى -عليه السلام-: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾ اسمه: السامري نسبة إلى قبيلة كانت بفلسطين، وقيل: نسبة إلى قرية كانت بمصر، إذن: أصله فلسطيني أو أصله مصري، قبطي، وقيل غير ذلك، وقالوا: منسوب لأن اسمه على وزن النسبة- سامري، مكي، مدني- وهكذا، مصري، وقيل: هو غير منسوب اسمه هكذا سامري بغير نسبة، مثل علي، وكرسي، الياء فيها ليست للنسبة إنما الاسم هكذا، فاسمه غير منسوب سامري،

وهذا كلقب ولكن اسمه الحقيقي: موسى بن ظفر، وقيل: اسمه هارون، وهذا كله لا يعني في شيء إنما هو من باب بيان المبهمات في القرآن وربما تعجب النفس ولكن لا تؤثر في العبرة المسوقة خلال الآيات. وللعلم هناك طائفة من اليهود اسمها: السامرة، وهناك قرية اسمها: قرية السامريين، السامري ليس من هذه الطائفة وليس من هذه القرية إنما تشابهت الأسماء والسامري كان قبلهما.

قال موسى: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾ أي: ما شأنك؟ ما أمرك؟ على حسب الحال أي: ما جريمتك؟وما مصيبتك التي فعلتها هذه؟ قال مجيباً- لعنه الله-: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ أي رأيت ما لم يرى الناس أو علمت بما لم يعلم الناس، فبصر تأتي بمعنى البصر وبمعنى البصيرة والعلم، ككلمة رأى ومن أبصر شيئاً فقد علم به، فالمعنيان ملتقيان أيضًا ولا تعارض بينهما، ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ وذلك أنه رأى أثر الرسول جبريل -عليه السلام- وهو نازل لهلاك فرعون، أو وهو نازل لأخذ موسى، ليتلقى التوراة في السماء ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ ﴿وَكَذَلِكَ ﴾ يعني: هكذا بهذه الطريقة ﴿سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ أن أفعل ذلك، حيث كان- كما عرفنا- يُلقى في روعه يعني: يشعر أنه لو أخذ قبضة من هنا ففعل بها كذا لكان كذا، ونسي المواعظ والعلم الذي كان عليه والهدى الذي كان معه، ﴿فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ وهنا يحكم الله -تعالى- على السامري، بالحكم الأخير: ﴿قَالَ فَاذْهَبْ ﴾ يقول له موسى -عليه السلام- طبعًا ناطقاً بحكم الله -عز وجل-: ﴿فَاذْهَبْ ﴾ يعني: انصرف من هنا فطرده من جماعة بني إسرائيل- الصحبة التي كان معها والجماعة التي أحبها وأغواها فيما بعد- ينحرم من صحبتها ومن الكينونة فيهم، فاذهب: طرد لهذا الرجل لأنه أوقع القوم في فتنة عظيمة ولعله يؤخذ من هذا أن الفتانين ينبغي أن يبعدوا عن الناس فتكون القوة بين المسلمين آخذة على يد المفسدين حتى لا تَغْرق السفينة بالجميع فلو أنزل الله -تعالى- غضبه على السامري وهو في بني إسرائيل لأنزل غضبه على الجميع ولكن لأن هذه الأمة مُعَدة لتلقي شريعة قادمة لم يسمعوا التوراة بعد فاحتفظ الله – تعالى- بالأمة لأنها مضللة في هذا الموقع وطرد السامري.

فاذهب، ثم عاقبه عاقبه من جنس العمل والجزاء عند الله – تعالى- والجزاء عند الله -تعالى- من جنس العمل بالخير والشر دائماً وهذا من منتهى العدل عند الله – تبارك وتعالى- ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الحَيَاةِ أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ ﴾ كان يمكن أن يقضي الله عليه بالموت ولكن لا... يعاقب في الدنيا أولاً ليكون عبرة لبني إسرائيل لعلهم يعتبرون، فأبقى الله له حياته ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي الحَيَاةِ ﴾ فحياته ممتدة ﴿أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ ﴾ يعني: إذا رآك الناس ورأيتهم أن تقول لهم: لا يمسني أحد وأن يقول الناس لك: لا تمسنا، فالناس يتمنعون عنه، وهو يتمنع عن الناس، لا يطيق لمس الناس ولا يطيق الناس لمسه، فهو كالشيء الذي يصيب الناس بالعدوى والمرض فيخاف الناس من لمسه، وهو يُضرٌ بلمس الناس – سبحان الله- مع أن الناس أهل عافية وهو صاحب مرض ولكن لا يطيق لمس الناس وذكر بعض المفسرين أنه لا مساس يعني: لا قرب ممنوع الاقتراب يعني لا تقربنا ولا تقربونا هو يقول للناس: لا أحد يقربني ويقول له الناس إذا رأوه: لا تقربنا، فيعيش هكذا وحيدًا طريدًا يعيش بعيدًا عن الناس رغم أنهم من حوله لكن لا يمسه أحد ولا يمس أحداً إذن: لن يتعامل مع أحد ولن يتعامل معه أحد قالوا: ذلك جزاءً له لأنه مس ما لا يحق له أن يمس فأخذ وقبض قبضة من أثر الرسول ما كان له أن يفعل ذلك لأنه لم يؤذن له في ذلك وليس عنده دليل ولا علم يتبعه في هذا الأمر، فلما قبض قبضة من أثر الرسول بغير دليل وبغير شرع وبغير إذن من الله، الله – تعالى- حكم عليه أنه لا مساس، ويذكر في كتب بني إسرائيل في ذلك أنه أصيب بمرض خطير، مرض منفر لا يمسه الناس ولا هو يخالط الناس حتى لا يصيبهم ولا يصابون منه بهذا الأذى وبهذا المرض.

وهكذا يقضي الله -تعالى- بحكمه في المشركين، وفي المضللين، ففي وضع السامري وفي هذه الكلمة "لا مساس" عبرة لمن أراد أن يعتبر أن الشرك جريمة وخيمة وأن فتنة العباد عن ربهم – سبحانه وتعالى- جريرة عظيمة لا ينبغي أبداً لإنسان عاقل أن تسول له نفسه أن يفعل ذلك فالله- تعالى- توعد وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ [البروج: ١٠] أصل الآية وأصل

الكلام: إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق، فتنوهم عن ربهم، صرفوهم عن عبادة الله بالمغريات والمخوفات وما إلى ذلك ولكن من رحمة الله – تبارك وتعالى– أن اعترض بين الجريمة وبين العقوبة بفتح باب الرحمة، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُو ﴾ [البروج: ١٠]، وذلك ليفتح باب التوبة لمن وقع في هذا الذنب ولا تزال عنده بقية حياة، فعليه أن يتوب إلى الله وأن يرجع لكي يتوب الله – تعالى– عليه، ويغفر له ذلته العظيمة مهما تعاظمت ومهما فتن فيما سبق من الناس لو أنه تاب إلى الله وأخذ بشريعة الله فإن الله – تعالى– يتوب عليه، ويقبل عليه برحمته ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣]، نسأل الله –تبارك وتعالى– أن يغفر لنا وأن يرحمنا وأن يثبتنا على توحيده – سبحانه وتعالى– وأن يعيذنا من الشرك به مما نعلمه ومما لا نعلمه، حتى نلقاه وهو راضٍ عنا غير غضبان، وصل الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

إجابات الحلقة السابقة:

كان السؤال الأول: ما معنى قوله الله –تعالى– ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ [الدخان: ٢٣]، وما حكمة خروج موسى إسراءً؟

كانت الإجابة الإسراء هو المشي بالليل والحكمة من خروج موسى إسراءً أن الله قادر على أن يأمر موسى بالخروج مع بني إسرائيل نهاراً جهاراً لا يخشى شيئاً لأن الله قادر على حمايتهم بيد أن الله يريد أن يعود عباده أن يتبعوا الأسباب في الأرض حتى إذا تعطلت الأسباب رفعوا أيديهم ودعوا الله ولكنها حكمة بالغة يتجلى فيها أمران:

الأول: رحمة الله بموسى ومن معه فكأن الله أراد أن يفاديهم شدة المواجهة مع فرعون لو خرجوا بالنهار.

ثانيًا: لطف من الله وإمهال لفرعون لعله يتوب ويرجع.

إجابة صحيحة ونشكر الإخوة والأخوات المشاركين في هذه الإجابات.

السؤال الثاني: اذكر أقوال السلف في المن والسلوى وكيف نجمع بينهما؟

وكانت الإجابة:

المن والسلوى طعام وشراب وحلاوة وغذاء تكفل الله – تعالى– به لم تشارك فيه يد بشر، فالمن كما ذكر ابن كثير عن المفسرين من السلف ذكر عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: «كان المن ينزل عليهم من الأشجار» وذكر غيره أنها: «كانت أشجار الزنجبيل» أياً كان الأمر، فكان ينزل المن على الأشجار مثل الندى فيغدون في الصباح فيأكلون منه ما يشاءون وذكر ابن كثير أيضًا: عن قتادة : «أن هذا المن كان ينزل كسقوط الثلج أشد بياضاً من اللبن وأحلى مذاقاً من العسل» وذكر ابن الربيع بن أنس: «أنه شراب كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ويشربونه» وقال عامر الشعبي: «عسلكم هذا أي الذي نأكله نحن جزء من سبعين جزءًا من المن».

الجمع بين هذه الأقوال ما عقبه ابن كثير: «من أن هذه الأقوال متقاربة فهو كل ما امتن الله بـه علـى بنـي إسرائيل من طعام أو شراب وغير ذلك مما ليس لهم فيه عمل ولا كد» يقول ابن كثير: «فالمن مشهور إن أكـل وحده كان طعاماً يشبع من الجوع وحلاوة وإن مزج مع الماء صار شرابًا طيبًا وإن ركب مع غيره صار نوعًـا آخر».

السلوى: نوع آخر من الطعام، قال ابن عباس فيما رواه عن علي بن أبي طلحة: «طائر شبيه بالسمان» وقاله كذلك مجاهد والشعبي والضحاك والحسن وكثير من السلف وقال عكرمة: «هو كطير يكون بالجنة أكبـر مـن العصفور» وقال البعض: «هو كالحمام ولكنه لذيذ الطعم شهي المذاق».

ما شاء الله –تعالى– نسأل الله أن يرزقنا في الجنة، إجابات وافية ومشكورة وجهود طيبة تبشر بالخير إن شاء الله.

السؤال الثالث: ما حكمة تخصيص النعم المذكورة في هذا المقام؟

وكانت الإجابة:

أن هذه النعم تشمل جميع ما يحتاجه بنو إسرائيل فالله قد أعطاهم غذاء الروح ونظام الحياة في التوراة وغذاء البدن من طعام وشراب وكساء وماديات في المن والسلوى وأيضًا السلامة من العدو في إنجائهم مـن فرعـون وبطشه، فقال لهم متناً عليهم مؤذناً لهم ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلاَ تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَـضَبِي وَمَـن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴾ [طه: ٨١]

نعم، ونضيف إلى ذلك أن هذه النعم كانت أقرب النعم إلى بني إسرائيل ﴿قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَـدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ المَنَّ وَالسَّلْوَى ﴾ [طه: ٨٠] فكانت أقرب النعم إلى بني إسرائيل فكانت لا تزال في حسهم ولا تزال في مذاقهم، مثلها لا ينسى لقرب العهد بها، نشكر الإخوة والأخوات على هذه الإجابات التي تفضلوا بها ونسأل الله –تعالى– أن ينفعنا وإياهم بما علمنا وأن يعلمنا ما ينفعنا.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ما رأيك في بعض من الإخوان يقول: إنه يرى الرسول –عليـه الـصلاة والسلام– مباشرة يقظة بدون رؤيا منامية، يأخذ منه الأذكار وبعض الأدعية؟ هل يجوز هذا أم لا يجوز؟

رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بشر بنص القرآن الكريم وبإقراره –صلى الله عليه وسلم– فيما أوحى الله إليه ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ [الكهف: ١١٠] ولذلك تجري عليه من سنن الله – تبارك وتعالى– مـا يجري على البشر ومن ذلك الموت، مات النبي –صلى الله عليه وسلم– بالنسبة لنا هو عند ربه حي حياة يعلمها الله –عز وجل– ولكنها حياة لا تمكننا من المكالمة أو المحادثة معه فلا نستطيع أن نكلمه فيسمعنا فيجيبنا فـضلاً عن أن نراه يقظة إنما الذي صح عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أن الواحد من الأمة قد يرى النبي –صلى الله عليه وسلم– في المنام ومن رآه في المنام فقد رآه حقاً فإن الشيطان لا يتمثل بصورة وهيئة رسـول الله –عليـه الصلاة والسلام– إذن: لابد أن يكون ذلك منامًا. ثانيًا: لابد أن يكون من يراه في هيئة النبي –صـلى الله عليـه وسلم– وفي صورته المعروفة من خلال السنة الشريفة، التي وصفت خلق رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من طول قامته طولاً غير بائن من احمرار وجهه أو كان أبيض مشرب بحمرة، كان عظيم وكث اللحية وهكذا كان

جميلاً -عليه الصلاة والسلام- كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فلو رأى صورة مشابهة وأمرته بمنكر فليس هذا هو رسول الله -عليه الصلاة والسلام- أو ينهى عن معروف فهذا ليس هو رأى صورة مخالفة ليس هو إنما قد يكون هذا شيطان تلبس بهذه الصورة الممثلة أو أنها رؤيا وفيها إشارة إلى السنة ليست هي رسول الله -عليه الصلاة والسلام- نفسه ولكن إشارة إلى السنة، يكون هو مقصراً في السنة مثلا فيرى النبي -عليه الصلاة والسلام- حليقاً أو بصورة غير الصورة المعروفة فلعل في دينه نقصاً وفي اتباعه للسنة قصورًا فعليه أن يجاهد نفسه في هذا الباب. أما رؤية النبي -صلى الله عليه وسلم- رؤية شريفة فتكون مناماً وتكون بالهيئة الكاملة المعروفة برسول الله -عليه الصلاة والسلام- كما بينتها السنة الصحيحة.

أما رؤيته يقظة وحقيقة وفي الحياة فهذا غير واقع بالمرة أولاً: ليس هناك دليل شرعي على ذلك يقول أو يجيز أن يرى رسول الله -عليه الصلاة والسلام- حيًا بعد أن مات في عالمنا هذا. ثانيًا: لأنه بالواقع لم يحدث لمن هو أمثل منا وأفضل منا: أبو بكر لم يره هكذا عمر -رضي الله عنهما- لم يره هكذا أفاضل الصحابة- رضوان الله عليهم- الصحابة حينما اختلفوا في تعيين الخليفة كانوا أحوج ما يكونون لرؤية النبي -عليه الصلاة والسلام- ليكلمهم وليفصل في هذه القضة لكن هذا إدعاء لا حقيقة له ولا واقع له ولذلك فمن يقوله فعليه أن يراجع نفسه لعل شيطانًا أو جنيًا يتمثل له في صورة قريبة إلى حد ما أو مشابهة فيلبس عليه الأمر أن هذا هو رسول الله -عليه الصلاة والسلام- لكننا نتبع سنته نتمنى رؤيته في المنام في الرؤيا ونتمنى على الله - سبحانه وتعالى- صحبته يوم القيامة.

الأخت الكريمة من السعودية تقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أحسن الله إليكم شيخنا الفاضل، سؤالي عن الحلقات الماضية وهو أنه في قصة موسى -عليه السلام- مع السحرة دائمًا نجد أنه بمجرد أن يلقي موسى العصا فتتحول إلى حية تسعى يؤمن السحرة وهذا ليس بغريب ولكن الغريب هو مجادلتهم مع فرعون عندما يهددهم فتكون إجابتهم دليلاً على صدق يقين وإيمان مما يخيل للسامع أنهم مؤمنون منذ زمن فإذا كان لديهم هذه الحجة القوية، فلماذا لم يؤمنوا من قبل؟ وأعتذر للإطالة

لا بأس -إن شاء الله- لعلنا أشرنا إلى هذا في موعده، حين كنا نتكلم عن إيمان السحرة وما فيه من عجب فعلاً موقفهم يثير الدهشة والعجب ولكن- كما قلت- على ما أذكر أنهم في البداية حينما قال لهم موسى: ﴿وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴾ [طه: ٦١] ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾ [طه آية: (٦٢)] تنازعوا أمرهم يعني: تنازعوا القول كأنهم خلوا مع بعضهم وترددوا في الكلام ورددوا الحديث فيما بينهم هذا نبي اخشوا مظاهرته أو مناظرته لا ليس بنبي بل هو ساحر لا، ليس بساحر قالوا كلاماً كهذا بينهم، كأنهم أخذهم الخوف من موعظته ومن تحذيره لهم في البداية ولكن لم يروا حجة يعتمدون عليها في الإيمان بموسى والإقرار له، وترك ما هم عليه مما يسمى في العرف يومها علم، فالساحر عندهم كان هو العالم والناس يخشون بأسه وبطشه وأفاعيله وما إلى ذلك.

ولهذا لما رأوا عصا موسى -عليه السلام- لم يروا سحراً مما يعرفون وكانوا من أمهر السحرة لم يروا السحر الذي عرفوه وألفوه إنما رأوا شيئًا آخر رأوا حقائق لم يخيل لأعينهم إنما رأوا عصا تنقلب إلى حية ثم تعود عصا، وتختفي عصيهم وحبالهم من ساحة المبارزة دون أن تتضخم العصا ولا شيء بحجمها الأول وبسيرتها الأولى فهذه حقيقة أمام الأعين ويراها هؤلاء السحرة العلماء بهذا الفن، وإن كان فناً محرمًا ولكن هو فن، ولعبة تقوم على العلم، بهذه الأشياء، فلما رأوا هذه الحقيقة لم يملكوا إلا أن يؤمنوا، ولذلك واتتهم الفرصة فآمنوا ووافقتهم الجرأة فقابلوا فرعون بكل قوة، وكان هذا الموقف الذي حفظه الله لهم، أنهم قالوا لفرعون- عليه اللعنة-: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَ ﴾ [طه: ٧٢]، فلم يؤمنوا من قبل ذلك لأنهم لم يروا الحجة بأعينهم رآها فرعون نعم رأى العصا تنقلب إلى حية ولكن كان السحرة بعيدًا في البلاد لم يروها إنما رأوها يومئذ فقط، فبرؤيتها عرفوا أن هذا شيء غير السحر وبالتالي كان الموقف مناسبًا للإيمان وكان إيمانهم

وليدًا قويًا صحيحًا، فواجهوا به فرعون هذه المواجهة الشديدة، متعلقين بالله -تبارك وتعالى- الذي يغفر الذنب ويُدخل الجنة أو النار ولهذا ثبتوا على هذا الموقف ثباتاً عظيماً يعتبر أسوة وقُدوة للمؤمنين نسأل الله أن يثبتنا على الإيمان.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، كان لي اجتهاد خاص في سورة طه، كنت أريد أن أسأل هل هذا الاجتهاد صحيح أو خطأ، موافق الشرع أم لا؟ التي هي بالنسبة لمراحل الخوف، قلت: إن مراحل الخوف ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: أشدها أن يكون الإنسان داخله خائف، ويفعل فعلاً يدل على الخوف.

المرحلة الثانية: التي هي أوسطهم، أن يكون داخله خائف ويقول: أنا خائف.

المرحلة الثالثة: أن يكون داخله خائف ولكن لا يعمل على فعل يدل على الخوف ولا يقول: إني أنا خائف.

أنا استنتجتهم من خلال قصة سيدنا موسى مع فرعون أو قصة سيدنا موسى عموماً في سورة طه، الأولى: وهي الخوف الشديد مع الفعل إن أول ما رمى العصى ، أول ما أمره الله -عز وجل- بإلقاء العصا، عندما رمى العصا تحولت إلى حية، فخرج يجري سيدنا موسى فهذا كان خائفاً جواه وعمل فعلاً يدل على الخوف.

المرحلة الثانية: عندما كان سيدنا موسى كان ربنا قال له: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ [طه: ٢٤]، قال: ﴿قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى ﴾ [طه: ٤٥]، فكان يخاف وقال إني أنا خائف ولكن لم يعمل فعل يدل على الخوف.

المرحلة الثالثة: التي هي أقل مرحلة فيهم، التي هي عندما وجد السحرة وألقوا عصيهم، ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى ﴾ [طه: ٦٧]، كان سيدنا موسى خائف جواه لكن لم يعمل فعلاً يدل على الخوف ولا قال: أنا خائف.

فقلت إنه من خلال هذه المراحل الثلاثة: إن الإنسان كلما تزداد معرفته بربه كلما تقل مرحلة الخوف من أجل ذلك عندما تيقن سيدنا موسى حق التيقن بالله -عز وجل- عندما جاء في الآخر قالوا له: ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [طه: ٦١]، ﴿قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [طه: ٦٢]، فحدث له مرحلة الاطمئنان، هل الاجتهاد هذا سليم أم أنا أخطأت فيه؟

يعني: لعله يصح كلامك، ولكن يكون الترتيب: أن الخوف الأول كان أشد، طالما أن الإنسان يخاف ويعبر عن خوفه، فهذا خوف شديد، والذي يخاف ويعبر عن خوفه بالفعل هذا أشد من الذي يخاف ويعبر عن خوفه بالكلام، فالذي يولي هاربًا غير الذي يَثبت في مكانه عند الخوف ويقول: أنا خائف، فالأول خوفه أشد الذي يعبر عن خوفه بفعل ما أما الذي يخاف ويعبر عن خوفه بالكلام فقط هذا يكون مرحلة أقل، المرحلة الأقل من هاتين هي الأخيرة عند ملاقات السحرة أنه رأى شيئًا عجيبا ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى ﴾ [طه: ٦٧]، كان خوفًا أقل.

المرحلة الأخيرة، عندما كان على البحر ﴿قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [طه: ٦٢]، فلم يخف شيئًا.

سؤالك الثاني يا أخي الكريم: بالنسبة أنني سمعت لكني لا أعرف أن هذه القصة صحيحة أم هي من الإسرائيليات؟ هي: عندما جاء فرعون يدخل البحر وراء سيدنا موسى -وهو أصلاً كان جبانًا- لم يرض أن يدخل لكن أن الله -عز وجل- جعل سيدنا جبريل ينزل على فرس أو حصان أنثى، ففرس أو حصان فرعون

رأى الأنثى فأخذ فرعون وجرى خلف الفرس الأنثى– فرس سيدنا جبريل– فدخل جنود فرعون وراءه؟ هل هذا الكلام صحيح؟

ذكر هذا بعض المفسرين ولكن يبدو عليه عدم الصحة– أن فرعون وقف وتخوف فوقف الجيش وراءه فنزل جبريل –عليه السلام– على فرس أنثى فأغري فرس فرعون بفرس جبريل فلحقها أو بالأنثى التي يركبها جبريل –عليه السلام– فلحقها، فلما تحرك فرس فرعون علم الجيش أن الطريق مفتوح وأن عليهم التقدم فتبعوا فرعون على هذا فلم يستطيعوا التوقف حتى أغرقهم الله –تبارك وتعالى– ولكن يعني الله –عز وجل– أعظم وأكبر من أن يجعل السبب هكذا السبب شهوة بين الحيوانيين، الشهوات هذه عمل بني إسرائيل فلعلها من الإسرائيليات – والله أعلم– لكن مذكورة في بعض كتب التفاسير.

يقول الأخ الكريم من الولايات المتحدة الأمريكية يقول: ألم يكن من بين بني إسرائيل من عارض فعل السامري غير هارون؟

بلا، ذكرنا أثناء الشرح أن الذين قالوا لموسى وردوا عليه وأجابوه، طبعاً ليس كل بني إسرائيل كلموا موسى –عليه السلام– إنما كلمه بعض الناس والباقون ساكتون صامتون فيبدو من هذا– والله أعلم– أن الذين أُشْرِبوا الفتنة سكتوا فهذا حال من وقع في الذنب حينما يلام عليه يسكت وكأنه لم يفعل شيئًا أما الذي غلب أو الذي ضل وما كان يعرف فهذا يعني يدافع عن نفسه ويبرر فعله بأنه ما كان ينتبه إلى هذا ما كان يعلم فلذلك أجاب البعض ويبدو أنهم كانوا صالحين في بني إسرائيل ولكن غلبتهم الكثرة وهؤلاء هم الذين تبعوا فرعون حينما قام يواجه بني إسرائيل في هذه الجريمة وفي هذا الشرك وينهاهم عنه فكانوا منضمين إلى هارون –عليه السلام– والكثرة الباقية في مواجهة هارون، ولهذا قال لموسى: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي: جعلتهم فريقين فتركهم على هذا فكان هناك من أنكر هذه الجريمة وهذا الشرك من بني إسرائيل ولكن يبدو أنهم كانوا قلة ولذلك خافوا من الكثرة وتبعوهم من باب الغلبة وليس من باب الاقتناع، والله أعلم.

ما هي الدروس المستفادة من تذكير الله –تعالى– في القرآن الكريم بصفات اليهود لنا؟

لماذا يذكر الله كثيراً ويذكر في القرآن الكريم صفات اليهود؟

لأن اليهود وهم أصل بني إسرائيل وكذلك النصارى ولهذا يقول الله –تعالى– أو يسميهم الله –تعالى– غالباً بني إسرائيل أو يسميهم أهل الكتاب بما يشمل هؤلاء وهؤلاء أولهم وآخرهم ذلك لأنهم الأمة التي كانت قبلنا مباشرة والله– تعالى– حينما يقدم العبرة يقدمها من أقرب طريق وفي أقرب تقديم لا يكلف الإنسان أن يَبعُد وأن يقطع المسافات ليرى الدليل أو يرى البرهان أو يرى الموعظة، لذلك قال للإنسان: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ [الطارق: ٥] يعني: ينظر في نفسه ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ [عبس: ٢٤] طعامه بين يديه ليس بعيداً، وكذلك لما جعل الله لنا موعظة فجعلها في بني إسرائيل عموماً اليهود والنصارى من بعدهم لأنهم آخر أمة قبلنا مباشرة ولأنها كذلك أمة ممتدة فبقيتهم باقية في زماننا نخالطهم ويخالطوننا في بلادنا في بلادهم وهكذا، فسيعاملوننا في الحياة وفيهم صفات خفية دفينة ولهم نفسية خبيثة فينبغي على المسلم أن ينتبه لها، ولهذا ذكرهم الله –تعالى– بأوصافهم التي ينبغي أن نحذرهم منها، فأول ما سمى اليهود سماهم بالمغضوب عليهم في سورة الفاتحة، وأول ما سمى النصارى سماهم بالضالين، وبعد ذلك سمى اليهود خاصة وأهل الكتاب عامة شياطين كما قال عن المنافقين: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ ﴾ [البقرة: ١٤]، وهكذا على طول القرآن الكريم يذكر الله –تعالى– صفات بني إسرائيل التي تدعونا إلى عدم الركون إليهم وعدم الاطمئنان إليهم نعاملهم في الحياة؟ نعم.. ولكن على حذر وعلى تخوف وعلى حيطة بما بين الله لنا من صفاتهم التي ينبغي أن ننتبه إليها والقرآن حافل بهذا وبعض الكاتبين والدارسين كتبوا في ذلك بحوثاً خصوا فيها ذكر بني إسرائيل في القرآن الكريم لمن أراد أن يقرأ ولمن أراد أن يتعرف على هذا الأمر بشيء من التفصيل، والله أعلم.

أسئلة المحاضرة:

فتح الله عليكم فضيلة الشيخ ألا تفضلتم بإلقاء أسئلة هذه المحاضرة

بلى – إن شاء الله–:

على هذه الحلقة السابعة بعض الأسئلة نلقيها على حضراتكم:

السؤال الأول: لماذا عجل موسى إلى ميقات ربه؟ وكيف كان هذا؟

السؤال الثاني: ما الذي أغضب موسى –عليه السلام– وهو في ميقات ربه؟ وكيف اتخذ بنو إسرائيل العجل؟

السؤال الثالث: اذكر ما تعرفه عن السامري؟ وكيف عاقبه الله على جريمته؟

ونسأل الله– لطلبة العلم والمشاهدين جميعاً– التوفيق والسداد في إجابتهم على الأسئلة وفي تلقيهم للعلم.

بسم الله، والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه وبعد.

فمحاضرتنا هذه بعون الله -تبارك وتعالى- بعنوان: وعيد الأمة بالدار الآخرة. وهي من الآية التاسعة والتسعين وحتى الآية الرابعة عشرة والمائة، ونقسمها إلى أربعة عناصر:

العنصر الأول: ذكر القرآن وجزاء المعرضين عنه يوم القيامة.

العنصر الثاني: بعض أهوال يوم القيامة.

العنصر الثالث: موقف من مواقف الآخرة.

العنصر الرابع: عَوْد إلى التذكير بالقرآن الكريم وسر وطريقة إنزاله.

نتناول ذلك بالتفصيل -إن شاء الله تعالى- وبعونه بعد أن نستمع إلى قراءة الآيات المباركات من أخينا الأخ عبد الرحمن، فليتفضل مشكوراً.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً ﴿٩٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ القِيَامَةِ وِزْراً ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ حِمْلاً ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ المُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً ﴿١٠٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً ﴿١٠٤﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً ﴿١٠٦﴾ لاَّ تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلاَ أَمْتاً ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴿١١٠﴾ وَعَنَتِ الوُجُوهُ لِلْحَيِّ القَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً ﴿١١٢﴾ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً ﴿١١٣﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ المَلِكُ الحَقُّ وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ٩٩- ١١٤].

العنصر الأول: ذكر القرآن وجزاء المعرضين عنه يوم القيامة.

كنا في نهاية المحاضرة السابقة مع الحكم على السامري وعلى إلهه الذي زعم أنه إله بني إسرائيل وإله موسى ذلكم العجل الذي صنعه من ذهب بني إسرائيل الذي أخذوه من القبط في مصر، حكم الله على السامري بأنه يقول بقية حياته: ﴿لاَ مِسَاسَ﴾ فلا يمسه الناس ولا يمس الناس فعزله الله -تعالى- عن الخلق وجعل الناس ينفرون منه وينفر هو منهم فيعيش وحيدًا طريدًا كما حكم الله -تعالى- على إلهه الذي زعم أنه إله بقوله- سبحانه- ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي اليَمِّ نَسْفاً﴾ ذكر الإمام ابن كثير -رحمه الله تعالى- أن موسى -عليه السلام- أخذ يبرده بالمبارد ثم أوقد عليه النار ثم زاراه في البحر فأذهب معالمه أولاً ثم بعد ذلك حرقه ثم ألقاه في اليم فلم يبق منه شيء يقال له: إله وبهذا تنتهي قصة نبي الله موسى -عليه السلام- في هذه السورة، مجملة في أن الله -تعالى- اختار موسى -عليه السلام- نبيًا يحمل رسالة لقومه وأن الله - تعالى- أيده بالمعجزات وصنعه

واصطنعه لنفسه، وحفظه بعينه -سبحانه وتعالى- وحماه من فرعون ومن بني إسرائيل بقدرة الله العظيمة ذلك كله كان لتثبيت النبي -صلى الله عليه وسلم- على طريق الدعوة، وهذه السورة- كما عرفنا من قبل- سورة مكية فالله -عز وجل- كأنه يضرب المثل لنبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- ليطمئنه أي كما اخترت موسى نبياً ورسولاً قبل ذلك وأيدته بالمعجزات واصطنعته على عيني فإنك يا نبي الله محمدًا ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَ﴾ [الطور: ٤٨]، أنت في حفظنا وعنايتنا وعيننا تحرسك وترعاك كما قال الله -تعالى- ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وذلك تثبيت لفؤاد النبي -صلى الله عليه وسلم- ولقدمه على طريق الدعوة بعد أن قال له: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: ٢]، عرض عليه قصة موسى -عليه السلام- وكما رأينا كان التركيز على هذه الجوانب من قصة موسى -عليه السلام- على جوانب بعثته وتكليم الله له وتأييده بالمعجزات وعناية الله -سبحانه وتعالى- به، وهكذا؛ حتى يَعلم النبي -عليه الصلاة والسلام- أن عين الله تحفظه وترعاه، فيقدم ويقبل على تبليغ الدعوة بكل همة وبعدم تخوف وبثبات عظيم.

وهكذا تنتهي القصة ويقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ هذه الجملة يسميها البلغاء: حسن تَخَلُّص، ينتقل به المتكلم من غرض إلى غرض يعني: من موضوع إلى موضوع بعد أن حدثنا الله - تعالى- عن قصة موسى -عليه السلام- فيتوعد هذه الأمة وخاصة- السورة تشير إلى- المعاندين المعرضين عن القرآن الكريم فكثر الوعيد في هذا الذكر فالله- تعالى- يتوعد هذه الأمة والكافرين منها على وجه الخصوص بالدار الآخرة وما فيها من أهوال عظام وأحداث جسام وما فيها من عذاب وجحيم ومقابله كذلك النعيم المقيم.

لكي ينتقل الحديث من غرض إلى غرض ومن موضوع إلى موضوع يحسن في التأليف - في تأليف الكلام وتصنيفه ووضعه والتكلم به- يحسن أن يخلص المتكلم من غرض إلى غرض بمثل هذه الجمل التي تمهد للسامع وللقارئ أن المتكلم سينتقل إلى غرض آخر ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ أي: بهذه الطريقة الموجزة البليغة العظيمة بهذه الطريقة الحسنة الحقة التي لا زيف فيها ولا تغيير للحقائق ولا مبالغة ولا تهجم ولا تهكم على أحد بغير وجه حق ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ والخطاب هنا للنبي محمد -صلى الله عليه وسلم- ولنا من بعده ﴿مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ والقص يقصد به: الحكاية وهو من قصّ الأثر وتتبعه فتتبع الله -تعالى- آثار موسى وذكر بعضها في هذا المقام ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ﴾ أي: من الأخبار المهمة فالنبأ هو الخبر المهم، ﴿مَا قَدْ سَبَقَ﴾ إشارة إلى موسى لأنه كان في الزمان سابقاً على نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- وبدأ الله - تعالى- في الحديث عن الغرض الآخر فقال: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ أي: كما آتينا موسى التوراة ﴿آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّ﴾ أي: من عندنا، ﴿ذِكْرًا﴾ هو القرآن، ولكن كلمة "ذكر" تدل على التذكير من نسيان، والقرآن والشرائع- كلها كما عرفنا من قبل- الله -تعالى- يذكر بها البشرية ما فطرها عليه من فطرة سليمة تعرف ربها وتنزع إليه -سبحانه وتعالى- بحيث لو بقي مخلوق إنساناً كان أو غيره في جو لا يؤثر فيه أحد لا يرى إلا الطبيعة التي خلقها الله - عز وجل- سيقوم حين يقوم متكلماً متحدثًا سيقول: ربي الله ورب هذا الكون هو الله ولا إله إلا الله من خلال الفطرة التي وضعها الله فيه والتي تتجاوب مع آيات الكون، ثم يذكر الله -تعالى- الإنسان لأن أسرته ربته على خلاف هذا المجتمع الذي يعيش فيه أثر فيه ببعض السلبيات وأنساه فطرته وغير وبدل ما فيه من فطرة فيبعث الله الرسل بالشرائع والكتب ليذكروا البشرية بما في فِطَرهم من خير وصلة بالله -عز وجل- غير أن كلمة ذكر أيضًا تطلق ويراد بها الشرف، ومن ذلك أن قال الله - تعالى- للنبي -عليه الصلاة والسلام- ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، أي: قدرك وشأنك فكان أشرف الخلق -صلى الله عليه وسلم- ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ أي: شرفاً وهو القرآن أيضًا القرآن فيه كل ذلك هو مادة نذكر الله بها ونعبد الله على منوالها والقرآن كذلك ذكر يذكرنا بما فطرنا الله عليه من فطرة سليمة وأخلاق قويمة وعقيدة صحيحة، أن هذا الكون لا يكون له إله إلا الله -سبحانه وتعالى- ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، هو المعبود في السماوات وفي الأرض -سبحانه وتعالى- والقرآن في الوقت نفسه شرف عظيم للنبي -صلى الله عليه وسلم- أن ينزل الله عليه القرآن الذي قال فيه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]، فهذا أحسن الحديث وأحسن ما أنزل الله -سبحانه وتعالى- وشرف لمن قرأه وشرف لمن حمله وشرف لمن ورث مصحفًا أو حمل مصحفًا أو اقتنى في بيته

مصحفًا مجرد أن يحمل مصحفاً أو يورث مصحفًا فهذا له شرف وله نصيب من الشرف، فما بالك بمن حفظه وعلمه وعرف ما فيه وعمل بما فيه؟! نسأل الله أن يرزقنا الشرف بذلك كله.

﴿ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً﴾ وتلاحظ معي– أخي طالب العلم– أن كلمة: ذكرًا هنا نكرة وليست معرفة والتنكير في اللغة تنكير الكلمة في أثناء الكلام يكون إما للتعظيم وإما للتحقير أو لأغراض أخرى. السياق هو الذي يحدد فالله –عز وجل– يمتن على النبي –صلى الله عليه وسلم– ثم علينا بأنه أنزل إلينا أو علينا من لدنه ذكرًا، أي: ذكرًا عظيماً، فالتنكير هنا للتعظيم، لتعظيم شأن القرآن ولرفع قدره في نفوس بني الإنسان إشارة إلى أن الكافرين المعرضين قد أعرضوا عن شيء عظيم، وتنازلوا عن شرف كريم، يرتفعون به ويرتقون به فوق رؤوس الخلائق في الدنيا والآخرة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٦] ولهذا قال الله –تعالى– ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً ﴿٩٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ القِيَامَةِ وِزْراً ﴿١٠٠﴾﴾ فهكذا ذكرنا الله بالقرآن الذي قال فيه قبل قصة موسى: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: ٢]، فاتصل الكلام مع بعضه بغض النظر عن الاعتراض بقصة موسى –عليه السلام– اتصل الحديث عن القرآن ثم قال الله –تعالى–: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أي: عن هذا الذكر وعن هذا القرآن وعن العمل به، ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ القِيَامَةِ وِزْراً﴾ والوزر: هو الذنب الثقيل، الحمل الثقيل من الذنوب والآثام.

قد يتساءل سائل إلى متى يحمله؟ وكم من الزمان يحمل هذا الوزر؟ فأفاد الله –تعالى– أنه حمل دائم لهؤلاء الكافرين المعرضين فقال: ﴿خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ حِمْلاً﴾ خالدين فيه فلن يخرجوا من ذلك ولن ينفكوا عن ذلك سيظلون حاملين لأوزارهم لن يغفرها الله لهم ولن يزكيهم الله – تعالى– من ذنوبهم ولن يطهرهم ولن يخلصهم منها طالما ماتوا على ذلك، ﴿خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ حِمْلاً﴾ ساء لفلان حملاً: أي ساء حمله أي إنه يحمل حملاً سيئاً قبيحًا قميئاً لا يحسن حمله والحِمل بكسر الحاء: ما كان فوق الظهر، ظهر الإنسان على أطراف الأشجار يقال له: حِمل بكسر الحاء وما كان في البطن فيقال له: حَمل كحمل المرأة وحمل الأنثى عمومًا، والله– تعالى– توعد بهذا في أكثر من آية كما قال –سبحانه وتعالى–: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]، وقال –عز وجل–: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١]، وقال –سبحانه وتعالى–: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِياً لِّتُنذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الجَمْعِ لاَ رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، فريق في الجنة هم الذين آمنوا بالقرآن العربي هذا وعملوا به وفريق في السعير هم المعرضون عنه؛ وبهذا ينتهي الموضوع الأول والعنصر الأول وهو التذكير بالقرآن والوعيد للمعرضين بما يتحملون من أجل ذلك يوم القيامة من أوزار وأحمال ثقيلة من الذنوب.

العنصر الثاني: بعض أهوال يوم القيامة، وهكذا تتناسق الآيات في ترتيبها ولا عجب فإنه كلام الله، فبعد أن قال الله – تعالى– ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ حِمْلاً﴾ فلعل قائلاً يقول في نفسه وخاصة من الكافرين: وما يوم القيامة؟ وكانوا يسألون عادة أسئلة من هذا النوع عن يوم القيامة وطبيعته عن تأجيله ولماذا يتأخر؟ ولماذا لا يكون الآن؟ عن متى موعده؟ ومتى يكون؟ أسئلة كثيرة كلها يراد بها العناد والتعنت فلعل سائلاً سأل: ما يوم القيامة هذا، الذي يحمل فيه المجرمون أوزاراً وأثقالاً من الذنوب والآثام؟ فعرف الله بيوم القيامة غير أن الله لا يعرف بموعده ولا بميقاته فهذا أمر لا يعلمه إلا الله –سبحانه وتعالى– ولم يوحَ به إلى ملك مقرب ولا إلى رسول مرسل– عليهم جميعًا سلام الله– وإنما يذكر الله يوم القيامة ببعض أهواله أو بعض أحواله، الأهوال التي تكون في بدايته من العلامات الكبرى والأشياء الثقيلة التي لا يتحملها الإنسان من هولها.

فقال –سبحانه وتعالى– ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ أي: سيحملون أوزارهم يوم ينفخ في الصور، الصور: ورد عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أنه سماه قرناً، فقال: (قرن ينفخ فيه، أو ينفخ فيه المَلَك) وفي الحديث الطويل عن ابن عباس –رضي الله عنهما– ذكره الإمام ابن كثير –رحمه الله تعالى– ورواه الإمام أحمد عن عبد

الله بن عمرو –رضي الله عنهما–:(أن أعرابيًا سأل ما الصور؟ فقال النبي –عليه الصلاة والسلام–: قرن ينفخ فيه) فسماه قرنًا لعله لشبهه بقرن الحيوان فهو من ناحية مدبب ومن جهة أخرى واسع وهو بهذا الوصف يشبه في زماننا ما يسمى بالبروجي شيء ينفخ فيه فيحدث صوتًا عظيمًا من الجهة الأخرى وفي الحديث عن ابن عباس وأبي سعيد مرفوعًا إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال في حديث: (كيف أنعمُ وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته واستمتع متى يُؤمر؟!!) كان بعض الصحابة –رضي الله عنهم– يتمنون للنبي –عليه الصلاة والسلام– أن يتنعم في الدنيا ويكلمونه في ملابسه البسيطة في منامه البسيط لماذا لا يلبس الحرير؟ لماذا لا ينام على كذا؟ لماذا لا يأكل كذا؟ والملوك في الدنيا يأكلون ويشربون ويلبسون فالنبي –عليه الصلاة والسلام– يعلمهم أن المسألة ليست للدنيا إنما نحن نعيش في الدنيا من أجل الآخرة، ويعظهم من خلال جوابه ومن ذلك أن قال لهم هذه المرة: (كيف أنعم؟) أي: كيف أتنعم بالدنيا والدنيا صارت قصيرة لا طول فيها ولا بقاء فيها؟ (وصاحب القرن) وهو الملك الذي ينفخ فيه (قد التقم القرن) أي: وضعه في فمه، لينفخ فيه، (وحنى جبهته) استعداداً للنفخ، (واستمتع حتى أو متى يؤمر له) يعني: ينتظر أن يقول له الله: انفخ فينفخ في الصور، إذن: الأمر قريب جداً وإن قاله النبي –عليه الصلاة والسلام– من ألف وأربعمائة عام، فإنه ما مرَّ عليه إلى الآن إلا يوم وأقل من نصف اليوم، يعني: بميزان الله –تعالى– ومقياسه في الزمان: يوم وأقل من نصف يوم، لقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، فمقياس الزمان عند الله، اليوم بألف يوم عندنا، ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، اليوم الواحد كألف سنة مما نعدّ وبالتالي فالمسألة عندنا طويلة كما نراها لكنها عند الله قصيرة ولو نظرنا نظرة حقيقية لوجدناها قريبة قصيرة أيضًا عندنا وإن كان النبي –عليه الصلاة والسلام– قد قالها من ألف وأربعمائة عام إلا أنه ربما لم يمر عليها إلا سنوات ومات رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ومات بعدها أجيال وأجيال فقيامة الإنسان تبدأ بموته ووفاته.

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ وهما نفختان يأمر الله الملك وذكر أنه إسرافيل –عليه السلام– ينفخ نفخة أولى فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وتسمى بنفخة البعث، إذن: نفخة الصعق هذه في آخر الدنيا ونفخة البعث هذه بعد حياة البرزخ وعند أول القيامة الكبرى، وهي التي تناولتها الآيات التي معنا فلم تذكر النفخة الأولى وإنما ذكرت النفخة الثانية فقط، لأنها هي الموعد الذي عنده يحمل المجرمون أوزارهم على ظهورهم ﴿أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١]، فقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾ بعد النفخة الثانية يحشر الله – تعالى– العباد كلٌّ على هيئة تدل على عمله كل على هيئة تدل على عمله الذي كان عليه في الدنيا ﴿وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً﴾ [المعارج: ١٠]، ﴿لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]، في أرض المحشر وفي موقف الحشر إنما يعرف الناس بعضهم بعضاً من خلال علامات معينة، ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١]، ولكن عند الميزان وعند أخذ الصحف وعند العرض على الله – تبارك وتعالى– وذلك بعد الحشر لابد من السؤال، فيسأل الله جميع الخلق حتى يسأل الرسل –عليهم الصلاة والسلام– ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، أما في أرض المحشر فلا مجال للسؤال فكلٌّ يعلمه الله –تعالى– بعلامه ويجعله في جماعة، علامتهم تدل على أعمالهم وعلى صلاحهم أو غير ذلك –حشرنا الله تعالى في النبيين والصديقين والشهداء والصالحين– المجرمون يحشرون يوم القيامة وهم الكافرون بالقرآن وسماهم الله مجرمين سماهم الله بهذا الاسم وصفاً لهم بالإجرام ليدل على أنهم حين أنكروا القرآن كانوا مجرمين بهذا الأمر وبهذا الصنع فأفادت إفادتين أنهم كفروا وأنهم مجرمون يحشرهم الله – تعالى– على هيئة تدل عليهم، وأنهم زرق العيون وقيل: زرق الجلود وجوههم فيها زُرقة، وذلك من شدة الهول والخوف والفزع ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ ﴿١٠٣﴾ ﴾ أي: يتكلم بعضهم مع بعض خفية بسرٍ وبصوت منخفض من الخوف من الله –عز وجل– فلا يرفعون أصواتهم إنما يتهامسون فيما بينهم ويتخافتون ويقول بعضهم لبعض: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً﴾ ما لبثنا في الدنيا و لا قضينا فيها إلا عشرة أيام تقريبًا، ويقول أحسنهم حساباً ويقال: أعقلهم وكلهم قد حرموا من العقل كما جاء على لسانهم: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، ولكن أحسنهم حالاً يقول: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً﴾ فلم يحسنوا الحساب ولم

يعرفوا كم لبثوا في قبورهم ونبه المفسرون كابن كثير وغيره- رحمهم الله تعالى- إلى أنهم يقولون هــذا علـــى سبيل الاعتذار عن أنفسهم أي: ما مكثنا في الدنيا إلا فترة قليلة لم تكفِ للإيمان ولم تكفِ للعمل الصالح ولم تكفِ للاستعداد ليوم القيامة، فاجأتنا الدنيا وانتهت منا بسرعة فلم نلبث فيها إلا أياماً قليلة، فيرون الدنيا كأنها أياماً بــل ورد في آيات أخرى أن بعضهم يرى الدنيا يوم القيامة وكأنها كانت ساعة من ليل أو نهار ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، قيل: لم يلبثوا في الدنيا وقيل: لم يلبثوا في القبــر ﴿إِلاَّ عَــشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ فعلى أنها في الدنيا أي: لم يمكثوا في الدنيا إلا ساعة أو ساعات في يوم أو أيامًا عــشرة فهــذا كــأنهم يستقلون عمر الدنيا وأنه ما كان كافيًا لتحصيل أسباب النجاة والفوز بالجنة. الله -تعالى- يرد عليهم فــي آيــات كثيرة منها: ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧]، أو لم نعمركم؟ أي: لقد عمرناكم في الدنيا عمرًا تذكر فيه من تذكر وآمن فيه من آمن وحصّل فيه مــن حــصّل فكان فيه أنبياء بلغوا أعلى المراتب وكان فيه شهداء لحقوا الأنبياء وتابعوهم وكان هناك صالحون عملوا لآخرتهم وفازوا بالجنة فلماذا لم تكفكم الدنيا وقد كفت أمثالكم وأشباهكم من البشرية؟ فهذا رد عليهم، ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّــا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ لأنهم لما رأوا الدنيا في نظرهم كانت قليلة وسريعة ومــرت علــى عجــل يتمنون الرجعة مرة أخرى ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنين: ١٠٧]، ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنين: ٩٩، ١٠٠]، وهكذا يتمنون العودة إلى الدنيا لِيُصلحوا مــا أفسدوا ولكن الله يرد عليهم بالرفض لطلبهم وبالقطع لأملهم وبمثل قوله: ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَــذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

﴿ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرٍ﴾ ربنا -سبحانه وتعالى- يلفت النظر هنا- بالمناسبة- إلى شيء مهــم أو إلى شيء عارض لكن قد يُتَّصور للبعض: طالما أنهم يتخافتون بينهم بالقول ويسرون بينهم بالكلام فربما لا يعلم الله ولا يحس بكلامهم؛ فنبه الله إلى أن كلامهم يبلغه ويعلمه ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ مهما تخافتوا بالكلام وهــم بين ملأ الخليقة كلها فلن يخفوا علينا ولن يغيب صوتهم وكلامهم ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمٍ﴾

وهكذا ذكر الله هنا من أهوال يوم القيامة: النفخ في الصور فقط كمثال لما يحدث ولكن هناك أهــوال شــديدة تكون يوم القيامة ومنها كذلك: أن تدك الأرض والجبال فذكر الله -تعالى- شيئاً عظيماً يعظم في عين ابــن آدم وهو الجبل حينما أراد ابن آدم أن يتعالى رفع رأسه ليُشبه نفسه بالجبل في علوه وشموخه وارتفاعه فقال الله له: ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولاً﴾ [الإسراء: ٣٧]، فالجبل عظيم فــي عين الإنسان شيء هائل ضخم يحتمي فيه من عدوه ومن البرد ومن الحرّ ويتخذ من الجبال أكناناً كما خلق الله له وهكذا، فيقول الله -تعالى-: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً﴾ [طه: ١٠٥]، نبه المفسرون- مــن ناحية اللغة- إلى أن هذا السؤال لم يكن قد وقع حين أنزل الله هذه الآية فكان الكلام على تقدير: إن يسألوك عن الجبال فقل لهم: كذا، يعني: لو سألوك فقل. ولذلك جاءت كلمة: قل هنا مقدمة بحرف الفــاء، ﴿ فَقُــلْ ﴾، وكــل نظائرها في القرآن لم يكن فيها الفاء كلها "قل" ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّــاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ اليَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ المَحِيضِ قُلْ هُــوَ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٢٢]، كلها بــ" قل" إلا هذه الوحيدة في سورة طه، وفي القرآن كله هي التي سبقتها الفاء وذلــك إشارة لغوية إلى أن السؤال لم يقع إلا بعد أن نزلت الآية وروي: (أن رجلاً من ثقيف أي من الطائف سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الجبال) أي: إذا كنا نحن سنحيى بعد ذلك، وتعود إلينا الحياة ونبعث من جديد أهــذه الجبال أيضًا تتهدم وتكون من جديد أم تبقى كما هي ولا يصيبها شيء؟ وذلك من استبعادهم ليوم القيامة عمومًــا فاستنكروا أن تعود الأجساد البشرية بعد أن صارت ترابًا ورفاتًا وعظامًا نخرة، أن تعود مرة أخرى حية فيهــا حركة ولها حياة، وتسأل وتحاسب وتنعم بجنة أو تعذب بنار أنكروا ذلك، استعظموا أيضًا يوم القيامة من ناحيــة الجبال ماذا يكون من شأن الجبال ومن أمرها؟ فالله- تعالى- علمهم ذلك وأعطى للنبي -عليه الصلاة والسلام- الجواب تحصينًا له قبل أن يرد عليه السؤال، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَــسْفاً﴾ [طــه: ١٠٥] الله

أكبر، ﴿يَنسِفُهَا﴾ النسف: هو تفتيت الشيء وذَرُّه في الهواء بعد أن كان شيئاً متماسكًا صار شيئاً خفيفاً كالرماد أو كالتراب ثم ذرّ في الهواء، لتبعثره الرياح كما قال الله -تعالى- عن إله السامري: ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً﴾ واستعمال الكلمات الواحدة في مقامين هكذا مرة في قصة موسى ومرة هنا عن الجبال هذا من ألوان الجمال في التعبير وفي الكلام ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً﴾ هذه الجبال الضخمة الهائلة وفي جزيرة العرب جبال وعرة شديدة ربما لا يكون في كل البلاد مثلها وقيل: في الطائف بالذات جبال ضخمة عظيمة يستعظمها الإنسان فعلاً، ولذلك نبه الله إلى قدرته على الجبال ليعلم الإنسان قوته وكيف يحدث له بجوار هذه الجبال، ولعل في قصة موسى في سورة أخرى أيضاً حينما ذهب إلى ميقات ربه وكلمه ربه ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فالجبل رمز للقوة في نظر الإنسان ومن هنا يشير الله -تعالى- إلى ما سَيُحدث بالجبال يوم القيامة ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي﴾ ويؤكد الفعل بقوله: ﴿نَسْفاً﴾، وهذا كما يقول القائل: أكلت أكلاً ونمت نومًا وقرأت قراءة يعني: شيئًا عظيماً، نسفًا، نسفًا شديدًا نسفًا لا يبقي منها شيئًا كما يفسر ذلك ويبينه ما بعده: ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا﴾ أي: فيترك الجبال مع الأرض ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعاً﴾ القاع: هي الأرض المستوية السهلة ﴿قَاعاً صَفْصَفاً﴾ أرضاً سهلة مستوية وفسرها من بعدها ﴿لاَّ تَرَى فِيهَا عِوَجاً﴾ أي: حفرة أو منخفض ﴿وَلاَ أَمْتاً﴾ أي مُرتفع ليس فيها مكان مرتفع ولا مكان مرتفع كلها صفحة واحدة أرض ملساء.

قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وغيرهم من السلف كما ذكر ابن كثير -رحمهم الله- ﴿لاَّ تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلاَ أَمْتاً ﴾ يعني: وادياً ولا رابية، الوادي نازل والرابية صاعدة مرتفع إلى أعلى لا ترى فيها هذا ولا هذا إنما هي أرض مستوية سهلة لا منخفض فيها ولا مرتفع عليها وبالتالي فلا يخفى عليها شيء ولا يغيب فيها ولا وراء مرتفعاتها شيء قد يختفي الإنسان اليوم وراء الجبل أو في الحفرة كما في الخندق في الحرب وما إلى ذلك ولكن يوم القيامة لا منخفض ولا مرتفع، إنما الأرض كلها قاع صفصف ﴿فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً ﴿١٠٦﴾ لاَّ تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلاَ أَمْتاً ﴿١٠٧﴾﴾ في ذلك اليوم بعد أن ذكر الله أرض المحشر الكل يحشر إلى الله - تعالى- في هذه الأرض وهي الأرض التي قال عنها الله -تعالى- ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٤]، الساهرة يعني: الأرض المستوية وجهها مستوٍ فلا يختفي عليها شيء يظهر كل ما فوقها، وذكر الله في آيات أخرى عن دك الجبال ونسفها أنها تحمل مع الأرض ﴿وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤]، والدك: هو الدق من أعلى، فتتداخل الجبال وتطحن على الأرض وبالتالي فلا بقاء لها وفي خلال هذا تكون كما قال تعالى: ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]، ﴿كَثِيباً مَّهِيلاً﴾ [المزمل: ١٤]، كثيبًا مهيلاً يعني: ترابًا هائلاً من أعلى حين تتهدم يسقط ترابها بصورة كثيفة وشديدة، وتكون ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ في شكلها جبل ولكن في حقيقتها ليست في قوة الجبل إنما هي كالصوف المنفوش، فلا قوة فيها كما كان في الدنيا، هذه تدك وتنسف حتى تصير الأرض كلها مستوية وهي أرض المحشر وبالتالي يساق الناس إليها ليحشروا فيها تمهيداً للعرض على الله -سبحانه وتعالى- ولهذا يقول الله -تعالى- في الآية التالية: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ﴾ يومئذ يعني: يوم إذ ينسف الله الجبال نسفًا، يوم إذ يفعل الله كذا وكذا ويقيم الساعة والقيامة ﴿يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ الخلق جميعاً وخاصة أولئك الكافرون المعاندون ﴿يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ﴾ يعني: لا يتعوجون عن طريقه، ولا يخالفون دعوته ولا أمره إنما يتبعونه في التزام وامتثال دون كلمة ودون اعتراض ودون تهرب وكأن من لم يتبع الداعي في الدنيا يتبعه في الآخرة رغماً عنه، في الدنيا يتبعه باختياره وأما في الآخرة فيتبعه رغماً عنه دون إرادة منه، فالحيوان يساق سوقًا إلى مورده وإلى مأكله وإلى مربطه، لكن المؤمن في الدنيا يذهب إلى الله ويتبع الداعي باختياره فيتبعه يوم القيامة أيضا مختارًا مكرماً معززاً.

الكافرون بالذات تعلوهم المهانة بهذا السوق وبهذه التبعية. والداعي هنا قيل: هو الملك، ملك يدعو الناس إلى البعث ويدعوهم ليقوموا إلى الله فلا يقعد أحد ولا يتخلف أحد ولا يتأخر أحد، الكل يجيب الكل يجيب وقيل: الداعي هو رسول كل أمة يكلفه الله -تعالى- أن يدعو أمته ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١]، فكل رسول- عليهم جميعًا الصلاة والسلام- ينادي على أمته وساعتها لا يملك أحد أن يخالف ولا أن يتأخر وكم ناداهم رسولهم في الدنيا ﴿فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠]، ولكنهم يعصون عليه ويخالفون هديه ويحاربونه

ويناصبونه العداء، يأتي عليهم يوم وهو يوم القيامة ذلكم اليوم الحق فيتبعون الداعي لا عوج له كما كانوا يتعوجون في الدنيا بالنفاق فيجلسون أمام النبي -عليه الصلاة والسلام- مظهرين الإسلام ومبطنين الكُفر في قلوبهم فهم على عوج. أو أن النبي -عليه الصلاة والسلام- يدعوهم كالكافرين فإذا بهم يعوجون عن الطريق المستقيم إلى طريق الضلال والكفر والعناد يوم القيامة لا عوج لهم أبداً عن أمر من يدعوهم إن كان ملكاً أو رسولهم الذي جاءهم في الدنيا - عليهم جميعا الصلاة والسلام.

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ﴾ وكلمة: يتبعون الداعي، هناك داعٍ يدعو وهناك أتباع فربما حدث من ذلك صوت الداعي يدعو لابد أنه يدعو بصوت والذين يجيبون يلبون ويخرجون ويقومون فتحدث من أثر حركتهم جلبة وصوت مرتفع؟ لا.. ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ [طه: ١٠٨]، إذا دخلوا أرض المحشر شعروا بمهابة الله -تبارك وتعالى- وهيبته وجلاله ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨] الهمس: هو الصوت الخفي، قيل: هو وقع أقدامهم على الأرض ملبين الداعي إلى أرض المحشر، صوت القدم على الأرض من المشي هذا هو المقصود بالهمس وقيل: هو الكلام الخفي في بعض الأحوال كما سبق أن قال الله -تعالى-: يقول بعضهم لبعض: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا﴾ ويقول آخر: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا﴾ هذا يقولونه ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾، ﴿ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا﴾ بكلام همساً خفيفاً بكلام لا تسمع صوتاً عالياً وقال هذا ابن جبير وابن عباس وغيرهما- رحمهم الله تعالى.

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا﴾ انتهى المحشر وبعد أن حشر الناس أُذن بالحساب والعرض على الله -تبارك وتعالى- وانصرف الناس من هذا الموقف العصيب الذي ذكر فيه أنه تدنو فيه الشمس من رؤوس الخلائق حتى لا يكون بينها وبين رؤوسهم إلا قدر الميل وقالوا: الميل هو العود الذي تكتحل به المرأة فتكون قريبة جداً حارقة ولذلك يكثر العرق ويبلغ من الناس مبالغ شتى فمن الناس من يبلغ العرق إلى قدميه ومنهم من يبلغ العرق ركبتيه ومنهم من يبلغ العرق إلى حقويه أي إلى وسطه ومن الناس من يبلغ العرق صدره ومنهم من يبلغ عنقه ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا- نعوذ بالله- وهو عرق الخلائق جميعاً في هذا الموقف العصيب- وسبحان الله العلي القدير- لا يعجزه شيء هكذا ترى العرق من المفترض أنه كالماء في حوض واحد ولكنه نسب مختلفة دون أن تكون كل نسبة في أنبوبة أو في حوض، المسافات مفتوحة أو لا حواجز بين هذا وذاك وكل يأتيه العرق إلى مبلغ معين وإلى مكان معين حسبما كان العمل في الدنيا- نسأل الله أن يعافينا من شدة ذلك الموقف- ذلكم الموقف الذي يتمنى أهله الانصراف منه ولو إلى النار، من شدته ظناً أن النار أهون من ذلك. والانصراف من هذا الموقف فيه كرامة وتشريف لنبينا محمد - صلى الله عليه وسلم- إذ يذهب الناس إلى الأنبياء يسألونهم أن يكلم اللهَ -تعالى- في أن يخفف عنهم أو أن يصرفهم من هذا المقام فكل من الأنبياء يقول: نفسي نفسي اذهبوا إلى فلان اذهبوا إلى فلان ويحيل كل واحد منهم إلى الآخر، حتى تصل الإحالة إلى رسول الله محمد -صلى الله عليه وسلم- فإذا به ساجد تحت عرش الرحمن ينادي ويناجي ربه -سبحانه وتعالى- فيقول الله له: يا محمد ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع، فيطلب من الله -تعالى- أن يرحم الخلائق والعبيد، فيأذن الله -تعالى- بالعرض والحساب ويصرف الناس من هذا الموقف بالشفاعة العظمى لرسولنا محمد -صلى الله عليه وسلم- الذي تشمل شفاعته في ذلك المقام كل الأمم، وكل الخليقة، فلا يشفع لأمته فقط، ولكن تعم شفاعته في ذلك المقام كل الناس.

العنصر الثالث: موقف من مواقف الآخرة.

يبدأ الناس في العرض على الله -عز وجل- ويذكر الله- تعالى- هنا موقفاً من مواقف القيامة وهو العنصر الثالث وذلك حيث نجى من نجى إلى الجنة- جعلنا الله في السابقين- ووقف من وقف قبل الجنة على الأعراف وسقط من سقط في النار- نعوذ بالله- من الكفار المخلدين ومن المؤمنين العاصين إلى حين، ثم يخرجهم الله -تعالى- وتبقى رحمة الله -تعالى- بالمؤمنين العصاة يقضون في النار ما شاء الله لهم أن يقضوا ثم يخرجهم الله

-تعالى- بالشفاعات يشفع النبي -صلى الله عليه وسلم- وتشفع الملائكة ويشفع الأنبياء ويشفع الولد لوالده ويشفع الوالد لولده والصاحب لصاحبه وهكذا والزوجان والأخوان في الله، كل يشفع لكن لا شفاعة تقبل إلا لمن أذن الله له ورضي له قولاً ولابد أن يقول حقاً بهذا يأذن الله -تعالى- بالشفاعة لمن شاء وفي الحديث الذي رواه الإمام البخاري ومسلم- رحمهما الله تعالى- عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (آتي تحت العرش وأخر لله ساجداً، ويفتح علي بمحامد لا أحصيها الآن فيدعني ما شاء الله أن يدعني) أي: يتركني ساجداً أحمده وأقدسه- سبحانه وتعالى- (فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقول: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع واشفع تشفع قال -عليه الصلاة والسلام-: فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة) يعني: يعلم له بعض الناس لك هؤلاء، فيخرجون من النار إلى الجنة، يقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (ثم أعود) أي: يعود ليسجد تحت العرش ويحدث مثلما حدث ذكر ذلك أربع مرات، وقال الله- تعالى-: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]، إذن: الملائكة لها شفاعة وحامل القرآن يشفع أو يتشفع في عشرة من أهله وهكذا لكن من هذا نستفيد أن الشفاعة ثابتة وكائنة وحاصلة إلا أنها لا تكون إلا من بعد إذن الله؛ لأن بعض من ساء قصده أو قل علمه يومًا من الأيام استدل بمثل هذه الآيات وقال لا شفاعة أصلاً، وأنكر الشفاعة لأن الله -تعالى- يقول: ﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ قال: إذن لا شفاعة ولا تنفع الشفاعة أخذ نصف الآية وسكت عن الباقي ومثل قول الله -تعالى- على لسان الكافرين يوم القيامة ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]، هذا فهم سقيم واجتزاء من معنى القرآن إنما النص واضح النص يثبت الشفاعة ولكن يذكر لها قيداً، يضبطها فليست الشفاعة أمراً مشاعاً هكذا يشفع من يشفع ويشفع لكل إنسان. لا.. إنما يضبطها الله -تعالى- ويقيدها بإرادته ومشيئته لمن رضيه -سبحانه وتعالى-، فالشفاعة ثابتة ولكن لا تكون إلا من بعد إذن الله بغض النظر إن كان الشافع نبيًا أو ملكاً أو صالحًا أو غير ذلك فإنه لا شفاعة له إلا من بعد أن يأذن الله -سبحانه وتعالى-.

ولما كانت الشفاعة موقوفة على إذن الله احتاج الأمر إلى تنبيه أن الله -تعالى- لا يأذن هكذا هذا يشفع له وهذا لا يشفع له تخمينًا أو رجمًا بالغيب- معاذ الله- إنما الله عليم ولذلك ذكر الله أن إذنه هذا قائم على علم بأحوال العباد ومن يستحق الشفاعة ومن لا يستحقها فقال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمٍ﴾ وساعتها يكون الناس- وخاصة هؤلاء المعرضين- يكونون في ذلة في النار من يسقط في النار- والعياذ بالله- أو يوقف دون الجنة ويريد من يشفع له بالتأكيد إنه يعاني من هذا الموقف ﴿وَعَنَتِ الوُجُوهُ﴾ [طه: ١١١]، خشوعًا وذلة وخضوعًا لله -عز وجل- ﴿وَعَنَتِ الوُجُوهُ لِلْحَيِّ القَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً﴾ هو الحي- سبحانه- ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فضلاً عن الموت، وهو القيوم قائم على كل نفس بما كسبت وقائم على كل نفس بما يصلحها وما يحييها وقائم على كل نفس بأمرها وتدبير شأنها ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً﴾ في ذلك اليوم خاب من حمل أي ظلم وأظلم الظلم هو الشرك الله -عز وجل- أما أهل الصالحات فهؤلاء هم الفائزون ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً﴾ لا يخاف أن يظلمه أحد فَيُحَط عليه ما ليس له من ذنوب ولا هضماً أي: نقصًا من حقه من الحسنات، لا هذا ولا ذاك إنما هو العدل الكامل.

ونهايةً يعود سياق الآيات إلى التذكير بالقرآن الكريم وسر وطريقة إنزاله فيقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً وَصَرَّفْنَا فِيهِ﴾ وصرفنا فيه أي: وضعنا فيه بتفنن وبأشكال متعددة من الوعيد ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فيعملون الصالحات ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾ تذكرة في قلوبهم فيصلح حالهم ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ المَلِكُ الحَقُّ﴾، تبارك وتقدس - سبحانه وتعالى- وتعاظم فإنه الملك الحق الذي لا باطل عنده ولا لبس في أمره سبحانه وأخيرًا، يشير الله - تعالى- إلى عظمة القرآن حيث كان النبي -عليه الصلاة والسلام- يهتم به كثيرًا فكان يقرأ مع جبريل كل ما نزل عليه بشيء فكفاه الله هذا الهم وحفظ القرآن وأنه سيحفظه إياه فقال له: ﴿وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ كما قال في سورة القيامة: ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴿١٧﴾﴾ [القيامة: ١٦، ١٧]، أي: تحفيظه لك ﴿جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾.

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ولم يأمر الله -تعالى- نبيه -صلى الله عليه وسلم- أن يستزيد من شيء أو يطلب المزيد من شيء غير العلم ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾- نسأل الله -تعالى- أن يزيدنا علما نافعًا وأن يعلمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما عَلَّمنا إنه هو العليم الحكيم- هذا وصلى الله وسلم وبارك على نبينا مُحمد وعلى آله وصحبه، وشَكَرَ الله لحضراتكم جميعاً حسن المتابعة والإنصات.

الأخ الكريم من مصر، السلام عليكم ورحمه الله وبركاته،

السؤال الأول: ذكرتم فضيلة الشيخ في تفسير قوله- تعالى-: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ لأن الإعراض عن القرآن يؤدي إلى الوزر وهو الحمل الثقيل الدائم من الذنوب والآثام فهل المقصود بالإعراض إعراض جحود وكفر أم إعراض ترك وعدم تلاوة وعمل وتدبر؟ وهل الإعراض هنا هو نفس الإعراض في نهاية السورة في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]، ... الآية نرجو زيادة التوضيح؟

السؤال الثاني: جاء في تفسير ابن كثير في تفسير سورة النمل والزمر أن هناك ثلاث نفخات للصور النفخة الأولى، ونفخة الصعق، ونفخة الفزع، فما هو الراجح في نفخات الصور هل نفختان أم ثلاثة؟ نرجو التوضيح؟

الأخ الكريم من مصر، السلام عليكم ورحمه الله وبركاته، كنت قد ذكرت في حلقة سابقة أن سيدنا هارون لم يفرق يعني لم يرضَ أن يفرق بني إسرائيل بناءً على المحافظة على الوحدة وأنكر عليهم الشرك إنكاراً قولياً فقط، ولم يرد أن يزيد في الإنكار حتى لا يفرقهم وينتظر عودة سيدنا موسى -عليه السلام- هذا الأمر فيه شبهة يمكن أن تثار وهي أن بعض الجماعات على الساحة تأخذ هذا الأمر وتقول: إنا نحن نجمع من باب أن نجمع الناس حولنا وأن نحاول عدم التفرقة فأصبح كل واحد يدخل في التجميع سواء شيعة على سنة على صوفية على عقائد مختلفة المهم أن نصبح يداً واحدة كمسلمين هل هذا القول صحيح أم لا؟ وكيف نرد عليه؟

الأمر الثاني: بالنسبة لموضوع بما إننا نتكلم عن سيدنا موسى وعلى قصة فرعون والفراعنة ففيه موضوع الأهرامات، يعني حكم زيارة الأهرامات والأمر على أن الفراعنة هم الذين عملوها؟

فضيلة الشيخ الأخ الكريم من مصر كان يسأل عن قول الله -عز وجل- ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ هل الإعراض إعراض كفر أم إعراض ترك وكيف نربط بين هذه الآية وقول الله -عز وجل- في آخر السورة: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ﴾؟

بسم الله الرحمن الرحيم الإعراض هنا هو الإعراض في آخر السورة: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ هو نفسه ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ والمقصود به أولاً: هو إعراض الجحود والإنكار والكفر فكما ذكر في المحاضرة أن هذا الوعيد قصد به بالدرجة الأولى: المعرضون عن القرآن الكريم إعراض كفر وجحود وعناد وعدم إيمان ولكن من هذا العموم كله من أعرض عن قراءة القرآن الكريم وهو مسلم مؤمن بالله -سبحانه وتعالى- ويؤمن بالقرآن ولكن أعرض عن قراءته أعرض عن حفظه وهو يستطيع الحفظ أعرض عن الاستماع إليه وهو يستطيع السماع، كل من أعرض عن القرآن بشكل أو بآخر فإنه يتحمل شيئًا من الوزر من هذا العموم الكامل كبعض الناس يعيشون مثلاً لو تخيلنا أن بعض الناس يعيشون في وحلٍ أرض فيها ماء وطين هم يعيشون في هذا المكان وبعض الناس من غيرهم يدخلون معهم أو يلاحقونهم فمن دخل في هذا المكان دخولاً بسيطاً ناله شيء من هذا الوحل ومن تغلل أكثر وتوغل يزداد طينًا ووحلاً ومن توغل أكثر، وهكذا وإن كان مؤمناً بالله وبالقرآن إلا أنه بإعراضه عن قراءة القرآن وهو يستطيعها عن حفظها وهو يستطيعه عن

الاستماع إليه وهو يتمكن من الاستماع إليه يعرض عن العمل بآية من الآيات وهي في إمكانه أن يعمل بها وهكذا فإنه يتحمل شيئًا من الوزر ولكن لا يتساوى مع الكافر المعرض إعراضَ كُفران وعناد فهما إعراض واحد ولكن المؤمن أو المسلم قد يصيبه الشيء من الوزر بقدر ما كان فيه من إعراض عن القرآن في الدنيا وكذلك في مثل قوله الله -تعالى- على لسان الرسول -عليه الصلاة والسلام-: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، يُقصد بها أولاً من هجر القرآن هجر الإيمان به وهجر العمل به ويدخل فيه دخولاً نسبيًا من هجر العمل بآية من هجر القراءة من هجر الاستماع من هجر الحفظ وهكذا يدخل دخولاً نسبيًا بقدر إعراضه في الدنيا- نسأل الله أن يعافينا من الإعراض-.

سؤاله الثاني: ما هو الراجح في عدد النفخات؟

النفخ في الصور ذكر فيه الفزع وذكر فيه الصعق في آية يقول: ﴿فَفَزِعَ﴾ وفي آية يقول: ﴿فَصَعِقَ﴾، والنفخة الثالثة للبعث وقيل: هناك نفخة رابعة، لكن الراجح أنه نفختان فنفخة الصعق فيها فزع وعلى أثر الفزع يصعق من أذن الله له بالصعق يوم القيامة عند النفخة الأولى ثم النفخة الأخرى نفخة البعث وذلك من خلال قول الله -تعالى- ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى﴾ ذكر كلمة أخرى على الثانية يدل على أنهما اثنتان فقط، فمن عادة العرب في تعبيراتهم أنه إذا كان الشيء له ثانٍ فقط ولا ثالث له يقولون: أولهما كذا والآخر كذا، لا يقولون: الثاني وهناك مسألتان مثلاً أو خصلتان الأولى كذا والأخرى كذا، ولا يقال الثاني أو الثانية غالبًا إلا إذا كان هناك ثالث أو ثالثة، ونزل القرآن بهذا فعبر الله عن الدنيا والآخرة لأنه لا ثالث لهما، قال ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى﴾ [الليل: ١٣] يُعبر عن الدار الدنيا بالأولى وعن الدار الثانية النهائية بالآخرة لأنه لا ثالث لهما، فالأول، والله -سبحانه وتعالى- قال ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ﴾ [الحديد: ٣]، وليس لهما ثالث فعبر عن نفسه بالأول والآخر، فكلما كان الشيء على قسمين يقال: الأول والآخر غالباً ولو قال: ثانٍ يصح ولكن ليفيد المتكلم السامع أن هذا الشيء اثنان فقط لا ثالث لهما فيعبر عن الثاني بقوله: الآخر، وهكذا جاء التعبير ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، يعني: ثم نفخ فيه ثانية، وهذا يدل على أنهما نفختان كما جاء في سورة النازعات أيضًا: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾ [النازعات: ٦، ٧]، الراجفة: هي النفخة الأولى التي تهتز فيها الدنيا ويفزع الناس ويصعقون ﴿تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾، هذه هي النفخة الثانية والأخرى يوم القيامة وسميت رادفة باعتبارها تابعة للأولى. والله أعلم.

وردتنا إجابات على أسئلة الحلقة الماضية:

كان السؤال الأول: لماذا عَجِل موسى إلى ميقات ربه؟ وكيف كان هذا؟

كانت الإجابة:

لِيُسارع إلى ربه -سبحانه وتعالى- مبالغة في إرضائه أكثر وأكثر وذلك من شدة محبته لله -عز وجل- وأنسه به.

-ما شاء الله- هذا صحيح وطيب جزاكم الله خيراً.

السؤال الثاني: ما الذي أغضب موسى -عليه السلام- وهو في ميقات ربه؟ وكيف اتخذ بنو إسرائيل العجل؟

وكانت الإجابة:

الذي أغضب موسى -عليه السلام- عندما كان في ميقات ربه أن الله -تعالى- أخبره بأن السامري أضلهم بالعجل الذي اتخذوه إلها من دونه كان بنو إسرائيل عند خروجهم من مصر قد استعاروا من جيرانهم ما عندهم من ذهب على أن يردوه إليهم مرة أخرى لكنهم تصرفوا بذهب القِبَط ولذلك تعتبر هذه سرقة فأمرهم هارون بجمع الذهب في حفرة صغيرة إلى أن يرجع موسى -عليه السلام- ويرى رأيه فيه وكان فيهم السامري الذي رأى جبريل -عليه السلام- أو رأى ما يركبه من فرس أو ما يشبه الفرس فأخذ من أثر الرسول قبضة من التراب فألقاها في الحفرة ودعا ربه فأجابه إملاءً له فصنع لهم عجلاً من ذهب وأوحى إليهم أن هذا إلهكم وإله موسى فاتخذوا العجل إلهاً من دون الله -عز وجل- فكانت فتنة عظيمة.

نعم، نشكر على هذه الإجابة إجابة وافية- ما شاء الله-.

كان السؤال الثالث: اذكر ما تعرفه عن السامري؟ وكيف عاقبه الله على جريمته؟

وكانت الإجابة:

قيل: إن السامري كان من بني إسرائيل وقيل: كان من القبط صحبهم في رحلتهم تعلقاً بهم وكان رجلاً فيه صلاح وكان معه من الآيات التي بعثها الله في قلبه والإلهامات التي جعلته رجلا صالحًا كما سمع من موسى ما سمع ولكنه ترك كل ذلك وأضل قوم موسى بالعجل ورجع إلى أصله - كما قيل- إنه من قوم يعبدون البقر فأفهمهم وعلمهم أن هذا هو إلهكم وإله موسى، عندما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً طرد السامري ومنعه من صحبة بني إسرائيل قال- تعالى-: ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الحَيَاةِ أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ﴾ [طه: ٩٧]، ذكر بعض المفسرين: أي لا قريب وحيداً طريداً بعيداً عن الناس فكان لا يطيق لمس الناس كما أن الناس لا يطيقون لمسه، هذا والله أعلم.

هو في السؤال الأول فقط، يبدو أنهم لم يذكروا كيف تعجل موسى إلى ربه، يعني: ذكروا أنه تعجل إلى ربه بلوغًا لرضى الله -سبحانه وتعالى- ومحبة في الله -عز وجل- ولكن لم يذكروا كيف تعجل وذلك أنه ترك بني إسرائيل وراءه يَخْلُفونه في الطريق وسبق هو كأنه أسرع الخطى والمشي إلى الله -سبحانه وتعالى- أو إلى مكان الميقات، ليلقى ربه هناك وكانت هذه هي الطريقة التي تعجل بها موسى وترك هارون -عليه السلام- خليفة على قومه من بعده.

نشكر إخواننا وأخواتنا طلبة العلم، جزاكم الله خيرًا على هذه الإجابات الوافية الطيبة نسأل الله - تعالى- أن يزيدكم من فضله.

الأخت الكريمة من الإمارات تقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، كيف نوفَّق ألا نكون من الذين هجروا القرآن؟

نسأل الله -تعالى- أن يعافينا من الهجر، هو الحمد لله أن وفقنا الله -تعالى- للإيمان بالقرآن هذا يسلمنا ويعافينا من أو يخرجنا من دائرة الإعراض العامة الكبيرة لكن بعد ذلك يحاول الإنسان دائماً أن يكون رجاعًا للقرآن الكريم فيصطحب القرآن في كل يوم فترة ليقرأ منه وردًا على قدر استطاعته بما يداوم عليه ولا يقطعه، وأحب الأعمال إلى الله- تعالى- أدومها وإن قل، ومن استطاع الحفظ فليحفظ ولا يدخر جهداً ولو أن يحفظ كل

يوم آية أو آيتين أو ثلاثاً على حسب وقته وجهده أيضًا بحيث ألا يقطع هذا الجهد يوماً، فيتخذ لنفسه قدراً يحفظه في كل يوم ولا يقطعه في يوم من الأيام، ومن خطورة الهجر خطورة العمل بالقرآن الكريم وخاصة أن مع التطور الحياة وتفتح الناس إلى غير الدين والقرآن ينتبهون إلى مبادئ معينة تحكم حياتهم وإن كانت تعارض القرآن الكريم أو تعاليم الشريعة فيمشي الإنسان مع الأعراف أعراف الناس وتقاليدهم وإن خالف في ذلك القرآن فلا يهتم حتى صار عند الناس كما في مِصْرنا سار عند الناس مثل يقولون فيه حينما يقال لأحدهم: لا داعي لكذا والقرآن يقول كذا وكذا ولا تهتم بفعل الناس فيقول: ألأخر عند الناس شرع أنا أطلع عن الناس شرع، يعني: أعمل شرعاً من دون الناس طالما هو شرع الله، اعمله ولو من دون الناس لا حرج وهل يُنكر الإنسان على نفسه أن يكون على الشرع وإن كان الناس على هوىً يخالف الشرع هذا لا يضيرني في شيء ولا يسيء إلي في شيء طالما أنا على شرع وإن كان الناس كلهم على هوى فلا يقابل الشرعَ إلى الهوى لا ثالث لهما الشرع من الله والهوى من الناس، أو من أنفس الناس فمن لم يتبع الشرع اتبع الهوى ومن اتبع الهوى خالف الشرع، فمن الهجر الذي يَقْبُح الإنسان به ويُشين الإنسان هجر العمل بالقرآن الكريم كما قال الله –تعالى– ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، ويقول الناس: الذي معه قرش يساوي قرشاً والذي ليس معه لا يساوي شيئاً، فنقيم الناس بالقرش، والجنيه، والدولار، واليورو، والدينار، والريال، وكذا... بالمال الذي هو متغير وصاعد ونازل في قيمته وهو وسيلة من وسائل الحياة وليس مقصوداً من مقاصدها، نقيم الإنسان به وهو رزق عند الله – تبارك وتعالى– فليس صاحب المال الكثير ليس هو الذي جمع هذا المال بنفسه ولا بمهارته إنما هو كد وتعب أو احتال وابتكر وكذا ولكن رزقه الله رزقاً محددًا ولو لم يفعل لرزقه الله الرزق نفسه والفقير الذي حاول أو لم يحاول وقَدَرَ الله عليه رزقه هذا رزقه عند الله عمل أم لم يعمل اتخذ الأسباب أم لم يتخذها هذا رزقه عند الله –تعالى– فلا مَيْزَة لغني ولا ملامة لفقير حتى يظن الناس أن فلان قيمته عالية بما معه من مال على حد قول القائل:

رأيت الناس قد مالوا إلى من عنده مال

ومن لا عنده مال فعنه الناس قد مالو

ليس الأمر هكذا إنما ينبغي أن نأخذ بالشرع ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، ويُعرف الأتقى بكثرة صالحاته وقلة سيئاته– رزقنا الله جميعاً التقوى ورزقنا الصلة بالقرآن وعافانا من هَجره– اللهم آمين.

في قول الله –عز وجل– ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ماذا يُستدل عليه في حديث الله عن نفسه في صيغة الجمع في نحن؟

حين يتكلم المفرد بأسلوب الجمع فهذا أسلوب من الأساليب العربية أو في اللغة العربية اسمه: أسلوب الأبهة والعظمة ويستعمله الملوك يقولون مثلاً: نحن ملك المملكة الفلانية نحن رئيس الجمهورية الفلانية فعلنا كذا وأنجزنا كذا وبنينا كذا وأمرنا بكذا وصرفنا كذا يُعبر عن نفسه بأسلوب الجمع تعظيماً لمكانه ولله المثل الأعلى فهو ملك الملوك –سبحانه وتعالى– فهو الأحق والأولى بمثل هذا الأسلوب الذي فيه العظمة وفيه الأبهة فمهما عظم الخلق فلا قيمة لهم في عظمة الله –سبحانه وتعالى– ولا يُدانونها أبداً ومن هنا يقول الله عن نفسه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ هذا ليشير الله –تعالى– إلى عظمة ذاته وأن أحدًا لا يستطيع أن يصلَ إلى هذا العلم الشامل الذي لا تخفى عليه خافية، فعظم الله –تعالى– وعظم علمه وأن هذا علم عظيم لا يستطيعُ أحد أن يحصله ولا أن يكون عليه، أن يعلم هذا وهذا وهذا وأن يعلم ما يُخفيه فلان وما يخفيه فلان ويتخافت به من قول أو يخفيه في قلبه، هذا لا يَصل إليه أحد إنما يعلمه الله –سبحانه وتعالى– من خلقه ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الأنفال: ٤٣] يعني: عليم بالكلام وهو في الصدر قبل أن يخرج إلى اللسان، وقبل أن تتلقاه الآذان الله يعلمه وهو في ذات الصدور ولهذا حُقَّ أن يكون التعبير هكذا ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾– والله تعالى أعلى وأعلم–.

الأخت الكريمة من فلسطين تقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، لقد ورد ذكر السنة وذكر العام في القرآن الكريم سؤالي هو: هل يوجد فرق بينهما أم لا؟

لعله سبق الإجابة على هذا السؤال في مرة سابقة وقيل في ذلك: إن السنة هي العام يعبر بأحدهما عن الآخر ولكن عند التفريق بينهما أو تحديد المفهوم لهما فإن العام يُعَبَّرُ به عن الخير، عن الأيام التي فيها خير أما الأيام التي فيها نَكد وشر ومصائب وبلاء وهكذا فيسمى سنة، ولذلك يقال في أيام سيدنا يوسف -عليه السلام-: سِني يوسف، وقال الله -تعالى- على لسان سيدنا يوسف -عليه السلام- وهو يعبر عن الرؤيا: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ [يوسف: ٤٨]، وقال بعدها ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٩]، قال: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً﴾ [يوسف: ٤٧]، سبع سنين ولم يقل: سبعة أعوام لأنها فيها شغل وفيها زراعة وجهد شديد لتحصيل المحصول وهكذا، وبعد ذلك يأتي سبع وهي سبع سنوات أيضًا طالما سبع مذكر فالمعدود مؤنث، أي يأتي من بعد ذلك سبع سنوات شداد، لأنها لا زرع فيها والأرض لا تنتج ويأكل الناس من مخزونهم ويخشون فواته ونفاذه ففيها هم في القلوب وفي الصدور ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ ﴾]، ولم يقل: سنة ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾، يكثر الخير حتى قيل: إنهم يأكلون الفاكهة وتبقى زيادة عن حاجتهم فيعصرونها من باب الترف يأكل التفاح مثلاً أو يأكل الفاكهة ويشرب من عصيرها وهذا من باب الترف وكثرة الخير، فسمى الله -سبحانه وتعالى- في القرآن أيام الخير عاماً وأيام الشدة سنة وهذا هو الفرق الدقيق بينهما- والله أعلم-.

الأخ الكريم من المغرب يقول: ما معنى قوله- تعالى- في سورة ق: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ المُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق: ٤١]؟

هو المنادي الذي هو الداعي معنا الذي ينادي على الناس ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ [القمر: ٦]، يدعو الناس للخروج إلى أرض المحشر ليُعرضوا على الله -تبارك وتعالى- فيناديهم من مكان قريب يسمعون صوته ويجيبونه لا عوج لهم عنه، ﴿لاَ عِوَجَ لَهُ﴾، يعني: لا عوج لهم عنه ولا عن دعوته ولا عن ندائه.

الأخت الكريمة من السعودية تقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، يتخافت الناس يوم القيامة فيما بينهم ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً ﴾، ويقول أمثلهم طريقة: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً﴾ فما الفرق بين المدتين ولماذا كان أمثلهم طريقة؟

هو العشر واليوم كما قلنا وفي آية أخرى ساعة ﴿عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾، ذلك على اختلاف تقدير كل واحد أو كل مجموعة منهم مجموعة تقول: يوم ومجموعة تقول: عشرة أيام وهكذا هذا على اختلاف تقديرهم ولكن اجتمعوا جميعًا على أن المدة كانت قصيرة وقيل: إن هذا يخص الحياة الدنيا أي أن الدنيا كانت قصيرة فلم ندرك فيها الإيمان وتحصيل أسباب الجنة والفلاح وقيل: إن هذا يخص الحياة في القبر حياة البرزخ أي لم نلبث في الأرض إلا هذه المدة القليلة وعلة ذلك أنهم ماتوا بأجسادهم حين جاءهم الموت كانوا بأجساد صحيحة وجاءهم الموت على هذا ثم يوم القيامة بُعثوا فوجدوا أنفسهم أيضاً بالأجساد نفسها فقالوا: إذن أجسادنا لم تتآكل فما لبثنا إلا قليلاً في الأرض وفي القبور لدرجة أن أجسادنا لم تتحلل ولم تذهب مع التراب إنما كانت فترة قليلة وجيزة قريبة فقمنا بأجسادنا كما متنا بها، فلا فرق أو لا تعارض أصلاً حتى نقول: هناك فرق إنما الفرق هو تفاوت الناس في تقديرهم لهذه المسألة حسبما كان في أنفسهم من حساب لهذه المدة إنما الذي يكاد الناس يجتمعون عليه في قولهم هذا هو أن الدنيا كانت قريبة وكانت عاجلة هذا أرجح الآراء فلم يدركوا فيها الإيمان الذي يُوصلهم إلى الجنة وإلى رضوان الله -تبارك وتعالى- وطبعًا كان هذا على سبيل الاعتذار والتبرير لكفرهم وهو اعتذار باهت لا قوة فيه ولا حق فيه حيث إن هناك من أمثالهم من آمن منهم أيضًا من عمل الصالحات بقدر كفى لنجاته ولفوزه ولفلاحه حتى صحب الأنبياء والصديقين والشهداء والله- تعالى- قال لهم هذا في الدنيا: ﴿مِنَ المُؤْمِنِينَ

رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيل﴾ [الأحزاب: ٢٣]، هذا والله تعالى أعلى وأعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فضيلة الشيخ هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه المحاضرة ؟

حول هذه المحاضرة الثامنة بعض الأسئلة:

السؤال الأول: ما مراد المجرمين من قولهم ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً ﴾؟

السؤال الثاني: ما دلالة قول الله -تعالى- ﴿ يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ على إثبات الـشفاعة أو نفيها؟

السؤال الثالث: كيف كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يعجل بالقرآن؟ ولماذا نهاه الله عن ذلك؟

ونسأل الله لكم التوفيق والسداد.

الدرس (٩) طه (الآيات ١١٥- ١٣٥)

بسم الله والحمد لله والصلا ة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه وبعد :

إخواني وأخواتي طلبة العلم، السادة المشاهدون جميعاً في هذه المحاضرة التاسعة في دورتنا العلمية المباركة هذه: نتناول الآيات من مائة وخمسة عشر إلى الآية مائة وخمسة وثلاثين وهي آخر سورة طه ونتناول ذلك من خلال عناصر وموضوعات أربعة:

أولاً: قصة آدم وعبرتها.

ثانياً: ملامح منهج الله للخلافة في الأرض.

ثالثاً: تثبيت الله للنبي محمد -صلى الله عليه وسلم- أمام العوائق والمعوقات.

رابعاً وأخيراً: نموذج من هذه العقبات على طريق الدعوة.

وقبل أن نفصل القول في هذا نستمع إلى نص الآيات من أخينا فليتفضل مشكوراً:

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴿١١٥﴾وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴿١١٦﴾فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴿١١٧﴾إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴿١١٩﴾فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴿١٢٠﴾فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴿١٢١﴾ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴿١٢٢﴾قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴿١٢٣﴾وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴿١٢٤﴾قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴿١٢٥﴾قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴿١٢٦﴾وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴿١٢٧﴾أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴿١٢٨﴾وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴿١٢٩﴾فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴿١٣٠﴾وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٣١﴾وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴿١٣٢﴾وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴿١٣٣﴾وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى﴿١٣٤﴾قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴿١٣٥﴾﴾[طه: ١١٥: ١٣٥]،

اللهم اجعلنا بفضلك من أصحاب الصراط السوي وممن اهتدى بهديك يا رحيم يا رحمن، في هذه الآيات المباركات يذكر الله- تبارك وتعالى- قصة نبي الله آدم- عليه السلام- وهو أبو البشر وهو أول آدم رأته وعرفته الدنيا، ذلك المذكور في القرآن في مثل هذه القصة ومهما كان من أوادم فهذا هو أولهم ولم يكن قبله آدم آخر، وذلك من خلال جمع آيات القصة يتبين لنا فعلاً أن هذا هو أول من استخلفه الله- تعالى- في الأرض كما قررت ذلك سورة البقرة، وهو أول إنسان سكن الأرض وما كان يعرف عنها شيئاً لولا أن الله علمه الأسماء كلها وفضله بذلك لهذه الخلافة الكريمة التي يتشرف بها الإنسان.

وقصة آدم في سياق سورة طه إنما هي عبرة للأمة كما أن قصة موسى- عليه السلام- فيما سبق كانت عبرة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- كما سبق أن ذكرنا في المحاضرة السابقة- ليعلم النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه ملاقٍ أذى من قومه وأن الله ناصره عليهم ومظهرٌ أمره فسيرعاه الله بعينه كما رعى موسى- عليه السلام- وسيتم أمره ويؤيد بالمعجزات كما كان موسى- عليه السلام-.

أما هذه الأمة المطالبة باتباع النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- على منهج القرآن فإنها في حاجة إلى ضرب مثال فذكرها الله- تعالى- بالمثال الأول الذي ضربه الله- تعالى- للبشرية جميعاً درساً مهماً مفيداً قدره الله على آدم ليكون معلماً لذريته بتقدير الله- تبارك وتعالى- ومن شأن القصة في القرآن أن الله- تعالى- لا يعتمد في سرد القصة ولا ذكرها على جذب الأعصاب أو شدها وعلى جعل القارئ للقصة أو السامع يتوتر عصبياً ليعلم النتيجة إنما يريد الله- تعالى- من خلال القصة تقديم عبرة إلى الناس فلذلك يلغي ثوران العاطفة بتقديم النتيجة من أول الأمر يقول الله- تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ هذا ملخص القصة وكأن الله- تعالى- يقول لابن آدم: إنك معرض لأن تنسى فتخطئ، معرض لأن ينقطع عزمك في طريقك إلى الله -عز وجل- في اتباعك لنبيك -صلى الله عليه وسلم- وهذا يستتبع منا سؤالاً ماذا علينا يا ربنا إن كبونا تلك الكبوة وإن سقطنا تلك السقطة؟ ماذا علينا لننهض ونقوم؟ ومن الذي من شأنه أن يسقطنا في هذه السقطة وأن يوقعنا في هذه الكبوة؟

هذا كله وغيره علمنا الله إياه من خلال قصة آدم المعروضة في القرآن الكريم في أكثر من سورة ولكن يذكر الله- تعالى- في كل سورة ما يناسب سياقها ومقامها من القصة فيكون التركيز على جوانب محددة معينة، هنا التركيز على بيان كيف نسير في هذه الحياة بمنهج الله- عز وجل- ومن الذي يعمل بجد ونشاط وحرص واستمرار على أن نخالف الطريق السوي وألا نهتدي وأن نميل ميلاً عظيماً وماذا على من وقع في شراك هذا العدو ماذا يفعل ليعود إلى صوابه ويستقيم أمره من جديد؟

وبهذا يضمن الإنسان سلامته على الطريق السوي حتى يصل إلى مرضاة ربه- سبحانه وتعالى- فقال- عز وجل-: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ ﴾، أي: عهدنا له بعهد وعهدنا له بأمر جاء تفصيله بعد ذلك وهو عدم الأكل من الشجرة في الجنة ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ ﴾ أي: من قبلكم وأشير هنا إلى أن كلمة: من قبل ومن بعد إذا كانت مقطوعة هكذا ليست مضافة لما بعدها فتكون من قبلُ ومن بعدُ، أما إذا أضيفت لما بعدها ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ﴾[الزمر: ٥٤] عوملت معاملة المعرب، تعرب وتجر بـ"من" فجاء في القرآن ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ﴾، من قبلِ، فقبل مجرورة بـ"من أما إذا قطعت عن الإضافة لما بعدها فإنها تبنى على الضم تكون مبنية على الضم؛ لأن هذا قد يحدث إشكالاً عند البعض أحياناً هذه قاعدتها إذا أضيفت أعربت وإذا قطعت عن الإضافة لما بعدها بنيت على الضم فيقال: من قبلُ ومن بعدُ ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ نسي العهد، إذن: خطيئة آدم كانت عن نسيان ولم تكن عن تعمد إنما كانت عن نسيان لعهد الله وهذا شأن الإنسان ينسى يضعف تغلبه الشهوات وهذا هو الذي ينبغي ألا يعصي الإنسان ربه إلا من خلاله ولكن لا يقع الإنسان في معصية ربه متعمداً قادراً على الامتناع قادراً على صيانة نفسه ويتعمد ويصر على العصيان هنا تكون خطيئته أكبر.

فآدم حين سقط في هذا الخطأ كان عن نسيان ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ أي: صبراً لم يكن عنده صبر وهذا كشأن كثير من ذريته ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾، هذا تفصيل القصة تفصيل هذه المقدمة التي قدم الله بها للقصة، ربنا- عز وجل- يحكي أنه حين خلق آدم أمر الملائكة أن تسجد له تعظيماً لأمر الله ولما خلق الله، لأن الله خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه وأسكنه أرضه دون ملائكته فكان لآدم شأن.

فأمر الملائكة أن تسجد لآدم وكان إبليس يومَها صالحاً وكان من صلاحه أنه يرقى إلى الملأ الأعلى ويجالس الملائكة فصدر الأمر وهو فيهم كما لو دخل علينا داخل في بيتنا ومعنا ضيف على الضيف أن يسلم ويرد السلام على الداخل أم يقول: ليس البيت بيتي فلا أرد السلام؟ لابد أن يقوم ويؤدي التحية ويرد السلام على الداخل وإن لم يكن من أصحاب البيت.

صدر الأمر للملائكة وإبليس فيهم فكان مطالباً بما هم مطالبون به ولم يحتج إبليس بهذا ولم ينكر، عرف أنــه مطالب بهذا، إنما سجد الملائكة كلهم أجمعون ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ فقط هو الذي أبى السجود، في آية أخرى: ﴿ أَبَــى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة: ٣٤]، لأنه عصى أمر الله ولم يتكبر على آدم في حد ذاته إنما كان تكبــره على آدم وترفعه عنه كان عصياناً ورداً لأمر الله عز وجل فكفر بهذا ﴿ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى﴾ أي: رفض، هنا في كلمة: فنسي ذكر الإمام ابن كثير –رحمه الله تعالى– عن على بن أبي طلحة عن ابن عباس وعرفنا أن هــذا هو أصح تفسير ورد عن ابن عباس من رواية على بن أبي طلحة كما ذكره ابن أبي حاتم أيضاً ورواه عن ابــن عباس –رضي الله تعالى عنهما– (إنما سمي الإنسان لأنه عهد إليه فنسي) إنما سمي الإنسان أي: سمي إنــساناً لأنه عهد إليه فنسي، فالإنسان من النسيان ولها اشتقاقات أخرى نبه إليها أهل اللغة منها: الأنس فهو مخلوق يأنس ويؤنس إليه، ومنه أنه مخلوق متحرك من الونس وهو الحركة وهكذا لكن ورد هذا عن ابن عباس كما ذكره ابن كثير ونسبه إلى على بن أبي طلحة وروايته عن ابن عباس وكذلك ابن أبي حاتم –رحمهم الله جميعاً.

فلما أبى إبليس السجود أراد الله أن يكرم آدم جزاء ما عصاه إبليس وليظهر كرامة آدم ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَــذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ في آيات أخرى ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُــكَ الْجَنَّــةَ ﴾[البقرة: ٣٥]، والآية هنا تبين أن الله– تعالى– سيسكنه الجنة وينبهه إلى عداوة إبليس فهــو الحــريص علــى إخراجه من الجنة، كيف يدخل آدم الجنة ولا يدخلها إبليس؟

فجاء هنا تحذير آدم من إبليس فقط ﴿ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ ولم يكن في الدنيا غيرهما يوم ذلك ولذلك حصر الكلام في آدم وزوجه ﴿ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ ولما كانت لآدم ذرية امتدت العداوة لذرية آدم– عليه السلام– ﴿ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ ﴾ هنا نلاحظ أو نفهم ونذكر أن الله –تعالى– خلقنا أصلاً للجنة لنكون فيهــا، خلق الخلق جميعاً أو البشرية لتكون في الجنة هذا ما يحبه لله لنا، ولكن لو أدخل الله الناس الجنــة هكــذا لمــل البعض هناك بعض النفوس الخبيثة التي تأبي على الجنة وتملها كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم– (كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى) إذن: هناك من يأبى دخول الجنة وحدث ذلك بالفعل في بني إسرائيل– كما أشرنا من قبل– حين رزقهم الله تعالى في الدنيا رزقاً كأنه في الجنة وكان ينزل عليهم السلوى وهو طائر يشبه بعض طيور الجنة، أكل لا يبذلون فيه جهداً ولا في إعداده ولا في جلبه ولا شيء. منٌّ وسلوى، ملوا هذا الطعام، وسئموا منه، ولم يرق لهم على الدوام، فانتكسوا إلى إنسانيتهم وتركوا فضل الرحمن ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾[البقــرة:٦١]، ولــو كانوا ممن يألفون الجنة لقالوا: لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك ينزل علينا طعاماً آخر فيكون شيئاً آخــر من السماء لكن قالوا: ﴿ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ ﴾ نظروا إلى الأرض والطين والتراب هــذه نظرتهم وهذه نفوسهم.

ثم طلبوا مما تنبت الأرض أشياءَ لا تقبلها النفس كثيراً ﴿ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾وهناك أشياء أطيب من هذه الأنواع لكن لم تتطلع إليها أنفسهم فأنفسهم كانت من الخبث بمكان، أمثال هؤلاء لا يألفون الجنــة ولو أدخلهم الله من البداية لملوا يوماً من الأيام ولتمنوا على الله أن يخرجهم يوماً إلى النار ليروا ما فيها وليذوقوا ما فيها ولو مرة.

من أجل ذلك الله- تعالى- خلقنا أولاً للأرض ليتبوأ كل منا مقعده الذي يريده، ولهذا جاء أول قرار يخص البشرية ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[البقرة: ٣٠]، ولم يقل: إني جاعل في الجنة خليفة، إنما خلقنا أولاً في الأرض ليترك كل إنسان يختار لنفسه المكان الذي يحبه والمكان الذي يألفه ويأنسه فيكون قد تبوأ مقعده بعمله وباختياره دون جبر من الله -عز وجل- أو قهر، وهي فترة محدودة لننتقل منها إلى الدار الآخرة وليبوء كل إنسان بعمله إلى مكان قد اختاره.

فالله- عز وجل- نبه آدم وينبهنا من خلاله إلى أن الذي سيحرص على إخراج آدم من الجنة وبالتالي حرمان ذريته من الجنة في الآخرة إنما هو إبليس- عليه اللعنة- ﴿ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾، فالعداوة إذن: مع إبليس وإبليس حقيقة وهو أبو الجن وقول الله- تعالى- فيه: ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾[ص: ٧٥]، ليس من طائفة من الملائكة اسمهم: العالين، إنما أم كنت من العالين أي: من المتعالين المتكبرين، وهو أبو الجن كما أن آدم أبو الإنس وحقد على آدم حين أسجد الله له الملائكة ولم يسجدهم لخلق إبليس ولا الجن من قبل ذلك ومات بحقده وطرد من رحمة الله- تبارك وتعالى- غير أنه طلب الخلود في الدنيا فخلده الله- عز وجل. قول الله- تعالى-: ﴿ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ يعني فيما بعد ولذريتك، بعض الناس يظنون أن إبليس هذا هو نازع الشر في النفس البشرية خطأ وهذا وهم إنما إبليس حقيقة غير أنه روح لا يُرى روح لا يراه الإنسان ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ ﴾[الأعراف: ٢٧]، وهو موجود وذريته موجودة، ذريته يموت بعضهم ويحيا الآخرون وهكذا يتتابعون في الأجيال أما هو فقد أنظره الله وأخره إلى آخر الدنيا لأن الدنيا دنيئة وحقيرة فأعطاها الله للشيطان حين طلبها ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾[الحجر: ٣٦، ٣٧].

ختام الآية فتشقى ولم يقل فتشقيان لأن شقاء الزوجة باعتبارها تابعة للزوج فيكون شقاؤها تبعاً لشقاء الزوج أما إذا كان الزوج منعماً فغالباً ينعم زوجته معه فإذا شقي الزوج شقيت الزوجة غالباً وإذا نعم الزوج نعمت الزوجة بنعيم زوجها، ولأن الرجل هو المسؤول عن الأسرة المكلف بالعمل المطالب بجمع الرزق لنفسه وللأسرة من خلال كدّه وتعبه خارج البيت أما الأم فهي في مدرستها ومملكتها تربي الأجيال وتعد الرجال للأمة بهذا العمل الشاق والجهد المضني الذي لا يطيقه الرجال في كثير من الأحيان فكيَّف الله المرأة لإعداد أجيال الأمة في البيت وكيف الله الرجل للخروج خارج البيت لجلب الرزق وتمويل الأسرة مادياً وهكذا فكان الشقاء على الزوج فقال: ﴿فَتَشْقَى ﴾.

﴿ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى ﴾ هذا في الجنة، لو حافظت على سكناك في الجنة يا آدم ستنال هذه الحقوق وأكثر منها وهذا هو الحد الأدنى لأي كائن حي، أدنى حق للإنسان ينبغي أن يعطى له ﴿ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى ﴾ يوفر إليه طعامه وشرابه وكساؤه ومسكنه الذي يحميه من الشمس ونحو ذلك والبرد وهكذا، ولكن لم يجمع الله بين الجوع والظمأ وهو العطش ولم يجمع بين العري وعدم السكن في البيت ونحو ذلك وإن كانت هذه الأمور متناظرة ولكن جمع الله بينها جمعاً آخر فقال: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى ﴾ جمع بين الجوع والعري باعتبار أن الجوع خلاء الباطن من الطعام وأما العري فهو خلاء الظاهر من الملابس، فجمع بينهما: الخلاء في كل، ﴿ وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى ﴾ الظمأ: ألم يحرق الجوف من قلة الماء وأما تضحى فهو: من الضحو وهو شدة حرارة الشمس والتي تبدأ بوقت الضحى، من عند وقت الضحى تبدأ أشعة الشمس في زيادة الحرارة وقد يتأذى بها الناس ولذلك يكتنون عن العمل ويسكنون إلى الظل وحتى الأنعام التي ترعى في الصحراء تأوي إلى الظل أيضاً وإلى أكنتها بعيداً عن حرارة الشمس التي قد حميت بها الأرض من تحت حوافرها فلا تطيقها.

فجمع الله بينهما باعتبار أن الظمأ ألم يصيب الجوف من قلة الماء وأن الضحو ألم يصيب الظاهر من شدة حر الشمس وبرد الشتاء ونحو ذلك.

﴿ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ ﴾ بطريقة ما: دخل الجنة.. لم يدخل الجنة.. كلمه من بعيد.. وسوس وسوسة معينة وصلت إلى آدم بتقدير الله- تبارك وتعالى- فكان فيما قال له أو فيما وسوس إليه به: ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى ﴾ وهكذا يزين الشيطان للإنسان سوء عمله فيجعله في شكل حسن لكي يجعله يأكل من الشجرة زين له أن هذه الشجرة شجرة الخلد وفيها ملك لا يفنى أبداً ولا ينتهي ومن هنا نسي آدم عهد ربه وأكل من الشجرة هو وحواء ولكن حين حرم الله- تعالى- الشجرة على آدم وأباح له الأكل من الجنة كلها كان ذلك رمزاً للحلال والحرام الوارد في الشريعة فالحلال كثير نسبته في الشريعة كنسبة أشجار الجنة كلها عدا هذه الشجرة فقط ونسبة التحريم في الشريعة نسبة ضئيلة كشجرة في جنة واسعة عظيمة، فيستطيع الإنسان إذن أن يستغني عن هذ الشجرة بغيرها من الأشجار وكذلك يستطيع أن يستغني عما حرم الله بما أحل الله- سبحانه وتعالى- فهذا رمز للحلال والحرام والمنح المنع في شريعة الإسلام.

﴿ فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ أكل آدم وأكلت حواء فبدت لهما سوآتهما أي: ظهرت كانت موجودة ولكن لم يلتفتا إليها وكانت مستورة عنهما بطريقة أو بأخرى بشكل أو بآخر لم يرد نص صحيح يعتمد عليه في ذلك، إنما كانا لا يلتفتان إلى العورة فلما أكلا من الشجرة بدت لهما العورة ورأيا سوآتهما من أنفسهما وهنا كأن الله يعلمنا من خلال هذا الترتيب أن الحرام يعري الإنسان ويفضحه ويسوؤه بسوأته وأما الحلال فهو سترة وكرامة وشرف وعفة، انظر إلى من تزوج ونكح وإلى من ارتكب السفاح- والعياذ بالله- واقترف الفاحشة هذا في سترة وعفة وكرامة وذاك الذي أخذ السفاح والزنى هذا في فضيحة وعار عظيم لا يقف عند الشخص فقط بل يمتد إلى أسرته وعائلته وربما تعير به بلاده كلها.

﴿ فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ فطرة لم تكن هناك شريعة يومئذ ولكن فطرة فطر الله آدم وحواء وذريتهما على ذلك أن الإنسان لا يقبل أن تظهر عورته فحين يصل الإنسان إلى حد يكشف فيه عورته بنفسه فهذا قد انتكست فطرته أو طمست أو ماتت وبدلت لأنه على خلاف الفطرة، تلك الفطرة التي كانت في آدم وحواء وراحا يغطيان سوءاتهما بما تيسر عندهما من أوراق الأشجار في الجنة وذكر ابن كثير -رحمه الله تعالى- أن آدم وحواء كانا يأخذان من أوراق شجرة التين لأن أوراقها عريضة قد يقول قائل: شجر التين فيه شوك. الجنة ليس فيها أشواك وليس فيها متاعب ولا شيء، أياً مَّا كان الأمر، وطفقا يخصفان عليهما أي: يجمعان ويضعان عليهما من أوراق الجنة لستر العورة هذه فطرة رأيناها أو سمعناها عن بلقيس وهي تعبد الشمس من دون الله، مشركة لا تعرف الله- عز وجل- ومع ذلك حين استضافها سليمان- عليه السلام- وأعد لها صرحاً ممرداً من قوارير أي مفروشاً من زجاج ليريها ملكه الواسع العظيم فلما رأته حسبته لجة ظنت أنه ماء وكشفت عن ساقيها، إذن: كانت تغطي حتى الساقين ولم تكشف عنها إلا حين ظنت أن تحت قدميها ماء.

وهكذا الفطرة موجودة في الإنسان حتى في بعض الكافرين إلا من أعرض وانتكس- والعياذ بالله- فإنه يسمح أن يكشف عورته أمام نفسه وأمام الآخرين وإن سمى هذا بتسميات تزين له هذا الشر على أنه خير كما قال الشيطان لآدم ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى ﴾ كان ذلك لئلا نقع في شراك الشيطان ومع ذلك كثير من الناس يلدغون من الجحر مرتين بل مرات ويتبعون الشيطان المرة تلو المرة مع تحذير الله لهم ﴿ فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ هذه هي الصورة الظاهرة أنه عصى ربه وغوى يعني: عكس الهداية هذا في الظاهر ولكن ورد في الصحيحين عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (أن موسى حاج آدم) قيل: كان ذلك في السماء حين التقت الأرواح وقيل: يكون ذلك يوم القيامة (فيقول موسى لآدم: أنت أبونا آدم الذي أسكنك الله الجنة فأخرجت الناس منها وأكلت من الشجرة) يلومه على هذا (فقال له: أنت موسى وكليم الله وتلومني على شيء قدره الله عليّ قبل أن أخلق بأربعين سنة فيقول النبي -صلى الله عليه وسلم-) معلناً النتيجة (فحج آدم موسى) أي: غلب آدمُ موسى بالحجة لأن هذا تقدير الله قدر الله على

آدم أن يأكل من الشجرة لنتعلم كيف تكون المعصية وكيف الخلاص منها ولكن ليس لأحد بعد ذلك من ذريــة آدم أن يبرر لنفسه معصيته بأن الله قدرها عليه لا.. قدرها الله على آدم فقط ليعلم البشرية والذريــة كيــف تكــون المعصية وبسبب مَن؟ وبالاتباع وراء مَن؟ وكيف الخلاص منها والتطهر منها والرجــوع إلــى الله- ســبحانه وتعالى- ولهذا يقول: ﴿ فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ اجتباه ربه فتاب عليه وهدى، الله اجتباه أي: اختاره واصطفاه وجعله نبياً لأهل زمانه من أولاده وذريته وتاب عليه: علمه التوبة كما جاء في سورة البقرة أولاً ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾[البقرة: ٣٧]، ربنا علمه التوبة هذه كلمات مذكورة في سورة الأعراف ﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، إذن: الأمر كله من تقــدير الله- عــز وجل.

وبعد ذلك يقول الله- تعالى-: ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا ﴾ هذا الأمر بالهبوط من الجنــة لآدم وإبلــيس وقيــل: لآدم وحواء كان هذا بعد الأكل من الشجرة مباشرة ولما نزل آدم إلى الأرض علمه الله التوبة.

إذن: هنا في الكلام تقديم وتأخير -في هذه القصة في سورة طه فيها تقديم وتــأخير- قــدم الله اجتبــاءه لآدم وتوبته عليه وهدايته له على قوله: ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ تعجيلاً بتعليمنا أن آدم بريء وأن الله- تعــالى- كما قدر عليه المعصية علمه التوبة فلا يظن أحد السوء بآدم ولا يحتج أحد لمعصيته بفعل آدم يقــول: أبونــا آدم فعل كذا وأنا مثله وأقل منه إذن أفعل وأفعل لا..لا نحتَجّ لمعاصينا بما فعل أبونا آدم- عليه السلام- ولئلا يظــن أحد أن خطيئة آدم باقية حتى قدم عيسى- عليه السلام- نفسه للفداء، يفتدي البشرية من خطيئة آدم. هذا كلام غير صحيح، إنما ما فعل بعيسى من محاولة القتل لولا أن الله رفعه وألقى شبهه على أحد من حوارييه كــان ذلــك محاولة قتل من اليهود لعيسى- عليه السلام- كما هو شأنهم مع أنبياء بني إسرائيل ومع نبينا- عليــه الــصلاة والسلام- فما مات إلا متأثراً بسم اليهود الذي أكله بخيبر كما أثبت ذلك الحديث في البخاري، ولو كان عيــسى- عليه السلام- مفتدياً البشرية من خطيئة لكان افتداؤه لنا وللبشرية من خطيئة قابيل الذي قتل أخاه أولى من افتدائه للبشرية مما فعل آدم، فما فعل آدم إلا أنه أكل ثمرة من شجرة لا تخص أحداً فلم يأكل حق أحد إنما كان ذنبه بينه وبين الله فقط، أما قابيل فكانت جريمته شنعاء حيث إنه قتل هابيل أخاه الذي ربما- بقدر الله- لو عــاش لكانــت البشرية ضعفي ذلك أو أكثر يعتبر قتل هابيل وقتل الذرية التي كانت ستكون منه لو عاش- بقدر الله- جناية على البشرية كلها من لدن هابيل إلى قيام الساعة ولهذا يقول النبي -عليه الصلاة والسلام - فما صح عنه: (لا تقتــل نفس ظلماً إلى يوم القيامة إلا كان على ابن آدم الأول كفل من وزرها لأنه أول من سن القتل) وجاء بعــد ذكــر القصة في سورة المائدة ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾[المائدة: ٣٢]، فلو كانت البشرية في حاجة إلــى افتداء من خطيئة لكانت في حاجة ماسة إلى الافتداء من خطيئة أبيها قابيل دون فعلة آدم- عليه السلام- ففعلتــه كانت فعلة يسيرة جداً أنه أكل ثمرة من شجرة.

هكذا تنتهي قصة آدم- عليه السلام- بهذا التعبير العظيم ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ لنؤمن أن آدم - عليه السلام- ليس على خطأ وإنما قدر الله عليه هذا قبل أن يخلق بأربعين سنة.

يعتبر درساً عملياً في التعليم ثم يفرع الله على هذه القصة التي يضربها للأمة كيف نسير في طريــق ربنــا لنصل إلى الجنة؟ نحذر الشيطان هذا هو عدونا وماذا لو سقط الإنسان في شراك الشيطان؟ يرجع إلى الله ويتوب كيف يتوب؟ أن يعترف بتقصيره وخطئه وأن يقر إلى الله- تعالى- بأنه هو غفار الذنوب ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُــسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أو بكلام آخر قريب من هذا يحمل المعنى نفسه، يفرع الله على هذا بيانا لملامح منهجه -سبحانه وتعالى- في خلافة الإنسان للأرض كيف نخلف في أرض الله؟ كيــف تــدوم خلافتنا وتصلح وتعمر بنا الحياة ونعيش حياة طيبة في هذه الآيات التالية ذكر ملامح هذا المنهج بــشكل مجمــل

مختصر جميل يعيه كل ذهن ويحفظه كل إنسان قال الله- تعالى-: ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ لا تنسوا هذه العداوة اذكروها دائماً حتى تحذروها ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى ﴾ سيأتيكم مني هدى تشريع ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى ﴾ والضلال سبب الشقاء والشقاء نتيجة للضلال. وتخيل ذلك فيمن ضل طريقه في صحراء فإنه يمشي بعيداً عن الطريق الصحيح والحق ويبعد وتبعد به الشقة ثم يتبين له الطريق الصحيح فيعود إليه بعد تعب وعناء شديد فشقي بضلاله حتى يعود، أو لا يعود إلى الطريق الصواب ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى ﴾ فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، فلا يضل في الدنيا بل يهتدي ولا يشقى في الآخرة وفي سورة البقرة يقول- تعالى-:﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة: ٣٨]، لا خوف عليهم في المستقبل أو فيما يستقبلهم من أمر لا ينبغي أن يخافوا على شيء أو من شيء ولا هم يحزنون على ما فاتهم مهما فات المؤمن وراءه من دنيا فإن مستقبله خير من ماضيه كما قال الله- تعالى- لنبينا -عليه الصلاة والسلام-: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾[الضحى: ٥]، مستقبلك عطاء إلى درجة الرضا وقال قبلها في سورة الليل عن أبي بكر -رضي الله تعالى عنه- وعن مثله ممن عمل عمله من الإنفاق في سبيل الله والعمل لله- عز وجل- قال- سبحانه وتعالى-: ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾[الليل: ٢١]، وسوف تفيد المستقبل أيضاً ولسوف يرضى.. الله- تعالى- برأه مما اتهم به في الدنيا وزكى عمله وزكاته وأخبر عن مستقبله أنه: ولسوف يرضى.

هكذا المؤمن يكون مستقبله خيراً له مما سبقه ومن ماضيه، (ولما ذهب أبو بكر وعمر -رضي الله تعالى عنهما- يزوران أم أيمن فلما رأتهما بكت بكاءً شديداً فظننا أنها تبكي فراقَ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنهما ذكراها بذلك فبكت، فبكيا معها حيناً ثم كفا عن البكاء وأخذا يصبرانها وقالا لها: اصبري فإن ما لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- عند ربه خير مما له عندك) مستقبل أمره عند الله خير مما كان له في الدنيا عندك وعندنا، (فقالت: والله لا أبكي لفراق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولكن أبكي لأن خبر الوحي انقطع من السماء) فمستقبل المؤمن يكون خيراً من ماضيه ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[البقرة: ٣٨]،وهنا يقول الله- تعالى-: ﴿ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى﴿١٢٣﴾وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ كفر بذكر الله وهو القرآن وأعرض عنه ولم يتبعه ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ الضنك: هو الضيق وذكر المفسرون في ذلك عدة أمور:

منها ما ذكره على بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: (ضنكا يعني شقاء).

قال الضحاك وعكرمة ومالك بن دينار «هو العمل السيء والرزق الخبيث» ولا شك أن من ساء عمله وخبث رزقه يكون شقياً ويشقى بذلك فالرأيان متلاقيان.

وفي حديث رواه ابن أبي حاتم موقوفاً -ووقفه أصح من رفعه-: (أن الضنك هو ضمة القبر) وروي مرفوعاً عند البزار(أنه عذاب القبر) وكل ذلك من الضنك وكل ذلك من الضيق الذي يلاقيه من أعرض عن ذكر الله- سبحانه وتعالى-، نعوذ بالله من ضنك الدنيا والآخرة ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ وهذا نجد مصداقه في حياة الكافرين فإن الإحصائيات أثبتت أن أعلى نسبة انتحار عند الكفار أكثر من المؤمنين مع أن حياة الكافرين- فيما نرى- تحكمها قوانين الحريات فليفعل كل ما يشاء وأنت حر ما لم تضر، ومع ذلك ومع أنه يستبيح لنفسه كل ما تشتهي نفسه إلا أنه يستعجل الانتحار ويستعجل الموت حتى نشأت عندهم جمعيات معروفة بجمعيات مساعدة المنتحرين حتى لا يضر بانتحاره ويكون انتحاره منظماً قام أناس وأنشأوا جمعيات هكذا يأكلون من وراءها ويجمعون رزقهم منها يهيئون مناخاً مناسباً للمنتحر حتى ينتحر بسلام فلا يضر غيره.. شيء مخزٍ ومضحكٌ في الوقت نفسه هذا إذا نظرنا فيه لماذا ينتحر؟ من إذا طلب شيئاً وجده وكلما أراد أمراً فعله ما الذي ينقصه؟ معيشة ضنك رغم أنها كما يسميها حرية وكما يراها الإسلام إباحية يستبيح لنفسه كل شيء ممنوع أو محرم ولكن مع هذا ينتحر ويستعجل الموت بينما المسلم في هذه الأيام رغم ضعف إيمانه ورغم قلة دينه ليس على المستوى العالي من الإيمان ورغم كثرة المشكلات في حياته والأزمات الطاحنة له إلا أنه يصبر ويتصبر ويأبى الموت ولا يقبل عليه بل عنده أمل وعنده صبر وعنده طموح في أن يفرج الله عنه هذا الكرب يوماً من الأيام هذا مصداق

واقعي لقول الله– تعالى–: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ أعمى إما أن يكون عمى البصر العمى الحسى المعروف وإما أن يكون أعمى البصيرة، فإذا كان أعمى فهو لا يرى طريقه يوم القيامة بين الزحام فيتخبط في الناس ولا يأمن ولا يسلم أمره فربما سقط ويداس من الخلائق في وسط الزحام الشديد إهانةً ومهانة له وإما أنه أعمى البصيرة يعني: لا حجة له لا يجد كلاماً يقوله ﴿ هَذَا يَوْمُ لاَ يَنْطِقُونَ﴿٣٥﴾وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[المرسلات: ٣٥: ٣٦]، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[التحريم: ٧]، وماذا يقول ولا حجة تقال؟ وماذا يقول وقد قطع الله له الأعذار كلها في الدنيا فوفاه حقه؟ ومع ذلك يستعطف الله– تعالى– ويقول: ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴿١٢٥﴾قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾، يعني: تعاميت عنها ولم تنتبه إليها والجزاء عند الله من جنس العمل وهذه آية العدل، آية العدل أن يجازي المجازي من جنس العمل كما عمل يجازى بمثل عمله ﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَ﴾أي: تناسيتها ﴿وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٢٦﴾وَكَذَلِكَ نَجْزِي﴾أي: بهذه الطريقة العادلة نجزي ﴿مَنْ أَسْرَفَ﴾ يعني: كل من أسرف في ذنبه وأسرف في كفره ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ وتفريعاً على ذلك وتتميماً للفائدة الله – تعالى– يعتب على هؤلاء الكافرين ويلفت أنظارهم لعلهم ينتبهون فيقول– سبحانه–: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾،أفلم يهد لهم يعني: أفلم يهدهم؟ أفلم يتبين لهم؟ كم أهلكنا قبلهم من القرون أي من أهل القرون وأصحاب الأزمان والأماكن والحضارات السابقة كم أهلكنا عاداً وثمود وفرعون وقوم ثمود وقوم لوط وغيرهم من الأمم وقوم نوح مما ينطق بقدرة الله– تبارك وتعالى– ومما يذكر بالقانون الرباني أن من أعرض عن ذكر الله فإن له معيشة ضنكاً وأن عليه العذاب في الدنيا والآخرة ولكن من ينتبه لمثل هذه الآيات ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى ﴾، وما النهى؟ القلوب الواعية التي تنهى صاحبها عن فعل ما يشينه ويسيء إليه فأصحاب النهى وأصحاب العقول والقلوب الواعية فقط هم الذين يفهمون هذه الآيات حين يرى فلاناً هلك بسبب ذنبه فلا يفعل هذا الذنب ولا يفعل مثله لئلا يهلك مثله بمثل ما هلك، ولماذا لم يهلك الله الكافرين من هذه الأمة ككفار مكة؟ ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾، لولا أن الله– تعالى– سبق بكلمة وسبق بوعد والله لا يخلف وعده لكان الله أهلك هؤلاء الناس ولولا أن الله كتب لهم أجلاً ممدوداً إلى حد معين لعجل الله بهلكتهم ولكن الله لا يبدل القول لديه وكان من ذلك أن قال الله– تعالى–: ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾[الأنفال: ٣٣] –صلى الله عليه وسلم– فلذلك حلم الله عنهم وأمهلهم دون أن يهملهم وإن أخذ منهم بعضهم يوم بدر وبعضهم يوم الخندق وفي الغزوات الأخرى ولكن لم يقض عليه قضاء كاملاً وقد عافى الله هذه الأمة من عذاب الاستئصال الذي كان يأخذ به الأمم السابقة كقوم نوح أهكلهم بالطوفان وقوم عاد أهلكهم بالريح وثمود أهلكهم بالصيحة وهكذا يقطع الله دابر الكافرين جميعاً ما فعل الله بالأمة إكراماً لرسوله– عليه الصلاة والسلام– حيث دعاه بهذا فأجابه الله– تعالى– إليه فلا عذاب تستأصل به أمة القرآن.

الموضوع الثالث: في هذه الآيات هو تثبيت النبي –صلى الله عليه وسلم– على طريق الدعوة أمام العوائق والعقبات والمعوقات التي تعترض طريقه وهذا يدلنا على لطف الله– تعالى– وعلى عنايته برسولنا– عليه الصلاة والسلام– كما كان يرعى بعينه نبيه موسى ووعد بذلك نبينه محمداً –صلى الله عليه وسلم– أيضاً كان يعمل معه ذلك وهذا مما يدل على تطبيق الله وتحقيق وعده– سبحانه–.

فيقول للنبي –صلى الله عليه وسلم– في مثل هذا الجو المغضب حيث كذب به قومه وكذبه من كانوا يقولون عنه: الصادق الأمين–صلى الله عليه وسلم– هذا أمر محزن يضيق أو يضيق صدر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– كبشر وكان ينتظر منهم أن يصدقوه كما كانوا يصدقونه طيلة أربعين عاماً، فيقول الله له: فاصبر، وكانوا يقولون كلاماً مؤذياً جارحاً قاسياً على قلب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إما كلاماً على الله وذات الله– سبحانه وتعالى– وإما كلاماً على القرآن وإما كلاماً على الرسول –صلى الله عليه وسلم– نفسه فكان يحزن لذلك ويحزن أكثر على أمته وأهله الذين ضلوا، ولذلك كان يقول: (اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون) فيقول له الله: ﴿

َفاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ وقد قالوا أقوالاً كثيرة مفتراه كلها أقوال آثمة لا تنشغل بما يقولون ولكن اصبر وانشغل بعملك أنت.

ما عملي يا ربي؟ ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾، قال العلماء: التسبيح هنا مقصود به الصلوات أي: فصلِّ لله ولعل هذا كان قبل فرض الصلوات الخمس وكانت الصلاة موجودة من أول العهد وكانت ركعتين ركعتين كانت هناك صلاة الليل كانت واجبة على الأمة وعلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– حتى فرض الله الخمس صلوات فنسخ فرضية صلاة الليل في حق الأمة فصارت سنة وبقيت واجبة على رسول الله –عليه الصلاة والسلام– ﴿ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ لعلك يرضى قلبك بهذا وتبلغ رضى الله– سبحانه وتعالى– والله – تعالى– وعده كما قلنا ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾.

وقال الله –عز وجل– لرسوله –عليه الصلاة و السلام– بعد أن صبره: ﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ لا تمدن عينيك يعني: لا تصرف عينيك إلى ما عندهم من متع الحياة من أموال.. من وجاهة.. من سيادة في أقوامهم.. لا تنصرف عيناك إلى هذا فهذا من زخرف الدنيا ومتاعها الزائل وهذا رزق ولكنه رزق غير حسن. الله– تعالى– يرزقهم هذا ولكنهم سيدخلون به النار وسيعذبون به فيها، فأصحاب الأموال الذين لا يتقون الله في أموالهم قارون –عليه اللعنة– دخل النار بسبب ماله وتكبره بكنوزه وتعاليه على الناس وفرعون دخل النار بعلوه وطغيانه هذه مناظر لا يلتفت إليها وقد رزقك الله يا نبي الله ما هو خير من ذلك وأبقى ورزق ربك خير وأبقى رزق الله كله خير حتى الرزق الذي رزقه الله للكفار هو خير في أصله ولكن هم الذين استعملوه في الشر وهم الذين جعلوه نقمة ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾[الرعد: ٢٨] رغم أن نعمة الله فيهم لكنهم أضروا أنفسهم بها، ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ أي: ورزق ربك لك ولنا نحن الأمة خير وأبقى مما في أيدي الكافرين إنما هم في زينة من الحياة الدنيا زهرة والزهرة عمرها قصير– كما تعلمون– الثمرة عمرها أطول إنما الزهرة تحمل في طياتها الثمرة وتخرج الزهرة وتتفتح لتخرج منه الثمرة ثم تذبل أوراق الزهرة وتنطفئ رائحتها وتسقط ورقاتها، عمر قصير جداً كذلك الدنيا فسمى الله ما عند هؤلاء الكافرين من متاع الدنيا زهرة الحياة وليست زهرة برائحة طيبة وخير نافع لا.. بل ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ وفيه هنا بمعنى: به أي: لنفتنهم به ولكن لإغراقهم في النعمة وشدة محبتهم لها ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر: ٢٠]، ويظنون أن النعمة هي سياجهم وحياتهم وكل شيء بالنسبة لهم فقال الله– تعالى–: ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ وختم الآية بقوله ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ وبعدها ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ ﴾ قبلها ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ سبح وأمر أهلك بالصلاة يعني صل أنت وأمر أهلك أيضا بالصلاة هذا من رزق الله حين يرزق الإنسان ركعتين لله خير من الدنيا وما فيها. سجدة بين يدي الله في الدنيا خير من مال الدنيا وزخرفها ولكن أكثر الناس لا يعلمون بعض الناس يقولون: وماذا أخذتم من صلاتكم؟ أنتم تصلون طول عمركم ماذا قبضتم؟ والله ما نحب أن تكون لنا الدنيا كلها وما فيها ونحن نصلي لله ركعتين وشيء من نعم الله علينا في الدين خير من الدنيا وما فيها وابن مسعود –رضي الله تعالى عنه– وهو يقرأ سورة الرحمن على ملأ الكافرين في مكة ويضربونه وعاد مضروباً ضرباً مبرحاً للنبي –صلى الله عليه وسلم– (يقول: والله يا رسول الله والله ما كنت أحب أن تكون لي الدنيا وما فيها والقوم يضربونني)لأنه في سبيل الله (ولو أمرتني أن أعود لعدت) فوضع زينة الحياة الدنيا عند الكافرين بين صلاتين بين صلاة النبي –عليه الصلاة والسلام– بمفرده وأمر أهل بالصلاة هذا يدل على أن رزق الله بالدين خير وأعظم وأكرم وأكبر من رزق الدنيا فرزق الدنيا زائل أما رزق الآخرة فباق وتلك القصة المشهورة المعروفة حينما أهديت شاة لعائشة –رضي الله عنها– فتصدقت بثلاثة أرباعها وأبقت ربعها ليأكلها النبي –عليه الصلاة والسلام– وأهل بيته (فلما جاء قالت: يا رسول الله أهديت إلينا شاة فتصدقت بثلاثة أرباعها وبقي ربعها، فقال: لا يا عائشة بل بقي ثلاثة أرباعها وذهب ربعها)الذي سيأكل هذا هو الذي سيذهب مع التراب وأما ما تصدقت به لله فهذا هو الباقي ما كان للآخرة فهذا هو الرزق الحقيقي الخير الباقي ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ ﴾ لابد للرجل، الأب، الزوج أن يأمر من تحت يده بالصلاة فأهله هم زوجه التي هي الزوجة وأهل بيته أيضاً أولاده يأمرهم بالصلاة وليس

بالصلاة فقط ولكن الصلاة وكل الواجبات الدينية الشرعية والنبي -عليه الصلاة و السلام- يقول: (كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته) وقال -عليه الصلاة و السلام- (كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول) وفي رواية أصح (أن يضيع من يقوت) أي: من يتكلف بأقواتهم والمعنى واحد إذا كان تضييع قوت الأسرة ذنباً يكفي الإنسان ليقف بين يدي الله محاسباً معذباً مسؤولاً فما بالك لو ضيع دينها وفطرتها؟!! فذنبه أشد وذنبه أعظم ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ ﴾وهذ الآية ترتيبها عجيب لأن بعض الناس يأمر أهله بالخير مرة ومرتين ومرات ثم يكل ويمل ويسأم ويسكت ولكن الله- تعالى- كأنه يقول له: استمر ولا تيأس ذكر دائماً ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ واصطبر هذه أكبر من: واصبر قاعدة في التفسير وفي اللغة عموماً تقول: كلما زاد مبنى الكلمة يعني: حروفها زاد معناها غالباً إذا كثرت الحروف فاعلم أن المعنى أكبر أو أشد أو أضخم واصطبر كأن الله يطالبنا بصبر أكبر من الصبر العادي ونحن نعلم أهلنا وأولادنا دين الله- عز وجل- لأن الزوجة تتدلل على زوجها وتقول: الآن أصلي- إن شاء الله- أصلي لا تشغل بالك اطمئن والأولاد يراوغون أيضاً نأمره بالخير ويراوغون وهكذا فيحتاجون إلى اصطبار لا إلى صبر عادي الاصطبار هذا يحتاج إلى وقت وكأن قائلاً قال: يا ربي وهل أنا متفرغ لهذا ورائي أكل عيشي وجمع رزقي قال- تعالى-: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا ﴾ لست مكلفاً بهذا إنما أنت مكلف أصلاً ومسؤول عن أن تقود أهلك إلى الجنة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾[التحريم: ٦]، ولم يقل: قوا أنفسكم وأهليكم جوعاً ما جاءت هذه في القرآن وإنما ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ فهذا مقدم على الدنيا.

﴿ لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا ﴾ يعني ماذا؟ اجلس بجوارها قل لها: اليوم- إن شاء الله- لن أذهب إلى العمل لماذا؟ لأنك لم تصلي وما دخل الصلاة في العمل؟ إن لم تصلي فلن أجمع رزق الله كيف نأكل رزق الله ولا نصلي له اجلس بجوارها في البيت خذ إجازة، شر يوم على زوجة أن يقعد لها زوجها في بيتها طول النهار وينازعها الأمر تريد أن تطهي طعاماً فيتدخل في هذا تغسل ملابس فيتدخل في هذا وهي تريد أن تكون براحتها في بيتها تلبس ما تشاء وتخلع ما تشاء لتتحرك حركة حرة في البيت وجود زوجها يمنعها لأنها تريد وتحرص أن يرى منها منظراً جميلاً وهذا يتناقض مع هذا فتظل مرتبطة بوضع معين طول النهار كأنها في سجن، مسجونة مع زوجها، لكن تحب أن تراه ويغيب عنها ثم يأتي وهكذا فتشتاق إليه فإذا قعد ثم لن يكون هناك عمل أخذت إجازة وراء إجازة يخصمون من المرتب لا مال لا رزق إذن لن تجد مصروفاً لن تجد ملابس لن تجد طعاماً لن تجد ذهباً إذن ستقول له: والله سأصلي اذهب إلى عملك واطمئن سأصلي وتقوم تصلي بالفعل ليذهب إلى عمله ﴿ لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا ﴾ من أين نأكل يا ربنا؟ ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ العاقبة يعني: النهاية الجميلة الفوز الفضل الكبير لمن؟ ليس لمن جمع المال. ليس لم بنى البيت الفاره. ليس لمن أعد الشقة بأساس كذا أو عمل لأولاده مستقبلاً مالياً كذا إنما العاقبة للتقوى كون الإنسان يترك تقوى الله في أهله وأولاده هذا ضمان عظيم فيقدم لأولاده في شركة التأمين الإلهية خير له من غيرها قال الله- تعالى- داعياً إلى ذلك: ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدً﴾ إذن: فالعاقبة للتقوى. هكذا يأمر الله- تعالى- بالتمسك بالدين فهذه خير من الدنيا وما فيها ولا تغرينا تلك الأشياء التي تتقلب في أيدي الكافرين فإنها متعة زائلة وزهرة فانية.

تنتهي السورة وتختم بذكر نموذج مما يقولون ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ ماذا قالوا؟ قالوا كلاماً سيئاً بذيئاً، كلاماً حقيراً سفيهاً ومن ذلك مثال: ﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ لولا يعني يا ليته يأتينا بآية من ربه [لولا] أداة حض وحث يعني: فليأتنا بآية من ربه وهذا القرآن أليس آيات؟ أولم يكف هذا القرآن؟ أولم تكف المعجزات الحسية والمادية التي ظهرت على أيد النبي -عليه الصلاة والسلام-؟ ألم يكفهم أنه كان صادقاً أميناً قالوا فيه: ما جربنا عليك كذباً قط من مدة أربعين عاماً؟ أهذا لم يكف؟ ماذا تريدون من آية بعد ذلك؟ بعد ما آتاه الله من آيات إنما هو التلكؤ في طريق الإيمان والتنطع وعدم الإقبال الصحيح ، المراوغة ليصدوا عن سبيل الله- عز وجل- ﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ الله يرد عليهم قائلاً ﴿ أَوَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى ﴾ ألم يحدثهم محمد -صلى الله عليه وسلم- بما كان في صحف إبراهيم وموسى وهو لم يقرأها وهو لم يعلمها وهو الأمي الذي

لم يقرأ ولم يكتب أبداً طول عمره معهم؟ من أين جاء بهذه الأخبار ألم تكن آيات من عند الله- سبحانه وتعالى- أنزلها الله عليه ليتلوها عليهم وليعرفوا نبوته؟ أهذا لا يكفي؟

إذن: ما كانوا يطلبون آية ليؤمنوا حقاً إنما هي مراوغة يبررون بها عدم إيمانهم ويضيعون بها الوقت بينهم وبين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أما كان الله يدري أنهم هكذا، أنهم لن يؤمنوا ؟ أما كان الله يعلم أنهم لن يقبلوا على الإيمان؟ بلى كان الله- تعالى- يعلم ذلك ولكن لو أن الله أهلكهم بعذاب دون أن يبعث رسولاً ماذا كان سيقول القوم؟ كيف تعذبنا يا ربنا بغير أن تبعث لنا رسولاً وتختبرنا بدين؟ جربنا اختبرنا كلفنا بتشريع ستجدنا طائعين كان المنافقون يقولون في الدنيا وسجل القرآن لهم ذلك: ﴿ وأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ﴾ [النور: ٥٣]، أقسموا بالله جهد أيمانهم كأنهم تعبوا من كثرة الحلف أتعبوا أنفسهم أو أنهم أجهدوا الأيمان وأتعبوها من كثرة الحلف بها على أنهم لو أمرهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالخروج معه في سبيل الله ليخرجن.. الله يكذبهم ويقول: ﴿ قُل لاَّ تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ أي: طاعتكم معروفة كلام فقط حين يعزم الأمر ويجد السعي والمسير لا نراكم ولذلك قال الله لهم- ولكن لما كانوا في وسط المسلمين جاء الخطاب عاماً للمؤمنين-: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ﴾ فالمخاطب هنا المؤمنون ولكن المراد بهم من المنافقون ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ ﴾ اثاقلتم إلى الأرض وتجد في اثاقلتم هذه تصويراً لحركة المنافقين اثاقلتم الألف هذه تسمى همزة وصل وليست همزة قطع يعني: تثبت في القطع في بداية الكلمة لو بدأنا بقوله تعالى ﴿ إِثَّاقَلْتُمْ ﴾ نقول: ﴿ إِثَّاقَلْتُمْ ﴾ لكن لو وصلنا ﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ ﴾ تسقط في الوصل إذن: حركتها حركة عارضة وليست ثابتة أصلية ثم تجد الحروف بعد ذلك حركات أصلية كلها بعد هذه الحركة العارضة سكون أصلي تكون على الألف ثم حركة على القاف ثم سكون على اللام ثم حركة على التاء ثم سكون أصلي نهائي أخير على الميم فكأن الحركات في هذه الكلمة بدأت بحركة عارضة وانتهت بسكون أصلي ذلك يصور حركة المنافقين في الخروج للجهاد في سبيل الله لزوم التصوير لزوم أن يظهروا في الصورة يتحركون حركة متباطئة حتى يراهم النبي -صلى الله عليه وسلم- ويراهم الصحابة وهكذا ظهرنا في الصورة يبدؤون يتراجعون ويتأخرون في المشي حتى يسبقهم المخلصون المجدون ويكونون هم في الوراء فيتسللون لوازاً من هنا وهناك ولو اضطروا للوصول إلى الميدان اعتذروا بأوهى الأعذار ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾[الأحزاب: ١٣] يقول الله- تعالى: ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ﴾ فكأن حركتهم بدأ بحركة غير خالصة لله حركة غير أصلية حركة عارضة للظهور بها فقط ثم بعد ذلك يتحركون بعد هذه الحركة حينما تغيب عنهم أعين الملاحظة يسكنون ويقفون ثم إذا نظر إليهم أحد تحركوا ثم يسكنون يتحركون ثم يسكنون حتى ينتهوا إلى سكون أصلي وسكون لا حركة بعده فهؤلاء كانوا المنافقين وكذلك في الأمة منافقون إلى أن تقوم الساعة هذا حالهم لو أن الله أهلكهم قبل مجيء رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقبل بعثة رسول لاحتجوا على الله بهذا فلكي يقطع الله لهم عذرهم ولئلا تكون للناس على الله حجة بعد الرسل أرسل إليهم سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- ولم يأخذهم بالعذاب إلا بعد مجيئه وتبليغ رسالته وتقديم نصيحته ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى﴾ أما كنت ترسل لنا رسولاً لنتبع آياتك ونؤمن من قبل أن نذل ونخزى؟ الله- تعالى- يقول: ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ﴾ متربص أي: منتظر ولكن كان انتظار الكافرين للرسول -صلى الله عليه وسلم- وللمؤمنين انتظار حصول مصيبة كانوا يعتقدون هذا أن الله- تعالى- سيعذب النبي -صلى الله عليه وسلم- والمؤمنون في الدنيا وأنه سيدخلهم النار يوم القيامة أيضاً ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاَءِ لَضَالُّونَ ﴾ [المطففين: ٣٢]، يصفونهم بالضلال، فهو انتظار ولكن مع توقع حصول ضرر ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ ﴾ نحن نتربص بكم وأنتم تتربصون بنا ﴿ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ ﴾ أي: يوم القيامة في مستقبل الأمر ﴿ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴾ سيظهر يوماً من الأيام أهل الهداية أهل وأصحاب الصراط المستقيم والمهتدون على الطريق المستقيم سيظهرون بتكريم الله لهم وبنصرة الله لهم. كانت هذه الآية في مكة يوم أن هاجر المسلمون إلى المدينة وكانت غزوة بدر ظهر من أصحاب الصراط المستقيم وظهر المهتدون.

وختاماً أشير إلى نقطة وهي كلمة قل ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ ﴾ لما كان الكلام مع الكافرين أعرض الله عن مخاطبتهم بنفسه فلم يقل لهم خطاباً منه: كل متربص ولكن قال للنبي -صلى الله عليه وسلم- ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ ﴾ قل لهم أنت يا محمد- عليه السلام- لأنهم ليسوا أهلاً لشرف الخطاب الرباني فصرف الله عنهم هذا الشرف إلى من يستحقه وهو النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال- سبحانه- ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴾.

وبهذا تنتهي سورة طه وينتهي الحديث في ظلها.

نسأل الله- تبارك وتعالى- أن ينفعنا بما سمعنا وأن يعلمنا ما ينفعنا ونعوذ به من علم لا ينفع ونستفتح- إن شاء الله تعالى- فيما هو آتٍ سورة الأنبياء- عليهم الصلوات والتسليمات- وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

لو سمحت في الحلقة الماضية كان في تفسير الآية ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾[القيامة: ١٨]، فما المقصود بـ"اتبع قرآنه"؟

بسم الله الرحمن الرحيم سبق في الحلقة السابقة قول الله- تعالى-: ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾[طه: ١١٤]، وذلك كقوله في سورة القيامة ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴿١٨﴾ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ كان رسولنا- عليه الصلاة والسلام- حريصاً على تلقي القرآن ومهتماً بهذا الأمر اهتماماً عظيماً فبلغ من ذلك أنه كان يقرأ الوحي مع جبريل- عليه السلام- آية بآية وكلمة بكلمة حتى لا يسقط منه شيء فكان يجد من هذا عناءً شديداً فكفاه الله- تعالى- هذا الهم وتكفل الله- تعالى- بحفظ القرآن في صدره -صلى الله عليه وسلم- فجمعه له فقال: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ كما قال تعالى ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى ﴾[الأعلى: ٦]، أي: سنقرئك القرآن والوحي فلا تنساه يعني: فلن تنساه لن يحصل لك نسيان ﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ ﴾ إذا شاء الله أن ينسخ آية أو ينسيها له ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة: ١٠٦].

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ كلمة قرآن تأتي في اللغة العربية بمعنى قراءة- كما قلنا من قبل- تقول: قرأت كتاب اللغة قرآناً وقرآت الجريدة قراءة قراءة وقرآناً بمعنى واحد مصدر قرأ فهما مصدران لفعل واحد قرأت قرآناً أو قرأت قراءة، فمعنى ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ أي: علينا جمعه لك في صدرك محفوظاً وقرآنه أي وقراءته على لسانك تيسيره على لسانك مقروءاً ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ ﴾ أي: إذا انتهى الملك الموكل من قبلنا من قراءة الوحي﴿ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ فاقرأ أنت يا محمد -عليه الصلاة و السلام- يعني: خذ من قلبك بلسانك واقرأ ستجده ميسوراً وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد أن يفصل عنه جبريل ويصعد ينادي على أصحابه ويقول: أنزل علي الساعة كذا أو أنزل علي آنفاً كذا ويقرأ عليهم ما أنزل عليه -صلى الله عليه وسلم- فجمعه الله له في صدره محفوظاً ويسر له قراءته على لسانه ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ حتى إذا سئل عن شيء لا يعلمه من معاني القرآن كان الله- تعالى- يوحي إليه ببيانه ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ يعني: تفسير ما غمض عليك أو خفي عنك من معاني القرآن حيث إن لله مراداً معينا من خلال قرآنه فكان الله- تعالى- يوحي ببعض المعاني للنبي -صلى الله عليه وسلم- ويتكلم بها -عليه الصلاة و السلام- مع أصحابه والأحاديث الصحيحة جمعت هذه الأقوال وجمعها بعض الدارسين في كتاب سماه التفسير النبوي للقرآن الكريم وهي روايات قليلة لا تعم كل القرآن لأن الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- كانوا يفهمون معظم القرآن بحكم لغتهم العربية لكن ما خفي من بعض الكلمات أو المراد من بعض الجمل كان الله- تعالى- يوحيه إلى النبي -عليه الصلاة و السلام- ثم يتكلم به مع أصحابه فمعنى ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ أي: فاتبع قراءته- والله أعلم.

كانت إجابة السؤال الأول: المراد بقولهم: ﴿ إن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا ﴾[طه: ١٠٣]، أي: ما لبثنا في هذه الدنيا إلا مدة بسيطة يسيرة قليلة لا تكفي للإيمان والتذكر والعمل الصالح فلقد فاجأتهم الدنيا بانقضائها والله يرد عليهم بقوله: ﴿ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ ﴾[فاطر: ٣٧]،

نعم إجابة صحيحة- إن شاء الله- ولكن طبعاً قلنا هناك احتمال أو قول آخر عند العلماء أنهم قصدوا احتمال أن يكونوا قصدوا بهذا القول مكثهم في القبور حيث ماتوا بأجسادهم ثم رأوا أنهم بأجساد يوم القيامة أيضاً وفي ظنهم أن ما مات وبلي لا يعود طالما أن أجسادهم باقية إذن لم يمكثوا في القبر فترة تتآكل فيها الأجساد وإنما هي فترة قليلة عشرة أيام أو يوم أو ساعة أو نحو ذلك.

كانت إجابة السؤال الثاني: ما دلالة قوله- تعالى-: ﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴾ [طه: ١٠٩] الدلالة قوله ﴿ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾، فالشفاعة ليست أمراً مشاعاً ولكن الله- تعالى- يمنحها من يشاء ومن يعلم أنه أهل لها ويستحقها وهي ثابتة للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- والملائكة والنبيين وحامل القرآن والوالد لولده وغير ذلك فهي ثابتة وكائنة وحاصلة لكن بإذن من الله- تعالى- لمن يشاء واختاره وارتضاه

نعم. ملخص هذا الكلام أن الشفاعة ثابتة وهذه الآية ثابتة وهذه الآية تدل على ذلك وأمثالها أيضاً ونظائرها في القرآن تدل على ثبوت الشفاعة يوم القيامة لكن بشرط أن يرضى الله الشفيع والمشفوع له وأن يرضى القول الذي يتشفع بسببه أو به فالشفاعة ثابتة والآية تدل على ذلك ولا تدل الآيات القرآنية على نفي الشفاعة نفياً مطلقاً لا توجد آية في القرآن ولا حديث في السنة ينفي الشفاعة مطلقاً إنما النفي وارد في حق من لا يستحق الشفاعة والنص ثابت ومثبت للشفاعة في حق من يستحقها فقول الله- تعالى- مثلا على لسان الكافرين: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ﴿١٠٠﴾وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾[الشعراء: ١٠٠: ١٠١]، هؤلاء هم الكفار فنفيت الشفاعة عنهم لكنها ثابتة لعصاة المؤمنين في النار فيخرجون بها من النار إلى الجنة من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى- جزاكم الله خيراً.

كانت إجابة السؤال الثالث: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يتعجل بالقرآن إذا نزل به جبريل فيقرأ معه خوفاً أن يتفلت أو ينساه حرصاً منه- عليه السلام- فنهاه الله وضمن له الحفظ والجمع فقال- تعالى-: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ والله أعلم بالصواب.

نشكركم على هذه الإجابات الطيبة وهذا الجهد المشكور ونتمنى لكم دوام التوفيق والتسديد بعون الله تعالى وفضله.

هل كل الجن سيدخلون النار بحكم أنهم من ذرية الشيطان؟

في الجن قولان:

قول: بأنهم لا جنة لهم ولا نار يوم القيامة إنما هم خلق يعبدون الله في الدنيا يعبد منهم من يعبد مكلفون في الدنيا ويوم القيامة لا يدخلون الجنة إنما إبليس يدخل النار ومن عمل معه يدخل النار.

وقول: بأن منهم من يدخل الجنة ومنهم من يدخل النار وهذا القول أرتضيه وأميل إليه لأنهم أمة مكلفون مثل أمة البشر مكلفون بالشريعة وجاء على لسانهم: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدَاً﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾[الجن: ١٤]، لما قال الله- تعالى-: ﴿ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴾ ولم يقل: فأولئك يدخلون الجنة؟ قال البعض: إنهم لا جنة لهم إنما من كفر منهم يدخل النار كإبليس وذريته الذين

تبعوه لكن هذا لا يمنع كونهم تحروا رشداً فالراشد في الجنة وأما فرعون فقال الله فيه ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴾[طه: ٧٩]، وقال: ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾[هود: ٩٧]، فهو في النار أما الرشيد فيكون في الجنة فالراجح فيما أرى –والله أعلم– أن المؤمن منهم يدخل الجنة فمؤمن الإنس والكافر منهم يدخل النار ويعذب بها وينال من عذابها بما قسم الله– تعالى– له كما هو الحال في الإنس تماماً وقد يستتبع هذا سؤالاً ظريفاً يتردد كثيراً كيف يعذب إبليس وذريته في النار وهم أصلاً مخلوقون من النار؟

يتصور بعض الناس أن النار لا تؤثر في الجن لأنه مخلوق من نار إن صح هذا فإن أحدنا لو ضرب بصخرة فلا يؤذى لأنه مخلوق من طين ولو ضرب بشيء من تراب لا يؤذيه لكن التراب يؤذينا والصخر والحجارة تؤذينا ونحن مخلوقون من التراب فالخلقة استحالت إلى شيء آخر والجان ليس مخلوقاً من نار إنما خلق من مارج من نار وهو الهواء الحار الساخن المتصاعد فوق النار والله على كل شيء قدير يفعل ما يشاء من عذاب أو نعيم– نسأل الله رحمته وعافيته ونعوذ بالله من عذابه وانتقامه.

تقول: هل الآية التي بين أيدينا ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ والآية في سورة ق ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ لهما نفس المعنى ؟

﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي شديد ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ هذا طبعاً لابد أن نرجع به إلى أصل ثابت فالآيتان متغايرتان أو الوصفان متغايران في الآيتين، لابد أن نرجع بهذه المتغيرات إلى ثوابت لأنها مذلة خطيرة ذلك الأمر الثابت هو أن الله– تعالى– كإله ورب وعظيم وملك الملوك– سبحانه وتعالى– لا يمكن أبداً أن يتعارض قوله ولا أن يتناقض كلامه مع بعضه لأنه يعلم ما كان وما هو كائن وما سيكون فرب يتكلم بعلم شامل للماضي والحاضر والمستقبل فكلامه لا يمكن أبداً أن يعتريه التناقض والتعارض أما في كلامنا الذين نجهل بعض الأشياء فيبدو لنا الشيء بعد خفاء فمثل هذا يكون على حسب المواقف في موقف معين كموقف الحشر الله– تعالى– يجعله أعمى فيتخبط في الزحام في موقف تلقي كتابه يكون بصره حديداً ليقرأ كتابه ﴿ اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ [الإسراء: ١٤]، فلا بد أن يكون مبصراً ببصره حتى يقرأ الكتاب حتى يصح تكليفه بهذا الأمر فهذا موقف وذاك موقف حيث يضره العمى وفي موقف يكون مبصراً حيث يضره الإبصار والله له الحكمة البالغة.

فضيلة الشيخ هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه المحاضرة؟

معنا في هذه الحلقة التاسعة والأخيرة في سورة طه ثلاثة أسئلة:

السؤال الأول: ما هدف قصة آدم في القرآن عامة وفي سورة طه خاصة؟

السؤال الثاني: من خلال هذه الآيات التي كنا معها في هذه الحلقة كيف يستعين الداعية على الثبات على الدعوة؟

السؤال الثالث: اشرح معنى الآية ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى ﴾ ؟وهي الآية قبل الأخيرة في سورة طه.

وفقكم الله لحسن الجواب وفصل الخطاب.

الدرس (١٠) الأنبياء (الآيات ١- ١٠)

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على نبينا رسول الله محمد بن عبد الله -صلى الله عليه وسلم- ونسأل الله -تعالى- التوفيق في هذه الرحلة المباركة في صحبة الإمام ابن كثير مع تفسيره -رحمه الله تعالى- وفي هذه الحلقة نتناول سورة الأنبياء بعد أن انتهينا- بفضل الله تعالى- من دراسة وتعليق على سورة طه، ونبدأ هذه السورة بدراسة عشر آيات من أولها مستعينين بالله -تبارك وتعالى- ونقدم هذه الآيات ضمن أربعة موضوعات:

أولاً: تعريف بسورة الأنبياء.

ثانيًا: اقتراب الساعة على غفلة من الناس.

ثالثًا: نَضْح الكفر وإبطال القرآن له.

رابعًا: تشريف القرآن للأمة.

ونسأل الله -تعالى- التوفيق في ذلك حيث يأتي تفصيله بعد الاستماع إلى هذه الآيات من أخينا الكريم فليتفضل مشكورًا.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ القَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا المُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنبياء: ١- ١٠].

بسم الله الرحمن الرحيم

بداية نتعرف على سورة الأنبياء أو نُعرف بها، وهذا كما هو شأن كثير من المفسرين يبدؤون بإطلالة عامة على السورة ليتعرف عليها الدارس أولاً معرفة شاملة عامة ثم يدخل بعد ذلك في واحاتها ليتعرف على تفصيلها ودروسها وعِبرها، سورة الأنبياء هكذا كان اسمها وليس لها اسم آخر، عُرفت به على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأثبتت به في المصاحف ووصلت به إلينا وهذا لأنه كما عرفنا في سورة طه، أسماء السور الراجح فيها أنها توقيفية من عند الله -تبارك وتعالى- فالله -عز وجل- هو الذي سمى سور القرآن بأسمائها وأنزلها هكذا ولذلك تجد اسم السورة مشيرًا إلى موضوعها وهدفها وكأن السورة تتلخص في مضمون اسمها. سورتنا سماها الله -تعالى- بسورة الأنبياء وقال المفسرون: لما ذَكَرَ الله فيها من أنبياء كثيرين بلغت عدتهم ستة عشر نبيًا -عليهم الصلاة والسلام- وإن كانت سورة الأنعام ذكر الله فيها ثمانية عشر نبيًا أكثر من سورة الأنبياء ولكن سميت تلك باسم الأنعام؛ لما برز فيها من أحكام الأطعمة والذبائح وذكر فيها الأنبياء إشارة إلى أن ما حرم الله من الطعام والذبائح وأحل إنما هو في كل الشرائع، فالحلال حلال من أول الدنيا إلى يوم القيامة والحرام حرام من أول الدنيا إلى يوم القيامة، إلا أن يُحَرِّم الله على قوم شيئًا عقوبة لهم كما حدث ذلك في بني إسرائيل.

وأما سورة الأنبياء فالقصد فيها كما عرفنا عند أول الحديث عن سورة طه لو تذكرون، القصد فيها إلى إثبات بَعثة أو بعثة كثير من الأنبياء والرسل السابقين كدليل على صحة بعثة رسول الله محمد -صلى الله عليه وسلم- وأنه ليس بدعًا من الرسل، ليس بدعة وليس أمرًا جديدًا غريبًا إنما كما بعثه الله -تعالى-: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: ٢] بعث موسى -عليه السلام- ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه: ٢٤]، وبعث أنبياء ورسلاً كثيرين كما تحدثنا سورة الأنبياء عن هذا العدد الكثير، فلذلك سُميت بسورة الأنبياء حيث إنها تهدف إلى التأكيد على صدق نبوة سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- وبالتالي طالما القضية الأساسية في السورة هي إثبات النبوة فتلك قضية من قضايا العقيدة التي اهتم القرآن بها كثيرًا في العهد المكي، وبهذا ندرك أن السورة مكية نزلت قبل هجرة المصطفى -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة، فالقرآن النازل قبل الهجرة كان يركز كثيرًا على تأكيد وإثبات العقيدة الصحيحة، ورد ما عداها من العقائد الباطلة والتصورات الباطلة عن الناس، حتى إذا كانت الهجرة كانت تفاصيل الأحكام، فسورة الأنبياء سورة مكية وذكر بعض المفسرين أنها نزلت قبل سورة الزخرف، ونزلت قبل سورة النحل وهما مكيتان أيضًا، يعني نزلت في أواسط العهد المكي تقريبًا، وهذا يدلنا على أنها من أوائل ما نزل في مكة وخاصة أنها تركز على هذه القضية وهي قضية من أولى القضايا فأول ما واجه الكفار محمد بن عبد الله -صلى الله عليه وسلم- كذبوه في نبوته هو، بما يترتب على ذلك من تكذيب آيات الله والتكذيب بالدار الآخرة والتكذيب بالوعيد والوعد يوم القيامة، مما أخبر به النبي -صلى الله عليه وسلم.

وكان نزولها بعد سورة فصلت، ليست بعدية مباشرة وإنما بعدها ولو بزمان، إنما نزلت سورة فصلت قبلها، ونزلت بعدها سورة الزخرف، وسورة النحل.

سورة الأنبياء وأية سورة ندرسها أو نقرؤها ينبغي أن نتعرف على فضلها، وفي فضائل سور القرآن بعض أحاديث ضعيفة، وقليل من الأحاديث الموضوعة والعلماء- جزاهم الله عنا خيراً ورحمهم الله- قد بينوا كل ذلك لكل طالب، فتجد هذا منبهًا عليه، الأحاديث مخرجة، ومحكم عليها أو ومحكوم عليها بصحتها أو بضعفها أو بغرابتها ونحو ذلك، إلا أنه قد صحت بعض الأحاديث في بعض السور وفي فضلها ففضل بعض السور ثابت كما أشرنا إلى ذلك من قبل، ثابت بأحاديث صحيحة وربما ثابت ببعض الآيات القرآنية ينبه الله إلى شرف سورة معينة كما من الله على رسوله -عليه الصلاة والسلام- بسورة الفاتحة، وهذا يدل على شرفها، قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ المَثَانِي وَالْقُرْآنَ العَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]، كون الله يمن بها ويبرزها بذكر خاص مع القرآن العظيم أو أنه يسميها على قول آخر، يسميها بالقرآن العظيم، فهذا يدل على فضلها وشرفها بنص القرآن.

كون الله -تعالى- يقول في سورة النور، في بدايتها: ﴿سورة أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [النور: ١]، يعني: هذه سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات وكل القرآن كذلك سور أنزلها الله -تعالى- وفرضها وأنزل فيها آيات بينات لكن تخصيص سورة النور بهذا الذكر وبهذا الوصف يدل على مزيد شرف لها غير ما ورد في أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم- كما ورد في فضل الفاتحة وفضل الزهراوين البقرة وآل عمران، وفضل" قل هو الله أحد" والمعوذتين والزلزلة ونحو ذلك من سور بين النبي -عليه الصلاة والسلام- فضلها، فسورة الأنبياء هل حظيت بشيء من هذه الخصوصيات، ومن هذا الفضل، لم يرد في فضلها حديث خاص يدل على أنها تمتاز بميزة خاصة، وقلنا من قبل ونذكر بأنه لا يدل عدم ورود حديث أو نص شرعي في فضل سورة من السور لا يدل ذلك على عدم فضلها، أو أنها سورة مفضولة، أي: أقل من السورة الفاضلة، لأن الكل كلام الله، وهو كلام غير مخلوق، كلام ليس كمثله كلام، كلام قال الله فيه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]، فسورة الأنبياء من كلام الله ومن أحسن الحديث، كل سورة تعتبر معجزة في ذاتها، فسورة الأنبياء معجزة تحدى الله بها فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ [البقرة: ٢٣] كلمة سورة هنا تشمل كل سورة في القرآن ومنها سورة الأنبياء فيصح التحدي بها فهي سورة لها الفضل العام الثابت للقرآن، كما ثبت في فضل القرآن أن من قرأ حرفًا فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها، هذا أيضًا ينسحب على سورة الأنبياء فمن قرأ منها كما لو قرأ من سورة البقرة، من سورة النساء، من سورة النبأ، من أية سورة

كل حرف بحسنة والحسنة بعشر أمثالها، فهذه السورة سورة الأنبياء وإن لم يكن لها فضل خاص بهـا، إلا أنهـا تحوز الفضل العام والشرف العام الذي جعله الله –تعالى– للقرآن، ولعله يُشير إلى شيء من الخـصوصية، مـا صح عند الإمام البخاري وذكره الإمام ابن كثير –رحمه الله تعالى– عن عبد الله بن مسعود –رضي الله تعـالى عنه– قال: (بنو إسرائيل –يقصد سورة الإسراء، وتسمى سورة بني إسرائيل– بنو إسرائيل والكهـف ومـريم، وطه، والأنبياء هن من العتاق الأول، وهن من تلادي) هن من العتاق الأول، سورة الإسراء والكهـف ومـريم وطه، والأنبياء، العتاق: جمع عتيقة، وهي السورة القديمة أو الشيء القديم، يعني: عمره طويل ليس حـديثًا الآن إنما هو من قديم الزمن، (من العتاق الأول) أي أول ما نزل من القرآن الكريم، لأنها كلهـا سـور مكيـة هـذه المذكورة كلها سور مكية فيقول: (هن من العتاق الأول، وهن من تلادي) أي: هن من السور التي أعتـاد علـى قراءتها وأواظب على قراءتها، وابن مسعود –رضي الله تعالى عنه– صحابي جليل معروف بحفظـه للقـرآن، وبعلمه لعلوم القرآن الكريم، وكان من أعلم الصحابة في هذا الشأن فإذا ما صح عنه أنه كان يواظب أو يحرص كثيرًا على قراءة هذه السور والنظر فيها دل ذلك على شيء من شرفها وشيء من عظمتها، لكن لا نـستطيع أن نقول: لها كذا، إنما نقول: يستحب الإكثار من قراءتها كما كان يفعل ابن مسعود –رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

هذا هو الموضوع الأول وهو تعريف عام بسورة الأنبياء.

أما الموضوع الثاني: وهو الآيات الثلاث الأول من سورة الأنبياء، وهو بعنوان اقتراب الساعة على غفلة من الناس، إذ يقول الله –تبارك وتعالى–: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ خبر يخبر الله به وهـو العليم الخبير –سبحانه وتعالى– فهو خبر صدق وهذا الخبر من أوائل العهد المكي أي من ألف وأربعمائة عـام تقريباً ويقول الله –تعالى– ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴿٧﴾﴾ [المعارج: ٦، ٧]، فهو بحساب الله قريب، وكان النبي –عليه الصلاة والسلام– من علامات يوم القيامـة، مـن علامات اقتراب الساعة لأنه آخر نبي ولا نبي بعده وأمته آخر الأمم ولا أمة بعدها، فإذا ما ظهر نبي آخر الزمان ينتظر بعده الساعة، فقال– تعالى–: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ ويقصد بالحساب: الحساب في الآخرة ﴿وَهُمْ فِـي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ وهم في غفلة، التعبير بفي، هكذا يشير إلى الإغراق أو يفيد الإغـراق فـي الـشيء وكـأنهم مظروفون داخل الغفلة، كأن الكافرين مظروفون كالشيء يكون داخل الظرف، مظروفون داخل الغفلة، فالغفلـة تحيط بهم من حواليهم من كل جهة فصعب أن ينتبهوا، وإذا عبر الله في القرآن بكلمة الناس أو الإنسان فيقـصد أصل الخليقة يعني: الكافرين، يقصد الكافرين ويقصد الإنسان الكافر إلا إذا كانوا مـؤمنين فـإن الله –تعـالى– يقول:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُو﴾ أو ﴿ إِنَّ المُسْلِمِينَ ﴾ أو نحو ذلك، يعبر بلفظ الإيمان الذي ارتقى به الإنـسان، وإلا فأصل الكافر، على ما خلق فهو ناس، وإنسان ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ﴾ أي: للكافرين ﴿حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ روى الإمام النسائي –رحمه الله تعالى– عن أبي سعيد الخدري –رضي الله عنه– عن النبي –صـلى الله عليـه وسلم– أنه قال في كلمة غفلة: (في الدني) فسمى الغفلة أو فسر الغفلة بالدنيا، وكأن الله سمى الدنيا غفلة؛ ومعنى ذلك: أنهم انشغلوا بدنياهم عن آخرتهم حتى أغرقوا فيها، وأظرفوا فيها فما عادوا يعملـون شـيئاً للآخـرة ولا ينظرون إلى الآخرة ولا ينتظرون شيئاً من الساعة كما قال ربنا: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً ﴿٢٧﴾ وَكَـذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً ﴿٢٩﴾﴾ [النبأ: ٢٧- ٢٩]، فمعنى في غفلة: أي في الدنيا، ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ذكر الإمام ابن كثير –رحمه الله– عند هذه الآية أثراً عن عـامر بـن ربيعة –رضي الله تعالى عنه– مما يدلنا على أن الصحابة– رضي الله عنهم– كانوا إذا سمعوا القرآن ونزل فيهم أو قرؤوه بأنفسهم بعد أن ينزل كانوا يفسرون الآيات على أنفسهم، ويأخذون خطاب القرآن ويوجهونه لأنفـسهم، بخلاف الناس اليوم، يقرؤون القرآن على أنه حكاية عن قوم موسى وعن قوم لوط وعن قوم نوح وأن هذا عـن بني إسرائيل وهذا عن أمة كذا وهذه الآية نازلة في أبي جهل وهذه في أبي لهب، ونخرج من القرآن ولا آية لنا، اللهم إلا إن كان الناس يطمعون في بعض الآيات المبشرة بالجنة والمغفرة، فيتعتقدون أن هذه الآيات تخصهم هم، أما الآيات المتوعدة بالعذاب والناقمة على العادات السيئة وعلى المعاصي وعلى البدع وعلى الشرك وما إلى ذلك فهذه لا تخصهم وهذا خطأ كبير إنما كان الصحابة– رضي الله عنهم– يأخذون القرآن لأنفـسهم حتـى الآيـات

النازلة في الكافرين، وفي المنافقين وفي اليهود، وغيرهم كانوا يفسرون هذه الآيات على أنها خطاب لهم هم ويتهمون أنفسهم بما في هذه الآيات من قصور أو تقصير وبالتالي يجددون العهد مع الله ويتجهون إلى الله بالطاعة، ومن ذلك ما ذكره ابن كثير -رحمه الله تعالى- عن عامر بن ربيعة -رضي الله عنه-:(أنه نزل عليه رجل من العرب) ضيفًا أو عابر سبيل (فأكرمه عامر، وكلم فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-) يعني كأنه ذهب للنبي -عليه الصلاة والسلام- وتكلم بخير عن هذا الرجل عند رسول الله -عليه الصلاة والسلام- حتى يكرمه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (فجاءه الرجل) بعد أن دخل على النبي -عليه الصلاة والسلام- جاء إلى عامر مرة أخرى (فقال: إني استقطعت من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- واديًا في العرب) يعني: كأنه سأل النبي -عليه الصلاة والسلام- أن يعطيه عطية وأن يهبه مكانًا يعيش فيه، فوهب له وادياً من وديان العرب مكاناً سهلاً بين الجبلين، (إني استقطعت من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- واديًا في العرب، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك) أي: لأولادك يعني يعطيه جزءًا من هذا الوادي ملكًا له هبة بدون ثمن كما تسبب في جلب الخير له، هو يريد أن يعوضه خيرًا أيضًا ليعرف الجميل له، (وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك فقال عامر -رضي الله عنه-: لا حاجة لي في قطيعتك) هذه القطعة لا حاجة لي فيها، (نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا، وقرأ قول الله -تعالى-: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾) فأخذ الكلام على نفسه وكأنه اقترب حسابه وهو في غفلة ولم يكن لصحابي أن يكون في غفلة وما كانت هذه الآية تقصد الصحابة- رضوان الله عليهم- المؤمنين الذين سبقوا بالإيمان والهجرة ولكن تقصد الكافرين الذين أغرقوا في الدنيا، وسقطوا في الغفلة ولما قال الله -تعالى- في الآية الأولى ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ أشار هذا القول إلى أنهم بسبب ما هم فيه من الغفلة أعرضوا، فإن الغافل يعرض عن الشيء إذا عرض عليه، تعرض على إنسان طعامه كما يعرض على بعض الأولاد في بعض الأسر، يعرض عليه طعامه الذي به قوام حياته، وهو مشغول بالأتاري أو ببعض الألعاب الخاصة به أو نحو ذلك فيذهل عن طعامه ولا يريد أن يأكل ولا يشرب لأنه في غفلة في لعبه فَتَشَغل بهذا اللهو عن طعامه، شغل ويشغل بهذا اللهو عن تعليمه ومدرسته ومذاكرته، ويشغل المصلي بمثل هذه الآلات اللاهية عن صلاته وعن واجباته الشرعية ونحو ذلك، فالغفلة تكون سببًا في الذهول والإعراض عن شيء ربما كان شيئًا أساساً في الحياة، وشيئًا مهماً، وبعد ذلك فسر الله -تعالى- كيف يعرضون، وكيف هم في غفلة فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ "ما" يعني: لا. لا يأتيهم، نافية، ﴿مَا يَأْتِيهِم﴾ أي ما يجيئهم من ذكر "من" معناها أي ذكر أي آية من القرآن أي وحي يبعث الله به مع النبي -صلى الله عليه وسلم- ليذكر به الناس وفي هذا الذكر الرحمة والتربية والرعاية والعناية والشرف والعزة والكرامة، لذلك قال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم﴾ ولم يقل: من الله، وإلا لكانت فيه قوة ومهابة وعظمة ورهبة، ولكن الذكر جاء من رب، رب يحب من ينزل إليه الذكر، واصطفاه من بين الأمم واصطفى له أحسن الحديث وأحسن الكلام الإلهي، وجعله منزلاً لكلامه وشرعه وجعله مكلفًا من بين الخلق بأوامره والتكليف هذا تشريف عظيم تكليف من الله فيه شرَافة عظيمة، ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ أي جديد يعني: آية بعد آية سورة بعد سورة ﴿إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يستمعونه وهم يلعبون لا ينتبهون ولا يركزون ولا يستوعبون ولا يعقلون ويفهمون، ينبغي على الإنسان العاقل- إن كان عاقلاً حقًا- ينبغي عليه أن إذا ألقيت عليه الموعظة أو التذكرة أو تُليت عليه آيات ربه أن ينظر ويتفكر، ربما كان فيها خيرٌ ربما كانت حقًا، لابد أن يعطي نفسه حق التفكير حق العقل لكن أن يسمع الشيء وهو لاهٍ أو وهو لاعبٌ، فهذا لن يستفيد أبداً فيحرم نفسه حق العقل لديه آلة يعقل بها ولكنه لا يستعملها فكان كما قال ربنا: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ كأن هذا الأمر كان شأنًا دائمًا لهم ما من مرة يأتيهم فيها ذكر من ربهم وفي آية أخرى ﴿مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الشعراء: ٥]، إلا يستمعونه في حالة لعب ولهو وغفلة دون انتباه ودون نظر واعتبار، وذلك بسبب لعب أجسامهم هذا وإعراضهم كأن يولي ظهره للمتحدث هذا بسبب أن قلوبهم لاهية، ﴿لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ اللهو أصلاً كان في قلوبهم فترجم بحركات لعب على أجسادهم فتطابق القلب مع الجسد في اللهو واللعب والإعراض عن دين الله -تبارك وتعالى- وهذا هو تمام الإعراض

وكمال الكفر- والعياذ بالله- ﴿لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ ونتيجة لذلك ﴿أَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ فيما بينهم، أي كانوا يجلسون ويتناجون فيما بينهم ماذا يقولون عن محمد وبماذا يصفونه حتى يصرفوا المؤمنين به عن الجلوس معه وعن متابعته وكيف يبغضون إلى الناس القرآن الكريم فماذا يقولون. كانوا يتآمرون سرًا بمثل هذه النجوى حتى ينتجوا للسذج والبسطاء من الناس كلامًا ينفرهم عن الإيمان ويبعدهم عن القرآن ولهذا قال الله -تعالى-: ﴿أَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾.

ومن هنا يبدأ الموضوع الثالث: وهو نضح كفرهم والرد عليه أو إبطاله، نضح كفرهم وإبطال القرآن الكريم له، نضح هو ما يخرج كما ينضح العرق من الجسم، وكما تنضح زجاجة المسك بالمسك والرائحة الطيبة وكل إناء ينضح بما فيه، فأجسام كانت أوعية للكفر والعناد والإعراض عن الله وعن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعن كتاب الله -عز وجل- وكلامه العظيم، بماذا تنضح هذه الأجساد؟ وبماذا تنضح هذه الأوعية؟ لا شك أنها تخرج خبثًا وزورًا وكذبًا وبهتانًا، والقرآن الكريم وهو يحكي هذه الشبه التي يطلقها الكفار يرد عليها ويبين بطلانها، كان من ذلك في إسرارهم هذا كما قلنا كانوا يجتمعون سرًا ويأتمرون كثيرًا ليدبروا للنبي -صلى الله عليه وسلم- مؤامرة أو تدبيرًا يصرفون الناس عنه، وبلغ في ذلك أنهم كانوا كلما قالوا شيئًا فضحه الله -تعالى- عند رسوله -عليه الصلاة والسلام- فعرفه قبل أن يفعلوه، فقالوا يومًا: هلا أسررنا بأقوالنا لئلا يسمعها رب محمد فيخبره، -عليه الصلاة والسلام- فأنزل الله -تعالى- قوله: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣]، بدأ بالإسرار أولاً لأنه أعجز إذا علم إسرارهم فمن باب الأولى يعلم جهرهم، ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأقوالك؟ لا، إنه عليم بأحوالكم؟ أبدًا، إنما أعلم بما هو أدق من ذلك، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ لأن الصدر يكون فيه الكلام قبل أن يخرج إلى اللسان، كأن الله يقول لهم: إنه -سبحانه وتعالى- عليم بالكلام في صدوركم قبل أن تترجموه فيسمعه بعضكم من بعض، الله يعلمه من قبل ذلك، فلن تستطيعوا أن تسروا شيئًا عن رب محمد -صلى الله عليه وسلم- ولذلك فهنا يقول: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى ﴾ والنجوى: هو الحديث السري؛ كما تعرفون في الحديث: (لا يتناجى اثنان دون ثالث إلا بإذنه) فالتناجي: هو أن يتكلم طرف مع آخر أو أكثر كلامًا سريًا، ومع ذلك يبالغون في الإسرار ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ والنجوى في الأصل سر من القول، جلسوا يتناقشون فاختلفت آراؤهم لأنهم لا يقولون حقًا وهم يعلمون ذلك، لأنهم يريدون أن يصفوا الصادق الأمين الذي عرفوه بذلك -صلى الله عليه وسلم- وما جربوا عليه كذباً قط، صدق وأمانة وبالتالي فهاتان الصفتان تجمعان خيرًا كثيرًا وخلقًا عظيمًا، فحينما يصفونه بالسحر أو بالكهانة أو بالكذب أو بالشعر أو ما إلى ذلك إنهم يخالفون أنفسهم، ويناقضون ما رأته أعينهم على مدى أربعين عامًا من هذا الشاب المستقيم الطيب الصادق الأمين -صلى الله عليه وسلم-، ولذلك اختلفوا اختلافًا بعيدًا وكثيرًا جدًا لم يتفقوا على شيء، لم يتفقوا على قول واحد فقال بعضهم: هل هذا إلا بشر مثلكم، فعابوا النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنه بشر، وهنا بداية أقول- ولعل هذا القول سبق-: إن الكافرين كان من أكبر أسباب كفرهم وإعراضهم أنهم تعرضوا لشخص الرسول وانشغلوا بصفاته وبأحواله، وما ينبغي للمرسل إليه أن ينشغل بالرسول قدر ما يشتغل بالرسالة جاءتني رسالة من الذي وصلني إياها، وجاء بها إليّ هذا لا يهمني بقدر ما تهمني الرسالة نفسها بحيث لو جاءني حق مع شيطان آخذ الحق ولا أرده والنبي -عليه الصلاة والسلام- أقر قراءة آية الكرسي قبل النوم والذي نصح بها أولاً شيطان قالها لأبي هريرة فقال له النبي -عليه الصلاة والسلام-: (صدقك وهو كذوب) في هذه صدقك، لو قرأت آية الكرسي إذا أتيت مضجعك لن يقربك شيطان حتى تصبح، أقرها النبي -عليه الصلاة والسلام- ووافق أبا هريرة على العمل بها رغم أن الواعظ بها شيطان فصارت عندنا بعد إقرار النبي -عليه الصلاة والسلام- سنة من الوحي، وليست نصيحة من الشيطان إنما بدأ بها الشيطان أولاً فأقرها النبي -عليه الصلاة والسلام- وعمدتنا إقرار الوحي لها.

فهؤلاء انشغلوا بشخص رسول الله -عليه الصلاة والسلام- فقالوا عنه: إنه بشر مثلكم، وما العجب أن يكون الرسول بشرًا؟ لا عجب في ذلك، وقالوا أيضًا: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ طبعًا اعترضوا على بشريته، وطالبوه في مرات أخرى بأن يكون معه رسولاً ملكًا من الملائكة وهذا لا يصلح، ولا يجوز عرفًا ولا واقعًا فالبشر لا يطيقون رؤية الملائكة على صورتهم الحقيقية الملائكية ولو حصل ذلك لجعل الله الملك في صورة

رجل إنسان فيراه الناس إنسانًا ولكن روحه روح ملك، وبهذا فلن يكون ما يطلبون أبدًا ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾، وفي ضمن الآيات التالية في هذا الموضوع يقول الله –تعالى–: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً مثلك لم نبعث قبل ذلك رسولاً ملكًا يُكلم البشر، ما حصل هذا، ما وقع هذا ولا مرة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ﴾ سموا القرآن سحراً وسموا النبي –عليه الصلاة والسلام– ساحرًا مع أنهم لم يروه مرة ولم يسمعوا منه مرة أنه سحر ولا تعاطى السحر لا فعلاً من عند نفسه ولا طلباً من غيره، ما تعامل بالسحر أبداً –صلى الله عليه وسلم– بل جاء بتحريم السحر، وتكفير الساحر وإيجاب قتله على ولي المسلمين، أن يقتل الساحر لأنه شر ولأنه يوقع الناس في فتنة عظيمة، ومع ذلك وصفوا قوله بالسحر، يقول بعض المفسرين في تبرير هذا كيف وصفوه بالسحر وهم يعلمون أنه ليس ساحرًا: لأنهم رأوا أثر القرآن وتأثيره في الناس، فالرجل يكون كافرًا وما أن يسمع آيات من القرآن إلا وينشرح صدره ويهتدي قلبه بالإيمان وينطق: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله –صلى الله عليه وسلم.

والنجاشي ملك الحبشة –رحمه الله تعالى– ما رأى النبي –عليه الصلاة والسلام– فقط سمع عنه، فقط سمع خبر عيسى في سورة مريم، في القرآن الكريم قُرئت عليه هذه القصة قصة ميلاد عيسى –عليه السلام– فما رأى ولا سمع إلا حقًا، ففي لحظتها قال: والله ما يفرق هذا عما جاء به عيسى قيد هذه التبنة، يعني: قيد شعرة لا يوجد فرق بينهما، وآمن وأسلم وتمنى أن يكون مع النبي –عليه الصلاة والسلام– خادمًا يصب عليه وضوءه، أسلم وهو:

– ملك ومن شأن الملوك أن يتكبروا من شأن الملك أن يمنعه ملكه عن قبول النصيحة والموعظة.

– وصاحب دين، كان نصرانيًا وهذا دين بما وُضِعَ فيه من قِبل الناس يجعل صاحبه يتعصب له ولا يتركه أبدًا إلا بعد قناعة كبيرة عظيمة بعد حجج، بعد مناقشات بعد إزالة للشبه ولكن النجاشي بمجرد أن سمع آيات من القرآن إذا به يسلم لله –تبارك وتعالى– ويؤمن بالنبي –عليه الصلاة والسلام– دون أن يراه.

فلما رأى الكفار هذا التأثير العجيب التحويل المفاجئ في حياة كثير من الصحابة –رضي الله عنهم– يسلمون على سماع لآية أو آيتين أو شيء من هذا من القرآن الكريم فقالوا: لا يفعل هذه الأعاجيب إلا السحر هذا سحر، ولكن هم على غير قناعة بهذا إنما شبهوه بالسحر فقط، ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ ينكر بعضهم على بعض.

الله –تعالى– يقول النبي –عليه الصلاة والسلام– رُدَّ على هؤلاء: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ القَوْلَ ﴾، وفي قراءة ﴿قُل رَبِّي يَعْلَمُ القَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾) يعني بالعقل أيُعْقل أن يكذب واحد على ملك من ملوك الدنيا ويتركه لا يمكن أبدًا سوف يعاقبه أيفتري رسول أو رجل يدعي أنه رسول يفتري على رب العزة والجلال كلامًا لم يقله ويتركه الله –سبحانه وتعالى– كلا، فقد قال الله –تعالى–: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤–٤٧]، فكان هذا ردًا من ربنا –سبحانه وتعالى– ولكن عن طريق النبي –صلى الله عليه وسلم– لأن الكفار ليسوا أهلاً لشرف الخطاب الإلهي، فيخاطبهم الله بنفسه فجعل الخطاب عن طريق النبي –صلى الله عليه وسلم– ﴿قُلْ﴾ في قراءة ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ القَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ يسمع الأقوال ويعلم الأحوال التي ليس من شأنها أن تسمع فلا يخفى عليه قول مسموع ولا حال غير مسموع، الكل يعلمه الله –سبحانه وتعالى– ويحيط به علمًا ﴿بَلْ قَالُو﴾ من ضمن أقوالهم أيضًا ونضحهم الخبيث ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ﴾ أضغاث: جمع ضغث، والضغث هو الحزمة من العيدان والحطب، حزمة من العيدان لا يلزم أن تكون عيداناً من شجرة واحدة، ممكن عود من شجرة وعود من شجرة أخرى أنواعها مختلفة، فهو خليط جمع من أعواد مختلطة من أعواد كثيرة، ويقول الله –تعالى– لسيدنا أيوب –عليه السلام–: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِب بِّهِ وَلاَ تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤]، كان قد

حلف أن يضرب امرأة مائة عصا ولكن مرض هذا المرض الشديد فالله- تعالى- أراد أن يحلله من يمينه فقال: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ أي: خذ مائة عصا مجموعة مع بعضها وقيل خذ قنواً من قنوان النخل فيه شماريخ كثيرة واضربها بها ضربة واحدة فتكون قد ضربتها مائة عصا، ﴿ضِغْثًا﴾ هي تلك الحزمة من عيدان الحطب المجتمعة ثم استعملت هذه الكلمة في كل مختلط من أنواع كثيرة، كما يختلط على النائم. النائم إذا جاءته أضغاث الأحلام فإنه يحلم أنه يتزوج ثم يحلم أنه مات ثم يحلم أنه سافر إلى فرنسا، ثم يحلم أنه ذهب إلى الحج، ثم يحلم أنه جالس مع أبيه الذي مات، أمور مختلطة من هنا وهناك، لا ضابط لها، لا تكون رؤيا. هذا اسمها أضغاث أحلام ويحيل إليها أهل الباطل دائماً الحق كما قالها الوزراء عند الملك في مصر هنا حينما رأى الرؤيا فقالوا: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ [يوسف: ٤٤]، وهكذا أيضًا الكفار في مكة قالوا عن القرآن الكريم هذا: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾، يعني: محمد -عليه الصلاة والسلام- ينام ويحلم بأمور مختلطة هكذا ويجمعها ويقول للناس: أوحي إلي هذا كلام غير صحيح وكلام باطل ظاهر البطلان ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ﴾ قول آخر: إنه كاذب اقترى هذا القول على الله، مع أن أبا جهل قال لهم يومًا: ما كان ليذر الكذب علينا ليكذب على الله، يعني لو كان كاذبًا لكذب علينا، لكن أن يكون معنا صادقًا ولا سلطان لنا عليه، ويكذب على الله صاحب القوة -سبحانه وتعالى- فهذا أمر لا يعقل. أبو جهل يقول: هذا أمر لا يعقل، ما كان ليذر الكذب علينا ليكذب على الله، ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ يدعون أنه شاعر مع أنه ما نطق الشعر مرة، ولا قال شعرًا أبدًا حتى كان -عليه الصلاة والسلام- إذا أراد أن يستشهد ببيت من الشعر بين أصحابه ليبين لهم أمرًا من الأمور عند العرب فكان يُخرج البيت الشعري عن وزنه وعن ترتيب كلماته فيقدم كلمة ويؤخر كلمة المهم أن يفيد الناس بمعنى البيت، فما نطق بالشعر ولا قاله أبدًا، لا قبل الإسلام ولا بعد النبوة، ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾ تمنى عليه الكافرون أن يأتيهم بآية -سبحان الله- وما نزل من القرآن أليس كافيًا؟ وما ظهر على يديه من معجزات مادية حسية أليس هذا كافيًا؟ يريدون معجزات كمعجزات موسى وعيسى ونوح وغيرهم، مع أن أقوامهم في السابقين كذبوا بهذه الآيات، رأى اليهود وبنو إسرائيل عصا موسى- كما عرفنا من قبل- واتهموه بأنه سحر وجمعوا له السحرة. وبنو إسرائيل بعد أن نجاهم الله بمعجزة العصا وضرب البحر بها أرادوا إلهًا كما يعبد الناس من الأصنام والأوثان ولم يسكتوا حتى صنع لهم السامري عجلاً جسدًا له خوار. فكذب بها أصحابها وأنتم تريدون آيات مثلها، فقد جاء النبي -عليه الصلاة والسلام- بمعجزات كثيرة، منها: أن الجذع حنَّ إليه حنينًا سمعه الصحابة -رضي الله عنهم- حين فارقه إلى منبر يخطب عليه، فأحدث الجذع وهو جذع ميت في نظرنا مقطوع عن أصله، جذع من نخلة، بكى وَحَنَّ حنينًا سمعه الصحابة، نزل النبي -عليه الصلاة والسلام- من على المنبر ووضع يده عليه وهدهد عليه كما يهدهد على الطفل، وقال: (أما يرضيك أن تكون معي في الجنة، فسكت الجذع)، يقول الحسن البصري -رحمه الله-: «والله للجذع أشد شوقًا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- من أحدنا» فكان بجواره وبكى ونحن بعيدون عنه وربما لم تحدثنا أنفسنا بأمنية أن نراه ولو في المنام في رؤيا صادقة، فيقولون: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ ﴾، فليأتنا بآية قد جاء النبي -عليه الصلاة والسلام- بآيات كثيرة منها أن الله- تعالى- آتاه جوامع الكلم، صار يتكلم بين الناس والعرب يسمعونه بأسلوب لا يطيقونه ما استطاعوا تمثيله ولا القول مثله سواء من القرآن أو من السنة، القرآن له إعجازه الخاص لأنه كلام الله -سبحانه وتعالى- أما السنة النبوية كلام النبي -عليه الصلاة والسلام- فصار يصنع ويصاغ بجوامع الكلم قال النبي -عليه الصلاة والسلام- وهو يعدد ما خصصه الله به من بين الأنبياء السابقين: (أوتيت جوامع الكلم) يتكلم بالجملة القصيرة التي تحوي المعاني الكثيرة، وخير الكلام ما قل ودل، كما يقال، كلما كان الكلام موجزًا ووفيًا، أو وافيًا بالمعنى كان ذلك أنفع وأجدى وأحسن، كان رسولنا -عليه الصلاة والسلام- هكذا والعرب الكافرون وصلوا إلى درجة أنهم كانوا يحسدونه -صلى الله عليه وسلم- لدرجة أنهم كادوا يقتلونه لولا أن عصمه الله من الناس، ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾ فقد أتى النبي -عليه الصلاة والسلام- قومه بآيات لا بآية واحدة.

الله –تبارك وتعالى– يرد على قولهم هذا أيضًا: بأنهم لو جاءتهم الآيات تلو الآيات لا يؤمنون لأنهم لا يطلبون آية ليؤمنوا بها ولكن هذا من باب التلكؤ في طريق الإيمان ومن باب المجادلة لتضييع الوقت على رسول الله – عليه الصلاة والسلام– فيقول– تعالى–: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ هذه الآيات التي يريدون مثلها، ما آمنت بها الأمم السابقة التي كانت فيهم ورأوها بأعينهم ما آمنوا بها كثيرون كفروا بها، أهؤلاء سيؤمنون؟ معناها أنهم لن يؤمنوا ولكن سيكون حالهم من الآيات كما كان حال السابقين وهو الكفر والإعراض والعناد، ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾، يعني: لن يؤمنوا ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ لأنهم طلبوا أن يكون معه ملك ينذر الناس معه، ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ اسألوا من عندهم العلم بذلك وهم علماء الأمم السابقة، كأحبار اليهود ورهبان النصارى، اسألوهم هل عندهم في كتبهم أو رأوا وعلموا من خلال ما سبق هل علموا ورأوا أن الله أرسل ملكًا إلى البشر أو أن الرسل جميعًا كانوا رجالاً من البشر؟ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ وهذا يفيد أمرين:

أن الأنبياء والرسل جميعًا – بإجماع العلماء وبالواقع وبالنص الشرعي– ما كانوا إلا رجالاً، فلم يبعث الله رسولاً من النساء، ولم يبعث الله رسولاً من الجن واختلف في نبوة مريم– عليها رحمة الله– ولكن الراجح أنه لا نبي ولا رسول من النساء، وذلك لما جبلت عليه المرأة من نقصان في العقل والدين ونقصان عقلها: سبق عاطفتها على عقلها، فعقلها يتحكم فيه أمر العاطفة، ونقصان دينها لأن الله كتب عليها العذر الشهري فيأتيها كل شهر مرة، فربع شهرها لا تصلي ولا تصوم وهذا أمر لا تُلام عليه المرأة ولا تُعاب به فهذا قدر الله –تعالى– فيها، ولذلك كان أمر النبوة والرسالة في الرجال؛ ولأن الرجل يصلح للقيادة وهو صاحب القيادة جعل الله له القوامة في الأسرة وبالتالي فله القوامة في المجتمع وبالتالي فله القوامة على الأمة فجعل الله الرسالة والنبوة في الرجال من الأمم لأنهم سيكونون قدوة وأسوة وقادة لغيرهم، ولحكمة يعلمها الله –سبحانه وتعالى– والفارق الجوهري بين الأنبياء الصادقين وبين عامة الناس أنهم يوحى إليهم، وتلك شرافة عظيمة، ومكانة عالية، لا ينالها أحد بتمرن ولا بتمرس ولا بتعود ولا بدراسة ولا بافتعال إنما هي منحة خالصة من الله –سبحانه وتعالى– ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ هذه الآية نازلة في هذا الشأن ولكنها لفظ عام فينبغي على كل من أراد شيئًا لا يعلمه أن يسأل أهل الذكر فيه، فأهل الذكر هم أهل العلم ويسأل كل عالم عما يحسنه وعما يتخصص فيه، هذا من الآيات العامة في القرآن والقوانين العامة التي علّمنا الله –تعالى– بها، ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ كما كان الكفار يطلبون ويتمنون أن يكون الرسول خالدًا مخلدًا في الدنيا معهم، وإلى ما بعدهم، وهذا أمر لا يجوز شرعًا، لأن الله جعل الرسل بشرًا لهم بداية ولدوا فيها ولهم نهاية يموتون عندها ومن خالف ذلك فإنه يخالف الواقع والحق ويخالف الشرع إنما الرسل بشر لهم بداية عمر ولهم نهاية عمر، يعرض الله عليهم الخلود في الدنيا وطول العمر فيها كما حصل مع رسولنا –عليه الصلاة والسلام– ومع موسى وكل الأنبياء يخيرون عند موتهم ولكنهم جميعاً طلبوا اللحاق بالرفيق الأعلى حيث لا منفعة ولا خير في الدنيا بعد أن اطمأن الإنسان على مستقبله في الآخرة والأنبياء مُبشرون قبل أن يقبضوا إلى الله –تعالى– فكان أحدهم يرحب بلقاء ربه حين يعرض عليه.

ولهذا قال– تعالى–: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ ما جعل الله الرسل مخلدين في الدنيا كما لم يجعلهم– الصورة المقابلة– ملائكة، لا يأكلون الطعام أو أجسادًا لا روح فيها إنما هم بشر مثلنا يأكل أحدهم مما نأكل ويشرب مما نشرب وعاب الكفار على رسول الله –عليه الصلاة والسلام– هذه المسألة، أنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]، عابوه بهذا، وكأنه لا يصلح رسولاً بهذا الوصف ولكن الله –تعالى– رد عليهم وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، فشأن الرسل جميعًا هكذا، فكانوا يقولون كلامًا يحاولون أن يعطلوا به مسيرة الإيمان أو يتلكؤوا به في طريق الإيمان وليست لهم حجة فيما يقولون، ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾ صدقناهم الوعد، أي: صدقنا رسلنا وعدنا، أشار ابن كثير –رحمه الله تعالى– إلى هذا الوعد في قول الله

-تعالى- في سورة إبراهيم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ أي: إلى الرسل ربهم ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم: ١٣، ١٤]، الله وَفَّى بهذا الوعد وصدقهم فيه، فأهلك الله الظالمين في كل زمان، ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ﴾ أي: أنجينا الرسل ﴿وَمَن نَّشَاءُ﴾ ومن الذي يشاء الله له النجاة مع الرسل؟ من آمن بهم طبعًا، من حصَّل مؤهلات النجاة ومؤهلات الرحمة فالله- تعالى- يشاء له الرحمة، فمشيئة الله قائمة على أُسس ثابتة، أعلن عنها الله في آيات أخر، ﴿وَأَهْلَكْنَا المُسْرِفِينَ﴾ أي: الكافرين؛ لأنهم أسرفوا في الكفر لم يكفروا كفراً عادياً بمعنى أنه يحرم نفسه من الإيمان وفقط ولكن آذوا رسول الله -عليه الصلاة والسلام- وصفوا كلام الله بأنه افتراء وسحر وكذا حاربوا المؤمنين قاتلوهم، حاولوا إخراجهم من أرضهم وهكذا كان في كفرهم إسراف عظيم وبالتالي سماهم الله -تعالى- هنا بالمسرفين ﴿وَأَهْلَكْنَا المُسْرِفِينَ ﴾.

هذه كانت كلمات نضح بها كفر الكافرين، ورد الله -تعالى- عليها، تعتبر شبهًا شبه بها الكفار على الإسلام والله -عز وجل- فندها وأبطلها حتى لا تكون مسار شك ولا ارتياب لأحد من بعد ذلك، لأن الكافر ليس شخصًا إنما هو رجل مرحلة، ينفذ خطة شيطانية. الشيطان يوحي إليه ويوسوس إليه بكلام يردده، وهذا الكلام نفسه، يُعاد يومًا بعد يوم ومرة بعد مرة مع تتابع الأجيال فلا تعجب حين تسمع شبهة في هذا الزمان، لو أنك نظرت في القرآن مع هذه الشبهة تجدها موجودة قالها الكفار الأوائل في بداية هذا الدين قالوها وأثاروها في وجه الإسلام ثم تكررت على ألسنة كثير من الكافرين حتى وصلتنا إلى اليوم، فلا تنبهت أمام كافر يثير أمامك شبهة ارجع إلى القرآن ستجد الشبهة والرد عليها، فمن قرأ القرآن وحرص عليه، وفهمه وتعلمه يُحَصِّن نفسه ضد تلك الهجمات الفكرية الشرسة التي تقصد ديننا والكفار إلى اليوم يثيرون مثل هذه الشبه وغيرها مستغلين فقر الأمة من ناحية اللغة العربية وجهلها بدينها وعدم معرفتها بكتاب ربها وسنة نبيها -عليه الصلاة والسلام- لكن الله -تعالى- قال: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، كل شبهة وردها موجود ذلك كله في القرآن الكريم وفي سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- بقي علينا أن نرجع إلى القرآن وأن نتعلم منه.

الموضوع الرابع والأخير: هو تشريف القرآن للأمة، إذ يقول الله -تعالى-: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ ذكر ابن كثير -رحمه الله- عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قول الله -تعالى- ﴿ذِكْرُكُمْ﴾ «شرفكم»، أي هذا القرآن فيه شرفكم، وذكر عن مجاهد: «حديثكم»، يعني هذا القرآن هو دستور حديثكم، وذكر عن الحسن البصري: «دينكم»، وكل ذلك يلتقي هذا يُسمى ويُقال عنه عند المفسرين: اختلاف تنوع، يعني هو شيء واحد ولكن وصفه كل مفسر من جهة من الجهات وكلامهم يلتقي ولا يتعارض، يلتقي على وصف شيء واحد، فالقرآن شرف للأمة وينبغي أن يكون القرآن حديثًا للأمة هو شغلنا هو حديثنا الذي نتحدث به، هو حفظنا الذي نحفظه فقد حفظت الأمة اليوم كلامًا غير كلام الله، من كلام اللهو والعبث واللعب وغير ذلك، القرآن الكريم هو ديننا، فلا تعارض بين الأقوال الثلاثة ونحوها، كل ذلك داخل في وصف القرآن العظيم والقرآن يحتمل ويتصف بكل هذه الصفات العظيمة، ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ تأكيد باللام، حرف قد حين تراها تعلم أن هذه الجملة أريد تأكيدها ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَ﴾ حين تجد الله -تعالى- يتكلم بأسلوب الجمع فهذا أسلوب عظمة يدل على عظمة الخبر المخبر عنه، فإنزال القرآن الكريم هذا أمر عظيم، لا يستطيع أحد أن يُنزل قرآنًا مثل القرآن ولا سورة ولا آية من القرآن، ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاب﴾ كتابًا نكرة فيها إشارة إلى التعظيم أي كتابًا عظيمًا كتابًا قيمًا ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجاً ﴿١﴾ قَيِّماً لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً ﴿٢﴾﴾ [الكهف: ١،٢]، قال: ولم يجعل له عوجًا، وقال بعدها: قيمًا، تأكيدًا على المعنى الأول، فالقرآن شرف لنا، شرف لنا إذا تمسكنا به، إذا عبدنا الله به إذا حكمنا حياتنا وحركتنا وسكنتنا به فإنه شرف عظيم فهو صلة بالله -عز وجل- وفيه سعادة عظيمة وهو طريق الحضارة الصحيحة والرقي الصحيح إلى سمو الأخلاق وإلى علو الفضيلة بعيدًا عن الرذيلة والجرائم وما تعانيه المجتمعات البشرية اليوم، المسلمة منها التي فرطت في القرآن والكافرة منها التي أعرضت عن القرآن الكريم، وذكر القرآن هنا إشارة إلى أن القرآن يُغني عن طلب الآيات، ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾ كأن الله يقول لهم: لقد أوتي رسولكم -صلى الله عليه وسلم- وأوتيتم معه قرآنًا يغنيكم عن آية

آية أخرى فهو معجزة الله البالغة على مدى الزمان، معجزة لا يستطيعها أحد تتحدون بها الدنيا ولا يستطيع أحد أن يأتي بمثلها فنحمد الله على نعمة القرآن ونسأله- سبحانه وتعالى- أن يبارك لنا فيه وأن يرزقنا شرافته في الدنيا والآخرة هذا وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وشكر الله لكم حسن الاستماع والمتابعة.

الأخت الكريمة من مصر تقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فضيلة الشيخ ذكر إن اختُلِف في نبوة مريم -عليها السلام- هو لم يقل -عليها السلام- إنما قال: اختُلِف في نبوة مريم، الآية صريحة تقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ فكيف اختُلِف في نبوة مريم؟ هذه الجزئية أنا لم أفهمها؟ إذ الحق -تبارك وتعالى- ذكر الآية صريحة؟

بسم الله الرحمن الرحيم الآية الصريحة تقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالٍ﴾ فذكرت الرسالة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَ﴾ ولم تقل: وما بعثنا مثلاً وما نبأنا إنما قالت: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَ﴾، فخصت الرسالة والرسول غير النبي لعله سبق التنبيه على هذا فالرسول هو من أوتي رسالة وأُمر بتبليغها النبي يبعث بعد الرسل ليدعو بدعوتهم وليواصل برسالتهم إلى الناس، لكن لا يؤتى رسالة جديدة، وإلا كان رسولاً ولذلك يُقال: كل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً، يعني كل رسول هو رسول ونبي في الوقت نفسه، أما الأنبياء فهم أنبياء فقط، هناك أنبياء فقط، وليسوا رسلاً لأنهم لم يأتوا رسالة جديدة أو مخصوصة ومستقلة، وعلى هذا فالآية فيها نفي الرسالة فقط، إلا عن الرجال ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالٍ﴾ فلذلك اختلفوا في نبوة مريم هل هي نبية أو لا؟ مع الإجماع على أنها ليست من الرسل، لأن الآية نفت الرسالة فقط، فبقي أمر النبوة، لأنها أوحي إليها وكلمتها الملائكة وهكذا. فقالوا لعلها تكون نبية ولكن قلت الراجح أنها ليست رسولاً ولا نبيًا من الأنبياء إنما هي أوحى الله إليها بوحي الفطرة بوحي الغريزة كما أوحى إلى أم موسى، وهكذا كما أوحى ربك إلى النحل، نفس الأمر أي: ألهمها الله -تعالى- بطريقة معينة أو أعلمها حتى ولو أرسل لها الملائكة تبشرها فهذا من باب الوحي الذي ليس كوحي الأنبياء والمرسلين، ولهذا لم أقل: عليها السلام، ولكن قلت: عليها رحمة الله، هذا والله أعلم.

الأخ الكريم من السعودية يقول: السؤال الأول: أريد أن أعرف، متى تكون "بل" للإضراب الإبطالي والإضراب الانتقالي؟

السؤال الثاني: أريد أن أعرف متى تكون "أم" بمعنى بل؟ ويذكر لي القاعدة في هذا؟

فضيلة الشيخ الأخ الكريم سؤاله الأول: متى تكون بل للإضراب الإبطالي أو الإضراب الانتقالي؟

بل يقال عنها أو معروفة بأنها أداة إضراب يُضرب المتكلم بها عن شيء سبق ليتكلم بشيء جديد فأحيانًا يكون إضرابًا إبطاليًا وأحيانًا يكون إضرابًا انتقاليًا.

- الإضراب الإبطالي يعرف بأنه: إذا كان ما قبلها باطلاً، يعني: أراد المتكلم أن يُعرض تمامًا وأن يُبطل ما قبلها ليثبت الحق الذي بعدها، فيقول: لست كذا، بل أنا كذا، أو ليس الأمر كذا بل هو كذا، كأنه ينفي ما قبلها.

- أما الانتقالي: فهو إضراب يعبر بكلمة بل أيضًا ولكن يريد أن ينتقل بها من شيء إلى شيء مع إقرار الأول وإقرار الثاني، الأول والثاني وإن تكرر أيضًا بعد ذلك، كما جاء في الآيات معنا فهذا مقصود إثبات كل هذه الأمور أنهم قالوا كذا وقالوا كذا وقالوا كذا، ليس إبطالاً لما قبلها ولكن اعتبارًا لما قبلها وما بعدها، والله أعلم.

سؤاله الثاني فضيلة الشيخ متى تكون أم بمعنى بل؟

"أم" تكون بمعنى "بل" تعرفها لو وضعت مكانها "بل" تجد المعنى مستقيمًا، لكن أقول لك أنت من مكة أم من المدينة؟ هذه لا تصلح أن تكون بمعنى بل؛ لأنها فيها استفهام، إنما لو حذفتها، وصح المعنى واستقام أمر الكلام فتكون أم هنا بمعنى بل، والله أعلم.

وردتنا إجابات على أسئلة الحلقة الماضية:

وكانت إجابة السؤال الأول:

ما هدف قصة آدم في القرآن عامة وفي سورة طه خاصة؟

الهدف من ذكر قصة آدم في القرآن: هو العبرة للأمة فقد استخلفه الله في الأرض وفضله بهذه الخلافة وجعله معلمًا لذريته بتقدير الله -سبحانه وتعالى- والقصة في سورة طه، تركز على بيان كيف نسير في هذه الحياة بمنهج الله -عز وجل- ولا نحيد عنه وماذا على من غلبه الشيطان ووقع في شراك هذا العدو ليعود إلى صوابه ويستقيم أمره من جديد

نعم، هي قصة آدم في الحقيقة في القرآن الكريم كله وفي سورة طه، جاء التركيز فيها على أن المنهج الذي علمه الله للبشرية من خلال آدم، هو الذي جاء به نبيه محمد -صلى الله عليه وسلم- في آخر الزمان، هذه قصة مهمة ينبغي على كل عاقل أن يقرأها بغض النظر حتى عن إسلامه أو عدم إسلامه هذه القصة توضح أمورًا عظيمة ربما ضاق مقام المحاضرة عن بسط ذلك، ففي القرآن كله توضح أمورًا، مجملها أن آدم -عليه السلام- الله -تعالى- أرسله وأجرى عليه هذه المجريات المذكورة في القصة ليعطي صورة تمثيلية تطبيقية للبشرية من بعده ولبنيه جميعًا كيف يسلكون الطريق إلى الله -عز وجل- وكيف تعترضهم العوائق وما أكبر عقبة تعترض طريقهم وكيف التعامل معها وكيف النهوض من كبوة نكبوا فيها وأنها بالتوبة من بعد وسوسة الشيطان واتباعه وبهذا نضمن السلامة في طريقنا إلى الله -سبحانه وتعالى- ويتحقق ما يحبه الله لنا، كعباد خلقهم وهو دخول الجنة، الله -تعالى- يبين لنا هذا حتى نسير بسلام في الطريق ونحن ذاهبون إلى الجنة فننتهي إليها.

إجابة طيبة وجيدة نشكر الإخوة عليها.

السؤال الثاني: من خلال هذه الآيات كيف يستعين الداعية على الثبات على الدعوة؟

وكانت الإجابة:

من أهم الأمور المعينة على الثبات على الدعوة:

أولاً: الصبر، قال- تعالى-: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ [طه: ١٣٠]، فما من داعية إلا ويتعرض للأذى والأقوال الآثمة لكنه بصبره واستعانته بالله يتغلب على كل عائق.

ثانيًا: الإكثار من ذكر الله من تسبيح وتحميد، من أسباب الثبات الدعوة بنفس مطمئنة راضية قال- تعالى-: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: ١٣٠].

ثالثًا: ومن وسائل الثبات على الدعوة عدم الاشتغال الزائد بمتع الحياة الدنيا، من مال وجاه وسيادة فإنها كلها فانية وما عند الله خير وأبقى، قال- تعالى-: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الحَيَاةِ الـدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١].

رابعًا: كما أن على الداعية أيضًا ألا ينسى من يعول بل يبدأ بهم الدعوة أولاً، وعليه بالصبر على المشقة قال- تعالى-: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

هذا استنباط ممتاز -ما شاء الله- من خلال الآيات استنبط الإخوة والأخوات المجيبون على السؤال بعض ما يلزم الداعية فيما ذُكر في هذه الآيات وفعلاً الصبر على الأذى الذي يلاقيه الداعية هذا أمر ضروري وطريـق الدعوة إلى الله -تعالى- ليس مفروشاً بالورود وإنما لابد فيه من عقبات ينبغي الصبر عليها- ألهـم الله دعاتنـا الصبر- اللهم أمين، كذلك اشتغاله بذكر الله -تعالى- وبطاعة الله والصلاة بين يدي الله وعدم الالتفات إلى الدنيا وزخرفها فلا يجتمع مع العلم الشرعي ومع الدعوة إلى الله الخالصة لا يجتمع معها زخرف الدنيا، فالقلب لا يسع الاثنين قد يجتمعا في الحياة لكن بشرط أن يكون الداعية همه الدعوة، والدنيا هذه تحت قدميه ينتعلها بنعليه، لكن يأخذ منها ما تيسر له أو ما يكون ضروريًا وما كان بعد ذلك فيستعين به على أمر الدعوة، أخيرًا: أن يبدأ فعـلاً الداعية بأهله هذا مهم جدًا وهذا أول من يذكرهم ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤]، نشكر على هـذا الاستنباط الجيد من خلال الآيات.

السؤال الثالث: اشرح معنى الآية قال الله -تعالى-: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى﴾ [طه: ١٣٤]؟

كانت الإجابة:

أرسل الله النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- وأنزل عليه المعجزة الخالدة القرآن الكـريم، إلا أن المكـذبين متعنتون دائمًا ويجادلون بالباطل فهم متعنتون إلى قيام الساعة، ولو أن الله أهلكهم قبل بعثة الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- لاحتجوا بذلك ولقالوا: أما كنت ترسل لنا رسولاً لنتبع الآيات ونؤمن من قبل أن يحل بنا الـذل والخزي؟ وقد أرسل الله الرسول محمداً -صلى الله عليه وسلم- وقامت عليهم الحجة ولكنهم معاندون لا يؤمنون.

نعم، يعني بهذه الآية يقطع الله أو يخبر الله -تعالى- أنه قطع العذر على أولئك المعاندين فلا عذر لهم، ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، فبعد إرسال الرسل لا حجة لأحد يقول: ما علمـت مـا سمعت ما عرفت، قامت الحجة لله على الخلق، نسأل الله أن تكون في ميزان حسناتنا وأن تكون حجة لنا لا علينا.

فضيلة الشيخ الأخت الكريمة من السعودية لها ثلاثة أسئلة، سؤالها الأول: أحاديث فضائل السور الضعيفة ما حكم العمل بها والمداومة عليها؟

الحديث الضعيف- كما قال علماء الحديث- يجوز أو فريق منهم، يجوز العمل به في الفضائل يعنـي: فـي الترغيب والترهيب بشروط:

- ألا يكون شديد الضعف، يعني: لا يكون في سنده كذاب مثلاً.

- وأن يكون في الفضائل لا في تأصيل الأحكام أو تأسيسها فالحديث لا ينشئ حكمًا إنما بطبيعة الحال نحـــن مطالبون ورغبنا الشرع في أن نقرأ سورة كذا مثلاً، فإذا جاء حديث ضعيف يؤكد على هذا المعنى، فهو من باب التأكيد وليس من باب التأسيس.

- كذلك إذا ذكر الحديث يذكر بسنده مع الحكم عليه، أو مع درجته فيقال: روى فلان عن فلان عن فلان إلى السند بكامله وفي النهاية يقال: وهذا حديث فيه كذا أو علته كذا، أو على الأقل يُشَار إلى ضعفه كما نبه علمـــاء الحديث أن يروى الحديث بصيغة تمريض وتضعيف، فيقال: روي في فضل هذه السورة كذا أو ذكر في فـــضل هذه السورة كذا.

- وبشرط ألا يوجد في فضلها حديث صحيح آخر، فإذا وجد الصحيح بطل ذكر الضعيف، لكن الاعتماد على الصحيح هو الأولى- والله أعلم-.

سؤالها الثاني: ما هو علاج الغفلة بالدنيا؟

علاج الغفلة بالدنيا، أن يقطع الإنسان قلبه عنها وإن جمعها في يده، فلا مانع أن يكون الإنسان صاحب مال، لا مانع أن يكون الإنسان صاحب بيت كذا وسيارة كذا حياته- ما شاء الله- فيها صور كثيرة من الترف أو النعم المريحة وما إلى ذلك فوق الضروريات ولكن لا يتعلق بها القلب، بحيث لو لم تكن عندي لن أحزن عليها ولـــن أتكالب على جمعها وتحصيلها، وإذا جاءتني فلا أفخر بها ولا أفرح بها فرحًا يطغيني فتكون في يدي فقـــط أمـــا القلب فغير متعلق بها، لا أظن أن من كانت عنده الدنيا أحسن مني، بل أنا أكثر نعمة من الله من هذا الـــشخص، هذا عنده دنيا وعنده مال لكن يدخل الفقراء قبل الأغنياء يدخلون الجنة بكذا وكذا، لأن الفقير حسابه قليـــل، أمـــا الغني حتى يُسأل عن ماله كله من أين اكتسبه؟ وفيما أنفقه؟ فهذا يؤخره عن دخول الجنة وللحظة في الجنة أسبق من غيري تساوي الدنيا وما فيها وأكثر من ذلك، فالإنسان يخرج من الغفلة بالدنيا فلا ينشغل بها بقلبه ولا يتعلق بها بقلبه حتى لو جمعها بيده، يستفيد من نعم الله وينتفع بنعم الله ويُرى أثر نعمة الله عليه، ولكن يذكر دائمًا معها الآخرة، أكل النبي -عليه الصلاة والسلام- وأبو بكر وعمر عند أحد الأنصار، قيل: ذبح لهم شاة وجاء لهم بعزق من تمر يعني: سباطة من بلح من النخلة وجاءهم بماء بارد وفرش لهم فرشًا أو حصيرًا في ظل شجرة نعم كثيرة أكلوها، إكرام ضيافة وليس من أموالهم أو من جمعهم وما إلى ذلك وبعد أن نعموا بهذه النعم قال النبي -عليـــه الصلاة والسلام-: (﴿لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]، فقال: عمر يا رسول الله: ليس من عندنا ولا مـــن بيوتنا هذا فضل من الله: قال: ألم تأكل كذا؟ ألم تشرب كذا؟ ﴿لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾)، هكذا جاء أم لم يـــأتِ يكون الأمر عندنا سواء إذا وصلنا إلى هذه الدرجة فنكون قد خرجنا من الغفلة بالدنيا- والعياذ بالله تعالى.

سؤالها الثالث: هل يدل إقرار النبي -صلى الله عليه وسلم- بما قاله الشيطان لأبي هريرة -رضي الله عنـــه- أننا نأخذ الحكمة من العصاة حتى ولو من كافر؟

نعم، لو جاءتنا الحكمة والحق من كافر، وكان هذا أول مصدر نسمع منه الحكمة فلا مانع، لكن ليس معنى هذا أن أسعى إلى الكفار وأهل البدع وأهل الشرك وأتعلم على أيديهم علمًا قد يكون عندي في كتاب ربي وفي ســـنة نبيي -عليه الصلاة والسلام- لكن لو كانت خبرة في الحياة مثلاً أو معلومة شرعية لم أعلمها ولا أعلم وجودهـــا أوردت في القرآن أو في السنة أو في اجتهادات العلماء، لم أسمع عنها قبل ذلك لكن ذكرها كافر أمامي ووجدتها صحيحة بعد ذلك، سألت عنها بعض العلماء فأقروها راجعتها في كتب العلم والتفاسير وكتب السنة وهكذا وجدتها حقًا فلا مانع أن آخذ بها، ولكن هنا- كما أشرت في أثناء الحديث- لن يكون مصدرها التشريعي هو قول الكافر لها وإنما وجودها في كتابنا وجودها في ديننا هذا هو المصدر التشريعي لها عندي لكن كان أول مصدر أسمعها منه هو ذلك الكافر أو ذلك العاصي أو كذا، فلا مانع من قبول الحق دائماً من أي مصدر كان منه طالما ثبت أنه

حق لا يعارض ما عندنا، ولذلك فيما نسمع عنه في التفسير من الإسرائيليات، هذه كلمة مشهورة ومعروفة الإسرائيليات، هي الأخبار والأمور الواردة عن بني إسرائيل وقسمها العلماء ثلاثة أقسام:

- إسرائيليات مرفوضة، وهي ما خالف الحق عندنا، ورد عن بني إسرائيل شيء يخالف الحق عندنا هذا مردود، كما لو قالوا: العزير ابن الله، أو المسيح ابن الله، فهذا نرفضه، ولا إله إلا الله.

- لو قالوا حقًا يوافق ما عندنا هي من باب الإسرائيليات؟ نعم، كمصدر ورود ولكن لا مانع من أخذه فهذا يوافق الحق الذي عندنا واستنادنا للحق الذي عندنا وليس لما قال بنو إسرائيل إنما كلامهم يؤكد لنا أن كتابنا هذا من عند الله ويزيدنا ثقة فيه.

- هناك قسم ثالث: وهو ما لا يوافق ولا يخالف، يعني: ذكره وروايته والقول به، لا يضر الدين في شيء ولا ينفعه في شيء فمثل هذا قال فيه النبي -عليه الصلاة والسلام-: (حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج) أو قال: (لا تصدقوا بني إسرائيل ولا تكذبوهم)، فإذا وافق قولهم الحق الذي عندنا نأخذ بقولهم، لا حرج فالأخذ بقولهم هنا جائز مع أنه من باب الإسرائيليات لأنه وافق الحق الذي عندنا، هذا هو المقياس الذي نحرر به الشيء، قالها الشيطان فلم يفعل أبو هريرة شيئًا ولم يأخذ بقوله حتى أقره النبي -صلى الله عليه وسلم- على هذا، والله أعلم.

شيخنا الفاضل: هل وردت أحاديث صحيحة في فضل سورة تبارك؟

فضل سورة تبارك فيها بعض الأحاديث الصحيحة، وفيها بعض الأحاديث الضعيفة، فهي قراءتها مستحبة وجائزة -إن شاء الله.

هلا تفضلتم بإلقاء أسئلة هذه المحاضرة

بسم الله الرحمن الرحيم حول هذه المحاضرة العاشرة نلقي هذه الأسئلة الثلاثة:

السؤال الأول: عَرِّف تعريفًا مجملاً بسورة الأنبياء؟

السؤال الثاني: اذكر ثلاثة من شبهات الكافرين وبيِّن بُطلانها؟ طبعًا من خلال الآيات التي شُرحت، ليس من القرآن كله، وإنما في حدود الآيات المشروحة في المحاضرة

السؤال الثالث: بين بإيجاز كيف كان القرآن شرفًا للأمة؟ فالكلام في هذا يطول ولذلك يُطلب الاختصار؟ ونسأل الله لنا ولكم التوفيق والسداد.

العبرة في مصارع السابقين

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد. ففي هذه المحاضرة التي عنونت لها من خلال الآيات الحادية عشرة إلى الآية العشرين من سورة الأنبياء وهي المحاضرة الثانية في رحاب هذه السورة عنونت لها بعنوان: العبرة في مصارع السابقين، وذلك بعد أن قصّ الله –تعالى– خبر كفر الكافرين على عهد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– كأنه يذكرهم بما حدث للكافرين من قبلهم، نتناول هذا الموضوع –إن شاء الله تعالى– من خلال ثلاث زوايا وثلاثة عناصر:

العنصر الأول: قصة هلاك السابقين في سورة الأنبياء.

العنصر الثاني: حكمة الله في إيجاده للخلق.

العنصر الثالث: غِنَى اللهِ عن الخلق.

ونتناول هذا بالتفصيل–بعون الله تعالى– بعد أن نشنف الآذان بالاستماع إلى هذه الآيات من أخينا الفاضل فليتفضل جزاه الله خيرًا.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لاَ تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ١١: ٢٠].

العنصر الأول: خبر هلاك الأمم السابقة: سبحان ربنا العظيم، هكذا أخي وأختي طلاب العلم، علّمنا الله وإياكم الخير كما تابعنا مع الآيات من أول السورة في الحلقة السابقة وفي هذه الحلقة أن الله –تعالى– أخبر عن لهو الكافرين وعدم استماعهم لأي ذكر ينزل محدثًا من رب العالمين رحمةً لهم، وإشفاقًا عليهم، وإنذارًا لهم قبل أن يحل عليهم العذاب، فكانوا لاهين معرضين، قلوبهم منصرفة لم يستجيبوا، حتى بين الله لهم أنه أنزل إليهم كتابًا فيه العز والشرف والكرامة والبركة والخير كل الخير ومع ذلك لم يؤمنوا فَحُقَّ لهؤلاء أن تقدم لهم موعظة من خلال من سبق ممن فعلوا مثلهم وسلكوا طريقهم من قبلهم، وهذا كرم من الله عظيم حين يبين لعبده الإنسان الذي لا يستحق بذاته كل هذا إلا فضلاً من الله ونعمة وعدلاً من الله وحكمة، فيبين الله –تعالى– لمن كفر به أنه قد كفر قبلك غيرك ومثلك ففعلت به ما فعلت، فانظر إلى الوراء بعينيك وارجع بعقلك وقلبك وانظر ماذا كان من أمر هؤلاء وهذا من خلال قول الله –تعالى–: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾ وهذا التوجيه نستطيع أن نقول فيه بلغة العصر: وجوب قراءة التاريخ، على كل إنسان عاقل أن يقرأ تاريخ من سبق وأن يعتبر بالمثلات، الأمثلة والأحداث التي تقع أمام عينه أو يسمعها وخاصة إذا تتابعت حتى صارت كسُنة

ثابتة، وأمرًا لا يتغير ولا يتبدل كل من كفر في الأمم السابقة أهلكه الله –تبارك وتعالى– فكان على كل إنسان في هذه الأمة أن يعتبر بهذا وأن يعلم يقينًا أنه بكفره هذا، سوف يتردى إلى تلك الهاوية التي هوى فيها من سبقه من الكافرين، ولذلك يقول النبي –عليه الصلاة والسلام–: (لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين) يعني: هو يعتبر بالمرة الأولى، ويتخذ منها درسًا لما يأتي وينبغي على الإنسان من خلال حياته في هذا الكون أن يتعرف على سنن الله الثابتة، كل يوم يبزغ فجر ويأتي ليل وتُشرق شمس وتغيب آخر النهار وينام الناس والأحياء ويقومون بالنهار وهكذا وغير ذلك من أحداث وسنن ثابتة الظالم نهايته وخيمة الصالح الطيب نهايته طيبة، سنن ثابتة على مر الأيام والدهور، لا تتخلف أبدًا، هذه قوانين ينبغي أن يحكم الإنسان بها حياته لو كان من العاقلين، ولهذا يقول الله –تعالى– حتى يوفي لهؤلاء الكافرين حقهم في الموعظة وفي العبرة وفي الحجة: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ كم: تعلمون أنها في الأصل أداة استفهام يُسأل بها عن عدد الشيء ولا يُسأل عن عدد الشيء القليل، إنما يسأل عادة عن عدد الشيء الكثير، فاستعملت في مجال الخبر لتدل على الشيء الكثير، استعملها العرب في كلامهم ونزل بها القرآن الكريم على نبينا –صلى الله عليه وسلم– فقال– –تعالى–: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَ﴾ يعني: وقصمنا كثيرًا من القرى، ولكن حينما يأتي الخبر في سورة استفهام فهذا أدعى للانتباه، أدعى لإثارة الأفكار والقلوب حتى تستوعب هذا الخبر، ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا ﴾، والقصم: هو الكسر للشيء القوي كسرًا لا يلتئم، أن يُكسر الشيء القوي كسرًا لا يلتئم ولا ينجبر، فكأن الله –تعالى– كَسَّرَ هذه القرى وأهلكها هلكة لا تقوم بعدها، ولا تبقى منهم بعدها باقية، كما قال– تعالى– في سورة الحاقة: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٨]، يعني: لا ترى لهم من باقية بقيت بعدهم، ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ قرية مع أن المقصود هم أهلها، أي: وكم قصمنا من أهل قرية، والله– تعالى– يُعذب العباد ولا يُعذب الديار إنما يعذب العباد الذين أبقوا وكفروا وعاندوا الله –تعالى– يعذبهم ويهلكهم ولا شأن للديار ولكن أراد الله أن يشير إلى مسألة مهمة فعادة الكافرين أنهم يتشاءمون بالمؤمنين: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ [النمل: ٤٧]، قالوها لموسى في بني إسرائيل وقالها أصحاب القرية المذكورة في سورة يس للرسل الذين جاءوهم وقالها كذلك ولو بلفظ آخر الكفار في عهد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– كانوا يعتقدون أن أية حسنة تحدث وتقع لهم فهي من عند الله، وأما السيئة التي تحل بهم أو بديارهم وتحل فوق رؤوسهم إنما هي بشؤم محمد –عليه الصلاة والسلام– وأصحابه، فبرأه الله –تعالى– وقال الله –تعالى– له ولكل إنسان: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، ليس بشؤم غيرك، إنما بسببي أنا تصيبني السيئة والحسنة تأتيني من فضل الله –تبارك وتعالى– فلكي يصحح الله هذه المسألة ذكر كلمة القرية، يفهم هذا من خلال النص فَذِكر القرية ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ أي: كأن الله –تعالى– قصم القرية بمن فيها وما فيها، فكفر بني آدم استنزل عليهم عقابًا أخذهم واشتمل معهم القرية بديارها وأبنيتها وما فيها من خلق آخر ولو كان جمادًا، إذن: بشؤم كفر الإنسان ومعصيته أصاب الهلاك الحيوان والجماد والحشرات والطير وما إلى ذلك، فقال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ والله– تعالى– حينما يقصم قرية ويعذبها ويهلكها فليس ذلك ليتلذذ بتعذيبها كما يفعل بعض الملوك، إنما ملك الملوك –سبحانه وتعالى– فإنه عظيم، عدل، حق، أما البشر فهم أهل الظلم يقعون فيه خطأً أو عمدًا، إنما الله حينما يعذب أحدًا فيعذبه بسبب، فيقول: ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ إذن: الظلم من بني آدم. وأبشع الظلم هو الشرك: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، حينما يقع بنو آدم في الشرك بالله –عز وجل– وفي الكفر به، وحينما يظلم بعضهم بعضاً يحل بهم عذاب الله –سبحانه وتعالى– وقصمه وهلاكه، ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾ أنشأنا بعدها أي بعد هذه القرى الكثيرة ﴿قَوْماً آخَرِينَ﴾ بعد كل قرية ينشئ الله قرية جديدة ولكن لم يقل: وأنشأنا بعدها قرية آخرين، أو قرى أخرى، وإنما قال: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمٌ﴾ لأن الإنشاء لو نسب إلى القرية فينصرف الذهن إلى الديار والأبنية والعمار والأشجار أنشأ الله قرية جميلة بأبنيتها، ومعمارها، وأشجارها، وحدائقها، لكن لا يسكنها أحد، فما الفائدة وهذا أمر سهل يفعله ابن آدم يستطيع أن ينشئ قرية جميلة ويعدها إعدادًا عظيمًا لكن أن ينشئ قومًا على وصف يحبه –سبحانه وتعالى– ويرضاه فذلك هو الإعجاز تلك هي القوة الغالبة التي لا تُقهر تلك هي الحكمة البالغة التي لا تلعب ولا تلهو، ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمٌ﴾ لاحظ هذا الفرق في التعبير حينما أهلك قال: ﴿قَرْيَةٍ﴾ وحينما أنشأ قال: ﴿قَوْماً ﴾، ليشير أو لنتخذ من ذلك إشارة إلى أن الهلاك حين ينزل على الناس قد يدمر الأرض بمن فيها، يدمر الديار ويخرب العمار ويقطع الأشجار ويقضي على الحياة في هذا البلد، فترجع بلدة ميتًا أما حينما يُنشئ الله –تعالى– فالإعجاز في إنشاء الإنسان نفسه

أن ينشئ قومًا يعبدونه وحده لا يشركون به شيئًا، يقبلون رسالته ويتحملونها وينشرونها ويهتدون بها، كما قال- تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]، هذا اختصار للوصف الذي يريده الله -تعالى- في العباد، فيعرضه عليهم اختيارًا فمن لم يقبله اختيارًا فالله يعلن قدرته على أن يذهب بهم وأن يأتي بقوم آخرين، بالوصف الذي يرتضيه وبالوصف الذي يحبه -سبحانه وتعالى- ويريده ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾، حينما بلغهم العذاب وحل بديارهم، ورأوا قدومه عليهم، وتخيل عذابًا من عند الله -سبحانه وتعالى- هلكة جاءت لتعم بلدة من البلاد كلها أمة من الأمم لا شك أن شيء كثير شيء مخيف هائل عظيم، لذلك حاول الناس الهرب، ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ لما أحسوا وأصابهم ألم بأس الله أي عذاب الله، ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَ﴾ أي: ذاقوا العذاب وأصابهم، بدأ كل منهم يحاول الهرب، ويسلك طريقًا يبتغي فيه النجاة، ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ والركض أصلاً للحيوان، وهو سرعة سير الفرس، ويقال للوحش حينما يفر من الخطر في البرية- الحيوانات البرية في الغابة حينما تشعر بالخطر يُقدم عليها أو تُحس به فإنها تفر فرارًا شديدًا سريعًا عظيمًا هذا هو ركض- يقال: ركض الحيوان، ومعروف عند العرب في الفرس؛ لأنه يركض للقتال والجهاد والسفر وما إلى ذلك، فشبههم الله -تعالى- وهم يفرون من عذابه يحاولون ذلك عبسًا، شبههم بحال الفرسان أو الحيوانات وهي تركض فرارًا من الخطر، ولكن كيف؟! والكون كون الله، والسماء سماءه، والأرض أرضه، والخلق خلقه، والأمر أمره، إلى أين يفرون؟ لا مفر، ﴿وَلاَتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣]، نزل العذاب وانتهى لذلك يقول الله لهم: ﴿لاَ تَرْكُضُو﴾ لا تجروا، لا تخرجوا من دياركم ﴿لاَ تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ ﴾، لا تركضوا، أي: لا فائدة في الركض ولا مغزى من الجري، ولا مهرب تهربون إليه، ولا منجاة تحاولون الوصول إليها، فكونوا كما كنتم ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ المَوْتُ﴾ [النساء: ٧٨]، ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعٍ﴾ [البقرة: ١٤٨]، فلا فرار، إذن: ﴿لاَ تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ وارجعوا إلى ما أترفتم فيه: أي من نعم الله -عز وجل- مما جعل الله لهم من نعم في الدنيا يترفون فيه، أي: ينعمون فيه، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، ﴿وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ ﴾، لماذا؟ ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾، أي: لعلكم تسألون بعد ذلك ما الخبر؟ وما الحدث؟ وماذا جرى حدثونا عما جرى لكم يا قوم؟ وهؤلاء- كما سيأتي- صاروا هَلْكى كأعجاز نخل منقعر، صاروا هَلْكى كعيدان نبات محطمة مكسرة، لا قوة فيها ولا حياة، فكيف يخبر الهالك بعد هلاكه كيف هلكت؟ الله -تعالى- يكلفهم بهذا، وحينما يأمر الآمر بأمر لا يستطيعه المأمور، فليس قصده التكليف الحقيقي، خرج الأمر عن حقيقته إلى غرض آخر، أقول لإنسان يغرق في الماء في البحر، أقول له: حينما تغرق وتموت تعالَ فحدثني كيف غرقت وماذا جرى لك، أهذا يعقل؟ لا يعقل، إذن: غرضي شيء آخر الغرض هنا الاستهزاء بالكافرين، ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾، ومن يسأل الأموات؟ وكيف يجيب الميت على الحي إذا سأله كيف هلكت؟ فهذا لون من ألوان الاستهزاء، كما يقول الله -تعالى- للكافر في النار: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، ﴿لاَ تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ وهذا هو أرجح ما قيل عند المفسرين في قوله- تعالى-: ﴿تُسْأَلُونَ﴾، أي: يسألون عما جرى لهم فيخبرون، فخير من يخبر عن الشيء من كان فيه، ومن ذاقه وعرفه، ولكنه عند ذلك وعند السؤال سيكون هالكًا لا يملك سمعًا ولا يملك جوابًا ولا شيئًا فصدر الكلام على جهة الاستهزاء بالقوم كما استهزؤوا برسل الله واستهزؤوا بكتب الله واستهزؤوا بالدعاة واستهزؤوا بالدين، فالله- تعالى- كما قال: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥]، هذا كان في الدنيا وكذلك يستهزئ بهم عند نزول العذاب، وكذلك يستهزئ بهم عند دخولهم النار وأثناء نزولهم فيها وتعذيبهم فيها، ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]، وساعتها حينما لم يجدوا مهربًا ولا منجىً ولا مخرجًا قالوا قولة الهالك قولة الخاسر: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَ﴾، كلمة تقال عند نزول المصيبة وخاصة المصائب العظام، ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَ﴾ لما كان الويل يأتيهم والعذاب ينزل عليهم، ويوافقهم ولا يخالفهم؛ لأنه معد لهم، فكانوا في حالهم هذا كمن ينادي على شيء فيأتيه ملبياً، أنادي على ولدي فيأتيني، أنادي على صاحبي فيأتيني، يا فلان، فكأنهم نادوا الويل، فجاءهم، وينادونه أيضاً فيأتيهم، ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ إنا كنا ظالمين، اعتراف إقرار بالذنب وتلك فضيلة أن يُقرَّ الإنسان بذنبه وأن يعترف بخطئه وأن يقر بأنه أخطأ وأذنب ويطلب من خصمه أن يسامحه وأن يعفو عنه وأعظم خصم يُخشى جانبه هو الله -سبحانه وتعالى- نعوذ بالله من مخاصمته- فحينما يقر الإنسان

بذنوبه ولو كانت إلى عنان السماء أو مثل زبد البحر أو بعدد حبات الرمال فيقول: (يا رب أذنبت، فاغفر لـــي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. يضحك الله له، ويباهي ملائكته في السماء ويقول لهم: علم عبدي أن له ربًا يغفــر الذنب أشهدكم يا ملائكتي أني قد غفرت له)، ولكن لابد أن يكون هذا في الأوان المناسب أما أن يكون بعد فوات الأوان، أما بعد أن يكون بعد نزول العذاب والهلكة، أما أن يكون عند احتضار الموت، فهذا لا يقبل مهما اعترف الإنسان بذنبه، منذ أن يحضره الموت إلى يوم القيامة لا يقبل، إنما في دنياه وفي أيامه وحياته، فيقبل الله -تعالى- توبة العبد ما لم يغرغر بخروج الروح، وبآخر الأنفاس، فهنا لم يقبل الله منهم اعترافهم ولم يرحمهم به؛ لأنه جاء متأخرًا متوانيًا توانيًا عظيمًا بعد فوات أوانه ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾، قالها أصحاب الجنة كما في سورة "ن"، في سورة القلم، حينما منعوا الفقراء حقهم من الصدقة، من حديقتهم فمنعهم الله من ثمر الحديقة كله، ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [القلم: ١٩- ٢٩]، ذكر المفسرون أن الله عوضهم خيرًا منها وأعظم منها لماذا؟ لأن الهلاك لم ينــزل علــيهم، حياتهم مستمرة إنما نزل الهلاك على الحديقة فقط، فلما كانت الحياة مستمرة اعترفوا بظلمهم وبذنبهم فعفــى الله عنهم وأبدلهم خيرًا منها ﴿عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ [القلم: ٣٢]، أما أن يأتي الهلاك للإنسان وأن تأتي ساعته وساعتها يقول: تبت إلى الله ورجعت إلى الله لا يصلح منه ذلك ولا يقبل، ﴿قَــالُوا يَــا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ كما جاء في شأن الكافرين في الآخرة: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْــحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: ١٠،١١]؛ لأنهم اعترفوا بــذنبهم فــي الآخرة وليس في الدنيا، ظلوا يقولون هذه المقالة، ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾، كما نرى أهل المصائب- عفا الله عنا وعنهم وعافانا الله -عز وجل- جميعًا- حينما تنزل عليهم المصيبة ينــادون الويــل، والهــلاك، والخيبــة، والحسرة، والندامة، إلى آخر هذه الكلمات التي تخالف الرضا بقضاء الله -عز وجل-، ولا يزال يقول هذا حتـــى يكون حرضًا أو يكون من الهالكين، يهلك نفسه حزنًا على هذا الأمر هؤلاء ظلوا يقولون هــذه الكلمــة طــول إصابتهم حتى ماتوا تمامًا وهلكوا هلكة كاملة ولم تبقى منهم باقية، يقول- تعالى-: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْــوَاهُمْ ﴾، أي فما زالت، فما زال يعني: بقي، معناها: فبقيت تلك دعواهم، فما زالت تلك الدعوى التي يدعونها، ومقــصود بها الدعوة بالتاء وإن ذكرت بالألف المقصورة ولكن هي بمعنى الدعوة من الدعاء، وهي قولهم: ﴿يَا وَيْلَنَ﴾ ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ﴾ كما جاءت في قول الله -تعالى-: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾ [يــونس: ١٠]، ولم يقل: وآخر دعائنا، أو آخر دعوتنا، إنما: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [يــونس: ١٠]، فتأتي الدعوى بمعنى الدعوة، كما جاء في هذه الآية، ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَــصِيداً خَامِــدِينَ﴾ أخي طالب العلم، أختي طالبة العلم، انتبهوا فالقرآن عظيم وتعبيراته دقيقة جدًا، وذلك حينما يقول الله -تعــالى- في ختام الآية: ﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ﴾ لم يموتوا ظاهرة طبيعية ولم يموتوا صدفة، ولم يموتوا بتــأثير فيرس كذا ولا كذا إنما ماتوا بجعل الله، الله الذي جعلهم أمواتًا، هو الذي أهلكهم مهما تكن الأسباب فالله- تعالى- هو الفاعل الحقيقي ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]- سبحانه- فقال: ﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَــصِيداً خَامِدِينَ﴾ ما الحصيد؟ وما الخامد؟ الحصيد: هو من الحصد، وهو قطع الزرع بالمنجل بالآلة الحديدية المعروفة المعدة لذلك، لا أخذ النبات باليد واقتلاعه، إنما أخذه بالمنجل، وهذه صورة معروفة في الزراعة، حينما يُحــصد الزرع فتلقى عيدان النبات على الأرض بعد أن كانت قائمة على أصولها تلقى على الأرض نائمة هكذا، لا حركة فيها كانت واقفة على ساقها تهتز مع الهواء وتنمو وتتغذى فيها حياة، ولكن صارت الآن راقــدة علـــى الأرض رقودًا أبديًا مع الشمس وعوامل التعرية والمطر وما إلى ذلك، وما يصيبها من إصابات وآفات يصير العود يابسًا، يصير العود متكسرًا من أثر الدوس عليه، يدوسه إنسان أو حيوان وما إلى ذلــك، كمــا هــو معــروف دوس المحصود، أي: درسه فيصير تبنًا، فإذا قامت فيه الرياح أخذته في وجهها وطارت، فلا قوة فيه صار النبات هكذا بعد خضرة، بعد قوة، بعد جمال، كذلك أولئك القوم كأن الله يريد أن يصور لنا صورتهم كانوا أقوياء، كم من أمة كانت متحضرة وذات حضارة رفيعة عالية، كم من أمة صاحبة قوة كقوم عاد وفرعون وما إلى ذلك، كم من قوم كانوا يتباهون بجمال أنفسهم وبمباهي مظاهرهم ويظنون أنهم مخلدون بذلك جاءهم عذاب الله -تعالى- فأخــذهم فماتوا حتى صاروا حصيدًا، ﴿خَامِدِينَ﴾، هذه صفة للنار، خمدت النار، يعني: خبت ضــوؤها وانطفــأ لهيبهــا،

فصارت رمادًا ورماد النار أخفُ من التراب، تذروه الرياح كذلك، بعد قوة النار وقوة لهيبها وما فيها من إخافة يراها الإنسان فيهابها ويخاف من الاقتراب منها، بعد ما كان فيها من قوة الإضاءة والإشعاع، بعد ما كان فيها من قوة الايقاد موقدة وشديدة، بعد ذلك كله صارت رمادًا تذروه الرياح، كذلك هؤلاء القوم على اختلاف أجناسهم وأممهم وأزمانهم الله –تعالى– أنزل عليهم العذاب، ولا يزال بهم عذاب الله حتى جعلهم حصيدًا خامدين، فكأن الله شبههم بالزرع صار هكذا بعد قوة ونضرة وخضرة، وبرماد النار بعد أن كانت النار قوية مخيفة مضيئة مشعة ومتقدة، وهكذا تكون الأمم عالية رفيعة قوي وفي لمح البصر وبكلمة كن، من أمر الله –تبارك وتعالى– فتكون ﴿حَصِيداً خَامِدِينَ﴾، كما كان أمر أمم كثيرة قبل ذلك. هذا هو العنصر الأول وهذا خبر هلاك الأمم السابقة مجملة دون تفصيل– قوم كذا وقوم كذا– إنما هي أمم كثيرة أهلكهم الله –تعالى– بألوان عديدة ومتنوعة من العذاب ورد ذكرها في سور كثيرة في القرآن الكريم في غير هذا الموضع، ولكن لحكمة ما أجمل الله –تعالى– هنا الموقف؛ لأنه يريد أن يقدم عبرة للكافرين من هذه الأمة: لو لم تؤمنوا فهذا مصيركم كمصير السابقين.

العنصر الثاني: حكمة الله في إيجاده للخلق:

وعلى هذا يفرع الله –تعالى– موضوعًا آخر وعنصرًا آخر من خلال الآيات التالية: وهو بيان أن الله –تعالى– لا يخلق خلقًا عبسًا وأن الله –تعالى– لما كان هو الحكيم الذي يؤتي الحكمة من يشاء يوزعها يفيض بها يهبها – سبحانه وتعالى– فلا يليق بالحكيم –سبحانه– أن يلعب وأن يلهو ماذا لو رأيت شيخًا يلعب الكرة بملبس مشيخته؟ تقول له: مثلك لا يليق به ذلك، مع أن الدنيا كلها تلعب والعالم يلعب لكن بهذا المنظر لا يليق، أستاذ في جامعة، أستاذ مخترع كذا، لو أنه يلعب كذا، هذا لا يليق به، يلهو ويعبث لا يليق به، اللعب ذكر دائمًا مذمومًا في القرآن الكريم، مما يذم في الحياة الدنيا، وكلما تخلى الإنسان عن اللعب عَرَف الناس قيمته، ووقعت في قلوبهم مهابته، وكلما لعب هان على الناس، هذا في المجتمعات التي تعرف القيمة والفضيلة، هذا هو الميزان؛ ولذلك كان النبي –عليه الصلاة والسلام– من حكمته ومن سماحة الشرع الحنيف أن يلعب الأطفال والغلمان والصغار والبنات تلعب بالعرائس لأنهم في سن طفولة ورشدنا الدين إلى أن تكون هذه الألعاب نافعة، فكان –عليه الصلاة والسلام– يدخل على عائشة وهي تلعب بالعرائس لصغر سنها، فكان يلاطفها ويشاركها بكلمة، لكن لا يجلس معها وأين العروس يا عائشة؟ وأين تجلس؟ وأين تنام؟ لا لا، وقته أسمى من ذلك ومهمته ورجولته أكبر، إنما ملاطفة لزوجة ولطفلة، كان يلاطفها بكلمة، رآها تلعب بفرس وله جناحان من بين لعبها، فقال: يا عائشة (أفرس وله جناحان)؟ يعني: هل هناك فرس وله جناحان الفرس لا يطير لكن لعل هذا كان مما سمعوا عن البراق وما إلى ذلك إنه أشبه بالفرس ويطير في الهواء فاصطنعوا شيئًا يشبه هذا، لعبة للطفل، ذكر القرآن لَعِب أولاد سيدنا يعقوب –عليه السلام–: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢]، لم ينكر يعقوب عليهم اللعب؛ لأنهم سيلعبون بجوار الأنعام وهي ترعى، يلعبون لعبًا بريئًا بسيطًا طارئًا، ليست مسابقات ولا دوريات وما إلى ذلك، ليس شيئًا أساسًا في الحياة وإنما هو لتسلية الوقت، فإنهم يجلسون والأغنام ترعى، لو لم يلعبوا ربما ناموا فجاء الذئب فأكل الغنم، فلعبهم مصلحة في هذا الوقت، وهم غلمان صغار، فكان هذا مباحًا من سماحة الإسلام، لكن أن يلعب الكبار فهذا يشينهم فما بالك بالإله؟!! فلا يليق به أبدًا أن يكون لاعبًا أو لاهيًا أو عابسًا كل ذلك من النقص المحال في حق الله ذي المحال والجلال –سبحانه وتعالى– فلذلك بَيَّن حكمة خلقه لهذا الخلق، بالسماء والأرض وما بينهما وما فيهما فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾، أي: ما خلقنا هذ الخلق لنلعب به، أو ليلعب الخلق، ونتفرج عليه، لا، لم تخلق الدنيا للعب، إنما خلقت للجد، أيخلق الله سبع سماوات طباق، ويجعل القمر فيهن نورًا ويجعل الشمس سراجًا ويزين السماء الدنيا بالنجوم والكواكب، ليلعب بذلك أو ليلعب الخلق بذلك؟!! لا، لا يمكن، شكل السماء عظمها، كبرها، كل ذلك يمنع احتمال أن تكون مخلوقة للعب، الأرض ممدودة وفيها فجاج وسبل فيها أنهار وبحار، فيها دُرر فيها أرزاق، فيها حديد، فيها معادن، فيها بترول، فيها أشجار ونبات، كل ذلك مخلوق، خلقه الله ليلعب الإنسان به، أو ليلعب الله بذلك؟ حاشا لله وتعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، خلق الله إنسانًا يتكلم، ويسمع ويبصر ويعقل، ويخترع ويبتدع، في الدنيا طبعًا ويبدع وهكذا ويحصل ويذاكر وينجح، أهذا لعب؟! لا.. لابد أن هذا المخلوق مخلوق لمهمة، ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ [الأعلى:

١]، عظمه –سبحانه وتعالى– ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ٢، ٣]، قدر لكل مخلوق مهمة، ودورًا، وهداه لأداء هذا الدور، علمه كيف يؤديه وذلك معروف في المخلوقات المسيرة على مراد الله –تبارك وتعالى– كالحيوانات ونحوها، أما الإنسان فقد أعطى الله له الاختيار وجعل له هذا المراد الإلهي في كتاب مقدس، يقرؤه ويطبقه هو، أما احتمال اللعب في هذا الكون فهذا احتمال بعيد جدًا، واحتمال مشين، يشين الإنسان لو أنه تخلق به، فإن الله بألوهيته تتنزه عن اللعب إذن هذا اللعب يشين، فينبغي على من أراد الترفع، والتحضر، والتقدم، وإنشاء حياة فاضلة أن يتنزه عن اللعب وإنما يكون للأطفال والصغار وما إلى ذلك، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾ هذا النفي وهذا الخبر المنفي يشير إلى أن هناك من فهم أن هذا الخلق خلق للعب، ما خلقنا في الدنيا إلا لنأكل ونشرب ونلهو ونلعب فقط، بعض الناس يظن هذا وهو ظن غريب جدًا عجيب الله –تعالى– ذكر هذا فعلاً في آيات أخرى فقال –سبحانه وتعالى–: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧] بينما مدح الله –تعالى– المؤمنين، وذكرهم بأنهم أصحاب العقول المتفتحة والعقول المتقدة والبصيرة الواعية: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، بعيدًا عن الكتب المنزلة بعيدًا عن الشرائع التي شرعها الله –سبحانه وتعالى– بمجرد أن ينظر الإنسان في خلق السماء وفي خلق الأرض وفي خلق نفسه وفي الخلق من حوله ﴿لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، العقول، بهذا الوصف المذكور الآن، ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، فيصلون في النهاية إلى النتيجة الحقيقة فيقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١]، تنزهة عن ذلك ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، أي: إنما خلقتها لتمتحننا وتختبرنا فيها، لنسكن بها جنة أو نارًا، فنسألك أن تعيذنا وأن تقينا من النار، وهكذا فالكفار حيث أصابهم السفه، وهو الجنون أو خفة العقل وعدم الوعي، فظنوا أن الدنيا للعب واللهو والمتع والشهوات وفقط، وإنما أعطانا الله نصيبنا من الدنيا، ولم يحرمنا منها ومع ذلك وجهنا للدار الحقيقية وهي الدار الآخرة.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ أي: لو أن الله تعالى– على فرض المحال– هذا الأسلوب اسمه أسلوب في الحوار، اسمه افتراض المحال، تُسلم لخصمك جدلاً وافتراضًا سأصدقك سأوافقك كما فعل إبراهيم –عليه السلام– راح مع عُبَّاد الكواكب وقال: ﴿ هَذَا رَبِّي﴾[الأنعام آية: (٧٦)] وكان دقيقًا لم يقل: هذا إلهي، إنما الرب يطلق على كل من تأتي النعمة من طرفه أو الفائدة، كرب الأسرة، ﴿ هَذَا رَبِّي﴾ وذلك كأنه يقول: سلمت لكم ومعكم أنه رب على فرض المحال، الرب لابد أن يكون باقيًا معي دائمًا أحتاجه فأسأله فيجيبني، ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ [الأنعام: ٧٦]، قال: لا، ﴿لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]، وهكذا حتى أثبت لهم أن النجوم والكواكب والقمر وحتى الشمس بعظمها وإطلالها على الدنيا كلها، لا تصلح أن تكون إلهًا، إنما ينبغي أن نوجه وجوهنا إلى الله الذي فَطر السماوات والأرض وما فيها.

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّ﴾ لو أراد الله –تعالى– أن يصنع لهوًا يلهو به أو لعبًا يلعب به –سبحانه وتعالى– لفعل ذلك بما يختار وبما يحب من عنده هو –سبحانه وتعالى– واللهو في اللغة كما ذكر ابن كثير –رحمه الله تعالى– عن الإمام الحسن وقتادة السدوسي قالوا: «المرأة بلسان اليمن» اللهو معناها: المرأة بلغة أهل اليمن، في زمانهم ربما تغيرت الآن، لكن في لغة أهل اليمن قديمًا كانوا يطلقون على المرأة كلمة لهو، والولد لهو والمال لهو، في اللغة اللهو هو كل ما يُلْهَى به، وكل ما يُلْهِي الإنسان عن شيء آخر، وقال الله –تعالى– للنبي –عليه الصلاة والسلام– حينما أعرض عن عبد الله بن أم مكتوم، وانشغل بوجهاء مكة وكبار الكفار رغبة في دخولهم في الإسلام قال: ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَى ﴿٩﴾ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴿١٠﴾﴾ [عبس: ٨– ١٠]، أي: تتلهى، فالنبي –عليه الصلاة والسلام– انشغل بالكفار عن عبد الله بن أم مكتوم، طمعًا في إيمانهم وإسلامهم، ولكن الله يعلم أنهم لن يسلموا فسمى انشغاله هذا تلهيًا أي نوعًا من أنواع اللهو، وما كان النبي لاهيًا –عليه الصلاة والسلام– بقصد اللهو وإنما كان يقصد أن يدخلوا في الإسلام ولكن سماه الله لهوًا لينهاه عن

ذلك، فاللهو هو كل ما يلهي الإنسان لكن هذه الكلمة في هذا المكان في هذا المقام، يراد بها شيء معين ما هــو؟ أرى مع من رأى أنه يُراد بها الولد، ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ أي: ولدًا ﴿لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ وكأن الآية رد على شبهة أخرى من شبه الكافرين، وهم أنهم نسبوا لله -عز وجل- الولد، يرشح هذا ويرجحــه أنــه سيأتي بعد آيات ثمان تقريبًا قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُــونَ﴾ [الأنبيــاء: ٢٦]، نسبوا الملائكة لله، وسموهم بنات الله، فالله- تعالى- يقول: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ أي لو أردنا أن نتخذ ولدًا لاصطفينا ولدًا على مرادنا وعلى اختيارنا، لن ننتظر حتى ينسب الخلق لنا ولدًا، اليهود ينــسبون العزيــر، والنصارى ينسبون المسيح، وكفار مكة ينسبون الملائكة، وهكذا كل ينسب ولدًا لله بشكل أو آخر لــو أراد الله أن يتخذ ولدًا لاتخذ ما شاء، كما جاء في آية أخرى، ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً لاَّصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]، وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُــوا لاَ تُلْهِكُــمْ أَمْــوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلادُكُــمْ﴾ [المنافقون: ٩]، إذن: المال لهو والولد لهو، فهذا هو المراد بكلمة لهو في هذه الآية على الراجح- والله أعلم.

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ إن: تفيد الشك وتفيد التقليل ولذلك معناها في مواضع كثيرة- إن لم يكن في كل مواضعها- معناها المنع، يعني النفي والإنكار، كما ذكره ابن كثير -رحمه الله- عــن الإمام مجاهد بن جبر، من مفسري التابعين رحمهم الله -تعالى- قال: «كل شيء في القرآن ﴿إن﴾ إن كنتم كذا، فهو إنكار» ﴿إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي: ما كنا فاعلين، إذن: الله لا يلعب، ولا يلهو بالأولاد ولا ينشغل بشيء من ذلك، إنما هو منزه وغني عن ذلك كله، إذن: ما دور الله عز وجل؟ دوره عظيم إنه ملك الملوك- سبحانه- إنــه رب الكون كله الله -تعالى- رب وإله يقيم الحق، ويخلق بالحق، ويفعل بالحق، ويتكلم بالحق، وسمى نفسه الحق.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ نقذف: القذف هو الإلقاء الشديد، أي أن الله -تعــالى- يسلط الحق، على الباطل فيدمغه، الدمغ: هو كسر الشيء أو الجسم الصلب، شيء قوي وشديد يُكسَر وقيل: الدمغ مأخوذ أيضًا أو من هيئاته وصوره أن يضرب الرجل الرجل بدماغه، فيصرعه، يعني يصرعه بضربة برأســه فيقال: دمغه، أي ضربه بدماغه، فكأن الله شبه الحق والباطل برجلين دخل أحدهما فانصرف الآخر، ﴿وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ لو أراد الباطل أن ينازع الحق ولم يزهق من أول مرة فإن الحق يضربه بالدماغ فيدمغه ويصرعه ويقتله، فالحق زاهق لا محالة، هذه حالة وهــذه طبيعته أما الحق فباق، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي الباطــل ، فــإذا هــو زاهــق بسرعة، ﴿وَلَكُمُ الوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ الخطاب للكفار، أي: لكم الويل، وهو العذاب الشديد: - مما تــصفون بــه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من أنه شاعر وساحر وكاهن ومجنون وكذا. - مما تصفون بــه الله -عــز وجل- أنه له البنين وله البنات وله زوجة وله كذا، مما قالوا عنه. - مما تصفون به كلام الله المقدس بأنه سحر وبأنه افتراء وبأنه كهانة وبأنه شعر إلى آخر ما قالوا. - مما تصفون به المؤمنين بأنهم متطرفــون وإرهــابيون وأنهم شؤم على الحياة وأهلها وأنهم ... وأنهم... كل ما يقال عن عباد الله الصالحين ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢]، يوصفون بالضلال وهم أهل الهدى أو الطالبون له على الأقل، وهكذا ﴿وَلَكُمُ الوَيْــلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ وحذف مفعول تصفون، تصفون ماذا؟ تصفون الله -عز وجل- تصفون النبي -صــلى الله عليــه وسلم- تصفون القرآن والكتاب المنزل، تصفون المؤمنين بهذا كله، تصفون الدار الآخرة بأنها عبس وأنها كذب أو بأنها خيال، كل ما تصفون به الحق لتظهروه بصورة الباطل، فلكم الويل بسبب ذلك ﴿وَلَكُمُ الوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾.

العنصر الثالث: غِنَى اللهِ عن الخلق:

حيث يُظهر الله -تبارك وتعالى- غِناه عن الخلق، تأكيدًا لما سبق، لما نفى عن نفسه اتخاذ اللهو واتخاذ اللعب كأنه يعطينا الدليل على ذلك، أو السبب لذلك، كيف يستغني عن لعب ويستغني عن ولد مع أن هذه أشــياء فــي حياتنا يُحتاج إليها ولو من باب الرغبة والنزوة وما إلى ذلك، فكيف يستغني الله عنها؟ الله -عز وجل- يبرر ذلك

لنا، لكي يكون الكافر قد أخذ حجته كاملة، ولكي يزداد المؤمن يقينًا على يقينه وإيمانًا على إيمانه، فقال- تعالى-: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ وله أي: لله -عز وجل- من في السماوات والأرض، يعني: لـه ملـك مـن فـي السماوات ومن في الأرض جميعًا، فالعبد مثلنا وما ملكت يداه لسيده، الله خلقنا ورزقنا، أنفس هو خالقها، وأموال هو رازقها وواهبها، وبالتالي: فنحن وما ملكت أيدينا لله -عز وجل- والأرض لله يورثها من يشاء -سبحانه وتعالى- ويرث بعضنا بعضاً حتى يرث الجميع رب العزة والجلال الذي يبقى بعد فناء خلقه، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فلماذا يتخذ الولد؟! الواحد منا يحتاج الولد لكي يعتز به، يقولون: عزوة، حينما يكون له أولاد عزوة، ولذلك أحبوا البنين عن البنات؛ لأن البنين فيهم قوة، أما البنات فخلقن على ضعف وجمال المرأة في ضعفها ورقتها، وجمال الرجل في خشونته وقوته، فلما كان الأب محتاجاً للابن أكثر من ابنته ليسانده وليحمل اسمه، وليدافع عنه وهكذا وليؤازره طلب الأولاد من الذكور، البنين ورغب فيهم عن البنات، لكن هذا كان لفقرنا فالله ليس فقيرًا إنما هو غني -سبحانه وتعالى- فلماذا يحتاج الولد؟! ولماذا يميل إليه؟! لا حاجة له في الأولاد، إنما مَلَكَ كل شيء -سبحانه وتعالى- وله: حينما ترى الجملة هكذا يعني من ناحية الإعراب له، جار ومجرور خبر مقدم، ومَنْ: مبتدأ مؤخر، ومن في السماوات والأرض له، أصل الجملة هكذا، هذا التقديم ليفيد الحصر، يعني وله لا لغيره، حينما أقول لك: هذا البيت لي هذه الجملة تحتمل أن يكون البيت لي ولإخوتي وللأسرة، أن يكون لي ولبعض إخوتي أنا وأخي مثلاً أخذنا هذا البيت، هذه الشركة لي ولفلان، شركاء، لكن حينما أقول: لي هذا البيت، المفروض في اللغة العربية هذه الجملة تفيد أن هذا البيت يخصني أنا فقط، لا يمتلكه أحد معي، فتقديم حرف الملكية اللام وتقديم الضمير الذي يدل على المالك أو الشيء للمالك هذا يدل على الاختصاص والقصر وحصر الملكية في المذكور وله -سبحانه وتعالى- أي: ليس لأحد غيره، ولا لأحد معه، وله، إذن: لن يؤول الملك بعد الله إلى أحد، فهو الأول والآخر فلماذا يحتاج الأولاد؟!! لا حاجة له بذلك، أو لا حاجة به إلى ذلك، ألا يحتاج الله منا أن نعبده أن نسبحه ولذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب؟! لا، بل أنزل الله إلينا الكتب ليشرفنا بهذا، ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ نذكر الله به فنعلوا ونشرف فالشرف لنا والفائدة لنا نحن العبيد أما لو كفر كل من في الأرض جميعًا فإن الله غني حميد، لا تنفعه طاعتنا ولا تضره معصيتنا، ولن يبقَ الله -تعالى- بغير عبادة، بل عنده من يعبده دائمًا لا ينقطع عن عبادته فالله غني عنا قبل أن يخلقنا قبل أن يكلفنا وينزل لنا الشرائع، الله غني عنا وعن عبادتنا، فقال- تعالى- بيانًا لذلك: ﴿وَمَنْ عِندَهُ﴾ أي: والذين عنده ﴿لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ ﴾، يقصد من الملائكة الكرام -عليهم السلام- ﴿وَمَنْ عِندَهُ﴾ أي: والذين عنده في الملإ الأعلى ﴿لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ ﴾، أي ولا يتعبون، لا يتكبر فيمتنع، ولا يتعب من الذكر والتسبيح فينقطع، بل إنهم دائمو العبادة والذكر والتسبيح لله، ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ﴾ كأن الله يفسر هذا بقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ﴾ فهم لا ينقطعون عن التبسبيح أبداً لا ليل ولا نهار؟ نعم، بل ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ﴾ وكلمة يسبحون فعل مضارع والفعل المضارع يدل على التجدد والحدوث، تسبيح بعد تسبيح وتسبيح تلو تسبيح لا ينقطع أبداً لا ليلاً ولا نهارًا، ﴿لاَ يَفْتُرُونَ﴾ الفتور: هو الانقطاع عن العمل، يقوم الإنسان الليل مثلاً فيفتر، يعني تمر به بعض الليالي يكسل عن القيام، يقرأ كل يوم حزبًا من القرآن فيصيبه الفتور، فينقطع عن حزبه من القرآن هذا اسمه فتور عن العبادة، فتور، وربما سمعنا في علوم القرآن فتر الوحي عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في كذا أو مدة كذا، فَتَرَ يعني: انقطع لحكمة أرادها الله -سبحانه وتعالى- قطع الوحي لفترة ثم أنزله وتتابع الوحي بعد ذلك، فالفتور: هو الانقطاع عن العمل وعن الشيء، فالملائكة تسبح دائمًا لا ينقطع تسبيحها أبداً وذكر الإمام ابن كثير -رحمه الله تعالى- عن أبي إسحاق أن عبد الله بن الحارث بن نوفل سأل كعب الأحبار، فقال: «أرأيت قول الله -تعالى- ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ﴾ أما يشغلهم عن التسبيح الكلام والرسالة والعمل؟ فقال: يا بني إنهم جعل لهم التسبيح كما جعل لكم النفس» أليس تتكلم وأنت تتنفس، وتمشي وأنت تتنفس، معنى هذا الخبر: أن الملائكة ألهموا تسبيح الله -تعالى- كما ألهمنا النفس، لو تذاكرنا كم نفسًا تنفسنا منذ أن جلسنا لم يحص أحد منا أعداد نفسه، ولا يحصيها في أي وقت، إنما تحدث تلقائيًا دون شعور منه، ويأكل ويتنفس ويشرب ويتنفس وينام ويتنفس ويكتب ويتنفس ويقرأ ويتنفس في كل أحواله النفس إلهام فطري لا ينقطع أبدًا مثل هذا تمامًا

الملائكة، تسبح الله –تعالى– ليلاً ونهارًا لا ينقطع تسبيحهم إنما يلهمون التسبيح كما نلهم النفس، وذلك معناه أن الله –تعالى– غني بذاته، ثم هو غني بمن يسبحه دون انقطاع وبمن يعبده دون انقطاع فلا حاجة له في طاعتنا ولا في تسبيحنا بل من سبح يعلم أنه له الشرف في ذلك، وله الخير بذلك، والله لا ينتفع أبداً بطاعتنا ولا يضر بمعصيتنا، وذكر في شأن الملائكة أن منهم من هو ساجد لا يرفع رأسه، ومنهم من هو راكع لا يرفع ظهره، ومنهم من هو قائم لا يجلس يسبح الله –عز وجل– كل على هيئة ومنهم من يدخل البيت المعمور فيطوف به، ويدخل كل يوم سبعون ألف ملك، يدخلون ولا يخرجون وهكذا عباد مكرمون منشغلون بطاعة الله، كما قال: ﴿وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]، ولا يشغلهم عملهم من الكلام مع بعضهم أو تكليم الله لهم، ولا تحمل الرسالة من الله ليقوموا بها: افعل يا فلان كذا وافعل يا فلان كذا وينصرف لينفذ أمر الله –عز وجل– ولا العمل بأمر الله كل ذلك لا يشغلهم عن التسبيح لله –سبحانه وتعالى– بكل هذا يُعلم الله البشرية، أنه لا حاجة له في ولد ولا حاجة له في لهو ولا حاجة له في لعب، بل لا حاجة له في عبادتكم أيها الكفار، فإن آمنتم فلكم الخير وأن كفرتم فلا تظنوا أنكم ضارون الله بشيء أبدًا، بل الله هو الغني الحميد. نسأل الله –تبارك وتعالى– أن يعلمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا ونعوذ به من علم لا ينفع، ربنا زدنا علمًا نافعًا، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه، شكر الله لكم حسن المتابعة والمشاهدة، ونفعنا الله وإياكم بالعلم النافع.

فضيلة الشيخ وردتنا إجابات على أسئلة الحلقة الماضية:

كانت إجابة السؤال الأول: عرف تعريفًا مجملاً بسورة الأنبياء؟

وكانت الإجابة:

ليس لها اسم آخر، وأثبتت في المصاحف واسمها يشير إلى موضوعها وهدفها، وسميت بذلك لما ذكر فيها من أنبياءَ كثيرين بلغوا ستة عشر نبيًا وإن كانت سورة الأنعام ذكر فيها ثمانية عشر نبيًا وسميت بذلك؛ لأنه برز فيها أحكام الأطعمة والذبائح وذكر الأنبياء إشارة لما حرم الله عليهم وأحله لهم وأن ذلك كان في كل الشرائع وأن الحلال والحرام حلال وحرام من أول الدنيا إلى يوم القيامة، القصد بها إثبات بعثة كثير من الرسل والأنبياء كدليل على صحة بعثة الرسول محمد –صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم– وأنه ليس بدعة وليس أمرًا غريبًا جديدًا. ذكر بعض المفسرين أنها نزلت قبل الزخرف والنحل أي في أواسط العهد المكي تقريبًا وهذا يدلنا على أنها من أوائل ما نزل في مكة، وخاصة أنها تؤكد على قضية مهمة وهي تكذيب نبوة الرسول –صلى الله عليه وسلم– وما أخبر به وكان نزولها بعد سورة فصلت.

ما شاء الله إجابة طيبة. بقيت أمور قليلة كان تفصيل موضوعاتها، مثلاً: أنها تكلمت عن حال الكافرين أولاً ثم ذكرتهم بمصارع السابقين قبلهم بعد ذلك، ثم ذكرت بعثة الرسل السابقين ولو كان ذكرًا سريعًا مجملاً، ذلك للإشارة فقط إلى أن الله –تعالى– أرسل رسلاً ومنهم محمد –صلى الله عليه وسلم– ثم ذكرت في النهاية بيوم القيامة والآخرة وما فيها من حساب وطبعًا كما هو المعروف في شأن القرآن ذكر مجمل لموقف من مواقف الآخرة وموقف الحساب، كإنذار للناس وتذكير لهم بأن الآخرة حق وبالتالي يذكر الله تفاصيلها هكذا في كل موقف، ثم تعود السورة في النهاية إلى ما بدأت به أو بُدئت به من ذكر والتصريح برسالة النبي محمد –صلى الله عليه وسلم– وأنه أرسل رحمة للعالمين، وتعرج أيضًا على حال الكافرين في خاتمها وبهذا تلتقي أطراف السورة وهذا عرض عام لموضوعات هذه السورة، فنشكر إخواننا وأخواتنا على هذا الجواب الطيب.

السؤال الثاني فضيلة الشيخ: اذكر ثلاثة من شبهات الكافرين وبين بطلانها؟ الشبهة الأولى: أنه –صلى الله عليه وسلم– ساحرًا، قال– تعالى–: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣]، سموا القرآن سحراً مع أنهم لم يروا الرسول –صلى الله عليه وسلم– مرة ولم يسمعوا أنه ساحر أو اشتغل بالسحر بل جاء في الشرع عد

السحر كفرًا وتوعد الساحر بالقتل، فقال -صلى الله عليه وسلم-: (حد الساحر ضربة بالسيف)، وسبب هذه الشبهة؛ لأنهم رأوا أثر القرآن الكريم وتأثيره في الناس فقالوا: لا يفعل ذلك إلا ساحر.

الشبهة الثانية: ﴿بَلِ افْتَرَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥] قول آخر أنه كاذب، وقد رد عليهم فرعون هذه الأمة فمرة قال لهم: أبو جهل: ما كان ليذر الكذب علينا ويكذب على الله فهذا أمر مستحيل لا يعقل، أيعقل أن يكذب أحد على ملك من ملوك الدنيا ويتركه؟ لا يمكن سوف يعاقبه أيفتري رسول على ربه فيتركه الله -تعالى-؟ كلا، قال- تعالى-: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤- ٤٧]، فكان هذا رد من الله -سبحانه وتعالى- على لسان رسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- فالكفار ليسوا أهلاً لشرف الخطاب من الله -تعالى.

الشبهة الثالثة: طلب آيات ومعجزات تدل على نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- قال- تعالى-: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]، ما نزل من القرآن أليس بكاف؟ وما ظهر على يدي محمد -صلى الله عليه وسلم- من معجزات حسية فجاءهم النبي -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم- بآيات كثيرة ومن ذلك جوامع الكلم وهو من خصائص الرسول -صلى الله عليه وسلم- وحنين الجذع إليه، فطلبوا الآيات منه من باب المجادلة وليس من باب اتباع الحق، ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٦]، رد الله عليهم لو جاءتهم الآيات كل الآيات لن يؤمنوا فالأمم السابقة لم يؤمنوا بالآيات فهم كذلك سيكون حالهم كحال السابقين. -ما شاء الله- استنباط جيد لهذه الشبهات من خلال الآيات طبعًا هي شبهات أكثر من ثلاثة ولكن كان السؤال حول ثلاثة فقط، اختصارًا وهكذا رد الله -تعالى- عليهم في كل شبهة ذكروها وحكاها الله عنهم وهذه الأمور التي تعددت على لسانهم، أي: اختلاف قولهم حول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أيضًا يعتبر ردًا عليهم كما ذكره الله -تعالى- في قوله: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٩]، تعدد وجهات النظر في الشيء يشير إلى احتمال أن يكون كذا واحتمال أن يكون كذا، واحتمال أن يكون كذا، هذا الاحتمال يُسقط قوة الاستدلال، كما قيل: إذا تطرق إلى الدليل الاحتمال سقط به الاستدلال، فكونهم احتملوا أن يكون ساحرًا وأن يكون شاعرًا وأن يكون مفترياً وأن يكون كذا، هذا التعدد في وجهات النظر يدل على عدم ثباتهم على شيء واحد وعدم رؤيتهم لحقيقة ما أمامهم، هذا مع حسن الظن، وإلا فإنها لَمَا كانت أمورًا مخالفة للحق مخالفة مقصودة، يعني: إنسان يرى شيئًا ويريد أن يُظهره بخلاف حقيقته، وأن يسميه بغير اسمه فلابد أن يفتري افتراءً وهذا الافتراء يجعله مرة يقول: كذا ومرة يقول: كذا، فتتنوع كلماته حول هذا الشيء الواحد حينما يريد أن يغير حقيقته، كالوليد بن المغيرة -لعنه الله- حين اعترف وهو ذاهب طاعة لقومه لكي يتسمع على محمد -صلى الله عليه وسلم- ليقول في قرآنه قولاً يصرف الناس عنه، فلما استمع وألقى سمعه لم يملك نفسه، قال: والله ما يقول هذا الكلام بشر، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو وما يعلى عليه، قالوا: حسبك يعني: يكفيك مدحًا فيه، والله ما أرسلك قومك لهذا، إنما أرسلوك لتقول فيه قولاً أي قولاً مشينًا، قال: إذن: دعوني أفكر، فجلس وفكر وأعد كلامًا على خلاف الحقيقة فيسمي هذا الكلام الذي أقسم الآن أنه ما يقوله بشر وأنه يعلو وما يعلى عليه، فيسميه بغير اسمه ويصفه بغير صفته ويظهره بغير مظهره، فالمسألة تحتاج إلى افتراء وإلى تركيز ومع ذلك لم يثبت على كلمة واحدة، الله -تعالى- يقول: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ﴾ يعني: لعن ﴿كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الكلام الحق الذي قاله: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ البَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [عبس: ١٨- ٢٥]، سحر يؤثر إذن: عن الجن، ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ البَشَرِ﴾ أهو قول جن أم قول إنس؟ اضطرب ولم يثبت على شيء واحد، ذلك لأنه لا يقول حقًا ولا ينطق حقًا إنما يفتري افتراءات والكافرون الراجح فيهم أنهم كانوا يفترون ويقولون خلاف الواقع إنما يريدون كلامًا مشينًا يصرفون به وجوه الناس عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولهذا تنوعت كلماتهم واختلفت آراؤهم فقال الله -تعالى- مكذبًا لهم: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٩]، وأنبه بالمناسبة إلى أن الافتراءات التي تُفترى والشبهات التي يشبه بها على الإسلام حديثًا وإلى أن تقوم الساعة لا نقف عند استماعها مشدوهين

مندهشين، يعني لا نملك جوابًا ونتعجب كيف حصل عليها أناس ليسوا مؤمنين بالقرآن؟ لا.. إنهم ما فعلوا إلا أن كرروا كلام الكافرين من قبل، ولو أننا قرأنا القرآن سنجده قد حوى وجمع كل شبهات الكافرين، في القديم وما هي إلا صورة مكرورة، ولكن اختلف شكلها واختلف قائلها، قالها أبو جهل القديم ويقولها اليوم أبو جهل الحديث، هو هو، القول هو هو، ولكن اختلفت حروفه وألفاظه، إنما المعنى والمقصود واحد، لم يأتوا بجديد عما جاء به كفار مكة السابقون في هذه الأمة، فلذلك لا نندهش وإنما نرجع إلى القرآن ونقرأ سنجد الشبهة وردها ردًا بليغًا من الله -تعالى- لا يأخذ العدو بعدها جولة أخرى، إنما يهزم أمامنا من أول جولة. هذا ونسأل الله -تعالى- الثبات على الحق.

السؤال الثالث فضيلة الشيخ: بين بإيجاز كيف كان القرآن شرفًا للأمة؟

كانت الإجابة:

قال الله -تعالى-: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، ذكر ابن كثير -رحمه الله تعالى- في قوله- تعالى-: ﴿ذِكْرُكُمْ﴾ عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: أي: «شرفكم»، وعن مجاهد «حديثكم»، وعن الحسن البصري: «دينكم»، وكل ذلك يلتقي وهو اختلاف تنوع، تأكيد باللام وقد- تأكيد للخبر، وأسلوب الجمع يدل على العظمة، كتابًا نكرة فيها إشارة للتعظيم، فالقرآن شرف لنا إذا عبدنا الله -سبحانه وتعالى- به، وتمسكنا به فهو طريق الرقي الصحيح والحضارة الصحيحة وذكر القرآن هنا إشارة إلى أن القرآن يغني عن طلب الآيات فهو معجزة الله البالغة الباقية على مدى الزمان، والله تعالى أعلم.

نعم، هي إجابة فيها اختصار إلى حد ما، يمكن طلبنا الاختصار في السؤال، لكن كان يمكن الاختصار بأحسن من ذلك، أن نذكر عناصر، عناصر كل عنصر يُشير إلى جانب من جوانب الشرف، فمثلاً كان يمكن أن يقال: إن القرآن الكريم شرف للأمة لمن قرأه، فقارئ القرآن وتاليه يَشْرُف بذلك، حافظه يَشْرُف أكثر، العامل به يَشْرُف أكثر وأكثر وأكثر، من اتخذ منهج حياته من القرآن شَرُف بهذا، وكما قيل عن بلاد لا تؤمن بالقرآن: رأيت هناك إسلامًا ولم أجد مسلمين؛ لأنهم اتخذوا من حياة المسلمين الأوائل ومن نظام القرآن في حياتهم، اتخذوا نظام حياة، وطبقوه في حياتهم فظهرت حياتهم بصورة جميلة نظيفة رتيبة وهكذا، والمسلمون الحقيقيون لم يأخذوا القرآن إلا قراءة على الأموات أو بركة أو جلبًا للأرزاق أو شفاءً من الأمراض أو ما إلى ذلك لكن كتطبيق في نظام الحياة، يعني معظمهم بعيد عن ذلك بعدًا بعيدًا، نسأل الله -تعالى- أن يعفو عنا جميعًا، لذلك ساءت حياتنا الدنيا وحسنت فقط مظاهر حياتهم الدنيا، فمن أخذ القرآن كنظام حياة، فإنه يرقى بذلك ويتقدم ويتحضر فعلاً. القرآن شرف لمن استشفى به، وقرأه على سبيل الاستشفاء، القرآن شرف لمن استرزق الله به أو سأل الله به أي سؤال وأي حاجة الله -تعالى- يقضيها له، وهكذا القرآن شرف في كل مجال- نسأل الله أن يشرفنا بالقرآن الكريم- ونشكر إخواننا وأخواتنا المشاركين بإجابة الأسئلة جزاكم الله خيرًا.

الأخ الكريم من السعودية يقول: في الدرس الماضي التبس واستشكل علي أمر وهو الحديث الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله تعالى-: (أن عامر بن ربيعة -رضي الله عنه- أنه نزل عليه رجل من العرب، فأكرمه وكلَّم فيه الرسول -صلى الله عليه وسلم- فجاءه الرجل مرة أخرى بعد أن دخل على الرسول -صلى الله عليه وسلم- فقال: إني استقطعت واديًا من العرب أو في العرب من الرسول -صلى الله عليه وسلم- فوهب له الرسول -صلى الله عليه وسلم- واديًا وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك، فقال عامر: لا حاجة لي في قطيعة، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا، ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١])، فهذا الحديث يظهر لي- والله أعلم- أنه في المدينة؛ لأن الرسول -صلى الله عليه وسلم- ما كان ليقطع لأحد في مكة شيئًا بينما عرفنا أن هذه السورة مكية فما هو توجيهكم حفظكم الله؟ مثل هذه الأحداث ممكن تكون حينما بلغته السورة أو حينما قرأ السورة والتفت إلى ما فيها إلى معناها أو أنه متأثر من يوم أن نزلت ولا يزال

الأثر باقيًا فما كان الصحابة مثلنا يتأثرون بالشيء حينما ينزل وينسونه بعد ذلك، إنما كانوا يتذكرون القرآن دائمًا فربما أن يكون عامر بن ربيعة هذا، رجلاً أنصاريًا بلغته الصورة متأخرًا أو أسلم متأخرًا فحينما عرف أن سورة الأنبياء وفيها كذا ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾، حينما عرف هذه السورة بدأ يزهد في الدنيا وربما كان يقرأ السورة ويعرفها من قبل ذلك، ولكن لم يلتفت إلى هذه الالتفاتة وإلى هذا المعنى إلا متأخرًا كما ذُكر عن عمر –رضوان الله تعالى عليه– أنه حينما مات النبي –عليه الصلاة والسلام– وجمع أبو بكر الناس وعمر في حالة ثائرة يقول: من قال: إن محمدًا قد مات قطعت عنقه، فسكت ليسمع أبا بكر وقرأ أبو بكر على الناس قول الله –تعالى–: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، قال عمر: وكأني لم أسمع هذه الآية إلا ساعتها، هو يسمعها كثيرًا ويعرفها ولكن لم يرتبط معناها بما في ذهنه إلا ساعة قرأها أبو بكر بعد وفاة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– هذا والله أعلم.

الأخ الكريم من مصر يقول: هل اللعب مذموم دائمًا؟ وماذا عن قول الرسول –صلى الله عليه وسلم–: (بكرًا تلاعبها وتلاعبك)؟

هذه من الملاعبة الحلال، لكن ليس ألاعبها وتلاعبني أن نلعب كوتشينة أو نلعب طاولة أو ضومنة [دومينو] أو شيء من هذا لكن لعب الزوجة مع الزوج، لعب فيه مرح، نوع من أنواع المرح وإدخال السرور على الأهل، (رسولنا –عليه الصلاة والسلام– كان عائدًا من غزوٍ ومعه في صحبته السيدة عائشة– رضي الله عنها– كما كانت تصحبه في بعض الأسفار، فتأخر بها عن القوم، ترك القوم والجيش ينصرفون إلى الأمام وهو تأخر بعائشة، وقال: سابقيني يا عائشة، تسابقه في الجري، فسابقها فسبقها، فكأنها حزنت تريد أن تسبق أيضًا تأخذ ما تسمى بالفورة أو ما إلى ذلك، فالنبي –صلى الله عليه وسلم– سابقها مرة أخرى وتباطأ في جريه حتى تسبق هي، ملاعبة، هكذا فسبقت فقال: سبقتك يا رسول الله، فقال: هذه بتلك) واحدة بواحدة، وهكذا يعني هذا من النوع المباح، لكن أن تكون حياة الإنسان لعبًا، أن تكون وظيفة لاعبًا أن يكون جمع رزقه من لعب، فهذا هو المذموم، أن يلهينا اللعب عن أداء الواجبات وترك الأمور المهمات، أو أن يوقعنا في شحناء، وبغضاء، وما إلى ذلك، فهذا ممنوع، هذا ممنوع، إنما ينبغي على الإنسان أن تكون حياته جادة إلى حد بعيد مع عدم حرمان نفسه من هذه اللحظات المباحة من اللعب، وهذه الصور المباحة من اللعب، (لعب الأحباش في مسجد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لعبة معينة كانوا يعملونها ويعرفونها في يوم عيد، ووقف النبي –عليه الصلاة والسلام– يستر عائشة وراءه لتشاهد هذه اللعبة) لا حرج في هذا مرة موقف لكن أن يكون اليوم والليلة أن يكون الأربع والعشرين ساعة، أن يكون العمر كُله لعبًا فهذا هو الذي ذمه الإسلام؛ لأن عمر الإنسان غالٍ وهدية عظيمة وينبغي أن يستغلها فيما ينفعه في الدار الآخرة وفي الدار الدنيا كذلك بما يعود عليه وعلى مجتمعه بالنفع الصالح، لكن من لعب يقوي جسمه، وربما أخذ مالاً لنفسه، لكن ماذا أفاد المجتمع؟ ما أفاد المجتمع في كثير بخلاف من سبح الله وذكر الله ربما كان تسبيحه هذا رفعًا لنقمة تنزل على المجتمع كله، أو جلبًا لخير يفيد المجتمع كله، هكذا كما قال النبي –عليه الصلاة والسلام– للرجل الذي يعمل وينفع على أخيه، الذي يصاحب النبي –عليه الصلاة والسلام– دائمًا في مجالسه وهكذا، قال لهذا الرجل العامل الذي يشتكي قال: (لعلك ترزق به) أي: لعلك ترزق بعبادة أخيك لله– هذا والله أعلم.

فضيلة الشيخ هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه المحاضرة؟ حول هذه المحاضرة ثلاثة أسئلة:

السؤال الأول: ما معنى: ﴿لاَ تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٣]، وما الغرض منها؟ المعنى: يعني المعنى العام، لكن الغرض أي: هدف الآية؟ المعنى المراد؟

السؤال الثاني: ما معنى هذه الكلمات: ﴿قَصَمْنَ﴾، ﴿يَرْكُضُونَ﴾، ﴿حَصِيد﴾ ﴿يَدْمَغُهُ﴾، ﴿يَسْتَحْسِرُونَ﴾؟

السؤال الثالث: ما المراد بذكر التسبيح الدائم للملائكة؟

والله المستعان يوفقكم لما فيه الخير وإيانا والمسلمين أجمعين.

الدرس (١٢) الأنبياء (الآيات ٢١-٣٤)

تذكير بوحدانية الله تبارك وتعالى

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا رسول الله- محمدٍ بن عبد الله- وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه وبعد.

فهذه حلقتنا التي نتناول فيها بعض آيات من سورة الأنبياء مواصلين الحديث عن هذه السورة المباركة، وهي آيات تبدأ من الآية الواحدة والعشرين وحتى الآية الرابعة والثلاثين وعنوانها: تذكير بوحدانية الله -تبارك وتعالى- نتناول هذا الموضوع - بعون الله تعالى وتوفيقه - من خلال عناصر أربعة:

أولها: من أدلة التوحيد.

العنصر الثاني: توحيد الله ثابت في كل الشرائع السماوية.

العنصر الثالث: جناية البشر على التوحيد ودفعها.

العنصر الرابع: من مظاهر التوحيد في الكون.

وقبل تفصيل القول في ذلك نستمع إلى الآيات المباركات من أخينا الكريم فليتفضل مشكوراً.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢١- ٣٣].

سبحان ربنا العظيم، في هذه الآيات المباركات تقرير لوحدانية الله -تعالى- من عدة جهات لعل أولئك الذين كفروا بالله ولم يوحدوه يلتقطون من هذه الآيات عبرة لهم ولعلهم يعلمون من خلالها بعد جهلهم، ويوحدون الله -تعالى- بعد شركهم، سمعها من سمعها فآمن من آمن وكفر من كفر، وتبقى الآيات خالدة إلى يوم القيامة تحمل تلك الحجة وتقدم تلك العبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، حيث إن توحيد الله -تعالى- حق لا مرية فيه، ولا يعمى عنه إلا من أصيب في بصيرته بالعمى، وإن كان يبصر بعين، فقلبه أصيب بالعمى فلا يرى أثر

التوحيد ولا مظهر التوحيد في كون الله ولا في آيات الله الشرعية- نعوذ بالله من العمى ونسأله الثبات على الهداية حتى نلقاه وهو راضٍ عنا غير غضبان.

من أدلة التوحيد:

بدايةً وأول عنصر في تقرير توحيد الله -تعالى- من خلال هذه الآيات هو: من أدلة التوحيد.

أدلة التوحيد كثيرة على حد قول القائل:

وفي كل شيء له آية*** تدل على أنه الواحد

-سبحانه وتعالى- في كل شيء مما خلق الله في الدنيا، في الكون غير الآيات الشرعية كالقرآن الكريم والأحاديث النبوية والقدسية هذه النصوص الشرعية أيضًا تحمل أدلة واضحة جلية على أن الله واحد لا شريك له ولا يصلح أن يكون لهذا الكون ولا لهذا الخلق أكثر من إله، فيقول ربنا -سبحانه وتعالى-: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ﴾ يعني: بل اتخذوا آلهة من الأرض، رغم أن الله قدَّم لهم قبل ذلك تذكرةً وبياناً وذكَّرهم وعلَّمهم فما كان منهم إلا كما جاء في قول الله -تعالى-: ﴿بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢١]، زادوا كفراناً وزادوا عناداً، بل إنهم اتخذوا آلهةً، آلهة بعدد، ليس إلهاً واحداً وإنما آلهة بعدد من دون الله -تبارك وتعالى- وغير الله، وكان أحدهم أو بعضهم يعبد رباً واحداً في السماء، وعدداً في الأرض وإذا سئل يخبر عن هذا، فيقول: أعبد واحداً في السماء وسبعة في الأرض ستة في الأرض له أكثر من إله اتخذه من الأرض، الله -تعالى- ينكر عليهم هذا في كلمة قصيرة ﴿مِّنَ الأَرْضِ﴾، إشارة إلى أنهم أخطأوا وزلوا زلة عظيمة في اتخاذهم الآلهة من دون الله -عز وجل- كيف بإنسان ميزه الله بالعقل والفهم والفكر يترك إلهاً يناديه من أعلى يترك إلهاً صفته العلو فوق خلقه جميعًا -سبحانه وتعالى- لا يعلو فوقه شيء ليعبد إلهاً اتخذه من الأرض؟ وليس إلهاً واحداً بل هم آلهة. الله -تعالى- نادى على عباده بشرائعه عن طريق رسله -عليهم الصلاة والسلام- ليعبدوه وحده لا شريك له، ليرقى بهم بهذه العبادة، وليسموَ بهم بهذه الشريعة وليرفعهم من الأرض والطين إلى سمو السماوات وإلى رفعة الأخلاق، وإلى علو الفضيلة فيكونون في أعالي الجنة يوم القيامة، ولكن كثيرين من الناس يخلدون إلى الأرض ويتشبثون بهذا التراب، ولا ينفكون عنه، مهما كانت التضحية وإن خسروا في ذلك إنسانيتهم وآدميتهم، وربنا ذكر لنا فقال: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]، هذا مثل سيء جدًا يُضرب لمن ترك عبادة الله وحده لا شريك له ليعبد غيره من آلهة اتخذها من الأرض، فهذه سقطة كبيرة لذلك الإنسان الذي يدعي الفهم والفكر والعقل، ولكنه في هذه الحالة، لا يعقل، ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ﴾ بدلاً من الإلة الذي هو في السماء -سبحانه وتعالى- فهذه مفارقة عجيبة، ثم يتبع الكلام بقوله: ﴿يُنشِرُونَ﴾، وهذا من باب الاختصار والإيجاز، في هذه الآية الواحدة أخبر الله عن جريمتهم وسفَه آلهتهم وأنها لا تصلح أن تكون آلهة؛ لأنهم يعبدون آلهة اتخذوها من الأرض من تحت أقدامهم، فكيف يسجد الإنسان العاقل لإله أخذه من تحت قدمه؟ بينما الإله الحق فوق رأسه في العلو هناك بغير وصف بجهة -سبحانه وتعالى.

ثم أعطى حجة أيضًا تدل على أن هذه الأصنام ليست آلهة وهذه التي اتخذها الناس من دون الله ليست آلهة، ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ يعني: أهم ينشرون؟ هذه الأحجار وأولئك البشر الذين عبدوا من دون الله هل يستطيع أحدهم أو يستطيعون جميعاً أن ينشروا الناس بعد موتهم، يعني: يحيوهم بعد أن ماتوا؟ من ذا الذي يملك الإحياء بعد الموت؟ لا أحد، هذه هي الحجة التي احتج بها إبراهيم -عليه السلام- على النمروذ -عليه اللعنة- حين حاجه في ربه: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، لم يفهمها النمروذ ولم يعها وعياً صحيحاً إنما فهمها خطأً أو عاند في فهمها. أما أصل الحجة أن رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- يحيي

ويميت أي يحيي من كان ميتاً وصار ميتاً تملك منه الموت، وحوله أسباب الموت، ولا يتوقع فيــه الحيــاة، الله يحييه، فالرجل الذي قتل في بني إسرائيل بعثه الله، وتكلم ونطق بما نطق به، ثم أعاده الله ميتاً مرة أخرى، فهو إحياء بعد إماته محققة، ويميت ذلك الحي الذي يتمتع بحياته وتحتف من حوله أسباب الحياة، أسباب متوافرة توفر له الحياة حسب المنطق المادي ومع ذلك يسلب الله منه نعمة الحياة فيصير ميتاً، هذا السر العجيب لا يملكــه إلا الله –عز وجل– فهل الآلهة التي اتخذها الناس من الأرض هل تنشر الموتى بعد موتهم؟ طبعًا الإجابة: لا، سؤال قصد به النفي، ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ﴾ يعني: هم لا ينشرون، هو سؤال مقصود بــه النفــي أي: هــم لا ينشرون، ثم صاغ الله –تعالى– في آية وقدّم في آية دليلاً عقلياً يقره كل عقل، وكل حس على أن الإله لابــد أن يكون واحدًا ولا يصلح أن يكون الإله أكثر من واحد، وذلك في قوله: ﴿لَوْ كَــانَ فِــيهِمَ﴾ أي: فــي الــسماوات والأرض ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَ﴾ كيف تفسدان السماوات والأرض بوجود أكثر من إله؟ فــي آيــة أخرى يقول الله –تعالى–: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذ﴾ أي: لو كان معه إله أو له ولد إذن: ﴿ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، ذهب أي راح يفخر بخلقه عن خلق غيره من الآلهة، وأنا أحــسن منك، وأنت تقول: أنا أحسن منك، وهذا يقول: أنا أحسن من الجميع، كما جاء في آية أخرى: ﴿إِذاً لاَّبْتَغَوْا إِلَــى ذِي العَرْشِ سَبِيل﴾ [الإسراء: ٤٢]، كل إله يريد أن يصل إلى العرش المهيمن على الجميع لتكــون القيــادة لــه ولتكون السيادة بين يديه، وهذا من شأنه أن يحدث في الكون ارتجاجاً واضطراباً وعدم اتــزان أن يحــدث فــي حركة الأفلاك التي نعيش فيها وبينها خلالاً وعدم انتظام فكنا كخلق سنشعر بهذا، ما كنا نجد هذه الرتابة المنتظمة بين ليل ونهار وشمس وقمر، ﴿لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ القَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠]، لو أن هناك آلهة غير الله في هذا الكون ما كنت تجد هذا الانتظام العجيب في حركة الكون والأفلاك، وانتظامها دليل على وحدانية الإله، أنه ليس معه من ينازعه؛ لأن من شأن الشركاء أن يتنازعوا، وأن يتخاصموا، وأن يبغي بعضهم على بعض، فطالما لم يحدث أثر هذا التخاصم وذلك التنازع، إذن: ليس هناك من ينازع ولا من يخاصم، ولا من يصل إلى ذلك أصلاً، فلا إله إلا الله، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَ﴾ هذه آية في القرآن أي دليل شرعي ولكنه يطوي في داخله دليلاً عقلياً بالعقل، أي عاقل يفكر فعلاً أن أية قيادة يتملكهــا اثنان ويتنازعها اثنان لابد أن يحدث فيها من خلل، لو أن السيارة قادها اثنان مرة واحدة ودفعــة واحــدة تختــل حركتها هذا يريد أن يدخل يميناً وذاك يريد أن يدخل يساراً، هذا يريد أن يمضي ويتحرك وهذا يريــد أن يقــف لأمر ما، كل له رؤية وكل له غرض وكل له هدف يريد أن يصل إليه، فلابد أن يحصل تنازع، لكن ســائق أو قائد ومساعد المساعد يتدخل عند اللزوم، أي هيئة من الهيئات لابد أن يكون لها قائد مدير واحد، الدولة لابــد أن يكون لها رئيس أو ملك واحد هو الذي يستقل بالأمر له نواب يعاونونه، وأعوان يساعدونه وبطانة من المفروض أن تعينه على الخير وتدله عليه ولكن القرار في النهاية لواحد، هذا من شؤوننا في الحياة مما يثبت لدى العقــلاء ولدى أهل الحس وجوب أن يكون لهذا الكون إله واحد لا شريك له، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَــسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾– فسبحان الله– يعني: تنزه الله وتعالى وتقدس عما يصفونه به من الشريك والولد، فالله أعظم من ذلك، الله أكبر من أن يتخذ ولداً أو يتخذ شريكاً: ﴿وَقُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُــن لَّــهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِير﴾ [الإسراء: ١١١]، دليل آخر أن الله –تعالى– ليس فوقه شيء، بينما كل من اتخذه الناس آلهة فوقهم أشياء، أعلى من ظن الناس فيهم الألوهية، العُزَيرُ وعيــسى، ظنــوا فيهما الألوهية، وذكر الله لنا في القرآن– وعيسى آية من آيات الله– وكأنه أعجب من العزير؛ لأنه خلق من غير أب، فالشبهة فيه– أن يكون ولداً للإله– أقوى من الشبهة في العزير، فالعزير له أب، أما عيــسى فــلا أب لــه، فالشبهة فيه أقوى، فذكر الله لنا في القرآن أن عيسى يقف مسؤولاً بين يدي الله –عز وجل– ولو كان إلهــاً لمــا سئل فالإله ينبغي أن يكون هو أعلى شيء، فلا فوقه أحد ولا شيء يسائله أو يحاسبه، ولو كان هناك من يحاسبه ويسائله فذلك المحاسب والمسائل أولى بالعبادة من المسؤول، فعلى الناس أن يعبدوا من يسأل ولا يُسأل، قال الله –تعالى– في القرآن: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَــالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْــسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦]، فطالما سيقف مسؤولاً وذكر بعض المفسرين أن عيسى –عليه السلام– حينما يوجه إليه هذا السؤال يوم القيامة، يُسمع لعظمه صوت، من شدة السؤال ووقعه عليه، يسمع لعظْمه صوت،

كما يقال: فلان عظمه يطقطق، أو يطأطئ، ذلك من شدة الهول الذي واجهه، فسيسأل إذن: ليس إلهاً والذي سأله ويسأله ويحاسبه أولى بالألوهية منه، فهو الإله الواحد -سبحانه وتعالى- فما بالك بفرعون؟ مسؤول ما بالك بالنمروذ؟ مسؤول ما بالك بالأصنام والأحجار؟ كل ذلك موقوف بين يدي الله -عز وجل- ومسؤول بل ربما كان مسؤولاً من بعض الخلق في الدنيا كفرعون قد يسأله شعبه ويسأله وزراؤه وهكذا يحاسبه بعض الناس، قبل أن يحاسبه رب الناس -سبحانه وتعالى- أما الله -عز وجل- فإنه لا ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾، طالما لا يسأل يعني: ليس فوقه من يملك عليه سؤالاً يحاسبه به، وهذا من أعظم أوصاف الألوهية، هذا فيه إشارة إلى علو الله- تعالى- فوق الكل فلا فوقه شيء -سبحانه وتعالى- بينما كل من اتخذه الناس آلهة من دون الله فإنهم يسألون يوجه إليهم السؤال ويوقع عليهم الحساب وبالتالي فلهم ثواب وعليهم عقاب، إذن: ليس بإله طالما يقع عليه العقاب ويوجه إليه الثواب فليس بإله؛ لأنه محاسب، ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾، ليست هذه كل أدلة التوحيد التي يستدل الإنسان بها، لكن في هذا المقام قدم الله هذه الأدلة وخاصة ذلك الدليل العقلي البسيط الذي يقع عليه كل حس وإن لم يعقل، طالما نشعر بانتظام الأمر إذن: ليس هناك من ينازع فيه، ويصعب الاتفاق بين أكثر من واحد قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، يعني: الشأن العام والأصل في الشركاء أنهم يتخاصمون ويتنازعون ولذلك قال الرجل الذي يملك التسع والتسعين نعجة، قال لصاحب النعجة الواحدة أكفلنيها وعزه في الخطاب، يعني غلبه في الخطاب، وفي الكلام طمع في نعجة صاحبه مع أنه يملك تسعة وتسعين نعجة، فشأن الخلطاء في أمر من الأمور والشركاء فيه أن يتنازعوا وأن يتخاصموا ويترتب على ذلك ظهور الخلل والفساد، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

ثم تنتقل الآيات إلى تقديم حقيقة واقعة في الدنيا، هي تصلح أيضًا أن تكون دليلاً على التوحيد أو قرينة تساعد على الإقرار به، مضمونها: أن التوحيد ليس بدعاً في هذه الشريعة من القول، أو من الأمر أو من التشريع، إنما هو أمر قديم أنزله الله -تعالى- مع كل الرسل وفي كل الشرائع، بنى الله عليه الدين كله من أول الدنيا إلى الآخرة، الكل جاءوا يقولون لا إله إلا الله، من لدن نوح -عليه السلام- يقول لقومه قولوا لا إله إلا الله نوح رسول الله إلى خاتمهم محمد -صلى الله عليه وسلم- يقول لأمته قولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فاشتركت الأمم جميعاً في أنها مكلفة بقول: لا إله إلا الله وتقر برسالة رسولها، وبنبوة نبيها الذي بعثه الله -تعالى- إليها.

فيقول الله -عز وجل-: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ أي: بل اتخذوا من دونه آلهة ولكن خبر فيه إنكار عليهم يعني: كيف يتخذون آلهة من دون الله؟ هل عندهم حجة بهذا؟ هل عندهم دليل؟ أم أنهم يقولون قولاً عارياً عن الدليل والحجة والبيان، وهذا هو الواقع، لا دليل معهم، ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ قل لهم يا نبي الله: هاتوا برهانكم قدموا دليلكم على أن هُبَلَ إله وعلى أن اللات َإله وعلى أن العزى إله وفرعون والنمروذ وغيرهم، دللوا على ألوهيتهم، والتدليل لا يكون من الهوى، ولا من الرأس هكذا، إنما لابد أن يكون مستنَداً شرعياً.

جاءت رسالات كثيرة سابقة على الإسلام، ونزلت كتب عديدة قبل القرآن وجاء في الدنيا رسل وأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- هل من أحد من هؤلاء أخبر عن إله غير الإله الذي أخبر عنه محمد بن عبد الله -صلى الله عليه وسلم؟ أبداً هو هو، هل جاء رسول من قبل ذلك بكتاب فيه أن الآلهة أكثر من إله؟ أبداً ما حصل هذا، إنما الكل جاؤوا يقولوا كل واحد منهم لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ولهذا يقول الله -تعالى-: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ ثم قدِّمْ أنت حجتك يا محمد. ﴿هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ هذا القرآن، هذا التشريع هذا الوحي، فيه ذكر من معي من أمتي ذكر هذه الشريعة الخاتمة، وذكر من كان من قبلي من الأنبياء بكتبهم بشرائعهم، فالقرآن الكريم هو شاهد الحق والصدق الوحيد للشرائع السابقة، ولأنبيائها ولكتبها، ﴿لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، ولولا التصديق بالقرآن فلا تجد دليلاً يثبت أن الله أنزل إنجيلاً ولا توراةً ولا شيئًا. القرآن هو دليل الصدق الناطق بالكتب النازلة قبل ذلك

وبالرسل المبعوثين قبل ذلك وبدونه فهي مجرد أخبار متناثرة يتناقلها الناس، أما القرآن فهو يحوي الخبر، وهو في ذاته معجزة، لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله، ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨]، ففيه الخبر وفيه الحجة على ذلك، ﴿هَذَا﴾ أي: القرآن ﴿ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ﴾، وليس فيه أن قوم نوح الذين آمنوا أو أن المؤمنين مع أي نبي من الأنبياء ولا كتب من الكتب المنزلة ولا رسول من السابقين قال بإله غير الله ولا بإله مع الله ما من أحد قال هذا، فلا حجة للكافرين على قولهم، كما قال ربنا: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ داحضة: يعني مردودة وباطلة ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦].

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ ﴾: أكثر هؤلاء الكافرين ﴿لاَ يَعْلَمُونَ الحَقَّ ﴾، لا يعرفونه، إنما يجهلون به، وبالتالي فهم معرضون عنه، والإنسان بطبعه- كما وصف- عدو ما يجهل، الإنسان عدو ما يجهل، هكذا قيل عنه، والله- تعالى- قال في القرآن مصداقاً لذلك، ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ [يونس: ٣٩]، وقديماً سمع كثير من الصحابة -رضي الله عنهم- وكانوا يومها مشركين، سمعوا وهم مشركون عن القرآن، أن هذا النبي الجديد -صلى الله عليه وسلم- جاء بشيء اسمه القرآن يقرؤه وفيه كذا وفيه كذا وهذا كله لم يؤثر فيه بالإيمان حتى إذا سمع القرآن بأذنه واستشعره بقلبه آمن به، على الفور، ذلك لأنه قبل ذلك كان لا يعلمه، ولما سمعه أو قرأه في صحيفة فقد علم به، وعرفه وأحس بما فيه من إعجاز فآمن بالله -عز وجل- وبكتابه ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ [يونس: ٣٩].

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ وفي هذه الآية لفتات جميلة، أذكر منها قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ كلمة" قل" في القرآن دليل على أنه من عند الله، فلا يجوز حذفها كما طالب البعض بذلك، قائلاً: الله قال لمحمد: قل، -صلى الله عليه وسلم- فقال، إذن: لا داعي لكلمة قل، يذكر القول فقط، هذا في كلامنا نحن، أقول لك: قل لفلان كذا، فتذهب لفلان وتبلغه القول دون أن تقول: قل، فتحذف كلمة قل عند تبليغ الكلام عادة لكن في القرآن لابد أن تثبت لأنها كلمة من كلمات الله، فهي دليل على أن القرآن من عند غير رسول الله -عليه الصلاة والسلام- وليس كلامه هو، فلا يعقل أن يقول لنفسه: قل، وهذا الغير من هو؟ لم تسمع الدنيا عن أحد ادعى أن هذا القرآن كلامه ونسبه إلى نفسه غير الله -تبارك وتعالى- الله هو الذي أعلن مسؤوليته عن إنزال القرآن وأنه كلامه وأنه أحسن الحديث وأنه حكيم وأنه ذِكر وأنه وأنه، إلى آخر ما وصف الله به القرآن العظيم، إذن: فلا منازع في القرآن ومن ذا الذي يستطيع أن ينازع؟ فالقرآن كلام الله ليس من عند رسول الله - عليه الصلاة والسلام- ولا كلام جبريل ولا كلام بحيرا الراهب كما يدعي بعض المغرضين، ولا أحد من الخلق، وأين بحيرا؟ وكيف لا يدعي أن هذا كتابه؟ وهو كتاب قد بلغ الآفاق، وساد الدنيا يوماً من الأيام، أين بحيرا؟ وأين أولاده وحفدته؟ أين أصحاب الميراث؟ لماذا لم يطالبوا بميراثهم من جدهم بحيرا الراهب؟ مع أن القرآن لغته تخالف لغة بحيرا قال- تعالى-: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، فهذا يخالف هذا، وما كان لأعجمي أن يقول مثل هذا القرآن؛ لأن العرب أنفسهم عجزوا عن مثله، فكلمة قل، تحمل دليلاً على أن القرآن ليس افتراءً من عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بل إنه كلام الله رب العالمين - سبحانه وتعالى- ثم إنها تحمل معنى الاستهانة بالمخاطب، المتحدَّث عنهم والمقصود بهم هنا هم الكفار، فالله- تعالى- لم يقل: أم اتخذوا من دونه ألهة فليأتوا أو فأتوا ببرهانكم، إنما قال: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أمر الناس أن يبلغهم ذلك، ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ هاتوا يعني فأتوا أو أعطونا ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾، وكأنه -سبحانه وتعالى- يريد أن يخبر بأن هؤلاء الكافرين ليسوا أهلاً لشرف الخطاب الإلهي لأن يكلمهم الله وذكر في العقوبة في القرآن وفي السنة أن أقواماً لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة فعدم تكليم الله لقوم في خطاب عادي وبكلام رحمة هذا يدل على الاستهانة بهم والعقوبة لهم، ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، وأحدنا يعرض عن بعض أولاده أو بعض تلاميذه فلا يكلمه كلاماً مباشراً وإن كان ولابد فإنه يكلم صاحبه أو أخاه: يا فلان قل لفلان، وهو بجواره موجود وحاضر، ولكن لا يوجه إليه الخطاب، إنما يوجهه إلى من بجواره، يا فلان قل لفلان: إنني ألامره أن يفعل كذا وكذا، فهذا فيه استهانة بمن حقه الخطاب في الكلام، فالله- تعالى- يعرض عنهم

كما أنهم أعرضوا عن شريعته -سبحانه وتعالى- ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ أكثرهم، ولم يقل: بل هم لا يعلمون الحق، بل إنهم لا يعلمون الحق، بل أكثرهم، ذلك ليفيد المؤرخين الذين يسجلون الوقائع والأحداث ويسجلون أوصاف الناس والأمم، ويثبتون تآريخهم وواقعهم، لا ينبغي أن نسحب الحكم على الكل بدون قرينة، فلو كانت جريمة في قوم، فينبغي ألا تنسب إلا إلى أصحاب الجريمة الذين ارتكبوها لو كان هناك عيب ينبغي أن يقتصر العيب على المعيب، ومن كان صاحب فضل فلابد أن يذكر بفضله، فلا نعمم العقاب، ولا نذكر من لا يستحق العقاب، هذا تعميم خطأ، فالله- تعالى- يقول: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الحَقَّ﴾ وفيها إشارة من ناحية المفهوم، أي: بعضهم كانوا يعلمون الحق، وهذا صحيح، بعضهم يعلمون الحق وبعضهم لم يكونوا معرضين، بعضهم كان يسلم يوماً بعد يوم، وهذا كثير في القرآن الكريم كما قال الله -تعالى- عن المنافقين في سورة الحجرات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الحجرات: ٤]، كأنه كان منهم من يعقل، ولعله نصحهم قبل أن ينادوا على النبي -عليه الصلاة والسلام- فقال لهم: لا ينبغي هذا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لابد أن نقدر وقته ونقدر راحته ولابد أن ننتظره حتى يخرج إليها دون أن نزعجه أو كذا، نصحهم في ذلك فلم يستجيبوا له، فلما نسب الله الخطأ نسبه إلى الأكثرية، واستبقى بمعنى ذلك ومفهومه استبقى بقية كأنهم أصحاب عقل وأصحاب فهم.

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً أي: ما أرسلنا رسولاً من قبلك ولا أحداً من قبلك إلا رجالاً، وسبق أن ذكرنا هذا الأمر ونذكر به اليوم، أن الرسل جميعاً كانوا من الرجال اتفاقاً بين العلماء أما النبوة وهي وحي بدون رسالة مستقلة، هذه مختلف في شأن مريم فقط، ربما كانت نبية ولكن الصحيح الراجح أنه لا رسول ولا نبي من النساء ولا من الجن، كلهم رجال ذكور من الإنس، الرسل والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٣]، فاقتران كلمة الرجال مع كلمة الرسالة ﴿أَرْسَلْنَ﴾ دل هذا يقيناً وقطعاً على أنه ما كان أحد من الرسل من النساء ودل ضمناً على أنه ما كان أحد من النساء نبياً إنما كلهم كانوا من الرجال الذكور، وكلهم كان الله -تعالى- يوحي إليهم، ﴿نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ إذن: الإله المعبود من المؤمنين مع آدم ومع نوح ومع إبراهيم ومع من بعدهم هو الإله الذي كلفنا بالإيمان في زماننا وأنزل إلينا القرآن لم يتغير ولم يتعدد -سبحانه وتعالى- فهو إله واحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد وهكذا يخبر الله -تعالى- عمن كانوا قبلنا وما أنزل إليهم أنهم جميعاً كان يوحى إليهم من الأمر مثل ما أوحي إلى النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- ﴿أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾، وسبق معنا في سورة طه أن نادى الله موسى -عليه السلام- قائلاً: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾ [طه: ١٤]، فتوحيد الله -تعالى- نستطيع أن نقول: إنه أساس التشريعات كلها، وأساس الشرائع كلها التي أنزلها الله من السماء، والتشريع لا ينبغي أن يكون من الأرض إنما ينبغي أن يكون من السماء والدين لا ينبت من الأرض إنما ينزل من السماء، هذا شأن النور، فنور الدنيا من السماء، شمساً وقمراً ونجوماً وكذلك نور الهداية، بالشرائع والكتب المنزلة ينبغي أن تكون من السماء وليست من نتاج الأرض ونباتها.

مع هذا البيان العظيم والبيان العقلي البسيط الذي يشعر به كل ذي حس ويفهمه كل ذي عقل، إلا أن البشر كانت لهم جناية عظيمة على توحيد الله -تبارك وتعالى- وذلك جناب عظيم جناب الله وتوحيده، لا ينبغي أبداً أن يقترب منه فهو أعظم حق لله على العبيد، ومسألة مفهومة واضحة كما رأينا وهذه سورة من السور، وهذا بيان من البيانات القرآنية عن التوحيد ورغم ذلك بعض الناس بل كثير منهم جنوا على التوحيد جناية عظيمة، ومنها:

- أنهم نسبوا لله الولد، ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً ﴾، وهذا هو العنصر الثالث: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً ﴾، الولد يشمل الذكر والأنثى، هو كل مولود، اليهود قالوا: العزير ابن الله، النصارى قالوا: المسيح ابن الله، كفار مكة وربما من كان قبلهم أيضًا من بعض الكافرين في الأمم قالوا: الملائكة بنات الله، هكذا قالوا، وضلوا في ذلك ضلالاً بعيداً، هم كانوا يكرهون البنات ويحبون البنين ولما نسبوا للإله العظيم ولداً، كان ينبغي أن ينسبوا إليه-

رغم الخطأ- أن ينسبوا إليه الجانب الأقوى، إله، فلو اتخذ ولداً لاتخذ ولداً قوياً، وهو الذكر لكن أن يتخذ بنتاً كما قال الله -تعالى-: ﴿أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨]، يعني: حينما نسبتم لي الولد نسبتم البنت التي تنشأ في الحلية والنعومة والرقة والليونة والحرير وما إلى ذلك والحلي مما لا يكسبها قوة في بدنها، إنما القوة مطلوبة في الذكر الغلام الذي يربى ليكون سنداً لقومه دفاعاً عنهم، وحصانة لهم ضد أعدائهم ورداً لكل ذي شر عن قومه وأهله وبيته وماله وما إلى ذلك، فيربى الغلام على القوة حتى إنهم كانوا يسمون أولادهم الذكور أسماءً لأعدائهم فيها قوة، يسميه أسدًا حرباً صخراً غضنفراً، وهكذا يسميه أسماء فيها قوة وفيها شدة، تخيف من يقابله ويواجهه، لكن يسمي البنت اسماً إن استبقاها حية كان يسميها اسماً فيه رقة وفيه لطف وهكذا، هذا شأن البنات فأخطأ كفار مكة خطأً مركباً نسبوا لله ولداً، ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢]، ونسبوا له من الولد البنات وليس البنين وهم أضعف النوعين، مع أن الله -تعالى- غني عن كل ذلك، ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ هذه جناية كبيرة وشؤمها شؤم عظيم، يقول الله عن ذلك: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِداً ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴿٩٠﴾﴾ [مريم: ٨٨- ٩٠]، هذه الكلمة تكاد تكسر السماء، لو أن الله أذن للسماء أن تتحرك بنفسها، لتكسرت فوق رؤوس من قالوا ذلك ومن سمعها ولم ينكرها، ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدّاً ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً ﴿٩١﴾﴾ [مريم: ٩٠، ٩١]، كلمة تهدم الدنيا، تخرب هذا الكون، والعالم كله لو أن الله أعطاه إشارة التحرك وأذن له أن يتحرك بنفسه، لسقطت السماوات على الأرض ولانطبقت الجبال على الأرض وتشققت الأرض وابتُلِعَ من ابتُلِع وهلك بنو آدم جميعاً، لكن الله لم يأذن لهم بهذا، لم يأذن لهذه المخلوقات أن تفعل ذلك، فهذه جناية ينبغي أن يتصدى لها ينبغي أن يتصدى لها بتعليم التوحيد ونشره وتعليمه للناس وتعويد الأطفال عليه منذ الصغر حتى ينشؤوا عالمين بحق الله -تعالى- عليهم، والكلام هنا عن كفار مكة الذين واجههم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقد نسبوا لله الملائكة وجعلوهم بنات لله، وظنوا أن الملائكة تحل في الأصنام، فهم حينما يعبدون الأصنام يعبدون الملائكة الذين هم بنات الله، أوهموا أنفسهم بهذا الوهم ولبس عليهم إبليس وصدق عليهم ظنه فاتبعوه، ولهذا ينزه الله -تعالى- الملائكة عن أن تكون إلهاً أو ترضى بهذا، فيقول -سبحانه وتعالى-: ﴿بَلْ﴾، يعني: ليست الملائكة آلهة ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾، الملائكة هؤلاء عباد لله كما سبق أن عرفنا في الآيات السابقة، ﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ﴾ [فصلت: ٣٨]، -سبحانه وتعالى- يذكرونه دائماً، ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، لا ينقطعون عن تسبيح الله -عز وجل- ويسبحون بحمده، ومنهم من هو ساجد ومنهم من هو قائم وهكذا لا ينقطعون عن عبادة الله -تبارك وتعالى- ولا يستنكفون عن ذلك، بل هم متشرفون بعبادتهم لله، فكيف يكونون آلهة؟ ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ الله -تعالى- أكرمهم وجعلهم ملأً أعلى ﴿لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ كدليل على عدم ألوهيتهم وعلى عبوديتهم لله -تبارك وتعالى- ﴿لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ يعني: لا يقدمون قولهم على قول الله، كما كلفنا الله بهذا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]، فلا يقال لنا: يقول الله -تعالى- كذا أو يقول رسول الله -عليه الصلاة والسلام- كذا، ونحن نقول: ولكن لنا رأي، ولكن العقل يقول كذا ولكن الحضارة ولكن العصر الحديث يقول كذا ولكن حياة الناس تغيرت فهو كذا ونغير كلام الله وأحكام الله هذا لا يجوز، ﴿لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ يعني: لا يقدمون قولهم أمام قول الله -تعالى- سواء في القرآن كلاماً صريحاً أو مع النبي -عليه الصلاة والسلام- كلاماً معبراً عنه بكلام النبوة ﴿وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ حتى الحركة، الحركة يتبعون الله فيها أيضًا يتبعون بأقوالهم كلام الله يقدمون كلام الله أولاً دائماً وحركاتهم في الدنيا كذلك تتبع أمر الله وإذن الله ﴿وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ فلا يتحركون إلا بإذن الله ولا يفعلون إلا بإذن الله كما جاء في سورة مريم، إذ يقول الله -تعالى- على لسان جبريل والملائكة: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِياً ﴿٦٤﴾﴾ [مريم: ٦٤]، ﴿وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ وكما قال- تعالى-: ﴿لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، كذلك علومهم لا تبلغ علم الله، علوم الملائكة لا تبلغ علم الله -تعالى- في سعته وعمومه وشموله، فليسوا أهلاً للألوهية بل الله أحق بذلك، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم يعني: وهم لا يعلمون، هم لا يعلمون ذلك بالنسبة لله -تبارك وتعالى- لكن الله يعلم كل شيء عنهم، وما بين اليد هو الأمام والخلف معروف، وهما جهتان فقط، طب واليمين والشمال فوق وتحت أيضًا معلوم ولكن لأن هاتين الجهتين هما الغالبتان فعبر بهما عن غيرهما، ﴿يَعْلَمُ مَا

بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يعني: يعلم كل شيء عنهم ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقـرة: ٢٥٥]، كما جاء في آية أخرى، حتى إنهم لو أرادوا أن يتشفعوا لأحد فلا يملكون الشفاعة لأنفسهم، لابد أن يقرها الله، ويرتضيها الله -سبحانه وتعالى- ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ هم من خشية الله وتعظيم الله وهيبة الله مشفقون على أنفسهم الواحد منهم يخاف من الله -سبحانه وتعالى- ومر بنا قبل ذلك ونحن نتكلم عن الصور والنفخ فيه، قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كيف أنعم وصاحب القرب قد التقم القرن ينتظر أن يؤمر وحنى جبهته ينتظر أن يؤمر) يعني إسرافيل -عليه السلام- أخذ وضع الاستعداد من أيام النبي -عليه الصلاة والسلام- ينتظر أمر الله -تبارك وتعالى- له بالنفخ في الصور لينفخ، وقد مضى عليه هذا الوقت الطويل وهو على وضع الاستعداد هذا يدل على أنهم يعملون بأمر الله ويلتزمون بأمر الله بل ينتظرونه ولا يتحركون إلا به، ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴿٢٩﴾﴾، ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ ﴾: أي: من الملائكة، ﴿إِنِّي إِلَهٌ﴾ أي: من دون الله أو مع الله ﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾، وهذا لا يلزم أن يقع، هذا شرط ليس لازم الوقوع، إنما هو شرط على فرض، لو أن أحداً قال كذا لحصل له كذا، كما قال الله- تعالى-: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ﴾ [الحاقة: ٤٤]، هل نبي الله محمد -صلى الله عليه وسلم- يتوقع منه أن يفتري على الله؟! لا يمكن أبداً، وحياته الأولى أربعون عاماً قبل الإسلام لم يكذب على الخلق تدل على أنه لن يكذب على الخالق أبداً -سبحانه وتعالى- فهذا شرط لا يلزم وقوعه ولكن يقال: على فرض، ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ وطالما يدخل جهنم ويوقع عليه العقاب كما قلنا إذن: سئل في عملته، في جريمته ومن يسأل فليس بإله، من يسأل بمعنى سؤال المحاسبة فليس بإله، فهؤلاء الملائكة مع علوهم ومع رفعتهم ومع قربهم من الله -تبارك وتعالى- لو على فرض المحال لو قال أحد منهم: إني إله فإن الله -تعالى- يدخله جهنم ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾، أي بهذه القوة وبهذه القدرة العالية نجزي الظالمين، والظالم: هو من ارتكب خطأً والظلم هو مطلق المعصية ولكن أكبر الظلم هو الكفر والشرك بالله -سبحانه وتعالى- ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، لكن أصل الظلم هو كل معصية وكل من عصى فقد ظلم، لكن الظلم المقصود هنا هو الكفر بالله -سبحانه وتعالى- ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾، يعني: كذلك نجزي الكافرين المشركين أي: ندخلهم جهنم كما نتوعد بذلك كل من قال: إني إله ولو كان ملكاً من الملائكة، ولهذا يشتبه الناس بقول الله -تعالى-: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، فلما كلم النبي -عليه الصلاة والسلام- كفار مكة وسمعوا هذه الآية قالوا: إذا كان عيسى الذي عبده النصارى والعزير الذي عبده اليهود في النار، ونحن معه فلا حرج، نعم الصحبة أو نعمت الصحبة، فقال الله -تعالى-: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الزخرف: ٥٧]، يعني: قومك استغلوا هذا المثل خطأً وفهموه خطأً، وفسروه على ما يوافق بدعتهم من الكفر- والعياذ بالله- إنما المقصود من الآية ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ممن رضي لنفسه العبادة من دون الله، الذي أقر أنه إله، رضي بهذا، فرح بها، كفرعون- عليه اللعنة- قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، والنمروذ كذلك وغيره كثير من الملوك قديماً كانوا يستعبدون أقوامهم ويعلنون ألوهيتهم على الناس، والناس لضعفهم وفقرهم يرتضون ذلك ويعيشون على هذا الجهل وعلى هذا الضلال، فمن يرضى أنه إله ومن يرضى بما يؤلهه الناس به، فهذا في النار- والعياذ بالله تعالى- وهذا ظالم أما من عبده الناس وهو لا يدري وهو لا يشعر ولا يرضى بهذا، كالملائكة عبدهم الكفار، كعيسى -عليه السلام- عبده النصارى، العزير عبده اليهود، هؤلاء لا يقرون لله بذلك والله ذكر الخبر في القرآن ماذا سيكون من أمر عيسى يوم القيامة: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

ننتهي إلى العنصر الرابع: في هذه المحاضرة، وهو مظاهر أو بعض مظاهر التوحيد في الكون:

التوحيد كحقيقة شرعية جعل الله لها مظاهر في الكون تدل عليها، ولو أن إنساناً ولد في مكان ونشأ فيه دون أن تؤثر فيه مؤثرات خارجية من أسرة أو إعلام أو أي شيء إنما نشأ في بيئة طبعية من خلق الله لم تعبث بها يد

البشر، سيقوم من طفولته لينطق ويقول: لا إله إلا الله، ويستحيل عنده في عقله، أن يكون لهذا الكون أكثر من إله، مسألة عقلية بحته بما يرى من آثار توحيد الله -تبارك وتعالى- في الكونيات ولكن كما قال النبي -عليه الصلاة والسلام-: (فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)، يقول الله -تعالى- في هذا العنصر الأخير وفي هذه الآيات التي تمثله يقول -سبحانه وتعالى-: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أو لم يبصروا؟ أو لم يعلموا؟ ألم يروا بأعينهم؟ ألم يروا ببصائرهم معنى هذه الكونيات التي كونها الله في الكون؟ ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَ﴾ الرتق: هو الشيء الملتصق ببعضه، ويقبل الانقسام، وهو متصل ببعضه ويقبل الانفصال عن بعض، فالسماوات والأرض ﴿كَانَتَا رَتْق﴾ أي: متصلتين ملتصقتين ففتقهما الله -تبارك وتعالى- ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ سئل ابن عباس -رضي الله عنهما- (الليل كان قبل أو النهار؟ يعني: أيهما أسبق الليل أم النهار؟ فقال ابن عباس -رضي الله عنهما-: أرأيتم السماوات والأرض حين كانتا رتقاً هل كان بينهما إلا ظلمة ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار)، يعني: حينما كانت السماوات والأرض هكذا ملتصقتين فلم يكن بينهما شعاع ولا نور ولا نجوم ولا مصابيح ولا شيء، فكان بينهما ظلام، ثم فتقهما الله -تعالى- عن بعضهما، ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾﴾ [النازعات: ٢٩]، إذن: كان الليل أسبق من النهار في الوجود، هكذا استدل عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- بهذه الآية على أسبقية الليل على النهار، وطبعًا هذه الآية تعتبر فيها إعجاز علمي يعرفه أهل هذا التخصص في العلم بالكونيات، وذكر ابن كثير -رحمه الله تعالى- عن ابن أبي حاتم -رحمه الله تعالى- عن ابن عمر: (أن رجلاً أتاه فسأله عن هذه الآية معنى ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَ﴾ قال ابن عمر -رضي الله عنهما- وهو من هو في الفقه والعلم قال: اذهب إلى ذلك الشيخ) يقصد ابن عباس، (اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله ثم ارجع إلي فأخبرني ما قال لك) كانوا- رحمهم الله ورضي الله عنهم- يتورعون عن الفتيا وعن الجواب وكان عبد الله بن عمر يعجب من جرأة عبد الله بن عباس على تفسير القرآن الكريم، ولا عجب فهو حبر الأمة وترجمان القرآن وهو المدعو له: (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) ولكن كان ابن عمر يتعجب من ذلك ويعتبره أقوى منه في التفسير فكان يحيل عليه، فأحال السائل وقال: (ارجع لي بما قال) حتى يتعلم أدباً منه -رضي الله تعالى عنه وعنهم جميعاً- (فذهب الرجل فسأل ابن عباس -رضي الله عنهما- هذه السؤال فقال ابن عباس -رضي الله عنه-: نعم، كانت السماوات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، فلما خلق الله للأرض أهل) أي جعل فيها خلقاً (فتق هذه بالمطر وفتق هذه بالنبات، فلما رجع الرجل إلى ابن عمر وأخبره بهذا الجواب العظيم، قال ابن عمر: الآن قد علمت أن ابن عباس قد أوتي في القرآن علم)، يعني: ازداد يقينه أن ابن عباس عالم في القرآن الكريم- ما شاء الله- وفي تفسيره، الشاهد معنا من هذه القصة: أن الرجل جاء وسأل عن قوله الله- تعالى-: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَ﴾ فكان الجواب من عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- وفي رواية: أقر ابن عمر على هذا الجواب ولكن أخر قوله عن قول ابن عمر وقال: بقريب من ذلك سعيد بن جبير كما ذكر ابن كثير - رحمه الله تعالى- «أنهما كانتا متصلتين اتصالاً معيناً وبينهما ظلمة ولهذا كان الليل أسبق من النهار ثم فتقهما الله -تعالى- أي فصلهما ثم جعل في الأرض أهلاً وهم الإنس والجن، جعلهم الله خلقاً في الأرض، ففتق الله - تعالى- السماء فجعلها تمطر وتنزل ماءً وخيراً وفتق الأرض وجعلها تنبت النبات بقدرة الله -تعالى- وحكمته»، إذن: معنى الفتق، أي أنها تنفتق بنزول المطر، تلك السماء، تنفتق بنزول المطر، والأرض تنفتق بإخراج النبات هذا معنى الفتق، فليس فصلاً فقط، بل فصلاً وتصييراً إلى هذه الحالة النافعة للخلق، وذكر ابن كثير -رحمه الله تعالى- عن ابن أبي الدنيا -رحمه الله تعالى- خبراً يشير إلى ضرورة التفكر في السماوات، والله- تعالى- قال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠]، دعانا كثيراً جدًا إلى النظر إلى السماء والتفكر فيها، وذكر حديث في هذه الآيات في سورة آل عمران، ذكر حديث في تفسيرها: (ويل لمن نظر ولم يعتبر، أو ولم يتفكر) أو كما قال، يعني: ينبغي على من نظر إلى السماء أن ينظر فيها متدبراً متفكراً ويرجع ببصره من السماء بآية بفكرة بمعلومة ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، روى ابن أبي الدنيا: «أن بعض عباد بني إسرائيل تعبد ثلاثين سنة- تعبد: ترهبن ثلاثين سنة وكانت عندهم الرهبانية- وكان الرجل منهم إذا تعبد ثلاثين سنة، أظلته غمامة- كرامة من الكرامات- أظلته غمامة، فلم يرَ ذلك الرجل شيئًا مما كان يرى لغيره، لم يرَ تلك الغمامة تظلله، الكرامة لم

تتحقق فشكا ذلك إلى أمه فقالت له: يا بني لعلك ارتكبت ذنباً قال: لا، هو منتبه لنفسه ويعلم أنه لم يرتكب ذنباً يمنع عنه تلك الكرامة، قالت له: لعلك قصرت في عبادتك يوماً، قال: لا، لعلك فعلت كذا وكذا، حتى قالت له: لعلك نظرت إلى السماء ولم تتفكر قال: نعم وقع ذلك مني، قالت: فهذا هو، أي هو السبب الذي منع عنك كرامة العبادة، ثلاثين سنة»، يعني هذا خبر عن بني إسرائيل صح أم لم يصح، إنما يستهشد من خلاله على أن التفكر في السماء أمر مطلوب وأصل هذا في القرآن والسنة، فلا نعتمد على مثل هذه الأقوال وإن ذكرت ولكنها تعين على ضرورة النظر إلى السماوات متفكرين متدبرين، وهكذا يدعونا الله –تعالى– وخاصة يدعو الكافرين الذين أنكروا وحدانية الله، ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَ﴾ يعني: من الذي رفع السماء بغير عمد وبسط الأرض على ماء جمد وجعل بينهما خلقاً وفتق السماء بالنور والمطر وفتق الأرض بالنبات والشجر؟!! هو الله –سبحانه وتعالى– الحس والقلب والعقل يقول: الله والقرآن يصدق على ذلك، إذن: كيف نعبد غير من فعل هذا، ونترك من فعل هذا الخلق العظيم وأنعم بهذه النعم.

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾، عرف العلماء حديثاً ببعض المعرفة أن كل حي دخل في أصل وجوده الماء، وليس لازماً أن يكون الماء الذي يشرب، ولكن أصل خلقة كل حي سائل، مادة سائلة كالماء، ولعل أصلها الماء، ولم يصل العلم إلى ذلك لكن هذا خبر الله الصادق وهو يخبر عن خلقه –سبحانه وتعالى– وهو العليم بهم، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ وذلك إعجاز عظيم، حيث إن المادة الخام واحدة، ويخلق الله منها إنساناً وحيواناً وطيراً وحشراً كل ونباتاً كل من كان فيه حياة مع اختلاف الأشكال والأصناف والأنواع الله –تعالى– شكلها وبدأ خلقها من هذه المادة الواحدة وهذا غير معهود في عرف الصناعة مهما تقدمت، لا تستطيع أن تصنع كل الأشياء من مادة خام واحدة إنما يفعلها الله –تعالى– بقدرته وبعلمه وحكمته، ﴿أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: هذه الآيات: خلق السماوات والأرض وجعل كل شيء حي من ماء هذه القدرة العالية التي تدل على أن الله وحده هو الذي فعل ذلك ألا يدعوهم هذا إلى الإيمان؟ ألا يمهد لهم ليؤمنوا بالله تعالى؟ ﴿ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: ينبغي أن يؤمنوا جزاء أو بناءً على ما يروا في السماوات والأرض والأحياء من آيات لله.

﴿وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ وجعلنا في الأرض رواسي هي الجبال التي أرسى الله بها الأرض وثبتها ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَ﴾ [النازعات: ٣٢]، وذلك لئلا تميد الأرض بمن عليها، يعني: تضطرب؛ لأنها منصوبة وموضوعة فوق ماء، فتحرك الأحياء فوقها، وثقل وزنها قد يحدث لها اضطراباً في هذا الماء، فالله– تعالى– وزنها وأرساها بالجبال، وذلك خدمة لنا، وإقراراً لحياتنا عليها، ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ من فضل الله –تعالى– أيضًا أن خلق الأرض ممهدة وجعلها مهاداً وجعل فيها سبلاً أي طرقاً يهتدي الناس من خلالها وبواسطتها إلى أغراضهم ومعايشهم، فينطلق من هنا ويذهب من هنا وينتقل من بلد إلى بلد، وهكذا من فضل الله –تعالى– ورحمته، أي: أنه خلق لنا الأرض وكيفها لحياتنا عليها، فأرساها وثبتها لئلا تميد بنا، وجعل فيها فجاجاً توصلنا إلى حوائجنا وأغراضنا فتلك نعم من الله عظيمة وآيات كبيرة جليلة لم يفعلها إلا الله فتدل على أن الإله في هذا الكون واحد لا شريك له.

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَّحْفُوظ﴾ لما أخبر عن الأرض وأنه جعل فيها رواسي أخبر عن السماء، وهذا تصعد بالأدلة الله –تعالى– يدلل للإنسان مما بين يديه، ثم يلفت نظره إلى ما هو أبعد فأبعد، وربما يكون الاتجاه أحياناً إلى العكس، حسبما يكون المقام، فبعد أن ذكر الله الأرض يذكر السماء، فيقول: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَّحْفُوظ﴾ ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْف﴾ سقفاً: كالقبة على الأرض تظلنا وزينها لنا كما في آيات أخرى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦]، هذا السقف مخيف فليست له أعمدة تحمله فيما نرى، وكما أخبر الله –تبارك وتعالى– وهو سقف سميك، سبع طبقات بعضها فوق بعض، وفيه ما فيه من الخلق، في السماء الدنيا كذا من الملائكة وفي السماء الثانية كذا من الملائكة إلى السماء السابعة وهكذا وهناك البيت المعمور، وبيت العزة، خلق عظيم، فهذا يخيف أن يسقط علينا، والله– تعالى– جعله محفوظاً وأخبر بذلك ليطمئننا وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُول﴾ [فاطر: ٤١]، يعني: لئلا تزولا، الله –تعالى– يمسك بهما –سبحانه وتعالى–

بقدرته حتى لا تزولا، ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ ففيها آيات عظيمة تدل على وحدانية الله -تبارك وتعالى- ثم ذكر الله ما بين السماء والأرض فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ عاد الأمر إلى أوله، وأن الكون وأفلاكه تسير بانتظام عجيب وبرتابة كاملة لا اضطراب فيها، ولا خلل مما يدل على أن المدبر لهذا الكون والمدير لحركته إله واحد لا ينزاعه أحد ولا يخاصمه شريك، -سبحانه وتعالى- فنحمد الله- تعالى- على أن كان واحدًا فردًا صمداً ونسأله -سبحانه وتعالى- أن يحيينا على التوحيد وأن يميتنا عليه حتى نلقاه راضياً عنا غير غضبان إنه هو البر الرحيم وصل الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

وردتنا إجابات على أسئلة الحلقة الماضية،

وكانت إجابة السؤال الأول: ما معنى: ﴿لاَ تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٣]، وما الغرض منها؟

وكانت الإجابة: ﴿لاَ تَرْكُضُو﴾: أي: لا تفرقوا ركضاً كما يركض الحيوان في البرية فراراً من الضوراي ﴿وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾، أي: إلى ما كنتم فيه من ترف وبذخ من نعم الله -تعالى- ﴿وَمَسَاكِنِكُمْ﴾: وهذا استهزاء بهم؛ لأنهم لم يفروا منها ركضاً إلا بعد ما شعروا بعذاب الله -تعالى- ومساكن حل بها وبأهلها العذاب لم يبقَ فيها ترف ولا سكينة، ثم قال- تعالى-: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ وهذا استهزاء بهم أيضًا كما استهزؤوا بالله وآياته ورسوله والعقاب من جنس العمل.

نعم إجابة طيبة نشكرهم عليها جزاهم الله خيراً.

السؤال الثاني: ما معنى هذه الكلمات ﴿قَصَمْنَ﴾، و﴿يَرْكُضُونَ﴾، و﴿حَصِيد﴾، و﴿يَدْمَغُهُ﴾، و﴿يَسْتَحْسِرُونَ﴾؟

وكانت الإجابة: ﴿قَصَمْنَ﴾، أي: أهلكنا، ﴿يَرْكُضُونَ﴾، يفرون ركضاً كالحيوان، ﴿حَصِيد﴾ ما يحصد من زرع ونحوه بعملية الحصاد فهو حصيد، ﴿يَدْمَغُهُ﴾: الدمغ ما تتركه القذائف من أثر في رأس الإنسان أو في الأرض إن أخطأت الهدف فالدمغ أثر القذائف وهذه بلاغة تبين أثر إصابة الباطل إن قذف بالحق فيدمغه أي: يقمعه فإذا هو زاهق، ﴿وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ﴾: أي لا يملون ولا يسأمون.

إجابة صحيحة.

السؤال الثالث: ما المراد بذكر التسبيح الدائم للملائكة؟

وكانت الإجابة: المراد بذكر التسبيح الدائم للملائكة: أنهم مستغرقون في عبادة الله وهم على كثرتهم وفيه بيان لعظمة الله وجلال سلطانه وكمال علمه، وحكمته ما يوجب ألا يعبد إلا هو ولا تصرف العبادة لغيره والله أعلم.

أنه -سبحانه وتعالى- بدوام تسبيح الملائكة له، ليس في حاجة إلى تسبيح الإنس والجن، العباد المكلفين بالشريعة، ويفاصلون فيها ويناقضون فليس الله -تعالى- في حاجة إلى تسبيحهم فإن كان ولابد من تسبيح فالذين

عنده يسبحون له -سبحانه وتعالى- نشكر الإخوة والأخوات المساهمين في هذه الإجابات، ونسأل الله لهم التوفيق والسداد دائماً.

الأخت الكريمة تقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، إن لي الآن حوالي سنة وأنا أحاول حفظ القرآن الكريم لكن لم يكتب الله لي ولم أحفظ منه سوى أجزاء فما هي الطريقة للإصرار على الحفظ والتخلص من التسويف خاصة أني اشتغلت بالعلم ولا أجد وقتاً كثيرًا للحفظ وإذا حاولت الحفظ أجد فكري مشغولاً بالعلم؟

القرآن الكريم لابد أن يؤخذ من شيخ، فلتنتظر أختنا الكريمة إحدى الأخوات الحافظات التي عندها دربة ودراية بالتحفيظ فتحفظ على يديها، وإن لم يمكن فتحفظ على يد شيخ تظن فيه الخير، وتختاره فدور الشيخ هنا يساعد على الالتزام بالحفظ، لكن حين يكون الحافظ شيخ نفسه فهذا يقطعه عن مداومة الحفظ، وهو لا يدري كيف يواظب يوفق بين الحفظ وبين القراءة والمراجعة وهكذا فأحياناً يحفظ فلا يراجع، فيحفظ وينسى أو يراجع فيترك الحفظ، ثم يصاب بإحباط بعد ذلك فيترك الحفظ تمامًا، إنما عليها أن تعتبر القرآن الكريم مادة من المواد العلمية بل هو أصل العلم كله، فليوضع في جدولها أولاً، لكن لابد من الالتزام بمحفظ أو محفظة تتولى مسألة التحفيظ والمراجعة وتعطينا روح الالتزام والتمسك بمواعيد الحفظ والتسميع، والله يوفقها للخير.

الأخ الكريم من السعودية يقول: المجرات التي في الفضاء تتبع لأي سماء- جزاك الله خيراً؟

هذا سؤال فلكي ليس لنا فيه نحن نبين المعاني اللغوية والمعاني الشرعية في القرآن الكريم أما هذا فيدخل في باب الإعجاز العلمي يمكنك أن تراجع تفسير هذه الآية في كتاب من الكتب التي تكلمت عن إعجاز القرآن الكريم أو يراسل هيئة الإعجاز العلمي يفصلون له هذا الأمر -إن شاء الله.

إذا اختلف في النبوة من النساء على مريم فقط، فما حال أم موسى في الآية: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي اليَمِّ ﴿٣٩﴾﴾ [طه: ٣٨، ٣٩]، إلى آخر الآية؟

هم اختلفوا على مريم لما أن الله أوحى لها بحمل عيسى ثم بعد ذلك، يعني: كان الوحي لها أكثر من الوحي لأم موسى، وأوقع، فاعتبروها نبية، ولها من شأن الأنبياء بعض الشيء، وذلك كما قال الله -تعالى- ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ اليَوْمَ إِنسِياً﴾ [مريم: ٢٦]، يعني: لن تتكلم ستصوم عن الكلام وكذلك قال الله -تعالى- لزكريا حين بشره بيحيى: ﴿أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِياً﴾ [مريم: ١٠]، فشبهة النبوة في مريم أوقع من أم موسى، فلذلك قيل عنها: إنها من الأنبياء ولم يذكر هذا في شأن أم موسى، ولكن طبعًا الراجح كما ذكرنا أن الأنبياء والرسل جميعًا كانوا من الرجال ولم يكن أحدهم من النساء، وهذا لحكمة يعلمها الله -سبحانه وتعالى- ولأن الرسول أو النبي سيكون قدوة لمن وراءه فلابد أن يكون أكمل الناس، والنساء- بطبيعة خلق الله فيهم وليس عيباً لهم- ناقصات عقل ودين، عاطفتها تتحكم في عقلها، فهذا يصيبها بشيء من النقص، ولكن صلاحها في هذا كسنارة الصيد للسمك، هي عوجاء ولكن صلاحها في عوجها، هكذا خلقها الله -سبحانه وتعالى- ولا عيب عليها في ذلك ولا ملامة، فكان الرجال أولى بالنبوة وبالرسالة لثقل أعبائها ولمهمة الاقتداء بهم كان الرجال أولى من النساء بذلك. والله أعلم.

نرجو من سيادتكم توضيح أيهما الأفضل مؤمن بني آدم أم فرد من أفراد الملائكة؟

أيهما أفضل مؤمن من بني آدم أو ملك من الملائكة: هذه قضية شائكة، ولكن الذي يظهر من النصوص أن الله -تعالى- يباهي كما ذكر أكثر من مرة - يباهي بالمؤمنين في الأرض الملائكة في السماء، حتى العبد الذي يذنب ويقول: أستغفر الله العظيم، أو اللهم اغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فيقول الله: يا ملائكتي علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب وكذا، أشهدكم أني قد غفرت له، وكأنه يذكرهم بما قالوه قديماً: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا

وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فحين يظهر العبد من بني آدم بصلته بالله –سبحانه وتعالى– وتوحيده له وعبادته له، فالله– تعالى– يباهي به الملائكة في السماء، ثم إن من خلق من طين حينما يفعل ما تفعله الملائكة المخلوقون من نور، فهنا تظهر فضيلة من خُلق من الطين، أما من خلق من نور، فهذه طبيعته ولابد أن يكون هكذا هذا شأنه، لكن حينما يكون مخلوقاً من طين، ويسمو بإيمانه إلى درجة الملائكة كما جاء في الحديث: (لو كنتم في أهلكم كما تكونون عندي، لصافحتكم الملائكة في الطرقات) فممكن لبني آدم أن يصلوا بممارسات دينية معينة إلى أن يمكن أن تصافحهم الملائكة، كأنهم يتساوون معهم، وهذا مخلوق من طين وذاك مخلوق من نور، فهنا يسبق الطينُ النورَ، وصعود النبي –عليه الصلاة والسلام– ليلة المعراج إلى ما لم يصعد إليه جبريل بهذا علا من خلق من طين فوق من خلق من نور، لكن التدقيق والتحقيق في هذه المسألة أمر لا داعي له، لكن هذه الإشارات تعطينا همة تدفعنا إلى طاعة الله –تبارك وتعالى– وإلى التشبه بالملائكة في دوام التسبيح والذكر لله، واستمرار العبادة له، فنسأل الله –تعالى– أن يصلح ديننا وأمورنا، اللهم آمين.

الأخ الكريم من مصر يقول: هل معنى قوله– تعالى–: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أي خلقنا، وإذا كان كذلك فكيف نوفق بين هذه الآية وقوله– تعالى–: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾[الرحمن: ١٤، ١٥]، ألا يوجد تعارض؟

ليس هناك تعارض؛ لأن الماء داخل في أصل الشيء، فدخوله دخول مرحلي فقط، كما أخبر عن خلق الإنسان أنه خلق من تراب، ومن ماء ومن طين، ومن طين لازب، ومن طين آسن، ومن نطفة وعلقة ومضغة وعظام، هذا تصوير لمراحل مختلفة، فالماء يدخل في تكوين كل حي في مرحلة من مراحله ثم يحوله الله –تعالى– إلى طبيعة أخرى وهكذا فليس في القرآن تعارض إنما هو إن كان في هذا من شيء ففيه دعوة لنا لنبحث كيف ومتى يلتقي الماء مع النار مع النور مع الطبائع الأخرى التي خلق منها الخلق.

الأخ الكريم من مصر يقول: ما موقفنا من الإسرائليات التي تملأ كتب التفسير؟ ولماذا أودعها العلماء في هذه الكتب؟

لابد أن نحسن الظن بعلمائنا– رحمهم الله– فأقل ما يقال: أنهم أودعوها في كتبهم من زيادة العلم، علم زائد فيذكره في كتابه، ربما يصح عند غيره، لكن التعامل معها لابد أن يكون بطريقة علمية بمعنى: أن ندقق فيها وفي أسانيدها فما كان منها موافقاً للحق عندنا قبلناه وإن ورد عن بني إسرائيل لا حرج وإن خالف الحق الذي عندنا رفضناها، رفضنا الإسرائليات التي تخالف الحق الذي عندنا وإن لم تكن لها موافقة ولا مخالفة لا تضر ولا تنفع فلا مانع من إيرادها وذكرها لعلها تساعد على معنى أو تزيد معلومة أو كذا لكنها لن تزيد في حجم الحقيقة شيئًا ولن تنقص منها، (وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج) بهذا المنهج، عذر آخر عن العلماء –رحمهم الله– أنهم حين كتبوا هذه الكتب كانت ثقافة الناس تشمل العلماء وطلبة العلم، يعني: لو سئل الواحد في البلاد المختلفة اليوم واحد في الطريق العام واحد من عامة الناس سئل عن ممثل أو لاعب أو كذا تراه يعرفه جيداً وتراه يعرف عن أحواله الكثير، إن لم يكن يعرفها كلها، حتى عن مرضه يعرفه أولاده زوجته كانت هذه الثقافة وهذه المعرفة قديماً موجهة إلى العلماء فتسأل الرجال العادي في الشارع أين الشيخ الفلاني؟ أين الإمام الفلاني؟ يقول لك: إنه في بلدة كذا، إنه قضى هنا معنا كذا سنة ثم رحل إلى مثلاً الحجاز، ثم رحل إلى بغداد ثم رحل إلى كذا حتى يتابع فهذه الأخبار كانت معروفة عندهم ومعروف مَنْ من الرواة والعلماء يوثق فيه والعلماء يثنون عليه ومن منهم اشتمل أمره على بدعة أو على شيء يخاف منه، فلذلك كانوا يذكرون الأقوال بأسانيدها هكذا دون أن يحكموا عليها وربما بغير أسانيد اعتماداً على أن القاعدة العريضة في الناس تعرف هذه الأشياء، لكننا في زماننا نحتاج إلى التعريف بالرجال وإلى تخريج الأسانيد وتحقيقها وإلى النظر في المتون أيضًا والتعليق عليها فربما ينخدع الكثيرون بحديث أو بشيء من الإسرائليات ظاهر البطلان ورغم ذلك يقبله بعض الناس ويأخذون به لعدم علمهم ومعرفتهم– والحمد لله– معظم هذه الكتب محققة وذكر أو نبه عليها وقيل في ما فيها من إسرائيليات هذا صحيح

وهذا ضعيف وهذا مردود وهذا مقبول وخير ما يقرأ فيه من التفاسير تفسير الإمام ابن كثير –رحمه الله– الـــذي نتشرف بدراسته فهو أكثر الأئمة إقلالاً من الإسرائيليات وأكثر الأئمة تنبيهاً عليها حين يذكرها، فتقرأ فيه وأنـــت مطمئن – إن شاء الله تعالى.

فضيلة الشيخ هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه المحاضرة؟

أسئلة هذه المحاضرة:

السؤال الأول: كيف تصيغ دليلاً عقلياً على التوحيد من خلال الآية الثانية والعشرين﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾؟

السؤال الثاني: زعمت طوائف الكفر أن الرحمن اتخذ ولداً كيف ترد هذه الفرية؟

ثالثًا: بين كيف كانت السماوات والأرض رتقاً ففتقهما الله؟

والله تعالى يوفقنا وإياكم إلى حسن الجواب في الدنيا والآخرة

الدرس الثالث عشر

الأنبياء: من الآية ٣٤: ٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

ففي هذه المحاضرة نعيش مع آيات من سورة الأنبياء من الآية الرابعة والثلاثين وحتى الآية السابعة والأربعين وجعلت هذه الآيات تحت عنوان:

موقف الكافرين من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقسمتها إلى عناصر أربعة:

العنصر الأول: انتظارهم لموت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- .

العنصر الثاني: الاستهزاء برسول الله -عليه الصلاة و السلام- وبوعيده لهم.

العنصر الثالث: مواساة الله له -صلى الله عليه وسلم- وتلقينه حجته عليهم.

رابعا وأخيرا: بيان سبب كفرهم وإنذارهم فيه.

ونستمع إلى الآيات المباركات ثم نتناول هذه الآيات مفصلة من خلال تلك العناصر بعون الله تعالى:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴿٣٤﴾كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴿٣٥﴾وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴿٣٦﴾خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ﴿٣٧﴾وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴿٣٨﴾لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ﴿٣٩﴾بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ

﴿٤٠﴾وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴿٤١﴾قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴿٤٢﴾أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلاَ هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴿٤٣﴾بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاَءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴿٤٤﴾قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلاَ يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴿٤٥﴾وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴿٤٦﴾وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾[الأنبياء: ٣٤: ٤٧].

اللهم حاسبنا حسابا يسيرا ونسألك عفوك ومرضاتك يا رب العالمين، في هذه الآيات المباركات يبين الله تبارك وتعالى أن الكافرين كانوا يتربصون بالنبي -صلى الله عليه وسلم- أن يموت ليستريحوا من مواجهته وملاحقته وما جاء به من دين جديد، وتلك نظرة سطحية من الكفار وذلك مما يدل على سفههم وغباءهم ودائما السفه يلزم الكفر والعصيان فأولئك الكافرون كانوا ينتظرون ويتربصون بالنبي -صلى الله عليه وسلم- أن يموت ويظنون أن بموته ينقضي أمره وتنقضي رسالته وكذلك يظن الكثيرون أنه بفوات الدعاة يموت الدين وبالقضاء على المسلمين يموت الدين هذه فكرة خاطئة لأن الله تعالى أنزل ذكره وضمن له الحفظ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ

لحَافِظُونَ﴾[الحجر: ٩]، وأرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره دينه وإن مات الرسول -عليه الصلاة و السلام- ولحق بالرفيق الأعلى ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[الصف: ٩].

ومات رسول الله -عليه الصلاة و السلام- ولم يخرج دين الإسلام من جزيرة العرب وبعد أن لحق بالرفيق الأعلى انتشر هذا الدين وزاد حتى عم الدنيا مما يدل على أن قيام هذا الدين لا يتوقف على وجود شخص من نبي أو داع أو قائم بحدود الله تبارك وتعالى ولكن الدين قائم وإن لم يصلح الناس في بلد من البلاد أو عصر من العصور لحمل أمانة الله فالله تعالى يذهب بهم ويأتي بقوم آخرين يحملون رسالته ويقومون بدينه سبحانه، فقال الله تعالى ردا على هذا الفهم السيء لدى الكافرين ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾.

وهكذا نرى الخطاب موجها إلى رسول الله -عليه الصلاة و السلام- ولم يوجه إلى الكافرين إعراضا عنهم وإهمالا لهم وتشريفا للنبي -صلى الله عليه وسلم- بخطاب الله له وبيان أن الله تعالى لم يكتب الخلد في الدنيا أبدا لأحد من البشر إنما شأن البشر والخلق جميعا الموت والفناء ولا يكون البقاء إلا لرب الأرض والسماء سبحانه وتعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾ كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[الزمر: ٣٠]، أنت يا نبي الله سوف تموت -عليه الصلاة و السلام- وهم كذلك سيموتون قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴿٢٦﴾وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾[القصص: ٨٨]، هذا قانون رباني عظيم وقضاء حكيم قضى الله به على كل الأحياء حتى لا يبقى حيا عند الفناء إلا الحي القيوم سبحانه وتعالى لا تأخذه سنة ولا نوم فضلا عن موت.

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ أفإن مت يا نبي الله هل هم يخلدون من بعدك فأنت تموت وينقطع ذكرك وهم يظلون ويبقون مخلدين في الحياة ويبقى ذكرهم فيها أبدا لن يكون فيها بل الموت عليك وعليهم سواء أما بقاء الذكر ورفعه فذاك أمر آخر يرفع الله من شاء ويخفض الله تعالى من شاء، وقال تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[الشرح: ٤] فبقى ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد موته إلى الآن لا يسمع اسمه بين الكرماء إلا أن يقولوا -صلى الله عليه وسلم- أو نحوها من كلمات الصلاة والتسليم على نبينا -عليه الصلاة و السلام- ومات الكافرون الذين واجهوه بهذا الأذى وهذا العناد وانقطع ذكرهم حتى إن كثيرا من الأمة لا يعرفون أسماء أولئك الكافرين وإن سمعوا أسماءهم فلا يعرفون عنهم شيئا وربما اقترن اسم بعضهم باللعنة فيقال أبو جهل لعنه الله وأبو لهب لعنه الله وهكذا.

فالموت على الجميع ولكن تبقى الذكرى لمن رفع الله ذكره والذكرى لا تكون بتخليد الصور وإنما بتجميل السير أن يترك الإنسان وراءه سيرة عطرة مأخوذة على منوال سيرة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بهذا يرفع ذكره كما رفع الله ذكر العلماء، بينا وبينهم أجيال وسنوات وأعوام ومع ذلك لا يزالون يذكرون في أجمل المجالس وأعظم المحافل وعلى ألسنة صفوة الناس من طلبة العلم يذكرون في هذا الذكر العظيم في الملأ الأدنى غير ذكرهم عند الله في الملأ الأعلى يذكرون وبكل شرف يذكرون ويترحم عليهم ويترضى عنهم ذلك لأن ذكرهم رفعه الله تعالى لما كانوا من ورثة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

﴿ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ يعني لو مت يا محمد أو إذا مت فلن يخلد هؤلاء الكل سيموت ولهذا عقب الله تعالى على هذه الآية بالآية الثانية فقال: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ ومن الآية السابقة اتخذ العلماء دليلا على موت الخضر عليه السلام ذكره الإمام بن كثير -رحمه الله تعالى- ونبه عليه فالخضر اختلف الناس فيه هل هونبي أو ولي؟ والراجح أنه نبي من الأنبياء كان يوحي الله تعالى إليه واختلفوا كذلك هل هو لا يزال حيا إلى الآن مخلدا في الدنيا أو أنه مات بأجله كما يموت الأحياء وهذا الثاني هو الراجح أنه مات عند انتهاء أجله ولم يكتب الخلود لأحد في الأرض قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴿٣٤﴾كُلُّ

نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ فكان الخضر نبيا في فترة من الزمان في زمان سيدنا موسى عليه السلام ثم قبضه الله تعالى في حينه ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ بما فيه أشرف نفس وهي نفس رسول الله –صلى الله عليه وسلم-، هذه الآية تعتبر تعليما للمسلمين المتبعين للرسول –عليه الصلاة والسلام- حيث إنه خطر ببال بعضهم أنه كرسول لأمة طويلة عريضة ممتدة مع الزمان إلى آخر الدنيا لابد أن يكون أيضا مخلدا معها وباقيا فيها إلى ما شاء الله، فيطول عمره بطول عمر أمته فلا يموت أبدا كما يموت عامة الرسل عند أجل محدد إلا حين تنتهي الأمة من الوجود.

وكان من هؤلاء سيدنا عمر –رضي الله تعالى عنه- ومعروف أنه فعل ما فعل يوم أن شاع الخبر وذاع أن رسول الله –عليه الصلاة والسلام- قد مات أخذ سيفه وتوعد من يقول إن محمدا قد مات ولم تهدأ ثورته من حبه لرسول الله –عليه الصلاة و السلام- حتى جاء أبو بكر رضوان الله تعالى عليه وعاين موت رسول الله –عليه الصلاة و السلام- فقبله في جبينه وقال طبت حيا وميتا يا رسول الله ثم جمع الناس وصعد المنبر وخطب في الناس وعلمهم أن محمدا ما هو إلا بشر يحيا فترة وأجلا ثم يموت فمن كان يعبده فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد رب محمد فإن رب محمد حي لا يموت وقرأ قول الله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَّضُرَّ اللهَ شَيْئًا ﴾[آل عمران: ١٤٤]، يقول عمر رضوان الله عليه وكأني لم أسمع هذه الآية إلا تلك الساعة كان يسمعها كثيرا ولكن لم ينتبه إلى ما فيها حتى قرأها أبو بكر عند وفاة رسول الله –صلى الله عليه وسلم- فهدأ وسكن واتبع خليفة رسول الله –عليه الصلاة و السلام- وهو سيدنا أبو بكر.

ولا يزال هذا الفهم باقيا عند مجموعة من الأمة إلى الآن يعتقدون بقاء النبي محمد –صلى الله عليه وسلم- حيا لم يمت ويغضب أحدهم لو قلت أمامه إن رسول الله –عليه الصلاة و السلام- قد مات يقول بل هو حي عند ربه نعم هو حي عند ربه حياة تختلف عن حياة أهل الدنيا حياة مخصوصة لها خصائص معينة تختلف عن حياة الناس اليوم لكنه بالنسبة لنا في عداد الأموات مات رسول الله –صلى الله عليه وسلم- وهذا لا يعيبه ولا ينقص من قدره فهذا شأن كل نفس ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾.

بل البعض يزعم من حياة النبي –صلى الله عليه وسلم- أو من اعتقاده لذلك يزعم أن فلانا من الأئمة كان عند قبر الرسول –صلى الله عليه وسلم- وسلم عليه فمد النبي –عليه الصلاة و السلام- يده إليه من القبر وسلم عليه والله لو كان لكان شرفا عظيما ولكن لم يقع هذا الشرف لأشراف الأمة للشيخين الكبيرين الفاضلين أبو بكر وعمر رضوان الله عليهما ولم يقع لغيرهما من آل بيت رسول الله –عليه الصلاة و السلام- وهم أولى الناس بمثل هذا الشرف فلا داعي للمبالغات ولا للغلو في أمور لا تفيد النبي –عليه الصلاة و السلام- في قليل ولا كثير حسبه شرفا أن الله تعالى اصطفاه نبيا حسبه عزا أنه آخر الأنبياء بعثة وإرسالا وهو أولهم شرفا وأعظمهم قدرا هو الذي أمهم ليلة الإسراء في بيت المقدس كان لهم إماما في صلاة ركعتين هناك، وهو أول من يحرك حلقة باب الجنة وهو الحاشر الذي يحشر الناس على قدمه يوم القيامة وهو صاحب الشفاعة العظمى رفع الله ذكره وقدره رفعا عظيما لا يفتقر بعد ذلك إلى مبالغات لا فائدة فيها إنما قد مات في عرفنا هو ميت لكنه كالشهداء والأنبياء لهم حياة مخصوصة عند اله تعالى تختلف عن حياتنا فوق الأرض فهو حي عند ربه ولكن لا يأكل ولا يشرب ولا يكلم الأحياء منا إنما قد يبلغه عنا بل يبلغه عنا ما فعلنا من خير أو شر ويبلغه سلامنا وصلاتنا عليه –صلى الله عليه وسلم- وما إلى ذلك مما نصت عليه النصوص الصحيحة في الشرع ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ أي نرزقكم الشر والخير فتنة منا واختبارا، الله تعالى جعل الدنيا هكذا ما بين نعمة ونقمة ينعم على بعض الناس في أشياء وينعم على البعض الآخر بأشياء أخرى ويصيب هؤلاء بنقم في جانب ويصيب أولئك بنقم في جانب آخر ولكن هذا كله عن لطف منه سبحانه وتعالى لا عن قهر ولا عن جبروت يعذب به عباده كما يفعل الملوك عادة إنما الله يحكمنا بمنطق وبما أنه الرحمن الرحيم قال تعالى: ﴿ اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ﴾[الشورى: ١٩]، يرزق من يشاء ما يصلحه وما يكون سببا في صلاحه ومعينا له على الخير،

قد يستفيد الإنسان بهذا وقد يفسد مع وجود أسباب الصلاح حوله لكن الله تعالى لطفا منه وتفضلا يفعل الأصلح لعباده سبحانه وتعالى ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ فلا يغتر صاحب النعمة الذي وسع الله عليه في الدنيا ولا يعتقد أن الله رضي عليه ولذلك وسع عليه في المال والولد والأرض والبيت وما إلى ذلك هذا لا يدل على رضى ولا على غضب ولا يخشى ولا ييأس صاحب البؤس وصاحب النقمة الذي اختبره الله بالمصائب فيظن أن الله تعالى قد أهانه وغضب عليه ولذلك منعه من المال منعه من الولد منعه من الصحة منعه من كذا أبدا صاحب النعمة مبتلى ومختبر وصاحب النقمة مبتلى ومختبر لجنة امتحان واحدة ولكن اختلفت المواد ليكون السؤال في مستوى الطلاب إن صح التعبير، فالله تعالى يعطي لكل واحد اختبارا يتناسب مع حاله ومع قدر صبره قال النبي -صلى الله عليه وسلم- (يبتلى الرجل على قدر دينه فإن كان في دينه شدة شدد عليه وإن كان في دينه رخاوة خفف عنه) وهذا من رحمة الله سبحانه وتعالى وعرف الناس ذلك من أهل الصلاح عرفوا ذلك عن الله سبحانه في تعبيراتهم: الله تعالى يعطي البرد على قدر الغطاء هذه كلمة صحيحة فعلا الله تعالى حكيما جدا يعطي النعمة أو النقمة على حسب قدرة الإنسان على التحمل فمن الناس من تفسده النعمة فلا يعطيه الله النعم حتى لا يفسد بها ومن الناس من تفقده المصائب صوابه وتجعله يفسد ويفسد ويهلك ويهلك فالله تعالى يبتليه بالنعم ويختبره بها رحمة من الله سبحانه.

هكذا كان الكافرون يعتقدون وينتظرون موت رسول الله -عليه الصلاة و السلام- وبموته تموت رسالته ولكن كان الأمر على خلاف ما يعتقدون وما يظنون فهو يموت نعم ولكن لا يموت دينه ولا ينقطع ذكره إنما بقي الدين بفضل الله إلى الآن رغم ما يواجهه ويقابله من تحديات شديدة عنيدة إلا أن الدين باق كما ذكرنا لأن الله حفظه وكتب له الظهور وكان بعض المسلمين يعتقد أن رسول الله -عليه الصلاة و السلام- يخلد ولو إلى مدى الأمة وإلى آخر عمرها حتى يكون مرسلا للجميع بهذه الصفة ولكن شاء الله تعالى أن يقبض رسوله -عليه الصلاة و السلام- عند أجل معين ثلاث وستين سنة وبعدها صار النبي -صلى الله عليه وسلم- عند الأمة ميتا لكن رسالته باقية تحمل معجزتها فالقرآن رسالة ومعجزة في الوقت نفسه وعند قرب أجل رسول الله -عليه الصلاة و السلام- خيره ربه كما يخير الأنبياء جميعا عند دنو أجلهم وبعد استكمال رسالتهم بلغوا رسالة الله وانتهت مهمتهم فيخيرهم الله تعالى بين الحياة أن يعيش في الحياة فترة كما يريد أو أن يموت ويلحق بالرفيق الأعلى، خير الله نبيه موسى عليه السلام وبعث إليه ملك الموت كما ورد الحديث في البخاري (فقال له إن الله يأمرك أن تضع يدك على متن ثور على ظهر ثور، ثور البقر فلك بما غطى يدك من الشعر بكل شعرة كذا وكذا من السنين قال موسى وماذا بعد ذلك قال إذن فالآن) طالما نهايتها الموت فلا داعي للبقاء في الدنيا فالدنيا لا تستحق وما لنا عند الله خير مما لنا في الدنيا فطلب أن يموت عند أجله دون إبقاء له بعد ذلك.

رسولنا محمد -عليه الصلاة و السلام- خيره ربه كما صح الحديث بذلك بين أن تكون له مفاتيح كنوز الأرض والخلد فيها إلى آخر الدنيا وليست كثيرة فقط أعطاها الله للشيطان خلده في الدنيا وبين أن يلحق بالرفيق الأعلى فسمع -صلى الله عليه وسلم- اللهم الرفيق الأعلى اللهم الرفيق الأعلى اللهم الرفيق الأعلى، فمات عند أجله -عليه الصلاة و السلام- ولم يرض بالدنيا كعرض عرض عليه لكن ما له عند الله خير مما له بيننا وفي الدنيا.

هكذا يعلمنا الله عز وجل أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بشر يوحى إليه تجري عليه من السنن ما يجري على البشر من مرض وصحة وفقر وغنى وحياة وموت إلى آخر ذلك ثم تنتقل الآيات إلى بيان موقف آخر من مواقف الكافرين مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كانوا يتمنون له الموت وهو بعيد عنهم حتى إذا رأه أو قابلهم أو واجهوه استهزئوا به وسخروا منه -صلى الله عليه وسلم- وهو أشرف خلق الله على الإطلاق -عليه الصلاة و السلام- يقول ربنا يسجل على الكافرين تلك الجريمة الشنعاء ﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً ﴾، إن يتخذونك أي ما يتخذونك إلا هزوا كأنه لم يكن لهم شغل إذا رأو رسول الله -عليه الصلاة و السلام- غير أنه يستهزئون به ويسخرون منه -عليه الصلاة و السلام-.

وتلك في الحقيقة جريمة شنعاء ذلك لأنهم لم يسخروا من محمد بن عبد الله كشخص -صلى الله عليه وسلم- وإنما سخروا من رسول الله -عليه الصلاة و السلام- وفرق بين الاثنين محمد بن عبد الله إنسان عادي عاش بينهم أربعين سنة يضعونه فوق رؤوسهم وينظرون إليه بعين الإكبار والتقدير والتوقير يلقبونه بالصادق الأمين -صلى الله عليه وسلم- حتى إذا قال لهم إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، إني رسول الله إليكم جميعا عند ذلك كفروا به وعاندوه وآذوه وسخروا منه.

إذن هم في الحقيقة يسخرون من رسالة الله ويسخرون من دين الله فليست سخريتهم من شخص بشر بقدر ما هي سخرية من رسالة سماوية عظيمة من خطاب رباني كريم من كلام الله سبحانه وتعالى ومعجزاته التي يؤيد بها الأنبياء ولهذا أحذر من يسخر من بعض أهل الدين ينبغي أن يعلم أنه لا يسخر من شخصه فليست خصومة بينه وبين شخص اسمه عبد الله أو محمد أو أحمد أو سيد أو ما إلى ذلك إنما سخر منه لأنه فضيلة العالم عبد الله أو الشيخ سيد أو الصالح محمد أو حافظ القرآن وشيخ القرآن فلان فبدأ يستهزيء بهذا الشخص ويسخر منه حينما أظهر أمارات الالتزام عن نفسه حينما صار يعلن عن هويته الدينية بشكل يشبه به شكل وهيئة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إنما سخر منه لأنه صار شيخا شيخه القرآن أو لأنه صار عالما في الدين والشريعة وليس عالما في الذرة ولا في الفيزياء ولا في كذا فيسخر منه على أنه درويش أو ما إلى ذلك أو لا قيمة له مثل العلماء الذين علموا الكونيات والفلك وما إلى ذلك السخرية هنا منصرفة في الحقيقة ومنصبة على كتاب الله وعلى دين الله فليحذر هذا المستهزيء على نفسه يحذر من الله عز وجل لأن الله أشد غيرة من خلقه ويغار الله على دينه ويغار الله على الحق ولو كان حقا لغيره ويغار الله على أولياءه وقال في الحديث القدسي ﴿من آذى لي وليا فقد آذنته في الحرب ﴾ والولي هو من تولى الله بطاعته ولو لم يطر في الهواء ولو لم يمشي على الماء ولو لم يفعل الأعاجيب ولو لم تظهر له كرامة بمجرد أنه يطيع الله تعالى ويتولى أمر الله بالسمع والطاعة فهذا من أولياء الله ولكنها درجات رفع الله درجاتنا في الولاية له.

فكان الكافرون يستهزئون بحمد بن عبد الله -صلى الله عليه وسلم- على أنه رسول لله ﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا ﴾ كيف كانوا يستهزئون منه؟ كانوا يقولون مثلا ﴿ أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ أهو هذا الذي يذكر ألهتكم بسوء، وهو الذي يسفه الأحلام ويسفه عقولنا ويسفه آلهتنا ويقول إنها حجارة لا تنفع ولا تضر أهذا هو يستقلون بشأنه ويستصغرون قدره وإنما قدره عظيم -صلى الله عليه وسلم- كفى أن الله اختاره واصطفاه من بين العالمين ليكون إماما وقدوة وأسوة حسنة ولا اختيار بعد اختيار الله ولا تعديل على أمر الله تبارك وتعالى ولكن أكثر الناس لا يعلمون وجاء في آية أخرى يقول الله تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾[الفرقان: ٤١]، هكذا كانوا يقولوا أيضا في مواقف أخرى أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ﴾ يعني ألم يجد الله رسولا يبعثه إلا هذا ومن هذا؟ إنه هو الذي أحببتموه هو الذي رضيتموه هو الذي شهدتم له بالصدق والأمانة هو الذي أجمعت عليه الآراء في الفضل والنبل والشرف والعفة والكرامة الآن تختلفون عليه ولا يعجبكم كرسول، من في العالمين مثله من في الدنيا شبيهه -صلى الله عليه وسلم- لكنهم يكابرون ويعاندون فكانوا يقولون: ﴿ أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ يعني بينما حالهم أنهم كافرون بذكر الرحمن يعني غضبوا أن رسول الله محمدا -صلى الله عليه وسلم- يسفه اتخاذهم للأحجار آلهة وهم قد أساءوا إلى الله عز وجل وأعرضوا عن ذكره فهم أسوأ حالا ولا يشعرون، هم سفهاء حقا ولا يدرون ولكنهم ما انتبهوا إلى هذا ويقول الله تعالى: ﴿ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾.

﴿ خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ هذا خبر يخبر الله به عن طبيعة الإنسان في خلقه وفي جبلته التي جبل عليها وتعلمون أن الله حين خلق الإنسان خلقه خلقة مزدوجة وبنفس مزدوجة ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾[الشمس: ٧، ٨]، فيها هذا وهذا فيها قابلية أن تميل هكذا وأن تميل هكذا ليصح تحميلها أمانة الاختيار، ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾[البقرة: ٢٥٦]، ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[الكهف: ٢٩]، فلابد أن يكون المخاطب بهذا والمكلف به قابلا ليؤمن وقابلا ليكفر فيه القابلية والاستعداد حتى يكون مختارا حقا

يختار طريقه دون اضطرار من أحد فطبيعة الإنسان مزدوجة وفي طبيعة الإنسان صفات لا تستحسن، ولكن خلق عليها حتى يظهر عليه أثر الدين يأتي الدين السماوي ويقوم هذا الاعوجاج في النفس البشرية فيظهر أثر الدين على العباد ﴿ خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ الأصل أن الإنسان عجول كما قال تعالى: ﴿ وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً ﴾[الإسراء: ١١]، ولكن جاء الدين يعلمنا الطمأنينة كما في الصلاة كل ركن من أركان الصلاة طمأنينة التأني عدم التعجل في الأمور إلا ما كان خيرا محضا نعلم أنه خير حقا وحق وهو خير خالصا إذا علمنا هذا سابقنا إليه قال تعالى: ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ﴾[الحديد: ٢١]، ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ﴾[آل عمران: ١٣٣]، ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ ﴾[الجمعة: ٩]، تعجل بسرعة لا تنتظر ولا تتوانى إذا علمت أن ما أمامك خير لا محالة أما في الأمور الأخرى التي لا يعلم خيرها من شرها فتواني وتأني واطمأن واستخر الله أولا واستشر أهل الرأي وهكذا ﴿ خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ لماذا هذا الخبر؟ وما الغرض من ذكره لأن الكافرين استعجلوا في قرار التدين في اختيار الدين كان ينبغي أن يفعلوا كما فعل بعض النبلاء منهم يقول لهم داعي الإسلام ولو كان غير رسول الله –صلى الله عليه وسلم– كما فعل مصعب بن عمير مع بعض اهل المدينة جاءوا يطردونه حتى لا يقرأ القرآن ولا يدعو إلى الإسلام في ديارهم، فيقول لهم مصعب –رضي الله تعالى عنه– وغيره قال كذلك أولا تجلس فتسمع فإن وجدت حقا قبلته وإلا انصرفت عنك فيقول حسنا عرض جميل عرض عقلي منطقي فيجلس ويسمع ويسمع بإخلاص وإنصات ربما كان حقا فيسمع فإذا به حق يخالط بشاشة قلبه ويتجاوب مع فطرته فلا يملك إلا أن يقول: أشهد أن هذا كلام الله وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله –عليه الصلاة و السلام– ولكن كثيرا من الكافرين تعجلوا بالكفر وتعجلوا بالنطق بالقرار، دون نظر كانوا ينبغي أن ينظرون في شخص رسول الله –عليه الصلاة و السلام– قبل أن يكفروا به ويستهزئوا به هذا أشرف واحد فيهم بإقرارهم قبل ذلك.

قال تعالى ملقنا رسوله –عليه الصلاة و السلام– ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ ﴾[سبأ: ٤٦]، سأعظكم موعظة واحدة خذوا بها قل إنما أعظكم بواحدة ما هي ﴿ أَن تَقُومُوا للهِ ﴾لا للهوى لا لغرض آخر ﴿ أَن تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ ثم تتفكروا في شخص رسول الله –عليه الصلاة و السلام– ليس مجنونا وليس به مرض ولا علة قوموا متفكرين فرادى وجماعات وتشاوروا في أمر هذا الرجل تشاورا محايدا تشاورا حقا ثم روا فيه رأيكم وقولوا رأيكم بحياد وإنصاف لو فعلوا ذلك لآمنوا لو فعلوا ذلك لعلموا أنه لا أصدق من رسول الله –عليه الصلاة و السلام– ولتغير نظرهم إليه وآمنوا به على أنه رسول ولكنهم تعجلوا في قرارالتدين وفي اختيار العقيدة تعجلوا في طلب العذاب واستعجاله كما سيأتي في الآية التالية ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾، وتكررت هذه الآية كثيرا في القرآن أو عدة مرات ذلك لأنهم كانوا كلما توعدهم النبي –عليه الصلاة والسلام– بوعيد قالوا متى هذا الوعد ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[الأحقاف: ٢٢]، إلى أن قالوا قولة بشعة شنيعة لا تدل على عقل ولا تنم على فكر أبدا ولا إحساس ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[الأنفال: ٣٢]، يكلموه الله مباشرة ويدعونه ويبتهلون إليه إن كان هذا الدين وهذا القرآن هو الحق من عنده فليمطر عليهم حجارة من السماء أو أن يأتيهم بعذاب أليم، كانوا يمكن أن يقولوا غير ذلك اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا من خير الجنة فأنزل علينا من قطوف الجنة أرنا آية كهذه مثلا لكن أن يستمطروا من عند الله حجارة من السماء أو عذابا أليما، فهذا سفه عظيم وعناد عجيب فكان تعجلا منهم واستعجالا والله تعالى يقول: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ ﴾[الرعد: ٦]، السيئة هي العذاب الذي يسوءهم قبل الحسنة النعمة والجنة فطلبوا كبرهان على صحة نبوة النبي –عليه الصلاة و السلام– أن ينزل الله عليهم عذابا وكان ينبغي أن يطلبوا الجنة أو شيئا من الرحمة كدليل وهو دليل كاف وواف ولكنهم تعجلوا السيئة قبل الحسنة رغم مرور المثلات قبل ذلك يعني الأمثلة والنماذج في الحياة قوم كذا وقوم كذا من الأمم السابقة تعجلوا العذاب فعجل الله لهم العذاب ألا يخشون بطشة الله تبارك وتعالى:﴿ خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ الله تعالى يقول: ﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي ﴾ سأريكم آياتي في العذب سأريكم آياتي في الانتقام سأريكم آياتي في العقاب ﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ لكل شيء مستقر ﴿ لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ ولكل شيء قدر ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩]،

المسألة ليست عشوائية وليست استفزازية الله تعالى لا يستفز الله عظيم حليم كريم سبحانه وتعالى وعلم النبي – عليه الصلاة و السلام– الصبر والأناة قال ﴿ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ﴾[الروم: ٦٠]، لا يستفزونك فتدعو عليهم اصبر وهكذا فمهما قالوا الله تعالى حدد لكل شيء توقيتا وأقته إليه ﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي ﴾ أي في حينها ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ﴾.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ ﴾ هذه حكاية قولهم الذي استعجلوا فيه، ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ إن كنتم صادقين جملة فيها إثارة كما يقول الواحد لصاحبه ليستفزه على عمل معين إن كنت رجلا افعل كذا والمرأة حينما تطلب الطلاق من زوجها ولأنه حكيم لا يريد الطلاق فهي تستفزه بمثل هذه الكلمة أيضا لتحصل منه على ما تريد إن كنت رجلا طلقني فيستفز الحكيم لا يستفز يقول أنا رجل ولن أطلقك ويحفظ بيته ويحفظ أهله ولكن هذا أسلوب إثارة واستفزاز يستعمل في الخير ولا ينبغي أن يستعمل في الشر ولا يجوز للمرأة أن تستعمله للحصول على طلاق في غير ما بأس ولو لم يكن زوجها رجلا فلماذا رضيت به من البداية ولماذا تزوجته هكذا يستفز الكفار رسول الله –عليه الصلاة و السلام– ويستثيرونه ﴿ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ لكنه مطيع لأمر ربه ويقول كما لقنه ربه ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الملك: ٢٦]، أنا لا أعلم متى ينزل العذاب ولا متى تقوم الساعة ولا متى تدخلون النار إنما علمها عند ربي سبحانه وتعالى ويقول الله تعالى معقبا على هؤلاء واستعجالهم ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ لو أنهم يعلمون ماذا سيكون حالهم عند نزول العذاب كيف يكونون في خزي وذلة وجوه مسودة عليها غبرة ترهقها قترة وعليها غبرة وجوه أصابها الحزن والكآبة وقلوب واجفة خائفة وجلة عليها ذل حين ينزل العذاب عليهم لو يعلمون كيف يكون حالهم ما استعجلوا العذاب ولا نادو به ولصدقوا وآمنوا ثم لما كان الأمر كذلك كفرا برسول الله –صلى الله عليه وسلم– واستهزاءا به الله تعالى طيب خاطره وواساه في مصابه فكان النبي –عليه الصلاة و السلام– يحزن جدا على كفر قومه ويدعوا لهم اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون حتى قال الله ﴿ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾[الأنعام: ٣٥]، يعني عز عليك كفرهم ﴿ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ﴾ يعني فافعل ما تشاء حتى تجعلهم يؤمنون إن كنت تستطيع ذلك فكان –عليه الصلاة و السلام– يعز عليه كفر قومه فيحزن لهذا فكان الله يواسيه في مصابه ولأنه هو الصادق الأمين طول عمره و اليوم من كانوا يصدقونه بالأمس ويستأمنونه يكذبونه اليوم هذا أمر يحزن لماذا غير الناس رأيهم في ولماذا يكذبونني وأنا أنطق بالحق الذي نزل من السماء فالأمر محزن لكل داع فيصبر الله تعالى نبيه –عليه الصلاة و السلام– فيقول: ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾، يعني لست أنت يا محمد أول من سخر منه قومه اعلم أن كل نبي جاء قومه برسالة استهزئوا به وسخروا منه فأنت واحد منهم وحينما تعم المصيبة وتوزع على أفراد كثيرين تخف في ثقلها وتهون في وقعها على النفس فبهذا يخفف الله تعالى عن نبينه –عليه الصلاة و السلام– ويعطيه ما يتحدى به الناس ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾ قل من يحفظكم ومن يحميكم بالليل والنهار من الرحمن يعني لا أحد ليس لكم نصير من دون الله ولا ولي من دون الله فكيف تكفرون بالله عز وجل ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ النتيجة رغم هذا السؤال الذي يوقظ الانتباه ويوقظ القلب ويجعل الإنسان فعلا يبحث بواقعية من يحميني ومن يكفلني ومن يكلئني الرحمن أو أحد من دونه لكنهم لم يفكروا ولم ينتبهوا فقد غلب عليهم السفه ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[المطففين: ١٤].

﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَ ﴾ يعني أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا تمنعهم من عذابنا حين نوقعه ومن عقابنا حين ننزله عليهم معناها ليس لهم سؤال واستفهام يقصد به النفي أي ليست لهم آلة تمنعهم من دوننا ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلاَ هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ هؤلاء الكافرون حين ينزل العذاب عليهم لا يستطيعون نصر أنفسهم من الله وليس لهم من ينصرهم أو يدفع عنهم ولا هم منا من الله يصحبون يعني لا يصحبون بخير الله تعالى لا يصحبهم بخير مما عنده ولا يصحبهم برحمة مما عنده ولا يصحبهم برحمة من رحمته إنما يصحبهم بعقابه وعذابه وشدة غضبه وقيل معناها ﴿ وَلاَ هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ يعني يمنعون فالمعنى

واحد لا يمنعون من عذاب الله ولا يصحبون بشيء من رحمة الله سبحانه وتعالى وفي نهاية المطاف في هذه الحلقة المباركة ومع العنصر الرابع يبين الله تعالى السبب الذي كان وراء كفر هؤلاء الناس أنهم أترفوا في الحياة الدنيا كما قال من قبل ﴿ لاَ تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾[الأنبياء: ١٣]، غالبا على مر العصور الترف سبب مباشر من أسباب الغواية والضلال لأنه يعطي للنفس علوا ويجعل في القلب غرورا ويظن صاحب المال وصاحب الترف أنه يستطيع أن يفعل كل شيء وأن ينال كل ما يريد يقول أحدهم بمالي أفعل ما أريد من واقع سلطتي أفعل ما أشاء، وآخذ ما أحب وهكذا يظن أن يده فعالة وله طلاقة قدرة فيما حوله فيأخذه الغرورة فحينما يأتيه رسول متواضع يدعوه إلى الله وإلى عبادة الله يرى أنه سينزل من عل من مكان عال جدا ليكون مع الساجدين في الأرض أأنزل لهؤلاء لا لا يليق بي أنا فوق وهم تحت أنا عندي مال كذا عندي سلطان كذا عند كذا عندي كذا ويفرح بهذا ويفخر به ويتكبر أن يتواضع لله مع المتواضعين ولا يعلم أن من سجد لله سجدة فهي خير من الدنيا وما فيها ولهذا يقول الله تعالى ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاَءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ يعني من سبب كفرهم أننا متعناهم فاغتروا بالمتعة وهل هنا العيب في أن الله متعهم أو أنهم اغتروا بالمتعة؟ العيب في أنهم اغتروا بالمتعة الله من فضله متعهم أحياهم حياة فيها متعة فيها رغد فيها حياة ذات معايش ولكنهم فتنوا بالنعمة وظنو أنهم قادرون على الأرض وأنهم يصرفون الأمور كما يشاءون ويملكون الاقتصاد في أيديهم فيجيعون من يشاءون ويشبعون من يريدون وهكذا فيأخذهم الغرور فيتكبرون على الإيمان بالله سبحانه وتعالى ويتكبرون على الاتباع لهؤلاء الرسل الذين يرونهم أقلة وضعفاء ومجردين من سلاح وما إلى ذلك ليسوا من وجهاء القوم الذين لهم الوجاهة والسطوة والغلبة الأنبياء قوم يضربون المثل في التواضع والتبسط في الحياة لأن الحياة الدنيا لا تستحق الاهتمام بها فيستكبر الكفار أن يتبعوهم على هذا .

يقول تعالى: ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاَءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ أي امتد بهم العمر في هذه المتعة فتعودوا على هذا الترف وتمسكوا به ولا يستطيعون أو لا يريدون أن ينفكوا عنه الله يقول متسائلا ليثبت أنهم لم يبصروا ولم ينظروا ولم يتدبروا في شيء إنما تعجلوا في اتخاذ قرارهم بالكفر.

﴿ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ يعني أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها هذه الجملة تعددت فيها كلمة المفسرين، ولكنها تجتمع كلها حول انتقاص الأرض هل انتقاص الأرض من أطرافها فعلا فيصغر حجم اليابسة ربما كان للعلماء علماء الطبيعة ربما كان لهم رأي في ذلك ولكن المقصود الشرعي في تفسري هذه الآية هو أفلا يرون ويعتبرون بأن الإسلام يزيد يوما بعد يوم كان الرسول – صلى الله عليه وسلم– وحده أولا أسلم به من الغلمان على بن أبي طالب وآمن معه من الرجال أبو بكر وصدقت به من قبلهم خديجة وهكذا نفر قليل وهذا شيخ كبير وذاك غلام صغير وهذه امرأة ضعيفة لكن مع الأيام انضم إليهم فلان وفلان وفلان من أعالي القوم ومن أكابر الناس حتى أسلم عمر بن الخطاب –رضي الله تعالى عنه– وعمروا بن العاص وغيرهم وكان إسلام عمر على سبيل المثال ضربة قاصمة لقريش حزنوا جدا حينما سمعوا بهذا الخبر أفلم يرى الكفار أن الإسلام يزيد يوما بعد يوم أفلم يرو حينما كانت الهجرة وكيف صار الأمر للإسلام والمسلمين فكان هذا من نقصان الأرض من عندهم وسعة رقعة الأرض في الإسلام، الإسلام يتسع وهم تضيق دائرتهم فكان ينبغي أن يتفكروا في هذا ولكن على اللفظ العام في تفسير اللفظ عموما يقول بن عباس –رضي الله تعالى عنهما– وغيره نقصان الأرض يكون بخرابها بنقصان الأنفس والثمرات وخاصة نقصان العلماء منها بموتهم فموت العالم نقصان من أطراف الأرض وذكر بن كثير –رحمه الله تعالى– بيتين من الشعر عن أحد الشعراء القدامي الإسلاميين الذين تكلموا في شأن العلماء برفعتهم فقال قائلهم:

الأرض تحيا إذا ما عاش عالمها متى يمت عالم منها يمت طرف

كالأرض تحيا إذا ما الغيث حل بها وإن أبى عاد في أكنافها التلف

وإن أبى الغيب عاد التلف إلى الأرض وعم فيها، فنبه السلف ومن بعدهم إلى أن وجود العالم في الدنيا توسعة وموته نقصان من أطراف الأرض ونقصان من الخير كأن الأرض كلها تنقص بهذا، وفسر بن كثير هذه الآية ورجح أن نقصان أطرافها هلكت الأمم الكافرة من حول أمة هذا القرآن وأمة النبي -صلى الله عليه وسلم- قال أحسن ما فسر به قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الأحقاف: ٢٧]، والمعنى أفلا يعتبرون بنصر الله لأولياءه على أعداءه يعني نقصان الأرض يعود إلى المعنى الأول نقصان الأرض هو هزيمة الباطل ونقصان الأرض تحت قدميه وسعة الأرض في دائرة الحق واتساع نشر الإسلام ودين الله سبحانه وتعالى فكان ينبغي على الكفار أن يتعبروا بهذا حينما يرى العالم مثلا أن الإسلام يتزايد والمسلمون يتزايدون يوما بعد يوم رغم التحديات والمواجهات ينبغي أن يفكروا في هذا إذن هذا الدين حق حينما يرو أن المصحف يحقق أكثر وأعلى نسبة مبيعات في معرض من معارض للكتب والمؤلفات وربما في أكثر من معرض لو عملوا إحصائيات على المعارض كلها حينما يرون هذا لابد أن يعتبروا بعقلهم أن القرآن حق وهذا الإقبال الشديد عليه يدل على إجماع أو رأي أغلبي من البشر أن هذا الكتاب حق ويستحق الاقتناء والقراءة والحفظ وما إلى ذلك لكن الكفار كما وصفهم الله سفهاء يعني خفيفوا العقل لا يحكمون الأمر وبالتالي تخفى عليهم مثل هذه العلامات والمؤشرات الطيبة.

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ ﴾ في النهاية ربنا سبحانه وتعالى يختم هذه الطائفة من الآيات في هذا الموضوع بتذكير النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يقول للناس إنما أنذركم بالوحي لا أنذركم من عندي أنا ولا أتكهن وقوع عذاب ولا أتوقع شيئا من عند نفسي إنما أنذركم إنذارا جاءني من قبل الوحي من الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[النجم: ٣، ٤].

﴿ وَلاَ يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾، شبههم الله تعالى في عدم استجابتهم لدعوة الحق بقوم صم، صم الآذان في الأصل لا يسمعون فكأنهم لا يسمعون، وهؤلاء الذين لا يسمعون مهما نودي عليهم ومهما حذروا فإنهم لا يسمعون النداء ولا يفهمون الإنذار لو أن إنسانا أصم وأردت أن تحذره من خطر يا فلان احذر من كذا احذر من كذا لن يسمعك ولن يستفيد كذلك كان الكفار بهذا الشكل كأن في آذانهم صمما أصابهم وثقلا وقر في آذانهم فلم ينتبهوا إلى الحق في كلام الله ولا في كلام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولا في أحوال الدنيا من انتقاص الأرض من أطرفها وسعة رقعة الإسلام وانتقاص وضيق رقعة الكفر ودخول الناس في دين الله أفواجا لم يعتبروا بشيء وكأنهم صم لا يسمعون شيئا كما قال ربنا ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾[البقرة: ١٧١]، وقال المنافقين ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾[البقرة: ١٨]، وحين ينزل الله عليهم نفحة أي نصيبا من العذاب ساعتها ينادون الويل وساعتها يعترفون بذنبهم ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ولكن بماذا يفيد الندم حينما ينزل العذاب وبعد أن يفوت الأوان ﴿ وَلاَتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾[ص: ٣] لا مناص يومها ويوم القيامة الحساب الحق الله لم يعد بالحساب في الدنيا إنما الدنيا تذكرة فقط وهؤلاء يستعجلون العذاب والحساب في الدنيا ولكن الله تعالى أعد الموازين القسط ليوم القيامة لم يعدها للدنيا ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ أي لو كان شيئا قليلا جدا ﴿ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ لو كان للإنسان المحاسب بين يدي الله عز وجل يوم القيامة مثقال حبة من خردل من خير أو شر الله يأتي بها ويحسبها لصاحبه أو عليه ويكافئه عليها أو يعاقبه بها، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[الزلزلة: ٧، ٨]، ﴿ وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ لا يحتاج الله إلى من يحاسب معه ولا يوجد من يحاسب حساب الله فحساباتنا يقع في الغلط وينشأ منها الخطأ أما حسابات الله فهي غاية الدقة وغاية العدل نسأل الله تعالى أن ييسر حسابنا وأن يحاسبنا حسابا يسيرا أو أن يتفضل علينا فيدخلنا الجنة بغير حساب مع السابقين الأولين إنه سبحانه وتعالى ولي ذلك والقادر عليه وأصلي وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وأشكر لحضراتكم حسن المتابعة والاستماع نفعنا الله وإياكم بالخير والسلام عليكم ورحمة الله .

وردتنا إجابات عدة فكان السؤال الأول كيف تصيغ دليلا عقليا على التوحيد من خلال الآية الثانية والعشرين؟ وكانت الإجابة قال الله تعالى في كتابه العزيز ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[الأنبياء: ٢٢]، فمن خلال الآية الكريمة دليل عقلي على التوحيد فبيان ذلك أن العالم العلوي والسفلي على ما يرى منه في أكمل ما يكون من الصلاح والانتظام الذي ما فيه خلل ولا عيب ولا ممانع ولا معارضة فدل ذلك على أن مدبره واحد وإلهه واحد وربه واحد فلو كان له مدبران وربان أو أكثر لاختل نظامه وتقوضت أركانه فإنهما يتمانعان ويتعارضان وإذا أراد أحدهما تدبير شيء وأراد الآخر عدمه فإنه محال وجود مرادهما معا ووجود مراد أحدهما دون الآخر يدل على عجز الآخر وعدم اقتداره واتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور غير ممكن فيتعين أن القاهر الذي يوجد مراده وحده من غير ممانع ولا مدافع فهو الله الواحد القهار.

ما شاء الله إجابة طيبة وذكرت ذلك لأن في هذه الأيام كثير من خصوم الإسلام والمحاجين لا يصدقون بالقرآن بعضهم وبعضهم يفسر الآية ويأولها حسب ما يشاء لكن لا يستطيع أن يخالف عقله فطبيعة العقل تقر عند العقلاء جميعا بأن الشيء الواحد إذا دبره شخص واحد أو مدبر واحد استقام أمره وانتظم على طريقة واحدة معينة أما إذا تعدد المدبرون له والمتصرفون فيه فإنه يحصل فيه التنازع ويظهر عليه الخلل ويطرأ عليه عدم التوازن فإذا ما أراد واحد منهم شيئا وأراد الآخر خلافه فيحصل تعارض هنا والمنطقي إما أن يقع الأمران يعني تقع الإرادتان فيقع الشيء ونقيضه وهذا مستحيل وإما أن يقع اختيار إله منهم أو مدبرمنهم دون اختيار المدبر الآخر إذن المدبر الآخر هذا الذي لم يقع اختياره ولم تنفذ إرادته عاجز فلا يستحق أن يكون إله إذن بقي إله واحد، فالضرورة العقلية والمنطق العقلي يقر بأن الإله واحد ولابد أن يكون واحد والعقل يتبع النص الشرعي والنص الشرعي لا يهمل العقل ولا يصادر عليه إنما يصيغ له الكلام فهذه آية قرآنية ولكن فيها كلام عقلي ومنطق عقلي يستدل به العقلاء ويكون حجة على من لم يحتج ومن لم يصدق بالقرآن والسنة لكفره فعقله حجة عليه وهكذا القرآن يلزمه الحجة ويقيم عليه البرهان.

السؤال الثاني: زعمت طوائف الكفر أن الرحمن اتخذ ولدا كيف نرد هذه الفرية؟ وكانت الإجابة قال الله تعالى في كتابه العزيز ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾[الأنبياء: ٢٦]، يقول الله تبارك وتعالى ردا على من زعم أن لله تبارك وتعالى ولدا من الملائكة كمن قال ذلك من العرب أن الملائكة بنات الله فقال الله عز وجل ﴿ سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾، أي الملائكة عباد الله مكرمون عنده في منازل عالية ومنازل سامية وهم له في غاية الطاعة قولا وفعلا فقد ألزمهم الله وصيرهم من عبيد كرامته ورحمته وذلك لما خصهم به من الفضائل والتطهير عن الرزائل وأنهم في غاية الأدب مع الله والامتثال لأوامره.

هذه إجابة كما فهم المجيبون على أنها في داخل السورة فقط ولكن كانت نص السؤال عاما فكانت الإجابة ينبغي أن تكون بشكل أعم، فالكفار اعتقدوا أن الملائكة بنات الله واليهود قالوا عزير بن الله والنصارى قالوا المسيح بن الله وهكذا، الرد على ذلك كما جاء في القرآن تبرئة الملائكة من أن يكونوا أبناء لله أو بنات لله إنما هم عباد مكرمون فما القول في عيسى والعزير هؤلاء رآهم الناس في الدنيا بشر يعتريهم ما يعتري البشر كما قال الله تعالى ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ ﴾[المائدة : ٧٥]، والبقية مفهومة ولكن لفظ القرآن عظيم كانا يأكلان الطعام يعني يضطر أحدهما إلى ما يضطر إليه بن آدم من إخراج فضلاته والإله لا يليق به أن يدخل حماما أو يضطر لحاجة مثل هذه ليقضيها وإلا لكان هذا من ضعفه ومن عجزه يحتاج إلى الطعام فيجوع ويحتاج إلى الإخراج فيضر بذلك أو يضطر إليه وهكذا هذا لا يكون إلها وليس من وصف الإله أما خصوص الولد بشكل عام ذكرا أو أنثى فإن الولد عادة يتخذه أبوه فالولد لا يأتي عادة إلا إذا أراد الإنسان لنفسه أن ينجب أولاد فيتزوج يتخذ صاحبة وبعد الصاحبة يطلب الولد فإذا جاءه الولد لماذا طلبه طلبه زينة في الحياة الدنيا عزا يحمل اسمه من بعده لأنه سيموت قبل ولده عادة كما هو الغالب وإن لم يكن دائما أو أنه يتقوى به على نوائب الدهر ومصائب الأيام ومشاغل الدنيا وخصومه وما إلى ذلك كما يقول الأولاد عزوة، إذن طلب الولد حاجة عند الآباء والأمهات وهل لله حاجة في ولد الله تعالى حي لا يموت سبحانه وتعالى

فلا يحتاج إلى من يحمل ذكره من بعده والله تعالى قوي عزيز لا يغلب سبحانه وتعالى فلا يحتاج إلى من يعززه ولا من يقويه ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾[الإسراء: ١١١]، فالحمد لله والله أكبر كبيرا.

السؤال الثالث: بين كيف كانت السماوات والأرض رتقا ففتقهما الله ؟

وكانت الإجابة قال الله تعالى في كتابه العزيز ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ﴾[الأنبياء: ٣٠]، أن السماوات والأرض كانتا رتقا أي كان الجميع متصلا بعضه ببعض متلاصق متراكم بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر ففتق هذه من هذه فجعل السماوات سبعا والأرض سبعا وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء فأمطرت السماء وأنبتت الأرض ولهذا قال الله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ﴾، أي وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئا فشيئا عيانا وذلك كله دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء هذا والله تعالى أعلى وأعلم.

إجابة طيبة.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾[الأنبياء: ٣٢] السؤال لماذا ذهب المفسرون إلى تأويل السقف المحفوظ أنه محفوظا من الوقوع ولم يذهبوا إلى حفظ السقف من اختراق الشياطين واستراق السمع وقال تعالى ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾[الحجر: ١٧]، ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾[الصافات: ٧]، أما بالنسبة للوقوع فالآيات جاءت صريحة ﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾[الطور: ٥]، ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾[الحج: ٦٥]، ﴿ إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولَ ﴾[فاطر: ٤١]،

السؤال الثاني: كيف التعامل مع من يسخر منا ومن علماءن ويعيروننا بالتزامنا؟

السؤال الثالث: وجه الجمال أو العلاقة بين ﴿ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَ ﴾ و ﴿أَلْقَى فِي الأَرْضِ أَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾؟

بالنسبة للإخوة الحضور في الاستديوا لاحظت في الحلقات السابقة تكرار السؤال على نبوءة السيدة مريم عليها السلام ومعلوم مكانتها بآيتين في القرآن في سورة آل عمران: ﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[آل عمران: ٤٣]، والآية الثانية في سورة التحريم: ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾[التحريم: ١٢]، فهي صديقة قانتة وبالنسبة للحديث الذي يؤكد ذلك قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أو كما قال (إن الله أمرني أن أبشر خديجة ببيت من قصب أو منزلة بين امرأة عمران وبين السيدة مريم) هذا دليل على عدم نبوءتها؟

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يصف ربنا تبارك وتعالى في سورة البقرة وفي سورة أخرى في القرآن عن آدم عليه السلام مرة اهبطوا بالجمع ومرة بالمثنى في سورة طه هل هناك فرق في ذلك؟

يصف أيضا ربنا تبارك وتعالى في آيات القرآن الكريم لعبا ولهوا ومرة تسبق لعبا لهوا فهل هناك من أوجه تفسيرية تكون عونا لنا على الحفظ إن شاء الله؟

كان سؤاله الأول عن قول الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ لماذا ذهب المفسرون إلى أن محفوظ أي محفوظا من الوقوع وليست محفوظة من اختراق الشياطين كما في آية أخرى؟

بسم الله الرحمن الرحيم أولا لابد من استقصاء التفاسير كلها حتى نقول إن المفسرين ذهبوا جميعا إلى كذا دون كذا ولو كان الأمر كذلك بعد الاستقصاء لأقوالهم لأن قول الله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظً ﴾، السماء كلها الكلام هنا على السماء كلها أما قوله ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴾ ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ هذا الكلام على السماء الدنيا فقط لأن الجن كانت تسترق السمع من عند السماء الدنيا قبل الإسلام قبل نزول القرآن فمنع هذا بعد مجيء الإسلام ولم يبق لهم هذا الأمر وإنما طردوا عن السماء بالشهب وما إلى ذلك مما يصرفهم الله تعالى به عن استراق السمع، لكن مسألة حفظ السماء عن السقوط هذا أكبر وأضخم فربما لا يضرنا نحن البشر ضررا بالغا أو كبيرا في أن تسترق الجن السمع أو لا تسترق لكن يضرنا ضررا بالغا جدا ونهلك ونموت ولا تبقى لنا حياة لو أن السماء نزلت على الأرض أو سقطت على الأرض لعل هذا يكون هو الموجه لقول المفسرين ممن قال منهم بأن حفظ السماوات حفظ من السقوط لقول الله تعالى ﴿ إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ﴾ والآيات النظيرة لذلك والله أعلم.

سؤال الثاني فضيلة الشيخ عن كيفية التعامل مع من يسخر من الالتزام؟

كيف نتعامل مع من يسخر منا كما كان يتعامل رسول الله –عليه الصلاة والسلام– فعلوا به ما فعلوا وسخروا ما سخروا واستهزئوا ما استهزءوا وقال الله تعالى مبينا ذلك أن من يسخر يحيق به عاقبة سخريته كما حدث مع السابقين فننتظر كذلك من الله الفجر ونصبر على الأذى لسنا خيرا من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام لسنا خيرا من أبي بكر وعمر والصحابة –رضوان الله تعالى عليهم– سخر منهم الناس وفعلوا بهم ما فعلوا وضرب أبو بكر عند البيت الحرام لأنه أظهر إسلامه وضرب بن مسعود لأنه قرأ سورة الرحمن وهكذا فحين يسخر منا نعلم أن ربنا سبحانه وتعالى أراد أن يثيبنا رغم أنوفنا حسنات تتنزل علينا أفنطردها أو نستاء بها فلنفرح بهذا ولكن نحزن على إخواننا من البشر الذين لم تهد قلوبهم فندعوا لهم كما دعا النبي ––عليه الصلاة و السلام– اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون ففي استهزائهم بنا خير وإشارة إلى أننا بحمد الله على الحق فيما نظن طالما يسخرون منا كما كان الناس يسخرون من رسول الله –عليه الصلاة و السلام– فهذا مؤشر صلاحية فينا وعاقبته خير لنا وسوء على الساخرين والمستهزئين فلا تعبأ بهم ولا تتبعهم بملاحقة وإن صح قول القائل:

ولو أن كل كلب عوى ألقمته حجرا لصار الحجر مثقالا بدينار

الحجارة يغلوا سعرها وترتفع أثمانها وهي حجارة في الأصل فلا داعي أن تتبع هؤلاء اتركهم لله سبحانه وتعالى واسئل الله تعالى لهم الهداية ان يثيبنا الله على ذلك ثوابا عظيما.

سؤاله الثالث: على العلاقة بين قوله تعالى ﴿ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ أَلْقَى فِي الأَرْضِ أَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾؟

هو كان يسئل عن العلاقة الجمالية بين قوله تعالى ﴿ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ أَلْقَى فِي الأَرْضِ أَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ على حسب ما فسرنا واستقينا من بن كثير –رحمه الله تعالى– لم يكن هناك شيء من هذا إذا كان الانتقاص لموت الأنفس ونقص الثمرات أو اتساع رقعة الإسلام وضيق رقعة الكفر ودائرته في الأرض وإرساء الجبال على الأرض وتثبيت الارض بها ليس هنا التقاء إنما إن كان هناك تفسير علمي وهذا لابد أن نتحرز منه ويتحرى فيه حين نفسر القرآن أو الآية القرآنية بتفسير علمي أو

بكشف علمي ونظرية علمية لابد أن نتقي هذا قدر الاستطاعة ويفسر الأمر أو يحمل الأمر بحكمة فلا تفسر الآية بنظرية علمية تتطور وتتغير إذن فالقرآن أيضا يتطور ويتغير القرآن حقائق ثابتة وفيها بعض الحقائق العلمية إنما حين يصل العلماء إلى منتهى بحثهم ويصلون إلى منتهى الأمر ويدركون الحقيقة العلمية أو الكونية الواقعة سيجدون الآية تخبرهما بذلك من قبل أن يصلوا إليه فربما كان هناك جمال بين انتقاص الأرض بالتفسير العلمي وبين إرساء الجبال لها لكنه لا يبدوا لي الآن والله تعالى أعلى وأعلم.

سؤالها الأول هل هناك فرق بين قوله تعالى اهبطوا منها أو اهبطا منها في قصة آدم عليه السلام ؟

الفرق ليس دقيقا وليس كبيرا إنما هو فرق شكلي الله تعالى من شأنه في القرآن سبحانه وتعالى أنه يغير في الأسلوب في المتشابهات والنظائر أحيانا يسمى تلوينا في الأسلوب فيعاد الأمر بصورة غير الذي قيل بها قبل ذلك فالقاريء والسامع لا يمل هذا التكرار إنما يكون كل مرة بشكل معين مرة اهبطا ومرة اهبطوا والمأمورين بذلك هم هم لم يتغيروا، الأمر موجه إلى إبليس وإلى حواء وإلى آدم اهبطوا منها جميعا، اهبطا على أنهما اثنان والأمر على حقيقته الشائعة المعروفة أو الثابتة واهبطوا على أن أقل الجمع اثنان وهذا وارد في كثير من القرآن الكريم مثل قول الله تعالى: ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَ ﴾[التحريم: ٤]، إن تتوبا اثنتان إذن فقد صغى قلباكما قلبين لكن قال: ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَ ﴾ وكل منهما لها قلب هما قلبان فقط ومع ذلك جمعهما الله سبحانه وتعالى هذا موجود في القرآن في عدة نظائر أن الاثنين أول صور الجمع وبالتالي يصح التعبير عن المثنى بلفظ الجمع وجاء لذلك قول الله تعالى اهبطوا منها.

سؤالها الثاني أنه في القرآن الكريم مرة يرد قول الله تعالى لعبا ولهوا ومرة لهوا ولعبا فما هي أوجه التفسير التي تعيننا على الحفظ؟

هو من هذا أيضا هو من باب التلوين في الأسلوب حتى لا يكون الأمر في كل مرة على صورة واحدة أو شكل واحد فيكون تكرارا قد يصيب النفس بشيء من الملل أو السآمة الله تعالى يغاير بين هذه الصور في ذكر الأشياء، لكن من أراد التثبت في الحفظ يمكن أن يقرن بين لفظ الآية لهوا ولعبا أيهما مقدم وبين حرف قبلها أو كذا مشابه فيستطيع أن يحفظ على ذلك ولا ينسى في المتشابهات والله يوفقنا وإياكم جميعا لما فيه الخير.

على هذه المحاضرة ثلاثة أسئلة:

السؤال الأول: ما الغرض من الخبر ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾ولماذا أخبر الله تعالى بهذا؟

السؤال الثاني: كيف خلق الله الإنسان من عجل وما قيمة ذلك في ميزان الإسلام؟ هل العجل محمود في الإنسان أو غير محمود وهل يقوم أو لا يقوم؟

السؤال الثالث: ذكر في الآيات سبب مباشر للغواية والضلال ما هو وكيف يكون ذلك؟

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل

الدرس الرابع عشر

[الأنبياء: ٤٨: ٧٥]

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه وتمسك بسنته إلى يوم الدين وبعد، فمحاضرتنا هذه -إن شاء الله تعالى- من سورة الأنبياء في الآية الثامنة والأربعين حتى الآية الخامسة والسبعين، وذلك كجزء أول من جزء آخر يتبعه -إن شاء الله تعالى- في ذكر قَصص للأنبياء على سورة موجزة من خلالها يثبت الله -تعالى- نبيه محمدًا -صلى الله عليه وسلم- بوعده إياه بمثل ما آتى الأنبياء من قبله، نتناول هذا الموضوع بعون الله -تبارك وتعالى- في هذا الجزء الأول منه من خلال عناصر ثلاثة:

أولاً: فرقان موسى وهارون.

ثانيًا: رُشد إبراهيم وسلامته في النيران.

ثالثًا: إبراهيم ولوط في نعمة الرحمن.

نسأل الله -تعالى- التوفيق في ذَلِكَ وفي غيره للسداد والرشاد وقبل أن نُفصل القول نستمع إلى نص الآيات المباركات من أخينا عبد الرحمن فليتفضل:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلاَ يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنبياء: ٤٨- ٧٥]

بسم الله الرحمن الرحيم

في هذه الآيات النيرات نلاحظ أمراً معيناً ربما لا يتوفر في هذا القصص في مقام آخر من القرآن الكريم ففي كل مرة يورد القرآن القصة إنما يركز على جانب معين وهنا كما نلاحظ القصة تأتي موجزة إلى حد كبير والتركيز فيها على ما أعطاه الله وآتاه للأنبياء والمرسلين، وكأن الله -تعالى- يُصَبِّرُ ويواسي نبيه محمدًا -صلى الله عليه وسلم-، ويثبت قلبه على طريق الدعوة بوعد كريم يُفهم من خلال سياق القصة بأنه -سبحانه وتعالى- سوف يؤتيه ويعطيه مثل ما آتى الأنبياء السابقين من خير وحكم وعلم ورحمة وبركة، ونصرة وعزة، كما قال - سبحانه وتعالى-: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥]، ويبدأ الله -تعالى- بذكر نبيه موسى وهارون -عليهما السلام- فيقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾، أي ولقد أعطينا موسى وهارون من نعمة الله عليهما أن الله -تعالى- آتاهما الفرقان، وتنوعت كلمة المفسرين كما ذكر الإمام الحافظ بن كثير -رحمه الله تعالى- في تفسير المراد بكلمة الفرقان تجتمع في النهاية في التوراة وما فيها من شريعة فهذا من اختلاف التنوع الذي لا تضاد فيه، فالكتاب الذي أوتيه موسى -عليه السلام- هو التوراة، وكان بما فيه من تشريع وأحكام وبيان، كان فيه فرقان يفرق بين الحق والباطل بين الخير والشر، بين ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان من تصور واعتقاد وما يكون فيه من انشغال وعبادة وعمل، وما يكون متحلياً به من أخلاق، وبهذا فَرَقَ الله لبني إسرائيل بين ما ينبغي أن يكونوا عليه وما لا ينبغي أن يكونوا عليه، وجاء هذا الفرقان مع موسى وهارون -عليهما السلام- فكان موسى هو الرسول أما هارون فكان نبيًا مؤاذراً لأخيه موسى -عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام-، كما سَمَّ الله -تعالى- القرآن عندنا فرقاناً فقال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١]، وأراد به القرآن فكل كتاب سماوي ينزل إنما هو فرقان بما حَمَلَ من شريعة وبما بَيَّنَ وفَصَّلَ من أحكام وبما دعى إليه من أخلاق وآداب، من التزم به استنارت له الدنيا ووضحت بين يديه الأمور كلها، فيأخذ حقها ويترك باطلها، وقد يتسائل سائل لماذا بُدِءَ الذكر بموسى؟ مع أن إبراهيم والأنبياء كانوا من قبله ومن بعده؟ لماذا بُدِءَ ذكر الأنبياء بموسى وهارون؟ لعل الجواب على هذا السؤال سبق في مواقف أخرى ودائما نذكر هذا يُقدم ذكر موسى كثيراً ويكثر الحديث عنه خطاباً لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- باعتبار أن كتابه كان لا يزال باقياً يوم أن نزلت هذه الآيات وأن جاء القرآن كان كتاب التوراة لا يزال موجوداً مكتوباً في صحف عند اليهود، والإنجيل كذلك مكتوب عند النصارى وهذا هو الكتاب الذي سبق كتابنا مباشرة، بغض النظر عما فعل فيه أهله وأصحابه لكن مع كل هذا إلا أن التوراة والإنجيل فيهما إثبات أن الله -تعالى- أرسل موسى وهارون وآتاهما الكتاب المستبيين، ففيه شهادة على أن الله -تعالى- بَعَثَ هذين النبيين، وبالتالي فبعثة رسول الله محمد -صلى الله عليه وسلم- ليست بدعاً من القول ولا جديداً من الأمر إنما بعثته كبعثة من كان قبله، وشاهد من كان قبله لا يزال موجوداً في أيدي من يتبعونه، وأمة بَنِي إِسْرَائِيلَ تكاد تكون تكون أكبر أمة قبل أمة الإسلام، ولذلك الموعظة فيها أكبر والعبرة بها أوقع، ولهذا ولحكمة يعلمها الله - تعالى- بُدِءَ الذكر بموسى وهارون، ثم وصف الله الفرقان الذي هو التوراة وصفه بأنه: ﴿ضِيَاءً﴾ لأنه ينير للناس طريقهم، ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يذكرون به رب العالمين ويشرفون بذلك، والمفروض أو المفترض أن الله -تعالى- يُنزل الكتاب السماوي ذكراً للعالمين أو ذكراً لأمة بكاملها، وليس للمتقين فقط منها، فكيف خص الله -تعالى- المتقين بالكتاب الذي أنزله؟ وبالهدى الذي أرسله دون غيرهم من الأمة؟ كما قال في القرآن وفي شأنه ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة: ٢]، مع أنه في الأصل منزل ليكون هداً للعالمين، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، قال المفسرون في ذلك: «لأن المتقين الذين يتقون الشر والمعصية والكفر والظلم يتقون الحق فيأخذون به، يتقون الخير فيفعلونه، هؤلاء هم الذين يبحثون عن هداية الرحمن، وهم الذين يبقلونها إذا عُرِضَت عليهم، وهم الذين ينتفعون بها إذا عرفوها، فكانوا أحق بها وأهلها»، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ ثم بين الله -تعالى- المراد بالمتقين في الآية التالية وهذا يعد من التفسير بالمأثور بل من أجله وهو تفسير القرآن بالقرآن، فتفسير كلمة المتقين موجود ومنشور في قول الله -تعالى- بعد ذَلِكَ: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ هذا بعض وصفهم، وليس كلَّ ما لهم من وصف، إنما من أبرز أوصافهم أنهم يخشون ربهم بالغيب، يعني يعظمون الله ويرهبونه ويخافونه ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي: حين تغيب عنهم الأعين من الخلق، وحين يكونون في خلوة مع الله لا يراهم

أحد من الناس فإنهم يعتبرون أنفسهم مُشَاهَدِينَ أيضاً فلا يغرنهم أنهم خلو وأن الدنيا أظلمت عليهم وأن صورهم غير ظاهرة للناس، على حد قول القائل:

إذا خلوت الدهر يوماً *** فلا تَقُل خلوت ولكن قُل عليَّ رقيب

فكانوا إذا خلوا بعيداً عن الناس كأنهم بين الناس وأكثر؛ لأنهم يستحضرون مشاهدة الله لهم ورؤية الله لهم –سبحانه وتعالى–.

﴿وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ الساعة هي القيامة وما فيها من حساب، وهكذا الإنسان العاقل الواعي يُحاسب نفسه ويعمل حساباً للموقف الذي سيسأل فيه، وبالتالي يَخشى ويخاف ويشفق على نفسه، يعني يخشى على نفسه من توقع خطرٍ قادم، وهذا هو الإشفاق رجاء توقع شيء مكروه، فيشفق الإنسان على نفسه أو على غيره من وقوع مكروه به، كان المتقون كذلك في كل أمة ﴿وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أي: مشفقون على أنفسهم من موقف المسائلة وما أشده من موقف إنه موقف أقض مضجع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ومنامه حتى قام من الليل يصلي فافتقدته السيدة عائشة –رضي الله عنها– فقامت تنظر أين هو، فوجدت ساجداً يطيل السجود فخشيت أن يكون قد قُبِضَ على هذه الهيئة فحركت قدمه –عليه الصلاة والسلام– فعلم مقصودها أنها تختبر حياته من موته، فرفع صوته بما كان يذكر به ويدعو به فكان دعاؤه عندها: (اللهم حاسبني حساباً يسيراً، فلما انصرف من صلاته قالت يا رسول الله: ألم يغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تقدم؟ يعني لماذا تسأل تخفيف الحساب وأنت مغفور لك كل شيء، فقال –عليه الصلاة والسلام–: يا عائشة إن من نوقش الحساب عُذِّب)، مجرد مناقشة الحساب أفعلت كذا ولم فعلت أكسبت كذا ومن أين كسبت، وفيما أنفقت هذا فقط عذاب نسأل الله العفو والعافية.

﴿وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ الغرض من ذكر قصص الأنبياء كما قلنا يكاد يكون كامناً في الآية التالية، ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ كأن الله –تعالى– يقول: لقد آتينا موسى وهارون الفرقان، وآتينا محمداً –عليه الصلاة والسلام– هذا القرآن وسمى الله –تعالى– القرآن هنا ذكراً؛ لأنه هو الكتاب الذي ينبغي أن نذكر الله من خلاله، وعلى منهاجه، ولا تجوز عبادة الله –تعالى– على طريقة تخرج عن القرآن والسنة، وما السنة إلا شارحةً للقرآن في معظمها، إذن القرآن هو مِنهاج ذكرنا لله، كيف نذكر الله؟ خذ من القرآن والسنة واذكر الله –تبارك وتعالى– بهذا المنهاج العظيم، فالله تعالى هو الذي يحدد لنا الطريق التي نعبدها بها ونذكره بها، وكذلك حينما نذكر الله بالقرآن فهذا شرف عظيم لنا ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]، أي: فيه شرفكم، وعزكم، ثم وصف الله القرآن بعد تسميته بالذكر وصفه بأنه مُبَارك، وذلك من كثرة خيره فهو نافع في الدين والدنيا والآخرة، فهو شامل لكل شيء صَدَقَ مُنزله إذ قال: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ما قصده قاصد إلا ووجد فيه طِلْبَتَهُ ومقصده فهو قرآن مُبارك وذكر مُبارك كثر خيره وفاض، ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ الله هو الذي أنزله، فمن السماء مهبطه وليس من الأرض منبته ﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ علمتهم أن موسى وهارون آتيناهما الكتاب المستبيين، وهو التوراة، وآتينا محمداً –عليه الصلاة والسلام– القرآن أفتنكرون القرآن كيف وقد أقررتم برسالة موسى ورسالة من سبق وبالكتب المنزلة، ﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ وهذا يدل على أنهم كانوا منكرين فعلاً والقرآن ينكر عليهم هذا الإنكار للقرآن الكريم وهم متلبسون به يعني إنكاركم للقرآن أمر منكر ولا ينبغي أن تكونوا عليه بهذه السرعة توجز هذه السورة قصة موسى وهارون بينما رأيناها طويلة في سورة طه.

ثم ينتقل سياق الآيات إلى ذكر نبي آخر ونلاحظ أن الله –تعالى– أعاده هنا لفظاً ذكره في شأن موسى وهارون، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ قال هنا: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾، أي أعطيناه، وهكذا أيضاً سنعطيك يا محمد –عليه الصلاة والسلام– من البينات والآيات والمعجزات ما مثله يؤمن عليه من يؤمن من البشر، وما يكون حجة على من كفر، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ الرشد ضد الْغَيِّ والضلال والهوى، إذن الرشد هدى، قال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فقابل الرشد بالْغَيِّ،

إذن هذا قسيمه، فما كان إبراهيم غبياً أبداً بل منذ صغره وهو رشيد في رأيه سديد في قوله عاقل في بيئة جاهلية كانت تعبد الأصنام وتعبد الكواكب والنجوم ولها من الجرائم والمظالم ما لها، ينشأ في وسطها إبراهيم الرشيد -عليه سلام الله تعالى- وما كان رشده هذا إلا من إيتاء الله ونِعَم الله عليه، ومعنى قوله ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل نبوته، قبل أن يكون نبيا قبل أن يكون خليلاً آتاه الله رشده منذ صغره، ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ الله يراقبه كما يَرْقُبُ الجميع فرى إبراهيم يستحق أن يؤتى الرشد فآتاه الله رشده، وأعده -سبحانه وتعالى- على عينه ليتحمل رسالة ربه، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ ورشده هو المذكور في قول الله -تعالى-: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣]، فقد آتى الله إبراهيم رشداً مَكَّنَه من أن يحتج على قومه في إنكار الشرك وإقرار توحيد الله -تعالى- حتى قبل أن يؤتى النبوة حجة ألجمت القوم، وما استطاعوا لها رداً، ذلك من رشده الذي آتاه الله، وذُكِرَ في الإسرائيليات التي لا عبرة بها، وننبه عليها لإبطالها كما نبه الإمام ابن كثير -رحمه الله تعالى- قال: «وما يذكر من إدخال أبيه له في السرد وهو رضيع وأنه خرج بعد أيام فنظر إلى الكواكب والمخلوقات فَتَبَصَّرَ فيها» فهذه الأحاديث وهذه الحكايات عامتها من بني إسرائيل هكذا يقول ابن كثير -رحمه الله تعالى- منبها إلى أن إبراهيم ما وضع في سِرب ولا غاب فيه أياماً وهو رضيع ولا أخرج منه ولا تبصر في الكواكب حتى صار فلكياً وما نحو ذلك، إنما أوتي عقلاً رشيداً يفكر به ويعقل به فرأى بين قومه أن هذه الأصنام وهذه الكواكب لا تستحق أن تكون آلهة كما سيأتي تفصيل ذلك بعون الله -تعالى-.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ أي: كنا نعلم أنه يستحق ذلك، وأنه أهل لهذا الرشد، ثم بين الله -تعالى- هذا الرشد فقال: ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ﴾ "إذ" معناها حين ووقت، حين قال لأبيه، ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾، ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾؟ وكانت بلاغةً من إبراهيم كما قصها القرآن الكريم أن يسميها تماثيل وأن يذكر عكوفهم عليها، فالعكوف عبادة، وهذا المعبود ما هو إلا تماثيل وأصنام، فالتماثيل لا تُعبد؛ لأنها صنعة الإنسان هو الذي صنعها هو الذي نصبها هو الذي جعل لها مقاماً فكيف به يعبدها بعد ذلك، كيف يعبد الصانع صنعته؟!! إنما ينبغي أن يكون الأمر معدولاً لا معكوساً هكذا، فتتبع الصنعة صانعها، ويتبع الخلق خالقهم ويعبدونه -سبحانه وتعالى- فقال إبراهيم من رشده: ﴿قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ ظاهر سياق الكلام أنه يسأل عن هذه الأصنام ليقولوا له: هذه أصنام اتخذناها من حجارة أو من كذا، ولكن المراد ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾؟ يعني: ما عكوفكم على هذه التماثيل وما سِرُّ عبادتكم لها، فهم القوم ذلك، فأجابوه مظنة أنه لا يعلم، كأن إبراهيم لا يعلم لماذا يعبدون هذه الأصنام هو يعلم ولكن يسأل هذا السؤال إنكاراً عليهم، إنكاراً عليهم أن يسجدوا ويعبدوا مخلوقاً أقل منهم شأناً حجراً يداس بالأقدام حجراً يؤثر فيه الإنسان ولا يؤثر هو بنفسه في الإنسان، فأراد أن يبين لهم انتكاستَهُم الخطيرة وضلالهم البعيد، لكنهم أخذوا بظاهر السؤال فأجبوا قائلين قالوا: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾، وظنوا أن هذه حجة وأنه بهذا يكون تبريراً صالحاً لعملهم السيء ولشركهم بالله -عز وجل- وإعراضهم عنه، ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾، أي عبدناها كما عبدها الآباء، الآباء عادةً ليسوا أنبياء ولا مرسلين، ولا معصومين، ولا يلزم أن يكون الأب على هداً دائماً فلا يصح اتباع الأولاد لأبيهم إلا إذا كان على هداً وعلى بصيرة، فلا يحاول والد من الوالدين أن يجبر أولاده على طاعته في كل شيء إنما هو من أولي الأمر الذين قال الله في شأنهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، ولم يقل: وأطيعوا أولي الأمر منكم، لتكون طاعة أولي الأمر على تنوعهم إن كانوا أمراء أو علماء أو أرباباً كرب البيت ورب الأسرة لتكون طاعة هؤلاء الأمراء أو غيرهم داخلةً ومنضطبةً بطاعة الله وطاعة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلا تجوز طاعة الوالد في معصية الله، ولا يجوز اتباع الأب على كل الأحيان إنما ننظر في أفعاله وفي سلوكياته فإن كان على هداً تبعناه وإن كان على غير هداً خالفناه مع الاحتفاظ له بحق البر ولو كان كافراً فالأب له حق والأم كذلك حق البر لا يسقط أبداً ولو مع الكفر، إنما الطاعة تكون لأمر الله وأمر رسوله -صلى الله عليه وسلم-، فنطق أهل الجاهلية في زمان إبراهيم -عليه السلام- قالوا: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾، قال: مفاجئاً لهم بهذا المقال: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أنتم وآبائكم في ضلال مبين، فالآباء كانوا على ضلال وأنتم تبعتموهم على غير بصيرة على ضلال واضح، الضلال واضح ولكنكم لم تبصروا هذا الضلال، لم يصدقوا طبعاً؛ لأن من شأن الجاهلية أن يعتز

الأولاد بآبائهم وأن يتفاخروا بآبائهم وأنسابهم هذا معروف في أهل الجاهليات إنما الإسلام والدين السماوي يعلمنا أن نعتز بالحق أبي وأمي ونفسي وحياتي وروحي وعزي وفخري هو الحق وأن أكون تابعاً له، وأبي فخرٌ لي ولكن الحق أحب إلي من الناس كلهم، هكذا يعلمنا الإسلام التجرد للحق الذي أنزله الله -سبحانه وتعالى-، فلما رأوا إبراهيم يحكم عليهم وعلى آبائهم بالضلال المبين قالوا مندهشين: ﴿أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ﴾؟ أهذا حق يا إبراهيم؟ أو أنك تلعب معنا بهذا الكلام؟ قال: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾، ذكر الإمام ابن كثير وكأنه يقيس أمراً على أمر ذكر عند قول الله تعالى: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ ذكر عن ابن أبي حاتم -رحمه الله تعالى- عن الأصبغ ابن نباتة قال: «مر علي -رضي الله عنه- على قوم يلعبون بالشطرنج فقال: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾»، يقول: عليّ -رضي الله عنه- لهؤلاء الذين يلعبون بتلك اللعبة ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾؛ لأنها تأخذ من أعمار الناس ساعات طوالاً وإن كانوا يدعون أنها تُمِدُهُم ببعض المهارات الحربية أو العسكرية فإن هذا ليس مصدراً والحمد لله أغنانا الله بالقرآن والسنة وبسيرة النبي -صلى الله عليه وسلم- ففي كل ذلك منهج عظيم للمبارزة والحرب وفن اللقاء والفن العسكري والفن الاجتماعي وكل ما نحتاجه في حياتنا الدنيا والآخرة أما أن يعكف الناس على لعبة كهذه تُوغِر الصدور وتحول الأحباب أعداءاً وتقضي على أعمار الناس في لهو ولعب، فهذا اعتبره سيدنا علي -رضي الله عنه- بأنه من ضمن قول الله -تعالى-: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾، ويمكن أن يُقاس على ذلك كل لُعْبَةٍ شغلت الناس وقضت على أوقاتهم في غير ما فائدة راجحة تُرضي الله -تبارك وتعالى- عنهم قال علي -رضي الله عنه-: «﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾، لأن يَمَسَ صاحبكم جمراً حتى يُطفأ خير له من أن يَمَسَهَا»، الإنسان لو أمسك جمراً بيده حتى يطفئه ولو أحرق يديه خير له من أن يُمسك بهذه اللعبة، قد يستغرب بعض الناس هذا ولكن هذا هو مِنهاج صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهذه نصيحة إمام المتقين بعد رسول الله -عليه الصلاة والسلام- سيدنا علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-.

بَيَّنَ إبراهيم -عليه السلام- في حواره مع قومه أنه ليس من اللاعبين، وإنما هو جاد كل الجد ومحق كل الحق، قال: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، ربكم ورب آبائكم هو رب السماوات هو رب الأرض هو رب ما بينهما هو رب كل شيء، هو الله الواحد القهار -سبحانه وتعالى- أما هذه الأصنام وتلك التماثيل فليست رباً لأحد ولا فضل لها لأحد إنها لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع، ﴿رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فطَرَهُنَّ﴾ الفطر هو الخلق، يقصد به الخلق لأول مرة، ﴿وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أنا شاهد على أن الله هو رب كل شيء، وهو ربكم أيضاً، كل هذا وإبراهيم صغير في السن، كل هذا وإبراهيم لم يؤتى النبوة ويتكلم بهذا الكلام العظيم في جناب التوحيد وينكر هذا النكران العظيم على الشرك والمشركين وكانت عادة أهل الأصنام وعبادها أنهم يحتفلون بها في أعياد معينة وربما وضعوا عليها شيئًا من العسل، كما كان يفعل أهل الجاهلية في العرب يوم عيدهم، وربما ذبحوا أمامها وبين يديها القرابين التي لا تأكلها ولا تأخذ منها شيئًا لهم عيد يحتفلون بهذه الأصنام ويقدسونها فيه فلما اقترب عيدهم قال له أبوه: يا بني لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا، فخرج معهم فلما كان ببعض الطريق ألقى بنفسه على الأرض فكان كل من مَرَّ به يقول مَهْ أي: ما هذا؟ مالك وما بك؟ فيقول: إني سقيم، أي: مريض، وظل هكذا ساقطاً على الأرض والناس يمرون من حوله حتى ذهب عامتهم ومعظمهم ولم يبقى إلا القليل منهم، فقال فيما بينهم وفيما سمعوه، ﴿وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾، واعلم أن إبراهيم هنا ما خرج للعيد ولا خرج لهذه الأصنام والتماثيل إنما كان -عليه سلام الله- حتى في الجاهلية طواعاً لأبيه بما لا يغضب الله، فأطاع أباه وخرج ولكن لم يتم الأمر الذي يُغضب الله -عز وجل- كما رُويَّ عنه -عليه سلام الله- أنه كان يعطيه أبوه الأصنام ليبيعها في السوق فما كان يقول له لا، فيأخذ الأصنام ليبيعها في السوق كما أراد أبوه فيعرضها على الناس وينادي كما يفعل البائعون ويقول: «من يشتري ما لا ينفع ولا يضر»، أطاع أباه ولم يعصي ربه ولم يشرك به، -سبحانه وتعالى- كان رشيداً فخرج مع القوم حتى يطيع أباه فيما طلب منه، ولكن لم يقع في معصية تخلف عنهم في أثناء الطريق وتوعد آلهتهم بأنه سوف يكيد لهم كيدا ﴿وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾، فعلاً قَصَدَ إلى أصنامهم وهم يحتفلون بالعيد مشغولين بذلك ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾، ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذً﴾، أي: جعل الأصنام والتماثيل جُذَاذًا كما

يجعل الفلاح القمح جُذَاذًا يَجُذُهُ من فوق الأرض وقيل حطمها كِسَراً صغيرة وما أبقى منها شيئًا إلا الصنم الكبير الذي يعدونه إله الآلهة، علَّقَ في يديه القَدُوم الذي كَسَّرَ به الآلهة حتى يوهمهم ويسخر من فعلهم أنه هو الذي أهلكهم وهو الذي كَسَّرَهُم ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾، رجعوا بالفعل ورأوا ذلك العمل الذي أغضبهم وأثار حفيظتهم قالوا: ﴿مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾، الذي فعل هذا ظالم، وسوف نذيقه جزائه وعقوبته يتوعدونه بهذا ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فـ "من" هنا في هذه الآية اسم موصول، أي: الذي فعل هذا ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ثم أجابهم بعضهم ربما أولئك الذين سمعود يقول: ﴿وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾، قالوا: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾، وربما كانت "مَنْ" استفهامية، قالوا مَنْ فَعَلَ هذا بآلهتنا، هذه مقالة، ثم عقبوا عليها أيضاً بمقالة أخرى فقالوا: ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فسألوا فلما سألوا أجابهم البعض الآخر قائلين: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾، كلمة فتا تدل على القوة وتشير إلى الفتوة، وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن على قوة في بدنه في علمه في حياته كما جاء في الحديث: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله –تعالى– من المؤمن الضعيف، وفي كل خير)؛ لأن في كل إيمان وفي كل خير، فكان إبراهيم كذلك قوياً فتياً عليه سلام الله وكان موسى كذلك وكان نبينا –عليه الصلاة والسلام– كذلك، هم أفتى الشباب عليهم صلوات الله وتسليماته، ﴿يَذْكُرُهُمْ﴾، يعني: يذكرهم بسوء ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ يعني يسمى إبراهيم وينادى بإبراهيم وهذا يشير إلى أنه كان نكرة في الناس ما كان يتعاظم ولا يتفاخر ما كان يحب المظهرة ولا الظهور إنما كان إنساناً مطموراً متواضعاً مع الناس إلا أنه كان يلزم الحق ويفعل الخير قالوا: ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي استحضروه أمام الناس كلهم ليكون عِبرة ليشهدوا عقوبته فيكون عِبرة لغيره، قالوا بعد أن جائوا به قالوا له: ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ تحقيق مع إبراهيم وتقرير يقررونه إن كان قد فعل هذا أو لم يفعله، ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ يتشبث بعض الناس وينسب إلى إبراهيم الكذب وإبراهيم رشيد منذ صغره ونبي بعد ذلك وخليل للرحمن من بعد ذلك ما شاء الله مقامات رفيعة وصفه الله –تعالى– بقوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٧]، ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وصفه الله بأنه أتم أمر الله ووفى به، ونحن نصفه بالكذب هذا لا يليق، إنما كان هذا في جاهلية كان قبل الشريعة، وهذا أسلوب ظاهره الكذب، ولكن يقصد به الاستهزاء، فكان قصده الاستهزاء لا إخفاء الحقيقة فالحقيقة معروفة والكل يعلم أن هذا الصنم لا يحرك ساكناً ولا يكسر صنماً آخر وهذه الآلهة المزعومة لا تتعارك مع بعضها فلا حياة فيها أصلاً، إذن قصده الاستهزاء بقومه والسخرية منهم لعلهم يرجعون إلى رشدهم، ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ وإن معناها الشك، يعني فهم لا ينطقون، ساعتها ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ﴾، وهذا هو المقصود، هذا مقصود إبراهيم أن يردهم إلى رشدهم كما آتاه الله رشده، ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ﴾، أي عادوا إلى رشدهم، فقالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ﴾، قال بعضهم لبعض: إبراهيم على حق هذه أصنام لا تملك شيئًا ولو كان هذا إلهاً حقاً ما كَسَّرَ الآلهة ولا تعادى معها ومثل هذا لا يفعل هذا الفعل، رجعوا إلى رشدهم وأفاقوا وتذكروا فطرتهم السليمة ولكن للأسف كانت للحظة قالوا لبعضهم ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ﴾، يعني ليس إبراهيم ظالماً بفعله هذا إنما أنتم الظالمون لأنفسكم حيث تسجدون لأصنام وأحجار لكن للأسف كانت رجعة سريعة رجعة عاجلة رجعة طارئة، وكان الباطل متمكناً منهم فقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ﴾ وانتكاستهم كانت شراً من حالهم الأولى، في الأولى والثالثة أو في الأولى والأخرة كانوا يعبدون هذه الأصنام وفيما بينهما أفاقوا للحظة، لكن الثانية عندهم كانت شراً من الأولى؛ لأن الأولى تبعوا آبائهم على غير هداً وعلى غير علم وعلى غير بصيرة وما نبههم أحد إلى ذلك قبل إبراهيم لكن بعد أن عرفوا الحق وعرفوا أنهم هم الظالمون وأن إبراهيم صادق فيما دعاهم إليهم أبعد ذلك ينتكسون على رؤوسهم ويرجعون إلى تأليه الأصنام والأحجار كانت هذه أشد فلذلك عطفها الله بحرف "ثم" الذي يفيد التراخي والبعد، أي هذه الفعلة كانت أبعد في الباطل من فعلتهم الأولى الأولى كانت على ضلال نشئوا هكذا لكن الثانية كأنهم اختاروا الأصنام اختياراً وأرادوها إرادةً حرةً بعد أن عرفوا الحق من الباطل ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ﴾، وعَبَّرَ الله عنهم بهذا التعبير ليدل على أنهم انتكسوا وأن الإنسان بعد أن يكون على الحق ويرجع إلى الباطل فهذه انتكاسة خطيرة نعرف منها انتكاسة المريض حين يعود إليه المرض بعد صحة وعافية كان المرض عنده ثم عُوفِيَّ منه ثم رجع إليه مرة أخرى فتكون أشد وأنكى، فما بالك بمن انتكس في الحق والعياذ بالله أي تركه إلى الباطل بعد أن علمه.

روى الإمام البخاري ومسلم -رحمهما الله تعالى- وذكره ابن كثير -رحمة الله عليه- عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن إبراهيم لم يكذب غير ثلاث، ثنتين -أي اثنتين- ثنتين في ذات الله، قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، وقوله عن زوجته سارة للملك الجبار في مصر هي أختي)، بينما كانت زوجته هذه ثلاث كذبات أي في صورة الكذب، ولكن نعلم من خلال شريعتنا أن الكذب إذا كان للاستهزاء أو لغرض آخر غير الكذب فليس كذباً وكذلك الكذب حينما يكون على عدو فهو حق، ويجوز الكذب على الأعداء بل فعله النبي -صلى الله عليه وسلم- وَوَرَّى على الرجل الذي كان لا يعرفه، فقال: من أينتما يقصد رسول الله -عليه الصلاة والسلام- وأبا بكر، وقد سأله النبي -عليه الصلاة والسلام- على خبر قريش يوم غزوة بدر وهكذا، فقال الرجل: من أين أنتما؟ قال النبي -عليه الصلاة والسلام-: (من ماء)، فقال الرجل يقبل يديه ماء كذا أو ماء كذا، بعض مواضع اسمها ماء، ماء بدر وماء كذا وماء كذا، يُقلب كفيه يا ترى من أي موضع اسمه ماء، وربما كان من ماء مهين فهما مخلوقان من ذلك، فالكلمة تحتمل طالما الكذب على الأعداء فيجوز يجوز الكذب على أعداء الله -عز وجل- وكان الملك الجبار في مصر يومها عدواً لله وأراد سوءً بسارة كما كان يريد سوءً بالنساء عادةً فلذلك وضماناً لنجاة سارة قال إبراهيم: هي أختي، ولم يقل: هي زوجتي، وفي الحقيقة ليست كذبة وَخَرَّجَ العلماء هذا الكلام تخريجاً كثيرًا يبرء ساحة إبراهيم -عليه السلام- فإنها قبل أن تكون زوجته وبعد أن كانت زوجته هي أخته في الله أخته في الديانة ولكن لم يكذب لغرض الكذب، فلا ينبغي أن ننسب إليه ذلك إنما نحمله على ما ينبغي أن يفهم من مقام إبراهيم -عليه السلام- كما أشرت كفى بقول الله ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٧].

فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا: ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاَءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾، ﴿نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ﴾ وقالوا لإبراهيم ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا إبراهيم ﴿مَا هَؤُلاَءِ يَنْطِقُونَ﴾، قال: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلاَ يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾، "أف" كلمة تضجر وكلمة زجر ولذلك نهى الله عنها في حديثنا مع آبائنا وأمهاتنا ﴿فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣] ، ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ إنكار لهم ولما يعبدون من دون الله من الأصنام ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾، يعني ينبغي أن تعقلوا ولو أنهم حكموا عقلهم للحظة لعرفوا أنهم على ضلال مبين فما ينبغي للإنسان أن يسجد لحجر صنعه بيده وأقامه في مقامه، قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ هكذا نفذ سلطان الحجة، سلطان البيان غلبهم إبراهيم -عليه السلام- بلسانه فكانوا أقوى منه وأمكن منه فلجأوا إلى التصفية الجسدية وهذا أسلوب العاجز أسلوب الكليل أسلوب الجاهل، إنما القوي العالم لا يلجأ إلى قوة إنما أسلوب الحوار الهادئ كما فعل إبراهيم -عليه السلام- فلما نفذ سلاح حجتهم بالقول الصحيح السديد لجئوا إلى القوة قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾، يحفز بعضهم بعضاً على هذا العمل ﴿إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي قوموا فافعلوا ذلك ﴿حَرِّقُوهُ﴾ لم يقولوا "احرقوه" إنما ﴿حَرِّقُوهُ﴾ مبالغة في الإحراق ﴿وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾، لا يزالون يصرون ويقرون بأنها آلهة رغم بيان الحق أمام أعينهم فلما فعلوا ذلك وفعلوه فعلاً عظيماً أضرموا ناراً وحريقاً عظيماً جداً أعدوا لها فترة حتى كانت المرأة تُصَاب بالمرض فتنذر للآلهة إن شُفيت أن تحمل حطباً لحريق إبراهيم بلغ بهم ذلك المريض ينذر لآلهته إن شُفِيَّ من مرضه هذا أن يشارك بحمل الحطب لحريق إبراهيم -عليه السلام-، فكان وضعاً أليماً جداً وكانت قيامة واحدة من القوم على إبراهيم -عليه السلام- وهو وحيد بهذا الفكر حتى قبل أن يكون نبياً - عليه سلام الله تعالى- وألقي إبراهيم في النار فكان ملجئه وخلاصه بقولة "حسبي الله ونعم الوكيل"، روى الإمام البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: (حسبي الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقي في النار وقالها محمد -صلى الله عليه وسلم- حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾[آل عمران: ١٧٣، ١٧٤])، وأخرج أبو يعلى عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لما ألقي إبراهيم في النار قال: اللهم إنك في السماء واحد وأنا في الأرض واحد أعبدك) يعني أنا وحدي أعبدك، لعله كدعاء النبي -عليه الصلاة والسلام-: (اللهم إن تهلك هذه العصبة لن تعبد في الأرض بعد اليوم)، يعني لو أحرقوني وتركتني لهم يا ربي لن يعبدك أحد فلا يعبدك في هؤلاء غيري، وهذا استعطاف لرحمة الله -تبارك وتعالى- فكانت النجاة وكان يومئذ

كما ذكر بعض العلماء: «أنه كان في السادسة عشرة من عمره -عليه سلام الله-»، وذكر بعض السلف كما ذكر ابن كثير هذا: «أنه عَرَضَ له جبريل أي تعرض له فقال: ألك حاجة؟ وهو في النار وإبراهيم يقول له: ألك حاجة؟ أما إليك فلا، وأما من الله فبلاء»، ما شاء الله يقين عظيم حتى وهو في الشدة لا يسأل غير الله وإن كان مَلَكاً لا يتحرك ولا يتنزل إلا بأمر الله إلا أنه لم يوجه سؤاله إلا إلى المعطي سبحانه وتعالى، فقال: أما إليك فلا وأما من الله فبلاء، ولذلك أجابه الله مباشرة: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ لم يقل قلت يا نار، إنما ﴿قُلْنَ﴾، ليفيد العظمة هذا أمر عجيب نار بهذا الشكل وبهذه الضخامة تكون برداً وسلامًا على إبراهيم أو على من فيها لا يفعل ذلك إلا رب عظيم قاهر -سبحانه وتعالى-، من شدة هذه النار يومها يقول كعب الأحبار: «لم ينتفع أحد يومئذ بنار ولم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه» الرباط الذي ربطوه به فقط، ولم تحرق شيئًا منه، وقال الثوري بسنده عن علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- قال: «بردت النار على إبراهيم حتى كادت تقتله حتى قيل وسلامًا قال لا تضر به»، وهذا هو التوازن والحكمة في فعل الله -تبارك وتعالى- لو قال ﴿كُونِي بَرْدً﴾ فقط فالبرد له أضراره ولكن أضاف ﴿وَسَلامً﴾ حتى لا يضره بردها ونار الآخرة فيها حر وبرد فيها حر وزمهرير نعوذ بالله منها، بشكليها اللهم أمين.

قال أبو زرعة عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: «إن أحسن شيء قال أبو إبراهيم -أحسن كلمة قالها والد إبراهيم -على إبراهيم السلام- قالها يومئذ، لما رُفِعَ عن إبراهيم الضيق، بردت النار وهدأت وخمدت وانطفأت وظهر إبراهيم أمام الناس هكذا سالماً لم يصبه شيء قال أبو إبراهيم نعم الرب ربك يا إبراهيم»، هذه أحسن كلمة قالها أبو إبراهيم ولكنه فعل كما فعل أبو طالب ظل على ملة الأشياخ ومات على شركه والعياذ بالله تعالى، قال نعم الرب ربك يا إبراهيم وذكر في شأن النار أيضاً ما قاله قتادة السودسي من التابعين -رحمه الله تعالى-: «لم يأتي يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار إلا الوزغ»، كل دابة حتى الحشرات تأتي على هذه النار وتنفخ فيها لتطفئها على إبراهيم تشارك في حماية هذا الشاب الصالح إلا الوزغ، وهو ما يسمى عندنا بـ "البرص"، هذا فقط هو الذي ما كان يساهم في نجاة إبراهيم ولذلك أَذِنَ النبي -عليه الصلاة والسلام- بل أمر بقتله وسماه فُوَيسقاً وروى ابن أبي حاتم عن عائشة -رضي الله عنها- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن إبراهيم حين ألقي في النار لم يكن في الأرض دابة إلا تطفئ النار غير الوزغ، أي: إلا الوزغ، فإنه كان يأمر عن إبراهيم فأمرنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بقتله)، وهذا يفيدنا أمراً مهماً جداً وهو وجوب مساندة الصالحين ووجوب الدفاع عن أهل الحق ووجوب مشاركة أهل الخير هكذا لأن هذه الحشرات والحيوانات والدواب شاركت في حماية إبراهيم وإطفاء النار عنه وساعدت على قول الله -تعالى-: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾، ومما آتى الله إبراهيم أيضاً أنه نجاه من الكافرين نجاه من النار هكذا ونجاه بعد ذلك أيضاً على طول طريق النبوة وأذن له بالهجرة مع لوط -عليه السلام- إلى الأرض التي بارك الله فيها للعالمين وهي أرض فلسطين أرض الشام وبيت المقدس خاصة كما بُعِث فيه سيدنا موسى وعيسى والأنبياء من بينهما وهكذا وكان مَسْرَى رسول الله محمد -صلى الله عليه وسلم- ومصعده إلى السماء وذكر لوط مع إبراهيم هكذا ذكراً متداخلاً؛ لأن إبراهيم كان ابن أخي إبراهيم، ابن أخيه، وآمن به وتبعه وهاجر معه، فناله من الخير ما نال إبراهيم وآتاه الله النبوة بعد ذلك، وأرسله إلى قرية اسمها قرية "سَدُوم"، كان نبيا في أهلها، ومما آتى الله إبراهيم أيضاً قال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ يعني زيادة، إسحاق بن إبراهيم وأما يعقوب فهو ابن إسحاق يعني أعطى الله لإبراهيم الولد والحفيد فكان الحفيد زيادة على الولد ﴿وَكُلاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ وما أجل من نعمة أن يكون أولاد الإنسان وأحفاده ونسله صالحين، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَ﴾ وهذا من استجابة الله لدعاء إبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: ١٢٤]، قال تعالى هنا: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ﴾ أي ألهمناهم ﴿فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ أي وفقهم الله إلى هذا وهداهم إليه: ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾، تلك شهادة عظيمة من الله لذرية إبراهيم -عليه السلام- ثم أفرد لوط بالذكر لأنه سار نبيا بعد ذلك إلى قوم مخصوصين ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمً﴾، الحُكم هو النبوة والعلم معروف، ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾، لم يقل في ذلك عن الشرك إنما قال ﴿الْخَبَائِثَ﴾، ويقصد بها تلك الخبيثة العظيمة التي لم يأتي بها أحد من العالمين قبل قوم لوط، وهي إتيان الذكران من دون النساء، حلى لهم أن يقضوا شهوتهم رجالاً مع

رجال أما النساء فلم يكن لهم ميل إليهن وذلك مُخالف للشريعة مخالف للفطرة مخالف للإحساس السليم فهؤلاء قوم منتكسون انتكاسة عظيمة، نجاه الله من خبثهم هذا ومن جزاء وعقوبة عملهم هذا ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ وكلمة "سَوْءٍ" و "سُوُء"، في القرآن الكريم أو في اللغة عموماً كلمة سُوُء تقال لما كان سُوءً خالصاً لما كان خالصاً في السُوء، ولكن "سَوْء" تقال: لمن يصلح أن يكون صالحاً أو سيئاً ولكن غلب عليه السوء فيقال سوء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾؛ لأنهم كانوا يمكن أن يكونوا صالحين لو أرادوا ولو اختاروا طريق الصلاح، ومما آتى الله لوطاً أيضاً كما آتاه النبوة ونجاه من القرية التي كانت تعمل الخبائث أن الله –تعالى– أدخله في رحمته ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ شهادة صدق في حق لوط –عليه السلام– وهكذا ينتهي الجزء الأول من ذكر الأنبياء في هذه السورة وما آتاهم الله –تعالى– من فضله بشارة لنبينا محمد –صلى الله عليه وسلم– بأنه سيؤتيه أيضاً حتى يرضيه وهذا تثبيت لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– على طريق النبوة وعلى طريق الدعوة نسأل الله –تعالى– النفع بما علمنا والعلم بما ينفعنا ونعوذ به من علم لا ينفع إن ربنا هو الرحمن الرحيم وهو وَلِيٌّ ذلك والقادر عليه وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

وردتنا إجابات عدة على أسئلة الحلقة الماضية، وكان السؤال الأول: ما الغرض من الخبر في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]؟

وكانت الإجابة: كان الكافرون ينتظرون ويتربصون بالنبي –صلى الله عليه وسلم– أن يموت ويظنون أن بموته ينقضي أمره وتنتهي رسالته ويقول الله –تعالى– ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]، فإن مات الرسول –صلى الله عليه وسلم– فسيظهر الحق ولذلك رد الله على الكافرين ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]؛ لأن البشر جميعاً مصيرهم الموت والفناء ولا يكون البقاء إلا لله رب الأرض والسماء ولئن مت يا نبي الله فهم لا يُخَلَدُونَ من بعدك ويرفع لك ذكرك وإن عرف الكافرون ستقرن أسمائهم باللعنة.

نعم إجابة طيبة، وهذا يذكرني بأن المؤمن ينبغي أن يكون دائماً على أمل عظيم في الله –سبحانه وتعالى– مهما ضاقت به الضوائق في الدنيا ومهما استهان الخلق بدين الله ومهما شعر بالغربة فإنه منصور ودينه ظاهر بعون الله فما كان من أشد من حياة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بين كفار مكة وبعد ذلك فتح الله عليهم المدينة ثم فتح مكة ثم انتشر الإسلام في ربوع الدنيا كلها بعد وفاة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فلو كان الدين والدعوة تتوقف على شخص بعينه لتوقفت على حياة صاحبها ورسولها –صلى الله عليه وسلم– ولو كان الدين يتوقف على واحد من الناس لكان هو الأولى –صلى الله عليه وسلم–.

السؤال الثاني: كيف خُلِقَ الإنسان من عَجَل وما قيمة ذلك في ميزان الإسلام؟

كانت الإجابة:

خلق الله الإنسان طبيعة وجبلة فيه وَخِلْقَةُ الإنسان مُزدوجة فقال الله –تعالى–: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧]، ولذلك لأن يكون في النفس قابلية أن تؤمن وأن تكفر ويكون مخيراً حقاً دون اضطرار من أحد والعجلة صفة لا تستحسن ولكن خُلِقَ الإنسان عليها ويأتي الدين السماوي ويُقَوِّمُ هذا الاعوجاج في النفس البشرية فيظر دين الله –تعالى– على العباد

إجابة صحيحة طيبة.

كان السؤال الثالث: ذُكِرَ في الآيات سبب مباشرة للغواية والضلال ما هو وكيف يكون ذلك؟

وكانت الإجابة:

السبب المباشر للغواية هو الترف؛ لأنه يعطي النفس علوا ويجعل في القلب غروراً ويظن أحدهم أنه بما عنده من مال وترف يستطيع فعل كل شيء، وعندها يأتيه الرسول -صلى الله عليه وسلم- المتواضع يدعوه إلى الله لا يقبل لأنه يرى أنه سينزل من مكان عالٍ جداً وسيكون مع الساجدين في الأرض، انتهت الإجابة

إجابة صحيحة.

الأخ الكريم من مصر يقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، لدي سؤالان: السؤال الأول: في قول الله -عز وجل- في قصة إبراهيم لَمَّا قال لقومه ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾، أليس هناك تعارض مع نهي الله -تعالى- أن نَسُب ألهة الكفار، ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]؟

السؤال الثاني: البرد والسلام في القرآن كما ذُكر أليس في ذلك دليل على أن كلام الله -عز وجل- على الحقيقة لا مجاز فيه؟

الأخ الكريم من مصر كان سؤال الأول عن قول الله -تعالى- ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾، ألا يوجد تعارض بين هذه الآية وبين نهي الله -عز وجل- عن سب آلهة الآخرين؟

بداية لابد أن نؤمن ونعتقد ونقول ونردد إنه لا تعارض في القرآن أبداً بل لا تعارض بين صريح القرآن وصحيح السنة، إلا ما يبدوا في أعيننا وله تخريج، وله توفيق، فبدا لنا التعارض ولكن في الحقيقة لا تعارض، فسيدنا إبراهيم -عليه السلام- حين قال: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾، ما سب آلهة ولا ذكرها بشيء مما يعتبر سبا أو شتما وبالتالي فلا تعارض مع الآية الأخرى ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، إنما كلمة "أف" تدل على الرد والإنكار والرفض لما هُم عليه كما يقال: إنها كلمة تضجر فليس تعارض بين الآيتين أبداً، ولا يكون تعارض في القرآن الكريم.

كان سؤال الثاني: عن قول الله ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾، ألا يدل هذا على أن كلام الله -عز وجل- حقيقةٌ لا مجازاً؟

المجاز ليس كذباً ولكنه من محسنات الكلام في لغة العرب وجاء القرآن بسماء البلاغة أو هو سماء البلاغة منه تُستفاد وتستقى البلاغة عند العرب وعند غيرهم، ولذلك هو حَكَم على لغة العرب وبلاغتهم وليست البلاغة بقواعدها ولا اللغة بنصوصها حاكمة على القرآن الكريم، البرد والسلام في القرآن الكريم حقيقة طبعاً وليست مجازاً، ولكن هذا لا ينفي أن يكون هناك مجاز في آيات أخرى وليس مقصوداً منها الكذب كما قلنا ولا يفهم منها الكذب إنما قول الله كله حق، كله حق، إنما هناك استعارات وتشبيهات وما إلى ذلك مما يعتبر محسناً في الكلام والعرب يفتخرون به ويتبارزون فيه وجاء القرآن ليقطع حجتهم في هذا الأمر الذي ظهروا فيه وبرزوا فيه،

وبالتالي فلا مانع أبداً أن يكون في الكلام مجاز وقضية المجاز في القرآن وعدم وجوده أو وجوده هــذه قــضية تنوعت فيها كلمة العلماء الذين نفوا كان قصدهم أن المجاز نوع من أنواع الكذب والخيال والذين أثبتوا يعلمــون أو يقرون بأن كلام الله -تعالى- كله حق لا كذب فيه ولا تخييل فيه حتى القصة واقعية حتــى المثــل حقيقــي وواقعي، كذلك المثل الذي يضربه الله -تعالى- للناس في القرآن الكريم فكلام الله كله حق، والله أعلم.

فضيلة الشيخ هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه المحاضرة؟

أسئلة على هذه المحاضرة أقول في السؤال الأول: ما وجه تسمية كل من التوراة والقرآن فرقاناً؟

السؤال الثاني: ما هو الرشد الذي آتاه الله لإبراهيم -عليه السلام-؟

ثالثًا: ما المراد بالحكم والعلم الذي آتاه الله لوطاً؟ ولماذا ذكر الله قوم لوط بعمل الخبائث ولم يذكر الشرك؟

ونسأل الله لنا ولكم التوفيق والسداد اللهم أمين

الدرس الخامس عشر

الأنبياء [٧٦: ٩٤]

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين وبعد، ففي هذه المحاضرة نتناول بعون الله -تبارك وتعالى- الجزء الثاني من تثبيت الله لنبيه محمد -صلى الله عليه وسلم- بوعده بمثل ما آتى الأنبياء من قبله، من خلال الآيات السادسة والسبعين وحتى الآية الرابعة والتسعين، وذلك من خلال عناصر أربعة:

الأول: نوح -عليه السلام- والكرب العظيم.

الثاني: داود وسليمان -عليهما السلام- في الحكم والقضاء.

ثالثًا: الصابرون وجزاء صبرهم.

رابعًا: رزق بغير حساب.

وتفصيل ذلك - إن شاء الله تعالى- بعد الاستماع إلى الآيات المباركات من أخينا الأستاذ عبد الرحمن فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاً آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنبياء: ٧٦- ٩٤]

في هذه الآيات الطيبات كما نلاحظ ولاحظنا قبل ذلك في الجزء الأول منها أن التركيز على ما آتاه الله للأنبياء من قبل رسولنا محمد -صلى الله عليه وسلم- فكأن الله -تعالى- يثبته على طريق الدعوة والرسالة ويبشره -

صلى الله عليه وسلم- بأنه سيؤتيه مثل ما آتى الأنبياء السابقين وبلغنا في ذلك قصة نبي الله نوح -عليه السلام- يقول الله -تعالى-: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾، ﴿وَنُوحً﴾ أي: واذكر نوحاً ﴿إِذْ نَادَى﴾ أي دعى ربه -سبحانه وتعالى- ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل هؤلاء الأنبياء المذكورين من قبله فيما سبق من الذكر فكان نوح -عليه السلام- من السابقين في الزمان على غيره، ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ وكان دعاء نوح -عليه السلام- كما ذكر في آيات آخر أنه قال: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: ١٠]، وفي آية مفصلة أكثر من ذلك، ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧]، ولكن كان هذا الدعاء من نوح -عليه السلام- بعد أن أوحى الله -تعالى- إليه بأنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، فقد آمن من آمن وإن كانوا قليلاً كفر من كفر، وعلم الله في قلوبهم الإصرار على الكفر، ولهذا استساغ نوح -عليه السلام- وأجاز الله له أن يدعو عليهم بأن يؤخذوا أخذاً إلى النار، ﴿رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧]، ودعى عليهم بالعذاب ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: ١٠]، وهكذا لا يجوز الدعاء على الكافرين والعاصين بالهلكة واللعنة إلا بعد أن نعلم مصيرهم، ولا علم لنا بذلك، فطالما العمر ممدود فطالما كان العمر ممدوداً والغيب مجهولاً بالنسبة لنا، فلا يجوز لنا الدعاء إلا على من خَصَّهُ الله -تعالى- باللعنة، وإنما ندعو أن يهديهم الله -تعالى- وأن يبين لهم طريق الحق، وأن يلزمهم الحجة، فلو آمنوا لكان خيراً لهم، وإن لم يؤمنوا فلن يضرونا في شيء، إنما دعى نوح -عليه السلام-؛ لأنه علم أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، ولهذا حينما دعى ربه كانت الإجابة فورية ووقتية لم تتوانى عنهم ولم تتأخر عنهم كما قال تعالى هنا: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ والعطف بحرف الفاء يدل على الترتيب والتعقيب، أي: السرعة، فكانت الإجابة سريعة وكانت استجابة مبالغاً فيها رداً على كفر القوم العنيد وفي آيات آخر يقول تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ [القمر: ١١- ١٣]، هكذا استجاب الله -تعالى- استجابة عظيمة لنوح -عليه السلام- وكانت فيها النجاة والفوز والخلاص من الهلاك، ومن الكافرين للمؤمنين، أما الكافرون فقد هلكوا جميعاً، ولكن ذكرت الآيات التي معنا ما وهبه الله لنوح ومن آمن معه ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾، قالوا: الكرب العظيم هو الطوفان، وقالوا أيضاً: ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ ما لاقى نوح من قومه من عنت على مدار تسعمائة وخمسين سنة يدعوهم إلى الله -تعالى- وإلى التوحيد ولكنهم لم يستجيبوا وقالوا: ﴿وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣]، استمروا على الكفر واستمرؤوه رغم طول مدة الدعوة فيهم وإصرار نوح -عليه السلام- على تذكيرهم واستعماله كل وسيلة، فأنجاه الله -تعالى- وأهله الذين آمنوا به، ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ وهو الطوفان ومن معاناة قومه الكافرين.

﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَ﴾ وأصل النصر يكون على الغير ليس منه، ولكن لما كان النصر فيه انتقام جاء هذا الحرف "من" لتضمن كلمة النصر هنا معنى الانتقال فانتصر الله لنوح وانتقم الله من الكافرين، ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَ﴾ فقد خَلَّصَهُ الله -تعالى- منهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، عرفنا قبل ذلك أن الجملة التي تفصل بها الآية وتسمى فاصلة الآية أو خاتمتها أو تذييلها؛ لأنها مكان الذيل هذه الجملة الأخيرة في كل آية وقد بدئت هذه الجملة "بإن" فإن هذه الجملة تكون تعليلية، كأن الله -تعالى- قال: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَ﴾ لأنهم ﴿كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، ويشير الله -تعالى- إلى مدى إساءة قوم نوح بإضافة القوم إلى السوء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ﴾ فهم مضافون إليه ملتصقون به متلبسون به لا ينفكون عنه أبداً ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود: ٤٤]، انتهى الأمر ولم يبقى على وجه الأرض إلا من آمن مع نوح بالله رب العالمين، حتى ولده من صلبه وقد رآه تتلاطمه الأمواج، وناداه ليكون مع المؤمنين لا مع الكافرين فلم يُطِع الولد في ذلك ورآه نوح -عليه السلام- لا يستطيع النجاة فنادى فيه ربه ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴿٤٦﴾﴾ [هود: ٤٥، ٤٦]، نوح -عليه السلام- يعلم المقصود بالأهل وأنهم أهل الإيمان ولكنه تمسح في

ظاهر اللفظ رقةً من الأب على ابنه وطمعاً من العبد في رحمة ربه –سبحانه وتعالى– فقال لعلها تقبل عند الله ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود: ٤٥]، أي من عائلتي من أسرتي ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود: ٤٥، ٤٦]، ولهذا أغرق الله الكل كل الكافرين ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وتنطوي بذلك صفحة نبي الله نوح –عليه السلام– لتنتشر صفحة أخرى فيها داود وسليمان –عليهما سلام الله– نبي ابن نبي وملك ابن ملك، داود نبي وملك وسليمان نبي وملك، ولكن كان ملك سليمان كما هو معروف أعظم من ملك داود أبيه، وكان علمه أوسع وأدق من علم أبيه، وكان حكمه أرجح من حكم أبيه وفي كل خير؛ لا نفاضل بين هذا وذاك ولكن أذكر هذا لأشير إلى إشارة لعلها مقصودة في هذا المقام، لماذا ذكر الله داود –عليه السلام– وسليمان ولده –عليه السلام– أيضًا ولكن أشار إلى فضل سليمان على داود؟ وكأن هذه إشارة تبشر النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه سيؤتى خيراً عظيماً ولا تعجب يا محمد أن تعطى خيراً من إبراهيم وخيراً من نوح وخيراً ومن فلان ممن سبقك من الأنبياء فقد آتينا سليمان خيراً مما آتينا داود وهذا ولد ذاك، فلا مانع أن تُعطى خيراً من آبائك وأجدادك في النبوة، ففيها إشارة لطيفة إلى عظمة وعِظم ما ينتظر النبي –صلى الله عليه وسلم– من نعم الله –عز وجل– عليه، يقول تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ أي كان سليمان أفهم للقضية من أبيه وكلاً فيه خير ﴿وَكُلاً آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ أعطى الله هذا ملكاً وأعطى الله هذا ملكاً كما أعطاه علماً وعلماً ولكن كان علم سليمان أرجح من علم داود، وكان ملكه كذلك أكبر كما قال ربنا –سبحانه وتعالى– عن سليمان ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [ص: ٣٥]، وكان ملك سليمان طويلاً عريضاً عظيمًا فيه إمكانات عظيمة لم تشهدها الدنيا، ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ أي اذكرهما اذكر خبرهما، في هذا المشهد على وجه الخصوص ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ حين كانا يحكمان في قضية الحرث ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ كان هناك قوم لهم زرع وقوم رعاة، أو لهم غنم، الراعي على الغنم بالليل تركها ولم ينظر أمرها فنفشت في زرع الناس فأفسدته، فالنفش يكون بالليل أما بالنهار لو نزلت الأنعام أو الأغنام في زرع قوم وأفسدته فهذا يسمى هملاً أي أنه أهمل رعايتها، لكن بالليل يسمى نفشاً، ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ يعني خرجت من مكانها وذهبت ليلاً إلى حرث بعض الناس أي: زرعهم، فأكلته وأفسدته.

ذكر ابن مسعود –رضي الله تعالى عنه–: «أن هذا الزرع كان كَرْماً» أي: أشجار العنب، «كان كَرْماً فدخلت فيه الأغنام فأكلت عناقيده وأوراقه وأفسدت فيه إفساداً عظيمًا فلجأ الاثنان والخصمان إلى داود، فحكم داود –عليه السلام– لأصحاب الحرث بأن يأخذوا الأغنام أبداً، فالأغنام عوضاً عن فساد الأرض وهذا حكم راجح، وصحيح ولكن مروا على سليمان –عليه السلام– وعرف القضية وعرف الحكم فقال لأبيه: غير هذا يا نبي الله، بكل أدب يعني هناك حكم آخر قال: وما ذاك، قال: أن تدفع الحرث لأصحاب الغنم يصلحوه حتى يعود كما كان وأن تدفع الأغنام لأصحاب الحرث يصيبون منها حتى يعود الكرم أو الحرث كما كان، يأكلون من لبانها يأخذون من أصوافها يأخذون من مواليدها ينتفعون بها كما كان ينتفع أصحابهم حتى يعود الحرث كما كان فيرد الحرث إلى أصحابه وتعود الأغنام إلى أصحابها، وهذا هو قول الله –تعالى– ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾، فيعوض أصحاب الحرث وتعود الأغنام إلى أصل مالكها» وهكذا قضى سليمان –عليه السلام– بحكمة من الرحمن –سبحانه وتعالى– فهو الذي فهمه هذا.

﴿وَكُلاً آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمً﴾ حتى لا يظن السوء بداود، حتى لا يظن أحد أن حكم داود كان حكماً خاطئاً وهو نبي يحكم بوحي ولكن حكمه كان مرجوحاً وصحيحاً، إلا أن حكم سليمان كان أرجح وكان أفضل وأدق، ومن ذَلِكَ يعني تكررت هذه القضايا طبعًا بين داود وسليمان ومن ذَلِكَ ما ذُكِر أو ما ورد به الحديث الصحيح عند البخاري ومسلم وأحمد –رحمهما الله تعالى–عن أبي هريرة –رضي الله تعالى عنه–: قال رسول الله –صلى الله عليه

وسلم-: (بينما امرأتان معهما ابنان لهما جاء الذئب وأكل أحدهم) أكل صغيراً من الصغيرين (وبقي الآخر فتنازعت المرأتان في هذا الوليد) كل منهما تقول هذا ولدي وولدك أنت هو الذي أكله الذئب، (فاحتكما إلى داود -عليه السلام- فحكم وقضى بالولد للكبرى منهم) ولعله رأى أن الصغرى تلد -إن شاء الله- أما الكبرى فهذه ربما تكون قد أيست أو لا تلد بعد ذَلِكَ أو لعل هناك حكمة أخرى عنده قضى على أساسها بهذا الحكم، (فمرتا بسليمان فعرف الحكم أيضاً فقضى بينهما قضاءً كان أدق وأحكم، قال -عليه السلام- إيتوني بمنشار أشق لكم هذا الولد نصفين كل منكما تأخذ نصفاً فقالت الصغرى: يرحمك الله لا تشقه إنما هو ولدها ادفعه إليها وقالت الكبرى: بل شقه بينن) وافقت على الشق، فليس ولدها؛ لأنها تتحمل شقها أمام عينها، أما أمه الحقيقية ففاض قلبها رحمة وعطفاً على الوليد فلأن تفقده وهو حي خير وألطف من أن تفقده وهو ميت، فعرف سليمان الأم الحقيقية من الأم المدعية، فدفعه إلى الصغرى، وكان ذَلِكَ من تكريم الله -تعالى- له، ووقع مثل ذَلِكَ في حياة النبي -صلى الله عليه وسلم- رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه: (أن ناقة البراء -رضي الله عنه- دخلت حائطاً فأفسدت فيه، فقضى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أي: حكم على أهل الحوائط أهل البساتين والزروع حفظها بالنهار وما أفسدت المواشي بالليل ضامن على أهله) يعني حكم على أهل الزروع أن يحرسونها بالنهار؛ لأن النهار وقت لسراح وتسريح البهائم والأنعام، هذا وقت أكلها ورعيها فعلي أن أحرث زرعي من أن تنزل فيه أو تهمل فيه الأنعام والماشية، أما بالليل فمن المفترض أن الأنعام في حظائرها وبيوتها فهناك أمان من أن تدخل زرعاً فليس علي أن أحرس زرعي بالليل فلو أفسدت الأنعام والأغنام ونحوها لو أفسدت زرعاً بالنهار فالضمان على صاحب الزرع أنه لم يحرس زرعه، ولو أفسدته بالليل ونفشت فيه، فالضمان على أهل الأغنام والأنعام؛ لأنهم ينبغي أن يحبسوها ليلاً فليس الوقت وقت سراح ولا رعي، ولكن العلماء علماء الحديث وجدوا ووقفوا على علة في هذا الحديث في سنده فهو حديث فيه ضعف وأشار إلى ذَلِكَ ابن كثير -رحمه الله تعالى-.

هكذا كانت القصة في ما بين داود وسليمان -عليهما السلام- في موضوع الحرث كما ذكرته الآية وبين الله -تعالى- أنه آتى كلا منهما حكماً وعلماً، قضاءً وملكاً وحكمةً وعلماً، إنما كان ما أعطاه الله -تعالى- للابن أكثر وخيراً مما أعطاه للأب، وهذا لحكمة أرادها الله -سبحانه وتعالى- وعطاء الله للابن والخير الذي يظهر على يد الولد إنما هو خير لأبيه أيضاً فيسعد الأب بما يراه عند ولده يفرح بذلك كثيراً جدًا حتى عَرَّفَ الناس ذَلِكَ بقولهم: لا أحد يحب أن يكون أحد خيراً منه غير ولده، إنما قد يحقد على الآخرين إلا ولده يحب دائماً أن يكون ولده على خير ولو فاقه في ذَلِكَ، فإن يفرح به ويفخر به، كما ذكر الله -تعالى- بعض ما أعطى داود وسليمان من الملك فقال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ سخرنا مع داود الجبال والطير لتسبح معه فكانت تسبح بصوت ويسمع صوتها وذلك لجمال صوت داود -عليه السلام- وترانيمه بتسبيح الله -عز وجل- فكانت الجبال تردد معه والطيور تجتمع فوق رأسه وتسبح معه، وذلك من إكرام الله لداود -عليه السلام-، وهذا يثبت أن لهذه المخلوقات صوتاً وأن للجمادات والطيور وغيرها صوتاً، وكلاماً وتسبيحاً وعبادةً وإن كنا لا نسمع وإن كنا لا نفهم ما نسمعه من صوت بعض المخلوقات إلا أن الله فهمه لسليمان -عليه السلام- وعلمه منطق الطير كما جاء في القرآن: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٦].

﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ لا تعجب أن تكون الجبال مُسَبحة وأن تكون الطيور مُسَبحة لا تعجب أن يكون لها صوت مفهوم وكلام معلوم؛ لأن الله يقول: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ فالله على كل شيء قدير ينطق الله ما شاء من خلقه بما شاء من القول والكلام، فليست القوة في ذات المخلوقات ولكن هذا المنطق العجيب من قدرة الله -تعالى- الذي ينطق الحجر والشجر وينطق الطير وغير ذَلِكَ.

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ عَلَّمَ الله داود صنعة دروع الحرب، وهو ما يلبسه الإنسان على صدره يتقي به الضربات، وقيل: كانت الدروع قبل داود صفائح، ولكن داود -عليه السلام- هو أول من سبكها من حلقات، كان يصنعها صناعة مخصوصة، يعني طور في الصناعة التي كانت تصبع بها الدروع قبل ذَلِكَ.

﴿لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ﴾ البأس هو الشدة والحرب أي: من ضربات القتال ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ ينبغي أن يُشكر الله -سبحانه وتعالى- على كل صناعة تظهر وعلى كل تطور يبرز في حياتنا ذَلِكَ لأنه من فضل الله ومن نعمة الله ولو شاء ربك ما فعلوه، أما سليمان فمما أعطاه الله: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ سخر الله لسليمان أشياء كثيرة ومنها الريح، وكان له بساط من خشب يضع عليه ما شاء من أحمال ويركب عليه وتحمله الريح بأمر ربه، تطيعه فيما أراد؛ لأنه لا يطلب منها إلا طاعة الله -تبارك وتعالى- وعمارة الكون وخدمة المؤمنين، وكان كما ذكر عنه لو صَحَّ ذَلِكَ ومن شأنه أن يصح عنه وإن لم يرد أن سليمان -عليه السلام- كان إذا ركب على البساط وحمل به وارتقى في هذا الملك العظيم كان يجلس مطأطئاً رأسه، حافظاً بصره لا ينظر يميناً ولا شمالاً تواطعاً لجلال الله -تبارك وتعالى- حتى لا يغتر بهذا الملك، وإنما ليعلم نفسه أن هذا الملك ملك الله وهذا العطاء عطاء الله -سبحانه وتعالى-، أما من نظر إلى سعة ملكه وترامي أطراف مملكته فإن من شأنه أن يغتر بما كان بين يديه، أما سليمان فرغم هذا الملك الكثير قال: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، فكانت الريح عاصفةً تجري بسرعة وكانت رخاءً يعني طواعة رخوة تطيع سليمان في كل ما أراد وحيث وجهها إلى طاعة الله -سبحانه وتعالى- ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾، مهما بلغ الإنسان في ملكه وفي علمه فلن يغيب أبداً عن علم الله ولن يخرج من ملك الله هو في قبضة الله بكل ما ملك، سليمان -عليه السلام- ملك لم يأت من بعده مثله ولا أحد في ملكه ومع ذَلِكَ كان الله به عالماً وكان الله له كاشفاً وكان محيطاً بكل شيء معه، ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ﴾ أي سخرنا له أيضاً من الشياطين ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُ﴾ أي في البحار فالغوص لا يكون إلا في الماء، يغوصون له في البحار لالتقاط الدرر الكامنة في أعماق البحر ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ﴾ يعملون أشياء كثيرة لا مجال لذكرها وسردها، ﴿دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: أقل من الغوص، كما قال تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾ [ص: ٣٧]، يبنون له أبنية على وجه الأرض ويغوصون له في عمق البحار، ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ هكذا كان أمر داو وسليمان وكيف آتاهما الله -تعالى- حكماً وحكمة وملكاً وعلماً، ولا مانع أن يعطى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مثل ذَلِكَ وأكثر من ذَلِكَ فقد أعطى سليمان الابن أكثر مما أعطى داود الأب.

ثم يأتي العنصر الثالث وهو الصابرون وجزاء صبرهم: ذكر الله جملة من الأنبياء أيضاً ذكرهم بصبرهم الجميل العظيم وجزاء الصبر عندهم وذلك تصبيراً للنبي -صلى الله عليه وسلم- ودعوة له ليصبر على قومه وما يلاقي منهم من أذى وبلاء وقمة الصابرين السابقين سيدنا أيوب -عليه السلام- لم يبتلى أحد بمثل ما ابتلي به، عُرف بالبلاء وعُرف بالصبر الجميل قال الله -تعالى-: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿وَأَيُّوبَ﴾ يعني واذكر نبي الله أيوب، أو واذكر عبدنا أيوب كما جاء في القرآن ﴿إِذْ نَادَى﴾ أي حين نادى ربه، ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ كان هذا في آخر البلاء بعد صبر طويل نادى أيوب على ربه ودعا ربه -سبحانه وتعالى- ولجأ إليه، ولكنه كان مؤدباً ومهذباً ومتلطفاً جداً في كلامه مع ربه قال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ وفي آية أخرى: ﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]، نسب الإصابة بالمرض والابتلاء أو البلاء إلى الضر نفسه كأنه جاءه بنفسه ومرة أخرى إلى أنه كان من الشيطان، ولم ينسب الضر إلى الله -سبحانه وتعالى-؛ لأن ربنا -سبحانه وتعالى- لا ينسب الشر إليه أبداً ومهما فعل بنا مما تراه العين شراً فهو خير ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]، وكذلك قال نبي الله وخليله إبراهيم -عليه السلام- لم يقل: وإذا أمرضني فهو يشفيني، ولكن قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء: ٨٠]؛ لأن الله إذا ابتلاني ببلاء إنما أراد تكفير ذنب عني لم أتب منه، أو أراد ابتلائي ببلاء لأصبر عليه ليرفع درجتي ففي كل خير أراده الله بي لكني أرى الشيء على أنه مصيبة وعلى أنه شر فينبغي للمؤمنين أو على المؤمنين ألا ينسبوا الشر إلى الله أبداً؛ لأننا متسببون فيه أما ما نراه من شر يقضيه الله علينا فهو في حقيقة الأمر وفي واقع الغيب خير عظيم عند الله -تبارك وتعالى- ولو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع.

﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴿٨٣﴾﴾ وهنا يذكر المفسرون أن أيوب -عليه الصلاة و السلام- من تلطفه في الدعاء عرض حاله على الله ولم يطلب الشفاء وذلك من شدة صبره على بلاء الله تبارك

وتعالى إنما قال يارب حالي هكذا وأنت ترى وأنت الرحيم فذكر الصفة التي تقتضي طلب الشفاء وتقتضي المن بالعافية ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴿٨٣﴾﴾ كما قال نوح –عليه السلام– ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴿٤٥﴾﴾ [هود: ٤٥]،ولم يقل يارب نجه أو ضمه إلي أو ألحقه بي لم يطلب طلبا معينا ونبينا –عليه الصلاة و السلام– في تحويل القبلة كان ينظر إلى السماء ويقلب وجهه في السماء فقط ولم يطلب ما يريد طلبه في قبله يراه ربه في قلبه وفي نظرات عينيه قال تعالى ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾[البقرة: ١٤٤]، وهذا أدب عظيم في الدعاء لأني لا أدري ذلك الذي أطلبه من الله تعالى وخاصة في أمور الدنيا يا ترى أيكون خيرا أو يكون شرا فلذلك أجعل طلبي وسؤالي في قلبي وأقلب عيني في السماء وأرجو الله تعالى بغير كلام أعرض حالي على الله والله تعالى يقضي ما يشاء فإن كان ما أريد فالحمد لله وإن كان غير ما أريد فهو الخير والفضل لله سبحانه وتعالى.

ذلك أدب عظيم تأدب به الأنبياء في دعائهم ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ وكانت الاستجابة سريعة أيضا ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾ توسع الناس كثيرا في وصف هذا الضر ووردت أحاديث من بني إسرائيل في ذلك فيها مبالغات وشنائع لا تليق بمقام النبوة حتى قيل إنه كان مريضا بمرض خطير بمرض نفر الناس عنه وتركه حتى أهله ومضى الناس كلهم وترك ملقى عند مزبلة هذا يليق بالأنبياء لا يليق هذا الكلام أبدا إنما الأنبياء هم أشد الناس ابتلاء كما جاء في الحديث (أشد الناس بلاء أو ابتلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل) وجاء في الحديث أيضا عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قوله (يبتلى المرء على قدر دينه فإن كان في دينه صلابة شدد عليه) وهكذا الأنبياء وهم أشد الناس ابتلاء ولكنه بلاء يتناسب مع مقام النبوة الذي يقتضي جمع الناس وتأليفهم على توحيد الله تبارك وتعالى وتبعية الحق أو اتباع الحق والوحي الذي ينزل على الأنبياء فلا يليق بهم الإصابة بالأمراض المنفرة وإنما يوعكون وعكا شديدا ويمرضون بمرض شديد غير منفر وكان النبي –صلى الله عليه وسلم– يوعك وعكا شديدا كما (دخل عليه عمر وهو مريض –عليه الصلاة و السلام– فرآه في ألم فقال يا رسول الله إنك توعك وعكا شديدا فقال –عليه الصلاة و السلام– إني أوعك كما يوعك الرجلان منكم) يعني البلاء والمرض الذي يصيبني كما يأتي للرجلين منكم فالأنبياء أشد الناس ابتلاء لكن أن يكون مرضهم منفرا فلا وألف لا ومثل هذا الكلام مردود بمقام النبوة العظيم والمقصود من النبوة وهو جمع الناس حول الأنبياء.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾ جاء في الصحيحين عن أبي هريرة –رضي الله تعالى عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال (لما عافى الله أيوب –عليه السلام– أمطر عليه جرادا من ذهب فجعل يأخذ بيده ويجعله في ثوبه فقيل له يا أيوب أما تشبع قال يارب ومن يشبع من رحمتك) فكان طمعه زائدا في رحمة ربه حين نزلت به ويقول الله تعالى ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَ﴾ وذلك أن أولاده ماتوا وزوجته ظلت صابرة حوله تخدمه وترعاه ولم تتركه إنما تركه الناس من حوله حين ذهب ماله وضاع ماله ومات ولده ولم يعد معه أحد الناس يقبلون على من عنده عزوة من الأولاد وعلى من له عز من المال وزخرف الحياة الدنيا لأنه ينتفعون من وراءه لكن حين ذهب مال وولد أيوب –عليه السلام– الناس بعدوا عنه بقيت زوجته تخدمه حتى عافاه الله تبارك وتعالى فأعطاه بدلا مما كان ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ﴾ أي زوجته ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ قال بن مسعود وبن عباس وكثير من السلف قالوا ردهم الله عليه بأعيانهم يعني هم هم ردهم الله عليه أولاده وأمواله وزاده فوق ذلك وقيل رد الله عليه أمثالهم أعطي أجر من سبقوا في الآخرة وأعطي مثلهم في الدنيا وهكذا أكرم الله نبيه أيوب إكراما عظيما رحمه من عنده ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴿٨٤﴾﴾ تذكرة للعابدين ليعلم العابد لله تبارك وتعالى أن الله عنده خزائن كل شيء ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾[النحل: ٥٣]، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾[الحجر: ٢١]، فاعبد الله ومن أعظم عبادات الله أن تسأل الله (إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله) والله تعالى يحب السؤال من عبده وقد يؤخر عنه الجواب ليكثر العبد من قوله يارب ومن سؤاله لله تعالى (وينزل رب العزة جل وعلا كما صح الحديث بذلك إذا كان الثلث الأخير من الليل ينزل إلى السماء الدنيا وينادى على عباده ألا من مستغفر فأغفر له ألا من تائب فأتوب عليه ألا من سائل فأعطيه

ألا من كذا ألا من كذا حتى يطلع الفجر) الله تعالى يستحث عباده على السؤال هكذا كرام الله تعالى للأنبيـــاء ولا يقطعه عن أتباع الأنبياء فهو ذكرى للعابدين ثم يفتح الله تعالى صفحة أنبياء آخرين كان لهم شأن في الصبر أيضا وإن كان أقل من صبر أيوب وبلاءهم كان أقل من بلاء أيوب -عليه السلام- يقول تعالى ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيــسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴿٨٦﴾﴾ إسماعلي ابتلي ابتلاء عظيما كما نعلم وهو ابتلاءه بالذبح حين أمر الله أباه إبراهيم أن يذبحه أنى لغلام صغير لم ير الدنيا بعد لم يستمتع بها لم ير الشباب والفتوة يؤمر أبوه بذبحه بيده وهو حي هكذا وأبوه يعرض عليه ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِـي الْمَنَــامِ أَنِّـي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾[الصافات: ١٠٢]، فلم يراجع أباه ولم يناقش ربه ولم يفاصل الأمر إنما قال ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴿١٠٢﴾﴾ وكان رده حكيما لم يقل ســتجدني مــن الــصابرين فليست المسألة عنترية ولا عفوية وعشوائية وإنما يعلم أن الأمر شديد وأن البلاء عظيم ولن يكــون صـــابرا إلا بفضل الله والتوكل على الله فقال ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴿١٠٢﴾﴾ كان إسماعيل -عليه الــسلام- صابرا كذلك نبي الله إدريس -عليه السلام- صابرا نبي الله إدريس لاقى من قومه ملاقاة عظيمة وكان جدا لنوح -عليه السلام- لقي من قومه عنتا وصبر عليهم صبرا عظيما جدا وكان -عليه السلام- شغوفا بطلب العلم فـي كل مجال حتى نسب إليه كثير من العلوم نسب إليه كثير من العلوم فكان صبورا على ذلك حتى تعلم علوما كثيرة أما ذوا الكفل فكان نبيا من أنبياء بني إسرائيل وكان بعد نبي الله اليسع ولما كبرت سن اليسع تمنى من قومه أن يقوم منهم رجل ليكون خليفة من بعده على بني إسرائيل وانتدبهم لذلك على أن يختبره في الــصبر أن يــصوم النهار وأن يقوم الليل ولا يغضب اشترط عليهم هذه الشروط الثلاثة وانتدبهم لهذا فلم يقم إلا ذوا الكفــل وتكفــل بذلك ووفى به اختبره اليسع فوفى له بذلك ورأى منه صبرا عجيبا في ذلك فكان خليفة على بني إسرائيل من بعده ولذلك يقول البعض لم يكن ذو الكفل نبيا ولكن كان رجلا صبوراعابدا وحكما مقسطا وكان له صبر عجيب وله في القصص من ذلك الشيء الكثير وأيا ما كان فإن بن كثير -رحمه الله تعالى- ذكر عن بن جرير أنه توقــف في هذه المسألة ولم يفصل فيها وبن كثير استظهر يعني كأنه رجح قال والأظهر أنه نبي واحتج لذلك بذكره فـي وسط الأنبياء وهي حجة طيبة مقبولة.

أيا ما كان فهو رجل ذو صبر عظيم وكان من جزاء صبره أنه ذكر بين الأنبياء وقال الله عنه وعــن غيــره ﴿كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ وكان من جزائهم أيضا أن الله تعالى أدخلهم في رحمته ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّــنَ الصَّالِحِينَ﴿٨٦﴾﴾ أي إنهم يستحقون ذلك بسبب صلاحهم فأدخلناهم في رحمتنا بسبب أنهم كانوا من الصالحين.

ثم صفحة أخيرة فيها رزق بغير حساب رزق بغير أسباب إن كان ما سبق جزاء حسابا من الله تبارك وتعالى ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴿٨٦﴾﴾ هذا مقابل هذا فإن الله تعالى قد رزق بعض عباده وبعــض أنبياءه رزقا بغير حساب ولا يتوقف على أسباب وأول أولئك وأعجبهم ذو النون نبي الله يونس -عليه الــسلام- ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا﴾ هو يونس بن متى -عليه سلام الله - نبي كان بأرض العراق في قرية أو بلــدة نينوى ويقال نينوى ولقب بذي النون أي صاحب الحوت كما جاء التصريح بذلك في آيات أخر وذلك أنه أرســله الله تعالى إلى أهل نينوى فكفروا به وردوا دعوته أولا فغضب منهم وتركهم وهجرهم ودعا عليهم فاستجاب الله له في دعوته وأخبره أنه سينزل العذاب على قومه بعد مدة معينة قبلها بثلاثة أيام خرج يونس -عليه الــسلام- مغضبا من قومه وتركهم وركب سفينة ليهجرهم وينتقل إلى بلد آخر ولما تعمقت السفينة في البحر رأى ربانها أن الحمل ثقيل ولابد أن ينزل واحد ليبقى الجميع فمن ذا الذي يضحى بنفسه كل سيقول نفسي نفسي فأجرو قرعــة جاءت القرعة أول مرة وثانيتها وثالثتها على يونس -عليه السلام- كلما أعادوها جاءت علــى يــونس -عليــه السلام- فألقى بنفسه في اليم أرسل الله تعالى إليه حوتا والحوت هو السمكة الكبيرة ويقال هذا نوع خــاص مــن الأسماء لا يمضغ ما أكل يبلغ بلغا قيل في ذلك كثير لكن أرسل الله إليه حوتا وأوحى إلي إلى هــذا الحــوت ألا تأكل له لحما ولا تهشم له عظما فإن يونس ليس لك رزقا وإنما بطنك يكون له سجنا هكذا ابتلع الحــوت ســيدنا يونس -عليه السلام- حتى صار في شدة عظيمة وفي ظلمة متطابقة ظلمة بطن الحوت وظلمة البحــر وظلمــة الليل علم يونس -عليه السلام- أنه لن ينجو من هذا الضيق ولن يخرج ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ كان يظــن أن

الله تعالى لن يضيق عليه فالقدر يأتي بمعنى التضييق ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ﴾[الطلاق: ٧]، أو نقدر بمعنى نقضي ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴿٣٨﴾﴾[الأحزاب: ٣٨]، أي قضاء مقضيا الكلمة لها في اللغة عدة معان وليس بمعنى القدرة ليس اللفظ هنا بلفظ القدرة فما كان لنبي الله يونس أن يظن أن الله لا يقدر عليه معنى القدرة إنما لن يضيق عليه أو لن يقضي عليه بعقوبة إلا أنه فوجيء بأنه عوقب بهذا العقاب فكان في بطن الحوت في هذه الظلمة ظن أنه مات بعد ما أكله الحوت فحرك رجليه فتحركتا فعلم أنه لا يزال حيا فسجد مكانه في بطن الحوت وقال مناديا ربه سبحانه وتعالى اللهم إني اتخذت لك مسجدا لم يسجد لك فيه غيري ولذلك حذر بعض الناس يعني عملوا حذرا وهو الفزورة ما المسجد المسجد الذي لم يسجد فيه إلا رجل واحد من البشر هو بطن الحوت والذي سجد فيه نبي الله يونس –عليه السلام– ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾ كان من دعاءه أن قال ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴿٨٧﴾﴾ فكانت دعوة عظيمة عجل الله باستجابتها ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴿٨٨﴾﴾ أوحى الله إلى الحوت أن ألفظه وأخرجه على الساحل فألقي هناك ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴿١٤٥﴾﴾ [الصافات: ١٤٥] وأعاده الله مرة أخرى إلى قومه بعد أن تابوا إلى الله لما رأو يونس ذهب مغضبا وحزينا وقالوا أغضبنا يونس وما كان ينبغي لنا ذلك وتابوا إلى الله تبارك وتعالى وأحسنوا التوبة فأحسن الله إليهم وحفظهم وكثرهم أي زادهم حتى أعاد إليهم يونس مرة أخرى ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴿٨٨﴾﴾ الدعاء نجاة عظيمة سأل سعد بن أبي وقاص –رضي الله تعالى عنه– رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عن هذه الدعوة أهي ليونس خاصة أو للمؤمنين عامة فقال النبي –صلى الله عليه وسلم– هي ليونس بن متى خاصة وللمؤمنين عامة للكل ودعا النبي –صلى الله عليه وسلم– المؤمنين أن يدعو الله تعالى بهذا الدعاء فهو دعاء فيه فرج عظيم ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴿٨٨﴾﴾ هذا حظنا في هذا الدعاء.

وكذلك كان نبي الله زكريا –عليه السلام– رزق رزقا عجيبا بعد أن بلغ من الكبر عتيا واشتعل رأسه شيبا وكانت امرأته عاقرا والعاقر هي التي لم تلد أصلا لم تلد ولدت هكذا ونشأت هكذا وشابت هكذا فهي عاقر بخلاف العقيم هي التي نشأ عليه العقم بعد ذلك لعلة معينة فكانت أصلا عاقرا لا تلد وما ولدت قبل ذلك ولكن زكريا بعد أن كبرت سنه ورأى ضلال بني إسرائيل ومراوغاتهم طلب من الله تعالى أن يرزقه ولدا يكون نبيا من بعده وخليفة على بني إسرائيل ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ هكذا بعد أن كانت عاقرا أصلحها الله تعالى وأصلح الله تعالى العقر الذي فيها فصارت تلد بعد كبر سن وبعد عجز وبعد تعطل الأسباب فالطب والعلم والعرف والتقاليد والواقع كل ذلك يقول لا إنجاب ولكن أراد الله أمرا فما هي إلا أن يقول كن فيكون ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى﴾ ويحيى وصفه الله وصفا عجيبا قال ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴿٧﴾﴾[مريم: ٧]، ليس له سمي ليس له شبيه في الجمال في العظمة عليه سلام الله تعالى ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ وذلك جزاء أعمالهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ رغبا أي طمعا فيما عند الله ورهبا أي خوفا مما عند الله من العقوبة ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴿٩٠﴾﴾ خاضعين لله تبارك وتعالى ثم ختم الله تعالى هذا الذكر الكريم بمريم عليها رحمة الله تعالى ورضوانه لأنها كانت أما لنبي الله عيسى –عليه السلام– فقال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي منعته من الزنا منعته من الوطء إلا بأمر الله تعالى فلم يوطء ومع ذلك حملت دون أن يوطء فرجها ودون أن يصاحبها رجل ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴿٩١﴾﴾ أن يولد مولود بغير أب وأن تلد امرأة بغير أن يغشاها رجل فتلك آيات عجيبة لله تعالى كيف أكرم الله مريم كيف أكرم الله عيسى بهذ الأعاجيب بأن ينطق في المهد إلى غير ذلك وكان نبيا كل هذا يبشر رسول الله –عليه الصلاة و السلام– بمستقبل عظيم وبنعم كثيرة تتنزل عليه من عند ربه وكما قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴿٥﴾﴾[الضحى: ٥]، يختم الله هذا الذكر الكريم وهذه السلسلة المباركة من الأنبياء بقوله ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴿٩٢﴾﴾ يربط الله تعالى هذا الدين بما سبقه من شرائع سماوية أنزلها الله تعالى من عنده ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾ الأمة هنا معناها الملة والديانة أي إن هذا دينكم دين واحد لا يتعدد كما قال النبي –عليه الصلاة و السلام– (الأنبياء إخوة لعلات دينهم واحد) ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴿٩٢﴾﴾ اعبدوني أنا ربكم كما كنت ربا لمن كان قبلكم أنا رب العالمين سبحانه وتعالى ولكن الناس لم يستجيبوا والكفار لم يطيعوا ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴿٩٣﴾﴾ أي تفرقوا رغم وجود هذا

البيان ورغم وجود هذا االتأصيل لهذا الدين الخاتم أنه دين نزل قبل ذلك على كل هؤلاء الأنبياء وآمن به من آمن إلا أنهم تنازعوا واختلفوا وتقطعوا أمرهم وفي النهاية الكل راجع إلى الله يوم القيامة ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴿٩٣﴾﴾ وكل سيلقى جزاءه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴿٩٤﴾﴾ أي لا نغمطه حقه ولا نظلمه شيئا كل سيجازى بعمله يوم القيامة ونحن قد سجلنا وكتبنا كل عمل لصاحبه وبه نلقاه يوم القيامة نسأل الله تعالى أن يسجل لنا في سجلاتنا كل عمل صالح وأن يبارك لنا فيه حتى نلقاه به وهو راض عنا غير غضبان وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

وردتنا إجابات عدة على أسئلة الحلقة الماضية: كان السؤال الأول:

ما وجه تسمية كل من التوراة والقرآن فرقانا؟

وكانت الإجابة وجه التسمية بالفرقان لكل من التوراة والقرآن أن كلا منهما فرقانا فرق الله به بين الحق والباطل وكثيرا ما يجمع الله بين هذه الكتابين الجليلين الذين لم يطرق العالم أفضل منهما ولا أعظم ذكرا ولا أبرك هدى وبيانا فأخبر تعالى أنه آتى موسى أصلا وهارون تبعا الفرقان وهي التوراة الفارقة بين الحق والباطل وبين الهدى والضلال وأنها ضياء يقول بن كثير –رحمه الله تعالى– وجامع القول في ذلك أن الكتب السماوية مشتملة على التفرقة بين الحق والباطل والهدى والضلا والغي والرشد والحلال والحرام وعلى ما يحصل نورا في القلب وهداية وخوفا وإنابة وخشية

إجابة طيبة بارك الله فيكم وشكر لكم.

السؤال الثاني ما هو الرشد الذي آتاه الله إبراهيم؟

وكانت الإجابة الرشد الذي آتاه الله إبراهيم هو الهدى يقول بن كثير –رحمه الله تعالى– أي من صغره ألهمه الله الحق والحجة على قومه كما قال الله تعالى ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾[الأنعام: ٨٣]،

أجابة جيدة ولكنها مقتضبة إلا أنها حوت الفائدة والحمد لله الرشد ضد الغي وضد السفه وكما بينا في الحلقة السابقة أن الرشد سعة في الأفق ومن هذا القبيل كان ما أوتيه سيدنا إبراهيم –عليه السلام– حيث فهم وعقل منذ صغره ضلال قومه وفساد الشرك وبطلان الشركاء ووجه قومه إلى ذلك حتى قبل أن تأتيه النبوة.

السؤال الثالث ما المراد بالحكم والعلم الذي آتاه الله لوطاً ولماذا ذكر الله قوم لوط بعمل الخبائث ولم يذكرهم بالشرك؟

فكانت الإجابة المراد بالحكم النبوة والعلم معروف كما قال الشيخ أثابه الله وقال الحكم بين الناس بالصواب والسداد والعلم الشرعي لم يصف الله قوم لوط بالمشركين لأن هناك ما هو أقبح وهو أنهم كانوا قوما منتكسين يعملون الخبائث وهو إتيان الرجال شهوة من دون النساء هذا شذوذ فسقوا به وخرجوا به عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها وسابقة لم يرتكبها من قبلهم أحد من العالمين وهذه انتكاسة عظيمة قال الله تعال في وصفهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴿٧٤﴾﴾[الأنبياء: ٧٤] والله أعلم.

هناك سؤال:يقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته: يقول إن بعض الناس يسمعون الحديث الذي قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- (قد أوتيت مزمارا من مزامير آل داوود) فبضع الناس يسمعون هذا الحديث فيجيـزون سماع الغناء فما رأي فضيلتكم والسلام عليكم ورحمة الله.

أحبكم الله الذي أحببتمونا فيه، (مر النبي -صلى الله عليه وسلم- ليلة على بيت أبي موسى الأشعري -رضي الله تعالى عنه- فسمعه يقرأ القرآن بصوت جميل فاستمع إليه وقال لقد أوتي هذا الرجل مزمارا من مزاميـر آل داود -عليه السلام- وقال أبو موسى حينما سمع هذا من رسول الله -عليه الصلاة و السلام- لو كنت أعلم أنـك تسمعني لحبرته لك تحبير) أي لحسنت قراءتي أكثر وأكثر وجملت صوتي بقراءة القرآن تشابه الأسماء أضـل بعض الناس وجعلهم يعتقدون أن مزامير داوود مجموعة من الصفافير أو الآلات التي يصفر فيها فتحدث صوتا من عائلة الناي وما إلى ذلك لكن هذه كانت عبارة عن جمال في الصوت وروعة في الأداء لكـن ليـست بآلـة خارجية عن الحنجرة وعن الفم وما إلى ذلك مما يخرج الصوت من الإنسان فما كان مع أبي موسى آلـه مـن الآلات ورثها عن آل داوود إنما صوته كان فيه جمال من جمال آل داوود حينما كـانوا يرنمـون بتـسابيح الله سبحانه وتعالى ثم إن أبا موسى ما كان يغني ولا ينشد شعرا إنما كان يقرأ قرآنا فالاستدلال بهذا استدلال باطـل فاسد بعيد جدا إنما هو جمال الصوت أما تلك الآلات فقد صح فيها الحديث في صحيح البخاري ليكونن أقوام من أمتي يستحلون الحرى والحرير والخمر والمعازف واالمعازف جمع معزف وهي آلات العزف بجملتها وذلك يدل على حرمتها لأنه يقول يستحلون الاستحلال يكون استباحة لما حرمه الله سبحانه وتعالى فليس هذا الفهم صحيحا إنما المزامير في آل داوود غير المزامير عند الناس هذا غير ذلك ونعوذ بالله من مزامير الناس ونـسأل الله أن يرزقنا من مزامير آل داوود.

يقول: ماالرابط بين قصة نوح -عليه السلام- وقصة داوود وسليمان التي وردت في سـورة الأنبيـاء ومـا الحكمة من تكرار قصص بعض الأنبياء في أكثر من سورة أفيدونا جزاكم الله خير.

التناسب بين هذه القصص كلها قصة الأنبياء في سورة الأنبياء كما قلنا قبل ذلك إنما هو تثبيت للنبي بذكر ما أعطى الله للأنبياء فقد آتى فلانا كذا وأعطى فلانا كذا ونجى فلانا من كذا فيذكر الله تعـالى إنعامـه وإكرامـه ونصرته للأنبياء من قبل فإذا علم النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك ثبت على طريق الدعوة وصبر علـى أذى قومه وعلى تحمل أعباء الرسالة وتكرار القصة في القرآن الكريم سواء للأنبياء أو غيرهم إنما هو لكل مناسـبة ولكن من جمال عرض القرآن للقصة أنه يقتصر على ما يناسب المقام فيذكر إن صح التعبير مشهدا من المشاهد وموقفا من المواقف في حياة نبي من الأنبياء أو قوم من الأقوام يذكره هذا الموقف خاصة لأنه هو المناسب لهذا المقام الذي ذكرت فيه القصة في سورة من السور وفي سورة أخرى تعاد القصة ولكن من وجه آخر ومن طرف آخر غير الذي ذكر قبل ذلك كله يسمى اجتزاء القصة إلى أجزاء كل جزء يذكر في مكانـه المناسـب لـه والمطلوب فيه بخلاف ما يظن أن القصة مكررة بكاملها في كل مكان هنا وهنا وهنا فهذا كرار هذا التكرار ممل ومخل والقرآن بريء منه وليس مثله فيه إنما هو ذكر مشهد أو موقف من القصة يتناسب مع المقام الذي ذكـر فيها بغرض تقديم العبرة لمن يقرأ أو يسمع القصة والله أعلم.

تقول: هل هناك مناسبة نعلمها في ذكر هؤلاء الأنبياء وفق هذا الترتيب الوارد في الآية أو أن هذا الترتيـب لحكمة استأثر الله بها في علمه؟

الترتيب في هذه الآيات ليس على وضعه الطبيعي أو المعروف في التاريخ فقدم الله موسى وهـارون وذكـر بعدهما إبراهيم وذكر بعد ذلك نوحا وهكذا ليس الترتيب على وفق ما وقع ذلك لأن الترتيب غير مقـصود وحين يقصد الترتيب يذكر الله الأنبياء مرتبين لكن طالما الترتيب غير مقصود وغير مفيد في المقام فلا يتوجـه إليه الحديث ولا يراعى في الخطاب.

فالترتيب هنا ترتيب قد يكون له حكمة عند الله سبحانه وتعالى أ و يتدبر المتدبرون فيرزقهم الله تعالى ما يشاء من الحكمة لكن الترتيب هنا غير مقصود.

تقول: قد ذكرتم فضيلة الشيخ أن الجبال كانت تسبح مع داوود -عليه السلام- وأن هذا التسبيح حقيقي وقد سمعت من أحد المفسرين أيضا أن الجمال له شعور وأحاسيس كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- عن جبل أحد (جبل يحبنا ونحبه) كيف نجمع بين هذا وبين قول علماء الأصول أن هذا على سبيل المجاز ومثلوا بقول الله تعالى ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَ﴾[يوسف: ٨٢]، أرجوا التوضيح أثابكم الله؟

قول الله تعالى ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَ﴾ هذا مجاز عبر بالقرية وأراد أهلها هذا غير ما نحن نتكلم فيه ليس المقصود أن يسأل جدران القرية وبيوت القرية إنما يسأل أهل القرية ولكن جاء التعبير هكذا ربما مبالغة أي لو سألت الأحياء من الناس وسألت الجمادات وسألت الأشجار وسألت البيوت لأجابت بالحق الذي نقوله إنما كون هذه المخلوقات لها شعور لها حس لها صوت لها كلام لها تفاهم وتخاطب فهذا ثابت بنصوص القرآن الكثيرة وإن كانت محتملة تحمل على الحقيقة أوة على المجاز ولكن حملها على الحقيقة أولى ما لم تستحيل الحقيقة أو ما لم تكون الحقيقة مستحيلة ولا استحالة لها فقد ثبت في قصة سليمان -عليه السلام- أن الله تعالى علمه منطق الطير وكلم الهدهد وكلم الطيور وكان للهدهد دور معروف وسمع كلمة النمل وفهم كلامها طالما ثبت هذا بالواقع إذن لها فعلا ما أثبت الله لها من حس وشعور والنصوص التي ذكرت في ذلك في القرآن والسنة تحمل على حقيقتها وليس كل مجهول مفقود فليس جهلي بالشيء يعني عدم وجوده فقد أجهل شيئا وهو موجود ولكني لا أراه أو لا أعلمه أو لا أحسن به هذا ثابت في حياتنا كثيرا جدا بالمشاهدة وبالحس فعدم علمنا بأصوات الأشياء وبكلام الأشياء هذا لا ينفي وجودها ولكنها ثابتة ويقول الله تعالى ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء: ٤٤]، كيف لا تسبح وإن كان تسبيحها خضوعا لمنهج الله وما أراد الله منها هو تسبيح أيضا ولكن يقول ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾[النور: ٤١]، وما ثبت مثلا في جبل أحد وما ثبت في الحجر الأسود يقول النبي -عليه الصلاة و السلام- (إن حجرا بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث) يعلم أن هذا هو محمد بن عبد الله ويعلم كرم خلقه وصدقه وأمانته بين الناس فكان كلما مر عليه يسلم على محمد بن عبد الله ومحمد بن عبد الله -صلى الله عليه وسلم- كإنسان لا يعلم بهذا التسبيح ولا يسمعه ولا يرده حتى صار نبيا فنبأه الله بهذا وعلمه فصار يقول هذا (إن حجرا بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث) إلى غير ذلك من تسبيح الحصى بين يديه والشواهد في ذلك كثيرة وجهلنا بالشيء لا يدل على عدمه وقال تعالى ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾[يونس: ٣٩]، والله تعالى أعلى وأعلم.

السؤال الأول في محاضرتنا هذه ما دور الجبال والطير في مملكة داوود -عليه السلام- وما دور الريح والشياطين في مملكة سليمان -عليه السلام-؟

السؤال الثاني: هل كان ذو الكفل نبيا أو رجلا صالحا؟

السؤال الثالث: يبدو من ظاهر قوله تعالى ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ إشكال فكيف يكون توجيهه؟

والله تعالى هو الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

الدرس السادس عشر

سورة الأنبياء: من الآية الخامسة والتسعين إلى آخر السورة

الترهيب من يوم القيامة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وبعد:

ففي ختام هذه الدورة ومع ختام سورة الأنبياء نتناول الآيات الخامسة والتسعين وحتى الآية الثانية عشرة بعد المائة تحت عنوان: الترهيب من يوم القيامة

وذلك من خلال عناصر أربعة:

أولاً: الرجوع إلى الله وأمارته.

ثانياً: الناس في رجوعهم إلى الله فريقان.

ثالثاً: شهادة غيبية لهذه الأمة.

رابعاً وأخيراً: عود على بدء.

سائلين المولى- سبحانه وتعالى- التوفيق وحسن العاقبة وقبل تفصيل القول في هذا نستمع إلى الآيات المباركة من أخينا الكريم فليتفضل مشكوراً:

﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴿٩٥﴾ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَؤُلاَءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴿١٠١﴾ لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴿١٠٢﴾ لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاَغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴿١١١﴾ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾[الأنبياء:].

بسم الله الرحمن الرحيم، لمَّا سبق قولُ الله – تبارك وتعالى- في الآيات السابقة ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾[الأنبياء: ٩٣] قال الله- تعالى- بعد ذلك: ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ بالنظر إلى هذا السياق يصير المعنى ﴿حَرَامٌ﴾ أي: ممنوع فالحرام هو الممنوع والممنوع محرم وحرام أي وممنوع ﴿عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ بالعذاب في الدنيا لكفرها ممنوع أنها لا ترجع إلى الله يوم القيامة يعني: تلك الأمم التي أهلكها الله –تعالى- في الدنيا بالعذاب جزاء كفرها إنها راجعة إلى الله يوم القيامة لتنال جزاء الآخرة ونكال النار وقيل: ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى

قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ إن بعض الكفار ظنوا أن من مات يعود في الدنيا فقال- تعالى-: ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ أي: وممنوع أن ترجع أمة أو أحد أهلكه الله في الدنيا بالعذاب أن يرجع بالبعث في الدنيا وأن يرجع للحياة مرة أخرى إنما البعث والرجوع يوم القيامة، والمعنيان يحتملهما اللفظ والقرآن بهذا العموم يفيد تلك الإفادة الواسعة العامة فمن مات في الدنيا لا يعود إليها ولا يبعث فيها- إلا أن يشاء ربي شيئاً- كما بعث الله أصحاب الكهف وكما بعث الله الرجل الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها قال: أنَّى يحيي هذه الله بعد موتها وما شاء الله من ذلك لتقديم عبرة معينة أو تقديم آية من آيات الله.

أما السنة العامة لله أن من مات في الدنيا لا يعود إلى الحياة فيها مرة أخرى إنما يظل ميتاً حتى يوم البعث، كما قال ربنا: ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾.

﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ أي: إلى أن تفتح يأجوج ومأجوج ﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴿٩٧﴾ ﴾ ويأجوج ومأجوج قوم من نسل آدم -عليه السلام- ومن سلالة نوح -عليه سلام الله- ومن أولاده هم قوم مفسدون في الأرض إفساداً عظيماً وقصتهم مذكورة في سورة الكهف حين طلب قوم من الناس هناك أن يجعل ذوالقرنين بينهم وبين يأجوج ومأجوج سداً يمنعهم من الإفساد فيهم فأقام بينهم ردماً من زبر وقطع الحديد التي وضع عليها نحاس مصهور مذاب فانسبك النحاس مع الحديد وصار سداً منيعاً ومن لطف الله- تعالى- أن سلطهم للخروج من وراء هذا السد سلطهم على الفعل الأشق وهو إحداث نقب وفتح في هذا السد العظيم ولم يهدهم إلى الحل الأسهل وذلك بأن يظهروا من فوق السد وأن يتخطوه إلى الجهة الأخرى فهذه أسهل وقال ربنا: ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ [الكهف: ٩٧] وهؤلاء محبوسون هكذا بفضل الله ولا يظهرون إلا قرب قيام الساعة كعلامة من علاماتها وأمارة من أمارات الرجوع إلى الله – عز وجل- ﴿ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ أي فتح السد الذي يمنعم فتح بينهم وبين الناس وخرجوا إلى الأرض يفسدون فيها كما ذكر ابن كثير -رحمه الله تعالى- أن أحدهم يمر على النهر فيشربه والناس يهربون منهم ويلجؤون إلى حصونهم ويختبئون هنا وهناك ولا يظهر المختبئون إلا بعد ظهورهم فيمر الرجل ممن نجا على النهر الجاف فيقول: كان هنا ماء يوماً من الأيام. فخروجهم يكون قرب قيام الساعة وعلامة من علاماتها لذلك جاءت الآية ﴿ حتى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴿٩٧﴾ ﴾ يعني: وهم يخرجون إلى الأرض ويعيثون في الناس بسرعة فائقة كما تجري الذئاب في الأرض. والحدب: هو المكان المرتفع النازل إلى الأرض كنزلة الجبل مثلاً ومن مشى من فوق الجبل إلى سطح الأرض نزل بسير سريع ومشي سريع فهؤلاء سرعتهم هكذا ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴿٩٧﴾ ﴾ وأصل النسلان مشية الذئاب إذا جرت فشبههم الله -تعالى- في شراستهم بالذئاب وهي تجري وراء فريستها- نعوذ بالله من إدراكهم ومن فتنتهم-.

وهذا هو العنصر الأول: حيث ذكر الله -تعالى- أن كل من مات يرجع إليه يوم القيامة بالبعث الذي هو حقيقة سهلة ومسألة بسيطة جداً في قدرة الله وفي مقدوراته -سبحانه وتعالى- ومن أمارات ذلك أن تفتح يأجوج ومأجوج على الناس وإذا رجع الناس إلى ربهم فهم عند ذلك يكونون فريقين والآيات تصور ذلك إذ يقول ربنا: ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ بخروج يأجوج ومأجوج وفتح سدهم ﴿اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ ونلاحظ إخوتي طلبة العلم -علمني الله وإياكم الخير- أن السورة القرآنية دائماً يرتد عجزها على صدرها ويرتد آخرها على أولها ويترابطان فتبدو السورة كأنها حلقة مستديرة لا تخرج منها آية ولاتدخل فيها آية من خارجها وتلك بلاغة في المقال امتاز به القرآن ويحاول المتكلمون من أدباء وخطباء أن يقلدوا هذا الأسلوب العظيم وأن يظهروا في كلامهم بهذه البلاغة العالية حتى يكون مقالهم وحديثهم موضوعياً يعني: كحلقة تدور حول محور معين فيرتبط حديثهم وكما جاء في أول السورة ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾[الأنبياء: ١] يقول- تعالى- هنا: ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ والمعنى واحد ما هوالوعد الحق؟ هو يوم القيامة فما حال الناس؟ أما الكافرون فهم فريق وأما المؤمنون فهم فريق آخر- جعلنا الله مع المؤمنين- ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ترى أبصار الكافرين شاخصة وشخوص البصر حين يتخذ غرضاً ثابتاً ينظر إليه لا يطرف عنه ولا يتحول عنه فهذا

هو شخوص البصر ويكون ذلك عادة عند الانتظار لأمر مهم أو عند الدهشة والهول وكل ذلك كائن يوم القيامة وهم ينتظرون على تخوف ماذا سيقع بهم، ويحل بهم في هذا الجو العظيم من أحداث يوم القيامة، وكذلك هم خائفون لأن ما كانوا يوعدون به من البعث ويوم القيامة يتحقق أمام أعينهم شيئاً فشيئاً فقد حق ما كانوا به يكذبون ولذلك من الخوف والرعب والهول والدهشة تشخص أبصارهم ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا ﴾ يعني يقولون: يا ويلنا أبصارهم شاخصة ألسنتهم لاهثة بقولهم: يا ويلنا. نداء الويل وهي كلمة تقال عند قدوم الويل على الإنسان وكأنه ينادي ويله لما حضر ولن يرجع وتأكد الإنسان من ذلك فيقول: يا ويلي يعني: يا ويلي احضر ويا ويلي انزل ويا عذابي حُلَّ بي وقد حل بالفعل فهو لا يأتي بجديد ولكنه كأنه يحكي الواقع الذي يقع عليه والذي يعيشه في تلك الساعة فينادي الويل حين نزول الويل والعذاب عليه. ألسنتهم قائلة: ﴿ يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ قد كنا في غفلة وما الذي أغفلهم لقد جاءهم الرسول -صلى الله عليه وسلم- وتعرض لهم في كل مواقفهم ومداخلهم ومخارجهم وليلهم ونهارهم يدعوهم إلى الله ويذكرهم إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

أنزل الله إليهم كتاباً عربياً محكماً ينطق عليه بالحق ومع ذلك كانوا ينصرفون عنه، فلم يكونوا في غفلة حقيقة وإنما هذا تصورهم عن أنفسهم لكن يصدقون حين يقولون كما قال ربنا عنهم وقالوا: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾[تبارك: ١٠] كانوا في غفلة ولكن هم الذين صنعوها هم الذين رسموها هم الذين أقاموا أنفسهم فيها ﴿ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا ﴾ أي: من هذا الغيب الذي يتحقق الآن ﴿ بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ولكن الحقيقة أننا كنا ظالمين حين اتهمنا الحق بأنه سحر وباطل، حين اتهمنا رسول الله الصادق الأمين -صلى الله عليه وسلم- بأنه مفترٍ وكذاب، حين اتهمنا أنه لا توحيد ولا دين إنما هو دين الآباء والأجداد، ظلمنا أنفسنا ﴿ بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾.

الله – تبارك وتعالى- لا يترك لهم الفرصة لهذه الترهات ولهذه الكلمات التي لا فائدة فيها

** ولات ساعة مندم **

﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾[ص: ٣] الوقت ليس وقت ندم ولا اجترار للأحزان ولا اعتراف بالذنوب فقد انتهى وقت هذا الأمر، إنما الآن وقت الحساب واليوم يوم الجزاء فلهذا تجد الآية التالية تقطع عليهم ندائاتهم ﴿ يَا وَيْلَنَا ﴾ وتحسرهم ﴿ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ ﴾ وندمهم﴿ بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ يقطع الله عليهم كل هذا بقوله: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ دعوكم من هذا الكلام الذي تقولونه والذي تتهترون به وتهزون به فإنه لا قيمة له الآن الحق والواقع الآن ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ حصب جهنم: أي حطبها وشجرها ووقودها كما ورد كل ذلك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغيره وقيل: الحصب هو المحصوب أي الذي حملته الرياح من أجسام ثقيلة ولهذا سميت الرياح التي تحمل الحصى والحجارة سميت بالحاصب أو الحصباء ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾[الملك: ١٧] أي ريحاً شديدة تحمل الحصى وترميكم به وسمي الحصى حصباء لأنه يحصب بالرياح فالرياح تحمل الحصى وتقذف به حينما تشتد وكذلك يؤخذ هؤلاء الكافرون يوم القيامة ويرمى بهم في النار ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾[تبارك: ٨] فهم يلقون في النار إلقاء كالحصاة والحجر تحمله الريح وتلقيه من بعد فسموا بذلك ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ الورود كما ذكر ابن كثير -رحمه الله تعالى- واختار هذا الرأي هو الدخول أي ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ أي داخلون وفي سورة مريم ﴿ وَإِن مِنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّ﴾ [مريم: ٧١] الخطاب أيضاً للكافرين وإن أخذ على عمومه فقيل الكل يدخل النار ويمر من خلالها فالمؤمنون تكون النار عليهم برداً وسلاماً حتى إنها تستجير من البرد الذي يكون عند المؤمنين، أما الكافرون فيسقطون فيها- والله على كل شيء قدير سبحانه وتعالى- والورود يأتي بمعنى الدخول كما في قول الله- تعالى- عن فرعون اللعين: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾أي

فأدخلهم النار ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾[هود: ٩٨] وكذلك تأتي كلمة الورود بمعنى الإتيان والمرور على الشيء إتيان الشيء و المرور عليه يسمى هذا وروداً كما قال الله –تعالى– عن كليمه موسى –عليه السلام–: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾[القصص: ٢٣] معنى ورد هنا: أي أتى على ماء مدين حين وصل إلى بئر في أرض مدين وجد الناس يسقون أغنامهم هناك ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ فما دخل البئر ولا سقط فيه ولا نزل فيه إنما مرَّ عليه وكان عنده. فتأتي كلمة ورود بالمعنيين ومعنى ذلك أن الجميع سيردون على النار يعني سيأتون عندها ويرونها بأعينهم ولكن المؤمنين يُسلّمهم الله والكافرون يسقطون فيها وذلك من خلال المرور على الصراط الذي قال فيه العلماء: إنه جسر أدق من الشعر وأحد من السيف منصوب على متن جهنم أي على ظهرها يمر عليه الناس كلهم فمن الناس من يمر بسرعة ومن الناس من يتباطأ به عمله ومن الناس من توقفه ذنوبه ومن الناس من يسقطه كفره وشركه في النار – والعياذ بالله– المؤمن يمر بسلام والكافر والمؤمن العاصي يسقط في النار الكافر يخلد والمؤمن العاصي يخرج بعد فترة يأذن الله– تعالى– بها بشفاعة أحد الشافعين ولله الأمر كله.

أيًّا ما كان الأمر فالخطاب هنا للكافرين والكلام لهم والمقصود هم وآلهتهم التي عبدوها من دون الله ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ فكأني بالمؤمنين وهم بعيدون عن هذا الخطاب غير مقصودين فيه لكن وجد المشركون كما وردت بعض الروايات بذلك وجد المشركون على عهد النبي –صلى الله عليه وسلم– في هذه الآية مادة للجدل والمنازعة وينسب ذلك إلى رجل في العرب كان داهيةً في الحوار والجدل اسمه: ابن الزِّبعرَى هذا الرجل حينما سمع هذه الآية قال: لئن لقيت محمداً لأحجنه أي لأغلبنه بالحجة فوقَّرَ له كبار الكفار الوليد بن المغيرة وأبو جهل ونحوهم وفروا له مجلساً مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقال له ابن الزبعرى: إن كان قولك: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ فنعم جهنم، فنحن مع الملائكة ومع عزير ومع عيسى بن مريم يعني هم كذلك عبدوا من دون الله فهم في جهنم ونحن معهم فنعمت الصحبة فلا عليك من هذا. يعني يقول له: نعمت الصحبة ولا نبالي طالما نحن مع الملائكة التي عبدت من دون الله كما عبدها كفار مكة ونسبوها لله بناتٍ ومع عزير الذي ادعى اليهود أنه ابن الله وعبدوه من دون الله أو مع الله والمسيح –عليه السلام– الذي ادعى النصاري أنه ابن الله وعبدوه مع الله فإذا كنا مع هؤلاء فلا ضير نعمت النار ونعمت جهنم فرد النبي –عليه الصلاة والسلام– على ذللك بأن الله تعالى قال: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ ولم يقل: ومن تعبدون من دون الله فما لغير العاقل ومن للعاقل وبالتالي أظهر النبي –صلى الله عليه وسلم– جهل ابن الزبعرى بلغة قومه وذهوله عن هذه المسألة بين قومه ولكن لم يقبل البعض مثل هذه الروايات وتكلم فيها وهذا جواب أيضاً ضعيف أن "ما" لغير العاقل و"من" للعاقل فمسألة ليست قوية في الرد إنما رد الإمام ابن كثير – رحمه الله تعالى– بكلام لطيف اعتبر الآية التي بعد ذلك استثناء من الآية السابقة فيقول الله– تعالى–: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴿٩٩﴾ لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴿١٠٠﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ﴿١٠١﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴿١٠٢﴾ ﴾ فكأن الآية [إلا الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون] فاعتبر هذه الآية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى ﴾ اعتبرها استثناء من قول الله– تعالى–: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ يعني كأنه قال:[إلا الذين سبقت لهم منا الحسنى] ومنهم الملائكة وهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون والعزير نبي من أنبياء الله والمسيح معروف أنه نبي الله ورسوله إلى بني إسرائيل وآية من آياته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.

فهؤلاء سبقت لهم من الله البشرى بالجنة وعلة ذلك أنهم لم يرضوا بالعبادة من دون الله الملائكة ما رضيت أبداً ولا فرحت بكونها تعبد من دون الله ولا العزير رضي بذلك من اليهود ولا المسيح –عليه السلام– رضي أن يعبد من دون الله ولو أسمعنا الله صوتاً من هؤلاء لكان صوت إنكار على من عبدوهم ومن أشركوهم بالله ويوم القيامة يسألهم الله –تعالى– ليقيم الحق والعدل كما جاء في قوله –سبحانه–: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ

قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴿١١٧﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[المائدة: ١١٦: ١١٧].

ونلاحظ في رد عيسى –عليه السلام– همسة الخوف وهزة الرعب من سؤال الله له مع أن الله –تعالى– يعلم أنه بريء ولكن يريد أن يستنطقه على من عبده من دون الله فيسمعون خلاف ما كانوا يزعمون وقيل: إن عيسى –عليه السلام– حين يوجه إليه هذا السؤال يسمع لعظامه صوتٌ من هول السؤال– نسأل الله العفو والعافية– ورد الإمام ابن جرير بالرد الذي ورد في الروايات أن "ما" لغير العاقل وأما الملائكة وعيسى والعزير فكان ينبغي أن يقال: إنكم ومن تعبدون من دون الله حصب جهنم.

على كل حال فالميزان في الأمر والفصل فيه أن من رضي أن يعبد من دون الله فهو متوعد بهذا العذاب أما من عبده الناس ولم يرضَ بذلك لنفسه وأبى إلا أن يكون الله واحداً فإنه لا يتوعد بهذا العذاب ولا يصيبه شيء منه ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴿٩٩﴾ لَوْ كَانَ هَؤُلاَءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴿١٠٠﴾ ﴾ فعلاً الإله لابد أن يكون عزيزاً وقوياً على الأقل يمنع نفسه من الأذى والردى أما أن يلقى به في النار فذلك يدل دلالة واضحة لكل ذي نظر وعين ولكل ذي قلب أن هذا ليس إلهاً وإلا لدفع عن نفسه.

وهي الحجة التي احتج بها إبراهيم على قومه كما مر بنا الحديث قبل ذلك قليلاً وذلك حينما قال لقومه: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾[الأنبياء: ٦٣] يعني أنتم تعبدون حجارة وليست آلهة ولو كانت آلهة لدفعت عن نفسها أو لدفع عنهم كبيرهم هذا لكنهم لا دفعوا عن أنفسهم ولا عن غيرهم فالإله لابد أن يكون قوياً طالما وردوا النار ويردونها ويلقون فيها فليسوا بآلهة ﴿ لَوْ كَانَ هَؤُلاَءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾ الزفير: هو النفس الخارج من الإنسان يخرج نفساً عكس الشهيق والزفير عادة يكون عند الضيق وعند الشدة ينفخ الإنسان نفخة تدل على ضجره وعلى غضبه وما أشد حال هؤلاء الكافرين يومئذ فلهم الحق أن يخرجوا زفيراً وزفيراً وذلك تعبيراً عن شدة حالهم وشدة العذاب المحيط بهم ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾ والزفير من شأنه أن يسمع لأنه في خروجه وخاصة عند الشدة فيسمع صوته وهو خارج فهل يسمعونه ﴿ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ هم أصلاً في النار لا يسمعون من شدة العذاب صمت آذانهم ومن الضجيج والصراخ من أهل النار فإنهم لا يسمعون الزفير مع ظهور صوته ﴿ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ وقد يقال: ﴿ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ لا يسمعون كلمة رحمة تخفف عنهم بل يمنعون من الكلام أصلاً كما قالوا: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴿١٠٧﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴿١٠٨﴾ ﴾[المؤمنون: ١٠٧: ١٠٨] يحتاجون إلى كلمة حتى تلطف عليهم: تحملوا، اصبروا. لا إنما يرد الله عليهم قائلاً: ﴿ اخْسَؤوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُون ﴾ فيمنعهم حتى من أصل الكلام فضلاً عن أن يسمعهم كلمة تريحهم أو تخفف العذاب عنهم وهم فيها لا يسمعون هذا فريق الكفر وحاله عند الرجوع إلى الله – تبارك وتعالى– ومما لا يحتاج إلى تنبيه– ولكني أنبه للتذكرة– أن هذا ليس الوصف الكامل لحال الكافر يوم القيامة إنما هي مشاهد أو مواقف يذكر الله في كل سورة وفي كل مقام وصفاً لجانب معين من جوانب المقام يوم القيامة فإنه مقام رهيب رعيب يكون فيه الكافرون– عافانا الله منهم ومن مآلهم–.

ولتكتمل الصورة ذكر الله –تعالى– الفريق المقابل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ الذين سبقت لهم منا الحسنى أي قضينا لهم وأمضينا لهم البشرى بالحسنى أي بالمعاملة والمجازاة الحسنى وقيل: بالجنة والمعنى واحد فلا أجمل ولا أحسن من أن يبشر الإنسان بالجنة عند موته فهؤلاء الذين ماتوا وهؤلاء الذين بقوا في الحياة كالملائكة، الله –تعالى– قضى للملائكة بالجنة ﴿ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴿٢٤﴾ سَلاَمٌ عَلَيْكُم ﴾[الرعد: ٢٣:] وليس عليهم تكليف لتكون عليهم نار أو عليهم عذاب إنما هم ينفذون أمر الله – تبارك وتعالى– كما يريد منهم وكما يأمرهم ولا محاسبة عليهم بعد ذلك فإنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما

يؤمرون وأما عيسى والعزير فقد مضى أمرهم وسبقت لهم كذلك الحسنى فالأنبياء جميعاً مبشرون بالجنة وبأحسن طريقة يكونون عليها يوم لقاء الله –سبحانه وتعالى–.

﴿ أُولَئِكَ ﴾ إشارة إلى البعيد لبعد مكانتهم وعلو منزلتهم يوم القيامة ﴿ أُولَئِكَ عَنْهَا ﴾ أي عن جهنم قال هناك: ﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ هنا يقول: ﴿عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ أي: عن جهنم مبعدون.

مبعدون لمسافة كم؟ لأية مسافة؟ المسافة بعيدة جداً، مبعدون بمسافات بعيدة، عبر الله عن بعد المسافة بينهم وبين جهنم بقوله: ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ حسيسها: أي صوت العذاب وصوت المعذبين ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾[فاطر: ٣٧] فهم ويصطرحون ويصرخون في النار وترتفع أصواتهم ومع ذلك هؤلاء الذين سبقت لهم الحسنى من الله لا يسمعون حسيس جهنم يعني: يبعدون عن جهنم بعداً بعيداً جداً لا يرونها ولا يشعرون بحرها ولا بلهيبها حتى ولا يسمعون صوت العذاب فيها.

وهذا مقابل لما ورد من أن بعض الناس لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها كذلك بعض الناس يبعدون عن الجنة –والعياذ بالله– كما قال النبي –عليه الصلاة والسلام– (صنفان من أهل النار لم أرهما رجال أو قال أقوام ومعناها رجال بأيديهم سياط كأذناب البقرة يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذ).

هم يبعدون عن الجنة بعداً بعيداً جداً حتى إن رائحتها الفواحة لا تصلهم ولا يشمونها كذلك الذين سبقت لهم الحسنى يبعدون عن النار بعداً بعيداً حتى لا يسمعوا حسيسها ويتمم النعمة عليهم بقوله: ﴿ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴾ وليس وهم في فضل الله خالدون وهم في نعمة الله خالدون، ولئن كانت لكانت عظيمة وكافية ولكن أراد الله أن يظهر النعيم أكثر فجعلهم فيما تشتهي أنفسهم، فيما يطلبون ويرغبون، فكم طلبوا في الدنيا واشتهت أنفهسم شهوات لكنهم قوبلوا بالتحريم فقالوا: سمعنا وأطعنا، تشتهي أنفسهم أمراً معيناً فيجدونه قد حرمه الله فيقولون: سمعنا وأطعنا ويصبرون عليه فالله –تعالى– يعوضهم عن ذلك خيراً يوم القيامة فيجعلهم في الجنات فيما اشتهت أنفسهم فتشتهي النفس وتتلذذ العين ويرى الإنسان ويجد كل ما يطلبه لا حد لما يشتهي ولا نهاية لما يرغب ﴿ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴾ الخلود معناه الإقامة أي مقيمون ويفهم منها خالدون أبداً والجنة لا يخرج منها أحد وإن أخرج بعض أهل النار كعصاة المؤمنين، فمن دخل الجنة لا يخرج منها أما من دخل النار من عصاة المؤمنين قد يخرجه الله –تعالى– بفضله.

ثم أمنهم الله –تعالى– من شيء، قد يكون الإنسان منعماً ولكن عنده ما يخيفه كما يكون في مجلس طيب كالذي أجلسه معكم ويفزعني الفراق: هل سنلتقي بعد ذلك مرة أخرى أم لا؟ نسأل الله أن نلتقي في فردوس الجنة اللهم آمين.

اللقاء الجميل يعكر عليه ألم الفراق كما قال القائل:

معنى البيت: أشد ما يكون الهم عند الإنسان حينما يلتقي لقاء يتيقين أنه سيفارق بعد هذا اللقاء فجمال اللقاء يضيع في توقع الفراق لذلك قد يكون الناس منعمين ومخلدين في نعيم، ولكن عندهم ما يعكر عليهم وعندهم ما يخيفهم ويفزعهم؛ فأمنهم الله –تعالى– ونفى عنهم هذا الفزع فقال: ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ لا يحزنهم الفزع الأكبر: النعيم عندهم نعيم كامل تام لا ينقصه شيء ولا يعكر صفوه شيء حتى الفزع الذي هو من حولهم إنهم آمنون منه.

﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ ﴾ قال بعض المفسرين: إنه هو الموت وقيل: هو النفخة في الصور وقيل: حين يؤمر بالعبد إلى النار وقيل: حين تطبق النار وتضيق على أهلها. وكل ذلك من الفزع، كلها أقوال متجاوبة مع

كلمة الفزع فلا تعارض بينها كل مواقف الفزع الذين سبقت لهم الحسنى من الله آمنون من هذا الفزع كله، فالفزع الأكبر هو فزع يوم القيامة وكل فزع في الدنيا لا يساوي شيئاً بجوار ذلك الفزع الأكبر – أمننا الله في الدنيا والآخرة–.

﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ﴾ تستقبلهم بالتهنئة والبشرى والترحاب وكأنها تقول لهم: مرحباً بكم تفضلوا ادخلوها بسلام آمنين ائمنوا فيها وانعموا فيها ﴿ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ ﴾ وليس هذا اليوم الذي كنتم توعدون إنما هذا يومكم هذا يوم فرحتكم ويوم سعادتكم يوم جائزتكم ويوم فوزكم هذا يومكم الذي كنتم توعدون أي في الدنيا وصدقتم به وآمنتم به وعملتم من أجله.

وصف الله ذلك اليوم بما يفيد عظمته وبما يفيد هوله وشدته فقال: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ أي: هذا اليوم يوم الفوز للمؤمنين إنه يوم أن يطوي الله –تعالى– السماء بيمينه ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ ﴾ كما قال: ﴿ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾[الزمر: ٦٧] فيطوي الله –تعالى– السماوات بيمينه وشبه طي السماء لأن الطي: هو جمع أطراف الشيء اللين بعضها على بعض. يجمع كما يجمع طرف الثوب أطرافه تجمع إلى بعضه فيكون قد طوى الثوب وطوى الورقة إذا جمع أطرافها وهي لينة هكذا أما الحديد فلا يطوى إلا بالنار فيعالج بالنار أولاً ثم يطوى فأصل الطي للشيء اللين فبين الله –تعالى– أنه يطوي السماء بيمينه وأن هذا الأمر في غاية السهولة واليسر على الله وذلك كما يطوي أحدكم الشيء اللين فيضم أطرافه بعضها إلى بعض وشبه الله هذا بطي السجل للكتب وذلك السجل قيل: يعني الكتاب كما يطوي الكتاب، الكتاب يعني كما تطوى الورقة وقيل: كطي السجل للكتب السجل هو الكاتب للورقة صاحبها يطويها وقيل: هو ملك اسمه "سجل" ملك من ملائكة الله مهمته أنه يتسلم صحف العباد بعد أن يموتوا فيسلم الكتاب إليه فيطويه عنده لا ينشر إلا يوم القيامة يلقى إلى صاحبه ليأخذه بيمينه أو بشماله وينشر عليه ويفتح ﴿اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبً﴾[الإسراء: ١٤] هذا الملك قيل: اسمه "سجل" ورجح العلماء وابن كثير رجحوا هذ الرأي أن "سجل" اسم لملك وهو الملك الموكل بحفظ هذه الألواح وتلك الصحف يطويها إلى أن يكون يوم القيامة ويوم الحساب فيطير كل كتاب إلى صاحبه ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴾ [الإسراء: ١٣]

طي الله –تعالى– للسماوات السبع بطولها وعرضها هكذا سهل جداً "كن فيكون" إن أردتم أن تعرفوا مدى سهولته فانظروا إلى كاتب الورقة وصاحبها كيف يطويها بعد أن يكتب فيها.

﴿ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ واستعظم كثير من الناس كيف يعيد الله الخلق مرة أخرى بعد أن صاروا تراباً وعظاماً ورفاتاً وعظاماً نخرة وتحللت الأجساد وانفصلت الأوصال كيف يعود الخلق مرة أخرى؟!! كما جاء في قوله –تعالى–: ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾[ق: ٣] هكذا قال الكافرون وقص الله قولهم علينا: ﴿ ذَلِكَ رَجْعُ بَعِيدٌ ﴾ وقال –تعالى–: ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾[المعارج: ٦: ٧] استعظم الناس هذا العودة مرة أخرى فناقشها الله في القرآن وفصلها وأقام عليها الأدلة ومن أجمل تلك المواقف والمواقع التي ناقش الله –تعالى– فيها هذ الأمر وقدمه هذه الجملة من الآية ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ هذا إجمال واختصار لقول الله –تعالى–: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[الروم: ٢٧] واختصار هذا في آياتنا هذه ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ يعني: من استعظم هذا الأمر وأراد أن يتخذ دليلاً على ذلك وأن يرى وضوح الحق فلينظر وليعلم أن إعادة الخلق وإعادة الصناعة مرة ثانية تكون أهون وأسهل أو على الأقل مثل البداية الأولى ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾.

﴿ وَعْدًا عَلَيْنَا ﴾ أي أخذ الله على نفسه هذا الوعد والله –تعالى– لا يجب عليه شيء إلا أن يتعهد هو بشيء كذلك يكون في حياتنا وفي حكمنا كالشيء الواجب ولكن الله –تعالى– لا يجب عليه شيء أبداً ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ

خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ تأكيد لما مضى ﴿ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ لسنا مهددين تهديداً أجوف، لسنا قائلين كلاماً لا واقع له، بل نقول كلاماً نفعله بل نعد أو نتوعد بوعيد نحققه وكل ذلك كائن في موعده ﴿ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

الآيات بعد ذلك من خلال العنصر الثالث تخبر بشهادة قديمة شهد بها لهذه الأمة وللمؤمنين منها على وجه الخصوص ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾.

بعض السلف أخبر وقال: نحن عباد الله الصالحون نرث الأرض يعني: أن الله –تعالى– أورثنا الأرض بصلاحنا وبعبادتنا له ومجمل القول في هذا: أن رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– قضى قضاءً مبرماً وسنةً ماضية في الخلق أن الأرض في الدنيا يرثها عباد الله الصالحون من كل أمة، المؤمنون يريدون أن ينشروا الخير وأن يبثوا الإيمان في قلوب العباد وأن يربطوا العلاقة بين العبد وبين ربه –سبحانه وتعالى– لتسعد حياة العبد في الدنيا والآخرة.

الكافرون يخافون على مناصبهم وكراسيهم ومراكزهم وأموالهم ومصالحهم ويظنون أن هؤلاء المؤمنين ينازعونهم الأمر وينظرون إلى أموالهم وإلى جاههم ويريدون سلبه منهم فتقوم النازعة فيحاول الكافرون طرد المؤمنين من الأرض فإذا بالله – تبارك وتعالى– يأتي بالنتائج على عكس ما أراد الكافرون يُطرَد الكافرون من الأرض التي يسكنونها ومن أرض الدنيا كلها بالهلكة والدمار ويستبقي الله المؤمنين وهذا عام في جميع الأمم كما قال الله –تعالى– في سورة إبراهيم: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾[إبراهيم: ١٣] المؤمنون والأنبياء حينما دَعَوا إلى الإيمان ما هددوا بالخروج من الأرض ،إما أن تؤمن وإما أن تسالم وأنت كافر تبقى على كفرك في بيتك في أرضك لكن لا تحارب دين الله – عز وجل– ولا أهل الله ولكن الكافرين حينما يعارضون بدينهم يخرجون من الأرض ويقتلون الأجساد ويزهقون الأرواح.

فهكذا هدد كل الكافرين في كل زمان أنبياءهم فضلاً عن أتباع الأنبياء ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ ﴾ الرب –سبحانه وتعالى– الذي يضع السنن الثابتة التي لا تتغير والقوانين الماضية التي لا تتعطل ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ لنهلكن الظالمين وأين يذهبون؟ خرجوا من الدنيا ومن الأرض كلها وذلك جزاء وفاقاً ويتملكم الأرض بعدهم أنبياء الله وأتباعهم من المؤمنين.

وانظر إلى قوم نوح من بقي في الأرض بعد ألف سنة أو بعد ألف سنة إلا خمسين عاماً بقي فيها المؤمنون القلة المؤمنة بقوا فيها بعد طوفان عظيم أهلك الله به الكافرين جميعاً عن بكرة أبيهم وقطع دابرهم وأخذ المؤمنون والأرض.

مكة أُخرج منها رسول الله –صلى الله عليه وسلم– والمؤمنون معه أُخرجوا إلى يثرب وصارت مدينة نبوية مباركة ثم أعاد الله نبيه –عليه الصلاة والسلام– إلى مكة فاتحاً وصارت المدينة ومكة وأرض الحجاز لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– وللمؤمنين وهلك كبار الكافرين يوم بدر في أول لقاء وهلك من هلك بعد ذلك وآمن من آمن منهم كما شاء الله له الرحمة.

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ قيل: في الزبور هو القرآن وهو بمعنى القطعة من الكتاب. والذكر: هو الذي في السماء اللوح المحفوظ وقيل: الزبور هو كتاب داود وهو موجود عند أهل الكتاب الآن فيما يسمى بالمزامير مزامير داود على ما فيه مما فيه لكن أصله اسمه الزبور ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٥] هكذا قال ربنا –سبحانه وتعالى– كتاب آتاه إلى داود وسماه زبوراً فكتب الله فيه من بعد الذكر أي من بعد توراة موسى لأن داود كان بعد موسى فهذه السنة موجودة ومكتوبة في الكتب المقدسة كتاب بعد كتاب هذا هو مقصود

الأمر أن الله –تعالى– كتب في كل كتاب من بعد الذي قبله أو كتب في الكتب المقدسة المنزلة من بعد اللوح المحفوظ كتب الله فيها هذه السنة ﴿ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ فالبقاء ليس للأقوى ولكن البقاء للأصلح البقاء، ليس للأقوى كما يفهم الماديون ولكن البقاء للأصلح كما يقول رب العالمين –سبحانه وتعالى–: ﴿ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾.

ويرى بعض المفسرين أن الأرض هي أرض الجنة في الآخرة لا بأس من ورث الأرض في الدنيا هم الصالحون والصالحون هم أهل الجنة يوم القيامة فالمعنى يؤدي بعضه إلى بعض ولا معارضة بين هذا وذالك .

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا ﴾ يعني: فرضنا وقررنا ﴿ فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ أي: في الكتاب المنزل من بعد الذكر الذي في السماء ﴿ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ أما الكافر وأما المفسد فهذا عمره قصير وإن طال وملكه زائل وإن دام فالنهاية للصالحين والعاقبة للمتقين كما قال رب العالمين.

﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاَغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ إنَّ في هذا الكلام، في هذا الإخبار ﴿ لَبَلاَغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ البلاغ معروف أن يُبلِّغَ إنسانٌ شيئاً ما ولكن البلاغ أيضاً في اللغة: من البلوغ إذا بلغ الإنسانُ أمرَه ومقصودَه فقد نال بلاغَه.

﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاَغًا ﴾ أي إن هذا القرآن لبلاغاً يعني: لكفاية لقوم عابدين هذه الأمة والمؤمنون منها على وجه الخصوص لو اكتفوا بالقرآن ثقافة وديناً وعلماً وانطلقوا منه إلى حياتهم لكان كافياً لهم في كل شيء وصدق ربنا إذ قال: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾[الأنعام: ٣٨] وقال –سبحانه–: ﴿ إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء: ٩] وتركها هكذا عامة لتشمل للتي هي أقوم في كل مجال والقرآن العظيم كتاب عام للدنيا والدين ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾[الأنعام: ١٦٢] فليس آيات تتلى في الصلاة وفقط أو تقرأ على الأموات ترحماً أو تقرأ في الأسواق تبركاً وجلباً للأرزاق وإنما هي آيات تنظم حركة الإنسان في الحياة لتصح حياته في الدنيا فيسعد ولتفوز حياته في الآخرة فينعم.

القرآن دستور حياة أنزله الله للعباد فمن عبد الله به فاز وبلغ المقصود ﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاَغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾، هذا هو الرسول الذي كان في أول السورة يقول الكافرون عنه ويسرون النجوى ﴿ هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾﴾[الأنبياء: ٣] هذا البشر الذي سخر منه الكافرون والذي اعتبروه ساحراً والساحر مفسد في الأرض مضيع للحق هذا الرسول ليس ساحراً وليس مفسداً بل هو رحمة لم ينزل في المجتمعات نقمة كالساحر والسحرة وإنما هو رحمة ليس على المؤمنين فقط بل على العالمين وتأتي هذه البشارة على صورة بليغة على صورة الحصر ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ كأن الله –تعالى– يحصر بعثة رسوله –عليه الصلاة والسلام– ورسالته في أنها لم تكن شيئاً إلا أنها رحمة وكفى بها نعمة فحياته –عليه الصلاة والسلام– كلها رحمة، أوامره ونواهيه رحمة، هديه القويم رحمة، سنته العادية رحمة، سنته الشرعية رحمة، كلماته رحمة، الاقتداء به رحمة ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ [النور: ٥٤].

﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاَغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴿١٠٧﴾﴾ رحمته –صلى الله عليه وسلم– أو كونه رحمة للمؤمنين هذا واضح وظاهر فقد رحموا به وعزوا به وفازوا باتباعه في الدنيا والآخرة.

أما رحمته للكافرين كيف تكون ذلك؟ الله – تبارك وتعالى– رحم به حتى الكافرين؛ فكفى أن الكافر من هذه الأمة نجا مما كان يعذب به الأمم السابقة من الخسف العام والمسخ العام والهلاك العام فالله –تعالى– نجَّى هذه الأمة من كل هذا ﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاَغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴿١٠٧﴾﴾، ومن الرحمة للعالمين الكافرين كما جاء في قول الله –تعالى–: ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ

فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ قال الله –تعالى-: ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ – صلى الله عليه وسلم – كان وجوده بينهم رحمة في النهاية يتوجه الخطاب كما كان الخطاب في البداية تقرير لرسالة النبي –صلى الله عليه وسلم– فعود على بدء يقول الله –تعالى-: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾، بعد هذ البيان هل أنتم مسلمون ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: كفروا وأعرضوا وأصروا على ما هم فيه ﴿فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ آذنته: يعني أخبرته وحذرته أني سألاقيه، أصل الإيذان أن يخبر بما فيه تحذير ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ أي قل لهم: سآتيكم بالحرب حتى يستعدوا، كذلك إن تولى هؤلاء فآذنهم ولكن ليست هناك حرب في مكة فكيف يؤاذنهم والآية مكية؟!! أي: أخبرهم أن الله –تعالى– سينزل عليهم عذابه وأن الله –تعالى– سيعلن الحرب عليهم ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ أي: حذرتكم حتى أكون أنا وأنتم على سواء أنا وأنتم نعلم الخطوة التالية وهي نزول العذاب على من أعرض وتولى.

﴿ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ أنا لا أدري لأنهم سيقولون: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. لا تسألوني، أنا لا أدري متى ينزل عذاب الله، لكن أعلم أنه نازل بكم متى؟ لا أدري أقريب أم بعيد ما توعدون، فـ"إن" هنا نافية أما الذي يعلم فهو الله ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿١١١﴾﴾، لعله فتنة يفتنتكم الله –تعالى– بها ويختبركم بها أو يعذبكم بها.

قال في نهاية السورة قال –صلى الله عليه وسلم– فيها قراءة ﴿قل﴾ أي: أن الله يوجهه أن يقول والقراءتان تتلاقيان قل وقد قال ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ﴾ احكم بالحق: هذا دعاء الفصل ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾[الأعراف: ٨٩] حينما نصل إلى درجة الجدال بالباطل وعدم الأمل في الاقتناع بالحق والقبول له نختم بهذا الدعاء بيننا وبين الخصوم من أهل البدع والكفر ونحو ذلك كما كان يختم الرسل كلامهم بهذا بينهم وبين أقوامهم الكافرين المعاندين ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ أي: على ما تصفون به الله – عز وجل– من أن له شريكاً أو ولداً وما تصفون به القرآن من أنه سحر وشعر وباطل وافتراء وتصفون به رسول الله –عليه الصلاة والسلام– من أنه ساحر أو مفترٍ أو غير ذلك مما لا يليق أن يوصف به الحق الواضح المبين.

بهذا تختم سورة الأنبياء ويختتم القول فيها بما يسر الرحمن –سبحانه وتعالى– من شرح واستفادة من تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير –رحمه الله تعالى– سائلاً المولى –سبحانه وتعالى– أن يجعل لنا فيما استمعنا وفيما تعلمنا النفع والخير والفوز في الدارين إنَّ ربَّنَا هو الرحمنُ الرحيمُ ولقاؤنا في طاعة أخرى بتقدير الله – تعالى– أو في الجنة –إن شاء الله– في فردوسها مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأحسن الله عاقبتنا جميعاً وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

كان السؤال الأول: ما دور الجبال والطير في مملكة داود؟ وما دور الريح والشياطين في مملكة سليمان؟

كانت الإجابة: سخر الله الجبال والطير مع داود للتسبيح معه وكان لتسبيحها صوت وكانت الطيور تجتمع فوق رأس داود –عليه السلام– عند التسبيح وذلك من إكرام الله له.

ومما سخر الله لسليمان الريح وكان له بساط من خشب يضع عليه ما شاء من أحمال ويركب وتحمله الريح بأمر ربه، وسخر معه الشياطين يغوصون في البحر لاستخراج الدرر الكامنة من أعماقه ويبنون له الأبنية

إجابات طيبة ولكن نلاحظ قلة المجيبين أرجو ألا يكونوا قد ملوا وأرجو أن يكونوا قد انشغلوا بالمذاكرة والاستعداد للأسئلة النهائية وأن يكون هذا هو عذرهم وإلا فنرجو الاهتمام والمتابعة والمثابرة؛ قد قال النبي –عليه الصلاة والسلام– (إنما العلم بالتعلم).

كان السؤال الثاني: هل كان ذو الكفل نبياً أم كان رجلاً صالحاً؟

الإجابة ذكر ابن كثير عن ابن جرير أنه توقف في هذه المسألة وابن كثير استظهر أنه نبي واحتج بذكره في وسط الأنبياء وهي حجة مقبولة .

أنبه فقط إلى أن ابن كثير –رحمه الله تعالى– حين استظهر قال: والأظهر أنه نبي. معنى قوله: والأظهر أنه استظهر هذا فنقول: استظهر ابن كثير كذا لأنه قال: والأظهر وإذا قال: والراجح نقول: ورجح فهذا تنبيه إلى معنى قوله والأظهر أنه نبي وكانت حجته مقبولة فعلا لذكر ذي الكفل في وسط الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– .

السؤال الثالث: يبدو من ظاهر قوله –تعالى–: ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ إشكال فكيف يكون توجيهها؟

وكانت الإجابة: لكلمة القدرة معانٍ كثيرة منها: القضاء والقدرة والتضييق وما ظنه يونس –عليه السلام– هو التضييق –جزاكم الله خيراً–.

فعلاً ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ ليس الأمر هنا متعلقاً بظن يونس –عليه السلام– بقدرة الله وإنما المقصود فظن أن لن نُقدِّر عليه وهذا يدعونا إلى مراجعة معاني مفردات القرآن لنعلم أن اللفظ الواحد قد يشترك في عدة معانٍ فلا نفسره في القرآن بالمعنى المتداول بيننا إنما بالمعنى اللائق بسياق الآيات حسب ما ورد من معانيه في لغة العرب هذا مزلق ينزلق فيه الكثيرون يفسرون الآية أو الكلمة القرآنية بما شاع في هذه الأيام من معانيها ويتركون المعاني الأخرى وبالتالي تظهر أمامهم شبه غريبة ومزالق خطيرة قد ينزلق فيها البعض –نسأل الله السلامة والعافية–.

يقول: ما مناسبة هذه الآية مع ما قبلها من ذكر الله لقصص الأنبياء في سورة الأنبياء ثم الانتقال إلى ذكر بعض علامات يوم القامة ثم ذكر مصير المجرمين يوم القيامة ثم الانتقال إلى ذكر عباد الله الصالحين يوم القيامة وما وجه التقابل بين ما قلت من أن أهل النار لا يتكلمون ولا يسمعون وبين الآيات التي تبين التخاطب بين أهل النار وأهل الجنة قال الله –تعالى–: ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ ﴾[الأعراف: ٥٠]وهل معنى الآيات أن أهل النار لا يسمعون بعضهم في النار فقط ؟

السؤال –ما شاء الله– دسم، بداية المناسبة أشرت إليها في بداية المناسبة أن الآيات السابقة فيها ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾ أن الناس اختلفوا حول دين الله – تبارك وتعالى– منهم من آمن و منهم من كفر وكل فريق فرح بما لديه، تنازعوا أمرهم بينهم وختم الله الآية بقوله: ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾ فالانتقال هنا واضح والمناسبة بينة كل إلينا راجعون بعدها ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ وبعد ذكر الأنبياء قلنا: إنها كانت كبشرى تثبت النبي –صلى الله عليه وسلم– بأن الله سيؤتيه ويعطيه خيراً مما أعطى الأنبياء السابقين فهذا تصبير له ومثابرة له على طريق الدعوة وتبليغ الرسالة وكأن الله –تعالى– يشير بعد ذلك إلى المثوبة العظمى والجائزة

الكبرى التي تكون يوم القيامة فعطاء الله للنبي والأنبياء جميعاً في الدنيا لا يساوي شيئاً بجوار عطائه لهم في الآخرة لذلك ختم الله السورة بذكر الجنة والنار من باب الترغيب والترهيب وتأكيد البشرى التي بشرها للنبي –صلى الله عليه وسلم– وأن نهاية هذا الدين والدنيا الجزاء بالثواب والعقاب، فذكر لذلك موقف الكافرين ثم ذكر موقف المؤمنين وذكر موقف المؤمنين دائماً يتقابل مع بعضه لتتم السورة وتكتمل أمام الناظر والقارئ فبذكر المؤمنين تظهر بشاعة جزاء الكفر وبذكر الكافرين تظهر النعمة على المؤمنين.

ختمت السورة بهذا لأن هذا هو التوصيف الطبيعي للموضوع ذكر الجنة والنار.

ونسأل الله –تعالى– أن يجعلنا من أهل الجنة، ولا يتسع المقام لأوسع من هذا –جزاكم الله خيراً– وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

التفسير – المستوى الثالث
الشيخ/ عبد الله شاكر

الدرس الأول

تفسير سورة الحج من اية ١ – ٧

مرحباً بكم وبالإخوة المشاهدين، ويسرني – في الحقيقة– أن أشارك في هذه الدورة المباركة، ويسعدني أن يكون تناولنا لبعض سور القرآن الكريم من سورة الحج وكذلك أيضاً من سورة المؤمنون وسورة النور – إن شاء الله تبارك وتعالى– سيكون لقاؤنا – إن شاء الله– متكرراً، وسأتناول هذه السور الثلاث – بإذن الله تبارك وتعالى– وفي الحقيقة سأبدأ مع مطلع سورة الحج، وسيقتصر الحديث في هذا اللقاء حول سبع آيات من سورة الحج – إن شاء الله تعالى– يدور حديثي حول هذه الآيات السبع في محاور متعددة:

المحور الأول: أمر الله –تبارك وتعالى– الناس بتقواه، ومعنى التقوى.

المحور الثاني: معنى الزلزلة ومتى تكون.

المحور الثالث: ذم المجادلين في الله –تبارك وتعالى– بغير علم.

المحور الرابع: الأدلة على قدرة الله – تعالى– على البعث والنشور.

والآن أطلب من الأخ الكريم أن يتفضل بقراءة السبع آيات التي سأتناولها بالحديث – إن شاء الله تعالى.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج: ١– ٧].

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم وبارك وأنعم على عبدك ورسولك ومصطفاك وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم وسلك سبيلهم إلى يوم الدين، وبعد.

أرحب بكم مرة أخرى – أيها المشاهدون الكرام– في هذه اللقاءات التي ستتكرر – إن شاء الله تعالى– وكما أشرت آنفاً بأن حديثي سيكون حول سبع آيات من سورة الحج وحول محاور متعددة، وكما ذكرت أن المحور الأول هو:

أمر الله –تبارك وتعالى– بتقواه ومعنى هذه التقوى: وقد ورد ذلك صحيحاً في مطلع هذه السورة ألا وهي سورة الحج، وهو قول الحق –تبارك وتعالى–: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ هذا الأمر من الرب – تبارك وتعالى– بتقواه ورد في مطلع هذه السورة، وقد يسأل سائل: لماذا جاء الأمر بالتقوى هنا في مطلع هذه السورة؟ لو نظرنا إلى السورة السابقة، ألا وهي سورة الأنبياء سنجد أنها ختمت بالترهيب من عذاب الله – تبارك وتعالى– ومن طي السماء وإعادة الخلق وهذا أمر يدعو الإنسان إلى أن يتأهب لما هو مقبل عليه، ومن هنا جاء أمر الله – تبارك وتعالى– للناس جميعاً بتقواه في مطلع هذه السورة، ثم علل أيضاً الأمر بالتقوى بأن الزلزلة التي ستأتي بعدُ هي شيء عظيم، وأمر الله –تبارك وتعالى– بالتقوى جاء في آيات كثيرة من القرآن الكريم، ومن ذلك أيضاً قول الحق –تبارك وتعالى–: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَ﴾ [النساء: ١] وكقول الحق –تبارك وتعالى–: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ﴾ [لقمان: ٣٣] كما أمر الله –عز وجل– المؤمنين بالتقوى في آيات كثيرة من القرآن الكريم، وقد أمر أيضاً نبيه – صلى الله عليه آله وسلم– وهو سيد المؤمنين –عليه الصلاة والسلام– أمره بتقواه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١] والأمر بتقوى الله للنبي –صلى الله عليه آله وسلم– يعني: أن يداوم – عليه الصلاة والسلام– على تقوى الحق –تبارك وتعالى– والتقوى أيضاً هي وصية الله –عز وجل– للأولين والآخرين كما قال – جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾ [النساء: ١٣١] وقد أمر الله –عز وجل– المؤمنين خاصة بأن يتقوه كما ينبغي كما جاء في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢] ومعنى التقوى – أيها الإخوة الكرام– أن يتقي الإنسان ربه وذلك بامتثال أوامره والانتهاء عما نهى عنه –سبحانه وتعالى– فامتثال الطاعات والاستجابة لأمر الله –عز وجل– والحذر من الوقوع في المعاصي والسيئات كل ذلك من تقوى الحق –تبارك وتعالى– وللسلف عبارات كثيرة في مفهوم التقوى ومعناها كما ورد عنهم مثلاً التقوى هي: الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والاستعداد ليوم الرحيل قبل الرحيل، وقد جاء عن طلق بن حبيب –رحمه الله تبارك وتعالى– أنه قال: التقوى: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وأن تترك معصية الله –عز وجل– على نور من الله تخشى أو تخاف عذاب الله –تبارك وتعالى–.

والتقوى – أيها الإخوة الأحبة– نحن جميعاً بحاجة إليها لأنها في الحقيقة تجعل بينك وبين عذاب الله –تبارك وتعالى– وقاية، حاجزاً، ومانعاً من أن يصيبك عذاب الله –تبارك وتعالى– وفي هذه الآية بصورة خاصة جاء الأمر بالتقوى معللاً كما أشرت بأن ما سيعقب أمر الناس بعد ذلك من زلزال وغير ذلك وحساب وجزاء سيأتي الإشارة إليه كل ذلك يجعل الإنسان يستعد بتقوى الله –عز وجل– وأن يتخذ التقوى عدة يواجه بها ما سيقابله بعد ذلك؛ ولذلك بعد الأمر بالتقوى مباشرة جاء قول الحق –تبارك وتعالى–: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ زلزلة الساعة شيء عظيم وهذا حق. والزلزلة: هي الحركة الشديدة المضطربة وهذا اللفظ كلمة ﴿زَلْزَلَةَ﴾ يفيد هذه الحركة من وجهين، وآمل أن تتأملوا ذلك، كلمة الزلزلة هذا اللفظ يفيد الحركة الشديدة والاضطراب من وجهين:

الأمر الأول: من تكرار الحرف، فالحرف الأول والثالث من جنس واحد، والحرف الثاني والرابع من جنس واحد، هذا التكرار يفيد حركة واضطراباً فكلمة مثلاً صلصل قلقل، هذا يفيد حركة واضطراباً، تكرار الحرف يفيد ذلك.

الأمر الثاني: يفيد هذا اللفظ الحركة والاضطراب من التضعيف الموجود في كلمة «زلَّ» فهذا التضعيف يفيد أيضاً شدة وحركة واضطراباً.

فالأمر إذن شديد ومخيف حقاً وجاء ذكر القرآن له بعد الأمر بالتقوى ليبين أنه يجب على الإنسان أن يتقي ما سيأتي بعد من عذاب الله –تبارك وتعالى– ويتخذ استعداداً لذلك في دنياه وذلك يكون بتقوى الحق –تبارك وتعالى–.

معنى الزلزلة أشرت إليها الآن وهذا هو المحور الثاني، وأريد أن أبين – وهذا أمر مهم– متى تكون الزلزلة؟ متى تحدث؟ الزلزلة وردت في القرآن الكريم، وردت هنا، ووردت في ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾ [الزلزلة: ١] اختلف المفسرون – رحمهم الله تبارك وتعالى– في وقت الزلزلة، متى تكون هذه الزلزلة؟

فذهب بعضهم: إلى أن هذه الزلزلة ستكون في نهاية هذا العالم، في الدنيا، قبل قيام الناس من قبورهم، وقالوا: وهي المعنية في قول الحق –تبارك وتعالى–: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾﴾ [الزلزلة: ١– ٣] وقالوا أيضاً هي المقصودة في قول الحق –تبارك وتعالى–: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾ [النازعات: ٦، ٧] أو: ﴿وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ [الحاقة: ١٤] واحتج أرباب هذا القول ببعض الأحاديث أوردها الحافظ ابن كثير –رحمه الله تبارك وتعالى– وأشار إلى ضعف هذا الاستدلال، وقد سبقه إلى ذلك إمام المفسرين الإمام الطبري – رحمه الله تبارك وتعالى–

أما القول الثاني: فهو أن هذه الزلزلة ستكون بعد قيام الناس من قبورهم وفي عرصات القيامة حينما يقف العباد للحساب والجزاء بين يدي رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– وهذا في الحقيقة هو القول الراجح، وتؤيده الأدلة، فقد ساق الإمام ابن كثير – رحمه الله تبارك وتعالى– بعضاً من الأحاديث التي تؤيد هذا القول، ومن ذلك ما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه في تفسير هذه الآية وكذلك أخرجه الإمام مسلم في كتاب الإيمان عن أبي سعيد الخدري –رضي الله تعالى عنه–: (أن النبي –صلى الله عليه آله وسلم– ذكر أن آدم –عليه السلام– سينادى في يوم القيامة ويقول الله له: يا آدم، فيقول لبيك ربنا وسعديك، فينادى بصوت يقول الله له فيه: أخرج من أمتك بعث النار، فيقول آدم –عليه السلام–: وما بعث النار؟ فيقول رب العزة والجلال – سبحانه وتعالى–: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فشق ذلك على الصحابة، فقال –صلى الله عليه آله وسلم–: منكم واحد ومن يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين، فسُرِّيَ عنهم...) إلى آخر الحديث، وفيه أن النبي –صلى الله عليه آله وسلم– قال: (إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبر الصحابة، ثم قال: ثلث أهل الجنة فكبر الصحابة، ثم قال: شطر أهل الجنة فكبر الصحابة – رضي الله تعالى عنهم أجمعين–) يعني: نصف أهل الجنة والشاهد من هذا الحديث أن النبي –صلى الله عليه آله وسلم– ذكر فيه لما قال: (أخرج بعث النار، فقال: وما بعث النار يا رب) آدم –عليه السلام– قال ذلك (فقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين) هذا بعث النار، فقال النبي –صلى الله عليه آله وسلم– فهناك ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ فنص – صلى الله عليه آله وسلم– أن وضع الحامل لحملها وذهول المرضعة عن رضيعها الذي ترضعه في ذاك الوقت إنما سيكون حينما ينادي رب العزة والجلال آدمَ –عليه السلام– بأن يخرج بعث النار وسيكون ذلك في عرصات يوم القيامة، وهذا هو الرأي الراجح في هذه السورة أن الزلزلة ستكون بعد قيام الناس من قبورهم. والسؤال الذي يمكن أن يتبادر إلى الذهن في هذه الحال: ما معنى الزلزلة إذن؟ ونحن قلنا: بأن الزلزلة هي الحركة الشديدة والاضطراب العنيف، فما معناها إن كانت ستكون في عرصات يوم القيامة؟ وقد انتهت الحركات والاضطراب وقام الناس من قبورهم، معنى الزلزلة إذن في هذا الموطن: هو الهول والفزع والخوف الشديد، والهول والفزع والخوف الشديد يسمى زلزالاً ويسمى زلزلة، كما جاء في سورة الأحزاب في قول الحق –تبارك وتعالى– وهو يصور حال أهل الإيمان وهم في غزوة الأحزاب: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ١١] فالمراد بالزلزال الذي زلزلوه هنا: هوالخوف والهلع الذي أصاب قلوبهم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ الضمير في ﴿تَرَوْنَهَ﴾ يعود إلى أي شيء؟ يعود إلى الزلزلة ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ والزهول عن الشيء: هو الانشغال عنه والانصراف عنه؛ لأن ما يقع الإنسان فيه من شدة تجعله يذهل عما حوله، والذهول عُلِّقَ هنا بأمر يجب أن نتنبه إليه ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ يعني: أن المرأة التي ترضع وليدها أو طفلها وهو من أحب الناس إليها، تذهل عنه لشدة هول هذا الموقف وهو الوقوف بين يدي

رب العزة والجلال – سبحانه– وهذا يفسر معنى: أن الزلزلة المذكورة في الآية شيء عظيم؛ لأنها فعلاً تجعل المرأة التي تلقم طفلها الثدي تذهل عنه، ليس الذهول واقعاً وابنها بعيد عنها، وإنما يقع الذهول أثناء إرضاعها لوليدها، ويفهم هذا المعنى من قول الله –تبارك وتعالى–: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ لأنه يقال: مرضعة، ويقال مرضع، مرضعة إذا كانت تلقم الثدي وترضع ولدها بالفعل، فيقال عندئذٍ امرأة مرضعة، أما إذا كان من شأنها أن ترضع، ولكنها لا ترضع في هذا الوقت فنقول: امرأة مرضع والقرآن قال: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ وهذا فعلاً أو حقاً أمر عظيم؛ لأنها تذهل وقت أن تلقم طفلها وترضع وليدها فعلاً ثديها وهذا لعظم الهول كما ذكر بنا – سبحانه وتعالى– وأيضاً من هوله من هول يوم القيامة ومن هول الزلزلة ومن شدتها بعدما قال: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أي: أن المرأة الحامل ستضع وليدها في هذا الموقف، ثم قال رب العزة والجلال: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ تراهم حينما تشاهدهم وتنظر إليهم من حالهم كأنهم سكارى، وواقع الأمر أنهم ليسوا بسكارى كما قال الله: ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَى﴾؛ لأنهم لم يشربوا شيئًا يدعو إلى الوقوع في السكر، ولكن ما هم فيه؛ بسبب أن عذاب الحق –تبارك وتعالى– شديد ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾ وهنا قد يسأل سائل: كيف يستقيم قولك بأن الزلزلة ستكون بعد قيام الناس من قبورهم وبين قول الله – تعالى–: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ هل ستكون بعض النساء حاملاً وهي في هذا الموطن أو سترضع ويكون لها جنين ترضعه أثناء الحساب والسؤال وما إلى ذلك؟

وحل هذا من وجهين كما أشار إليه بعض العلماء:

الوجه الأول: – وقد ضعف– أنهم قد يبعثون على ما هم عليه ويبقون كذلك إلى أن يحاسبوا، يعني: المرأة الحامل تبعث كذلك حتى بين يدي رب العزة والجلال والمرضع كذلك ولكن لا يوجد دليل على هذا.

والراجح وهو القول الثاني: أن هذا كناية عن شدة الهول والفزع الشديد كقول الحق –تبارك وتعالى– عن هذا اليوم بأن الولدان يكونون فيه شيباً، هذا يكونون فيه شيباً كناية عن شدة الهول والفزع الذي سيصيب الناس في هذا الموطن ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾.

ثم يقول رب العزة والجلال وهذا هو حديث المحور الثالث.

المحور الثالث: وهو أن الله –عز وجل– ذم المجادلين فيه بغير علم: فقال جل ذكره: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾﴾ وأود أن أقف هنا وقفة مع قول الحق –تبارك وتعالى–: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾؛ لأن هذه العبارة أو هذا التعبير أو هذه الكلمة افتتحت بها بعض آيات القرآن الكريم، وأود أن أعلمكم أن الآيات التي افتتح رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– بها ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ غالباً ما تذكر في المنافقين والكافرين والمشركين، ولو نتأمل بعض هذه الآيات، وقد تكرر ذلك في القرآن الكريم في نحو عشر مرات وذلك في سورة البقرة جاء في ثلاث مرات في ثلاثة مواطن، كقول الحق –تبارك وتعالى– عن المنافقين: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [البقرة: ٨] فكلمة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ هنا أريد بها من؟ أريد بها المنافقون ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أيضاً جاءت كلمة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ وأريد بها المشركين في نفس سورة البقرة كقول الحق –تبارك وتعالى–: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وجاءت مرة أخرى في سورة البقرة أيضاً في المنافقين: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾ [البقرة: ٢٠٤] كما جاء ذكر هذا التعبير في سورة العنكبوت وتكرر في سورة لقمان مرتين وفي الحقيقة أرى أن الوقت يضيق أن أتتبع مثل هذا ولكني أود أن أشير أنك إذا سمعت ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ فاعلم أنها غالباً ما تتحدث عن المنافقين أو عن المشركين والكافرين، وكذلك الآية التي معنا هنا

وقد تكرر قول الله -تبارك وتعالى- في سورة الحج، تكرر في ثلاثة مواطن كلمة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ هذا هو الموطن الأول ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾﴾ يجادل في الله يعني: يخاصم في الله ومعنى يجادل في الله: يخاصم بأي شيء، يعني: ينسب إلى رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- ما لا يليق بجلاله وكماله، والآية التي معنا وستأتي بعض الناس يجادل في البعث والنشور وما إلى ذلك وإذا توسعت في الكلام أو في الحديث حول المجادلة في الله -عز وجل- سنجد أن كثيراً من الناس في فرق الضلال والبهتان يجادولون في الله -تبارك وتعالى- بغير علم، فالذين مثلاً نسبوا الولد إلى الله -تبارك وتعالى- يجادلون في الله بغير علم، والذين يتخذون لله الوسائل والأنداد والشركاء ويتوجون إليهم ويدعونهم ويتقربون إليهم دون الله -عز وجل- أيضاً يجادلون في الله بغير علم، كذلك المبتدعة الذين يتركون ما أنزل الله على النبي -صلى الله عليه آله وسلم- ويتبعون أقوال أئمتهم ورؤسائهم في الضلال هؤلاء يجادلون في الله بغير علم، والله -عز وجل- قد ذكر كثيرًا من الناس ممن يجادل فيه بغير علم، وقد نعى عليهم فعلهم هذا وتأملوا مثلاً قول الحق -تبارك وتعالى- ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾ [النحل: ٤] وهنا ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ في من؟ في الله -تبارك وتعالى- وما سأشير إليه بعد قليل من مجادلة المشركين في أن الله -عز وجل- سيعيد الناس للبعث والجزاء من جديد، هذا أيضاً جدال في الله -عز وجل- بالباطل، وبغير علم، وقد حكى الله -عز وجل- ما دار بين إبراهيم وبين الملك العاتي الجبار الذي لم يؤمن برب العزة والجلال، وكيف أنه جادل وحاج إبراهيم في الله -تبارك وتعالى- كما قال جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] واللهِ إنها لمصيبة كبيرة أن يكون هذا العبد المخلوق الضعيف الذي خلقه الله -تبارك وتعالى- وفعل له ما فعل، يأتي ويجادل ويخاصم وفيمن؟ فيمن خلقه، فيمن ركبه، فيمن سواه، فيمن يطعمه، فيمن يتولى أمره وما إلى ذلك ... إنه حقاً هو الضلال المبين، وقد ذكر رب العزة والجلال في هذه الآية وأشار إلى أن بعض الناس أو ﴿مِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وقبل أن أنتقل إلى قوله: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ أود أن أقف أيضاً هنا وقفة يسيرة فيمن يجادل في الله بغير علم؛ لأشير إلى أن الجدال ليس كله مذموماً، أو باطلاً، فالذي يجادل لإحقاق الحق وإبطال الباطل ويجادل بعلم، هذا محمود، والله -عز وجل- قد أثنى على من يجادل بالحق في كتابه كما قال جل ذكره: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وكما قال جل ذكره: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] فهنا أثنى رب العزة والجلال على الجدال المحمود الذي يكون عن بينة ويكون عن علم ويكون بالتي هي أحسن، أما من يجادل بغير علم فمن هو إمامه ومن هو قائده وإلى أي شيء استند، ما هو الحجة والبرهان وما الدليل الذي يسير خلفه أو يتبعه إنما هو في الحقيقة لا يتبع إلا الشيطان، ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ يعني: هذا الذي يجادل في الله بغير علم هو في الحقيقة ما هو إلا متبع لمن؟ للشيطان، هو يوصف الشيطان بأنه ﴿مَّرِيدٍ﴾ والمريد معناها ماذا؟ معناه: العاتي الجبار العنيد، فالذي يجادل في الله بغير علم، بل إنني أقول: كل من يجادل في الله -تبارك وتعالى- بغير علم في الحقيقة ليس له إمام وليس له قائد يتبعه إلا من؟ إلا الشيطان الذي لعنه رب العزة والجلال - سبحانه وتعالى- والله -عز وجل- يحذر من طاعة الشيطان واتباعه ويبين هلاك ومصير هؤلاء الناس الذين يجادلون في الله بغير علم والذين اتبعوا الشيطان فيقول: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلاَّهُ﴾ يعني: كتب على من تولى الشيطان، والكتابة هنا كتابة قدرية أزلية يعني: أن الله -عز وجل- قدر ذلك في الأزل، ونحن نعلم - كما هو معتقد أهل السنة والجماعة- أن رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- قضى بكل ما هو كائن وواقع إلى قيام الساعة، سواءً كان محبوباً أو مكروهاً ولعلي آتي - إن شاء الله تعالى- في وقت لاحق - بإذن الله تعالى- أبين بعضاً من معاني هذه الأمور، ولكني أقول: كل ما يقع في الكون إنما يقع بإرادة الله -سبحانه وتعالى- ومشيئته وقدرته فحينما يقول: ﴿كُتِبَ﴾ هنا والكتابة مرتبة من مراتب الإيمان بالقضاء والقدر يعني: كتب الله -عز وجل- كتابة أزلية في كتاب عنده -عز وجل- أن من اتبع الشيطان، أن من تولاه يعني: من اتبع الشيطان واتخذ الشيطان ولياً من دون الله -تبارك وتعالى- فالشيطان يضله، الشيطان يغويه ويضله أين؟ يضله في الدنيا، أما في الآخرة ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ وكلمة: الهداية هنا استعملت في الشر وهذا استعمال عربي معروف، فكما أن الهداية تستخدم في الإرشاد إلى الخير والفلاح

تستعمل أيضاً في الدلالة على الشر، كما في هذه الآية وكما في قول الحق -تبارك وتعالى- مثلاً في سورة الصافات ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣].

ثم بعد ذلك آتي إلى المحور الرابع:

المحور الرابع: وهو الأدلة على قدرة الله -تبارك وتعالى- على البعث والنشور: وهذه الأدلة سيقت في كثير من آيات القرآن الكريم وتضمنتها آية جليلة كريمة في هذه السورة، وهي التي قال رب العزة والجلال فيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾ إن كنتم في ريب يعني ماذا؟ إن كنتم في شك، فالريب هو الشك ﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ يبدأ ربنا -سبحانه وتعالى- في هذه الآية الأدلة على البعث والجزاء والنشور، وعلى أنه -سبحانه وتعالى- سيعيد الناس للوقوف بين يديه والحساب والجزاء ثم بعد ذلك سيكون فريق في الجنة وفريق في السعير كما أخبر رب العزة والجلال - سبحانه- عن ذلك، وأنا - إن شاء الله تعالى- من خلال هذه الآية سأبين بوضوح الأدلة التي سيقت فيها على البعث والجزاء والنشور وعلى أن الله - سبحانه وتعالى- يعيد الناس بعد ذلك من جديد، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم﴾ من صيغة الجمع ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ هل نحن خلقنا من تراب جميعاً؟ أم ما المقصود بذلك؟ هل أجد عند أحد جواباً؟

المقصود آدم -عليه السلام-

المقصود آدم -عليه السلام-؛ لأن خلق آدم كما أخبر ربنا -سبحانه وتعالى- في كتابه وفي كثير من آيات القرآن الكريم وأيضاً الحديث يطول حول هذا أو حول الاستدلال وهو واضح فآدم -عليه السلام- هو الذي خلقه الله -عز وجل- من تراب، والله حينما يقول: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ لأننا فروع نتبع الأصل، أما الخلق الذي كان من تراب فهو آدم -عليه السلام- ثم خلق الله -عز وجل- زوجه منه، ثم بعد ذلك جاء الخلق عن طريق التزاوج والتناسل كما هو معروف ومشاهد في دنيا الناس اليوم.

ثم ذكرت الآية بعد ذلك أطوار خلق الإنسان بعدما قال رب العزة والجلال، ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ وأشرت إلى ذلك أن المراد بذلك آدم -عليه السلام- ووجه الأمر إلينا لأننا فروع نتبع ونرجع إلى الأصل ثم بعد ذلك تمت الأطوار عن طريق التناسل كما ذكر ربنا -سبحانه وتعالى- وبعد التزاوج يُخلق الإنسان في رحم أمه في أطوار مختلفة متعددة أشارت إليها هذه الآية فبعدما قال: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ قال - سبحانه- ثم ماذا؟ ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ والنطفة: هي الماء القليل، الذي أشار إليه ربنا -سبحانه وتعالى- في بعض آيات القرآن الكريم بأنه من ماء مهين ثم بعد ذلك قال: ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ والعلقة: هي الدم الجامد، الدم الجامد يقال له: علقة ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ والمضغة: هي القطعة الصغيرة من اللحم على قدر ما يمضغها الإنسان، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في الحديث المتفق عليه وأيضاً ورد في السنن والمسانيد: (إن في الجسد مضغة) فالمضغة: هي القطعة من اللحم بقدر ما يمضغها الإنسان، هذه هي الأطوار التي أشارت إليها الآية التي يمر بها الإنسان بداية وهو في رحم أمه، والسنة المطهرة قد بينت مقدار كل طور في ذلك، كما جاء هذا في حديث الصادق المصدوق، حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- لما قال: (حدثنا الصادق المصدوق) يعني: النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- (بأن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوم نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك) الله -عز وجل- يأمر ملكاً فيرسل إليه ينفخ فيه الروح ويؤمر بأن يكتب أربعة أمور يكتب أجله ورزقه وشقي أو سعيد، وهذا الحديث يبين أن هذه الأطوار التي هي النطفة ثم العلقة ثم المضغة مدتها كم يوم؟ مائة وعشرون يوماً، ونفخ الروح إذن يكون في بداية الشهر الخامس أقول هذا لأن الآية لها تعلق بهذا الموضوع؛ لأن الله -عز وجل- بعدما قال: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ قال: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ واختلف أيضاً العلماء

في معنى كلمة ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾، فقيل: مخلقة يعني: كاملة تتم وتضعها المرأة دون نقصان، وغير المخلقة هو السقط الذي تضعه المرأة قبل أن يتم، وقيل: المخلقة هي التامة الكاملة السليمة من العيوب.

وغير المخلقة: هي التي يمكن أن يكون بها تشويه أو ما إلى ذلك ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ لماذا؟ ماذا قال الله – عز وجل– بعد ذلك؟ قال: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ يعني: لنبين لكم أيها الناس المخاطبون، يا من تشكون في البعث وتتكرون حشر الناس بعد ذلك؛ لنبين لكم قدرتنا على ذلك، وفي ذلك إشارة – أيها الإخوة الكرام– حينما ذكر ربنا –عز وجل– هذه الأطوار إشارة لطيفة في هذه الكلمات من هذه الآية وهي: أن الله –عز وجل– استدل بهذا الخلق الأول وبهذه الأطوار على إعادة الناس بعد ذلك من جديد، ومن يخرج الناس من العدم إلى الوجود، الذي يخرج الناس من العدم إلى الوجود هل يستحيل عليه أن يعدهم مرة أخرى؟ أو يعجزه ذلك؟ وبالتالي ذكر هذه الآية وذكر هذا الدليل فيها وهو الدليل الأول لأن هذه الآية اشتملت على دليلين:

هذا هو الدليل الأول: وهو الإشارة إلى الخلق الأول الذي خلقه رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– وقد استدل ربنا –سبحانه وتعالى– في آيات أخر على هذا الخلق الأول، استدل به على النشأة الأخرى في أكثر من آية من القرآن الكريم كقول الحق –تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] والله –عز وجل– يخاطب الناس بما يعقلون، وإلا فلا يوجد هين وأهون عند رب العزة والجلال؛ لأنه إذا أراد شيئًا قال له ماذا؟ كن فكان ورب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وهذا أمر بدهي واضح لدى الناس، فالذي يجهز أول مرة لا يعجزه أبداً بحال من الأحوال أن يعيد ما خلق مرة أخرى، ولما كان هذا الأمر من الوضوح بمكان ذكر رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– أن من أنكر ذلك قد نسي الخلق الأول، يعني: من أنكر واستغرب واستبعد إعادة الناس من جديد قد نسي الخلق الأول وإلا لو لم ينسه ما جادل في ذلك وما أنكره، قال الله –عز وجل–: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ [يس: ٧٨] يعني: أن هذا المخاطب لو لم ينسَ أن الله –عز وجل– أنشأه أول مرة وأنه أخرجه بقدرته من العدم إلى الوجود ما ذكر ذلك وما أنكر البعث والنشور، ﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] ماذا استدل الله عليه؟ استدل الله –سبحانه وتعالى– بالنشأة الأولى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩] وهناك الكثير من الآيات حتى في الآيات التي في آخر سورة يس وغير ذلك كثير من الآيات تبين هذا المعنى وتوضحه وتستدل على أن الذي أوجد الخلق أول مرة قادر –سبحانه وتعالى– ولا يعجزه ولا يستغرب أو يستبعد بحال من الأحوال أن يعيده بعد ذلك مرة أخرى من جديد وكيف يستبعد الإنسان ذلك أو يمكن أن يدور هذا في عقله ومن يفعل ذلك فلا شك أنه من الكافرين الخارجين عن دين الله –تبارك وتعالى– ولذلك رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– ذكر أن المنكرين للبعث هم الذين كفروا به –سبحانه وتعالى–: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [التغابن: ٧] فهؤلاء الذين أنكروا البعث غاب عنهم هذا الدليل الواضح، غاب عنهم هذا الخلق الذي خلقه رب العزة والجلال وأنشأه في أطوار متعددة والذي يفعل ذلك لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولذلك ربنا –سبحانه وتعالى– ذكر لزكريا –عليه السلام– كلاماً عجيباً يحتاج إلى أن نفهمه وأن نتأمله: جزء من آية من القرآن الكريم وتدل على أمر عظيم ولكن قد يغيب استدلالنا بهذا على من ينكر البعث والنشور وعلى قدرة رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى–: زكريا –عليه السلام– بشر بالولد وكان قد بلغ من الكبر عتياً كما جاء في القرآن الكريم، المهم أن زكريا استبعد هذا، لماذا؟ لأن امرأته بلغت سن اليأس ففي سن يستحيل أن تلد فيه النساء كما هو معلوم وهو أيضاً كبير، ربنا –سبحانه وتعالى– استدل بخلقه لزكريا –عليه السلام– على عظيم قدرته وعلى أنه يفعل ما يشاء، ماذا قال له في سورة مريم؟ ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: ٩] لما استبعد ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩] فالخلق الحقيقة بهذه الأطوار دليل واضح على أن الله –سبحانه وتعالى– يعيد الناس إلى البعث والجزاء والحساب من جديد وأن هذا لا يستبعده عقل عاقل بحال من الأحوال؛ لأنه من الوضوح بمكان، والذكر في هذه الآية ذكر الأطوار يدل على عظيم خلق الحق –تبارك وتعالى– حينما يقول: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لأن بعض من النساء يسقط جنينها قبل أن تلد وبعض النساء تلد جنيناً مكتملاً بعد ستة أشهر أو في سبعة أشهر أو

تسعة أشهر أو في فترات متفاوتة حول هذا ولذلك قال: ﴿وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ثم أشار رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- أيضاً إلى أن الإنسان بعد أن يخرج من بطن أمه ماذا يكون حاله؟ ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ ثم نخرجكم طفلاً يعني: تكون ضعيفاً، ثم بعد ذلك يشب الإنسان ليبلغ شيئًا من الكمال والقوة والتمام، وبعد ذلك بعض الناس يموت وهو في عنفوان شبابه ﴿وَمِنْكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ يعني: يؤخر إلى الهرم وإلى الخرف وإلى الضعف وإلى النقص كما قال رب العزة والجلال -سبحانه-: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [الروم: ٥٤] كذلك أخبر رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- في هذه الآية بأنه يفعل ذلك.

وأنتقل بعد ذلك للدليل الثاني حتى لا يضيق الوقت بي:

الدليل الثاني: على البعث والجزاء مذكور أيضاً في هذه الآية وهو في قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً﴾ تراها هامدة: ميتة ليس بها نبات وليس بها زرع، أرض قحلاء صحراء لا ماء فيها ولا نبات ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ﴾ يعني: تحركت ﴿وَرَبَتْ﴾ لما فيها من زرع يعني: ارتفعت ﴿وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾، هذا هو الدليل الثاني على البعث والله -عز وجل- يقول للمخاطبين: إذا كان الله -عز وجل- يحيي الأرض بعد موتها فهل يعجز أيضاً أن يحيي الإنسان بعد موته؟ ولذلك في سورة فصلت يقول رب العزة والجلال: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [فصلت: ٣٩] الذي يحيي هذه الأرض هو أيضاً يحيي الموتى، فالأرض كانت قحلاء جامدة لا ماء فيها لا زرع لا خضرة لا نبات، ثم بعد ذلك تصير خضراء يانعة جميلة تسر الناظرين تنبيت نباتاً متعدداً مختلفاً كما قال: ﴿وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥] بهيج يعني: حسن؛ لأن البهجة هي الحسن، وبمعنى: الإشراق والجمال. بعد أن ذكر رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- هذين الدليلين على البعث والحساب والجزاء وقيام الناس بين يدي رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- رتب على ذلك أموراً خمسة ذكرها في الآيتين التاليتين على هذه الآية:

الأمر الأول: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ يعني: أن الذي يفعل ذلك هو الحق هو المتصف بصفات الجلال والكمال -سبحانه وتعالى- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾؛ لأن الآية السابقة سيقت للدلالة على هذا الأمر: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾ -سبحانه وتعالى- فرب العزة والجلال يتصف بالقدرة المطلقة التي لا يعجزه شيء بسببها في الأرض ولا في السماء -سبحانه وتعالى- فهو الذي يقول للشيء: كن فيكون، وهو الذي خلق هذا الكون بقدرته ولو تأمل الإنسان ما في هذا الكون من مخلوقات جليلة يراها الإنسان بعينه وأمور أخرى لا يراها بعينه، يدرك بعين البصيرة والنظر والتأمل أن قدرة الله -سبحانه وتعالى- لا تقف عند حد، هذه أمور ذكرها رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- وذكرت منها ثلاثة الآن، أن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى، وأنه على كل شيء قدير، أما الأمر الرابع فقد أشار إليه رب العزة والجلال - سبحانه- ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَ﴾ لماذا هذا الأمر والإشارة؟ لأن الله -عز وجل- في حديثه في مطلع هذه السورة يؤكد البعث والساعة والجزاء ووقوف الناس بين يديه -سبحانه وتعالى- ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَ﴾ يعني: لا شك فيها يعني: يا أيها المستمع اعلم وانتبه أن ما أخبر رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- واقع لا محالة ولا يجوز بحال من الأحوال أن يشك الإنسان في خبر الله -تبارك وتعالى- أو أن يصاب بشيء من الريب أو الضلال أو الانصراف عما أخبر به رب العزة والجلال سبحانه، ثم بعد ذلك يختم ربنا -عز وجل- هذا السياق مؤكداً ما سبق أن أشار إليه، وهو قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ لماذا؟ لأن قضية إخراج الناس وبعثهم من قبورهم كانت من القضايا التي أثار المشركون حولها جدلاً كبيراً، وجادلوا فيها النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وأنكروا هذا الأمر، وقد كان هذا من الأمور المعروفة قبل بعثة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فقد وجد قوم ذكرهم القرآن الكريم أو سماهم بالدهريين هؤلاء الناس قالوا: ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] ثم تبعهم على هذا قوم -وللأسف الشديد- يوجدون في كل زمان ينكرون قدرة الرب -سبحانه وتعالى- على البعث والجزاء والنشور،

وأنا أود أن أتعرض لهؤلاء؛ لأنه قد يوجد طائفة كبيرة من هؤلاء الناس في دنيا الناس حتى اليوم، تنكر وجود الله -عز وجل- وتنكر قدرة الرب -تبارك وتعالى- وبعضهم رفع شعاراً: ما هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر. وهذا - في الحقيقة- من الضلال بمكان، ولا يجوز لعاقل يعرف ما يقول أن يتفوه بمثل هذه الكلمات؛ لأن الإنسان لو نظر إلى نفسه لعلم وأدرك أنه مخلوق ضعيف، خلق من عدم ولا يملك من أمره شيئًا ولا من نفسه، ولا يستطيع أن يحرك ساكناً، الإنسان نفسه لا يستطيع أن يحرك ساكناً، إذا لم يرد رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- أن يحركه، فما بال الإنسان يخاصم في رب العزة والجلال سبحانه، ويذهب إلى أنه لا يمكن أن يعيد الناس بعد ذلك إلى الحساب والجزاء؛ لأن الساعة والبعث والجزاء والنشور وحديث القرآن الكريم عن كل ذلك يدعو الناس إلى أن يتحسسوا مواطن أقدامهم فيتقوا ربهم -سبحانه وتعالى- ولذلك ربنا -عز وجل- لما افتتح السورة بتقواه قلت: علل ذلك بذكر الزلزلة وبذكر الساعة، وما يدور، وبعث الناس من القبور؛ كي يستعد الإنسان ويتخذ من التقوى طريقاً إلى أن يتجنب ما يمكن أن يحدث له مما لا يحب أن يكون أو أن يقع، ثم إنه -أيها الإخوة الكرام- يجب أن نواجه الملاحدة الذين ينكرون قدرة الله على البعث والجزاء، يجب أن نواجههم بهذه الأدلة النقلية العقلية؛ لأن هذه أدلة نقلية، ومعنى نقلية: أنها نقلت إلينا بالتواتر في كتاب رب العزة والجلال. ومعنى أنها عقلية يعني: أن الإنسان يستطيع أن يصوغ من الدليل النقلي دليلاً عقلياً يلزم به المنكرين للبعث والنشور أو الذين ينكرون قدرة رب العزة والجلال - سبحانه- على أنه يفعل ما يشاء، كأن تأتي إلى الإنسان المجادل أو المنكر فيمكنك أن تقول له: إن كنت حقاً صادقاً وعلى يقين مما تقول فإن كان بإمكانك أن تؤخر أجلك ولو لحظة واحدة فأخره، هذا دليل واضح للجميع الموت، يأتي الواحد منهم وهو لا يستطيع أن يؤخره لحظة واحدة وهذا على أنه مربوب مقهور، خرج من العدم ثم أخرجه رب العزة والجلال بعد أن أوجده في أطوار مختلفة كما أشارت إليه هذه الآية، ثم بعد ذلك يميته، ثم بعد ذلك يبعثه من جديد؛ لأن من فعل هذه الأمور كلها لا يعجزه أن يفعل ما يشاء -سبحانه وتعالى- والله -عز وجل- إذا أراد شيئًا قال له ماذا؟ قال له: كن، فيكون، وهذا مما يجب أن ننتبه إليه وأن نتعلمه وأن نعرفه وأن نخرج من هذا اللقاء بمعنىً واضح ألا وهو أن نتقي رب العزة والجلال سبحانه؛ للأهوال التي ستأتي بعد ذلك، وأن نقر ونوقن بأن رب العزة والجلال سيجمع الخلائق جميعاً وأنه - سبحانه- لا يعجزه شيء من ذلك؛ لأنه إذا أراد شيئًا كان؛ لأنه القادر؛ لأنه الذي يفعل ما يشاء، وأنه -سبحانه وتعالى- هو الذي يتولى أمر الناس جميعاً وهو الخالق الفاطر الذي خلق الناس وأبدعهم من هذا الكائن الذي لم يكونوا فيه من قبل، فنحن كنا من عدم، ثم خرجنا في هذا الكون والذي أخرجنا هو رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- وهذا يدعونا إلى أن نقدر رب العزة والجلال حق قدره، وأن نعرف عظمة رب العزة والجلال سبحانه وأنه -عز وجل- يتصف بصفات الجلال والكمال والعظمة، ولذلك جاء في كتاب الله -عز وجل- ما يشير إلى هذا المعنى، حينما ذُكرت هذه الأطوار وذلك في قول الله -عز وجل- في سورة نوح: ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ للهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح: ١٣، ١٤] وهذه من الفوائد التي يجب أن نخرج بها من هذا اللقاء وهو: أننا نقدر رب العزة والجلال وأن نعرف عظمة الله -سبحانه وتعالى- في كونه وأنه -سبحانه وتعالى- يفعل ما يشاء وأننا يجب أن تخضع رقابنا لله -عز وجل- فلا نخاصم ولا نجادل في الله -عز وجل- وأنى لمخلوق ضعيف ينكر قدرة الله -سبحانه وتعالى- وكل ما نراه يدل ويشهد بقدرة الله -سبحانه وتعالى- على الفعل التام، وعلى القدرة الكاملة التي بها يفعل ما يشاء؟!!!

وأكتفي في هذا اللقاء بهذه الكلمات على أمل أن ألتقي بكم - إن شاء الله تعالى- في لقاء قادم، إلى ذلك أصلي وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الأخت الكريمة من الكويت تقول: ما الراجح في وقت الزلزلة المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ هل هو قبل القيامة أم عندها أم على عرصات القيامة كما ورد ذلك في التفاسير؟

سبق أن ذكرت أثناء الحديث اختلاف المفسرين في ذلك، والراجح أن ذلك سيكون في عرصات يوم القيامة، وقد ذكر الإمام البخاري الحديث الذي أشرت إليه والذي ذكره هو والإمام مسلم وأيضاً أصحاب السنن: (وأن الله

-عز وجل- ينادي آدم -عليه السلام- فيقول له: أخرج بعث النار ثم يقول عندئذٍ : وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، قال: عند ذلك ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ هذا نص صريح في أن الزلزلة ستكون في هذا الوقت، وحتى لا يشتبه الأمر على السادة المشاهدين قلت أيضاً: بأن معنى الزلزلة لأني لما ذكرت الزلزلة معناها: الحركة الشديدة والاضطراب قلت معنى الزلزلة إذن: هو الخوف والرعب الشديد، بدليل ما حصل للمؤمنين في غزوة الخندق أنهم قال الله -عز وجل-: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ١١] لم يحدث اضطراب للأرض أو لم يحدث لزلزال بالمعنى المعروف أو المشاهد الذي نشاهده أحيانًا وإنما معناه: هو الخوف والرعب والذهول الذي أصاب المؤمنين في ذلك الوقت.

الأخت الكريمة من السعودية تقول: يا شيخ أنا إنسانة يعني ملتزمة محافظة بشدة -ولله الحمد- لكن عندما أذكر الموت أحس برهبة شديدة مما يجعلني كأني أصرخ أو شيء من ذلك، فما أدري، هل هذا نقص إيمان؟

لا.. - إن شاء الله- هذا علامة على وجود الإيمان، ومن المرغبات أن يذكر الإنسان الموت؛ لأن الإنسان يتذكر الموت، بل إنه سنة للرجال أن يذهبوا للمقابر كي يتذكروا الموت فيتذكروا المصير فالإنسان حينما يتذكر الموت لاشك أن هذا سيدفعه إلى تقوى رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- لأنه يعرف أنه سينتقل من هذه الدار التي يتنعم بها بشيء من النعيم أو يتلذذ بشيء من الطيبات وما إلى ذلك، سيكون الموت هو نهايته في هذه الحياة الدنيا وسينقطع عنه النعيم الذي هو بين يديه، وقد يغفل الإنسان وهو في ظل هذا النعيم أو في غفلة وهو سائر في الحياة الدنيا عما يجب عليه وعما يجب أن يقوم به من الطاعات تجاه رب العزة والجلال - سبحانه- أو أن يقع في بعض المعاصي والسيئات والذنوب فالإنسان حينما يتذكر الموت، يُتوقع أن يكون هذا التذكر دافعاً للإنسان إلى أن يخاف عذاب الله -تبارك وتعالى- وأن يستعد للقاء الله -عز وجل- فأقول للأخت الكريمة السائلة: بأن هذا ليس ضعف إيمان وإنما هو - إن شاء الله تعالى- يتوقع منه أن يكون من زيادة الإيمان ومن الحرص على الخير - إن شاء الله تبارك وتعالى-.

الأخ الكريم من المغرب يقول: هل هذه الطريقة صحيحة في تعلم التفسير مثلاً: عند حفظي سورة الحج أطلع على تفسير فضيلتكم إلى جانب تفسير ابن كثير وتفسير السعدي والتفسير الميسر وأيسر التفاسير وهكذا كل سورة نطلع عليها في الأكاديمية - إن شاء الله تعالى- فما رأي فضيلتكم؟

أقول للسائل الكريم: هذه أيضاً طريقة فيها شيء من التوسع، هي أولاً طريقة صحيحة، لأن ما ذكرته من كتب ترجع فيها كتب تفسير القرآن الكريم على منهج أهل السنة والجماعة، ويعني بهذه المناسبة أود أن أوجه نصيحة لإخواني المشاهدين لأنهم حينما يقرؤون تفسيراً لكلام الله -تبارك وتعالى- يجب أن يقرؤوا تفسيراً على منهج أهل السنة والجماعة لأن بعض كتب التفسير قد امتلأت بكثير من الحشو أو أن المفسر قد يكون معتقداً لفكرة معينة، أو لمنهج معين أو لمذهب مخالف لمذهب أهل السنة والجماعة، فالإنسان يجب أن يتميز في المصادر التي يرجع إليها، فإذا استمعت إلى شرح التفسير هنا ورجعت إلى تفسير الحافظ ابن كثير فهذا ما نلتزم به في الأكاديمية أو رجعت إلى تفسير الشيخ السعد - رحمة الله تعالى عليه- أو توسعت فرجعت حتى إلى تفسير الشيخ محمد أمين الشنقيطي فهذه كتب مفيدة - إن شاء الله تعالى- وإن كان لديك سعة من الوقت فلا مانع أبداً أن تتعرض لهذه التفاسير كلها لتستزيد وإن اقتصرت على تفسير الحافظ ابن كثير - إن لم يكن هناك فرصة للقراءة- فهو حسن، والله أعلم.

الأخ الكريم من الولايات المتحدة الأمريكية يقول: فضيلة الشيخ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته: إذن نفخة الفزع غير الزلزلة لأنها تكون قبل الساعة؟ وهل القائل أن الزلزلة قبل الساعة يرون أنها تحدث مع نفخة الفزع؟

جزاك الله خيراً، النفخة جاءت في الأحاديث وأشار إليها القرآن الكريم وستحدث أو ستكرر في أكثر من موطن والذين قالوا: بأن الزلزلة قبل الساعة قالوا: بأنها ستكون قبل الساعة بقليل بدليل أنها أضيفت إلى الساعة وقالوا: الإضافة هنا لقربها منها، كما يقال: أشراط الساعة، وما جاء في قول الحق –تبارك وتعالى–: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾ [الزلزلة: ١] وغير ذلك من الآيات التي أشارت إلى رجفة الأرض أو الآيات التي جاء فيها ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ [التكوير: ١] أو ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق: ١] كل هذا سيكون انقلاباً هائلاً كونياً قبل قيام الساعة بقليل ولذلك أضيف إلى الساعة لقربه منها كما يقال: أشراط الساعة.

الأخت الكريمة من مصر تقول: كنت أريد أن أسأل الشيخ: نحاول أن نتقي الله حق تقاته، لكن في الحياة كلما حاولنا أن نتقي الله في موقف صاحبه بعض الرياء فكيف الخروج من هذا الموقف؟

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا – في الحقيقة– قد يكون من تلبيس الشيطان على الإنسان كي يصده عن العمل الصالح فعلى العبد أن يسعى في تقوى الحق –تبارك وتعالى– وذلك بامتثال الطاعات واجتناب المعاصي والسيئات ولا يدخل الشيطان عليه من باب أنه إذا فعل ذلك أنه سيكون واقعاً في الرياء وما إلى ذلك، على العبد أن يخلص نيته وأن يصلحها بالتوجه الكامل لرب العزة والجلال سبحانه، وأن يخلص لله –عز وجل– في كل أعماله، فيتوجه بكليته إلى الله –عز وجل– ولا يلتفت إلى ما سوى ذلك لأن الشيطان حريص على أن يصد الناس عن الخير، فالإنسان يسعى في الطريق الصحيح وإذا جاءه الشيطان من هذا الباب فليدفعه وليستعذ بالله منه ولكن عليه أن يوطن نفسه بأن يوجه أعماله كلها لله –تبارك وتعالى–.

ذكرتم أننا إذا وجدنا في كتاب الله –عز وجل– قول: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ فهذا يتحدث عن المنافقين أو الكافرين وقد جاء في كتاب الله –تعالى– ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾ [البقرة:٢٠٧]؟

جزاك الله خيراً، أنا كنت أود أن أسمع هذا السؤال منك لأني علمت أنك حريص عليه، ولعله فات عنك وما أدري الإخوة سيتنبوا لهذا؟ أنا قلت: في الغالب، إذا جاء ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ فهي ستكون متعلقة بالمنافقين أو الكافرين أو المشركين وذكرت الأدلة على ذلك من القرآن الكريم، ولا يمنع هذا أن تأتي كما في الآية، وأيضاً هي جاءت ومن نفسه وسط الآيات، وأيضاً فيها مدح، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾.

الأخت الكريمة تقول: السلام عليكم، سمعت من أحد المشايخ في رمضان في قناة فضائية أنه كان في روسيا أناس يوزعون القرآن على كل واحد مرة في الأسبوع ولأنهم لا يقرؤون العربية فعندما يقرؤون القرآن ينظرون إليه ويقولوا: هذا كلام الله، هذا كلام عظيم، وأنا أعلم أناساً لا يعرفون القراءة ولا الكتابة فهل يمكن أن يعملوا ذلك؟ لأنهم يحاولون أن يتقربوا إلى الله بأن ينظروا إلى القرآن فقط؟

فينظروا في القرآن ويقولوا: هذا كلام الله، هذا كلام عظيم؟

هذا كلام الله، هذا كلام عظيم، هناك أناس قالوا لي: إن ذلك بدعة ؟ لكن هل ثبت أن الرسول –صلى الله عليه وسلم– فعل ذلك؟

حقيقة بالنسبة للقرآن الكريم حتى الأعاجم الذين لا يعرفون اللغة العربية يتعلمون القرآن الكريم وهذا أمر مشاهد وواقع أن بعض الأعاجم لا يعرف اللغة العربية ولا يتكلم بها، ولا يفهمك إذا خاطبته بها ولكن إذا قرأت عليه القرآن الكريم مرة ومرة سيتعلمه وينطق به وهذا من فضل الله –تبارك وتعالى– وقد شاهدنا هذا مئات المرات، ولا أقول: عشرات المرات، يعني قد قابلت في حياتي العملية مئات مما لا يعرفون العربية يقرؤون القرآن الكريم فالأولى في مثل هذا الموطن أن نرتل القرآن الكريم على هؤلاء، وأن نكرره على آذانهم،

فسيسمعوه ويتعلموه، وإذا صعب على إنسان ما، أن يقرأ القرآن الكريم فلنذكر له معاني القرآن الكريم باللغة التي يعرفها حتى يستفيد منها؛ لأنه بمجرد النظر دون أن يتعلم شيئًا ماذا سيستفيد؟ نحن نريد أن نعلمه آيات القرآن الكريم التي فيها أوامر تأمر بتقوى الله -عز وجل- وبطاعة الله -عز وجل- وفيها من التشريعات ما فيها حتى يقوم بعملها، كذلك حتى ينتهي عما نهى الله -سبحانه وتعالى- عنه، فإذا لم يفهم ذلك وأصبح يكرر كلمة واحدة بأن هذا القرآن عظيم.

حقاً هذا القرآن عظيم، والله -عز وجل- شهد لكتابه بهذا في القرآن الكريم وهذا أمر معلوم ولكن أود أن أقول: ما الفائدة التي ستعود على من يكرر هذا اللفظ دون أن يعرف شيئًا من القرآن الكريم قراءة فيتعبد لله -عز وجل- به أو أن يعرف معنى من معاني القرآن الكريم فيلتزم بشيء من الأوامر أو ينتهي بشيء من النواهي؟!! فالصواب في مثل هذه المسألة أن نكرر ولا يضيع الوقت عنا سدى وعنه، ينظر دون أن يتعلم ودون أن يفهم؟ لا... أن نكرر عليه بعضاً من آيات القرآن الكريم وأن يفهم أيضاً بعض معاني هذه الآيات من خلال اللغة التي يعلمها، والله أعلم.

الأخت الكريمة من مصر تقول: هل قوله تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ لكل الناس مؤمنهم وكافرهم أم أن المؤمنين مستثنون من هذا؟

الحمد لله، لا شك أن الله -عز وجل- يخفف عن أوليائه وأحبابه ما سيكون في يوم الدين وقد ورد ذلك في سنة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لما ورد مرة بأن هذا اليوم أو وصف في القرآن الكريم بأن مدته خمسون ألف سنة فلما سئل النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر النبي -عليه الصلاة والسلام- بأنه يخفف على المؤمن حتى كأنه كاليوم الواحد، يخفف عن المؤمن، ولكن من هو المؤمن؟ هذا الذي ينبغي أن نسأل أنفسنا هذا السؤال، يعني إن نستعد وأن نحقق فعلاً الإيمان الكامل لرب العزة والجلال، حتى ننال هذه المنزلة العالية والمرتبة الرفيعة.

الأخ الكريم يقول: ألا نأخذ بظاهر القول في أن المرضعة والحامل تبعث على صفتها يوم القيامة إذ قد يقودنا القول الثاني إلى القول بالتأويل من غير دليل؟

في الحقيقة، المفسرون - رحمهم الله تبارك وتعالى- تعرضوا لهذه المسألة كما ذكرت ووجه استبعادهم للأمر الأول: أنه لا يوجد دليل عليه، وقوله -سبحانه وتعالى- فيه بأن المرضعة ستذهل عن رضيعها وأن الحامل ستضع حملها لا يعني أنها ستبعث على الهيئة التي كانت عليها في الدنيا، لا يصلح هذا دليلاً؛ لأنها ستتحلل يعني لو أن حاملاً ماتت وهي حامل فأجسادها تتحلل، فلا يوجد دليل على أنها ستعود بحملها في ذاك الموطن وفي هذا المكان، ولذلك ذكر أهل العلم أو رجح كثير من المفسرين ومنهم الإمام ابن كثير -رحمه الله تعالى- والشيخ محمد أمين الشنقيطي، بل إن الإمام الشنقيطي نص على أنه لا يوجد دليل نستدل به على من يقول: بأن المرأة التي ماتت وهي حامل ستبعث أيضاً وهي حامل، لا يوجد دليل على ذلك، فيبقى أن يكون هذا كناية عن الكرب والفزع والهول، ولا يعد هذا من باب التأويل، وإنما هو تفسير للمعنى فالله -عز وجل- كما ذكر المفسرون استدلوا بأن الله -عز وجل- قال في هذا اليوم ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧] ولن يكون الولدان شيباً، لأنه لا يكون هناك شيب يوم القيامة وإنما هذا كناية عن الهول والفزع الذي سيحدث والكناية أسلوب عربي من أساليب اللغة، ولا يتعلق هذا بصفات الله -تبارك وتعالى- أو بأسمائه أو بشيء مما يتعلق به حتى نقول: بأننا نفتح على أنفسنا باباً من أبواب التأويل، وإنما هذا تفسير للمعنى، وعلى كل حال فالمفسرون - رحمهم الله تبارك وتعالى- ذكروا هذا وذكروا هذا ولكنهم رجحوا القول الثاني، العلم عند الله -تبارك وتعالى-.

الأخ الكريم من تونس يقول: عندما يأتي الخطاب للناس كما في بداية السورة فإلى من يتوجه هذا الخطاب؟

الأخ الكريم من مصر يقول: قول الله -سبحانه وتعالى- يصف المؤمنين بأنهم يوم القيامة سكارى هل يترنحون ويسقطون مثل السكارى أم ماذا؟

الأخ الكريم كان يسأل عن الخطاب في أول السورة إلى من يتوجه هذا الخطاب؟

الحقيقة - يا أخي الكريم- القرآن الكريم جاء فيه نداء متكرر وعلى أوجه مختلفة فالله -عز وجل- نادى مرة بني آدم ونادى الناس جميعاً كما نادى أهل الكتاب كما خص أهل الإيمان بالنداء وحينما يأتي النداء موجهاً إلى قوم معينين فهو إلى ما وجهه الله -تبارك وتعالى- فالله -عز وجل- حينما يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨] فيكون النداء موجهاً إلى المؤمنين، وعلة النداء معروفة في مثل هذه الحالة، وأنا في الحقيقة كنت أود أن أتعرض لهذا لكن خشيت في البداية أن لا أستطيع أن أوفي الحلقة حقها فلم أتعرض لمثل ذلك.

النداء للمؤمنين بلفظ الإيمان كي يحرك فيهم الشعور بالاستجابة لله -تبارك وتعالى-؛ لأن من شأن المؤمن أن يقبل على رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- والله -عز وجل- ينادي أهل الكتاب كي يستمعوا ويقبلوا على أمر الله -تبارك وتعالى- ويستجيبوا له ويخصهم في مواطن هم بحاجة إليها، وحينما ينادي رب العزة والجلال بني آدم أو ينادي الناس جميعاً هذا نداء عام للجميع، كما في هذه الآية وكما في آية وقد تلوتها سابقًا آية سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: ١] فالمؤمنون أمروا بالتقوى وهنا الناس جميعاً قد أمروا بتقوى الله -عز وجل- والمؤمنون من الناس، فيدخلون في أمر الله -تبارك وتعالى- بتقواه، فالشاهد من ذلك أن النداء بلفظ الناس يعم من خلقه الله -عز وجل- من البشر.

الأخ الكريم من مصر كان يسأل هل الناس يوم القيامة يترنحون مثل السكارى؟

لا... لا يترنحون ويمكن في خلال التفسير قد أشرت إلى ذلك وفي الآية دليل عليه قال: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ والرؤية هنا بصرية كما هو الراجح وقد تكون علمية ولكن لماذا؟ لأن الناس ستشاهد بعضها بعضاً، قال: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ ثم قال: ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَى﴾ سكارى يعني: الذي يراهم يشبههم بمن؟ بالسكارى من هول هذا الموقف، يعني كأنهم في ذهول في شدة في خوف أو رعب شديد، وهم في الحقيقة لم يصبهم السكر الذي يجعلهم يتساقطون؛ لأنهم لم يشربوا خمراً ولذلك قال الله: ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَى﴾ ولكن علة مشاهدتهم على هذه الحالة أن عذاب الله -سبحانه وتعالى- شديد كما ذكر ربنا -سبحانه وتعالى- في الآية.

الأخت الكريمة من مصر تقول: شيخنا الفاضل هل معنى أن الروح ينزل بها الملك بعد مائة وعشرين يوماً أن هذا الجنين ليس فيه حياة؟ أرجو توضيح ذلك لأن جهاز الموجات فوق الصوتية يظهر نبض الجنين منذ ثمانية أسابيع بصورة واضحة، معذرة أسأل لأن قضية المائة وعشرين يوماً جعلت بعض الشيوخ يجيزعمليات الإجهاض قبل هذا الوقت؛ لأن الروح لم تبعث بعض في حين أن من يرى الجنين في هذا الوقت يجده تمام الكمال حتى أظافره، فما هي الحقيقة بارك الله فيكم؟

في الحقيقة يجب أن نفرق بين أمرين:

الأمر الأول: حياة الجنين عندما تبدأ النطفة وتوضع في رحم الأم، في الحقيقة قرأت في هذا لبعض أهل العلم وذكروا أنه بمجرد وضع النطفة في الرحم هذا جنين في بداية الخلق والتكوين وهو يمكن أن نقول: بأن فيه حياة لماذا؟ لأنه ينمو، النمو دليل على الحركة وعلى أن فيه حياة، أما نفخ الروح في هيئة لا يعلمها إلا رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- فلا تكون إلا في الموطن الذي جاء في الحديث عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وأود أن أوجه وأن ألفت نظر إخواني المشاهدين في مثل هذه الحالة، أننا حينما نقول: بأن الروح تنفخ

في بداية الشهر الخامس أنه يمكن أن يعتدى على الجنين قبل ذلك، لماذا؟ لا يجوز بحال من الأحوال لأنه خلــق من مخلوقات الله –تبارك وتعالى– وله حرمة وأنه ينمو وأنه ينبت ثم إنه في القضاء عليه قضاء على إنسان أراد الله –عز وجل– أن يكون، لما وضع في الرحم، وإن سقط أو حصل ما حصل سيكون أيضاً بقضاء الله وقــدره، ولكن من أين علم الإنسان أنه لن يتم مثلاً؟ فحينما نقول: بأن الروح ستنفخ فيه في بداية الشهر الخامس لا يعني ذلك أننا نقطع الصلة عما قبل الشهر الخامس أو أننا نجيز أن يفعل الإنسان في الجنين وفي رحم أمه ما يفعله لأن الروح بالطريقة التي يعلمها رب العزة والجلال لا تكون إلا في هذا؟ لا.... هو قبل الخمسة أشهر أيضاً، أو قبل أن تنفخ الروح فيه، هو كائن به حياة لأن به نمواً، ولا يعني أن تكون به الحياة فيه روح؛ فالنبات ينمــو وهــذا النمو حياة لهذا النبات وبدون روح، فهذا المخلوق وهو في بطن أمه به روح ويتحرك وينمو ويشب شيئًا فــشيئاً فلا يجوز الاعتداء عليه أما الروح بالطريقة التي ذكرها النبي –عليه الصلاة والسلام– فنؤمن بها كما وردت عن النبي –عليه الصلاة والسلام– وهذه مسألة غيبية.

الإخوة الكرام من مصر لهم رجاء وهو أنهم لم يسمعوا من فضيلتكم شرحاً وافياً لكلمة ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ فيرجوا من فضيلتكم أن تبينوا لهم باختصار؟

في الحقيقة، لو رجع الإخوة إلى بعض كتب التفسير لوجدوا أن خلافاً كبيراً في هذه المسألة، وأنا ذكرت فيها أمرين:

الأمر الأول: أن معنى مخلقة يعني أنها تولد بعد تمامها ولا تسقط، وغير مخلقة هي السقط، وقد جاء هذا عن كثير من المفسرين، ووردت هذه الأقوال في كتب التفسير منسوبة إلى مجاهد وإلى غيره.

والرأي الذي رجحه بعض الأئمة وفيه إشارة في تفسير ابن كثير إلى ترجيحه وإن لم ينص عليــه هــو رأي الإمام قتادة – رحمه الله تبارك وتعالى– وهو أن معنى مخلقة يعني كاملة سليمة من العيوب، هذا معنى مخلقــة، وغير مخلقة أنها بها شيئاً من النقص أو التشويه أو شيئاً من العيوب. وفي الحقيقة أقول هذا، وقد رجح الــشيخ الأمين الشنقيطي –رحمه الله تبارك وتعالى– ذلك، وخالف في هذا الإمام الطبري، فالإمام الطبــري رجــح أن ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ هو الكمال يعني: أن ولادة الجنين كاملاً أو لا يولد كاملاً كأن يسقط قبل أن تــتم ولادتــه بطريقة طبيعية، فرجع ذلك ابن جرير، لكن خالفه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي –رحمه الله تبارك وتعالى– وهذا في الحقيقة عند النظر والتأمل أراه حقاً لعله هو الصواب وهو قول أيضاً أحد أئمة المفسرين ألا وهو الإمام قتادة – رحمه الله تبارك وتعالى–.

فضيلة الشيخ هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه الحلقة؟

بسم الله الرحمن الرحيم، نعطي السادة المشاهدين والإخوة الحاضرين ثلاثة أسئلة – إن شاء الله تعالى–.

السؤال الأول: اختلف المفسرون في وقت الزلزلة المذكورة في سورة الحج، اذكر الأقــوال فــي ذلــك مــع الترجيح.

السؤال الثاني: ما معنى: ﴿يُجَادِلُ فِي اللهِ﴾؟ وهل الجدال بكل أنواعه مذموم؟ وضح ذلك.

السؤال الثالث: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ ...﴾ إلى آخر الآية... يدل على أمــر عظيم، اذكره مدعماً إجابتك بدليلين من القرآن الكريم.

المحاضرة الثانية

تفسير سورة الحج من آية ٨ إلى الآية ١٧

ستستمعون – إن شاء الله تعالى- بعد قليل إلى الآيات التي سأتناولها – إن شاء الله تبارك وتعالى- وهذه الآيات كما تعلمون من سورة الحج وسيدور حديثي فيها حول المحاور التالية:

المحور الأول: مع المجادلين في الله مرة أخرى.

المحور الثاني: نموذج بشري من نوع غريب.

المحور الثالث: فهو بيان أن الله – تبارك وتعالى- يتفضل على أهل الإيمان بجنات تجري من تحتها الأنهار.

المحور الرابع: فهو في بيان أن الله نصر نبيه –صلى الله عليه وسلم- في الدنيا والآخرة.

المحور الخامس: هو بيان أن الله – تعالى- هو الذي يفصل بين أهل الأديان المختلفة ويقضي بينهم بالحق.

والآن نستمع إلى هذه الآيات التي سنتناولها بالشرح – إن شاء الله تعالى-:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَ يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾[الحج: ٨: ١٧] .

جزاك الله خير

المحور الأول: مع المجادلين في الله مرة أخرى.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين، وبعد..

فآمل أن ننتبه إلى هذه الآيات وإلى تفسيرها وشرحها بعد أن استمعنا إليها جميعاً، وأدعو إلى الانتباه أخشى أن يجذبكم فقط صوت الشيخ الكريم – جزاه الله خيراً- وتنصرفوا عن الكلام الذي سيتلوا بعد.

هذه الآيات والتي افتتحها القارئ بقول الحق – تبارك وتعالى-: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ هذا التعبير هل سبق معنا أم لم يسبق؟

نعم سبق معن

سبق معنا في الآية الثالثة في هذه السورة وبنفس الحروف الأولى والكلمات الأولى في الآية الثالثة ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾﴾[الحج: ٣] والآية الثامنة التي معنا مقدمتها كذلك: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ ولو تأملتم – أيها الكرام– أن الآية الأولى التي وردت مفتتحة بقول: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ ﴾ جاءت بعد الحديث عن الساعة وهولها وشدتها وعظمتها وكربها وهولها فكأن الله – عز وجل– يريد أن يلفت النظر وأن يقرر أمراً وهو مع شدة القيامة وأهوالها وعذابها وزلزلة الساعة يوجد أيضاً من يجادل في الله بغير علم.

أما آية هذه اللقاء وهي الآية الثامنة بترتيب المصحف والتي افتتحت أيضاً بنفس الأسلوب السابق: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ هذه جاءت بعد إثبات قدرة الرب –تبارك وتعالى– على البعث وعلى إحياء العظام من جديد، وعلى أن الله – سبحانه وتعالى– يفعل ما يريد، فكأن الآيات تقول: مع إثبات ذلك، مع إثبات قدرة الحق –سبحانه وتعالى– وسلطانه وعظمته يوجد أيضاً من يجادل في الله بغير علم يعني التكرار هنا له فائدة ومهم لأن التكرار وقع بعد أمر يختلف عن الآخر وهو يلفت نظر المستمع والقارئ إلى أنه ما كان ينبغي أن يكون ذلك وأن يقع وأن يوجد من يجادل في العظيم الكبير المتعال – سبحانه وتعالى– أيضاً أيها الكرام قيل في قول الحق – تبارك وتعالى– في الآية الأولى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾: هذه نزلت في الأتباع الجهلاء الذين يقلدون غيرهم بغير علم، وهناك دليل في الآية يدل على ذلك، يعني في الآية الأولى نزلت وحديثها ينصب على المقلدين الذين يقلدون غيرهم؛ لأن الله قال: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ وبعدها ويتبع فهو إذن ليس تابعاً وإنما هو متبوع فهو مقلد جاهل سائر خلف غيره، لا يعرف عن الحق شيئاً وقد يسأل سائل يقول: المقلد لا يجادل؛ لأنه ليس عنده علم. والجواب عن ذلك: أنه يجادل محاكاة لأساتذته، يحاكيهم في الجدال ويخاصم بتقويم ما هو عليه من الباطل بدون علم كما ذكرت هذه الآية.

أما الآية التي معنا: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ نزلت في المتبوعين، نزلت في أئمة الضلال الذين يتبعونهم هؤلاء المقلدون الجهلاء فالآية الأولى في المقلّدين والآية الثانية في المقلَّدين ويدل على ذلك أن الله – سبحانه وتعالى– قال: ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ يعني: هذا المجادل الذي جاء ذكره في الآية الثامنة وصفته الآيات بصفات تدل على أنه إمام متبوع عند هؤلاء الجهلاء، قال: ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ ﴾ والقرآن الكريم يصور لنا تصويراً دقيقاً حال هذا الشخص الذي يتبعه الجهلاء وما هو عليه وانتبهوا معي حينما أذكر لكم هذا التفصيل كأنكم تشاهدون صورة حقيقية لهذا الرجل قال: ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ ﴾ يعني: لاوٍ عنقه، وهذا تصوير لهيئته وحالته.

أما أدلته: فكما قال الله – عز وجل–: ﴿ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ ليس عنده دليل واضح وليست عنده حجة وبرهان يجادل بالباطل ليس عنده علم فهو كما وصفته الآية يستكبر عن الحق ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ ﴾ الأمر الثاني: لا برهان عنده ولا دليل عندما يقوم بالجدال أو بالمحاجة أو لكي يدعو أتباعه إلى أن ينخرطوا في سلكه ليس عنده برهان على ما يقول غايته في ذلك صورته الآية وذكرته محصورة في كلمة واحدة وهي أنه يود أن يضل الناس عن الحق الذي جاء من عند الله – عز وجل– أما حياته فقد ذكرت الآية كما قال الله – عز وجل–: ﴿ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ﴾ وآخرته ﴿ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ أرجع فأقول: قول القرآن الكريم عن هذا الرجل المجادل الذي يتبعه قوم من الجهال ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ ﴾ يدل على أن هذا الرجل يستكبر عن الحق الذي جاء من عند الله – تبارك وتعالى– لأن ثاني العطف يدل على ذلك وعطف الرجل يعني: جنبه يعني: يولي عن الحق مستكبراً عنه لا يستجيب له ولا يقبله، وقد جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تدل على أن الكافرين كانوا يستكبرون عن الحق وخاصة جاءت هذه الآيات في سياق الحديث عن المنافقين ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٥] فهم يعرضون عن الحق ويستكبرون عليه وبخصوص فرعون بالذات فالقرآن يصوره تصويراً أيضاً دقيقاً يفيد هذا المعنى كما جاء في قول الحق – تبارك وتعالى–: ﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ

﴾[الذاريات: ٣٩] فإذن القرآن الكريم يصور أعداء الحق أنهم يستكبرون عليه، ولكن في قول الله – تبارك وتعالى–: ﴿ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ﴾ إشارة إلى أن الحق – تبارك وتعالى– يعامله بنقيض قصده فهو استكبر عن الحق فيذله رب العزة والجلال – سبحانه وتعالى– وكم من أناس استكبروا عن الحق فأذلهم الله – عز وجل– في الدنيا قبل الآخرة. أين فرعون؟ أين هامان؟ أين قارون؟ أين أبو جهل؟ أين هؤلاء وهؤلاء ممن استكبروا عن الحق؟ ما وصلوا إلى ما أرادوا ويؤكد ذلك قول الحق – تبارك وتعالى– عن هؤلاء وأمثالهم: ﴿ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ﴾[غافر: ٥٦] في صدورهم كبر ولكن لا يبلغهم شيء ولن يصلوا إلى حقيقة هذا الأمر وهذا تقرير من القرآن الكريم بالإهانة والمذلة لهؤلاء الناس، وكما أن الآية ذكرت بأن الله يذلهم في الدنيا كذلك أيضاً سيذلهم رب العالمين – سبحانه وتعالى– في الدار الآخرة وهم يستحقون ذلك جزاءً وفاقاً لإعراضهم واستكبارهم عن الحق الذي جاء من عند الحق –تبارك وتعالى– تأملوا قول الحق – جل ذكره– في سورة المعارج: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾[المعارج: ٤٣: ٤٤] فالآية إذن صورت هذا المجادل بغير علم، المتبوع تصويراً دقيقاً ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

– أدلته: أنه ليس معه دليل ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾

– صورته التي يظهر بها على الناس: ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ ﴾

– غايته: الإضلال عن سبيل الله – تبارك وتعالى–

– مصيره: في الدنيا المذلة والمهانة والقرآن الكريم بين في آية أخرى أن الذل أيضاً معه في الآخرة وهو أيضاً في الآخرة في عذاب الجحيم كما قال الحق – تبارك وتعالى–: ﴿ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ والحريق يعني العذاب المؤلم الشديد وهو يستحق ذلك لأنه صرف الناس عن الحق – تبارك وتعالى– ثم يخاطب القرآن الكريم هذا الرجل المجادل بالذات لماذا؟ لأنه إمام في الضلال إمام متبوع تتبعه أمة على هذه الفساد والضلال الذي هو عليه، يخاطبه القرآن متهكماً به ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ ﴿ ذَلِكَ ﴾ يعني: ما يحدث لك بسبب ما قدمت يداك، والله لا يظلم الناس شيئاً بحال من الأحوال وهذا فيه تبكيت له يعني: نالك الذل في الدنيا وسينالك في الآخرة والعذاب المحرق المؤلم أيضاً في الآخرة أيضاً بسبب ما أسلفت في الأيام الخالية وقد يقول قائل: لماذا نسب الله – عز وجل– الكفر الواقع من الإنسان إلى اليد والإنسان الكافر يقع منه الكفر ويقع منه غير ذلك من الذنوب والمعاصي والكفر وهو أعظم ما يفعله الكافر في دنياه حينما لم يؤمن برب العزة والجلال لا يقع باليد وإنما بكون بالقلب واللسان فلمَ قال الله – عز وجل–: ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ ؟ قال أهل العلم: هذا أسلوب عربي معروف وذلك أن العرب تضيف الأعمال إلى اليد، لماذا؟ لأنها الجارحة التي يفعل الإنسان بها معظم الأفعال فغلبت عليه، إلى جانب أنه يترجم بيديه عما قام في قلبه من كفر بالله – تبارك وتعالى– فتكون أعماله في غاية من الضلال ومعظمها يكون بيديه لذلك قال الله له: ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ ثم قال رب العزة والجلال: ﴿ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أود أن أقف هنا معكم عند قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أولاً: التعبير بقوله: ﴿ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ ليدل وليسشر إلى هؤلاء المستكبرين أنهم استكبروا على من على الرب الخالق الموجد – سبحانه وتعالى– وما كان ينبغي ذلك والإنسان المخلوق الضعيف يجب أن يطأطئ رأسه لخالقه ونحن نشاهد في الدنيا أنه إذا أنعم إنسان على آخر ربما مال إليه ووقف إلى جواره ولله المثل الأعلى، فما بالك يا عبد الله بالذي خلقك وأوجدك وتفضل عليك وأعطاك ما أعطاك في هذا الكون العظيم وهو رب السماوات والأرض وما كان ينبغي على العبد الضعيف أن يستكبر على الرب – سبحانه وتعالى– ولذلك موقع كلمة الرب في قوله تعالى ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ في مكانه ، لو جئنا لكلمة «ظلام» نجدها صيغة مبالغة تفيد نفي الظلم المبالغ فيه عن لله – تبارك وتعالى– مع أن أصل الظلم منفي عن الله – تبارك وتعالى– وقد نفى الله – سبحانه وتعالى– عن نفسه الظلم في كتابه في آيات كثيرة من القرآن الكريم

كقول الحق – تبارك وتعالى– ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾[الأنبياء: ٤٧] وكما قال جل ذكره: ﴿ وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[الكهف: ٤٣] ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾[النساء: ٤٠] يعني: الشيء الحقير الذي لا يراه الإنسان بعينه فكيف عبرت الآية أو جاءت الآية فقالت ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ نفت المغالاة والمبالغة في الظلم وقد يفهم الإنسان منها بأن أصل الظلم موجود والأمر ليس كذلك.

ولكن كيف نوجه الآية؟ إذن: كيف نفهم ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ وهي صيغة مبالغة؟ للعلماء فيها أقوال:

الوجه الأول: قالوا: بأن الصيغة هنا ليست للمبالغة وإنما هي للنسب ويصبح معنى الآية: وما ربك بذي ظلم للعبيد.

فإذن تكون نفت أصل الظلم قال بعض أهل العلم: بأن الصيغة هنا ليست للمبالغة وإنما هي للنسب ويصبح معنى الكلام: وما ربك بذي ظلم للعبيد – سبحانه وتعالى– هذا وجه.

الوجه الآخر: قالوا: إنه عبر بصيغة المبالغة هنا بالنظر إلى كثرة العبيد، اليوم العالم الذي نحن نعاصره ونعايشه مليارات فما بالك منذ أن خلق الله الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فالعبيد كثيرون فنفى ربنا – سبحانه وتعالى– الظلم وجاء بصيغة المبالغة لنفي الظلم المنفي الواقع وأنه لا يكون بحال من الأحوال ليقابل ذنوب العباد الكثيرة يعني: أن الله – سبحانه وتعالى– على فرض لو ظلم سيكون الظلم كبيراً لظلم العباد لأنفسهم وهذا لا يليق برب العزة والجلال – سبحانه وتعالى– والنبي –صلى الله عليه وسلم– في سننه قد روى عن رب العزة والجلال – سبحانه وتعالى– الحديث القدسي المعروف: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا) فالله – عز وجل– حرم الظلم على نفسه ونفى عنه أصله في كتابه وأصله يعني: أدنى ظلم للعباد لا يظلمه ولا يفعله ومن صفات رب العزة والجلال – سبحانه وتعالى– أنه هو الحكم العدل فلا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون، والتوجيه الذي ذكرته في الآية أعتقد بأنه يحل ما يمكن أن يرد من إشكالات حولها إما أن تكون المبالغة هنا للنسبة وإما أن يكون المراد من أن الله – عز وجل– نفى ظلمه الذي يمكن أن يقع على العبيد نفاه بمقابلة كثرة الظلم أو كثرة العبيد الذين سيقومون بالمعاصي والسيئات وما إلى ذلك، فناسب أن يأتي بصيغة تدل على كثرة هؤلاء العبيد الذين يمكن أن يقع منهم هذا الظلم وأعتقد أن هذا أمر واضح بمكان.

المحور الثاني: نموذج بشري من نوع غريب:

وهذا النموذج مذكور أيضاً في قول الحق – تبارك وتعالى–: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾ وهذه الآية كما أشرت ربما سابقاً ورد فيها قول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ ﴾ كم مرة؟ ثلاث مرات هذه المرة الثالثة في قول الحق – تبارك وتعالى–: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ ﴾ قال هنا في هذه الآية: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾ هذه الآية تقدم لنا نموذجاً غريباً لقوم في غاية من السفه والضلال، لقوم يتخذون العقيدة مجالاً للمتجارة والمقامرة والمغامرة، لم يطمئن قلبه إلى الإيمان ولم يدخل إلى قبله اليقين ولكنه ينظر بعين المنفعة والمصلحة، لا يؤمن بالله – عز وجل– إيمان رجل قائم على اليقين والحق أو الإيمان الصادق الذي يجعل الإنسان يذعن بقلبه وينطق بلسانه ويعمل بجوارحه ولكنه ربما يمكن أن أعبر عنه فأقول: يرصد الأحداث من خارج الإيمان فإذا وجد ملجأ يطمع فيه أو مصلحة يمكن أن يحققها أعلن أنه من المؤمنين وإن وجد الأمر على غير ما يحب انصرف وسرعان ما انصرف، والقرآن يصور هؤلاء القوم فيقول: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾ على حرف قيل: يعني على شك يعني ليس عنده يقين وقيل: على حرف يعني على طرف كما نقول مثلاً: حرف الجبل يعني طرف الجبل لماذا يقف على الطرف؟ لماذا يقف على الحرف؟ الآية أجابت عن ذلك ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ﴾ إن وجد فيه مصلحة أو أن هناك منفعةً أو أنه سيحقق مكاسب أو أرضاً جديدة بالعبارات التي يمكن أن نعبر عنها ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ﴾ وقال: الأمور تمام وتمشي وهذا دين لا بأس به ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾

والفتنة: هي البلاء، والابتلاء يقع في الناس جميعاً والابتلاء يكون بالخير ويكون بالشر والابتلاء أصــله محنــة يبتلي الله – عز وجل– بها الإنسان ليظهر هذا الإنسان ويعلم هل هو على حق ويقين وإذعان وصدق أم أنه ليس كذلك. وهذا إن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة يعني: بلاء ارتد وانتكس ﴿ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ وإذا فعل ذلك وإذا انقلب على وجهه ﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ﴾ يؤكد هذا المفهوم وهذا المعنى – من أن المراد بقولـــه: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾ قوم ينظرون من الخارج إلى الإسلام إن وجدوا مصلحة دخلوا وإن وجدوا ما لا يحبون انصرفوا – الحديثُ الذي أخرجه البخاري ومسلم وأصحاب السنن وغيرهم عن عبد الله بن عباس – رضي الله تعالى عنهما– أنه قال في تفسير هذه الآية: (ترى الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً ونتجت خيله) يعني: صارت الدنيا بين يديه (قال: هذا دين صالح وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال: هذا دين ســـوء) وهذا تفسير عبد الله بن عباس وهو حبر هذه الأمة –رضي الله تعالى عنهما– في معنى هذه الآية وهذا لون من الناس عجيب نلتقي به بين الحين والآخر يعني: يجعلون المنافع نصب أعينهم إن وجد في الأمر منفعة أقبل، في الدين له مصلحة فيه رفع شعاره وإن لم يكن كذلك خرج وانصرف عنه وتركه، وهؤلاء كما ذكـــرت يـــذكرهم القرآن قبل أكثر من أربعة عشر قرناً ويوجدون في كل فترة من الزمان وبين الحين والآخر، ولكن هل هـــؤلاء سيكسبون أو سيحققون أرضاً كما يزعمون أو يقولون؟ القرآن الكريم بعد ما قال: ﴿ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ قال: ﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ﴾ وإذا خسر الدينا والآخرة ماذا بقي له؟ يعني: لم يحقق فلاحاً في الدينا ولا نجاحاً ولا توفيقاً ولا تسديداً والخسران العظيم ما سيلاقيه حينما يقف بين يدي رب العزة والجلال – سبحانه وتعالى– فـــي يـــوم الدين ولذلك ربنا بعد ذلك قال: ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ ثم تصور الآية التي تلي ذلك حال ذلـــك الرجـــل وتبين أنه منافق وأيضاً مشرك وتأملوا معي وقد سمعتم الآيات ﴿ يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ ﴾ يدعو من؟ ﴿ مَا لاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَ يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴾ هـــذا الرجل يدعو من دون الله يعني: يستغيث بغير الله ويلجأ إلى غير الله ويطلب من غير الله ويستعين بغير الله وفي واقع الأمر من يدعوه لا يملك له لا من الضر ولا من النفع شيئاً والقرآن الكريم يصرح بهذا في هذه الآية وفـــي مواطن أخرى متعددة هنا يقول: ﴿ يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَ يَنفَعُهُ ﴾ وفي آيات أخر: ﴿ وَيَعْبُـــدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ ﴾[يونس: ١٨] يدعون من دون الله ما لا يملك لهم من الأمر شيئاً والقرآن الكريم يصرح بهذا في أكثر من موضع كأن يقـــول مـــثلاً: ﴿ إِن تَـــدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيـــرٍ ﴾[فـــاطر: ١٤] يدعو من دون الله ما لا يضره إن لم يعبده وما لا ينفعه إن عبده هو في كلا الأمرين في خسران مبين؛ ولـــذلك ربنا –سبحانه وتعالى– ذكر ذلك عنه قال: ﴿ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴾ لو تأملتم – أيها الإخوة الكرام– هنا الآية التالية قد يستشكلها البعض يقول ماذا؟ يقول: بأن الآية الأولى نفت الضر والنفع بإطلاق ﴿ يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَ يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ ﴾ والآية الثانية أثبت أن هناك ضراً أقرب من النفع فهل الآية الثانية تتعارض مع الآية الأولى أم أن لكل تفسيراً وتوضيحاً؟

أولاً: قيل بأن الآية الأولى جاءت للحديث عن الأصنام والأوثان ﴿ يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَـــضُرُّهُ وَمَـــا لاَ يَنفَعُهُ ﴾ والدليل على ذلك أن «ما» دخلت هنا في الآية ﴿ مَا لاَ يَضُرُّهُ ﴾ و«ما» لغير العاقل فهي في الأصنام و الأوثان أما الآية التالية: ﴿ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ﴾ فهي في المستكبرين والوجهاء والزعمـــاء ممـــن يملكون شيئاً من النفع أو الضر لمتبوعيهم في الدنيا. يعني: فرعون لما أتى بالسحرة، السحرة ماذا قالوا لـــه؟ ﴿ أَإِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾[الشعراء: ٤١] هو صحيح نفع بسيط ولكن يطلق عليه نفع فتكون الآية الأولى في الأصنام والأوثان لمن يدعو الأصنام والأوثان والآية الثانية فـــيمن يلجأ إلى ما يمكن أن يقدم شيئاً من النفع الدنيوي ويدل على ذلك أيضاً أن الآية الثانية دخلت «من» ﴿ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ﴾ وقيل: أيضاً بإن الآيتين تسيران في اتجاه واحد والمعنى: أن الآية الأولى نفت عنه الضر والنفع في خاصة نفسه، فكل من دُعِيَ من دون الله لا يملك في نفسه شيئاً لا من النفع ولا من الضر والآية التالية أثبتت الضر لمن عبد غير الله – تبارك وتعالى– وقالت له: بأن الضر أقرب إليك من النفع وفي الواقع لا يوجد

نفع أصلاً لأن الضر هو الكبير الذي سيقع عليه وهو كان يتوقع نفعه فقالت له: لا.. لَلضُّر أقرب إليك من النفع الذي كنت تتوقعه ولا يوجد هناك نفع أصلاً فالآية إذن الأولى تتحدث عن نفس من عبد من دون الله – تبارك وتعالى– أنه في نفسه لا يملك شيئاً من الضر والنفع.

والآية الثانية: تتحدث عن العابدين الذين عبدوا من دون الله – تعالى– فوقع عليهم بسبب هذه العبودية الضر ولن يحصلوا على شيء من النفع لذلك الآية الأولى قالت: ﴿ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ ﴾ والآية الثانية قالت ﴿ لَبِئْسَ الْمَوْلَى ﴾ وما هو المولى ؟هو الصاحب والخليل ﴿ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴾ أيضاً المعاشر والمخالط بئس هذا وبئس هذا سواء عبد الإنسانُ الأصنامَ والأوثان أو عبد غير الله – عز وجل– من المخلوقات التي تتحرك وتحيا وتموت كل ذلك لا ينفعه، لا ينفعه ولياً وينفعه مخالطاً ومعاشراً لأنه لن يستفيد من ذلك شيئاً وكما قررت آيات القرآن الكريم أن هذه الأصنام أو كل من عبد من دون الله – تبارك وتعالى– لا يملك شيئاً من الضر ومن النفع تأملوا قول خليل الرحمن إبراهيم –عليه السلام– حينما قال لقومه: ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾[الشعراء: ٧٢: ٧٣] يعني: إبراهيم يقيم الحجة على من ؟ على أتباعه يقول: هل هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون؟ لم يفعلوا شيئاً من هذا.

المحور الثالث: الله يتفضل على أهل الإيمان بجنات تجري من تحتها الأنهار:

ولقد أعجبتني في تفسير هذه الآية كلمات الحافظ ابن كثير –رحمه الله تعالى– وأحب أن أقرأها عليكم، قال كلمات جميلة في معنى هذه الآية لأنها تحتاج أيضاً إلى أن أبين فيها شيئاً مهما قال –رحمه الله تعالى–: « لما ذكر الله أهل الضلالة الأشقياء عطف بذكر الأبرار السعداء من الذين آمنوا بقلوبهم وصدقوا إيمانهم بأفعالهم» انتبهوا إلى كلمة وصدقوا إيمانهم بأفعالهم لأنها النقطة التي سأقف عندها في هذه الآية، « فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات وتركوا المنكرات فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات في روضات الجنات» وهذا يعني: أنه لابد من العمل وأن الأعمال تدخل في مسمى الإيمان وشرط الحافظ ابن كثير هنا أن هؤلاء آمنوا بقلوبهم وصدقوا ثم بعد ذلك ماذا فعلوا؟ صدقوا إيمانهم بأفعالهم لأن فيه طبقات وفرق – وللأسف الشديد– في المجتمع الإسلامي – واسمح لي أن أدخل قليلاً في مجالي– جاءت في مثل هذه المواقف وأخرجوا الأعمال عن الإيمان، هي طائفة معروفة طائفة المرجئة وسموا بالمرجئة لأنها مأخوذة من الإرجاء والإرجاء هو التأخير لأنهم أخروا الأعمال عن الإيمان وأبعدوها وقالوا: في ذلك عبارات مختلفة وهم فرق وطوائف متعددة وفي الحقيقة لهم آثار سلبية خطيرة على المجتمع الإسلامي وعلى الفرد المسلم، لماذا؟ لأنهم أقعدوه عن العمل الصالح الذي يجب أن يتوجه به إلى رب العزة والجلال – سبحانه– والأعمال في الحقيقة تدخل في مسمى الإيمان ولكن المرجئة ومن لف لفهم يستدلون –وللأسف الشديد– بمثل هذه الآية على أن العمل لا يدخل في الإيمان؛ ولذلك أود أن أناقشهم فيها:

قالوا: إن الله هنا عطف العمل على الإيمان والعطف يقتضي المغايرة فالأعمال لا تدخل إذن في مسمى الإيمان. وأود أن أبين وأن أرد على هذه الشبهة بجواب يسير:

أولاً: العطف عطف الشيء على الآخر يقتضي المغايرة كما ذكر ولكن هناك ألواناً من هذا العطف: فهناك عطف يقتضي التباين ولكن عطف بعض الشيء على بعض له مكان آخر كما معنا في هذه الآية، وأود أن أقول بأن الإيمان في القرآن الكريم أحياناً يأتي مطلقاً فتدخل فيه الأعمال لأنه يصبح معناه: الدين كقول الحق – تبارك وتعالى–: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾[الحجرات: ١٥] المراد بالمؤمنين هنا الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات ونطقوا بألسنتهم لأن الإيمان إذا جرد عن الأعمال الصالحة أريد به الدين والدين الذي جاء من عند الله – تبارك وتعالى– يشمل الإسلام وهي الأعمال الظاهرة والإيمان ألا وهي الأعمال القلبية أو الباطنة والإحسان التي هي أعلى مراتب الإيمان فيأتي الإيمان في القرآن الكريم مجرداً عن الأعمال فيكون

بمعنى الدين فتدخل فيه الأعمال الصالحة لأن الدين يشمل الدين كله الذي جاء من عند الله – تبارك وتعالى– بالإسلام والإيمان والإحسان.

وأحياناً يأتي في القرآن الكريم عطف العمل الصالح على الإيمان والعطف هنا – يا إخواني– يكون من باب عطف بعض الشيء عليه، الأعمال الصالحة من الإيمان فالله –عز وجل– عطف بعض الشيء وهي الأعمال الصالحة على الإيمان هذا وارد في القرآن؟ نعم وهو المعنى هنا وهذا يفيد أن العمل يدخل في الإيمان والإشارة إليه مهمة والعطف هنا دل دلالة واضحة على أهمية الأعمال الصالحة وأنها لابد من وجودها إن قلنا بأن هناك إيمان. هنا عطف بعض الشيء عليه وهذا وارد في القرآن الكريم كقول الحق – تبارك وتعالى–: ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى ﴾[البقرة: ٢٣٨] الصلاة الوسطى من الصلوات أم خارجة عنها؟ منها. ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا للهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾[البقرة: ٩٨] جبريل وميكال من الملائكة أم لا؟ من الملائكة طيب ربنا عطفهم على الملائكة فهل العطف هنا يقتضي المغايرة وأن جبريل وميكائيل ليس من الملائكة أو أن الصلاة الوسطى لما عطفت على الصلوات ليست من الصلوات؟!!! ولكن هذا من عطف بعض الشيء عليه وهو يفيد فائدة مهمة نحتاج إليها هنا وهي: أن هذا العطف يأتي للإشادة والتنبيه والاهتمام بهذا الذي عُطف وهذا يدل على ويفيد أن الأعمال الصالحة مهمة وضرورية ولابد منها وأنها تدخل في الإيمان بدليل أن الله – عز وجل– يكون قد ذكرها كم؟ مرتين: مرة في العموم ومرة حينما عطفها أو عطف شيئاً من هذا العموم على العموم وذكره بعينه وهذا يدل على مكانته وعلى فضله وعلى شرفه وعلى أهميته فنحن نعلم بأن الصلاة الوسطى لها فضل عظيم ونعلم أيضاً أن جبريل وميكائيل هم من أشراف وأسياد أو رؤساء الملائكة فأفرد كل بالذكر لأهمية ما ذكر واضح ولذلك الأعمال تدخل في مسمى الإيمان ونحن نخاطب المجتمعات كلها نقول: الإيمان ليس مجرد ما وقر في قلبك – يا أيها الإنسان– أو كلمات تنطق بها بلسانك ليس إلا، بل لابد أن تصدق أعمالك هذه الأقوال أو ما زعمت وذهبت إلى أنه قام في قلبك، ورحم الله الحسن البصري لما قال: «ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي» وهذا ثابت عنه وقد ذكره عنه شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره «ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل وإن قوماً أحسنوا الظن بالله» وكذبوا زعموا ذلك أنهم يحسنون الظن بالله – تعالى– «لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل». إذن: الإيمان حينما تقول: أنا مؤمن بقلبي وتنطق بلسانك بكلمات الإيمان هذا يدفعك إلى أن تقوم بالأعمال الصالحة لرب العزة والجلال سبحانه والله– عز وجل– ذكر هذه الآية بعدما ذكر أهل الضلالة الأشقياء كما أشار إلى ذلك الإمام الحافظ ابن كثير؛ ليبين فضل ومكانة أهل الإيمان على هؤلاء الأشقياء الفجار المستكبرين على رب العزة والجلال – سبحانه–.

المحور الرابع: بيان أن الله – تبارك وتعالى– نصر نبيه –صلى الله عليه وآله وسلم– في الدنيا والآخرة:

كما قال ربنا في كتابه: ﴿ لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾[غافر: ٥١] فالنصر لأهل الإيمان والعاقبة كما قال ربنا – سبحانه وتعالى– بعد ما أهلك قارون قال: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[القصص: ٨٣] فالنصر حليف أولياء الله وعباد الله الصالحين وعلى رأس الأولياء الأنبياء والرسل وعلى رأس كلٍّ نبي الهدى والرحمة – صلوات الله وسلامه عليه– وهنا وقد ذكرت وأحببت أن يكون عنوان هذا المحور هكذا: بيان أن الله نصر نبيه –صلى الله عليه وسلم– للإشادة بهذا الأمر وبيان أهميته ودفاعاً عن النبي –صلى الله عليه وسلم– بين مجتمعات تطعن عليه بين الحين والآخر، وتتهمه بما ليس فيه وهو إمام الأنبياء وسيد المرسلين – صلوات الله وسلامه عليه–.

الله – عز وجل– يمتن عليه ويتفضل عليه ويبين أنه ناصره ومؤيده ومدافع عنه وذلك في قول الحق – تبارك وتعالى–: ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ قد يستغرب بعضكم: ما علاقة هذه الآية بنصر الله لنبيه–عليه الصلاة والسلام–؟

ذكر المفسرون أوجهاً في تفسير الآية الراجح فيها الوجه الأول الذي سأذكره الآن:

الوجه الأول: وهو أن الحق – تبارك وتعالى- يقول للكافرين الذين يحسدون النبي -صلى الله عليه وسلم- على ما آتاه رب العزة والجلال – سبحانه وتعالى- يقول لهم: من كان يظن من هؤلاء الكفرة الحاسدين أن الله لن ينصر نبيه -صلى الله عليه وسلم- في الدنيا والآخرة ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ ﴾ يعني: بحبل ﴿ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ والمراد بالسماء هنا يعني يمدد بسبب يعني بحبل إلى السماء يعني: سقف بيتك وكل ما علاك فهو سماء فسقف بيتك هو سماء بالنسبة لك ﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ لن يكون ولن يتحقق له ذلك لأن الله ناصرٌ نبيه -صلى الله عليه وسلم- ويرشد إلى هذا المعنى قول الحق – تبارك وتعالى- في المنافقين ﴿ وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ﴾[آل عمران: ١١٩] والله ناصرٌ نبيه -صلى الله عليه وسلم- قد يقول قائل: طيب أنت تقول بأن الآية في نصر الله للنبي -صلى الله عليه وسلم- ولم يتقدم للنبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر فما الدليل على ذلك؟ انتبهوا لعلي أسألكم عن هذا. أقول: نقول بأن الآية في بيان أن الله نصر نبيه – صلى الله عليه وسلم- في الدنيا والآخرة والآيات لم يسبق فيها ذكر للنبي -صلى الله عليه وسلم- فلم قلنا هذا وقلت بأن هذا هو الراجح؟

أقول: لأن الآية السابقة على هذه الآية قول الله – تبارك وتعالى-: ﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ﴾ والإيمان لا يتحقق إلا بماذا؟ بالإيمان بالله والإيمان بمن؟ برسول الله -صلى الله عليه وسلم- فذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- هنا مذكور ضمناً في الإيمان المشار إليه في الآية السابقة.

الوجه الثاني: وهو قول مرجوح عند كثير أهل العلم في معنى ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ أن المعنى: من كان يظن أن الله لن ينصر محمداً -صلى الله عليه وسلم- في الدنيا والآخرة والحال أن النصر يأتيه من السماء فليمدد بسبب إلى السماء فيرتقي به، فيقطع عن النبي -صلى الله عليه وسلم- نصر الله له. وهذا أيضاً لا يمكن أن يرد عند عاقل يفهم ما يقول، اللهم إن كان كبعض الملحدين إن وصلوا إلى ما وصل إليه فرعون؛ لأن فرعون يقيناً طلب من موسى طلباً غريباً وهذا الطلب يدل على أن محاورات دارت بين موسى وبين فرعون وأن موسى -عليه السلام- أخبر فرعون بأن ربه في أعلى عليين بدليل أن فرعون رجل من الحمق بمكان لما نادى وزيره يا هامان ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾[غافر: ٣٦: ٣٧] هذا يدل على أن موسى أخبره أن ربه في أعلى عليين في السماء فوق السماوات على عرشه – جل في علاه-.

إذن القول الراجح بعد ذكري لهذا القول: هو أن المعنى أن من كان يظن أن الله لن ينصر نبيه -صلى الله عليه وسلم- في الدنيا والآخرة فليفعل بنفسه ذلك حتى يقتل وينقطع أو يعذب نفسه حتى يهلكه الله – سبحانه وتعالى- ولن يتخلى رب العزة والجلال عن نبيه -صلى الله عليه وسلم- والله ناصر نبيه ومصطفاه.

ولم أجعل للآية التالية على ذلك عنواناً لارتباطها بهذه الآية التي هي ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴾ لماذا؟ لأن هذا من نصر الله لنبيه -صلى الله عليه وسلم- أن الله أنزل عليه هذا القرآن الكريم، القرآن الكريم هو كتاب هذه الأمة، الكتاب الذي أحكمت آياته، الكتاب الذي نزل لإخراج الناس من ظلمات الجهل والشرك والضلالة والخرافة إلى نور الإيمان والعلم والتوحيد، وصفه ربنا – عز وجل- هنا في هذه الآية بأنه أنزل آيات بينات والكتاب محكم كما قال ربنا عنه في كتابه: ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ﴾[فصلت: ١] وكما أشار إلى المكذبين به ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾[النساء: ٨٢] وكلمة ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ تدل على ماذا؟ تدل على أن الكتاب نزل من أعلى إلى أسفل لأن النزول لا يكون إلا هكذا وهذا يدل:

أولاً: على أن القرآن كلام الله – تبارك وتعالى- تكلم الله به وأن جبريل نزل به من عند رب العزة والجلال – سبحانه وتعالى- وربنا -عز جل- ختم هذه الآية بقوله: ﴿ وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴾ وأنا أخرت الكلام عن

الإرادة هنا لأنها وردت في آية سابقة ﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ لأقول: بأن الله – عز وجل– كما أضل السابقين الذي أشار إليه الذي هم ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ كما أضل هؤلاء هدى هؤلاء، رب العزة والجلال – سبحانه– وأن الذي فعل الشقاء والضلالة بهؤلاء فهو رب العزة والجلال – سبحانه وتعالى– والذي فعل الهداية بأهل الإيمان من؟ أيضاً هو رب العزة و الجلال –سبحانه وتعالى– ومن مراتب الإيمان بالقضاء والقدر إثبات إرادة الله – سبحانه وتعالى– الشاملة لكل ما يقع في الكون.

المحور الخامس: هو بيان أن الله – تعالى– هو الذي يفصل بين أهل الأديان المختلفة ويقضي بينهم بالحق:

سآتي إلى الآية الأخيرة لأنتهي الآية قول الله – تبارك وتعالى– وتدور أولاً: تحت محور عنونته بقولي: الله – تعالى– هو الذي يفصل بين أهل الأديان المختلفة ويقضي بينهم بالحق:

الله – عز وجل– هو الذي يفصل بين أصحاب الأديان المختلفة ويقضي بينهم بالحق وقد ذكر ربنا – سبحانه وتعالى– في قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ الآية هذه ذكرت ستة أديان:

– الدين الأول: دين أهل الإيمان، وافتتح الله به لأنه أعظم الأيان وأشرفها وهو الحق الذي جاء من عند الحق – تبارك وتعالى– الذي لم يغير ولم يبدل ولم تلعب فيه أيادي اللاعبين فهو محفوظ بحفظ الله – تبارك وتعالى– له قال الله في أهله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بعدها.

– الدين الثاني: ﴿ وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾ وهم أمة الغضب، أمة الغضب من؟ أمة اليهود وهي عبارة جميلة ذكرها بعض أهل العلم قال: أمة الغضب وأمة الضلال فاليهود هم أمة الغضب سموا يهوداً لماذا؟ قيل: نسبة إلى يهوذا الابن الأكبر ليعقوب وهي كانت تطلق عندهم يهوذا والعرب أبدلوا الذال المعجمة دالاً فقالوا: يهودا ثم نسبوا إليه فقيل: اليهود. وقيل: اليهود مأخوذة من هاد بمعنى تاب كما قال موسى لربه ومن معه: ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾[الأعراف: ١٥٦] يعني: تبنا إليك واليهود قوم ينتسبون إلى من؟ إلى موسى –عليه السلام– ولكنهم هم أمة الغضب كما ذكرت فكم خالفوا نبيهم موسى –عليه السلام– وكم خرجوا عن الحق الذي جاء به من عند الله – تبارك وتعالى– وكم أفسدوا في الأرض وما زالوا يفسدون، وهم الذين تعرضوا حتى للأديان التي جاءت بعد دينهم وحاولوا إفسادها، وإخراج الناس عن الحق الذي أتى به الأنبياء والمرسلون بعد نبيهم موسى –عليه السلام– وقد أتعبوا نبيهم وجادلوه ووقفوا مواقف مخزية ومازالوا إلى يومنا هذا يصدون عن سبيل الحق – تبارك وتعالى– .

– الدين الثالث: أما قوله – جل ذكره–: ﴿ وَالصَّابِئِينَ ﴾ فالصابئين هنا الواردة في الآية جمع صابئ ويقال لهم: الصابئة، قال الإمام الحافظ ابن جرير –رحمه الله تعالى– الصابئ: المستحدث سوى دينه ديناً آخر كالمرتد من أهل الإسلام عن دينه وكل خارج من دين كان عليه إلى دين آخر كانت تسميه العرب صابئاً ولذلك المشركون كانوا يزعمون أنهم على دين، دين الشرك فلما بعث النبي –صلى الله عليه وسلم– أطلقوا عليه كلمة صابئ والإمام الشهرستاني –رحمه الله تعالى– قال: الصبوة في مقابلة الحنيفية وفي اللغة صبى الرجل إذا مال وزاغ عن الحق الذي جاء من عند الحق –تبارك وتعالى– وقيل: الصابئة أيضاً هم الذين عبدوا الكواكب من دون الله – تبارك وتعالى– ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى ﴾

– الدين الرابع: النصارى هم أتباع عيسى –عليه السلام– قيل: سموا نصارى نسبة إلى قرية كان يقال لها: ناصرة كانوا ينزلون بها فنسبوا إليها، وهؤلاء الناس أيضاً غيروا وحرفوا وبدلوا الدين الذي جاء به عيسى –عليه السلام– وكان اليهود وهي أمة الغضب على رأس من كانوا سبباً في إفساد دين النصارى وإخراج هؤلاء الناس

عن الحق الذي جاء من عند الله – تبارك وتعالى– وتعرفون ما لديهم من معتقدات باطلة فاسدة ودينهم في الحقيقة لا يقبله عقل ولا منطق وهم مهما يفعلوا ومهما يصدوا الناس عن الحق فالله – سبحانه وتعالى– سيظهر دينه لا محالة وهذه الأديان كلها أديان باطلة

– الدين الخامس: وأما المجوس فهم قوم من القدماء لهم نحلة خاصة كانوا موجودين قبل الإسلام ومن أصول دينهم القول بالاثنين بإلهين يقولون: بأن هناك إلهاً للنور وإلهاً للظلمة أو إلهاً للخير وإلهاً للشر، هذا هو الدين الخامس.

– الدين السادس: الذي أشارت إليه هذه الآية فهو ما جاء في قول الحق – تبارك وتعالى– ﴿ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ في الحقيقة يا إخواني من سبق ذكره من هؤلاء سوى أهل الإيمان وقعوا في الشرك: اليهود وقعوا في الشرك والصابئة وقعوا في الشرك والنصارى أمة عظيمة في الشرك يكفي أنهم قالوا: بأن الله ثالث ثلاثة هذا شرك خطير وإن موهوا وزخرفوا القول به. والمجوس لما قالوا: بإلهين أيضاً وقعوا في الشرك فمن المراد إذن بقول الحق – تبارك وتعالى–: ﴿ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾؟؟؟ قال أهل العلم وهو الصواب: هم المشركون من العرب خاصة والقرآن الكريم إذا أطلق في الغالب كلمة "الذين أشركوا" أصبحت هذه الكلمة علماً على مشركي الجاهلية لأنه يذكر غيرهم بما لديهم من صفات أو ينسبهم إلى الكتب التي هم عليها أو يسميهم بأسماء الأمة التي هم عليها كما في هذه الآية: اليهود النصاري أو يقول: أهل الكتاب أو يقول: المجوس أو يقول.. غير ذلك المراد بالذين أشركوا هنا هم كفار قريش.

هذه الأديان كلها لا دين فيها حق إلا ما بعث به النبي –صلى الله عليه وسلم– قد يقول قائل: لا تتجنى. يعني: ديانات الأنبياء السابقين باطلة؟ نقول: ديانة النبي موسى –عليه السلام– صحيحة والتوراة التي نزلت من عند الله صحيحة ونحن نؤمن به ونؤمن ببعثته ونؤمن بأن الله أنزل عليه كتاباً ولكن أيضاً نؤمن بأن بعثته كانت خاصة بقومه وانتهت ببعثة النبي الخاتم –صلى الله عليه وسلم– ونؤمن بأن أتباعه غيروا وبدلوا ولعبت أيدهم في الكتاب الذي نزل عليهم من عند رب العزة والجلال – سبحانه وتعالى–.

كذلك دين عيسى ابن مريم–عليه السلام– ديناً صحيحاً نزل من عند الله – تبارك وتعالى– عليه وفي وقته من آمن به وصدق برسالته وآمن بشريعته من أهل الإيمان الصادقين المخلصين لهم جنات النعيم عند رب العزة والجلال، ولكن ايضا نُسخ هذا الدين ببعثة النبي الخاتم –صلى الله عليه وسلم– وكان على أهل هذه الأديان كلها أن يدخلوا في دين محمد –صلى الله عليه وسلم– لأن أنبياءهم لو كانوا موجودين عند بعثة النبي –صلى الله عليه وسلم– كما نطق بذلك التنزيل لآمنوا بالنبي –عليه الصلاة والسلام– بل إنهم آمنوا به في حياته –صلى الله عليه وسلم– متى كان ذلك؟ أثناء الإسراء والمعراج، لما جمع الله – عز وجل– الأنبياء والمرسلين وتقدم النبي –صلى الله عليه وسلم– ليصلي بهم إماماً، إذن الأديان كلها باطلة إلا الدين الحق وطالما أنها باطلة ستحتاج إلى أن يحكم بينها وأن يفصل فيها والحكم فيها لمن؟ لمن أنزلها ألا وهو رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– والله – عز وجل– قال في ذلك: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ وفصل الله حق وحكم الله عدل بدليل أنه عقب على هذا بقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ والذي يشهد ويعرف ويعلم لاشك أنه سيقضي بعلم وسيفصل بالحق.

وأكتفي بهذا ... وصلى اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أشرت – حفظك الله– إلى أن الله – عز وجل– يهدي من يشاء، من ضل بمشيئة الله ومن اهتدى بمشيئة الله حبذا لو كان هناك شيء من التوضيح لمشيئة الله – عز وجل– القدرية الكونية والشرعية ؟

ذكرتم – حفظكم الله– وجهين لدفع التعارض الذي قد يتوهمه البعض في قوله – تعالى–: ﴿ يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَ يَنفَعُهُ ﴾ وقوله: ﴿ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ﴾ السؤال: هل يمكن أن تكون الآية الثانية استدراكاً للآية الأولى مثل قوله – تعالى–: ﴿ أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾[الأعراف: ١٧٩] وقد أشار إلى ذلك الشيخ السعدي في تفسيره وقال نصاً: «ليس بيده من الأمر شيء قال: بل هو إلى حصول ضد مقصوده أقرب» والله – تعالى– أعلم.

نريد أن يعلمنا الشيخ: كيف نتدبر القرآن الكريم؟ وكيف نطبق الآيات وننزلها على حياتنا العملية ؟

كان يسأل عن المشيئة القدرية الشرعية في أن الله – عز وجل– يهدي من يشاء ويضل من يشاء

في الحقيقة هذا موضوع طويل افترقت فيه فرق إسلامية التي هي مسألة هداية الله – عز وجل– لمن يشاء وإضلاله لمن يشاء:

– زعمت بعض الفرق أن الله – سبحانه وتعالى– يفعل ذلك.

– ولكن الحق والصواب المؤيد بالدليل أن رب العزة الجلال – سبحانه وتعالى– يفعل ما يشاء وهو – عز وجل– هو الذي أراد هداية المهتدي وأراد إضلال الضال – سبحانه وتعالى– وما أريد أن أذكر أموراً يكون فيها شيء من التوسع عليكم.

– أهل السنة يؤمنون بهذا. المعتزلة يقولون: لا.. فمعنى أن الله يهدي من يشاء يعني ينسبه إلى الهداية أو تسيمة الله له مهتدٍ. ويضل من يشاء تسمية الله له ضالٌ وفي واقع الأمر وكما نطق القرآن الكريم أن الله – عز وجل– يضل من يشاء ويهدي من يشاء وأن الله أراد الهداية وأراد الضلال بدليل قوله – تعالى–: ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾[الأنعام: ١٢٥] ولكن الأخ وهو – جزاه الله خيراً– يفهم ما أقول ومن خلال السؤال هو أجاب، ولكنه يريد أن أوضح هذه المسألة للمستمعين لما أشار إلا الإرادة الكونية وإلى الإرادة الشرعية.

الإرادة الكونية حينما نقول: إن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء. هذا يدخل في الإرادة الكونية، ما هي الإرادة الكونية؟ قالوا: هي الإرادة العامة الشاملة التي يدخل فيها كل ما يقع في الكون سواء أحبه الله – عز وجل– ورضيه أم لم يحبه ويرضاه هذه الإراد الكونية القدرية وهي التي يدخل فيها يهدي من يشاء ويهدي من يشاء.

أما الإرادى الدينية الشرعية فهي المتضمنة للمحبة والرضا وهنا نقول: إن الله – عز وجل– وإن أراد الكفر كوناً وقدراً وإن أراد الضلال وإرادة كونية قدرية إلا أنه لا يريده ديناً ولا شرعاً فكفر الكافر واقع بإرادة رب العزة والجلال – سبحانه– وإن كان الله لا يرضى لعباده الكفر، ففرق بين الأمرين بين الإرادة الكونية القدرية وبين والإرادة الدينية الشرعية، وأكتفي بالجواب عن هذ السؤال.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، عندي سؤال: هل يصح الاستدلال بقوله – تعالى–: ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ على أن الله – سبحانه وتعالى– يجازي بالعمل أي لابد من اقتران الإيمان بالعمل حيث في ذلك رد على المرجئة الذين يقولون: إن الله يجازي على الإيمان فقط هل يصح الاستدلال بهذه الآية؟

نعم... هي ما اشارت إليه – جزاها الله خيراً– معنى صحيح يبين أن الإنسان يجازى على أعماله فإذن الأعمال داخلة في الإيمان فهو محاسب عليها والحقيقة أيضاً المسألة في مثل هذا طويلة فالأعمال تدخل في

الإيمان والله – عز وجل– ذكر بأن الذين يتنعمون بالجنان هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات وكما جاء في القرآن الكريم: ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ في آيات كثيرة من القرآن الكريم ويمكن المتتبع لآيات القرآن الكريم ولعلي أطالب بعض الحاضرين أن يجمع لنا بعض الآيات ويؤكد ما أشارت إليه الأخت – جزاها الله خيراً–.

كان سؤاله عن الآيتان ﴿ يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ ﴾ وقوله الله – عز وجل–: ﴿ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ﴾ وذكر تفسير الشيخ السعدي –رحمه الله تعالى– أن الآية الثانية استدراك في قول الله – عز وجل–: ﴿ أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾

– جزاه الله خيراً– هذا المعنى صحيح، وهذا المعنى يدخل أيضاً فيما ذكرت ولكن حينما نفصل في مثل هذه المسائل وما ذكره هو أو أشار إليه هو معنى صحيح، وذكرت أنا من آيات القرآن الكريم أن هذه الأصنام أو من عبد من دون الله – سبحانه وتعالى– حتى من غير الأصنام ممن عبدهم الناس من دون الله – تعالى– من البشر أو من الملائكة أو من الجن كل هؤلاء بنص القرآن الكريم بأنهم لا يملكون نفعاً ولا يملكون ضراً وهذه آيات وما يذكر فيها من تفسير هو تفسير صحيح يتفق مع آيات القرآن الكريم، والقرآن يفسر بعضه بعضاً.

كانت تسأل عن كيفية تدبر آيات القرآن الكريم وكيفية تطبيقها في أرض الواقع

في الحقيقة القرآن الكريم – أيها الإخوة– ما نزل إلا لرحمتنا، الله – عز وجل– في سورة يس لما ذكر القرآن الكريم قال: ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا ﴾[يس: ٧٠] كيف يطبق الإنسان؟ لابد أن يشعر الإنسان بأن إيمانه صحيح ويجب أن ينميه وأن يطبق بأعماله وجوارحه ما زعم أنه قام في قلبه وما نطق به لسانه، فالإنسان ينظر ويتأمل إلى ما أعده الله – عز وجل– لأهل الإيمان فيقوم بتهذيب نفسه وتربيتها على كتاب الله وهدي رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يلزمها ويزمها على الحق الذي جاء من عند الله – عز وجل– ولن يكون الإيمان صحيحاً إلا بالتطبيق العملي للقرآن الكريم وآياته وتدبرها وكما جاء في الحديث عن الصحابة أنهم: (كانوا لا يتجاوزون عشر آيات إلا بعد أن يقرؤوها ويفهموها ويعملوا بها قال فتعلمنا الإيمان والعمل مع) يعني: يقرأ الآية ويطبقها، فالله – عز وجل– حينما يقول: يا أيها الذين آمنوا أو يا بني آدم أو يأمرك بأمر انظر إلى هذ الأمر والتزمه وإذا نهاك عن شيء فانظر إلى هذا النهي واتركه تكن بهذا مستجيباً لله – تبارك وتعالى–.

كان السؤال الأول: اختلف المفسرون في وقت الزلزلة في سورة الحج اذكر الأقوال مع الترجيح؟

وكانت الإجابة:

اختلف المفسرون في أمر الزلزلة إلى:

أولاً: البعض قال: قبل البعث وساعة قيام الساعة.

ثانياً: البعض قال: هي زلزلة البعث مستدلين بقول الله – تبارك وتعالى–: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾[الزلزلة: ١]

ثالثاً: البعض قال: بعد قيام الناس من قبورهم وهو الراجح لحديث النبي –صلى الله عليه وسلم– الذي أورده البخاري عن أبي سعيد: (إن الله ينادي آدم يوم القيامة ويقول: يا آدم أخرج بعثه النار فيقول: وما بعث النار يارب؟ ....) وفي الحديث عندما أخبر الله آدم –عليه السلام– أن بعث النار هو (من كل ألف تسعمائة وتسعة

وتسعين فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: فهنالك تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حمله) والله أعلم.

الحقيقة ما أجاب به المجيب عن هذه السؤال كلامه صحيح واستدلاله في موطنه وهو الراجح – إن شاء الله تعالى– تتبعت كثيراً من كتب التفسير فوجدت أن هذا هو الراجح ويؤيده أيضاً الحديث المذكور في تفسير هذه الآية وقد أخرجه الإمام البخاري في تفسير له عن أبي سعيد الخدري عن النبي –صلى الله عليه وسلم– وإذا جاءنا التفسير من النبي –صلى الله عليه وسلم– عن الآية فحسبنا أو وجب علينا أن نقف عنده وأن نأخذ به.

كان السؤال الثاني: ما معنى الجدال في الله وهل الجدال بكل أنواعه مذموم؟ وضح.

وكانت الإجابة:

يجادل في الله بمعنى: يخاصم في الله أي أنهم ينسبون لله ما لا يليق به –سبحانه وتعالى– وليس الجدال بكل أنواعه مذموم قال – تعالى–: ﴿ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[العنكبوت: ٤٦] ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[النحل: ١٢٥] قال الله – تعالى–: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[النحل: ١٢٥] فعلينا أن نجادل بالتي هي أحسن فإذا كان المجادل يريد الحق فيكفيه الحكم وإن كان معرضاً فعلينا بالموعظة الحسنة لعله يرجع وإن كان لا يريد إلا الجدال فالجدال بالتي هي أحسن إلى حد قد بينه النبي –صلى الله عليه وسلم– في الحديث الصحيح الذي ذكر فيه: (أنا زعيم في بيت من ربض الجنة لمن ترك المراء ولو كان محق)

وهو محق في إجابته – جزاه الله خيراً– بل إنه أضاف إليها شيئاً وذكر فيها أشياء وهذا –في الحقيقة– يسعدني شخصياً حينما أجد من المتابعين شيئاً من ذلك، وأسأل الله لهم التوفيق.

كان السؤال الثالث فضيلة الشيخ: قول الله – تبارك وتعالى–: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ ......﴾ يدل على أمر عظيم: اذكر إجابتك مدعماً ذلك بدليلين من القرآن الكريم؟

كانت الإجابة:

الأمر العظيم هو إثبات البعث رداً على منكري البعث من الكفار والمشركين وقد وضح الله لنا هذا الأمر العظيم بدليلين عقليين:

أولهما: خلق الله آدم من تراب: يخاطب الله – جل جلاله– عقول البشر كأنه يقول: يا من تنكرون البعث إنا خلقناكم من تراب ونسب البشر جميعاً من تراب لأن آدم –عليه السلام– من تراب ولأننا فروع نتبع الأصل ثم ذكر إلينا أطوار الجنين في بطن أمه نطفة ثم علقة ثم مضغة مخلقة وغير مخلقة، ثم يولد طفلاً ويصير كبيراً ثم يموت ويبعثه الله – تبارك وتعالى– ومما لا يخالف فيه أن إعادة الخلق أيسر من الخلق ذاته وهذا بالنسبة للبشر وأما لله – تبارك وتعالى– فلا يصعب عليه شيء.

الأمر الثاني: هو إحياء الأرض بعد موتها الأرض تكون هامدة ثم ينزل الماء عليها فتهتز وتصير جميلة، فالله الذي يحي الأرض قادر على أن يحي البشر. والله أعلم.

جزاك الله خيراً وجزى الله المجيب أيضاً خيراً على هذا السؤال، وأنا حينما سألت أو طرحت هذا السؤال في الحلقة السابقة أردت أن لا ينصرف الذهن عن هذه القضية الهامة وخشيت أن بعضكم يمكن أن يقول: الحديث عن البعث ومذكور في الآية صراحة فهل هو يسأل عن شيء مذكور صراحة في هذ الأمر؟ فعلاً أنا أسأل عنه ولكن كنت أود في هذا السؤال بالذات أن يتوسع أو أن يجيب أحد المجيبين بآيات أخر فيها دلالة على البعث وضاق الوقت عن أن أشير إليها، مثلاً ما جاء في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى ﴾[البقرة: ٧٢: ٧٣] فالله – عز وجل– استدل بإحيائه لهذا الميت في الدنيا على البعث والجزاء والنشور وغير ذلك من آيات القرآن الكريم... وهي منتشرة، والدلالة على البعث يمكن أن تجمع في ستة أمور ولعلنا نأتي على شيء منها مفصلاً – إن شاء الله تعالى–.

تقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، سؤالها: هل سورة الحج مكية أم مدنية ؟

اختلف المفسرون في هذا اختلافاً كثيراً فبعضهم ذكر أنها مكية وهذا هو الموجود في كثير من المصاحف المطبوعة والبعض ذكر أنها مدنية ورجحوا ذلك بآيات الحج الواردة في هذه السورة ومن قال: إنها مكية ذهب إلى أن السورة تقوم أو تتحدث أو يدور محور حديثها حول موضوعات السور المكية من إثبات البعث والجزاء وخلق الله لهذا العالم وإثبات نبوة النبي –صلى الله عليه وسلم– والبعض ذكر أنها مكية عدا الآيات التي وردت في سياق الحديث عنها وهذا وارد في كتب التفسير وفي علوم القرآن ولا يمنع أن تكون هناك بعض آيات نزلت في مكة من السورة وبعض آيات نزلت في المدينة النبوية. والله أعلم.

يقول: هل المقلد ملزم باتباع شيخه في كل ما يعتقده شيخه دون دليل؟

في الحقيقة:

أولاً: يجب على المقلد ألا يقلد إلا من يعرف الحق بالدليل، وحينما يقلد لا يقلد الشخص في نفسه أو في ذاته يعني: لا تقلدني ولا تقلد فلاناً ولكن أنت تكون مقلداً لعدم معرفتك بالدليل، فإذا سمعت الدليل فعليك بلزوم الدليل ولا تلزم قول الشيخ وأنا أخاطب الناس كافة وكلهم يشاهد أو يسمع لا تأخذ دينك يا عبد الله من أي إنسان مهما كان إلا إذا كان هذا القول الذي يقدمه لك عليه أدلة شرعية صحيحة من القرآن الكريم ومن السنة النبوية.

الناس اليوم في دنياهم يبحثون ويقلبون ويفتشون: العامل في مصنعه من يقوم في أي مكان كالزارع مثلاً في أرضه كل إنسان يعرف ماذا يفعل. وماذا يقدم. ومتى يزرع. ومتى يحصد. ومتى تشتغل المكائن. ومتى توقف. وما إلى ذلك. أما الدين فيقلد الإنسان بجهل فهذا لا يجوز أنت يجب عليك أن تبحث عن الدار الحقيقية في الدار الآخرة وأن تبذل من الجهد ما تتعلم به شيئاً من الدين كما جاء من عند الله – تبارك وتعالى– وأقول: شيئاً لأشير إلى أنه ليس كل إنسان مطالباً بأن يكون عالماً ولكن يجب أن يتعلم كل منا من مسائل الاعتقاد ما يصحح به عقيدته، ومن مسائل العبادات ما يتمكن به أن يكون عابداً بين يدي رب العزة – سبحانه وتعالى– يتعبد بالأعمال المشروعة، يتعلم صحة الاعتقاد ويتعلم كيف يقوم لله – عز وجل– بالعبادات التي شرعها رب العزة والجلال وبينها لنا النبي –صلى الله عليه وسلم– وعلى المقلد ألا يأخذ كلام شيخه بلا دليل، بل عليه أن يطلب منه الدليل وإذا ظهر له أن الحجة في قول غير شيخه رجع إليه؛ لأن العبرة بـ «قال الله» ، «قال رسول» –صلى الله عليه وسلم–.

يقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما السؤال: بالنسبة للآية الحادية عشرة ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾ هل قصد بهم المنافقون؟ وما الفائدة من قول الله في الآيات: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ مع أن الصفات تنطبق على المنافقين؟ جزاكم الله خيراً

هو في الحقيقة شطر الآية الأولى ينصرف إلى المنافقين، الآيات التالية بعده﴿ يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ ﴾ تخاطب من؟ تخاطب المشركين والمنافق يجمع إلى جانب نفاقه يجمع الشرك بالله – تعالى– ويقع فيه، فكلمة المنافق هنا تشمل المشرك والكافر والمنافق ولكن نحن نوجه مدلولات الآيات على حسب ما ترشد وما تشير إليه في الأغلب الأعم. والله أعلم.

تقول: هل نقول: إن موسى –عليه السلام– أتى باليهودية، وعيسى بالنصرانية أم بالإسلام؟ أقصد هل اليهودية تطلق على دين موسى –عليه السلام– قبل التحريف أم بعده ؟

في الحقيقة أصل دين الأنبياء واحد وهو الإسلام كلهم جاءوا بالإسلام والآيات في سورة البقرة ويطول المقام ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ... ﴾[البقرة: ١٣٣] ونفس يوسف –عليه السلام– لما قال: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾[يوسف: ١٠١] والإسلام له معنى عام ألا وهو الاستسلام لله – عز وجل– والدخول في الدين الذي جاء من عند الله – تبارك وتعالى– وله معنى خاص وهو الإسلام الذي بعث به النبي –صلى الله عليه وسلم– وأصل دين الأنبياء واحد؛ لأن كلهم يشتركون في اعتقاد واحد ألا وهو إفراد الله بالعبودية، إطلاق اليهودية والنصرانية عليهم أمر سائغ ومذكور في كتاب الله – عز وجل– حينما قال الله – عز وجل–: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ﴾[المائدة: ٤١] مثلا ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ﴾[المائدة: ٨٢] فذكر ذلك القرآن الكريم وأضافهم إليها وهذه الإضافة لهما معانٍ سبق أن ذكرتها ولا شيء في ذلك، ولكن أود أن أشير إلى أن الأنبياء جميعاً جاءوا بالإسلام العام بمعنى: إسلام الوجه لله واشتركوا جميعاً في الدعوة إلى توحيد الله – تبارك وتعالى– يؤكد ذلك حديث النبي –صلى الله عليه وسلم– (الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى وأبوهم واحد) يعني: أصل الدين واحد الذي هو دين الإسلام ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ ﴾[آل عمران:١٩].

لو تفضلتم بطرح أسئلة هذه المحاضرة؟

السؤال الأول: قال – تعالى– فيمن يعذبه من الكافرين: ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ مع أن الكفر ليس من عمل اليد، فكيف توجه ذلك؟

السؤال الثاني: ما معنى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾؟ أيد ما تقول بحديث للنبي –صلى الله عليه وسلم– .

السؤال الثالث: اذكر الوجهين في تفسير قول الله – تعالى–: ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ....﴾ إلى آخر الآية.... مع ذكر الراجح منهما.

الدرس الثالث: تفسير سورة الحج

فضيلة الشيخ أهلاً ومرحباً بكم

أهلاً وسهلاً ومرحباً بكم وبالحاضرين والمشاهدين ونبدأ -إن شاء الله تعالى- بإعطاء الإخوة الحاضرين والمشاهدين فكرة عن المحاور التي سأتحدث عنها في هذا اللقاء -إن شاء الله تبارك وتعالى-:

المحور الأول: الكون كله يسجد لله تعالى.

المحور الثاني: أنواع عذاب أهل النار.

المحور الثالث: ما أعده الله للمؤمنين في الجنان.

المحور الرابع: الكافرون يصدون عن سبيل الله.

والآن يتفضل الأخ الكريم فليقرأ لنا هذه الآيات التي سأتناولها بالحديث والشرح -إن شاء الله تعالى-.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

أحسنت وبارك الله فيك.

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم وبارك وأنعم على عبدك ورسولك ومصطفاك وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم وسلك سبيلهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين وبعد.

فأرحب بكم أيضاً مجدداً في هذا اللقاء ومع هذه الآيات التي سمعتموها قبل قليل، وحولها يدور حديثي -إن شاء الله تعالى- ومع المحور الأول في هذا اللقاء وهو:

المحور الأول: الكون كله يسجد لله -تبارك وتعالى-:

وقد عنونت هذا العنوان من الآية التي سمعتموها آنفاً، وهي قول الحق -تبارك وتعالى-:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ﴾ إلى آخر هذه الآية... حيث أخبر رب العزة والجلال أنه -سبحانه وتعالى- هو المستحق للعبادة وحده دون سواه، وعليه فجميع الكائنات في هذا الكون تسجد له طوعاً وكرهاً، وقد ذكر رب العزة والجلال أولاً أن كل ما في السماوات والأرض يسجد له سبحانه، ثم بعد ذلك بدأ وعدد بعضاً من المخلوقات التي تسجد بأعيانها فهو قال أولاً: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ﴾ ومن في السماوات ومن في الأرض: يشمل جميع الملائكة ويشمل كل ما يمكن أن يوجد في أقطار السماوات والأرض وما بين السماء والأرض وما جاء ذكره في هذه الآية الكريمة المباركة من الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وهذا يشمل كثيرًا مما في هذا الكون، نص رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- على أن الجميع يسجد له -سبحانه وتعالى- وكما أشرت الآن ذكر أولاً أن كل ما في السماوات وما في الأرض يسجد له سبحانه، ثم عقب بذكر بعض مفردات من المخلوقات التي تسجد أيضاً لله -عز وجل- فبعدما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ﴾ عقب -سبحانه وتعالى- على ذلك بقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ أولاً: ذكر هنا ربنا -سبحانه وتعالى- من المفردات التي خصها بالذكر أولاً: الشمس والقمر والنجوم، وهذه كلها تدور في مجموعة الأفلاك السماوية وهي داخلة أيضاً فيمن يسجد مما أودعه الله -عز وجل- في السماوات فلماذا خصها رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- بالذكر؟ قال بعض أهل العلم: بأنها خصت بالذكر لأن بعض الناس عبدوا الشمس والقمر من دون الله -تبارك وتعالى-، وقد نص على ذلك القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا للهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧] وتعرفون أن قوم إبراهيم -عليه السلام- كانوا يعبدون الكواكب من دون الله -تبارك وتعالى-، فالنص إذن على هذه الأشياء بأعيانها وهي داخلة فيما ذكر أولاً ليبين رب العزة والجلال سبحانه ويوضح لكل مستمع أن هذه المخلوقات بأعيانها التي عبدها الناس من دون الله -سبحانه- هي في حقيقة الأمر وفي واقعه تعبد الله -عز وجل- بل هي تسجد له -سبحانه وتعالى-، كما يسجد لله -عز وجل- مما جاء ذكره في هذه الآية الجبال والشجر والدواب، فالجبال تسجد لله والشجر يسجد لله والدواب وهي الحيوانات بجميع أشكالها وأنواعها لأن هذا جمع وكلام الله صدق تسجد لرب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-.

وقد ذكر ابن كثير وغيره عن مجاهد -رحمه الله تعالى- أن سجود الجبال والشجر سجود ظلها لله -تبارك وتعالى- يعني أن الظل يسجد أيضاً لله -عز وجل- واستند في ذلك إلى قول الحق -سبحانه وتعالى-: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا للهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النحل: ٤٨] فما خلق الله -سبحانه وتعالى- من هذه الأشجار أو من الجبال وله ظل هو وظله يسجد لرب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، وواقع الأمر أيها المشاهدون الكرام أن سجود هذه الكائنات واقع وحاصل لرب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، فقد جاءت أحاديث عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بيَّنَ فيها المصطفى -عليه الصلاة والسلام- أن الشمس والقمر وجاء ذكر ذلك يعني غير الشمس والقمر في بعض الأحاديث كله يسجد لله -عز وجل- سجود حقيقة وهو ما عليه أهل السنة والجماعة، ومن ذلك أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- سأل ذات يوم أبا ذر -رضي الله تعالى عنه- سؤالاً فقال له فيه: (أتدري أين تذهب الشمس؟) هذا استفهام، رسول الله -صلى اللع عليه وسلم- يستفهم ويسأل هذا الصحابي الجليل -رضي الله تعالى عنه- وينتظر منه الجواب، فماذا أجاب -رضي الله تعالى عنه-؟ (قال: الله ورسوله أعلم) هنا فائدة يجب أن أقف عندها لنستفيد وهو أن من لا يعلم شيئًا من الأمور يجب عليه أن يرد علمه إلى من يعلمه، ولا يقول على الله -عز وجل- كذباً أو بطلاناً أو يفتري على الله -سبحانه وتعالى- شيئًا هو لا يعرفه، فيقع بذلك في الضلال المبين، وصحابة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ومنهم أبو ذر -رضي الله تعالى عنه- من أعلم الناس بدين الله، وبسنة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ولذلك لما سأله النبي -عليه الصلاة والسلام- عن أمر لا يعلمه هو، أسند الأمر إلى من يعلمه فقال: (الله ورسوله أعلم) وأنا أود أن أسأل هنا سؤالاً للحاضرين معي، وأنتظر من يعرف الجواب أن يرفع يديه، لنستمع إلى جوابه، هل يجوز اليوم لو سئل الواحد منا سؤالاً أن يقول: الله ورسوله أعلم؟

لا يقول، بل يقول: الله أعلى وأعلم، لا يقول: الرسول لأن الرسول توفاه الله -عز وجل-

هل أحد من الإخوة عنده إضافة؟

يقول الله ورسوله أعلم إن كان الأمر متعلقاً بالشرع

نعم، يقول الله ورسوله أعلم إن كان أمراً متعلقاً بالشرع وبالدين فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يعلمه، أما إن كان الأمر من أمور الحياة الدنيا أو النازلة أو الواقعة اليوم بعد أن قبض النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فيقول: الله أعلم، هنا النبي -صلى الله عليه وسلم- حاضر يعلم الأمة ويأتيه الوحي من عند الله -تبارك وتعالى-، وهذه مسألة شرعية لا يعلمها أحد قبل رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بعدما بعث النبي -عليه الصلاة والسلام- ولذلك أبو ذر -رضي الله عنه- أحسن حينما قال: (الله ورسوله أعلم) ماذا أجابه النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-؟ (قال: فإنها تذهب تسجد تحت العرش) تذهب هذه الشمس فتسجد تحت عرش الرحمن -تبارك وتعالى-، ثم تستأذن ثم يقول النبي -عليه الصلاة والسلام-: (فيوشك أن تستأذن فيقول الله لها: ارجعي من حيث جئتي)، وذلك سيكون في نهاية هذا العالم حينما يشاء رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- أن يجمع الناس وأن ينتهي هذا الكون، وقتئذٍ سيكون طلوع الشمس من مغربها علامة من علامات قرب قيام الساعة، وهي من العلامات الكبرى كما هو معلوم عند المسلمين وهذه المسألة من المسائل التي يتعلمها أهل الحق حتى إذا وقعت في أي وقت هذه العلامات أو وقع شيء منها عرف الإنسان كيف يتعامل معها.

وعن أبي العالية -رضي الله تعالى عنه- قال: (ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر، إلا يقع لله ساجداً حين يغيب ثم لا ينصرف حتى يُؤذنَ له) هذا الحديث الذي ذكرته آنفاً وهذا القول كله يؤيد أن سجود هذه المخلوقات سجود حقيقة لرب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، وقد أخرج الترمذي -رحمه الله- في سننه وابن ماجه وابن حبان في صحيحه، وذكر ذلك الإمام ابن كثير في تفسيره عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: (جاء رجل إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فقال: كأني رأيتني وأنا نائم أنني أصلي ثم سجدتُ فسجدتْ شجرة كانت خلفي فسمعتها تقول: اللهم اكتب لي بها أجراً وضع عني بها وزرا) هذه الشجرة تقول هذه الكلمات (وضع عني بها وزراً، واجعلها لي عندك زخراً، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود) وحكى هذا الرجل هذه الحكاية للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ثم قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنه-: (فلما قام النبي يصلي وسجد سمعته يقول هذه الكلمات التي قالها هذا الرجل عن الشجرة) وهذا الحديث أخرجه الترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه كما ذكرت وحسنه الشيخ الألباني -رحمه الله تبارك وتعالى- وهذا كله يفيد أن الكون كما عنونت لهذه الآية يسجد لله -عز وجل-، وأن هذا السجود على حقيقته، مما ذكر رب العزة والجلال سبحانه؛ لأننا سنأتي في نهاية الآية عند الحديث عن الناس أما أنا الآن فأتحدث عن هذه المخلوقات، بما فيها من الجمادات، لأن الجبال جماد من الجماد ومع هذا أخبر رب العزة والجلال أنه يسجد لله وسجود هذه الأشياء كلها على حقيقتها وهي تسبح بحمد الله -تبارك وتعالى- كما قال ربنا جل ذكره: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] فسجود هذه الكائنات وتسبيح هذه الكائنات أمر على حقيقته ونحن يجب علينا -كما هو من منهج أهل السنة والجماعة- أن نأخذ القرآن الكريم على ظاهره، وليس لنا أن نزيل القرآن الكريم عن ظاهره إلا بدليل صحيح يدل على ذلك، فنحن نؤمن بظاهر هذه الآيات كما جاءت من عند رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- وقد وقع في الدنيا وسمعنا وقرأنا في سنة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: (أن الحجر يسبح وقد سبح الحصى في كف النبي -صلى الله عليه وسلم-) وفي صحيح مسلم أن النبي -عليه الصلاة والسلام- قال: (إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث وإني لأعرف مكانه الآن) هذا حجر كان يسلم على النبي -عليه الصلاة والسلام- قبل البعثة، ومعروف وكلكم تسمعون وتعرفون حنين الجذع لما حن للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وخرج منه صوت وهو شجرة، فكلام هذه الأشجار والأحجار في الدنيا، يدل على أنها على الحقيقة تسبح بحمد الله -تبارك وتعالى-، وأقول هذا لأن هذا هو الحق، الذي عليه أهل السنة والجماعة، وقد خالف في ذلك

نفر من الناس واستبعدوا هذا الأمر، وقالوا بأن هذه الجمادات كيف تسبح؟ أو كيف تسجد لله –تبارك وتعالى–؟ ولا يليق بنا معشر المسلمين أن نقف أمام كلام ربنا وما ذكره نبينا –صلى الله عليه وآله وسلم– أيضاً في سنته هذه الوقفات بل علينا أن نسلم تسليمًا مطلقاً لما جاء عن الله ولما جاء عن رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– ولا نستغرب ذلك ولا نستبعده بحال من الأحوال، ويمكن أن تعطى الصورُ للمعاني، إما هي الصور؟ يعني أجرام الأشياء وظواهرها التي نشاهدها تعطى للمعاني وتكون لها يعني الأشياء التي لا نلمسها ولا نشاهدها، يعني مثلاً الرجل الذي لما قال النبي –صلى الله عليه وسلم– لما رفع من الركوع، وقال: (سمع الله لمن حمده، فقال: ربنا ولك الحمد حمداً كثيرًا طيباً مباركًا فيه...) إلى آخره ماذا قال النبي –عليه الصلاة والسلام–؟ قال: (لقد رأيت بضعةً وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيهم يأخذها أول) طيب هذه كلمة لا جرم لها ومع هذا أخذت شكل الصورة والحيز وجرى إليها الملائكة كي يبتدرونها، وكما أخبر النبي –صلى الله عليه وسلم– عن البقرة وآل عمران، قال: (إن الزهراوين تحاجان عن صاحبهما يوم القيامة) فلما يقول النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– هذا القول، لا يأتي قائل وينكر هذا، ويقول: كيف تحاج سورة البقرة وآل عمران؟ كيف تبتدر الكلمات الصالحات، وتسعى الملائكة في أخذها؟ هذه أمور أخبرنا عنها الصادق الأمين، وبلغنا إياها –صلى الله عليه وآله وسلم– فيجب أن نسلم لخبر الله وخبر رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– ولا يجوز لمعترض أن يقول: إذا كانت الحجارة تتكلم أو الأشجار تسجد أو القرآن الكريم أو السور التي ذكرتها كالبقرة وآل عمران ستحاج عن صاحبها يوم القيامة ما بالها إذن لا ترقى المنابر أو تمسك الأقلام والمحابر كما يمسكها إخواننا الآن؟ نقول: هذا لا يليق أن تعترض به على هدي النبي –صلى الله عليه وسلم– أو ما جاء في كتاب الله لأن الصحابة –رضي الله تعالى عنهم– وهم أرق الناس قلوباً، وألين الناس أفئدة، وأفهم الناس عقولاً سمعوا ذلك من النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– ولم يستشكلوه، ولم يسألوا عن حقيقته، ولما وقع منهم السؤال لم يكن سؤال استبعاد أو استنكار وذلك لما أخبرهم النبي –صلى الله عليه وسلم– كما في حديث الصحيحين: (أن بقرة تكلمت) انتبهوا معي، الحديث في الصحيحين: (بينما رجل يسوق بقرة إذ حمل عليه متاعه وما لديه) حمل عليها حملاً كبيراً (فقالت له البقرة: ما لهذا خلقت، إنما خلقت للحرث والنسل، فقال الرجل: سبحان الله بقرة تتكلم!! فقال النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– وأنا أؤمن بذلك وأبو بكر وعمر) وفي بعض الروايات (أن أبا بكر وعمر –رضي الله تعالى عنهما– لم يكونا موجودين وقت أن تحدث النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– بهذه الحادثة).

وهنا فائدة أرى أن أقف عندها، وهي أن النبي –صلى الله عليه وسلم– أخبر أنه يؤمن بذلك يعني ماذا؟ أن البقرة تكلمت، كلمت هذا الرجل الذي حمل عليها زاده ومتاعه، يؤمن بذلك لأنه رسول يوحى إليه، ويعلم مثل هذه الأمور من خلال خبر الله له، ولكن بماذا حكم النبي –صلى الله عليه وسلم– على أبي بكر وعمر بإيمانهما بهذه الحادثة، وهما لم يشاهداها، وفي رواية أخرى كما ذكرت: (لم يكونا موجودين حينما تحدث النبي –صلى الله عليه وسلم– بهذا الحدث)؟

هنا وقف أهل العلم وقفة وقالوا: بأنه يجب طالما أنه ثبت لدينا صدق النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– أن نسلم له في كل ما يقول حتى ولو استبعدت عقولنا ذلك، لماذا؟ لأنه طالما أنه صادق وثبت لديك ذلك فيجب عليك أن تسلم وأن تصدق لهذا الصادق، طالما أنه رسول وآمنت بذلك وصدقت بأنه صادق فيجب عليك أن تصدق بهذا الصادق ولهذا النبي –عليه الصلاة والسلام– حكم على أبي بكر وعمر بالإيمان بهذه الحادثة لعلمه أن أبا بكر وعمر –رضي الله تعالى عنهما– سيصدقان بها إذا علما أن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– صدق بهذه الحادثة فيكون تصديقهما قائماً على من؟ على تصديق النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–.

إذن الكون كله يسجد لله من هذه الأحجار والأشجار والشمس والقمر والنجوم، أما في الإنسان وهذا ما أود أن نقف عنده وأن نشير إليه قال الله –عز وجل– بعد أن ذكر أن هذه المخلوقات بما فيها من جمادات تسجد لرب العزة والجلال سبحانه، قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ يعني أن كثيراً من الناس سجدوا لله طوعاً، طائعين خاضعين عبدوا ربهم –سبحانه وتعالى– آمنوا به وأدركوا عظمته، وعلموا أنهم مربوبون

مقهورون تحت سلطانه، فخروا لله -عز وجل- بسائر أنواع العبادات وألوانها، ومن ذلك السجود لله -تبارك وتعالى-، سجود طواعية استجابة لرب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، وبعض الناس أبى واستكبر عن السجود قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ ولا يستشكل إنسان هذا القول، فيقول: الكون كله يسجد لله وبعض الإنسان عصى، نقول: هؤلاء الناس الذين عصوا هم في الحقيقة يسجدون لله كراهية بمعنى أنهم يخضعون خضوع مذلة وإهانة، لرب العزة والجلال لماذا؟ لأن الله ربهم ولأنه خالقهم ولأنه هو الذي يدبر أمورهم ولأنه هو الذي يسيطر عليهم وهو الذي يتصرف فيهم بما يشاء سبحانه، فالله -عز وجل- يذلهم والله يميتهم والله يحييهم فهم من هذا الجانب خاضعون لرب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- ويعبدون الله -عز وجل- عبادة عامة كونية، بمعنى عبادة يعني ماذا؟ أنه عبد وإن أبى واستكبر فهو مهما كان عبد من عباد الله -تبارك وتعالى-، ومصداق ذلك في قول الله جل ذكره: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣] من في السماوات ومن في الأرض المؤمن والكافر سيأتي عبد، بمعنى المؤمن عبد طائع يتلقى رضوان الله -تبارك وتعالى- والكافر سيأتي وهو عبد ذليل خاضع لرب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- ومن أبى واستكبر أن يسجد لله طواعية فسيخر وسيسجد لله رغم أنفه وسيقف بين يدي رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- ويتمنى أن يعود كي يسجد لله -سبحانه وتعالى- ولكن ولات حين مناص، قد انتهى الأمر ولم ينفعه أن يطلب وقتئذ أن يعود ليسجد وقد فاته ذلك في الدنيا، بعد أن استكبر وأبى أن يذل لله -عز وجل- في هذه الحياة الدنيا، ثم يعقب رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- ويختم هذه الآية بختام يجب أيضاً أن نلفت الأنظار إليه وهو قوله: ﴿وَمَن يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ ويعقب بهذه الآية ﴿وَمَن يُهِنِ﴾ بعد قوله: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ يعني أن من حق عليه العذاب سيذيقه الله -عز وجل- الذل والمهانة، ومن يهنه رب العزة والجلال سبحانه لا ينبغي لأحد بحال من الأحوال أن يتفضل عليه بشيء من السعادة والإكرام ﴿وَمَن يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ وهنا أخاطب الناس جميعاً فأقول: يا أيها البشر، يا أيها الناس إذا كان الكون بكل ما فيه من جمادات لا ثواب لها ولا عقاب عليها ومع هذا تعرف فضل الله -عز وجل- عليها وتسبح بحمده وتسجد له فما بال كثير من الناس يأبون أن يسجدوا لرب العزة والجلال سبحانه، أتكون قلوبنا أيها البشر أشد قسوة من الحجارة التي ذكر رب العزة والجلال عنها أنها تهبط من خشية الله -تبارك وتعالى-؟ أنكون أشد قسوة من هذه الجمادات ومن هذه المخلوقات تسبح بحمد الله وتسجد لرب العزة والجلال وتعرف عظمة الله -عز وجل- فتسجد له وتسبح بحمده ويأبى المخلوق الضعيف الإنسان الذي خلقه ربه من ماء مهين؟ وهذه الآيات قد أتت بعد ذكر خلق الإنسان وأطواره، لتلفت النظر إلى أنه يجب عليك أيها العبد، أيها المسكين يا من خلقت من نطفة أن تقف وتتأمل كيف وجدت ومن الذي أوجدك كي تتصرف إلى العبادة والخضوع والاستكانة لله -سبحانه وتعالى-، وإلا فالأمر كما قال الله: ﴿وَمَن يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.

المحور الثاني: أنواع عذاب أهل النار:

وأدخل في هذا المحور بهذه الآية التي سمعتموها أيضاً وهي قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾ إلى آخر الآيات ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ في الصحيحين أن أبا ذر -رضي الله تعالى عنه-: (كان يقسم أن هذه الآية نزلت في حمزة وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث-رضي الله تعالى عنهم- كما نزلت أيضاً فيمن قابلهم في يوم بدر وهم شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة) نزلت هذه الآية لتبين أن هؤلاء اختصموا في الله -تبارك وتعالى-، وحصلت بينهم مبارزة في غزوة الفرقان في أول غزوة أو لقاء بين أهل الشرك وأهل الإيمان، وقد ذكر بعض المفسرين أن هذه الآية ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ المعنيُّ بهم أهلُ الكتاب والمسلمون لأن أهل الكتاب خاصموا المسلمين في دينهم، وقالوا: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، فنحن أحق أو أولى بالحق منكم، وقال لهم المسلمون: كتابنا يحكم على كتابكم، ونبينا هو خاتم الأنبياء والمرسلين -صلوات الله وسلامه عليه- وهذان هما الخصمان اللذان جاء ذكرهما في هذه الآية.

وقيل هذا مثل ضربه الله -عز وجل- للمؤمن والكافر، وهذا هو الراجح، رجحه ابن جرير وابن كثير وغيرهما من أهل التفسير، هذا مثل ضربه الله لكل مؤمن ولكل كافر؛ لأن الكافرين يريدون أن يطفئوا نور الله -تبارك وتعالى- وأهل الإيمان من المؤمنين يريدون أن يرفعوا كلمة الحق -تبارك وتعالى- ثم عقب رب العزة والجلال سبحانه بذكر كلام يبين مآل أهل النار وما سيكونون عليه فيها - أعاذنا الله وإياكم منها- قال سبحانه بعد أن ذكر ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ قال: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ ﴿قُطِّعَتْ﴾ يعني فُصِّلتْ لهم ثياب من نار، على مقاس كل إنسان له ثياب يلبسها وهذا كقول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٥٠] والسرابيل هي السراويل التي هي القُمُص التي يلبسها الإنسان على مقاسه، أهل النار قطعت لهم ثياب من نار، وهذا كقول الحق -تبارك وتعالى- أيضاً: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١] والغواشي جمع يفيد ماذا؟ أنهم يلتحفون بلحاف من نار - أعاذنا الله وإياكم منها- هذا ثياب أهل النار في جهنم، ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ ثم بعد ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ﴾ هكذا يعلمنا رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- وما الذي يصب؟ يصب عليهم الحميم، والحميم هو الماء المغلي الحار، وهذا كقول الله -تبارك وتعالى-، فيما ذكره في كتابه أيضاً عن عذاب أهل الكفر أنه قال: تنكيلاً لهؤلاء الكافرين ومذلة لهم، وهم يذوقون العذاب الأليم نظير كفرهم بالله -تبارك وتعالى- واستكبارهم عن السجود للحق -تبارك وتعالى- يقول رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- مبينا شيئًا من عذاب هؤلاء الناس: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٨، ٤٩] وهذا فيه من المهانة والمذلة له، هذا أسلوب سخرية وتهكم لهذا الكافر الذي يفعل ذلك، ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ وهو الماء الحار المغلي كما ذكرت، هذا الماء الحار المغلي يكون له أثر عليهم أثره ما جاء ذكره في الآية التالية: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾﴾ ﴿يُصْهَرُ﴾ يعني يذاب، يذاب ما في بطونهم من الأمعاء واللحم والشحم، ومصداق ذلك في قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥] ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ وكون الله -عز وجل- يعطف الجلود على ما في البطون يبين شدة هذا الذي يصب عليهم، وأن تأثيره في الباطن كتأثيره في الظاهر؛ لأنه يؤثر في الباطن، قال: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ ويؤثر أيضاً في الظاهر -أعاذنا الله سبحانه وتعالى منه- وهذه الآيات حينما تأتي ليعقب رب العزة والجلال بها، ويبين مصير أهل النار يعقب بها لأنه ذكر أولاً من آبى واستكبر عن السجود لله -تبارك وتعالى-، وهنا يبين أهمية الرجوع والخضوع والإنابة والمذلة في هذه الحياة الدنيا، لرب العزة والجلال، لماذا؟ لتنجوَ يا عبد الله مما أعده ربك ومولاك من عذاب ونكال وجحيم لهؤلاء الكفار، وبعدُ لم ينتهِ العذاب ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾ ﴿مَّقَامِعُ﴾ جمع مِقمَعة، بكسر الميم الأولى وفتح الثانية، وهي المراد بها في هذه الآية مرازب كبيرة كثيرة في أيدي الملائكة تضرب بها وجوه أهل النار -والعياذ بالله تعالى- لماذا؟ لأن ربنا -سبحانه وتعالى- بعدما قال: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾ عقب عليها بقوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ وهذا الجزء من الآية يبين أن أهل النار يحاولون أن يخرجوا من النار، وقد جاء عن الفضيل بن عياض أنهم لا يستطيعون الخروج ولا يتمكنون من التعرض وإنما إرادة الخروج هنا هي أن لهيب النار -والعياذ بالله تعالى- حينما يلفحهم يدفعهم إلى أعلى فيودون الخروج فيجدون الملائكة تطرقهم بما لديهم، بما في أيديهم من مقامع من حديد، فتردهم بعد ذلك إلى أسفل سافلين في دركات جهنم -والعياذ بالله تبارك وتعالى-.

والله -عز وجل- قد أخبر عن أهل النار في أكثر من آية أنهم يريدون أن يخرجوا من النار، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة: ٣٦، ٣٧] ونعوذ بالله من هذا العذاب الذي أشارت إليه هذه الآيات ونحن حينما نتحدث نحاول أيها الإخوة الكرام أن نربأ بأنفسنا أن نكون مع هؤلاء حتى لا ننال ولا نقع في هذا العذاب والجحيم الذي أعده رب العزة والجلال سبحانه ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ﴾ وهذا يفيد أنهم يعيشون ويكابدون غماً وهماً، وهم في النار ﴿أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ وذوقوا بالفعل، وفي آية سورة السجدة، ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي

كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠] وأفادت سورة السجدة أنهم يهانون بالقول والفعل، ففي آية الحج ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ هذا فعل، وفي آية السجدة ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ﴾ إذن يقال لهم من باب الإهانة لهم، والمذلة لهم، لأنهم أبوا أن يسجدوا لرب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-.

أنتقل بعد ذلك إلى المحور الثالث من محاور هذا اللقاء وهو بعنوان:

المحور الثالث: ما أعده الله -تبارك وتعالى- للمؤمنين في الجنان: ومصداق ذلك في قول الحق -تبارك وتعالى- أو الذي يوضح ما أعده ربنا للمؤمنين في الجنان ما جاء في قول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ...﴾ إلى آخر الآية هذه الآية -كما تلاحظون أيها الإخوة الكرام- جاءت عقب ذكر رب العزة والجلال لمن؟ لأهل النار، وما هم فيه وما عليهم من ثياب، والحميم الذي يصب عليهم وما إلى ذلك، عقب على ذلك بذكر مآل أهل الجنان، وما أعده رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- لأهل الإيمان وهذا يدعونا إلى أن ندخل في صف من؟ وأن نكون مع من؟ وأن نحاول ونحرص على الإيمان والعمل الصالح لأن بالإيمان والعمل الصالح ننال ما أعده الله -تبارك وتعالى-، للمؤمنين في جنات النعيم وبدونهما فالمآل -والعياذ بالله تعالى- كما ذكر أولاً، الله -عز وجل- ذكر في هذه الآية أنه أعد للمؤمنين وأعطف وأؤكد على أن الإيمان يجب أن يقترن معه ماذا؟ ما سبق ذكره، أم نسيتم؟ العمل الصالح، لابد من أن يقوم العمل الصالح وأن تتلبس به أيها المؤمن فلا تكتفي وتقول: الإيمان ما وقر في القلب فقط، أو تنطق بكلمة بلسانك، لا.. لابد أن تطبق جوارحك ما قاله لسانك وما انطوى عليه قلبك.

﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الحقيقة هذه الآية ذكرت أربعة أمور أعدها ربنا -عز وجل- للمؤمنين في الجنة:

الأمر الأول: المسكن، المسكن أين؟ الذين آمنوا وعلموا الصالحات ربنا يدخلهم أين؟ جنات تجري من تحتها الأنهار، ولا شك أن الجنان كثيرة وأن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، من منا تعرض عليه الجنة فيأباها؟ لا يمكن لعاقل أبداً يدعى إلى جنة عرضها السماوات والأرض فيأبى أن يدخل فيها، الله -عز وجل- أعد لكم يا أيها المؤمنون ولذلك نحن ننادي الناس جميعاً أن ادخلوا في دين الله -تبارك وتعالى- ؛ لأننا نحب لهم الخير نناشدهم أن يؤمنوا بكتاب الله وأن يصدقوا برسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وأن يلتزموا بدين الإسلام، الذي كله خير وكله سعادة، ويؤدي إلى الخير وإلى المآل الكريم.

فمسكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ما هو؟ من الذي يقول؟ موجود في الآية، أنا أغششكم على الملأ ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ إذن الأمر الأول الذي أعده الله -عز وجل- للمؤمنين هو المسكن والمسكن عبارة عن جنات تجري من تحتها الأنهار، فيها ماء وفيها أنهار من لبن وفيها أنهار من خمر لذة للشاربين وفيها أنهار من خمر لذة للشاربين وفيها أنهار من عسل كما جاء ذكر ذلك في سورة محمد.

الأمر الثاني: الذي أعده الله -عز وجل- للمؤمنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات: الحلية، قال: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ وهذه الحلية في أيديهم، النبي -عليه الصلاة والسلام- قال: كما في صحيح مسلم: (تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء) المؤمن تبلغ حليته وهو في الجنة حيث يبلغ الوضوء، إذن المؤمن يحلى أم لا يحلى في الجنة؟ يحلى، يحلى بماذا؟ بذهب، وأيضاً يحلى بلؤلؤ وأيضاً يحلى بفضة، كما جاء في سورة الإنسان: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١] إذن سيحلون بالذهب وباللؤلؤ وبالفضة جزاء ماذا؟ جزاء إيمانهم بالرب -تبارك وتعالى-، وتأملوا الآية التي جاءت بعد آية سورة الإنسان لما ذكر ربنا -سبحانه وتعالى- أيضاً لباس أهل الجنة وأنهم يحلون باللؤلؤ، تعرفون ماذا يقال لهم الآية التالية مباشرة: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان: ٢٢] وهذه آية عظيمة للغاية، تعرفون معناها ماذا؟ الله -عز وجل- يريد أن يقول لكم يا أهل الإيمان بأنكم كنتم تشكرون الله -عز

وجل- في الدنيا وتؤمنون به وتخضعون له وتسجدون له، فتتحولون وأبشروا يا أهل الإيمان من شاكرين في الدنيا إلى مشكورين من الله في يوم الدين، ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم﴾ ماذا؟ ﴿مَّشْكُوراً﴾ فالله -عز وجل- يشكركم على ما قدمتموه في الدنيا فإذا شَكرت في الدنيا شُكرت بين يدي رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- وشتان بين الأمرين، أنت عبد ضعيف يجب عليك أن تَعبد إنما حينما تشكر من رب العزة والجلال فهذا أمر عظيم يجب أن يسعى له أيضاً كل مؤمن.

إذن الأمر الثاني الذي تحدثة عن الآية فيما أعده الله لأهل الإيمان: الحلية.

الأمر الثالث: الملبوس، ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ يعني أهل الجنة يتمتعون بالنعيم وبأطيب الثياب، وهنا فائدة يجب أن نتتبه إليها، ولماذا نحن ندعو الناس اليوم إلى الإيمان والعمل الصالح؟ لأن الله -عز وجل- حرم على الرجال في الدنيا أن يلبسوا الذهب والحرير، فمن استجاب منهم وأطاع رب العزة والجلال حلاه الله -عز وجل- بما حرمه عليه في الدنيا، مع الفرق بين الأمرين، ذهب الدنيا وحرير الدنيا، لا وزن ولا قيمة له إذا قيس بنعيم وذهب وحلي الآخرة، لأن النبي -عليه الصلاة والسلام- هو الذي أخبر عن ذلك لما قال: (فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) ونحن نؤمن بخبر رسول الله -صلوات الله وسلامه عليه-.

إذن ما حرمه الله -عز وجل- على أهل الإيمان في الدنيا أحله عليهم في الآخرة، وهذا يدعوك يا عبد الله كما أشرت أن تستجيب لتعاليم الإسلام، أن تستجيب لرب العزة والجلال، أن تسلم لهدي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- تكن بذلك من الفائزين ووالله إن المؤمن المستقيم ليرى في هذه الدنيا النعيم ومع ذلك يتنعم في هذه الدنيا ولكن يتنعم بالطيبات، يتنعم ومع ذلك لا يقرب هذه المحرمات، ولا يقع فيها ويشعر بغاية السعادة ويكون حقاً في غاية الهدوء والسكينة والطمأنينة والاستقرار لماذا؟ لأن الله -عز وجل- أحل له كثيرًا من الطيبات، وما حُرم عليك يا عبد الله ما هو إلا شيء قليل، فما عليك إلا أن تستجيب لرب العزة والجلال سبحانه، تستجيب له، تستجيب لربك -عز وجل- وهو الذي خلقك حتى يتفضل عليك بهذا النعيم المقيم في الدار الآخرة.

الأمر الرابع: الذي أعده ربنا -عز وجل- لأهل الإيمان هو ما جاء في هذه الآية الأخيرة: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ يعني أن الله -سبحانه وتعالى- يوفق أهل الإيمان ويطمئنهم بالبشارات التي تبشرهم بها ملائكة الرحمن بقول طيب، بقول جميل كريم، ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤] ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الواقعة: ٢٥] هذا هو الطيب من القول، وقد اختلف المفسرون في المراد بـ ﴿الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أيضاً فقال بعضهم: بأن ﴿الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ هو شهادة أن لا إله إلا الله، استندوا على ذلك بأن هذه هي الكلمة الطيبة الواردة في قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ [إبراهيم: ٢٤] قالوا: الكلمة الطيبة هنا هي شهادة أن لا إله إلا الله وهي أيضاً هنا شهادة أن لا إله إلا الله، وقيل: القرآن الكريم، الكلمة الطيبة القرآن الكريم، وقيل: الكلمة الطيبة هو ما يتكلمه الإنسان بالحق والخير فيشمل القرآن الكريم ولا إله إلا الله وسائر أنواع الذكر، ولكن ختام الآية أفاد أيضاً شيئاً عظيماً، قال: ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ قال أهل العلم: وهدوا إلى صراط الله الحميد، يعني أنهم هدوا إلى صراط الله -عز وجل-، والحميد من أسماء الله -تبارك وتعالى-.

وفي ذكر الحميد نكتة علمية لطيفة، وهي أنهم ما نالوا ما نالوا إلا بحمد الله -تبارك وتعالى- وفضله، وتفيد أيضاً أنه يجب عليهم أن يحمدوا رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- في الدنيا والآخرة لأنه من حمد في الدنيا سيحمد في الآخرة، وأهل الحمد في الدنيا سيحمدون ربهم أيضاً في الآخرة، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ [الزمر: ٧٤] فأهل الإيمان سيحمدون رب العزة والجلال أيضاً في الدار الآخرة وسيهدون إلى هذا الأمر وما هم فيه من النعيم هو تفضل أيضاً من الحميد -سبحانه وتعالى- الذي تفضل عليهم بذلك.

ونستفيد من هذه الآية، أنه يجب علينا طالما أن الله -عز وجل- هدى أهل الجنة إلى الطيب من القول، فلماذا يا أهل الإيمان لا نهتدي نحن في الدنيا اليوم إلى الطيب من القول؟ لماذا لا نعرف لا إله إلا الله وهي أطيب الكلام وأفضله وأحسنه؟ وإن قيل القرآن فهذا كتاب ربنا بين أيدينا؟ وإن قيل كل قول حسن من ذكر وتسبيح واستغفار فهو واجب أو لازم عليك أيها المؤمن أن تفعله؟ ويجب علينا إذن أن ننتهي عن السيء من القول، الفاحش من القول. القول البذيء ليس من صفات أهل الإيمان، الله -عز وجل- يحلي أهل الإيمان، ويرطب ألسنتهم بذكره -سبحانه وتعالى- وبالقرآن الكريم وبأعلى وأفضل أنواع الذكر ألا وهو قول المؤمن: "لا إلا إلا الله" ويتبعها أيضاً كما تعلمون: "محمد رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم-".

في الحقيقة الإنسان ينشرح حينما يسمع هذه الآية ويعرف مصير أهل الإيمان، ويقبل على رب العزة والجلال أو تكون مثل هذه الآيات مدعاة إلى الإقبال على الرب -تبارك وتعالى-، الإنسان يسأل نفسه لماذا الإيباء والاستكبار؟ لماذا النفور؟ لماذا عدم الطاعة؟ لماذا الخروج على عبادة الرب -تبارك وتعالى-، وأنت يا عبد الله في قبضة الله -عز وجل-؟ أين ستذهب؟ مهما تكن أو يكن من أمرك فمردك ومصيرك إلى ربك -سبحانه وتعالى- فبادر أيها المؤمن وبادروا أيها الناس وادخلوا كما ذكرت في دين الله أفواجاً تنعمون وتسعدون في الدنيا والآخرة؛ لأن من كفر أهانه الله -عز وجل- في الدنيا ﴿وَمَن يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ هؤلاء هم أهل الشقاء، أما من آمن فله النعيم في الدنيا والآخرة، والله -عز وجل- ذكر في هذه الآية شيئًا من نعيم أهل الجنة، كي يقابل به ما ذكره عن أهل النار، الذين قال عنهم في الآية السابقة، ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ...﴾ إلى آخر الآية.

المحور الرابع: الكافرون يصدون عن سبيل الله:

في ذلك يقول الله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ بعد أن بين الله -عز وجل- مآل أهل الإيمان، ومآل الكافرين في النيران ذكر أن الكفار يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام، وهم يظنون أنهم أولياء المسجد الحرام وما كانوا أولياءه، إذن من الأولياء؟ من يقول لي الأولياء مذكورين في القرآن أيضاً؟ ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾[الأنفال: ٣٤] فالمتقون هم أولياء الله -تبارك وتعالى-، وهم الذين يؤمون المسجد الحرام وواقع الأمر أن الكافرين والمشركين يصدون عن سبيل الله -تبارك وتعالى-، وقد ذكر رب العزة والجلال أنهم يصدون كثيرًا خاصة أهل الكتاب لما ناداهم رب العزة والجلال في كتابه: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [آل عمران: ٩٩] يا أيها القوم لم تصدون عن الله، تصدون الناس عن الإيمان بالله -تبارك وتعالى-، لم تصدون عن السبيل، لم تُنفرون الناس من الحق، لماذا إذا كنتم صادقين وتزعمون وتدعون أنكم تتبعون بعض الأنبياء والمرسلين؟ لماذا تصدون إذن عن الله -تبارك وتعالى-، ولا تؤمنون وتصدقون بالنبي الخاتم -صلوات الله وسلامه عليه- وما زال الكافرون إلى اليوم يصدون عن سبيل الله ولكن أين سيذهبون؟ ﴿وَيَأْبَى اللهُ إِلا﴾ ماذا؟ ﴿إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾.

أدخل بعد ذلك في تفصيل يسير حول هذه الآيات وأيضاً شيء من الكلام العلمي:

الله -عز وجل- قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ﴾ يصدون هذا فعل ماذا؟ فعل مضارع، عُطف على الماضي فما وجه ذلك؟ قيل بأن هذا الفعل في هذه الآية لم يرد به فعل الحال أو الاستقبال ولم يقصد به زمان وإنما خرج عن حاله الذي وضع له وأريد به الاستمرار، يعني أن الكافرين يستمرون في صد الناس عن الله -تبارك وتعالى-، وهذا كقول الله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ﴾ [الرعد: ٢٨] العكس، المؤمنين عكس هؤلاء الكافرين، وأيضاً ﴿وَتَطْمَئِنُّ﴾ عطفت على ﴿آمَنُو﴾ فيريد بها الاستمرار يعني أن المؤمن دائماً

مطمئن بذكر الله -تبارك وتعالى-، والكافر دائماً صاد عن سبيل الله -تبارك وتعالى-، وقيل: ﴿يَصُدُّونَ﴾ هنا: خبر جملة خبرية لمبتدأ محذوف تقديره وهم يصدون عن سبيل الله، ويصدون أيضاً عن المسجد الحرام، المسجد الحرام قيل: الحرام نفسه، وقيل: المسجد الحرام كلمة تشمل كل مكة، الذي جعله الله -عز وجل- للناس ﴿ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ معنى العاكف يعني المقيم في مكة والباد القادم من سائر أقطار الدنيا أو من البادية، الله -عز وجل- جعل قصد البيت والتواجد فيه، والخضوع والسجود لله -عز وجل- فيه والطواف بالكعبة وعبادة رب العزة والجلال سبحانه أراد الله -عز وجل- أن يكون ذلك للعاكف يعني للمقيم عند البلد الحرام وكذلك للقادم من خارج البلد الحرام.

والمشركون كانوا يصدون المؤمنين عن سبيل الله وكانوا أيضاً يصدونهم عن المسجد الحرام، وهم اليوم يصدون عن سبيل الله ولكن الله -عز وجل- كما ذكرت وأشرت يأبى إلى أن يتم نوره، ولا يستطيعون أن يصدوا عن المسجد الحرام بفضل الله -تبارك وتعالى- وإن فعلوا شيئًا من ذلك فهي أمور محدودة قد تقع على أفراد مخصوصين أما البيت -بحمد الله وفضله- يؤمه الناس من مشارق الأرض ومغاربها، يسجدون لله هناك ويخضعون لرب العزة والجلال سبحانه.

هنا بحث فقهي ذكره الفقهاء ولولا أن الإمام ابن كثير -رحمه الله تعالى- ذكره وأشار إليه لما تحدثت عنه، وهو موجود في الكتاب، هل دور مكة وأرضها تباع وتورث وتملك أم لا؟ اختلف فيها بعض أهل العلم وقد جرت مناظرة بين الإمام الشافعي -رحمه الله- وبين إسحاق بن راهويه في المسجد والإمام أحمد بن حنبل حاضر وانتصر الشافعي لرأيه لأن معه الدليل، وهي أن بيوت مكة ودور مكة تورث وتُملَّك وتباع ويعني هذا أمر واضح ومعلوم وهو إلى يوم الناس هذا وسيظل -إن شاء الله تبارك وتعالى- الأدلة على ذلك واضحة على ذلك واضحة:

أولاً: منها أن الله -عز وجل- أضاف الدور إلى أهلها فقال: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [الحج: ٤٠] فأضاف الدور إلى أهلها وهذا يدل على أنهم تملكوها وأيضاً لما قال أسامة بن زيد للنبي -صلى الله عليه وسلم- كما في صحيح البخاري ومسلم لما ذهب إلى الحج: (أتنزل في دارك بمكة) أسامة بن زيد يقول هذا للنبي -عليه الصلاة والسلام-: (أتنزل في دارك بمكة؟ فقال له النبي -عليه الصلاة والسلام-: وهل ترك لنا عقيل من رباع) يعني هل ترك لنا عقيل بن أبي طالب من منزل؟ يعني أنه كان قد باعها، فلو لم يكن بيع البيوت جائزاً في مكة لما أقره النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وعمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- اشترى داراً من صفوان بن أمية بأربعة آلاف درهم وجعلها سجناً يؤدب فيها من يشاء.

بعد ذلك الآية ختمت بقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الله -عز وجل- جعل لهذا البيت مكانة عظيمة، وأنا أقول هذا وأخاطب قوماً بعد أيام سيرحل بعض الناس إلى بيت الله الحرام، هذا البيت العظيم له مكانة عند رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- وله خصوصية تختلف عن سائر البقاع، ذكرت في هذه الآية ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لماذا؟ لأن الإنسان لو أراد يعني هَمَّ أن يفعل معصية في أي مكان من بقاع الأرض ثم لم يفعلها كتبت له حسنة، كما جاء الخبر بذلك عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وهذا بخلاف البيت الحرام، تعظيماً لهذا البيت، قال الله ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ ولذلك ربنا -سبحانه وتعالى- عدَّى فعل يرد هنا ويتعدى هنا بنفسه، عداه بالباء في إلحاد، قال العلماء: لأنه ضَمَّن فعل يورد معنى هَمَّ، فيصبح المعنى ومن يَهُمُّ فيه بإلحاد بظلم يعني بمجرد أن تَهُمَّ بشيء من الظلم، والظلم هنا قيل: هو الشرك، وقيل: الكفر، وقيل: سائر أنواع المعاصي والذنوب، وهذا هو الراجح، فكل من هَمَّ بمعصية عند بيت الله الحرام أذاقه رب العزة والجلال من النكال ما أذاقه، ولذلك ورد عن السلف أن الإنسان لو هم أن

يظلم في بلد الله الحرام وهو بعدن أبين، لأذاقه الله من العذاب الأليم لو أراد وهو بعدن كما تعلمون في جنوب الجزيرة العربية، إذا أراد وهو في هذه البلدة، أراد وهم أن يعصي رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- عند بيته لأذاقه الله العذاب الأليم، ولذلك أخاطب الجميع وحجاج بيت الله خاصة أن يوطنوا أنفسهم أن لا يفعلوا انحرافاً عند بيت الله -تبارك وتعالى- فما بالنا إذا كانت نيات بعض الناس أن يذهب ليسرق مثلاً، أو أن يفعل شيئًا من الظلم والكذب والبهتان والزور، أو أن يرفع لواء الباطل أو شيئًا من ألوان المعاصي أو من البدع أو ما إلى ذلك عند بيت الله الحرام فيكون مصيره أليماً وعذابه شديداً عند رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- والله -عز وجل- أهلك جيشاً بأكمله لما أرادوا ولم يفعلوا، لما أرادوا أن يهدموا بيت الله الحرام وذلك في أي سورة؟ في سورة الفيل. أرسل الله عليهم حجارة من سجيل هذه الحجارة معلمة مسومة ترمي كل واحد بعينه فأهلكهم الله -تبارك وتعالى- عن آخرهم، والنبي -صلى الله عليه وسلم- كما في الصحيحين يقول: (يغزو جيش الكعبة حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بأولهم وآخرهم) وهذا تكريم وتعظيم لبيت الله الحرام، ولذلك ناشدت الناس كثيرًا في هذا اللقاء، أناشد المؤمنين أيضاً بالإيمان والعمل الصالح وأن يرجعوا ويتوبوا إلى رب العزة والجلال وأن يسجدوا لله خاضعين طائعين قبل أن يذلوا وهم مكرهين، ثم بعد ذلك من ذهب إلى بيت الله الحرام ومن أقام عند بيت الله الحرام عليه أن يعظم هذا البيت وأن يعرف قدره وأن يعرف أن له فضلاً على غيره، فالبقعة بلد الله الحرام وبيت الله الحرام، التي يؤمه الناس من سائر الآفاق له مكانة عظيمة عند رب العزة والجلال سبحانه، فلنقدر هذه الأمور ولنعد إلى الله -تبارك وتعالى- ولنصدق مع الله -عز وجل- في هذا العوز ولنحقق الإيمان والعمل الصالح الذي ننال به الجنات التي ذكرت فيها ما ذكرت من المسكن والملبس والحرير وما إلى ذلك وأكتفي بهذا وصلِّ الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فضيلة الشيخ وردتنا إجابات عدة على أسئلة الحلقة الماضية.

كان السؤال الأول: قال الله تعالى فيمن يعذبهم من الكافرين: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ...﴾ الآية. مع أن الكفر ليس من عمل اليد؟ فكيف توجون ذلك؟

وكانت الإجابة:

قال تعالى فيمن يعذبهم من الكافرين: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾ مع أن الكفر ليس من عمل اليد وإنما يكون بالقلب واللسان قال أهل العلم: هذا أسلوب عربي معروف وذلك لأن العرب يضيفون الأعمال إلى اليد لأنها الجارحة التي يفعل الإنسان بها معظم الأفعال فغلبت عليه.

إلى جانب أنه يترجم بيده عما قام به في قلبه من كفر وضلال إلى اليد فتكون أعماله غاية في الضلال، ومعظمها تكون بيده لذلك قال الله تعالى له: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ...﴾ الآية، أي يقال له هذا تقريعاً وتوبيخاً، وعبر باليد عن الجملة لأن اليد التي تفعل وتبطش بالجملة وذلك بمعنى هذا كما تقدم في أول سورة البقرة قال الله -عز وجل-: ﴿وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ كقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدخان: ٤٧- ٥٠].

انتهت الإجابة.

في الحقيقة هذه إجابة موفقة جداً وكاتبه جزاه الله خيراً استفاد مما قلت وأيضاً مما لم أقله، إلى جانب أنه ذكر أشياء قلتها ولعله استمع إليها جيداً يعني عبرت عنها بعبارات لم أقرأها في بعض كتب التفسير وهذا يؤكد لي أنه

استمع استماعاً جيداً فجزاه الله خيراً إلى جانب إضافاته أيضاً إضافات قيمة ومعناها صحيح ومدلولها سليم فجزاه الله خير الجزاء.

السؤال الثاني: ما معنى قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ الآية؟ أيد ما تقوله بحديث لرسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-؟

وكانت الإجابة:

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج: ١١] قال مجاهد وقتادة وغيرهما: ﴿عَلَى حَرْفٍ﴾ أي على شك، وقال غيرهم: على طرف منه ومنه حرف الجبل أي طرفه، أي دخل في الدين على طرف فإن وجد ما يحبه استقر وإلا فلا، وهذه الآية خبر عن المنافقين، قال الحسن: هو المنافق يعبد الله بلسانه دون قلبه، وبالجملة فهذا الذي يعبد الله على حرف ليس داخلاً بكليته ويبين هذا بقوله: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ﴾ صحة جسم ورخاء معيشة رضي وأقام على دينه، ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ أي خلاف ذلك مما يختبر به انقلب على وجهه، أي ارتد فرجع إلى وجهه الذي كان عليه من الكفر، ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ وقال البخاري ومسلم وأصحاب السنن من حديث ابن عباس -رضي الله عنه-: (﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ قال: كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاما ونسجت خيله قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء) وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: (كان ناس من الأعراب يأتون النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فيسلمون فإذا رجعوا إلى بلادهم فإن وجدوا عام غيث وعام خصب قالوا: إن ديننا هذا لصالح فتمسكوا به وإن وجدوا عام جدوبة وعام قحط قالوا: ما في ديننا هذا خير فأنزل الله على نبيه هذه الآية).

انتهت الإجابة.

ما شاء الله يعني أنا أرى أنه أولاً ما ترك لي شيئًا ثانيًا: لو كان هناك جوائز للمتسابقين نجمعها ونعطيها إياه. جزاه الله خيراً.

السؤال الثالث: اذكر الوجهين في تفسير قول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ...﴾ الآية. [الحج: ١٥) مع ذكر الراجح منهما؟

كانت الإجابة:

قول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ...﴾ الآية [الحج: ١٥]

القول الأول: في تفسير هذه الآية قول ابن عباس من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً -صلى الله عليه وآله وسلم- في الدنيا والآخرة ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ أي بحبل ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي سماء بيته ثم ليقطع يقول: ثم ليختنق به، وكل ما علاك فهو سماء فسقف البيت يعد سماء بالنسبة إليك، ويرشد إلى ذلك المعنى قول الله -تبارك وتعالى- في المنافقين: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩] ويقول البعض: ما علاقة هذه الآية بنصر الله -عز وجل- لنبيه -صلى الله عليه وسلم؟ والدليل

على ذلك في أن الآية السابقة على ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ ...﴾ الآية [الحج: ١٤] وكذلك قال به قتادة: من كان يظن أن لن ينصر الله نبيه ولا دينه ولا كتابه ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ أي بحبل ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي إلى سماء البيت فليختنق به.

القول الثاني: في تفسير هذه الآية قول مجاهد وعكرمة وعطاء وابن الجوزاء وقتادة وغيرهم وقال عبد الرحمن: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي ليتوصل إلى بلوغ السماء فإن النصر إنما يأتي محمداً -صلى الله عليه وسلم- من السماء، وعن ابن عباس أيضاً أن (الهاء تعود على من، والمعنى من كان يظن أن الله لا ينصره فليختنق فليقتل نفسه إذ لا خير في حياته تخلو من عون الله -تبارك وتعالى-) والنصر على هذا القول الرزق تقول العرب: من ينصرني نصره الله، أي من أعطاني أعطاه الله، ومن ذلك قول العرب: أرض منصورة، أي ممطورة قال الفقعسي:

وإنك لا تعطي أمراً فوق حقه ولا *** تملك الشق الذي الغيث ناصره.

انتهت إجابته.

في الحقيقة إجابة أيضاً طيبة وقد توسع فيها كثيرًا، ولكن لو ذكر في الوجه الأول كيف عاد الخطاب إلى النبي -عليه الصلاة والسلام- أو كيف يكون الخطاب مراداً به النبي -صلى الله عليه وسلم- ولم يسبق له ذكر في آيات سبقت، وأنا قد أشرت إلى ذلك من قبل، قال الله -عز وجل-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُو﴾ والإيمان يشمل الإيمان بالله والإيمان بمن؟ برسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى لا يعترض عليك معترض حينما تذكر هذا الوجه في تفسيرك للآية وجزاك الله خيراً.

الأخ الكريم يقول: أبليتم بلاءً حسناً في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، هل هناك فرق بين الإرادة والمشيئة؟ يعني هل المشيئة مرتبطة بالقدر والإرادة مرتبطة بالقضاء مثلاً؟

السؤال الثاني: ما تعليقكم في الأخذ من تفسير القرطبي كمنهج وحيد ومتاح لدى طالب العلم، يعني هل هناك أشياء يمكن أن يتقيها بحيث لا يقع في مشبوهات قط؟

الأخ الكريم يقول: بالنسبة نحن نتابع معكم في تفسير ابن كثير، لكن أحيانًا نكون بحاجة إلى توسع فكنا نريد من الشيخ أن يشير علينا ببعض التفاسير إذا أردنا أن نتوسع وأن يبين لنا مناهج المفسرين. لأنه كما يعلم فضيلة الشيخ أن كثيراً من مناهج المفسرين على خلاف منهج أهل السنة والجماعة حتى لا نقع فيما لا نعلم. ولو كان هناك نوع من كلام في أصول التفسير نرجو أن يذكر شيئاً من ذلك. وجزاكم الله خيراً.

فضيلة الشيخ الأخ الكريم كان له سؤالان:

سؤاله الأول: ما الفرق بين الإراة والمشيئة؟

في الحقيقة الإرادة والمشيئة بمعنى واحد، يقال: أراد كذا أو شاء كذا والقرآن الكريم عبر عن المشيئة بالإرادة وعن الإرادة بالمشيئة وكلاهما يدخلان في القضاء والقدر، فكل شيء بقدر، أو بمشيئة الله -تبارك وتعالى-، لأن السائل كما سمعته يذكر هل الإرادة أو المشيئة تدخل في القدر؟ نعم تدخل في القدر، فالمشيئة أو الإرادة وكلاهما

بمعنى واحد كما ذكرت، تدخل في القدر وتعني مشيئة الله -عز وجل- الشاملة لكل ما يقع في الكـون، أو إرادة الله -تبارك وتعالى- الشاملة لكل ما يقع في الكون، فلا يقع في الكون ولا يسكن ساكن في الكون ولا تتحرك ذرة في الكون إلا بمشيئة الله -تبارك وتعالى- وإرادته، وأعني بذلك المشيئة الكونية القدرية التي تشمل كل ما يكون في هذا الكون، بخلاف الدينية الشرعية وقد أشرت إليها سابقًا حقيقة أيضاً الدخول في مثل هذه التفـصيلات قـد يطول ويحتاج إلى شيء من الوقت فأقول اختصاراً بأن الإرادة بمعنى المشيئة هكذا جاءت في كتاب الله -عـز وجل- وقد نص على ذلك الإمام الصنعاني وغيره من أئمة أهل العلم.

كان سؤاله الثاني: ما تعليقكم على تفسير القرطبي كمرجع وحيد لطالب العلم؟

في الحقيقة أنا فيما سمعت من الأستاذ الكريم -جزاه الله خيراً- أنه يقول: إنه بادئ في طلب العلم، وتفـسير القرطبي -رحمه الله تعالى- تفسير أيضاً فيه توسع وفيه دقة وفيه كثير من الأحكام الفقهية التي يـصعب علـى المبتدئ أن يتناولها، وبالتالي فأنا أنصحه أن يقتصر بداية على ما يسمع وعلى تفسير الإمام الحافظ ابن كثيـر - رحمه الله تبارك وتعالى- لماذا؟ لأن الإمام الحافظ ابن كثير جمع بين فني الرواية والدراية في التفسير ويفـسر القرآن بأعظم ألوان التفسير ألا وهو تفسير القرآن بالقرآن وتفسير القرآن الكريم بحديث النبي -صلى الله عليـه وسلم- وتفسير القرآن بما ورد عن الصحابة وعلى مقتضى لغة العرب، وهو تفسير يسير على منهج أهل السنة والجماعة.

الإمام القرطبي -رحمه الله تبارك وتعالى- عنده بعض الأمور التي خالف بها في بعض الأماكن أو المواطن بعض أو معتقد أهل السنة والجماعة كما في مسائل أو في شيء من مسائل الأسماء والصفات فيُقتَصَر الآن على تفسير ابن كثير وإن وجدت أنك ترقيت وحاولت أن تستفيد من تفسير القرطبي فعنئذ تكون قد عرفت الـصواب والمنهج الصحيح ثم تستفيد بعد ذلك منه -إن شاء الله تبارك وتعالى-.

فضيلة الشيخ الأخ الكريم كان يريد من فضيلتكم الترشيح لبعض الكتب لمن أراد التوسع في التفاسير؟

هو في الحقيقة إمام المفسرين كما هو معلوم من؟ الإمام ابن جرير الطبري، طيب متى توفي؟ نسأل الـشباب لأننا نحرص على وفيات أهل العلم ودائما كنت أقول هذا أم لا؟ نحرص على أننا نعرف خصوصيات أهل العلم وخاصة أمثال الإمام ابن جرير من المشهورين، هل أحد يعرف أم لا؟ طيب تجيبون أم أقول؟ ثلاثمائة وعشرة، إذن ابن جرير الطبري متقدم وهو إمام المفسرين أو عمدة المفسرين -رحمه الله تبارك تعالى-، أنا أنصح السائل يعني من أجل الوقت أن يلتزم بالتفاسير التي سلكت مسلك أهل السنة والجماعة من ذلك:

تفسير الإمام ابن جرير، تفسير الإمام ابن كثير، تفسير البغوي -رحمه الله تبارك وتعالى-، تفسير جمال الدين القاسمي -رحمه الله تبارك وتعالى-، تفسير الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي -رحمه الله تبارك وتعـالى-، هذه التفاسر اعتنت في الحقيقة عناية جيدة بإبراز منهج أهل السنة والجماعة وكانوا هم على هذه الجادة.

وهو يسأل عن مناهج المفسرين ويتوسع في ذلك، هذا أمر طبعاً لا شك أنه في مثل هذه الحلقات يصعب الآن ولكن أقول بأنه يجب عليك أن تلتزم بكتاب أو بكتب للمفسرين الذين كانوا يسيرون علـى مـنهج أهـل الـسنة والجماعة لأن بعض الفرق وبعض أربابها فسروا القرآن الكريم ولكنهم لووا النصوص على أعناقهم لتتوافق مع مذاهبهم، أما أمثال هذه الكتب فهي كتب على المنهج الحق والصواب الذي يجب أن يحرص عليه الإنسان. والله أعلم.

فضيلة الشيخ الأخ الكريم يقول: ذكر بعض المفسرين أن السجود المذكور في الآية هو الخضوع لله بما يراد منه، فما رأيكم؟

هذا في الحقيقة وارد أيضاً عن كثير من المفسرين والسجود يأتي بمعنى الخضوع ويأتي: سجود على الحقيقة وهو هنا مراد لتفسير النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك يعني النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ذكر أن (الشمس والقمر كلاهما يسجد لله -تبارك وتعالى-)، وكما جاء عن أبي العالية أنه (ما في السماء من شمس ولا قمر ولا نجم إلا يخر لله -تبارك وتعالى- ساجد) والحديث الذي حسنه الألباني -رحمه الله تعالى- وفي سنن الترمذي وابن ماجه وغيرهما وذكر بأنه حسن (أن الشجرة سجدت خلف الذي كان يصلي، وصدق النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ذلك) فما بالنا نصرف هذا الظاهر عن حقيقته المرادة، وكل ذلك حينما نذكره، إنما هو لبيان أن الكون كله يعظم رب العزة والجلال سبحانه بالسجود له، يعظمه لأن هذا يبين أن حق الله على هذه المخلوقات أن تطيعه وأن تخر أو أن تسجد له -سبحانه وتعالى- وهذا في مقابل الذين لم يسجدوا لله من الإنس، وكثير من الناس لم يسجد لله -تبارك وتعالى- الذين قال الله فيهم: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ فالآية تريد أن تبرز أن الكافر يجب عليه أن يسجد سجود طاعة، وسجود فعل؛ لأن هذه المخلوقات الصماء أيضاً تسجد سجود طاعة وسجوداً فعلياً، وهذا هو الراجح، والله أعلم.

فضيلة الشيخ هلا تفضلتم بإلقاء أسئلة هذه المحاضرة

أسئلة سهلة -إن شاء الله-، أنا أعرف أنكم -إن شاء الله- حريصون على طلب العلم.

السؤال الأول: لماذا نص الله تعالى على سجود الشمس والقمر مع أنهما داخلان فيما ذكر أولاً؟

السؤال الثاني: اذكر ما وعد الله به المؤمنين في هذه الآيات؟

السؤال الثالث: عرف الإلحاد؟ وما المراد به في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ...﴾ إلى آخر الآية؟

.

الدرس الرابع

تفسير سورة الحج

فضيلة الشيخ أهلاً ومرحبا بكم

يا أهلاً وسهلاً ومرحباً بكم وبالمشاهدين الكرام وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك الجديد ومع شرح بعض آيات من كتاب الله -تبارك وتعالى- من سورة الحج وهذه الآيات التي ستستمعون إليها بعد قليل -إن شاء الله تبارك وتعالى- سيدور الحديث حولها في محاور متعددة:

المحور الأول: تهيئة البيت الحرام لإبراهيم -عليه السلام-.

المحور الثاني: الحج وبعض فوائده.

المحور الثالث: كونوا حنفاء لله غير مشركين به.

المحور الرابع: تعظيم شعائر الله من تقوى الله.

والآن يتفضل الأستاذ الكريم - جزاه الله خيراً- يقرأ علينا الآيات التي سأتناولها بالشرح والتحليل -إن شاء الله تبارك وتعالى-.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾.

جزاك الله خير

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن نبينا وإمامنا وحبيبنا محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم وسلك سبيلهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين وبعد...

المحور الأول: تهيئة البيت الحرام لإبراهيم -عليه السلام-

هذه الآيات التي استمعنا إليها الآن وُجه الخطاب فيها أولاً للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-وفي ذلك يقول الله له: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ وهذا- في الحقيقة- فيه تقريع وتوبيخ للمشركين الذين عبدوا مع الله -سبحانه وتعالى- غيره عند البقعة الجليلة العظيمة التي شرفها وكرمها رب العزة والجلال - سبحانه- وما كان ينبغي لهم ذلك لأن الحق -تبارك وتعالى- أقام بيته لكي يعبد هناك وحده دون سواه، ولكن- وللأسف الشديد- غير المشركون ذلك وعبدوا هناك - كما سنعلم بعد قليل إن شاء الله تعالى- عبدوا مع الله - سبحانه وتعالى- غيره، ويخبر رب العزة والجلال في هذه الآية أنه بوأ لإبراهيم -عليه السلام- مكان البيت، كلمة «بوأ» بمعنى هيأ، تقول العرب: بوأت له منزلاً يعني: هيأته له ومكنت له فيه، ومن هذا قول الحق -تبارك وتعالى- ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتً﴾ [يونس: ٨٧] والله -عز وجل- قد هيأ الجنة لأهل الإيمان كما ذكر ذلك ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ [العنكبوت: ٥٨] الشاهد أن كلمة بوأ تفيد هيأ المكان ومكن من يريد إنزاله فيه، والله -عز وجل- قد بوأ هنا كما ذكر في كتابه لإبراهيم -عليه السلام- مكان البيت بمعنى أنه هيأه له ويسر له السبيل إليه وأنزله فيه -عليه الصلاة والسلام- وهنا من هذه الآية أو هذا المطلع ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ يستدل من يقول على أن إبراهيم -عليه السلام- هو أول من بنى البيت، وهذه مسألة - في الحقيقة- فيها خلاف كبير، والآية لا تدل على أن إبراهيم - عليه السلام- هو أول من بنى البيت غاية ما تدل عليه الآية أن الله -عز وجل- هيأ مكان البيت وأعلم به إبراهيم -عليه السلام- والخلاف في هذا واسع، البعض يذكر أن الملائكة هم أول من بنى البيت وقيل: آدم -عليه السلام- وقيل: شيث من ولد آدم وغير ذلك وتعجبني كلمة للإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله تبارك وتعالى- قالها في تفسير سورة البقرة عند الآية رقم ١٢٥ وهي تتحدث حول هذا الموضوع، ذكر أن هناك أموراً ذكرها أهل العلم وتوسعوا فيها فيمن أول من بنى البيت ثم ذكر أن هذه الأقوال مستقاه من أهل الكتاب والحق في ذلك ما جاءنا عن الله أو عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- كلمة الإمام الحافظ هنا سأقرأها عليكم لأنها مفيدة للغاية في توضيح منهج أهل السنة والجماعة في مثل هذه المسائل التي يمكن أن يرد فيها خلاف بين أهل العلم، وهي أصل من أصول أهل السنة والجماعة وهي أنهم يسلمون أو يرجعون إلى النصوص الواردة وحسبهم في ذلك ما جاءهم عن الله أو عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- فكلمة الإمام الحافظ ابن كثير هنا تعتبر قانوناً أو تعد قاعدةً من القواعد المهمة التي أحب أن يسمعها إخواني وأن يعملوا بها لأنها مفيدة للغاية يقول - رحمه الله تبارك وتعالى- بعد أن أشار إلى هذه الأقول: «وغالب من يذكر هذا» يعني هذه الأقوال إما البيت بناه الملائكة أو آدم أو شيث أو غير ذلك أو إبراهيم -عليه السلام- قال: « وغالب من يذكر هذا إنما يأخذه من كتب أهل الكتاب وهي مما لا يصدق ولا يكذب ولا يعتمد عليها بمجردها» ثم ختم هذه الكلمة وهذا بيت القصيد الذي أود أن أصل إليها قال: « وأما إذا صح حديث في ذلك فعلى الرأس والعين» هذه كلمة جميلة للغاية يعني: إن صح لنا حديث في مثل هذه المسائل أخذنا به وما عداه لا نلتفت إليه لا تصديقاً ولا تكذيباً طالما أنه لم يأتنا خبر عن الله -تبارك وتعالى- ولكن قد يتساءل البعض يقول: ما الراجح إذن في هذه المسألة؟ هل أن إبراهيم -عليه السلام- هو أول من بنى البيت، مثلاً على أقل تقدير؟ أو أن غيره هو الذي بناه سواءً قلنا بالملائكة أو قلنا آدم أو غير ذلك؟ الراجح - والله أعلم- أن إبراهيم -عليه السلام- هو الذي رفع القواعد من البيت هو وإسماعيل وليس هو أول من بنى البيت -عليه السلام- ومما يدل على ذلك ما جاء في سورة إبراهيم -عليه السلام-: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم:٣٧] إبراهيم -عليه السلام- هاجر بأم إسماعيل وإسماعيل عند البيت الحرام وأرشده الله -تبارك وتعالى- أن يضع زوجه وابنه هناك عند البيت الحرام وهذا قبل أن يقوم إبراهيم وإسماعيل ببناء البيت ورفعه فدلت هذه الآية على أن البيت كان معلوماً من قبل، بل إن هذه الآية فيها إشارة إلى أن البيت كان معلوماً من قبل وكان معروفاً بدليل قول الحق -تبارك وتعالى- في هذه الآية: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ يعني هيأناه له وأعلمناه به وأرشدناه إليه، فإذن البيت كان موجوداً من قبل ذلك ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ ﴿أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئً﴾ هنا على تقدير محذوف دل عليه ما جاء في سورة البقرة، ومعنى الكلام وعهدنا إليه أن لا تشرك بي شيئًا، وهذه الآية الواردة في سورة البقرة، ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: ١٢٥] وأفادت آية البقرة أن إسماعيل -عليه السلام- أيضاً طولب بأن يقوم بما قام به من؟ إبراهيم -عليه

السلام- وأن العهد من الله كان لإبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام- وأول ما عهد الله إليهما في هذه الآية وفي غيرها من الآيات هو عدم الشرك بالحق -تبارك وتعالى- ﴿أن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ وذلك لأن الشرك من أخطر الأمور على الإطلاق وأنه مفسد للدين ومضيع له وأن المشرك لا ينال خيراً ولا جزاءً عند رب العزة والجلال - سبحانه وتعالى- وآثار الشرك عليه - كما سأذكر ذلك بعد قليل في آيات ستأتي - إن شاء الله تعالى- في هذا اللقاء ما يوضح خطورة وضرر الشرك -إن شاء الله تبارك وتعالى- إذن أول أمر عهد الله به إلى إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام- هو عدم الشرك بالحق -تبارك وتعالى- وهذه مسألة مهمة تجعلنا - أيها الإخوة الكرام- ننأى بأنفسنا عن مواطن الشرك بحال، سواءً كان شركاً أكبر أو شركاً أصغر لأن كل منهما يؤدي بالإنسان إلى خطر عظيم، وإن كان الشرك الأكبر هو أخطر الأمور على الإطلاق لأنه لا يغفره الله -تبارك وتعالى- بحال من الأحوال.

الأمر الثاني الذي عهد الله به في هذه الآية إلى إبراهيم -عليه السلام- وإسماعيل في آية البقرة أيضاً وهو متعلق أيضاً بالمقطع الأول ﴿أن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ قوله -تبارك وتعالى-: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج: ٢٦] الطهارة هنا تشتمل على نوعين من الطهارة، هل أحد منكم يمكن أن يذكرهما لي؟ ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ تشتمل على نوعين من أنواع الطهارة؟

أولاً: طهارة المكان. ثانيًا: الطهارة من الشرك.

نعم إذن يمكن أن نقول: طهارة حسية يعني طهارة المكان من الأوساخ والقذر وما إلى ذلك، والطهارة المعنوية من الشرك ومن المعاصي ولذلك قلت لكم ﴿وَطَهِّرْ﴾ في الآية هذه تتعلق أيضاً بالعهد الأول ﴿أن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ إذن أفادت وأوجبت على من يتسلم هذا البيت أن يطهر بيت الله -تبارك وتعالى- يطهره من الأقذار الحسية كما يطهره أيضاً من جميع ألوان الشرك والمعاصي ولذلك لا يجوز - أيها الإخوة الكرام- بحال من الأحوال أن يقترف شيء من ذلك في بيت الله الحرام، إبراهيم -عليه السلام- طولب بذلك، قد يسأل سائل: ومن أين كانت أو أتت الأصنام عند الكعبة؟ ورد أن قبيلة جرهم أتت بالأصنام والأوثان وعبدتها عند بيت الله الحرام، وإن إبراهيم -عليه السلام- قام بتطهير البيت من هذه الأوثان، كما فعل النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- النبي -عليه الصلاة والسلام- طهر البيت أيضاً من الأوثان ومتى كان ذلك؟ متى طهر النبي -صلى الله عليه وسلم- البيت الحرام من الأوثان؟ من يجيب؟

في عام الفتح

في عام الفتح، النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- طهر الكعبة المشرفة مما وضعه المشركون من أصنام عندها وقيل بأنها بلغت أكثر من ثلاثمائة صنم ودخل النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وجد فيها صوراً لإبراهيم وإسماعيل وكانت هذه الصور تفيد أنهما كانا يستقسمان بالأزلام فكسرها نبي الرحمة - صلوات الله وسلامه عليه- وكانت بيده عصاة يضرب بها الصنم في قفاه فيقع على الأرض ويتلو قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١] فالآية لما وجهت هنا لإبراهيم -عليه السلام- ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ نقول أيضاً بأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- مخاطب بهذه الآية وفعل ما فعله إبراهيم -عليه السلام- وطهر بيت الله الحرام مما وضعه المشركون حوله من أوثان وهو في ذلك متبع ملة إبراهيم حنيفاً -عليه السلام- لأن إبراهيم أمر بهذا والنبي -صلى الله عليه وسلم- متبع لملة إبراهيم، كما قال الله له في كتابه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣] وكلاهما كان من أخلص الناس في عبادة رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-.

أيضاً أيها الإخوة الكرام وقفة هنا مهمة عند قول الله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ الله -عز وجل- هنا أضاف البيت إلى نفسه فقال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ هذه الإضافة ماذا تعني؟ تعني التكريم والتشريف، فالبيت أعني بيت الله الحرام

ليس جزءاً من الله –تبارك وتعالى– ولهذا سأذكر مسألة دقيقة عند علماء الاعتقاد آمل أن تتنبهوا إليها، يعني لن أسألكم فيها لأنها مسألة عقدية ليست معنا ولكنها مهمة، قال أهل العلم: ما يضاف إلى الله –تبارك وتعالى– نوعان: إما أن يكون المضاف معاني وإما أن يكون أعياناً، المعاني: هي الصفات، وهي الأشياء التي لا تقوم بنفسها، فإذا أضاف رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– شيئًا من المعاني إلى نفسه أعني من الصفات كان هذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، ويوجب وصف الله –تبارك وتعالى– بما أضافه إلى نفسه، أما إذا أضاف رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– الأعيان وكلمة أعيان تفيد أنها أشياء قائمة بذاتها، منفصلة عن رب العزة والجلال – سبحانه– إذا أضاف الأعيان إلى نفسه تكون هذه الإضافة من باب التكريم والتشريف، ولذلك نحو نقول عن المساجد ماذا؟ بيوت الله فنضيفها إلى رب العزة والجلال وهنا أضاف الكعبة أو بيته إليه فقال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ كما قال: ﴿نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: ١٢] كما أضاف عباد الرحمن إليه ونسأل الله أن نكون منهم فقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] وهذه مسألة دقيقة آمل أن تتنبهوا إليها لأنه – وللأسف الشديد– بعضاً ممن استهواهم الشيطان ظنوا أن الله يحل في خلقه أو بعض من اتخذ لله ولداً قال بأن عيسى –عليه السلام– جزء من الله لأنه من كلمة الله أو نفخ الله فيه أو ما إلى ذلك، وكل هذا كلام باطل، فما أضافه الله –عز وجل– إلى نفسه من الأعيان يكون هذا من باب التكريم والتشريف كما ذكرت.

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ لمن؟ نصت هذه الآية قالت: ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ كلمة هنا ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ جاء بها الله –عز وجل– قبل ﴿وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ وهذه فيها فائدة وهي أن الطواف بالبيت من أخص أوصاف بيت الله الحرام ولا يطاف إلا بكعبة الله –تبارك وتعالى– لا يجوز الطواف بمكان بحال من الأحوال إلا أن يطوف الطائف حول بيت الله الحرام، فما يفعله بعض الناس اليوم من الطواف بأضرحة أو قباب أو أماكن اتخذوها اعتبروها مقدسة أو ما إلى ذلك كل هذا من البدع والضلال الذي انحرف به بعض الناس عن دين الله – تبارك وتعالى– والطواف بالبيت من أخص خصائص بيت الله الحرام ولا يطاف إلا به، والله –عز وجل– أمر إبراهيم –عليه السلام– كما فعل النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– أن يطهر البيت وأن يهيأه لمن يطوف به لمن؟ لله –تبارك وتعالى– قال: ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ كلمة القائمين والركع السجود المراد بها من؟ المصلون لله –تبارك وتعالى– في البيت الحرام، وذكر القائم والراكع والساجد لأن المصلي لا يخلو حاله وهو واقف بين يدي الله –عز وجل– من هذه الحالات الثلاثة، إما أن يكون قائماً وإما أن يكون راكعاً وإما أن يكون ساجداً، إذن الآية التي معنا بينت أن الله –عز وجل– هيأ لإبراهيم –عليه السلام– مكان البيت وأمره أو عهد إليه ألا يشرك به شيئًا وأن يطهر بيت الله الحرام وهذا واجب على المسلمين في كل مكان وزمان، يمكن أن يفعلوا فيه شيئاً تجاه بيت الله الحرام فلا يجوز لإنسان بحال من الأحوال أن يذهب عند بيت الله الحرام ويشرك بالله تعالى أو يأتي بشيء من الوسخ والقذر فيؤذي به بيت الله الحرام كل ذلك لا يجوز، وقد هيأ الله –تبارك وتعالى– حكومة المملكة العربية السعودية – جزاهم الله خيراً– وهم الآن ينافحون ويدافعون في تطوير البيت بما يملكون فمن يذهب إلى هذه الديار يرى مكانة هذا البيت وما يقومون به من تطهير حسي وما يدفعون عنه ما يمكن أن يرد إليه ممن يرد بشيء من البدع أو الخرافات وذلك بتعليم الناس أمور دينهم والوقوف وقفة قوية ضد من يمكن أن يشرك بهذا البيت أو أن يعبد مع الله –تبارك وتعالى– عند هذا البيت شيئًا من مخلوقات الله –تبارك وتعالى– وهذه نعمة يجب أن نشكر الحق –تبارك وتعالى– عليها فما يقدم اليوم من خدمات لبيت الله الحرام أرى التنويه به في مثل هذا الموطن لأننا نشكر من يقوم بهذه الأفعال بعد شكر الله –تبارك وتعالى– كما أننا نذكر أن هذه نعمة من نعم الله –تبارك وتعالى– علينا حينما طهر بيته من ذلك، وهيأ من يقوم بتطهير البيت والحفاظ عليه.

المحور الثاني: الحج وبعض فوائده: وهذا المحور تندرج تحته بعض آيات القرآن الكريم في هذا اللقاء، وأبدأها بقول الحق –تبارك وتعالى–: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ هذه الآيات حقيقة تثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن، ونسأل الله –عز وجل– أن يرزقنا حج بيته الحرام، ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ الخطاب موجه لمن أولاً؟ لإبراهيم –عليه السلام– هو الذي خوطب بذلك

بعدما هيأ الله -عز وجل- له البيت والأذان:هو الإعلام ومنه قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ﴾ [التوبة: ٣] يعني الله -عز وجل- يقول لإبراهيم -عليه السلام- بعد أن هيأ له البيت قم فنادِ بالناس لحج هذا البيت الحرام، وادعهم إليهم وقد جاء أن إبراهيم -عليه السلام- لما أمره ربه -تبارك وتعالى- ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ قال: يا ربي وكيف يُسمعهم صوتي؟ وكيف ينفذهم صوتي؟ فقال الله -تبارك وتعالى- له: عليك النداء وعلينا البلاغ، نادِ وعلينا البلاغ، فقام إبراهيم -عليه السلام- قيل: في مكانه وقيل: رقى على الصفا وقيل: رقى على جبل أبي قبيس ونادى فقال: يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه، وورد أن الجبال تواطأت يعني انخفضت حتى عم هذا النداء أرجاء المعمورة وأسمع من في الأرحام والأصلاب وسمعه كل من لبى نداء الله -تبارك وتعالى- وقصد وحج بيت الله الحرام، إذن ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ يعني قم، نادِ في الناس وأعلمهم بأن الله -تبارك وتعالى- اتخذ بيتاً يرجع الناس إليه ويحجوه، ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ الحج في اللغة: هو القصد وتفيد كثرة التردد والرجوع إلى البيت وهذا حاصل وواقع عند بيت الله الحرام فيكثر المترددون عليه كما سيظهر لنا من هذه الآيات لما قال الله: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ قال بعدها ماذا؟ هناك جواب سيجيب الناس قال: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ الرجال في الآية: جمع راجل والراجل هو الذي يمشي على رجليه يعني يأتيك الناس إما ماشين على أرجلهم وإما على بعير لأنه قال: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ الضامر: هو البعير الضعيف الذي أتعبه السير من كثرة المشي هذا البعير الذي أتعبه السير من كثرة المشي يقال عنه: بعير ضامر يعني مهزول، ﴿يَأْتُوكَ رِجَالٍ﴾ يعني: على الأقدام وأيضاً وعلى البعير ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ يعني: من كل طريق فالفج بمعنى الطريق كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلً﴾ [الأنبياء: ٣١] يعني طرقاً ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ عميق يعني بعيد.

هذا الجزء من الآية ذهب بعض أهل العلم من خلاله إلى أن الحج ماشياً أفضل من الحج راكباً قالوا: لأن الله -تبارك وتعالى- قدم ذكر الماشي على الراكب فقال: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالٍ﴾ والصحيح من أقوال أهل العلم أن الركوب في الحج أفضل؛ لفعل النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وذكر ذلك في هذه الآية ليبين رب العزة والجلال أن هناك من الناس من يأتي هكذا ومن يأتي هكذا ولكن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قد حج راكباً هذا شيء يتعلق بهذه الآية. أيضاً هذه الآية أفادة ودلت على أنه يجب الحج إلى بيت الله الحرام؛ لأن الله قال فيها: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالٍ﴾ وهذا من خلال هذه الآية على أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يأتِ ناسخ يدل على نسخه فما بالنا إن أتى ما يؤكد ما جاء في شرع ما قبلنا من خلال آيات القرآن الكريم فالله -عز وجل- أوجب الحج على هذه الأمة في كتابه كما أوجبه النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في سنته وأجمع أهل العلم على وجوبه بالشروط التي هي معروفة عند أهل الفقه، قال الله في كتابه ﴿وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلً﴾ [آل عمران: ٩٧] والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أكد ذلك، كما في حديث الصحيحين من رواية أبي هريرة رضي الله -تبارك وتعالى- عنه أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: (أيها الناس إن الله فرض عليكم الحج فحجوا، فقام رجل فقال: أفي كل عام هو يا رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-؟ فسكت النبي -عليه الصلاة والسلام- حتى كررها هذا الرجل ثلاث مرات، والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ساكت لم يجبه فلما كررها ثلاث مرات قال النبي -صلى الله عليه وسلم- له: لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعتم ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه) وقد دلت السنة النبوية على فضل الحج ومكانته وهذا ما أذكره لنرغب الراغبين إلى حج بيت الله الحرام ومن لديه قدرة واستطاعة على حج هذا البيت لأن الله فرضه على المؤمن القادر المستطيع ﴿وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلً﴾ [آل عمران: ٩٧].

النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- سئل: (أي الأعمال أفضل؟ قال -صلى الله عليه وآله وسلم-: إيمان بالله ورسوله) هذا الجزء من الحديث يدل - يا إخواني- على أن الأعمال تدخل في الإيمان ما وجه ذلك؟ من يجيب؟ الأعمال تدخل في الإيمان من خلال هذا الجزء من الحديث ما وجه ذلك؟ سئل النبي -عليه الصلاة والسلام- (أي الأعمال أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله) هو سئل عن ماذا؟ عن الأعمال فلما يقول: (إيمان بالله ورسوله) دل

ذلك على أن الإيمان من الأعمال، وإلا لا يكون الجواب صحيحاً، (قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله، قيل: ثم ماذا؟ قال: الحج المبرور) -صلى الله عليه وسلم-، ولذلك أيضاً: (من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه) ويقول -صلى الله عليه وسلم-: (العمرة إلى العمرة والحج إلى الحج كفارة لما بينهما ما لم تغشَ الكبائر) إلى غير ذلك مما بين النبي -صلى الله عليه وسلم- فيه فضل الحج ومكانته. الحج المبرور - أيها الإخوة- يجب أن يكون وأنا أتحدث اليوم ونحن في موسم استعداد للحج فأذكر هذه الفوائد لكي يكون الحج مبروراً أن يكون العبد فيه مخلصاً وجهته لرب العزة والجلال، يعني يقصد بيت الله الحرام لأنه يريد أن يتعرض لوجه الله -تبارك وتعالى- ولغفران الله -عز وجل- ولنفحات رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- وأن يخلص أعماله لله وأن يتبع هدي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في آداء النسك وهذا أمر واجب يتبع النبي -عليه الصلاة والسلام- في آداء النسك؛ لأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- حج بأمته وقال: (خذوا عني مناسككم) والعمل إذا لم يكن على هدي النبي -عليه الصلاة والسلام- لا يكون مقبولاً ولذلك أطالب الحجاج من هذا المكان وكل من يشاهد أو يستمع أن يتعلم ما يجب عليه أن يتعلمه من مناسك الحج، وعلى رأس ذلك أن يتعلم التوحيد وإفراد الحق -تبارك وتعالى- بالعبادة ويخلص عبادته كلها لله -عز وجل-، ثم يعرف كيف كان النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يحج، ما هي طريقته في الحج؟ ما هي هدي النبي -عليه الصلاة والسلام- فيه ليكون حجه حجاً مبروراً؟ وينال ما وعد به النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: (من حج ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه) يعني كأنه طازج، جديد، لم يرتكب ذنباً من قبل وهذا يدل على فضل الحج. ومن أفضال الحج أيضاً ما ذكره ربنا -سبحانه وتعالى- بعد ذلك: ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ وهذه الآية أيضاً تفيد قبل أن أنتقل إلى غيرها، تفيد أن الناس يتطلعون ويتشوقون ويأتون من أرجاء الدنيا لحج بيت الله الحرام؛ لأنه قال: ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ وهذا هو معنى قول الحق -تبارك وتعالى- ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧] وكما قال رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً﴾ [البقرة: ١٢٥] قيل: ﴿مَثَابَةً﴾ يعني يثوب الإنسان إليه يعني: يرجع ويتردد وهذا حاصل وواقع ومشاهد، فاسألوا أي إنسان ذهب إلى بيت الله الحرام ثم هم بالرجوع وهو خارج من بيت الله الحرام وبعدما يتركه يجد الحنين ويجد الشوق إلى أن يرجع مرة أخرى إلى بيت الله الحرام ولذلك صدق الله لما قال: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ لماذا؟ لماذا تشد الرحال، ويستعد الناس والأبرار للوصول إلى بيت الله الحرام؟ قال رب العزة والجلال سبحانه ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ الناس يذهبون إلى الحج ليشهدوا منافع ومنافع جمع ولا مفرد؟ جمع، إذن منافع عظيمة وكبيرة على رأس هذه المنافع منفعة دينية منفعة أخروية ينالها العبد عندما يقف بين يدي رب العزة والجلال وينال من خلالها كرامة وسعادة وتشريفاً أيضاً في الدنيا وهي رضاء الله -تبارك وتعالى- عنه، المنفعة الأولى التي تعود على الحجاج وقاصدي بيت الله الحرام إذا أخلصوا لله وتوسلوا ولجأوا إليه وحجوا على العهدي النبوي ومن مال حلال أن يتعرضوا لرضوان الله -تبارك وتعالى- وأي منفعة أيها الكرام أعلى من رضوان الله -عز وجل- كل مؤمن يسعى إلى أي شيء؟ كل صادق في دينه يسعى إلى أن يرضى الله -تبارك وتعالى- عنه، وتأملوا جمال الآية ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨] تأمل وفكر في كلمة ﴿رَضِيَ﴾ ونزلها في نفسك وتشعر في ذاتك وقرارة نفسك أن الله -سبحانه وتعالى- رضي عنك ما أعظمها من سعادة وما أجملها من كرم وما أجلها من نعمة واللهِ إنها أفضل النعم على الإطلاق وأفضل المنافع على الإطلاق ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ هذه هي المنفعة الأولى منفعة الدين منفعة تعود عليك بما تكون به مقبولاً عند رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-.

وهناك أيها الإخوة الكرام منافع أخرى كثيرة دنيوية أيضاً في الحج وعلمية وغير ذلك ولا بأس أن ينتفع الإنسان بما ينتفع به من رزق حلال أو تجارة مباحة أثناء الحج لا حرج عليك أبداً أن تحج وتقصد بيت الله الحرام متعرضاً أو سائلاً أو طالباً الفضل والعفو من عند الحق -تبارك وتعالى- ثم تتاجر إن أردت ذلك تبيع وتشتري وما إلى ذلك والله -عز وجل- يقول: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] وهنا جمع فقال: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ والحج أيها الكرام مؤتمر عظيم مؤتمر دولي كبير تحضره الملايين وهناك تكون المنافع هناك تكون المنافع تكثر التجارات ويكثر منافع الناس حتى تكثر منافع العلم عند الناس فهناك

لقاءات علمية تدور وهناك كتب تتداول وأشرطة تسمع وهناك تعقد الجلسات التي يعرف فيها المسلمون أحوال بعضهم البعض، يعرفون أخبارهم فيتلاقون وتتلاقى أرواحهم وأفكارهم في مكان واحد لأنهم معاً يعيشون ويقومون وينامون لفترة معينة من الزمان ويجلس بعضهم إلى بعض يتم بينهم التعارف ويتم من خلال الحج اللقاء والتقارب ولو استغل المسلمون هذه المنافع استغلالاً جيداً لسادوا العالم بفضل الله -تبارك وتعالى- ووجدوا تأييداً قوياً عند رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- فاحرصوا عباد الله يا من ترجعون وتحجون وتقصدون بيت الله الحرام احرصوا على منافع الحج وفوائده واشهدوا هذه المنافع وحققوها في أنفسكم تنالوا سعادة الدارين ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ أولاً: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ﴾ هنا ذكر اسم الله -عز وجل- ليفيد أن المسلم دائماً على ذكر لله -تبارك وتعالى- وأن المسلمين لا يفترون عن ذكر اسم الله -عز وجل- وأن الذبائح يذكر عليها اسم الحق -تبارك وتعالى- وتفيد هذه الآية أيضاً أو هذه الكلمة ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ﴾ على أن المسلمين يفعلون ما يفعلون تقرباً إلى الرب -تبارك وتعالى- وليعلوا ذكر الله -عز وجل- ليرتفعوا به ويشعروا الناس به ويعلموا الناس به فهم يذكرون الله -عز وجل- وما يقومون به من مناسك غايتهم في ذلك أن يذكر الله وحده دون سواه، وكان المشركون يذكرون اسم آلهتهم إذا قصدوا بيت الله الحرام فنص رب العزة والجلال على أن المسلمين لا يذكرون إلا اسم الله -تبارك وتعالى- ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ الأيام المعلومات ذكر أهل العلم فيها كلاماً، قال بعضهم وهذا مروي عن عبد الله بن عباس -رضي الله تعالى عنه-: إن الأيام المعلومات هي أيام العشر الأول من ذي الحجة، هذا ورد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- وهو قول وجيه لأن العشر الأول من ذي الحجة من أفضل الأيام عند الرب -تبارك وتعالى- كما في الحديث الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: (أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله -عز وجل- من هذه الأيام العشر، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله يا رسول الله؟ -صلى الله عليه وآله وسلم-، قال: ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجلاً خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشيء) فأفاد هذا الحديث أن هذه الأيام من أفضل الأيام عند الرب -تبارك وتعالى- ويعد بهذا القول هي المقصودة في قول الحق -تبارك وتعالى- ﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾﴾ [الفجر: ١، ٢] وفي هذه الأيام أيضاً أيام فاضلة منها من يذكر لي؟ في الأيام العشر؟ يوم عرفة، الذي أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- لمن صامه أنه قال: (أحتسب عند الله أن يكفر السنة الماضية والسنة الآتية) صيام يوم عرفة أما الحاج فلا يسن له أن يصوم يوم عرفة لأنه متفرغ لأعمال الحج وله في هذا اليوم أعمال يعملها وينال عليها فضلاً كبيراً من رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (خير الدعاء دعاء عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله) وأيضاً في هذه الأيام العشر يوم ماذا؟ وما أيضاً في هذه الأيام العشر؟ اليوم العاشر الذي هو يوم النحر الأكبر، يوم الحج الأكبر لأن معظم أعمال الحج تؤدى فيه ولذلك سمي اليوم العاشر بيوم الحج الأكبر ولهذا قال ابن عباس وغيره إلى أن الأيام المعلومات هي العشر الأول من ذي الحجة لما فيها من فضل ولما يؤدى فيها من كثير من أعمال الحج.

وقيل بأن المراد بالأيام المعلومات هي يوم عرفة وثلاثة أيام بعده، أو يوم الحج الأكبر الذي هو يوم العيد وأيام التشريق والقول بأنها العشر الأول من ذي الحجة لعله أصوب الأقوال لأن أعمال الحج الواجبة تنتهي في يوم العاشر من ذي الحجة، ويفهم من قوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ أن المسلمين عليهم أن يحسبوا ويدرسوا ويعلموا هذه الأيام المعلومات يعني يعرفوها وينتظروها لأنها أيام معلومات، ودائماً الشيء الذي يرغبه الإنسان أو يرغب فيه يحرص على معرفة متى يأتي هذا الشيء وهذا يدل على أنه يجب على المسلمين أن يتحروا هذه الأيام ويتحروا أيضاً الهلال، لإثبات دخول الشهر والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كان له في هذه الأيام أعمال جليلة فقد أخرج أبو داود عنه: (أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يصوم هذه الأيام العشر) يعني: التسع نحن نقول العشر يعني التسع، وصحح هذا الحديث الشيخ الألباني -رحمه الله تعالى- في صحيح سنن أبي داود، ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ بهيمة الأنعام فسرها رب العزة والجلال في كتابه ووضحها لنا في سورة الأنعام وهي ما جاءت في قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ

إن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الإِبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأنعام: ١٤٣، ١٤٤] هذه هي بهيمة الأنعام ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ فكلوا منها: هذا أمر ذهب البعض إلى أن هذا الأمر للوجوب ولهذا أوجبوا على الحاج أن يأكل من البدن التي يذبحها وهذا قول غريب والذي عليه جمهور أهل العلم أن الأكل منها إنما هو للاستحباب وقوله الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَ﴾ للرخصة، والأمر للإباحة، ولذلك قال كثير من أهل العلم بأن هذا كقول الحق –تبارك وتعالى– ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُو﴾ [المائدة: ٢] لأن الله –عز وجل– حرم الصيد على المحرم ثم قال: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُو﴾ هل يجب على كل حاج أو محرم بعمرة إذا حل من إحرامه أن يذهب للصيد، لم يقل بهذا أحد، هو كقول الحق –تبارك وتعالى–: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠] إذن فكلوا منها للاستحباب والنبي –صلى الله عليه وآله وسلم– لما ذبح الهدي وذبح كثيرًا –صلى الله عليه وسلم– بسني عمره ثلاثاً وستين –صلى الله عليه وآله وسلم– أمر بأن يؤخذ من كل بدنة شيء من اللحم فطبخت ثم أكل منها وحسى من مرقها – صلوات الله وسلامه عليه– ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ وهذا فيه من التكافل ودعوة إلى المجتمع المسلم أن يرحم بعضهم بعضاً، وأن ينظر المؤمن إلى أخيه المؤمن وما يحتاج إليه فلما قال الله –عز وجل– ﴿فَكُلُوا مِنْهَ﴾ يا أيها الفاعلون لم يقتصر لم يقتصر الأكل على المنفعة فقط وإنما تعدى ذلك لينال المحتاج ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ البائس هو الذي بلغ من الفقر بؤساً وحالةً شديدة صعبة من الحاجة والاحتياج، والفقير هو المتعفف الذي لا يسأل الناس ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ التفث: هو الوسخ، ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ يعني يزيلوا عنهم ما لحق بهم من متاعب في الحج ومع هذا أنهم يضعون الإحرام، يعني يكفون عنه فيتحلل من ملابس الإحرام يحلق رأسه يستخدم الطيب وما إلى ذلك هذا هو المعنى المقصود في هذه الآية ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ وهذا يشمل أي نذر نذره الإنسان على نفسه، نذر نذرته على نفسك يجب الوفاء به ونص الله –سبحانه وتعالى– عليه هنا ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ ويستفاد من هذه الآية أيضاً أن من دخل في الحج عليه أن يتمه وأن يأتي بأعمال الحج وفاءً لرب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– لأن هذا مما أوجبه الله –سبحانه وتعالى– على العبد ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ يطوفوا بالبيت العتيق: الذي هو ماذا؟ الكعبة، يطوفوا ببيت الله الحرام، يطوفوا به المقصود بالطواف الوارد هنا في هذه الآية ما هو؟ الذي هو طواف ماذا؟ طواف الإفاضة الذي هو ركن من أركان الحج ولا يتم الحج إلا به ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ والبيت العتيق معناه ماذا؟ قيل العتيق: القديم، وقيل العتيق لأن الله –عز وجل– أعتقه من الجبابرة فلن يسلطوا عليه ولن يأتوا إليه، ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ المراد كما ذكرت هو طواف الإفاضة لأن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– لما نزل إلى منى أول شيء فعله النبي –عليه الصلاة والسلام– أنه رمى الجمرة بسبع حصيات ثم نحر بدنه ثم بعد ذلك حلق رأسه ثم نزل فأفاض إلى مكة فطاف ببيت الله الحرام، ووصف الله –عز وجل– للبيت بالقديم والعتيق يفيد كما ذكر ربنا –عز وجل– في آيات آخر في كتابه يفيد بأنه أول بيت وضع للناس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: ٩٦] وهو أول بيت إذن عبد فيه رب العزة والجلال سبحانه وتعالى، والنبي –عليه الصلاة والسلام– لما سئل: أي بيت وضع للناس أول؟ أجاب –صلى الله عليه وسلم– مفيداً: (أن البيت الحرام هو أول بيت وضع للناس، قيل ثم ماذا؟ قال ماذا؟ عندنا الثقافة نريد أن نراها؟

المسجد الأقصى

قيل: كم بينهما؟ قال: أربعون) – صلوات الله وسلامه عليه– كل هذا أفاده قول الحق –تبارك وتعالى– ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ ثم عقب رب العزة والجلال بعد ذلك بقوله: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ ذلك: يعني من يقوم بأداء النسك لله –عز وجل– ويفعل ذلك ويعظم حرمات الله يعني ما حرمه الله – تبارك وتعالى– فيجتنب ما حرم الله –عز وجل– فلا ينتهك الحرام ويكون ارتكاب الحرام كبيراً في نفسه، وهذه نقطة مهمة آمل أن يتنبه لها إخواني، يكون ارتكاب الحرام كبيراً في نفسك يعني عظيماً عليك وهكذا كان سلف هذه الأمة الصالحين، كان الذنب عندهم إذا ارتكبوه كأنه جبل يخافون أن يسقط على رؤوسهم بخلاف من جاء

بعدهم المعاصي والذنوب عنده كذبابة وقفت على أنفه ففعل لها هكذا ثم طارت، أما من يعظم حرمات الله -تبارك وتعالى- فيكون الذنب إذا اقترفه كبيراً عنده وعظيماً في نفسه، وهذا يدعوه إلى أي شيء؟ يدعوه إلى التوبة إلى الإنابة إلى العود إلى الاستغفار إلى التحلل من هذا الذنب وهذا أمر يجب أن يوطن كل مسلم نفسه عليه، أن تكون حرمات الله -عز وجل- عندك كبيرة فلا تعصي الله -تبارك وتعالى- ولذلك صدق من قال: لا تنظر إلى صغر المعصية ولكن انظر إلى عظمة من عصيت. فالله عظيم والله كبير ولا يحب أن تنتهك حرماته فعظموا حرمات الله -عز وجل- وذلك يكون أيها المؤمنون باجتنابها وأن تكون كبيرة في نفسك أن ترتكب معصية تخالف رب العزة والجلال فيها ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ هذا خير لك، منفعته والله تعود إليه.

﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأنْعَامُ إلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ وهذا من فضل الله علينا أن أحل لنا الأنعام وجعل لنا فيها من ال فوائد العظيمة وذكر رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- في أول سورة النحل فوائد هذه الأنعام، هذه الأنعام لها فوائد عظيمة ﴿وَالأنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَّمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾ إلى آخر ما ذكر بنا -سبحانه وتعالى- أحلها ربنا فضلاً منه -عز وجل- ثم استثنى ولم يبين هنا ما استثناه، قال: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأنْعَامُ إلاَّ مَا يُتْلَى﴾ أين ما تلي علينا؟ الراجح من أقوال أهل العلم أن هذا يعود إلى ما جاء في سورة الأنعام في قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥] هذا هو الراجح لأن البعض أحاله أو أعاده إلى سورة المائدة وسورة المائدة نزلت بعد هذه السورة فلا يحال إلى شيء لم ينزل بعد، ما يمكن أن نقوله: إنه بعد نزول سورة المائدة شملها هذا القول.

شيء مهم أود أن أشير إليه جاء في هذه الآية بعدما بين ربنا -عز وجل- أنه أحل لنا بهيمة الأنعام وجه الخطاب إلى المخاطبين جميعاً فقال: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ وهذا هو ختام المحور الثاني الذي أتحدث عنه وختام يجب أن نتنبه له، أمر من رب العزة والجلال أن نجتنب الأوثان، نجتنب عبادة الأوثان نجتنب دعاء غير الله -تبارك وتعالى- والله -عز وجل- قد حرم علينا ذلك، وبين في كتابه أن كل رسول بعث إلى قومه ليحذر من عبادة الطاغوت، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وأثنى الله -عز وجل- على أهل الإيمان فقال: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾﴾ [الزمر: ١٧] وبين لنا ربنا أيضاً في كتابه أن إبراهيم -عليه السلام- دعا ربه وسأله أن يجنبه وبنيه ونحن منهم عبادة الأصنام ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] فنجتنب إذن الرجس من الأوثان وربنا -سبحانه وتعالى- سماها رجساً والرجس هو الشيء المستقذر ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ وعلى رأس الزور الشرك بالله -تبارك وتعالى- والقول الباطل قول الضلال الإفساد في الأرض والسعي في ذلك بالقول والفعل هو في الحقيقة من قول السوء، وعن أبي بكرة -رضي الله عنه- كما في الصحيحين: (أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- سئل عن أكبر الكبائر؟ فقال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين وكان متكئاً فجلس ثم قال: ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت) صلوات الله وسلامه عليه، وهذا يدل على ماذا؟ على عظم قول الزور، وشهادة الزور وحرمة ذلك، عن رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- وهذا يدعو المسلم إلى أن يرتفع وينأى بنفسه عن أن يقول زوراً أو أن يشهد أو أن يقع فيه، فلا يضل ولا يكذب ولايتكلم المنكر ومن الزور أيها الكرام إنكار أو تكذيب بعثة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- هذا من الزور ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾ [الفرقان: ٤] وكل ما يتعلق بالضلال والمنكر والمعاصي من قول الباطل وما إلى ذلك من الزور ومن ذلك ما نص عليه القرآن الكريم قول الرجل لامرأته ويذكر هذا لأنه يقع كثيرا بين الناس وكثيرا ما أسأل عنه يقول الرجل لامرأته: أنتِ علي كظهر أمي وهي في الحقيقة ليست كذلك والله -عز وجل- سمى هذا من قول

الزور فقال: وإنهم ماذا؟ لما قال: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾.

المحور الثالث: كونوا حنفاء لله غير مشركين به:

رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- بعدما ذكر ما ذكر في الآيات السابقة ولا أريد أن أرجع إليها لأربط بينها فحديثي بها قريب بعدما أمر بطاعته وخاصة فيما يتعلق بالحج ومناسكه والذهاب إليه ونهى عن عبادة الأصنام وأمر باجتنابها وقول الزور وشهادة الزور كذلك أمر أو بين ما يجب أن يكون عليه أهل الإيمان فقال: ﴿حُنَفَاءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ يعني كونوا أيها المؤمنون مخلصين لرب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- لا تعبدوا مع الله غيره لأن الحنيف هو الذي مال عن الباطل قصداً إلى الحق وتوجه إلى رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- ثم ضرب رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- مثلاً لمن أشرك به ووقع في الشرك بعدما قال: ﴿حُنَفَاءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ قال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ﴾ ضرب له مثلاً: ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ من أشرك بالله -عز وجل- مثله في الضلال والغواية والوقوع في أسفل سافلين كمثل من هوى من السماء فتخطفته الطير لأن الإنسان لو هوى من مكان عالٍ ستتمزق أوصاله وإذا تمزقت أوصاله وصار قطعاً جاء الطير فأخذ منه كما يحب لأنه لا يملك حراكاً أو دفاعاً أو ما إلى ذلك لأنه أشلاء أو أوصال هذا مثال يضربه الله لهذا المشرك إما أن تخطفه الطير أو يتمزق فتهوي به الريح في مكان سحيق، وما تضمنته هذه الآية جاء له ذكر في آيات أخر كقول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢] وأيضًا ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى- وأنا أذكر هذا لكي أستفيد وتستفيدوا ونحذر من الشرك والمعاصي وما إلى ذلك تأملوا نداء أهل النار حينما ينادون أهل الإيمان وماذا يقول لهم أصحاب الجنان في ذاك الوقت: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأعراف: ٥٠] وربنا -عز وجل- ضرب في سورة الأنعام مثلاً آخر يبين حيرة المشرك وضلاله وهي أن سعيه في وبار ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ [الأنعام: ٧١] هذا هو مثل، هذا أيضاً مثل آخر.

المحور الرابع: تعظيم شعائر الله من تقوى الله -تبارك وتعالى-:

الله -عز وجل- بعدما تكلم عن المناسك والحج وبهيمة الأنعام والبدن وما إلى ذلك، بين أن هذا من شعائر الله -تبارك وتعالى- لأنه نص على أن البدن من شعائر الله كما قال: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ فالبدن من شعائر الله -عز وجل- وما فرض الله -عز وجل- على عباده من صلاة وزكاة وصيام وأمر بمعروف وغير ذلك من ألوان وأنواع البر من شعائر الله -عز وجل-، ومن يعظم شعائر الله -تبارك وتعالى- يكون هذا حاصل نتيجة تقوى القلوب، وهذا يدل على أن التقي هو الذي يخاف رب العزة والجلال ويعرف قدر ربه ومولاه ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ويدخل في تعظيم شعائر الله أول ما يدخل حسب سياق هذه الآية وورودها: البدن كما ذكرت ومن تعظيمها استسمانها واستحسانها يعني الإنسان ينتقي عندما يذبح لله أرقى الأشياء وأعلى الأشياء هذه البدن ذكر ربنا -عز وجل- إلى أن تنتهي فقال: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ يعني هذه البدن لنا فيها منافع إلى أجل مسمى إلى أن يشاء الله بذبحها والمنافع في البدن كما أشرت إلى ذلك كثيرة، ثم محلها: نهايتها إلى أين؟ إلى البيت العتيق، كما قال رب العزة والجلال ﴿هدياً بالغ الكعبة﴾ فنهاية هذا البدن عند بيت الله الحرام وذلك عند الانتهاء من النسك، أو أداء شعائر الحج كما فرض رب العزة والجلال وهذا يبين أو نستفيد من هذه الآية حينما قال ربنا -عز وجل- ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أنه لا يذبح لغير لله -تبارك وتعالى-،

فالذابح يقصد بذبحه وجه الله -تبارك وتعالى-، ويؤي نسكاً لله -عز وجل- هذا ما وفق الله -تبارك وتعالى- إليه في هذا اللقاء، وأسأل الله لي ولكم التوفيق والسداد وأصلي وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الأخ الكريم من مصر يقول: السلام عليكم ورحمه الله وبركاته، بالنسبة لقول الله تعالى: ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ هل ضامر من أضمر الشيء عقد النية مثلاً؟

لا... هو الضامر لأن هذا جاء بعد قوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ يعني راكب على الضامر والضامر في لغة العرب هو البعير المهزول الضعيف كما ذكرت.

طيب بالنسبة من ذبح لله فقد أشرك؟ من المتداول عندنا في العرف أن مثلاً الواحد لما يبني بيتاً أو يشتري عربية يقولون: اذبح لها، فيذبح بدون أي نية، يعني نية مثلاً أن يحصل بركة، هل هذا شرك؟

الأخ الكريم من الإمارات يقول: عندي سؤالان:

السؤال الأول: من يقول: إننا نتقرب إلى الله عن طريق هذا القبر أو هذا الولي هل يسمى مشركاً؟ لأننا عندما نتكلم معه يقول: نحن لسنا مشركين إنما هذه وسائل إلى الله -سبحانه وتعالى-؟

السؤال الثاني: هل إذا قيل إنه مشرك فهو يقول: لا إله إلا الله فإطلاق كلمة مشرك هل لها قيود؟ هل إذا قلنا: إنه مشرك يكون بالمعين ولا يشمل كل من عمل هذا العمل ولو كان جاهلاً بالحكم؟

الأخ الكريم من مصر كان يسأل عن الذبح لغير الله وهي عادة أن الناس الذي اشترى سيارة أو اشترى شقة جديدة يقولون له: اذبح لهذه السيارة؟

لا يجوز بحال من الأحوال الذبح لغير الله -تبارك وتعالى- النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (من ذبح لغير الله فقد أشرك) وأنزل الله على نبيه -صلى الله عليه وآله وسلم-: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر: ١، ٢] أي انحر واذبح لربك -سبحانه وتعالى- فالذبح لا يكون إلا لله، ولعلي فهمت من سؤال السائل أنه إذا اشترى سيارة أو بنى بيتاً ربما يريد أن يشكر الله -عز وجل- مثلاً على ذلك وأن يدعو من يحب لكي يكرمهم على ما تفضل الله به عليه وأنعم به عليه فليكن ذبحه لله -تبارك وتعالى-، لا يقصد غير ذلك بذبحه إن فعل بهذه النية يعني على إكرام إخوانه أو أن نعمة جدت له فدعا إخوانه ليشاركوه فرحته على طعام له إن كان الله -سبحانه وتعالى- قد وسع عليه فيذبح لله ويكرم إخوانه ويقصد بهذا وجه الله -تبارك وتعالى-.

فضيلة الشيخ الأخ الكريم من الإمارات كان له سؤالان:

السؤال الأول: ما حكم التقرب إلى الله -عز وجل- عن طريق القبور؟

أشكر في الحقيقة السائل - جزاه الله خيراً- لأنه تعرض لمسألة مهمة، نحن نعرف القبر وصفته في الإسلام ولا يجوز بحال من الأحوال أن يتوجه العبد بأي عبادة لغير الله -تبارك وتعالى- لا عند قبر ولا عند غيره، وكما تعلمون لما جاء رجل للنبي -عليه الصلاة والسلام- وقال له: (إني نذرت أن أذبح إبلاً ببوانة، فالنبي - صلى الله عليه وسلم- استفسر منه، هل كان هناك عيد من أعياد الجاهلية يقام) لماذا؟ لأنه لو كان هناك عمل من

أعمال الجاهلية أو وثن يعبد للجاهلية فلا يجب أن يوفي هذا العبد بنذره في هذا المكان لأنه لا نذر في معصية الله -تبارك وتعالى- يجب على الإنسان أن يتوجه بكل عبوديته لله -عز وجل- وقد ذكرت أن الذبح عبادة، ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لاَ شَرِيكَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] فلا يجوز للعبد أن يتوجه بهذا لغير الله -تبارك وتعالى-.

وإن كان سؤاله الثاني: هل يسمى مشركاً بعينه من فعل هذا العمل وما هي قيود تشريك المعين؟

في الحقيقة هذه أيضاً من المسائل الدقيقة التي سأل عنها السائل الكريم - جزاه الله خيراً- اعلموا أيها الإخوة أنه يجب أن نفرق بين الفعل والفاعل وهذه مسألة عقية مهمة، يجب أن نفرق بين الفعل والفاعل، فالذبح لغير الله شرك، وفاعله أتوقف عنه إلى أن تتحقق فيه الشروط وتنتفي عنه الموانع، ما معنى ذلك؟ سآخذ دقيقة فقط أو دقيقتين لأهمية المسألة هذه، لو رأيت رجلاً يطوف بغير الكعبة أو يقف أمام قبر ومقبور ويقول له: يا فلان أعطني أو اشفي ولدي أو امرأة تقول: أريد ولداً أو ما إلى ذلك مما يفعله بعض الناس في هذه الأيام، هذا الفعل الذي يفعلونه هو في الحقيقة شرك، فعل شرك، أما الفاعل فلا أطلق عليه أو أصفه أو أوقع لفظ الشرك عليه إلا بعد أن أقيم الحجة عليه، فأعلمه وأبين له أن هذا من فعل المشركين، ومما يدل على ذلك أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لما ذهب إلى غزوة حنين وكان معه بعض من أسلموا حديثاً وطلبوا أن تكون لهم ذات أنواط كما للمشركين يعني شجرة يعلقون عليها أسلحتهم، النبي -عليه الصلاة والسلام- ما قال لهم أنتم مشركون ذكر أن هذا من فعل المشركين قال: الله أكبر إنها السنن قلتم كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] ولم يقل لهم: جددوا إيمانكم لأنكم بهذا مشركون لماذا؟ لأنهم حدثاء عهد الإسلام، لم يعرفوه بعد ولم يتعلموه بعد ومما يمكن أن يكون مناسباً أن أقوله في هذا المقام، ما قاله الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- وقد جاء هذا في المجلد الأول من الدرر السنية على الأجوبة النجدية، أقول هذا لأن بعض الناس يقول بأن أصحاب هذه الدعوة وهي دعوة على منهج أهل السنة والجماعة ولا تتسمى باسم معين إلا باسم أهل السنة والجماعة يكفرون من يفعل ذلك أو يطلقون عليه ألفاظ الشرك، وقد سئل الشيخ رحمه الله تعالى عليه، وقيل له: أنت تكفر الأعراب في البادية وتكفر من لم يذهب معك وتقول بأن من يفعل كذا مشرك. فأجاب - رحمه الله تبارك وتعالى- ما يبين أن الإنسان إذا لم تقم عليه الحجة لا يوصف بأنه مشرك، قال -رحمه الله- أنا لا أفعل ذلك وهذا الكلام موجود في الدر السنية في المجلد الأول ولعله ما بين الصفحة الخمسين والستين وما حولها قال: «أنا لا أكفر الذين يطوفون حول البدوي في مصر ولا حول الجيلاني في العراق وأعذرهم بجهلهم فكيف أكفر من لم يخرج معي ويمشي معي في الطريق» يعني يريد أن يقول: هؤلاء يفعلون أفعال الشرك ولكنه لا يصفهم ولا يكفرهم ولا يطلق عليهم هذا القول لماذا؟ هو يعذرهم بالجهل لأنهم لا يفقهون ولا يعلمون، ففرق إذن بين الفعل والفاعل، الفعل شرك أما الفاعل فلا أنزل الحكم عليه إلا بعد أن أقيم الحجة عليه التي بها يقتنع ويعرف أن هذا من أفعال المشركين، وأعتقد أن هذا الجواب لعله يكون نافعاً -إن شاء الله تعالى-.

فضيلة الشيخ وردتنا إجابات عدة على أسئلة الحلقة الماضية:

وكان السؤال الأول: لماذا نص الله -تبارك وتعالى- على سجود الشمس والقمر مع أنهما داخلان فيما ذكر أو لا؟

وكانت الإجابة:

قال بعض أهل العلم بأنها خصت بالذكر إنما ذكرت على هذا التنصيص لأنها قد عبدت من دون الله فبين أنها تسجد لخالقها وأنها مربوبة مسخرة لله قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا للهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ [فصلت: ٣٧] الآية. انتهت الإجابة.

إجابة سليمة جدًا، وأشار فيها رب العزة والجلال كما أجاب المجيب إلى أن هذه الأشياء نص عليها لأنها عبدت من دون الله، تعرفون أن قوم إبراهيم كانوا يعبدون الكواكب وما إلى ذلك فبين الله أن هذه المخلوقات مربوبة في الله -تبارك وتعالى- فلا تعبد.

السؤال الثاني: اذكر ما وعد الله به المؤمنين في هذه الآيات؟

وكانت الإجابة:

هناك أربعة أمور وعد الله بها المؤمنين في الجنة:

أولاً: المسكن في قوله تعالى: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾.

ثانيًا: الحلية في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾.

ثالثًا: الملبوس في قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾، وهنا فائدة أن ما حرم الله على أهل الإيمان في الدنيا أحله لهم يوم الْقِيَامَةِ.

رابعًا: الطيب من القول في قوله تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾.

الجواب لا شك أنه سليم ومن الآية ونسأل الله -عز وجل- أن يمتعنا جميعاً بهذه الأمور الأربعة.

السؤال الثالث: عرف الإلحاد وما المراد به في قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؟

كانت الإجابة:

المراد بالإلحاد في الآية الهاء هنا عائدة على البيت الحرام ويرد هنا بمعنى هم، أي مجرد النية الجازمة على المعصية في البيت الحرام ولهذا لما هم أصحاب الفيل على تخريب البيت أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول، والراجح أنه هو سائر أنواع المعاصي والذنوب وقيل: لو أن رجلاً أراد فيه بإلحاد بظلم وهو (كلمة غير مفهومة) لأذاقه الله من العذاب الأليم. انتهت الإجابة.

الإجابة لا شك أنها صحيحة ولكن أود أن أضيف إضافة يسيرة هذه الإضافة هي أن هذه الآية مخصصة من قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة) لأبين أن هذا ليس عند بيت الله الحرام (من هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة) إلا من هم بسيئة في بيت الله الحرام، والله أعلم.

الأخ الكريم يقول: ما حكم من يذبح لله وهو يعلم أنه لله ولكن يختار مكاناً مثل الأضرحة أو أماكن لم ينص عليها دليل؟ وما حكم من يذبح عند شرائه للسيارة أو بنائه للمنزل وهو يعلم أنه لله ولكن يلطخ بعد ذلك يده في الدماء ثم يلطخ البيت وغير ذلك؟

في الحقيقة كلاهما ممنوع، أما الذبح عند الأضرحة وما إلى ذلك فهذه ليست لله، هذا مما ذبح على النصب، وهذه من أفعال المشركين وللأسف الشديد من يفعلها لا يفهم ذلك، بل بعض من يفعلها يعني لو كان عنده بعيران أحدهما مات، كان يريد أن يضحي مثلاً بأحدهما والآخر نذره أن يذبحه عند ضريح من الأضرحة إذا مات الذي لله لا يأسف عليه، ولا يحزن، وإذا مات الذي وعد به الأضرحة يحزن ويشتد حزنه وإذا مات الذي للأضرحة وبقي ما لله أخذ ما لله ووضعه عند الضريح وهذه كلها من أفعال المشركين السابقين، ويجب أن يعرف المسلمون أمور دينهم وأن يرضأوا بأنفسهم كما أكرر عن الوقوع في مثل ألوان هذا الشرك الذي حذر ربنا -عز وجل- عنه في كتابه وبينه نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- في سنته، والحديث الذي سبق أن أشرت إليه: (لما جاء رجل للنبي -صلى الله عليه وسلم- وقال: إني نذرت أن أذبح إبلا ببوانة، فالنبي -عليه الصلاة والسلام- سأله واستفصل عنه، هل هناك عيد من أعياد الجاهلية؟ قال: لا، هل هناك وثن أو صنم من أصنام الجاهلية يعبد؟ قال: لا، قال: فأوف بنذرك) فيستفاد من ذلك أنه لا يجوز الذبح عند الأضرحة ولا عند الأصنام والأوثان ولا عند كل ما عبد من دون الله -تبارك وتعالى-.

أما السؤال الثاني: فهذا أيضاً من الضلال، تذبح لله وتلطخ هذا لا يمكن أن تضع يديك فيه، أو تذبحه على عتبة البيت هذا يدل على أنه ليس لله، بعض الناس إذا فتح دكاناً ذبح على عتبة الدكان أو إذا اشترى أو بنى بيتاً جديداً أيضاً ذبح على عتبة البيت، هذا ليستجلب به البركة كما يزعم ويدفع عن نفسه العين أيضاً وهذا كله ليس من الدين في شيء ولا يجوز، العمل يجب أن يكون خالصاً لله -تبارك وتعالى- مبرأ من كل شائبة شرك يمكن أن يقع فيها الإنسان.

الأخت الكريمة من السعودية تقول: هل السجود والركوع المذكور في الآية السادسة والعشرين معناه أن الصلاة كانت موجودة سابقاً؟ أرجو من فضيلة الشيخ أكرمه الله أن يدعو لي بحجة هذا العام؟

نتوجه إلى الله أولاً بما طلبت به ونسأل الله -تبارك وتعالى- أن يرزقنا جميعاً حج بيته الحرام، نسأل الله لنا أن نعود ونزور وأن تتكرر زيارتنا لبيت الله الحرام وهو في الحقيقة أمل يشتاق إليه كل مؤمن، أما عن ما ورد في سؤال السائلة من ذكر الركوع والسجود لا شك أن العبادات كانت مفروضة من قبل على الأنبياء والمرسلين والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كان يتعبد يتحنث لربه في غار حراء ولا نعرف كيفية العبادة التي كان يتعبد بها النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لربه ومن المعلوم أن الصلاة فرضت متى؟ فرضت على النبي -صلى الله عليه وسلم- متى؟

في ليلة الإسراء والمعراج

في ليلة الإسراء والمعراج، ومتى كان الإسراء والمعراج؟ متى كان؟ في أي عام؟ كان في العام العاشر من بعثة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فرضت على النبي -عليه الصلاة والسلام- الصلاة بهيئتها التي نصليها الآن ولكن كان عند الأنبياء السابقين عبادات وشرائع يتعبدون بها رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-.

الأخ الكريم يقول: هل أثر القدم الذي بالمقام هو أثر قدم سيدن ا إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-؟

والله هذه أمور ما عندنا فيها أدلة يعني ليست هناك أدلة على مثل ذلك والله أعلم بهذه الأمور ونحن لسنا متعبدين بمثل ذلك، ولن يسألنا رب العزة والجلال عن هذا وطالما أن السائل - جزاه الله سأل- فأود أيضاً أن

ألفت نظر المستمعين أيضاً والمشاهدين إلى أن مثل هذه المكان الذي فيه قدم إبراهيم -عليه السلام- لا يتمسح به ولا يتبرك به، فنحن مأمورون بأن نطوف بالكعبة ولكن لا نعبدها، نحن نطوف بالكعبة تعبداً واستجابة لأمر الله -تبارك وتعالى-، فبعض الناس تجد يزدحم الطواف جدًا عند هذه البقعة التي فيها أثر قدم إبراهيم -عليه السلام- للبركة والتمسح وكل هذا أيضاً لا يجوز، ونحن كنا نذكر الآن قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ ومن تطهير البيت أن لا يفعل عند بيت الله الحرام شيء من ذلك، فيا حجاج بيت الله الحرام انتبهوا لمثل هذه الأمور ولا تقعوا فيها.

هناك سؤال تكرر يقول: ما الفرق بين قوله تعالى في سورة الحج: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ وقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ فلما اختير في الأولى ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ وفي الثانية ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ وجزاكم الله خيراً؟

في الحقيقة ليس هذا اختياراً جاء هكذا الله -سبحانه وتعالى- لما قال: ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ في الآية التي معنا ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ أشار إلى المصلين كما ذكرت، وقلت بأن المراد بذلك من يقوم يصلي لله لأنه لا يخلو من حالات ثلاث.

آية البقرة أفادت شيء آخر وهي ماذا؟ الاعتكاف، فأفادت أو أضافت أمراً آخر وهو بيان أن البيوت أعني بيوت الله -تبارك وتعالى- يعتكف فيها وأن الأنبياء والمرسلين وعلى رأسهم إبراهيم ومحمد -صلى الله عليه وآله وسلم- عليهم أن يطهروا بيوت الله -عز وجل- للطائفين بها وللعاكفين وللقائمين لله -عز وجل- بالصلاة، والعاكف يصلي لله -تبارك وتعالى- إذا جاء وقت الصلاة ولكن أشير إليه للإشارة إلى أن بيوت الله -عز وجل- أيضاً يعتكف فيها وأن الاعتكاف يكون في المساجد. والله أعلم.

الأخت الكريمة من السودان تقول: هل البيع والشراء يجوز في الحج؟

نعم، البيع والشراء يجوز في الحج بالأمور المباحة وطبعاً ألا يؤثر ذلك على أداء ما فرضه الله أو أوجبه عليك من النسك وقلت: بأن هذا من المنافع الداخلة في قول الله -تبارك وتعالى- ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ وأيضًا نص على ذلك رب العزة والجلال في آيات الحج في سورة البقرة: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] وهذا عام فيما يعود على الإنسان بنفع من تجارة وغيرها طالما أنه في دائرة الحلال وهذا من فضل الله -تبارك وتعالى- ورحمته بعباده.

فضيلة الشيخ الأخت الكريمة من الأردن تقول: كيف نؤول حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (أول مسجد وضع في الأرض المسجد الحرام، ثم المسجد الأقصى وبينهما أربعون سنة، ثم أينما أدركتك الصلاة فصلِّ) متفق عليه صححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع وفي الحديث الآخر: (أن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل الله خلالاً ثلاثة) الحديث أخرجه أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب -رضي الله عنهما- وصححه الحافظ في الفتح والألباني، الرجاء التوضيح حفظكم الله خاصة أن بين سليمان وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام قروناً عدة؟

في الحقيقة المسألة هذه كنت أود أن أتعرض لها لكن ضيق الوقت وأرى بأنها يعني لا تعود بنفع كبير طالما أنني قلت ورجحت أن إبراهيم -عليه السلام- ليس هو أول من بنى البيت فحينما نعلم ذلك إذن لا يرد مثل هذا السؤال، وقيل أيضاً: إن سليمان ليس هو أول من بنى البيت، كلاهما جدد في البيت، القرآن الكريم أشار إلى ذلك في آيات عدة أشرنا إليها ولم أشر إلى بعضها كقول الله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧] يرفع القواعد من البيت إذن القواعد الأصول موجودة ولكنه رفع القواعد فإبراهيم -عليه السلام- هو لم يكن هو أول من بنى البيت وبالتالي لا يوجد هناك -إن شاء الله تعالى- خلاف أو تصادم

بين أن بينهما ما ذكرت من أربعين سنة وأن ما بين إبراهيم وسليمان ما يتجاوز ألف سنة أو أكثر، فإبراهيم -عليه السلام- لم يكن هو أول من بنى بيت الله الحرام وبالتالي وبالتالي لا يرد علينا بفضل الله تعالى هذا الخلاف والله أعلم.

الأخ الكريم من فرنسا يقول: لماذا ذكر الله في هذه الآية اسم الله ولم يطلبهم بذكر اسم آخر من أسمائه؟ هل هذا يعني اسم الله الأعظم؟ أم ماذا؟ وجزاكم الله خير

في الحقيقة اسم الله الأعظم هو لفظ الجلالة المذكور في هذه الآية وقد رجح هذا كثير من أهل العلم وذكروا لذلك أسباباً منها: أن الأسماء كلها ترجع إليه ونحن نقول: الرحمن من أسماء الله، الصبور من أسماء الله، إلى جانب أن ذكر الله -عز وجل- هنا كما أشرت يفيد أن الأعمال يجب أن تكون كلها خالصة لرب العزة والجلال وأن الإنسان إذا عمل عملاً يذكر اسم الله عليه وقد قال أو فعل ذلك أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض ألا هو نوح -عليه السلام- وقال ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: ٤١].

الأخت الكريمة من السعودية تقول: ما هو الأفضل عشر ذي الحجة أو العشر الأخيرة من رمضان؟

أحسنت جزاهما الله خيراً، أيضاً هذا فيه خلاف بين أهل العلم والراجح -إن شاء الله تعالى- ما أشار إليه الإمام الحافظ ابن القيم في زاد المعاد، وهو جمع بين الأقوال فإن البعض قال بأن العشر الأول من ذي الحجة أفضل من العشر الأخيرة من رمضان، والبعض قال: لا العشر الأخيرة من رمضان أفضل، وجمع ابن القيم -رحمه الله تعالى- بين هذين القولين فقال: أيام العشر من ذي الحجة، الأيام ويعني بها النهار، أفضل من أيام العشر الأخير من رمضان، والليالي العشر الأخيرة من رمضان أفضل من الليالي العشر الأول من ذي الحجة، استند إلى ذلك إلى أن في ليل العشر من ليالي العشر الأخيرة من رمضان فيها ليلة خير من ألف شهر، واستند في المقابل إلى أن النهار لما ورد من أحاديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- تبين أن خير الدعاء دعاء عرفة وأكثر ما يعتق الله -عز وجل- رقاب الناس من النار في يوم عرفة وإنما رؤي الشيطان مدحوراً في يوم كيوم عرفة ويوم الحج الأكبر الذي هو يوم العاشر من ذي الحجة وفيها تؤدى معظم أعمال الحج وفيها الطواف بالبيت والذبح والحلق وما إلى ذلك وهذا جمع حسن جمع به ابن القيم -رحمه الله تعالى- الأقوال وأنا في الحقيقة أميل إليه وهي أن ليالي العشر الأخيرة من رمضان أفضل من ليالي العشر الأول من ذي الحجة، وأيام العشر الأول من ذي الحجة أفضل من أيام العشر الأخير من رمضان، والله أعلم، وإذا حصل خلاف في ذلك فلعله مدعاة إلى أن نجتهد في هذا وهذا لنرجو الفضل من الله في كل.

جزاكم الله خيراً فضيلة الشيخ هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه الحلقة؟

السؤال الأول: ما معنى ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ ؟ وهل طهر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- البيت من الأصنام؟ وضح ذلك مستدلاً لما تقول بآية من القرآن الكريم.

السؤال الثاني: ما المراد بالأيام المعلومات؟ ولماذا نص على اسم الله في الآية؟ وما القول الراجح في قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَ﴾؟

السؤال الثالث: قال تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ ما معنى ﴿تَفَثَهُمْ﴾؟ وما هو الطواف المقصود في هذه الآية؟

الدرس الخامس

تفسير سورة الحج

فضيلة الشيخ أهلاً ومرحباً بكم.

أهلا ًوسهلاً بكم وأرحب بكم وبالمشاهدين والحاضرين الكرام، وحياكم الله في هذه الحلقة الجديدة التي سنتناول فيها – إن شاء الله تعالى– بعضاً من آيات القرآن الكريم ومن سورة الحج – إن شاء الله تبارك تعالى– وهذا اللقاء سيدور حول محورين – إن شاء الله تعالى–:

المحور الأول: القصد من التشريعات الربانية، إفراد الله بالوحدانية.

المحور الثاني: الكبير المتعال يدافع عن أهل الإيمان.

هذه هي المحاور التي سأتحدث عنها – إن شاء الله تعالى– في هذا اللقاء بعد أن يتفضل الأستاذ الشيخ – جزاه الله خيراً– فيسمعنا هذه الآيات.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاَةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٣٤– ٤١].

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن نبينا وإمامنا وحبيبنا محمداً عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم وبارك وأنعم على عبدك ورسولك ومصطفاك وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم وسلك سبيلهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين وبعد...

أرحب بكم – أيها الإخوة الكرام– في هذا اللقاء المتجدد والذي يجمعنا كما سمعتم مع آيات من كتاب الله – تبارك وتعالى– نبتدئ فيها بقوله الحق جل ذكره: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ إلى آخر...... ما جاء في هذا السياق القرآني الكريم، وفي هذا الجزء من الآية يخبر رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– أنه جعل لكل أمة من الأمم ضرباً من القربان وإراقة الدماء، وكل ذلك أو الحكمة في ذلك هو ذكر الحق –تبارك وتعالى– ولكن هنا ملحظ يجب أن نقف عنده عند قراءتنا لهذه الآية وتأملها وتدبرها ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ هذا يفيد أن كل أمة كما ذكرت لها منسك وهو ضرب من الذبائح والنحر يقدمونه لله – تبارك وتعالى– ليذكروا اسم الله –عز وجل– عليه، والفائدة التي أرى أن نفهمها من ذلك هي أننا نسارع إلى الخيرات ونتنافس في فعل الطاعات لينظر ربنا –سبحانه وتعالى– أينا أحسن عملاً، طالما أننا نشترك مع سائر الأمم السالفة أو السابقة في هذا الأمر فعلينا نحن أن نجتهد لنكون أسبق من غيرنا والدعوة إلى التنافس في

الخيرات والمسارعة في فعل الصالحات أمر – كما تعلمون– مقرر في شريعة الإسلام، وما كان هذا كله إلا لإقامة ذكر الحق –تبارك وتعالى– جعل هذه المناسك وهي إراقة الدماء كما أشرت وذكرت العلة فيها ﴿لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾، وقد سبق في لقاء سابق أن ذكرت لكم معنى أو المراد من ﴿بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾، فمن يعلمني به الآن مستدلاً عليه بآية من القرآن الكريم، أو إن شئت قلت بآيتين؟ ولا تترددوا، ما المراد ببهيمة الأنعام، وقد سبق أن ذكرتها لكم؟ أفتح عليكم بالجواب وارد ذكرها في سورة الأنعام.

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣].

والآية التالية؟

﴿وَمِنَ الإِبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

هذه هي بهيمة الأنعام التي سبق أن أشرت إليها وقلت بأن ما شرعه الله –عز وجل– لإقامة ذكر الحق –تبارك وتعالى– وأن يذكر اسم الله –عز وجل– وحده دون سواه ولتأكيد هذه الحقيقة ولأنها مقصودة من مثل هذه التشريعات، وقد عنونت لهذا المحور بقولي: القصد من التشريعات الربانية إفراد الله بالوحدانية أقول بأن ذكر الله –عز وجل– مقصود هنا ويؤكد ذلك قول الحق جل ذكره عقب هذا القول الذي ذكرته آنفاً في مطلع هذه الآية: ﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾. إذن لا يذكر اسم الله –عز وجل– لماذا؟ لأنه هو الإله الواحد جل في علاه، تفرد بالوحدانية وتفرد بالألوهية فلا يجوز لأحد مهما كان أن يذبح لغير الله أو أن يتوجه بأي منسك مهما كان لغير الله –تبارك وتعالى– والأنبياء جميعاً جاءوا بهذا التوحيد ألا وهو إفراد الله –عز وجل– بالعبادة، قال الله جل ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥] فدين الأنبياء جميعاً دين واحد في الأصل والأساس قائم إلى الدعوة إلى توحيد الحق –تبارك وتعالى– ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨] جميع الأنبياء إذن اشتركوا في هذه الحقيقة لأن جميع الأنبياء كانت لهم شرائع يتعبدون الله –عز وجل– بها ومهما اختلفت الشرائع وتعددت ونسخ بعضها بعضاً في الديانات السابقة إلا أن الجميع يتفق على مبدأ واحد وعلى أصل واحد ألا وهو إفراد الله –سبحانه وتعالى– بالوحدانية، والتوجه إليه بجميع ألوان العبادة ﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ ولذلك جاء في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة –رضي الله تعالى عنه– أن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– قال: (أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم –صلوات الله وسلامه عليه– ثم يقول: والأنبياء أبناء عَلات، أمهاتهم شتى وأبوهم واحد) هذا حديث عظيم يقرر الأصل في جميع الديانات السماوية التي جاءت من عند الحق –تبارك وتعالى– ألا وهي أنها تشترك في أمر واحد ألا وهو الدعوة إلى توحيد الله –تبارك وتعالى–.

(الأنبياء أبناء علات) ومعنى (أبناء علات) جاء شرحه في الحديث (أمهاتم شتى وأبوهم واحد) وأبناء علات يعني أبناء ضرائر وسميت ضرة لأن المرأة تتضرر كل واحدة منهما بالأخرى فقال: أبناء علات أمهاتهم شتى ولكن الأصل من؟ أبوهم واحد، ويعني بذلك أن أصل الدين وإن تنوعت شرائع الأنبياء والمرسلين أصله واحد، كما جاء من عند الحق –تبارك وتعالى–، فالأنبياء يدعون إلى عبادة الله –سبحانه وتعالى– وحده دون سواه، أبناء علات كما ذكرت أمهاتهم شتى.

الأبناء إذا كانوا من أب وأم واشتركوا معاً في هذا ماذا يسمون؟ من باب الفائدة من يجيب عليه؟ الإخوة لأب يقال لهم: أبناء علات فإن كانوا من أب وأم؟

يقال لهم: أولاد أعيان أو أبناء أعيان، هذه يعني من الفوائد.

﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ وهذا يعني أننا لا نذكر اسماً غير اسم الله -تبارك وتعالى- في أي منسك يقوم به الإنسان، ولا يتوجه العبد بأي لون من ألوان العبادة لغير هذا الإله الواحد -سبحانه وتعالى-، والآية - أيها الإخوة- تشير أيضاً إلى شيء من ذلك لأن الله قال: ﴿لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ فالذي أعطاك وتفضل عليك هو الله -سبحانه وتعالى- الذي ملكك ومنَّ عليك هو رب العزة والجلال - سبحانه- فكيف تترك الخالق الرازق المتفضل الذي أعطاك ثم بعد ذلك وتذهب وتعطي غير الحق -تبارك وتعالى- هذا في العقل لا يجوز فكيف إذا جاء الشرع من عند رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- يحسم هذه القضية ويبين أن الإله الذي يتوجه إليه بالعبادة هو الذي خلق ورزق وأعطى وقدر -سبحانه وتعالى جل في علاه- ولذلك بعدما أمر بإفراده وحده بالعبودية قال: ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ يعني انقادوا لأمره، انقادوا لحكمه استسلموا لما جاء من عنده صدقوا بأنبيائه ورسله، ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ طالما أنه الإله المدبر الخالق الرازق فما يأتيك من قبله يجب أن تنقاد له وأن تخضع له وأن تذل لأوامره ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ ختام جميل لهذه الآية ﴿الْمُخْبِتِينَ﴾ قيل: هم الطائعون الخائفون الوجلون من رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- وورد عن عمرو بن أوس -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: هم الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لا ينتصروا، يعني ظاهر ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ أنهم الخاضعين الخاشعين القانتين وقيل: هم الذين لا يظلمون وإذا وقع عليهم ظلم من غيرهم لا ينصرفون لكي يأخذوا ثأرهم ممن ظلمهم وإنما يصبرون على من ظلمهم فلا يأخذون حقهم منه.

الحافظ الإمام ابن كثير رحمه الله -تبارك وتعالى- هنا ذكر كلمة جميلة أحب أن أقيدها هنا لأنها تنفع كقاعدة أيضاً من قواعد التفسير قال: «أحسن ما يفسر به القرآن الكريم أن يفسر القرآن بالقرآن وعندما نأتي لنطبق هذه القاعدة على هذه الآية قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ قال نفسرها بما جاء بعدها، فما هي الصفات التي جاءت هنا بعد ذلك، بعد أن قال الله ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾؟ قال: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني: خافت قلوبهم ورجعوا وأنابوا وخشعوا إلى رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- ووجل القلب. والخوف من الله -سبحانه وتعالى- من أجل صفات عباد الرحمن بل هي من صفات المؤمنين حقاً برب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- كما ذكر ربنا ذلك في مطلع سورة الأنفال ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢] إلى آخر هذه الآيات والسياق فيها يطول ولكن الله بعد آية أو آيتين قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٤] فالمؤمنون حقاً وصدقاً هم الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم كما ذكر ربنا -عز وجل- هنا في هذه الآية، والوجل: هو الخوف والخضوع كما ذكرت وهي صفة جليلة لأهل الإيمان والله -عز وجل- قد وعد من خاف منه بوعود عظيمة جليلة منها ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى- : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦] وكقوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] وبالتالي أرى نفسي مندفعاً إلى أن أناقش مناقشة هادئة يسيرة لمن ذهبوا إلى أنهم يعبدون الله -تبارك وتعالى- لغير قصد ولا غير غرض وأنهم يحبون الله ويعبدونه لأنه أهل لأن يحب وأهل لأن يعبد دون خوف من ناره ودون طمع في جنته، ذهب بعض الناس - وللأسف الشديد- إلى ذلك، قالوا: نحن لو قلنا بأننا نعبد الله لأننا نخاف من ناره ونطمع في جنته معنى ذلك أننا نكون قد عبدنا الله لغرض ونفع يعود علينا، وقالوا: نحن ننزه أنفسنا عن ذلك فنحن نعبد الله ونحبه لأنه أهل لأن يعبد وأهل لأن يحب -تبارك وتعالى- وهذا في الحقيقة قول غير سديد، لأن الخوف من الله وحب الله - تبارك وتعالى- والرجاء والطمع فيما عند الله -عز وجل- من صفات أهل الإيمان التي وصف الله -عز وجل- بها حتى أنبياء الله ورسله: ماذا قال الله عن زكريا -عليه السلام- لما طلب منه الولد ووعده الله به؟ قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] فلا يضر بحال من الأحوال أن يكون الله - عز وجل- أهلاً لأن يعبد وأهلاً لأن يُحمد وأهلاً لأن يُحب لما هو عليه من صفات الجلال والكمال - جل في علاه- ومع ذلك تعبده وأنت واجل أو خائف منه -تبارك وتعالى-، تعبده وأنت تطمع فيما عند الله -تبارك وتعالى- لأنك إذا خفت من الله ورجوت فيما عند الله -تبارك وتعالى- تكون بذلك كالطائر الذي يطير بجناحين ليقصد أو ليحقق هدفاً معيناً والطائر إذا طار بجناحين يصل إلى مبتغاه في الغالب إذا بذل وسعه وما يحتاج إليه في ذلك والعبد إذا اتخذ الخوف والرجاء وسار بينهما كجناحي الطائر هذا يؤدي به إلى الوصول إلى رب العزة

والجلال -سبحانه وتعالى- لأن الخوف من الله يعصمه ويكون سداً منيعاً عن الوقوع في معصية الله -تبارك وتعالى- لأنه يخاف من عذاب الله -عز وجل- وحينما يطمع المؤمن فيما عند الحق -تبارك وتعالى- ويرجو رحمته هذا يحفزه في ألا ييأس من رحمة الله -تبارك وتعالى- إذا ارتكب معصية أو وقع في خطيئة، إذن من يقول بأنه يعبد الله ولا يخاف منه ولا يطمع في جنته مخالف لمنهج القرآن الكريم ولدعوة الأنبياء والمرسلين ولما كان عليه أولياء الله وعباد الله الصالحين وعلى رأسهم أنبياء الحق -تبارك وتعالى- كما ذكرت أدلة ذلك من القرآن الكريم.

أيضاً أود أن أشير هنا إلى مسألة أخرى، قال الله في هذه الآية: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ وقلت بأن المراد بالمخبتين هنا الذين يخافون الله -تبارك وتعالى- ويتواضعون وينيبون لله -عز وجل- هل هذا الخوف من الله إذا ذكروا ربهم -سبحانه وتعالى- يتعارض مع قول الله- جل ذكره-: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨] هل هناك تعارض بين ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ الخائفين، وإذا ذكر الله -عز وجل- خافوا، وبين من ذكرهم الله -عز وجل- بأنهم إذا ذكروه اطمأنوا؟ نقول: ليس بين ذلك تعارض بأي حال من الأحوال لماذا؟ لأن هذا يكون في جانب وهذا يكون في جانب آخر وكلاهما يحتاج إليه المؤمن كما أشرت سابقًا، فالمؤمن يخاف من الله -تبارك وتعالى- لماذا؟ لأنه يخشى عذاب الله -عز وجل- يخشى ألا يتقبل الله -عز وجل- منه، يخشى أن يتغير ويتبدل حاله والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كان كثيرًا ما يدعو ربه: (يا مثبت القلوب ثبت قلبي على دينك) وفي رواية (ثبت قلبي على طاعتك) فأم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها- سألته كثيرًا: (ما تذكره ذلك يا رسول الله) فماذا قال -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: (يا عائشة إن قلوب العباد بين أصبعين بين أصابع الرحمن -تبارك وتعالى-، فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ)، فالمؤمن يخشى أن يزيغ عن الحق الذي هداه الله -تبارك وتعالى- إليه ثم هو أيضاً مطمئن بذكر الله -تبارك وتعالى- وذلك لأن صدره ينشرح بذكر الله -تبارك وتعالى-، ينشرح بطاعة الله -عز وجل- فلما يطيع الله -تبارك وتعالى- ينشرح صدره وتطمئن نفسه ويسكن إلى ما وعد الله -تبارك وتعالى- به أهل الإيمان الذين استجابوا لله وللرسول- صلوات الله وسلامه عليه-.

﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ من هم يا رب؟ وصفهم ربنا -سبحانه وتعالى- في هذه الآيات فقال: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية التالية أو الوصف التالي: ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾ أهل الإيمان الذين تواضعوا وأخبتوا واستكانوا لرب العزة والجلال يتصفون أيضاً بصفة الصبر والصبر منقبة جليلة عظيمة لأهل الإيمان والله -سبحانه وتعالى- في كتابه بشر الصابرين ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦] كما أن الله -عز وجل- يعطي الصابرين أجرهم بغير حساب، فالإنسان يحاسب على أعماله في كثير من العبادات التي يؤديها لرب العزة والجلال، وله عليها جزاء مقرر يعطيه رب العزة والجلال له، أما الصبر فقال الله عن أهله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] والصبر له فروع ثلاثة كما هو معلوم عند طلبة العلم:

- أن تصبر على طاعة الله -تبارك وتعالى-، يعني تذم النفس على الطاعة.

- وأن تصبر على أقدار الله -تبارك وتعالى-.

- وأن تصبر عن معاصي الحق -تبارك وتعالى- فلا تقترف ما حرم الله جل ذكره. تصبر على طاعة الله لأن سلوك الطريق إلى الله -عز وجل- يحتاج إلى مشقة وصبر، قيام ليل، خضوع وخشوع، تلاوة، وذكر، صوم، وتسبيح، جهاد وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وما إلى ذلك... وكل هذه الأمور تحتاج من الإنسان أن يدفع نفسه وأن يذمها لله -تبارك وتعالى- ويصبرها على طاعة الله -عز وجل- أيضاً لا شك أن العبد يبتلى بأقدار الله -تبارك وتعالى-، فالدنيا ما فيها ما يفرح الإنسان وما يحزنه، ولابد فيها من بسمة ودمعة، يأتي هذا

للإنسان والإنسان والله -عز وجل- قال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] فلابد أن يمتحن الإنسان ويبتلى الإنسان بأقدار الله -عز وجل- التي قد لا يرضى الإنسان عن شيء منها، فما عليك إلا أن يتذرع بالصبر يواجه به ما ينزل ويقدر الله -سبحانه وتعالى-.

أيضاً يصبر الإنسان عن اقتراف المعاصي والآثام فيحبس نفسه لأن شهوات الدنيا كثيرة والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في الحديث الصحيح يقول: (حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات) فدواعي الشهوات تأتي إلى الإنسان من أماكن كثيرة ومتفاوتة، ومتفاوتة جداً والإنسان في ذلك يحتاج إلى أن يتذرع بالصبر ليقف أيضاً أمام هذه السيئات أو الموبقات أو المحرمات فلا يقترفها ويدعها ويتركها لله -تبارك وتعالى- يصبر فلا يقع في معصية الله -عز وجل-.

فإذن من صفات هؤلاء المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم أنهم يصبرون ويتصفون بالصبر لله -تبارك وتعالى- ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاَةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، وكلاهما صفتان جميلتان جليلتان، ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلاَةِ﴾ والإشارة هنا بإقامة الصلاة يعني أن الإنسان يقيمها لله -تبارك وتعالى- كما أرادها الله -عز وجل- وكما شرعها وبينها لنا نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- كما أن على الإنسان أن يحسن قيام الصلاة لله -تبارك وتعالى-، يحسن الركوع يحسن السجود يحسن القيام يحسن الذكر يحسن حضور النفس لله -تبارك وتعالى- في الصلاة، ثم بعد ذلك هو يعطي مما أعطاه الله -تبارك وتعالى- ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ يعني أنهم يؤدون حق المال الذي أوجبه الله -سبحانه وتعالى- عليهم، وهذا واجب على الإنسان أن يؤدي هذه العبادات لرب العزة والجلال -سبحانه- ونص الله هنا على الصلاة وإخراج المال ويعني بها الزكاة لأنها فرائض، الإنسان ربما يشح عنها يعني قد يكسل عن شيء من الصلاة وإذا أعطاه الله المال قد لا ينفق هذا المال في سبيل الله -تبارك وتعالى- ويصاب بشيء من الشح فذكرت هذه الآية إقامة الصلاة كما ذكرت الإنفاق في سبيل الحق -تبارك وتعالى- لكي يندفع الناس إلى القيام بالشعائر كلها لله -عز وجل- ويحرصوا على ما ذكره رب العزة والجلال لأن النفس قد لا تنصاع بسهولة لإقامة الصلاة وإخراج حق الله من المال كما ذكر ذلك رب العزة والجلال في كتابه وأشار إليه ربنا -سبحانه وتعالى- في أكثر من موضع.

بعد ذلك يقول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللهِ﴾ الله -عز وجل- يمتن على هذه الأمة في هذه الآية فيذكر أن الهدي جعلها لهم من شعائر الله -تبارك وتعالى- والله -عز وجل- أمر أن تؤدى شعائر الحق -تبارك وتعالى- وأن تعظم كما أشرت إلى ذلك في اللقاء السابق، ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢] والهدي أو البدن هنا المذكور في هذه الآية هو من شعائر الله -تبارك وتعالى-، والله -سبحانه وتعالى- عظمها وأكثر من ذكرها في كتابه، ومن ذلك قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلاَئِدَ﴾ [المائدة: ٢] فإذن رب العزة والجلال يعظم ذلك وهذا يدعونا - أيها المؤمنون- إلى أي شيء؟ إلى أن نعظم ما عظمه رب العزة والجلال - سبحانه وتعالى- وأن نقوم لله -عز وجل- به والله -سبحانه وتعالى- وعدنا خيراً عميماً عظيماً على ذلك.

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ والعاقل يقبل على شيء شهد الله -عز وجل- بأن فيه خيراً له، العاقل يتفكر وينظر في هذه الآية لينظر أن الله شهد بأن هذه البدن وما تقدمه لله -تبارك وتعالى- يا عبد الله لك فيه خير هذا يجعلك ماذا؟ تقبل عليك أم تنصرف؟ تقبل عليها لله -تبارك وتعالى-، ثم بعد ذلك يبين أيضاً رب العزة والجلال - سبحانه- أنه ما شرع هذه الشرائع وما كانت هذه الشعائر إلا لإقامة ذكر الله -تبارك وتعالى-، فبعدما قال: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ كرر ذكر اسم الله -تبارك وتعالى-: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ وهذا يدعوك - أيها المؤمن- إلى أن تعيش مع الله -تبارك وتعالى- وأن تكون دائماً ذاكراً لله -عز وجل- وألا تذبح ذبحاً إلا وتذكر اسم الله -سبحانه وتعالى- عليه ولا تذكر اسماً غير اسم الله -تبارك وتعالى-، ومعنى صواف في هذه الآية يعني بها الإبل لأن الإبل تنحر بطريقة معينة تختلف عن

الطرائق الأخرى التي تذبح بها كافة الحيوانات فهي تعقل قائمة واقفة على ثلاث معقولة رجلها اليسرى وهذا معنى صواف، وفي الصحيحين أن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-: (مر على رجل قد أناخ بدنته يذبحه) يعني: وضعها على الأرض يذبحها، فقال له ابن عمر -رضي الله تعالى عنه- قال: (أقمها على ثلاث معقولة رجلها اليسرى سنة أبي القاسم -صلى الله عليه وآله وسلم-) يعني: أرشده إلى أن يذبح هذه البدنة وهي قائمة على ثلاث معقولة رجلها اليسرى وهذه هي سنة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وقرئ ﴿صَوَافِيَ﴾ وقال العلماء: صوافي يعني: خالصة لله -تبارك وتعالى- ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾.

هذا بالنسبة للطريقة التي أشار الحق -تبارك وتعالى- إليها، ثم قال بعد ذلك: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ يعني: ماتت وانتهت حركتها وسقطت على الأرض وجب عندئذ أن نبدأ في إنهائها وإعدادها لتناولها والأكل منها، وهذا من رحمة الله -تبارك وتعالى-، ومن رحمة الإسلام بهذه الأنعام التي نذبحها لله -تبارك وتعالى-، وهي أنه لا يجوز لنا بحال بمجرد أن نذبح شيئًا من هذه الأنعام أن نبدأ في سلخها أو أن نقطع شيئًا من لحمها كي نأكله هكذا، لا، بل لابد أن تنتهي حركتها وأن تموت تماماً وأن تسقط على الأرض ثم بعد ذلك يبدأ الإنسان في أخذ حاجته منها بالطريقة المعروفة المعهودة.

وهنا أود أن أشير إلى سماحة الإسلام ويسره وإلى أنه كيف يعتني حتى بالحيوان، وأوجه الخطاب إلى من يرفعون الصوت في هذه الأزمان وأنهم هم الذين يدافعون عن حقوق الحيوان، أين هؤلاء قبل أربعة عشر قرناً من الزمان؟ حينما نزل القرآن على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يأمره بهذا الأمر ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا﴾ يعني أنك لا تأكل منها إلا بعد أن تصير على هذه الحالة وأين هؤلاء وهؤلاء من قول النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء) الإسلام دين سماحة ويسر لا يعرف سفك الدماء ولا قتل الأبرياء وإنما يقيم دين الله -عز وجل- بالحق والعدل وهو رحيم بخلق الله -تبارك وتعالى- ليس مع بني البشر فقط، وإنما حتى مع الحيوان ومع البهائم التي لا تعقل، هذا هو النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يقرر في سنتته يقرر الرفق بالحيوان ويدعو إلى هذا الرفق (فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة)، ولا يخفى عليكم أيها الحاضرون والمشاهدون خبر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- الذي أخبر به بأن (امرأة دخلت النار في هرة حبستها لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض)، كما (أن بغياً من بغايا بني إسرائيل غفر الله لها لأنها سقت كلباً شربة ماء) أي رحمة أكثر من هذه الرحمة وأي عدل بعد هذا العدل وأي سماحة بعد هذه السماحة التي بعث بها محمد بن عبد الله -صلوات الله وسلامه عليه-.

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ يعني أننا لا نأكل منها إلا إذا سقطت على الأرض وإذا ماتت وأصبحت لا تتحرك بدأنا بعد ذلك بأخذ بغيتنا منها بالأكل والتصدق بعد ذلك على القانع والمعتر، والقانع والمعتر ورد فيهما أقوال كثيرة، قيل: القانع المستغني وهو جالس في بيته بما عنده ولا يسأل الناس. والمعتر: هو الذي يسأل الناس، وقيل: القانع هو المتعفف والمعتر: هو الذي يعتريك يعني يتعرض لك ولا يسألك وقيل عكس ذلك، قيل: القانع هو السائل والمعتر: هو الذي يتعرض لك فقط ولا يسأل، وقد رجح الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله تبارك وتعالى- أن القانع هو الذي يتعرض للسؤال ويسأل وأن المعتر هو الذي يعتريك ويتعرض لك ولا يسألك، والمسألة في هذا الأمر سهلة والأقوال فيها متقاربة ولو سئلت عن شيء من ذلك فيكفيك أن تذكر واحداً مما ذكرت الآن.

بعد ذلك ونحن نتكلم عن ذبح الهدي والأضاحي أرى أن أتعرض لمسألة قبل أن أنتقل للآية التالية، لأننا نتحدث عن البدن والذبح لله -تبارك وتعالى-، متى تذبح الأضحية لله -عز وجل-؟ تذبح بعد صلاة العيد من يوم النحر، هذه هي سنة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- سنة النبي -عليه الصلاة والسلام- أن نذبح الأضاحي بعد صلاة العيد من يوم النحر وقد صح في ذلك الحديث الذي رواه البراء بن عازب -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: (إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي ثم نرجع فننحر، فمن فعل

ذلك فقد أصاب سنتنا ومن ذبح قبل ذلك فإنما هو لحم قدمه لأهله) يعني الذي يذبح قبل الصلاة لحم قدمه لأهله أما إذا صلى العبد عليه أن يذهب بعد ذلك فيذبح الهدي الذي سنه له رسول الله -صلوات الله وسلامه عليه-.

هذه البدن الذي جعلها الله -سبحانه وتعالى- لنا، وامتن بها علينا يقول لنا عنها ربنا في كتابه: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ سخرناها يعني ماذا؟ يعني ذللناها لكم، جعلناها منقادة لكم، ويا إخواني هذه مسألة واضحة جداً ولكننا أحياناً مع إلفنا للأشياء تغيب عنا بعض الأمور هذا الحيوان، هذا البعير أضخم منك وأقوى منك وأكثر وزناً منك ومع ذلك سخره رب العزة والجلال لك وهذه نعمة نحن نشاهد وليدة صغيرة أو طفلاً صغيراً يقود بعيراً كبيراً يزنه أضعاف أضعاف من الوزن، ومع ذلك سخره الله -سبحانه وتعالى- وذلله له فقوله جل ذكره: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾ نعمة من نعم الله -عز وجل- علينا وقد أشار إلى ذلك في سورة يس: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١- ٧٣] وهذا التسخير يحتاج إلى شكر، وكل نعم الله عليك يا عبد الله تحتاج إلى شكر ﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾ لماذا؟ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وهي دعوة يا عباد الله إلى أن نتوجه إلى الله -تبارك وتعالى- بالشكر، والشكر ليست كلمة تقال، وإنما هو عمل يقوم به العبد لله -تبارك وتعالى-، ربنا -سبحانه وتعالى- يقول: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] فشكر الله -عز وجل- على نعمه ليست مسألة سهلة على حال من الأحوال وإنما تتطلب منك أيها المؤمن عملاً قوياً تقوم به لله -تبارك وتعالى-، وشكر الله -عز وجل- منزلة عالية لم ينلها إلا القليل من عباد الله الصالحين وأولياء الله المخلصين كما قال رب العزة والجلال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ وقد أثنى الله -عز وجل- على بعض أنبيائه ورسله ووصفهم بهذه المنقبة العظيمة فقال مثلاً عن نوح -عليه السلام-: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ لماذا؟ ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] وقال عن إبراهيم -عليه السلام-: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا للهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١] فالشكر منزلة عالية أيها المؤمنون يجب أن تحرصوا عليها ومعناها أن تقوموا لله -عز وجل- بما فرض الله عليكم، لأن الشكر عمل يحتاج إلى أن تقوم به لوجه الله -تبارك وتعالى-، وعلى رأس ذلك أن تشكر الله على نعمة الإيمان وأن تشكر الله على نعمة الإسلام وأن تشكر الله على نعمة بعثة النبي الأمين -صلى الله عليه وآله وسلم- وأن تشكر الله على نعمة الهداية والتوفيق.

ثم بعد ذلك قال رب العزة والجلال: ﴿لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ يخبر رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- في هذه الآية أن ما نقدمه له وما نذبحه ونذكر اسم الله -عز وجل- عليه من أضاحي وغير ذلك لا يصل بشحمه ودمه ولحمه لله -عز وجل- وإنما ينال الله من ذلك إخلاصنا وتوجهنا لله -تبارك وتعالى-، والله -عز وجل- قال ذلك لأن المشركين كانوا يذبحون لأصنامهم فيزدادون بذلك شركاً وكانوا يفعلون شيئًا عجيباً إذا ذبحوا لأصنامهم إذا ذبحوا لأصنامهم قطعوا مما ذبحوه لحماً ووضعوه على الأصنام وأتوا بدماء هذه الذبائح ولطخوا بها أصنامهم التي يعبدونها من دون الله -تبارك وتعالى-، والله -عز وجل- يبين أن عمل المؤمن ليس كذلك؛ لأن الله لا ينال شيئًا من اللحم ولا من الدماء وإنما فرض ما فرض وشرع ما شرع -سبحانه وتعالى- كي نحصل نحن الفاعلون والمستجيبون لأوامر الله -تبارك وتعالى- نحصل تقوى الحق - جل ذكره- وهذا مقصد نبيل وهدف يسعى إليه كل مؤمن صادق في إيمانه.

﴿لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ عاد لذكر التسخير والله -عز وجل- سخر هذه الأنعام كما أشارت الآيات الكريمة إلى ذلك في أكثر من موطن، ثم بعد ذلك يشير رب العزة والجلال إلى أن هذا التسخير وهذه النعم التي يفيضها رب العزة والجلال عليكم يا أهل الإيمان تحتاج إلى شكر وإلى ذكر وعلى رأس ما يذكر الله -عز وجل- في الأيام المباركة في أيام الأضحية وتقديم القرابين لرب العزة والجلال هو التكبير ولذلك قال ماذا؟ ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥] ومن المشروع كما تعلمون ومن هدي النبي -صلى الله عليه وسلم- أن النبي -عليه الصلاة

والسلام- كان يرفع صوته بالتكبير في أيام منى وسُن لنا أن نذكر الله بالتكبير بدءاً من يوم عرفة إلى نهاية أيام التشريق، وهو ما يعرف بالتكبير المقيد الذي يكون في أدبار الصلوات وهناك تكبير مطلق يبدأ من أوائل ذي الحجة وكان صحابة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يرفعون أصواتهم بالتكبير فهو شعار عظيم في أيام الحج ومناسكه لدرجة أن ابن عمر وهو جالس في خيمته في منى كان يذكر الله -عز وجل- بالتكبير ويرفع صوته به فيسمع الناس صوته فيرفعون أصواتهم بالتكبير حتى ترتج منى من التكبير، ولذلك نص الله -عز وجل- على ذلك: ﴿لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ بشرى لكم يا أهل الإيمان بشرى عظيمة لمن؟ للمحسنين من هو المحسنون؟ الذين يعبدون الله كأنهم يرون رب العزة والجلال سبحانه ولذلك يخافون من الله -عز وجل- فيحسنون أعمالهم ويحسنون معتقداتهم كما أنهم يحسنون إلى خلق الله -تبارك وتعالى-، ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] كما أشار ربنا إلى ذلك في آيات أخر والإحسان هو أعلى درجات الإيمان، النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لما سأله جبريل عن الإحسان ماذا قال؟ قال: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) وهذه أعلى مرتبة ينالها المؤمن عند الله -تبارك وتعالى-، ولذلك رب العزة والجلال كما أشرت يبشر هنا المحسنين وأخبر ربنا في كتابه أنه يحب المحسنين كما أخبر جل ذكره أن رحمته قريبة من أهل الإحسان فاحرصوا يا عباد الله على أن تكونوا من المحسنين والإحسان يكون بإحسان القصد والإخلاص والاعتقاد الصحيح لله -عز وجل- وإحسان العمل يعني إتقان العمل وأيضاً الإحسان إلى خلق الله -عز وجل- من نفع مادي ونفع دنيوي ونفع أخروي: نفع مادي بأن تقدم لهم ما يحتاجون إليه، ونفع أخروي بأن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وكل ذلك يدخل في الإحسان.

المحور الثاني: الكبير المتعال يدافع عن أهل الإيمان:

والله إنه لأمر جميل أن يتذكر المؤمنون دائماً أن الله -سبحانه وتعالى- معهم، وأن رب العزة والجلال وهو فوق عرشه يدافع عنهم وتأملوا هذه الآيات: ﴿إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ يا أهل الإيمان ربكم -سبحانه وتعالى- معكم، يدافع عنكم، وكل مؤمن له قسط من هذا الدفاع، بحسب ما لديه من إيمان، فإن كان المؤمن مكثراً من الإيمان والعمل الصالح كان دفاع الله عنه أكبر، وإن كان مقلاً كان الدفاع عنه قليل، بحسب الدرجات، ولكن أبشروا يا أهل الإيمان واعلموا أن الله -سبحانه وتعالى- معكم وأنه -عز وجل- هو الذي يتولى الدفاع عنكم وهذا أمر يدعو المؤمنين إلى أن يسلموا وجوههم لله -تبارك وتعالى- ويتذكروا دائماً قول الحق جل ذكره: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] يعني ربنا -عز وجل- لا يستطيع أن يحمي عباده وأن ينصر جنده وأن يقدم لهم ما يحتاجون إليه؟!! ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ الله -عز وجل- يفعل ما يشاء وكل مؤمن عليه أن يكون واثقاً في وعد الله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١- ١٧٣] لماذا؟ لأن رب العزة والجلال معهم، وفي المقابل وطالما أنه معهم فليس مع أعدائهم بحال ونص على شيء من ذلك في قوله: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ وإذا كان الله لا يحب من هذه الصفة فلا يكون معه بحال من الأحوال والخيانة والكفر يكرههما ويبغضهما رب العزة والجلال من الأصل والأساس، وإن كان التعبير هنا فيه صيغة مبالغة ولكن الله -عز وجل- لا يحب أي خائن مهما كان، ولا يحب أي كافر مهما كان كفره ولو كان كفره على شيء قليل والدليل على ذلك ما ورد ذكره في القرآن ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال: ٥٨] جنس الخائنين لا يحبهم الله كذلك جنس الكافرين مهما كان كفرهم لا يحبهم رب العزة والجلال ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ٣٢].

بعد ذلك ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ هذه الآية كما ذكر أهل العلم نزلت في النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وصحبه، وهي أول آية جاءت فيها إشارة إلى شريعة الجهاد والقتال في سبيل الله -عز وجل- والقتال في سبيل الله -تبارك وتعالى- يقوم على أسس وعلى مقاصد فليس من باب الارتجال أو الفوضى يقوم به أي إنسان أو يفعله متى يشاء وإنما الجهاد في سبيل الله -عز وجل- كان لحكمة

ومقصد ذلك أن أعداء الإسلام واجهوا المؤمنين ووقفوا ضدهم وحاربوهم وقتلوا منهم ما فعلوا وصدوا عن سبيل الله -تبارك وتعالى- فجاء الإذن بعد ذلك للمؤمنين بالقتال خاصة أن الله -عز وجل- شرع الشرائع وأمر وأوجب حج بيت الله الحرام، وقد سبق أن أشرت إلى أن الكفار يصدون عن سبيل الله وعن المسجد الحرام الكفار يصدون عن سبيل الله فكان الجهاد ليدفع ظلم وبغي هؤلاء القوم الذين صدوا عن سبيل الله -تبارك وتعالى-، ولذلك قال الله جل ذكره: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ كلمة ﴿وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ يا إخواني تحمل معنيين عظيمين:

الأمر الأول: بشرى لأهل الإيمان أن الله -سبحانه وتعالى- ناصرهم، وأنه -سبحانه وتعالى- قد وعد عباده ومن آمن به وصدق برسالة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وعده بالنصر، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١] يعني: نصرك أيها المؤمن واقع وحاصل وقائم في الدنيا والآخرة، هذا هو المعنى الأول الذي نستفيده ﴿وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ هو وعد الله -عز وجل- للنبي -صلى الله عليه وسلم- ومن معه ولكل مؤمن بالنصر على أعدائهم.

الأمر الثاني: أن الله -سبحانه وتعالى- وهذا معنى مهم قادر على أن ينصر عباده دون قتال، ولكنه شرع الجهاد لحكم عظيمة غالية، الله -عز وجل- شرع الجهاد لحكم غالية عظيمة منها اختبار الصادق في إيمانه الله -عز وجل- يبتلي المؤمنين بالجهاد ليعلم الصادقين ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١] وأيضاً لكي يتخذ رب العزة والجلال شهداء من هذه الأمة فيكونوا على رؤوس الأشهاد والخلائق يوم الدين والشهيد له منقبة عظيمة عند رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- وكما أشرت الجهاد والقتال في سبيل الله -تبارك وتعالى- لم يشرع هكذا عبساً ولم يكن دون داع أو دون قصد وإنما تطلبته ضرورة ودعت إليه مواقف وذلك لما بغى أهل الشرك والضلال على أهل الإيمان وأخرجوهم من ديارهم ولذلك عقب ربنا -سبحانه وتعالى- بعد أن ذكر الإذن بالقتال والجهاد لأهل الإيمان عقب على ذلك بقوله: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ﴾ وهذه أيضاً في النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ومن معه؛ لأن المشركين أخرجوهم من ديارهم بغير حق ظلموهم في هذا الإخراج أخرجوهم لأنهم ماذا قالوا؟ قالوا ربنا الله وهذا دأب أهل الشرك والضلال في كل زمان ومكان أنهم يحاربون أولياء الله ويصدون عن سبيل الله ويقفون حجر عثرة في دعوة الناس إلى الحق والخير، وقد فعلت أمم سابقة كثيرة على أمة الإسلام مثل ما فُعل أو ما فعل المشركون بأصحاب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، فلا يخفى عليكم ما حدث من قوم إبراهيم لإبراهيم -عليه السلام- ولا يخفى عليكم ما حصل من أصحاب الأخدود للقوم الذين أحرقوهم لأنهم آمنوا بالله -عز وجل- وما نقموا منهم إلا ماذا؟ ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلا﴾ إلا ماذا؟ ﴿إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج: ٨] كل الجرم الذي ارتكبه هؤلاء الناس الذين ألقي بهم في النار وخدت لهم أخاديد من نار جرمهم أنهم قالوا: ربنا الله، كذلك أهل مكة الذين عثوا في الأرض فساداً هؤلاء الذين ظلموا أصحاب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أخرجوا النبي -عليه الصلاة والسلام- وأخرجوا صحبه الذين كانوا معه لماذا؟ أخرجوهم من ديارهم بغير حق لأنهم قالوا فقط كلمة ربنا الله، وهي الكلمة التي جاء بها كل نبي وكل رسول يدعو الناس إلى الله -تبارك وتعالى-.

﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسمُ اللهِ كَثِيرًا﴾ ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ يعني لولا أن الله -عز وجل- يدفع بقوم عن قوم ويدفع شر قوم عن قوم لوقع هلاك كبير في الكون، ولكن الله -عز وجل- يدفع كثيرًا من الشرور بقضائه وقدره جل في علاه، فلولا أنه يدفع لهدمت صوامع، والمراد بالصوامع: هي معابد الرهبان، ولكنها تكون صغيرة، يعني مخصوصة أو محصورة على عابد واحد أو اثنين ولذلك سميت صومعة، ونحن نعرف في التاريخ نقول: فلان اتخذ له صومعة، ﴿صَوَامِعُ وَبِيَعٌ﴾ وبيع هي مكان العباة للنصارى، وهي تكون كبيرة عن الصوامع، ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ قيل: الصلوات هي معابد للمجوس وقيل: هي معابد لليهود وقيل أيضاً هي معابد للنصارى ثم قال: ﴿وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسمُ اللهِ

كَثِيرًا﴾ تلحظون – أيها الإخوة الكرام– أن الله –عز وجل– ذكر أولاً الصوامع والبيع والصلوات وأخر ذكر المساجد لماذا؟ لأن المساجد آخر ما يهدم، ولأن المساجد هي التي فقط أقيمت لذكر الله –تبارك وتعالى– ولأن المساجد هي التي يعبد الله –سبحانه وتعالى– فيها وحده دون سواه، وغير ذلك قد غير فيه أصحابه وعبدوا من دون الله –سبحانه وتعالى– ما عبدوا، أما أهل الإيمان فهم يعبدون الله –سبحانه وتعالى– الواحد القهار ولذلك أخر ربنا –عز وجل– ذكر المساجد لإبعادها عن الهدم، قال: ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ﴾ وهذه تهدم وإذا هدمت لا حرج فيها اليوم لأنه يذكر فيها غير الله –عز وجل– أما المساجد التي شيدت لذكر الحق –تبارك وتعالى– فهي بيوت الله –عز وجل– في أرضه، ثم قال جل ذكره: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ وهذه منة أخرى من الله –عز وجل– على عباده، وهو قسم أقسم به رب العزة والجلال هنا أنه ينصر من ينصر دين الله –عز وجل–، لأن الله –عز وجل– ليس بحاجة إلينا أيها الناس، لما يقول: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ ما معنى من ينصره؟ هل الله –عز وجل– ضعيف يحتاج إلى نصر عباده له؟ كلا، وإنما المراد بنصرك لله –عز وجل– أن تقوم بامتثال أوامر الله –تبارك وتعالى–، وتنفيذ شرع الله –عز وجل– وأن تكون وقافاً عند حدود الله –تبارك وتعالى–، معظماً لحرمات الله جل ذكره والله –عز وجل– قد وعد عباده في أكثر من موطن من كتابه أنه سينصرهم إن نصروا دينه وأقاموا شرعه وطبقوا أوامره كما جاءت من عنده –سبحانه وتعالى–، وهذا يحتاج أيها المؤمنون إلى أن أوجه توجيهاً عاماً الآن إلى كل مؤمن عليه أن ينصر دين الله –تبارك وتعالى–، وأن يكون ممتثلاً أوامر الله –عز وجل– وأن يحقق التشريعات الربانية في نفسه ومن يعول، وأن يأمر بالمعروف وأن ينهى عن المنكر حتى ينال ما وعد الله –سبحانه وتعالى– به أهل الإيمان وحتى لا يشك شاك في قدرة الله –عز وجل– على التنفيذ عقب وختم هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ فهو أقسم بذلك أنه سينصر من ينصره، ثم عقب على ذلك بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ فالله –عز وجل– قوي لا تقف أمامه قوة ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يغلبه شيء بحال من الأحوال فهو الذي يعجز كل شيء ولا يعجزه شيءٌ –جل في علاه– ولذلك أقبلوا أيها المؤمنون على ربكم لتتاولوا التمكين الذي ذكره رب العزة والجلال في هذه الآية التالية ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾، وأرى أن أقف عند هذه الآية لأتناولها بداية في اللقاء القادم –إن شاء الله– بشيء من الشرح والتحليل مع الآيات التي سيتم حديثي عنها في اللقاء القادم –إن شاء الله تبارك وتعالى– وختاماً أصلي وأسلم على النبي المختار وعلى آله وصحبه وسلم، والسلام عليكم ورحمة الله.

فضيلة الشيخ وردتنا إجابات عدة على أسئلة الحلقة الماضية.

كان السؤال الأول: ما معنى ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج: ٢٦] وهل طهر النبي –صلى الله عليه وسلم– البيت من الأصنام؟

وكانت الإجابة:

قال تعالى لنبيه إبراهيم –عليه السلام– ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ والطهارة نوعان: حسية من النجاسة والأوساخ والقاذورات ومعنوية من الشرك والمعاصي وعبادة غير الله من الأوثان وغيرها.

ورد أن قبيلة جرهم أتت بالأوثان وعبدتها عند البيت وطهر إبراهيم –عليه السلام– بيت الله من ذلك كما أُمر، وكذلك رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقد طهر بيت الله من قاذورات المشركين ونجاساتهم ومنع العراة من الطواف بالبيت وحطم الأصنام عام الفتح وهو يتلو قول الله –تبارك وتعالى–: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١] متبعاً في ذلك ملة إبراهيم –عليه السلام– كما أمره ربه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣].

انتهت إجابة السؤال الأول

إجابة صحيحة، وجزاها الله خيراً.

كان السؤال الثاني: ما المراد بالأيام المعلومات؟ ولم نُص على اسم «الله» في الآية وما القول الراجح في قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ [الحج: ٢٨]؟

وكانت الإجابة قال الله تعالى:

هنا إجابة السؤال الثاني مكان السؤال الثالث.

روى البخاري معلقا بصيغة الجزم عن ابن عباس أن الأيام المعلومات هي الأيام العشر من ذي الحجة وهو مذهب الشافعي والمشهور عن الإمام أحمد وكثير من أهل العلم وقال ابن عباس هو يوم النحر وثلاثة أيام بعده وروي هذا عن ابن عمر والنخعي وذهب إليه الإمام أحمد في رواية عنه، ولأبي حاتم قول ثالث عن ابن عمر أنه كان يقول: الأيام المعلومات المعدودات هن جميعهن أربعة أيام، فالأيام المعلومات يوم النحر ويومان بعده والمعدودات ثلاثة أيام بعد النحر، قال السدي وهو مذهب الإمام مالك بن أنس ومذهب أبي حنيفة أنها يوم عرفة ويوم النحر ويوم آخر بعده، وقال ابن وهب: المعلومات يوم عرفة والنحر وأيام التشريق.

ونص على اسم الله ليذكر على بهيمة الأنعام عند النحر والذبح خلافاً للمشركين الذين كانوا يذبحون وينحرون لغير الله وتنفيذاً لأمر الله ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر: ٢] والراجح في قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أنه يُحمل على الاستحباب كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢] والله أعلم.

هذه صحيح وجزاهم الله خيراً.

كان السؤال الثالث: ما معنى ﴿تَفَثَهُمْ﴾؟ وما هو الطواف المقصود في هذه الآية؟

وكانت الإجابة:

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ التفث هو الوسخ أي يزيل ما لحقهم من الوسخ والأذى يعني يتحللوا من الإحرام ويحلقوا ويغتسلوا ويتطيبوا والطواف المراد هنا هو طواف الإفاضة

نعم الجواب صحيح.

الأخ الكريم من مصر يقول: في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج: ٢٧] في قوله تعالى: ﴿يَأْتِينَ﴾ يعني نعلم أن ﴿يَأْتِينَ﴾ جملة أتت بعد نكرة فهي صفة، ولو بينتم لنا فضيلتكم هل هي صفة للرجال أو صفة وإذا كانت صفة لـ ﴿ضَامِرٍ﴾ فلماذا أتت على الجمع ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ﴾ ؟

نُص في كتب التفسير - بارك الله- فيك أنها صفة للبعير الضوامر، وأفردت وجاءت جمعاً لأنه ليس بعيراً واحداً وإن ذكر البعير مفرداً إلا أن ما يأتي لا شك أنه من أماكن متفرقة وبالآلاف في السابق، والشاهد أن الآية أو ما جاءت فيها هو صفة أو الضوامر صفة للبعير، وهذا منصوص عليه لو فتحت أي كتاب من كتب التفسير ستجد هذا - إن شاء الله تعالى-.

الأخت الكريمة من الإمارات تقول: في الحديث: (ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه من الرقاب أكثر من يوم عرفة) أو كما قال -صلى الله عليه وسلم- سؤالي حفظكم الله؟ هل العتق للحجاج فقط؟ أم يشمل غير الحجاج؟

في الحقيقة الحديث ورد فيمن يقفون على عرفات وقد ورد بروايات متعددة وأنه نص فيه أو ذكر فيه أنه لم يُرَ الشيطان مدحوراً في يوم كهذا اليوم المبارك الذي هو يوم عرفة، ولكن أرى أنه إن أخلص العبد نيته لله - تبارك وتعالى- وتوجه إلى الله بالدعاء وصام في مكانه إن لم يحج وسأل الله -عز وجل- العتق من النار نرجو أن تشملنا جميعاً رحمة الله -تبارك وتعالى- ومن يحجب رحمة الله عن العباد؟!! ولكن الحديث حينما ذكره النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كان مريداً به من هم في الموقف ولكن لم يمنع ذلك أن يشمل غيرهم بفضل الله - عز وجل- وتوفيقه ونرجو أن نكون من هؤلاء وأن تعمنا رحمة الله -تبارك وتعالى-.

سؤاله الثاني: وبالنسبة لقوله -صلى الله عليه وسلم-: (خير الدعاء دعاء يوم عرفة وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير) هل يكثر غير الحجاج من هذا الدعاء أيضاً وبالنسبة للحاج هل يكثر من التلبية أم من الدعاء الآنف ذكره؟

جزاها الله خيراً، في الحقيقة نحن قد أمرنا الله -عز وجل- لأن نذكر الله -سبحانه وتعالى- في كل وقت في كل حين، ولكن آمل من إخواني المشاهدين والمستمعين أن يعلموا أن هناك أوقاتاً جعل لها النبي -صلى الله عليه وسلم- وجعل الإسلام وجعل لها رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- أشياء تفضل فيها عن غيرها، ومن ذلك يوم عرفة، فلما قال: (خير الدعاء دعاء عرفة) الدعاء كله خير، وهو مطلوب منك أن تدعو الله -تبارك وتعالى- ، وأن تلح في الدعاء وأن تطلب من الله -عز وجل- ولكن من أفضل أوقات الإجابة ومن الأوقات التي هي مظنة أن يستجيب الله لمن دعاه هو يوم عرفة، هذا اليوم إذا ذكر العبد ربه ودعا رب العزة والجلال فيه على رأس ما يذكر العبد ربه ومولاه في هذا الوقت وفي هذا الموقف العظيم هو أن يرفع صوته بالتوحيد لله -تبارك وتعالى-، فيقول: لا إله إلا الله ولا يمنع ذلك أنه ينقطع عن التلبية؛ لأن التلبية أيضاً توحيد لمن؟ توحيد لله - تبارك وتعالى-، وإن كان قول لا إله إلا الله شعار الإسلام، ورأس الدين وهو العنوان على وحدانية الله -سبحانه وتعالى- دون سواه، فليكثر الحاج إذن ولا يتعارض مع قول لا إله إلا الله اقتداءً بالنبي -صلى الله عليه وسلم- كما ذكر كذلك يكثر من التلبية وكلاهما مطلوبان من العبد في هذا الموقف وكلاهما يشعران بالتوحيد لرب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، والله أعلم.

ذكرتم فضيلتكم حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- للسيدة عائشة: (أن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن) فهل يجوز الإشارة؟

وذكرتم أيضاً قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] فهل يتعارض مع قوله تعالى: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ [النمل: ٤٠]؟

السؤال الأول تعني بالإشارة، الإشارة بإصبعين؟

الإشارة بأصبعين

لا حرج أن العبد يفهم أو يوضح هذا وقد فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- لما أشار بيديه إلى عينيه وأذنيه وهو يقرأ قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤] ليأكد ويثبت على أن الله -سبحانه وتعالى- يسمع ويبصر وليس هذا فيه شيء من التشبيه لرب العزة والجلال سبحانه، فالله -عز وجل- أجلّ من أن يشبه أحداً من خلقه جل في علاه، ولا يتوهم متوهم أنه يكون كرب العزة والجلال أو أنه يشبه الله -عز وجل-، أين الله من المخلوق؟ أين العبد الضعيف من الخالق جل في علاه؟ فالله -عز وجل- حينما تطلق عليه أسماؤه الحسنى وصفاته العلا فتنصرف إلى ما يليق بجلاله وكماله حتى ولو أطلقت على المخلوقين شيء أطلق على المخلوقين من هذه الصفات شيء فلنعلم أن صفات المخلوق تناسب عجزه وضعفه وافتقاره وصفات الخالق تليق بجلاله وكماله -سبحانه وتعالى-.

الأمر الثاني؟

ذكرتم فضيلتكم ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] فهل يتعارض ذلك مع قوله تعالى على لسان سليمان: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ [النمل: ٤٠]؟

لا يتعارض هذا بل كلمة ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ يعني أن ما يعود عليه من نتيجة هذا الشكر يعود إلى نفسه هو، النفع نفع الشاكر يعود إلى من؟ يعود إليك أنت، فالله -عز وجل- كما ذكر في كتابه لا يستفيد ﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧] فلا يعود إلى الله -سبحانه وتعالى- شيء من ذلك وإنما النفع عائد كله إلى العباد، وآية ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] خبر من الله -عز وجل- بأن من يقوم بشكر الله -عز وجل- بالعمل قليل.

ثم تبين الآية الأخرى أن الإنسان إذا فعل وقام بشكر الله -عز وجل- كما ينبغي بالعمل عاد ذلك على الشاكر، ونفعه يرجع إليه، وهو واضح إن شاء الله.

الأخ الكريم من السعودية له سؤالان:

سؤاله الأول: هل البدن جمع البدنة، وهل تعني جميع أنواع الهدي من البقر والغنم والماعز؟

نعم، البدن جمع بدنة وهي تعني الإبل والبقر، وهي تجزئ عن سبعة، يعني البدن يعني تطلق على الإبل قولاً واحداً واختلف في إطلاقها على البقرة، والراجح أنها تطلق أيضاً على البقرة.

سؤاله الثاني: هل التكبير والتلبية في الحج بصوت جماعي فيه شيء؟ وهل هناك دليل على المنع أو الإباحة؟

التكبير بصوت جماعي غير وارد عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وهذا هو دليل المنع من أن يكبر الناس جماعات جماعات لأن العبادات في الإسلام توقيفية، يعني نأخذها كما جاءت من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، فما فعله نفعله وما تركه نتركه -صلوات الله وسلامه عليه- فلم يرد أنهم كانوا يكبرون جماعات وإنما كانوا يكبرون فرادى فنحن نقتدي بفعلهم في هذا الأمر، وهذا هو دليلنا على أننا نكبر فرادى اقتداءً بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-.

الأخت الكريمة من الكويت تقول: ما معنى ﴿الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾؟

والله ذكرنا أقوالاً متعددة في معنى ﴿الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾، وقلت بأن قيل القانع: هو المستغني بما أعطيته وهو في بيته، والمعتر هو الذي يتعرض لك ولا يسأل، وقيل القانع: هو المتعفف، والمعتر الذي يعتريك أيضاً ويتعرض لك ولا يسأل، وذكر بعض أهل العلم وكما أشرت مال إلى ذلك الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- في أضواء البيان أن القانع يعني القانع قال بعضهم المتعفف قال: لا، القانع هو الذي يتعرض إليك ويسألك، أما المعتر: فهو الذي يعتريك ويتعرض لك عن بعد، ولا يسأل وكما ذكر هو كلها أقوال متقاربة.

الأخ الكريم من الجزائر يقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، في بلادنا عادة يوم العيد يقوم مجموعة عند المحراب مثلاً الإمام وجماعته فيقومون بالتكبير والتهليل بصوت واحد متواطئ منغماً ويردد معهم من في المسجد بصوت واحد كذلك فهل هذا ما يدل عليه أثر عمر -رضي الله عنه- حين يكبر ويكبر بتكبيره الناس وما هي السنة في ألفاظ التكبير وطريقة أدائه من حيث الفرد والجماعة؟ وجزاكم الله خيراً.

هو في الحقيقة كما أشرت سابقًا للسائل الذي سأل عن التكبير وأنه يكون بطريقة جماعية أو كل واحد يكبر لنفسه الوارد من هدي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن كل واحد كان يكبر لنفسه، والقول بأنه كان يكبر والناس يكبرون بتكبيره، يعني أنهم إذا سمعوه يكبر كبروا أيضاً بتكبيره، ولو كبر كل واحد ورفع صوته وكل الناس تكبروا وجربوا هذا لن يكون هناك تشويش من واحد على الآخر وهذا أمر مجرب وقد أشار إلى ذلك أيضاً فضيلة شيخنا الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين -رحمه الله تبارك وتعالى-.

يقول: وما هي السنة في ألفاظ التكبير وطريقة أدائه؟

السنة في التكبير وردت روايات متعددة لعل أصحها: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر،،، الله أكبر ولله الحمد، وورد هذا التكبير جاء بالصيغة مرتين الله أكبر الله أكبر، وورد أيضاً الله أكبر الله أكبر الله أكبر، ورد هذا أيضاً ولكن الأول أصح وكان البعض يعني يزيد بعض صيغ التكبير في ذلك: الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيرًا وسبحان الله بكرة وأصيلاً، كل هذا قد وردت به آثار عن السلف ولا حرج فيه - إن شاء الله تبارك وتعالى-.

الأخ الكريم من مصر يقول: هل الذي بنى البيت الحرام الملائكة أم سيدنا إبراهيم؟

قلت في الحلقة السابقة بأنه وردت آثار كثيرة في هذا عن المفسرين وأقوال للمؤرخين بعضهم قال: بأن الملائكة هي التي بنت البيت والبعض قال: بأن آدم هو الذي بنى البيت والبعض قال بأن شيث هو الذي بنى البيت والبعض قال بأن إبراهيم -عليه السلام- هو الذي بنى البيت، وقد ذكرت لكم كلمة الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- بأن كل ما يذكر عن هذا هو من أهل الكتاب وهم لا يصدقون ولا يكذبون في أقوالهم طالما أنه ليست عندنا نصوص تردها أو تقبلها ولكن ما يجب أن نلتزم به هو ما جاءنا خبر عن الله أو عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لأن ابن كثير قال: إن صح في ذلك حديث فعلى الرأس والعين، غاية ما أشرت إليه أنه يفهم من الآيات الواردة في بناء إبراهيم للبيت -عليه السلام- أنه هو لم يبن البيت، أو لم يكن هو أول من بنى البيت، لأن قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧] يبين أنهما رفعا ماذا؟ رفعا القواعد، ولما هاجر إبراهيم -عليه السلام- بزوجه وابنه إسماعيل وهو طفل رضيع وضعهما أين؟ ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فالبيت المحرم معلوم وأعلمه الله به قبل أن يقوم إبراهيم -عليه السلام- برفع البيت أو بنائه بعد ذلك فهذه إشارة إلى أن البيت كان موجوداً قبل إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- والله أعلم.

الأخ الكريم من الولايات المتحدة الأمريكية يقول: هل المقصود في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ هو دفع المسلمين للكافرين؟ أم يكون أيضاً دفع الكافرين بعضهم ببعض؟

هو في الحقيقة هذا يشمل هذا وهذا، فربنا -سبحانه وتعالى- يكف أذى المشركين والكافرين بالمؤمنين، كما أنه يدفع عن المؤمنين حينما يُشغل الكافرين بعضهم ببعض، فهذا أيضاً من دفع الله -سبحانه وتعالى- عن المؤمنين. والله أعلم.

الأخت الكريمة من السعودية لها سؤالان:

سؤالها الأول: هل صحيح أن الكافرين ندعوهم إلى الإسلام أولاً، فإذا لم يدخلوا في الإسلام أخذنا منهم الجزية وإذا لم يعطونا قاتلناهم؟

هذا ورد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو أنه كان يبعث بعوثاً لدعوة الناس إلى الله -تبارك وتعالى- يدعو أولاً إلى الإسلام فإن دخلوا الإسلام فبها ونعمت، وهذا هو المطلوب، وإن أبوا فلتضرب عليهم جزية وليكونوا تحت المسلمين، فإلا فالقتال.

سؤالها الثاني: ما هو الأفضل إذا انتهى يوم عرفة: أن يفرح العبد لأن الله فضله للوقوف بعرفة؟ أم أنه يكون مهموماً خائفاً ألا يتقبل الله منه؟

والله نأمل أن يجمع الإنسان بين هذا وبين هذا فهو يطمع في رحمة الله -تبارك وتعالى-، وفي نفس الوقت يخاف أن لا يكون الله -تبارك وتعالى- قد قبل منه ولكن أقول: إن أخلص العبد نيته لله وصدق مع الله -عز وجل- وحج من مال حلال لا يريد سمعة ولا يحج لغير الله -تبارك وتعالى-، فيرجى له القبول - إن شاء الله تبارك وتعالى-، والله -عز وجل- غفور رحيم إذا ذهبت إليه ولجأت إليه تفضل ربك عليك، وعليك يا عبد الله أن تحسن الظن بالله -عز وجل- ولكن اتخذ الأسباب والوسائل المشروعة الصحيحة المؤدية إلى ذلك، يعني أنت ابذل مالاً من حلال وأقصد وأصلح النية وأخلصها لله -تبارك وتعالى-، واذهب إلى هناك وكن مستيقناً واعُ الله -عز وجل- وأنت طامع وأنت ملح في الدعاء وتقبل على الحق -تبارك وتعالى- باليقين بوعد الله -سبحانه وتعالى- لك بالعفو والمغفرة وهذا اليوم يوم عظيم ورحمة الله -سبحانه وتعالى- واسعة، والإنسان لا يقنط ولا يخاف أن من أن تشمله رحمة رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- فلنصلح النية والمال، والله عليه التوفيق والسداد.

الأخ الكريم من السعودية يقول: ذكرتم أن الإبل يعقل رجلها اليسرى، بينما ذكر المؤلف يدها اليسرى ما هو الصحيح؟

والله يقال هذا ويقال هذا، هذه مسألة مختلف فيها بين العلماء هل يقال لها: رجل أو يقال لها: يد، والكل في هذا يعني سهل وواسع وهي إطلاقات ليس بينها تضاد أو تنافر، فإذا قلنا: يد أو قلنا: رجل فإن هذه المسألة اختلف فيها حتى الفقهاء في مسألة هل الإنسان ينزل على يديه أو ينزل على ركبتيه، والبعض قال: رجلي البعير في ركبتيه أو في يديه وخلاف يعني سهل ميسور - إن شاء الله تعالى- فإذا قلنا: تعقل رجله أمر جائز -إن شاء الله- وإذا قلنا تعقل يده فهو أمر أيضاً جائز -إن شاء الله- ولا حرج في ذلك، المهم أن تقوم على ثلاث، وأن تعقل رجلها أو يدها اليسرى والله أعلم.

الأخت الكريمة من السعودية تقول: هل المعتكف يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إن كان الإنسان معتكفاً في بيت الله الحرام، وذكرتم يعني من فضيلة المؤمن أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فهل هو إذا كان معتكفاً هل يجوز له هذا؟

السؤال الثاني: ما هي أفضل أنواع الحج؟ يعني: أفضل أنواع الحج نعلم أن الحج ثلاثة أنواع، يعني أفضلها؟

السؤال الثالث: ذكرتم فضيلة الشيخ أن المال على الحاج أن يحج من مال حلال، أود أن أسأل فضيلتكم في مسألة إذا كان الشخص يعمل مع شركة وصاحب هذه الشركة يحجج الناس على حسابه فهل هذا يجوز أم من الأفضل أن يأخذ الإنسان من ماله الخاص؟

فضيلة الشيخ سؤالها الأول: هل المعتكف يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؟

في الحقيقة المشروع للمعتكف أن يفعل جميع أنواع البر، والخير ويكثر منها من قراءة القرآن الكريم والذكر والصلاة وما إلى ذلك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أفضل أنواع البر والخير، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شعيرة من شعائر الإسلام، وللإنسان فيها إذا فعل خير عظيم والدال على الخير كفاعله، فلا حرج أبداً ولا تناقض من أن يكون الإنسان معتكفاً وأن يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أما باختصار أفضل أنواع النسك، تعرفون أو تسمعون أنه فيه خلاف بين الفقهاء في ذلك والذي أراه والله أعلم والذي دلت عليه السنة أن حج التمتع هو أفضل أنواع النسك، الحج ثلاثة: إفراد وقران وتمتع، النبي -عليه الصلاة والسلام- حج قارناً ولكن أفضل أنواع الحج هو حج التمتع لأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أمر أصحابه بعدما طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة أن يحلقوا رؤوسهم أو يقصروا وأن يقلبوا حجهم إلى عمرة، يعني يقلبوا الحج الذي لبوا به لله -عز وجل- إلى عمرة، فدل ذلك على أن التمتع أفضل أنواع الحج.

أما الإنسان إذا حج على حساب غيره رغبة منه في أن يعطيه شيئًا من المال طالما أنه يعمل عنده ويحج من خلال ذلك فهذا من فضل الله -تبارك وتعالى- ولا نضيق واسعاً على المسلمين وحجه مقبول -إن شاء الله تبارك وتعالى- فهو يعمل عند صاحب المال وصاحب المال طالما أن ماله من حلال وهو الذي أعطاه إياه دون استشراف نفس منه وطلب منه أن يحج وساعده بذلك فكلاهما مأجور - إن شاء الله تعالى- وحجه مقبول -بإذن الله عز وجل-.

فضيلة الشيخ هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه الحلقة.

السؤال الأول: وعد الله عباده الخائفين منه بالجنة، اذكر ما يدل على ذلك من القرآن الكريم. وكيف ترد على من يزعمون أنهم يعبدون الله لا خوفاً من عقابه ولا طمعاً في جنته؟

السؤال الثاني: اذكر معاني الكلمات الآتية: ﴿صَوَافَّ﴾، ﴿وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾، ﴿الْقَانِعَ﴾، ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾؟

السؤال الثالث: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ يشير إلى معنيين، اذكرهما.

الدرس السادس

تفسير سورة الحج

فضيلة الشيخ أهلاً ومرحباً بكم

أهلاً وسهلاً ومرحباً بكم وبالمشاهدين الكرام ويسرنا مجدداً أن نلتقي في هذا اللقاء المبارك – –إن شاء الله تعالى– ومع بعض آيات من كتاب الله –عز وجل– وسيدور لقاؤنا –إن شاء الله تعالى– في هذه الحلقة حول محاور كالتالي:

المحور الأول: تسلية الله لنبيه –صلى الله عليه وآله وسلم– بذكر المكذبين للأنبياء والمرسلين.

المحور الثاني: الشيطان ووساوسه للإنسان.

ويسعدني الآن أن أقدم لكم الأخ الكريم؛ ليقرأ علينا هذه الآيات فليتفضل، جزاه الله خيراً.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾.

جزاك الله خيراً، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين وبعد.

أواصل الحديث في هذا اللقاء –إن شاء الله تعالى– مع هذه الآيات التي استمعنا إليها جميعاً الآن، وقبل البدء فيها أود أن أشير إلى الآية السابقة عليها ألا وهي قول الحق –تبارك وتعالى–: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ وهذه الآية كانت هي ختام الآيات التي تحدث عنها في اللقاء السابق وهي في الحقيقة وصف وبيان لمن مكنهم رب العزة والجلال في الأرض والمراد بالتمكين هنا: من مكنه الله –سبحانه وتعالى– على العباد بالسلطان وكانت لهم قوة ونفوذ، هؤلاء الذين مكنهم رب العزة والجلال لا شك أنهم يتصفون بصفات جميلة جعلت هذه الصفات رب العزة يمكنهم فيما مكنهم فيه وكانت سبباً في هذا التمكين وهذه الصفات هي صفات أربع:

الصفة الأولى: أنهم يقيمون الصلاة، يقيمونها لله كما أراد.

الصفة الثانية: أنهم يؤتون الزكاة.

الصفة الثالثة: أنهم يأمرون بالمعروف.

الصفة الرابعة: أنهم ينهون عن المنكر.

وهذه الآية تفيد أن هذه الأوصاف تحققت في صحابة النبي الكريم -صلى الله عليه وآله وسلم- لأن الله -عز وجل- مكنهم في الأرض وتفيد أيضاً أن خلافة هؤلاء الصحب الكرام -رضي الله تعالى عنهم أجمعين- صحيحة وأنها كما أراد رب العزة والجلال سبحانه فلا يطعن على واحد منهم لأنهم جميعاً مكنهم ربنا -سبحانه وتعالى- في الأرض واتصفوا بهذه الصفات الجليلة الكريمة، وهنا قبل أن أنتقل من هذه الآية إلى غيرها، أود أن أشير وأن أدعو كل من مكنه رب العزة والجلال في الأرض وأصبح له سلطان ونفوذ على بعض البلاد أو العباد أن يعتني بهذه الأوصاف وأن يحقق هذه الصفات وعلى رأسها أن يقيم الصلاة بين العباد، وهذا أمر مهم للغاية فالصلاة - كما تعلمون أيها الإخوة الكرام - هي الركن الأول بعد الشهادتين وعليها يحاسب الإنسان عندما يقف بين يدي رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- ولابد للمرء أن يقيمها خالصة لله وأن يتعلم فيها هدي النبي الكريم -صلى الله عليه وآله وسلم-.

أما آيات هذا اللقاء - وإن شاء الله تعالى- سأحاول أن أنتهي منها في هذا اللقاء أيضاً وهي تدور كما سمعتم وكما ذكرت في المحور الأول بالحديث عن الأمم السابقة على أمة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وعلى المشركين الذين بعث فيهم رسول الهدى والرحمة -صلى الله عليه وآله وسلم-.

المحور الأول: تسلية الله لنبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- بذكر المكذبين للأنبياء والمرسلين:

وفي هذا يقول الحق جل ذكره: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ هذه الآيات فيها تسلية للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وبيان له، بأن الذين كذبوه من قومه إنما هم يفعلون ما فعل السابقون، فالأنبياء والمرسلون قبل النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كانوا يقابلون بهذا التكذيب من أقوامهم، فكم من أنبياء بعثهم رب العزة والجلال ومن رسلهم كان مآلهم من أقوامهم ألا يتبعهم إلا القليل وألا يسير في ركابهم إلا أعداد يسيرة محدودة فتكذيب المشركين للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- هي سنة لدى هؤلاء المكذبين والله -عز وجل- يذكر ذلك لنبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- وقد ذكره له مراراً في القرآن الكريم كقول الحق -سبحانه وتعالى- مثلاً مبيناً له هذا الأمر وهو أن التكذيب كان واقعاً من قبل لكثير من الأنبياء والمرسلين: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَأِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام: ٣٤] ويقول سبحانه: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى﴾ [هود: ١٢٠] فقول الله -تبارك وتعالى- يوعظ النبي -صلى الله عليه وسلم- ويذكره ويعلمه بأن ما يحدث له من قومه من التكذيب والإنكار وما إلى ذلك إنما هو أمر قد حصل لمن قبله من الأنبياء والمرسلين، والمصائب أيها الكرام إذا عمت، مصائب الدنيا إذا عمت هانت، يعني إذن هذا فيه تسلية للنبي -عليه الصلاة والسلام-، معلوم أن المصيبة إذا عمت بين الناس وجد الناس فيها مسلاة ويؤكد ذلك ما قالته الخنساء في أخيها صخر:

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن أعزي النفس عنه بالتأسي

تقول: أنها تجد مسلاة وأسوة لها وتتصبر حينما تجد من حولها يبكي قريباً من بكائها وبهذه المناسبة خطرت الآن علي خاطرة أود أن أسأل فيها الشباب الآن وهي فائدة أود أن أعلمهم إياها: المصائب كما أقول في الدنيا إذا عمت هانت ووجد الناس فيها مسلاة فهل مصائب الآخرة كذلك؟ إذا عمت تهون؟ أو أن الأمر على العكس؟ مصائب الآخرة تتحقق في العذاب؟

العكس

ما الدليل؟ عندك دليل؟ الحقيقة ذكر ابن القيم -رحمه الله تعالى- هذا في الجواب الكافي وذكر أن أهل المصائب يجدون مسلاة حينما تجتمع عليهم المصائب ولكن أهل النار لا يجدون ذلك حينما يعذبون وهم جميع، واستند إلى قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزخرف: ٣٩] وهذه الآية تفيد أيضاً أن المصائب حقاً تخفف عن أصحابها عند الاشتراك فيها.

الشاهد أن هذا فيه تسلية للنبي -صلى الله عليه وسلم- ثم ذكرت الآية سبعة من الأمم التي كذبوا بالأنبياء والمرسلين بدئهم رب العزة والجلال بقوم نوح -عليه السلام- وقوم نوح كذبوه كما قال ربنا في كتابه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء: ١٠٥] وقال جل ذكره: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾ [القمر: ٩]

أما النبي الثاني: فهو عاد -عليه السلام- والله -عز وجل- يقول: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الشعراء: ١٢٣] وقال قوم عاد له والنبي المرسل إليهم وهو هود -عليه السلام- ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [هود: ٥٣] وهذا تكذيب له.

أما النبي الثالث: فهو من أرسل إلى قوم ثمود، وهؤلاء أيضاً كذبوا بنبيهم صالح -عليه السلام- وفي ذلك يقول الحق جل ذكره ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الشعراء: ١٤١] والله -عز وجل- أرسل مع صالح -عليه السلام- آية من الآيات ألا وهي الناقة، وصالح -عليه السلام- نبههم إليها وبين لهم كيف يتعاملون معها ومما قال لهم: ﴿نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: ١٢] ولكنهم أيضاً كذبوه ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١٣].

أما الأمة الرابعة: وهم قوم إبراهيم -عليه السلام-، كذبوه أيضاً وقالوا له أمرا عظيماً ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

الأمة التي بعد: قوم لوط أيضاً ردوا على وجهه وهي أمة خبيثة والعياذ بالله -تبارك وتعالى- وكان ذنب لوط -عليه السلام- الذي اقترفه عندهم أنه كان شريفاً يحب الطهر والعفاف ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل: ٥٦].

الأمة السابعة والأخيرة: قوم فرعون وما أدراكم ما قوم فرعون، أتاهم موسى -عليه السلام- ببينات متعددة وتعرفون ماذا ذكر القرآن عنه ولكنهم قالوا في الرد عليه كلمة مختصرة ذكرها القرآن الكريم ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأعراف: ١٣٢].

ردوا إذن هؤلاء جميعاً على أنبياء الله ورسله بالتكذيب.

بعد أن ذكر رب العزة والجلال هؤلاء جميعاً وأشار إلى تكذيبهم وذكرت الآن بعضاً من أقوالهم لأنبيائهم ورسلهم قال الله مباشرة: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فأمليت للكافرين يعني أمهلتهم وأنظرتهم وأخرت العذاب عنهم شيئًا قليلاً ولكن هل تركوا هكذا بلا عذاب أو استئصال؟ كلا ثم كلا بل جاءهم من الله – سبحانه وتعالى– عذاب أليم، لأنه قال: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ وأتى بـ ﴿ثُمَّ﴾ التي تدل على التراخي، يعني أنه أمهلهم شيئًا قليلاً ثم أخذهم –سبحانه وتعالى– بعد ذلك.

وقد بينت آيات القرآن الكريم أيضاً ماذا أرسل الله –عز وجل– على كل أمة، وما هو العذاب أو نوع العذاب الذي أصاب كل أمة من هذه الأمم.

الآيات ابتدأت بذكر نوح –عليه السلام– وما كان من قومه له وقوم نوح أهلكوا بماذا؟ أهلكوا بالغرق، ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر: ١١، ١٢].

الثاني على حسب ترتيب الآية قوم عاد ماذا حصل لهم؟ أهلكهم الله –عز وجل– بأي شيء؟ بالريح ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢].

الأمة الثالثة: قوم صالح، ثمود، بأي شيء عذبهم رب العزة والجلال سبحانه؟ ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [فصلت: ١٧].

قوم إبراهيم ذكر المفسرون أن رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– أهلكهم بما ذكرهه عنهم في كتابه في قول الحق –تبارك وتعالى–: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [النحل: ٢٦].

أما قوم لوط فتعلمون وتعرفون بأي شيء أهلكهم رب العزة والجلال – سبحانه– بأن قلب قرى اللوطية عليهم ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: ٨٢] ويكفي هذا العذاب فيهم، مع قوله بعد ذلك: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢] هذا عذاب من الله –تبارك وتعالى– لهذه الأمة.

أما أصحاب مدين وهم قوم شعيب –عليه السلام– فأخذوا أيضاً بالصيحة ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود: ٩٤، ٩٥] وأسأل إخواني الحاضرين: لماذا ختم الله –عز وجل– هذه الآية هنا ﴿أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾؟ لماذا ذكر مدين مع ثمود؟ أنا أشرت إليها الآن في نوع العذاب.

لأن عذاب كلٍّ واحد

لأن عذاب كلٍّ واحد ما أهلك به ثمود هو ما أهلك به قوم أصحاب مدين، الذين هم قوم شعيب –عليه السلام–.

أما فرعون وهو آخر أمة من الأمم المذكورة معنا في الآيات فأهلكه رب العزة والجلال كما جاء الحديث عنه في كتاب الله –عز وجل– كما جاء الحديث عنه في رب العزة والجلال كما جاء الحديث عنه في كتاب الله –عز وجل–، أغرقهم أيضاً رب العزة والجلال وأطبق عليهم البحر لما أرادوا أن يذهبوا إلى موسى –عليه السلام– وأن يسيروا خلفه في البحر بعد أن جعله الله –عز وجل– يعني جعله لموسى آية، البحر آية من الله –تبارك وتعالى– أراد فرعون عليه – لعنة الله ومن معه– أراد أن يستفيد من هذه الآية ومن هذا التكريم فما كان منه إلا

أن أذاقه الله -عز وجل- أيضاً العذاب الأليم ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لاَ إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس: ٩٠] ولم ينفعه ذلك.

هذا هو معنى قول الحق -تبارك وتعالى- عن هؤلاء جميعاً ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ والأخذ هنا أخذ استئصال وعذاب أليم ولذلك في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: (إن الله يملي للكافر (للظالم) حتى إذا أخذه لم يفلته) يعني الله -عز وجل- قد يمهله يعطيه فرصة لعله يعود أو ليقيم الحجة عليه ثم إذا أمهله أخذه أخذ عزيز مقتدر، والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لما ذكر هذا الحديث قرأ بعده مباشرة قرأ قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ واللهِ إنها آيات فيها من العبر ما فيها ولو أن المشركين في عهد النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فقهوا معنى هذه الآيات ومعنى ما ذكره رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- عن الذين كذبوا سابقًا الأنبياء والمرسلين لرجعوا إلى الحق -تبارك وتعالى- ولآمنوا ولصدقوا بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-.

والسياق متصل بعد ذلك بعدما ذكر ربنا -عز وجل- أنه أملى للكافرين ثم أخذهم ذكر في الآية التالية: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ يبين رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- في هذه الآية الكريمة أنه كم أهلك من القرى. لأن ﴿فَكَأَيِّن﴾ هنا بمعنى كم الخبرية التي تفيد الكثرة ﴿فَكَأَيِّن﴾ يعني كثير من الأمم التي أهلكها رب العزة والجلال حالة كونها ظالمة وظلمها بتكذيبها للأنبياء والمرسلين وعدم الإيمان بالله -سبحانه وتعالى- رب العالمين، ثم ذكرت الآية صورة وهيئة هذه الأمة أو الأمم التي أهلكها رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- وحينما صورها القرآن الكريم وكأنك تنظر إليها تشعر بمنظر مفزع مقلق مؤلم، قال: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ العروش هي السقوف، وقول الله تعالى: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ يفيد شدة وقبح المنظر الذي هم عليهم من أين؟ لأنه قال: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ العروش هي السقوف وهذا يفيد أن السقوف سقطت أولاً ثم سقطت فوقها العروش، وهناك يا أيها الناظر تجد بئراً معطلة، كان يردها الناس ويشربون منها وتشرب منها أنعامهم وتشرب منها دوابهم وكانوا يشربون أو يسقون منها ما يحتاج إليه من ثمارهم وزروعهم ولكنها أصبحت الآن معطلة.

أيضاً ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾، قصر مشيد: هو العالي، الكبير، القصر المنيع، وذكر فيه تفسيرات متعددة وكلها بمعنى أن هذا شيء جميل؛ لأن البعض قال: المشيد هو المبني من الجص، يعني أشياء جميلة مزخرفة، وفائدة الإشارة إلى ذلك أنها أصبحت خاوية لا يستفيد منها أحد وأن القصور كانوا يسكنونها فزالوا وبقيت قصورهم عبرة لمن يأتي بعدهم بعد ذلك، ثم فائدة أخرى هي أن هذه القصور لم تنفع ولم تحم من كان فيها، وكأن هذه الآية تذكر بقول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] فلو كنت حتى في قصر عالي منيع مهما كنت، مهما وصلت يا أيها الإنسان في هذه الحياة الدنيا فسيأتيك قدر الحق -تبارك وتعالى-.

ثم بعد ذلك تأتي الآية التالية والسياق أيضاً يتحدث مع الكافرين والمشركين الذين سيقت إليهم هذه الآيات وذكر الله -عز وجل- في آيات أخر كثيرًا ممن كذبوا وما حاق بهم فيعتبر هؤلاء المشركون تشير الآية التالية إلى المشركين ليتأملوا وينظروا فيقول رب العزة والجلال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَ﴾ هذه الآية ترشد أهل مكة المكذبين للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يسيروا في الأرض بأبدانهم وأن يفكروا بعقولهم ويتأملوا، فيسيروا بالأبدان ويفكروا أيضاً بالعقول والبصيرة التي غفل عنها هؤلاء الناس ولما غفلوا حجبها الله -سبحانه وتعالى- عنهم، وختم بذلك أو بسبب ذلك على قلوبهم، الله -عز وجل- يأمر هؤلاء أن يسيروا في الأرض وقد أمرهم في آيات كثيرة أن يسيروا في الأرض ليتأملوا قال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا

﴿١٠﴾﴾ [محمد: ١٠] وخاطبهم رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- مرة أخرى مبيناً أنهم كم من مرات يمرون على ديار أقوام أهلكم رب العزة والجلال ولكنهم أيضاً لا يستفيدون من ذلك، كانوا يمرون على أقوام أهلكم ربهم وهم لا يستفيدون، ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨] يا أيها القوم المخاطبون ألا تتذكرون؟ ألا ترجعون؟ وهذه الدعوة للمشركين إلى أن يتأملوا في آيات التنزيل الحكيم وأن يعملوا عقولهم وأن يسيروا في هذا الكون، سير نظر واعتبار وتأمل ليصلوا إلى حقيقة غائبة عنهم، ألا وهي التسليم والتصديق والإذعان لرب العالمين خالق السماوات والأرض -سبحانه وتعالى- وأن يوحدوه وأن يفردوه بالعبادة ولكنهم يسيرون ولا يتأملون لأن لهم قلوب كما ذكر رب العزة والجلال في آيات آخر لا يعقلون بها ولهم آذان ولكن لا يسمعون بها، والله -عز وجل- لذلك ختم هذه الآية بما يفيد هذا المعنى فقال: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ وهذا استنبط منه بعض أهل العلم كلمة هي حكمة في الحقيقة، ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، أو عمى القلب، ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ كم من أناس تجده أعمى البصر ولكن إذا ذكر تذكر ويفتح الله -سبحانه وتعالى- عليه، فيجيل بفكره وخاطره فتجده من أولياء الله الصالحين وعباد الله المتقين وعبد الله بن أم مكتوم الصحابي الجليل ليس عنا ببعيد، والقرآن الكريم أخبر أنه لا يرى بمعنى أنه أعمى البصر ولكن بصيرته متوقدة، فلما كانت تتلى عليه آيات الله -عز وجل- يستفيد منها وينتفع، ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴿٤﴾﴾ [عبس: ١ - ٤] فكان يتذكر - رضي الله تعالى عنه- وهو رجل أعمى ومع ذلك تنفعه هذه الذكرى، وكم من أناس من الله -عز وجل- عليهم بالأبصار ولكن قلوبهم قد عميت عن الحق فلا يجد الحق إليها منفذاً، وهي دعوة أيضاً أيها الإخوة الكرام أن لا نأخذ الناس بظاهر الآحاد وإنما علينا ماذا؟ علينا أن نأخذ الناس بما هم عليه في الواقع وبما هم عليه من إيمان وتصديق واتباع للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، ويستفاد من ذلك أيضاً ألا تغرنا المظاهر التي هي عند بعض الناس واجهة ملونة مزخرفة ولكن في حقيقة الأمر تكون قلوبهم خربة لأنهم لم يؤمنوا بالله ولم يتابعوا رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - وصدق الله في قوله: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾.

ثم يقول رب العزة والجلال والحديث ما زال متصلاً مع هؤلاء المشركين المكذبين للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ﴾ ما أجمل آيات القرآن الكريم، حقاً إنه كلام صدق وكلام حق، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] تأملوا معي السياق وجمال التعبير وحسن الصياغة، ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ هذه كلمة عن المشركين ، رد الله عليهم ماذا؟ ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ﴾، الخطاب للنبي -صلوات الله وسلامه عليه- هؤلاء الناس يطلبون العذاب ويستعجلونه طغياناً وعناداً يطلبونه من من؟ من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وكم من مرة ومرة، طلب هؤلاء العذاب، وسجل القرآن الكريم ذلك عنهم، ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ القرآن يأتي بهذه الآيات كي يرتدعوا كي ينزجروا لما قال: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ عقب عليها بقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ وهنا ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ﴾.

وأيضاً واقع هؤلاء المشركين واقع فعلاً من عمي قلبه وعميت بصيرته، وتأملوا في آية أخرى لما استعجلوا العذاب ماذا قالوا لربهم؟ ماذا قال هؤلاء المشركون لربهم لما استعجلوا العذاب؟ وطلبوه من النبي - صلوات الله وسلامه عليه-: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢] لو أن هؤلاء يعقلون أو عندهم أدنى فهم لقالوا: لو كان هذا هو الحق من عندك ماذا؟ فاهدنا إليه، فوفقنا للصواب، فدلنا عليه، فخذ بأيدينا إليه. طالما أنه حق، وإنما يقولون: إن كان هذا هو الحق فائتنا بالعذاب، ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] وهذا يبين يا إخواني ويدل على أن الكفر فعلاً يعطي غشاوة على صاحبه، يعطي غشاوة على قلبه فلا يجد الإيمان سبيلاً إليه.

وقول الحق -تبارك وتعالى- ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ﴾ يعني أنه إذا أمهل عنهم العذاب -سبحانه وتعالى- فإن عذابه واقع لا محالة، وسيأتيهم مهما طال الزمن أو قصر، وقد يظنون هؤلاء أن إمهال الله -سبحانه وتعالى- لهم لأنه ليس قادراً على أن يفعل ما أوعدهم به سبحانه ولذلك قال لهم: ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ﴾ يعني وعد الله -عز وجل- في إهلاك المكذبين الظالمين سيأتي لا محالة، كما أن وعده -سبحانه وتعالى- بإكرام أوليائه قائم أيضاً في الدنيا والآخرة ولكن على هؤلاء أن يتمهلوا، على هؤلاء أن يتريثوا ولذلك ربنا -عز وجل- أراد أن يبين لهم هذا الإمهال فقال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ يعني يوم عند رب العزة والجلال كألف سنة مما يعده العباد.

وقول الله -عز وجل- في هذه الآية وذكره بأن اليوم عنده كألف سنة مما نعد، جاء مثله في سورة السجدة ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾ [السجدة: ٥] وجاء في سورة المعارج بأن مقدار اليوم خمسين ألف سنة، هل هناك تعارض بين هذه الآيات؟ نتحدث عن هذا ولا ما رأيكم؟ هل هناك تعارض بين هذا؟ لا، هذا كلام رب العزة والجلال وله توجيه.

اليوم كألف الوارد في سورة الحج قيل: من الأيم الستة التي خلق الله -عز وجل- الدنيا والسماء فيها والأرض فالله -عز وجل- خلق السماء والأرض وما بينهما في كم يوم؟ في ستة أيام، اليوم كألف سنة، هذا الوارد في سورة الحج، أما اليوم بألف في سورة السجدة هذا الزمن عروج الأمر وسير الأمر إلى رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، اليوم فيه كألف عند الله كألف مما نعد نحن أما خمسين ألف سنة فهذا خاص بيوم القيامة فقط، وقيل أيضاً بأن الألف كالخمسين وإنما الأمر في الزمن ومقداره على اختلاف حال الناس، وهو المراد به يوم القيامة، بمعنى أن يوم القيامة يشعر به الكافر على أنه طويل، وكبير خمسين ألف سنة، والله -عز وجل- بين شدة هذا اليوم على الكافرين فقط، ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ [المدثر: ٩، ١٠] أما هذا اليوم فيخفف على المؤمن، فهو إن كان عند الكافر خمسين فهو عند المؤمن أقل من ذلك بكثير، ويؤيد هذا ما أورده ابن أبي حاتم وصححه الشيخ الألباني -رحمه الله تعالى-: (بأن فقراء المسلمين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام) وهو مقدار نصف يوم ما ذكر رب العزة والجلال في كتابه، وقد ذكر هذا ابن جرير أيضاً موقوفاً وصحح العلماء كثير أو كثير من العلماء صححوا هذه الرواية الواردة عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في ذلك، ثم يعود السياق مرة أخرى هو أيضاً بصيغة التكثير يعني الكثرة ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ وهذه الآية كالآية التي سبق أن ذكرتها ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ هنا رب العزة والجلال يبين أن كثيرًا أيضاً، وجد كثير من القرى أهلكها رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- حالة كونها ظالمة وأن الله -عز وجل- أخذها لأن المرجع والمصير والنهاية لرب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- وحده دون سواه.

الختام بقوله: ﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ يفيد أن هؤلاء الكفار لن يفلتوا من عذاب الله أبداً، لماذا؟ لأنه قد يقول قائل، أو يقوم في ذهن إنسان مثلاً اعتراض يقول: بعض الكافرين الموغلين في الكفر يموت دون أن يهلكه رب العزة والجلال سبحانه، يموت وهو في غاية الثروة أو في غاية الصحة أو في غاية القوة أو في غاية الهيمنة والسيطرة ولم نر شيئًا فعل به فنقول: هو بين يدي الله -سبحانه وتعالى- فإن لم يأخذه رب العزة والجلال في الدنيا فهو سيعود لمن؟ ويرجع لمن؟ وسيقف بين يدي من؟ ومن الذي سيحاسبه ويأخذ منه حقه؟ هو رب العزة والجلال سبحانه ولذلك ختم هذه الآية بقوله: ﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.

ثم يلتفت الخطاب ويتوجه مرة أخرى للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ولذلك كما أقول السياق يسير مساقاً واحداً في الحديث عن الأمم المكذبة وتسلية النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وهنا تؤكد هذه الآيات، ويؤكد رب العزة والجلال وهو يسوقها، وهو يتحدث عن المكذبين به وبالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يؤكد ويثبت صدق وصحة نبوة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فيوجه الخطاب إليه بقوله: ﴿قُلْ﴾ والخطاب للنبي -صلى

الله عليه وآله وسلم- ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾ يقول الله لنبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يقول للكفار حينما طلبوا منه استعجال العذاب لأنهم طلبوا استعجال العذاب ممن؟ من النبي -عليه الصلاة والسلام-، ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللهُ﴾ ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ في كل الخطاب موجه لمن؟ للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فالله -عز وجل- هنا أولاً أمره أن يقول لهم مبيناً أنه نذير مبين بمعنى أنه رسول من قبل الحق -تبارك وتعالى-، ويفيد ذلك الرد على هؤلاء المشركين وهو أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لا يملك أن يأتي بما طلب به المشركون، لا يملك هو -صلى الله عليه وسلم- أن يأتيهم به؛ لأنه نذير كما قال الله له: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] ولما طلب المشركون من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ما طلبوه مما جاء ذكره في أواخر سورة الإسراء عند قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] إلى آخر الآيات ... بأي شيء ختمها رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-؟ ختمها بقوله موجهاً أيضاً الخطاب للنبي -عليه الصلاة والسلام- ليقول: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ [الإسراء: ٩٣] صلوات الله وسلامه عليه، فهنا هذه الآية تبين أن النبي -صلى الله عليه وسلم- رسول من قبل الحق -تبارك وتعالى- وأنه نذير مبين يبين للناس ويهديهم إلى صراط الحق وإلى الطريق المستقيم، من أجابه سعد ومن لم يجبه شقي، ويبن ربنا ذلك في الآيات التالية، فبعدما قال الله لنبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- مثبتاً نبوته ورسالته ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾ عقب عليها بقوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ الذين آمنوا آمنوا بالله -تبارك وتعالى-، آمنوا بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ولم يكن إيمانهم إيماناً فارغاً عن العمل وإنما إيمان يصل بالعمل يستجيب للعمل، قائم على الطاعة على امتثال الأوامر واجتناب النواهي ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ماذا أعد رب العزة والجلال لمن آمن وعمل صالحاً؟ قال الله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ قال أهل التفسير: في الدنيا ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يعني: حسن في الدار الآخرة، ومغفرة الله -عز وجل- واسعة وقد وعد بها عباده المؤمنين قال الحق -تبارك وتعالى-: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الحجر: ٤٩] وقال سبحانه: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر: ٣] والرزق الكريم هو الرزق الواسع الحسن الذي أعده الله -عز وجل- لعباده المؤمنين في الجنة، فقد زعم محمد بن كعب القرظي -رحمه الله تعالى- أنه قال: كل رزق في القرآن الكريم وعد الله به فهو سيكون في الجنة.

هذا مآل من آمن وعمل الصالحات، واستجاب للنذير المبين -صلى الله عليه وآله وسلم- أما من شقي وكذب وكفر ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ ﴿سَعَوْا﴾ يعني: ساروا وسلكوا في آيات الله -عز وجل- معاجزين، ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ قيل: معاندين، ومشاقين لله وللرسول -صلى الله عليه وآله وسلم-، وقيل: مثبطين، يعني مثبطين لغيرهم أن يدخلوا في دين النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ماذا أعد الله لهم؟ قال: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ يعني هؤلاء القوم أعد الله لهم النار الحامية، النار التي تستعر عليهم أعاذنا الله -سبحانه وتعالى- وإياكم منها، وهذا يدعونا أيضاً إلى أن ندعو البشرية كلها ونقول لهم: هلموا إلى دين الله أفواجاً، هلموا إلى الإيمان والتسليم للنذير المبين الذي بعثه رب العالمين، ادخلوا في دينه وامتثلوا أوامر ربكم واتبعوا النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- تكن لكم مغفرة من رب العالمين ورزق كريم ولن ينال ذلك إلا من؟ إلا من آمن بالله وصدق بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-.

المحور الثاني: الشيطان ووساوسه للإنسان:

وأبدء فيه بقول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ حقيقة هذه الآية تحتاج إلى تأمل ونظر وبسط حولها، الحافظ ابن كثير -رحمه الله تبارك وتعالى- قال: ذكر كثير من المفسرين عند هذه الآية قصة تعرف بقصة الغرانيق وهي لم تصح عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وسأسمعكم-إن شاء الله تعالى- بعض أقوال أهل العلم في ذلك، خلاصة هذه القصة أن النبي -عليه الصلاة والسلام- كما ذكروا وهو يقرأ افتح

سورة النجم حتى وصل عند قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى ﴿٢٠﴾﴾ [النجم: ١٩، ٢٠] ألقى الشيطان على لسانه فقال: تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى، سمع الخبر أهل مكة فقالوا: هذه أول مرة يذكر فيها آلهتنا بخير، لأنه لما قال: ﴿اللاَّتَ وَالْعُزَّى ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ ﴿٢٠﴾﴾ قال: تلك الغرانيق، والغرانيق هذا الغرنوق طائر أبيض يحلق في السماء فكأن معنى الآية أن هذه الأصنام ترفعهم وتقربهم إلى رب العزة والجلال ولها شفاعة مقبولة وإن شفاعتهم لترجى، وسمع بذلك من كان قد هاجر إلى الحبشة وأتى كثير منهم إلى مكة ظناً منهم أن المشركين رضوا بكلام النبي -صلى الله عليه وسلم- وأن النبي -عليه الصلاة والسلام- قد أثنى على آلهتهم وورد في آخر الآية ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾﴾ [النجم: ٦٢] أن النبي -صلى الله عليه وسلم- سجد ومعه المؤمنون وسجد المشركون أيضاً، وهذه في الحقيقة كما ذكرت أو أشرت الآن بأنها قصة لم يصح نسبتها للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وقد ألف علامة عصره في الحديث الشيخ: محمد نصر الدين الألباني -رحمه الله تعالى- رسالة في هذا سماها: "نصب المجانيق لنسق قصة الغرانيق" وأود أن أذكر لكم أيضاً الآن بعض أقوال أهل العلم في أن هذه القصة لا تصح ولا يجوز نسبتها إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وسأبين أيضاً بطلانها من عدة وجوه:

أولاً: قال الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله تبارك وتعالى- عنها بعد أن ذكرها وأشار إليها قال: هذه كلها جاءت من طرق كلها مرسلة ولم أرها مسندة من وجه صحيح. هذا كلام من؟ كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله تبارك وتعالى-.

وقال القاضي عياض في كتابه الشفاء: يكفي أن هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، ثم قال: قال أبو بكر البزار -رحمه الله تعالى- هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بإسناد متصل وقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته -عليه الصلاة والسلام- ونزاهته.

أما العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- وهو بارع في تفسير القرآن بالقرآن ذكر كلمة جميلة حكيمة قال: إن في هذا السياق الذي جاءت فيه هذه الآية ما يبين بطلان هذا القول وهو أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أيضاً لا يمكن أن يقوله لأن في هذه السورة ما يبين بطلان أنه لا يمكن أن يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- هذا القول ولا يمكن أن يثني على هذه الأصنام لأنه شنع عليها وبين تفاهتها وأنها ليست بآلهة ولا يصلح بحال من الأحوال أن يكون لها شيء من ذلك لأنه بعدما قال الله -عز وجل-: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى ﴿٢١﴾﴾ [النجم: ١٩- ٢١] بعدها ماذا؟ ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣] فالقرآن الكريم يعقب بهذه الآية على ذلك ويطعن على هذه الأصنام، فكيف بعد ذلك يقول قائل بأن هذه الأصنام لها شفاعة ترتجى أو أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يقول ذلك؟

إلى جانب أيها الإخوة الكرام أود أن أشير إلى أمر أيضاً مهم في مثل ذلك، وهو أن الشيطان لا سبيل له على أهل الإيمان، ورأس المؤمنين في هذه الأمة من؟ نبينا -صلى الله عليه وسلم- فكيف يتسلط الشيطان عليه ويلقي على لسانه كلمات لا ينبغي أن تقال، بل هي عين الشرك بالله -تبارك وتعالى- الذي جاء النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ليمحوه، وليقف أمام من أشركوا بالله -تبارك وتعالى-، القرآن الكريم يبين لنا أن الشيطان لا سبيل له على أهل الإسلام، ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ٦٥] الشيطان يخسر ويخسأ أن يأتي ويلبس على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ثم إن القرآن الكريم الذي يقول بعض المفسرين عنه بأن هذه الآيات جاءت على لسان النبي -صلى الله عليه وسلم- كيف يجوز لنا أن نقول ذلك أو أن نتصوره، والله -عز وجل- يثني على كتابه غاية الثناء، فيقول: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢] ؟!!! لا يأتيه الباطل وهذا باطل فكيف يقوله النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-؟ وأيضاً لا يمكن أبداً أن نتصور أن النبي -عليه الصلاة والسلام- يمكن

أن يقول على الله -سبحانه وتعالى- كلاماً باطلاً والله يول له وعنه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾ [الحاقة: ٤٤، ٤٥] وما كان له -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يفعل أو أن يقول بعد أن قال الله له وفي مفتتح هذه السورة: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣، ٤] فكل هذه الإشارات تشير إلى ماذا؟ إلى أن هذه القصة لا يصح نسبتها إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وأن الرسول -عليه الصلاة والسلام- منزه عن أن يثني على شرك المشركين وكفر الكافرين والأصنام التي عبدوها لرب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-.

ولكن قد يقول قائل: ما الصواب إذن في معنى الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ ؟ في الحقيقة ظهر لي بعد البحث والتحري والتدقيق أن الصواب في معنى الآية: أن الشيطان كان يلقي وساوس وشبهات حول ما يقرأ النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كأن يقول عنه بأنه سحر أو شعر أو أساطير الأولين وكان المشركون يتلقفون ذلك من الشيطان وقول الحق -تبارك وتعالى- في هذه الآية ﴿إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ تمنى هنا بمعنى: تلا، يعني تمنى استعملها العرب بمعنى تلا وجاء ذلك في أبيات عند العرب فلما قتل عثمان الخليفة الزاهد الورع ثالث الخلفاء الراشدين -رضي الله تعالى عنه- لما قتل قال بعض الشعراء:

تمنى كتاب الله أول ليله وآخرها لاقى حمام المقادر

فقوله: تمنى كتاب الله يعني ماذا؟ تلا كتاب الله، أو قرأ كتاب الله فالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كان إذا قرأ كتاب الله ﴿إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ يعني ألقى الشيطان في قراءته بالوسوسة والشبهات والشكوك التي كان يصدقها أولئك المشركون الذين كفروا وكذبوا بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، ولكن الشيطان كيده في وبار وهلاك وخسران ولذلك كان الله -عز وجل- ينسخ ما يلقي الشيطان من شبهات وشكوك حول ما يقرأه النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، ويحكم آياته ولذلك ربنا -عز وجل- يختم هذه الآية بقوله ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه خافية من الحوادث ومن ذلك إلقاء الشيطان ﴿حَكِيمٌ﴾ في تقديره وخلقه -سبحانه وتعالى- ولا يمكن لمثل الشيطان ولا لمن يمكن أن يضع يده مع الشيطان أن يأتي بهذا البهتان الذي يمكن أن يجري على لسان رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وهو -ولا شك- كلام الله.

وهذه الآية قبل أن أنتقل منها أود أيضاً أن أفيدكم فائدة وهي مسألة عقدية: علماء الكلام وكثير ممن كتبوا في العقيدة لما جاءوا ليفرقوا بين النبي وبين الرسول فرقوا بينهم بتعريف مشهور، ولكن يحتاج إلى إعادة نظر، هل أحد منكم يعرف التعريف المشهور في الفرق بين النبي والرسول؟

قالوا: النبي من نُبئ ولم يؤمر بالتبليغ، يعني: أوحي إليه بشرع ولم يأمره الله بالتبليغ والرسول من أرسل أو أوحي إليه بشرع وأمر بالتبليغ.

هذا التعريف -في الحقيقة- عليه اعتراض، هذه الآية ترده؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ فدل ذلك على أن النبي مرسل كالرسول، قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَ﴾ لأن تعريفهم يقول: بأن النبي من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بالتبليغ. وما فائدة أن يوحى إليه بشرع ولم يؤمر بالتبليغ؟ وطالما أني ذكرت ذلك ولا أريد أن أقف عنده أيضاً، أيضاً قد يسألني سائل يقول: ما الصواب في الفرق بين النبي وبين الرسول؟

ذكر العلماء فروقاً هي قريبة إلى الصحة فيما أرى، منها أن الرسول من أوحي إليه بشرع جديد ونزل عليه كتاب، والنبي من جاء تابعاً لكتاب ولشريعة النبي السابق، كأنبياء بني إسرائيل ولكن الكل مأمور بالبلاغ والبيان، إذا كان الله -عز وجل- أخذ العهد على العلماء وغيرهم أن يبينوا للناس فكيف يوحى إلى رجل ونبي ثم بعد ذلك لا يأمره رب العزة والجلال بالبيان؟ الله -عز وجل- بعد ذلك يعقب على هذه الآية ويبين أن هذه الوسوسة

الواقعة من الشيطان والكيد الذي يكيده إنما هو من باب الابتلاء والاختبار وأن هذا لم يخفَ على رب العزة والجلال خاصة أنه ختم الآية الأولى بقوله: ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ إذن لماذا يحدث ذلك؟ قد يسأل سائل هذا، هذه فتنة هذه وسوسة هذا كيد من الشيطان لماذا شاء رب العزة والجلال أن يكون؟ قال الله -عز وجل-: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً﴾ لمن؟ ﴿لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي في شك وشرك وكفر ونفاق وارتياب وعدم تصديق للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، لأن المشركين يفرحون بذلك ويعتقدون أنه صحيح، إذا لبس الشيطان عليهم فيما يذكره النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يفرح أهل الشرك والضلال والنفاق بذلك، ويفرح معهم أيضاً كما قال الله: ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني من في قلبه مرض ومن في قلبه قسوة، ولذلك قال بعض أهل العلم: المراد بمن في قلبه مرض هم أهل النفاق والمراد بالقاسية قلوبهم هم المشركون، ولا أود أن أطيل عليكم وأشير إلى أن قسوة القلوب لها أسباب منها:

- عدم الإيمان- ومنها نقد العهد والموثيق كما قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣] ومنها طول الأمد أو طول العهد وما إلى ذلك وأنا أشير إلى هذا ليحذر أهل الإيمان مما وقع فيه من كان قبلهم من المكذبين المشركين الظالمين.

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً﴾ لمن كما ذكرت؟ ﴿لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ يعني هؤلاء الذين كذبوا ظلموا أنفسهم وأشركوا بالله -تبارك وتعالى- وواقع أمرهم أنهم في ضلال ومخالفة وعناد بعيدين عن الحق والصواب الذي جاء من عند الله -تبارك وتعالى-.

هذه هي الطائفة الأولى التي ذكرها القرآن الكريم وموقفهم مما يمكن أن يكيد به الشيطان. أما أهل الإيمان فلا يتأثرون بهذه الوسوسة ولا بهذه الشكوك، ولذلك أثنى الله عليهم فقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي: ليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذي يفرقون به بين الحق والباطل أن الذي أنزله الله على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- هو الحق، وأن ما يكيد به الشيطان ويزينه ويوسوس به لا مجال له بين أهل الإيمان، يعلمون ذلك ﴿ فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ يعني يذعنوا له ويسلموا وينقادوا ويعترفوا أن ما جاء من عند الله هو الحق المبين، والآية هذه فيها فائدة أيها الأشبال ويا أيها المشاهدون يا ممن تتعلمون العلم الشرعي فيها فائدة إلى أهمية ما أنتم عليه، فائدة في أهمية ما أنتم مقبلون عليه، وهو ما نفتتح به هذا اللقاء من كلمة سماحة الوالد الشيخ عبد الله بن باز -رحمه الله تعالى- حينما يدعو ويحث على العلم الآية تقول: ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ من؟ ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وهذا يبين ويشير إلى أهمية العلم وضرورته وأنه لابد للأمة كلها أن تقبل عليه، وأهل العلم هم الذين يؤمنون ويصدقون وينقادوا ويزداد إيمانهم بما ينزل على رسول الهدى والرحمة -صلوات الله وسلامه عليه- وإذا آمنوا خبتت قلوبهم بمعنى خضعت وذلت وسلمت لحكم الله -تبارك وتعالى-، وإذا سلمت بحكمه وآمنت يظهر من ذلك عليهم هداية الله -تبارك وتعالى-، ولذلك قال الحق جل ذكره ﴿وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهداية الله -عز وجل- لأهل الإيمان الذين آمنوا وازدادوا إيماناً وخضعت وخشعت قلوبهم لرب العزة والجلال هي -واللهِ- في الدنيا وفي الآخرة، هداهم ربهم في الدنيا إلى الإيمان به والإذعان لأمره والتسليم بحكمه، وهداهم إلى الإيمان والتوفيق وهناك إيمان يكون من توفيق رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- لا دخل للعبد فيه بشرح الصدر وما إلى ذلك مما أشار إليه القرآن كذلك أيضاً هداية الآخر ألا وهي ماذا؟ إلى الجنة، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: ٩] ما هي نوع الهداية هنا؟ ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ [يونس: ٩] فهذه هي هداية الله -عز وجل- لأهل الإيمان في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح وفي الآخرة بجنات النعيم.

وبهذا ينتهي الحديث حول هذا اللقاء وحول هذه الآيات الكريمة وأرجو من إخواني أن يتنبهوا إلى شيء مما ذكرت خاصة مما يمكن أن يذكر في بعض كتب التفسر وأن يلحق بها من كلام لا يليق أن ينسب إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، ولنعلم جميعاً صدقَ رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، وأن الكافرين هم الخاسرون.

وصلِّ اللهم وسلمْ وباركْ على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

إجابات الحلقة الماضية:

كان السؤال الأول: وعد الله عباده الخائفين منه بالجنة، اذكر ما يدل على ذلك من القرآن الكريم وكيف تـرد على من يزعمون أنهم يعبدون الله لا خوفاً منه ولا طمعاً في جنته؟

وكانت الإجابة:

إن الخوف من الله عبادة وهي من صفات أهل الإيمان قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦] وقال الله عن زكريا -عليه السلام-: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ومن العجيب أن تجد أناساً يزعمون أنهم يعبدون الله لا خوفاً منه ولا طمعاً في جنته لعلهم لم يسمعوا قول الله -جل وعلا-: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر: ١٥، ١٦] ولعل هؤلاء لم يتعرفوا على هدي النبي -صلى الله عليه وسلم- فكان من أكثر دعائه: (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) ولما سألت عائشة -رضي الله عنها- متعجبة لهذا الدعاء قال -صلى الله عليه وسلم-: (يا عائشة إن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن فمن شاء أقامه ومن شاء أزاغ) -صلى الله عليه وسلم- وهو الذي قد غفر ما تقدم من ذنبه وما تأخر وعلى هذا الهدي سار أبو بكر وعمر والصحابة أجمعين -رضي الله عنهم- والله أعلم.

في الحقيقة أحسن المجيب وقد أفاد فائدة كنت أود أن أطلبها منكم وهو أنه استدل أيضاً ببعض الآيات التي لم أذكرها، وهذا شيء جميل يشرح الصدر وأشكر من أجاب على ذلك؛ لأنني أذكر بعض الآيات ولا يمكن أن أذكر كل ما يدور حول المعنى، فكوني أسمع إجابات وآيات لم أذكرها يدل على فهم - بفضل الله تبارك وتعالى- وأن المستمع والمشاهد يربط بين هذا وبين ذاك.

السؤال الثاني:

اذكر معاني الكلمات الآتية: ﴿صَوَافَّ﴾، ﴿وَجَبَتْ جُنُوبُهَ﴾، ﴿الْقَانِعَ﴾، ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾؟

وكانت الإجابة:

﴿صَوَافَّ﴾: أي قائمات صففن قوائمها الأربع ثم تعقل يدها اليسرى ثم تنحر.

﴿وَجَبَتْ جُنُوبُهَ﴾: أي سقطت بجنوبها على الأرض وتسلخ فحينئذ قد استعدت لأن يؤكل منها.

﴿الْقَانِعَ﴾: الفقير الذي لا يسأل تقنعاً.

﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾: الفقير الذي يسأل ويتعرض للناس. والله أعلم.

الإجابة طيبة، ولكن هذه يعني استعدت لكي يؤكل منها، يعني نحن الذين أعددناها.

السؤال الثالث:

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ يشير إلى معنيين اذكرهما.

وكانت الإجابة:

يشير قول الله -جل وعلا- إلى معنيين هما:

الأول: أن في هذه الآية بشرى لأهل الإيمان أن الله ناصرهم مهما ضاق الأمر ومهما رأت العين ﴿إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

الثاني: مع تمام قدرة الله على النصر غير أنه شرع الجهاد لإقامة سنة الله في الأرض في الابتلاء وليعلم الصابرين والمجاهدين وليعلم المنافقين، وعلم الله مطلق فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ولكن ليقيم عليهم الحجة. والله أعلم.

الكلام سليم ولكن لو توسع في المعنى الثاني وهو من معانيها أن الله -عز وجل- أراد أن يتخذ شهداء ويرفع درجات هؤلاء وما إلى ذلك فكان هذا الجهاد لمثل هذه الأمور في سبيل الله -تبارك وتعالى- وعلى كل فالجواب سليم، إن شاء الله.

الأخ الكريم من مصر يقول: لي سؤالان:

السؤال الأول: ما صحة رواية أن سيدنا إبراهيم عرض له الشيطان ليثنيه عن ذبح ولده عند العقبة فرماه بسبع حصيات إلى آخره؟

السؤال الثاني: المشركون يستعجلون الأنبياء بالعذاب ويقولون: ائتنا بالعذاب إن كنتم صادقين، فما الحكم في المسلم الذي يستعجل الموت؟

بالنسبة للسؤال الأول: هذا قد ورد في كتب التفسير وأن هذا كان من السنن التي شرع رب العزة والجلال رمي الجمرات بها، وهذا وارد عن إبراهيم -عليه السلام- ولا غضاضة في هذا، يعني ما أدري ما وجه إن كان هناك استفسار عن مثل ذلك، فهذا ورد أن الشيطان كان يسير وراء إبراهيم -عليه السلام- وكان إبراهيم -عليه السلام- يرميه بهذه الحصيات كي يرد بأسه ووسوسته عنه.

أما بالنسبة للسؤال الثاني: وهو أن المسلم يتمنى الموت، أو يستعجل الموت. نهى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- عن ذلك: (لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه) الإنسان لا يتمنى الموت بسبب أي مصيبة تنزل عليه، ووجه النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- إلى مخرج إذا وقع الإنسان في ضائقة أو حصل ما يمكن أن يحدث له مما يقلقه أو يزعجه أو يتعبه فإن وجد الإنسان شيئًا من ذلك يدعو ربه بأن يختار له الخير ويقول: اللهم أحييني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني ما كانت الوفاة خيراً لي، أما استعجال الموت فهو منهي عنه بنص حديث النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-.

فضيلة الشيخ الأخت الكريمة من الإمارات تقول: ذكرتم -حفظكم الله- أن التكبير المقيد عقب الصلوات فهل التكبير المقيد عقب الفرائض فقط؟ أم عقب كل صلاة سواء فريضة أو نافلة من ليل أو نهار؟

هو الوارد التكبير المقيد عقب الصلوات، عقب الفرائض وإن كان بعض الصلوات الأخرى فسيصبح وسيدخل في التكبير المطلق؛ لأن الصلوات الفرائض محددة بأوقات فمن هنا قلنا: إنه مقيد، أما النوافل المطلقة فليست مقيدة بوقت، فإذا ذكر الإنسان بعدها وكبر هو مطلوب منه أن يكبر بعد الصلوات وهو قائم وهو ماشٍ في طريق وهو جالس في بيته فيصبح من التكبير المطلق، والله أعلم.

الأخ الكريم يقول: ما رأيكم في القول بأن النبي هو من بعث في قوم مؤمنين ولكن عصاة؟ أما الرسول فهو من بعث في قوم مشركين؟

في الحقيقة من سياق آيات القرآن الكريم وذكر المكذبين للأنبياء والمرسلين يظهر لنا بوضوح أن كل نبي أرسل إلى قوم كان فيهم من أهل الشرك ما فيهم، ومن الضلال ما فيهم، فهذا القول لا يستقيم ولكن الصواب فيما أراه -والله أعلم- وكما أشرت أن الرسول هو: من جاء بشريعة جديدة مستقلة، وبكتاب من عند رب العزة والجلال والنبي يأتي مجدداً لهذه الشريعة سائر على نفس الطريق طريق الرسول الذي قبله، يعني لا يأتي بشريعة جديدة مستقلة، هذا هو الفرق الذي أراه صحيحاً قد أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- كما أشار إليه غيره، وأرجو أن يكون هذا هو الصواب إن شاء الله -تبارك وتعالى-.

الأخ الكريم من مصر يقول: من أهل العلم من صحح حديث الغرانيق فما حجته في ذلك؟

لا شك أن بعض العلماء يختلفون في الحديث الوارد يعني تصحيحاً أو تحسيناً أو تضعيفاً لكن البحث والتحري والتدقيق أمر مطلوب في مثل ذلك، وكما أسمعتكم أيها المشاهدون بعضاً من أقوال أهل العلم والأقوال كثيرة ومن أراد أن يرجع في مثل ذلك فرسالة الشيخ الألباني -رحمه الله- التي أشرت إليها تشفي وتكفي في هذا المقام وترد على من يقول بهذه الرواية أو بصحتها ولا شك أن هناك بعض الكتب للمفسرين كانوا يسوقون كثيرًا من الروايات الضعيفة والواهية بل الموضوعة، ولا أريد أن أسمي بعض كتب التفسير بأعيانها ولكن هذا موجود عند بعض المفسرين والعبرة بما صح عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وذكر أهل العلم عنه أنه صحيح، وهذه القصة سندها واهٍ كما ذكرت إلى جانب أنها أيضاً تتعارض أو يتعارض متنها مع كتاب الله -تبارك وتعالى- الذي أثبت الله فيه العصمة للنبي -صلى الله عليه وسلم- وأن هذا الكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه كتاب أحكمت آياته وما إلى ذلك، كل هذا يتعارض مع أن نقول بأن هذه القصة صحيحة، والله أعلم.

الأخ الكريم من الكويت يقول: بالنسبة للتفسير -بارك الله فيك وجزاك الله خيراً- هل ستخرج في المستقبل تفسيراً كما سبق لبعض أهل العلم؟

-إن شاء الله تعالى- يعني هو يدفعنا لهذا العمل الطيب وفي الحقيقة ما أجمل ذلك ونأمل أن يتسع الوقت لشيء من هذا -إن شاء الله تعالى- ففي الحقيقة الأعمال كثيرة وتتزاحم ونسأل الله -عز وجل- التوفيق والسداد

وأرجو -إن شاء الله- أن يوفق ربي -سبحانه وتعالى- لما طلبه الشيخ -جزاه الله خيراً- وهذا حسن ظن منه أشكره عليه، وأئمتنا بفضل الله -تعالى- لهم كلام جميل وجيد في تفسير الله -تبارك وتعالى- ونسأل الله -عز وجل- أن يوفقنا في أن نضيف إلى كلماتهم كلمات والتوفيق بيد الله وحده.

الأخ الكريم يقول: في قول الله -عز وجل-: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] ذكرتم فضيلتكم أن هذا اليوم يكون بمثابة خمسين ألف سنة على الكافر فهل يشترك معه المسلم العاصي في هذا اليوم أم أنه يقتصر على الكافر فقط؟

أحسنت -جزاك الله خيراً- هذا في الحقيقة سؤال مهم، وبيانه كالتالي: أن هذا اليوم على الكافر بخمسين ألف سنة وعلى عصاة المسلمين يتفاوت على حسب المعاصي، وهذا من عدل الله -تبارك وتعالى- فالناس أمام الحق -تبارك وتعالى- ليسوا سواء والعذاب كما تعلمون متفاوت كما أن الجرائم والمعاصي أيضاً والكبائر متفاوتة وكل ينال بقدر ما قدم، ﴿وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] فالمسلم العاصي لن يشترك ولن يكون في صف واحد مع الكافر حاشا لله أن يكون كذلك وعدل الله -عز وجل- يأبى ذلك، كذلك أيضاً لا يمكن للعاصي المفرط المقصر أن يكون كالسابقين السابقين والله -عز وجل- قد أخبر بأن الجنة درجات وهناك أناس لا شك أنهم سابقون مقربون وهناك أصحاب اليمين يتلون يأتون بعد هؤلاء السابقين وهكذا فلا يمكن أن يكونوا لا مع الكفار ولا مع أصحاب النعيم العالي في الفردوس الأعلى في الجنة، ولكن أيضاً تتمة لهذا البيان، أقول: قد يتفضل الله -عز وجل- على عصاة المسلمين بالمغفرة والرحمة فلا يناله شيء من ذلك وفضل الله -سبحانه وتعالى- واسع، ويرشدني إلى هذا قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] فهذه الآية جعلت ما عدا الشرك داخلاً تحت المشيئة فإن شاء غفر الله لصاحبه وإن شاء عذبه بقدر ذنبه ثم بعد ذلك أخرجه من النار، وكما أنه إذا عذب في النار عذب بقدر ذنبه كذلك يناله من طول اليوم بقدر ما فرط في حق الله -تبارك وتعالى-، والله أعلم.

الأخت الكريمة من السعودية تقول: عندما ننصح بعض المقصرين من الشباب والشابات في التوبة والعودة إلى الله والاستقامة على شرع الله يقولون بأن، يعني عندما نصحت إحدى الشابات الواقعة في المعاصي قالت: إني أعلم أن توبتي قد تجر علي مصائب لأنكم تقولون: إن الله -سبحانه وتعالى- إذا أحب عبداً ابتلاه وأن أشد الناس ابتلاءً الأنبياء ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ما أدري ماذا نرد على هؤلاء؟

في الحقيقة التوبة مطلوبة والتوبة يعني كما ذكرت الأخت ليست مقصورة فقط على الشباب الذي هو مقصر أو مفرط في جنب الله -تبارك وتعالى-، بل التوبة مطلوبة من كل مؤمن، الله -عز وجل- يقول: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] وحينما يتوب العبد إلى ربه ويرجع إلى الله -تبارك وتعالى- يكون في سكينة واستقرار ونعيم وهدوء لا يشعر بذلك إلا أهله، يعني عبارات قد لا يسعفني التعبير أن أصورها لأنها مسألة يعيشها المؤمن التقي الورع التائب الراجع إلى رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، وليس معنى ذلك أنه إذا تاب وأناب ورجع إلى الله -تبارك وتعالى- أنه يبتلى حتماً، فكثير من الناس المقربين إلى رب العزة والجلال لا يبتليهم رب العزة والجلال والابتلاء حينما يكون للمؤمن هو في الحقيقة رفع لدرجاته عند الله -عز وجل- وإذا ابتلى الله -عز وجل- المؤمن ابتلاه بقدر ما عنده من إيمان، فكان هذا الإيمان دافعاً له إلى ألا يخرج على طاعة الله -تبارك وتعالى-، يكون الابتلاء موجود والتثبيت أيضاً لدى هذا المؤمن قائم له من عند رب العزة والجلال سبحانه وما ذكرته السائلة من الحديث يشير إلى هذا المعنى (أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل) لماذا؟ لماذا أشد الناس بلاء الأنبياء لأنهم أعلى الدرجات من العابدين المؤمنين المصدقين برب العزة والجلال، فحينما يأتيهم ابتلاء كبير يتناسب مع ما هم عليه من إيمان كبير وبالتالي لا يتزعزع إيمانهم بل يرتفعون بهذا الابتلاء درجات عند رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- فلا يخاف الإنسان من أن يعود إلى الله فيبتلى، يا عبد الله قد تكون بعيداً عن الله -عز وجل- وتأتي عليك المصائب من كل جانب ووقتئذٍ لن تستطيع أن

تواجهها بشيء من المعروف أو من المصداقية أو من الصواب الذي يمنعك ويحجزك عن أن تخرج من الدين بالكلية ولكن إن كنت في دائرة الإيمان أعانك رب العزة والجلال سبحانه على ما ابتلاك به وأقام في قلبك من الإيمان ما تستطيع به أن تواجه به هذه البلايا والمصائب والله -عز وجل- لا يتخلى عن أهل الإيمان ولا يضيعهم، ولا يجعلهم عرضة للضياع، أو للتشتت أو للرجوع إلى الخلف والوراء بل يبتليهم رب العزة والجلال لينالوا بذلك الدرجات العلى، وليرتفعوا عند رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- فهذه الابتلاءات هي في الحقيقة ليست نقمة من الله وإنما هي نعمة من الله -عز وجل- للعبد المؤمن والعبد المؤمن يبتلى من عند رب العزة والجلال على قد إيمانه وما يقوم في قلبه من إيمان يحجزه في الحقيقة عن أن يضل أو أن يضيع حينما ينزل به الابتلاء أو يقع في كرب أو ما إلى ذلك. والله أعلم.

الأخ الكريم من السعودية يقول: الحديث الذي هو فيما معناه، الذي يقول في آخره: (فأعانني عليه فأسلم) الذي هو الشيطان يعني، أريد شرحه مختصراً مع الآية التي هي ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ﴾؟

هذا الحديث وارد في صحيح البخاري وغيره وهو أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر: (ما من عبد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة، فقيل للنبي -عليه الصلاة والسلام-: حتى أنت معك قرين من الجن؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى أنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم) هذه (فأعانني عليه فأسلم) وردت بروايتين: (فأسلمَ) و (فأسلمُ) فأسلمَ يعني أن هذا الجن القرين للنبي -عليه الصلاة والسلام- أسلم ودخل في الإيمان بالله -تبارك وتعالى- ومن المعلوم أن الجن ينقسمون إلى فريقين أو إلى قسمين: جن صالح وجن مشرك طالح والرواية الأخرى: (إلا أن الله أعانني عليه فأسلمُ) أي يعني فأنا أسلمُ منه، ومن إيذائه لي فلا يمكن أن يؤذي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-.

وعلى كلا الروايتين إذن لا ينال الشيطان إذن حظاً من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ولا يدخل هذا الحديث إذن في هذه الآية في أن يكون الشيطان قد لبس على النبي -صلى الله عليه وسلم- في القراءة أو أنه أدخل عليه أنه أدخل على لسانه ما ليس من كتاب الله -تبارك وتعالى-؛ لأن الأمر لا يخلو من حالتين كما ذكرت إما أن يكون الشيطان أو الجن الذي مع النبي -صلى الله عليه وسلم- صار من أهل الإيمان وإما أن الله -عز وجل- حمى نبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- من كيد هذا الشيطان، والله أعلم.

الأخت الكريمة من السعودية تقول: هل الحديث: (إن الله يملي للظالم أم للكافر)؟

الحديث يعني قرأته يمكن صباح هذا اليوم أو أمس بهذه الرواية (إن الله ليملي للظالم) ولا يمنع أن تكون هناك روايات متعددة لهذا الحديث، وأذكر أنني مررت أيضاً على هذه الرواية ولكن الرواية التي قرأتها أخيراً: (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته).

فضيلة الشيخ هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه الحلقة؟

السؤال الأول: اذكر أسماء الأنبياء الذين أرسلوا إلى كل من: عاد، ثمود، أصحاب مدين. وما نوع العذاب الذي نزل بكل قوم من هؤلاء؟ مع الدليل لما تذكر.

السؤال الثاني: ليس "العمى عمى البصر" اذكر ما يدل على ذلك من الآيات التي درستها.

السؤال الثالث: اذكر ثلاثة أقوال لأهل العلم في إبطال قصة الغرانيق. وما الصواب في قول الله تعالى: ﴿إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾؟

الدرس السابع

تفسير سورة الحج

فضيلة الشيخ أهلاً ومرحباً بكم

أهلاً بكم ومرحباً وبالسادة المشاهدين والمستمعين ويسرنا في هذا اللقاء المبارك -إن شاء الله تعالى- أن تستمر الحلقات التي أقدمها من سورة الحج بفضل الله -سبحانه وتعالى- وتوفيقه، وهذا اللقاء سأتحدث فيه عن ثلاثة محاور -إن شاء الله تعالى-:

المحور الأول: الكافرون في شك وارتياب من التنزيل الحكيم.

المحور الثاني: فضل الهجرة في سبيل الله، وما وعدهم الله به.

المحور الثالث: بعض مظاهر قدرة الله في الكون.

وهذه المحاور ستستمعون -إن شاء الله تعالى- الآن إلى الآيات التي سيدور الحديث عنها -إن شاء الله تعالى- فمع فضيلة الأستاذ الكريم لنستمع إلى هذه الآيات فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ للهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾.

جزاك الله خيراً.

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن نبينا وإمامنا محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم وبارك وأنعم على عبدك ورسولك ومصطفاك وعلى آله وصحبه ومن سلك سبيلهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين وبعد.

فأجدد الترحيب بكم أيها الحاضرون والمشاهدون الكرام، ومع هذه الآيات التي استمعنا إليها الآن وتبدأ من قول الحق -تبارك وتعالى- ﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾

المحور الأول: الكافرون في شك وارتياب من التنزيل الحكيم:

ذكر الله -عز وجل- في هذه الآية أن الكفار لا يزالون في شك وارتياب من هذا القرآن العظيم، فالكافرون منذ أن بعث النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وإلى يوم الناس هذا في شك وارتياب من الذكر الحكيم الذي جاءهم من عند الله -تبارك وتعالى- وما كان لهم ذلك، وهذا القول في الحقيقة هو القول الظاهر من هذه الآية، حيث إن بعض المفسرين - رحمهم الله تعالى- ذكر أن الشك والارتياب واقع فيما كان الشيطان يلقيه على المشركين وهم يستمعون إلى الذكر الحكيم وهو المراد من قول الله -تبارك وتعالى- فيما ذكرته من اللقاء السابق: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: ٥٢] فقيل بأن الشك والارتياب فيما يلقيه الشيطان، ولكن الواضح أن المراد بشك المشركين وارتيابهم هو في القرآن العظيم وقد قيل بأنهم أيضاً في شك وارتياب من بعثة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وهذا يشمل ما ذكرته الآن من الشك والارتياب في القرآن العظيم؛ لأنهم إذا شكوا في القرآن وارتابوا فيه فقد شكوا في النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لأنه هو الذي نزل عليه القرآن وهو الذي يبلغهم القرآن، وفي الحقيقة وواقع الأمر أن المشركين جميعاً كانوا في شك وارتياب من هذا ومن هذا، وكانوا في شك وارتياب في أمور أخر ذكرها القرآن الكريم وكان الشك والارتياب أكثر ما يكون عند هؤلاء في أمر الساعة وقد تحدثت الآيات عن هذا، وسيأتي ذكر الكلام بعد قليل - إن شاء الله تعالى-.

فالمشركون عمومًا كانوا يرتابون ويشكون في البعث والجزاء، وكانوا لا يجيزون بحال من الأحوال ولا يتصورون أن يبعثهم رب العباد بعد ذلك إلى الدار الآخرة، وفي أوائل هذه السورة المباركة التي تناولتها في هذه اللقاءات ما يبين ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾ [الحج: ٥] وكما قال جل ذكره في سورة الشورى: ﴿أَلاَ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨] هؤلاء إذن - أعني بهم الكفار- في شك وارتياب القرآن العظيم ومن النبي الكريم -صلى الله عليه وآله وسلم-، متى ينتهي هذا الشك؟ ومتى ينقطع هذا الريب؟ سجلته هذه الآية: ﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ حتى تفيد ماذا؟ حتى للغاية، وماذا تفيد، حرف الغاية هنا ماذا يفيد؟ هل أحد يجيب علي؟ حرف الغاية يفيد..

يفيد الاستدراك عليهم في أمر الساعة

لا شك أنه كما هو معلوم أن ما قبل حتى ينتهي إذا تحقق ما بعدها، لأن حتى حرف غاية فتفيد أن ما بعدها إذا وقع وتحقق انتهى وانقطع ما قبلها، فالآية تقول: بأن الكفار والمشركين في شك وارتياب إلى يعني أن الشك والارتياب سينتهي وسينقطع عندما يفاجئوا بالساعة، وهذا معلوم حتى في التاريخ السابق، فالكفار حينما يشاهدون عذاب الله -عز وجل- حتى حينما يشاهدون الموت وهو مقدم أو مقبل عليهم يفيقوا من غفلتهم ولكن لا يفيد ندم أو إيمان في هذا الوقت، ففرعون كان متكبرًا وحينما أدركه الغرق قال: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ﴾ [يونس: ٩٠] فلم ينفعه ذلك، فانتهى تكذيبه عندما كانت أمواج البحر تتلاطمه لماذا؟ لأنه لا سبيل أمامه وقد شاهد العذاب بعينيه، كذلك الكفار هنا والمشركون في شك وارتياب ومتى سينتهي هذا الشك؟ ومتى سنقطع عنهم هذا الرأي حينما تفاجئهم الساعة، ولذلك قال رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-: ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ الساعة تأتي العبادة بغتة كما ذكر ربنا -سبحانه وتعالى- في كتابه، ومعنى بغتة يعني ماذا؟ يعني فجأة، يقال: بغت القومَ أمرُ الله إذا نزل بهم أمر الله -تبارك وتعالى- وهم في سكرتهم، وهنا يقرر القرآن الكريم أن الساعة ستأتي الناس جميعاً وتبغتهم فستأتي عليهم فجأة، إذن سينتهي

ريبهم وشكهم وكفرهم وتكذيبهم عندما يعاينون العذاب ويبعثهم رب العباد -سبحانه وتعالى- ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ اختلف المفسرون في المراد بهذا اليوم ما المراد بقوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾؟ قال بعض المفسرين هو يوم بدر، واختار ذلك إمام المفسرين الإمام الحافظ ابن جرير -رحمه الله تبارك وتعالى- وقال بأنهم لم يجدوا يوماً قضى الله -عز وجل- فيه على المشركين بسوء وكان أول لقاء كما كان في يوم بدر، وقال كثير من المفسرين ومنهم الإمام الحافظ الذي يدور حديثي حول شرح كتابه ألا وهو الإمام الحافظ ابن كثير - رحمه الله تبارك وتعالى- قال: المراد باليوم العقيم هو يوم القيامة، وفي الحقيقة هذا هو القول الصحيح كما نص على ذلك الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- ويسمى باليوم العقيم كما قال عكرمة وغيره، لأنه لا ليل له، وأنه يوم لن يلد بعده يوماً آخر من أيام الدنيا فانتهت أيام الدنيا بهذا اليوم فكأن اليوم بعد ذلك عقيم لا يلد بعد ذلك يوماً آخر، يعني لا يأتي بعد ذلك يوم آخر، ومن قال كالإمام ابن جرير -رحمه الله- بأن المراد باليوم العقيم هو يوم بدر يكون المعنى والتوجيه أن الرجال يقتلون من المشركين في هذا اليوم فكأن النساء لم تلد، والمرأة إذا لم تلد كانت عقيماً.

هنا مسألة مهمة يجب أن أقف عندها وأتحدث عنها في هذه الآية: ﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾ هذه الآية تقرر أمراً مهماً للغاية يدورالكلام حوله في مثل هذه الأيام: ألا وهو متى تكون الساعة؟ هل من مجيب؟ متى تقع القيامة؟ لا تعرفون؟ الله أعلم. قال الله -تبارك وتعالى- في كتابه: ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ إذن الساعة تأتي فجأة، وهذا هو صريح الكلام في كتاب الله - تبارك وتعالى-، ويفهم من ذلك أن من يذهب إلى أن الساعة ستكون في يوم كذا أو في عام كذا أو ما إلى ذلك كل هذا كلام لا دليل عليه ولا برهان مع قائله بل إن القرآن الكريم يقرر عكس ما يذكر هؤلاء الله -تبارك وتعالى- في كتابه أخبر أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- سئل من المشركين مرات عن وقت القيامة، فما كان منه إلا جواب الله -سبحانه وتعالى- الذي أتاه في القرآن الكريم يعني لم يجب من عند نفسه -صلى الله عليه وآله وسلم- ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: ٦٣].

ومن أصرح الآيات في ذلك ما جاء في سورة الأعراف: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧] سؤال للنبي -عليه الصلاة والسلام- متى تكون الساعة؟ بماذا أجاب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-؟ أجاب لأنه سئل أجاب بما أجاب الله به في كتابه ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ١٨٧] وهذا نبي الهدى والرحمة -صلى الله عليه وآله وسلم-، فإذا كان القرآن يقرر وينطق بذلك النبي -عليه الصلاة والسلام- ويقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ إذن لا يأتي بعد ذلك واحد ويقول بأن الساعة ستقع في وقت كذا وسنة كذا وما إلى ذلك ﴿لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] يعني لا يظهرها لوقتها إلا رب العالمين سبحانه ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٧] ثم يؤكد أن الساعة فجأة فيقول: ﴿لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧] يعني ستأتيكم فجأة، ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ﴾ يعني مبالغ في السؤال عنها، قل ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ ولما سئل النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من جبريل -عليه السلام- كما هو في الحديث المشهور الذي افتتح به أحد أئمة الحديث كتابه، من هو؟

الإمام مسلم في كتاب الإيمان.

الإمام مسلم -رحمه الله تعالى- في حديث سؤال جبريل للنبي -صلى الله عليه وسلم- لما سئل عن الساعة بماذا أجاب؟ قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل، إذن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وهو رسول رب العالمين لا يعلم متى تكون الساعة فغيره من باب أولى، فالساعة ستأتي فجأة كما أخبرنا ربنا في كتابه في حديث الصحيحين من حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر في حديث طول أن الساعة تأتي فجأة والناس سائرون في أعمالهم فيقول -صلى الله عليه وسلم-: (ولتقومنَّ الساعة وقد نشر

الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعان ولا يطويانه وعليهما تقوم الساعة) يعني يأتي رجل ليشتري وأمامه رجل آخر ليبيع له هذا يفرد ثوبه أمامه فلا يطوي الثوب ولا يشتري المشتري وعليهم تقوم الساعة، فدل ذلك على أن الساعة ستقوم دون أن يعلم الناس بها، غاية الأمر أن الساعة لها أمارات ولها علامات لابد أيضاً أن يقف عليها المسلمون وأن يتعلموها وأن يعرفوها وعلامات الساعة كثيرة منها أمارات أو علامات متقدمة أو ما تعرف عند بعض أهل العلم بالعلامات الصغرى وهناك علامات كبرى والعلامات الصغرى قد وقعت أو وقع الكثير منها الآن ومنها ادعاء النبوة وكثرة القتل وكثرة الزلازل والخراب وكثرة الزنا والفواحش وما إلى ذلك كل هذا من علامات الساعة، أما علامات الساعة الكبرى فلم تأتِ بعد وستأتي تباعاً ويجب على المسلم أن يتعلم ذلك من كتاب ربه ومن هدي النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

بعد ذلك يقول رب العزة والجلال سبحانه: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ هذه الآية الكريمة أتت بعد هذه الآية الأولى وهي تبين أن الملك في يوم الدين وفي يوم الجزاء وفي يوم القيامة وفي الساعة التي أخبر ربنا -سبحانه وتعالى- عنها سيكون لمن؟ سيكون لله وحده دون سواه، والملك كله لرب العزة والجلال سبحانه، ولكنه ينص على هذا حتى لا يغتر مغتر أو ينخدع مخادع بمن لديه قوة أو سلطان في الدنيا أنه كما ملكه الله شيئًا في الدنيا يمكن أن يكون له شيء من هذا الأمر في الدار الآخرة، ولذلك يقول رب العزة والجلال: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ كما قال -سبحانه وتعالى- في كتابه: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة: ٤] فالله -عز وجل- هو الذي يملك وحده اليوم الآخر ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦] وكما يقول سبحانه: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لاَ يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: ١٦].

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما- أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: (يطوي الله -عز وجل- السماوات والأرض بيمينه ثم يقول: أنا الملك أنا الجبار أنا المتكبر أين الملوك؟ أين المتكبرون؟ أين المتجبرون؟ فلا يرد على رب العزة والجلال أحد كيف وقد أخذهم ربهم -سبحانه وتعالى-؟ فيجيبهم قائلاً: لله الواحد القهار) -سبحانه وتعالى- جل في علاه، والملك أيضاً في الدنيا لله جل ذكره، قلت بأنه نص هنا على أن الملك له في الآخرة حتى لا ينخدع منخدع بأن بعض الناس لهم من الملك في الدنيا، فقد يكون لهم كذلك في الدار الآخرة؟ لا... الملك حتى في الدنيا هو لله -سبحانه وتعالى- وحده، وإن أعطى الله -عز وجل- بعضاً من عباده شيئًا من الملك فهو ملك يسير، أو ملك جزئي، أو ملك محدود، أو ملك نسبي ضعيف، يعني ليس من الملك الكامل الذي يتصرف فيه المالك كما يشاء، فالملك في الحقيقة لله، وإذا ملك اليوم ملكاً على قوم من الناس، فإن الله -عز وجل- هو الذي ملكه، وملكه إما أن يزول هو عن هذا الملك وإما أن ينصرف الملك عنه، والله -عز وجل- هو مالك الممالك: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦] سبحانه وتعالى وهو بهذا يثني على نفسه، فملوك الدنيا، من الذي ملكهم رب العالمين -سبحانه وتعالى-، وهم مستخلفون فيما ملكهم الله -عز وجل- إياه، ولذلك أخبر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن أخنع اسم عند الله -عز وجل- ما هو؟ شاهٍ شاه، يعني ملك الملوك أو ملك الأملاك لماذا؟ النبي -عليه الصلاة والسلام- بين قال: (لأنه لا ملك إلا الله) فالذي يتسمى بملك الملوك كما يطلق في بعض البلاد شاه شاه مثلاً كل هذا من الافتراء على الله -تبارك وتعالى-، ومن البهتان الذي لا يليق بأحد من البشر، بمخلوق ضعيف أن ينسب إلى نفسه ذلك، لأن ملك الملوك من؟ هو رب العالمين سبحانه وحده دون سواه.

ثم عقب رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- على قوله: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ عقب على هذا بقوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾ وهذا تفصيل للحكم الذي يحكم به ربنا بين العباد، لأنه قال: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ ما هو الحكم الذي يحكم الله به؟ فصلته هذه الآية لأن الناس كما سبق أن أشرت إليكم فريق في الجنة وفريق في السعير فالذين في الجنة قال الله عنهم: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ من آمن بالله -عز وجل- وصدق بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وعمل الصالحات وآثر عبادة الله -تبارك وتعالى- فهذا في جنات النعيم أما

من كفر وكذب واستكبر فهذا الذي هو في العذاب المهين، الذي أخبر عنه ربنا -سبحانه وتعالى- وقد جاءت الآيات في القرآن الكريم تبين كثيرًا مما أنعم الله -سبحانه وتعالى- به على عباده وتبين أيضاً كثيرًا مما يصيب به المكذبون الذين كذبوا بالله وبرسوله -صلى الله عليه وآله وسلم-، ولعلي أذكركم بقول الله -تبارك وتعالى- فيما مضى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ ثم بيَّن رب العزة والجلال ماذا لهذا وماذا لهذا وقد سبق أن أشرت إلى هذا في اللقاءات السابقة.

المحور الثاني: فضل الهجرة في سبيل الله -عز وجل- وما وعد الله به المهاجرين:

الهجرة لها فضل عظيم، ولها شأن كبير، وهذه الآية التي معي الآن بينت ذلك وهي قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾﴾

الهجرة: هي الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، وقد هاجر كثير من صحابة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بعضهم هاجر إلى الحبشة وبعضهم هاجر إلى المدينة وبعضهم اشترك في الهجرة إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة النبوية، والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- هاجر من مكة المكرمة إلى طيبة الطيبة مدينة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وكتب الله ولمن كان معه من الصحابة ثواباً عظيماً لهذه الهجرة، والآيات التي معنا أو الآية التي معنا الآن، تقرر هذا الأمر بوضوح، ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا﴾ وهذه الآية تبين أن المهاجرين ينقسمون إلى قسمين:

مهاجر يقتل في سبيل الله -عز وجل- ومهاجر يموت على فراشه، وكلاهما أعد الله له أجراً عظيماً، بنص القرآن الكريم حتى في غير هذه الآية، فمثلاً المهاجر الذي يقتل في سبيل الله -تبارك وتعالى- ماذا قال الله -سبحانه وتعالى- عنه؟ الذي يقتل في سبيل الله -عز وجل-: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩] هذا فيمن قُتِل في سبيل الله -عز وجل-.

أما من مات على فراشه، هاجر في سبيل الله -عز وجل- ولم يُقتَل في سبيل الله -تبارك وتعالى- أيضاً له أجر عظيم وذلك بنص التنزيل كما قال رب العزة والجلال في كتابه: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ [النساء: ١٠٠] ومن وقع أجره على الله كان له من الله -عز وجل- حسن الثناء وحسن الثواب، والمآل الطيب الحسن، وقد أخبر ربنا -سبحانه وتعالى- عن هذا المآل في هذه الآية، فبعدما قال: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ اللام هنا لام ماذا؟ قسم يعني أقسم الله -عز وجل- أنا لا أغشش، أقسم الله -عز وجل- بأن هؤلاء سيرزقهم رزقاً حسناً، ورزق الآخرة عظيم وكريم يقول عبد الله بن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في هذا الرزق الحسن قال: (فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) والله -عز وجل- أثنى على هذا الرزق الحسن وذكره في كتابه في مقام الإشادة به، ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩] هذا شيء من الرزق الحسن، الذي سيرزق الله -سبحانه وتعالى- به من جاهد في سبيله أو خرج مهاجراً في سبيل الله -عز وجل- أو من أقام الدين وطبقه ونفذه لله -تبارك وتعالى-، كل هؤلاء جميعاً موعودون بالرزق الحسن، العميم في الدار الآخرة من الله -تبارك وتعالى-، ورزق الآخرة كما ذكرت كبير وواسع وعظيم، خاصة وأنه من عند الكبير -سبحانه وتعالى-. الناس في هذه الدنيا يرزقون كل الناس ترزق، البر والفاجر والمؤمن والكافر فالهواء الذي نستنشقه رزق من الله -تبارك وتعالى-، والطعام الذي نأكله رزق من الله -تبارك وتعالى-، والأمم كلها تشترك في ذلك، سواءً كانوا من المؤمنين أو من الكفار، ورزق الدنيا أيضاً يتفاوت أما الرزق الذي أعده الله -عز وجل- للمؤمنين في الدار الآخرة فهو رزق أفضل وأعظم من رزق الدنيا بكثير، بل إن الإنسان لا يستطيع أن يقارن بين هذين الرزقين: الرزق في الدنيا قد يفسد وقد يتحلل وقد لا

تتمكن من الحصول عليه بسهولة وقد تعجز عن الحصول عليه أو على ما تشتهيه أما رزق الآخرة فهو لا ينفد ولا ينقطع، ولا ينتهي، ولذلك أهل الجنة يذكرون هذا النعيم وهم في الجنة، وهم يتنعمون برزق الله –تبارك وتعالى– عليهم يقولون: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ [ص: ٥٤] ويقول جل ذكره: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] يعني صباحًا ومساءً وطول الوقت رزق الله –تبارك وتعالى– لأهل الجنان دائم لا ينقطع، ولا ينتهي، ولا يجد المؤمنون في الجنة عناءً في الحصول عليه بل كلما اشتهوا شيئًا وجدوه بين أيديهم، بل في أفواههم.

وهذا الرزق العميم مع كثرته وسيكون لأهل الإيمان –ونسأل الله أن نكون منهم– سيحرم رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– منه الكافرين، بنص القرآن الكريم تأملوا هذه الآية من سورة الأعراف: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأعراف: ٥٠] وهذا الرزق الذي يرزق الله –سبحانه وتعالى– به أهل الإيمان سيرضيهم، وسيشعرون بالسعادة وهم يتلقون هذا الرزق وهذا هو معنى قول الحق –تبارك وتعالى–: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: ٢٨] وهو معنى الحق –تبارك وتعالى–: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢] ثم ختم رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– هذه الآية بقوله: ﴿وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ وهذا ختام جميل وتذييل يتناسب مع أول الآية ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ...﴾ إلى آخره يختم ربنا –عز وجل– هذه الآية بقوله: ﴿وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ عليم بأي شيء؟ عليم بما يُرضي أهل الإيمان فيعطيهم ما يستحقونه حتى يرضى أهل الإيمان، أو عليم بما يستحقونه فيفعله –سبحانه وتعالى– بهم، وأيضاً حليم فهو يؤخر العقوبة ولا يعاجل من اقترف ذنباً من أهل الإيمان لعله يرجع إلى الله –تبارك وتعالى–، أو من تأخر في الهجرة أو التوبة، وظهرت له فليرجع والوقت إن كان كافياً، فرب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– عليم حليم.

الهجرة قد انقطعت أم لم تنقطع قبل أن أنتقل من هذه الآية؟ الهجرة انقطعت أم سائرة؟

نعم هي سائرة إلى يوم القيامة

من أين أكمل الجواب؟

على تقسيم على أساس تقسيم فضيلتكم للهجرة

طبعاً قائمة من دار الكفر إلى دار الإيمان، ولكن كيف نجمع بين هذا وهذا كلام صحيح وبين قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: (لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية)؟ ما معنى (لا هجرة بعد الفتح) ونحن نقرر الآن أن الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإيمان ما زالت قائمة؟ (لا هجرة بعد الفتح) يعني لا هجرة بعد أن فتح الله مكة على نبيه –صلى الله عليه وآله وسلم–، لأن مكة أصبحت دار إسلام، وبعد أن أصبحت دار إسلام فلا هجرة فيها، وهذا الحديث كان له سبب بأن رجلاً أتى إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– ومعه أخوه يريد أن يهاجر، إن أخي يريد أن يهاجر يا رسول الله بعد فتح مكة، فقال النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–: (لا هجرة بعد الفتح) وقبل أن أنتقل من هذه النقطة أفيدكم فائدة عظيمة جداً، يستبشر بها أهل الإيمان سمعتها من شيخي –رحمه الله تعالى– الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين وأنا أدرس عليه في الحرم المكي وهو يتعرض لهذا الحديث قال: هذا فيه بشارة بأن مكة ستظل على الدوام دار إسلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لأن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: (لا هجرة بعد الفتح) ومعنى أنه (لا هجرة بعد الفتح) يعني لا هجرة من مكة إلى غيرها بعد أن فتح الله مكة أنها ستصبح دار إيمان وإسلام، ولن يهاجر منها المؤمنون بعد ذلك، وهذه بشرى لكم يا أهل الإيمان فكعبتكم مصونة بفضل الرحمن.

طيب هناك مثل سائر عند الناس وبين طلبة العلم، ما أدري تعرفونه أم لا؟ ألا وهو لا هجرة بعد الفتح، هـذا مثل سائر، فما معناه؟ من الأمثال السائرة بين طلبة العلم؟

لا هجرة في طلب الحديث بعد فتح الباري

يعني بعد فتح الباري للحافظ ابن حجر -رحمه الله تبارك تعالى- يعني لا هجرة في طلـب العلـم أو طلـب الحديث وهذا يعني فيه ثناء جميل على هذا الكتاب القيم لأنه في الحقيقة جمع بين الحديث وبين الفقه وبين علـم مصطلح الحديث وبين اللغة وبين الأدب والرقائق، وما إلى ذلك، رحمه الله تبارك وتعالى.

المحور الثالث: بعض مظاهر قدرة الله -تبارك وتعالى- في الكون:

وأبدأ فيه بقول الحق -تبارك وتعالى- ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ كان الأستاذ الكريم ينظر إلي الآن ويقول هذا المحور كيف تبدأ به بهذه الآية؟

هذه الآية تبين عظمة الله -عز وجل- وأنه ينصر المظلومين وهذا فيه تأكيد على قدرة رب العزة والجـلال سبحانه، وافتتح رب العزة والجلال هذه الآية بقوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ ذلك معناها ماذا؟ قال الزجاج وهو إمام من أئمة اللغة: أي الأمر ذلك، والمعنى يعني ما قصصناه عليك من أن من جاز ظالماً بمثـل ظلمه دون اعتداء عليه ثم بُغي على المظلوم بعد ذلك، لينصرنَّ الله -تبارك وتعالى- المظلوم.

وهنا لفتة قرآنية جميلة لأن فيها عبارة بلاغية لغوية عظيمة: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِـهِ﴾ عاقـب يعني جازى، يعني أنت إذا جئت لتأخذ حقك من الذي ظلمك هل أخذ حقك منه يسمى عقوبة، هذا جزاء حـسن، أنت تأخذ حقك منه، فكيف يطلق القرآن الكريم على الجزاء عقوبة، قال علماء اللغة: بأن هذا من المشاكلة فـي اللفظ، يعني لكي يكون بين اللفظين تجانس ومشاكلة ونظيره قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَـيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] فيمن يقتص من الذي قتله، طيب السيئة الأولى هي القتل، والثانية قصاص، والقـصاص حسن وهو مطلوب، ومع هذا قال الله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ [الـشورى: ٤٠] السيئة الثانية هنا جاءت من باب المشاكلة، ويمكن أن نعتبرها أو سيئة أو عقوبة بالنظر إلى المعنى الـذي تحدثه في المعاقب، حتى ولو كان ظالماً، فهو يشعر بألم أم لا يشعر بألم؟ ومن هنا يطلق عليه عقوبة لأنه يقـع على من؟ يقع على الظالم. الشاهد أن الله -تبارك وتعالى- ذكر في هذه الآية أن من عاقب بمثل ما عوقب بـه يعني أخذ حقه من ظالمه دون أن يزيد عليه، ثم رجع الظالم على هذا المظلوم بالبغي والعدوان، فـرب العـزة والجلال هنا يخبر أنه سينصر من؟ سينصر المظلوم ويقف إلى جواره، ويختم هذه الآية بقولـه: ﴿إِنَّ اللهَ لَعَفُـوٌّ غَفُورٌ﴾ وهذا الختام حقاً حسن، لو تأملتموه يا طلبة العلم، لأن فيه تحريضاً وندباً إلى العفو والمسامحة، وقد قرر ذلك القرآن الكريم في مواطن متعددة، فقول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقـرة: ٢٣٧] وكما قال سبحانه: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِـيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: ٣٤] ويقول سبحانه: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: ٤٣] إذن تذييل الآية، والله -عز وجل- يتكلم عن المجازاة والعقاب ويبيح للمظلوم أن يأخذ حقه مـن ظالمـه، بالطرق المشروعة طبعاً وبمن يقيم الحدود حينما تقام في البلاد والدول، فالإنسان لا يستطيع أن يجازي هو مـن ظلمه بنفسه في كثير من الأحيان وإنما يعرض هذا الأمر على من يتولون الحكم في البلاد بين الناس، فمن ظلـم إنساناً مثلاً وأخذ المظلوم حقه من هذا الظالم دون أن يعتدي عليه ثم رجع الظالم بعد ذلك على المظلـوم فلـيعلم المظلوم في هذه الحالة أن ربه -سبحانه وتعالى- سينصره، وإن عفا المظلوم في الدار الآخـرة عـن الظـالم فسيجمع رب العزة والجلال بينهما في يوم الدين ويأخذ أو ينال حقه عند الله -تبـارك وتعـالى- ورب العـزة والجلال يصلح بين المؤمنين إن كانوا مؤمنين في يوم الدين أو يأخذ حق المؤمنين من الكافرين أيضاً فـي يـوم الدين.

ثم يقول رب العزة والجلال سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾ هذه الآية عظيمة، ولها تعلق بالآية التي قبلها من وجهين: انتبه معي، الآية هذه لها تعلق بالآية التي قبلها من وجهين:

الوجه الأول: أن ذلك النصر المشار إليه في قوله: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ اللهُ﴾ بسبب أن الله -سبحانه وتعالى- قادر ومن كمال قدرته أنه يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل.

الوجه الثاني: أن المراد أن الله -سبحانه وتعالى- مع ذلك النصر ومع هذه القوة ومع هذه العظمة، ينعم على عباده ويتفضل عليهم، ومن ذلك الإنعام: إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل.

ومعنى ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ يعني أنه -سبحانه وتعالى- يدخل هذا في هذا ويأخذ من هذا في هذا، وإدخال أو إيلاج الليل في النهار نعمة من الله -سبحانه وتعالى- على عباده امتن بها عليهم، فوجود ليل ونهار، هذا يعين الكائنات الحية على أن تراوح بين نومها ويقظتها، وعملها وراحتها، وصدق الله -عز وجل- حينما قرر ذلك فقال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ: ١٠، ١١] والله -عز وجل- حينما يقول هنا: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ ويشير إلى ذلك، ويشير إلى شيء من عظمته وقدرته في هذا الكون، يعلم البشرية والخلق جميعاً ومن يعقل أنه لا يستطيع أحد أن يفعل ذلك إلا رب العالمين -سبحانه وتعالى- وتأملوا هذه الآيات من سورة القصص: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ﴾ [القصص: ٧١] إن كان الليل دائماً أبد الآباد عليكم إلى قيام الساعة هل يستطيع أحد غير الله -عز وجل- يأتيكم بضياء؟ ثم يعقب على ذلك فيقول: ﴿أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص: ٧١، ٧٢] إن كان النهار دائماً أبد الآباد هل هناك أحد يستطيع أن يأتي العباد بليل يسكنون فيه؟ حاشا وكلا، فالذي يفعل ذلك على الحقيقة من؟ هو رب العالمين -سبحانه وتعالى، جل في علاه- وهذا من رحمة الله -سبحانه وتعالى- بعباده فإيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل يعني نقصان الليل ونقصان النهار ونحن نشاهد ذلك، فليل الشتاء طويل، أخذ من نهار هذا الشتاء، وليل الصيف قصير، أخذ النهار من ليل الصيف، وهكذا، هذا معنى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ والتعبير بـ ﴿يُولِجُ﴾ هنا له فائدة، وهي ماذا؟ أن إيلاج الليل في النهار لا يأتي بغتة، وإنما يأتي على التدريج، الله -عز وجل- لم يقل يدخل الليل في النهار، وجربوا أنفسكم حينما تكونون في ظلمة قاتمة ثم تنتقل منها إلى ضوء ساطع شديد قوي هذا يؤثر عليك وعلى أعصابك، ولكن حينما تتدرج من النهار إلى الليل ومن الليل إلى النهار تكون في هدوء وتكون في راحة ولا تتأثر أي حاسة أو أي عصب من أعصابك بحال، وهذا من رحمة الله -سبحانه وتعالى- بعباده، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾ هذان اسمان من أسماء الله -تبارك وتعالى-، يفيدان أيضاً أن الله يتصف بالسمع والبصر، ومعنى ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ يعني سميع بما يقول عباده، بصير فلا تخفى عليه حركاتهم فهو -سبحانه وتعالى- يسمع كل شيء ويرى كل شيء -جل في علاه- الله -عز وجل- يرى ما تحت طبقات الثرى كما يرى ما تحت دون عرشه -سبحانه وتعالى- الكل عند الله -سبحانه وتعالى- سواء، كما أنه يسمع حتى دبيب النمل وهذا من عظمة رب العزة والجلال سبحانه، ونحن يجب علينا أن نفقه هذه المعاني لكي نعرف عظمة وجلال وقدر الله -عز وجل-.

أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها- أثنت على رب العزة والجلال بصفة السمع، لما جاءت المجادلة تجادل النبي -عليه الصلاة والسلام- وهي خولة -رضي الله تعالى عنها- في زوجها تقول أم المؤمنين عائشة: (في ناحية من نواحي البيت) والبيت يعني يكون ماذا حجمه؟ قليل، تسع غرف لأصحاب النبي -عليه الصلاة والسلام-، ترون مكانها في مسجد النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- الآن، يعني مترين في مترين وإن زاد ثلاثة في ثلاثة ليس إلا، تقول أم المؤمنين عائشة: (أنا في ناحية البيت وجاءت المجادلة تجادل النبي -عليه الصلاة

والسلام- ولم أسمع كثيرًا أو لم أسمع بعض كلامها وسبحان من سمع كلامها من فوق سبع سماوات) ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ﴾ [المجادلة: ١] فهو -سبحانه وتعالى- يسمع شكوى الشاكي ومناجاة المناجي ودعاء الداعي واختلاف المختلف وكل ما يكون يسمعه رب العالمين -سبحانه وتعالى جل في علاه- كذلك يبصره رب العزة والجلال وقد جمع بينهما في قوله لموسى وهارون -عليهما السلام-: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦] أسمع ما يقال وأرى ما يفعل، وهذا يفيد إثبات صفتي السمع والبصر لرب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-.

ويستمر السياق في ذكر بعض المعاني الدالة على قدرة رب العزة والجلال سبحانه، فطالما أنه يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، وأنه سميع عليم إذن هذا هو الإله الحق، ولذلك عقب على ذلك بقوله -سبحانه-: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ والله -عز وجل- هو الحق، واسمه الحق وفعله الحق وكلامه حق وما خلقه -سبحانه وتعالى- خلقه بالحق، والقرآن الكريم الذي نزل من عند رب العالمين ما أنزله ربنا -سبحانه وتعالى- إلا بالحق فلقاء الله حق ووعد الله حق وجنة الله حق ونار الله حق وكل ما أخبر الله -تبارك وتعالى- به حق؛ لأنه -سبحانه وتعالى- هو الحق، ولذلك يقول عن نفسه: ﴿لَهُ﴾ لا لغيره، ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ [الرعد: ١٤] وهنا يقرر ذلك قائلاً: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ وطالما أنه هو الحق فلا يُعبد إلا هو ولا يتوجه الإنسان لغير هذا الحق -سبحانه وتعالى-، ولذلك عقب على قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ عقب على ذلك بقوله: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ وهذه حقيقة، كل من دُعي من دون الله -تبارك وتعالى- باطل، لأنه لا يملك شيئًا، وليس لديه شيء ولا يستطيع أن يجيب دعاء من دعاه، وكيف يجيبه وهو لا يسمعه، والقرآن الكريم يقرر ذلك في مواطن متعددة ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] إن دعوتموهم وتوجهتم إليهم وطلبتم منهم لا يسمعونكم لأنهم إما أصنام وأوثان أو رجال غيبوا تحت الأرض وتحت الثرى، فلا يشعرون ولا يتحركون، ولا يملكون من وسائل الحياة التي هي عند الأحياء فكيف يا أيها الأحياء تدعون من هذه صفته؟ ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ﴾ وعلى فرض ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤] ولذلك كل من دُعي من دون الله -تبارك وتعالى- فهو باطل وضلال أما الذي يُدعى بحق فهو رب العالمين -سبحانه وتعالى- وعقب أيضاً على ذلك بقوله: ﴿وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ وهذا أيضاً تذييل جميل وختام حسن لهذه الآية، تحتاج إليه أول الآية طالما أنه حق وأنه هو الذي يستجيب الدعاء وأن غيره لا يملك من الأمر شيئاً، قد يسأل سائل لماذا كل ذلك؟ الجواب: لأن الله هو العلي الكبير، كلمة ﴿الْعَلِيُّ﴾ تفيد معاني عظيمة وكثيرة للغاية، تفيد علو الذات فالله -عز وجل- فوق عرشه بائن من خلقه - جل في علاه- والجميع تحت رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- لأنه كما أخبر عن نفسه في كتابه بأنه استوى على العرش وأهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك ويؤمنون باستواء الله على عرشه استواءً يليق بجلال الله وكماله، دون تشبيه أو تمثيل أو تأويل أو ضعف، فهو العلي بجميع ما تحمله هذه الكلمة من معنى، علو الذات وعلو الشأن، وعلو المكانة، وعلو القهر، جل جلال ربنا -سبحانه وتعالى-، ولذلك الإنسان حينما يسجد يقول ماذا؟ سبحان ربي الأعلى، لأنه في هذا الموطن قد وضع أشرف أو أعلى شيء فيه على الأرض ثم يشعر في قرارة نفسه أن رب -سبحانه وتعالى- فوقه، كذلك الملائكة يخافون ربهم من ماذا؟ كما أنك أنت يا عبد الله تسجد لربك وتعترف بأنه هو الأعلى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى: ١] كذلك الملائكة يخافون ربهم من أين؟ ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] أما الكبير فهو الكبير المتعال -سبحانه وتعالى- فلا أعظم ولا أكبر من الله -عز وجل- بحال من الأحوال ولا يمكن أن يخطر على بشر أو على عقل عاقل أنه يكون أو يدعي أو يزعم أنه أعظم أو أعلى أو أكبر من الكبير المتعال جل في علاه.

ثم يقول -سبحانه وتعالى-: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ ما زال السياق قائماً ويعدد بعض مظاهر قدرة الله -تبارك وتعالى- وما ذكر في هذه الآية شيء من ذلك، تعالوا معي أولاً لنعرف ما المراد بالرؤية هنا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾؟ هل يا ترى هل رؤية بصرية أم رؤية علمية؟

رؤية علمية

أحسنت رؤية علمية، الظاهر وقد قال بذلك بعض المفسرين أنها رؤية بصرية، هذا الظاهر، لماذا؟ لأنه يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ إنزال الماء من السماء واخضرار الأرض أمر يشاهد بالأبصار أم لا؟ فقال بعض المفسرين الرؤية بصرية.

ولكن الراجح -والله أعلم- أن المراد بالرؤية هنا الرؤية العلمية لماذا؟ قيل: لأن إدراك أن الله هو الذي ينزل المطر من السماء لا يكون إلا بالعلم، ولا يدرك هذا الأمر كثير من الكفار والمشركين، لا يدركون أن الله بيده وحده، الذي ينزل المطر من السماء إلى الأرض وبيده وحده الذي ينبت البقل من الأرض، أو النبات من الأرض، فإدراك الإنسان لذلك هو العلم، والرؤية إن كانت بصرية، دون علم يقوم بها فلا فائدة منها، ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يعني ألم تعلم، وبعض المفسرين قال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هنا على سبيل الاستفهام، يعني ألم تخبر؟ وقد يكون هذا بعيد، فالرؤية كما هو الراجح أنها رؤية علمية، يعني إذن ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يعني ألم تعلم، ماذا نعلم؟ ﴿أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ في الحقيقة إنزال المطر من السماء نعمة من الله -تبارك وتعالى- على عباده، ولا يقدر أيضاً على شيء من هذه القدرة أو على أمر من هذه الأمور إلا خالق السماوات والأرض -سبحانه وتعالى، جل في علاه- فالله -عز وجل- وحده هو الذي يقدر على إنزال المطر من السماء، والآية فيها إشارة جميلة عندما نقول: إن الرؤية هنا رؤية علمية لماذا؟ لأن الله -عز وجل- يعلم -سبحانه وتعالى- ويوجه المطر إلى المكان الذي يَنبُت فيه الزرع، وإلى مكان البذور التي وضعت في الأرض حتى تنبت بإذن الله -تبارك وتعالى-، ولا يعلم ذلك إلا من؟ إلا رب العالمين -سبحانه وتعالى-، ويؤكد هذا المعنى ما جاء على لسان لقمان -عليه السلام- حينما قال لابنه ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَ﴾ ماذا؟ ﴿يَأْتِ بِهَا اللهُ﴾ [لقمان: ١٦] -سبحانه وتعالى-، أما غيره من المخلوقين فلا يستطيعون شيئًا من ذلك بحال من الأحوال، فالله -عز وجل- هو الذي ينزل المطر من السماء وهو الذي يُنبت الأرضَ -سبحانه وتعالى- بقدرته، وهذا الإنزال من السماء، والإنبات من الأرض يدل دلالة واضحة على شيء سبق أن قلته وذكرتكم به ما هو؟ وسبق أن تحدثنا عنه في اللقاءات السابقة؟ على أي شيء بالذات؟ هذا طبعاً لا شك أنه دليل قوي على قدرة الله -تبارك وتعالى-، ولكن على قدرته على البعث والنشور على وجه الخصوص، لقول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٣٩] بعدها ماذا؟ هذه الآية؟ ﴿أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ اهتزت بالنبات وانتفخت الأرض به، بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩] فكما أحيى هذه الأرض الجرداء كذلك أيضاً يحيي رب العالمين -سبحانه وتعالى- الأرض بعد موتها.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ قيل: ﴿فَتُصْبِحُ﴾ يعني تصير، ويصبح لا إشكال في ذلك، ولكن على ﴿فَتُصْبِحُ﴾ على ظاهر الآية ؟ يعني ينزل المطر في الليل نصبح في الصباح نجد الأرض مخضرة؟ الفاء لا تفيد ذلك، لأن الفاء تفيد الترتيب والتعقيب المباشر، قال العلماء: بأن التعقيب هنا في كل موطن بحسبه، الله -سبحانه وتعالى- لما قال: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ [المؤمنون: ١٤] الفاء هنا للتعقيب ولكن السنة النبوية المطهرة كما في الصحيحين وغيرهما بينت أن بين كل شيئين من هؤلاء كم؟ أربعون يوماً، إذن فتعقيب كل شيء على حسبه. ﴿فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ هنا مسألة: المطر إذا نزل من السماء اخضرت الأرض وهذا أمر مشاهد ومعلوم، ولكن هنا رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- عطف الفعل المضارع على الماضي ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ ﴿أَنْزَلَ﴾ هذا فعل ماضٍ، و ﴿تُصْبِحُ﴾ فعل مضارع، عطف المضارع على الماضي هنا لفائدة عظيمة جداً، وهي ماذا؟

دوام إنزال المطر واخضرار الأرض في وقت بعد وقت، وأيضاً يفيد استحضار الهيئة التي عليها الأرض من الاخضرار والفعل الماضي لا يفيد ذلك، فكأن القرآن الكريم ينادي على المخاطبين استحضروا دائماً إنزال المطر

من السماء واخضرار الأرض بهذا المطر الذي نزل من عند الله -تبارك وتعالى-، لأنها آيات مشاهدة بين الحين وبين الآخر وما ذاك إلا لأن الله -سبحانه وتعالى- ﴿لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

﴿لَطِيفٌ﴾ يعرف دقائق الأمور و﴿خَبِيرٌ﴾ يعلم خفايا الصدور، وأود أن أعود في اللقاء القادم - إن شاء الله تبارك تعالى- إلى كلمة ﴿إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ وما بعدها لأني أود أن أقف عندها - إن شاء الله تعالى- وقفة يسيرة لأن وقت البرنامج قد انتهى معنا الآن فأكتفي بهذا وأسأل الله -عز وجل- أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأعوذ بالله أن أذكر به وأنساه، وصلِّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

إجابات الحلقة الماضية:

السؤال الأول: اذكر أسماء الأنبياء الذين أرسلوا إلى كل من: عاد، وثمود، وأصحاب مدين. وما نوع العذاب الذي نزل بكل قوم من هؤلاء مع الدليل لما تذكر؟

وكانت الإجابة:

عاد: أرسل الله إليهم هود -عليه السلام- قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لاَ يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت: ١٥، ١٦].

قوم ثمود: أرسل الله إليهم صالحاً -عليه السلام- قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [فصلت: ١٧] وقال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف: ٧٧، ٧٨].

أصحاب مدين: أرسل الله إليهم شعيباً -عليه السلام- قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [هود: ٩٤].

الإجابة صحيحة لكن كنت أتمنى من المجيب أن يذكر أيضاً لأني طلبت منه أن يستدل من القرآن على ما يقول والآيات التي ذكرها مع صالح وشعيب -عليهما السلام- فيها اسم صالح وشعيب -عليهما السلام- أما لم يأتِ ذكر لهود -عليه السلام- فلو ذكر اسم النبي هود في قول الله -تعالى-: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥] لاكتمل الجواب تماماً، والله أعلم.

السؤال الثاني: «ليس العمى عمى البصر» اذكر ما يدل على ذلك من الآيات التي درستها.

وكانت الإجابة:

قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].

إجابة صحيحة.

السؤال الثالث: اذكر ثلاثة أقوال لأهل العلم في إبطال قصة الغرانيق. وما الصواب في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: ٥٢]؟

وكانت الإجابة:

كثير من العلماء أبطلوا قصة الغرانيق لاعتبارات كثيرة منها:

١- أنه لا يمكن أن يتصور أن محمدًا -صلى الله عليه وسلم- يتقول على الله ما لم ينزل من الكتاب، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤- ٤٦].

٢- أن في سياق السورة نفسها -سورة النجم- ما يدل على بطلان هذا الحديث فقد جاءت السورة مبينة بطلان هذه الآلهة التي لا تضر ولا تنفع، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣]

٣- ذكر الحافظ ابن كثير أن هذه الروايات التي تذكر هذه الروايات كلها روايات جاءت من طرق مرسلة وأنها ليست صحيحة، والرأي الراجح في تفسير هذه الآية أن التمني هنا بمعنى القراءة وأن الشيطان كان يلقي وساوس حول ما يقرأ به النبي -صلى الله عليه وسلم-، فكان يقول: سحر وكهانة وكان المشركون يتلقون هذا القول ويقولون به، فهم أي المشركون يتلقون هذه الشكوك من الشيطان وكيد الشيطان في هلاك وخسران، فقد جعل الله في هذه الوسوسة للشيطان من باب الفتنة لمن كان في قلبه مرض.

الجواب سليم وصحيح، جزى الله خيراً المجيبب.

فضيلة الشيخ هناك سؤال من الأخت الكريمة من فلسطين تقول: ما هو الفرق بين ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ و﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ و﴿عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾؟

الحقيقة يعني ليست هناك فروق متنوعة بين هذه الألفاظ التي ذكرتها السائلة الآن ولكنها كلها تطلق على عذاب الله -تبارك وتعالى- فالعذاب المبين أو المهين أو الرجز كله يشترك في أنه وصف للعذاب بأنه أليم وشديد أو محرق كما جاء في بعض الآيات وقد سبقت الإشارة إلى شيء من ذلك.

الأخت الكريمة من السعودية تقول: أليست الكعبة ستهدم في آخر الزمان؟

بلى هذا صحت به الأحاديث ولكن في الوقت الذي ستهدم فيه الكعبة وهذا تقدير كوني من رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- فيأذن بعده رب العزة والجلال بنهاية العالم لأن الأحاديث التي وردت في نهاية الساعة أخبرت وصحت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- (أنه سيرسل ريحاً طيبة أو نسمة ريح طيبة قبل قيام الساعة فتقبض روح كل مؤمن ومؤمنة ولا يبقى إلا الكافرون والمشركون والمنافقون، وعليهم تقوم الساعة) فلا حاجة لوجود الكعبة وقتئذ -إن شاء الله تبارك وتعالى-.

أعتقد فضيلة الشيخ أنها تريد أن تربط بين هذا الحديث وبين كلام فضيلتكم عن أن مكة ستظل إسلامية؟

لا، هذا طبعًا واضح، يعني مكة تظل باقية -إن شاء الله وتعالى- وفيها الكعبة المشرفة وهدم الكعبة في آخر الزمان لن يكون بعده أو هناك من يعبد الله -تبارك وتعالى- حتى نقول بأننا بحاجة إلى دار إيمان أو هناك كعبة يزورها حجاج أو معتمرون أو يصلي عندها من يصلي، فسيكون هذا في نهاية هذا العالم -إن شاء الله تبارك وتعالى- فلا تعارض بين الأمرين.

الأخ الكريم يقول: ذكرتم فضيلتكم أن فرعون قال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] ومع ذلك لم تقبل توبته، لأن التوبة عند المقابلة أو المعاينة لا تقبل؟

نعم هذا صحيح، ونص العلماء قالوا يعني عند الغرغرة، يعني عند خروج الروح من البدن، فلا تقبل التوبة، لماذا؟ لأن ملك الموت كا جاء في الحديث يأتي ويجلس عند رأس الميت ويجلس أعوان ملك الموت، عندما يراهم هو ببصره ويتولى ملك الموت قبض الروح، هنا الميت يعاين هذا كله، فكأن الأمر أصبح الذي كان يكذب به حقيقة واقعة بين يديه لا يجد مناصاً من إنكاره أو التكذيب به، فإذا آمن في هذه اللحظة لا يقبل إيمانه كما أيضاً لا يقبل إيمان من آمن بعد طلوع الشمس من مغربها، فإذا طلعت الشمس من مغربها هي آية أو علامة من علامات الساعة الكبرى، كل كافر كان موجود في ذاك الوقت ويريد أن يؤمن لا يقبل الله -تبارك وتعالى- منه الإيمان.

فضيلة الشيخ الأخت الكريمة لها سؤالان تقول: فضيلة الشيخ حفظكم الله أستأذنكم أن توضحوا لي قوله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ [الحج: ٥٣] هل ما يلقيه الشيطان في تلاوة وقراءة النبي -صلى الله عليه وسلم- شيء مسموع مثلاً؟ أم هو كناية عن فهم خاطئ يفهمه مرضى القلوب والقاسية قلوبهم؟

بالنسبة لما يلقيه الشيطان وقد سبق أن ذكرت ذلك في اللقاء السابق هي وساوس يوسوس بها إلى الكفار والمشركين يسمعهم إياها، أو يجريها على ألسنتهم، أو يضعها في قلوبهم، فهذه الوساوس التي يلقيها الشيطان تصل إلى أسماع المشركين من طرق متعددة فالشيطان إما أن يسمعهم إياها وإما أن يوسوس أو أن يوقع بها في قلوبهم وما إلى ذلك، وما يفعله الشيطان كما نصت عليه الآية إنما هو فتنة لهؤلاء القوم المكذبين المشركين الذين أنكروا بعثة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وفي المقابل عندما يشك هؤلاء ويكون هذا فيه من الفتنة ما فيه لهم، يكون طمأنينة وسكينة على من؟ على أهل الإيمان فيطمئنوا لما نزل من عند الرحمن -تبارك وتعالى-، وعلى كل فالشيطان له وسائل متعددة مع الإنسان: إما أن يزين له هذا بالقول وإما أن يوسوس له في أذنه بذلك أو أن يقيمه في قلبه، بالطرق الكثيرة المتعارفة.

الأخ الكريم من سوريا يقول: قلت يا شيخ: إن الشمس عندما تغيب تسجد تحت العرش، هذا هو الحق ولا ريب فيه، ويقولون: إن الشمس إذا غابت من سوريا تذهب إلى مصر، من مصر إلى المغرب يعني تكون دائماً غروب دائماً على مدار الأربع والعشرين ساعة، فكيف التوفيق في هذا الأمر؟

الأخت الكريمة من السعودية تقول:

السؤال الأول: أريد بعض التوضيح في آية العقاب التي تفضلتم بشرحها.

السؤال الثاني: سألتني إحدى النساء قالت: من النساء من تستضيفينهن في بيتك وتقدمين لهن ما تستطيعين من طعام وقول حسن إلى غير ذلك، فيقابلون ذلك بغيبة لكِ في مجالسهن، والكذب عليكِ وكذا سرقة أشياء من بيتك كالمال وغيره بالإضافة إلى إخراج أسرار البيت. فكيف تقابلين هذه الأنواع من الظلم بمعاملات يرضاها الله ورسوله إذا كنت لم تستطيعي العفو أحياناً نظراً لعمق الجرح؟

السؤال الثالث: إذا تعمد الإنسان قول السوء في وجهك مباشرة فهل تدافعين بقول السوء مثله بأخــذ العقــاب بمثله أم لا؟ وجزاكم الله خيراً.

فضيلة الشيخ الأخ الكريم من سوريا كان يسأل عن الشمس وكيف نجمع بين أنها تسجد تحت عرش الرحمن وبين أنها حول العالم؟

هذه بارك الله فيك يا أخي الكريم أمر سهل جدًا وميسور للغاية، هذه في الحقيقة أمور لا تتعارض فهي مسائل غيبية فالشمس تسجد تحت العرش حقيقة وهي أيضاً تمضي في طريقها على الحقيقة ونحن لا نعرف كيفية ذلــك أو ما هي الهيئة التي يتم بها سجود الشمس، فهي من المسائل الغيبية فنحن مثلاً نؤمن بعذاب القبر ونعيم القبــر وقد نفتح القبر على رجال مختلفين متعددين فيهم البر وفيهم الفاجر فيهم من ينعم وفيهم من يعذب، ومع هــذا لا نشعر لا بنعيم ولا بعذاب، وهم في الحقيقة أمرهم دائر بين النعيم وبين العذاب، لماذا؟ لأن هذه مسألة غيبية نحن لا نعرف حقيقتها ولا نعرف كنهها، فالشمس كما أخبر رب العزة والجلال تسجد وكما أخبر النبــي –صــلى الله عليه وسلم– في حديث أبي ذر وهو في الصحيحين وغيرهما أنها تسجد تحت العرش، وأنها ستأتي عندما تخرج من المغرب بعد ذلك تستأذن ربها في أن تخرج كعادتها من المشرق بعدما تسجد فلا يأذن لها ربهــا –ســبحانه وتعالى– في أن تخرج من المشرق ولكنها يأذن لها أن تخرج من المغرب، وعندئذ ﴿لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ ﴿١٥٨﴾﴾[الأنعام: ١٥٨] كما ذكر ذلك القرآن الكريم، فلا إشكال بحمد الله –تبارك وتعالى– لأن هذه مسائل غيبية نؤمن بها كما وردت، ونكل علم كيفيتها وحقيقتها إلى ربنا –سبحانه وتعالى–.

فضيلة الشيخ الأخت الكريمة من السعودية كان لها ثلاثة أسئلة:

السؤال الأول: تريد تفصيلاً أكبر في آية العقاب؟

التفصيل في العقاب، ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللهُ﴾ الآية تقرر أن الإنــسان إذا وقع عليه ظلم واستطاع أن يأخذ حقه من ظالم فلا حرج عليه، وذلك فيما يمكن أخذ الحق فيه، رجل أو امرأة سرق منك شيئًا أو امرأة سرقت وتمكنت من أخذ هذا أو أن يقام عليه الحد أو ما إلى ذلك ففعلك في هذه الحالــة وسعيك في هذه المسألة لا شيء عليك فيه، ولا ضرر عليك ولا إثم عليك في فعله وإن كان رب العزة والجــلال –سبحانه وتعالى– رغب في العفو والصفح، هذا معنى ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنــصُرَنَّهُ اللهُ﴾ يعني لا حرج على من أخذ حقه من غيره، وإن رد الظالم بعد أخذ الحق منه، رد ظلمه مرة أخرى علــى المظلوم، فليعلم المظلوم في هذه الحالة أن الله –سبحانه وتعالى– مؤيده وناصره لا محالة.

سؤالها الثاني: عن أخوات تكرمهم ويقابلوها بالغيبة ولا تستطيع أن تعفو لعمق الجرح؟

المطلوب هو العفو والصفح كما ذكر ربنا –سبحانه وتعالى– في كتابه، وإذا لم يعفُ الإنسان ويصفح أرجو أن تنتبهوا لدقائق الألفاظ كما قلتها، قلت: من استطاع وكان رد العقاب أو أخذ حقه من الظالم ميسوراً وممكناً فــلا حرج في أخذ الحق وإن كان العفو والصفح أقرب إلى التقوى كما ذكر رب العزة والجلال –سبحانه وتعــالى–، ولكن لو أن الظالم بغى عليك وقال فيك ما لا ينبغي أن يقول ظلماً وبهتاناً ورماك بكلام لا يجوز أنت كمسلم أن تقوله، كأن سبك بكلمات لا ينبغي ولا يجوز لك أن تقولها، هل تفعل فعله؟! لا، إنسان سرق بيتك تقول: أذهــب أسرق أنا بيته، أو فعل فاحشة مثلاً عند قوم يذهب أصحاب هذا القوم ليفعلوا به؟ هذا ما لا يجوز ولا يفهم هــذا

بحال من الأحوال، ولكن العقوبة أو الجزاء فيما يمكن أخذ الجزاء فيه، وما عدا ذلك فإما العفو والصفح وإما أن يأخذ المظلوم حقه من الظالم، في الدار الآخرة كما جاء في ذلك الحديث عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: (أتدرون من المفلس؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال: المفلس من أمتي ليس الذي ليس من معه مال ولا دينار ولا درهم وما إلى ذلك، وإنما المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة وقد ظلم هذا وقد شتم هذا وقد أخذ عرض هذا فيأخذ هذا من حسناته ويأخذ هذا من حسناته ويأخذ هذا من حسناته فإذا فنيت حسناته ألقي من سيئاتهم ثم طرح في النار).

سؤالها الثالث: كانت تسأل عن رد السوء بالسوء؟

لعلي أجبت عليه الآن.

فضيلة الشيخ الأخت الكريمة من الكويت: هل هذا الإلقاء من الشيطان خاص بتلاوة الرسل -صلوات الله عليهم-؟ وما المراد بنسخ الله ما يلقي الشيطان؟

لاشك أن الشيطان يوسوس ولكن هذه حالات خاصة في الآية فيما يتعلق بالأنبياء والمرسلين يعني أن النبي أو الرسول إذا تلا يعني قرأ القرآن وسوس الشيطان فيما يتلوه هذا النبي أو هذا الرسول كأن يوحي إلى قومه بأنه شعر أو سحر أو أساطير الأولين وما إلى ذلك، ﴿فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ [الحج: ٥٢] يعني أن الله -تبارك وتعالى- يثبت الحق في قلوب المؤمنين فلا يزيغون ولا ينصرفون ولا يتأثرون بما يلقيه الشيطان وإن زاغ الكافرون وضلوا في فعل الشيطان هذا، فالله -عز وجل- ينسخ هذا القول الذي ألقاه الشيطان وأذاعه عن قول النبي أو مع قول النبي أو الرسول ويُحكم الله -سبحانه وتعالى- آياته وتبقى في صدور أهل الإيمان وفيما قاله النبي -عليه الصلاة والسلام-.

فضيلة الشيخ الأخ الكريم من الجزائر يقول: ما مدى صحة القول بأن الساعة تكون يوم الجمعة؟

ورد هذا عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-.

الأخ الكريم من الولايات المتحدة الأمريكية يقول: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ ما المقصود ﴿مِن دُونِهِ﴾؟ وهل تعني أن كل شيء دون الله -سبحانه وتعالى-؟

نعم، يعني بها رب العزة والجلال أن كل من دُعي من دون الله -تبارك وتعالى- فهو من الباطل، سواءً كان ملكاً مقرباً أو نبيًا مرسلاً أو ولياً صالحاً أو ما إلى ذلك ممن توجه الناس بهم ودعوهم من دون الله -تبارك وتعالى-، هذا هو معنى الباطل وكل ما يُدعى من دون الله -عز وجل- فهو باطل والله -سبحانه وتعالى- هو العلي الأعلى جل في علاه.

فضيلة الشيخ الأخ الكريم من الولايات المتحدة الأمريكية يقول: من الناس من يقول: إنه لا إله في الوجود إلا الله وهذه الآية وأمثالها تثبت أن هناك آلهة تعبد من دون الله فنرجو من فضيلة الشيخ أن يعلق على ذلك.

أحسنت يعني الحقيقة هذا سؤال جميل للغاية، والقرآن الكريم ذكر أن من عُبِدَ من دون الله أطلق عليه إلهاً، ولكن إله بالباطل، فالذي يعبد بحق هو الله -تبارك وتعالى-، وهذه الآلهة وإن عبدت من دون الله -تبارك وتعالى-، وأطلق القرآن الكريم عليها بأنها آلهة إلا أنها آلهة باطلة، وأنها عبدت بباطل، أما الذي عبد بحق، فهو رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

فضيلة الشيخ هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه المحاضرة.

السؤال الأول: ما المراد بالساعة في قول الله تعالى: ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾؟ ولماذا سميت بذلك؟ وماذا تفهم من قوله ﴿بَغْتَةً﴾؟

السؤال الثاني: قول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ له تعلق بما قبله من وجهين اذكرهما.

السؤال الثالث: ما الراجح في الرؤية في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾؟ وماذا يفيد عطف المضارع ﴿فَتُصْبِحُ﴾ على الماضي ﴿أَنْزَلَ﴾؟

الدرس الثامن: تفسير سورة الحج

فضيلة الشيخ أهلاً ومرحباً بكم

أهلاً بكم ومرحباً بالمشاهدين الكرام ونلتقي -إن شاء الله تعالى- في اللقاء الثامن وأيضًا مع سورة الحج كما تعلمون، وسيدور الحديث في هذا اليوم -إن شاء الله تعالى- حول المحاور التالية:

المحور الأول: تعداد بعض نعم الله على خلقه.

المحور الثاني: التشريع حق لله وحده دون سواه.

المحور الثالث: كراهية المشركين لآيات القرآن الكريم.

وسنستمع -إن شاء الله تعالى- إلى الآيات التي سأتحدث عن هذه المحاور من خلالها -إن شاء الله تعالى- وأطلب الآن من الأخ الكريم فلنستمع معه إلى هذه الآيات.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾.

أحسنت وجزاك الله خيراً.

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن نبينا وإمامنا وحبيبنا محمداً عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم وبارك وأنعم على عبدك ورسولك ومصطفاك وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيلهم واقتفى أثرهم واهتدى بهديهم إلى يوم الدين وبعد.

أيها المشاهدون الكرام نلتقي كما ذكرت في هذا اللقاء مع الآيات التي استمعتم إليها قبل قليل، وهي تبدأ من قول الحق جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ وهذه الآيات سيكون الحديث عنها مع المحور الأول:

المحور الأول: ألا وهو تعداد بعض نعم الله على خلقه، والآيات السابقة قبل هذه الآية بآيتين أو ثلاث لها اتصال وثيق بهذه الآية، وقد عنونت لها فيما مضى: حديث عن قدرة الله -تبارك وتعالى- في الكون، وما نراه

من نعم الله –سبحانه وتعالى– وما ذكرته هذه الآية وما جاء في آيات أخر من كتاب الله الكريم، كل ذلك يسير في نمط واحد، وفي سياق واحد كريم ليؤدي إلى حقيقة واحدة، ألا وهي قدرة الحق –تبارك وتعالى– وأنه –سبحانه– له نعم على عباده لا تعد ولا تحصى، والله –عز وجل– قد ذكر لنا هذه الآيات كي يتأمل الإنسان من خلالها إلى أن خالق هذا الكون واحد وإلى أن موجد هذا الكون هو رب العالمين وعليه فيجب على العباد جميعاً أن يتوجهوا لله –سبحانه وتعالى– بالعبادة، في اللقاء السابق ذكرت قول الحق –تبارك وتعالى– وهو في سياق بيان قدرة الله وتعداد نعمه على عباده، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣] وقد تحدثت عن هذا فيما مضى، وقلت: ختام هذه الآية ﴿إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣] جاء في مكانه تمامًا، لأن اللطيف هو الذي يفعل الأشياء ويعلم دقائقها –سبحانه وتعالى– ويعلم ما فيها من أسرار واللطيف: هو الذي يفعل للعباد ما يصلحهم ويدفع عنهم الشر الذي يمكن أن ينزل بهم إذا أراد ربنا –سبحانه وتعالى– أن لا ينزل بهم مكروه، ولذلك لطف الله بعباده ظاهر خاصة بين المقربين من عباد الله –جل ذكره– ولأضرب بعض الأمثلة على ذلك:

– يوسف –عليه السلام– مر بمحن وبكرب كبير وعظيم، وشدائد متعددة منذ أن ألقاه إخوته في البئر ثم بعد ذلك وبعد أن خرج سكن في قصر امرأة العزيز أو جلس مع امرأة العزيز وراودته عن نفسه كما ذكر القرآن الكريم، ثم بعد ذلك خرج من هذا القصر ليدخل السجن ظلماً وعدواناً دون أن يقترف ذنباً أو يُلِمَّ بمصيبة ثم بعد ذلك كانوا كما تعلمون فعل به إخوته ما فعلوا وتفرق عنه إخوته وابتعد عنه أبوه، وشاء الله –سبحانه وتعالى– بعد ذلك أن يخرج من السجن وأن يولى شيئًا في إمارة هذه البلاد وأن يجمعه بأبيه، كل ما حدث كان من لطف الله –تبارك وتعالى–، والقرآن الكريم هو الذي أخبرنا عن هذا وذكر لنا ربنا ذلك لكي نعتقد ونعلم ونرجع إلى اللطيف –سبحانه وتعالى–، تأملوا قول الله – جل ذكره– في نهاية الحديث عن يوسف بعد أن ساق رب العزة والجلال الحديث عنه وما مر به يقول –سبحانه وتعالى–: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ [يوسف: ١٠٠] فيبين صلوات الله وسلامه عليه، أن ما حصل له من نجاة وما وقع فيه من نعم، إنما هو بسبب من؟ بسبب لطف الله –تبارك وتعالى–، ومن لطف الله –جل ذكره– أنه أمر أمهات المؤمنين أن يعلمن المؤمنين آيات الله والحكمة التي كانت تتنزل على النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– وهو في بيته بين أزواجه، ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب: ٣٤] إلى غير ذلك من المواقف التي يصعب علينا أن نحصر مثلها الآن ثم جاءت الآية التالية بعد ذلك، وقبلها ختم رب العزة والجلال باللطيف الخبير، والخبير أيضاً هو الذي يعلم دقائق الأمور، ولذلك نجد أن بعض الآيات القرآنية التي يكون فيها عمل يحتاج إلى شيء من الخفاء يذكر رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– اسمه الخبير؛ ليبين للفاعل أنه هو وحده يعلم بما يفعله وأنه لا يحتاج إلى غيره أن يشاهد أو أن يرى، وأن الكتمان في مثل ذلك مطلوب وذلك كالأمور المعلومة في الصدقات وما إلى ذلك واقرؤوا قول الله –جل ذكره– في هذا: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة: ٢٧١] فختم باسمه –سبحانه وتعالى– الخبير في مثل هذا الموطن ليدعو الناس ويعلمهم إلى أنه بهم عليم وأن هذا الاسم يفيد علم الله –سبحانه وتعالى– بدقائق الأمور التي قد تخفى على الكثيرين.

ثم يقول رب العزة والجلال سبحانه: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾ [الحج: ٦٤] بصيغة التأكيد عود إلى أن الملك كله لله –تبارك وتعالى– والدنيا والآخرة كلها ملك لرب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– وما ذاك إلا لأنه الغني، وما ذاك إلا لأنه الحميد، ولو تأملتم آيات القرآن الكريم ستجدون دائماً أن اسم الغني والحميد يقترنان بعضهما ببعض في كثير من آيات القرآن الكريم، اسم الله الغني مع اسم الله الحميد، جاء في القرآن الكريم مقترناً في أكثر من موضع والله –عز وجل– هو الغني وغيره فقير إليه، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥] وذكر أيضاً الحميد هنا وفي قوله

عن لقمان -عليه السلام-: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان: ١٢] أيضاً جاء بالحميد إلى جوار الغني وهذا ثناء من رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- على نفسه خاصة حينما يختم هذه الآية بالحمد فهو الحميد وحمد ربنا -سبحانه وتعالى- نفسه في كثير من آيات القرآن الكريم، بل إنه افتتح خمس سور من كتابه بالحمد، خمس سور من كتابه افتتحها ربنا -سبحانه وتعالى- بالحمد.

أما الآيات التي تلت هذه الآيات فهي تعداد أيضاً لنعم الله -سبحانه وتعالى- على عباده، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ﴾ تأمل يا أيها الإنسان إلى ما تراه في هذه الأرض من زروع وثمار وجبال وأودية وأنهار وبحار وما يدب على ظهر هذه الأرض من حيوانات وما إلى ذلك كل هذا سُخر لك أنت أيها الإنسان والتسخير بمعنى التذليل والله -عز وجل- سخر أصلب الأشياء للإنسان، فالحجارة والحديد من أصلب الأشياء وهي مسخرة للإنسان يستخدمها الإنسان في حاجاته وما يحتاج إليه من منافع فيها، هذه الدواب التي سبق أن تحدثنا عنها، الإنسان يستخدمها في نقل متاعه ويشرب منها لبناً سائغاً للشاربين ويستخدمها لحماً في طعامه وتنقله من مكان إلى مكان وما إلى ذلك، ذللها رب العباد -سبحانه وتعالى- لك أيها الإنسان، هذه الأرض بما شق الله -عز وجل- فيها من أودية وأنهار وبحار هذا تسخير لك أيها الإنسان، ما يوجد في قاع البحر من لحم طري ومن لؤلؤ ومرجان ومن منافع كثيرة أودعها رب العبادة -سبحانه وتعالى- في الأنهار والبحار والمحيطات هو تسخير لك أنت أيها الإنسان، هذه الجبال أيضاً سخرها الله لك، لأن الله -عز وجل- لكي يسخر لك هذه الأرض ويذللها جعلها أمامك منبسطة وحتى لا تميد بك ولا تضطرب جعل الله -سبحانه وتعالى- فيها الجبال أوتاداً، ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ [النبأ: ٦، ٧] ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾ [المرسلات: ٢٧] عاليات مرتفعات حتى لا تضطرب بك هذه الأرض فتكون مذللة لمنافعك ولمصلحتك أنت أيها الإنسان، ولم يقتصر الأمر كما ذكر الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- لم يقتصر الأمر على تسخير ما في الأرض فقط، بل سخر الله -عز وجل- ما في السماء للإنسان، وجاء هذا في آية أخرى في كتاب الله ذكرها الإمام الحافظ عند هذه الآية -رحمه الله تعالى- وهي قول الله -جل ذكره-: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] فأشار رب العزة والجلال أيضاً إلى ما في السماء هذه الكواكب النيرات التي أودعها رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- في السماء هي مسخرة لك أنت أيها الإنسان، ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحجر: ١٦] ولذلك في صحيح البخاري عن قتادة -رحمه الله تعالى- قال: (خلق الله النجوم لثلاث: -ثم ذكر- قال: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلاماتٍ يهتدي بها الناس، فمن تأول فيها غير ذلك فقد أخط) يعني من طلب في هذه النجوم غير هذه المسائل الثلاث فقد أخطأ، والناس اليوم كما نرى ونشاهد يخطئون كثيرًا في مسائل النجوم وهي مسخرة لهم بتسخير الرب -تبارك وتعالى-، فالبعض ينسب نزول المطر من السماء إلى هذه النجوم، والبعض ينسب ما يحدث على ظهر هذه الأرض من أحداث له إلى النجوم، والبعض يعتمد على حسابات مختلفة متعددة ويظن أن هذه النجوم تعطيه نحساً أو سعداً أو أنه يعرف من خلالها ما سيقع عليه وهذا مشهور ومعروف بين الناس فيما يعرف بـ«حظك اليوم» وما إلى ذلك مما يتداوله بعض الناس وكل هذا خروج عن التسخير الصحيح الذي أفاد الله -سبحانه وتعالى- به العباد ومَنَّ به عليهم من نعم كثيرة أودعها رب العزة والجلال في هذا الكون.

أود أن أشير قبل أن أنتقل إلى نقطة يسيرة في قول الله -تبارك وتعالى- ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] بعض الناس يظن أن كلمة ﴿مِّنْهُ﴾ هنا تفيد أن الله -سبحانه وتعالى- حال في هذا الكون، وهذا ضلال وبهتان، فمعنى تسخير الله -سبحانه وتعالى- هذه الأشياء ﴿مِّنْهُ﴾ يعني من عنده -سبحانه وتعالى-، هو الذي تفضل عليك بها وهو الذي منَّ عليك بها والله -عز وجل- عالم على جميع خلقه مستوٍ على عرشه -سبحانه وتعالى- وهو بذلك يعلم ما الخلق عاملون، وهذا من عظمة رب العزة والجلال، هذا شيء مما أشار الله -سبحانه وتعالى- إليه هنا من تسخير الله -عز وجل- لشيء مما في الكون لهذا الإنسان، وأشارت الآية إلى الأرض وأشارت بعد ذلك إلى أمر آخر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ﴾ بعدها

﴿وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ هذه الفلك آية من آيات الله –عز وجل– هكذا سماها ربنا في كتابه ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الشورى: ٣٢، ٣٣].

قد يقول قائل كيف سخر الله لنا الفلك واليوم قد صنع الناس لها مكائن تسير بها؟ نقول: من الذي سخر هذه الأنهار والبحار والمحيطات لهذه الفلك حتى تسلك فيها وتسير؟!! من الذي أوجد هذه المادة التي صُنعت منها هذه الفلك؟!! ومن الذي وفق وهدى الإنسان إلى أن يصنع هذه الفلك كي تمخر عباب البحار والمحيطات وتنقل أيضاً الإنسان من مكان إلى مكان ومن قطر وعليها متاع الإنسان وما يحتاج إليه؟!! كل ذلك بتسخير رب العباد – سبحانه وتعالى–.

ثم يقول رب العزة والجلال في هذه الآية مبيناً أمراً آخر من نعمته على عباده: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ السماء عالية رفعها رب العباد بغير عمد كما نشاهد ونرى، هذه السماء شديد ثقيلة، كما قال الله: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾ [النبأ: ١٢] وحُقَّ لها أن تكون كذلك، لما جاء في سنن الترمذي وابن ماجه وحسنه أو صححه الشيخ الألباني –رحمه الله تعالى–: (أطت السماء وحق لها أن تئط) الأطيط هو ماذا؟ الحركة التي يفعلها الحيوان حينما تضع عليه حملاً، تجد أنه ينزل شيئًا ثم يعود بعد ذلك إلى ارتفاع: (أطت السماء وحق لها أن تئط) لماذا؟ ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك قائم أو راكع لله –تبارك وتعالى– فالسماء ثقيلة ورفعها رب العباد بغير عمد ومع ذلك أمسكها ربنا –سبحانه وتعالى– بقدرته وحكمته وعزته عن أن تسقط على هذه الأرض، حتى لا تهلك العباد وربنا توعد المكذبين بقدرته ونعمه بشيء من ذلك، ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [سبأ: ٩] يقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٤١] ولا يوجد أحد يمكن أن يفعل ذلك إلا رب العالمين سبحانه فهذه نعمة عظيمة تأمل يا عبد الله إلى السماء وقد رفعها ربك بغير عمد ومع ذلك لا تسقط عليك، أمسكها ربنا –سبحانه وتعالى– بعظمته وقدرته وكبريائه وقوته وكل ذلك لمن؟ لك أنت أيها الإنسان.

﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ والاستدراك هنا لماذا؟ لأن العالم سيتغير حينما يشاء ربنا – سبحانه وتعالى– أن تكور هذه الشمس وأن تنتدثر هذه النجوم وأن تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وما إلى ذلك فسيحدث انقلاب كوني هائل في هذا الكون، ولذلك استثنى رب العزة والجلال أنه يمكن أن يحدث ولكن لن يكون ذلك إلا إذا شاء رب العبادة –سبحانه وتعالى– ثم يبين ربنا –عز وجل– أن كل ما يحدث في هذا الكون وهذه النعم العظيمة يا عباد الله التي عددها ربكم عليكم، كل ذلك ما كان إلا لأن الله بكم رحيم، ﴿إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ –سبحانه وتعالى– فلولا أن الله بعباده رحيم ولولا رأفة الله –سبحانه وتعالى– بعباده، ما كان ذلك مع ماذا؟ مع ظلم العباد لله –سبحانه وتعالى– وظلمهم لله لماذا؟ يخالفون شرعه ويخرجون على أمره ويقترفون ما حرم الله، بل إنه –وللأسف الشديد– بعض الناس اليوم يجادلون في وجود الله –تبارك وتعالى–، وينسبون ما يحدث على ظهر هذه الأرض إلى أمور هي مخلوقة من عدم أوجدها رب العبادة –سبحانه وتعالى– ومع ذلك ينسبونها إلى غير الله –عز وجل–، فالناس يظلمون أنفسهم ويتطاولون على مقام رب العزة والجلال ومع ذلك ربنا –سبحانه وتعالى– بهم رؤوف رحيم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦] رغم ظلم العباد فالله –عز وجل– يغفر لهؤلاء الناس، ولذلك أنتهزها فرصة لأدعو أيضاً عموم الناس أن هلموا إلى الغفور الرحيم، تعالوا إلى رب رحيم يغفر الذنب الكثير، ويعفو عن السيئات ويعفو عن كثير، ربنا –سبحانه وتعالى– بنا يا أيها المؤمنون ويا مستمعون ويا أيها المشاهدون بنا رؤوف رحيم.

ثم يعدد ربنا –عز وجل– نعماً أخرى علينا قائلاً: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ وختام الآية أيضاً مناسب ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ ما معنى ﴿أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾؟ يجب أن نعلم، أحياكم نحن كنا موتى؟ نعم، قبل أن نموت الموتة التي ستأتي أيضاً كنا موتى، متى كان

ذلك؟ إما أننا نكون موتى في العدم أو أننا موتى ونحن في نطف أمهاتنا قبل أن تنفخ فينا الروح، فالإنسان في هذه الحالة ميت، ولذلك في الحقيقة هما إماتتان وإحياءتان، كما قال الله -عز وجل-: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ فماذا؟ ﴿فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] فموتتان وإحياءتان، رب العزة والجلال أشار إليهما في كتابه، الموتة الأولى قبل أن توجد وأنت نطفة في رحم أمك كنت ميت، ثم جاء أمر الله -عز وجل- فنفخ فيك الروح أيها الإنسان كنت ميتاً فأحياك الله -عز وجل-، وتخرج بعد ذلك أو بعد فترة من رحم أمك حياً إن شاء الله لك ذلك ثم تعيش ما شاء الله لك أن تعيش ثم بعد ذلك تموت، ثم بعد ذلك يبعثك ربك من جديد فيحييك، هذه نعمة من الله عليك أيها الإنسان ومع هذا الناس من الكفار والضلال والمشركين ومن يخالف أو يجحد برب العزة والجلال لا يدرك ذلك ولا يعرف معاني هذه الكلمات فهو مع ذلك كله ومع هذه النعم التي يتقلب فيها: نعمة الإيجاد، نعمة أن من الله عليك بالحياة، نعمة أن أعطاك الله -عز وجل- هذه الروح هذه نعمة من الله عليك، مع هذا كله ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ وما كان له ذلك، ما كان ينبغي للإنسان أن يقابل ربه -سبحانه وتعالى- بهذا الأمر، ولذلك الآية جاءت بكلمة الكفر على صيغة المبالغة لأن الإنسان إذا لم يدرك هذه الحقائق ولم يرجع إلى ربه ومولاه، فهو كافر مبالغ في الكفر، لأن هذا كان داعياً كبيراً له، إلى أن يسلم لأمر الله -تبارك وتعالى- فلما لم يفعل كان كافراً بل في غاية الكفر وأعلاه كشأن القوم الذين منَّ الله عليهم بالجنان، الذين ذكروا في سورة سبأ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سبأ: ١٥] هؤلاء الناس شوف ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ ربنا ما طلب منهم شيئًا يكلفهم طلب منهم يعني شيء يسير جداً، ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ وهذا يعود إليهم، الأمر الثاني: ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [سبأ: ١٥] طلب منهم أن يأكلوا ويشكروا فأعرضوا عن ذلك فسلط الله عليهم ما سلط وختم الآية بقوله: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: ١٦، ١٧] يعني ما كان ينبغي عليك أيها الإنسان بعد أن أوصلك ربك ومن عليك بهذه المنن وتفضل عليك بهذه النعم أن تكون جاحداً لربك ومولاك فمن لم يؤمن إذن يا أيها المؤمنون الكرام من لم يؤمن فهو كافر مبالغ في الكفر والعياذ بالله -تبارك وتعالى-، وحسابه وعقابه عندما يقف بين يدي رب العزة والجلال سبحانه وقد أشارت إليه الآية بعد قليل أو آيات ستأتي أشارت إلى مثل ذلك سنعرفها وسنقف عليها -إن شاء الله تعالى-.

المحور الثاني: التشريع حق لله وحده دون سواه:

التشريع حق لله وحده دون سواه، وذلك كما قال رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ والخطاب موجه لمن؟ للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ﴿إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ الله -عز وجل- في هذه الآية بعدما ذكر وعدد نعمه على عباده الدنيوية بما أعطاهم مما أشارت إليه الآيات سواء كان في هذا اللقاء أو السابق، بدأ يعدد نعمة أخرى على عباده غفل عنها الكافرون والظالمون ألا وهي نعمة التشريع، نعمة الوحي نعمة ما جاءنا به الأنبياء والمرسلون من عند رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، فهذه نعمة معنوية تحيي القلوب فكما أن أجسادنا تنبت وتصل إلى ما تصل إليه من تطور بسبب ما نتغذى عليه من نعم الله في أرض الله كذلك الروح تسعد وتنعم وتسلك الطريق القويم وتسير في صراط مستقيم إذا التزمت بالشرع الذي جاء من عند الله وكله حق لله وحده دون سواه فالمشرع على الحقيقة منزل الأوامر الذي يجب أن يرجع إليه وأن يتحاكم الناس إلى ما أنزل هو رب العالمين -سبحانه وتعالى-، والآية أخبرت أن الله -عز وجل- قد جعل لكل نبي من الأنبياء نسكاً ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكً﴾ والمنسك في لغة العرب: هو الموضع الذي يعتاده الإنسان ويتردد إليه.

ولذلك نحن نسمي مناسك الحج مناسكَ لماذا؟ لأن الناس يرجعون إليها ويترددون عليها، فرمي الجمرات متكرر والذهاب إلى عرفات متكرر في كل عام، والطوف بالبيت يتكرر، ولذلك سميت مناسكَ لأنها أمور يرجع إليها الناس وقتاً بعد وقت.

الله -عز وجل- أخبر أنه جعل ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ يعني هم عاملون به، ومن هنا أقول: كل أمة جاءها نسك من عند الله -عز وجل- كان يجب عليها أن تلتزم به، وبعد بعثة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يجب على الجميع أن يدخل في دين النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لأن الله أخبر أنه جعل لكل أمة منسكاً، وقيل: المنسك عيد يعتادونه، يعني أعيادهم، وقيل: المراد بالمنسك الذبائح، وقيل: المراد بالمنسك الشرائع التي شرعها الله -عز وجل- لكل أمة، وقد سبق أن أشرت وذكرت أن الله -عز وجل- جعل لكل أمة شرائع تختلف عن الأمة الأخرى وكان اتفاقهم في أصل الدين وأساسه ألا وهو التوحيد والإيمان بالله -تبارك وتعالى-، وذكرت الحديث الذي يؤيد ذلك فيما مضى، والله -عز وجل- بعد بعثة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أمر الأنبياء والمرسلين وأخذ عليهم العهد إن بعث النبي -صلى الله عليه وسلم- وهم أحياء أن يتابعوه وأن يدخلوا في شريعته لأن شريعة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ناسخة لجميع الشرائع السابقة، فإن جاء منازع اليوم أو جاء منازع حتى في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- وقد وقع لا يُلتفت إليه والله -عز وجل- قال للنبي -صلى الله عليه وسلم- بعدما قال في أول الآية: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ قال له: ﴿فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ﴾ يعني لا يخالفوك فيه، ولا يناقشوك ويجادلوك فيه، وقد وقع من المشركين مجادلة ومنازعة للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في مسائل كثيرة، منها مسائل عقدية ومسائل تشريعية فالمسائل العقدية واضحة أبوا أن يعبدوا الله -عز وجل- استكبروا أن يقولوا: لا إله إلا الله قالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: ٥] وفي التشريع كانوا يموهون على الناس بقياس فاسد باطل، فمثلاً كانوا يقولون للناس وللمسلمين: أتأكلون مما قتلتم بأيديكم ولا تأكلون مما قتل الله؟ يعني يقولون: هذه البهيمة التي ماتت الله الذي قتلها فكيف لا تأكلون مما قتل الله وتأكلون مما قتلت أيديكم؟ وكانوا ينازعون أيضاً في البيع الذي أحله الله -عز وجل- ويقولون: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥] وهكذا الله -عز وجل- نهى هؤلاء الناس أن ينازعوا وأن يخالفوا نبي الهدى والرحمة -صلوات ربي وسلامه عليه- ثم يثبت رب العزة والجلال أيضاً قلب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- حينما يقول له: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ الله أكبر ما أجمل أن يدعو العبد إلى الله -تبارك وتعالى-، لا يدعو إلى قبلية ولا إلى عصبية ولا إلى راية ولا إلى زعامة وإنما يدعو إلى الله -عز وجل- وهذا شأن المصلحين الذين بعثهم الله -عز وجل- من الأنبياء والمرسلين وكل من يدعو إلى الله على بصيرة متبعاً في ذلك النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، الله -عز وجل- في القرآن الكريم أمر النبي -عليه الصلاة والسلام- أن يدعو إلى الله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وهكذا يأمر الله -عز وجل- النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يدعو إليه وقد قال الله له وقال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- معلناً هذا كما ذكره ربنا في كتابه: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨] وشهادة الله لنبيه بأنه على الحق شهادة يعتز بها لا شك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويعتز بها كل مؤمن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-.

﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾، ومثله: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [النمل: ٧٩] كلها شهادات للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بأنه متبع ما أنزله ربه -سبحانه وتعالى- عليه.

ثم يقول رب العزة والجلال بعد ذلك: ﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي: إن خاصموك بالباطل وجادلوك فماذا تفعل أيها النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-؟ ﴿فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

حقيقة هذه الآية لي معها وقفة يسيرة، أولاً: هل الجدال مذموم أو ممدوح؟ أقول باختصار شديد: الجدال بالباطل مذموم ليس بممدوح، الجدال لإبطال الحق وإحقاق الباطل أو المراء في دين الله -عز وجل- أو الجدال للفخر والكبرياء والاعتلاء على عباد الله كل هذا لا يجوز بحال من الأحوال وقد نهت عنه السنة النبوية المطهرة.

أما الجدال بالحق فهو دائرة مسموحة ولكن بالتي هي أحسن، بالخلق القويم، النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كان يجادل المشركين، وقد أمره ربه بذلك فقال: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وقال لنا ربنا يا أيها المؤمنون: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

بعد ذلك وقفة أخرى مع هذه الآية، هذه الآية أفادت أيها الإخوة الكرام أمرين يكفي، لا أقول ثلاثة:

الأمر الأول: إعراض النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- عن المشركين:

هذا يفهم من قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ يفهم منها إعراض النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- عن هؤلاء المكذبين وقد قال له ربه في كتابه: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: ٤١] هذه الآية تفيد إعراض النبي -صلى الله عليه وسلم- عن هؤلاء، أعرض عن هؤلاء لا تستحق أن تقف أمامهم، ولا أن تتعب نفسك في الحوار معهم والمجادلة بل أعرض عن هؤلاء لأنهم كذبوا بما هو أوضح من ذلك.

الأمر الثاني: تهديد ووعيد للمشركين:

قوله: ﴿فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ هذا تهديد ووعيد للمشركين شأنه كقول الله -تبارك وتعالى- مثلاً: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] ويفهم الوعيد والتهديد من هذه الآية من آيات أخر، فقول الله -تبارك وتعالى- مثلاً في المكذبين: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأحقاف: ٨] لما تختلف مع إنسان الآن أو تجادل إنسان جاحد أو منافق أو ما إلى ذلك، تقول: الله شهيد بيني وبينك، أو تقول: حسبي الله ونعم الوكيل هذا فيه تهديد ووعيد لهذا المكذب والله -عز وجل- قد توعد في كتابه المكذبين ومن أصرح الآيات في ذلك: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الطور: ١١] إذن ﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ على صغر حجم هذه الآية الكريمة وكلماتها إلا أنها تفيد فوائد عظيمة للغاية تفيد إعراض النبي -صلى الله عليه وسلم- عن هؤلاء المشركين، وتهديد رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- أيضاً لهؤلاء المشركين ويتبع هذا التهديد تهديد آخر ولكنهم لا يعقلون، وهو في قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ الله -سبحانه وتعالى- يحكم أيها المخالفون، أيها المجادلون، أيها المكذبون هو -سبحانه وتعالى- الذي سيتولى الحكم بينكم يوم القيامة فيما اختلفتم فيه وهذه الآية كقول الحق -تبارك وتعالى- في سورة الشورى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الشورى: ١٥] والله إن قلب العبد المؤمن ليسعد بمثل هذه الآيات حينما يسمعها أو يقرؤها ونحن حينما نقرؤها ونعلمها ونتدبرها ونؤمن بها ونثق بوعد الله -عز وجل- فإننا نركن إلى قوي متين -سبحانه وتعالى- ونسند ظهورنا ونكل أمورنا إلى من بيده ملكوت كل شيء -سبحانه وتعالى- وبالتالي نحن جميعاً نشعر بأن أهل الإيمان يعيشون في سعادة غامرة حتى ولو ظلمهم الظالمون وافترى عليهم المفترون وتعالى عليهم المتعالون وهذه فترات تكون مؤقتة بين الحين والآخر، نصبر لأننا نعلم أن موعدنا عند رب العالمين -سبحانه وتعالى-، ﴿اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

ثم تتوجه الآيات بعد ذلك للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فيقول الله له: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ بعدما أخبر رب العباد -سبحانه وتعالى- في الآية السابقة أنه يحكم بين العباد ذكر أنه يعلم ما في السماء والأرض -سبحانه وتعالى- ومعنى هذا أنه يفيد المستمع أن الحكم سيكون بالعدل وبالإنصاف لا بالجور والظلم، لماذا؟ لأنه يعلم ما في السماء والأرض -سبحانه وتعالى-.

والآية أولاً وجه الخطاب فيها للنبي –صلى الله عليه وآله وسلم– ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ والأمة يشملها هذا الخطاب، فهو ليس خاصاً بالنبي –صلوات الله وسلامه عليه–.

الاستفهام في ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ قال العلماء: هذا الاستفهام للتقرير، والنبي –عليه الصلاة والسلام– مقر، ما فائدته؟ كأن الله –عز وجل– يقول له: أما علمت وتيقنت من أن الله يعلم ما في السماء والأرض –سبحانه وتعالى– وهذا أيضاً يفيد تقوية وتثبيت قلب النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–.

﴿أن اللهْ يَعْلَمْ﴾ تفيد إثبات صفة العلم لله –تبارك وتعالى– والله –عز وجل– يعلم كل ما في السماوات وما في الأرض منذ أن وجد وقبل أن يوجد وإلى أن تنتهي الآجال، علم الله –سبحانه وتعالى– واسع ومحيط، وعلم الله –عز وجل– علم أزلي كانت تعجبني عبارة نسبت إلى الإمام علي بن أبي طالب –رضي الله تعالى عنه– أنه كان يثني على ربه فيقول: «الله –عز وجل– علم ما كان أزلاً أو يعلم ما كان ويعلم ما سيكون ثم يقول: وما لم يكن لو كان كيف يكون»، يعني الله –عز وجل– حتى ما لم يوجد لو كان يعلم رب العزة والجلال أنه على أي هيئة سيكون وهذا له مستند شرعي من القرآن الكريم ليس كلاماً باطلاً في سورة الأنعام طلب المشركون أن يردوا إلى الحياة الدنيا والله –عز وجل– قضى أن من يموت لن يرجع، إذن هذا أمر لن يكون، ثم يخبر رب العزة والجلال عن أنهم لو رجعوا ماذا سيكون حالهم؟ فيقول: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] إذن يعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون فالله –عز وجل– يعلم كل ما السماوات وما في الأرض وما بين السماوات والأرض وما تحت طبقات الأرض وما إلى ذلك وعلم الله –سبحانه وتعالى– محيط وشامل لكل شيء والله –سبحانه وتعالى– يتصف بهذه الصفة الجليلة وهذه الكائنات ما وجدت إلا بعلم الله –تبارك وتعالى– ولن تحاكم ولن تحاسب إلا بعلم الله –سبحانه وتعالى– فالله –سبحانه وتعالى– بكل شيء عليم والعلم صفة ذاتية أزلية لرب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– يتصف بها ربنا –سبحانه وتعالى– وليحذر أي مؤمن يمكن أن يقول: كيف يعلم رب العزة والجلال ما كان وما سيكون وقد تمر عشرات الآلاف من السنين وسيكون مليارات من الأمم والناس والحيوانات غير ذلك احذر أن يوسوس لك الشيطان بذلك فالله –عز وجل وتبارك وتقدس– عظيم وأي عظمة فهو يتصف بالعلم وهو –سبحانه وتعالى– حقاً بكل شيء عليم –سبحانه وتعالى– والآية أفادت أن علم الله قديم وأنه –سبحانه وتعالى– كتب في الذكر هذا العلم لأن الله يقول في هذه الآية ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾، ماذا بعدها ﴿ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ﴾يعني هذا يعني هذا مسجل في كتاب عند رب العزة والجلال ما المراد بالكتاب؟ من يجيب علي؟

اللوح المحفوظ

المراد بالكتاب اللوح المحفوظ، الله –عز وجل– فعلاً كتب في الذكر كل شيء ألا وهو اللوح المحفوظ في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص –رضي الله تعالى عنه– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: هذا حديث يرويه عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي –صلى الله عليه وسلم– حديث صحيح في صحيح مسلم يذكر فيه (إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء) وقد روى أصحاب السن أيضاً عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: (أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء فجرى القلم بكل ما هو كائن إلى يوم القيامة).

إذن علم الله أزلي والله –سبحانه وتعالى– كتب في الذكر كل شيء أو كتب في اللوح المحفوظ كل شيء على ما سبق في علم رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– ونحن معشر أهل الإيمان نؤمن بهذا ونصدق به ونسلم له لأنه يسير على الله –عز وجل– والله –عز وجل– يخاطبنا بما نعلم وإلا فليس هناك يسير وصعب عند رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– ولكن في عرفنا نحن –إن كنا نعقل– هذا أمر يسر للغاية على من ملك السماوات والأرض وعلى الكبير المتعال –سبحانه وتعالى– بقي أن أقول لكم وأحذر كل من يمكن أيضاً أن تسول له نفسه

بأن ينكر كما أنكر بعض الهالكين شيئاً من صفة العلم فيما يعرفون بالقدرة الأولى الذين خرجوا في أخريات عهد الصحابة وأنكروا علم الله السابق للأشياء وهؤلاء -بحمد الله وفضله- انقرضوا في منتصف القرن الثاني للهجرة وابتلينا بعد ذلك بمن أطلقوا على أنفسهم فلاسفة، بعض هؤلاء الفلاسفة يقول: بأن الله -عز وجل- لا يعلم الجزئيات والله -سبحانه وتعالى- يعلم في الجملة علم جملي إجمالي أما تفاصيل هذه الأمور فلا يعلمها رب العباد إلا بعد أن تقع وهذا كذب وضلال وافتراء فالله -عز وجل- يعلم ما في السماء والأرض وقد سجل ذلك في اللوح المحفوظ وهو أمر هين وسهل ويسير على رب العالمين -سبحانه وتعالى- ثم بعد ذلك يقول رب العزة والجلال ويحكي عن المشركين: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾، وهذه الآية تأتي بعد أن عدد رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- نعمه على عباده وبين لهم أنه هو الفاعل الحقيقي وهو الذي منَّ عليهم بهذه النعم ومع ذلك يتركون المنعم ويتوجهون إلى غير الله -سبحانه وتعالى- ويا ليتهم حينما توجها توجهوا بحجة أو دليل أو برهان ولكنهم وقعوا في ضلال مبين حينما تركوا المنعم وتوجهوا إلى غير الله -تبارك وتعالى- ممن يستفيد بنعم الله -عز وجل- عليه: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ من هؤلاء ؟ المشركون يعبدون من دون الله -تبارك وتعالى- ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ يعني ليس عندهم حجة وليس معهم برهان وليست معهم أدلة حينما انصرفوا عن عبادة الله إلى عبادة غير الله -سبحانه وتعالى- ليس معهم دليل على ذلك ولا يمكن أن يكون معهم دليل وليس هذا فحسب أيضاً ليس معهم علم بهذا الأمر ﴿ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ فعلوا هذا لأي شيء؟ ما الدافع؟ ما الأمر الذي أدى بهم إلى أن يفعلوا ما فعلوا؟ هو محاكاة الآباء والأجداد في الكفر والشرك قالوا كما ذكر الله عنهم: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٢] هكذا قال المشركون للنبي -صلى الله عليه وسلم- المهم أن هذه الآية تبين أنه ما كان ينبغي للعباد أن يتركوا ربهم -سبحانه وتعالى- الذي أعطاهم وتفضل عليهم ومنَّ عليهم ويلجؤون إلى غيره -سبحانه- وهؤلاء إذن في أسوأ حالة حينما يعبدون ما لم ينزل الله به سلطاناً وما ليس لهم به علم ثم تصفهم الآية بأنهم من الظالمين وليس لهم من دون الله من ولي ولا نصير يقول سبحانه: ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾ هذ الختام أفاد أن هؤلاء المشركين، أن هؤلاء الظالمين وقعوا في الشرك لأن الظلم عند الإطلاق يراد به الشرك كما قال لقمان لابنه ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾[لقمان: ١٣] فهم أيضاً مشركون ثم يا ليتهم لما أشركوا بالله -تبارك وتعالى- وعبدوا غير الله يستفيدون شيئاً أو الآلهة التي عبدوها من دون الله -تبارك وتعالى- تعطيهم وتقف إلى جوارهم أو تعطيهم شيئاً من النعم ولو يسير التي أنعم الله بها عليهم أو تدفع عنهم سوءاً أومكروهاً يمكن أن ينزل بهم الآية ذكرت هذا ويفهم هذا من قول الله -تبارك وتعالى-:﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ يعني أن هذه الآلهة لن تنفعهم ولن يستفيدوا منها ولن تنصرهم بل -وللأسف الشديد أيها الإخوة الكرام- القرآن الكريم يلفت نظر الناس إلى أمر واللهِ لو فقهوه وهم يعلمونه ويقفون عليه ولكنهم لا يفقهونه لو فقهوه لتركوا كل ما يعبد من دون الله -تبارك وتعالى- تأملوا ماذا يقول الله -عز وجل- لهؤلاء المشركين في سورة يس: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾[يس: ٧٤: ٧٥] هذه الآلهة يا أيها المخاطبون الذين عبدتم هؤلاء من دون الله لا تستطيع هذه الآلهة بحال أن تنصركم والأعجب من هذا أن هؤلاء المشركين هم الذين ينصرون هذه الألهة ويحرسونها يعني: لن أذكر شيئاً لكم ولكن كل واحد منكم بعقله كل مشاهدٍ الآن يسترجع معلوماته وينظر في أحوال الناس اليوم وينظر إلى كل من عبد من دون الله -تبارك وتعالى- ستجد أن هؤلاء العابدين هم الذين يحمون هذه الآلهة المزعومة التي توجهوا إليها من دون الله -تبارك وتعالى- هؤلاء المشركين هم الذين يحرسونها هم جنود لهم ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ ﴾ أي المشركين ﴿ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ واقفون على رؤوسهم يحرسونهم لأنهم لو أتاهم مكروه لن يستطيعوا أن يدفعوه عن أنفسهم ولذلك هذا أمر واضح ومشاهد ولا أريد أن أضرب على هذا أمثلة.

هذه الأمثلة التي نذكرها الآن والقرآن الكريم حينما يذكر ذلك ويعبدون من دون الله أيضاً يدعو هؤلاء أن يفكروا بعقولهم كيف تلجأون إلى أمر لم يأذن الله -سبحانه وتعالى- فيه وليس عندكم حجة أو برهان عليه فهلموا إلى الحق وإلى الطريق القويم وإلى الصراط المستقيم الذي بعث به النبي -صلى الله عليه وسلم-.

المحور الثالث: كراهية المشركين لآيات القرآن الكريم:

وهذا المحور سيدور الحديث فيه حول هذ الآية وهي الآية الأخيرة ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ الله -عز وجل- في هذه الآية يبين حال الكفار والمشركين حينما تتلى عليهم آيات القرآن الكريم يسمعونها من النبي -صلى الله عليه وسلم- أو يسمعونها من أحد من الصحابة ما حالهم؟ وكيف يكونون؟ ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ﴾ المراد بالمنكر -أيها الإخوة- هنا هو الغيظ وشدة الغضب وهذا من الحمق والسفه أن يغضب الإنسان لما لانت له الحجارة ويلين له الحديد، الحجارة والحديد تلين لكلمات الله -تعالى- وقلوب الكافرين وعقولهم وأفئدتهم تزداد غيظاً وحمقاً وبغضاً وكراهة لآيات القرآن الكريم القرآن الكريم يصور حالة هؤلاء الناس وكأنه يرسم لهم لوحة ينظر إليها كل مؤمن وهي تشفي صدور المسلمين يعني أنت يا عبد الله اتلُ على هؤلاء المشركين كتاب الله -تبارك وتعالى- حتى يغتاظوا فتعرف في وجوههم المنكر سيتحول حالهم إلى وضع كريه للغاية غضب ومقت لأنفسهم هم لأنهم لم يؤمنوا بآيات الله -تعالى- ولم تنشرح لآيات الذكر الحكيم ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ﴾ ولما تتلى عليهم الآيات وتجدهم بهذه الآية يريدون أن يفعلوا شيئاً يريدون أن ينفسوا عن أنفسهم يريدون أن يكبتوا الغيظ الذي في قلوبهم بإيذاء أهل الإيمان ﴿ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ يسطون عليهم لشدة غضبهم فيؤذونهم والسطو: هو الإيذاء بشدة وقد وقع هذا من المشركين للنبي -صلى الله عليه وسلم- ووقع من بعد النبي -صلى الله عليه وسلم- على أهل الإيمان وعباد الله وأولياء لله الصالحين من الكفار الظالمين كم آذى الكفار أهل الله -تبارك وتعالى- والذين يتلون كتاب الله -تبارك وتعالى- وما ذاك لما قام في قلوبهم من غيظ وبغض وحقد على كتاب الله أولاً وعلى المؤمنين الذين آمنوا وصدقوا برسول الله -صلى الله عليه وسلم- الذي نزل عليه هذا الكتاب ولا يقف الحد عندما نقول: إن السطو هو الإيذاء بشدة عند السطو باليد فقط إنما يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا بأيديهم وأيضاً بألسنتهم الجيوش الجرارة من أعداء الله -عز وجل- تجيش بين الحين والآخر وفي كثير من البلاد من يهود ونصارى وعلمانيين وغيرهم لمحاربة دين الله -تبارك وتعالى- باللسان وبالقول وتنوعت وكثرت وسائل الإعلام المختلفة وفيها أبواق كثيرة لهؤلاء المجرمين يسطون بها على الذين يتلون آيات الله -تبارك وتعالى-.

هذه الآية صورت لنا حالهم الكريهة البغيضة التي يمقتها كل إنسان عاقل ولكن الله -عز وجل- بين لهم حالة أخرى أشد من هذه الحالة أنتم إذا عُرِف المنكر في وجوهكم أيها المشركون وامتلأت قلوبكم غيظاً وحقداً على آيات الله -تبارك وتعالى- وصرتم على هيئة حقيرة كريهة بغيضة اعلموا أن لكم هيئة أبغض من هذا وأصعب من هذا وأشد عليكم من هذا ما هي؟

﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ ﴾ ما هو يارب؟ الله عز وجل يتوعدهم، ما هو؟ قال: ﴿ النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ هذا فعلا هذا شيء حينما يوقع ويقع على أعداء الله تبارك وتعالى سيكون هذا هو الأمر الشديد هذا سيكون الوقع الأليم على هؤلاء الناس هذه هي الحالة حقاً التي هي حالة أسوأ من الحالة التي هم عليها ﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم ﴾ بأي شيء؟ ﴿ بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ ﴾ يعني بحالة أشر وأشد عليكم من الحالة التي أنتم عليها ما هي؟ ﴿ النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ والنار عذابها أليم وحرها شديد وبئس المصير كما قال رب العزة و الجلال يعني أبأس حالة وشر حالة هي التي سيؤول إليها هؤلاء الذين كذبوا بآيات الله وعُرِفَ المنكر في وجوهم حينما تلي عليهم كتاب الله تبارك وتعالى والنار حقا بئس المصير لهؤلاء الناس وصدق رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- حينما قال عن النار في كتابه: ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾[الفرقان: ٦٦] وأود أن أشير إلى نقطة أخيرة وهي أن الكفار لا تعرف المنكر في وجوههم إذا تليت عليهم آيات الله فحسب، بل بمجرد ذكر الله تبارك وتعالى بمجرد أن يذكر اسم الله عز وجل ترى في وجوه هؤلاء المنكر ولذلك هم حينما يحاربون هم يحاربون رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا

يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[الزمر: ٤٥] يحبون الشرك والأنداد والأصنام وعبادة غير الله والاحتكام إلى غير شرع الله تبارك وتعالى يفرحون لذلك أما إذا قلت: هلموا إلى كتاب الله تعالى رأيت في قلوبهم المنكر.

أسأل الله عز وجل أن يصد هؤلاء عن المسلمين وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه وصلِّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كان السؤال الأول ما المراد بالساعة في قول الله تعالى: ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾؟ ولماذا سميت بذلك؟ وماذا تفهم من قول الله تعالى: ﴿ بَغْتَةً ﴾؟

وكانت الإجابة: المراد بالساعة هو يوم القيامة ويوم الحساب ويوم الجزاء والعقاب يوم يرى فيه المؤمنون النعيم ويرى فيه الكافرون والمنافقون العذاب الأليم قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾[الزلزلة: ٦: ٨] وسميت بهذا الاسم لأن فيها ساعة الحساب يوم الوقوف أمام الله في محكمة ساحتها القيامة وشهودها الجوارح والأعضاء ثم بعد ذلك إما إلى جنة عالية أو إلى نار حامية ونفهم من قوله تعالى ﴿ بَغْتَةً ﴾ هو أن الساعة ستقوم على الناس فجأة مهما ظهرت لها من أمارات فكما ورد وصح عن النبي –صلى الله عليه وسلم– (أن الساعة تقوم على رجل يبيع وآخر يشتري) وتقوم كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم– في حديث آخر على شرار الناس نسأل الله أن يرزقنا حسن الختام والله أعلم.

الحقيقة هذا جواب جيد جداً وفيه تفصيل أحببت الآن أن أسمعه ولكن أضيف إضافة يسيرة وهي لماذا سميت الساعة بالساعة؟ الجواب صحيح مائة بالمائة ولكن من الأسباب التي ذكرها المفسرون في أنها سميت ساعة: أنها ساعة يسيرة خفيفة ويحدث فيها شيء عظيم كبير يعني هي ساعة يسيرة أو وقت زمني محدود قليل ولكن الذي سيحدث فيه شيء عظيم ولذلك سميت بالساعة والله أعلم.

السؤال الثاني: قال الله تبارك وتعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾ له تعلق بما قبله من وجهين فما هما؟

وكانت الإجابة الأمر يتعلق بنصر الله من وجهين هما:

الوجه الأول: أن الله يبين لعباده أنه قادر على نصر عباده ومن تمام عباده أنه يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل فمن نظر إلى هذه القدرة التي لا يقدر أحد أن يأتي بمثلها يعلم أن الله قادر على نصره.

الوجه الثاني: أن الله مع هذا النصر وهذه القدرة ينعم على عباده ومن ذلك إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل وقد قال الله: يولج أي يدخل الليل على النهار ببطء والنهار في الليل ببطء حتى لا ينزعج أحد من البشر والحمد لله رب العالمين

الحمد لله الجواب طيب.

السؤال الثالث: ما الراجح في الرؤية في قول الله تبارك وتعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾؟ وماذا يفيد عطف المضارع فتصبح على الماضي أنزل؟

وكانت الإجابة: الرؤية في هذه الآية الراجح أنها رؤية علمية لأن الله هو الذي ينزل الماء من السماء فيخرج من الأرض البقل والزروع وعطف المضارع فتصبح على الماضي أنزل يفيد الاستمرار في دوام نزول المـــاء والنعم من الله –تبارك وتعالى– فهي ليست حادثة عابرة بل هي مستمرة بفضل الله ومنِّه على عباده والله أعلم.،

الجواب سديد والرؤية صحيحة كما ذكر المجيب المراد بها الرؤية العلمية لأن هذا هو المقصود مــن ســياق الآية ويجب أن يذكر هذا المقصود لأن الرؤية البصرية دون علم لا تفيد ولا تحقق المطلوب فالرؤية العلمية هي التي تفيد وتنمي الإيمان وتجعل من لم يؤمن يدخل في الإيمان بعدما يقف ويعلم ويتعلم والله أعلم.

قلتم: إن العباد يظلمون ربهم تعالى بكفرهم فكيف نجمع بين هذ القول وقوله تعالى ﴿ وَهُوَ يُجِيــرُ وَلاَ يُجَــارُ عَلَيْهِ ﴾؟[المؤمنون: ٨٨]؟

سؤال آخر نبحث عن كتاب يبحث للربط بين المواضيع التي تشتمل عليها السورة الواحدة يعني يــربط بــين المواضيع في السورة الواضحة.

في الحقيقة بالنسبة للسؤال الأول لا تعارض بين هذا وذاك العباد حينما يظلمون ربهم هل يصل إلى الله شيء من ظلمهم؟ لا.. هم تعدو على حق الله تبارك وتعالى، وربنا عز وجل هو الذي أخبر بأن الشرك ظلم عظيم في حق رب العزة والجلال لأنه ذنب كبير، في حديث في الصحيحين حديث عبد الله بن مسعود لما ســأل النبــي – صلى الله عليه وسلم–: (أي الذنب أعظم عند الله قال أن تجعل لله نداً وهو خلقك) فالعبد يتطاول على مقــام رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– عندما يظلم هذا الظلم أو يقع في أمور أخر من المعاصي ولا يصل شيء مــن ذلك إلى رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى–.

الله –عز وجل– لما كان المشركون يسبون رب العزة والجلال كما جاء في سبب نزول هــذه الآيــة: ﴿ وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾[يونس: ٦٥] ماذا بعدها؟ ﴿ إِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعًا ﴾ قال بعض أهل العلم: قال الله: ﴿ وَلاَ يَحْزُنــكَ قَوْلُهُمْ ﴾ لأنهم كانوا يسبون رب العزة والجلال، فقال الله جل ذكره: ﴿ إِنَّ الْعِــزَّةَ للهِ جَمِيعًــا ﴾ فهــم يفعلــون ويظلمون ويأفكون ويكذبون ولكن لا يصل ذلك إلى رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– والله تعالى حقاً هــو الذي يجير ولا يجار عليه ولكنه حَكَم عدل جل في علاه.

أما السؤال الثاني: فالحقيقة فيه كتاب لعله يتميز بما ذكر السائل ألا وهو تفسير الشيخ/ برهان الدين البقاعي – رحمه الله تعالى– في تناسب الآيات والسور هذا الكتاب يربط بين الآية والآية وبين السورة والــسورة وأيــضاً بعض كتب التفسير الأخرى تفعل ذلك ولكن هذا الكتاب يتميز عن غيره في هذا الأمر وعنوانه يدل ويشير إلـــى ذلك.

ذكرتم فضيلتكم أن الله خلق النجوم لثلاث زينة للناظرين ورجوماً للشياطين وعلامات، فما حكم من يقرأ مثل ما ذكرتم «حظك اليوم» ويعتقد بها؟

لاشك أن هذا من الباطل ومما لم يأذن الله –سبحانه وتعالى– فيه وكنت أود في الحقيقة أن أقف عند هذه الجزئية وأن أقف عند جزئية أخرى عند ذكر هذه الآية السابقة ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾، وهي الجزئية التي لم أشر إليها وأيضاً لضيق الوقت:

الذين يذهبون إلى الكهان والعرافين لكي يقفوا إلى ما عندهم أو يأخذوا علما لمفقود أو غائب أو ما إلى ذلك هل عند هؤلاء الكهنة أو العرافين شيء؟ هل يعرفون أو يعلمون أو يفقهون؟ حاشا وكلا فالذي يعلم الغيب من؟ رب العباد –سبحانه وتعالى– لا عند النجم شيء ولا عند الكاهن شيء ولا عند الراقي شيء ولذلك النبي –صلى الله عليه وسلم– يحذر من الذهاب إلى الكهان والعرافين: (من أتى كاهناً أو عرافاً فسأله فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد –صلى الله عليه وسلم–) وفي رواية (لم تقبل له صلاة أربعين يوم) ولما سئل النبي –صلى الله عليه وسلم– لما سمعه الصحابة أنه ينهى عن الذهاب إلى الكهان والعرافين قالوا له: إنا نأتي الكهان ويصدقون يا رسول الله) قد نأتي الكهان ويصدقون أحياناً، فالنبي –صلى الله عليه وسلم– قال: (تلك الكلمة يسمعها الجني الجني يسترق السمع فيسمع لشيء مما قضى الله به في السماء فينزل فيلقيه في أذن وليه) أو الجني الذي هو أسفل منه فيعلمه من؟ فيعلم هذا الكاهن أو العراف والله –عز وجل– حفظ السماء بعد ذلك بالشهب التي تسقط على هؤلاء الشياطين حينما يريدون أن يسترقوا السمع وقبل بعثة النبي –صلى الله عليه وسلم– كانت الشياطين تسترق السمع والله –عز وجل– حمى السماء بعد بعثة النبي –صلى الله عليه وسلم– فلما قالوا: (نأتي الكهان ويصدقون) بين النبي –صلى الله عليه وسلم– أن هذا ليس صدقاً على الحقيقة وإنما قد يصدق في مرة بسبب استعانته بهذا الجن ولذلك قال: (تلك الكلمة يلقيها الجن في أذن وليه فيصدق مرة ويكذب في مائة مرة) وبالتالي ليس عند النجوم علم وليس عند الكاهن علم وليس عند غير الله عز وجل مما استأثر الله –سبحانه وتعالى– به علم ولا يجوز الركون بحال من الأحوال إلى شيء من ذلك لأن هذا فيه أيضاً تطاول على مقام رب العزة والجلال سبحانه لأنه من يفعل ذلك أو يدعيه يزعم لنفسه أنه يشارك الله عز وجل في شيء من خصائصه ألا وهو علم الغيب الذي استأثر الله –سبحانه وتعالى– به.

يقول: ما المراد بقوله تعالى: ﴿ مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾؟ ولماذا أضاف النسك إلى الأمة مع أن الله تعالى هو الذي يشرع لهم؟

في الحقيقة قلت: إن المنسك اختلف فيه العلماء إلى أقوال متعددة بعضهم قال: إن المنسك المراد به العيد وبعضهم قال: وهذا هو الذي رجحه كثير من المفسرين أن المنسك هي الذبائح التي تذبح وقالوا: لأن السياق في سورة واحدة وقد سبق أن أشار القرآن الكريم إليها وهي تسمى أيضا مناسك وقال البعض: إن المراد بالمناسك هي الشريعة والمنهاج الذي نزل من عند الله عز وجل.

والله عز وجل أضاف النسك هنا أولا إلى نفسه فقال: ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ فأضاف الله هنا النسك إليه أو المنسك إليه –سبحانه وتعالى– ثم لم يضفه إلى العباد ولكن قال ﴿ مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ يعني بعد ذلك هم قائمون به يعني يتعبدون الله –سبحانه وتعالى– بالنسك الذي أنزله الله –سبحانه وتعالى– عليه.

﴿ هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ يعني سائرون فيه في النسك كما أمرهم رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– هذا هو معنى المنسك ولم يضفه ربنا –سبحانه وتعالى– إلى العباد وإنما أضافه إلى نفسه لما قال: ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ يعني هم سالكوه يتعبدون الله –سبحانه وتعالى– به يعني بالنسك الذي شرعه رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى–.

قول الله عز وجل: ﴿ النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ هل يؤدب المشركون بالنار فحسب أم لهم ألوان من العذاب مختلفة كالبرد مثلاً؟

هذا في الحقيقة ورد في السنة ووردت أيضاً إشارة إليه في القرآن الكريم لكن لما كانت النار يهابها الإنسان أكثر من غيرها أشير إليها مراراً وتكراراً في القرآن الكريم وإلا ورد أشار الله -عز وجل- في كتابه إلى الزمهرير الذي يصيبهم وجاءت السنة أيضا ببيان شيء من ذلك وهي مسائل غيبية نحن نؤمن بها ونفوض علم حقيقتها إلى رب العباد -سبحانه وتعالى- والله أعلم.

تقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته سؤالها: ما الفرق بين «على هدى مستقيم» و«إلى صراط مستقيم»؟

سؤالها الثاني: وكذلك ما الفرق بين «غضب الله» و«لعنة الله»؟

في الحقيقة ما يوجد فرق بين هدى مستقيم وإلى هدى مستقيم الهدى المستقيم هو طريق الله -سبحانه وتعالى- وحينما تصف الآيات بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- على هدى مستقيم هذا في الحقيقة عبارة بليغة للغاية وطبعا لا نستطيع أن نتوسع فنذكر كل ما يمكن أن يقال، لعلى هدى مستقيم كأن الآية جعلت الهدى هو أمر معنوي شيئاً ثابتاً وتمكن منه النبي -صلى الله عليه وسلم- ووقف عليه فهو واقف على الهدى -صلوات الله وسلامه عليه-.

أما قوله: ﴿ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ يعني الطريق المؤدي أنت سالك الطريق المؤدي إلى الله تبارك وتعالى وإلى الصراط المستقيم الذي شرعه رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- فأنت سائر إليه وأنت قائم به.

هذا السؤال الأول

السؤال الثاني: الفرق بين غضب الله ولعنة الله؟

غضب الله -تبارك وتعالى- هو لعنة الله -عز وجل- فمن غضب الله عليه أو من لعنه الله فقد غضب الله -سبحانه وتعالى- عليه، ويذكر بعض العلماء بأن الغضب أعم من اللعنة، فالغضب أعم واللعنة أخص، فقد يغضب رب العباد على شخص ما، دون لعنة، فالغضب أعم واللعنة أخص، هكذا ذكر البعض، ولكن الغضب واللعنة - فيما أراه والله أعلم- كلاهما يفيد شيئًا واحداً ألا وهو أن الله -سبحانه وتعالى- لا يرضى على من غضب عليه أو لعنه -سبحانه وتعالى-.

الأخ الكريم يقول: ما رأي فضيلتكم في الرأي الذي يقول: إن النبي والرسول بمعنى واحد؟ أو متساويان؟

في الحقيقة، فرق العلماء من قديم بين النبي وبين الرسول، بفروق وهذا واضح حتى من السنة النبوية؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر عدد المرسلين وذكر عدد الأنبياء وأنا أشرت فيما مضى إلى أن الفرق المشهور بين النبي وبين الرسول عليه بعض الملاحظات، الذي هو أن النبي من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بالتبليغ والرسول من أوحي إليه بشرع وأمر بالتبليغ.

قلت: هذا عليه ملاحظة ولعل الصواب والذي ارتضاه كثير من العلماء أن النبي مرسل كالرسول من حيث أنه أوحي إليه وأمر بالبلاغ ولكن الرسول من جاء بشريعة مستقلة وبكتاب جديد أما النبي من يأتي تابعاً لرسول سابق ولكتاب سابق، ولشريعة رسول سابق، ولكنه يوحى إليه ومأمور بأن يبلغ؛ لأن آحاد الناس من الأمة ممن تعلم العلم ولم يبلغه مذموم أم ممدوح؟ مذموم، يعني الآن لو تعلمت أنت علماً والناس بحاجة إليه وكتمت هذا العلم

هل تمدح على ذلك أم تذم؟ فما بالك بنبي يوحى إليه ما الفائدة منه إذا لم يؤمر بالتبليغ؟ فالنبي والرسول كلاهما يشترك في التبليغ عن الله ولكن بينهما فرق ولا شك، فالنبي يختلف عن الرسول والله أعلم.

الأخ الكريم يقول: لماذا أفرد الله -تبارك وتعالى- لفظ السماء في قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ﴾ [الحج: ٦٥]؟ وأي سماء المقصودة من السماوات السبع؟

لاشك أن كلمة ﴿السَّمَاءَ﴾ هنا مراد بها السماوات السبع، ولكن يظهر -والله أعلم- كما كنت قد قرأت قديماً في هذا أنه عبر هنا بالسماء ليبين أنها كتلة واحدة ولو سقطت ستسقط ككتلة واحدة فيكون وقعها على الناس شديداً وهلاكها أعظم ولا شك، والله أعلم.

الأخ الكريم يقول: ذكرتم فضيلتكم أن الكفار كانوا يتنازعون ويقولون: لماذا تأكلون مما قتل الله وتأكلون مما قتلتم، فما الرد على ذلك؟

على هذا القول، لاشك أن هذا افتراء ما ينتهي بأجله هو من الله -تبارك وتعالى-، ولكن الله -عز وجل- شرع أموراً يجب أن نقوم بها وهي في مصلحتنا نحن البشر، وقد توصل العلم الحديث إلى ذلك، فذبح الذبيحة بالسكين المعروف وإخراج الدم منها بهذه الطريقة المعهودة هذا هو الذي شرعه الله -عز وجل- لمصلحتنا نحن والله -عز وجل- يعلم ما في ذلك، أما الشيء أو الذبيحة التي تموت أو تقتل دون أن يفعل بها ذلك، الله -سبحانه وتعالى- هو الذي فعل هذا وهو الذي أراد ذلك وهذا نسلم به ولكنها لم تمت أو تقتل على الطريقة التي أراد الله -عز وجل- أن تكون مباحة للأكل لبني الإنسان، ولبني البشر ولكي يستفيدوا منها، ولا يمكن أن يأتي سؤال على كل ما يفعله رب العزة والجلال ويسأل الإنسان لماذا يكون كذا؟ ولماذا يكون كذا؟ الله -عز وجل- له الحجة البالغة ولكن لو رجعنا نحن حتى إلى العلم الحديث الآن سنجد أنه يؤكد ويؤيد ما ذهب إليه القرآن الكريم وما شرعه رب العالمين -سبحانه وتعالى- والله أعلم.

فضيلة الشيخ هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه المحاضرة

السؤال الأول: ما المراد بالإحياء المذكور أولاً والإحياء المذكور ثانيًا في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾؟

السؤال الثاني: دل قول الله -تعالى- ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ على كتابة الله لكل شيء، اذكر آية أخرى تدل على ذلك من القرآن الكريم. وحديثاً للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في ذلك.

السؤال الثالث: اشرح باختصار قول الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾؟

الدرس التاسع: تفسير سورة الحج

فضيلة الشيخ أهلاً ومرحباً بكم

أهلاً بكم ومرحباً وبالمشاهدين الكرام والحاضرين، ويسرنا في هذا اللقاء المبارك -إن شاء الله تبارك وتعالى- أن نلتقي في آيات مع ختام سورة الحج، وهذا شيء يشرح الصدر حينما ينتهي الإنسان من عمل كهذا وهو فضل وتوفيق من رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- والآيات التي سيدور الحديث حولها -إن شاء الله تبارك وتعالى- تشتمل على المحاور التالية:

المحور الأول: كل من دُعيَ من دون الله فهو ضعيف ولا يخلق شيئًا.

المحور الثاني: أمرَ الله المؤمنين بألوان متعددة من الطاعات.

المحور الثالث: الله -تعالى- اجتبى هذه الأمة وهو الذي سماها.

هذه هي محاور اللقاء -إن شاء الله تبارك وتعالى- وسأتحدث عنها وأبينها وأشرحها -إن شاء الله بعد أن نستمع إليها من الأخ الكريم فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾.

جزاك الله خيراً، إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا من سيئات أعمالنا إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم وبارك وأنعم على عبدك ورسولك ومصطفاك وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم وسلك سبيلهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين وبعد.

بعد أن استمعنا إلى الآيات الكريمات من ختام سورة الحج، أبدأ -إن شاء الله تبارك وتعالى- بالحديث عن هذه الآيات في المحاور التي أشرت إليها آنفاً.

المحور الأول: بعنوان: كل من دعي من دون الله فهو ضعيف ولا يخلق شيئًا:

والذي يوضح هذا المحور من هذه الآيات هو قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ قول الحق -تبارك وتعالى- هنا أولاً ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ خطاب يشمل الناس

جميعاً ويدعو الجميع إلى النظر والتفكر لما سيأتي بعدُ، ولا شك أن الحديث موجه إلى المشركين الذين عبدوا غير الله -تبارك وتعالى- بغير علم ولا بينة أو سلطان كما أشارت إلى ذلك آية سابقة من آيات اللقاء السابق، وهي ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ هذه الآية تأتي لتشير إلى أن هؤلاء المشركين الذين عبدوا من دون الله -تعالى- ما لم ينزل به سلطاناً عبدوا من لا يستحق أن يُعبد وأنه بلغ بهم السفه والضعف إلى أنهم توجهوا إلى من لا يخلق ولا يتمكن أن يخلق شيئًا ولو كان حقيراً، فالخطاب إذن لجميع البشر ولكن الذي يجب أن ينتبه إليه وأن يعتني به وأن يتفكر في هذا المثل أولاً هم المشركون، وحينما نقول بأن الخطاب لجميع البشر وأعني بذلك أنه يدخل فيه المؤمنون والكافرون، فائدة دخول المؤمنين هنا: أنهم يزدادون علماً وبصيرة، فائدة دخول المؤمنين في هذا النداء يزدادون بذلك يقيناً وعلماً وبصيرةً، وفائدة دخول المشركين أن الحجة تقوم عليهم بذلك، لأنه يكون قد بلغهم رب العزة والجلال وبلغهم النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بطلان ما هم عليه.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ ما هو المثل؟ المثل جملة من الكلام متلقاة بالرضا والقبول سائرة في الناس مستغربة عندهم، كلمة، جملة من الكلام يتلقاها الناس بالقبول وتصبح سائرة دارجة تذكر بين الحين والآخر كلما أتى مورد يدعو إلى ذكر هذا المثل. والمثل كما هو معلوم عند علماء اللغة يقال على ما ذكر في أول حالة أطلق عليها فيها المثل، وهو ما يعرف بمضرب المثل.

الله -عز وجل- هنا يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ وأنا ذكرت الآن أن المثل جملة من الكلام متلقاة بالقبول والرضا، ولكن السؤال: أين المثل هنا؟ أين المثل السائر؟ هنا لا يوجد مثل ولكن قال الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ قيل في ذلك: لما كان فعل المشركين من الغرابة بمكان وأنه أمر عجيب ويشترك هذا مع المثل في أنه أيضاً يكون مستغرباً أو عجيباً صح أن يطلق على فعل المشركين هذا أنه مثل، ويكون المعنى: الله -عز وجل- يبين أن هؤلاء المشركين جعلوا لله -سبحانه وتعالى- شبهاً حينما عبدوا غير الحق -تبارك وتعالى- وتوجهوا إلى غير الله -جل في علاه- وما كان ينبغي لهم أن يفعلوا ذلك.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ ومعنى ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ يعني أنصتوا لهذا المثل وتأملوه وتدبروه، وهذا ما دعاني إلى أن أقول بأن الناس كلمة الناس تشمل المؤمنين والكافرين، لأن المؤمن سيزداد بصيرةً ويقيناً وإيقاناً والكافر إن فكر ربما يعود ويرجع وإلا فالحجة تكون قد أقيمت عليه، وكلمة ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ مقصودة هنا بالذات لأن الاستماع يحتاج إلى فهم وتدبر وتأمل ولا يكون الاستماع استماعاً إلا إذا كان بتأمل وتدبر وفهم وإلا لا يعد ذلك من باب السماع في شيء، والله -عز وجل- قد نعى على قوم يسمعون ولا يسمعون، يسمعون بآذانهم ولكنهم لا يتأملون ولا يفكرون ولا يتدبرون ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنفال: ٢١].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ نود أن نستمع إلى ما ذكره رب العزة والجلال في هذه الآية الكريمة المباركة، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ الآية تبين أن كل من دُعيَ من دون الله -تبارك وتعالى- لا يملك أن يخلق ولو كان شيئًا يسيراً حقيراً ضعيفاً كالذباب، وهذا في الحقيقة فيه تسفيه لعقول المشركين الذين توجهوا إلى غير الله -تبارك وتعالى-، والآية تبين لهم عجز هؤلاء المشركين وأنهم لا يملكون شيئًا في الكون ولا يستطيعون أن يكون لهم شيء من دلائل الربوبية أو الألوهية فلم تصرفون إليهم ألوان العبادة؟ ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابَ﴾ وهذا يبين ضعف كل من دعي من دون الله -تبارك وتعالى-، وإبراهيم -عليه السلام- أيضاً بين لقومه المشركين الذين عبدوا غير الله -عز وجل- أن ما عبدوه ضعيف حقير لا يملك شيئًا، لما قال لأبيه: ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم: ٤٢] وهذا يبين حقارة الأصنام وسفه المشركين وضعف عقول الضالين الذين لجؤوا إلى غير الله -تبارك وتعالى-، وهذا من الظلم بمكان، يعني عبادة غير الله -عز وجل- مما لا يملك شيئًا وهو

مخلوق ضعيف مربوب مقهور هذا من الظلام بمكان، ويؤكد ذلك ما جاء عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في البخاري ومسلم وغيرهما، وهو حديث قدسي رفعه النبي -عليه الصلاة والسلام- إلى رب العـزة والجـلال وفيه يقول: (ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة أو يخلقوا شعيرة أو يخلقوا حبة، ولا يـستطيعون) والذرة لا شك أنها أقل من الذباب ومع ذلك أيضاً لا يستطيع كل من دعي من دون الله -تبارك وتعالى- أن يخلق شيئًا من ذلك.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾، ولو اجتمعوا له هذه حال، وتفيد فائدة عظيمة وهي: أن هـؤلاء الـذين دعوا من دون الله -تبارك وتعالى-، لا يستطيعون أن يخلقوا هذا الشيء الحقير الضعيف حالة كونهم مجتمعين، فما بالك إن كانوا منفردين يكون العجز أعظم، والضعف لاشك أكبر.

وبالتالي يجب على من يستمع إلى هذه الآية وإلى خطاب رب العزة والجلال فيها أن يتأمل حقارة مـا عليـه المشركين وسفه ما عليه هؤلاء الضالين حينما يتوجهون إلى غير الله -عز وجل-.

والآية لم تقف عند هذا الحد: ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ بعدها، ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ الآية تقول: والله -عز وجل- يتنزل مع هؤلاء المشركين المخاطبين بهذه الآيات أولاً قائلاً: دعونـا مـن الخلق والإيجاد، فهذه الأصنام أو كل من عبد من دون الله -تبارك وتعالى- لا يملك شيئًا من ذلك ولا يقدر على هذا الأمر فلننزل إلى شيء آخر أضعف من الإيجاد والخلق؛ لأن هذه الآلهة عاجزة عن أن تُوجِدَ أو تخلق ما هو الأمر الذي أقل من ذلك وهو أن الذباب الضعيف الحقير هذا لو أخذ شيئًا من هذه الآلهة المزعومة ما استطاعت أن تنقذ نفسها منه، وقيل: الذباب يأخذ ما عليها من الطين، هذا كما كان يراه كثير من المفسرين في السابق، ولو جئنا إلى قوم اليوم يعبدون غير الله -تبارك وتعالى- من البشر ولا نعجب من ذلـك، فـبعض النـاس يعبـدوا الشياطين وليس منا ببعيد ما سمعناه قبل سنوات عن قوم عبدوا الشيطان وأطلقوا على أنفسهم بأنهم مـن عبـدة الشيطان، فلا شك أن هذا قد يوجد ولذلك نقول: لو دعا إنسان شخصاً آخر دون الله -عز وجل- وطلـب منـه وخاف منه وجاء الذباب أو البعوض وأخذ من هذا المخلوق شيئًا من دمه، هل يستطيع هذا المدعو المزعوم إلهاً أن يرده مرة أخرى، أو أن ينقذ نفسه مما أخذه منه البعوض؟ لا يمكن، وهذا تدرج في إقامة الحجة على هـؤلاء فبعد أن بين رب العزة والجلال سبحانه أنهم لا يخلقون شيئًا وأنهم أضعف من ذلك، الأمر أقل من ذلك، وضعفهم أضعف من أن يوجدوا أو أن يخلقوا فلا ننظر إلى الإيجاد والخلق لأن هذا أمر بعيد تعالوا بنا إلى أمر آخر وهو أنهم أضعف من الذباب نفسه الذي لو أخذ منهم شيئًا ما استطاعوا أن ينقذوا أنفسهم مما سلبه منهم الذباب، يعني إقامة حجة واضحة على أمثال هؤلاء ودعوة صريحة من كتاب الله -تبارك وتعالى- إلى أن يرجعـوا هـؤلاء الناس فيفكروا فيما هم عليه ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ ثم يقول رب العزة والجـلال ﴿ضَـعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ الراجح من أقوال المفسرين وهو ما رجحه الإمام الحافظ ابن جرير -رحمـه الله تعـالى- وتبعه عليه الإمام الحافظ ابن كثير: أن المراد بالطالب الصنم، لأنه يطلب ما أُخذ منه، أو ما عبد من دون الله -تبارك وتعالى-، والمطلوب هو الذباب؛ لأن الصنم أو ما عبد من دون الله -تبارك وتعالى- طالب لمـا أخـذه الذباب منه وكلاهما ضعيف، ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ وفي الحقيقة أيها الإخوة الكرام هذه الآية من كتـاب الله -تبارك وتعالى- تؤيدها آيات آخر كثيرة تبين أن من لا يخلق ولا يُوجِدَ شيئًا لا يستحق أن ينُظر إليه أو أن يعبد بحال من الأحوال، والله -عز وجل- يتخذ من الخلق دليلاً قوياً على أنه -سبحانه وتعالى- هو الرب الإلـه الذي يجب أن يعبده البشر جميعاً الذين خوطبوا في هذه الآية.

سورة النحل افتتحها ربنا -سبحانه وتعالى- بآية ثم بعد ذلك ذكر بعض نعمه على عباده، ﴿خَلَقَ الـسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾﴾ [النحل: ٣] إلى آخر تقريباً ما يقرب من خمس عشرة آية وفي الختام رب العزة والجلال يذكر شيئاً جميلاً لو فكر فيه هؤلاء الناس لأيقنوا أنهم على ضلال ولرجعوا إلى رب العـزة والجلال، يقول سبحانه: ﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلامَاتٍ

وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٥- ١٧] يعني كيف تسوون يا أيها المخاطبون بعد آيات سبقت ومرت في بيان قدرة الله على الخلق، كيف تسوون بين من يخلق وتفرد بالخلق والإيجاد وبين من لا يخلق؟ ولذلك آية أخرى صريحة في كتاب الله –عز وجل– تبين أن الخالق هو الإله وأنه هو الرب: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام: ١٠٢] طالما أنه خالق كل شيء فيجب يا أيها المخاطبون أن تعبدوا ربكم وحده دون سواه، وأن غير الله عاجز ضعيف لا يملك شيئًا من الإيجاد ولا يملك شيئًا في نفع نفسه هو، يعني لا يتمكن إذا أخذ منه أحقر الأشياء شيئًا لا يتمكن من أن ينقذ نفسه منه فما هذا الضعف الذي هو عليه هذه الآلهة المزعومة الباطلة؟ ثم بعد ذلك –وللأسف الشديد– نجد قوماً عميت بصائرهم، عميت قلوبهم، طبع عليها، يعبدون حتى البقر من دون الله –تبارك وتعالى–، أين هؤلاء؟ أين فهمهم؟ أين عقولهم؟ هل هذه الآلهة المزعومة يمكن أن تقدم شيئًا؟ حاشا وكلا وصدق رب العزة والجلال سبحانه حينما قرر ذلك فقال: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾.

ثم يعقب رب العزة والجلال بكلام جميل للغاية ويبين أن هؤلاء الناس ما عرفوا بعدُ عظمة رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– ما وقر في قلوبهم وما استطاعوا أن يفقهوا أن ربهم كبير وأنه صاحب السلطان الأعظم –جل في علاه– والقرآن الكريم ينعي عليهم ذلك فيقول: ﴿مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ هؤلاء الذين يفعلون ذلك ما عرفوا مكانة وجلال وعظمة رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– والله –عز وجل– نعى على المشركين في كثير من آيات القرآن الكريم غير هذه الآية كفرَهم بالله –عز وجل– وبين أن كفرهم نابع من عدم معرفتهم بقدر جلال الله –سبحانه وتعالى– وعظمته وقوته، وذلك لما أنكر المشركون بعثة النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– وكذبوه قال الله –جل ذكره–: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١] فالذي ينكر بعثة النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– ما عرف قدر رب العزة والجلال سبحانه حتى ولو انتسب إلى أي دين مهما كان ما عرف عظمة الله –عز وجل– وما وقف وما فقه كيف يعبد الله –سبحانه وتعالى– عبادة صحيحة كما جاء بها حتى النبي المرسل إليه؛ لأنه خالف بذلك النبي المرسل إليه ووقع في أمر عظيم حينما لم يعلم قدر رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– وفي آيات أخر يعظم ربنا –سبحانه وتعالى– نفسه ويمجدها فيقول: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] ثم يعقب على ذلك بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] يعني ما كان ينبغي لهؤلاء الناس أن يقعوا فيما وقعوا فيه وربهم بذلك عظيم، السماء والأرض، التي قال الله عنها: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] هذه السماء وهذه الأرض كلها في قبضة رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– هذا الملكوت العظيم الذي يحتار الإنسان فيه عند التأمل ولكنه لا شيء أمام هذا العظيم –سبحانه وتعالى–.

ثم بعد ذلك يأتي بعض الناس فيشرك مع الله –سبحانه وتعالى– أياً كان من المخلوقين أو يدعو غير الحق –تبارك وتعالى– ﴿سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨] والله –عز وجل– يختم هذه الآية لما قال: ﴿مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ يختمها أيضاً بختام مناسب للغاية فيقول: ﴿إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ يثبت لنفسه القوة التي لا تُقهر، والله –عز وجل– أيضاً في القرآن الكريم قد أثبت لنفسه هذه القوة في آيات كثير: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨] والله –عز وجل– يقول أيضاً: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [البروج: ١٢] وكثير من الآيات التي تشير إلى هذا المعنى وكما أنه قوي فهو أيضاً –سبحانه وتعالى– عزيز، ومعنى عزيز هنا: يعني لا يغالبه شيء، إذا أراد ربنا –سبحانه وتعالى– شيئًا كان، فالجميع تحت قهر رب العزة والجلال سبحانه وما شاء الله كان ولو اجتمعت قوى الأرض على أن لا يكون، وما لم يشأ لا يكون، ولو اجتمعت قوى الأرض على أن يكون، وهذا من عظمة رب العزة والجلال –سبحانه–، ولذلك أوجه الخطاب إلى كل من لم يؤمن بالله –تبارك وتعالى– وأدعوه إلى أن يقف وأن يفكر وأن يتأمل بما أودع الله –سبحانه وتعالى– فيه من كوامن الفطرة إن لم تتغير وتتبدل ومن عقل من الله –سبحانه وتعالى– عليه به، ومن آيات بثها رب العزة والجلال في الآفاق تشير وترشد وتدل على رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– ونقول للجميع: هلموا إلى

الإسلام، ادخلوا في دين الله -عز وجل- تكونون بذلك من المقدرين لعظمة رب العزة والجلال سبحانه ولا تدخلوا فيمن نعى الله عليهم: ﴿مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

ثم يقول سبحانه: ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾، بعدما بين ربنا - سبحانه وتعالى- وذكر في هذه الآيات السابقة شيئًا من أمور الإلهية والعبادة وأوجب على العباد أن يتأملوا وأن يصلوا من خلال هذا التأمل ومن خلال هذا التدبر الذي دعاهم إليه القرآن الكريم إلى أن ربهم واحد بدأ رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- يتكلم في النبوة والرسالة، وهذه أمور مقصودة؛ لأن الرسل هم الذين يبلغون عن الناس ما يأتي من عند رب العزة والجلال سبحانه وفي هذه الآية يبين ربنا -عز وجل- أن النبوة اصطفاء واجتباء منه سبحانه، وهي كما هي كائنة للملائكة هي أيضاً كائنة لمن أرسلهم رب العزة والجلال من البشر، فكلاهما مصطفى ومجتبى من عند رب العزة والجلال ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ والله -عز وجل- في آيات أخر من القرآن الكريم أثبت أن الملائكة رسل فقال في أول سورة فاطر: ﴿الْحَمْدُ للهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾ [فاطر: ١] الشاهد: ﴿جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلً﴾ وقال عن جبريل -عليه السلام-: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ [الحاقة: ٤٠] وهكذا يبين لنا القرآن الكريم أن رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- اصطفى من الملائكة رسلاً وكذلك اصطفى من البشر رسلاً وهم الذين أرسلهم رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- إلى الناس، ليبلغوا دعوة ربهم إلى سائر الأمم الذين أرسلوا إليهم، والله -عز وجل- أيضاً قد أثبت النبوة والرسالة للأنبياء والمرسلين فقال: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وخص النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بذكره بلفظ النبي والرسول في أكثر من موطن من القرآن الكريم، من يذكر لي موطناً منها؟ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١] ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧] -عليه الصلاة والسلام- هذا تكريم وتشريف خاص بمن؟ خاص بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وسيأتي في ختام هذا اللقاء -إن شاء الله تبارك وتعالى- أن النبي -عليه الصلاة والسلام- أفضل وأمته أفضل الأمم -صلوات الله وسلامه عليه- وهذه نعمة ومنة من رب العبادة على أمة محمد بن عبد الله -صلوات الله وسلامه عليه-.

وهذه الآية ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ تبين مكانة من اصطفاهم رب العزة والجلال - سبحانه وتعالى-، وتبين أيضاً أيها الإخوة الكرام وهذه مسألة وأنتم طلاب علم، أن النبوة كما ذكرت وأؤكد على ذلك اصطفاء واجتباء لماذا؟ لأن الفلاسفة ذهبوا إلى أن النبوة مكتسبة، قالوا: أي إنسان من البشر يمكن أن يكتسب النبوة والرسالة بأمور عندهم وقالوا: يعني أن تتوفر فيه قوة تخييلة كبيرة، وقوة ظنية واسعة وأن تكون عنده شفافية من النفس ومن الروح فيكون أهلاً لأن تفيض عليه الفيوضات الربانية من عند الإله كما يزعمون وليس عندهم بذلك نبي يوحى إليه من عند الرب -تبارك وتعالى- ولا رسول من الملائكة ينزل من عند رب العزة والجلال إلى النبي المصطفى المختار، هذا شيء.

الشيء الآخر: الذي تفيده هذه الآية أن الأنبياء والمرسلين أفضل من غيرهم من سائر البشر، وأقول هذا لأن بعض الناس يزعم أن درجة الولاية أعلى من درجة النبوة والرسالة، ويزعمون أن الولي يتلقى من الله مباشرة دون حجاب، أما الرسول فيتلقى عن طريق واسطة ألا هو جبريل الذي كُلِّفَ بالوحي والنزول على الأنبياء والمرسلين أما الولي فهو أعلى درجة من النبي ومن الرسول وهذا في الحقيقة أيضاً انحرام عن الحق وعن الطريق القويم الذي بُعث به النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وهذه الآية تبين خطأ ما ذهب إليه هؤلاء حينما أثنى ربنا -سبحانه وتعالى- على من أرسلهم أو جعلهم رسلاً من الملائكة ومن الناس في قوله: ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ ثم تختم الآية بقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ يعني أنه سميع بأقوالهم بصير بأحوالهم، وهذه تفيد ماذا؟ تفيد ما نص عليه ربنا في آية أخرى من كتابه، ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] فالاصطفاء والاجتباء قائم على علم، قائم على علم يتصف به رب العزة والجلال وإلى جانب هذا العلم صفات أخرى قائمة بالله -عز وجل- كالسمع والبصر وغيرها من صفات الجلال والكمال التي

اتصف بها رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- ومما يزيد هذا المعنى أيضاً وضوحاً أولاً وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ يعني عليم بأحوالهم مطلع عليهم، يبصر ويسمع -سبحانه وتعالى- الآية التالية ألا وهي قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾ وهذه الآية تعود إلى من أرسلهم رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- الضمير فيها ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يعني الأنبياء والمرسلين الذين أرسلهم رب العزة والجلال وقد نص ربنا -عز وجل- على ذلك في آيات أخر من القرآن الكريم كقوله -عز وجل-: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الجن: ٢٦- ٢٨] فالله -عز وجل- يعلم حقاً ما بين أيديهم وما خلفهم والله -عز وجل- لما أمر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يبلغ رسالة ربه يدل على أنه أيضاً عليم بما يفعله ونص ربنا -عز وجل- في ذلك ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧] وهذا يدل على أن الله -عز وجل- مطلع إذا لم يفعل النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ما أنزله الله عليه ولقد بلَّغ ونحن نشهد بذلك أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بلَّغ أمته البلاغ المبين -صلوات ربي وسلامه عليه- فلم يقبض إلى ربه - عليه الصلاة والسلام- إلا وقد تركنا على المحجة البيضاء، على الواضحة ليلها ونهارها سواء -صلوات ربي وسلامه عليه-.

ثم تختم هذه الآية أيضاً بقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ قد يقول قائل: لماذا هذا الختام؟ لأنه بعد دعوة النبي والرسول لاشك أنه سيستجيب من يستجيب ويكفر من يكفر والمرجع والمآل إلى رب العزة والجلال ليقف الجميع بين يدي ربهم -سبحانه وتعالى- فيجازي العامل بقدر عمله، إن كان من المحسنين فجزاؤه ما تعلمون وإن كان من المكذبين الضالين فجزاؤه أيضاً ما سبق أن ذكرناه وهو موجود أيضاً في القرآن الكريم وهذه دعوة أيضاً إلى أن يتفكر الإنسان وأن يقف متأملاً في ألا يعصي ما جاءه من الرسول، من لدن رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- لأن المرجع والمآل إلى الله -عز وجل-.

بعد ذلك أدخل في الآية الأخرى التالية لهذه الآية ومع المحور الثاني من محاور هذا اللقاء وهو بعنوان:

المحور الثاني: أمر الله المؤمنين بألوان متعددة من الطاعات:

ونبتدئ الحديث عن ذلك بقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾......﴾ إلى آخر ما جاء في هذا السياق القرآني الكريم، هذه الآية في الحقيقة والآيات التالية، جاءت بعد أن بين الله -عز وجل- وحدانيته ثم تكلم عن النبوة والرسالة يتكلم في هذه الآية عن الشرائع وما أوجبه على عباده، والكلام في هذه الآية وما يليها سينحصر في أربعة أمور أذكرها بإجمال ثم أعود إلى التفصيل فيها:

المسألة الأولى: ما نوع المأمور هنا؟

المسألة الثانية: ما هي أقسام المأمور به؟

المسألة الثالثة: لماذا كلف الله -سبحانه وتعالى- هؤلاء المأمورين بما كلفهم به؟

المسألة الرابعة: عودة مرة أخرى إلى ذكر شيء من هذا التكليف.

وأرجع بعد هذا الإجمال إلى التفصيل فأقول:

أولاً: تعيين المأمور به:

من هم المأمورون في هذه الآية؟

المؤمنون

أحسنت، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُو﴾ فأهل الإيمان هم المأمورون بهذه الآية، والله –عز وجل– في الآية التي افتتحت بها اللقاء قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وهنا قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُو﴾ سر افتتاح والنداء لأهل الإيمان كما تعلمون ولعل هذا من الأمور المعروفة لدى طلبة العلم هو أن تتفتح آذانهم وأن يسرعوا في الاستجابة لنداء الله –تبارك وتعالى–، الله –عز وجل– يناديك يا مؤمن بلفظ الإيمان، هلم وأقبل ولا شك أن المؤمن سيستجيب لنداء الله –سبحانه وتعالى– له هذا هو نوع المأمور.

ثانياً: أقسام المأمور به:

طب ما هي أقسام المأمور به؟ أقسام المأمور به مذكورة في هذه الآية والآية التي تليها، أولها: الصلاة، والأمر الثاني: العبادة والأمر الثالث: فعل الخيرات، والأمر الرابع: الجهاد في سبيل الله –تبارك وتعالى–.

الأمر الأول: الصلاة:

أقول الصلاة، وأخذت ذلك من قول الله جل ذكره في هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُو﴾ وهذه كناية عن الصلاة، يعني صلوا لله –عز وجل– وذكر الله –سبحانه وتعالى– الركوع والسجود لأنهما من أشرف أركان الصلاة، إلى جانب ما يظهر فيهما من شدة الخضوع والتذلل لرب الأرض والسماء –سبحانه وتعالى– فأنت تركع على هيئة تختلف عن الهيئة التي تكون وأنت واقف في الصلاة، وتسجد كذلك فهذه الهيئة تفيد الخشوع والخضوع والتذلل لله –تبارك وتعالى–، فالركوع والسجود هنا يقوم الواحد منهما مقام قول الله –تبارك وتعالى–: [يا أيها الذين آمنوا صلو] وقلت: ذكر الركوع والسجود لأنهما من أشرف الأركان ويفيدان شدة الخضوع والتذلل لله –سبحانه وتعالى–.

الأمر الثاني: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ أمر بعبادة الله وحده دون سواه قد يقول قائل: طيب الصلاة والقيام لله –تبارك وتعالى– يدخل في عبادة الله –عز وجل– فلما أفرد الصلاة بالذكر أولاً؟ نقول: لا شك أن الصلاة تدخل في العبادة ولكنه أفردها لبيان الاهتمام بها ويكون أيضاً الأمر في هذا فيه شيء من التدرج فينتقل به من ركن من أركان الإسلام إلى إيجاب ما أوجبه عليك من سائر ألوان العبادة.

وكذلك أقول في قوله تعالى في الأمر الثالث:

الأمر الثالث: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ الخير: كل أمر مندوب، كل أمر حسن، كل أمر يشتمل على البر والإحسان والفضل يجب أن يسارع الناس إليه، والله –عز وجل– يدعوكم يا أهل الإيمان إلى فعل الخيرات وفي مقابل ذلك أن تنتهوا عن فعل القبائح والسيئات والعبادة أيضاً تدخل في فعل الخير ولكنه ذكر الخير حتى لا يظن ظان أن العبادة تقتصر على شعائر تعبدية فحسب، من صلاة وصيام وزكاة وحج وما إلى ذلك، لا.. فعل الخير في أي أمر يعود عليك بنفع وهو أمر صالح، وعلى الأمة الإسلامية يعود عليها أيضاً بنفع سواء كان زرعاً في مكان في أرض أو عمل في مصنع بإخلاص لله –تبارك وتعالى– كل ذلك من فعل الخيرات التي يعود أثرها عليك أنت أيها المخاطب لأن العبادة تشمل الدنيا والآخرة، العبادة ليست مقصورة على شعير يقوم الإنسان بها لله –تبارك وتعالى– بل يجب على الناس جميعاً والمؤمنين بصورة خاصة أن تكون حياتهم كلها لله –تبارك وتعالى– فالعبادة

كلمة تسع الحياة كلها، أنت يا عبد الله في أي مكان كنت أخلص نيتك لله -تبارك وتعالى- واقصد وجه الله والدار الآخرة فيما تفعل تكون بذلك عبداً وعابداً لله -تبارك وتعالى-.

وبعد ما قال: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الفلاح: هو الظفر بالمطلوب، الفلاح: أمر أنا أريده، أريد أن أحققه فأناله وأظفر به، هذا هو الفلاح، والله -عز وجل- يذكره هنا بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ولعل تفيد الترجي فلعل للترجية، طيب ما معناها إذن؟ معناها أن العبد المؤمن الذي طولب منه أن يفعل هذه الأشياء يفعلها وهو يرجو ثواب الله -تبارك وتعالى-، يرجو فضل الله -عز وجل- وأن يظفر بالمطلوب لماذا؟ لأن العبد لا يستطيع أن يحكم على نفسه بأنه قد نال الفلاح، لأنه قد يقع في التقصير وقد يفعل ولكنه لا يدري هل قبل الله -عز وجل- منه ما فعل أو لم يقبل منه ما فعل؟ وبالتالي قال رب العزة والجلال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

الأمر الرابع: الذي هو من أقسام المأمور به في هذه الآيات: قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ الجهد أو الجهاد هو أن يبذل الإنسان وسعه فيما يمكن أن يبذله فيه لله -تبارك وتعالى- والجهاد كما تعلمون بالمال والنفس والدعوة إلى الله -تبارك وتعالى- في سبيل الله -عز وجل- والجهاد في الإسلام له قواعد تنظمه، فليس من شيئًا قائماً دون ضوابط يمكن أن تحكم هذه الشريعة التي جاءت من عند الله -تبارك وتعالى- والجهاد يلجأ إليه أهل الإسلام حينما لا يجدون مناصاً، إن كان جهاداً بالقتال فيلجؤون إليه عندما لا يجدون مناصاً منه، ولا شك أن هذا الجهاد يدعو إليه ولي الأمر ويقوم تحت راية واضحة، كذلك الجهاد في سبيل الله -عز وجل- بالكلمة واللسان والبيان والجهاد في سبيل الله -عز وجل- بالمال كل ذلك يدخل في قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾.

ثم أنتقل بعد ذلك إلى المحور الثالث في هذا اللقاء: وهو داخل ضمن هذه الآيات التي افتتحها رب العزة والجلال بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُو﴾ وهو قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾

المحور الثالث: الله تعالى اجتبى هذه الأمة وهو الذي سماها -سبحانه وتعالى-:

وفي ذلك يقول رب العزة والجلال: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ وهذا هو الأمر الثالث الذي تحدثت فيه هذه الآيات وهو بعنوان أشرت إليه إجمالاً فيما مضى: ذكر الأمور التي أوجبت التكليف لهذه الأمة، بالركوع والسجود وفعل الخيرات وعبادة الله والجهاد في سبيل الله، ما الذي أوجب هذه الأمور؟ ما ذكره رب العزة والجلال هنا في كتابه: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ تفيد هذه الآية أن الله -سبحانه وتعالى- هو الذي اصطفى أمة النبي واختارها وفضلها على سائر الأمم، وخصها بهذا التشريف وبهذه المكانة فأنزل عليها أفضل الكتب وأرسل إليها أفضل الرسل -صلوات الله وسلامه عليه- وهذه منة يا أهل الإيمان يجب أن تقدروها وأن تقوموا بحقها فتؤمنوا بالله وتتابعوا رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، تتنافسون في الطاعات، وتتسابقون إلى فعل الخيرات لأنكم أمة أيضاً مصطفاة، في الآية قبل السابقة: ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ وهنا يقرر الله لكم يا أهل الإيمان أنه كلفكم بأمور وما كلفكم إلا لأنه اجتباكم لأنه اختاركم لأنه فضلكم فيا أهل الإيمان قدروا هذه المنقبة العظيمة وتأملوا في فضل الله -سبحانه وتعالى- عليكم، ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ بعد قوله: ﴿اجْتَبَاكُمْ﴾ وهي تبين لماذا كانت هذه التكاليف على هذه الأمة جاءت هذه الآية كأن سؤالاً طرح هنا، كيف اجتبانا وهذه التكاليف قد يكون فيها شيء من المشقة والصعوبة على بعض الناس؟ فأجاب رب العزة والجلال بقوله وأزال هذا الوهم الذي يمكن أن يقوم في قلوب بعض الناس وهو قائم ولا شك، كم من أناس نرى ونحن في طريق الدعوة إلى الله -عز وجل- يقولون لك: أنت تشدد علينا، حينما تأمرهم بشيء من التكاليف الشرعية: أو هذه مسائل فيها شيء من الصعوبة: كيف أترك فراشي وأقوم لصلاة الفجر: كيف أضحي بشيء من

مالي ووقتي وما إلى ذلك ... الله -عز وجل- يقرر أن هذه الشريعة المحمدية رفع الله -عز وجل- الحرج عن أصحابها فقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ الحرج أيها المستمعون الكرام هو الضيق والمعنى: ما كلفكم الله -سبحانه وتعالى- بشيء يشق عليكم أو يسبب العنت لكم فالتكليف في الإسلام وفي شريعة النبي -عليه الصلاة والسلام- قائم على قدر الوسع والطاقة، كما رب العزة والجلال سبحانه: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وهذه الآية كقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وكقوله جل ذكره: ﴿وَاللهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللهُ أَن يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٧، ٢٨] والإسلام حينما كلف كلف بشيء في مقدور الإنسان واستطاعته لا يكلفه شيئاً من العنت فالله -عز وجل- رفع الإصر عن هذه الأمة ولذلك كما جاء في حديث ابن عباس -رضي الله تعالى عنه-: (أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما قرأ قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَ﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال الله: قد فعلت) وهذا رفع للحرج عن هذه الأمة فيما أخطأت فيه أو ذلت فيه أو قصرت فيه ومثله أمور أخر جاءت في شرعة الإسلام يا أيها المشاهدون الكرام من أمثلة رفع الحرج والضيق في هذه الملة المحمدية أن الله -سبحانه وتعالى- خفف عن المسافر الصلاة فسن لهم النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يجمع وأن يقصر الصلاة أيضاً فالصلاة بدلاً من أن يصليها أربعاً يصليها كم؟ ركعتين لله -تبارك وتعالى- ويجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء إذا كان مسافراً. كذلك للعبد أن يفطر في رمضان إن كان صاحب عذر، لا يتمكن من الصيام أو لا يستطيع أن يقوم به أو كان مسافراً ويشق عليه الصيام. إذا لم تستطع يا عبد الله أن تقوم لله -عز وجل- في الصلاة والقيام في الصلاة ركن من أركانها فصلِّ جالساً فإن لم تستطع فصلِّ نائماً أو على جنب كما جاء عمران بن حصين للنبي -صلى الله عليه وسلم- وقال: (كانت بي بواسير) لا يستطيع القيام في الصلاة، فكلم النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في ذلك فقال له: (صلِّ قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب) وهذا رفع للحرج والضيق عن هذه الأمة المحمدية وعلى نبيها -صلى الله عليه وآله وسلم أفضل الصلاة وأتم التسليم-.

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ كلمة ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ جاءت منصوبة هكذا وذكر البعض أنها منصوبة على تقدير يُفهم على الكلام السابق يعني وسع دينكم توسعة ملة أبيكم إبراهيم وقيل وهو الصواب ورجحه أيضاً ابن جرير وأيضاً رجحه الإمام ابن كثير: إنها منصوبة على تقدير فعل محذوف للإغراء، يعني يغرينا باتباع ملة أبينا إبراهيم، وتقديره: الزموا ملة أبيكم إبراهيم، والله -عز وجل- قد قال للنبي -صلى الله عليه وسلم- في كتابه: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١].

قال: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ هل إبراهيم -عليه السلام- أبو المؤمنين جميعاً؟ نقول: لا، فإبراهيم -عليه السلام- يعد أباً للنبي -صلى الله عليه وسلم- أباً أعلى لأنه من ولده من سلالته من سلالة إسماعيل -عليه السلام- ومعظم العرب من سلالة إسماعيل -عليه السلام- وكثير من المخاطبين في ذاك الوقت كذلك ولذلك صح أن يقول الله -عز وجل-: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ ولا يقول قائل بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- عليه إذن لم يأتِ بشريعة جديدة مستقلة، نقول: لا، هو جاء بشريعة جديدة مستقلة ولكنه متبع ملة إبراهيم -عليه السلام- الملة الحنيفية السمحاء، ملة التوحيد وعدم الشرك بالله -تبارك وتعالى-.

ثم يقول رب العزة والجلال سبحانه وهذا داخل معنا في هذا المحور لأن المحور: الله اجتبى هذه الأمة وهو الذي سماها، يقول رب العزة والجلال سبحانه، ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ الضمير في هو يعود على من؟ اختلف فيه العلماء قال البعض وهو الصواب، وهو قول ابن عباس ومجاهد والضحاك وكثيرون بأن الضمير يعود إلى رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- يعني الله -عز وجل- هو الذي سمى هذه الأمة بالمسلمين. وقيل: الضمير يعود إلى إبراهيم -عليه السلام- ولكن هذا مرجوح لأن الله -عز وجل- يقول في الآية وهذه قرائن لأن البعض يقول -وقد أسألكم في

هذا- يقول: بأن إبراهيم -عليه السلام- أقرب مذكور فالضمير يعود إليه ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ نقول: يعود إلى أقرب مذكور إن لم يكن هناك صارف يصرفه إلى غيره، وهنا قامت قرائن تصرف ذلك عن أن يكون المراد بذلك إبراهيم -عليه السلام-:

أول قرينة: أن الله قال: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ يعني في القرآن الكريم، القرآن الكريم نزل بعد إبراهيم -عليه السلام- بمدة طويلة.

القرينة الثانية: أن الخطاب من الأول والأفعال القائمة به هي منسوبة إلى رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- فكما نقول: الله هو الذي اجتبى هذه الأمة قال: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ فالسياق من أوله يتحدث عن أفعال رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- وهذا فيه تكريم أيضاً وتشريف لهذه الأمة بأن الله سماها من قبل، يعني سماها لدى الأنبياء السابقين، تأملوا التكريم والتشريف، وفي هذا تشويق لأهل الإيمان إلى الزيادة والإقبال على الله -تبارك وتعالى-، الله -عز وجل- كرمكم يا هذه الأمة وسماكم من قبل في الكتب السابقة وعند الأنبياء السابقين بالمسلمين، وهذا يدعونا أيضاً يا إخواني إلى أن أذكر أمراً مهما جداً وهو: هل يجوز لنا أن نستبدل بهذا الاسم بغيره؟ الله -عز وجل- يقول: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩] ويقول: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ هل يجوز أن أقول بأنني شاذلي أو برهاني مثلاً أو ما إلى ذلك؟ أنتسب إلى طريقة وإلى شيخ وأترك النسبة التي سماها لي رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ يعني في الكتب السابقة ﴿وَفِي هَذَا﴾ يعني في القرآن الكريم؟ يا رب لماذا كل ذلك؟ لماذا كان هذا التكريم وهذا التشريف؟ كان هذا التكريم وهذا التشريف كما قال رب العزة والجلال في هذه الآية: ﴿وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ النبي -صلى الله عليه وسلم- شهيد على هذه الأمة وهذه الأمة شهيدة على من قبلها من ماذا؟ على الأمم التي قبلها، وهذه الآية كقوله الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وفي الصحيحين عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: (يدعى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت رسالة ربك؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه، هل بلغكم نوح؟ فيقولون: ما أتانا من بشير ولا نذير، فيقول الله لنوح - عليه السلام-: من يشهد لك؟ فيقول -عليه الصلاة والسلام- محمد وأمته، فتشهد هذه الأمة، وهذا هو قول الله - تبارك وتعالى-: ﴿وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ تشهد هذه الأمة ويشهد النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- على شهادة هذه الأمة) وهذا فيه تكريم وتشريف وعلو ومكانة لأمة النبي محمد -صلى الله عليه وآله وسلم-.

يا أيها المشاهدون الكرام أنتم أشرف الأمم وأنتم أكرم الأمم على الله -عز وجل- أنتم أفضل الأمم أنتم الذين اختاركم وكرمكم فأقبلوا على ربكم وقدروا هذه النعمة فلا تخالفوا أمر الحق -تبارك وتعالى-، فأنتم شهداء على الناس، ونبيكم -صلى الله عليه وآله وسلم- شهيد عليكم، ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١] والله يقول له: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥].

وإذا كان الأمر كذلك فأرجع إلى الأمر الرابع الذي أجملته فيما مضى وهو عودة إلى التكاليف مرة أخرى طالما أنه وقع الاجتباء ووقع الاصطفاء ووقع التكريم فحافظوا يا أمة الإسلام على هذا الشرف واغتنموا هذه الفضيلة: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ عودة بعد ذلك وأمر بإقامة الصلاة والتركيز أو التذكير بها أيضاً هنا لأنها هي الركن الأول بعد الشهادتين وللأسف الشديد، وليس هذا هو مجال الحديث الآن عن مثل ذلك، فرط بعض المسلمين في الصلاة والله لم يأمر الصلاة فحسب وإنما أمر بإقامتها يعني بأحسن قيام يمكن أن يقوم به العبد بين يدي رب العزة والجلال

﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ كذلك ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ﴾ أي استعينوا به وتوكلوا عليه، وتأيدوا به وتأيدوا برب العزة والجلال سبحانه والعبد إذا أوكل نفسه إلى رب العزة والجلال واعتصم به هداه الله -عز وجل- وأدخله جنته ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء: ١٧٥] ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ﴾.

ونعم الختام الجميل ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ والله لا مولى لنا إلا ربنا ولا نصير لنا إلا ربنا، وكما قال سبحانه: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وكما قال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وذكر ربنا عنه ذلك في كتابه ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ﴾ [الأعراف: ١٩٦] تأمل قول النبي -عليه الصلاة والسلام-، يذكر بأن الله -سبحانه وتعالى- هو وليه وكذلك أيها المخاطبون الكرام الله -سبحانه وتعالى- هو ولينا ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ وأكرر القول فأقول ما أجمل هذا الخطاب وهي دعوة أيضاً إلى أن نحتمي بالولي الكبير المتعال ألا وهو رب الأرض والسماء وأن ننتصر بربنا -سبحانه وتعالى- فهو نعم المولى ونعم النصير.

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أسئلة الحلقة الماضية:

كان السؤال الأول:

ما المراد بالإحياء المذكور أولاً والإحياء المذكور ثانيًا في قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾؟

وكانت الإجابة:

المقصود بالإحياء الأول أن الله -تبارك وتعالى- أحيانًا بعدما كنا موتى في العدم أو أننا موتى ونحن نطف في أرحام أمهاتنا ثم جاء رب العزة ونفخ فينا الروح كما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨].

الإحياء الثاني: بعد الخروج من رحم الأم فإذا قدر الله له أن يعيش فيعيش ما شاء الله له ثم يموت ثم يبعثه الله للحساب. انتهت الإجابة.

الإجابة صحيحة وسليمة، والحمد لله.

السؤال الثاني: دل قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ على كتابة الله لكل شيء، اذكر آية أخرى تدل على ذلك وحديثاً في ذلك.

وكانت الإجابة:

الآية قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ﴾ [سبأ: ٣] هناك أكثر من آية أقولها؟

يعني نذكر أن لفظه كتبه في كتاب، وفيه آيات صريحة يعني ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ﴾.

فيه إجابات أخرى.

وقول الله -تبارك وتعالى- ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الحشر: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النجم: ٢٢].

أما الدليل من السنة فروى البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: (سُئل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن أولاد المشركين فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين).

وروى الإمام مسلم عن عائشة أم المؤمنين قالت: (توفي صبي فقلت: طوبى له عصفور من عصافير الجنة، فقال الرسول -صلى الله عليه وسلم-: أو لا ترين أن الله خلق الجنة والنار فخلق لهذه أهلاً ولهذه أهلاً؟).

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وكل الله بالرحم ملكاً فيقول: أي رب علقمة أي رب مضغة فإذا أراد الله أن يقضي خلقه قال: أي رب ذكر أم أنثى أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كل ذلك في بطن أمه).

في الحقيقة هذه الأجبة التي سمعتموها الآن تفيد علم الله -سبحانه وتعالى- السابق للأشياء وكنت أود أن يذكر أيضاً التعليق على قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ [الحج: ٧٠] يعني دلت هذه الآية كما قلت على كتابة الله -سبحانه وتعالى- مقادير الأشياء ومن أصرح أو الآيات الصريحة من أصرح الآيات في ذلك، ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَ﴾ [الحديد: ٢٢] كذلك حديث عبد الله بن عمر بن العاص وهو في صحيح مسلم وقد سبق أن قلته في اللقاء السابق.

السؤال الثالث: اشرح باختصار قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانً﴾؟

وكانت الإجابة:

يقول الله -سبحانه وتعالى- مخبراً عن المشركين الذين عبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً كقوله -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١١٧] فهم يعبدون من دون الله ما ليس عنده به علم وإنما تلقوه عن أسلافهم بل سوله لهم الشيطان وما كان ينبغي لهم أن يتركوه ويبعدوا غيره وأفاد ختم الآية ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أن هذه الآلهة لن تنفعهم ولن تنصرهم بل هم الذين ينصرونها كما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [يس: ٧٤، ٧٥].

الإجابة صحيحة والاستدلال في موطنه فجزاه الله خيراً.

فضيلة الشيخ الأخت الكريمة لها سؤالان:

السؤال الأول: تقول فضيلة الشيخ الكثير من الآيات القرآنية تتوعد المشركين وتصف مواقفهم الصعبة التي سيمرون بها على أرض المحشر فكيف يكون الموقف إذا كان أحد أشرك بجماد مثل أن عبد الدرهم وعبد الدينار هل يوقف هو والدرهم والدينار هناك؟

لا شك أن الله –سبحانه وتعالى– أخبر بأنه سيأتي العابد والمعبود بين يدي رب العزة والجلال وهذه مسائل في كيفياتها مسائل غيبية والدرهم والدينار ليس من المكلفين وبالتالي يعني بعثه بالطريقة التي يمكن أن يُظن لدى الإنسان أنه يبعث وأنه يسأل أو أنه سيناله شيء من العذاب أو ما إلى ذلك، لا أجد آية في القرآن الكريم أو في السنة النبوية المطهرة تشير إلى ذلك، ولا شك أن عبادة هذه الأشياء وإن أطلق عليها هي عبادة وهي أيضاً من صرف همته لها في تحصيلها من الحرام أو أضاع حدود الله –تبارك وتعالى– لكي يحصل هذه الأشياء فهو عابد لها على الحقيقة وهو الذي سيحاسب على قدر ما فرط في جنب الله –تبارك وتعالى–، والله أعلم.

سؤالها الثاني فضيلة الشيخ تقول: قال الإمام ابن القيم في استحقاق وعيد الشرك: «الكامل للكامل والحصة للحصة»، فهل ذلك يأذن لنا أن نهدد من خيف عليه من الشرك بالآيات المذكورة للمشركين وأن نخبرهم بأن لكم نصيباً منها؟

لاشك أن الآيات القرآنية تتلى كما أنزلت، وتطلق على من يأتي بفعل من أفعال الشرك ولكن لا تنزلها على الشخص بعينه، يعني لا تنزل هذه الآية على شخص بعينه؛ لأن التنزيل على شخص بعينه له شروط وقواعد وضوابط معلومة لدى أهل السنة والجماعة، وهو ما يعبرون عنه بأن تتحقق فيه الشروط وأن تنتفي فيه الموانع، وأضرب مثلاً يسيراً على ذلك؛ لأن هذه المسألة أراها مهمة جداً، النبي –صلى الله عليه وسلم– وهو متوجه إلى غزوة حنين ومعه بعض المسلمين الذين كانوا حديثي عهد بإسلام، أسلموا بعد فتح مكة أو مع فتح مكة فمروا على المشركين وهم قد علقوا أسلحتهم على شجرة يتبركون بها ويظنون أنهم إن فعلوا ذلك انتصروا على من يواجههم فقال بعض المسلمين من الذين مع النبي –عليه الصلاة والسلام–: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم يا رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، فقال النبي –عليه الصلاة والسلام–: (إنها السنن، قلتم كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨])، فهذا الفعل وهذا الطلب لا شك أنه شرك ولكن هل أشرك هؤلاء القوم حينما طلبوا ذلك أو وقعوا في الشرك؟ لا .. ما يتنزل ذلك عليهم لماذا؟ لأنهم حديثوا عهد بإسلام، لم يعرفوا ذلك بعد، ولم يتعلموه، الشاهد من كل ذلك أنك لو رأيت فعلاً من أفعال الشرك تقول: هذا من الشرك وتنزل عليه الآيات أما من يفعله فيجب عليك أن تتوقف حتى تقام عليه الحجة والله أعلم.

الأخ الكريم يقول: هل كان يوجد هناك على دين التوحيد قبل بعثة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في عهد الجاهلية والشرك؟ وكيف كانوا يعبدون الله؟ هل كان عبادتهم سراً وهل كان المشركون يؤذونهم؟

لا شك أن الله –عز وجل– أخبر في كتابه أنه ما من أمة إلا وقد أرسل إليها رسول ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وإبراهيم –عليه السلام– وإسماعيل أيضاً كان في مكة، وكان الحنفاء الذين أُطلق عليهم هكذا في مكة كانوا يعبدون الله –عز وجل– على ما جاء به إبراهيم وإسماعيل –عليهما السلام– من دين وهو دين صحيح ولا ينسخ الدين إلا بعد بعثة النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–، فهناك كان حنفاء يعبدون الله بهذه الشرائع التي بعث بها الأنبياء والمرسلون، كذلك الأمر في كل أمة أرسل إليها رسول، فمثلاً من كان متبعاً لموسى –عليه السلام– سائراً على الحق الذي جاء به موسى –عليه السلام– وعنده التوراة الحقيقية التي لم تحرف ولم تبدل فهو على حق وعلى خير إلى أن يبعث النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– كذلك أتباع عيسى وكذلك يقال في كل نبي ورسول والله أعلم.

الأخت الكريمة لها ثلاثة أسئلة:

سؤالها الأول: لماذا دائماً يقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُو﴾ ولم يقل يا أيها المؤمنون؟ ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ ولم يقل يا أيها الذي أرسل؟

لا أجد في الحقيقة فرقاً في مثل هذا فقول الله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُو﴾ كقوله يا أيها المؤمنون، الشاهد من ذلك أن الله -سبحانه وتعالى- نادى أهل الإيمان وأكثر من هذا النداء في القرآن لسرعة استجابة من يسمع؛ لأنه يتوقع ممن آمن وصدق أن يستجيب، طالما أنه آمن بالله -تبارك وتعالى- سيستجيب لنداء الله -تبارك وتعالى-، ولا أرى فرقاً في ذلك والله أعلم.

سؤال الأخت الثاني: يوجد كثيراً في القرآن قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ وكذلك: ﴿يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ فما الفرق بينهما؟ وأيهما أبلغ؟

﴿يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ و﴿يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ الدعاء عبادة، وهذا بنص القرآن الكريم، يعني الدعاء يدخل في العبادة الله -عز وجل- يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر: ٦٠] فأحل كلمة العبادة محل كلمة الدعاء، لأنه في غير القرآن: وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن دعائي، ولكن قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾، فإحلال كلمة العبادة محل كلمة الدعاء تدل على أن الدعاء عبادة، إلا أن الدعاء أخص من العبادة، فالعبادة تشمل الدعاء وغير الدعاء، فأنت مثلاً حينما تأمر بالمعروف أو تنهى عن المنكر هذه عبادة حينما ترفع الأذى عن الطريق، مبتغياً فضل الله ووجه الله -عز وجل- تكون بذلك عابداً لله -سبحانه وتعالى-، في حين لم يحدث منك في مثل هذه الحالات دعاء توجهت به إلى الله -عز وجل-، فالعبادة أعم من الدعاء، والدعاء أخص، وهذا واضح يعني الحمد لله.

الأخت الكريمة تقول: لو سمحت عندي سؤالان:

السؤال الأول: بالنسبة للإنسان الذي يمكن أن يدخل له الرياء في العمل الصالح وهو لا يعلم؟ لو مات على ذلك هل مات مشركاً؟

السؤال الثاني: فيه أحد الأخوات كانت دائماً تصلي استخارة وترى نتيجتها وتقول: أنا أرى نتيجة الأعمال حتى إن الناس تطلب منها أن تصلي لها استخارة وترى النتيجة، وتقول لهم: أنا رأيت لك كذا وكذا، هل هذا العمل يعتبر من أنواع الشرك؟

السؤال الثالث: هل الدعاء بصالح الأعمال، الإنسان يأخذ أجره في الدنيا على هذا وليس له أجر في الآخرة؟

بالنسبة للسؤال الأول: أطلب من أهل الإيمان أن لا يشددوا على أنفسهم وأن لا يجعلوا للشيطان طريقاً عليهم حتى لا يقنطهم من رحمة الله -تبارك وتعالى-، فالإنسان يخلص أعماله لله -عز وجل- ولا يلتفت إلى شيء يمكن أن يؤثر على هذه الأعمال، لا تلتفت إليها، أنت طالما أخلصت وجهك لله -تبارك وتعالى-، فلا تلتفت إلى شيء يمكن أن يقوم به الشيطان كي يقنطك من هذا العمل، والمخرج من ذلك أن تستغفر الله -سبحانه وتعالى- وتستعيذ به من أن تشرك به شيئًا وأنت تعلم وتستغفره فيما لا تعلم وهذا توجيه نبوي من النبي -صلى الله عليه

وآله وسلم-، فأنا أقول للسائلة بأن تفعل ذلك وأن تسأل الله -سبحانه وتعالى- وأن تستعيذ به من أن تشرك بـــه شيئًا وهي تعلم وتستغفر الله -عز وجل- مما لا تعلم والله -سبحانه وتعالى- عنده القبول.

سؤالها الثاني: على الاستخارة ورؤية نتيجة الاستخارة لأخوات غيرها فهل هذا يعد من الإشراك؟

هي التي تفعل، الحقيقة بالنسبة للاستخارة هذه مقصورة على الشخص ذاته لأن الاستخارة مسألة يقوم بها العبد والله -عز وجل- هو الذي يسهل له الأمور ويشرح صدره له وحديث النبي -صلى الله عليه وســـلم-: (إذا هـــم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة...) إلى آخر ما جاء في الحديث فقال: (أحدكم) عـــين الـــشخص بذاته، فالاستخارة لا يفعلها أحد مقام أحد، إن أردت أن تخدمه يا عبد الله فادعو الله -عز وجل- أن يختـــار لـــه الخير.

كان سؤالها الثالث: عن الدعاء بصالح الأعمال هل الإنسان يأخذ أجره في الدنيا ولا يأخذ عليه أجـــراً يـــوم القيامة؟

في الدنيا والآخرة -إن شاء الله تعالى- والله -عز وجل- في كتابه وهي دعوة مسجلة في القرآن الكريم ومن السنة أن يقول العبد بين الركن اليماني والحجر الأسود ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عـــذاب النار، وفضل الله -سبحانه وتعالى- واسع وعظيم.

بمناسبة الركن اليماني نأخذ اتصالاً من مكة من الأخ الكريم،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، بالنسبة لأثناء الصلاة في الحرم هل يمكن إن الواحد ينظر إلى الكعبة؟

السنة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أن ينظر المصلي بين يديه، ولا ينظر إلى الكعبة.

فضيلة الشيخ السؤال الثالث للأخت الكريمة أيضاً تقول: الكفار ﴿مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ فهل المؤمنون حق الإيمان قد قدروا الله حق قدره أم أن قدر الله لا يمكن أن يقدره أحد مهما كان؟

لا شك أن مقام الله -سبحانه وتعالى- عظيم، وهذه الآية كقول الله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] يعني هي دعوة إلى أن يبالغ الإنسان قدر استطاعته في ذلك، وإن كان العبـــد لا يستطيع أن يوفي بجميع ما أوجب الله -سبحانه وتعالى- عليه، ولا يظن الإنسان أنه يمكن أن يكافئ الله -عـــز وجل-، تقول: أنا قدرته حق قدره، أو أنا اتقيته حق تقاته، حاشا وكلا، فالعبد ضعيف وربك -سبحانه وتعـــالى- أعلى وأعظم، وأجل غاية الأمر أنك ترجو وجه الله -سبحانه وتعالى- وتبذل الوسع والطاقة والجهد ما أمكنك من سبيل في تقوى الله -عز وجل- ومعرفة قدر الله -سبحانه وتعالى- وعظمته وعظيم سلطانه -سبحانه وتعالى-.

شيخنا الفاضل، في قول الله: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ هل يصح أن يكون الطالب هـــو المـــشرك نفـــسه الطالب للعبادة والمطلوب هو الصنم المطلوب من قبل المشرك كمعبود؟

أحسنت جزاك الله خيراً، هذا قاله ومذكور في بعض كتب التفسير ولكنه قول مرجوح، هو قاله فيما أذكر الآن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال: بأن الطالب هو من؟ المشرك، والمطلوب هو الوثن أو الصنم ولكـــن الـــذي رجحه الإمام ابن جرير وابن كثير وقال نصاً ابن كثير عنه، قال: وظاهر السياق أن الطالب هو الصنم الذي أخذ منه، والمطلوب هو الذباب الذي أخذ من الصنم ما أخذ. وفي الحقيقة كون هذه العبارة تأتي بعد الحديث عن المثل

وقول الله -عز وجل-: ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾، يدل على هذا المعنى، ولذلك الحافظ ابن كثير قال: وهذا ظاهر السياق، متابعاً في ذلك الإمام ابن جرير وهذا هو الصواب والراجح والله أعلم.

الأخ الكريم يقول: في الآية الأخيرة من سورة الحج: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ هل هذه الآية كلها تتكلم عن الجهاد، الله -عز وجل- يقول بعدها: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ وفي النهاية يقول: ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ هل هذه الآيات كل متكامل أم هي كل فقرة فيها منفصلة عن الفقرة السابقة؟

في الحقيقة هذه آية اشتملت على معاني متعددة وأنا حينما تحدثت عنها من أول قولي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ قلت إلى آخر السياق: هذه الآيات اشتملت على أمور أربعة:

الأمر الأول: تعيين المأمور، من الذي أمر في هذه الآية؟

الأمر الثاني: أقسام المأمور به، الذي ذكرناها وقلنا بأنها أربعة: وهي الصلاة والعبادة وفعل الخيرات والجهاد في سبيل الله -تبارك وتعالى-، ثم ذكرت بعد ذلك الآيات أيضاً بينت سبب هذا التكليف وهو الاجتباء الحاصل من الله -سبحانه وتعالى- ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ الأمر الثاني: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ ثم بعد ذلك قلت: رجعت الآيات فأكدت المأمور به مرة أخرى ووجوب الإتيان به لله -تبارك وتعالى-، فقال: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ فالآية كلٌّ مكتمل، ولكنها تشتمل على معاني متعددة ومفرداتها تفيد هذه المعاني التي أشرت إليها الآن، والله أعلم.

الأخ الكريم يقول: سمعت من أحد المشايخ في تفسير قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ أن الذباب إذا أخذ شيئًا من الطعام، فإنه يقوم بتحويل هذه المادة إلى مادة أخرى قبل وصوله إلى معدته ولو حاولوا أخذ هذه المادة التي أخذها يجدونها غير المادة التي أخذت كما اكتشف ذلك العلم الحديث، فهل لهذا القول صحة؟ وجزاك الله خيراً.

نعم هذا هو معنى الآية، معناها أن الذباب لو أخذ شيئًا من الصنم أو أي من عبد من دون الله -تبارك وتعالى- لا يمكن أن يعود إليه مرة أخرى ولا شك أن المأخوذ يتحول مباشرة بل إن الطعام بمجرد أن ينتقل من مضغ الإنسان له يتحول أيضاً إلى أمور بالتدريج كما هو معلوم ومعروف لدى العلماء في مثل ذلك، فما يأخذه الذباب أيضاً سرعان لا شك بأنه يتحول وحينما يثبت العلم الحديث ذلك فهو يتفق مع منطوق القرآن الكريم في أن ما أخذه الذباب من الأصنام أو مما عبد من دون الله -تبارك وتعالى- لا يمكن للإنسان أن يعيده إلى نفسه مرة أخرى، أو إلى الصنم أن يعيده إليه مرة أخرى، وما ذاك على الأقل إن لم يتحلل سيختلط بما لدى هذا الذباب، والله أعلم.

الأخ الكريم من فرنسا يقول: فضيلة الشيخ السجدة الثانية من سورة الحج يراها الإمام مالك وأبو حنيفة من العزائم أريد من فضيلتكم التفصيل في هذه المسألة أثابكم الله.

جزاه الله خيراً أعتقد هو متفق مع الأخ القارئ، هذه السجدة الثانية اختلف فيها الفقهاء، السجدة الأولى الواردة في سورة الحج، اتفق الأئمة الأربعة على القول بالسجود فيها، أما الثانية فاختلف فيها الفقهاء وعلى أية حال من أخذ بهذا فحسن ومن لم يأخذ بها أيضاً فحسن ولكن الحديث الوارد: (في أن هذه السورة فضلت على غيرها بالسجدتين) حديث ضعيف، يعني برز في بعض الآثار أن سورة الحج فضلت على غيرها بالسجدتين هو حديث ضعيف، ولكن الفقهاء كما ذكر الأخ الكريم اختلفوا في هذه السجدة فبعضهم قال: بأنه يستحب أن يسجد فيها

الإنسان وبعضهم قال: لا تعد سجدة من سجود التلاوة الواردة في آيات القرآن الكريم ولا يوجد نص في مثل ذلك يعتمد عليه والله أعلم.

فضيلة الشيخ الأخت الكريمة تقول: إذا تعود الإنسان على فعل النوافل من الطاعات وعدم استشعاره للأجـــر في كثير من الأحيان ينقص من أجره رغم أن دافعه الأول الباعث على العمل هو الرغبة في الثـــواب كـــصيام الاثنين والخميس وغير ذلك؟ وجزاكم الله خيراً.

لا، نحن منذ قليل عند أول سؤال وجه إليها كان قريباً من هذا ونحن نقول: على الإنسان أن يخلص وجهته لله -تبارك وتعالى- ويرجو من الله -عز وجل- نحن أيها المخاطبون نسأل الله -عز وجـــل- التوفيـــق والـــسداد والقبول فنحن نعمل ونخلص في أعمالنا لله -سبحانه وتعالى- ونطلب من رب العزة والجلال أن يأجرنا عليهـــا خيراً، وأن يتفضل علينا بأجر عظيم في الدنيا والآخرة، وليحذر الإنسان من وساوس الشيطان في مثل ذلك؛ لأن الشيطان إذا وجد من الإنسان إقبالاً على الطاعة، يحاول أن يوقفه أو أن يصده عنها أو أن يقلل من أعماله بمـــا يمكن أن يوسوس إليه في مثل هذه الأمور فلا يلتفت العبد إلى ذلك بل عليه أن يقبل على الطاعـــة وأن يرجـــو فضل الله -تبارك وتعالى-.

فضيلة الشيخ هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه المحاضرة

السؤال الأول: عرف المثل. وما المراد بقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾؟

السؤال الثاني: ذهب البعض إلى أن النبوة مكتسبة ناقش هذا القول مبيناً الصواب في ذلك. مـــع الـــدليل لمـــا تذكر.

السؤال الثالث: اختلف العلماء في الضمير الوارد في قوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِـــن قَبْـــلُ﴾؟ اذكـــر الأقوال في ذلك. مع الترجيح.

صل الله وسلم على نبينا وعلى آله وصحبه وسلم.

فضيلة الشيخ أهلاً ومرحباً بكم

أهلاً بكم ومرحباً وبالمشاهدين والحاضرين، ويسرنا في هذا اللقاء أن نلتقي بعد أن انتهيت في اللقاء الـــسابق من سورة الحج ونبدأ بعون الله –تبارك وتعالى– في هذه السورة الكريمة المباركة ألا وهي –كما تعلمون– سورة المؤمنون. وسيدور الحديث –إن شاء الله تعالى– حول الآيات التي سأتحدث عنها –بإذنه سبحانه– في محـــاور متعددة هي كالتالي:

المحور الأول: الله تعالى حكم بحصول الفلاح للمؤمنين.

المحور الثاني: الصفات التي يجب أن تتوفر في أهل الإيمان.

المحور الثالث: الفردوس مآل عباد الله الصالحين.

المحور الرابع: الله –تعالى– أحسنُ الخالقين.

ولنستمع الآن إلى الآيات الجليلة المباركة التي سأتحدث عن هذه المحاور من خلالها –إن شاء الله تعالى– فمع القارئ الأخ الكريم فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّـــذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَـــإِنَّهُمْ غَيْـــرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّـــذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾.

أحسنت وجزاك الله خيراً.

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن نبينا وإمامنا محمداً عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم وبارك وأنعم على عبدك ورسولك ومصطفاك وعلى آله وأصحابه ومن سلك ســـبيلهم واقتفى أثرهم واهتدى بهديهم إلى يوم الدين وبعد.

فمع الآيات الأولى من هذه السورة الكريمة المباركة، والتي افتتحها رب العزة والجلال بقولـــه: ﴿قَـــدْ أَفْلَـــحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ ولذلك عنونت لهذه الآية بمحورٍ قلت فيه:

المحور الأول: الله تعالى حكم بحصول الفلاح للمؤمنين:

ذلك أن أهل الإيمان الذين أمرهم رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- في آيات كثيرة من القرآن الكريم وخاصة في سورة الحج، هذه الصفات والأوامر الربانية التي أمرهم بها رب العزة والجلال رجوا من خلالها أن يحصلوا على الفلاح، فمثلاً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج: ٧٧] وختام السورة: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ﴾ [الحج: ٧٨] هذه كلها أوامر، يرجو المؤمن إن قام بهذه الأوامر أن يحصل على الفلاح فبعدما ذكر رب العزة والجلال رجاء أهل الإيمان لذلك افتتح ربنا -سبحانه وتعالى- هذه السورة بما يفيد ويدل على حصول الفلاح لأهل الإيمان، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ والفلاح: هو الظفر بالشيء، أن تظهر أن تنال الشيء الذي تحب وتريد أو أن تبقى في الخير، هذا كله يقال له: فلاح، والله -عز وجل- قد أثبت هذا الفلاح للمؤمنين بمطلع هذه السورة حينما قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ لأن "قد" تثبت المتوقع بخلاف "ما" التي تنفيه، وتقرب أيضاً "قد" الماضي من الحاضر، فالله -عز وجل- هنا لما رجا أهل الإيمان الفلاح أثبته لهم هنا فلا كتابه وفي مطلع هذه السورة مؤكداً وقوع هذا الفلاح وهي بشرى عظيمة لأهل الإيمان فقال -سبحانه وتعالى-: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ وهذه السورة سميت بذلك لاشتمالها على ذكر الفلاح للمؤمنين واشتمالها على ذكر أفضل أوصاف وخلال أهل الإيمان، فهذه الأوصاف التي ذكرها رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- ولها جانب كبير من الأهمية ومن الوجود أو التحقق في صفات المرء المسلم والمرأة المسلمة لهذا كله سمى ربنا -سبحانه وتعالى- هذه السورة باسم المؤمنين، لاشتمالها على أعظم أوصاف وخلال أهل الإيمان، وفي نفس الوقت وفيها بشارة لأهل الإيمان وأيضاً تنويه بذكر هذه الصفات وحث للمؤمنين أن يتنافسوا لتحصيل هذه الخلال الحميدة التي ذكرها ربنا -سبحانه وتعالى- ووصف بها هؤلاء القوم الذين سماهم بالمؤمنين وأثبت لهم الفلاح الذي توقعوه في آيات كثيرة من القرآن الكريم أثبته لهم حينما قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾، يعني أن الفلاح ثابت وواقع لأهل الإيمان بفضل الرب -تبارك وتعالى-.

المحور الثاني: الصفات التي يجب أن تتوفر في أهل الإيمان.

الله -عز وجل- في مطلع السورة أثبت الفلاح لقوم وأطلق عليهم كما سمعتم الآن أطلق عليهم اسم الإيمان، وذكر ربنا -سبحانه وتعالى- بعض الصفات التي يجب أن يتحلى بها من يريد هذا الفلاح، والآيات التي بين أيدينا الآن وكما سنستمع إليها -إن شاء الله تعالى- نجد أن هذه الآيات اشتملت على سبع صفات، يجب أن تتوفر فيمن يريد الفلاح، هي بالترتيب كالتالي:

الصفة الأولى: صفة الإيمان، وهي الصفة التي يدور عليها محور جميع الصفات التي تلحق بالمؤمن بعد ذلك؛ لأن الإيمان هو الدخول في الصدق والوعد لرب العزة والجلال سبحانه، التصديق الكامل بكل ما جاء عن الله وعن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- واعتقاد القلب بذلك والنطق به باللسان والعمل بعد ذلك بمقتضى النطق باللسان وما قام به أو ما قام في القلب من معاني للإيمان، والله -عز وجل- ذكر هذه الصفة وذكرها بأنها هي الصفة الأولى لأن بقية الصفات ترجع إليها، فمن لم يكن مؤمناً بالله ولا مؤمناً بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ثم مثلاً حفظ نفسه عن ارتكاب الفواحش أو أدى الأمانات إلى أهلها ورعاها، فهذا لا تكون له الحسنى بحال من الأحوال وكيف تكون له وقد فاته أصل الحسنى؟ ألا وهو: وجوب الإيمان بالله -تبارك وتعالى- وبالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- والصفة الأولى هذه مذكورة في الآية الأولى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ إذن الصفة الأولى التي يجب أن تتوفر فيمن ذكر ربنا -سبحانه وتعالى- عنهم بأنهم من أهل الفلاح هي الإيمان بالله -تبارك وتعالى- والإيمان بالنبي الكريم -صلوات الله وسلامه عليه-.

الصفة الثانية: التي تلت هذه الصفة مباشرة: جاءت في قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ هذه هي الصفة الثانية التي وصف ربنا -سبحانه وتعالى- بها من وسمهم أو من أثبت لهم الفلاح وهم أهل الإيمان الذين يتصفون بصفات سبع كما ذكرت، الصفة الثانية بعد الإيمان: هي الخشوع في الصلاة، والخشوع في اللغة هو السكون والخضوع وفي الاصطلاح أمر يقوم بالقلب يسكن إليه القلب ويطمئن به ويظهر أثره على الجوارح، الخشوع مسألة قلبية ترجع إلى القلب وإذا سكن القلب واطمأن وخشع وخضع لرب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- ظهر ذلك على الجوارح، والخشوع في الصلاة المذكور هنا في الحقيقة هن روح الصلاة ولبها، روح الصلاة ولبها في الخشوع، ونحن نشاهد أن بعض الناس اليوم يمكن أن يدخل في الصلاة وربما يسير بعقله عشرات الآلاف من الكيلومترات كأنه ذهب إليها وسافر إليها والتقى بأناس هناك وحقق له مآرب وهو قد وقف بين يدي رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- في الصلاة هذا ينافي الخشوع والخشوع في الصلاة مسألة قلبية كما ذكرت يظهر أيضاً آثارها على الجوارح ونحن لا نشاهد من أعمال الخشوع في الصلاة إلا ما يظهر على الجوارح وإلا فما يقوم في القلب لا يعلمه إلا رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- والخشوع في الصلاة كما ذكرت أمر مهم للغاية ومن أراد الوقوف على ذلك فليرجع إلى مدارج السالكين لابن القيم في الجزء الأول في آخره سيجد أنه -رحمه الله تبارك وتعالى- تكلم عن هذا كلاماً مفيداً جليلاً يجب على المسلم أن يرجع إليه وأن تتفتح ذهنه على هذا الأمر كي إذا وقف بين يدي رب العزة والجلال تحقق في نفسه الخشوع، أهل الإيمان إذا وقفوا بين يدي الله نسوا كل الدنيا وما عليها لأن الخشوع يمكن أن يتحصل عليه الإنسان بصدق الإقبال على الله -تبارك وتعالى- وأن يترك مشاغل الدنيا وما فيها وما عليها فإن كان أمره كذلك فعلاً أصبحت الصلاة قرة عين له، كما صح الخبر عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وهو في الصحيحين وغيرهما أنه -عليه الصلاة والسلام- قال: (حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة)، وكان -صلى الله عليه وآله وسلم- إذا أهمه أمر لجأ إلى أي شيء؟ لجأ إلى الصلاة لأن فيها خشوعاً لأن فيها سكينة لأن فيها تواضعاً لأن فيها تفريغ قلب الإنسان المقبل على الله -عز وجل-، عن جميع مشاغل الدنيا والإقبال بالكلية على الله -تبارك وتعالى-، واعلموا أيها المشاهدون الكرام أن الله -تبارك وتعالى- توعد من لم يخشع في الصلاة ولم يحافظ عليها وذلك في قول الحق -تبارك وتعالى- ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الماعون: ٤، ٥] البعض يظن أن ﴿سَاهُونَ﴾ هنا بمعنى: تاركون للصلاة، وخاصةً إذا قيل: ﴿عَن﴾ ولكن الصواب والله أعلم في كلمة ﴿سَاهُونَ﴾: أنهم ساهون فيها عن أمرين: عن الوقت والاستعداد لها، أو عن الخشوع فيها، فقد يستعد وقتاً ويؤدي ما يجب أن يقوم به تجاه الصلاة كالاستعداد في معرفة القبلة مثلاً والطهارة وما إلى ذلك، ولكنه حينما يدخل فيها لا يكون خاشعاً فيكون قد أتى بأمر لا يجب أن يأتي به ويكون في هذه الحالة متوعد من الله -تبارك وتعالى- بذلك والدليل على هذا أن الله -عز وجل- قال ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾﴾ ولو كان القصد فويل لمن ترك الصلاة ما أثبته أنه مصلي وإنما قال: ﴿فَوَيْلٌ﴾ لمن؟ ﴿لِّلْمُصَلِّينَ﴾، إذن هو قام بالصلاة ولكنها حركة جوفاء لم تؤدى من خلالها معاني الصلاة الحقيقية ألا وهو الخشوع فيها لرب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- ولذلك نجد أن الله -عز وجل- ذكر أن هذه الصلاة كبيرة إلا على الخاشعين فقال: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] فقال: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ يعني ماذا؟ يعني الصلاة، ﴿إِلاَّ عَلَى﴾ من؟ ﴿إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ الذين خشعوا واستكانوا واطمأنوا وركنوا إلى رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-.

الصفة الثالثة: الإعراض عن اللغو: من الصفات التي يجب أن تتحقق في أهل الإيمان وأن يفوز بها من يفوز وأن يتحقق له الفلاح إن إراد ذلك، الصفة الثالثة هي ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ ذكر الله في هذه الآية أن من صفات المؤمنين المفلحين إعراضهم عن اللغو، واللغو أيها الإخوة الكرام ما لا فائدة فيه، من الأقوال والأفعال وما توجب المروءة تركه، فكل ما يخل بالمروءة أو يقدح في خلق الإنسان ودينه، هو في حقيقة القول من اللغو، ولذلك الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- قال: ﴿عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ يعني عن الباطل، وقال البعض بأن المراد باللغو أو الباطل الشرك وقال آخرون بأن المراد به المعاصي وواقع الأمر أن الكل مراد، فالشرك من اللغو، والمعاصي من اللغو، وليست من صفات أهل الإيمان

بحال من الأحوال، فأهل الإيمان لا يعرفون الباطل ولا يعرفون اللغو بل إنهم يعرضون عن اللغو كما أثبت لنا ربنا ذلك لهم في كتابه، قال الله -عز وجل- مثنياً على أهل الإيمان ومبينا أنهم يبتعدون بعداً شديداً عن اللغو، وعن مقدماته وأسبابه فقال: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان: ٧٢] وفي آية أخرى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص: ٥٥] وكم نشاهد في دنيانا اليوم أيها المشاهدون الكرام، كم نشاهد من لغو في القول والفعل وما إلى ذلك، في حياة الناس أمور كثيرة يحتاج أهل الإيمان بوجه أخص أن يراجعوا أنفسهم فيها، فلا يذكرون قولاً أو كلاماً أو يفعلون فعلاً لا يرضى الله -تبارك وتعالى- عنه، ولا يرضى عنه رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- إذا كنا نقول بأن من اللغو ما يخدش المروءة فما بالك بمنكرات الأقوال والأفعال إنها يا أيها المسلمون أس اللغو وأساسه، ولذلك يجب أن يربأ أهل الإيمان عن أن يقعوا في هذا اللغو الباطل لأن من اللغو ما يكون كفراً -والعياذ بالله تعالى- من اللغو ما يكون كفراً وهذا قد وقع من المشركين وقد يقع اليوم أيضاً من أعداء الإسلام حينما يلغون في الدين، فيسبون الله -عز وجل- أو يسبون النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أو يعارضون القرآن بأهوائهم، كما قال رب العزة والجلال عن الكافرين: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] فاللغو هنا الوارد في هذه الآية هو في الحقيقة كفر بالله -تبارك وتعالى-؛ لأنه لغو في ما جاءنا من عند الله -عز وجل- ألا وهو: القرآن الكريم.

الصفة الرابعة: التي يجب أن تتحقق في من أراد الفلاح هي ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى-:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾﴾ واختلف العلماء في المراد بالزكاة الواردة في هذه الآية، فقال بعضهم: بأن المراد بها زكاة الأموال، وهذا عليه أكثر أهل العلم، وهو ما رجحه الإمام ابن كثير وغيره من المفسرين رحم الله -تعالى- الجميع، وقيل المراد بالزكاة هنا: زكاة الأنفس، زكاة النفوس، طهارة الروح، ويصبح معنى الآية يساوي ما جاء في قول الله -تبارك وتعالى-، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥] أو ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَ﴾ [التوبة: ١٠٣] على كلٍّ أهل العلم يرجحون أن المراد بالزكاة الواردة هنا: زكاة الأموال، وإن قام الذي قال بأنها زكاة الأنفس استدل على أن الصورة مكية، وأن الزكاة لم تفرض إلا في المدينة النبوية، ولكن الواقع والحاصل -إن شاء الله تعالى- أن الزكاة وإن لم تفرض إلا في المدينة النبوية، إلا أن أصلها كان موجوداً في مكة، وما فرض في المدينة كان هو تقدير النصاب الوارد لكل نوع أو فرع من أنواع الزكاة، والدليل على أن أصل الزكاة كان موجوداً في مكة ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى- في سورة مكية، ألا وهي سورة الأنعام: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١] ولم يحدد الحصاد النبي -صلى الله عليه وسلم- في ذلك، لم تحدده السنة ولم يحدده القرآن الكريم ولكنها أشارت إلى أن هناك واجباً يجب أن يخرج من زكاة المال، وإذا قلنا بأن المراد بالزكاة أيضاً طهارة النفس والروح فكلاهما على كلٍ مطلوب ولا غير مطلوب؟ كلاهما مطلوب ولذلك نقول: بأن الزكاة هي النماء ويجب على الإنسان أن يخرج زكاة ماله فينميه بذلك وأن يطهر روحه ونفسه كي ترقى سليمة نظيفة، إلى رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- نفس طاهرة، نفس تتقبلها ملائكة الرحمن ويقولون لها: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: ٢٨] بعد أن زكت هذه النفس أو زكت هذه الروح وتكون زكاة المال إذن وزكاة النفس بطاعة رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- فتطيع ربك وما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم- في إخراج الذي أوجبه الله عليك من مالك ثم بعد ذلك أيضاً تطيع الله وتطيع نبي الإسلام -صلى الله عليه وآله وسلم- فتتبع أوامره وتنتهي عما نهى عنه، فتزكو أيضاً بذلك نفسك وروحك، وهنا قال الله -عز وجل-: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾﴾ معنى ﴿فَاعِلُونَ﴾ يعني: مؤدون، قائمون بحق هذه الزكاة، كما أمر رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-.

الصفة الخامسة: الواردة في هذه الآيات هي ما جاء في قول الله -عز وجل-: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾ في الحقيقة هذه الآيات الثلاث مجتمعة فيها فوائد عظيمة جداً:

- أثبتت أولاً أنه يجب على المسلم والمسلمة والمؤمن والمؤمنة أن يحفظ كل فرجه عن الوقوع في المعاصي.

- وأن لا يحفظه عن زوجه أو ما ملكت يمينه.

- وأن من ابتغى الحلال لا لوم عليه وليس من المعتدين.

إذن الآية بينت ثلاثة أمور:

١- أنه يجب على المسلمين أن يحفظوا فروجهم، وأعني المسلمين والمسلمات أن يحفظوا فروجهم.

٢- وأن يوظفوا ما أودع فيهم من شهوات فيما أباحه رب العزة والجلال في الأزواج وما ملكة أيمانهم.

٣- وأن من يفعل منهم شيئًا من ذلك فهو من المعتدين، ومن الملومين، يعني يقع أيضاً عليه اللوم، كما أثبتت الآيات ذلك.

وهذه الآية تدعو المسلمين والمؤمنين إلى أن يترفعوا عن هذه الفاحشة الدنيئة التي قال الله عنها: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢] يعني تكفي المسلم أن يتأمل هذه العبارة لأن فيه مفاسد شديدة مفاسد عظيمة، ولذلك نجد أن الإسلام حينما نهى عن هذه الفاحشة نهى عن المقدمات المؤدية إليها، فأمر بغض الأبصار، واستتار واحتشام النساء، وأمر بالبعد عما يثير الأنفس أو يؤدي إلى الوقوع فيما حرم الله -عز وجل- في هذا المنكر، وكل ذلك وارد في كتاب الله وفي سنة النبي الكريم -صلى الله عليه وآله وسلم-، والإمام أحمد -رحمه الله تعالى- كان يرى أنه لا يوجد ذنب عظيم عند الله -عز وجل- بعد القتل إلا الزنا، وهذا يبين جريمة هذه الفاحشة، يعني أعظم الذنوب بعد إزهاق النفس المؤمنة هو الزنا، وكان يستدل على ذلك بحديث الصحيحين الذي رواه عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- (أنه سأل النبي -عليه الصلاة والسلام- فقال: أي الذنب أعظم عند الله -تبارك وتعالى-؟ قال- صلى الله عليه وسلم-: أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قال: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك، قال: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك) ولعلك تلاحظ أيها المشاهد الكريم أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أجاب السائل بمثل ما سأل عنه، فهو قد سأل عن أعظم الذنوب، فذكر له الشرك وهو أعظم الذنوب على الإطلاق، ثم بعد ذلك ذكر له القتل، وهو يلي الشرك، ولكنه ذكر أعظم شيء في القتل ألا وهو: أن يقتل الإنسان طفله، الذي كان سبباً في إيجاده، والإنسان قد يقتل غيره من الناس، أما أن يقتل، وأن يقتل طفله فهذه نفس أعتقد من السوء بمكان، ويقتل الطفل مخافة أن يشاركه في الطعام الذي تكفل به رب العباد، ثم ذكر في الثالثة: (أن تزاني حليلة جارك) الزنا كله منكر وفاحشة وبلاء ولكن حينما يكون للجار يكون ذنبه أعظم، وبلاؤه أشد وأنا أؤكد على هذا؛ لأنه غالباً ما يقع الناس نتيجة الجوار، ومعرفة بعضهم ببعض، واختلاط بعضهم ببعض على وجه غير مشروع، يكون هذا سبباً في الوقوع، في هذه الفاحشة المنكرة -والعياذ بالله تبارك وتعالى-.

ثم هذه الآية أيها الكرام فيها بعض الأحكام، ذكر منها العلماء أن هذه الآية استدل بها الإمام الشافعي والإمام مالك وغيرهما على تحريم الاستمناء، لأنه مما وراء ذلك، وأيضاً استدل أهل العلم على تحريم نكاح المتعة، من هذه الآية الكريمة، لماذا؟ لأن الله -عز وجل- أباح الأزواج أو ما ملكت اليمين فقط، ونكاح المتعة لا يدخل في هذا ولا في ذاك، أما كونه لا يدخل في ملك اليمين فواضح، وأما كونه لا يدخل في الأزواج لأنه لا يترتب عليه ما يترتب على الزواج، فليس للمرأة فيه طلاق ولا عدة، ولا نفقة، وما إلى ذلك، فلا يترتب عليه حكم الزواج بحال من الأحوال، ولذلك النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- حرم نكاح المتعة في عام خيبر، وأكد التحريم في عام الفتح -صلوات الله وسلامه عليه-.

ويستفاد أيضاً من هذه الآية تحريم نكاح المحلل، المحلل الذي يعقد على امرأة ليحللها لزوجها الأول الذي بانت منه بالطلاق ثلاثاً، والنبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا يقول: (لعن الله المحلّل والمحلّل له) لماذا؟ لأنه أيضاً ابتغى وراء ذلك.

ولذلك يا أيها المؤمنون هذه مسألة دقيقة مهمة جداً، الله -عز وجل- يخاطبكم فيها ويدعوكم يا أهل الإيمان ، ويصفكم إذا كنتم مؤمنين حقاً، أن تحفظوا فروجكم عما حرم الله -تبارك وتعالى-، واستخدموها فقط، فيما أباحه الله لكم في الأزواج وملك اليمين، وأجمع جمهور أهل العلم على أن ما ملكت أيمانكم خاصة بالرجال دون النساء، فالرجل هو الذي له أن يتسرى بجاريته، أما المرأة إن كانت تملك عبداً فلا يجوز لها بإجماع أهل العلم.

أيضاً في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ﴾ ﴿عَلَى﴾ هنا بمعنى "عن"؛ لأن حفظ لا تتعدى بـ ﴿عَلَى﴾ قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ ﴿٦﴾﴾ ويصبح المعنى والذين هم لفروجهم حافظون إلا عن أزواجهم وما ملكت أيمانهم فالله -عز وجل- أباح لهم ذلك، وهذا تشريع حكيم، يجمع بين مصالح الدنيا وبين مصالح الدين، فهو يجعل للإنسان مجالاً في أن يستفرغ طاقته التي هي في داخله فيما أباحه الله -سبحانه وتعالى- وينظم بذلك ما هو معلوم من الأنساب والأعراض وهذا أمر معروف في شريعة الزواج ولا شك أن المقام يضيق في ذلك ولكني أود أن أؤكد داعياً أهل الإيمان إلى أن يترفعوا حتى عن المقدمات التي تؤدي إلى هذه الفاحشة الشنيعة -والعياذ بالله تعالى- ويكفي أن الله سماها كما ذكرت في الآية السابقة وحينما نهى عنها قال: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ بلفظ القربان، وهذا النهي يؤكد أنه يجب على الإنسان أن يبتعد عن هذه الفاحشة وعن الوسائل المؤدية إليها، ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾.

الصفة السادسة: بعد ذلك هي ما جاءت في قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾﴾ هذه هي الصفة السادسة بعد أن ذكرت صفات خمس لمن أثبت لهم ربهم -سبحانه وتعالى- الفلاح جاءت الصفة السادسة، وهي صفة عظيمة للغاية، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾﴾ أي يحافظون على أماناتهم ويحافظون على عهودهم، والأمانة هي كل ما استودعك الله إياه، وأمرك بحفظه، مما يتعلق بما أوحاه إليك، أو مما يتعلق بحقوق العباد، وكذلك العهود والمواثيق، ما عاهدت الناس عليه وما عاهدت الله -سبحانه وتعالى- عليه، والأمانة أمرها عظيم والوفاء بها جليل، والأمانة في القرآن الكريم تأتي غالباً بمعنى التكاليف الشرعية، يعني حينما قال ربنا -سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ﴾ [الأحزاب: ٧٢] قال أهل العلم بأن المراد بـ ﴿الأَمَانَةَ﴾ هنا التي حملها الإنسان: هي جملة التكاليف الشرعية التي جاءت من عند الله -تبارك وتعالى-، والله -عز وجل- هنا يصف أهل الإيمان بأنهم ﴿لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ يعني يحافظون على الأمانة ويحافظون على العهد، والله -عز وجل- قد أمر بذلك المؤمنين في أكثر من آية وذلك كقول الله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨] ونهى الله -عز وجل- عن الخيانة، نهى المؤمنين وأمرهم بالأمانة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال: ٢٧] فنهى عن الخيانة وأثبت الوفاء بالأمانة، ومن الوفاء بالأمانة أيها المؤمنون، أن نفي بالعهد الذي بيننا وبين الله -تبارك وتعالى- ومن ذلك ميثاق الفطرة الذي أخذه الله على العباد، وأنا دائماً أود أن أنادي من لم يؤمن بالله -تبارك وتعالى- وأدعوه إلى الإيمان بالله -عز وجل- يا أيها الإنسان الله -عز وجل- فطرك على التوحيد والإيمان وأخذ عليك العهد بذلك وهذه أمانة، يجب أن ترجع إليها وأن تسلم لله -تبارك وتعالى- بها، وأقول أيضاً لمن قرأ الكتب السابقة، وتابعوا الأنبياء السابقين: أوفوا بالأمانة التي بلغ بها الأنبياء الذين بعثوا إليكم، لأنهم بشروا بالنبي الخاتم محمد بن عبد الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، ويا أيها المؤمنون أوفوا بالأمانة فيما بينكم وبين الله -عز وجل-، بأداء التكاليف الشرعية، وأوفوا بالأمانة فيما بينكم وبين الناس، فإذا ائتمنك إنسان على أمانة سواءً كانت هذه الأمانة في القول أو في الفعل أو في المال، أو في الحفاظ على أمر ما، يجب عليك يا عبد الله أن توفي بالأمانة حتى تكون من أهل الفلاح الذي أثبتته هذه الآية لأهل الإيمان.

كذلك الوفاء بالعهود؛ لأن الله قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾﴾ والله -عز وجل- أوفى بالعهد بينك وبين الله عهد يجب الوفاء به، بينك وبين الناس عهد يجب الوفاء به، الله -عز وجل- يثبت في كتابه، ويأمر أهل الإيمان أن يوفوا بالعهود، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] ويقول جل ذكره: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ٣٤] ولذلك عدم الأمانة أيها الإخوة الكرام صفة من صفات أهل النفاق، وأنا أقول هذا لأحذر أهل الإيمان، بعد أن دعتهم الآية إلى الوفاء بالأمانة والعهود نحذرهم أيضاً من خيانة الأمانة أو خيانة العهود، النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يقول: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان) فعلى المسلم أن لا يشارك أهل النفاق فيما هم عليه بحال من الأحوال.

الصفة السابعة والأخيرة: من الصفات التي أثبت رب العزة والجلال لمن قامت به الفلاحَ، ألا وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ وهذه الآية تبين أيها الكرام مكانة الصلاة وفضل الصلاة في الدين، وقد أشرت إلى ذلك في آخر سورة الحج، ولكني أود هنا أن أقول: بأن أهمية الصلاة ومكانة الصلاة ظهرت أكثر من خلال هذه السورة، لماذا؟ لأن الله -عز وجل- افتتح أول صفة وصف بها أهل الإيمان بأنهم خاشعون في الصلاة، ثم بعد ذلك ختم هذه الصفات أيضاً بالأمر والمحافظة على الصلاة، فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ والله -عز وجل- قد أمر عباده المؤمنين في آيات أخر من القرآن الكريم بالمحافظة على الصلاة كقوله جل ذكره: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة: ٢٣٨] المحافظة على الصلوات يجب أن يدخل فيه:

المحافظة على أوقاتها، على الطهارة لها، على أركانها، على شروطها، على الخشوع فيها، كل ذلك من المحافظة على الصلاة، ومن لم يفعل ذلك فليس من المحافظين على الصلاة، من لم يحافظ وتقوم به هذه الشروط، كأن يأتي بأركانها كما يجب وبشروطها كما يجب وبالاستعداد لها كما يجب والدخول فيها بعد أن فَرّغ قلبه وهمه مما وراءه لا يكون بحال من الأحوال قد حافظ على الصلاة كما ذكرها رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، فالصلاةَ الصلاةَ يا عباد الله، أقبلوا على الصلاة لأنها الركن الأعظم بعد الشهادتين والله -سبحانه وتعالى- أمر أنبياءه ورسله أن يدعوا إلى الصلاة وأن يحافظوا عليها وأن يأمروا بها من يعولون: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٣٢] كما بين رب العزة والجلال وتوعد الذين لا يحافظون على الصلاة، ويضيعون ما افترض الله -سبحانه وتعالى- عليهم فيها، فيقول: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم: ٥٩].

وختاماً لهذه الصفات السبع أقول: يا أهل الإيمان هذه صفات جليلة، صفات عظيمة، الله -عز وجل- قد أعطى لمن أتى بها الظفر والفلاح في الدنيا والآخرة، والعاقل هو الذي يريد النجاة، فهلموا إلى صفات الفلاح وتمسكوا بها يا أهل الإيمان بدءاً بالصلاة ومروراً بما ذكرت الآيات التي أشرت إليها وختاماً أيضاً بالمحافظة على الصلاة كما أمر رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-.

المحور الثالث في هذا اللقاء: الفردوس مآل عباد الله الصالحين:

وهذا لقول الله -عز وجل- بعد أن ذكر أصحاب هذه الصفات قال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ ﴿الْفِرْدَوْسَ﴾: هو البستان الواسع الكبير، والله -عز وجل- أخبر في هذه الآية أن من تحققت فيه هذه الصفات ملك هذا الفردوس العظيم والفردوس النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- هو الذي بينه لأمته ووضح مكانته لهم، في حديثه الصحيح في البخاري عن أبي سعيد الخدري: (إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس) لماذا؟ (قال: فإنه أعلى الجنة) أعلى مكان في الجنة هو: الفردوس، (ومنه تفجر أنهار الجنة)، (ومنه تفجر) يعني من الفردوس أنهار الجنة، لماذا؟ لأن الجنة كما تعلمون درجات، فالذي يمد هذه الدرجات كلها هو الفردوس، هو البستان العظيم الواسع الذي أعده رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- لمن

قامت به هذه الصفات، وأيضاً فوق الفردوس ماذا؟ عرش الرحمن -تبارك وتعالى-، هذا كله يدعو هل الإيمان إلى أن يتحققوا بهذه الصفات لأن لهم أو مآلهم عند الله -تبارك وتعالى- هو الفردوس العظيم، البستان الواسع الجليل، وقول الله -تبارك وتعالى- هنا: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ ﴿١١﴾﴾ والجنة كما ذكر بعض أهل العلم لا ميراث فيها؛ لأنها تفضل من رب العزة والجلال على عباده، قال بعض أهل العلم ومنهم الإمام ابن كثير وغيره ساق هنا حديثاً عن النبي -صلى الله عليه وسلم- (بأن كل إنسان له منزل في الجنة ومنزل في النار، فإذا مات الكافر صاحب المنزل الذي في الجنة ولم يؤمن ورث أهل الإيمان منزله في الجنة) ولا شك أن هذا يكون إلى جانب ما أعده الله -عز وجل- له، لأن الله -عز وجل- أعد لأهل الجنة الجنة بما قدمت أيديهم، ﴿وَنُودُوا﴾ يعني أصحاب الجنة، ﴿أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣] فالله -عز وجل- يورثهم هذه الجنة بأعمالهم وليس لأن الكافر لم ينل مكانه الذي كان فيه، فرق بين الأمرين، صحيح أن صاحب النار له مكان في الجنة، يتمتع به أهل الإيمان ولكن مع هذا أعد الله -عز وجل- لأهل الإيمان، ولمن قامت فيهم هذه الصفات الفردوس الأعلى، والجنة كما ذكرت درجات، وعلى أهل الإيمان أن يتنافسوا في الحصول على أعلى منزلة في الجنة، (فإذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه) -كما ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم- (أعلى الجنة).

ثم بعد ذلك أدخل في المحور الرابع:

المحور الرابع: الله تعالى أحسن الخالقين:

وتحت هذا المحور ما جاء في قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ....﴾ إلى آخر الآيات، الله -عز وجل- يذكر ويخبر في هذه الآية أنه خلق الإنسان ويعني به آدم، لأنه قال: ﴿مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ والسلالة هو الشيء الذي يستل من الشيء يعني يؤخذ منه، وآدم -عليه السلام- أخذ من هذه الأرض، كما في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: (إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض) الله -عز وجل- خلق آدم من قبضة واحدة، قبضها من جميع الأرض، (فجاء بنو آدم فيهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، وفيهم الخبيث والطيب وبين ذلك) ثم لما خلق الله -عز وجل- آدم كما ذكر من تراب أو من طين ﴿مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ وقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ﴾ خلقه من ماذا؟ ﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ [آلعمران: ٥٩] هذا نص القرآن في خلق آدم، خلق الله -عز وجل- بعد ذلك حواء من أين؟ من آدم، كما جاء في أول سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَ﴾ [النساء: ١] ثم بعد ذلك ذكرت الآيات لأنها لم تشهد إلى خلق حواء ذكرت بعد ذلك مراحل وأطوار الإنسان وقد أشارت إليها أو ذكرتها أيضاً سورة الحج، فبعدما قال الله -جل ذكره-: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ عقب عليها بقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ يعني: تبين الآية إذن وتشير إلى ما تم في الخلق بعد ذلك، بعد خلق آدم وحواء أراد الله -عز وجل- أن يكون الخلق بعد ذلك عن طريق التناسل، ومن ذلك النطفة التي يلقيها الرجل في رحم المرأة، وتظل هذه النطفة كما سبق أن ذكرت وأشرت إلى الحديث عند الكلام في سورة الحج، حديث ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- بأن مراحل وأطوار الإنسان فيما ذكر في هذه الآيات لمدة أربعين يوماً في كل طور، فالنطفة تبقى أربعين يوماً، ثم تتحول من نطفة إلى علقة، لأن الله قال بعد ذلك، ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ والعلقة هي الدم الجامد المعلق، ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ خلق الله -عز وجل- بعد ذلك العلقة مضغة، وهي قطعة لحم جامدة بقدر ما يمضغها الإنسان، بعدها ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامً﴾ يعني أن الله -سبحانه وتعالى- شكل هذه المضغة وشكلها على أي هيئة؟ فخلق لهذا الجنين وهو في بطن أمه، خلق له رأس كما خلق الله -سبحانه وتعالى- له يدين كما خلق له رجلين هذا معنى ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامً﴾ بعدها: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمً﴾ يعني أنه شد هذه العظام، شدها بعد ذلك باللحم، الذي يأتي على هذه العظام، فيكسوها فمعنى ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمً﴾ يعني: شددنا العظم باللحم، وهذا واضح أيضاً من قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان: ٢٨].

ثم قال رب العزة والجلال بعد ذلك: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ قال أهل العلم: ﴿أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ يعني: نفخنا فيه الروح، وجعلنا فيه السمع والبصر وما إلى ذلك، هذا معنى ﴿أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ وقال ابن عباس: أخرجناه طفلاً من بطن أمه، والكل صحيح، فنفخ الروح في الإنسان وكونه ذا سمع وبصر وما إلى ذلك هذا خلق آخر يمر بمراحل بعد ذلك ألا وهي خروج هذا الإنسان من بطن أمه، ثم بعد ذلك يعيش ما شاء الله -سبحانه وتعالى- له أن يعيش، وقد سبق كما أشرت ذكرت الحديث الذي رواه عبد الله بن مسعود عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وهو يبين هذه الأمور، وهذه الأطوار والمدة الزمنية التي يسير الإنسان فيها في كل طور مما ذكرته هذه الآية.

ثم يقول رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- وهو المحور الرابع عنونته أيضاً بقولي: الله تعالى أحسن الخالقين:

بعدما جلا رب العزة والجلال مظاهر القدرة والعظمة التي هو عليها ببيان خلقه للإنسان في هذه الأطوار المختلفة المتعددة، عقب على ذلك بقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ معنى ﴿تَبَارَكَ﴾ يعني: تعالى وتعاظم، وهو بذلك يثني ربنا -سبحانه وتعالى- على نفسه، ويمجدها، وينسبها إلى العلو والرفعة، ﴿فَتَبَارَكَ﴾ من؟ الله؛ ولم يتبارك غيره؛ لأنه ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ هناك إشكال عند بعض الناس في هذه الآية لقول الله -تبارك وتعالى- هنا: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ لأن ﴿أَحْسَنُ﴾ أفعل تفضيل تفيد أن غير الله اشترك في الخلق مع الله، ولكن أحسنهم هو رب العزة والجلال؛ لأن أفعل التفضيل يفيد بأن شيئين اشتركا في أمر وزاد أحدهما على الآخر فيه، في حين أن الله -عز وجل- لم يشاركه أحد من خلقه في الإيجاد، فما معنى إذن أو ما تفسير قول الحق -تبارك وتعالى- هنا: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾؟ قال بعض أهل العلم: أفعل التفضيل هنا ليس على بابه، وإنما أريد به الحسن المطلق أو مطلق الحسن، ولكن لو رجعنا إلى اللغة سنجد حلاً يسيراً وقد خاطبنا الله -عز وجل- في القرآن بلغة العرب، وهو أن العرب يطلقون الخلق على التقدير، العرب تطلق كلمة الخلق على التقدير فقول الله -عز وجل-: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ يعني أحسن المقدرين والتقدير يطلق على الإنسان، فالذي مثلاً يحيك لك ثوباً أو قميصاً يخيطه لك يأخذ أبعادك ويقدرها ثم يقول: خلقت لك مثلاً الثوب، بمعنى أنني قدرت لك الأبعاد من طول وعرض وما إلى ذلك، وأوجدت لك هذا الثوب صناعةً، وقديماً قال الزهير:

ولأنت تفري ما خلقت *** وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

يخلق ثم لا يفري: يعني يقدر.

ثم لا يفري: يعني لا يتمكن من تنفيذ ما قدره.

إذن الخلق يطلق في اللغة ويراد به التقدير، ويطلق ويراد به الإيجاد من عدم، فالخلق بمعنى التقدير يطلق على الخالق والمخلوق، أما الخلق بمعنى الإيجاد من عدم، وإخراج الشيء من حيز الوجود على غير مثال سابق، فلا يكون إلا لرب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، ولذلك أول سورة فاطر التي ذكرتها آنفاً في اللقاء السابق قال الله فيها ماذا؟ ﴿الْحَمْدُ للهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [فاطر: ١] ﴿فَاطِرِ﴾ يعني ماذا؟ يعني موجدها على غير مثال سابق، منشؤها ومبدعها وفي القرآن الكريم ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧] يعني هو الذي أبدعها هو الذي فطرها هو الذي أوجدها على غير مثال سابق، هذا لا يكون إلا لرب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- أما إذا أطلق الخلق على العباد فينصرف إلى التقدير، لأننا نعتقد أنه لم يوجد أحد من الخلق ذرة واحدة وخلقاً وإيجاداً من عدم في هذا الكون، وإنما الذي أوجد الكون رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- جل في علاه.

ثم يقول ربنا بعد ذلك: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾﴾ يبين الله -عز وجل- في هذه الآية أن الإنسان بعدما يمر بهذه الأطوار، من نطفة فعلقة فمضغة إلى غيره، وينزل من رحم أمه إذا شاء الله له ذلك حياً، ويتطور أيضاً أو ينتقل وهو على ظهر هذه الأرض في أطوار أيضاً مختلفة، يكون طفلاً ثم شاباً، ثم كهلاً ثم شيخاً كبيراً، وما إلى ذلك، يخبر رب العزة والجلال بعد هذا كله أن الجميع سيموت، وأن المرد إلى الله -عز وجل-، وهذه دعوة لمن يعتبر ويتفكر إلى أن يحقق في نفسه الصفات التي سبق ذكرها آنفاً، يا أيها المؤمن أنت ستموت وتنتقل وتلقى وجه الله -عز وجل- ولا تسوف فمن أدراك أنك ستعيش إلى صباح اليوم أبداً لا أحد يعلم ذلك والله -عز وجل- يقرر في هذه الآية أن الجميع سيموت، ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ يعني بعد هذه الأطوار وهذا الخلق وهذا الإيجاد ﴿لَمَيِّتُونَ﴾، والله -عز وجل- يقول لنبيه في كتابه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٤، ٣٥] إذا كان لم يجعل الله -عز وجل- لبشر مهما كان أمره لم يبق له وجوداً، فما بالنا بآحاد الناس وأفرادهم اليوم، ولذلك الآية تحكم ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٥] ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ وهذه الآية ختام هذا اللقاء، وهي مهمة للغاية والله كما صدق الله ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرً﴾ [الأنفال: ٨٢] ربنا أولاً في أول الآيات يدعو إلى الفلاح ويثبته لأهل الإيمان ثم بعد ذلك يدعوهم إلى أن يتمثلوا بصفات ثم بعد ذلك يذكرهم بالدار الآخرة وبالموت، وأنهم سينتقلون من هذه الدنيا إلى دار بعد ذلك ولكن هل الموت هو نهاية كل حي فحسب وليست هناك حياة أخرى؟!! وليست هناك نشأة جديدة؟!! لا. هناك نشأة جديدة، وهناك بعث ونشور، ووقوف بين يدي رب العباد للحساب والجزاء وهذا معنى ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾، ليس القصد هو الإخبار بالبعث فحسب وإنما نبعث لماذا؟ للوقوف بين يدي الله -عز وجل-، فيا أيها المؤمن ارعَ هذا اليوم وانتبه لهذا اليوم وتحقق أو وحقق في نفسك الصفات السابقة لهذا اليوم، والله -عز وجل- في كتابه يقول: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦] ويجب على كل مسلم أن يضع البعث والجزاء نصب عينيه؛ لأن حينما يؤمن الإنسان باليوم الآخر وأنه سينتقل من هذه الدار ليقف بين يدي الله -عز وجل-، فيجازى على ما قدمت يداه لاشك أنه سيتحسس مواطن أقدامه، والعباد كل واحد منهم سيجزى على قدر ما قدم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، والله -عز وجل- هو الذي يفصل ويحكم بين العباد، وحينما يخبرنا -عز وجل- في ختام هذه الآيات بأننا سنموت وأننا سنبعث يدعونا من خلال ذلك كما أشرت أولاً إلى أن نحقق في أنفسنا هذه الصفات فهذا تنويه أيها المشاهدون الكرام، تنويه لأهل الإيمان بأن يخلصوا أنفسهم من متابعة الشيطان ويتابعوا الرحمن فيتحققوا ويقفوا ويعملوا بهذه الصفات كي ينالوا النعيم المقيم الذي وعد الله -سبحانه وتعالى- به أهل الإيمان حينما قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ وبختام هذه الآية آتي إلى ختام هذا اللقاء وأسأل الله -عز وجل- أن يتقبل من الجميع وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أسئلة الحلقة الماضية

فضيلة الشيخ وردتنا إجابات عدة على أسئلة الحلقة الماضية.

وكانت السؤال الأول:

عرف المثل وما المراد بقوله -تبارك وتعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾؟

وكانت الإجابة:

تعريف المثل: المثل هو جملة من الكلام متلقاة بالقبول والرضا وتصبح دارجة تذكر بين الحين والآخر كلما أتى شيء يدل على هذا المثل والمراد بقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ مثل

ضربه الله لقبح عبادة الأوثان وبيان نقصان عقول من عبدها وضعف الجميع فقال الله -تبارك وتعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ هذا خطاب للمؤمنون والكفار، المؤمنون يزدادون علماً وبصيرة والكافرون تقوم عليهم الحجة، ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ أي ألقوا إليه أسماعكم وتفهموا ما احتوى عليه ولا يصادف منكم قلوباً لاهية وأسماعاً معرضة، بل ألقوا إليه القلوب والأسماع. انتهت إجابة السؤال الأول

الجواب صحيح، والحقيقة مفيد وشامل، يعني الجواب بهذا الترتيب وحتى ذكر معنى السماع وما إلى ذلك فيه فائدة عظيمة.

السؤال الثاني: ذهب البعض إلى أن النبوة مكتسبة. ناقش هذا القول مبيناً الصواب مع الدليل لما تذكر.

وكانت الإجابة:

يقول الله -تبارك وتعالى- ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ هذه الآية تبين من اصطفاهم الله -عز وجل- وتبين أن النبوة اصطفاء واجتباء من الله -تبارك وتعالى- لأن الفلاسفة ذهبوا إلى أنها مكتسبة وقالوا: أي إنسان من البشر يمكن أن يكتسب النبوة والرسالة ويكفي أن تتوفر فيه قوة تخيلية كبيرة وقوة ظنية واسعة وأن تكون عنده شفافية من النفس والروح فيكون أهلاً لأن تفيض عليه الفيوضات الربانية من عند الله كما يزعمون وينكرون أن النبوة اصطفاء منه سبحانه وتعالى، وهي كائنة للملائكة ولمن أرسلهم الله -عز وجل- للبشر، والله -سبحانه وتعالى- يبين أن جاعل الملائكة رسلاً كما قال الله -عز وجل-: ﴿الْحَمْدُ للهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً﴾ [فاطر: ١] وهكذا يبين لنا القرآن أن الله -عز وجل- اصطفى من الملائكة رسلاً، وكذلك من البشر رسلاً ليبلغوا دعوة ربهم -عز وجل-، بدليل قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

الجواب في الحقيقة صحيح، ولكن عندي إضافة يسيرة فيه، وهي أن نذكر أن النبوة اصطفاء لمن يستحقها من البشر، بالنسبة للبشر لأن الله -عز وجل- ذكر في البشر: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وبالتالي فالأنبياء والرسل الذين اصطفاهم الله -عز وجل- أيضاً مفضلون على سائر البشر، باصطفاء الله -سبحانه وتعالى- لهم.

السؤال الثالث: اختلف العلماء في الضمير الوارد في قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]؟ اذكر الأقوال الواردة في ذلك مع الترجيح.

وكانت الإجابة:

الضمير في قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨] اختلف فيه العلماء وقال فيه البعض وهو الصواب لما قال ابن عباس ومجاهد وكثير من أهل العلم أن الضمير يعود على رب العزة والجلال -جل وعلا- يعني: الله -عز وجل- هو من سمى هذه الأمة بالمسلمين، وهذا فيه تكريم وتشريف لهذه الأمة لأن الله -عز وجل- سماها من قبل في الكتب السابقة وقيل: إن الضمير يعود على إبراهيم -عليه السلام- ولكن هذا القول مرجوح، والله أعلم.

الجواب صحيح جداً يعني ذكر القولين ورجح الراجح. والله أعلم.

مداخلات

الأخت الكريمة من السعودية تقول: أرجو من فضيلتكم ذكر الأسباب المعينة على الخشوع وجزاكم الله خيراً؟

ذكرت في أثناء حديثي بأن من الأسباب المعينة على الخشوع في الصلاة أن يفرغ الإنسان قلبه من هموم الدنيا وما يحتاج إليه فيها، وأن يقبل بكليته على الله -تبارك وتعالى-، وأن يتذكر عند الإقبال أو الدخول في الصلاة أنه بين يدي الله -عز وجل-؛ لأن الصلاة صلة بين العبد وبين ربه، والعبد فيها يناجي ربه -سبحانه وتعالى-، واقف بين يديه يناجيه يطلب منه، يسأله، فعلى العبد أن يحسن الوقوف بين يدي الله -عز وجل-، يعني يجعل هذا في قلبه ورعاً وتقوى وخشية وإقبالاً على الله -تبارك وتعالى- فيورث له الخشوع في قلبه، فالعبد إذا أقبل على الصلاة يجب أن يقبل عليها وقد فرَّغ قلبه من كل هموم الدنيا، وما فيها ويجب عليه أن يعرف أنه مقبل على العظيم، ولذلك أيها الإخوة الكرام، الإنسان حينما يدخل في الصلاة ماذا يقول؟ يقول الله أكبر، ما معنى هذه العبارة؟ أنه داخل تحت مظلة الكريم -سبحانه وتعالى- والكبير الذي هو أكبر من غيره، فتصغر لدى المسلم ولدى المؤمن في نفسه كل شيء ويهون عنده كل شيء لماذا؟ لأنه مع الكبير المتعابل، قال: الله أكبر، أكبر من كل شيء وفوق كل شيء فتفهم هذه المعاني يحصل الخشوع -إن شاء الله تبارك وتعالى-، وفي رسالة يا ليتها توجد ذكر فيها مؤلفها ثلاثة وثلاثين سبباً للخشوع في الصلاة.

الأخ الكريم من مصر يقول: أود أن أسأل الدكتور عبد الله بخصوص وصف الجنة؟ الأوصاف التي وردت في القرآن الكريم عن وصف الجنة هل هي فعلاً حقيقة ما سنراه بإذن الله في الجنة؟ أم أنها قد ضرب الله مثلاً لقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥]؟

وأود لو سمح فضيلة الشيخ أن أسأله عن مراحل خلق الطفل في رحم أمه؟

الأخ الكريم من مصر يقول: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾﴾ هل الخادمات في المنازل تعتبر من ملك اليمين؟ وما هي الحكمة في معاشرة ملك اليمين معاشرة الزوجات؟ وهل ملك اليمين تعتبر من عدد الزوجات التي في ذمة الرجل؟

فضيلة الشيخ الأخ الكريم كان له سؤالان: سؤاله الأول: وصف الجنة في القرآن هل هو على الحقيقة أم مجرد للأمثلة؟

في الحقيقة وصف الجنة في القرآن، هو على الحقيقة وما قال بأن هذه أمثلة إلا الباطنيون الذين جعلوا لكل أمر جاء في القرآن باطناً وظاهراً وقال بهذا أيضاً بعض الفلاسفة بأن الموجود في القرآن في وصف الجنة والنار ما هي إلا أمثال مضروبة في الخيال أريد بها ترغيب الناس في المعروف وترهيبهم عن المنكر ولكن في الحقيقة ما ورد ذكره في القرآن الكريم من آيات في وصف الجنان وما صح به الخبر عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- حق ثابت، كيف وقد شاهد بعضها النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ووصفه، ففيها من القصور وفيها من الحور العين وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، إلى آخر ما ذكر كتاب ربنا -سبحانه وتعالى- وهو حق على حقيقته، يجب الأخذ به والتسليم له.

الأخ الكريم من السعودية يقول: أريد أن أسأل: كيف نجمع بين قول الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]؟ عيسى -عليه السلام- رفعه الله عليه، وفي آية أخرى: أن ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴿٣٥﴾﴾ فكيف يجمع بينهما؟

فضيلة الشيخ السؤال الثاني للأخ الكريم كان عن مراحل الخلق في بطن الأم؟

هذا جاء في سورة الحج وفي أول هذه السورة التي كانت معنا اليوم، فالإنسان يكون نطفة ثم علقة ثم مضغة وبعد ذلك ينفخ فيه الروح كما ذكر رب العزة والجلال في هذه الآيات في هذه السورة التي تناولتها فالله -عز وجل- يعني يكسو العظام لحماً ثم يكون خلقاً آخر بنفخ الروح، وهذه مراحل وأطوار خلق الإنسان وواضحة في سورة الحج وهذه السورة وأيضاً في حديث الصادق المصدوق الذي هو حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه-.

الأخ الكريم من مصر كان له سؤال عن قول الله -عز وجل- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾﴾ هل الخادمات من ملك اليمين؟ وما الحكمة من معاشرة ملك اليمين معاشرة الأزواج؟

هذا والله سؤال جميل جداً في الحقيقة وأنا كنت أراود نفسي أتحدث عنه أم لا؟ ولكن قلت: لعل الخادمات عندنا قليل، لاشك أن الخادمات لا تدخل في ملك اليمين؛ لأن ملك اليمين معلوم، يتملكها الإنسان بالطريقة التي هي مشروعة حينما تأتي في أسرى الحرب أو تكون هي مملوكة عند سيد لها قبل ذلك ويشتريها إنسان بماله، أما الخادمة فهي عاملة، يعني أجيرة، تعمل بأجر مقابل مال تعطيها إياه، فالخادمات ليسن من مما ملكت أيماننا.

أيضاً الحكمة وهذا منصوص عليه في بعض كتب التفسير، ونسيت من ذكره الحكمة في أن الله -عز وجل- أباح أن يتسرى العبد بملك اليمين أن في هذا حفاظاً على البيئة والمجتمع الإسلامي؛ لأن هذه المرأة التي تخدمك وتعيش معك في البيت هي بحاجة إلى أن تعف من هذا الجانب، وطالما أنها ملك لك، وأنت تستخدمها في بيتك للعمل فقد تتكشف لك وقد ترغب في إتيانها، وبالتالي إن وقعت -إن لم يكن مباحاً- تكن قد وقعت في الحرام، فالضرورة داعية إلى ذلك، والله -عز وجل- يعلم من خلقه هذا، فكان هذا التشريع الحكيم ليوافق هذا الأمر، وأعتقد سؤاله قال: هل له عدد أو لا؟ فهو ليس له عدد، مفتوح العدد فيه.

الأخ الكريم من السعودية كان سؤاله عن كيفية الجمع بين قول الله -عز وجل-: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقول الله -عز وجل- في سيدنا عيسى ﴿بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]؟

والله قل له: أحسنت جداً في هذا السؤال، والجمع بينهما سهل ميسور، عيسى ابن مريم يعني خلق بطريقة تختلف عن المعهود لدى جميع البشر، وأيضاً رفع إلى السماء ولم يمت إلى الآن، الله -عز وجل- أخبر بأنه رفع عيسى إليه -صلوات الله وسلامه عليه- كما قال في كتابه ﴿بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨] لما ادعى من ادعى بأنه قتل وصُلِب، وذلك لأن عيسى -عليه السلام- ما جلس إلا فترة يسيرة في الأرض ولما أراد به اليهود ما أرادوا رفعه الله -عز وجل- تكريماً له، وأخبر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن عيسى ابن مريم سيرجع في آخر الزمان، بل إنه علامة من علامات الساعة الكبرى، فعيسى -عليه السلام- لم يمت بعد، وسينزل في آخر الزمان يحكم بشريعة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يعني لا يأتي بشرية جديدة؛ لأن بعد بعثة النبي -عليه الصلاة والسلام- لا نبي ولا رسول، وإنما هو سيأتي تابعاً لشريعة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وبعدما ينزل كما أخبر النبي -عليه الصلاة والسلام- بأنه سينزل فيقتل الخنزير ويكسر الصليب وعندئذ سيفيض المال حتى لا يقبله أحد ويعم الخير أرجاء الدنيا، وبعد ذلك وبعدما يمضي ما يقدر الله -عز وجل- له أن

يمضي المدة التي أرادها الله -عز وجل- وقيل بأنها سبع سنوات أو أكثر أو أقل في روايات متعددة في هذا مذكورة في كتب العقائد يموت عيسى بن مريم -عليه السلام- وبالتالي يذاق الموت، ويصبح قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٥] حق على حقيقته ولكن عيسى مؤجل فقط، ولكنه أيضاً سيموت وقد ورد في السنن وهذا مذكور في بعض كتب العقائد وردت هذه الأحاديث بأن عيسى بن مريم -عليه السلام- سيموت في المدينة النبوية وسيدفن هناك وهذا ذكره السفاريني في لوامع الأنوار ونحن على كل نعتقد ما جاء في كتاب الله بأن الله -عز وجل- رفع عيسى -عليه السلام- حياً عنده ثم إنه جعله علامة من علامات الساعة سينزل في آخر الزمان كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- في سنته، ثم بعد ذلك يموت ويدخل تحت قول الله -عز وجل- ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٥] والله أعلم.

الأخ الكريم يقول: عذاب القبر ونعيمه هل يُعد ذلك بعثاً أول للإنسان أم أنه يقتصر على يوم القيامة؟

في الحقيقة مرحلة القبر أو البرزخ مرحلة انتقالية بين الدنيا والآخرة؛ لأن الدور كما ذكره العلماء ثلاثة: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار الآخرة، والناس في قبورهم، لا يبعثون إلا عندما يريد رب العزة والجلال بعد النفخ في الصور أن يبعثوا وإنما الموت سيظل هكذا ويتحلل جسده إلى أن يشاء الله -عز وجل- فترجع الروح إلى الجسد ويأذن رب العزة والجلال بالقيام من القبور، إذن البعث مراد به البعث للدار الآخرة، ونصوص الأحاديث النبوية دالة على ذلك وتوضحه.

فضيلة الشيخ الأخت الكريمة من مصر تقول: السلام عليكم سؤالي عن الدرس الماضي: كيف يستشهد نوح -عليه السلام- بمحمد -صلى الله عليه وسلم- وأمته يوم العرض الأكبر على أنه بلغ أمته رسالة ربه ونحن لم نرَ نوح ولم نسمع منه؟

الحقيقة نحن نؤمن بما جاء في القرآن ونسلم له، والله -عز وجل- كلامه حق وصدق، وأخبر بأن قوم نوح كذبوا من؟ كذبوا نوحاً -عليه السلام-، لا نحن ولا النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن أحد منا موجوداً في عهد نوح، وبالتالي نحن نؤمن ونصدق ونشهد بما جاءنا في كتاب الله أو على لسان رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، حقاً نحن لم نرَ ولم نشاهد ولكن جاء في القرآن وفي خبر الله وتلقينا خبر الله -عز وجل- بالقبول ونشهد لكلام الله -تبارك وتعالى-.

الأخ الكريم من السعودية يقول: هل الفردوس الذي يرثه المؤمنون، والذي كما النبي -صلى الله عليه وسلم-: (هو أعلى الجنة) هل هو موجود على الأرض التي نعيش عليها الآن أم هو في مكان آخر؟ وكيف نربط بين هذا وبين حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في صحيح مسلم، ومسند الإمام أحمد: (أن النيل والفرات من الجنة)؟.

في الحقيقة أولاً المسائل مثل هذه المسائل الغيبية يجب أن نقف فيها عند حدود النص، ولا شك أن الجنة والنار موجودتان الآن، وهذا معتقد أهل السنة والجماعة، إذن هي ليست في الأرض التي نحن عليها، وهي مخلوقة، لأن الأرض ليس فيها هذه الجنة التي نشاهد، والله -عز وجل- يبدل هذه الأرض والسماوات غير الأرض والسماء كما ذكر في سورة إبراهيم في القرآن الكريم: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] إذن هي في مكان لا يعلمه إلا رب العزة والجلال سبحانه، غاية الأمر أننا نؤمن من خلال الآيات أن الفردوس الأعلى في أعلى عليين؛ لأن الله -عز وجل- مستوٍ على عرشه وعرش الله فوق السماوات، فحينما يخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- بأن عرش الرحمن فوق الفردوس الأعلى يدل ذلك على أن الفردوس في أعلى عليين، والله أعلم.

فضيلة الشيخ هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه المحاضرة

السؤال الأول: اذكر الصفات التي يجب أن تتوافر في أهل الإيمان كما جاءت في هذه السورة.

السؤال الثاني: فصل القول في حكم نكاح المتعة. وما معنى ﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ﴾؟

السؤال الثالث: كلمة الخلق تطلق ويراد بها أكثر من معنى، اذكر ما تعرف من ذلك، مؤيداً قولك بالدليل.

انتهت الأسئلة.

الأخ الكريم من الجزائر يقول: هل الموتة التي نموتها أي موتة البعث يموت خلالها الأنبياء والرسل؟

في الحقيقة كما قال الله -عز وجل-: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٥] ونفخة الصعق يموت بها كل حي، النفخة الأولى يموت بها كل حي حتى الملائكة، ثم يكون بعد ذلك، البعث للدار الآخرة من جديد.

الأخ الكريم يقول: قلتم: إن الإنسان يرجو من تنفيذ أوامر الله -عز وجل- الفلاح له في الآخرة فهل يجوز للإنسان أن يرجو من تنفيذ هذه الأوامر قضاء حاجة له في الدنيا؟

من هذه الأوامر؟

من تنفيذ أوامر الله قضاء حاجة له في الدني

في الحقيقة سؤاله سيجعلني أتكلم شيئًا طالما يوجد وقت: قلت بأن الفلاح يشمل الدنيا والآخرة، ولكن أود أن أقول: الواردة في هذه السورة لا شك أنها لم تشتمل على كل ما جاء في الدين، يعني ما جاء فيها ذكر الصيام ولا للحج وما إلى ذلك، فهل نقول بأنه لو أنني أتيت بهذه الصفات فقط يتحقق لي الفلاح وإن لم آتِ بغيرها من الأمور الواجبة؟ نقول: لا، بل نقول الأشياء التي لم تذكر في هذه الآيات تدخل تحت قول الله -تعالى- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾﴾ إلى جانب كما ذكرت بأن السورة مكية، والصيام والحج قد فرض أين؟ في المدينة النبوية فلم يذكرا إذان لأنهما لم يفرضا بعد، فإذا فرض وجب العمل بكل.

الشاهد بأن الإنسان يطلب خيري الدنيا والآخرة والفلاح هو فلاح في الحقيقة في الدنيا وفي الآخرة، وعلى الإنسان أن لا يقتصر على الصفات هذه فقط، وإنما يأتي بكل ما أمر الله -سبحانه وتعالى- به مما يعود نفعه عليه في العاجل والآجل، والأشياء التي لم تذكر وذكرت في بقيت الآيات تدخل تحت قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾﴾، والله أعلم.

الأخت الكريمة من السعودية تقول: هل عدد درجات الجنة بعدد آيات القرآن؟

الوارد في الأحاديث: النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن في الجنة مائة درجة أعدها الله -عز وجل- للمجاهدين في سبيله) ولم أسمع بأن عدد درجات الجنة كعدد الآيات التي وردت في الحديث، وبهذه المناسبة كنت أود أن أدعو إخواني خاصة الأخ الكريم لما سأل عن وصف الجنة، أنا أدعوه إلى قراءة كتاب "حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح" للإمام الورع الزاهد الإمام ابن القيم -رحمه الله تبارك وتعالى- فهو كتاب نافع جداً وفيه فصول عظيمة للغاية، فليرجع إليه المسلم فيستفيد في مثل هذا الجانب -إن شاء الله تبارك وتعالى-.

الأخ الكريم يقول: تفضلتم ودعوت المشاهدين وجميع المؤمنين إلى حفظ فروجهم والبعد عن كل لغو يدعوهم إلى ذلك، ونحن نرى في هذا العصر من جميع الفتن التي تحيط بنا من كل جانب وأخص بالذكر غلاء المهور،

فهلا تفضلتم من مقامكم هذا ودعوتم أولياء الأمور إلى الترفق بشبابنا وفتياتنا، خاصةً أن الفواحش تنتشر في هذه الأوقة.

جزاك الله خيراً، في الحقيقة ما أشرت إليه وجيه والله -عز وجل- ساقه على لسانك كي يستمع إليه من يشاهد الآن قبل أن أوجه أنا كلمةً إليه، في الحقيقة أقول لأولياء الأمور: اتقوا الله -عز وجل- في البنين والبنات نحن فعلاً نعيش في عصر مليء بالفتن، ومليء بالشهوات، بل بمضلات الفتن، والعياذ بالله -تبارك وتعالى-، وإن التقدم العلمي الذي وصل إليه العالم اليوم أدى إلى مثل ما نرى، وكان يمكن أن يستغل ويستفاد منه في النافع المفيد كما تقوم مثلاً قناة المجد الآن بما تقدمه من برامج نافعة للعالم أجمع، فكان يجب على كل من يشارك في مثل هذه الأمور أن يكون مشاركاً بالخير وبالمعروف وبالبر، وأن يدعو الناس إلى تقوى الله -تبارك وتعالى-، وعلى كل حال فما الذي يعود على ولي الأمر عندما تجلس ابنته عنده؟ أو عندما يلقى ولده لديه؟ ماذا سيستفيد الكل من ذلك؟ ونحن أيها المشاهدون الكرام عندنا بنين وعندنا بنات، فإذ تشددت على من أتى لابنتك، أيضاً سيتشدد عليك رجل آخر عندما تذهب بابنك إليه، وستقاسي ويقاسي هو كما أنت كنت سبباً في أن يقاسي من تقدم لابنتك ، والله -عز وجل- يأمر المؤمنين والمؤمنات بغض الأبصار، والمسارعة إلى حفظ الفروج وهذه طرق يا عباد الله كي نلبي أمر الله -تبارك وتعالى-، ومن ذلك أن نجمع بين الرجل وبين المرأة، في الحلال المشروع الذي أباحه رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، فأنا أضم صوتي إلى صوت المتحدث وأنادي المؤمنين بما منَّ الله -سبحانه وتعالى- عليهم به من صدق وإيمان وإسلام، أن يراعوا حق الله -عز وجل- في أودلاهم وفي بناتهم وأن يعملوا الصالح المفيد النافع لهم، وفي الحقيقة غلاء المهور واللهِ لا يقدم ولا يؤخر بل إن آثاره السلبية على المجتمع إنها لكبيرة، وكلما قل مهر المرأة كلما ارتفع فيها درجات -إن شاء الله تعالى- في الدنيا والآخرة، فتكون بذلك عفيفة ويتقبل الله -سبحانه وتعالى- منها عملها. والله أعلم.

الأخ الكريم من مصر يقول: كيف نتلو القرآن حق تلاوته؟ وما هي الطريقة المثلى لحفظ القرآن الكريم؟

نتلو القرآن الكريم حق تلاوته كما نزل من عند الله -تبارك وتعالى-، الله -عز وجل- قال للنبي -صلى الله عليه وسلم- ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴿٤﴾﴾ [المزمل: ٤] والحمد لله وهي نعمة من نعم الله -عز وجل- يوجد أصحاب الأسانيد إلى يومنا هذا الذين تلقوا القرآن الكريم عن السابقين ويوجد عندنا بحمد الله -تبارك وتعالى- أئمة حفاظ للقرآن الكريم، فنحن نرتل القرآن ونتلو القرآن حق تلاوته كما نتلقاه من المشايخ وكما تعلموه بسلسلة الإسناد التي قرأها نبي الهدى والرحمة -صلوات الله وسلامه عليه-.

أما الطرق التي يحفظ الإنسان بها القرآن، في الحقيقة في هذا كتب كثيرة، ولي في مثل ذلك تجربة حتى مع بعض الناس، الإنسان يجب أولاً أن يجمع همته وأن يوجهها لحفظ القرآن الكريم، وأن يحرص على ذلك وأن يسأل الله -عز وجل- أن يفتح عليه لحفظ كتابه، ثم بعد ذلك على حسب إمكانياته يبدأ لأن (المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى) كل إنسان يختلف عن الآخر في مثل ذلك، في الاستعداد الذهني والعقلي وكذلك البدني والوقتي، كل إنسان عنده مشاغل فالإنسان يضبط نفسه على وقت ثم يحدد لنفسه مواطن أو آيات محددة يحرص على أن يحفظها كل يوم، وأقول: يجب التحديد وعلى نمط كل إنسان وحاله؛ لأن هذا يساعدك على الوفاء بما تُلزم به نفسك، يساعدك، تريد إمكانياتك خمس آيات فهي خمسة عشر فهي عشر، أكثر فهي أكثر، ثم بعد ذلك، نحن كما نذكر الآن مطالبون بأداء الصلاة والاستعداد لها في أول أوقاتها والطهارة وما إلى ذلك، فعندما يؤذن للأذان وهذه تجربة أعد نفسك يا عبد الله قبل الأذان للصلاة تذهب إلى المسجد، تصلي تحية المسجد وتمسك بعد ذلك كتاب الله خلال خمس فروض تراجع فيها -إن شاء الله تعالى- لا يأتي عليك وقت طويل إلا وقد حفظت كتاب الله -تبارك وتعالى-، والله أعلم.

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فضيلة الشيخ أهلاً ومرحباً بكم.

أهلاً وسهلاً ومرحباً بكم وبالحاضرين والمشاهدين الكرام ويسرنا -إن شاء الله تعالى- في هذا اللقاء أن نتابع سلسلة من التفسير ومع السورة التي بدأت فيها في اللقاء السابق ألا وهي سورة المؤمنون، وسيدور الحديث -إن شاء الله تبارك وتعالى- حول آيات سنستمع إليها بعد قليل سأتحدث من خلالها عن المحاور التالية:

المحور الأول: بيان شيء من عظمة الله في الكون.

المحور الثاني: تكذيب الملأ لنوح -عليه السلام- بعد إرسال الله له.

المحور الثالث: ما فعله الله بالمكذبين من قوم نوح -عليه السلام-.

ولنستمع الآن إلى الآيات التي سأتحدث عنها -إن شاء الله تبارك وتعالى- فمع الأخ الشيخ فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لأَنْزَلَ مَلاَئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

جزاك الله خيراً.

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله اللهم صلِّ وسلم وبارك وأنعم على عبدك ورسولك ومصطفاك، وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيلهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين وبعد.

المحور الأول الذي سيدور الحديث عنه وتحته آيات متعددة هو بعنوان: بيان شيء من عظمة الله في الكون.

وأبتدئ هذا المحور بأول آية سمعتموها الآن ألا وهي قول الحق –تبارك وتعالى-: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ الله –تبارك وتعالى- لما ذكر فيما مضى خلق الإنسان عطف بعد ذلك بذكر خلقه للسماوات والأرض وكثيراً ما نجد في القرآن الكريم ذكراً للسماوات والأرض مع خلق الإنسان ومن ذلك قول الحق –تبارك وتعالى-، ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] والأمر واضح جدًا في سورة السجدة: أن الله –عز وجل- ذكر خلق السماوات والأرض ثم ذكر بعد ذلك خلقه للإنسان ثم ذكر المعاد وما إلى ذلك. وكان النبي –صلى الله عليه وآله وسلم- يقرأ في صلاة الفجر في الركعة الأولى هذه السورة لاشتمالها على هذه الأمور العظيمة؛ لأن فيها تعداداً لنعم الله –سبحانه وتعالى- على عباده أو لشيء منها ثم بعد ذلك المصير الذي سيؤول إليه من آمن بالله –تبارك وتعالى- وصدَّقَ المرسلين، والله –عز وجل- هنا يعظم نفسه في مطلع هذه الآية فيقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا﴾ هذه النون تفيد تعظيم المتكلم، والله –سبحانه وتعالى- لا يوجد في الوجود أعظم منه –جل وعلا-، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ المراد بـ ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ ماذا؟ السماوات وأطلق الله –سبحانه وتعالى- عليها ﴿طَرَائِقَ﴾ إما لأنها مركبة بعضها فوق بعض من قول العرب: طارق بين ثوبين، إذا لبس أحدهما فوق الآخر، وهذا أسلوب معروف عند العرب، وقيل: قيل لها ﴿طَرَائِقَ﴾؛ لأنها طُرُقُ الملائكة، يعني فيها طرق الملائكة من النزول والعروج ومسيرها إلى الرب –سبحانه وتعالى-، والله هنا يشير إذن بهذه النعمة العظيمة لأن الأمر كما سبق أن ذكرت فيما مضى، بأن السماء هي مسكن الملائكة، والله –عز وجل- هنا يذكر هذه النعمة، ويذكر بها عباده، وهناك آيات أخر سبق الحديث عنها، لفتُّ النظر من خلالها إلى فضل الله –تبارك وتعالى- في خلقه لهذه السماوات وما أودع فيها وما نستفيد مما أودع الله –سبحانه وتعالى- فيها وتسخير الله –عز وجل- لما أودعه في هذه السماوات ويختم ربنا –سبحانه هذه الآية بقوله: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ خلق ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ وقلنا: يعني سبع سماوات، وذكرت لماذا سميت كذلك، ويعقب عليها بقوله: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ لأنه سبحانه يعلم ما يلج في الأرض وما يعرج في السماء، كذلك يعلم ما يخرج من الأرض وما ينزل من السماء، ورب العزة والجلال سبحانه حينما يقول: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ يفيد أنه هو الذي يتولى أمر هذا الخلق وهو الذي يحفظه –سبحانه وتعالى- وحده دون سواه، ولعلكم تتذكرون معي الآية: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولَ﴾ [فاطر: ٤١] مما يدل على أنه حافظ لهذا الكون ولهذا الخلق العظيم، ولم يغفل ربنا –سبحانه وتعالى- ولا يليق أن يكون شيئًا من ذلك مضافاً إلى رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى-، وهو الله – سبحانه- القائم بإصلاح شؤون الخلق وهذا كله نستفيده من قوله ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾.

ثم يعقب ربنا –سبحانه وتعالى- في آية تالية بذكر أيضاً بعضاً من نعمه على عباده فيقول: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ الله –عز وجل- يذكر في هذه الآية أنه أنزل من السماء ماءً بقدر، قدر معلوم، على قدر حاجة البلاد والعباد. وتعجبني كلمة أود أن أخاطب بها المشاهدين وأسمع الحاضرين وهي أن الإمام الحافظ ابن كثير –رحمه الله تبارك وتعالى- رغم أنه أين كان يعيش ويسكن؟ كان يعيش في بلاد الشام ومع ذلك ذكر عند هذه الآية في تفسيره كلمة عن هذه البلاد التي نحيى فيها، فقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ يعني أن الله –عز وجل- ينزل من السماء ماءً بقدر ما تحتاج إليه البلاد؛ لأن الماء الكثير إذا نزل على بعض البلاد ربما أفسد زرعهم، وذكر أو مَثَّلَ بمصر، قال: ولذلك أنزل الله –سبحانه وتعالى- الماء على جبال بالحبشة هناك، وينزل الماء عليها من هناك حاملاً معه الطمي الأحمر –بهذه العبارة يذكر-؛ لأن أرض مصر عبارة عن سباخ أو سبخة تحتاج إلى هذا الطمي وينزل إليها أو يأتي إليها الماء بقدر لتستفيد منه ويبقى الطمي الذي أتى مع هذا الماء لتستفيد منه التربة وهذه نعمة جليلة من الله –سبحانه وتعالى- على عباده ونعمة جليلة أيضاً علينا نحن في هذه الديار، بهذا الماء العذب، الذي يسوقه رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى- إلى عباده.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ﴾ يعني أن الله –تبارك وتعالى- سلك هذا الماء في هذا الأرض، أسكنه فيها لينتفع به الناس، وقال بعد ذلك –سبحانه وتعالى-: ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ وهو

أيضاً يعظم نفسه -سبحانه وتعالى- فيقول: ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ﴾ كلمة ﴿ذَهَابٍ﴾ جاءت نكرة وهي تفيد أنه يذهب به على أي وجه من الوجوه، ومعنى هذا أن الله -تبارك وتعالى- إذا غضب على عباده لا يبالي بهم، ولأنه -سبحانه وتعالى- لا يحتاج إلى شيء مما مَنَّ به على العباد فلا يحتاج إلى حفظ ماء، ولا يحتاج إلى حفظ كنوز، كل ذلك رب العزة والجلال مُنَزَّهٌ عنه، ولذلك قال: ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ ولذلك أقول: هذه الآية بهذا السياق القرآني الكريم أفادت ثلاثة أمور:

الأمر الأول: هو أن الله -سبحانه وتعالى- أنزل الماء من السماء بقدر، وقد نص ربنا -عز وجل- في آيات أخر فقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر: ٢١].

الأمر الثاني: أن الله -تبارك وتعالى- أسكن الماء المنزل من السماء إلى الأرض وهذا أيضاً كما جاء في قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١].

الأمر الثالث: إخبار الله -تبارك وتعالى- أنه قارد على إذهاب هذا الماء، والله -عز وجل- يفعل ما يشاء ولا يسأل عما يفعل، وهذا كقول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك: ٣٠].

هذا نوجهه للبشرية كلها، إن لم يكن لديكم ماء أنزله ربنا -سبحانه وتعالى- ووفره لكم من السماء، من أين لكم بماء؟! أو نذكر الآية الأخرى التي يقول رب العزة والجلال فيها: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة: ٧٠] ﴿أُجَاجًا﴾ يعني ملحاً أجاجاً، لا تستسيغونه أنتم أيها البشر، بل دوابكم لا يمكن أن تشربه والماء إذا كان ملحاً أجاجاً كالمعدوم؛ لأنه لن يستفيد منه الإنسان، ولكن الله -عز وجل- أخرج من هذا الماء الأجاج بتسليطه أشعة الشمس المحرقة عليه ، وتبخر الماء ولعل يأتي بذلك حديث قادم -إن شاء الله- ثم بعد ذلك يتراكم هذا الماء ويصعد إلى السماء وينزل بأمر الحق -تبارك وتعالى جل في علاه-.

والله -عز وجل- حينما يذكر هذه النعمة على عباده ويذكرهم بها، كي لا يكفر به أحد من خلقه؛ لأن بعض الخلق مع أنه -سبحانه وتعالى- أنزل عليهم هذه النعم العظيمة، إلا أنهم يكفرون بالله -تبارك وتعالى-، ولقد نص الله على ذلك في قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾ [الفرقان: ٤٨- ٥٠] ومن الكفر بالله -تبارك وتعالى- إسناد إنزال الماء إلى الطبيعة أو إلى ما يحدث في السماء، أو إلى الملائكة أو إلى الجن أو ما إلى ذلك، كل هذا كفر بالله -تبارك وتعالى- ولذلك في المسند في حديث زيد بن خالد الجهني - رضي الله عنهم- قال: (صلى بنا النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- صلاة الصبح على أثر سماء كانت من الليل) -يعني على أثر ماء نزل من السماء في الليل- (وبعد أن صلى الصلاة -صلى الله عليه وآله وسلم- انصرف إلى أصحابه) يعني أعطاهم وجهه- (ثم قال: يقول الله -تبارك وتعالى-: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي. ثم قال: من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فهو مؤمن بالله كافر بالنجوم، ومن قال: مطرنا بنوء كذا ونوء كذا فهو كافر بي مؤمن بالنجوم) فبين النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا الحديث أن بعض الناس يكفرون، ويردون نعمة الله -سبحانه وتعالى- عليهم.

ثم يذكر ربنا -عز وجل- بعد ذلك شيئًا من النعم في آية تالية فيقول: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ اعلموا أولاً أن الماء في ذاته نعمة، وكثير من الناس يحب أن ينظر إلى قطرات الماء وهي تنزل من السماء، وبعض الناس قد لا يستفيد من ماء المطر؛ لأنه لا يزرع وقد يسر السبيل إليه إلى أن يأتيه الماء بطريقة معينة، فقد لا يحتاج في الظاهر إلى الماء ومع هذا يفرح بالماء؛ لأن الماء في ذاته نعمة، والماء أيضاً مع أنه نعمة هو أيضاً سبب في النعمة، وقد ذكر الله -عز وجل- في هذه الآيات هذا وهذا، فأشار إلى الماء أولاً: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ وأشار إلى النعمة التي تحصل نتيجة نزول هذا المطر من السماء ألا وهو وجود

الجنان والزرع والنخيل والأعناب، ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ أيضاً الآيات لو تلاحظون كلها تسير مساقاً واحداً في تمجيد وتعظيم رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-.

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ الله -عز وجل- ذكر هنا النخيل والأعناب لأن هذا أمر مألوف لدى أهل الحجاز الذين خوطبوا أولاً بالقرآن الكريم، والشيء يؤخذ بنظيره، فكل بلد لديها من النعيم ومن الجنات ما الله -سبحانه وتعالى- به عليم، وقيل: ذكر الله -عز وجل- النخيل والأعناب لفوائدهما العظيمة، فالنخيل والأعناب يصلحان إداماً ويصلحان أيضاً فاكهة يعني يتغذى عليهما الإنسان ويتفكه بهما الإنسان ومن ثَمَّ ذكرهما رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-.

ثم عقب على ذلك بقوله: ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فبعد أن ذكر النخيل والأعناب ذكر جملة ما يخرج من هذه الأرض من الفواكه الكثيرة التي يمتن بها رب العباد -سبحانه وتعالى- على الناس في الآفاق والله -عز وجل- أعطى كل بلد ما تحتاج إليه ونوَّع بين الإنتاج من مكان إلى مكان وهذا فيه من المصالح ما فيه، فيه من تبادل المنافع بين الناس فهذا يبيع لهذا وهذا يشتري من هذا، وهذا كله فضل من الرب -تبارك وتعالى- على عباده، وقد أوضح الله -عز وجل- هذا المعنى في آيات أخر، كقول الله -عز وجل- في سورة النحل بعد أن ذكر هذه الفواكه: ﴿يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل: ١١] وكما قال رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل: ٦٠] والله -عز وجل- حينما يذكر هذه الآيات ويعدد هذه النعم على العباد يدعوهم ويبين لهم أنه وحده -عز وجل- هو الذي أوجد ذلك، ولكن وللأسف الشديد كما كفر بعض الناس مع أن الله هو الذي أنزل عليهم الماء النافع من السماء أيضاً يعدلون عن الله -عز وجل- إلى غيره ويذهبون إلى غير الله -تبارك وتعالى- ممن لم يوجد جنةً ولا شجرةً ولا نخيلاً ولا أعناباً، وما كان ينبغي على العباد أن يفعلوا ذلك، فالله -عز وجل- يسوق هذه الآيات ليذكر العباد بنعمه عليهم ويدعوهم إلى أن يلجؤوا إليه وحده دون سواه.

ثم يقول -سبحانه وتعالى- بعد ذلك: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ ﴿وَشَجَرَةً﴾ بالنصب معطوفة على ﴿جَنَّاتٍ﴾ والشجرة هي شجرة الزيتون، والله -عز وجل- يقول: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ وعدى هنا المفعول بالباء ﴿تَنْبُتُ﴾ كفعل يتعدى بنفسه، قال بعض العلماء: الباء زائدة ومعنى الكلام: تنبت الدهن، وقيل: ضمن الفعل الذي هو ﴿تَنْبُتُ﴾ ضمنه تخرج الدهن، أو تأتي بالدهن، فإذا ضمنه فعلاً آخر فتخرج أو تأتي يمكن أن يتعدى بالباء، ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ المراد بالدهن: هو زيت الشجرة التي يخرج منها، وهو الذي أشار إليه رب العزة والجلال في سورة النور في قوله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: ٣٥] ومع ذلك ومع أن زيتها بهذه المثابة العظيمة، ويكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، إلا أن فيه منفعة أخرى للإنسان وهي أن الإنسان يأكل الزيتون ويأتدم به، وهذا معنى قول الحق -تبارك وتعالى- بعد ذلك: ﴿وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ﴾ فالإنسان يستخدم الزيتون في أمرين كما أشارت إليه هذه الآية وله منافع أخرى إذا خرجنا عن الزيت، وهي منافع ثانوية توجد في الأشجار وغير ذلك، ولكنَّ المهم النافع المفيد في هذه الشجرة المباركة أن الإنسان يدهن أو يستخدم زيتها ويأكل أيضاً طعامها يأتدم به. والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كما جاء في مسند الإمام أحمد رغب -عليه الصلاة والسلام- في استخدام الخارج من هذه الشجرة المباركة، فقال: (كلوا الزيت وادهنوا به، فإنه من شجرة مباركة) التي هي شجرة ماذا؟ ألا وهي شجرة الزيتون.

ثم يقول -سبحانه وتعالى- بعد ذلك معدداً أيضاً نعمه على عباده منتقلاً بهم إلى أمر آخر: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾ بعد أن ذكر الله -سبحانه وتعالى- نعمه على عباده في النبات الخارج من الأرض، وسبب إخراج هذا النبات وهو كله بفضل الله -عز

وجل- ولكن الماء سبب فيه، ذكر بعد ذلك نعمه أيضاً على عباده في الأنعام التي خلقها رب العزة والجلال للعباد كي يستفيدوا منها وسخرها لهم ربنا -سبحانه وتعالى-، وهذه الآية ذكرت الفوائد والمنافع كما يلي:

أولاً: قال-عز وجل-: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ كلمة عبرة كلمة مجملة، جمع، يعني لنا فيها عبر متعددة، ثم بعد ذلك أتى بتفصيل شيء من هذه العبر فقال: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَ﴾ وهو الألبان التي تخرج من هذه الأنعام على مختلف أنواعها ويستفيد منها الإنسان.

قد يقول قائل: وما هي النعمة في ذلك؟ لاشك أنه غذاء طيب للإنسان، والعبرة التي فيه ما أشار الله -عز وجل- إليه في سورة النحل وهو أن هذا اللبن الذي يخرج من هذه الحيوانات يخرجه رب العزة والجلال سبحانه من بين الفرث والدم، ومع هذا يخرجه لبناً سائغاً للشاربين، نقياً صافياً، لا يشوبه شيء من الوسخ أو القذر، من الذي أخرج هذا الماء بهذه الصورة الناصعة البياض للعباد كي يستفيدوا منه من بين الفرث والدم؟!! يخرج لبناً خالصاً ثائغاً للشاربين، وأنت لو ذبحت أي حيوان به حليب تستخرجه منه، لا تجد قطرة واحدة من الحليب، فبالله عليكم ما أعظم هذا الخالق -سبحانه وتعالى-، وما أعظم عبره لعباده التي وجههم إليها حينما قال: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾.

الأمر الثاني: من العبر التي أشارت إليها هذه الآيات في الأنعام أيضاً وهي ما جاء في قوله: ﴿وَلَكُمْ فيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ يعني لنا فيها منافع أخرى وهذا يعرفه أصحاب الغنم والإبل والبقر ممن يربي هذه الأشياء فهو يبيع فيها ويشتري ويتاجر ويستفيد من أثمانها هذه منافع، كذلك أيضاً نحن نستفيد من أوبارها وأصوافها وأشعارها، وهذه كلها منافع ساقها رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- ثم عقب على ذلك بقوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وهذه أيضاً منفعة أخرى، فالإنسان أيضاً يستفيد من الأنعام وهي حية فيما سبق أن ذكرته، وعند الذبح أيضاً يستفيد منها ويأكل منها الطعام الذي أباحه رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- للعباد.

ثم قال جل ذكره: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ وتأملوا هذه اللفتة الكريمة، وكيف أن الله -عز وجل- جاء بالفلك بعد الأنعام مباشرة؛ لأننا كما نحمل أمتعتنا على الفلك في البحر نحمل أمتعتنا على الإبل بالذات في البر، فالإبل في البر نستفيد منها كما نستفيد من الفلك في البحر وهذه أيضاً نعمة من الله -سبحانه وتعالى- على عباده، أشار رب العزة والجلال إليها في كتابه فقال: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [النحل: ٧] وكما قال سبحانه: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [يس: ٧١، ٧٢] وقد ذكرت فيما مضى كيف سخر الله -عز وجل- هذه الحيوانات، رغم ضخامة ما هي عليه سخرها للإنسان بحيث أن وليدة صغيرة أو طفلاً صغيراً يمكن أن يسوق حيواناً كبيراً يزن أضعاف ما يزن هذا الطفل، أو الفتاة التي تسوق هذا الحيوان.

المحور الثاني في هذا اللقاء: تكذيب الملأ لنوح -عليه السلام- بعد إرسال الله له:

وأبدأ هذا المحور بقول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ لما بين الله -عز وجل- دلائل التوحيد، أتبع ذلك بذكر شيء من القصص عن الأنبياء والمرسلين، وكأن القرآن يريد أن يقول: يا أيها الناس يا من يجب عليكم أن تعقلوا وقد مَنَّ الله عليكم بالعقل وزودكم به، هذه النعم التي منحكم ربكم -سبحانه وتعالى- إياها وهي منه وحده دون سواه ألا يليق بكم بعد ذلك أن تحمدوا الله وتشكروه فتصدقوا بالأنبياء والمرسلين، والله إنه لمن العيب على بني البشر بعدما يسوق رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- هذه النعم ويسخر لهم ما في هذا الكون وهم لم يملكوا شيئًا ولا يستطيعون أن يقدموا لأنفسهم شيئًا دون الله -عز وجل-، كان الأولى بهم بعد ذلك أن يسلموا ويتابعوا الأنبياء والمرسلين

وخاصة نبينا -صلوات الله وسلامه عليه- الذي هو خاتم الأنبياء وسيد المرسلين وقد ختم الله -عز وجل- بـــه النبوة والرسالة ونسخ كل رسالة كانت قبله.

فسياق هذه الآيات بعد ذلك أرى بأنه مناسب تمام المناسبة وهذا يدل ويؤكد أيضاً أن هذا القرآن من عند الرب -تبارك وتعالى-؛ لأن نسقه وسياقه لا يمكن أبداً أن يخرج من مخلوق بحال من الأحوال وصدق الله في قولـــه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] الله -عز وجل- ذكر في هذه الآية أنه أرسل نوحاً إلى قومه بأي شيء، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وسيأتي في اللقاء القادم -إن شاء الله تعالى- بيان أيضاً أن سائر الأنبياء والمرسلين اشتركوا في هذا الأمر ولعلي أقف هناك عند هذا النقطة؛ لأنه يجب أن يعلم الناس جميعاً أن الغاية العظمى من بعثة الأنبياء والمرسلين هي إفـــراد الله -تبارك وتعالى- بالتوحيد، والخضوع لرب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- وما يتبع ذلـــك -ولا شـــك- مـــن التصديق بالأنبياء والمرسلين والإيمان بالبعث والنشور وإذا صدق الأنبياء والمرسلين صدق العبد بكل ما جاء به الأنبياء والمرسلين ولكن المبدأ الذي يجب أن يتعلمه الناس أولاً هو عبادة الله وحده دون سواه، وهذه الآية جاءت كما ذكرت بعد سياق نعم الله -تعالى- على عباده، فيا أيها المخاطبون من البشر ويا أيها الذين تـــستمعون مـــن البشر اليوم تأملوا في نعم الله -تبارك وتعالى- عليكم، ثم بعد ذلك حققوا العبادة لله وحـــده دون ســـواه، لأنهـــا الغرض الذي خلقتم من أجله.

نوح -عليه السلام- جاء إلى قومه قال لهم هذه الكلمة: ﴿اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ثم ذكر لهم كلمـــة فيها ذجر وتهديد ووعيد: ﴿أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ أفلا ترجعون إلى الله -عز وجل-؟ ألا يليق بكم بعد ذلك وبعدما أنعم الله -سبحانه وتعالى- عليكم أن ترجعوا إلى ربكم فتتقوه وتعبدوه وتنصرفوا إليه بالكلية؟ ﴿أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ وهذه العبارة كما ذكرت في الحقيقة فيها تهديد ووعيد لهؤلاء القوم المكذبين، ماذا كان رد هؤلاء القوم علـــى نـــوح -عليـــه السلام-؟ إنه حقاً لمن العجب العجاب، وسيأتي أيضاً في اللقاء القادم شيئ من هذا وهو تكذيب هؤلاء الناس وصد الناس عن الأنبياء والمرسلين.

نوح -عليه السلام- جاء يدعو قومه إلى الله -عز وجل- ودعاهم إلى عبادته وحده لا شريك له، فما كان من أمرهم إلا كما قال الله: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَـــاءَ اللهُ لأَنْزَلَ مَلاَئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ تأملوا هذه الشُّبَهَ، وهي شُبَهٌ في الحقيقة يمكن أن أقول عنها بأنها شبه تافهة للغاية، ولذلك هنا أعرض رب العزة والجلال عن الجواب عنها؛ لأنها لا تستحق أن يقـــف إنسان عاقل عندها، وستأتي بعض هذه الشبه فيما بعد -إن شاء الله تعالى- ولعلي أقف هناك على شيء من الرد على هذه الشبه.

ما هي الشبه التي استند إليها هؤلاء الملأ الذين كذبوا نوحاً -عليه السلام-؟

أولاً: المراد بالملأ من؟ لا شك أن قوم نوح من لم يؤمن معه كذبه، ولكن كلمة الملأ غالباً تذكر على الـــسادة والكبراء والأشراف، غالب كلمة الملأ تنصرف على هؤلاء.

الشبهة الأولى: أنه بشر: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ هذه أول شبهة أنه بـــشر، وهذا أمر لا يناسبهم ولا يعجبهم وكونه بشراً كأنهم يريدوا أن يقولوا كما ذكر الله -عز وجل- ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ وفرعون ومن معه شاركوا هؤلاء الناس في هذه الفرية، وأيضًا استبعدوا أن يرسل الله -عز وجل- نبيًا رسولاً من البشر، واتهموا المرسل من البشر بأنه يريد أن يعلو عليهم وأن يتكبر عليهم وهذه فرية باطلـــة؛ لأن الأنبياء والمرسلين ليسوا تجار دنيا وليسوا أصحاب مراكز أو مناصب، وإنما عملهم كله لله ولا يبحثون عن أمر في هذه الحياة الدنيا إلا أن يُعبَدَ الله وحده دون سواه، قوم فرعون ماذا قالوا لموسى هارون عليهما السلام؟ ﴿قَالُوا

أجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ﴾ [يونس: ٧٨] وهكذا قوم نوح، قالوا: ﴿مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ شأنه ماذا؟ ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ هذه هي الشبهة الأولى.

الشبهة الثانية: قالوا: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنْزَلَ مَلائِكَةً﴾ لأن الملائكة في زعمهم أقوياء وأشداء وأن البشر إذا نزل عليهم ملك من السماء سينصاعون له، وهؤلاء الناس في الحقيقة لا يفقهون، لو نزل ملك من السماء ما استطاعوا أن ينظروا إليه، ولا أن يقفوا عنده، ولا أن يتكلموا معه، ولا أن يستمعوا إليه، لا شك أنهم سينفرون منه، والله -عز وجل- قال للمشركين في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم-: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام: ٩] يعني لو على فرض أن الله -عز وجل- سيرسل ملكاً سينزل ملكاً يظهر بصورة بشرية حتى يكون قريباً إلى من؟ يكون قريباً إلى المخاطبين.

الشبهة الثالثة: عند هؤلاء: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾ رغم كان قبل نوح -عليه السلام- نبي يوحى إليه وهو من؟ آدم -عليه السلام- أبو البشر وأول المخلوقات من البشر نبي يوحى إليه ولكنهم مع تقادم العهد والكفر الذي لحق بهم، قلدوا آباءهم فلم ينظروا إلى نبوة آدم -عليه السلام-، قلدوا الآباء وحاكوا الآباء فيما هم عليه من كفر وتكذيب وضلال واستندوا إلى أن آباءهم لم يعرفوا شيئًا عن الأنبياء والمرسلين، ولم يلقنوهم شيئًا من ذلك، ولو لقنهم الآباء لآمنوا به، وهذه حجة باطلة لأن التقليد لا ينفع بعد إقامة الحجة على العباد، هنا قلدوا لما قالوا: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾.

الشبهة الرابعة: التي رد بها قوم نوح دعوة نوح -عليه السلام- شبهة أيضاً تأتي عند كثير من الأقوام الذين كذبوا بالأنبياء والمرسلين ماذا قالوا؟ ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾ ﴿رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ يعني به جنون، أو به مس من الجن أفسد عليه عقله؛ لأنه كان عوام العرب يقولون بأن الجن إذا مس إنساناً أذهب عقله، فهؤلاء قالوا هذا في نوح -عليه السلام-، وهذا القول من هؤلاء المشركين في الحقيقة لينفروا الناس من نوح -عليه السلام-؛ لأن الإنسان العاقل لا يمكن أن يتبع رجلاً مجنوناً، ولذلك هم أرادوا أن يصدوا الناس عن دعوة نوح -عليه السلام- فقالوا لهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ فماذا نفعل؟ ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ يعني تربصوا به ريب المنون، تربصوا به قوارع الدهر حتى يموت ويقضى عليه، وهذا سفه من هؤلاء القوم، حينما ينسبون إلى هذا النبي الرسول الذي أتاهم من عند الله -تبارك وتعالى- ينسبون إليه أنه مجنون وحاشاه ذلك، وللأسف الشديد قال مشركو قريش هذا للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، قالوا هذا للرسول -عليه الصلاة والسلام- ورب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- نصَّ على ذلك في كتابه في قوله: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾ [القلم: ٥١] ويقصدون من؟ النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وهم حينما قالوا هذا القول هم في الحقيقة أرادوا تنفير الناس أيضاً عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-.

في الحقيقة هذه الشبه الأربعة -كما ذكرت- شُبَهٌ ركيكةٌ؛ ولذلك ما أجاب رب العالمين -سبحانه وتعالى- عنها، غاية الأمر أن نوحاً -عليه السلام- لما رأى هذا الصدود، استنصر بربه -سبحانه وتعالى-؛ لأنه هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ولأنه هو الذي يكشف الغوث عن الذي يلجأ إليه -سبحانه وتعالى- ولذلك سأتحدث عن نصر الله -عز وجل- لنبيه نوح -عليه السلام- بعد أن دعا ربه أن ينصره على هؤلاء المكذبين الذين ردوا دعوته وكذبوا برسالته وهذا في المحور الثالث وهو بعنوان: ما فعله الله بالمكذبين من قوم نوح -عليه السلام-.

المحور الثالث: ما فعله الله بالمكذبين من قوم نوح -عليه السلام:

ويبدأ هذا بقول الله -عز وجل- ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾ نوح -عليه السلام- توجه إلى رب -سبحانه وتعالى-؛ لأنه لا ملجأ لهذا العبد الرسول إلا الذي أوحى إليه، فلجأ إلى الله -عز وجل- قائلا: ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾ وفي سورة القمر توضيح أكثر لهذه المسألة، ولو تأملتم سياق الآية لوجدتم فقر

الأنبياء لربهم -سبحانه وتعالى-، وحاجة الأنبياء وتوجههم إلى رب العزة والجلال تأملوا ماذا قال نوح لربه كما جاء في سورة القمر: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: ١٠] كلمة جميلة، قصيرة، صغيرة، ولكن تحمل معاني عظيمة جداً، هي تذكرني بقول موسى -عليه السلام- لربه، بعدما سقى ابنتي العبد الصالح: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] وأنا حينما أذكر ذلك أود أن أوجه المستمعين والمشاهدين الكرام إلى أن يعرفوا كيف أن الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- يلجؤون إلى الرب -تبارك وتعالى- بأسلوب المسكنة، والشعور بالحاجة والفقر والاحتياج إلى من بيده خزائن السماوات والأرض.

نوح -عليه السلام- توجه إلى ربه قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾ فجاءه المدد من السماء المتمثل في التوجيه الإلهي الرباني له: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ مدد الله -تبارك وتعالى- جاء لنبي الله نوح -عليه السلام- متمثلاً في أمر الله له أن يصنع السفينة التي سارت بسم الله -عز وجل- تنخر الماء العباب تاركة من وراءها ومن لم يركب فيها يموج بين أمواج وطلاطم الماء الذي أنزله الله -عز وجل- من السماء وأخرجه رب العباد من الأرض.

أوحى الله -عز وجل- إلى نبيه نوح -عليه السلام- أن يصنع الفلك بأمر الله -عز وجل- له وبوحي الله له، وأن يصنعه برعاية الله وعونه وأن الأمر كما قال الله -عز وجل- له: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ يعني أن الله -عز وجل- يرى نوحاً -عليه السلام-؛ لأن الله -سبحانه وتعالى- يسمع ويرى، ويتصف بصفة السمع وصفة البصر، ونحن نؤمن بصفات الله -سبحانه وتعالى- كما وردت في القرآن الكريم وفي السنة النبوية المطهرة دون تشبيه أو أو تأويل أو تكييف، فما ورد في هذه الآيات نؤمن به على حقيقته ولكننا لا نعرف كنهه ولا ذاته ولا الحقيقة التي هو عليها في نفس الأمر، ولكن نفهم من هذه الآيات ما فهمته العرب من لغتها، وما أشار إليه النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في سنته، فالله -عز وجل- في هذه الآية يخبر بأن له عيناً ونحن نؤمن بذلك وهي من الصفات الذاتية الخبرية التي تليق برب العزة والجلال سبحانه مع التأكيد أن الله -عز وجل- في ما ثبت له لا يشبه أحداً من خلقه لأنه قال عن نفسه في كتابه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فنحن نربأ بالمسلمين عن الوقوع في التشبيه كذلك أيضاً عن الوقوع في التعطيل أو التأويل، ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ ثم قال الله له: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ جاء الأمر من الله -تبارك وتعالى- بإغراق هؤلاء الناس ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ كلمة ﴿التَّنُّورُ﴾ قيل: المراد بها التنور على الحقيقة ولا أدري أصحاب الحضرة اليوم الذين جالسون معنا يعرفوه أم لا؟ التنور معروف وهو المكان الذي يوقد فيه النار كي يطهى فيه طعام أو ما إلى ذلك، وقيل: ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ يعني أخرج الله الماء من الأرض، وعلى القول الأول وهو ظاهر الأمر، ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ قيل: بأنه نوح -عليه السلام- اتخذ تنوراً في الأرض فلما وضع عليه ماءً فلما رأى الماء يغلي ركب السفينة ومن معه بأمر الله -تبارك وتعالى- له، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ هذا أمر من الله -تبارك وتعالى- لنوح -عليه السلام- كي تبقى سلالة الحيوانات قائمة، أمره أن يأخذ معه من كل صنف من الحيوانات والطيور زوجين ذكراً وأنثى، كما أيضاً يأخذ معه من آمن معه من أهله، ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾؛ لأن الله -سبحانه وتعالى- سبق في علمه أن يُهلِكَ من؟ أن يهلك ابن نوح وزوجه؛ لأن ابن نوح وقيل: كان الرابع واسمه يام وقد ذكر ذلك الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- كان من الكافرين، وزوجة نوح كذلك، وقد ذكر الله -عز وجل- في آيات أخر عنها في كتابه ما ذكر، ولذلك أمره الله -عز وجل- أن يحمل معه من كل زوجين اثنين وأن يحمل معه أيضاً أهله ممن آمن معه، ولم يسبق عليه القول أن يكون من الكافرين، والأنبياء تشتمل قلوبهم على الرحمة، رغم أنهم آذوا نوحاً -عليه السلام- ورغم أن نوحاً -عليه السلام- استنصر بربه ودعاه، ورغم أن نوحاً -عليه السلام- قال لربه كما ذكره الله عنه في القرآن: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح: ٢٦] ومع ذلك تأملوا هذا الجزء من الآية ألا وهو: ﴿وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ لماذا؟ لأن الله -عز وجل- يعلم أن نوحاً -عليه السلام- ستأخذه الشفقة فيما بعد، ستأخذه الرحمة، وهذا

ديدن الأنبياء والمرسلين وحقاً لقد استفسر نوح –عليه السلام– عن ابنه، ولما قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ [هود: ٤٥] وكان ذلك بعد أن انتهى الطوفان، فقد دعا نوح –عليه السلام– ابنه أن يكون معه، فأبى ذلك، والله –عز وجل– قبل أن يكون ما يكون يأمر نوحاً –عليه السلام– ألا يسأل ربه شيئًا عن هؤلاء الظالمين، ﴿وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وقول الله –عز وجل–: ﴿وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وصف لهم في غاية من القبح والشناعة، وهو يشتمل على معاني كثيرة على رأسها: وقوعهم في الشرك بالله تعالى، ثم بعد ذلك سائر المعاصي، والله –عز وجل– يصفهم في هذه الآية بأنهم مشركون وأصحاب معاصٍ، ﴿وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ لماذا؟ ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ يعني أن الله –تبارك وتعالى– سيقضي عليهم، وأن رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– سينهيهم ثم يوجه ربنا –سبحانه وتعالى– نوحاً –عليه السلام– إلى أمر آخر فيقول له: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ الإنسان يقف أمام آيات الله يجد فيها عبراً كثيرة، ويظهر لديه حقاً الإحكام والتتابع في كلمات الله –تبارك وتعالى–، الله –عز وجل– بعدما أمر نوح بصناعة الفلك، وأن يركب الفلك، وأن يصطحب معه من يصطحب، يوجه توجيهاً لطيفاً: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ يعني يا نوح تذكر نعمة الله –سبحانه وتعالى– عليك، وأن الفلك التي تسير واستواؤك على هذه الفلك إنما هو بتدبير الله –عز وجل– وما سارت من مبدئها إلى نهايتها إلى نهايتها إلا بأمر الله –عز وجل–، من يأتيني بالدليل من الحاضرين؟ من سورة هود؟ يفيد أن مبدأ السفينة ونهايتها سار بسم الله؟

﴿بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: ٤١].

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: ٤١] والآية بهذا السياق أبرزت مزية نوح وفضل نوح –عليه السلام– لما قال الله له: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ﴾ رغم أن الذين مع نوح كانوا من أهل الإيمان فليقولوا هم أيضاً هم لا شك أنهم سيقولوا، وسيتبعوا نوحاً في ذلك، ولكن الله –عز وجل– أراد أن يبرز نوحاً –عليه السلام– وأن يذكره بمزية وفضل فوجه إليه الخطاب: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ والله –عز وجل– هنا يثني على نفسه، في أمر مهم جداً، لماذا؟ لأنه يبين عظمة الله –عز وجل– وسطوته، وعزته، وكبرياءه، وأنه –عز وجل– يهلك الظالمين ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وفيها توجيه لأهل الإيمان، أن ترجع يا عبد الله إلى الله –عز وجل– وأن تستنصر به وسترى أمامك من كذَّب بالله وبالمرسلين وآذى أولياء الله الصالحين، ستجده في النهاية من المهزومين وعندئذ احمد الله –سبحانه وتعالى– على ذلك، واشكر الله –عز وجل– على هذه النعمة العظيمة، ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ وهذه الآية كقول الله جل ذكره: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٥] وقول الله هنا: ﴿وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وفي الآية التي معنا: ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ دعوة إلى أن يتأمل العباد حكمة رب العزة والجلال –سبحانه– في إهلاكه الظالمين، ونصره لعباده وأوليائه الصالحين، وهذا يدفع قلوب أهل الإيمان إلى التمسك بما هم عليه، حتى ولو مروا بفترات من الضعف، أو مما يمكن أن يأتي بهم الأعداء من كل جانب إلا أن الأمر كما قال الله –عز وجل–: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] وأن نصر الله –سبحانه وتعالى– آتٍ لعباده الصالحين، وعليكم يا أيها المؤمنون أن تسلكوا الطريق وأن تستنصروا بمن بيده النصر –جل في علاه– وعندئذٍ إذا أتاكم النصر اشكروا الله واحمدوه على فضله: ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وكما نهى رب العزة والجلال نوحاً –عليه السلام– أن يخاطبه في الذين ظلموا، هنا يأمره أن يحمده سبحانه يعني أن يحمد نوحٌ ربه على إهلاكه من؟ على إهلاكه هؤلاء الظالمين.

ثم بعد ذلك وبعد أن حمد نوح –عليه السلام– ربه؛ لأنه نجاه ونصره على المكذبين الجاحدين المعاندين قال الله –عز وجل– لنوح آمراً له أمراً آخر: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ ما المراد بالمنزل المبارك هنا؟ قيل: المراد به السفينة، يعني ينزل منزلاً مباركًا في السفية، وقيل: ينزل منزلاً مباركاً بعد

خروجه من السفينة، ولا مانع من إرادة الأمرين معاً، فالمنزل كان مباركًا، الذي نزل فيه نوح -عليه السلام- وكيف لا يكون مباركًا وقد نجاه الله -سبحانه وتعالى- فيه بعد أن أغرق وأهلك الظالمين؟!! ثم نوح -عليه السلام- يطلب من ربه أن ينزل منزلاً مباركًا وآيات سورة هود قد تشير إلى الأمرين معاً فما جاء أو مما جاء في سورة هود: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤] فقول الله -عز وجل-: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ يفيد أن المكان مبارك، وأنه مستوٍ بنعمة وفضل من رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- ثم ذكر -عز وجل- في سياق هذه الآيات: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: ٤٨] ﴿اهْبِطْ﴾ يعني من السفينة، فأيضاً يهبط على منزل مبارك، والله -عز وجل- يقول لنوح ولنا لكي نستفيد: بأنه ﴿خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ لماذا؟ لأن الإنسان قد يكون سبباً في إنزال إنسان في مكان ما، بأن يقدم له مسكناً أو يتفضل عليه بأمر أو ما إلى ذلك، ولكن الأمر كله لله -عز وجل-، والفضل كله يرجع إلى رب العزة والجلال سبحانه، وإذا أنزل الله عبده منزلاً أو مكاناً، وقد رضي الله عنه، فلا يمكن لبشر مهما كان أو مخلوق أياً كان أن يعطي لهذا العبد ما أعطاه ربه -سبحانه وتعالى- ولذلك أمر ربنا -عز وجل- نوحاً -عليه السلام- أن يسأل ربه هذا السؤال اللطيف الجميل: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ ونحن نستفيد، إن وقعنا فيما وقع فيه نوح -عليه السلام- أن نخلص النية لله -عز وجل-، وأن نتشبه بهؤلاء الأنبياء والمرسلين وبمن كان معهم، ونطلب النجاة من الله -عز وجل- والمكان الدائم الجميل، وأن ينزلنا رب العزة والجلال منزلاً نرضى عنه؛ لأنه ﴿خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾.

ثم يختم ربنا -سبحانه وتعالى- هذا السياق بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾ يعني في هذه القصة وما فيها من عبر وما أخبر رب العزة والجلال فيها من إنجاء الله -عز وجل- للمؤمنين وإهلاكه للكافرين، إن في كل ذلك ﴿لآيَاتٍ﴾ يعني لحجج، وبراهين، ودلالات على أن الله -سبحانه وتعالى- على كل شيء قدير، وأنه وحده هو المعبود، وأنه ينصر عباده الذين ينصرون دينه -سبحانه وتعالى-، فنوح -عليه السلام- ظل في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يصدون الناس عنه ويكذبون بدعوته ويُؤذى -عليه السلام- ويُسخَر منه كما ذكرت الآيات ولكن النهاية كان النصر من الله -عز وجل- لنوح -عليه السلام- ولذلك صدق الله -عز وجل- في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾ يعني وإن كنا لمختبرين العباد بإرسال الرسل لننظر كيف يعملون، وهل سيستجيبون للأنبياء والمرسلين أم أنهم سيكذبون؟ وليعلم الجميع أن الرسل إنما جاءت من عند الله -تبارك وتعالى-، وأيدهم ربنا بالمعجزات، وعلى العباد أن يدخلوا وأن يسلموا لما جاء به الأنبياء والمرسلون من قبل رب العباد سبحانه. وبعد بعثة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- على البشرية كلها أن تدخل في دين الله أفواجاً، وأكتفي بهذا وأصلي وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أسئلة الحلقة الماضية.

وكان السؤال الأول: اذكر الصفات التي يجب أن تتوفر في أهل الإيمان كما جاءت في هذه السورة؟

وكانت الإجابة:

الصفات التي يجب أن تتوفر في أهل الإيمان كما جاءت في هذه السورة هي:

بعدما أثبت الله -عز وجل- الفلاح لأهل الإيمان ذكر لهم بعض الصفات التي يجب أن يتحلى بها أهل الإيمان وهي: سبع صفات اشتملت عليها سورة المؤمنون:

وأول هذه الصفات: الإيمان وهي الصفة التي تدور حولها كل الصفات وهي الصدق بما جاء من عند الله ورسوله -صلى الله عليه وآله وسلم-، والاعتقاد به بالقلب والعمل بذلك.

الصفة الثانية: التي بينها الله -عز وجل- في الآية هي الخشوع في الصلاة قال تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: ٢].

الصفة الثالثة: التي يجب أن تتحقق في أهل الإيمان هي الإعراض عن اللغو وهو ما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال وما توجب المروءة تركه قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

الصفة الرابعة: هي إيتاء الزكاة قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [المؤمنون: ٤] وتكون زكاة المال والنفس بطاعة الله -سبحانه وتعالى-، وطاعة رسوله -صلى الله عليه وآله وسلم-.

الصفة الخامسة: هي حفظ الفرج عن المعاصي قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾﴾ [المؤمنون: ٥] وهذه الآية تدعو المؤمنين إلى الترفع عن الفواحش كالزنى بما فيه من المفاسد العظيمة والشديدة.

الصفة السادسة: تكمن في قول الله -عز وجل-: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾﴾ [المؤمنون: ٨] بمعنى حفظ كل ما استودعه الله إياهم لأنه أمانة والأمانة أمرها عظيم، والأمر بحفظ العهد كما قال الله -عز وجل- في سورة الإسراء: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ٣٤].

ثم ختم الله -عز وجل- هذه الصفات بالصفة السابعة: وهي المحافظة على الصلاة والمحافظة عليها تكون بالمحافظة على أدائها في وقتها والحرص على الطهارة والخشوع فيها، قال الله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة: ٢٣٨] انتهى.

في الحقيقة هذا الجواب في غاية من الروعة؛ لأن المجيب -جزاه الله خيراً- ذكر الصفات وذكر كلاماً حولها مفيداً، فأشكره على هذا الجواب، وعلى هذا الفهم، وندعو جميع الشباب إلى أن يكونوا كذلك.

السؤال الثاني فضيلة الشيخ:

فصِّل القول في حكم نكاح المتعة. وما معنى ﴿عَلَى﴾ في قول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ﴾؟

وكانت الإجابة:

أجمع الفقهاء على تحريم نكاح المتعة ولم يخالف في ذلك إلا الروافض وتحريم نكاح المتعة ثابت بالكتاب والسنة والإجماع والمعقول.

أولاً: دليل التحريم من الكتاب قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾ وجه الدلالة من الآية ما قالت به السيدة عائشة -رضي الله عنها- حين سُئلتْ عن نكاح المتعة فقالت: بيني وبينكم كتاب الله وقرأت الآية وقالت: فمن ابتغى وراء ما زوجه الله أو ملكه فقد عدى، والمرأة المستمتع بها في نكاح التأقيت ليست زوجة ولا مملوكة، أما كونها غير مملوكة فواضح، وأما الدليل على كونها غير زوجة فهو انتفاء لوازم الزوجية عنها كالميراث والعدة والطلاق والنفقة ونحو ذلك، فلو كانت زوجة لورثت واعتدت ووقع عليها الطلاق ووجبت لها النفقة، فلما انتفعت عنها لوازم الزوجية علمنا أنها ليست بزوجة لأن نفي اللازم يقتضي نفي الملزوم بإجماع العقلاء، فتبين بذلك أن مبتغي نكاح المتعة من العادين المجاوزين ما أحل الله إلى ما حرم.

ثانيًا: دليل التحريم من السنة، فنكاح المتعة أباحه -صلى الله عليه وسلم- قبل خيبر لعزوبة بالناس كانت شديدة ولكثرة أسفارهم وقلة صبرهم عن النساء، ثم حرمت زمن خييبر ثم أبيحت عام الفتح، ثم نهي عنها إلى يوم القيامة والدليل على إباحتها قبل خيبر ثم تحريمها ما رواه البخاري في صحيحه أن علياً قال لابن عباس -رضي الله عنهما-: (أن النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى عن المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر) رواه البخاري وكلمة (نهى) هنا تدل على أنه كان مباحاً قبل خيبر ثم نهي عنه في خيبر والأحاديث في تحريم النكاح متعددة ومشهورة حتى قال ابن رشد: وأما نكاح المتعة فقد تواتر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تحريمه.

أما معنى قوله -عز وجل-: ﴿إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ﴾ بمعنى يعفُّون أنفسهم بالحلال مع زوجاتهم أو ما ملكت أيمانهم؛ لأن الله -عز وجل- أحلهما.

في الحقيقة لا أملك الآن بعد استماعي لهذا الجواب إلا أن أسجل شكري للمجيب، يعني هذه الاستفاضة وذكره لهذه الأدلة المتنوعة واستدلاله بالأحاديث وبقول أم المؤمنين عائشة في غاية من الجودة، فأشكره على ما قدم، وجزاه الله خيراً.

هي أخت من المغرب فضيلة الشيخ

جزاها الله خيراً، أرجو أن تكون تسمعنا الآن وأشكرها على ما قامت به من جواب في الحقيقة متقن ومحكم جداً.

السؤال الثالث: كلمة الخلق تطلق ويراد به أكثر من معنى؟ أذكر ما تعرفه من ذلك؟ مؤيداً قولك بالدليل؟

وكانت الإجابة:

كلمة الخلق تطلق ويراد بها التقدير وهذا يدخل فيه الإنسان والخالق مثلاً من يأخذ مقاسك وتقديراتك ليخيط لك ثوباً أو يخلق لك ثوباً والإيجاد من العدم وهذا خاص بالله -سبحانه وتعالى- قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ [الروم: ٢٢] هذا والله أعلم

في الحقيقة الجواب يعني فيما ذكره الأخ المجيب صحيح، ولكنه لم يكثر فالخلق يأتي بمعنى التقدير وبمعنى الإيجاد من العدم هذا ما ذكرته في اللقاء السابق، وكنت حينما وضعت السؤال تركت شيئًا لم أذكره لعل باحثاً يأتي به، وهو أيضاً الخلق تطلق على افتراء الكذب وهذا قد ورد في قول الله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧] يعني كذباً، والله أعلم.

الأخ الكريم من السعودية يقول: الفرق بين الرسل وبيننا نحن إذا احتجنا إلى شيء نرجع إلى الوسائط، نتوسط بفلان وفلان، هل توسطنا في هذا الأمر من أمور الدنيا نأثم فيه؟ ويكون هناك شرك أم أن الوسائط هذه التي نتوسط بها قبل أن نلجأ إلى الله نتوسط بفلان من الناس أو غيره هل هناك إثم؟

أعتقد يا شيخ كان يسأل عن التوسل في أمور الدنيا بالأشخاص؟

هو في الحقيقة معلوم من دين الإسلام –تبارك وتعالى– أن العبد في أموره كلها يرجع إلى الله –تبارك وتعالى–، ولا يسأل المخلوق فيما يقدر عليه الخالق، ولا يقدر عليه المخلوق، لا يسأل إلا الله –تبارك وتعالى–، أما بالنسبة لما سأل عنه أولاً الفرق بيننا وبين الرسل، فنحن جميعاً بشر والرسل فضلوا على البشر بالوحي والرسالة، وكانوا يلجؤون إلى الله –تبارك وتعالى– كما نلجأ نحن، ولكن بالنسبة لسؤاله بعد أن ذكرت، أن العبد في أموره كلها يسأل ويرجع إلى الله –عز وجل–، إلا أنه لو أن إنساناً طلب من إنسان شيئًا مما يقع تحت مقدوره، فلا شيء في ذلك، وأضرب على ذلك مثلاً:

لو أن مثلاً غريقاً، إنساناً وقف على شاطئ بحر أو نيل أو نهر ثم سقط فيه، ورأى الناس أمامه فناداهم أن يغيثوه واستنقذ بهم، فنقول له: أنت مشرك، ويتركوه؟!! لا.. في هذه الحالة، يغيثوه؛ لأن هذا أمر في مقدورهم، فما يستطيع أن يقدمه العباد بعضهم لبعض من منافع ويطلب البعض من البعض شيئًا من ذلك، فهذا لا حرج فيه، مع الاعتقاد أن الذي أوجد هذه الأشياء ومكَّن العبدُ مثلاً المعطي أو الذي تقضى الحاجة على يديه، يعتقد السائل أن الله –عز وجل– هو الذي أعطاه وهو الذي سخره وهو الذي تفضل عليه وهو الذي مكنه مما أعطاه إياه، ولكن المشكلة الخطيرة أن يطلب العبد من المخلوق شيئًا لا يقدر عليه إلا الخالق –سبحانه وتعالى–، ومع ذلك لعله من باب الورع لو استطاع الإنسان أن لا يسأل الناس شيئًا فليفعل، والله أعلم.

الأخ الكريم من مصر يقول: قلتم في قول الله –سبحانه وتعالى–: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ هل المعلوم في التفسير يا دكتور عبد الله مكان الجودي؟

بالنسبة ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ المراد به الأرض التي نزلت عليها أو رست عليها السفينة، وقد وردت أمور كثيرة متعددة في كتب التفسير في تحديد ذلك، ولكن كثير من أئمة التفسير أعرضوا عن ذلك وقالوا بأن غالب ما يذكر في هذا من الإسرائيليات ولا يوجد شيء يعتمد عليه في هذا والذي يعنينا صلب هذه القصة والعبر التي جاءت فيها ومن خلالها وامتنان الله –عز وجل– على عبده نوح –عليه السلام– بهذه السفينة، ونجاته فيها وهبوطه بعد ذلك إلى الأرض والله أعلم.

الأخت الكريمة من السعودية تقول: ما هي الأسباب المعينة على تقوية ذاكرة الحفظ علماً أنني دائماً أشتكي من النسيان؟

أعتقد بأن الجميع قد يشكون من هذا الداء أو المرض وفي الحقيقة أرجع أنا شخصياً بشيء من النظر، ومراجعة النفس إلى هذا بكثرة المشاغل التي يتحملها الإنسان، والإنسان لو خفف عن نفسه بعض المشاغل التي يقوم بها ويتحملها ويسندها إلى نفسه، يعني أطمع أن يكون استذكاره إلى درجة كبيرة فيه شيء من القوة، ومن الحفظ، هذا شيء.

الشيء الثاني: كنا نتعلم من مشايخنا –رحم الله من مات وحفظ الله من هو حي– أن الطاعة وكثرة تلاوة القرآن الكريم وأن يعيش العبد ذاكراً لله –عز وجل– من أسباب الحفظ، وكان دائماً بعض مشايخنا يلفتون أنظارنا إلى أن بعض المعمرين في السن يعني من تجاوز الثمانين تجد أحيانًا شيئًا كثيرًا في جسده يعني غير قوي ومع هذا تجد ذاكرته وحافظته قوية جداً، ويؤثر عن بعض السلف أنه كان صاحب ذاكرة قوية ويعني أيضاً صحة قوية فلما سئل عن ذلك قال: «هذه جوارح حفظناها في الصغر فحفظها الله لنا في الكبر»، فعلينا بالطاعة والتزام قول الحق –تبارك وتعالى– والطلب من رب العزة والجلال أن يحفظ علينا عقولنا ونسأل الله أن يستجيب لنا والله أعلم.

فضيلة الشيخ الأخت الكريمة من الإمارات تقول: عند تلاوة قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦] في الصلاة أي تقصد عند قراءتها في الصلاة وخارجها، فهل يشرع في هذه الحال الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم-؟

في الحقيقة ورد في النوافل أمرا قاس العلماء الصلاة والسلام على النبي -صلى الله عليه وسلم- في النوافل عليه، وهو النبي -صلى الله عليه وسلم- لما كان يقرأ على الجن: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ قالوا: (ولا شيء من ذلك ربنا نكذب فلك الحمد) فقالوا أيضاً: في النوافل النبي -صلى الله عليه وسلم- كان إذا مر بآية فيها سؤال أو طلب سأل الله -عز وجل- وإذا مر بآية فيها عذاب استعاذ بالله -تبارك وتعالى-، وكان هذا في النوافل، فقيل: في النوافل يصلي العبد على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- إذا ورد ذكره، والله أعلم.

فضيلة الشيخ الأخ الكريم من مصر يقول: الرجاء التوضيح ما هو الفرث والدم المقصود في آية النحل؟

لا شك هذه أمور معروفة الفرث هو ما يخرج من الحيوان نتيجة الطعام الذي يأكله، والدم الذي هو يسير في عروقه وجسده، والعبرة فيه كما ذكرت وأشرت أن اللبن الذي يخرج من هذا الحيوان قريب من هذه الأحشاء التي هي مليئة بهذا الروث وبهذا الدم ومع ذلك يخرجه رب العزة والجلال لبناً سائغاً صافياً صالحاً يستخدمه الإنسان في منافع وألوان متعددة.

الأخ الكريم من المغرب له سؤالان: سؤاله الأول يقول: سيدنا نوح -عليه السلام- لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين، السؤال: هل قومه كانوا معمرين مثله؟

في الحقيقة لم يأتنا شيء من ذلك، ونحن في مثل هذه المسائل الغيبية نقف عند حدود النص الوارد، فالله -عز وجل- أخبرنا بأن نوحاً ظل يمكث في قومه يدعوهم والناس لا شك حتى الآن وحتى في أيام بعثة النبي -صلوات الله وسلامه عليه- يتفاوتون في الأعمار، منهم من يموت صغيراً ومنهم من يموت شاباً ومنهم من يموت كبيراً وهكذا، أما أن نستطيع أن نحكم بأن رجلاً كان موجوداً من البشر أو امرأة ومكثت هذا السن كنوح -عليه السلام- هذا أمر لا سبيل لنا إليه إلا بوحي ولم يرد في ذلك شيء لا في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية المطهرة، فعلينا أن نقف إذن عند حدود النص الوارد في ذلك ولا نتعداه.

أعتقد سؤاله الثاني فضيلتكم جاوبتم عليه ولكن أقوله أيضاً، يقول: هل زوج نوح -عليه السلام- عاشت ألف سنة إلا خمسين؟

لا شك أن زوج نوح هلكت ممن هلك، متى زوجها نوح؟ الله أعلم، فهي هلكت مع من هلك مع قوم نوح، ولكن هل عمرها كان كعمر نوح؟ هذا الله أعلم، فلا ندري متى تزوجها نوح -عليه السلام-.

الأخ الكريم من فرنسا له سؤالان: السؤال الأول: قال الله -عز وجل-: ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ للهِ﴾ لماذا أمر الله نوحاً أن يحمد الله ولم يأمر الآخرين بالحمد؟

قلت وأنا أتكلم: بأن الأمر لنوح -عليه السلام- وأيضاً أمر لمن معه، ولكن مُيز أو فُضل أو ذكر نوح -عليه السلام- للتنويه بذكره والإشادة به -صلوات الله وسلامه عليه- فخصه الله -عز وجل- بهذا الأمر تكريماً له؛ لأنه هو الذي عاش لهذه المسألة وهو الذي تعب فيها وهو الذي واجه هؤلاء الأقوام وهو الذي ناله من الأذى ما ناله، بخلاف قومه الذين حملهم معه، فنوح -عليه السلام- بهذا كله تفضل الله -عز وجل- عليه، وكرمه فذكر الأمر الموجه إليه ومن معه لا شك يتبع نوح -عليه السلام- في هذا القول وقد قلت بأن علينا نحن إذا حصل لنا كما حصل لنوح ومن معه فلنحمد الله -عز وجل- أيضاً على هلاك الظالمين وما إلى ذلك.

سؤاله الثاني فضيلة الشيخ يقول: من خلال هذا الشرح هل يصح أن نقول: إن نوحاً كان أصبر من أيوب –عليهما السلام–؟

هو في الحقيقة التفضيل بين الأنبياء في مثل هذه الجزئيات وهذه نصوص أمر غير وارد لماذا؟ لأن الله –عز وجل– نهى عن المفاضلة بين الأنبياء وبين المرسلين، والنبي –صلى الله عليه وسلم– وهو خاتم الأنبياء والمرسلين قال الله له: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ولا يعني ذلك أن أولي العزم من الرسل أصبر من النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–، فكلاهما أو كل الأنبياء والمرسلين كانوا يتميزون بهذه الخصال الحميدة والصفات الجليلة، والتفاضل الوارد بينهم لا ينبغي أن يذكر بهذا الأسلوب، ونحن نؤمن بأن بينهما تفاضلاً ولكن ما وردنا فيه قلنا به وما لم يرد فنقول: الله أعلم –سبحانه وتعالى– به لأن الذي أخبرنا عن ذلك هو ربنا سبحانه لما قال: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] والنبي –عليه الصلاة والسلام– نفسه رغم أنه (سيد ولد آدم ولا فخر) قال: (لا تفضلوني على يونس بن متى) وفي رواية: (لا تفاضلوا بين الأنبياء) والله أعلم.

الأخ الكريم يقول: ذكرتم فضيلتكم دعاء نوح –عليه السلام– قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: ١٠] ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [العنكبوت: ٣٠] فهل ما نراه الآن من الدعاء الطويل في الصلاة يعني يمكث ساعة أو نصف الساعة يدعو هل هذا من التعدي أو هل يجوز ذلك شرعًا؟

هو في الحقيقة السنة في الدعاء هو فعل النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– يعني جوامع الكلم في مثل هذا حتى لا يشق الإمام على نفسه وعلى المأمومين قد يكون هذا أولى من غيره، يجلس الإنسان ساعة أوساعة ونصف فيشق على نفسه ويشق على الآخرين وأذكر لما الرجل جاء للنبي –عليه الصلاة والسلام– يقول له: (لا أحسن الدعاء كما تدعو، ولكني أسأل الله –عز وجل– الجنة وأستعيذ به من النار، فالنبي –عليه الصلاة والسلام– قال له: حولها ندندن)، فالنبي –عليه الصلاة والسلام– حتى لما علم عمر بن الخطاب الدعاء في الوتر وما إلى ذلك كلمات قليلة وفيها منافع عظيمة فالإنسان يقول بمثل هذا ويقول بما عنده يعني مما يحتاج إليه ويجمل القول في هذا، فلعل هذا يكون أنفع وأصوب لعدم المشقة على نفسه وعلى الناس أيضاً وعلى كلٍّ نسأل الله –عز وجل– القبول لكل من أخلص وتوجه إلى ربه –سبحانه وتعالى– بالدعاء.

الأخت الكريمة من السعودية تقول: هل يشرع لمن نزل مكاناً أو نزل منزلاً أن يقول هذا الدعاء: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾؟

لا بأس إذا قال الإنسان هذا هي دعوة حتى قبل أن ينزل الإنسان يدعو الله –عز وجل– أن ينزله منزلاً مباركاً ومن السنة النبوية جاء أن الإنسان يقول دعاءً آخر خاصة إذا نزل في مكان موحش كقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: (من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك) إذن الأمور تؤخذ على حسب حالة الإنسان إن نزل في مكان موحش ويخاف من شيء على نفسه فليدعُ هذا الدعاء، وإن أراد يعني منزلاً مباركاً جميلاً أو قصراً واسعاً فليطلب من الله –سبحانه وتعالى– شيئًا من ذلك وهي من الأمور المباحة والإنسان يسأل ربه في الدنيا والآخرة.

الأخ الكريم من السعودية يقول: أرجو أن تسدوا نصيحة عامة لإخواننا المسلمين الذين أوذوا وحوربوا دون أي خطيئة سوى أنهم يقولون: ربنا الله وهل يتشابه واقعهم مع وضع قوم نوح؟

في الحقيقة كل من يبتلى في سبيل الله –عز وجل– نسأل الله له الثبات على الدين ونعرف أن الإنسان يبتلى على قدر دينه كما ذكر النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– وهذه قد تكون محناً وابتلاءاتٍ من الله –عز وجل– وقد يكون السبب فيها أفعال بعض العباد، يعني ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]

والإنسان على كل إذا ابتلي عليه أن يصبر وأن يسأل الله -عز وجل- رفع الابتلاء الذي وقع بـــه، ونحـــن الآن بفضل الله -تبارك وتعالى- ليس عندنا أنبياء ورسل حتى نقيس أنفسنا بزمن نوح أو زمن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ونحن الآن في بلادنا -بحمد الله تبارك وتعالى- وفضله نؤدي ونعبد الله -عز وجل- ونقـــوم بمـــا يمكن القيام به دون أن يتعرض لنا أحد أو يمنعنا أحد من عبادة الله -تبارك وتعالى-، فلا أرى قياساً بين النبـــي وما صار مع قومه وبين ما نحن عليه الآن، وإن ابتلي الإنسان عليه أن يصبر وأن يدعو الله -عز وجـــل- أن يفرج عنه ما فيه ونحن نسأل الله -سبحانه وتعالى- لكل مبتلىً بشيء من ذلك أن ينجيه رب العزة والجـــلال - سبحانه وتعالى- من القوم الظالمين، والله أعلم.

الأخ الكريم يقول: أود أن أسأل شيخنا: كلنا يوقن بأن الله -عز وجل- هو الذي يعلم الغيب وأنه هـــو الـــذي ينزل الغيث ولكن هل الأخذ بكلام علماء الأرصاد يعني يقولون: أن الجو سيمطر غداً، أو الأخذ بكـــلام بعـــض الأطباء الذين يقولون: إن الجنين أنثى أو ذكر هل يتنافى ذلك مع اليقين بالله -عز وجل-؟

طيب جزاك الله خيراً، هذا سؤال في الحقيقة طيب جدًا وجميل ومفيد، من يخبر الآن عن توقع نزول المطـــر أو من يخبر عن الجنين مثلاً وهو في بطن أمه بأنه ذكر أو أنثى، هذا في الحقيقة إن تم عن دراسة علميـــة مـــع التقدم العلمي اليوم أو التقنية الواقعة اليوم، فهذا لا شيء فيه ويعتبر أمراً من التوقع ليس مسألة غيبية ولكن هـــي قياسات يتوقع من خلالها أن يكون، ويخبرون وقد يكون وقد لا يكون، أما الإخبار بأن الجنين ذكر أو أنثى وهو في بطن أمه فهذا إلى الآن لا يعلم إلا بعد نفخ الروح في الجنين في بطن أمه، ونفخ الروح في الجنين يكون بعد أربعة أشهر، والملك المرسل الذي ينفخ الروح هو من المخلوقين ويعلم هل هو سيكون ذكراً أو أنثى فكون الطب الحديث يعرف الآن ويتقدم العلم الحديث ليخبرنا بأنه ذكر أو أنثى فأمر خرج في الوقت بعد الشهر الرابع أو في الخامس، يكون الأمر قد خرج من عالم الغيب إلى عالم الشهادة؛ لأن الملك قد علم هو ذكر أو أنثى، وأيضًا علم الطبيب بذلك ليس رجماً بالغيب في هذه الحالة، وإنما نتيجة التوصل العلمي الذي وصل إليه، فهو لا يأتي إلـــى امرأة يراها ويقول: والله أنت فيك ذكر أو أنثى، لا، هو يتوصل إلى هذا الأمر نتيجة دراســـة علميـــة وأجهـــزة متطورة وعلى كل معرفة الإنسان بهذا الأمر بالذات كان بعد أن خرج من عالم الغيب إلى عـــالم الـــشهادة؛ لأن الملك الذي ينفخ الروح ويقول بأنه ذكر أو أنثى وشقي أو سعيد من المخلوقات، فخرج الأمر من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، والله أعلم، وجزاكم الله خيراً.

فضيلة الشيخ هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه المحاضرة

السؤال الأول: قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِـــهِ لَقَـــادِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ ماذا أفاد الجمع في قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا﴾؟ وما هي الفوائد التي أفادتها هذه الآية؟

السؤال الثاني: ما المراد بالشجرة الوارة في قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾؟ وعلى أي شيء عطفت كلمة ﴿شَجَرَةً﴾؟ وما فوائد هذه الشجرة؟

السؤال الثالث: ما هي الشُبَهُ التي أنكر بسببها قومُ نوحٍ نبوته -عليه السلام-؟

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

فضيلة الشيخ أهلاً ومرحباً بكم

أهلاً ومرحباً بكم وبالمشاهدين الكرام والحاضرين ويسرنا أن نستمر في هذه اللقاءات المباركة -إن شاء الله تبارك وتعالى- وسيدور الحديث في هذا اليوم حول محاور متعددة للآيات التي سنستمع إليها -إن شاء الله تعالى- بعد قليل ومحاور هذا اللقاء كالتالي:

المحور الأول: الأنبياء والمرسلون دعوا إلى عبادة الله وحده دون سواه.

المحور الثاني: من كذب بالأنبياء والمرسلين أذاقه الله العذاب الأليم.

المحور الثالث: تتابع إرسال المرسلين لتبليغ الدعوة عن رب العالمين.

والآن نستمع إلى الآيات التي سأتحدث عنها من خلال هذه المحاور -إن شاء الله تعالى- فمع الأخ الشيخ فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

جزاك الله خيراً.

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١] أيها المشاهدون الكرام هذه الآيات الكريمات التي استمعنا إليها الآن سأتحدث عنها أولاً ومع المحور الأول.

المحور الأول: الأنبياء والمرسلون دَعَوا إلى عبادة الله وحده دون سواه:

والآية التي معنا تبدأ بقول الله جل ذكره: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾ ذكر الله -عز وجل- فيما مضى وفي اللقاء السابق تحدث عن قصة نوح -عليه السلام- وما كان من قومه له، ثم بعد ذلك يخبر ربنا -سبحانه وتعالى- أنه أخرج بعد قوم نوح -عليه السلام- قرناً آخرين، والآيات لم تعين أية أمةٍ هذه، ومن الذي أرسل لهذه الأمة ولعل هذا السياق بهذا الأسلوب كي يتعلم المخاطب ويعرف أنه إذا كذب مكذب بالأنبياء والمرسلين أياً كان هو سيحيق به العذاب الأليم كما نزل بهؤلاء المكذبين، ومع ذلك فقد ورد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- أن المراد بهؤلاء الأقوام هم قوم عاد الذين أرسل إليهم هود -عليه السلام-، ومستند عبد الله بن عباس -رضي الله تعالى عنه- ومن ذهب من المفسرين إلى ذلك وعلى هذا أكثر المفسرين كما ذكر الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله تبارك وتعالى- الذين ذهبوا إلى هذا القول استندوا إلى أن الله -عز وجل- قال لقوم عاد بعد قصة قوم نوح أن هوداً -عليه السلام- قال لهم كما في سورة الأعراف: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩] فإذن الأمة التي جاءت بعد قوم نوح -عليه السلام- هم قوم عاد، كما جاء في سورة الأعراف وفي سورة هود وفي سورة الشعراء، قصة هؤلاء القوم بعد قوم نوح -عليه السلام- ومن هنا ذهب كثير من المفسرين إلى أن المراد بهذه الآية وبقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾ أنهم قوم عاد الذين بعث فيهم هو هود -عليه السلام- وذهب البعض إلى أن المراد بهؤلاء قوم صالح، ألا وهم ثمود، واستدلوا على ذلك بقول الحق -تبارك وتعالى- في نهاية هذه القصة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ والذين دمروا بالصيحة كما جاء الذكر في القرآن الكريم بذلك هم قوم صالح -عليه السلام- ولكن يظهر والله أعلم أن المراد كما هو الحال عند كثير من المفسرين وكما ذكر الإمام الصحابي الجليل عبد الله بن عباس -رضي الله تعالى عنه- أنهم قوم عاد لأن هذا ترتيب مطابق لما جاء في القرآن الكريم، وقد أشرت الآن قبل قليل إلى أن عدم ذكر هذه الأمة والنص عليها كي يحذر كل مكذب من عذاب الله -تبارك وتعالى-، والقرآن الكريم حينما يذكر لنا هذا القصص إنما أراد من كل مستمع له أن يتدبر وأن يتذكر وأن يعتبر بهذا القصص.

بعد أن ذكر رب العزة والجلال أنه لم يخلِ فترة بين نوح -عليه السلام- وبين ما حصل لقومه من الغرق الذي وقع بهم كما ذكرت وأنه -سبحانه وتعالى- أنشأ بعدهم قرناً آخرين أيضاً أرسل فيهم بعضاً من الأنبياء والمرسلين ولم تحدد الآيات أيضاً من هو النبي المرسل إلى هؤلاء القوم قال جل ذكره: ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أفادت هذه الآية أن الحق -تبارك وتعالى- أرسل إلى هذا القرن أو إلى هذه الأمة أيضاً رسولاً يدعوهم إلى الله -تبارك وتعالى- وهنا قال -سبحانه - وتأملوا حتى كلمات القرآن الكريم وحروفه، قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ﴾ هذه تفيد أن النبي المرسل كان من هؤلاء بقوله: ﴿فِيهِمْ﴾ قبل أن يقول: ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ ﴿رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ نص على أنه منهم ولكن كون الله -تبارك وتعالى- يأتي بفي ويعدي بها فعل أرسل وهو يتعدى بعلى ليفيد أن النبي المرسل من نفس البيئة التي منها هؤلاء القوم وأنهم نشأ فيهم ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ واقتضت حكمة الحق -تبارك وتعالى- أن يكون النبي المرسل من جنس القوم المرسل إليهم، لماذا؟ حتى يعرفوا لغته ويعقلوا كلامه ويأنسوا إليه والله -عز وجل- قد نص على ذلك في كتابه كما جاء في سورة إبراهيم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] ولا يعترض معترض ونخشى من المعترضين على بعثة النبي الأمين -صلى الله عليه وآله وسلم- لأنه قد يقول قائل بأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- خرج من بين ظهراني العرب ولكنه مرسل إلى العرب والعجم والعجم لا يعرفون العربية، فكيف نقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] ؟ لا شك أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- خاتم الأنبياء والمرسلين وأنه فُضل على غيره بأمور متعددة منها: أنه بعث -صلى الله عليه وآله وسلم- إلى الناس كافة، ولا شك أن اللغات متفاوتة مختلفة، ولكن لما كان النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من العرب نزل القرآن الكريم بلسان العرب، وحمل العرب أولاً الدعوة إلى دين الله -تبارك وتعالى- وعقلوا من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ثم بعد ذلك قاموا بتبليغ الرسالة المحمدية إلى غير العرب وقد وقع ذلك عن طريق الترجمة والدعوة بالمشافهة إلى الله -تبارك وتعالى- وكل من وصله الترجمة إلى دين النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بلغته فتكون قد أقيمت عليه الحجة بذلك، ولا فرق بين أن ينطق الإنسان بالعربية وتقوم عليه الحجة

وبين أن ينطق بغير العربية ولكنه يفهم الحجة التي بُعث بها النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– ثم يأبى بعد ذلك لا فرق بين هذا وبين هذا، فكلاهما إذا وصلت إليه الحجة بأي طريق فتكون قد أقيمت عليه، ونحن نشاهد اليوم بأن المسلمين ولله الحمد وفي السابق كانوا ينتقلون إلى البلاد هنا وهناك ويبلغون دعوة الله –تبارك وتعالى– حتى دخل الكثير في دين الله –عز وجل– ممن لا يحسن اللسان العربي بعد أن أقيمت عليهم الحجة بدين الله –تبارك وتعالى–، ولا يقول قائل أيضاً بأننا نؤمن بأنه إلى العرب خاصة وقد ذهب إلى هذا بعض الناس من أهل الكتاب على وجه الخصوص قالوا بأن بعثت النبي –صلى الله عليه وسلم– المرسل إلى العرب خاصة بالعرب ونحن نأخذ عليهم هذا القول فنقول: إن آمنتم وصدقتم أنه رسول يوحى إليه وأنه مرسل إلى العرب وجب عليكم أن تصدقوه في كل ما يقول طالما أنك آمنت وصدقت أنه رسول فيجب عليك أن تصدقه فيما يقول بعد ذلك، وهو قد قال: بأنه رسول إلى الناس كافة قال الله عنه في كتابه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧] صلوات الله وسلامه عليه، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وكما ذكر –صلى الله عليه وآله وسلم– بأنه فضل على الأنبياء بخمس وفي رواية بست، وذكر منها: (وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة) صلوات الله وسلامه عليه.

هذا الرسول المرسل إلى هؤلاء القوم دعاهم بما يدعو به كل نبي ورسول إلى الله –عز وجل–، ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، وهذا في الحقيقة قاسم مشترك بين الأنبياء جيمعا، وقد أشرت إلى هذا فيما مضى ولا يحتاج التذكير به الآن لأنني أعتقد بأن هذا صار من الأمور المعروفة لكثرة ما يتردد من الحديث والكلام حوله من أهل العلم الذين يعرفون كيفية دعوة الأنبياء والمرسلين والأسس التي قامت عليها هذه الدعوة.

كل نبي أتى إلى قومه ابتدء قوله ودعوة قومه إلى الله –عز وجل– بإفراد الله –تبارك وتعالى– ب العبودية في قصة نوح كما مضى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٢٣] وفي سورة الأعراف: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥] ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣] ويصبح بالتالي الدعوة إلى توحيد الله –عز وجل– وإلى عبوديته وحده دون سواه هي لب دعوات الأنبياء والمرسلين وأن جميع الأنبياء والمرسلين اشتركوا في الدعوة إلى الله –تبارك وتعالى– في هذا الأمر المهم العظيم ألا وهو إفراد الله –تبارك وتعالى– بالوحدانية، وبالتالي يجب على الدعاة إلى الله أن يعرفوا هذا المعنى وأن يقفوا على هذا الفهم وأن يبتدئوا دعوتهم بدعوة الناس إلى الله –تبارك وتعالى– وإلى إفراد الله –عز وجل– بالوحدانية لأن هذا هو الهدف الأصلي من دعوة الأنبياء وبعثة المرسلين –صلوات الله وسلامه عليهم– ويجب على الدعاة إلى الله أن يفتتحوا دعوتهم وعوة من يدعونهم إلى الله –عز وجل– بالقيام بالدعوة إلى التوحيد وإرساء قواعد الملة على لا إله إلا الله محمد رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–.

ثم قالت الآية لهم: ﴿أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ وفي هذا زجر ووعيد وسيأتي له تكرار أيضاً وسبق أن ذكر في قصة نوح –عليه السلام– يعني يا أيها المخاطبون ألا ترتدعون عندما يدعوكم الأنبياء والمرسلون إلى الله –عز وجل– إلى الله –عز وجل– فتجعلوا بينكم وبين عذاب الله وبين غضب الله وبين سخط الله وقاية فتستجيبون لدعوة الأنبياء والمرسلين، نأمل ذلك من سائر الأمم والشعوب أن يتقوا الله –تبارك وتعالى– وأن يعرفوا لماذا وجدوا؟ وما هو الهدف من خلق الناس جميعاً؟ إنما الهدف الواضح الذي نص عليه القرآن الكريم والعاقل يدركه هو عبادة الله وحده دون سواه فليجعل العبد إذن بينه وبين عذاب الله –سبحانه وتعالى– وقاية.

بعد ذلك تذكر الآيات خطاب القوم الذين أرسل فيهم هذا الرسول الذي لم يرد له ذكر ولم يسم الله –عز وجل– قومه في هذه الآيات اعترضوا أيضاً على دعوته وسلكوا مسلك السابقين فقالوا كما ذكر الله عنهم: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ

وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾ نتأمل معاً هذه الآية هذا القول أيضاً من هؤلاء الناس سبق من قوم نوح وأتى بعد هؤلاء القوم أيضاً للأنبياء والمرسلين والله -عز وجل- في سورة الأعراف أتى بمثل هذا السياق ولكنه لم يأتي بالواو قال: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٧٥] كأن سائلاً هناك سأل: بعد أن كذب هؤلاء القوم رسولهم الذي أرسل إليهم ماذا كان؟ أو ماذا قالوا لما أرسل إليهم هذا الرسول؟ ﴿قَالَ الْمَلأُ﴾ وهنا عطف الله -عز وجل- قولهم على قول النبي الذي أرسل إليهم، عطف كلاماً باطلاً على الكلام الحق، الكلام الحق: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ الكلام الباطل: هو هذا الذي قاله هؤلاء الناس، ولعل العلة في ذلك أن ينظر الإنسان بعين الاعتبار وأن يوازن بين القولين ليعرف أيهما أهدى سبيلاً؟ ومن الذي سلك الصراط المستقيم؟ والحق مع من؟ ﴿وَقَالَ الْمَلأُ﴾ وهم أيضاً من قومه لم يخرجوا عن قوم الرسول المرسل إليهم ماذا قالوا؟ هذه الآية ذكرت صفات اتصف بها هؤلاء الناس، ثم ذكرت أيضاً لهم شبهات قامت في عقولهم دفعتهم ودعتهم إلى أن يردوا دعوة هذا النبي والرسول، ما هي الصفات التي اتصف به هؤلاء الذين ردوا دعوة هذا النبي؟

أولها: الكفر بالله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وكفر هؤلاء الناس أيضاً من أشد أنواع الكفر؛ لأنهم جمعوا بني كفر التكذيب وكفر العناد وكفر الإباء والإعراض عن الاستماع لتوجيهات النبي المرسل إليهم من قبل الله -تبارك وتعالى- كفروا بالله -عز وجل- كفروا بالنبي المرسل إليهم، عاندوا دعوته، أعرضوا عن الاستجابة له، هذه هي الصفة الأولى التي اتصف بها هؤلاء القوم أنهم كفروا بالله وبالنبي المرسل إليه.

الصفة الثانية: ذكرها ربنا في كتابه هنا وفي هذه الآية فقال: ﴿وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ﴾ يعني أنهم لم يؤمنوا بيوم سيرجعون فيه إلى رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، وسيأتي حديث من خلال هذه الآيات حول هذا المعنى وحول هذا السياق -إن شاء الله تبارك وتعالى- بعد قليل.

الصفة الثالثة: ذكرت عن هؤلاء القوم أنهم من المترفين الذين ركنوا إلى الحياة الدنيا وأعجبوا بها فهم قوم منعمون يحبون العيش في رغد ولا يحبون شيئًا من التكاليف عبرت عن ذلك الآية بقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ هذه هي الصفات الثلاثة التي اتصف بها هؤلاء القوم.

أما الشبهات التي وقعوا فيها أو قامت بعقولهم وكانت سبباً في أن يردوا دعوة هذا النبي وهذا الرسول ذكر القرآن الكريم عنهم هنا شبهتين:

الشبهة الأولى: أنه بشر وقد ورد ذكرها مع قوم نوح قالوا: ﴿مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣] وهؤلاء في الحقيقة قوم سفهاء ماذا يريدون؟ هل يريدون ملكاً ينزل عليهم من السماء؟!! وهل يمكن أن يستجيبوا لواحد من غير جنسهم يألفون إليه ويتكلمون معه ويخاطبونه ويتحدث إليهم ويجلس معهم؟؟ لا يمكن بحال من الأحوال إلا أن يكون الرسول المرسل من قبل الله -تبارك وتعالى- بشر من جنس البشر ولكنها شبهة أتى بها قوم نوح وأتى بها هؤلاء الناس وأتى بها من؟ المشركون في بعثة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وقالوا أيضاً بأنه لا يصلح أن يكون الرسول بشراً يأكل مما نأكل ويشرب مما نشرب ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الفرقان: ٧] إلى آخر الآيات التي وردت في هذا السياق وهي تبين أيضاً اعتراض هؤلاء الناس على أن يكون النبي المرسل إليهم بشراً وهي شبهة واهية بكل المقاييس؛ ولذلك القرآن الكريم كما ذكرت سابقًا أعرض عن الجواب عن هذه الشبهات؛ لأنها لا تستحق أن يوقف عندها والصواب والأولى والصحيح أن يكون الرسول المرسل إلى القوم المرسل إليهم، أن يكون من جنسهم كي يألفونه ويأنسون إليه ولا يحدث منهم اشمئزاز منه، أو نفور أو بعد أو ما إلى ذلك، ولم يقتصر الأمر عند هذه الشبهة، هي الشبهة الأولى وستأتي بقية الشبهات، الشبهة الثانية، ولكن هم عقبوا على ذلك كما ذكر القرآن الكريم بتعقيب في غاية أيضاً من السف والضلال والجهالة، قالوا: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ قالوا: أنتم لو أطعتم بشراً يأكل كما تأكلون

ويشرب كما تشربون وينام كما تنامون، ويمرض كما تمرضون، إن أضعتم مثل هذا البشر ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾وللأسف الشديد أنهم يؤكدون هذا الخسران، وهذا من السفه والضياع وهنا لي مع هؤلاء القوم ومع غيرهم ممن يقولون بقولهم أو يعتقدون ذلك وقفة يسيرة وهي: أن أعداء الحق في كل زمان ومكان يصفون أهل الحق بأنهم هم الخاسرون وبأنهم هم الكاذبون وبأنهم هم الضلال وبأنهم هم الذين يسعون في الأرض بالفساد، من السفه والحمق والضلال والجهالة أن يتهم أصحاب الدعوة إلى الله -عز وجل- بمثل هذه التراهات من القول، وقد تتابع المكذبون للأنبياء والمرسلين على الاستهزاء والسخرية من الذين يدعون إلى الله -عز وجل- ويصفونهم بالضلال وبالإجرام وبالخسارة وبالندامة وبأنهم أتوا بما لم يأتِ به أحد من قبلهم وأنهم هم المصلحون في الأرض وأعتقد أنه لم يحدثنا القرآن الكريم عن رجل بلغ من الكفر مبلغ فرعون، يعني في فساده وضلاله وطغيانه الرجل الذي كان يقتل ويذبح الأطفال ويأخذ النساء ويقتل الرجال ويسعى في الأرض بالفساد والله -عز وجل- قال عنه في كتابه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ [القصص: ٤] إلى آخر ما ذكره القرآن عنه ولا يعنيني الآن أن أذكر مثل ذلك لضيق الوقت ولكن تأملوا مع فساد هذا الرجل وبلوغه من الطغيان هذا المبلغ العظيم الكبير ماذا قال لقومه؟ ماذا قال لهم؟ ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ [غافر: ٢٦] لماذا؟ قال عن موسى الرجل النبي المصلح الأمين الصادق القوي قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦] أي فساد بعد فساد هذا الطاغية يخاف منه؟ وهكذا نجد أن دعوات الأنبياء والمصلحين تواجه من أعداء الحق بمثل هذا الإفك وهذا الضلال والبهتان، العلة في ذلك ماذا؟ تنفير الناس عن الاستجابة لدعاة الحق حتى يبتعدوا عنهم ولا يقربوا منهم، وأيضاً امرأة العزيز تدعو يوسف -عليه السلام- إلى الفاحشة والمنكر والرجل يهرب ويسعى ويهرب ويشهد شاهد من أهلها أنه بريء ومع ذلك حينما رأت زوجها قالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ [يوسف: ٢٥] هذا الرجل النبي الصالح العفيف الطاهر الذي هرب وفر من الفاحشة وقطعت ثيابه بسبب عدم الاستجابة مع ذلك تقول هذه المرأة التي استغرقت ووقعت في مستنقعات الضلالة والفواحش تقول لزوجها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ [يوسف: ٢٥] إذن فليحذر كل مسلم عاقل لبيب من أن يصف الذين يقومون بدعوة الناس إلى الله -عز وجل- أن يصف دعاة الحق بشيء من الباطل، أو بشيء من الجور، أو بشيء من الظلم، أو بشيء من الفساد، إن مثل ذلك أيها الكرام، مثل ذلك يُجَرِّئ أعداء الدين على عدم الاستجابة لله -عز وجل- وعلى عدم الدخول في دين الله -تبارك وتعالى- وكأن هذه الأمور أمور مبيتة عند هؤلاء الأقوام توارثوها جيلاً بعد جيل في طعنهم على دعوات الأنبياء والمرسلين ومن يكونون نيابة عن الأنبياء والمرسلين في الدعوة إلى الله -تبارك وتعالى- هؤلاء السفهاء يقولون: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي خسارة من أن يستجيب العبد لداع الله -تبارك وتعالى-؟ أي خسارة تقع على من يقول: يا رب على من يشهد لله بالوحدانية أي خسارة لرجل قام قلبه بالإيمان بالله -تبارك وتعالى- واستجاب لدعوة الأنبياء والمرسلين.

بعد ذلك ذكرت الآيات الشبهة الثانية: وقد جاءت عَرَضَاً في سياق الآية السابقة، بعدما قوال: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾، قالوا: أتصدقون بهذا الوعد الذي يأتي به هذا الرجل وهو أنكم بعدما تموتون وتتحللون وتصيرون تراباً أو عظاماً نخرة ليس فيها عصب ولا عروق ولا دماء هل يمكن بعدما صرتم كذلك أنكم ستخرجون من قبوركم؟ هذا أمر بعيد بعيد، وأكدوا ذلك بقولهم: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ هذا مبالغة في الإنكار، وكرروا كلمة ﴿هَيْهَاتَ﴾ يعني بعيد بعيد ما توعدون لتأكيد الشبهة عند من يمكن أن لا تكون عنده متمكنة، حتى يجعلوا كل أقوامهم بعيدين عن الله -تبارك وتعالى- ولا يؤمنون بالبعث والجزاء والنشور، ثم أكدوا الشبهة أكثر فأكثر فقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ يعني ما الحياة إلا هذه الحياة، ومعنى ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يعني يموت أقوام ويحيا آخرون، فالحياة بين هؤلاء تسير على نمط بعضهم يكون حياً وبعضهم لا شك يصير إلى الموت، فيتبع بعضهم بعضاً، أو يخلف بعضهم بعضاً، قالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ وقولهم هنا أيضاً: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ عقب قولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ تأكيد لعدم البعث والحشر والنشور.

ثم سفهوا بعد ذلك أيضاً دعوة النبي المرسل إليهم من قبل الله -تبارك وتعالى- فقالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾ يعني أن هذا النبي الذي بُعث إليهم جاء بمفتريات ويكذب وينسب نفسه إلى إله وهذا الأمر ليس بصحيح ومهما فعل ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا في الحقيقة إغراق من هؤلاء الناس في الضلال، ولأن هذه الآيات تحدثت عن هذه الشبهة بشيء من التفصيل أود أن أرد عليها من خلال آيات القرآن الكريم أيضاً بصورة سريعة موجزة فأقول:

هؤلاء الناس قامت في أذهانهم شبهة عدم البعث والنشور، وهذه هي الشبهة الثانية التي ذكرها القرآن الكريم عن هؤلاء الناس، وهذه الشبهة أتى بها أيضاً في السابق قوم نوح، وأتى بها الأقوام الذين جاءوا بعدهم، وقالها المشركون للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وأود أن أخاطب المشاهدين والمستمعين الآن بأن أدلة القرآن الكريم، أو ما يمكن أن أقول عنه: براهين القرآن الكريم لإثبات البعث والنشور في غاية من القوة والوضوح، وبيانها باختصار كما يلي:

القرآن الكريم سلك مسالك متعددة في إثبات البعث والنشور بحجج عقلية ونقلية، يعني جاء في القرآن الكريم وعلى لسان النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، منها: خلق السماوات والأرض، كيف ذلك؟ كيف نستدل بخلق السماوات والأرض على أن الله -عز وجل- يعيد الناس من جديد، السماء والأرض أكبر من خلق الإنسان، وهي أعظم منه، والذي يقدر على هذا الشيء الكبير يعجز عن غيره، ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾ [النازعات: ٢٧] لا شك أن السماء والأرض أشد خلقا من الإنسان، ولذلك القرآن الكريم يستدل بخلق الله للسماوات والأرض على أنه قادر على إعادة الناس بعد ذلك من جديد، ﴿أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى﴾ [يس: ٨٠] يعني بلى قادر: ﴿وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨٠] ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [الأحقاف: ٣٣] أيضاً نقول: بلى قادر بل هو قادر -سبحانه وتعالى- على أن يحيي الموتى.

البرهان الثاني أو الدليل الثاني: خلق الإنسان نفسه وقد أشرت إلى ذلك في آيات سورة الحج، الذي خلق أول مرة يعجز أن يعيد الإنسان بعد ذلك من جديد، ولا أقف عند هذه النقطة لأني ذكرتها في سورة الحج ولكني أذكر عليها دليلاً واحداً من أدلة كثيرة متتابعة وهي قول الحق -تبارك وتعالى- ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق: ١٥] هل عجزنا أن نخلقهم أول مرة والله ما كان ذلك بحال من الأحوال.

الأمر الثالث: وقد أشرت إليه أيضاً فيما مضى: إحياء الله -عز وجل- للأرض بعد موتها، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٣٩] استدل الله -عز وجل- بعد ذلك على إحياء الأرض بعد موتها على البعث والنشور فقال: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [فصلت: ٣٩].

البرهان الرابع والأخير: وأنا ما سقت البراهين السابقة إلا لأجله وهو في القرآن الكريم وهو أن الله -عز وجل- أحيا بعض الناس في الدار الدنيا ولو كانت نفس واحدة رغم أنه أحيى ألوف بعدما ماتوا والذي يحيي نفساً واحدة يعجز أن يحيي غيرها، قال الله: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] هذا دليل قوي أيها الإخوة الكرام على البعث والحشر والنشر والجزاء والوقوف بين يدي الله -عز وجل- إذا كان الله-سبحانه-خلق وأمات في الدنيا وأحيا، بعد الموت في الدنيا هذا أمارة واضحة ودليل صريح أمام كل ناظر والقرآن الكريم قد ذكر ذلك في خمسة مواضع في سورة البقرة:

الموضع الأول: منها مع موسى -عليه السلام- ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة: ٥٥، ٥٦] ﴿أَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أماتهم الله -تبارك وتعالى- جميعاً، وبعد ذلك ماذا قالوا؟ في الدار الدنيا، قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

الموقف الثاني: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ٧٢، ٧٣] فقام، قال الله بعدها: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٧٣] قتلوا قتيلاً ولم يعرفوا من القاتل، أرادوا أن يعرفوه فالله –عز وجل– أمرهم أن يضربوه ببقرة التي أمرهم أن يذبحوها فقام وأحياه الله –تبارك وتعالى–.

المؤقف الثالث: الذي جاء في سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣] ولا أود أن أقف عند هذا طويلاً لضيق الوقت، ولكني أذكر فقط هذه الأدلة وأستعرضها وهي دلالة واضحة على أن الله –سبحانه وتعالى– كما أحيا في الدنيا سيعيد الناس بعد ذلك.

الموقف الرابع الذي أشارت إليه الآيات أيضاً: وهي من سورة البقرة: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] استبعد ذلك فالله –عز وجل– أراه آية في نفسه: ﴿فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا﴾ ثم شك فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وذكر المفسرون أنه مات في أول النهار وقام في آخر النهار في اليوم الذي بعث فيه، فظن أنه نام بعض الساعات ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا﴾ الشاهد أن الله –عز وجل– لما استبعد هذا الرجل أن الله يحيي هؤلاء القوم أو هذه القرية بعدما أماتها، أراه ربنا –عز وجل– دليلاً من نفسه، ﴿فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ والذي يفعل ذلك في الدنيا يعجز أن يُوجدَ الناس بعد ذلك من جديد.

الموقف الخامس: في إحياء الله –تبارك وتعالى– لمن مات في الدنيا ثم بعثه ما جاء في قصة إبراهيم –عليه السلام– مع الطير لما قال لربه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] أمره الله –عز وجل– أن يأخذ أربعة من الطير ويقطعهن ويضع على كل جبل منهن جزءًا ثم قال الله له: ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

أعتقد بهذا البيان وبعد أن يستمع إليه مستمع لا يبقى عنده أدنى شك في أن الله –سبحانه وتعالى– يعيد الناس بعد ذلك من جديد، ولا يعجز ربنا –سبحانه وتعالى– أن يحيي هذه العظام النخرة بعدما أحيا بعضاً وأعلم عباده بما أحياه في الدار الدنيا.

إذن هؤلاء القوم كذبوا النبي المرسل إليهم وردوا دعوته وأتوا بالشبهات التي ذكرتها الآن وهي أنه بشر، والتكذيب بالبعث والنشور ولم يستجيبوا له، لما فعلوا ذلك، ما كان من نبيهم المرسل إليهم والذي لم تذكره الآيات إلا أن يفعل إلا ما فعله نوح –عليه السلام– وبنفس الصياغة والأسلوب: ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾﴾، لجأ إلى الله –تبارك وتعالى– وطلب النصر ممن؟ ممن يملكه، ألا وهو رب العزة والجلال سبحانه وهنا أيضاً فائدة وهي: أن هذا القول من هذا النبي يؤكد أن جميع الأنبياء والمرسلين حقاً يوحى إليهم من قبل الله –تبارك وتعالى– وأن مصدر التلقي عندهم واحد؛ أنهم جميعاً ينطلقون من منطلق واحد، كلماتهم مع ما يمكن أن يكون بينهم من بعد زمني إلا أنك تجد الكلمات واحدة، تجد الكلمات فيها مطابقة مع أن هذا لم يجد هذا ولم يلتق هذا بذاك وما كان ذلك إلا لأن مصدر التلقي واحد، الآن حينما تدرسون في الأكاديمية وتختبرون حينما تدرسون منهجاً واحداً ثم تسألون، إن درست منهجاً واحداً سيكون الجواب على نسق واحد؛ لأن التلقي كان من شيء واحد وهذا دلالة على أن الأنبياء والمرسلين لا يكذبون على الله –تبارك وتعالى– وأفك الأفاكون وافترى المفترون حينما نسبوا إلى الأنبياء والمرسلين أنهم يكذبون على الله –تبارك وتعالى– إذن لما اشتد أذى هؤلاء الناس بهذا النبي وكذبوه وصدوا دعوته استنصر بربه –سبحانه وتعالى–: ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾﴾ قال الله له: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ كلمات تحتاج إلى تأمل ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ أصل الكلمة «عن ما» «ما» هنا زائدة، قال: عن قليل «ما» زائدة من حيث الصناعة اللغوية، أتت هنا في هذا الموطن لتفيد أن البعد الزمني فترة قليلة جداً، ومعنى ذلك ماذا؟ لأن البعض يستشكل، ما معنى ﴿لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾؟ وبعدها

﴿أَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ بعد ذلك مباشرة؟ أين أتاهم الندم إذن والصيحة فاجأتهم؟ ذكر بعض أهل العلم أن الله -عز وجل- أظهر لهم الهلاك أولاً فشعروا بالندم ثم وقعت الصيحة ثانية، وكانت هناك فترة زمنية قليلة من خلال السياق القرآني ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ﴾ لوجود «ما» هنا، ﴿لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ الفترة الزمنية كانت قليلة بين وقوع الندم وبين ما فعل الله -سبحانه وتعالى- بهم.

المحور الثاني يبين ويبرز ما الذي وقع على هؤلاء الناس؟ وما هي العقوبة التي نزلت بهم.

المحور الثاني: من كذب بالأنبياء والمرسلين أذاقه الله العذاب الأليم:

قال الله -عز وجل- مبيناً سطوته وقوته وكبرياءه وأن عذابه لا يرد عن القوم المجرمين، ولا عن المكذبين فكما أغرق قوم نوح الذين كانوا قبل هؤلاء الناس أيضاً أهلك هؤلاء القوم الذين كذبوا دعوة هذا النبي قال الله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ وكلمة ﴿الصَّيْحَةُ﴾ كأنها أمر معهود لنا، وحينما يقول الله الصيحة كأنها لقوتها صارت صيحة ولا صيحة بعدها، وقول الله -عز وجل- هنا ﴿بِالْحَقِّ﴾ ليبين أن عذابه واقع لا محالة، وأن الظالمين لا يفلتون من عذاب الله -تبارك وتعالى- وأنهم حينما يقعوا بهم العذاب إنما يقع بعدل الله -عز وجل- وحكمته ﴿وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

قيل: ﴿الصَّيْحَةُ﴾ هي التي جاء بها جبريل -عليه السلام- وقيل: صيحة يعني شدة العذاب أو العذاب نفسه، الذي وقع بهم يطلق عليه صيحة، واستدل على ذلك بقول الشاعر:

صاح الزمان بآل برمك صيحة *** خروا لشدتها على الأذقان

قالوا: هذه الصيحة معناها العذاب أو الألم الذي وقع بهم وقد ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- كلمة جمع فيها بين الصيحة وبين ما يمكن أن يكون هؤلاء القوم هم قوم عاد، الذين أهلكوا بالريح، ولم يهلكوا بالصيحة؛ لأن الذي أهلك بالصيحة من؟ قوم ثموم أصحاب صالح فقال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: «والظاهر أنهم اجتمع عليهم صيحة، مع الريح الصرصر العاصف القوي البارد» ثم ذكر الآية: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥] والصيحة كانت قوية، والتدمير كان كبيراً، بدليل أن الله قال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ يعني أن الله -تبارك وتعالى- جعلهم صرعى هلكى كغثاء السيل وغثاء السيل هو ما يحمله السيل في طريقه، ما يحمله البحر أو ما يحمله النهر والنيل في طريقه من ورق وغيره مما يكون قد تحلل وفسد وأصبح لا فائدة منه، ونحن نشاهد ما يحمله السيل قد تعفن وتأسن وتغير، ولا فائدة منه، ولا قيمة له، هؤلاء القوم لهوانهم على الله، تأملوا عبارة القرآن القرآن حينما يقول: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ هذا يبين أن هؤلاء الناس من أهون الأشياء عند الله -تبارك وتعالى- لا يبالي الله -عز وجل- بهم، وأن الصيحة حينما أخذتهم وأصبحوا صرعى وأصبحوا لا قيمة لهم ولا وزن، كالذي يحمله السيل في طريقه من الورق وغير ذلك، لا ينتفع به ولا يمكن أن يستفيد منه إنسان وهؤلاء الناس وصلوا إلى هذه المرحلة، وليس هذا فحسب، بل قال في الآيات: ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ بعد أن أخبر الله -عز وجل- أنه أخذهم بالصيحة وأهلكهم بها أو بالريح وأنه اجتمعت عليهم الصيحة مع الريح وأنهم أصبحوا هلكى كغثاء السيل يعني كحميل السيل، قال الله -عز وجل- زيادة في النكاية بهم: ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ تأملوا قال: فبعداً للقوم ولم يقل: فبعداً لهم، القرآن الكريم كتاب إعجاز وفيه اختصار والكلام إذا كان منصوصاً عليه سابقًا يمكن أن يشار إليه بضمير فالله -عز وجل- يتكلم عن هؤلاء الناس ولكنه هنا حينما ذكرهم أظهر فقال: ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ولم يقل: فبعداً لهم، وذلك لإبراز وإظهار ما فعله الله بهم وإظهار وصفهم الذي اتصفوا به ألا وهو الظلم، ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وبعداً يعني طرداً لهم من رحمة الله -تبارك وتعالى- فلم ينالوها ولن يقفوا عندها، ولن يتحصلوا على شيء منها رغم أن رحمة الله -سبحانه وتعالى- واسعة.

ثم يستمر السياق ويخبر رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- أنه لم يترك بعد ذلك هذه الأرض بلا أمم بعد أن أهلك أولئك الناس فقال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ يعني أن الله -عز وجل- ما أخلى الأرض من قوم يعيشون عليها، فأخرج أيضاً -سبحانه وتعالى- أقواماً كي يعبدونه -سبحانه وتعالى- ويصدق بعضهم بالأنبياء والمرسلين، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالقرون هنا: هوم لوط وأصحاب يوسف وأيوب وغير ذلك من الأنبياء والمرسلين وظاهر القرآن ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ ظاهر القرآن بهذا الخطاب أنه يعني كل من جاء بعد هؤلاء الناس الذين أهلكهم رب العزة والجلال وجعلهم غثاءً كغثاء السيل. وهنا أن القرآن الكريم أجمل الحديث عن هؤلاء الناس، وهكذا شأن القرآن الكريم في القصص أحيانًا يأتي بالتفصيل وأحياناً يأتي بالإجمال أو الإيجاز، هنا أتى مجملاً، ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ لم يذكر نبياً معيناً أو أمةً من الأمم بعينها وإنما أجمل في ذلك وهذا الكلام كما أشرت أو ذكرت يُحمل أو يُصرف إلى كل أمة جاءت بعد هؤلاء الأقوام.

هؤلاء الأقوام الذين أنشأهم رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- قال الله عنهم بعدها: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ يعني لا تتقدم أمة من الأمم ولا تتأخر عن الأجل المعلوم لها عند رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، وقد كتب ربنا -عز وجل- كل ذلك في اللوح المحفوظ -سبحانه وتعالى- كل أمة لا تسبق أجلها، والله -عز وجل- قد ذكر ذلك في كثير من آيات القرآن الكريم أن الأجل إذا جاء.... ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾[الأعراف: ٣٤] الله -عز وجل- يذكر هذا هنا بعد أن ذكر أنه أنشأ قروناً آخرين يريد أن يقول: يا أيها الناس اعتبروا فلن تتأخروا ولن تتقدموا عما حده الله -تبارك وتعالى- لكم. وهذه دعوة إلى أن ينتهز الإنسان الفرصة فيعمل الصالحات، ويتنافس في فعل الخيرات؛ لأن الله -عز وجل- يقول في كتابه: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤] وهذه الآية في الحقيقة تدل على أن الله -سبحانه وتعالى- يميت كل إنسان بأجله حتى المقتول أقول هذا وأنص عليه هنا وقد ذكره بعض المفسرين لأن بعض الفرق للأسف الشديد وهم المعتزلة يقولون بأن المقتول لم يمت بأجل، وإنما القاتل هو الذي قتل المقتول، هذا باطل، كل ميت مات بأجله ﴿إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤] والمقتول ميت بأجله المحدد عند الله -تبارك وتعالى-، وإن كان القاتل سبباً في قتل هذا المقتول، وهم قد ذهبوا إلى هذا القول لشبهات أيضاً جاءت في أذهانهم ليس المكان في هذا مكان حديث عنه.

المحور الثالث: تتابع إرسال المرسلين لتبليغ الدعوة عن رب العالمين:

الله -عز وجل- في هذه الآيات أعلمنا وبين لنا أن الأمر لم يقف عند حد رسول معين أو أمة من الأمم وإنما أراد أن يبين من خلال هذه الآيات كما ذكر في القرآن الكريم بأن كل أمة أرسل الله -تبارك وتعالى- إليها رسولاً، يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى﴾ ﴿تَتْرَى﴾ قال فيها ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- يعني يتبع بعضهم بعضاً، وقد بينت الآية أنه بعد إرسال نوح -عليه السلام- والرسول المذكور بعده أرسل رسله تترى كل رسول يأتي بعده رسول ﴿تَتْرَى﴾ يعني متواترين والعرب يقولون على الشيء المتتابع الذي يأتي بعضه عقب بعض، يقولون عنه بأنه متواتر، والله -عز وجل- هن يبين ذلك ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى﴾ ولكنه يخبر عن أمر عجيب، ما كان يمكن أن يكون عند قوم عقلاء يمكن أن يتعظوا بما كان في سالف الزمان للأقوام الذين أبادهم رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- الله أرسل المرسلين ليردوا الناس إلى الأمر الأول؛ ليعيدوهم إلى الفطرة؛ ليدعوهم إلى الرب -تبارك وتعالى- وكما قال: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] أرسل رسله -سبحانه وتعالى- تترى، وكل أمة تكذب كان يهلكها رب العزة والجلال، وتأتي أمة بعدها ولكنهم لا يستفيدون، والدليل قول الحق -تبارك وتعالى- بعد ذلك: ﴿كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ وهذا في الأعم الأغلب، يعني أغلب الناس، أغلب من أرسل إليهم الأنبياء والمرسلين، كانوا يكذبون بدعوة الأنبياء والمرسلين، وهذا من الباطل الذي وقعت فيه الأمم الذين أرسل إليهم ربنا -سبحانه وتعالى- الأنبياء والمرسلين، والله -عز وجل- قد نص على ذلك في كتابه ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات: ٥٢]

وكان الأولى والأجدر أن يستفيد اللاحق من السابق، ولكنهم لم يفعلوا ذلك، ﴿كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾، فتتابعوا على هذا الباطل وركنوا إلى هذا التكذيب وردوا دعوة الأنبياء والمرسلين فماذا كان من رب العزة والجلال تجاه هؤلاء المكذبين، الذين لم يستفيدوا من الأولين؟ قال الله -عز وجل-: ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾ ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾ في ماذا؟ في الهلاك، الله -عز وجل- أتبع بعضهم بعضاً في الهلاك، يعني كلما أتى إلى أمة رسول كذبوه أهلكهم رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-.

وكما قال جل ذكره في القرآن الكريم: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧] فالله -عز وجل- ذكر أنه أغرق قوم نوح ثم قال بعد ذلك: إنه أهلك من الأمم كثيرًا فكلما جاء رسول إلى أمة من الأمم وكذبوه أهلكهم رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- والأمر لا يقتصر عند هذا الحد وإنما قال الله بعدها: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ وهذا فيه أيضاً إهانة وتقريع لهؤلاء الناس، ﴿أَحَادِيثَ﴾ يعني ماذا؟ يعني أخباراً وقصصاً للناس لمن يأتي بعدهم الناس تسمر وتعقد المجالس فيتذكرون ويقرؤون قول هؤلاء الأقوام وتكذيبهم لأنبيائهم الذين أرسلوا إليهم، وما كان منهم وما فعل رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- بهم، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ والله -سبحانه وتعالى- ذكر عن قوم سبأ أيضاً أنهم لما كذبوا بالنبي المرسل إليهم جعلهم رب العزة والجلال أحاديث قال: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ١٩] وفي هذا تقريع وتبكيت لمن يكذب بالأنبياء والمرسلين بأن الخزي سيلحقه في الدنيا أيضاً قبل الآخرة، فالله -عز وجل- أهلكه ثم هو بعد ذلك يعيش حديثاً للناس يتكلم الناس عن حاله ويتكلمون عن موقفه وهنا أقف أيضاً وقفة مع المستمعين والمشاهدين لأقول: إذا كان الأمر كذلك فكن يا عبد الله لك حديث خير في المجتمع وبين الناس، يجب على الإنسان أن يقف متأملاً عند هذه الآيات ويتدبر وإذا كان الأمر سيذكر بعدك ما أفعالك؟ سيحكيها الناس بعد ذلك، وستصبح عرضة للحديث في المجالس، فما بالك يا أيها الإنسان لا تتخذ سبيلاً قويماً حتى يكون لك ذكراً حسناً وحديثاً طيباً جميلاً وقديماً قال الشاعر:

وإنما المرء حديث بعده *** فكن حديثاً حسناً لمن وعى

على الأمم والشعوب قبل الأفراد أيضاً أن يعتنوا بمثل هذا الأمر في أمورهم، في سياساتهم، فيما يسيرون به بين الناس عليهم أن يقدموا خيراً ليذكروا بعد ذلك بالخير؛ لأن الذكر السيء يلحق الإنسان بعد موته وسيظل يذكر في المجالس ويصبح حديثاً للناس فعلى العبد أن يتفكر ويتأمل في ذلك وأن يتخذ ذكراً حسناً يذكره الناس فيما بعد بعدما يموت، بدل أن يذكر بكلام سيء فليذكر إذن بكلام طيب جميل حسن، والله -عز وجل- بعدما ذكر عن هؤلاء القوم أنه أتبع بعضهم بعضاً، قال -سبحانه وتعالى- عنهم: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا جاء من باب الدعاء عليهم، والذم لهم، وتقبيح أفعالهم ودل ذلك أيضاً على أن الله -سبحانه وتعالى- أهلكهم عاجلاً وأنه سبحانه أيضاً سيذيقهم العذاب في الآخرة؛ لأن اللعنة لحقتهم أيضاً بعد الهلاك، قبل ذلك قال الله -عز وجل-: ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وهنا بعدما أهلكهم أيضاً دعا عليهم وذكر لهم الطرد والإبعاد من رحمته، فدل ذلك على أن الأمر لن يقتصر على ما حصل لهم، وإنما اللعنة والبعد والطرد من رحمة الله -تبارك وتعالى- لحق بهم وسيلزمهم أيضاً في يوم الدين ولذلك هذه دعوة إلى عموم الناس أن يدخلوا في دين النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وأن يصدقوا ويسلموا برسالة الأنبياء والمرسلين السابقة، الذين بلغوهم وجوب الإيمان بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- حتى لا يتعرضوا للهلاك الذي تعرض له هؤلاء الأقوام الذين كذبوا بالأنبياء والمرسلين، وأكتفي بهذا.

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فضيلة الشيخ وردتنا إجابات عدة على أسئلة الحلقة الماضية.

كان السؤال الأول:

قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾، ماذا أفاد الجمع في قوله: ﴿أَنْزَلْنَ﴾ وما هي الفوائد في هذه الآية؟

وكانت الإجابة:

أفاد الجمع بيان عظمة الله -عز وجل- وقدرته. أفادت هذه الآية ثلاثة أمور:

أولاً: يذكر -سبحانه وتعالى- نعمته في إنزاله المطر من السماء بقدر، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ [المؤمنون: ١٧] أي بحسب الحاجة لا كثيرًا فيفسد الأرض والعمران ولا قليلاً فلا يكفي الزروع ولا الثمار، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به حتى إن الأراضي التي تحتاج ماءً كثيرًا يسوق إليها الماء من بلاد أخرى كما في أرض مصر، يسوق الله إليها ماء النيل معه الطين الأحمر يجرفه من بلاد الحبشة في زمان أمطارها فيأتي الماء يحمل طيناً أحمر ليزرعوا فيه لأن أرضهم يغلب عليها الرمال.

ثانيًا: في قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨] أي جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض وجعلنا في الأرض قابلية له تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى، كما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١].

ثالثًا: إخباره -عز وجل- أنه قادر على إذهاب هذا الماء كما في قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨] أي لو شئنا أن لا تمطر لفعلنا، ولو شيئنا أذىً لصرفناه عنكم، ولو شئنا لجعلناه أجاجاً فلا ينتفع به، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠] ولو نشاء لجعلناه يغور في مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به، كما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك: ٣٠] فلله الحمد والمنة.

ولله الحمد والمنة، الجواب سديد بفضل الله -تبارك وتعالى- وكلام طيب ويعني فيه استفاضة فجزى الله المجيب رجل كان أو امرأة خيراً.

السؤال الثاني:

ما المراد بالشجرة في قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾؟ وعلى أي شيء عطفت؟ وما فوائد هذه الشجرة؟

وكانت الإجابة:

قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ [المؤمنون: ٢٠] الشجرة: هي شجرة الزيتون، والطور هو الجبل، قال بعضهم: إنما سمي طوراً إذا كان فيه شجر، وعطفت بالنصب على الجنات في قوله تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [المؤمنون: ١٩] ومن الفوائد أنه طعام نأكل منه، وكذلك ينتفع به من الدهن والاصطباغ، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة) وقال -صلى الله عليه وسلم-: (ائتدموا بالزيت وادهنوا به فإنه يخرج من شجرة مباركة).

الجواب سليم غاية الأمر كنت أريد إضافة في العطف ﴿وَشَجَرَةً﴾ معطوفة على ﴿جَنَّاتٍ﴾ من باب عطف الخاص على العام؛ لأن الجنان فيها شجر ولكنه خص هذه الشجرة وهذا يفيد فوائد هذه الشجرة.

السؤال الثالث:

ما هي الشبهات التي أنكر بسببها قوم نوح نبوته؟

وكانت الإجابة:

الشبه التي قالها قوم نوح هي أربع شبه:

أولاً: قالوا: إنه بشر، وقالوا: يريد أن يتفضل عليكم، واستبعدوا أن يكون من البشر أنبياء كما قال فرعون لموسى لما دعاه إلى الحق وادعى أن موسى إنما أراد الترفع والتعاظم عليه.

ثانيًا: أنهم قالوا: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لأَنْزَلَ مَلائِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤] أي لو أراد الله أن يبعث نبياً لبعث ملكاً من عنده ففي نظرهم أن الملائكة أقوى من البشر.

ثالثًا: أنهم قالوا: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤] أي لم نسمع من آبائنا الأولين ببعثة البشر أي لم يسمعوا من أسلافهم وأجدادهم في الدهور الماضية.

رابعًا: أنهم قالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾ [المؤمنون: ٢٥] أي مجنون فيما يزعمه من أن الله -سبحانه وتعالى- أرسله إليكم، واختصه من بينكم بالوحي، أو به مس من الجن أفسد عليه عقله، وقالوا: انتظروا به ريب المنون ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطور: ٣٠] أي الموت فتستريحون منه إلا أن هذه الشبه ركيكة.

هذا كلام صحيح وحقاً الشبه ركيكة لا تصمد أمام الهواء فضلاً عن غيره.

هناك سؤال من الأخ الكريم من فرنسا يقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، في قولكم أن الله توعد الذي يرمي دعاة الحق بالضلالة والباطل، شيخنا أحسن الله إليكم هل يدخل في هذا من يرمي بعض الجماعات التي تدعو إلى الله -تبارك وتعالى-؟

لا شك أن أهل الباطل هم الذين يرمون أهل الحق، ولكن هذا الكلام ينسحب إن كان السائل يريد ذلك، ينسحب على من يطعن على الدعاة إلى الحق الذين يلتزمون منهج أهل السنة والجماعة فمن يقوم بالدعوة إلى الله -تبارك وتعالى- وله القدوة أو له أسوة في النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، ويلتزم منهج القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ويسلك مسلك السلف القويم دون زيادة أو إضافة أو إدخال على الدين ما ليس منه، هذا والله يحرم على العبد أن يتكلم عليه أو أن يسيء القول فيه، وإذا أساء القول فيمن ينتسب إلى السنة فمن يبقى إذن؟! هل يبقى المبتعدة؟! هل يبقى أهل الباطل؟! كيف يتجرأ إنسان مسلم عاقل ناصح أمين يتجرأ على أن يتكلم على دعاة الحق الذين ينطقون بالقرآن الكريم وبالسنة النبوية المطهرة، وإذا تُحُدِّثَ عن هؤلاء الناس فمن يبقى للمؤمنين؟ إذن إذا تكلم الناس في أهل الحق وفي دعاة الحق، وفيمن يقومون بالحق، من يبقى إذن للناس؟ غاية الأمر أنني أريد أن أؤكد أن هذا الكلام يكون بالباطل حقاً إن كان الكلام في من يلتزم بمنهج أهل السنة والجماعة، فالذي يقوم بالدعوة إلى الله -عز وجل- من خلال كتاب الله وسنة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم، وفقه سلف هذه

الأمة يحرم أيها الإخوة الكرام بالتأكيد على إنسان عاقل أن يتكلم على مثل هذا بل عليه أن يكون ناصحاً أميناً لأمته يدعو غيره إلى أن يستفيد منه وأن يقرأ له وأن يستمع إليه حتى يتعلم. ولا أود أن أطيل في مثل ذلك فأقول ربما لا يسلم إنسان من خطأ، هذا حق، لا يسلم إنسان من الخطأ، ولكن إن كان المنهج منهجاً صحيحاً قائماً على الكتاب والسنة النبوية المطهرة وهذا معروف عن الداعية أو العالم وينتسب إلى ذلك ويرفعه ويدعو إليه فيحرم حتى لو وقع في خطأ ما أن يُنفر الناس منه، أنت أيها المستمع إن وجدت خطأ في ذلك فبين هذا الخطأ ووضحه له ويمكنك أن تعلم الناس بأن هذا خطأ وهذا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أما تنفير الناس من الدعاة إلى الله -عز وجل- والطعن عليهم والسب فيهم وما إلى ذلك فهذا في الحقيقة لا يليق بحال من الأحوال ولا ينبغي أن يكون موجوداً بين المسلمين والله أعلم.

الأخ الكريم من المنصورة يقول: دعاء عيسى -عليه السلام- لقومه، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨] بينما كان دعاء سيدنا نوح -عليه السلام-: ﴿رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح: ٢٦] هل هناك فرق بين قوم سيدنا عيسى -عليه السلام- وقوم سيدنا نوح حتى يكون هذا الدعاء دعاء سيدنا نوح بالهلاك مخالفاً لدعاء سيدنا عيسى؟

لا شك أن الأقوام الذين يرسل فيهم النبي يختلفون، قوم نوح ذكر القرآن الكريم عنه أنه جلس فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ومع ذلك ماذا قال الله عنهم: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] أما عيسى -عليه السلام- فلم يجلس في قومه شيئًا، كل ما جلسه -عليه السلام- ثلاث سنوات لم يقم بين ظهراني قومه فترة زمنية طويلة، ولم يجد من العناء ومن المشقة ومن التكذيب مثل ما وجد نوح -عليه السلام-، ولذلك قال عيسى -عليه السلام- ما قال لربه -سبحانه وتعالى-، فقوم نوح ولا شك نتيجة المدة الزمنية وعدم استجابتهم له مع تقلب الدعوة، يعني نوح -عليه السلام- استخدم أساليب دعوية مع قومه متعددة، أشار الله تعالى إليها في سورة نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا ﴿٦﴾﴾ [نوح: ٥، ٦] يعني دعاهم في الليل ودعاهم في النهار ودعاهم سراً ودعاهم علانية -صلوات الله وسلامه عليه- يعني قلب عليهم الألوان فما استجابوا له، أما عيسى -عليه السلام- فلم يمكث فترة بين ظهراني قومه حتى يجد ما وجد نوح -عليه السلام-، ولكن على قوم عيسى اليوم أن يعتقدوا دين الحق -تبارك وتعالى-، وأن يرجعوا إلى دين الإسلام وقد بشر عيسى -عليه السلام- بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وسيعود عيسى -عليه السلام- في آخر الزمان كما أخبر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- تابعاً لشريعة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-.

الأخ الكريم من السعودية يقول: البعض يا شيخ إذا نصح وكان على معصية يقول: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون: ٦] فبماذا تنصحون يا شيخ مثل هؤلاء؟ مع بيان سبب نزول هذه السورة؟

الإنسان إذا نُصح عليه أن لا تأخذه العزة بالإثم، لأن هذا من خلال المنافقين قال الله -عز وجل- في المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦] بعض الناس ينظر إلى الناس من بروج عالية رفيع، يستمعون إليه، وهو لا يستمع إليهم، ومن منا لا يخطئ وهذه مصيبة تقع عند بعض الناس، يعني ذكر ابن كثير الذي ندور حول تفسيره الآن أذكر أنه ذكر عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢] ذكر قولاً عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (ما منا من إلا من عصى أو هم) وكما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كل بني آدم خطاء) فالإنسان إذا وقع في خطأ أو ارتكب أمراً أو ما إلى ذلك ونُصح عليه أن يستجيب لمن ينصحه والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال كما في حديث تميم الداري: (الدين النصيحة) قالها ثلاثاً، صلوات الله وسلامه عليه.

فالإنسان إذا نُصح عليه أن يستجيب للناصح وعليه أن يرجع إلى قوله طالما أنه يذكره أو يخبره بالحق، أما استدلال المنصوح بقول الله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون: ٦] ليس هذا في موطنه، هذا قاله النبي –صلى الله عليه وسلم– للكافرين لما كذبوا بدعوته وقالوا له: هيا نعبد إلهك يوماً وتعبد إلهنا يوماً، وما كان للنبي –صلى الله عليه وسلم– أن يعبد غير الله فأعرض عنهم النبي –صلى الله عليه وسلم– وأمره الله أن يعرض عنهم، وأن يقول لهم: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون: ٦] والمنصوح من دين الإسلام والناصح مسلم فكيف يعني ينزل هذا القول على ما يحدث بين الناصح والمنصوح، فاستدلال ليس في موطنه بحال من الأحوال.

الأخت الكريمة من مصر تقول: في بعض آيات القرآن الكريم التي فيها استفهام نجد البعض يتبعها بذكر معين، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ [الملك: ٣٠] يقولون: الله رب العالمين، ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ﴾ [النمل: ٦٠] لا إله إلا الله، فهل هذا من السنة؟ وإذا كان هذا من السنة فالأول في الصلاة أن نستمع إلى الإمام أم أن نردد هذا الذكر؟

أعتقد سبق مثل هذا السؤال فيما مضى في غير الصلاة إذا مرت بك هذه الآيات كاستفهام تقريري مثلاً في القرآن الكريم مثل ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [النمل: ٦٠] يقرر الله –عز وجل– المخاطبين الذين ينكرون أن الله –سبحانه وتعالى– يعبد وحده دون سواه أنه خلق السماوات والأرض هم يقرون بذلك، فلا بأس أن يقر الإنسان بهذا أو أن يذكره في خارج الصلاة، وقد سبق أن قلت بأن الجن كانوا يأمنون على قول النبي –صلى الله عليه وسلم– حينما كان يقرأ قول الله ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن: ١٣] يقولون: (لا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد) هذا كان في غير الصلاة، أما إذا كان الإنسان في داخل الصلاة فعليه أن ينصحت وأن يستمت للإمام، إن كان في داخل الصلاة عليه أن يستمع وأن يتدبر آيات القرآن الكريم، في غير الصلاة أو في النوافل؛ لأن النبي –صلى الله عليه وسلم– كان في النوافل إن مر بآية فيها رحمة طلب من الله –تبارك وتعالى– وإن مر بآية فيها عذاب استعاذ بالله –تبارك وتعالى– وهذا ثابت عنه –صلى الله عليه وآله وسلم– في النوافل والله أعلم.

الأخ الكريم يقول: في قول الله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ [المؤمنون: ٤١] وفي آيات أخرى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [العنكبوت: ٣٧] هل هناك فرق بين الصيحة والرجفة؟ وما معنى الرجفة؟

الرجفة نتيجة الصيحة، يعني الرجفة تدخل في الصيحة فحينما تكون الصيحة والصيحة هي الصوت الشديد الذي يقرع هؤلاء الناس فيرتجفون ويرتعدون، فالرجفة هي ما يأخذ الإنسان من شدة الرعشة أو الاضطراب الذي يمكن أن يحدث له لموقف من المواقف فالرجفة تتبع الصيحة يعني تكون حاصلة بسبب الصيحة.

الأخ الكريم من مصر يقول: ما الفرق بين علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين؟

هذه في الحقيقة مصطلحات ذكرها بعض الأئمة ويعنون بها أن علم اليقين ما يتعلمه الإنسان يعني عن طريق التلقي، يقرأ مثلاً القرآن ويشاهد وما إلى ذلك فهذا هو علم اليقين، وقد ذكر الإمام ابن كثير أو غيره عن إبراهيم –عليه السلام– لما قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] قال إنه يريد أن ينتقل من علم اليقين إلى عين اليقين، فالشاهد أن علم اليقين هو الأمور التي يتعلمها الإنسان سواء تلبس بما لم تعلم أو لم يتلبس، فإن تلبس به قيل بأنه يعني وقف على عين اليقين، يعني شعر به فإن وصل إلى مرتبة عالية رفيعة فيه تصل إلى حد المشاهدة، أو حتى ولو لم يشاهد قيل: حق اليقين، وهي في الحقيقة هذه المصطلحات يعني مصطلحات من وضع بعض الناس يعني ليست لا من الكتاب ولا من السنة، ولا من الآثار السلفية وهو مصطلح غالباً ما يدور عند المتصوفة، ولكن على العبد أن يتعلم وأن يثق يعني أن يتعلم علم اليقين وأن يثق فيما تعلمه إن كان وعداً من الله –تبارك وتعالى– أو خبراً من الله –عز وجل– فيقع في عين اليقين أو حق اليقين بالتصديق الكامل في قلبه والعمل بما قام في رأسه أو عقله من علم، والله أعلم.

الأخ الكريم من السعودية يقول: من المعلوم أن قوم صالح هم الذين أهلكهم الله بالصيحة فهل يمكن أن تؤخذ الآية على ظاهرها وأن كلمة «قرناً» تطلق على «قروناً» كما أن ثمود جاءت بعد نوح كما جاء قوم عاد، فالجميع جاءوا بعد قوم نوح وهل «ثم» تعني بعده مباشرة؟ أم يمكن أن تكون على التراخي أي ليس بعده مباشرة؟

ولي أيضاً مداخلة في سؤال الأخ الذي تكلم على دعاء نوح وعيسى على أقوامهم فإن الله -تبارك وتعالى- قال لنوح: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦] فإنه قد علم أنه لن يؤمن أحد ولذلك كان الدعاء عليهم بالهلكة، وأما عيسى ونبينا -عليه الصلاة والسلام- فدعوا لأقوامهم بالصلاح، والعودة إلى الله -تبارك وتعالى-، وجزاكم الله خير.

في الحقيقة بالنسبة للقرن الذي لم ينص القرآن الكريم على اسم الرسول الذي أرسل إليهم، كما ذكرت اختلف أهل العلم فيمن هم هؤلاء الناس، ذهب عبد الله بن عباس -رضي الله تعالى عنه- كما ذكر ابن جرير وابن كثير وغيرهما أنه قال: بأن هؤلاء قوم نوح واستدل على ما استدل به وفي الحقيقة ذكر ابن كثير أن هذا هو الأظهر واستدلوا بذلك بالآيات الواردة في القرآن الكريم بذكر قوم عاد بعد قوم نوح مباشرة، ولا شك أن ثم هنا تفيد الترتيب مع التراخي وأن هناك فترة زمنية بين قوم نوح -عليه السلام- وبين قوم عاد كما كانت هناك فترة زمنية بين قوم عاد وقوم صالح، وقال بعض العلماء وهم الأقل بأن المراد قد يكون قوم صالح، واستدلوا على ذكر الصيحة أن الله -عز وجل- قال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ وقالوا بأن قوم ثمود هم الذين أهلكوا بالصيحة، ولكن الصيحة في لغة العرب أيضاً تطلق على العذاب الشديد وهذا أيضاً لا يعد تأويلاً ولكنه إطلاق صحيح على كلمة الصيحة، فهو تفسير لها، ويصبح بالتالي جمعاً بين الآيات وقد جمع بينهما الحافظ ابن كثير في تفسيره ولو رجع الإنسان سيجد هذا يعني ابن كثير -رحمه الله تعالى- قال: بأنها صيحة يعني عذاب مع الريح التي أتت عليهم من قبل الله -تبارك وتعالى- ولا شك بالنظر وأنا وقفت أتأمل هذه الآيات، قلت: هذه الريح وليس يعني هذا من باب الاختراع العقلي ولكن يمكن أن يفهم ذلك الريح حينما تكون قوية ألا تعطي صوتاً أيضاً شديداً يمكن أن نقول عنه بأنه صيحة، يمكن أن يقع هذا فالصيحة في لغة العرب تطلق على العذاب الشديد والريح التي يمكن أن يسوقها الله -تبارك وتعالى- على قوم عاد أيضاً يمكن أن يصحبها شيء من الصوت الشديد، وعلى كل حال فالخلاف قائم في ذلك بين المفسرين وهذا ما رجحه كثير من أهل العلم ومن أهل التفسير في أن المراد بذلك قوم عاد وأقول ظاهر آيات القرآن الكريم من خلال الترتيب الوارد فيه يشير ويدل على ذلك، ولكننا مع هذا كله لا نستطيع أن نقطع في مثل هذا بحال، بل نقول: الله أعلم.

هل لكم أي تعليق فضيلة الشيخ على مداخلته بالنسبة لدعاء سيدنا عيسى ودعاء سيدنا نوح

في الحقيقة كلامه سليم وتوجيه لطيف في هذا القول، يعني لما ذكرت بأن نوحاً -عليه السلام- لاقى من قومه ما لاقى ومكث مدة طويلة وما إلى ذلك فدعا عليهم بما دعا، هذه الإضافة جيدة جداً، وهي أن نوح -عليه السلام- علم بخبر الله -تبارك وتعالى- أو بوحي الله -عز وجل- له أن هؤلاء القوم سدت منافذهم وأغلقت قلوبهم، فلن يؤمن منهم أحد بعد ذلك، وأنا استدللت بقول الله تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] وبعد أن أخبره رب العزة والجلال: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[هود: ٣٦] فتوجه نوح -عليه السلام- لربه بهذا الدعاء لأنه لا فائدة مرجوة من هؤلاء القوم، بعكس ما كان عليه عيسى أو ما كان عليه النبي الخاتم صلوات الله وسلامه عليه.

ونحن لا نستغرب ذلك ففي حديث، حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي يقول فيه: (عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط) والرهط عدده كم؟ من ثلاثة إلى تسعة، (والنبي ومعه الرجل والنبي ومعه الرجلان

والنبي وليس معه أحد)، فبعض الناس وللأسف الشديد لم يؤمنوا بحال من الأحوال وبعض الأنبياء والمرسلين لم يتابعهم أحد فيما جاءوا به من عند الله -تبارك وتعالى- وأشكر الأخ الكريم على ذلك وجزاه الله خيراً.

الأخ الكريم من مصر يقول: كيف نستطيع مذاكرة دروس التفسير وأي الكتب يمكن اقتناؤها لمساعدتنا في تحصيل هذا العلم الشريف؟ وجزاكم الله خير

شكر الله له، في الحقيقة كتاب ابن كثير -رحمه الله تبارك وتعالى- كتاب قريب وسهل التناول، وواضح العبارة ولا شك أن ابن جرير مثلاً سابق عليه وابن جرير -رحمه الله تبارك وتعالى- في تفسيره إمام من أئمة المفسرين وهو عمدة كما يقول أو يعبر عنه أهل العلم بأنه عمدة التفسير وكتابه كذلك ولكن تفسير ابن كثير -رحمه الله تعالى- يتميز بسهولة أكثر في العبارة وفيه فائدة لطالب العلم ومع شُغل الناس في هذا الزمان أو انصرافهم بكثرة الأعمال الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- يريح القارئ كثيرًا حينما يسوق الحديث في كثير من الأحيان ويذكر ما في هذا الحديث، فتطمئن نفسك إلى العمل بهذا الحديث فلتأخذ به أو لا تأخذ به وهذه فائدة عظيمة وجليلة جداً في تفسير الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله تبارك وتعالى- وهناك كتب أخرى أيضاً من كتب التفسير تسلك منهج السلف الصالح في مسائل الاعتقاد وغير ذلك والعبادات وما إلى ذلك، كتفسير معالم التنزيل للبغوي، -رحمه الله تبارك وتعالى-، وكذلك أيضاً تفسير الشيخ محمد أمين الشنقيطي -رحمه الله-، وتفسير تيسير الكريم الرحمن للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي -رحمه الله تبارك وتعالى-، هذه كلها كتب نافعة ومفيدة يمكن لطالب العلم أن يرجع إليها وأن يستفيد منها، وإذا اقتصر على بعضها كابن كثير أو معالم التنزيل أو تفسير الشيخ السعدي -رحمه الله- فهو نافع ومفيد -إن شاء الله تعالى-.

أسئلة المحاضرة

السؤال الأول: لماذا أرسل الله الأنبياء والمرسلين من جنس أقوامهم؟

السؤال الثاني: أهل الباطل دائماً يتهمون المصلحين بالفساد، اذكر ما يدل على ذلك من القرآن الكريم؟

السؤال الثالث: ذكر القرآن الكريم أدلة كثيرة على البعث والنشور، اذكر ثلاثة منها مع الدليل لما تقول؟

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الدرس الثالث عشر: تفسير سورة المؤمنون

فضيلة الشيخ أهلاً ومرحباً بكم

أهلاً وسهلاً ومرحباً بكم وبالمشاهدين والحاضرين الكرام ويسرنا في هذا اللقاء المبارك -إن شاء الله تبارك وتعالى- أن أتحدث حول آيات في هذه السورة الكريمة التي ابتدأت الحديث فيها وعنها قبل حلقات سابقة، وسيدور الحديث -إن شاء الله تعالى- في هذا اللقاء حول محاور متعددة هي كالتالي:

المحور الأول: تأييد موسى وهارون -عليهما السلام- بالآيات لمواجهة فرعون وقومه.

المحور الثاني: جعل الله -تعالى- عيسى وأمه آية للناس.

المحور الثالث: أمر الله المرسلين بالأكل من الطيبات والعمل الصالح.

المحور الرابع: دين الأنبياء والدعوة إلى عبادة الله وحده دون سواه.

والآن نستمع إلى آيات هذا اللقاء، ومع الأخ الشيخ فليتفضل جزاه الله خيراً.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

جزاك الله خيراً.

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم وبارك وأنعم على عبدك ورسولك ومصطفاك وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم وسلك سبيلهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين وبعد.

نبدأ مستعينين بعون الله - تبارك وتعالى- في هذا اللقاء بالقصة الرابعة التي وردت في هذه السورة المباركة، وهي قصة الحديث عن موسى بن عمران وإرساله إلى فرعون وقومه وتبتدئ الآيات بقول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾ وأود أن أذكر لكم أولاً كلمة قالها الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السِّعدي -رحمه الله- عندما جاء ليتحدث عن هذه الآية حيث قد ذكر أن عالماً أخبره وذكر أنه لا يعرف هذا العالم ولا يذكره عندما كان يكتب هذه الكلمات، أخبره أن الله -عز وجل- بعد إهلاكه لفرعون وقومه لم يأخذ أحداً أو أمة من الأمم بعذاب الاستئصال بعد ذلك، ثم ذكر -رحمه الله تعالى- بعدما أخبر أنه سمع هذا الكلام أنه تأمل هذا الكلام ونظر في الآية الواردة في قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى

الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ [القصص: ٤٣] تبين له مصداق قول هذا العالم وهو أنه حقاً أن الله –تبارك وتعالى– لم يذهب بأمة كاملة من الأمم بعد أن أهلك فرعون ومن كان معه، وهذه الآية تخبر أن الله –تبارك وتعالى– أرسل موسى وهارون، أرسلهما بآياته الواضحات البينات إلى فرعون وقومه كي يؤمنوا بالله –تبارك وتعالى–، وقد ذكرت الآيات فيما بعد أن فرعون ومن كان معه من المكذبين لم يؤمنوا بهذا، بل كان أمرهم كما ذكرت هذه الآيات وسيأتي الحديث عنها بعد قليل –إن شاء الله تعالى– ولكنَّ المهم هنا في هذه الآية أن نفهم ونعقل أن هارون –عليه السلام– كان مرسلاً أيضاً مع من؟ مع موسى –عليه السلام–؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ﴾ فدل ذلك على أن هارون مرسل كموسى – عليهما السلام–، ودل ذلك أيضاً على أن معجزات موسى هي أيضاً معجزات من؟ معجزات هارون؛ لأن الله قال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَ﴾ وهذه الآيات هي الآيات التسع التي أشار الله –عز وجل– إليها في كتابه، وذكر في القرآن الكريم في سورة الإسراء: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠١، ١٠٢] يعني: أظنك من الهالكين الضائعين حينما كذب فرعون ومن كان معه بهذه الآيات، والآيات التسع قد أشار إليها القرآن الكريم في مواطن متعددة، وهي كما نص عليها كثير من العلماء هي: العصا، واليد، والجراد، والقمل، والضفاضع، والدم، وانفلاق البحر، والسنون، والنقص من الثمرات، أرسل الله –عز وجل– بهذه الآيات البينات الواضحات أرسل موسى وأخاه هارون إلى فرعون.

والله –عز وجل– أشار إلى أن موسى وهارون – عليهما السلام– أتوا بسلطان مبين لهذا الطاغية ولكنه أبى أن يتأمل وأن يتدبر فيما جاء من عند الحق –تبارك وتعالى–، ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾ أرسلهما إلى من؟ ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أفادت هذه الآية الثانية أن موسى وهارون –عليهما السلام– أرسلا إلى فرعون وملئه كهامان ومن كان معهم ومن سار في ركابهم، أرسلهما رب العزة والجلال إلى هؤلاء الأقوام فماذا كان منهم؟ ذكرت هذه الآية أنهم وقعوا في أمر عظيم، ألا وهو الاستكبار والعلو عن الاستجابة لدعوة الحق –تبارك وتعالى–، وكذب هؤلاء القوم موسى وهارون –عليهما السلام–، ووقعوا في أمرين أشارت إليهما هذه الآية:

الأمر الأول: الاستكبار قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَكْبَرُو﴾ وهذه صفة لهؤلاء الناس، وهذه الصفة تدفع كل من اتصف بها عن أن يلتزم بالحق بل إن الله –تبارك وتعالى– ذكر في كتابه أنه يصرف هؤلاء المتكبرين عن الحق الذي ينزل من عنده –سبحانه وتعالى–: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيل﴾ بسبب: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: ١٤٦] وأيضاً أخبر الله –تبارك وتعالى– أن الجنة مغلقة أمام هؤلاء القوم المتكبرين المكذبين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] ودائماً نجد أن المستكبرين في الأرض يتطاولون على دعوة الأنبياء والمرسلين، هذه سمة بارزة عند هؤلاء الناس كما ذكر الله –عز وجل– ذلك عن قوم صالح: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

وهكذا كان شأن المستكبرين مع النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– أتوا إلى النبي –عليه الصلاة والسلام– وأبت نفوسهم أن يجلسوا مع ضعفاء المؤمنين الذين هم في قلة من المال ومن الجاه ومن السلطان، ولكن قلوبهم تعلقت بالله –تبارك وتعالى–، هؤلاء المستكبرين أبت نفوسهم واستعظمت نفوسهم أن يجلسوا مع هؤلاء، وعرضوا على النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– أن يخصص لهم يوماً وأن يخصص لهؤلاء الفقراء الضعفاء يوماً آخر فنزل قول الحق –تبارك وتعالى– يسدد النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– في هذه المسألة ويقول له:

﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢] وهكذا يقف القرآن الكريم مع من آمن بالله -تبارك وتعالى- ولا يلتفت إلى هؤلاء المستكبرين.

الأمر الثاني: الذي اتصف به فرعون ومن كان معه: أنهم كانوا قوماً عالين، يعني كانوا أصحاب علو ووجاهة ودنيا في هذه الحياة الدنيا إلى جانب أنهم كانوا يبغون في الأرض بالفساد، هاتان الصفتان لما قامتا بهؤلاء الناس كانتا أيضاً سبباً في أن يعرضوا عن الحق الذي نزل من عند الله -تبارك وتعالى-، فبعد أن أخبر سبحانه أنه أرسل موسى وهارون إلى هؤلاء الملأ ماذا كان منهم، ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾، وكان نتيجة هذا الاستكبار والشعور بالعلو في هذه الأرض رغم أن الله هو الذي مكنهم فيها، أن بدا منهم التصريح مباشرة بالكذب فقالوا: ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾، يعني كيف نؤمن ونصدق لبشرين يتصفان بالبشرية؟!! وهذه دندنة أعتقد أنكم سمعتموها كثيرًا عن هؤلاء المكذبين،فهي شبهة وردت عند قوم نوح ووردت عند غيرهم ممن أتوا بعد قوم نوح، أنهم ينكرون نبوة الأنبياء والمرسلين لأنهم بشر، ولا نملك إلا أن نقول عن هؤلاء المكذبين: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ كذلك فرعون ومن كان معه قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَ﴾ الهمزة في ﴿أَنُؤْمِنُ﴾ للإنكار، يعني كيف نصدق لبشرين مثلنا، والله -عز وجل- هنا وآيات القرآن محكمة قال: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَ﴾ ولم يقل: مثلينا، لماذا؟ يعني وهذا أسلوب عربي فصيح يأتي كثيرًا في القرآن الكريم وهو أن الله -تبارك وتعالى- يوجز غاية الإيجاز والإفراد فيه من الإيجاز ما لا يوجد في الجمع، فمثلاً قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] بالإفراد ولم يقل: كنتم أخيار أمة، وكذلك هنا قال: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَ﴾ لأن العرب تحب الإيجاز والقرآن الكريم نزل بلغة العرب، ثم قالوا بعد ذلك: ﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ يعني كيف نؤمن لبشرين مستضعفين مع أننا نحكم في هذه الأرض ولنا الأمر فيها ولنا الكلمة عليها وقد أخبرت الآيات عنهم أنهم كانوا قوماً عالين، فكيف إذن ننزل من هذا العلو لنتبع بشرين لا يليق بأمثالنا كما زعموا هم بهؤلاء الناس أن لا يليق بهم أن يصدقوا بمن أرسلهم رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-؟ وقالوا بأن هؤلاء الأقوام عبيد لنا، بمعنى أنهم يقومون بخدمتنا خدمة شاقة، والذي يقوم بخدمتنا خدمة شاقة هو عبيد عندنا، وقد ذكر أبو عبيدة -رحمه الله تبارك وتعالى- أن العرب تسمي كل من دان لملك عابدا له، العرب يسمون من يدين لملك من الملوك ويعملون عنده ويخدمونه عبدا له، وقيل: بأن قولهم: ﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ على الحقيقة، لماذا؟ قالوا: لأن فرعون ادعى الألوهية على قومه فلا يستبعد إذن أن قومه كانوا يعبدونه حقيقة من دون الله -تبارك وتعالى-، فلما جاء موسى وهارون إلى فرعون الطاغية وهو بهذه المثابة، لا شك أنه استكبر وبغى في الأرض وأنكر دعوة نبي الله موسى وهارون -عليهما السلام- واحتج بهذه الحجة الباطلة، وهي أنهما بشرين يأكلان ويشربان كسائر البشر وفرعون مسلط على قوم يعبدونه من دون الله -تبارك وتعالى-.

ثم تصرح الآيات بعد ذلك تصريحاً أكثر وضوحاً في تكذيب هؤلاء القوم، وفي ذلك يقول رب العزة والجلال سبحانه: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾ يعني أن فرعون ومن كان معه كذب موسى وهارون -عليهما السلام-، ثم يخبر رب العزة والجلال أنهم جميعاً كانوا من المهلكين نتيجة هذا التكذيب، وتأملوا صيغة «مهلكين» وهي صيغة اسم مفعول، تفيد فائدة عظيمة وهي أن الله -سبحانه وتعالى- ذو القوة المتين، وأنه -عز وجل- هو الذي تولى إهلاكهم مع ما كانوا فيه من الترف والنعيم، وأنه لم تغن عنهم عبيدهم شيئًا ولم تغن عنهم أموالهم شيئًا، والهلاك المذكور في هذه الآية يشمل هلاك الدنيا والآخرة، فالله -عز وجل- أهلك فرعون ومن كان معه في الدنيا والآخرة، بل إنه جعل فرعون عبرة للمعتبرين حينما أهلكه أمام قومه من بني إسرائيل الذين آمنوا بموسى -عليه السلام- وكان هذا في الدنيا، وذلك في قول الحق -تبارك وتعالى- كما جاء في سورة يونس: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس: ٩٠] فماذا كان قول الله له؟ ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴿٩٢﴾﴾ [يونس: ٩١، ٩٢] وفعلاً أصبح فرعون بذلك أمام بني إسرائيل عبرة للمعتبرين وها نحن نذكر هذا القصص اليوم، ونقول للمكذبين: اعتبروا بسير السابقين، فالله -عز وجل- أهلكهم وينتقم رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- ممن يشاء، وكان

هذا الهلاك في الدنيا، وهناك هلاك أيضاً أخروي حينما يدخلهم رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- النار، وبئس القرار، الله -عز وجل- في سورة هود يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً ﴿٩٩﴾﴾ [هود: ٩٦- ٩٩] يعني أين؟ إشارة هنا إلى ماذا؟ للدنيا، ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [هود: ٩٩] وهنا حذف أيضاً اللعنة الثانية لأن اللعنة الأولى دلت عليها، وهذا أيضاً من باب الإيجاز، فالله -عز وجل- لعنهم في الدنيا ولعنهم في الآخرة، ثم أخبر رب العزة والجلال أنه قوي عزيز حكيم، حينما أهلك هؤلاء القوم، وختم الحديث عنهم بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

ثم يقول -سبحانه وتعالى-: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ هذه الآية خطاب وُجِّهَ فيما بعد لبني إسرائيل بعد أن نجاهم رب العزة والجلال من فرعون وجنده، ونجاهم مع موسى -عليه السلام- وهارون حينما كانوا يسيرون معهما في البحر، الله -عز وجل- نجى بني إسرائيل الذين آمنوا بموسى -عليه السلام- ولما نجاهم ربنا -عز وجل- أنزل عليهم التوراة بعد ذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فيعملوا بأحكامها ويلتزموا بشرائعها وهذه دعوة لبني إسرائيل إلى أن يلتزموا بالحق الذي جاء من عند الله -تبارك وتعالى- ومن الحق الذي جاء به موسى -عليه السلام- الإيمان ومتابعة النبي محمد بن عبد الله -صلوات الله وسلامه عليه-، والله والله -عز وجل- قد أخبر في كتابه أنه آتى وأنزل التوراة على موسى -عليه السلام- بعدما أهلك القرون الأولى، وفي ذلك يقول كما في سورة القصص: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القصص: ٤٣] وهي نعمة من نعم الله -عز وجل- على بني إسرائيل حينما أنزل ربنا -سبحانه وتعالى- عليهم التوراة التي خطها ربنا -عز وجل- بيده وكتب في الألواح موعظةً وهدًى وشفاءً كي يلتزم به هؤلاء الناس، ولكنهم -وللأسف الشديد- أعرضوا عن الحق الذي جاء من عند الله -تبارك وتعالى-، والله -سبحانه وتعالى- ما أنزل عليهم ما أنزل إلا لكي يلتزموا به ويهتدوا إلى الله -عز وجل-، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ ولكن أين بنو إسرائيل اليوم من الهداية الربانية التي نزلت عليهم من السماء؟ وها هم يعربدون اليوم كما عربدوا في السابق، ويسعون في الأرض بالفساد، ويريدون أن يصبح العالم كله -والعياذ بالله تبارك وتعالى- في غاية من الانحلال العقائدي والخلقي فلا يعرفون رباً يعبدونه ولا يقيمون أخلاقاً سليمة صحيحة تنبع من الديانة التي جاءت من عند الله -تبارك وتعالى- فيستقر بها المجتمع، هم دائماً يسعون في الأرض بالفساد، وما اهتدوا إلى طريق الحق والصواب والله -عز وجل- ما أرسل إليهم الأنبياء والمرسلين إلا لكي يرجعوا إلى الله -تبارك وتعالى- ويلتزموا بالشرائع التي نزلت من عنده ويدخلوا في الهداية الربانية التي جاء بها الأنبياء والمرسلون من عند الحق -تبارك وتعالى-.

المحور الثاني في هذا اللقاء بعنوان: جعل الله عيسى ابن مريم وأمه عيسى آية للناس.

وهذه هي القصة الخامسة التي وردت في هذه السورة المباركة، وفي ذلك يقول رب العزة والجلال ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ الله -عز وجل- يخبر في هذه الآية أنه جعل عيسى ابن مريم وأمه آية وهذا واضح عيسى ابن مريم -عليه السلام- آية من عدة جوانب وإن كان كثير من المفسرين يذكرون أنه آية في أمر مهم واضح وهذا لا شك أنه أبرز الآيات التي كانت لعيسى -عليه السلام-، وهو أنه خُلق من أب بلا أب، هذه في حد ذاتها آية وهي آية مريم أيضاً بأنها ولدت ابناً دون أن يمسها رجل أو ذكر، فالله -عز وجل- أولاً جعل عيسى آية لأنه خلق من امرأة بلا أب والبشر بعدما خلق الله آدم وقد أشرت إلى ذلك سابقًا، وبعدما خلق حواء خلق الله -عز وجل- البشر بعد ذلك عن طريق التزاوج والتناسل عدا من؟ عدا عيسى ابن مريم -عليه السلام- فكان بكلمة الله -عز وجل- كما أخبرنا ربنا بذلك في كتابه.

- أيضاً عيسى ابن مريم كان آية لأنه تكلم في المهد وهو صغير تكلم في سن لا ينطق فيها أقرانه.

- أيضاً عيسى ابن مريم كان آية لأنه كان يبرئ الأكمة والأبرص ويحيي الموتى -بإذن الله-.

- كذلك أمه كما أشرت كانت آية عندما ولدت عيسى -عليه السلام- بلا أب.

- وأيضاً مرت عليها آيات وعلامات أشار إليها القرآن الكريم، من ذلك أنه كما ذكر الله -عز وجل- في سورة آل عمران: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] وهذه أيضاً آية لمريم -عليها السلام-،

ثم يخبر رب العزة والجلال أنه تفضل على مريم الطاهرة البريئة الشريفة كما تفضل على عبده ورسوله عيسى ابن مريم -عليه السلام- تفضل عليهما بأن آواهما ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ الإيواء معروف، والربوة قال عبد الله بن عباس -رضي الله تعالى عنه- الربوة: هي المكان المرتفع وهي أحسن ما يكون في النبات، يعني المكان المرتفع عن الأرض عندما تكون حوله ماء يكون أفضل مكان على الأرض وأفضل مكان يبرز فيه أو يظهر فيه الزرع والنخيل والثمار وما إلى ذلك، فآوى الله -عز وجل- عيسى ابن مريم وأمه إلى ربوة إلى مكان جميل ثم وصف هذه الربوة فقال: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ والقرار: هي الأرض الخصبة والمعين هو الماء الجاري الطاهر غير الملوث وهذه نعمة من الله -تبارك وتعالى- على عيسى ابن مريم وأمه -عليهما السلام-، وهي تبين أن الله -تبارك وتعالى- لا يترك أنبياءه ورسله بل يحفظهم بكلئه -عز وجل- وحتى إن مريم -عليها السلام- رغم أنها ليست بنبية ولا رسوله إلا أنها أم النبي الرسول عيسى ابن مريم -عليهما السلام- ولما كانت لها ظروف خاصة كان لها من الله من الله -سبحانه وتعالى- عناية تليق بمكانتها منذ أن حملت في عيسى -عليه السلام-، وعند ولادته وبعد ولادته كما أشار الله في هذه الآية: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾.

وقد يتبادر هنا سؤال إلى الذهن: أين كانت هذه الربوة؟ الله -عز وجل- أشار إلى أنه آواهما إلى ربوة ذات قرار ومعين، أين مكان هذه الربوة؟ اختلف المفسرون اختلافاً واسعاً في ذلك بدأ الحافظ ابن كثير بقول ذكر أنه غريب جداً هو قول عبد الله بن زيد بن أسلم قال: هذه الربوة كانت بأرض مصر ولا يوجد مكان به ربوات أفضل من هذه الديار وقد ذكر ابن كثير -رحمه الله تعالى- أن هذا غريب جداً، ثم ذكر بعد ذلك الأقوال الأخر فقال: بأنها في دمشق أو في أنهار دمشق أو في الرملة في فلسطين، أو في بيت المقدس، ورجح الحافظ ابن كثير -رحمه الله تبارك وتعالى- أن ذلك كان في بيت المقدس لماذا؟ لارتباط مريم -عليها السلام- ببيت المقدس منذ أن نذرتها أمها لله -تبارك وتعالى-، كما جاء في سورة آل عمران، الله -عز وجل- أخبر بأن أم مريم -عليها السلام- لما حملت فيها أحبت أن يكون الحمل ولدا ونذرته لبيت المقدس فكانت مريم عليها السلام، وبالتالي رجح الحافظ ابن كثير أن المكان الذي كانت فيه مريم هو بيت المقدس وأشار إلى أن القرآن يفسر بعضه بعضاً، لأنه ذكر سابقًا في سورة آل عمران أن مكانها الذي كانت تقيم فيه هو بيت المقدس ولعل هذا هو الراجح -إن شاء الله تبارك وتعالى-.

المحور الثالث في هذا اللقاء بعنوان: أمر الله -تبارك وتعالى- المرسلين بالأكل من الطيبات والعمل الصالح.

فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ والله إن هذه الآية في غاية من الروعة حينما يوجهها رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- إلى الأنبياء والمرسلين وهنا يأمرهم -سبحانه وتعالى- أن يأكلوا من الطيبات وقبل أن أدخل فيها هنا لفتة في هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ﴾ الخطاب موجه لمن؟ للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وأين الرسل إذن؟ الرسل كانوا قبل النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-؟ فكيف يوجه الخطاب للنبي -عليه الصلاة والسلام- وهو واحد ويقول الله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ﴾؟ أفادت هذه الآية أن كل رسول أمر بما أمر به النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وفي هذا فائدة، وهي أن الإنسان يحرص على أن يأخذ بما أُمر به الأنبياء والمرسلون بماذا أمرهم رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-؟ أمرهم أن يأكلوا

من الطيبات وأن يعملوا الصالحات وهذا يدل على أن الأكل من الطيبات له أثر في العمل الصالح فمن كان مطعمه حلال ومشربه حلال كان عمله -إن شاء الله- صالحاً وسار في ذلك سيراً حسناً وسلك طريقاً إلى الله -عز وجل- طريقاً سليماً مستقيماً، والأكل من الطيبات يعين العبد إذن على العمل الصالح، والمراد بـ ﴿الطَّيِّبَاتِ﴾: هي الحلال أو الحلال الذي لا شبهة فيه، وقد قام الأنبياء والمرسلون بما أمرهم به رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- خير قيام، فكانوا يعملون الصالحات ويأكلون من الطيبات ويتوجهون إلى الرب -تبارك وتعالى- بسائر القربات، وكان الأنبياء والمرسلون كما أخبر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يأكلون من عمل أيديهم، قد ذكر النبي -عليه الصلاة والسلام-: (أن داود -عليه السلام- كان يأكل من كسب يده)، وهذا في داود خاصة ولكن ورد في البخاري عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: (ما من نبي إلا وقد رعى الغنم) وهذا يدل على أن قيام النبي برعي الغنم وهي مهنة يدل ذلك على أنه كان يأكل من كسب يده وأنه كان يعمل عملاً يعود عليه بشيء من المال فيأكل منه، (ما من إلا وقد رعى الغنم، قالوا: حتى أنت يا رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-؟ قال: حتى أنا رعيتها على قراريط لأهل مكة صلوات الله وسلامه عليه).

ثم اعلموا أن الله -عز وجل- كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أمركم يا أهل الإيمان بما أمر به الأنبياء وبما أمر به المرسلون وهذا يدعوكم إلى أن تتشبهوا بالأنبياء والمرسلين في الأكل من الطيبات وعمل الصالحات، أخرج الإمام مسلم في صحيحه وغيره عن أبي هريرة -رضي الله تبارك تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: (أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١] وقال لأهل الإيمان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢])، ثم ذكر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في الحديث أن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، أمر المرسلين في هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ وأمر المؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢] ثم ذكر ثم ذكر -صلى الله عليه وآله وسلم- فائدة تتمة جميلة لهذا الحديث الذي ابتدأه بقوله: (إن الله طيب لا يقبل إلا طيب) ذكر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- (الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يقول: يا رب يا رب ومطعمه حرام وملبسه حرام ومشربه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك) ولهذه هي دعوة لأن يأكل المؤمن من كسب يده ومن الطيبات الصالحات، يأكل المؤمن من الطيب الذي لا يقبله إلا رب العزة والجلال سبحانه، وما ليس بطيب لا يقبله ربنا -عز وجل- فالمؤمن يحرص على أن يعمل الصالحات وأن يأكل من الطيبات، وإذا أكل من الطيبات كان ذلك سبباً في أن يدفعه ذلك إلى العمل وأن يقوم بالصالحات لله -تبارك وتعالى-.

بقيت فائدة في هذه الآية أود أن أشير اليها، بفضل الله -تبارك وتعالى- استنبطتها منها ولعله يكون استنباطاً حسناً، هذه الآية ذكرت بعد قصة عيسى -عليه السلام- بعد قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ قال الله -عز وجل- مباشرة: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ وعيسى من الرسل، وأمر أن يأكل من الطيبات، وهذا يدل على أن عيسى ماذا؟ بشر، يأكل كسائر البشر وكسائر الأنبياء والمرسلين -صلوات الله وسلامه عليه-؛ لأنه داخل في الأمر الذي أمره الله -تبارك وتعالى- به الأنبياء والمرسلين، ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ وعيسى منهم -عليه الصلاة والسلام- فدل ذلك على أنه بشر رسول -صلوات الله وسلامه عليه-.

المحور الرابع في هذا اللقاء: دين الأنبياء هو الدعوة إلى عبادة الله وحده دون سواه.

وأفتتحه بقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ ينص الله -تبارك وتعالى- في هذه الآية على أن دين الأنبياء واحد، دين الأنبياء الذي جاء من عند الله -تبارك وتعالى- دين واحد، بدليل قوله: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ والأمة لها عدة معانٍ كما وردت في القرآن الكريم، فالأمة في القرآن الكريم تأتي بمعنى البرهة من الزمن، يعني الوقت من الزمن، كقول الله -تبارك وتعالى- في سورة يوسف: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥] وتأتي الأمة في القرآن الكريم أيضاً بمعنى الجماعة أو

الطائفة وهذا أكثر استعمالاً في القرآن الكريم كقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣] يعني جماعة أو طائفة واحدة، ومنه قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] أيضاً أمة يعني طائفة أو جماعة كبيرة من الناس، وأيضاً كلمة أمة تأتي في القرآن الكريم بمعنى الإمام المقتدى به، كما قال الله -عز وجل- في إبراهيم -عليه السلام-: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا للهِ﴾ [النحل: ١٢٠] تأتي الأمة أيضاً بمعنى الملة والدين، وهي المعنية في هذه الآية: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يعني دينكم واحد وملتكم واحدة ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُون﴾ يعني إذا كان الأمر كذلك فاجعلوا بينكم وبين عذاب الله -سبحانه وتعالى- وقاية، احذروا من مخالفة الأنبياء والمرسلين وهذه الآية أتت بعد أمر الله -عز وجل- للرسل بالأكل من الطيبات وعمل الصالحات وهي تفيد أن المرسلين أتوا من عند رب العالمين -سبحانه- وأنهم أتوا جميعاً بدين واحد وعلى العباد أن يتمسكوا بملة واحدة وبالدين الواحد الذي جاء من عند الله -تبارك وتعالى-، وأن يتقوا عذاب الله -سبحانه- فلا يخالفوا أمر الأنبياء أو أمر المرسلين، قد يقول قائل: كيف نقول بأن دين الأنبياء واحد وشرائعهم مختلفة متعددة، والله -عز وجل- في كتابه يقول: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجً﴾ [المائدة: ٤٨] ؟؟؟ نقول؟ الملة واحدة والدين واحد في أصل الدين ولبه وجوهره وأساسه، وفيما اتفقوا جميعاً عليه ألا وهو: إفراد الله -سبحانه وتعالى- بالوحدانية وبما وصف به -سبحانه وتعالى- نفسه من صفات الجلال والكمال، فكل ما جاء الأنبياء والمرسلون به في أصل الدين هو في الحقيقة واحد، جميع الأنبياء والمرسلين نصوا على أن الله -سبحانه وتعالى- إله واحد وقد سبقت الإشارة إلى ذلك مراراً وتكراراً وأؤكد عليها هنا حتى لا يأتي إنسان فيلبس على بعض المسلمين ويقول: بأنه يحق لنا أن نتبع أي نبي من الأنبياء؛ لأن لكل نبي شرعة تخالف ما كان عليه النبي الآخر، نقول: الشرائع وإن اختلفت أعني التكاليف العملية الشرعية قد تختلف من نبي إلى نبي ومن رسول إلى رسول أما أصل الدين ولبه وأساسه الذي جاء من عند الله -تبارك وتعالى- وبُعث وأتى به كل رسول من عند ربه هو الاشتراك في أمر واحد، ألا وهو: إفراد الله -عز وجل- بالوحدانية، والدعوة إلى عبادة الله وحده دون سواه، وعلى العالم أجمع أن يعرف ذلك وأن يعلموا جميعاً أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وهو خاتم الأنبياء والمرسلين جاء ليقرر هذه الحقيقة من عند الله -تبارك وتعالى- وهو في الحقيقة جاء تابعاً في هذا الأمر وفي هذه المسألة لما كان عليه الأنبياء والمرسلون قبله -صلوات الله وسلامه عليه-.

ثم بعد ذلك تذكر الآيات نتيجة حتمية مريرة بعد أمر الله -عز وجل- للأمم كلها أن يلتزموا دين الله -عز وجل- وملته الواحدة التي بُعث بها جميع الأنبياء والمرسلين، الآية السابقة ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُون ﴿٥٢﴾﴾ الآية التي بعدها أفادت أمراً صعباً على النفس ولكنه واقع لا محالة: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ أي تقطع المنتسبون إلى الأنبياء والمرسلين، أمرهم بينهم قِطَعاً متعددة مختلفة قوية ونستفيد هذه القوة من قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿زُبُرً﴾ تفيد أنها قِطَعٌ قوية كزبر الحديد، ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ وما كان ينبغي لهم ذلك، بعد أن أمرهم الله -عز وجل- بأن يتقوه فيلتزموا أمره وشرعه ما وقع هذا الأمر عند الكثير من الناس، موقعاً حسناً وما سلكوا الطريق إلى الله -عز وجل-، كما أمرهم الأنبياء والمرسلون، فكانت النهاية والنتيجة كما سيأتي الإشارة إليه بعد قليل، ولكن هنا ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرً﴾ وكأن قائلاً قال: ماذا كان موقفهم بعد هذا التقطع؟ هل ندموا على ما هم فيه من ضلال؟ أم فرحوا بما وصلوا إليه؟ للأسف الشديد فرح هؤلاء المختلفون بما هم عليه، لم يرضوا فقط، بل فرحوا، قال الله -عز وجل-: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾، لم يرضوا فيه فقط ولكنهم بلغ بهم السرور مبلغاً كبيراً وفرحوا بهذا التقطع وبهذا التمزق وبهذا الاختلاف، وأنا أقول من هذا المنبر لأمة الإسلام: إذا اختلفت الأمم السابقة على الأنبياء والمرسلين فإن أمة النبي الخاتم محمد بن عبد الله -صلى الله عليه وآله وسلم- يجب ألا تختلف في هذا الدين، لماذا؟ لأن لها مرجعية، يجب أن تفهم ذلك تختلف عن مرجعية سائر الأمم، عندها كتاب محفوظ، وعندها سنة أيضاً محفوظة ألا وهي سنة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-. الله -عز وجل- أنزل القرآن على هذه الأمة وقال فيه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩] والله -عز وجل- حفظ السنة كما حفظ القرآن، حينما أهَّل رجالاً وأعدهم لخدمة هذه السنة فجمعوها وميزوا صحيحها من ضعيفها من موضوعها وهذا تأييد من الله -عز وجل- لسنة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-. والله -عز وجل- في هذا حكم عدل لماذا؟ وإن كانت هذه مسألة

عابرة ولكن أتت عليَّ الآن أو خاطرة، الله -عز وجل- حفظ السنة كما حفظ القرآن لماذا؟ لأن الله -عز وجل- أسند بيان القرآن الكريم إلى السنة، في سورة النحل في قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ لماذا؟ ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] فأسند البيان لمن؟ للنبي -صلى الله عليه وسلم-، والنبي أتى بالسنة، فالسنة هي التي تبين القرآن والله أمرنا باتباع القرآن، ولا يمكن أن يحيلنا ربنا -عز وجل- إلى أمر غير محفوظ لأننا لن نتمكن من العمل بالقرآن إلا من خلال السنة، فلا يمكن أن يحيلنا ربنا -سبحانه وتعالى- إلى شيء غير محفوظ، إذن ما كان ينبغي لهذه الأمة أن تختلف في أمر من أمور الدين، إن اختلفت في مسائل فقهية، يسوغ فيها الخلاف فهذا أمر سائغ، أما أصل الدين وأساسه ولبه وما جاء من عند الله -تبارك وتعالى- من الآيات المحكمات يجب على المرء ألا يخرج عنها بحال من الأحوال، ولكن للأسف الشديد وقع أيضاً شيء من التفرق والاختلاف، وكان هذا سببه يرجع إلى عدة أمور:

الأمر الأول: الجهل بدين الله -تبارك وتعالى-، الجهل يؤدي إلى هذه المسائل.

الأمر الثاني: تحكيم العقل، وتقديم العقل على النص يحدث مثل هذه الفجوات.

الأمر الثالث: الابتداع في دين الله -تبارك وتعالى-، هذه البدع تؤدي إلى التفرق والاختلاف؛ لأن من يأتِ ببدعة سيترك بذلك سنة، ولله مزيد الحمد والفضل، أن أهل السنة في كل عصر ومصر لهم راية مرفوعة وبالتالي سيختلفون مع أهل البدع الذين يأتون بها والمخرج من كل ذلك هي العودة إلى الأصل الصافي، العودة والرجوع إلى كتاب الله وسنة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، وتجريد المتابعة مع الإخلاص، الإخلاص لله -تبارك وتعالى-، وتجريد المتابعة للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، ووالله لن ينجو العبد بين يدي الله -عز وجل- إلا إذا كان متبعاً لكتاب ربه ولسنة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وكما أخبر النبي -عليه الصلاة والسلام- بأن العبد إذا وُضع في قبر سيسأل عن ثلاثة أسئلة، ليس فيها هوى متبع وليس فيها إمام يمكن أن ينظر إليه أو أن يؤخذ بقوله إلا رسول الهدى والرحمة -صلى الله عليه وآله وسلم-، العبد إذا وضع في قبر سيسأل عن ربه وعن دينه وعن الرجل الذي بُعث فيه، ألا وهو نبي الهدى والرحمة -صلوات الله وسلامه عليه- وبالتالي أكرر الدعوة إلى عموم المسلمين أن يتمسكوا بدين الله -تبارك وتعالى- وأن يفقهوا الكتاب والسنة، على مقتضى ما فهمه سلف هذه الأمة وأن يرجعوا إلى الدين القويم الذي جاء من عند الله -عز وجل- وأن يتركوا الابتداع والاختلاف في دين الله -عز وجل- حذر وتوعد المختلفين في دينه فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ بعدها يقول رب العزة والجلال سبحانه: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ هذا وعيد وتهديد وحُقَّ لرب العزة والجلال سبحانه بعد هذا البيان الصافي أن يهدد وأن يتوعد، يا عبد الله ربك يناديك وينزل عليك الآيات المحكمات ويبعث إليك الأنبياء ثم بعد ذلك تتفرق وتترك العمل بالدين الذي جاء من عند الله -تبارك وتعالى- ليس بعد ذلك أمام كل مكذب إلا التهديد والوعيد الذي جاء من عند الله -تبارك وتعالى- والآية موجه فيها الخطاب لمن؟ للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أيها الرسول -عليه الصلاة والسلام- في سكرتهم وضلالتهم وغفلتهم حتى حين، إلى حين انقضاء آجالهم وإلى حين الوقوف أيضاً بين يدي الله -تبارك وتعالى- فحينما ينقضي أجلهم سيكونون في البرزخ إن كانوا كافرين فلهم عذاب البرزخ، ثم بعدما يبعثون ويقفون بين يدي الله -عز وجل- سيدخلون جهنم وبئس القرار وهذا وعيد وتهديد من رب العزة والجلال سبحانه يدعو كل عاقل إلى أن يتأمل في مثل هذه الآيات وأن يدخل في دين النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- دون اختلاف فيه أو مخالفة لما جاء من عند الله -عز وجل-، وهذا التهديد والوعيد في هذه الآية جاء مثله في القرآن الكريم كثيرًا كقول الله -تبارك وتعالى- مثلاً: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ١٧] وكقوله سبحانه: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [الحجر: ٣].

ثم يقول -سبحانه وتعالى- بعد ذلك: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ هذه الآية في الحقيقة جاءت في موطنها تماماً لماذا؟ لأن المؤمن المصدق والمكذب المكذب كلاهما قد يأتي إليه الشيطان من جانب، المؤمن المكذب كثيرًا ما يستدرجهم رب العزة والجلال بالنعم، فيظنون أنهم بهذا على طريق قويم لأن الله -تبارك وتعالى- أنعم عليهم والمؤمن المصدق قد يأتي إليه الشيطان ويقول: أنت ضعيف أو فقير أو ما إلى ذلك، وغيرك ممن كفر وصل إلى الدرجات العلى في هذه الحياة الدنيا، فتأتي هذه الآية لتسد على الشيطان وسائله ووساوسه وتضع الأمر في نصاب صحيح والله -عز وجل- يقول فيها: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ ومعنى ذلك: أن هؤلاء القوم كانوا يعيشون في نعم متعددة وأنهم حقاً كانوا من المترفين، وحتى لا يظن ظان أن هذا كله بسبب أن الله -سبحانه وتعالى- رضي عنهم ومن عليهم وأعطاهم فبينت الآيات أن ما يعطيه رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- للكافرين من الأموال والأولاد ليس لكرمهم عند الله -عز وجل- وليس لمعزتهم عنده سبحانه؛ لأن المشركين قالوا ذلك، ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ: ٣٥] قالوا: طالما أن نحن أكثر أموال وأولاد في الدنيا فلن نعذب وظنوا أن الله فضلهم على غيرهم وأنه رضي عنهم، بسبب ما من عليهم وأعطاهم من المال والبنين ولكن الله -تبارك وتعالى- بين لهم أيضاً في كتابه أن ذلك لم يكن لرضاه -سبحانه وتعالى- عنهم فقال: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾ [سبأ: ٣٧] هذه الأموال وهذه الأولاد لا تقربكم عند الله -سبحانه وتعالى- زلفى ولم يستثنِ ربنا -عز وجل- ﴿إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [سبأ: ٣٧] أما الإنسان إذا كان عنده مال ولم يؤمن برب العزة والجلال -سبحانه- فلا يظن أن هذا المال سينفعه وأنه سيستفيد منه. وصاحب الجنة الذي جاء ذكره في سورة الكهف غرته هذه النعم وقال الله عنه في كتابه: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ [الكهف: ٣٥] فماذا كان من أمره؟ ﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٣٥] وأدى به ذلك إلى أن ينكر الساعة، ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [الكهف: ٣٦] وعلى فرض أنها ستأتي ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦] وهذا فهم في الحقيقة مغلوط، وللأسف الشديد موجود عند بعض الناس اليوم، بعض الناس اليوم يقول: غني الدنيا هو غني الآخرة، لا هذا مفهوم مغلوط، هذا ليس بصحيح، فالله -عز وجل- إن ضيق عليك يا أيها المؤمن في هذه الحياة الدنيا فقد يكون هذا التضييق فيه نفع لك، ومن يدريك أن الله -عز وجل- لو وسع عليك وبسط لك من الرزق أنك ستكون على ما أنت عليه من الإيمان والعمل الصالح فالإنسان أو على العبد أن يشكر ربه ومولاه وأن لا يغتر بما عليه الكافر، ثم يجب أن نعلم أن الله -عز وجل- يعطي لهؤلاء الكافرين؛ لأنه يستدرجهم. الله -عز وجل- يعطي للكافرين الإنسان يكون في غي في ضلال ومع ذلك الله -سبحانه وتعالى- يعطيه ويمن عليه ويوسع له في هذه الحياة الدنيا، وقد يظن بذلك أنه من العالين وأن رب العزة والجلال رضي عنه ورضي عن كفره الذي هو فيه، بدليل أن الله -سبحانه وتعالى- أعطاه، وهذا ليس بصحيح بحال من الأحوال ألا فليعلم المكذبون والظالمون وممن يغفلون في ثوب الصحة والعافية والنعيم ألا فليعلموا أن الله -عز وجل- كلما يعطيهم من هذه الحياة الدنيا من سعة رزق ومال وصحة وولد وما إلى ذلك لا يظنون بحال من الأحوال أن هذا رضاء من الله -سبحانه وتعالى- عليهم، كلا ثم كلا ثم كلا، يقول رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- في أمثال هؤلاء: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥] ثم اعلموا أيها المخاطبون أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بيَّن لكم في حديثه أمراً مهماً جدًا فقال: حتى المسلم الذي ضيق عليه لا يتأثر ولا يصيبه شيء من الغم أو الهم أو الحزن أو النكد النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يقول: (إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بيكم أرزاقكم) الله -عز وجل- قسم الأخلاق بين العباد كما قسم الأرزاق، ثم يقول -صلى الله عليه وآله وسلم- في القول الجليل: (وإن الله -عز وجل- يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب) فمن أعطاه الله -عز وجل- الإيمان والعمل الصالح فهو في قمة السعادة والنعيم وفي الآخرة ونحن ننظر إلى المترفين فنقول بأن هؤلاء قوم ابتلاهم رب العزة والجلال سبحانه، ولذلك قتادة -رحمه الله تعالى- قال في هذه الآية كلمة جميلة قال: مكر والله بالقوم في أموالهم وأولادهم يا ابن آدم فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح، ولذلك نحن نتسائل أين قارون؟ أين هامان؟ أين فرعون؟ أين من أعطاهم الله -عز وجل- في هذه الدنيا؟ أين هم الآن؟ لم نراهم، ولم نراهم يوم القيامة في نعيم وإنما خسف الله -عز

وجل- بدارهم، وأغرق الله -عز وجل- بعضهم، وقلب قراهم عليهم وكانوا من المترفين المنعمين لديهم أموال ولديهم نعيم ولديهم جنان ولكن كل ذلك لم ينفعهم لما لم يؤمنوا برب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- والله -عز وجل- يبين أن ما يعطيه لهؤلاء الكافرين إنما هو استدراج لهم من حيث لا يعلمون، وهذا يدل على أن هؤلاء المكذبين المترفين سفهاء والله والله إنهم جهال، ما عرفوا الطريق إلى الله -تبارك وتعالى- والله -عز وجل- صادق في قوله حينما قال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] كأنهم حيوانات، لا يعقلون ولا يفهمون ويسحبون كالبهائم ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] وبالتالي المؤمن لا يحب لنفسه أن يكون في هذه المكانة، ولا أن ينزل هذه المنزلة وبالتالي عليه أن يؤمن ويصدق بما جاء من عند الحق - تبارك وتعالى- وأن لا يختلف فيه وأن ينظر إلى من أعطاهم الله -عز وجل- شيئًا من النعيم وهم مع ذلك يكفرون بالله -تبارك وتعالى- أن مآلهم في خسارة ووبال ونكد ووبالن ويكفي يا عبد الله أن الله من عليك بالإيمان والعمل الصالح فاحرص على ذلك واعبد الله -عز وجل- حتى يأتيك اليقين، وأكتفي بهذا وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين.

فضيلة الشيخ وردتنا إجابات عدة على أسئلة الحلقة الماضية.

وكان السؤال الأول:

لماذا أرسل الله الأنبياء والمرسلين من جنس أقوامهم؟

وكانت الإجابة:

من الشبهات التي أوردها الكفار عن الرسل والأنبياء بأنهم بشر مثلهم يأكلون مما يأكلون منه ويشربون مما يشربون هم منه، فأنكروا أن يكون الرسول والنبي من جنسهم وكذبوه وخالفوه وأبوا اتباعه لكونه بشرا مثلهم واستنكفوا عن اتباعه عندما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له كما قال الله -عز وجل-: ﴿مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣] وقد أرسل الله الرسل وجعلهم من جنسهم لحكمة: وهي معرفة حسبه ونسبه وصدقه ليكون ذلك أسرع لانقيادهم إذا كان منهم وأبعد عن اشمئزازهم ويكون مألوفاً عندهم وكما قال الله -تبارك وتعالى- في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩] أي لو بعثنا إلى البشر رسولاً ملكياً لكان على هيئة الرجل ليمكنهم من مخاطبته والانتفاع بالأخذ منه ولو كان من الملائكة لالتبس على أنفسهم في قبول الرسالة.

الجواب صحيح وسديد الحقيقة وفيه إسهاب عند ذكر أنه لو كان أيضاً المجيب لو كان ملكاً لكان بشرا والتبس أيضاً الأمر على المخاطبين.

السؤال الثاني: أهل الباطل دائما يتهمون المصلحين بالفساد، اذكر ما يدل على ذلك من القرآن الكريم؟

كانت الإجابة:

قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون: ٣٤] وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً ﴿٤١﴾﴾ [الفرقان: ٤١] وقال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ

مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء: ٩٤، ٩٥] بين هذه الآيات أن من سفه وجهل أهل الباطل أنهم يتهمون الحق وأهله بالضلال والفساد.

في الحقيقة يعني كلام قريب إلى الجواب المطلوب وإلا هناك آيات أخر صريحة في الإجابة عن هذا السؤال وقد ذكرتها في الحلقة الماضية وهي قول فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر: ٢٦] فقول فرعون وهو إمام المفسدين في الأرض عن موسى أو يخاف من أن موسى يفسد في الأرض دليل على أن أهل الباطل مع ظلمهم وفسادهم يتهمون المصلحين بالفساد.

السؤال الثالث: ذكر في القرآن الكريم أدلة كثيرة على البعث والنشور اذكر ثلاثة منها مع الدليل على ما تقول؟

وكانت الإجابة مختصرة:

قال الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وقال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨] وقال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج: ٧].

هو في الحقيقة كأن المجيب أخذ بالمقولة والحكمة خير الكلام ما قل ودل، ولم يطل فيمل، السؤال الجواب عليه كان يقتضي شيئًا من الإطناب أكثر من هذا والقصد منه ما ذكرته من أمور أربعة والأمر الرابع ذكرت فيه خمسة أنواع والأمر الأول الذي ذكرته: خلق السماوات والأرض وأيضًا خلق الإنسان أول مرة، وذكرنا أيضاً من الأدلة على البعث والنشور إحياء الله -تبارك وتعالى- الأرض بعد موتها، وإحياء بعض الناس في الدار الدنيا، هذا هو الجواب الصحيح على مثل هذا السؤال.

الأخت الكريمة من مصر تقول: إذا توالت نعم الله -عز وجل- على الإنسان المسلم كيف يفرق بين هل هي مسارعة له في الخيرات من الله -عز وجل- أم هو والعياذ بالله استدراج من الله؟ أي هل يفرح بهذه النعم أم يكون على حذر منها؟

السؤال الثاني: عند ذكر الآيات على سيدنا موسى -عليه السلام- في سورة الأعراف بعدما ذكر الآيات الطوفان والجراد والقمل قال: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ [الأعراف: ١٣٤] فما هو هذا الرجز؟

سؤالها الأول فضيلة الشيخ إذا توالت النعم على العبد المسلم هل هي متابعة للخيرات أم هي استدراج من الله -تبارك وتعالى-؟

هو في الحقيقة السؤال يوضح ما فيه، لأن السؤال: إذا توالت نعم الله على العبد المسلم، فطالما أنه مسلم فنعم الله -سبحانه وتعالى- كثيرة تأتي بالمسلم من باب الشكر والله -عز وجل- يقول: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٧] فالإنسان إذا أنعم الله -عز وجل- وكان مسلماً وقام بأداء شكر هذه النعمة من الله -سبحانه وتعالى- عليه بالزيادة ويمكن للإنسان أن يعرف أن هذا من باب الاستدراك أو غيره، أنه كلما زادت عليه النعم إن كان من المؤمنين حقاً كلما عرف فضل الله -تبارك وتعالى- عليه وازداد طواعية وقياماً بحق الله -تبارك وتعالى- فالإنسان إذا كانت هذه النعم تدفعه إلى الإيمان بالله أو كثرة أو زيادة الإيمان والعمل الصالح يمكن أن يستدل من خلالها على أن هذا مؤشر عن رضا اللله -سبحانه وتعالى- عنه.

أما إن كان هذه النعم تلهيه أو تصده عما كان يفعله ففي هذه الحالة يمكن أن يخشى منها على نفسه، وعليه في هذه الحالة ألا يسعى في الاستكثار من هذه النعم، وأن يوفر شيئًا من الجهد ومن الوقت للعبودية الحقة لرب العالمين -سبحانه وتعالى-، والله أعلم.

الأخ الكريم من فرنسا يقول: السلام عليكم فضيلة الشيخ لي استفسار يقول: عندنا خطيب الجمعة يأتي بالخطبة الثانية مترجمة باللغة الفرنسية ويذكر الآية بعدما يذكر البسملة بالعربية ويظن السامع أنه سيقرؤها بالعربية فإذا به ينطقها بغير العربية وفي الأخير يذكر رقم الآية والسورة وكأنه قرأها بالحرف القرآني، هل هذا يصح ؟ أفيدونا أفادكم الله.

جمهور أهل العلم على أن القرآن لا يقرأ إلا باللسان العربي كما نزل من عند الله -تبارك وتعالى- وعلى هذا الخطيب ونوجه إليه وأطلب من الأخ الكريم -جزاه الله خيراً- أن يبين له الوجه الصحيح في مثل هذه الحالة، وهو أنه يترجم هذه الآية إلى اللغة التي يتكلم بها يعني يترجم معنى الآية بما يفيد معناها وبما يؤدي الغرض منها، أما أن يكتب نفس الآيات مترجمة على أنها كلام الله -تبارك وتعالى- فليس هذا من الصواب؛ لأن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، وهو إذا قرأه على الناس كما نزل من عند الله -تبارك وتعالى- حتى ولو لا يحسنون النطق بالعربية فيتعلمونه هكذا وينطقونه هكذا ويصبح عليه هو، يعني هو سيعلمهم القرآن الكريم كما نزل من عند الله فيتلونه كذلك من ورائه وعليه بعد ذلك أن يعلمهم معنى الآية التي قرؤوها أو عرفوها أو حفظوها أن يعلمهم معناها باللغة التي ينطقوا بها.

الأخت الكريمة من مصر تقول: عندي ثلاثة أسئلة:

السؤال الأول: في آية ﴿ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ هل الأكل من الأضاحي يجب أن يكون بعد صلاة العيد؟ أم يمكن للإنسان أن يأكل من أي شيء غير الأضحية بعد صلاة العيد، حتى لو كان هو الذي سيضحي؟

السؤال الثاني: هل ثبت أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- داوم على صيام التسعة أيام من ذي الحجة ولم يتركها أبداً فتكون بذلك سنة مؤكدة؟

السؤال الثالث: هل إذا المرأة طلبت الانفصال بسبب فسق زوجها مثل تقصير اللحية الشديد ينقص في إيمانها؟

فضيلة الشيخ كان سؤالها الأول عن قول الله -عز وجل-: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ هل الأكل من الأضحية بعد صلاة العيد؟

هذا السؤال يتناسب مع الزمن الذي نحن فيه -إن شاء الله تبارك وتعالى- وسؤالها في الحقيقة أيضاً مهم بمعنى أن نعلم الناس السنة في مثل هذا. النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كان إذا خرج لعيد الفطر قبل أن يخرج أكل ثمرات وتراً -صلى الله عليه وسلم- واحدة أو ثلاثة أو خمسة، أما في عيد الأضحى كان يخرج إلى المصلى دون أن يأكل شيئًا ثم إذا انتهى من الصلاة والخطبة رجع إلى بيته فذبح أضحيته -عليه الصلاة والسلام- وأكل منها، فكان أول شيء يأكل منه النبي -صلى الله عليه وسلم- في أول أيام العيد وبعد صلاة العيد هو أن يأكل من الأضحية وهذا على سبيل الاستحباب أو من السنة العملية التي فعلها النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، فيستحب للمرء أن يفعل ذلك وإن أكل من غير ذلك فلا حرج عليه -إن شاء الله تعالى- ولكن الأولى العمل بهدي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-.

سؤالها الثاني تقول: هل ثبت أن النبي -صلى الله عليه وسلم- صام التسعة أيام؟

ورد حديث في سنن أبي داود وحسنه كثير من العلماء عن عائشة -رضي الله عنها- أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: (كان يصوم التسع من ذي الحجة) وعند النظر في هذا الحديث والبعض تكلم حوله ولكن الراجح أنه حديث حسن إن لم يكن صحيحاً، عند النظر في هذا الحديث يمكن أن نفهم شيئًا ، وهو أن النبي -عليه الصلاة والسلام- لعله لم يداوم على صيام التسع يعني صام مرة -صلى الله عليه وآله وسلم- لأنه لو داوم لورد هذا كثيراً عن كثير من الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- ولاشتهر هذا بين الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- فدل هذا على أنه -صلى الله عليه وسلم- قد صامه في بعض الأعوام والعلة في هذا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أحياناً كان يحب أن يفعل الشيء ويتركه مخافة أن يفرض على الأمة كما لم يصلِّ بالناس صلاة التراويح في رمضان -صلى الله عليه وآله وسلم- ويداوم عليها، بعدما صلى بهم ثلاث ليال ولكن وارد في سنن أبي داود أن النبي -صلى الله عليه وسلم- صام التسع والصيام من أحب الأعمال إلى الله -تبارك وتعالى- والحديث في البخاري ومسلم : (ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله -عز وجل- من هذه الأيام العشر) ويعني النبي -صلى الله عليه وسلم- بذلك هي أيام عشر ذي الحجة فإذا صامها الإنسان من تحت هذا الباب فيكون قد فعل فعلاً عظيمًا وقام بطاعة لله -تبارك وتعالى- مرغبٌ فيها من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-.

الأخ الكريم من السعودية يقول: جاء في تفسيره لقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٤٥] جاء في التفسير قال أن الله -تبارك وتعالى- كتب التوراة بيده، فهل من إضافة إدلة من السنة النبوية حتى يثبت الأمر؟

نشكرك يا أخي الكريم على هذا السؤال الطيب والحقيقة النص واضح من القرآن الكريم على أن الله -تبارك وتعالى- كتب الألواح يعني التوراة بيده -عز وجل- والحديث الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يؤكد ذلك، فالنبي -عليه الصلاة والسلام- ذكر أن الله -سبحانه وتعالى- خلق ثلاثة أشياء بيده، -صلى الله عليه وآله وسلم- النبي -صلى الله عليه وسلم- قال ذلك في الحديث، بأن الله -عز وجل- خلق ثلاثة أشياء بيده، لا شك أن الله -عز وجل- خالق الخلق كله، خالق الكون من أوله إلى آخره ولكن خص ثلاثة أشياء بأنه خلقها بيده ولذلك قال أهل السنة والجماعة بأن هذا يفيد تعظيم هذه الأشياء وأن الله -سبحانه وتعالى- باشر خلق هذه الأشياء بيديه وأنه -عز وجل- يتصف بصفة اليد وأن له -سبحانه وتعالى- يدين كما يليق ذلك بجلال الله -تبارك وتعالى- ، الحديث أرجع إليه مرة أخرى ، (خلق الله -عز وجل- ثلاثة أشياء بيده خلق آدم بيده) وهذا منصوص عليه في القرآن الكريم قال الله -عز وجل- لإبليس: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: ٧٥] فدل ذلك على أن الله -عز وجل- له يد، الأمر الثاني: (غرس جنة عدن بيده) -سبحانه وتعالى-، الأمر الثالث: (وكتب التوراة بيده)، وهذا قول صادق صحيح صريح من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في هذا الأمر ولا شك أن بعد هذا البيان من القرآن الكريم ومن السنة النبوية لا يبقى كلام أو قول لقائل في مثل هذا الأمر.

الأخ الكريم يقول: ما الحكمة من قول الله -سبحانه وتعالى- في الآية السادسة والأربعين في إرسال موسى وهارون إلى فرعون وملئه ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴾ فما الحكمة من تعدد فاستكبروا والعلو، فإن الفعل واحد والمترتب عليه واحد؟

أحسنت، في الحقيقة لفتة جميلة من الأخ الكريم -جزاه الله خيراً-، الاستكبار يكون فعل شك أن فيه جانب من جوانب العلو، ولكن الاستكبار يكون على عباد الله -تبارك وتعالى- ويكون أيضاً على ما جاء من عند الله -عز وجل-، يعني يتكبر على هذا وعلى هذا بدليل أن القرآن الكريم ذكر أن هؤلاء تكبروا على ما جاء من عند الله -سبحانه وتعالى-: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ [الأعراف: ١٤٦] فهؤلاء لما يذكر ربنا -عز وجل- هؤلاء المتكبرين أنهم لا يسلكون طريق الرزق الذي نزل من عند الله -عز وجل- فنفهم من هذا أنهم تكبروا على ما جاء من عنه -سبحانه وتعالى- أما وصفهم بالعلو فهو علو في الأرض على عباد الله -عز وجل- وبالبغي على الموجودين في أزمانهم والتكبر عليهم أيضاً وتسخيرهم في الخدمة الشاقة وما إلى ذلك، الشاهد يصبح إذن الاستكبار أعم من العلو لأنه يشمل الاستكبار على الخلق وعلى ما جاء من عند الله -تبارك وتعالى-، أما العلو فيكون بالاستبداد في الأرض على من تحت أيديهم أو من سخروهم هم، وملكهم الله -عز وجل- أمرهم، والله أعلم.

فضيلة الشيخ الأخت الكريمة من مصر تقول: السلام عليكم ورحمة الله ما هو السلطان المبين المذكور في قول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾ ؟

السلطان المبين أشرت إليه معناه هو: الحجة الواضحة، يعني السلطان في هذه الآية المراد به الحجة الواضحة وأنا قلت بأن الآيات التي أتى بها موسى -عليه السلام- الآيات التسع التي ذكرتها كانت آيات بينات واضحات وفهمنا هذا من قول الله -تبارك وتعالى- عنها أو وصف الله -عز وجل- لها بأنها سلطان مبين، هذا هو المعنى.

الأخ الكريم من إيطاليا يقول: ما دليل حفظ الله للسنة والرد على الذين يحاجوننا بالأحاديث الضعيفة والموضوعة على أن السنة لم تحفظ؟

الدليل على حفظ الله -سبحانه وتعالى- للسنة: أدلة كثيرة متواترة قد ذكرت بعضها ولعل المقام لا يتسع لأن أذكر كثيرًا من الأدلة، يعني ومنها قول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩] فالذكر أول ما ينصرف ينصرف إلى القرآن ولكن أيضاً السنة هي ذكر من عند الله -تبارك وتعالى- والله -عز وجل- قد أمرنا بالرجوع إلى السنة ولا يمكن أن يردنا إلى شيء غير محفوظ، يعني لا يمكن أن يردنا رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- إلى شيء غير محفوظ.

الأمر العملي الآن في السنة أن السنة دونت بأدق أنواع التدوين، وهذا حفظ من الله -تبارك وتعالى- لها، النبي -عليه الصلاة والسلام- كان يقول الكلمة ويكررها أحياناً ثلاث مرات، وكان الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- يحفظون من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ما يقوله، وأذن لهم -صلى الله عليه وآله وسلم- في الكتابة بعد ذلك، بعدما نهاهم في أول الأمر حتى لا يختلط القرآن بالحديث ثم بعد ذلك أوجد الله -سبحانه وتعالى- رجالاً أفذاذاً كما ذكرت حفظوا السنة في قلوبهم وعقولهم وصدورهم ووعوها وعياً تاماً وسجلوها في كتب ظهر لنا صحيح البخاري وصحيح مسلم وغير ذلك مما جمع بين الصحيح وغيره، ثم لم يقف الأمر عند هذا الحد، فوجد بعد ذلك جهابذة السنة، قيل لعبد الله بن المبارك، هذه الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة من يعيش لها؟ قال: يعيش لها الجهابذة، من لهذه الأحاديث؟ قال: يعيش لها الجهابذة، وجد فعلاً رجال ووجد عندنا علم الجرح والتعديل هذا العلم لا يوجد عند أمة من الأمم وله معايير قويمة ودقيقية وهو مدرسة في الحقيقة يمكن أن يدخل تحته مدارس، هذه المدارس ميزت بين الصحيح وبين الضعيف وبين الحسن، وعلى كل فالأمة أجمعت

على صحة ما جاء في البخاري وفي مسلم وتلقته بالقبول والصحيح ليس مقتصراً على البخاري ومسلم بل في سائر السنن الصحيح وغيره، والعلماء قد بينوا هذا وهذا، وهذا من فضل الله على هذه الأمة.

هناك سؤال أخير فضيلة الشيخ وأرجو من فضيلتكم الإجابة عليه بإيجاز ؛ لأن الوقت آزَفَ على الانتهاء: السؤال من الأخت الكريم من الإمارات يقول: أرجو أن تذكر المسلمين بما يجب عليهم من الاحتفال بمناسبة مولد عيسى ابن مريم -عليه السلام-؟

نحن معشر المسلمين سَنَّ لنا النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- عيد الفطر وعيد الأضحى وأبدلنا بهما خيراً -صلوات الله وسلامه عليه- وإذا كنا نقول للمسلمين لا يجوز لكم بحال من الأحوال أن تتخذوا أعياداً تسمونها أعياداً إسلامية، غير هذين العيدين، فلا تحتفل بأعياد حتى ولو كانت منسوبة إلى دين الله -تبارك وتعالى- فما بالنا إذن بالاحتفال بأمر ليس من دين الإسلام في شيء، لا شك أن الواجب ألا يقع في هذا مسلم يؤمن بالله ويتابع رسول الهدى والرحمة -صلوات الله وسلامه عليه-، والبدع والمحدثات في الدين مردودة على أصحابها بل إنها تفسد القلوب وتغير موازين العبد -والعياذ بالله تعالى- وتضره ضرراً شديداً، والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يتبرأ من البدع ومن المبتدعين فيقول: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) وهذا ليس من هدي النبي -عليه الصلاة والسلام-، النبي -عليه الصلاة والسلام- لما رأى ورقات كما ذكر بعض أهل العلم أو صحائف في يد عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- من التوراة غضب -صلى الله عليه وسلم- وتغير وجهه وقال: (أمتهوكون فيه) وفي رواية: (أمتهودون فيها أنتم يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده لو كان موسى بن عمران حيا ما وسعه إلا اتباعي) لأن الله -عز وجل- أخذ العهد على الأنبياء والمرسلين إن بُعث النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يتابعوه والله -عز وجل- قد نسخ ببعثة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- جميع الأديان السابقة فلا يحق لنا بعد ذلك أن نقول بأن هذه أديان نحتفل بشيء منها أو نفرح بقدومها أو يهنئ بعضنا بعضاً بها كل هذا ليس من دين الإسلام في شيء، وجزى الله السائل خيراً.

أسئلة المحاضرة

السؤال الأول: قال تعالى: ﴿ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ ما المراد بالاستفهام في ﴿ أَنُؤْمِنُ ﴾؟ ولماذا قال ﴿ مِثْلِنَا ﴾ ولم يقل «مثلينا»؟ وما معنى ﴿ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾؟

السؤال الثاني: لماذا كان عيسى وأمه آية؟ وما معنى الربوة؟ وأين مكانها مع ذكر الراجح في ذلك؟

السؤال الثالث: اذكر معاني كلمة «أمة» في القرآن الكريم، مع الدليل لما تذكر.

وبين كيف تكون ملة الأنبياء واحدة مع أن شرائعهم مختلفة.

الدرس الرابع عشر: تفسير سورة المؤمنون

فضيلة الشيخ أهلاً ومرحباً بكم

أهلاً وسهلا ومرحباً بكم وبالحاضرين وبالمشاهدين الكرام وأكرر أيضاً التهنئة بالأيام المباركة التي عاشتها الأمة الإسلامية وأسأل الله -عز وجل- أن يعيد هذه الأيام على الأمة الإسلامية وهي ترفل بأثواب العزة والمجد والكرامة وكل عام وأنتم بخير ونلتقي -إن شاء الله تبارك وتعالى- مع تفسير بعض آيات من كتاب الله -تبارك وتعالى-، وحديثي -إن شاء الله تعالى- سيدور في محاور كالتالي:

المحور الأول: صفات من يسارع في الخيرات.

المحور الثاني: التكليف على قدر الوسع والطاعة.

المحور الثالث: من كذب من المترفين له عند الله عذاب عظيم.

وقبل أن تبدأ نطلب من الأخ الكريم أن نستمع معه ومنه إلى هذه الآيات فليتفضل مشكوراً جزاه الله خيراً.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لاَ تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لاَ تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

جزاكم الله خيراً.

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم وبارك وأنعم على عبدك ورسولك ومصطفاك وعلى آله وأصحابه، ومن اهتدى بهديهم وسلك سبيلهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين وبعد.

لقد استمعنا قبل لحظات إلى الآيات الكريمات التي سيدور الحديث حولها -إن شاء الله تبارك وتعالى- والآية الأولى وما يليها من آيات تدخل تحت المحور الأول ألا وهو:

المحور الأول: صفات من يسارع في الخيرات:

ونبتدئ هذا المحور بأول آية استمعنا إليها ألا وهي: قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ لو لاحظنا -أيها الإخوة الكرام- نجد أن الله -تبارك وتعالى- في الآيات السابقة ذكر المختلفين المتفرقين الذين ليس لهم من الخير نصيب وقد ذكرت ذلك في اللقاء السابق ومن هذا ما ذكره الله عنهم

في قوله: ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ كما نفى ربنا -سبحانه وتعالى- عنهم الخيرات الحقيقية كما قال -جل ذكره-: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ بعد أن نفى الله -عز وجل- عن هؤلاء المختلفين المتفرقين الخيرات ذكر -سبحانه وتعالى- من هم أهل السعادة ومن هم أهل الخيرات الذين أعد الله -سبحانه وتعالى- لهم ما أعد من النعيم المقيم، وقد وصفتهم هذه الآيات بصفات أربع وصفت أصحاب النعيم المقيم أو أصحاب الخيرات الحقيقية بصفات أربع: الصفة الأولى: هي الإشفاق: وهي الواردة في الآية الأولى في قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ والإشفاق قيل: هو الخوف وقيل: الإشفاق هو الخشية وبالتالي يصبح تكراراً للتأكيد لأن الله قال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ والحقيقة كما ذكر أهل العلم أن الإشفاق أمر يتضمن الخشية مع زيادة رقة وضعف، يعني: شيء يقوم بالنفس يتضمن الخشية لرب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- مع شعور الإنسان بضعف وذلة لربه ومولاه الذي خَشَعَ له وخشيه وأشفق منه -سبحانه وتعالى-.

أما الخشية: فقد عرفها أهل العلم أيضاً بأن الخشية هي الخوف من الله -تبارك وتعالى- أو إشفاق مصحوب بخوف وبالتالي الخشية قالوا: أخص من الخوف ، الخوف أعم يكون مع الخشية وبدونها، أما الخشية تكون مع الخوف من مقام رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- ولذلك جعلها رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- للعلماء، وأضافها إليها فقال: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨] فالخشية إذن خوف مقرون بمعرفة، ليس خوفاً مطلقاً، وإنما خوف مقرون بمعرفة لله -تبارك وتعالى- وبقدره وبمقامه وكلما كان الإنسان أعرف بالله -عز وجل- وأعلم به كان أشد خشية له، ويؤكد ذلك ويؤيده قول النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: (إني لأتقاكم لله وأشدكم له خشية) -صلوات الله وسلامه عليه-، ولذلك أقول: لابد للمؤمن من خشية تقوم في قلبه أي خوف مع حرص على عمل الخير وفعل الطاعات، خشية قائمة على المعرفة، قائمة على ما قام في نفسه وتدبره من آيات ربه من كتاب الله -تبارك وتعالى- وسنة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بما يليق بذي الجلال والإكرام من صفات الكمال والعظمة التي هي لله -عز وجل- وتُورث خشية في قلب المؤمن يخاف من خلالها ربه ومولاه ليصل بعد ذلك إلى النعيم المقيم الذي أعده الله -عز وجل- لمن خاف مقام ربه الأعلى، ولو تتبعنا آيات القرآن الكريم سنجد أن الخشية مهمة بمكان، والله -عز وجل- قد أمر أولاً الناس بها، يعني أن يخشوه -سبحانه وتعالى- وأن يخشوا الوقوف بين يديه، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ ﴾ [لقمان: ٣٣] كما وصف الله -عز وجل- أهل الإيمان بالخشية فقال: ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرعد: ٢١] والذين يبلغون رسالات الله -عز وجل- وأهل الإيمان حقاً هم الذين يخشون الله وحده دون سواه؛ لأنهم يعلمون أنه هو الكبير المتعال، وأنه هو الذي يملك أمرهم فلذلك يخشونه وحده، ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾[الأحزاب:٣٩] إذن الخشية للمؤمن مهمة، والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كما في سنن الترمذي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- ذكر أمراً عظيماً جداً لمن يخشون رب العزة والجلال، وستأتي إضافة له الآن، هذا الأمر أن الله -عز وجل- حرَّم على النار عين بكت من خشيت الله -تبارك وتعالى-، عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: (عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله وعين باتت ساهرة تحرس في سبيل الله)، إذن يا أهل الإيمان، عليكم بخشية رب العباد -سبحانه وتعالى- يعني الخوف من مقام الله -عز وجل- الرقة في التعامل يعني قلبك يكون خائفاً وجلاً من الله -عز وجل- والوجل في القلب صفة مهمة جداً لأهل الإيمان وقد سبق أن أشرت إليها، وجاءت في أوائل سورة الأنفال، ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢].

ثم بعد ذلك لأهمية هذه الخشية أقول بأن الله -تبارك وتعالى- وعد من يخشاه بعد ذلك بأمور متعددة على رأسها الفوز والنعيم المقيم في الدار الآخرة، وقد يقول البعض بأن الفوز هو النعيم، وأقول: حقاً، من يتنعم فقد فاز، ولكنني أنص على الفوز كي يشمل الفوز في الدنيا والآخرة ، لأن البعض قد يظن أن النعيم المقيم هو في

الدار الآخرة ولا يكون نعيمٌ ولو كان متقطعاً أو أقل من النعيم المقيم في الدار الدنيا وقد يحصل هذا لبعض الإيمان ، يعني يعيش في فقر أو بؤس أو ضيق أو مرض، وهو مؤمن بالله -عز وجل- فالفوز يشمل الدنيا والآخرة، وقد نص الله على ذلك في كتابه ووعد من يخشاه بالفوز والفوز يشمل الدنيا والآخرة كما وعدهم بالنعيم المقيم في الدار الآخرة، أما بالفوز ففي قول الله جل ذكره: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: ٥٢] وأما عن النعيم المقيم ففي سورة البينة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ لمن هذا كله يا رب؟ قال: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٧، ٨] فعليكم يا أهل الإيمان بالخشية التي تقوم في القلب توقرون من خلالها ربكم -سبحانه وتعالى- وتقومون من خلالها بما افترض الله -سبحانه وتعالى- عليكم، وأؤكد مرة أخرى أن الخشية خوف مقرون بتعظيم أو خوف مقرون بمعرفة، ولا يكمل ذلك إلا لأهل الإيمان حقاً، ولذلك كانت أكمل درجات الخشية لمن ، للنبي الكريم -صلوات الله وسلامه عليه- ؛ لأنه أعلم الناس بالله وأخشى الناس لله -صلوات الله وسلامه عليه-.

الصفة الثانية التي وصفت بها هذه الآيات أصحاب الخيرات الحقيقية بعد أن بين الله -عز وجل- زيف المكذبين المنكرين بالأنبياء والمرسلين.

الصفة الثانية: ما جاء في قول الله -تبارك وتعالى- : ﴿ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ يعني يؤمنون بآيات الله -عز وجل- وقد اختلف العلماء ما المراد بآيات الله هنا؟ فقيل: المراد بالآيات هي الآيات التنزيلية، يعني التي نزلت من عند الله -تبارك وتعالى- آيات القرآن الكريم، وقيل المراد بالآيات: الآيات الكونية، يعني الكون المفتوح وما فيه وما بثه الله -عز وجل- وقيل: مجموعهما، وهذا هو المراد -والله أعلم- ونفهم من ذلك أنه ليس المراد بآيات الله ﴿ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أنهم يصدقون بهذه الآيات لأن الحديث عن قوم آمنوا وصدقوا، فيكون المراد إذن من الآيات التنزيلية والآيات الكونية والإيمان بهما يعني أن يتدبر الآيات التنزيلية يعني ما نزل من عند الله -تبارك وتعالى-، فيقرؤوا القرآن الكريم ويتدبروا معناه ويفهموا الآيات التي نزلت فيه، ثم يقوموا بالعمل وفقاً لما جاء في هذه الآيات من أحكام، كذلك ينظر في هذا الكون، الآيات الكونية ويتأمل فيه، وقد كان النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يفعل ذلك، كما في حديث ابن عباس: (كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا قام من الليل للتهجد، نظر إلى السماء وقرأ قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠] ﴾ وقد ذم الله -عز وجل- الذين يعرضون عن آيات الله الكونية، فلا يتأملوها ولا يتدبروها ولا ينظرون إلى ما بثه الله -عز وجل- في الآفاق من آيات ترشد إليه، وتشير إليه، وتدل على عظمته وتفرده بالملك سبحانه، فيقول جل ذكره ذاماً لهؤلاء الذين لا يتأملون هذه الآيات: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: ١٠٥].

الإمام ابن كثير -رحمه الله تعالى- ونحن يدور حديثنا حول تفسيره ذكر كلمة جميلة عند تفسيره لهذه الآية: ﴿ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ قال -رحمه الله تعالى-: «المراد بالآيات الآيات الكونية الشرعية، فما كان منها مأموراً به»، يعني أمر الله -سبحانه وتعالى- به «فهو مما يحبه الله ويرضاه، وما كان منها يكرهه -عز وجل- فهو يبغضه ويأباه»، وقال بأن الآيات إذن هنا: «تكون كقول الله -تبارك وتعالى- عن مريم عليها السلام: ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ ﴾ [التحريم: ١٢]» صدقت بكلمات الله يعني أيقنت بأن ما صار لها وما حدث معها من حملها لعيسى بن مريم -عليه السلام- كل ذلك بقضاء الله وقدره، يعني أن الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله تبارك وتعالى- يريد أن يقول بأن هذه الآية تتعلق بمسائل القضاء والقدر، وأن الآيات المرادة في هذه الآية هي الآيات الكونية القدرية والآيات الشرعية ؛ لأن الآيات إذن تنقسم إلى قسمين أو القدر ينقسم إلى قسمين: قدر قدره الله -عز وجل- عاماً شاملاً لكل ما يقع في الكون، ولا يخرج عنه شيء بمعنى أن كل ما يقع في الكون فقد قدره الله -عز وجل- وأراده إرادة كونية حقيقية، أحبه الله -عز وجل- ورضيه أم لم يحبه ولم

يرضه، والآيات الشرعية هي التي يحبها ربنا -سبحانه وتعالى- ويرضاها، فما أمر الله -عز وجل- به هو مما يحبه ويرضاه، وما نهى عنه -سبحانه وتعالى- فهو مما يبغضه ويأباه، وإن كان قد أراده الله -سبحانه وتعالى- وقضاه، وأعتقد أن هذه المسألة يجب أن تكون واضحة لدى طلبة العلم بهذا الوضوح أو بهذا التفصيل، أن الله -عز وجل- ما قدره تقديراً عاماً شاملاً يقع سواء أحبه الله -عز وجل- أم لم يحبه، أما ما أبغضه الله -سبحان الله- إن وقع فهو يقع تقديراً كونياً لله -عز وجل- وإن كان الله -سبحانه وتعالى- لا يحبه ولا يرضاه ولا يريده ديناً وشرعاً لعباده، وأنا ذكره هذا لأن الإمام الحافظ ابن كثير-رحمه الله تعالى- ذكر هذا في تفسيره وأشار إلى أن المراد بالآيات هي الآيات الكونية الشرعية، يعني قدر الله -تبارك وتعالى- الكوني الشرعي، الكوني بمعنى أن كل ما يقع في هذا الكون فالله -عز وجل- قد قدره وقضاه وأراده سواء أحبه أم لم يحبه، أما الشرعي فهو الذي يحبه الله -سبحانه وتعالى- ويأمر به.

الصفة الثالثة: من صفات أهل الخيرات هي ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ يعني أنهم يوحدون الله -تبارك وتعالى- ويفردون ربهم بالعبودية وحده دون سواه فلا يتوجهون إلى غير الله -عز وجل- ويؤمنون أن الله واحد أحد لا شريك له في ملكه ولا ند ولا شبيه ولا نظير له -سبحانه وتعالى- ويؤمنون أيضاً بما ثبت لله -سبحانه وتعالى- من صفات الجلال والكمال التي تليق به وحده دون سواه ولا يشاركه في ذلك أحد من خلقه، والله -عز وجل- قد نفى الشرك عن هؤلاء القوم، وقد يسأل سائل: ما المراد بالشرك هنا؟ لا شك أن الشرك كما تعلمون ينقسم في الجملة إلى قسمين: شرك أكبر وشرك أصغر، ومنه الخفي الذي يدخل تحت الشرك الأصغر، ولو فصلنا وقلنا: شرك أكبر وأصغر، شرك أكبر وأصغر وخفي، فلا شيء في ذلك، هي مسألة اصطلاحية ليس إلا، وهؤلاء القوم الذين وصفهم هنا رب العزة والجلال ونزههم عن وقوعهم في الشرك به سبحانه، هل التنزيه هنا يقع على الشرك الأكبر أم يقع على الشرك الأصغر؟ لا شك أن الآية تشمل كلا الأمرين ولكن من آمن بالله حقاً وصدق بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وعرف جلال الله وقدر الله -عز وجل- لا يقع في الشرك الأكبر إلا إذا كان جاهلاً، إنما الذي يمكن أن يقع فيه أهل الإيمان وهو الشرك الخطير الذي خاف منه النبي أيضاً -صلى الله عليه وآله وسلم- على أمته المؤمنين هو الشرك الخفي، والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قد خاف على أمته منه، وذكر أنه أخفى من دبيب النمل ، ومن هنا وبهذه المناسبة أحذر عموم أهل الإيمان من الوقوع في هذا الشرك؛ لأن البعض قد لا يقع لإيمانه ولمعرفته بجلال الله -عز وجل- لا يقع في الشرك الأكبر، ولكنه قد يقع في هذا الشرك الخفي أو الشرك الأصغر، وهو أيضاً خطير على أهل الإيمان ولذلك من آمن بالله حقاً وصدقاً لا يقع في كلا الأمرين، والشرك الخفي كي لا يقع فيه الإنسان لابد أن يحقق الإخلاص الكامل لرب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- فلا يلتفت إلى غير الله -عز وجل-، ولا يقصد بعمله إلا وجه الحق -تبارك وتعالى- إن فعل ذلك نجا من كلا الأمرين ألا وهو الشرك الأكبر والشرك الخفي، أو الشرك الأصغر، وهي صفة مهمة يا أهل الإيمان يجب عليكم أن تنزهوا أنفسكم عنها، فلا يصل العبد إلى الخير الحقيقي الذي أعده الله -عز وجل- لأهل الإيمان إلا لمن اتصف بهذه الصفات ومنها تنزيه الله -سبحانه وتعالى- عن الشريك والولد والمثل والكفء أو أن يتوجه العبد بشيء يقوم في قلبه سواء كان خوفاً أو رجاءً أو محبةً أو إنابةً أو تعظيماً لغير رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-.

الصفة الرابعة: التي وصف الله بها ربنا -سبحانه وتعالى- هؤلاء القوم: هي ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ أي يعطون العطايا وقلوبهم خائفة أيضاً من مقام رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- يقومون بما أوجب الله -سبحانه وتعالى- عليهم، وهم مع ذلك يخافون مقام رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، والإعطاء أو الإيتاء الوارد في هذه الآية يشمل الإيتاء الواجب لرب العزة والجلال على العبد كالزكاة والكفارات وغير ذلك، ويشمل الإيتاء الواجب على العبد لغيره من الناس فيما وجب عليه، كالأمانات والودائع والصدق وما إلى ذلك، كل هذه حقوق، سواء كان منها ما يتعلق بحق الله أو ما يتعلق بحق المخلوقين المؤمن يعطي هذا وهذا، ويؤدي هذا ويؤدي هذا ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ يعني خائفة ﴿أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾، هنا يصف رب العزة والجلال هؤلاء القوم الذين

يعطون أن قلوبهم وجلة ﴿ وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ في محل نصب على الحال ، والمعنى أنهم حينما يقدمون ما يقدمونه لله -عز وجل- خائفون أيضاً من مقام رب العزة والجلال سبحانه، لماذا؟ خوفاً منهم من أن يكونوا قد قصروا في شيء من شروط الإيتاء أو الإعطاء، أو وقع منهم شيء من المخالفات التي تمنع عنهم قبول العمل ولذلك يقدمون ويخافون، ووصفهم بذلك يدل على أنهم يريدون وجه الحق -تبارك وتعالى- ويدل على ذلك أن الله -جل ذكره- ختم الآية بقوله: ﴿ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ يعني أنهم يفعلون ما يفعلون لحسابهم ولأنهم يؤمنون ويعتقدون أنهم سيقفون ويرجعون لله -تبارك وتعالى- وأنهم سيسألون عما قدموا، فيرغبون ويودون أن تكون أعمالهم مقبولة عند رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، ولذلك في البخاري ومسلم وغيرهما: (أن النبي - صلى الله عليه وسلم- سألته أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، هذه الآية ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ قالت: هو الرجل يسرق ويزني ويقتل وهو يخاف الله -عز وجل-؟ قال: لا يا ابنت الصديق ولكنه الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف ألا يتقبل الله منه) انظر إلى موقف أهل الإيمان أصحاب هذه الصفات الخيرة الجميلة الطيبة يفعلون ما يفعلون ويخشون ألا تقبل أعمالهم وألا يعطوا عليها أجراً في الدار الآخرة، فما بال القوم الذين يغترون بمقام رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- أين من غرتهم الأماني وقالوا بأننا آمنا وأننا قد وعدنا رب العزة والجلال بالجنة، وطالما أننا موعودون وإذا لم ندخل نحن بإيماننا الجنة فمن سيدخلها بعد ذلك؟!! ويتكلمون على الله في جرءة عظيمة أين هؤلاء من أهل الإيمان حقاً؟ من أصحاب الخشية من أهل الوجل من المشفقين من مقام رب العزة والجلال سبحانه، يجتهدون في العبادة ويقومون بها لله - عز وجل- ويخافون في الوقت ذاته أن لا يقبل الله منهم، فلا تغرنكم يا أهل الإيمان الأماني ولا يغرنكم بالله -عز وجل- الغرور، ولا تركنوا إلى أعمالكم فقط، بل اعمل الصالحات واسأل الله -عز وجل- أن يتقبل منك فعل الخيرات.

بعد ذلك قال رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- واصفاً هؤلاء القوم وما لهم الذين اتصفوا بهذه الصفات الأربع قال عنهم سبحانه: ﴿ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ يعني أنهم مع هذه الصفات وما هم عليه من هذا الخير يسارعون في الخيرات، وكونهم يسارعون في الخيرات يفيد ذلك أنهم دائماً ينظرون إلى عباد الله المُخلَصين والمخلِصين عباد الرحمن الصادقين فيتنافسون معهم في فعل الطاعات، وهنا وقفة أوجهها إلى أهل الإيمان فأقول: يا عبد الله لا تنظر إلى أسافل الناس وأراذلهم ولا تنظر في دينك إلى المفرطين المقصرين ولكن انظر في دينك إلى أصحاب الدرجات العلا؛ كي تتأسى بهم وحتى تتنافس معهم وتتسارع في الخيرات كما يتسارعون وتود أنك تلحق بأفعالهم فتنال بذلك مقاماً عظيماً عند رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، فأهل الإيمان حقاً ينظرون إلى أهل الدرجات العلا إلى عباد الرحمن، إلى الذين يسارعون في الخيرات، ويؤكد ذلك قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ يعني أنهم يسبقون الناس إليها، دليل على لأن هناك تنافساً في فعل الخيرات، ﴿ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ يعني أصحاب هذه الصفات يسبقون إلى الخيرات ويسابقون غيرهم ويسارعون غيرهم إليها، فاحصروا يا أهل الإيمان على التنافس في فعل الخيرات.

المحور الثاني: في هذا اللقاء ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى- ﴿ وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ وعنوانه:

المحور الثاني: التكليف على قدر الوسع والطاقة: هذا عنوان هذا المحور، وأول آية تدخل فيه ﴿ وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ لما ذكر الله -تبارك وتعالى- مسارعة هؤلاء القوم الذين وصفهم بهذه الصفات إلى الخيرات، قد يزعم زاعم أو يظن واهم أو متوهم أن ما كلف به هؤلاء الناس يدخل تحت الشدة والصعوبة أو أنه خارج عن الوسع والطاقة، وغير مقدور له، فدفع رب العزة والجلال هذا الوهم فقال: ﴿ وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ وهذه الآية قد ذكرت حكمين من أحكام أعمال العباد، هذه الآية ﴿ وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ قد اشتملت على حكمين من أحكام أعمال العباد:

الحكم الأول: أن التكليف على قدر الوسع والطاقة، التكليف على قدر الوسع، وقيل: الوسع هو الطاقة، وقيل: الوسع هو ما دون الطاقة، يعني أيضاً التكليف دون طاقة الإنسان؛ لأن الله -عز وجل- كما أخبر في كتابه ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥] وهذه نعمة من نعم الله -تبارك وتعالى- على عباده، وقد سبق أن ذكرت لكم في لقاء سابق ونحن نتحدث في أواخر سورة الحج عند قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨] أن الله -سبحانه وتعالى- رفع الحرج عن هذه الأمة وكان التكليف على قدر الوسع والطاقة، وقد ذكرت هناك أمثلة على التخفيف والتيسير في الشريعة الإسلامية وأخشى أن يكون العهد قد طال بنا فهل من أحد ممن هو معنا من طلاب العلم يذكر لي ولو مثالاً واحداً من الأمثلة التي تبين أن التكليف على قدر الوسع والطاقة في الشريعة الإسلامية، وقد ذكرت في ذلك أمثلة متعددة فيما مضى، هل من مجيب؟

في قصر الصلاة يا شيخنا في السفر.

أحسنت يعني هي مسائل كثيرة متعددة كالقصر في السفر والفطر في رمضان أيضاً للمسافر ولغير القادر، وللصلاة لمن لم يستطع أن يقوم فيها فيجلس، وما إلى ذلك وهذا يدل على التخفيف والتيسير في شريعة الإسلام، ولكن هنا مسألة تكلم فيها المتكلمون: هل يمكن أن نقول بأن في الشريعة تكليف بما لا يطاق؟ لأنه ورد مثل هذا الكلام في بعض كتب أهل الكلام، شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تبارك وتعالى- عالج هذه القضية بجواب جميل جداً، هل في الشريعة تكليف بما لا يطاق؟ أجاب -رحمه الله تعالى- وأنا أقول هذا لأنه قد يأتي إنسان فيسألك عن هذه المسألة ويقول لك مثلاً الله -عز وجل- قد كلف مثلاً بعض الكفار بالإيمان وأخبر عنهم أنهم لا يؤمنون وهم أحياء كما جاء في قوله تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾ [المسد: ١] فهل التكليف بالإيمان هنا مع أن الله -عز وجل- أخبر سلفاً أنه لن يؤمن وهو حي تكليف بما لا يطاق؟ كيف تجيب على هذه المسألة؟ نقول: ما لا يطاق يفسر بأمرين أو بشيئين:

أحدهما: ما لا يطاق للعجز عنه فهذا لم يكلفه الله أحداً أبداً، الله -عز وجل- لم يكلف أحداً بأمر لا يطاق.

الآخر: وما لا يطاق للاشتغال بضده فهذا هو الذي وقع فيه التكليف، يعني مثلاً أبو لهب، لم يدخل في الإيمان وهو التكليف له لما يطاق ولكنه انصرف عنه لاشتغاله عن الإيمان بالكفر ، فما لا يطاق إذن يفسر بأمرين: ما لا يطاق للعجز عنه، فهذا غير واقع في الشريعة الإسلامية ، وما لا يطاق للاشتغال بضده، لا يطيقه الإنسان لأنه اشتغل بضده فهذا هو الذي وقع فيه التكليف. إذن الحكم الأول الذي أثبتته هذه الآية أن التكليف في شريعة الإسلام على قدر الوسع والطاقة وهي رحمة من الله -عز وجل- بعباده.

الحكم الثاني: الذي اشتملت عليه هذه الآية: ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ المراد بالكتاب هنا : الكتاب الذي يحصي فيه رب العزة والجلال أعمال العباد، والله -عز وجل- يحصي عليك يا أيها الإنسان أعمالك كما قال في كتابه: ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية: ٢٩] والله -عز وجل- في القرآن الكريم قد وصف هذا الكتاب بصفات متعددة وأخبر أن المجرمين مشفقون من هذا الكتاب وأن الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩] كما أخبر ربنا في كتابه أن بعض الناس يؤتى كتابه بيمينه، جعلنا الله وإياكم منهم، بعض الناس يؤتى كتابه بيمينه وأن الذي يؤتى كتابه بيمينه سيكون حسابه حساباً يسيراً: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ [الانشقاق: ٧- ٩] وبعض الناس يؤتى كتابه بشماله: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ﴾ [الحاقة: ٢٥] -أعاذنا الله وإياكم منه-، الذي يؤتى كتابه بشماله ماذا سيكون أمره؟ هل يحاسب حساباً يسيراً أم

حساباً شديداً؟ حساب عسير، حساب شديد، بخلاف أهل الإيمان والله -عز وجل- أيضاً أخبر أن الإنسان أو العبد إذا أنكر شيئًا من هذا الكتاب ختم الله -عز وجل- على فيه وتكلمت جوارحه؛ لتصدق ما جاء في هذا الكتاب كما قال -سبحانه وتعالى-: ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: ٦٥] ولذلك على المؤمن أن يكون على حذر وأن يسعى في هذه الحياة الدنيا لأن يكون كتابه الذي يسجل عليه فيه الخير وفيه العمل الصالح وفيه الطيبات وفيه المنافسة والمسارعة في فعل الخيرات لأنه سينشر هذا الكتاب بين يديك يا عبد الله في يوم الدين، والله -عز وجل- يقول: ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ﴾ [الجاثية: ٢٩] ﴿ وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [المؤمنون: ٦٢] ومعنى نطق الكتاب بالحق أن كل ما فيه حق مطابق للواقع فكل ما فيه سجله الله -عز وجل- أزلاً، ثم سجلته الملائكة الكرام وقد سبق أن أشرت إلى شيء من ذلك، والكتاب يوضع يوم القيامة بالحق لأن الله -سبحانه وتعالى- هو الحق، وهو -عز وجل- يفصل بين الناس بالحق.

وهذا يفيد أيضاً -هذا الأمر- يفيد فائدتين: قوله تعالى: ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ يفيد:

- أن على الكفار والمشركين وأصحاب المعاصي والذنوب أن يرجعوا عن غيهم وعن كفرهم وعن ضلالهم ومعاصيهم؛ لأن الأمر حق، وكله صدق، وهو واقع لا محالة.

- تطمئن أهل الإيمان، وتدخل عليهم السكينة وهي أن أعمالهم لن تضيع هباءً منثوراً وإنما سيجزون عليها خيراً، ويؤكد ذلك قوله -سبحانه وتعالى- في ختام هذه الآية ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ وهذا كقول الحق جل ذكره: ﴿ وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

ثم قال -سبحانه وتعالى- بعد ذلك: ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ يخبر رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- عن هؤلاء المكذبين المنعمين المترفين هؤلاء القوم أنهم قلوبهم في غمرة، في سكرة التفت حول قلوبهم، فطمست عنهم نور الإيمان ، والله -عز وجل- كلما أنزل شيئًا من كتابه على هؤلاء المكذبين الذين ختم الله -سبحانه وتعالى- على قلوبهم انصرفوا عن الحق الذي جاء من عند الله -تبارك وتعالى-، كما قال جل ذكره: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء: ٤٥، ٤٦] هذا فعله الله -عز وجل- بهؤلاء الكافرين وهو المعنى أو المقصود بقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا ﴾ في سكر في ضياع في لهو، التف حول قلوبهم لأن الله -عز وجل- قد ختم عليها، ثم يقول سبحانه: ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ يقول الإمام حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس -رضي الله تعالى عنه-: (﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ ﴾ يعني سيئات من دون ذلك وهي الشرك بالله -تبارك وتعالى-، ﴿ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ يعني هم لها مأدون وقائمون وفاعلون لها لماذا؟ قال: لتحق عليهم كلمة العذاب، ويصدق فيهم وعيد رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-) والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قد أكد هذا في سنته وذلك كما جاء في حديث البخاري ومسلم أيضاً وغيرهما أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: (فوالذي نفسي بيده أو فوالله الذي لا إله إلا هو إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخله) هذا تأكيد لقول الله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ يعني من حقت عليه كلمة العذاب سيؤدي الأعمال التي تؤدي به إلى أن يدخل جهنم وبئس القرار.

المحور الثالث: من كذب من المترفين له عند الله عذاب عظيم:

وأول آية حول هذا الحور ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ حتى هذه هي التي يبتدأ بعدها الكلام والكلام هو الجملة الشرطية التي أتت بعد حتى، ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ ﴾ والمعنى أن الله -تبارك وتعالى- إذا أخذ المترفين المنعمين بالعذاب ﴿ إِذَا هُمْ

يَجْأَرُونَ ﴾ والله -عز وجل- سيأخذ ولا شك لأن ما توعد به هؤلاء المترفين واقع لا محالة، سيأخذ هؤلاء المترفين الذين كذبوا واستكبروا، أما من آمن فهو مع من آمن من أهل الإيمان في الحياة الدنيا سواء كان وسع الله -سبحانه وتعالى- عليه وأعطاه ما أعطاه وإنما المراد هنا بهؤلاء المترفين المكذبين المنكرين لرسالة النبي الكريم -صلوات الله وسلامه عليه-، والله -عز وجل- قد توعدهم في هذه الآية كما توعدهم في آيات أخر: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾ [فاطر: ٣٦] أعاذنا الله وإياكم من هؤلاء القوم الذين ذكر الله -سبحانه وتعالى- عنهم، والآية تصور أن الله -سبحانه وتعالى- إذا أخذ هؤلاء المترفين خرجت منهم صيحات ووقع منهم الوعيد والنداء ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ والجؤار هو الصراخ والنداء، كما قال الله -سبحانه وتعالى- في قوم من هؤلاء: ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلاَتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ ﴾ [ص: ٣] وقد ذكر الله -عز وجل- عن هؤلاء المكذبين وهم يعذبون في نار جهنم أنهم سينادون، سينادون ولكن ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ [الزخرف: ٧٧] ماذا سيكون الجواب؟ ﴿ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧] لأنهم بغوا ولأنهم طغوا ولأنهم استخدموا النعم التي مكنهم الله -سبحانه وتعالى- فيها في الوقوف أمام الإيمان بالله -عز وجل- والتصدي للأنبياء والمرسلين والتكذيب بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بل تعدى ذلك إلى أمور أخر ألا وهي السطو والإيذاء لأهل الإيمان كما ستأتي الإشارة إلى ذلك.

إذن هؤلاء المترفين ذكر الله -سبحانه وتعالى- عنهم أنه إذا أخذهم بالعذاب خرج منهم الوعيل والنداء وصرخوا وجأروا والجؤار كما ذكرت هو الصراخ ولكن لا مجيب لهم، ولا مناص عما وقع بهم كما ذكرت الآية ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الزخرف: ٧٧] وهنا رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- يؤكد ذلك بعد أن قال: ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ قال لهم: ﴿ لاَ تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لاَ تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ تجأرون أو لا تجأرون ترتفع أصواتكم أو لا ترتفع افعلوا ما بدا لكم، فلن يكون لكم ناصر ولا محيد ولا مناص عما وقع بكم، لأنهم لا ينصرون بنص هذه الآية، وإذا كان الله -عز وجل- لن يرحمهم وهو أرحم الراحمين فمن الذي يملك لهم بعد الله -عز وجل- شيئًا؟ والله -عز وجل- في كتابه يقول: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف: ٢٩] فهؤلاء الكافرين عليهم أن يتنبهوا تماماً وأن يستمعوا إلى هذه الآيات المحكمات؛ لأن الوعيد الذي ذكره رب العزة والجلال -سبحانه- سيقع حتما كما ذكر رب العزة والجلال وهم لا مناص لهم، ولا محيد عما سيقع بهم والآيات تخبر أنهم سينادون وسيجأرون وسيصرخون وسيستغيثون ولكنهم كما قال الله: ﴿ وَلاَتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ فارجعوا إلى الله -عز وجل- وآمنوا بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- واتبعوا هذا النبي الذي بعث من قِبَل رب العزة والجلال سبحانه قبل أن يقع بكم ما وقع.

ثم يقول رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ الله -عز وجل- بين في الآية السابقة أنه لن ينصر هؤلاء الكافرين وأنهم سيستغيثون وسيصرخون وسينادون وسيطلبون ولكنه لن يجيب عليهم أحد، ولن تنفعهم شفاعة الشافعين ولن يستفيدوا شيئًا ينفعهم في يوم الدين ، هذا ما قررته الآية السابقة هذه الآية والآية التي تليها تبين العلة في ذلك، ما السبب يا رب؟ لماذا منعت عنهم شيئًا من فضلك وإحسانك ؟ بينت هذه الآيات أن هذا بسبب ما قدمت أيديهم، وقد ذكرت الآية ثلاثة أمور وقع فيها هؤلاء الناس: ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾

الأمر الأول: الذي ذكرته هذه الآيات عن هؤلاء الناس أن آيات الله -تبارك وتعالى- إذا تليت عليهم رجعوا القهقرى ما استجابوا لها بل انقلبوا على أعقابهم خاسرين، والعقب هو مؤخر القدم، والنكوص هو الرجوع إلى الوراء كقول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ ﴾ [الأنفال: ٤٨] يعني رجع إلى الخلف وإلى الوراء، فأول أمر وقع من هؤلاء الكفار المكذبين المشركين وكان سبباً في وقوع الوعيد عليهم، وعدم نصرة الله -عز وجل- لهم عندما ينادون ويستغيثون ويصرخون أول أمر أنهم إذا تليت عليهم آيات الله -تبارك وتعالى-

ارتدوا على أعقابهم، رجعوا، لم يلتفتوا إلى آيات الله -عز وجل- ويا ليت الأمر وقف عند هؤلاء الناس عند هذا الحد بل إنهم رجعوا القهقرى ونكصوا على أعقابهم ولم يستجيبوا للآيات ثم بعد ذلك ظلموا وآذوا من آمن واستجاب لهذه الآيات، وقد ذكرنا ذلك في سورة الحج وأعتقد أن القوم لن يتذكروا هذه الآية، ذكرنا هذا في أواخر سورة الحج ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَ﴾ [الحج: ٧٢] يعني ما وقفوا فقط أو ما كان الأمر منهم أنهم رجعوا القهقري عن هذه الآيات ولم يسلموا بها بل إنها إذا تليت عليهم شعروا بشيء من الضيق، وبشيء من الغضب وظهر ذلك على وجوههم، ثم بعد ذلك لم يتركوا أهل الإيمان، فآذوهم وفعلوا بهم ما فعلوا، وهذا يقع من الكافرين كثيرًا، والله -عز وجل- قد أخبر عنهم بذلك في أكثر من موضع، كقوله تعالى: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾ [غافر: ١١] لا ما في خروج، لماذا؟ ﴿ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾ [غافر: ١٢] فأهل الكفر وأهل الشقاق وأهل النفاق والذين ارتدوا على أعقابهم خاسرين إذا تليت عليهم آيات الله -تبارك وتعالى- لا يسلمون ولا يؤمنون ولا يستجيبون لها، وهذا من الضلال الواقع منهم وهذا هو الأمر الأول الذي جعل الله -تبارك وتعالى- يخبر عنه في كتابه أنه لن ينصرهم أحد ولن يستجيب لهم أحد، ولن تكون لهم شفاعة عند من؟ عند أرحم الراحمين -سبحانه وتعالى-.

الأمر الثاني: الذي يقع من هؤلاء الناس الاستكبار، ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ ﴾، الاستكبار و ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ ﴾ حال يعني هذه الآية تصور إذن حالة هؤلاء الناس عند إعراضهم عن آيات الله -عز وجل- ألا وهو أنهم يكونون في حالة من الاستكبار الشديد، قيل: المراد بالضمير الوارد ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ ﴾ قيل: ﴿ مُستَكْبِرِينَ بِهِ ﴾ يعني مستكبرين بالبيت، يفتخرون به ، لأنهم كانوا يزعمون أنهم كانوا أولياءه والله -عز وجل- قد نفى ذلك عنهم؛ لأنه أخبر عنهم بأنهم ليسوا بأولياء بيت الله الحرام، لأنهم وقعوا في الشرك وأهل الشرك والضلال والكفر والنفاق لا يليق بحالهم أبداً أن يكونوا من أهل بيت الله الحرام، فلا يجوز لهم إذن أن يفتخروا بهذا البيت الجليل العظيم، الذي وضعه رب العزة والجلال مثابة للناس وأمناً.

وقيل الضمير في ﴿ بِهِ ﴾ يعود إلى القرآن والمعنى أنهم يستكبرون على القرآن الكريم ويذكرون عنه أنه أساطير الأولين وأنه كذب وما إلى ذلك، وقيل: يستكبرون على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فلا يؤمنون به ، وينظرون إلى من اتبعه من ضعفاء المؤمنين، فيزدرونهم ويتكبرون عليهم وتأبى نفوسهم أن تجلس مع هؤلاء المؤمنين وإن كانوا على شيء من الفقر أو الضعف أو ما إلى ذلك كل هذا من باب الكبر والغرور الذي دخل على هؤلاء الناس، ولا شك أنه قد وقع من الأقوام السابقة وقد أشرنا إلى شيء من ذلك الشيء الكثير كم من أناس استكبروا على الأنبياء والمرسلين. كم من المكذبين والمشركين أبت نفوسهم أن يجلسوا على مائدة واحدة مع أهل الإيمان ويتعلموا القرآن بسبب الكبر الذي ملأ قلوبهم. وهذه صفة وصف بها رب العزة والجلال المعرضين عن آيات الله -تبارك وتعالى- المستكبرين على ما جاء من عنده سبحانه وعلى ما نزل على نبي الهدى والرحمة محمد بن عبد الله -صلوات الله وسلامه عليه-.

وبهذه المناسبة أود أن أوجه كلمة يسيرة لمن يستكبر اليوم على ما بُعث به النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بعض الناس تأخذهم العزة بالإثم ويستكبرون ويشعرون بشيء من العزة والأنفة والاستعلاء على ما جاء من عند الله -تبارك وتعالى- بل البعض وللأسف الشديد يزين له شيطانه ويزين له هواه أنما يأتي به من قواعد وقوانين وتشريعات أعلى وتساير العصر الذي هو فيه وأن ما جاء من عند الله -تبارك وتعالى- لا يصلح أن يكون شريعة للحياة، استكباراً على كتاب الله وهدي رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، وعلى المسلمين أن يربؤوا بأنفسهم أن يقعوا في شيء من ذلك، فلا يشعر الإنسان أو يأخذه الغرور بأن عقله أو بأن هواه أو بأن ما يأتي به من تشريعات هي التي يمكن أن تحل مشاكل العالم اليوم، كلا ثم كلا، يا أيها المؤمنون أقبلوا على كتاب الله -عز وجل- وأنتم في ذلة، وأنتم في خضوع وأنتم تشعرون أن الله -سبحانه وتعالى- هو العلي الأعلى، وأنه هو الغني وحده، وأنكم الفقراء الضعفاء الذين لا تملكون لكم ولا لأنفسكم حولاً ولا قوةً، ولولا رب العزة والجلال -سبحانه

وتعالى- ما كان لكم شيء من الحول ولا من القوة، فلا تتعالوا ولا تتعاظموا ولا يظن الإنسان إذا ملك شيئًا من القوة أنه يمكن أن يسير هذا الكون، فالله -تبارك وتعالى- هو الذي يدبر أمره وإنما يقع في الكون أحيانًا من تسلط للكافرين أو تكبر من أعداء الدين إنما هو من باب استدراج الله -سبحانه وتعالى- كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

الأمر الثالث: الذي وقع من هؤلاء القوم واستدعى أن يعاقبهم الله -عز وجل- بعدم النصر وعدم الاستجابة ما ذكره -سبحانه وتعالى- في ختام هذه الآية وهي ختام اللقاء ﴿ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ والسمر: هو الحديث بالليل، وقد كان المشركن يسمرون عند الكعبة ولكن بأي شيء كانوا يسمرون؟ كانوا يأتون بالقبيح من الكلام والفحش من القول، ولذلك قال الله: ﴿ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ يأتون بالكلام القبيح، بالكلام الفاحش ويذكرون الله -عز وجل- بما لا يليق ويعتدون على القرآن الكريم ويصفونه بما ليس فيه، ويصفون النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ومن معه بما ليس فيه وكل هذا كان يقع منهم أثناء سمرهم بالليل.

بهذه الصفات الثلاثة التي جاءت في هذه الآيات ذكر ربنا -سبحانه وتعالى- أنه عاقبهم بسببها. وبالتالي أنادي أهل الإيمان وأنادي غيرهم ممن لم يؤمنوا ترفعوا عن هذه الصفات فلا تردوا شيئًا من آيات الله -عز وجل- واصغوا الآذان والأسماع إلى ما جاء من عند الله -تبارك وتعالى- إذا تليت عليكم آيات الله اسمعوا لها وأنصتوا لها ولا تتكبروا عليها وإذا جلستم بالليل فقوموا لله خاشعين قانتين ولا تسمروا بالفجر والفحش من القول، وأوجه ذلك حتى لا يسمر أحد من المسلمين أيضاً بما لا يرضي رب العزة والجلال سبحانه، وأكتفي بهذا وأصلي وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فضيلة الشيخ كان هناك ثلاثة أسئلة من الحلقة السابقة وردتنا إجابة واحدة على سؤالين فقط، كانت الإجابة من الأخت الكريمة من السعودية،

وكان السؤال الأول: قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ ما المراد بالاستفهام في ﴿ أَنُؤْمِنُ ﴾؟ ولماذا قال: ﴿ مِثْلِنَا ﴾ ولم يقل مثلينا؟ وما معنى قوله تعالى: ﴿ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾؟

وكانت الإجابة: المراد بالاستفهام في ﴿ أَنُؤْمِنُ ﴾ الاستفهام للإنكار، وقال ﴿ مِثْلِنَا ﴾ ولم يقل: مثلينا لأن الله على حد تعبيرها تقول: لأن الله يجيز في القرآن كما في قوله تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ قال: خير وهو مفرد ولم يقل أخيار ولأن العرب تحب الإيجاز، أما معنى قوله تعالى: ﴿ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ أي أنهم يقومون بخدمتنا خدمات شاقة، فهم عبيد عندنا وقيل: إن المعنى أن فرعون ادعى الألوهية فيحتمل أنهم كانوا يعبدونه.

فعلاً الحقيقة الجواب صحيح ، ونشكر على هذا الجواب وعلى ذكرها معنى الاستفهام، ولكن طبعاً هي أشارت أيضاً بأنه قال: ﴿ مِثْلِنَا ﴾ ولم يقل مثلينا، لأن العرب تحب الإيجاز، وهذا من البلاغة التي أيضاً نزل بها القرآن الكريم والله -عز وجل- خاطب العرب باللغة التي كانوا عليها، وقد جاء ذكر ذلك كثيرًا في القرآن الكريم.

السؤال الثاني: لماذا كان عيسى وأمه آية ؟ وما معنى الربوة؟ وأين مكانها مع ذكر الراجح في ذلك؟

وكانت الإجابة:

جعل الله عيسى بن مريم وأمه آية لأنه خلق من أم بلا أب وهي آية لمريم من آياته أنه تكلم في المهد ومن آياته أنه يبرئ الأكمه والأبرص ومن الآيات أن زكريا كلما دخل على مريم وجد عندها رزقاً فيقول لها: أنا لك هذا؟ فتقول له: هذا من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

ومعنى الربوة: هو أفضل مكان يبرز فيه النخيل والزروع، ووصف هذه الربوة بأنها ذات قرار واختلف المفسرون في مكان هذه الربوة فقيل: إنها في أرض مصر وقيل: إنها في الرملة وقيل: إنها في فلسطين، وقيل: إنها في بيت المقدس، والراجح أنها في بيت المقدس لارتباط مريم ببيت المقدس عندما نذرتها أمه.

الجواب الحقيقة كافٍ وشافٍ وفيه إضافة وزيادة على المطلوب، جزاها الله خيراً.

السؤال الثالث: اذكر معاني كلمة «أمة» في القرآن الكريم، مع الدليل لما تذكر. وبين كيف تكون ملة الأنبياء واحدة، مع أن شرائعهم مختلفة؟

يقول الأخ الكريم أمة بمعنى إمام: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ ﴾ [النحل: ١٢٠].

وتأتي بمعنى زمن: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴾ [هود: ٨].

وتأتي بمعنى الجماعة أو القوم ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ ﴾ [النحل: ٣٦].

والمعنى الرابع. وتأتي بمعنى فترة من الزمن في قول الله: ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف: ٤٥].

يعني برهة من الزمن أو فترة من الزمن، الجزء الثاني من السؤال.

وبين كيف تكون ملة الأنبياء مع أن شرائعهم مختلفة؟

هذا يعني سهل ميسور على طلبة العلم.

أن أصل دينهم التوحيد واحد ولكن تختلف الشرائع بينهم.

يعني أن أصل الدين أو الملة واحدة الذي هو التوحيد أما الشرائع فتختلف من نبي إلى نبي في الصيام في الصلاة وما إلى ذلك، أما أصل الدين الذي جاء من عند الله -تبارك وتعالى- هو دين واحد ألا وهو إفراد الله -تبارك وتعالى- بالعبودية والوحدانية وعدم اتخاذ شريك له ويؤكد ذلك الحديث؟ (الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى وأبوهم واحد) وهذا هو الاشتراك في الأصل.

الأخت الكريمة من مصر تقول: في الآية السابقة ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ نريد أن نسأل أحيانًا تتكرر أن نكون في بلد مثلاً ولكي يشتغل الإنسان في الدعوة ويدعو إلى الله فإنه مضطر أن يمشي مع بعض الأحزاب التي لا تتمسك بالسنة وطريقة أهل السنة والجماعة مثل بعض أحزاب الصوفية وكذا، ولكننا نمشي معهم بما يخدم الدعوة وبدون التعرض للعقيدة أو كذا أو أخطاء في العقيدة، فهل يجب على الواحد ألا يتحزب أحزاباً؟

وبالنسبة للمسارعين في الخيرات، الإنسان يمكن أن يعمل خيراً كثيراً في حياته ولكنه لا يجدد النية دائماً فهل يكون بنية شاملة واحدة في حياته كلها أم عليه أن يجدد النية في كل عمل؟

الأخت الكريمة من مصر تقول: حديث (إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى يكون بينه وبينها ذراع) هذا المعنى يصيب الناس ببعض الإحباط لأنهم يتساءلون: ما دام أن كل شيء مكتوب من قديم الأزل فلماذا يعمل الناس؟

السؤال الثاني: هناك تخبط بين الناس في التفرقة بين المنافق والفاسق، على أساس أن هناك بعض الناس الذين يأخذون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، فهم يصلون ويصومون ويحجون لكنهم يقولون على بعض القواعد الشرعية: هذا لا يصلح لهذا العصر. فما حكمهم.

الأخت الكريمة كان لها سؤالان: سؤالها الأول: عن قول الله –عز وجل–: ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ وهل يجوز العمل في أحزاب لا تنتهج منهج أهل السنة والجماعة؟

في الحقيقة لقد كررت هذا كثيرًا مطالبون بأن نلتزم بكتاب الله وسنة النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– وفق ما فهمه الصحابة ومن تبعهم بإحسان من هذا الدين، التفرق والتكتل والأحزاب والشعارات المتعددة أو المختلفة من لم يكن منها رافعاً راية القرآن الكريم والسنة النبوية فلا ينبغي أن يصرف الإنسان جهده فيه ؛ لأنك أيها المؤمن مطالب بما جاء في القرآن الكريم وبما جاء في السنة النبوية المطهرة، كل إنسان قد يدعي ذلك، بأنه متمسك بالكتاب والسنة، أو رافع راية الكتاب والسنة، ولذلك نؤكد ذلك ونفصله ونوضحه أكثر بأن نتبع القرآن والسنة وفق ما فهمه سلف هذه الأمة من صحابة النبي الكريم –صلى الله عليه وسلم– وتوضيح ذلك أكثر بأهمية مثل هذه المسألة، القرآن الكريم نزل على النبي –صلى الله عليه وسلم– والنبي –عليه الصلاة والسلام– عاش بين ظهراني الصحابة شرح لهم الدين، وبين لهم معاني القرآن الكريم وكان كلما استغلق عليهم أمر سألوه –صلى الله عليه وسلم– فوضحه لهم، والصحابة –رضوان الله تعالى عليهم– هم الطبقة الوحيدة المثلى، الذين فهموا الدين فهماً صحيحاً من النبي –صلى الله عليه وسلم– وطبقوه تطبيقا عمليا على أرض الواقع، ما فيه أمة من الأمم جاء فيها كصحابة النبي الكريم –صلى الله عليه وآله وسلم– وبالتالي نحن نقول: هذه الأمة التي فهمت هذا الفهم وتلقت هذا التلقي من النبي –عليه الصلاة والسلام– وطبقت هذا التطبيق علينا أن نسلك طريقها، وأن ننهج نهجها فأي حزب لا يتبع كتاب الله وسنة النبي –صلى الله عليه وسلم– لا يتبعه الإنسان، وأخيراً أو ختاماً أقول: ليس في الإسلام أحزاب، الإسلام ما فيه شيء اسمه حزب، ولا تكتل على غير القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة فحزب الله، واحد الذي ذكرهم رب العزة والجلال: ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ ﴾ [المجادلة: ٢٢] الذين هم حزب الله من؟ الذين هم المفلحين الذين ذكر الله –عز وجل– أو نص عليهم –سبحانه وتعالى– في كتابه، والدين واحد لا يتعدد، والحق في أصول الدين أيضاً واحد لا يتعدد، وإن اختلفنا في بعض الفرعيات أو في المسائل الفقهية التي يسوغ فيها الاختلاف فهذا ليس اختلافاً في أصل الدين فما نتفق عليه من أصول الدين أمور واحدة لا تكتل فيها ولا أحزاب من ورائها ولا تعدد لهيئات متعددة فيها وإنما يجب علينا أن نرفع راية القرآن الكريم وراية السنة النبوية المطهرة لفهم سلف هذه الأمة لا غير، والإنسان لا يسلك في طريقه إلا هذا المنهج ولا يتبع أي طريقة مخالفة لكتاب الله ولسنة النبي –صلى الله عليه وسلم– حتى لو رأى أن فيها المصلحة، لأن نظره في هذه الحالة سيكون قاصراً، المصلحة في أن تتبع لا أن تبتدع، أن تتفق لا أن تختلف، ونتفق على كتاب الله وسنة نبي الهدى والرحمة –صلى الله عليه وآله وسلم–.

الأخت الكريمة من مصر كان سؤالها الثاني عن المسارعين بالخيرات وأن الإنسان يعمل خيرات كثيرًا إلى أن تصبح عادة دون أن يجدد النية؟

الحقيقة النية محلها القلب ويجب على الإنسان أن يوطن نفسه، في أن يفعل أعماله أو أن يعمل أعماله كلها لله -تبارك وتعالى- وأن يقبل بكليته على الله -عز وجل- وأن يتنافس في الخيرات وقلبه مليء بالإيمان يعني هناك دافع، الدافع إلى فعل الخيرات يدل على أن النية موجودة وأن النية مصاحبة للعمل، فلولا قيام القلب ونية القلب بهذا العمل ودافع القلب إلى القيام بالعمل والتنافس في الخيرات ما قام الإنسان بالعمل، فالإنسان يستحضر النية في كل أعماله ويتنافس ويتسارع في الخيرات، ولا يلتفت إلى غير ذلك، لأنني أخشى أن يلبس الشيطان على الإنسان حتى يصده عن الخير وعن المنافسة والمصارعة في الخيرات، تقول: والله الأعمال أنا أقول أذكار الليل وأذكار النهار إذا جلست على الطعام إذا خرجت من البيت أصبحت المسألة عندي ميكنة أو أن أقوم إلى الصلاة وتعودت عليها خمس مرات فأصبحت كالمكينة، لا، أنت تقوم استجابة وتلبية لرب العزة والجلال مستحضراً النية في الأعمال التي تقوم بها لله -عز وجل-، ويرجى بذلك القبول -إن شاء الله تبارك وتعالى-.

الأخت الكريمة كان لها سؤالان: سؤالها الأول: عن حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع...) إلى آخر الحديث، وتقول: معنى هذا الحديث يصيبها بالإحباط وتحتج بالقضاء والقدر في هذه المسألة؟

في الحقيقة فيه كلمة نقولها دائماً: «الإيمان بالقدر ليس حجة للعصاة ولا لمن كفر»، الإيمان بالقدر ليس حجة لا للعصاة ولا لمن كفر، والله -عز وجل- قد ذم قوم احتجوا بالقدر على شركهم، ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا ﴾ [الأنعام: ١٤٨] الله -عز وجل- ذمهم في سورة الأنعام وفي سورة النحل، وفي سورة الأنعام قال: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ [الأنعام: ١٤٩] عليكم، لماذا؟ لأن الله -عز وجل- حقاً قضى ما قضاه أزلاً ولكن من أين للعبد أن الله -سبحانه وتعالى- قضى عليه وقدر وكتب عليه ما كان، ما قدره الله -عز وجل- يدل على عظمة الله -عز وجل-، فالله -عز وجل- علم أزلاً ما العبد سيفعله، وكتب بناءً على علمه، وعلم الله -عز وجل- السابق لم يدفع العبد إلى أن يعمل ما عمل وإنما لما خلق العبد أو وجد في الفترة التي أراد الله -عز وجل- أو شاء وجوده فيها قام بإظهار معلوم الله فيه، يعني هو قام بفعل ما علمه الله أزلاً فيه وعلم الله -عز وجل- لم يجبره على أن يقع في الكفر أو الشرك أو النفاق أو المعاصي أو ما إلى ذلك، وقد طُرح هذا السؤال على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ، هذا السؤال طُرح على النبي -عليه الصلاة والسلام-، فالرسول -عليه الصلاة والسلام- ذات يوم وهو في بقيع الغرقد ذهب عند القبر وكانت الجنازة لم تأتي بعد فجلس -عليه الصلاة والسلام- وجلس حوله بعض الصحابة فالنبي -عليه الصلاة والسلام- قال: (ما من نفس منفوسة إلا وقد عُلم مكانها من الجنة أو النار) فسأله أحد الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- قال له: أفلا نتكل على كتابنا هذا وندع العمل يا رسول الله؟) -صلى الله عليه وسلم-، وهذا سؤال وجيه من صحابة يفقهون، لما سمع هذا الأمر من النبي -عليه الصلاة والسلام- أن كل ما قدر كان وكل إنسان علم مكانه في الجنة أو النار (أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له من كان من أهل السعادة فسيصير لعمل أهل السعادة ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾﴾ [الليل: ٥، ٦] إلى آخر الآيات) بخصوص هذا الحديث بالذات (إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة) ورد في بعض صيغة ورواياته: (إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يرى الناس) وبالتالي ينحل الإشكال.

الأخت الكريمة من العراق تقول: حول قول الشيخ عند آيات الله -سبحانه وتعالى- الكونية والشرعية مثلاً عن آيات الله الكونية هل أراد بخلقها الابتلاء فقط أم أن لله -سبحانه وتعالى- حكمة ثانية من خلقها؟

هي تسأل ما معنى كونية فيما فهمت أو الذي قدره الله -عز وجل- وهو لا يحبه.

نقول باختصار: كل ما يقع في هذا الكون هو من قدر الله الكوني، يعني لا تتحرك حركة ولا يحدث أمر ولا تقع مصيبة إلا وقدرها رب العزة والجلال وقضاها، لأنه لا يكون في ملك الله ولا يقع في ملك الله إلا ما قدره الله وقضاه، سواء كان هذا المقدور يحبه الله -عز وجل- ويرضاه أو لا يحبه ولا يرضاه، وأفسر المسألة في نصف دقيقة، الله -عز وجل- خلق إبليس وهو رأس الشر كله، خلقه وأراد وجوده أم لم يرد؟ خلقه وأراد وجوده وأنظره إلى أن تقوم الساعة، وهو رأس الشر كله، هذه إرادة كونية قدرية، هل الله -عز وجل- يحب إبليس ويرضى عنه، لا.. ذمه وتوعده بالنار واللعنة وطرده من لعنته فالله -عز وجل- أراد إبليس كوناً وقدراً ولكنه لا يحبه ديناً وشرعاً. والله أعلم.

الأخ الكريم من المغرب يقول: ما هي علامات الإخلاص؟

أحسنت، جزاك الله خيراً، علامات الإخلاص قيل: على رأس العلامات:

- الإخبات لرب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- العبد إذا أخلص لله -سبحانه وتعالى- كان مخبتاً، هذا أول أمر.

- الأمر الثاني أن الله -عز وجل- ينجيه من السوء ومن فعل المنكرات، ومن الوقوع في المعاصي والآثام وأن الله -عز وجل- يكلؤه ويحفظه ويرعاه والدليل على ذلك ما جاء في قصة يوسف -عليه السلام-، ابتلي يوسف -عليه السلام- بما ابتلي به، وأعظم مصيبة كان ابتلي بها وهو شاب ما وقع مع امرأة العزيز له، وبعدما ذكرها رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، بعد ما ذكر ما حدث قال: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ لماذا؟ ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤] فدل ذلك على أن من علامات الإخلاص أن يكلأ رب العزة والجلال عبده الذي أخلص عبادته لربه.

الأخ الكريم من تونس يقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، عندي سؤال لو تفضلتم: ما هي العوامل التي تساعد على تحقيق الخشية الدائمة من الله -عز وجل-؟ وبارك الله فيكم.

في الحقيقة العوامل التي تساعد على أن يخاف العبد من ربه -تبارك وتعالى-:

- ترك ما حرم الله -عز وجل-، ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] فترك المعاصي والآثام والمحرمات، وأن يكف الإنسان نفسه وعينه وجوارحه عما حرم الله -تبارك وتعالى-، تعين على خشية الله -تبارك وتعالى- لأن هذه المعاصي تحول بين العبد وبين قلب العبد، وبين الخشية وبين الوجل وبين ما يمكن أن يقع من العبد من قلب العبد لله -تبارك وتعالى-، فالإنسان إذا ابتعد عن الفواحش والآثام والمنكرات أُعين بفضل الله -تبارك وتعالى- على خشية الله -عز وجل-.

الأخ الكريم يقول: في قوله تعالى: ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ الضمير يا شيخنا ذكرتم ثلاثة أقوال: أما لكم يا شيخنا في ترجيحها، الأمر فيه إشكال بسيط؟

في هذا. والله أعلم أنا نظرت فيها في الحقيقة وذكرها الحافظ ابن كثير الثلاثة ولم أجد من المفسرين من رجح فيها، ولكني أرجح -والله أعلم- مستكبرين بالبيت، لدلالة القرآن الكريم ؛ لأن الله -عز وجل- ذكر عنهم أنهم يتباهون بالبيت ويعلنون أنهم أولياؤه والله -عز وجل- نفى تعنهم هذه الولاية، فالراجح -والله أعلم- أنهم مستكبرين بالبيت، وهذا أيضاً سيكون الضمير فيه دون حاجة إلى أي لون من ألوان التأويل فحينما نقول: ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ ﴾ يعني بالبيت دون أن نقول: مستكبرين بالقرآن ، المستكبرين بالقرآن يعني عن القرآن أو على

القرآن، أما مستكبرين به يعني بالبيت فيكون هذا -والله أعلم- هو الظاهر، وجزاك الله خيراً سؤال طيب الله يبارك فيك.

الأخت الكريمة من السعودية تقول: أحيانًا الإنسان إذا أدى الحقوق الواجبة كالزكاة فإنه يرتاح نفسياً ويفرح لزوال هم الزكاة التي في عنقه، فهل هم مخالفون لقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون: ٦٠]؟

هذا أمر مطلوب فالإنسان يؤدي ما عليه، هو واجب في حقه أن يفعل ذلك ولكن هو في نفس الأمر حينما يقوم بأدائه يحرص على الإخلاص فيه ويسأل الله -عز وجل- القبول، هذه حقوق واجبة مما يتعلق بحق الله ويتعلق بحق العبيد، فأنت حينما تؤدي حق الناس إليهم وهو واجب عليك تؤديه وتسأل الله -عز وجل- أن يتقبل عنك أداء هذا الحق لأنك قد تؤديه مع شيء من القصور فالله -عز وجل- يجبر هذا الأمر ويقبل منك، وهذا مطلوب وهذا مطلوب.

الأخ الكريم يقول: ذكرتم أن الخشية هي خوف مقرون بمعرفة وتعظيم الله جل وعلا، نريد من سيادتكم توضيح الفرق بين الخوف الجبلي والخوف الشركي؟

طيب، جزاك الله خيراً، الخوف الفطري أو الطبيعي أو الطبعي أو يسمى الخوف الجبلي، الذي هو موجود في الإنسان، في كل الإنسان حتى يقع فيه الأنبياء كما ذكر الله تعالى عن موسى -عليه السلام- لما ألقى العصا من يده، وتحولت إلى حية قال الله عنه: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى ﴿٦٨﴾﴾ [طه: ٦٧، ٦٨] وكأن يخرج مثلاً أسد على أحد منكم وهو يسير في الطريق فيخاف فهذا خوف فطري أو خوف جبلي إنما الخوف المراد هنا، أو المعني خوف العبادة، أو ما يطلق عليه بعض العلماء خوف السر، وهو الذي ليس بينك وبين العبد فيه سبب، الذي هو الخوف من الله -تبارك وتعالى-، من مقام رب العزة والجلال، الخوف الذي هو تتذلل فيه وتخاف وتتضرع لرب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- دون أن تكون هناك أمور حسية أو مادية تخاف منها خوفاً فطرياً أو جبلياً، فهو يعبر عنه الخوف هذا بخوف العبادة أو بخوف السر؛ لأنه يقوم بين العبد وبين ربه، الإنسان يقف يأتي في الليل ويقف بين يدي الله -عز وجل- ليصلي ما الدافع إلى ذلك؟ هو خائف من مقام الله -عز وجل-، أمر قام في قلبه، أمر قام في نفسه ليست هناك أسباب مادية تدفعه إلى هذا الخوف، وإنما التحقق أو إرادته أن يحقق عبوديته لله -تبارك وتعالى-، وتقديره لمقام رب العزة والجلال وخوفه من الوقوف بين يديه وطمعه في جنة الله -عز وجل-.

فضيلة الشيخ: هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه المحاضرة.

السؤال الأول: عرف الخشية. وما الفرق بينها وبين الخوف؟ وبأي شيء وعد الله من يخشاه؟

السؤال الثاني: اشرح قول الله تعالى: ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾.

السؤال الثالث: ذكر الله في كتابه أن الكفار إذا تليت عليهم آيات الله أتوا بثلاثة أمور، اذكرها بالتفصيل.

الدرس الخامس عشر: تفسير سورة المؤمنون

فضيلة الشيخ أهلاً ومرحباً بكم

أهلاً وسهلاً ومرحباً بكم وبالحاضرين وبالمشاهدين والمشاهدات ويسعدنا -إن شاء الله تعالى- أيضاً أن نلتقي في هذا اللقاء الكريم المبارك ومع بعض آيات من كتاب الله -تبارك وتعالى- والآيات التي ستستمعون إليها -إن شاء الله تعالى- بعد قليل سأتحدث عنها من خلال المحاور التالية:

المحور الأول: دعوة المشركين إلى تدبر ما جاء به النبي الأمين -صلى الله عليه وسلم-.

المحور الثاني: الرسول -عليه الصلاة والسلام- يدعو إلى الصراط المستقيم.

المحور الثالث: المكذبون السائرون في غيهم مع ابتلاء الله لهم.

المحور الرابع: نعم الله على عباده توجب الشكر له سبحانه.

والآن نستمع إلى آيات هذا اللقاء -إن شاء الله تعالى- فمع الأخ الكريم، فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلاَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

جزاك الله خيراً.

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليك وعلى آله وأصحابه ومن وسلك سبيلهم واقتفى أثرهم واهتدى بهديهم إلى يوم الدين وبعد.

أيها المشاهدون الكرام المحور الأول معنا في هذا اللقاء هو بعنوان: دعوة المشركين إلى تدبر ما جاء به النبي الأمين -صلى الله عليه وآله وسلم-:

المحور الأول: دعوة المشركين إلى تدبر ما جاء به النبي الأمين -صلى الله عليه وآله وسلم-:

وهذا المحور يبدأ بقول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ الله -تبارك وتعالى- كما ذكرت لكم في اللقاء السابق وصف حال المشركين المكذبين للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وذكر أن قلوبهم في غفلة فهم في سكرة يعمهون وقد ختم الله -سبحانه وتعالى- على قلوبهم وأصبحوا في حالة لا يصل الحق إلى شيء من أفئدتهم، بعدما ذكر الله -عز وجل- عنهم هذا الموقف أشار بعد ذلك في هذه الآيات أن ما حصل لهؤلاء الناس كان لأمور أربعة، يعني استكبارهم عن الحق وعدم قبولهم له كان بسبب هذه الأمور:

الأمر الأول: عدم تدبرهم للقرآن الكريم، وعدم فهمهم له، وعدم إقبالهم عليه، فهم كانوا يعرضون عن كتاب الله -عز وجل- فالذي لم ينزل من عند الله -سبحانه وتعالى- كتاب أفضل منه، ونزل وبعث به رسول -صلى الله عليه وآله وسلم- هو أشرف الرسل وخاتم الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليه- فكان الأولى بهؤلاء المشركين ألا يعرضوا عن الذكر الحكيم، وأن يقبلوا على كتاب الله -عز وجل- وأن يتدبروه ويتأملوا ما جاء فيه، وهذا يدفعهم إن نظروا فيه نظرة تأمل إلى الإيمان بالله -تبارك وتعالى-، ولكنهم أعرضوا عن التدبر والتأمل فيما جاء من عند الحق -تبارك وتعالى-، ولو نظروا فيه بعين البصيرة لأيقنوا ولعلموا أنه كلام رب العالمين ولدخلوا في دين الله -عز وجل-، لماذا؟ لأن القرآن الكريم نزل بلغتهم، ويشتمل على ألوان من البلاغة والفصاحة والبيان، لو نظر فيه العربي وهو على قدر من البلاغة والفصاحة والبيان، لأيقن ولعلم أنه كلام رب العالمين، وأن البشر عاجزون عن أن يأتوا بمثله ولذلك نجد أن القرآن الكريم في كثير من الآيات يدعو هؤلاء المشركين إلى تدبر القرآن الكريم، ويشير من خلال هذه الآيات إلى أن هناك دواعي لهذا التدبر وفوائد لهذا التدبر، فمن ذلك مثلاً قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء: ٨٢] يعني يا أيها العربي إن كنت تعقل تأمل وتدبر وانظر في هذا القرآن الكريم وستعلم يقيناً بعد النظر والبحث والاجتهاد وعندك أسلوب البيان فالعرب كانوا من الفصحاة ومن البلاغة بمكان، فلو نظر لأيقن ولعرف ذلك ولذلك قال الله -عز وجل-: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا ﴾ والنظر بعين البصيرة سيعرف صدق ذلك لا محالة، ومن ذلك أيضاً ما جاء في سورة محمد في قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤] وحقاً كما ذكرت في اللقاء السابق، ختم الله -سبحانه وتعالى- على قلوبهم، فلا يجدوا الحق منفذاً ولا يجد القرآن سبيلاً وطريقاً إلى هؤلاء.

الأمر الثاني: الذي جاء في هذه الآيات: وكان سبباً في أن ينصرف هؤلاء الناس عن الإيمان والدخول في دين الله -تبارك وتعالى- ما جاء في قول الله سبحانه: ﴿ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ يعني: هل هم يعتقدون أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- جاء بأمر مخترع جديد لم يسبقه أحد إليه، وواقع الأمر أن المشركين في جزيرة العرب وغيرهم من سائر الكفرة كانوا يعلمون أن هناك رسلاً أرسلهم رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- بدليل أن في مكة نفسها كان فيها بعض الحنفاء الذين كانوا على ملة خليل الرحمن إبراهيم -عليه السلام-، وكانت الديانة اليهودية قريبة منهم، وكان النصارى أيضاً موجودين في جزيرة العرب، وفي غيرها، في الشمال وما إلى ذلك، فإذن خبر الأنبياء السابقين معلوم لدى من؟ لدى المشركين، فالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لم يأت بشيء جديد، وإنما بعث كما بعث الله -عز وجل- غيره من الأنبياء أو من سائر الأنبياء والمرسلين فهو كما قال الله عنه: «ليس بدعاً من الرسل»، -صلوات الله وسلامه عليه-، ولذلك لو نظر أيضاً المخاطبون بالقرآن الكريم في بداية الأمر ولو نظر أيضاً المخاطبون بالقرآن الكريم في هذه الأزمنة لعلموا أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- مرسل كغيره من الأنبياء والمرسلين من قبل الله -تعالى- وأن معرفة الناس بأن الله -عز وجل- أرسل رسلاً وأنزل عليهم كتباً أمر من الوضوح وسمع به العامة والخاصة في الزمن الذي نزل فيه القرآن الكريم وفي هذه الأزمان المتأخرة أيضاً بشيء من الوضوح.

الأمر الثالث: الذي ذكرته هذه الآيات وكان من الدوافع لاستكبار هؤلاء الناس عن الحق، وعدم الدخول في دين الله -تبارك وتعالى- ما جاء في قول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ

﴿٦٩﴾﴾ أي أفهم لا يعرفون النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ومدخله ومخرجه وما كان عليه من الصفات الجليلة الحميدة، وهذه حجة ظاهرة قوية على قريش بصورة خاصة في مثل هذه الآية لماذا؟ لأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- نشأ بين ظهراني قومه، وكانوا يعرفون من صدقه وأمانته وسمو خلقه الشيء الكثير لدرجة أنهم كانوا يشهدون له بذلك، بل إنهم لقبوه بالأمين -صلوات الله وسلامه عليه-، وكانوا يرتضونه حكماً بينهم -عليه الصلاة والسلام-، وكانوا يودعون أماناتهم لديه، وإذا كان الأمر وحالة النبي -عليه الصلاة والسلام- كذلك إذن كان الأولى بقومه حين بعث فيهم وهم يعرفون صدقه وأمانته أن يسلموا له ويتابعوه -صلوات الله وسلامه عليه-.

وقد شهدوا له بالصدق والأمانة في مواطن متعددة كثيرة:

- العرب لما كانوا يسافرون إلى بلاد الشام وبعث النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وعرف قيصر الروم بخبر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وسأل هرقل سأل أبا سفيان عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وسأله سؤالاً محدداً دقيقاً وهو نفسه وهو كافر ألزم الكفار حجة كان ينبغي عليهم أن يعقلوها، هرقل سأل أبا سفيان: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما يقول؟ كنتم تتهمونه بالكذب؟ قال: لا، هذا جواب أبي سفيان وهو كافر، فماذا قال هرقل؟ قال: ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله، وهذا استنباط وجيه، ما كان له أن يدع الكذب عن الناس ثم يأتي بعد ذلك فيدعي الكذب على الله -تبارك وتعالى-، ومثله قال جعفر بن أبي طالب وهو مسلم لما قال للنجاشي ملك الحبشة قال له: وكان ملكاً في بلاد الحبشة وهاجروا إليه في الهجرة الأولى، لما سئل جعفر عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: إن الله بعث فينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته، فذكر من خلال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ما تعرفه عنه العرب، ولذلك كان النبي -عليه الصلاة والسلام- يستغل هذه الصفات الحميدة التي هو عليها -عليه الصلاة والسلام- في أن يستجيب له المشركون وأن يدخلوا في دعوته:

- لما نزل عليه قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤] رقى النبي -عليه الصلاة والسلام- على جبل الصفا ونادى وجهاء قومه ونادى أقاربه اجتمعوا عنده، وفيهم أبو لهب وغيره، فقال لهم النبي -صلى الله عليه وسلم- انظر المدخل واستدلاله -عليه الصلاة والسلام- وربطه بين صدقه بينهم وبين صدقه فيما يدعو إليه من قبل الله -تبارك وتعالى-، قال لهم -عليه الصلاة والسلام-: (أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً خلف هذا الوادي تريد أن تغير عليكم) لو أخبرتكم بذلك خيلاً: جيشاً كبيراً خلف هذا الجبل في الوادي تريد أن تغير عليكم (أكنتم مصدقيّ؟) قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: (فإني نذير لكم، بين يدي عذاب أليم)، قال له أبو لهب: «تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟» فهم كانوا يعرفون النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- والقرآن يقيم عليهم الحجة من خلال هذه المعرفة، أنت تعرف صدقه وتعرف أمانته فلما لا يدفعك ذلك إلى التصديق به ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ .

الأمر الرابع: الذي بينته هذه الآيات وكان سبباً في استكبار هؤلاء الناس عن الحق وعدم الدخول فيه اعتقادهم الجنون في النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، ولذلك قال الله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ يعني هؤلاء يظنون أن به جنوناً، والأمر ليس كذلك؛ لأن الذي به جنون لا يأتي بهذا الحق الذي جاء من عند الله -تبارك وتعالى-، وهذا كتاب كريم والقرآن عظيم الذي عجز الإنس والجن على أن يأتوا بحرف من مثله. هل يمكن بعد ذلك أن يأتي به رجل أصيب بالسكر أو الهزيان فلا يدري ما يقول: ولذلك الهمزة هنا قال فيها العلماء في قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ أم: هنا قيل بأنها للإضراب أم المنقطعة التي تأتي للإضراب، وتأتي أيضاً للاستفهام الإنكاري وقد يجمع بينهما وهذا ظاهر في هذه الآية، فالله -عز وجل- يضرب عن كلامهم هذا لأنه باطل، ثم بعد ذلك ينكر عليهم وصْفَ النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بالجنون، وقد نفى الله -عز وجل- هذا الأمر عنه في آيات كثيرة فقال سبحانه: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ [التكوير: ٢٢] وما صاحبكم يعني به النبي -صلوات الله

وسلامه عليه- ويقول الله له : ﴿ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ ﴾ [الطور: ٢٩] -صلوات الله وسلامه عليه- وكان المشركون وكل من أرسل الله -سبحانه وتعالى- إليهم رسولاً يتهمون أنبياءهم ورسلهم بالكذب ويسخرون منهم وعلى رأس ما كانوا يتهمونهم به هو الجنون، والعلة في ذلك أن ينفروا الناس عنهم وأن يدعوا الناس إلى الانصراف عنهم وعدم الاستجابة لهم؛ لأن العاقل لا يستجيب لمجنون إن ثبت حقاً أنه مجنون، ولكن هؤلاء القوم في الحقيقة افتروا على هؤلاء الأنبياء والمرسلين وكما قيل لآخر نبي -صلوات الله وسلامه عليه- وقيل عنه بأنه مجنون، قيل أيضاً عن أول رسول ألا وهو نوح -عليه السلام-، وقد سبق أن ذكرت قول الحق - تبارك وتعالى- في هذه السورة التي معنا أن قوم نوح قالوا له أو عنه: ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾ [المؤمنون: ٢٥] يعني قيل هذا لآخر نبي -صلوات الله وسلامه عليه- وقيل أيضاً لأول رسول ولا شك أفاد القرآن الكريم أن كل رسول بعث في قومه قيل فيه هذا القول، ويؤكد ذلك ما جاء في قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣] هم في الحقيقة لم يتواصوا به لأنهم بعيدين في الأزمان والديار، فبين كل رسول ورسول فترة، وأمكنة الرسل متفاوتة مختلفة، فلن يلتقي هؤلاء المشركون بعضهم مع بعض حتى يتواصوا بهذا الأمر ولكن الطغيان ومجاوزة الحد والاستكبار والاستعلاء والرغبة في الكذب والشرك والكفر، هي التي دفعت هؤلاء الناس جميعاً إلى أن يتهموا أنبياءهم ومن أرسلهم الله -عز وجل- إليهم بالجنون، وهذا فيه تشابه للقلوب، فكما أن قلوب أهل الإيمان تتقارب وتلتقي فكذلك أيضاً قلوب أهل الشرك والضلال تتقارب، وأفئدتهم تتحد على الباطل وقد أشار الله -عز وجل- في سورة البقرة إلى شيء من ذلك ومن ذلك قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ [البقرة: ١١٨] يعني في التكذيب ثم قال: ﴿ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [البقرة: ١١٨] فهؤلاء في الحقيقة قوم طاغون كما أخبر الله -سبحانه وتعالى- عنهم.

بعدما ذكر الله -عز وجل- هذه الصفات الأربع التي اتصف بها هؤلاء الناس، ولو لم يتصفوا بهذه الصفات لدخلوا في دين الله -سبحانه وتعالى- أفواجاً، وبعد أن عدد الله -عز وجل- هذه الوجوه السابقة وذكرها قال سبحانه مبيناً حال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وحال ما بعث به فقال: ﴿ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ وهذا هو الحق النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- جاء هؤلاء المشركين بالحق والله -عز وجل- في كتابه يقول لهم: ﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الزخرف: ٧٨] فالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أتى بالحق بكتاب الله والهدي الذي نزل عليه من الوحي الذي أرسله الله -سبحانه وتعالى- إليه، ولكن هؤلاء الناس كرهوا هذا الحق الذي أنزل على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ومن كراهتهم للحق أنهم كانوا لا يستمعون له ويأبون الاستماع إليه: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ [فصلت: ٢٦] وهذا لكراهتهم لما بعث به النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، بل كان يوصي بعضهم بعضاً فالمشركون يوصي بعضهم بعضاً ألا يستمعوا للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وقد جاء هذا في السيرة كان أمية بن خلف وأبو جهل وغيرهم كان كل واحد منهم يوصي الآخر ألا يستمع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- ومع ذلك كانوا يذهبون فرادى فيجلسون ويستمعون للنبي -صلى الله عليه وسلم- وإذا انصرفوا تلاقى بعضهم مع بعض فيتعاهدون ألا يستمعوا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- ثم بعد ذلك يعودون هذا كله من كراهتهم وكما كان هؤلاء المشركون يكرهون الذي بعث به النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وهو آخر رسول أيضاً، وكانت هذه الكراهة تدفعهم إلى ألا يستمعوا إلى ما جاء به النبي -عليه الصلاة والسلام- كان قوم نوح أيضاً يفعلون ذلك، أيضاً من كراهتهم لما جاء به نوح كانوا لا يستمعون إلى قوله يقول الله -عز وجل- عن نوح -عليه السلام-: ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾ [نوح:٧] حتى لا يسمعوا: ﴿ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ [نوح:٧] فهؤلاء الناس كرهوا الحق الذي بعث به النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، فقد ذكر ابن كثير -رحمه الله تعالى- عن قتادة: (أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لقي رجلاً فقال له: أسلم، فقال له هذا الرجل: إنك تدعوني إلى شيء وإني له كاره، فقال له النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: وإن كنت كاره) يعني أسلم وإن كنت كارهاً، وإن كره الحق ثم أسلم أقبل عليه وفتح الله -سبحانه وتعالى- عليه وشرح صدره لما جاء به النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-.

وقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ يفيد أن بعض الكفار -من خلال مفهوم المخالفة- لا يكره الحق، لأنه قال: ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ فيدل ذلك على أن بعض الكفار كانوا لا يكرهون الحق الذي جاء من عند الله -تبارك وتعالى- وهذا مفهوم صحيح، مفهوم المخالفة هنا صحيح، فقد كان بعض الكفار وإن لم يؤمنوا لا يكرهون الحق الذي بعث به النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وعلى رأس هؤلاء من؟ أبو طالب، أبو طالب كان لا يكره الذي نزل من عند الله -تبارك وتعالى- وكان يشد من عضد النبي -صلى الله عليه وسلم- ويدفع من أزره ويحميه ويمنع قريشاً من أن تؤذي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ومع ذلك لم يؤمن، ولكنه كان يعرف صدق الرسول -عليه الصلاة والسلام- وهو الذي قال:

ولقد علمت بأن دين محمد *** من خير أديان البرية دين

ولكن الملامة، ملامة قومه له، وتأييدهم له هو الذي دفعه إلى عدم الإيمان بالنبي الكريم -صلى الله عليه وآله وسلم-.

إذن صدق الله -عز وجل- في قوله: ﴿ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾.

ثم قال سبحانه: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ يبين ربنا -سبحانه وتعالى- في هذه الآية أن الحق لا يتبع الهوى، وأنه يجب على الإنسان أن يطرح الهوى وأن يتبع الحق، وقد اختلف العلماء: ما المراد بالحق في قوله تعالى: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ ﴾؟

القول الأول: قال قوم: المراد بالحق هو الله -تبارك وتعالى-، والحق من أسماء الله الحسنى، قال الله -عز وجل-: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ [الحج: ٦] فالحق من أسماء الله -تبارك وتعالى- الحسنى وقد جاء هذا عن مجاهد وأبي صالح والسدي وابن جرير وغيرهم وعزاه القرطبي -رحمه الله تعالى- إلى الأكثرين، ويكون المعنى: ولو اتبع الله -عز وجل- أهواءهم لشرعوا ما لم يأذن به الله -تبارك وتعالى- وأدخلوا شرائع لا تتفق ولا تليق، لأنهم كفار وبالتالي ستفسد السماوات والأرض، ومن الأهواء الباطلة عند هؤلاء الناس ما ذكره الله -سبحانه وتعالى- عنهم يعني من أهوائهم إنكار أن ينزل القرآن الكريم على النبي -صلى الله عليه وسلم- ﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١] هذا من الهوى الذي أصيب به هؤلاء الناس والله -سبحانه وتعالى- عقب على ذلك بقوله لما قالوا: ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ قال: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف: ٣٢] إذن لا يليق أن يترك رب العزة والجلال لهؤلاء المشركين أن يدخلوا الشرائع وهم أصحاب هوى، والله -عز وجل- يقول لهم مثلاً: ﴿ قُل لَّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء: ١٠٠] فمن أين لهؤلاء إذن أن يشرعوا الشرائع للناس أو أن يتبعهم أحد أو أن يضعوا هم ما لم ينزل به رب العزة والجلال شيئًا من البيان أو السلطان؟ ولذلك الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- قال: «في هذه الآية كله، تبيين عجز العباد واختلاف أهوائهم وآرائهم وأن الله -سبحانه وتعالى- هو الكامل»، كامل في صفاته سبحانه، الكامل في كبريائه الكامل في قدره الكامل في شرعه -سبحانه وتعالى-، هذا هو القول الأول في المراد بكلمة الحق، الواردة في هذه الآية ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ ﴾.

القول الثاني: في قوله: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أن المراد بالحق هنا ضد الباطل، الحق الذي هو ضد الباطل، ويكون معنى الآية ولو اتبع الحق أهواءهم وأهواؤهم واقعة في الشرك والكفر والضلال لفسدت السماوات والأرض ؛ لأنه سيكون الحق عندهم هو الشرك واتخاذ الأنداد ونسبة الولد إلى رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- وبالتالي ستفسد السماوات وستفسد الأرض لأن الله -عز وجل- يقول: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢] وهؤلاء يتخذون لله الأنداد والشركاء وأهواؤهم تؤيد ذلك فلو اتبع الحق أهواءهم لوقع أو كان ما كان.

ثم يقول -سبحانه وتعالى- بعدما قال: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾

القول الثالث: قيل المراد بالذكر هنا القرآن الكريم.

القول الرابع: وقيل المراد بالذكر : الشرف والفخر، وكانوا هم في الحقيقة أعني المشركين ومشركي قريش بصورة خاصة لهم منزلة وشرف وفخر أن يكون النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- منهم لو آمنوا به، ويكون معنى الآية بهذا على أن المراد بالذكر هنا هو الشرف والفخر الذي يمكن أن ينالوه لو صدقوا وآمنوا بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لأنه بعث فيهم يكون معنى الآية كقول الله جل ذكره: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف: ٤٤] يعني لشرف لك ولقومك، فالله -عز وجل- يقول: بل أتيناهم إذن بذكرهم إما بالقرآن الكريم وإما بالشرف والفخر من أن يكون النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- منهم ولكن ماذا وقع منهم؟ أو كيف قابلوا الذكر الذي جاء من عند الله؟ قابلوه بالإعراض ولذلك قال سبحانه: ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ تولوا عنه وأعرضوا عنه فلم يأخذوا بالقرآن الكريم إن كان المراد هو الذكر ولم يستفيدوا من بعثة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وكان لهم من الشرف والفخر أن يكون من بينهم خاتم الأنبياء وسيد المرسلين -صلوات الله وسلامه عليه-، وأعاد الله -سبحانه وتعالى- كلمة الذكر هنا للتفخيم، وتعظيم هذا الذكر الذي جاء من عند الله -تبارك وتعالى- أو الذي بعث به النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، فالله -عز وجل- قال: ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ وقد قلت بأن لغة العرب تقتضي البلاغة والفصاحة والبيان، ومن البلاغة هنا الإضمار إذا سبق للشيء ذكر فإذا أظهر الأمر أو ذكر صراحة فيما مضى فيحسن بعد ذلك أن يعبر عنه بضمير الغيبة ليحال عليه، هذا من البلاغة، ولكن القرآن هنا الكريم صرح به مرة أخرى لشرفه ولفخره ولتعظيمه ولتفخيم ما جاء من عند الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾.

ثم يقول سبحانه موجهاً الخطاب لمن يعقل وللنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ولمن يعقل من المشركين الذين يستمعون: ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾ يعني يا أيها النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لا تطلب منهم أجرا ولا تطلب منهم مالاً حتى يكون ذلك سبباً للنفرة عن الاستجابة لك. والخَرْجُ والخراج هو الأجر والجزاء، والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال لقومه كما ذكر القرآن الكريم عنه ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [ص: ٨٦] -صلوات الله وسلامه عليه- فما كان يسألهم على ما يقدمه لهم، مقابل التبليغ شيئًا، ولا كان يستفيد من ورائهم رفعة أو منزلة أو مكانة، بل إنه كان يدعوهم -صلى الله عليه وآله وسلم- إلى الله لأن الله -عز وجل- أمره بذلك، وفي الحقيقة كان هذا هو نهج جميع الأنبياء والمرسلين، كل الأنبياء وكل المرسلين الذين أرسلهم رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- كانوا لا يسألون الناس أجراً ولا يطلبون على ما يقدمون لهم من دعوتهم إلى الخير شيئاً من المال أو الشرف أو الفخر أو ما إلى ذلك مما يمكن أن يسعى إليه الناس ولكن الأنبياء والمرسلين كانوا متجردين في دعوتهم إلى الله -تبارك وتعالى-، نوح -عليه السلام- أول رسول يقول: ﴿ وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ ﴾ [هود: ٢٩] ولذلك مؤمن آل ياسين فهم هذه القضية لأن لو أخذ النبي مالا في مقابلة دعوته الناس إلى الله -تبارك وتعالى- لكان في ذلك تعريض لدعوته وصرف للناس عنه أو سبب لصرف الناس عنه في أنهم يقولون أتى ليأكل من ورائنا أو ليأخذ شيئًا من أموالنا فهم مؤمن آل ياسين هذه القضية فقال لقومه: ﴿ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴿٢١﴾﴾ [يس: ٢٠، ٢١] اتبعوا هؤلاء الناس لا يطلبون منكم شيئًا ولا يريدون منكم مالاً وإنما يدعونكم إلى الله -تبارك وتعالى- وهذه شأن الأنبياء وشأن المرسلين ويجب أن يكون أيضاً شأن أتباع الأنبياء والمرسلين يريدون الإصلاح دعوتهم قائمة على الخير وعلى الحق وعلى الإصلاح وعلى التجرد الكامل وبغيتهم أن يدخل الناس في دين الله أفواجاً، الله -عز وجل- يبين هذا ويذكر في ذلك دعوة الأنبياء والمرسلين وأنها قائمة على الحق وعلى الخير وعلى تقديمه للناس دون مقابل يحصلون عليه ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ﴾ يعني عطاء الله -عز وجل- خير، ما أعده الله -سبحانه- للأنبياء والمرسلين ولمن سلك

طريقتهم في الدعوة إلى الله -عز وجل- خير مما عند هؤلاء الناس، وتختم الآية بقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ وهي تدل على أن أحداً من العباد لا يقدر على مثل نعم الله -تبارك وتعالى- ولا على مثل رزقه ولا على مثل ما عنده من الخير لماذا؟ لأن بعض الناس قد يرزق بعض الناس بسبب، فقد يعمل إنسان ما عند إنسان، فيعطيه شيئًا من المال فنقول: قدم إليه رزقاً ومعنى ذلك أنه كان سبباً فيه، أما الرزق في الحقيقة كله فهو عند الله -تبارك وتعالى-، ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢] وإن قدر وساق أحد من العباد بأسباب مادية رزقاً لأحد من العباد فرزق الله -عز وجل- خير وأبقى وأوفى وهذا في الدنيا، أما في الآخرة فالرزق لا يملكه إلا رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، رزق الآخرة وما أعده الله -سبحانه وتعالى- للمؤمنين في الجنة لا يقدمه لهم أحد ولا يستطيع أحد أن يشارك في شيء فيه، إن كانت في الدنيا هناك أسباب مادية يتخذها بعض الناس فيوصلون شيئًا من الأرزاق إلى غيرهم، وهي من الله وبتقدير الله -عز وجل- ولكنهم أسباب ليس إلا، أما في الدار الآخرة فالرزق كله عند الله -تبارك وتعالى- ولذلك قال إبراهيم خليل الرحمن -عليه السلام- لقومه: ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ [العنكبوت: ١٧].

المحور الثاني: الرسول -عليه الصلاة والسلام- يدعو إلى الصراط المستقيم:

وفي ذلك يقول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾ -صلوات الله وسلامه عليه-، هذه الآية تبين صحة ما جاء به النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وهو أنه يدعو الناس إلى الصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه؛ لأن كلمة المستقيم تفيد ذلك، والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كان قائماً على هذا الأمر، والله -عز وجل- أخبر عنه أنه يهدي إلى الصراط المستقيم قال الله له: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢] وهداه الله -سبحانه وتعالى- قبل ذلك إليه، وامتن به عليه، وهذه نعمة يجب أن نقدرها يا معشر المؤمنين حتى نسلك الصراط المستقيم، إعطاء الصراط المستقيم للنبي -صلى الله عليه وسلم- نعمة من الله عليه، وعلى هذه الأمة والله -عز وجل- يمتن بها على النبي -عليه الصلاة والسلام- في أول سورة الفتح ماذا يقول الله لنبيه -صلى الله عليه وآله وسلم-؟ ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴿٢﴾﴾ [الفتح: ١، ٢] يعني هذا من كمال النعمة على النبي -عليه الصلاة والسلام- بعد الفتح له يخبره رب العزة والجلال أنه قد غفر ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ثم يمتن عليه بهذا الصراط المستقيم من ضمن النعم والمنن، ولا أريد أن أطيل عند هذا الموطن فقال: ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ -صلوات الله وسلامه عليه-، ولذلك الذي أود أن أقوله عند هذه الآية أن أوجه الخطاب لمعشر المؤمنين ولأهل الإسلام: ارجعوا إلى الصراط المستقيم الذي كان عليه النبي الأمين -صلى الله عليه وآله وسلم-، والله -عز وجل- قد أمركم به؛ لأننا نسأل كثيرًا عن التفرق والاختلاف، أو وجود الأحزاب والتكتلات والرايات وما إلى ذلك والله -عز وجل- في كتابه أخبر أن الطريق إليه واحد لا يتعدد، وأن صراطه المستقيم صراط واحد، والأمة كلها أمة أهل الإيمان مأمورة باتباع هذا الصراط المستقيم، في الربع الأخير في سورة الأنعام وختام الوصايا العشر التي افتتحها ربنا بقوله: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٥١] آخر وصية من هذه الوصايا يقول الله فيها: ﴿ وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] يفرد هنا ربنا -سبحانه وتعالى- يفرد الصراط المستقيم لأنه صراط واحد ﴿ صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾ ثم يحذر من اتباع الطرق المؤدية إلى الانحراف أو إلى الضلال أو إلى الهوى والتفرق في الدين ﴿ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ وهنا جمع السبل ؛ لأن صراط الله واحد، ولأن الطريق إلى الله -عز وجل- واحد لأن كتاب الله واحد والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- المبعوث من عند الله -عز وجل- واحد، والأمة أمة واحدة، فصراط الله واحد، أما المخالفون فصراطهم أو طرقهم متعددة ﴿ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- عند هذه الآية خطَّ خطاً واحداً وخط خطوطا متعرجة وقال: هذا صراط الله المستقيم وأشار إليه، وأشار إلى طرق الانحراف والضلال وأخبر أن هذه الطرق خارجة عن الصراط المستقيم وعلى رأس كل طريق منها شيطان يدعو إليه، ولذلك يا أهل الإيمان اتبعوا الصراط المستقيم ونحن علينا أن نتأمل آية نقرؤها في اليوم والليلة لو اقتصرنا على الفرائض فقط سبعة عشر مرة، نتأمل هذه الآية نحن في كل ركعة ندعو الله -عز وجل- أن يهدينا صراطه

المستقيم، فأنت يا عبد الله حينما تقف بين يدي الله -عز وجل- تقول له: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: ٦] فيجب علينا يا معشر أهل الإيمان أن نلتزم بهذا الصراط، وأن نكون وقافين عنده ولا نتجاوز ما أنزل الله -تبارك وتعالى- على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فالصراط المستقيم هو كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وآله وسلم- ونحن لسنا مأمورين بحال من الأحوال إلا باتباع ما جاءنا من عند الله كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، والمخالفون لهذا الصراط خارجون عن الحق بدليل أن الله -عز وجل- بعد أن أخبر وبين عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أنه يدعو إلى الصراط المستقيم وأن الله -عز وجل- هداه إليه، قال الله سبحانه في الآية التالية: ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾، ناكبون يعني حائدون جائرون خارجون معتدون، العرب تقول: نكب فلان عن الطريق إذا زاغ عنها، كذلك الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون، يعني أن المنكرين للبعث حائدون عن الصراط.

إذن يا أهل الإيمان الخارجون عن الصراط هم في الحقيقة لا يؤمنون بلقاء الله -تبارك وتعالى-، ولو آمنوا بلقاء الله -عز وجل- ما حادوا عن الصراط المستقيم ولا خرجوا عن الدين القويم، ومن خرج عنه متوعد بعذاب الله قال الله -عز وجل- في الكافرين: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الروم: ١٦].

ثم يقول سبحانه: ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾، يخبر الحق -تبارك وتعالى- عن شدة كفر هؤلاء الناس، وهو أنه -سبحانه وتعالى- لو رحم هؤلاء الكافرين بأن فتح عليهم الفهم للقرآن الكريم، وجعل فيهم الاستعداد والقابلية لأن يتلقوا عن الله -تبارك وتعالى- ما قبلوه ولاستمروا على كفرهم وعنادهم ومصداق ذلك في قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٣] كذلك قوله: ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ ﴾ هذا القول الأول يعني أن الله لو رحمهم بأن أفهمهم القرآن الكريم لأعرضوا عنه وما استجابوا له، القول الثاني: أن الله -عز وجل- لو رحمهم ودفع عنهم الضر من البلاء والمصائب والجوع والفقر وما إلى ذلك، أيضاً لاستمروا على كفرهم وعنادهم وهو ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يعني لأصبحوا في كفرهم وضلالهم أيضاً سائرون، والله -عز وجل- قد كان في بعض الأوقات يتفضل على المشركين في إزالة الكرب التي تنزل بهم، ولكنهم بعد ذلك يرجعون إلى الكفر والشرك فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين، فلما نجاهم إلى البر ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ ﴾ [العنكبوت: ٦٥] ﴿ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥] ارتدوا على أعقابهم.

طيب أنا أود أن أسأل سؤال للشباب الذين هم أمامي الآن لأنني سبق أن أشرت إلى مثل ذلك هذه الآية تفيد شيئًا في مسألة علم الله -تبارك وتعالى- يعني أنا أقرب لكم المسألة وسبق أن قلتها فما هي؟ ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾؟ ذكر الضحاك عن ابن عباس من باب التقريب -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: كل ما فيه «لو» لا يتحقق أبداً، ومع هذا فالله يعلمه، قلنا بأن الله -عز وجل- يعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون، فيه آية في سورة الأنعام: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ [الأنعام: ٢٨] وهنا قال: ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ وهؤلاء على القول الأول لم يرحموا لأنهم لم يفهموا القرآن الكريم، وقوله -سبحانه وتعالى- في الآية التي ذكرتها آنفاً ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٣] فهو -سبحانه وتعالى- يخبر هنا أيضاً عن كامل علمه وعلى اتصافه -سبحانه وتعالى- بالعلم المطلق وهو أنه يعلم -عز وجل- شك ما كان وما سيكون وأيضاً يعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون، بهيئته التي سيكون عليها ونستنبط هذا من قوله: ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

المحور الثالث: المكذبون سائرون في غيهم مع ابتلاء الله لهم:

وأفتتح هذا المحور بقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ ذكر الله -تبارك وتعالى- في هذه الآية أنه أخذ الكفار بالعذاب، والظاهر أن المراد بالعذاب هنا العذاب الدنيوي، الذي هو العذاب بالقتل والسبي والمرض والمصائب التي تحل بهم وتنزل بهم، أخذ الله -سبحانه وتعالى- الكافرين بالعذاب، ولكنهم ما استكانوا يعني ما خضعوا ولا خشعوا ولا تضرعوا لرب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- ﴿ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ ما وقعوا في شيء من ذلك، والله -عز وجل- يخبر عن الكافرين بأن هذا موقفهم يخبر عنهم في قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٣] والله -عز وجل- قد أخذ كفار قريش بما أخذهم من البلايا والمصائب، من القتل والسبي والجوع قبل ذلك والمرض، لدرجة أن أبا سفيان جاء للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وقال له : أنشدك الله والرحم لو أكلنا العلهز، وهذا موجود عندك في تفسير ابن كثير، والوعلهز هذا كان يفعله العرب عندما يقع بهم شيء من القحط، وهو أنهم كانوا يخلطون الدم بأوبار الإبل ويشونه على النار ويأكلونه من شدة الجوع، وهذا يصور لك أن الله -سبحانه وتعالى- أخذهم بالعذاب الدنيوي وقد جاء في البخاري ومسلم أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- دعا عليهم لما قال: (اللهم سبع كسبع يوسف)، فأخذتهم هذه السِّنة من الفقر، ومن المصائب، ووقعوا فيها، ولكنهم ما استكانوا لربهم، ما ذلوا وما خشوا وما خضوا وما ابتهلوا إلى الله -عز وجل- وهذا معنى قوله: ﴿ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ فهؤلاء لما ينزل بهم البلاء والبلايا داعية إلى أن يرجع الإنسان، إلى أن يتأمل، إلى أن يتفكر؛ لأن الإنسان لا يرغب أن يعيش في الضنك والضيق والمصائب والبلايا وما إلى ذلك، ولكن هؤلاء الناس مع ما ابتلاهم الله -سبحانه وتعالى- به، إلا أن كفرهم كان من نوع شديد، ولذلك بدا لي أن أجعل عنوان هذا المحور ذلك : المكذبون سائرون في غيهم مع ابتلاء الله -سبحانه وتعالى- لهم، فهم لا يرجعون ولا يذلون، ولا يخضعون مهما وقعوا في مصائب وبلايا، ولذلك أنادي عموم الناس اليوم: تقعون كثيرًا في المصائب والبلايا، ألا يدفعكم ذلك إلى أن تقفوا مع أنفسكم وتسألوها: لماذا نحن في ضيق وكرب وبلايا ومصائب؟ إلا يدفعكم ذلك إلى أن ترجعوا إلى الله -تبارك وتعالى-، وألا يشارك أحد من المؤمنين أو المسلمين أو الكفار أو يشابههم فيما هم عليه؟ فإذا وقع به شيء من الضر أو البلاء أو المصائب استكان إلى الله خضع وخشع وذل وابتهل بالدعاء إلى الله سبحانه، وهذا معنى قوله: ﴿ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ فالمراد بالتضرع هنا هو الدعاء والذي لا يسأل الله -عز وجل- يغضب الله -سبحانه وتعالى- عليه، والدعاء عبادة عظيمة يتقرب بها العبد إلى الله -عز وجل-، فيا عبد الله إذا وقعت بك مصيبة أو ألمت بك محنة ليس أمامك إلا أن تقف بين يدي ربك ومولاك، إلا أن تطرق باب الله -عز وجل- وأن تتضرع وأن تخشع وأن تذل لله -عز وجل- ولا تقع فيما وقع فيه أعداء الدين الذين قال الله فيهم: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ والآية تبين قسوة هؤلاء الكافرين وغلظة قلوب هؤلاء الكافرين، ولكن مع هذا كله الله -عز وجل- يبين في الآية التالية أنهم ييأسون من الرحمة ويصيبهم القنوط فيقول سبحانه: ﴿ حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾ وقد فتح الله عليهم من أبواب العذاب ما فتح، وقد أشرت سابقًا إلى شيء من الجوع وإلى القتل الذي أصابهم في بدر وغيرها وإلى فتح مكة وهذا أيضاً من عذاب الله -سبحانه وتعالى- عليهم، فزالت بذلك دولة الكفر ودولة الشرك، ولما فتح الله عليهم أبواب العذاب الشديد الذي أشار إليها، قال: ﴿ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ يعني أيسوا من كل راحة وانقطعت آمالهم ورجاؤهم في أن يعود لهم شيء من النفع، وهذا يبين مصير الكافرين أيضاً في الدنيا، وهو أنهم ييأسون من رحمة الله -تبارك وتعالى- وكذلك هم في الدار الآخرة، وقد أشرت إلى ذلك في اللقاء السابق.

المحور الرابع: نعم الله على عباده توجب الشكر له سبحانه:

وفي ذلك يقول رب العزة والجلال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ الله -عز وجل- يذكر بعض نعمه على عباده، ومن ذلك السمع والبصر والأفئدة كي يدرك الناس حقائق الأشياء على ما هي عليه، ويؤمنوا بالله -عز وجل- الذي من عليهم بهذه الأشياء، ويعتبروا في الوقت ذاته بآيات الله -سبحانه وتعالى- في كونه الدالة على وحدانية الله -عز وجل- وعلى صدق الرسل الذين بعثهم رب العزة

والجلال، والله -عز وجل- أشار إلى السمع والبصر والفؤاد لأن هذه وسائل الإدراك في الإنسان، وسائل الإدراك في الإنسان سمع وبصر وفؤاد، والأفئدة المراد بها القلوب، فأنت تسمع فتأخذ معلومات، تتعلم تفيدك في النظر والتأمل، تبصر ستستفيد من البصر، السمع والبصر يجعلانك تعطي للعقل والقلب إشارات فتتأمل وتتدبر وهذه نعمة من نعم الله -سبحانه وتعالى- على عباده، ﴿ وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ [النحل: ٧٨] بعدها ماذا؟ ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ [النحل: ٧٨] فهي نعمة من الله -سبحانه وتعالى- على عباده، الهدف منها التأمل والتدبر والتفكر، فحقائق الأمور يدركها الإنسان بالسمع والبصر والفؤاد، ولكن وللأسف الشديد بعض الناس أيضاً لا يستفيدون من ذلك، هذه نعم منَّ الله بها على الإنسان، والإنسان يرفض هذه النعمة، ولا يسخرها فيما جعلت له، تأملوا ماذا يقول الله -عز وجل- عن قوم لا يستفيدون من هذه النعم: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٧٩] يعني هم عندهم قلوب ولكنهم لا يستفيدون فيها، لا يعقلون، لهم أعين ولكنهم لا يبصرون بها، لهم آذان ولكنهم لا يسمعون بها، ولذلك يقول الله جل ذكره: ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُم ﴾ [الأحقاف: ٢٦] ما أغنت عنهم هذه الأشياء رغم أنها فيهم؛ لأنهم لم يسخروها أو لم يوظفوها فيما أعطاهم الله -سبحانه وتعالى- ولذلك يقول سبحانه: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ يعني: يا أيها المخاطبون أنتم لا تشكرون نعمة الله -سبحانه وتعالى- عليها، طب شكر نعمة السمع والبصر والفؤاد في ماذا؟ في أن يوظفها الإنسان فيما خلقت به، فيستمع إلى الحق ويبصر الحلال ويعي بقلبه ما جاءه من عند الله -تبارك وتعالى- ويعلم أنه خلق لعبادة الله -عز وجل- فيسخر هذا كله لما يعود عليه بالنفع ولكن كما أخبر الله -عز وجل-: ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ فالذين يشكرون هم قليل والله -عز وجل- ذكر ذلك في كتابه، لما قال: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣] وفي الحقيقة الشكر عمل يقوم به الإنسان ويؤديه والله -عز وجل- يقول: ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ [غافر: ٦١] ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣] ولذلك يجب على المؤمن أن يوظف هذه الوسائل التي من الله -سبحانه وتعالى- عليه فيما خلقت له وتوظيفها هي شكر لله -عز وجل- على نعمته عليك يا أيها الإنسان بهذه النعم، فأنت ما يمكن لأحد أن يعطيك شيئًا من هذه النعم، ولا أن يتفضل عليك بشيء من السمع إن أخذه الله منك، ولا بشيء من البصر إن لم يرد الله -عز وجل- لك شيئًا من ذلك، فلابد يا عبد الله أن تستفيد مما أعطاك الله -سبحانه وتعالى- وأن تشكر نعمة الله -عز وجل- على هذه الوسائل العظيمة التي من الله -سبحانه وتعالى- بها عليك، وأن تستفيد منها ولا تكن ممن ذكر الله -عز وجل- عنهم بأن : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ثم يستمر السياق القرآني في تعداد نعم الله -سبحانه وتعالى- عليكم يا أيها الناس ﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ يخبر ربنا -تبارك وتعالى- عن قدرته العظيمة في هذا الكون، وهو أنه أخرج هؤلاء الناس جميعاً وأوجدهم من العدم إلى حيز الوجود ﴿ ذَرَأَكُمْ ﴾ يعني بثكم في هذه الأرض، أوجدكم على ظهر هذه الأرض، ولم يفعل بكم ذلك إلا رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- فالله -سبحانه وتعالى- هو الذي ذرأ البرية وهو الذي أوجدها وهو الذي أخرجها وهو أيضاً الذي يعيدها إليه مرة أخرى ولو تتأملون أيها الإخوان ستجدون أن الله -عز وجل- حينما يذكر الخلق الأول يذكر أيضاً الإعادة بعد ذلك من جديد، وفي أول سورة المؤمنون التي نحن بصدد الحديث فيها الآن، قول الله -تبارك وتعالى- ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون: ١٢] إلى آخر الآيات، ثم بعد ذلك قال ماذا؟ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١٥، ١٦] فالله -عز وجل- أخرجكم من بطون أمهاتكم وأوجدكم في ظهر هذه الأرض وبثكم فيها يا أيها الناس وهو الذي يعيدكم بعد ذلك مرة أخرى وهذا دليل على تمام القدرة.

طيب، ما النعمة هنا؟ أن الله أوجدك وخلقك وكلفك يا عبد الله كي يتفضل عليك حينما تؤمن بالله -سبحانه وتعالى- ويحنما تصدق بالنبي الذي أرسله الله -تبارك وتعالى- ألا وهو خاتم الأنبياء والمرسلين فتدخل بذلك جنة النعيم، وتستفيد مما أعده الله -سبحانه وتعالى- للمتقين.

ثم يقول -سبحانه وتعالى-: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلاَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ في هذه الآية يخبر الحق -تبارك وتعالى- أنه سبحانه هو الذي يحيي ويميت، وذكر الإحياء والإماتة بسبب أن الإحياء والإماتة من أكبر الدواعي للإيمان؛ لأنها تدل على تفرد رب العزة والجلال بالملك والملكوت، تدل على تفرد الله -عز وجل- بالملك، طالما أنه متفرد بالملك فارجع إلى هذا الإله الواحد المتفرد؛ ولذلك خليل الرحمن إبراهيم -عليه السلام- لما سأله النمروذ عن ربه قال: ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فالإحياء والإماتة من أخص خصائص الألوهية وشئون الربوبية بمعنى أنه لا يفعل ذلك إلا رب، ولا شك أن من يفعل ذلك يكون قادراً ولذلك قال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلاَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ يعني حركة الليل والنهار من يفعلها ويقوم بها؟ رب العزة والجلال هو الذي سخر لكم يا أيها الناس هو الذي سخر لكم الليل والنهار بهذا النظام الدقيق، ونعمة الله -عز وجل- في اختلاف الليل والنهار ظاهرة وواضحة على العباد، فالإنسان يستطيع أن يراوح بين نومه ويقظته وبين عمله وبين راحته، وجد النهار للمعاش والليل للراحة والهدوء والسكينة، وبعدما ذكر رب العزة والجلال شيئًا من هذه النعم دعا إلى التدبر وإلى التعقل وإلى التفكر فقال: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ يعني ألا تعرفون أن الذي وهبكم هذه النعم هو رب الأرض والسماء -سبحانه وتعالى-؟ وبالتالي عليكم يا معشر المخاطبين أن تخلصوا العبادة لله -عز وجل-، وأن تعرفوا قدر وجلال رب العزة والجلال وأنه على كل شيء قدير وأن نعمه عليكم لا تعد ولا تحصى فأقبلوا على كتاب الله وتمسكوا بهدي رسول الله -صلوات الله وسلامه عليه-.

وأكتفي بما قلت وأصلي وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

إجابة أسئلة الحلقة الماضية

كان السؤال الأول: عرف الخشية؟ وما الفرق بينها وبين الخوف؟ وبأي شيء وعد الله من يخشاه؟

كانت الإجابة:

الخشية هي خوف مقرون بمعرفة وعلم وتعظيم لله -جل وعلا- والفرق بينها وبين الخوف أن الخشية هي خوف مصحوب أو مقرون بعلم أو إشفاق مصحوب بخوف فهي أخص من الخوف والخوف أعم، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨] فالعلماء هم أكثر الناس خشيةً وخوفاً من الله -تبارك وتعالى- وذلك لزيادة علمهم به تعالى وبأسمائه وصفاته وكلما زاد العلم زادت الخشية وهي الخوف المقرون بتعظيم الله لذا فهي أخص من الخوف ولا تكمن الخشية إلا لأهل العلم والإيمان.

وعد الله من يخشاه بالفوز والنعيم المقيم في الآخرة قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: ٥٢] وقال تعالى: ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٨] وقال -صلى الله عليه وسلم- من حديث ابن عباس: (عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله) فإن قال قائل: أليس النعيم المقيم في الجنة هو الفوز والدليل قوله تعالى: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران: ١٨٥]؟ قلنا: بلى هو الفوز العظيم والكبير، ولكن الحق -جل وعلا- في آية سورة النور السابقة أوضح أن من يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتقه فأولئك هم الفائزون في الدنيا جزاءً لعملهم ومآلهم إلى الجنة والخلود فيها فالفوز في الدنيا على سبيل البشارة والفوز في الآخرة أيضاً لزيادة اليقين بالله -تبارك وتعالى-.

ما شاء الله الجواب محكم وسديد، ما ترك شيئًا جزاه الله خيراً.

السؤال الثاني: اشرح قول الله تعالى: ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ ؟

وكانت الإجابة:

المراد بالكتاب هو كتاب الأعمال، فالحق –جل في علاه– عنده الكتاب الذي يحصي فيه الأعمال والأقوال قال الله تعالى: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩] فهذا الكتاب كل ما فيه حق لذا قال –جل وعلا–: ﴿يَنطِقُ بِالْحَقِّ ﴾ [المؤمنون: ٦٢] وقوله –تبارك وتعالى–: ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ أي أن الحق –تبارك وتعالى– يكتب لهم كل أعمالهم الحسنة ويضاعفها لهم ويعفو عن كثير من السيئات وهذا من تمام رحمته ورأفته بالعباد ولا يعاقب إلا من استحق العقاب وهذا من تمام عدله –تبارك وتعالى– فهو الحكم العدل.

في الحقيقة الجواب صحيح، ولكن السؤال اشرح، كنت أود أيضاً أن يكون هناك شيء من الإضافة أو الزيادة على ما ذكر من جواب والزيادة في ذلك هو أشار المجيب إلى أن ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ ﴾ إلى ما كتبه رب العزة والجلال في الأذل، وأيضاً نود أن نشير إلى أن الملائكة الكرام أيضاً يكتبون على الإنسان ثم لو أن أحسن المجيب لو ذكر لنا شيئًا مما جاء في القرآن الكريم عن هذا الكتاب وعن صفاته وأن بعض الناس يأخذ كتابه بيمينه فأهل الإيمان وقلنا نسأل الله أن نكون منهم، وبعض الناس يأخذ كتابه بشماله، وما إلى ذلك.

السؤال الثالث يقول: ذكر الله في كتابه أن الكفار إذا تليت عليهم آيات الله أتوا بثلاثة أمور، اذكرها بالتفصيل؟

وكانت الإجابة:

أولاً: النكوص على الأعقاب وهو الارتداد والرجوع إلى الخلف أي إذا دعيتم أبيتم وإذا طلبتم امتنعتم، والدليل قوله تعالى: ﴿ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٦].

ثانيًا: الاستكبار وفيه قولان: الأول: حالهم حين نكوصهم عن الحق ورفضهم إياه استكباراً عليه وتقليلاً واستحقاراً لأهله، والثاني: مستكبرين بالبيت يقولون نحن أهله، فهم يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه والدليل قوله تعالى: ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ ﴾.

ثالثًا: السمر والهجر، والسمر هو الحديث بالليل فقد كانوا يأتون بالكلام القبيح الفاحش ويصفون الله –عز وجل– به ويصفون النبي –صلى الله عليه وسلم– به وقد كانوا يتكبرون ويسمرون بالبيت ويهجرونه ولا يعمرونه كما ذكر ابن كثير –رحمه الله تعالى– في تفسيره هذا والله أعلى وأعلم وأعز وأحكم.

صحيح والله أعلى وأعلم والجواب صحيح.

الأخ الكريم من الجزائر يقول: أرجو من شيخنا الإجابة على هذا السؤال وهو كالآتي: ذكر الله –تبارك وتعالى– في هذه الآيات الكريمات كل سبب موجب للإيمان، وذكر كذلك الموانع وبين فسادها واحداً بعد واحد،

ومن هذه الموانع عدم تدبر القرآن والاقتداء بالآباء، فماذا ترون بارك الله فيكم فيمن ينتسبون إلى الإسلام وهم معرضون عن ذكر الله ولا يتدبرونه ويخالفون ما أمر به الرسول -صلى الله عليه وسلم- ويتبعون ما يمليه عليهم الغرب من أقوال وأفعال وعادات وتقاليد ألا يدخلون في قول الله -جل وعلا- ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ ﴾ [القصص: ٥٠]؟؟.

لا شك أن الانتساب للإسلام لا تكون بأن ينتسب الإنسان فقط إلى والديه المسلمين ليس إلا، وإنما يجب عليه أن يحقق هو الإيمان وأن يتمسك بما جاء من عند الله -تبارك وتعالى-، فلا يكفي الإنسان أنه فقط يولد في بيئة إسلامية ثم بعد ذلك لا يعرف شيئًا عن الدين ولا يقوم بأركان الإسلام ويدعي بعد ذلك أنه داخل في دائرة أهل الإيمان، في الحقيقة كل إنسان مطالب بأن يقف ويتعلم ويعرف ما جاء في كتاب الله وفي سنة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، مما تدعو الحاجة إليه، مما يصح به اعتقاده وتقبل به عبادته، يعني لا نريد أن يكون كل الناس متخصصين في الفقه وعلومه أو التوحيد وعلومه أو ما إلى ذلك، ولكن كل إنسان ملزم بأن يعرف من كتاب ربه وسنة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ما تكون به عقيدته عقيدة صحيحة، وأن يتعلم من أمور العبادات وما يعرف بفقه العبادات ما تقبل به عبادته بين الله أو بين يدي رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، أما أن يكون الإنسان مقلداً وغير متبع وسائر في غيه أو في ضلاله ويقول: إن أبي مسلم وكفاني هذا الأمر ولا يتأمل ولا يتدبر فيما عند الله -عز وجل- أو فيما جاء من عنده، فهذا لا شك أنه شابه الكفار والمنافقين فيما هم عليه، ونحن الآن نجد وللأسف الشديد أن بعض المسلمين قد يخرجون من الإسلام، لماذا؟ لأنه لم يتعلم شيئًا عن الدين لم ينشرح قلبه للحق الذي جاء من عند الله -عز وجل-، رغم أنه ولد من أبوين مسلمين، الدافع إلى ذلك أنه لم يتعلم الهدى ولم ينشرح قلبه للإيمان فأنا أنصح كل مسلم وأولياء أمور المسلمين بصورة عامة أن يعلموا أولادهم ما جاء من عند الله -تبارك وتعالى- وأن يجعلوهم متمسكين بالحق الذي نزل من عند الله -عز وجل-، وأن يحرص الآباء والأمهات على تعليم الناس الخير والهدى والدعوة إلى الله.

سؤاله الثاني فضيلة الشيخ يقول: قال المفسرون: إن المراد بقول الله -عز وجل-: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ ﴾ أي أن الله ابتلاهم بالجوع ليرجعوا إليه، فما الحكمة في نظركم في تخصيص الله -عز وجل- في ابتلاءهم بالجوع عن سائر الابتلاءات الأخرى الكثيرة والتي منها ما ذكر في قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٥]؟؟.

في الحقيقة في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ ﴾ كلمة عذاب كلمة عامة يدخل فيها العذاب بالجوع يعني الفقر بالضيق بالقتل بسائر البلايا والمصائب التي تنزل بهم، وسواء كانت هذه يعني داخلة في قرارة النفس يعني أحيانًا الإنسان يصاب بشيء من الابتلاء النفسي هذا أيضاً عذاب، يأتيه أرق وغم وهم وما إلى ذلك، أو شيء عضوي كالجوع وما إلى ذلك، والجوع لا شك من أوائل ما ينغص حياة الإنسان، يعني ضيق الحال، أو عدم وجود الإنسان لما يقتاته هذا من أكبر المصائب التي تحل به، وإشارة المفسرين إلى الجوع لأهمية قيام الإنسان وجسد الإنسان بالطعام الذي يرزقه الله -سبحانه وتعالى- للعبد، فحينما يأخذهم رب العزة والجلال بالعذاب وأقول بأنه كلمة عامة ومن ذلك الجوع يكون هذا فيه شدة ولفت قوي في أن يرجعوا إلى الله -تبارك وتعالى- لأن الإنسان بحاجة شديدة إلى أن يأكل، والعامة يقولون عن الجوع بأنه قرين الكفر؛ لأن الإنسان إذا جاع يمكن يعني أنه يتلفظ ويخرج ويضيق نفساً بشيء كثير نتيجة الجوع ولكن كلمة العذاب تشمل الجوع وتشمل غيره، وإن كان الجوع مما يدخل فيها وهو من أشد الأشياء التي تنغص على الإنسان حياته، وإذا نغصت عليه حياته تجعله يفكر لعله يرجع أو يؤوب أو ما إلى ذلك.

الأخ الكريم يقول: أود أن أسأل شيخنا في أمرين:

أولاً: ذكرتم فضيلتكم أبا طالب من الذين كانوا يقفون بجوار النبي -صلى الله عليه وسلم- وكانوا يدافعون عن الحق فهل ورد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال لأبي طالب أو صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال لأبي طالب عند موته: (يا عمِّ قل لا إله إلا الله أشفع لك بها عند الله -عز وجل-)، وإن كان النبي -صلى الله عليه وسلم- قال ذلك فهل من قال لا إله إلا الله ولكنه لم يأتِ بأعمال هل يحكم عليه بالإسلام أو الإيمان؟

الأمر الثاني: أنه ورد في كتاب الله -عز وجل- وفي سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- ذم الدنيا، فهل جائز أن أسأل الله -عز وجل- الدنيا للآخرة؟ يعني: أسأل الله -عز وجل- مال مثلاً لأنفقه في سبيل الله؟.

السؤال الأول: أبو طالب كان يقف مع النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فهل جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه دعاه إلى لا إله إلا الله؟ نعم، النبي -صلى الله عليه وسلم- دعاه كما دعا غيره من أهله وأقاربه وسائر المشركين، بل إنه كان أقرب الناس إليه هم أولى الناس بدعوته، والله -عز وجل- أنزل عليه في كتابه ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤] وعند وفاة أبي طالب أتى إليه النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ودعاه إلى أن يقول: لا إله إلا الله ولكنه أبى أن يقول هذه الكلمة.

أما سؤالك عمن قال: لا إله إلا الله ولم يعمل شيئًا هل تنفعه؟ في الحقيقة قائل لا إله إلا الله هؤلاء يتفاوتون إن قالها الإنسان مستيقناً بها بقلبه معتقداً إياها ونطق بها بلسانه وقام هذا الإيمان في قلبه، لابد أن يأتي بشيء من العمل خاصة الصلاة، فمن أتى بركن الإسلام الأول بعد الشهادتين الذي هو الصلاة فيكاد يكون إجماعاً من العلماء على أنه مؤمن وإن قصر في بعض المسائل بعد ذلك أو ترك بعض الأركان بعد هذا سيعاقب عليها أو سيحاسب وهو بين يدي رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- والعلماء كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره مختلفون في تارك مباني الإسلام هل يكفر أو لا يكفر؟ في حين مع اعتقادهم جميعاً أعنى أهل السنة والجماعة أن المسلم لا يكفر بذنب ارتكبه إن كان مؤمناً ما لم يستحل هذا الذنب، أما لا إله إلا الله بمفردها هل تنفعه؟ أقول: نعم، تنفعه في حالة لو أنه آمن ولم تكن هناك فترة زمنية بعد الإيمان، أعنى من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ثم بعد ذلك مات أو قتل أو ما إلى ذلك تنفعه أو لا تنفعه؟ تنفعه، ولم يعمل خيراً قط، ولا أدري هل لأحد منكم يعرف حادثة تبين هذا ؟ تبين أن من قال لا إله إلا الله ولم يسعفه الوقت لأن يلقى يعني مات؟

في معركة اليرموك لما دعا خالد بن الوليد قائد جيش الروم ودخل في الإسلام ومات، فهذا الرجل قال لا إله إلا الله ولم يعمل.

الأخ الكريم يبعد كثيرًا.

النبي -عليه الصلاة والسلام- كان هناك يهودي مرض وزاره -عليه الصلاة والسلام- وعرض عليهم الإسلام وكان أبو هذا اليهودي موجوداً فنظر الفتى، هذا الشاب إلى أبيه فقال: أطع أبا القاسم، فشهد لله بالوحدانية وللنبي بالرسالة ثم مات فخرج النبي -صلى الله عليه وسلم- من عنده أو قام من عنده وقال: (الحمد لله الذي أنقذه بي من النار).

أما السؤال الثاني: الإنسان يسأل الدنيا للآخرة؟ لا شك أن هذه الدنيا نحن مطالبون بأن نعيش فيها وأن نسعى فيها والله -عز وجل- أمرنا بأن نضرب في الأرض كي نستعين بذلك على إعمار هذه الأرض وعبادة الله -سبحانه وتعالى- فيها، والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كان يسأل ربه من خيري الدنيا والآخرة وفي قول الله تعالى في الدعاء: ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا

كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾[البقرة: ٢٠١، ٢٠٢] ما يشير إلى ذلك، المهم ألا يجعل وما يعطاه في قلبه، وإنما يجعل ما يعطاه في يده، ثم بعد ذلك يقبل على الله –تبارك وتعالى–، وقد ورد في الدعاء: (اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولا إلى النار مصيرنا) فإن كان لا تجعل الدنيا أكبر همنا، يعني إذن نحتاج منها إلى شيء ولكن لا تكون الدنيا هي هم الإنسان ومقصده وغايته، أما أن يسأل الله –عز وجل– أن يعطى ليستعين به على عبادة الله –عز وجل– وعلى إعمار هذه الأرض وإلى أن يسعى فيها وأن يترك ذرية يقومون بالحياة فيما بعده ويخلفونه في السعي في الأرض فهذا –إن شاء الله تعالى– لا شيء فيه.

الأخ الكريم من الجزائر يقول: في تفسير للشيخ أن صفات المؤمنين بدأ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾[المؤمنون:١] ﴾ ثم قال: ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾[المؤمنون:٢]﴾ صفة، وعدد عدة صفات، وجعل صفة الإيمان صفة أولى والصفات التي بعدها أيضاً في التعداد، رغم أن عدم وجود الواو العاطفة على الصفات، لم يقل الله –عز وجل–: «قد أفلح المؤمنون والذين هم»، وإنما قال كأن هذه الصفات التابعة هي كلها صفات للإيمان فيكون في هذا التفسير نوع من الرد على الذين يخرجون العمل من مسمى الإيمان، يقول: قد أفلح المؤمنون الذين هذه صفاتهم، الله تعالى أعلم، ويكون كقوله –عز وجل– في: ﴿ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام: ١٥٨] كأن يكون الإيمان النافع هو الذي تكسب فيه النفس الخير الذي هو هذه الصفات التابعة للإيمان ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [المؤمنون: ١، ٢].

الأخ الكريم من مصر يقول: ما الواجب علي كمسلم تجاه الإساءة التي توجه إلى الرسول –عليه الصلاة والسلام– في الدانمارك؟

فضيلة الشيخ: هل لكم أي تعليق على كلام الأخ الكريم من الجزائر؟.

في الحقيقة كلام الأخ جزاه الله خيراً جميل وهو يتفق مع ما نقوله ولكن المسألة تحتاج إلى شيء من الإيضاح أنا قلت بأن لا إله إلا الله أو أن الإيمان يقوم بالقلب وينطق به اللسان ولابد من العمل خاصة بأركان الإسلام وعلى رأسها الركن الأول بعد الشهادتين، وقلت بأن العلماء قد اختلفوا فيمن قصر في بعض هذه الأركان كما أن أهل السنة والجماعة متفقون على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج بارتكابه إياها من الإيمان، هذه قواعد ضرورية أما أن يكون الإيمان فقط في القلب دون عمل فهذا لم يرد عن أحد من السلف بحال من الأحوال ولكن أيضاً يمكن أن نوضح هذا أكثر فأكثر فنقول بأن الأعمال تتفاوت والناس يتفاوتون في هذه الأعمال وكما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله تعالى– بأن الإيمان كشجرة، هناك شجرة كاملة يعني لها جذور ولها جذع ولها فروع ولها أوراق وهذه شجرة كاملة و هناك شجرة ناقصة تكون جزءاً فقط قائم وتقول عنه: شجرة، شجرة مثمرة وشجرة غير مثمرة، وكلاهما يطلق عليه كلمة أو اسم شجرة، فالإيمان كذلك إما أن يكون إيماناً كاملاً أو أن يكون إيماناً ناقصاً، والأعمال كما سبق أن قرناها تدخل في مسمى الإيمان، وكون الإنسان فقط ينطق بلا إله إلا الله ثم لا يؤدي بعد ذلك شيئًا مما افترض الله –سبحانه وتعالى– عليه وهو مقيم صحيح سليم، هذا يدل على أن الإيمان ما قام في قلبه أصلاً وقد ذكر هذا أيضاً السلف لا يتخيل أبداً من رجل مثلاً يقول أنا مؤمن ثم بعد ذلك لا يعمل شيئًا من أركان الإسلام ولا من أركان الدين، فكونه لا يعمل هذا يدل على أنه لم يؤمن أصلاً لله –تبارك وتعالى–.

الأخت الكريمة من المنصورة يقول: السؤال الأول: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ لماذا خص الله –سبحانه وتعالى– السمع والأبصار والأفئدة عن باقي الأعضاء؟

السؤال الثاني: أريد أن يجيب عليه فضيلة الدكتور عبد الله شاكر فقط: ما الحكم في تقصير اللحية؟

فضيلة الشيخ الأخ الكريم كان سؤاله الأول عن قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ...﴾ إلى آخر الآية، لماذا خص الله –عز وجل– السمع والبصر دون بقية الحواس؟.

هو في الحقيقة لأن السمع والبصر والفؤاد هي وسائل الإدارك في الإنسان يعني الإنـسان يـدرك الأشـياء وحقائق الأمور من خلال أنه يسمع ومن خلال أنه يبصر ويعي بفؤاده وقلبه الأمور والمعاني وما يوقع عليـه، يعني سماع الأخ الكريم للمحاضرة جعلته يتأمل ويسأل ما سأل وما إلى ذلك فخصت هذه الأشياء بالذكر لأنها هي وسائل الإدراك في الإنسان.

أما الحكم في تقصير اللحية يعني من باب المجاملة يا شيخ عبد الرحمن فجاء في السنة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أوامر متعددة بإطلاق اللحية، كقوله: (وفروا اللحى) و(أرخوا اللحى)، وكان للنبي -صلى الله عليـه وسلم- لحية يعني تملأ جانبيه -صلى الله عليه وآله وسلم-، وهي من هدي الرسول -عليه الصلاة والـسلام-، والله أعلم.

طيب فضيلة الشيخ: كما جاوبنا على الكريم في جوابه حتى لا نكون مجاملين لأحد نجاوب على الأخ الكـريم في سؤاله عن الواجب تجاه المسلمين لما يحدث للنبي -صلى الله عليه وسلم- من سب في دولة الدانمارك؟

جزاكم الله خيراً والله كلام جميل، والله في الحقيقة إشارته طيبة هو ليس سؤال ولكنه توجيه، لعلـه يريـد أن نسمعه للناس جميعاً وأنا أعتقد بأن الأمة الإسلامية عندها من الحماس ومن الرغبة، ولكن نود أن يعني يتـرجم هذا الحماس والرغبة في طاعة والتزام، والله إن الإساءة للنبي -صلى الله عليه وسلم- جريمة كبرى، أمر لـيس بالأمر السهل ولا بالهين، يعني تهون كل الجرائم إلى جوار أن يتحدث أو يتكلم أو أن يمس جانب النبي -صـلى الله عليه وآله وسلم-، كل عرض دون عرض النبي -صلى الله عليه وسلم- وكل إنسان دون النبي -صـلى الله عليه وآله وسلم- رمز هذه الأمة، الهداية الربانية التي جاءت من عند الله -تبارك وتعالى- هـو نبـي رحمـة الرحمة محمد بن عبد الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، وفي الحقيقة هؤلاء الأفاكون الذين يطعنـون عليـه أو يغمزون فيه أو يطعنون فيه أو يسبون أو ما إلى ذلك هم أحقر ما يكون وأن الأمة كلها تلفظهم وهم في الحقيقـة حينما يفعلون ذلك لا يقصدون بذلك فقط النبي -صلى الله عليه وسلم- بل إن النبي -صلى الله عليه وسلم- رمز للأنبياء والمرسلين فهم حينما يسبوا النبي -عليه الصلاة والسلام- يكونون قد سبوا كل نبي، جاء من عند الله - تبارك وتعالى- وليس هذا فحسب بل أقول بأن من سب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فقد سب رب العـزة والجلال سبحانه وكفى بهذا ظلماً وزوراً وبهتاناً، فليأتي العبد الضعيف الحقير يتطاول على مقام النبي -صلى الله عليه وسلم- وبالتالي يكون قد تطاول على مقام ربه الذي أرسل وبعث النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وتكفي هذه الإشارة.

فضيلة الشيخ هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه المحاضرة.

السؤال الأول: اشرح بالتفصيل قول الله تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

السؤال الثاني: ما المراد بالخَرْجِ في قوله تعالى: ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا ﴾؟ وهل هو خاص بالنبي -صـلى الله عليه وآله وسلم- أم يشمل جميع الأنبياء والمرسلين، وضح ذلك مع الدليل لما تذكر؟

السؤال الثالث: ما معنى: ﴿ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ ؟ وهل وقع شيء من العذاب الدنيوي على كفار مكة ، أيد ما تقول بدليل من السنة النبوية؟

الدرس السادس عشر: تفسير سورة المؤمنون

فضيلة الشيخ أهلاً ومرحباً بكم

أهلاً وسهلاً ومرحباً بكم وبالحاضرين والمشاهدين والمشاهدات الكرام ويسرنا دائماً أن نلتقي في هذا اليوم وفي اليوم الآخَر الذي نلتقي فيه على بركة رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- لنتحدث عن بعض آيات من كتاب الله الكريم، ومحاور هذا اللقاء - كما عودناكم أن نذكرها في أوله- هي كالتالي:

المحور الأول بعنوان: المشركون كذبوا بالبعث والنشور.

المحور الثاني: الله -تعالى- إله واحد وهو الذي يستقل بالخلق والملك.

المحور الثالث: تنزيه الله -تعالى- عن الولد والشريك.

المحور الرابع: أحسن إلى من أساء إليك تكن من الصابرين.

ولنستمع إلى آيات هذا اللقاء من الأخ الكريم فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَمَا قَالَ الأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلاَ تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَى أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾.

جزاك الله خيراً.

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا وإمامنا محمداً عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم وبارك وأنعم على عبدك ورسولك ومصطفاك وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيلهم إلى يوم الدين وبعد.

المحور الأول: الذي معنا في هذا اللقاء هو بعنوان كما أسلفت: المشركون كذبوا بالبعث والنشور وأول آية تحت هذا المحور تبدء بقول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَمَا قَالَ الأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾﴾ والله -عز وجل- بعد أن ذكر شيئًا من نعمه على عباده ومما يدل على توحيده -سبحانه- وعلى أنه فعل بالعباد وأعطاهم ما يحتاجون إليه، ذكر هنا -سبحانه وتعالى- أن المشركين المخاطبين بهذه الآيات والذين ذُكرت لهم هذه النعم

وعُددت عليهم لم يقابلوها بالتسليم بل قابلوا كل ذلك بعدم الاستفادة منه وبتكذيب المرسلين وعلى رأسهم نبي الهدى والرحمة -صلوات الله وسلامه عليه- وقالوا في النبي -عليه الصلاة والسلام- كما قال السابقون من قبلهم ممن كذبوا بأنبيائهم ورسلهم لأن الله يقول: ﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَمَا قَالَ الأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾﴾ وسيأتي الآن بيان ماذا قال الأولون، وعلى رأس كل ذلك تكذيب النبي المرسل إليهم، وهذه الآية تفيد فساد التقليد خاصة إذا كان التقليد لقوم مشركين ذاهبين إلى الباطل لأن هؤلاء قلدوا وحاكوا السابقين عليهم، وشابهوهم ورددوا أقوالهم وماذا كان قول السابقين؟ تأتي الآية التالية لتبين ماذا قال المكذبون من قبل، قالوا: ﴿ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾ ذكر الله -عز وجل- هنا في هذه الآيات أن هؤلاء المكذبين للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- شأنهم شأن السابقين في إنكارهم للبعث والنشور وتكذيب الرسل ولا شك، وهؤلاء بنوا شبهتهم على أمرين وقد ذكرا في هاتين الآيتين:

الأمر الأول: استبعادهم للإعادة بعد أن أصبحوا تراباً وعظاماً نخرة، قالوا: ﴿ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾، فهؤلاء استبعدوا البعث والنشور بعد أن وصلوا إلى مرحلة ظنوا من خلالها أنه لا يستطيع أحد أن يعيدهم إلى الدنيا من جديد، وقد ذكر الله -عز وجل- استبعادهم في آيات كثيرة وذلك كما جاء في سورة النازعات: ﴿ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾﴾ [النازعات: ١١] يعني بالية، ﴿ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [النازعات: ١٢] وأنكروا ذلك فهؤلاء الأمر الأول الذي دفعهم إلى تكذيب البعث والنشور هو استبعادهم لأن يحييهم الله -عز وجل- بعد أن أصبحوا عظاماً بالية نخرة، أو أصبحوا تراباً.

الأمر الثاني: الذي دفعهم إلى استبعاد ما يكون ما جاء في قوله الله -تبارك وتعالى-: ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ ﴾ يعني أن الآباء السابقين وُعدوا من الأنبياء السابقين أيضاً بأنهم سيتم لهم الإعادة ولم يحدث ذلك ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ ﴾ فلما وُعد السابقون عليهم بهذا الأمر وكأنهم ظنوا أن هذه الإعادة ستكون في الحياة الدنيا، قالوا: لما وُعد آبائنا من قبل ولم يحدث شيء من هذا الوعد فدل ذلك على أنه أمر غير كائن ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ ﴾ ولهذا عقبوا على هذا بقوله: ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ يعني ما هذا إلا أمور كانت عند السابقين من كتاباتهم وأقوالهم وخرافاتهم وتراهاتهم، هذه أساطير جمع أسطورة يعني مما يذكر ويحكى ولا حقيقة له في واقع الأمر.

فهذان الأمران ألا وهو استبعادهم بأن يعيدهم الله -تبارك وتعالى- بعد أن صاروا تراباً وعظاماً، وقولهم وظنهم بأن آباءهم قد وعدوا بالعود ولم يعودوا فهذا دفعهم أيضاً وهو الأمر الثاني إلى إنكار البعث والنشور.

ولو تأمل هؤلاء كما سبق ذكر ذلك والحديث عنه لو تأملوا البراهين- وقد رأوا شيئًا من ذلك- الدالة على البعث والنشور ما وصل استبعادهم إلى هذا الأمر ولكنهم في الحقيقة قوم لا يتدبرون ولا يعقلون ولا يفقهون، فالله -عز وجل- يريهم من آياته آناء الليل وأطراف النهار ما يدفعهم إلى الإيمان بالله -عز وجل- وتصديق النبي المرسل إليهم، وأن وعد الله -سبحانه وتعالى- حق وصدق وأنه -عز وجل- يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد هذه السماوات وهذه الأرض على عظمة ما فيها وعلى كبرهما وولوج الليل في النهار وولوج النهار في الليل وإحياء بعض الناس في الدار الدنيا، وقد سمعوا هم بذلك عن السابقين وإحياء الأرض بعد موتها ألا يدل كل ذلك على أن الله -سبحانه وتعالى- يفعل ما يشاء وعلى أنه يعيدهم بعد ذلك للبعث والجزاء والحساب والوقوف بين يدي رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-؟!!!

وخلاصة هذه الآيات الثلاثة أن هؤلاء المكذبين كانوا مقلديين للسابقين، واستندوا في تقليدهم وفي شبههم إلى أمور هي أوهى من بيوت العنكبوت، ولو فكروا في واقعهم وفيما بثه الله -عز وجل- بين أعينهم ما صدر منهم ما صدر، ولكن أعود فأقول بأن هذه قلوب قد ختم الله -سبحانه وتعالى- عليها فلا يجد الحق طريقاً إليها.

المحور الثاني: في هذا اللقاء بعنوان: الله -تعالى- إله واحد وهو الذي يستقل بالخلق والملك:

وفي هذا الأمر، وفي بيانه آيات منها قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ هذه الآية الأولى معنا تحت هذا المحور يقرر رب العزة والجلال فيها وحدانيته واستقلاله -عز وجل- بالخلق والتصرف والملك والملكوت ليرشد عباده وليرشد المخاطبين بأنه هو الله الذي لا إله إلا هو كما تقرر هذه الآية والآيات التي تليها قدرة الله -عز وجل- على البعث والنشور لأن الذي يملك الأرض ومن فيها ويملك السماء ومن فيها ويملك كل شيء ويفعل ما يشاء لا شك أنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ومن ذلك بعث الناس من جديد.

والله -عز وجل- في هذه الآية يخاطب المشركين أولاً في زمن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- والآيات تخاطب بعد ذلك كل من أشرك بالله -تبارك وتعالى- وتسأل هذا السؤال الواضح: ﴿ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ هذه الأرض وما فيها وما عليها من الذي خلقها؟ ومن الذي أوجدها؟ ومن الذي مهدها لهؤلاء الناس كي يسيروا عليها وينتفعوا بما فيها؟ من الذي شق فيها البحار والأنهار؟ وجعل فيها الجبال أوتاداً حتى لا تميد ولا تضطرب؟ جواب هؤلاء المشركين أنهم سيقولون: ﴿ سَيَقُولُونَ للهِ ﴾ اعتراف وليس عندهم إلا ذلك، ليس أمامهم لأنه لا يستطيع أحد أن يدعي لنفسه أن له ملك شيء في الأرض لأنهم مخلوقون من عدم، والمخلوق الذي سبق بعدم لا يمكن أن يدعي أنه يملك شيئًا وجد قبله لأنه لم يوجده ولم يخلقه وليس له في أمره شيء، وهنا هذه الآيات تقرر هؤلاء الناس بذلك وتخاطبهم بهذا الأمر وكان المشركون في زمن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- إذا سُئلوا عن هذا الأمر أجابوا بهذا الجواب: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الدخان: ٨٧] طالما أن الله هو الذي خلقكم وهنا تعترفون بأن الله -عز وجل- هو الذي خلق الأرض فلما لا تعبدون رب العزة والجلال؟ لماذا لا تفردونه بالوحدانية؟ لماذا لا تتوجهون إليه إذن بجميع ألوان العبادة؟ ولذلك عقب على هذا بقوله لما ذكر اعترافهم بهذا وذكر قولهم: ﴿ سَيَقُولُونَ للهِ ﴾ قال: ﴿ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ يعني أفلا يدعوكم هذا الإقرار إلى التدبر والتأمل وتذكر أن الله -سبحانه وتعالى- هو الذي خلقكم وأوجدكم وبالتالي هو الذي يستحق أن يعبد وحده دون سواه؟!!

وهذه الآية وغيرها من الآيات القرآنية فيها فائدة مهمة جداً أود أن أقف عندها وهي:

أن القرآن الكريم كثيرًا ما يتخذ من الدلائل أو من دلائل ربوبية الله -عز وجل- على خلقه مدخلاً إلى الحديث عن وحدانية الله -تبارك وتعالى-، يعني القرآن الكريم يتخذ من اعتراف المشركين بأن الله رب كل شيء ومليكه وما إلى ذلك مدخلاً ودليلا على وجوب عبودية الله وحده دون سواه، ولذلك علماء الاعتقاد يقولون عبارة: «توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية»، يعني اعتراف بالعبد بأن الله ربه وخالقه ومالكه ورازقه وما إلى ذلك هذا يدفعه ويلزمه بناءً على هذا الاعتراف أن يعبد هذا الإله الواحد؛ لأنه بالعقل قبل أن يكون هناك وحي وشرع، الذي خلق هو الذي يجب أن يُعبد، الذي رزق وسوى وملك هو الذي يجب أن يتوجه إليه العبد، هذا لو نظر الإنسان إلى ذلك نظرة اعتبار وتأمل، والقرآن كما ذكرت كثيرًا ما يشير إلى هذا المعنى، والآيات كثيرة للغاية ويكفي أن نتأمل في هذا آية واحدة، وهي أول نداء وجهه الله -عز وجل- للناس جميعاً في سورة البقرة قال فيه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ [البقرة: ٢١] أمر بعبادة الله -عز وجل- ثم ذكر ربوبيته -سبحانه-، ثم ذكر الأدلة المدعمة لهذا الأمر الدافعة للعبد إلى أن يفرد الله -عز وجل- وحده بالعبادة، ﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١] لماذا؟ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١] ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢] بعدها: ﴿ فَلاَ تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢] هذه كلها وسائل تدل على أن الله واحد وعلى أنه -سبحانه وتعالى- يعبد وحده دون سواه، لأنه هو الذي خلق وخلق من قبلنا، هو الذي سخر لنا ما في السماوات وما في الأرض؛ ولذلك حسن أن يعقب رب العزة والجلال على ذلك بقوله: ﴿ فَلاَ تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢] ويأمر في أول الآيات بعبادته: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ [البقرة: ٢١] إذن كثيرًا ما يلفت القرآن الكريم نظر المخاطبين إلى دلائل وحدانية الله -عز وجل- من خلال قدرة الله -سبحانه وتعالى- في هذا الكون، وخلقه لجميع العوالم، والآية الأولى التي معنا

تدل على ذلك وتشير إليه: ﴿ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ بعدها: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ ينتقل رب العزة والجلال بعد إقرارهم بأن الله –سبحانه وتعالى– هو رب هذه الأرض، ينتقل بعد ذلك ليقررهم بأن السماوات السبع وما فيهن من الكواكب النيرات وما فيهن من الملائكة الذين يخضعون لرب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– إلى جانب العرش العظيم، من رب كل ذلك؟ أقر المشركون بأن رب السماوات السبع ومن فيهن، وأن رب العرش العظيم هو رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى–، والله –عز وجل– ينتقل من الأرض إلى السماء كما أشرت ، والسماوات فيها من صنع الله ما فيها، إلى جانب ما فيها من الملائكة الكرام الذين يخلصون ويفردون رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– بالعبادة إلى جانب العرش ألا وهو عرش الرحمن الذي هو أعلى وهو سقف المخلوقات، والله –عز وجل– قد أخبر في كتابه في آيات متعددة أنه استوى على عرشه، ومعتقد أهل السنة والجماعة في ذلك أنهم يسلمون لله –عز وجل– بهذا الأمر لأنه خبر أخبر به –سبحانه وتعالى– عن نفسه والله –عز وجل– يتصف بصفات أخبر بها عن نفسه نؤمن بها ونعتقد لله –عز وجل– بما جاء فيها، ولكن على ما يليق بجلال الله وكمال الله –سبحانه وتعالى–.

ثم تختم هذه الآية بقول الحق –تبارك وتعالى– مقرراً اعترافهم: ﴿ سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ يعني إذا آمنتم أن السماوات السبع ربها الله، وأن العرش العظيم ربه الله –سبحانه وتعالى– ألا يدعوكم ذلك يا أيها المخاطبون إلى أن تتقوا إذن عذاب رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى–، فتفردوه بالوحدانية والعبادة؟!! يعني إذا كنتم تعلمون ذلك ألا تتقون الله؟!! ألا تخافون عذاب الله –سبحانه وتعالى–؟!! ألا تقرون لله –سبحانه وتعالى– بالوحدانية لأنه رب الأرض ورب السماء ورب العرش العظيم –سبحانه وتعالى–؟!!

ثم يقول بعد ذلك في الآية الثالثة مقرراً أيضاً اعترافهم بأمر آخر: ﴿ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ بعد أن قرر الله –عز وجل– وذكر اعترافهم بأنه هو رب الأرض والسماء والعرش العظيم ذكر بعد ذلك ما هو أعم من ذلك من الأرض ومن السماء ألا وهو الملكوت كله، ﴿ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ ﴾ ملكوت على وزن فعلوت، ومعنى ﴿ مَلَكُوتُ ﴾ يعني ملك كل شيء ومالك كل شيء، وهذا لا يليق ولا يكون إلا لرب العزة والجلال –سبحانه وتعالى–، والأمر في هذا أو تفسير هذه الآية يوضحه ما جاء في قول الله –تبارك وتعالى– فيما ذكره هود –عليه السلام–: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ [هود: ٥٦] فالله –عز وجل– يدبر الأمور كلها في كل هذا الكون كله سماواته وأرضه وهو بيده ملكوت كل شيء والنبي –صلى الله عليه وآله وسلم– كان كثيرًا ما يقسم ويقول: (والذي نفسي بيده) (والذي نفس محمد بيده)، والله –عز وجل– عظيم، والسماوات والأرض في يد الله –عز وجل– ويضعها رب العزة والجلال في قبضته وقد وردت أحاديث كثيرة عن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– تبين ذلك، كقوله –صلى الله عليه وآله وسلم–: (يطوي الله السماوات والأرض بيمينه ثم يقول: أين الملوك؟ ثم ينادي فلا يجيب أحد فيقول سبحانه لله الواحد القهار) بعد أن يقول: (لمن الملك اليوم) فدل ذلك على أن السماوات والأرض بيد الله –عز وجل– والكون كله بيد الله رب العالمين –سبحانه وتعالى– وهذا يدل على عظمة رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– فهو حقاً بيده ملكوت كل شيء، فهو يملكه ويدبر أمره ويتصرف فيه كما يشاء لأنه القوي الكبير المتعال، وهو –سبحانه وتعالى– القاهر فوق عباده يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ لأن بيده ملكوت كل شيء –سبحانه وتعالى–.

ويوضح ذلك أكثر أنه يملك كل شيء وأنه يتصرف في كل أمر فيقول: ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ يعني أن الله –سبحانه وتعالى– يمنع من شاء ممن شاء –سبحانه– ولا يستطيع أحد أن يمنع رب العزة والجلال عن أحد أراد الله –سبحانه وتعالى– به شيئًا؛ لأنه يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد ويملك هذا الكون كله فلا يغالبه أحد ولا يتقدم بين يديه أحد، فهو وحده الذي يجير ولا يجار عليه –سبحانه وتعالى– ومن كان كذلك فهو حقاً الملك، وصدق الله في قوله: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ﴾ [آل عمران: ٢٦]

فهو السيد -سبحانه وتعالى- الذي لا أعظم منه -جل في علاه- وأخبر هنا أن بيده ملكوت كل شيء وأنه يجير ولا يجار عليه، وهذا أيضاً سؤال موجه إلى هؤلاء المشركين: من الذين يفعل هذه الأمور كلها؟ ما كان جوابهم إلا أن يقولوا كما قال الله: ﴿ سَيَقُولُونَ للهِ ﴾ فيقول الله لهم: ﴿ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ كيف تخدعون ويذهب بعقولكم إلى حد تعبدون من خلاله الشمس والقمر والأصنام والأوثان والأشجار والأحجار التي لا تملك ولا تعقل ولا تدبر ولا تجير بل يفعل بها ما يفعل ويستهين بها الإنسان ما يستطيع أن يستهين ولا تملك من أمر نفسها شيئًا؟!! فكيف إذن تذهبون عن رب العزة والجلال سبحانه وتعبدون غير الحق -تبارك وتعالى-؟!! ﴿ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ كيف خدعتكم الشبه الباطلة فصرفتكم عن عبودية الله -سبحانه وتعالى- وحده دون سواه؟!!

ثم يقول -سبحانه وتعالى-: ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾ بعد أن قررهم رب العزة والجلال في هذه الآيات بما قررهم به وأنهم اعترفوا بأن الأرض والسماوات والعرش العظيم وأن الكون كله بيد الحق -تبارك وتعالى- يفعل فيه ما يشاء ويحكم فيه بما يريد، يقرر -عز وجل- أن ما أتاهم به وما أخبرهم به وذلك من أمر الوحدانية وبعثة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وما يكون بعد ذلك من البعث والنشور كله حق جاء من عند رب العزة والجلال سبحانه: ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ وصدق الله في قوله ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ [الإسراء: ١٠٥] ولكن الأمر الصحيح والصواب في ذلك أن هؤلاء القوم هم الكاذبون وهم المكذبون لله ولرسول الله -تبارك وتعالى-، ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

المحور الثالث: في هذا اللقاء: تنزيه الله -تبارك وتعالى- عن الولد والشريك:

وأول آية تدخل معنا تحت هذا المحور آية جليلة القدر عظيمة الشأن وهي قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ يبين رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- في هذه الآية ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: أنه -سبحانه وتعالى- لم يتخذ ولداً، شأن الله أيها المخاطبون أعلى وأعظم وأعز وأكرم من أن تكون له صاحبة أو ولد، إن الجريمة النكراء التي دان بها بعض الناس في نسبتهم الولد إلى رب العزة والجلال أمرٌ يجعل الإنسان تصيبه دهشة وحيرة كبيرة، عندما يتطاول العبد على ربه بهذا القول الذي استعظمه رب العزة والجلال -سبحانه-، وذكر عنه ما ذكره في أواخر سورة مريم: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ عظيماً كبيراً ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ ﴾ مع عظم حجمها وكبرها بما لا يعلمه إلا الله ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم: ٨٨- ٩٢] لماذا؟ لأن الكل عبيد الله -عز وجل- لأن الكل مربوب مخلوق ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣] والله إنها جريمة نكراء في حق البشرية فيمن نسب إلى الله -عز وجل- الولد، والله -عز وجل- قد نزه نفسه عن الصاحبة والولد، ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص] فهو الإله الواحد الأحد جل في علاه، معاذ الله يا أيها المخاطبون بكتاب الله أن تتخذوا لله ولداً، أو تنسبوا الولد إلى الله -عز وجل- وما ينبغي ذلك بحال، والذين نسبوا الولد إلى الله -عز وجل-، كما جاء في القرآن الكريم ثلاثة طوائف: اليهود والنصارى، وكذلك الذين كانوا في عهد النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من المشركين، الذين ذكروا بأن الله -عز وجل- اتخذ البنات ويعنون بذلك الملائكة، بناتاً له، اليهود والنصار قال الله فيهم: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ [التوبة: ٣٠] هذا في الحقيقة كلام باطل من كلا الطائفتين وتطاول على مقام رب العزة والجلال -سبحانه-، وكفى هذا الناس، ألم يكفهم أن سبوا عباد الله -عز وجل-؟!! ألم يكفهم أن سبوا الأنبياء والمرسلين وطعنوا في خيار عباد الله الصالحين؟!! حتى تطاولوا على مقام رب العزة والجلال -سبحانه- فنسبوا إليه ما لا يليق به، نسبة الولد إلى الله -عز وجل- أمور كما ذكر الله عنها

﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾ أمر عظيم، أمر لا يليق من عبد أن يصف به رب العباد -سبحانه وتعالى-.

أما مشركوا العرب فقد جعلوا لله -عز وجل- أمراً وراء ذلك هم لا يرضونه لأنفسهم، حينما جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً والله -عز وجل- قد كذبهم في قولهم هذا ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف: ١٩] وهم في هذا ظالمون آفاكون، يعني هم لا يرضون لأنفسهم البنات، كما ذكر الله عنهم: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النحل: ٥٨] الواحد منهم تكون حالته على الهيئة التي ذكرها القرآن الكريم إذا بشر بالأنثى ثم بعد ذلك يجعل البنات لرب العزة والجلال؛ ولذلك ربنا يخاطبهم باستفهامي توبيخي: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ ﴾ [الإسراء: ٤٠] يعني الله -عز وجل- أصفاكم أنتم وجعل لكم البنين هدية واتخذ هو من الملائكة إناثاً ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الإسراء: ٤٠] وصدق الله -عز وجل- حينما ذكر أن قول هؤلاء الناس في حقه -سبحانه وتعالى- قول عظيم ما كان ينبغي لهم أن يقولوه.

المسألة الثانية: التي ذكرتها هذه الآية وهي: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ ﴾ أن الله -سبحانه وتعالى- نفى التعدد في الآية، ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾ الله -عز وجل- ليس معه إله آخر، فهو -سبحانه وتعالى- مالك الملك وهو الإله الحق الواحد المبين، ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢] والفساد الناشئ هنا في الكون، ناشئ عن عبادة غير الله -تبارك وتعالى-، شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يقرر هذه المسألة بكلام عجيب يقول: «إن بعض المتكلمين يستدلون بهذه الآية: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢] على إثبات وجود الله -عز وجل- وربوبيته. ويقول: لا.. هذه الآية في توحيد العبادة أو في توحيد الألوهية ومعناها أن الكون كله يفسد إذا وجد من يعبد مع الله -تبارك وتعالى-»، يكون الفساد ناشئاً عن عبادة غير الله -عز وجل-، ولذلك كما أنه -سبحانه- لم يتخذ ولداً كذلك أيضاً ليس معه إله غيره.

المسألة الثالثة: التي قررتها هذه الآية: أن الله -عز وجل- أقام فيها البرهان والدليل على أنه إله واحد، فبعدما قال: ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾ ذكر برهاناً واضحاً على ذلك حينما قال: ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ ولو نظرنا لوجدنا أنه لم يذهب كل إله بما خلق ولم يعلُ أحد في هذا الكون كله سوى رب العزة والجلال -سبحانه-، فليس إذن إلا هو -سبحانه وتعالى- الإله الواحد.

وأرجع بعد ذلك فأقول في هذا المقطع من الآية ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ ﴾ ومعلوم أنه لم يذهب أحد واستأثر من المخلوقين بشيء خلقه هو، ولو كان كذلك لوُجد التفاوت في هذا الكون، والكون منتظم ومتسق بإحكام عجيب ودقيق مما يدل على أن الذي يدبر أمره وينظم شؤونه إله واحد هو الله -تبارك وتعالى-، كذلك أيضاً لم نجد أن أحداً نازع رب العزة والجلال في ملكه، أو علا مع الله -تبارك وتعالى- فالعلو المطلق لمن؟ لرب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، وهنا ساق المتكلمون برهاناً ودليلاً على أن الله -سبحانه وتعالى- ليس له شريك يمكن أن يُوجد شيئًا في هذا الكون، وسموه دليل التمانع وقد أشار إليه الإمام الحافظ ابن كثير وذكره الإمام ابن تيمية -رحمه الله- وابن القيم وقالوا بأنه دليل عقلي مستفاد من هذه الآية وإن كان المتكلمون قد توسعوا في مثل هذه المسائل والشاهد من هذا البرهان أو دليل التمانع ما ملخصه أو كيف ساقه من ساقه في إثبات ربوبية الله -تبارك وتعالى-، قالوا: لو فُرض أن في الكون أكثر من إله، وجئنا إلى مسألة واحدة من المسائل وصوروها وذكروها كأن يريد إله من هؤلاء الألهة تحريك جسم ويريد الآخر تسكينه، أو إحياء جسم ويريد الآخر إماتته، نمسك مثلاً تحريك وتسكين الجسم، لو أن الكون فيه أكثر من إله أو فيه إلهين أراد أحدهما تحريك جسم وأراد الآخر تسكينه، هذه القضية لا تخلو من ثلاثة أمور: إما أن يتم مرادهما معاً، أو لا يتم مرادهما معاً، أو يتم مراد واحد منهما ، نأتي إلى هذه الأقسام الثلاثة نختبرها.

– إما أن يتم مرادهما معاً، هذا مستحيل، لماذا؟ لحصول التضاد في ذلك؛ لأن الحركة تضاد السكون، فلا يمكن أن يتم مرادهما معاً.

– وإما ألا يتم مرادهما معاً، وهذا أيضاً مستحيل، لماذا؟ لأن فيه رفع للنقيضين والجسم إما أن يكون متحركاً وإما أن يكون ساكناً فرفع التحرك والسكون عن الجسم لا يمكن أن يكون.

– وإذا تم مراد واحد منهما، فسيكون هو الإله القادر، وغيره عاجز، وقد تم مراد رب العزة والجلال –سبحانه– فهو الإله الحق المبين القادر وما عداه مخلوق ضعيف لا يعبد بحال من الأحوال.

﴿ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ ولما كان الأمر كذلك نزه ربنا –سبحانه وتعالى– نفسه عما فعله المشركون، من نسبة الولد إليه ومن اتخاذ الأنداد والشركاء، والوسطاء لرب العزة والجلال فقال: ﴿ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾، وكلمة ﴿ سُبْحَانَ ﴾ يعني تنزيهاً لله –عز وجل– عما يصفه به الواصفون من المكذبين الظالمين، والله –عز وجل– قد نزه نفسه عن وصف الظالمين له فقال: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الصافات: ١٨٠] ثم سلم على المرسلين لسلامة ما وصفوا به رب العزة والجلال سبحانه فقال: ﴿ وَسَلاَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات: ١٨١، ١٨٢].

ثم قال رب العزة والجلال سبحانه معقباً على هذه الآية السابقة: ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ ، بعدما نفى –سبحانه وتعالى– عن نفسه الولد ونفى أن يكون معه إله في هذا الكون ذكر نموذجاً واحداً من النماذج التي تدل على ربوبيته وعلى ألوهيته وعلى علمه المطلق الواسع وذلك في إثبات علم الغيب والشهادة لله –تعالى– وحده، فإذا كان المشركون الذين عبدهم الناس من دون الله –تبارك وتعالى– يعلمون شيئًا من الشهادة بما أعطاهم الله –عز وجل– من وسائل الإدارك وتفضل به عليهم من السمع والبصر، يعلمون شيئًا، وإلا فهم لا يعلمون كل شيء، فنحن الآن ونحن جالسون في هذا المكان، ما خلف هذا المكان ونحن نسمع ونبصر لا نعرف عنه شيئًا ولكننا نعلم فقط ما نشاهده بين أعيننا يعني إذن علمنا بالشهادة علم جزئي، فما بالك بعلام الغيب والشهادة –سبحانه وتعالى–، هذا نموذج واحد على أن غير الله لا يُعبد، وعلى أن كل الآلهة التي عبدت من دون الله –عز وجل– عاجزة، وليس عندها من صفات الجلال والكمال ما يمكن أن يصرف لها العبد شيئًا من دون الله –عز وجل– ومن أخص خصائص الألوهية اتصاف رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– بعلم الغيب، والله –عز وجل– في كتابه يقرر ذلك في أكثر من موطن فيقول: ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل: ٦٥] ويأمر الله النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– أن يذكر ما أنزله عليهم في كتابه فيقول: ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ [الأعراف: ١٨٨] إذن علم الغيب والشهادة كاملين لله –تبارك وتعالى– وحده، وكلاهما يدل على علم الله –عز وجل– المحيط الواسع وأن غيره عاجز عن مثل ما وصف به، وبالتالي لا يليق بكم يا أيها المخاطبون أن تسووا الله –عز وجل– بأحد من خلقه؛ لأنهم لا يصلون إلى قدر الله –عز وجل–، ولا يعلمون ما يعلمه رب العزة والجلال –سبحانه–، فكيف إذن تجعلونهم مع الله –سبحانه وتعالى– شركاء وأنداداً.

ثم يقول –سبحانه وتعالى– بعد ذلك موجهاً الخطاب للنبي –صلى الله عليه وآله وسلم–: ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلاَ تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ الله –عز وجل– في هذه الآية يأمر النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– أن يدعوه بهذا الدعاء عند حلول النقم، ومعناه: ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ يعني: إن تعذب هؤلاء الناس وأنا شاهد حاضر موجود بين ظهرانيهم فلا تأخذني بفعلهم يا رب العالمين ﴿ فَلاَ تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ وقد يسأل إنسان أو يتبادر إلى ذهن إنسان هذا السؤال كيف يسأل النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– ربه ألا يجعله مع القوم الظالمين، وأن يأخذه بما يأخذ به المكذبين وهو –صلى الله عليه وآله

وسلم- بعيد عن هؤلاء الناس مؤمن بالله -عز وجل- مصدق به؟ فلم يأخذه ربه وقد آمن وصدق بل هو سيد الأنبياء وسيد المؤمنين وسيد المسلمين؟ هنا نقول: بأن دعاء النبي -صلى الله عليه وسلم- لربه بهذا الدعاء وهو لن يكون، يعني لن يفعل به رب العزة والجلال ولن يأخذه ربنا -سبحانه وتعالى- مع القوم الظالمين إذا نزل عليهم العذاب فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- ودعاؤه ربه بذلك فيه إظهار لعبودية النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لربه، وتواضع لرب العزة والجلال -سبحانه-، والله -عز وجل- قد وعد النبي -صلى الله عليه وسلم- وأخبره أنه لن يعذب هؤلاء المشركين وهو موجود بين ظهرانيهم -صلى الله عليه وآله وسلم-: ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال: ٣٣] ولكن حتى لا يظن هؤلاء المجرمين أن الله -سبحانه وتعالى- لن يأخذهم وجه الله -عز وجل- خطاباً آخر للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وهذا الخطاب جاء في الآية التالية: ﴿ وَإِنَّا عَلَى أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ هذا حتى لا يأخذهم الغرور، فالله -عز وجل- بعدما أخبر أنه لن يأخذهم والنبي -صلى الله عليه وسلم- فيهم، وأنه لن يقع بهم عذاب الاستئصال بين رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- أنه قادر على أن يفعل بهم ما يشاء، وقد بين الله -عز وجل- في سورة الزخرف وخاطب النبي -صلى الله عليه وسلم- بمثل ذلك من باب التسلية له -عليه الصلاة والسلام-، وأخبره أنه إن أخذهم رب العزة والجلال بعد أن يذهب بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يعني بعد أن يموت، فلابد وأن يقع انتقام الله -عز وجل- عليهم، وإن فعله الله وهو بين ظهرانيهم، فهو عليهم حفيظ، وفي ذلك يقول رب العزة والجلال سبحانه: ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الزخرف: ٤١] إذا ذهبنا بك -صلى الله عليه وسلم- فإنا سننتقم منهم بعد ذلك، ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزخرف: ٤٢] يعني إن ذهب الله -عز وجل- بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ولم يأخذهم بالعذاب فسبحانه وتعالى سينتقم منهم، وإن وقع منهم ما وقع والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- شاهد فالله قادر على ذلك وهو -سبحانه وتعالى- يفعل ما يشاء.

المحور الرابع: بعد ذلك بعنوان: أحسن إلى من أساء إليك تكن من الصابرين:

وفي هذا يقول رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ يأمر الله نبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- في هذه الآيات بأن يقابل الإساءة بالإحسان والعفو والصفح وهذا في الحقيقة خلق كريم، وجه الله -عز وجل- إليه أهل الإيمان، وذلك لأنهم يتعاملون ويختلطون بالناس، والذي يتعاملوا مع الناس ويختلط بهم لا شك أنه سيصيبه شيء من أذاهم، ما موقف المسلم إذن حينما يصاب بأذى من الناس؟

عليه كما قررت هذه الآية أن يقابل إساءة الناس بالإحسان إليهم، وأن يتحمل الأذى وأن يعفو وأن يصفح والله -عز وجل- قد حثَّ على ذلك، وحضَّ عليه، ووجه إليه في آيات كثيرة من القرآن الكريم كقول الله -تبارك وتعالى- مثلاً: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ﴾ [الشورى: ٤٠] وكقوله -سبحانه وتعالى-: ﴿ وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت: ٣٤] انظروا وتأملوا أيها المخاطبون كيف أن الإساءة إذا قوبلت بشيء من الإحسان تقلب في الغالب العدو إلى صديق ﴿ وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت: ٣٤] ولكن كون الإنسان يقابل السيئة بالإحسان أمر صعب، يحتاج إلى أن يكون الإنسان متمرساً على ذلك، موطناً نفسه على هذا الأمر، متذرعاً بالصبر الذي يعطيه الله -عز وجل- لأوليائه وأصفيائه ولذلك قال سبحانه: ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٥] وهذا في الحقيقة أدب عالٍ رفيعٌ وجه إليه الإسلام، أن على أهل الإسلام أن يخاطبوا وأن يواجهوا الإساءة بالإحسان وفي قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ﴾ أولى من قوله: ادفع السيئة بالحسنة لماذا؟ لأن هنا «أحسن» أفعل تفضيل، فهي دعوة إلى أن الإنسان يقابل السيئة مهما كانت بشيء من أفضل درجات الحسن، ادفع السيئة بأحسن ما يمكن أن تدفعها بها أيها المؤمن.

والله -عز وجل- دعا الناس جميعاً إلى أن يقولوا الكلام الطيب الجميل: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: ٨٣] والله -سبحانه وتعالى- حثَّ في القرآن الكريم على الأخلاق الفاضلة النبيلة ووصف النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بأفضل الصفات والخلال الحميدة ولنا فيه أسوة حسنة، فإذا كان نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- صاحب الخلق الكريم قال الله عنه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤] وقد أمرنا بالاقتداء به والتأسي به -صلى الله عليه وآله وسلم- فيجب علينا أن نكون كما كان -صلوات الله وسلامه عليه-.

ويكفينا أن نتأمل وصية النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وهو في أصحابه، والنبي -عليه الصلاة والسلام- وصى أصحابه بوصايا جليلة عظيمة، ومن ذلك مثلاً قوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: (اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها) -بعدها- (وخالق الناس بخلق حسن)، ومن الأخلاق الفاضلة التي قررها القرآن الكريم، وأشار إليها ودعا إليها ومن الأمور التي يدفع الإنسان بها السيئة الحسنة الإعراض عن الجاهلين، وهذه مسألة مهمة جداً؛ لأن أهل الإيمان يواجهون وهم في طريق دعوتهم إلى الله -عز وجل- يواجهون كثيرًا من المجرمين الأفاكين الذين يطعنون عليهم، ويتكلمون فيهم، موقف المسلم من هؤلاء ماذا؟ ألا يخوض مع هؤلاء المكذبين، وألا يسترسل معهم ؛ لأن إفكهم ظاهر وضلالهم وبهتانهم واضح، وفي هذا يقول رب العزة والجلال مثلاً: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩] ويقول -سبحانه وتعالى- في وصف عباد الرحمن: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ١٩٩] ولا يعني ذلك أن يذل المسلم نفسه لمشرك أو كافر، بل يجب على المسلم أن يُرِيَ أعداء الإسلام قوته وشجاعته وأن يعلو على المجرمين حينما يحاولون أن يستأسدوا على أهل الإيمان، الله -عز وجل- وصف أهل الإيمان بأنهم أعزة على الكافرين أذلة على المؤمنين، ووصف النبي وصحبه -صلوات الله وسلامه عليه- بأمر يجب أن نكون نحن عليه، يا معشر أهل الإيمان في كل زمان وفي كل مكان، ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩] فليس معنى القول أن نقابل الإساءة بالإحسان أن يكون المؤمن ضعيفاً أو أن يذل لأعداء الإسلام، ولكنه خلق يتربى عليه المؤمن يجعل نفسه تأبى أن ينزل إلى إسفاف الذين يسفون أو إلى إجرام المجرمين بل إنه يتعالى عليهم ويتمسك بالأخلاق الفاضلة وهو في نفس الوقت قوي الشكيمة، يستطيع أن يواجه أعداء الإسلام والذين يسعون في الأرض بالفساد، يستطيع أن يواجههم بكل قوة وتمكن؛ لأنه عزيز بعزة رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، وهذه دعوة لأهل الإيمان أن يكونوا أقوياء في هذه الأرض والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يقول: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف) المؤمن القوي، نحن بحاجة إلى أقوياء، وأن نُري أعداء الإسلام منا قوة ومنا شدة، ومنا غلظة ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التحريم: ٩] فيجب أن نفهم في إطار هذه الآية أننا لا نذل ولا نستكين لأعداء الإسلام على أننا نتخلق بأخلاق حسنة وندفع الإساءة بالإحسان، نحن ندفع الإساءة بالإحسان لأننا لا نُسيءُ كإساءتهم ولا نفعل كأفعالهم لأنهم مجرمون، ولكننا أيضاً نتمسك بالقوة وبالشجاعة ونستطيع أن نواجه أعداء الإسلام.

ثم بعد ذلك يقول رب العزة والجلال مخاطباً النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بخطاب، لو نظرنا فيه سنجد أنه يترتب على الأمر الأول: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ بعد أن أمر الله -سبحانه وتعالى- رسوله -صلى الله عليه وآله وسلم- في الآية السابقة بأن يدفع الإساءة بالإحسان، أتبع ذلك بما يقوى أو يتقوى به المؤمن وعلى رأس أهل الإيمان النبي -صلى الله عليه وسلم- كي يواجه هذا الأمر ألا وهو أن يستعيذ بالله -عز وجل- من همزات الشياطين، وهذا توجيه لطيف بعد هذا الأمر، كي تواجه الإساءة بالإحسان تحتاج إلى قوة تحتاج إلى صبر تحتاج إلى نفس أبية، تتعالى على هذا الظلم وعلى هذا المنكر، ولو تمكنت وتملكت أيضاً لا تظلم ولا تؤذي فهذا يحتاج إلى إعداد، ولا شك أن الإعداد يحتاج من المؤمن أن يبتعد عن الشيطان وطرقه ووسائله.

﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ ﴾ لماذا؟ لأن الهمز همزات جمع همز، والهمز هو فعل مرٌّ من الهمز، والهمز يكون من من؟ يكون من الشيطان، وهو في اللغة بمعنى النخس والدفع، والشيطان يدفع الناس إلى أن يظلموا، وإلى أن يفعلوا الفساد في الأرض، ويحثهم على معصية رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– والنبي –صلى الله عليه وآله وسلم– كان يستعيذ بالله –عز وجل– من الشيطان فكثيراً ما كان يقول: (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه) هذا من النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– فما بالنا إذن والشيطان ﴿ يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ [فاطر:٦]﴾ فواجب علينا إذن أن نستعيذ بالله –عز وجل– من الشيطان الرجيم، والاستعاذة بمعنى الالتجاء والاعتصام ولا تكون إلا لرب العزة والجلال –سبحانه–، ولا يفعلها إلا أهل الإيمان؛ لأن المشركين كانوا يستعيذون بالشياطين وبمن اتخذوهم أولياء من دون الله –تبارك وتعالى–، في سورة الجن يقول سبحانه: ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ [الجن: ٦] ذكر الإمام الحافظ المحدث المفسر الفقيه ابن جرير –رحمه الله تعالى– أن المشركين كانوا إذا نزلوا وادياً استعاذوا بعزيز هذا الوادي ألا وهو كبير الجن ولا يستعيذون بالله –تبارك وتعالى– فزادهم الجن رهقاً أو طغيانا أو كفراً أو خوفاً فوق خوفهم، والنبي –صلى الله عليه وآله وسلم– بين أن الله –عز وجل– أبدلنا مكان استعاذة هؤلاء المشركين بالشيطان، الاستعاذة برب الأرض والسماوات سبحانه، ولذلك يقول –صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم– : (من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرجع أو حتى يخرج من منزله الذي نزل فيه) وهذا تعليم من الإسلام لأولياء الله –عز وجل– ولعباد الله الموحدين أن يلجؤوا إلى الله –سبحانه وتعالى– وحده وأن يستعيذوا بالله –تبارك وتعالى– ممن؟ من الشيطان الرجيم لأنه هو الذي يضل وهو الذي يصد وهو الذي يؤذي وهو الذي يحمل من يحمل من أهل الإيمان على الفجور أو الطغيان أو ما يحدث في الأرض من الآثام والمعاصي وما إلى ذلك.هذا أولاً .

أما ثانيًا من الأمر الذي أمر الله –عز وجل– به نبيه –صلى الله عليه وآله وسلم– أن يستعيذ من الشيطان به ما جاء في قوله: ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُون ﴿٩٨﴾﴾ الشيطان يحاول أن يوسوس للإنسان وأن يدخل إليه من مداخل متعددة إذا أراد أن يقرأ القرآن دخل عليه إذا أراد أن يصلي دخل عنده، إذا أراد أن يذكر الله –تبارك وتعالى– أتى إليه، عند الموت أيضاً يحضر الشيطان؛ ولذلك النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– كان كثيرًا ما يستعيذ بالله –عز وجل– من حضور الشياطين فقد جاء في السنن عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه كان يقول: (أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون) فكان –صلى الله عليه وآله وسلم– يستعيذ من أن يحضر الشيطان كي لا يلبس على أهل الإيمان وكي لا يفسد أفعالهم التي يتقربون بها إلى الرحمن، والشيطان يا أهل الإيمان ضرره خطير.

وما هو كائن على ظهر الأرض اليوم من كفر وشرك وضلال وانحراف موجود عند بعض أهل الإيمان إنما هو من الشيطان، وإذا كان الله –عز وجل– يأمر نبيه –صلى الله عليه وآله وسلم– أن يستعيذ بربه من الشيطان فماذا نفعل؟

نحن يا أهل الإيمان من واجبنا إذن أن نستعيذ بالله –عز وجل– من شياطين الإنس ومن شياطين الجن ونستعيذ بالله –عز وجل– أن يحضروا معنا في أي أمر من الأمور ويحسن بنا هنا ونحن في ختام هذا اللقاء أن نستعيذ حقاً بالله –عز وجل– من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه، ونسأل الله –عز وجل– أن يجنبنا وإخواننا المسلمين فتن وهمزات وغمزات الشياطين وصلِّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

إجابة أسئلة الحلقة الماضية

كان السؤال الأول: اشرح بالتفصيل قول الله تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾؟

وكانت الإجابة: بعدما أوضح الله -تبارك وتعالى- في الآيات السابقة مصير المشركين وما حل عليهم من العذاب والبأس والنقمة فإنهم يصرخون ويستغيثون وإن الله -تبارك وتعالى- يخبرهم أن ما حل بهم كان بسبب أنهم لم يتدبروا القرآن العظيم ولم يفهموه وأعرضوا عنه وإنما جاء به النبي الكريم -صلى الله عليه وسلم- لم يكن شيئًا محدثاً، بل سبقه رسل كثيرون، وأن دعوته ليست محدثة قال تعالى: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٩] يوضح ويخبر -تبارك وتعالى- عن السبب الثالث لحلول العذاب على المشركين فيقول منكراً على الكافرين: ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المؤمنون: ٦٩] أي أنهم لا يعرفون محمداً -صلى الله عليه وسلم- ونسبه ولا يعرفون صدقه وأمانته؟ فقد نشأ بين أيديكم وأنتم من لقبتموه بالصادق الأمين، وأنتم من كنتم ترضون به وبشهادته فينكر عليهم الحق -جل وعلا- ويقولها ليستطيعون إنكار ذلك ولهذا قال أبو سفيان -رضي الله عنه- لهرقل ملك الروم، وذلك قبل أن يسلم لما سأله: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما يقول؟ فقال: لا، فقال هرقل: ما كان ليدع الكذب على الناس ليكذب على الله -تبارك وتعالى-، وكذلك قال جعفر بن أبي طالب -رضي الله عنه- للنجاشي ملك الحبشة: أيها الملك إن الله بعث إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته وهكذا قال المغيرة بن شعبة -رضي الله عنه- لنائب كسرى، هذا وقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يستغل صفاته الحميدة في الدعوة إلى الله وإبلاغ الرسالة، فقد جمع قومه يوماً ثم قال: (يا بني فلان يا بني فلان حتى جمعهم ثم قال: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً خلف هذا الوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ فقالوا: ما جربنا عليك كذباً قط، فقال: فإني منذركم بني يدي عذاب أليم).

في الحقيقة الجواب سديد وهو شرح بالتفصيل في الحقيقة، جزاه الله خيراً.

السؤال الثاني: ما المراد بالخرج في قوله تعالى: ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا ﴾؟ وهل هو خاص بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أم يشمل جميع الأنبياء والمرسلين؟ وضح ذلك بدليل.

وكانت الإجابة:

قال الحسن: أجراً. وهذا القول ليس خاص بالنبي -صلى الله عليه وسلم- إنما يشمل جميع الأنبياء والمرسلين قال الله تعالى مخبراً عن مؤمن آل ياسين: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يس: ٢٠، ٢١] وقال تعالى في سورة الشعراء عن نوح وهود ولوط وشعيب وصالح عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام وهم يدعون أقوامهم: ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الشعراء: ١٠٩] فهذا كان نهج الأنبياء والمرسلين جميعاً وبهذا يتضح أن معنى الخرج هو الأجر أو الجزاء. والله أعلم.

صحيح الجواب طيب ما شاء الله

السؤال الثالث: ما معنى: ﴿ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ ؟ وهل وقع شيء من العذاب الدنيوي على مجتمع مكة ؟ أيد ما تقول بدليل من السنة النبوية.

وكانت الإجابة:

معنى ﴿ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ أي ما خشعوا لربهم وما دعوه فلقد أخذ الله المشركين والكافرين بالعذاب كالمصائب والجوع والقتل فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والجحود، بل استمروا في ضلالهم وجحودهم وما خشعوا لربهم ولا دعوه كي يرفع عنهم العذاب أو يخففه عنهم بل جحدوا واستكبروا وقست قلوبهم قال تعالى: ﴿ فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام: ٤٣] وقد وقع شيء من العذاب الدنيوي على مجتمع مكة، فقد روى الإمام البخاري -

عليه رحمة الله- في كتاب التفسير من حديث ابن مسعود: (أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- دعا على قريش فقال: اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف) وفي سنن النسائي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: (جاء أبو سفيان إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز فأنزل الله الآية) والعلهز: أي الدم والوبر، هذا والله أعلم.

جواب سليم جزاكم الله خيراً.

الأخ الكريم من الجزائر يقول: إننا نرى -حفظكم الله- أن الآيات الكريمة من الرابعة والثمانين إلى التاسعة والثمانين تبين أن هؤلاء المكذبين بالبعث يقرون بتوحيد الربوبية وأن الله وحده هو الخالق المالك المدبر ولكن لم ينفعهم ذلك ؛ لأنهم أنكروا توحيد الألوهية والعبادة ومن هذا يتضح أن الإيمان هو تصديق وإقرار بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح وأن العمل داخل في الإيمان عكس ما قالت به بعض الفرق الضالة، فنرجو من فضيلتكم أن توضحوا هذا الأمر وخاصة أنه انتشر بين المسلمين فنجد منهم من لا يصلي ونجد منهم من لا يصوم ومنهم من لا يزكي ومنهم من لا يحج مع استطاعته على ذلك، والأكبر من ذلك أن منهم من يدعو ويصرف العبادة لغير الله كدعاء الأولياء والصالحين والتبرك بهم والذبح لهم والحلف بهم وغير ذلك فنرجو التوضيح بارك الله فيكم..

أقول للأخ الكريم جزاك الله خيراً . وفي الحقيقة الآيات كما ذكرت التي قرر الله -عز وجل- فيها توحيد الربوبية للدلالة ولإلزام المشركين بعبادة الله وحده دون سواه، وهي في الحقيقة تدعو أولاً المشركين إلى أن يدخلوا في الإيمان فإذا دخلوا في الإيمان وجب عليهم أن يقوموا بما أوجب الله -سبحانه وتعالى- عليهم، من اعتقاد القلب وقول اللسان وعمل الجوارح والأركان وقد ذكرت ذلك كثيرًا ورددته فيما مضى لأهمية الإشارة إليه، خاصة كما أشرنا في هذا الزمان على أساس أن الإيمان ليس مجرد أن يعتقد الإنسان بقلبه شيئًا يدل على توحيد الله -عز وجل- ثم بعد ذلك لا يستقيم على هذا الإيمان الذي زعم أنه قام في قلبه، ولكن الحقيقة الآيات التي معنا والتي شرحتها قبل قليل هي تؤكد أمراً مهماً جداً وهو إثبات أن الله -سبحانه وتعالى- إله واحد، فآيات الربوبية تدل وتشير وتلزم من عبد غير الله -تبارك وتعالى- أن يعبد الله وحده دون سواه، أما إذا دخل هذا المشرك في الإيمان أو دخل العبد في الإيمان فنقول له الإيمان كما هو معتقد أهل السنة والجماعة: اعتقاد بالجنان وقول باللسان وعمل بالجوارح والأركان، وإن شاء أزيد رابعًا وخامساً، يفيدنا جميعاً في الإيمان وهي أيضاً تختم بنون، يزيد بطاعة الرحمن وينقص بطاعة الشيطان، فالإيمان كما يذكر كان يذكر لنا أحد مشايخنا -رحمة الله تعالى عليه- كلمات تختم بخمس نونات اعتقاد بالجنان وقول باللسان وعمل بالجوارح والأركان، يزيد بطاعة الرحمن وينقص بطاعة الشيطان، وهذه -حقيقة- كلمات تجمع مباحث الإيمان وقواعده عند أهل السنة والجماعة، والله أعلم.

الأخ الكريم من السعودية يقول: كنت أريد أن أسأل الشيخ عن تفسير الآية: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ ﴾ [الأحزاب: ٧٢] فهل المقصود بآخر الآية الذي هو: ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ [الأحزاب: ٧٢] قبل حمل الأمانة أم ظلمه وجهله بعد تصرفه في الأمانة؟

الأخ الكريم من السعودية يقول: بالنسبة لمعاملة الكفار التي هي أحسن، هل فيها تفصيل فتكون على حسب الشخص إذا كان مثلاً ليس منه أذى فتقابله بعدم الأذى ، وإذا كان يعاديك بالقتال مثلاً فتواجهه بحسب عمله ضد المسلمين؟

الأخ الكريم كان يسأل عن قول الله -عز وجل-: ﴿ عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ إلى نهاية الآية في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ [الأحزاب: ٧٢] هل هذا الظلم قبل أم بعد؟

في الحقيقة أولاً الأمانة المراد بها في هذه الآية هي التكاليف الشرعية، أو ما يعبر عنه بجملة الأوامر والنواهي، والله -عز وجل- قد أخبر فيها أن الإنسان تحملها لأنه ظلوم جهول، كونه تحملها لأنه ظلوم جهول كان قبل أو بعد على كلٍّ نقول: الله -عز وجل- يعلم سلفا أن هذا واقع من الإنسان، وقد ظهر قبل أن يتحمل الإنسان سائر التكاليف الشرعية شيئًا من ظلمه وجهله منذ أن خلق الله -سبحانه وتعالى- آدم وأسكنه هذه الأرض، عندما قتل ابني آدم أحدهما الآخر، بدا منه ظلم الإنسان وجهله على أخيه الذي قتله ظلماً وعدواناً وجاءت التكاليف الشرعية بعد ذلك فبقي بعض الناس على ظلمهم وعلى جهلهم، والشاهد على هذا أن الله -سبحانه وتعالى- سبق في علمه ما سيكون عليه الإنسان وظلم الإنسان وجهله وقع أيضاً منه بعد ما كان منه من المعاصي ومن السيئات التي قام بها على ظهر هذه الأرض. والله أعلم.

الأخ الكريم من مصر يقول: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ هل الشياطين تسكن أجسام بعض الناس؟ وهل قراءة آخر سورة البقرة وآية الكرسي وسورة الإخلاص والمعوذتين تطرد الشياطين من الجسم المسكون به الشياطين؟

الأخ الكريم من السعودية كان يسأل عن معاملة الكفار هل هم على أقسام أم أنهم أمر واحد؟

لاشك أن الكفار على أقسام فالذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا والذين يحملون على أهل الإيمان كي يدخلوهم في الكفر ويحملوهم على الطغيان وما إلى ذلك ليسوا كمن سالم أهل الإيمان ولم ينالوا منهم شيئًا من الأذى، والله -عز وجل- قد فرق بين هؤلاء وهؤلاء وذلك في سورة الممتحنة: ﴿ لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾ [الممتحنة: ٨] ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ﴾ بعدها: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ [الممتحنة: ٩] ولابد كما ذكرت وأشرت ألا يشعر الإنسان أهل الكفر والطغيان أنهم في ضعف وذلة بل عليه أن يواجههم بقوة وشدة كما ذكرت الآيات في سورة التحريم وفي سورة التوبة، ودعت النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يقالت هؤلاء الكفار، وأن يشدد من وطئته عليهم، من قاتل أهل الإيمان يجب أن يقاتل وأن يظهر له من القوة ما يجب أن يكون عليه المسلمون ، والله أعلم.

الأخ الكريم من مصر كان يسأل عن قول الله -عز وجل-: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ كان سؤاله: هل تسكن الشياطين أجسام الإنسان وهل المعوذات تطردها؟

ورد في السنة أن الشيطان يمكن أن يتلبس بالإنسان وأن يدخل فيه، وهذا وردت فيه بعض الروايات عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وهو أمر مشاهد واقع بين الناس ولكن الشيطان يطرد من البيت ويبتعد من الإنسان بأمور كثيرة ذكرها النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فمثلاً أذكر في بعض السنن في هذا أو ما ورد في السنة من هذا: أخبر النبي -عليه الصلاة والسلام- أن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخل الشيطان، وأن الإنسان إذا دخل بيته فذكر اسم الله -عز وجل- علم الشيطان أنه لن يبيت في هذا البيت فإذا قدم له طعام وجلس عليه فذكر اسم الله -تبارك وتعالى- علم الشيطان أنه لم يدرك الطعام أيضاً وهذا يدل على أن الشياطين تطرد من البيوت بمثل ذلك، وكذلك أيضاً النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر بأن : (العبد لا يزال عليه من الله حافظا ولا يقربه شيطان إذا قرأ آية الكرسي إذا أوى إلى فراشه) كما أن أيضاً أواخر سورة البقرة أيضاً النبي -صلى الله عليه وسلم- حث على قراءتها عند النوم لأنها أيضاً تطرد الشياطين كذلك القراءة بالمعوذتين والمتتبع لسنة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، فيجد الكثير في ذلك ولكن أود أن أقول ملاحظة بعض الناس إذا أصيب بأي مرض أو ما إلى ذلك قال عندي مس من الجن عندي كذا عندي كذا، هذه مسائل أنت لا تستطيع أن تحكم عليها بمجرد أن ترى عرضاً من أعراض المرض عندك ولكن إذا وجدت شيئًا من ذلك اذهب وابحث عن الأسباب التي قد

يمكن أن تكون أسباب مادية لهذا الأمر، ولا بأس أن تقرأ أو أن يقرأ عليك أحد بعض آيات القرآن الكريم مما يمكن أن يتبين الأمر إن كان عندك شيء في ذلك وعلى المسلم أن يعيش مع الذكر في كل وقت وفي كل حين، فإذا عاش المؤمن مع ذكر الله -تبارك وتعالى-، واستعاذ دائماً بالله -عز وجل- من الشيطان الرجيم جنبه رب العزة والجلال الشيطان وسوسةً وهمزا ونفسا ونفخا وما إلى ذلك، من كل مجالات أو من كل المجالات التي يمكن أن يدخل فيها الشيطان أو منها الشيطان إلى الإنسان والله أعلم.

الأخ الكريم من السعودية يقول: لي الحقيقة استنصار لرسولنا الكريم -صلى الله عليه وسلم- الذي لا ينطق عن الهوى والذي كرمه ربه بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤] وقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ضد هذه الهجمة الشرسة في سب ومس عرض رسولنا الكريم -صلى الله عليه وسلم- وأسأل شيخنا الكريم أن يوجه المسلمين أن يعتزوا برسولهم ودينهم تصديقا لقول ربهم: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨] وأن توجهوا سماحتكم المسلمين في كل بقاع الأرض أن يذبوا عن عرض رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأن يأخذوا بكل أسباب العزة والدفاع عنه وعن دينه وعن أمته، أسأل الله أن يجعله في ميزانكم وميزان المسلمين وأن يعز دينه ورسوله وينصره ويمكنه في الأرض. وجزاكم الله خير.

في الحقيقة أشكر الأخ الكريم على دعائه لنا وعلى غيرته أيضاً على مكانة ومنزلة وعرض رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، وهكذا هو شأن المؤمن في أن يغار على النبي -عليه الصلاة والسلام- لأنه ليس شخصا عاديا في حياتنا -صلى الله عليه وآله وسلم-، وفي الحقيقة المسألة التي حصلت قد تكلم عنها المتكلمون واتخذت إجراءات متعددت من ديار مختلفة الحقيقة ووقفت بعض الدول وقفات شجاعة وجريئة في مواجهة هذا الأمر ومن هذا المنطلق ومن هذا المكان أشكر كل من ساهم دولاً وأفراداً وشعوباً في الدفاع والانتصار للهجمة الشرسة على نبي الهدى والرحمة -صلوات الله وسلامه عليه-، وكما أشرت في بداية الكلام الآن إلى أن الكثير قد تكلموا في هذه المسألة وإن كان لي من قول هنا يخص هذا المقام فإنني أدعو عموم المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أن يعتزوا بدينهم الذي بعث به النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فمن وجهة نظري أنه لن ترتفع للإسلام راية ولن يعلو النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- على كل من على هذه الأرض بشخصه وبهديه وبسنته وبكلامه -صلى الله عليه وآله وسلم- إلا إذا قام المسلمون لهذا الدين، وارتفعوا به ورفعوا سنة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وتمسكوا بهديه إن الأمة والبشرية من حولنا يا معشر أهل الإيمان إن وجدونا نحب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- محبة عملية تتمثل في اتباع سنته لأدركوا أننا حقاً نحب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وأننا لا نسمح بحال من الأحوال ولخافوا هم أن يتكلموا بكلمة واحدة عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كان بعض المشركين يحضر النبي -عليه الصلاة والسلام- كما في صلح الحديبية يرجع الواحد منهم ويقول: يا قومي ادخلوا في دين محمد فإنني وجدت قوماً يحبون محمداً -صلى الله عليه وسلم- أكثر من محبتهم لأنفسهم، شهد ذلك لماذا؟ لأن النبي -عليه الصلاة والسلام- كان إذا تنخم نخامة ابتدروها كان إذا توضأ وضوءاً تبادروا وضوءه -صلى الله عليه وسلم- وجدوا اتباعا التزاما بمنهج كان -عليه الصلاة والسلام- ظهر هذا في حبهم للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فإذا أردنا نحن حقاً يا معشر أهل الإيمان ونحن مطالبون ويجب علينا وجوباً عينياً أن يدافع كل واحد منا في مكانه عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وأن يذب عن عرضه بالقول، بالكلمة، بمقاطعة بضاعة يفعلها بأي أمر يمكن أن يفعله لكي ينصر دين الإسلام ويعز رسول الإسلام -صلى الله عليه وآله وسلم- أرجع فأقول: يظهر ذلك تمام الظهور ويتأيد أو يبرز حبك للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من خلال اتباعك لهديه ولسنته، فإذا وجد العالم من حولنا أننا حقاً نتأسى به -صلى الله عليه وسلم- في كل أمر إذا وقفنا للصلاة إذا أدينا الزكاة إذا تحركنا في حركة إذا أمرنا بمعروف إذا تعامل بعضنا مع بعض إذا تعاملنا مع غيرنا مع الكفار تعاملنا على هدي النبي -صلى الله عليه وسلم- أدرك هؤلاء الناس أن للنبي -صلى الله عليه وسلم- منزلة في قلوبنا، وأننا نحبه أكثر من حبنا لأنفسنا وأولادنا وأهلينا وأموالنا وهذا واجب على كل مسلم، ولن يصل العبد إلى حقيقة الإيمان إلا إذا كان النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أحب إليه من نفسه وولده

وماله والناس أجمعين، وتكفي هذه الإشارة وإن كانت قليلة وقد استفاض الناس كثيرًا في هذا الكلام ونسأل الله –عز وجل– أن نكون من الذابين عن عرض النبي –عليه الصلاة والسلام– وأن يستخدمنا ربنا في ذلك.

الأخت الكريمة من مصر تقول: كنت أريد أن أسأل: من هم الذين حبطت أعمالهم؟ أو ما هي أسباب حبوط الأعمال؟

أسباب حبوط الأعمال في الحقيقة كثيرة على رأسها الشرك بالله –تبارك وتعالى– لقول الله –عز وجل– لنبيه ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر: ٦٥] كذلك أيضاً من أسباب حبوط الأعمال الرياء والتصنع للإنسان فيما يفعله الإنسان، يعني لا تقصد بعملك وجه الله –تبارك وتعالى–، وأعتقد أني ذكرت فيما مضى قصة الرجل المجاهد والمتصدق والمنفق وأنهم جميعاً دخلوا النار؛ لأنهم لاحظوا المخلوق في أعمالهم، كذلك أيضاً وهذا أمر مهم جداً من أسباب حبوط الأعمال، أن يكره العبد ما أنزله الله –تبارك وتعالى– ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ ﴾ [محمد: ٩] فالذي يكره ما أنزله الله تعالى على رسوله –صلى الله عليه وآله وسلم– يكون ذلك سبباً في أن يحبط الله –سبحانه وتعالى– عمله، هذه أمور عامة هناك بعد ذلك أمور خاصة بها تحبط الأعمال أيضاً فالإنسان إذا تصدق مثلاً صدقة ثم بعد ذلك أراد أن يشاهدها الناس وأن يتحدثوا عنها حبط عمله بذلك، إنسان أعطى إنساناً صدقة ثم بعد ذلك أتبع هذه الصدقة بالمن والأذى حبط عمله بذلك، يعني إذن هناك أمور متعددة مختلفة يحبط بها عمل الإنسان ألخصها في أمرين:

الأمر الأول: أن يكون العبد في أفعاله كلها يقصد رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى–، يعني لا يرائي بعمله الناس فيما يفعل، فيخلص بذلك من الشرك قليله وكثيره، صغيره وكبيره.

الأمر الثاني: أن يتبع فيما يفعل هدي النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– لأنه –عليه الصلاة والسلام– يقول: (كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد) ، فإذا فعلت عملاً تقصد به وجه الله، ولكنه ليس على هدي النبي –صلى الله عليه وسلم– فلن يكون أيضاً مقبولاً، هذا باختصار حول هذه المسألة.

الأخ الكريم من السعودية يقول: نرجو من فضيلتكم إيضاح معنى الأثر: (العفو عند المقدرة)؟

هذا في الحقيقة أيضاً من الأخلاق الكريمة التي وجه النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– الأمة، أن يعفو الإنسان عمن ظلمه ولاشك العفو يكون أو يقع في حالتين:

الحالة الأولى: أن يكون الإنسان قادراً .

الحالة الثانية : أن يكون الإنسان غير قادر أو أن يكون عاجزاً، كلا الأمرين يحدث منه عفو من المؤمن ولكن الأول هو المهم وهو الذي دعا إليه القرآن الكريم وهذا في قول الله –تبارك وتعالى–: ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى: ٤٣] قال بعض أهل العلم: اللام هنا يقول بعض البلاغيين أو بعض اللغويين عن أنها زائدة، ولكن هي تفيد معنى، زائدة من حيث الصناعة اللغوية ، ولكنها دخلت هنا لتدعو إلى تأكيد العفو والصفح للإنسان القادر على أن يأخذ حقه بنفسه من الذي ظلمه، فهذا يحتاج إلى شحذ الهمة لكي يعفو ولكي يصفح وأفادت اللام هذا المعنى، فالعفو عند المقدرة، باختصار والشاهد منه خلق كريم حث عليه النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– ولا يكون حقاً إلا من آمن صدقاً بالله –تبارك وتعالى–:

فضيلة الشيخ هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه المحاضرة

السؤال الأول: ما حكم من أقر بربوبية الله تعالى: ولكنه اتخذ الوسائط والأنداد لله؟ أيد ما تقول بالدليل؟

السؤال الثاني: قال الله تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾ هذه الآية اشتملت علـــى ثـــلاث مسائل اذكرها بالتفصيل؟

السؤال الثالث: أدب الله تعالى المؤمنين بآداب عظيمة ومن ذلك الإحسان إلى المـــسيء، تحـــدث عـــن هـــذا الموضوع من خلال بعض آيات القرآن الكريم؟

الدرس السابع عشر: تفسير سورة المؤمنون

فضيلة الشيخ أهلاً ومرحباً بكم

أهلاً وسهلاً ومرحباً بكم وبالحاضرين والمشاهدين والمشاهدات، ويسرنا أن نلتقي في هذا اللقاء الكريم المبارك وفي الحلقة الأخيرة مع هذه السورة العظيمة ألا وهي سورة المؤمنون، والحديث في هذا اللقاء -إن شاء الله تبارك وتعالى- سيدور حول المحاور التالية:

المحور الأول: حال الكافرين والمفرطين عند الاحتضار.

المحور الثاني: لا تنفع الأنساب يوم العرض والحساب.

المحور الثالث: تقريع أهل النار لكفرهم بالكبير المتعال.

المحور الرابع: الله -تعالى- منزه عن العبث في خلقه.

المحور الخامس: توعد الله من أشرك به وعبد معه سواه.

والآن نستمع إلى هذه الآيات الكريمة المباركة من الأخ الكريم فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

جزاك الله خيراً.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين وبعد.

فبعد أن استمعنا إلى هذه الآيات من كتاب رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- أبتدأ الآن في الحديث عن أول آية مما سمعنا وهي تدخل تحت المحور الأول:

المحور الأول: حال الكافرين والمفرطين عند الاحتضار: وفي ذلك يقول رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ يخبر رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- عن حال المحتضر من الكافرين أو المفرطين في حق الله -جل ذكره-، وأنهم يتمنون عند نزول الموت به، ويسألون أن يعودوا مرة أخرى إلى دار الدنيا ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾﴾ لماذا؟ قال: ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ وكما بينتْ هذه الآية أن هؤلاء الكافرين والمفرطين يطلبون ذلك عند الموت، أشارت آيات أخر في كتاب الله -تبارك وتعالى- أنهم أيضاً يتمنون الموت عندما يعاينون ويشاهدون ما يكون في يوم القيامة وكذلك يتمنونه حينما يعرضون على النار، ويتمنون الرجوع أيضاً وهو في غمرات الجحيم -أعاذنا الله وإياكم من ذلك-، أما تمنيهم الموت، مرة أخرى كما ذكر رب العزة والجلال عند الموت، فقد جاء ذكره في قول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون: ١٠] والجواب عليه: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المنافقون: ١١] أما طلبهم الرجوع للعمل الصالح عند مشاهدة ما سيكون في يوم القيامة ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣] قول الله تعالى هنا: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ يعني يوم يأتي تأويل ما أخبر به الأنبياء والمرسلون، لأن التأويل معناه هنا: الحقيقة التي يرجع إليها الأمر، فالأنبياء والمرسلون أخبروا عما سيقع في يوم الدين، وما أخبروا به أمر غيبي عن المخاطبين في الوقت الذي خوطبوا به، وعندما يعاينون ذلك يأتي تأويل ما أُخبروا به، يعني يصبح واقعاً مشاهداً عياناً أمامهم، في هذه الحالة سيتمنون أن يرجعوا بعد ذلك إلى الدنيا ليعملوا فيما فرضت أيديهم من قبل.

أما ما ذكره القرآن الكريم عن تمنيهم الموت وهم يعرضون على النار ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى-: عن هؤلاء الناس عندما يقفون على النار وقولهم: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨] أيضاً يتمنون أن يردوا إلى الدنيا مرة أخرى ذكرها القرآن الكريم وهم يتعذبون في نار جهنم -والعياذ بالله تبارك وتعالى-، وفي ذلك يقول رب العزة والجلال: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٧] إذن هؤلاء الكافرين والمفرطين يتمنون الرجعة إلى الدنيا مرة أخرى في مواطن متعددة يتمنون ذلك عند الموت، ويتمنون ذلك عند معاينة ومشاهدة يوم القيامة ويتمنون ذلك عندما يعرضون على النار، ويتمنون ذلك أيضاً وهم يتعذبون في نار الجحيم -أعاذنا الله وإياكم منها-.

يتمنون الرجعة لماذا؟ ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴿١٠٠﴾﴾ لعل هنا قيل: للتعليل، وقيل: للرجاء ؛ لأنهم يتوقعون أن يعملوا عملاً صالحاً ولكن قد لا يقع منهم ذلك، وهم حينما يتمنون الرجعة يتمنونها ليستدركوا ما فات من الأعمال لأنهم قدموا أعمالا سيئة وسلفت منهم أمور وقع فيهم أو وقع منهم من الشرك بالله -تبارك وتعالى- ووقع منهم بعد ذلك أيضاً من الإفساد في الأرض بألوان متعددة من ألوان الفساد فيتمنون أن يعودوا بعد ذلك ليعلموا أعمالاً صالحة، والأعمال الصالحة يدخل فيها توحيد الله -تبارك وتعالى- وسائر ما يقوم به الإنسان من الصلاة والزكاة والحج وسائر الأعمال الصالحة.

﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا ﴿١٠٠﴾﴾ في أي شيء؟ قال: ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ يـأتي رد الله -سبحانه وتعالى- بكلمة ﴿كل﴾ وهي تفيد الردع والزجر يعني هذا الطلب لن يكون، ولن يتحقق لكم بعد ذلك العود إلى دار الدنيا وإنما هي كلمة سيقولها هؤلاء الناس حينما ينزل بهم ما ينزل: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾.

آتي بعد ذلك إلى قول هؤلاء ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ما وجه الجمع في قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ولم يقل: رب ارجعني؟ لأن الحديث والكلام عن المفرد ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾﴾ ذكر بعض العلماء أجوبة على ذلك تنحصر في ثلاثة أمور:

الأمر الأول: وهو أظهرها والله أعلم: أنه جمع تفخيماً وتعظيماً للمخاطب ألا وهو رب العـزة والجـلال -سبحانه وتعالى-، لأنه يخاطب من؟ يخاطب رب العزة والجلال سبحانه، فخاطبه بلفظ يفيد التفخيم والتعظيم.

وقيل: وجه الجمع هنا للتكرار، جاء ضمير الجمع لإرادة التكرار، وكأنه قال: رب ارجعني ارجعني ارجعني، هذا معنى ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾.

وقيل: الجمع هنا جاء لأنه يخاطب أو يطلب ذلك من الملائكة وأن قوله ﴿رَبِّ﴾ توسل إلى الله -عز وجـل- وطلب منه، وأما قوله: ﴿ارْجِعُونِ﴾ فهو بهذا يخاطب الملائكة؛ لأنه قد عاين شيئًا من ذلك وعلم أن ملك المـوت هو الذي يتولى قبض روحه وأما أعوان ملك الموت هم الذين يأخذون روحه بعد ذلك فوجه إليهم الخطاب بعدما توسل بربه: ﴿رَبِّ﴾ ثم قال بعد ذلك: ﴿ارْجِعُونِ﴾.

أما قول الله -تبارك وتعالى- في هذه الآية: ﴿وَمِن وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ البرزخ: هـو الحـاجز والمانع، كقول الله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [الـرحمن: ١٩، ٢٠] ويقال عن القبر برزخ؛ لأنه حاجز بين الدنيا والآخرة فهم يبقون في القبور لا يعيشون يتنعمون فيأكلون ويشربون كحال أهل الدنيا ولا هم وقفوا بين يدي رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، في الدار الآخرة، وفي هذا القول تهديد لهم بعذاب القبر، وبيان أنهم لن يعودوا بعد ذلك إلى الدنيا من جديد، يعني تيئيس لهم أيضاً فيما طلبوا منه وأنهم سيلقون في القبور إلى يوم البعث والنشور.

المحور الثاني في هذا اللقاء بعنوان: لا تنفع الأنساب يوم العرض والحساب.

وفي ذلك يقول رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ لما قال الله -تبارك وتعالى- في الآية السابقة: ﴿وَمِن وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ذكر مآل هذا اليوم، وما سيكون فيه وما حال الناس في هذا اليوم الذي يبعثون فيه، وهو أنه إذا نفـخ فـي الـصور، والصور قرن ينفخ فيه، والظاهر -والله أعلم- أن المراد بالنفخ في الصور في هذه الآية هو النفخة الثانية، وهي التي يقوم الناس بها من القبور ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ يعني ليست هنـاك أنـساب أي تنقطـع الأنساب بين العباد، ﴿وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [المعارج: ١٠] يعني لا يسأل قريب عـن قريبـه، وهـو يبصره وكما قال الله -جل ذكره-: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٤- ٣٧] وقد يقول قائل: كيف تنقطع الأنساب بينهم وهـي ثابتة لهم بنص القرآن؟ فالله -عز وجل- في الآية التي ذكرتها آنفاً قال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾﴾ فأثبت أخوة واقعة بينهم، فكيف نقول: بأن الأنساب كما ذكرت الآية تنقطع، والأنساب ثابتة بينهم؟ خاصة أن المعاد هو الوالد وولده، ولا شك أن هناك نسب حقيقي بين الوالد وبين ولده؟

الجواب عن ذلك: أن المراد بقطع الأنساب قطع العلائق التي تترتب على الأنساب من التفاخر بالآباء أو طلب النفع من ورائهم أو أن يشفعوا لهم أو ما إلى ذلك، هذه كلها تنقطع إلا إذا أذن رب العزة والجلال في شيء مـن

الشفاعة لأحد، أما سائر الأنساب من حيث ما يمكن أن يوصل أحد إلى أحد نفعاً فكل هذا سينقطع بين العباد في يوم الدين، وقوله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾ يعني لا يقع بينهم تعارف ولا تساؤل، وهذا أيضاً للنظرة الأولى، قد يتعارض مع قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الصافات: ٢٧] فكيف نوفق بين قوله هنا: ﴿وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾ وبين ما جاءت الآية الأخرى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الصافات: ٢٧]؟

والجواب عن ذلك: أن مقدار يوم القيامة كما ذكر في القرآن الكريم خمسون ألف سنة، ولا شك أنه يوم طويل وطويل وطويل، وسيحدث أو ستحدث فيه مواقف وأمور متعددة مختلفة، وأحوال متباينة وبالتالي قد يقع منهم سؤال في بعض المواطن فيتساءلون ويتعارفون وقد ينقطع عنهم السؤال في مواطن أخر، وقد ذكر العلماء أن من مواطن انقطع السؤال فيما بينهم موطن الحساب والسؤال والمرور على الصراط وما إلى ذلك، وقيل: المراد بنفي السؤال هنا في قوله: ﴿وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾ نفي السؤال الخاص، وهو طلب النفع من بعضهم لبعض يعني لا يسأل أي واحد منهم أخاه شيئًا من النفع لماذا؟ لأن الأمر كما قال الله: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٧].

ثم بين رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- شيئًا آخر يدخل تحت هذا المحور وهو ما جاء في قوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ يبين رب العزة والجلال في هذه الآيات أن الناس ولا شك في يوم القيامة سيفترقون إلى فريقين فريق يثقل ميزانه وفريق يخف ميزانه، من ثقلت موازينه في يوم الدين كان من المفلحين بشهادة رب العالمين، ومن خفت موازنيه ذكرت هذه الآية والآية التالية أنه سيقع عليه أربعة أمور كل أمر منها كاف في وقوع الهلاك به، والميزان الوارد في هذه الآية: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ هو ميزان حقيقي كما يعتقد ويؤمن بذلك أهل السنة والجماعة، فأهل السنة والجماعة يعتقدون بما أخبر الله -تبارك وتعالى- عنه، وبما أخبر عنه النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من أن الميزان سيقع في يوم الدين وأن أعمال العباد ستوزن على وجه الحقيقة، وقد جاءت في السنة النبوية ما يؤيد ذلك في حديث صاحب البطاقة الذي ستوضع له سجلات تصل إلى تسعة وتسعين سجلاً في كفة وتوضع لا إله إلا الله في الكفة الأخرى، فدل ذلك على أن الميزان بكفتين، وأنه ميزان حقيقي وأذكر هذا لأن بعض الفرق ألا وهي فرقة المعتزلة تقول: بأنه ليس هناك ميزان على الحقيقة وإنما الميزان الوارد في هذه الآية وفي غيرها من الآيات كناية عن عدل الله -تبارك وتعالى-، وهذا باطل وخروج عن ظاهر القرآن الكريم الذي خاطبنا به رب العزة والجلال سبحانه فالميزان حقيقي وهو كائن لا محالة وأذكر هنا بأن ميزان الله حق معلوم، كما قال الله جل ذكره، ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ [الأعراف: ٨] وكما قال سبحانه: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: ٤٧] فمن ثقلت موازينه إذن بشهادة التنزيل كان من الفائزين المفلحين أما من خفت موازينه فستقع عليه أمور أربع كما ذكرت هذه الآيات:

الأمر الأول: أنهم خسروا أنفسهم.

والأمر الثاني: أنهم في جهنم خالدون، يعني ناكثون مقيمون.

الأمر الثالث: ما جاء في قوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾.

والأمر الرابع: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾.

ومعنى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ يعني أن النار تحرقهم حرقا شديداً، وقد جاء بيان ذلك في بعض آيات القرآن الكريم كقول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ [إبراهيم: ٥٠] وكقول الحق سبحانه: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ

﴿٣٩﴾﴾ [الأنبياء: ٣٩] أما قول الله –تبارك وتعالى– في وصفهم: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ فالكالح كما جاء عن عبد الله بن عباس –رضي الله تعالى عنه–: هو العابس ولذلك قال ابن منظور في لسان العرب: الكلوح تكشير في عبوس، إذا كشر الإنسان وعبس وجهه هذا هو الكلوح، والكالح هو الذي تقلصت شفتاه حتى بدت أسنانه، وهذا من شدة النار التي تقع على هؤلاء –أعاذنا الله وإياكم منها–.

وإذا كان العبد أيها الأحباب، إذا ثقل ميزانه كان من المفلحين وإذا خف ميزانه وقع عليه ما ذكرته هذه الآيات ألا يدعو هذا الإنسان إلى أن يتفكر في أمر هو مهم له غاية الأهمية ألا وهو أن يعمل من الصالحات ما يثقل به ميزانه عندما يقف بين يدي رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى–، وموازين العباد لا تثقل إلا بالأعمال الصالحة وها نحن في هذه الحياة الدنيا دار العمل، دار السعي، دار الاجتهاد لأن الإنسان إذا أتى وحضره الموت سيطلب الرجعة ولكن لن يجاب إلى ما طلب، ولن يكون هناك عمل في يوم الدين وإنما العمل في دار الدنيا، فاسعى يا عبد الله لعمل صالح يقربك إلى ربك ومولاك وبه يثقل ميزانك عندما توزن أعمالك في يوم الدين.

المحور الثالث: تقريع أهل النار لكفرهم بالكبير المتعال:

وفي هذا يقول رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى–: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ هذا كما ذكرت وأشرت تقريع وتبكيت لهؤلاء المخاطبين وتوبيخ لهم لأنهم كفروا بالله –تبارك وتعالى– وما كان ينبغي أن يقع منهم ذلك، لماذا؟ لأن الله –عز وجل– أنزل عليهم الكتب، وكانت آيات الله –تبارك وتعالى– تتلى عليهم، من خلال دعوة الأنبياء والمرسلين، ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ ولكن هؤلاء الكافرين قابلوا آيات الله –تبارك وتعالى– بالتكذيب والإنكار وردوا دعوة الأنبياء والمرسلين، والله –عز وجل– قد أرسل في كل أمة رسولاً كي يقيم الحجة على العباد وكان كل نبي يأتي إلى قومه يدعوهم إلى رب العزة والجلال ويتلو عليهم الآيات التي أتته من عند الله –تبارك وتعالى–، يقول رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى–: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥] لماذا؟ ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] ويقول سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥] ويؤكد ذلك ما جاء في هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾.

وهنا أود أن أبين أمرا هاما للغاية وهو مستنبط من هذه الآية والآية تدل عليه: وهو أن الحجة تقوم على العباد بالشرع لا بالعقل، وهذه مسألة مهمة؛ لأن المعتزلة ومن ذهب مذهبهم ذهبوا إلى أن الحجة تقوم على العباد بالعقل، ولكن الصواب في ذلك، أن الحجة تقوم على العباد ببعثة الأنبياء والمرسلين وإنزال الكتب من عند الله رب العالمين وأن العقل لا يترتب على ما يأتي منه ثواب أو عقاب وإنما الثواب والعقاب إنما يكون بالشرع الذي جاء به النبي المرسل من قِبَل الله –تبارك وتعالى– والحجة إذن أقيمت على العباد بالشرع ولا نعني بذلك أننا نلغي العقل بالكلية بل نقول بأن العقل نعمة من الله على عباده، وهو مناط التكليف إلا أن الله –سبحانه وتعالى– لا يحاسب الناس إلا بعد بلوغ حجة الأنبياء والمرسلين بنص التنزيل ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] ولذلك هؤلاء الكافرين وهم يعذبون في نار جهنم يعترفون أنهم قصروا وكذبوا بالآيات التي جاءت من عند الله –تبارك وتعالى– الآية التي معنا يقول الله فيها: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ قالوا أيضاً في سورة الملك وقال الله عنهم: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: ٨– ١١] ولذلك عقب الله –عز وجل– بالآية التي تأتي الآن بعد قوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ عقب على ذلك بقولهم: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾﴾ يعني حقاً جاءتنا الآيات وتُليتْ علينا الآيات ولكن غلبت علينا الشقاوة ولم نستفد من الحجة حتى أقيمت علينا الحجة وصاروا من أهل الجحيم وصاروا من أهل النار وحقت عليهم كلمة العذاب لما كفروا بالأنبياء

والمرسلين وهم هنا معترفون بأن الحجة أقيمت عليهم وأن الرسل بلغتهم ولكن الشقاوة بلغت عليهم فصدُّوا عن الإيمان بالأنبياء والمرسلين ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ واعترفوا بالضلال ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ ثم بعد ذلك يطلبون من رب العزة والجلال أن يعودوا بعد ذلك إلى الدنيا مرة أخرى، وأن يخرجوا من النار حتى يعملوا الأعمال الصالحة فماذا يكون جواب الله عليهم؟

قال الله –عز وجل– في طلبهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ بعد أن أقر هؤلاء بضلالهم وأن الشقاوة غلبت عليهم، عندئذ سيدخلون النار وبئس القرار، وبالتالي سيطلبون الرجعة والخروج من النار حتى يستدكوا ما فات ويذكرون: أخرجنا منها يا رب فإن عدنا إلى ما وقع منا من كفر وشرك وظلم وبغي وعدوان وما إلى ذلك ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ ولكن ماذا سيكون جواب الله على هؤلاء؟

جواب في غاية من الشدة ﴿اخْسَؤُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾ ﴿اخْسَؤُوا فِيهَ﴾ يعني ابقوا فيها أذلاء صاغرين؛ لأن هذه الكلمة وهي ﴿اخْسَؤُوا﴾ لا تقال إلا للحقير الذليل ﴿اخْسَؤُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾ يعني لا تطلبوا هذا الطلب، وقد جاء في القرآن الكريم أن هؤلاء يطلبون الخروج من النار في مواطن متعددة ومرات مختلفة وقد ذكر القرآن الكريم ذلك عنهم وهذا كما جاء في قول الله –تبارك وتعالى–: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة: ٣٧] يعني عذاب دائم، وكقول الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٦٧] بعدها: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧] وقد جاءت أجوبة متعددة على هؤلاء عندما يطلبون الخروج من النار، فالآية التي معنا لما قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ كان جواب الله عليهم: ﴿اخْسَؤُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾ وفي سورة الزخرف لما يطلبون من مالك الخروج من النار فيكون جواب الله عليهم: ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧] يعني أنتم موجودون ومقيمون وهذا يكون لمن كفر وأشرك برب العزة والجلال فلا يخرجون من النار أبداً، ويبقى في النار أبد الآباد، أما عصاة أهل القبلة الذين آمنوا بالله –تبارك وتعالى– وحققوا التوحيد له –سبحانه وتعالى– وآمنوا بالنبي –صلى الله عليه وآله وسلم– فهم وإن دخلوا النار بذنوبهم وبمعاصيهم فإنهم لا يخلدون فيها أبد الآباد وإنما يخرجون منها بشفاعة رب العالمين وبشفاعة الشافعين كما جاءت النصوص الكثيرة المتواترة في هذا المعنى، ثم بعد ذلك يذكر لنا الإمام حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس –رضي الله تعالى عنه– أن بين طلب هؤلاء الناس والجواب عليهم، بين طلبهم الخروج والجواب عليهم من الله –تبارك وتعالى– ألف سنة وقد ذكر ذلك هذا ابن عباس والعلم عند الله –تبارك وتعالى–، ثم يقول رب العزة والجلال سبحانه: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾ هذه الآية يبين فيها رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– سبباً من أسباب بقاء هؤلاء في النار، والعلة المؤدية إلى ذلك، وافتتاح الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي﴾ وإن هنا المكسورة المشددة ذكر علماء الأصول أنها تأتي للتعليل فكأن الله –عز وجل– يقول العلة في عدم طلب جواب هؤلاء وعدم التخفيف عنهم ما وقع منهم بالنسبة لأهل الإيمان، ثم وصف الله –عز وجل– قبل أن يذكر ما وقع من الكافرين وصف هؤلاء المؤمنين بصفات جميلة كريمة ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي﴾ قول الحق –تبارك وتعالى– هنا ﴿عِبَادِي﴾ تكريم وتشريف لأهل الإيمان أيما تشريف وأيما تكريم، يكفي يا أيها المؤمن يا من سجدت وخضعت لرب العزة والجلال أن تضاف إلى الله –عز وجل– إضافة تكريم وتشريف لا تعني الإضافة هنا إضافة حلولية أن ذات الخالق حلت في المخلوق أو اتحد المخلوق بالخالق حاشا وكلا، وإنما الإضافة هنا للتكريم والتشريف كقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٦٣] أضافهم إلى نفسه وقد أذكر أنني قد أشرت إلى ذلك فيما مضى ولكن الإضافة هنا التي أود أن أشير إليها أن فيها تكريماً وتشريفاً لأهل الإيمان حينما يضيفهم الله –عز وجل– من فوق عرشه إلى نفسه فيقول: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي﴾ ثم بعد ذلك يذكر أنهم كانوا يذلون لله، ويخضعون لله ويطلبون غفران الله، بعد إيمانهم. وإيمانهم اقتضى منهم أن يعملوا الصالحات ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ

الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ ولكن بأي شيء واجه أهل الكفر أهل الإيمان الذين خضعوا للرحمن فرحمهم رب العزة والجلال؟

واجهوهم بالتكذيب والسخرية والضحك حينما قال الله عنهم: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾ يعني أن هؤلاء الكافرين كانوا يسخرون من أهل الإيمان لدرجة أن هذه السخرية شغلتهم عن الذكر الذي جاء به النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، تأملوا: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ يعني سفاهة عقول هؤلاء بلغت بهم إلى هذه الدرجة إلى أنهم كانوا يسخرون ويستهزئون بأهل الإيمان وشغلوا أنفسهم بهذا الأمر حتى شغلوا عن الذكر الذي جاءهم من عند الله -تبارك وتعالى-.

وقال الله بعد ذلك عنهم: ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ وقد ذكر الله -عز وجل- عن أهل الكفر في آيات آخر كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [المطففين: ٢٩، ٣٠] يعني يلمزونهم ويغمزون فيهم ويؤذونهم ويتحدثون عنهم ويحاولون أن يُضحكوا الناسَ عليهم، وهذا إن وقع في الدنيا فالأمر في الآخرة على عكس ما يفعله أهل الكفر في الدنيا؛ ولذلك قال رب العزة والجلال سبحانه بعد هذه الآية السابقة قال: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ ذكر الله -عز وجل- في هذه الآية حسن مآل أهل الإيمان الذين آمنوا بالله ويقولون: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾.

يذكر حسن مآل هؤلاء وأنهم فائزون وأنهم في الجنة؛ لأن من يدخل الجنة فقد فاز، يذكر مآل هؤلاء الناس المؤمنين الذين سخر منهم الكافرون، ولكن ما مآل الكافرين إذن؟ إذا كان هذا هو مآل وحسن مآل أهل الإيمان هو الفوز بالجنان، ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ لأنهم صبروا على سخرية وأذى هؤلاء الكافرين وصبروا لامتثال أوامر الله -تبارك وتعالى-، وصبروا بالانتهاء وترك المنهيات التي نهى عنها رب العزة والجلال - سبحانه وتعالى-، جزاهم الله -عز وجل- بناءً على ذلك الجنة وفازوا بوعد الله -عز وجل- وقد بين ربنا سحجح ذلك وذكره في آيات أخر وذكر أنهم فائزون وأنهم سيضحكون على الكافرين في يوم الدين، أهل الإيمان الذين سخر منهم الكافرون في الدنيا فيضحكون هم من الكافرين في يوم الدين وفي ذلك يقول الله -عز وجل-: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المطففين: ٣٤] ثم يبين شيئًا من النعيم الذي يلحق بهم، وشيئا من الفوز الذي نالوه لأن الآية قالت: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ ذكر ربنا -عز وجل- في هذه الآية شيئًا من هذا الفوز: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين: ٣٤- ٣٦].

ثم يقول رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ «كم» هنا استفهامية والغرض من هذا السؤال أو الاستفهام هو تبكيت وتقريع هؤلاء الناس، وبيان أنهم سفهاء العقول، لماذا؟ لأنهم قضوا ومضوا في هذه الحياة الدنيا مدة قصيرة جداً، ولكنهم ما صبروا فيها على عبادة الله -تبارك وتعالى-، فالآية تدخل عليهم الحسرة والندامة، مدة الدنيا قصيرة وأنتم تعلمون بها ولكنكم ستنالون العذاب الشديد بعدم إيمانكم بالله -عز وجل- وصبركم على طاعة الله -تبارك وتعالى- في مدة يسيرة قصيرة والله -عز وجل- يستقي منهم ليبكتهم كما ذكرت وليقرعهم على هذا: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ جوابهم: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ يعني مدة قليلة، مدة محدودة للغاية، ولكن هنا مسألة:

هل تتعارض هذه الآية بهذا النص ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ مع قول الله -تبارك وتعالى- في آية أخرى: ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا ﴿١٠٣﴾﴾ [طه: ١٠٣] أو بين قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]؟

الجواب -والله أعلم-: أن بعضهم سيقول: لبثنا يوماً أو بعض يوم، والبعض الآخر منهم سيقول: لبثنا عشراً، وبعض آخر منهم سيقول: لبثنا ساعة، ومما يدل على أن هذا الجواب هو الصحيح وهو مستنبط من كتاب الله -تبارك وتعالى-، أن الله -عز وجل- بيَّن أن أقواهم إدراكاً وأن أكثرهم حجة وأن أمثلهم طريقة سيقولون كما قال الله عنهم: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [طه: ١٠٤] فدل ذلك على أن الجواب الواقع من هؤلاء مختلف، وأن الآيات في هذه الحالة لا يتعارض شيء منها مع بعضها البعض، ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾﴾، يعني اسأل الحاسبين الذين يمكن أن يعوا وأن يعرفوا الحساب، وقيل: المراد ﴿فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ يعني: اسأل الملائكة؛ لأن الملائكة يعرفون وعندهم سجلات وكانوا يكتبون عليهم ما يفعلون، والله -سبحانه وتعالى- أيد قولهم هنا بأن المدة التي مكثوا فيها في الدنيا مدة قصيرة للغاية، مدة قصيرة جداً، ولذلك بعد سؤال الله لهم سؤال تبكيت وتقريع: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿١١٤﴾﴾ يعني المدة التي لبثتموها حقاً مدة قليلة جداً قصيرة للغاية إذا قيست بما سيقع بعد ذلك وبما سيكون وفي الدار الآخرة لأنها نعيم مقيم لا ينتهي. ويقرعهم رب العزة والجلال أكثر فأكثر فيقول: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ولكن هؤلاء مع إنزال الكتب وإرسال الرسل لا يعلمون، وهم اعترفوا بذلك على أنفسهم وقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

المحور الرابع: الله تعالى منزه عن العبث في خلقه:

-سبحانه وتعالى- ويندرج تحت هذا العنصر قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾، الاستفهام أولاً في قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ للإنكار والحسبان معناه الظن يعني أن الله -سبحانه وتعالى- يقول لهؤلاء منكراً عليهم ما ذهبوا إليه: أفظننتم أننا خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون. يعني أن الله -سبحانه وتعالى- خلق خلقه هكذا سدىً وهملاً دون تكليف؟ ألا يعلم هؤلاء أن الله -عز وجل- ما خلق خلقه إلا ليعبدوه وليؤدوا الحق الواجب عليهم تجاه رب العزة والجلال الخالق البارئ المصور -سبحانه وتعالى جل في علاه- ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ فتعالى: يعني تعاظم، وتقدس -سبحانه وتعالى- الملك الحق الذي لا إله إلا هو يتعاظم رب العزة والجلال سبحانه، لما هو عليه من صفات الجلال والكمال أن يخلق خلقه عبثاً، وأني يتركهم سدى وأن لا يقع منه التكليف على هؤلاء الناس والله -عز وجل- قد نفى في كتابه، نفى عن نفسه أن يكون قد خلق الخلق من باب اللعب والباطل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩] أفحسبتم أيها المخاطبون أن الله -عز وجل- خلقكم هملاً دون تكليف، خلقكم للعب والهزل والفوضى وإتيان ما تحبون وما تريدون؟!! كلا ثم كلا، لأنكم سترجعون وستعودون إلى الله -عز وجل- وستكلفون، والله -عز وجل- يؤكد أنه لم يخلق خلقه عبثاً ببيان شيء من صفات الجلال والكمال الذي نصت عليها هذه الآية في قوله: ﴿فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ وصف نفسه أولاً بالملك، والملك يدل على أنه يملك كل شيء، وبالتالي الملك يفعل ما يشاء -سبحانه وتعالى- وما خلق خلقه إلا للتكليف إذن، وأنه يعلم ما هم عليه، فلم لا يكلفهم؟ ولم لا يعبدونه؟ وهو الملك وهم عبيده، ثم بعد ذلك يفرد نفسه بالوحدانية: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ ثم بعد ذلك ينص على أمر عظيم ألا وهو أنه ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ ووصف العرش بالكرم هنا لبيان عظمته وكبر شأنه، عرش الله -تبارك وتعالى- الذي هو سقف المخلوقات عرش كبير عظيم؛ لأن الله -سبحانه وتعالى- استوى عليه استواءً يليق بجلاله وكماله، ومن كان كذلك لا يمكن أن يترك خلقه عبساً بحال من الأحوال، بل لابد أن يقع التكليف لهم.

بقي هنا أن أشير حول هذه الآية إلى أمر ذكر فيه الحافظ ابن كثير -رحمه الله تبارك وتعالى- بعض الروايات التي ذكرها عن ابن أبي حاتم وهي رواية منها: (أن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- مر على مريض فقرأ في أذنه هذه الآية فبرء) وهذه في الحقيقة رواية ضعيفة، ورواها عبد الله بن حنش عن عبد الله

بن مسعود وهو لم يلقَ عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- فالرواية منقطعة، وأيضاً ذكر حديثاً آخر نص جمع من أهل العلم على أنه حديث موضوع رواه الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، ولم يصح مما ورد في مثل ذلك شيء يمكن أن يعتمد عليه في ذلك.

إذن: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾.

المحور الخامس: توعد الله من أشرك به، وعبد معه سواه:

الله -سبحانه وتعالى- توعد من أشرك به وعبد غير الله -تبارك وتعالى- وفي ذلك يقول رب العزة والجلال سبحانه: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾، لما بين الله -تبارك وتعالى- أنه هو الملك وأنه لا إله إلا هو، وأنه رب العرش الكريم، أتبع ذلك بذكر أمر عظيم وخطير واقع على من أشرك بالله -تبارك وتعالى-، وعلى من عبد مع الله سواه وعلى من أدخل على الحق الواحد المبين عبودية غيره، ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ توعده بقوله: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ كلمة ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ هذه كلمة تهديد شديد، ووعيد كبير، لماذا؟ لأنها تبين أنه أتى بجرم عظيم، لا يستطيع أحد أن يحاسبه عليه إلا رب العزة والجلال سبحانه، فحسابه عند ربه لماذا؟ لأنه اتخذ لله الأنداد، واتخذ لله الوسائط والشفعاء، والله -عز وجل- قد حذر من ذلك فقال: ﴿وَلاَ تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾ [الذاريات: ٥١] وقال سبحانه: ﴿لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء: ٢٢] والشرك في عبودية الله -تبارك وتعالى- أو اتخاذ الوسائط والأنداد لله -عز وجل- من العباد أمر أخطر ما وقع من العباد على ظهر هذه الأرض، فالأمر الخطير أو الجريمة الكبرى أو المعصية العظمى التي وقع فيها كثير من الناس: هو الشرك بالله -تبارك وتعالى-، لماذا؟ لأن المشرك أخذ حق الله -عز وجل- وأعطاه لمن لا يستحق من المخلوقين من العبيد الذين خلقهم ربهم -سبحانه وتعالى- وكيف يليق بعبد يتوجه إلى غير الله أو يدعو غير الله أو يطلب من غير الله -تبارك وتعالى-؟ ولذلك قطع الله الفلاح عن هؤلاء المشركين، فقال: ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ الذين دعوا غير الله -عز وجل- واتخذوا لله -سبحانه وتعالى- الوسائط والأنداد.

وهنا لفته في هذه الآية أود أن أشير إليها: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ قال بعض أهل العلم: هذه الجملة معترضة، ومفهوم المخالفة هنا غير مراد، يعني لا يأتي إنسان فيقول: لو أن إنساناً عبد مع الله غيره ببرهان قام عنده، فلا لوم عليه.

نقول له: لا.. لأنه يستحيل أن يكون هناك برهان يؤدي بالعبد إلى أن يعبد غير الله -تبارك وتعالى-، لأن الأدلة القطعية المتواترة تبين إفراد الله -سبحانه وتعالى- بالعبودية وتنفي عن أن يكون مع المشرك حجة أو برهان على ما يقوم به من عبادة غير الله -تبارك وتعالى- والله -عز وجل- يقول: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًَ﴾ [الحج: ٧١] يعني ما لم ينزل به حجة، ولم يأتي لهم دليل على ما يقومون به، فهذه الآية ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًَ﴾ [الحج: ٧١] هي كقوله -تبارك وتعالى-: ﴿لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ يعني أنه لا حجة معه، ولا دليل ولا برهان، والشاهد من ذلك أن مفهوم المخالفة غير مراد في هذه الآية حتى لا يأتي إنسان ويقول: قد يقوم عند إنسان برهان على أن يشرك بالله -تبارك وتعالى-.

طيب قد يقول قائل: لماذا قال هنا: ﴿لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾؟ نقول: ذكر هذا لبيان الحال أو الوصف الذي عليه هؤلاء الناس، فحالهم ووصفهم أنه ليس معهم حجة وليس معهم دليل بل عبدوا غير الله -تبارك وتعالى- بلا حجة وبلا برهان وبلا دليل، بل بمخالفة الأنبياء والمرسلين والكتب التي نزلت من عند الله رب العالمين، والله -عز وجل- قد حذرنا في كثير من آيات القرآن الكريم أن نشرك به -سبحانه وتعالى- وبيَّن أن المشرك مخلد في النار ولن يدخل الجنة بحال من الأحوال، ﴿قَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ﴾

[المائدة: ٧٣] ثم يبين رب العزة والجلال أيضاً: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢] فاحذروا يا أيها المخاطبون بآيات الله -تبارك وتعالى- أن تشركوا بالله -عز وجل- لأن الفلاح والفوز والنجاح منقطع عن المشركين ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

ثم تختم هذه السورة الكريمة العظيمة بقول جميل وحسن وكريم وهو: ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾، هذا إرشاد من الله -تبارك وتعالى- إلى هذا الدعاء لأن ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ﴾ أمر الله به النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- والأمة يعني أمة النبي -عليه الصلاة والسلام- تقتدي به، فتقول ما يقول -عليه الصلاة والسلام- ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ ولعل هذا الختام لهذه الآية جاء هكذا ليبين ولكي يثني على أهل الإيمان الذين سخر منهم أهل الكفر والطغيان، لماذا؟ لأن القرآن أشار إلى الدعاء الذي دعا به أهل الإيمان، الذين آمنوا يقولون ماذا: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَ﴾ فجاء القرآن الكريم يرشد الأمة كلها إلى أن يقولوا هذا الدعاء الذي ذكره أولاً عن قوم آمنوا بالله -تبارك وتعالى- وسخر منهم أهل الكفر والطغيان ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ والغفر إذا أطلق معناه ماذا؟ معناه المحو، والستر على الذنوب والمعاصي، ستر المعاصي والذنوب حتى لا يتضرر المسلم الذي ارتكب شيئًا منها، فلا يطلع عليه أحد من الناس، وهذا من الستر الذي يكون من رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- بمغفرته على عباده المؤمنين، وفي الحديث (بأن الله -تبارك وتعالى- يدني عبده منه يوم القيامة ويقرره بذنوبه حتى يضع عليه ستره وكنفه -سبحانه وتعالى-) وهذا لن يكون أيها المؤمنون إلا لمن؟ إلا لأهل الإيمان، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ الله -عز وجل- يتصف بصفة الرحمة، وهي صفة جليلة عظيمة نثبتها لله -عز وجل- كما تليق بجلال الله وكماله، قد جاء في البخاري ومسلم وغيرهما بأن الله -عز وجل-: (جعل الرحمة مائة جزء) جعل الرحمة رحمته -سبحانه وتعالى- مائة جزء (أنزل في الأرض جزءًا واحداً وادخر عنده تسعة وتسعين من هذا الجزء الذي نزل إلى الأرض يتراحم الخلق جميعاً حتى إن الدابة ترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه) والإنسان لو نظر إلى هذا المنظر سيجد حقاً عجباً وسيجد أيضاً صدق رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وسيظهر له أثر كبير من آثار رحمة الله -تبارك وتعالى- رب العالمين، الرحمة صفة يتصف بها ربنا -سبحانه وتعالى- على ما يليق بجلاله وكماله، وقد اشتق له منها اسمان كريمان، ألا وهما: الرحمن والرحيم، الرحمن الرحيم، اسمان من أسماء الله -تبارك وتعالى- والله -عز وجل- ذكرهما في كثير من الآيات ويحسن بالعبد بناءً على هذا الإرشاد والتوجيه أن يتوسل إلى الله -عز وجل- برحمته ومغفرته وأن يدعو الله -تبارك وتعالى- بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، ومن ذلك الرحمن الرحيم، لأن الله -تبارك وتعالى- يقول: ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ وقوله هنا: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ يشير إلى أن بعض المخلوقين قد يرحم بعضهم بعضاً، وهذا فيما يمكن أن يقدر عليه الإنسان، يعني يصل شيء من الخير إلى إنسان ما، أو تقع رحمة تقوم بقلب إنسان على إنسان من باب الشفقة عليه وما إلى ذلك، هذا قد يقع ولكن الرحمة الكاملة التي تكون والرحمة الخاصة ستكون لأهل الإيمان وذلك في يوم الدين، الكافرون قد يرحمهم رب العزة والجلال في الدنيا فيسوق إليهم شيئًا من المال ويتمتعون بالهواء ويشربون الماء والله -عز وجل- لا يأخذهم ولا يعجل لهم بالذنوب والسيئات وما إلى ذلك، وهذه تعد رحمة أما في الآخرة فرحمة الله -تبارك وتعالى- خالصة لمن؟ خالصة لأهل الإيمان، وهو -سبحانه وتعالى- أرحم الراحمين.

ولذلك ختام هذه الآية جميل وجميل وجميل، ولذلك يحسن بنا يا أهل الإيمان أن ندعو الله -تبارك وتعالى- بهذا التوجيه الذي جاءنا في ختام هذه الآية: ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

بقيت مسألة هنا في نهاية هذه السورة أود أن أشير إليها كي أُسعد أهل الإيمان، وأن أقول لهم بأن الله -عز وجل- بشركم بالفلاح والفوز في أول هذه السورة وختمها بالرحمة والمغفرة والرضوان: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ [المؤمنون: ١] وختمها بقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ في الوقت الذي

أشار إلى عدم فلاح الكافرين، في الآية السابقة على هذه الآية: ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ﴾ قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ وشتان بين قوله: ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ وبين قوله في أول السورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ [المؤمنون: ١] وبين توجيهه لأهل الإيمان وعلى رأسهم رسول الرحمن -صلوات الله وسلامه عليه- أن يقولوا: ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾، وهذا ختام هذه السورة الكريمة الجميلة، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب ونسأله -سبحانه وتعالى- أن يجعلنا من الذين يقولون ويرددون وأن ينالون الغفران من رب العالمين: ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ وصلِّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

إجابة الحلقة الماضية:

وكان السؤال الأول: ما حكم من أقر بربوبية الله تعالى، ولكنه اتخذ الوسائط والأنداد لله، أيد ما تقول بالدليل؟

وكانت الإجابة:

أقر سبحانه وتعالى بوحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والملك ليرشد إلى أنه الله الذي لا إله إلا هو ولا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، ولا يستتم بأن يقر العبد بتوحيد الربوبية فقط، فكل العبيد مقرون بذلك حتى المشركين العابدين مع الله غيره، بل لابد من الإقرار بتوحيد الألوهية بأن يعبد الله -عز وجل- وحده لا شريك له، وإن اتخذ مع الله وسائط وأنداداً فقد أشرك مع الله وعبد من لا يخلق ولا يملك له شيئًا، ولا يستبد له بشيء -لا أدري ما معنى ولا يستبد له بشيء- واعتقد أنها تقربه، والدليل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢١، ٢٣].

هو في الحقيقة فحوى الجواب صحيح ولو ذكر المجيب أن القرآن الكريم يتخذ من الحديث عن ربوبية الله -تبارك وتعالى- على خلقه مدخلاً ودليلاً إلى تثبيت توحيد الألوهية ويجب أن نركز على هذا المعنى؛ لأنه كما ذكر وأشار وقلت ذلك فيما مضى: المشركون والكفار يقرون بربوبية الله -تبارك وتعالى- ولكن مع إقرارهم هذا لم يدخلوا في الإسلام وقاتلهم النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وقطع رقابهم في بدر وغيرها من الغزوات، مع أنهم يقولون رب السماوات والأرض هو الله، ولكن لما لم يعبدوا هذا الإله وصرفوا عباداتهم لغير الله -تبارك وتعالى- أشركوا بالله -عز وجل- فحاق بهم ما حاق من عذاب الله -تبارك وتعالى-.

السؤال الثاني: قال الله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ هذه الآية اشتملت على ثلاث مسائل اذكرها بالتفصيل.

وكانت الإجابة:

اشتملت الآية على ثلاث مسائل:

الأولى: لم يتخذ ولداً فالله نزه نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك والتصرف والعبادة، وقد قالت اليهود بأن عزير ابن الله وكذلك النصارى قالت: إن المسيح ابن الله، -تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً-.

الثانية: الله -سبحانه وتعالى- نفى عن نفسه التعدد فقال: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ فلو تعددت الآلهة لانفرد كل بما خلق.

الثالثة: أن الله تعالى أقام فيه الدليل والبرهان والدليل على أنه واحد ولو فرض أن هناك أكثر من إله لحصلت الفوضى.

هذا صحيح ولكن لو أن المجيب يعني تكلم عن المسألة الأخيرة وأشار إلى الدليل الوارد فيها وهو أنه -سبحانه وتعالى- أقام البرهان والدليل على أنه ليس معه إله آخر؛ لأنه لم يعلُ بعضهم على بعض وأن الخلق في اتساع وإحكام وما إلى ذلك، والله أعلم.

السؤال الثالث: أدب الله تعالى المؤمنين بآداب عظيمة ومن ذلك الإحسان إلى المسيء، تحدث عن هذا الموضوع من خلال بعض آيات القرآن الكريم.

وكانت الإجابة:

أن الله -سبحانه وتعالى- أمر بمقابلة الإساءة بالإحسان والصبر على الأذى وأن يكون العبد متمرساً على ذلك، فقال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦] وقد مدح الله عباده حينما أعرضوا عن الجاهلين فقال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] فهي صفة لأهل الإيمان.

نعم هذا الجواب سديد، وذكر هذه الآية والاستدلال بها جميل.

فضيلة الشيخ أستأذنكم أن أوجه إلى الإخوة والأخوات الذين يكتبون الإجابات أو يكتبون الأسئلة أن يهتموا كثيرًا بالإملاء فتأتي أخطاء إملائية قد لا أستطيع أن أقرأ السؤال بسبب كثرة الأخطاء الإملائية.

الأخت الكريمة من السعودية تقول: هل صحيح أن آخر سورة المؤمنون فيها رقية من قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ إلى آخر السورة؟.

أنا أشرت إلى هذا وقلت: إنه لم يصح في هذا شيء، يعني لا يصح في هذا شيء عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وأن ما ورد في ذلك إما ضعيف أو موضوع.

الأخت الكريمة من مصر تقول: لو سمحت يا فضيلة الشيخ في سورة البقرة: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ﴾ [البقرة: ١٧٧] الأولى، ﴿الْبِرَّ﴾ هنا منصوبة ويقول: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ﴾ [البقرة: ١٩٨]فما الفرق بينهما؟

ويقول -تعالى-: ﴿إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ [البقرة: ٢٦٦] أيهما هنا احترق، الذرية أم الحديقة؟

الأخت الكريمة من مصر تقول: يا شيخ ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [المطففين: ٢٩] هل المفروض إن تنطبق هذه الآية على الكفار فقط، لأن هناك أناساً يصلون ويصومون ويحجون ولكنهم دائماً يسخرون منا، ودائماً يسخرون من الملتزمين، فهل تنطبق عليهم هذه الآية، أم هي خاصة بالكافرين فقط؟

فضيلة الشيخ الأخت الكريمة كانت تسأل عن قول الله -عز وجل-: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ﴾ في سورة البقرة؟.

يعني «ليس» كما هو معروف ترفع المبتدأ وتنصب الخبر، وهذا يعني لغوياً معلوم لدى علماء اللغة، ولكن ما فيه رفع للبر هنا، وإنما هي منصوبة، ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾ أيضاً التي بعدها أيضاً منصوبة مثلها.

أما قولها: ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ﴾ ما فهمت ماذا تريد يعني؟

هي تقول: ﴿فَاحْتَرَقَتْ﴾ التاء هنا تاء الضمير تعود على الإعصار أم على الحديقة؟

لا، هو طبعاً الضمير يعود إلى أقرب مذكور هذا في الغالب ولكن يمكن أن يعود إلى معنى الكلام، أو الذي يفهم من سياق الكلام، ولا حرج في هذا أبداً.

الأخت الكريمة من مصر كانت تسأل عن قول الله -عز وجل-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾، هل يدخل هذا في نهاية سورة المؤمنون؟

هذا في الحقيقية سؤال جميل وجيد للغاية، وأود أن أوجه الخطاب في هذه المسألة بالذات لمن يسخر وهو ينتسب إلى الإسلام، بشيء أو بعلم يقوم به أهل الإيمان، قد يقع هذا وفي هذه الحالة يكون قد تشبه من فعل بأفعال المشركين أو الكافرين وهو مؤمن؛ لأن الإنسان المؤمن يقع في المعاصي والسيئات ويفعل أفعال المنافقين العملية في بعض الأوقات، وقد أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- مثلاً في حديثه وقال: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان) وأن هذه الخصال التي يقع فيها المنافقون، ليست هي خصال أهل الإسلام ولكن بعض المسلمين يقعون في هذه الخلال، فهم تشبهوا بأفعال هؤلاء المنافقين وأتوا بشيء من أفعال المنافقين، وهم بهذا على خطر عظيم، ومعرضون لعذاب الله -تبارك وتعالى-، وإن كانوا مؤمنين، وعلى العبد إذن المؤمن ألا يقع منه شيء من ذلك بحال، على المؤمن إن كان مؤمناً حقاً، ألا يسخر بعمل أو يستهزئ أو يضحك على أحد من أهل الإيمان، وقد يؤدي هذا به إلى الكفر -والعياذ بالله تبارك وتعالى-، وذلك إذا وقع منه السخرية على شيء من كتاب الله أو سنة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، أو استهزأ بشيء من القرآن أو استهزأ بشيء من سنة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، فبهذه الحالة يكفر الإنسان، ولكننا نقول بأنه يجب أن تقوم عليه الحجة أولاً، وأن يدعى وأن يفهم وأن يبين له أن ما يفعله ليس من الإسلام وأنه يخرجه من دين الله -تبارك وتعالى- وأعود بعد هذه الإشارة التي ذكرتها أخيراً إلى مخاطبة أهل الإيمان مرة أخرى، ألا يضحكوا من عمل شرعي يقوم به أهل الإيمان، لا يضحكوا منه ولا يستعجبوا منه، وعليهم أن يتعلموا ما أتى في كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لأن البعض قد يشاهد إنساناً يفعل فعلاً لا يعرفه، ولا يعرف له حكماً في القرآن أو السنة، فيستغربه نتيجة البعد عن السنة وعدم معرفتها، وعدم الإلمام بها وما إلى ذلك، فإذا رأى شيئًا استنكره هو، فعليه أن يسأل أهل العلم قبل أن يضحك على الفاعلين المتمسكين بكتاب الله وهدي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وأشكر الحقيقة السائلة على هذا التوجيه.

الأخت الكريمة من مصر تقول: لو سمحت كنت أريد أن أسأل سؤال: زيادة توضيح معنى الآية: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنين: ١٠٦] فهل هذا كما يحتج المشركون أن الله قد سبق عليهم القول بأنهم من الأشقياء، أم لها معنى آخر؟.

في الحقيقة هنا اعتراف، هذه الآية فيها اعتراف من المشركين بأن الشقوة وحقت عليهم كلمة العذاب، وهذا يفيد اعترافهم بهذا وأن الله -سبحانه- يفيد أيضاً أن الله -عز وجل- سبق في علمه ما كان، ولكن هم لم يحتجوا بهذا، بمثل هذه الآية لم يحتجوا على قدر الله -تبارك وتعالى- السابق، ولكنهم يقرون بما وقعوا فيه، وما كان منهم، وما حدث لهم بقولهم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [المؤمنين: ١٠٦] وهم كانوا على شقاء وأتوا به والله -عز وجل- بين لهم الطريق ببعثة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وهداهم من الزيغ إلى طريق الخير ويعني بين لهم طريق الخير وطريق الشر، ولكنهم آثروا الطريق وسلكوا الطريق الذي يغضب

رب العزة والجلال، وعلم الله السابق لم يدفعهم غلى أن يسلكوا هذا الطريق أو أن يقعوا في هذا الأمر، وهنا كلمة أود أن أقولها للمستمعين والمشاهدين، وهي أن: القدر حق كما أخبر بذلك القرآن، وكما جاء عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وأيضاً يجب أن نعلم أن القدر كما قال عبد الله بن عباس: «سر الله في خلقه»، وهذا يدعونا إلى ألا نخوض فيه وإلى أن نسلم بكل ما جاء فيه، وأن نوقن ونعلم أن علم الله السابق وأن قدر الله -تبارك وتعالى- وكتابته الأعمال قبل خلقها وإيجادها ليس فيها حجة للعباد على الله -سبحانه وتعالى- بل الله -عز وجل- له الحجة البالغة على العباد، لأن الإنسان من أين له ومن أين علم أن الله كتب عليه هذا أو كتب عليه هذا؟ بل كما ذكرت آنفا علم الله السابق يدل ويشير إلى عظمة رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، فلأنه كبير ولأنه عظيم يعلم ما سيفعله الخلق قبل أن يكونوا.

في الحقيقة إن كان عندي وقت أشير إلى، ولله المثل الأعلى إلى مسألة تحدث فيما بين الناس لأقربها إليهم ليس إلا وقد ذكرها لنا بعض مشايخنا -رحمة الله تعالى عليهم- من باب تقريب مسألة القدر، وهي أن علم الله - عز وجل- الذي سبق لم يُلجئ العبد إلى أن يفعل ما يفعل، قالوا: لو أنك جالس في البيت بمفردك وجاءك ضيف وأردت أن تكرمه وليس عندك شيء تقدمه له وعندك خادم يخدمك، فأعطيت هذا الخادم شيئًا من المال وطلبت منه أن يشتري لك مثلاً طعاماً تضيف به الضيف الذي أتاك، أخذ منك المال وغاب عنك وذهب وتأخر كثيرًا، وأنت جالس مع الضيف لم تُقدِّم له شيئًا شعرت بالحرج، فقلت له: للضيف: أنا أرسلت الخادم الذي عندي كي يحضر لنا طعاماً ولكنه تأخر وأنا أرى وأعتقد أنه ذهب ولعب مع أقرانه في السن وضاع من المال الذي أعطيته إياه وهو الآن يخشى بناءً على ذلك أن يأتي وبعد انتهاء حديثك أتى هذا الخادم ولم يأتِ بشيء، سألته أين كنت؟ فاعترف بما فعل وأن المال قد ضاع منه وفقد ولم يأتِ بشيء، فهل قول صاحب البيت للضيف بأن هذا الخادم فعل وفعل وفعل، هو الذي دفع الخادم إلى أن يفعل ويفعل؟ أم قال صاحب البيت هذا لعلمه بالخادم، ولما هو عليه؟ فالله -تبارك وتعالى- وله المثل الأعلى يعلم أذلاً ما سيكون عليه العبد وهذا كما ذكرت يبين شيئًا من عظمة الله -سبحانه وتعالى- وأنه الكبير المتعال، وأنه يعلم ما تخفي النفوس وما هو كائن في الصدور، فهو علم أذلاً -سبحانه وتعالى- ما سيفعله العباد ولما خلقهم ظهر معلوم الله -سبحانه وتعالى- فيهم، فهم عملوا وفق ما علم الله -عز وجل-، وطابق عملهم ما سبق في علم الله ولم يلجئهم علم الله -عز وجل- السابق، وإن لم يخرجوا عن أن يفعلوا وما فعلوا، وأيضاً أخيرا أقول: يجب علينا ألا نتنازع في القدر وألا نخوض فيه، بل نسلم له ونشرح صدورنا له؛ لأنه سر الله في خلقه كما ذكر حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس -رضي الله عنه-.

الأخ الكريم من السعودية يقول: في الحقيقة ليس سؤال وإن كنت أستحيي أن أتكلم فيه ولكنه الحق وهو الغيرة على الدين ورغبة في إنقاذ إخواننا المسلمين في قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [المطففين: ٢٩] كان العقاب شديداً وأن النتيجة أنهم يمكن أن يخرجوا من ملة الإسلام وأن يدخلوا النار، وأن يخلدوا فيها، فما بال من يسب الدين، ويتكلم فيه بسهولة فأرجو توجيه تحذير جديد إلى إخواننا من كانوا على ملة الإسلام ويقولون بهذا القول وهم لا يدرون أنه يمكن أن يخرجوا من دين الله، ويخلدوا في النار، حتى ينجيهم الله -تبارك وتعالى- من النار ويكون لكم شيخنا الكريم الأجر وأن يدخلهم الجنة بفضل علمكم وتوجيهكم وجزاكم الله خيراً؟

الأخ الكريم من مصر يقول: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المؤمنون: ٩٦] هل هذه الآية تنطبق على أساءوا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو أفضل خلق الله؟ وما هو دور العلماء وأولوا الأمر في ذلك؟ وهل مقاطعة منتجاتهم تكفي؟ وجزاكم الله خير.

فضيلة الشيخ الأخ الكريم كان يسأل أو يريد بمعنى أصح توجيهاً من فضيلتكم لمن يتطاول على دين الإسلام؟

في الحقيقة أنا أشكر الأخ الكريم جزاه الله خيراً على مداخلاته الطيبة وإثرائه دائماً لهذا اللقاء ومتابعته لـــه، وفي الحقيقة توجيهه توجيهٌ سديد ونافع ومفيد وأنا أردد ما قاله هو من أن من يسخر بالدين أو أن يسب دين الله –تبارك وتعالى– في الحقيقة يكون قد أتى بأمر عظيم، ولا يليق هذا بمسلم بحال من الأحوال، يعني أنا لا أتصور أن مؤمناً يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– يسب بالدين، إلا إذا كان هو خارجاً من هذا الدين، كيف يطعن على الدين الذي جاءه من عند الله ويزعم أنه قد سلم أمـــره فيـــه لله –تبـــارك وتعالى–؟! إذا كان الإنسان يمكن أن يقول كلمة واحدة يكفر بها، المنافقون الذين قالوا عن أصحاب النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– ما قالوه، ويستحيي الإنسان أن يردده، وهم في غزوة تبوك، كفروا بذلك، ولما قالوا كلمات نخفف به عن أنفسنا عناء الطريق وصعوبة السفر، نزل قول الله –تبارك وتعالى– مبكتاً لهم: ﴿قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِـــهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٥] فإذا كانوا هؤلاء الناس قالوا كلمات أقل من هذا فكيف بمن يسب دين الله –تبارك وتعالى–.

يا أهل الإيمان احذروا هذا الأمر غاية الحذر وإلا من فعل يكون بهذا قد وقع في كما ذكرت في جرم عظيم، فاحذر السخرية من أهل الإيمان أو الضحك مما يفعله أهل الإيمان أو أن يأتي الإنسان بمنكر أشـــد مـــن ذلـــك وأعظم، وهو ما أشار إليه الأخ الكريم الآن من سب دين الله –تبارك وتعالى–.

الأخ الكريم كان يسأل عن قول الله –عز وجل–: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦] ويقول: ما هو دور العلماء في نصرة النبي –صلى الله عليه وسلم–؟

في الحقيقة ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦] هذا خطاب نتعامل به مع مـــن يتعامـــل معنـــا بالإحسان من أهل الكفار، فندفعهم بإحسان ونتعامل به مع أهل الإيمان الذين يخطئون في مسائل أو يظلمك فـــي أمر أو يجهل عليك في مسألة أو ما إلى ذلك، وقد أشرت في اللقاء السابق إلى أن هذا لا يعني أن يكون المـــؤمن ضعيفاً أو ذليلاً أو يسكت عن إجرام هؤلاء المجرمين، بل عليه أن يقابلهم بشدة، وأن يقسوا عليهم فيما يتقـــدمون به من إيذاء لدين الله –عز وجل– أو سب لرسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–، والله –تبارك وتعالى– قـــد وصف أهل الإيمان وعلى رأسهم النبي –عليه الصلاة والسلام– وأمره في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِـــدِ الْكُفَّـــارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩] فأهل الكفر والشقاق والنفاق الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير مـــا اكتسبوا علينا أن نواجههم بشدة وألا نكف عنهم بحال من الأحوال أو ألا نسكت عليهم أو على ضلالهم أو علـــى فسادهم، فما بالنا إذن إذا كان هذا التطاول على رسول الهدى والرحمة –صلوات الله وسلامه عليه– وهـــو فـــي الحقيقة وإن كان أمرا يؤذي كل مسلم إلا أن ملامحه في عزة الإسلام قادمة، وأن الدائرة على هؤلاء المجرمين، وأن رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– وإن أمهلهم إلا أنه –سبحانه وتعالى– لا يهملهم، وأنه –عز وجـــل– سينتصر لدينه، ولكتابه ولنبيه ومصطفاه –صلوات الله وسلامه عليه–.

الأخ الكريم من الكويت يقول: ذكرتم –حفظكم الله– أن الحجة تقام بالشرع لا بالعقل، فماذا عن أهـــل الفتـــرة الذين لم يأتهم رسول ومن أشرك منهم هل يحاسب على شرع من سبقه من الأمم أم ماذا؟

هذا في الحقيقة أيضاً سؤال مفيد جداً، أولاً: الله –عز وجل– أخبرنا بأنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وأهل الفطرة يأتون كيف؟ إذا انقطعت معالم هذه الرسالة ولم يبقَ أحـــد يردد الله الله أو يدعو إلى توحيد الله –تبارك وتعالى–، ففي هذه الحالة الرسالة كانت موجـــودة ولكـــن طمـــست آثارها فمن لم تبلغه دعوة الرسول المرسل إليه في زمنه ووقته لأي أمر من الأمور، هذا كمـــا أخـــرج الإمـــام البيهقي وذكر حديثاً فيه وأيضاً رواه غيره من أهل السنن، وذكره البيهقي في الاعتقاد وهو في مسند الإمام أحمد (أن الله –عز وجل– يرسل رسولاً إلى من لم تبلغه رسالة النبي في عرصات يوم القيامة)، ولذلك علماء الاعتقاد يقولون: بأن التكليف ينقطع في دار الدنيا إلا التكليف لبعض الفئات الذين ذكرهم النبي –صلى الله عليه وســـلم–

في أحاديثه: (وهو أربعة يدلون على الله بحجة يوم القيامة منهم رجل يقول: يا رب ما جاءني منك نذير أو رسول، ففي هذه الحالة يرسل إليه رسول يأمره بأن يدخل النار إن أطاعه ودخلها تكون عليه برداً وبهذا يكون من المؤمنين، وإن عصاه فهو من الكافرين) والله أعلم.

فضيلة الشيخ أستأذنكم قبل أن تقوموا بإلقاء أسئلة هذه المحاضرة أن أوجه الإخوة والأخوات الذين فهموا من كلام الشيخ أن اليوم آخر حلقة فأقول: اليوم كانت آخر حلقة بالنسبة لتفسير سورة المؤمنون، وبإذن الله تعالى في الحلقة القادمة نشرع ونستأنف في بداية تفسير سورة النور -إن شاء الله تبارك وتعالى-، فضيلة الشيخ هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه المحاضرة.

أنا في الحقيقة بالنسبة لختام سورة المؤمنون ؛ لأنه كان ختاماً موفقاً فأحببت فقط يعني وجاءت هكذا في النفس دون ترتيب مسبق أن يكون هذا الكلام وسألت هذا السؤال وطلبت من الله -عز وجل- وسررت بهذا الختام، أعني بختام هذه السورة و-إن شاء الله تعالى كما أشار الأخ عبد الرحمن جزاه الله خيراً- ستكون لنا لقاءات مع سورة النور بفضل الله -تبارك وتعالى-.

السؤال الأول: اذكر ما يدل من القرآن الكريم على أن الكافر يتمنى الرجعة وهو في النار؟ وما وجه الجمع في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾؟

السؤال الثاني: هل الحجة قامت على العباد بالشرع أم بالعقل؟ وضح ذلك مبيناً الصواب بالدليل.

السؤال الثالث: ما المراد بالسؤال الوارد في قوله تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾؟ وكيف توفق بين قوله -تعالى- عنهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وبين قوله: ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا ﴿١٠٣﴾﴾ وقوله: ﴿مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾؟

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الدرس الثامن عشر: تفسير سورة النور

فضيلة الشيخ أهلاً ومرحباً بكم

أهلاً وسهلاً ومرحباً بكم وبالحاضرين والمشاهدين والمشاهدات ونسأل الله -عز وجل- للجميع التوفيق والسداد وسنبدأ -إن شاء الله تعالى- في هذا اللقاء بمفتتح سورة النور ونسأل الله -سبحانه وتعالى- أيضاً التوفيق والهداية في البداية والنهاية وسيدور الحديث -إن شاء الله تعالى- حول المحاور التالية:

المحور الأول: آيات القرآن مفسرات واضحات.

المحور الثاني: عقوبة مرتكب فاحشة الزنا في الإسلام.

المحور الثالث: تحريم قذف المحصنات.

المحور الرابع: اللعان كما جاء في القرآن.

ولنستمع الآن إلى آيات هذا اللقاء من الأستاذ الكريم فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لاَ يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

أحسنت، جزاك الله خيراً.

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن نبينا وإمامنا وحبيبنا محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلّ وسلم وبارك وأنعم على عبدك ورسولك ومصطفاك، وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيلهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين وبعد،

فهذه هي الحلقة الأولى من حلقات اللقاء مع سورة النور، وهي سورة مدنية ومطلعها يندرج تحت المحور الأول وهو :

المحور الأول: آيات القرآن مفسرات واضحات:

وتبتدئ السورة بقول الله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾ ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا﴾ سورة خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذه سورة، والتنكير في سورة للتفخيم والتعظيم، يعني هذه سورة عظيمة كريمة؛ ذلك أن هذه السورة أتت حسب ترتيب المصحف بعد سورة المؤمنون، والله -عز وجل- قد ختم هذه السورة السابقة ببيان أنه لم يخلق خلقه عبثاً ولم يدعهم هملاً أو سدًى، وجاءت هذه السورة بعد ذلك لتبين شيئًا من التكاليف الشرعية وهي بهذا تثبت ما سبق أن ذكرته السورة السابقة في ختامها وهي أن الله -عز وجل- خلق خلقه بحق، وأنه -سبحانه وتعالى- كلفهم بالتكاليف التي تصلحهم وتعود عليهم بالنفع وترجع عليهم بالخير وعلى رأس ذلك ما جاء في السورة حيث أنها اشتملت على بعض الأحكام الشرعية إلى جانب ما وصفت به رب البرية من شيء من صفات الجلال والكمال والأمر بطاعة الله وطاعة رسوله -صلوات الله وسلامه عليه- ولذلك قول الله فيها ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا﴾ كلمة ﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾ أيضاً تفيد تفخيم هذه السورة وتنوه بشأن العناية بها وأهميتها ولا ينفي ذلك بلا شك ما عداها من سور القرآن الكريم، ولكنها سورة جاءت مفصلة ومبينة لكثير من الأحكام ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ يعني ذكرنا فيها أحكاماً تتعلق بالحلال والحرام وفيها ذكر قذف المحصنات وفيها حكم عقوبة الزاني وما إلى ذلك، وذكر في أضعافها قصة الإفك وغير ذلك مما سيمر بنا -إن شاء الله تبارك وتعالى-.

والله -سبحانه وتعالى- يبن أنه أنزل هذه السورة وذكر فيها هذه الآيات وهي آيات بينات واضحات والسبب في ذلك أو العلة في هذا الأمر أن يتذكر الناس ويرجعون إلى الله -تبارك وتعالى-؛ لأن الناس في غمرة هذه الحياة الدنيا كثيراً ما ينسون وكثيراً ما تقع منهم الغفلة وبالتالي يحتاجون إلى هذه الآيات الواضحات البينات التي ترشدهم وتدلهم بين الحين والآخر إلى الطريق إلى الله -تبارك وتعالى-، والتذكر والذكرى والرجوع إلى الله -عز وجل- صفة جليلة من صفات أهل الإيمان والله -عز وجل- يقول في كتابه: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥].

أدخل بعد ذلك في المحور الثاني مباشرة ألا وهو:

المحور الثاني: عقوبة مرتكب فاحشة الزنا:

وتحته قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ هذه الآية تبين عقوبة مرتكب فاحشة الزنا، وقبل أن أتحدث عما ورد فيها من أحكام أود أن أشير حتى يعرف ويعلم من في قلبهم حقد على الإسلام والمسلمين أن هذه الأحكام التي شرعها رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- إنما هي أحكام ترتفع بالبشرية إلى مصاف الكرم، والنبل، والسماحة والخلق الكريم، والفضيلة، والعيش في أمان؛ لأن أهل الكفر والشقاق دائماً يدندنون حول العقوبات في الإسلام وأن فيها وحشية وأنها لا تليق في العصر الحاضر، ولو نظروا إلى هذه العقوبات التي نزلت لتعالج الجرائم الاجتماعية الخطيرة لعلموا أن ما واجهت به هذه العقوبات هذه الجرائم لا يعد شيئًا إذا تأملنا أنها ترفع أموراً كثيرة وفساداً عظيمًا عن المجتمع الذي يكون فيه، وأقول هذا لأن الزنا فاحشة كبيرة، وقد جعله الله -عز وجل- وقرنه بالشرك به، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وكفى بهذا تنفيراً منه، وبياناً لجرمه يقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨] ويقول -سبحانه وتعالى- أيضاً في كتابه مبيناً جريمة أو عقوبة هذه الفاحشة وشدة هذه الفاحشة: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢] إلى جانب أن هذه الجريمة المنكرة فيها إزاء خطير جدًا للمجتمع ففيها هتك للأعراض وفساد للأنساب وإدخال على البيوت ما ليس منها، ويترتب على ذلك أن يرث ولد الزنا ممن ليس بأبيه ويترتب على ذلك أو ترتب وشاهد العالم كله ما نراه اليوم من أمراض فتاكة خطيرة نتيجة هذه الجريمة المنكرة، التي يجب على البشرية لو أنصفت ورجعت

وتذكرت كما نبه رب العزة والجلال في أول آية في هذه السورة ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لو تنبهوا لرجعوا ولوقعوا ولوضعوا من القوانين ومن الشرائع ما يجعلهم ينتهون ويكفون عن هذه الجريمة النكراء وما يؤدي إليها، فتغلق كل باب يؤدي إلى هذه الفاحشة ولا يجب بحال من الأحوال أن ييسر لها في مجتمعات المسلمين؛ لأنها جريمة منكرة، وها هو الإسلام يواجهها مواجهة قوية عنيفة كي يرتدع المرتدعون، وكي يسلم المجتمع وكي تسلم الأمة كلها، وكي يتكون جيل قائم على الطهر والعفاف، كل له أب وأم يعيش في ظلهما، وتراعه رعاية كريمة شريفة أصيلة لأنها حملته من رجل أو من نكاح صحيح.

فالشاهد من كل ذلك أن جريمة الزنا جريمة منكرة وأن العقوبة التي شرعها الإسلام هي لمواجهة هذه الفعلة الشنيعة، ثم إنهم لما يتحدثون عن الوحشية في الرجم كما سيأتي مثلاً ذكره وما إلى ذلك كتشريع، ينسون ما يهلك من أمم وأفراد وأشخاص ومجتمعات (كلمة غير مفهومة) لا تعد بجوار هذا شيئًا بحال من الأحوال فكم من أناس يقتلون وهم أبرياء، وكم من دماء سالت لقوم قالوا: ربنا الله، ثم بعد ذلك يبكي هؤلاء الناس على رجل أو رجلين أو ثلاثة أو عشرة قد قتلوا بسبب هذه الجريمة النكراء إن هذا لإصلاح المجتمع، إن هذا لردع المجرمين، وقد شرع الإسلام ما يدفع هذه الجريمة ويؤدي إلى الوقوع فيها، فالإسلام مثلاً حرم الاختلاط، وما نشاهده اليوم من اختلاط مشين سببه أو سبب واضح في ارتكاب الناس هذه الفاحشة، والإسلام لما حرم الزنا أيضاً حرم الوسائل المؤدية إليه، كالاختلاط والغناء الفاحش والخروج عرايا في الشوارع للنساء وما إلى ذلك، كل هذا سده الإسلام كي يقطع هذه الفاحشة، فلا ينبغي بحال من الأحوال ولا يجوز بحال من الأحوال أن يأتي أعداء الإسلام بعد ذلك ويطعنوا على شريعة الرب -تبارك وتعالى- في هذه الشرائع.

يقول -سبحانه وتعالى- مبيناً عقوبة هذه الجريمة: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ ولعلكم تلاحظون وهذا من فوائد التأمل والتدبر والنظر في القرآن الكريم أن الله -تبارك وتعالى- ابتدأ هذه الآية بقوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ ابتدأ بالزانية، قيل: في هذا علة؛ لأنه لولا وجود امرأة وافقت للرجل على ارتكاب هذه الفاحشة ما وجدت هذه الجريمة، فالأصل إذن في ارتكاب هذه الفاحشة وجود امرأة تعرضت لرجل أو مالت له أو وافقت على ذلك إذا طلب منها فجاء ذكر النساء أولاً في هذه الآية؛ لأنهن مقدمات ومسهلات لهذا الأمر، بعكس آية السرقة، افتتحها رب العزة والجلال وابتدأها بقوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ [المائدة: ٣٨]؛ لأن الرجل على السرقة أقوى، ولها أجلد ولها أطلب بخلاف الزنا كما أشارت هذه الآية.

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ هذا حكم الرب -تبارك وتعالى- ذكره -سبحانه وتعالى- في هذه الآية، وهذه الآية وحكم مرتكب هذه الفاحشة فيه تفصيل من كتاب ربنا وسنة نبينا -صلوات الله وسلامه عليه- بيانه كالتالي:

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ إما أن يكون الواحد منهما بكراً أو أن يكون محصناً ولكل حكم، ولكل دليل من كتاب الله وسنة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، أعني الحكم الوارد في ذلك، فإن كان بكراً فحده كما جاء في هذه الآية، أن الواحد منهما يجلد مائة جلدة، بنص القرآن الكريم، ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ إذن الجلد هنا واقع على من؟ واقع على الزاني البكر، وقد ذهب جمهور الفقهاء إلى أنه يغرب مع الجلد أيضاً لمدة عام، فيجلد مائة جلدة، ويغرب لمدة عام، واتفق جمهور الفقهاء على ذلك بما فيهم الأئمة الثلاثة عدا الإمام أبو حنيفة -رحمه الله تبارك وتعالى- فقال بأن التغريب يرجع إلى الإمام، إن شاء الإمام غرب، فله ذلك، وإن شاء لم يغرب وله ذلك أيضاً، والدليل على ذلك أعني دليل الجمهور على الجلد مائة، وعلى التغريب ما جاء في الصحيحين في قصة الأعرابيين الذين أتيا إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وقال أحدهما للنبي -عليه الصلاة والسلام-: (إن ابني هذا كان عكيفاً على هذا) عكيفاً يعني: أجيراً (عند هذا فزنى بامرأته، فافتديت ابني منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني الجلد وعلى أن على زوجة هذا الرجم، فقال له النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله ثم قال -صلى الله عليه وآله

وسلم-: الغنم والوليدة رد عليك) يعني المائة شاة والوليدة (رد عليك) يعني رد على الرجل، وهو والد الزاني، (وعلى ابنك هذا جلد مائة وتغريب عام)، وهذا هو دليل الفقهاء أيضاً على التغريب والجلد منصوص عليه في هذه الآية، ثم قال -صلى الله عليه وآله وسلم- لرجل كان عنده: (واغدُ يا أُنيس) تتمة الحديث وفيه دليل على ما على ما سيأتي في عقوبة الزاني المحصن، (واغد يا أنيس لرجل من سليم إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها. فذهب إليها أنيس فاعترفت فرجمها)، ودل ذلك أيضاً على أن الرجم من شريعة الإسلام.

الشاهد من هذا الحديث أنه مقرر لما جاء في الآية من حيث الجلد وفيه زيادة ألا وهو التغريب لمدة عام، وهناك تفصيل في مسألة التغريب بالنسبة للرجل وهل هو واجب أو غير واجب، وبالنسبة للمرأة وهل يسقط عنها إذا لم تجد محرماً أو ستتكلف محرماً أو لا يسقط، والراجح -والله أعلم- أن الرجل يغرب وأن المرأة تغرب إن وجد محرماً لها دون أن يكلف شيئًا، فإن كلف فلا داعي لهذا التغريب -والعلم عند الله تبارك وتعالى-.

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ ثم يقول رب العزة والجلال: ﴿وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ هذا في الحقيقة فيه بيان لأهل الإيمان وأيضًا لمن يقومون بإجراء هذه الحدود بين الناس، وهو أنهم لا تأخذ أحد بحال من الأحوال رأفة على قوم ارتكبوا هذه الفاحشة وهذه الجريمة المنكرة؛ لأن هذا دين ولأن هذا شرف، ولذلك النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فيما ثبت عنه أنه قال: (تعافوا الحدود فيما بينكم، فما بلغني من حد فقد وجب) فإذا بلغ الحد إلى الإمام وجب تنفيذه، وهنا لا يجب الرجوع ولا أن تأخذ الواحد رأفة في تطبيق حدود الله -سبحانه وتعالى- وشرع الله -جل ذكره- وزياة في التنكيل قال رب العزة والجلال: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يشهد عذاب هؤلاء الناس أعني الجلد أو الرجم كما سأبين الآن، يشهد هذا العذاب طائفة من الناس، قيل: طائفة تشمل الواحد فما أكثر، والغرض من هذا أن يتم ذلك أو أن يتم هذا الأمر بمرئى ومسمع من الناس، يعني أن يتم هذا الحكم أني الجلد أو الرجم كما سأتحدث عنه الآن، أن يتم بمحضر وبمجمع وبمشاهدة علنية من الناس ؛ لأن هذا فيه توبيخ وتبكيت وردع لمن تسول له نفسه أن يأتي هذه الفاحشة، وبالتالي أيضاً نرد نحن على المجرمين الذين يطعنون على الشرائع وعلى الأحكام في الإسلام وأن فيها عنفاً وما إلى ذلك، نقول بأن الإسلام حينما حد وذكر هذه الحدود وذكر هذه الشرائع وضع لها من الضوابط ما يكفل أن يرتدع المجرم عن جريمته فالناس حينما يرون الزاني البكر وهو يجلد أو المحصن وهو يرجم أمامهم وأمام أعينهم هذا فيه دافع في أن يحجبه عن محارم الله -تبارك وتعالى- ؛ لأن إقامة الحدود كما أنها على أرجح أقوال أهل العلم: جوابر هي أيضاً زواجر بمعنى أنها تزجر من يشاهد ومن يقام عليه الحد وتعلم الناس أجمعين أن من سيرتكب هذه الفاحشة التي ارتكبها هذا الذي يقام عليه الحد سيكون مصيره مصير هذا الذي أقيم عليه الحد.

أرجع بعد ذلك إلى هذه الآية مرة أخرى، لورود العموم فيها ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ أقول هذا لأن الخوارج وبعض المعتزلة أنكروا الرجم في الإسلام واستدلوا إلى العموم الوارد في هذه الآية لأن قوله سبحانه وتعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا﴾ هذا عام يشمل البكر، أعني من لم يتزوج، والمحصن وهو الذي قد تزوج في نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل، ولذلك أقول بأن هذه الآية كما ذكر أهل العلم وعند التحقيق يظهر ذلك قد خصصت مرتين، عموم هذه الآية قد خصص مرتين:

المرة الأولى: خصص بالعبد والأمة، فالله -عز وجل- ذكر هنا في أن من ارتكب هذه الفاحشة وهو بكر لم يتزوج، يجلد كم جلدة؟ يجلد مائة، أما بالنسبة للعبد والحر، فيجلد خمسين جلدة فقط، ليس إلا، بدليل القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥] والآية وإن كانت تتحدث عن الأمة إلا أنها تشمل العبد أيضاً؛ لأن التشطير في الحد أعني التنصيف فيه سببه الرق، ليس سببه الذكورة والأنوثة؛ لأن الذكورة والأنوثة في الحر والعبد، في الحر واحدة، فكذلك ستكون في العبد، إذن دل على

أن تنصيف الحد على الأمة يكون أيضاً على العبد ويشتركان في ذلك، إذن عموم هذه الآية خصصته آية أخرى، وهو أن تنصيف الحد على الحر والعبد، فليست الآية باقية على عمومها بكل حال.

المرة الثانية: التي خصصت فيها هذه الآية: في الزاني المحصين، والزاني المحصن تعريفه: هو من تزوج في نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل، قد يقول قائل: ولماذا هو حر؟ لأن الرجم هو القتل، والقتل لا يتنصص، فإذا وقعت هذه الجريمة من عبد أو أمة، لا يقام عليهما حد القتل وإنما يقام عليهما حد الزاني البكر أيضاً.

الشاهد أن القرينة أو الأمر الثاني الذي خصص من هذه الآية ألا وهو رجم الزاني، ورجم الزاني جاءت به شريعة الإسلام وكانت آية في كتاب الله -تبارك وتعالى- وعليه أحاديث متواترة عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من الصحابة، وعمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- قام ذات يوم وخطب الناس والحديث في الصحيحين وغيرهما، وقال: (أيها الناس إن الله -تبارك وتعالى- أنزل الكتاب وبعث محمدًا -صلى الله عليه وآله وسلم- بالحق وكان فيما نزل علينا آية الرجم فرجم رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ورجمنا بعده) قال ذلك -رضي الله تعالى عنه- ثم قال: سبب قولته هذه قد تحقق بعد، قال، لماذا قال ذلك؟ قال: (فإني أخشى أن يطول العهد بالناس أو الزمان بالناس فيقولون: لا نجد الرجم في كتاب الله، وقد رجم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ورجمنا) وقد جاء في أحاديث كثيرة، أن هذه الآية وهي في البخاري ومسلم وغيرها، هي ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم﴾ وهذه الآية نسخت تلاوة وبقيت حكماً، كما نص على ذلك جمهور الفقهاء، وقد جاءت أحاديث كثيرة كما ذكرت في أصح الكتب بعد كتاب الله -تبارك وتعالى-، تؤكد ذلك وتبينه، والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قد رجم، في أي أمر رجم؟ وقد قلته قبل قليل؟ في قصة الأعرابيين، الذي زنى الأجير على امرأة الرجل الذي كان يعمل عنده، لما قال: (واغد يا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها فذهب إليها فاعترفت فرجمها) فدل ذلك على أن هذا من سنة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-.

كذلك أيضاً النبي -عليه الصلاة والسلام- أقام الحد على من؟ كما ذكر الآن؟ على ماعز الغامدية وكان حد ذلك الرجم، إذن ثبت الرجم إذن بكتاب الله -تبارك وتعالى- وبالسنة القولية والعملية للنبي الكريم -صلوات الله وسلامه عليه- وعلى هذا جمهور الإسلام ولم يخالف في هذا كما ذكرت إلا الخوارج، وبعض المعتزلة، الخوارج لأنه لما وقع منهم شيء من التكفير اكتفوا بالقرآن الكريم، تكفير بعض الصحابة اكتفوا بالقرآن الكريم؛ لأن الإنسان إذا كفر إنساناً لم يأخذ منه حديثاً، فلم يأخذوا إذن أحاديث ممن أطلقوا عليهم اسم التكفير.

أما المعتزلة فحكموا عقولهم في مثل ذلك، وردوا كثيراً من أحاديث الآحاد الواردة عن النبي -صلوات الله وسلامه عليه- وتمسكوا بظاهر بعض النصوص وأنكر بعضهم الرجم في سنة الإسلام وهو شريعة بعث بها النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وبالتالي استدلال من استدل على عدم الرجم بعموم هذه الآية: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ استدلال غير صحيح لأن العموم قد خصص كما ذكرت وها نحن نحد العبد والأمة بنصف ما نحد به الرجل الحر البكر، بنص من؟ بنص كتاب الله -تبارك وتعالى-، ونرجم أيضاً بنص كتاب الله -عز وجل- فيما نسخ تلاوة وبقي حكماً، وهذا إجماع من العلماء على ذلك، وبسنة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-.

بقيت مسألة هنا وهي هل يجمع الجلد مع الرجم لمن ثبت عليه؟ يعني هل يجلد الزاني المحصن يجلد أولاً للآية ثم يرجم بعد ذلك؟

جمهور الفقهاء على أنه يرجم؛ لأن الرجم هو أعلى عقوبة فيتم رجم أعلى عقوبة ولم يؤثر عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أنه جلد من أمر برجمه، فدل ذلك على أن الرجم يتم دون أن يكون هناك جلد قبله، وفي رواية عن الإمام أحمد -رحمه الله تبارك وتعالى- أنه يجمع بين الجلد والرجم للجمع بين ظاهر هذه الآية وبين

سنة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وقد ورد هذا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- أنه جلد أولاً، ثم رجم، فلما سئل في ذلك قال: (جلدتها بكتاب الله، ورجمتها بسنة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-).

ثم يقول -سبحانه وتعالى- مبيناً حكماً آخر، بعد أن ذكرت هذه الآية الحد الذي يجب أن يقع على الزاني وهو إن كان بكراً أو كان محصناً، وقد بينت من خلال القرآن الكريم وهدي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، الحد في كلا الحالتين، إن كان بكراً له حد وإن كان محصناً له حد، بعد ذلك يقول سبحانه مقررا أمرا ومخبرا عن شيء: ﴿الزَّانِي لاَ يَنكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ هذا الخبر من الله -تبارك وتعالى-، يفيد أن الزاني لا ينكح إلا زانية عاصية مثله، يعني تطاوعه على الزنى، وكذلك المرأة لا يزني بها إلا رجل فاجر صاحب معصية قائم على هذا الأمر، ثم يقول سبحانه: ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ قوله: ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ جعل بعض العلماء يذهبون في تفسير هذه الآية مذاهب شتى، ما المراد بقوله إذن: ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ هل حرم الزنا على المؤمنين؟ هذا حق، وهل حرم ذلك على المؤمنين، يعني أن يتزوج الرجل العفيف من المرأة الزانية، وعليه أقول: ما المراد بالنكاح الوارد في قوله: ﴿الزَّانِي لاَ يَنكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾؟ هل هو الوطأ أو هو عقد الزواج؟ اختلف العلماء في ذلك بعضهم قال: بأن المراد الوطأ يعني نكاح الزاني للزاني، وقوله: ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ إذن يعني حرم الزنى على المؤمنين، وبعضهم قال: وقد ذهب إلى هذا الإمام أحمد -رحمه الله تبارك وتعالى- بأن المراد بالنكاح الوارد في هذه الآية عقد النكاح، ويصبح قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني وحرم على الرجل العفيف أن يتزوج بالمرأة الزانية كما يحرم أيضاً للمرأة العفيفة أن تتزوج بالرجل الفاجر الفاسق، أخذاً من أن المراد بالنكاح الوارد في هذه الآية هو عقد النكاح، والجمهور على أن المراد بالنكاح الوارد في هذه الآية هو الوطأ ولكني أقول: مع هذا يجب على الإنسان أن يتخير المرأة الصالحة، يجب على الرجل أن يتخير المرأة الصالحة، كما يجب أيضاً على المرأة أن توافق على الرجل الصالح لماذا؟ لأن الرجل والمرأة كلاهما سيقومان ببناء بيت نظيف، فإذا كان الرجل صالحاً، وكانت المرأة كذلك كان هذا سبباً بعون الله -تبارك وتعالى-، في أن يكون منهما أطفال أو ذرية أو يشاركان في إمداد المجتمع بذرية تعبد الله -تبارك وتعالى- وتوحده، وتنفذ شرعه وتستجيب لأوامره، ولذلك رغب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في أن يتزوج الرجل المرأة ذات الدين لما قال -صلى الله عليه وآله وسلم-: (فاظفر بذات الدين تربت يداك) ولهذا فإنني أدعو عموم المسلمين إلى تربية أولادهم أولاً، وبناتهم تربية صحيحة، سليمة، قائمة على الطهر وعلى العفاف، وعلى ألا ينظر أو ألا يشاهد الشاب أو الشابة ما حرم رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، كي تكون قلوبهما سليمة ونفوسهما طيبة، ثم بعد ذلك يكون ذلك لهما عوناً على طاعة الله -تبارك وتعالى-، وإن انفلات بعض البيوت اليوم مأساة وللأسف الشديد، انفلات بعض البيوت اليوم وعدم تطبيق شريعة الله -تبارك وتعالى- فيها، وعدم الالتزام بحدود الحق -تبارك وتعالى-، يؤدي إلى منكرات فظيعة يحمل أبناؤها تبعاتها إلى اليوم، ولذلك على المجتمع الإسلامي إن أراد الفوز والفلاح والنجاح والحياة الطيبة الكريمة الهادئة العفيفة عليه أن يلاحظ هذه التشريعات الربانية وأن يطبق حدود الله -عز وجل- وأن يمنع هذه الجرائم أو مثل هذه الجرائم في مهدها حتى لا تفتك الجتمع.

آتي بعد ذلك إلى المحور الثالث وهو

المحور الثالث: تحريم قذف المحصنات:

وفي ذلك يقول رب العزة والجلال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾﴾، هذه الآية فيها بيان حكم القاذف للمحصنة، والمراد بالرمي هنا، ورمي المحصنة هو الرمي بالزنا، أو القذف بالزنا، والآية وإن لم تصرح به إلا أن هناك قرائن تدل عليه، ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ هذه أول قرينة، لأن معنى المحصنات يعني العفيفات، فمن رمى

العفيفة إذن لن ينصرف رميه لها إلا بالزنا، كذلك أيضاً هناك قرينة على أن المراد هنا هو المراد بالزنا في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ لماذا؟ لأن الشهادة على الزنا تكون كم؟ تكون أربعة، فدل ذلك على أن هذا الحكم قائم على جريمة الزنا، فمن رمى إذن أعني قذف رجلاً كان أو امرأة لأن الآية تقول: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ فذكرت المحصنات ولم تذكر الرجال، فالذي يرمي امرأة أو يرمي رجلاً أيضاً يدخل تحت هذه الآية، هذه الآية ذكرت أن قاذف المحصنة وإذا قلت أيضاً بأن الرجل يدخل في هذا، أعني قاذف المحصن، إن من فعل ذلك يجب عليه أن يأتي بأبعة شهداء، من رمى امرأة بالزنا، أو رمى رجلاً بالزنى عليه أن يأتي بأربعة شهداء، قد يقول قائل: لماذا هذا التشديد؟ نقول: هذا تأديب من القرآن الكريم وتربية للأمة على أن يعف الإنسان لسانه ولا يخوض في المحارم ولا ينزل في أعراض الناس، ولا يتكلم إلا بحق وصدق، فلو جاء ثلاثة، وشهدوا مع رجل قذف امرأة بالزنا أو قذف رجلاً بالزنا، يجلدون جميعاً حد الجلد، وقد ذكرت الآية ثلاثة أمور مترتبة على من يرمي غيره بالزنا ولم يأتِ بأربعة شهداء، ذكرت ثلاثة أمور:

الأمر الأول: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾.

الأمر الثاني: ﴿وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدً﴾.

الأمر الثالث: رميهم بالفسق: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

إذن ثلاثة أمور خطيرة للغاية شرعها الإسلام كي يسد الباب أو المنفذ المؤدي إلى الخوض في الأعراض ذلك أن الأعراض يجب أن تصان، والحديث فيها مهلكة للمجتمع، والناس يخوضون بالحق والباطل فيجب عليهم ألا يتكلموا إلا بالحق، إذا تكلموا أو نطقوا أو تحركوا أو ذكروا كان كل ذلك بالحق، أما بالباطل أو بالظن أو أخذ الناس على أهوائهم، كل ذلك لا يجوز في دين الإسلام خاصة فيما يتعلق بالأعراض؛ لأنها أمور تنتهك، ويخشى عليها من الضياع، وفيها إشاعة للفاحشة بين الناس وفي داخل المجتمعات، والقرآن الكريم يقف أمام كل ذلك بالمرصاد.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ والمراد بالمحصنات العفيفات، فلو رمى إنسان امرأة وأقام عليها الشهود فلا شيء عليه، أما إذا رماها ولم يأتِ بشهود، فإنه يقام عليه الحد المذكور أو يترتب عليه هذه الأمور المذكورة في هذه الآية، قد يقول قائل: كل هذا في الدنيا، يعني ما ذكرته هذه الآية في رمي المحصنة العفيفة كلها أحكام تتعلق بالدنيا ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ فما حكم هؤلاء في الدار الآخرة؟ حكم هؤلاء في الدار الآخرة نصت عليه هذه السورة أيضاً، يعني جاء ذكره في هذه السورة وسأتكلم عنه فيما بعد -إن شاء الله- وهو في قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النور: ٢٣] وسيأتي ذكر ذلك -إن شاء الله- ولكني أحببت أن أضمه هنا إلى العذاب الدنيوي المذكور في هذه الآية.

ثم قال رب العزة والجلال بعد ذلك: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ وهنا اختلف العلماء في الاستثناء هنا على أي شيء يرجع؟ هذا الاستثناء على أي شيء يرجع؟ هل يرجع إلى الأمر الثالث والأخير فقط ألا وهو الفسق؟ فإن تاب وصلح حال القاذف بعد ذلك ارتفع عنه الفسق، أو يرجع إلى الثاني والثالث معاً، فتقبل شهادة ويرتفع عنه الفسق، أما الحد فقد أقيم ولا شك فيما مضى، اختلف العلماء في ذلك، والراجح -إن شاء الله تبارك وتعالى- أنه يرجع إلى الأمرين معاً، إلى الثاني وإلى الثالث، فتقبل شهادته ويرتفع عنه اسم الفسق، كلاهما مترتب على الآخر، فلو ارتفع عنه اسم الفسق، أصبح صالحاً صادقًا، فتقبل عندئذ شهادته، وطالما أنه تاب، ورجع إلى رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- عن هذه الفاحشة أو عن هذه المعصية، فيتوب الله -سبحانه وتعالى- عليه؛ لأن الله وعد من تاب توبة صالحة صادقة صحيحة أن يتوب رب العزة والجلال عليه، والباب في هذا واسع ومفتوح وفضل الله -سبحانه وتعالى- عليه.

بقيت أيضاً قبل أن أنتقل من هذه الآية ومن هذا المحور بقيت مسألة وهي لو قذف الحر عبده بالزنـــا، هــل نطبق عليه هذه الأحكام، أو ننزلها عليه، السيد قذف عبده بالزنا.

إذا قذف السيد عبده بالزنا لا يقام عليه الحد في الدنيا بدليل حديث البخاري ومسلم أن النبي -صلى الله عليــه وآله وسلم- قال: (إذا قذف الرجل عبده بالزنا أقيم عليه الحد يوم القيامة إن لم يكن كما قال)، يعني هو بين حالين إن قذف الحر أو السيد عبده بالزنا، فإن كان عبده زانياً فلا شيء عليه، طبعًا في الدنيا لا يقام عليه حــد، وفــي الآخرة لا شيء عليه، أما إذا قذفه في الدنيا وليس كذلك يعني أن العبد بريء من هذه التهمة يقام عليه الحد فــي الدار الآخرة.

وهنا لفتة جميلة ذكرها الإمام القرطبي -رحمه الله تبارك وتعالى- قال: يقام عليه الحد في الآخرة لأنه لو حُدَّ من السيد للعبد في الدنيا، لضاعت هيبة السيد لدى العبد ولانفرط هذا الأمر ولما استطاع السيد الذي يملك عبــده أن يسيره، أما في الآخرة فهناك لا يكون الملك إلا لمن؟ إلا لرب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- فيرتفع فــي الدار الآخرة عن هذا السيد لفظ أو صفة الملك، ويصبح الوضيع هناك والشريف في الدنيا كلهم على حد ســواء ولا يتفاضلون بعد ذلك إلا بالأعمال وصدق رب العزة والجلال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

المحور الرابع: اللعان كما جاء في القرآن:

وتحته قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَــدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَــا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الــصَّادِقِينَ ﴿٩﴾﴾ أنا ذكرت هذه الآيات مجتمعة لأنها كلها تتحدث تحت قضية واحدة، وهذه الآية كما ذكر الإمام الحــافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- فيها تفريج للأزواج، يعني الزوج يرى على زوجته شيئًا أو أمراً أو يريبه منها شيئًا فماذا يفعل؟ فهذه الآية فيها تفريج للأزواج ومخرج لهم عندما يرون شيئًا مخالفاً ولا يتمكنون من الصبر عليــه، وهذه الآية قررت حكم اللعان في الإسلام وذلك إذا جاء رجل وقد حدث هذا والأحاديث عن النبــي -صــلى الله عليه وسلم- والقصص النبوي الذي حصل مع الرسول -عليه الصلاة والسلام-، يفسر هذه الآيات وذلــك: (أن هلال بن أمية -رضي الله تعالى عنه- قذق امرأته بشريك بن سحنان، وجاء للنبي -عليــه الــصلاة والــسلام- وأخبره بأنه شاهد هذا الرجل على زوجته، فقال له النبي -عليه الصلاة والسلام- البينة أو حــد فــي ظهــرك، فتعجب هذا الصحابي وقال يا رسول الله: -صلى الله عليه وسلم-: أيجد أحدنا الرجل على امرأتــه ثــم يخــرج يلتمس البينة فما يزيد النبي -عليه الصلاة والسلام- إلا أن يقول له: البينة أو حد في ظهرك) يعني إن لم تــأتِ بينة سيقام عليك الحد، حد ماذا؟ حد قذف المحصنات، إذن الآية الأولى يــدخل فيهــا قــذف الأزواج بالباطــل والزوجات بالباطل (البينة أو حد في ظهرك، فقال الرجل: والله إني لصادق، وسينزل الله في أمري شيئًا) ؛ لأنه صادق فنزل قول الله -تبارك وتعالى- بهذه الآيات الكريمات التي فيها - كما ذكر الإمام الحافظ ابــن كثيــر- مخرج للأزواج عندما يشاهدون أمراً أو يلحظون شيئًا وليست لديهم بينه لأنه فعلاً أمر بعيد، أن يجد الرجل شيئًا على زوجته ثم يخرج يلتمس البينة لإقامة شهود على هذا الأمر.

جعل الله -عز وجل- لذلك مخرجاً (فلما نزلت هذه الآيات دعا بهما النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وأمر هلال بن أمية -رضي الله تعالى عنه- أن يبدأ هو بملاعنة زوجته، فبدأ وشهد أربع شهادات بالله بما شاهد وبما رأى) وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- لما جاء عند الخامسة يذكره بأنها هذه الموجبة، الخامــسة بأنــه فــي الأولى: ﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾﴾ بعدما يشهد أربع شهادات بالله إنه صادق فيما رمى به زوجته، هنا النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يحاول أن يثير الإيمان الكامن في النفوس ويقول هــذه توجب النار بعد ذلك، يذكرهما برب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- ويقول بأنها هي الموجبة، وفي ذلك وقــد

ورد أيضاً: أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كان يقول أثناء اللعان: (والله يعلم إن أحدكما لكاذب) يعني فيه واحد منكم صادق والآخر كاذب، ثم بعدما يقوم الرجل ويبدأ باللعان كما ذكرت هذه الآيات، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ بعدما يلاعن الرجل زوجته يجب في هذه الحالة، يترتب على هذا اللعان أحكام:

الأمر الأول: فسخ الزواج، فسخ العقد، فتصبح بائن منه، ولها مهرها بما أخذ منها، وليس لها نفقة ولا سكنى ولا تعود إليه أبداً، المرأة إذا فارقها الرجل باللعان هذا شيء.

الأمر الثاني: أنه يجب عليها الحد أن يقام عليها الحد، وهو الرجم، لأنها متزوجة في نكاح صحيح، ولا ينتفي الرجم إلا بما قاله رب العزة والجلال: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ ﴿وَيَدْرَأُ﴾ يعني يدفع عنها العذاب، ألا وهو حد الرجم، أن تقوم هي أيضاً وتلاعن ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فيما رماها به، أن القاذف الذي قذفها أو رماها وحكى عنها ما حكى هو كاذب فيما قال: ثم تأتي إلى الموجبة، ولما جاءت الموجبة التي هي الخامسة ذكرها النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- حتى كادت أن ترجع، في نص الحديث: (تلكأت ونكصت ثم قالت: كما ذكر ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- قال: ظننا أنها سترجع، إلا أنها قالت: سأفضح أهلي طول اليوم، ثم أقسمت الخامسة وقالت: ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾﴾) وهذه هي الموجبة وجاء هنا الغضب عليها ؛ لأن الغضب يطلق على من يعلم الشيء وينكره مثل اليهود، نقول عليهم: مغضوب عليهم لماذا؟ لأنهم يعلمون الحق ولكنهم أنكروه.

فلما قالت ذلك: تفرقا ولم يحدث بينهما لقاء بعد ذلك، وهذه هي سورة اللعان كما جاءت في كتاب الله -عز وجل- وكما حدثت بين يدي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-.

هنا مسألة أو أن تتنبهوا إليها قبل أن أنتهي، ما المراد: ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ﴾ ما المراد بالشهادة هنا؟ قال: اختلف العلماء إلى أقوال: قالوا: المراد بالشهادة: لفظ الشهادة كما جاء في القرآن، وقال بعضهم: لا، المراد بالشهادة اليمين، وقال بعضهم: وهو الراجح -إن شاء الله تعالى- ورجحه الإمام ابن القيم الراجح أنها يمين مؤكدة بالشهادة، وعلى ذلك أدلة أو قرائن تؤيد ذلك منها: أن الله -تبارك وتعالى- ذكر في هذه الآية لفظ اليمين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ﴾ وأيضاً القرآن الكريم أطلق لفظ الشهادة وأراد اليمين، القرآن الكريم جاء فيه إطلاق ولفظ الشهادة وإرادة اليمين، وذلك في قول الله تعالى في سورة المائدة: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ [المائدة: ١٠٧] بعدها بعد هذه الآية ماذا قال رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [المائدة: ١٠٨] فسمى هذه الشهادة أيمان، والإمام ابن العربي المالكي -رحمه الله تعالى- وصاحب عارضة الأحوذي، وأنا أعرفه خشية من الوقوف في ابن عربي النكرة، هذا ابن العربي صاحب عارضة الأحوذي - رحمه الله تعالى- يقول: بأن المراد بالشهادة اليمين لماذا؟ قال: لأنه لا يمكن أن يشهد الإنسان لنفسه، لأنه لو قلنا شهادة لا تقبل الشهادة من الإنسان على نفسه، فلابد أن تكون يمين ولكنها مؤكدة بلفظ الشهادة.

أيضاً بعد ذلك قبل أن انتقل إلى الآية الآخيرة، أذكر مسألة في نصف دقيقة، وهي: لو أن المرأة أتت بابن غريب في الشكل واللون، هل يتم اللعان بينهما، أو يترتب على ذلك لعان؟ لا، في قصة الرجل الأعرابي لما جاء يومئ إلى النبي -عليه الصلاة والسلام- بأن زوجته ولدت عبداً أسود، وهو أبيض وزوجته كذلك، فالنبي -عليه الصلاة والسلام- سأله: (هل عندك من إبل؟ فأخبره وأجاب: نعم، قال: ما لونها؟ قال: حمر، قال: هل فيها من أورق؟ -يعني أسود- فالرجل أجاب بأن فيها ما ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: من أين أتاها؟ قال: لعله نزعه عرق، فقال له النبي -عليه الصلاة والسلام-: لعل ابنك هذا أيضاً نزعه عرق).

ثم ختم رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- هذه الآيات وهذه الأحكام بقوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾، ما أجمل التشريعات الربانية، والله لو عقلت البشرية لعلمت أن في

هذه التشريعات الرحمة الربانية، هذه التشريعات تنظف المجتمع ومع هذا تفتح السبيل وتفرج الأمور بين الناس، هذا فيه فضل ورحمة من الله -عز وجل-، هذه التشريعات فضل ورحمة وهداية وتوفيق من رب العزة والجلال كما ذكرت أولاً فيها تفريج عن الأزواج، وعدم وقوع شحناء وبغضاء بين الرجل وبين المرأة، فلو وقع مثل ذلك ما قامت البيوت وما استقامت بين الرجل والمرأة يمكن أن يطعن أحدهما على الآخر فكانت هذه التشريعات لدفع كل ذلك.

ثم قول الحق -تبارك وتعالى- وإشارته إلى الرحمة وختمه إلى الآية بقوله: ﴿وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ دعوة لكل من يقع في مثل هذه الفضائح والشنائع والعظائم أن يتوب إلى الله -تبارك وتعالى-، وأن يرجع إلى الله -عز وجل- يتوب، ويرجع إلى الله -سبحانه وتعالى- فلا يفتضح أمره وإن وقع شيء من ذلك فمن تاب توبة صادقة تاب الله -سبحانه وتعالى- عليه، ودلائل القرآن الكريم وظواهر الآيات القرآنية وما جاء عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يؤكد ذلك والله -سبحانه وتعالى- غفور رحيم، وأكتفي في هذا اللقاء بما ذكرت من آيات وكلمات، وأسأل الله -عز وجل- التوفيق والسداد وصلِّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

إجابات الحلقة الماضية:

وكان السؤال الأول:

اذكر ما يدل من القرآن الكريم على أن الكافر يتمنى الرجعة وهو في النار؟ وما هو وجه الجمع في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾؟

وكانت الإجابة:

إن الكافر يتمنى الرجعة وهو في النار وذلك قد ذكره الله لنا في آيات ومنها: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧] وقال الله -جل وعلا-: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَؤوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٥- ١٠٨] وللجمع في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ عدة وجوه:

الأول: أن هذا الجمع تفخيماً وتعظيماً للمخاطب أي لله -جل وعلا- وهذا القول أظهرهم والله أعلم.

الثاني: قيل للتكرار وكأنه يقول: رب ارجعني، رب ارجعني، رب ارجعني.

والثالث: وقيل هذا الجمع للملائكة؛ لأنه رآهم وهم يقبضون روحه فهو يسأل ربه ويتوسل إليه ويكلم الملائكة والله أعلم.

القول الثالث يحتاج إلى إضافة يسيرة؛ لأنه قال يتوجه إلى الملائكة ولكن القول: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ فكيف يفسر ذلك، أو يوضحه، إذن ﴿رَبِّ﴾ نداء لرب العزة والجلال، كأنه يدعو رب العزة والجلال ثم يخاطب الملائكة بعد ذلك قائلا: ﴿ارْجِعُونِ﴾، وأنا قلت يعني هنا يخاطب الملائكة لأنه عاين ملك الموت عند خروج روحه في الدار الدنيا وعاين أيضاً أعوان ملك الموت الذين يقومون بذلك، والله أعلم.

السؤال الثاني:

هل الحجة قامت على العباد بالشرع أم بالعقل؟ وضح ذلك مبينا الصواب مع الدليل.

وكانت الإجابة:

إن الحجة قد قامت على العباد بالشرع وهذا هو الصواب وإن الله أرسل الرسل ليوضحوا للناس الطريق الذي به يصلون إلى ربهم، ويعلموا أن الله وحده المستحق أن يعبد ويفرد بجميع أنواع العبادة الظاهرة والباطنة، قال الله تعالى: ﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٥] ولكن عقول الناس إلى أين ساقتهم؟ ساقتهم إلى الشرك بالله وأكثر، فمنهم من يعبد صنماً ومنهم من يعبد بقراً ومنهم من يعبد الكواكب ومنهم من يعبد النار، والله أعلم.

نعم الجواب صحيح والحجة قامت بالشرع لا بالعقل، عكس ما ذهب إليه بعض الفرق المبتدعة في ذلك.

السؤال الثالث:

ما المراد بالسؤال الوارد في قوله تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾؟ وكيف توفق بين قوله تعالى عنهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وبين قوله: ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا ﴿١٠٣﴾﴾ وقوله: ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾؟

وكانت الإجابة:

المراد في السؤال: كم لبثتم في الأرض عدد السنين: هو تبكيت لهؤلاء القوم وبيان أنهم سفهاء العقول وأنهم ما استطاعوا أن يخالفوا هواهم وأن يتركوا شهواتهم وأن يصبروا على طاعة ربهم فهذا السؤال يزيدهم حسرة على حسرتهم، والله أعلم.

ونوفق بين أقوال الله المتعددة في ردودهم على هذا السؤال أنه قد يقول بعضهم يوماً أو بعض يوم، والبعض يقول عشراً والبعض يقول ساعة، فلا تعارض ونحن نصدق ما أخبر الله به تعالى.

الجواب صحيح والحمد لله.

الأخ الكريم من المغرب يقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته التمس من سيادتكم إرشادي إلى منهجية لتطبيقها في تحصيل دروس التفسير والبحث فيه ولكم جزيل الشكر.

الحقيقة التفسير بابه واسع خاصة أنه يتكلم أو يفسر كلام الله -تبارك وتعالى-، ولذلك علماء التفسير لما جاءوا يعرفون التفسير قالوا: هو محاولة لفهم مراد الله -تبارك وتعالى- في هذه الآية ولذلك أنصح من يود أن يقرأ أو يتعلم شيئًا في التفسير أن يقف أولاً على شيء من علوم القرآن الكريم، ثم بعد ذلك يبتدئ بقراءة الكتب التي هي سهلة في العبارة، والمنهجية على منهج أهل السنة والجماعة، فمثلاً يبدأ بكتاب تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي -رحمه الله تعالى-، يقرأ في تفسير الإمام الحافظ ابن كثير، إن وجد أن تفسير الإمام الحافظ ابن كثير فيه شيء من الطول عليه، يقرأ معالم التنزيل للإمام البغوي، إن أراد أن يقف على بعض آيات في كتاب الله تعالى وليس تفسير جملياً للقرآن يقرأ في كتاب أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن وهكذا، إذن من يريد أن يطلب العلم، في التفسير عليه أن يقف على شيء من علوم القرآن الكريم

ثم بعد ذلك يبتدئ بالكتب السهلة الميسرة التي هي مبنية على أصول وقواعد أهل السنة والجماعة ككتـابي كمـا ذكرت أو الكتب التي أشرت إليها حتى لا نطيل والله أعلم.

الأخ الكريم من السعودية يقول: بالنسبة يا شيخ للزانية المطلقة والزاني المطلق إلى أي الفريقين في العقوبة؟

السؤال الثاني: ملاحظة نرسل عن طريق الإنترنت أسئلة للأخ عبد الرحمن ما أدري تصل أو ما تصل؟.

إن هناك وقت نجيب عليها لأن الأسئلة كثيرة جداً

الحكم في الزانية المطلقة والزاني المطلق هو الحكم في من هو صاحب زوج أو صاحب زوجة، فكـل مـن تزوجت ولو يوماً واحداً ثم طلق بعد ذلك وارتكب هذه الفاحشة فيكون قد أحصن بهذا الزواج، كل مـن تـزوج يكون قد أحصن بهذا الزواج، حتى لو طلق بعد ذلك وبقي سنين، وهذا اتفاق بين العلماء لم يخالف في هذا أحـد أبداً.

الأخت الكريمة من مصر تقول: سمعت أنه ورد حديث شريف في سورة النور مفاده: أن علموها لبناتكم لمـا فيها من أحكام الزنا وعقوبته إلى آخره، فما صحة ذلك وما هو الحديث إن كان صحيحاً؟.

لم يصح هذا عن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– ولم يأتِ في هذا شيء أبداً وكل ما ورد فهو دائـر بـين الضعيف والموضوع، وأغلبه موضوع.

الأخت الكريمة من السعودية تقول:

السؤال الأول: من سورة التوبة عن قول الله –سبحانه وتعالى–: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] ما هي الصلاة التي يصليها علهم الرسول –صلى الله عليه وسلم– ؟

السؤال الثاني: عن قول الله –سبحانه وتعالى–: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢] وفي الآية ١٠٦: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ﴾ [التوبة: ١٠٦] ما الفرق بين الفئتين؟

السؤال الثالث: في قول الله –سبحانه وتعالى– في سورة سبأ آية ١٣: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَـشَاءُ مِـن مَّحَارِيـبَ وَتَمَاثِيلَ﴾ ما هي التماثيل؟ وهل آمنت ملكت سبأ؟

سؤالها الأول فضيلة الشيخ: سورة التوبة: ﴿إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]؟

الصلاة في اللغة بمعنى الدعاء، أما في الشرع فهي المراد بها الصلاة المعروفة التي هي أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم، وإذن بناءً على هذا فالآية أو قول الله –تبارك وتعالى–: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] يعني دعاؤك يا أيها النبي –صلى الله عليه وسلم– سكن لمن تدعو له.

سؤالها الثاني عن قول الله –عز وجل–: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢] ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللهِ﴾ [التوبة: ١٠٦] ما الفرق بينهما؟.

الآيات في سورة التوبة تتحدث ولا شك أو كما يعلم القارئ لها من الوهلة الأولى عـن كثيـر مـن أعمـال المنافقين وما أتوا به في غزوة تبوك، والآية الأولى يقول رب العزة والجلال فيها: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِـذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ فهي تبين أن بعض الناس قد اعترفوا بجرائمهم فـي

هذه الغزوة أو بما وقع منهم في هذه الغزوة، وأمرهم بعد ذلك إلى رب العزة والجلال لأنهم فيهم من الأعمال الخيرية أو من الأمور التي كانوا يقومون بها من أعمال صالحة، وفيها مخالفات مما وقع منهم في غزوة تبوك هؤلاء الذين اعرفوا بذنوبهم قد خلصوا عملاً صالحاً بآخر سيئاً، ويرجى العفو عنهم؛ لأن الله -سبحانه وتعالى- ذكر العفو ورغب فيه، وأشار إليه في هذه الآية لما قال: ﴿عَسَى اللهُ أن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، وهناك طائفة أخرى لم يقع منهم اعتراف فهؤلاء مرجون لأمر الله، الأولون الذين وقع منهم الاعتراف أشارت الآية إلى وقوع التوبة لهم، أو أن الله -سبحانه وتعالى- سيشملهم بعفوه ومغفرته ورحمته، أما من لم يرجع ومن لم يعترف فهذا أمره إلى رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، فهو أشد من الأول، إما أن يعذب وإما أن يتوب الله -سبحانه وتعالى- عليه، الشاهد أنه في الأول ذكر التوبة فقط، أما في الآخر أو في الآية الأخرى: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأمْرِ اللهِ﴾ [التوبة: ١٠٦] أشار إلى العذاب وإلى التوبة، يعني قد يقع هذا وقد يقع هذا، وهذا فيه تهديد لمن وقع منه ما وقع من معصية ولكنه لم يقر ولم يعترف بها.

سؤالها الثالث: كان في سورة سبأ في قوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ﴾ ما معنى تماثيل؟ وهل أسلمت ملكة سبأ؟

قيل: التماثيل تطلق على الأصنام، و قيل: التماثيل ما صُورَ على هيئة الإنسان، يعني ليس كل كل أصنام وحجارة هي تكون كذلك.

أما بالنسبة لأسلمت ملكة سبأ هذا ورد في القرآن الكريم ونص عليه، لما قالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤] القرآن دقيق، ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾ ما قال: أسلمت لسليمان؛ لأن الإسلام لله، فيه أسلمت مع سليمان لمن؟ كلهم جميعاً لرب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- فهذا نص قرآني واضح في أنها أسلمت ودخلت في دين سليمان -عليه السلام- وهو نبي من قِبَلِ الله -تبارك وتعالى-.

الأخت الكريمة من السعودية لها سؤالان:

سؤالها الأول: ﴿مُسَافِحَاتٍ﴾ [النساء: ٢٥]؟

السفاح، أو الخدان بمعنى واحد، ألا وهو: التعرض للفاحشة -والعياذ بالله تبارك وتعالى-، أو الوقوع فيها، يعني فعل الفاحشة أو الوقوع فيها أو التعرض لها أو حتى اتخاذ أسبابها وما إلى ذلك.

سؤالها الثاني: ما معنى الاحتلام؟ وهل يجب علي شرحه لابنتي البالغة؟

هو الاحتلام كما هو معروف لدى الرجل ولدى المرأة وهذه أصبحت من الأمور الواضحة وتعرف حتى فطرياً أو بالتعليم، ويعني معروفة -والحمد لله- حتى خاصة في المدارس للأولاد البنين والبنات، يدرسون أحكام الحيض وغير ذلك وأسباب البلوغ وعلامات البلوغ ويعرفها البنين والبنات بصورة سهلة وميسورة وواضحة، والمتحدث عنها يجب أن يتكلم عنها بما لا يخمش الحياء، فهي تعرف بطريق الفطرة وطريق التعليم أيضاً، يعني صار معلوماً ومعروفاً لدى البنين والبنات مثل هذه الأمور.

الأخ الكريم من فلسطين يقول: هل الزاني التائب والزانية التائبة مندرجان تحت هذه الآية وكيف نجمع بين هذه الآية وبين أن التوبة تجبُّ ما قبلها؟

تحت الآية التي هي: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَ﴾؟

نعم

نحن قلنا والآية -الحمد لله- واضحة أن فيه فرق بين إقامة الحد حينما يبلغ الإمام، وبين الرجوع والتوبة إلى رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- مرتكب الفاحشة وقع في أمر عظيم يقام عليه إذا رفع أمره إلى الحاكم أو إلى السلطان ما نصت عليه هذه الآيات ثم بعد ذلك لا يقطع الرجاء في رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- والله -عز وجل- يقول في كتابه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] والحقيقة ضيق وقت الحلقة دعاني إلى أن لا أتوسع في مثل ذلك، فمن تاب من أي أمر تاب الله -سبحانه وتعالى- عليه، وإن كان الشرك وهو أكبر معصية على الإطلاق إذا تاب عنه العبد ورجع إلى الله -سبحانه وتعالى- تاب الله -سبحانه وتعالى- عيله، وقد قال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: (الإسلام يجبُّ ما قبله والتوبة تجب ما قبله).

الأخ الكريم يقول: لي ثلاثة أسئلة:

السؤال الأول: هل الزواج العرفي أو ما يسمى بالعرفي: صحيح أم لا؟ وإن كان غير صحيح فهل من قام بالزنا بعد هذا الزواج يطبق فيه الحد أم لا؟

السؤال الثاني: هل ما يجري على لسان الناس من سب -أعاذنا الله وإياكم وعافانا وإياكم- يعد قذفاً للمحصنات أم لا؟

السؤال الثالث: ما الحكم لو رأت الزوجة زوجها وهو يزني؟

السؤال الأول: عن الزواج العرفي؟ الزواج في الحقيقة إن اكتملت شروطه وأركانه وأعلن بين الناس، فهو زواج صحيح، سواءً سجل أو لم يسجل، وإن كنت أعلن من هذا المكان أنه يجب أن يسجل حفاظاً على الحقوق، والتزاماً بطاعة ولي الأمر في مثل هذا؛ لأن هذه الأمور تنظم حياة المجتمع، فنسبة الأولاد إلى والديهم واستخراج شهادات الميلاد وإثبات الشخصية وما يعرف بالهويات أو البطائق أو ما إلى ذلك كل هذا يحتاج إلى تسجيل، فإذن الزواج العرفي إذا اكتمل شروطه -أو هكذا يسمونه الناس- وأركانه فهو زواج صحيح، ولكني أقول: يجب أن يسجل وما ينتج عنه إذن يكون صحيحاً، يعني الأولاد ينسبون إلى أبيهم ويترتب عليه ما يترتب على الزواج المسجل، هذا الزواج العرفي.

ولكني أتكلم يا شيخ عن الذي لا تكتمل فيه الشروط، ما يسمى بالزواج العرفي الآن؟

لا. الذي لا تكتمل فيه الشروط فهذا زنا -والعياذ بالله تعالى- هذا ويطبق عليه الحد إذا طبق؛ لأن هذه الآن صارت يعني إن صح التعبير مهزلة بين الناس وفوضى، يعني أنا من خلال الدعوة يعني سيري في الدعوة، أواجه مشاكل في هذا كثيرة، أواجه مشاكل كثيرة في هذا، يعني آخرها في أيام العيد الماضي، جاءني شاب وذكر، بنت متزوجة دون أن يعرف أبوها ولا أمها، هكذا يسمي ما أدري من تزوجها؟ ومتى تزوجها؟ وأين أعلن عن زواجها؟ وتعيش مع أبيها وأمها، لها سنتان متزوجة وسيعقد ويدخل بها يوم الخميس القادم، ونحن يوم الثلاثاء، فهذه فضائح في الحقيقة، يعني هذه أمور يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار لحماية الشباب في هذه المجتمعات من مثل ذلك، هي في الحقيقة جرائم جرائم جرائم، من وجهة نظري، لأن يعني بنت تكون في بيت أبيها وأمها ومتزوجة ولا يعلم عنها شيء، ومن الذي زوجها وتولى أمرها ومتى أعلنت زواجها؟ وهي مقيمة في داخل بيت أبيها، هل هذا هو الزواج؟ هل هذا هو مقصود الزواج في الإسلام؟ لا. تفضل.

هل ما يجري على لسان الناس من سب -أعاذنا الله وإياكم- يعد قذف للمحصنات؟

ما المراد بالسب؟

ما يجري على لسان العامة.

من قذف يعني، ولا كلمات أخرى كأن يقول: يا فاسق أو يا مجرم؟

فاسق مجرم ابن كذا.

لا، هذا يعزر فيه، وقد وافق على هذا العلماء، هذا نص عليه العلماء.

يسب أمه فيسب أباه

أيضاً إن كان سباً بعيداً عن القذف ففيه التعزير، يعزر من ولي الأمر أو من الوالدين أو من المجتمع الذي هو فيه، ويملك أمره، أما إن كان قذفاً فيجري فيه الحد.

ما الحكم لو رأت الزوجة زوجها وهو يزني؟

المرأة لها ما للرجل في مثل هذا يعني هي أيضاً تخبر وتلاعنه في مثل هذا، إن كانت زوجته، وأنا أشرت إلى هذا وأنا أتحدث عند قولي المحصنات.

الأخ الكريم من سوريا يقول: نرجو من شيخنا التوجيه في ذلك، وهو دعوة أولياء أمور الفتيات إلى عدم المغالاة في المهور لما له من تيسير الزواج والتخفيف من هذه الجريمة وجزاكم الله خيراً؟

والله هذا يعني سيعجب كل من أمامي الآن يا أخي، وهو توجيه منك لطيف، وهو في الحقيقة هذا من الأمور التي تقلل وقوع هذه الفاحشة، إن -والله يا إخواني- إن التضييق والمغالاة في المهور وإلزام الإنسان نفسه بما تعارف عليه الناس بأمور ليسوا هم أهلاً لها ولا يتمكنون من تبعاتها، ولا الاستعداد لها، فالإنسان يكلف نفسه أشياء فوق طاقتها؛ لأن بعض المجتمع يفعل ذلك أو ينظر بعض الناس إلى بعض وما إلى ذلك، هذه في الحقيقة يعني ضياع لهذا المجتمع، يجب وهذه من أسباب وقوع ما يعرف بالزواج العرفي الآن وما إلى ذلك، هذه من الأسباب التي تؤدي إلى مثل هذه الانحرافات الخطيرة ونحن وأعلنها صراحة في زمن الفتنة، نحن الآن في زمن الفتنة، وما يعرض أمام الناس وما يشاهده الناس في الشوارع والطرقات وعلى الشاشات أمر يثير غرائز يمكن كالحيوانات، فما بالنا بهؤلاء الناس فيجب وجوباً على أولياء الأمور أن يتبسطوا في هذه المسائل وأن ينفذوا الشرع الكريم فيها، في التوصيات الواردة عن النبي -عليه الصلاة والسلام-: (إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه) لا تطلب منه أكثر من ذلك، صاحب دين، يعني يتمسك به، وكما يذكر هذا عن معاوية وأيضاً نسب إلى علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه-: (أنه جاء رجل يسأله عن رجل تقدم لابنته هل يزوجها أو لا يزوجها أو يختار لها من؟ قال زوجها على تقي إن أحبها أكرمها، وإن أبغضها لم يظلمها) فإن كان تقياً سيعطيها حقها وإن كرهها لم يظلمها، فنراعي مثل ذلك وإذا أتى رجل إلى البيت وهو صالح، فزوجوه، وإذا كانت امرأة في بيت أبيها وهي صالحة سارع في تزويجها ولا يعضلها ولا يمنعها ولا يطلب ما يطلبه غيره في هذا؛ لأن في هذا مصلحة له ولذريته ولأولاده، وجزاه الله خيراً.

الأخ الكريم من مصر يقول: من يتولى جلد الزانية هل المرأة أم الرجل؟

المستحب في هذا أن يتولى المرأة جلد الزانية، أن تتولاها المرأة والمرأة تجلد وعليها ثيابها حتى لو جلدها الرجل، لو جلدها رجل تجلد وعليها ثيابها ، وهناك تفصيل حتى في مسألة الرجم، قيل بأن الرجل يعني لا يحفر

له ويحفر للمرأة حتى تستر أيضاً عن أعين الناس وشريعة الإسلام في هذا في غاية من الجمال والوضوح، ليتنا نطبق وسنفصل -إن شاء الله-.

الأخ الكريم من المغرب يقول: هل يجلد من زنى بعينه؟ وهل يعتبر زناه بنظره بنفس درجة زنا الفرج؟ أرجو التفصيل وجزاكم الله خيراً؟

لا، ليس طبعاً هذا هو المراد وإنما يعني والإنسان طبعاً أحيانًا فيه بعض الكلمات ونحن كما تعلمون على الهواء ويشاهدنا هذا وذاك، يعني لا يليق أن الإنسان يفصل، وإن كان الكلام صحيحاً، وقوع الزنا لابد أن يشهد فيه بإيلاج الفرج في الفرج وما إلى ذلك، هذا هو الزنا، أما نظر العين أو حتى اللمس باليد أو القول بالكلام، هذا وإن أطلق عليه زنا في اللغة؛ لأنه بريد الزنا أو مقدمات إلى الزنا إلا أنه لا يأخذ هذا الحكم، ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- لما نهى عن النظرة وما إلى ذلك وقال في نهاية الحديث قال: (والفرج يصدق ذلك أو يكذبه) فدل ذلك على أن الزنا أمر مخصوص يختلف عما ذكره السائل.

الأخ الكريم من مصر يقول: قلتم: إن العبد إذا زنا وهو محصن لا يقوم عليه حد الرجم، فهل يكون حده مائة جلدة أم خمسين؟.

لا، خمسون أيضاً، يكون حده خمسين لنص القرآن الكريم على ذلك، ولم يأتِ ما يخالف هذا الأمر ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥] هذا في حد الجلد، وهو كذلك أيضاً في الرجم، يعني إن زنا وهو محصن يجلد أيضاً خمسين، ولا يرجم.

الأخ الكريم من الكويت يقول: أشكل علي أمر العبد متى يجلد خمسين جلدة، ومتى لا يجلد؟ وإذا كان العبد محصناً يجلد خمسين أم مثل الحر البكر؟ وهل ابتداء الملاعنة خاص بالأزواج دون الزوجات؟

بالنسبة للجلد نعود إليه بالنسبة للعبد، العبد في تطبيق الأحكام عليه، كما هو عند الأحرار، فيطبق كما يطبق على هذا الإمام والحاكم وولي الأمر هو الذي يقوم على هذا ويعلنه وينفذه على الفرد وعلى العبد والعبد كما ذكرت من آيات القرآن الكريم على النصف من حد الحر، أما بالنسبة للرجم.

يقول: وإذا كان العبد محصناً يجلد خمسين أم مثل الحر؟

كما ذكرنا أيضاً إذا كان العبد محصناً يجلد أيضاً خمسين جلدة، وما وقفت على أحد قال بأنه يجلد أكثر من هذا؛ لأنه حد العبد هنا حد واحد في كل الأحوال؛ لأن الذي انتفى عنه فقط الرجم، فيبقى الأمر على ما هو عليه بالنسبة للجلد.

وهل ابتداء الملاعنة خاص بالأزواج دون الزوجات؟

نعم هذا نص عليه العلماء قالوا: بأن الرجل هو الذي يبدأ باللعان، لماذا؟ قالوا: لأن الغالب في أن الرجال هم الذين يقذفون أو يتكلمون، الغالب في هذا للرجال، فالرجل هو الذي يبدأ باللعان وهكذا هو ترتيب القرآن الكريم، وهذا ما فعله النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، حيث ابتدأ هلال بن أمية -رضي الله تعالى عنه- باللعنة.

فضيلة الشيخ هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه الحاضرة.

السؤال الأول: ما حد الزاني البكر والمحصن في شريعة الإسلام؟ أيد ما تقوله بالدليل.

السؤال الثاني: على أي شيء يرجع الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾؟

السؤال الثالث: هل الشهادات المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ﴾ شهادات أم أيمان؟ فصل القول في ذلك مع ذكر الراجح بالدليل.

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الدرس التاسع عشر: تفسير سورة النور

فضيلة الشيخ أهلاً ومرحباً بكم

يا مرحباً أهلاً بكم وبالمشاهدين والحاضرين الكرام، ويسرنا -إن شاء الله تعالى- في هذا اللقاء أن نتناول أيضاً بعضا من آيات سورة النور، وسيكون الحديث حول المحاور التالية:

المحور الأول: رمي أهل الإفك والضلال لعائشة -رضي الله تعالى عنها-.

المحور الثاني: موقف أهل الإيمان مما قيل في عائشة من البهتان.

المحور الثالث: نهي المؤمنين عن العود إلى مثل هذا المنكر العظيم.

ولنستمع الآن إلى آيات هذا اللقاء مع الأخ الأستاذ الكريم فليتفضل مشكوراً.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

أحسنت، جزاك الله خيراً.

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبد ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧١] أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله -تبارك وتعالى- وخير الهدي هدي محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ثم أما بعد.

أيها المشاهدون والمشاهدات الكرام: هذا اللقاء يدور حول حادثة تتعلق بشخص النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وقد تناولها القرآن الكريم وتحدث عنها؛ لأن الله -عز وجل- غار على عرض النبي -صلى الله عليه

وآله وسلم-، وهي ما تعرف بحادثة الإفك أو بقصة الإفك، وقد جاء فيها وقد جاءت فيها آيات من كتاب الله -تبارك وتعالى- سأتحدث عن بعضها في هذا اللقاء واللقاء القادم -إن شاء الله تعالى- بعضه يرتبط بلقاء اليوم.

والمحور الأول الذي سيدور الحديث عنه في هذا اللقاء بعنوان:

المحور الأول: رمي أهل الإفك والضلال لعائشة -رضي الله تعالى عنها-:

وأول آية فيه هي قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ هذه الآية كما ذكرت والآيات التي تليها في هذا اللقاء نزلت في شأن أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها- وذلك حين رماها أهل الإفك والضلال والبهتان بما رموها به، ولنرجع إلى قول أم المؤمنين عائشة وهي تتحدث عن هذه القصة وهي صاحبتها -رضي الله عنها-، وسأذكرها باختصار ولن أعلق كثيراً على بعض ما ذكرته -رضي الله تعالى عنها- لأن الحديث يطول حول ذلك، وقد أخرج هذا الحديث البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم من أئمة أهل السنة ممن كتبوا وجمعوا الصحيح في كتب الصحاح أو السنن أو المسانيد، تذكر أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها- حادثة الإفك وما دار فيها وما حصل لها -رضي الله تعالى عنها- وما كان من تبرئة الله -عز وجل- لها تقول: (كان النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرجت عليها القرعة سافر بها -صلى الله عليه وآله وسلم- فلما أراد هذا السفر أقرع بين نسائه فخرج سهم عائشة -رضي الله تعالى عنها-، قالت: وكان ذلك بعد أن فرض علينا الحجاب، فصنع لها -رضي الله تعالى عنها- هودجاً وكانت تنزل فيه) والهودج عبارة عن خيمة صغيرة تشبه البيت توضع فوق البعير وبعد ذلك تكون هي عليه -رضي الله تعالى عنها-، قالت: (فكنت أنزل في هودجي هذا، ولما انتهى نبي الله -صلى الله عليه وآله وسلم- من غزوته، وقفل راجعاً آذن ليلةً بالرحيل) -يعني أعلم الناس -صلوات الله وسلامه عليه- بأنه سيقوم مرتحلاً ليرجع وكان قد قارب المدينة المنورة (فلما علمت عائشة بذلك ذهبت لتقضي حاجة من حوائجها -رضي الله تعالى عنها- وتأخرت هناك، ورجعت، ولما رجعت إلى مكانها وضعت يدها على صدرها تلتمس عقداً على صدرها فلم تجده، وكان من جزع ظفار)- كما ذكرت- يعني من حبات الخرز وظفار مدينة باليمن ينسب إليها هذا العقد (فلما التمسته فلم تجده، رجعت إلى مكانها الذي كانت فيه كي تبحث عنه، وجاء القوم الذين كانوا يتولون أمر أم المؤمنين عائشة في حمل هودجها ووضعه على البعير، فحملوا هودجها وهم يظنون أنها فيه، ولم يشعروا بثقل فيه أو خفة) يعني أو شيء يخالف ما كانوا عليه حينما كانوا يحملون أم المؤمنين -رضي الله تعالى عنها- وهنا فائدة عظيمة، هذه الفائدة تبين شدة ورع صحابة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، قوم من أول سفرهم من المدينة إلى أن وصلوا إلى مكان الغزوة وهم راجعون وأصبحوا قريبين من المدينة النبوية، ينزلون الهودج ويرفعونه على البعير ولا يعرفون ثقله من عدم ثقله، أم المؤمنين فيه أو ليست فيه، وهذا يدل على أنهم كانوا لا يفكرون ولا يبحثون ولا يتطلعون إلى معرفة شيء من ذلك، وهذا من شدة الورع الذي كان عليه أصحاب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وأنا أذكر هذا سلفاً لأبين أن ما رميت به أم المؤمنين عائشة كان باطلاً أشد البطلان.

(رفعوا الهودج وهم يظنون أنها فيه، وليس كذلك وانطلقوا. وجدت أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها- عقدها ورجعت إلى المكان الذي كانت فيه، فلم تجد فيه أحداً، موجوداً وكلهم قد ارتحلوا وغادروا المكان الذي كانوا فيه، قالت أم المؤمنين عن نفسها: فيممت مكاني أو تيممت الذي كنت فيه، يعني رجعت إلى مكاني الذي كنت فيه، يعني رجعت إلى مكاني الذي كنت أجلس فيه، وعلمت أن القوم إذا افتقدوني سيرجعون إلي، ثم رجعت إليه قالت: فغلبني النوم) وهذه رحمة من الله بها لاشك أنها كانت في غم وكرب عظيم، والغم إذا جاء للإنسان يكون فيه مجلبة للنوم، بخلاف الهم، فالغم يقع للإنسان عند حدوث ما يكرهه، وقد كرهت ذلك فوقع فغلبها النوم، بخلاف الهم، الهم هو الخوف مما يتوقع، وهذا يطرد النوم، (فغلبها هي النوم -رضي الله تعالى

عنها- فنامت، وكان صفوان بن المعطل -رضي الله تعالى عنه- قد عرَّس آخر الجيش)، يعني التعريس هو النزول آخر الليل للاستراحة أو النوم أو ما إلى ذلك، (فادلج يعني سار في آخر الليل ذاهباً إلى صحابة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فرأى سواد إنسان فذهب عنده، فرأى أم المؤمنين -رضي الله تعالى عنها- وهي نائمة قالت عائشة: وكان يعرفني قبل أن يضرب علي الحجاب، فلما رآها وعرفها أخذه شيء عظيم من هول ما شاهد، لماذا؟ أم المؤمنين وحيدة في الليل في هذا المكان، فلم يملك إلا أن قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، قالت أم المؤمنين عائشة تبين ذلك قالت: فاستيقظت على استرجاعه، يعني على قوله: إنا لله وإنا إليه راجعون، ولم يزد على ذلك -رضي الله تعالى عنه-، وقالت: ولم يكلمني ولم أكلمه، لما رآها كذلك أناخ بعيره فركبت هي عليه، ثم أخذ بخطام ناقته -رضي الله تعالى عنه- وهو أمامها وانطلق بها متتبعاً أثر الجيش ليصل إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، فقدما على الجيش وهم قد نزلوا في وقت الظهيرة، فرآها الناس ومنهم المنافقون) فتولى كبر ذلك عبد الله بن أبي بن سلول -لعنة الله تبارك وتعالى-، وذكر وأشاع بين الناس واتهم أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها- بهذا الاتهام الخطير الذي ما كان يمكن أن يدور في عقل أو قلب إنسان يؤمن بالله -تبارك وتعالى- ويعرف مكانة وعظمة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وأن الله -سبحانه وتعالى- اختار أحب الناس ليكونوا أصفياء لرسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-.

وشاع الخبر في الناس وأذاع هذا الرجل هذا الحديث عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها-، فلما قدموا المدينة وانتشر الخبر بين الناس، تقول أم المؤمنين: (لما قدمت المدينة مرضت شهراً بعد هذا السفر، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قد سمع ما قاله الناس، ولم تعلم عائشة -رضي الله تعالى عنها- بشيء من ذلك إلا أنها تقول: كان يريبني أنني لا أجد اللطف الذي كنت أجده من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- حين أشتكي، كان إذا دخل عليها: (كيف تيكم)، يعني كيف أنتم أو كيف حالكم، ولا يزيد على ذلك، حتى بدأت بشيء من النقاهة، من المرض الذي كانت فيه، وجاءتها أم مسطح -رضي الله تعالى عنها- تزورها، وخرجا معاً ليقضيا حاجتهما وكان العرب يخرجون لقضاء الحاجة خارج بيوتهم وكانوا في الليل ولما انتهيا وهم راجعون في الطريق عثرت أم مسطح -رضي الله تعالى عنها- في مرطها، يعني في كسائها، فلما عثرت فيه قالت: تعس مسطح، تدعو على ابنها بالتعاسة والشقاء، فهال ذلك أم المؤمنين عائشة وهي لا تعلم شيئًا فقالت لها: أتسبين رجلاً شهد بدر) انظر كيف أم المؤمنين عائشة تدافع عن هذا الرجل وهذا فيه فضيلة ومزية لمن شهد بدراً من أصحاب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، (فقالت له أم مسطح: أي هنتاه) يعني يا أيتها المرأة، وقيل هذه الكلمة تقال للمرأة التي لا تدرك خطورة الموقف الذي حولها، قيل تقال للمرأة البلهاء يعني لا تدرك ما يدور حولها أو لا تسمع به، (يا هنتاه، أما سمعتي ما يقول؟ قالت: وماذا يقول: فذكرت لها قصة الإفك، فقالت أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها-: فازددت مرضاً إلى مرضي، ورجعت إلى بيتها فلما دخل عليها النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال كما كان يقول سائلاً عنها: (كيف تيكم) استأذنته -رضي الله تعالى عنها- أن تأتي إلى بيت أبيها، قالت: وأنا أريد أن أستيقن الخبر، فأذن لها النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، فلما ذهبت إلى بيت أبيها قالت لأمها: يا أمتاه، ماذا يقول الناس؟ فقالت لها أمها -رضي الله تعالى عنها-: يا بنية هوني على نفسكِ إنه قل ما كانت امرأة وضيئة) يعني جميلة (عند زوجها وكان لها ضرائر إلا كثرن عليها من الكلام) فأيقنت أم المؤمنين بذلك أن الخبر قد ذاع وشاع وأن الكلام الذي وصلها قد صدر من الناس، (فقالت: أو قد قال الناس بهذا؟ قالت -رضي الله تعالى عنها-: فمضيت ليلتي هذه أبكي لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم) يعني لا يرتفع دمع ولا أنام في ليلتي هذه -رضي الله تعالى عنها-.

(ثم ذكرت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أمراً قالت: بأنه ذهب النبي -عليه الصلاة والسلام- يستشير علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- وأسامة بن زيد في فراق أهله، قالت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-: فأما أسامة بن زيد فأخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- بما يكن لأهله من الود، وبما يعلمه عنه الخير، وقال للنبي -عليه الصلاة والسلام-: هم أهلك يا رسول الله ولا نعلم عنهم إلا خيراً، وأما علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- فقال للنبي -عليه الصلاة والسلام-: يا رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: هون

على نفسك، والنساء غيرها كثير) ولعل يكون في اللقاء وقفة، أو في اللقاء القادم أقف عند بعض هذه العبـــارات، لأنني أود أن أتي بسياق كلام أم المؤمنين عائشة فيما يتعلق بهذا اللقاء، (قال له علي بن أبي طالب ذلك ثم قـــال له: وإن تسأل الجارية تصدق، يعني بريرة، فجاء النبي -عليه الصلاة والسلام- إلى بريرة) وهي جارية كانـــت تخدم أم المؤمنين عائشة، ولاشك أن هذه تعلم لأنها تعيش في بيت عائشة -رضي الله تعالى عنهـــا- وتخـــدمها وتشاهده من حالها ما لا يشاهد النبي -صلى الله عليه وسلم- خاصة أنه يخرج مع قومه ومع أصحابه وما إلـــى ذلك، (فسألها النبي -عليه الصلاة والسلام-: هل رأيتِ شيئًا يريبك من عائشة؟ فقالت لـــه -رضـــي الله تعـــالى عنها-: والله ما رأيت شيئًا أغمسها عليه) -يعني أعيبها به- (إلا أنها كانت جارية حديثة السن تنام عن عجـــين أهلها فتأتي الداجن فتأكله)، يعني كانت جارية حديثة السن، وهي بهذا تمهد لهذا الأمر الذي كان يقع منها إلى أنها تنام يعني تذكر أنها ليس عندها ما عند غيرها من النساء من الفطنة وما إلى ذلك من حياة الناس، ثم تذكر بـــأن الداجن يعني الداجن هي الشاة التي تألف البيوت يعني تدخل البيوت لتأكل من طعامها.

(بعد ذلك قام النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بعد هذا الاستفسار، قام في مسجده على المنبر -صـــلى الله عليه وآله وسلم-) في الحقيقة الإنسان يذكر هذه الكلمات، وكأني يعني أشاهد بعيني وأشعر بقلبي هذا الموقـــف، أشعر بقوم قذفوا أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها-، وقذفوا النبي -صلى الله عليه وسلم- في فراشـــه وعرضه، وهو من هو -صلى الله عليه وآله وسلم-، يعني الحديث عن مثل هذا يطول، ولأستمر في هذا الحديث الذي روته أم المؤمنين عائشة.

(قام النبي -صلى الله عليه وسلم- على منبره في مسجده وقال: أيها الناس من يعذرني في رجل بلغنـــي أذاه في أهلي) من يعذرني؟ يعني من يلتمس لي عذراً إن أقمت عليه حداً أو فعلت به ما فعلت، وأخذتـــه بجريمتـــه؟ (بلغني أذاه في أهلي؟ والله لا أعلم عن أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً لا أعلم عنه إلا خيراً -ويعنـــي بـــذلك صفوان- وما كان يدخل بيتي إلا معي، فقام سعد بن معاذ -رضي الله تعالى عنه- وقال له يا رســـول الله: أنـــا أعذرك منه، إن كان من الأوس قتلناه)، وفي رواية: (ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخـــزرج، فمرنـــا بأمرك أو فمرنا بما تأمرنا به وسنتبعك فيه يا رسول الله، -صلى الله عليه وآلـــه وســـلم-) ودار خـــلاف بـــين الصحابة -رضوان الله تعالى عنهم- في مثل ذلك وخاضوا بالكلام عند النبي -عليه الصلاة والـــسلام- وبقيـــة الحديث يعني: (قام سعد بن عبادة وقال لسعد بن معاذ رداً عليه: لا تقتله ولا تستطيع أن تقتله. وقام أســـيد بـــن حضير -رضي الله تعالى عنه- فاتهم سعداً ونفس أم المؤمنين عائشة اتهم سعد بن عبادة) وأم المؤمنين -رضي الله تعالى عنها- لما ذكرت كلام سعد قدمت له مقدمة قالت: (كان رجلاً صالحاً إلا أن الحمية استجهلته) يعنـــي حملته على أن يقع في مثل هذا الأمر ولكنه رجل صالح، يعني أخذته الحمية على قومه، فقط لـــيس إلا، المهـــم صار حديث، وكلام، (وارتفعت الأصوات بين الأوس والخزرج في مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم- والنبي -عليه الصلاة والسلام- على منبره يسكتهم حتى سكتوا، ثم نزل النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-)

ثم تقول أم المؤمنين بعد ذلك وهي في بيت أبيها: (مضيت الليلة التالية أيضاً لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم جاءت امرأة من الأنصار استأذنت على أم المؤمنين عائشة لتزورها فأذنت لها، فدخلت عليها فوجدتها تبكـــي فجلست إلى جوارها تبكي، وبينما هم كذلك إذ دخل رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- عليهم، فسلم ثم جلس وتقول أم المؤمنين عائشة: لم يجلس عندي منذ أن قيل ما قال إلا في هذا الوقت -صلوات الله وسلامه عليـــه-) وهذا يفسر الحالة التي كانت في بيت النبي -صلى الله عليه وسلم- وما وصل إليه رسول الهـــدى والرحمـــة - صلوات الله وسلامه عليه- من أمر عظيم، وهمٍّ كبير لما قاله أهل الإفك والضلال والبهتان في زوج رســـول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ما جلس عند زوجه وهي من أحب النساء إليه، مدة ربما تزيد على شهر، إلا فـــي هذا الأمر، (فلما دخل النبي -عليه الصلاة والسلام- وجلس، كان أبو بكر موجوداً وزوجه موجودةً وعائـــشة - رضي الله تعالى عنها- والمرأة التي جاءت لتزور عائشة، فتشهد النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-)، يعني شهد لله بالوحدانية وللنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بالرسالة، ثم وجه الكلام إلى أم المؤمنين عائشة، والله إنه كلام

حينما يسمعه الإنسان أو يقرؤه أو يلقى عليه وهو يخرج من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يبين شـــدة هــذا الموقف، وما ابتليت به أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها-، وهي كما قالت عن نفسها: (جارية حديثــة السن) قال لها النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- موجهاً الكلام إليها: (يا عائشة إن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن ألممت بذنب فاستغفري الله فإن العبد إذا اعترف بذنبه وتاب منه، تاب الله -تعالى- عليه)، قالــت أم المــؤمنين عائشة حينما سمعت هذا الكلام، كأني بها أصابتها صاعقة، لدرجة أنها قالت: (قلص دمعي) يعني توقف، كانــت تبكي توقف الدمع، توقف البكاء، ونظرت إلى أبيها وقالت له: (أجب عني رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-)، فقال أبو كر -رضي الله تعالى عنه- وهو الصديق الكبير في ذاك الوقت في السن، أيضاً حبيب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وصاحبه ورفيقه في الغار، وكان معه ودفن إلى جواره، وسيحــشر معــه -صــلوات الله وسلامه عليه- فتوجه ابنته الكلام لأبيها: (أجب عني رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-) مــاذا قــال هــذا الشيخ؟ قال: (والله ما أدري ماذا أقول لرسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، فنظرت إلى أمها وقالت: أجيبي عني رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، فقالت أمها أيضاً: والله ما أدري ما أقول لرسول الله -صــلى الله عليه وآله وسلم-)، وهذا يبين صلاح هذا البيت، ونظافته وأيضًا قمة ورع هؤلاء الناس وتأدبهم مع النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، لو أن هذه حادثة حصلت بين أفراد الناس ماذا كان يقول الأب وماذا كانت تقول الأم، والله في كتب السنن، ما أثر أن أبا بكر -رضي الله تعالى عنه- قال كلمة حول هذا المعنى إلا كلمة واحدة، قال: (والله ما رمينا هذا في الجاهلية فكيف بعد أن أعزنا الله بالإسلام)، هذا كل ما روته كتب السنة من كلمة قالها أبو بكــر -رضي الله تعالى عنه-: (والله ما رمينا هذا في الجاهلية، فكيف بعد أن أعزنا الله بالإسلام).

المهم أن أبا بكر -رضي الله عنه- وأم رومان -رضي الله تعالى عنها- أجابا بإجابة واحدة ولم يتمكنا من أن يواجها النبي -صلى الله عليه وسلم- بشيء، فلما قالا ذلك، قالت أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنهــا-: (والله إني لأعلم أن ما سمعتموه قد استقر في نفوسكم وإني والله إن قلت لكم: إني لبريئة والله يعلم أنني بريئة لم تصدقونني، وإن قلت لكم غير ذلك فالأمر سيكون على خلاف الواقع وسيصدقوها، ثم قالت -رضي الله تعــالى عنها-: والله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف -وتعني يعقوب عليه السلام-: ﴿فَــصَبْرٌ جَمِيــلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] ثم قالت: فتوجهت واضجعت على فراشها لكي تستريح) وكأنها تود أن تعرض لقوة ما لديها من يقين في نفسها، وأنها بريئة تعرض عن هذا كله، فكأنها فعلــت هــذه الفعلــة أو هــذا التصرف، يعني كأنها تركتهم وحاولت أن تستريح لتظهر أمامهم أن مثل ما يقال عنها بريئة وهي قد أقسمت بالله إنها بريئة منه، وهي حقاً بريئة منه، وشريفة منه وطاهرة عفيفة -رضي الله تعالى عنها-، قالت: (اضجعت في مكانها ثم قالت -رضي الله تعالى عنها-: فما رام رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- مكانه -يعني ما فارق النبي -صلى الله عليه وسلم- مكانه- حتى أخذه ما كان يأخذه من البرحاء يعني من الشدة حينما كان ينزل عليه الوحي، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان في اليوم الشاتي) انظروا وتأملوا أم المؤمنين عائشة وهــي فــي هــذا الموقف الصعب الشديد على النفس ولو تذكرتم قبل قليل كيف واجهها النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال لهــا: (إن كنت بريئة سيبرئك الله وإن ألممتِ بذنب فاستغفري الله) قبل لحظات يقول لها هذا الكلام، وهي بعد لحظات بأي شيء تصف النبي -صلى الله عليه وسلم-، وصفت وشبهت قطرات العرق التي كانت تنزل منه -صلى الله عليه وسلم- بالدر، قالت: (يتحدر منه مثل الجمان) والجمان هو الدر، فشبهت قطرات عرق النبــي -صــلى الله عليه وسلم- بالدر في الصفاء والبهاء والجمال، (أخذه ما كان يأخذه) فعرفت أنه في هذه الحالــة ينــزل عليــه الوحي، (حتى سري عنه -صلى الله عليه وآله وسلم-، وانتهى من الوحي وهو يضحك فكان أول كلمة قالهــا -صلى الله عليه وسلم-: أبشري يا عائشة، أما أنت فقد برأك الله -تبارك وتعالى- فقال لها أمها -رضي الله تعالى عنها-: قومي إلى رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- قالت: والله لا أقوم إليه، وإنما أقوم لله ولا أحمد إلا الله الذي أنزل براءتي -رضي الله تعالى عنها-)، وهذا من فرحتها ومن دلالها علــى رســول الله -صــلوات الله وسلامه عليه-.

وللحديث بقية تأتي -إن شاء الله تعالى- في الآيات التي ستتعلق بشيء من اللقاء القادم، وهذا ما أحتاج إليه لتوضيح الآيات التي نزلت على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، تعالج هذه القضية العظيمة التي اتهم فيها أشرف خلق الله -صلوات الله وسلامه عليه- اتهم في عرضه، اتهم في زوجه، اتهم في فراشه، ومن هو؟ إنه النبي الكريم، محمد بن عبد الله -صلوات الله وسلامه عليه-.

تتنزل الآيات على النبي -عليه الصلاة والسلام- تعالج هذا الموقف وتفضح هؤلاء المجرمين الذين قالوا على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ما لا يليق به ولا بزوجه ولا بمكانته وأول آية في ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ الذين جاءوا بالإفك، الإفك هو أسوأ الكذب وأقبحه وأشده والإفك هو الكلام المقلوب، وكأن الآية تشير بالإفك بكلمة الإفك بالذات، ما قال ربنا الكذب فقط، وإنما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ﴾ لأن الإفك كما ذكرت هو الكلام المقلوب كأن الأمر ما كان ينبغي أن يقال في الصديقة بنت الصديق -رضي الله تعالى عنها- ذلك، وما ينبغي أن يقال في حقها هو الثناء والتبجيل والمدح والصفات الجليلة التي هي عليها ولكن أهل الإفك قلبوا ذلك عن وجهه، فرموها بعكس ما ينبغي أن تكون أو أن يقال في حقها -رضي الله تعالى عنها-، ولعل هذا هو سبب ذكر هذه الكلمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ ﴿عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ يعني جماعة منكم أيها المؤمنون، والعصبة أولاً، قيل من الثلاثة إلى العشرة، وقيل من العشرة إلى الأربعين، وعلى كل فهم جماعة قالوا بذلك، كان فيهم من المنافقين الذين أظهروا الإسلام والإيمان وأبطنوا الكفر كعبد الله بن أبي وكان فيهم بعض أهل الإيمان ولكنهم زلوا في هذا الأمر زلة كبيرة وقد تاب الله -سبحانه وتعالى- عليهم، كما سيأتي بيان ذلك من خلال هذه الآيات فهم عصبة قيل: ﴿مِّنْكُمْ﴾ وفيهم بعض المنافقين نفاقاً اعتقادياً ﴿مِّنْكُمْ﴾ وفيهم بعض المنافقين نفاقاً اعتقادياً لأن المنافق الاعتقادي في الظاهر كان مع من؟ مع أهل الإيمان فعبد الله كان في الغزوة وهو راجع مع النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-.

ثم قال الله: ﴿ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ يعني كلام أهل الإفك لا تحسبوه شراً لكم محضاً وإنما فيه خير، فيه خير ورفعة لعائشة -رضي الله تعالى عنها- ولآل أبي بكر -رضي الله تعالى عنهم أجمعين- فيه رفعة وثناء حسن جميل في الدنيا على أم المؤمنين عائشة وتبرئة لها من هذا الأمر ورفعة لمكانها وإظهار مكانتها لأن الله -عز وجل- هو الذي تولى الدفاع عنها -سبحانه وتعالى-، في هذا رفعة لأم المؤمنين عائشة وفيه من الخير ما فيه من الدنيا أيضاً فيه خير لها في الآخرة فالله -عز وجل- حينما يبتلي المؤمن بشيء من الابتلاء يعوضه في الآخرة أحسن الجزاء على ما يبتليه به في الدار الدنيا، ﴿ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾.

ثم يقول سبحانه: ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ ﴾، لكل واحد منهم عقاب عند رب العزة والجلال بقدر ما اقترف من الإثم وبقدر ما خاض في هذه الحادثة، ثم يقول: ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾، والذي تولى كبره منهم على الصحيح هو عبد الله بن أبي وقد ذكرت ذلك أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها- وعلى هذا جمهور المفسرين أن الذي تولى كبره منهم هو هذا الرجل المنافق، هو الذي بدأ يذيع ويشيع ويتكلم في هذه الحادثة، وكان معه بعض الصحابة ممن تابوا ورجعوا -رضي الله تعالى عنهم- وفي قول ضعيف استغربه الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- بعدما ذكره وهو أن المراد بالذي تولى كبره منهم هو: حسان بن ثابت، وليس هذا بصحيح ولذلك الإمام الحافظ ابن كثير لما ذكره قال: وهو غريب؛ لأن الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- ليسوا كذلك ولا يتولون كبراً مثل هذا وإن وقعوا في شيء من هذا فهم لا ينافحون ويدافعون في مثل هذا أو يلوجون في مثل هذا الباطل بمثل ما خاض فيه هذا الرجل المنافق، ألا وهو عبد الله بن أبي بن سلول.

ولذلك كما قال عروة -رضي الله تعالى عنه- كان يقول: بأن أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها- كانت تكره أن ينال أحد من حسان بن ثابت -رضي الله تعالى عنه-، ويتكلم عن حسان بن ثابت -رضي الله تعالى عنه-، وقالت: بأنه كان يقول: فإن أبي ووالده -يعني جده- وعرضي لعرض محمد منكم وقاء كان يقول:

فإن أبي ووالده وعرضي *** لعرض محمد منكم وقاءُ

يعني يقول: بأني وأسرتي وعائلتي وكلي وعرضي وقاء لعرض رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، وهو الذي كان يدافع بشعره عن النبي -عليه الصلاة والسلام- وفي صحيح البخاري أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال له: (اهجهم وروح القدس معك) فكانت أم المؤمنين تنهى أن ينال أحد من حسان بن ثابت -رضي الله تعالى عنه-، وتنكر ذلك، وهذا يؤيد أن الذي تولى كبره هو من ؟ هو عبد الله بن أبي.

وكانت هذه الآية قبل أن أنتهي منها فيها رفعة - كماأشرت وذكرت- لأم المؤمنين في الدنيا والآخرة، ولذلك عبد الله بن عباس -رضي الله تعالى عنه- لما دخل على أم المؤمنين عائشة وهي في الموت قال لها: (أبشري يا أم المؤمنين فإنك زوج رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وحبيبته ولم يتزوج بكراً غيرك وأنزل الله براءتك من السماء) فهذه شهادة لأم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها-.

المحور الثاني: موقف أهل الإيمان مما قيل في عائشة من البهتان:

وتحته قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾.

هذا تأديب من الله -تبارك وتعالى- للمؤمنين في قصة عائشة -رضي الله تعالى عنها- حين أفاض بعضهم في هذا الكلام السيء القبيح ولولا هنا بمعنى هلا، وهي لولا التحضيضية وهي تقرع وتبكت وتعاتب من خاض من أهل الإيمان في هذا الموقف أو في عرض أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها-، وتقول لهم الآية وتعاتبهم في ذلك: لولا إذا سمعتموه كان ينبغي أن يظن بعضكم ببعض خيراً وكأن الآية تقول: قيسوا أنفسكم على أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها-، فكما أنكم لا ترضون ذلك ولا يليق بكم ذلك، فكذلك لا يليق هذا بأم المؤمنين زوج رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، نزلوا أنفسكم يا معشر أهل الإيمان منزلة أم المؤمنين عائشة إذا كان هذا لا يليق بكم فكيف يليق بأمهات المؤمنين -رضي الله تعالى عن الجميع-؟!!

﴿ لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ والتعبير بكلمة ﴿ بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ هنا يفيد : أن المؤمنين جسد واحد وأن الإساءة إلى واحد منهم إساءة إلى الجميع لأنهم نفس واحدة وهذا كقول الله تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [النساء: ٢٩] والإنسان لا يقتل نفسه، وإنما يقتل غيره، وهذا يفيد أنه لو قتل غيره بالباطل كأنه قتل نفسه، كذلك من سب أمهات المؤمنين أو أصاب شيئًا من عرض رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- أو من مكانته فكأنه سب نفسه ورجع هذا الأمر إليه.

والمفسرون يذكرون في تفسير هذه الآية أنها نزلت في قول أبي أيوب وأم أيوب -رضي الله تعالى عنهما- وذلك أن أم أيوب -رضي الله تعالى عنها- قالت لأبي أيوب: (أما سمعت ما يقول الناس في عائشة؟ فقال: قد سمعت، ولكنه الكذب المحض) من الذي يقول ذلك؟ أبو أيوب -رضي الله تعالى عنه- ثم قال لها أبو أيوب: (يا أم أيوب لو كنت أنت أكنت فاعلة ذلك؟ قال: والله ما كنت لأفعله بالتأكيد، فقال لها أيوب -رضي الله تعالى عنه- : والله إن عائشة لخير منك)، يعني إن كنت أنت لا تقعي في مثل ذلك فعائشة -رضي الله تعالى عنها-مكانة لقربها من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، ألا تقع في ذلك، وهذا يبرز موقفاً من مواقف صحابة النبي -صلى الله عليه وسلم- وكيف أنهم كانوا يضحون حقاً بأنفسهم وأعراضهم حماية لجناب وعرض رسول الله -صلى الله

عليه وآله وسلم-، ومرة أخرى أقول: بأن الآية تعاتب أهل الإيمان وترشدهم إلى أن يظنوا في أنفسهم خيراً، وإن كانوا يظنون في عموم المسلمين خيراً وفي عموم المؤمنين خيراً فما بالهم إذن بنبي الهدى والرحمة -صلى الله عليه وآله وسلم- ولذلك الواجب حينما يسمعون ذلك أن يقولوا: ﴿ هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ يعني هذا ضلال واضح ظاهر ضلال مكشوف مبين واضح مكشوف أمام العيان لا يحتاج الإنسان إلى كبير شيء لينكره، فإنكاره ظاهر ومكشوف وواضح.

ثم يقول أهل الإيمان بعد ذلك على أرجح أقوال أهل العلم هم الذين يقولون ما ذكره ربنا عنهم في كتابه: ﴿ لَوْلاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾ يعني أهل الإيمان الذين يستنكرون هذا ويقولون بأن هذا إفك مبين هلا جاءوا على هذا الأمر بأربعة شهداء يشهدون بما تكلموا فيه وفي بداية السورة جاءت الآيات لتبين تحريم قذف المحصنات وعلى رأس المحصنات من؟ أمهات المؤمنين وعلى رأسهم أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها-، والآيات بينت أن حدهم أن يجلدوا ثمانين جلدة، فهؤلاء إن لم يأتوا بأربعة شهداء هذا هو الواجب الحق عليهم، وما كان ينبغي عليهم أن يقولوا ذلك، دون أن يكون عندهم ما يوجب لهم هذا القول، ألا وهو: أربعة يشهدون على هذا الإفك وعلى هذا الضلال، وطالما أنه ليس معهم من يشهد بهذا فما كان ينبغي مرة أخرى أن يقولوا هذا الأمر لأنهم بهذا سيكونون مجرمين كذابين، ﴿لَوْلاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ هذا خطاب للسامعين وفيه زجر عظيم، ﴿وَلَوْلاَ﴾ هنا هي لامتناع الشيء لوجود غيره، يعني أن الله -سبحانه وتعالى- يخبر السامعين أنه لم ينزل عليهم غضبه وعذابه، لماذا؟ لأنهم تابوا وسبق في علم الله -تبارك وتعالى- وقضائه أن من تاب توبة صحيحة ورجع إلى رب العزة والجلال -سبحانه- أن الله -عز وجل- يتوب عليه، ويعفو عنه، فلولا ذلك، لولا فضل الله -سبحانه-، ولولا أن تداركت رحمة الله -عز وجل- هؤلاء الخائضين لمسهم ربنا -سبحانه وتعالى- بأليم العذاب، والعقاب الذي أراده -سبحانه وتعالى- في هذه الحادثة العظيمة ولكن الله -عز وجل- لم يوقع عليهم عذاباً يأخذهم به، وإن ثبت أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كما سأقول في النهاية- أقام الحد على من خاض في حادثة الإفك من أهل الإيمان وهم ثلاثة، وهم بهذا تابوا إلى الله -عز وجل- وتبرؤوا من هذا الجرم العظيم، لما أقيم عليهم الحد الشرعي في هذه المسألة وفي هذا الخوض الذي خاضوا فيه.

﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾ وهذه قراءة الجمهور يعني ترددونه وتتناقلونه فيما بينكم، ويرويه بعضكم عن بعض، وقرأ ابن عباس وعائشة: ﴿إِذْ تَلِقُونَهُ بألسنتِكُم﴾ والولق: هو الكذب الذي يستمر فيه صاحبه، ولكن القراءة الأولى هي الأشهر وعليها الجمهور، وهذه الآية بينت ثلاثة أمور وقع فيها هؤلاء الخائضون وهذه الأمور الثلاثة تستوجب عذاب الله -تبارك وتعالى-
.

الأمر الأول: قالت الآية: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ يعني تروون هذا الكلام وتتكلمون فيه بألسنتكم فكان أحدهم يقابل الآخر ويقول له: ماذا يقول الناس؟ أو أما سمعت فيما يقول الناس؟ ويتناقل بعضهم هذا الكلام، هذا هو الأمر الأول.

الأمر الثاني: الذي أشارت إليه هذه الآية: ما جاء في قوله: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم﴾ وكلمة ﴿بِأَفْوَاهِكُم﴾ تأكيد للقول، والقول لا يكون إلا بالأفواه، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨] والطيران لا يكون إلا

بالجناح، وهذا معنى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم﴾ ولكن ﴿مَّا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ هذا هو الأمر الثاني: أنهم يقولون بأفواههم ما ليس لهم به علم، وهذا يفيد أنهم لم يتيقنوا منه في الباطن، وإنما هو مجرد كلام جرى على اللسان.

الأمر الثالث: الذي أتوا به ويستحقون عليه العذاب العظيم: أنهم كانوا يستصغرون هذا الأمر وهو أمر عظيم، ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ﴾ وهو عظيم وكبيرة من الكبائر.

ثم يقول -سبحانه وتعالى-: ﴿وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَـذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ هذا تأديب آخر بعد التأديب الأول من رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- يوجهه إلى المؤمنين هلا إذا سمعتهم هذا الكلام قلتم: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ ما كان ينبغي علينا أن نخوض في هذا الأمر بل يجب علينا والحالة هذه أن نظن الخير، أن نظن الخير خاصة في من؟ في أم المؤمنين وزوج رسول الله -صلوات الله وسلامه عليه- ولامتنع كلامكم بالإطلاق، بإطلاق وامتنع الخوف في هذه الحادث العظيم، وفي هذا الكلام المشين ﴿وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ والواجب عندئذ حينما تسمعون كلمة واحدة من هذه الكلمات أن تقولوا: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ يعني تنزهوا الله -عز وجل- من أن يختار لخليله ولنبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- امرأة تتهم بهذا الأمر أو تقع فيه، ما ينبغي بحال من الأحوال، هذا فيه إساءة أدب حتى مع رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، لأنه لا يليق بنبي من أنبياء الله تعالى أن يكون كذلك فما بالكم إذن يا معشر أهل الإيمان بسيد الأنبياء وإمام المرسلين -صلوات الله وسلامه عليه-، ولذلك ربنا -عز وجل- هنا ينزه نفسه، ويأمر المؤمنين أن ينزهوا ربهم من وقوع هذا الأمر الذي فيه أذى للنبي -صلى الله عليه وسلم- وفيه إيذاء أيضاً لأم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها-،

والله -عز وجل- يتنزه أن يختار لنبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- من تخونه في فراشه وتخونه في عرضه، وهذا يفهم منه أنه ما ينبغي أن يتناقل الناس مثل هذا الكلام، ولا أن يخوضوا فيه بل إذا سمع الواحد منهم كلمة واحدة من هذا الكلام الباطل استعظمه في نفسه، ونزه ربه، وقام في قلبه براءة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وبراءة زوجه من أن يلوث فراش رسول الله -صلوات الله وسلامه عليه-.

المحور الثالث: نهي المؤمنين عن العود لمثل هذا المنكر العظيم:

وفي ذلك يقول رب العزة والجلال سبحانه: ﴿يَعِظُكُمُ اللهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ هذا في الحقيقة توجيه من رب العزة والجلال بعدما ذكر هذا القول وهذه الحادثة وهذا البهتان الذي صدر وخرج ممن لم يراعوا حرمة رسول الله -صلوات الله وسلامه عليه-، ولم يقدروا ربهم حق قدره، فخاضوا في هذا الأمر ولم ينزهوا ربهم -تبارك وتعالى-، يأتي بعد ذلك وعظ من رب العزة والجلال سبحانه، وتوجيه للمؤمنين، فيه نهي لهم مستقبلاً عن أن يعودوا إلى مثل هذا الكلام، أو أن يقعوا فيه مرة أخرى، والله بهذا يأمرهم أن يعظموا شرع الله ودينه، ولا يقعوا في مثل هذا الإفك لأن قذف المحصنات بلا دليل أمر باطل لا يجوز بحال من الأحوال، وكيف وقد شنع عليه الإسلام في أول هذه السورة، وبعد آيات أيضاً ستأتي بعد قليل، الله -تبارك وتعالى- شنع على من يرمي ويقذف المحصنات من المؤمنات فما بالنا إذن من يقذف ويرمي أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها-، ومن هنا يأتي التأكيد على عدم العود إلى مثل ذلك، ﴿يَعِظُكُمُ اللهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ ويذكر ذلك على وجه التأديب، لا في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- ولا في بعد عهد النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، ولي وقفة في نهاية لعلي في اللقاء القادم أيضاً أبين معنى من المعاني التي يجب أن يكون عليها أهل الإيمان فيما يتعلق بعرض زوجات النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وعلى الأخص بأم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها-.

﴿يَعِظُكُمُ اللهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ معنى هنا: ﴿إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني: إن كنتم تعظمون شرع الله وقدره؛ لأن المخاطبين بهذه الآيات فيهم من المؤمنين ما قد وقعوا في هذا، وفيهم من المنافقين

والمؤمنون الذين خاضوا في هذا الأمر، وهم مصدقون بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، لا شك أنهم وقعوا في إثم عظيم، ولكنهم لم يخرجوا من الإيمان بذلك، كما ذهب إلى هذا فريق من المعتزلة، محتجين بقول الله تعالى: ﴿إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فقالوا بأن الله -عز وجل- نفى الإيمان عمن يقول مثل هذا الكلام، ونحن نقول لهم: بأن قول الله -تبارك وتعالى- هنا: ﴿إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ دافع إلى الاستجابة لأمر الله -تبارك وتعالى-، ودافع إلى عدم العود إلى مثل ذلك، كأن الله -عز وجل- يقول: يا أهل الإيمان لا تقعوا في مثل ذلك، وأن أهل الإيمان يستجيبون لله -تبارك وتعالى- ولرسوله -صلى الله عليه وآله وسلم-، ويؤكد أن هؤلاء القوم الذين خاضوا من الصحابة في مثل هذا الأمر لم يخرجوا من الإيمان ولكنهم وقعوا في معصية أن الله قال في أول آية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ فذكر الله -عز وجل- أنهم عصبة من أهل الإيمان، عدا من كان منافقاً نفاقاً اعتقادياً فهو ليس منهم، ليس لأنه خاض في هذه المسألة فقط، وإنما لأنه يبطن الكفر ويظهر الإيمان، ﴿يَعِظُكُمُ اللهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾

وأود أن أقول أيضاً في هذه الآية بأنه لا يطلق على الله -عز وجل- ولا يسمى رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- بأنه واعظ ؛ لأن أسماء الله الحسنى أسماء توقيفية ولا يشتق لله -عز وجل- أسماء من أفعاله، هذه قاعدة عقدية أذكرها هنا تتعلق بمعتقد أهل السنة والجماعة، وبما كان عليه السلف الصالح، أسماء الله -عز وجل- وصفاته كلها توقيفية، نقف فيها عند حدود النص، فما أثبته الله -عز وجل- أثبتناه وما لم يثبته لا نقوله ولا نضيفه ولا نصف رب العزة والجلال به، وأسماء الله -عز وجل- أحسن الأسماء، فلا يجوز لنا مثلاً أن نسمي الله بالزارع، أخذ من قوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة: ٦٤] لأن هذا لا يليق بذات الله -عز وجل-، ولا يليق أن يكون اسماً من أسماء الله الحسنى لأن أسماء الله -عز وجل- أحسن الأسماء وأعلاها وأشرفها والقاعدة المشهورة عند أهل السنة والجماعة أنه لا يشتق من أفعال الله -تبارك وتعالى- أسماء يسمي العبد بها ربه، دون أن يكون الأمر منصوصاً عليه في القرآن الكريم، أو صحيح سنة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-.

ونُختم آيات هذا اللقاء بقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ المراد من الآيات: الآيات التي تتلى عليكم، والتشريعات الربانية، التي تتنزل عليكم يا أهل الإيمان، ربكم يوضحها لكم، ويبين من خلالها الحلال من الحرام، والصواب ويبين الحق من الباطل، فحادثة الإفك، حادثة باطلة، وقد بين القرآن الكريم بطلانها وقد تولى رب العزة والجلال الدفاع عن أم المؤمنين عائشة، -رضي الله تعالى عنها- هذا من تبيين الله -عز وجل- لهذه الآيات، ثم يختم رب العزة والجلال هذا بقوله: ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يتصف بالعلم ويتصف بالحكمة -جل في علاه- فهو «العليم» بما يصلح عباده «الحكيم» في شرعه وأمره وقدره جل في علاه، وللحديث بقية -إن شاء الله - تأتي في اللقاء القادم، وختاماً أصلي وأسلم على هدي الأنام صلى الله عليه وآله وسلم.

إجابات الحلقة الماضية:

وكان السؤال الأول: ما حد الزاني البكر والمحصن في شريعة الإسلام؟ أيد ما تقوله بالدليل.

وكانت الإجابة؟

الزاني البكر سواء أكان ذكراً أم أنثى إن كان حراً فحده مائة جلدة، قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ ويزاد على ذلك أن يغرب عاماً عن بلده عند جمهور العلماء خلافا لأبي حنيفة -رحمه الله-، فإن عنده أن التغريب إلى رأي الإمام، إن شاء غرب وإن شاء لم يغرب، حجة الجمهور في ذلك ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني (في الأعرابيين اللذين أتيا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال أحدهما: يا رسول الله: إن ابني كان عكيفاً -يعني أجيراً- على هذا فزنى بامرأته فافتديه منه بمائة

شاة ووليدة، فسألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم، فقال -صلى الله عليه وسلم-: والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله، الوليدة والغنم رد عليك وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام)، والراجح أن الرجل يغرب والمرأة تغرب إن وجد محرم لها دون أن يكلف شيئًا، أما إن كان عبداً أو أمةً سواءً كان بكراً أو محصناً فحده خمسون جلدة، لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ ويقاس العبد على الأمة في ذلك.

أما المحصن وهو كل حر بالغ عاقل تزوج في نكاح صحيح فحده الرجم حتى الموت، كما جاء في الصحيحين عن ابن عباس: (أن عمر -رضي الله عنهما- قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، أيها الناس فإن الله بعث محمدًا بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فقرآناها ووعيناها، ورجم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ورجمنا بعده، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل: لا نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله)، فالرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو الاعتراف وكما جاء في الحديث الأول أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (واغدوا يا أنيس لرجل من أسلم إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها فغدى عليها فاعترفت فرجمه).

في الحقيقة الجواب كما سمعتم جواب شافٍ مستفيض، ولكن فقط إشارة يعني يسيرة لو أشير إليها لكان فيها فائدة عظيمة؛ لأنه أو المجيب ذكر بأن حد العبد أو حد الأمة خمسون، واستدل عليه بالآية، ثم قال: العبد كالأمة كنت أود أن يذكر بأن سبب ذلك هو الرق، سبب ذلك حتى نفهم العلة في إلحاق العبد بالأمة هنا هو الرق؛ لأن الذكر والحر يستويان في هذه الحدود الشرعية، والعبد لم ينص عليه في الآية، ولا في القرآن الكريم، وألحق بالأمة للعلة التي جمعت بينهما، ألا وهي الرق، والله أعلم.

السؤال الثاني: على أي شيء يرجع الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾؟

وكانت الإجابة:

اختلف العلماء في ذلك فمنهم من قال يرجع على الفسق فإن تاب ارتفع عنه وصف الفسق، ومنهم من قال: وهو الراجح يرجع على الفسق وقبول الشهادة فإن تاب ارتفع عنه الفسق وقبلت شهادته ؛ لأنه إذا ارتفع عنه وصف الفسق صار صالحاً فتقبل شهادته.

صحيح، نعم.

السؤال الثالث: هل الشهادات المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ﴾ شهادات أم أيمان؟ أم أيمان فسق؟ أم أيمان؟ فسر ما تقول: مع ذكر الراجح بالدليل؟

وكانت الإجابة:

فيها قولان:

الأول: المراد به الشهادة، الثاني: المراد به اليمين، والراجح أن المراد به اليمين وهو مؤكد بالشهادة بدليل قوله تعالى: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴿١٠٨﴾﴾ [المائدة: ١٠٧، ١٠٨] فسمى الشهادة أيمان.

هو في الحقيقة الأقوال ثلاثة وليست قولان: الأول: أنها شهادات خالصة، القول الثاني: أنها أيمان خالصة، القول الثالث: هو الصحيح هو الذي دلل عليه المجيب أنها أيمان متضمنة للشهادة، لأن الأيمان فيها معنى الشهادة في هذا والشهادة جاءت في القرآن الكريم أطلقت على اليمين للآية التي ذكرها المجيب هنا.

الأخت الكريمة من السعودية تقول: الرجاء عدم التجاهل بعض الروافض يسبون عائشة –رضي الله تعالى عنها– ويكرهونها ويقولون: الخلاف الذي بيننا وبينهم خلاف سياسي، ما معنى ذلك؟ وما السبب في ذلك؟

في الحقيقة هي أحسنت جزاها الله خيراً، وقلت في أثناء الحديث بأن –إن شاء الله– لنا لقاء قادم مازال الحديث متصلاً حول هذا الأمر و–إن شاء الله– سأتحدث عنه أيضاً بشيء من الإيجاز لضيق المقام في مثل ذلك، وما زال الروافض كما ذكرت يطعنون على أم المؤمنين عائشة –رضي الله تعالى عنها–، وكيف يطعنون عليها وقد برأها رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى–؟ فالذي يطعن عليها بعد ذلك يرد أمر الله –عز وجل– ويرد كلام الله –تبارك وتعالى–، هو لم يسئ إلى عائشة –رضي الله تعالى عنها–، ولم يصبها هي بمكروه فقط، وإنما أيضاً يعني يتطاول الأمر منه إلى أن ينال مقام رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى–، وما ينبغي ذلك.

الأخ الكريم من الجزائر يقول: من خلال قول الله تعالى: ﴿لَوْلاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾ يتبين لنا أن الرجل عند إقامة البينة في قذفه لابد له من شهود أربعة، فهل يشترط وجود مواصفات معينة للشهود أم لا؟ وإذا عُلِمَ على شاهد من الشهداء الكذب فهل يصدق قذف الرجل وجزاكم الله خيراً؟.

في الحقيقة طبعاً بالنسبة للشهود على الزنا لابد أن يكونوا أربعة وأن يكونوا من الرجال، فالشهادة على زنا لا تصلح فيها المرأة، قد نص أهل العلم على ذلك، وطبعاً لا يشهد إلا صالح، فشهادة الفاسق مرفوضة، لا تقبل، نعم.

الأخت الكريمة من القاهرة تقول: فيه عندي سؤالان: أول سؤال: فيه قناة فضائية تقول: الناسخ والمنسوخ في القرآن مثل: (الشيخ والشيخة إذا زنيا) الآية نسخت ووضعت آية غيرها، ويشككوا في الإسلام ونزول القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا، ثم نزوله منجماً، يشككون الناس في القرآن، فكيف نرد عليهم؟

السؤال الثاني: كلمة العبد كالأمة، ما معنى العبد كالأمة؟.

بالنسبة للأمر الأول: وهو التشكيك في القرآن الكريم بحجة الناسخ والمنسوخ هذا في الحقيقة كلام باطل، النسخ يأتي وله معاني والله –عز وجل– قد نسخ ديانات بأكملها، يعني رفع التوراة ورفع الإنجيل، وأنزل القرآن الكريم، فالقرآن الكريم ناسخ للكتب السابقة، وهي كلام الله –تبارك وتعالى– تكلم الله –عز وجل– به، فما أنزله الله قد نسخه والقرآن الكريم قد نص على ذلك: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦] وهذا واقع في الشرائع السابقة وواقع في شريعة الإسلام، حتى إن بعض الأحكام الفقهية كانت تغير وتبدل وتنسخ، وكثيراً ما نسمع في أحاديث النبي –صلى الله عليه وسلم– التي يرويها عنه الصحابة يقولون: كان آخر الأمرين من رسول الله –صلى الله عليه وسلم– كذا، وفي الحقيقة هؤلاء الذين يتكلمون بمثل ذلك ليست لهم حجج صحيحة في مثل هذا الأمر، وكلامهم قائم على العقل، ويردونه في الحقيقة بهذه النصوص الواردة عن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–، وحد الرجم فيه إشارة في القرآن الكريم إليه حتى في غير هذه الآية، وقد ذكر ذلك الشيخ محمد أمين الشنقيطي في أضواء البيان –رحمه الله تبارك وتعالى– والنبي –صلى الله عليه وآله وسلم– لما طبق حكم الرجم، ومما يدل على أن القرآن الكريم أشار إلى ذلك قول النبي –عليه الصلاة والسلام– في حديث الأعرابيين لما اختصما إليه قال: (لأقضين بينكما بكتاب الله)، ثم قضى بالجلد على البكر وبالرجم على المحصن،

وقال في أول كلمه: (لأقضين بينكما بكتاب الله)، فدل ذلك على أن الحكم منه من كتاب الله -تبارك وتعالى-، وهذا في غاية الوضوح.

أما قولها: ما معنى العبد كالأمة؟ أقول: معنى العبد كالأمة في تشطير الحكم، يعني تنصيف الحد، فالحر يجلد إن كان بكراً، يجلد كم جلدة؟ مائة جلدة، والأمة جاء القرآن الكريم ونص على أنها تجلد خمسين جلدة، فالعبد يلحق بالأمة في ذلك في أنه أيضاً يجلد خمسين جلدة، هذا معنى إلحاق الأمة في ذلك.

الأخ الكريم من السعودية يقول: ما حكم إنكار حادثة الإفك؟ وكيف نرد على من أنكرها، والتعامل مع مثل هؤلاء؟

فضيلة الشيخ هذا السؤال تكرر عندي كثيرًا، ما حكم إنكار حادثة الإفك؟.

كيف تنكر وهي في كتاب الله -تبارك وتعالى-، أخشى أن يكون السائل يود أن يقول شيئًا آخر، يعني نحن ننكر على أهل الإفك قولهم، أما الحادثة وقعت، وذكرها القرآن الكريم فيه، جاءت في القرآن الكريم، أما هي فهي لا شك أنها منكر، ويجب على كل مسلم أن ينكرها ولا يقول بها، ومن يقول بها اليوم وخاصة من الروافض ومن يبغضون أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- ويبغضون كثيرًا من صحابته ويتهمونهم ويكرهونهم وما إلى ذلك، فهؤلاء في الحقيقة يعرضون أنفسهم بهذا لأن يكونوا في كفة وأهل الإيمان في كفة أخرى، لأن الطعن على أم المؤمنين بعد ذلك وبعد ما برأها الله -عز وجل- كما ذكرت، هو في الحقيقة طعن على مقام رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-.

أهل الضلال والبهتان ومن يبغضون صحابة النبي الكريم -صلى الله عليه وآله وسلم-، ما زالوا يدندنون حول ذلك، ويتهمون أم المؤمنين عائشة ومن عجيب ما قرأت في بعض كتبهم أنهم يذكرون بأن المثل الوارد في قوله الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾ [التحريم: ١٠] أن هذا مثل لعائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر، -رضي الله تعالى عنهما أجمعين-، كيف يكون ذلك، والله -عز وجل- يبرئ أم المؤمنين من فوق سبع سماوات والنبي -صلى الله عليه وسلم- إن كانوا يؤمنوا به ويصدقون بكلامه يقول لأم المؤمنين عائشة: (أما أنت فقد برأك الله تعالى).

الأخ الكريم من كردستان يقول: نحن في كردستان العراق نحلف بالله بغير أسمائه التي وردت في الكتاب والسنة، ولكن معناه هو الرب، هل يصح ذلك؟.

في الحقيقة أسماء الله -تبارك وتعالى- توقيفية، لا نزيد عليها ولا ننقص منها، وقد نص أئمة السلف على ذلك، ومنهم الإمام أبو نصر (كلمة غير مفهومة) -رحمه الله تبارك وتعالى-، يعني ذكر ونص على أن أسماء الله -عز وجل- توقيفية وغيره من أئمة أهل العلم، ومعنى أنها توقيفية كما ذكرت، أنها موقوفة على الوحي الإلهي فما جاءنا فيها عن الله أو عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قلنا به، وتعبدنا الله -سبحانه وتعالى- به، ودعونا رب العزة والجلال به، والله -عز وجل- يقول: ﴿وَلِلهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] فنحن ندعو الله -سبحانه وتعالى- بأسمائه الحسنى الثابتة، أما إذا لم يكن الاسم ثابتاً في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية المطهرة، فلا يجوز أن نتعبد الله -سبحانه وتعالى- به، حتى ولو كان معناه صحيحاً، لأنه يذكر بأن المعنى قد يكون صحيحاً، لا .. حتى لو كان المعنى صحيحاً، لا نتعبد رب العزة والجلال به، وقد إن كان صحيحاً، ليس فيه أي ما يوهم الخطأ بحال من الأحوال نذكره من باب الخبر، عن الله -تبارك وتعالى-، أما أن نعتقد أنه اسم من أسماء الله -عز وجل- أو ندعو الله -سبحانه وتعالى- به أو أن يسمي الإنسان ابنه به، كأن يقول مثلاً يسمي الإنسان ابنه بعبد القديم، والقديم ليس من أسماء الله الحسنى، وهكذا لا يجوز ذلك بحال من الأحوال.

وخلاصة هذا الأمر أنك يا أيها العبد لا تسأل ربك إلا بما ثبت به النص في كتاب الله أو في سنة رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–، ومسألة العقيدة ليست بسهلة وأسماء الله كلها حسنى كما ذكرت، ومن أعلمك ومن أدراك أنك إذا أتيت باسم من عندك أنه يكون أحسن الأسماء لأن الحسنى كما ذكر أئمة أهل العلم جمع الأحسن وليس جمع الحسن، ﴿وَلِلهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠] الحسنى هنا جمع الأحسن، أفعل تفضيل لأن هنا حسن وأحسن، أسماء الله أحسن الأسماء، فإن إذا جئت باسم وكان حسناً ولم يكن أحسن، فلا يجوز أن تطلقه على رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى–.

الأخ الكريم يقول: لقد ذكرت أنه لا ينبغي لزوجة نبي أن تخونه، وقد ذكر الله –سبحانه وتعالى– أن هناك زوجتين لنبيين وقد خانتاهما، فما وجه الجمع؟.

هذا في الحقيقة سؤال طيب، حتى لا يسبب إشكالاً عند أحد وهو ما جاء في قول الله تعالى وقرأت الآية قبل قليل: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠] جمهور أهل العلم على أن الخيانة هنا ليست في الشرف أو العرض أو في الفراش أو ما إلى ذلك، وإنما خيانة قوم نوح كما ذكر وهذا وارد عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–: خيانة قوم نوح أنها كانت تخبر عنه قومه بأنه مجنون، كانت تقول لقومه بأنه مجنون، هذا خيانة، وخيانة قوم لوط، كانت تخبر قومه بأضيافه، وهم كانوا يفعلون الفاحشة، فإذا جاء أضياف عند لوط –عليه السلام– أخبرت قومه حتى يأتون إليه فيطلبوا الفاحشة من أضياف لوط –عليه السلام–، ولم تكن خيانة في شرف أو عرض، ومعاذ الله –عز وجل– أن تكون إحدى زوجات الأنبياء والمرسلين على مثل هذه الشاكلة ويتنزه ربنا –عز وجل– أن يختار ويقدر لنبيه أو لأحد أنبيائه شيئًا من ذلك، ولم يقل بهذا أحد أبداً من أئمة أهل العلم فمعنى ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠] كما ذكرت خانتاهما في غير الشرف والعرض، أما كونهم يعني يكذبون عليهما لا يصدقون بهما، يخبران عنهما بشيء من الزور والبهتان وما إلى ذلك، هذه خيانة ولكنها ليست في خيانة الفراش.

الأخ الكريم يقول: ذكرتم أن الحجاب قد فرض في تلك الوقت، فهل هذا دليل على فرضية النقاب؟.

هذه مسألة طويلة الذيل كما يقال، وسيأتي حديث عنها –إن شاء الله تعالى– يعني لعله في اللقاء بعد القادم وفيها خلاف بين أهل العلم وسأذكره في حينه ولكنه لا شك أنه فُرض أولاً على زوجات وأمهات المؤمنين وعائشة –رضي الله تعالى عنها– ذكرت ذلك وأنها خمرت يعني غطت وجهها لما رأت صفوان –رضي الله تعالى عنها– وذكرت أنه كان يعرفها من قبل قبل أن يفرض عليها الحجاب.

فضيلة الشيخ هناك سؤال من الأخ الكريم من الولايات المتحدة الأمريكية يقول: ما رأي فضيلتكم في كتاب صفوة التفاسير؟ وهل هو من الكتب التي تلتزم بمنهج أهل السنة والجماعة؟

في الحقيقة صفوة التفاسير معروف يعني مؤلفه –جزاه الله خيراً–، من الكتب التي جمعت أقوال المفسرين وقربتها ولكنه في بعض مسائل الاعتقاد خاصة في الأسماء والصفات قد جانب الصواب –حفظه الله تعالى– في منهج أهل السنة والجماعة فالقارئ فيه عليه أن يحذر السقطات التي وقع فيها المؤلف مما يتعلق بمعتقد أهل السنة والجماعة وقد نبه عليها بعض أهل العلم يعني تكلموا عنها وذكروا الأخطاء التي وقع فيها المؤلف ومنهم سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز –رحمه الله تعالى– وأذكر أيضاً الشيخ بكر أبو زيد –عافاه الله تبارك وتعالى– تكلموا عن بعض الأخطاء التي في هذا الكتاب.

الأخ الكريم يقول: قال الله –جل وعلا–: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ [النور: ١٥] وأصل التلقي يكون بالأذن؟ فلم عدل الحق –جل وعلا– وجعله باللسان؟.

جزاك الله خيراً، في الحقيقة أيضاً سؤال وجيه، لماذا؟ أنا أشرت إشارة إليه ولم أقف عنده، قلت: هم تلقونــه بألسنتهم لماذا؟ هذه الإشارة تفيد أنه لم يقم بالقلب شيء يستيقن به القلب في هذه الحادث وإنما هي كلمات جرت على اللسان، فذكراللسان هنا ليفيد أن الكلام الذي دار مجرد كلام لا حقيقة له في الواقع ولا فـي قلـوب الـذين تحدثوا عنه بصدق، يعني أنهم ما تيقنوا وما قام في قلوبهم من اليقين ما يحملهم على هذا الكلام، ولكنــه مجــرد كلام خرج من اللسان ليس له في أرض الواقع مكان، والله أعلم.

الأخ الكريم يقول: بحكم قول ﴿يَعِظُكُمُ اللهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ [النور: ١٧] العود هنا المقصود على قـذف زوجات النبي -صلى الله عليه وسلم- أم على القذف المطلق؟.

في الحقيقة هذه الكلمة يدخل فيها أولاً أن يعودوا إلى قذف أم المؤمنين وهذا فيه رد على من يتكلم عنها إلـى اليوم، وفيه أيضاً نهي عن أن يعود المسلم إلى قذف المحصنات دون أن يكون عنده بينة في مثل ذلك، لقـول الله في الآية السابقة: ﴿لَوْلاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ [النور: ١٣] فهذا لا يجوز العود إليه في مثل هذه الحالات، وفي الآية التي ستأتي فيما بعد -إن شاء الله تعالى- نهى الرب -عز وجل- في اللقاء القـادم أن يقـذف أو أن يرمى المؤمنات المحصنات الغافلات بشيء من هذا البهتان، وفي هذا يعني تربية للمجتمع المسلم على الفـضيلة وعلى الذكر الحسن وألا يتلقفوا هذه الأقوال المشينة فيما بينهم بل يظنوا في أنفسهم خيراً، ولا يعودا إلى مثل هذا البهتان لا إلى أم المؤمنين ولا إلى زوجات النبي -صلى الله عليه وسلم- ولا إلى أنفسهم إن وقع شيء من ذلـك دون بينة، والله أعلم.

الأخ الكريم يقول: بالنسبة لقول الحق -جل وعلا-: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ [النور: ١٥] نجد بعض العلماء قـد يخطئ في نقطة أو نقطتين في قضايا الكفر والإيمان، مثلاً فيكفر من لا يستحق الكفر مثلاً، فنجد بعض الإخـوة يرددون هذا الشيخ مثلاً تكفير أو خوارج أو كذا فهل يجوز إخراج أحد من أهل السنة والجماعة بهذا القول، وهل يجوز للإخوة الذين هم يسمعون فيقولون دون أن يعقلوا؟.

في الحقيقة هذه مسألة عقدية مهمة، ويجب على الإنسان أن يتحرى أقوال أهل العلم وألا يطلـق لـسانه فـي الكلام على من عرفوا بمنهج أهل السنة والجماعة حتى لا يشوش على الناس في معتقداتهم، إن الطعن على أهل العلم ومن يوجهون الناس إلى الحق وإلى الخير، وهم من أهل السنة وينتسبون إليها ويقومون عليها، دون بينــة من ذلك فيه -في الحقيقة- خطر عظيم على الدعوة الإسلامية لأنه صد عن العامة عن التلقي من أهـل العلـم، وهذه المسائل مسائل في الحقيقة دقيقة، ولا يجب أن يتعرض لها كل إنسان، مسائل أو قضايا الحكم بالتفكير على هذا أو رمي هذا بالفسق أو بالخروج أو ما إلى ذلك، هذه مسائل يعني تترك لأهل العلم، هـم الـذين يمكـن أن يعالجوها من منظور ومن واقع إسلامي، ويلاحظ وواقع المسلمين اليوم وضعف المسلمين اليوم حاجة الأمة إلى أن تلم شعثها وأن تقف وراء أئمتها وعلمائها الذين ينهجون نهج أهل السنة والجماعة، ونحـن نـرى المبتدعـة يطعنون على أهل العلم ويتكلمون فيهم بما ليس فيهم، كل ذلك كي يصرفوا الناس عن أن يتلقوا منه، فالمسألة في الحقيقة في منتهى الخطورة، الكلام عن أئمة أهل السنة والطعن عليهم، ومن يقدمون العلم إلى الناس ومعـروف عنهم التأسي بهدي النبي -صلى الله عليه وسلم-، كل ذلك لا أراه جائزاً لمـصلحة الـدين ومـصلحة العقيـدة ولمصلحة الدعوة الإسلامية ولمصلحة الإسلام والمسلمين بصورة عامة.

فضيلة الشيخ هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه المحاضرة؟

السؤال الأول: حادثة الإفك رفعت من شأن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، بين كيف كان ذلك. ومـا هي الآية التي دلت على وجود منفعة في حادثة الإفك؟

السؤال الثاني: من الذي تولى كبر الحديث في مسألة الإفك؟

السؤال الثالث: اشرح قوله تعالى: ﴿لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْــكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾.

الدرس العشرون: تفسير سورة النور

فضيلة الشيخ أهلاً ومرحباً بكم

أهلاً ومرحباً بكم وبالحاضرين والمشاهدين والمشاهدات الكرام، ونبدأ برنامجنا لهذا اللقاء -إن شاء الله تبارك وتعالى- بذكر محاوره كما هي العادة في مثل ذلك:

ومحاور هذا اللقاء تنحصر في أربعة:

المحور الأول: الذين يشيعون الفاحشة بين المؤمنين لهم عند الله عذاب عظيم.

المحور الثاني: التنفير والتحذير من اتباع الشيطان الرجيم.

المحور الثالث: العفو والصفح من صفات أهل الفضل والخير.

المحور الرابع: وعيد من يرمي المحصنات الغافلات.

ولنستمع الآن إلى الآيات التي سيتم من خلالها ذكر هذه المحاور، مع الأستاذ الكريم، فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَّغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾.

أحسنت، جزاك الله خيراً.

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبد ورسوله، اللهم صلِّ وسلم وبارك على عبدك ورسولك ومصطفاك وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيلهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين وبعد،

بعد أن استمعنا إلى الآيات الكريمات لهذا اللقاء، أبدأ بالحديث حول المحور الأول وهو بعنوان:

المحور الأول: الذين يشيعون الفاحشة بين المؤمنين لهم عند الله عذاب عظيم:

والآية التي تدخل تحت هذا اللقاء قبل غيرها هي ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ ما زال - كما تلاحظون أيها الكرام- السياق مستمراً لمواجهة حادثة الإفك وخطورتها، وهذه الآية تبين أن من سمع شيئًا من ذلك عليه أن ينكره ولا يحب أن يكون له وجود؛ لأن عدم إنكاره فيه جرم آخر إلى جوار جرم ارتكاب أو القول بالفاحشة؛ لأن الآية تبين أن على من قذف المحصنات من المؤمنات بما ليس فيهم عليه إثم كبير وعقاب عظيم، في الدنيا وفي الآخرة، وكما أن عليه العقاب الشديد فيما أظهره، عليه أيضاً عقاب شديد فيما أسره، والسر المذكور هنا أعني ما أسره هو محبة إشاعة الفاحشة؛ لأن المحبة عمل قلبي والإسلام بهذا ينهى عن أن يحب المرء المسلم إشاعة الفاحشة بين أهل الإيمان.

وإشاعة الفاحشة كلمة يشيعون الفاحشة، مأخوذة من شاع الشيء إذا ظهر وانتشر فمعنى يحبون إشاعة الفاحشة يعني يحبون انتشارها وإظهارها وإعلام الناس بها.

إعلام الناس بها وإظهارها على الملأ هذا عليه إثم وجرم يعاقب الإسلام عليه بالحد في الدنيا والتوعد بالنار في الدار الآخرة، كذلك أيضاً حبه وهي مسألة قلبية له عند الله عقاب وعذاب أليم، والآية قد أشارت إلى ذلك، وهي في الحقيقة -وانتبهوا لهذا- تأصل منهجاً تربوياً تربي عليه أهل الإيمان؛ لأن إشاعة الفاحشة في المجتمع الإسلامي يهونها عند الناس، ويجرئ الناس عليها، بل ربما تدفع ضعاف النفوس إلى أن يقوموا بمن قام بهذه الفاحشة، أو يتلبس بمثل ما تلبس به صاحب هذه الفاحشة، ومن هنا يأتي الإسلام ويضع إجراءً وقائياً في عدم الإعلام بالفاحشة وعدم ظهورها؛ ولذلك نجد بأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يفرق بين من يرتكب الفاحشة ولا يظهرها وبين من يرتكب الفاحشة جهاراً نهاراً على الملأ، ليس الذي يستتر بمعصيته كالذي يعلن بها ويجهر بها ويُعلم الناس بخبرها، شتان بين الأمرين، لماذا؟ لأن في إعلان الفاحشة دافعاً للناس ولغير المرتكب إلى أن يقع فيما ارتكب فيه ولذلك أقول بأن هذا منهج تربوي يربي الإسلام أصحابه عليه، وهو إجراء السلامة والوقاية للمجتمع المسلم، حتى لا ينخر فيه السوس بذكر الفاحشة فيه، أو إشاعتها بين الناس، ولذلك نجد أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ينهى عن تتبع عورات المسلمين، ويخبر (أن من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يوشك أن يفضحه)، ومن هنا إذا سمع الإنسان ذلك كف لسانه وكف قلبه وامتنع عن أن يحب ظهور الفاحشة بين الناس أو يقول هو أو أن يسعى في أي فاحشة مهما كانت، ويكفينا أن نعلم قول النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: (المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده)، وقوله -صلى الله عليه وآله وسلم- أيضاً: (من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة).

أما الذين يشيعون الفاحشة بين الناس ويعلنونها ويحبون أن تظهر ليسوا من هؤلاء وليس لهم ستر عند رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، وقول الله -عز وجل- هنا: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ يدفع المؤمن إن كان عاقلاً ألا يقع في هذا الأمر بحال من الأحوال، وقد ذكرت فيما مضى وتكملت عن حادثة الإفك وأرجأت القول في الذين أقيم عليهم الحد في الدينا، لأن الآية تقول: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا﴾ العذاب الأليم في الدنيا هو: إقامة الحد عليهم، ونظر الناس إليهم، على أنهم يتكلمون بالزور، ويشيعون الفاحشة، وينشرون الانحلال في داخل المجتمع، هذه أوبئة وأمراض قامت في هؤلاء الناس تفضحهم بين خلق الله تعالى إلى جانب الحد، أما العذاب العظيم الذي توعدوا به في الدار الآخرة، فيبدأ من عذاب القبر، ويكون في الدار الآخرة عند البعث والنشور، والوقوف بين يدي رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-.

الذين أقيم عليهم الحد في حادثة الإفك ثلاثة هم: حسان بن ثابت -رضي الله تعالى عنه- ومسطلح بن أثاثة - رضي الله تعالى عنه- وحنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش زوج النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- والذي تولى كبره كما أشرت في الماضي هو عبد الله بن أبي، ولم يقم على هذا الرجل الحد، وقد بين بعض أهل العلم أن سبب عدم إقامة الحد على هذا الرجل هو أنه كان يشيع الفاحشة بين المؤمنين، سراً ولم يشهد عليه أحد أنه قام

بهذا الأمر وإن كان معلوماً، إلا أنه لم يتقدم أحد بالشهادة كي يقام عليه الحد، وقيل: إن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أراد أن يدفع شر هذا الرجل وشر من حوله من المنافقين فتركه لربه حتى يتحمل كامل العذاب في يوم الدين، لأن الحد - كما تعلمون وعلى ما هو الراجح من أقوال أهل العلم- يكفر عن الإنسان الذنب الذي وقع فيه، وهذا الرجل نفاقه اعتقادي ولا يتطهر إذن هذا النفاق بإقامة هذا الحد عليه، فكأن الله -عز وجل- وكأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أراد أن يجمع عليه العقوبتين معاً، عقوبة الدنيا تكون مع عقوبة الدار الآخرة لجرم ما ارتكب هذا الرجل.

وهنا إشارة أود أن أشير إليها وهي: أنه بعد إقامة الحد على هؤلاء الصحابة الكرام، -رضي الله تعالى عنهم أجمعين- لا ينبغي على أحد بحال أن يذكر واحداً منهم بسوء؛ لأن الله -سبحانه وتعالى- تاب عليهم، ولأن الله - عز وجل- غفر لهم، ولأن الحد قد أقيم عليهم وتطهروا بذلك، وبناءً عليه فلا يذكروا بسوء، وقد أشرت أيضاً فيما مضى إلى أن أم المؤمنين عائشة كما في صحيح مسلم (كانت تكره أن يذكر عندها حسان بن ثابت -رضي الله تعالى عنه- بسوء) أو أن يقال فيه كلمة لا تليق بمقامه؛ لأنه صحابي قد وقع في أمر صحيح عظيم وارتكب منكراً عظيماً إلا أنه تاب وتاب الله -سبحانه وتعالى- عليه، فلا ينبغي ذكر هؤلاء الرجال بما يكرهون، أو بما يكرهه رب العزة والجلال ولا يرضاه أيضاً رسول الهدى والرحمة -صلوات الله وسلامه عليه-.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ هذا في الحقيقة تذكير لشيء سبقت الإشارة إليه أيضاً في الآيات السابقة وهو أن الحق -تبارك وتعالى- رؤوف بعباده رحيم، وأن له فضلاً عظيماً على عباده، ولولا هذا الفضل وجواب لولا هنا محذوف، يدل عليه ما سبق، والسياق يدل عليه، ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ كما سبقت الإشارة عليه، أو لعاجلكم بالعقوبة، والله -عز وجل- يقول: لولا فضل الله -سبحانه وتعالى- علينا يا معشر أهل الإيمان لعاجل من وقع في هذه المصيبة وفي هذا الذنب العظيم بالعقوبة الشديدة، ولأخذه وما قبل توبته، ولكن الله -سبحانه وتعالى- فتح لهم باب المتاب على مصراعيه، وشرع الحد كي يتطهروا به، ولولا رحمة الله في ذلك، ما كان هذا أو ما وقع شيء بحال من ذلك، والله -عز وجل- ختم الآية بقوله: ﴿وَأَنَّ اللهَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ليرشد إلى أن ما كان من تشريع حكيم، وإلى قبول التوبة وعدم المؤاخذة أو المعاجلة بالعقوبة بسبب رأفة رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- ورحمته، والله -عز وجل- قد ذكر اسمي الرؤوف الرحيم مقترناً في القرآن الكريم في مواضع متعددة، وكان بعضها مما يذبذب فيه أيضاً المنافقون، يعني لو رأيتم نحن هنا، مع حديث عن المنافقين، أيضاً لما حولت القبلة أشاع بعض المنافقين، عند المؤمنين وحاولوا أن يتعبوا قلوبهم، وأنفسهم، ويقولون لهم: قد مات لكم إخوان كانوا يصلون إلى غير قبلتكم الآن فضاعت بذلك أعمالهم، فنزل قول الحق -تبارك وتعالى- مبيناً أن ما تم وكان على شرع الله -عز وجل- السابق، لا يضيع عند الله رأفة ورحمة منه، قال -سبحانه وتعالى- معالجاً هذه المسألة، ومواجهاً أهل النفاق وراداً عليهم، ومطمئناً أهل الإيمان: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣] فهذين الاسمين الجليلين الكريمين ختم الله -عز وجل- بهما هذه الآية ليشير أن ما كان من توبة وما كان من تشريع حكيم كل ذلك بسبب رحمة الرؤوف الرحيم -سبحانه وتعالى وجل في علاه-.

المحور الثاني: التنفير والتحذير من اتباع الشيطان اللعين:

والآية التي معنا في هذا اللقاء وتحت هذا المحور تفتتح بقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ ﴿لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ يعني: آثار الشيطان، ومسالك الشيطان، ودروب الشيطان، وقيل: خطوات الشيطان معاصي الشيطان، وكل ما يأمر به الشيطان من المعاصي فهي من خطواته وطرقه إلى الضلالة والغواية والفساد، ومن طرق الشيطان ووسائله التي يحذر منها رب العزة والجلال أهل الإيمان وهو معني بخاصة في هذه الآية هو: عدم الإصغاء إلى قول أهل الإفك، وإشاعة الفاحشة بين المؤمنين؛ لأن هذا من خطوات الشيطان والله -تبارك وتعالى- بين في

آيات كثيرة من كتابه أن الشيطان يوسوس للإنسان، ويحرص على أن يضله عن صراط الله المستقيم، ويمنيه ويعده بأمور تخالف ما جاءه من عند رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، ولذلك ربنا -عز وجل- في القرآن الكريم يحذرنا كثيرًا من الشيطان الرجيم، ويبين لنا خطورته فيما يأتي به ويكيد به بني آدم، وما يعدهم به من ضلال ومنكر، كقول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: ٢٦٨] تأملوا وعد الله -عز وجل- وما يأتي من عنده -سبحانه- وبين ما يكون من عند الشيطان الرجيم، وهذا يجعلنا نقف بعقل وتدبر وعلم ووعي واتباع أمام خطوات الشيطان، ونتبع الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، والله -عز وجل- قد أخبر عن نفسه بذلك فقال جل ذكره: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ [النحل: ٩٠] إن الله -سبحانه وتعالى- يأمر بالعدل هذا في مقال ماذا؟ أمر الشيطان بالمنكر، ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨] أما رب العزة والجلال: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠] وكما وصف ربنا -سبحانه وتعالى- نفسه بأنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وصف النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بذلك، في سورة الأعراف في سياق الحديث عن صفات النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ذكر ربنا سبحانه: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وكما وُصِفَ النبي -صلى الله عليه وسلم- بذلك وصف الله -عز وجل- أهل الإيمان بهذا، وأنا أقول ذلك كي يسلك أهل الإيمان صراط الله المستقيم ويتبعوا نبيهم -صلوات الله وسلامه عليه-، الله -سبحانه وتعالى- في سورة التوبة يذكر من صفات المؤمنين أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ﴾ [التوبة: ٧١] فالتحذير من اتباع خطوات الشيطان جاءنا من عند رب العباد -سبحانه وتعالى-، والله أمرنا بالمعروف وكذلك نبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- أما الشيطان فهو يأمر بالفحشاء والمنكر والفحشاء ما فحش من الفعل والقول وما اشتد قرحه، والمنكر ما أنكرته الشرائع وأنكرته الفطرة، وأنكرته النفوس المؤمنة الطيبة، فالله -عز وجل- يأمر بالمعروف، أما الشيطان على عكس ذلك، ومما يؤسف له أيها المشاهدون الكرام والمشاهدات أنه مع تحذير رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- أولياءه وأحبابه وأتباعه من اتباع خطوات الشيطان، إلا أننا نجد المسارعة كثيرًا في اتباع خطوات الشيطان، وأنا أخرت هذه الكلمة وكنت أود أن أقولها عند الآية الأولى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أود أن أشير إلى من يتبعون خطوات الشيطان فيما يعرف بالفن الخليع أو الأدب المكشوف، أو الرقص العاري، أو المنكرات التي تطفو على السطح في دنيا الناس اليوم، هذه فيها إشاعة للفاحشة وفيها اتباع لخطوات الشيطان، والله -عز وجل- يحذركم يا أهل الإيمان وتأملوا حينما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذا النداء مقصود؛ لأن أهل الإيمان هم الذين يستجيبون للرحمن، ويسارعون إلى الاستجابة لله ولرسوله -صلى الله عليه وآله وسلم-، وهم أجدر الناس بالكف عن اتباع خطوات الشيطان، فعلى كل من يشهد لله بالوحدانية ولنبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- بالرسالة ألا يسلك طريقاً من طرق الغواية والشيطان، ومن ذلك شرب الخمور والمخدرات بأنواعها، والله -عز وجل- في كتابه قد أخبر بأنها من طرق الشيطان، وأنها توقع العداوة بين المؤمنين وأن الذي يأمر بها هو الشيطان اللعين، الله -سبحانه وتعالى- ذكر هذا في كتابه وفي سورة المائدة بالتحديد ليحذر أهل الإيمان من الوقوع في خطوات الشيطان، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩١] فيا أهل الإيمان انتهوا عن جميع خطوات الشيطان ومسالكه والآيات وإن كانت تتحدث في إشاعة الفاحشة بين المؤمنين وقصة الإفك وحادثتها وما إلى ذلك، إلا أن هنا أمراً عاماً للمؤمنين لئلا يسلكوا طرق الشيطان بحال من الأحوال، ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠] وللأسف الشديد وجد قبل سنوات وإلى يومنا هذا جماعة أعلنوا أنهم يعبدون الشيطان، وضاهوا بذلك المجوس الذين قالوا: نحن نعبد النار لأنها مؤذية، وحرها شديد، ونخاف منها، فنحن نلجأ إليها بالعبادة، وكأن هؤلاء أيضاً قاسوا أنفسهم على المجوس فعبدوا من لعنه الله، وطرده وأيس من رحمة رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾.

ثم يقول -سبحانه وتعالى-: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لولا فضل الله عليكم يا أهل الإيمان ولولا رحمة رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- ما زكى منكم من أحد أبداً، ما رجع منكم أحد إلى الله -عز وجل-، وما تاب منكم أحد وأناب من معصية ارتكبها، والله -سبحانه وتعالى- هو الذي يتفضل عليكم، وهو الذي يوفق أهل الإيمان للهداية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتحذير من اتباع خطوات الشيطان، ثم هو سبحانه وتعالى أيضاً لا يزكي كثيرًا من الناس؛ لأن الآية تخاطب أهل الإيمان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ وهنا يقول سبحانه: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ فالضمير يعود إلى من؟ يعود إلى أهل الإيمان، فلولا فضل الله علينا معشر أهل الإيمان ما وقنا إلى الهداية والتوفيق الذي نحن بصدده الآن والهداية والتوفيق والضلال والغواية مسألة من مهمات مسائل الاعتقاد، وهي عند أهل السنة والجماعة أن الله -سبحانه وتعالى- يهدي من يشاء ويوفق من يشاء ويقذف الإيمان في قلب من يشاء، ولا يريد إيمان بعض الناس وهداية بعض الناس، فيخلق الإيمان في قلب من أراد لهم التزكية والهداية والتوفيق وسلوك الصراط المستقيم ويمنع ذلك ويحجبه عن أهل الكفر والنفاق والطغاة والمتجبرين، ونحن نؤمن بذلك بخلاف من خالف في مثل هذا، ممن ينتسبون إلى الإسلام وهم فرق اتبعت عقائد مبتدعة في دين الله -تبارك وتعالى-، أما أهل السنة والجماعة فيؤمنون بأن الله -عز وجل- حبب الإيمان وزينه في قلوب المؤمنين وكره الكفر والفسوق إليهم، ولكنه لم يفعل ذلك مع من أراد بهم الغواية والشقاوة والضلال، والله -عز وجل- له في كل ذلك الحكمة البالغة، لا يسأل -سبحانه وتعالى- عما يفعل وهنا مسألة وهي: أنه لا يجوز للإنسان أن يزكي نفسه، الله -عز وجل- يقول: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ أما أن يزكي الإنسان نفسه فهو ممنوع بنص التنزيل، الله -عز وجل- أخبر بأن تزكية النفوس له وحده، وأن من يزكي نفسه أمره مردود عليه، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٩] ويقول سبحانه ناهياً أن يزكي الإنسان نفسه: ﴿فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢] ولا يتعارض هذا وهو أن الله -عز وجل- يزكي من يشاء، لا يتعارض هذا مع قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾﴾ [الشمس: ٩]؛ لأنه قد أفلح من زكاها بتوفيق الله وهداية الله -عز وجل-؛ لأنه لا يقع في كون الله إلا ما أراده رب العزة والجلال -سبحانه-، فلولا فضل الله -عز وجل- ورحمته ما زكى أحد أبداً، والإنسان عليه أن يسلك الأسباب فقط التي توصله إلى تزكية النفس، أما تزكية النفس وتنقيتها وطهارتها من الشرك والرجز والفسوق والعصيان إنما هو بيد رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-.

المحور الثالث: العفو والصفح من صفات أهل الفضل والخير:

وتحته قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ نزلت هذه الآية في أبي بكر -رضي الله تعالى عنه- ومسطح بن أثاثة -رضي الله تعالى عنه-، وكان مسطح من فقراء المهاجرين، وكان قريباً للصديق -رضي الله تعالى عنه- وكان أبو بكر يعطيه ويساعده لفقره وقرابته منه، فلما خاض مع أهل الإفك، وتحدث بما قال المنافقون في أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها-، وهي ابنة الصديق قال -رضي الله تعالى عنه- لما علم بذلك: (والله لا أنفعه بنافعة أبدا) هكذا قال أبو بكر وأقسم هذا اليمين، -رضي الله تعالى عنه- فأنزل الله -جل ذكره- هذه الآية الكريمة ﴿وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ فلما نزلت وهي نزلت في أبي بكر وهذا يدل على مكانة أبي بكر -رضي الله تعالى عنه-، قال: (والله إني لأحب أن يغفر الله لي ، ثم قال: والله لا أنزعها عنه أبدا) وهذا في مقابلة (والله لا أنفعه بنافعة أبدا)، قال: (والله لا أنزعها عنه أبدا) -رضي الله تعالى عنه- وهذه فضيلة لأبي بكر، هذه الكلمة من أبي بكر فضيلة له وربما إشارة القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ﴾ لتأكيد هذه الفضيلة؛ لأن المراد بأولي الفضل هنا من؟ هو أبو بكر الصديق -رضي الله تعالى عنه-، فهي حقاً فضيلة جليلة لأبي بكر -رضي الله تعالى عنه-، ﴿وَلاَ يَأْتَلِ﴾ يعني لا يحلف، ارجع إلى مفردات الكلمات، ﴿وَلاَ يَأْتَلِ﴾ يعني لا يحلف، وهي بهذا مأخوذة كما يقول العرب آل يؤلي وائتلى يأتلي، يعني إذا حلف،

ومنه قول الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٢٦] يعني يحلفون، وقيل بأنها مأخوذة من ألى يـــألو بمعنى قصر، ألى يألو في الأمر إذا قصر فيه ويكون المعنى: ﴿وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ يعني ولا يقصر أولو الفضل منكم.

بعد ذلك قال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ هذا ترقيق من رب العزة والجلال ودعاء لأهل الإيمان إلى العفـــو والصفح الجميل والله -عز وجل- قد خاطب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥] وقال له -صلوات الله وسلامه عليه-: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

العفو والصفح وكظم الغيظ والإحسان إلى الآخرين حتى لو أساءوا إليك من أخص صفات أهل الإيمان والله -عز وجل- قد رغب في ذلك وأثنى على من يفعل هذا في كتابه فقال: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤] أهل الإيمان كم يعرفون ذلك ويتمسكون به ومن طريف ما قرأت قبل سنوات عدة في بعض كتب أهل الأدب هو كلام طبعاً يعني ليس موثقاً بروايات، وإنما قرأت أن بعض الخلفاء طلب من خادمه ذات يوم في يوم بادر أن يأتي إليه بماء حار، أذكـــر هـــذا لأن حتـــى الجواري والخدم وأهل العلم والفضل والأمراء والخلفاء كانوا يعرفون مثل ذلك ويتأسون به ويقومون بـــه فـــي العفو والصفح وما إلى ذلك، طلب الخليفة وقتئذ من خادم عنده أن يأتيه بماء حار يتوضأ منه ويقـــضي حاجتـــه مثلاً، فأتاه بماء حار ولما جاء ليضعه بين يديه سقط شيء من الماء الحار على الخليفة فتأذى، وأسر فيه، فغضب وظهر هذا على وجهه، نظر الخادم إليه فعرف أنه تغير فقال له: يا أمير المـــؤمنين ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] قال: قد كظمت، ذكره بهذا: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ قال: قد كظمت، قال: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤] قال: اذهب فقد عفوت عنك، قال: ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] قال: أنت حر لوجه الله، الشاهد علينا أن نتعلم مثل هذا فإن كانت هذه رواية صحيحة وهي مذكورة في كتب الأدب ولا يعنينـــا أن نتثبت فيها لأننا لا نقيم عليها حكماً شرعيًا وإنما نذكرها من باب أن هؤلاء جميعاً الحاكم والمحكوم والخـــادم والمخدوم، كل كان يعرف شيئًا من كتاب الله -عز وجل- ويتأسى بهذه الأخلاق الفاضلة، فالله -عز وجل- يدعو إلى الصفح وإلى العفو في كتاب: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾ أبو بكر -رضي الله تعـــالى عنه- بمجرد أن سمع هذه الآية قال: (والله إني لأحب أن يغفر الله لي)، ولذلك أدعوا بهذه المناسبة أيضاً كل من كان عنده حق لأخيه المسلم أن يعفو ويصفح وهذا له عند رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-.

والله ختم الآية بقوله: ﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يعني تعافوا فيما بينكم يا أيها الناس، يا أهل الإيمان تنازلوا فيمـــا بينكم لأن الله -سبحانه وتعالى- غفور رحيم، فتراحموا أيضاً فيما بينكم، وهذه الآية أيضاً تقرر حكمـــاً عقـــدياً مهماً، وهو أن الكبيرة لا تحبط العمل الصالح، ولا يخرج بها العبد أيضاً من الإيمان وقد ذكر ذلك الإمام القرطبي -رحمه الله تبارك وتعالى- وغيره من أئمة أهل العلم واستنبطوا هذا من هذه الآية لماذا؟ لأن مسطح كان مـــن المهاجرين ثم أتى بهذه الفاحشة المنكرة، وهي فاحشة منكرة، وهي قذف أم المؤمنين -رضي الله تعالى عنهـــا- وبعد قذفه نزلت الآية تنسبه إلى الهجرة، وتذكره به، وتقول للنبي المخاطب -صلى الله عليه وسلم- ولأبي بكـــر -رضي الله تعالى عنه- بأن مسطحاً من المهاجرين، ﴿وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ فأثبتت الهجرة لمن؟ لمصطح رغم أنه وقع في هذه الفاحشة والآية وقعت بعد قذفه ورميه لأم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها-، فدلت إذن هذه الآية على أن كبـــائر الـــذنوب لا تحبط الأعمال الصالحة، وإن كان الإنسان يتعرض لخطر عظيم، بهذه السيئات وبهذه الموبقات وبهذه المعاصـــي فلا يعني ذلك أننا نقول بأنها لا تحبطها أن يتجرأ المسلم على مثل ذلك، لأنه لو تجرأ وفعل كثيراً من المعاصـــي وغطت هذه المعاصي على حسناته التي فعلها باء بالخسران -والعياذ بالله تبارك وتعالى-.

وفي الآية أيضاً حكم فقهي آخر، وقد نص عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديثه: (من حلف على يمين فرأى غيرها خير منها، فليكفر عن يمينه وليأتِ الذي هو خير) هذا الحكم الفقهي موجود مع أبي بكر -رضي الله تعالى عنه-؛ لأن أبا بكر -رضي الله تعالى عنه- لما قال مسطح ما قال، قال: (والله لا أنفعه بنافعة أبدا) فلما نزلت هذه الآية رجع عن هذا اليمين، والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قد أخبرنا في سنته أن الإنسان إذا حلف على يمين ورأى أن هناك منفعة تخالف اليمين الذي حلف عليه يرجع ويكفر عن يمينه ويأتي الذي هو خير، فيكون قد أتى بالحسنى، وهذا أيضاً فيه تحريض من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- إلى أن يلزم العبد الخير دائماً، يعني حتى لو عزمت على أمر من الشر أو حتى من درجات في الخير ولكنها أقل من الأفضل والأخير والأولى، فمن الأولى بك والأجدر بك أن ترجع إلى ما هو أحسن وإلى ما هو أفضل.

المحور الرابع: وعيد من يرمي المحصنات الغافلات:

وتحته آيات منها قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ هذه الآية الحقيقة فيها وعيد شديد من الله -تبارك وتعالى- على من يقذف المحصنات المؤمنات الغافلات بصورة عامة؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما ذكر ذلك ابن كثير وذكر غيره وذكر الإمام ابن كثير بأن عامة أهل العلم على هذا ورجحه الإمام ابن جرير -رحمه الله- وقال الإمام الحافظ ابن كثير بعد أن ذكر قول ابن جرير قال: «وهو الصحيح» في أن الآية عامة ووعيدها عام وشديد على من؟ على من يرمي المحصنات الغافلات من المؤمنات، وعلى رأس المحصنات من المؤمنات من؟ أمهات المؤمنين ومنهم السيدة المباركة الصديقة بنت الصديق عائشة -رضي الله تعالى عنها-.

وقول الله -عز وجل- في هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ الغافلات هنا خرج مخرج الغالب، يعني أغلب من يرمى وهذه فضيلة لهم، أغلب ما يرمى من المحصنات لا تعرف هذه الأمور، ولا تتنبه لأقوال الناس، لماذا؟ لأنها تسلك طريقاً قويماً، وتعيش في مكان لا تختلط بالآخرين وتتوسع في مسائل وتتحدث في أمور، ويجري على لسانها من الدنيا ما يجري، لا، كأنهن غافلات بما يحدث على ظهر هذه الحياة ومما يدور حولهن من كلمات وما إلى ذلك، ولا يعني هذا أن من ليست بغافلة عن مثل ذلك ترمى وهي بريئة، ولذلك قيل في كلمة ﴿الْغَافِلَاتِ﴾ بأنها خرجت مخرج الغالب، وهذه فيها تزكية في الحقيقة للمحصنات من المؤمنات والذين يرميهن أهل الإفك بمثل هذه الفواحش والضلال، ومن يفعل ذلك له عند الله -سبحانه وتعالى- عذاب عظيم، كما ذكرت هذه الآية وعلى رأس ذلك اللعن في الدنيا والآخرة، وإلى جانب اللعن في الدنيا إقامة الحد، وإلى جانب اللعن في الآخرة يترتب عليه الطرد من رحمة الله -عز وجل- ودخول النار، -والعياذ بالله تبارك وتعالى-.

ثم بعد ذلك ذكر الإمام الحافظ ابن كثير كلمة لابد أن أذكرها في هذا المقام، لأنها تتعلق بأم المؤمنين -رضي الله تعالى عنها-، قال -رضي الله عنه-: «أجمع العلماء قاطبة على أن من سبها بعد هذا» يعني من سب أم المؤمنين عائشة «ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية فإنه كافر؛ لأنه معاند للقرآن» لأن القرآن بين أنه ملعون، فالذي يرمي أم المؤمنين بعد أن ظهرت براءتها، وبعد أن أنزل الله فيها قرآناً يتلى، الذي يفعل ذلك كافر لماذا؟ لأنه معاند للقرآن، وأنا أحببت أن أذكر هذا وسأذكر نقولاً عن غير الإمام ابن كثير -رحمه الله تعالى- لبعض أئمة أهل العلم والأقوال في هذا كثيرة، ويضيق المقام أن نستطرد شيئًا من ذلك ولكني أود أن أقول لقوم ما زالوا إلى يومنا هذا، يرمون ويطعنون ويقذفون ويسبون أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها- بعد أن برأها ربنا -سبحانه وتعالى-، فبعد أن برأها ربنا -عز وجل- كيف يليق بسلم أن يرد خبر الله - سبحانه وتعالى-، أو أن يطعن عليها، أو أن يسبها -رضي الله تعالى عنها-، تبرئة الله -عز وجل- لأم المؤمنين شرف عظيم، وفخر كبير ومكانة ارتقت هي بها -رضي الله تعالى عنها-، ولذلك قال هذا الإمام ابن كثير - رحمه الله تعالى- وقال الإمام الحافظ الذهبي كلمة جميلة في سير أعلام النبلاء، أحب أن أسمعكم إياها، يقول -

رحمه الله تعالى-: «وإياك يا رافضي أن تلوح بقذف أم المؤمنين بعد نزول النصر في براءتها فتجب لك النار»، يقول: إياك أيها الرافضي أن تطعن على أم المؤمنين عائشة أو أن تلوح بقذفها بعد أن برأها الله فتجب لك النار لذلك، وقال الإمام الجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تبارك وتعالى-: «والحاصل أن قذفها - يعني أم المؤمنين عائشة- كيفما كان يوجب تكذيب الله -تعالى- في إخباره عن تبرئتها عما يقول القاذف وهذا يوجب له النار -والعياذ بالله تبارك وتعالى-» ثم يقول: «ومن كذب الله فقد كفر»، إذن هذه الآية تضع لنا قواعد عظيمة جدًا، وتشيد أيضاً بأم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها- وأنها بريئة وأن الذين رموها بهذه الفاحشة العظيمة الكبيرة لهم عند الله -سبحانه وتعالى- عذاب عظيم، وقوله -عز وجل-: ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ كقوله -سبحانه وتعالى- في آية سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧].

فاحذر يا أيها الإنسان أن تؤذي الله، أو أن تؤذي رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، أو أن تؤذي أهل النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فتُلعن في الدنيا والآخرة ويكون لك هذا العذاب العظيم، من لدن رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-.

ومن أعظم ما يرتكبه المسلم من موبقات هو قذف المحصنات، ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في حديث الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: (اجتنبوا السبع الموبقات، قيل: وما هن يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ قال: الشرك وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والزنا والسحر، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المؤمنات المحصنات) فالقذف من الكبائر التي توعد عليها رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- ومن الموبقات أيضاً التي جاءت في الحديث أكل الربا، كل هذه الأمور يجب أن يحذرها المسلم، ويجب بالذات هنا وأنا في هذا المقام أن أأكد أن عائشة -رضي الله تعالى عنها- بريئة، وأن من قذفها ملعون في الدنيا والآخرة، وأن من قذفها بعد تبرئة الله -سبحانه وتعالى- لها متوعد بأشد ألوان العذاب من رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، ومما توعدهم ربنا -عز وجل- به ما جاء في قوله في الآية التالية: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ الآية السابقة ذكر الله -عز وجل- فيها أن من يرمي الغافلات المحصنات المؤمنات ملعون وله عذاب أليم في الدنيا، وأيضًا له عذاب أليم في الآخرة، متى؟ قال الله ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ وقد بين الله -عز وجل- في مواضع من كتابه، أن بعض أجزاء الكافر تشهد عليه، جاء في القرآن الكريم أن بعض أجزاء الكافر ستشهد عليه، وهذا كما جاء في قوله: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: ٦٥] وقال سبحانه: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [فصلت: ٢٠] فدلت هذه الآيات إلى جانب هذه الآية أن أعضاء الكافر ستشهد عليه، ولذلك في صحيح مسلم يقول النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- والحديث في رواية أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- يقول: (ضحك النبي -صلى الله عليه وسلم- ذات يوم وهم موجودون معه -عليه الصلاة والسلام- فقال لهم: هل تدرون مما أضحك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: من مخاطبة العبد ربه يوم القيامة، يقول يا رب: ألم تجرني من الظلم؟ قال: فيقول الله -عز وجل- بلى، -يعني قد أجرتك من الظلم- فيقول العبد: إني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً من نفسي، فيقول الله -عز وجل- له: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالملائكة الكرام شهوداً، ثم يختم على فيه، فتنطق أركانه وتشهد، ثم بعد ذلك يخلى بينه وبين أركانه، وبين النطق، بينه وبين كلامه، فيتكلم ويقول: بعداً لكُنَّ وسحقاً، فعنكن كنت أناضل) فبين النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أيضاً في سنته ما بينه القرآن، وعلى كلٍّ ذكر هذه الآية فيها تهديد أيضاً ووعيد للذين يقذفون المحصنات: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ﴾ يعني لسانك شاهد عليك، وإذا لم ينطق ورغبت شاهداً غير لسانك الذي نطق وتكلمت به، ستشهد عليك أعضاؤك بما فعلت وبما اكتسبت وبما اقترفت فاحذر إذن من الوقوع في هذه الفاحشة؛ لأنها من خطوات الشيطان.

ثم يتبع رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- هذه الآية بآية أخرى لها تعلق بها وهي: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يعني في يوم القيامة، ﴿يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ قال الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- أن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- قال: ﴿دِينَهُمُ﴾ يعني: حسابهم، وقال بعدها الإمام الحافظ ابن كثير: وكل كلمة جاءت بمعنى دينهم في القرآن تعني الحساب، وهذا صحيح على معنى أيضاً أن الجزاء مترتب على الحساب، لأن المراد من الآية ذكر الجزاء بعد قوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ﴾ ستشهد عليك أيها الإنسان ويترتب على هذه الشهادة هذا الحساب ومسائلة يترتب على ذلك جزاء ولذلك قيل في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ يعني جزاءهم الحق، ومما يدل على ذلك أن كلمة الجزاء هو المراد هنا؛ لأنها ذكرت بعد قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ﴾؛ لأن الجزاء دائماً يأتي مع التوفية، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى ﴿٤١﴾﴾ [النجم: ٤١] ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وهذا هو الجزاء إذن ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ يعني الجزاء على ما ارتكبوا وعلى ما فعلوا وعلى ما قدمت أيديهم وقوله: ﴿ الْحَقَّ ﴾ هنا إشارة على أن رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، حكم عدل، والحق من أسمائه - كما سبق- أن أشرت والجزاء عنده بعدل وإنصاف لا جور فيه ولا ظلم؛ لأن الله - سبحانه وتعالى- لا يظلم الناس شيئًا وهو قال عن ميزانه الذي سيضعه ويحاسب به العباد في يوم الدين: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: ٤٧] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠] فإن كان لك أجر يا عبد الله فاعلم أنه مضاعف عن رب العزة والجلال، فلا تخشَ شيئًا يضيع وإن كان عليك وزر فاعلم أن الحكم عند الله والجزاء عند الله -سبحانه وتعالى- بالعدل لأنه هو الحق، وكلامه حق، ووعده حق وميزانه حق لأنه -سبحانه وتعالى- هو الحق، ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾، كلمة أيضاً ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ تشير إلى وجوب عبادة الله وحده دون سواه، لأنه يا عبد الله إذا كان هو الحق المبين الواضح الظاهر فكيف تترك من له الحق عليك، وهو الحق وحده وتذهب إلى غيره مما لا يمكن أن يُصرف إليه أي لون من ألوان العبادة؟!

ثم بعد ذلك يقول رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- خاتماً الكلام عن هذه الحادثة والتي خاض فيها من خاض والتي أظهرت رحمة الله -عز وجل- بعباده في قبول توبة من تاب وظهر فيها أيضاً نهي الله -عز وجل- عن اتباع خطوات الشيطان وظهر فيها وعيده لمن يرتكب هذه الفاحشة العظيمة الوقحة الكبيرة التي من يقع فيها لا شك أن قلبه ولا شك مريض.

بعد هذا كله ذكرت هذه الآيات آية في ختام هذه المسألة تشير إلى أمر مهم وإلى معاني عظيمة، وهي ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾.

يقول الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- ناقلاً عن الإمام ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- وهذا أيضاً رجحه الإمام ابن جرير، وله وجهة سأذكرها الآن: ذكر الإمام ابن كثير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: «الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول، والطيبات من القول للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من القول، وقال: نزلت هذه في أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها-» وقول أهل الإفك وقد روي هذا عن ابن عباس وروي مع مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغير هؤلاء واختاره الإمام ابن جرير -رحمه الله تبارك وتعالى- ووجهه الإمام ابن جرير بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس، فما نسبه أهل النفاق إلى عائشة - رضي الله تعالى عنها- هم أولى به لأنهم من الخبثاء وأم المؤمنين عائشة مطهرة طيبة بريئة فهي أولى بالكلام الطيب وبالقول الطيب.

وقال الإمام ابن كثير أيضاً قولاً لعبد الرحمن بن زيد بن أسلم -رحمه الله تبارك وتعالى- قال: «الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء»، وهذا في الحقيقة يرجع إلى ما قاله ابن عباس والضحاك وسعيد بن جبير ومجاهد ورجحه الإمام الحافظ ابن جرير -رحمه الله تعالى- يرجع إلى هذا القول باللازم؛ لأنه يلزم من الطيب أن يكون معه طيب، ويلزم من الخبيث أن يقارنه أو يرافقه خبيث، ولذلك نحن حتى العامة يقولون: الطيور على أشكالها تقع، فلا شك أن الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، وهكذا الأمر في الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات، وهذه شهادة وتبرئة أيضاً لأم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها-، ورمي لأهل الإفك والضلالة بأنهم هم أولى بالقبح من أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها- وأنها ليست على ما قالوا، وليس فيها مما ذكروا لأنها طيبة ويكفي أنها قرينة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وهل هناك أطيب من رسول الهدى والرحمة -صلوات الله وسلامه عليه-.

ومن الآثار التي حفظت عن ابن عباس نفسه لما أتى عائشة -رضي الله تعالى عنها- وهي في سياق الموت وبشرها -رضي الله تعالى عنه- ومن ضمن الكلام الذي قاله لها، قال: (وكنت زوجة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وكان النبي -عليه الصلاة والسلام- طيباً ولا يختار رب العزة والجلال لهذا الطيب إلا من يكون مثله ألا وهو الطيب)، فهذه أيضاً تبرئة لأم المؤمنين عائشة وختامها فيه هذا التوضيح قال: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ يعني أم المؤمنين عائشة وعائلة أبو بكر -رضي الله تعالى عنها- مبرؤون جميعاً مما يقولون ولهم فضل أيضاً عند الله -عز وجل-، وهو: قال: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ وقعت لهم مغفرة في الدنيا وتاب الله -سبحانه وتعالى- عليهم ووعدهم بما وعدهم به في هذه الحياة الدنيا من الفضل ومن ثناء الله -سبحانه وتعالى- عليهم، وما إلى ذلك.

وأما الرزق الكريم فهو على أرجح أقوال أهل العلم وعلى أرجح أو أكثر أقوال أهل التفسير أن الرزق الكريم مراد به الجنة، فهذا أيضاً وعد لأم المؤمنين بأن تكون أين؟ في الجنة، ولذلك ذكر هذا الإمام الحافظ ابن كثير تعالى قال: «﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يعني الجنة، وفيه وعد لأم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها- أن تكون أيضاً هي زوجة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في الجنة».

بقيت مسألة قبل أن أختم هذا اللقاء وكلمات قليلة -إن شاء الله تعالى- بعد أن عشت في هذه الحلقة والحلقة الماضية مع حادثة الإفك وأم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها-، وما إلى ذلك، أود أن أقول لعموم المسلمين: إن أهل الإسلام برزوا على تقدير ومعرفة مكانة أصحاب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وكان الواحد منا يا أهل الإسلام عندما يأتي ذكر لواحدة منهن يتربى عليهن، وكان الحديث يسبق عنهن بقولنا: أم المؤمنين، والله -عز وجل- ذكر ذلك في كتابه، فاحذروا معاشر المستمعين وبلغوا من وراءكم من الطعن في زوجات النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-؛ لأنهن لهن مكانة عالية.

أيضاً هناك بعض المسائل التي أود أن أتحدث عنها وهي: لماذا لم يحكم النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في هذه المسألة؟ استلبث الوحي شهراً، تأخر الوحي شهراً والناس يفيضون في هذه الحادثة وهو لم يتكلم، ولا شك أنه -صلى الله عليه وآله وسلم- يعرف أهله، وهو لما قام على المنبر خطيباً، قال: (من يعذرني في رجل بلغني أذاه في أهلي، والله ما علمت على أهلي إلا خيرا) ولكن هذا فيه تمحيص أولاً لأهل الإيمان، وفيه رفعة لآل أبي بكر -رضي الله تعالى عنه-، وإشادة بهم، وفيه فضل من الله على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- حينما يتولى ربنا -سبحانه وتعالى- من فوق عرشه براءة زوج النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وحتى لا يقول أحد بأن النبي -عليه الصلاة والسلام- شهد لنفسه؛ لأنه طرف في هذه القضية فقد ابتعد هو -صلى الله عليه وآله وسلم- وبرأه رب العزة والجلال وبرأ زوجه ربنا -سبحانه وتعالى-.

أيضاً موقف علي بن أبي طالب؛ لأن الروافض والنواصب يتحدثون في هذه المسألة ويقولون بأن علي بن أبي طالب كان هو يطعن أيضاً في أم المؤمنين عائشة –رضي الله تعالى عنها– وهذا ليس بصحيح علي بـــن أبـــي طالب سأله النبي –عليه الصلاة والسلام– كما سأل أسامة بن زيد ولو رجعتم معي إلى الحلقة الماضية في سؤال النبي –عليه الصلاة والسلام– عليَ بن أبي طالب وأسامة بن زيد نجد أن عائشة قالت: (فأما أسامة بن زيد فأخبر بما يعرفه عن أهل النبي –صلى الله عليه وسلم– يعني عن عائشة من الخير وبما يكنه لهم من الود، وأما علـــي بن أبي طالب –رضي الله تعالى عنه– فقال: النساء غيرهن كثير وإن تسأل الجارية تصدقك)، حقيقة قول علـــي بن أبي طالب –رضي الله تعالى عنه– هنا ليس طعناً على أم المؤمنين عائشة ولكن علي بن أبي طالـــب هـــذا يشكل للنبي –صلى الله عليه وسلم– شيئًا ليس هيناً بهذا ابن عم النبي –صلوات الله وسلامه عليه– ولقد رأى من هم وحزن النبي –صلى الله عليه وسلم– الشيء الكثير، فأراد –رضي الله تعالى عنه– أن يهون الأمر على النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– وأن يقطع ما فيه من ريبة إن أحب ذلك، ولم يأمره بفراقها ولا بطلاقهـــا ولا بـــأن يذهب إلى غيرها، بدليل أنه قال: (وإن تسأل الجارية تصدقك) يعني أنه لا يطعن على أم المـــؤمنين عائـــشة –رضي الله تعالى عنها– ولا يدور بخلده شيء من ذلك بحال من الأحوال، فعلى من يظن أو يزعم أن علي بـــن أبي طالب –رضي الله تعالى عنه– كان يرى شيئًا في أم المؤمنين عائشة لقولته هذه فلا يعتبر قوله ويجب عليه أن يكف عن مثل هذا المعتقد لأن علي بن أبي طالب –رضي الله تعالى عنه– يعرف قدر ومكانة أم المـــؤمنين عائشة –رضي الله تعالى عنها–، ولم يطعن عليها ولم يثبت عنه –رضي الله تعالى عنه– أنه قال شيئًا ولو يسيراً يتعلق بأم المؤمنين عائشة مما يؤذيها –رضي الله تعالى عن أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم–.

أيضاً فيه مسألة عقدية تتعلق بهذه المسألة بحادثة الإفك مأخوذة من سياق حديث حادثة الإفك ألا وهي فضيلة المهاجرين، وفضل الهجرة في سبيل رب العزة والجلال وأيضاً فضيلة من شهد بدراً من الصحابة لماذا؟ لأن أم مسطح –رضي الله تعالى عنها– لما عثرت وقالت: (تعس مسطح) ماذا قالت لها عائشة –رضي الله تعالى عنها– ؟ قالت: (أتسبين رجلاً شهد بدراً)، فدل ذلك على أن لأهل بدر مزية، ومكانة، ورفعة عالية، أيضاً هذا يدل على فضل أم مسطح –رضي الله تعالى عنها–؛ لأنها لم تحابِ ابنها في الله –عز وجل– فدعت على ابنها بالتعاســـة لأنه خاض في عرض من بالباطل؟ خاض في عرض أم المؤمنين عائشة –رضي الله تعالى عنها–.

وأيضاً في الحديث فوائد متعددة أود أو أوجه أغلب ما أجد الحاجة تمس إليه في المجتمع اليوم، من فوائد هذه الحادثة:

١– أن المرأة لا تخرج من بيتها إلا بإذن وليها، وأقول: وليها، لماذا؟ لأن المرأة إما أن تكون في بيت أبيهـــا فهو وليها، وإن كانت في بيت زوجها فزوجها هو وليها، فلا تخرج المرأة من بيت وليها إلا بإذنه، والدليل على ذلك، أن أم المؤمنين عائشة لما سمعت بالخبر من أم مسطح لا شك أن وقعه عليها كان يسيراً أم شـــديداً؟ هـــذا مصيبة عظيمة في جارية حادثة السن، حبيبة رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–، وقع على نفـــسها وهـــي جارية كما ذكرت في الحديث، جارية حديثة في السنة، –رضي الله تعالى عنها– ولكنها مع هذا لم تخـــرج مـــن بيت النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–، حتى جاء النبي –عليه الصلاة والسلام– وسلم وسأل عنها فاستأذنته في الخروج إلى بيت أبيها، وهي لا تريد الذهاب إلى بيت أبيها لأمر ما، إلا لكي تستيقن من الخبر، فهنا دافع شـــديد إلى أن تخرج إلى بيت أبيها، إلى أنها مع ذلك لم تخرج إلا بإذن زوجها، ألا وهو رسول الله –صـــلى الله عليـــه وآله وسلم–، وهذه قضية يجب على نساء المسلمين أن يعرفوها، وأن يعوها حق الوعي؛ لأن هذه مـــن التربيـــة الأخلاقية التي ربى القرآن الكريم أتباعه عليها، وهي نراها اليوم في هدي أم المؤمنين عائشة –رضي الله تعالى عنها–، ونحن نتأسى بخيار هؤلاء القوم.

٢– وبقيت بقية يسيرة جداً وأنتهى ألا وهي لأنها تتعلق بما نسمعه من حوادث في هـــذا الزمـــان، مـــن آذى رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– وجب قتله، الذي يؤذي النبي –عليه الصلاة والسلام– ليست له حرمـــة،

وليست له كرامة ولا ينبغي أن يكون له وجود، وهذا أمر لا أقوله من عندي، وإنما آخذه من هذه الحادثة، الـذي يؤذي النبي -عليه الصلاة والسلام- يقتل وقد نص على هذا جمهور أهل العلم أن من سب النبي -صلى الله عليه وسلم- قتل وبعضهم قال: لا توبة له، لأنه إذا قال على النبي -عليه الصلاة والسلام- وهو من هو، فماذا بعـد ذلك؟ الشاهد والدليل على أن من سب النبي -صلى الله عليه وسلم- قتل، أن سعد بن معاذ -رضـي الله تعـالى عنه- لما قام النبي -عليه الصلاة والسلام- على المنبر وقال: (من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهـل بيـت والله ما علمت على أهل بيتي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عنه إلا خيراً وما كان يدخل بيتي إلا معـي، قام سعد بن معاذ) سعد بن معاذ ومن هو سعد بن معاذ -رضي الله تعالى عنه- الذي اهتز عرش الرحمن لموته -رضي الله تعالى عنه- (قال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الخزرج قطعنا رقبته) قال هـذا أمـام النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ولم ينكر عليه النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قوله، ومن المعلـوم عنـد علماء الحديث أن إقرار النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- حجة وهو من هدي النبي -صـلى الله عليـه وآلـه وسلم- فالسنة في اصطلاح علماء المحدثين ما أثر عن النبي -صلى الله عليه وسلم- من قول أو فعل أو تقريـر وهنا تقرير، وإقرار من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- على قول سعد، وهذه يعني غضبة لرسـول الهـدى والرحمة -صلوات الله وسلامه عليه- محبة له أتقرب بها عند الله -سبحانه وتعالى- يوم ألقاه.

وأكتفي بهذا وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

إجابات الحلقة الماضية

كان السؤال الأول: "حادثة الإفك رفعت من شأن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-" بين كيف كان ذلـك. وما هي الآية التي دلت على وجود منفعة في حادثة الإفك؟

وكانت الإجابة:

كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين زوجاته وفي هذه الغـزوة وقعـت القرعة على عائشة -رضي الله عنها- فلما رجعوا من الغزو نزلوا في بعض المنازل فخرجت عائـشة تقـضي حاجتها فلما رجعت تحسست صدرها فعلمت أن عقدها وقع منها فعادت إلى مكان قضاء حاجتها تبحـث عنـه، فجاء المسلمون فحملوا هودجها ولم يستنكروا خفته حيث أنها كانت فتية السن، لم يتغشاها اللحم، فعندما رجعـت عائشة فلم تجدهم فظنت أنهم سيفقدونها فيرجعون في طلبها، غلبتها عيناها فنامت فلم تستيقظ إلا بقول صفوان بن المعطل: إنا لله وإنا إليه راجعون، زوجة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وقد كان يعرفها قبل نـزول آيـة الحجاب فأناخ راحلته حتى ركبت فكانت هي خلفه وهو أمامها، فلما وصلوا تُكلِّم عما لا يليق به ووجد عـدو الله عبد الله بن أبي مجالاً ليشيع ويذيع في عرض زوجة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فانتشر الخبر بين الناس وعائشة منذ أن رجعت مرضت شهراً ولا تعلم عن حديث الإفك شيئًا غير أنها لم تجد اللطف من رسـول الله - صلى الله عليه وسلم- فلما نقهت خرجت هي وأم مسطح لقضاء الحاجة ليلاً فعلمت منها حديث الإفك فجعلتـي تبكي ولم تكن تكتحل بنوم ولا يرقأ لها دمع فلما أتى إليها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فتشهد وقال: (أمـا بعد إن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممتي بذنب فاستغفري الله فقالت: إني أعلم والله أنـي بريئـة ولـم تصدقوني وإن قلت غير ذلك فستصدقوني، ولا أقول إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] فنزل الوحي على النبي -صلى الله عليه وسلم- فلما سُري عنه قال: أما الله فقد برأك فقالت أمها: قومي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالت: والله لا أقوم ولا أحمد إلا الله تعـالى، ونزلـت الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ﴾ [النور: ١١].

في الحقيقة هذا الجواب بهذه الطريقة وهو ما يشكو منه الأستاذ عبد الرحمن يعني الجواب فيه طول والسؤال يعني جوابه في كلمات معدودة، في أن الأمر فيه رفعة، وأن الله -عز وجل- برأ بنفسه أم المـؤمنين عائـشة -

رضي الله تعالى عنها-، والآية التي أشارت إلى أن فيه منفعة هي الآية الأولى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ١١] الخيرية هنا رفعة لأبي بكر ولبنت أبي بكر ولآل أبي بكر -رضي الله تعالى عنهم- وذكر لهم في الدنيا وفي الآخرة وكون الله -عز وجل- يتولى بنفسه الدفاع عنها كل هذا من الخير الذي نالته أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها-.

السؤال الثاني: من الذي تولى كبر الحديث في مسألة الإفك؟ وهل أقيم حد القذف عليه؟ ولماذا؟

وكانت الإجابة:

قال بعضهم أنه حسان بن ثابت هو الذي تولى كبره، وهذا غير صحيح، فقد كانت عائشة -رضي الله عنها- تكره أن يتكلم أحد عن حسان والصحيح أن الذي تولى كبره هو المنافق وهو عدو الله عبد الله بن أبي بن سلول.

الجواب صحيح، وتتمته تتم الجواب قلتها اليوم، بأن عبد الله بن أبي لم يقم عليه الحد.

السؤال الثالث: اشرح قول الله تعالى: ﴿لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾؟

وكانت الإجابة:

أن هذه الآية لها سبب نزول وهو أن امرأة أبي أيوب الأنصاري قالت لزوجها أبو أيوب: (أما تسمع ما يقوله الناس في عائشة؟ فقال: نعم، وذلك كذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ فقالت: لا، والله ما كنت فاعلة فقال: فعائشة -والله- خير منك)، فنزلت هذه الآية، فهؤلاء ظنوا الخير في أم المؤمنين -رضي الله عنها وأرضاها-.

الجواب صحيح، ولا بأس به.

الأخت الكريمة من مصر تقول: فضيلة الدكتور قلتم في الحلقة السابقة: إن من استخدم اسم لله من أفعاله فهو آثم، معنى ذلك أننا حين نقول: يا مسهل أو يا ميسر فنكون آثمين ولقد سمعت في أحد الفضائيات من يقول: إن الله موجود، كلمة خطأ لأن الله واجد وليس موجوداً، وهذه الكلمة على ألسنتنا دائماً؟

السؤال الثاني: أرجو أن تبين لنا فضيلتكم كيف نوحد الله في الأسماء والصفات توحيداً حقيقياً، ولو سمحت يا فضيلة الدكتور لقد قرأت كثيرًا واحترت وخشيت على نفسي من القراءة في التوحيد في الأسماء والصفات فأريد أن أوحد توحيداً حقيقاً في الأسماء والصفات كما يرضاه الله لنا..

بالنسبة للسؤال الأول: وهي قالت: استخدام اسم من أفعال الله تعالى. أنا قلت اشتقاق والقاعدة في هذا: أنه لا يشتق لله -عز وجل- من أفعاله أسماء، لأن أسماء الله -عز وجل- كلها حسنى، وما يذكره رب العزة والجلال من أفعال له تكون أحيانًا في مقابلة لأفعال الكفار، وفعلها في مقابلة فعل الكافرين وإضافته إلى الله -عز وجل- في هذه الحالة حسنة، ولكنه ليس حسن على الإطلاق، وأضرب على ذلك مثال: قوله تعالى مثلاً: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ﴾ [الأنفال: ٣٠] ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ﴾ هذا من أفعال الله -عز وجل- ألا وهو مكر الله -عز وجل- بالكافرين الذين يمكرون، مكر الله بمن يمكر حسن، فعل حسن، ولكن المكر بإطلاق ليس حسناً، ولكنه في هذا الموطن من باب الجزاء والمقابلة على الفعل هو حسن من رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، ولهذا لا يليق أن نشتق لله -عز وجل- من هذا الفعل الذي ذكره لنا عن نفسه لا نشتق من اسمه فنقول بأن الله هو الماكر، أو ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] نقول بأن الله مخادع، حاشا وكلا أن يقال مثل ذلك على رب العزة

والجلال ولذلك نقول: بأن أسماء الله -عز وجل- توقيفيه، توقيفية يعني لابد أن سيكون الاسم منصوصاً عليه في القرآن الكريم والسنة النبوية مفيداً العلمية، منصوص عليه يفيد أنه علم على ذات رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، وإذا ثبت الاسم ترتب عليه الأمور التالية: أن تدعو الله -عز وجل- به، أن تسمي به من شئت كأن تقول مثلاً: عبد الله أو عبد الرحمن أو عبد العزيز أو عبد المنان، أو تضيف أو تعبد لأي اسم ثابت من أسماء الله -تبارك وتعالى-.

أما الدعاء بغير أسماء الله -عز وجل-، فهذا لا يجوز، إطلاق الأسماء التي ذكرت الأخت بعضها الآن كمسهل أو ميسر أو موجود... مثلاً، نقول هذه الكلمات لا يطلق منها إلا ما كان معناه صحيحاً ولا يوهم الخطأ، يعني يمكن أن يطلق على الله -عز وجل-، وهذه قاعدة ذكرها الإمام ابن القيم في بدائع الفوائد، أن يطلق على الله -عز وجل- من الأخبار ما يكون معناه صحيحاً، ولا يوهم الخطأ فإن كان المعنى صحيحاً، ولا يوهم الخطأ فيجوز إطلاقه على الله -عز وجل- من باب الخبر، وليس على أنه اسم من أسماء الله -تبارك وتعالى-، فأنت في معرض مثلاً الرد على الملاحدة أو المنكرين الذين ينكرون وجود الله -عز وجل-، فتخبر عن الله -عز وجل- بأنه موجود يكون المعنى صحيحاً، ولكن لا تقول: يا موجود اغفر لي أو تسمي ولدك مثلاً يا عبد الموجود، لماذا؟ لأن الموجود ليس من أسماء الله -عز وجل- لأن معناه ليس حسناً بإطلاق؛ لأن كلمة موجود لا تقال للشيء إلا إذا كان مفقوداً ثم وجد فقيل عنه موجود، والموجود قد يقال من أوجده؟ لأن الموجود له موجد أوجده، وليس اسماً حسناً إذا أضيف إلى رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، ولكن معناه من باب الخبر عن الله -عز وجل- بأنه ذات قائمة بنفسها وأنه -سبحانه وتعالى- حي قادر قائم بنفسه، فتقول عنه موجود بهذا المعنى، فهذا معنى صحيح، ولكن لا تخلط بين الأمرين.

أما السؤال الثاني: في كيف نوحد الله في الأسماء والصفات توحيداً حقيقياً؟ والله هذه مسألة سهلة جداً، أيها الأخت السائلة ويا أمة الإسلام الحقيقة الذي ضيق على المسلمين في هذه المسائل استخدام العقل في هذا الباب أو السير وراء علماء الكلام وإلا فعقيدة الإسلام في هذه المسألة في غاية من السهولة واليسر، يعني قبل أن أقول أوضح العقيدة الصحيحة في كلمات، أوجه كلمة عامة لجميع المشاهدين والمشاهدات، الآيات القرآنية في الصفات والأحاديث النبوية لم نجد نحن في السنة النبوية استشكال من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- لها، لذلك الإمام ابن القيم -رضي الله تعالى عنه- يذكر في كتابه الصواعق المرسلة: بأن الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- كانوا كثيرًا ما يسألون النبي -صلى الله عليه وسلم- عن أحكام فقهية تعبدية كثيرة، ولكنه ما أثر عنهم أنهم استشكلوا شيئًا من آيات الصفات أو أحاديث الصفات، لماذا؟ لأنهم أخذوها على ظاهرها وبما يفهمون من معانيها على مقتضى لغة العرب؛ لأننا خوطبنا بلغة العرب، فيجب علينا أن نفهم من كتاب الله -عز وجل- وفيما يتعلق بأسماء الله وصفاته ما يدل عليه ظاهر اللفظ، ولا نصرفه هنا أو هناك، وبالتالي أقول: القواعد التي يجب على المسلم والمسلمة أن يتعلمها كي يفهم توحيد الأسماء والصفات فهماً حقيقياً أن يعرف التالي: هي ثلاث قواعد:

القاعدة الأولى: إثبات ما أثبته الله -سبحانه وتعالى- لنفسه، فنحن نثبت، أو ما أثبته له نبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- وذلك فيما صح به الخبر فنثبت لله -عز وجل- ما أثبته ربنا -سبحانه وتعالى- لنفسه وفيما صح به الخبر عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- إثباتاً يليق بجلال الله وكماله.

القاعدة الثانية بعد الإثبات: أن ننفي كل ما نفاه الله -سبحانه وتعالى- عن نفسه، ونعتقد مع هذا أن الله -عز وجل- لا يشبه ولا يماثل فيما ثبت له أحداً من خلقه، القاعدة الأولى أثبتنا الأسماء والصفات، القاعدة الثانية يجب أن نوقن وأن نوطن أنفسنا على أن ما ثبت لله -عز وجل- من أسماء وصفات لا يشابه ربنا فيه أحد من المخلوقات، وهذه قضية سهلة جداً، أدلل عليها بجزء من آية في القرآن الكريم، قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] هذا جزء آية، اشتمل على أمرين: هذا الجزء:

الأمر الأول: نفي التمثيل والتشبيه عن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ثم ختم الآية بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فدل ذلك على أن نفي المثلية والتشبيه عن الله لا يلزم منه نفي الأسماء والصفات وهنا القاعدة إذن أو القاعدتين التين ذكرتهما الآن اشتقنا من هذا الجزء من الآية: إثبات ما أثبته الله لنفسه وهو المراد بالسميع البصير، ونفي ما نفاه الله عن نفسه وعدم اعتقاد أن ما ثبت له من أسماء وصفات لا يشابه فيه ربنا أحداً من المخلوقات لأنه قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

القاعد الثالثة: قطع الطمع عن إدراك الكيفية يعني يجب أنني أقطع طمع عقلي وذهني وقلبي ولا يكون في رأيي أو عقلي وسوسة في أنني أسأل كيف الله -عز وجل- أو كيفية صفات الله -سبحانه وتعالى-، ربنا كثيرًا في القرآن الكريم أخبرنا عن صفات الله وأسمائه، أخبرنا أنه يسمع ويبصر: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨] قال: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١] الله -عز وجل- يسمع ولا يستطيع أحد فيما أرى من عقلاء المسلمين اليوم أن ينفي عن الله صفة السمع، ولكن هل تأتي وتقول: أنا أسمع والله يسمع فإذن سمع الله كسمعي؟ هذا باطل، الله يسمع كيف يسمع؟ الله أعلم، أنت تثبت حقيقة السمع لله ومن ذلك أنه يسمع على وجه الحقيقة ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ويسمع دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخر الصماء، وما إلى ذلك يسمعه على الحقيقة أما كيفية ذلك فلا يعلمه إلا رب العزة والجلال والمسألة في هذا طويلة وقد أطلت والله أعلم.

الأخت الكريمة من الإمارات تقول: انتشر بين الناس الآن بواسطة الهواتف النقالة الرسالة التالية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧] سورة الأحزاب الآية السابعة والخمسين، وهو الرقم التسلسلي التجاري للمنتجات الدانماركية فهل يعد هذا من بيان وإعجاز؟ فما قولكم يا شيخ وما نصيحتكم لمن يفسر القرآن بهذه الطريقة؟.

في الحقيقة كلام الله -عز وجل- أرفع وأعلى مكانة من أن نقول فيه هذا بحال من الأحوال ولا يوافق فيما أرى أحداً من علماء المسلمين على مثل هذا، كلام الله -عز وجل- الذي تكلم رب العزة والجلال به أعلى وأرفع من أن يوافق قول هؤلاء المجرمين حتى في مثل هذه المسألة والله -عز وجل- نزه نفسه ونزه نبيه -صلى الله عليه وسلم- وتوعد من آذى الله أو آذى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بما لا يليق به ويكفي أن نقرأ كتاب ربنا وأن نعرض عما يقوله هؤلاء الآفاقون وليس هناك وجه ارتباط بين هذا وبين ذاك فرق بين كلام الله -عز وجل- وبين ما يقوله هؤلاء المجرمون، يعني ولو قلت أين الثرى من الثريا لكان الكلام قليلاً، ولا أقابل بين هذا وذاك بحال من الأحوال.

الأخ الكريم من الإمارات يقول: كيف نتعامل مع الذين يسبون الصحابة وعائشة -رضي الله عنهم-؟ وهل تجوز موالاتهم؟ وما حكم الإسلام فيهم؟

في الحقيقة كيف نتعامل معهم نحن علينا أولاً أن نعلم أمتنا العقيدة الصحيحة في كل ما يتعلق بأمور الدين، ومن صلب مسائل الاعتقاد موقف أهل السنة والجماعة من صحابة النبي الكريم -صلوات الله وسلامه عليه- فموقفهم فيهم موقف وسط بين من غلا في بعضهم وفعهم إلى درجة الألوهية أو النبوة أو الولاية وأنه أعلى وأفضل من غيره، وقدمه على سائر صحابة النبي -صلى الله عليه وسلم- ومن ناصب بعضهم العداء أو كفر بعضهم أو ما إلى ذلك، أهل السنة يحبون جميع أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- ويترضون عليهم ولا يغلون في واحد منهم، أما من يطعن على خيار الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وبقية العشرة من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- عدا علياً مثلاً وبعض الأفراد القلائل من صحابة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فقد باء بذنبه، واعتقاده هذا اعتقاد باطل وليس له ولاء منك يا أيها المؤمن، تواليه على أي أساس؟

هذه عقيدة فاسدة هذه عقيدة باطلة، يعني أقرب وجه شبه بهؤلاء أنهم أشبهوا اليهود، بل ما أشبهوا في مثل هـذه المسألة اليهود، هم أشبوا اليهود في مسائل متعددة وفارقوهم في هذه المسألة.

الإمام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- في مقدمة كتابه: منهاج السنة النبوية، ذكر وجوه شبه كثيرة بين اليهـود وبين من يطعن على صحابة النبي الكريم -صلى الله عليه وآله وسلم-، فلا يوالى هؤلاء ولكن القصد من ذلـك أننا نتعلم الدين الصحيح، ونعلمه أبناءنا، فإذا عرف الحق ظهر الباطل واندثر -إن شاء الله تبارك وتعالى-.

فضيلة الشيخ هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه المحاضرة؟.

السؤال الأول: « النهي عن إشاعة الفاحشة بين المؤمنين منهج تربوي قويم» تحدث عن هذا الموضوع مستدلاً بحديث للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-؟

السؤال الثاني: اذكر مع التعليل حكم من قذف أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-.

ولنكتفِ بهذين السؤالين من باب التخفيف.

الدرس الحادي والعشرون: تفسير سورة النور

فضيلة الشيخ أهلاً ومرحباً بكم

أهلاً وسهلاً ومرحباً بكم وبالحاضرين والمشاهدين والمشاهدات، ويسرنا -إن شاء الله وتعالى- في هذا اللقاء أن أتحدث عن بعض آيات في سورة النور تدور هذه الآيات حول المحاور التالية:

المحور الأول: الاسئذان من الآداب التي جاء بها الإسلام.

المحور الثاني: أمر الله المؤمنين والمؤمنات بغض الأبصار وحفظ الفروج.

المحور الثالث: يحرم على المرأة إبداء زينتها لغير محارمها.

ولنستمع إلى آيات هذا اللقاء مع الأخ الكريم، فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلاَ تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمُ وَإِن قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

جزاك الله خيراً.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين وبعد،

فهذا اللقاء كما سمعتم من الآيات التي استمعنا إليها جميعاً لقاء يتحدث عن جملة من الآداب والأخلاق الإسلامية التي جاء بها النبي -صلوات الله وسلامه عليه-.

المحور الأول: الاسئذان من الآداب التي جاء بها الإسلام.

والآية الأولى تحت هذا المحور هي قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ الله -تبارك وتعالى- بعد أن ذكر حُرمة الزنا وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات وحرم كل ذلك وزجر عنه ذكر أيضاً زجره عن دخول البيوت بغير استئذان؛ لما يمكن أن يؤدي ذلك من اختلاط الرجال بالنساء، وربما يقع شيء من هذا المحظور الذي زجر رب العزة والجلال عنه آنفاً وحرمه -سبحانه وتعالى-، والله -عز وجل- يخاطب أيضاً عباده أهل الإيمان بهذه التربية الخلقية العظيمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا﴾ معنى: ﴿تَسْتَأْنِسُوا﴾ قيل: الاسئناس ضد الاستيحاش، وقال الإمام الطحاوي -رحمه الله-: «إن الاسئناس في لغة أهل اليمن بمعنى الإذن» فمعنى ﴿تَسْتَأْنِسُوا﴾ يعني: تستأذنوا، والآية هكذا في كتاب الله -عز وجل-، وما ذُكر أن ابن عباس - رضي الله تعالى عنه- كان يقول: (تستأذنو) فهذا لم يصح عنه -رضي الله تبارك تعالى عنه-، ولكن الآية: ﴿حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا﴾ وقيل: الاستئناس هنا أيضاً يفسر بمعنى الاستعلام، يعني أن يستعلم الإنسان قبل أن يدخل إلى البيت هل في البيت أحد يأذن له أو ليس في البيت أحد، وهذا الأدب ألا وهو الإذن، قبل الدخول حتى لا يرى الإنسان ما لا يجوز أن يراه، وهذه الآية الكريمة جاءت بهذا الأمر الرباني من عند الرب -سبحانه وتعالى-، وتحتها أحكام وفوائد متعددة تتعلق بهذا الاسئذان:

أولها: أنه لا يجوز للعبد لأن الله -عز وجل- نهى أن يدخل أحد بيت إنسان آخر دون أن يستأذن منه، والنهي هنا صريح، ولم تحفه قرينة تبين أنه للكراهة فقط، فدل ذلك على أن النهي هنا للتحريم، يعني إذن يحرم على الإنسان أن يدخل بيت غيره إلا بعد أن يستأذنه، فهنا نهي صريح ولم تأت قرينة تصرفه عن ظاهره فدل ذلك على حرمة من دخل بيت غيره دون أن يستأذن منه.

الأمر الثاني: الاستئذان كما جاء في السنة ثلاث مرات، الاستئذان يكون ثلاث مرات، وهذا بينه النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بسنته، وفي صحيح مسلم وغيره: (أن أبا موسى الأشعري -رضي الله تعالى عنه- استأذن ذات يوم على عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- وكان عمر مشغولاً فلم يأذن له ولم يتنبه ربما لأن يأذن له في هذا الوقت، فاستأذن ثلاث مرات ثم انصرف، فلما انتهى عمر من شغله -رضي الله تعالى عنه- قال: أين عبد الله بن قيس؟ ويعني أبو موسى -رضي الله عنه- أين هو؟ ألم يكن يستأذن؟ قالوا له: إنه انصرف يا أمير المؤمنين فأرسل في طلبه فلما جاء قال له: لم رجعت؟ قال: يا أمير المؤمنين استأذنت ثلاث مرات فلم يؤذن لي، وسمعت النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يقول: إذا استأذن أحدكم ثلاثاً ولم يؤذن له فليرجع)فالشاهد بقية الحديث أن عمر -رضي الله عنه- أراد أن يستوثق من أن هذا الكلام قد صدر حقاً من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وطلب شاهداً عليه فقام أبو سعيد الخدري -رضي الله عنه- فشهد مع عبد الله بن قيس -رضي الله تعالى عن الجميع-.

وفي مسند الإمام أحمد أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ذهب عند سعد بن عبادة ذات يوم وقال: (السلام عليكم ثلاث مرات وفي كل مرت يسمع سعد ويرد على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بصوت خفيف يسير لا يسمع النبي -صلى الله عليه وسلم- فلما سلم النبي -عليه الصلاة والسلام- ثلاث مرات ولم يرد عليه أحد انصرف فقام سعد بن عبادة -رضي الله تعالى عنه- وقال له: يا رسول الله لقد سمعتك وكنت أرد بصوت خفيف رغبة في أن تكثر علينا السلام فتحصل لنا البركة)، الشاهد أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- سَلَّمَ ثلاث مرات فقط ثم انصرف -صلوات الله وسلامه عليه-، وهذا إذن يجعلنا نقول بأن الاستئذان يكون فقط ثلاث مرات، ولا يزيد الإنسان على ذلك.

بقيت في هذه المسألة عندما أقول الاستئذان ثلاثاً أيضاً مسألة فرعية تتبعها، هل يبدأ الإنسان بالسلام أم بالاستئذان؟ الآية تقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾

فذكرت الإذن أولاً؛ لأن الاستئناء كما ذكرت وأشرت بمعنى الإذن، قدمت الإذن على السلام، ولكن الصحيح والنبي -صلى الله عليه وسلم- يفسر القرآن أن السلام يكون قبل الاستئذان وقد ورد ذلك عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وأخبرنا -عليه الصلاة والسلام- بأن العبد إذا جاء يقول: السلام عليكم أأدخل؟ فيبدأ بالسلام أولاً، والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يفسر القرآن، ولا يعني عطف السلام على الاستئذان أن يكون الاستئذان قبل السلام؛ لأن العطف هنا الذي جاء بالواو لمطلق التشريك فقط، وليس لشيء من الترتيب وكثيراً ما يأتي في القرآن الكريم هذه الواو العاطفة ولا تفيد ترتيباً كقول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧] فنوح -عليه السلام- قبل النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ولكنه ذكر بعده وعطف عليه ولا يعني ذلك أن النبي -عليه الصلاة والسلام- سابق عليه في الزمن، وإن كان -صلوات الله وسلامه عليه- مقدماً في الفضل والذكر -صلوات الله وسلامه عليه-.

أيضاً من المسائل المتعلقة بالاستئذان: أنه لا يجوز للمستأذن أن يقف تلقاء الباب بوجهه، لا يجوز له ذلك، وإنما يقف عن يمين الباب أو يقف عن يساره، لحديث عبد الله بن بشر -رضي الله تعالى عنه- قال: (كان رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو ركنه الأيسر ويقول: السلام عليكم السلام عليكم).

أيضاً من المسائل المهمة في هذا: إذا قال صاحب البيت للمستأذن: من بالباب مثلاً ماذا يرد عليه؟ أو كيف يرد عليه؟ يعرفه باسمه ولقبه حتى يعرف، ولا يقول: أنا، لحديث جابر -رضي الله تعالى عنه- قال: (أتيت النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في دين كان على أبي كي يتحدث معه فيه فلما طرق أو استئذن على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال النبي -عليه الصلاة والسلام-: من؟ فقال: أنا، فالنبي -عليه الصلاة والسلام- سمعها ولكنه قال: أنا أنا، يقول جابر: كأنه كرهها) وهذا صحيح، فيكره للعبد ألا يذكر اسمه أو بما يعرف به عند صاحب البيت فإذا ذهب الإنسان عند صاحب بيته يستأذنه عليه أن يعلمه بنفسه.

أيضاً الاستئذان يكون على كل أحد حتى على المحارم، يعني الإنسان يستأذن على أمه وعلى أخته وعلى ابنته وما إلى ذلك، حتى لا يرى شيئًا منهن لا يجب أن يراه، أو تقع عيناه على أمر لا ينبغي أن يراه والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يقول: (إنما جعل الاستئذان من أجل البصر)، هكذا قال -صلوات الله وسلامه عليه-.

ختاماً في الاستئذان أقول: من فوائده أرجح الأقوال عند أهل العلم أن من نظر في بيت إنسان بدون إذنه وقبل أن يستأذن منه ففق عينه لا إثم عليه ولا دية له، يعني لو إنسان تطفل ونظر في بيوت الناس ففقؤوا عينه، نظر في بيوتهم دون أن يأذنوا له لا يأثمون إذا فقؤوا عينه وليست له دية إن أصابها شيء، والنبي -صلوات الله وسلامه عليه- قد نص على ذلك في حديثه: (من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم ففقؤوا عينه ليس عليهم شيء) أو: (لا يحل له شيء) يعني لا يحل له أن يأخذ منهم شيئًا.

هذه الأداب الجميلة التي علمنا إياها الإسلام إنما جعلت من البصر وحتى لا يقع الإنسان على شيء لا ينبغي له أن يراه.

مسألة:

بقيت مسألة: هل يستأذن الإنسان على زوجته وهي كلها مباحة له؟

فحب أهل العلم أن يستأذن الإنسان على زوجته وأن يعلمها بدخوله وقد وردت عن التابعين وأهل العلم كلمات كثيرة في هذا وحتى عن الصحابة فبعضهم كان يحك قدميه في الأرض أو نعليه في الأرض وبعضهم كان يتنحنح وما إلى ذلك، والعلة في هذا وإن كان بيته والأمر كله مباح له، إلا أنه كي تستعد له زوجته في استقباله

وحتى لا يرى منها شيئًا هي لا تحب أن يراها عليه في موطن ما أو في مكان ما، أو لعمل ما، وهذه في الحقيقة أخلاق جميلة أدبنا فيها الإسلام ورب العزة والجلال من خلال ما شرع، شرع لنا الخير وشرع لنا الفضل وشرعه -سبحانه وتعالى- كله حكمة يعتلي بالعبد الذي يقوم به إلى مصاف الكرامة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يعني ذلكم خير لكم يا أيها الناس، هذا الخير للمستأذن ولصاحب البيت أيضاً، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يعني تتذكرون هذه الآداب فتعملون بها، فترتفعون عند الله -سبحانه وتعالى- مكانة.

ثم يقول سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلاَ تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمُ﴾ يعني إن لم تجدوا أحداً في البيت يأذن لكم فلا يحق ولا يجوز لكم أن تدخلوا بيوت الناس دون إذن؛ لأن هذا فيه من التصرف من ملك الغير دون أن يأذن لك في التصرف فيه، وبالتالي يحرم على الإنسان كما ذكرت أن يدخل بيت غيره الذي يسكن صاحبه فيه دون أن يأذن له فيه.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلاَ تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمُ وَإِن قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ يعني إن أمرتم من أهل البيت أو ردكم أهل البيت ولم يرغبوا في دخولكم ولا أن تجلسوا عندهم أو لم يردوا عليكم وهم في داخل البيت فلا تستأذنوا أكثر من ثلاث ولا يحق لكم بعد ذلك أن تدخلوا، بل إذا قيل لكم: ارجعوا، بهذا اللفظ وجب عليكم عندئذ الاستجابة لهذا الأمر والرجوع وهذا فيه زكاة لنا كما قال رب العزة والجلال: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ أزكى لقلوبكم وأطهر لكم وعدم تضييق على من ستذهب إليه فقد يكون عنده عمل، وقد يكون عنده شغل وقد يكون عنده حاجة من حاجات الناس فإذا استأذنت ولم يرد عليك أو قيل لك: ارجع يجب أن يكون هذا برداً وسلامًا على قلبك، ولذلك قال قتادة -رحمه الله تعالى- قال: «قال بعض المهاجرين» بعض المهاجرين إذن يكون هذا من؟ يكون صحابي من صحابة النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: «اجتهدت عمري في أن أدرك آية فما أدركتها» يعني اجتهدت في عمري كله أن أحصل هذه الآية وتتحقق لي فما تحققت لي، وما هي؟ «قال: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى﴾» يعني يقول: طلبت هذه الآية مراراً كأن أن أذهب إلى بيت ويقول لي أصحاب البيت ارجع فأرجع فأنال بذلك زكاة وتزكية شهد بها رب العزة والجلال ولذلك يقول: «فأرجع وأنا مغتبط» يرجع وهو مغتبط لقول الله تعالى: ﴿هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ وهذه في الحقيقة لفتة يجب على عموم المسلمين أن يتعلموها وأن يتعاملوا فيما بينهم عليها، فلا يغضب الإنسان إذا ذهب إلى إنسان ما وهو يعلم أنه في البيت يعني الإنسان قد يتبع إنساناً قد دخل بيته أمامه، ثم بعد ذلك يأتي ويدق عليه ويأتي ويضرب فلا يرد عليه صاحب البيت فلا يغضب من ذلك، لأن أصحاب البيوت قد تكون عندهم علل وقد يكون ليس عندهم وقت أن يستقبلوا فيه الضيف، وهناك أمور كثيرة والاستئذان كما ذكرت أدب كريم وجه إليه الإسلام إذا تعامل به الناس، وأهل الإيمان فيما بينهم كسبوا فضائل جمة وفرجوا على أنفسهم ولم يضيقوا على أحد منهم، ولم يقع بينهم شيء من التضاد أو الغضب أو أخذ بعضهم على بعض شيئاً مما يمكن أن يلوم به الإنسان أخاه أو ما إلى ذلك فلو التزم الجميع بذلك لاستفاد المجتمع فائدة عظيمة، ولكن حسبنا أن نعرفها وأن نتعلمها وأن نعلم أنها آداب وجه إليها الإسلام.

ثم يقول -سبحانه وتعالى-: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ هذه الآية في الحقيقة أخص من الآية الأولى، الآية الأولى عامة وهذه خاصة أباحت ورفعت الجناح عن الإنسان في أن يدخل البيوت غير المسكونة التي له فيها حاجة، يكون له فيها متاع، أو غير ذلك مما يمكن أن يستفاد منه، ولكن بشرط أن تكون هذه البيوت غير مسكونة، يعني ليس فيها أحد.

قيل بأن المراد بهذه البيوت غير المسكونة، أماكن التجار التي ينزلون فيها ويمكن أن نقول عنها الآن الفنادق، ويمكن أن نقول أيضاً بيوت الناس التي لا يقيمون فيها وقد أذنوا لإنسان كضيف مثلاً أو مسافر أن ينزل فيها

ووضع متاعه فيها، فهؤلاء قد أعطوه الإذن العام في أن يدخل دون إذن؛ لأنهم قد خصصوا له مكاناً ينزل فيه، وهم لا يسكنون هذا المكان، ومن العبث أن نقول له في هذه الحالة استأذن؛ لأننا نستأذن ممن؟ ليس في البيت أحد حتى يستأذن منه، فإذا كان له فيه متاع أو له فيه حاجة فلا حرج إذن في أن ينزل فيه وألا يستأذن والله -عز وجل-.

يختم هذه الآية بقوله: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ يعني يعلم -سبحانه وتعالى- ما نظهر وما نعلن كما يعلم -عز وجل- ما نخفي وما نبطن، وهذا فيه وعيد شديد أيضاً لمن لم يتأدب بهذه الآداب التي جاء بها القرآن الكريم، لأنه سبحانه إذا كان يعلم ما نظهر وما نخفي فوجب علينا ألا تنطوي نفوسنا على أمر ونتظاهر بأمر يخالفه.

المحور الثاني: أمر الله المؤمنين والمؤمنات بغض الأبصار وحفظ الفروج.

وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ لما ذكر رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- حكم الاستئذان أتبعه بذكر حكم النظر على العموم، فيندرج تحته غض البصر، وعدم الدخول إلى بيوت الناس دون إذن؛ لإن الإذن بسبب ألا ينظر الإنسان إلى شيء لا ينبغي عليه أن ينظر إليه، وهذه الآية تأمر عموم المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم كما تأمرهم أيضاً بأن يحفظوا فروجهم وبدأت الآية بذكر غض البصر هنا؛ لأنه كما قال أهل العلم هو الوسيلة إلى انتهاك الحرمات وإلى انتهاك الفروج؛ لأن النظر هو الذي يؤدي إلى ذلك، ولذلك حرم الإسلام على أهل الإيمان أن ينظروا إلى المؤمنات وأن يحفظوا نظرهم وأن يحفظوا فروجهم فلا يصلوا بشيء من ذلك إلى أمر حرمه ربنا -سبحانه وتعالى- عليهم، ولذلك في صحيح مسلم عن جرير بن عبد الله البجلي -رضي الله تعالى عنه- قال: (سألت النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- عن نظرة الفجأة) -يعني النظرة التي تقع من الإنسان فجأة- فقال له النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: (اصرف بصرك) يعني أمره بألا يواصل النظر بل عليه أن يصرف بصره، وقال لعلي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- وهذا أيضاً توجيه من النبي -صلوات الله وسلامه عليه-: (يا علي لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وعليك الثانية).

ولما نهى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- عن الجلوس في الطرقات وقال: (إياكم والجلوس في الطرقات، فقال له بعض الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم-: ما لنا بد من مجالسنا يا رسول الله) لابد أن نجلس في الطرقات -صلوات الله وسلامه عليه- كي نقضي أمورنا نتحدث في أحوالنا يرى بعضنا بعضاً دون حرج أو كلفة أو ما إلى ذلك (ما لنا بد من الجلوس في الطرقات، فقال -صلى الله عليه وآله وسلم-: إن أبيتم إلا الجلوس فأعطوا الطريق حقه، قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-؟) أول شيء بدأ به قال: (غض البصر) ثم قال بعد ذلك: (وكف الأذى -إلى أن وصل- والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر -صلوات الله وسلامه عليه-) والشاهد من الحديث أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أمر أولاً الجالسين في الطرقات بأن يغضوا أبصارهم، ولذلك في البخاري وغيره عن سهل بن سعد الساعدي -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال -وهذا الكلام لأمته-: (من يكفل لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة) وهذا توجيه نبوي كريم من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- والنبي -عليه الصلاة والسلام- يضمن فيه الجنة لمن يحفظ لسانه فيكفه عن المحارم وعن الكلام بالباطل ويحفظ ما بين رجليه يعني يحفظ فرجه وهذا كلام يجب أن نعض عليه؛ لأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وعد وضمن لمن فعل ذلك أن تكون له الجنة.

تعجبني بعد ذلك في غض البصر وأنا أتحدث عنه كلمات أشوق بها أهل الإيمان كي يغضوا أبصارهم وهذه الكلمات ذكرها الإمام الورع الزاهد التقي ابن القيم -رحمه الله تبارك تعالى- ذكرها في أكثر من موطن، ذكرها في إغاثة اللهفان وذكرها في الجواب الكافي، ذكر -رحمه الله تعالى- فوائد غض البصر وهي جميلة وعلى أهل

الإيمان أن يستمعوا إليها وأن يعرفوها وأن تدخل في قلوبهم حتى يتمكنوا من غض أبصارهم؛ لأن المسألة مسألة فتنة، مسألة شهوة قائمة في الإنسان يدفعها الشيطان فحينما يواجه الإنسان هذه المسائل بعلم يتعلمه وإيمان صحيح يقوم في قلبه ويعرف الإنسان الفوائد التي تعود عليه بغض بصره استطاع بفضل الله تعالى وبالتوكل عليه وبالطلب منه أن يغض بصره عما حرمه الله -تبارك وتعالى-، ابن القيم -رحمه الله- ذكر فوائد متعددة لغض البصر، أذكر منها ما يلي:

فوائد غض البصر:

أولاً: ذكر أن في غض البصر امتثال لأمر الله -تبارك وتعالى- وتسليم له، والإنسان يسعد في الدنيا والآخرة إذا امتثل أمر الله -تبارك وتعالى-، فأول فائدة في غض البصر أنك تمتثل ما قاله الله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠].

الفائدة الثانية: أن غض البصر يمنع أثر السهم المسموم الذي يصل إلى قلب الإنسان فيفسده، فالنظر كما قال أهل العلم سهم مسموم من سهام إبليس، وإذا نظر الإنسان وأتبع النظرة النظرة لا شك أن هذا سيؤثر في قلبه، وإذا أثر في قلبه سيؤثر في جوارحه، وسيؤثر فيه كله، وسيدفعه في الوقوع في المنكرات بعد ذلك والفواحش وما إلى ذلك، إن لم تتداركه رحمة الرب -تبارك وتعالى-.

الفائدة الثالثة من فوائد غض البصر: أنه يكسب القلب قوة ونوراً ولذلك كما قال أهل العلم وكما نص على ذلك الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى-: أن الله -عز وجل- ذكر بعد الأمر بغض الأبصار وحفظ الفروج ذكر بعده بآيات قليلة آية سورة النور، في قوله: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] فالإنسان إذا غض بصره لله -عز وجل- قذف الله -سبحانه وتعالى- في قلبه نورًا.

الفائدة الرابعة: من فوائد غض البصر وهذه مسألة جميلة واستنباط جيد للإمام ابن القيم -رحمه الله تبارك تعالى- من خلال بعض آيات القرآن الكريم، يقول -رحمه الله-: «إن غض البصر يورث الفراسة الصادقة وتجعل الإنسان يميز بين الحق والباطل وبين الصادق وبين الكاذب» الذي يغض بصره تكون عنده فراسة يعني يرى الأمور على ما يجب أن تكون عليه، وينظر في المسائل بشيء من الدقة ويصل بتوفيق الله -عز وجل- إلى الصواب فيما يأتي وفي ما يذر وهذه فيما تعرف لدى أهل الإيمان بفراسة المؤمن، لماذا؟ في الحقيقة كتبت نقلاً هنا قاله وذكره الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى- لشاه بن شجاع الكرماني يقول كلمة جميلة: «من عَمَّرَ ظاهره باتباع السنة وباطنه بدوام المراقبة وغض بصره عن المحارم وكف نفسه عن الشهوات واعتاد أكل الحلال لم تخطئ له فراسة» وكان شجاع هذا كما ذُكِر لا تخطئ له فراسة، لماذا؟ قيل: لأن من ترك شيئًا لله -عز وجل- عوضه الله -عز وجل- خيراً منه، فمن غض بصره عن المحارم عوضه الله بصيرة في قلبه، والجزاء من جنس العمل، وهذا معلوم في شريعتنا، والاستنباط الجيد الذي ذكرته آنفاً وأشار إليه ابن القيم -رحمه الله تعالى- في مسألة الفراسة هذه أنه قال بأن الله -عز وجل- بعدما ذكر فعل قوم لوط في سورة الحجر ختم الحديث عنهم بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر: ٧٥] يعني أصحاب الفراسة الذين ينظرون برؤية صادقة الذين يفقهون الأمور على ما هي عليه، ويدركون دقائقها: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر: ٧٥] بعكس مثلاً ما ذكره ربنا -سبحانه وتعالى- عنهم في آية أخرى بعد ذكرهم: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: ٧٢] فهؤلاء المرتكبين للفواحش من اللوطية وغيرهم في سكرة وفي عمى، عمى القلب، أما أهل الإيمان لهم آيات ينظرون فيها بما ينظرون إليه مأيدين بتوفيق الله -تبارك وتعالى- وذلك لأنهم امتثلوا أمر الله -عز وجل- وغضوا أبصارهم عن ما حرم الله -سبحانه وتعالى- ففتح الله عليهم بنور البصيرة، وهذه فائدة مهمة جداً يجب على طالب العلم وعلى عموم المؤمنين أن يعرفوها وعلى شباب هذه الأمة أن يتعلموها كي يفتح الله -سبحانه وتعالى- عليهم بهذا الأمر أو بهذا العلم النافع.

الفائدة الخامسة: أيضاً من فوائد غض البصر أنه يسد على الشيطان مدخله إلى قلب الإنسان، يعني إذا وقف الإنسان أو غض بصره عن المحرمات لا يجد الشيطان سبيلاً إلى قلب الإنسان وقد أحسن الشاعر حينما قال:

كل الحوادث مبداها من النظر *** ومعظم النار من مستصغر الشرر

وفي الصحيحين عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (كُتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة) ثم قال: (فزنا العينين النظر).

ولذلك ختام هذه الآية ختام جميل: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ لماذا؟ ﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾ هذه رفعة لك، هذه طهارة لك، هذا نقاء لك، وقوله: ﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾ بصيغة الجمع يفيد أن هذه طهارة لعموم المجتمع، فتخيلوا لو أن المجتمع ولو كان حتى مجتمعاً صغيراً لأهل الإيمان، كانوا جميعاً على هذا الخلق القويم، ماذا ستكون حياتهم؟ وكيف تكون قلوبهم؟ وكيف سيكون مجتمعهم؟ لا شك أنهم سيرتفعون بذلك إلى مصافٍ عالية، إلى درجات رفيعة، فيستقرون ويطمئنون ولا يخاف الإنسان منهم على عرضه أو على ماله أو ما إلى ذلك، وكل واحد من الناس في هذا المجتمع سينظر إلى أخيه نظرة فيها رحمة وفيها تؤدة وفيها وقار وفيها تكريم؛ لأن الجميع يتعلم الآداب أو يعمل بالآداب الشرعية التي جاء بها القرآن وحث عليها نبينا -صلوات الله وسلامه عليه-.

وقوله بعد ذلك: ﴿إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ أيضاً فيها تهديد ووعيد لمن يخالف هذه الأوامر، لماذا؟ لأنه إذا كان خبيراً والخبير هو العليم بدقائق الأمور، وتفاصيلها على ما تقع به، فإذا كان الأمر كذلك فيجب عليك أن تتقي الله -عز وجل- في ما تصنع؛ لأن الله مطلع عليك: ﴿إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

وكما أمر رب العزة والجلال المؤمنين أمر أيضاً المؤمنات فقال: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ هذا أيضاً توجيه من رب العزة والجلال للمؤمنات بغض الأبصار وحفظ الفروج كما أمر ربنا -سبحانه وتعالى- الرجال، وفي هذا تكريم للمرأة، وتمييز لها عن صفات نساء الجاهلية؛ لأن نساء الجاهلية كُنَّ يخرجن إلى الطرقات باديات الرؤوس والشعور، والنحور والصدور فيأتي الإسلام يأمر المؤمنات القانتات الصالحات الطاهرات أن يغضضن من أبصارهن وأن يحفظن فروجهن وقد استدل بعض أهل العلم بهذه الآية على أنه يحرم على المرأة أن تنظر إلى الرجال مطلقاً، وقد استدل بعضهم بحديث عبد الله بن أم مكتوم -رضي الله تعالى عنه- (لما دخل على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وعنده أم سلمة وميمونة -رضي الله تعالى عنهما- فلم يحتجبا عنه، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قال لهما: احتجبا عنه، فقالوا له -صلى الله عليه وسلم-: إنه أعمى، فقال -عليه الصلاة والسلام-: أوعمياوان أنتما؟) فاستدل من ذهب إلى أنه لا يجوز للمرأة بحال أن تنظر إلى الرجال بهذا الحديث ولكن في الحقيقة بعد البحث والتحقيق والتدقيق ظهر أن هذا الحديث ضعيف.

وبعض أهل العلم يرى أن المرأة يجوز لها أن تنظر بما تحتاج إليه دون أن تسرف في هذا النظر ودون أن يؤدي هذا النظر إلى فتنة فإن أدى إلى فتنة أو لم يكن هناك داعٍ أو مقتضى يدفع إلى النظر فلا يجوز النظر عندئذ، واستدلوا على ذلك بأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أباح لأم المؤمنين عائشة أن تنظر بعد أن سترها وكانت خلفه أن تنظر إلى الأحباش وهم يضربون أو يلعبون في مسجد النبي -صلوات الله وسلامه عليه- وهي تنظر إليهم، فقالوا: إن هذا يفيد أنه لو نظرت المرأة نظراً إلى الرجال دون ريبة أو نظراً لا يؤدي إلى تلذذ أو ما إلى ذلك فلا حرج في ذلك وألا يكون في أمر يدعو إلى شهوة أو أن يكون هذا الرجل منكشف العورة.

ولذلك الإمام البخاري –رحمه الله تبارك تعالى– من تراجمه في كتابه الصحيح قال: «باب نظر المرأة إلى الحبش وغيرهم من غير ريبة» يعني قيده بعدم الفتنة بألا يكون هناك ما يدفع إلى الوقوع في الفتنة ومع ذلك نقول بأن غض البصر أولى وأجدر وأحسن للمرأة حتى لا تقع فيما يمكن أن تفتن به.

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ يحفظن فروجهن عن الفواحش، وعلى رأس الفواحش كما تعلمون الزنا، وما لا يحل استخدامه، وقد ذكر أبو العالية –رحمه الله تعالى– هذا المعنى أو هذه الآية بأنها تفيد بأنه لا يجب عليها أن يراها أحد، وهذا سنذكره الآن في قول الحق –تبارك وتعالى–: ﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ بعد أن أمرهن بغض الأبصار وحفظ الفروج قال –سبحانه وتعالى–: ﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي لا يُظهرن شيئًا من الزينة للرجال الأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه بدليل أنه قال: ﴿إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ وقد اختلف أهل العلم في الزينة الظاهرة، ما المراد بها؟

– فورد عن ابن مسعود وجمع من الصحابة أن المراد بقوله الله –تبارك وتعالى–: ﴿إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ إلا الثياب الظاهرة التي لابد منها، فالمرأة تخرج ويجب عليها أن تتغطى كاملة، ولكنها تتغطى بثياب، ولا يمكن أن تحجب أيضاً هذه الثياب، فلا يظهر منها إلا هذه الثياب الظاهرة لحالة الضرورة أيضاً، هذا قول ابن مسعود –رضي الله تعالى عنه–.

– وذهب حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس ومعه جماعة كثيرة إلى أن المراد بـ ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: الوجه والكفين، وقالوا بأن الوجه والكفين بذلك ليسا بعورة، ولكنهما عند الفتنة يجب على المرأة أن تغطي أيضاً الوجه والكفين.

هذه المسألة في الحقيقة أخذ فيها العلماء في السابق واللاحق مساحة طويلة من القول ومن الكتابة وما إلى ذلك، ولقد وجدت من أحسن من كتب وحقق هذه المسألة الشيخ الإمام العالم الرباني القرآني –رحمه الله تعالى– الشيخ محمد الأمين الشنقيطي –رحمه الله تبارك تعالى–، هذا الرجل ذكر في كتابه أضواء البيان وتكلم حول هذه الآية، وذكر أقوال العلماء فيها، ثم قال –رحمه الله تعالى–: إن جميع هذه الأقوال يرجع إلى ثلاثة، ثم قال:

– الأول من هذه الثلاثة: أن المراد بالزينة ما تتزين به المرأة خارجاً عن أصل خلقتها، ولا يستلزم النظر إليه رؤية شيء من بدنها، كقول ابن مسعود –رضي الله تعالى عنه–، قال: لأن الثياب زينة لها خارجة عن بدنها وخارجة عن أصل خلقتها وهي ظاهرة بحكم الاضطرار يعني لابد أنه إذا خرجت المرأة لابد أن تظهر ثم قال –رحمه الله–: وهذا القول هو أظهر الأقوال عندنا وأحوطها وأبعدها من الريبة.

– أما القول الثاني: قال المراد بـ ﴿إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ المراد به: الزينة، ما تتزين به المرأة، وليس من أصل خلقتها أيضاً لكن النظر في تلك الزينة يستلزم رؤية شيء من بدن المرأة وذلك كالخضاب والكحل، ونحو ذلك، وقد قال بعض العلماء بأن هذا مما يجوز النظر إليه، وإذا جاز النظر إلى الخضاب والكحل أو إلى الخاتم على قول بعضهم إذن لم ينظر إليه إلا إذا أبدت المرأة المكان الذي عليه الخاتم أو المكان الذي فيه الكحل.

– القول الثالث الذي ذكره –رحمه الله–: يرجع أيضاً إلى الثاني، قال: المراد بالزينة الظاهرة بعض بدن المرأة الذي هو أصل خلقتها فهذا يرجع إلى الثاني، ثم رجح –رحمه الله تبارك تعالى– بعد ذكره لهذه الأقوال القول الأول وهو قول عبد الله بن مسعود –رضي الله تعالى عنه– لوجود قرينتين في الآية التي معنا، ألا وهي قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال –رحمه الله تعالى– أن فيه هنا قرينتين تدلان على أن القول الأول ألا وهو قول عبد الله بن مسعود بأن المرأة لا يظهر منها شيء إلا الثياب الظاهرة فيه قرينتان في هذه الآية تؤكد وتشير وترشد إلى ذلك:

• القرينة الأولى قال: أن الزينة في لغة العرب هي ما تتزين به المرأة مما هو خارج عن أصل خلقتها، كالحلي والحلل، فتفسير الزينة ببعض بدن المرأة خلاف الظاهر ولا يجوز الحمل عليه إلا بدليل يجب الحمل عليه، وبه تعلم كما قال أن قول من قال الزينة الزينة الظاهرة الوجه والكفان يخالف ظاهر معنى أو لفظ الآية؛ لأن الزينة ما تتزين به المرأة مما هو خارج عن أصل خلقتها.

• القول الثاني أو القرينة الثانية التي تبين أن قول عبد الله بن مسعود هو أقوى من غيره قال: أن لفظ الزينة يكثر تكرره في القرآن العظيم مراداً به الزينة الخارجة عن أصل المزين بها، يعني لفظ الزينة يأتي في القرآن الكريم مراداً به الشيء الذي يتزين به الإنسان مما هو خارج عن أصل خلقته، وهذا قد ورد كثيرًا في القرآن الكريم وذكر الشيخ عليه آيات متعددة كقول الله تعالى مثلاً: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١] وكقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراب: ٣٢] وكقوله سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ [الكهف: ٧] فلفظ الزينة في هذه الآيات وغيرها يراد به ما يزين به الشيء وهو ليس من أصل خلقته كما ترى، وكون هذا المعنى هو الغالب في لفظ القرآن الكريم أو في لفظ الزينة في القرآن الكريم يدل على أن لفظ الزينة في محل النزاع يراد به هذا المعنى ألا وهو ما تتزين به المرأة مما هو خارج عن أصل خلقتها.

ثم بعد ذلك قال -رحمه الله تبارك تعالى- وأحب أن أقرأ هذا القول وأسنده إلي؛ لأنه قوله هو -رحمه الله تبارك تعالى- وافتتحه بالعبارة الجميلة التي دائماً يفتتح بها كلامه عندما يكون له فيه كلام في الآية يقول: «قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: أظهر القولين المذكورين عندي قول عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: أن الزينة الظاهرة هي ما لا يستلزم النظر إليه أو النظر إليها رؤية شيء من بدن المرأة الأجنبية، قال: وإنما قلنا: إن هذا القول هو أظهر الأقوال لأنه هو أحوط الأقوال وأبعدها عن أسباب الفتنة وأطهرها لقلوب الرجال والنساء ولا يخفى أن وجه المرأة هو أصل جمالها ورؤيته من أعظم أسباب الافتتان بها، كما هو معلوم والجاري على قواعد الشرع الكريم هو تمام المحافظة والابتعاد في الوقوع مما لا ينبغي.

بقي أن أقول: يستدل البعض بالحديث الوارد في أبي داود عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- حديث عائشة (لما دخلت أسماء على عائشة وكان النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- عندها، وقد بدا منها ما بدا فقال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لها: إن المرأة إذا بلغت المحيض لا يجوز لها أن تظهر إلا هذا وهذا وأشار بوجهه وكفيه) هذا الحديث في الحقيقة لا يجوز الاستدلال به وليس معنا حجة؛ لأنه حديث ضعيف وفيه علل متعددة تمنع الأخذ به، فلا يستدل به في هذا المقام أو في هذا الباب.

﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ الخمر جمع خمار وهي ما تغطي به المرأة رأسها والجيوب مأخوذة من الجيب، والجيب مكان القطع في القميص الذي يسميه الناس اليوم الطوق الذي أنا أدخل رأسي فيه، أنا أقول هذا لأفسر المعنى تماماً يعني أن القرآن الكريم يأمر النساء أن ترمي خمارها من على رأسها على صدرها ووجها إذن، لأن الذي يصل إلى صدرها إلى مكان القطع في الثياب في القميص إلا إذا أسدلته من على رأسها على صدرها، وبالتالي سيمر على وجهها، لماذا؟ لأن نساء الجاهلية كن يجدلن -كما ذكر جمهور المفسرين- يجدلن خمورهن إذا وضعوا شيئًا على رؤوسهن من خلفهن، ويخرجن سافرات ظاهرات الصدور والأعناق فأمر الله -عز وجل- نساء المؤمنين أن يضربن بخمورهن على جيوبهن حتى لا يفعلن فعل النساء المشركات، والتعبير بقوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ فيه مبالغة في الإلقاء يعني أن المرأة مبالغة بهذا الضرب يعني بأن تلقي خمارها على صدرها ووجهها حتى لا ينكشف منها شيء، وهذا تأديب أيضاً من رب العزة والجلال لنساء المؤمنين وهو كقول الله -تبارك وتعالى- في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلاَبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزب: ٥٩].

ثم يقول –سبحانه وتعالى–: ﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ هذا الجزء من الآية يدخل تحت المحور الثالث الذي هو بعنوان:

المحور الثالث: يحرم على المرأة إبداء زينتها لغير محارمها:

والمحرم هو من تحرم عليه المرأة على التأبيد يعني لا يصح له أن يتزوجها، الذي لا يصح له أن يتزوج امرأة ما إما بسبب نسب أو صهر أو رضاع مثلاً يجوز له أن يظهر عليها بما ذكره العلماء والقرآن الكريم أشار إلى أن المرأة تظهر على هؤلاء المحارم بزينة تختلف عن الرجال الأجانب فهذه الآية أخص إذن أيضاً من الآية الأولى، ولأقرأها الآن لأنها في سرد لهؤلاء المحارم ثم أقول: ما الذي يظهر؛ لأن هذا يحتاج إليه النساء من المرأة أو ما الذي تبديه المرأة أمام محرمها، قال تعالى: ﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ المراد بالبعل هنا من؟ الزوج، وهذا مسموح له كل شيء، ثم قال بعد ذلك: ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ﴾ هؤلاء من محارم المرأة ولم يذكر رب العزة والجلال العم والخال قال بعض أهل العلم: لأنه لا يجوز للمرأة أن تظهر على عمها وخالها لماذا؟ قال: لأنهما يصفان لأبنائهما، لأن ابن العم والخال يجوز أن يتزوج المرأة واضح أم لا؟ فقد يصف ولكن في الحقيقة جمهور الفقهاء على أنها تظهر على العم والخال، ولا يشترط أن تكون الآية شاملة لجميع المحارم فهي لم تذكر مثلاً التحريم بالرضاعة هنا ولكن التحريم بالرضاعة يلحق بالنسب، ولكنها لم تذكره فالآية إذن لم تستوعب، واختلف الفقهاء كما أشرت ما هو الشيء الذي تبديه المرأة لهؤلاء المحارم؟ حقيقة أيضاً الخلاف فيها بعض العلماء توسع وبعض العلماء ضيق، يعني البعض قال: تخرج عليهم بالوجه والكفين فقط، والبعض قال: لا، تبدي ما تحتاج إليه أو تدفع الضرورة إليه، كيف ذلك؟ قال: لأن هذا المحرم طالما أنه محرم لها، ومحرم عليها قد تحتاج هي إليه في السفر وما إلى ذلك وبالتالي قد تخدمه فما يظهر في الخدمة عادة من الرأس واليد مثلاً وشيء من المرفق أو الرجلين فهذا تبديه المرأة لهؤلاء المحارم، وبعض الفقهاء ومنهم الأحناف توسع أكثر من ذلك، ولكن أرى ألا يتوسع في غير ما تحتاج المرأة إليه في خدمتها في بيتها فلا تظهره على محارمها أيضاً ولا تتبهرج بزينة أمامهم بحال من الأحوال، يعني الإسلام حينما يسمح لها ذلك لرفع الحرج بين الأقارب بعضهم مع بعض، فلا يتوسع في شيء من ذلك.

ثم قال –سبحانه وتعالى– بعد ذلك: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ كلمة: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ جعلت كثيراً من أهل التفسير يقول: المراد بالنساء هنا: النساء المسلمات؛ لأنه أضاف النساء إليهن قال: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾، فتخرج بذلك من؟ النساء الكافرات، فلا تظهر المرأة أمامهن لماذا؟ قال: لأن المرأة وإن كانت لها عورة مع المرأة إلا أن ظهور المرأة المسلمة على المسلمة وعند المسلمة من الدين ومن الورع ما يمنعها أن تصف هذه المرأة التي رأتها لغيرها من الرجال، ولكن هذا لا يكون مع النساء الكافرات، أو مع النساء المشركات، والنبي –صلى الله عليه وآله وسلم– نهى المرأة أن تصف المرأة الأجنبية لزوجها كأنه يراها، وهذا أيضاً أدب جميل يؤدبنا به الإسلام.

فقوله: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ يعني أيضاً يجوز للمرأة أن تظهر على المرأة أيضاً بالزينة التي ذكرتها أو بما تظهر عليه لمحارمها، وبعض الفقهاء يقول: بأن عورة المرأة مع المرأة أيضاً من السرة إلى الركبتين، ولكن أرى أن هذه أيضاً يعني الظهر والصدر وما إلى ذلك عورة يجب على المرأة ألا تكشف شيئًا من ذلك حتى أمام النساء حتى لا يقع واحد منهن في شيء من المحظور، وحتى لا يغري بعضهن البعض في أمر لا يرضاه رب العزة والجلال، ولا يرضاه رسوله –صلوات الله وسلامه عليه–.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ يعني من الإماء والعبيد والأتباع، يعني أن الرجل تكون عنده أمة فتكشف له والمرأة يكون عندها عبد فتكشف له ما تكشفه لمحارمها فقط والدليل على ذلك الحديث الموجود في سنن أبي داود أن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– وهب لفاطمة ابنته –رضي الله تعالى عنها– غلاماً ودخل به وكان على فاطمة

ثوب إذا غطت به رأسها بدت قدماها، وإذا غطت به قدميها انكشف رأسها فقال لها النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: (لا بأس عليك إنما هو أبوك وعبدكِ) فدل ذلك على أن عبد المرأة وهو الرجل يرى أيضاً ما يراه المحارم فقط، يعني من الوجه والكفين والشعر والقدمين، ولا يتجاوز في أكثر من ذلك لمنع الفتنة وهذا أسلوب من أساليب الإسلام في أنه يسد الذرائع أو الأبواب المؤدية إلى الفتنة، ولذلك الشيخ الألباني -رحمه الله تعالى- لما ساق الحديث في السلسلة الصحيحة قال: وفي الحديث دليل واضح على جواز كشف البنت عن رأسها ورجليها أمام أبيها بل وغلامها أيضاً.

ثم قال سبحانه: ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ ﴿أَوِ التَّابِعِينَ﴾ يعني الأتباع كالأجراء والخدام والأتباع الذين يتبعون الناس بشرط أن يكونوا ليست لهم حاجة إلى النساء، وهذا معنى ﴿غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ يعني ليس عندهم تطلع وليست عندهم شهوة أجراء أو خدم أو ما إلى ذلك قد كبر سنهم أو البله، يعني لا يتطلعون إلى شيء من ذلك، لأن عقولهم غير سليمة.

أباح الإسلام أيضاً في أعصارهم المختلفة إلى مثل ذلك أن يظهر غير أولي الأربة على المرأة وأن تبدي له ما تبديه لمحارمها.

ثم قال سبحانه: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ يعني لصغر الطفل ولا يفهم أحوال النساء لا بأس بأن يظهر على المرأة بما تظهر به على محارمها إلا إذا كان مراهقاً أو يفهم شيئًا من ذلك، فيجب أيضاً على المرأة أن تستتر عنه، ولا تظهر أمامه بما تظهر به أمام محارمها.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ قال المفسرون بأن المرأة في الجاهلية وهي تلبس الخلخال كانت تمشي وتضرب برجلها الأرض حتى يظهر له صوت، فتلفت نظر الرجل إلى ذلك، فأمر الله -عز وجل- نساء أهل الإيمان ألا يفعلن ذلك، وفي الحقيقة هذا أمر واضح ولكني أود أن أشير إلى ما يشبهه ألا وهو: ألا تظهر المرأة شيئًا من مثل ذلك مما يمكن أن يفتتن به الرجل، كأن كانت حركة معينة أو أداء معين أو لفتة معينة أو ما إلى ذلك، إذا كن نهين أن يضربن عن شيء خفي لا يرى، يعمل صوتاً فما بالنا بغير ذلك، فكل ما كان مخفياً إذن إذا ظهر يمكن أن يفتتن به الرجال لا تفعله النساء، وكان الإسلام يحتاط في ذلك احتياطاً بالغاً النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لما خرج ذات يوم إلى المسجد وجد النساء في قارعة الطريق قال: (عليكن بحافات الطرق) فكانت المرأة تلصق نفسها بالجدار حتى أن ثوبها ليتعلق أو ليعلق بالجدار نتيجة شدة لصوقها بالجدار، وهذا كله حتى لا يظهر أثر من مشي هذه المرأة أو تصرف لهذه المرأة يمكن أن يفتتن به الرجال، والشيخ عبد الرحمن بن نصر السعدي -رحمه الله تعالى- ذكر من هذه الآية قاعدة عند أهل العلم وقال بها علماء الفقه والأصول وغيرهم، ألا وهي: قاعدة سد الذرائع، قال: يؤخذ من هذه الآية قاعدة سد الذرائع في الإسلام لماذا؟ قال: لأن ضرب الأرض بالرجل مباح، ولكن إن كان هذا الضرب سيؤدي إلى فتنة أو ما إلى ذلك ففي هذه الحالة لا تفعله فهو في أصله مباح ولكن منع منه؛ لأنه يؤدي إلى محرم وهذه هي قاعدة سد الوسائل أو سد الذرائع كما يقولون.

ثم ختم رب العزة والجلال هذه التعليمات الربانية الحكيمة بقوله: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ هذا التزييل يا إخواني مهم لماذا؟ لأن الله -عز وجل- أمر بأوامر في هذه الآيات والعبد لا شك يقع في التقصير، ويقع ووقوعاً قد لا يكون سهلاً ميسوراً وعلى كل وقع وقوعاً شديداً أو وقوعاً سهلاً ميسوراً عليه في كل الأحوال أن يرجع وأن يتوب إلى رب العزة والجلال، والله -عز وجل- في آيات كثيرة من القرآن الكريم يأمر عموم أهل الإيمان بالتوبة ولكنه ينعتها يعني يصفها في بعض الآيات ويأمر بها بأن تكون توبة

نصوحاً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٩] وقال أهل العلم التوبة النصوح لها أركان أو شروط:

شروط التوبة النصوح:

– منها أن يقلع الإنسان عن الذنب الذي اقترفه.

– ومنها أن يندم على ما فعل.

– ومنها أن يعزم على أن لا يعود إلى هذا الفعل أبداً.

وأبشر عموم المؤمنين أنهم إن تابوا وعملوا الصالحات وتقبلهم رب العباد بدل الله سيئاتهم حسنات، وهذه مهمة وفائدة عظيمة جدًا للتقوى، الله –عز وجل– بعدما ذكر ما ذكر من محرمات وهي من الكبائر التي ذكرها في سورة الفرقان استثنى التائبين فقال: ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠] فتوبوا إلى الله جميعاً كما ذكر ربكم في كتابه يا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون يعني تنالون الظفر بالمطلوب، الظفر بالمطلوب هو النعيم والاستمرار على هذا النعيم وأسأل الله –عز وجل– لي ولكم وللمشاهدين والمشاهدة توبة نصوحة يقبلها رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– وصلِّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجميعن.

الأخت الكريمة من مصر تقول: أريد أن أسأل فضيلة الشيخ: أنا أعمل مدرسة في مدرسة بنات، وأشعر أن شغلي مهم، لكنني لم أرتدِ النقاب، وأشعر أنه حرام أنني لم أرتدِ النقاب؟ فما هو رأي فضيلتكم؟

إجابة أسئلة الحلقة الماضية:

وكان السؤال الأول: "النهي عن إشاعة الفاحشة بين المؤمنين منهج تربوي قويم" تحدث عن هذا الموضوع مستدلاً بحديث للنبي –صلى الله عليه وسلم–؟

وكانت الإجابة:

تقول الأخت الكريمة: لقد تضمنت الآية إجراءً وقائياً للمجتمع من إشاعة الفاحشة قولاً أو فعلاً فلهم العذاب الأليم في الدنيا والآخرة فذلك رادع لمن تسول له نفسه بإشاعة الفاحشة ولو عقدنا مقارنة بين ماض سالف وهو ما حدث لعائشة –رضي الله عنها– المسلمة القانتة العابدة ومع ذلك وفي موقف نسيت فيه وأنقذفها أحد الرجال المتقين الذين لا ريب فيهم كما أخبر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أنه ما دخل بيته إلا وهو معه، أين أولئك الذين تسرعوا في الحكم وما تثبتوا مما نراه اليوم من امرأة بكامل زينتها، يخلو بها رجل في مكتب واحد أو في سيارة واحدة أو أنَّى كانت الخلوة وعذرهم المهمة مهمة عمل والاختلاط لابد منه للتقدم لهؤلاء، أقول: أنا أرى تقدمي في مصحفي وسنة نبيي –صلى الله عليه وسلم– وغيرهما لا أريد ولن أخضع لكم، أما ترى معي يا شيخ أن ما نراه من صور لنساء عاريات وأفلام خليعات دسوها علينا في الإنترنت والجوالات والألعاب والمسلسلات؟ وللأسف من مسلمين ومسلمات من إشاعة الفاحشة أما من متعظ من هذه الآيات قال –صلى الله عليه وسلم–: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)، أرجو التعليق من فضيلة الشيخ.

جزاها الله خيراً،هو في الحقيقة فعلاً جواب متميز كما ذكرت وإشارتها لطيفة وقد أشرت إليها في نهاية لقائي في اللقاء الماضي وأدعو كل من يشيعون الفاحشة بألوان مختلفة متعددة بين الناس وقد قلت: الفن الخليع وهم

يقولون عنه: الفن الراقي، أو أدب مكشوف أو مجلات هابطة أو ما إلى ذلك، أو قنوات تشيع الفاحشة بين الناس كل هذه أمور ومسائل يجب أن يكف عنها عموم المؤمنين وبهذه المناسبة أدع المؤمنين أن ينصرفوا عن مثل ذلك، فلو انصرفوا هم لضاقت مساحة هذه الفواحش كثيراً، لو أن المؤمنين انصرفوا عن هذه الوسائل التي تغريهم بهذه الفاحشة وتظهرها فيما بينهم ستتقلص بيننا كثيراً، فلنبدأ نحن ولنأخذ بنصيحة الأخت التي أجابت هذا الجواب وأشكرها عليه.

السؤال الثاني: اذكر مع التعليل حكم من قذف أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-؟

وكانت الإجابة:

الحكم فيمن قذف أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-: قال المصطفى -صلى الله عليه وسلم-: (اجتنبوا السبع الموبقات) وذكر منها: (قذف المحصنات المؤمنات الغافلات)، فعائشة بريئة ومن قذفها كافر ملعون في الدنيا والآخرة قد وجبت له النار، والسبب ما ورد في أقوال العلماء ومنهم:

- الإمام ابن كثير -رحمه الله تعالى- قال: «أجمع العلماء قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورماها بما رماها به فإنه كافر معاند للقرآن».

- وابن شهاب قال: «والحاصل أن قذفها كيفما كان يوجب تكذيب الله في إخباره وهذا يوجب له النار ومن كَذَّبَ اللهَ فقد كفر».

الجواب صحيح، والحمد لله.

كان هناك سؤال من الأخت المتصلة أنها مدرسة وتشعر بألم لأنها لم تلبس النقاب، فما رأي فضيلتكم؟

على أية حال جزاها الله خيراً، أعتقد أنها استمعت إلى ما قلت، وما نقلته من نصوص وأقوال لأهل العلم في هذه المسألة، والإنسان حسب دينه ينزل نفسه على الأحوط ودفع الريبة فالأولى بالمرأة المسلمة أن تحتجب كلية عن الرجال الأجانب وخاصة في مثل هذه الأزمان، وبالنسبة للأعمال وما إلى ذلك، فأنا أقول وأناشد: لو أن جميع المسلمات التزمن بهذا المشروع وبهذا الأدب الراقي حتى ولو قلنا بأنه مندوب مثلاً، ألا يضع هذا جميع المسئولين أمام هذه الظاهرة فيسلموا لها، ويعملوا لأن يكون المجتمع كله مجتمعاً نظيفاً وتؤسس له مؤسسات خاصة تقوم به وترعى أهله وأصحابه، فلو أن جميع المسلمات أتين بالواجب أو بالمشروع أو بالمندوب على قول في مثل هذه المسألة لنظف المجتمع تمامًا، ومسألة العمل وما إلى ذلك المرأة تنزل ذلك أو هذه الأحكام على نفسها قدر ما تستطيع ورب العزة والجلال يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] وقد بينت من خلال حديثي ما يكفي في مثل ذلك والله أعلم.

الأخ الكريم من الأردن يقول: في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾، بينما في حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (غض البصر) ما الجمع بين ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ وعند النبي -صلى الله عليه وسلم-: (غض البصر)؟

السؤال الثاني: عَبَّرَ الله -عز وجل- الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء الطفل مفرد وكلمة الذين جمع، فكيف الجمع بينهما؟

ما هو حد الطفل الذي لم يظهر على عورات النساء؟

فضيلة الشيخ سؤاله الأول: كيف نجمع بين قول الله -عز وجل-: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾، وحديث النبي -صلى الله عليه وسلم- (غض البصر)؟

الآية ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ لأنه كما أشرت وذكرت أن الغض ليس لكامل البصر فالإنسان لن يغض بصره عن كل شيء، وإنما سيغض عن الأشياء المحرمة ولذلك جاءت "من" هنا للتبعيض، ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾؛ لأن بعض النظر مباح، كأن ينظر الإنسان إلى زوجته أو إلى ابنته أو ما إلى ذلك وإلى أمه وإخوانه وما إلى ذلك، هذا نظر مباح، وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (غض البصر) هذا كلام في الجملة، ويحمل على محذوف، غض البصر إلى المحرم، فلا تعارض بينهما بحمد الله تعالى، واللغة في هذا واسعة.

سؤاله الثاني عن قول الله -عز وجل-: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا﴾؟

هذا مفرد وضع موضع الجمع، وهذا شائع في لغة العرب، كأن نقول: الحاج وقف على عرفة، ونقصد الحجاج فهذا مفرد وقع أو جاء مكان الجمع وهذا أسلوب عربي معروف، ولا شيء فيه.

سؤاله الثالث: ما هو حد الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء؟

أنا قلت: الطفل الذي يمكن أن يظهر على المرأة هو الطفل الذي لا يدرك من أخبار النساء وأحوالهن شيئًا لا يعرف حركة ولا تصرف يمكن أن تفعله المرأة فبعض العلماء قالوا: الذي لا يميز بين الحسناء والشوهاء، يعني الجميلة مثلاً أو القبيحة ونصصت في كلامي -على ما أذكر- أنه إن كان مراهقاً أو عنده تطلع لشيء عند النساء ويدركه ويعلمه فلا تظهر عليه المرأة.

الأخت الكريمة من السعودية تقول: يا شيخنا الفاضل هل مشاهدة المرأة للمشايخ في التلفاز لسماع المحاضرات المرئية أو مشاهدة البرامج العلمية يعتبر من عدم غض البصر؟ أفيدوني جزاكم الله خيراً، علماً أنه لا يوجد لدي قنوات فضائية غير قناة المجد.

الحمد لله يعني المسألة سهلة في مثل هذا بمعنى أنها لو نظرت كالرجل المرأة الأولى ثم بعد ذلك لا تديم النظر لأنها هي تسمع وليست بحاجة فالرجل يتكلم ولا يفعل حركات أو معينة تحتاج إلى أن تستفيد منها في نظر أو غيره، فأنها لو شاهدت وقع عينها على الرجل وهي تتكلم فلا تديم ولا تطيل هذا النظر لعدم الحاجة إليه، وهذا أسلم لقلبها وبعداً عن وقوع فتنة في أي موطن من المواطن، والله أعلم.

الأخت الكريمة من مصر لها سؤالان: سؤالها الأول: هل لأهل الزوج دخول البيت دون استئذان على اعتبار أنهم يدخلون بيت أخيهم؟

أنا قلت في حديثي بأن صاحب البيت عندما يدخل على زوجته يستحب له أن يستأذن فما بالنا بغيره، وقلت بأنه يجب الاستئذان على الأم، وعلى البنت وعلى الأخت وعلى العمة، وعلى الخالة حتى لا يرى عورة أو يرى شيئًا لا يجب عليه أن يراه، فما بالك بأهل الزوج ولا أدري ماذا تقصد بأهل الزوج، إن كان تقصد الرجال فهو محرم أصلاً أن يروها، والنبي -صلى الله عليه وسلم- شدد في هذا، وقال: (الحمو الموت) وقيل الحمو: يعني أقارب الزوج، وإن كانوا نساءً فعليهن أيضاً أن يستئذن على كل حال.

سؤالها الثاني: هل للزوج حق في عدم دخول أي فرد من أفراد عائلة الزوجة وبالأخص أحد الوالدين أو الأخ مثلاً وجزاكم الله خير؟

في المنع يعني؟

نعم.

هو في الحقيقة النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر بأنه على المرأة ألا تدخل إلى بيتها من لا يرغب زوجها فيه إدخاله، ولكن أقول لعموم الرجال، يجب أن تكون العلاقة طيبة بين الرجل بين أهل زوجه، وبينهما صلة ونسب وارتباط وبناءً عليه فلا يقف الزوج حائلاً أمام أن يأتي إليه أقارب الزوجة بل عليه أن يرحب بهم وأن يضيفهم وأن يقوم بما يجب بأمثالهم وهذا في الحقيقة فيه ما فيه من التقارب وفيه ما فيه من المحبة والألفة بين الرجل وزجه وبين المجتمع بصورة عامة، فأنا أدعو في مثل هذا الأزواج إلى أن يحرصوا على مثل هذه العلاقات الاجتماعية خاصة مع هؤلاء الأقارب.

الأخ الكريم يقول: نهى الله -تبارك وتعالى- عن إبداء المرأة زينتها إلا للمحارم واستثنى المحارم -جل وعلا- ففي قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ هل يمكن حمل الاستثناء في هذه الآية على الخدم الموجودين الآن في البيوت؟

هذا سؤال نحتاج إليه الآن، طبعاً لا يمكن حمله بحال، لا يمكن حمله بحال؛ لأن الخادم الذي يعمل في البيت هذا أجير، والآية نصت على من يملكه الإنسان ملكاً، لماذا؟ لأن الحاجة داعية إلى أن يطلع وإلى أن يظهر، والمرأة إن كان عندها عبد فهي تملكه وهي سيدته والحاجة داعية إلى مثل ذلك، أما الأجير أو الخادم فلا يجوز له بحال من الأحوال وأنت أحسنت في هذا أنا كنت أود أن أنبه إليه، ولكنه فاتني؛ لأن الناس اليوم في بيوتهم يتوسعون في هذا، تخرج المرأة مع السائق، وتخرج على الخادم، ونحن قد سمعنا عن مصائب تحدث نتيجة هذا الإهمال في مثل هذه الأمور ولكن الله -عز وجل- حرم على المرأة أن تبدي زينتها لغير محارمها وهذا الخادم أو الأجير ليس محرماً بحال من الأحوال، ولم يقل أحد أبداً من أهل العلم بأنه محرم، ولكن هذا مما أتى به الناس تساهلاً من عند أنفسهم ويجب عليهم أن يقلعوا عنه، وختام الآية التي كانت معنا ينفع هنا: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا﴾ من كان عنده شيء من ذلك فليتب إلى الله -عز وجل- ولا يعود إلى مثله أبداً، فإنه باب فتنة عظيم.

الأخ الكريم من الإرمارات يقول: هناك بعض النساء من أخوات المسلمات يضعن ثيابهن في صالات الأفراح والبعض منهن يلبسن ملابس غير لائقة ويقولون لا يوجد رجال، فهل يجوز هذا الفعل؟ وجزاكم الله خير.

في الحقيقة المرأة لا تضع لباسها بحال من الأحوال في غير بيتها لأنها في المكان الذي هي فيه من أدراها أنه لا يدخل عليها غريب؟ من أين لها أن لا ينظر إليها أحد؟ فهي قد ترى أن الأبواب محكمة مثلاً ولكن قد يكون هناك أماكن قد أعدت من قبل كي ينظر من في قلبه مرض، فالمرأة يجب عليها أن تحظر من ذلك، وخاصة في زمن التقنية الحديثة، الآن فمع الناس اليوم أجهزة المحمول والنقال والجوال وما إلى ذلك ويُصور بها ما يُصور فالمرأة إذا فعلت ذلك حتى ولو كان هناك مجموعة من النساء وفعلت هذا الأمر فمن يضمنها أن تُصور وأن يراها غيرها ممن ليس بمحرم لها، أو ليس من النساء ويضطلع على شيء من زينتها.

هذا في الحقيقة تساهل شديد جداً من النساء وأنا أعلم أن هذه أمور تقع ولكن أوجه القول لعموم المؤمنات وأقول: اتقين الله -سبحانه وتعالى- فيما أنتم عليه، الأمر صعب جداً والفتنة واقعة وحاصلة وعلى أهل الإيمان أن يتيقظوا لفتن الشيطان ووسائله المؤدية إلى فساد المجتمع والقضاء عليه والعياذ بالله -تبارك وتعالى- والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يقول: (ما تركت فتنة على أمتي أشد من النساء) فالمرأة وضعها خطير وعلى

المرأة أن تتقي رب العزة والجلال في بدنها وفي تصرفاتها وفي تحركاتها وما إلى ذلك، وألا تضع شيئًا من ثيابها في غير بيتها أمام زوجها، وأنا قلت أيضاً بأنه لا يجوز للمرأة أن تظهر على محارمها وكذلك فيما أراه والله أعلم على النساء إلا بما تدع الحاجة إليه كالشعر والرقبة مثلاً والرجلين وما إلى ذلك أما أن يظهر شيء من صدرها أو من ظهرها أو ما إلى ذلك فأقول: لا يجوز هذا بحال من الأحوال لشريعة ربنا ودفعاً على كل حال للريبة والفتنة والابتلاءات التي يقع فيها الناس اليوم.

الأخت الكريمة من الكويت تقول: ماذا عن الصم البكم الذين لا يستخدمون إلا لغة الإشارة وعليهم أن ينظروا للشفتين ولكل حركة ليدركوا ما يدور حولهم؟

على كل حال لهم سعة -إن شاء الله تعالى- ونسأل الله -عز وجل- أن يعافيهم، وليكن كل تصرفاتهن بالمعروف.

الأخ الكريم يقول: هل يجوز للمرأة لبس البنطال الواسع أو الضيق؟

الحقيقة لم يُعرف عند النساء المسلمات أن تلبس المرأة البنطال دون أن يكون عليه شيء، لو لبست البنطال واسعاً أو ضيقاً يجب عليه أن تأتزر فوقه بإزار ولا تلبسه هكذا.

الأخت الكريمة من السعودية تقول: لماذا لم يرد ذكر الأخوال والأعمام في هذه الآيات؟

قلت بأن الآية لم تستقص جميع المحارم وفي آية سورة مثلاً الأحزاب، ﴿لاَ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلاَ أَبْنَائِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٥] لم تستقص أيضاً جميع المحارم، هنا ذكر أشياء وهناك ذكرت أشياء، وليس معنى عدم ذكرها هنا أنها لا تدخل، فقد دخلت في آيات أخر وبينها نبينا -صلوات الله وسلامه عليه-، وعلمت بفضل الله -تبارك وتعالى- والراجح كما ذكرت من أقوال أهل العلم وعليه جمهور الفقهاء أن العم والخال من المحارم.

الأخ الكريم من السعودية يقول: ألا يدل قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا﴾ على رجحان قول ابن مسعود؟

لاشك أن هذا يعني يدل على ما ذكرت وغيره أيضاً يدل وأشرت إليه ولعل أكثر منه في الدلالة ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾؛ لأنها لا يمكن أن تضرب بخمارها الذي على رأسها على جيبها ألا وهو صدرها ومكان القطع، يعني مكان الطوق الذي يكون في القميص كي تدخله في رأسها، لا يمكن لها أن تضرب بخمرها على هذا الصدر أو على مكان القطع من مكان القميص إلا إذا سترت بذلك وجهها وهذا كله يؤيد قول عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- ويرجحه.

الأخ الكريم يقول: في الحقيقة أن السؤال يتكون من نقطتين اثنتين: الأولى: ما حكم الدين فيمن يطالبون بنسب ولد الزنا لأبيه؟

النقطة الثانية: هل إذا اعترف الوالد بولده يعد هذا مبرراً بنسبته إليه؟

السؤال الأول: ينادون بنسب ولد الزنا لأبيه إن ثبت أنه من زنا لا ينسب إليه، ولكن المسألة النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (الولد للفراش وللعاهر الحجر) (الولد للفراش) بمعنى: أن المرأة إذا كانت ذات زوج وعندها زوج، وفرض أنها زنت فينسب الولد في هذه الحالة لمن؟ للزوج، إلا إذا اعترفت المرأة وأقرت أو لم يأتها الرجل في فترة الحمل لغيابه أو ما إلى ذلك، ففي هذه الحالة لا ينسب إليه، هذا بالنسبة للسؤال الأول.

هل إذا اعترف الوالد سواء كان من زنا أو من زواج عرفي يعد هذا مبرراً بنسبة الولد إليه؟

إذا اعترف بأنه ابنه؟

نعم، سواء من زنا أو من زواج عرفي.

يعني وقع من زنا وليس زواجاً، لا ينسب إليه.

أو زواج عرفي؟

زواج عرفي هذا يحتاج إلى تفصيل إذن، يعني كيف تم وما إلى ذلك والشروط وأركانه تحققت فيه الزوجية أو لم تتحقق؛ لأن كلمة الزواج العرفي كلمة مطاطة تدخل اليوم في أمور متعددة.

الأخت الكريمة من مصر تقول: هل استعمال الهاتف له آداب استئذان كالرن ثلاث مثلاً ولا نزيد على هذ؟

بالنسبة لعدم التواجد بالنسبة للهاتف وما إلى ذلك فلو زاد أرى بأنه لا شيء فيه، لماذا؟ لأنه قد لا يتنبه الإنسان غالباً إلى درجة الجوال أو البيت أو الهاتف وقد يعتمد بعض من في البيت بعضهن على بعض أو يعتمد بعض الرجال على بعض في أن هذا يرد أو هذا يرد إنما بخلاف الطارق على الباب، يعرفون أن رجلاً قائماً شاهداً موجوداً يقومون للرد عليه، ولكن يمكن أن نقول هنا فائدة: لأن الإنسان إذا دق ثلاث مرات أو زاد رابعة من باب مثلاً الاحتياط ووجد أنه لا يوجد جواب لا يكثر من التكرار في مثل ذلك والناس اليوم أيضاً الحمد لله تعالى إن أراد ألا يرد في حالة من الأحوال فهو إما أن يغلقه أو أن يجعله صامتاً أو ألا يجعل هاتف البيت مشبوكاً للاتصال أو ما إلى ذلك، يعني الوسائل التي تمنع الإنسان في عدم الرد دون أن يحرج أحداً كثيرة وله فيها مخرج والحمد لله.

فضيلة الشيخ هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه المحاضرة؟

السؤال الأول: هل يقدم السلام على الاستئذان أم يقدم الاستئذان على السلام؟ اذكر الصواب في ذلك مع الدليل.

السؤال الثاني: اذكر ثلاثة من فوائد غض البصر؟

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجميعن.

الدرس الثاني والعشرون: تفسير سورة النور

فضيلة الشيخ أهلاً ومرحباً بكم.

أهلاً وسهلاً ومرحباً بكم وبالحاضرين والمشاهدين والمشاهدات ونلتقي بعون الله وفضله وتوفيقه في هذا اللقاء مع بعض آيات من سورة النور، وهذا اللقاء يشتمل على عدة محاور هي كالتالي:

المحور الأول: الزواج ومكانته في الإسلام.

المحور الثاني: وجوب التعفف عن الحرام.

المحور الثالث: الله نور السماوات والأرض.

ولنستمع الآن إلى آيات اللقاء من الأستاذ الكريم فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾.

جزاك الله خيراً.

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١]، أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله -تبارك وتعالى- وخير الهدي هدي محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أما بعد،

الآيات التي استمعنا إليها الآن تشتمل كما ذكرت على محاور متعددة المحور الأول بعنوان:

المحور الأول: الزواج ومكانته في الإسلام:

وتحته قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمائِكُمْ﴾ إلى آخر ما جاء في هذا السياق القرآني الكريم، وهذه الآية فيها أمر من رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- بالزواج وفيها أيضاً بيان لجمل من الأحكام المتعلقة بذلك، وسأحللها وأبينها الآن -إن شاء الله تعالى-، ولكني أود قبل أن أدخل فيما تشتمل عليه هذه الآية من أحكام، أن أذكر كلمة عن الزواج ومكانته وأهميته في الإسلام، ذلك أن رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- خلق هذا الخلق وشاء -سبحانه وتعالى- أن يخلف الناس بعضهم بعضاً، عن طريق التزاوج أو التناسل لحكمة أرادها رب العزة والجلال سبحانه، وهيأ الإنسان سواء كان رجلاً أو امرأةً لأداء هذه المهمة وأودع فيه من الغرائز ما تدفعه إلى أن يسكن إلى المرأة، ولذلك كان ولابد من تشريع حكيم ينظم هذا الأمر حتى تستقيم الأسر وحتى تنجو المجتمعات من الفساد والانحراف وما إلى ذلك، فكانت شريعة الزواج في الإسلام من الشرائع التي شرعها رب العزة والجلال سبحانه، وأرادها كي تستمر هذه الحياة بالطريقة المشروعة النظيفة السليمة التي فيها يجتمع الرجل مع المرأة في إطار مشروع مؤيد من قبل رب العزة والجلال وعلى هدي وسنة نبينا -صلوات الله وسلامه عليه-، ولذلك نجد أن القرآن الكريم بين في كثير من آياته أن الزواج نعمة من الله -عز وجل-، بل آية من آياته: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، ومن ذلك أن الله -عز وجل- أيضاً في كتابه بين أن الزواج من سنن وهدي الأنبياء والمرسلين ويقول رب العزة والجلال في كتابه مخاطباً النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- والخطاب له أيضاً خطاب لأمته: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨]، ومن دعاء عباد الرحمن الذين وصفهم ربهم -سبحانه وتعالى- بصفات جليلة عالية كريمة في سورة الفرقان أنهم يقولون كما ذكر الله عنهم: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان: ٧٤]، ولذلك نجد أن الزواج أيضاً من هدي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فهو كما أنه من هدي الأنبياء والمرسلين السابقين نجد أنه أيضاً بصورة خاصة ينص نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- في هذه الشريعة المحمدية على أن الزواج من هديه وسنته -صلوات الله وسلامه عليه-، ولذلك في حديث الرهط الثلاثة الذين أتوا إلى بيوت النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وسألوا عن عبادته فكأنهم تقالوها، يعني عدوها قليلة، وقالوا: وأين نحن من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وبناءا على أنهم نظروا على أن هذه العبادة قليلة من وجه نظرهم فقال: وكانوا ثلاثة: (فقال أحدهم: أما أنا فإني لا أتزوج النساء أبداً، وقال الآخر: وإني سأصوم الدهر أبداً، وقال الثالث: وأنا سأقوم الليل أبدا) يعني لا ينام، سمعهم النبي -صلوات الله وسلامه عليه-، فخرج عليهم وقال: (أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أنتم الذين قلتم هذه الكلمات؟ فأخبروه بأنهم هم الذين قالوها، فقال -صلوات الله وسلامه عليه- وتأملوا إلى الكلمات المضيئة في مثل ذلك: أما أنا فإني أعلمكم بالله وأتقاكم لله وأخشاكم لله، ومع ذلك فإني أصوم وأفطر وأقوم وأنام وأتزوج النساء)، ثم قال هذه الكلمة الكريمة التي هي تشريع نبوي كريم مؤيد من ربنا -سبحانه وتعالى- قال: (هذه سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني) إذن هدي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يتزوج الإنسان، ولذلك ذهب بعض الفقهاء إلى أن الزواج واجب على من كان قادراً عليه ويخشى على نفسه العنت، والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قطع التبتل عن عثمان -رضي الله تعالى عنه- ونهاه عن ذلك، وأخبر من انقطع للعبادة بأن لزوجه عليه حقاً ولأهله عليه حقاً، ولولده عليه حقاً، وأنه يجب عليه أن يعطي كل ذي حق حقه.

ولهذا أقول يا أمة الإسلام: الزواج ينظم غرائز الإنسان ثم هو بعد ذلك آية من آيات الله -عز وجل- في الكون، به يعني بسببه يستمر دولاب الحياة كما يقولون ويخلف الناس بعضهم بعضاً لأن الإنسان يخلف غيره، فالابن يخلف أباه وما إلى ذلك وهذه من سنة الله -سبحانه وتعالى- في هذا الكون، الله -عز وجل- أراد أن يعمر العباد هذا الكون، والكون يعمر بهذا الأداء أو عن طريق التناسل والتزواج، ولذلك حث النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- على أن يتزوج العبد الولود الودود؛ لأن إنجاب الأولاد وتكوين الأسر وما تستلزمه من رعاية وتربية وعطف وحنان يدعو إلى ذلك، ولهذا يقول صلوات الله وسلامه عليه: (تزاوجوا توالدوا تناسلوا فإني مباهٍ بكم الأمم يوم القيامة).

أما المراد بالإنكاح في قوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا﴾ يعني زوجوا، هو التزويج و﴿الأيَامَى﴾ جمع أيم، وهي كلمة تطلق على من لا زوج له من النساء والرجال سواء كان قد تزوج قبل ذلك أو لم يتزوج، إذن ﴿وَأَنْكِحُوا﴾ يعني تزوجوا، ﴿الأيَامَى﴾ يعني أن يتزوج الرجل إذا كان ليست عنده امرأة والمرأة هي أيم أيضاً بمعنى أن تتزوج إن لم يكن لها رجل، والله -عز وجل- في هذه الآية بعدما أمر بهذا الأمر بالزواج وقال: ﴿وَأَنْكِحُوا الأيَامَى﴾ قال: ﴿مِنْكُمْ﴾ وهذه الكلمة تفيد: يعني أنكحوا الأيامى من المسلمين، وقد جاءت آيات أخر في كتاب الله -عز وجل- تصرح بمفهوم هذه الآية وذلك كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١]، إذن هذه الآية صرحت وبينت معنى قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿وَأَنْكِحُوا الأيَامَى مِنْكُمْ﴾ حينما يقول ربنا: ﴿وَلاَ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١]، ولهذا أقول: لا يجوز بحال من الأحوال أن تتزوج امرأة مسلمة أن تتزوج كافراً، ونحن نسمع في بعض الأحيان وخاصة في بلاد الغرب أن بعض المسلمين يتساهل فيزوجون بناتهم ومن لهم سلطان عليهم بالرجال الكفرة، وهذا لا يجوز بحال من الأحوال لقوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الأيَامَى مِنْكُمْ﴾ وللآية المصرحة بذلك في قوله: ﴿وَلاَ تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ [البقرة: ٢٢١]، والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في سنته ومعلوم هذا في سيرته أنه كان يفرق بين الرجل وبين المرأة إن كانت المرأة مسلمة والرجل كافراً.

أما الرجل فيجوز له أن يتزوج الكتابية وهي مستثناة من عموم الكفار، يجوز للرجل أن يتزوج المرأة الكتابية وهذا متثنى من عموم النهي عن التزوج بالكفار، وقد ورد هذا صريحاً في سورة المائدة، وسورة المائدة من آخر ما نَزَلَ من كتاب الله -تبارك وتعالى- والله -عز وجل- قد أباح ذلك في قوله: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥]، تأملوا هذا الشرط، يعني أنه يجوز للرجل المسلم أن يتزوج الكتابية يهودية كانت أو نصرانية بشرط أن تكون عفيفة. وفي الحقيقة هذا مقصد من الشارع لأمر هام، ألا وهو الدعوة إلى الله -تبارك وتعالى-، لأن العصمة تكون في يد الرجل والقوامة في الإسلام لمن؟ للرجل، والرجال سيتبعون أو الذرية من الرجال والنساء والأطفال بنين وبنات سيتبعون الرجل، والرجل حينما يكون قيماً ويتعامل مع المرأة بالمعروف، ويدعوها إلى دين الله -تبارك وتعالى- بنسبة عالية كبيرة أنها ستدخل في الإسلام وتتبع النبي -عليه الصلاة والسلام- وعلى أقل تقدير إذا لم تدخل هي في الإسلام فعلى الأقل أن تكون ذريتها مسلم، بدلاً من أن تنجب من رجل كافر ذرية كافرة، ستنجب من مسلم ذرية تعبد الله -سبحانه وتعالى- وتوحده.

وأنا أقول هذا اليوم، وأود أن أنبه على نقطة مهمة، للأسف الشديد، بعض من يتزوج بنساء أهل الكتاب هو الذي يفرط في دينه ويقصر في تعاليم ربه، وهي التي تجره إلى كثير من الآثام والمعاصي، فهو بهذا يخالف التشريع فبدلاً من أن يكون قيماً عليها ويدعوها إلى الدين ويكون ذرية مسلمة في بيته تعبد الله -سبحانه وتعالى- وتوحده إذا به هو ينقلب أو يبتعد على أقل تقدير عن التمسك بالدين الذي بعث النبي -صلوات الله وسلامه عليه- ، وفي الحقيقة أقول: على المسلمين اليوم أن يبتعدوا عن نساء أهل الكتاب، ليس لأن هذا محرمٌ فهو مباح له في كتاب الله -تبارك وتعالى- ولكن لضعف من يذهب إلى هذه البلاد اليوم ويتزوج من هناك ويتأثر بأحوال هؤلاء الكافرين والكافرات، وبحمد الله وبفضله يوجد فيض كثير وزيادة مطردة في النساء المسلمات وعلى المسلم أن يعف النساء المسلمات من باب الأولى وإن كان الأمر مباحاً له، وأركز أيضاً على أمر ذكرته آنفاً وأشارت إليه الآية ألا وهو إذا تزوج الرجل بامرأة من أهل الكتاب عليه أن يلاحظ أن يتزوج امرأة عفيفة حتى لا تفسد عليه فراشه، وحتى لا تخونه في عرضه، وهذه مسألة تحتاج إلى شيء من التثبت وتحتاج إلى شيء من التحري، وتحتاج إلى قدر كبير من الاحتياط.

﴿وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ﴾ يعني من المسلمين، ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمائِكُمْ﴾ يعني أنكحوا الصالحين وتأملوا كيف أن الإسلام يشير إلى مثل ذلك، وهذه الآيات تركز على هذا المعنى لأنه ليس القصد فقط أن يتزوج الإنسان ثم لا يقيم في هذه الأرض الدين لله –تبارك وتعالى–، لأن الغرض أن تتحقق العبادة التي وُجد من أجلها الإنسان رجلاً كان أم امرأة، وبالتالي يجب على المسلم حينما يتزوج يعف نفسه عن الحرام ثم بعد ذلك تنتج منه بعد ذلك ذرية طيبة صالحة تؤمن بالله –تبارك وتعالى– وتستجيب لهدي النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–، وهذه إشارة حينما قال ربنا: ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمائِكُمْ﴾ يعني هي دعوة أيضاً إلى أن يزوج الإنسان الصالحين من المملوكين والصالحات من المملوكات يعني من العبيد، وقد بينت آية سورة النساء أن الحر لا يتزوج الأمة إلا بالشروط المذكورة في هذه الآية التي في سورة النساء، وهي في قول الله –تبارك وتعالى– وهذا حكم فقهي يجب أن نتنبه إليه: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٥]، هذه الآية فيمن يريد من الرجال الأحرار أن يتزوج بمن؟ بأمة يعني بامرأة من العبيد، هذه الشروط بمعنى أن تكون محصنة حتى لا تخونه؛ لأنه قد يقع من هذه المرأة تساهل في مثل هذه الأمور، وأن يكون الإنسان الذي يريد أن يتزوج من هذه الأمة غير قادر على أن يتزوج من حرة، ويخاف العنت على نفسه، يعني يخاف أو يخشى الوقوع في الزنا.

قد يقول قائل: ولماذا شرطت الآية هذه الشروط؟ لأن هذا فيه مصلحة للإنسان وللإسلام لأن الولد سيتبع أمه في هذه الحالة والحر لا يحب أن يكون ولده عبداً.

﴿وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمائِكُمْ﴾، قبل أن أنتقل من هذه الجزئية اليسيرة وأنا أتكلم عن الزواج وعن مكانة الزواج في الإسلام أود أيضاً أن أهمس بصوت مرتفع في آذان أولياء الأمور سواء كانوا عندهم أولاد أو عندهم بنات أن يبسطوا مسائلهم مع إخوانهم المؤمنين، اليوم في المجتمعات الإسلامية بصورة عامة توجد أزمة اجتماعية خطيرة وهي بلوغ السن الكبير للرجل وبلوغ المرأة إلى سن يعني يتجاوز مرحلة الاستمتاع بها والتمكن من أن تنتج وأن تنجب ذرية تقوم على شئونهم وترعى أحوالهم وتخدمهم بالأمر المناسب الذي يليق بهم وتعتني بتربيتهم، كل ذلك بسبب ما وضعته المجتمعات الإسلامية وللأسف الشديد من قيود وشروط كلها من باب الحرج والمشقة على أنفسهم، يعني الإنسان من نفسه هو الذي يضيق على نفسه في هذه المسألة، أقول هذا عند قولي: ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمائِكُمْ﴾ حينما قلت: بأن الحر له أن يتزوج العبدة بشروط، إن لم يستطع وإن لم يكن عنده مال يمكن أن يتزوج به الحرة، ولماذا نضيق على المسلمين من الرجال هذا التضييق والنبي –صلى الله عليه وآله وسلم– زوج رجلاً على خاتم من حديد؟!! زوج رجل امرأة صالحة، امرأة .... يعني نساء اليوم يعني لا أستطيع أن أعقد مقارنة بين صحابة النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– من الرجال ومن النساء؛ لأن هؤلاء القوم زكاهم ربهم –عز وجل– في كتابه وأثنى عليهم في كتابه، وشهد لهم ربنا –سبحانه وتعالى– في كتابه، وأثنى عليهم نبينا –صلى الله عليه وآله وسلم– ومع ذلك النبي –صلى الله عليه وسلم– يزوج امرأة من نساء المسلمات الصالحات القانتات الحافظات للغيب يزوجها على خاتم من حديد، ويزوج آخر بشيء من القرآن كان معه، ما عنده مهر، ما عنده مال من فقط تأسيس بيت أو يدفع كذا هناك اليوم وضعت وأنتم تعلمون ربما أكثر مني في هذا، يعني وضعت شروط ووضعت قواعد وسن الناس في هذا قوانين على أنفسهم شددوا بها على أنفسهم، وأصبحت البيوت اليوم تئن مما فيها، وهذه دعوة لإخواني المسلمين بصورة عامة محبة لهذه المجتمعات الإسلامية في الله –تبارك وتعالى–، أن يتبسطوا وأن يسهلوا وأن يراعوا أمور الشباب، وولي الأمر عليه أن يتفهم وضع المجتمعات وما هي فيه والفتن المظلمة التي تحيط بالناس من كل جانب، ولنعلم جميعاً أننا خلقنا لنعبد الله –سبحانه وتعالى–، لا لكي يكون الإنسان عنده كذا وكذا في هذه الحياة الدنيا، فهذه الدنيا ذاهبة وآتية، والعبرة فيها وما يجب أن يخرج الإنسان بفائدة منها هو تقوى الحق –تبارك وتعالى–، وذلك يكون بعبادة الله –عز وجل– بما شرع وفقاً لهدي النبي الكريم –صلوات الله وسلامه عليه–.

وأقول هذا قبل قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ﴾ أقول حتى تتفتح الآذان لهذه الجملة من هذه الآية لماذا؟ لأن البعض هذا يقول بأن هذا وعد من الله -عز وجل- وقد يتزوج الإنسان ولا يتحقق له الغنى، الآية تقول: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ﴾ والجواب عن هذا:

أولاً: هذا أمر مربوط بالمشيئة هذا أمر أو وعد من رب العزة والجلال مربوط بالميشئة فقد يشاء الله -عز وجل- لإنسان فقير أن يتزوج فيأتيه الغنى من الله -عز وجل- ولا يشاء ذلك لآخر، والله -عز وجل- كما جاء في سورة التوبة ربط مثل هذا بالمشيئة: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ﴾ [التوبة: ٢٨] فربط الغنى في سورة التوبة بالمشيئة والقرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، وللعلماء في معنى هذه الآية أيضاً توجيه لطيف: يقول عبد الله بن عباس أولاً: الله -عز وجل- رغب المسلمين في التزويج وأمر به الأحرار والعبيد ووعدهم عليه الغنى، واللفتة التي ذكرها المفسرون في هذه الآية وهي: أن من تزوج لله -عز وجل- طاعة لرب العزة والجلال وغضاً لبصره وطلباً للذرية، هذا يعمل طاعة، والذي يفعل طاعة أيضاً موعود من الله -عز وجل- أن تفتح له أبواب الخير، وهذا جاء في قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، فهؤلاء لما فعلوا هذه الطاعة، وتزوجوا لله -تبارك وتعالى- وغضوا أبصارهم عن الحرام وعفوا أنفسهم بالزواج وهم فقراء، لما تعبدوا الله -عز وجل- بهذه الطاعة يمن ربنا -سبحانه وتعالى- عليهم بالتيسير كما قال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، فآمنوا يا أيها المؤمنون واتقوا رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، وييسروا أموركم ييسرها رب العزة والجلال لكم، وهي دعوة أيضاً إلى أن الإنسان لا ينظر إذا أتى إليه ... رجل عنده امرأة، أتى إليه رجل يخطب منه بنته عليه ألا ينظر إلى ماله، ولا إلى وضعه في المجتمع ولا إلى ما هو عليه ولكن قبل كل شيء عليه أن ينظر إلى دين الرجل، (إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه) عليه أن ينظر إلى الدين، كذلك الرجل لا ينظر إلى مكانة المرأة الاجتماعية، أو ما هي عليه من جمال أو ما هي عليه من حسب ونسب ومال وما إلى ذلك، ولكن عليه أن ينظر إلى صاحبة الدين، فإذا نظر إلى صاحبة الدين وكانت فقيرة وتزوجها يرجى له الغنى بفضل الله -تبارك وتعالى-، وإن لم يتم وعد الله -عز وجل- له في الدنيا بالغنى الذي يريد وكان عابداً لله -سبحانه وتعالى- كانت له جنة النعيم، والدنيا ما هي إلا ساعة، ولا يمكن أن أقارنها كما ذكرت آنفاً في بداية هذه الحلقات، بالحياة الدائمة والنعيم المقيم الذي أعده رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- لمن آمن به واتقاه.

وفي مسند الإمام أحمد أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- والحديث حسن، يقول: (ثلاثة حق على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الحرية والعتق، والغازي في سبيل الله -تبارك وتعالى-) يعني المجاهد في سبيل الله -عز وجل-.

وتختم هذه الآية بقول الله -عز وجل-: ﴿وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ تأملوا الختام، القرآن من عند الله -عز وجل-، يا أيها الإخوة يا أيها الأغنياء أنتم مهما يكن عندكم فأنتم فقراء، أما الواسع، أما الذي خزائنه ملأى، أما الذي بيده الدنيا والآخرة، وبيده كل شيء، ويملك كل شيء، فهو -سبحانه وتعالى- واسع عليم، وهذه لفتة لمن يترفع عن أن يزوج الفقير، أنت يا عبد الله مهما يكن عندك فأنت في ضيق ولست في سعة، فأنت محدود ولست متفتحاً تفعل ما تشاء، وما لديك إنما هو وديعة عندك، فاتق رب العزة والجلال، وتذكر أن الله -سبحانه وتعالى- هو وحده الغني وأنت فقير مهما أوتيت ومهما كان لديك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

ثم بعد ذلك أدخل في المحور الثاني في هذا اللقاء وهو بعنوان:

المحور الثاني: وجوب التعفف عن الحرام:

وتحته قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ﴾ لما ذكر الحق -تبارك وتعالى- تزويج الحرائر والإماء من الرجال والنساء ذكر من ليس لديه مال ولا يتمكن من الزواج فقال: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ﴾ والآية تأمر من لا يجد كفاية في الزواج أن يتعفف عن الحرام، ولا يقربه، وهذه الآية يجب أن نضمها إلى قول الحق -تبارك وتعالى- فيما سبق أن ذكرته في هذه السورة: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، هذا هو الاستعفاف، أن تستعف عن الحرام وعن مقدمات الحرام، وعن السعي إلى الحرام ومن ذلك غض البصر والوسائل المؤدية إلى الوقوع في الفاحشة -والعياذ بالله تبارك وتعالى-، ومن ذلك قول الحق جل ذكره: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقد سبق أن ذكرت أن الحر إذا لم يستطع أن يتزوج امرأة حرة وأمكنه أن يتزوج أمة له أن يتزوجها بالشروط المذكورة، وأعيد هذا عند قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ ولو صبر لكان خيراً له من زواج أمة.

ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ هذا أمر من الله -تبارك وتعالى- للسادة أن يكاتبوا العبيد والإماء الذين هم تحت أيديهم إن طلبوا منهم ذلك، يعني الإنسان يكون عنده عبد أو أمة ويطلب العبد أو تطلب الأمة أن تكاتبه يعني أن تعقد بينه مكاتبة في أنها تؤدي أو أن يؤدي له المال الذي سيتفقان عليه، ثم بعد أدائه تصبح حرة ويصبح العبد حراً، هذه الآية تبين هذا الحكم، وتدعو إليه وترغب فيه،

وقد اختلف العلماء: هل هذه الآية أمر إيجاب من الله -عز وجل- على السادة الذين يملكون العبيد والإماء أن يكاتبوهم إذا طلبوا منهم ذلك؟ أم أن المسألة دائرة على الأمر بالإرشاد والاستحباب؟ اختلف العلماء في ذلك وجمهور أهل العلم على أن الأمر أمر إرشاد واستحباب، أن الأمر أمر إرشاد واستحباب، واستدلوا على ذلك بقول النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: (لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه) لأن هذا ماله، فلا يلزم به، أما من قال بأن هذه الآية أمرت بذلك وأن الأمر للوجوب، قالوا لأن ظاهر الأمر ذلك، ولأن عمر -رضي الله تعالى عنه- لما طلب سيرين والد محمد بن سيرين لما طلب من أنس وكان عبداً عنده أن يكاتبه فأبى أنس فجاء عمر -رضي الله تعالى عنه- وضرب أنساً بالضرة، لأنه امتنع عن أن يكاتب سيرين الذي هو والد محمد بن سيرين.

الإمام الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى- قال: ضرب عمر -رضي الله تعالى عنه- ضربه لأنس بالدرة لا يعني أن ذلك أمراً على الوجوب وإنما يمكن أن يكون قد ضربه على الأمر المندوب المؤكد في الاستحباب، يعني هو أمر مستحب ومندوب وقد ضربه على ذلك.

والرجل أو السيد عليه أن يساعد العبد إن كان عنده شيء من ذلك، وطلب منه أن يكاتبه ولكل خير في ذلك، يعني للعبد فيه خير، وللسيد فيه خير، الخير الذي للعبد هو أنه يعتق، والخير الذي للسيد فيه أنه يؤدي إليه شيئاً من المال الذي اتفقا عليه وقد لا يمكن أن يحققه له العبد وهو تحت يده؛ لأن العبد قد يكون عنده ولا يتمكن من أن يعطي سيده المال أو أن يحقق أو أن يرجع له المال الذي سيعطيه له لو كاتبه عليه، لماذا؟ لأن هذا سيدفعه إلى العمل، ويجعله ينشط ويجتهد كي يجمع المال لسيده حتى تعتق رقبته.

والله -عز وجل- لما قال: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾ قال: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾، ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ قال بعض أهل العلم: المراد بالخير هنا هو الأمانة، وقال بعضهم: إن علمتم فيهم صدقاً، وقال بعضهم: إن علمتم فيهم حيلة وتكسباً، لماذا؟ لأن الذي عنده حيلة وتكسب سيستطيع أن يؤدي لسيده هذا المال.

أود أن أشير إلى كلمة موجودة في تفسير الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- وهي أنه قال: بأن العبد يؤدي لسيده النجوم المتفق عليها، لأن هذه قد تستشكل عند بعض طلبة العلم، كلمة النجوم المراد بها ماذا؟ يعني المواقيت التي اتفقا عليها، وعبر عن المواقيت أو المواعيد أو الأشهر المتفق عليها بالنجم لأن العرب أمة أمية، لا تعرف الحساب وكانوا يربطون ذلك بالنجوم، فيقولون: إذا جاء نجم كذا سأعطيك كذا فيقال على العبد أن يعطي لسيده النجوم التي اتفقا عليها، يعني يعطيه المال في الوقت الذي وقع بيهم اتفاقية عليه.

﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ ذكر الإمام ابن جرير وتابعه الحافظ ابن كثير -رحمه الله تبارك وتعالى- وقالوا بأن هذا هو الأولى والصواب، أن ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ يعني أعطوهم حقاً من مال الزكاة، ولهم نصاب في ذلك، لأن الله -عز وجل- في آية سورة التوبة ذكر الأرقاء من القوم الذين يستحقون الزكاة، وتصرف إليهم أموال الزكاة، ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ﴾ [التوبة: ٦٠]، فقول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ يعني أعطوهم جزءً من الزكاة يعني الأغنياء يساعدوا هؤلاء الذين كاتبوا أسيادهم كي تعتق رقابهم ساعدوهم بجزء أو بشيء من المال من مال الزكاة لأن لهم سهماً فيه، والله -عز وجل- قد نص عليه في كتابه.

وقيل أيضاً: بأنه على السيد أن يضع على العبد أو الأمة التي كاتبته جزءاً من المال، فإن اتفقا على شيء فيما بينهم فعلى السيد بعد ذلك أن يحط شيئًا أو جزءاً ولو يسيراً من هذا المال، وهذا إرشاد قرآني كريم يسعى فيه الإسلام إلى تحرير الرقاب، وبالتالي الغرب الكافر حينما يشوش على الإسلام ويذكر بأن الإسلام يدعو إلى الرق، والعبودية واتخاذ الإماء ويفرق بين السادة والعبيد هم في الحقيقة كذبة في ذلك؛ لأن الإسلام اتخذ من الوسائل الكثيرة ما يدعو به العبد أو الأمة إلى الحرية، والوقت لا يتسع لأن أذكر شيئًا من ذلك، فكم ذكر رب العزة والجلال في القرآن الكريم أن عتق الرقاب مكفر لكثير من الأمور المخالفة التي تقع من الإنسان ولا يرضاها رب العباد -سبحانه وتعالى-، كل ذلك وسائل جعلها الله -سبحانه وتعالى- مشروعة كي يحرر الإنسان من الرق الذي يقع فيه، وهم يخافون من الرق؛ لأنهم يخافون على أنفسهم إن قام لهم المسلمون ولعله يأتي ذلك -إن شاء الله تبارك وتعالى-.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ذكر أهل العلم من المفسرين أن أهل الجاهلية كانوا يطلبون من إمائهم أن يقعوا في الفاحشة -والعياذ بالله تعالى-، وأن يأخذوا عليها أجراً ويأخذون هم يعني السادة يأخذون هذا الأجر، وقد جاء في صحيح مسلم وفي آخره يعني في آخر صحيح مسلم في كتاب التفسير وهو كتاب التفسير من أواخر ما جاء في صحيح مسلم: أن عبد الله بن أبي بن سلول إمام وزعيم المنافقين، هو فيه طبعاً إمام في الصلاح والخير ونسأل الله أن نكون جميعاً منهم، وهناك أئمة في الفجور والنفاق والكفر والشقاق -والعياذ بالله تبارك وتعالى-، وهذا الرجل سيد من سادات المنافقين في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم-، (كانت عنده إماء) وليست أمة واحدة، (قيل: ستة، فكان يرسلهن للفاحشة وكل واحدة منهن تأتيه بالمال فيأخذه هو)، فيستفيد منه وكذلك حينما إذا حملت وأتت بولد فيصبح عبداً له فيكثر بذلك ماله، ويصبح بدلاً من أن يكون سيداً لعشرة سيداً لعشرين ولثلاثين وما إلى ذلك، ولذلك قال الحق -تبارك وتعالى-: ﴿وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ يعني على الزنا: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أولاً أيضاً كلمة ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ خرجت مخرج الغالب في ذلك، فهي لا مفهوم لها، يعني أغلب من يكره على الزنا من هؤلاء الإماء تكون محصنات؛ لأن غير المحصنة منهن لا تكره على ذلك، بل هي تسعى إليه، ولكن حينما نقول: خرج مخرج الغالب، حتى لا يأخذ الإنسان بمفهوم المخالفة، فيقول: إذن يجوز للسيد أن يذهب بالأمة غير المحصنة لكي تأتي بهذه الفاحشة، هذا لا يجوز بحال من الأحوال، وإنما هذا خرج مخرج الغالب، ولأن غالب من يقع في هذه الفاحشة من يكره على هذه الفاحشة تكون من المحصنات.

﴿وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني تبتغوا عرض الحياة الدنيا من خراجهن ومهورهن وأولادهن، وهذا المال الذي يأتي بهذه الطريقة أو من هذا الأسلوب هو مال خبيث، وصاحبه يأكل مالاً حراماً، والله -عز وجل- قد حرمه كما أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أشار إلى أمور أخر حرمها أيضاً من الأموال الخبيثة، ومنها: هذا مهر البغي، النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (مهر البغي خبيث، وحلوان الكاهن خبيث) حلوان الكاهن التي هي تقال حلاوة، يعني أجره الذي يأخذه، المال الذي يأخذه، ويدخل في الكاهن العراف وصاحب الرمل والمنجم والذي يدعي السحر، هؤلاء الناس المشعوذين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، ويدعون أنهم يعلمون الغيب وما إلى ذلك، هؤلاء كلهم أتوا باطلاً ومنكراً وإثماً عظيماً عند رب العزة والجلال سبحانه والمال الذي يأخذونه مال غير طيب وهو مال خبيث، مال محرم، كذلك ثمن القلب خبيث، وحتى لا يستشكل أحد الإخوان لأن في هنا أمامه بين يديه في تفسير ابن كثير ذكر أحاديث حول هذا ومنها: كسب الحجام، (مهر البغي خبيث وحلوان الكاهن خبيث وكسب الحجام خبيث)، فهل كسب الحجام خبيث وقد انتشرت الحجامة كثيرًا في أيامنا هذه؟

هذه المسألة اختلف أيضاً في العلماء والراجح فيها كما رجح ذلك الإمام البخاري -رحمه الله تبارك وتعالى- وكذلك الإمام ابن حجر: أن كسب الحجام ليس خبيثاً بإطلاق؛ لأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كما في صحيح البخاري: (احتجم وأعطى الحجام أجره) يعني النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- احتجم وأعطى الحجام الأجرة على هذه الحجامة ولذلك قيل: بأن النهي الوارد هنا إنما هو للتنزه، يعني كراهة تنزيه، وليست كراهة تحريم، وقالوا: لأن هذا منافٍ للمروءة، وفيه كسب أو فيه دناءة في هذا الكسب، وقال بعضهم: هذا يكون محرماً على الحر، يعني الحر إذا حجم إنسان لا يأخذ منه مال، أما العبيد ويدخل فيهم إذن من يتخذها حرفة أو مهنة إذا أخذه فهو دناءة منه ولكنه مال مباح له للأحاديث الصحيحة الواردة عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: (أنه احتجم وأعطى الحجام أجرته).

ثم يقول سبحانه وتعالى، الحقيقة الوقت يمر ولا أريد أن أقف كثيرًا حول هذه الآيات حتى آتي إلى آخرها -إن شاء الله تعالى-، الآية التي معي الآن ذكرت فعلة المشركين وأشرت إلى فعل عبد الله بن أبي الذي كان يذهب أو يرسل الإماء كي يفعلن الفاحشة ويرجعن إليه بالمال، الله -عز وجل- بعدها يقول: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ومن يكرهن يعني هذه الآية تفيد، وهي أولاً رحمة من الله -عز وجل- بعباده، أن المكره على فعل شيء لا إثم عليه فيه، فالإنسان إذا بغض الشيء ولم يحبه وأجبر عليه أو أكره عليه ووقع فيه، والإكراه لا شك له حد، يعني الإنسان ليس كل شيء يقال: أنا أكرهت عليه، فمجرد لون من ألوان التهديد أو قطع شيء من المال أو الأرزاق أو ما إلى ذلك، كل هذا لا يعد من باب الإكراه وإنما هناك إكراه معتبر، وقال العلماء: حد الإكراه المعتبر الذي يخاف الإنسان فيه على نفسه، كأن يهلكه أو يخاف على ولد له، أو يخاف على أخذ ماله كله، أو رميه في العراء والضياع بين الذئاب والأسود وما إلى ذلك، هذا من الخوف المعتبر، أما إن كان مجرد تهديد أو مجرد أن يناله شيء من التضييق أو تقليل من المال، أو إساءة ولو يسيرة في بدنه أو ما إلى ذلك، فلا يعد هذا إكراهاً معتبراً، والله -عز وجل- قد رفع الإثم والجناح فيمن وقع محرم وقد أكره عليه حتى بإنطاق كلمة الكفر له كما قال -سبحانه وتعالى-: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]، ومن ذلك أن الله -عز وجل- أباح الميتة للمضطر ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وهذا كما أشرت من سماحة الإسلام ويسيره.

ثم يقول -سبحانه وتعالى-: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾، هذه الآية في الحقيقة آية كريمة جليلة، ولها ارتباط قوي ببعض الآيات السابقة، أولاً: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ لو تذكرتم معي أول آية في سورة النور: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾ [النور: ١]، فهذه الآيات البينات جاءت في هذه السورة وهنا في هذه الآية أشار رب العزة والجلال إلى أن فيما أنزله على عبده ونبيه محمد -صلى الله عليه وسلم- فيه ما فيه من الآيات البينات، حيث

شرعت الشرائع وبينت الأحكام ونستفيد نحن من ذلك وجوب الاتعاظ بهذه الآيات؛ لأن الله في أول السورة قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، وهذه هي الفائدة المرجوة من هذه الآيات البينات الواضحات المفسرات التي جاءت من عند الله -تبارك وتعالى-، يستفيد منها الإنسان في دينه، ليعمل بطاعة رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، فليتأمل العبد المسلم والمرأة المسلمة هذه الآيات البينات في كتاب الله -عز وجل- وتذكرهم بالله -تبارك وتعالى- والله -سبحانه وتعالى- يجعل هذه الآيات تربط بين قلوب العباد وتؤلف بينهم وجعلهم يسلكون الطريق الصحيح السليم الموصل إلى رب العزة والجلال.

هذا عن الآيات البينات والأهم الذي أود أن أتي إليه وأشير إليه الآن، ﴿وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾ قال بعض العلماء في الحقيقة كلمة جميلة جداً في هذه الآية أولاً: ﴿وَمَثَل﴾ معطوفة على الآيات البينات، قال: ﴿وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني قصة عجيبة جاءت في هذه الصورة وهي مما قصه الله -عز وجل- من قصص السابقين، ما هي القصة العجيبة الواردة في هذه السورة؟ هي اتهمام أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها- بالإفك، وتبرئة الله -سبحانه وتعالى- لها، هذا مثل، ذكر في هذه السورة وهو يشبه أمثلة متعددة في كتاب الله -عز وجل-، أذكر منها ما يلي:

يوسف -عليه السلام- اتهم من امرأة العزيز بالفاحشة قالت لزوجها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥]، ويوسف -عليه السلام- بريء، والله -عز وجل- أيضاً برأه، وجاءت تبرئته في كتاب الله -تبارك وتعالى- من المرأة التي اتهمته هي، يعني المرأة التي اتهمته هي التي ذكرت براءته -عليه الصلاة والسلام-، هي قالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءً﴾ [يوسف: ٢٥] ولما جاء الملك يسأل النسوة الذين قطعن أيديهن قال: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ للهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١]، التي قالت قبل فترة يسيرة: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءً﴾ [يوسف: ٢٥]، قالت: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١].

كذلك المثل الآخر مريم -عليها السلام-: اتهمها بعض من الناس ومنهم اليهود وهم كما تعلمون مجرمون، اتهموها بالفاحشة لما حملت في عيسى -عليه السلام-، وهي امرأة شريفة فاضلة طاهرة ولكنهم اهموها بقولهم: ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧]، ولكن الله -عز وجل- برأها فقال: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١٢].

كذلك هنا المثل الوارد في هذه السورة هو مثل يقصد به أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها-؛ لأنه كأمثال الذين خلوا من قبلنا، كيوسف -عليه السلام- وكمريم -عليها السلام- وها هي أم المؤمنين عائشة اتهمت من أهل الإفك والزور والضلال والمنافقين وبعض ضعفة المسلمين بهذه الفرية العظيمة ولكن الله -سبحانه وتعالى- أيضاً هو الذي برأها في كتابه.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾، وحقاً والله إن هذا القرآن وهذه الآيات فيها موعظة للمتقين، فيها زجر للإنسان عن الوقوع فيما حرم الله -تبارك وتعالى- فيها زجر عن أن يقع الإنسان في المآثم أو أن يفتري على الآخرين، أو أن يسب المحصنات المؤمنات الغافلات وما إلى ذلك، ومن المواعظ الواردة في هذه الآية ما شرعته من أحكام ومنها إقامة الحد على الزاني، وألا تأخذنا به رأفة ومنها عدم الخوض في الكلام الباطل، فقوله تعالى: ﴿لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢]، إلى آخر ما اشتملت عليه هذه الآية أو السورة من مواعظ، والقرآن الكريم مليء بالمواعظ التي جاءت في كتاب رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-.

أدخل بعد ذلك في المحور الثالث في هذا اللقاء وهو بعنوان:

المحور الثالث: الله نور السماوات والأرض:

وتحته الآية الكريمة الجميلة في وصف رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- وضرب المثل لقلب المؤمن وهي قوله سبحانه: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، أقف أولاً لأن الآية تحتاج إلى شرح وتحليل لكلماتها كلمة كلمة: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، النور: من أسماء الله -تبارك وتعالى-، من أسماء الله الحسنى، والله -عز وجل- في كتابه يقول: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]، فالنور من أسماء الله الحسنى، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر: (أن حجاب الله -عز وجل- النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) وبنور الله -عز وجل- استنار كل شيء، استنار عرش الرحمن بنور الله -تبارك وتعالى- استنارت السماوات والأرض واستنار القمر، واستنار كل شيء في الوجود بنور رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، كما قال عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: (إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار نور السماوات والأرض من نوره -سبحانه وتعالى-)، نور السماوات والأرض من نور الله -عز وجل-، ونور العرش من نور الله -تبارك وتعالى-، ولذلك أنزل الله -سبحانه وتعالى- كتابه نورًا، الكتاب الذي نزل من عند الله -عز وجل- أنزله نورًا لماذا؟ لأن من أسماء الله -تبارك وتعالى- النور، ومن أفعال الله -سبحانه وتعالى- النور، فالنور من أسماء الله -عز وجل- وهو فعل من أفعال الله -تبارك وتعالى-، فالقرآن نور وبعثة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- نور، وتوفيق المؤمنين للإيمان والطاعة والهداية والفلاح أيضاً نور، من فعل رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-.

﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ﴾ ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ أقف عندها قبل: ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ هنا الضمير على أي شيء يعود؟ هذا ذكر أهل العلم فيه بعض الأقوال:

- أولها أنه يعود إلى الله -تبارك وتعالى-، ويصبح المعنى مثل هداه يعني هدى رب العزة والجلال في قلب المؤمن، وبالتالي يكون الضمير في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ يعود إلى من؟ يعود إلى الرب -تبارك وتعالى-.

- وقيل الضمير في مثل نوره: يعود إلى العبد، ويصبح المعنى: مثل نور الإيمان في قلب من؟ في قلب المؤمن.

مثله إيه: ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنه-: «المشكاة موضع الفتيلة والمصباح هو النور الذي يخرج من الفتيلة»، وقيل المشكاة هي الكوة بلغة العرب، والكوة: يعني الجدار، الفتحة في داخل الجدار، يقال لها: مشكاة، والمصباح هو السراج الذي وضع في هذه الكوة، ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ ما شأن هذه المشكاة وهذا المصباح؟ قال: ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ يعني أن هذا الضوء الذي يخرج من الفتيلة أو من السراج في زجاجة، والضوء حينما يكون في كوة وفي زجاجة يكون مشرقاً؛ لأن مكانه سيكون محدوداً، والإنسان إذا أراد أن يركز الضوء جعله في مكان محدود، فهذا يكون أقوى في إعطاء ضوء أكثر

﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ يعني لشدة ضوئها ولمعانها شبهها بماذا؟ شبهها بالدر بكوكب دري، وذلك في شدة الضياء وفي شدة النور، وفي شدة اللمعان.

ثم بين ربنا -سبحانه وتعالى- من أين يستمد هذا النور الذي في هذا المصباح قال: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ يعني أنه يوقد من هذه الشجرة المباركة، وهي شجرة الزيتون، وهي شجرة مباركة، الله -عز وجل- أقسم بها في كتابه، والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أخبرنا بأن نطعم هذا الزيت وأن ندهن منه، فهو طعام وغذاء وشفاء بإذن الله -تبارك وتعالى-؛ لأنه يخرج من شجرة مباركة، وتأملوا وصف رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- بعد ذلك لهذه الشجرة المباركة قال: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ﴾ فيها أقوال متعددة:

– القول الأول: وهو ما رجحه ابن جرير وابن كثير وكثير من المفسرين: أنها ﴿لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ﴾ يعني: أنها ليست في جهة المشرق باستمرار، فلا تأتيها الشمس من جهة المغرب، ولا غربية يعني: ليست في جهة المغرب باستمرار، فلا تأتيها الشمس حينما تطلع في أول النهار، بل هي في مكان بادٍ ظاهرٍ تسطع عليها الشمس من كل جانب فيعطي ضوءها قوة ويعطي زيتها جمالاً وطعماً وما إلى ذلك، هذا هو القول الأول، وهو أرجح الأقوال في معنى قوله تعالى: ﴿لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ﴾.

– القول الثاني: قالوا: ﴿لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ﴾ يعني: أنها وسط العشب، ووسط الأشجار فلا تصيبها الشمس باستمرار، وهذا في الحقيقة قول ضعيف.

– وبعضهم قال: الإشارة في قوله: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ وهذا أضعف منه أن هذا المراد به هو: المؤمن، و ﴿لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ﴾ مراد بهما: اليهود والنصارى.

ولكن أرجح الأقوال كما ذكرت أنها في مكان مرتفع وفي مسطح واسع فسيح تأتيها الشمس من كل جانب، والإمام الحافظ ابن كثير –رحمه الله تبارك وتعالى– رجح هذا القول الأول.

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ﴾ يعني يكاد زيتها لصفائه ونقائه يضيء ولو لم تمسسه نار، فإذا مسته النار لا شك أنه سيضيء إضاءة بالغة ثم يقول سبحانه: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ هذه نور مركب، البعض يظن أن النور متضاعف هنا أو النور غير النور، لا، هذا نور مؤكد بالنور، حتى يصبح ماذا؟ حتى يصبح نورًا قوياً، ولذلك قيل المعنى أو المراد بقوله تعالى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ يعني بذلك إيمان العبد فهو نور وعمل العبد أيضاً نور، وقيل: المراد نور الزيت ونور النار، فنور الزيت مع النار يعطي إضاءة ولمعاناً قوياً.

وبعد قول الحق –تبارك وتعالى–: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ يرغب أهل الإيمان في الطاعة، ويذكر فضله على أهل الهداية، فيقول: ﴿يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي يرشد لهدايته ويختار لتوفيقه والعمل بطاعته من يشاء من عباده، كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص –رضي الله تعالى عنه– يقول: (سمعت رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– يقول:)–والحديث صحيح– (إن الله خلق خلقه في ظلمة، إن الله –عز وجل– خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره)، وهذا يؤكد أن من أسماء الله النور، وأن من أفعال الله –عز وجل– النور، (إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل، ثم قال: جف القلم على علم الله –تبارك وتعالى–).

﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعني يضرب الله –عز وجل– الأمثال للناس ليعقلوها ويفهموها لأن الأمثال تقرب المعقول وتقرب الأمور المعنوية من الأمور المحسوسة والله يقرب للعباد ذلك لأنه –عز وجل– هو المطلع على كل شيء، ويعلم ما بالعباد من حاجة إليه فيضرب لهم الأمثال كي يعقلوا ويتذكروا ويتدبروا.

ولذلك هنا فائدة في هذه الآية وهي: أن الإيمان ينور قلب العبد المؤمن، الإيمان ينور قلب العبد المؤمن؛ لأن هذا مثل كما قال أهل العلم وكما قال المفسرون ضربه الله –عز وجل– للإيمان الذي في قلب المؤمن، وأن قوله: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ يعني إيمان المؤمن وعمل المؤمن، هذا نور على نور، وبالتالي أقول بأن المؤمن الذي يعيش في طاعة الله –عز وجل– يعيش في نور، والنبي –صلى الله عليه وآله وسلم– كان يدعو ربه: (اللهم اجعل أمامي نورًا وخلفي نورًا وعن يميني نورًا وعن يساري نورًا ومن فوقي نورًا ومن تحتي نورًا واجعلني نورًا) – صلوات الله وسلامه عليه–، وعلى العبد أيضاً مرة أخرى أن يسعى لتحصيل هذا النور في الدنيا، حتى يناله في الدار الآخرة.

وأذكركم بقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿يَوْمَ لاَ يُخْزِى اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨]، وبالتالي أقول: على العبد أن يسعى في تحصيل هذا النور في الدار الآخرة، «أستسمحك دقيقة يا أخي الكريم؟»، لأنه في الحقيقة وقفت على كلمات جميلة، للإمام الحافظ ابن القيم -رحمه الله تعالى-، وفي الحقيقة يعني تعجبني كلمات هذا الإمام لورعه وزهده وما أجرى الله -عز وجل- عليه من ضياء لامع في كتاباته فهي فيض من الله -عز وجل- وفق هذا الرجل إليه، يذكر -رحمه الله تبارك وتعالى- كلمات جميلة وهو يشرح هذه الآية يقول: «سَمَّى الله -سبحانه وتعالى- نفسه نورًا وجعل كتابه نورًا، ورسوله -صلى الله عليه وآله وسلم- نورًا» -هو يعني أن الرسول جاء بالنور -صلى الله عليه وآله وسلم- وليس نورًا حسياً مادياً كما يزعم بذلك كثير من المتصوفة- «وجعل الله -عز وجل- أيضاً دينه الذي أنزله على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- نورًا، واحتجب عن خلقه بالنور، وجعل دار أوليائه نورًا يتلألأ، قال الله تعالى: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾»

وقد فُسِّرَ بأنه منور السماوات والأرض، فسر بهذا، وإلا فأيضاً ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ومن أسمائه النور، والذين يذكرون في التفسير بأن الله منور السماوات والأرض أو هادي أهل السماوات والأرض فهذا تفسير لهذه الآية ولا يتعارض مع اسم الله -سبحانه وتعالى- النور، لأنني كما ذكرت بأن النور من أسماء الله -عز وجل- وهو فعل من أفعاله أيضاً، فتنوير السماوات والأرض وتنوير عرش الرحمن من أفعال النور -سبحانه وتعالى- يعني من أفعال الله -عز وجل-.

ثم يقول -رحمه الله-: «فبنوره اهتدى أهل السماوات والأرض» وهذا إنما هو فعله وإلا فالنور الذي من أوصافه وقائم به ومنه اشتق له اسم النور الذي هو أحد الأسماء الحسنى وفي صحيح مسلم من حديث أبي موسى الأشعري -رضي الله تعالى عنه- قال: (قام فينا رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بخمس كلمات فقال: إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه) القسط المراد به العدل، يعني يرفع أناساً ويخفض أناساً؛ لأن ميزانه بالعدل والحق، يرفع أهل الإيمان، ويخفض أهل الطغيان والعياذ بالله تعالى، (يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) وفي صحيح مسلم عن أبي ذر -رضي الله عنه- قال: (سألت النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: هل رأيت ربك؟ قال: نور أنى أراه) وبهذا الحديث أختم هذا اللقاء وأصلي وأسلم على المبعوث بالنور المبين من لدن رب العالمين والله أعلى وأعلم.

إجابات الحلقة الماضية:

كان السؤال الأول: هل يقدم السلام على الاستئذان أم العكس؟ اذكر الصواب مع الدليل؟

وكانت الإجابة:

كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يبدأ بالسلام قبل الاستئذان، وفي الحديث عن كلدة بن حنبل -رضي الله تعالى عنه- قال: (أتيت النبي -صلى الله عليه وسلم- فدخلت عليه ولم أسلم فقال له -صلى الله عليه وسلم-: ارجع فقل: السلام عليكم، أأدخل) رواه الترمذي وقال: حديث حسن، انتهت الإجابة.

الإجابة في الحقيقة صحيحة، والاستدلال في موطنه، وهو أن يعني السلام قبل الاستئذان ولكن لو توسعت الإجابة ووضحت حتى يفهم من يتحدث إليه الإنسان لو سئل أو أن نعرف معاني القرآن الكريم؛ لأن الله -عز وجل- بدأ بالاستئذان في الآية قبل السلام، فنحن نقول: بأن هذا ليس مراداً به الترتيب والواو هنا لمطلق التشبيه ليس إلا، وبالتالي لا يتعارض الآية مع الحديث.

السؤال الثاني: اذكر ثلاثة فوائد لغض البصر وكانت الإجابة؟

وكانت الإجابة:

فوائد غض البصر كثيرة ذكرها ابن القيم -رحمه الله تعالى- ومنها:

- يمنع أثر السهم المسموم الذي يصل إلى القلب فيفسده ويكسب القلب قوة ونوراً.

- ثانيًا: يورث الفراسة الصادقة فيصل للصواب فيما يأتي ويذر.

- ثالثًا: يسد على الشيطان مداخله إلى قلب الإنسان.

هذا الجواب صحيح في الحقيقة وجزاه الله خيراً.

الأخت الكريمة من سوريا تقول: أريد أن أسأل ما هو السن المناسب للزواج بالنسبة للرجل في خضم هذه المعمعة من النساء السافرات وهل هناك حرج في تزويج الشاب إذا كان ما زال صغيراً خوفاً عليه من الفساد، رغم أنه ما زال طالباً، فيقوم أهله بالصرف عليه وعلى زوجه، ريثما ينتهي من طلب العلم؟.

في الحقيقة الزواج في الإسلام مربوط بالقدرة والكفاءة عليه، لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج)، والباءة هي المؤنة والقيام بحقوق الزوجية، فمن كانت تتوفر فيه هذه القوامة حتى ولو كان صغير السن، فلا حرج في أن يزوج أصلاً، وإن كان وسع الله -عز وجل- على ولي الأمر وزوج ابنه وكان هذا يقع كثيراً في الزمن الماضي فأمر يشكر عليه، ونقول له: جزاك الله خيراً بل ندعو عموم المسلمين من أهل الاستطاعة إلى أن يفعلوا ذلك.

الأخ الكريم من سوريا يقول: أرجو الإيضاح حول ما ذكره الله تعالى في سورة النور: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ ألا يشمل مال الرجل الذي تعيش عنده الفتاة؟ وهل هو محصور فقط في مال الزكاة الذي سبق وذكر أثناء الدرس؟ ولماذا شدد الله في القرآن على موضوع الزنا وما يؤدي إليه؟ نرجو ذكر بعض الأسباب للتوضيح وجزاكم الله خير.

جزاه الله خيراً على سؤاله، في الجزئية الأولى: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ هذا الخطاب يشمل أو يوجَّه لعموم الناس، والفقهاء اختلفوا في هذه المسألة بالنسبة للسيد عموم الناس يعني يعطون من مال الله -تبارك وتعالى-، الذي أعطاهم من حيث أنهم يخرجون زكاة أموالهم وهذا مصرف من مصارف الزكاة فليدفعوه إلى من؟ إلى الأمة أو إلى العبد، هذا عموم الناس أما السيد فقد اختلف الفقهاء في ذلك، فقالوا بأنه لو أعطاه من مال الزكاة لرجع إليه، ولهذا قلت: بأن على السيد أن يحط شيئًا مما كاتب عليه العبد أو كاتب عليه الأمة، يعني يحط شيئًا من المال، يعني يضع شيئًا من المال، فإن اتفقا مثلاً على ألف أو أكثر أو أقل فالعبد إذا اجتهد وقام وأدى ففي هذه الحالة يستحب له أن يضع عنه شيئًا من المال، ولا يأخذ منه جميع المال وعموم المسلمين بعد ذلك يعطون لهذا العبد أو للأمة من مصرف الزكاة وقد نص الله -سبحانه وتعالى- في كتابه على ذلك.

بقية السؤال.

يقول: ولماذا شدد الله في القرآن على موضوع الزنا وما يؤدي إليه؟.

لا شك أن الزنا جريمة بشعة لأمور متعددة:

أولاً: هي خيانة للزوج، وتدنيس لعرضه، وإدخال عليه ما ليس منه، وتتسبب في مشاكل بعد ذلك اجتماعية خطيرة جدًا، ويترتب على ذلك أيضاً أمور لا تمت إلى الإسلام بصلة، بمعنى أن ولد الزنا يلحق بأبيه وليس منه، هذه من مفاسده، يلحق بالرجل، يعني مثلاً لو زنت امرأة وأتت بولد ليس من زوجها، وهي تحت فراش الزوج، ينسب هذا الولد لمن؟ سينسب للزوج، وسيأخذ إذن من تركته، وكل هذه مفاسد اجتماعية خطيرة، وإلى جانب ما توصل إليه اليوم ونحن نقول هذا لأنه أمر معلوم، ما توصل إليه اليوم العلم الحديث وفي السابق كانوا يعرفون شيئًا من ذلك، وكانوا يعبرون عنه بالسيلان والزهري وما إلى ذلك من الأمراض الخطيرة التي تفتك بالذين يرتكبون هذه الفواحش واليوم تعرفون مرض نقص المناعة المكتسب المعروف اليوم في العالم، وكم من الملايين مرضى بهذا الداء الخطير الذي فيه قضاء على حياتهم بسبب هذه الجريمة النكراء، وقد بلغت هذه الجريمة في الفحش أعلاه لما قال الله -عز وجل-: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢]، قال أهل العلم: الشيء الفاحش أو كلمة الفحش لا تطلق إلا على ما عظم فحشه يعني صار أمراً مستقبحاً للغاية وعظم فحشه وقبحه وضرره، هذه كلمة يسيرة، الحقيقة بعض إخواننا من أهل العلم لهم كتب في جرائم الزنا -والعياذ بالله تعالى- وما يؤدي إليه من فساد خطير ويستحسن للإنسان أن يقف على شيء من ذلك ليدرك جرم هذه الجريمة ويعلم في نفس الوقت عدل الإسلام والتشريع الحكيم الذي جاء من عند رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- ليقطع دابر هذه الفاحشة وما يمكن أن يؤدي إليها.

الأخت الكريمة من السعودية تقول: كيف يمكن الجمع بين غض البصر ورواية: نظر أمنا عائشة -رضي الله عنها- للأحباش وهم يلعبون ونظر المؤمنات للنبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يخطب فيهم؟.

قلت بالنسبة لغض البصر الموجه للرجال واجب عليهم، بالنسبة للنظر إلى النساء، وقد ذكرت بعضاً من الأحاديث المؤيدة لذلك، كقول النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: (يا علي لا تتبع النظرة النظرة) ولما سئل -صلى الله عليه وسلم- عن نظرة الفجأة، قال: (اصرف بصرك)، فيحرم على الرجل أن ينظر إلى المرأة بحال، حتى ولا إلى الزينة الخارجة، يعني لا يلتفت إليها وإذا وقع النظر عفواً أو فجأة على المرأة وهي تسير في طريق أو جالسة في مكان أو هي داخلة بيت الله -عز وجل-، عليه أن يصرف بصره مباشرة.

أما بالنسبة لغض المرأة بصرها عن الرجال فهي مطلوبة بهذا أيضاً خاصةً إذا كان هذا النظر سيؤدي إلى شيء من الفتنة أو يكون من باب التلذذ بالرجل وما إلى ذلك، ومع ذلك أقول: بأن الرأي الراجح إن احتاجت المرأة أن تنظر إلى الرجال في أمر مشروع ونظراً ليست فيه استدامة بل أمور مؤقتة؛ لأن الوارد عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها- وقصتها صحيحة في البخاري ومسلم وغيره لم تكن حياتها كذلك، وإنما كان أمراً مؤقتاً وهي نظرها إلى الأحباش، وأذكر أنني سئلت في الحلقة الماضية، بأن الرجل يأتي في مثل هذه القنوات التي نتحدث فيها وهي قنوات خير وتبث للمسلمين علماً نافعاً وتدعوهم إلى العمل الصالح، فالمرأة تنظر خاصةً في مثل تعدد القنوات في هذا العصر ودعوتها إلى كثير من الأمور المحرمة فهي بدائل صحيحة نافعة مفيدة للأمة فلو نظرت المرأة في مثل هذه الحالة لترى فأنا قلت: لا بأس عليها في هذا ولكن الأولى لها ألا تديم النظر فإن نظرت لكي تستفيد شيئًا من الكلام أو لتربط نفسها وقلبها وعقلها بالمتحدث في مسألة معينة أو جزئية معينة وحتى لا ينصرف ذهنها إلى شيء آخر، فأرجو أن لا يكون في هذا بأس -إن شاء الله تبارك وتعالى-.

وحديث النبي -صلى الله عليه وسلم- الوارد في سنن الترمذي وغيره: (لما دخل عبد الله بن أم مكتوم بيت النبي -عليه الصلاة والسلام- وكانت فيه أم سلمة وميمونة -رضي الله تعالى عنهما- ونظرا إليه ونهاهم النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال: احتجبا عنه، فقالا له: إنه أعمى يا رسول الله -قالتا له ذلك- فقال: أوعمياوان أنتم)، هذا في الحقيقة هذا حديث ضعيف وليس حجة في هذا الباب.

الأخ الكريم من العراق يقول: عندي سؤال بالنسبة لكشف الوجه واليدين واجب ولا سنة بالنسبة للمرأة؟

السؤال الثاني: لمشكاة في قوله تعالى: ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ يعني هل نقدر أن نشبها بالمصباح؟

وبالنسبة للزواج من الكتابية هل بشرط أن تكون ملتزمة، وما يمكن أن توجد في الوقت الحاضر كتابية ملتزمة؟

فضيلة الشيخ الأخ الكريم من العراق سؤاله الأول: عن كشف اليد الوجه واليدين بالنسبة للمرأة.

في الحلقة الماضية يعني فصلت القول في ذلك وقلت بأن نفس الصحابة –رضوان الله تعالى عليهم– يعني اختلفوا في هذه المسألة وقد ذهب عبد الله بن مسعود –رضي الله تعالى عنه– وجماعة معه إلى أن الوجه والكفين عورة، ولا يجوز للمرأة أن تبدي شيئًا من ذلك، وذهب ابن عباس ومعه طائفة أيضاً إلى أنه يجوز للمرأة أن تكشف ذلك عند أمن الفتنة، ولا تضع ما يعرف اليوم مما تضعه النساء وما إلى ذلك، وقلت: بأن أرجح الأقوال وأولاها وأقواها في هذه المسألة أن تتستر المرأة كاملة؛ لأنها فتنة ولأن الجمال منصب في الوجه وذكرت أيضاً في اللقاء الماضي لأنه فيه قرائن في الآية ﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١]، تدل على أن المراد بذلك هي الزينة الظاهرة من الثياب وما إلى ذلك لأن ما تتزين به المرأة مما هو خارج عن أصل خلقتها هو الذي يقال عنه زينة، ما تتزين به المرأة مما هو خارج عن أصل خلقتها هذا هو الزينة، أما لم يأتِ في لغة العرب أن الزينة تطلق على جزء من بدن المرأة وشيء فيها، فهذا دليل يرجع على أن كشف الوجه وكذلك اليدين لا يجوز والأولى ألا تكشفهما المرأة.

ولكن أقول: لو أن امرأة تسترت في جميع بدنها ولم تبدِ إلى وجهها وكفيها فلا يصيبها الإنسان بشيء من الأذى أو الكلام الساقط أو يطعن عليها في شرفها ودينها وما إلى ذلك، والله أعلم.

سؤال الثاني عن قول الله –عز وجل–: ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ هل يمكن أن تشبه هذه الآية بالمصباح؟.

هي الآية ذكرت الإيمان ونور الإيمان في قلب المؤمن، وما هو عليه بالمصباح المضيء، بالمصباح المضيء وأنا قلت بأن المشكاة هي الكوة ولعل هذا هو الراجح، يعني الفتحة في الجدار والمصباح هو السراج المضيء في هذه الكوة، وأشارت إليه الآية هكذا لأنه إذا كان محصوراً في مكان ضيق كان ضوؤه أشد، وظهر ضوؤه بشدة، وهذا هو هو نور الإيمان في قلب المؤمن.

سؤاله الثالث: هل موجود في هذا الزمان امرأة كتابية ملتزمة؟.

هل يوجد في الزمان، أنا لا أعرف ولا أرغب في ذلك، إن بحث هو ووجد فليخبرنا إذن.

الأخ الكريم يقول: في قول الله –عز وجل–: ﴿وَلاَ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾، ألا تعد المرأة الكتابية مشركة؟ وإن كان هناك استثناء نرجو التوضح؟.

لا شك أن المرأة الكتابية مشركة، وقد جاء في بعض الآثار عن عبد الله بن عمر –رضي الله تعالى عنه– أنه قال: (لا أرى شركاً أعظم من أن تقول: بأن ربها ثلاثة)، ولكن نقول هذه الآية عامة، خصصتها آية سورة المائدة، فالآية عامة في المرأة أولاً، يعني أن المرأة المسلمة لا تنكح برجل كافر أبداً، والآية عامة في أن يتزوج الرجل من امرأة كافرة أو مشركة أيضاً بصورة عامة ولكن أهل الكتاب خصصتهم آية سورة المائدة، آية أهل الكتاب فقط، وبالشروط التي هي مذكورة وهي أن تكون محصنة أو أن تكون عفيفة، وسورة المائدة من آخر ما

نزل في كتاب الله -تبارك وتعالى-، تعرفون أن القرآن الكريم فيه عام وفيه خاص، ﴿وَلاَ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ هذه آية عامة، خصصت بآية سورة المائدة، ويبقى العموم فيها لغير أهل الكتاب، فلا يجوز للإنسان مثلاً أن يتزوج كافرة ملحدة أو من يعرفون بالهندوسي أو البوذيين أو السيخ أو ما إلى ذلك، لا يجوز للإنسان أن يتزوج من هؤلاء، واستثني أهل الكتاب فقط من المشركات، وهن مشركات ونسأل الله أن يتوب عليهن.

﴿وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، في هذا دليل كاف على أن الزينة هي المقصود بها زينة المرأة الخارجية؟.

هذا أيضاً من الأدلة، وأذكر في اللقاء الماضي أشار أحد من المستمعين معنا إلى هذا الأمر وقلت: بأن هذا فيه قاعدة عظيمة جدًا في الإسلام وهي ما تعرف بقاعدة سد الذرائع لأن الضرب بالرجل مباح، ولكنه لما كان يؤدي إلى هذا الفعل فحرم من أجل ذلك، ويشمل هذا ليس فقط أنها تضرب ليظهر صوت ما برجليها، هذه الآية يدخل فيها كل ما يمكن أن تفعله المرأة من كلمة أو حركة تبدي شيئًا من ذلك.

فضيلة الشيخ هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه المحاضرة..

السؤال الأول: ما المراد بكلمة ﴿الأَيَامَى﴾؟ وهل يجوز أن يتزوج الحر الأمة بإطلاق؟ وضح ذلك.

السؤال الثاني: ما معنى: ﴿لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ﴾؟ وما المراد بقوله تعالى: ﴿يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾؟

وانتهت الأسئلة.

الدرس الثالث والعشرون: تفسير سورة النور

فضيلة الشيخ أهلاً ومرحباً بكم

أهلاً وسهلاً ومرحباً بكم وبالحاضرين والمشاهدين والمشاهدات، ويسعدني في هذا اللقاء أن أتناول بعضاً من آيات سورة النور التي أنا بصدد الحديث عنها والكلام حولها -بإذن الله -تبارك وتعالى-، و-إن شاء الله تعالى- محاور هذا اللقاء هي كالتالي:

المحور الأول: أذن الله ببناء المساجد ورفعها وعمارتها وتطهيرها.

المحور الثاني: أهل الإيمان لا تلهيهم تجارة عن ذكر الرحمن.

المحور الثالث: مثلان ضربهما الله تعالى للكفار.

المحور الرابع: الكون يسبح لله وهو ملك له دون سواه والآن نستمع إلى آيات هذا اللقاء:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَللهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٧]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴿١﴾ ﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٠].

أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله -تبارك وتعالى- وخير الهدي هدي محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ثم أما بعد.

أيها الكرام بعدما استمعنا إلى هذه الآيات من كتاب الله -عز وجل- أبدأ -بعون الله وتوفيقه- في دراستها وتأملها وبيان شيء من معانيها، والآية الأولى معنا في هذا اللقاء تندرج تحت المحور الأول منها وهو:

المحور الأول: أذن الله برفع المساجد وعمارتها وتطهيرها:

وأبدأ –بقول الله جل ذكره–: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ الله –تبارك وتعالى– لما ضرب مثل قلب المؤمن وما فيه من الهدى والعلم بالمصباح في الزجاجة وكان أكثر ما يقع ذلك في المساجد وهي بيوت الله –تبارك وتعالى– في أرضه عقب رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– بالإشارة إلى بيوته وإلى أمره بإقامتها كما سيأتي بيان ذلك بعد قليل –إن شاء الله تعالى–.

وأود أن أقول في مقدمة يسيرة بأن قول الله –عز وجل–: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ يشير إلى أن هذه البيوت ألا وهي مساجد الله –عز وجل– في أرضه هي أحب البقاع إلى الله –تبارك وتعالى– ففيها يجتمع المسلمون ويتم بينهم ما يتم من الترابط والتآلف والتحابب وما إلى ذلك وفيها تؤدى الشعائر التعبدية لله –عز وجل– وفي تعقد حلقات العلم وفيها وفيها مما هو معلوم لدى كثير من الناس اليوم ولكن المهم أن يستفيد المؤمنون من بيوت الله –تعالى– في أرضه وأن يعمروها كما أمر ربنا –عز وجل– في كتابه لأن هذه البيوت هي أشرف بقاع الله تعالى في أرضه وهي التي تبني الرجال وتصنع الأبطال وكانت مساجد المسلمين في السابق وأقول –إن شاء الله تعالى– إلى يومنا هذا منارات إشعاع وعلم تهدي الناس إلى الحق وإلى طريق الله المستقيم بل إن مساجد المسلمين كانت وأقول –إن شاء الله تعالى– وستظل كانت بمثابة جامعات عالمية ربما لم ترقى جامعات اليوم إلى أن تخرج رجال الذين خرجتهم هذه المساجد فلو نظرنا إلى الحرمين الشريفين وما يؤديانه من دور كبير في الإرشاد والتعليم والتوجيه والناس يؤمون المسجدين من قديم الزمن لتلقي العلم والعبادة لوجدنا في ذلك شيئا عجبا وكم من أناس شدوا الرحال ولم يكونوا يعرفوا شيئا فتعلموا العلم هناك وألقى الله –عز وجل– في قلوبهم الهداية والنور والتوفيق.

وإذا تحدثت عن كبار المساجد أشير أيضا إلى جامع الزيتونة في تونس وهناك يعد بمثابة جامعة جامع القرويين في المغرب جامع عمرو بن العاص والأزهر في مصر كل هذه جوامع رائدة كانت تمسك بزمام الأمور في البلاد وتؤدي حقا رسالة المسجد التي أراد الله –عز وجل– أن تقوم بدورها المساجد.

فالمساجد أيها الإخوة المخاطبون لها مكانتها ولها قيمتها في الإسلام ومما يدل على ذلك أن أول شيء فعله النبي –صلى الله عليه وسلم– بمجرد أن وطأت قدماه المدينة النبوية قام ببناء مسجد قباء –صلى الله عليه وآله وسلم– ولما انتقل منه بعد أيام معدودة إلى مكان مسجده الآن وبركت ناقته –صلى الله عليه وآله وسلم– مكان المسجد قام –عليه الصلاة والسلام– بتشييد مسجده المبارك –صلوات الله وسلامه عليه– والله –عز وجل– يخبر في كتابه أنه أمر وأذن ووصى –عز وجل– أن تقام هذه البيوت ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ ويدخل في رفع بيوت الله –عز وجل– بناؤها وتنظيفها وترميمها وكنسها وخدمتها والاعتناء بها وإقامة الشعائر التعبدية فيها وتعليم الناس ما يحتاجون إليه ..... إلى سائر ما هو معلوم من دور المسجد بصورة عامة فليس المقصود من قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ﴾ أن تقام أعمدة وأبنية فحسب وإنما ترفع وهذا أمر واجب وهذا أمر مطلوب لأن في رفعها تمهيداً ومقدمة للقيام برسالة المسجد ومباشرة ما يمكن أن يحدث في هذا المسجد من علم وعبادة ومعرفة وانطلاق للدعوة إلى الله –عز وجل– وما يؤديه المسجد من دور اجتماعي كبير وما إلى ذلك؛ ولذلك نجد أن النبي –صلى الله عليه وسلم– في سنته يحض ويحث عموم المسلمين إلى أن يسارعوا في عمارة المساجد وبنائها فمثلاً في حديث الصحيحين من رواية عثمان بن عفان –رضي الله عنه– أنه قال: (قال رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم –: من بنى لله مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة) وهذه في الحقيقة جائزة عظيمة جداً لمن أحب أن يكون له مقعد في الجنة يقول رب العزة والجلال وبأمره ببناء بيت لهذا الرجل الذي بنى لله –سبحانه وتعالى– في هذه الدنيا التي نحيا فيها الآن مسجداً لله –عز وجل– وفي المقابل يحذر رب العزة والجلال من القوم الذي يصدون عن سبيل الله –عز وجل– ويسعون في خراب بيوت الله في أرضه ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَ﴾ [البقرة: ١١٤]، شتان بين من

يبني بيوت الله -عز وجل- ويقوم على الحفاظ عليها وعلى مدارسة وطلب العلم فيها وعلى تنفيذ هدي النبي -صلى الله عليه وسلم- في بنائها وأعني بذلك عدم الزخرفة والزينة والتوسع في البنيان وما إلى ذلك وأعني بذلك أن يستغل المسجد استغلالاً صحيحاً بمعنى أن يقوم على هدي من الله -عز وجل- كما جاء في كتابه وعلى هدي من سنة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-.

والنبي -عليه الصلاة والسلام- في بعض أحاديثه ذكر بعضاً من الأعمال التي تمارس في المسجد وماذا للمسلم الذي يقوم بفعها (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله -تبارك وتعالى- يتلون كتاب الله -عز وجل- ويتدارسونه فيما بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده).

ثم يقول رب العزة و الجلال بعد أن أمر وأذن ووصى بأن تقام بيوته في أرضه: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ قال -سبحانه وتعالى-: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ وهذه فائدة عظيمة يجب على عموم المسلمين أن يقفوا عندها وأن يتأملوها، لماذا أقيمت المساجد؟ لماذا أمرنا بأن نرفع بيوت الله -عز وجل- في أرضه وأن نقوم بالاهتمام بها وبالعناية بشأنها وبما تحتاج إليه؟ كل ذلك ليذكر اسم الله -سبحانه وتعالى- وحده دون سواه، وتأملوا قول الحق -جل ذكره-: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٩]، فقوله: ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ بعد أمره لنا أن نقيم وجوهنا عند كل مسجد يدل على أن المساجد لم تبنَ إلى لإقامة ذكر الله -تبارك وتعالى- فيها وحده دون سواه ويؤكد هذا المعنى بعض آيات الله -عز وجل- أيضا في القرآن كقوله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ للهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الجن: ١٨]، بيوت الله -عز وجل- يجب أن يُخلص فيها الدين لله -سبحانه وتعالى- ولذلك من هذا المنطلق نجد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى عن بناء المساجد على القبور، ولعن من يفعل ذلك، لماذا؟ لأن هذا فيه دعوة إلى الشرك -والعياذ بالله تعالى- وإننا نحد كثيراً في المساجد التي أقيمت على القبور يدخل العبد يصلي فيها -إن زعم- لله عز وجل وبعد أن يصلي أو قبل أن يصلي يتوجه إلى صاحب القبر أو إلى صاحب الضريح رافعاً أكف الضراعة إليه يدعوه دون الحق -تبارك وتعالى- ولذلك بيوت الله -عز وجل- في أرضه التي أمر ربنا -سبحانه وتعالى- بإقامته لا يذكر فيها إلا اسم الله -سبحانه وتعالى- وحده دون سواه. ومن هنا كما ذكرت النبي -صلى الله عليه وسلم- يلعن من يبني مسجداً على القبر (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ألا إني أنهاكم عن هذا) وهناك من الأحاديث ما يربو على أعداد كثيرة للغاية تبين هذا المعنى وتوضحه، وأيضاً طالما أن الله -عز وجل- قال: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ نستفيد من ذلك أن المساجد وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك في سنته لا يباع فيها ولا يشترى ولا ترفع فيها الأصوات وما إلى ذلك، والنبي -عليه الصلاة والسلام- في سنته أمرنا بأننا إذا وجدنا من يبيع أن يشتري في المسجد في بيت من بيوت الله -عز وجل- أن ندعو عليه وأن نقول له: (لا أربح الله بضاعتك) وإذا وجدنا من ينشد ضالته ينشد شيئاً فقده ينشده في المسجد أن نقول له: (لا رد الله عليك) يعني لا رد الله عليك ما تدعو به أو تنادي عليه في داخل المسجد وفي البخاري أيضاً: (أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- سمع أصواتا في مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم- فخرج فوجد رجلين قد ارتفعت أصواتهما في مسجد النبي -عليه الصلاة والسلام- وهو لا يعرفهما فاستدعاهما من أين أنتما؟ قالا: من الطائف، فقال لهما -رضي الله عنه-: لو كنتما من أهل هذه البلدة لأوجعتكما ضربا) العلة في ذلك أن هذه المساجد لم تبنَ إلا لإقامة ذكر الله -تعالى- فلا يرفع فيها صوت إلا إذا كان يتوجه به صاحبه إلى رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ ومما يقام في بيوت الله -عز وجل- في أرضه ما ذكرته بعد ذلك هذه الآية ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾، ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا﴾ يعني يسبح القائمين فيها لله -عز وجل- ﴿بِالْغُدُوِّ﴾ المراد بالغدو: أول النهار والآصال ما يكون في آخر النهار ونستفيد من ذلك العناية والاهتمام بصلاتي الفجر والعصر لأن الأولى في أول النهار والآخرة في نهاية النهار وقد ذكر بعض أهل العلم وأشار إلى ذلك الحافظ ابن كثير -رحمه الله تبارك وتعالى- أن الفجر والعصر هما من أول ما افترض الله -عز وجل- على عباده ونقول بأن لله -سبحانه وتعالى- خص هذين الوقتين بالذكر لمكانتهما عند الله -سبحانه وتعالى-

وشرفهما عنده، والنبي -عليه الصلاة والسلام- أشار إلى ذلك في سننه لما قال: (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار).

وقد قرأ الجمهور: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا﴾ يسبِّح بالبناء للفاعل وفاعله إذن سيكون رجال، وهنا إذا قرأ القارئ على قراءة الجمهور وهي القراءة التي نقرأ بها اليوم علينا ألا نقف على والآصال؛ حتى لا نفصل بين الفعل والفاعل لأن هذا لا يستحسن في لغة العرب فنقول: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ ﴿٣٧﴾﴾ وعلى قراءة يُسبَّح بالبناء للمفعول فالوقت على والآصال سيصبح كلاماً تاماً و﴿رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ﴾ ستكون جملة مستأنفة بعد ذلك ﴿يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾.

ثم ذكر ربنا -سبحانه وتعالى- من هم هؤلاء القوم الذين يسبِّحون له بالغدو والآصال هذا يأتي في المحور الثاني وهو بعنوان:

المحور الثاني: أهل الإيمان لا تلهيهم تجارة عن ذكر الرحمن:

وتحته هذه الآية: ﴿رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ﴾ قول الله -عز وجل- هنا: ﴿رِجَالٌ﴾ يدل على همم عالية؛ لأن الوصف بالرجولة وصف كريم وصف له مكانته خاصة حينما يصف به رب العزة والجلال بعض الناس لأن الله -سبحانه وتعالى- وصف به قوما آخرين في آية أخرى في سورة الأحزاب فقال: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، فقوله هنا ﴿رِجَالٌ﴾ كلمة مدح لهؤلاء القوم وتدل كما ذكرت إلى أن هؤلاء القومن لهم همة عالية وعندهم تنافس وتسابق إلى فعل الخيرات.

ويفهم أيضاً من قول الله -تبارك وتعالى- هنا: ﴿رِجَالٌ﴾ وقبله ﴿يُسَبِّحُ لَهُ﴾ يعني في المساجد لله -عز وجل- بعدها ﴿رِجَالٌ﴾ أن النساء لسن كالرجال في حكم الخروج إلى المساجد، فصلاة الجماعة واجبة على الرجال ولكنها ليست بواجبة على النساء، وهناك من هدي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بعض الأحاديث الواردة عنه التي تبين وتفيد هذا الحكم وهذا المعنى وهو أن النساء لسن كالرجال في حكم الخروج إلى المساجد لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- يقول: (صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها) هو هنا يبين -صلى الله عليه وسلم- أنه كلما كانت المرأة في داخل قعر بيتها وليس في فنائه وتصلي يكون ذلك أقرب إلى التقوى، وكما ذكرت ذلك الآن أذكر أيضاً أن النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي قال هذا الحديث أمر الأزواج بألا يمنعن أزواجهن إذا طلبن الخروج إلى المساجد، يعني النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى تكون الأمور متوازنة النبي -عليه الصلاة والسلام- بين أولاً أن صلاة المرأة في بيتها أفضل لها من صلاتها في المسجد وقد يقول قائل: حتى في بلاد الحرمين؟ أقول بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال هذا الكلام وهو في المدينة النبوية وهذا الكلام ينطبق إذن على ذهاب النساء إلى مسجده -عليه الصلاة والسلام- ونحن نعلم بأن مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم- له أجر كبير عن غيره من المساجد فهو يفضل سائر المساجد إلا المسجد الحرام ومع هذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك، ومع هذا أقول بأن المرأة إذا استأذنت زوجها في الخروج إلى المسجد فعليه ألا يمنعها من ذلك إذا كان هناك أمن من الفتنة لقول النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله -عز وجل-) ولكن إذا خرجت المرأة إلى بيت الله -عز وجل- فلا تخرج إلا بشروط معينة منها ما ذكرته مثلاً زينب زوجة عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- وروته عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وتقول: للنساء (إذا مست إحداكن طيباً فلا تشهد المصلى) إذا المرأة وضعت طيباً فلا تخرج من بيتها حتى تشهد الصلاة مع الجماعة لأنها في هذه الحالة ستؤدي إلى الفتنة ولذلك قال العلماء: للمرأة أن تخرج إلى المسجد بشروط منها ما ذكرته هنا زوج عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- وما فهم من بقية الأحاديث عن النبي -صلى الله

عليه وآله وسلم- ومن التشريع الذي أتانا من عند الله -عز وجل- وجماع ذلك ما أطلق عليه الفقهاء عند أمن الفتنة، يعني أنها تخرج إذا لم تفتن غيرها فلا تتزين ولا تتطيب ولا تمشي في الطرقات تزاحم الناس في دخولهم وخروجهم وألا يكون في مظهرها ما يؤذي رجال المسلمين كخلخال أو ما إلى ذلك، كل هذا منهي عنه إذا خرجت المرأة إلى المسجد وإذا لم تفعل ذلك لا شك أن منعها في هذه االحالة هو المتعين؛ ولذلك أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- قالت بعد وفاة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: (لو أدرك رسول الله -صلى الله عليه ،آله وسلم- ما أحدث النساء بعده لمنعهن المساجد) ولكن لا يجوز لنا بعد هذا أيضاً أن نخالف هدي النبي - صلى الله عليه وآله وسلم- وسنته بمعنى أن المرأة إذا التزمت بالشروط الواردة في الأحاديث النبوية واستأذنت من زوجها أن تذهب لتشهد المصلى مع المسلمين لتحصل علماً أو تشاهد جماعةً أو ما إلى ذلك فلا يمنعها زوجها وذلك عند أمن الفتنة.

﴿رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ﴾ أفادت هذه الآية أن الله -عز وجل- أثنى على هؤلاء الرجال وزكاهم بأن التجارة والبيع والشراء وما يحتاجون إليه من أمور الدنيا لا يلهيهم عن ذكر الله -تبارك وتعالى-، ومدهم بذلك ويفهم من هذا أن من أخل بهذه الصفات سيكون ماذا سيكون مذموماً لأن الله -عز وجل- أثنى على قوم ﴿لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ﴾ وبالتالي من ألهته التجارة والبيع عن ذكر الله -عز وجل- فهو مذموم والله -عز وجل- قد نص على ذلك في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَن يَّفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [المنافقون: ٩]، وكقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الجمعة: ٩] فوصف هؤلاء الرجال بأنهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله أن من ألهته تجارته وبيعه عن ذكر الله -تبارك وتعالى- ليس من الرجال الذين أثنى رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- عليهم.

ثم قال -سبحانه وتعالى-: ﴿لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ هنا ذكر الله - عز وجل- إقام الصلاة وإيتاء الزكاة فحسب وليس إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هي كل العبادات وإنما هو أشار بذلك إلى بعض العبادات المهمة الضرورية التي لابد للمسلم أن يأتي بها وهي في الواقع تؤدي إلى بقية ما افترض الله -عز وجل- على عباده؛ لأن من صلى لا يمكن بحال من الأحوال أن يترك الصيام أو يترك الحج إن قدر عليه لأن الصلاة ستأمره بالمعروف وستنهاه عن المنكر.

ومن أعطى زكاة ماله لم يقصر في أن ينفق في سبيل الله -عز وجل- على الفقراء والمساكين وطلبة العلم والمحتاجين وما إلى ذلك والله -عز وجل- لم يقتصر هنا على عبادة واحدة من العبادات وإنما أشار إلى العبادات كلها في ذكره لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ومعنى ذلك أن العلماء قالوا بأن العبادات تتنوع إلى أربعة أنواع عبادات قلبية وعبادات قولية وعبادات بدنية وعبادات مالية لو نظرنا إلى قوله تعالى:﴿وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ نجد أن ذكر الله -عز وجل- لهذين فقط يؤديان إلى الأربعة أنواع كاملة فإقام الصلاة يكون فيها عبادة قلبية لأن العبد مطلوب منه أن يخشع في صلاته بقلبه ويؤدي فيها عبادة قولية لأنه يقرأ فيها القرآن ويسبح ويذكر الأوراد الشرعية الواردة في هدي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في الصلاة، ثم بعد ذلك هو يقوم بجسده فتكون عبادة بدنية وإيتاء الزكاة عبادة مالية فتكون بذلك أنواع العبادات الأربع قد تحققت في قوله -تبارك وتعالى-: ﴿وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾.

ثم يقول سبحانه: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾ ذكر الله -عز وجل- هنا أن الرجال الذين يسبحون له ويعبدونه ويقومون بالطاعات لله -عز وجل- يفعلونها وهم موصوفون بالخوف والوجل من الله -عز وجل- وذلك من يوم القيامة؛ لأنه يوم شديد فيه أهول عظيمة وقد سبق أن أشرت إلى ذلك عند بعض الآيات التي وردت معنا في هذا المعنى، فهم ﴿يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار﴾ والله -عز وجل- قد ذكر عن هذا اليوم أشياء عظيمة فعلاً تجعل المتأمل يخاف مما هو مقدم عليه فتأمل مثلا قول الحق -تبارك وتعالى-:

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآَزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [غافر: ١٨]، أو تأمل قول الله –عز وجل–: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾ [المزمل: ١٧]، وكقوله سبحانه عن أهل الإيمان وهو يؤكد هذا المعنى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [الإنسان: ٩: ١٠]، والمراد بتقلب القلوب والأبصار هنا تقلب القلوب: حركتها واضطرابها وهذا سيكون بكل كافر ومقصر في حق الله –عز وجل– في يوم الدين ويمكن أن نفهم تقلب القلوب هنا من الآية التي ذكرتها آنفا وهي قول الله –عز وجل– ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآَزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ﴾ وأنا أقول تتقلب تتحرك وتضطرب فلعلها تتحرك حتى تصل إلى حنجرة الإنسان أما المراد بالأبصار هنا فالمراد بها زيغانها ودورانها كما عبر القرآن الكريم عن ذلك في قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ [الأحزاب: ١٩]، فكذلك تتقلب فيه القلوب والأبصار يعني أن الأبصار ستدور وستزيغ في هذا اليوم ثم يقول سبحانه: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ الظاهر أن اللام في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ ﴾ متعلقة بقوله ﴿يُسَبِّحُ﴾ يعني هؤلاء الرجال يسبحون لله –عز وجل– ويخافون يوما لماذا؟ ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾ وهذا يفيد أن الله –سبحانه وتعالى– يتقبل منهم حسناتهم وأنه –عز وجل– يتجاوز عن سيئاتهم وأنه يضاعف لهم الحسنات ليجزيهم الله ماذا قال؟ ما قال: ما عملوا وإنما قال: ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾ وفيه إشارة إذن إلى مضاعفة الحسنات وقد نص الله على ذلك في آيات أخر في كتابه كقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠]، وكقوله سبحانه: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وكقوله ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقوله –عز وجل– هنا بعدها: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ فيه إشارة إلى هذا الفضل وإلى هذه الزيادة وإلى أن عطاء الله –سبحانه وتعالى– واسع.

وقد قال بعض العلماء في هذه الآية فائدة عظيمة للغاية أرجو أن تعضوا عليها بالنواجز، قالوا: قول الله –عز وجل– هنا: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ هذه الزيادة هي كالزيادة في قول الله –سبحانه وتعالى–: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦] فمعنى إذن ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾ يعني يضاعف لهم الحسنات ويعطيهم جزيل الثواب على ما قدموا و﴿يزيدهم من فضله﴾ كقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ وما المراد إذن بالزيادة في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾؟ الحسنى الجنة والزيادة هي النظر إلى وجه الله –تبارك وتعالى–، وقد فسر النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– كما في صحيح مسلم من حديث صهيب –رضي الله تعالى عنه–: (الزيادة بالنظر إلى وجه الله –تبارك وتعالى–) وبعد تفسير النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– لا يمكن أن نلتفت إلى كلام غيره فقد أخبر –عليه الصلاة والسلام– بأن المراد بأن المراد بالزيادة في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ النظر إلى وجه الله وكذلك أيضا في قوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [ق: ٣٥]، وهنا نقول: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ إشارة إلى رؤية المؤمنين لربهم في الدار الآخرة، وأقول ذلك لأن رؤية المؤمنين لربهم في الدار الآخرة هي في الحقيقة أعظم ما يناله المؤمن من نعيم وهو يتنعم في أعظم درجات النعيم، أعظم وأعلى شرف لأهل الإيمان وهم يتنعمون في الجنة أن يأتيهم رب العزة والجلال من فوقهم ويقول لهم: السلام عليكم يا أهل الجنة وهو معنى قول الحق –تبارك وتعالى– في كتابه ﴿سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يس: ٥٨]، وهذا يدعونا إلى أن نتطلع وأن نسعى وأن نجتهد في أن نكون ممن يتطلعون إلى أن يروا رب العزة والجلال وهم يتنعمون في الجنة لأن هذا كما ذكرت هو أعلى نعيم أهل الجنة، ولذلك الإمام الحافظ بن القيم –رحمه الله تعالى– عقد فصلاً في كتابه حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح تكلم فيه عن رؤية المؤمنين لربهم في الدار الآخرة وقدم لها بسطر أو كلام جميل قال: «هي الغاية التي شمر لها المشمرون وتنافس فيها المتنافسون وسعى لها الساعون وحرمها الذين هم عن ربهم لاهون»

فعلى أهل الإيمان أن يسعوا في تحقيق هذا الفضل العظيم ﴿وَاللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ هو ختام جميل لهذه الآية وقوله: ﴿وَاللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يدخل فيه إذن دخولاً أولياً تمتع المؤمن برؤية ربه في الدار الآخرة لأن هذا رزق يسوقه الله للعبد يمتعه به لأن الرزق هو ما يأتيك من قبل رب العزة والجلال

ونحن ياعباد الله يأتينا رزق آناء الليل وأطراف النهار من الله –عز وجل– فالله –سبحانه وتعالى– تكفل بحياة كل حي في هذه الحياة الدنيا تكفل برزق الأحياء جميعاً ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ [هود:٦]، والرزق بيد الله –سبحانه وتعالى– وحده دون سواه في الدنيا وأيضا في الآخرة كذلك، بل الرزق في الدنيا يأتيه ضعف أو يأتي عليك فيه تضييق أو أنك تنتقل وتتركه أو أنه ينقطع عنك لأي سبب من الأسباب أما رزق الآخرة فما له من نفاد كما قال الله –عز وجل–: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [ص: ٥٤]، وكما قال سبحانه: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ ﴾ [مريم: ٦٢] والرزق كما ذكرت بيد الله وحده فلا تبتغى الأرزاق إذن إلا من الله فعند الرزاق تبتغى الأرزاق ولذلك نعى الله –سبحانه وتعالى– في كتابه على من يطلبون الرزق من غيره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٧]، ولذلك نجد أن مريم –عليها السلام– نسبت ما يأتيها من رزق إلى رب العزة والجلال سبحانه: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٧٨]، وقوله هنا: ﴿واللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ رغم أن الله –عز وجل– تكفل بأرزاق العباد جميعاً ليعلم الناس أن الغنى والفقر وأن السعة والضيق بيد الله –سبحانه وتعالى– فهو إذا شاء وسع على فلان وبسط له في رزقه وإن شاء ضيق على آخرين أو قصر عليه وضيق عليه في الرزق ولله –سبحانه وتعالى– فيما يفعل حكماً بالغة.

المحور الثالث: مثلان ضربهما الله تعالى للكفار:

وتحته قول الحق –تبارك وتعالى–: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ إلى آخر ما جاء في هذا في هذا السياق هنا ضرب الله –عز وجل– مثلين لنوعي الكفار وسأبين الآن ذلك بعد قيل، ولكني أود أن أشير أيضاً إشارة ذكرها الإمام ابن كثير عندكم في التفسير وهو أن الله –عز وجل– ضرب هنا مثلين للكفار وضرب أيضاً في أول سورة البقرة مثلين للمنافقين مثل ناري كما عبر عنه ومثل مائي، المثل النار لمن نفاقهم نفاقاً كبيراً غليظاً مستحكماً نفاقاً اعتقادياً قد استحوذ على عروقهم وعلى دمائهم وعلى أعصابهم وهذا وارد في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ [البقرة: ١٧]، أما المثل المائي فضربه للمنافقين الذين نفاقهم أخف من السابقين وهو ما جاء في قول الحق –تبارك وتعالى– أيضا في سورة البقرة: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ [البقرة: ١٩]، وقد ضرب الله –عز وجل– أيضاً مثلين للحق في ثباته وقوته وبقائه وللباطل في فنائه واضمحلاله وقد ضرب هذا المثل أيضاً في سورة الرعد في قول الله –تبارك وتعالى–: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ يشير إلى ما نزل من عند الله –عز وجل– ثم يبين أو يضرب المثل الأول للحق: ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ ﴾ [الرعد: ١٧]، وهو الحق فيبقى في الأرض.

هذا مثل ضربه الله –عز وجل– للحق في قوته في ثباته في بقائه في نفعه، وضرب أيضا مثلا للباطل في فنائه واضمحلاله وذهابه.

والآية التي معنا هنا ضربت أيضاً مثلين لنوعي الكفار المثل الأول: لمن بلغوا في الكفر مبلغاً عالياً عظيماً حتى صاروا فيه أئمة، والمثل الثاني: للمقلدين لهؤلاء الكفار:

المثل الأول: للكفار الذين بلغوا كما ذكرت في الكفر مبلغاً عظيماً يقول الله عنهم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ﴾ السراب كما تعلمون هو ما يظهر للمسافر في الصحراء ويكون بعد منتصف النهار يظهر للمسافر كأنه ماء والمسافر غالباً يكون بحاجة إلى أي شيء؟ إلى الماء والآية حينما تقول: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ يعني تفيد أنه يسير في أرض فلاة لأن كلمة ﴿بقيعة ﴾ تفيد أنها أرض منبسطة متسعة فهي أرض

صحراء فيتوقع أن السائر فيها بحاجة إلى ماء فالذين كفروا، تأمل تشبيه الله -عز وجل- لأعمالهم التي عملوها في الدنيا حتى ولو كان فيها ما فيها من الخير ﴿أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ﴾ والسراب هو ما يظهر كما ذكرت للمسافر بعد منتصف النهار في الأرض المنبطحة الواسعة الفسيحة. سراب يظهر لهذا المسافر ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ هذا المثل ضربه الله -عز وجل- لمن بلغوا في الكفر مبلغاً كبيراً وهم كما أشرت وذكرت في نفس الأمر دعاه إلى كفرهم وإلى ضلالهم وهم يحسبون أنهم على شيء من الخير أو من السداد أو من التوفيق أو ما إلى ذلك وكل ذلك لا يكون والله -عز وجل- قد ذكر عن الكفار وأعمالهم في كتابه ما يوضح به معنى هذه الآية كقوله جل ذكره: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]، قدم الله -عز وجل- يعني أتي بما قدموه وبما فعلوه وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً وقد ذكر الله -عز وجل- ذلك في أواخر سورة الكهف وبين وأخبرنا في قوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾ من هم يا ربي؟ ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣: ١٠٤]، فهؤلاء الكفار الذين يظنون أن لهم نصيراً عند الله -عز وجل- وقد بلغوا في الكفر مبلغاً عظيماً ليس لهم عند الله في الآخرة من خلاق.

قد يقول قائل: أليس لهم في الدنيا نصيب؟ يعني إن فعلوا خيراً والله -عز وجل- أخبر أنهم ليس لهم حظ في الآخرة عند الله -عز وجل- نقول: لأن الله -عز وجل- إذا شاء أعطى من له خير منهم حظه في هذه الحياة الدنيا والله -عز وجل- قد نص على ذلك في كتابه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: ٢٠]، ﴿وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ وكلمة هنا: ﴿ووجد الله عنده﴾ لما تأتي بعد قول: ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ﴾ هذه أعتقد لو قرأها عاقل وتأمل في معناها تجعله يقف ويتأمل ويتدبر إلى أين أنت سائر في الكفر؟ لأنه ﴿وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ﴾ يعني ووجد عقاب الله -عز وجل- ينتظره وما أعده الله -سبحانه وتعالى- لهؤلاء بعد أن أخبر -عز وجل- قبل كلمات أن ما فعله وسعى فيه وإن ظن أنه يفعل خيراً كالسراب الذي لا حقيقة له ويؤكد ذلك ما في الصحيحين أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (يقال يوم القيامة لليهود ما كنتم تعبدون فيقولون كنا نعبد عزير ابن الله فيقال لهم: كذبتم لأن عزيراً ليس ابن الله -تبارك وتعالى- ثم يقال لهم ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ﴾ [المؤمنون: ١٩]، فماذا تبغون؟ فيقولون: يا رب عطشنا فاسقنا فيقال لهم: ألا تردون؟ فتمثل لهم النار كأنها سراب) يعني كأنها ماء هذا في الصحيحين (كأنها سراب فيقدمون عليه ويشربونه يحسم بعضها بعضاً فينطلقون فيتهافتون فيها) -والعياذ بالله تبارك وتعالى- وهذا مثال كما ذكر الإمام الحافظ -رحمه الله تعالى- للجهل المركب أو للكفر الذي عند هؤلاء الناس، لماذا قال جهل مركب أو كفر غليظ؟ لأنهم دعاة على أبواب جهنم كفروا وكفرهم كفرا كبيرا إلى جانب أنهم أئمة في الضلال يدعون إلى الكفر وإلى الضلال -والعياذ بالله تعالى- ﴿وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لأنه -عز وجل- عالم بجميع المعلومات فلا يشق عليه العذاب عذاب هؤلاء ولا يشغله حساب واحد منهم عن حساب غيره حتى لا يظن أحد الملحدين أن هذه المليارات كيف سيحاسبها رب العزة والجلال؟ الله يقول له: ﴿وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

المثل الثاني: الذي هو أخف وأقل من المثل الأول لنوع الكفار الثاني ضربه الله -عز وجل- لأصحاب الجهل البسيط كما ذكر عنهم الإمام بن كثير -رحمه الله تعالى- وقال هؤلاء هم المقلدون لأئمة الضلال ويعجبني مثل ضرب في هؤلاء الكفار الذين كفرهم من نوع خفيف أو يسير أو بسيط لأنهم قلدوا فيه أئمتهم في الضلال والكفر قال: «مثلهم كما يقال في الأمثال فيما بيننا للرجل الجاهل أين تذهب؟ يسأل الجاهل أين تذهب؟ فيقول معهم فيقال له: فإلى أين يذهبون؟ فيقول لا أدري» فهؤلاء الكفار كفراً يسيراً حينما اتبعوا هؤلاء الناس صاروا كهذا الجاهل الذي لا يعرف أين يساق ولا أين يذهب قال الله عنهم باختصار شديد حتى الوقت يعاجلنا: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ البحر اللجي يعني البحر العميق ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ قال ابن العباس -رضي الله تعالى عنه- في معنى: ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾: هو ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]، يعني هي كقول الله -عز

وجل– في هذه الآية وقال أبي بن كعب –رضي الله تعالى عنه– في قوله تعالى: ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ قال: «الكافر يتقلب في خمسة من الظلم فكلامه ظلمة وعمله ظلمة ومدخله ظلمة ومخرجه ظلمة ومصيره – والعياذ بالله تعالى– يوم القيامة إلى الظلمة» ويعني بذلك نار جهنم ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُورٍ ﴾ يعني من لم يهده رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– فهو حائر بائس والله –عز وجل– يقول: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٣٣]، يعني الله –عز وجل– إذا أضل عبدا لا يمكن للدنيا كلها إذا اجتمعت أن تهديه وأقول قول الله هنا: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ هذا يقابل ما قاله الله –عز وجل– في مثل أهل الإيمان: ﴿يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ ولذلك نسأل الله العظيم بعرشه الكريم أن يجعلنا ممن يهديهم إلى نوره –سبحانه وتعالى–.

المحور الرابع: الكون يسبح لله وهو ملك له وحده دون سواه:

وتحته قول الله –تبارك وتعالى–: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ سبق أن شرحت آية تشبه هذه الآية في سورة الحج وقلت هناك بأن كل ما في الكون يسبح لله –تبارك وتعالى– بنصل التنزيل ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقلت بأننا نسلم لخبر الله –عز وجل– ولا نقول: كيف تسبح الجبال؟ ولا كيف تسبح الحيوانات؟ لأن قوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ يفيد أن الإنس والجن والملائكة والجبال والشجر والدواب كما نص على ذلك في كثير من آيات القرآن الكريم كل ذلك يسبح لله –تبارك وتعالى– وأنا ذكرت في الماضي بأن التسبيح واقع من هؤلاء على الحقيقة فلا أعود إليه الآن والفائدة التي أضافتها هذه الآية ما جاء في قوله ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ﴾ يعني تفيد أن الطير في حال طيرانها تسبح لله –تبارك وتعالى– حتى الطير وهو في حالة طيرانه يسبح لله –تبارك وتعالى– وقد بين الله –عز وجل– أن إمساكه للطير صافات وقابضات من آيات قدرته –عز وجل– فقال كما في سورة الملك: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ ﴾ [الملك: ١٩]، وهذه آية وعلامة من آيات وعلامات قدرة الحق –تبارك وتعالى– ولذلك أقول بأن القرآن الكريم أشار إلى أن الجبال تعقل عن الله –تبارك وتعالى– وأن الله –عز وجل– يخلق فيها إدراكاً تعرف به التسبيح لله –عز وجل–: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ ﴾ [الحشر: ٢١]، وكما قال في الحجارة: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ﴾ [البقرة: ٧٤]، وقوله –سبحانه وتعالى– هنا: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ اختلف العلماء في الضمير هنا صلاته وتسبيحه يعود إلى من؟ فقيل: يعود إلى الله –عز وجل– يعني أن الله علم صلاة كل وتسبيح كل وعليه فيكون ختام الآية ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ تأكيد لقوله ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ وقيل: الضمير يعود إلى المسبح والمصلي والمعنى كل قد صلاة نفسه وتسبيح نفسه ويصبح قوله تعالى في ختام الآية: ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ تأسيس حكم جديد يفيد أن الله –عز وجل– لا يخفى عليه تسبيح هذه الكائنات فهو يعلمها ويعلم تسبيحها ويعرف زمانها ومكانها ولغاتها –سبحانه وتعالى جل في علاه– ثم يعقب ربنا على ذلك بقوله: ﴿وَلِلهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ ﴾ في الحقيقة هذا الختام من لدن رب العزة والجلال وهو يفيد أن الله له ملك السماوات والأرض يفهم منه أن هؤلاء الكفار الذين لا يسبحون ولا يعظمون ويسيرون في غيهم وضلالهم وقد أخبر الله عنهم أنهم يعيشون في الظلمات ألا فليعلموا أنهم لن يخرجوا عن قبضة رب العزة والجلال – سبحانه وتعالى– لماذا؟ لأن الملك لله –عز وجل– وحده دون سواه، فهو مالكهم وإن تعالوا عن التسبيح العبادة له ويعلم أحوالهم وما هم عليه وقد يقولون: إن كان الملك لله في الدنيا فهي ستنتهي ولن يستطيع أحد بعد ذلك أن يجمعنا إلى الآخرة من جديد لدفع هذا الوهم يقول –سبحانه وتعالى–: ﴿وَلِلهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ ﴾ فالدنيا والآخرة بيد الله –سبحانه وتعالى– وحده ليجزي المحسن على إحسانه والمسير على إساءته كما ذكر ذلك ربنا –سبحانه وتعالى– في كتابه فهو له الحكم في الدنيا والآخرة كما له –سبحانه وتعالى– الحمد في الدنيا والآخرة. وبكلمة الحمد أختم هذا القاء وأسأل الله –عز وجل– أن يجعلنا له من المسبحين الحامدين، وصلي اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

يقول: ماذا ترون فيمن تزوج زانية ليسترها هل هو مثاب أم ديوث؟

الحقيقة هو لم يبين أمراً: هل هي تابت أم لم تتب؟ فإن تابت فعفى الله -سبحانه وتعالى- عنها وإن لم تتب ففي الحقيقة لا يفسد على نفسه فواتح، إن تابت فعفى الله عما سلف وجمهور أهل العلم على ذلك أما الزانية فتتزوج ويتزوجها الرجل بعد أن تتوب إلى الله -تبارك وتعالى- ومن تاب تاب الله -سبحانه وتعالى- عليه.

بالنسبة لآية ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ الآية لا أدري الشيخ ما ذكر أحد أوجه التفاسير أنا مرت علي أن أعمالهم يوم القيامة يحسبون أنهم على شيء فما يجدون شيء يعني يعملون في الدنيا وفي الآخرة لا يجدون إلا الخسار والعقوبة؟

في الحقيقة لو يمكن الأخ -جزاه الله خيراً- ركز معي فيما قلت يعني قلت: هؤلاء وهم يظنون أنهم يحسنون في أعمالهم لا جزاء لهم عند الله -تبارك وتعالى- فأعمالهم شبهها الله -سبحانه وتعالى- بمن يسير في الصحراء يظن أن أمامه ماءً وإنما هو سراب لا شيء فيه ولا شيء تحته ولا أمامه ولا فوقه وقلت بأن قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ يعني وجد عقاب الله -عز وجل- وبالتالي لا شيء له في الدار الآخرة وأشرت أيضا تكملة للكلام إلى أنه لن ينال عند الله جزاء واستدللت بقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾ وقلت بأنه إن فعل خيراً في الدنيا يوفاه في الدنيا إن أراد الله -عز وجل- ذلك لأن الخير منقطع عنه تماماً في الدار الآخرة وذكرت قول الحق -تبارك وتعالى- ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾.

تقول: ما قول فضيلتكم يا شيخ في كتاب تنوير المقباس من تفسير ابن عباس؟

في الحقيقة العلماء وطلبة العلم من المهتمين بالتفسير يقولون بأن ما فيه لم يثبت عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- يعني بعضه يعني تصح نسبته إليه والبعض لم يثبت عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- ولذلك فيه أحد الطلاب في جامعة أم القرى أخذ رسالة في مجلدين حقق فيها الأقوال المنسوبة إلى الإمام عبد الله بن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في التفسير بعد أن جمعها من هذا الكتاب ومن غيره فعلى كل لا يطمئن الإنسان لكل ما يأخذه في هذا الكتاب أنه من قول ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- فبعض من يروي عن ابن عباس روايته عنه منقطعة حتى إن هناك خلافاً كبيراً فالضحاك على أرجح الأقوال لم يلق ابن عباس وكتب التفسير مليئة بروايات الضحاك عن ابن عباس والراجح أن الضحاك لم يلق ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- فالمسألة تحتاج إلى تثبت وإلى بحث وإلى تحرٍ فالكتاب الذي أشارت إليه لا يمكن نسبته برمته إلى عبد الله بن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ولكن فيها ما هو متصل إليه والكثير منه لم تثبت نسبته إليه كما ذكر ذلك كثير من أهل العلم.

ما الحكم لو أن شخصاً بنى مسجداً تحت بيته قد يكون غرفتين؟

هل هذا يعتبر من باب (من بنى لله مسجدا)؟

السؤال الثاني: فيه مسجد في البلدة التي نحن فيها هناك قبر ملحق بالمسجد في غرفة مفصولة عن المسجد والشيخ الذي يقيم الجمعة فيه هو أفضل شيخ في هذه البلد من ناحية الخطبة التي يلقيها فهي خطبة مفيدة علمياً وباقية المساجد ليست في قوة الأولى؟

السؤال الثالث: هناك طبيب يكون عنده في عيادته مرضى درجة حرارتهم عالية لا يستطيع أن يصلي الجماعة في وقتها فلو رجع وصلى في البيت هل هذا حرام أم ماذا؟

السؤال الأول: الإمام ابن كثير ذكر في تفسيره أن الله -سبحانه وتعالى- ضرب مثلين مثلاً نارياً وآخر مائياً أنا لا أفهم ما المقصود بالضبط بالمثل الناري والمثل المائي خاصة أنه يُذكر كثيراً في كلام العلماء؟

السؤال الثاني: تفسير قوله تعالى: ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ كنت سمعت أحد المشايخ ممن يتكلمون فيما يسمى بالإعجاز العلمي يقول: إن الإعجاز العلمي الحديث اكتشف أن هناك فعلا موجاً داخل البحر وآخر الموج الذي نراه فوق البحر فكنت أود أن أعرف رأيكم في الإعجاز العلمي أو ما يسمى بالتفسير العلمي بالقرآن؟

الأخت كان لها ثلاثة أسئلة السؤال الأول أن أحداً بنى مسجدا تحت المنزل هل يعتبر ذلك داخلا في قول النبي -صلى الله عليه وسلم- (من بنى لله مسجدا)؟

في الحقيقة أدعو المسلمين ومن وسع الله تعالى عليهم أن يبني المسجد استقلالاً وإن كان الإنسان محباً للخير ولكن ضاقت به الأمور عن أن يبني مسجداً مستقلاً دون أن يستفيد من خدمة كأن يكون يبني بيتاً فوقه أو ما إلى ذلك إن كانت نيته وهذه لا يعلمها إلا رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- أن يقيم هذا المكان كي يعبد الله -عز وجل- فيه بنية صادقة خالصة متقرباً به إلى الله -عز وجل- فأرجو له الخير -إن شاء الله- وأن يكون ممن قال فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من بنى مسجداً أو بيتاً لله تعالى بنى الله له بيتاً في الجنة) لأن ما نسمع أن البعض قد يحاول أن يبني مسجداً لكي يأخذ ترخيص للبناء أو يدخل مرافق أو ما إلى ذلك فهذه حيل في الحقيقة لا تكون سليمة بحال من الأحوال ولو بنى بنية صالحة صادقة طيبة وهذا ما عنده وقدمه فأرجو -إن شاء الله تعالى- أن ينال خيراً من وراء ذلك.

سؤالها الثاني عن قبر ملحق بالمسجد وهذا المسجد فيه أفضل شيخ في قريتها؟

في الحقيقة القبر إن كان في داخل المسجد أو ملحق به ولا أفهم هل هناك باب يؤدي إلى المسجد وليس هناك فاصل بين القبر أو المسجد أو لا يوجد فعلى كل حال إن كان ملحقا بلا فاصل فلا يصلى فيه لأنه ذريعة إلى الشرك بالله -تبارك وتعالى- وهذا يغرر العامة على أن هذا شرع أو من دين الله -عز وجل- فيذهبون إليه ولا يعلمون فإن كان الأمر بأن القبر ملحق بالمسجد وليس بينهما فاصل فهذا مدعاة إن لم يكن بالفعل يؤدي إلى الوقوع في الشرك -والعياذ بالله تبارك وتعالى- ولا يهم في هذه الحالة جودة الخطيب من عدمها وإن كان الأمر كذلك فأنصح أن يقوم بعض أهل الخير من هذه القرية فينصحون الإمام ويبينون له الحق في هذه المسألة وينصحونه في أن يعلم الناس ألا يتوجه أحد إلى هذا القبر وإن كان هناك باب يفتحه إلى هذا القبر فليغلق هذا الباب يعني هذا على أقل تقدير ما يمكن أن يفعلوه أو يقوموا به.

سؤالها الثالث فضيلة الشيخ عن أخ طبيب ومثلت بأنه يأتي مريض درجة حرارة عالية؟

هذا فيما يمكن أن نقول عنهم: أصحاب الأعذار فأصحاب الأعذار المريض في عمله أو مثلا من يحرس أمراً لو تركه لحصل ما حصل وما إلى ذلك عليه أن يصلي بعد الناس والله -عز وجل- يعلم خفايا العباد ويعلم المعذور من غير المعذور فإن كان معذوراً في علاج أو ما إلى ذلك فهذا لا حرج عليه -إن شاء الله تبارك وتعالى- وهذا من يسر التشريع وكرم رب العالمين.

سؤاله الأول: عن أن ابن كثير -رحمه الله تعالى- قال: ضرب الله مثلين واحدا ناريا والآخر مائيا فما معناهما؟

الحقيقة المثل قال: نارياً لأنه ذكر فيه النار وهو للمنافقين نفاقاً اعتقادياً الذي هو في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ إلى آخره وذكر بعض العلماء بأن هؤلاء النور الذي في النار يذهب ويلقون في النار وتوجد

إشارة في الآيات تدل على ذلك وتشير إليه أما المثل المائي لأنه ذكر فيه الماء ونفاق القوم الذي ذكروا في المثل الثاني أقل من نفاق القوم المذكورين في المثل الأول لأنه أشار إلى أن هؤلاء يظهر لهم الحق أحياناً ويلوح وأحياناً ينحرفون ويغيب عنهم هذا الحق فتنطمس بصائرهم لذلك فهذا معنى مائي ومعنى ناري أما قصده في أننا نسمع كلمة ناري الآن من بعض المتحدثين وما إلى ذلك فنقول هذه أمثال ضربها رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- في كتابه ونحن حينما نأتي ونتكلم اليوم يجب أن ننضبط في ألفاظنا بالألفاظ الشرعية بمعنى أنني لا آتِ أنقل كلمات من هذا المثل وأنزلها مثلا على أمر آخر يعني مثلا بعض الناس سألني يوم الأحد الماضي قال فلان عنده بدعة فأنا يمكن أن أقول عنها بدعة نارية فأنا قلت ماذا تعني بنارية؟ أن البدعة تؤدي إلى النار أما إن أردت أن تطلق فقل لهذه بدعة ضلالة لماذا؟ لأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: (كل بدعة ضلالة) ومن منهج أهل السنة والجماعة أنهم يلتزمون بالألفاظ الشرعية الواردة في الشرع الحكيم لأن انحراف الناس كان من ورائه استخدامهم لألفاظ غير شرعية فالذين مثلاً أنكروا صفات الرب -تبارك وتعالى- مثلا لما استخدموا بعض الألفاظ الشرعية وتوسعوا في هذا الباب كان في ذلك مدعاة إلى أن يؤولوا أو ينكروا صفات الرب -تبارك وتعالى- فالالتزام بالألفاظ الشرعية الواردة عن الشرع الحكيم هذا هو الواجب في باب التشريع.

سؤاله الثاني فضيلة الشيخ ما رأي فضيلتكم في التفسير العلمي للقرآن الكريم ؟

التفسير العلمي للقرآن الكريم ينقسم إلى قسمين كما ذكر ذلك كثير من أهل العلم:

- إما أن يكون التفسير العلمي إما أن يكون التفسير العلمي مبنية على حقائق وليست نظريات قد ثبتت بالفعل ولا تتعارض يعني تتفق مع آيات القرآن الكريم فنحن في هذه الآية نقول هذا من إعجاز القرآن الكريم يعني لا نفرح بالتفسير العلمي نفسه ونقول بأن انظر ماذا وجدنا فيما رأيناه اليوم لا نحن نقول بأن القرآن الكريم الذي نزل قبل أربعة عشر قرناً من الزمان تأملوا كيف أبان وأظهر وجاء في طياته ما يشير إلى معنى وجد مثلا في هذا الزمان فتكون الحادثة واقعة وحقيقية وتتنزل على القرآن الكريم وليس القرآن الكريم هو الذي ينزل عليها يعني أنا لا أطوع الآية للحدث العلمي وإنما أجد أن الحدث العلمي قد وافق كتاب الحق -تبارك وتعالى- أما إن كانت مجرد نظريات وغير ثابتة والبعض يلوي نصوص القرآن الكريم كما هو معروف اليوم بعض الناس تستخدم حتى حروف القرآن الكريم وينظرون في هذه الحروف ويستدلون بها على بعض أحداث أو على بعض أمور أو على أرقام معينة مذكورة في القرآن الكريم كل هذا ليس من كتاب الله -تبارك وتعالى- ولا يجوز للعبد أن ينشغل به لأنه مضيعة للوقت إلى جانب أنه قد يؤدي به إلى الانحراف عن فهم كتاب الله -تبارك وتعالى- والقصد من كل ذلك ألا نلوي قرآن ربنا الآيات الواردة في كتاب الله -عز وجل- كي ننزلها على الواقع بل إن وافق الواقع كتاب الله -عز وجل- نقول هذا إعجاز للقرآن هذا سبق للقرآن هذا جاء ذكره في كتاب الله -تبارك وتعالى- وما عداه فيجب أن يغلق هذا الباب والله أعلم.

ذكرت فضيلتكم أنه لا يجوز التحدث في المساجد بصوت عالٍ فهل هذا يخص التحدث بصوت عال فقط أم التحدث ككل؟

لا شك أن النهي هنا عن التحدث بما لا ينبغي في المسجد بصوت مرتفع أو بشيء من الحق ولكنه يشوش على الآخرين لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- أشار إلى أنه إذا أتى الإنسان المسجد أن يكون عليه السكينة والوقار وأمر -صلى الله عليه وسلم- ألا يرفع المصلون أصواتهم فوق صوت بعض حتى لا يؤذي بعضهم بعضاً ولا يشوش بعضهم على بعض فالسكينة والوقار والهدوء في بيت الله -عز وجل- وخفض الصوت مدعاة لتحصيل العلم النافع وأيضاً مدعاة لزكاة النفس وطهارتها وصدق الوقوف بين يدي رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- والشاهد أن المقصود من رفع الصوت هو الرفع الذي يؤذي من هو في داخل المسجد أو أن يكون ليست هناك حاجة إلى رفع صوت، يعني نتعامل في المسجد مع شيء من الأدب وخفض الجناح.

هل يجوز للمرأة أن تتزين وتضع الطيب أثناء الصلاة في بيتها؟

لا حرج في ذلك، في بيتها.

تتزين كأن تزين الوجه مثلا

لا حرج في ذلك طالما في بيتها وبما لا يمنع وصول الماء إلى البشرة وما إلى ذلك فتزين المرأة بما تــضعه على وجهها إن لم يكن مانعا من وصول الماء فهو أمر لا شيء فيه.

سؤاله الأول: يقول إذا دخل شخص المنزل وسلم على أهل البيت وسمعته أثناء نومي في غرفتي هل يجــب علي رد السلام إن لم يرد عليه غيري؟ هل يجب أن أسمعه صوتي ؟

طالما أنك سمعت فآنسه وسلم عليه يعني رد عليه السلام وحقق حديث النبي –صلى الله عليه وآلــه وســلم– طالما أنه لا يوجد إلا أنت في البيت أو لم يسمعه إلا أحد غيرك وأنت قد سمعت فتنال أجراً على ذلك ولك فــي هذا فضل –إن شاء الله تبارك وتعالى–.

سؤاله الثاني بالنسبة للبيع والشراء في المسجد هل يدخل في ذلك إذا أعطيت شخصاً مالا ليشتري لــي شــيئاً ليس بغرض التجارة وأيضاً هناك من يقوم بتدريس الأطفال في المسجد بالأجر هل يجوز فعله؟ كذلك نجد أحياناً إعلانات معلقة على باب المسجد عن أمور تدر أرباحاً لصاحبها فما حكم ذلك؟

بالنسبة للقضية الأولى هو إعطاؤه لشخص مالاً يشتري له شيئاً هذا ليس بيعاً ولا شراءً وإنما هو تكليف بأمر جائز فلا حرج فيه.

أما من يدرس مقابل أجرة فالعلماء أباحوا ذلك وليس في الحقيقة الأجر المأخوذ في هذه الحالة على التــدريس فحسب وإنما هو على حبس وقته لأنه يمكن أن يعمل في هذا الوقت عملاً يدر عليه دخلاً ولكنه في هذه الحالــة حبس وقته يعني أخذ من وقته لهذا العمل فما يتقاضاه هو على حسب أو مقابل إعطائه هذا الوقت للتعليم وصرفه إليه وبالتالي لا يكون قد باع أو اشترى.

الأمر الثالث: الذي أشار إليه بالنسبة للإعلانات أنا كلما دخلت مسجداً وتمكنت أن أرفع إعلاناً إن رأيته فيــه يدعو إلى بيع وشراء فأقطعه لأن من وجهة نظري لا فرق بين هذا الإعلان المكتوب الذي يشغل الداخل إلى بيت الله –عز وجل– لأن بعض الناس أحياناً إذا دخل تعرفون من السنة إذا دخل أحدكم المسجد أن يسلم على النبي –صلى الله عليه وسلم– ويصلي عليه ثم يقول الدعاء الوارد في ذلك اللهم اغفر لي ذنوب وافتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج يقول: اللهم افتح لي أبواب فضلك فبعد أن يسلم أيضا عن النبي –صلى الله عليه وسلم–، فواضع هذه الأشياء تشغل كثيراً الناس والناس يتهافتون على مثل ذلك فهو قائم اليوم هذه الإعلانات من وجهة نظري مقــام الإعلان عن البيع والشراء في المسجد فلا توضع ولا تترك في بيت الله –تبارك وتعالى–.

يقول: حديث أبي هريرة –رضي الله تعالى عنه– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: (إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا: لا أربح الله تجارتك وإذا رأيتم من ينشد ضالة في المسجد فقولوا: لا ردها الله عليــك) هل يدخل فيه ما يفعله بعض المتسولين حيث أنهم يقومون بعد تسليم الإمام ويطلبون الإعانة بصوت مرتفع فــي داخل المسجد؟ وما الذي ينبغي فعله حيال ذلك؟

أيضا في الحقيقة لا يسمح ولا يجوز لأصحاب المسجد أو المسؤولون فيه أن يتركوا أي واحد يقوم في داخل المسجد ويطلب شيئاً من ذلك وإن كان هناك حاجة لأحد فليكن في خارج المسجد وأيضا أنا أقول بأن كثيراً من هؤلاء القوم في الحقيقة يتسولون ويقفون أمام أبواب المساجد أو يقومون بإعلانات في داخل المساجد وقد رأيت حالات أنا شخصيا رأيت حالات متعددة في مثل ذلك وليست في الحقيقة كما يصورون بل في واقع الأمر هم لا يحتاجون وبالتالي على المسلم أن يكون لبقاً في التصرف مع هؤلاء الناس وعليه أيضاً أن يبحث في إخراج ماله أو في إخراج صدقته كي تخرج إلى من يحتاج إليها.

تقول: إذا كانت المرأة خارج المنزل وأدركتها الصلاة وهي في السوق مثلاً فهل تحتاج لإذن من زوجها لدخول المسجد وليس لديها وسيلة اتصال لتأخذ الإذن أم ترجع وتصلي في بيتها ولو تأخرت في صلاتها فأيهما أولى؟

في الحقيقة طالما أنه أذن لها لتخرج إلى الشارع فوجودها في السوق الآن وصلاتها في داخل المسجد هو الأفضل لها في ذلك الوقت لأنها في خارج البيت وهي في الشارع وقد أذن لها به وكونها في الشارع والمسجد أيضاً في الطريق فالأمر فيه سيان وواحد فيدخل في الإذن العام ألا وهو خروجها من خارج بيتها يعني يصبح دخولها المسجد والصلاة في هذه الحالة يعد داخلاً ضمن الإذن العام في خروجها إلى خارج البيت وصلاتها في هذه الحالة أولى لها وأفضل في أنها ستؤدي الصلاة في وقتها وحتى لا تتأخر وهذا أيضاً يحجبها بعض الوقت على أن تكون في الخارج في الشارع للرائح والجاي.

يوجد في بعض المساجد من يستغل مكبر الصوت للإعلان عن وفاة أحد الأشخاص في المنطقة مثلاً أو البحث عن طفل تائه فهل هذا يدخل في النهي؟

في مثل هذه الحالات أرجو ألا يكون في هذا بأس بشرط ألا يتكرر مثل ذلك وأنصح في هذه المناسبة أن يكون هناك غرفة ملحقة بالمسجد توجد فيه الإذاعة حتى يتم هذا الإعلان من داخل هذه الغرفة ولا يكون في داخل المسجد فلما يعلم ويكون هناك سماعات في الخارج والداخل سماعات الداخل تغلق وتعمل سماعات الخارج فقط ويكون الإعلان في غرفة ملحقة بالمسجد فنكون بهذا الحمد لله قد برئنا من أن نكون قد أعلنا في داخل المسجد ما نخاف من أن ندخل تحت الوعيد بسببه ونكون قد أدينا فائدة خاصة إن كان هناك طفل تائه أو مريض بحاجة مثلاً إلى دم أو نقل دم أو ما إلى ذلك فأرجو أن يجتهد إخواننا حينما يسمعون هذا الكلام في أن تكون غرفة الإذاعة غرفة ملحقة بالمسجد وعند الإعلان أن يغلق السماعات التي تظهر الصوت في داخل المسجد وأن تكون السماعات خارج المسجد هي التي تعمل فقط وبهذا نكون قد حققنا المصلحتين إن شاء الله -تبارك وتعالى-
.

يقول في قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ﴾ أرجو من سيادتكم بيان كيفية ذكر الله -تبارك وتعالى-؟

ذكر الله -تبارك وتعالى- يجب أن يكون مع العبد آناء الليل وأطراف النهار وخلاصة القول فيه لأن الآيات أشارت إلى الذكر في الصلاة وما إلى ذلك والتسبيح النبي -صلى الله عليه وسلم- كما ذكرت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-: (كان يذكر الله على كل أحواله) -صلوات الله وسلامه عليه- والفقهاء يستدلون كان يذكر الله على كل أحواله يعني وهو على وضوء على طهارة أو على غير طهارة ونحن نستفيد أيضاً أنه يذكر الله -عز وجل- في جميع أحواله يعني كان لا ينصرف وقتاً عن ذكر الله -تبارك وتعالى- والعبد المسلم لو تأمل في حياة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- سيجد هذه الحياة كلها مليئة بذكر الله -تبارك وتعالى- فأنت صلاتك لله -عز وجل- ذكر استماعك للأذان وترديد كلماته والدعاء بعده ذكر إذا دخلت بيتك ذكرت الله إذا دخلت المسجد ذكرت الله خرجت من بيتك خرجت من المسجد ذكرت الله جلست على طعامك ذكرت الله أكلت ذكرت الله انتهيت من

الطعام ذكرت الله قابلت إخوانك فسلمت عليهم وتواصيت، أمرت بمعروف ونهيت عن منكر ذكرت الله سبحت الله -عز وجل- بالتسبيحات الواردة في السنة في النهار في الليل في المساء الأذكار الواردة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- كل هذا من ذكر الله -عز وجل- فعلى المسلم أن يتأمل في السنة النبوية ويبحث عن الأوراد والأذكار التي كان يقولها النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ويلتزم بها ويكون بهذا ذاكراً لله -تبارك وتعالى-.

السؤال متشابه السؤال الذي مرت قبل ذلك الذي هو عن المقابر نحن عندنا المسجد كله حوله مقابر في قرية بسيطة فداخل المسجد فيه ضريح لكن بابه اتجاهه للخارج وليس للمسجد ثم لما عملوا توسعة للمسجد قال جماعة إن هناك مقابر دخلت المسجد وغير متأكدين، أحياناً يقولون: فيه قبور هنا في المسجد في هذه التوسعة وأحياناً ينكرون ونحن لا نعرف الحقيقة والمسجد الآخر بعيد عنا فهل الأفضل أن يصلي الواحد منا في البيت أم يصلي في المسجد؟

الحقيقة أناشد عموم المسلمين أن يتعلموا هذه القضية من جيلهم وأن يكفوا عن مثل ذلك فالإنسان يعجب حينما يخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- في أحاديث متعددة وينهى -عليه الصلاة والسلام- عن بناء المساجد على القبور واتخاذ القبور مساجد وعن إيقادها وما إلى ذلك ثم بعد ذلك نجد إلى اليوم من يدافع عن هذا أو من يعمله، والأخ -جزاه الله خيراً- هو الآن يستفسر عن مثل ذلك ولكني أنتهز هذه الفرصة في أنني أوجه كلامي للمخاطبين يجب أن ترتفعوا عن هذا الفعل أقول يجب لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- لعن من اتخذ القبور مساجد وأخبر أيضا -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الذي رواه مالك وغيره: (إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجدا) والنهي عن اتخاذ القبور مساجد يشمل النهي عن الصلاة فيها لأن الصلاة في هذه الحالة مدعى إلى أن توجه إلى صاحب القبر ونحن وحينما نتكلم بهذا الكلام لستُ بعيداً فالذي يذهب إلى هذه المساجد ويصلي فيها يشاهد من ينتهي إلى الصلاة ثم يذهب إلى صاحب القبر يدعوه فينصرف وهو بين يدي الله -عز وجل- وفي مقام الخشية الخشوع والخضوع والطلب وهو ساجد وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، ثم بعد ذلك لا يدعو الذي يسمع السر والنجوى ويعلم السر ما ظهر وما خفي يتركه ويذهب إلى مخلوق ضعيف ميت لا يملك من أمره شيئاً فلابد يا إخواننا المسلمين أن تتنبهوا لهذه القضية ولهذه المسألة وأن تحرصوا على أن تبنوا مساجد لله -عز وجل- خالصة كما قال الله في كتابه ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ للهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾ وأرى كما ذكر كثير من أهل العلم أن المساجد التي بها قبور لا تجوز الصلاة فيها لأنها إن لم يقع فيه المصلي في الشرك فهي مدعاة أو وسيلة أو ذريعة إلى الوقوع في الشرك -والعياذ بالله تبارك وتعالى- والله تعالى أعلم.

السؤال الأول: اذكر حديثاً في فضل بناء المساجد. وهل يجوز بناء المساجد على القبور أيد ما تقول بالدليل؟

السؤال الثاني: ضرب الله مثلين للكفار في هذه الآيات اذكرهما مع الشرح والتوضيح؟

الدرس الرابع والعشرون: تفسير سورة النور

فضيلة الشيخ أهلاً ومرحباً بكم

أهلاً وسهلاً ومرحباً بكم وبالحاضرين والمشاهدين والمشاهدات ويسرني في هذا اللقاء أن ألتقي بكم ومع تتمة آيات من تفسير سورة النور بإذن الله -تبارك وتعالى- وسيدور حديث هذا اللقاء حول المحاور التالية:

المحور الأول: الله تعالى يصيب بالغيث من يشاء ويصرفه عن من يشاء.

المحور الثاني: خلق الله الكائنات كما أراد.

المحور الثالث: المنافقون يظهرون خلاف ما يبطنون.

المحور الرابع: استجابة أهل الإيمان لما جاء عن الله ورسوله -عليه الصلاة والسلام-.

المحور الخامس والأخير: تمكين الله في الأرض لأهل الإيمان.

ولنستمع الآن إلى آيات هذا اللقاء مع الأستاذ الكريم، فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لاَّ تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ .

أحسنت، جزاك الله خيراً.

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك الحق المبين وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم وبارك وأنعم عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم وسلك سبيلهم ونهج نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين وبعد،

المحور الأول: الله تعالى يصيب بالغيث من يشاء ويصرفه عن من يشاء

فمع المحور الأول من هذا اللقاء وهو بعنوان: الله تعالى يصيب بالغيث من يشاء ويصرفه عن من يشاء، ويبتدء هذا المحور بقول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ الله -عز وجل- في هذه الآية يخبر عن تمام تصرفه في الملك -عز وجل-، وهو أنه -سبحانه وتعالى- يسوق السحاب شيئًا فشيئا لأن كلمة "يزجي السحاب" تفيد أنه يسوقه قليلاً قليلاً لأن السحاب أول ما ينشأ يكون ضعيفاً في أول نشأته وقوله هنا: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ المراد بالرؤية هنا الرؤية البصرية؛ لأن الإنسان يشاهد السحاب ونزول المطر بعينه، فالله -عز وجل- يزجي السحاب يعني يسوقه شيئًا فشيئاً لأن بدايته تكون ضعيفة كما ذكرت، ثم بعد ذلك يؤلف ربنا -سبحانه وتعالى- بينه أيضاً يعني يجمع بينه ويؤلف بينه ويضم بعضه إلى بعض، ثم بعد ذلك يجعله ركاماً أي متراكماً بعضه يعلو بعض، أو بعضه يركب فوق بعض، والسحاب كما هو معلوم يكون طبقات مختلفة.

الله -عز وجل- يخبر ويدعوا الناس إلى أن يتأملوا في ذلك لأنهم يشاهدوه ويعرفوا من خلاله أثر قدرة رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، (كلمة غير مفهومة)، فعل ذلك هو الله -سبحانه وتعالى- وحده دون سواه؛ لأنه نسب الأمر أولاً إلى نفسه فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ﴾ -سبحانه وتعالى-.

ثم بعدما أشار إلى السحاب وإلى أنه يؤلف بينه وإلى أنه يضم بعضه إلى بعض قال بعد ذلك: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ﴾ ﴿الْوَدْقَ﴾ المراد به هنا المطر، و ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ﴾ يعني من خلله وهي الفرج التي تكون موجودة في السحاب وهي مخارج القطر الذي ينزل من عند رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، ولذلك لما قال: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ﴾ عقب على ذلك بقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾ .

هنا لو لاحظتم أيها المشاهدون الكرام تجدون أن حرف من الجار تكرر ثلاث مرات، ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ قال بعض النحاة:

- "من" الأولى: بابتداء الغاية، والثانية: للتبعيض، والثالثة: لبيان الجنس، ويصبح معنى الآية أن الله -عز وجل- ينزل من بعض الجبال التي في السماء شيئًا من البَرَد وهو يعني بذلك أنه توجد جبال كثيفة مليئة بالماء الجامد والله -عز وجل- ينزله بأمره من السماء.

- وقيل: بأن "من" الأولى: هي لابتداء الغاية، والثانية أيضاً: مثلها لابتداء الغاية، وتصبح على هذا تأكيداً لمن الأولى ويصبح المعنى بناءاً على ذلك أن الله -سبحانه وتعالى- ينزل المطر من السماء أو من السحاب، وليس بمعنى أنه ينزل قطعاً من الجبال التي تكون في السماء.

- وقد ذكر بعض النحاة أقوالا أخر في معنى هذه الآية ولكن الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- اقتصر على ذلك وهو أراد أن يبين بأن الآية إما أن تفيد أن في السماء جبالاً فيها قطع من الماء وأن الله -عز وجل- ينزل منها البرد.

- وقيل أيضاً في الآية بأن المطر الذي ينزل من السماء إنما هو ينزل من فرج أو مخارج السحاب الذي يزجيه رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾ قال بعد ذلك: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾ يعني يصيب برحمته -سبحانه وتعالى- بهذا المطر النازل من السماء من يشاء من عباده، والمطر رحمة من الله

-عز وجل- يتفضل به على العباد، وقد ذكر ذلك في كتابه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ [الشورى: ٢٨]، فسمى ما ينزل من عنده من السماء -سبحانه وتعالى- رحمة، وهو حقاً كذلك، والله -عز وجل- يمنح هذه الرحمة لمن يشاء ويعطيها لمن يشاء من عباده، وهو أيضاً يصرفها عن من يشاء من عباده.

وفي قول آخر: أن في قوله تعالى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ يعني يصيب بالبرد وهي قطع الثلج المتجمدة ﴿مَن يَشَاءُ﴾ عقوبة منه -سبحانه وتعالى-، لأن هذا كما ذكر المفسرون في السابق قالوا: يصيب الزرع والثمار وما إلى ذلك ونحن نقول اليوم يفسد أيضاً غير ذلك مما يضعه الناس اليوم خارج البيوت، وما هو قائم على الزجاج كالسيارات وغير ذلك، فإذا نزل مثل هذه القطع الجامدة من السماء بهذه القوة وبهذا السقوط لا شك أنها ستأثر وبالتالي يصبح ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ نغمة منه -سبحانه وتعالى- على هؤلاء، ﴿وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾ يعني لا ينزل هذا البرد ألا وهو قطع الثلج الجامد على من يشاء من عباده رحمة منه -سبحانه وتعالى- بهم.

ثم أقول هنا أيها الكرام: يجب أن نعلم أن الله -عز وجل- يسوق السحاب وينزل المطر من عنده -عز وجل- رحمة منه بعباده إذا قاموا بحق نعم الله -سبحانه وتعالى- عليهم، وفي صحيح مسلم حديث جميل يؤكد هذا المعنى ويوضحه، يخبر فيه النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فيقول: (بينا رجل يمشي في أرض فلاة إذ سمع صوتاً في سحابة تقول: اسقي حديقة فلان، ثم نظر فوجد السحاب التي فوقه قد انتقل إلى أرض أو إلى حديقة معينة، ثم نزل عليها لا غير، فذهب هذا الرجل يتتبع الأرض التي نزل فيها الماء، فوجد حديقة فيها ثمر وزرع ووجد رجلاً هناك، فسأله عن اسمه، فسأله لم لا تسألني، لماذا تسألني عن اسمي؟ فقال له: إني سمعت في السحاب الذي هاهنا ماءه صوتا يقول: اسقي حديقة فلان -وكان هذا هو الرجل الذي قائم في مزرعته ويخدمها ويزرعها واسمه هو الذي سمعه هذا الرجل في السحاب- ثم قال له هذا الرجل الذي سمع الصوت من السحاب: أخبرني عن شأنك، فقال له: أما وقد قلت ما قلت، فإنني أقسم ما يخرج من هذه الأرض ثلاثة أصناف: آكل أنا وعيالي ثلثاً وأتصدق بثلث وأرد فيها ثلث)، فعلم هذا الرجل أن الله -عز وجل- سخر هذا السحاب وأمر ربنا -عز وجل- الماء النازل من السماء أن ينزل بالاسم على حديقة هذا الرجل لأنه يؤدي حق الله -تبارك وتعالى- فيها، فيطعم منها هو وأولاده، ويتصدق بثلث الخارج من الأرض، وما بقي من الثلث الآخر يرده مرة أخرى كي يعود إلى الزرع من جديد، فهاهنا هذا الرجل لما كان مطيعا لرب العزة والجلال ساق ربنا -سبحانه وتعالى- وسخر له الماء النازل إلى السماء باسمه وهو سبحانه وتعالى هو الذي يعلم الشيء، يعلم هذا الرجل ويعلم ما يفعل، وهو الذي أمر هذا السحاب وذكر اسم هذا الرجل الذي يقوم ويزرع هذا الزرع ويتصرف فيه هذا التصرف.

ثم يقول -سبحانه وتعالى-: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾ ﴿يَكَادُ﴾ من أفعال المقاربة، يعني يقارب شدة ضوء البرق يذهب بأبصار من تأمله، ونظر فيه، وذلك لقوته ولشدة لمعانه ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ﴾ لمن ينظر ويتأمل في هذا البرق يكاد أن يذهب بصره لشدة هذا المنظر ولما يراد وهذا يدل على أنها أثر من آثار نعمة الله -سبحانه وتعالى- أيضاً على العباد؛ لأن رب العزة والجلال يلفت النظر إلى ذلك، ويقول: تأمل والله -عز وجل- حينما يسوق هذه الآيات ليعرف العباد شيئًا من قدرته -سبحانه وتعالى- في الكون، فأنت إذا عرفت هذه الآيات ونظرت فيها وتأملتها أدركت عظمة رب العزة والجلال سبحانه، وأدركت قوته سبحانه، وأدركت أن له جنود يسخرهم -سبحانه وتعالى- كما يشاء ومن ذلك هذا البرق، ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾ .

ثم يقول -سبحانه وتعالى- موجها الخطاب إلى الجميع ﴿يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾ معنى ﴿يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يعني يراوح بين الليل وبين النهار، ويدخل هذا في هذا وهذا في هذا، ومنه يفهم أيضاً أنه ينقص من الليل في النهار، وينقص من النهار في الليل، ونحن نعلم أن الليل والنهار لا شك أنهما يختلفان باختلاف الفصول والشهور، فمرة يكون الليل طويلاً ومرة يكون قصيراً وما إلى ذلك وهذا

هو من تقدير الله -عز وجل- لليل والنهار، وما كان ذلك إلا للاعتبار والاتعاظ؛ لأن هذا فيه منافع كثيرة لك أنت أيها الإنسان، فكون الليل والنهار يتراوحان عليك وترى الشمس والضياء وترى الهدوء والسكينة وعدم الضياء والإزعاج وترى شيئًا من الحرارة وترى شيئًا من البرودة وهذه أمور تحتاج إليها الكائنات الحية فأنت إذا نظرت في ذلك وعرفت أن هذا من فضل الله -سبحانه وتعالى- عليك وما فعل الله -عز وجل- بك ذلك إلا لكي تراوح أنت أيها الإنسان بين حاجاتك ومتطلباتك دعاك ذلك إلى التأمل والتدبر لتصل من خلال هذا التأمل إلى الإيمان بوجود الله -عز وجل- وإلى إفراده وحده بالعبادة دون سواه، لأنه هو الذي فعل ذلك، وهو الذي رعاك في كل ذلك وهو الذي تفضل عليك بكل ذلك ولهذا صدق الله في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ﴾ وهذه الآية كقول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠].

المحور الثاني: خلق الله الكائنات كما أراد

المحور الثاني في هذا اللقاء بعنوان خلق الله الكائنات كما أراد وتحته قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ الله -عز وجل- بعدما أشار إلى ما يحدث في هذا الملأ أو في هذا الكون الأعلى ألا وهي السماوات وما بثه الله -عز وجل- فيها من سحاب وألف بينه وإنزال هذا السحاب أو من هذا السحاب مطرا ينزل على العباد، أشار ربنا -سبحانه وتعالى- إلى الكائنات الأرضية التي تدب على هذه الأرض وفي هذه الكائنات ما يراه الإنسان من العجب من آيات قدرة رب العزة والجلال أولاً: خلق الله -عز وجل- هذه الكائنات كلها من أين؟ خلقها -سبحانه وتعالى- من ماء وهذا الماء الذي خلق الله منه الكائنات نراه أن الله -عز وجل- أيضاً جعلها متفرقات متباينات ليست على درجة واحدة، لا في الخلق ولا في السورة ولا في السير ولا في التناسل ولا في الطعام، ولا في الشراب، وما إلى ذلك، يعني صور متباينة متفاوتة مختلفة، رغم أنهم جميعاً خلقوا من أصل واحد، ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ ثم ذكر التنوع الموجود بينهم فقال: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ كالحية، والحية في الحقيقة لا تمشي على بطنها، لا تمشي، وإنما تزحف على بطنها، والله -عز وجل- سم زحف الحية وما يشبهها من ما يزحف سماه مشيا إما من باب الاستعارة أو من باب المشاكلة لأنه ذكر بعد ذلك مشي من يمشي على رجلين ومن يمشي على أربع، فقال: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾ والذي يمشي على رجليه من؟ الإنسان والطيور، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات، وهناك أشياء أخر تزيد على الأربع في السير والمشي، ولم يذكرها رب العزة والجلال سبحانه، كالعقارب والعناكب وما إلى ذلك، هذه تسير على أكثر من أربع، والقرآن لم يذكرها لقلتها، ولعدم مشاهدة الناس كثيرًا لها، ولأنها لا تؤثر بالضرورة المباشرة في حياة الإنسان فقد لا يلتفت بعض الناس إلى كثير منها، والله -عز وجل- أشار هنا إلى نماذج مما خلقه -سبحانه وتعالى- من ماء، وهذه النماذج تبين أن الله -عز وجل- خالف بين أصناف ما خلق، وجعل أفضل خلق لمن؟ أفضل خلق للإنسان يعني الإنسان لو نظر إلى نفسه وإلى ذاته، فيعرف وسيعلم أنه أفضل الكائنات على الإطلاق في الخلق والمنظر والصورة والهيئة وما إلى ذلك، وهذا يجعل الإنسان أن يسارع هو بالاستجابة لله -تبارك وتعالى- قبل غيره، وإذا كان كما ذكرت آنفاً إذا كان الكون كله يسبح لله -عز وجل-، وإذا كان الإنسان هو أفضل الكائنات على ظهر هذه الأرض فالواجب عليه إذن أن يكون هو من أفضل العابدين لرب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-.

وبعد أن ذكر -سبحانه وتعالى- هذا التباين في الخلق، أراد أن يشير إلى قوته وحكمته وإرادته في هذا وعزته وأنه لن يغالبه أحد في هذا فقال: ﴿يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ يخلق الله -عز وجل- ما يشاء بقدرته ولذلك عقب عليها بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فالله -عز وجل- لم يلجئه أحد إلى أن يخلق من يمشي على بطنه ومن يمشي على رجلين ومن يمشي على أربع ومن يشمي على أكثر من ذلك، ولكنه فعل ذلك -سبحانه وتعالى- بحكمته وقوته وقدرته ولم يشاركه أحد في الكون كله في إيجاد شيء من ذلك.

ثم بعد ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾ ، بعدما أشار الله –سبحانه وتعالى– في هذه الآيات والآيات السابقة إلى ما أشار كرر هذه الآية مرة ثانية وقد ذكرها قبل آيات قريبة أيضاً في سورة النور، وهي تشير أن ما نزل من عند الله –تبارك وتعالى– ما هي إلا آيات واضحات بينات، تبين للناس وتدعوهم إلى الإيمان والعمل الصالح وتقوى الله –تبارك وتعالى– والله –عز وجل– في هذه الآية بالذات أشار إلى أنه أنزل هذه الآيات البينات ولكنه لم يهدي إليها إلا البعض من الناس فحسب، فهذه الآيات البينات قد يراها المؤمنون والكافرون، وقد يراها الصادقون والمكذبون، وقد يقف على حقائقها المنافقون، ولكنهم لا يهتدون في طريقهم إلى الله –تبارك وتعالى–، والله –عز وجل– أنزل هذه الآيات البينات والذي استفاد منها واهتدى إليها وسلك الطريق الموصل إلى الله –عز وجل– فيها هم أهل الإيمان الذين آمنوا بالله واتبعوا بعد بعثة النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– رسول الهدى والرحمة محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه.

ويستفاد من قوله: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ أن الله –عز وجل– أنزل في القرآن الكريم الحكم والحكم والأمثال والنماذج التي تهدي الناس إلى طريق الله –تبارك وتعالى– لأن قوله –عز وجل–: ﴿وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ عقب قوله: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ تفيد أن هذه الآيات البينات اشتملت على هداية من أراد الله –سبحانه وتعالى– له الهداية، ولو نظر العبد بعين البصيرة، في آيات الله –تبارك وتعالى–، وتأملها وسأل ربه الهداية والتوفيق إليها وكان ذلك بصدق وإخلاص منه هداه رب العزة والجلال من خلال هذه الآيات.

المحور الثالث: المنافقون يظهرون خلاف ما يبطنون

المحور الثالث في هذا اللقاء بعنوان: المنافقون يظهرون خلاف ما يبطنون، وتحته قول الحق –تبارك وتعالى–: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ الله –عز وجل– في هذه الآية وفي آيات تالية أيضاً قليلة يخبر هنا عن المنافقين وعن أحوالهم، ويبين شيئًا من صفاتهم وعلى رأس الصفات التي إن صح التعبير أن أقول امتاز بها المنافقون، أو تميز بها المنافقون عن غيرهم أنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، ويظهرون على قسمات وجوههم ما يخالف ما انطوت عليه قلوبهم، يعني يظهرون على وجوههم أو يحاولون أن يتظاهروا أمام أهل الإيمان بما ليس فيهم على حقيقة الأمر، وهذه الآية تفضحهم بهذا وتبين أن هؤلاء الناس ليس عندهم إلا كلام، وقلوبهم لا تنطوي على شيء من الإيمان بدليل أنهم يقولون بألسنتهم فقط، ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ ثم بعد ذلك، عند الواقع والتطبيق وعند الدعوة إلى الاتباع، وإلى الرجوع إلى القرآن والسنة، تجدهم في إعراض واستكبار وتول عن ما جاء من عند الله عن ما جاء من عند رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ولذلك قال: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣]، وهذه الآية تفيد أن الإيمان قول وعمل لأن هؤلاء قالوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، ولم يعملوا شيئًا مما اشتملت عليه ألسنتهم بالقول، مجرد كلام ليس إلا، فالله –عز وجل– كذبهم في ذلك، وبين أنهم ليسوا من أهل الإيمان، ولا يمكن أن ينخرطوا مع المؤمنين بحال من الأحوال.

ثم بعد ذلك وبعد أن ذكر الله –عز وجل– هذه الحقيقة عن أهل النفاق ذكر –سبحانه وتعالى– أمرا يبرهن على ما ذكره، يعني قال بأنهم يتولون إذا دعوا إلى الله –عز وجل– أو ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣]، قال بعدها مباشرة مبرهناً على هذه الحقيقة ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾ .

هؤلاء يتولون ويستكبرون ولا يلتزمون طاعة الله ولا طاعة رسول –صلى الله عليه وآله وسلم–، وليس عندهم إلا مجرد الكلام، كلمة ينطقون بها بألسنتهم دون أن يقوم في قلوبهم شيء من ذلك، الدليل على هذا ما قالته هذه الآية أنهم: إذا دعوا إلى الله –عز وجل– وإلى رسوله صلوات الله وسلامه عليه ليحكم بينهم ﴿إِذَا فَرِيقٌ

مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ ، استكبروا عن آيات الله -عز وجل-، استكبروا عن حكم النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، والآية تفيد أن الكافرين والمنافقين معرضون عن اتباع والتحاكم إلى كتاب الله وهدي رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، وهذه سمة من سمات الكافرين والمنافقين والله -عز وجل- يقول في المنافقين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦٠، ٦١]، هذه سمات المنافقين هذه سمات المكذبين أنهم يتولون، أنهم يعرضون أنهم إذا دعوا إلى الله -عز وجل- تولوا وتركوا التحاكم إلى كتاب الله وإلى هدي رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، وهذا يدل أن النفرة عن التحاكم إلى كتاب الله -عز وجل- وعدم الرضوخ لحكم الله علامة وأمارة وسمة ومظهر من مظاهر المنافقين والعياذ بالله -تبارك وتعالى-.

ثم تذكر الآيات شيئًا غريباً عن هؤلاء الناس: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ هؤلاء أصحاب المنافع، هؤلاء الذين يبحثون عن الدنيا ومناصبها وما يحتاجون إليه منها، هؤلاء الناس إن كان لهم منفعة في أن يأتوا إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أتوا إليه، لا يأتون إليه لاعتقاد منهم أنه يجب الرجوع إلى الله وإلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- دينا وشرعاً وتحاكماً وأمراً وإنما إن كانت لهم مصلحة والآية القرآنية في غاية من الروعة والفصاحة والبيان ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ تعبير بـ ﴿مُذْعِنِينَ﴾ هنا يفيد شيء عجيب عن طبيعة هؤلاء الناس ونفوسهم؛ لأن الإذعان هو الإسراع مع الطاعة، فهؤلاء إن كانت لهم مصلحة وفائدة في أن يحضروا إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أتو وليس أتو فقط وإنما أتو مسرعين مطيعين ملبين لماذا؟ لما يعود عليهم من نفع، ولذلك رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- يفضحهم في هذه الآيات ويقول: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ والله كل ذلك لم يكن، وكل ذلك أنه يحيف الله عليهم ورسوله، لا يمكن أن يكون، ولكن الأمر ما ذكر عنهم أولاً، وكل واحد مما ذكر في هذه الآية وقد ذكر الله -عز وجل- ثلاث صفات تمثلت ووقعت في هؤلاء الناس:

- أولها: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ والمراد بالمرض هنا النفاق، وهذه يعني الكلمة تدعونا أيها المشاهدون والمخاطبون أن نعتني بسلامة ونظافة القلوب، وتبرئتها وتطيرها من الدنس والمرض لأن الله -عز وجل- وصف قلوب المنافقين بالمرض فقال: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هذا هو الأمر الأول، وهذا كفر والعياذ بالله تعالى.

- ﴿أَمِ ارْتَابُوا﴾ يعني هل هم في شك وارتياب مما جاء من عند الله ورسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

- ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ ، هل رب العزة والجلال بحاجة إلى هؤلاء كي يجور عليهم أو يظلمهم، وهو الحكم العدل -سبحانه وتعالى-.

وكل واحدة كما ذكرت من هذه الأمور كفر والعياذ بالله -تبارك وتعالى-، ولذلك ربنا يقرعهم ويبكتهم ويوبخهم بهذه الآية لأن الهمزة في أول هذه الآية: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ للتوبيخ والتبكيت والتقريع، وكون الله -عز وجل- لا يحيف عليهم، يعني لا يجور عليهم في الحكم، وكذلك رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- هو الحق الذي لا محيد عنه.

ولذلك قال الله عنهم أو أضرب عنهم قولهم الأخير فقال: ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ يعني الله -عز وجل- لا يحيف عليهم، ولا يجور عليهم، وكذلك رسوله -صلى الله عليه وسلم- ففي قلوبهم مرض وهم في شك وارتياب مما جاء به النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، والآية لما أضربت عن قولهم: ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ ذكرت حكماً لهم آخر ألا وهو وقوعهم في الشرك، لما قال: ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأن الظلم على الإطلاق يدخل فيه الشرك والعياذ بالله -تبارك وتعالى-.

المحور الرابع بعد ذلك: استجابة أهل الإيمان لما جاء عن الله ورسوله -عليه الصلاة والسلام-، استجابة أهل الإيمان كلمات طيبة في أهل الإيمان لما جاء عن الله وعن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ولنتأمل هذه الآية التي هي تحت هذا المحور: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ لما ذكر الله -عز وجل- حال المنافقين في الإعراض والتولي وهي تبين بهذا أنه ما كان ينبغي لهم ذلك، أتبعه بذكر حال أهل الإيمان، وهي أنهم يسارعون في الاستجابة لله -تبارك وتعالى-، ولرسوله -صلى الله عليه وآله وسلم-، فالمنافقون كانوا لا يسمعون ولا يستجيبون، ويتولون ويعرضون، ولا يحتكمون إلى الله وإلى رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، أما أهل الإيمان: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَ﴾ وهذا كما ذكرت وأشرت علامة من علامات أهل الإيمان، ألا وأنهم يستجيبون للرحمن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنفال: ٢٠، ٢١]، وعدم السماع في الحقيقة عدم الاستماع لكلام الله وكلام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عدم النزول إلى حكم الله -عز وجل- والرضاء به هو في واقع الأمر، من صفات اليهود أيضاً، اليهود أيضاً تميزوا بالانصراف عن الله وعن النبي المرسل إليهم، الله -عز وجل- يقول لهم في كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾ قالوا ماذا؟ ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣]، أما شعار أهل الإيمان فإذا دعوا إلى الله ورسوله -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا، وهذه منقبة عظيمة لأهل الإيمان، وكانت أيها الكرام كانت أيها الإخوة الكرام منقبة عالية وفضلاً عظيماً لصحابة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وكان السمع والطاعة والاستجابة لله ولرسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، كان سبباً في أن ييسر الله على المسلمين وأن يخفف عنهم والدليل على ذلك ما جاء في الصحيحين وغيرهما، لما نزل قول الله -عز وجل- ﴿لِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، حقاً لو تأملنا هذه الآية نجدها شديدة، ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، يعني مجرد ما يقوم في النفس دون عمل يحاسب الله -عز وجل- عليه، هذا ظاهر هذه الآية وكان حكماً أنزله الله -عز وجل-، لما سمع هذه الآية الصحابة اشتد ذلك عليهم وذهبوا إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وجثوا على الركب من شدة الأمر وقالوا: (يا رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- كلفنا من العمل ما نطيق كلفنا بالصلاة كلفنا بالصوم كلفنا بالجهاد كلفنا بالصدقات، هذه نطيقها وقد نزلت عليك آية لا نطيقها وهي: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، فقال له -صلى الله عليه وآله وسلم-: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا، بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فاستجابوا للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وقالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما قرؤوها أنزل الله -عز وجل- في إثرها: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥]، لما نزلت هذه الآية وكانوا قد قرؤوها من قبل بأمر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- نسخ الله -عز وجل- قوله: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ فقال: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال الله قد فعلت) إلى آخر ما جاء في هذه الآيات، الشاهد من ذلك أن السمع والطاعة كان منقبة عظيمة لأصحاب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وعلينا معشر أهل الإيمان أن نسمع ونطيع كسمع صحابة النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه، كي يتداركنا رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- برحمته، وحتى ندخل في أهل الفلاح؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور: ٥١].

حصر الله -عز وجل- الفلاح في هؤلاء الناس المستجيبين لله ولرسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، وخلاصة القول في الفلاح أنه هو الفوز بالمطلوب والنجاة من الكروب، الإنسان يفوز بما يحب، الإنسان يتحصل

على ما يريد مما تقر به عينيه وأيضاً ينجيه رب العزة والجلال من البلاء والمكروه، وما يؤلمه وما يمكن أن يؤثر فيه من جميع النواحي سواءً كان في نفسه أو ماله أو بدنه، فيكون مفلحاً فالحاً في الدنيا وفي الآخرة.

ثم يقول سبحانه مؤكداً ما سبق أن ذكره من الاستجابة والطاعة والدخول إلى التحاكم لله والرسول -صلى الله عليه وآله وسلم-، يؤكد ذلك فيقول: ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ ، هذا في الحقيقة تأكيد، وبيان أن من يمتثل أوامر الله وأوامر رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وينتهي عما نهياً عنه، يكون بذلك من الفائزين، بعد أن ذكر الله -عز وجل- في ختام الآية السابقة أنه من المفلحين، فيجمع له بين الفوز وبين الفلاح، وأخشى أن يضيق بي الوقت، أريد أن أقف وقفة يسيرة جداً عند هذه الآية، وأنتقل إلى غيرها، تأملوا معي: قال الله -عز وجل-: ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ لو تأملتم تجدون أن الله -عز وجل- ذكر في هذه الآية حقاً مشتركاً بينه وبين رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وحقاً يختص به وحده دون سواه، الحق المشترك بين الله وبين رسوله -صلى الله عليه وسلم- هو الطاعة، قالوا: ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ هذا حق مشترك بين الله وبين رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ثم ذكر الحق المختص به وحده دون سواه، وهو: تقوى الله -عز وجل- وخشيته، ولذلك قال: ﴿وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ﴾ ما قال: ويخشى الله ورسوله؛ لأن الخشية عبادة يتوجه بها العبد إلى الله -تبارك وتعالى-، ولذلك قال: ﴿وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ﴾ ، وللرسول -صلى الله عليه وسلم- حق آخر أيضاً لم يذكر في هذه الآية وإنما ذكر في آيات أخر، ألا وهو النصرة والتوقير له -صلى الله عليه وآله وسلم-، وقد نص الله على ذلك في قوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ترون ختام الآيات: مفلحون فائزون يطابق بعضه بعضاً.

الشاهد مما أردت أن أبيه في هذه اللفتة أن الله -عز وجل- ذكر فيها حقين:

- الحق الأول: حق يشترك فيه الله مع النبي -عليه الصلاة والسلام-، ألا وهو السمع والطاعة.

- الحق الثاني: خشية الله وتقواه، وهذه خاصة لله وحده دون سواه.

ثم بعد ذلك تعود الآيات مرة أخرى إلى الحديث عن المنافقين، وعن أعمال المنافقين وتفضح شيئًا من أحوالهم فيقول سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لاَّ تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ هذه في الحقيقة آية حينما نقرأها الآن ونشاهد بعضاً من المنافقين الذين نتعامل معهم نجد أنها تنطبق تماماً عليهم، وهي تجعلنا أيضاً نزداد يقيناً في أن ما نزل من كتاب الله -سبحانه وتعالى-، هو حقاً كلام الله -عز وجل-.

المنافقون يخبر الله -عز وجل- عنهم في هذه الآية، أنهم إذا أمروا بالخروج في سبيل الله -عز وجل- والجهاد بأموالهم وأنفسهم أقسموا أيمانات مغلظة أنهم سيخرجون، والحلف عند المنافقين لكي يتستروا على أعمالهم أمر واضح مكشوف، قال الله عنهم: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة: ٩٦]، ويبين الله -عز وجل- في كتابه أنهم يتخذون هذه الأيمان دروعا واقية لهم، حتى لا يفتضحوا، وحتى لا يظهر أمرهم أمام الناس، ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾ [المنافقون: ٢]، فهم دائماً يقسمون ويحلفون ويتخذون هذه الأيمان وسيلة إلى تغطية ما هم عليه في واقع الأمر، من كفر وبعد عن الاستجابة لله ولرسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، ولذلك نهاهم الله -عز وجل- عن الحلف، نهاهم عن ذلك و قال: ﴿قُل لاَّ تُقْسِمُوا﴾ يعني لا تحلفوا ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ يعني نحن علمنا وعرفنا أخباركم والذي يتكلم بذلك الذي يطلع على السر والنجوى -سبحانه وتعالى- خلصنا طاعتكم طاعتكم هذه -يعني أيمانكم- مكشوفة لنا، طاعة ظاهرة، طاعة في الكلام، قول باللسان ليس إلا، طاعة إيه؟ ﴿قُل لاَّ تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ ، وقيل: ﴿قُل لاَّ تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ يعني افعلوا طاعة بالمعروف دعوكم من هذه

الأيمان الكاذبة وافعلوا أمرا بمعروف ونهيا عن المنكر وقوموا لله -سبحانه وتعالى- قانتين طاعة معروفة من غير قسم ومن غير حلق.

ثم يقول سبحانه ويختم أن يذيل هذه الآية بما يشعرهم أن الله -سبحانه وتعالى- خبير بأعمالهم مطلع على قلوبهم ﴿إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وفي ضمن ذلك هو -سبحانه وتعالى- خبير بمن يطيعه وخبير أيضاً بمن يعصيه وبالتالي نقول للمنافقين الحلف الصادر منكم أيها المنافقون، إن خفيت حقيقته على المخلوق، فلا يخفى على علام الغيوب -سبحانه وتعالى-.

ثم بعدما ذكر الله -عز وجل- عنهم هذا الأمر وفضحهم بهذا البيان وبين أنهم يتخذون أيمانهم دروعا واقية كما ذكرت، أمرهم مرة أخرى إلى طاعة الله وطاعة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- هلموا إن كنتم صادقين في أيمانكم بالاستجابة إلى هذا الأمر، ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ -صلى الله عليه وسلم- سبق بيانها ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ ولا شك أنهم سيتولون، ولا شك أنهم سيعرضون ماذا يكون الأمر وماذا يكون الحال؟ النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أمر قد كلف به وهم عليهم أمور قد كلفوا بها، والأمر فيها كما قال الله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ أي على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ما حمل، ألا وهو إبلاغ الرسالة، صلوات الله وسلامه عليه، بلاغ الرسالة أداء الأمانة إقامة الحجة هذا مما حمله صلوات الله وسلامه عليه، والله -عز وجل- في كتابه يقول له: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، -صلى الله عليه وآله وسلم-، ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، فالله -عز وجل- يخبر عن وظيفة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في هذه الآية أمام هؤلاء القوم ويقول مهمته -عليه الصلاة والسلام- هو البيان والبلاغ وقد فعل -صلى الله عليه وآله وسلم- ذلك، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ يعني أنتم عليكم أيضاً حملاً يقع على عاتقكم بعدما قام النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بتبليغ الرسالة، وهذا الحمل هو قبول ما جاء به رسول الهدى والرحمة صلوات الله وسلامه عليه، وإذ قد فعل النبي -عليه الصلاة والسلام- البلاغ وقام بالبيان فقد برء -صلى الله عليه وآله وسلم- بذلك من أفعالكم، وقد برء -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم- من أن تحتجوا على الله -عز وجل- يوم القيامة بأنه لم يبلغكم رسالة ربه، ولذلك يؤكد مرة أخرى القرآن الكريم أن وظيفة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- هي البلاغ ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ .

المحور الخامس والأخير: تمكين الله في الأرض لأهل الإيمان

المحور الخامس في هذا اللقاء: تمكين الله في الأرض لأهل الإيمان وتحته آية عظيمة في كتاب الله -عز وجل- تحققت ووقعت على ظهر هذه الأرض، كما سيتبين لنا -إن شاء الله تعالى- بعد قليل، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أقف عند هذا المقطع من الآية وهو وعد من الله تعالى لنبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- ولكل من آمن وعمل الصالحات متبعا للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وعده هؤلاء جميعاً ربنا -عز وجل- أن يجعلهم خلفاء في هذه الأرض أي أئمة على الناس، ومنهم يكون الولاة وبهم تصبح البلاد ويخضع الناس لله -تبارك وتعالى-، وتكون السيطرة والنفوذ لأهل الإيمان، وهذه الآية تدل على أن الإيمان بالله -عز وجل- والعمل الصالح سبب للتمكين في الأرض، الإيمان بالله -تبارك وتعالى- والعمل الصالح لماذا؟ لأن الله قال: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فنص على الإيمان والعمل الصالح، فبالإيمان والعمل الصالح يتحقق وعد الله للمؤمنين بالاستخلاف في الأرض، وهذه الآية كقوله جل ذكره: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١]، ماذا يفعلون؟ ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ﴿أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤١]، وقوله سبحانه: ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن

قَبْلِهِمْ﴾ الضمير في ﴿قَبْلِهِمْ﴾ يعود على من؟ أرجح الأقوال أنه يعود على بني إسرائيل، لأن الله -عز وجل- أيضاً مكن لبني إسرائيل في الأرض فترة من الزمن، وقال ربهم لهم: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وقال سبحانه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص: ٥، ٦]، فقوله: ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يراد به من؟ يراد به بنو إسرائيل على الراجح؛ لأن الله -عز وجل- مكنهم من الأرض في فترة من الفترات، وكانوا أمة قوية كبيرة تبعوا موسى -عليه السلام- لما آمنوا به وصدقوه قبل أن ينحرفوا ويغيروا ويبدلوا ويصبحوا خنازير الله في أرض الله -سبحانه وتعالى-.

وهذه الآية لو نظرنا أيها الكرام للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وصحبه ولأهل الإيمان وسيرتهم سنجد أن وعد الله قد تحقق للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، ولخلفائه الراشدين، لأن النبي -عليه الصلاة والسلام- ومن تبعه من الخلفاء الراشدين هم الذين قاموا بالإيمان والإسلام وطبقوا القرآن تطبيقا عمليا بحيث لم يوجد أمة على ظهر الأرض قامت بالدين كما قام صحابة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، ولذلك أقول: خلال ربما ربع قرن من الزمان مكن الله -عز وجل- للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ولصحابته في الأرض، تأملوا السيرة واقرأوا التاريخ، النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد الهجرة لم يقبض إلى ربه -عليه الصلاة والسلام- إلا بعد ما دان جزيرة العرب كلها بالإسلام، وأطراف الشام وبلاد البحرين وولي الأمر بعده أبو بكر الصديق -رضي الله تعالى عنه- فسار سيرا سليماً على نمط النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وحارب المرتدين وقمع الله -عز وجل- به الخارجين ومكن الله له في الأرض وفتح أيضاً بعض البلاد والعباد حتى جاء الفاروق -رضي الله تعالى عنه- ففتح بلاد الشام كلها، وأكثر بلاد فارس وفتح كثيرًا من البلاد وسيطر على أكثر ما يمكن أن نقول عنه بالكرة الأرضية، ثم كان عهد الخليفة الزاهد الراشد التقي النقي الورع عثمان بن عفان -رضي الله تعالى عنه- دخلت المشارق والمغارب وبلادهما في دين الله -تبارك وتعالى- فوصلت الفتوحات إلى ما بعد ما بعد بلاد المغرب غرباً ووصلت إلى أقصى بلاد المشرق شرقاً حتى بلاد الصين، وأقيمت الحدود ونفذت وطبقت في هذه الديار وجاءت الأموال إلى مسجد رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، حيث كان الخراج يجبى من سائر أقطار الدنيا، إلى مدينة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- كل ذلك كان من تمكين الله -عز وجل- لقوم صدقوا مع الله -سبحانه وتعالى- في الإيمان والطاعة والاستجابة والأعمال الصالحة فمكنهم رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- على قدر ما قدموا وجاء بعدهم قوم أيضاً مكنوا على قدر ما قاموا بالإيمان والعمل الصالح ولما قصر المؤمنون وضعفوا في فترات متعددة من التاريخ نالهم ما نالهم، ولو رجعوا إلى الله -عز وجل- والتزموا الطريق القويم وسلكوا الصراط المستقيم، وحققوا الإيمان بالله كما يجب أن يكون والطاعة والاستجابة له ولرسوله -صلى الله عليه وآله وسلم-، لملكهم كما ملك من كان قبلهم ووعد الله حق وصدق، والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في حديثه يقول: (إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوي لي منه) ونحمد الله ونشكره على أن الإسلام في كل مكان، ودين الله -عز وجل- قد بلغ الآفاق وفي كل قطر من أقطار الدنيا نجد من يشهد لله بالوحدانية، ولنبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- بالرسالة، ونحن نستبشر بوعد الله -تبارك وتعالى-، ونأمل أن يعود للمسلمين الكيان الذي كانوا عليه أيام الخلافة الراشدة، وأن يتمكنوا تمكن من كان قبلهم، ونحن أيضاً ننظر بعين كلها تفاؤل وكلها أمل حينما نعلم بأن مهما يكون على هذه الأمة ومهما يحدث لها من فترات ضعف إلا أن فيها بقية ظاهرة متمسكة بالحق إلى قيام الساعة، كما قال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتيهم وعد الله وهم كذلك).

ثم يقول سبحانه: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ الآية الأولى في الاستخلاف وتحقيق الوعد من الله -عز وجل- وتتمة هذه الآية تبين أن الله سيمكن لهم الدين، يعني يثبته، والمراد بالدين هنا إيه؟ هو دين الإسلام ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ لأن الله -عز وجل- ارتضى الإسلام ديناً، كما قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ

دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وكل دين سوى دين الإسلام فهو دين باطل، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥]، ثم وعد رب العزة والجلال بأن يبدل هؤلاء الذين خافوا أيام الضعف وأيام إيذاء المشركين إذا آمنوا وعملوا الصالحات، ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ ، وقد تحقق ذلك.

أيضاً في حديث الصحيحين: (جاء رجل إلى النبي -عليه الصلاة والسلام- شكى الفاقة -يعني الفقر- وشكى الآخر قطع الطريق، وكان علي بن حاتم -رضي الله تعالى عنه- موجوداً عند النبي -عليه الصلاة والسلام- فقال له يا علي: هل رأيت الحيرة؟ قال: لم أرها، ولكني سمعت به) والحيرة في بلاد العراق (قال: لئن طالت بك الحياة لترين الضعينة تخرج من الحيرة إلى الكعبة لا تخاف أحداً إلا الله)، وقد تحقق ذلك والحديث طويل ولا أتمكن لضيق الوقت أن أذكره، وهو في الصحيحين وغيرهما.

ثم ختم رب العزة والجلال هذه الآية بقوله: ﴿يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ، ﴿يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ قيل: هذه جملة حالية، والمعنى أنهم آمنوا وعملوا الصالحات ومكنوا في الأرض حالت عبادتهم لله وحده دون سواه، وقيل بأنها: استئنافية من باب ثناء الله -عز وجل- على هؤلاء القوم الذين مكنهم واستخلفهم بأنهم يعبدون الله ولا يشركون به شيئًا، وهي تفيد أن من عبد غير الله -عز وجل- وأن من أشرك بالله -تبارك وتعالى- فهو كافر ومآله إلى النار وبئس المصير وهو فاسق ولذلك قال سبحانه: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ وأكتفي بهذا وصلِّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

إجابات الحلقة الماضية:

كان السؤال الأول: اذكر حديثاً في فضل بناء المساجد وهل يجوز بناء المساجد على القبور؟ أيد ما تقول بالدليل؟

وكانت الإجابة:

ذكر رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- في ذكر فضل بناء المساجد قال: (من بنى مسجدًا لله يريد به وجه الله بنى الله له بيتاً في الجنة).

ثانيًا: لا يجوز بناء القبور على المنازل، وقد جاءت الأدلة الشرعية تثبت ذلك فقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) فالمساجد ما جعلت إلا لتوحيد الله تعالى قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ للهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨].

الجواب كما ذكرت صحيح وأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في سنته في كثير من الأحاديث لعن من يتخذون القبور مساجد وهذا يفيد من يبني المساجد على القبور ومن يعبد الله -سبحانه وتعالى- فيها؛ لأنه يكون أو تؤدي إلى الشرك والعياذ بالله -تبارك وتعالى-.

السؤال الثاني: ضرب الله مثلين للكفار في هذه الآيات اذكرهما مع الشرح والتوضيح؟

وكانت الإجابة:

المثل الأول: لرؤساء الكفر والضلال ومن يدعون إليه وهم يحسبون أنهم على خير فشبههم الله تعالى مثل السائر في الصحراء يرى السراب من بعيد يراه ماءاً يغيثه من شدة الحر ولكنه إذا وصله لم يجده شيئًا غير الخيبة وهؤلاء يحسبون أنهم على حق بصدهم عن الهدى في الحياة الدنيا فإذا انقضت الحياة وأفضوا إلى ربهم حين يجدون عذاب الله لهم بالمرصاد وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

المثل الثاني: هذا المثل للمقلدين لأئمة الكفر والضلال ساروا مثل الجاهل الذي لا يدري أين يذهب فقد أعمى الله أبصارهم وقلوبهم فمثلهم كمثل الذي تحيطه وتلفه الظلمات من كل ناحية وصوب، فلا يرى الحق في الدنيا ولا يهتدي إليه، فهو يتقلب في خمس ظلمات ومصيره إلى الظلام ومن لم يهده الله فقد خسر وهلك.

ما شاء الله الحمد لله الجواب متقن وصحيح.

الأخ الكريم من السعودية يقول: جاء في هذه السورة قول الله تعالى: ﴿وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور: ٢٢]، وجاء بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النور: ٣٢]، فجاء في الشرح للآية الأولى حفظكم الله أن الكبائر لا تحبط الأعمال وفي الآية الثانية اللعن والعذاب الأليم، نرجوا لو تفضلتم التبسط في الشرح والتوضيح كيف يتم الجمع بين عدم إحباط الكبيرة للأعمال واللعن وهو الطرد من رحمة الله والعذاب الأليم، حيث أنني قد فهمت أنها قد وردت في من رمى أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- وجزاكم الله خيراً؟.

في الحقيقة أشكر الأخ الكريم على دائماً ما يتحفنا به من مداخلات مفيدة ونافعة، جزاه الله خيراً، في الحقيقة ما ذكرته من أن الكبائر لا تحبط الأعمال، هذه مسألة عقدية واضحة، فالكبيرة التي يرتكبها الإنسان يعاقب عليها بما أوعد الله -سبحانه وتعالى- عليها، إن كانت بالنار أو بالعذاب مثلاً أو باللعن أو بالطرد أو بحد من الحدود أو ما إلى ذلك هذه لها عقابها الذي شرعه رب العزة والجلال وقاله، أما الأعمال الصالحة التي يفعلها الإنسان، فالكبيرة التي يرتكبها لا تُبحط هذه الأعمال الصالحة التي فعلها، والقرآن الكريم واضح في ذلك، وسأبسط هذا من كلام أيضاً بعض أهل العلم واضح في هذا لماذا؟ أنا استدللت بهذا وذكر أهل العلم هذا الدليل لأن الله -عز وجل- وصف مسطح -رضي الله تعالى عنه- ولقبه بلقب المهاجرين بعدما قذف أم المؤمنين -رضي الله تعالى عنها- رغم أنه أقيم عليه الحد، ورغم أنه متوعد بعذاب الله -عز وجل- على هذه الجريمة، إلا أن الله -سبحانه وتعالى- لم ينف عنه الهجرة، فالهجرة عمل صالح هذا العمل الصالح لم تبطله هذه الجريمة، ومما يؤكد هذا أيضاً من فعل النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ما جاء في موقف حاطب بن أبي بلتعة، لما أبلغ المشركين بمقدم النبي -صلى الله عليه وسلم- بفتح مكة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- كان قد قال: (اللهم خذ العيون والأبصار عن أهل مكة حتى نبغتهم فيها) وهو يريد بهذا أن لا تسيل الدماء وأن لا تكون هناك مواجهة حادة أو حامية بينه وبين أهل مكة؛ لأنه ذاهب إلى عشيرته وإلى بلدته وهو يريد أن يفتح القلوب قبل أن يفتح البلاد -صلى الله عليه وآله وسلم-، فما كان من حاطب إلا أن فعل ذلك، وأعلم أو أرسل خطاباً للمشركين يعلمهم فيه بمقدم النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- إليهم، الله -عز وجل- أخبر نبيه -صلى الله عليه وسلم- كما هو معروف في السيرة وأرسل النبي -عليه الصلاة والسلام- وعلي وآخر وأتى بالخطاب ولم يعلم به أهل مكة والحمد لله -تبارك وتعالى-، لما جاء الخطاب إلى النبي -عليه الصلاة والسلام- وسأل حاطب: (ما حملك على ما حملت فقال ما قال الشاهد عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- قال: دعني أضرب عنقه يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فإنه قد نافق)، فماذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ قال له: (لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) هذه في الحقيقة جريمة كبرى، ولذلك الإمام النووي -رحمه الله تعالى- لما جاء يتكلم في الشرح على هذا الحديث قال: "باب حكم الجاسوس إذا كان مسلماً"، لأن فيه هذا خيانة، خيانة

للدين، خيانة للأرض التي يعيش عليها الإنسان خيانة للدولة الإسلامية ومع ذلك ومع وقوعه في هذا الأمر قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لعل الله اطلع على أهل بدر)؛ لأنه قد شهد بدراً، فهذه الخيانة التي وقعت منه -رضي الله تعالى عنه- وتاب منها لم تنف إيمانه الصالح الذي عمله من قبل ولذلك شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- ذكر قاعدة مهمة جداً عند أهل السنة والجماعة فقهها في هذا الباب ضروري؛ لأنها خفيت على كثير من الفرق التي لم تفقه وتفهم هذه القضية، قال وذكر هو بالنص في مجموع الفتاوى أن غاب عن الخوارج مسألة مهمة جداً وهي، أن الشخص الواحد قد يجتمع فيه ما يستحق به الثواب وما يوجب عليه العقاب، يعني الإنسان يفعل أفعال صالحة فتكون له حسنات في مقابلها، ويفعل أفعال سيئة فيجازى ويعاقب إذا أراد الله -عز وجل- بسببها، وكلاهما في شخص واحد، ولذلك قال بأن الشخص قد يجتمع فيه الإيمان والكفر، قد يجتمع فيه الإيمان وشعبة من شعب الجاهلية، قد يجتمع فيه الإيمان وبعض شعب النفاق، وبالتالي يحب من جانب ويبغض من جانب آخر.

النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- والحديث في الصحيح لما عير أبو ذر -رضي الله تعالى عنه- بلالاً بأمه وقال له: (يا ابن السوداء) أبو ذر -رضي الله تعالى عنه- صحابي جليل أيضاً ممن رضي الله -تبارك وتعالى- عنهم، وهو جبل في الإيمان -رضي الله عنه- ماذا قال له النبي -عليه الصلاة والسلام-؟ قال له: (أعيرته بأمه إنك امرؤ فيك جاهلية) فلا يمتنع أن يجتمع في الشخص الواحد إيمان وشعبة من شعب الكفر، أو إيمان وشعبة من شعب النفاق، أو إيمان وشعبة من شعب الجاهلية أو أن يكون عنده معاصي يذم ويعاقب، وإيمان صالح يثنى عليه ويمدح به، وهو معنى ما قال النبي -عليه الصلاة والسلام-: (لا يكره مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر) لعل في هذا التوضيح كفاية -إن شاء الله تبارك وتعالى-.

الأخ الكريم من مصر يقول: ﴿رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٧]، وفي آية أخرى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، لماذا اختص الله -سبحانه وتعالى- الرجال دون النساء؟ وهل يوجد علاقة بين الآيتين؟

السؤال الثاني: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة: ١١٤]، ما الذي يجري في مساجد العراق ونحن صامتون ونسمع أنهم يقولون قد تم تدمير واحد وعشرين مسجد، لا مائة مسجد، لا حول ولا قوة إلا بالله، ما هو دور كل مسلم ودور أولي الأمر؟ ودور العلماء في هذه الأحداث المؤسفة؟ ماذا نفعل؟ وجزاكم الله خير.

بالنسبة للسؤال الأول في قوله: ﴿رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ﴾ [النور: ٣٧]، قلت بأن كلمة ﴿رِجَالٌ﴾ هنا كلمة ثناء ومدح من الله -تبارك وتعالى- ولا شك أنها تفيد أن النساء لسن كالرجال في هذا الحكم من ناحية إقامة الصلاة، بمعنى أن الآية تشير وتفيد إلى أن إقامة الصلاة في المساجد هي واجبة على الرجال دون النساء، وللمرأة أن تذهب بالشروط التي سبق أن ذكرتها ربما في اللقاء السابق، ومنها عموماً أو ملخصها أن يؤمن من خروجها الفتنة، ولا مانع كما ذكرت أن تذهب المرأة إذا أذن لها زوجها في ذلك، وبالشروط التي أشرت أيضاً إليها وبالتالي أقول: إن كلمة ﴿رِجَالٌ﴾ هنا في الآية الأولى فيها حكم يتعلق بالرجال دون النساء؛ لأن صلاة الجماعة واجبة على الرجال وليست بواجبة على النساء.

الأمر الثاني هي الآية الثانية: هذه الآية الثانية جاءت في سورة الأحزاب وهي تتحدث عن غزوة الأحزاب وما لاقاه المؤمنون في هذه الغزوة، وهذه الغزوة كانت شديدة جداً على المسلمين؛ لأن قريشاً أتت وقد أحاطت بالمدينة وتعلمون بأن الخندق صنع وقام المسلمون به كي يمنعوا المشركون من أن يهجموا على المؤمنين في

المدينة النبوية وتألب المشركون حول المدينة مع المشركين من مكة، كما أن اليهود يهود بني قريظة نقضوا عهدهم مع النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وبالتالي كان وقع هذا الأمر على المؤمنين صعب جداً وشديد، ومع ذلك فالله -عز وجل- اختار لنبيه صحابة كراما فعلا يعني تحملوا هذه المصاعب وتحملوا هذه الشدائد وتحملوا هذا الكرب الذي عاشوه من الخوف والجوع والأحوال الجوية القاسية وأنا أتذكر هنا ما جاء في السيرة أن أحد الصحابة ذهب إلى بلاد الشام وهذا في سيرة ابن هشام فقابله رجل من التابعين فقال له: هل صحبتم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وتبعتموه؟ قال له نعم، فقال له: لو رأيناه ما تركناه يمشي على الأرض، -صلى الله عليه وسلم-، فقال له هذا الصحابي: لقد كنا نجهد في اتباعه، لقد كنا نجهد يعني: نبذل جهداً بالغاً في اتباعه -صلى الله عليه وسلم- وهذا هو المطلوب منهم ثم قال: وإني لأذكر في ليلة في غزوة الأحزاب أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال لنا: (من يذهب فيأتيني بخبر القوم ثم يرجع -يضمن له النبي صلى الله عليه وسلم الرجوع- وأسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة) قال: فلم يقم أحد من شدة البر ومن شدة الخوف ومن شدة الجوع، ثم قال أحد الصحابة قم، قال: فلم يكن لي بد من أن أقوم.

الشاهد إن كان الغزوة أمرها شديد، فمن كان فيها رجال أفنى الله -سبحانه وتعالى- عليهم، ومنهم من أفضى إلى ربه، ومنهم من بقي يؤدي رسالته أيضاً في هذه الحياة، وتجاه دين الله -تبارك وتعالى-، ففي كل الآية ثناء على هؤلاء الرجال وآية سورة الأحزاب في سياق الحديث عن هذه الغزوة وصدق هؤلاء المؤمنين فيها، وصدق أيضاً من مات في أحد وبدر وغير ذلك وممن عذب من أهل الإيمان على أيدي المشركين كل هؤلاء يمدحهم رب العزة والجلال ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، ولا شك أن النساء يلحقن بالرجال إن أصابهن ما أصاب الرجال وصبرن على ذلك، ولكن لعل التعبير في هذه الآية: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾ ؛ الجهاد أيضاً فرض على من؟ فرض على الرجال دون النساء، والله أعلم.

الأخت الكريمة من مصر تقول: جاء في تفسيركم: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النور: ٣١]، إلى ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، أنها تفرض النقاب من الله فهل نفهم من ذلك بفرضية النقاب؟ وإذا كان فرضاً فلم الخلاف إذن حول كونه فضل وليس فرض، حيث أنه كثر الجدل في هذا الموضوع؟ ولم تكشف المرأة وجهها في الحج والعمرة والصلاة وهل أحاديث كشف الوجه ليست صحيحة؟ وما رأيكم في الزوج الذي يخير زوجته بين الطلاق والنقاب؟ هذه أسئلة ولي رجاء هو أن تقوموا بتفسير القرآن كاملا حيث أننا نرى في فضيلتكم يا فضيلة الدكتور علم ابن كثير وروحانية سيد قطب، وجزاكم الله عنا خيراً وجعلنا في ميزان حسناتكم -إن شاء الله-.

بالنسبة للسؤال الثاني في الحقيقة جزا الله الأخ على غيرته على بيوت الله -تبارك وتعالى- وهذا شأن كل مسلم وهذا الواجب على كل مسلم وإلا في الحقيقة ما يدور في العراق اليوم يحزن له كل غيور على دين الله -عز وجل- وعلى البيوت التي يذكر فيها اسم الله -عز وجل- وحده دون سواه، وبالتالي نحن نقول بأن هذا ابتلاء من الله -عز وجل- على هذه الديار وفتنة ألمت بهم ووقعت بهم وندعوهم في الوقت ذاته إلى أن يقفوا على الهدي الوارد في كتاب الله وسنة نبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- وأن يصلحوا فيما بينهم على كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- ندعوهم إلى ألا يتفرقوا شيعا وأحزابا وألا يكونوا على ما هم عليه والعبرة بأن نرد أمرنا كله إلى الله وإلى رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، فيجب على المسلمين كافة وعلى من يشهد لله بالوحدانية ولنبيه بالرسالة أن يعرف الحق الذي جاء من عند الله -تبارك وتعالى-، وهذا الحق نفهمه لأن الجميع يقول الكتاب والسنة، نفهمه على ضوء ما فهمه سلف هذه الأمة من كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وعلى رأس هؤلاء السلف جميعاً الخلفاء الراشدون الأربعة، هؤلاء صحابة النبي -صلى الله عليه وسلم- من خيرة أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أولهم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله تعالى عنهم أجمعين، ونحن نحب جميع أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ونثني عليهم جميعاً لأن الله رضي عنهم وزكاهم فيجب على عموم المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أن يتعلموا ذلك وأن يعرفوه، وأن يدينوا لله -

عز وجل- بهذا الاعتقاد الذي هو عليه أئمة أهل السنة والجماعة، ونحن نجد الحمد لله في البلاد الإسلامية رجال يعني يقومون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلقد صدرت توجيهات متعددة من بلاد الحرمين ومن مصر ومن غير هذه الديار توجه هؤلاء الناس وتدعوهم بالعود إلى كتاب الله -تبارك وتعالى- وإلى هدي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وما يدور هناك لا شك أنه لا يرضي مسلماً بحال ونحن ندعوهم والأمر -إن شاء الله تعالى- إن وقفوا وقفة صالحة مع الله -عز وجل- أن يرجعوا هم بأنفسهم إلى كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وأن يرفعوا راية الكتاب والسنة عندئذ -إن شاء الله تعالى- سيوفق ربي -عز وجل-، إلى ما يحب ويرضى وستتطهر هذه البلاد من كل معتد أثيم ووقت إذ نقول: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٥].

الأخت الكريمة كان لها عدة أسئلة سؤالها الأول: هل النقاب فرض؟.

في الحقيقة في اللقاءات السابقة التي تحدثت عنها ذكرت أقوال أهل العلم في هذا والمسألة في الحقيقة الخلاف فيها يعني خلافاً قوياً وليس سهلاً ولكل ولكل وجهته ولكننا نقول: مع الابتلاءات الواقعة بين المسلمين اليوم وكثرة الفتن وأننا نحب أن يكون المجتمع المسلم مجتمعاً طاهراً نظيفاً يعني تنتشر فيه الفضيلة ويتجنب أصحابه الرذيلة من كل معانيها على المرأة أن تغطي مكامن الفتنة في جسدها كله فإذا تغطت المرأة وانتقبت فهو أولى وخير لها، وأنا أذكر أنني قلت: لو أن امرأة كشفت عن وجهها وكفيها فقط فلا يعني تعنف بسبب ذلك أو يحصل فراق بينها وبين زوجها بسبب ذلك، أو يؤدي هذا الأمر إلى شيء من الشجار أو النزاع أو الخلاف؛ لأن الخلاف في كشف الوجه وعدمه خلاف دائر وسائر وواقع حتى بين صحابة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، ولكن الأولى والأفضل بنا أن نلتزم به حتى نأمن الوقوع في الفتن وحتى نتجنب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، هذا ما أدعوا إليه وأدعوا إخواني جميعاً إلى أن يتفهموه وإن كانت الأخرى كما أقول: وهو أن المرأة إذا كشفت وجهها فلا ينبغي يعني أن تقوم الدنيا وتقعد من أجل ذلك وأن تتفرق البيوت أو يحصل النزاع بين الابن وأبيه أو بين الرجل وبين امرأته أو بين البنت وبين أبيها وما إلى ذلك، الأمور لا تحتاج إلى مثل ذلك، ولكن يجب علينا عند الفتن، أقول: يجب عند الفتن أن نحاول أن نسدها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، فمن قال بالعلماء بإباحة كشف الوجه، واليدين قال بأنها تغطى عند الفتن، لأن الهدف من التشريف أن يحمي الإسلام والمسلمين، الهدف من التشريع أن يكون مجتمعاً سليماً نظيفاً أن توجد الطهارة والعفاف في البيئة الإسلامية فإذا وجد ما يعكر ذلك ينهى الإسلام عن ما يؤدي إلى فحش والفساد والانحلال والله أعلم.

أعتقد فضيلة الشيخ أن بقية أسئلتها أجبتم عنها ضمني.

إنها تدخل أيضاً في الموضوع، ونشكرها الحقيقة على هذه الغيرة وعلى هذه التوجيهات ونسأل الله -عز وجل- أن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه وأن يوفقنا لما يحبه ويرضاه.

الأخ الكريم من المغرب يقول: هل سنحاسب على ما يخالج أنفسنا وإن لم نأخذ به؟.

في الحقيقة ورد عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في الحديث الصحيح في البخاري ومسلم وغيرها وأذكر أنه من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-: (إن الله تجاوز عن أمتي عن حديث النفس ما لم تتكلم به أو تعمل)، فالله -عز وجل- تجاوز عن حديث النفس ما لم تتكلم به أو تعمل، بس أستثني فقط جزئية أشار إليها بعض أهل العلم وهي أن هذا في جميع أقطاب الدنيا عدا مكة المكرمة، هذا في جميع أقطاب الدنيا؛ لأن الله قال: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

الأخ الكريم يقول: ذكرتم فضيلتكم في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ الآية.. ذكرتم فضيلتكم جزاكم الله خيراً أن جملة: ﴿يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ جملة حالية

وقيل أنها جملة استئنافية، فهل يمكن أن تكون شرطاً بمعنى أن الاستخلاف في الأرض والتمكين يتوقف على إفراد الله -جل وعلا- في العبادة؟.

جزاك الله خيراً، هو في الحقيقة هذا المعنى الذي ذكرته بحالتي الإعراب لا تمنعان ما أردت بل إن هذه الآية والقرآن يفسر بعضه بعضاً، لما قال: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وعبادة الله -سبحانه وتعالى- هي من الإيمان به، فالوعد منصب عليهم على الإيمان والعمل الصالح ومن ذلك عبادة الله وحده دون سواه، ولكن الموقف الإعرابي هنا يبين موقع الآية وفهمها أو موضعها من السياق فكونها أنها تكون حالية تكون هؤلاء المؤمنين العابدين لله -تبارك وتعالى- أو الذين يعملون الصالحات يقومون بالدين حالة كونهم غير مشركين بالله -عز وجل-؛ لأن بعض الناس قد يكون في قلبه إيمان، وقد يكون به أعمال صالحة ولكنه وقع في الشرك، أما من يمكنوا في الأرض ومن يستخلفهم رب العزة والجلال يقومون بالأعمال الصالحة وبعبادة الله -تبارك وتعالى- ولا يشركون مع الله -سبحانه وتعالى- أحداً.

وعلى معنى أنها مستأنفة فهي أيضاً ثناء من الله -سبحانه وتعالى- عليهم وإذا كان الثناء فهي تعد أيضاً واجب تكليفي من الله -عز وجل-؛ لأنه أمر قائم أو قائمون به والله -عز وجل- أثنى عليهم بهم فيجب عليهم الاستمرار فيه، والله أعلم.

فضيلة الشيخ هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه المحاضرة؟.

السؤال الأول: اشرح قوله تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾؟

السؤال الثاني: لماذا كان استخلاف السابقين أتم وأكمل ممن جاء بعدهم؟

الدرس الخامس والعشرون: تفسير سورة النور

فضيلة الشيخ أهلاً ومرحباً بكم

أهلاً وسهلاً ومرحباً بكم وبالحاضرين والمشاهدين والمشاهدات ونسأل الله في بداية هذا اللقاء دوام التوفيق والسداد ونحن في ختام سورة كريمة من سور القرآن الكريم وهي السورة الثالثة التي نختم بها لقائنا -إن شاء الله تبارك وتعالى- بعد أن تناولت في هذه الحلقات الحديث عن سورة الحج والمؤمنون وها نختم بإذن الله -تبارك وتعالى- وفضله في هذه الليلة سورة النور، وقبل البدء في الآيات المتعلقة بهذا اللقاء أطلب من الأخ الكريم أن يسمعنا إياها فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاَةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلاَةِ الْعِشَاءِ ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لاَ يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاَتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلاَ إِنَّ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾.

أحسنت، جزاك الله خيراً.

الحمد له وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا وإمامنا وحبيبنا محمداً عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم وبارك على عبدك ورسولك ومصطفاك وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيلهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين وبعد،

استمعنا معاً إلى آيات هذا اللقاء وتدور كما أشرت آنفاً حول خمسة محاور:

المحور الأول بعنوان: أمر الله المؤمنين بالاستقامة على الدين كما بين مآل الكافرين:

وتحت ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ يقول الله تعالى في الآية آمراً عباده بإقامة الصلاة وإقامة الصلاة على رأس العبادات التي أمر بها رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، وكما يذكر بعض أهل العلم بأنها الركن الأول بعد الشهادتين، هي الركن الثاني من أركان الإسلام ولكن لإبراز أهميتها يمكن أن يقال: الركن الأول بعد الشهادتين وهي تحقق حقاً العبودية لله -عز وجل-، كذلك أمر بإيتاء الزكاة وذلك ليكون هناك من الإنسان إحسان إلى خلق الله -تبارك وتعالى- كما أمر المؤمنون بطاعة الرسول -صلوات الله وسلامه عليه-، وبينت الآية أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- سبب لرحمة الله -تبارك وتعالى- لأن الله قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وسواء قلنا بأن: "لعل" هنا للتعليل أو للترجي فالأمر فيها واحد؛ لأننا إن قلنا بأن "لعل" للتعليل فالتعليل أو العلل أسباب شرعية وإن قلنا بأن "لعل" للترجي فلا شك أن الله -عز وجل- ما فرض عليهم ذلك إلا رجاء أن يرحمهم -سبحانه وتعالى- والرجاء هنا في حق المخلوق؛ لأن المخلوق هو الذي يرجو لأنه لا يعرف العواقب، أما من يعلم ما كان وما سيكون ويعلم السر والنجوى -سبحانه وتعالى- فهذا أمر معلوم سلفاً لديه -عز وجل-.

هذه الآية أيضاً فيها بعض المباحث اليسيرة سأذكر منها ما يلي:

الله -عز وجل- هنا أمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة النبي -صلى الله عليه وسلم-، هذه الأوامر يدخل فيها كل ما شرعه رب العزة والجلال مما أمر به ومما نهى الله -سبحانه وتعالى- عنه؛ لأن الرحمة لا تنال إلا من أتى بجميع ما أمر به النبي -عليه الصلاة والسلام- وكف عما نهى الله -عز وجل- عنه وإن وقع في تقصير أو في ضعف أو ارتكب منكراً أو ما إلى ذلك وتاب إلى الله -عز وجل- أيضاً كان معرضاً لغفران الله -تبارك وتعالى-، والله -عز وجل- وعد المؤمنين في آيات كثيرة من كتابه بأن يرحمهم وذكر بعض الأشياء التي هنا وأضاف إليها أشياء أخرى، ففي سورة التوبة مثلاً: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ﴾ [التوبة: ٧١] وهنا نص من رب العزة والجلال على أنه -سبحانه وتعالى- سيرحمهم. والأمر بطاعة الرسول -صلى الله عليه وسلم- هنا وقد أمر بها سابقًا للتكرير والتأكيد يعني كررها للتأكيد وللفت الانتباه إلى وجوب طاعة الرسول -صلى الله عليه وسلم-.

قد يقول قائل هنا فيه نقص لم يذكر طاعة الله؟ نقول: طاعة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هي طاعة لله، فمن أطاع رسول الهدى والرحمة -صلى الله عليه وسلم- فقد أطاع الله؛ لأنه ما أطاع الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- إلا لأن الله -سبحانه وتعالى- أمره بطاعته، فطاعة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في الحقيقة وفي نفس الأمر هي طاعة لرب العزة والجلال، وأيضاً الله -عز وجل- عطف: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ عطف هذه الجملة على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهذا يكون من باب عطف العام على الخاص؛ لأن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة يدخلان في طاعة الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- ويعطف العام على الخاص كما يعطف الخاص على العام أحيانًا لسبب إبراز ما أراد الله -سبحانه وتعالى- من النص عليه.

وأيضاً من الأبحاث في هذه الآية أن الله -سبحانه- قال: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ -صلى الله عليه وسلم- ولم يحدد لنا في أي أمر نطيعه -صلى الله عليه وآله وسلم-، وهذا للتعميم ليشمل كل ما جاء به النبي -صلوات الله وسلامه عليه-.

ثم يقول سبحانه: ﴿لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾ ينهى الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- لأن ﴿لاَ﴾ ناهية أن يحسب يعني أن يظن، أن هؤلاء الكفار سينجون من عذاب الله -تبارك وتعالى- وأن الوعيد لم يقع بهم وأخبر هنا ربنا -سبحانه وتعالى- أنه قادر عليهم ﴿لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾ فلا يظن أحد أن هؤلاء الكفار مهما بلغوا في

الدنيا مبلغاً عظيماً ومهما تزينت لهم الأرض بما هي عليها وتزخرفت ووصلوا إلى درجات عالية من التقدم أو غيره أنهم يسبقون رب العزة والجلال أو أنهم يفلتون من عذابه بل توعدهم بقوله: ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾. وقد جاء النص على ذلك في آيات أخر من كتاب الله سبحانه وهذا كي يرتدع الكافرون والمشركون والمنافقون عن غيهم وضلالهم وافترائهم على الله وعلى رسوله -صلى الله عليه وسلم-، تأمل مثلاً في سورة التوبة لما ربنا -سبحانه وتعالى- يوجه إليهم الخطاب بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ﴾ [التوبة: ٢] يعني يكفي هذا الخطاب الموجه إليهم لهؤلاء الكفار بعد أن تبرأ الله منهم، كما تبرأ منهم رسوله -صلى الله عليه وسلم- قال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ﴾ [التوبة: ٢] ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [يونس: ٥٣] لما استبعدوا البعث والنشور والجزاء والحساب والوقوف بين يدي الله وأنه لن ينالهم شيء من ذلك أقسم رب العزة والجلال وأكد على أنهم سيبعثون وليسوا بمعجزين رب العزة والجلال سبحانه وصدق الله في قوله: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢، ٣] هؤلاء كذبوا وكفروا برب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- والله -عز وجل- سيجمعهم وسيحاسبهم وأخبر ربنا في كتابه هنا أن ﴿مَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

المحور الثاني: أمر الله المؤمنين أن يستأذنهم مماليكهم والذين لم يبلغوا الحلم منهم:

وتحته قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاَةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلاَةِ الْعِشَاءِ ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ بعدما فرغ رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- مما ذكره سابقًا من دلائل التوحيد ووعده لأهل الإيمان بالتمكين والتثبيت، عاد مرة أخرى ليذكر شيئًا من أمور الاستئذان وقد سبق أن تحدثنا عن آيات تتعلق بالاستئذان والسلام وما إلى ذلك، وهذا ليس تكراراً وإنما ذكر رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- في هذه الآية أحكاماً أخر تتعلق أيضاً بالاستئذان، فالآيات السابقة كانت في استئذان غير الأقارب بعضهم على بعض أو أنها في الاستئذان ممن لا يعيشون مع الإنسان في بيته، أما هذه الآية فتكلمت على من يملكهم الإنسان والأطفال الذين يعيشون معهم في البيت.

وبينت الآية أنه هناك حداً في العلاقات حتى داخل البيوت وأن هناك مواقيت وأحوالاً يجب على الأطفال وعلى المماليك أن لا يدخلوا فيها بدون إذن على رب البيت وصاحبة البيت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ كم مرة؟ قال: ﴿ثَلاَثَ مَرَّاتٍ﴾ ثم حددتها الآية ﴿ثَلاَثَ مَرَّاتٍ﴾.

ما هي الأوقات؟

- الوقت الأول: ﴿مِّن قَبْلِ صَلاَةِ الْفَجْرِ﴾؛ لأن في هذه الحالة الإنسان يكون نائماً وقد يضع ثيابه وما إلى ذلك.

- الوقت الثاني: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ﴾ يعني في وقت القيلولة عند منتصف النهار.

- والوقت الثالث: ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمِن بَعْدِ صَلاَةِ الْعِشَاءِ﴾.

ثم بين رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- أن هذه عورات ثلاث، يجب على أن نعمل الأطفال والمماليك ألا يدخلوا على الرجل في البيت وزوجه إلا إذا قدما قبل أن يدخلا استئذاناً ليعلموا من هو في الداخل بأنهم داخلون، أو بأنهم متواجدون أو بأنهم يتحركون وسيدخلون إليهم وما إلى ذلك.

أما ما عدا هذه الأوقات الثلاثة، فأباح الله -عز وجل- لهم أن يدخلوا على والديهم وأن يخرجوا دون استئذان والله -عز وجل- عَبَّرَ عن ذلك بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ يعني بعد هذه الأوقات ثم ذكر العلة في ذلك فقال: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ﴾ وتفيد كلمة ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ﴾ أنه يشق الأمر لأنهم يطوف يخدمونكم، يخدمونكم وتتعلق بكم وبهم مصالح وتواجدهم مستمر بينكم فالاستئذان في كل الأحوال فسيشق ولا يمكن أن يكون أو أن يجعل لمن يطوف كمن لا يطوف، والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- راعى هذا مع ما يحتاج إليه الإنسان من الحيوانات فقال في الهرة مثلاً: (إنها ليست بنجسة، إنها من الطوافين عليكم والطوافات) لما كان دخولها البيت مستمراً ودائماً فيشق الاحتراز عن ذلك وبالتالي يكون مشقة لو لم تكن هكذا ولذلك قال الله -عز وجل-: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ وهذه رحمة من رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- بعباده.

ثم أخبر -عز وجل- أنه -سبحانه وتعالى- يبين لنا الآيات ويضرب لنا الأمثال كي نعيها وكي نعقلها وكي نتعبد الله -سبحانه وتعالى- بهذه الأوامر الربانية التي أمر بها رب العزة والجلال في كتابه، ولو تتبعنا هذه الأوامر ونظرنا إلى ما شرعه الله -سبحانه وتعالى- سنجد أنه ينظم حياة الفرد والجماعة، وسأذكر بعض الفوائد المتعلقة بهذه الآية والتي تليها بعد أن أنتهي من التي تليها -إن شاء الله تبارك وتعالى- ولكني أود أن أقول هنا بأن حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس -رضي الله تعالى عنه- كان يعتب وينكر على الناس كثيرًا أنهم لا يعملون بهذه الآية وكان يقول بأن هذه الآية محكمة لم ينسخها شيء ولكن الناس لم يعملوا بها وكان يقول: «إني آمر جاريتي هذه أن تستأذن علي» وذهب ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- إلى هذا القول لما بدأ الناس يتخذون الستور؛ لأنه في السابق كانت الأبواب دائماً مفتوحة واليوم وبعد أن اتخذ الناس الحُجُب والستور يجب أيضاً إذا أرخي الستر أو أغلق الباب أن يستأذن من يريد أن يدخل إلى البيت، وأن يتعلم هذا الأمر سواءً كان مملوكاً أو كان طفلاً في الأوقات التي حددها الإسلام لأنها غالباً ما تكون أوقات عورة، أو أوقات خلوة وهذا بيان من رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- لأمته.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ والله يا إخواني كما أكرر دائماً الذي ينظر إلى كلام الله -عز وجل- ويتأمل فيه سيجد خيراً ونفعاً عميماً عظيماً ويوقن حقاً أنه كلام رب العزة والجلال بعدما ذكرت الآية ما ذكرته من العورات الثلاث وأحكام الخدم أو العبيد والمماليك والأطفال ذكرت بعد ذلك حكم هؤلاء الأطفال إذا بلغوا الحلم بمعنى أن أمرهم سيعود إلى أمر غيرهم من سائر الأقارب لأن الطوافة التي يقومون بها من ناحية الخدمة وما إلى ذلك يكون قد شَبَّ ريعهم نوعاً ما وبدأت تقل أو تخف أو يكون عندهم من الوعي ومن الإدراك ما يجب عليهم أن يحتاطوا في مثل هذه الأمور ﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وهذا أيضاً من تشريع رب العالمين ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وأود قبل أن أذكر بعض الفوائد في هاتين الآيتين أن أشير: بعض الناس يفهم أن الخدم الذين يخدمونه في البيت هم كالمماليك سواءً بسواء فينكشف عليهم في أي وقت ويخرج عليهم في أي وقت والمرأة ترى الرجل في أي وقت، والرجل يرى المرأة الخادمة على حالة لا يجب أن يراها عليها باعتبار أنها مملوكة، هذا خطأ فادح، فالأحكام هذه تتعلق فقط بملك اليمين، وهو من يملكه الإنسان وليس خادماً عنده بل يكون هو وليه يتصرف فيه بعد إذن الله -عز وجل- له كما يشاء هو.

هاتان الآيتان كما ذكرت فيهما فوائد عظيمة جداً وأذكرها سرداً في صورة سريعة:

- الفائدة الأولى: أن السيد وولي الصغير مخاطبان بتعليم من تحت أيديهم من العبيد والأولاد العلم والآداب الشرعية؛ لأن الله -عز وجل- وجه الخطاب إليهم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ﴾ فالخطاب موجه إلى السيد وإلى مربي أو معلم أو من يقود الطفل من ولي أمره بأن يفعل فيه ذلك.

– الفائدة الثانية: الأمر بحفظ العورات والاحتياط في ذلك، فالله –عز وجل– ما شرع هذا إلا لكي يحفظ عورة كل إنسان وكي يحتاط الإنسان لنفسه وهذا يفهم منه إذن أن يحتاط الإنسان في حفظ عورته.

– الفائدة الثالثة: أن المسلمين كانوا معتادين القيلولة، يعني كانوا ينامون أو يستريحون أو يقيلون ولو فترة يسيرة في وسط النهار والدليل على ذلك أن الله –سبحانه وتعالى– ربط بها حكماً من الأحكام.

– الفائدة الرابعة: ينبغي للواعظ والمعلم أن يربط الحكم أو الحديث الذي يتكلم فيه بعلته؛ لأن الله –عز وجل– لما ذكر هذا الحكم علله بقوله: ﴿ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ﴾ وهذا يدفع المستمع إلى أن يستجيب للمتكلم فهذه فائدة للدعاة والموجهين والمربين والمعلمين أن يربطوا الأحكام بعللها؛ لأن هذا فيه سرعة في القبول والجواب.

– الأمر الخامس أشير إليه إشارة وهي أن الإنسان عليه أن يستخدم من تحت يديه من الأطفال والعبيد فيما لا يشق عليهم فيه؛ لأن تعبير قول الحق –تبارك وتعالى–:﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ﴾ يفهم منه هذا المعنى، ألا يستخدم الإنسان من تحت يديه بشيء من المشقة وهذا شعار يجب أن يكون بين المسلمين، وأتذكر هنا وأنا في هذا اللقاء وتذكرتها الآن ما قاله العبد الصالح لموسى –عليه السلام– لما اتفقا على أن يعمل عنده عشر سنوات أو ثماني سنوات، في نهاية الاتفاقية ماذا قال له؟ قال: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ [القصص: ٢٧] فهذا أمر جميل وخلق كريم يجب أن يسود بين أهل الإيمان.

المحور الثالث: رفع الجناح عن القواعد من النساء:

وتحته قول الحق –تبارك وتعالى–: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لاَ يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾، يخبر رب العزة والجلال – سبحانه وتعالى– أنه ليس على القواعد من النساء ما ليس على غيرهن، قال سعيد بن جبير ومجاهد وقتادة: «المراد بالقواعد اللواتي انقطع عنهن الحيض ويئسن من الولد» و﴿اللاَّتِي لاَ يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ أي لم يبق لهن تشوف إلى النكاح ولا رغبة فيه، فهؤلاء الإسلام شرع لهم إن أرادوا وأحبوا ذلك بشرط كما سيأتي ذكره أن يتخففن من الثياب، ﴿يَضَعْنَ﴾ يعني يتخففن من بعض الثياب، كما ذكر ذلك الإمام ابن عباس وغيره من المفسرين وذكر أهل العلم في كتبهم أقوالا كثيرة عن السلف في معنى هذا، وأنه ليس على المرأة أن تتكشف ولا أن تتعرى بل الستر والحجاب واجب عليها مهما كان أمرها ولكنهم قالوا: تتخفف من الثياب الظاهرة بحيث يبقى عليها الخمار فكانوا يضعون ما يمكن أن يكون معلوماً عندنا إلى وقت قريب ما يعرف بالملائة التي كانت تلبسها المرأة فوق ثيابها، فهذه يمكن أن تتخفف منها المرأة بشرط أن تكون لابسة ثياباً سميكة كما عبر ابن كثير – رحمه الله تعالى–: «ثوباً صفيقاً» يعني ثقيلاً سميكاً لا يُشِفُ عن ما تحته، وهنا شرط إذا وضعت المرأة شيئًا من ثيابها الظاهرة، قال: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ فإن كان هذا الوضع إن كان سيؤدي إلى فتنة أو سيظهر شيئًا من الزينة أو يبرز شيئًا من الجمال أو يُعلِم بأمر خفي غير مشاهد غير محسوس فيجب ألا تفعل، ومع ذلك كله ومع هذه الإباحة قال الله –عز وجل–: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ ما أجمل هذه التوجيهات الربانية، قد يقول قائل: ولمَ هذا؟ بالنظر الآن في أحوال الناس وأوضاعهم تجد أن الإنسان أو المرأة إذا بلغ بها السن مبلغاً كبيراً وانقطع عنها التشوف إلى الرجال قد يصعب عليها أن تلبس من الثياب الثقيلة ما تشاء إما لمرض في القلب أو في غير ذلك من الأمور، وهذه أمور مشاهدة، وهذه من رحمة رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى–، وبهذه المناسبة أقول لكل الناس: لا تخافوا من الإسلام ولا من تطبيق شريعة الرحمن لأنها شريعة سهلة سمحة ميسورة تأملوا إلى هذا الحد يعني إن وجد هناك حرج في شيء من الأمور التي شرعها الإسلام سيسبب شيئًا من الضيق في بعض الأحيان لأناس أو ما إلى ذلك بلغ بهم الأمر مبلغاً عظيماً فيخفف الإسلام عنهم شيئًا من ذلك بما لا يتعارض مع الأسس ولا مع القواعد ولا مع الأصول التي يسير عليها المجتمع الإسلامي بصورة عامة، والله – عز وجل– بعد أن رفع الجناح عن وضع المرأة التي ليس لها تشوف إلى النساء وقد انقطع عنها الحيض ويئست

من الأولاد وما إلى ذلك بعد أن ذكر كل هذا، أكد -سبحانه وتعالى- على الفضيلة، أكد على الفضيلة فقال: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾، وقوله: ﴿وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ هذا الختام فيه فائدة يعني يا أيها المستمع لا تظن أن الله يخفى عليه شيء بل -سبحانه وتعالى- يسمع كل شيء وعليم يعلم كل شيء وهذا فيه توجيه للمرأة التي يمكن أن تتخفف وهي لا تستحق أن تتخفف؛ لأن الذي يعلم أنه ليس لديها عندها تشوف إلى الرجال لا يعلم أحد ذلك إلا هي التي تعلم هذا الأمر، فلتتقي الله -عز وجل- ولتعلم بأن الله -سبحانه وتعالى- سميع عليم وكفى برب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- وكفى بصفاته وجلال كماله علماً وإحاطة وسمعاً وبصراً إلى غير ذلك من صفات الجلال والكمال الثابتة لرب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-.

المحور الرابع: الله تعالى يسر الدين ورفع الحرج عن المؤمنين:

الله تعالى يسر الدين وهذه رحمة من الله -عز وجل- لعباده، كما أنه -عز وجل- رفع الحرج عن أهل الإيمان وتحته قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاَتِكُمْ﴾ إلى آخر ما جاء في الآية.

﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ﴾ اختلف المفسرون هنا، ما هو الحرج المنفي عن هؤلاء الثلاثة: عن الأعمى وعن الأعرج وعن المريض؟

قيل المراد بالحرج المنفي عنهم: الجهاد في سبيل الله -تبارك وتعالى-، وتصبح هذه الآية كالآية مثلاً التي جاءت في سورة الفتح وهي يعني كما قال أهل التفسير خاصة في الجهاد في سبيل الله -عز وجل- والله -عز وجل- قد رفع الحرج عن هؤلاء الثلاثة.

وقيل: بأن الحرج المنفي هنا هو أنهم كانوا يتحرجون من الأكل مع الأعمى ومع الأعرج ومع المريض، كان الناس في السابق من أهل الإسلام كانوا يتحرجون من الأكل مع هؤلاء الثلاثة، لماذا؟ كانوا يعتبرون أن الأعمى لا يرى الطعام كما يرونه هم، وأن الأعرج لا يتمكن من الجلوس كما يجلسون، وأن المريض لن يتمكن من الطعام كما يتمكنون، فكانوا من الورع يتحرجون من أن يأكلوا معهم حتى لا يسبقوا الأعمى في الطعام ولا الأعرج الذي لا يتمكن من الجلسة كما ينبغي ولا من المريض الذي أيضاً قد يتأخر في الطعام أو لا يستوعب ما يستوعبه السليم، وهذا يعني يبين أيضاً كيف أن الإسلام ورب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- يشرع هذه التشريعات لهؤلاء العباد.

وقيل: بأن رفع الحرج هنا المراد به أن المسلمين كانوا إذا ذهبوا إلى الغزوات خلفوا من بعدهم يعني من أصحاب الأعذار وكان أصحاب الأعذار يتحرجون من أكل الطعام الذي تركه أصحاب البيوت، فنفى الله -سبحانه وتعالى- عنهم هذا الحرج وقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ ثم قال: ﴿وَلاَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ﴾ إلى آخر ما جاء مما عطف رب العزة والجلال عليه وقد تلوته قبل قليل.

ما معنى: ﴿وَلاَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ﴾؟ هذا أمر معلوم الإنسان مباح له ويأكل من بيته كما يشاء، فلم ذكر الله -عز وجل- ذلك ونص عليه؟ قيل ليعطف عليه ما بعده، لكي يعطف عليه ما بعده، وفي قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَلاَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ﴾ يفيد أن الإنسان يكون هو وإخوانه كأنه نفس واحدة، والله -عز وجل- أيضاً بناءً على هذا رفع الحرج عن الأكل في بيوت الآباء والأبناء وإن لم يذكر أحد منهم في هذه الآية كذلك الأمهات، كذلك الإخوان والأخوات والأعمام والعمات والأخوال والخالات، ليس على الإنسان جناح أو حرج أن يأكل في بيوت هؤلاء.

ثم قال سبحانه: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ يعني بذلك البيوت التي يملك الإنسان التصرف فيها بإذن أصحابها وذلك كالعبيد والخدم في البيت إن صرحت له بذلك فيحق له لأنك تملك يمينه والله -عز وجل- يقول: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ فأنت ملكته، فإن ملكته ومكنته من أن يتصرف في ملكك بغير إذنك فيباح له أن يأكل وأن يطعم منه ما يشاء، كذلك أيضاً صديقك، والنفس تطيب من أن يأكل الصديق من مال أو من طعام صديقه وذلك لا شك أنه بالمعروف.

ثم يقول سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ هذه الجملة مستأنفة لبيان حكم آخر هو من جنس ما قبله وهو أن الأكل في البيوت جائز سواء كان الناس يجتمعون على الطعام أو يأكلون متفرقين، طيب لماذا نفى الله الجناح في ذلك؟ ولعله نعرف جميعاً أن من السنة ومن المستحب أن يجتمع الناس على الطعام، فلمَ رفع الحرج عن هذا؟ النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث ولقد حسنه الشيخ الألباني -رحمه الله تبارك وتعالى- قال: (اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه)، يعني يبارك لكم رب العزة والجلال في هذا الطعام، وهنا يرفع الحرج عن أن نأكل فرادى أو مجتمعين، ذلك أن الأمر قد يستدعي أن يأكل الإنسان وحده، وكان بعض العرب لا يأكل وبعض أهل الإسلام أيضاً كان لا يأكل إلا إذا وجد أكيلاً معه، وقد اشتهر عن حاتم الطائي كما ذكرت كتب الأدب أنه كان إذا وُضِعَ له الطعام كان لا يأكله إلا إذا التمس ضيفاً يجلس معه على طعامه، فالله -عز وجل- رفع الحرج عن ذلك وبين أن الأمر داخل تحت الإباحة في أن يأكل الإنسان وحده أو أن يجتمع رغم أن الاجتماع على الطعام أحب وأولى وأفضل وأطيب وأبرك.

ثم قال -سبحانه وتعالى-: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ شرع الله -عز وجل- هنا في بيان أدب آخر وهو إذا دخلتم بيوتاً غير البيوت التي سبق ذكرها فسلموا على أهلها والسلام على أهلها بمنزلة السلام على أنفسكم، الله -عز وجل- ما قال: فسلموا على أهلها ولكن قال: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ لماذا؟ لأن المؤمنين كنفس واحدة، لما بينهم من التواد ومن التراحم ومن التعاطف وحديث النبي -صلى الله عليه وسلم- كلكم تحفظونه يدل على ذلك: (مثل المؤمنين... إلى آخر) والله -عز وجل- يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا ﴾ [النساء: ١] فالله -عز وجل- يأمر ويشرع هذا الأدب في أنك إذا دخلت بيتاً فسلم على أهل هذا البيت، ولو لم يكن فيه أحد أيضاً سلم، وقد ورد هذا عن السلف تسلم حتى إذا دخلت بيتاً لا يسكنه أحد فمن المستحب أو من السنة أن تسلم وأنت داخل على هذا البيت وهذا توجيه من رب العزة والجلال -سبحانه-، والله -عز وجل- أخبر أن هذه تحية طيبة مباركة لماذا؟ لأن السلام فيه أمن فيه تحية فيه بركة فيه نماء فيه زيادة فيه رحمة فيه دعاء ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾.

ثم يبين -سبحانه وتعالى- ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ﴾ لماذا؟ ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هذا تأكيد أيضاً لما سبق وقد يعني كرر الله -سبحانه وتعالى- ذلك ليرشد ويشير إلى فضل القرآن الكريم وأهمية القرآن الكريم، وأهمية الأحكام التي شرعها رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- في القرآن الكريم.

المحور الخامس: أهل الإيمان يتأدبون مع الرسول -عليه الصلاة والسلام-:

وتحته قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ في الحقيقة هذه الآية والتي تليها آداب رفيعة وتعاليم جليلة، علمنا إياها رب العزة والجلال سبحانه، وأرشدنا الله -عز وجل- إليها، فكما أمرنا ربنا -سبحانه وتعالى- أن نستأذن عند الدخول كذلك أمرنا أن نستأذن عند الخروج، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ بأداة الحصر ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ ﴿كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ يعني أمر يشملهم ويعمهم كصلاة جمعة أو صلاة عيد أو ما فيه مصلحة لهم، أو مشورة في أمر علمي أو جهاد أو ما إلى

ذلك، أوجب الله -سبحانه وتعالى- عليهم ألا يتفرقوا في هذه الحالة إلا بعد الاستئذان من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-.

وأخبرت الآية أن من يفعل ذلك فهو من المؤمنين الكاملين؛ لأن إنما من صيغ الحصر والمعنى: لا يتم إيمان ولا يكمل إلا إذا تم ما ذكر: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أرشد إلى ذلك، فقال: (إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم، فإذا أراد أن يقوم فليسلم فليس الأولى بأولى من الآخرة، أو بأحق من الآخرة) يعني السلام في الأول ليس بأولى ولا أحق ولا أوجب من السلام عند الانصراف، وهذا كما ذكرت وأشرت توجيه كريم من رب العزة والجلال وتعليم لهذه الأمة أن تفعل هذا مع النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-.

ومن المعلوم أن أهل الإيمان كانوا يستأذنون من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وأن الذين كانوا لا يستأذنون منه هم المنافقون، -وستأتي إشارة إليهم بعد قليل- في سورة التوبة يقول رب العزة والجلال سبحانه: ﴿لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة: ٤٤، ٤٥] فإذا لم يقع الإذن فليعلم الإنسان أن فاعله منافق -والعياذ بالله تبارك وتعالى-.

ثم يقول -سبحانه وتعالى- مشيراً إلى أمر فيه تكريم وتعظيم وتبجيل ورفعة مكانة للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: ﴿لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ صلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

﴿لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ﴾ ذكر بعض أهل العلم ﴿دُعَاءَ﴾ مضافة إلى الرسول هل مصدر مضاف إلى المفعول ولا إلى الفاعل؟ يعني هل هو مضاف إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- في حالة كونه مفعولاً أو أنها فاعلاً؟

قال البعض: ﴿دُعَاءَ﴾ مصدر مضاف إلى المفعول، ويصبح المعنى لأن هذا يبين المعنى: لا تجعلوا دعاء الرسول -صلى الله عليه وسلم- كدعاء بعضكم لبعض في النداء وبالتالي لا يحق لمسلم أن ينادي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كما ينادي غيره من آحاد الناس فلا يقول الإنسان: يا محمد مثلاً -صلى الله عليه وآله وسلم-، والله -عز وجل- لم ينادِ النبي -صلى الله عليه وسلم- باسمه مجرداً في القرآن الكريم، ما ناداه إلا بلفظ النبوة والرسالة -صلوات الله وسلامه عليه-، ولما ذكر قوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ بعدها قال: ﴿وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] ولم تكن أيضاً نداءً، يعني ناداه قال له: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأحزاب: ٤٥] حينما ناداه قال له: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١] إنما نادى موسى -عليه السلام- فقال له: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤] وغيره من الأنبياء أما نبي الهدى والرحمة -صلى الله عليه وآله وسلم-، فلمكانته عند ربه نهى الله -عز وجل- أهل الإيمان أن يتعاملوا معه كما يتعامل بعضهم مع بعض، ولو رجعتم إلى أوائل سورة الحجرات والوقت يطول أن نستعرض مثل ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات:١] الآية التي تليها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ -صلى الله عليه وسلم- ﴿وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات:١] ثم يبين ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحجرات: ٣].

فالحديث مع النبي -صلى الله عليه وسلم- ومخاطبة النبي -عليه الصلاة والسلام- ليست كمخاطبة آحاد الناس، وهل هذا أمر انتهى بعد وفاة النبي -عليه الصلاة والسلام-؟ بل هو باق إلى أن تقوم الساعة، فالأدب

مطلوب مع النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من كل عبد يعرف قدر رسول الهدى والرحمة -صلوات الله وسلامه عليه-.

ومعنى لا ترفع صوتك على صوت النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي هو وارد في سورة الحجرات: يعني لا ترفعه لمن كانوا أحياء والنبي -عليه الصلاة والسلام- بين ظهرانيهم واليوم إذا رفعت قول شيخك أو إمامك فوق قول النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- تكون بهذا قد رفعت صوت الإمام أو الشيخ أو من قلدته فوق صوت رسول الله -صلوات الله وسلامه عليه-، وكل هذا لا ينبغي من أهل الإسلام.

أيها المخاطبون الكرام: إكرام النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ومعرفة هذه الأمة بحقه أمر واجب علينا لمكانته -عليه الصلاة والسلام- عند ربه، وإذا نحن لم نقدر ذلك فمن يقدره إذن؟! نحن نرى آحاد الناس اليوم ممن كفروا وأشركوا أجرموا في حق النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فعلى أهل الإيمان أن يبادروا بإكرام النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وإجلاله ومعرفة قدره -صلى الله عليه وآله وسلم- ومكانته عند ربه وهو من هو -صلوات الله وسلامه عليه-.

القول الثاني في الآية: أنا قلت القول الأول: ﴿دُعَاءَ﴾ مصدر مضاف إلى المفعول فيصبح المعنى: لا تجعلوا نداء النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يعني دعاءه كنداء بعضكم بعضاً.

القول الثاني: وهو ضعيف والأول أرجح: أن ﴿دُعَاءَ﴾ دعاء مصدر مضاف إلى الفاعل ويصبح المعنى: لا تجعلوا دعاء الرسول -صلى الله عليه وسلم- عليكم كدعاء غيره؛ لأنه هنا فاعل دعاء الرسول -صلى الله عليه وسلم- لا تجعلوا دعاءه لأنه هو الذي يقوم بالدعاء، لا تجعلوا دعاءه -صلى الله عليه وآله وسلم- كدعاء غيره لماذا؟ لأن دعاءه -صلى الله عليه وسلم- مستجاب، ولكن الأول هو الراجح وتؤيده النصوص التي أشارت إلى الأدب مع النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-.

ثم يقول سبحانه: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ هذه الآية تخاطب المنافقين كانوا لا يطيقون أن يجلسوا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى في الجمع وفي مواعظ الذكر وكانوا يتظاهرون بأنهم يحضرون ويحبون الاستماع وما إلى ذلك، مما يعني فضحهم فيه كتاب رب العزة والجلال -سبحانه- وهنا إشارة إلى شيء من ذلك كيف هذا؟ كان يلوذ بعضهم ببعض يعني يستتر، ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ يعني يستترون كان يستتر بعضهم ببعض لماذا؟ حتى لا يشاهدهم النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وقد ذكر أهل التفسير أنهم كانوا يتركون مجلس النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ويخرج الواحد منهم خفية ويلوذ بأخيه يعني يخرج من وراء ظهره أو يستتر فيه حتى لا يراه النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في هذه الحالة الرسول -صلى الله عليه وسلم- يخطب أو يأمر بأمر فيه مصلحة أو ما إلى ذلك والتعقيب بهذه الآية: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ بعد القول في أولها: أو الأمر من الله -عز وجل- لمن أراد أن ينصرف بالاستئذان يبين أن أهل الإيمان حقاً هم الذين كانوا يستأذنون، ويبين أيضاً أمراً آخر أشارت إليه الآية في أولها ولم أشر إليه، انتظرت إلى أن يأتي هذا الموطن وهو: أن إذا أذن شخص من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أمر الله النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يأذن له إن شاء: ﴿فَأْذَن لِّمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ وليس هذا فحسب ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ﴾ فانظر الإذن كيف يعني أوقع هذا العبد المستأذن في رحمة رب العالمين ودعاء النبي الأمين -صلى الله عليه وآله وسلم-، إذ كانت هناك مصلحة ورأى النبي -عليه الصلاة والسلام- أن يأذن له فبها ونعمت، وإن لم يأذن له فالأمر راجع إلى من؟ إلى النبي -عليه الصلاة والسلام-، قد يأتي إنسان من المؤمنين ولكنه ضعيف فيستأذن وليس عنده ما يدعوه إلى ترك هذا الأمر فقد يكون ما يذهب إليه أمراً أقل من أن يكون مع النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فنجد ربنا -سبحانه وتعالى- يأمر بالاستغفار ليعفو عن الذلل أو القصور إن كان ثمة هناك ذلل أو قصور يكفيه أنه استأذن من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، ﴿فَأْذَن لِّمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ثم يقول سبحانه: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ هذا وعيد من الله -تبارك وتعالى- لمن يخالف أمر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، ويترك سنته، الذي يخالف أمر النبي -عليه الصلاة والسلام- ويترك سنة النبي وسبيله وطريقته ومنهاجه يتوعده رب العزة والجلال بأمر خطير، ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ ما هو الشيء المتوعد به؟ ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قال الإمام أحمد -رحمه الله تبارك وتعالى-: «أتدرون ما هي الفتنة؟ الفتنة هي الشرك، يخشى على العبد إذا رد بعض قول النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك» بسبب ماذا؟ أنه رد قول رسول الهدى والرحمة -صلوات الله وسلامه عليه-.

والإمام أحمد أيضاً قد قال: «عجبت لقوم عرفوا الإسلام يذهبون إلى قول سفيان والله يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾».

وهنا أتوقف وقفة يسيرة جداً؛ لأن الأمة اليوم تقع في مشكلة عظيمة بالنسبة لاتباع النبي -صلى الله عليه وسلم- وظهرت البدع وانتشرت وعمت وطمت في أرجاء المعمورة وما بقي ممن يتمسك بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- وهديه ويعض عليها بالنواجذ إلا القليل من الناس الذين زكاهم الله -عز وجل- في آيات كثيرة: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤] إلى غير ذلك من الآيات، فأقول لمن ترك هدي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: احذر هؤلاء الأئمة السابقين، الإمام أحمد بن حنبل يقول: «عجبت لقوم عرفوا الإسلام ويذهبون إلى قول سفيان» أتعرفون من هو سفيان؟ إما أن يكون سفيان الثوري، أو سفيان بن عيينة -رحم الله الجميع-، وعلى كل فكانوا جبالاً في العلم، كانوا أئمة في العلم وكانوا يترسمون هدي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ومع ذلك الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- ينعى على من عرف الحديث أن يقول: قال سفيان، وتأملوا ما هو أبعد من ذلك، عبد الله بن عباس -رضي الله تعالى عنه- ذات يوم كان يحث على التمتع في الحج، التمتع في الحج معلوم، يعني أن يحرم المحرم بعمرة ثم يتحلل بعد أن يقوم بها، ثم يلبي في يوم الثامن من ذي الحجة يهل بعد ذلك بالحج، فيجمع في سفرته بين العمرة وبين الحج، فكان عبد الله بن عباس يحبذ ذلك ويدعو إليه فقال له رجل: (أنت تحث على المتعة وتأمر بها وكان أبو بكر وعمر ينهيان عن المتعة)، وورد هذا عن أبي بكر وعمر ولكن ليس لأن الحج مثلاً مفرداً أفضل ولكن ذكر بعض أهل العلم أن أبا بكر -رضي الله تعالى عنه- وعمر أرادا أن يكون بيت الله الحرام باستمرار هناك من يطوف حوله، فلو أن الناس والحال ضيقة في ذاك الوقت والمواصلات تكون معدومة أو شبه معدومة لدى الكثير من الناس وصعوبة الطريق ووعورته وعدم الأمن أو الجوع أو ما إلى ذلك فقد يذهب الناس إلى بيت الله الحرام قليلاً إلا في الحج، فأراد أبا بكر وعمر أن يكون البيت على مدار العام يطوف به معتمرون يلبون لرب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- ويذكرون اسم الله في هذا المكان، الشاهد عبد الله بن عباس يحث على الحج ويحض عليه متمتعاً فجاء رجل قال: (إن أبا بكر وعمر كانا ينهيان عن المتعة)، ماذا قال عبد الله بن عباس؟ قال: (يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وتقولون: قال أبو بكر وعمر)، فإذا كان هذا قول ابن عباس في من؟ في من أمرنا بالاقتداء بهم، وهما لا يخرجان عن هدي النبي -صلى الله عليه وسلم- الرسول -صلى الله عليه وسلم- فيما صح عنه وذكره البغوي في شرح السنة: (اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر) وفي حديث العرباض بن سارية -رضي الله تعالى عنه- لما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ)، ومع ذلك إذا كان هذا عبد الله بن عباس -رضي الله تعالى عنه- يذكر هذا في من؟ في أبي بكر وعمر وهما من هما، فما بالنا بغيرهما من آحاد الناس ممن لا يصل الواحد منهم -يعني ماذا نقارن؟!- كان إيمان أبي بكر -رضي الله تعالى عنه- يزن أكثر من إيمان الأمة بأكملها فماذا نقول بعد ذلك؟!! كيف يأتي الإنسان اليوم ويأخذ كلام غيره المخالف لهدي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ويقبله، هذا لا يجوز بحال من الأحوال بل إن في هذا جرم عظيم وقد يؤدي بالإنسان إلى الوقوع في الشرك -والعياذ بالله تبارك وتعالى- لماذا؟ لأن فاعل ذلك يكون قد اتخذ مشرعاً غير الله وغير رسول الله -صلى الله

عليه وآله وسلم-؛ لأن الأحكام التكليفية تشريع والذي وضعها رب العالمين وبلغها نبيه الأمين -صلى الله عليه وآله وسلم- ونحن لا خيار لنا معشر أهل الإيمان في أن نتبع أو لا نتبع، بل لابد من أن نتبع النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وأن نقتفي أثره وهذه هي علامة المحبة الصادقة لرسول الهدى والرحمة -صلوات الله وسلامه عليه-.

ويكفي أن نتأمل بعض الآيات: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] بل إن الطريق إلى الله من خلال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: ﴿قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١] فهي دعوة مكررة إلى أهل الإيمان أن يقتفوا أثر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وبالتالي أقول: إن دعونا إلى سنته وجب لزاماً أن ننهى عن البدع المخالفة لهدي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- احذر يا عبد الله أن تبتدع شيئًا في دين الله -عز وجل-؛ لأن البدع مظلمة الأرجاء، والمبتدع غالباً لا يرجع ولا يتوب عن بدعته بخلاف أهل المعاصي، أهل المعاصي يمكن أن يرجع ويمكن أن يتوب؛ لأنه يشعر بجرم وذنب المعصية أما صاحب البدعة يظن أنه على خير يظن أنه على معروف يظن أنه قائم على البر وبالتالي غالباً تجد المبتدع يموت على بدعته، فأمر البدعة إذن خطير ونهايتها مظلمة كما ذكرت ويكفي أن نتأمل الحديث الذي في صحيح مسلم وفيه يقول النبي -صلوات الله وسلامه عليه- كما روته أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها-: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)، وقال -صلى الله عليه وآله وسلم-: (كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد) وكان -عليه الصلاة والسلام- إذا افتتح خطبه وأنتم تعرفونها وتسمعونها كثيرًا بعد حمد الله والثناء عليه والتشهد والصلاة على رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- يقول: (أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله -تبارك وتعالى- وخير الهدي هدي محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة) فاحذروا يا أهل الإيمان من أن تقعوا في البدع إذن إذا وقعتم في البدعة ستقعون في الضلال والانحراف -والعياذ بالله تعالى- وعضوا على هدي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وتعلموه كونوا أصحاب سنة بدل أن تكونوا أصحاب بدعة وأنا أدعو أهل العلم وطلاب العلم ومن يحملون رايات الدعوة في بلاد العالم الإسلامي أن يدعوا إلى الله -عز وجل- على بصيرة وأن يثقفوا الناس في أمور دينهم على هدي كتاب الله وسنة رسوله الهدى والرحمة -صلوات الله وسلامه عليه-.

ثم يقول سبحانه: ﴿أَلاَ إِنَّ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ وهذا ختام حسن لهذه السورة الكريمة لأنها تذكر الإنسان بأمور متعددة:

أولاً تذكره بأن ملك السماوات والأرض لله وحده -سبحانه- دون سواه، فهو الذي يملك السماوات وهو الذي يملك الأرض وبالتالي فهو أيضاً طالما أنه مالك وخالق ورازق فيتصف بصفات الجلال والكمال ومنها العلم ولذلك أثبتها هنا في هذه الآية لنفسه أثبت العلم لنفسه فقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ وقد هنا للتحقيق والتأكيد؛ لأن قد قد تأتي للتقليل وهي هنا للتحقيق، وهي هنا كما في قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ﴾ [المجادلة: ١] وهي أيضاً للتأكيد والتحقيق في قول المؤذن " قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة" يعني ثبت وحان وقت الصلاة ف﴿قَدْ يَعْلَمُ﴾ هنا قد للتحقيق، قد يعلم ما أنتم عليه اليوم وما تقومون به والله -عز وجل- مضطلع عليه وهناك ملائكة تسجل وما إلى ذلك، والدليل على هذا أنه قال بعدها: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ وهذه تفيد أن المرد والمصير والمنتهى إلى من؟ إلى الله -عز وجل- على المؤمن والكافر والصالح والطالح والبر والفاجر أن يعلم أن المرجع والنهاية والمآب إلى رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- ولكن إذا رجعوا جميعاً ووقفوا بين يديه ماذا سيكون الأمر؟ قال: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ وهذا كما قال الله -عز وجل- في كتابه: ﴿يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة: ١٣] ﴿وَوُضِعَ الكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ قال الله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩] فالعباد جميعاً سيرجعون ويقفون بين يدي رب العزة والجلال سبحانه وهو -عز وجل- بكل شيء عليم وهذا يردع الكافرين ويطمئن أهل الإيمان، فهو بكل

شيء عليم فارتدع يا كافر وارجع إلى الله -عز وجل-؛ لأنه يعلم ما تعمل ويعلم ما أنت عليه ويطمئن أهل الإيمان في أن الله -عز وجل- لن يضيع أجر من أحسن عملاً لماذا؟ لأنه عدل ويعلم ما أنتم عليه.

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

إجابة أسئلة الحلقة الماضية:

وكان السؤال الأول: اشرح قوله تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾؟

وكانت الإجابة:

بعد إخبار الله -تبارك وتعالى- لنا عن المنافقين وأحوالهم وبين شيئًا من صفاتهم وذكر الصفة التي تميزهم كقولهم بألسنتهم ما يخالف قلوبهم، كذب الله -عز وجل- المنافقين وبين أنهم ليسوا من أهل الإيمان ولا يمكنهم أن ينخرطوا في هذه الحقيقة؛ لأن الإيمان قول وعمل وهؤلاء المنافقون يتولون عن ذكر الله -عز وجل- وعن ذكر رسوله -صلى الله عليه وسلم- فقد قال الله -عز وجل-: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النور: ٥٠] ومن هنا وجب على المرء أن يهتم بقلبه ويتفقده ويخلص النية لله -عز وجل- حتى لا يكون في القلب شيء لغير الله -عز وجل- فالله -عز وجل- وصف هؤلاء بمرض القلب فقال: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي علة أخرجت القلب عن صحته وأزالت حاسته فصار بمنزلة المريض الذي يُعرض عما ينفعه ويقبل على ما يضره؛ لأن المقصود بالمرض هنا هو الشرك -والعياذ بالله منه- الذي دفع هؤلاء إلى الشك، فقد قال الله -عز وجل-: ﴿أَمِ ارْتَابُوا﴾ أي شكوا، واتهموه أنه لا يحكم بالحق وكون الله -تبارك وتعالى- لا يجور عليهم في الحكم قال الله -عز وجل-: ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فالله -تبارك وتعالى- لا يحيف عليهم ولا يجور عليهم وكذلك رسوله -صلى الله عليه وسلم-. انتهى..

في الحقيقة جواب سديد وكلام كله توفيق يعني معظمه مما ذكرت يعني بالنص، وفيه الكفاية والحمد لله.

السؤال الثاني: لماذا كان استخلاف السابقين أتم وأكمل ممن جاء بعدهم؟

وكانت الإجابة:

كان استخلاف السابقين السابقين أتم وأكمل ممن جاء بعدهم؛ لأنهم أطاعوا الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم-، يقول الله -عز وجل-: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥] فالله -تبارك وتعالى- وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأن يكونوا خلفاء في الأرض، بهم يصلح العباد وتنار العقول لأن الإيمان بالله -عز وجل- والعمل الصالح هو سبب التمكين في الأرض، ثم يقول الله -عز وجل-: ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥] الضمير هنا عائد لبني إسرائيل والآية تشير إلى سبب تمكين بني إسرائيل في الأرض مدة من الزمان لأنهم كانوا أمة قوية كبيرة تبعت موسى -عليه السلام- قبل أن يفسدوا ويهلكوا فيصبحوا خنازير في الأرض، لذا كان التمكين الأتم والأكمل للنبي -صلى الله عليه وسلم- ومن تبعه من الخلفاء الراشدين؛ لأنهم قاموا بالقرآن الكريم حق القيام فمكنهم الله -عز وجل- في الأرض وقد تحقق ذلك والحمد لله فأصبح الإسلام هو الدين المقبول عند الله -عز وجل-: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥] والحمد لله على نعمة الإسلام. انتهى.

ونحن نقول: الحمد لله على نعمة الإسلام، وجزى الله خيراً المجيب أو المجيبة على ما قالت وذكرت وقدمت وقد أشارت أو أشار المجيب إلى لفتة طيبة أركز عليها وهي أنه يجب علينا أن نتشبه بالسابقين الأولين ممن آمنوا وصدقوا وجاهدوا مع النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وأن نكون من التابعين لهم بإحسان حتى يتم لنا وعد الله -تبارك وتعالى-.

الأخ الكريم من السعودية يقول: أرجو مأجورين شرح تفسير قول الله -تعالى- في سورة الجن: ﴿إِلاَّ بَلاَغًا مِّنَ اللهِ وَرِسَالاَتِهِ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ [الجن: ٢٣] حيث إنه من المعلوم أن الذي يخلد في النار هم الكفار والمشركين وليس العصاة أم يعصي هنا بمعنى يشرك أو يكفر وجزاكم الله خيراً؟

جزاه الله خيراً، أنا دائماً أقول بأن الأخ الكريم -جزاه الله خيراً- أسئلته موفقة.

يا أخي -بارك الله فيك- العصيان كلمة كبيرة تشمل الشرك وما دونه العصيان كلمة الشرك وتشمل ما دون الشرك، فالشرك معصية بل هو أعظم الظلم وأعظم المعاصي على الإطلاق ولو أن إنساناً أخذ ولو شيئًا يسيراً من إنسان أو ضربه بيديه أو ما إلى ذلك فقد وقع أيضاً في معصية وهذه المعاصي تتفاوت في جرمها وفي حجمها وما إلى ذلك فإن كانت المعصية تصل إلى حد الشرك -والعياذ بالله تبارك وتعالى- فهذا مخلد في النار أبد الآباد لأن الله يقول: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢].

أما سائر المعاصي التي تقع من أهل الإيمان ممن يشهدون لله صدقاً بالوحدانية وللنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بالرسالة ويقومون ببعض أركان الإسلام أيضاً كالصلاة للخلاف الوارد في حكم تارك الصلاة، الذي يفعل ذلك يعني يشهد له بالرسالة ويصلي حتى ولو ترك بعض الصلوات ثم يرتكب معصية من المعاصي هذا بعد ذلك أمره إلى رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- إن شاء عذبه الله -عز وجل- بقدر ذنبه وإن شاء غفر له ذنبه فهو داخل تحت المشيئة وإن دخل النار لا يخلد فيها للأحاديث الثابتة عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وهي كثيرة متواترة في شفاعته لأمته في يوم الدين وهناك شفاعة أرحم الراحمين، وشافعة الملائكة وشفاعة لأهل الإيمان، وشفاعة للشهداء وهذه من فضل رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- على هذه الأمة؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الصحيح يقول: (لكل نبي دعوة مستجابة وإني ادخرت دعوتي شفاعتي لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة -إن شاء الله- من مات لا يشرك بالله شيئً) فليحذر الإنسان الشرك وليحذر سائر المعاصي بعد ذلك والذنوب، وإن وقع في شيء منها وذلت قدمه وارتكب معصية فأمره إلى الله -عز وجل- إن شاء عذبه بقدر ذنبه وأدخله النار ثم أخرجه منها وأدخله الجنة، وإن شاء غفر له ابتداءً وفي هذا يقول رب العزة والجلال: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] والله أعلم.

الأخ الكريم من الجزائر يقول: وجدت في تفسير ابن كثير الآية رقم ثلاثين من سورة النور: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور: ٣٠] الحديث التالي: عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم من تركه مخافتي أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه) أخرجه الطبراني عن ابن مسعود مرفوعاً، سؤالي: شيخنا ألا يوجد تصحيف في لفظ: (تركه مخافتي) فقد أشكل علي؟

أعتقد أن المعنى لا شيء، أعد معنى الحديث، الحديث نفسه.

(إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم من تركه مخافتي أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه).

المعنى صحيح، ليس هنا تصحيف، (من تركه) يعني من ترك النظر، والضمير هنا مذكر يبدأ بمذكر ألا وهو: النظر، ولا شيء فيه.

الأخ الكريم من مصر يقول: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ [النور: ٣٦] أيهما أفضل: حضور جلسة علم في المسجد أم اتباع جنازة في نفس التوقيت؟

في الحقيقة أيضاً هذا سؤال وجيه، وأقول كلمة قالها شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وأيضاً الإمام الحافظ الذهبي –رحمه الله تبارك وتعالى– في مثل أحاديث الفضائل وكيف يوازن الإنسان بينها وأي شيء يختار منها، فقد ذكر هؤلاء جميعاً: «أن الشيء في وقته يكون أفضل من غيره» ما معنى هذا؟ الجلوس في بيت الله –عز وجل– طلباً للعلم والذكر هذا قد يصل إلى حد الوجوب إن احتاج الإنسان إلى ذلك، وهو أمر مطلوب، ومتكرر، والجنازة أيضاً تستحب للإنسان أن يواسي إخوانه وأن يحضر الجنازة وله أجر عظيم إذا شهد الجنازة فصلى عليها وقام معها حتى تدفن، الجنازة لا تتكرر غالباً والمسجد طوال اليوم بين يديك، فإذا حضرت جنازة فاجمع بين هذا وذاك، تحضر الجنازة فيكون هذا في وقته، أو هذا العمل في حينه أفضل من أن تكون في المسجد ثم بعد ذلك تستدرك طلب العلم وما إلى ذلك والله أعلم.

الأخ الكريم يقول: ذكرت فضيلتكم أنه لا يجوز أن تكون الخادمة من ملكات الأيمان، فهل يوجد الآن في هذا العصر ملكات أيمان؟ وإن كان يوجد فما شروط امتلاكها؟ وإن كان لا يوجد فما سبب زوال هذه النعمة؟

أما عندنا هنا فلا أعرف شيئًا من ذلك، ولكن يوجد في إفريقيا وفي بلاد المغرب وقد سمعت هذا من سماحة العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز –رحمة الله تعالى عليه– وكان يقول بأنه يعني عن طريقه من أراد أن يفك رقبة فهو له اتصال ببعض الناس الذين يملكون رقاباً هناك ويعني يمكن أن يقوم بالفداء أو وسيطاً في مثل هذا فما زال إلى يومنا هذا، أما وجود هذا الأمر كواقع عملي فلا يكون هذا إلا برفع راية الجهاد تحت إيمان المسلمين في سبيل الله –تبارك وتعالى–، وإذا غنم المسلمون من الكفار غنائم وكان فيها نساء فيكن في هذه الحالة ملك يمين، وتخلَّفَ ذلك لما نحن عليه ونسأل الله –عز وجل– أن يعيد لأمة الإسلام عزها ومجدها وتمكينها وقوتها ووقتئذٍ سيفرح المؤمنون بنصر الله.

الأخ الكريم من مصر يقول: في الآية التي تقول: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٦، ٣٧] كلمة: ﴿رِجَالٌ﴾ لم تذكر في القرآن إلا مع الإيمان فهل في ذلك إشارة إلى ميزان الرجولة؟ وهل يقصد بذلك الذكورة أم الأنوثة أم يدخل فيه الذكورة والأنوثة؟

في الحقيقة لما تحدثت عند هذه الآية قلت بأن هذا وصف وثناء من رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى– وفي الآية التي معنا هنا: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٦، ٣٧] جعلت فرقاً بين الرجال والنساء في هذا الحكم، لأن الآية تتكلم عن رجال يقومون لله –عز وجل– في المساجد وصلاة الجماعة واجبة على الرجال وليست واجبة على النساء ولا بأس إذا أذن ولي الأمر للمرأة أن تخرج للصلاة بالشروط التي ذكرتها آنفاً، الشاهد من هذا أن كلمة ﴿رِجَالٌ﴾ وصف أثنى الله –سبحانه وتعالى– به على من يقومون لله –عز وجل– بهذه العبادة، أما في ما جاء ذكر ﴿رِجَالٌ﴾ في آيات آخر من القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] فهذه جاءت في سياق غزوة الأحزاب، وما قدمه رجال من أهل الإيمان في سبيل رب العزة والجلال سبحانه، وهي أيضاً تشير إلى من قضى نحبه من السابقين الأولين في سبيل الله –عز وجل– سواءً كانوا في مكة أو في غزوة بدر أو في غزوة أحد أو في غزوة الأحزاب وما إلى ذلك، والمرأة تشارك الرجل إذا شاركت بعمل وكلفت به كما كان النساء يذهبن مع النبي –صلى الله عليه وسلم– ويشاهدن المعارك ويداوين الجرحى وما إلى ذلك،

يعني إذا قامت بعمل تشكر عليه وخدمة عهدت إليها بما يتلاءم مع طبيعتها وبالمعروف وبما هي عليه من ستر وحشمة ووقار يرجى لها أن تنال الجزاء الذي يناله الرجل -إن شاء الله تبارك وتعالى- والله أعلم.

الأخ الكريم يقول: ذكرتم في حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر) فما حكم من يسب الشيخين ويدعي أنه يؤمن بالله ورسوله -صلى الله عليه وسلم- ويسب الصحابة علماً بأن أحد العلماء قال: لا فرق بينه وبين أهل السنة والجماعة؟

في الحقيقة تذكرت عنوان كتاب لأحد الزملاء: "من سب الصحابة ومعاوية فأمه هاوية" سب الصحابة منكر عظيم ومخالفة ومحادة لرسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-؛ لأن الذي يسب من رضي الله تعالى عنه فيكون قد حاد الله -عز وجل- ورسوله -صلى الله عليه وآله وسلم-، وصحابة النبي الكريم -صلى الله عليه وآله وسلم- اختارهم الله -عز وجل- لصحبة نبيه -عليه الصلاة والسلام- فيجب أن تكون لهم من المحبة ومن المكانة التي تليق بهم -رضوان الله تعالى عليهم أجمعين-، وقد غلى أو وقع في الغلو في الصحابة طائفتين: طائفة يعني بارزتهم العداء أو بارزت أمير المؤمنين علياً -رضي الله تعالى عنه- وهم من عرفوا بالخوارج وطائفة غلت في حبه ومدح علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- وكفروا سائر صحابة النبي ولم ينجوا من تكفيرهم إلا نفر قليل، وكلا الطرفين نقيض وكلاهما مذموم وكلاهما على غير الصواب وعلى غير الصراط المستقيم، أما أهل السنة والجماعة فيحبون جميع أصحاب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، ويعرفون لهم من الفضل ومن المكانة ما أنزلهم رب العزة والجلال فيها، ومن المعلوم لدى أهل السنة والجماعة في معتقدهم أنهم يرون أن ترتيب الخلفاء في الفضل كترتيبهم في الخلافة، ولذلك الحديث: (كنا والصحابة متواترون نقول: أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ثم عثمان) وبعدهم لحق بهم الخليفة الرابع الراشد الزاهد علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- وكلهم ثقات عدول يجب أن يُحبوا وأن يوالوا وأن ينصروا وأن ننزلهم المنزلة التي وضعهم رب العزة والجلال فيها، أما أن يتبرأ الإنسان من أحدهم أو أن يسب بعضهم أو أن يغلو ويرفع في بعضهم فيرفعه إلى مرتبة الألوهية أو النبوة أو أنه يعلم الغيب أو ما إلى ذلك كل هذه أمور خارجة عن الجادة أعني عن شرع الله وما سنه نبي الهدى والرحمة -صلوات الله وسلامه عليه-، وأخيراً أقول: من سب الصحابة ومعاوية فأمه هاوية.

الأخت الكريمة من السعودية تقول: متى وقت القيلولة؟ هل هو قبل صلاة الظهر أم بعده؟

وقت القيلولة كانت عند العرب قبل الظهر، أما اليوم فهي بعد الظهر ولا حرج في ذلك؛ لأن العلماء لما تكلموا فيها قالوا: عند منتصف النهار، فعند منتصف النهار، إما قبل النهار أو بعد منتصف النهار، خاصة أعمال الناس اليوم تكون متأخرة إلى ما بعد الظهر.

الأخت الكريمة من مصر تقول: سؤالي في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٨] فألبس علي قوله: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ فهل يخرج أحد من الجنة بعد دخولها؟ وما هو التفسير الصحيح لها؟ وجزاكم الله خير؟

لا في الحقيقة لا يخرج أحد وهي وقت أو أن الله -عز وجل- يقول ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ثم بين رب العزة والجلال بعدها في أهل الإيمان قال: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨] ليدفع ما يمكن أن يهم على ذهن الإنسان والآية تفيد أن دخولهم وبقاءهم تحت مشيئة رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، أما بالنسبة لأهل الإيمان فكما ختم الآية بقوله: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ يعني غير ناقص وغير مقطوع.

التفسير – المستوى الرابع

الشيخ/ عبد الله شاكر

الدرس الأول : تفسير مقدمة سورة الفرقان.

بسم الله الرحمن الرحيم

يسرنا أن نبتدئ في هذا اللقاء المبارك –إن شاء الله تبارك وتعالى– كما سمعتم مع تفسير سورة الفرقان على ضوء ما فسر به الإمام الحافظ ابن كثير –رحمة الله تبارك وتعالى عليه–.

وسنتاول في أول حلقة ولقاء –إن شاء الله تبارك وتعالى– ست آيات من هذه السورة تتحدث هذه الآيات الست حول العناصر التالية:

العنصر الأول: فضل الله على هذه الأمة بإنزال القرآن الكريم.

العنصر الثاني: ثناء الله على نفسه بشيء من صفات الجلال والكمال بخلاف ما عبد من دونه سبحانه وتعالى.

العنصر الثالث: افتراء المشركين على النبي الأمين –صلى الله عليه وآله وسلم– ورد القرآن الكريم عليهم.

وقبل بأن أشرع في تفسير هذه الآيات أطلب من الأخ الأستاذ عبد الرحمن أن يسمعنا هذه الآيات فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم: (﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُورًا وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾)؛ [الفرقان: ١: ٦].

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين وبعد.

هذه السورة التي استمعنا إلى بعض آياتها الآن سورة مكية يعني نزلت على النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– في مكة المكرمة، وكما هو معلوم أن القرآن المكي يدور حول قضايا عقدية تتعلق بالوحدانية والنبوة والرسالة وأحوال يوم القيامة، وهذا ما تحدثت عنه هذه السورة إلى جانب كلامها عن صفات عباد الله المخلصين الذين وصفهم وأضافهم رب العالمين –سبحانه وتعالى– إلى نفسه، ووصفهم بصفات فقال: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]؛ إلى آخر ما جاء في الآيات، ولكن لما كانت وحدانية الله –تبارك وتعالى– هي الأهم وهي المقصد الأسمى الذي يجب أن يتحققه أن يكون في هذا الوجود افتتح رب العالمين على –سبحانه وتعالى– الحديث به؛ ولذلك أثنى على نفسه في مقدمة هذه السورة، فالسورة كما ذكرت تتكلم عن الوحدانية وعن النبوة والرسالة وعن أحوال يوم القيامة –يعني عن بعضه– وقدم الله –عز وجل– الحديث عن ذاته وعن نفسه وعن شيء من صفات جلاله وكماله؛ لأن هذا هو الذي يجب أن يقدم على غيره،

وافتتح رب العالمين -سبحانه وتعالى- السورة به فقال: (﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾).

وكلمة تبارك كما قال الإمام القرطبي -رحمه الله تبارك وتعالى- اختلف في معناها على أقوال:

- فقال الفراء: « تبارك بمعنى تقدس وكلاهما -يعنى تبارك وتقدس- للعظمة.

- وقال الزجاج: تبارك يعني تفاعل من البركة.

- وقيل تبارك: إن عطاءه وخيره قد كثر -سبحانه وتعالى- ويكون معنى كلمة تبارك على هذا أن البركات والخيرات تكاثرت من عند رب العالمين -سبحانه وتعالى- وهذا يستلزم تعظيم الله -عز وجل- ويستلزم تقديسه سبحانه؛ لأن من هو بهذا الشأن يجب أن ينزه عن كل نقص-سبحانه وتعالى- وأن يعبد وحده لا شريك له؛ لأنه بهذه الصفات الجليلة وهو الذي يأتي بالخيرات، وهو الذي يأتي بالأرزاق، وهو الذي يصرف هذا الملكوت، وبالتالي فهو الواحد الأحد الذي يجب أن تصرف له العبادة -سبحانه وتعالى- وحده، وأن يعظم بجميع الصفات الجلال والكمال.

بالتالي يمكن أن نفهم من استهلال القرآن الكريم بقوله "تبارك" في هذه السورة إشارة إلى تنزيه الله -عز وجل- وإلى تعظيم الله -تبارك وتعالى- وإلى تنزيهه -سبحانه وتعالى- عما لا يليق به، فهي ثناء في الأصل من الله -عز وجل- على نفسه، والله -سبحانه وتعالى- قد أثنى على نفسه في مواطن -بالنسبة لإنزاله للقرآن الكريم- فقال مثلا في أول سورة الكهف: ﴿ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١]؛ فأثنى ربنا -سبحانه وتعالى- على نفسه، وهذا الثناء متمثل في قوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ للهِ﴾؛ فالحمد معناه الثناء، وهو أثنى على نفسه لإنزاله الكتاب من عنده، وإسناده قوله -تعالى- "تبارك" إلى "نزل الفرقان" يدل على أن أعظم البركات وعلى أن أعظم الخيرات التي تفضل الله -عز وجل- بها على عباده هي إنزال القرآن الكريم على نبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- وأنا قلت الآن: إن من معاني "تبارك" من كثر عطائه وكثرت نعمه وكثر خيره، وحينما تسند كلمة "تبارك" هنا إلى تنزيل الله -عز وجل- للكتاب على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فنستفيد أن أعظم ما تفضل الله -عز وجل- به من نعم على عباده هو القرآن الكريم: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾.

والتضعيف في كلمة نزّل: تفيد أن القرآن نزل منجمًا على رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بخلاف غيره من الكتب؛ فالتوراة والإنجيل نزلت جملة واحدة، أما القرآن الكريم فكان ينزل مفرقًا مجزأً على حسب الوقائع والأحداث، وعلى ما يريد رب العالمين -سبحانه وتعالى- من تشريع؛ ولذلك فرق الله -عز وجل- في كتابه بين القرآن الكريم وتنزيله وبين التوراة والإنجيل في أول سورة آل عمران فقال: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ٣: ٤]، فقال في التوراة والإنجيل أنزل؛ لأنها نزلت جملة واحدة، أما بالنسبة للقرآن الكريم فقال نزل، وهي تدل على التضعيف وتفيد أن القرآن الكريم نزل من عند رب العالمين -سبحانه وتعالى- منجمًا مفرقًا؛ والله سبحانه وتعالى قد سمى القرآن في مطلع هذه السورة بالفرقان؛ لأن الله فرق به بين الحق والباطل، فرق به بين الهدى والضلال، فرق رب العالمين بين الرشد وبين الغي؛ ولذلك قال:﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾، فوصف القرآن الكريم هنا بالفرقان؛ لأنه حقًا فرق الله -تبارك وتعالى- به بين الخير والشر وبين الهدى وبين الضلالة وبين الظلمات وبين النور وبين الباطل.

هذا الفرقان نزل على من؟ نزل على رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ونجد هنا في هذا الآية أن الله -تبارك وتعالى- وصف نبيه وحبيبه ومصطفاه -صلوات الله وسلامه عليه- بأشرف الصفات على الإطلاق، ونحن نقول: أشرف الصفات؛ لأنها في مقام التكريم هنا، وهي نعمة على عباده، وتكاثر الخيرات من الله على

عباده بإنزال القرآن الكريم، وهذا موطن تشريف وتكريم، وصف ربنا -سبحانه وتعالى- من نزل عليه القرآن بأنه عبد، بلفظ العبودية، فدل ذلك على أن أفضل ما يتشرف به العبد هو أن يكون عبدًا لله -تبارك وتعالى- والله -تبارك وتعالى- في مواطن وصف النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بهذه الصفة، وهي في الحقيقة صفة تكريم وتشريف للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يكون عبدًا لربه ومولاه -صلوات الله وسلامه عليه- ففي الإسراء والمعراج حيث أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وبعدها عرج به من الأرض إلى السموات العلى، وفي قضية الإسراء وهي معجزة ربانية للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وتكريم، حينما يتم هذا للنبي -عليه الصلاة والسلام- وهو أمر يعجز البشر على فعله، أو الإتيان بمثله يصف ربنا -سبحانه وتعالى- نبيه عليه الصلاة والسلام بصفة العبودية، فيقول: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١].

ونستفيد نحن بأننا إذا أردنا أن نتكلم عن القرآن الكريم وأن نفهم معناه أن نذكر بعض الأمور التي نستفيد منها في حياتنا العملية اليوم، أن نكون نحن أيضًا من عباد الله -تبارك وتعالى- وإن أردنا الشرف، وإن أردنا المكانة، وإن أردنا الرفعة، وإن أردنا العزة، فعلينا أن نسعى جاهدين في تحقيق عبوديتنا لله -تبارك وتعالى- ومن يكون عبدًا لله، ويذل نفسه لربه ومولاه، يرفعه رب العالمين -سبحانه وتعالى- عنده مقامات ودرجات ودرجات؛ لأنه لما أذل نفسه لله أعزه -سبحانه وتعالى- ربه ومولاه، والله -عز وجل- مع ذكره عن نبيه -صلى الله عليه وسلم- بأنه هنا عبد، ودعوة المؤمنين ودعوة الناس جميعًا أن يكونوا عبادًا له، وأن يدخلوا في طاعته أثبت لهم العزة والكرامة، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين.

فعلينا جميعًا أن نسعى في أن نحقق هذه العبودية لرب العالمين -سبحانه وتعالى- كما اتصف بها أشرف مخلوق على الإطلاق، وهو نبينا -صلوات الله وسلامه عليه-.

نزل القرآن الكريم على النبي الأمين -صلى الله عليه وآله وسلم- لماذا؟ ما الفائدة من نزول القرآن؟ قال رب العالمين: ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾؛ الإنذار: هو الإعلام مع التخويف والتهديد، وإعلام بالشيء مع تخويف وتهديد هذا يسمى إنذار والله -تبارك وتعالى- أخبر هنا أنه أنزل القرآن على النبي -عليه الصلاة والسلام- ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾؛ وهذا يدل على عموم بعثة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فالنبي -عليه الصلاة والسلام- بعثه ربه واختاره واصطفاه؛ ليكون للعالمين نذيرًا.

وكلمة "العالمين" يدخل فيها الإنس والجن، وفي القرآن الكريم مواطن متعددة فيها إشارة إلى عموم بعثة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وذلك كما في قوله -سبحانه-: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]؛ وكقوله جل ذكره: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨].

وكما أنه -عليه الصلاة والسلام- مرسل إلى عموم الإنس هو أيضًا مرسل إلى عموم الجن، يدخل الجن في قوله تعالى: ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾؛ لأن الجن عالم من العوالم، ويختص الجن أيضًا بالذكر في القرآن الكريم كقوله سبحانه: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ [الجن: ١]؛ ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾[الأحقاف: ٢٩].

فدل ذلك أيضًا -بنصوص القرآن الصريحة الصحيحة الواضحة- على أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- مرسل إلى الجن أيضًا عموم بعثة النبي -عليه الصلاة والسلام- من مميزات النبوة والرسالة له -صلى الله عليه وآله وسلم-، وهي من الأمور التي فضل بها على غيره من الأنبياء والمرسلين؛ ولذلك في الصحيحين وغيرهما من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري وما سأسوقه لفظ الإمام مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة من صحيحه أن النبي -عليه الصلاة والسلام- قال: (أعطيت خمسًا لم يعطهن أحدًا من قبل)؛ وذكر منها: (بعثت إلى كل أحمر وأسود)؛ وقال: (وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود) -صلوات الله وسلامه

عليه- ولذلك أيضًا ومن هذا المنطلق، وبهذه المناسبة، ندعو عموم أهل الأرض إلى أن يدخلوا في دين محمد - صلوات الله وسلامه عليه-؛ لأنه مرسل إلى جميع الخلق.

في الحقيقة تقوم شبهات عند بعض أهل الكتاب فمثلًا يقولون: "إن النبي -عليه الصلاة والسلام- أرسل إلى العرب خاصة؛ لأنه يتكلم بلسان العرب فقط"، ونحن نقول لهم: إن صدقتم وآمنتم أن الله -عز وجل- أرسله إلى العرب خاصة، وأنه رسول من قبل رب العالمين فيلزمكم تصديقه في كل ما يقول به -صلى الله عليه وآله وسلم- فإن آمنتم بأنه يوحى إليه، وأنه رسول إلى العرب فيلزم من ذلك أن تقبلوا قوله بأنه رسول من الله - تبارك وتعالى- إلى عموم الثقلين الإنس والجن، وعموم بعثة النبي -عليه الصلاة والسلام- من الميزات والخصائص التي أعطيها نبينا -صلوات الله وسلامه عليه-.

الآية التالية والتي معنا في هذا اللقاء أيضًا فيها تكريمٌ وثناء من الله -تبارك وتعالى- على نفسه، وهي تدخل ضمن العنصر الثاني، وهو ثناء الله على نفسه بشيء من صفات الجلال الكمال، بخلاف ما عبد من دون الله - تبارك وتعالى- فالله -عز وجل- في آيتين الآن بعد الآية الأولى يزكي نفسه ويثنى عليها ويصفها بصفات الجلال والكمال ثم يسلب هذه الصفات من كل ما عبد من دون الله -تبارك وتعالى-.

ثناء الله على نفسه في هذه الآية أولا: ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾؛ هذه الآية اشتملت على خمسة أمور كلها من صفات الجلال والكمال لله - تبارك وتعالى-:

- الصفة الأولى: أن له ملك السموات والأرض.

- الصفة الثانية: أنه لم يتخذ ولداً.

- الصفة الثالثة: أنه ليس شريك.

- الصفة الرابعة: أنه خالق كل شيء.

- الصفة الخامسة: أنه قدر كل شيء تقديرًا.

أول صفة وهي مُلك الله -تبارك وتعالى- للسموات والأرض، هذا أمر واضح ومشاهد للعيان، هل من الممكن أو المعقول أن نستمع لمخلوق ما أن يدعي أن له شيئًا في هذه السموات والأرض؟ أو أنه خلق السموات والأرض؟ أو أنه يملك شيئًا في السموات أو يملك شيئًا في الأرض؟ لا يمكن لعاقل أن يزعم هذا لنفسه، أو أن يدعيه، ولا يدخل علينا هنا من يمكن أن يقوله إنسان متبجحًا أنا عندي من الملك كذا ومن القصور كذا، نقول: هذا مُلك ناقص، هذا ملك ضعيف، هذا ليس ملكًا حقيقيًا وإنما هي عارية من الله -تبارك وتعالى- أعطاك إياها في مدة زمنية محددة،، فما عند الإنسان هو فيه بين حالتين:

- إما أن ينتقل هو عنه بالموت.

- إما أن يزول عنه هذا الملك بجائحة أو أن يتسلط عليه غيره، أو يتملكه إنسان آخر، أو غير ذلك مما يمكن أن يحدث من حوادث نشاهدها على ظهر هذه الأرض.

أما المالك على الحقيقة لكل ما في الكون هو رب العالمين -سبحانه-؛ ولذلك رب العزة والجلال يقول: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[البقرة: ١٠٧]؛ ويختم سورة مثلًا المائدة بقوله: ﴿ للهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ﴾ [المائدة: ١٢٠].

يعني ما في السموات وما في الأرض أيضًا ملك لله -تبارك وتعالى-، وحتى لا يظن ظان أن الله يعجز عن ذلك ختم الآية بقوله ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

ويكفي أن نتأمل والمقام يضيق عن أن أسوق آيات كثيرة تتحدث عن هذه المسألة مثلًا قول الله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

ولذلك صح الخبر عن النبي -عليه الصلاة والسلام- أن أخنع اسم عند الله -تبارك وتعالى- يعني أذل وأخنع وأقل اسم عند رب العالمين: رجل تسمى بملك الأملاك، والذي يطلق عليه شاة شاة؛ لأنه لا ملك إلا من؟ إلا الله -سبحانه وتعالى- وإن سُميَّ بعض الناس في الدنيا بالملك فإنما هو -كما ذكرت- ملك جزئ غير حقيقي، فالإنسان يملك نفسه، ولكنه لا يملكها حقيقيًا فلا يحق له أن يتصرف في نفسه بما يحب هو؛ ولذلك لو أن إنسان قتل نفسه هل يعاقب ويحاسب على ذلك أم لا؟ يعاقب ويحاسب، ولا يقول: أنا قتلت نفسي أو أنا سأعدم نفسي نقول له: أنت وإن كانت نفسك بين جنبيك إلا أنك لا تملك التصرف فيها كما تشاء؛ لأنك بنفسك وجسدك في الحقيقة عبد لله -تبارك وتعالى- لك مالك ألا وهو رب العالمين -سبحانه وتعالى-، فأول صفة أثنى ربنا -سبحانه وتعالى- فيها على نفسه في هذه الآية: أن له ملك السموات والأرض.

الصفة الثانية: من صفات التنزيه لرب العالمين: أنه لم يتخذ ولدًا. وهذا في الحقيقة إن دل على شيء فإنما يدل على العظمة؛ لأن الذي يحتاج إلى الولد ضعيف، الذي يحتاج إلى الولد يتصف بصفات العجز والاحتياج، يحتاج إلى ولد، يحتاج إلى معاون، أما رب العالمين -سبحانه وتعالى- فمن أخص صفات جلاله وكماله -سبحانه- أنه ليست له صاحبة وليس له ولد؛ ولذلك أثنى على نفسه في كتابه في مواطن كثيرة بهذا، فقال مثلًا مما نحفظه جميعًا من قصار السور: ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١: ٤].

ورب العالمين -سبحانه وتعالى- يعجب من قوم يرون هذه العوالم كلها، وأن خالقه الله ثم بعد ذلك يضيفون وينسبون الولد إلى الله يقول سبحانه: ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ﴾!!! [الأنعام: ١٠١].

هذا الذي فطر السموات والأرض، هذا الذي يقول للشيء كن فيكون، هذا المالك، وهنا قال: ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾؛ وبعدها نفى عن نفسه الولد، فكأنه يقول من هو على هذه العظمة والكبرياء والجلال تنسبون إليه صفات العجز والحدوث والاحتياج: ﴿ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدًا ﴾ [الجن: ٣].

ولذلك ربنا -سبحانه وتعالى- رد على من نسب الولد إليه فقال لهم: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٨٩: ٩٣].

وهذا يدل -كما ذكرت- على شيء من صفات الجلال والكمال لرب العالمين -سبحانه وتعالى-.

الصفة الثالثة: التي أضافها رب العالمين إلى نفسه ووصف نفسه بها: أنه ليس له شريك في الملك -سبحانه وتعالى- ليس معه شريك، وليس له معاون، وليس معه وزير -سبحانه- وأثنى ربنا على نفسه بذلك فقال: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ [الإسراء: ١١١].

فنفى -سبحانه وتعالى-عن نفسه أن يكون له شريك في هذا الملك وقال للمشركين: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ [سبأ: ٢٢].

يعني ليست لهذه الآلهة من شركة مع الله -تبارك وتعالى- وربنا -سبحانه وتعالى- لا يحتاج منهم إلى أن يعاونه أحد من هؤلاء؛ لأنه -سبحانه وتعالى- كما أخبر عن نفسه غني عن العالمين: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥].

الصفة الرابعة: التي وصف ربنا -سبحانه وتعالى- بها نفسه في هذه الآية وأثنى بها على نفسه: أنه خلق كل شيء، فما من ذرة في هذا الكون سواء أن كانت في السموات أو في الأرض سواء أن كانت من الأمور التي نشاهدها وتقع عليها أعيننا أو لا نشاهدها وتخفى عنا، ما في شيء في هذا الكون ولا في هذا الملكوت إلا ورب العالمين -سبحانه وتعالى- خالقه: ﴿ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [غافر: ٦٢].

الله رب العالمين -سبحانه- هو خالق الكون بكل ما فيه -سبحانه وتعالى- قال جل وعلا عن نفسه مثنيًا عليها أيضا في مفتتح سورة الأنعام: ﴿ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾[الأنعام: ١].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء: ١]. فإثبات الخلق لله أمر مشاهد معلوم، ويجب على العباد جميعًا أن يثبتوه لرب العالمين -سبحانه-.

وأنا في هذا المقام لا أود أن أتعرض إلى سفاهات عقول بعض الناس ألا وهم الملاحدة أو ما أطلق عليهم القرآن قديمًا بالدهريين الذين يقولون بأنه لا إله، والحياء مادة، أو أن الكون وجد هكذا عن طريق الصدفة، هذا كلام ينزه العاقل نفسه على أن يشتغل بمثله، وهؤلاء -ولله الحمد- وإن كانت لهم دولة ترعاهم إلا أنه قضي عليها، وأصبحوا أفرادًا مشتتين، وهم في الحقيقة أقل -كما ذكرت- من أن يشتغل العاقل بالرد عليهم، فإثبات خلق الله -تبارك وتعالى- لهذه العوالم لا يحتاج إلى دليل من خارج الإنسان، فالإنسان فيه دليل من نفسه على نفسه، الإنسان دليل نفسه على أن الله هو خالقه، وفي هذا إشارة قرآنية كريمة في سورة الذاريات يقول فيها رب العالمين: ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١]؛ شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله وتعالى- يقول بأن هذه الآية فيها دليل واضح على خلق الله لهذه العوالم، وأن القرآن الكريم يجعل من هذا الإنسان المخلوق دليلًا من نفسه على نفسه، يعني يقيم من نفسه على نفسه هو ويقول: بأن الإنسان هو المستدل وهو في الحقيقة هو الدليل والبرهان، أنت يا عبد الله دليل نفسك؛ لتدل نفسك على أن الله -عز وجل- خالق هذا الكون وخالق هذه العوالم ومدبر الملكوت -سبحانه وتعالى- جل في علاه.

الصفة الخامسة والأخيرة: المذكورة لرب العالمين -سبحانه وتعالى- في هذه الآية أنه بعد ما ذكر أنه خلق كل شيء نسب تقدير الأمور إليه فقال "فقدره تقديرًا" -سبحانه وتعالى- ورب العالمين -سبحانه وتعالى- خلق كل شيء بقدر، ما يخرج شيء في ملك الله -تبارك وتعالى- عن خلق الله له، حتى أفعال العباد التي خالفت فيها بعض الفرق التي تقول بهذا كالمعتزلة قالوا بأن العبد يخلق فعل نفسه، قوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾؛ دليل على عموم خلق الله -تبارك وتعالى- لكل شيء بما في ذلك أفعال العباد، وكذلك تقدير الله -تبارك وتعالى- لكل ما يقع في هذا الكون وفي ذلك يقول رب العالمين -سبحانه وتعالى-: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩].

ربنا -سبحانه وتعالى- ما ترك الكون هملًا ولا سدىً ولا عبثًا، وإنما هيأ الكون بما يصلحه وقدره تقديرًا عجيبًا، لا يمكن أن يقوم به إلا رب العالمين -سبحانه وتعالى- وأثبت ذلك لنفسه في آيات كثيرة فقوله: ﴿ الَّذِي

خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ [الأعلى: ٢: ٣]. هذا أيضا يدل على التقدير الواقع على الخلق من رب العالمين -سبحانه وتعالى- ولكن هنا وفي هذه الآية قد يرد سؤالًا -في هذا الجزء الأخير- وهو أن الخلق بمعنى التقدير، وقد ذكر هذا وساقه أرباب اللغة كلمة خلق في اللغة العربية بمعنى التقدير ومنه قول الشاعر:

ولا أنت تثري ما خلق

وبعض القوم يخلق ثم لا يثري

يعني يقدر ثم لا يثري يعني يقدر ثم لا يعزم على ما قدره وأراده؛ فالخلق في اللغة: هو التقدير، وقيل منه قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾[المؤمنون: ١٤].

يعني أحسن المقدرين، وعلى هذا إن كان الخلق بمعنى التقدير فيصبح المعنى وقدر كل شيء فقدره تقديرًا، وهذا في الحقيقة تكرار لا يليق بكلام رب العالمين -تبارك وتعالى- إذا قيل هذا الكلام كيف نجيب عليه؟ وهل يمكن أن يكون في كلام الله -تبارك وتعالى- شيء من التكرار الذي قد يطفي على المعنى معنى غير جميل؟ نقول لا..، حاشا وكلا، طيب ما معنى إذن: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾؛ بناءً على أن الخلق في اللغة العربية هو التقدير، وقد ورد في كلام العرب ومعنى سليم، نقول: إن معنى "وخلق" يعني أنه أحدث خلقه وقدره بتسوية صنعة وأحكام، الله -عز وجل- خلق خلقه بتسوية صنعة وإحكام، وهذا يطلق عليه الخلق هنا، يعني أن الخلق الأول كان محكمًا دقيقًا، والتقدير الذي ورد بعد ذلك يكون معناه: تهيئة هذا الخلق بما خلقه الله -تبارك وتعالى- له، ويصبح المعنى على هذا أنه -سبحانه وتعالى- أحكم صنعته في خلقه، وهذا معناه وخلق كل شيء، يعني خلقه بإحكام، يعني سوى الصنعة بإتقان، طيب ما معنى التقدير الوارد بعد ذلك؟ التقدير الوارد يكون معناه: تهيئة هذا المخلوق لما خلق له، وهذا واضح في جميع العوالم، أنت تجد مثلًا العوالم ربنا هيأها -سبحانه- النملة لها نظام في طعامها وغذائها، أن أنت ترى الأسد تخاف منه ولكنه يتناسل، وتجد ابنه أو المولود الذي يأتي من زوج الأسد يقوم فيشرب لبن أمه وهكذا وهذه تهيئة لهذا الخلق، وشيخ الإسلام ابن القيم -رحمه الله تبارك وتعالى- أشار إشارات دقيقة في كتابه القيم مفتاح دار السعادة حول هذه المعاني.

الآية الثالثة التي وصف الله -تبارك وتعالى- بها من عبد من دونه، وكأنها أتت بعد صفات الجلال والكمال لله -عز وجل- لتلفت نظر المشركين أن إلى أن تركهم عبادة الله وعبادتهم لغيره -سبحانه وتعالى- لا تليق، وما كان ينبغي منهم أن يقعوا في ذلك؛ ولهذا قال سبحانه: (﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُورًا﴾)؛ هذه الآية في الحقيقة لما أتت بعد الآية السابقة كانت مناسبتها في غاية من التناسب والدقة، فربنا -عز وجل- يصف نفسه بصفات الجلال والكمال ثم بعد ذلك يوجه الخطاب للمشركين يا من اتخذتم من دون الله -عز وجل- آلهة هل هذه الآلهة هي على مثل ما عليه ربكم -سبحانه وتعالى- من صفات الجلال والكمال؟ وصف ربنا نفسه بصفات سابقة - خمسة ذكرتها الآن- ووصف الآلة التي عبدت من دونه بصفات النقص والعجز والحدوث والاحتياج وهي ست صفات.

الصفة الأولى: أنها لا تخلق شيئًا قال: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئًا ﴾ هذا الأول منها.

الصفة الثانية: أنها لا تخلق شيئًا إلى جانب أنها مخلوقة.

الصفة الثالثة: أنها لا تملك لنفسها ضرًا ولا نفعًا.

الصفة الرابعة والخامسة والسادسة: هو ما عبر عنه القرآن بقوله: ﴿ وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُورًا ﴾)؛ وكأن هذه الصفات أتت بعد صفات الجلال والكمال لتلفت نظر المشركين إلى أن آلهتهم التي اتخذوها من

دون الله -تبارك وتعالى- لا تستحق أن تعبد؛ لأنها بهذه المثابة من الصفات الضعيفة الضئيلة الحقيرة إذا كانت هذا الأصنام لا تخلق شيئًا فكيف يتوجه العبد إليها من دون الله -تبارك وتعالى-؟ والله -تبارك وتعالى- بصفة الخلق يستدل على نفسه ويشير إلى جلاله وعظمة سلطانه تأملوا مثلًا قوله -سبحانه- للمشركين وللمخاطبين مما ينكرون ذلك:﴿ هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ [لقمان: ١١].

يعني يستدل ربنا -سبحانه وتعالى- بالخلق على أنه إله، وهنا الآية نفت عن هذه الآلهة أنها تخلق شيئًا، ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾[الأحقاف: ٤].

إذن الأمر الأول: هذه الآلهة التي لا تخلق لا تستحق أن تعبد.

الأمر الثاني: أن هذه الآلهة مخلوقة وطالما أنها مخلوقة فهي ضعيفة، ورب العالمين يقول لهؤلاء: ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل: ٢٠].

هؤلاء الذين تدعونهم من دون الله لا يخلقون شيئًا وهم في الحقيقة مخلوقون مربوبون لله رب العالمين، فكل ما عبد من دون الله مخلوق؛ لأن الكون ما فيه إلا خالق ومخلوق، الخالق تنزه عن صفات الجلال والكمال، والمخلوق خلق ضعيف عبد لهذا الخالق شاء أو أبى، فالناس جميعًا عبيد لله -عز وجل- عبيد مُلك أو عبادة كونية، هكذا خلقهم رب العالمين وهي ما يطلق عليه العبادة الكونية في قوله: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾[مريم: ٩٣].

"على" باعتبار أنهم عبيده وأنه سيدهم ومالكهم رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

الصفة الثالثة: وهي صفة ذم وإهانة لهذه الآلهة التي عبدها هؤلاء المشركين من دون الله -تبارك وتعالى- أنها لا تملك لنفسها ضرًا ولا نفعًا، إذا كانت هذه الآلهة لا تملك لنفسها ضرًا ولا نفعًا فكيف تملك لغيرها؟ وكيف يطلب منها العبد إذن جلب نفع أو دفع ضر؟ والإنسان يتطلع في دنياه وحياته إلى الاستزادة من الخيرات، وإلى أن تدفع عنه الشروط والمكروهات، وإن كان الآلهة لا تملك ذلك لنفسها فكيف يمكن لإنسان أن يلجأ إليها تاركًا من بيده النفع والضر، وهو رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

رب العالمين يقول للمشركين عمومًا ولمن يدعو غير الله -تبارك وتعالى-: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾[الأعراف: ١٩٤]. ادعوهم وجربوا اسألوهم إن كنتم صادقين ثم يقول: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٩٥].

هل لهم ذلك؟ هل لهم قلوب يعقلون بها؟ كل هذا وهذه موجهة بصيغة أسئلة لتثير استفهام، يثير في النفس أن يقف ويتأمل؛ لكي يجب على هذه الأسئلة إن كان محقًا، وإلا وقع عليه التوبيخ، ووقع عليه الإنكار، فهذه الآلهة حقًا لا تملك شيئًا.

أما الأمر الرابع والخامس والسادس: ليبين عجز هذه الآلهة وهي ما جاءت في قول الله تبارك تعالى: ﴿ وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُورًا ﴾؛ هذه الأصنام وهذه الآلهة ما خَلقت ولا تملك أن تميت الإنسان، ولا تملك أن تعيد الإنسان مرة أخرى، فالذي يفعل ذلك هو من؟ هو رب العالمين -سبحانه وتعالى- ولذلك قال جل ذكره: ﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾[الروم: ٤٠]، الله نسب ذلك -سبحانه وتعالى- إلى نفسه هو، ثم قال بعد ذلك: ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ ﴾؛ هل ممن اتخذ مع الله -تبارك وتعالى- شريكًا يمكن أن يفعل ذلك مع الله -تبارك وتعالى- حاشا وكلا، وبذلك سقطت

جميع هذه الآلهة التي توجه إليها هؤلاء الناس من دون رب العالمين -سبحانه وتعالى- وبين القرآن الكريم إذن سفاهة عبادة هذه الأصنام أو التوجه إليها دون الله -تبارك وتعالى-.

ثم تنتقل الآيات بعد ذلك لتناقش المشركين في افتراءاتهم على النبي الأمين -صلى الله عليه وآله وسلم- وهذا ما يتعلق بالعنصر الثالث الذي معنا وفي هذا يقول رب العالمين سبحانه: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـذَا إِلاَّ إِفْـكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ في هذه الآيات يذكر رب العالمين -سبحانه وتعالى- موقف الكافرين المشركين المكذبين بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من كتاب الله الذي نزل على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال المشركون: ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ ﴾؛ والإفك هو أسوأ الكذب نسبوا هذا إلى النبي الأمين -صلى الله عليه وآله وسلم- والقرآن الكريم في مواطن ينعي عليهم هذا التصور، وهذا الفكر، وهذا الأسلوب، ويقول: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ١٠١].

هؤلاء كذبوا على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ولذلك هؤلاء المشركين نسبوا القرآن الذي نزل على النبي -عليه الصلاة والسلام- إلى أنه أتى به من قوم آخرين، قالوا: أتى به من اليهود، أو قيل: أتى به من أهل الكتاب، إلى أقوال كثيرة ذكروها في هذا المعنى، وما ذكروه باطل فكلام الله حق نزل بصدق على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ورب العالمين -سبحانه وتعالى- يبين للنبي -عليه الصلاة والسلام- ويطيب خاطره، ويبرهن أن افترائهم عليه الكذب كان واضحًا لا يلتفت إليه، أي لا يلتفت النبي -صلى الله عليه وسلم- ولا يشتغل به؛ لأنه باطل باطل تأملوا قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ [النحل: ١٠٣]. أين الاستهزاء به هنا؟ ﴿ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

أنتم تقولون أخذه من الأعاجم، وهو جاء بلسان عربي مبين وهو جاء بلسان عربي مبين فكيف الأعجمي يأتي بهذا الكلام البليغ الفصيح المبين؟ لا يمكن، وهذا في الحقيقة فيه تسرية للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وتثبيت لفؤاده -عليه الصلاة والسلام- ولذلك رد الله -عز وجل- على من قال بأن القرآن الكريم كلام البشر رد الله عليه متوعدًا إياه بسقر فقال: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لا تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر: ٢٦: ٣٠]؛ ولذلك من معتقد أهل السنة والجماعة -وهذه نقطة مهمة ونحن نتحدث عن كتاب الله- أن القرآن الكريم كتاب الله -سبحانه وتعالى- غير مخلوق، ليس كما زعمت الجهمية والمعتزلة أنه مخلوق، ولا ما ذهبت إليه الأشاعرة والكلابية أنه كلام نفسي، وإنما تكلم الله -تبارك وتعالى- به بحرف وصوت، فهو كلامه وسمع منه -سبحانه وتعالى-.

بعدها قال رب العالمين: ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، هذه الآية يذكر فيها رب العالمين -سبحانه وتعالى- قولًا آخر للمشركين في القرآن الكريم قالوا: بأن القرآن الكريم هي كلمات سطرها النبي -عليه الصلاة والسلام- عن السابقين جمعها منهم وكتبها والله -عز وجل- قال عنهم: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾[الأنفال: ٣١]. وهذا في الحقيقة أيضًا من سفاهات عقول المشركين، حينما ذكروا ذلك عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كيف يكون هذا أساطير الأولين وهو بلسان عربي مبين؟ ويقولون بأنه جمعه وكتبه وهم يعلمون أنه نبي أمين صادق فيما يبلغ عن الله؟ وهو لا يقرأ ولا يكتب -صلوات الله وسلامه عليه- وربنا وصف النبي -عليه الصلاة والسلام- في كتابه أنه أمي: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]؛ فوصفه -صلى الله عليه وآله وسلم- بذلك وهم يعلمون مخرج النبي -عليه الصلاة والسلام- ومدخله، ولد بينهم ولم يسجد إلى أحد ولم يتعلم عند أحد وأمي لا يقرأ ولا يكتب، ثم بعد ذلك يقولون: إنه جمعه من أساطير الأولين؛ ولذلك هم قالوا اكتتبها ومعنى اكتتبها يعني طلب من يكتبها له؛ لأنهم يعلمون أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب -صلوات الله وسلامه عليه- والله -تبارك وتعالى- تولى الدفاع عن القرآن الكريم والدفاع عن نبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- فقال: (﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي

يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾). يعني والله ليس القرآن الكريم إفك افتراه النبي الأمين -صلى الله عليه وآله وسلم- ولم يأتي به من أساطير الأولين وليست خرافات وأوهام أناس قالها النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- جمعها من عند هؤلاء وهؤلاء، وإنما هو كلام حق نزل من عند رب العالمين -سبحانه- والله -عز وجل- أثبت ذلك مرارًا في كتابه: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٣: ١٩٥].

والله -عز وجل- وصف نفسه هنا بصفة لما ذكر أنه أنزله صفة فيها جلال وكمال هي أنه يعمل السر وأخفي: (﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾) ولذلك نحن نؤكد ونقول: بأن علم الغيب لله -تعالى- وحده فلا يعلم الله أحد الغيب من المخلوقات بحال من الأحوال، قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله - والمقام يضيق عن أن أستأصل في مثل ذلك- ولكني أحذر فقط من أن يزعم إنسان أنه يعلم الغيب، أو أن يأتي أناس فيذهبون إلى العرافين والكهنة زاعمين مصدقين أنهم يعلمون شيئًا من الغيب، والغيب صفة لله -تبارك وتعالى- ومسك ختام هذه الآيات مغفرة من الله ورحمة ولذلك قال: ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ وفي قوله سبحانه: إنه كان غفورًا رحيمًا دعوة لهم إلى التوبة والرجوع إلى الله -تبارك وتعالى- فمن تاب إلى الله تاب الله -تبارك وتعالى- عليه لأن هؤلاء كذبوا وافتروا وصفوا النبي -عليه الصلاة والسلام- بما لا يليق به، وكذبوا عليه -صلى الله عليه وآله وسلم- ومع ذلك دعاهم ربهم إلى المغفرة والرحمة، كما دعا غيرهم ممن نسبوا الولد إلى الله وممن أهلكوا أوليائه الصالحين في كثير من آيات القرآن الكريم لكن كما أشرت يضيق المقام عن الاسترسال في مثل ذلك.

ونكتفي بهذا وصلي اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أحسن الله إليكم وبارك الله فيكم

نفسح المجال للإخوة الذي عنده سؤال.

يقول: ذكرتم أن القرآن نزل بلسان عربي على النبي -صلى الله عليه وسلم- العربي فنزل بلغة العربية فما الفائدة أو العبرة من ذكر الأعجميات كإبراهيم وإسماعيل وثمود أو هذه الكلمات في القرآن.

نعم

الحقيقة يعني قد يرد السؤال بألوان أخر، ولكن ذكر هذه في القرآن بلسان العرب لاشيء فيها بحال من الأحوال، فهذه الكلمات كلمات أعجمية ولكنها ذكرت باللسان العربي في كتاب الله -تبارك وتعالى- وجاء ذكرها في القرآن على سبيل الحكاية لما كان قبل النبي الأمين -صلى الله عليه وآله وسلم-، ولكن من باب الفائدة كنت أود أن يكون السؤال بلون آخر: وهو القرآن الكريم بلسان عربي مبين فكيف أقام الله به الحجة على العالمين؟! ونحن قلنا: إن النبي -عليه الصلاة والسلام- أرسل للعالمين والقرآن بلسان مبين والله تعالى في كتابه يقول:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾[الرعد: ٤]. فنقول: بأن الله -تبارك وتعالى- من فضله وتكرمه على نبيه -صلى الله عليه وسلم- أن قيض له من يحمل هذا القرآن بألسنة مختلفة وبلغات متعددة؛ ليبلغ به العالمين؛ ولذلك في سورة الأنعام: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩].

فمن بلغه القرآن من أي طريق إذن سواء أن كان من بلاغ النبي -عليه الصلاة والسلام- أو من بلاغ عن طريق النبي -صلى الله عليه وسلم- باللغة التي يتكلم بها فقد أقيمت عليه الحجة بذلك.

يقول: نفى الله -سبحانه وتعالى- اتخاذ الولد والصاحبة ونحن كمسلمين نؤمن بذلك ونعتقده ونتعبد لله به؛ ولكن النصارى يدعون أن لله ولدًا وصاحبة ولا يقبلون القرآن دليلًا فكيف نرد عليهم ندحض حدتهم هذه؟.

في الحقيقة كلام هؤلاء القوم الذين أشركوا بالله -سبحانه وتعالى- واتخذوا لله الولد -كما أشرت في حديثي- من أسفه السفه على الله -تبارك وتعالى- وما زعموا وافتروا به على الله من أكذب الكذب على رب العالمين، ولو رجعوا هم وتحاكموا حتى إلى ما بين أيديهم من كتب محرفة، لوجدوا فيها الدليل على أن عيسى بن مريم أو أن عزيرًا لا ينتسبون إلى -تبارك وتعالى- بنسب، وإنما منصوص حتى في كتبهم أنهم عباد لله -تبارك وتعالى- ونقول لهم بالعقل: إن لم يصدقوا بالقرآن وأهملوا ما عندهم من كلمات: أيليق بصاحب الجلال والعظمة أن يشترك مع مخلوقاته في الصفات التي هم عليها؟ فالمخلوقات تتصف بصفات هي عليها هذه الصفات نحن نعتقد أن فيها من العجز والنقص والضعف ما فيها، رب العالمين -سبحانه وتعالى- المنزه عن صفات المخلوقات هل يليق أن نجعله هو المخلوقات التي خلقها وذرأها في درجة واحدة، وإلا هو -سبحانه وتعالى- عال عليهم، منزه عن صفاتهم -سبحانه وتعالى- فنسبة الولد إلى الله -تبارك وتعالى- فيها من الكفر الشديد والظلم لرب العالمين -سبحانه وتعالى- ونسبة الضعف والعجز والقصور إليه ما يتنزه ربنا -سبحانه وتعالى-عنه، وما يليق بمخلوقات ضعيفة خلقها رب العالمين أن ينسبوا ذلك إلى -عز وجل- في كتبهم -بارك الله فيك- ما يقيم الدليل عليهم وإن لم يقبلوا ذلك نقول لهم هل تجعلون الخالق كالمخلوق هل الخالق يتنزل عما هو عليه -سبحانه وتعالى- إلى أن تكون له صاحبة وأن يكون له ولد يتصف بعد ذلك بصفات المخلوقات وبصفات الحاجة الاحتياج؛ لأن الذي يحتاج إلى ولد ضعيف يعينه إذا كبر يجري عليه بعد ذلك إذا ضعف، ورب العالمين المنزه من صفات الجلال والكمال لا يليق بحال أن ننسب له ذلك.

حفظك الله ورعاك في قوله تعالى: ﴿ وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُورًا﴾ فهل إلحاق الضرر بالإنسان لمنفعة الإنسان؟.

لا... هو الحقيقة أنا أشرت إشارة قلت: لا يملكون جلب نفع أو دفع ضر، فدفع الضر عن الإنسان فيه منفعة للإنسان فالقرآن الكريم نفى عن هذه الآلهة هذين الأمرين هي لا تجلب نفعًا؛ لأن النفع يأتي إليك من طريق قد لا تتمكن أن تأتي بالنفع إلى نفسك ومن يلجأ إلى هذه الآلهة يطلب منها النفع يطلب منها جلب نفع كما أنه تريد أن تدفع عنه الشر أو تدفع عنه الضر. فالمراد بجلب نفع أو أن تدفع ضر.

يقول: بارك الله فيك وجزاك الله عنا خيرًا أضاف الله -سبحانه وتعالى- إلى نفسه بعض الأمور منها ما هي عينية ومنها ما هي محسوسات، وأضاف الله -سبحانه وتعالى- إلى نفسه فقال رحمة الله وأضاف ربنا -سبحانه وتعالى- إلى نفسه صفة ذات مثل صفة يد الله، وأضاف أيضا إلى نفسه بعضًا الآيات الأخرى ناقة الله أو كتاب الله أو عبد الله، شيخنا نود التفصيل في هذه المسائل بارك الله فيك؟

الحقيقة هذا سؤال مهم وينبئ عن أننا في مجلس علم، وبين طلبة علم، حقيقة زميلكم يريد أن يقول بأن ما يضاف إلى رب العالمين نوعان: معانٍ وأعيان، ما يضاف إلى الله معانٍ وأعيان، المعاني هي الصفات أو الأشياء التي تقوم بغيرها، إنما الأعيان هي الأشياء المنفصلة، ورب العالمين -سبحانه وتعالى- أضاف إلى نفسه معانٍ وأضاف إلى نفسه أعيان، فمن المعاني التي أضافها رب العالمين إلى نفسه صفة الرحمة أو الغضب أو غير ذلك من صفات الجلال والكمال التي هو عليها -سبحانه وتعالى- أو مثلًا إضافة القرآن إليه وطبعا أنا كنت أريد أن أتوسع وأذكر في قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ ﴾؛ يفيد على أن الله في أعلى عليين؛ لأن النزول لا يكون إلا من علو الإله أسفل، وأنه تكلم ربنا -سبحانه وتعالى- به؛ لأنه أضاف إلى نفسه فإضافة هذا المعنى من

باب إضافة الصفة إلى الموصوف يعني إضافة صفة إلى موصوف وهو رب العالمين إنما إضافة الأعيان هـي الأشياء القائمة بنفسها فهذه يضاف إلى الله من باب التكريم والتشريف، كما أضاف ربنا البيوت إلى نفسه، قـال: كعبة الله -تبارك وتعالى- أو بيت الله وسقياها وغير ذك مما ورد من مثل ذلك والله -تبارك وتعـالى- أعلـى وأعلم.

فضيلة الشيخ هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه المحاضرة مشكوراً.

السؤال الأول: استدل من السنة النبوية على عموم بعثة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم.

السؤال الثاني: في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ برهـان قـاطع علـى بطلان ما عبد من دون الله وضح ذلك بالتفصيل.

الدرس الثاني

تفسير بعض آيات سورة الفرقان

أهلًا بكم ومرحبًا، أرحب بالمشاهدين والحاضرين وإن شاء الله -تبارك وتعالى- أتناول في هذا اللقاء بعضًا من آيات سورة الفرقان وسيدور حديثي حولها إن شاء الله -تبارك وتعالى- حول محورين:

المحور الأول: تعنت المشركين مع النبي الأمين -صلى الله عليه وآله وسلم-.

المحور الثاني: سبب تكذيب المشركين وجزاؤهم في يوم الدين.

ونستمع الآن إلى آيات هذا اللقاء مع الأستاذ عبد الرحمن فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لاَ تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولاً ﴾ [الفرقان: ٧: ١٦].

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه، ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين وبعد.

في اللقاء الماضي ذكرت ما قال أهل الشرك والضلال عن كتاب الله الكريم، وأنهم نسب إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في ذلك افتراءات متعددة منها: أنه أتى به من عند نفسه، وأنه أساطير الأولين، وغير ذلك مما سبق أن أشرت إليه، وفي مطلع هذا اللقاء وحول الآيات التي استمعنا إليها الآن، والحديث حول المحور الأول: من تعنت المشركين مع النبي الأمين -صلى الله عليه وآله وسلم- يذكر القرآن الكريم أنهم ذكروا خمس صفات من باب التعنت والتضييق على أنفسهم هم، وطلبوا على أن يكون عليها النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، خمس صفات من باب المكابرة والتعنت، وإلا فسيظهر لنا الآن إن شاء الله -تبارك وتعالى- أنها لا مكان لها.

قالوا كما قال رب العالمين -سبحانه وتعالى-: ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ﴾؛ هاتان هما الصفتان اللتان ابتدأ رب العالمين بهما وقد ذكرهما المشركين وطلبوا أن يكون النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- عليهما، أول صفة أنه يأكل الطعام، يريدون أن يقولوا أنه كسائر البشر، يأكل كما نأكل، ويحتاج إلى ما نحتاج إليه، وإلى جانب ذلك فهو يمشي في الأسواق؛ لطلب المعاش، فهو يبيع ويشتري، وتعللوا بذكر هذه الصفات تكذيبًا للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وفي الحقيقة كون النبي -عليه الصلاة والسلام- يأكل ويشرب كغيره من البشر ويمشي في الأسواق؛ لاحتياجه إلى ما يحتاج إليه البشر أمر لا يتعلق بصلب النبوة والرسالة، وإنما هم أرادوا من وراء ذلك أن يشوشوا على عامتهم، وأن يصدوا الناس عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وإلا فبشرية الأنبياء والمرسلين معلومة حتى عند الأمم السابقة؛ ولذلك نفس منطق المشركين الذي كان مع النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- هو الذي كان عليه أيضًا أصحاب الجاهلية السابقة، فقوم نوح -عليه السلام- قالوا له هذا القول:

﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣].

ولم تكن بشرية النبي أو الرسول يومًا ما دافعة إلى تكذيبه أو صد الناس عنه، بل إن القرآن الكريم يقرر أن النبي أو الرسول يجب أن يكون بشر؛ لأن المرسل يجب أن يكون من جنس المرسل إليهم، ولو حدث خلاف ذلك لكان من التباين والنفرة ما يمكن أن ندركه أو أن نعلمه؛ ولذلك رب العالمين -سبحانه وتعالى- أخبر في كتابه أنه لو أرسل ملكًا لجعله أيضًا رجلًا: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٩].

ويقرر بشرية النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في كثير من المواطن، شأنه شأن غيره من الأنبياء والمرسلين فيقول له رب العالمين سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ [الكهف: ١١٠].

فهو -صلى الله عليه وآله وسلم- بشر كسائر البشر، ويعتريه ما يعتريه البشر، ويحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر، إلا أنه فضل على سائر البشر بالنبوة والرسالة -صلوات الله وسلامه عليه- وكونه بشرًا رسولًا يفيد: أنه عبد لله -عز وجل- فلا يعبد وكونه رسوله -صلى الله عليه وآله وسلم- من قبل ربه يفيد: أنه يجب علينا اتباعه وطاعته والدخول تحت ما أمر به -صلوات الله وسلامه عليه- ورب العالمين -سبحانه وتعالى- قد ذكر هذه البشرية إلى جميع الأنبياء والمرسلين، وبين أن النبي -عليه الصلاة والسلام- أسوة له في ذلك: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

فكون النبي والرسول له زوجة يحتاج إلى معاش، وله زوجة فعنده أولاد، وغير ذلك مما يسري على سائر البشر، لسائر الأنبياء والمرسلين، ولكني أؤكد على أنهم جميعًا فضلوا على بقية البشر بالاصطفاء والاجتباء والتوفيق إلى النبوة والرسالة التي أنزلها عليهم رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

الصفة الثالثة والرابعة والخامسة من الصفات: التي طلبها أيضا المشركون تعنتًا ومن باب التكذيب بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أنهم قالوا: ﴿ لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَ﴾.

بعض المفسرين يذكر أنهم تدرجوا في الطلب فهم في البداية طلبوا أن يكون ملكًا؛ لأنهم لما طلبوا منهم ألا يأكل وألا يمشي في الأسواق فمعنى ذلك: أنه يرتفع عن مرتبة البشرية، ثم تنزلوا في الطلب فذكروا: ﴿ لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ ﴾؛ يعني هلا كان معه ملك، و"لولا": هنا للحث عن الشيء والتقدير عليه؛ ﴿ لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ فيسدده ويؤيده فيما يقول، ثم انتقلوا بعد ذلك ﴿ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ ﴾ يعني ينزل عليه ملك من السماء أو يجهز له تجهيزًا على هذه الأرض كيفما يريد رب العالمين -سبحانه وتعالى- فيستغني بذلك عن الذهاب إلى الأسواق والسير كما يسير بقية العباد، ثم جاءت المسألة الخامسة أو الطلب الخامس: ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾.

والجنة ذهب كثير من المفسرين أن المراد بها البستان يعني يكون له بستان كبير كغيره من الملوك والزعماء كما يذهب إليه فكر هؤلاء المكذبين، وما كان الأنبياء والمرسلين يومًا ما طلاب دنيا أو سالكين مسالك أهل الغواية والضلالة وهؤلاء الذين كفروا وأشركوا طلبوا كثيرًا من الطلبات من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وكانت طلباتهم في غاية التعنت والتكذيب للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ولعله من المفيد أن أذكر: أن رحمة النبي -عليه الصلاة والسلام- والشفقة التي امتلأ قلبه عليها كان مع تكذيبهم له -صلوات الله وسلامه عليه- مشفقًا عليهم راغبًا في أن يدخلوا في الإيمان ليعيشوا في أمن وسلام، ويدخلوا جنة الرحمن، والله -عز وجل- يصور ذلك عن نبيه -صلى الله عليه وآله وسلم-: فيقول: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ [هود: ١٢].

والله -عز وجل- يبين مهمة النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذه الآية فيقول: إنما أنت نذير، فهو مبلغ ومنذر، جاءت من قبل رب العالمين -سبحانه وتعالى- وقد طلبوا طلبات كثيرة، ولعل ما جاء في نهاية سورة الإسراء ما يشير إلى ذلك:

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٠: ٩١].

إلى غير ذلك مما طلبوه، والله -عز وجل- قد رد عليهم هذا التعنت وأمر نبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يخبرهم أنه بشرًا رسولًا، وأنه لا يملك من الآيات التي طلبوها شيئًا؛ لأن صاحب الأمر هو رب العالمين -سبحانه وتعالى- وحده دون سواه؛ ولذلك لما ألحوا وطلبوا وأكثروا الطلب قال الله لنبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- وأمره أن يقول: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ [الإسراء: ٩٣].

وإن كنا نعجب من أمر، فلنعجب من أمر هؤلاء المشركين وقد ذكرت أن ما طلبوه إنما هو من باب التعنت والتكذيب، وليس أبدًا طريقًا أن يعرفوا الحق والصواب، وأن يدخلوا فيه، بدليل أن الله -تبارك وتعالى- أخبر عنه أنه لو أجابهم لكل ما طلبوه أيضًا ما آمنوا.

أي أنه لو أنزل عليهم الطلبات التي طلبوها وأجابهم فيما أرادوا من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يكون عليه أيضا ما استجابوا للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وما دخلوا في دين الله -تبارك وتعالى- وتأملوا قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[الأنعام: ٧].

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر: ١٤: ١٥].

وأوضح من هذا أيضًا قول رب العالمين سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ ﴾ [الأنعام: ١١١].

ولذلك مرد الأمر إلى رب العالمين -سبحانه وتعالى- فمن أراد الاهتداء هدي بفضل الله -عز وجل- ومن أضله رب العالمين -سبحانه- فمن أين تكون له الهداية؟!

ثم قال رب العالمين ما ذكره المشركون عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وما ذكروه لأتباع هذا النبي -عليه الصلاة والسلام- وقال الظالمون: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا﴾؛ هنا يذكر رب العالمين -سبحانه وتعالى- أن المشركين -أن الظالمين- وإطلاق الظلم وقد عرفنا هذا كثيرًا إطلاق الظلم في القرآن الكريم ينصرف إلى أي شيء؟ ينصرف إلى الشرك، فقوله تعالى: "وقال الظالمون" يعني: قال المشركون، ماذا قالوا؟ قالوا لأتباع النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أنتم تتبعون رجلًا مسحورًا، يعني: أصيب بالسحر فتغير عقله، واختلط عليه أمره، وقيل مسحورًا يعني مخدوعًا، وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾[المؤمنون: ٨٩]. يعني من أين تخدعون؟ وقيل: "إن تتبعون إلا رجلًا مسحورًا" من السحر وهي الرئة يعني أنه بشر كسائر البشر -صلوات الله وسلامه عليه-.

رب العالمين -سبحانه وتعالى- رد عليهم جميع هذه الشبه، بكلمات يسيرة معدودة، مبينًا بطلان ما ذهبوا إليه، وأنه -سبحانه وتعالى- ما أراد بهم خيرًا، يصلونا إليه -سبحانه وتعالى- فقال: في مقام الرد عليهم: ﴿ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ يعني أن ما ذكروه من هذه الشبه من أنه تارة ساحر أو

كاهن أو كذاب أو شاعر أو غير ذلك مما ذكروه، هو في الحقيقة كلام نقص فيهم هم، وليس نقصًا في النبـي –صلى الله عليه وآله وسلم–، لماذا؟ لأنهم لم يستطيعوا أن يتعرضوا للمعجزات التي أتى بها النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–، ولكن الشبه التي ذكروها ليست بشبه، وإنما هي أمور كان عليها جميع الأنبياء والمرسلين قبل النبي الأمين –صلى الله عليه وآله وسلم–؛ ولذلك أخبر ربنا –سبحانه وتعالى– أنهم ضلوا عن طريق الحق، والراجح في قوله: ﴿ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ ﴾؛ يعني في قولهم عنه –صلى الله عليه وآله وسلم– أنه ساحر أو كاذب أو شاعر أو مجنون أو غير ذلك من افتراءات المشركين على النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– وما زلنا إلى يومنا هذا – ولابد أن نربط حاضرنا بماضينا– نسمع بين الحين والآخر كلمات من أهل الشرك والانحراف والضلال يسيئون بها إلى النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– ومنطق الكفر والشرك منطق واحد؛ لأن رب العالمين –سبحانه وتعالى– قال عن قوم فرعون أنهم قالوا لنبي الله موسى –عليه السلام–: ﴿ فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٣].

فمنطق فرعون ومن كان معه هو أيضا نفس منطق المشركين الذين أتوا بعد فرعون، وهو أيضًا نفس منطق المشركين اليوم الذين كذبوا، وردوا ولم يدخلوا في دعوة النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– والله –تبارك وتعالى– يخبر أنهم ضلوا عن طريق الحق والصواب وذكر ذلك في آيات أخر: ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾[الكهف: ١٠٠: ١٠١].

وهنا يقول رب العالمين –سبحانه وتعالى–: ﴿ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾[الإسراء: ٤٨]؛ يعني لن يصلوا إلى الحق ولن يستطيعوا أن يصلوا إليه؛ لأن رب العالمين –سبحانه وتعالى– ما أراد بهم هداية.

ثم قال رب العالمين سبحانه أيضًا وكلام رب العالمين سبحانه فيه رفعة للنبي –صلى الله عليه وآله وسلم– وإعلاء لشأنه ومكانته عليه الصلاة والسلام وفي نفس الوقت يبين أن ما طلبوه من النبي –عليه الصلاة والسلام– لا دخل له به، فإنما هي آيات ينزلها رب العالمين –سبحانه وتعالى– عليه، ويؤيده بها، سواء كان من القرآن الكريم أو من سائر المعجزات الحسية، التي كان يؤيد بها رب العالمين نبيه وحبيبه ومصطفاه – صلوات الله وسلامه عليه–، يدافع ربنا عن نبيه في هذه الآيات ويتولى الرد على شبه المشركين فيقول: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴾ [الفرقان: ١٠] –صلوات الله وسلامه عليه– عرفنا معنى كلمة تبارك: وهي بمعنى تعاظم وتقدس رب العالمين –سبحانه وتعالى– وهي ثناء على الله–عز وجل– وهنا رب العالمين –سبحانه– يثبت أيضًا في مطلع هذه الآية المشيئة لنفسه، مما يشير ويدل على عظمته –سبحانه– وأنه من أراد هدايته فهو المهتد، ومن أراد ضلاله فلن يجد الحق سبيلًا إلى قلبه؛ ولذلك قال ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ ﴾ فالأمر متعلق بمشيئة الله –تبارك وتعالى– لا بمشيئة النبي –صلوات الله وسلامه عليه– حيث طلبوا منه ولكنه لم يجبهم إلى ما طلبوا؛ لأن الأمر كله بيد رب العالمين –سبحانه وتعالى– ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ ﴾ ماذا قال؟ ﴿ خيرًا من ذلك ﴾ الصواب في قوله خيرًا من ذلك يعني خيرًا مما طلبوه من المشي في الأسواق والبساتين والجنان التي طلبوا أن تكون عند النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– وانظر لمعنى الآية ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ ﴾ لفعل لك ذلك، ولجعلك على ما طلبوا ولحقق هذا الأمر؛ لأن رب العالمين –سبحانه وتعالى– يقول للشيء كن فيكون، ثم فسر رب العالمين –سبحانه– المراد بالخير المذكور في هذه الآية وهي الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، كما أنه لو أراد أن يكون للنبي –صلى الله عليه وآله وسلم– قصورًا لفعل، وكل ذلك –لاشك– كما ذكر الإمام الحافظ ابن كثير –رحمه الله تبارك تعالى– عن الإمام مجاهد أن ذلك يكون في الدنيا، يعني هذه الجنات وذلكم القصور تكون في الدنيا، والقصور جمع قصر، والقصر هو المسكن العالي الرفيع المتميز، والعرب كانوا يطلقون على كل بيت من حجارة قصرًا سواء كان كبيرًا أو كان صغيرًا فهنا رب العالمين –سبحانه وتعالى– كأنه يهدئ من روع النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– ويتلطف معه في الخطاب، ويبين أن هؤلاء طلبوا منه أمورًا يعني من خلالها يودون أن يعجزوا النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–

وربه -سبحانه وتعالى- هو الذي يتولى أمره، ويبين له، أن الأمر كله بيديه، ولو شاء لكان للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ما طلب.

وهنا فائدة يجب أن نعلمها: النبي -عليه الصلاة والسلام- لو أراد الدنيا لكانت بين يديه، وقد عرضت عليه لكنه رفضها -صلوات الله وسلامه عليه- ولقد جاءت في ذلك أحاديث متعددة عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- منها ما جاء في الصحيحين وغيرهم عن أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- جلس ذات يوم على المنبر ثم قال: (عبد خيره الله -عز وجل- بين زهرة الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله -تبارك وتعالى-)؛ هذا الحديث يرويه أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- ويذكر أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال ذلك أن عبدًا خيره الله -تبارك وتعالى- بين زهرة الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله -تبارك وتعالى-. والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- هو الذي كان المخير هو العبد الذي خير -صلى الله عليه وسلم- أن يعطى من زهرة الدنيا ما يشاء أو أن يؤخر له ذلك نعيمًا عاليًا مرتفعًا لا يصل إليه أحد من البشر، فاختار ما عند الله -تبارك وتعالى- وفي الحديث أن أبا بكر -رضي الله عنه- فهم ذلك وبكى وتعجب الصحابة من بكاء الصديق -رضي الله عنه- وذكروا لماذا يبكي هذا الرجل؟ النبي -عليه الصلاة والسلام- يذكر أن عبدًا خيره الله بين زهرة الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده، فلماذا يبكي؟ يقول أبو سعيد الخدري -رضي الله تعالى عنه- فكان رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا به، وهذه فضيلة للصديق -رضي الله تعالى عنه- وبالمناسبة هذه ندفع بها في وجود الروافض الذين يبغضون الصديق وعمر وعثمان وكثيرًا من صحابة النبي الكريم -صلوات الله وسلامه عليه- وهم بهذه المنزلة عند ربهم وعند النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-.

وتستمر الآيات ويدخل في المحور الثاني الذي يبين سبب تكذيب المشركين لماذا كذبوا بالقرآن سابقًا؟ ولماذا لم يدخلوا ويتابعوا النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-؟ وما هو الجزاء الذي أعده رب العالمين -سبحانه وتعالى- لهم جزاءً وفاقًا لتكذيبهم بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-؟

ذكر ربنا ذلك فقال: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾؛ بل هنا للإضراب الانتقالي، ينتقل رب العالمين -سبحانه وتعالى- بنا؛ ليبين لنا العلة والدافع والسبب في تكذيب هؤلاء للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وحقيقة الأمر أنهم كانوا يكذبون بالبعث والنشور والحساب والجزاء والوقوف بين يدي الله -تبارك وتعالى- كانوا ينكرون البعث وإنكارهم للبعث هو الذي دفعهم للتكذيب بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، ورب العالمين -سبحانه وتعالى- قد ذكر في مواطن كثيرة من كتابه أنهم كذبوا بالبعث والنشور: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن: ٧].

وقد سبق أن قلت لكم فيما مضى في حلقات ماضية: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨: ٧٩].

وهذه الآية أفادت أنهم لما كذبوا بالساعة وترتب على تكذيبهم بها إنكارهم لبعثة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أفاد رب العالمين أن إنكار الساعة مستوجب للعذاب الأليم في نار جهنم؛ لأن الله قال: ﴿ واعتدنا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾؛ فبعد أن ذكر أنهم كذبوا بالساعة أخبر -سبحانه وتعالى- وأفادت هذه الآية أن هذا التكذيب مستوجب لنار عظيمة شديدة، قال ربنا -سبحانه وتعالى- عنه﴿ واعتدنا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾؛ والله -عز وجل- قد أخبر عن ذلك في مواطن من كتابه قولهم:

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد: ٥].

فلما تعجبوا واستبعدوا البعث والنشور توعدهم رب العالمين -سبحانه وتعالى- بهذا العذاب الأليم، وأخبر أنهم في ا لنار خَالِدُونَ؛ ولذلك رب العالمين -سبحانه وتعالى- أخبرنا في كتابه أن هذه النار أعدها للكافرين؛ بسبب تكذيبهم للأنبياء والمرسلين، وعدم دخولهم في الدين الذي جاء من عند رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

وبعد أن ذكر ربنا -سبحانه وتعالى- ذلك خوف هؤلاء المجرمين من هذه النار وذكر أمرًا لا شك أنه يرعب من له حس أو قلب أو عنده فطنة أو فقه وفهم، رب العالمين -سبحانه وتعالى- ذكر بعض الصفات عن نار جهنم - أعاذنا الله وإياكم منها- بعدما أخبر أن هؤلاء متوعدون بعذاب السعير في نار جهنم قال رب العالمين: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾؛ يعني أن النار إذا رأت المشركين من مكان بعيد -يعني من أرض المحشر- وهم فيها قبل أن يقدموا عليها ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾؛ طبعًا نحن نعرف عملية الزفير وفي سورة الملك سورة تبارك الذي بيده الملك أيضًا أخبر رب العالمين -سبحانه وتعالى- بأن النار أيضًا لها شهيق: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ [الملك: ٧: ٨].

يعني ينفصل بعضها عن بعض، وهنا ذكر -سبحانه وتعالى- التغيظ والزفير، قال أهل العلم المراد بالتغيظ هنا: الغليان، يعني سمعوا لها غليانًا، ولكن لما كان الغليان مسببًا عن التغيظ أقامه رب العالمين -سبحانه وتعالى- مكان كلمة غليان: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾؛ وهذا يفيد أيضًا أنهم يسمعون أصواتًا شديدة إذا جانب ما تلهبهم به النار من أمور يشعرون بها ويحسون بها في جلودهم، كذلك أيضًا يسمعون أصواتًا مرعبة، هذه الأصوات تخيفهم، وقد أفادت هذه الآية أن النار تبصر؛ قال تعالى: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾؛ هذا نص القرآن، وقد ذكر ربنا -سبحانه وتعالى- في كتابه أنها تتكلم في مواطن متعددة في كتابه، وكونها تراهم من مكان بعيد، يدل على حدة بصرها، فبرصها ليس محدودًا قليلًا، وإنما قوي شديد؛ لأن المحشر لا شك أرض واسعة كما ذكر علماء الاعتقاد في ذلك؛ لأن الله -عز وجل- سيجمع فيها الأولين والآخرين منذ أن خلق آدم إلى أن يرث الله -تبارك وتعالى- الأرض ومن عليها.

هذه النار ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾، وقد ذكرت أن هذا يدل على أن النار ترى، وأن بصرها قوي شديد، والنار أيضًا تتكلم بدليل القرآن الكريم: ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق: ٣٠]؛ هذه يدل على أن النار تتكلم، وفي حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- أيضًا في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (تحاجت الجنة والنار قالت النار: لم لا يدخلني إلا المتكبرون؟ وقالت الجنة: لا يدخلني إلا ضعفاء الناس)؛ فدل ذلك على أن الجنة والنار كلاهما تتكلم، وللأسف الشديد بعض العقلانيين أنكروا ذلك، وقالوا: بأن النار أو الجنة أو الجمادات بصورة عامة لا يمكن أن تنطق أو تتكلم، وهذا في الحقيقة مخالف لمنطوق القرآن الذي نزل بلسان عربي مبين، وقد اتفق من يعتد به من أهل العلم أنه لا يجوز أن نصرف القرآن عن ظاهره إلا بدليل صحيح يدل على ذلك، فإذا لم يكن هناك دليل فلا يجوز بحال من الأحوال أن نصرف القرآن عن ظاهره؛ لأن هذا سيكون تلاعبًا بكتاب الله -تبارك وتعالى- ويؤدي إلى الشقاق، وإلى أن تبرز بين أهل الإيمان فتن عظيمة وكلام ما أنزل الله -تبارك وتعالى- من سلطان، ولقد أثر التأويل بجنايات كبيرة عظيمة على أمة الإسلام حينما أعملوا عقولهم دون ضابط في كتاب الله -تبارك وتعالى- فمن يعتد به إذن من أهل العلم يؤمن بذلك، ولا أريد أن أطيل حول هذا، وإلا فهناك آيات كثيرة في كتاب الله أخبرت عن أن كل شيء في الكون يسبح بحمد الله -تبارك وتعالى- ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

ونحن نعلم من السنة أن الجذع حن للنبي -صلى الله عليه وسلم- وكان له صوت سمعه من كان في المسجد، وأن الحجر سبح في كفه -صلى الله عليه وآله وسلم- ولا يعترض علينا عقلي بعد ذلك، فيقول إذا قلتم بأن هذه تتكلم، لماذا لا ترقى المنابر أو تمسك المحابر والدفاتر؟ نقول بأن رب العالمين أخبر بذلك عنها، ويخلق فيها

أفهامًا، ويخلق فيها كلامًا، رب العالمين -سبحانه وتعالى- تتكلم به، ونحن نؤمن بما نطق به ربنا -سبحانه تعالى- في كتابه، نؤمن به ونسلم تسليمًا مطلقًا.

ثم زادت الآيات أمرًا آخرًا تخيف به أهل الشرك والضلال -ونسأل الله عز وجل أن يجنبنا هذه الأهواء- فبعد ما قال: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لاَ تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾؛ معنى الآية أنهم إذا ألقوا في النار يعني طرحوا فيها- في نار جهنم- ألقوا في مكان ضيق، وقد يقول قائل: طيب هذه النار فيها أعدادًا لا يحصيها إلا رب العالمين، فكيف تكون ضيقة؟ نقول: هي ضيقة على أهلها، وإن كانت واسعة، لذلك الله رب العالمين -سبحانه وتعالى- ذكر في كتابه فقال: ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ [الهمزة: ٨: ٩].

مؤصدة يعني مغلقة، والشيء مهما كان واسعًا إذا أغلق صار ضيقًا على من بداخله، فهي مهما كانت واسعة فهم مكبلون فيها بالأغلال والسلاسل، وهي مطبقة عليهم مغلقة؛ ولذلك صدق ربنا -سبحانه وتعالى- عندما قال بأنها حقًا ضيقة ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ ﴾؛ مقرنين: حال، يعني ألقوا حالة كونهم مقرنين، مقرنين في السلاسل والقيود، في الأصفاد، والقرآن يفسر بعضه بعضًا، ففي سورة إبراهيم يقول رب العالمين -سبحانه وتعالى-: ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ ﴾ [إبراهيم: ٤٩: ٥٠].

وهنا وإذا ألقوا منها مكانا ضيقًا مقرنين، وأفادت الآية: أن الكفار يقترن بعضهم ببعض بالسلاسل، يعني يجرون ويربطون الواحد تلو الواحد في نار جهنم، والعياذ بالله -تبارك وتعالى- وقيل أيضًا: وهذا أمر لا يتعارض مع ما قلته، أن هذا قرين هذا الكافر يسلسل معه ويلقى أيضًا في نار جهنم، وهناك آية في كتاب الله تدل على هذا المعنى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٨].

قال أهل العلم: لما ذكر هذا في الدار الآخرة، ووصفه أيضا بالقرين، دل ذلك على أنه معه في نار جهنم؛ ولعل الآية التي بعدها تفيد هذا المعنى، وهي قول الحق -تبارك وتعالى- ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٩].

يعني الكفار بعضهم مع بعض، والكفار مع شياطينهم الذين كانوا سببًا في إغوائهم وضلالهم وكفرهم، وبهذه المناسبة أذكر فائدة للعلامة شيخ الإسلام ابن القيم -رحمه الله تبارك تعالى- حول هذه الآية ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾؛ شيخ الإسلام ابن القيم الذي ذكر هذا في الجواب الكافي يقول: "بأن الناس إذا اشتركوا في مصائب عامة هانت عليهم المصائب" يعني إذا حدثت داهية وكان الاشتراك فيها كثيرًا واقعًا بين الناس مصيبة عمت البلاد والعباد هذه المصيبة بهذا الشمول والتوسع تخف وطأتها شيئًا ما؛ لهذا الاشتراك، ولعله يستأنس بهذا المعنى بقول الخنساء -رضي الله تعالى عنها-:

ولولا كثرة الباكين حولي

على إخوانهم لقتلت نفسي

تعزي نفسها بكثرة الباكين حولها على من قتل من أخوانهم كما قتل أخوها أيضًا، هكذا ذكرت، ولكن الله -عز وجل- أذهب عن هؤلاء الكفار والمشركين والشياطين هذا القدر من الراحة الذي يجده الإنسان عند عموم المصيبة، فقال: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ يعني الاشتراك في العذاب، وكونكم

جميعًا يعني أمة عظيمة كبيرة لا يخفف عنكم شيئًا مما تجدونه من عذاب السعير أعاذنا الله –تبارك وتعالى– وإياكم من ذلك.

﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ ﴾، ماذا حالهم إذن؟ وماذا سيكون أمرهم؟ وما الذي سيخرج منهم؟ ﴿ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾؛ يعني دعوا على أنفسهم بالويل والهلاك؛ لأن الثبور هو الويل والهلاك كما قال موسى – عليه السلام– لفرعون: ﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٢]. يعني هالكًا خاسرًا ضائعًا، فهؤلاء لشدة ما هم فيه سينادون على أنفسهم بالويل والثبور والهلاك والله –عز وجل– يؤنبهم ويزيد من حسرتهم ويبين لهم أنه لا مناص عن الخروج مما هم فيه مهما فعلوا؛ ولذلك يقول لهم: ﴿ لاَ تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾؛ وهذا يدل يا إخواني على أن النار لا تفنى ولا تبيد، وآيات القرآن الكريم التي جاءت من عند رب العالمين –سبحانه وتعالى– تؤكد هذا المعنى وتشير إليه في كثير من الآيات.

الجنة والنار من معتقد أهل السنة والجماعة فيها أنها مخلوقة الآن، وأنها لا تفنى ولا تبيد، وقد نسب بعض الناس إلى بعض أئمة أهل السنة والجماعة أنهم يقولون: بفناء النار، ولم يصح هذا أبدًا عن أحد ممن ينتسب إلى أهل السنة والجماعة.

شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله تبارك تعالى– سئل عن حديث موضوع: سبعة تفنى ومنهم النار؛ فقال – رحمه الله تبارك تعالى– ليس هذا من كلام النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– وإنما هذا من كلام أهل البدع، وابن القيم –رحمه الله تبارك تعالى– في الوابل الصيد أيضا قسم الدور إلى ثلاثة: دار الطيبين ودار الخبثاء ودار يقع فيها هذا وهذا. يعني تشتمل على الطيب والخبيث فدار الطيبين هي الجنة التي يدخلها أهل الإيمان ابتداًء وأما الدار الخبيثة فهي دار الكافرين والأشقياء أعاذنا الله وإياكم منهم وهذه أيضا باقية أبد الأباد.

أما النار التي تجمع بين الطيب والخبيث وهذه التي يمكن أنها لو قيل بأنها تفنى يحمل القول عليها أنها هي نار العصاة، فمن معتقد أهل السنة والجماعة، أن أهل القبلة من أهل التوحيد إذا دخلوا النار بسبب معاصيهم وذنوبهم، أنهم يخرجون منها بشفاعة الشافعين، ورحمة رب العالمين –سبحانه وتعالى–.

طيب قول الله تعالى هنا لهم ﴿ وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾؛ هذا يبين أنه لا غاية لهلاكهم ويبين أيضًا أن ألوان وأنواع العذاب كثيرة، وكل لون ونوع منها يحتاج إلى أن يدعو على أنفسهم بالثبور، ألا وهو الخسران والويل والهلاك، وأيضًا سيدعو ثبورًا كثيرًا لماذا؟ لأن الله –تبارك وتعالى– أخبر في كتابه أنه كلما نضجت جلودهم سار لهم جلودًا غيرها فقال: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ [النساء: ٥٦].

فلن ينقطع عذابهم بحال من الأحوال.

أيضًا يبكتهم رب العالمين سبحانه بعد ذلك، ولو أنهم كانوا يعقلون ويفهمون ويتعظون، لرجعوا إلى الحق والتزموا الصواب، ونحن لم نذكر ذلك عن المكذبين سابقا نوجه الخطاب أيضًا إلى المنكرين المكذبين في دنيانا اليوم، ونقول لهم اعقلوا وارجعوا إلى الحق والصواب؛ فرب العالمين –سبحانه وتعالى– بعدما ذكر هذا الجزاء وبما أعده لهؤلاء المجرمين المكذبين من هذه النار التي ستراهم من مكان بعيد، وأنها تغلي غليانًا ويصدر منها أصواتًا شديدة، وأنهم سيلقون فيها، ويطرحون في أماكن ضيقة مقرنين في السلاسل والأصفاد.

رب العالمين –سبحانه وتعالى– بعد ذلك كله قال ﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْؤُولاً ﴾.

يقول الله –تبارك وتعالى– لنبيه وحبيبه ومصطفاه –صلوات الله وسلامه عليه– هذا الذي ذكرناه لك من حال الأشقياء –هي النار وغيرها– وهؤلاء أخبر ربنا أنهم يحشرون على وجوههم في جهنم وتلقاهم النار بوجه عبوس وبالغيظ والزفير والشهيق، كما أشارت الآيات إلى ذلك، الله يقول: هذا الذي سمعتموه يا أيها الكافرون، وهذا العذاب الذي ستنالونه إن لم تؤمنوا وتصدقوا بالنبي –صلى الله عليه وآله وسلم– هل هذا: ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾؟

أيهما خير؟ هل عاقل يمكن أن يقارن بين هذا وذاك؟ أو أن يفضل هذه النار بهذه الصفات على جنات تجري من تحتها الأنهار؟ وعلى نعيم ورضوان من الرب الرحمن –سبحانه وتعالى–؟

إن العاقل لا شك يرجع من قريب، ويعلم أن النار إذا دخلها وكان من الكافرين فهو مخلد فيها أبد الأباد، والجنة حينما يدخلها أهل الإيمان أيضًا مخلدون فيها أبد الأباد بدليل أن الله –سبحانه وتعالى– قال هنا: ﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ ﴾؛ فالجنة أهل الإيمان كما ذكر ربنا في آيات كثيرة في كتابه ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ [النساء: ٥٧].

الحمد لله وفضله لا يشقون فيها ولا يتألمون فيها ولهم فيها ما يشاءون، رب العالمين كما ستأتي الإشارة إلى ذلك، وهنا أود أن ألفت نظر إخواني إلى لفتة تدفعهم إلى العمل؛ لأن الله لما قال: ﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾؛ قال التي وعد ﴿الْمُتَّقُونَ ﴾ فذكر أن سبب هذا النعيم وسبب الدخول في جنة الخلد؛ تقوى رب العالمين –سبحانه وتعالى– تقوى عمل ولا كلام؟ تقوى عمل، اعملوا يا أهل الإيمان، إن أردتم جنة الخلد فعليكم بالعمل، عليكم بالعمل، ولا تعارض هذا مع الحديث: (لا يدخل أحد منكم الجنة إلا بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته)؛ قال أهل العلم: بأن معنى هذا الحديث أن العمل ليس في مقابل الجنة، وإنما الجنة فضل من رب العالمين، ولكن العمل أمر ضروري فلن يدخلها أحد إلا بالعمل، وقيل بأن ابتداء دخول الجنة من رب العالمين –سبحانه وتعالى– وبعد ذلك تكون لأهل المتقين ولأهل الإيمان، ويكون التفاوت بينهم في داخل الجنة بالأعمال الصالحة، ونستفيد من قوله تعالى: ﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴾؛ كانت لهم جزاءً ومصيرًا أن الله أعد جنة الخلد سلفًا للمتقين؛ لأنه قال: ﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴾؛ وهنا أمر لابد من الحديث عنه" قل أذلك خير" خير هنا أفعل تفضيل، وهنا قد يأتي السؤال؛ لأن المفضل والمفضل عليه كلاهما اشتركا في شيء واحد، ولكن زاد أحدهما على الآخر فيه، فهل الجنة خير فقط من النار؟ هل النار فيها خير حتى يأتي أفعل التفضيل هنا؟ فيقول ﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ ﴾؛ النار شر كلها، لا خير فيها البتة، طيب، كيف نجيب عن أفعل التفضيل الذي يفيد الاشتراك بين المفضل والمفضل عليه؟ قيل بأن صيغة التفضيل قد تطلق في القرآن الكريم لمجرد الاتصاف بها؛ لأنها فضيلة؛ لأنها خير، فكأن القرآن أراد أن يثبت الخير لهذه الجنة، وقيل: إن العرب أرادوا تخصيص شيء بفضيلة وليس إطلاق، تخصيص شيء بفضيلة، استعملوا صيغة التفضيل؛ لأنها تدل على ذلك أكثر من غيرها، وهذا استعمال عند العرب معلوم كأن مثلاً يقول العرب الشقاء أحب إليك أم السعادة؟ فهل في الشقاء أي لون من ألوان السعادة؟ أو أن إنسانًا يحب شيئًا من الشقاء، أو أن الشقاء فيه أي لون من ألوان الخير أبدًا؟ قول يوسف –عليه السلام–: ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾ [يوسف: ٣٣].

هل غيره أحب إليه؟ يعني السجن وغيره، لا ولكنه أراد أن يخصص هذا بفضيلة، فقوله قل أذلك خير أراد أن يخصص الجنة بهذا الخير، فأتى بأسلوب التفضيل ثم ختم رب العالمين –سبحانه وتعالى– هذه الآية، ونختم بها هذا اللقاء: ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْؤُولاً ﴾؛ أبشروا يا أهل الإيمان ويا أصحاب التقوى، أعد الله لكم جنات ونهر، وجنات وصفها بأنها خير، ووعد بها المتقين، رب العالمين وعد بها المتقين.

وإذا دخل العبد الجنة كان له فيها ما يشاء، وقد جاءت الأحاديث الكثيرة عن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– أن أهل الجنة إذا تمنى شيء وجدها بين يديه، وليس طلبه؟ لا.. إذا تمناه وجده بين يديه، ويجد ذلك:﴿ لَهُمْ

فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾؛ وهو نعيم أبدي سرمدي قائم ﴿ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْؤُولاً ﴾؛ قيل: كان على ربك وعــدا مسئولًا يعني أن أهل الإيمان كانوا يسألون رب العالمين -سبحانه وتعالى- ذلك، وأن الملائكة كانوا أيضًا يطلبون ذلك من ربهم -سبحانه وتعالى- فأهل الإيمان يقولون ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا ﴾ [آل عمران: ١٤٩].

كما في آخر سورة آل عمران، والملائكة دعوا لأهل الإيمان ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِــي وَعَــدتَّهُمْ ﴾ [غافر: ٨]؛ وقيل: كان وعدا مسئولًا يعني وعد واجبًا أوجبه رب العالمين على نفسه، والله -عز وجل- لا يوجب عليه أحد من خلقه شيئًا، ولكنه يوجب على نفسه بقدرته وعظمته ما يشاء -سبحانه وتعالى- وقد انتهى بذلك هذا اللقاء وأكتفي بهذا وصلي اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

هل أحد من الشباب أجاب على أسئلة الحلقة الماضية؟

تفضل:

السؤال الأول: استدل من السنة النبوية على عظم بعثة النبي -صلى الله عليه وسلم-؟

قال -صلى الله عليه وسلم-: (أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي وذكر -صلى الله عليه وســلم- كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة)؛ وفي رواية مسلم (بعثت إلى الأحمر والأســود)؛ أو كما قال -صلى الله عليه وسلم-.

إجابة صحيحة.

يقول: كان السؤال في الآية الكريمة ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الفرقــان: ٣]؛ إلى آخر الآية دليل على بطلان ما عبد من دون الله -عز وجل- وضح ذلك؟

الجواب: التوضيح أن الله -عز وجل- أخبر أن ما عبد من دون الله سواء كان حجرًا أو صنمًا أو نارًا فهو لا يخلق شيئًا، بل هو مخلوق، ولا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا فمن باب أولى لا يملك للمخلوق، ولا يستطيع أن يحيي ولا يميت، ولا يملك لنفسه حياة ولا موتًا ولا نشورًا فمن باب أولى أن يعبد الله -عز وجل- هو الخــالق، هــو الحي القيوم، هو يحيي ويميت، فمن باب أولى أن يعبد الله، وبطلان ما عبد من دونه.

يعني أن هذه الآلهة التي هي عبدت من دون الله -تبارك وتعالى- لا تستحق أن تعبد؛ لأنها لــيس لــديها أي شيء من شئون الربوبية أو التدخل في الملك.

يقول: استدل القائلون بأن الجنة لم تخلق بعد، بدخول آدم -عليه السلام- الجنة أي أن الله أنشأ له بــستانًا أو جنة، فالجنة عند العرب هي البستان، فدخل آدم الجنة وتغوط فيها، وهذا أذى، والأذى لا يكون في الجنة، فقالوا كما أنشأ الله بستانًا لأدم، سينشئ الجنة لنا يوم القيامة فما ردكم؟.

هذه يعني شبهة لا أصل لها في الحقيقة؛ لأن الآيات الواردة والتي أدانت أن رب العالمين -سبحانه وتعالى- قد خلق جنته، وكذلك خلق النار، وإجماع أهل العلم على هذا، أمر لا يعارض لمثل هذا الكلام، هذا شيء.

الشيء الثاني: هناك خلاف كبير بين أهل العلم في الجنة التي دخل آدم فيها، هل هي جنة الخلد أو ليست جنة الخلد؟ ورجح كثير من أهل العلم أنها ليست جنة الخلد، وعلى فرض أنها كانت جنة الخلد، الله -عــز وجــل- يسلب الخصائص، إذن من آدم -عليه السلام- التي يكون عليها في الدنيا، فلا تكون معه في هذه الجنة، وخلــق

آدم نفسه عجيب؛ لأنه خلق من غير أب ولا أم، وهذه مسائل غيبية نحن لا نعلمها ولا نخوض فيها، ولكن نؤمن بما أخبر ربنا –سبحانه وتعالى– به في كتابه ونقف عند حدود النص الوارد في ذلك والله أعلم.

فضيلة الشيخ هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه المحاضرة؟.

السؤال الأول: ما المراد بالأمثال في قوله تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ﴾؟

السؤال الثاني: ما معنى ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ وهل النار ترى وتتكلم؟ أيد ما تقول بالدليل؟

أحسن الله إليكم فضيلة الشيخ.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدرس الثالث

آيات من سورة الفرقان

أهلًا وسهلًا ومرحبًا بكم والحاضرين والمشاهدين الكرام.

ويسرنا في هذا اللقاء أن نتناول أيضًا بعض آيات من سورة الفرقان، وسيدور حديثي في هذه الآيات حول محورين إن شاء الله -تبارك وتعالى-.

المحور الأول: موقف العابدين والمعبودين من دون الله في يوم الدين.

المحور الثاني: كفر الكافرين برب العالمين أدى بهم لسوء المصير؛ ولنستمع الآن إلى هذه الآيات من الأخ عبد الرحمن فليتفضل جزاه الله خيرًا.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلاَ نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلاَئِكَةَ لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ [الفرقان: ١٦: ٢٣].

أحسنت جزاك الله خيرًا.

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه، ومن سلك سبيلهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين وبعد:

أيها الكرام المحور الأول في هذا اللقاء -كما سمعتم- بعنوان: موقف العابدين والمعبودين من دون الله -تبارك وتعالى- في يوم الدين، وتحته هذه الآيات، وهي قول الحق -تبارك وتعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾

يخبر رب العالمين -سبحانه وتعالى- عما يدور، أو عن شيء مما يحدث في يوم الدين، وهنا يذكر تبكتيه وتقريعه وتوبيخه لمن عبدوا من دون الله -تبارك وتعالى- لمن توجهوا إلى غير الله -عز وجل- بالعبادة، يحشرهم رب العالمين -سبحانه- يحشر العابدين والمعبودين، ثم يوجه هذا السؤال للعابدين، ويوجه أيضًا للمعبودين، يقول الله -عز وجل- أولًا للمعبودين: ﴿ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ؟ ﴾؛ هذا الاستفهام ليس معناه أن الله -عز وجل- لا يعلم أو لم يسبق في علمه هذا، وإنما هو يود أن يقرع أو يكبت هؤلاء

الذين اتخذوا لله -تبارك وتعالى- الأنداد، وأن يظهر أمرًا آخر -سأتطرق إليه الآن وسيأتي إن شاء تعالى بعد قليل- وهو أنه -سبحانه وتعالى- أخبر أنه ستظهر العداوة بين العابدين والمعبودين في يوم الدين نتيجة هذا الحوار، وستأتي الإشارة إلى ذلك من خلال آيات القرآن الكريم التي سنتعرض لها إن شاء الله -تبارك وتعالى-، يوجه السؤال لهؤلاء القوم الذين عبدوا من دون الله أي المعبودين: ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَءِ؟ ﴾؛ هل أنتم أضللتم العباد الذين توجهوا إليكم بالعبادة أم أنهم هم الذين ضلوا عن صراط الله المستقيم؟ وما كان ينبغي لهؤلاء الذين عبدوا من دون الله -تبارك وتعالى- أن يتوجهوا إلى غير الله -عز وجل- بالعبادة بحال من الأحوال؛ ولذلك رب العالمين في الآية التالية مباشرة بعدما طرح وذكر هذا السؤال للمعبودين يوم القيامة يخبر جوابهم وما سيدور بين العابد وبين المعبود في يوم الدين مباشرة، يقول هؤلاء الذين عبدوا من دون الله -تبارك وتعالى- وخاصة الذين لا يرضون هذه العبادة، وهذا شيء لابد من التنبيه عليه؛ لأن بعض الناس قد يدعو أتباعه إلى أن يعبدوه فهذا مصيره ومصيرهم -والعياذ بالله - في نار جهنم، وهؤلاء -أي الذين وافقوا ورضوا بأن يعبدوا من دون الله- هم ممن ينطبق عليهم قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

أما هؤلاء الذين عبدوا ولا يرضون ذلك -كما ستأتي الإشارة إلى هذا- سيقولون ما قاله رب العالمين عنهم: ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾؛ يعني لا يحق ولا يجوز -تنزيها لك يا ربنا- إجلالًا وعظمة لرب العالمين -سبحانه وتعالى- ﴿ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾؛ نبعدهم كما نعبدك، أو نتوجه إليهم كما نتوجه إليك، ولكن الأمر كما كان وكما حصل ﴿ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ ﴾؛ نسوا ما أنزلته عليهم في القرآن، أو في سنن المرسلين الذين أرسلت إلى هؤلاء من قبل، قبل النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كلها هؤلاء حينما يطول عليهم الآمل ويبتعد العهد بهم عن النبوة يغيروا ما نزل عليهم من عند رب العالمين ﴿ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾؛ أي كانوا قومًا هلكًا؛ وقد ذكر ابن كثير -رحمه الله- عن الحسن البصري ومالك عن الزهري أنه قال يعني أنهم قوم لا خير فيهم.

هذه الآية قالوا ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾؛ في الحقيقة تخبر هذه الآية العداوة التي تقوم بين العابدين والمعبودين في يوم الدين، وتفيد أيضًا أن الذين عبدوا من دون الله -عز وجل- وهم لا يرضون هذه العبادة سيتبرءون من العابدين في يوم الدين، وهنا سنجد الحسرة تلو الحسرة تطرى على قلوب هؤلاء المجرمين، الذين اتخذوا من دون الله -تبارك وتعالى- أندادًا، لماذا؟

لأنهم لما توجهوا إلى هؤلاء المعبودين بالعبادة كانوا يريدون من وراء هذه العبادة نفعًا، وكانوا يقصدون من ورائها خيرًا، وكانوا يتطلعون إلى تميز، والله -عز وجل- يخبر في يوم الدين أنه ستقوم عداوة، وتحدث وتظهر هذه العداوة بين العابدين والمعبودين في يوم القيامة، وقبل أن أذكر الآيات التي ذكرها ربنا -سبحانه وتعالى- في كتابه أود أن أقول: ما المراد هنا بالمعبودين المذكورين في هذه الآية؟

المراد بالمعبودين الذين سيسألهم ربهم: ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ قَالُوا سُبْحَانَكَ ﴾؛ من هم هؤلاء المعبودين الذين وجهوا إليهم هذا السؤال ونزهوا رب العالمين -سبحانه وتعالى- عن أن يكونوا دعوا هؤلاء المشركين إلى الوقوع في الشرك؟

اختلف أهل العلم في ذلك فقال بعضهم: المراد بهم: «عزير وعيسى والملائكة »؛ وقد جاء ذكر عبادة عيسى في القرآن الكريم، كما جاء ذكر أيضا بعبادة قوم للملائكة من دون الله -عز وجل- في القرآن الكريم، فعن الملائكة قال ربنا -سبحانه وتعالى-: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ أَهَؤُلاَءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ ﴾ [سبأ: ٣٩: ٤٠]؛ بنفس المنطق أيضًا تنزيها لك يا رب، ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ ﴾؛ إذا كنت أنت

يا رب أنت ولينا، أنت ملاذنا، أنت ملجؤنا، إليك نرجع، ولا نتحرك إلا بأمرك، سبحانك، فكيف نأمر هــؤلاء أن يتخذونا أندادًا من دونك -سبحانه وتعالى-؟!!

وكذلك أيضًا جاء الأمر على هذا النمط أو جاء ذكر ذلك عن عيسى -عليه السلام-في القرآن الكــريم: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ ﴾ [المائدة: ١١٦]؛ ولقد وقعت أمة كبيرة في عبادة عيسى -عليه السلام- قبل بعثة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وإلى يوم الناس هذا، وها هو القرآن الكريم يقرر أن عيسى عُبد من دون الله -عز وجل-، ويقرر أيضًا أن عيسى -عليه السلام- لا يرضـــى بهذه العبادة، بل إنه سيتبرأ ممن عبدوه في يوم الدين، وعندئذ ستكون الحسرة والندامة، عيسى -عليه الـــسلام- حينما يقول الله ﴿ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ ﴾؛ أول كلمة يقولها عيـــسى -عليه السلام- أنه ينزه ربه -سبحانه وتعالى- عن أن يقول شيئًا من ذلك، ما يليق به وهو نبي من قبل الله -عز وجل- يدعو إلى توحيد الله، وإلى إفراد الله بالعبادة، أن يدعو قومه إلى أن يعبدوه، وإلى أن يعبدوا أمه من دون الله -عز وجل-؛ ولذلك في هذا المشهد الذي سيكون في يوم القيامة عيسى -عليه السلام- سيتبرأ، ويستشهد بربه الذي أرسله وبعثه، ومطلع على خبايا الأمور، وعلى ما ظهر منها، وكذلك عيسى -عليه السلام- يقــول لربـــه: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧]. فهنا عيسى -عليه السلام- تبرأ من هــؤلاء الــذين عبدوه من دون الله؛ ولذلك قال بعض أهل العلم:

- هذه الآية خاصة في هؤلاء المذكورين الذين جاء ذكرهم في القرآن الكريم، ومنهم المسيح عليـــه الـــسلام والملائكة وأيضًا عزير.

- وذهب البعض الآخر: أن المراد بالمعبودين كل ما عبد من دون الله -تبارك وتعالى- وهذا هو الـــصواب؛ لشمول القرآن الكريم وعموم القرآن الكريم، ومعالجة القرآن الكريم لواقع الناس من جميع الجوانب، فـــالأمر لا يقتصر على فئة محدودة بعينها عبدت من دون الله، ولكن يشمل كل ما عبد من دون الله -تبارك وتعالى-.

والله -عز وجل- بعدما أخبر تبرأ هؤلاء الناس، هؤلاء الذين عبدوا ولا يرضون، وينزهون ربهم -ســـبحانه وتعالى- عن أن يقولوا شيئًا من ذلك، أو أن يقعوا فيه، يخبرون عن علة ذكرتها الآن، وذكرتها الآيات، ولكـــن أكررها وأرددها هنا لننتبه إليها: ﴿ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾؛ وهـــذا يفيـــد أن طول الأمل والنسيان، أو التفريط والتقصير، والإهمال والترك لما جاء من عند الله -تبارك وتعالى- يكون سببًا في الوقوع في الشرك والعياذ بالله -تبارك وتعالى-.

بقيت مسألة قبل أن أنتقل من هذه الآية، ودائمًا وأنا أعرف أن أبنائي يحبون أن يتعرضوا لهذه المسائل العقدية ويفهموها، ذهبت المعتزلة من خلال هذه الآية أن الله -سبحانه وتعالى- لا يضل أحدًا؛ لقول الله -عز وجل- في هذه الآية والتي قبلها: ﴿ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾؛ يعني هل هم الذين فعلوا ذلك ووقعوا فيه، أم أن الله -ســـبحانه وتعالى- هو الذي أضلهم؟

في الحقيقة غاب عن هؤلاء الناس أن الآية لو كان معناها أن الله -عز وجل- هو الذي أضلهم أو هو الذي لم يضلهم -سبحانه وتعالى- ستصبح الآية حجة على رب العالمين -سبحانه وتعالى- ولا تكون حجة لرب العالمين -سبحانه وتعالى- على عباده، ولكن من المقرر فيما معتقد أهل السنة والجماعة: أن الله يضل من يشاء ويهـــدي من يشاء -سبحانه وتعالى- وأن الضلال والغواية بفعل رب العالمين -عز وجل-؛ ولكن العبد له ســـبب فيـــه، وتحصيل له عند أعراضه كما ذكر رب العالمين -سبحانه وتعالى- عن الذكر الذي نزل من عند الله ﴿ وَلَكِـــن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ ﴾؛ فهم إذا كانوا سببًا في وقوعهم في الضلال، ولكن الذي أضـــلهم هـــو رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

الآية التي يجب أيضًا أن نتبينها فيما بعد ذلك، وسأذكر عليها أدلة واضحة من القرآن، وهي تتمة لهذه الآية، ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى- ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلاَ نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾؛ فقد كذبوكم بما تقولون يعني أن المعبودين ربنا -سبحانه وتعالى- يخاطب العابدين المعبودين كذبوا هؤلاء العابدين في أنهم اتخذوهم من دون الله أندادًا، ووافقوا على ذلك، وأنهم زينوا لهم هذا الأمر، وأنهم حثوهم عليه، أو رغبوهم فيه، فالمعبودين سيتبرءون من العابدين في يوم القيامة، وقد جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تفيد هذا المعنى، وهذا الذي يجعلنا -يا أخوان- نرجح أن المراد بالمعبودين كل ما عبد من دون الله -تبارك وتعالى- أنا ذكرت آية عن الملائكة فيما مضى، وذكرت آية عن عيسى -عليه السلام- وإليكم الآن بعض الآيات التي فيها ذكر لبراءة أي معبود عبد بباطل، ولا يرضى بذلك، من دون الله -تبارك وتعالى- مثلًا في سورة يونس ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ يعني ربنا -سبحانه وتعالى- يجمع هؤلاء وهؤلاء ﴿ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ يعني أود أن يتأمل كل مستمع الآن هذا الموقف ويتصوره، كما جاء من عند رب العالمين: ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ﴾ [يونس: ٢٨]؛ يعني قفوا مكانكم، الشركاء ومن عبدوهم من دون الله -تبارك وتعالى- قفوا مكانكم ثم يقول القرآن: ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس: ٢٨]؛ يعني فصلنا بينهم، وهذا يفيد أن هناك مواجهة ستتم بين العابدين والمعبودين من دون الله -تبارك وتعالى- ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ هنا يقول المعبودين الذين عبدوا من دون الله: ﴿ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ [يونس: ٢٨]؛ أنتم ما عبدتمونا من دون الله، طيب هم عبدوهم وباعوهم، ولكن القصد أنتم عبدتم أهوائكم أنتم، سرتم وراء الشيطان الذي زين لكم ذلك، ثم بعد ذلك يستشهدون بالله -تبارك وتعالى- على أنه مطلع عليهم، وأنهم كانوا غافلين عن عبادة هؤلاء له، فكفى بالله شهيدًا إن كنا عن عبادتكم لغافلين، وفعلًا هؤلاء الذين عبدوا من دون الله -تبارك وتعالى- غافلون عن دعاءه وعبادة من عبدوهم، ومن طلبوا منهم، ومن أنزلوا حاجتهم بهم، والله - عز وجل- يذكر ذلك في آيات متعددة، يذكر أن هناك براءة ستتم بين العابدين والمعبودين يوم القيامة، تبرؤ المعبود، سيتبرأ من هؤلاء العابدين، وسيكفرون بعبادتهم، قال تعالى: ﴿كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم: ٨٢]؛ يعني سيتحولون إلى أضداد لهؤلاء.

وتأملوا أيضًا ما جاء في سورة الأحقاف: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ [الأحقاف: ٥].

فالمدعو غافل عن دعاء الداعي، مهما دعا ومهما طال عليه الأمد في الدعاء: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر: ١٤].

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

ألا فليحذر هؤلاء الناس الذين يتوجهون إلى غير الله -تبارك وتعالى- بالدعاء أو العبادة أو النداء أو طلب الغوث أو المدد، ظانين أنه يمكن أن يستفيدوا من ورائهم شيئًا، بعد ما أخبر ربنا -سبحانه- أن هذا سيقع، وأن المعبودين سيتبرءون من العابدين في يوم القيامة يشير: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلاَ نَصْرًا ﴾.

قيل: إن هؤلاء المعبودين لا يستطيعون نصركم ولا تصريف الأمور لكم.

وقيل: إن العابدين لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا تصريف أمرهم في يوم الدين، حينما يقفون بين يدي رب العالمين -سبحانه وتعالى- ثم تقرر الآية أمرًا مقررًا أيضًا يجب الالتفات إليه، والتنبيه عليه: ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ الظلم الوارد في هذه الآية معناه الشرك، فالظلم عندما يطلق بإطلاق ينصرف إلى الشرك،

والله -عز وجل- يقول: ﴿ وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٦].

ولا تنسوا قول لقمان -عليه السلام- لابنه، وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- لما نزلت هذه الآية ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢].

لما نزلت هذه الآية شقت على نفوس الصحابة، كيف ينفي رب العالمين -سبحانه وتعالى- الأمن والاهتداء عن من لم يظلم نفسه؟ ولذلك قالوا وأينا لم يظلم نفسه يا رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-؟ لأنك -الآن- لو أخذت قلمًا من جيب صاحبك أو زميلك فقد ظلمته، ولو أشرت إليه بحديدة فقد ظلمته، وهذه من المعاصي لا يسلم إنسان منها إلا من عصم الله -عز وجل- مثل بعض الأنبياء والرسل.

أما سائر العباد ما منا إلا من عصى أو هم، والصغائر يقع فيها كل العباد بإطلاق ولم يسلم منها أحد، والقرآن الكريم ذكر ذلك عن بعض الأنبياء والمرسلين فآدم -عليه السلام- قال: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣].

إذا لو كان الظلم معناه أدنى ظلم يقع بين إنسان وإنسان لشق ذلك فعلًا على جميع العباد؛ ولذلك الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- يفقهون الآيات، لما نزلت ذهبوا إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وقالوا له (وأينا لم يظلم نفسه يا رسول الله) فالنبي -عليه الصلاة والسلام- بيَّن لهم أنه ليس هذا المراد بالظلم الذي يعنيه، ألا وهي ما يقع بينهم من ظلم بعضهم لبعض، أو اعتداء بعضهم على بعض، وإنما المراد بالظلم هنا هو الشرك بالله -تبارك وتعالى- ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾؛ يعني بشرك وبالتالي يصبح ختام الآية معناه "ومن يظلم منكم" ومن يشرك منكم نذقه عذابًا كبيرًا ﴿ مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾؛ ثم يقول رب العالمين -سبحانه وتعالى- ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ ﴾.

في الدرس السابق أن المشركين تعنتوا مع النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ﴾؛ وهذه الآية في الحقيقة رد عليهم، فالله -عز وجل- يقول ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ ﴾؛ يعني أن بشرية الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- وكونه يمشي في الأسواق وكونه يأكل الطعام لا تنافي رسالته التي بعثه الله -تبارك وتعالى- بها، ولا تقدح هذه الصفات في نبوته ورسالته -صلوات الله وسلامه عليه- وهو في هذا ليس بدعًا من الرسل، فمن كان قبله من المرسلين كانوا يأكلون ويشربون ويسيرون في الأسواق وكانوا رجالًا كما قال رب العالمين: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم ﴾ [يوسف: ١٠٩].

فكون هذه الأمور التي تعنت المشركون في وصف النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بها وزعمهم انه إذا كان عليها لا يكون نبيًا ولا رسولًا، الله -عز وجل- هنا يدافع عن نفسه -صلى الله عليه وآله وسلم- ويرد على المشركين في هذا الزعم، ويقول بأن من سبق النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من سائر الأنبياء والمرسلين كانوا كذلك يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، تعجبني كلمة ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله تبارك وتعالى - في تفسيره أحب أن أسمعكم إياها، وهو يبين أن مثل هذه الصفات لم تقدح في النبي المرسل -صلوات الله وسلامه عليه- يقول الحافظ ابن كثير: "إن الله -سبحانه وتعالى- جعل الأنبياء جعل لهم من السمات الحسنة والصفات الجميلة والأقوال الفاضلة والأعمال الكاملة والخوارق الباهرة والأدلة الظاهرة ما يستدل به كل ذي لب سليم وبصيرة مستقيمة على صدق النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-".

يعني هذه الصفات لا تقدح فيه، ولكنه على صفات أخرى سليمة جميلة، وأيد بخوارق باهرة، تدفع كل من يشاهده -صلى الله عليه وآله وسلم- إلى أن يدخل في رسالته، وأن يصدق ويؤمن بنبوته -صلوات الله وسلامه عليه-.

وبعد ما ذكر الله رب العالمين -سبحانه وتعالى- ذلك ورد على المشركين في زعمهم الذي زعموه من قبل، قال سبحانه ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾؛ يخبر رب العالمين -سبحانه وتعالى- أن الناس يبتلي ربنا -سبحانه وتعالى- بعضهم ببعض ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾، جاء عن محمد بن إسحاق أنه قال: إن الله -عز وجل- يقول: لو شئنا لجعلنا للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ما طلبوا، وللأنبياء ما طلب وهؤلاء الذين كذبوا به،ن ولكننا لم نرد ذلك من باب الابتلاء والاختبار.

ولذلك قال بعض أهل العلم بأن بعثة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- على هذه الحالة فيها فتنة لأشراف قريش، فيها فتنة لأصحاب الوجاهة، وأصحاب الثراء وأصحاب المكانة؛ لأنهم كانوا يودون إذن إذا كانت هناك نبوءة ورسالة وتكريم لأحد من البشر أن ينالوه هم وكذلك قالوا كما ذكر القرآن عنهم: ﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١].

رد الله عليهم ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ هذا اصطفاء واجتباء ورحمة من الله -تبارك وتعالى- على نبيه وحبيبه ومصطفاة -صلوات الله وسلامه عليه- فالله -عز وجل- جعل بعثة النبي -عليه الصلاة والسلام- وهو على الهيئة التي هو عليها فتنة لأشراف قريش، والذين كانوا يحتلون مكانة عالية عليهم، وكذلك كذبوا بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وأيضًا من كذب من الأغنياء جعل إيمانًا الفقراء فتنة لهم؛ ولذلك كان المشركين ينظرون إلى أصحاب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وهم فقراء ضعفاء فيسخرون منهم وتأبى نفوسهم أن يجلسوا إلى جواره؛ ولذلك يوم القيامة رب العالمين -سبحانه وتعالى- يقول لهم: ﴿ أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ [الأعراف: ٤٩]؛ أنتم قلتم في الدنيا بأن هؤلاء الناس ضعفاء بأن هؤلاء الفقراء، كيف يكونون أسبق إليها إلى هذا الخير؟ ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ [الأحقاف: ١١].

هكذا قالوا، فجعل الله -عز وجل- بعثة النبي -عليه الصلاة والسلام- على ما هو عليه فتنة لأشراف قريش، وجعل ضعف وفقراء أهل الإيمان فتنة للذين كذبوا من الأغنياء والأقوياء وغيرهم؛ ولذلك الله -عز وجل- يمتحن الغني بالفقير، ويمتحن الفقير بالغني، كما يمتحن المعافى بالمبتلى والمبتلى بالمعافى؛ ولعل في قوله بعد ذلك أتصبرون؟ والمراد أتصبرون على ما أنتم عليه، أتصبرون على الحق، أن يصبر كل إنسان على ابتلاء وقع به، فالغني يبتلى يصبر على ابتلاء الله له -تبارك وتعالى- بالغنى، فينفق ماله في سبيل الله -عز وجل- والفقير يصبر على الفقر الذي ابتلاه الله -تبارك وتعالى- به فلا يحسد الغني، وكذلك الذي عافاه الله -تبارك وتعالى- يثبت على الحق ويصبر فيقوم بواجب أوجبه رب العالمين -سبحانه وتعالى- عليه؛ لأن عنده من القدرة والمؤهلات والاستطاعة ما يوجب عليه ذلك، والمبتلى عليه أن يصبر على ما ابتلاه رب العالمين -سبحانه وتعالى- به، والله مطلع على هؤلاء وهؤلاء؛ ولذلك ختم الآية بقوله: ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾؛ وفي هذا إثبات لصفة البصر لرب العالمين -سبحانه وتعالى-.

المحور الثاني: كفر الكافرين برب العالمين أدى بهم إلى سوء المصير. والآيات التي معنا هي التي تبين ذلك وتوضحه، وهي كما جاءت في قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾.

الله تعالى يخبر عن تعنت المشركين الذين اشترطوا لإيمانهم شيئًا مما اشترطه اليهود، الذين لا يرجون لقاء الله -تبارك وتعالى- قالوا: ﴿ لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ ﴾؛ قيل لولا أنزل علينا الملائكة يعني توحي إليهم كما

أوحت إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أو يرون الملائكة عيانًا، والله -عز وجل- قد ذكر ذلك عنهم: ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وفي آية أخرى في سورة الإسراء: ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً ﴾ [الإسراء: ٩٢].

فهم طلبوا ذلك إما رؤية الملائكة عيانًا أو أن الله -عز وجل- يوحي إليهم بنبوة ورسالة بمثل ما أوحى إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أو يرون رب العالمين -عز وجل-.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ﴾؛ وهم في الحقيقة شابهوا اليهود في هذا الطلب -تشابهت قلوبهم- تشابهت قلوب المشركين الكافرين مع قلوب اليهود فتشابهت أقوالهم؛ لأن اليهود قالوا لموسى: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة: ٥٥]؛ هكذا طلب اليهود، وهذا قمة التعنت مع الأنبياء والمرسلين، طلبوا من نبيهم -عليه السلام- وذكروا له رفضهم للإيمان إلا إذا شاهدوا رب العالمين، وتشابهت قلوب الكافرين والمشركين في زمن بعثة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فطلبوا طلب من؟ طلب المشركين: ﴿ لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ﴾.

ما معنى لا يرجون لقائنا؟ الراجح -والله أعلم- أنهم لا يخافون لقاءنا؛ لعدم إيمانهم بالبعث، وكلمة الرجاء تطلق على الطمع، وهي كذلك تطلق على الخوف، وهي لغة لأهل تِهامة من العرب، لغة لهم أن كلمة الرجاء تطلق على الخوف؛ ولذلك قيل في قول الله تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ للهِ وَقَارًا ﴾ [نوح: ١٣]؛ يعني لا تخافون لله عظمة، كيف هؤلاء لم يخافوا من الله -عز وجل- ولم نفى ربنا -سبحانه وتعالى- عنهم الخوف في هذه الآية؟ قال نفى عنهم الخوف؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث، وبالتالي لا يعرفون عاقبة ما سيئول أمرهم إليه، طالما أنهم منكرون فلا يصدقون ولا يؤمنون بالعذاب الذي سيقع عليهم في اليوم في يوم الدين، يوم الجزاء؛ ولذلك قال رب العالمين معقبا على هذا الطلب الذي طلبوه ألا وهو إنزال الملائكة أو رؤية رب العالمين جهرة قال: ﴿ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾؛ يعني بلغ الكبر بهم مبلغًا عظيمًا، وكما قال الله عنهم في آية أخرى: ﴿ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ﴾ [غافر: ٥٦].

وصل بهم الكبر مبلغًا هم لن يستطيعوا أن يصلوا إليه، ولكن هكذا شأن الكافرين والمشركين ﴿ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾، والعتو هو مجاوزة الحد والذهاب إلى الطغيان بأكبر معانيه؛ ولذلك ربنا -سبحانه وتعالى- في هذه الآية وصف عتوهم بأنه كبير؛ ولذلك أنزل الله عليهم مقته وغضبه؛ وأخبر عن أهل الكتاب الذين طلبوا رؤية ربهم جهرة، أخبر -سبحانه وتعالى- عن غضبه ومقته لهؤلاء: ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهِ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]؛ ماذا كان؟ ماذا قال رب العالمين سبحانه؟ قال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾[النساء: ١٥٣].

لأن رب العالمين -سبحانه وتعالى- غاضب عليهم وهم استكبروا كما ذكر ربنا -سبحانه وتعالى- عنهم في كتابه ﴿عَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾؛ هنا مسألة أيضا أرى أنني يجب على أن أتعرض لها في دقائق معدودة وهي:

ذهبت المعتزلة واستدلوا من خلال هذه الآية على نفي رؤية المؤمنين لربهم في الدار الآخرة، وقالوا لما طلب هؤلاء المشركين رؤية الله -عز وجل- خاطبهم ربنا -سبحانه وتعالى- بهذا الخطاب، ولما طلبها قوم موسى -عليه السلام- أخذهم ربنا -سبحانه وتعالى- في لحظة، أهلكهم رب العالمين وقالوا هذا يدل على أن رؤية الله -تبارك وتعالى- مستحيلة والجواب: أن هذه الرؤية وقعت في الدنيا، ولا تكون رؤية الله -تبارك وتعالى- في الدنيا لأحد بحال، رب العالمين ادخر رؤيته لتكون قمة العز لمن آمن به بالغيب في الدار الآخرة، أما في الدنيا فلم يرى أحد ربه، وهذا هو المعتقد الصحيح عند أهل السنة والجماعة ولا دليل في هذه الآية على ما ذهب إليه منكرو الرؤية؛ لأن طلب هذه الرؤية كان في الدنيا، طلب الرؤية كان في الدنيا ورؤية الله -تبارك وتعالى- في

الدنيا مستحيلة، أما هي في يوم القيامة هي واقعة في نص التنزيل قال رب العالمين سبحانه: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢١: ٢٢].

وأعتقد أن هذه مسألة يجب أن تقرر عند أهل السنة والجماعة، ونحن نؤمن بذلك على ما يليق بجلال ربنا –سبحانه وتعالى– وعظمته ولا ننفي شيئًا وصف ربنا –سبحانه وتعالى– به نفسه، وذكره لنا في كتابه أو أخبرنا به نبيا –صلى الله عليه وآله وسلم– في صحيح سنته.

ثم يقول رب العالمين سبحانه: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾؛ في الآية الأولى طلب الكافرون رؤية الملائكة، طلبوها عيانًا أن تنزل عليهم الملائكة، فرب العالمين –سبحانه وتعالى– يخبر في هذه الآية أنهم سيرون الملائكة، وستقع لهم رؤية للملائكة، لكن عندما يرون الملائكة سيرونهم في يوم لا خير لهم فيه، ولا بشرى لهم فيه، وكل إنسان سيرى الملائكة في موطنين:

الموطن الأول: عند مفارقة هذه الدنيا.

الموطن الثاني: في يوم القيامة.

وسيأتي توضيح مجيء الملائكة في اللقاء في الدرس القادم إن شاء الله –تبارك وتعالى– وذكر الأدلة على ذلك ولكن أبقى هنا مع قول الحق –تبارك وتعالى– ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾؛ يعني أن المشركين سيرون الملائكة ولكنهم ستقع هذه الرؤية عند مفارقتهم لهذه الحياة الدنيا، وعند رؤية الكفار والمشركين للملائكة عند مفارقة الدنيا لا بشرى لهم في هذه الرؤية، ولا خير لهم فيها، يعني لن ينالهم شيء يتطلعون إليه ولا خيرًا يودون حصوله أو حدوثه، ولكن حينما يرون الملائكة في هذه الوقت سيرون عذابًا أليمًا، سيرون عذابًا شديدًا، والله –عز وجل– قد أخبر عن ذلك في كتابه: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٥٠].

ذكر الرؤية هنا عند الوفاة، عندما تأتي الملائكة لتتوفى هؤلاء المجرمين المكذبين الكافرين بالله وبرسوله صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ [الأنعام: ٩٣]؛ إذن يبشروهم بالعذاب، بالخزي، بالسوء، وبما سيقع ويئول إليه حالهم في يوم القيامة، وفي حديث البراء أن الملائكة تقول للكافر، ولروحه عند إخراجها منه، وهو يموت (أخرجي أيتها الروح الخبيثة من الجسد الخبيث) والحديث في مسند أحمد وغيره ويقولون: للمؤمن (أخرجي أيتها الروح الطيبة من الجسد الطيب) فأهل الإيمان خير لهم بإيمانهم، وأما أهل الكفر والكافرين الذين طلبوا رؤية الملائكة سيشاهدون الملائكة وعندما يشاهدونهم لا بشرى لهم فيما يشاهدونه ولا في الوقت الذي يشاهدونهم فيه، وكذلك أيضًا تتنزل عليهم وهم يموتون –كما ذكرت– بالعذاب الأليم، وحالهم عندئذ يختلف عن حال المؤمنين، فالملائكة تتنزل على أهل الإيمان، عند الوفاة بالتأييد والتثبت، والبشرى بالنعيم المقيم في الدار الآخرة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠]؛ هكذا تقول الملائكة لمن لأهل الإيمان، وقد بينت الآية أنه لا بشرى يومئذ للمجرمين هنا أيضًا فائدة: ربنا –سبحانه وتعالى– ذكر كلمة المجرمين مكان كلمة المشركين أو الكافرين، إذاً إذا أطلقت كلمة المجرمين تتصرف إلى من؟ إلى المكذبين وإلى الكافرين طيب إذا جمع بين الكفر والإجرام ماذا يكون المراد كقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ [عبس: ٤٢]؟

هنا قال يوم ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ والحديث مع الكافرين، إذًا المجرمين المراد بهم هنا من الكافرين المكذبين، طيب إذا ذكر الكفر إلى جانب الإجرام، هنا فائدة جميلة جدًا قرأتها لبعض أهل العلم في قوله تعالى ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾؛ قالوا يعني كفرة في الاعتقاد، فجرة في الأعمال والسلوك،

يعني كفرهم هنا كفر اعتقادي وأعمالهم فيها من الفجور والفظاعة والسوء الشيء الكثير، وكأن في هذا إشارة إلى أنهم أيضًا أجرموا غاية الإجرام لما طلبوا رؤية الملائكة جهرة أو رؤية ربهم -سبحانه وتعالى- عيانًا، فهذا منهم أيضًا لون من ألوان الإجرام العملي الذي مارسه هؤلاء المشركون، ولعل هذه كلمة المجرمين هنا تفيد هذا المعنى.

ثم يقول -سبحانه وتعالى- ﴿ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾؛ ذهب ابن جرير وابن كثير وغيرهما من المفسرين أن هذا من قول الملائكة، يعني أن الملائكة تقول لهؤلاء المكذبين حجرًا محجورًا يعني حرام مُحرم عليكم البشرى في هذا اليوم، حرام وتحرم عليكم البشرى ويحرم عليكم إجراء الخير أو أي شيء من هذا النعيم في هذا اليوم، وقيل بأن هذا من قول الكافرين وأن الكافرين يقولون للملائكة حرام محرم عليكم أن تصيبونا بسوء، ولكن القول الأول ذهب إليه كثير من المفسرين والله -تبارك وتعالى- أعلم.

ثم يقول سبحانه: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾؛ هذه الآية في الحقيقة فيها بؤس شديد على ا لكافرين، وهناك أمر قد يلتمس على بعض الناس، بعض الناس قد يجد بعضًا من هؤلاء الكافرين يفعلون أفعالًا فيها من الخير ومن البر ومن المعروف فيظنون بهم ظنًا حسنًا ويظنون ويعتقدون أنهم ربما يكونوا أولى حالًا من المؤمنين المقصرين نقول: لا.. ثم لا... ثم لا... هؤلاء بأعمالهم هذه إذا وقفوا بين يدي رب العالمين -سبحانه وتعالى- ستصبح هبأء منثورًا، لا مكان لها ولا خير فيها، تعرفون لماذا؟ لفوات أصل الحسنى وهو الإيمان بالله -تبارك وتعالى- فالاعتقاد أولًا حتى يبنى عليه العمل، أما إذا عمل الإنسان دون اعتقاد صحيح فلا يقبل الله -تبارك وتعالى-منه هذا العمل.

والله -عز وجل- يخبر في يوم القيامة أنهم حينما يأتون إليه، ويقفون بين يدي رب العالمين -سبحانه وتعالى- ولهم أعمال يظنون أنهم سيعطون أجرًا عليها ستصبح هذه الأعمال هباء منثورًا، تعرفون ما الهباء المنثور؟ الهباء المنثور هو شعاع الشمس إذا دخل في فتحة من الفتحات، شعاع الشمس إذا دخل الكوة كما هو منقول عندك في التفسير، يعني فتحة من الفتحات، انظر إلى شعاع الشمس حينما يدخل من فرجة إلى داخل غرفة أو إلى داخل مكان أنت تجلس فيه، إذا نظرت إليه، ستجد أن هناك أشياء تراها تتحرك، ولكن إذا جئت لكي تمسكها لا تستطيع أن تمسكها، فهم لهم أعمال أصحبت كشعاع الشمس هذا كالهباء المنثور في شعاع الشمس، لا أثر لها ولا قيمة لها، بل هو أمر تافه، هو أمر حقير، ولا جزاء له عند الله -تبارك وتعالى-، والقرآن الكريم قد صرح بهذا في أكثر من موطن كقول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [النور: ٣٩]؛ ويضرب الله -عز وجل- مثلا لأعمال الكافرين هذه فيقول: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ ﴾ [الرعد: ١٨].

فلا يظن ظان إذا رأى أحدًا من هؤلاء الكافرين يظهر شيئًا من الإحسان للآخرين أنه سينال بذلك خيرًا عند رب العالمين ولكن هذه الأعمال لا أصل لها في يوم الدين لفوات أصل الإيمان برب العالمين -سبحانه وتعالى-.

ثم يقول ربنا -عز وجل- ونختم بهذه الآية هذا اللقاء ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾؛ رب العالمين سبحانه يخبر عن أهل الجنة ويخبر عن مصيرهم الحسن، إلى الدرجات العلى، إلى الأمكنة الفاضلة، إلى النعيم المقيم: ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾؛ وكل هذا بسبب الأعمال الفاضلة، بسبب الخير الذي قدمه أصحاب الجنة بين أيديهم، فهؤلاء الكافرين إن عملوا أعمالًا ظنوا أنها تنفعهم في يوم الدين لن تنفعهم، أما أهل الإيمان أعمالهم باقية لهم يوم الدين، يرتفعون بها عند رب العالمين درجات ودرجات؛ وقد استدل أهل العلم بقوله خير مستقرًا وأحسن مقيلًا على أن حساب أهل الجنة ينتهي في نصف

النهار؛ لأن القيلولة هي الاستراحة في نصف النهار، والقرآن الكريم أشار إلى يسر حساب أهل الجنة وعسر حساب أهل النار: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ [الانشقاق: ٧: ٨].

أما الكافرين قال فيهم: ﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر: ٨].

وعلى كل لا يتعارض قول اليوم أو فهمنا من هذه الآية أن الحساب ينتهي في نصف النهار لا يتعارض هذا مع قول الله -تبارك وتعالى- ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج: ٤].

لماذا؟ لأننا قلنا هذا يوم يقصر على المؤمن إلى نصف نهار، ويطول على الكافر.

ثم أخيرًا أقول في قوله تعالى إشارة إلى طيب مكان أهل الجنة، وإلى طيب زمان أهل الجنة؛ لأنه قال أصحاب الجنة يومئذ ﴿ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا ﴾ والمستقر مكان الاستقرار ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾والمقيل زمان القيلولة، فهم في أحسن الأمكنة وفي أطيب الأزمان، نسأل الله -عز وجل- أن يجعلني وإياكم وجميع الحاضرين والمشاهدين والمستمعين منهم، وصلي اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أحسن الله إليكم فضيلة الشيخ وجعله الله في ميزان حسناتكم.

فضيلة الشيخ وردتنا إجابات عدة على أسئلة الحلقة الماضية وكان السؤال الأول: ما المقصود بالأمثال؟.

تفضل يا أخ محمد أجب.

الأمثال هي ما جاء به المشركون من افتراءات على النبي -صلى الله عليه وسلم- كقولهم ساحر أو كاهن وذلك لتعجيز النبي -صلى الله عليه وسلم- وصد الناس عن رسالته.

إجابة صحيحة.

وكان السؤال الثاني: ما معنى تغيظًا وزفيرًا وهل النار ترى وتتكلم أيد إجابتك بالأدلة؟.

تفضل يا شيخ عبد الرحمن

شيخنا الفاضل حفظك الله ورعاك سمعوا لها تغيظًا وزفيرًا أي سمعوا غليانها وأصواتًا شديدة تنبعث منها، والتغيظ: هو شدة الغليان والزفير: هي أصوات شديدة تنبعث من النار، والنار ترى وتتكلم وتبصر يوم القيامة، بل لها عينان والدليل من القرآن: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾؛ وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق: ٣٠].

ومن السنة في الصحيحين من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (اشتكت النار إلى ربها فقالت يا رب أكل بعضي بعضًا فأذن لي أن أتنفس)؛ ومن السنة أيضا كما في مسلم: (أن

الله يقول للنار يوم القيامة هل امتلأت فتقول هل من مزيد فيضع رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض فتقول قد امتلأت بعزتك وكرمك)؛ أو كما قال -صلى الله عليه وسلم-.

ما شاء الله أحسنت جزاك الله خير يعني توسعت في الجواب وطالما كذلك أود أن أسألك سؤالًا أنت قلت تغيظًا يعني شدة الغليان فلمَ ذكر التغيظ مكان الغليان؟

شدة الغليان.

نعم فلما ذكر التغيظ التغيظ يفيد شدة الغليان؟ فلما قال تغيظا ولم يقل غليانا؟

لأن شدة الغليان يا شيخ الغليان كان الغليان يسير لكن التغيظ.

لما كان الغليان سببًا عن التغيظ ذكره مكانه.

قل لا أدري

جزاك الله خير إجابة طيبة.

يقول: في أول الأمر قال الله تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلا﴾ إلى أن قال ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ فما الحكمة من تأخير هذا الرد على المشركين؟.

تأخير قوله تعالى هكذا؛ في الحقيقة القرآن الكريم الذي نزل من عند رب العالمين -سبحانه وتعالى- كان النبي -عليه الصلاة والسلام- عندما تتزل عليه الآية يقول ضعوا هذه الآية في مكان كذا؛ ولذلك قال أهل العلم هذه مسألة توقيفية؛ يبقى الأمر كما سألت أنت الآن، لماذا تأخر الجواب يمكن أن نقول: بأن الله -عز وجل- استقصى في كلام المشركين أو ذكر كلما قالوه عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ثم بعد ذلك بدأ يرد عليهم، ويبين ضلال ما هم عليه، وما هم فيه، وقد يكون في مثل هذه الآية والله -تبارك وتعالى- أعلم أن يذكر الوعيد الذي توعدهم به بعد ما قال هذا القول، فكأنه أراد أن يجمع الرد عليهم مع ذكر وعيد لهم، والله أعلم.

يقول: هل يعتبر التوسل بأصحاب الأضرحة من العبادة من دون الله؟

لا شك أن التوسل بغير الله -تبارك وتعالى- ومما يقرب إليه مما هو غير مشروع لو يقرب إليه بما هو غير مشروع لا يجوز فهناك التوسل مشروع وهو محصور في الآتي طالما إنك سألت هذا السؤال من باب الفائدة إما أن نتوسل بأسماء الله الحسنى وصفات الله العلى فندعو الله -عز وجل- بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، التوسل معناه التقرب تحتاج شيئا من الله فتثني عليه بما هو -تبارك وتعالى- أهله، أو أن تتوسل إلى الله بالأعمال الصالحة كمحبتك للنبي -عليه الصلاة والسلام- وأتباعك له وبما تقوم به من عبادات ونوافل لرب العالمين وحديث الثلاثة الذين آووا إلى الغار من أفضل ما يستدل به على ذلك، أيضا من التوسل الجائز المشروع دعاء المؤمن للمؤمن فهي أيضا وسيلة، ومنها أننا نصلي صلاة الجنازة شفاعة من الأحياء لهؤلاء الأموات والدعاء إن شاء الله ينفع، وقد جاء النص عليه في القرآن ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ﴾ [الحشر: ١٠].

وأيضًا هناك نوع من أنواع التوسل ذكره بعض أهل العلم وهو أن يتوسل الإنسان بالهيئة أو الحالة التي هو عليها، يعني إنسان في ضائقة معينة فيذكر الهيئة أو الحالة التي هو عليها ويستدل عليها بالقرآن الكريم بقول موسى -عليه السلام- ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٤].

فهو استدل أو توسل إلى الله بالحالة التي هو عليها نأتي بعد ذلك إلى سؤالك هل دعاء أصحاب الأضرحة والتوسل بهم إلى الله -عز وجل- هو من هذه الأمور؟ هل أباحه النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ والأخطر من هذا وما هو واقع بالفعل أن هؤلاء لا يتوسل بهم مجرد توسلات بدعية، يعني أنا بس والله أريد أن تكون أنت واسطة بيني وبين ربي، لا... الآن أصبح المقبورون يدعون من دون رب العالمين -سبحانه وتعالى- ونحن نرى ونشاهد من يقدم لهم الشكاوى المكتوبة ويضعها في أضرحتهم وفي قبورهم، كأنه سيقوم ويقرأها بعد ذلك، وهذا لا شك إما أنه إن كان في التوسل مبتدع وسيلة إلى الشرك، وإن كان دعاءً صريحًا وطلبًا للمدد والغوث والاستغاثة من هؤلاء فهو شرك أكبر والعياذ بالله -تبارك وتعالى- ولكن واجبنا أننا لا نحكم على هؤلاء بالشرك، وإنما نقول بأنهم قد فعلوا فعل المشركين، ولكنهم ليسوا كذلك حتى تقام عليهم الحجة، ويصلو إليه الدليل والله أعلم.

هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه المحاضرة؟.

السؤال الأول: اذكر اختلاف العلماء في المراد بالمعبودين في قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ مع ذكر القول الراجح؟

السؤال الثاني: ما المراد بالهباء المنثور في قوله تعالى ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ وماذا تفهم من هذه الآية؟

الدرس الرابع

بعض أهوال يوم القيامة وموقف المشركين

أهلًا وسهلًا ومرحبًا بكم وبالحاضرين والمشاهدين الكرام والمشاهدات، ويسرنا في هذا اللقاء أن نواصل إن شاء الله -تبارك وتعالى- بعضًا من الآيات التي جاءت في سورة الفرقان، وسيدور الحديث إن شاء -تبارك وتعالى- في الآيات التي سنسمعها ونستمع إليها بعد قليل حول محورين اثنين.

المحور الأول: بعض أهوال يوم القيامة.

المحور الثاني: موقف المشركين من القرآن العظيم والرد عليهم.

والآن نستمع إلى الآيات المتعلقة بهذه المحاور من الشيخ عبد الرحمن فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً ﴿٢٥﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾ وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلا﴾ [الفرقان: ٢٥: ٣٤].

أحسنت وجزاك الله خيرًا؛ إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا إنه من يهديه الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله اللهم صلي وسلم وبارك وأنعم على عبدك ورسولك ومصطفاك وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين وبعد.

فبعد أن استمعنا إلى الآيات الكريمات من سورة الفرقان أتناول الحديث عن المحور الأول وهو كما ذكرت بعنوان: بعض أهوال يوم القيامة.

والآيات التي تندرج تحت هذا المحور تبتدئ بقول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً ﴾؛ رب العالمين-سبحانه وتعالى- يذكر خبرًا سيكون في يوم القيامة، وهو في الحقيقة من أهوالها، ومن شدة كروبها التي سيتأثر بها الكافرون والمشركون الذين كذبوا بيوم الدين وبالنبي الأمين -صلى الله عليه وآله وسلم- وتشقق السماء بالغمام يعني عن الغمام فالباء وعن: يتعاقبان ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ ﴾؛ أي يعني عن الغمام، وقد ورد في القرآن الكريم ما يدل على تشقق السماء، وهي مسألة عظيمة، فيها من هول الموقف وفجاعة المنظر الشيء الكثير، وجاء ذكر ذلك أيضًا في القرآن الكريم من هذا مثلًا قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٥: ١٧].

ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ [الرحمن: ٢٧].

وكقوله سبحانه: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴾ [الانشقاق: ١].

ومثله أيضًا: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ [الانفطار: ١]؛ فالانفطار هو الانشقاق فيمكن أيضًا أن يدل على ذلك قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ [النبأ: ١٩].

وهذا دليل جميل أيضًا يفيد أن السماء ستتفطر أو ستتشقق في يوم القيامة، وهذا يدل على كرب عظيم، وهول شديد سينال المشركين -كما ذكرت-.

أما عن نزول الملائكة في الغمام فقد جاء ذكر ذلك أيضًا في القرآن الكريم وأخبر رب العالمين -سبحانه وتعالى- في آيات كثيرة أن الملائكة ستتنزل أيضًا في هذا اليوم ومنه قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلاَئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ [البقرة: ٢١٠].

ومنه أيضًا قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢٢]؛ وأود أن أبين آية هنا تبين مجيء رب العالمين سبحانه والملائكة كما أخبر ربنا -عز وجل- ومجيء أمر الله -تبارك وتعالى- وهذه الآية جاءت في سورة الأنعام، وهي تدل على أن مجيء الله حقيقة كما يليق بجلال الله وكماله، ولا يمكن لمؤول بحال أن يؤول هذه الآية، وسأبين لكم من أين يأتي الدليل على ذلك، وهناك أولًا قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

فهنا كما يقول الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى- إن الله -عز وجل- نوع وفصل وردد القول فيمن سيأتي، فذكر أولًا إتيان الملائكة، ثم إتيان رب العالمين -سبحانه وتعالى- أو إتيان أمر الله عز وجل، ومع هذا التفصيل والتنويع والترديد يستحيل أن يكون المراد بمجيء أو إتيان الله -عز وجل- إتيان ملائكته أو إتيان أمره لماذا؟ لأن كل واحد من هؤلاء منصوص عليه في الآية، ولو قلنا بأن معنى أو يأتي ربك أنه تأتي الملائكة أو يأمر الله يصبح أو يأتي ربك كلام لغو لا معنى له، وهذا يتنزه عنه كلام رب العالمين -سبحانه وتعالى- ولكننا نؤمن بما سيتم في هذا الموقف وبما سيكون، وأن الملائكة ستأتي، وتتنزل من السماء، وأن رب العالمين -سبحانه وتعالى- سيجيء يوم القيامة مجيئًا يليق بجلاله وكماله؛ لفصل القضاء بين العباد، فالله -عز وجل- هو الذي يقضي بين عباده وطالما أنه يقضي بينهم -سبحانه وتعالى- جل في علاه أثبت القرآن الكريم مجيء رب العالمين -سبحانه وتعالى- لفصل القضاء بين العباد ودلت هذه الآيات على ذلك ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ ﴾.

ونزل الملائكة تنزيلًا عندئذ يقول رب العالمين سبحانه: الملك ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾؛ بهذه الآية يذكر رب العالمين -سبحانه وتعالى- أن الملك الحق لله -عز وجل- في يوم الدين، ولا يفهم إنسان مثلًا أن الملك اليوم ليس لله، لا...، ولكن لأنه قد يكون لأناس يمكن أن يطلق عليه ملك في الدنيا، إنما في يوم القيامة لا تطلق هذه الكلمة على أحد سوى رب العالمين -سبحانه وتعالى-؛ ولذلك في الصحيحين وغيرهما أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يقول: (يطوي الله -عز وجل- السموات بيمينه والأرضيين بيده الأخرى ثم يقول أنا الملك، أنا الجبار، أين الملوك؟ أين المتجبرون؟ أين المتكبرون؟ فلا يجيب أحد)؛ لأن الملك لله -سبحانه وتعالى- وحده دون سواه ولا تطلق هذه الكلمة على غير الله -عز وجل- وإن أطلقت كما يذكر أهل العلم اليوم من باب المجاز أو على أنه ملك ناقص غير تام -كما أشرت لكم- على ذلك من قبل إلا أنه في يوم القيامة الملك على سبيل الحقيقة هو لله -عز وجل- دون سواء فلا تطلق هذه الكلمة على غير الله أبدًا؛ ولذلك في سورة غافر يقول رب العالمين -سبحانه وتعالى-: ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾؛ ثم يجيب على نفسه فيقول: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦].

ولذلك نسب ملك يوم الدين إليه، فقال -كما نقرأ نحن في سورة الفاتحة في كل ركعة من ركعات الصلاة نقول-: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الفاتحة: ٤].

فأضاف الملك إلى يوم الدين؛ ولأن الذي يفصل في القضاء بين عباده والذي يؤول إليه الأمر وحده دون سواه هو رب العالمين -عز وجل- فهو الملك الذي يتصرف في أمر مملكته كيف يشاء: ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾؛ ثم يقول سبحانه: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾؛

المراد باليوم يوم القيامة، هذا اليوم يوم شديد، يوم صعب، يوم عسير على الكافرين، وقد أشرت إلى هذا -فيما مضى- والله -عز وجل- ذكر في القرآن الكريم، وأشار في القرآن الكريم إلى ما يفيد ذلك مرارًا فقوله سبحانه: ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٨: ١٠].

قوله على الكافرين غير يسير من باب التأكيد؛ لأنه ذكر أنه عسير ثم نفى بعد ذلك أن يكون فيه يسر على من؟ على الكافرين، ويفهم من ذلك أيضًا -كما أشرنا إلى هذا من قبل- إلى أن المؤمن ليس كالكافر في مثل ذلك، وإنما يخفف الله -عز وجل- أهوال هذا اليوم فلا يقع عليه ما يقع على الكافرين، ورب العالمين -سبحانه وتعالى- في كتابه قد أشار إلى هذا في كتابه: ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

فدل ذلك على أن الأمر مختلف بين الكافرين أعداء رب العالمين، وبين المؤمنين الذين سلموا أمرهم لله -سبحانه وتعالى- رب العالمين ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾.

ثم بعد ذلك تأتي آية تبين الحسرة والندامة التي ستلحق بهؤلاء الكافرين في يوم الدين، وفي هذا ألم شديد نفسي عليهم، كما سينالون ألمًا شديدًا حسيًا أيضًا بنار جهنم، وهو بذلك مما سيتم قبل أن يدخلوا نار جهنم، فالمحشر أيضًا سيصيبهم فيه من الأهوال والفرع والكرب ما يصيبهم به رب العالمين -سبحانه وتعالى- يقول رب العالمين سبحانه في الآية التالية:

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا﴾؛ يعض الظالم على يديه هذه العبارة هي كناية عن غاية الندم والحسرة التي يقع فيها الكافر؛ لأن النادم يعض على يديه من شدة الندم، وكأنه -والله أعلم- يريد إن كانت عنده طاقة أن يذهب بها إلى أمر محسوس فلا يجد إلا نفسه، فهو متأثر في قلبه ونادم ويشعر بهذا الندم ومع ذلك أيضًا يؤثر على جسده وأعضائه حينما يعض بأسنانه على يده، إن فعل ذلك، وهذا يفعله النادم صاحب الحسرة، فالعض المذكور في هذه الآية يفيد غاية الندم الذي سيقع فيه هؤلاء الكفار والله -عز وجل- أخبر في كتابه أنهم سيندمون، وأنهم ستصيبهم حسرة، على ما فرطوا في جنب الله -عز وجل- في هذا يقول رب العالمين سبحانه: ﴿ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ [الأنعام: ٣١] يحكي كلامهم.

ويقول رب العالمين أيضًا: ﴿ كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ﴾ [البقرة: ١٦٧].

وهنا تجدون أن الحسرة حسرة معنوية، حسرة قلبية، ثم تأتي بعد ذلك الحسرة الجسدية التي تنالهم أيضا في قوله: ﴿ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾.

فهؤلاء الكافرين سيفعلون ذلك ويندمون في وقت لا ينفعهم فيه الندم، والحسرة والألم والندم الذي يجدوه الكافر في هذا اليوم سيكون أيضًا فيه من النكال والعذاب الواقع عليه المؤثر فيه الشيء الكثير، وهو حينما يفعل ذلك وينالهم من الندم الشيء الكثير هنا سيتمنى أمرًا لم يحققه لنفسه في هذه الحياة الدنيا، فيقول عندئذ: ﴿ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾؛ هذا الكافر سيتمنى أن لو ليتخذ سبيلًا مع النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ما المراد بالسبيل؟ قال أهل العلم هو الطريق الذي يوصل إلى رضوان الله والجنة، سبيل يوصل إلى رضوان الله والجنة عليه من؟ عليه رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- هو الداعي لهذا السبيل، هو الداعي إلى الصراط المستقيم، وبالتالي يصبح معنى الآية: أن الكافر يتمنى أن لو صار في ركب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-

والكافرون اليوم يحاجون الله ورسوله ويطعنون على النبي -صلى الله عليه آله وسلم- يؤذونه بالقول والفعل ولكنهم في يوم القيامة عندما يصيبهم الندم وعندما تأتيهم الحسرات من كل مكان عندئذ سيتمنون أن لو اتخذوا مع النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- طريقًا سديدًا ومنهجًا رشيدًا قويمًا يصلون به إلى الله -عز وجل- وقد ذكر ربنا -سبحانه وتعالى- تمني الكافرين إتباع النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في آيات كثيرة والواحد منهم: ﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ [الفجر: ٢٤]؛ والله -عز وجل- أخبر عن هؤلاء الكافرين أيضًا أنهم يتمنوا أن لو كانوا مع أهل الإيمان: ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ [الحجر: ٢] كانوا يتمنون أن لو كانوا مع أهل الإيمان؛ لكن ستصيبهم حسرات ويقولون كما قال الله عنهم: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطَتُ فِي جَنْبِ اللهِ ﴾ [الزمر: ٥٦].

ونستفيد من ذلك أن الله -عز وجل- بعث النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وبين لهذه الأمة السبيل، وواجب على الناس إذن أن يسلكوا السبيل والطريق القويم الموصل إلى الله -عز وجل- لأن الله -سبحانه وتعالى- ببعثة الأنبياء والمرسلين الذين بينوا سبيل رب العالمين أصبح الإنسان مسئولًا كل المسئولية عن ما قدمت يداه، مسئول تمامًا عن ما قدمت يداه والله -عز وجل- يقول: ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ [المزمل: ١٩].

بعد أن بين الله لك الطريق، وأوضح لك الحجة، وبعث لك النبي الذي يدعوك إلى الله -عز وجل- صلوات الله وسلامه عليه، ما عليك إذن -يا أيها المؤمن المصدق ويا أيها الكافر المكذب- إلا أن تعود -يا مكذب يا منكر- إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وتتخذ طريقًا موصلًا إلى رضوان الله وجنة الله رب العالمين، وإن لم يفعل اليوم فسيندم غاية الندم ويتمنى أن لو كان فعل ذلك في يوم يقبل منه العمل، يقول الكافر عندما يعض علي يديه: ﴿ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾؛ ثم يقول الله -تبارك وتعالى- عنه: ﴿ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً ﴾؛ الكافر في هذا اليوم ينادي على نفسه بالويل والثبور والهلاك ﴿ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً ﴾؛ وقد ذكرنا في الدرس السابق أنهم سيدعون على أنفسهم بالويل والثبور في آيات كثيرة وردت معنا فيما مضى وفي آيات من القرآن الكريم، وإلى جانب ذلك أيضا سيتمنى أنه لم يتخذ خليلًا يصده عن طريق الله -سبحانه وتعالى- يتمنى أنه لو كان لم يتخذ مع الله -سبحانه وتعالى- من يهلكه، واتخذ مع الله -تبارك وتعالى- ومن يدله على طريق غير طريق الله -عز وجل- يهلك به، ويدخل به نار الجحيم يقول: ﴿ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً﴾؛ والله -عز وجل- قد بين في كتابه أن هؤلاء في يوم القيامة سيتمنون ذلك، وسيتبرأ أيضا بعضهم من بعض، يعني الخليل مع خليله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦: ١٦٧].

فعلى الكافر أن يحذر إذن أن يتخذ مع الله -عز وجل- من يضله عن طريق الله -سبحانه وتعالى- بل يسلك طريق الله وحده، ولا يلتفت إلى غير طريق ربه ومولاه، ولا يسلك طريقًا غير طريق النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-؛ لأن هذا هو الطريق الموصل إلى رضوان الله -عز وجل-، ثم تخبر الآيات أن هذا الكافر الذي سيتمنى بعد أن ينادي على نفسه بالويل والهلاك وذكرت الآيات تمنيه أنه ما كان ينبغي له وما كان يصح له ويستقيم أن يتخذ خليلًا يصده عن طريق الله، يخبر هذا الرجل الكافر أن الخليل الذي اتخذه صرفه عن الله -عز وجل- ﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً ﴾؛ الكافر سيقول هذا يوم القيامة معترفا به أن شريكه أو خليله الذي اتخذه من دون الله -عز وجل- أضله عن الذكر، والمراد بالذكر هنا؟ القرآن الكريم ولا شك أن السنة تابعة للقرآن الكريم؛ لأن القرآن الكريم لا يفهم ولا يمكن تطبيقه إلا من خلال سنة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-؛ وبعض أهل العلم يقول بأن الذكر يشمل القرآن الكريم والسنة معًا؛ فكلاهما ذكر وكلاهما وحي أوحي الله -تبارك وتعالى- بهما إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أو أن القرآن لفظه ومعناه من عن الله -عز وجل- والسنة لفظها من النبي -صلى الله عليه وسلم- ومعناها من عند رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

وقد ذهب كثير من المفسرين واشتهر هذا في كلامهم أن الذي أضل عن الذكر هو عقبة بن أبي معـيط، وأن الذي أضله هو أمية بن خلف أو أبي بن خلف أخوه وعلى كل العبرة ليست بخصوص السبب وإنما بعموم اللفظ فكل من سلك طريقًا غير طريق رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- سيتمنى ذلك وسينادي على نفسه بالويل والثبور في يوم الدين، يتمنى أنه لم يتخذ خليلًا وسينادي على نفسه بالهلاك، ويخبر أنه قد ضل عن طريق الله -عز وجل- بسبب من اتخذهم أخلاء له وأصفياء له وأحباب له من دون الله -تبارك وتعالى-.

ثم تختم هذه الآية بخبر عظيم ينفعنا نحن يا أهل الإيمان، وهو ما جاء في قول الحق -تبـارك وتعـالى-: ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً ﴾؛ الشيطان اللعين هو سبب البلايا التي يقع فيها الناس اليوم، والله -عز وجل- قد حذر عباده في كتابه من أن يسلكوا طريق الشيطان الرجي،م وأمرهم بأن يستعيذوا به، وبين لهم أنه هـو الـذي يدلهم إلى طرق الغواية، وأنه يصدهم عن طريق رب العالمين -سبحانه وتعالى- وهذا جاء في آيات كثيرة، ربما نمر على شيء منها أو أن نكون قد ذكرنا بعضها، ولكن أود أن أشير إلى قوله: ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً ﴾؛ خذولًا بصيغة مبالغة تفيد شدة خذلان الشيطان لأوليائه وأحبابه وأنصاره، يعني الإنسان يتخذ الشيطان حبيبًـا له، وليًا له، نصيرًا له، فيبالغ الشيطان في خذلان هذا الإنسان الذي اتخذه حبيبًا، والذي اتخذه وليًا، ويفهـم مـن الآية أن الإنسان الذي اتخذ الشيطان وليًا كان يود ويتمنى أن ينصره الشيطان في هذا اليـوم، وأن يقـف إلـى جواره، وأن يؤيده فيما هو عليه، ولكن الشيطان سيخذله، والله -عز وجل- في كتابه أفاد عن موقفين موقف في الدنيا وموقف في الآخرة، وفي كلا الموقفين خذلان من الشيطان لأوليائه.

الموقف الذي كان في الدنيا: هو ما قام الشيطان به من تهيئة المشركين كي يخرجوا للمسلمين ويلاقونهم فـي غزوة بدر، الشيطان هيأ المشركين لذلك، وأوعز لهم بهذا الأمر، وزينه لهم، وفتنهم بـه، فخـرج المـشركون، وهناك لما وجد الشيطان ملائكة الرحمن تقف صفًا إلى صف بجوار أهل الإيمان تخلى عـن أحبابـه وأوليائـه وأنصاره الذين كانوا يزعمون هم أنه وليًا لهم ونصيرًا لهم: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٨]؛ أنا معكم أنا واقف إلى جواركم انظر كيف جاء الخذلان:﴿ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ ﴾؛ يعني هو يشاهد مـا لا يـشاهده هؤلاء، وقد قيل في قوله تعالى ﴿ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ ﴾؛ أنه رأي ملائكة الله -عز وجل- تقاتل إلى صـفوف أهل الإيمان، وعندئذ نكص الشيطان على عقبيه وتبرأ من أوليائه الذين اتخذوه وليًا، وأحبابه وأنصاره الذين كانوا يتمنون أن ينصروا على يدي هذا الشيطان فخذلهم هذا الشيطان.

هذا الموقف أين كان؟ كان في الدنيا.

في موقف أيضًا سيكون فيه خذلان من الشيطان لأوليائه في الدار الآخرة: الشيطان كان يقول بعض أهل العلم سيقف خطيبًا بين أتباعه يوم القيامة -صاحب بيان ولسان سيقف خطيبًا بينهم ويكلمهم كلمات تزيـدهم حـسرة وندامة: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَـيْكُم مِّـن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُم﴾ [الرعد: ٢٢]؛ هنا أيضًا الشيطان يخـذل مـن أطاعه، وصار في ركابه، ويتبرأ منه، ويقول له لا تلومني على ما فعلت، ولكن لوم نفسك أنت؛ لأنك أنت الذي اتبعتني فليت من يسير في ركاب الشيطان ويستمع لأهوائه وانحرافاته ولضلالته ولغواياته يعرف أن الـشيطان سيخذله في الدنيا وفي الآخرة، وهذا الآية تفيدنا فائدة عظيمة جدًا وهي: ﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَـاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً ﴾؛ هذه الفائدة أن يعتني الإنسان بقرنائه، يعني الإنسان يعرف مع من يسير، ومع من يقوم؛ لأن هذه الآية أفادت أن القرين يؤثر في قرينه، ثم بعد ذلك عندما يحتاج إليه قرينه، سيتخلى عنه ورب العالمين -سبحانه وتعالى- ذكر في كتابه: ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

استثنى أهل الإيمان، أما غيرهم فسيكون بينهم عداوة يوم الدين، فعلى الإنسان أن يفتش عن قرينه، والقرآن الكريم قد ذكر موقفًا عجيبًا فيا ليت الناس يتأملون هذا الكتاب، وتنصرف هممهم إلى فهمه، أخبر ربنا -عز وجل- في كتابه عن رجل أخبر أن قرينه كان سيهلكه لو أطاعه، ولولا أن تداركته رحمة الله -تبارك وتعالى-: ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ [الصافات: ٥١: ٥٦].

يعني كنت أكون معك في قعر- أو في نار- جهنم، فأخبر هذا المؤمن الذي تداركته رحمة رب العالمين أنه لو اتبع هذا الرجل القرين على ما هو عليه لكان معه في الجحيم.

المحور الثاني: في هذا اللقاء والذي هو بعنوان: موقف المشركين من القرآن العظيم والرد عليهم:

وفي هذا يقول رب العالمين سبحانه: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾؛ يخبر الله -تبارك وتعالى- عن موقف سيحدث من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وهو عبارة عن شكاية يشكو النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى ربه، ويخبر أن قومه من المشركين المكذبين هجروا كتاب رب العالمين هجران المشركين للكتاب تمثل في أشياء متعددة:

منها: عدم إيمانهم به.

منها: عدم سماعهم له.

منها معارضاتهم وتعنتهم مع النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وطلبوا منه آيات غير القرآن.

كل هذا يعني يفيد هجر هؤلاء المشركين للقرآن الكريم، وكان المشركون ينصرفون ويصرفون من يحاول الاستماع إلى رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ويوصي بعضهم بعضًا بذلك ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ [فصلت: ٢٦].

يعني أكثروا اللغط، والكلام عندما يقرأ النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- حتى لا يجد القرآن الكريم مجالًا إلى قلوب هؤلاء، وهذا هو هجر المشركين للقرآن الكريم، عدم إيمانهم به، عدم استماعهم إليه، تحريفهم لهذا الكتاب، وتعنتهم في طلب الآيات من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ولا يؤمنون بالقرآن، يريدون آيات أخرى سوى كتاب رب العالمين، كل هذا هجران من هؤلاء المشركين لكتاب الله -سبحانه وتعالى- ولكن ونحن ندرس الآيات من كتاب الله -عز وجل- يجب أن نلفت النظر لأمور تتعلق أيضًا بأهل الإيمان أو من بعض أهل الإيمان هجران لكلام الله -تبارك وتعالى- وهجران القرآن الكريم لدى أهل الإيمان يتمثل في مواقف أو في مواطن أخرى تختلف عن هذه المواقف لدى المشركين فمن لم يقرأ كتاب رب العالمين فقد هجر كلام الله -عز وجل- ومن لم يتدبر القرآن الكريم فقد هجر القرآن الكريم، ومن يعمل بأحكام القرآن الكريم فقد هجر القرآن الكريم.

وهناك مسألة مهمة أيضا أرى أن بعض الناس لا يلفت النظر إليها وهي أن الاستشفاء بالقرآن الكريم، فالاستشفاء القرآن الكريم منصوص عليه في القرآن، وفي سنة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢].

والنبي -عليه الصلاة والسلام- أيد وصدق من رقى بفاتحة الكتاب، وقام من رقي كأنه نشط من عقال، كأنه كان مربوط ومقيد ومحبوس؛ فبعد هذه الرقية بكلمات آيات الله -عز وجل- من فاتحة الكتاب أصبح هذا الرجل قائمًا يتحرك كما يشاء هنا وهناك، وعلى هذا فإنني أدعو عموم المسلمين بأن يكونوا مع القرآن الكريم كالتالي:

أولا: بأن يقرءوا كتاب الله -عز وجل-.

ثانيا: أن يتدبروا الآيات؛ وأن يتعلموها وأن يعرفوا مراد الله -تبارك وتعالى- فيها.

الثالث: أن يعملوا بأحكام القرآن الكريم فيحلوا حلاله ويحرموا حرامه ويعتقدوا ما جاء فيه من عقائد ولا يخرجوا عن ذلك.

للأسف الشديد كون بعض أهل الإيمان يصرفوا وجهه هنا أو هناك ليتلقى أوامر وتعليمات وقضايا وشرائع وعقائد من غير كتاب الله -عز وجل- أو مما لم يأتي في سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- هجر لكلام الله -عز وجل- فكتاب الله -سبحانه وتعالى- لم يأت لكي نحتفظ في صناديق ونقدمه على هيئة هدايا في المناسبات، أو أن نفتتح به أيضًا بعض الحفلات، وإنما كتاب الله -عز وجل- كتاب هداية جاءنا من عند رب العالمين وهو كلام الله -عز وجل- لكي نقرأه ونتدبره ونعمل بأحكامه ونتأدب بآدابه ونعتقد بما جاء من اعتقادات في كتاب الله -تبارك وتعالى- وهذا أمر لازم على كل مؤمن ومؤمنة.

فإذا كان أهل الشرك والضلال والطغيان قد انحرفوا عن هذا القرآن وصدوا الناس عن سماعه وكذبوا ما جاء فيه فأهل الإيمان عليهم أن يخالفوا أهل الشرك والضلال ويقبلوا على كتاب الله -تبارك وتعالى- ومن هجران القرآن الكريم: الانصراف عنه إلى ألوان من اللهو الباطل والكلام الذي لا ينفع كالغناء وغير ذلك مما يزعم بعض الناس أنه يطرب به، فو الله لو قرأ القرآن الكريم لو جد حلاوة في صدره لا يجدها عن سماع غير هذا القرآن أبدًا؛ لأن القرآن كلام رب العالمين -سبحانه وتعالى- وأنا أنتهز هذه الفرصة وهذه المناسبة لأوجه هذه النصيحة لإخواني المؤمنين أقبلوا على كتاب رب العالمين -سبحانه وتعالى- قراءةً وتدبرًا وعملًا وتأدبًا بآدابه، والأخذ بالمعتقدات الواردة فيه.

ثم يقول رب العالمين -سبحانه وتعالى- يسلي النبي -عليه الصلاة والسلام- لما وقع فيه هؤلاء المشركين: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾؛ ولما شكا النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- هجران قومه للقرآن الكريم، وهذا ولا شك يؤثر على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لما شكا إلى ربه هذا أنزل الله -عز وجل- عليه هذه الآية من باب التسلية لقلبه، كأنه يقول له: إن حصل من المشركين ذلك، وكذبوا بما جئت به، وصدوا الناس عنه، وهجروا الكتاب الذي أنزلته عليك؛ فاعلم يا نبي الله -صلوات الله وسلامه عليه- أنه جعلنا لكل نبي عدوًا من المجرمين، كل نبي من الأنبياء السابقين المتقدمين عليك كان يواجه بمثل ما وجهت به ويجابه بمثل ما جوبهت به؛ ولذلك يقول الله -عز وجل- في سورة الأنعام: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢].

فالله -عز وجل- أخبر شياطين الإنس وشياطين الجن كان كل واحد منهم يواجه النبي المرسل إليه، طالما أنه ينتسب إلى الشيطان ويسير في ركاب الشيطان والله -عز وجل- حينما ينزل على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- هذه الآية إنما يسلي فؤاده وقلبه بها ويبين له أنه ليس بدعًا من الرسل؛ ولذلك نحن نجد في القرآن الكريم كثيرًا ما يذكر الله -عز وجل- في كتابه قصص المكذبين للأنبياء والمرسلين، وفي هذا أيضًا تسلية للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وتأملوا مثلًا قول الله: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٤].

فقوله ولقد جاءك من نبأ المرسلين: إشارة إلى أن هذا النبأ وأن هذا الخبر الذي أنزل على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- تسلية له -عليه الصلاة والسلام-.

والله -عز وجل- أخبر بأنه هو الذي يهدي إلى الصراط المستقيم؛ ولذلك قال ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾؛ يعني أن الله -عز وجل- إذا أراد هداية هؤلاء الناس هداهم كما أنه -سبحانه وتعالى- هو الذي يعلي كلمته وينصر من يشاء بقدرته.

وقوله هنا: ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾؛ أيضًا فيها ثناء على رب العالمين سبحانه، ونسبة الأمور كلها إليه -عز وجل- وهذا فيه من الثناء على الله سبحانه ما يليق به وهو -عز وجل- أهل الحمد وأهل للثناء.

ثم يقول سبحانه: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾؛ تواصل الآيات ذكر تعنت المشركين للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وتكذيبهم له -عليه الصلاة والسلام- ومن ذلك قوله ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾؛ يعني طلبوا أن ينزل القرآن الكريم على النبي -عليه الصلاة والسلام- جملة كما نزلت التوراة والإنجيل والزبور على من نزلت عليهم جملة، ولقد سبق أن ذكرت ذلك في أول لقاء معنا ومعكم في سورة الفرقان، والله -عز وجل- أخبر في هذا الآية أنه لحكمة عظيمة نزل هكذا القرآن على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ومن هذه الحكم العظيمة البالغة في الغاية منتهاها: تثبيت قلب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كذلك لنثبت به فؤادك.

فإنزال القرآن الكريم منجمًا مفرقًا على فترات متفاوتة متباعدة في السنين؛ هذا ليسهل حفظه على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-.

النبي -عليه الصلاة والسلام- كما هو معلوم من حياته أنه كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، فإنزال القرآن عليه جملة واحدة والطلب منه أن يحفظه جملة واحدة فيه من المشقة عليه ما فيه؛ ولذلك الله -عز وجل- قال له: ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ [القيامة: ١٦: ١٩]؛ هذا يؤكد أن نزول القرآن الكريم هكذا من باب أن يسهل حفظه على النبي -عليه الصلاة والسلام- وقد ذكر العلماء أيضًا أن نزول القرآن هكذا لكي يواجه الحاجة التي يتطلبها المجتمع المسلم، والحاجة التي تستدعيها الأوضاع والأحوال والحياة مع النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فيتنزل القرآن الكريم ليلبي الحاجات التي يحتاج إليها المجتمع المسلم والأفراد الذين ينتمون إلى هذا المجتمع المسلم؛ ولذلك يعد إنزال القرآن منجمًا مفرقًا فضيلة للقرآن الكريم، والإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله تبارك تعالى- أشار إلى ذلك قال أن القرآن الكريم أشرف كتاب على الإطلاق والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أعظم رسول على الإطلاق ونزل القرآن الكريم هكذا لعناية كبيرة من الله -عز وجل- بهذا القرآن الكريم، وتشريف للنبي -عليه الصلاة والسلام- أن ينزل القرآن الكريم عليه صباحًا ومساءً ليلًا ونهارًا هذه عبارة الإمام الحافظ ابن كثير.

قال هذا فيه تكريم وتشريف للنبي -عليه الصلاة والسلام- أن ينزل القرآن عليه في أحوال مختلفة، وفي فترات متعددة، وهذا يعني فيه ربط للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بربه، وربط لقلبه عندما يتنزل أيضًا عليه القرآن الكريم فيسهل حفظه عليه؛ ولذلك ختم ربنا -سبحانه وتعالى- هذه الآية بقوله: ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾؛ قال أهل العلم رتلناه يعني بيناه تبينًا ووضحناه بذلك، بكونه جاء هكذا منجمًا مفرقًا على حسب الوقائع والأحداث، وعلى سنوات عدتها -كما تعلمون- كم سنة؟ تنزل القرآن في كم سنة؟ ثلاثة وعشرين عامًا فهذا مثل على فترات؛ لكي يكون بيانه واضح، وأخذه سهل، وقيل في قوله تعالى: ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ يعني: فسرناه تفسيرًا؛ ثم يدافع رب العالمين -سبحانه وتعالى- عن الكتاب الذي أنزله على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يدافع عنه ويدافع عن الذين يؤمنون بهذا القرآن:﴿ وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾؛ يعني هؤلاء الكفار كانوا يحاولون أن يأتون بشبهات حول القرآن الكريم ليست عندهم أدلة على بطلان القرآن الكريم فالقرآن كيف

تحداهم رب العالمين به، ولكنهم ما استطاعوا أن يقفوا أمام هذا التحدي وعجزوا أن يأتوا بشيء حتى ولو كـان يشبه القرآن، وليس ككتاب الله -عز وجل-، والله -عز وجل- هنا يبين عجزهم وضعفهم، وقصور أفهامهم، وعلو مرتبة كتابه، وكلامه، الذي نزل من عنده سبحانه، وقال: ﴿ وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾؛ يعني بحجة، أو بشبه ليست بأدلة إلا جئناك بالحق؛ لأن القرآن نزل من عند الله -عز وجل- بالحق، والقرآن كله حق، فنزل القرآن الكريم من الحق والقرآن الكريم كله يشتمل على الحق الذي جاء من عند رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

﴿ وأحسن تفسيرًا﴾ يعني أحسن وضوحًا، فكلام الله -عز وجل- أبلغ الكلام وأوضح الكلام وأفصح البيان؛ لأنه كلام الله -تبارك وتعالى- رب العالمين، وهذه الآية أيضًا تدل على شرف هذا القرآن الكريم، وأن أفهام العباد وعقول العباد تقصر عن أن تأتي بشيء ككتاب الله -تبارك وتعالى-، ولا يمكن بحال أن حتى لو أجتمع الإنس والجن على أن يشككوا في شيء من كتاب الله -عز وجل- بكلمات يأتوا بها من عند أنفسهم ما استطاعوا؛ لأن كلام الله -عز وجل- هو أفضل أنواع الكلام على الإطلاق، كلام الله -عز وجل- ويكفي أن نعلم هو أن نوقن بهذه الآية: ﴿لاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾.

ثم يقول رب العالمين -سبحانه وتعالى- ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾؛ هذه آية يجب أن يخاف ويسمعها كل إنسان له عقل، له فؤاد وقلب سليم، عندما يستمع إلى هذه الآية ويبين سوء الحالة والمصير وفظاعة الهيئة التي سيحشر عليها أهل الكفر والزندقة والضلال -أعاذنا الله وإياكم منهم- يعني نفسه تأخذه إلى العودة إلى الله -تبارك وتعالى- من قريب؛ لأن هذه الآية تبين سوء مصير هؤلاء المشركين الكافرين المكذبين، وكيف أنهم سيحشرون على أسوأ حالة، وعلى أقبح منظر عند رب العالمين - سبحانه وتعالى- قال جل ذكره: ﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾؛ رب العالمين سبحانه أخبر أن هؤلاء الكافرين، الله -عز وجل- أحسن خلقته في الدنيا، تجده قائم مستقيم، رأسه قائمة، ولكنه لما كذب بالله -عز وجل- أذله ربه -سبحانه وتعالى- في يوم الدين فبعد أن كانت له قامة قائمة مستقيمة سيحشر يوم القيامة على وجهه: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ [الأحزاب: ٦٦]. قال أهل العلم: "تقلب وجوههم في النار" أنه أيضًا معناه أنه يحشر على وجهه، كما قال: ﴿ ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار﴾؛ لأنهم جاءوا بالسيئات وخالفوا ما جاء من عند رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

والآيات التي تبين ما سيكون عليه الكافرين من حالة وحشر لهيئة سيئة ستلحق بهم كثيرة في كتاب الله - تبارك وتعالى- وسيتمنى الكافر عندئذ أنه لو أطاع الله لو أطاع رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ ﴾ [الأحزاب: ٦٦]؛ فهم كما ذكر رب العالمين -سبحانه وتعالى- سيحشرون على وجوههم إلى جهنم؛ ولذلك في الصحيحين وغيرهم من حديث أنس -رضي الله تعالى عنه-: (أن رجلًا جاء إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وسأله هذا السؤال كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ بماذا أجابه النبي -صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال: الذي أمشاه على رجليه قادر على أن يحشره على وجهه يوم القيامة) فالذي جعله يمشي على قديمين اليوم وقائمًا مستقيمًا ورأسه إلى أعلى قادرًا أيضًا على أن يجعله على وجهه في يوم القيامة، والله -عز وجل- ذكر أن حشرهم على وجوههم يوم القيامة فيه من الشدة والفظاظة الشيء الكثير، تأملوا مثلًا قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القمر: ٤٨].

ولكن أريد "يوم يسحبون" يعني أيضًا ليس حشرًا عاديًا، وإنما فيه من الشدة على هؤلاء الكافرين جزاًء وفاقًا؛ لتكذيبهم برب العالمين -سبحانه وتعالى- تكذيبهم أيضًا بالنبي الكريم -صلى الله عليه وآله وسلم- ﴿ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾؛ هل تفيد هذه الآية أن هناك ما يمكن أن يكون فيه شر غير جهنم؟ ولا جهنم تشتمل على جميع أنواع الشرور والعياذ بالله -تبارك وتعالى-؟ يعني بذلك أن صيغة التفضيل الواردة هنا ﴿شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلا﴾؟

يقول أيضًا: بأن هذه الآية وصيغة التفضيل هنا أراد الله -عز وجل- بها -والله أعلم- مطلق اتصاف النار بالشر؛ ليذهل فيها ذهن الإنسان فيها مذهلًا بعيدًا، ويعني يضع عينيه أو نصب عينيه هذا الموقف؛ فيلجأ إلى ربه -سبحانه وتعالى- ومولاه.

هنا أيضا مسألة: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾؛ هل هذه الآية تتعارض مع قول الحق -تبارك وتعالى- مثلًا ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم: ٣٨]؛ يعني التي تثبت أن هؤلاء يسمعون ويبصرون، أقول هذا لماذا؟ لأن الله -عز وجل- أخبر في كتابه أيضًا في كتابه في سورة الإسراء أن هؤلاء سيحشرون والله -تبارك وتعالى- على هيئة، لا يبصرون ولا يسمعون فيها ولا يتكلمون فيها، وذلك كما قال -سبحانه وتعالى-: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ [الإسراء: ٩٧].

فهل هذا يتعارض؟ كونهم عميًا وبكمًا وصمًا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾؟

نقول: لا يتعارض. لماذا؟ لأن هذا يتم في أحوال مختلفة، فهم في أحوال يحشرون هكذا، كما ذكر ربنا -عز وجل- هذا الحشر، ثم بعد ذلك إذا وقفوا بين يدي الله -عز وجل- كان لهم سمع وكان لهم بصر، نسأل الله -عز وجل- أن يعيذنا من النار، ومن أهل النار وختامًا أصلي على النبي الكريم -صلى الله عليه وآله وسلم-.

بارك الله فيكم فضيلة الشيخ كان سؤال الحلقة الماضية هناك سؤالان:

السؤال الأول: اذكر اختلاف العلماء في المراد بالمعبودين في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾؛ مع ذكر القول الراجح؟

يقول: قال مجاهد عيسى وعزير والملائكة هم الذين يعبدوا من دون الله ﴿ وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ ﴾ [المائدة: ١١٦]؛ ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠]؛ والراجح عند أهل العلم: كل ما عبد من دون الله -تبارك وتعالى- من البشر أو الحجر والملائكة والله أعلم.

هذا صحيح، لا يقتصر المعبودون على الملائكة أو عزير وعيسى، وإنما يشمل كل من عبد من دون الله -تبارك وتعالى- صحيح جزاك الله خير.

والسؤال الثاني: ما المراد بالهباء المنثور في قوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]؟ وماذا تفهم من هذه الآية؟.

يقول: المراد بالهباء المنثور في هذه الآية كما قال علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-: هو شعاع الشمس إذا في الكوة أي في فتحة من الفتحات، ويفهم من هذا الآية أنهم لما فاتهم أي المشركين لما فاتتهم الحسنى وهي أصل الإيمان بالله -عز وجل- فنثرت أعمالهم كالهباء المنثور فلا فائدة من ورائها ولا نفع منها ولا جدوى.

جواب سديد.

يقول: في قول الله -عز وجل- ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾؛ هل هذا النداء لسان حال الكافر فقط أم يراد به المسلم العاصي أيضا؟.

لا شك أن المسلم العاصي وقد جاء ذكر ذلك أيضًا والإشارة إليه في القرآن الكريم أنه سيتمنى أن لو ازداد من الحسنات، وأيضًا في سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- ما يعود ذلك فالإنسان -كل إنسان- حتى من أولياء الله الصالحين سيتمنى مع كثرة فعله وطاعته أن لو أزداد عندما يجد فضل الله -تبارك وتعالى- على عباده.

هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه المحاضرة مشكورًا.

السؤال الأول: ماذا تفهم من قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا﴾؟ وما المراد بالسبيل هنا؟

السؤال الثاني: اذكر الهيئة التي يحشر عليها الكافر يوم القيامة مع ذكر دليل من القرآن الكريم ومن السنة النبوية.

الدرس الخامس

بعض قصص الأنبياء والمرسلين

أهلًا وسهلًا ومرحبًا بكم وبالحاضرين والمشاهدين والمشاهدات الكرام، ويسرني أن ألتقي بكم مجددًا في هذا اللقاء، ومع بعض من سورة الفرقان وإن شاء الله -تبارك وتعالى- سأتحدث عن الآيات التي سنستمع إليها بعد قليل حول محورين اثنين:

المحور الأول: ذكر بعض قصص الأنبياء والمرسلين.

المحور الثاني: استهزاء المشركين بالصادق الأمين -صلى الله عليه وآله وسلم- ووعيد الله له، ونستمع الآن إلى هذه الآيات مع الأخ عبد الرحمن فليتفضل:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلاً ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاً تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلاَ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا﴾ [الفرقان: ٣٤-٤٤].

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين وبعد:

كما أشرت، هذه الآيات التي استمعنا إليها تدور حول محورين:

المحور الأول: ذكر بعض قصص بعض الأنبياء والمرسلين، وافتتح الله -عز وجل- هذا القصص بقصة موسى -عليه السلام- فقال جل ذكره: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴾ لو تذكرنا وفي لقاءات سابقة، وفي اللقاء السابق بالتحديد الآية رقم ٣١؛ والتي أشارت إلى أن الله -تبارك وتعالى- جعل لكل نبي عدوًا من المجرمين، ثم أتت هذه الآيات بعد ذلك لتفصل شيئًا من العداوة التي دارت ووقعت بين الأنبياء والمرسلين وبين أقوامهم؛ وذلك لينزجر كفار قريش عن غيهم وبغيهم وتعنتهم مع الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- لأن هذه الآيات كما سنعلم ذلك ونشير إليه -تبارك وتعالى- بينت مصير المكذبين الظالمين الجاحدين لنبوة الأنبياء السابقين، فكان أن أهلكهم رب العالمين -سبحانه وتعالى- ولذلك هذا القصص من فوائده زجر هؤلاء الناس الذين يعترضون على نبوة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- سواء كانوا في الماضي وقت بعثته -عليه الصلاة والسلام- وهو حي أو بعد ذلك وحتى عصرنا الحاضر، فهؤلاء الناس الذين لم يؤمنوا ولم يصدقوا لو قرءوا هذه الآيات وأدركوا ما فعله رب العالمين -سبحانه وتعالى- بالمكذبين الجاحدين لرجعوا إلى رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

وذكر الله -عز وجل- في هذه الآيات وتحت هذا المحور ثلاث قصص:

القصة الأولى: قصة موسى -عليه السلام- وهي الآية الأولى التي معنا، والله -عز وجل- أخبر فيها أولًا: أنه آتى موسى -عليه السلام- الكتاب، آتاه يعني أعطاه، والكتاب هو التوراة، والله -عز وجل-. أنزل التوراة جملة

على موسى –عليه السلام–، والتوراة كما صح الخبر عن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– أنها مكتوبة بيد الله –تبارك وتعالى–، وأنزلها رب العالمين –سبحانه– على نبيه موسى –عليه السلام– وفيها من الرحمة ومن الخير ومن الهداية والنور ما فيها، كما قال رب العالمين: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة: ٤٤] ولكن لو سألت الآن السامعين التي بين اليهود اليوم هي التوراة التي فيها هدى ونور؟ هل هي التوراة التي نزلت على نبي الله موسى عليه السلام؟

كلا ثم كلا؛ لأن هؤلاء القوم حرفوا وغيَّروا، وبدلوا وانحرفوا، ولعبوا بأيديهم فيما أنزله رب العالمين –سبحانه وتعالى– بل إنهم ذكروا فيما سموه بعد، وأطلقوا عليه بالتلمود، أو التوراة، ذكروا فيه أشياء لا تليق بآحاد من البشر فضلًا عن أنبياء الله ورسله، فضلًا عن رب العالمين –سبحانه وتعالى– وليس هذا مجال ذكر ذلك الآن.

الله –عز وجل– آتى موسى التوراة كي يدعو بني إسرائيل إلى الله –عز وجل– من خلال ما أنزله ربه –سبحانه وتعالى– عليه، وأفادت هذه الآية أن رب العالمين سبحانه جعل هارون مع موسى –عليه السلام– قال: ﴿ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴾ ومعنى وزيرا يعني مؤازرًا له، مؤيدًا له، ناصرًا له، يدعو معه إلى الله –تبارك وتعالى– وقد ذهب بعض الناس إلى أن هارون –عليه السلام– ليس نبيًا؛ بسبب قول الله –تبارك وتعالى– هذا: ﴿ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴾ قالوا الوزير يكون مع المرسل وليس كالمرسل بحال فهارون ليس كموسى وليس بنبي وإنما هو مناصر مؤيد وليس بني ولا برسول؛ وفي الحقيقة أن هارون –عليه السلام– نبي رسول، والله –عز وجل– قد ذكر ذلك في كتابه موسى –عليه السلام– طلب من ربه –سبحانه وتعالى– أن يجعل أخاه هارون معه كما قال ربنا –سبحانه وتعالى– في كتابه عن موسى –عليه السلام– كما في سورة طه: ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴾ [طه: ٣٠].

استجاب رب العالمين –سبحانه وتعالى– دعوة نبي الله موسى –عليه السلام– وأرسل هارون معه، وجعل هذا من رحمته –سبحانه وتعالى– بنبيه وعبده موسى فقال: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٥٣].

وموسى –عليه السلام– كان مرسل إلى أكبر طاغية عرف على ظهر هذه الأرض، فكان من تأييد الله –عز وجل– ورحمته بموسى –عليه السلام– أن يشرك هارون معه في هذا الأمر، ليدعو إلى الله –تبارك وتعالى– بدعوة موسى –عليه السلام– فكلاهما توجه إلى فرعون بأمر الله –عز وجل– لهما، كما في الآية التالية: ﴿ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴾؛ وتلاحظون ﴿ فَقُلْنَا اذْهَبَا ﴾ يعني بضمير المثنى الذي يفيد أن موسى وهارون كلاهما مرسل من قبل الله –تبارك وتعالى– وكلاهما مكلف بالذهاب إلى فرعون، ورب العالمين يعظم نفسه وذاته فيقول ﴿ فَقُلْنَا اذْهَبَا ﴾، وهذا أسلوب عربي سبق أن أشرت لكم به، فقلنا اذهبا إلى من؟ ﴿ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾، من هم؟ هما فرعون وجنوده؛ لأن فرعون وجنوده كذبوا بآيات الله –تبارك وتعالى– وهذا التكذيب –كما ذكر أهل العلم– يشمل التكذيب بآيات الله الكونية ويشمل التكذيب بآيات الله الشرعية التي أيد وبعث بها موسى –عليه السلام– ومن ذلك معجزات التي أيد الله –تبارك وتعالى– بها نبي الله موسى –عليه السلام– ولكن فرعون بغى وطغى وتكبر ولم يستجب لموسى –عليه السلام– ولا أسبق الكلام الآن فسيأتي حديث بعد ذلك إن شاء الله –تبارك وتعالى– في سورة الشعراء حول موقف موسى من فرعون، وبأي شيء واجه فرعون موسى –عليه السلام– أو التكذيب الذي ناله والوعيد والتهديد الذي ناله موسى –عليه السلام– من هذا الرجل الطاغية، ولكن هذه الآية اختصر ربنا –سبحانه وتعالى– الحديث فيها وبيَّن أن فرعون رد دعوة موسى وهارون –عليهما السلام– ولم يستجب لهما فكان وعيد الله –تبارك وتعالى– عليه شديد وقوي أغرقه رب العالمين –سبحانه وتعالى– ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ ﴾ [يونس: ٩٠]؛ هذه الآية من سورة يونس بينت أن رب العالمين –سبحانه وتعالى– أهلك فرعون بأي شيء؟ أهلكه بالغرق، وسيأتي تفصيل لذلك –إن شاء الله–، وهنا أشارت الآية إلى أن الله دمره تدميرًا، والتدمير هنا هو الهلاك؛ ولذلك ربنا –سبحانه وتعالى– ذكر هذا مؤكدًا لما كذب فرعون بين أنه أهلكه بالتدمير، وأكد هذا

التدمير بالمفعول المطلق فدمرناهم تدميرًا يعني أهلكناهم إهلاكًا؛ ولذلك رب العالمين -سبحانه وتعالى- في سورة هود مما يوضح قوله تعالى: ﴿ فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ في سورة هود لما ذكر أن فرعون يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار فعقب على ذلك بقوله ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢]؛ فكأن هذا يعني أن أخذ الله -سبحانه وتعالى- لفرعون كان أخذًا شديدًا وكان أخذًا أليمًا، وهنا قال -سبحانه وتعالى- ﴿ فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴾.

القصة الثانية: هي قصة نوح -عليه السلام- وذكر شيء مما أرسله رب العالمين -سبحانه وتعالى- به إلى قومه يقول رب العالمين -سبحانه وتعالى- ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾؛ هذا القصص -كما أشرت سابقًا- فيها زجر للمكذبين في الماضي والحاضر، فالماضي يعلم هؤلاء الذين يستمعون القرآن الكريم، والحاضرون اليوم حينما يقفون على مثل هذه الآيات، ويعرفون أنهم كذبوا ويقرءوا ماذا فعل الله -تبارك وتعالى- بالسابقين المكذبين وإهلاك رب العالمين -سبحانه وتعالى- لهم ربما ينزجر هؤلاء الناس، ينزجرون عن غيهم ويرجعون عن ضلالهم؛ ولذلك في كل آية تجد أن رب العالمين -سبحانه وتعالى- يذكر وعيده الذي أنزله على هؤلاء المكذبين، قال سبحانه: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ ﴾.

أول أمر يلفت الانتباه في هذه الآية هو قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ ﴾؛ بالجمع، هم كذبوا نوح فقط ولا كذبوا الرسل؟ كذبوا نوح الذي أرسل إليهم فقط؛ لأن كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، ولكن الله -عز وجل- هنا يقول: ﴿ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ ﴾ ما فائدة ذلك؟ فائدة ذلك الإشارة إلى أن دعوة جميع الأنبياء واحدة في التوحيد إلى رب العالمين -سبحانه وتعالى- كل الأنبياء جاءوا بدين الإسلام، كل الأنبياء جاءوا بالتوحيد، جميع الأنبياء قالوا الأنبياء قالوا لأقوامهم ﴿ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٥٩]؛ وهناك إشارة إلى ذلك إن شاء الله -تبارك وتعالى- في سورة الشعراء.

وقد ذكر الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله تبارك تعالى- قولًا جميلًا أن الله -عز وجل- لو أرسل لهؤلاء المكذبين كل الأنبياء والمرسلين أيضاً؛ لكذبوا بالأنبياء والمرسلين.

ولا بد أن أقف وقفة هنا يسيرة، وأشير إشارة يسيرة، طالما أني ذكرت أن دعوة جميع الأنبياء واحدة، وأن ما نعرفه أو ما نسمع عنه ويعلن اليوم، وقبل اليوم بوحدة الأديان، وأن الأديان كلها اليوم أديان واحدة، وأنه يجوز للإنسان أن يختار منها ما يشاء؟

نقول لا.. بعد بعثة النبي الأمين -صلى الله عليه وسلم- نسخت رسالته جميع الديانات السابقة، فالديانات السابقة نُسخت ببعثة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- إلى جانب أن أصحاب هذه الديانات حرفوا كتبهم، ولن يلتزموا بما أنزل رب العالمين عليهم، فأصبحوا بذلك كفرة مشركين برب العالمين -سبحانه وتعالى-.

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾؛ ماذا حصل لهم إذن؟ ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ ﴾؛ والله -عز وجل- قد بين في كتابه كيفية إغراق هؤلاء الناس في سورة القمر، لما كذب نوح -عليه السلام- توجه إلى ربه بإخلاص الأنبياء الصادقين، فدعا ربه، ماذا قال؟ دعا ربه: ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ [القمر: ١٠]؛ وهذه عبارة تفيد أهل التوحيد أن يتعلموا أن الأنبياء والمرسلين حينما كان يكذبهم أقوامهم لا يجدون إلا رب العالمين -سبحانه وتعالى- نوح -عليه السلام- يكذب وتوصد الأبواب في وجهه، يبقى بين قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم سرًا وجهارًا ليلًا ونهارًا، يدعوهم إلى الله -عز وجل- فما أمن معه إلا قليلًا، كما قال رب العالمين: ماذا يفعل نوح -عليه السلام؟ دعا ربه: ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾؛ ماذا قال رب العالمين: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [القمر: ١٢].

لأنه بتقدير من؟ بتقدير رب العالمين، وهذا الفيضان وهذا الطوفان الهائل كان عظيمًا للغاية، لدرجة أنه ارتفع فوق أعالي الجبال، هذا الطوفان وهذا الماء الذي نزل من السماء وانفجرت منه الأرض، قد وصل إلى حد بعيد وعالي مرتفع بدليل أن نوح -عليه السلام- لما دعا ابنه أن يأتي إليه؛ لأن الأمر عظيم، وأن الطوفان كبير، ودعاه إلى أن يكون مع حزبه قال: ﴿ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾؛ قال نوح -عليه السلام- كما ذكر القرآن: ﴿قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾ [هود: ٤٣].

وفعلًا الأمر كما قال، فكان من المغرقين، أهلكه الله رب العالمين -سبحانه وتعالى- رغم أنه أراد أن يصعد أعالي الجبال، ونوح -عليه السلام- أخبره أنه لن ينجو إلا من أنجاه رب العالمين، بسبب إيمانه بنوح عليه السلام.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ﴾ هنا العبرة، هنا الموعظة، جعلناهم للناس آية، هنا لفتة يجب أن يقف عندها هؤلاء الذين يكذبون برب العالمين -سبحانه- ويكذبون برسالات النبي المرسل -صلى الله عليه وآله وسلم- فلما كُذِّبَ نوح -عليه السلام- كذبه قومه، أهلكهم رب العالمين، وقال لنا بعد أن استخلفنا رب العالمين بعدهم ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ﴾؛ يعني يعتبر بها الناس: ﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٢]قوم يفقهون ويتعلمون ويفهمون لماذا فعل رب العالمين -سبحانه وتعالى- هذا بالمكذبين، وقد استخلفك يا عبد الله بعد ذلك فلا تكن مع هؤلاء المكذبين حتى لا يحيق بك وعيد رب العالمين، كما نزل بهؤلاء المكذبين، والله -عز وجل- يذكر في هذه الآية أن فعله بقوم نوح -عليه السلام- بسبب أن ينزجر هؤلاء المكذبين المجرمين، وجعل هذا العقاب آية للمعتبرين، ولكن أين هم؟ فكثيرًا ما يغفل الناس عن هذه الآيات.

ثم يقول رب العالمين ختامًا لهذه الآية، وأعتدنا للظالمين عذابا أليما ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾، هذا يفيد أنهم أشركوا بالله -تبارك وتعالى- هذا أمر واضح، ولكن لعلكم تلاحظون أن القرآن الكريم كلام رب العالمين كله من البلاغة والفصاحة، أو هو بلغ أوجه البلاغة وقمة البلاغة الفصاحة هنا رب العالمين قال: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ما قال: "وأعتدنا لهم"، وهذا من الفصاحة أن يقول رب العالمين -سبحانه وتعالى- ولكنه أظهر في موضع الإضمار، فالإيجاز في لغة العرب جميل ومطلوب، لكن الله -سبحانه وتعالى- كما ذكر أهل العلم أظهر في موضع الإضمار لفوائد:

أولًا: منها أن يبين شدة كفره هؤلاء الظالمين حتى احتاج الأمر على أن ينص الله -تبارك وتعالى- عليهم وأن يصفهم بهذا الظلم.

ثانيا: كلمة ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ تشمل وتعم جميع الظالمين، وليس قوم نوح فقط، قوم نوح كانوا ظالمين، وسياق الآية فيهم، ولكن من كذب بأي نبي أو رسول من الأنبياء والمرسلين شملته أيضًا هذه الآية.

القصة الثالثة: هي قصة عاد وثمود وأصحاب الرسول -صلى الله عليه وسلم-. قال تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾، ربنا -سبحانه وتعالى- بعد ما أرسل نوح، وأهلك قومه بالطوفان، ونجا نوحًا -عليه السلام- ومن معه، بعد فترة من الزمن أرسل نبي الله هود -عليه السلام- أرسل نبيه هودًا إلى من؟ إلى قوم عاد، وهؤلاء الناس كانوا في الأحقاف باليمن، وكانت لهم حضارة كبيرة، وكانوا ذو بأس شديد، وغلبة ومنعة وقوة، ذكرها رب العالمين في كتاب وذلك في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ ﴾ [الفجر: ٨].

فكانت عندهم حضارة عظيمة وقوة عالية، هذا دفعهم على الاستكبار على نبيهم هود -عليه السلام- والله -عز وجل- قد ذكر في كتابه: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت:

١٥]؛ تأمل الغرور الذي أخذ هؤلاء الناس، والذي أعطاهم القوة هو الله، والله -عز وجل- أشار إلى ذلك: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ الذي أعطاك وخلقك وأوجدك من العدم ألا يكون يا عبد الله هو أشد منك قوة، ولكن العلو والاستكبار في الأرض؛ ولذلك أخذهم رب العالمين -سبحانه وتعالى- وأهلكهم بشيء قد يظنه الإنسان يسيرًا، هو الريح والصرر، يعني الريح الشديدة التي فيها صيحة عظيمة لها صوت قوي لها صوت وشدة قوية ورب العالمين -سبحانه وتعالى- يقول: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٦]. يعني قوية أخذتهم وكانوا يظنون أن هذا أمر لا يؤثر فيهم، وغالبًا أهل الباطل لا ينتبهون إلى مثل هذه الآيات، لكن رب العالمين -سبحانه وتعالى- يسخرها فيهلكهم: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾.

أما ثمود وهم قوم صالح -عليه السلام- وهؤلاء كانوا في شمال الجزيرة العربية بجوار قرية يقال العلا وهي ما تعرف إلى اليوم بمدائن صالح، وقد كانت عندهم حضارة كبيرة للغاية، حضارة قوية جدًا قال القرآن الكريم عنها: ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ [الفجر: ٩]؛ يعني قطعوا الصخرة في الأودية، كان يقطعون الصخرة وينحتون الصخرة ويجعلون من هذه الجبال بيوتًا فارهة يستمتعون بها، بعث الله -تبارك وتعالى- إليهم نبي الله -تبارك وتعالى- صالح -عليه السلام- فكذبوه وطلبوا منه آية فأعطاهم، أو أيده ربه -سبحانه وتعالى- بالناقة -ولا أريد أن أسترسل في قصتهم الآن حتى لا يضيق بنا المقام- ولكنهم أيضًا مع إرسال هذه الآية كذبوا بها وقتلوا الناقة التي أرسلها الله -تبارك وتعالى- وأخرجها إليهم، فكان الأمر أن أهلكهم أيضًا رب العالمين -سبحانه وتعالى- وكان هلاكهم بأي شيء؟ كان هلاكهم بالصيحة الشديدة التي أرجفتهم وأخذتهم وجعلتهم هلكى صرعى ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٧].

أو كأن بيوتهم خالية مما كانوا فيها، ولا أحد فيها بعد الإهلاك، ولا أنيس بعد ما كانت قرى عالية عظيمة، فيها من البيوع الفارهة، وفيها من المساكن الجميلة الرقيقة، إلا أن رب العالمين -سبحانه وتعالى- دمرهم عن آخرهم بصيحة قوية شديدة أخذتهم، وذلك بسبب تكذيبهم لنبي الله صالح -عليه السلام-.

أما أصحاب الرس الذين ذكرهم ربنا -سبحانه وتعالى- في كتابه فلم يأت تفصيل لقصتهم في كتاب الله -عز وجل- ولم يذكر ربنا -سبحانه وتعالى- اسم النبي المرسل إلى هؤلاء الناس، وقد جاء ذكر كلام كثير حولهم في كتب التفسير، وفي قصص الأنبياء، ولكن لا دليل على ذلك؛ ولهذا نحن نقف عند حدود الوارد في كتاب رب العالمين -سبحانه وتعالى- غاية الأمر أن نقول أصحاب الرس قيل: الرس والبئر، وقد جاء في معلقة زهير في المعلقات السبع التي ربما تسمعون عنها أن الرس بمعنى الوادي، يعني الأرض الواسعة المنبطحة في الصحراء.

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾، قروناً: جمع قرن واختلف في القرن قيل: أربعين سنة، وقيل: سبعين سنة، وقيل: مائة سنة، وقيل: مائة وعشرين سنة، ولكن المراد بالقرن هنا هم الجماعة المتواجدون في زمن واحد، ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾، يعني بين ذلك المذكور كثيرًا، يعني أن الله -تبارك وتعالى- جعل بين هؤلاء المكذبين الذين ذكرهم قرونًا أخرى لم يذكرهم، وقد وصفها بأنها كثيرة، ولا يعلمهم إلا رب العالمين، ولكن القرآن الكريم أشار إلى أنه أهلك أيضًا هؤلاء المكذبين فما قال سبحانه: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء: ١٧]؛ فأفاد ربنا -سبحانه وتعالى- أن هذه القرون أيضًا وإن لم يأت لها تفصيل في كتاب الله -عز وجل- إلا أنها كذبت بالنبي المرسل إليه فأهلكهم رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

ثم يقول سبحانه: ﴿ وَكُلاً ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاً تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾، يعني أن رب العالمين قطع العذر وأقام الحجة على هؤلاء الناس، وذلك بضرب الأمثال؛ لأن الأمثال توضح، فالمثل يجعل الشيء المعقول يبرزه في صورة المحسوس المشاهد؛ ولذلك نحن نقول: بالمثال يتضح المقال، فالمثال يبين الأمر ويوضحه ويجعل الشيء الغامض واضحًا بين يديه، فالله -عز وجل- أقام الحجة على هؤلاء الناس الذين أهلكهم بضرب الأمثال التي تبرز لهم الحق واضحًا ناصعًا أمام أعينهم، ولكنهم لم يستفيدوا وكم من أمثال ضربها ربنا -سبحانه وتعالى-

لمشركي مكة، ولكنهم مع ذلك لم يرتدعوا ولم يستفيدوا، تأملوا مثلًا قول الله -تبارك وتعالى- لهم في سورة إبراهيم: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ ﴾ [إبراهيم: ٤٥]، وهذا خطاب لمشركي مكة، ولا يعني ذلك أن الله -عز وجل- لم يضرب الأمثال لعموم الناس بما فيهم المؤمنين، فالله -عز وجل- قد ضرب أمثلة كثيرة في كتابه -في القرآن الكريم- وبيَّن أن هذه الأمثال لا يستفيد منها ولا يتأمل معانيها، ولا يمكن أن يفهمها ويتدبرها ويعقلها إلا العالمون، أو الذين يتذكرون، يقول -سبحانه وتعالى- ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]؛ يعني لا يعقل هذه الأمثال ولا يتأمل ما ضربه ربنا في كتابه إلا أهل الفقه، إلا أهل العلم، إلا أصحاب الذكرى، إلا الذين ينتبهون ويتدبرون آيات الله -سبحانه وتعالى- ولعلي أطلب من الحاضرين أن يذكروا لي مثالًا ذكره رب العالمين في كتابه والأمثلة كثيرة؟ مثالًا ضربه رب العالمين في كتابه؟ ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة: ٢٦]؛ ليبين أن بعض الناس يهتدون بكتاب الله -عز وجل- وبعض الناس لا يهتدون: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ [الحج: ٧٣].

هذه الأمثال في الحقيقة كثيرة في كتاب الله -عز وجل- وهي تجعل المعقول الذي ربما لا يراه الإنسان ولا يمكن أن يتخيله تمامًا تجعله له في صورة الشيء المحسوس كأنه ناظر إليه مشاهد له واضح بين يديه، فهذا يدفع الإنسان إلى التسليم والتصديق؛ ولذلك ربنا -سبحانه وتعالى- لما قال: ﴿ وَكُلاً ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ﴾ عقب على ذلك بقوله ﴿وَكُلاً تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾، والتتبير يعني الإهلاك، وأيضًا يأت بصيغة التأكيد، وكلًا أهلكنا إهلاكًا وكلًا تبرنا تتبيرًا هذا الهلاك لماذا؟ وهذا التتبير لماذا؟ لأنهم لم يستفيدوا من الأمثال، ولم يستجيبوا للأنبياء والمرسلين، ولم يتدبروا الآيات التي نزلت عليهم من عند رب العالمين.

ثم يقول سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾؛ هذا خطاب عن أهل مكة، يبين ربنا -سبحانه وتعالى- فيه أمرين:

الأمر الأول: ذكر هذه القرية التي أمطرت مطر السوء. وهي قرية السدوم، قوم لوط الذين أهلكهم رب العالمين سبحانه بسبب الفاحشة التي كانوا يرتكبونها، أهلكهم بسبب الفاحشة العظيمة التي كانوا يرتكبونها، غضب رب العالمين -سبحانه وتعالى- عليهم لخروجهم على الطبيعة السليمة النقية التي يجب أن يكون عليها البشر، والتي نظمها من خلال آياته وأنبيائه رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

الأمر الثاني: بيان أن المشركين كانوا يمرون على هذه القرية؛ ولكنهم كانوا لا يعتبرون؛ ولذلك رب العالمين -سبحانه وتعالى- يقول لهم: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٨]؛ أنتم تمرون على هذه القرية في الصباح وفي المساء، ألا يدعوكم ذلك إلى التعقل؟ هذه القرية أهلكها رب العالمين، أهلكها بالسجيل، والسجيل ما هو؟ حجارة صلبة قوية من طين، وهي مهلكة بقدر رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

والله -عز وجل- قد بيَّن هذه الحجارة في كتابه أنها هذا السجيل وأنها حجارة: ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ [الذاريات: ٣٣]؛ فبيَّن أن هذه الحجارة هي من طين، ووصف هؤلاء القوم -الذين كانوا يمر عليهم مشركي مكة- وصفهم بالمجرمين، ﴿ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ وكان كفار قريش يأتون هذه القرية ويمرون عليها صباحًا ومساءً في سفرهم، ولكنهم أيضًا كانوا لا يعتبرون؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾؛ يعني كانوا في الحقيقة مكذبين بالبعث والنشور، ولا يطمعون في لقاء رب العالمين -سبحانه- أو لا يخافون من لقائه فلم يدفعهم ذلك إلى التدبر والتذكر والاعتبار، وهذا يجعلني أقول كلمة هنا: يجب على الإنسان أن يضع الدار الآخرة نصب عينيه؛ ليستقيم حاله وتصلح أعماله؛ لأن الإنسان إذا أدرك وعلم أنه سيموت وأنه سيقف بين يدي الله -عز وجل- وسيقوم من قبره

وينشر للحساب والجزاء والثواب والعقاب، لا شك أنه سيتحسس مواطن أقدامه، وهؤلاء القوم لما كانوا لا يؤمنون بلقاء الله -عز وجل- ولا يخافون من رب العالمين -سبحانه وتعالى- تركوا التدبر وأعرضوا عن آيات رب العالمين -سبحانه وتعالى-، وهؤلاء الناس يمرون على هذه القرى وليس فيها -كما ذكرت- داع ولا مجيب، ولكن أين المتدبرون أين المتذكرون؟ أين الذين يفقهون آيات رب العالمين -سبحانه وتعالى-؟

المحور الثاني في هذا اللقاء بعنوان: استهزاء المشركين بالصادق الأمين -صلى الله عليه وآله وسلم-؛ ووعيد الله لهم، وأبدأ هذا المحور بقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً ﴾ يخبر رب العالمين -سبحانه وتعالى- عن لون آخر وقع فيه المشركون، هم أولًا كذبوا بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وردوا دعوته، ولم يستجيبوا لما أيده رب العالمين -سبحانه وتعالى- به من الآيات، وكان الأولى بهم والأجدر أن يرجعوا إلى الله -عز وجل- ومع كفرهم وتكذيبهم، وهذا ظلم عظيم، وكفر واضح مبين، إلا أنهم لم يقتصروا عليه، ولم يقفوا عنده، وإنما كانوا مع تكذيبهم وكفرهم بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يستهزئون به، ويسخرون منه -صلى الله عليه وآله وسلم-.

وأنا إن أردت أن أناقش هؤلاء المستهزئين المكذبين اليوم أقول لهم: بماذا تسخون وبأي شيء تستهزئون؟ هل هو على صفات تدفعكم إلى أن تسخروا منه -صلى الله عليه وسلم- أو أن ما أيده رب العالمين -سبحانه وتعالى- فيه ضعف وليست فيه حجة حتى تضحكوا عليه -صلى الله عليه وسلم- من خلاله؟

كلا ثم كلا فما كان عليه -صلى الله عليه وآله وسلم- من خَلق وخُلق، وتأييد من رب العالمين دفعه إلى أعلى الكمالات البشرية -صلى الله عليه وآله وسلم- فما كان ينبغي بحال لهؤلاء المشركين وهم يعرفون النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يسخروا وأن يستهزءوا به؛ ولذلك قصدت بعنوان لهذا المحور أن أذكر الصادق الأمين؛ لأن هذه خلة كريمة، صفة عالية، كان المشركون يؤمنون بها ويصدقون بها للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، ألا كانت هذه الصفة فقط تردعهم أن يسخروا من النبي - -صلى الله عليه وسلم-، تمنعهم أن يستهزءوا به - عليه الصلاة والسلام- لكنهم فعلوا ذلك، فكان إذا رأوه -صلوات الله وسلامه عليه- سخروا به استهزءوا منه، وهذا الفعل من المشركين، هو أيضًا فعل إخوانهم من المشركين السابقين، فالمشركون السابقون كانوا أيضًا يسخرون من الأنبياء والمرسلين، والله -عز وجل- قد ذكر في كتابه تسلية للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وأيضًا حينما ذكر بين أن ردعه وأليم عقابه الذي أنزله على هؤلاء المستهزئين لعل المشركين من العرب ينزجروا ويرتدعوا ويرجعوا عن هذا الاستهزاء، تأملوا قول رب العالمين سبحانه: ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الرعد: ٣٢]. يعني أمهلتهم أخرت عقابهم لعلهم يرجعون، فلما لم يرجعوا فماذا كان؟ ماذا كان وماذا قال رب العالمين -سبحانه وتعالى- عن هؤلاء المستهزئين؟ قال: ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [الرعد: ٣٢]؛ وما زلنا إلى يومنا هذا أيها المؤمنون يسخر أعداء الله الكافرين والمكذبين من أولياء الله الصالحين، ولم يقف حد الاستهزاء أو السخرية عند أهل الإيمان بحسب، بل تطاولوا -وللأسف الشديد- حتى نالوا من رب العالمين وشرعية سيد المرسلين -صلى الله عليه وآله وسلم- ونحن نسمع بين الحين والآخر بعض الناس يخرجوا عليها باعتراضات على الشريعة الإسلامية، فهذا يتكلم على أن الشريعة لا تصلح للتطبيق، وهذا يقول أن الحجاب لم يفرضه رب العالمين على نساء المسلمين، وغير ذلك من الأقوال المنكرة التي نسمعها من هؤلاء وربما يخرجون على شاشات الفضائيات فيسخرون من أهل الإيمان وهؤلاء وعيدهم عند رب العالمين -سبحانه وتعالى- شديد، ويكفي أن أبشر إخواني المؤمنين اليوم أن أهل الكفر والضلال إن سخروا اليوم من أهل الإيمان فسيكون الحال على النقيض في يوم الدين، رب العالمين لما ذكر سخرية الكافرين والمكذبين للمؤمنين في الدنيا أشار إلى أن الوضع يتبدل ويتغير، ولكن أين؟ في الدار الآخرة، في الدار النعيم، في الدار الأبدية، الدنيا مرحلة منتهية مهما فعلوا فسيموتوا وأهل الإيمان كذلك، ولكن العاقبة للتقوى كما قال رب العالمين: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا

أَرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[المطففين: ٢٨-٣٥].

رجع إليهم وحاق بهم فعلهم، وأوقعهم في نار الجحيم التي أعدها رب العالمين لهؤلاء المستهزئين، والله يا أخواني حينما يقرأ الإنسان هذه الآيات ويتذكر حال بعض الناس اليوم من حيث الاستهزاء بالنبي -عليه الصلاة والسلام- يعجب، كيف يقع من قوم إن كانوا عقلاء مثل هذا الاستهزاء؟ ندعهم وكفرهم، إما أن يستهزءوا بالنبي الأمين -صلى الله عليه وآله وسلم- وقد جمع من خصال الفضل والخير والكرم والخِلقة الكريمة العظيمة ما خلقه ربه -سبحانه وتعالى- عليها، ثم بعد ذلك يأتي إنسان مفتون هالك فيستهزأ أو يسخر من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً ﴾.

ثم يبين رب العالمين مع هذا ضعفهم أمام بعثة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فهم يقولون: ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلاَ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَ﴾؛ ورب العالمين يقول: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾؛ هؤلاء المشركين يعلمون أنهم ضعفاء أمام حجة وقوة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-؛ ولذلك يقولون: ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلاَ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَ﴾ ولشرح هذه الآية أقف فيها عدة وقفات:

الوقفة الأولى: قولهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَ﴾ يفيد أنهم -وللأسف الشديد- سمو حرص النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- علي هدايتهم ضلال، وهذا فيه قلب للحقائق، يعني ثم حرص النبي -عليه الصلاة والسلام- ودعوة النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى الهداية وإلى الدخول في دين الله -تبارك وتعالى- سموه ضلال ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَ﴾؛ وهذا منطق الكافرين من قبل، فإمامهم في هذا من فرعون لما قال لقومه عن موسى -عليه السلام- ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [غافر: ٢٦]؛ بل يقول هذا من؟ الذي يقتل الأطفال ويستحي النساء ويقتل الأطفال، هذا الرجل يقول لقومه يخوفهم من موسى -عليه السلام- يخوفهم منه لأي شيء، ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾؛ وهؤلاء المشركين المكذبين يقولون: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَ﴾؛ يعني شدة حرصه كادت أن تخرجه عن الدين الذي عليه، فنقع في الضلال، طب أنتم واقعون في الضلال، أنتم غارقون في مهاب الرذيلة، ودعوة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- إليكم هي الهداية بجميع أنواعها.

الوقفة الثاني: تبين حرص النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وجده -عليه الصلاة والسلام- في دعوة هؤلاء المشركين؛ لأن هذا القول يفيد ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا ﴾؛ فهذا يفيد أنه كان -صلى الله عليه وسلم- في الدعوة إلى -تبارك وتعالى- ويستمر في دعوتهم إلى رب العالمين ويجتهد في ذلك صلوات الله وسلامه عليه.

الوقفة الثالثة: هي أن هؤلاء المشركين وقع منهم التكذيب بسبب التقليد للآباء السابقين، وهذا يفهم: ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلاَ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾، ما عندهم حجة وما عندهم برهان؛ ولذلك كان يوصي بعضهم بعضًا بأن يستمروا على ما هم فيه من ضلال،﴿ وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ وهنا هؤلاء المشركين يقولون: ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلاَ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾؛ يعني سوف يعلمون يقينًا حينما يجمعهم رب العالمين -سبحانه- ويشاهدون العذاب جهارًا نهارًا من المضل من المحسن، من المهتدي؛ لأنهم قالوا بأن دعوة النبي -صلى الله عليه وسلم- ستظلهم؛ فرب العالمين -سبحانه وتعالى- قال سيظهر لهم يقينًا إن أنكروا الهداية التي يدعو بها النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- الآن فسيعلمون غدا -إن شاء الله تبارك وتعالى- عندما يقفون بين يدي الله من أضل سبيلًا هل هم أم غيرهم؟ من اهتدى ومن ضل عن سواء السبيل؟ ولا شك أن الذي ضل هم هؤلاء المكذبين المجرمين.

ثم يصفهم رب العالمين بوصف دقيق: ﴿رَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيل﴾؛ هذا خطاب بعد الموقف الأليم لا شك على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وهو السخرية والاستهزاء به -عليه الصلاة والسلام- يأتي رب العالمين يسلي النبي -عليه الصلاة والسلام- وكأنه يقول له لا تحزن ولا تستغرب من

استهزائهم بك؛ قال رب العالمين لأنهم اتخذوا إلههم ومعبودهم هواهم من دون الله –تبارك وتعالى– ماذا تفعل لقوم جعلوا دينهم هواهم وما استحسنوه لم يرتبطوا بشريعة ولم يرجعوا إلى دين: ﴿ رَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾؛ فعلة هؤلاء الناس كانت في إتباع الهوى، ما استحسنته عقولهم؛ ولذلك ذكر الحافظ ابن كثير –رحمه الله تبارك تعالى عليه– أن الرجل منهم كان يعبد حجرًا أبيض فإذا رأي أفضل منه تركه وعبد الثاني، يعني هوى ولعللكم سمعتم ولعلي قد ذكرت لكم سابقا أنهم كانوا يصنعون إلهًا من عجوة فإذا جاع الواحد منهم أكل إلهه.

هذا كله بسبب الهوى، فهؤلاء الناس جعلوا معبودهم هواهم وما يمليه عليهم شيطانهم وما يستحسنونه بعقولهم، وإذا كان الأمر كذلك فهل يرجى من ورائهم خيرًا؟ ولذلك قال رب العالمين للنبي –صلى الله عليه وسلم– بعد ما قال ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ قال ﴿ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾؛ وهذا كمعنى قول الحق –تبارك وتعالى– ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية: ٢٢]؛ وكقول رب العالمين –سبحانه وتعالى– أيضًا للنبي –صلى الله عليه وآله وسلم–: ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩]؛ ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٧٢] هذا خطاب للنبي –صلى الله عليه وآله وسلم–.

وقبل أن أنتقل من هذه الآية إلى ختام لقائنا في الآية التالية أذكر أيضًا هنا فائدة في هذه الآية: ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ فَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾؛ هذه الفائدة يا إخواني أود أن نستمع إليها جيدًا كي نسير عليها وهي: أن الإنسان يجعل الدين الذي يسير عليه هو ما جاء من عند رب العالمين –سبحانه وتعالى– لا ما استحسنه عقله ولا من رغب فيه بهواه، وإنما التزام مطلق بشريعة رب العالمين –سبحانه وتعالى– ولذلك أقول: يجب أن تكون أفعال المكلف منا مطابقة لما جاء من عند رب العالمين –سبحانه وتعالى– وهذه فائدة عظيمة جدًا نستفيدها من هذه الآية عندما نعى رب العالمين –سبحانه وتعالى– على هؤلاء المشركين إتباعهم لأهواهم ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ فَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾؛ ثم أختم هذا اللقاء بقول الحق –تبارك وتعالى– أيضًا مسليًا للنبي –صلى الله عليه وآله وسلم– رافعًا عنه الأسى والحزن الذي يجده في قلبه في تكذيب هؤلاء المجرمين: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾، هؤلاء الناس وصلوا إلى درجة بالتكذيب والاستهزاء، وصلوا إلى درجة صاروا فيها أحط من الأنعام التي لا تعي ولا تعلم، أم تحسب "أم" هنا بمعنى "بل" فهنا إضراب، والهمزة هنا للإنكار والاستفهام أم تحسب، أتحسب يا محمد –صلى الله عليه وآله وسلم– أن أكثر هؤلاء يعقلون ويفهمون ويتدبرون؟ أبدًا هؤلاء لا يعقلون ولا يتدبرون ولا يفقهون طيب ماذا شأنهم يا رب؟ ما حالهم؟ رب العالمين –سبحانه وتعالى– أفاد في هذه الآية: ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾؛ وقد يسأل سائل كيف يكون الإنسان العاقل الذي متع بالعقل؟ ولعلي أقول لكفرة اليوم الذين غزوا الفضاء وتملكوا ربما زمام الدنيا من حيث التقنية العلمية اليوم، كيف يكونوا هؤلاء اليوم أضل من الأنعام؛ لأن الأنعام تعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها، ويهتدي إلى من يربيها وتستجيب إلى التوجيهات المطلوبة منها، فهذه الأنعام سخرها رب العالمين –سبحانه وتعالى– لنا وهي تقوم بالوظيفة التي خلقت من أجلها، أما هؤلاء خلقوا لعبادة الله –عز وجل– ولكنها لم يقوموا بها ولم يعرفوا فضل الله –عز وجل– عليهم، وإحسان رب العالمين عليهم، فكانوا بذلك أضل من الأنعام.

وقد يقول قائل: هم يسمعون ويبصرون فكيف تقول أن أكثرهم: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴾، أقول: نفي السماع هنا نفي لسماع الحق الذي نزل من عند الله –عز وجل– وهم إن كانوا يسمعون الكلام المؤيد بالدليل الذي نزل من عند رب العالمين –سبحانه وتعالى– وهنا نفى ربنا –عز وجل– عنهم السماع وصدق الله في قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]؛ وأختم هذا اللقاء بهذه الآية، وأدعو هؤلاء الغافلين إلى أن يرجعوا إلى دين محمد بن عبد الله –صلى الله عليه وآله وسلم– ويكفوا عن استهزائهم وسخريتهم بالنبي الأمين –صلى الله عليه وسلم– وأردد قول الحق –تبارك وتعالى– لأهل الإيمان وما قاله الله لنبيه ﴿فَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيل﴾.

نسأل الله -عز وجل- للجميع الهداية والتوفيق وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آلـه وصـحبه وسلم.

كان هناك سؤالان في الحلقة الماضية:

السؤال الأول: ماذا تفهم من قول تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾ وما المراد بالسبيل هنا؟

أن يتحسر على شركه وكفره وتكذيبه بالنبي -صلى الله عليه وسلم- ويتمنى الكافر ألو عض على يديه في هذا الموقف المنزل وهو يوم القيامة، ويتمنى الكفار لو أنهم أطاعوا الله وأطاعوا الرسول كما قال الله تعالى في كتابه: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ ﴾ [الأحزاب: ٦٦]؛ والمراد بالسبيل: هو الطريق هو طريق الحق وقوله يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلًا أي يا ليتني اتبعت طريق النبي -صلى الله عليه وسلم- أي طريق الهداية لكنه تمنى في يوم لا ينفع فيه إلا الحق وهو يوم القيامة.

السؤال الثاني: اذكر الهيئة التي يحشر عليها الكافر يوم القيامة مع ذكر دليل من القرآن الكريم ومن السنة النبوية؟

﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ ﴾ [الفرقان: ٣٤]؛ يحشرون في أشنع منزلة وأفظع منظر، تسحبهم الملائكة ويجروهم إلى جهنم، وقول النبي -صلى الله عليه وسلم- في معنى الحديث (الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يحشرهم على وجوههم) وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القمر: ٤٨]؛ ويكون الكفار يوم القيامة لهم سمع وبصر.

هو كما تفضل الأخ جزاه الله خيرًا واستدل بالآيات التي ذكرها وهي أن الله -تبارك وتعالى- حقًا يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة، لما سئل -صلى الله عليه وسلم- كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر قياسًا واضحًا للناس قال (الذي أمشاه على قدميه في الدنيا قادر على أن يمشيه ووجهه في الدار الآخرة)؛ فلا نستغرب ذلك، وذلك داخل في قدرة رب العالمين -سبحانه وتعالى- الذي يقول للشيء ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: ١١٧]؛ فربنا لا يعجزه شيء في الأرض وفي السماء.

هلا تفضلتم بطرح أسئلة المحاضرة؟

السؤال الأول: بأي شيء أهلك الله عادًا وثمود؟ أيد ما تقول بدليل من القرآن الكريم؟

السؤال الثاني: اشرح قول الله تعالى باختصار: ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾؟

طبعا ما أريد أن أغششكم الإجابة فيها فائدة عظيمة جدًا وهي أن يسير المكلف وفق شريعة رب العالمين -سبحانه وتعالى- والله أعلم؟

الدرس السادس

بيان بعض الأدلة الدالة على وجود الله تعالى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أما بعد:

فأهلًا وسهلًا ومرحبًا بكم ويسرنا في هذا الدرس السادس أن نواصل المسيرة في شرح تفسير سورة الفرقان -إن شاء الله تبارك وتعالى- وسيدور الحديث حول محاور متعددة في آيات لقاء هذا اليوم -إن شاء الله تبارك وتعالى-.

المحور الأول: بيان بعض الأدلة الدالة على وجود الله تعالى وقدرته التامة.

المحور الثاني: جهل المشركين في عبادتهم لغير الله، وبعثة النبي -صلى الله عليه وسلم- إليهم.

المحور الثالث: قصر التوكل على الله مع ذكر بعض صفات الجلال والجمال لله عز وجل ونستمع الآن إلى آيات هذا اللقاء:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُهُمْ وَلاَ يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٥ - ٦٠].

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولي الصالحين، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه، ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين وبعد.

أتحدث حول المحور الأول في هذا اللقاء وهو -كما أشرت- بعنوان: بيان بعض الأدلة الدالة على وجود الله تعالى وعلى قدرته التامة، وتحته هذه الآيات: وهو قول الحق -تبارك وتعالى- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴾؛ لما بين رب العالمين -سبحانه وتعالى- فيما مضى جهل المعترضين على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وعلى القرآن الكريم أشار إلى بعض الأدلة الدالة على وجوده -سبحانه وتعالى- وأيضًا على تمام قدرته، وذكر أنواعًا متعددة من الدلائل، بدأ بالنوع الأول وهو الإشارة إلى قدرة رب العالمين -سبحانه وتعالى- التي استدل بها بحال الظل في انقطاعه وفي إتيانه، في مده

وفي انحساره، استدل رب العالمين بذلك على تمام قدرته: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾.

جاء عن ابن عباس وغيره أن معنى مد الظل ولو شاء لجعله ساكنًا أن ذلك يكون ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، يعني أن الظل يمتد في هذه الفترة وينقطع بعد طلوع الشمس ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾؛ ساكنًا يعني لأصبح على حالة واحدة ساكنًا لا يتحرك، إما أن يكون الليل دائمًا أبدًا لا ينقطع، أو النهار دائمًا أبدًا لا ينقطع، والله -عز وجل- قد أشار إلى ذلك في كتابه في قوله ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [القصص: ٧١]؛ يعني أبد الآباد، الليل موجود أبد الآباد: ﴿ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ﴾ [القصص: ٧١].

وبالعكس لو أن النهار مستمر أبد الآباد ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [القصص: ٧٢]؛ وهنا يبين رب العالمين -سبحانه- أنه هو الإله الحق، وأن قدرته نافذة، وأنه يجب على العباد أن يعبدوه وحده دون سواه؛ لأنه وحده هو الذي يقدر على فعل ذلك، وهنا أشار إلى مد الظل وانحساره، ولو شاء كما قال ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾؛ ثم قال -سبحانه-: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴾؛ يعني أن الشمس دليل في الحقيقة على الظل؛ لأنه لولا رب العالمين -سبحانه وتعالى- وخلقه للشمس ما عرفنا الظل، والشيء يظهر بضده، كما قال الشاعر:

ضدان لما استجمعا حسناً

وفي رواية:

والضد يظهر حسنه الضد

والضد يظهر حسنه الضد

وبضدها تتميز الأشياء

فهنا كانت الشمس دليلًا على مد الظل وانحساره.

وقوله -سبحانه وتعالى- هنا: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾: الرؤية هنا رؤية بصرية أم رؤية علمية؟

ذهب البعض إلى أنها رؤية بصرية لماذا؟ لأن هذا أمر يُرى بالعين، وهذا صحيح، فالرؤية هنا قد تكون بصرية؛ لأننا نشاهد بالعين هذه العملية، نشاهد الليل والنهار ونشاهد الظل وعكس الظل.

وذهب الزجاج وغيره: وهو الراجح -إن شاء الله تبارك وتعالى- إنها علمية، إن الرؤية هنا علمية، وقالوا: رغم أن الظل يدرك بالعين ويشاهده الإنسان إلا إن إدراك قدرة رب العالمين -سبحانه وتعالى- فيه تكون علمية، يعني معرفة الإنسان بهذا الأمر، والوقوف على حقيقة هذه المسألة والاعتبار بها إنما يتدبره الإنسان بعقله وقلبه وفهمه.

والخطاب وإن كان من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ إلا أنه يعم جميع المكلفين؛ لأن الكل مخاطب بكتاب رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

ثم يقول جل ذكره: ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾؛ الدليل في قبضناه هنا: إما أن يعود إلى الظل وإما أن يعود على الشمس وكلاهما جائز، قيل يعني سهلًا، وقيل يعني قليلًا، يعني شيئًا فشيئًا، وفي هذا إشارة إلى نعمة عظيمة من نعم الله على عباده في هذا الكون بهذه المسألة العالية العظيمة، وهي: أن الله –عز وجل– يقبض الظل كما يقبض الشمس إليه شيئًا فشيئًا مما في ذلك من منافع كثيرة تعود على العباد، نلفت النظر إلى شيء من هذه المنافع، تخيلوا وتأملوا: لو أنك في نهار يشع بين يديك وقوة باهرة مبصرة تراها في هذا الكون ثم فجأة أصبحت في ظلام دامس لا شك أن مزاجك سيتغير ويختلف، لا شك أن عينيك ستتأثر، ستحدث أمور كثيرة في أعصابك كما ذكر بعض الأطباء كلامًا حول هذا الأمر، لكن رب العالمين –سبحانه– حينما جعل انصراف الليل شيئًا فشيئًا وانصراف النهار أيضًا شيئًا فشيئًا هذا يجعل الإنسان يمر بنهاية الليل وبداية النهار أو بداية النهار وبداية الليل دون أن يشعر بشيء فجأة يخالف شيئًا من حواسه أو يخالف شيئًا من إدراكاته، وبالتالي يكون مهيًأ للمرحلة التي سيقبل عليها سواء كانت في الليل أو في النهار، وهذه إشارة لطيفة إلى معنى جميل يشتمل عليه قول الحق –سبحانه وتعالى–: ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾.

ثم يشير بعد ذلك في آياته إلى دلالة أخرى من دلائل عظمته وقدرته الباهرة فيقول: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾؛ يشير هنا رب العالمين –سبحانه وتعالى– أنه جعل لخلقه الليل لباسًا وسمى الليل لباسًا؛ لأن الليل لما كان يغطي بسواده وظلمته فصار كأنه كاللباس الذي يتغطى به الإنسان فيستتر بذلك عورته، ومن هنا سمى رب العالمين –سبحانه وتعالى– الليل لباسًا.

كما سمى النوم سباتًا السبات قيل الراحة وقيل هو النوم وكل ذلك صحيح، فالإنسان بالنوم يستريح وتهدأ أعصابه وتخف حركته، بل إذا ذهب في النوم بالكلية يهمد تمامًا ويستريح، والله –عز وجل– قد جعل لنا هذا النوم للراحة التي ذكرها هو في كتابه: ﴿ وَالنَّوْمَ سُبَاتًا ﴾؛ ويطلق أيضًا السبات على الموت والنوم يطلق في القرآن الكريم، وفي لغة العرب على الموت، ومنه قول الحق –تبارك وتعالى– في كتابه: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة: ١١]؛ والآية التي جاء فيها ذكر الموت بمعنى النوم: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ [الأنعام: ٦٠]؛ يعني يبعثكم بعد ذلك في النهار، ثم يقول –سبحانه وتعالى–: ﴿ وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾.

يعني النهار ينتشر فيه الإنسان، تنتشر فيه الحيوانات، يتحرك بعد ذلك فيه الكون، وأيضًا هذه الآية تشير إلى نعمة عظيمة من نعم الله –تبارك وتعالى– على عباده، فالإنسان والحيوان وسائر ما خلق الله –عز وجل– مما يتحرك يحتاج إلى ليل يهدأ فيه وإلى نهار يتحرك فيه، ومن خلاله؛ ولذلك كان لابد للكائنات الحية من ظلام وليل ونهار يتحركون فيه، كي يراوحوا في ذلك بين نومهم وبين يقظتهم وبين راحتهم وبين كسبهم وعملهم، وكل ذلك من فضل الله على العباد، وهو مِنَّة منه –سبحانه وتعالى– عليهم؛ ولذلك صدق الله في قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء: ١٢]؛لماذا؟ قال: ﴿ لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ [الإسراء: ١٢]؛ هذه فوائد عظيمة جعلها رب العالمين –سبحانه– لنا بجعله: ﴿ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾.

ثم يشير بعد ذلك إلى آمر آخر يدل على عظمته وكمال قدرته ونعمه المتوافرة التي لا تحصى ولا تعد على عباده، ومن ذلك قوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾؛ تستمر الآيات؛ لتبين قدرة رب العالمين –كما ذكرت– ومن ذلك: إرسال الرياح مبشرات: أي مجيء السحاب بعد الرياح، ولاشك أن الرياح أنواع: منها ما يُسير السحاب، ومنها ما يحمله، ومنها ما يسوقه، ومنها ما يكون بين يدي المطر، فالرياح تحرك السحاب وتسيره هنا وهناك بأمر الملك العلام –سبحانه وتعالى– ويتم لك ذلك برحمة رب العالمين –سبحانه وتعالى–؛ لأن المطر الذي ينزل من السماء رحمة من الله –عز وجل– على عباده، وهو الذي يقول: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [الشورى: ٢٨]؛

فسمى نشر ونزول المطر من السماء سماه: بشرىً لرحمة الله -تبارك وتعالى- على عباده، وهو حقًا كذلك وفي هذا يقول: ﴿ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [الروم: ٥٠].

فسوق رب العالمين -سبحانه وتعالى- للرياح بشرى بين يدي رحمته ونعني بذلك الماء الذي ينزل من السماء؛ ولذلك ختم هذه الآية بقوله: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾؛ والطهور اسم لما يتطهر به، ولا شك أن الماء نعمة عظيمة جدًا من نعم الله -تبارك وتعالى- على عباده، وستأتي إشارة إلى شيء من ذلك بعد قليل أيضًا -إن شاء الله تبارك وتعالى-.

ثم ذكر -سبحانه وتعالى- شيئًا من فوائد هذا الماء فقال: ﴿ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾؛ بدأ رب العالمين -سبحانه وتعالى- فذكر بعض فوائد هذا الماء، ومن أولها: أنه يحي به البلدة الميتة. وهل يمكن أن تكون هناك بلاد ميتة، العرب يذكرون في بلاد غير العامرة أنها بلاد ميتة؛ ولذلك نحن عندنا باب من أبواب الفقه الذي هي باب الأرض الموات، باب إحياء الأرض بعد موتها، وأن من أحيا أرضًا ميتة فهي له، وهذا باب معروف من أبواب الفقه، فالعرب يذكرون عن البلد غير العامرة بالمياه والأمطار، والخالية من السكان لعدم وجود وسائل الحياة هناك أنها أرض ميتة فأشار رب العالمين، أولًا إلى فائدة عظيمة من فوائد المطر النازل من السماء ألا وهو أحياء الأرض بعد موتها.

ثم أشار -سبحانه وتعالى-: ﴿ وَنُسْقِيَهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا ﴾؛ أن هذا الماء تشرب منه دواب الأرض وسائر ما خلق رب العالمين -سبحانه وتعالى- ولا حياة لهذه الكائنات الحية إلا بالماء، وقد قال ربنا -سبحانه-: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

ثم أشار إلى أن الأنعام كما أنها تستفيد وتشرب من الماء كذلك أيضًا الإنسان يستفيد ويشرب من الماء، والله -عز وجل- قد ذكر الإنسان مؤخرًا عن إحياء الأرض وسقي الأنعام قال: ﴿ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾؛ فأخر ذكر الإنسان عما قبله لماذا؟ قال لأن الله -عز وجل- أراد أن يشير للإنسان أولًا إلى ما هو سبب حياته الذي تفضل رب العالمين -سبحانه وتعالى- به؛ ليكون في هذا أكثر انتباهًا، وأوعى لذهنه، وأجمع لقلبه وفكره، للتأمل، فالله -عز وجل- حينما يحي الأرض بعد موتها بالنبات للإنسان ثم يسخر له الأنعام التي تشرب أيضا من الماء وتأكل من نبات الأرض الذي يخرج نتيجة هذا الماء يذكر ربنا -سبحانه وتعالى- بعد ذلك الإنسان؛ ليبين له أنه تفضل عليه كما جعل هذه الأشياء المذكورة سابقًا لهذا الإنسان وقد خلقها ربنا -سبحانه وتعالى- وسخرها لهذا الإنسان، كل ذلك ليتأمل العباد في أن الله هو الخالق القادر المنعم المتفضل، وينتقلون بعد ذلك إلى وجوب عبادته وحده دون سواه.

ثم يقول -سبحانه-: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا ﴾

الدليل في "ولقد صرفناه" يعود على الماء، للمطر النازل من السماء، البعض قد أغرب وقال يعود إلى القرآن المذكور سابقًا، ولكن الراجح أنه يعود إلى أقرب مذكور وهذا عليه جمهور المفسرين، أنه يعود إلى الماء: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ ﴾؛ طيب، إذا كان الضمير يعود على الماء فما معنى الكلمة إذن؟ أن الله -عز وجل- ينزل المطر على أرض دون أرض وينزل الماء على قوم دون آخرين؛ ولذلك قال ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من أهل العلم: "ليس هناك عام بأكثر من عام في المطر ولكن الله -عز وجل- ينزله على قوم ويمنعه عن آخرين" وهذا هو المراد بقوله: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا ﴾.

وفعل ذلك كي يتذكر الإنسان، فيعلم أن كل ذلك بأمر الله -عز وجل- وقضائه وقدره، فيدعوه هذا إلى أن يعود إلى ربه ومولاه، فيعبد هذا الإله الخالق الذي فعل به هذه الأشياء وأنزل عليه هذا المطر النازل من السماء، ولكن الأمر كما قال رب العالمين -سبحانه-: ﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا ﴾؛ يعني أن الله -عز وجل- فعل

بالعباد ذلك، وصرف بينهم المطر وهم يشاهدون ذلك بأعينهم، وكان الأجدر والأولى بهم عندئذ أن يعبدوا جميعًا ربهم وخالقهم، ولكن بعضهم أبى إلا الكفر والتكذيب والعناد والصد عن سبيل الله -تبارك وتعالى-؛ ولذلك خطب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ذات يوم أصحابه على إثر سماء أصابتهم من الليل -يعني مطر من السماء في الليل- فقال لهم -صلى الله عليه وآله وسلم-: (أتدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي) رب العالمين -سبحانه- يقول: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي.

أما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فهو مؤمن بي كافر بالنجوم، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فهو كافر بي مؤمن بالنجوم، وهذا الحديث يفسر قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا ﴾؛ حينما نسبوا الرزق النازل من السماء أو الخارج من الأرض إلى غير رب العالمين -سبحانه وتعالى- والله -عز وجل- سمى المطر الذي ينزل من السماء على عباده سماه رب العالمين -سبحانه وتعالى- رزقًا؛ فقال جل ذكره: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة: ٨٢]؛ وذكر أهل العلم رزقهم هنا ما ينزله رب العالمين -سبحانه وتعالى- عليهم من الخزائن الملأى التي لا تنفذ، ومنهم قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ﴾ [غافر: ١٣]؛ ثم يقول -سبحانه-: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾.

هذه الآية كما أشار الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله تبارك وتعالى- فيها إشادة عظيمة وتكريم وتشريف للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-؛ لأن في هذه الآية لو تأملناها إشارة إلى اصطفاء الله -عز وجل- لنبيه -صلى الله عليه وآله وسلم-؛ لأن الله يقول: لو شاء رب العالمين -سبحانه وتعالى- بقدرته ما أرسل في كل طائفة من الناس وأمة من الناس رسولًا كما كان يرسل في السابق، ولكن شاء رب العالمين -سبحانه وتعالى- أن يصطفي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- برسالة خاتمة ويواجه بهذه الرسالة الخاتمة جميع الأمم وجميع البشرية -صلوات الله وسلامه عليه- وهذا فيه تكريم عظيم للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وفيه تشريف، وفيه تحميم له بالنبوة والرسالة؛ ولذلك هو -صلى الله عليه وسلم- فهم ذلك، وقال -كما نقل القرآن وذكر القرآن عنه-: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩]؛ وهذا يؤكد ويفسر معنى قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾.

وحقًا كان -صلى الله عليه وآله وسلم- لا يطيع الكافرين، وكان يجاهد في سبيل رب العالمين أعظم جهاد وخير جهاد -صلوات الله وسلامه عليه- وقد قال له ربه في كتابه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ٧٣]؛ كما خاطب عموم أهل الإيمان بذلك: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ [التوبة: ١٢٣]؛ وقد يقول قائل: قول الله تعالى: ﴿ فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾؛ هل يستفاد منه أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يمكن أن يطيع الكافرين؟ نقول: لا..، ولكن هذا تشريع رب العالمين أراد أن ينهى النبي الأمين -صلى الله عليه وآله وسلم- كي تسلك أمته مسلك نبيهم -صلى الله عليه وآله وسلم-، فالنهي وإن كان للنبي -عليه الصلاة والسلام- إلا أنه يراد به من هو دون النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-؛ لأنه يستحيل نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- أحدًا من الكافرين، وقد قال الله تعالى له: ﴿وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١٠- ١١].

والله -عز وجل- في هذه الآية يبين أنه لو شاء لخفف عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أعباء الرسالة، ولكن اقتضت حكمة رب العالمين -سبحانه وتعالى- أن يصطفي هذا النبي المختار المبعوث من ولد عدنان -صلوات الله وسلامه عليه-؛ كي يقوم بهذه الرسالة العظيمة، وهي أن بشيرًا ونذيرًا لعموم العالمين كما سيأتي توضيح ذلك أيضا -إن شاء الله تبارك وتعالى- بعد قليل.

ثم يقول -سبحانه-: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾؛ تستمر الآيات لتبين أيضًا بعض مظاهر قدرة رب العالمين -سبحانه وتعالى- في هذا الكون، وتشير هنا إلى البحرين، والمراد بالبحرين الماء العذب الفرات والملح الأجاج، رب العالمين -سبحانه وتعالى- يقول بأنه خلق الماءين الحلو كالأنهار والعيون والآبار لماذا؟ لتستفيد منه العباد وتستفيد منه الدواب والأنعام وكل من هو فيه كبد رطبة يتحرك يستفيد من هذا الماء الذي أودعه رب العالمين -سبحانه وتعالى- في الأنهار والآبار.

وكذلك أيضًا جعل هناك ملحًا أجاجًا جعل ماء مالحًا امتلأت معظم الكرة الأرضية، يعني نحن لو نظرنا الآن لوجدنا أن معظم الكرة الأرضية مليئة بالماء العذب الفرات أو بالماء الملح الأجاج؟

بالملح الأجاج؛ فالبحار والمحيطات كلها من الملح الأجاج لماذا؟ لأن الملح الأجاج لا يفسد، ولا يتغير، ولا يصل إليه شيء من الفساد المعلوم فساد الطبيعة أو ما يوضع فيه من أشياء يمكن أن تلوثه بخلاف الماء العذب، والله -عز وجل- جعل هذه البحار بهذه الطريقة كي تبقى أبد الآباد إلى حياة البشرية، ولكي يستفيد الناس منها ألوانًا متعددة من الفوائد، تجري فيها الفلك، ونستخرج منها الأسماك، ونستخرج منها أيضًا بعض الجواهر التي أودعها رب العالمين -سبحانه وتعالى- فيها، كذلك أيضًا نستخرج منه الملح الذي نحتاج إليه في معظم شئون الحياة، ولما نحب نضرب مثل على دخول الشيء في كل شيء نضرب مثلًا بالملح لكثرة حاجة الناس إليه، وقد يقول قائل: والإنسان كيف يستفيد من هذا الماء المالح في طعامه وشرابه؟ لا يمكن أن يستفيد منه، يغفل أحيانًا بعض الناس عن خلق الله -عز وجل- لأمر آخر ألا وهو الشمس وتسليط أشعتها على هذه المحيطات والبحار، فيتدخل الماء ويصعد إلى طبقات الجو العليا أي ماء يتبخر في هذه الحالة؟

الماء العذب تاركًا الملح أسفل؛ ولذلك الذين يسكنون بجوار البحار والمحيطات يعملون بحيرات صغيرة يفتحون من المحيط أو من الماء المالح -البحر الكبير- قطعة يسيرة جدًا بجوار البحر فيضعوا فيها ماءً يخرجوا من البحر أو المحيط في بحيرة صغيرة، بعد شهر أو شهرين لما يأتي إلى هذه البحيرة الصغيرة يجد أنها جفت من الماء تبخر الماء ثم يجد بعد ذلك الملح أسفل يستفيد منه يتاجر فيه، أما الماء فقد تبخر إلى طبقات الجو العليا، ثم يعود بعد ذلك بفضل الله -تبارك وتعالى- وبإرسال الرياح المبشرات يسوقها هنا وهناك ويسوق السحاب هنا وهناك المحمل بالماء ثم يأمره بعد ذلك أن ينزل بفضله -سبحانه وتعالى- ورحمته.

هنا منَّة كبيرة عظيمة من الله على عباده بهذين البحرين العذب الفرات والملح الأجاج، ثم يشير رب العالمين -سبحانه وتعالى- إلى أمر موجود بين الناس اليوم وهو أيضًا دليل عظيم على قدرة الله -تبارك وتعالى- وأيضًا في نفس الوقت كثير من الناس لا يستفيدون منه، وهذا هو المراد بقوله: ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾.

معنى كلمة مرج ماذا تفيد؟ حتى يتبين لنا معنى الأخير؟ قيل مرج بمعنى أرسل، وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وقيل مرج بمعنى أرسل وهو صحيح وقيل مرج بمعنى خلط، وهذا هو المعني هنا؛ والمرج يأتي بمعنى الاختلاط ومنه قوله تعالى: ﴿ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ [ق: ٥]؛ يعني مختلط، فمرج هنا بمعنى خلط، ويكون معنى نهاية الآية ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾؛ أنه لما خلط الماء العذب بالماء الملح في بعض الأماكن جعل بين البحرين حاجزًا؛ ليس حاجزا ملموسًا يراه الناس وإنما هو حاجز موجود بقدرة رب العالمين -سبحانه وتعالى- فلا يبغي الماء الفرات العذب على الماء الملح ولا الملح الأجاج على الماء العذب، وفي هذا يقول رب العالمين -سبحانه وتعالى- منبهًا عباده إلى هذا الفضل في سورة الرحمن: ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن: ١٩- ٢٠]؛ يعني العذب مع الملح يلتقيان؛ وهذا موجود عندنا هنا في شمال مصر، عند المكان المعروف باللسان في منطقة رأس البر، ويوجد أيضًا في نهر السنغال الذي يختلط مع المحيط الأطلسي في نقطة واحدة، ومع هذا لا يبغي بعضهم على بعض، ولا يدخل الماء العذب في الماء المالح،

ولا يجري الماء المالح في الماء العذب بقدرة الله -تبارك وتعالى- رغم التقائهما معًا؛ ولذلك ربنا -سبحانه وتعالى- استدل بهذه الآية العظيمة على وجوب عبادته وحده دون سواه، وفي ذلك يقول: ﴿ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل: ٦١].

ثم يبدو السياق الكريم في بيان قدرة رب العالمين -سبحانه وتعالى- فيقول: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾؛ يريد -سبحانه وتعالى- أن يبين لعباده في هذه الآية أنه خلق الإنسان من نطفة ضعيفة، ولكن هذا الخلق أتى بعده أمر عظيم فجعل منه نسبًا وجعل منه صهرًا، نسبًا يعني ذو نسب فنحن نقول فلان بن فلان ينسب الولد إلى أبيه جعل إذن هناك نسب وجعل هناك أصهار أناس يصاهر بهن فيصبح الإنسان أصهار بذلك، كل ذلك أتى من أين؟ أتى من نطفة ضعيفة، من الماء المهين، فالله -عز وجل- يقول: انظر يا أيها العبد -الإنسان- من أين خُلقت وأطوار خلقك ومن أين وصلت ومن الذي فعل بك ذلك؟ لا يملك الإنسان إلا أن يقول من؟ رب العالمين -سبحانه وتعالى- ولذلك يختم ربنا هذه الآيات الدالة على تمام القدرة بقوله: ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾، وفي هذا لفت لنظر الإنسان إلى تمام قدرة رب العالمين -سبحانه وتعالى- الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

المحور الثاني في هذا اللقاء: جهل المشركين في عبادتهم لغير الله، وبعثة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- إليهم؛ وفي ذلك يقول -سبحانه-: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُهُمْ وَلاَ يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾؛ يخبر رب العالمين عن جهل المشركين في عبادتهم لغير الله -تبارك وتعالى- من الأصنام التي لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا، ولكنهم عبدوهم إتباعًا للهوى واتخذوا لله الأنداد دون أن تكون لديهم حجة، أن يكون عندهم دليل أو برهان؛ ولذلك رب العالمين قال: ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ والظهير بمعنى المعين، وقد جاء هذا في قول الله تعالى: ﴿ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم: ٤]؛ فالظهير بمعنى المعين، ومعنى الآية إذن بناءً على ذلك، أن الكافر معينًا للشيطان وحزبه من الكفرة على عداوة الله ورسوله -صلى الله عليه وآله وسلم- ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾.

فالكافر يقاتل ويعادي ويجمع المجرمين؛ لمحاربة دين رب العالمين -سبحانه وتعالى- ولكن يجب أن يعلم الجميع أن الدنيا بأسرها لو اجتمعت على أن تقف أمام رب العالمين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، فالكافر وإن جمَّع الجيوش وعد العدة لحرب دين الله -تبارك وتعالى- ولمواجهة أنبياء الله ورسله ولأتباع الأنبياء والمرسلين فليعلم أنهم في النهاية سينقطعون، وأن الغني الكبير المتعال هو رب العالمين -سبحانه وتعالى- يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد، فكيف يمكن لضعيف مسكين فقير أن يواجه الغني الكبير المتعال جل في علاه؟!!

ثم يقول -سبحانه وتعالى-: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ عود هنا للسياق مع النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- والكاف حرف خطاب، وما أرسلناك أنت يا محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- إلا مبشرًا ونذيرًا، مبشرًا للمؤمنين بالجنان ولما أعده لهم ربهم -سبحانه وتعالى- ومنذرًا للكافرين بعذاب رب العالمين -سبحانه وتعالى- الأليم، والله -عز وجل- قد ذكر ذلك في كتابه عن نبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- في مواطن متعددة، ومنها ما جاء في أوائل سورة الكهف: ﴿ قَيِّمًا لِّيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ [الكهف: ٢]؛ وقال الله -عز وجل- له كما في نهاية سورة مريم: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [مريم: ٩٧]؛ ولا ينافي ذلك يعني لا ينافي قولي بأن البشرى للمؤمنين والإنذار للكافرين، هذا لا يتنافى مع قول الله -تبارك وتعالى- في قصره الإنذار على المؤمنين كما في سورة يس: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ [يس: ١١].

الآية التي معنا، والآيات التي قرأتها، بينت فيها أن البشرى لأهل الإيمان والإنذار للكافرين والمشركين – والإنذار هو الإعلام بالتخويف– فكيف قصر رب العالمين –سبحانه وتعالى– في سورة يس الإنذار على المؤمنين؟ يعني جعل الإنذار فقط على المؤمنين: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾؛ والذين يتبعون الذكر ويخشون الرحمن بالغيب هم أهل الإيمان، والله قصر الإنذار عليهم؟

الجواب، أن الإنذار في الأصل للمشركين والكافرين، ولكنهم لما لم يستفيدوا منه، فكأنه لم يكن لهم بحال، هم الذين قصروا في الاستفادة، ولما لم يستفيدوا منه فكأن الإنذار لم يأت إليهم، وإنما الذي استفاد من الإنذار هم أهل الإيمان حتى لا يقع في الذنوب والعصيان؛ ولعل هذا واضح بحمد الله –تبارك وتعالى–.

ثم يقول رب العالمين ويجعل هذا القول في سياق الكلام عن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– والإشادة بمكانته، والإعلاء من شأنه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾.

يقول الله –عز وجل– للنبي –صلى الله عليه وسلم– قل لهؤلاء الناس، أخبرهم، أعلمهم أنك لا تطلب منهم شيئًا وراء تبليغك إياهم الرسالة، ولا تريد منهم مالًا ولا جاهًا ولا سلطانًا، والله –عز وجل– قد أعلم نبيه –صلى الله عليه وآله وسلم– أن يقول لهم ذلك في أكثر من موطن، وكذلك كقوله: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص: ٨٦]؛ والله –عز وجل– بصيغة الاستفهام الإنكاري التوبيخي يقول لهؤلاء : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ [الطور: ٤٠]؛ يعني هل أنت يا نبي الله –صلى الله عليه وآله وسلم– تسألهم مالًا على البلاغ فهم يستثقلوا القبول من أجل ما تطلب منهم؟ نبي هذه الأمة وسائر الأنبياء والمرسلين كانوا لا يطلبون أجرًا على دعوتهم الناس إلى الله –تبارك وتعالى– لا يريدون مالًا ولا يريدون جاهًا ولا يريدون سلطانًا ولا غير ذلك، ومن المعلوم أن المشركين عرضوا على النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– كل ذلك، عرضوا عليه المال وعرضوا عليه الجاه، وعرضوا عليه السلطان، أرادوا أن يسودوه عليهم، ولكنه رفض كل ذلك –صلى الله عليه وآله وسلم– لأنه يكفيه شرفًا وفخرًا أنه رسول رب العالمين.

أنه مصطفًى من قبل الله –عز وجل– كي يبلغ رسالة ربه إلى الناس، وكذلك هنا يقول: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾؛ ما معنى الآية؟ فمعنى قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء؟ يعني أنا أدعوكم إلى الله –عز وجل– رغبة في أن تختاروا السبيل والطريق الموصل إلى الله –تبارك وتعالى– كل ما أطلبه منكم وأرجوه منكم وأسألكم إياه أن تسلكوا سبيلًا مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وبعد أن وضح الله السبيل للإنسان تركه بعد ذلك أمام باب الحرية والاختيار: ﴿ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ [المزمل: ١٩]؛ بعد أن بين الله طريق الخير من الشر والهدى من الضلال كما قال –سبحانه–: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ١٠]؛ ترك للإنسان بعد أن يختار هو، والمؤمن يسلك طريق الله –عز وجل– والكافر يسلك طرق أهل الغواية والضلال.

ثم بعد ذلك، نأتي إلى المحور الثالث والأخير في هذا اللقاء وهو بعنوان: قصر التوكل على الله مع ذكر بعض صفات الجلال والكمال لله –تبارك وتعالى– ففي ذلك يقول رب العالمين: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾؛ ما أجمل كتاب الله –عز وجل– وما أجمل مثل هذه الآيات الكريمة التي يتحدث فيها رب العالمين –سبحانه وتعالى– عن نفسه ويثني عليها بعد أن يأمر النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– والأمر له أمر له ولأمته بأن يفردوا رب العالمين –سبحانه وتعالى– بالتوكل وحده دون سواه، ويذكر من الدلائل الداعية إلى ذلك والمؤيدة لأن التوكل لا يكون على الله وحده دون سواه حينما يقول: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ ﴾؛ فالذي يتوكل عليه وحده ويستحق أن يتوكل عليه وحده هو الذي ﴿ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

إذا احتجت إلى أمر أو وقعت في أمر وجدت رب العالمين -سبحانه وتعالى- والتوكل في أمر معناه إسناد الأمر بعد اتخاذ الأسباب الصحيحة إلى رب العالمين -سبحانه وتعالى- وسيأتي حديث في آخر سورة الشعراء -إن شاء الله تبارك وتعالى- عن أمر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يتوكل على الله -عز وجل- والله -عز وجل- لما ذكر التوكل عليه وحده ذكر المبررات الدافعة إلى مثل ذلك حتى تنقطع الأعذار، وأذكر لكم مثلًا بعض الآيات التي جاء بها التي جاء فيها الأمر بالتوكل للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وكيف قرر رب العالمين -سبحانه وتعالى- هذه الآيات بشيء من دلائل وقدرته وعظمته التي بها يستحق أن يتوكل عليه وحده قال مثلًا: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ [المزمل: ٩]؛ يعني إذا كان رب المشرق والمغرب -سبحانه وتعالى- رب المشارق والمغارب -كما في بعض الآيات- فهو الملك، فكيف لا يتوكل الإنسان على من له الدنيا والآخرة؟ وهنا يذكر أنه الحي الذي لا يموت وغيره يفنى، لا يبقى إلا رب العالمين سبحانه فهو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهذا من أخص أسماء الله -تبارك وتعالى- التي مدح بها ربنا -سبحانه وتعالى- نفسه، ثم اثني على نفسه: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾؛ لعلكم تلاحظون وتدركون في كثير من آيات القرآن الكريم أن التسبيح قورن مع التحميد في كتاب الله وفي سنة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- التسبيح معناه التنزيه والتقديس، والتحميد هو الثناء على الله بما هو أهله، وإذا فعل الإنسان ذلك يكون قد أتى بأمرين عظيمين:

الأمر الأول: تنزيه رب العالمين -سبحانه وتعالى- وتقديسه عن ما لا يليق به.

والأمر الثاني: الثناء عليه بما هو أهله -سبحانه وتعالى-؛ ولذلك كان من أحب الكلمات الله -عز وجل- التسبيح المقرون بالتحميد، آخر حديث ختم الإمام البخاري -رحمه الله تبارك وتعالى- صحيحه ما هو؟

(كلمتان خفيفتان على اللسان).

(كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم)؛ ولما نزل على النبي -صلى الله عليه وسلم- قول الله -عز وجل-: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ [النصر: ٣]؛ قالت أم المؤمنين عائشة كما في الصحيح ما كان النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يدع هذه الكلمات في صلاته لما أنزلت عليه، فكان يقول: سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك؛ وختام كل مجلس من السنة أن يقول فيه الإنسان: "سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك" وهكذا قورن التسبيح مع التحميد كثيرًا في كتاب الله وفي هدي رسول الله، وفي سنة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ثم قال: ﴿ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾؛ -سبحانه وتعالى- الخبير هو الذي يعلم دقائق الأمور، والذي يعلم دقائق الأمور ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، هو علام الغيوب -سبحانه وتعالى- فهو الخبير يعني العليم بدقائق الأمور -سبحانه وتعالى- لا تخفى عليه خافية، ويكفي أن نتأمل قوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ [ق: ١٦]؛ يعن خطرات نفسك يعلمها رب العالمين من يعلمها غيره؟ واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه، لا يطلع على ذلك أحد سوى علام الغيوب -سبحانه- ثم يستمر السياق في ذكر أيضًا المدح لرب العالمين -سبحانه وتعالى- والثناء عليه وعلى قدرته التامة فيقول رب العالمين: ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾.

لضيق الوقت والمقام، تعلمون أن الله -عز وجل- خلق السموات والأرض في ستة أيام، ولعنة الله على اليهود تترا إلى يوم الدين حينما استندوا في ذلك إلى قول لا يليق برب العالمين فقالوا بأن الله خلق السموات والأرض؛ لأنه يناله التعب إذا خلق ذلك دفعة واحدة؛ ولذلك تعب فاستراح في اليوم السابع، وهذا من عقائدهم الباطلة لعنهم الله إلى يوم الدين، وهنا يقول بعد ذلك: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾؛ وقد جاءت سبع آيات في كتاب الله -عز وجل- تفيد استواء الله على عرشه، وأهل السنة والجماعة يؤمنون أن رب العالمين

استوي على عرشه استواء يليق بجلاله وكماله دون تمثيل أو تعطيل جل في علاه، وهذا من تمام عظمة رب العالمين -سبحانه- فلا يليق برب العالمين أن يكون في السفل، وإنما هو في أعلى عليين، ومدح نفسه بذلك ربنا -سبحانه- في سبح آيات من كتابه ومنها هنا: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾؛ ونحن نؤمن وندين لله -عز وجل- بأن ربنا استوي استواء يليق بجلاله وكماله، لا نؤول ذلك ولا نعرف حقيقة ولا كنه ذلك؛ ولذلك ختم الآية بقوله: ﴿ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ فإذا أردت أن تعرف الرحمن فاسأل به خبيرًا، قيل الخبير: النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لأنه أعلم الناس بالله لما أنزله عليه ربه، وإن أردت أيضًا أن تعرف من صفات الجلال والكمال فسأل القرآن الكريم الذي أنزله رب العالمين يخبرك عن ذلك.

ثم نختتم هذا اللقاء بقول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ رب العالمين -سبحانه وتعالى- هنا في هذا لآية الكريمة يقول: بأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- إذا طلب من المشركين أن يسجدوا لرب العالمين -سبحانه وتعالى- ويسموه باسمه الرحمن - اسم من أسماء الله تبارك وتعالى- أنكروا هذا الاسم، ولم يؤمنوا به، واستعلوا واستكبروا عليه، وأظهروا الإنكار من باب الاستكبار -والعياذ بالله تبارك و تعالى- وقالوا: ﴿ وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾؛ يعني هل نسجد ونطيعك فيما تأمرنا به من أن نسجد إلى الرحمن؟ وزادهم هؤلاء نفورًا يعني استكبارًا فلا يسجدون للرحمن؛ ولذلك كانوا لا يؤمنون بهذا الاسم، كما كانوا أيضًا ينكرون بعض أسماء الله الحسنى، وفي صلح الحديبية النبي - صلى الله عليه وآله وسلم- لما أمر الكاتب أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم؛ قالوا لا...، إننا لا نعرف الرحمن ولا نعرف الرحيم، اكتب ما كان يكتب آبائك من قبل بسمك اللهم، وأنكروا اسم الله الرحمن، وفي هذا غباوة من هؤلاء المشركين وأهل الضلال، نعوذ بالله من طريقهم، ونسأل الله أن يجعلنا من الذين يثبتون أسمائه الحسنى وصفاته العلى، وصلى اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بالنسبة لأسئلة الحلقة الماضية:

السؤال الأول: بأي شيء أهلك الله عادًا وثمود أيد ما تقول بدليل من القرآن؟

وكانت الإجابة: أهلك الله عاد؛ قال الله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [فصلت: ١٦]؛ وقال: ﴿ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٦]؛ وقال: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿ ١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [القمر: ١٩- ٢٠]؛ وأما ثمود فأهلكوا بالطاغية: وقال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [فصلت: ١٧].

والسؤال الثاني: اشرح باختصار قول الله -عز وجل-: ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ [الفرقان: ٤٣]؟

يقول الإجابة: أن يعبد المكلف الله -سبحانه- بما يليق به

يعني أنه هؤلاء المشركين الآية تشير إلى أن هؤلاء المشركين عبدوا غير الله -تبارك وتعالى- وقد اتبعوا في ذلك أهوائهم، والمفروض هو عبادة الله -سبحانه وتعالى- وحده دون سواه، وترك إتباع الهوى والشيطان وغير ذلك مما يصد عن عبادة الرحمن -سبحانه وتعالى-.

هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه المحاضرة:

السؤال الأول: على أي شيء يعود الضمير في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ ﴾، وما المراد باليسير ﴿ يَسِيرًا ﴾ في الآية؟ وما المنافع التي تعود على العباد في ذلك؟

والسؤال الثاني: اذكر من القرآن الكريم ما يدل على أن البشرى للمؤمنين؟ والإنذار للكافرين؟ ولماذا قصر الإنذار على المؤمنين في سورة يس؟

الدرس السابع

ختام الآيات الواردة في سورة الفرقان

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا إتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله ملتبسًا علنيا فنضل. اللهم إنا نعوذ بك أن نضِل أو نُضل، أو نذِل أو نُذل، أو أن نظِلم أو نُظلم، أو أن نجهل أو يُجهل علينا.

أما بعد: يسرنا أن نلتقي كما ذكرت، وأشرت مجددًا مع تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير -رحمه الله تبارك وتعالى- ودرسنا في هذا اللقاء -إن شاء الله تبارك وتعالى- في كتاب الآيات الواردة في سورة الفرقان، ويدور الحديث في هذا اللقاء حول ثلاثة محاور:

المحور الأول: تمجيد الله لنفسه لجميل ما خلق في كونه.

المحور الثاني: صفات عباد الرحمن كما وردت في سورة الفرقان.

المحور الثالث: النعيم المقيم في الدار الآخرة لعباد الله المتقين.

ولنستمع إلى آيات اللقاء مع الأستاذ عبد الرحمن فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ [الفرقان: ٦١ - ٧٧].

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه، ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين وبعد:

المحور الأول بعنوان: تمجيد الله لنفسه لجميل ما خلق في كونه.

وتحته هذه الآيات: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ الله -تبارك وتعالى- كما أشرت في اللقاء السابق ذكر نفور المشركين عن السجود له -تبارك وتعالى- فأراد هنا أن ينبه إلى أن السجود لله -عز وجل- لو عقلوا وتأملوا تفكروا لأذعنوا وسجدوا للرحمن كما أمرهم ربهم -سبحانه وتعالى-

وقد ذكرت هذه الآية والآية التي تليها بعض الدلائل والبراهين على أن رب العالمين –سبحانه وتعالى– يستحق التعظيم والإجلال؛ وبالتالي يسجد العباد له –سبحانه وتعالى– ومن ذلك ما أشار إليه في هذه الآية في قوله: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾؛ وكلمة تبارك مرت معنا في أول السورة، وفي أيضا الربع الأول منها بعد ذلك، وتجد مرة أخرى هنا وقد أشرت فيما مضى إلى أن معناها تعالى وتعاظم وتقدس رب العالمين، وهي تدل على كثرة الخيرات والبركات من الله –تبارك وتعالى– وذلك يستلزم تعظيمه –سبحانه وتعالى–. ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴾ البروج في اللغة هي القصور العالية ومعناها في الآية الكواكب العظام، وقد ذكر الإمام الحافظ ابن كثير –رحمه الله تبارك وتعالى– ذلك عن مجاهد وعن سعيد بن جبير وعن قتادة –رحمه الله تبارك وتعالى– ذكر أن المراد بالبروج هنا الكواكب العظام عن هؤلاء وغيرهم، وقيل بأن المراد بالبروج هنا: قصور في السماء للحرس، وقد رجح الإمام الحافظ ابن كثير –رحمه الله تبارك وتعالى– الأول؛ وبالنظر –أيها الإخوة الكرام– يمكننا أن نقول بأن هذه البروج هي كواكب عظيمة وهي أيضًا في نفس الوقت فيها قصور يحرس ربنا –سبحانه وتعالى– بالكواكب السماء من أن يصعد إليها هؤلاء الشياطين الذين يحاولون أن يسترقوا السمع، فهي أيضًا إلى جانب أنها كواكب عظيمة أيضًا قصور للحرس بما فيها من كواكب سيارة ونجوم أودعها رب العالمين –سبحانه وتعالى– في هذا الكون لتكون رجومًا للشياطين.

وقد أشار رب العالمين –سبحانه وتعالى– إلى ذلك في قوله: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ [الملك: ٥]؛ فجعل هذه المصابيح رجومًا أيضًا للشياطين.

ثم قال –سبحانه وتعالى–: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾؛ المراد بالسراج الشمس كما قال رب العالمين –سبحانه وتعالى– عنها: ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ [النبأ: ١٣]؛ والقمر المنير الذي نراه في السماء وهو مكتمل أحيانًا وهو حقًا يضيء، ورب العالمين –سبحانه وتعالى– أشار إلى ذلك في قوله: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس: ٥]؛ وهذه الآية كما أشرت لو نظر إليها الناظرون وتأمل فيها المتأملون الذين دُعوا إلى السجود إلى الرحمن –سبحانه وتعالى– لأدركوا أن خالق هذا الكون هو رب العالمين –سبحانه– والذي أودع هذه الكواكب العظيمة في السماء هو الله –عز وجل– والذي ينظم أمر هذا الكون هو رب العالمين –سبحانه– وبالتالي نقول لهم بأنه –سبحانه وتعالى– يستحق وحده التعظيم والتقديس.

ثم تستمر الآيات في بيان هذا الأمر والدلالة عليه، فيقول رب العالمين: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ وهو وحده –سبحانه وتعالى– هو الذي جعل الليل والنهار خلفة، ومعنى خلفة: يعني يخلف بعضهم بعضًا، يخلف الواحد منهم الآخر، فإذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب ذاك؛ فهم يتعاقبان لا يفتران، كما قال رب العالمين: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ [إبراهيم: ٣٣].

وقال –سبحانه–: ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤] وهي أيضًا تمشي في السياق الثناء الكريم على رب العالمين –سبحانه وتعالى–.

والله –عز وجل– يقول أيضا: ﴿ لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠].

فالله –عز وجل– جعل الليل والنهار خلفة، ولنا أن نتساءل: لماذا جعل رب العالمين –سبحانه وتعالى– الليل والنهار خلفة؟

أجابت الآيات: ﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ ومعنى ذلك: أن المتأمل في هذا الكون، والذي يشاهد هذا الملكوت، وأن الشمس تشرق كل يوم من المشرق وتغيب في المغرب، وأن الليل ويولج في النهار وأن النهار يولج في الليل، وقد أشارت الآيات فيما مضى إلى شيء من هذا وقد تحدثت عنه أيضا فيما مضى ولكني أود أن ألفت النظر إلى أن الإنسان لو تأمل في ذلك لعرف عظمة رب العالمين -سبحانه وتعالى- وانتقل من كل ذلك إلى وجوب إفراد الله -سبحانه وتعالى- بالوحدانية والعبادة؛ لأنه الذي فعل ذلك؛ ولأنه وحده هو الذي يستحق أن يعبد دون سواه.

وقيل أيضًا: ﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ أن تعاقب الليل والنهار يدفع الإنسان إذا قصر في عمل الليل أن يستدركه في النهار، وإن قصر في عمل النهار أن يستدرك ذلك في الليل، وفي الحديث أن رب العزة والجلال كما أخبر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- عنه: (يبسط يده بالليل؛ ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار؛ ليتوب مسيء الليل).

فجعل الله -عز وجل- الليل والنهار خلفة، وفي هذا مصلحة للعباد، فالعبد يعبد ربه في الليل وفي النهار، وإذا فرط في الليل جاءه النهار فاجتهد فيه، وإذا قصر في النهار جاء الليل فاستدرك ما فات من عمل من النهار فيه، وهكذا حتى يعبد ربه -سبحانه وتعالى- عبادة يمكن من خلالها أن ينال جنة النعيم والفوز بالدار الآخرة عند الوقوف بين يدي رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

المحور الثاني في هذا اللقاء: صفات عباد الرحمن كما وردت في سورة الفرقان:

أشرت في أول السورة إلى أن هذه السورة تحدث ربنا -سبحانه وتعالى- فيها عن وحدانيته -عز وجل- تكلم فيها عن التوحيد، وأشار فيها إلى بعض مظاهر الربوبية وإلى وجود إفراده في العبادة وحده دون سواه، كما تحدثت عن إثبات نبوة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وردت على شبه المنكرين والمكذبين بنبوة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وأيضًا بالقرآن الكريم، وذكرت أيضًا بأن هذه السورة اشتملت على صفات عباد الرحمن، وقد ذكرت هذه الآيات التي هي في ختام سورة الفرقان، ذكرت تسع صفات بالتحديد لعباد الله - تبارك وتعالى- المؤمنين الطائعين الصفة الأولى والثانية: وردت في قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا ﴾ قبل أن أذكر الصفة الأولى والثانية أقول بأن الله -عز وجل- هنا قال: وعباد الرحمن فوصفهم بالعبودية وصف من؟

وصف المشتغلين بالعبودية: بالعبودية، وفي هذا إشارة إلى أن أخص صفات المؤمنين الموحدين، وأعظم صفاتهم أنهم عباد لله -تبارك وتعالى- كم يشعر الإنسان بعزة أن يكون عبدًا لله -عز وجل- كم يكون الإنسان مرفوع القامة عزيز النفس أبي الطبع عندما يشعر بأنه يذل نفسه إلى الله -تبارك وتعالى- فيعزه ربه -سبحانه وتعالى- ومولاه، وأيضًا نلاحظ هنا أن الله -عز وجل- أضاف هؤلاء العباد إلى نفسه فقال: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ ﴾؛ كنت لا أود أن أقف عند هذا، وهذه مسألة عقدية؛ لأن بعض الجاهلين حينما يضيف رب العزة والجلال في كتابه شيئًا إلى نفسه يظنون أن الله -عز وجل- ذو أبعاض وأجزاء وأنه يحل في المخلوقات، وهذا كلام باطل؛ لأنهم لم يفقهوا أسلوب القرآن الكريم، هنا رب العالمين -سبحانه وتعالى- أضاف العبادة إلى نفسه فهل هؤلاء العباد يعني يمكن أن نعتبرهم أجزاء من الله -تبارك وتعالى؟ حاشا وكلا.

الجواب على ذلك أن نقول: المضاف إلى الله -تبارك وتعالى- نوعان، ما يضاف إلى الله -عز وجل- نوعان:

- إضافة معانٍ.

- إضافة أعيان.

المعاني: هي الأمور التي تقوم بغيرها، الذي يعبر عنها في علم الكلام بالعرض، لكن المعاني أمور تقوم بغيرها هذه المعاني إذا أضافها ربنا -سبحانه وتعالى- فهي من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، وتكون هذه المعاني ألا وهي الصفات قائمة بالموصوف ألا وهو رب العالمين -سبحانه وتعالى- فإضافة المعاني إلى الله من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، أقول: الله هو الرحمن الرحيم، الله يتصف بصفة الرحمة، فصفة الرحمة هنا تضاف إلى الله -عز وجل- من باب إضافة الصفة للموصوف، والصفات مع الذات هي لرب العالمين -سبحانه وتعالى- وحده دون سواه هذه بالنسبة إلى إضافة المعاني إلى الله -عز وجل-.

النوع الثاني من الإضافة: إضافة الأعيان: الأعيان نعرفها: هي الأشياء القائمة بنفسها، المعاني تقوم بغيرها كصفات الله -عز وجل- تقوم بذات الله -تبارك وتعالى-، الأعيان منفصلة عن الذات؛ لأنها تقوم بنفسها، الله - عز وجل- كما أضاف المعاني إلى نفسه ألا وهي صفاته -تبارك وتعالى- أضاف أيضًا بعض الأعيان القائمة بنفسها إلى نفسه؛ هل هذه الإضافة تقتضي أن هذه الأعيان أجزاء لله تبارك وتعالى؟

حاشا وكلا؛ طيب لماذا أضافها إلى نفسه؟

أضافها إلى نفسه من باب التكريم والتشريف، رب العالمين حينما يقول: ﴿طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦]؛ فأضاف البيت إلى نفسه، هذه الإضافة تقتضي التكريم والتشريف، لما أضاف ناقة صالح إلى نفسه: ﴿ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا ﴾ [الشمس: ١٣]؛ أضافها إلى نفسه ليست جزء ولا بعض من الله -عز وجل حاشا وكلا أن يمكن أن يذهب عقل إنسان عاقل إلى مثل ذلك، ولكن هذا من باب التكريم والتشريف وهنا شرف ربنا عباده الذين وصفهم بالعبودية بأن أضافهم إلى نفسه تكريمًا وتشريفًا لهم -سبحانه وتعالى- وبعد ذلك أدخل في الصفة الأولى: هي أنهم يمشون على الأرض هونا.

يمشون على الأرض بسكينة وهيبة ووقار، وأفادت الآية أنه ليس عندهم شيء من الكذب أو الخيلاء أو التجبر، لا في أنفسهم شيء يقول بذلك ولا يحدث هذا أو يفعلوه أيضًا أمام الآخرين، يعني نفوسهم نقية لم يدخلها شيء من العجب بالنفس ولا الغرور ولا الخيلاء، ثم هم إذا مشوا أمام الناس مشوا بلين ورفق وهدوء، وهذه صفة جليلة كريمة، وصف بها ربنا -سبحانه وتعالى- عباده الذين هم: عِبَادُ الرَّحْمَنِ كما جاءت الآية ووصفتهم أو نسبتهم إلى رب العزة والجلال، وهي أنهم يمشون بسكينة ووقار على هذه الأرض، والله -عز وجل- قد مدح من يفعل ذلك كما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا ﴾ [لقمان: ١٨]؛ وهذا تكليف رباني من رب العالمين -سبحانه وتعالى- لعباده وأوليائه، ولا يعني ذلك أن يمشي الإنسان كالمريض على الأرض، فهذا أيضًا مخالف لسمت المسلمين، فقد جاء في السنن عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: أنه كان إذا مشى كأنه يتحدر من مكان عال -صلوات الله وسلامه عليه- يعني يمشي مشية فيها قوة، وفيها نشاط، وبها حيوية، فالتصنع والإنسان يتصنع في مشيته ويظهر أنه لون من ألوان الضعف، ويظن بعض ذلك أن هذا أمر مدحه الله -عز وجل- وهو أنه يمشي على الأرض هونًا؟ ليس كذلك، وإنما لا يمشي بلا بطر ولا خيلاء ولا تعالٍ على عباد الله -عز وجل- وإن كان المطلوب منه أن يمشي في قوة وهيبة وأيضًا وعظمة أمام الناس حتى لا يشعر أحدًا أن أهل الإيمان عندهم أي لون من ألوان الذلة بحال، هذه هي الصفة الأولى التي وصف ربنا -سبحانه وتعالى- بها عباد الرحمن.

الصفة الثانية: قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا ﴾؛ يعني قابلوهم برفق، إذا أساء إليهم الجاهل، ومن من البشر اليوم لا يسيء إليه مخلوق، فكم من أناس يلقون أشد الأذى من الآخرين، ومع ذلك لا يقابلونهم بمثل أعمالهم؛ لأن أهل الإيمان لا يقابلون السيئة بالسيئة وإنما يقابلون السيئة بالحسنة؛ لأنهم تعلموا من كتاب ربهم ذلك، قال رب العالمين -سبحانه-: ﴿ وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي

بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤] ولو أن الناس جميعًا كانوا في السفاهة سواء هذا يجهل على هذا، وهذا يجهل على هذا، ويرد هذا على هذا، فمن سيكون المحسن إذن، ومن سيكون الفاضل إذن، ومن يكون القريب إلى ربه إذن، وهذه دعوة لعموم أهل الإيمان أن يتحلوا بالصبر وبالأخلاق الفاضلة في مقابلة السفهاء الذين يسيئون إليهم، والله –عز وجل– يقول عن أهل الإيمان: وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين، هاتان الصفتان عظيمتان افتتح ربنا –سبحانه وتعالى– بهما صفات عباد الرحمن وجمعهما معًا في آية واحدة، وهي أنهم يمشون على الأرض هونًا بسكنية ووقار –كما ذكرت– ثم بعد ذلك إذا سفه عليهم أحد أو جهل عليهم جاهل لم يقابلوه بمثل فعله، وإنما قابلوه أيضًا برفقٍ ولينٍ وأعرضوا عنه، وقالوا سلامًا؛ لأنهم لا يودون الغوص مع الجاهلين ولا مجادلة المجرمين، وإنما يرتفعون بأنفسهم عن الوقوع مع صنف من هؤلاء الناس.

قيل "وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا" يعني قالوا سدادًا وقيل: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ يعني قالوا معروفًا من القول.

الصفة الثالثة من صفات عباد الرحمن: جاءت في قول الحق –تبارك وتعالى–: ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ صدق ربي سبحانه، يمكنني أن أوجه جمهور المستمعين الآن إلى عظمة القرآن الكريم من خلال أيضًا لفتة في هذه الآية، تأملوا الترتيب الدقيق لصفات عباد الرحمن كما جاءت في كتاب الله –تبارك وتعالى– بعدما ذكر ربنا –عز وجل– الهيئة التي يكون عليها هؤلاء في النهار: وهي أنهم يمشون على الأرض هونًا، وإذا جهل عليهم أحد أثناء نهارهم ومعاشهم وتعاملهم وبيعهم وشرائهم قابلوه بالإحسان، ذكر ربنا –سبحانه وتعالى– بعد ذلك حالهم في الليل بعدما ذكر حالهم في النهار، يعني الحال الجميل الذي زكاهم رب العالمين –سبحانه وتعالى– به، ذكر أيضًا حالهم في الليل فقال: ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ وهذه سيرة عباد الله وأولياء عباد الله الصالحين أنهم كما قال ربنا –سبحانه وتعالى– عنهم: ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦]؛ وكما قال رب العالمين أيضًا عنهم: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [الزمر: ٩]، هذه صفة جليلة من صفات عباد الرحمن، وهي أنهم يقومون بالليل لله –تبارك وتعالى– ساجدين راكعين خاشعين متضرعين لاجئين سائلين داعين رب العالمين –سبحانه وتعالى–، والنبي –صلى الله عليه وآله وسلم– كان يقوم الليل حتى تورمت من قيام الليل –صلوات الله وسلامه عليه– وهذا شأن عباد الرحمن، وهذه صفة جليلة عزت حقيقة مع أعباء الناس وأعمال الناس اليوم عزت كثيرًا في هذا الزمان، والسعيد من يقوم لربه –سبحانه وتعالى– بالليل يدعو ربه، وخاصة عندما ينزل رب العالمين –سبحانه وتعالى– في الثلث الأخير من الليل، وقد أشرت إلى ذلك قبل ذلك، وضيق المقام يحجزني أحيانًا أن أستطرد في بعض المعاني، ولكني أود أن ألفت نظركم وأذكركم وأذكر نفسي أيضًا بقيام الليل بالاتصاف بهذه الصفة الجليلة التي عليها عباد الرحمن: ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾.

الصفة الرابعة من صفات عباد الرحمن: جاءت في قول الحق –تبارك وتعالى–: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ هذه الكلمات الرقيقة، هذه الدعوة الجميلة، هذا التلطف من العبد في خطابه لربه، وكأني أشعر بأن الذي يقول ذلك يشعر بالفقر الشديد والحاجة الملحة لربه ومولاه، فهؤلاء الذين اتصفوا بالصفات الثلاث السابقة، ماذا يكون حالهم بعد ذلك؟ هؤلاء في طاعة وعبادة، ومع كل ذلك يخافون ربهم ويسألونه –سبحانه وتعالى– يسألونه أن يقيهم عذاب جهنم، أن يصرف عنهم عذاب جهنم، ويذكرون لذلك سببين:

السبب الأول: ما هو جاء في هذه الآية؟ ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾.

السبب الثاني: ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾.

إن عذابها كان غرامًا: يعني شديدًا ملازمًا كما قال رب العالمين في عذاب الكافرين: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦٨].

﴿ لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٥] فنار الآخرة على الكافرين دائمة لا تنقطع أبدًا، فهم يقولون: ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾؛ ولذلك توجهوا إلى الله مع عبوديتهم له، وطلبوا منه أن يصرف عنهم عذاب جهنم لهذا الأمر.

والأمر الثاني: منظر النار، منظر جهنم، وسوء مقيل أهل النار في جهنم، وهذا عبر عنه بقولهم: ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ فمنظرها يفزع منه الإنسان ومقام الإنسان فيها أيضًا شديد وصعب وهو عذاب أليم مقيم، وأدرك ذلك عباد الرحمن فدعوا ربهم -سبحانه وتعالى- بهذه الدعوة الطيبة، وقد يقول قائل: هل هؤلاء الذين يتصفون بهذه الصفات يخافون هذا الخوف؟ نعم يخافون هذا الخوف.

وقد جاء عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

أن أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها- سألت النبي -صلى الله عليه وسلم- هؤلاء الذين لا يفعلون ولا يفعلون يعني لا يصلون ولا يصومون ولا يتصدقون قال: (لا هؤلاء هم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون، ولكن يخافون ألا يقبل الله منهم)، وهنا لفتة نفهمها من خلال هذه الآيات كما فهمها هؤلاء العباد، وهي أننا يجب أن نعتقد أن المصير إلى الله -عز وجل- وأن الذي يدفع العذاب عن العباد هو رب العالمين -سبحانه وتعالى- وحده دون سواه، فأهل الطاعة هنا هم الذين توجهوا إلى الله -تبارك وتعالى- سألوه: ﴿ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾، وهنا لفتة أخيرة في هذه الآية أشار إليها بعض أهل العلم، وهي أن هذه الآية لما جاءت بعد قول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ نستفيد منها أن من دعواتهم لربهم أنهم يدعون الله -عز وجل- ويلحون في الدعاء أن يصرف عنهم عذاب جهنم، ولعل هذا من الدندنة التي كان نبينا -صلى الله عليه وسلم- يدندن حولها وهي أنه كان يسأل ربه الجنة ويستعيذ به من النار.

الصفة الخامسة من صفات عباد الرحمن: جاءت في قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ مدح الله -عز وجل- في هذه الآية هؤلاء المؤمنين بتوسطهم في إنفاقهم، فهم لا يتوسعون توسعًا مفتوحًا فيقعون في الإسراف والتبذير، ولا يبخلون ويقترون، فيقعون في التضييق، وإنما هم بين هذا وبين هذا؛ لأن طريقتهم تتسم بالوسطية والاعتدال، "إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما": يعني بين الإسراف وبين التقتير.

وقد لفتت هذه الآية بعض أهل العلم فذكروا بأن الاقتصاد موجود في الإسلام، وأن الشعوب إن أرادت أن تكون على اقتصاد سليم أن تسير على هذا النهج القرآني، فلا إسراف ولا تقتير، والوسط في كل شيء هو العدل الخيار الذي اثني عليه رب العالمين -سبحانه وتعالى- في كثير من الآيات، وخير الأمور أوسطها، حتى أصبح هذا مثلًا سائرًا بين الناس، ورب العالمين -سبحانه وتعالى- يخاطب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في كتابه، والخطاب له وخطاب لأمته فيقول: ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ [الإسراء: ٢٩]؛ يعني لا تجعل يدك مغلولة هذا كناية؟

عن عدم الإنفاق والتقتير والمسك والبخل، وكذلك أيضًا لا تفتحها وتنفقها وتنفق كل ما تريد، وكل ما تطلبه نفسك وتشتهيه تصرفه وتنفقه دون ضوابط في هذا، وإنما على الإنسان أن يوازن بين حياته سواء كان في

الرخاء أو كان عنده شيء من الضيق، يعني حتى لو كان الإنسان في سعة عليه أيضًا أن يراعي هذه المسألة فلا يسرف في الإنفاق ولا يقتر على نفسه، وعلى من يعول، هذه الصفة الخامسة من صفات عباد الرحمن.

والصفة السادسة جاء فيها كلام كثير وتنوعت إلى عدة أمور، وهي كما قال رب العالمين -سبحانه-: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا﴾ هذه الآيات ذكر ربنا -سبحانه وتعالى- فيها ثلاثة أمور يتورع عباد الرحمن في صفتهم السادسة من الوقوع فيها ترتيبها هكذا: ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ ﴾ وكل هذه من الأمور المحرمة، وعلى رأسها أشدها وأصعبها وأعظمها في الضلال والانحراف: ألا وهو الشرك بالله -تبارك وتعالى- المعبر عنه هنا بقول الله: ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ فالله -عز وجل- هنا في هذه الآية نفى عن عباد الرحمن أن يتخذوا مع الله شريكًا أو وليًا يدعونه كما يدعون رب العباد، أو أن يصرفون إليه أي لون من ألوان العبادة، والشرك أعظم الذنوب على الإطلاق، ويليه كما ذكر بعض أهل العلم: قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، ثم الزنا، وقالوا بأن الترتيب وارد في الآية هكذا، وقد ورد أيضًا في الصحيحين وغيرهما هذا الترتيب عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كما في حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- أن رجلًا جاء إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فقال: (أي الذنب أعظم عند الله قال: أن تجعل لله ندًا وهو خلقك).

وهذا هو الشرك بالله -عز وجل- وهذا هو معنى والذين لا يدعون مع الله إلهًا آخر، ثم قال الرجل: ثم أي؟ بهذا الترتيب قال: (أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك) الذي هو معبر عنها بقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، قال: ثم أي؟ قال: (أن تزني بحليلة جارك)؛ فهذه الأمور الثلاثة ذكرت على الترتيب هكذا وهي من أعظم المحرمات عند رب العباد، وعلى رأس ذلك دعاء غير الله -تبارك وتعالى- أو الشرك بإطلاق، فالوقوع في الشرك والعياذ بالله -تبارك وتعالى- يضيع الإنسان على الأبد؛ لأنه يجعل مصيره في الدار الآخرة إلى النار وبئس القرار، والله -عز وجل- قال: ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٨].

أما الأمر الثاني المذكور في الآية: الذي هو قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق فهو كبيرة عظيمة من الكبائر؛ ولكنه لاشك يغفر بالتوبة والرجوع إلى الله -تبارك وتعالى- وإن وقع في ذلك مؤمن يشهد لله بالوحدانية، ولنبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- بالنبوة والرسالة، فقد أرتكب أمرًا عظيمًا للغاية، النبي -عليه الصلاة والسلام- بيَّن حرمة المؤمن في كثير من أحاديثه، وذكر وأشار إلى أن حرمة المؤمن أعظم عند الله -عز وجل- من حرمة الكعبة، التي هي بيت الله -تبارك وتعالى- الحرام، فقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق منهي عنها في كتاب الله، وفي هدي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وأمر من فعل ذلك من أهل الإيمان إلى رب العالمين -سبحانه وتعالى- وقد رجح الحافظ ابن كثير -رحمه الله تبارك وتعالى- صحة وقبول توبة التائب القاتل، قال: وهذه الآية لا تتعارض مع قول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣].

قال لا تتعارض لماذا؟

قال لأن هذه الآية مطلقة، وهذه الآية مقيدة بالتوبة، فتحمل عليها؛ هذه الآية تحمل عليه، ويمكن أن نستدل على ذلك أيضًا بالآية: ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ والقتل دون ذلك فيدخل تحت المغفرة، وقد بينت السنة أيضًا أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أخبر بقبول توبة من قتل مائة نفس لما تاب،

ورجع إلى الله -تبارك وتعالى- وتبقى بعد ذلك مظالم وحقوق لهؤلاء المقتولين، يصلح رب العالمين -سبحانه وتعالى- بين المقتول والقاتل إذا قبل هو وتاب عليه في الدار الآخرة كما وردت بذلك أيضًا نصوص عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-.

أما الزنا فجريمة منكرة، الزنا قبيح، حرمه رب العالمين -سبحانه وتعالى- وهو من الذنوب العظيمة، وقد وضع الإسلام في هذا الأمر حدًا قويًا شديدًا فأوجب على الزاني المحصن أن يقتل، من زنا بعد إحصان أن يرجم، وأما من كانت بكرا فليجلد مائة جلدة، وهذا عقاب أليم من رب العالمين -سبحانه وتعالى- لمن ارتكب هذه الفاحشة.

ثم استثنى رب العالمين -سبحانه وتعالى- من تاب من عمل هذه الخصال، وهذا يفيد أن الإنسان قد تتعثر قدمه، وقد تزل، وقد يرتكب شيئًا من الموبقات والمعاصي فالله -عز وجل- فتح باب المتاب على مصراعيه لمن رجع إلى الله وأناب، ولكن بعد وعيد وتهديد من رب العالمين -سبحانه وتعالى- لمن ارتكب هذه الموبقات، هذا الوعيد موجود في الآية في قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾ يضاعف له العذاب: يعني يكرر عليه العذاب، ويزداد عليه العذاب، متى يكون ذلك؟ يكون في يوم القيامة حالة كون هذا الإنسان ذليلًا حقيرًا إلى جانب خلوده في النار، قال رب العالمين: ﴿ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ هذه الآية كريمة جدًا، رب العالمين -سبحانه وتعالى- فيها يفتح بالمذنبين المقصرين الواقعين في البلايا والأمور العظام، يفتح لهم باب المتاب على مصراعيه ويدعوهم أن يرجعوا إلى الله -تبارك وتعالى- من قريب، وأن يتوبوا، وأن من تاب، تاب رب العالمين -سبحانه وتعالى- عليه، قال الله -عز وجل-: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠]. ويقول -سبحانه-: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٥٣] وهذه دعوة مفتوحة لعموم المذنبين والمقصرين، وحتى عموم أهل الإيمان أن يتوبوا وأن يرجعوا إلى الله -تبارك وتعالى- والمؤمن الطائع لا يظن أنه بحاجة إلى توبة، فالله -عز وجل- كما في سورة النور: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١] أخبر رب العالمين -سبحانه وتعالى- عن التائبين بأمر عظيم جدًا آمل أن ننتبه إليه ألا وهو ما جاء في قوله -سبحانه-: ﴿ فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ ما معنى هذا الجزء من الآية؟

قال بعض أهل العلم معنى يبدل الله سيئاتهم حسنات: يعني أن حالهم يتغير فبدلًا ما كانوا يعملون السيئات يعملون الحسنات، بدلًا من الوقوع في الشرك أصبحوا موحدين لله -تبارك وتعالى- وبدلًا من قتال المسلمين أصبحوا يقاتلون الكفار والمشركين، وبدلًا من عمل السيئات أصبحوا يعملون الحسنات، هذا هو المعنى الأول في قول الله تعالى: ﴿ فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾.

يعني بعد ما كانوا يعملون السيئات بُدل عملهم بالسيئات إلى عمل بالحسنات، المعنى الثاني في الآية، وعليه دليل وهي أن الله -تبارك وتعالى- إذا شاء بدل سيئاتهم إلى حسنات فعلية، فقلب السيئات التي ارتكبوها من هذه الأمور العظيمة الشنيعة يقلبها بتوبة صادقة إلى حسنات، يأخذون عليها أجرًا عند رب العالمين سبحانه وتعالى؛ ولذلك في الصحيحين وغيرهما عن أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: (إني لأعرف آخر أهل النار خروجًا من النار وآخر أهل الجنة دخولًا الجنة) من هو يا رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: (يؤتى برجل فيقول أو فيقال يعني إما أن الله -عز وجل- يقول للملائكة أو أن رب العالمين -سبحانه وتعالى- هو الذي يقول، مَحُّو كبار يعني أبعدوا كبار ذنوبه، فيقال له: ألم تفعل كذا في يوم كذا وكذا يقول: بلى يا رب، ولا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئًا، فيقال له: إن الله أبدلك مكان هذه السيئات حسنات، فلما الرجل يعرف ذلك فيقول: إني أذنبت ذنوبًا كبيرة لا أراها ها هنا، يود الذنوب العظيمة أيضًا توجد، حتى تبدل حسنات، فيقول: إني عملت ذنوبًا أخرى لا أراها هن).

يقول أبو ذر –رضي الله عنه– راوي الحديث: فضحك رسول الله –صلى الله عليه وسلم– حتى بدت نواجذه.

هذا من طمع المخلوق ورب العالمين –سبحانه وتعالى– فضله واسع، على العبد أن يرغب وأن يطمع فيما عند الله –تبارك وتعالى– وهذا معنى سديد جميل: ﴿ فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ وتختم هذه الآية بقول الله تعالى: ﴿ وكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

ثم بعد ذلك يقول رب العالمين –سبحانه وتعالى–: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتابًا ﴾ ليست لي وقفة عند هذه الآية إلا عند قوله تعالى: ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ حتى لا يظن العبد أن التوبة مجرد كلام، أو أنه يرجع ثم بعد ذلك ينام، وإنما يتوب ويستمر بعد ذلك في الأعمال الصالحة.

الصفة السابعة من صفات عباد الرحمن جاءت في قول الحق –تبارك وتعالى–: ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ ما أجمل صفات عباد الرحمن؟!! نسأل الله أن نكون منهم، لا يشهدون الزور، قيل الزور: هو الشرك، وقيل: هو اللغو والباطل، وقيل: هو الغناء والفجور، وقيل غير ذلك من مشاهدة الآثام ومشاركة الناس فيما هم عليه من ضلال، والله –عز وجل– ينزه أوليائه وأحبابه ومن أضافهم إلى نفسه، بأنهم لا يشهدون المجالس كلها سواء كان كذبًا أو لغوًا أو باطلًا أو غناًء، ولا يشهدون الزور بمعنى الكذب المتعمد على الله –تبارك وتعالى– وفي الحديث الصحيح عن أبي بكرة –رضي الله تعالى عنه– أن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– قال: (ألا أنبأكم بأكبر الكبائر قالوا: بلى يا رسول الله، قال الشرك بالله) وهذا على رأس الكبائر وهذا يلتقي معنا في الآية: ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ إلى أن قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: (ألا وشهادة الزور)؛ ألا وقول الزور، فعد النبي –عليه الصلاة والسلام– من أكبر الكبائر أن يكذب الإنسان متعمدًا على رب العالمين –سبحانه وتعالى– ويشهد الله –عز وجل– على الباطل وهو يعلم أنه كاذب؛ ولذلك كان كبيرة من الكبائر العظيمة كان أهل الإيمان وكان عباد الرحمن لا يقعون في مثل هذا الإجرام، فهم لا يشهدون الزور ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ يعني إن عرض لهم في الطريق ما التفتوا إليه وما نظروا إليه وما دخلوا مع هؤلاء؛ ولذلك أوجه نداًء عامًا لعموم المؤمنين إن وجدتم غيركم يرتع في المحرمات ويقيم الاحتفالات التي لا ترضي رب العباد –سبحانه وتعالى– فيها من الموالد الآثمة أو اللقاءات المنكرة أو الغناء وما فيه من فجور وباطل وغير ذلك، فلا تشهدوا هذه الأندية بحال، يجب على المؤمن أن لا يحضر هذه المجالس الباطلة وهذا يدخل تحت قول الله: ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾.

أما الصفة الثامنة من صفات عباد الرحمن: جاءت في قول الرحمن –سبحانه–: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ البعض قد يظن أن هذه صفة نفت هكذا فقط، وإلا هي فقط صفة مدح وثناء من الله –عز وجل– على هؤلاء العباد بأنهم إذا ذكروا بآيات الله خروا عليها متأملين، فالآية لم تنف خرور عباد الرحمن على آيات الله –عز وجل– ولكنها نفت خرورهم عليها صمًا وعميانًا، فهم يخرون على آيات الله –تبارك وتعالى– يعني يتأملونها ويفهمونها، وذلك حال سماعهم للحق وإنصاتهم له وقبولهم له، أما المنفي هنا: الصم وعدم سماع الحق والانصراف عن الحق، وهذا كان للكافرين؛ ولذلك هذه الآية فيها دلالتان:

دلالة بالمنطوق، ودلالة بالمفهوم:

دلالة المنطوق الواردة في هذه الآية: أن عباد الرحمن إذا ذكروا بآيات الله خروا عليها مستمعين لها متأملين إياها عاملين بما فيها هذه دلالة المنطوق إذا ذكروا بآيات الله: ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾.

دلالة المفهوم: تفيد أن الكافرين إذا ذكروا بآيات الله –تبارك وتعالى– خروا عليها صمًا وعميانًا كما قال الله –تبارك وتعالى–: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ [لقمان: ٧]، ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم

مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥]، يعني زادتهم ضلالًا وانحرافًا وهذا معنى قوله: ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾، دلالة المنطوق للمؤمنين أنهم يخرون عليها مستمعين متفقهين، وأما الكفار فيفهم منها أنهم يخرون عليها صمًا وعميانًا.

الصفة التاسعة والأخيرة: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ هؤلاء يدعون ربهم -تبارك وتعالى- أن يمن عليهم بذرية صالحة تقر أعينهم بها، لماذا؟ لأن تمام النعيم في الدنيا والآخرة أن يعيش الإنسان سعيدًا بين ذويه وبين أهله وفي محيط أسرته، ويتم النعيم ويكتمل على المؤمن أيضًا بفضل الله -عز وجل- ومع رؤية رب العالمين -سبحانه- بأن يكون أولاد المؤمن معه في الجنة؛ ولذلك آخر صفة من صفات عباد الرحمن أنهم يتوجهون إلى ربهم -سبحانه وتعالى- داعين قائلين: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾.

هم يريدون أن تقر أعينهم بأزواجهم وأولادهم، وذلك في الدار الآخرة أكثر، لا يعنون منظرًا جميلًا في الدنيا ولا سعة في المال في الدنيا، وإنما يرغبون فيما عند الله -تبارك وتعالى- كما يطلبون أن يكونوا أئمة دعاة إلى الخير يُهتدى بهم: ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ ولعل واحد منكم يجيب لي الآن بم يصير الإنسان إمامًا في الدين؟ بأي شيء موجود في القرآن الكريم؟

بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

المحور الثالث والأخير: بعنوان النعيم المقيم في الدار الآخرة لعباد الله المتقين:

وتحته ما أعده رب العالمين من جزاء لهؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات: ﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ الغرفة: هي المكان العالي وهي الجنة، وليست غرفة واحدة وإنما هي غرف غرفات كثيرة، كما قال رب العالمين: ﴿ وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧]. غرف مبنية من فوقها غرف كذلك هكذا أخبر ربنا -سبحانه وتعالى-: ﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ ولاشك أن الصبر هنا مهم جدًا على طاعة الله وعن معصية الله وعلى أقدار الله ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾ كما قال رب العالمين -سبحانه-: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ [الأحزاب: ٤٤] ﴿ والملائكة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٤] ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾.

خالدين فيها أبد الآباد؛ لأن نعيم أهل الجنة لا نقطع ولا يزول ولا يتحول، كما قال رب العالمين -سبحانه وتعالى- عن الذين سعدوا بأنهم دائمين أبد ألآباد، نعيمهم لا ينقطع عطاء غير مجذوذ من عند رب العالمين -سبحانه وتعالى- ومقامهم مقام جليل، مكانهم مكان طيب، منزلهم منزلة عالية ﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾.

ثم يقول -سبحانه-: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ ختام هذه السورة مع الكافرين الذين حاورتهم الآيات السابقة مرات ومرات، ربنا -سبحانه وتعالى- يقول: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ ﴾؛ معنى قل ما يعبأ بكم: العرب يقولون ما عبأت بفلان يعني: ما اهتممت به ولا أكترثت به ولا باليت به، فالله -عز وجل- يقول بأن الله لا يعبأ بكم ولا يكترث بكم إلا لأمر واحد وسأقول الراجح فيه ﴿ لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ ﴾: قيل لولا دعائكم يعني لولا دعوة الرسل إليكم للإيمان بالله -تبارك وتعالى-؛ لأنكم كذبتم بالحق الذي جاء من عند الله، وطالما أنكم على هذا التكذيب ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ يعني سوف يكون العذاب لزامًا ملازمًا لكم، أسأل الله -عز وجل- أن يجعلنا من المتصفين بهذه الصفات وأن يقينا صفات المجرمين الأشرار وصلى اللهم وسلم وبارك على النبي المختار. -صلى الله عليه وسلم-

أسئلة الحلقة الماضية:

السؤال الأول: على أي شيء يعود الضمير في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٤٦]، ما المراد بالتيسير في الآية وما المنافع التي تعود على العباد في ذلك؟

وكانت الإجابة: الضمير في قوله تعالى ثم قبضناه: يعود على الشمس أو على الظل وكلاهما جائز، والمراد بقوله تعالى يسيرًا: أي سهلًا أو قليلًا وفي هذا إشارة إلى نعمة الله على عباده حيث أن انصراف الليل شيئًا فشيئًا كذلك انصراف النهار شيئًا فشيئًا فيه راحة لحواس الجسد فلو أنك في نهار مثلًا وفجأة جاء أو دخل الليل أو العكس فلهذا له تأثير ضار على حواس الإنسان

إجابة صحيحة.

والسؤال الثاني: اذكر من القرآن الكريم ما يدل على أن البشرى للمؤمنين والإنذار للكافرين؟

وكانت الإجابة: الآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة في القرآن منها قول الله ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس: ٢].

وقوله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ﴾ [يونس: ٦٤].

وقوله تعالى: ﴿ قَيِّمًا لِّيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ [الكهف: ٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [مريم: ٣٩].

الجواب سديد الحمد لله بس أخشى أن يكون ترك شيئًا من السؤال نستدركه فيما بعد.

ولماذا قصد الإنذار على المؤمنين في سورة يس

طيب.

هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه المحاضرة

السؤال الأول: اذكر القولين في معنى يبدل في قول الله تعالى: ﴿ فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾، مدعمًا أجابتك بالدليل.

والسؤال الثاني: اشرح قول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾.

الدرس الثامن

تفسير سورة الشعراء (١ – ٣١)

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن اتبع هداه وبعد.

الإخوة والأخوات طلبة هذه الأكاديمية العلمية المباركة سلام الله عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، ويسرنا أن نلتقي كما أشرتم مجددًا في حلقات من تفسير كتاب الله –تبارك وتعالى– وحلقة هذا اليوم –إن شاء الله تبارك وتعالى– مع سورة الشعراء وسأتحدث من خلال هذا اللقاء حول محاور متعددة:

المحور الأول: ثناء الله على كتابه، وحرص النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– على هداية المشركين.

المحور الثاني: تنبيه المشركين إلى عظمة سلطان رب العالمين.

المحور الثالث: موسى وهارون يواجهان الطاغية فرعون.

ولنستمع إلى آيات اللقاء من الشيخ عبد الرحمن فليتفضل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ طسم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلاَ يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١ – ٣١].

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، إنه من يهديه الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ثم أما بعد:

نلتقي في هذا اللقاء مع مفتتح سورة الشعراء، ومع المحور الأول في هذا اللقاء وهو بعنوان: ثناء الله على كتابه، وحرص النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– على هداية المشركين، وتحت هذا المحور:

ما افتتح ربنا –عز وجل– به هذه السورة، وهي الحروف المقطعة في أوائل بعض سور القرآن الكريم: ﴿ طسم ﴾ هذه الحروف المقطعة، اختلف العلماء في هذه الحروف وفي معناها:

فذهب بعضهم إلى أنها مما أستأثر الله -تبارك وتعالى- بعلمه، وبالتالي لم يخوضوا في تفسيرها ولم يتكلموا عن شيء من معناها.

وذهب بعضهم إلى أنها أسماء للسور التي وردت فيها، واستدل هؤلاء بحديث في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كان يقرأ في صلاة الصبح بـ ﴿ الم ﴾ [السجدة: ١] و ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ ﴾ [الإنسان: ١] فقال ﴿ الم ﴾ السجدة، فسمى السورة بأسماء الحروف المقطعة في أولها، وقال بعضهم: بأن هذه أسماء للسور أيضًا واستدل بعض أهل العلم استدلالًا جميلًا بافتتاح رب العالمين -سبحانه وتعالى- لبعض سور القرآن الكريم بهذه الحروف، وذكر أن الله -عز وجل- أراد بسياق هذه الأحرف في مفتتح بعض السور أن يقيم الحجة على المشركين المنكرين للقرآن الكريم، وكأنه يقول لهم هذا الكتاب الذي أنزله الله -تبارك وتعالى- على نبيه وحبيبه ومصطفاة -صلوات الله وسلامه عليه- هو من جنس الحروف التي تتكلمون بها، وهذه لغتكم وأنتم وصلتهم فيها مبلغًا كبيرًا عظيمًا بليغًا، فإن كنتم قادرون على معارضة القرآن الكريم وتنكرون أنه من لدن رب العالمين -سبحانه وتعالى- وهو من الكلمات والحروف التي تتكلمون وتنطقون بها فأتوا بمثل هذا القرآن الكريم، فكأن رب العالمين -سبحانه- أراد أن يقيم بهذه الأحرف الحجة على هؤلاء المشركين، وهذا في الحقيقة ملحظ جميل ووجيه؛ لأننا لو تأملنا السور التي افتتح ربنا -سبحانه وتعالى- بها هذه الأحرف سنجد أنه غالبًا يتحدث ربنا -سبحانه وتعالى- بعدها عن القرآن الكريم، كما في سورة البقرة في سورة الأعراف في سورة يونس في سورة هود في سورة الشعراء التي معنا في سورة غافر وغير ذلك، ولنأخذ أمثلة على هذا: في أول سورة البقرة: ﴿ الم ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢] فبعدما ذكر هذه الأحرف ذكر بعد ذلك الإشارة إلى القرآن الكريم، أيضًا أوائل سورة هود مثلًا: ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١]، أول سورة غافر: ﴿ حم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [غافر: ٢] وغير ذلك من السور التي أشرت إلى بعضها الآن لما افتتح ربنا -سبحانه وتعالى- هذه السور بهذه الأحرف المقطعة جاء بعد ذلك ذكر القرآن الكريم للإشارة إلى المشركين إلى أن القرآن الكريم مُكون من الكلمات والحروف التي بها تنطقون، فلما لا تؤمنون بهذا الكتاب؟ وأنتم قد عرفتم أنكم عجزتم عن الإتيان بمثله ولا تستطيعون معارضته؟ فلم يبقى إذن إلى أن هذا الكتاب من لدن حكيم خبير -سبحانه وتعالى-.

ولذلك على هذا المنوال جاءت الآية التالية في سورة الشعراء التي معنا هي قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ المراد بالكتاب المبين هنا هو القرآن الكريم، وسماه الله عز وجل مبينًا؛ لأن الله -عز وجل- بين فيه الحق واضحًا جليًا، وفصل فيه المعروف من المنكر، ويفهم من ذلك أن في القرآن كفاية لمن أراد الهداية؛ لأنه كتاب واضح ومبين، ولاشك أننا نضم السنة النبوية إلى القرآن الكريم؛ لأنها هي التي فسرت وبينت ووضحت كتاب ربنا الكريم -سبحانه وتعالى-.

ثم بعد ذلك يتحول السياق ليخاطب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في قول الله له: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ هذه الآية في الحقيقة تُبين حرص النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- على هداية المشركين، وتصور حاله وهو يدعوهم إلى الله -عز وجل- تصور حاله كرجل حريص غاية الحرص على أن يسلم هؤلاء وأن يدخلوا في الله -تبارك وتعالى- أفواجًا؛ لأن الله -عز وجل- ذكر عن نبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- أنه يكاد أن يقتل نفسه حزنًا على كفر الكافرين وشرك المشركين ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦] ومعنى باخع نفسك يعني هالك نفسك مهلك لنفسك بما كان يقوم -صلى الله عليه وآله وسلم- من أعمال كي يدعو هؤلاء الناس إلى الله -تبارك وتعالى- وفي هذا تسلية للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في أنه إذا بين هذا البيان وقام في نفسه -صلى الله عليه وآله وسلم- هذا الحرص وسعى إليه فهو -صلى الله عليه وآله وسلم- بعد ذلك أدى ما عليه، وهنا لفتة كريمة أود أن أوجه إليها أنظار المسلمين عامة، والدعاة إلى الله -تبارك وتعالى- بصورة خاصة وهي أن يكون الداعي إلى الله -عز وجل- أن يكون حريصًا محبًا لنفع

الآخرين حريصًا على هدايتهم، محبًا لتوصيل الخير إليهم، وكلما ترقى الإنسان في العلوم والمعارف والقرب من الله -تبارك وتعالى- كان رحيمًا بالمدعوين، يخاطبهم برفق ولين، ويحرص على أن يهتدوا إلى الهداية التي هداه ربه -سبحانه وتعالى- إليها، ونبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- هنا لنا نموذج أعلى في ذلك، شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تبارك تعالى- له رسالة جميلة في مجموع الفتاوى في المجلد الثالث، لو نظرت إلى الفهرس كُتب عنوان لها "قاعدة أهل السنة والجماعة"، هذه الرسالة طبعت أكثر من مرة طبعت بعنوان "قاعدة أهل السنة والجماعة في رحمة أهل البدع والمعاصي ومشاركتهم في صلاة الجماعة" يعني كلما تنظر إلى هؤلاء المتبعة ترحمهم؛ لأنهم جُهَّال، فتحرص على أن تدعوهم إلى الله -تبارك وتعالى- وتود أن لو دخلوا معك فيما أنت عليه من الحق والخير والسنة والفلاح، وطبعت أيضًا مرة أخرى بعنوان: "قاعدة السلفيين في جمع كلمة المسلمين"، ونعني بالجمع على كتاب الله وهدي رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-.

ثم يقول الله لنبيه -صلى الله عليه وآله وسلم-: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ يعني أن الله -عز وجل- لو شاء؛ لأنزل أية عليهم دفعتهم قهرًا إلى الإيمان بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ولكن رب العالمين -سبحانه وتعالى- لم يشأ ذلك، لم يشأ ربنا -سبحانه وتعالى- ذلك أن يرسل هذه الآية التي تقهر وتلجئ هؤلاء الناس إلى الإيمان بالله -تبارك وتعالى- والدخول مع النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-؛ لأن رب العالمين -سبحانه وتعالى- أخبر في كتابه أنه لم يشأ هداية جميع المخلوقات، لم يشأ هداية جميع العالمين -سبحانه وتعالى- وقال لنا في كتابه: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [هود: ١١٨]، ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩] فالله -تبارك وتعالى- لم يشأ أن يلجئ الناس إلى الإيمان، ولكنه شاء رب العالمين -وفعل- أن يرسل الأنبياء والمرسلين، وأن ينزل عليهم الكتب، ثم بعد ذلك بين الأنبياء والمرسلين الطريق إلى الله -تبارك وتعالى- وتُرك الأمر للعبد بعد ذلك أن يختار الطريق إما أن يسلك طريق الخير والفلاح فيدخل مع المؤمنين وإما أن يتخذ طريقًا أخرى فيكون مع أعداء الله الظالمين.

ثم قال رب العالمين -سبحانه وتعالى-: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ هذه في الحقيقة آية ينعى رب العالمين -سبحانه وتعالى- فيها على بعض الناس الذين كلما جاءهم رسول كذبوا به وردوا دعوته، ولنا هنا أن نكرر وأن نتلو قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [يس: ٣٠]، فعلًا حسرة وندامة على القوم الذين يكذبون بالنبي المرسل إليهم، والله -عز وجل- أرسل أنبياء ومرسلين وكلما أرسل إلى أمة رسول نجد أن البعض كذب، وربما كان هذا البعض هم الكثير: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾ [المؤمنون: ٤٤]، يعني ردوا دعوته، ولم يدخلوا في رسالته، ولم يسلموا بنبوته، هذه الآية تفيد ذلك كلما أرسل الله رسولًا إلى قوم من الأقوام، ردوا دعوته، وأعرضوا عن رسالته.

ولي هنا وقفة مع قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ ﴾؛ لأن كلمة محدث استدل بها المعتزلة على أن القرآن الكريم مخلوق، وهو استدلال باطل، فقالوا بأن القرآن الكريم حادث، والحادث لابد أن يكون مخلوقًا، وبالتالي فالقرآن الكريم مخلوق، خلقه الله -تبارك وتعالى- في غيره، وهذا في الحقيقة استدلال باطل؛ لأن الحدوث هنا حدوث نسبي أو إضافي يعني حدوث نسبته إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فَعِلْم النبي -عليه الصلاة والسلام- بالقرآن حادث، ووحي الله -عز وجل- إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بالقرآن أيضًا حادث، وليس القرآن نفسه الذي أوحى الله -تبارك وتعالى- به إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- هو الحادث، بل القرآن كلام رب العالمين -سبحانه وتعالى- وسيأتي مزيد تأكيد لذلك -إن شاء الله تبارك وتعالى-.

ثم قال رب العالمين: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ حقًا يا حسرة على العباد، كذبوا بما جاءهم من عند الله -تبارك وتعالى- ردوا دعوة الأنبياء والمرسلين، ولكن الله -عز وجل- في هذه الآية يتوعدهم ويتهددهم ويعلمهم أنهم سيعلمون بعد قليل حقيقة ما جاء به الأنبياء والمرسلون، وأنهم أخطئوا غاية الخطأ حينما ردوا دعوة الأنبياء والمرسلين، كما قال رب العالمين متوعدًا لهؤلاء المكذبين الظالمين: ﴿ وَسَيَعْلَمْ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، وقال -سبحانه-: ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴾ [إبراهيم: ٤٢] إلى آخر ما جاء في هذا السياق، فالله -عز وجل- في هذه الآية: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ في الحقيقة فيها وعيد لمن كذب وأعرض عن كتاب رب العالمين ولم يصدق بالنبي الأمين -صلى الله عليه وآله وسلم-.

المحور الثاني في هذا اللقاء بعنوان: تنبيه المشركين إلى عظمة سلطان رب العالمين، وتحته هذه الآيات: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ يشير رب العالمين -سبحانه وتعالى- في هذا الآيات إلى سلطانه وجلال قدره -سبحانه- بكثرة ما أنبت في هذه الأرض، وأخرج في هذا الكون من نبات وحيوان وجماد، من كل زوج كريم، والمراد بالزوج هنا: الصنف، وحينما وصفه بالكريم يعني أن الناس الذين خاطبهم القرآن بذلك يحتاجون إلى هذا الأصناف التي خلقها رب العالمين -سبحانه-، وهذا الكون ولاشك مليء بما يدل على قدرة رب العالمين -سبحانه وتعالى- لو نظر الإنسان نظرة فقط إلى السماء العلى، وما أودع رب العالمين -سبحانه وتعالى- من كواكب سيارة، ونجوم هنا وهناك، وتأمل في هذا السماء التي رفعها ربه بغير عمد، وليس فيها أي تفاوت أو خلل، ثم مسكها رب العالمين -سبحانه وتعالى- بدون أوتاد كما عليه البشر، كل ذلك شيء بسيط ينظر إليه الإنسان نظرة يسيرة، يدفعه إلى أن يعرف عظمة وسلطان رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

ولذلك عقب ربنا -عز وجل- على هذه الآية بقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ في ذلك علامة على قدرة الله -عز وجل- آية عظيمة تدل وترشد على صاحب العظمة والسلطان جل في علاه، ومع كل ذلك -مع هذه الآيات- قررت هذه الآية مهمة جدًا ألا وهي تكذيب المشركين؛ ولذلك قال رب العالمين: ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ ختام هذا المقطع ختام جميل؛ لأن هؤلاء المشركين يحرص النبي -صلى الله عليه وسلم- على هدايتهم، والله -عز وجل- يلفت أنظارهم إلى عظمته وجلاله -سبحانه- بما بثه في كونه من آيات تدل عليه، وترشد إليه، ومع ذلك لا يستجيبون، فأخبرهم ربنا -سبحانه وتعالى- أنه عزيز غني عنهم -سبحانه-: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ جل في علاه، وهذه الآية فيها تهديد ووعيد للمشركين، ووعد لأهل الإيمان، فالله -عز وجل- عزيز ينتقم ممن يشاء -سبحانه- عز أمره وجل سلطانه، وذلك يكون بانتقامه الشديد من الكافرين، ثم هو أيضًا -سبحانه وتعالى- رحيم بأهل الإيمان الذين استجابوا لله وللرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- فيما دعاهم إليه.

المحور الثالث في هذا اللقاء بعنوان: موسى وهارون يواجهان الطاغية فرعون وتحته هذه الآيات ونبتدأها بقول الحق -تبارك وتعالى-:

﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلاَ يَتَّقُونَ ﴾ هنا بدأت ذكر قصة موسى وهارون، وإرسالهما إلى فرعون، وأشار رب العالمين -سبحانه وتعالى- فيها بلفتة كريمة ألا وهو اصطفائه -سبحانه وتعالى- لنبيه وكليمه موسى -عليه السلام- وذلك حين ناداه، وكان هذا النداء أين؟

في جانب الطور، كما ذكر ربنا -سبحانه وتعالى- في كتابه، موسى -عليه السلام- وهو قافل إلى مصر من مدين بعد المدة التي قضاها بنهاية الأجل الذي حدده مع صهره، وهو راجع ذهب يلتمس رآها نارًا عن بعد، وهناك ناداه رب العالمين -سبحانه وتعالى- وهذا النداء هو كلام الله -عز وجل- ويفهم من هذا أن رب العالمين

-سبحانه وتعالى- يتكلم بكلام يليق بجلاله وكماله، وأنه -سبحانه وتعالى- ينادي بصوت يسمع، ولاشك بأن هذه الآية تفيد ذلك؛ لأن النداء يكون بأي شيء؟

يكون بالصوت، ولولا أن موسى -عليه السلام- سمع صوت الله -تبارك وتعالى- لما انتبه، ولما أجاب ولما كلف -صلوات الله وسلامه عليه- ويستحيل أيها الإخوة أن نذهب إلى أن نذهب إلى ما يقوله المعتزلة فكلامه في غاية من البطلان؛ لأنهم يقولون بأن الله -عز وجل- خلق نداءه في الشجر التي كانت في جانب الطور عند الوادي الأيمن، وموسى -عليه السلام- سمع كلام رب العالمين من الشجرة، وأن الشجرة هي التي تكلمت بقدر الله -تبارك وتعالى- وهذا في غاية البطلان؛ لأنه لا يمكن أن نقول بأن الشجرة هي التي قالت لموسى -عليه السلام-: ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾ [طه: ١٤] وهل يقول ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾ إلا رب العالمين -سبحانه وتعالى- إذن هذه الآية تفيد كلام رب العالمين -سبحانه وتعالى- لموسى -عليه السلام- واصطفائه له وتحميله أمانة الدعوة إلى الله -عز وجل- وإرساله إلى فرعون وقومه: ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ في مطلع الحديث عن فرعون سجلت هذه الآية عليهم كلمة الظلم ﴿ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ والظلم الذي وقع في هؤلاء الناس كان من وجهين:

الوجه الأول: ظلمهم لأنفسهم حينما استكبروا على الله -عز وجل- فلم يخضعوا لسلطانه ولم يؤمنوا به، بل راحوا يتظاهرون بإنكار رب العالمين -سبحانه وتعالى- وهذا ظلم لأنفسهم.

الوجه الثاني: ظلم آخر وقع على بين إسرائيل، كان يقتل أبنائهم ويستحي نسائهم، وقد استعبدهم فرعون، وهذا أيضًا ظلم لهم، ثم قال رب العالمين: ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلاَ يَتَّقُونَ ﴾ قوم فرعون: هذا عطف بيان من الظالمين، فكأن الظالمين وقوم فرعون يدلان على معنى واحد، وقعوا في الظلم ورب العالمين -سبحانه وتعالى- يدعوهم إلى الرجوع إليه وإلى تقواه -سبحانه- يقول: ﴿ أَلاَ يَتَّقُونَ ﴾ هلا يرجع هؤلاء الناس إلى الله -عز وجل- فيسلم لدعوة النبي المرسل إليهم؟ ويتابعوه على الهداية الربانية التي جاء بها من عند رب العالمين سبحانه وتعالى؟!!

ثم بعد أن كلف موسى -عليه السلام- بأن يذهب إلى فرعون قال لربه هذه الكلمات؛ ولذلك نحن نقول: بأن رب العالمين كلم موسى -عليه السلام- وناداه وناجاه، وأن موسى -عليه السلام- كلم ربه ومولاه، فالله -عز وجل- أرسل موسى بقوله: ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلاَ يَتَّقُونَ ﴾ هذا إبلاغ من الله -عز وجل- وإرسال منه لموسى عليه السلام، رد موسى -عليه السلام- على ربه، واعتذر بأمور هي أيضًا من وجهه سليمة: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ قال رب إني أخاف أن يكذبون، لما أمر الله -عز وجل- موسى -عليه السلام- أن يذهب إلى فرعون قال هذا القول؛ لأن التكذيب يدعو إلى الخوف، فحينما يرسل إنسان ما لقوم يخبرهم بأمر فيكذبوه، لاشك أن الخوف يدخل في قلبه، وربما يستقر في نفسه، والخوف مدعاة إلى ضيق الصدر؛ ولذلك بعدما قال: ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ قال: ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنطَلِقُ لِسَانِي ﴾ لما فيه من لدغة كانت، كما ذكر ذلك كثير من المفسرين، وقد أشار موسى -عليه السلام- إلى ذلك، وذكر ربنا -سبحانه وتعالى- في كتابه أن موسى -عليه السلام- دعا ربه وقال: ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ [طه: ٢٨].

وهنا دعا موسى -عليه السلام- وطلب من ربه أن يرسل معه من؟

هارون، ولاشك أن إرسال هارون مع موسى فيه تقوية له، وتدعيم له، أمام هذا الطاغية؛ لأن فرعون كما سيأتي بعد قليل بغى وطغى وتكبر، وكان يفعل أفعالًا عظيمة؛ ولذلك موسى -عليه السلام- كان بحاجة إلى من يشد أزره ويأخذ بيده، ولما طلب هارون استجاب الله -عز وجل- له، وقال رب العالمين -سبحانه-: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ [القصص: ٣٥]،

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ وهذا الذنب وضحه رب العالمين -سبحانه وتعالى- في آية أخرى: ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥] هذا هو الذنب الذي فعله موسى -عليه السلام- وهذا أمر لاشك عظيم، حينما قتل موسى -عليه السلام- منهم نفسًا، ولما قتل منهم نفسًا لاشك أنهم توعدوه وهددوه وجاء إليه رجل أخبره بأن القوم يأتمرون به ليقتلوه؛ ولذلك دخل الخوف في نفس نبي الله موسى -عليه السلام-.

وينبغي أن نعلم أن موسى -عليه السلام- تاب إلى الله -عز وجل- من هذه الفعلة، وأن رب العالمين -سبحانه وتعالى- تاب عليه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [القصص: ١٦].

ثم يستمر السياق بعدما طلب موسى -عليه السلام- من ربه، وذكر أنه خائف وطلب هارون معه، وسأل ربه -سبحانه وتعالى- أن يحلل عقدة من لسانه، كما ذكر ذلك في آيات أخرى في سورة أخرى رب العالمين -سبحانه وتعالى- أكد على موسى أن يذهب إلى فرعون، ونفى عن الخوف، فقال: ﴿ قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ كلا: لاشك، كما هو مقرر في علم اللغة حرف زجر، فالله -عز وجل- يزجر موسى -عليه السلام- أن يخاف، ويأمره بالذهاب وأن يذهب إلى فرعون بالآيات التي يرسله رب العالمين -سبحانه وتعالى- بها ويخبره ربه بأنه -سبحانه وتعالى- معه فيقول: إنا: بصيغة التعظيم: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾، والمعية كما هي مقررة عند أهل السنة تنقسم إلى قسمين:

المعية العامة: وهي تشمل كل المخلوقات فالله -عز وجل- مع جميع المخلوقات بعلمه معية عامة، فلا يقع شيء في هذا الكون إلا ورب العالمين مشاهد له، وعالم له جل في علاه.

والمعية الخاصة: هي معية النصر والتأييد والحفظ والرعاية وهذه هي المرادة هنا، وهنا فيه طمأنة لموسى -عليه السلام- والله -عز وجل- في آية أخرى يقول لهما: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه: ٤٦] أسمع ما يقال وأرى ما يحدث أو ما يفعل، ﴿ قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ ﴾، هذا تأكيد من الله -عز وجل- لموسى: ﴿ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾، يعني اذهب إلى فرعون وأخبره أنك مكلف من قبل الله -عز وجل- أنك مرسل من قبل الله -تبارك وتعالى- ونلاحظ أن الله -عز وجل- أفرد كلمة الرسول في سورة الشعراء وثناها في سورة طه؛ والسبب في ذلك أو توجيه ذلك كما ذكر بعض أهل العلم أن كلمة الرسول مصدر وصف به هذا مصدر وصف به الرسول المرسل، وطالما أنه مصدر وصف به يأتي بصيغة واحدة للمذكر والمفرد والمثنى والجمع، طيب لماذا ثني في سورة طه؟

قيل هذا خروج عن هذا الأصل، وقيل: إن هناك جواب آخر وهو أنه لما كانت دعوة كل رسول واحدة، كل رسول دعوته واحدة، وكل رسول يشترك مع أخيه أيضًا -الرسول الآخر- في الدعوة إلى الله -تبارك وتعالى- وإلى توحيد الله -عز وجل- وإلى الإيمان بما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- من قبل ربه، فلما اشتركوا جميعًا في هذا الأمر، فهم وإن كانوا أفرادا كثيرين إلا أنهم لما اشتركوا في دعوة واحدة فصح أن يرجع إليهم الخطاب بلفظ واحد: ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾، يعني خلي بيننا وبين بين إسرائيل، دعنا إن لم تستجب أنت، دعنا ندعو هؤلاء الناس، سهل لنا الطريق، افسح لنا المجال ندعو هؤلاء إلى الله -تبارك وتعالى- ونعلمهم بما كلفنا رب العالمين -سبحانه وتعالى- به.

ثم يستمر السياق فيقول فيه رب العالمين -سبحانه-: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ هنا إيجاز بالحذف ولاشك، الآية الأخيرة التي معنا ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ الآية التي تليها: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾، فهنا لاشك محذوف دل عليه السياق هذا المحذوف ما هو؟

أن موسى وهارون ذهبا إلى من؟ إلى فرعون ودعاه إلى الله -تبارك وتعالى- وطلبا منه أن يؤمن بالله -عز وجل- وأن يتابعهما فيما جاء به من عند الله -تبارك وتعالى- فرد فرعون عليه بقوله على موسى بالذات؛ لأنه له مع موسى موقف، له مع موسى قصة صادقة: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾، ألست أنت الذي تربيت على فراشنا؟ وأكلت على مائدتنا؟ ألست أنا الذي رعيتك ونميتك؟ وفعلت، وفعلت حتى مكث سنينًا كبيرة معنا؟ ومع ذلك: ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ هذا كلام من؟

كلام فرعون ردًا على موسى -عليه السلام- الحقيقة موسى -عليه السلام- نبي رسول، مهذب مؤدب، لا ينكر لإنسان له فضل عليه؛ ولذلك لم يشتغل بالجواب على فرعون فيما ابتدأ به الكلام عنه، فرعون قال له: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ ﴾ يعني ذكر له هذين الأمرين، موسى -عليه السلام- اشتغل بالأمر الثاني، أما الأمر الأول فهو مسلم به؛ لأنه حقًا وفعلًا نشأ في بيت من؟

نشأ في بيت فرعون، ولم ينكر ذلك: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾، لم يرد عليه، ولما قال: ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ ﴾، بدأ موسى -عليه السلام- يرد على الأمر الثاني: قال له: ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ وأنا من الضالين أولًا قوله: ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ التوجيه الصحيح لقوله: ﴿ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾، يعني الكافرين بنعمنا، التي أنعمنا بها عليك، يعني فرعون يقول لموسى أنت جحدت وكفرت النعمة التي تفضلت بها عليك، حينما نشأت وليدًا بيننا وأكلت معنا من طعامنا، و نمت على فراشنا، وتعاهدناك بالرعاية والتربية وغير ذلك موسى -عليه السلام- يرد عليه قائلًا: ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾، لم ينكر ذلك، ولكنه ذكر أنه فعل هذه الفعلة قبل أن يوحى إليه، وقبل أن يرسله رب العالمين -سبحانه وتعالى- وكلمة الضلال تطلق في القرآن الكريم وفي لغة العرب على أكثر من معنى، تطلق على أكثر من معنى، تطلق كلمة الضلال على الذهاب عن حقيقة الشيء، وما يمكن أن يتعلمه الإنسان، يعني في هذه الآية يقال لموسى إنه من الضالين لماذا؟ لأنه ذهب عن حقيقة أمر هذا القتل، ولم يعلمه من قبل، ولم يكن له علم بشريعة أو توجيه بدين، وهذا الضلال المذكور هنا هو المذكور للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في قوله: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ﴾ [الضحى: ٧]، وجدك ضالًا يعني: وجدك ذاهبًا عن الطريق المعلوم الذي يجب أن تتعلمه -صلوات الله وسلامه عليه- هذا هو المعنى الأول لكلمة الضلال.

المعنى الثاني لكلمة الضلال: هو الذهاب عن حقيقة الإيمان إلى الكفر، وهذه المسألة هي المعنية، أو هذا المعنى هو المعني في قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٧] فالضالين المذكورين هنا في الآية المراد بهم من؟

المراد بهم الذين ذهبوا عن الإيمان إلى الكفر، طيب أي معنى هنا يمكن أن نصرفه إلى قول الله -تبارك وتعالى- في هذه الآية: ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ المعنى الأول الذي هو الذهاب عن حقيقة الشيء؛ لعدم العلم به، فموسى -عليه السلام- أنا لم أكن أعلم ولم تكن لدي رسالة ولم يوحي رب العالمين -سبحانه وتعالى- بشيء من ذلك؛ ولهذا قال: ﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾، فعلًا موسى -عليه السلام- لما أُخبر كما أشرت سابقًا بأن الملأ يأتمرون به ليقتلوه خرج خائفًا يترقب -صلوات الله وسلامه عليه- فارًا من هؤلاء القوم

الظالمين، وأخبر فرعون أنه فر لهذه العلة، ولما فر أكرمه رب العالمين –سبحانه– ولذلك قال: ﴿ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ رب العالمين –سبحانه وتعالى– اصطفاني وأيدني وأرسلني رسولًا، وكلفني بأمانة، والحكم المراد به هنا النبوة والرسالة، وأكدها بقوله: ﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ يعني أرسلني ربي –سبحانه وتعالى– إليك كي أخرجك ومن معك من ظلمات الجهل والشرك والضلال والانحراف إلى نور الإيمان والعلم والتوحيد.

ثم قال موسى –عليه السلام– لفرعون: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ما المراد بهذه العبارة؟ في الحقيقة فسرت بقولين:

القول الأول: إن موسى –عليه السلام– يقول لهذا الرجل: أي نعمة تتكلم بها عليّ، وحقًا لك عليّ نِعَم، ولكن هذه النعمة اليسيرة التي فعلتها عليَّ لا تساوي شيئًا إلى جانب استعبادك لبني إسرائيل، وظلمك لبني إسرائيل، فإن كنت أنت قد فعلت معي شيء من المعروف فما وقع منك من ظلم واستكبار وبغي في الأرض على بني إسرائيل أعظم بكثير مما تفضلت به عليَّ، هذا معنى أول.

القول الثاني: وهناك معنى آخر، وهو أيضًا جميل رد به موسى –عليه السلام– على هذا الرجل وهو أن موسى –عليه السلام– يريد أن يقول له أنت تفضلك في الحقيقة على لم يكن منك أنت، وإنما هذا باستعبادك لبني إسرائيل، وهم الذين عملوا عندك، وهم الذين أتوا بهذا المال، وأنت ما أنفقته عليَّ، إنما أنفقته من مال بني إسرائيل عندما استعبدتهم، وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بين إسرائيل.

بعد ذلك يقول رب العالمين –سبحانه وتعالى–: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُم مُّوقِنِينَ ﴾ هذه الآيات تبين أن فرعون يتظاهر بإنكار رب العالمين –سبحانه وتعالى– وكان يُعلم قومه بذلك، ويعلن أمام قومه ذلك، فمرة يقول لهم: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ [النازعات: ٢٤] ومرة يقول لهم: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص: ٣٨] ولاشك هنا في هذه الآية أن موسى –عليه السلام– دعاه، لاشك أن فرعون سأله بأي رسالة جئت؟ ومن الذي أوحى وأرسل إليك؟ لاشك أن موسى –عليه السلام– أخبره أن ربه هو الذي بعثه وهو الذي أرسله، وهو الذي يؤيده –سبحانه وتعالى– فيستفسر هنا فرعون، يستفصل من موسى –عليه السلام– قائلًا: ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ تأملوا يا أخوان الآيات القرآنية وسياق القرآن في مثل ذلك، وكيف يستفيد الإنسان من هذا المنطق إن واجه قومًا كفرعون؟ موسى –عليه السلام– لما سأل فرعون عن ربه، عن رب موسى: ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾، من هو هذا الرب الذي تخبرني به؟ ماذا قال له موسى عليه السلام؟ أشار له إلى الآيات الكونية: ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُم مُّوقِنِينَ ﴾ ربي هو خالق هذا الكون، وقال له في عبارة جميلة مختصرة: ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ يعني الكون كله بقدرة الملك الكبير –سبحانه وتعالى– ربي الذي تسأل عنه الذي خلق هذا الكون، وأوجد هذا الكون، وسير هذا الكون، وأنتم تشاهدون هذا الكون، وما ينبغي لكم بعد هذه الرؤية وهذه المشاهدة وأنتم تعلمون علم اليقين أنكم لن توجدوا شيئًا من ذلك، لو أيقنتم لآمنتم برب العالمين –سبحانه وتعالى– ولاشك أن فرعون –عليه لعنة الله– كان مقرًا في داخل نفسه وقرارة نفسه بأنه عبد مربوب مقهور؛ ولذلك قال الله –عز وجل– عنه كما في سورة النمل: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤] جحدوا بهذه الحقيقة، وهي أن الله ربهم واستيقنتها، يعني قلوبهم مستيقنة تمامًا، وزاد الألف والسين والتاء وهي حروف الطلب؛ ليضخم المعنى بالمبنى كلما تزيد حروف الكلمة كلما يزيد معناها، فهم على يقين تام وفرعون على يقين تام بأن الله –عز وجل– ربه وخالقه ومالكه، وهو الذي يدبر هذا الكون، وأما فرعون لا يملك شيئًا وإنما الأمر كما قال الله عنه: ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ [الزخرف: ٥٤] وموسى –عليه السلام– يعرف بتعليم الله له أن فرعون يؤمن بأنه عبد مربوب مقهور بدليل أن موسى –عليه السلام– قال لفرعون: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَـؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، هذا أمر واضح جدًا، أنت مستبصر منه،

وإني لأظنك يا فرعون مثبورًا، يعني هالكًا؛ ولذلك في سيرة فرعون، وفي قصة فرعون أنه أظهر ما كان عنده، وذلك لما بدأت أمواج البحر تتلاطم من هنا ومن هناك قال: ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴾ [يونس: ٩٠] فأفصح في هذا الوقت عما يقوم في نفسه، ولكن قد انتهى الأمر، ولات ساعة مندم لا يقبل منه في هذا الوقت مثل هذا الندم، أو مثل هذا الاعتراف؛ ولذلك موسى -عليه السلام- أحسن في قوله، وفي رده على فرعون: ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾.

فرعون وإن كان ملكًا جبارًا مهيمنًا في الأرض مستكبرًا على خلق الله -عز وجل- مستعبدًا لنبي إسرائيل إلا أنه من أجهل الجاهلين ما استطاع أن يرد على موسى -عليه السلام- ظلمة الجهل والشرك والكفر والإلحاد ظاهرة بادية عليه؛ ولذلك ما استطاع أن يجيب بكلمة، غاية الأمر أنه نظر إلى ما حوله، وقال كما ذكر الله -عز وجل- عنه قال لمن حوله: ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ ﴾ يعني ألا تعجبوا من هذا الكلام؟! طيب أين ريك أنت؟ أين مواجهتك أنت؟ حاد عن الجواب؛ لأنه لا يوجد لديه جواب.

موسى -عليه السلام- عبد رسول مُكلم فقهه ربه وعلمه، لما وجد هذا الضعف ظاهر على فرعون، وأنه نظر إلى قومه واستعان بهم، وقال لهم: ﴿ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ ﴾؟ فوجه موسى -عليه السلام- الخطاب إليهم، كي يستثير ما لديهم، ويدفع فطرتهم إلى الظهور، فوجه الخطاب إلى من؟ إلى قوم فرعون قائلًا لهم: ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ هذا الرب الذي يسأل عنه فرعون، هو ربكم الذي خلقكم وهو رب آبائكم أيضًا الذين ذهبوا ولا تشاهدونهم الآن، الذي خلقكم وخلق من قبلكم، هو رب العالمين -سبحانه وتعالى- هنا أُسقط في يد فرعون، فلم يجد ملجأ يلجأ إليه إلا الاستهزاء والسخرية من موسى -عليه السلام- فقال لقومه: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ هذا الرسول الذي يكلمكم مجنون لا يدري ما يقول، وهذه حجة المنقطع عن الحجة، الذي لا يستطيع أن يدخل مع من يجادله في الكلام أو في حلقات من المناقشة والحوار، وموسى -عليه السلام- يعرف ما يقول له؛ لأنه نبي مؤيد من قبل الله -تبارك وتعالى- وهنا موسى -عليه السلام- لم يلتفت إلى قول فرعون لقومه: ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ وإنما تابع إفحامه لفرعون بقوله: ﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ربي الذي أدعو إليه هو رب المشرق ورب المغرب وما بينهما أيضًا، إن كان لديكم عقل، وأفهم من قول الله -تبارك وتعالى- في هذه الآية رب المشرق والمغرب أنه -سبحانه وتعالى- كما أنه هو الذي يملك هذا الأمر لا يستطيع أحد أن يملكه، فهو الذي يشرق الشمس من المشرق ويغربها في المغرب، وكأني بموسى -عليه السلام- يريد أن يقول لفرعون ربي الذي أدعو إليه هو الذي يفعل ذلك فإن كنت مستطيعًا فعله فافعل أنت ذلك!!

وهنا أتذكر موقف الذي حاج به إبراهيم في ربه، حينما إبراهيم -عليه السلام- يدعوه إلى الله -عز وجل- فأيضًا سأله من ربك؟ سياق القرآن يبين هذا: ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ وجدها سهلة: ﴿ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وفي هذا توجيه لأهل العلم ولعلي سبق أن أشرت لكم به، ولكن الشاهد هنا معي أن أتى إبراهيم -عليه السلام- بآية برهانية كونية أفحمته وأن يجد عنها مناصًا قال: ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فكأن موسى -عليه السلام- أيضًا يفحم فرعون بهذه الحجة ربي هو رب المشرق والمغرب فإن كنت أنت ربًا وتستطيع أن تفعل ذلك ففعل ذلك، وهل يستطيع أن يفعل هذا؟

لا يستطيع أن يفعل هذا، لعلكم تشاهدون من هذا ا لحوار الذي دار بين موسى وفرعون، بين موسى -عليه السلام- وبين الطاغية فرعون، أما موسى -عليه السلام- ألقمه الحجة وتفوق عليه فيها، وهنا انقطع فرعون ولم يستطع جوابًا وإنما لجأ إلى ما يلجأ إليه الطغاة في كل زمان ومكان، يستغلون ويستخدمون ما لديهم من قوة ونفوذ عندما ينقطعون أمام الحجة والبرهان؛ ولذلك قال لموسى -عليه السلام- متوعدًا مهددًا: ﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ

إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ لو ذهبت إلى إله غيري وأثبت أن هناك ربًا لهذا الكون غيري، سأفعل بك وأفعل وعلى رأس ما ذكر هو السجن لموسى -عليه السلام- وفي السياق القادم -إن شاء الله- سنرى أنه توعد من آمن بموسى -عليه السلام- بوعيد آخر، ولكنه هنا يتوعد هذا النبي المرسل من قبل الله -تبارك وتعالى- بالسجن، فقال له موسى -عليه السلام- وهو يخاطبه بالحجة والبرهان: ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ ما رأيك لو أتيتك ببرهان واضح بحجة بينة بدليل يجعلك تسلم، هل تؤمن به؟ ففرعون طلب ذلك قال: ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ طلب فرعون من موسى أن يأت بهذا البرهان؟ والله -عز وجل- قد أيد موسى -عليه السلام- بآيات من عنده، جاءت بين يدي موسى -عليه السلام- واضحة ظاهرة، وأيضًا أفحمت فرعون، ولهذا الحديث بقية تأتي -إن شاء الله تبارك وتعالى- في اللقاء القادم أكتفي لضيق الوقت وانتهاء وقت البرنامج وصلى اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد -صلى الله عليه وآله وسلم-.

في الحلقة الماضية

كان السؤال الأول: اذكر القولين في معنى يبدل في قول الله تعالى: ﴿ فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ [الفرقان: ٧٠]، مدعمًا إجابتك بالدليل؟

وكانت الإجابة: القول الأول: أن الله -تبارك وتعالى- يبدل حالهم من أن يعملوا السيئات يغير الله حالهم فيفعلون الحسنات وبدلًا من قتال المسلمين أصبحوا يقاتلوا المشركين.

والقول الثاني: أن الله -تبارك وتعالى- إذا شاء بدل سيئاتهم إلى حسنات فتبدلت السيئات بتوبة صادقة إلى حسنات كما ورد في الصحيحين من حديث أبي ذر أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إني لأعرف آخر أهل النار خروجًا منها وآخر أهل الجنة دخول الجنة يؤتى برجل فيقال ألم تفعل كذا وكذا فيقول بلى يا رب ولا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئا فيقال له إن الله أبدلك هذه السيئات حسنات فيقول إني عملت ذنوبا أخرى لم أرها، فقال أبو ذر فضحك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى بدت نواجذه)

جواب سديد وصريح.

والسؤال الثاني: اشرح قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [الفرقان: ٧٣]،؟

وكانت الإجابة: أن معنى الآية أن المؤمنين إذا ذكروا أو إذا تليت عليهم آيات الله لم خروا عليها متأملين، فالآية لم تنف خرورهم ولكنها نفت خرورهم عليها صمًّا وعميانًا كما يفعل الكافرون فالآية فيها دلالتان:

الدلالة الأول: المنطوق أن عباد الرحمن إذا ذكروا بآيات الله خروا عليها متأملين لما فيها.

الدلالة الثانية: دلالة المفهوم أن الكافرين إذا ذكروا بآيات الله -تبارك وتعالى- خروا عليها صمًّا وعميانًا؛ وذلك لقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ [لقمان: ٧]

ما شاء الله جواب سديد وطيب وموفق -إن شاء الله-.

هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه المحاضرة:

السؤال الأول: ماذا تفهم من قول الله تعالى لنبيه –صلى الله عليه وآله وسلم–: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا ﴾ [الكهف: ٦]، وكيف يستفيد الدعاة إلى الله تعالى من هذه الآية؟ نحن نود يعني أن نستفيد من هذا القرآن الكريم عمليًا في واقعنا اليومي.

والسؤال الثاني: اذكر معنيين من معاني كلمة الضلال في القرآن الكريم؟ وأيهما المراد بقوله تعالى: ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ [الشعراء: ٢٠].

الدرس التاسع

تابع تفسير سورة الشعراء (٣٢ - ٥١)

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن اتبع هداه وبعد.

الإخوة والأخوات طلبة هذه الأكاديمية العلمية المباركة سلام الله عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، ويسرنا كما ذكرت أن يتجدد اللقاء بالجميع مع تفسير سورة الشعراء، وسنتناول -إن شاء الله تبارك وتعالى- بعضًا من آياتها، وسيدور الحديث حول الآيات التي سنستمع إليها بعد قليل في محاول ثلاث:

المحور الأول: تأييد الله لموسى بالعصا وموقف فرعون من هذه المعجزة.

المحور الثاني: موسى عليه السلام يواجه السحرة في الميدان.

المحور الثالث: فرعون يهدد السحرة بعد إيمانهم بالله وهم لا يأبهون به.

ولنستمع إلى الآيات من الشيخ عبد الرحمن:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمنا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لاَ ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَّغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣٢-٥١].

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهديه الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]، أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله -تبارك وتعالى- وخير الهدي هدي محمدًا -صلى الله عليه وسلم- وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار أما بعد:

مع المحور الأول في هذا الآيات، وهي آيات كريمة كما سمعناها، فيها لقاء عظيم بين الحق والباطل، وانتصار الحق على الباطل بفضل الله وتوفيقه، والمحور الأول بعنوان: تأييد الله لموسى بالعصا وموقف فرعون من هذه المعجزة، لاشك بداية أقول عنونت لهذا المحور بهذا العنوان تأييد الله لموسى بالعصا رغم أنه -عليه السلام- أيد بآيات آخر، ولكن العصا هي محور الحديث في هذا اللقاء، وهي أعظم ما أيد به موسى -عليه السلام- وفي ذلك يقول رب العالمين -سبحانه-: ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾، أقف عند هاتين الآيتين:

أولًا في الآيات السابقة وفي اللقاء السابق ختمنا الآيات بقول موسى -عليه السلام- لفرعون لما أنكر بعثته، وجحد رب العالمين -سبحانه- وأنكر متظاهرًا بهذا الإنكار، قال له موسى -عليه السلام-: ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ فوافق فرعون على ذلك: ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشعراء: ٣٠-٣١]، عقب القرآن على ذلك مباشرة فألقى موسى عصاه فهذا يفيد ويدل أن الله -عز وجل- ولاشك- أوحى لموسى -عليه السلام- بهذا الأمر، وهو الذي أمره بأن يلقي عصاه، ولاشك أيضًا أن موسى -عليه السلام- عرف أن في هذا إعجاز سيؤيد به من رب العالمين -سبحانه وتعالى- وما كان من موسى -عليه السلام- إلا أن امتثل أمر ربه إليه، فألقى عصاه كما أمره ربه، وعند إلقائه لها تغير حال هذا العصا، وذكر القرآن أنها أصبحت ثعبان مبينًا واضحًا ظاهرًا جليًا كبيرًا بشكل مخيف، هنا قال: ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾، وفي سورة طه ﴿ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾ [طه: ٢٠]، وفي سورة النمل قال: ﴿ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ [النمل: ١٠]، فهل هذا تناقض لا-حاشا وكلا- وأن يكون في كتاب الله تناقض؛ ولكن الجواب على ذلك؟

أن الحية اسم للجنس؛ لجنس ما يدب فصائل هذه الحشرات التي تعود إلى الحية فإذا صارت شيئًا وحجمًا كبيرًا قيل لها ثعبان، وعند تحركها وخفتها واضطرابها كأنها جان، هذه معجزة عظيمة أيد الله -تبارك وتعالى- موسى -عليه السلام- وسيستمر اللقاء معنا في هذا اليوم حول هذه المعجزة الكريمة، وكيف كان تأييد الله -عز وجل- بها لموسى -عليه السلام- كبيرًا، وأنه انتصر على فرعون، وفيها مسائل عقدية سأتحدث عنها -إن شاء الله تبارك وتعالى-.

بعد ذلك أيضًا أظهر موسى -عليه السلام- بتأييد الله له معجزة أخرى وهي الواردة في قوله تعالى: ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾، يعني كانت يده في جيبه فأخرجها -عليه السلام- من جيبه فإذا هي بيضاء تتلألأ كالقمر، وهذا يفيد أنها أصبحت على هيئة غير الهيئة التي عليها موسى -عليه السلام- عندئذ لم يسلم فرعون، ولكن الآيات التالية وأود من أخواني أن يفقهوا معي روح هذه الآيات ومعناها تفيد أن فرعون مع ادعائه العظمة والجبروت والسلطان كان في غاية الركاكة والضعف؛ لأنه لما حصل ما حصل من موسى -عليه السلام- ما استطاع هو أن يواجه موسى -عليه السلام- بل ماذا قال، قال: ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف: ١٠٩-١١٢]، هذه كلمات منهزم، هذه كلمات يبدو من خلالها هزيمة فرعون، وأنه لا يستطيع أن يواجه موسى بدليل أنه لجأ إلى الملأ، وقال للملأ الذين التفوا حوله، جماعته حاشيته خدمه مناصروه معاونه قال لهم: ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾، يعني عنده إلمام وعلم كبير بالسحر، ثم أوعز إلى جماعته وقومه إيعازًا نفسيًا عجيبًا وخطيرًا، والقرآن الكريم يوحي ويذكر هذه المعاني، ونحن علينا أن نتأملها وأن نتدبرها ما هو الإيعاز النفسي؟ قال: ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾، ترى فرعون يريد أن يجعل قومه يهبون في مواجهة موسى بأقصى ما يفعلون، وذلك حينما يوحي إليهم بأن موسى -عليه السلام- قادم لإخراجهم من وطنهم وأرضهم، والإنسان لاشك يعز عليه المكان الذي يعيش فيه؛ فيه بيته، فيه أهله، فيه جماعته، فيه ماله، فيه حركته وتصرفاته وغير ذلك، فيعز عليه أن يخرج وإلى أين سيذهب؟

ففرعون لعنه الله لاحظ هذا، وحاول أن يلجأ إليه كي يدفع قومه دفعًا قويًا شديدًا إلى أن يواجهوا موسى -عليه السلام- وموسى -عليه السلام- ما جاء ليخرجهم من أرضهم، وما يريد ذلك، وإنما هو فقط صلوات الله وسلامه عليه يريد أن يخرجهم من هذه التبعية لهذا الرجل الملحد إلى الإيمان بالله -تبارك وتعالى- ثم في نهاية الآية يظهر أيضًا ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾، يظهر ضعف فرعون، يا فرعون أنت تدعي الإلوهية وتدعي الربوبية فهل مدعي الإلوهية والربوبية، فهل مدعي الربوبية والإلوهية يشاور قومه وعبيده؟ هنا يشاورهم قائلًا: ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ يعني هذه دلائل على بشرية فرعون، وأنه يعلم ذلك، وأنه ليس بملك على الحقيقة، ولا إله ولا رب وإنما هو عبد مملوك مربوب لله رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

هنا يطلب المشورة من قومه، وقومه لاشك جماعة من السفهاء كما قال الله عنهم فماذا يقولون له؟ قالوا: ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾، أرجه وأخاه: يعني أخره وأخر أخاه، وأرسل في المدائن وتحدث ونادي في المدائن ابعث إليهم اطلب من أطراف مملكتك ليجتمع السحرة جميعًا عندك: ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾، وسحَّار للمبالغة، يأتوك بأعلى قمم السحرة، أفضل ما لديهم من قوة وإمكانيات وسحرة مهرة، يمكن أن يواجهوا بها من؟ يواجهوا بها موسى -عليه السلام- ولاشك أن موسى -عليه السلام- مؤيد بتأييد الله -تبارك وتعالى- له، والله -تبارك وتعالى- أخبر في كتابه أن هؤلاء الناس مهما فعل رب العالمين -سبحانه وتعالى- بهم كي يدخلوا في دين الله -تبارك وتعالى- لن يدخلوا فيه؛ لأن الله -عز وجل- طبع على قلوبهم ولم يرد هدايتهم؛ ولذلك قالوا لموسى -عليه السلام- وقالوا: ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٢]، يعني هم أعلنوا ذلك، ولكن النصر والتأييد حليف موسى -عليه السلام- ويأبى الله -عز وجل- إلا أن يتم نوره.

فرعون أرسل في المدائن حاشرين؛ لكي يأتي بأمهر السحرة في أطراف مملكته كلها، وأتى السحرة، وقال القرآن عن ذلك: ﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾، جمع السحرة من أطراف المملكة، جمعوا من أماكن متعددة، وأتوا لميقات يوم معلوم، يعني اليوم قد حدد، وهذا أيضًا فيه تأييد لموسى -عليه السلام- لأن جمع هذا الحشد الهائل في هذا المكان الواسع الذي سيجتمعون فيه، وسأبين لكم أن هذا الاجتماع كان في وسط المدينة بدلالة القرآن؛ لكي يسهل الذين يأتون إلى المكان يسهل عليهم الإتيان إليه، وتكون نسبة الحضور فيه قوية كبيرة؛ لأنه لن تلحقهم مشقة في حضورهم في هذا المكان، وكان اليوم يومًا مشهودًا، قيل يوم معلوم، يوم عيد عندهم، وجاء في سورة طه أنه يوم الزينة لديهم، وكان في وسط البلد كما أشرت ونفهم ذلك من قول الله تعالى في سورة طه: ﴿ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴾ [طه: ٥٨]، فكلمة سوى صفة لماذا؟

صفة للمكان يعني مكان مستوي في وسط المدينة التي نحن فيها، وفعلًا اجتمع هؤلاء الناس في ميقات يوم معلوم ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُّجْتَمِعُونَ ﴾؟ يعني قال قوم فرعون، وفرعون لقومه، تعالوا، هلموا، استمعوا؛ لتحضروا هذه المناسبة، ولاشك أنهم يطمعون في أي شيء؟ في القضاء على موسى -عليه السلام- ولكن كان في هذا تأييد من الله -عز وجل- لموسى -عليه السلام- حينما سينتصر كما سنرى بعد قليل أمام هذا الجمع الهائل على هؤلاء الذين اجتمعوا لمواجهته صلوات الله وسلامه عليه ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُّجْتَمِعُونَ ﴾ لماذا؟ ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ أود أن أقف هنا وقفة لأبين لأخواني منطق الكفر في كثير من الأزمنة والأمكنة، هؤلاء ربنا طبع على قلوبهم، هؤلاء المفروض يقولون نتبع الحق، وإنما قالوا لعلنا نتبع السحرة، أنتم إذا جئتم في هذا المكان وتريدون بيان لون من ألوان المواجهة، وفي هذه الحالة يجب أن تتبعوا من؟ المنتصر، وأن تتبعوا الحق، فهم عندهم السحرة يطمعون في أن يكونوا هم الذين ينتصرون على موسى -عليه السلام- وبالتالي قالوا هذا القول: ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾، قوم قريش، قوم النبي -صلى الله عليه وسلم- الذين بعث فيهم قالوا هذه الكلمة، هل أحد من الشباب يستطيع أن يذكر لي قولًا يشابه هذا القول؟

اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، الواجب لو كانوا يعقلون، اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأهدنا إليها أو فجعلنا نسلكه؛ لأنه حق، وهم قالوا بأنه حق، ولكن هذا هو منطق الظالمين دائمًا، هذا من غباوة المشركين وجهل الكافرين أنهم لا يبحثون عن الحق المؤيد بالدليل؛ ولذلك قالوا: ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ عندئذ اجتمع السحرة وأتوا في الميدان أمام فرعون وأرادوا أن يواجهوا موسى – عليه السلام– وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾، هؤلاء السحرة على دين قومهم، على دين ملكهم الذي يقوم عليهم، وقد تسلط عليهم وعندما ناداهم فرعون من المدائن واجتمعوا عنده طمعوا في أن تكون لهم منقبة وأن تكون لهم مزية على غيرهم من الناس؛ لأنهم أتوا ليواجهوا النبي الرسول الذي يواجه طاغيتهم فرعون، فانتهزوا هذه فرصة وأتوا، وعندما اجتمعوا إلى فرعون قالوا له: ﴿ أَإِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾، يريدون طمعًا وجاهة، ولاشك أن هذه الوجاهة تكون في المال وفي المكانة، يعني تكون لهم حظوة عند فرعون ويعطيهم أيضًا جائزة ومالًا؛ ولعل فرعون فهم هذا فوعدهم بالأجر الكبير، وبالمكانة والحظوة عنده، كي يدفعهم إلى أي شيء؟ كي يدفعهم إلى أن يواجهوا موسى –عليه السلام– فلم يكتفي بوعده لهم بأجر ومال، وإنما قال لهم: ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾، ومثل هؤلاء يضعفون أمام المال ويضعفون أمام قوة السلطان عندما يكونون من أتباعهم ثم يستمر اللقاء بعد ذلك وآتي إلى المحور الثاني لكي أبين طبيعة المواجهة التي وقعت بين موسى –عليه السلام– وبين فرعون.

والمحور الثاني بعنوان: موسى –عليه السلام– يواجه السحرة في الميدان، وفي ذلك يقول رب العالمين – سبحانه–: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾، ما أجمل هذه الآيات التي تبين هذا اللقاء الحاسم بين هذا الطاغية وبين موسى –عليه السلام–؟!!

لما اجتمع موسى والسحرة في الميدان كان لابد أما أن يبدأ موسى –عليه السلام– وإما أن يبدءوا هم في سورة طه: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ﴾ [طه: ٦٥– ٦٦]، قال بعض أهل العلم يلاحظ في ذلك أدب موسى –عليه السلام–؛ لأنهم لما ابتدءوه وخيروه وأسند الأمر إليهم ولم يبتدئ هو وينتهزها فرصة في ذلك صلوات الله وسلامه عليه.

في الآية التي معنا: ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُّلْقُونَ ﴾، ما عندكم افعلوه، كأن هذا فعلًا منطق رجل مؤيد بالحق من قبل رب العالمين، يقول لهم: ما لديكم من أمور تودون أن تضعونها وأن تلقونها في الأرض فافعلوا ذلك، يعني يعطيهم إيحاء هو أيضًا بأنه لا يأبه بما عندهم، وبما سيلقونه على الأرض، فألقوا ما عندهم فلما ألقوا ما بأيديهم أصبحت الحبال والعصي كما نطق القرآن الكريم تتحرك، لما ألقوا حبالهم وعصيهم على الأرض صارت تتحرك في الميدان أمام من؟ أمام الناس هذا أولًا، موسى –عليه السلام– وافق أن يبتدئوا هم، فلما ابتدئوا وألقوا حبالهم وعصيهم أصحبت هذه الحبال والعصي تتحرك على أرض الميدان الذي دار فيه اللقاء بينهم وبين موسى –عليه السلام– عندئذ ألقى موسى عصاه، ولاشك أنه بأمر رب العالمين –سبحانه– وتأمل الآية بحرف الفاء: ﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ تلقف يعني تأخذ وتذيب وتأكل كل ما ألقاه هؤلاء على هذه الأرض من الحبال والعصي التي أصبحت تتحرك، فإذا هي تلقف ما يأفكون، وكلمة ما يأفكون تدل على بطلان ما أتوا به؛ لأن الإفك هو الكذب والافتراء والبهتان، هؤلاء أيضًا السحرة كانوا يعتزون بقوة فرعون غاية العزة، ومع ذلك هل أفادتهم هذه العزة؟ هو يظهر هذا الاعتزاز لما أتوا إلى إلقاء الحبال والعصي: ﴿قَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾؛ لأنهم لا يعرفون إلا هو، ولا يؤمنون إلا بهذا الطاغية، وسيرون بعد قليل نهايته وإلى ما سيئول أمره إليه، وكيف أنه خاوٍ وفاض، لا يملك شيئًا لا في الدنيا ولاشك بعد ذلك في الآخرة، هؤلاء ألقوا الحبال والعصي وقالوا بعزة فرعون يعني معنى بعزة فرعون يعني أننا سننتصر بعزة فرعون، هؤلاء السحرة قيل بأنهم كانوا

جماعة كبيرة للغاية، بعضهم قال اثنى عشر ألفاً، وبعضهم ذكر أربعين، وبعضهم قال سبعين، وبعضهم زاد، وبعضهم قال...، وفي الحقيقة هذه الروايات لم يثبت منها شيء عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- والقرآن الكريم سكت عن عدد السحرة ونحن ما علينا إلا أن نسكت، طالما أن القرآن الكريم لم يعلمنا بذلك، ونحن نأخذ الوحي من كتاب رب العالمين -سبحانه وتعالى- فنقف عند فقط عند حدود ما ورد في كتاب الله -تبارك وتعالى-.

لما ألقى موسى عصا وأكلت وابتلعت وهي عصا أيضًا تحركت، كل ما على الميدان من الحبال والعصي التي ألقاها هؤلاء السحرة، أدرك السحرة وهم لاشك مهرة في السحر وصلوا فيه الغاية، أدركوا عندئذ أن ما لديهم من أعمال وما فعله موسى -عليه السلام- وما واجههم به ليس من قبيل السحر، هم وإن كانوا يضحكون على الناس بما لديهم أو بسحرهم كما سنأتي بعد قليل في بعض المسائل، وسأقف عن نوعية وطبيعة سحرهم أدركوا من خلال عصا موسى -عليه السلام- أن هذا لا يمكن أن يكون سحرًا قال بعض أهل العلم؛ لأن هؤلاء وضعوا مادة الزئبق على الحبال والعصي، فلما أصابتها حر الشمس أصبحت الحبال والعصي تتحرك، وهم ليست لهم مقدرة بأمر يمكن أن يواجهوا به عصا موسى -عليه السلام- وأدركوا أن ما أيد به موسى -عليه السلام- ليس سحرًا، وإنما هو أعجاز أيد به من قبل رب العالمين -سبحانه وتعالى- والله أبطل سحر هؤلاء السحرة: ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٨- ١١٩].

هؤلاء إذن لما وجدوا هذا الأمر، وكانوا لاشك كما ذكرت من أعلم الناس في السحر، وفي هنا فائدة يعني ما أريد أن أطيل لأنتهي من هذه الآيات: وهي أن الله -عز وجل- كان يؤيد أنبيائه ورسله بمعجزات من جنس ما يدور عند أقوامهم، فلما كان في قوم فرعون وعند فرعون وفي عهد فرعون السحر منتشرًا ظاهرًا معلومًا متداولًا أيد الله -عز وجل- موسى -عليه السلام- بمعجزات من طبيعة ما عند هؤلاء الناس، كما أيد الله -عز وجل- نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- بمعجزة القرآن الكريم، وهو إنما قد أؤيد بغيرها من المعجزات الحسية إلا أن أعظم معجزة دائمة باقية معجزة القرآن الكريم، وكان القرآن الكريم بلسان عربي مبين، واحتوى على ألوان متعددة من البلاغة والفصاحة والإعجاز والبيان؛ ذلك ليواجه به النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- المشركين الذين بلغوا أيضًا الغاية البشرية في الأعجاز والفصاحة والبلاغة والبيان، ويعلموا عند المواجهة أن هذا حقاً كلام رب العالمين؛ لأن القرآن تحداهم أن يأتوا بمثله فما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا.

إذن عصا موسى ابتلعت كل ما وضعه هؤلاء السحرة، وظهر للسحرة أنهم على جهل وضلال، وأن ما كان من موسى -عليه السلام- إنما هو ولاشك إعجاز مؤيد به من قبل رب العالمين -سبحانه وتعالى- الذي كان موسى -عليه السلام- يدعو فرعون إليه، عندئذ قال القرآن الكريم: ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمنا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ الله أكبر على هذا الإيمان الذي يمكن أن أطلق عليه إيمان ولد في لحظة، هم قبل قليل يقولون بعزة فرعون، يلقون الحبال والعصي ولا يعرفون لهم ربًا ولا إلهًا، وإنما مستندهم في الأمور فرعون، ثم بعد ما تأكل العصا هذه الحبال لاشك في لحظة مباشرة يتحولون من سحرة كفرة قائلين بعزة فرعون يتحولون إلى عباد لله -عز وجل- ساجدين يعني أتوا بأفضل لون من ألوان العبودية لله ألا وهو السجود، بأن يضع العبد جبهته وأشرف وأعلى مكان فيه ويخر به لله -تبارك وتعالى- على الأرض، فعل هؤلاء السحرة ذلك: ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴾، ثم عبروا عما قام في قلوبهم: ﴿ قَالُوا آمنا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾، يعني أنهم يريدون أن يقولوا لفرعون أنت لست ربًا ولا إلهًا؛ لأنهم ما قالوا آمنا بربنا، وإنما قالوا آمنا برب العالمين، يريدون أن يقولوا لفرعون أنت مربوب مثلنا؛ لأن فرعون من العالمين، وأن يبينوا لأقوامهم أنهم أيضًا جُهَّال حينما اتبعوا هذا الرجل، ثم أكدوا إيمانهم بالله حينما قالوا: ﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾، وهذا عطف بيان من رب العالمين، بهذا ينتهي هذا المشهد الكريم الذي ظهر فيه انتصار نبي الله موسى -عليه السلام- وأيده ربه -سبحانه وتعالى- بهذه المعجزة الكريمة الكبيرة الذي اعتلى بها على فرعون، وآمن السحرة الذين كان فرعون يتقوى بهم ويعدهم بالأجر الكبير والمنزلة العالية الرفيعة آمنوا وتركوا من؟ وتركوا فرعون، آمنوا بالله وتركوا فرعون، كل ذلك كان من

معجزة التي أؤتيها موسى -عليه السلام- وهنا مسائل قبل أن أنتقل إلى المحور الثالث تتعلق بهذه الآيات وهي في مسألة السحر، سأشير إليها إشارات يسيرة -إن شاء الله تبارك وتعالى-:

المسألة الأولى: ما هو السحر في اللغة والاصطلاح؟

السحر في اللغة: كل ما خفي ولطف سببه، كل شيء دقيق سببه خفي لطيف يقال عنه سحر؛ ولذلك النميمة نقول عنها ماذا؟ نقول بأنها سحر، وفي الأمثال يفسد النمام في ساعة ما لا يفسده الساحر في سنة؛ فالنميمة تعمل عمل السحر، ويقال لها سحر في اللغة، كذلك البلاغة والبيان والفصاحة أيضًا يطلق عليها سحر؛ ولهذا جاء إن البيان لسحرا هذا تعريف السحر في اللغة.

وفي الاصطلاح: رقى وعقد وتمائم وعزائم تؤثر بإذن الله -تبارك وتعالى- وتفرق بين الرجل وزوجه وتمرض وغير ذلك مما هو معلوم في السحر.

المسألة الثانية: هل السحر حقيقة أو هو تخيل لا حقيقة له؟ هذه مسألة مختلف فيها بين أهل العلم؟ الحقيقة، والتحقيق في ذلك: أن السحر له حقيقة واقعة، قد يسألني سائل يقول كيف له حقيقة واقعة والآيات التي نحن بصدد الحديث عنها: ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ [طه: ٦٦]، نقول لاشك أن هناك لون من ألوان السحر فيه تخيل، وهو أيضًا سحر، ففي آية سورة الأعراف: ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ١١٦]، فكونه يسحر العين حتى يخيل للعين أن الساكن متحرك والمتحرك ساكنًا يكون هذا من باب السحر، ولاشك إلى جانب أنه لو لم يكن للسحر حقيقة، ما أمرنا رب العالمين -سبحانه وتعالى- أن نستعيذ به في كتابه: ﴿ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ [الفلق: ٤]، النفاثات: التي هما السواحر التي ينفثن على عقد يفعلنها وتؤثر إذا شاء رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

المسألة الثالثة: حكم تعلم السحر؟

جمهور العلماء على أن السحر كفر، وأن تعلمه والعمل به كفر، وقال الإمام الشافعي -رحمه الله-: نأتي للساحر ونقول له صف لنا سحرك؟ فإن كان سحرك كسحر عباد الكواكب والنجوم والذين يستخدمون الجن ويعبدونهم من دون الله -سبحانه وتعالى- فهذا كفر، وإن وصف سحره بأدوية وعقاقير وأدخنة وغير ذلك فهذا كبيرة من الكبائر، وليس بكفر، والصواب: أن السحر كفر بدليل قول الله -تبارك وتعالى- في كتاب في سورة البقرة: ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فلا تكفر بماذا؟

بتعلم السحر فدل ذلك على أن السحر كفر، وختم الله -عز وجل- الآيات التي تحدثت عن السحر في سورة البقرة قال: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وكونه لا خلاق له في الآخرة، نفي الخلاق يدل على أنه لا حظ ولا نصيب له وهذا لا يكون إلا للكافرين، ويمكن أن نستدل أيضًا بقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ [طه: ٦٩]، بأن السحر كفر لماذا؟ قالوا؛ لأن نفي الفلاح بالكلية لا يكون إلا عن الكافرين.

المسألة الرابعة: حكم حل السحر على المسحور التي تعرف بالنشرة، حكم حل السحر عن المسحور؟

بعض العلماء أجاز حل السحر عن المسحور، وبعضهم لم يجز، والصواب في ذلك أن حل السحر عن المسحور يكون بطريقين:

طريق محرم.

وطريق جائز.

حل السحر عن المسحور بسحر مثله فهذا كفر وحرام ولا يجوز؛ لأن ذلك يدعو إلى تعلم السحر والعمل بالسحر فحل السحر بسحر مثله لا يجوز.

أما حل السحر بالرقى الشرعية والتعاويذ قراءة آيات من القرآن الكريم فهذا من الأمور المباحة الجائزة المشروعة، طيب ورد حديث في مسند الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- (سئل عن النشرة فقال هي من عمل الشيطان) النشرة ما هي؟ هي حل السحر عن المسحور وسمي حل السحر عن المسحور بالنشرة؛ لأنه ينشر به عن صاحبه من الداء ما خامره من الداء، يعني يرفع ويزال ما وقع به، ومن هنا سمي إزالة السحر عن المسحور نشرة، في حديث جابر هذا سئل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن النشرة فقال هي من عمل الشيطان فكيف نوفق بين هذا الحديث وبين قولنا حل السحر بالتعويذات الشرعية وبالرقى الشرعية جائز؟ نقول معنى سئل عن النشرة أن في كلمة النشرة للعهد يعني سئل عن النشرة المعهودة عند أهل الجاهلية، فقال هي من عمل الشيطان؛ لأن أهل الجاهلية كانوا يتقربون إلى الجن والشياطين ويعبدونهم من دون رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

أما الرقى والتعويذات الشرعية فهي ثابتة عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وقد رقى بها وأباحها وأقرها النبي صلوات الله وسلامه عليه، كما في حديث اللديغ وغيره، وأيضًا عندنا المعوذتين: قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس أيضًا هي من التعويذات الشرعية التي تقال في مثل هذا الموقف.

المسألة الخامسة: في المسائل التي تتعلق بأحكام السحر وهي: أنه يجب أن نعلم وهذه مسألة مهمة أن سحر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لا يستلزم نقصًا ولا محالًا شرعيًا ولا يطعن به على رسالته -صلى الله عليه وآله وسلم- فقد ثبت في الصحيحين وغيرهما أن لبيد بن الأعصم اليهودي سحر النبي، وكان سحره واقعًا في أمر محدود معين، يظن أنه يأت أهله أي أنه قد أتى أهله -صلى الله عليه وسلم- ولم يكن قد فعل، أما هو -عليه الصلاة والسلام- فكان معصومًا في النبوة والرسالة والتبليغ صلوات الله وسلامه عليه، والسحر مرض، وهو نوع من الأعراض البشرية والنبي -عليه الصلاة والسلام- بشر رسول يمكن أن يعتريه ما يعتري غيره من سائر البشر؛ ولذلك تعجبني كلمة للإمام الحافظ ابن حجر -رضي الله تعالى عنه- ذكر فيها المبتدعة الذين أنكروا السحر، وبين أن النبي -عليه الصلاة والسلام- قد سُحر وأن سحره لا يتعارض مع عصمته في الرسالة والبلاغ صلوات الله وسلامه عليه، في ذلك يقول الحافظ ابن حجر في الفتح: أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث، وهو يتكلم عن حديث سحر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وزعموا أنه يحط من منصب النبوة والرسالة ويشكك فيها، قال وهذا كله مردود؛ لأن الدليل قام على صدق النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فيما يبلغه عن ربه وهو معصوم في التبليغ صلوات الله وسلامه عليه.

أود أن أسال سؤالًا يتعلق بسورة الفرقان، في سورة الفرقان قال الكافرون بعضهم لبعض ولأهل الإيمان: ﴿ إن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٧]، ما معنى كلمة مسحورًا في هذه الآية؟

أي هذا الرجل يقول كلامًا لا يدري معناه.

يعني هم يريدوا أن يقولوا ليس معنى كلمة مسحورًا أن السحر قد أصابه، وإن كانوا قد زعموا في بعض المواطن وإلا هم لم يسلموا بذلك، فهم كما ذكرت لكم آنفا في لقاءات السابقة في سورة الفرقان عجزوا عن مواجهة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- عجزوا عن ذلك عن مواجهته، والتحدي كان قائمًا لهم بالقرآن وما استطاعوا وهذه الآيات جاءت في سياق بشرية النبي -صلى الله عليه وسلم-: ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ

الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٧]، إذن مسحور يعني رجل به رئة، والرئة يقال عنها سحر، أو أنه يأكل ويشرب وليس مسحورًا من السحر.

المحور الثالث: بعنوان فرعون يهدد السحرة بعد إيمانهم بالله والسحرة لا يأبهون به.

السحرة كما ذكرنا سابقًا خضعوا لرب العالمين وسبحان مقلب القلوب –سبحانه وتعالى– الذي حولهم من قوم كافرين لا يؤمنون إلا بفرعون، بعزة فرعون وفي لحظة يقولون: ﴿ آمنا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾، وهذه الآيات في هذا في هذا المحور تبين أيضًا مدى عظمة الإيمان الذي قام في قلوب هؤلاء، فرعون يهدد السحرة بعد إيمانهم، وفي ذلك أنه قال: ﴿قَالَ آمنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

الإنسان يعجب أيها الإخوة الكرام من نطق هؤلاء المتجبرين، هؤلاء يقولون: إن الناس عندهم عبيد، حتى قلوب الناس تحت أيديهم وتصرفاتهم، من هذه الآية نفهم ذلك يعني فرعون ما اكتفى أن يستعبد أبدان قومه؛ ولكنه أيضًا يستعبد العقول والقلوب، بدليل أنهم لما آمنوا لموسى –عليه السلام– وبرب موسى وتابعوا موسى –عليه السلام– غضب فرعون وواجههم كيف تؤمنون به قبل أن أذن لكم، طيب الإيمان مسألة قلبية، ثم بعد ذلك يظهر أثره على الجوارح، وهذا ما لا يملكه فرعون ولا يملكه غيره؛ ولكن هذا شأن المتكبرين، أنهم يستعبدون الناس ويحاولون أن يسيطروا حتى على العقول.

ثم تظهر هذه الآية جهل وسخافة فرعون، وأنه حقًا يمكن أن نقول أنه مع كفره كان رجلًا أحمقًا حتى في دنياه؛ لأنه قال لهؤلاء السحرة: ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾، هذا غباء منه، موسى –عليه السلام– لم يلتق بالسحرة من قبل؛ فرعون هو الذي ناداهم من الآفاق فمن أين أتلقى بهم وكيف علمهم موسى –عليه السلام– ومن أين تعلموا السحر على يديه وهل موسى –عليه السلام– كان ساحرًا؟ هم تربوا عندك يا فرعون وكانوا وهم يؤلهونك أنت ولم يسبق لهم لقاء بموسى –عليه السلام– ولكن هذا هو الهوس الذي دخل على فرعون لما وجد هؤلاء السحرة آمنوا برب موسى وهارون؛ ولذلك قال: ﴿ آمنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾، ثم منطق أيضًا الجبابرة واضح وظاهر عليه، هذا الذي يملكه ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ هذه كلمة تهديد ووعيد قبل أن يهدد أو أن يذكر نوعية العذاب الذي يوقعه عليهم يعطي هذه الإشارة بالتهديد الشديد فلسوف تعلمون، وأعتقد أن هذه عبارة لغوية نعرفها ونعتمد بها، لو ظلمك إنسان تقوله طيب، ترى ماذا أفعل فيك، أو ماذا سأفعل بك؟ كذلك فرعون قبل أن يذكر له نوعية العذاب المؤلم الذي سينزله بهم يتوعدهم ويتهددهم بهذه الكلمة فلسوف تعلمون، ثم يذكر لهم نوعية الوعيد الطاغية: ﴿ لأقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ﴾، يعني إذا قطع اليد اليمنى يقطع الرجل اليسرى يعني يريد أن يعمل لهؤلاء شلل كامل إن صح التعبير، وتشويه أيضًا في الخلقة، ولم يكتف بذلك، بل قال: ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾، وجاءت في سورة طه أنه يصلبهم في جذوع النخل، ولاشك أن فرعون يبلغ بهذا التهديد مداه؛ لأن قوله: ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ يفيد أنه سيقطع الأيدي والأرجل من خلاف وسيصلبهم في جذوع النخل وهم أحياء حتى يموتوا وهم على هذه الهيئة.

ماذا قال هؤلاء السحرة لفرعون وبأي شيء واجهوه؟ قالوا كلمات عجيبة جدًا تنبئ عن مدى إيمان هؤلاء القوم: ﴿ قَالُوا لاَ ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، آيتين جميلتين هما ختام هذا اللقاء قالوا لا ضير يعني لا نبالي بك ولا نأبه بتهديدك ووعيدك، رغم أنه مؤلم إلا أنهم ما التفتوا إليه، وما تأثروا من نوعية هذا التهديد؛ ولذلك في سورة طه واجهوه بأعنف من هذا: ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [طه: ٧٢]، هنا قالوا لا ضير لا نأبه بك، افعل ما تشاء، وهذا رد على التهديد بليغ.

ثم بعد ذلك: ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٥]، ذكر بعض أهل العلم أن هؤلاء أحبوا ربهم حبًا شديدًا ليس مجرد إيمان، هؤلاء أحبوا ربهم حبًا شديدًا وتمنوا الرجعة إلى الله -عز وجل- والانقلاب إليه فقالوا: ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾، والآية الثانية تبين كيف أنهم طمعوا في مغفرة الله -عز وجل- ورجائه، وكيف أن الإيمان حوَّلهم إلى أناس من نوع جديد بعد ما كانوا يقولون بعزة فرعون، يتمنون الرجعة إلى الله: ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾، ويطمعون فيما عند الله، ويقدمون بين يدي هذه الكلمة اعتذارًا إلى ربهم؛ لأنهم أخطئوا في حق الله لما تبعوا فرعون: ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾؛ لأنهم -الخطيئة- كانوا يتابعون فرعون، كان يدعي الإلوهية فيزعمون ذلك الربوبية فيزعمون ذلك ثم بعد ذلك هذا الطمع بني عندهم على قولهم ﴿ أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، يعني أول المؤمنين بالله من قوم فرعون وكان الأمر كذلك، وبهذه الكلمات ننهي هذا اللقاء وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

في الحلقة الماضية كان السؤال الأول: ماذا يفهم من قول الله -تبارك وتعالى- لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦]، وكيف يستفيد الدعاة إلى الله من هذه الآية؟

وكانت الإجابة: قوله تعالى: ﴿ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾، أي مهلكها وهذه الآية تدل على حرص النبي -صلى الله عليه وسلم- على دعوة المشركين إلى التوحيد وتصور حاله كرجل حريص أن يسلم هؤلاء المشركين وعلى الدعاة إلى الله تعالى أن يتعلموا من هذه الآية، وأن يكونوا حريصين كل الحرص، كما فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- على هداية الناس، وأن يكونوا محبين لنفع الآخرين، وكل ما ارتقى علم الإنسان في العموم كل ما كان رحيمًا بالمدعوين حريصًا على هدايتهم بالطريق المستقيم.

إجابة طيبة وسديدة.

والسؤال الثاني: اذكر معنيين من معاني كلمة الضلال في القرآن الكريم وأيهم المراد في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ [الشعراء: ٢٠]؟

وكانت الإجابة: يطلق الضلال في القرآن الكريم وفي لغة العرب على أكثر من معنى منها:

المعنى الأول: وهو الذهاب عن حقيقة الشيء لعدم العلم به، فيقال لموسى أنه كان من الضالين في الآية الكريمة؛ لأنه ذهب عن حقيقة هذا الأمر وهذا الضلال المذكور للنبي -صلى الله عليه وسلم-: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ﴾ [الضحى: ٧]، أي ذاهبًا عن الطريق المعلوم الذي يجب أن تسلكه.

المعنى الثاني: الذهاب عن حقيقة الإيمان إلى الكفر وهذا المعنى هو المراد بقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٧]الفاتحة، أي الذين انحرفوا عن الإيمان عن الكفر.

إجابة طيبة وسديدة.

هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه المحاضرة:

السؤال الأول: يعتمد على الذكاء، وقد تعمدت ذلك، وهو سهل الحمد لله ولكن قد لا أكون قد ذكرته نصًا، كيف توجه طلب موسى من السحرة إبراز ما عندهم من السحر والسحر كفر؟

والسؤال الثاني: اذكر حكم تعلم السحر وما حكم حل السحر عن المسحور؟

الدرس العاشر

تابع تفسير سورة الشعراء (٥٢ – ٨٩)

بسم الله، والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله –صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه وبعد.

الإخوة والأخوات طلبة هذه الأكاديمية العلمية المباركة سلام الله عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

ونحمد الله –عز وجل– أن يسر لنا الجمع أيضًا لنواصل الحديث في تفسير كتاب الله تعالى ومن سورة الشعراء و إن شاء الله عز وجل– سيدور الحديث في هذه اللقاء حول ثلاثة محاور:

المحور الأول: خروج موسى –عليه السلام– بقومه وإغراق فرعون في البحر.

المحور الثاني: إبراهيم–عليه السلام– يدعو قومه إلى التوحيد.

المحور الثالث: أدلة إبراهيم –عليه السلام– على وجود عبادة الله وحده دون سواه وهذه المحاور تتحدث عنها آيات من سورة الشعراء سنستمع إليها الآن من الشيخ عبد الرحمن، فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَّغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٥٢– ٨٩].

أحسنت وجزاك الله خيرًا، إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهديه الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلي وسلم وبارك وأنعم على عبدك ورسولك ومصطفاك، وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيلهم إلى يوم الدين وبعد:

هذه الآيات التي استمعنا إليها قبل قليل هي تتمة الحديث عن نبي الله موسى –عليه السلام– ثم ذكرٌ لقصة خليل الرحمن إبراهيم –عليه السلام– ونبدأ الآن فيما ذكر رب العالمين –سبحانه وتعالى– عن نبيه موسى –عليه السلام– وذلك تحت المحور الأول الذي هو بعنوان: خروج موسى –عليه السلام– لقومه وإغراق فرعون في البحر، وتحته هذه الآيات وهي قول الله –جل ذكره–: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾

فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلاَءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾.

في اللقاء السابق انتهينا إلى انتصار موسى -عليه السلام- على فرعون، وأن السحرة آمنوا برب العالمين -سبحانه وتعالى- السياق ينتقل مباشرة إلى أمر الله -عز وجل- لموسى -عليه السلام- بأن يخرج ببني إسرائيل من بلده حتى لا يظلمهم فرعون ويبغي عليهم، ولاشك أيضًا أن موسى -عليه السلام- بقيَّ بقومه فترة يعبدون الله -سبحانه وتعالى- وأن رب العالمين -سبحانه- قد أجرى آيات أخرى كثيرة أيَّد بها موسى -عليه السلام- وهذا أتعب فرعون وجنده، ولاشك أن القرآن يوجز إيجازًا، ولكننا من خلال استعراض الآيات وفهمها يمكننا أن نفهم ذلك فالسحرة الذين آمنوا برب موسى وهارون وبرب فرعون أيضًا على الحقيقة قتلهم كما ذكر ابن كثير -رحمه الله تبارك وتعالى- عن ابن عباس وغيره قتلهم فرعون، وبقيَّ قوم آمنوا موسى -عليه السلام- يعبدون الله -عز وجل- ولاشك أن فرعون كان ظالمًا يؤذي هؤلاء المؤمنين فأوحى رب العالمين -سبحانه وتعالى- إلى موسى -عليه السلام- وأمره أن يخرج بقومه ليلًا متجهًا إلى جهة الشرق، إلى جهة البحر الأحمر، قال رب العالمين: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾، ثم أعلمه بأن فرعون وقومه سيخرجون ورائك ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾، هذا الفعل غاظ فرعون وأثر فيه، فما كان منه إلا أرسل أناسًا ينادون في أطراف مملكته أيضًا حتى يجمع قومًا يسلك بهم طريقًا ليصل إلى موسى -عليه السلام-﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ ﴾، جمع مدينة، مدائن مملكته، قومًا يدعون الناس إلى أن يجتمعوا إليه، وكان مما ذكر لهؤلاء عن موسى -عليه السلام- ومن معه ﴿ إِنَّ هَؤُلاَءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾، يلاحظ هنا أن فرعون وصف موسى ومن معه بوصفين يحملان الذنب:

الوصف الأول: ﴿ إِنَّ هَؤُلاَءِ لَشِرْذِمَةٌ ﴾، يعني طائفة لا نبالي بهم ولا نأبه بهم وهذا تناقض مِن مَن؟

هذا تناقض من فرعون؛ لأنه لو أن هذه الطائفة فعلًا لا يأبه بهم ولا يبالي، فلم يرسل وينادي في أطراف مملكته؟ ليحشد هذا الجمع الهائل، ويؤكد أن هؤلاء طائفة وشرذمة كما ذكر وصف هؤلاء بالقلة ﴿ إِنَّ هَؤُلاَءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾.

الصفة الثانية التي تحمل الذنب: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ يعني يأتون بأفعال من وجهة نظره تغيظ فرعون؛ وذلك أنهم لما عبدوا رب العالمين -سبحانه- وخرجوا على هذا الطاغية، لاشك أن هذا أمر يؤثر فيه ويغيظه ويتعبه، ثم وصف نفسه ومن معه بصفة مدح، فقال: ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾ إن أردت أن أعبر تعبيرًا معاصرًا عن هذا؛ يعني فرعون يريد أن يقول: الأمر تحت سيطرتي؛ لأن هؤلاء عندي لهم الاستعداد وأنا أحذر من أفعالهم؛ ولذلك أتخذ من الوسائل والأسباب التي تمنع أن يفعلوا في أطراف مملكتي أي شيء هكذا، ذم فرعون موسى ومن معه ومدح نفسه بهذه الفعلة، مباشرة القرآن الكريم يأتي بسياقه العظيم؛ ليبين ما حدث لهذا الطاغية، وقبل أن يذكر ربنا -سبحانه وتعالى- هلاك فرعون وقومه، يبين أنه -سبحانه وتعالى- أخرجهم، وأنه فاعل لذلك على الحقيقة، مما تفضل الله -سبحانه وتعالى- عليهم به من ألوان النعيم، ويسارع ربنا -سبحانه وتعالى- بذكر ذلك قبل أن يذكر خاتمتهم وسوء مصيرهم؛ ليبين جزاء وفاقًا لمن كذب بالله رب العالمين؛ ولذلك يقول رب العالمين -سبحانه- مباشرة قبل أن يذكر هلاك فرعون ومن معه:

﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾، هؤلاء القوم كانوا يعيشون في نعمة عظيمة وكانوا يتمتعون بأفضل ألوان المتع والنعيم، كانت عنده جنات، كان عنده النعيم، كان عنده ملك كان لديهم جاه، كان لديهم سلطان كانت لهم قصور عالية كانت عندهم أموال عظيمة المعبر عنها ﴿ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾، ثم يبادر سياق القرآن الكريم ليبين ويؤكد قبل أن يعلم ربنا -سبحانه وتعالى- بهلاك فرعون أنه -سبحانه وتعالى- أورث كل هذا النعيم لبني إسرائيل، ورب العالمين -سبحانه وتعالى- يورث

هذه الأرض لأهل التقوى والإيمان؛ ولذلك قال في آيات أخرى مبينًا أنه أورث بني إسرائيل ملك فرعون ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وهذا يفيد أن سلطان فرعون كان عظيما ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، ويقول رب العالمين في آيات أخرى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص: ٥].

لأن هؤلاء يستحقون أن يرثوا هذا الملك، وهذه الأرض بأن العاقبة للمتقين كما أخبر بذلك رب العالمين –سبحانه وتعالى– بعد ذلك خرج موسى بقومه كما أخبرت الآيات، وجمع فرعون أمة عظيمة كي يخرج وراء موسى –عليه السلام– وكان هذا ما ذكره ربنا –سبحانه وتعالى– في كتابه في هذه الآيات ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾، ما أعظم هذا الموقف الكريم؟! موسى –عليه السلام– خرج ومعه قوة لا تقهر معه رب العالمين –سبحانه وتعالى– ونستفيد من قوله ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾، أنه خرج ليلًا، ونفهم من قوله –تبارك وتعالى– أيضًا وجاء النص على ذلك في القرآن ونفهم أيضًا من قوله تعالى: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾، أن فرعون تبع موسى والتقى معه وقت شروق الشمس؛ لأن الله قال ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾، ثم قال ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ ﴾.

موسى –عليه السلام– خرج ومعه رب العالمين –سبحانه وتعالى– حتى وجد البحر أمامه وفرعون بعد أن حشد قوة هائلة حشد قوة عظيمة جدًا خرج وراء موسى –عليه السلام– فأصبح موسى –عليه السلام– ومن معه أمام البحر وخلفهم فرعون وجنوده هنا نظر قوم موسى –عليه السلام– فوجدوا فرعون قادم إليهم، فما كان منهم إلا أن قالوا ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، تعبير بقوله: إنا لمدركون يفيد أنهم سيهلكون وأنهم توقعوا ذلك بسبب ظلم الطاغية –فرعون– وربما كان قبل وقت قريب قد قتل السحرة أمام أعينهم؛ ولذلك توقعوا أن يهلكوا في هذا الموطن على يد هذا الطاغية ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾، فرد موسى –عليه السلام– عليهم بقوة الرجل النبي المؤمن الذي يثق في ربه –سبحانه وتعالى– ويعلم أن رب العالمين يؤيده بمدد من عنده، فهو لم يهب فرعون ولم يخش منه ولم يخف منه يومًا ما، وفرعون يكاد أن يدرك موسى –عليه السلام– وفرعون لاشك معه من الأسلحة ما معه، ومن العتاد ما معه ومن القوة البشرية ما معه، وموسى أمام البحر ليست معه سفينة وليست معه وسائل حربية كالتي عند فرعون، ومع ذلك؛ لأنه يثق في وعد الله ونصر الله –عز وجل– يعرض عن قول قومه ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾، ويقول لهم ﴿ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾، ما أعظم هذه الثقة في الله عز وجل؟! ما أعظم اليقين في رب العالمين سبحانه وتعالى؟! وهذا اليقين تأتي الآية التي بعده تبين أن موسى –عليه السلام– فعلًا ألقى ظهره على ركن متين، وأنه اعتمد على من يقول للشيء كن فيكون.

قبل أن أنتقل إلى هذا النقطة أود أن أشير إلى مسألة عقدية في دقيقة واحدة ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾:

المعتزلة ينفون رؤية الله –عز وجل– في الدار الآخرة، ويقولون بأن الرؤية يلزم منها الإحاطة والكيفية، هذه شبهة قامت في أذهانهم قالوا: لو قلنا إن الله –عز وجل– يراه أهل الإيمان في الدار الآخرة كما نطق بذلك القرآن الكريم وصح بذلك الخبر عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قالوا يلزم من ذلك أن الذين يشاهدون رب العالمين ويرونه يحيطون به –سبحانه وتعالى– ويدركونه، ونحن نرد عليهم بهذه الآية ونقول: بأن الرؤية لا يلزم منها الإحاطة والكيفية؛ لأن فرعون وموسى وكلا الفريقين تراءى رأي كل واحد منهما الآخر، ولكن فرعون لم يدرك موسى –عليه السلام– ومن معه، فالرؤية أثبتها رب العالمين –سبحانه– ولكن الإدراك لم يقع ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾، ثبتت الرؤية ونفى الإدراك ﴿ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾؛ ولذلك قال الإمام الطحاوي –رحمه الله تعالى– في عقيدته: والرؤية حق لأهل الجنة من غير إحاطة ولا كيفية؛ ليدفع قول المعتزلة الذين قالوا بأنه يلزم من الرؤية الإحاطة والكيفية، ونحن نقول: بأن الرؤية تقع دون إحاطة أو

كيفية، تعالى جد ربنا –سبحانه– وعظم سلطانه، ولا يشبه ربنا –عز وجل– أحدًا من خلقه، ولا يحيط برب العالمين –سبحانه وتعالى– أحد من خلقه.

لما قال موسى –عليه السلام– ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾، بيَّن له ربه –سبحانه وتعالى– لون الهداية والتوفيق الذي هداه إليه، وذلك في قوله –سبحانه–: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، الله –عز وجل– بعد ما قال موسى ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾، تأتي الهداية كما ذكرت وبحرف الفاء الذي يفيد الترتيب والتعقيب المباشر مباشرة بعدما قال موسى –عليه السلام– بثقة المؤمن في ربه ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾، أوحى الله إليه قال رب العالمين ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾، بعض المفسرين رحمهم الله –تبارك وتعالى– يذكرون حول هذا أن موسى حاول أن يضرب البحر بعصاه فلم يفعل وكل هذا لم يرد له أثر عن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– ونحن نقفوا الأثر، ونقف عند الثابت عن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– وما جاء في كتاب الله، رب العالمين أخبرنا أن الله –عز وجل– أوحى إلى موسى –عليه السلام– أن يضرب البحر بعصاه، فضرب البحر بعصاه، وكلمة فضرب البحر لم تذكر في هذه الآية، وهذا أيضًا من الإيجاز وحذف ما يعلم جائز، وهذا من بلاغة القرآن الكريم ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ ﴾، هنا محذوف فضربه فأنفلق، نفَّذ موسى –عليه السلام– أمر ربه إليه، وضرب البحر بعصاه فانفلق البحر ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾، وهذه معجزة جديد كانت للعصا التي في يد موسى –عليه السلام–، مرة ألقاها على الأرض فإذا هي حية تسعى، ومرة يضرب بها البحر فينفلق البحر، وهذا معجزة تشتمل في الحقيقة على عدة معجزات تنبهوا لهذا:

المعجزة الأولى: انفلاق البحر. هذه معجزة لما ضربه موسى –عليه السلام–.

المعجزة الثانية: أن جانبي البحر أصبحا كالطود العظيم يعني كالجبل العظيم يعني لما ضرب موسى –عليه السلام– البحر أنفلق البحر، وبعد ما انفلق البحر أصبح جانبي البحر بعد الافتراق كالجبل العظيم.

المعجزة الثالثة: ما جاءت عن السدي ومجاهد وغيرهما أنه كانت هناك عيون في البحر؛ لأن البحر أيضًا انفلق إلى اثني عشر طريقًا، وهذه معجزة أخرى، وكان بين كل طريق عيون يرى بعضهم منها بعضًا.

المعجزة الخامسة: أن الطريق الذي سار عليه موسى –عليه السلام– أصبح طريقًا جافًا يبسًا، قال الله في سورة طه ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلاَ تَخْشَى ﴾ [طه: ٧٧]، ومن المعلوم أن التراب إذا كان عليه ماء أصبح طينًا والإنسان لا يستطيع أن يجري أو أن يمشي بسهولة على هذا، ولكن الله –عز وجل– بأمره وقدرته جعل هذه الأرض التي انفلق عنها البحر طريقًا يبسًا يعبر منه موسى –عليه السلام– ومن معه ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ ﴾، أزلفنا بمعنى قربنا يعني قربنا فرعون وجنده؛ ليتحقق عقاب الله وهلاك الله لهؤلاء، قرب الله –عز وجل– البحر وقرب فرعون إلى البحر، ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ ﴾ ثم تعلن الآيات نجاة موسى ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴾ يعني أغرقنا الآخرين يعني أغرق الله –عز وجل– فرعون وقومه بعد ما خرج موسى –عليه السلام– إلى الشاطئ الآخر ومن معه سالمًا مؤيدًا موفقًا بتأييد رب العالمين، شاهد فرعون المنظر فأمر جنده –ولاشك– أن يتبعوا أيضًا موسى –عليه السلام– فلما نزلوا جميعًا في داخل البحر أمر الله –عز وجل– البحر أن ينطبق عليهم فغرقوا عن آخرهم ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴾.

ثم يتفضل رب العالمين –سبحانه– على كل من يستمع كتاب الله –عز وجل– ويبين أن نعمته كبيرة، وأنه تأييده لأهل الإيمان عظيم، وأن نجاة موسى ومن معه آية وعلامة تدل على قدرة رب العالمين –سبحانه– وأنه

ينصر أوليائه، وأن رب العالمين -سبحانه وتعالى- يعز دينه؛ ولذلك قال ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، يعقب على هذا رب العالمين، ويذكر أنه هو العزيز، بمعنى أنه قد قهر كل شيء، وعزَّ على كل شيء.

ثم يذكر أيضًا اسمًا آخر من أسمائه ألا وهو اسم الرحيم، وقد يقول قائل وأين الرحمة هنا بعد أن أهلك هؤلاء القوم ولم يعاملهم ربنا برحمته؟ نقول: الرحمة هنا لموسى ومن معه، وأن العزة التي قهر بها الظالمون كانت لفرعون ومن معه، وأيضًا يمكن أن نجيب بجواب آخر ولا بأس بأن يجتمع في ذلك الجوابان، وهي إمهال رب العالمين لفرعون، ومن معه رحمة من الله -عز وجل- أن أمهلهم إلى أن أغرقهم هذا الإمهال، ويعني لم يعجل لهم بالعقوبة.

نأتي بعد ذلك إلى المحور الثاني في هذا اللقاء، وهو بعنوان: إبراهيم -عليه السلام- يدعو قومه إلى توحيد الله تعالى في ذلك.

ثم يقول رب العالمين ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

هذه هي القصة الثانية التي جاءت في سورة الشعراء وهي قصة خليل الرحمن إبراهيم -عليه السلام- وفي الحقيقة جاءت بعد قصة موسى -عليه السلام- وهي أيضًا فيها تسلية للنبي -عليه الصلاة والسلام- لماذا؟

لأن المشركين كذبوا النبي -صلى الله عليه وسلم- كما كذب فرعون موسى -عليه السلام- أهلك الله فرعون وهذا أو هذه الآيات تتلى على أسماع المشركين لعلهم يتنبهون في أن الله -عز وجل- كما أهلك المكذبين بموسى يهلك هؤلاء الظالمين أيضًا، وتأتي قصة إبراهيم -عليه السلام- لتبين أيضًا محاورة إبراهيم لقومهم وذكره لدلائل التوحيد، وتبين أيضًا للمشركين أن ادعائهم أنهم يحبون إبراهيم -عليه السلام- وأنهم يتبعونه أن هذا ادعاء باطل، وأن إبراهيم كان موحدًا وهؤلاء ليسوا على التوحيد في شيء وبها تسلية من جانب آخر للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لماذا؟ في مطلع هذه السورة ذكرت حزن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- على كفر الكافرين وشرك المشركين، وهذا الآيات أيضًا تبين حزن إبراهيم -عليه السلام- على كفر أبيه فهناك وجه شبه بين هذا وبين هذا نأتي إلى هذه الآيات بالتفصيل ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴾، اتل يعني اقصص على المؤمنين وأسمع أيضًا المشركين الذين لا يؤمنون بهذا القرآن العظيم ذكرهم بهذا الكتاب وبهذه القصة العظيمة واتل عليهم نبأ، نبأ المعنى الخبر ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ إبراهيم -عليه السلام- واجه أمة عكفت على عبادة الله -تبارك وتعالى- لا يعرفون إلا الشرك وكان شركهم في أي شيء في عبادة الكواكب والنجوم والأصنام التي أيضًا نحتوها بأيدهم وكسرها بيدي إبراهيم -عليه السلام- كما جاء ذكر ذلك في سورة الأنبياء وإبراهيم -عليه السلام- بدأ حياته على التوحيد، يعني إبراهيم -عليه السلام- بدأ حياته على التوحيد، يعني إبراهيم كان من مقتبل عمره موحدًا لرب العالمين، الدليل على ذلك من سورة الأنبياء ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ ﴾ [الأنبياء: ٥١].

فالله -عز وجل- أثبت له ذلك مسبقًا فإبراهيم إمام الحنفاء إمام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه هنا يناقش قومه ويسألهم هو يجهل ما تعبدون لا يعرف ولكنه يبكتهم لعبادة غير الله -تبارك وتعالى- ويلزمهم بهذا السؤال الحجة على أن الآلهة والأصنام المزعومة لا تعبد من دون رب العالمين -سبحانه وتعالى- ﴿ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾.

إبراهيم -عليه السلام- يعلم كما ذكرت أنهم يعبدون أصنامًا وهنا يلزمهم الحجة ويقرهم على أنفسهم أيضًا أنهم يعبدون أين أصنامًا ويفتخرون أكثر فيقولون:﴿ فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾، يعني لم يكتفوا بأنهم يعبدون أصنام فقط ويقررا هذا فإنما ذكروا مباهين مفتخرين بأنهم يعكفون على هذه الأصنام وكلمة فنظل لها عاكفين، تفيد أن هذا العكوف هذا كان بالنهار؛ لأن العرب يقولون: ظل يفعل كذا إذا كان يفعله بالنهار، وبات يفعله كذا إذا كان يفعله بالليل.

لما ذكروا ذلك لإبراهيم -عليه السلام- فإبراهيم -عليه السلام- أقام عليهم الحجة بكلام يسير، لو عقل هؤلاء لفقهوه، قالوا نعبد أصناما أقروا بأنهم كانوا يعبدون أصنامًا، وهنا حاورهم إبراهيم -عليه السلام- وبين لهم بطلان عبادتهم لغير الله لما قال لهم ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾؛ لأنه من المفروض أن الإنسان لا يعبد ولا يسأل إلا من يسمعه لكي يدرك طلبه هذا شيء والشيء الثاني أن الإنسان يدعو من يسمع مثله يعني يكون أيضًا يتصف بصفة السمع أما أن يدعو الإنسان يدعو من هو أقل منه من الصفات التي يتمتع بها فهذا ضلال في العقد والاعتقاد والفكر والسلوك، فإبراهيم -عليه السلام- يدعوهم من هذا الباب كيف تدعون وتسألون أصنامًا لا تسمع فلا تعرف هذه الأصنام عنكم شيئًا وإذا لم تسمع ولم تعرف عنكم شيئًا ولم تقف على حاجتكم فيما تسألونها إياه فهي أيضًا لا تستطيع لا نفعكم ولا دفع ضر عنكم؛ ولذلك عقب على ذلك بقوله: ﴿ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾، هذه حجة بليغة ذكرها خليل الرحمن إبراهيم -عليه السلام- قومه قوم إبراهيم لم يجدوا جوابا ما عندهم جواب هم كاذبون أفاكون، لم يجدوا إلى حجة ذكرها المشركون أيضًا بعد ذلك ألا وهي حجة التقليد، قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون يعني ما عندهم دليل وما استطاعوا أن يجيب على خليل الرحمن إبراهيم -عليه السلام- بعد أن بين لهم فساد عبادتهم لغير الله -تبارك وتعالى-.

وقولهم: ﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ نستفيد منها فائدة عظيمة جدًا أيها الأخوة الكرام ألا وهي فساد التقليد، فلا ينبغي للإنسان أن يقلد الناس في الباطل وإنما يجب عليه أن يعبد ربه بحجة وبرهان؛ لأن هؤلاء لما قلدوا الآباء، وكان الآباء على ضلال مبين وقعوا هم أيضًا في أي شيء وقعوا في الضلال المبين، بدأ إبراهيم -عليه السلام- يجادلهم أيضًا من جانب آخر بعد أن انقطعت حجتهم ومجادلته لهم في هذه المرة، كانت عبارة عن استخفاف إبراهيم -عليه السلام- بما يعبدونه من دون الله -تبارك وتعالى- وأن هذه الأصنام المزعومة والآلهة الباطلة لا تملك شيئًا؛ ولذلك قال لهم إبراهيم -عليه السلام- قال ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ﴾، وهو هنا جاء بالآباء؛ لأنهم ذكروا أنهم يفعلون ذلك اقتداء بمن؟

اقتداء بآبائهم مقلدين لهم: ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ. فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني هذه الأصنام أنا عدو لها وكذلك هي عدوة لي طيب قد يسأل سائل: يقول الأصنام هذه حجارة لا تشعر وإبراهيم يعرف ذلك فكيف تكون هي فيها إحساس وشعور حتى توصف بأنها عدوة بإبراهيم عليه السلام؟

كيف نجيب، نقول إبراهيم -عليه السلام- يخاطبهم بما يعتقدون فهم لما عبدوا الأصنام والحجارة من الله تعالى كأنهم نزلوها منزلة من يعقل وفيه إحساس وشعور ومن هنا قال لهم إبراهيم -عليه السلام- هذا القول فإنهم عدو لي.

الأصنام كثيرة لم يقل إبراهيم فإنهم أعداء لي، وإنما قال فإنهم عدو لي، قال علماء اللغة: إن كلمة العدو والصديق تأتي بالمفرد والجمع على سواء وفي ذلك قول الله تعالى ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ [الكهف: ٥٠]، فأفرد كلمة العدو؛ لأنها تأتي في المفرد والجمع سواء، ثم استثنى إبراهيم -عليه السلام- ربه -سبحانه وتعالى- فقال ﴿ إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ جل في علاه، استثنى ربه ومولاه الذي خلقه ونجاه ويسر أمره، وهو الذي يتولى ما يحتاج إليه.

وقول إبراهيم -عليه السلام- هنا لهؤلاء الناس وإعلانه الاستخفاف بما يعبدونه من دون الله -تبارك وتعالى- هو شأن غيره من الأنبياء، فالأنبياء والمرسلين -صلوات الله عليهم- فالأنبياء والمرسلين -صلوات الله عليهم أجمعين- كانوا يوجهون أقوامهم بمثل هذه العبارات؛ لأنهم يعرفون أن هذه الأصنام لا تضر ولا تنفع، وهكذا قال نوح -عليه السلام- لقومه ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُونِ ﴾ [يونس: ٧١]، ما استطاعوا وهود -عليه السلام- قال ﴿ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٥]؛ لأنه متوكل على رب العالمين، كما ذكرت ذلك الآيات، وهنا إبراهيم -عليه السلام- يواجه قومه بذلك ويتبرأ منهم، ويعلن أنه عدو لآلهتهم، وأنهم بهذا لا يأبه بهم وإنهم على ضلال مبين ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٦].

آتي بعد ذلك إلى المحور الثالث وهو بعنوان: أدلة إبراهيم -عليه السلام- على وجوب عبادة الله وحده دون سواه، لما ذكر إبراهيم -عليه السلام- أن هذه الأصنام لا تملك شيئًا ولا تنفع ولا تضر، وأنه عدو لها، واستثنى رب العالمين -سبحانه- ذكر إبراهيم -عليه السلام- الأدلة المقنعة، وقد ذكرها ربنا في كتاب حتى يفهم المشركون أن عبادتهم لغير الله باطلة، استثنى إبراهيم -عليه السلام- ربه بأنه يتصف بصفات الجلال والكمال، وأنه حقًا هو الذي يعبد وحده دون سواه ذكر إبراهيم -عليه السلام- خمس صفات لمن يعبده لا تتحقق في غير رب العالمين -سبحانه وتعالى- هذه الصفات الخمس هي التي جاءت في قول الله -تبارك وتعالى- ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾.

نعود بعد ذلك ونقف وقفات يسيرة عند كل صفة من هذه الصفات التي وصف بها إبراهيم -عليه السلام- ربه ومولاه ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ أول صفة الخلق والهداية، وكلاهما من أعظم الأدلة على وجوب عبادة الله وحده دون سواه، نحن نوجه الخطاب للمشركين وللملاحدة أيضًا الأفاكين، ونقول لهم: أنظروا إلى أنفسكم من أين أتيتم؟ من الذي أخرجكم من العدم إلى الوجود؟ من الذي خلقكم هو رب العالمين -سبحانه وتعالى-؛ ولذلك رب العالمين -عز وجل- يشير في آيات كثيرة إلى خلقه للإنسان، وإلى تطور هذا الخلق ويستدل بذلك على أنه هو الإله الواحد الذي يجب أن يعبد دون سواه، وتأمل مثلًا ما جاء في سورة الذاريات ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١]، يعني الإنسان دليل نفسه على نفسه من أنه مخلوق مربوب وأن خالقه هو رب العالمين -سبحانه وتعالى- وحده دون سواه.

هنا لفتة جميلة يا أخوان في قوله إبراهيم ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ خلقني بصيغة الماضي ويهدين بصيغة المضارع فلماذا كان ذلك؟ قيل لأن الخلق للذات الواحدة لا يتجدد يعني ربنا لم يخلق صالح وإبراهيم ومحمد يخلقه ابتداء مرة واحدة التغير يأتي في الأطوار، إنما الخلق لا يتجدد، إنما الهداية تتجدد ويحتاج إليها العبد في كل وقت وفي كل حين، وهو بحاجة إلى أن تستمر معه الهداية؛ ولذلك جاءت بصيغة المضارع الذي يدل على الحال وعلى الاستقبال ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾، هذه الصفة الأولى وضمير الفصل هنا أيضًا وقد جاء في الآيات التي تلي ذلك يفيد التأكيد وأن رب العالمين -سبحانه- هو الخالق على الحقيقة وهو الذي يهدي على الحقيقة.

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ الذي يملك الأرزاق ويسوقها هو رب العالمين -سبحانه وتعالى- حقًا رب العالمين هو الذي يطعم العباد ويسقيهم، ما يأتي إنسان ويقول: لا والله هذا أنا بسعي في الأرض وقوتي وفكري ومالي آكل وأشرب، نقول له من الذي يسوق المطر النازل من السماء على هذه الأرض ومن الذي ينبت الزرع الذي يأكله الناس جميعًا وتأكله الأنعام أيضًا على هذه الأرض؟ الذي يفعل ذلك هو رب العالمين -سبحانه وتعالى- وحده دون سواه؛ ولذلك صدق رب العالمين في قوله في سورة العنكبوت: ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ [العنكبوت: ١٧].

ابتغوا يعني اطلبوا الرزق من الله -تبارك وتعالى- وصدق الله في قوله ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢]، ﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٨] -سبحانه وتعالى- ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ تأملوا سياق الآيات لنستمتع ببلاغة القرآن الكريم وأدب الأنبياء والمرسلين حينما يوجهون الخطاب لرب العالمين -سبحانه- أو أن يكون الأمر متعلقًا بجناب ذي الجلال والإكرام.

قال إبراهيم ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾، تستفيد من مرضت أنه أسند المرض إلى نفسه ولم يسنده إلى الله من باب الأدب فاعل المرض من؟ هو رب العالمين -سبحانه وتعالى- الذي يمرض العباد، والذي يشفي العباد كل ذلك بقدر، ولكن من باب الأدب لا يضاف ذلك إلى رب العالمين -سبحانه- وحتى هذا الأدب عرفه وتعلمه مسلمو الجن، المسلمون من الجن الذين اسلموا على يد النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- تعلموا هذا الأدب الراقي فلم يسندوا الشر إلى رب العالمين -سبحانه- رغم أنه لا يقع شيء في الكون إلا والله خالقه، قال رب العالمين عن الجن أنهم قالوا ﴿ وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن: ١٠].

جاءوا بالفعل المبني للمجهول حتى لا يسندوا الشر إلى رب العالمين -سبحانه- ﴿ وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ ﴾ ما قالوا أراد رب العالمين، ولكن أريد وهذا من باب الأدب في جناب رب العالمين -سبحانه وتعالى- وهذا ما فعله إبراهيم ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾، المرض بقدر الله -تبارك وتعالى- ورب العالمين -سبحانه وتعالى- هو الذي يشفي العباد والذهاب إلى الأطباء وغير ذلك ما هو إلا وسائل وأسباب مشروعة، إن كانت سليمة، أما الذي يشفي على الحقيقة فهو رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

ثم جاءت الصفة الرابعة ﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾، نحن نلمس بلاغة القرآن الكريم، في هذه الآية ما جاء بضمير الفصل، الذي يدل على التأكيد، يعني أدخله في الآية السابقة: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾، لماذا؟ لأن الإنسان قد يظن بأن هناك أسباب يباشرها الإنسان في الشفاء أنها هي التي تشفيه، فيأتي التأكيد إنما الموت والإحياء ما ادعاه أحد لنفسه إلا مجنون، ولا يمكن لأحد أن يدعي أنه يميت أو أنه يحيي، فرب العالمين -سبحانه وتعالى- هو الذي يحيي ويميت، والموت والإحياء أمارة كبيرة جدًا على أن الله -عز وجل- هو الخالق الرازق الرب المالك المتصرف الذي يفعل ما يشاء؛ ولذلك في سورة البقرة رب العالمين يخاطب المشركين ويستدل على وجوب عبادة الله وحده والرجوع إليه وحده وإتباع النبي -صلى الله عليه وسلم- بأن الله -سبحانه وتعالى- هو الذي يحييه وهو الذي يميته.

يتعجب من كفرهم بعد أن أحياهم ربهم ويميتهم ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨]، فما ينبغي للإنسان بعد اتصاف ربه بهذه الصفات أن يذهب إلى غير الله -تبارك وتعالى- وتأتي الصفة الخامسة ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَّغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أطمع: يعني أرجو، فالطمع رجاء، وهذا أيضًا من أدب إبراهيم -عليه السلام- وتواضعه لربه -سبحانه- وهل لإبراهيم خطيئة؟ حتى يقول ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَّغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾؟ وقد أجمع أهل السنة والجماعة على أن الأنبياء منزهون عن الكبائر، ولكن يمكن أن تقع منهم الصغائر ولا يصرون عليها يتوبون منها والله -سبحانه وتعالى- يتوب عليهم وقيل في إبراهيم -عليه السلام- أنه ذكر كلمات اعتذر بها لربه ومولاه لما قال لقومه عندما كسر الأصنام ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، اعتبر هذا ألزام من إبراهيم -عليه السلام- لهؤلاء، ولكن اعتبر ذلك إبراهيم تورعًا منه صلوات الله وسلامه عليه ذنبًا فيستغفر ربه -سبحانه وتعالى- من ذلك.

لماذا قال ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَّغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾، ما قال خطيئتي وفقط أو في الدنيا مثلًا قال لماذا خص يوم الدين؟ قال أهل العلم؛ لأن المغفرة يظهر أثرها في يوم الدين عندما يدخل رب العالمين العبد جنته ويغفر له ما سلف من ذنبه إن كان.

بعد هذه الدعوات المباركات وهذا الثناء العطر من إبراهيم -عليه السلام- على ربه ومولاه توجه إبراهيم -عليه السلام- أيضًا لربه بخمس دعوات، وفي الحقيقية هذه الدعوات جاءت بعد ثنا ء إبراهيم -عليه السلام- على ربه؛ ولذلك ذكر أهل العلم بأن تقديم الثناء على الله -عز وجل- قبل الدعاء من المهمات، وكان هذا دأب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أما دعوات الخمس التي دعاها إبراهيم -عليه السلام- ربه فهي الواردة في قول الله جل ذكره:

الدعوة الأولى: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ حكمًا يعني علمًا وألحقني بالصالحين يعني بعبادك الصالحين، وهذا يدل على أن إبراهيم -عليه السلام- لا يريد جاهًا ولا مالًا ولا دنيا وإنما يريد ما يقربه إلى ربه ومولاه وأن يكن من عباد الله الصالحين، وقد أعطاه ربه -سبحانه وتعالى- ذلك وذكر ربنا لنا هذا في القرآن ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النحل: ١٢٢].

الدعوة الثانية: ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴾ هذا من إبراهيم -عليه السلام- في الحقيقة طموح إن صح التعبير يريد أن يكون له ثناء، وذكر حسن فيمن يأتي بعده وفي هذا فائدة، ليس إبراهيم -عليه السلام- يريد من ذلك يعني مكانة عند الناس، وإنما يريد أن تستمر دعوة التوحيد بعده صلوات الله وسلامه عليه؛ لأن ذكر إبراهيم هو ذكر للتوحيد الذي كان عليه إبراهيم -عليه السلام-؛ ولذلك طلب من ربه ومولاه يذكر ذكرًا جميلًا وأن يثنى عليه ثناء حسنًا فيمن يأتي بعده والمقصود بقوله ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴾، يعني في الدنيا ممن يأتي بعدي ويخلفني.

الدعوة الثالثة: بعدما دعا ربه بالذكر الحسن والثناء الجميل في الدنيا طلب الآخرة قال: ﴿ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾، طلب أيضًا جنة النعيم والفضل من رب العالمين -سبحانه وتعالى- وهذا دأب الأنبياء والصالحين نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- كان من دعائه: اللهم أحينا مسلمين وأمتنا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مبدلين -صلوات الله وسلامه عليه-، ولما جاد بنفسه -صلى الله عليه وسلم- وهو في سكرات الموت قال: اللهم الرفيق الأعلى، وهكذا يدعو إبراهيم -صلوات الله وسلامه عليه- يدعو ربه أن يجعله من ورثة جنة النعيم.

الدعوة الرابعة: يقول ﴿ وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ هذه هي الدعوة الثالثة، وإبراهيم -عليه السلام- كان يطمع في أن يؤمن أبوه، ولكنه لم يؤمن، وظل على كفره، وإبراهيم -عليه السلام- هنا دعا بالمغفرة لأبيه، ولكن هذه الدعوة كانت مقيدة، وذكر القرآن الكريم ذلك، وأنا أقول هذا حتى نوجز عاقبة البراء من المشركين يأتي أحد ويقول: والله إبراهيم دعا لأبيه وهو كافر لا؟ ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [التوبة: ١١٤].

الدعوة الخامسة والأخيرة: ﴿ وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾، وهذه أيضًا يعني دعوة من إبراهيم -عليه السلام- لتكون له مكانة عن الله -عز وجل- وقد جاء في البخاري ومسلم أن إبراهيم لقي أباه وعليه غبرة وقترة ودعا ربه بأن لا يخزيه في أبيه والله أخبره بأنه قد حرم الجنة على الكافرين وأود أن آتي إلى ختام هذا اللقاء بذكر هاتين الآيتين ﴿ وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ حقيقة لا تحتاج هذه إلى كلمات وإنما تحتاج إلى عمل إلى أن يكون قبل العبد سليمًا، قيل سليمًا بالتوحيد وترك الشرك، وقيل سليمًا بالسير على السنة وترك البدعة، وعلى كل فإبراهيم -عليه السلام- كان من أصحاب القلوب السليمة، وأثنى عليه ربه بذلك فقال: ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ٨٤] نسأل الله -عز وجل- أن يسلم قلوبنا من الشك والشرك والرياء والنفاق وأن يجعلنا من أصحاب القلوب السليمة كإبراهيم ونبينا -صلى الله عليه وآله وسلم-.

بالنسبة لأسئلة الحلقة الماضية كان السؤال الأول: كيف توجه طلب موسى من السحرة إبراز ما عندهم من السحر والسحر كفر؟

وكانت الإجابة: لأن قصد موسى -عليه السلام- بذلك قصد حسن يستوجبه المقام؛ لأن إلقاءهم قبله يستلزم إبراز ما معهم من مكائد السحر واستنفاد أقصى طرقهم ومجهودهم، فإذا فعلوا ذلك كان في إلقائه عصاه بعد ذلك اقتلاعها لجميع ما ألقوا به من إظهار الحق وإبطال الباطل ما لا جدال بعده في الحق لأدنى عاقل

إجابة طيبة وأضيف إليها فقط أن الحق لا يظهر إلا بهذا الطريق في مثل هذا الموقف.

والسؤال الثاني: اذكر حكم تعلم السحر وما حكم حل السحر على المسحور؟

وكانت الإجابة: حكم تعلم السحر الجمهور على أن تعلمه كفر، والعمل به كفر، والدليل على قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وحكم حل السحر عن المسحور أو النشرة قال النبي -صلى الله عليه وسلم- حينما سئل عن النشرة هي من عمل الشيطان، وهذا في المسند من حديث جابر والمقصود في هذا الحديث النشرة المعهودة عند أهل الجاهلية وهي بالتقرب للجن والشياطين وحل السحر بسحر مثله كفر، والجائز حل السحر بالقرية المأثورة والقرآن الكريم.

جواب صحيح سديد.

هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه المحاضرة؟.

السؤال الأول: لما ضرب موسى -عليه السلام- البحر ظهرت عدة معجزات اذكر ثلاثة منها.

والسؤال الثاني: استغفر إبراهيم -عليه السلام- لأبيه وهو كافر فكيف توجه هذا الاستغفار مع ذكر الدليل؟

والحمد لله.

الدرس الحادي عشر

تابع تفسير سورة الشعراء (٩٠- ١٢٢)

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه وبعد.

الإخوة والأخوات طلبة هذه الأكاديمية العلمية المباركة سلام الله عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، ويسرنا -إن شاء الله تبارك وتعالى- أن نبدأ درسنا - إن شاء الله- جل ذكره، وذلك بشرح آيات من سورة الشعراء، وهذه الآيات تدور حول المحاور التالية:

المحور الأول: ذكر ما يكون في يوم الدين من نعيم للمؤمنين وعذاب للكافرين.

المحور الثاني: أهل النار فيها يختصمون.

المحور الثالث: مع نوح -عليه السلام- في دعوة قومه إلى الله تعالى، ومعنا آيات نسمعها من أخينا الفاضل عبد الرحمن فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٩٠ - ١٢٢].

أحسنت وجزاك الله خيرًا.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء وسيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين وبعد.

المحور الأول: في الآيات التي استمعنا إليها الآن بعنوان: ذكر ما يكون في يوم الدين من نعيم للمؤمنين وعذاب للكافرين وتحتوي هذه الآيات: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ في مطلع هذه الآيات يعجل ربنا -سبحانه وتعالى- البشرى للمؤمنين وذلك بجنات النعيم فما يبين مصير أيضًا الكافرين الذين كذبوا بالأنبياء والمرسلين والآيات في سياق الحديث عن نبي الله إبراهيم -عليه السلام- وقومه قد سبق قد كذبوا بدعوته وبرسالته -صلوات الله وسلامه عليه- فالله -عز وجل- يبين مصير هؤلاء وهؤلاء، من آمن بالأنبياء ومن كذب بهؤلاء،

ويخبر أن الجنة أصبحت قريبة معدة للذين آمنوا وصدقوا المرسلين، وأن النار أيضًا ستسيء أعداء الدين، فيقول سبحانه: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وقد قال ربنا عز وجل في سورة "ق": ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ [ق : ٣٢]. وكما ذكر أيضًا ذلك عن المؤمنين ذكر أيضًا عن الكافرين أن النار تسوؤهم هنا قال سبحانه: ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ يعني ظهرت وأصبحت مكشوفة ظاهرة بارزة، إنهم يرونها، ويقول أيضًا في آية أخرى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الملك: ٢٧]، وتسوء وجوههم، حينما يرون نار الجحيم – أعاذنا الله وإياكم من هؤلاء– ثم بعد ذلك يأتي سؤال لهؤلاء ليس بمعنى الاستفهام على حقيقته، فالله –عز وجل– يعلم السر وأخفى، والأنبياء والمرسلين يعلمون أن ما دعي من دون الله –تبارك وتعالى– لا يملك لداعيه شيئًا، ومع ذلك يأتي الكلام بصيغة الاستفهام من باب التقريع والتوبيخ والتبكيت فيقال لهؤلاء المكذبين: ﴿ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أين الذين سألتموهم وطلبتم منهم ورجوتم أن ينفعوكم أو أن يدفعوا عنكم شرًا، هذه نار جهنم قد ظهرت وبرزت، وانكشفت أمامكم فأين الذين كنتم تتعلقون بهم وتودون وتزعمون أنهم ينصرونكم من دون الله أو يدافعون عنكم إذا أتى عليكم مكروه، لا يستطيعون أن يجيبوا، وأنى لهم من جواب على هذا السؤال ﴿ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ هل هذه الآلهة يمكن أن تنصركم أو أن تنتصر هي نفسها؟ لا هذا ولا ذاك، وكما قال رب العالمين في سورة الأعراف ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٢]، لا يستطيعون أن ينصروا غيرهم ولا يتمكنوا – أعني من عبد من دون الله –تبارك وتعالى– أن ينصر نفسه هو– وكانت النتيجة –نتيجة التكذيب بالأنبياء والمرسلين وعبادة غير الله رب العالمين– أن يدخل هؤلاء نار الجحيم؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ كبكبوا جاء عن مجاهد –رحمه الله تعالى– أن معناها دوروا فيها، وقيل كببوا فيها، ولعلكم تلاحظون أن الكاف هنا مكررة، كبكبوا الكاف والباء، وهذا التكرير في اللفظ يفيد التكرير في المعنى، فكأن المعنى أنه ينكب في نار جهنم مرة بعد أخرى، وقد رجح ابن قتيبة –رحمه الله تعالى– أن معنى كبكبوا يعني أُلقوا على رءوسهم، كبكبوا فيها هم ومن صار على دربهم، ومن كان من أهل الغواية والضلالة، ومعهم من؟ قال رب العالمين: ﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ وبالتالي لنا أن نتساءل: هل العابد والمعبود كلاهما سيدخل نار الجحيم؟

الجواب قد أخبر رب العالمين –سبحانه وتعالى– بذلك، وورد أيضًا استثناء مهم يجب أن نذكره، قال الله –عز وجل– موجهًا الخطاب للمشركين: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وهذا يؤكد ويوضح ويكشف معنى قول الله –تبارك وتعالى–: ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ هذا الآية لما نزلت ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ قال بعض المشركين لبعض: بأن عيسى –عليه السلام– بناء على ذلك سيكون في الجحيم، والنبي –عليه الصلاة والسلام– يزعم أن عيسى –صلوات الله وسلامه عليه– أحد الأنبياء والمرسلين، فكيف يكون النبي الرسول في نار الجحيم؟ فنزل قول رب العالمين سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١– ١٠٣] بل إن الآيات ساقت لهم من النعيم ما ساقت؛ لتدفع شبهة هؤلاء المشركين المكذبين الزاعمين بأن الأنبياء والمرسلين إن وقع من غيرهم عبادة لهم أنهم سيكونون معهم في الجحيم، حاشا وكلا، وبالتالي أقول: كل من عبد من دون الله –عز وجل– ولا يرضى بأن يعبد من دون الله لا يغال بشيء أبدًا أمام رب العالمين ولا يناله شيء من السوء عندما يشرك به أحد المشركين؛ لأنه لا يرضى بذلك، فلو أن قومًا عبدوا نبينا –صلى الله عليه وآله وسلم– أو عيسى ابن مريم كما عبد من طائفة اليوم أو غير ذلك أو عبد بعض الناس أحدًا من الملائكة أو الأولياء أو الصالحين هل نقول أن هؤلاء تشملهم الآية: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾؟ أو أنهم يدخلون فيها تحت قوله: ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾؟ حاشا وكلا؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾

المحور الثاني في هذا اللقاء بعنوان: أهل النار فيها يختصمون وتحته قول رب العالمين ﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾، هذه الآيات يبين ربنا – سبحانه وتعالى– فيها أن العابد سيخاصم المعبود في يوم الدين، وتقع بينهم خصومة، لماذا؛ لأنهم وقعوا في ضلال مبين، قالوا والله: ﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾، يقولون لمن عبدوهم من دون الله –عز وجل– ويعترفون على أنفسهم ويشهدون ويقرون أنهم كانوا في ضلال مبين وذلك حينما سووا بين الخالق والمخلوق، وما كان لعاقل أن يسوي بين من فطر السموات والأرض وهو على كل شيء قدير، وبين المخلوق العاجز الضعيف، هذه الآيات عمومًا تفيد أن هناك سيقع في يوم القيامة خصومة هؤلاء العابدين وبين المعبودين، وقد جاءت آيات في القرآن الكريم بشيء من التفصيل وخاصة –انتبهوا لهذه المسألة– أن المخاصمة والخصام سيقع بين الضعفاء والمستكبرين؛ لنأخذ عبرة؛ ولنقول للضعفاء لا تلهث وراء المتكبرين، فلا يغتر الإنسان بحال قوم وصلوا في الدنيا إلى مناصب عالية أو رفيعة، ثم هم بعد ذلك عن الله –تبارك وتعالى– بعيدون لا يغرنا هذا الأمر، والضعفاء الذين ينظرون إلى المستكبرين ويتبعونهم ستحدث بينهم خصومة في يوم الدين ويذكر رب العالمين –سبحانه وتعالى– في كتابه ما سيجري بين الضعفاء وبين المستكبرين، ومن ذلك قول رب العالمين –سبحانه وتعالى– في كتابه: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ: ٣١] الضعفاء يقولون للمستكبرين لولا أنتم لآمنا بالله –عز وجل– لأنهم سيقولون كما في سورة الأحزاب ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب: ٦٧] لما يقول المستضعفون للمستكبرين يرد المستكبرون عليهم ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ﴾ [سبأ: ٣٢]، هل نحن منعنا عنكم الهداية التي أتتكم من الأنبياء والمرسلين أنتم: ﴿ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴾ [سبأ: ٣٢]، فيقول المستضعفون لهم: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ﴾ [سبأ: ٣٣] وتأمل الجزء الأخير من الآيات: ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ [سبأ: ٣٣] وهذا يفيد أي حسرة تقطع قلوب هؤلاء المشركين المكذبين الذين عبدوا غير رب العالمين –سبحانه وتعالى– وسورة "ص" يصرح أيضًا رب العالمين فيها أن أهل النار سيتخاصمون يقول سبحانه: ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ [ص: ٦٤]، وقبلها: ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ [ص: ٥٩– ٦٠].

وفوق كل ذلك يا أهل الإيمان أهل النار في جهنم يلعن بعضهم بعضًا بنص كتاب الله –تبارك وتعالى– أن تقع بينهم خصومة وقع بينهم عداء، يعني أنما يجري بينهم حتى وهم في طبقات الجحيم لاشك أنه سيكون أمر عظيم، واللعن يقع من كل واحد للآخر، كما قال الله –عز وجل–: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف: ٣٨]، كلما دخلت أمة من هؤلاء المكذبين المشركين إلى النار لعنت أختها، وهذا يدل على الخصومة التي ستقع بينهم، وفي المقابل إذا تخاصم أهل النار ماذا يكون عليه أهل الإيمان بينهم من المودة ومن القرب ومن الصفاء ومن المحبة ومن التلذذ بالنعيم على سرر المتقابلين كما أخبر بذلك رب العالمين، وفي هذا يقول الله –عز وجل– ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧]، ما استثنى رب العالمين –سبحانه وتعالى– إلا من آمن به واتقاه، ثم بعد ذلك يستمر السياق فيخبر ربنا –عز وجل– عن أهل الجحيم أنهم يقولون ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ هذا اعتراف من المشركين المكذبين الذين لجئوا إلى غير الله –عز وجل– وأن المجرمين كانوا هم السبب الحقيقي في ضلالهم، ولكن هل ينتفع من هذا الاعتراف والإقرار؟ هل هذا الندم وهو قولهم: "وما أضلنا إلى المجرمون" هل هذا يفيدهم في تخفيف عنهم العذاب عنهم؟ يقولون هذا القول ثم بعد ذلك يتلفتون هنا وهناك ويتمنون أماني ذكرتها الآيات ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ يعين أن كل من كان حولهم من أصحابهم وأحبابهم ومن كان على نهجهم ومسلكهم، كل واحد منهم أصبح في واد آخر بعيد عن الآخر لا ينفعهم ولا يدافع عنهم ولا يمكن أن يشفع فيه، ويقول المجرمون هذا القول عندما يرون شفاعة رب العالمين وملائكة الرحمن والأنبياء والمرسلين

وأهل الإيمان في إخوانهم المؤمنين، وهذه كلها شفاعات ثابتة بنص القرآن الكريم وسنة نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- ولذلك أود أن أتعرض لمسألة يسيرة يشوش بعض الناس من أصحاب المذاهب الفاسدة بها على أهل التوحيد من خلال هذه الآية، المعتزلة ينكرون الشفاعة في أهل الكبائر ويقولون بأن الله نفى الشفاعة في القرآن الكريم عن الظالمين فقال: ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴾، وفي آية أخرى ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [المدثر: ٤٨]، وهذا في الظالمين، ويعتبرون بذلك أن الظلم يدخل فيه أي كبيرة يفعلها الإنسان، ونحن نقول الظلم عند الإطلاق لا يشمل إلا أكبر الظلم وأعلاه ألا وهو الشرك بالله -تبارك وتعالى- وبالتالي فالشفاعة في أهل الكبائر ثابتة في سنة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وهذه الآيات لا تتعارض يعني ما جاء فيها من نفي للشفاعة لا يتعارض مع الآيات المثبتة لها، فالشفاعة المنفية هي عن الكافرين والمشركين أو شفاعة الآلهة التي عبدت من دون الله -عز وجل- فيمن عبدوهم؛ لأن هذه الآلهة الباطلة لا تملك أن تشفع، ولا تملك شيئًا من الشفاعة، هذه الشفاعة المنفية، أما الشفاعة المثبتة هي الشافعة في أهل الإيمان، والله -عز وجل- يقول: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فأثبت الشفاعة ولكنها لا تكون إلا بإذن رب العالمين سبحانه، ولا تكون إلا بعد رضاه كما قال أيضًا في آية أخرى: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، والله -عز وجل- لا يرضى عن المشركين ولا عن الكافرين؛ ولذلك نقول من شروط الشفاعة المهمة: أن يموت العبد على التوحيد الخالص لرب العالمين -سبحانه وتعالى- وذلك في الحديث الصحيح المتفق عليه من رواية أبي هريرة -رضي الله عنه- (لما سأل النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ النبي -عليه الصلاة والسلام- أجابه بعد مقدمة لطيفة لأبي هريرة -رضي الله عنه- تبين حرصه على الحديث والشاهد من كلام النبي -عليه الصلاة والسلام- أنه قال أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه، وفي رواية: من قال لا إله إلا الله صدقًا من قلبه).

فهذه شفاعة ثابتة ولكن لأهل التوحيد، أما الشفاعة المنفية هنا فهي للشرك والمشركين، فهم يقومون الشفاعة ولكن من يشفع فيهم؟ وقد أشركوا برب العالمين ويعترفون بحقيقة مهمة أيضًا في يوم الدين، أنه ليس لهم صديق يدافع عنهم ولا يقف إلى جوارهم بخلاف من؟ بخلاف أهل الإيمان، فأهل الإيمان يشفع بعضهم في بعض، وقد جاءت روايات كثيرة في صحيح الإمام مسلم في كتاب الإيمان تبين ذلك والوقت يضيق عن سرد بعض هذه الروايات﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾.

ثم تخبر الآيات بعد ذلك أن هؤلاء المشركين تمنوا أمرين:

الأمر الأول: الرجعة إلى الدار الدنيا.

والأمر الثاني: وعد منهم بعمل الصالحات.

يقولون ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ هذه الآية اشتملت على هذين الأمرين: الأمر الأول: ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾، وهذا أمر سيطلبه المشركون في يوم الدين، وكلمة "لو" هنا بمعنى: "ليت للتمني" يعني يتمنون الرجعة، ورب العالمين في سورة الأعراف يقول: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣]، فيطلبون الرجعة إلى الدار الدنيا بعد ذلك؛ للأمر الثاني ألا وهو العمل الصالح؛ لأنهم قالوا في هذه الآية فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين والأعمال الصالحة من الإيمان والله -عز وجل- قد كذبهم في طلبهم هذا.

الأمر الأول: قضى الله -عز وجل- بأن من خرج من هذه الحياة الدنيا أنه يعود ولا يعود؟ أنه لا يعود.

الأمر الثاني: أنهم لما طلبوا الرجعة وعدوا بعمل الصالحات مع الإيمان كذبهم رب العالمين فيه فقال في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾

بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧- ٢٨]؛ ولذلك نحن نقول: إن الله -عز وجل- يعلم ما كان ويعلم ما سيكون؛ ودليلنا على ذلك من عند الله المحيط الذي نسلم به وأيضًا هذه الآية تعد نصًا في ذلك، فلو سألك إنسان ما الدليل على أن الله -عز وجل- يعلم ما سيأتي بعد؟ والآيات الواردة مثلًا في القرآن الكريم تدل على العلم بإطلاق، ونحن نقول بأنه يعمل ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون نستدل على ما لم يكن لو كان كيف يكون بهذه الآية ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾.

ثم يقول رب العالمين سبحانه بعد ذلك﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾، إن في ذلك لآية يعني لعلامة على صدق النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في دعوته الناس إلى الله -عز وجل- وعلى صدق وعد الله -عز وجل- في أن الجنة لأهل الإيمان وأن النار لمن؟ للمكذبين الكافرين، وفيها آية وعلامة على نهاية الظالمين ومأوى المؤمنين في الجنة ونعم المآل ونعم المصير.

ثم يقول سبحانه مثنيًا على نفسه مادحًا لها ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾، وفي هذا أيضًا تسلية للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كأن الآية تقول: بأنه -عز وجل- قادر على تعجيل الانتقام للكافرين، لكنه يمهل عقوبتهم؛ لأنه -سبحانه وتعالى- أيضًا رحيم، "فعزيز" تفيد على أنه قادر على تعجيل الانتقام، ولكن "رحيم" تفيد إمهال رب العالمين -سبحانه وتعالى- لهؤلاء المكذبين الظالمين.

المحور الثالث في هذا اللقاء: مع نوح -عليه السلام- في دعوة قومه إلى الله تعالى وتحته قول الله جل ذكره: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ لما قص الله -عز وجل- قصة موسى وإبراهيم عليهما السلام أتى بعد ذلك بذكر قصة نوح -عليه السلام- وذكر قصة نوح -عليه السلام- فيها تسلية للنبي -عليه الصلاة والسلام- لماذا؟

لأن قصة نوح عجيبة مكث بين ظهراني قومه يدعوهم إلى الله -عز وجل- ألف سنة إلا خمسين عامًا، عمر مديد، أعوامًا متعددة، بل مئات من الأعوام والسنين، ومع ذلك أخبر رب العالمين أنه ما آمن معه إلا قليل، فعندما يذكر الله -عز وجل- هذه للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- تكون في هذا تسلية للنبي -عليه الصلاة والسلام- عندما يكذبه قومه ويردون دعوته، ونوح -عليه السلام- هو أول رسول أرسل على ظهر هذه الأرض، آدم كان نبيًا، أما أول رسول أرسل على ظهر الأرض هو نوح -عليه السلام- والدليل على ذلك أيضًا حديث الصحيحين في البخاري ومسلم وغيرهما من رواية أبي هريرة -رضي الله عنه- أن أهل الموقف عندما يذهبون إلى نوح يطلبون منه الشفاعة يقولون: أنت أول رسول أرسلك الله إلى أهل الأرض، وأول رسول أيضًا؛ لأنه كان بين أدم ونوح عشرة قرون كلها على التوحيد فلما وقع الشرك في البشرية أرسل الله -تبارك وتعالى- نوحًا -عليه السلام- يدعو الناس إلى الله -تبارك وتعالى- ويدعوهم إلى عبادة الله -عز وجل- وحده بعد أن دب فيهم الشرك.

رب العالمين هنا يقول: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ سبق أن قلت لكم في سورة الفرقان عند مجيء سياقي لهذه الآيات أن قول الله -عز وجل- قوم نوح المرسلين، وما كذبوا إلا نوحًا فقط؟ لماذا؛ لأنهم لما كذبوا بنوح -عليه السلام- يكون قد كذبوا بكل الرسل؛ لأن دعوة جميع الأنبياء والمرسلين دعوة واحدة، فالتكذيب بنبي هو في الحقيقة تكذيب لجميع الأنبياء والمرسلين؛ ولذلك نحن نقول للذين يزعمون أنهم مؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون بنبينا -صلى الله عليه وسلم-: كذبتم؛ لأنكم لو آمنتم حقاً بأنبيائكم لصدقتموهم في متابعة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-؛ ولأن جميع الأنبياء والمرسلين السابقين أخذ الله العهد عليهم أن يؤمنوا بالنبي الأمين -صلى الله عليه وآله وسلم- فعلى أتباعهم إذن على أن يحاكوهم في مثل ذلك، وبالتالي فمن كذب بني من الأنبياء يكون قد كذب بجميع الأنبياء والمرسلين، ونحن نحمد رب العالمين يا أهل الإيمان بإيماننا بجميع الأنبياء والمرسلين،

ونحن في إيماننا بهم لا نفرق بين أحد منهم، ومع هذا نقتدي ونهتدي ونتبع نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- نتبع نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- قال الله تعالى ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾، أيضًا بعض الناس عنده إشكال في هذه الآية كيف يكون نوح أخ لهؤلاء وهم كفرة مكذبون؟ والأخوة تقتضي الموالاة والنصرة؟ وليس هناك موالاة ومودة ونصرة بين مؤمن ومشرك أو كافر؟

نقول قال الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾؛ لأنه لما كان نوح -عليه السلام- واحدًا منهم قال الله -تبارك وتعالى- ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴾، والعرب يقولون: يا أخا بني تميم، يريدون الواحد من بني تميم، نلاحظ أيضًا أن نوح -عليه السلام- فعل في دعوته إلى الله -عز وجل- في هذا الآيات فعل أمرين عظيمين لقومه:

أولًا: خوفهم بالله -تبارك وتعالى- ونفهم هذا التخويف من قوله ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ يعني ألا تخافون من الله -تبارك وتعالى- فتدخلوا في دعوتي وتستجيبوا لرسالتي وتتركون الشرك الذي أنتم عليه وتعبدون الله عليه وحده دون سواه.

ثم يقول لهم الأمر الثاني: ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ يعني صادق في دعوتي إليكم، إلى الله -تبارك وتعالى- ويكرر عليهم الأمر بالتقوى، وأن يدخلوا في طاعته، ويتابعوه على رسالته، فيقول: "فاتقوا الله وأطيعوه" وهذه كلمات من طيبة من نوح -عليه السلام- وقد جاء في كتب بعض التفسير أنه كان أيضًا مشهورًا بالأمانة صلوات الله وسلام عليه، فإذن حينما قال لقومه: ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾، يذكرهم بوصف قد اشتهر بينهم فيه، كما كان النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يشتهر بين قومه بالصدق والأمانة وسائر الخصال الحميدة، صلوات الله وسلامه عليه، وقال لهم نوح -عليه السلام- كما في سورة الأعراف: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٢].

ثم ذكر لهم نوح أيضًا -عليه السلام- أنه لا يسألهم أجرًا على دعوته ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾، فالأنبياء والمرسلون لا يطلبون من الناس أجرًا مقابل دعوتهم إلى الله -تبارك وتعالى- بل وينشرون الخير ويقدمونه للناس ولا ينتظرون منهم جزاء ولا شكورًا، إنما أجرهم على رب العالمين -سبحانه وتعالى- كل الأنبياء والمرسلين كانوا دعاة إلى الله -عز وجل- ولا يأخذون أجرًا من أقوامهم ولا ينتظرون منهم أدنى شيء يقدمونه لهم، والنبي -عليه الصلاة والسلام- كان يقدم المثل الأعلى والنموذج الرفيع في ذلك -صلوات الله وسلامه عليه- فقد قال لقومه كما ذكر الله عنه في سورة ص: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص: ٨٦].

ولذلك يعجب رب العالمين من قوم لم يؤمنوا بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وهو يدعوهم إلى الله -عز وجل- ويبذل لهم الخير مجانًا؛ ولذلك يقول الله في سورة الطور ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾؟ [الطور: ٤٠] يعني هل أنت تطلب منهم مالًا وهذا المال يثقل عليهم دفعه وبالتالي إن صرفوا على دعوته ولم يكن نبينا -صلوات الله وسلامه عليه- يفعل شيئًا من ذلك وفيه هنا توجيه لأهل العلم أن يبذلوا العلم للناس ولا ينتظرون منهم شيئًا، وإنما يقدمونه لوجه الله الكريم جل فيه علاه، وهنا سؤال في هذه الآية: لماذا كرر الله -عز وجل- الأمر بالتقوى مرتين على لسان نوح عليه السلام؟

قال لقومه أولًا: ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾، ثم بعد هذا قال: ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾؟

نقول في الجواب على ذلك: أن كلمة التقوى حقاً كررت مرتين؛ ولكنها في سياقين مختلفين، وبالتالي لا يعد تكرارًا لا فائدة من ورائه.

الأمر الأول: جاء الأمر بالتقوى من نوح -عليه السلام- تذكيرًا لهم بعد أن أخبرهم أنـــه رســـول مـــن رب العالمين سبحانه، وأنه جاء لينذرهم عقوبة الدار الآخرة إذا لم يؤمنوا ويتابعوا نوحًا -عليه السلام- فهو يـــأمرهم بالتقوى؛ ليخوفهم من عذاب الله -عز وجل- هذا في الأمر الأول.

جاء الأمر بالتقوى ثانية بعد ما أخبرهم أنه لا يسألهم أجرًا فهو لما أنذرهم أمرهم بالتقوى ولما أخبرهم أنه لا يسألهم على دعوته أجرًا أيضًا أمرهم بعد ذلك بالتقوى فالمعنى في كلا الحالتين إذن مختلف.

قوم نوح ردوا على نوح دعوته، وأخباره لهم أنه لا يريد شيئًا على دعوته ردوا عليه بهذه الكلمـــات فقـــالوا: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّـــي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

وما إن دعا نوح -عليه السلام- قومه كما ذكرت إلى الله أجابوه بهذه الكلمات ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْـــأَرْذَلُونَ ﴾!! يعني الضعفاء أسافل القوم الذين لا وزن لهم ولا مكانة؟ أين المكانة الاجتماعية؟ أين المكانة الماليـــة؟ أيـــن التقدم العلمي والتقني عند هؤلاء؟ الذين يزعمون الإيمان؟ هذا منطق الكافرين، قياسهم فاسد، ونظرتهم وضيعة، قالوا أنؤمن لك، هل تود أن نسير ونحن وضعفاء الناس على سواء: ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ وهذه دعوة في الحقيقة قالها المشركون للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- والإسلام وكل نبي ورسول لا يفرق بين أتباعـــه بين غني وفقير ولا شريف أو وضيع؛ لأنه يدعو جميع الناس إلى الله -تبارك وتعالى- والتفاضل بين النـــاس لا يكون بالشرف والوجاهة أو المال والمكانة، وإنما يكون بأي شيء يكون بتقوى رب العـــالمين، قـــال الله -عـــز وجل- ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

المشركون طلبوا من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- هذا الأمر الذي ذكره قوم نوح جاءوا إليه وقالوا لـــه اجعل لنا يومًا، وللضعفاء أو الفقراء يومًا، يعني قالوا كيف نجلس مع بلال وصهيب وغير هؤلاء، وهم يعتبرون أنهم من كبراء الناس ومن سادات الناس، فلا يليق بهم أن يجلسوا مع الضعفاء، ولا مع الفقراء، منطق الكافرين واحد، قوم نوح يقولون: ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾؟ وأيضًا جاء المشركون إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وأبت نفوسهم أن يجلسوا مع ضعفاء أهل الإيمان، اجعل لنا يومًا ولهؤلاء يومًا، وسيأتي بيان أن الله -عز وجل- نهى النبي -عليه الصلاة والسلام- أن يطرد أهل الإيمان ويقبل على هؤلاء المجـــرمين، ولكنـــي أود أن أذكر الذين يتبعون الأنبياء والمرسلين، وخاصة في بداية أمرهم هم الضعفاء من الناس، القلة من الناس؛ ولـــذلك هرقل يعلم ذلك من خلال دعوة الأنبياء والمرسلين هرقل سأل أبو سفيان هل ضعفاء الناس يتبعون النبي -صلى الله عليه وسلم- أم كبرائهم فأخبره بأن ضعفاء الناس هم الذين يتبعون النبي -صلى الله عليه وآله وســـلم- لمـــا قالوا ذلك لنوح قال نوح -عليه السلام- لهم: ﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَـــى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾، أنا لست مسئولًا عن التنقيب عن قلوب هؤلاء الناس وعلى عن أفعالهم وإنما فقط أدعـــوهم فقط إلى الله -عز وجل- وعليهم أن يتبعوني ويخلصوا في إيمانهم لله، ثم بعد ذلك حسابهم على الله -عز وجل- ونفهم من سياق الآيات أن هؤلاء المستكبرين إذن الذين أبت نفوسهم أن يجلسوا مع ضعفاء المؤمنين طلبوا مـــن نوح -عليه السلام- أن يطرد هؤلاء المؤمنين الضعفاء، الآية ليس فيها ذكر ذلك ولكـــن الله بعـــدما قـــال ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ ذكر قول نوح -عليه السلام-: ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، نفى نـــوح -عليه السلام- هذا الأمر عن نفسه، ورد عليهم بأنه لا يمكن أن يفعل ذلك؛ لأنه جاء نذيرًا من عند رب العـــالمين -سبحانه وتعالى- يدعو الناس إلى الله، وفي سورة هود: ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِـــمْ وَلَكِنِّـــي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ [هود: ٢٩]، وكما طلب قوم نوح من نوح -عليه السلام- أن يطـــرد هـــؤلاء المـــؤمنين الضعفاء طلب أيضًا المستكبرون من قريش من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يطرد من آمن معه مـــن المستضعفين، والله -عز وجل- نهاه عن ذلك في قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيـــدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعـــام:

٥٢] بل إن رب العالمين سبحانه يأمر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يصبر على هؤلاء، يعني أنت لست بحاجة إلى وجاهة، ولا إلى كبراء القوم، ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، وأنا تعمدت أن أذكر هذه الآية؛ لأبين ماذا وصف الله -عز وجل- أو بأي شيء وصف الله -عز وجل- أهل الإيمان وبأي شيء وصف الله هؤلاء المستكبرين؟ قال في أهل الإيمان ويكفيهم هذا الأمر أنهم لجئوا إلى الله يريدون وجه الله -تبارك وتعالى- بخلاف هؤلاء المستكبرين الذين قال الله فيهم: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨].

ثم يستمر السياق بعد ذلك فيقول فيه رب العالمين: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، كما ذكرت ظل نوح يدعو قومه إلى الله -تبارك وتعالى- وهم أصروا على الكفر وطلبوا منه ما طلبوا، فلم يستجب نوح -عليه السلام- لطلبهم، ورد عليهم أفكهم وبهتانهم عندما طلبوا منه أن يطرد هؤلاء المؤمنين لما لم يفعل ولم يستجب لقولهم هددوه بالطرد والرجم ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾، وهذا في الحقيقة يعني من أقصى العقوبات التي يمكن أن يفعلها هؤلاء المكذبين مع نبي الله نوح -عليه السلام- والإنسان يعجب حقاً عندما يأتي نبي بهذه الصفات يبين للناس الحق ويدعوهم إلى الله -عز وجل- ولا يكلفهم مالًا ولا يطلب منهم شيئًا، ثم بعد ذلك يتوعدوه ويتهددوه وليس بوعيد سهل أو ميسور، وإنما وعيد شديد ألا وهو الرمي بالحجارة، عندئذ توجه نوح إلى ربه ومولاه وقال: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يلاحظ هنا أن نوح -عليه السلام- لجأ أولا إلى ربه ومولاه وطلب منه دعوتين:

الدعوة الأولى: أن يغرق أهله، وجماعته الذين كذبوا به.

الأمر الثاني: أن ينجيه ومن آمن معه قال: ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ﴾، الفتح هو الحكم، وهذا الحكم هو طلب من نوح -عليه السلام- أن يغرق قومه، وقد جاء تفصيل ذلك في سورة القمر هنا قال الله -عز وجل- ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ﴾ في سورة القمر ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [القمر: ١٠- ١٣]، هذا هو الطلب الأول أو الدعوة الأولى التي توجه بها نوح -عليه السلام- لربه.

الدعوة الثانية: أن ينجيه ربنا -سبحانه وتعالى- ومن آمن معه، ولقد استجاب الله دعاء نوح -عليه السلام- فأغرق من كذب به ولم يؤمن بالله ويوحده وأهلكهم ونجا نوحًا -عليه السلام- ومن آمن معه، واستجاب الله دعائه، وقد أخبر ربنا في كتابه فقال ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ [الصافات: ٧٥- ٧٦]، هذا تفضل من الله -عز وجل- على أهل الإيمان ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال الله -عز وجل- معقبًا على ذلك بالفاء مبينًا أنه -سبحانه وتعالى- على كل شيء قدير، وأنه يستجيب دعاء من دعاه بصدق ويقين، وقد كان نوح -عليه السلام- من هؤلاء؛ ولذلك قال رب العالمين سبحانه ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾، الفلك المشحون المملوء؛ لأن نوحًا -عليه السلام- خرج بقومه وأخذ من كل صنف أودعه الله -عز وجل- في الأرض زوجين، كما أمره رب العالمين -سبحانه وتعالى- وكان يصنع سفينة، ويضيق الوقت أن أبين مثل هذه الأمور، وهي مذكورة في كتاب الله -عز وجل- وركبها هو ومن آمن معه، والله -عز وجل- نجاه وهو في هذا الفلك، ومن كان معه فيها، كما قال الله في الفلك المشحون لكي تقر نوح -عليه السلام- من هؤلاء المكذبين.

تفيد الآيات أن الله -عز وجل- نجا نوحًا أولًا، ثم أغرق قومه بعد ذلك وهذا يفيد أن نوح شاهد قومه وهم يغرقون؛ لأن الله -تبارك وتعالى- يقول: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴾؛ لأن "ثم" تفيد الترتيب مع التراخي، وهذه في الحقيقة نهاية الظالمين، وتفضل رب العالمين على الأنبياء والمرسلين، ومن صار في ركابهم، والآية تفيد أن الأنبياء والمرسلين كانوا يلجئون إلى الله -تبارك وتعالى- ويطلبون منه ما يحتاجون إليه، فنوح -عليه السلام- ما قال بأنه أول رسول إلى أهل الأرض، وهو الذي يمكنه أن ينجي قومه، ولكنه توجه إلى رب العالمين -سبحانه وتعالى- ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾ [النجم: ١٠]، ثم يختم ربنا -عز وجل- هذه الآيات بقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾، وقد سبق أن بينت أن آية بمعنى علامة، وهذه تفيد أن الإنسان عليه أن يعتبر، وأن يتعظ من هذه المواقف وأن يعلم أن رب العالمين قوي قادر فهو العزيز الرحيم جل في علاه، وبهذا ينتهي درسنا في هذا اللقاء وصلى اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

في الحلقة الماضية كان السؤال الأول: لما ضرب موسى -عليه السلام- البحر ظهرت عدة معجزات اذكر ثلاثة منها؟

وكانت الإجابة: أولًا: انفلاق البحر، ثانيًا: أن جانبي البحر أصبحا كالطود العظيم أي الجبل العظيم، ثالثًا: الطريق الذي صار عليه موسى أصبح يابسًا. انتهت الإجابة

إجابة صحيحة.

والسؤال الثاني: استغفر إبراهيم لأبيه وهو كافر، كيف توجه هذا الاستغفار مع ذكر الدليل؟

وكانت الإجابة: كان إبراهيم يطمع في أن يؤمن أبوه، ولكنه لم يؤمن، وظل على كفره، ولكن هذه الدعوة مقيدة كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٤].

ما شاء الله جواب سديد.

هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه المحاضرة:

السؤال الأول: ما معنى "فكبكبوا"؟ وهل كل معبود من دون الله يلقى مع عابده في النار؟ وضح ذلك؟

والسؤال الثاني: اشرح قول الله تعالى ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

الدرس الثاني عشر

تابع تفسير سورة الشعراء (١٢٣- ١٩١)

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن اتبع هداه وبعد.

الإخوة والأخوات طلبة هذه الأكاديمية العلمية المباركة سلام الله عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ويسعدنا بفضل الله -تبارك وتعالى- أن يستمر معنا هذا اللقاء في تفسير آيات من كتاب الله -عز وجل- ومن سورة الشعراء وسيدور حديثي في محاور أربعة في هذا اللقاء:

المحور الأول: هود -عليه السلام- يدعو قومه إلى الله تعالى.

المحور الثاني: خبر القرآن عن نبي الله صالح -عليه السلام-.

المحور الثالث: لوط -عليه السلام- ينهى قومه عن ارتكاب الفواحش.

المحور الرابع: شعيب -عليه السلام- يدعو قومه إلى عبادة الله وإيفاء المكيال والميزان.

وهذه المحاور سنستمع إلى الآيات التي تتحدث عنها -إن شاء الله تبارك وتعالى- من الأخ عبد الرحمن فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴿١٣٧﴾وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَا هُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ

﴿١٧٩﴾وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ١٢٣ - ١٩١].

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم وسلك سبيلهم إلى يوم الدين وبعد:

المحور الأول كما ذكرت في هذا اللقاء هود بعنوان: هود -عليه السلام- يدعو قومه إلى الله تعالى، وقصة هود هي القصة الرابعة في سياق هذه السورة الكريمة المباركة بعد أن تحدث عن قصة موسى وإبراهيم ونوح عليهم السلام، وتبدأ بقول الله جل ذكره: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

لعلكم تلاحظون أن فاتحة هذه القصة هي نفسها أيضًا فاتحة قصة نوح -عليه السلام- ولذلك لن أعيد الحديث عنها، ولكني فقط أود أن أطرح بعض الأسئلة لأطمئن أن الأمر لديكم معلوم فمثلًا: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴾ كذب عاد هودًا -عليه السلام- كذبوا رسولًا واحدًا، فلم قال القرآن الكريم: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴾؟

حين يكذب قوم بالنبي أو برسول واحد معنى ذلك أنهم كذبوا بجميع الرسل.

صحيح التكذيب بنبي واحد هو تكذيب لجميع الأنبياء والمرسلين؛ لأن دعوتهم واحدة.

أيضًا ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ ﴾، وقد سبق أن قلت بأن قاعدة وعقيدة الولاء والبراء يجب أن تكون معلومة لدى كل مؤمن، فكيف يكون هودًا -عليه السلام- أخو لهؤلاء المكذبين؟

والجواب:

في لغة العرب أخا القوم يعني واحدًا منهم

نعم، وقد ذكرت فيما مضى يا أخا بني تميم يعني يا واحدًا من بني تميم، وأود أن أذكر أخواني بهذا في مفتتح هذا اللقاء؛ لأن هذا سيرد أيضًا ويتكرر معنا في القصص التالي، وبالتالي أصبح معلومًا لنا إن شاء الله تبارك وتعالى.

غاية الأمر هو أن أقول بأن هودًا -عليه السلام- أرسل إلى قوم عاد، وكانوا يسكنون الأحقاف، والأحقاف مدينة قريبة من حضرموت.

بعد ذلك جاءت الآيات وبينها رب العالمين -سبحانه وتعالى- في قصة هود -عليه السلام- فقال: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ هود -عليه السلام- في مقدمة دعوته إلى الله -عز وجل- يذكر قومه بنعم الله -تبارك وتعالى- عليه، وكانوا في الحقيقة يعني من أصحاب الأموال والزروع والخيرات والنعيم الكثير للغاية، وكانت لديهم

حضارة عظيمة، لعل أصدق تعبير عنها ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى- في سورة الفجر: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ [الفجر: ٦- ٨].

هذا القول الكريم من الرب الكريم -سبحانه وتعالى- يذكر فيه أن هؤلاء القوم وما عندهم من حضارة لم تكن عند أحد غيرهم بحال؛ ولذلك هود -عليه السلام- يذكرهم بما عندهم، هو ذكر ثلاثة أمور:

الأمر الأول: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾. ما هو الريع؟ هو المكان المرتفع، وكانوا يبنون على الأمكنة الرفيعة العالية أمكنة أيضًا من باب اللهو والافتخار لا للحاجة إليها وهذا هو الذي نعاه القرآن الكريم عليهم.

الأمر الثاني الذي ذكرهم به هود -عليه السلام-: ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾، أرجح الأقوال في كلمة مصانع كما ذكر الحافظ ابن كثير في أول قول في هذا المعنى أنها مآخذ الماء، يعني أماكن تجمع الماء، يمكن أن نقول أو نعبر عنها في عصرنا الحاضر بالعيون أو الآبار، فكانوا أيضًا يتخذون هذه الآبار، والقرآن الكريم أشار إلى أيضًا أنهم كانوا يتوسعون فيها، ويفعلونها أكثر من الاحتياج؛ لأنه قال ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾، يعني كأنكم ستبقون أبد الآباد فتوسعتم فيها.

الأمر الثالث الذي ذكرهم به هود -عليه السلام-: ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ وكانوا أصحاب قوة وبطش وبغي على عباد الله -تبارك وتعالى- في أرض الله -سبحانه وتعالى-.

هذه ثلاثة أمور ذكرهم بها هود -عليه السلام- وبعد أن قال لهم ذلك -صلوات الله وسلامه عليه- أمرهم بتقوى الله عز وجل؛ لأن ما هم فيه من نعيم إنما هو منَّة من رب العالمين -سبحانه وتعالى- هذه الأموال هذه البنايات الضخمة هذه الزروع هذه المياه والأنهار إنما هي تفضل من رب العالمين -سبحانه وتعالى- ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾، هذا أمر بالتقوى بصورة مجملة ويستمر السياق ويأمرهم أيضا هود -عليه السلام- بتقوى الله -عز وجل- ويذكر شيئًا من التفصيل الذي أجمله في قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾، هنا بعدما قال لهم أولًا فاتقوا الله وأطيعون كرر بعد ذلك وأجمل بعض النعم التي أعطاهم رب العالمين إياها حينما قال: ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾، يعني أن الله -عز وجل- أعطاكم مددًا كثيرًا بأشياء وأمور أنتم تعلمونها، ثم شرع في تفصيل ما أمدهم ربهم -سبحانه وتعالى- به، فذكر بعضه في قوله: ﴿ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾، هذه نعم الله -تبارك وتعالى- على هؤلاء القوم، ونبيهم صلوات الله وسلامه عليه يذكرهم بها ويأمرهم بتقوى الله -سبحانه وتعالى- ثم يبين رأفته بهم ورحمته بهم وهذا شأن الأنبياء والمرسلين، أنهم بأممهم كانوا يحرصون غاية الحرص على أن يكونوا في دين الله -عز وجل- ومع ذلك في تكذيبهم يقول لهم: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ بماذا أجابوه؟

تأملوا منطق المشركين ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

هود -عليه السلام- بعد ما ذكر قومه بنعم الله -تبارك وتعالى- عليه أو أمرهم بتقواه وأخبرهم أنه يخاف أن ينزل بهم عذاب الله -عز وجل- لتكذيبهم بالنبي المرسل إليهم صلوات الله وسلامه عليه ردوا دعوته: ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾، وهذا هو منطق الكافرين، قال الله -عز وجل- عن الكافرين في أوائل سورة البقرة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: ٦]، وأخبر رب العالمين أيضًا: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ٩٦]، وهؤلاء القوم قالوا لنبيهم صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾، قال الله بعد ذلك: ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ

﴾ قال عن هؤلاء القوم وقد قالوا هم ذلك لنبيهم صلوات الله وسلامه عليه، وقرئ ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ بمعنى أخلاق الأولين؛ لأن الأولين كانوا يقولون ذلك لأنبيائهم، وأيضًا دعاهم هؤلاء الناس ومشركي العرب تبعوا هؤلاء أيضًا فقالوا للنبي -صلى الله عليه وسلم- وعن الكتاب المنزل إليه: ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ﴾ [الفرقان: ٥]، فاحتجوا أيضًا بأخلاق الأولين وقرئ: ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾، ومعناها إن هذا إلا دين الأولين، وأفادوا بذلك أنهم يتبعون من؟ يتعبون آبائهم وأجدادهم وما كانوا عليه في ضلال.

ثم بعد ذلك ذكر القرآن الكريم عنهم أنهم قالوا كلمة تنبئ عن أمرين قاما في نفوس هؤلاء الناس: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾.

هذا القول منهم يفيد أنهم أولًا كانوا يتعالون على نبيهم صلوات الله وسلامه، ويشعرون أنفسهم أنهم في قوة، وأنه لا ينالهم شيء من العتاد.

الأمر الثاني: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾، يفيد أنهم لن يؤمنوا بالبعث والنشور والجزاء والوقوف بين يدي الله -تبارك وتعالى-، القرآن الكريم هنا اختصر اختصارًا ربما نحن نحتاج إليه في هذه السورة لما قال: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾، هكذا اختصر القرآن الكريم في هذه السورة، وذكر أن هؤلاء كذبوا نبيهم فأهلكهم رب العالمين -سبحانه وتعالى- وقد ذكرت آيات أخر تفصيل العذاب الواقع على هؤلاء، وقد ذكرتها لكم سابقًا في سورة الفرقان، وقد ذكرها رب العالمين في أوائل سورة الحاقة: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٦]، آخر ما جاء في هذه الآيات.

المحو الثاني معنا في هذا اللقاء بعنوان: خبر القرآن عن نبي الله صالح، وتحته هذه الآيات: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ نقول مفتتح هذه القصة أيضًا كغيرها من القصص، غاية الأمر أني أقول بأن نبي الله صالح -عليه السلام- أرسل إلى هؤلاء القوم، وكانوا يسكنون في قرية معروفة اليوم، تعرف بمدائن صالح، تبعد عن المدينة النبوية قرابة أربعمائة كيلو مترًا، كانوا يسكنون هناك، وبعث الله -سبحانه وتعالى- إليهم هذا النبي الكريم، والآن نود أن نعرف من خلال هذه الآيات ماذا قال لهم نبيهم؟ وبماذا ردوا عليه؟ وما هي النهاية التي كانت على هؤلاء؟

قال الله -تبارك وتعالى- ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَا هُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، بدأ صالح -عليه السلام- بعد ما أخبرهم بأنه رسول من رب العالمين، وأنه لا يسألهم أجرًا وغير ذلك، أيضًا بدأ بتعداد نعم الله -تبارك وتعالى- على هؤلاء قائلًا: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَا هُنَا آمِنِينَ ﴾ يعني هل تظنون أنكم ستبقون في أماكنكم آمنين، لا تتحولون ولا يحيق بكم العذاب، وهذا أيضًا إجمال من نبي الله صالح -عليه السلام- لشيء من نعم الله -تبارك وتعالى- على هؤلاء.

ثم فصل هذا الإجمال في قوله: ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾، يعني أنتم اليوم آمنون ومعكم الجنات ومعكم العيون، وأيضًا قال لهم: ﴿ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾، الزروع والنخل من ضمن الجنات، فالنخل زرع، ولكن صالح -عليه السلام- أفرده لهم بالذكر، وهذا يفيد أهمية النخل، وفوائد النخل، والعرب يعرفونه يدركون تمامًا قيمة هذه الثمرة الطيبة المباركة وما فيها من فوائد عظيمة، وكان الناس في الزمن الغابر كانوا يكتفون بتمرات قليلة تشبعهم ويطعمون بها، والحقيقة أن النخل نعمة من الله -تبارك وتعالى- على عباده، فيها وفي شجرها فوائد عظيمة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قد ضرب للمؤمن مثلًا بها كما هو معلوم في السنة.

ثم ذكر لهم شيئًا من النعيم آخر ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾، يعني بيوتًا فارهة، بيوتًا عظيمة، وحقًا كانوا يفعلون ذلك، كانت أيضًا عندهم حضارة عظيمة جدًا كبيرة، كانوا يأتون إلى الجبال فينحتون منها مساكن رائقة، ومساكن عظيمة، فيها فن معماري متقدم، وكانوا ولا شك يستمتعون بذلك، هذه نعمة من نعم الله –تبارك وتعالى– عليهم بعد ما عددها عليهم نبيهم صلوات الله وسلامه عليه أمرهم أيضًا بتقوى الله –تبارك وتعالى– وأن يدخلوا في طاعته فقال ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾، ثم نهاهم عن طاعة المسرفين منهم، وذكر أن هؤلاء المسرفين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وقد ذكر أهل العلم أن هؤلاء المسرفين هم السادة والكبراء فيهم، وهم القوم الذين كانوا يدعونهم ويزينون لهم عبادة غير الله –تبارك وتعالى–، هكذا قال لهم نبيهم صلوات الله وسلامه عليه ونود أن نعرف الآن بأي شيء أيضًا أجابوه؟

قالوا: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾، كل نبي وكل رسول كان يحرص غاية الحرص على هداية قومه، يأمرهم أولًا بتقوى رب العالمين سبحانه، ثم يعدد فضل الله –تبارك وتعالى– عليه، وبعد ما يعدد هذا الفضل يأمرهم مرة أخرى بتقوى الله –تبارك وتعالى– لعلهم بعد التذكر يتذكرون، ولكن الكافرين كانوا يأبون الدخول في طاعة الأنبياء والمرسلين، ويردون عليهم دعوتهم ولا يستجيبون لرسالتهم، وهكذا فعل قوم صالح –عليه السلام– ردوا عليه قائلين: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾، كلمة من المسحرين تحتمل أمرين:

الأمر الأول: إنما أنهم أرادوا أنت رجل مسحور، أصابك سحر، وبذلك أصبحت لست من العقلاء، لا تدري ما تقول، وبالتالي اعتبروا دعوة نبيهم إلى الله –عز وجل– من باب عدم العقل بل هي من باب الجنون.

الأمر الثاني: قالوا إنما أنت من المسحرين: يعني أنت من البشر، ونحن لا نتبع بشرًا مثلنا كما ذكر الله عنهم في هذه الآية أنهم قالوا ذلك بعد ما قالوا: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾، يعني أنت واحد منها طالما أنك بشر مثلنا فنحن لن نبتع رجلًا مثلنا على هيئتنا وعلى حالتنا، وكأنهم كانوا يريدون ملكًا أو غير ذلك، ولما كذبوه وطعنوا في رسالته ولم يستجيبوا لدعوته؛ إما لأنه لا يعقل بأنه مسحور مجنون، إما أنه من البشر عندئذ طلبوا من نبيهم آية طلبوا معجزة أخرى تؤيده قالوا له: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ طلبوا منه آية يثبت بها صدق رسالته وأنه مرسل من قبل الله – تبارك وتعالى– في كتب التفسير ذكروا أن صالحًا –عليه السلام– لجأ إلى ربه ومولاه، وطلب منه آية ومعجزة، وقيل بأنهم طلبوا منه ناقة عشراء، هذا طلبهم فطلبها صالح –عليه السلام– من ربه فأعطاه الله –تبارك وتعالى– إياها، وقيل خرجت هذه الناقة من الصخر أمامهم على الهيئة التي طلبوها هم، وقال لهم نبيهم عندئذ: ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾، يعني أنها تشرب يومًا الماء وأنتم تشربون الماء يومًا آخر، فهي تروح على الماء في يوم فتشربه، وهم يوردون الماء يومًا آخر، ثم حذرهم نبيهم صلوات الله وسلامه عليه بأن ينزلوا بهذه الناقة شيئًا من العذاب: ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾، ولكنهم ما استجابوا لذلك، وعاشت بينهم الناقة، وكانوا يستفيدون من لبنها ويشربونه، هذه نعمة من نعم الله –تبارك وتعالى– تتم هذه النعمة أيضًا بأمرين:

الأمر الأول: أن الله –عز وجل– أجاب طلبهم لما طلبوا من نبيهم معجزة فأعطاهم الآية التي طلبوها.

الأمر الثاني: أن هذه الآية التي طلبوها فيها نفع عظيم لهم، نهاهم نبيهم أن يمسوا هذه الناقة بسوء ولكنهم ما استجابوا لذلك، وإنما قال الله عنهم: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴾، وقد فصل رب العالمين –سبحانه وتعالى– في آيات أخر، أنهم عقروا الناقة، ويستفاد من مجمل الآيات أنهم جميعًا تمالوا على قتلها، وأنهم أعطوا صاحبهم

السلاح الذي يضرب به الناقة، يعني يستفاد من هذا أنهم جهزوا السلاح له، ووقفوا إلى جواره، وأيدوا فعله، كما قال رب العالمين –سبحانه وتعالى– في سور القمر: ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾ [القمر: ٢٩].

فتعاطى يعني تعاطى السيف الذي قتل به الناقة، وأيضًا ذكر ربنا –سبحانه وتعالى– في سورة الشمس أن أشقى القوم هو الذي تولى عقر هذه الناقة، كما قال رب العالمين: ﴿ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ [الشمس: ١٢]، يعني أشقى القوم هو الذي تقدم وضرب هذه الناقة، ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴾، قال الله مباشرة: ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾، ورب العالمين –سبحانه وتعالى– أجمل هذا العذاب، ولكنه فصَّل في آيات أخرى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ [القمر: ٣١]، صيحة واحدة أصبحوا ﴿ كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾، أتدرون ما هو هشيم المحتظر؟

هشيم المحتظر هذا هو العلف الذي يبقى من النباتات المختلفة أو بقايا مثلًا القمح والأرز، العيدان هذه التي توضع تحت الحيوانات في الحدائق، هذه الصيحة جعلتهم هكذا: ﴿ كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾، قد يقول قائل: لماذا لما ندموا لم يقبل الله توبتهم؟ قد ندموا لماذا لم يقبل رب العالمين –سبحانه وتعالى– توبتهم؟ لأنه قال: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾، يعني دل ذلك على أن أخذ الله لهم بالعذاب بعد الندم الجواب عن ذلك؟

أنهم لم يندموا على فعلهم هذا، وإنما ندمهم كان خوفهم من عذاب الله –تبارك وتعالى– وقيل بأن هذا الندم لم يقع منهم إلا عند نزول العذاب عليهم وبالتالي لم تكن هناك ساعة يمكن أن يقبل الله –تبارك وتعالى– منهم توبة.

المحور الثالث في هذا اللقاء: لوط –عليه السلام– ينهى قومه عن ارتكاب الفواحش. ومقدمة هذه القصة كمقدمة القصص السابقة: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وأنا سأتجاوز الوقوف عند هذه الآيات؛ لأنها أصبحت معلومة لنا، وكما أنني أيضًا أتجاوز: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾، يعني نتجاوز الوقوف عندها، وإن كانت تحمل معان عظيمة للغاية، فيها تعظيم وتمجيد لرب العالمين، وبيان لقوة الله –عز وجل– وآثار هذه العظمة وأنه سبحانه يقول للشيء كن فيكون.

بعد ذلك أود أن أذكر أن نبي الله لوط –عليه السلام– قبل أن أذكر ما وجاه به قومه كان في زمن إبراهيم –عليه السلام– وقد بعثه الله –تبارك وتعالى– إلى قرية يقال لها سدوم وهو ابن أخ لإبراهيم –عليه السلام– قد ذكر الإمام الحافظ ابن كثير أن هذه القرية متاخمة بجبال بيت المقدس، ولوط –عليه السلام– دعا قومه إلى عبادة الله وحده، ثم بعد ذلك واجه الانحراف الخلقي العظيم الذي كان لدى هؤلاء الناس وظهرت هذا المواجهة في قوله لهم: ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾، افتتح لوط –عليه السلام– دعوته لهم وواجههم في انحرافهم بهذا القول: ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ يعني أنتم خصصتم بهذه المسألة دون العالمين، ويدل على ذلك أيضًا أن لوطًا –عليه السلام– قال لهم كما جاء في سورة الأعراف: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٠]، فهؤلاء القوم أو هؤلاء الناس هم الذين ابتدعوا هذه الفاحشة في البشرية؛ ولذلك حرصْت على أن أعنون لهذه القصة، ولهذا المحور بأن لوطًا –عليه السلام– ينهى قومه عن ارتكاب الفاحشة، وقوم لوط –عليه السلام– هم الذين ابتدعوها وكانوا أول الناس إتيانًا لهذه الفاحشة: ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾، ثم ذكره بالطريق الصحيح، بالصواب، بالفعل المستقيم الذي به يكون النسل وتسير الحياة إلى أن يشاء رب العالمين ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾، وما فعلوا ذلك إلا لأنهم قوم بغاة، قوم معتدون، كما قال لهم نبيهم صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾.

بأي شيء أجابوه؟ قالوا: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، تأملوا بماذا أجابوه بعد أن نصحهم صلوات الله وسلامه عليه؟ فهددوه بالنفي والطرد من بلدته وإخراجه من القرية التي كان يعيش فيها، ولعل هؤلاء الناس والله أعلم كانوا يطردون من لا يكون على شاكلتهم، كأن هذا كان أمرًا معتادًا عندهم، وما زال معتادًا في البشرية اليوم، كل طاغية لا يوافقه بعض الناس على فساده وطغيانه فإنه يؤذيهم ويخرجهم من البلاد، أو ينكل بهم، أو ما إلى ذلك مما هو مشاهد في دينا الناس.

هؤلاء القوم أيضًا كانوا من البغاة المعتدين الجبارين كما ذكر عنهم نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، هددوه بالنفي والإخراج من القرية التي هو فيها، لما فعلوا ذلك بين لهم نبيهم صلوات الله وسلامه عليه أنه كاره لما هم عليه من الفعل: ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴾، والقالين يعني المبغضين له بغضًا شديدًا.

ثم بعد ذلك توجه إلى ربه بالدعاء بأن ينجيه رب العالمين –سبحانه وتعالى– من هؤلاء، وطبعًا نحن لا نعجب من هذه الدعوة المباركة التي توجه بها لوط –عليه السلام– لأننا قد تعلمنا من كتاب ربنا أن هؤلاء القوم كانوا لا يأنفون أن يأتون أي بيت لكي يفسدوا فيه بهذا المنكر، وقد قص الله –تبارك وتعالى– علينا في سورة الأعراف وفي سورة هود: كيف أنهم لما أتت الملائكة إلى لوط –عليه السلام– أتوا إلى بيته يريدون إتيان الفاحشة بالملائكة الذين نزلوا ضيوفًا على لوط –عليه السلام– يعني قوم أصبحوا من السوء بمكان، ومن هنا توجه لوط –عليه السلام– ودعا ربه: ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾، فاستجاب الله –تبارك وتعالى– دعوة لوط –عليه السلام– وقال: ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾.

ولما قال رب العالمين ذلك وأكد أنه نجاه ونجا أهله وأتى بصيغة الجمع استثنى العجوز التي في الغابرين ألا وهي زوج لوط –عليه السلام– التي كذبته، وكانت تشارك قومه وتؤيدهم في هذه الفاحشة، وقد ذكر كثير من المفسرين أنها كانت تقول لأقوامها وتخبرهم بخبر لوط –عليه السلام– إذا أتى إليه أحد يزوره حتى يأتي هؤلاء الناس فيطلبون الفاحشة من هؤلاء الضيوف؛ ولذلك استثنى القرآن هذه العجوز التي في الغابرين، ومعنى في الغابرين الباقين في العذاب مع الأقوام الذين أهلكهم رب العالمين –سبحانه وتعالى– ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴾.

بعد ما أخبر رب العالمين أنه نجا لوطًا –عليه السلام– قال: ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴾، تدمير الله –تبارك وتعالى– لهؤلاء الناس جاء ذكره مفصلًا في آيات أخرى وذلك مثلًا في قول الله –تبارك وتعالى– في سورة هود: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ﴿٨٢﴾مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٢– ٨٣]، جاء في كتب التفسير عن مجاهد وقتادة وغيرهما أن جبريل –عليه السلام– رفع قرىً اللوطية قيل كانوا أربع وقيل ثلاث، رفعها على طرف جناحه إلى السماء حتى يستمع أهل السماء نباح كلابهم، يعني صياح كلاب هؤلاء الناس ثم قلبها بعدما رفعها من أصلها من على الأرض، رفعها إلى السماء ثم قلبها فجعل عاليها سافلها ولم يكتف ربنا –سبحانه وتعالى– بذلك بل أخبر بعد ذلك قال: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾، قيل بأن كانت هناك حجارة تسقط على من نجي منهم من هذا السقطة، يعني قد يكون هناك تحت ركام الأنقاض من لم يمت من هؤلاء الناس، فأيضًا عاقبهم رب العالمين –سبحانه وتعالى– بإرسال هذا المطر وهي الحجارة السجيل المعلمة قيل كل حجر كان عليه اسم صاحبه الذي يموت به أو يضربه به، وهذه طبعًا معجزة أخرى وآية وعلامة على قدرة من؟ قدرة رب العالمين –سبحانه وتعالى–؛ ولذلك صدق الله في قوله حينما يختم هذا القصص الكريم بقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

المحور الرابع: في هذا اللقاء شعيب -عليه السلام- يدعو قومه إلى الله تعالى وإيفاء الكيل والميزان. وتحته قوله الحق -تبارك وتعالى-: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أصحاب الأيكة هم أهل مدين على الصحيح، وأن بعض أهل العلم يقول بأن شعيب -عليه السلام- أرسل إلى أصحاب الأيكة وإلى مدين فيعتبر أصحاب الأيكة غير مدين، ولكن سياق القرآن الكريم، وما ذكره رب العالمين -سبحانه وتعالى- عن دعوة شعيب -عليه السلام- يفيد أن أصحاب الأيكة هم أهل مدين: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ هنا لم يقل أخوهم، وإن ذكر في سورة هود: ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [الأعراف: ٨٥]، قال هنا نفى المثل، وهذه نفي حقيقي؛ لأنه لا ينتسب إليه في الكفر الذي هم عليه، هنا يوجد وجه ولا لا يوجد؟ يوجد وجه.

بعد ذلك أتجاوز أيضًا الآيات بمعنى واحد؛ لأدخل إلى صلب دعوة شعيب -عليه السلام- وقد عنونت إلى إيفاء المكيال والميزان: قال لهم صلوات الله وسلامه عليه: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ لا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾، هنا شعيب -عليه السلام- واجه قومًا يبخسون الناس حقوقهم، فكانوا إذا تعاملوا مع الناس بالكيل والميزان إن كان لهم حق أخذوا حقهم كاملًا مستوفيًا، وإن كان للناس حق يعني هم الذين يكيلون للناس بخسوا الناس أشيائهم، فجاء هود -عليه السلام- ليعالج أيضًا هذا المرض الخطير ألا وهو الظلم وأكل أموال الناس بالباطل؛ ولذلك قال لهم: ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾، يعني لا تبخسوا الناس أشيائهم أو فصل لهم كيفية إعطاء الناس حقوقهم بطريقة صحيحة سليمة؛ وذلك في قول الله: ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾، القسطاس المستقيم الميزان يعني زنوا بالميزان الصحيح بالميزان السليم وحذرهم من أن يبخسوا الناس أشيائهم مبينًا أن هذا فساد في الأرض يعني أن فعلهم هذا ضلال وانحراف: ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴾، وتلاحظون أن كل رسول بعد ما يدعو قومه إلى الله -عز وجل- ويذكرهم بنعم الله -تبارك وتعالى- عليهم يعيد الأمر بالتقوى أيضًا من جديد وغالبًا ما تأتي إضافة مع الأمر بالتقوى هنا جاءت إضافة: ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴾، يعني يريد أن يقول لهم اتقوا الذي خلقكم من الذي خلقهم؟ رب العالمين، وقال أيضًا لهم: ﴿ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴾ هو الذي خلق آبائهم، نستفيد هذا من الجبلة؛ لأن الجبلة بمعنى الخلق، وفي هذا قال رب العالمين عن الشيطان: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ [يس: ٦٢]، يعني خلقًا كثيرًا هذا ملخص عن دعوة شعيب -عليه السلام- لهؤلاء الناس وأمرهم بالميزان المستقيم والقسطاس السليم الصحيح، وأن يعطوا الناس حقوقهم ولا يظلموا الناس أشيائهم، ردوا عليه كما رد المكذبين من قبله بالأنبياء والمرسلين، وهنا فائدة أولا أقرأ الآيات التي فيها الرد قالوا: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، قالوا إنما أنت من المسحرين ذكرناها قبل قليل في قصة ثمود -عليه السلام- ذكرناها قبل قليل في هذا اللقاء، وبالتالي أقول بأن قلوب أهل الكفر تشابهت القلوب فتشابهوا في الأقوال والأفعال، قالوا بمثل ما قالوا ﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾، وزادوا على ذلك برميه بالكذب ﴿ وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾، فهؤلاء القوم كانوا أيضًا من الانحراف والضلال ويعني استعظام القوة بدليل أنهم طلبوا التعرض لعذاب الله -تبارك وتعالى- قائلين: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾، أسقط علينا كسفًا من السماء يعني قطعًا من السماء، وقيل جانبًا من السماء يعني جزءًا من السماء إن كنت من الصادقين، أجابهم نبيهم صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾، إن كنتم تستحقون العذاب أنزله ربي سبحانه وتعالى بكم، وفعلاً وحقًا كانوا يستحقون العذاب، ونزل عليهم من رب العالمين سبحانه وقال رب العالمين: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، رب العالمين -سبحانه وتعالى- عاقب هؤلاء القوم وأخذهم بالعذاب في ألوان متعددة، يعني مثلًا في سورة الأعراف أخبر ربنا -سبحانه وتعالى- أنه أخذتهم رجفة بأنهم أرجفوا نبيهم قالوا: ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [الأعراف: ٨٨]،

وفي سورة هود أخبر رب العالمين أنه أخذهم بالصيحة، وهنا أخبر بأنه أخذهم بعذاب يوم الظلة عذاب يوم الظلة معناه:

قيل أن الشمس كانت عليهم مسلطة لمدة سبعة أيام كاملة، ولا يجدون شيئًا يتقون به حرارة الشمس، ثم بعد ذلك ظهرت لهم قطعة من السحاب فاجتمعوا حولها كي يستظلون بظلها فلما استمعوا أخذهم رب العالمين بالصيحة والرجفة وأهلكهم بلهيب هذه النار التي أحرقتهم، ويختم رب العالمين هذا القصص بقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾، هذه سبع قصص ذكرناها في هذا السياق القرآني الكريم، وتنتهي بذلك قصص رب العالمين في سورة الشعراء؛ لنبدأ في آيات أخرى نختم بها هذه السورة في اللقاء القادم -إن شاء الله تبارك وتعالى-. وأصلي وأسلم على نبينا -صلى الله عليه وسلم-.

في الحلقة الماضية كان السؤال الأول: ما معنى فكبكبوا فيها وهل كل معبود من دون الله يلقى ما عابده في النار؟

وكانت الإجابة: عند مجاهد أن كبكبوا فيها أي دوروا فيها، وقيل تكرير الكاف والباء يفيد الزيادة، فكأن يكبون على وجوههم مرة بعد الأخرى نسأل الله العافية والسلام، ورجح ابن قتيبة أنهم ألقوا على رءوسهم وليس كل معبود من دون الله يلقى مع عابده؛ لأنه حينما نزل قول الله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، قال بعض الصحابة لبعض: إن عيسى -عليه السلام- بناء على ذلك سيكون في الجحيم، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يزعم أن عيسى أحد الأنبياء والمرسلين، فكيف يكون النبي والرسول في الجحيم، فنزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

الجواب صحيح ولكن لعل يعني الكاتب بدل ما يقول أحد المشركين قال أحد الصحابة أو قال الصحابة بعضهم لبعض، ولكن المشركين هم الذين زعموا أنه بناء على ذلك أن عيسى بن مريم وغيره من الصالحين الذين عبدوا من دون الله سيكونون في الجحيم فرد الله -تبارك وتعالى- ﴿نَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾.

والسؤال الثاني: اشرح قول الله -تبارك وتعالى- ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٨]؟

وكانت الإجابة: الفتح هو الحكم، وهذا الحكم أن يغرق الله قومه، وتفصيل ذلك في سورة القمر قال الله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٠- ١٢].

الجواب سديد والحمد لله.

هلا تفضلتم بطرح أسئلة هذه المحاضرة:

السؤال الأول: اذكر معاني الكلمات الآتية: (ريع، مصانع، خُلق الأولين)؟

والسؤال الثاني: فصِّل القول في العذاب الذي نزل على قوم لوط مستدلًا بما تقول بالقرآن الكريم؟

وأحب أن أنوه أعزائي المشاهدين بأن الحلقة القادمة -إن شاء الله- من حلقات التفسير ستكون الأخيرة في هذه الدورة المباركة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الدرس الثالث عشر

تابع تفسير سورة الشعراء (١٩٢- ٢٢٧)

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله ملتبسًا علينا فنضل. اللهم إنا نعوذ بك أن نضِل أو نُضل أو نذِل أو نُذل أو أن نظلِم أو نُظلم أو أن نجهل أو يُجهل علينا.

أما بعد:

ويسرني أن أواصل الحديث في تفسير سورة الشعراء وسننتهي منها بحول الله وقوته في هذا اللقاء، وسيدور الحديث حول الآيات التي سنستمع إليها بعد قليل في خمسة محاور:

المحور الأول: القرآن الكريم تنزيل رب العالمين؛ لإقامة الحجة على الناس أجمعين.

المحور الثاني: متاع الدنيا لا يمنع عذاب الآخرة وعجز الشياطين عن النزول بالقرآن الكريم.

المحور الثالث: أمر الله لنبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- بتبليغ الرسالة والتوكل على الله وحده.

المحور الرابع: الشياطين تنزل على الكاذبين المجرمين.

المحور الخامس: الشعراء غاوون وصالحون؛ ولنستمع الآن إلى هذه الآيات من أخونا عبد الرحمن فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ١٩٢- ٢٢٧].

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهديه الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلي وسلم وبارك وأنعم على عبدك ورسولك ومصطفاك، وعلى آله و أصحابه ومن سلك سبيلهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين وبعد.

أيها الأحبة في الله المحور الأول في هذه اللقاء القرآن الكريم: القرآن الكريم تنزيل رب العالمين لإقامة الحجة على الناس أجمعين.

وتحته ما جاء في قول الله جل ذكره: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ هذه الصورة التي كنا نتحدث فيها وعشنا معها بعض الحلقات، تحدث -عز وجل- فيها عن قصص بعض الأنبياء والمرسلين، وهذا القصص كانت لنا فيها عبرة، وختم الله -عز وجل- كل قصة من هذه القصص بقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ٨- ٩]، وقد اشتملت هذه السورة على سبع قصص من قصص أنبياء الله ورسله، ثم ختم رب العالمين -سبحانه وتعالى- هذه القصص بالإشارة والإشادة بما أنزله على نبيه صلوات الله وسلامه عليه، وفي ذلك إثبات لنبوة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ويكفي أن الله -تبارك وتعالى- اختار قلب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لصفائه ونقائه واستعداده لحمل هذه الكلمات التي أوحى الله بها إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-.

وقوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ يفيد أن القرآن الكريم كلام الله -تبارك وتعالى- وأنه نزل من عند الله جل ذكره، وأنه ليس كلام أحد من البشر ولا من المخلوقين بحال، فهو كلام الله جل ذكره، وآيات كثيرة في كتاب الله ذكر ربنا -سبحانه وتعالى- فيها أنه أنزل القرآن الكريم على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [الزمر: ١]، وآيات كما ذكرت تأتي بهذه الصيغة ألا وهي صيغة التنزيل، وتفيد نسبة هذا الكلام إلى الله -تبارك وتعالى- تفيد هذه الآيات نسبة الكلام الذي نزل من عند الله -عز وجل- إلى رب العالمين -سبحانه وتعالى- وكلمة أيضًا "تنزيل" تفيد رب العالمين في أعلى عليين؛ لأن الشيء لا يقال له نزل إلا نزل من علو إلى أسفل، والله -تبارك وتعالى- كما هو معتقد أهل السنة والجماعة استوى على عرشه بائن من خلقه -سبحانه وتعالى- جل جلال ربنا وعز سلطانه -سبحانه وتعالى- ثم تأتي إشادة أكثر بالقرآن الكريم حينما يبين رب العالمين أن الذي نزل بالقرآن الكريم من عنده سبحانه؛ هو جبريل -عليه السلام- ويصف الله -عز وجل- جبريل بالروح الأمين، بالروح الصادق، واليهود يبغضون جبريل، وقد أشرت إلى ذلك فيما مضى، والرافضة أيضًا يبغضون جبريل -عليه السلام- ظنًا من بعضهم أنه خان الرسالة، ونزل بها على علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- وهذا من سفاهة عقولهم، والمقام لا يحتاج الآن أن نناقشهم فيما هم عليه من معتقدات باطلة في ذلك ولكن حسبي هذه الإشارة: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ على قلب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وقد ذكرت أن هذا يفيد صفاء قلبه صلوات الله وسلامه عليه، واستعداده -عليه الصلاة والسلام- لتلقي هذا الوحي، وهذا الكلام الذي نزل من عند الله -تبارك وتعالى- وصبروا نزول القرآن على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يعلن به الناس كما قال الله -تبارك وتعالى- في ذلك: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩]، ﴿ كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٢].

فالله -عز وجل- أنزل هذا القرآن كي يستنير الناس بهديه، ويبشر به النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- المتقين المؤمنين، وينذر به أعداء الله -عز وجل- الذين لم يستسلموا بما جاء من عنده سبحانه، وقطعًا للعذر وإقامة للحجة نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، حتى يفهمه المستمعون، ولاشك أن العرب هم أول الناس الذين خوطبوا بالقرآن الكريم، فنزل القرآن الكريم بلغتهم كي يعقلوا عن الله -تبارك وتعالى- وستأتي إشارة إلى أنهم لاشك تأملوا القرآن، وعرفوا معانيه، وأنه كلام الله المعجز، ولكنهم مع ذلك لم يؤمن الكثير منهم بكلام الله -تبارك وتعالى-، ثم يستمر السياق ويشيد ربنا -سبحانه وتعالى- بالقرآن الكريم، وبالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- تثبيتًا لدعوته ودعوة لعموم الناس إلى أن يدخلوا في رسالته، وهذه الآيات تقيم الحجة على السامعين بصدق النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-.

يقول رب العالمين: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾.

الله -عز وجل- يخبر أن هذا القرآن الكريم في زبر الأولين، والزبر جمع زبور، وهو الكتاب، والقرآن الكريم معنى أنه في زبر الأولين يعني أن الكتب السابقة عليه، قد أخبرت عن هذا القرآن الكريم، وعن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- المبعوث بهذا القرآن الكريم، آخر الأنبياء وخاتمهم قبل نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- هو عيسى بن مريم، وقد قال لقومه: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦] والله -عز وجل- قد أخذ العهد والميثاق على جميع الأنبياء والمرسلين إن بُعث النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وهم إحياء أن يدخلوا في رسالته، وأن يتابعوه على دعوته، وقد سبق أن ذكرت لكم الآية التي تتحدث أيضًا عن ذلك، ولولا ضيق المقام لتوسعت في مثل ذلك لأخاطب عموم الناس في كل الديانات، وأقول لهم أدخلوا في دين محمد بن عبد الله -صلى الله عليه وآله وسلم- فكل الأنبياء والمرسلين وأخاطب خصوص أتباع الأنبياء والمرسلين الذين يزعمون أنهم يتبعون أنبياءهم أن فكروا فيما أنتم عليه، فأنبيائكم لو كانوا موجودين لدخلوا في دين النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ولتبعوه على دعوته؛ فأولى بكم أنتم يا أتباع الأنبياء والمرسلين أن تسلموا للنبي الأمين -صلى الله عليه وآله وسلم-.

ثم يبين رب العالمين -سبحانه وتعالى- عناد المشركين، وأنهم قوم يتعنتون، وأن كفرهم ناشيء عن التكذيب والعناد للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بدليل أن الله قال: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴾، يعني لو أن القرآن الكريم نزل على رجل أعجمي، لا يعرف كلمة واحدة من اللغة العربية، أيضًا ما آمن به هؤلاء الكفار لماذا يعني؟

القرآن الكريم نزل على النبي وهو أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، والله -عز وجل- أعتبر ذلك إعجازًا ومعجزة في حق النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ودعوة إلى أن يسلم الناس بقوله؛ لأنه رجل لم يجلس إلى معلم، ولم يتلق تعليمه من أحد من البشر، ولم يذهب إلى أماكن يمكن أن يأخذ منها شيئًا من أخبار السابقين، ولا يقرأ ولا يكتب، ثم بعد ذلك يأتي بهذا الكلام المعجز للعقول والأفهام، هذا أمر عجيب، والله -عز وجل- يتنزل في الخطاب مع هؤلاء أكثر، ويقول: لو نزل على غير عربي أصلًا لكفرهم وعنادهم وتعنتهم أيضًا لن يؤمنوا بهذا القرآن الكريم، ومصداق ذلك في قول الله -عز وجل-: ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الأنعام: ١١١]، يعني حتى لو أن الله -عز وجل- أنزل إليهم الملائكة وكلمهم الموتى بصدق النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وجاءتهم الآيات من كل طريق ومن كل مكان، أيضًا ما آمنوا إلا إذا شاء رب العالمين -سبحانه وتعالى- إيمان واحد منهم.

ثم يقول سبحانه: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾، معنى كلمة سلكناه: يعني أدخلناه، "كذلك سلكناه في قلوب المجرمين" أي أدخلناه في قلوب المجرمين، والضمير في سلكناه اختلف فيه أهل العلم:

فقال بعضهم: يعود إلى التكذيب والإنكار، يعود إلى تكذيب المشركين وإنكارهم لبعثة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يعني سلكنا التكذيب والإنكار والجحود لبعثة النبي -عليه الصلاة والسلام- في قلوب هؤلاء المجرمين، وهذا يدل على قضاء الله -سبحانه وتعالى- وقدره، وخلقه لكل ما يقع في هذا الكون.

وقول آخر: أن الضمير هنا يعود إلى القرآن الكريم، ويرجح بعض أهل العلم ذلك، ويكون المعنى على أن الضمير يعود إلى القرآن الكريم أن الله -عز وجل- أدخل القرآن في قلوب هؤلاء المشركين حتى فهموه وعقلوا معناه، وعرفوا دلالاته؛ لأنهم كانوا فصحاء يعرفون العربية، ويفهمون الكلام البليغ، الذي اشتمل على قمة البلاغة

والبيان والفصاحة، وكان بعضهم ينهى بعضًا أن يجلس إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- حتى لا يؤثر القرآن في قلبه؛ ولعل هذا -والله أعلم- هو الراجح أن الضمير يعود إلى القرآن الكريم.

أن الله أدخل القرآن الكريم في قلوب هؤلاء المشركين فعرفوه وعرفوا معناه ولكنهم مع ذلك لم يؤمنوا به، ولن يؤمنوا ويصدقوا إلا لغاية ذكرها القرآن الكريم: ﴿ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾، ولكن العذاب الأليم لا يعرفه أحد وقته، ليس هناك من البشر من يعرف وقت قيام الساعة، ولا متى يحيق العذاب؟ في الدار الآخرة بالذات على الكافرين والمكذبين والمجرمين، والله -عز وجل- قد أثبت هذا هنا في كتابه: ﴿ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

وهذا أمر مقرر في الشريعة الإسلامية، فعلم الساعة من الغيب الذي لا يعلمه إلا رب العالمين -سبحانه وتعالى-: ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، في حديث جبريل لما سأل النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- عن علم الساعة ووقتها: (ما المسئول عنها بأعلم من السائل)، وبالتالي لو جاء إنسان وادعى أن الساعة ستكون في عام كذا، وفي وقت كذا، وفي شهر كذا، نقول له: كلامك مردود عليك؛ لأن الله -عز وجل- أخبر في كتابه في سور متعددة في سورة الأعراف وفي سورة الأحزاب وفي سورة النازعات وفي كثير من سور القرآن الكريم أن الساعة تأتي بغتة، وأن علمها عند رب العالمين -سبحانه وتعالى- تقوم الساعة بغتة والناس لا يشعرون، عندئذ سيتمنى الكافرون أن لو أنذروا وأمهلوا؛ ليعملوا، فيقولوا: ﴿ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴾، يتمنوا الإمهال والتأخير لعلهم يعملون، وقد طلبوا ذلك والله -عز وجل- قال في سورة إبراهيم: ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، يعني سيطلبون ذلك من رب العالمين -سبحانه وتعالى- وقد أنذرهم الله في هذه الدنيا وأعلمهم وأخبرهم أنه من سيخرج من الدنيا لن يعود إليها أبدًا.

ثم بيَّن رب العالمين -سبحانه وتعالى- أيضًا شدة تكذيب هؤلاء، وتهكم بهم رب العالمين في قوله: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ في الحقيقة من سفاهة المشركين، هم كفار، ويكذبون بمن أرسل إليهم، ومع ذلك يستعجلون العذاب، وهم يعلمون ولاشك بأس الله وشدة الله -تبارك وتعالى-، ولكن الكفر يغطي على القلوب فلا تعقل، وقد طلبوا من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- استعجال العذاب، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

لولا أن رب العالمين -سبحانه وتعالى- قد قضى أزلًا، وقدَّر أن لهذا العذاب وقت؛ لنزل بهم عذاب رب العالمين -سبحانه وتعالى- وهذه الآية أيضًا تفيد إنكار الله -عز وجل- عليهم بكفرهم، وهي أيضًا لهم تهديد في نفس الوقت، يدركوا ويتأملوا، هذا تهديد من رب العالمين أنتم تستعجلون العذاب، لاشك أن العذاب سيأتيكم لا محالة.

وهذا واضح في المحور الثاني، الذي هو بعنوان: متاع الدنيا لا يمنع عذاب الآخرة، وعجز الشياطين عن النزول بالقرآن الكريم.

وتحته قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾، يخبر رب العالمين -سبحانه وتعالى- أنه لو أمهل هؤلاء الناس فترة من الزمن، وتمتعوا في الدنيا بأشد ألوان النعيم، هل هذا النعم الذي سيشبعون ويرتعون ويتمتعون فيه هل يمكن أن ينفعهم إذا نزل بهم عذاب الله -سبحانه وتعالى-: ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ وهذا كقول الله الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ﴾ [البقرة: ٩٦]، يعني مهما طال به الأجل وأخذ من الدنيا واستمتع بها بقدر ما استمتع لن ينفعه ذلك إذا وقف بين يدي الله -تبارك وتعالى- وسينزل به عذاب الله -تبارك وتعالى- وهذا يصدقه قول الله جل ذكره: ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾ [الليل: ١١]، وبالتالي كلمة العوام

غني الدنيا غني الآخرة، يقول أصحاب الجاه والسلطان في الدنيا هم كذلك أيضًا في الآخرة، وكلام العامة بأن الله لولا رضاه عن الذين أعطاهم هذا وهم كفار ما أعطاهم كل هذا كلام باطل وإنما هو في الحقيقة إمهال واستدراج لهؤلاء المكذبين، والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بين أن نعيم أهل الدنيا والله لن ينفع صاحبه بحال من الأحوال إذا نزل بالعبد المكذب عذاب الله في يوم القيامة.

في صحيح مسلم وغيره أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (يؤتى بأنعم أهل الدنيا من الكفار) أنعم أهل الدنيا من الكفار يعني أقول قارون يمكن القرآن الكريم ما حدثنا عن رجل كان لديه من الكنوز تعجز العصبة القوية من الرجال عن حمل المفاتيح فقط التي هي كنوز لهذا الرجل، من هو أنعم أهل الدنيا يعلمه رب العالمين -سبحانه وتعالى- يؤتى به يوم القيامة فيغمس في النار غمسة واحدة، ولن يبقى أبد الآباد، ولا ساعة ولا ساعتين، لا غمسة واحدة، ثم يقال له هل رأيت نعيمًا قط؟ تلذذت بنعيم تشعر به، الآن هل تشعر أنك قد تنعمت عشر سنوات عشرين سنة مائة سنة؟ فيقول: لا والله ما رأيت نعيمًا قط، وفي المقابل يؤتى بأبأس أهل الدنيا من أهل الجنة يعني أفقرهم أتعبهم حالًا الذي ضيق عليه، الذي قد يكون مر بفترات فيها شدة فيها صعوبة، فيها ضيق وغير ذلك مما يمكن أن يمر بأهل الإيمان، وقد كان بعضهم يقتل ظلمًا وعدوانًا في سبيل الله -تبارك وتعالى- يؤتى بأبأس هؤلاء من أهل الجنة فيغمس في الجنة غمسة واحدة، ثم يقال له يا عبدي هل رأيت بؤسًا قط؟ فيقول: لا والله ما رأيت بؤسًا قط.

إذن هذا النعيم الذي فيه الكفار اليوم، والله ليس أمارة على أنهم أفضل من غيرهم عند رب العالمين -سبحانه وتعالى- ولا حتى لهم شيء من الفضل.

ثم يقول رب العالمين سبحانه: ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ هنا يخبر رب العالمين -سبحانه وتعالى- عن عدله التام، وهو أنه سبحانه لا يؤاخذ العباد ولا يهلك قرية من القرى التي كذبت إلا بعد إقامة الحجة عليهم؛ وهذا تمام عدل رب العالمين -سبحانه وتعالى-: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٠]، ومن عدل الله -سبحانه وتعالى- وحكمته أنه لا يعذب إلا بعد إقامة الحجة على العباد ببعثة الأنبياء والمرسلين، وأذكر أنني قد تحدثت في بعض المسائل العقدية حول هذا المعنى، ولا أود أن أقف عندها لضيق الوقت، فمعتقد أهل السنة والجماعة إن إقامة الحجة على العباد تكون لبعثة الأنبياء والمرسلين، بخلاف بعض الفرق الكلامية، الذين اعتبروا العقل هو مناط التكليف، ولكن عند أهل السنة أن الله لا يؤاخذ أحدًا من العباد إلا بعد إقامة الحجة الرسالية عليهم، وليست أي حجة عقلية وغيرها، وإنما الحجة الرسالية بدليل قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥]؛ ولذلك أقولها كلمة مختصرة الحجة أقيمت على العباد بالشرع ولا بالعقل؟

بالشرع

بالشرع، الحجة تقام على العباد بالشرع الذي ينزله رب العالمين -سبحانه وتعالى- على أنبيائه ورسله، وهذا من كمال عدل رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

ثم بعد ذلك يعود السياق أيضًا إلى الحديث عن القرآن الكريم، وتنزيل القرآن الكريم، وأن القرآن الكريم فوق مقدور جميع المخلوقات، فيقول سبحانه: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ هذا الكتاب الكريم -القرآن الكريم- الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هذا الكتاب الذي نزل من عند رب العالمين -سبحانه وتعالى- يخبر ربنا -عز وجل- في هذه الآية: أن الشياطين تعجز عن أن تتنزل بهذه القرآن الكريم أو أن تنطق به، وذكرت هذه الآيات ثلاثة أوجه تجعل من المستحيل أن تنزل الشياطين بالقرآن الكريم:

الوجه الأول: أنه لا ينبغي لهم ما معنى لا ينبغي لهم؟

يعني أنه ليس من بغيتهم ولا من طلبهم؛ لأن القرآن الكريم كتاب هداية، كلام كله حق، كله نور، كله ضياء، والشياطين وما هم عليه من أفعال على عكس ذلك، فهم لا يريدون الخير ولا الضياء ولا النور، فكيف يتنزلون بهذا الأمر الذي هم ليسوا على شيء منه! فالوجه الأول أنه لا ينبغي لهم؛ لأنه ليس من طلبهم ولا من الأمر الذي يبحثون عنه ولا يريدونه.

الوجه الثاني: أن الله -عز وجل- أثبت عجزهم عنه وكفى ذلك لما قال: ﴿ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ فقال: أولًا: أنه لا ينبغي لهم، والأمر الثاني أنهم لا يستطيعون النزول بالقرآن الكريم.

الوجه الثالث: فهو ما جاء في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾؛ لأن الله -عز وجل- قد حرص السماء بالشهب التي تحرق هؤلاء الشياطين إن أرادوا أن يسترقوا السمع من السماء حتى ينزلوا بشيء من القرآن الكريم، فالسماء قد حُرست تمامًا من أن يتسرب إليها شيطان واحد أثناء نزول القرآن الكريم وفي ذلك يقول رب العالمين سبحانه: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴾ [الجن: ٨- ٩].

المحور الثالث في هذه الآيات: أمر الله لنبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- بتبليغ الرسالة، والتوكل على الله وحده، وتحته قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ التوحيد أصل الدين وأساسه؛ ولذلك جاءت آيات القرآن الكريم في الحث على إفراد الله -عز وجل- بالعبادة والتوجه له بجميع أنواعها، وبيان أنه -سبحانه وتعالى- هو المعبود وحده دون سواه، وأن غيره لا يعبد، أي كان هذا الغير، آية القرآن كما ذكرت كثيرة في ذلك، وهنا يأتي نهي للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يدعو مع الله إلها آخر، وهذا في الحقيقة تشريع لأمة النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ لأنه يستحيل أن يدعو النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو إمام الموحدين، إمام الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه، يستحيل أن يتخذ لله ندًا أو من دون الله -تبارك وتعالى- وليًا.

وهذا واضح، وقد سبق أن بينته لكم فيما مضى أن الخطاب في القرآن الكريم إلى جهد النبي -صلى الله عليه وسلم- في أمر مستحيل أن يقع فيه فالأمر برمته أن هذا من باب التشريع، وقد تكون فيه فائدة كما أشار إليها بعض أهل العلم، وهو أن هذا الأمر إذا كان قد وجه إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فغيره من باب ماذا؟ فغيره من باب أولى؛ لأن بعض الناس لما تأتي وتقول له: والله هذا فعل المشركين؟ يقول لك: أنا مشرك؟ أنت تقول على كذا؟ ويرفع نفسه وتأنف نفسه أن يستمع إلى كلمة حق في فعل باطل هو يفعله، والآية تخبر أن من اتخذ من دون الله -تبارك وتعالى- وليًا أنه يعذب في الدار الآخرة: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾ وهذا يفيد أن المشركين سيعذبون أم لا؟ سيعذبون، بل أنهم سيعذبون في النار آبد الآباد؛ لأن أعظم المعاصي بإطلاق معصية الشرك بالله -تبارك وتعالى- وأنهم سلبوا حق الله وإعطائه لغير الله -تبارك وتعالى-، الله -عز وجل- قد حرم الجنة على أي مشرك، يشرك بالله -تبارك وتعالى- شركًا أكبر.

ثم بعد ذلك يأمر الله -عز وجل- نبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- أن ينذر عشيرته الأقربين ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾، وفي البخاري ومسلم وغيرها عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أن هذه الآية لما نزلت على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: (صعد الصفا ثم نادى: واصباحاه) يعني كلمة يريد من ورائها أن يجمع الناس إليه صلوات الله وسلامه عليه، فاجتمع الناس إليه فقال: (يا بني فلان لو أن خيلا وراء هذا الوادي أو خلف هذا الوادي وهو على الصفا تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدق؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبًا، فقال لهم -صلى

الله عليه وآله وسلم- إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد)، فقام أبو لهب من بين الناس وقال له: تبًّا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟

والشاهد من الحديث: أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لما نزلت هذه الآية قام بتنفيذ أمر ربه إليه، في صحيح مسلم: (عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لما نزلت عليه هذه الآية دعا قريشًا فعم وخص يعني عمَّ -صلى الله عليه وآله وسلم- بالكلام قريشًا وخص أيضًا -صلى الله عليه وآله وسلم- بعد أقربائه بالذكر، عمَّ وأخص فقال: يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئً).

ثم بعد ذلك خص النبي -صلى الله عليه وسلم- خص عمته صفية وخص ابنته فاطمة رضوان الله تعالى على جميع أصحاب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وفي كلٍ يقول: (أنقذوا أنفسكم من النار لا أغني عنكم من الله شيئً) وهذا الإنذار الخاص الذي طلب من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وأن يقوم به للأقربين لا يتنافى مع الإنذار العام ولا يتنافى معه وأنذر عشيرتك الأقربين، لا يتنافى مع الأوامر الربانية الواردة، وقد ذكرت بعضها: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩].

ثم يأمر الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- طالما أنه يدعو الناس إلى الله، فإذا الإدعاء إلى الله -عز وجل- بلين الجانب وخفض الجناح فيقول: ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، -صلى الله عليه وآله وسلم- هذا النبي -عليه الصلاة والسلام- كان في قمة الرحمة بما يدعوهم إلى الله -عز وجل- وأنا قد أشرت إلى ذلك لو تذكرون في أول سورة الشعراء التي معنا، وقلت لكم بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كادت نفسه أن تتمزق حسرة على كفر الكافرين، وأما الداعي كلما كان قريبًا إلى الله -عز وجل- كلما كان رحيمًا بخلق الله وبالعصاة؛ لأنه يرغب أن يرجعوا إلى طاعة رب العالمين -سبحانه وتعالى- ولين الجانب وخفض الجناح هو كناية عن التواضع لمن يتعامل معه الإنسان ويدعوه إلى الله -تبارك وتعالى- أمر متحتم اليوم على الدعاة إلى الله -تبارك وتعالى- ونحن إذ نذكر هذه الآية يجب أن نستفيد من هذه التوجيهات الربانية التي خوطب بها نبينا صلوات الله وسلامه عليه، وهناك آيات كثيرة في الحقيقة لضيق الوقت نذكرها: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤]، فيا أهل الإيمان كونوا فيما بينكم أزلة، فيما بينكم رحمة، فيما بينكم لين جانب وتواضع وغير ذلك.

ثم بعد ذلك يأمر الله أيضًا نبيه -صلى الله عليه وسلم- بالأمر الذي أشرت إليه مرارًا ألا وهو ترسيخ عقيدة الولاء والبراء في الأمة فأمر بلين الجانب مع من؟

مع المؤمنين، أما مع الكافرين فيجب أن يتبرأ من أعمالهم لا تداهن يا عبد الله هؤلاء المجرمين المكذبين لا تواليهم، لا تنصرهم، بل يجب أن تعلن البراءة من أعداء رب العالمين، وهنا يقول الله -عز وجل- لنبيه وحبيبه ومصطفاه -صلى الله عليه وآله وسلم- بعد أن أمرهم بأن يخفض جناحهم لمن اتبعهم من المؤمنين قال له: ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

ثم يقول الله له: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾، وتوكل على العزيز الرحيم يعني سلم أمورك لله -تبارك وتعالى- لأن الله مؤيدك؛ لأن الله ناصرك؛ لأن الله معز أمرك؛ لأن رب العالمين -سبحانه وتعالى- هو الذي تولى شأنك، والنبي -عليه الصلاة والسلام- قد سلم لربه في كل أمر.

الله قال له: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾، وختام هذه الآية والوقت يضيق كما أشرت إلى أننا نقف عند كل كلمة من هذا الآيات، ذكر العزة هنا يفيد أنه غالب على أمره -سبحانه وتعالى- فأنت حينما تتوكل، تتوكل على

ركن قوي متين، والله -عز وجل- قد أمر نبيه -صلى الله عليه وسلم- في القرآن الكريم كثيرًا بأن يتوكل عليه كقوله سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود: ١٢٣]، وكقوله: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل: ٩]، ولعلكم تلاحظون لما جاء يأمر بالتوكل ذكر ما يدل على عظمته وجلاله وكماله وتمام قدرته سبحانه، فقال رب المشرق والمغرب، فإذا كان هو رب المشرق والمغرب، وهو رب المشارق والمغارب، فلمن يلجأ العبد إلى غير هذا القوي سبحانه وتعالى المتين؛ ولذلك قلت بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- نفذ ذلك غاية التنفيذ، كان يقف بين يدي ربه خاشعًا متبتلًا فيقول: (اللهم إني أسلمت نفسي إليك) وعندما ينام يقول ذلك (اللهم إني أسلمت نفسي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك) صلوات الله وسلامه عليه.

ثم بعد ذلك أيضًا تأتي الآيات تبين مزيد عناية وتكذيب للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- حينما يفرده، رب العالمين وينص على أنه يراه، لما قال: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾، قال: ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾، طب رب العالمين يرى كل ما خلق جل في علاه ولكن التنصيص على النبي -صلى الله عليه وسلم- فيه مزيد عناية بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وهذا كقوله: ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨]، قال: ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾، يعني تقوم من فراشك للصلاة والركوع والسجود ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾، يعني مع الساجدين يعني إن كنت وحدك وإن كنت تصلي مع جماعة مؤمنين.

المحور الرابع: الشياطين تنزل على الكاذبين المجرمين، وتحته: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾، هذا أيضًا يا أخوان فيه تمجيد للقرآن الكريم، فبعدما أشار الله -عز وجل- على أنه أنزل القرآن وأن الشياطين تعجز على أن تنزل به أخبر على من تنزل الشياطين قال: ﴿ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾، الأفاك هو الكاذب، والأثيم هو المجرم ﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾، يعني أنهم يحاولون استراق السمع، وهذا موجود لدى الشياطين وأشير إليه إشارة؛ لأن فيه سؤالًا عند هذا المعنى الشياطين تسترق السمع من السماء، فأحيانًا الجني يخطف كلمة مما قضاه رب العالمين -سبحانه وتعالى- يتبعه شهاب ثاقب، ولكن الجني قبل أن يتبعه الشهاب يلقيه إلى من هو أسفل منه، والأسفل منه يلقيه إلى من أسفل منه، إلى من هو أسفل منه حتى يلقيه في أذن وليه من الإنس، فتأتي هذه الكلمة فيكون فيها صادقًا؛ ولذلك لما سئل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الكهان قال: (ليسوا بشيء) -صلى الله عليه وسلم- فقيل يا رسول الله: إنهم يصدقون، إنا نأتي الكهان ويصدقون فقال -صلى الله عليه وآله وسلم-: (تلك الكلمة يلقيها الجن في أذن وليه فيصدق مرة ويكذب في مائة مرة).

ولذلك أقول هنا وأشدد على النهي عن الذهاب إلى السحرة وإلى الكهان، وأقرر أيضًا ما قرره القرآن بأن علم الغيب لله وحده، فلا يعلم أحد الغيب إلا الله -سبحانه وتعالى-، طيب يأتي واحد الآن ويقول طب نحن ذهبنا إلى الكاهن أو للساحر فأخبرنا بكلمة حق وصدق فنقول: هذا يصدق مرة، هذه كلمة تلقاها من الجني، والحقيقة المقام طويل، ولكن لضيق الوقت لن نستفيض أكثر من هذا؛ لنشير إلى المحور الخامس في دقائق:

المحور الخامس: وهو بعنوان: الشعراء غاوون وصالحون، وتحته قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ سأذكر المهم والمفيد في هذه الآية، هل هذا فيه نهي عن الشعر؟ وخاصة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كما ثبت في الصحيح أنه قال: (لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا خيرًا له من أن يمتلئ شعرً)، وكيف نوفق بين ذلك وبين سماع النبي -صلى الله عليه وسلم- للشعر من حسان بن ثابت وغيره في مسجده؟ وقوله -صلى الله عليه وسلم- لحسان: (اهجوهم وروح القدس معك)، وفي رواية (وجبريل معك)؟

أقول الشعر من كلام الناس حسنه حسن وقبيحه قبيح، والله -عز وجل- لما ذكر الشعراء هنا وذكر من صفاتهم ﴿ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾، يعني في كل طريق يبحثون عن الغيب، ويمدحون ويذمون بلا دلائل وبلا براهين إلا أن الله بعد ذلك استثنى منهم من آمن بالله -عز وجل- وعمل صالحًا وذكر الله كثيرًا فقال: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾، وتختم هذه الآية بقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾، وهذا الختام أراه -والله تبارك وتعالى أعلم- أنه ختام سديد يتناسب مع القصص الذي ورد في السورة؛ لأن الله -سبحانه وتعالى- أرى الظالمين مصارعهم حينما أهلكهم، وسيرون أيضًا حينما يقفون بين يدي الله -عز وجل- نتيجة ظلمهم: ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾، وقد اخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الصحيح: (أن الظلم ظلمات يوم القيامة)، وهذا يفيد أن يبعد المؤمنون على الظلم وأن يكونوا مع الظالمين، وأكتفي بهذا وأصلي وأسلم على نبينا محمد -صلى الله عليه وآله وسلم-.

في الحلقة الماضية كان السؤال الأول: اذكر معاني الكلمات الآية: ريع، مصانع، خلق الأولين؟

وكانت الإجابة: الريع: هو المكان المرتفع وكانوا يتخذون منه بيوتًا في الأمكنة المرتفعة من أجل اللهو والافتخار وليس للحاجة إليها، مصانع: هي أماكن تجمع المياه وهي تناسب الآن الآبار والعيون، خلق الأولين: أي دين الأولين أو أخلاق الأولين بالقراءة الثانية خلق الأولين

يعني هي خلق الأولين أو خلق الأولين، تفضل.

والسؤال الثاني: فصِّل القول في العذاب الذي نزل على قوم لوط مستدلًا على ما تقول بالقرآن الكريم؟

وكانت الإجابة: جاء عن مجاهد وقتادة أن جبريل -عليه السلام- رفع القرى اللوطية وكانت ثلاث أو أربع قرى رفعها بطرف جناحه إلى السماء حتى سمعت الملائكة نُباح كلابهم ثم قلبها فجعل عاليها سافلها ولم يكن عذبهم عند هذا الحد بل أسقط الله عليهم حجارة كل حجر عليه اسم صاحبه الذي يموت به قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٢- ٨٣]

الجواب سديد والحمد لله.

بارك الله فيكم يا شيخ وجعله الله في موازين حسناتكم هذه هي الحلقة الأخيرة

الحمد لله على التمام، ونسأله أن يكون تمام خير، وأن ينفعنا الله -عز وجل- بما نقول ونسمع، وأن يسبب خطوات أهل الإيمان على البر والتقوى، وأن ينفع كما قلنا طلاب العلم وطلاب الأكاديمية على وجه أخص، ونأمل وندعو الله -عز وجل- أن يحشرنا وأن يجمعنا في جنته كما جمعنا مع إخواننا وأحبابنا في مثل هذه اللقاءات المباركة.

التفسير – المستوى الخامس

فضيلة الشيخ/ عبد الله شاكر

المحاضرة الأولى

تفسير بداية سورة النمل

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين، وبعد...

فإنها فرصة عظيمة أن نواصل مسيرتنا التعليمية بحول الله -تبارك وتعالى وقوته- في هذه الأكاديمية العلمية ومع تفسير الحافظ ابن كثير -رحمه الله تبارك وتعالى- وأسأل الله -عزّ وجلّ- أن يلهمنا السداد والقبول في القول والعمل، وأن يصلح نياتنا وأحوالنا، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير.

وموضوع هذا اللقاء -إن شاء الله تبارك وتعالى- مفتتح سورة النمل، لأننا قد انتهينا في اللقاءات الماضية بنهاية سورة الشعراء ونسأل الله -عزّ وجلّ- أن يعيننا وأن يوفقنا على إتمام هذه المسيرة المباركة مع كلام رب العالمين -سبحانه وتعالى- ويدور هذا اللقاء حول محورين اثنين:

المحور الأول: القرآن الكريم وهدايته للمؤمنين.

المحور الثاني: قصة موسى -عليه السلام.

ولنستمع الآن إلى الآيات التي يدور حديثنا -إن شاء الله تبارك وتعالى- حولها مع الأستاذ عبد الرحمن نبيل، فليتفضل.

طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ؟١؟ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ؟٢؟ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ؟٣؟ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ؟٤؟ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ ؟٥؟ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ؟٦؟ إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ؟٧؟ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ؟٨؟ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ؟٩؟ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ؟١٠؟ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ؟١١؟ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ؟١٢؟ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ؟١٣؟ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ؟ [النمل: ١: ١٤].

هذه الآيات التي استمعنا إليها الآن من أوائل سورة النمل، افتتحها رب العالمين -سبحانه وتعالى- بقوله: ؟ طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ؟، هذه السورة الكريمة المباركة كبعض سور القرآن الكريم، افتتحها رب العالمين -سبحانه وتعالى- بالأحرف التي ينطق بها العرب، ولو نظرنا إلى جملة الصور والحروف التي افتتح الله -سبحانه وتعالى- بها بعض سور القرآن الكريم سنجد أنها من غير المكرر تصل إلى أربعة عشر حرفا، وقد

جمعت أجناس الحروف كلها من الحروف الشديدة أو الرخوة أو المقلقلة وغير ذلك، وهذه الحروف اختلف العلماء في المراد منها، فقال بعضهم: هذه الحروف وهي من نوع حروف الهجاء مما استأثر الله -تبارك وتعالى- بعلمه، فلا يعلمه أحد، وقال بعضهم بأنها أسماء لسور القرآن الكريم، ويؤيد هذا، الحديث الذي جاء في صحيح البخاري ومسلم وغيرهما من رواية أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- (كان يقرأ في فجر يوم الجمعة بـ "الم" السجدة و"هل أتى") فأطلق على سورة السجدة التي كان يقرؤها النبي -صلى الله عليه وسلم- هذه الأحرف التي افتتح رب العالمين -سبحانه وتعالى- بها بعض السور، وقال بعض أهل العلم بأنها أسماء لله -تبارك وتعالى.

وفي الحقيقة، لم أرَ -بعد بحث طويل لدى جمهور المفسرين- لم أرَ بينهم اتفاقا يَنُصّ على قول واحد في هذه المسألة، هذه الأحرف -كما ذكرتُ- أربعة عشر حرفا، وقد اختلف فيها أهل العلم وفي المراد منها، وقد ذكر العلماء بأن هذه الحروف إذا أراد إنسان أن يعرفها عليه أن يعرف نص هذه العبارة: «نص حكيم قاطع له سر»، هذه الأحرف مجموعة في هذه الجملة، ولكن على قولٍ، فإن أهل العلم لم يُجمِعوا على قول فيها، وعلى أن الله -عز وجل- قد استأثر بمعانيها، فهل يمكنني أن أطرح سؤالا، وهل نستطيع أن نجيب عليه بمعنى: هل القرآن الكريم فيه ما لا يُفهَم معناه؟ لأن بعض أهل العلم قالوا بأن هذا مما استأثر الله -تبارك وتعالى- بعلمه؟

في الحقيقة، القرآن الكريم نزل من عند الله -تبارك وتعالى- هداية للبشرية، وسيأتي معنا في هذا السياق ما يدل ويرشد ويشير إلى ذلك، وبالتالي نقول: قد تكون هناك بعض آيات القرآن الكريم التي تشتبه على بعض الناس، والتشابه قد يكون نسبيًّا، أو تتشابه على بعض الناس بمعنى: أن حقيقتها وما تَؤُولُ إليه لا يعلمه إلا رب العالمين -سبحانه وتعالى- ولكن يبقى ما خُوطِبْنَا به أننا نعرفه ونفهمه، لأنه على الراجح من أقوال أهل العلم: لا يوجد في كتاب الله -تبارك وتعالى- ما لا يفهم معناه، فهذا بعيد؛ لأن الله -تبارك وتعالى- أنزل كتابه كي يقوم الناس بقراءته، وتلاوته، والقيام لله -عز وجل- به في الصلاة، والعبادة من خلاله لله -تبارك وتعالى- والله -عز وجل- أمرنا بتدبر آياته ومعرفتها، والوقوف عند أسرارها، وكل ذلك يجعلنا نقول: لا يمكن أن تكون بعض آيات القرآن الكريم ليس لها معنى، ولا يدرك الإنسان لها مفهوما أو مغزى.

ومن هنا أقول: إن أهل العلم لاحظوا مَلْحظًا جميلا سديدا موفقا -فيما أراه- في معاني أو ما ترشد إليه هذه الحروف.

القرآن الكريم نزل على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في مكة المكرمة، وقد أنكره المشركون ولم يؤمن بالنبي -عليه الصلاة والسلام- في بداية عهده إلا النذر اليسير، وعامة كفار قريش الذين خوطبوا أولا بالقرآن الكريم تصدَّوْا لهذا القرآن، ولتكذيب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ولِمَا جاء به من عند ربه، فتنزل هذه الأحرف على النبي -عليه الصلاة والسلام- في مفتتح بعض السور، وكأنها تخاطب هؤلاء المشركين قائلة لهم:

القرآن الكريم الذي نزل من عند الله -عز وجل- وتحداكم الله -تبارك وتعالى- به هو من جنس الحروف التي تنطقون بها، فهل يمكنكم أن تأتوا بشيء يشبه كتاب الله -تبارك وتعالى؟ وفي هذا إقامة الحجة عليهم، وإثبات أنهم عاجزون عن مواجهة القرآن الكريم؛ لأنه نزل بلغتهم وهذه أحرف القرآن الكريم مقطعة بين أيديهم، وهي الأحرف التي ينطقون بها ويذكرونها في أشعارهم وفي كلامهم، ولديهم من الفصاحة والبلاغة ما لديهم، ولكنهم مع كل ذلك عجزوا عن أن يأتوا بشيء يشبه القرآن الكريم، وبالتالي هذه الأحرف تكون فيها إقامة حجة على المكذبين المنكرين بآيات القرآن الكريم، ولعل ما يؤيد ذلك ويرشحه في أن هذا المعنى أو المفهوم، أن هذه الأحرف تحدى الله -تبارك وتعالى- بها العرب، أنك إذا رجعت إلى آيات القرآن الكريم التي افتتحها رب العالمين -سبحانه وتعالى- سور القرآن الكريم التي افتتحها بهذه الأحرف، ستجد أنها يأتي بعدها حديث مباشر عن القرآن الكريم، كالسورة التي معنا الآن: ؟ طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ؟، مثلا في سورة الأعراف: ؟

المص ؟١؟ كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ؟ [الأعراف: ١: ٢]، إلى آخر الآيات والسور التي جاءت لتبين حقًّا أن هذا المعنى صحيح موافق لسياق كتاب الله –تبارك وتعالى– الكريم.

إذن، هذه الأحرف.. نحن وإن قلنا بأنه قد يغيب عنا بعض حقائق هذه الأحرف التي أراد رب العالمين –سبحانه وتعالى– منها أو من ورائها، إلا أننا ندرك أنها من الأحرف التي يتحدث بها العرب، وأنها متداولة بين الناس داخلة في كلامهم وفي أشعارهم، والله –تبارك وتعالى– أقام الحجة على المنكرين المشركين المكذبين بذكر هذه الأحرف في بداية بعض سور القرآن الكريم.

بعد ما ذكر الله –عز وجل– هذا الافتتاح عقب عليه بقوله: ؟ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ؟، تلك: يعني هذه الآيات التي ستتلوها وستنزل عليك يا رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– هي آيات القرآن الذي نزل من عند رب العالمين –سبحانه وتعالى– وهذا القرآن هو أيضا كتاب مبين، ومعنى كتاب مبين: يعني كتاب بَيِّن واضح، ولعلكم تلاحظون أن الله –عز وجل– ذكر في كلمة واحدة كلمة "القرآن" وكلمة "الكتاب" وصفا للآيات التي نزلت من عنده، وبالتالي نقول قرآن؛ لأنه يقرأ وكتاب؛ لأنه مكتوب، ولذلك علماء السلف رحمهم الله –تبارك وتعالى– يقولون: «القرآن الكريم أنَّى توجهت به هو كلام الله –تبارك وتعالى– سواء حفظ في الصدور هو كلام الله، قرأه القارئ بلسانه هو كلام الله –تبارك وتعالى– كتبناه في المصاحف هو كتاب الله –سبحانه وتعالى– جل ذكره»، وهذه ميزة للقرآن الكريم أنه محفوظ في الصدور، متلو بالألسن، مكتوب في الورق وكتب بالمداد المعروف لدى الناس، وكل ذلك من باب التكريم لهذا القرآن الكريم الذي نزل من عند رب العالمين –سبحانه وتعالى.

ثم بين الله –عز وجل– في الآية التالية أن هذا الكتاب الذي نزل من عنده هو في الحقيقة: ؟ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ؟، القرآن الكريم كتاب رحمة، القرآن الكريم كتاب هداية، القرآن الكريم نزل بالبشرى لأهل الإيمان؛ لأن فيه بشارة عظيمة لما وعدهم به رب العالمين –سبحانه وتعالى– في الدار الآخرة، ولذلك صدق ربنا –سبحانه وتعالى– في قوله: ؟ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ؟، قوله "للمؤمنين" يفيد: أن الهداية والبشرى تختص بمن؟ تختص بأهل الإيمان، وبالتالي من كذب بالقرآن الكريم ولم يصدق به، ولم ينزل عند حدوده وأوامره، يكون القرآن عليه بالعكس، وسيأتي سياق بعض الآيات التي تدل على ذلك، وبالتالي نحن ندعو عموم الناس إلى أن يدخلوا في سلك الإيمان؛ كي يستفيدوا من القرآن الكريم، ويحصُلُوا على النجاة إذا وقفوا بين يدي الله رب العالمين.

ثم وصفت الآيات بعد ذلك هؤلاء المؤمنين بصفات، وهي أنهم يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بالآخرة: ؟ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ؟، "الذين يقيمون الصلاة": هي من أخص صفات المؤمنين أنهم يقيمون الصلاة لله رب العالمين، ومعنى إقامة الصلاة؟ أو التعبير بإقامة الصلاة يفيد: أنه يجب على المرء المسلم أن يأتي بالصلاة لله –تبارك وتعالى– كما أمر الله وعلى سنة وهدي رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأن إقامة الشيء ضد اعوجاجه، ولا يكون الشيء مستقيما قائما إلا إذا أتى الإنسان به على حقيقته التي طُلِبَت منه، وبالتالي فإنني أقول بأن التعبير بإقامة الصلاة مقصود هنا ليدل وليفيد هذا المعنى، كذلك أيضا "يؤتون الزكاة" وقال أهل العلم: إيتاء الزكاة هنا المراد بها إيتاء الزكاة الواجبة، فالله –عز وجل– قد فرض على المسلمين زكاة واجبة في أموالهم التي تفضَّل الله –تبارك وتعالى– بها عليهم.

ثم قال رب العالمين –سبحانه: ؟ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ؟، هنا يجب أن تكون لنا وقفة، هؤلاء الذين آمنوا بالله –عز وجل– استجابوا لأوامر الله؛ لأن قلوبهم استيقنت باليوم الآخر، واليقين في اليوم الآخر وأنه آتٍ لا محالة، وأن العبد سيقف بين يدي الله رب العالمين –سبحانه وتعالى– لَيَدفع الإنسان إلى الأعمال الصالحة، كلمة جميلة لبعض أهل العلم يقول فيها: «الإيمان باليوم الآخر عليه مدار استقامة الإنسان». إذا أنت يا إنسان، يا عبد الله، يا من خلقك الله لعبادته، أيقنت بأنك ستُبعَث وستُسْأل وستقف بين يدي الله –عز وجل– هذا يدفعك إلى أن

تتحسس مواطن أقدامك، وبالتالي حقًّا من يؤمن يقينا، وقلبه يكون مستقرًّا وموقِنًا بأنه سيبعث، لا شك أنه سيتحرَّى مواطن أقدامه، وسيتحرى كلماته وأفعاله، ولا شك أنه يُفهم من مفهوم المخالفة لقول الله -تبارك وتعالى- هنا: ؟ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ؟، ومفهوم المخالفة المعروف بـ"دليل الخطاب": أن القرآن الكريم ليست فيه هداية ولا بشرى لمن؟ لغير هؤلاء المؤمنين، والله -عز وجل- قد نص على ذلك في كتابه في أكثر من آية:

؟ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ؟ [فصلت: ٤٤]، ؟ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا ؟ [الإسراء: ٨٢]، ؟وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ؟١٢٤؟ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ؟ [التوبة: ١٢٤: ١٢٥].

إذن، القرآن الكريم حقًّا هداية وبشرى لأهل الإيمان، وهذه الآية -كما فهمنا- نفهم من مفهوم مخالفتها أنها لا يستفيد من القرآن الكريم من عطّل حواسه ولم يؤمن بالله -تبارك وتعالى- رب العالمين -سبحانه- ثم بعد ما بين الله -عز وجل- أن القرآن الكريم فيه هداية وفيه بشرى للمؤمنين، ذكر حال الكافرين المكذبين الذين لا يؤمنون بالآخرة وبالتالي لا يؤمنون برب العالمين فقال سبحانه: ؟ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ؟ هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة، الآية تبين فساد ما هم عليه، وأن رب العالمين -سبحانه وتعالى- ابتلاهم بأن زَيَّن لهم أعمالهم حتى أصبحوا في غَيِّهم يترددون ويتحيرون، وفي الظلمات ينقلبون، ولا شك أن التزيين فِعْل مَن؟ فِعْل الله -تبارك وتعالى- فَعَلَه بهؤلاء المكذبين، ويعد عند أهل العلم ممن يهتمون بمسائل الاعتقاد، يقولون بأن هذا الفعل يأتي على سبيل الجزاء؛ يعني أن الله -تبارك وتعالى- يجازيهم بالتزيين لأعمالهم الباطلة على أنها حسنة من باب أنهم ماذا؟ أنهم لم يؤمنوا برب العالمين -سبحانه وتعالى- ولم يصدقوا به، ولم يدخلوا في زمرة أهل الإيمان، ويتابع النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ويؤكد هذا القول أو هذا المفهوم أو هذا المعنى بعض الآيات الواردة في القرآن الكريم، كقول الله جل ذكره: ؟ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ؟ [الأنعام: ١١٠]، وكقوله أيضًا -سبحانه وتعالى: ؟ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ؟ [الصف: ٥].

إذن، الله -سبحانه وتعالى- حقيقة زين لهم أعمالهم وحسنها لهم، وهي أعمال كلها ضلال وانحراف وكفر حتى يَؤُول أمرهم إلى ماذا؟ إلى دار البوار والعياذ بالله -تبارك وتعالى- وهذا كان جزاءً من الله -عز وجل- لهم؛ لأنهم لم يستجيبوا للإيمان لما نزل عليهم الأمر بذلك من عند رب العالمين -سبحانه وتعالى- قد يقول قائل: هذا الفعل جزائي؛ يعني هم كفروا فجزاهم الله -عز وجل- بذلك، أما الفعل الابتدائي الذي هو لا يكون على سبيل الجزاء ممن يكون؟ أيضا يكون من الله -تبارك وتعالى، لأن بعض الناس يقول: لماذا نصاب بالشر؟ أو يقول: أنا لماذا أفعل؟ أنا لم أرتكب ذنبا، أنا لم أقع في جريمة، ووقع علي لون من ألوان الابتلاء؟ نقول: هذا من حكمة رب العالمين -سبحانه وتعالى- قال الله -عز وجل: ؟ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ؟ [الأنبياء: ٣٥]، فالفعل الابتدائي والفعل الجزائي من عند رب العالمين -سبحانه وتعالى.

من باب الفائدة هنا أذكر بأن المعتَزِلَة طبعا لا يؤمنون بأن الله يخلق أفعال العباد، ولا يقولون بأن الله -سبحانه وتعالى- يُزيِّن هو الأعمال، وفسروا زينا بمعنى ماذا؟ بمعنى بَيَّنَا، قالوا في قوله تعالى: ؟ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ؟، قالوا: يعني بَيَّنَا لهم أعمالهم، أو قالوا بأن استدراج الله -تبارك وتعالى- عليهم بالنعم قائم مقام التزيين، وهذا في الحقيقة إنكار لفعل رب العالمين -سبحانه وتعالى- فالذي يزين الإيمان في القلب، والذي يبغض المؤمن في الكفر هو رب العالمين -سبحانه وتعالى- وهو -عز وجل- لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

ثم بعد ما ذكرت الآية أن هؤلاء زين الله -عز وجل- لهم أعمالهم حتى أصبحوا في الضلال يترددون ويتحيرون، بَيَّن رب العالمين -سبحانه وتعالى- أيضا ما أعده لهم من جزاء فقال: ؟ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ

الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ ؟، هؤلاء المذكورين قبل ذلك "الذين لا يؤمنون بالآخرة" هؤلاء الذين زين الله –تبارك وتعالى– لهم أعمالهم، لهم سوء العذاب، سوء العذاب يشمل سوء العذاب في الدنيا وفي الآخرة، ومع ذلك نَصَّ الله –عز وجل– على العذاب الأخروي؛ لأنه دائم عليهم أبدَ الآباد، سوء العذاب يكون في الدنيا بالقتل والتشريد والتدمير، كأن يأخذهم رب العالمين –سبحانه وتعالى– أو أن يمكِّن المسلمين من رقابهم كما حصل في غزوة بدر والأحزاب وغير ذلك من الغزوات، هذا سوء العذاب لهم في الدنيا، أما في الآخرة فهم أخسر الناس في الآخرة ؟ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ ؟، الأخسرون هذا "أفعل تفضيل"، وأفعل التفضيل كما هو معروف عند علماء العربية يدل على أن شيئيين اشتركا في أمر وزاد أحدهما على الآخر فيه، فجميل مثلا وأجمل كلاهما اشتركا في صفة الجمال، ولكن أجمل أعلى درجة من الجميل، فقد يكون الناس في الآخرة في خسارة أو بعض الناس في خسارة، ولكن هؤلاء الناس الذين زين الله –عز وجل– لهم أعمالهم ولم يؤمنوا بالله ويدخلوا في التصديق بالنبي –صلى الله عليه وسلم– هم أخسر الناس في الدار الآخرة، أشد الناس خسرانا في الدار الآخرة هم الذين كذبوا بالأنبياء والمرسلين، وعلى رأسهم الآن النبي الأمين –صلى الله عليه وآله وسلم.

الخسارة الواقعة على هؤلاء يا إخواني من جهتين:

ولذلك قلوبهم ستتحسر عندما يعرفون ذلك ويعاينون العذاب.

الخسارة الأولى:

هو أنهم يحشرهم رب العالمين إلى نار جهنم، ولا أشد على الإنسان ولا أنكى من أن يعذب، إن كان منعما في الدار الدنيا فإنه يعذب بأقصى ألوان العذاب في الدار الآخرة.

الخسارة الثانية:

أنهم خسروا منازلهم في الجنة، وهذه أيضا خسارة وقعت عليهم وهم في دار الجحيم...

بعد ذلك تنتقل الآيات ليُختم المحور الأول بآية تمهيدية للمحور الثاني، وهي قول الحق –تبارك وتعالى– موجِّهًا الخطاب إلى النبي –صلى الله عليه وآله وسلم: ؟ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ؟، وإنك يا رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– لتلقى القرآن؛ يعني تأخذ القرآن، من لدن؛ يعني من عند، من عند من؟ من عند من يتصف بصفات الجلال والكمال، ورب العالمين –سبحانه وتعالى– وصف نفسه في هذه الآية بصفتين الحكمة وماذا؟ الحكمة والعلم، الحكمة: وضع الشيء في موضعه، والعلم: هو العلم الواسع الذي أحاط ربنا –سبحانه وتعالى– به فهو –سبحانه وتعالى– قد أحاط بكل شيء علما، فحكمة وعلم لا شك أن هذا يجعل الإنسان حينما يسمع ذلك يصدق بما نزل من عند رب العالمين –سبحانه– ويوقن ويدرك أن خبر الله –سبحانه وتعالى– صدِق، وأن حكمه عدل، كما قال سبحانه: ؟ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ؟ [الأنعام: ١١٥]، قال أهل العلم: صدقا في الإخبار وعدلا في الأحكام، ولذلك جاءت الآية بالحكمة والعلم هنا: ؟ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ؟ هذه الآية أيضا قبل أن أنتقل منها أقول بأن فيها فوائد:

الفائدة الأولى: أن غير النبي –صلى الله عليه وسلم– وبعد انتهاء بعثته لا يَتَلَقَّى شيئا عن الله –تبارك وتعالى– فالتلقي يكون للأنبياء والمرسلين، فلا وحي ينزل بعد النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– وبالتالي فالفِرَق الباطنية المنحرفة التي تزعم أنه يتنزل عليها شيء من الوحي، أو أنها تطلع على شيء من الغيب من خلال كشوفات أو غير ذلك أو منامات وإلهامات، كل هذا ضلال وانحراف وباطل، فالقرآن يُتَلَقَّى من رب العالمين –سبحانه وتعالى– وقد انتهى الوحي بختام بعثة النبي –صلى الله عليه وآله وسلم.

الفائدة الثانية: أن القرآن الكريم نزل من عند الله على النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– والسؤال الآن: لماذا نذكر هذه الفائدة؟ للأسف الشديد بعض الفلاسفة وبعض من ينتسب إلى الفلسفة الإسلامية اليوم يقول: إن القرآن –لأنه ينفي صفة الكلام عن الله– عبارة عن فيض فاضَ من الملكوت الأعلى على قلب النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– ثم إن النبي –عليه الصلاة والسلام– عَبَّرَ عن ذلك بلسانه، فبعض الناس لا يعتقد أن القرآن الكريم الذي بين أيدينا الآن هو كلام الله –عز وجل– مع أن ربنا نسبه لنفسه قال: لأنه فاض من عند الله على قلب النبي –عليه الصلاة والسلام– وهذا أيضا كلام باطل.

أيضا فائدة ذكر هذه الآية قبل المحور الثاني مباشرة، يفيد تصديق النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– في ما يخبر به لماذا؟...

نتأمل الآن المحور الثاني:

المحور الثاني في قصة موسى –عليه السلام– النبي –عليه الصلاة والسلام– بعد موسى بقرون عديدة، فمن أين له بخبر موسى –عليه السلام؟ ومن أين له بهذه التفصيلات الدقيقة التي وقعت لموسى –عليه السلام؟ هذه الآية تفيد أن ذلك تلقَّاه النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– من عند ربه ومولاه، الآيات في المحور الثاني تبدأ بقول الحق –تبارك وتعالى: ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾، "إذ قال موسى لأهله"؛ يعني اذكر يا أيها الرسول –صلى الله عليه وآله وسلم– إذ قال موسى لأهله، موسى –عليه السلام– لم يكن معه غير زوجه ومع هذا فالقرآن الكريم عبر عن زوجه بأهله، والأهل كلمة كبيرة تشمل الزوجة وتشمل غيرها من الأولاد، ولذلك لما قال الله رب العالمين –سبحانه وتعالى: "إذ قال موسى لأهله" جاء بالفعل بعد ذلك جمعا فقال: "إذ قال موسى لأهله امكثوا إني آنست نارا"، لم يقل لها امكثي إنما قال: "امكثوا"، "إني آنست نارا"، آنست يعني: شاهدت نارا، ما قال شاهدت، وإنما قال آنست لماذا؟ لأن رؤية النار وقد ضل موسى –عليه السلام– الطريق من خلال ما نفهمه من هذه القصة يدل على أنه سيسترشد بذلك ويأنس وتهدأ نفسه إذا رأى نارا، لأن الذي يضل الطريق عندما يجد نارا يعرف أن هذه النار عندها أناس أشعلوها، وكان العرب قديما كانوا يشعلون هذه النار كي يأتي إليهم من يأتي إليهم ممن يعبر الطريق إلى مكان آخر.

قال موسى –عليه السلام– لأهله: ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ يعني بنبأ، ﴿ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ هذه العبارة يا إخواني تفيد أن القصة وقعت في الليل، وأن الجو كان باردا، وهنا موسى –عليه السلام– ذكر الله –عز وجل– عنه أنه قال: ﴿ سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ وفي سورة القصص –وستأتي معنا إن شاء الله تبارك وتعالى: ﴿ لَّعَلِّي آتِيكُم ﴾ [القصص: ٢٩]، لعلي تفيد الرجاء، وهنا قطع ﴿ سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾، فكيف نجمع بين الآيتين؟

نقول: إن موسى –عليه السلام– قام في قلبه أولا الرجاء؛ يعني رجا أن يأتي بخبر من وراء هذه النار، ثم قَوِيَ رجاؤه حتى وصل إلى مرحلة اليقين، ولا شك أن النفس تَقْوَى مع الأحداث ومع الوقت؛ يعني الإنسان عندما يكون ضائعا مثلا أو تائها، ثم يشاهد نارا ويتأمل فيها ويتمعن فيجدها نارا فعلاً حقيقية ويأنس، فهذا الأنس الذي وقع فيه يدفعه شيئا فشيئا إلى الاستقرار والوقوع أو حصول اليقين عنده بعد ذلك.

﴿ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ ﴾، الشهاب هو الشعلة التي تضيء وقوله: ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ من الاصطلاء، وهو من التدفئة، ولا شك أن الجو كان باردا بناء على ذلك؛ لأن النار يُستدْفأ بها، بل هناك مثل عن العرب بأن النار فاكهة الشتاء يستدفأ بها الإنسان.

موسى –عليه السلام– قال لأهله ذلك، ورأى هذه النار وطلب خبرا منها أو أن يستدفأ بشيء من ورائها، فلا شك أنه ترك أهله متوجها إلى النار، القرآن الكريم يطوي هذه الأحداث ويحذف ما يمكن أن يكون معلوما لدى المخاطب، وهذا من الأسلوب العربي وبلاغة القرآن الكريم، ويقول ابن مالك –رحمه الله: "وحذف ما يُعلَم جائز"، كما تقول: "زيد" في جواب: "من أتى". لماذا؟

لأن الآية انتقلت مباشرة: ؟ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ؟، بعد ما قال موسى لأهله "إني آنست نارا" لا شك أن السياق يشير ويدل أنه ترك أهله وذهب ليصعد إلى هذه النار، وأن يأتي إليها حتى وصل إليها، فلما جاءها وصل موسى –عليه السلام– عند هذه النار ولما وصل إليها: ؟ نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ؟.

أولا: ؟ نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ ؟ تفيد أن نداءً حصل، والراجح أن النداء من رب العالمين –سبحانه وتعالى– والله –عز وجل– قد نسب النداء إلى نفسه في كثير من آيات القرآن الكريم، نودي موسى في هذا المكان: ؟ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ ؟، قال بعض أهل العلم: المراد بـ ؟ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ ؟، هو موسى –عليه السلام– مع أن موسى ليس في النار؟ قالوا: لما كان موسى –عليه السلام– قريبا من النار كأنه فيها، فقيل: "أن بورك من في النار". وقيل: ؟ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ ؟، هو نور رب العالمين –سبحانه وتعالى– والنار تطلق على النور، ولا شك أن هذا المعنى قريب، ويؤكده الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعري –رضي الله تعالى عنه– قال: قام فينا رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– بخمس كلمات فقال: (إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يَخفِض القسط ويَرفَعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور) وفي رواية: (حجابه النار، لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه من انتهى إليه بصره من خلقه)...

فإذن حجاب رب العالمين –سبحانه وتعالى– النور أو النار، وموسى –عليه السلام– ذهب إلى هناك وناداه رب العالمين –سبحانه وتعالى– منها، والذي شاهده موسى –عليه السلام– هو نور رب العالمين –سبحانه وتعالى– ومما يدل على ذلك أن الله –عز وجل– ختم الآية بقوله: ؟ وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ؟، وكلمة سبحان "تنزيه"؛ يعني تقدس الله رب العالمين الذي هذا نوره –سبحانه وتعالى جل في علاه– هذا يؤكد أن هذا نور رب العالمين، وكلمة "سبحان" فيها تنزيه وتقديس لله –عز وجل– والعلة في ذكرها في هذا المقام، حتى لا يأتي إنسان فيقع في التشبيه لرب العالمين –سبحانه وتعالى.

بعد ذلك نادى الله –عز وجل– موسى فقال: ؟ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ؟9؟ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لاَ تَخَفْ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ؟ نادى الله –عز وجل– موسى –عليه السلام– وأعلمه أن الذي يخاطبك ويكلمك ويناجيك هو الله –عز وجل– قائلا يا موسى: ؟ إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ؟، حقيقة هنا يجب أن نفهم بأن الله –عز وجل– تفضل على موسى –عليه السلام– وكلمه في هذا المكان، وهذه مزية لمن؟ لموسى –عليه السلام– فمن مزايا موسى –عليه السلام– أن الله –تبارك وتعالى– اصطفاه وناجاه وقربه وكلمه –سبحانه وتعالى– جل في علاه، كلمه بكلام يليق بجلاله وكماله، نحن لا نعرف كيفية هذا الكلام، ونحن نؤمن بأن القرآن الذي فيه هذه الآيات هو كلام من؟ هو كلام رب العالمين –سبحانه وتعالى– والآية هذه ؟ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ؟ فيها فائدة: وهي الرد على طائفة المعتزلة الذين نفوا صفة الكلام عن الله وقالوا: إن الله خلق الكلام في الشجرة التي كان موسى –عليه السلام– عندها، نقول لهم: هذا باطل لماذا؟ لأنه لا يليق بالشجرة أن تقول: إنه أنا الله العزيز الحكيم، هل يجوز ذلك؟ لا يقول: ؟ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ؟ إلا رب العالمين –سبحانه وتعالى– في سورة طه: ؟ إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي ؟ [طه: ١٤] ولا يقول ذلك إلا من؟ إلا رب العالمين –سبحانه وتعالى– ولذلك في الآية دلالة قوية على أن الله –عز وجل– يتكلم بكلام يليق بجلاله وكماله، وأنه سبحانه يتكلم متى شاء، وكيف شاء، وأن كلامه بصوت يسمع، لأن موسى –عليه

السلام- سمع كلام من؟ سمع كلام الله -تبارك وتعالى- كل ذلك بلا كيفية؛ لأن الله -عز وجل- لـيس كمثلـه شيء.

ثم بعد ذلك أمر الله -عز وجل- موسى -عليه السلام- قائلا: ؟ وَأَلْقِ عَصَاكَ ؟، موسى -عليه السلام- فـي يديه عصا، وقد جاء في سورة طه أنه يتوكأ عليها ويستخدمها استخدامات متعددة، أمره الله -عز وجل- أن يُلقي عصاه، وهذا فيه تأهيل لاصطفاء موسى -عليه السلام- وإعداد؛ لأنه سيرسله إلى من؟ سيرسله إلـى طاغيـة، سيرسله إلى فرعون، والله -عز وجل- أَيَّدَ موسى -عليه السلام- بآيات باهرة، وقف السحرة، بل كبار السحرة مع فرعون أمامه، بل دفعتهم هذه الآيات الباهرة إلى أن يخروا سُجَّدا لله رب العالمين، وكان من الآيات التي أيد الله بها موسى -عليه السلام- هي العصا أمره الله -عز وجل- أن يلقيها من يده فألقاها فتحركت وأصبحت حية تضطرب هنا وهناك، فلما رآها موسى -عليه السلام- كذلك تهتز خاف موسى -عليه السلام- لأنـه رأى حيـة كأنها جان، عند ذلك ولى مدبرا صلوات الله وسلامه عليه ولم يرجع ولم يلتفت؛ لأنه خاف وهذا الخوف خـوف طبيعي جِبِلِّي، كما يعبر عنه وليس هو خوف السر الذي هو خوف العبادة، إنما هذا خوف له أسباب مادية، يمكن للإنسان أن يقع فيه، فلو إنسان يسير مثلا في صحراء أو حتى مع قوم من الناس ورأى أسدا قادما إليه، لا شـك أنه سيخاف، هذا الخوف له أسباب مادية، وهو خوف جبلي أو خوف طبعي.

الله -عز وجل- بين لموسى -عليه السلام- أن هذا من الله -عز وجل- وأن هذا من باب التثبيت لموسى -عليه السلام- والتأييد وأن هذه معجزة، ولذلك قال له: "لا تخف"؛ لأنه مع الله -تبـارك وتعـالى- لأنـك مـن المرسلين: ؟ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ؟، وبالتالي هذه الآية بينت أن موسى -عليه السلام- أُرسِلَ من هـذه اللحظة؛ لأن الله كلمه وأرسله رب العالمين -سبحانه وتعالى- ثم استثنى الله -عز وجل- والاستثناء هنا استثناء منقطع: ؟ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ؟ "إلا من ظلم"؛ يعني وقع في الظلم، والظلم يقـع على الشرك وعلى سائر ألوان المعاصي، ولكن أعظم الظلم على الإطلاق هو الشرك بالله -تبارك وتعالى.

رب العالمين -سبحانه وتعالى- قال: ؟ لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ؟١٠؟ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ؟ يمكن أن يخاف، ولكـن إذا بدل حسنا بعد سوء فالله -تبارك وتعالى- ؟ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ؟، وقد دلت آيات كثيرة من القرآن على هذا المعنى، وذلك كقول الحق -تبارك وتعالى: ؟ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ؟ [طه: ٨٢]، وقـال -سبحانه: ؟ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ؟ [النساء: ١١٠]، سبحان الله، ما أرحمه بعباده جل في علاه، يعني أنه فتح باب التوبة على مصرعيه.

حسن البصري -رحمه الله تعالى- قال عبارة جميلة أحب أن أذكرها في هذا المقام قال: «كان موسى -عليه السلام: ممن ظلم ثم غفر الله -تبارك وتعالى- له» ممن ظلم أين؟ قال: بقتله للقبطي، وموسى -عليه السلام- قد اعترف بذلك: ؟ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ؟ [القصص: ١٦] ثم أيده الله -عز وجل- بمعجزة أخرى فقال: ؟ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُـمْ كَـانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ؟ "وأدخل يديك في جيبك" هذه آية أخرى على عظمة رب العالمين -سبحانه وتعالى- ودليل بـاهر على قدرة الله، وهذه هي الآية الثانية، فالآية الأولى آية العصا، والآية الثانية: أن موسى -عليه السلام- يدخل يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء، وتأملوا يا إخوان القيد الوارد في هذه الآية، لتعلموا حقًّا أن القرآن كـلام الله -عز وجل- قال: "بيضاء من غير سوء" لو قال بيضاء فقط لأدى المعنى وأصبحت معجزة لماذا؟ حتـى لا يفهم إنسان أن هذا بسبب مرض كأن يكون قد أصيب ببرص أو غير ذلك، فبَيَّنَ الله -عز وجل- أن البياض الذي يقع على يد موسى -عليه السلام وليست كذلك- إنما هو "بيضاء" بياض ليس فيه سوء أو لا يعتريه مرض، وإنما معجزة من لدن رب العالمين -سبحانه وتعالى- وهذه المعجزة تضاف إلى المعجزة الأخرى ثم يقول الله -عـز وجل: ؟ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ؟، والله -عز وجل- كما ذكر في سورة الإسراء: ؟ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَـى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا ؟ [الإسراء: ١٠١]،

الله -عز وجل- أيد موسى -عليه السلام- بتسع آيات ذكر هنا معنا منها آيتين، وبقية الآيات هي السنين التي أخذهم رب العالمين -سبحانه وتعالى- بها، وأيضا فلق البحر، والطوفان، والجراد، والضفادع، والقمل، هذه الآيات التي أُيِّدَ بها موسى -عليه السلام- السبب في ذلك قال الله -عز وجل: ؟ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ؟ يعني هؤلاء الناس قوما فاسقين، خرجوا عن حدود الأدب والتعامل مع رب العالمين -سبحانه وتعالى- بما يليق، ألا وهو عبادة الله -عز وجل- فما كان من الله -سبحانه وتعالى- إلا أن فعل بهم ما فعل، ولذلك قال الله -عز وجل- عن هؤلاء القوم وبين أنهم حقًّا من الفاسقين، لأن هذه الآيات التي أيد الله بها موسى -عليه السلام- كان من المفترض أن يؤمنوا بها، وأن يصدقوا بنبيهم -عليه السلام- وأن يتابعوه، وأن يدخلوا في دينه، وأن يعبدوا الله -عز وجل- ولكنهم استنكفوا واستكبروا فحقا كانوا قوما فاسقين، قال الله -عز وجل- عنهم: ؟ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ؟ فلما جاءت الآيات عليهم واضحة مبصرة بينة أيضا قالوا هذا سحر مبين؛ لأنهم كانوا مهرة في السحر، فظنوا أن ما أتى به موسى -عليه السلام- من جنس ما يفعلون.

يهمني أن أشير إلى معنى جميل في الآية: ؟ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً ؟ هل الآية مبصرة أم أن الآية تُتَأَمَّل فيبصر الإنسان أو يتعلم من ورائها؟! القرآن الكريم قال: "مبصرة" كأن هذه الآيات من شدة وضوحها كأنها ترى نفسها، كأنها ترى من شدة الوضوح، ثم بعد ذلك يُعَقِّب رب العالمين -سبحانه وتعالى- ختام الآيات التي معنا ببيان واقع هؤلاء الناس الذين ردوا دعوة موسى -عليه السلام- وكذبوا بهذه الآيات الواضحة، قال الله -عز وجل- مبينا حقيقة أمرهم: ؟ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ؟ جحدوا بماذا؟ جحدوا بحقيقة رب العالمين وجحدوا بوجود الله -عز وجل- وأنه هو الرب الإله؛ لأن فرعون قال لقومه: "ما علمت لكم من إله غيري"، وقال لهم: "أنا ربكم الأعلى"، القرآن الكريم يسجل يا إخواني حقيقة مهمة جدًّا: أن فرعون كان يدرك حقيقةً أن الله ربه، ويستيقن من هذا الأمر غاية اليقين؛ لأن الله قال: ؟ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا ؟ والاستيقان أبلغ من الإيقان ففرعون كان يدرك تماما أن الله ربه، ولكن الأمر كما قال الله عنه: ؟ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ؟ [الزخرف: ٥٤]، قال أنا رب، أنا إله فاستجابوا له، وإلا فإن فرعون يعرف أنه حقير وأنه ضعيف وأنه ذليل وأنه عبد مربوب، والله -عز وجل- قد بين له ذلك حينما أغرقه رب العالمين على مرأى ومسمع من قومه،

هناك دليل -يا إخواني والكلام يطول على هذا- من سيرة فرعون وتاريخه، ولو كان قومه يعقلون لفهموا، هذا الدليل يبين أن فرعون كان فعلاً يدرك ويعلم أنه إنسان ضعيف مربوب، فرعون كان يخاف الأطفال، يخاف على ملكه من الأطفال، بدليل لما جاء كاهن وقال له أنه سيولد طفل هذا العام سيكون هلاك ملكك على يديه، فخاف من الأطفال وأصبح يقتلهم، هل الرب الإله الذي يملك كل شيء يخشى الدوائر، يخاف من الأطفال؟ هذه أمارة واضحة جدًّا على كذب فرعون، والله -عز وجل- يبين هذا ويبين أن توحيد الربوبية إذن أمر فطري في النفوس، ولعل نأتي بعد ذلك لكي نطيل الحديث حول هذا المفهوم ولكن الله -عز وجل- ختم هذه الآيات بقوله: ؟ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ؟، حقيقة هذا الختام المراد به توجيه الخطاب إلى مشركي مكة؛ لأن النبي -عليه الصلاة والسلام- أشرف وأعظم من موسى، فإذا أهلك الله -عز وجل- فرعون ومن معه فهلاك هؤلاء أيسر وأيسر، فاعتبروا إذن يا أولي الألباب، تَعَلَّمُوا فالله -عز وجل- أهلك هؤلاء الناس وأهلَكَهُم في لحظة واحدة عندما أغرق فرعون ومن معه، وبهذه الكلمات أنهي معكم هذا اللقاء، وصلي اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

يقول: قصة موسى -عليه السلام- ذكرت كثيرًا في القرآن الكريم في أكثر من سورة، وفي كل سياق يتغير المعنى، فمثلا في قصة العصا يأتي قوله تعالى: ؟ كَأَنَّهَا جَانٌّ ؟ وفي آية حية، وفي آية ثعبان، كذلك أيضا اليد، "أدخل يديك"، "اسلك يدك"، "اضمم يدك إلى جناحك"، أيضا اليد اختلفت في السياق، كذلك النار قال: "إني آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس"، وفي سورة طه "قبس"، وفي سورة أخرى "جذوة"، والسؤال: الاختلافات هذه هل هي لاختلاف السياق؟ فمثلا سورة النمل التكريم فيها واضح لموسى -عليه السلام- بينما

مثلا في سورة القَصَص قصة موسى محاطة بالخوف، وجانب الخوف كان فيها واضحًا فاختلفت العبارة فما توجيه فضيلتكم؟

السؤال الثاني: ؟ إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا؟، ذكر الشيخ -حفظه الله- أن موسى ترك أهله وقال: "سآتيكم منها بخبر" فما هي العلة اللي ترك موسى أهله من أجلها، هل لأجل المناداة ولذلك لم يأخذ أهله؟

والسؤال الثالث: يذكر بعض الناس أن الشجرة هذه باقية إلى اليوم فهل لهذا أصل، أنها موجودة في سيناء وكذا في كنيسة وما إلى ذلك، فهل لهذا أصل؟

يقول: سبب اختصاص الله -جل وعلا- لموسى بالكلام؟

الحقيقة تكررت قصص القرآن الكريم ونُثِرت في القرآن كله، وليس هذا اختلاف في المعنى وإنما في كل مرة إضافة جديد، هذه الإضافة الجديدة إذا انضم بعضها إلى بعض يخرج المعنى واحدا مكتملا، أضرب مثالا على ذلك:

مثلا آية تذكر لما ألقى موسى عصاه أنها صارت حية، وفي آية أخرى في سورة الأعراف فإذا هي ثعبان مبين، قالوا: حية تسعى لسرعة اضطرابها وخفة حركتها، وثعبان في كبرها وضخامتها وعظمتها، فهنا ليس خلاف وإنما إضافة معنى؛ ليخرج المعنى بعد ذلك مكتملا، هذا يعني نموذج من النماذج الواردة في مثل هذه الآيات.

أسئلة الحلقة

السؤال الأول:

ما معنى ؟ زَيَّنَّا ؟، ومن فاعل التزيين، وما مذهب المعتزلة في ذلك؟

والسؤال الثاني:

ما الدليل من الآيات السابقة على أن فرعون كان مستيقنا برب العالمين؟ وماذا تفهم من ذلك؟

الدرس الثاني

قصة سليمان -عليه السلام-

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين.

وبعد...

فأحيكم جميعًا بتحية الإسلام: سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، ولنسير -إن شاء الله تبارك وتعالى- في هذه الحلقة مع الدرس الثاني من تفسير سورة "النمل"، ومع بعض الآيات التي سنستمع إليها بعد قليل -إن شاء الله تبارك وتعالى.

وآيات هذا اللقاء تشتمل على محورين:

المحور الأول:

قصة داود -عليه السلام- وسليمان.

المحور الثاني:

تفقد سليمان للطير، وما كان من شأن الهدهد.

والآن معنا أخونا الشيخ عبد الرحمن، ولنستمع معه إلى هذه الآيات فليتفضل.

؟وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالاَ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ؟١٥؟ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ؟١٦؟ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ؟١٧؟ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ؟١٨؟ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ؟١٩؟ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ؟٢٠؟ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ؟٢١؟ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ؟٢٢؟ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ؟٢٣؟ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ ؟٢٤؟ أَلاَّ يَسْجُدُوا للهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ؟٢٥؟ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ؟ [النمل: ١٥: ٢٦].

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين.

وبعد...

نفتتح هذا اللقاء بقول الحق -تبارك وتعالى: ؟ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالاَ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ؟، مطلع هذه الآيات تحت المحور الأول، وهذه الآيات تدور حول قصة داود وسليمان

-عليهما السلام- وفيها يخبر الله -تبارك وتعالى- بتفضله على عبديه داود وسليمان، وقد أشارت الآية إلى أمر مهم عظيم، ألا وهو: قول الحق -تبارك وتعالى-: ؟ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ؟.

لا شك أن نِعَم الله -تبارك وتعالى- على عباده كثيرة، وبالنسبة للأنبياء والمرسلين فالنِّعم عليهم أجلُّ وأعظم من باب: الاصطفاء والاجتباء والوحي والتأييد والنصر وغير ذلك، فهناك أمور متعددة، ونعم جزيلة للأنبياء والمرسلين، خاصة فيما نحن بين أيدينا الآن من قصة، فمما كان لسليمان -عليه السلام- من الملك الواسع وتسخير الجن والطير وغير ذلك له، كل هذا من نعم الله -تبارك وتعالى- عليه، ولكن داود وسليمان -عليهما السلام- ذكر الله -عز وجل- نعمةً هنا فريدة امتن بها عليهما، ألا وهي: نعمة العلم: ؟ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ؟، فلقد آتاهم الله -عز وجل- أشياء كثيرة، إلا أن أعظم نعمة كانت على سليمان وداود -عليهما السلام- هي نعمة العلم، وهذا يدل على فضل العلم، وعلى مكانة العلماء، وأن للعلم منزلة عظيمة عند رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

سليمان وداود -عليهما السلام- يُقدران نعم الله -تبارك وتعالى- عليهما، فبعد أن قال الله: ؟ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ؟، قالا -أعني داود وسليمان عليهما السلام-: ؟ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ؟، حمدا الله -عز وجل- والحمد ثناء على الله -تبارك وتعالى- بما هو أهله، والله -عز وجل- أهل لأن يحمد، وهو -سبحانه وتعالى- يحب الحمد والثناء؛ لنعمه وآلائه العظيمة على عباده، وهو يحبه -سبحانه- ولذلك أثنى على نفسه في بعض آيات القرآن الكريم.

أيضًا داود وسليمان -عليهما السلام- أبانت الآية عنهما شيئًا مهمًّا وعظيمًا، هذا الشيء المهم هو: حسن التواضع مع الله -تبارك وتعالى-، هما أولا حمدا الله -عز وجل-، ولكنهما أيضًا أشارا إلى أمر مهم، وهو: أن الله فضلهما على غيرهما بشيء من النعم، ولكنهما قالا: ؟ فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ؟، ما قالا: فضلنا على المؤمنين، بإطلاق، وهذا من حسن الأدب، وأيضًا من التواضع، فقد يكون هناك من هو أكثر منهما علمًا، ولا شك أن هذا موجود، ولكن في عهدهما لا يمكن أن يكون؛ لأنهما هما من أرسلا من قِبَل رب العالمين -سبحانه-، وأيِّدا بالوحي، ومع ذلك قالا: ؟ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ؟، ولم يُفضلا أنفسهما على جميع الناس، وهذا من الأدب والتواضع كما ذكرتُ.

ثم قال رب العالمين -سبحانه-: ؟ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ؟.

؟ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ؟ الآية واضحة في أن سليمان -عليه السلام- ورث من أبيه داود -عليه السلام-، ما لون الوراثة التي ورثها سليمان من أبيه؟ ورث منه العلم والنبوة والحكمة والدعوة إلى الله -تبارك وتعالى-، فهم أهل بيت، وأهل فضل، وأهل خير، ومن قال بأن سليمان ورث من أبيه المال -وهو المقصود- فقد أبعد، لماذا؟

لأن سليمان -عليه السلام- وهو من أفراد أبناء داود لا يختص وحده بالمال، وإنما المال يوزع بين جميع الذين تركهم الأب، يوزع عليهم بتوزيع عادل كما بين رب العالمين -سبحانه وتعالى-، إلى جانب أن داود -عليه السلام- كان يعمل حدادًا، ومثل هؤلاء لا يكون لديه مال يتطلع إليه أحد الأبناء حتى يرثه، ولا يبحث عنه حتى يرثه، فلا حاجة به إليه، إلى جانب أن الأنبياء كان عيشهم من الزهد بمكان؛ ولذلك الصحيح أن سليمان -عليه السلام- ورث من أبيه النبوة والعلم والحكمة والدعوة إلى دين الله -تبارك وتعالى.

ولقد جاء في القرآن الكريم ما يدل على أن العلم يورث، وذلك في قول الحق -تبارك وتعالى-: ؟ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ؟ [فاطر: ٣٢]، فذكر أن الكتاب هم الذين ورثوه -أعني عباد الله تبارك وتعالى- ورثوا الكتاب الذي نزل من عند رب العالمين -سبحانه وتعالى-، وقد ورد في السنة أيضا ما يشير

ويدل على أن الأنبياء لا يورث عنهم المال، وفي ذلك ما جاء عن أبي بكر الصديق –رضي الله تعالى عنه–، كما جاء عن عمر أيضا أن الأنبياء لا يورثون، وأن ما تركوه يكون صدقة بعدهم.

الحافظ ابن حجر –رحمه الله تبارك وتعالى– أشار إلى مسألة أو نكتة علمية، لا حرج من أن نعرفها الآن: ذكر –رحمه الله تبارك وتعالى، أعني الإمام الحبر الحافظ ابن حجر– أن الرواية التي جاء فيها: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة»، قال: هذه الرواية أنكرها كثير من أهل العلم، ويعني بالإنكار إنكار لفظة "نحن" «نحن معاشر الأنبياء»، ولكن ورد من طرق صحيحة أن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– قال: «إنا معاشر الأنبياء لا نُورث، ما تركناه صدقة». وهذا نص صحيح صريح فيما نحن بصدده.

؟ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ؟، ثم قال ونادى: ؟ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ؟، يُعلم الناس الذين يعيشون معه ومن يمكن أن يطلع على قوله، وهو في سياق ذلك يذكر أيضا فضل رب العالمين –سبحانه وتعالى– عليه: ؟ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ؟.

الله –تبارك وتعالى– امتن على سليمان –عليه السلام– بأن فهمه منطق الطير –أعني لغة التخاطب التي يتخاطب بها الطير–، فكان يفهم كلامها –عليه السلام–، وهذه نعمة من النعم التي امتن الله –تبارك وتعالى– بها عليه، فلقد علمه الله منطق الطير، سخر له الإنس، سخر له الجن يعمل بين يديه بأمره، وغير ذلك من النعم العظيمة التي امتن الله –تبارك وتعالى– بها عليه، ولذلك بعدما قال: ؟ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ؟، قال: ؟ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ؟، يعني: أوتينا من كل شيء مما يحتاج إليه المُلك، وليس المعنى أنه أوتي كل شيء بإطلاق؛ والدليل على ذلك أن بلقيس ملكة سبأ –وسيأتي الحديث عنها بعد قليل إن شاء الله تبارك وتعالى– كانت موجودة، ولها مُلك، ووصف بأنه عظيم، ولها عرش، ووصف بأنه عظيم، ولم يكن لدى سليمان –عليه السلام– خبر عنه، إذن ما أوتيه سليمان –عليه السلام– والمقصد من قول الله –تبارك وتعالى– هنا: ؟ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ؟: يعني أوتينا من كل شيء نحتاج إليه ويحتاج إليه الملك في أمر مملكته.

وهذه مسألة في الحقيقة أهل العلم بهذا التفصيل يردون بها على من يقول بأن القرآن كلام الله مخلوق، وأن الله خلقه، ويستدلون على ذلك بقول الله –تبارك وتعالى– ؟ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ؟ [الرعد: ١٦]، ويقولون بأنه خالق كل شيء مما يمكن أن يُخلق، ويصح أن يطلق عليه الخلق، أما ما ليس بمخلوق وهو ما يتعلق بأسماء الله وصفاته –سبحانه وتعالى– فلا يدخل تحت الخلق بحال من الأحوال.

ثم قال رب العالمين–سبحانه وتعالى– ذاكرًا قول سليمان –عليه السلام–: ؟ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ؟، يعني أن هذا فضل عظيم من الله –تبارك وتعالى– عليه؛ أن علمه الله –عز وجل– منطق الطير، ومكنه مما يحتاج إليه، وأعطاه وأتاه مما يمكن أن يستفيد منه، هذا هو الفضل المبين الواضح الظاهر البين.

والآية تقرير لما سبق، هنا قوله: ؟ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ؟ تقرير لما سبق في الآية الأولى السابقة: ؟ وَقَالاَ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ؟.

ثم قال –سبحانه–: ؟ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ؟.

؟ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ ؟ الحشر: هو الجمع والضم؛ يعني أن الله –تبارك وتعالى– جمع وضم لسليمان –عليه السلام–، ومكنه من الإنس والجن والطير.

وقد ذكر الإمام الحافظ ابن كثير –رحمه الله– وغيره من المفسرين: أن سليمان –عليه السلام– خرج يمشي في أبهة عظيمة، معه الإنس والجن والطير. وقد ذكر الحافظ ابن كثير أن الإنس كان يلي سليمان –عليه السلام–

، والجن بعد الإنس، وكان الطير فوق سليمان -عليه السلام-، وكان الطير يظلله من حر الشمس، وغير ذلك مما ذكره الإمام الحافظ ابن كثير.

وهذا في الحقيقة أمر أراد سليمان -عليه السلام- من خلاله أن يخرج بحاشيته، ولعل غيره يسمع به، ويدرك ويرى نعمة الله -تبارك وتعالى- عليه، وأن الله -عز وجل- سخر له الإنس والجن والطير.

ومعنى قول الحق -تبارك وتعالى-: ؟ فَهُمْ يُوزَعُونَ ؟ يعني: أن لكل طائفة من هؤلاء -من الإنس والجن والطير- وزعة، ترد أولهم على آخرهم؛ يعني تجعلهم يمشون بنظام ولا يشذ واحد عنهم ولا عن مكانه، ولذلك يسمى المُوكَّل في الحرب بـ "وازع القوم".

وازع القوم؛ لأنه يرد من يخرج عن الصف، يرده ويدخله في الصف.

هذا معنى قول الحق -تبارك وتعالى-: ؟ فَهُمْ يُوزَعُونَ ؟.

سليمان -عليه السلام- خرج يمشي بهذه الفئة من أتباعه وقومه ومن معه، إلى أن وصل إلى وادٍ كان يسكن فيه جماعة من النمل.

وفي ذلك يقول الحق -تبارك وتعالى-: ؟حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ؟١٨؟ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ؟.

في الحقيقة هذا الآيات فيها من جمال التعبير والسياق الحسن ما فيها:

أولا: ؟ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ ؟، هنا عد الله -تبارك وتعالى- أتوا -الفعل هذا الماضي- بحرف الجر على، وقد وجه العلماء هذا الأمر بتوجيهين:

الأمر الأول: أن النمل كان يسكن في قرية عالية مرتفعة، فأتى بحرف يدل على الاستعلاء، فقال: ؟ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ ؟.

وقيل في ذلك وجه آخر، وهو: أنه ؟ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ ؟، يعني: أنه قطع الوادي وأنهاه، كما يقول الإنسان -مثلاً-: لقد آتيت على الشيء؛ يعني وصلت إلى آخره وانتهيت منه.

سليمان -عليه السلام- يمشي في أبهته هذه حتى وصل إلى وادي النمل، لما رأى النمل سليمان -عليه السلام- قالت نملة من النمل الذي كان يسكن هذا الوادي، وأصدرت توجيهًا لإخوانها من النمل: ؟ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ ؟.

قالت ذلك لماذا؟ خافت على النمل، ؟ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ؟ يعني: وهم لا يدركون، قد يأتون عليكم، وقد تمشي خيولهم عليكم، والنمل لا شك أننا نعلم أنه مملكة، ولكنها مملكة صغيرة ضعيفة.

فهذه النملة خافت على النمل من إخوانها، وقالت لهم هذا التوجيه: ادخلوا مساكنكم. لماذا؟ ؟ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ؟، يعني: وهم لا يعلمون أنهم يدوسون بأقدامهم عليكم.

سليمان -عليه السلام- بما آتاه الله -تبارك وتعالى- من معرفة وعلم لمنطق الطير -فَهِمَ وسمع كلام هذه النملة، فما كان منه إلا أن تبسم وضحك، وليس بين هذا تناقض -بين التبسم والضحك-، وإنما هو شرع في التبسم حتى وصل إلى الضحك، فجمع بينهما، ؟ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ؟، والإنسان يبدأ -عندما تأتي أسباب الضحك- يبدأ غالبًا بالتبسم ثم بعد ذلك يصير إلى الضحك.

سليمان -عليه السلام- أدرك قول هذه النملة، وهي نملة لا شك أن من معه من الإنس ومن الجن لا يعرف كلامها، ولكنه عرف كلامها بتمكين الله -تبارك وتعالى- له: ؟ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ؟.

وهنا: ؟قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ؟.

أولاً: هنا لنا وقفة، ما أعطاه رب العالمين لسليمان -عليه السلام- فضل عظيم يحتاج ماذا؟ يحتاج إلى شكر، وهذا ما يجب أن نتعلمه نحن؛ أن نشكر الله -عز وجل- على آلائه ونعمه، والشكر على النعم يستجلب مزيد نِعَم الله -تبارك وتعالى-، ويستجلب فضل الله -عز وجل- وإحسانه.

قال رب العالمين -سبحانه-: ؟ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ؟ [الرعد: ٧]، فالنعم تزيد بالشكر، وهذا ما فعله نبي الله سليمان -عليه السلام-.

الحقيقة كون سليمان -عليه السلام- يفهم منطق الطير، ويسمع كلام هذه النملة، ويعرف ما قالت، وهو الوحيد في هذه المملكة التي هو عليها الذي يعرف ذلك -أمر يحتاج إلى شكر.

ودعا ربه -وهذه نقطة أخرى أو فائدة أخرى- أن يعينه على الشكر، الأمر يتطلب إلى شكر ويحتاج العبد إلى أن يسأل ربه -سبحانه وتعالى- العون على الطاعة وعلى الشكر: ؟ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ؟، ونِعَم الله -عز وجل- على سليمان كثيرة، وقد أشرت إلى بعضها.

؟ وَعَلَى وَالِدَيَّ ؟ قال أهل العلم: على والديه بالإسلام وبالنبوة أيضًا، فكان داود -عليه السلام- أيضًا نبيًّا من الأنبياء.

قال: ؟ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ؟.

؟ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ؟، بعد أن طلب من ربه -سبحانه وتعالى- العون على شكره -عز وجل- بالأعمال الصالحة، طلب أيضًا العون من الله -تبارك وتعالى- على أن يرضى الله -عز وجل- منه هذا العمل الصالح، ؟ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ؟.

ثم لما طلب من ربه العون على العمل الصالح، وأن يرضى الله -عز وجل- عن هذا العمل الصالح أيضًا - طلب العون من الله -عز وجل- على دخول الجنة، فقال: ؟ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ؟، يعني: أدخلني مع الرفقاء الصالحين، مع الأنبياء والصديقين والشهداء، وهؤلاء هم الصالحون، كما ذكر ذلك القرآن الكريم.

وهنا لفتة، وهي أن دخول الجنة في الأصل برحمة رب العالمين -سبحانه وتعالى-، كما جاء الخبر الصحيح في الصحيحين وغيرهما من رواية أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: «والذي نفسي بيده، لن يدخل أحدٌ منكم الجنة بعمله». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني الله برحمته».

فأفادت هذه الآية وأفاد هذا الحديث الشريف أن دخول الجنة في الأصل من رحمة رب العالمين -سبحانه وتعالى-، ولا يعني ذلك أننا نترك العمل، ولكن الذي ذكره أهل العلم في ذلك: أن عملك -يا أيها العبد- لا يكافئ دخول الجنة بحال من الأحوال، يعني: دخول الجنة ليس بعملك أنت فحسب، فعملك يقصر بك عن دخولك الجنة، وإلا فلا بد من العمل الذي يكون سببًا في دخول الجنة، ولكن أصل الدخول يكون تفضلا من رحمة رب العالمين -سبحانه-، ولذلك قال أهل العلم: لو أن الإنسان ظل يعبد ربه -سبحانه وتعالى- منذ أن وُلِدَ إلى أن يموت -ما استطاع أن يؤديَ شكرَ نعمةٍ واحدةٍ من نِعَم الله -تبارك وتعالى- عليه.

وذكر أهل العلم في هذه الآيات وفي هذا الحديث -ذكروا توجيهًا آخر، وهو: أن أصل دخول الجنة برحمة الله -عز وجل-، وأما التفاوت فيها بالدرجات فهو بماذا؟ بالعمل، التفاوت فيها يكون بعد ذلك بالعمل.

أنتقل بعد ذلك إلى المحور الثاني في هذا اللقاء، وهو بعنوان: تفقد سليمان للطير، وما كان من شأن الهدهد.

وفي ذلك يقول رب العالمين -سبحانه-: ؟ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ؟٢٠؟ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ؟.

تفقد الطير: يعني أن سليمان -عليه السلام- وهو يسير بين مملكته هذه تفقد الطير، يعني تفقد ما غاب عنه، وهو في ذلك يبحث عن المملكة التي يرأسُها -عليه السلام-.

وهنا لفتة، وهي: أنه يجب على ولي الأمر أن يتفقد رعيته، وهذا سليمان -عليه السلام- يتفقد هؤلاء الرعية، ولو كان طيرًا ربما لا يأبَهُ به المَلِكُ، ولكنه طالما أنه من أفراد رعيته فوجب عليه أن يتفقده، وأن يتفقد أحواله، وأن يسأل عنه وعمَّن غاب منهم، وذلك من باب المسؤولية المنوطة بمن كلفه الله -عز وجل- برعاية العباد.

وقد أخبر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن الله -عز وجل- سائلٌ كلَّ راعٍ عما استرعى، وأن العبد الذي يرعى قومًا من الأقوام سيسأله ربه -سبحانه وتعالى- حفظ رعيته، ورأى ما تحتاج إليه، أم ضيع رعيته، ولم يلتفت أو ينظر إليها؟

هكذا يعلمنا سليمان -عليه السلام- هذه المسؤولية.

؟ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ ؟، تفقد الطير: تفقد ما غاب عنه فلم يجد الهدهد، فطرح هذا السؤال: ؟ مَالِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ؟؟ ما لي لا أراه بمعنى: أنه ربما يكون قد حال بينه وبين سليمان ساتر فلا يراه سليمان -عليه السلام-.

سليمان ربما توقع ذلك، ولكنه سرعان ما أعرض عن هذا الأمر وتيقن أن الهدهد غائبٌ، وهو لم يراه، وأنه ما رآه؛ لأن الهدهد في الحقيقة ليس بموجود، ولذلك قال: ؟ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ؟، وأم هنا هي المنقطعة التي بمعنى بل، بل هو من الغائبين.

إذن تفقد الطير، ظن أولاً أن هذا الهدهد قد يكون نظرُ سليمان لم يقع عليه وهو موجود، ولكنه تيقن أنه ليس بموجود، فقال: ؟ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ؟.

سليمان -عليه السلام- تدلنا هذه الآية -وهناك أدلة أخرى، ولكن أقف عند هذا الدليل- هذه الآية تدل وتشير إلى أن سليمان -عليه السلام- رغم ما أعطاه الله -عز وجل- من المُلْك، وتسخير الجن والإنس والطير الذي علمه لغتهم -أن سليمان لا يعلم الغيب؛ لأن سليمان لو كان يعلم الغيب لكان عرف ماذا؟ أمر هذا الهدهد، وأين

هو؟ ولماذا غاب؟ وما كان يسأل عنه؛ لأنه سيكون على يقين أين ذهب؟ ولكن سليمان -عليه السلام- مع هذا الملك الواسع العريض، ومع هذه النعم التي امتن الله -تبارك وتعالى- بها عليه، إلا أنه لا يصل إلى علم الغيب؛ لأن هذا مما استأثر الله -تبارك وتعالى- به.

سليمان -عليه السلام- لما أيقن أن الهدهد ليس بموجود، وهو فرد من أفراد رعيته، وذهب دون أن يستأذن منه، فتوعَّده بهذا العذاب، قال: ؟ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ؟.

توعَّده سليمان -عليه السلام- أولاً بالعذاب، قيل: يعني يمكن أن ينتف ريشه. وقيل: يمكن أن يشمسه في الشمس، يعني بعد أن ينتش -أو أن ينتف- ريشه يُبقيه في الشمس بلا ريشٍ؛ فيكون أثر الشمس عليه ماذا؟ قويًّا. وقيل: يمكن أن يسجنه مع أقرانه، أو أن يسجنه سجنًا انفراديًّا بعيدًا عن أقرانه.

هذه بعض ألوان العذاب التي ذكرها بعضُ المفسرين حول لون العذاب الذي يمكن أن يُوقعه سليمان -عليه السلام- بهذا الهدهد.

النوع الثاني: ؟ أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ ؟ يعني: بالقتل.

ثم استثنى سليمان -عليه السلام-، استثنى من هذا الحكم الذي أصدره أن يأتيَ الهدهدُ بنبأ أو بخبرٍ يدفع عنه هذا الوعيد الذي صدر من هذا الملك، الذي ملَّكَه رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

ولذلك ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله تبارك وتعالى- أن الهدهد لما حضر قال له الطير: لقد توعَّدك سليمان بالعذاب أو الذبح. فقال الهدهد -وهذا يدل على ذكاءٍ فيه-: هل استثنى سليمانُ؟ يعني: لم يستثني من الوعيد أو من العذاب شيئًا؟ قالوا له: استثنى. قال: جاء الفرجُ إذن. طالما أنَّه استثنى إذن جاء الفرج، لماذا؟ لأن الهدهد غاب، والصحيح -حقًّا- أنه لم يستأذن، إلا أنه أتى بخبرٍ عظيمٍ جدًّا، سيأتي ذكرُه في هذه الآيات.

لما تفقد سليمان الطير وأدرك ما أدرك وغاب الهدهد -جاء الهدهد -وهو طائرٌ كلُّنا يعرفه- جاء بشجاعة قويَّةٍ، وواجه هذا الملك الذي هو فردٌ من أفراد هذه المملكة تحت ملك سليمان، وقال له كلمات في غاية من القوة والشجاعة، ربما تقصر أعناقُ كثيرٍ من عمالقة الرجال أن يُواجهوا قُوَّادهم بهذه الكلمات.

قال الله -عز وجل-: ؟ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ؟، يعني: أن الهدهد مكث غير بعيد، يعني: مكث زمانًا يسيرًا، وفائدة التعبير القرآني بأنه مكث زمانًا يسيرًا يُفيد: أن هذا الهدهد كان يقدر سليمان -عليه السلام-، ويقدر أمر هذه المملكة التي هو أحد رعاياها، فإذا خرج لأمرٍ ما أو ذهب إلى مهمَّةٍ لا يغيب، ولا يلعب هنا أو هناك، فهو بهذا يُقدر سليمان -عليه السلام-، ولما غاب زمنًا يسيرًا جاء أمام الملك الذي يحكم ويتولَّى أمره وقال له هذه العبارة: ؟ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ؟.

هذه كلمة قويَّةٌ يقولها طائر صغير لمَلِكٍ عظيم، ملَّكه رب العالمين -سبحانه وتعالى-، وهي تدل أيضًا على أن سليمان لا يعلم الغيب، وتفيد أن آحاد الرعية -حتى لو كان صغيرًا- إذا أتى إلى قائده وأخبره بأمرٍ لا يعرفه عليه أن ينصاع له، وأن يستجيب لقوله، وأن يستمع إلى كلامه، طالما أنه يأتيه بخبرٍ مفيدٍ.

هذا الهدهد يقول لسليمان -عليه السلام-: ؟ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ؟.

جئتُك من سبأ: سبأ هذه اسم المدينة التي كانت تعيش فيها بلقيس –صاحبة مملكة سبأ–، وأيضًا سبأ هذا اسم لرجل من قحطان كان يُقال له: سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وهو أيضًا كان من هذا المكان الذي كانت فيه هذه الملكة.

قال: ؟ وَجِئْتُكَ مِن سَبَأٍ ؟ يعني: من عند مملكة سبأ ؟ بِنَبَأٍ ؟، هذا النبأ –وهو بمعنى الخبر– نبأ يقين، يعني: نبأ صدق، نبأ حق، نبأ أنت لا تعرفه.

الحقيقة: هنا فيه جمال في هذه العبارة، وهي: ؟ وَجِئْتُكَ مِن سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ؟، النبأ بمعنى الخبر، ولكن رب العالمين –سبحانه وتعالى– قال: ؟ مِن سَبَأٍ بِنَبَأٍ ؟ لماذا؟ لمشاكلة اللفظ، والنبأ يكون في هذه الحالة أعمَّ من الخبر؛ لأن النبأ يكون عن شيء عظيمٍ، ولذلك قال رب العالمين: ؟ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ؟ بعدها: ؟ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ ؟ [النبأ: ١: ٢]، فوصف النبأ بأنه عظيم؛ ولذلك النبأ أعلى من ماذا؟ من الخبر.

؟ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ؟، ما هو الخبر الذي عند هذا الهدهد؟

خبر عجيب فعلاً: قال لسليمان –عليه السلام– وهذا أمر ما كان يعرفه سليمان: ؟ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ؟.

الهدهد وهو يطير –كغيره من الطيور التي تطير– وقف على هذه الملكة، ورأى قومها، وهم كانوا يعبدون الشمس من دون الله –تبارك وتعالى–، وكانت الملكة معهم في ذلك.

وبعض المفسرين قالوا بأن هؤلاء زنادقة، ولا شك أن المجوس الذين يعبدون الشمس أو يعبدون النار أو غير ذلك من ألوان وأنواع الكواكب –لا شك أنهم كفار زنادقة.

فالهدهد –عليه السلام– يقول لسليمان: أنا وجدتُ قومًا من الناس يعبدون ويسجدون للشمس من دون الله –تبارك وتعالى–، ووجدت ملكةً تملك أمرَ هذا القوم أو هؤلاء الناس، وهذه الملكةُ أيضًا لها شأنٌ عظيمٌ، مما يدل على هذا الشأن العظيم قول الهدهد لسليمان: ؟ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ؟، سبق أن قلنا بأن سليمان ذكر من نِعَم الله عليه: ؟ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ؟، والهدهد يقول لسليمان بأن هذه الملكة أيضًا عندها وأوتيت من كل شيء، يعني: مما يحتاج إليه الملوك، هنا قد يقول قائل: هل هذه الملكة كانت أعظم، ومملكتها أفضل مما أوتي سليمان –عليه السلام–؟

الحقيقة: المفسرون تعرضوا لهذه المسألة، وقالوا بأن الهدهد لما رأى هؤلاء الناس، ورأى هذه الملكة وجد أنهم كفار –استصغر شأنهم، ولما رأى هذا المُلْك العظيم الذي هي عليه، والعرش العظيم –وهو سرير المُلْك الذي أعطاه الله لهذه المرأة ومكنه أيضًا منها– استصغر هذا الهدهد شأنَ هذه المرأة؛ وبالتالي شعر في نفسه أن ما أعطاها الله –تبارك وتعالى– كان شيئًا عظيمًا بالنسبة لها لا تستحقه، ولذلك قال ذلك: ؟ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ؟.

بعد ذلك فصَّل الهدهدُ لسليمان –عليه السلام– ماذا رآه من شأن هذه المرأة؟ وما هي حقيقة الخبر الذي كانت عليه؟

هذه الملكة أوتيت شيئًا عظيمًا جدًّا، قيل: كانت في قصر عظيم، هذا القصر كان فيه ثلاثمائة وستون فتحةً أو كُوَّةً من المشرق، وأيضًا ثلاثمائة وستون فتحةً من جهة المغرب، وكانت الشمس في كل يوم تُشرق في فتحةٍ من

الفتحات، وتغيب من الفتحة المقابلة لهذه الفتحة على مدار العام، وهذا لا شك أنه شيء عظيم، وكان مليئًا بالجواهر واللآلئ وغير ذلك مما يُعطاه الملوك عادة.

الهدهد يخبر سليمان -عليه السلام- بتفصيل ما شاهده بعد ذلك، قال: ؟ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ ؟.

هذه الملكة ومن معها يسجدون للشمس من دون الله -تبارك وتعالى-، وما كان ينبغي لهم ذلك، ثم بيَّن الهدهدُ -ولا شك أنه من أفراد مملكة سليمان المَلِك النَّبي الذي علمه الله -تبارك وتعالى- وأوحى إليه، ولذلك بادر الهدهد فبين- أن فعل هذه المرأة المَلِكَة وفعلَ جماعتها هو من تسويل الشيطان وعمل الشيطان، فقال مباشرةً: ؟ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ؟.

وهذا يفيد -وهو حقيقة- أن الفساد الواقع في الأرض إنما هو بسبب ماذا؟ بسبب الشيطان، ولذلك جاء التحذير من لدن رب العالمين -سبحانه وتعالى-، جاء التحذير كثيرًا في القرآن الكريم من الشيطان الرجيم: ؟ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ؟، لما زين الشيطان لهم أعمالهم صدهم عن السبيل، المراد بالسبيل هنا ماذا؟ سبيل الله -عز وجل-، الطريق المستقيم، الذي أتى به سليمان، وأتى به كلُّ نبيٍّ من أنبياء الله -تبارك وتعالى-.

والله -عز وجل- لم يضف السبيل، أو لم يذكره ويصفه بأنه سبيل الحق أو طريق الخير أو غير ذلك، وجاء بـ "أل"، كأن السبيل هذا معهود، وهو سبيل من؟ سبيل الأنبياء والمرسلين، الذين جاءوا به من عند رب العالمين -سبحانه-.

ولما زين لهم الشيطان أعمالهم، وصدهم عن السبيل، أصبحوا في هدايةٍ أم في غِوايةٍ؟ أصبحوا في غِواية، أصبحوا في انحراف، أصبحوا في ضلال، ولذلك قال الهدهدُ نفسه: ؟ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ ؟.

حقيقة: هذه القصة طعن فيها بعضُ الملاحدة -قبل أن أنتقل إلى كلمةٍ بعد ذلك وتوجيه جميل في هذه الآيات- بعض الملاحدة طعن في هذه القصة من وجوه:

قالوا: كيف يتكلم الهدهد والنملة؟ لأن النملة كلمت سليمان -عليه السلام-، والهدهد أيضًا كلَّم سليمان، فقالوا: كيف تتكلم النملة؟ أو يتكلم الهدهد بكلام الإنس؟ وأنكروا ذلك.

ونحن نوقن ونقول: بأن هذا كلام رب العالمين -سبحانه- تكلَّم الله -عز وجل- به، وهو حق من لدن رب العالمين -سبحانه-، وأنه -سبحانه وتعالى- يقول للشيء: كن، فيكون؛ فلا نستبعد ذلك على قدرة رب العالمين -سبحانه-.

أيضًا بعض الملاحدة قالوا: كيف يطير الهدهد من مكان سليمان، وقيل: كان سليمان في الشام، إلى مملكة بلقيس -سبأ- وهم في اليمن؟

نقول أيضًا: بأنه طار بأمر رب العالمين -سبحانه وتعالى-، وهذا أمرٌ قد حدث مرارًا وتكرارًا، وما زالت الطيور تنتقل من هنا ومن هناك، ولو ذكرنا؛ ويحق لنا أن نذكر هنا وأن نشيد بمعجزة الإسراء للنبي -صلى الله عليه وآله سلم-، فلقد أُسري به في جزءٍ من الليل من بيت الله الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عُرِجَ به -صلى الله عليه وآله سلم- بعد ذلك إلى السماوات العُلاَ، وكل ذلك كان في جزءٍ من ليلة، فالله -عز وجل- لا يُعجِزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

بعدما قال الهدهد لسليمان هذا الخبر، هذا النبأ، الذي أتى به من واقع هذه المملكة: ؟ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ ؟، بعدها: ؟ أَلاَّ يَسْجُدُوا للهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ؟٢٥؟ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ؟.

حقيقة: اختلف المفسرون في معنى قول الحق -تبارك وتعالى-: ؟ أَلاَّ يَسْجُدُوا للهِ ؟، قالوا: بأن هذا من كلام الهدهد. ولعل هذا هو الراجح، وهذا أمرٌ عجيب: الهدهد يعلم التوحيد؟ ولا عجب فيه؛ لأنه عاش وتعلم في مملكة سليمان -عليه السلام-؛ لأنه لا ينبغي للمخلوقين أن يسجدوا لغير رب العالمين -سبحانه-، والله -عز وجل- في كتابه الذي أنزله على نبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- نهانا أن نسجد للشمس أو للقمر: ؟ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا للهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ؟ [فصلت: ٣٧]، وقيل: ؟ أَلاَّ يَسْجُدُوا للهِ ؟ ألا بالتخفيف على أنها أداة تنبيه، وكأن الله -عز وجل- أو الهدهد -إن كانت الآية أو القول من قوله- يُنبه السامعين والحاضرين بأنه ما كان ينبغي لهؤلاء أن يسجدوا للشمس من دون الله، ؟ أَلاَّ يَسْجُدُوا للهِ ؟ لماذا؟ ألا بالتشديد يعني: هلاً يسجدوا لله أو ألاّ يسجدوا لله.

ثم وصفت الآياتُ رب العالمين -سبحانه وتعالى- بصفات لو تأمل فيها المتأمِّل لأدرك حقيقةً: أن الذي يجب أن يذل العبدُ له، وأن يخضعَ العبدُ له، وأن يسجد العبد له -هو رب العالمين -سبحانه وتعالى-: ؟ أَلاَّ يَسْجُدُوا للهِ ؟ الذي صفة ماذا؟ الذي يُخرج الخَبْءَ، الخبء: قيل: هو المطر الذي ينزل من السماء. وقيل: هي اسمٌ لكل مخبوء، يعني: اسم لكل شيء يتوارى عن الأعين ولا يراه الناس؛ لأنه خفيٌّ أو بعيدٌ عن أعينهم.

والله -عز وجل- يُخرج الخبء أين؟ قال: ؟ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ؟، وليس هذا فحسب، وإنما ؟ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ؟، الذي يعلم السر والنجوى من؟ هو رب العالمين -سبحانه وتعالى-، الذي يعلم ما غاب عن أنظار العباد هو الله -عز وجل-؛ ولذلك نقول: بأن هذه الآية فيها دلالةٌ عظيمةٌ وكبيرةٌ على وجوب عبوديَّة الله وحده دون سواه، وأن ما لا يملك ولا يعلم الغيبَ ولا يُحيي ولا يُميت ولا يُدبر ولا يفعل ما يفعله رب العالمين -سبحانه- لا يستحق أن يُعبد بحالٍ من الأحوال، ولا يُسجد له على أي وجهٍ كان، لماذا؟ لأنه ضعيفٌ لا يملك، بل هو ماذا؟ بل هو مملوك، وبالتالي الذي يجب أن يَخِرَّ العباد له سجَّدًا هو رب العالمين -سبحانه وتعالى- الذي بيده مقاليد كل شيء.

وإن كان هذا القول من كلام الهدهد فنحن ننادي معشر الناس اليوم أن يتعلموا من هذا الهدهد، أن يتعلموا التوحيد من هذا الطائر الصغير، الذي يقول: ؟ أَلاَّ يَسْجُدُوا للهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ؟.

وللأسف الشديد، نرى كثيرًا من الناس اليوم يعبدون غير الله -تبارك وتعالى-، وتنحني جباهُهم، بل إن البعض يضع جبهته على الأرض ساجدًا لصنم أو لغير ذلك دون رب العالمين -سبحانه وتعالى-، وما كان ينبغي للعباد بعد أن خلقهم رب العالمين -سبحانه وتعالى- وهو غنيٌّ عنهم أن يفعلوا ذلك أبدًا.

ثم يختم الهدهد كلامه بكلامٍ أيضًا يؤكد وجوب السجود لله وحده، فيقول: ؟ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ؟ [النمل: ٢٦].

؟ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ؟ [القصص: ٧١]، وهذه الكلمة العظيمة تحتاج منَّا إلى وقت طويل كي نتحدث عنها، هي عنوان الإسلام، هي كلمة التوحيد، "لا إله إلا الله" هي الكلمة التي يدخل بها المسلم في الإيمان، ويجب عليه أن يخرج من الدنيا أيضًا بهذه الكلمة؛ لقول النبي -عليه الصلاة والسلام-: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة».

وشتان بين عرش بلقيس المخلوق الضعيف، وهي مخلوقة ضعيفة مربوبة، وبين عرش رب العالمين -سبحانه وتعالى-؛ فعرش الله أجل، وعرش رب العالمين أعظم، والله -عز وجل- قد استوى على عرشه استواءً يليق بجلاله وكماله، وهو مُستغنٍ عن العرش سبحانه، وليس بحاجة له، وإنما اقتضت حكمته -سبحانه وتعالى- ذلك، والهدهد يعرف ذلك، ويعرف ربه، وأنه هو الله الذي لا إله إلا هو، وأنه -سبحانه- هو رب العرش العظيم.

ومن نافلة القول إذن أن أقول: بأن الهدهد يعرف أن ربه له عرش، وأن عرش الله -سبحانه- كبير وعظيم، ؟ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ؟، وهذا من جلال الكبير الكريم المتعال -سبحانه وتعالى- جلَّ في علاه.

وبهذا أنهي معكم هذا اللقاء، وصلِّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

إجابة أسئلة الحلقة الماضية:

السؤال الأول: ما معنى ؟ زَيَّنَّا ؟؟ ومن فاعل التزيين؟ وما مذهب المعتزلة في ذلك؟

وكانت الإجابة:

معنى ؟ زَيَّنَّا ؟: أي فِعْلٌ من فعل الله -تبارك وتعالى- فعله بهؤلاء المكذبين، وذلك يُعدُّ عند أهل العلم ممن اهتموا بمسائل الاعتقاد، قالوا: أن هذا الفعل يأتي على سبيل الجزاء، بمعنى: أن الله -تبارك وتعالى- يُجازيهم بتزيين أعمالهم بالباطل وتحسينها؛ لأنهم لم يؤمنوا بالله -تبارك وتعالى- وما أنزله على رسوله -صلى الله عليه وسلم- ولم يستجيبوا لله -عز وجل- ولرسوله صلوات ربي وسلامه عليه.

أما مذهب المعتزلة في هذا المعنى: أنهم أولاً: لا يؤمنون بأن الله -تبارك وتعالى- يخلق أفعالَ العباد، ولا يقولون بأن الله تعالى هو الذي يُزين الأعمال، وفسروا ؟ زَيَّنَّا ؟ بمعنى بيَّنَّا، وقالوا في قول الله تعالى: ؟ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ؟، بمعنى: بينا لهم أعمالهم، أو: استدراج الله عليهم بأعمالهم بالنِّعَم قائمٌ مقام التزيين، وهذا يكون إنكارًا لفعل الله -تبارك وتعالى-؛ لأنه هو الذي يُزيِّن الأعمال في القلوب.

ما شاء الله، ما أحسنه! جوابٌ سديد، الحمد لله.

السؤال الثاني: ما الدليل من الآيات السابقة على أن فرعون كان مستيقنًا برب العالمين؟ وما تفهم من ذلك؟

وكانت الإجابة:

الدليل قوله تعالى: ؟ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ؟، ويفهم من ذلك أن جحودهم وإنكارهم يعود لاستكبارهم وعلوهم في الأرض بغير الحق، قال الله -تبارك وتعالى-: ؟ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ؟ [القصص: ٩]، وهذا هو حال أمثاله من المستكبرين المتجبرين في كل زمان ومكان. والله أعلم.

كنا نود أن تكون إضافة: وماذا تفهم من ذلك؟ أن كون رب العالمين -سبحانه وتعالى- هو الرب هذه حقيقة قائمةٌ في نفس كل مخلوق؛ لأن فرعون تظاهر بإنكار الله -عز وجل-، ولكنه كان في الباطن مستيقنًا بأن الله -عز وجل- هو ربه، ولذلك قال: ؟ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ؟.

وهذا يدل على أن توحيد الربوبية فطريٌّ في النفوس كما قال الله: ؟ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ ؟ [الرعد: ١٠].

يقول: السؤال الذي أطرحه في قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ ﴾ [النمـــل: ١٨]، هل تحتمل "على" معنى "فوق"؟ أي أن "وادي النمل" كان تحت الأرض كالسراديب، وأن "حتى" قرب وصـــولهم لهذا الوادي؟ فكون سليمان وجيشه يمشي فوق الأرض وتحتهم هذا الوادي، ربما يهلكه؟ وجزاكم الله خيرً.

لا شك أنه سياق الآيات لا يمنع كما أشرتَ من هذا المعنى، ولكن -كما نعلم- بأن هذه الأودية تكثـــر فيهـــا الهضاب، ويكثر فيها الجبال، والنمل يكون في هذه الأماكن كلّها، في باطن الأرض، كذلك أيضًا يكون في جحور الجبال والهضاب وغير ذلك، ولعل التعبير بقول الله -عز وجل- بحرف الجر "على" ما يفيد أن النمل كان على ظهر الأرض في ذاك الوقت، ولم يكن في باطنها، والله أعلم.

يقول: بالأمس ذكرتم -حفظكم الله- الكلام على الحية والثعبان والجان، أنا بحثتُ المسألة اليوم، ووجدت بعض المتأخرين قال كلامًا أريد أن أسمع تعليقكم عليه. قال: بأن الحية في قصة موسى -عليه السلام- لم تذكر إلا مرة واحدة في سورة طه، والثعبان ذكر مرتين، والجان مرة واحدة. وقال: إن الحية ذكرت في سورة طه لما موسى -عليه السلام- ذهب للنداء، فكان المقام مقامَ تهيئة وتعليم لموسى فناسب أن تكون حية؛ لأنها صغيرة، ولما ذهب إلى فرعون، أو وصفت بالجان في النمل؛ لأنها في اهتزازها وحركتها، أو أن الجان أحد أنواع الحيات، وأما في قصة فرعون لما ذهب إليه كان المقام مقام تخويف وعظة، فناسب أن يكون ثعبان؛ لأنه أكبـــر حجمًـــا وأنـــسب للموعظة، ليخاف منه فرعون، ولذلك لما جاء في مقام "يوم الزينة" لم تذكر لا الحية ولا الثعبان ولا الجان، ﴿ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [الأعراف: ١١٧]؛ لأن المقام هنا ليس مقام تخويف الناس، المقام هنا مقام بيان الحق والحجة؛ لأن الناس لما رأوا الحيات تسعى خافوا، ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ١١٦]، فلم تذكر في هذا الموطن؛ لأن المقام بيان الحجة، فلذلك لم تذكر في هـــذا الـــسياق. واضح؟.

واضح يا أخي، بارك الله فيكم على هذه المداخلة، ولكن المقام هنا بالأكاديمية لا يسعنا التوسع في كل المسائل يا شيخنا. لكم أي تعليق؟.

أي نعم، هو جزاه الله -تبارك وتعالى- خيرًا، ولكن هذا كلام -كما تفضلتَ- أشار به بعضُ الناس أو بعض أهل العلم من المفسرين، ولكننا نقول بهذا الترتيب العلم عند الله -تبارك وتعالى-، ولكن الذي يظهر والله -تبارك وتعالى- أعلم: أن الله -عز وجل- دَرَّبَ موسى -عليه السلام- على هذه الأنواع كلّها، حتى إذا ما واجه فرعون لم يظهر أمامه شيء جديد، يكون قد رأى هذا الثعبان الكبير، ورأى اضطرابه حتى يُعبِّر عنه بأنه حيـــة، ورأى هذا الحجم الكبير الذي لا يُدخل عليه خوفًا بعد ذلك، والله -تبارك وتعالى- أعلى وأعلم.

أسئلة الحلقة.

السؤال الأول:

ما الراجح في قول الله -تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾؟ أيد ما تقول بالدليل من القرآن والسنة.

السؤال الثاني:

ما معنى: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾؟ ولماذا وصف المكث بقصر المدة؟ وما النبأ الذي أتى به الهدهـــــــد؟

الدرس الثالث

تابع قصة سيدنا سليمان

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين وبعد...

نواصل الحديث بفضل الله -تبارك وتعالى- حول بعض آيات من سورة النمل، وسيدور الحديث حول المحاور التالية:

المحور الأول:

موقف سليمان -عليه السلام- من النبأ الذي أتاه عن ملكة سبأ.

المحور الثاني:

موقف ملكة سبأ وقومها من كتاب سليمان -عليه السلام.

وهذه المحاور سنشرحها من خلال آيات نستمع إليها من أخينا الشيخ عبد الرحمن فليتفضل...

؟ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ؟٢٧؟ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ؟٢٨؟ قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ؟٢٩؟ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ؟٣٠؟ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ؟٣١؟ قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ؟٣٢؟ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ؟٣٣؟ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ؟٣٤؟ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ؟٣٥؟ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ؟٣٦؟ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ؟٣٧؟ قَالَ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ؟٣٨؟ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّن الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ؟٣٩؟ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ؟ [النمل: ٢٧: ٤٠].

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم وبارك وأنعم على عبدك ورسولك ومصطفاك وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين وبعد...

في اللقاء الماضي تحدثت عن الخبر أو النبأ الذي أتى به الهدهد إلى سليمان -عليه السلام- والتوجيهات التي أطلقها الهدهد وبيَّنَها وبلغها للناس على أرجح أقوال أهل العلم، ألا وهو وجوب السجود لرب العالمين -سبحانه وتعالى- هنا سليمان -عليه السلام- كما هو في حديثي عن المحور الأول لا بد أن نعرف موقفه من النبأ، أو من الخبر الذي ألقاه إليه الهدهد عن مَلِكَة سبأ، ولهذا قال سليمان -عليه السلام- موجها الخطاب للهدهد بعد أن أعلمه بخبر هذه الملكة وما عندها، وما تفعله هي وما يفعله أيضا من معها من الناس: ؟ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ؟ "قال سننظر" جملة مستأنفة، وهي في الحقيقة تعد جوابا على سؤال مقدر، تقديره أن سليمان -عليه السلام- قال للهدهد ؟ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ؟؛ لأن هذا خبر، وسليمان -عليه السلام- لم يَرُدَّ هذا

الخبر ولم يُصدِّقه، وإنما يحتاج الأمر إلى أن يتبين، وقال للهدهد: ؟ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ؟ هذه العبارة في الحقيقة ؟ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ؟ أبلغ من قوله: أم أنك كذبت لماذا؟ لأن قوله: "أم كنت من الكاذبين" يفيد أن الكذب صار سجية له وأنه عادة له؛ لهذا الهدهد، تبينها سليمان -عليه السلام- في هذا الموطن، وكذلك قوله: ؟ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ؟ يعني أنت تتبع هذا الأمر من قبل وتسلكه وتسير عليه: ؟ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ؟، هذه الآية في الحقيقة فيها بعض الفوائد:

الفائدة الأولى: وجوب التثبت في الأخبار.

يعني حينما يأتيك خبرٌ، أو تسمع نبأ، لا تقبله هكذا إلا إذا كان هذا النبأ من مصدر صحيح كالوحي الرباني، كتاب من عند الله -عز وجل- أتاك، أو من هدي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أما سائر الأخبار التي تُلقَى فعلى الإنسان أن يتثبت فيها.

الفائدة الثانية: ألا يتعجل الإنسان في العقوبة.

سليمان -عليه السلام- توعَّدَ الهدهد بوعيد شديد، وجاء الهدهد له بخبر، ومن الوعيد الذي توعد به سليمان أن يعذب الهدهد، أو أن يقتله، ولما جاء الهدهد بهذا الخبر هنا توقف سليمان عن تنفيذ العقوبة ولم يعاجله حتى يتأكد، إذن نحن نستفيد إرشادا من الآية؛ حيث إنها أرشدتنا إلى البحث عن الأخبار والتحري والتثبت في الوصول إلى الحقيقة، أيضا عدم التعجل في العقوبة إلا بعد بيان الصواب فيها.

سليمان -عليه السلام- وعد الهدهد بأنه سينظر، والآية التالية بينت لنا كيف نظر سليمان -عليه السلام- وذلك في قوله: ؟ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ؟ هذا من النظر الذي وعد به سليمان -عليه السلام- وهو أنه كتب كتابا وأعطاه وسلمه لهذا الهدهد، وقال له: اذهب بهذا الكتاب وسلمه إلى هذه الملكة، وعلمه أمورا من الأدب، قال: ؟ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ؟ هذا من باب الأدب، لا تقف على رأسهم، وهو هدهد طائر، ولكنه أمره بأن يلقي الكتاب وأن يبتعد عنهم، ولكنه يبتعد بُعدًا يسمح له بأن يعرف الأخبار، أو صدى الخطاب أو الكتاب الذي أرسله معه سليمان -عليه السلام.

؟ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ؟ قيل بأن سليمان -عليه السلام- كتب هذا الكتاب وأعطاه للهدهد، وأن الهدهد حمله على جناحه، وقيل حمله على منقاره، وكل هذه لم يرد لنا فيها خبرٌ عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ونحن نقف عند حدود النص الوارد، أن سليمان كتب كتابا وسلمه للهدهد، والهدهد عنده مقدرة أن يحمل هذا الكتاب، وأن يلقيه إلى هذه المرأة، وفعلاً ذهب الهدهد وألقى هذا الكتاب من فتحة أو من كُوَّة كما ذكر المفسرون، وكانت هذه الملكة تجلس في قصرها، وانتهز الهدهد مكانا مفتوحا يمكن أن يلقي إليها الكتاب فألقاه إليها، وكما ذكرتُ أدَّبَه سليمان -عليه السلام- بأنه بعدما يلقي الكتاب لا يقف متصنتنا هكذا الأخبار بشكل واضح أو فاضح لكي يطلع على ما لا يجب أن يطلع عليه، ولكنه يسلم الخطاب ويتنحى يسيرا بقدر أن يعرف الخبر الذي سيدور نتيجة هذا الخطاب.

أيضا هذا الآية ؟ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا ؟ فيها فائدة: وهي إرسال الكتب والرسائل إلى المشركين، فهذا سليمان -عليه السلام- كتب كتابا لما عَلِمَ أن هناك امرأة تسجد للشمس هي ومن معها من دون الله -تبارك وتعالى- فأرسل كتابا إليها يدعوها إلى الله -تبارك وتعالى- واستمر -ولا شك- هذا الأمر إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فلقد ثبت عنه أنه كان يراسل الملوك والزعماء المشركين؛ يدعوهم إلى الله -تبارك وتعالى.

أنتقلُ بعد ذلك إلى المحور الثاني في هذا اللقاء، وهو بعنوان: موقف ملكة سبأ وقومها من كتاب سليمان -عليه السلام- وتحته ما جاء في قول الله -جل ذكره: ؟ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ؟٢٩؟ إِنَّهُ مِن

سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ؟٣٠؟ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ؟ حقيقة لما ألقى الهدهد هذا الكتـــاب، وتلقته هذه الملكة، وفتحته ووعت ما فيه، دعت أشراف قومها لتستشيرهم وتعلمهم بأمر هذا الكتاب، ولا شك أن هذا يدل على حسن تصرف منها وعلى حِنْكَة منها بالإدارة، فهي في الحقيقة لم تَسْتَبِدَّ بالأمر، ولم تنظر في هذه القضية، ولم يأخذها الغرور أو الكِبْر، كيف يدعوها رجل من الناس أو ملك من الملوك وهي مَلِكَة أيضا، ويتجرأ على أن يقول لها أو أن ينصحها بما ينصحها به، هي في الحقيقة استوعبت هذه القضية، وأرادت أن تتحدث فيها مع قومها، فجمعت أشراف قومها؛ لأن كلمة "الملأ" تفيد أنها لجأت إلى أشراف القوم، وإلى العقلاء، وإلـــى مـــن يفهم منهم.

؟ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ؟ وصفت الكتاب بأنه كريم، وهذا أيضا من حسن أدبها، قال أهل العلم: عرفت بأنه كريم، وذلك من حسن صنيع الهدهد؛ لما جاء وألقى الكتاب إليها ثم تنحى يسيرا عنها، ثم تولى عنها، وقيل: لما لمسته في هذا الكتاب من لين الخطاب، وحسنه، وبلاغته، وبيانه، وأدبه، وفصاحته، وقيل: لأن الكتاب كان مختوما، وكان هذا أمرا معروفا عند السابقين أنهم يستحسنون أن يضعوا على الكتب التي يكتبونهـــا، والرسائل التي يبعثون بها يكتبون أو يضعون عليها ختما، ولذلك النبي –عليه الصلاة والسلام– لما أُخبِـــرَ بـــأن الأعاجم لا يقرؤون إلا كتابا مختوما، اتخذ خاتما –صلى الله عليه وآله وسلم.

؟ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ؟٢٩؟ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ؟ هـــذا أول شيء أفادت به الملكة قومها، أو الملأ والأشراف من أتباعها، بأن هذا الكتاب صـــادر مـــن نبـــي الله –تبـــارك وتعالى– سليمان، ولا شك أن سليمان –عليه السلام– افتتح كتابه بـــ بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن الآية قالـــت أنها ذكرت: ؟ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ؟ هي في الحقيقة ذكرت هذا على سبيل الحكاية، هي تحكي لقومها أولا من الذي أرسل الخطاب، فتذكر بأن الخطاب مرسل من سليمان، أما بداية الخطاب فقد افتتحه سليمان –عليه السلام– بقوله: "بسم الله الرحمن الرحيم"، وقد ذكر الإمام الحافظ ابن كثير –رحمه الله– عن بعض أهل العلم أن سليمان –عليه السلام– هو أول من كتب بسم الله الرحمن الرحيم، ولـــذلك نَـــصَّ ربُّ العـــالمين –سبحانه وتعالى– عليها في كتابه، وبناء على ذلك فهي جزء من آية في كتاب الله –تبارك وتعالى– والخلاف دائر في غيرها من افتتاح رب العالمين –سبحانه وتعالى– سورَ القرآن الكريم بـــ "بسم الله الرحمن الرحيم".

وكان مما جاء في هذا الكتاب: ؟ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ؟ "ألا تعلوا عليَّ"؛ أي لا تتكبروا، ولا يأخذكم الغرور والاستكبار والعتوّ، فلا تقبلوا المجيء إليَّ والدخول فيما أنا فيه، كيف استَدْلَلْنَا على أنه يَطلب مـــنهم أن يدخلوا فيما هو فيه –عليه السلام– ما جاء في قوله في الكتاب: ؟ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ؟؛ يعني تعالوا مسلمين طائعين لله –تبارك وتعالى رب العالمين.

قال ابن عباس –رحمه الله تبارك وتعالى ورضي عنه– في قوله: ؟ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ؟؛ يعني موحدين، وقال غيرُهُ: ؟ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ؟؛ يعني مخلصين، وقال غيرُهُ: ؟ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ؟ وأتوني طائعين، ولا شك أن الكلمة تستوعب وتشمل جميع هذه المعاني.

بعد ذلك مما يدلنا على حنكة هذه الملكة وعلى فهمها للأمور أيضا، استشارت قومها بأمر آخر، وطلبت منهم المشورة، وطلبت منهم إبداء الرأي، وهذا يدل على أنها كانت في مملكتها لا تستبدّ بالأمور، وأن من كان معهـــا كان طائعا لها: ؟ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ؟ "يا أيها الملأ"؛ يعني يا أشرف الناس، أنا جمعتكم وأنتم أعقل من هم في مملكتي: ؟ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ؟ "أفتوني" يعني أصدروا لي رأيـــا في هذا الأمر الذي نزل بنا، ثم ذكرت لهم شيئا من محاسنهم، وما يدعوهم في نفس الوقت إلى إخلاص الأمـــر معها: ؟ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ؟؛ يعني أنا لا أتصرف تصرفا، ولا أصدر قـــرارا، ولا أســـتخدم أي فرمان إلا إذا رجعت إليكم، وأنتم تشهدون على القرارات الصادرة، وهذا يدل على حسن سياسة للأمور في هذه

المملكة، ولذلك حُقَّ للهدهد أن يصف لهذه المرأة بأن لها عرش عظيم لماذا؟ لأن فعلاً من خلال سياق القرآن الكريم نستطيع أن نستنتج وأن نفهم من أفعالها وتصرفاتها ومن كلامها مع أتباعها أنها كانت تدير مسائل مملكتها بشيء جيد وحسن: ؟ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون ؟ بماذا أجاب أشراف القوم؟

؟ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ ؟، يعني أصحاب عُدَّة، وأيضا عَدَد، كانت أعدادهم غفيرة، ومن هذا الأمر وصفوا أنفسهم بالقوة، وأيضا ؟ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ ؟؛ يعني في القتال والحرب، يعني قالوا لها: إن أردتِ -معنى الكلام- أن نتحصَّنَ في أماكننا وندافع عن أنفسنا فلنا ذلك، وإن أردت أن نخرج معكِ إلى أي مكان لنخوض معارك وندخل في غمار المواجهات مع من يريد أن يواجهنا فنحن مستعدون لهذا الأمر، ومع كل ذلك أرجعوا الأمر إليها فقالوا: ؟ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ؟ في الحقيقة بعض أهل العلم لهم لفتة في هذا الأمر، قالوا هي امرأة، صحيح هي مَلِكَة ولكنها ما جاوزت قدرها إلا أن تكون امرأة، وتستشيرهم في أمر عظيم، أمر قد يكون فيه وجودهم كرعايا في ظل هذه المملكة وعلى هذه الأرض، ومع هذا أظهر هؤلاء الناس قوة ولكنهم كانوا من الضعف أيضا بالنسبة لهذه المرأة بمكان لماذا؟

لأنه كان عليهم أن يبادلوها الرأي، أو أيضا يقترحوا رأيا أو قولا، ولكنهم تأخروا عن ذلك، أخبروها بأنهم رجال أقوياء، ولكن الأمر أرجعوه إليها، وهذا يدل على ضعف في هؤلاء الرجال، ما ينبغي للرجل إذا استُشِير أن يسلم الأمر إلى غيره، ولكنه ينصح ويقول ويشارك، وأن يكون فعَّالا في المجتمع الذي هو فيه، ولكن يظهر والله -تبارك وتعالى- أعلم أنهم تمرسوا تحت قيادة هذه المرأة فما أحبوا أن يُظهروا ولو قولا يسيرا مما يمكن أن يقوم في أذهان البشر في مثل هذه الحالة، ولذلك -كما يقول الناس- رموا الكرة مرة أخرى عندها وأسندوا الأمر إليها، وكأنهم لم يسمعوا منها، أو كأنها لم تطلب منهم أي مشورة، قالوا: ؟ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ؟.

لا شك أيضا أن هذه المرأة تفهم ولا شك، من خلال سياق آيات القرآن الكريم؛ لأنها لما استطلعت آراءهم ووقفوا عند حد إرجاع الأمر إليها فتكلمت هي: ؟ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ؟، هذا فَهْم أيضا دقيق منها، ؟ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ؟ قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- "إذا دخلوا قرية عُنوَة"؛ يعني ليس بمجرد أن يدخلوا على الناس أو يعتدوا على حرمات الآخرين لمجرد الاستيلاء على أرض أو على الناس أو على الممتلكات لا، ولكنهم يدعون إلى الله -تبارك وتعالى- خاصة الدعاة منهم، فإذا لم يقبل المدعوون دعوة هؤلاء الناس إلى الله -تبارك وتعالى- ما كان أمامهم إلا أن يدخلوا عليهم قوة، ولا شك أن هذا المرأة أدركت أنها إذا لم تستسلم وتدخل مع سليمان -عليه السلام- وأنها إن لم تستجب لأمره، فإن سليمان -عليه السلام- عنده من القوة، ومن الإمكانيات ومما مَنَّ الله -تبارك وتعالى- به عليه أن يأتي عندها في بلدها، ولذلك أخبرت بأنها يجب عليها أن تُسَلِّم؛ لأن الفعل الذي سيكون عليها إن لم تفعل سيكون شديدا، ؟ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ؟ وقلت قول ابن عباس: "إن الملوك إذا دخلوا قرية عنوة" لعدم استجابة أهلها للإسلام وللدخول في دين الله -تبارك وتعالى- ثم ذَكَرَت أيضا بعد ذلك: ؟ وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ؟ قال أهل العلم يعني جعلوا ملوكها والسادة فيها والقادة فيها أذلة؛ لأنهم بعد ما كانوا ملوكا وتفتح هذه البلاد بقوة وتؤخذ منهم على سبيل الغَلَبَة لا شك أنهم سيصبحون أذلاء ولن يكون لهم بعد ذلك ملك.

قال بعض أهل العلم ومنهم الإمام الحبر عبد الله بن عباس -رضي الله تعالى عنه- قال: ؟ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ؟ هذا كلام رب العالمين -سبحانه وتعالى- تأكيدًا لقول هذه المرأة، وقال بعض أهل العلم بأن هذا من كلامها تأكيدا لقولها: ؟ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ؟ وأكدت هذا بقولها: ؟ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ؟.

ثم انتقلت هذه المرأة إلى أمر آخر، وهذا أيضا مما يدل على حصافتها في التصرف والتفكير، قالت نجرب ونرسل إلى سليمان شيئا من المال، على سبيل الهدية وننظر كيفية التعامل مع هذه الهدية هل سيقبلها؟ أم أنه لن

يقبلها وسيردها؟ في الحقيقة هذا موقف أيضا يدل على فهم دقيق من هذه الملكة للتعامل مع هذا الأمر الذي نزل بها، ولذلك قالت كما ذكر القرآن الكريم عنها: ؟ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ؟ الإمام الحافظ ابن كثير ذكر أنها جاءت هنا إلى المهادنة والمصالحة، لما بدا منها أن تُرسل هدية إلى سليمان -عليه السلام- وقد ذُكِرَ أنها قالت لأتباعها ولأشراف وعِلْيَةِ القوم عندها: انظروا عندما أرسل هذه الهدية إليه، إن قبلها وأخذها فهو ملك من ملوك الدنيا قاتلناه، إن قبل الهدية فهو رجل يبحث عن المال فلنخض معه الحرب والقتال، وإن لم يقبلها فهو نبي اتبعناه، يعني هي أرادت بهذه الهدية أن تستكشف خبر وحال سليمان -عليه السلام- هل هو ملك من الملوك الذي يبحث عن الدنيا ويحتاج إليها ويجمع فيها ما يجمع؟ أم أنه نبي رسول يبحث فقط عن رفعة دين الله تعالى، وأن يُعبدَ اللهُ وحده دون سواه؟ ولذلك كما ذُكِرَ عنها أنها قالت: إن كان ملكا قَبِلَ هذا قاتلناه، وإن كان نبيًّا ولم يقبل هذه الهدية اتبعناه، وقد ذَكَر بعض المفسرين أنها أرسلت هدية عظيمة جدًّا وابن كثير -رحمه الله تبارك وتعالى- قال: "بأنها أرسلت آنية من ذهب كانت ضخمة وكبيرة" وقال قتادة -رحمه الله تبارك وتعالى: "ما كان أعقلها في إسلامها وشركها" عن هذه المرأة لماذا؟ قال؛ "لأنها علمت أن الهدية تقع موقعا من النفوس"، ولذلك أرسلت بالهدية.

حقيقةً.. الهدية في الإسلام مندوب إليها، وقد حث عليها النبي -صلى الله عليه وسلم- وقبلها، وأثنى على من يُثيب عليها، يعني أيضا على من يرد الهدية بهدية مماثلة أو قريبة أو أعلى منها كل هذا من هدي الإسلام، ولذلك قال بعضُ الشعراء:

هدايا الناس بعضهم لبعض *** تولد في قلوبهم الوصال

وكان النبي -صلى الله عليه وسلم كما ذكرت- يقبل الهدية، ولكن لا ينبغي أن نفهم من ذلك قَبول الرشوة، ففرق بين الهدية وبين الرشوة التي يتعاطاها الإنسان بسبب، ولذلك بعض المفسرين قال: "إن سليمان -عليه السلام- فهم بأن تقديم هذه المرأة له هذه الآنية العظيمة الشأن الضخمة من الذهب كأنها رشوة، تساومه على ما يدعوها إليه أو تسكته بها"، ولكنه رجل صاحب رسالة، ظهر هذا من موقف سليمان -عليه السلام- يؤكد ذلك ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ؟ يعني لما جاء من يحمل الهدية إلى سليمان -عليه السلام- ووضع بين يديه هذه الهدية العظيمة استغرب سليمان -عليه السلام- وكانت من ذهب وجواهر ولآلئ وقال: ؟ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ؟ والظاهر أن سليمان -عليه السلام- لم ينظر في هديتها، ولم ينتبه إليها، ولم يعرف ما فيها، ولم يعتنِ بها، بل أعرض عنها وقال: أتصانعونني بمال، تريدون أن أهادنكم على دين الله -تبارك وتعالى- هو لا يدعوهم إلى شيء من مالهم، ولا يرغب في أن يأخذ شيئا عندهم، وإنما قال لهم: ؟ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ؟؛ لأنه نبي يدعو إلى الله -تبارك وتعالى- وقد عرف من خلال الهدهد أنهم يسجدون للشمس من دون الله -تبارك وتعالى.

ثم أخبرهم أن ما أعطاه الله -تبارك وتعالى- إياه وما تفضل الله -تبارك وتعالى- به عليه، خير مما يقدمونه إليه: ؟ فَمَا آتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ؟ أنتم الذين تفرحون بهذا المال، أنتم الذين تكنزونه، أنتم الذين تسعون إليه، أما هو نبي ورسول لا يبحث عن الدنيا، أهل الدنيا يفتخرون بالمال ويحبون الاستزادة منه، ويستكثرون منه قدر ما يستطيعون أما نبي الله سليمان -عليه السلام- فهو يدرك أن العلم والحكمة والنبوة التي أعطاه الله -تبارك وتعالى- إياه تفوق هذا وفَوْقَه بمراحل، بل إن هذه الدنيا كلها بما فيها ليس بمملكة بلقيس فحسب، وإنما الدنيا بما فيها لا يساوي شيئا بجوار فضل الله -عز وجل- على عبده من عباده حينما يصطفيه بالنبوة، والوحي، والبعث، والرسالة، ولذلك قال سليمان -عليه السلام: ؟ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ؟ سليمان -عليه السلام- رد هذه الهدية التي أُرسِلَت إليه، وفهم منها كما قال بعض أهل العلم أنها رشوة كي يسكتوه عن الحق الذي يدعو إليه، ولذلك رد هذه الهدية وقال: ؟ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ ؟ ثم أعلمه أنه سيقوم إلى هذا المرأة، وسيأتي إلى هذه الملكة بجنود لا استطاعة ولا طاقة لها بها، ؟ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ

فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ؟ الجنود الذين هم عند سليمان -عليه السلام- جنود مسخرة من قبل من؟ من قبل رب العالمين -سبحانه وتعالى- يكفي أن الجن مع سليمان -عليه السلام- الجن كان يخدم في مملكة سليمان -عليه السلام- ويعمل بأمر سليمان -عليه السلام- فعنده من القوة ما لا يمكن أن يقف في ذاك الوقت بحال من الأحوال أمامه قوة، ولذلك كان صادقا في قوله، ومتأكدا بل على يقين مما يقول: ؟ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ؟ وإذا ذهب بجنوده سيخرج هؤلاء جميعا من أراضيهم وسيذلهم: ؟ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً ؟ قال: ؟ وَهُمْ صَاغِرُونَ ؟ قال أهل العلم: "إن إخراجهم لن يكون إخراجا حميدا، وإنما سيصبحون أسرى عند سليمان -عليه السلام: ؟ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ؟ هنا لما رجعت الهدية وأخبرهم سليمان -عليه السلام- بهذا الخبر لا شك أن هذه الملكة جمعت أشراف قومها مرة أخرى واستشارتهم في هذا الأمر، وأشاروا عليها ورأت هي أن تسير هي إلى سليمان -عليه السلام- قبل أن يدخل سليمان عليها وقبل أن يبغتها في أرضها، عرفت وفهمت وأدركت قوة سليمان -عليه السلام- وأنه بذلك طالما أنه رد الهدية أنه نبي، وأنه رسول، وأنه ليس ملكا، يبحث عن حطام دنيا، أو أنه يسكت بهذه الدراهم المعدودة، أو بشيء من الذهب والجواهر، فأدركت هي ورأت أن تخرج إلى سليمان -عليه السلام- وبدأت تُعِد العُدَّة لذلك وتسير إليه، علم سليمان -عليه السلام- بذلك، ولا شك أن الله -عز وجل- أعلمه أو أن الهدهد قد أتى إليه بالخبر، أو أن مَن أرجع الهدية إليه أعلمه أيضا بذلك، المهم أن سليمان -عليه السلام- عرف هذا الأمر، ولما عرف ذلك بدأ يتصرف حِيَالَه بهذا الموقف، فقال لقومه -وهذا سليمان عليه السلام: ؟ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ؟ أقول: لما علم سليمان -عليه السلام- أن بلقيس قادمة فأراد أن يكون عرش بلقيس بين يديه، وأن يحضر عرشها عنده قبل أن تقدم عليه.

قال بعض أهل العلم: "وفي ذلك فائدة وهي: إظهار عظمة سليمان -عليه السلام- وأنها لو لم تخرج لكان هذا العرش ثابتا مستقرا عنده وبين يديه، ولذلك كان خروج هذه الملكة حسنا أم غير حسن؟ كان حسنا، وكان هذا التصرف منها تصرفا حميدا حكيما، سلميان -عليه السلام- طلب عرش هذه الملكة، وقال لأتباعه ولجنده: ؟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ؟؟

أهل العلم ذكروا فائدة أيضا في إتيان عرش ملكة بلقيس عند سليمان قبل أن تقدم هي عليه وهي مسلمة، وهنا فَهِمَ سليمان أنها ستُسْلِم وتدخل في طاعته قالوا: لأنه حينما يأتي العرش عنده قبل أن تسلم، يصبح مِلكًا مباحا له، لماذا؟ لأنه أسره وهم كفار، ولا يجوز أن يأخذه بعد الإسلام، فطلبه أيضا سليمان -عليه السلام- لهذه العلة، وفهمنا ذلك، أو أخذنا هذا المعنى من قوله: ؟ قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ؟؛ لأنهم إذا أسلموا بين يديه، لن يتمكن إذن من أخذ هذا المال الذي عندهم أو العرش الذي تمتلكه هذه المرأة؛ لأنه بعد إسلامها لا يحق له ذلك.

سليمان -عليه السلام- طلب من الملأ أن يأتوا إليه بالعرش، ما الذي حدث؟ ؟ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّن الْجِنِّ ؟ يعني في الحقيقة هؤلاء العفاريت لهم مواقف، فسرعان ما أجاب سليمان -عليه السلام- بمجرد أن قال سليمان -عليه السلام: ؟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ؟ ؟ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّن الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ؟ يعني عفريت صحيح، يعني يفهم كيف يدخل على سليمان -عليه السلام- فعل أمورا، أولا: هو أول من أجاب، رغم أنه كانت عنده قوة محدودة بالنسبة لغيره، كما سيظهر لنا ذلك -إن شاء الله تعالى- بعد قليل، وهو له إمكانيات محدودة بالنسبة لغيره؛ لأنه قال أو عرض لسليمان ماذا؟ قال له: ؟ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ؟، قال أهل العلم: قبل أن تقوم من مقامك؛ يعني من مجلسك الذي أنت تجلس فيه، ولا بد هذا أن يكون محدَّدًا بوقت صحيح، ولذلك قال أهل العلم بأن سليمان -عليه السلام- كان يجلس للناس في مملكته من أول النهار إلى غروب الشمس، فهذا العفريت وكما ذكر الحافظ ابن كثير بأنه مارد من مَرَدَة الجن قال: ؟ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ؟ ولكي يدخل على سليمان -علهيالسلام- بأسلوب أيضا لطيف وحسن ويطمئن سليمان قال له: ؟ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ؟ يُثبت لنفسه القوة والصلابة في هذا الأمر، وأيضا الأمانة، ولما ذَكَر الأمانة؟ لأنه سيحمل عرشا عظيما مليئًا بالجواهر والذهب

واللآلئ، فيريد أن يطمئن الملك ونبي الله سليمان -عليه السلام- أن العرش سيأتيه بكل ما فيه؛ لأنه مع قوته هو أيضا أمين.

لا شك أنه ربما نقول ونكون قد وافقنا الصواب بأنه سبق وتطاول على غيره لماذا؟ لأن الله -عز وجل- ذكر لنا موقفا آخر بعد موقف هذا العفريت، ألا وهو مَنْ مَنَّ الله -عز وجل- عليه بالعلم: ؟ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ؟ بعد ما قال العفريت ذلك، سليمان -عليه السلام- استبعد هذا الأمر، استبعد أن يأتي إليه عرش بلقيس في هذه الفترة الزمنية الطويلة، رغم أنه سيأتيه في نفس اليوم الذي طلبه، فطلب شيئا آخر، فما كان من رجل من أتباع سليمان -عليه السلام- وكان عنده من علم الكتاب ما عنده، عنده علم من الكتاب قال لسليمان -عليه السلام-: ؟ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ؟ وهذا في غاية من السرعة، الذي عنده علم من الكتاب قيل بأنه "آصِف" كاتب سليمان -عليه السلام- وقيل غير ذلك، والله أعلم بهذا؛ لأنه لم يَرِد لنا ذكره في القرآن، وإن كان الإمام الحبر -رضي الله عنه- يرجح أنه رجل من أتباع سليمان واسمه "آصِف" وكان كاتبا لسليمان -عليه السلام- وكان عنده علم من الكتاب، قيل: كان عنده علم بالكتب السابقة، وقيل: كان عنده بالكتاب الذي أرسله سليمان إلى مملكة بلقيس، وقيل: كان عنده علم من الكتاب، أي كان يعلم اسم الله -تبارك وتعالى- الأعظم الذي إذا سُئل به أعطى إذا دُعي به أجاب، هذا الذي علم من الكتاب تفوق على هذا العفريت من الجن؛ لأنه وعد سليمان بأن يأتيه بهذا العرش الذي هو قصر وسرير ملكة بلقيس قبل أن يرتد طرف سليمان إليه، ومعنى ذلك أنه كما ذكَر أهل العلم قال لسليمان: امدُد بصرك، فمد سليمان -عليه السلام- بصره وقبل أن يُرجع سليمان بصره، يعني قبل أن ترجع رموش عينيه إليه كان عرش بلقيس بين يديه، وهذا لا شك أسرع من العفريت وأقدر، وهذا فيه فائدة رفعة أهل العلم: ؟ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ؟ يعني أن أصحاب العلم يتفوقون حتى على هؤلاء المردة من الجن، وإن كانوا يفعلون ما يفعلون إلا أن للعلم شأنًا آخر، ؟ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ؟.

حقيقة القرآن الكريم كتاب إيجاز وإعجاز في نفس الوقت، هنا حذف تقديره، فجاء العرش بين يدي سليمان -عليه السلام: ؟ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ؟ أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كانوا يقدرون ويعرفون عظمة رب العالمين سبحانه، ويقدرون نعمة الله -عز وجل- سليمان -عليه السلام- أمر عظيم جدًّا أن يأتي عرش بلقيس بين يديه في طرفة عين بما يحمل من الكنوز، واللآلئ، والجواهر، والعظمة، وقد وصف الهدهد هذا العرش بماذا؟ بأنه عظيم، فهذه نعمة عظيمة، وقد استجدت لسليمان -عليه السلام- لو كان واحدًا من آحاد الناس لنسب ذلك لنفسه، ولا يفوتنا وسيأتي -إن شاء الله تعالى- ما قاله قارون عن المال الذي أعطاه الله إياه: ؟ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ؟ [القصص: ٧٨]، لكن سليمان -عليه السلام- عرف أن هذا من فضل الله -تبارك وتعالى- وقال: بأن رب العالمين -سبحانه وتعالى- تفضل ومَنَّ عليَّ باستقرار العرش عندي من باب الابتلاء والاختبار: ؟ لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ؟ والله هذه عبارات ذكرها لنا القرآن الكريم وقالها سليمان -عليه السلام- في غاية من الروعة والعظمة والجلال، وتفيد أن الإنسان إذا جدَّت له نعمة عليه أن يشكر الله -تبارك وتعالى- وأن شكر الله -عز وجل- يكون بالعمل الذي يُرضي رب العالمين -سبحانه وتعالى- وما قاله سليمان قرره القرآن الكريم،: ؟ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ؟ [فصلت: ٤٦].

هنا سليمان -عليه السلام- يقول هذا فضل من فضل الله -عز وجل- ليبلوني بعد هذا النعيم الذي تفضل الله -تبارك وتعالى- عليَّ هل أؤدي حق الله فيه؟ أم أنني لا أؤدي حق الله فيه؟

ولعلكم يا إخواني تلاحظون، أن سليمان -عليه السلام- وضع كلمة الكفر مقابل كلمة الشكر، ؟ لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ؟ ودل ذلك على أن الشكر هنا بمعنى الإيمان وهو الذي يناقض الكفر، وبالتالي تَرْك شكر الله -عز وجل- إن كان جحودا لنعمة الله فهو كفر بالله -تبارك

وتعالى- ويقع في مقابل الإيمان في هذه الحالة؛ لأن سليمان -عليه السلام- ذكر الكفر هنا في مقابل ماذا؟ في مقابل الشكر، فدلَّ ذلك على أن الشكر يأتي في القرآن الكريم بمعنى الإيمان، وأن ترك الشكر بمعنى الجحود، يكون هو الكفر بعينه والعياذ بالله -تبارك وتعالى- وفي الحقيقة يجب على العباد أن يشكروا الله -تبارك وتعالى- على نعمه والله -عز وجل- ليس بحاجة إليهم ولا إلى شكرهم، ولذلك في حديث صحيح مسلم: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو حديث طويل أذكر فقط ما أود أن أستدل منه على هذه القصة وهو حديث قدسي أن رب العباد -سبحانه وتعالى- يقول:

(يا عبادي: لو أن أوَّلَكُم وآخِرَكم، وإنْسَكُم وجِنَّكُم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل واحد منهم مسألته، ما نقص ذلك من ملكي شيئً).

يعني لو أن جميع العباد... تأملوا كل المخلوقات سألوا الله وأعطاهم رب العالمين ما نقص ذلك من ملك الله -تبارك تعالى- شيئا، ولذلك فرب العالمين ليس بحاجة إلينا ولا إلى شكرنا، ولكنه أوجبه علينا من باب التذلل، والخضوع، والخشوع، وشكر نعمة رب العالمين.

نسأل الله -عز وجل- أن يعيننا على ذكره، وشكره، وحسن عبادته، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

في الحلقة السابقة كان السؤال الأول:

ما الراجح في قول الله -تبارك وتعالى: ؟ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ؟ [النمل: ١٦] أيِّد ما تقول من القرآن والسنة؟

وكانت الإجابة:

الراجح في قول الله -تعالى: ؟ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ؟ أنه وَرِثَه في العلم والنبوة والحكمة، وليست وراثة المال، ومن قال بذلك فقد أغرب، وذلك للأدلة التي تدل على أنها وراثة علم ونبوة، ومما يدل من القرآن على أن العلم يورَّث قول الله -تبارك وتعالى: ؟ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ؟ [فاطر: ٣٢]، وأيضا فقد دلت السنة النبوية على أن العلم يورَّث في قوله -صلى الله عليه وسلم: (العلماء ورثة الأنبياء)، ومما يدل من السنة أيضا على أن الأنبياء لا يورِّثوا المال قوله -صلى الله عليه وسلم: (إنا معاشر الأنبياء لا نُورَث، ما تركناه صدقة)، ومما يُستأنس به أيضا من المعقول أن نبي الله داود -عليه السلام- كان يعمل نجارا، ولم يترك من المال الكثير، وأيضا فقد كان لسليمان -عليه السلام- إخوة فما كان ليأخذ ميراث أبيه من المال وحده دون إخوته والله أعلم.

ما شاء الله جواب سديد، وهذا يشرح الصدر ويطمئنني على ما نقول يفهم ويستفاد منه فجزاكم الله خيرا.

والسؤال الثاني: ما معنى: ؟ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ؟ [النمل: ٢٢]، ولماذا وصف المكث بقصر المدة؟

وكانت الإجابة:

معنى ذلك أن الهدهد لم يتغيب وقتا طويلا بل كان وقتا يسيرا، ووصف المكث بقصر المدة يدل على احترام الهدهد لهذه المملكة العظيمة ولسليمان -عليه السلام- وخوفه من عقابه.

الحمد لله جزاهم الله خيرا.

في الحلقة قبل الماضية كان هناك عدة أسئلة من الإخوة.

يقول: ذكر في مفتتح السورة في قصة سيدنا موسى يقول: ما سبب اختصاص سيدنا موسى -عليه السلام- بالتكليم دون باقي الأنبياء؟.

في الحقيقة موسى -عليه السلام- قلت حقًّا بأنها من خصائصه؛ بمعنى أنه ربما أول من كلمه الله -تبارك وتعالى- من البشر وإلا فرب العالمين كلم النبي الأمين صلوات الله وسلامه عليه، ونحن قلنا: إن من خصائص موسى -عليه السلام- بأن هذا ورد في حديث الشفاعة الطويل عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن أهل الموقف يذهبون إلى موسى -عليه السلام- ويقولون له أنت الذي اصطفاك ربك وناداك وناجاك وكلمك، فدل ذلك على أنها ذُكِرَت من خصائص موسى -عليه السلام؛ لأنه ربما أول من خاطبه الله -عز وجل- من البشر أو هو أول من أعلمنا ربنا -سبحانه وتعالى- بأنه كلمه ونصَّ الله -عز وجل- عليه في كتابه أنه كلمه: ؟ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي ؟ [الأعراف: ١٤٤]، فلهذا النص قلنا بأنه اصطفاء وخاصية لموسى -عليه السلام.

يقول: ذكرتم يا شيخنا أن موسى -عليه السلام- ترك أهله فما هي الصلة في ترك أهله، هل من أجل المناداة، أو بمعنى آخر ما هي الحكمة من ذلك؟.

هو أن موسى -وقد ذكرت أن موسى عليه السلام- قد ضل الطريق، والذي يضل الطريق ويبحث عنه لا يمكن أن يسلك أيضا طريقا بعيدا آخر، فيذهب إلى أبعد مما كان فيه، وبالتالي هو غريب عن المكان ومعه زوجه فقط، ورأى نارا ونرجِّح والله أعلم، أن هذه النار كما كان العرب يفعلونها قديما، وقد ذكر هذا في كتب الأدب، أنهم كانوا يُشِبُّون هذه النار على رؤوس الجبال حتى يراها الغادي والرائح من غرباء المكان فيهتدون إليها للقرى والضيافة وغير ذلك، وبالتالي لا تستطيع هذه المرأة بضعفها أن تذهب مع موسى -عليه السلام- موسى -عليه السلام- كان لا يعلم أن الله -عز وجل- سيناديه في هذا المكان، الله -عز وجل- اصطفاه وناداه في هذا المكان، وكان غريبا عليه، صلوات الله وسلامه عليه، فكان الجو باردًا، وموسى -عليه السلام- لا شك أنه ضل الطريق وبمفرده، ويمكن أن يكون رجلا حائرا فلا يريد أن يدخل مع امرأته في أماكن جديدة تزيد حيرته وهو لا يعرف هل سيأتي بخبر؟ هل سيأتي بشيء يستدفئ به أم لا؟ فتركها بهذا الأمر، ولكنه وعدها بأن يرجع إليها بشيء كي يطمئنها في حالة الخوف التي ربما كانت هي عليها، والله أعلم.

يقول: يذكر بعض الناس أن الشجرة التي ذكرت باقية إلى اليوم، فهل لهذا الكلام أصل، وهل هي موجودة فعلاً في كنيسة ما؟.

لا يُتوقع أن تكون بحال، فقد مضى عليها آلاف السنين، وكل شيء لا شك له عمر ونهاية وأجل، وحتى لو كانت هذه الشجرة موجودة فلا يتعبدنا ربنا -سبحانه وتعالى- بشيء حِيَالها، فعمر بن الخطاب إن صحت الرواية عنه قطع شجرة الرضوان التي بايع النبي -صلى الله عليه وسلم- أصحابه تحتها في صلح الحديبية أو في يوم الحديبية، ورب العالمين لم يتعبدنا بذلك، ولذلك لا يوجد نص على هذا، ونستبعد -كما ذكرت- أن تكون هذه الشجرة موجودة والله أعلم.

أسئلة المراجعة لهذه الحلقة.

السؤال الأول:

لماذا وَصَفَت ملكة سبأ كتابَ سليمان -عليه السلام- بأنه كريم؟

السؤال الثاني:

ما المراد بالذي عنده علم من الكتاب؟ وماذا قال سليمان لما استقر العرش عنده؟ وماذا تفهم من ذلك؟

الدرس الرابع

سيدنا "سليمان وصالح" عليهما السلام

يسرنا في هذا اللقاء المبارك بإذن الله –عز وجل– أن نتناول أيضا بعضا من آيات سورة النمل، وحديثنا سيكون في الآيات حول محورين:

المحور الأول:

تابع الكلام في قصة سليمان –عليه السلام.

المحور الثاني:

إرسال صالح –عليه السلام– إلى ثمود، وذكر ما كان منهم، ولنستمع إلى هذه الآيات من أخينا الشيخ عبد الرحمن فليتفضل.

؟قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ ؟٤١؟ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ؟٤٢؟ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ؟٤٣؟ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ؟٤٤؟ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ؟٤٥؟ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ؟٤٦؟ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ؟٤٧؟ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ ؟٤٨؟ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ؟٤٩؟ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ؟٥٠؟ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ؟٥١؟ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ؟٥٢؟ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ؟ [النمل: ٤١: ٥٣].

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين وبعد...

أيها المشاهدون، الكلام سأبتدئ في الحديث عند المحور الأول، والذي هو بعنوان: تابع الكلام في قصة سليمان –عليه السلام– وتحته ما جاء في قول الحق –تبارك وتعالى: ؟قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ ؟٤١؟ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ؟٤٢؟ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ؟ إلى آخر ما جاء في سياق هذه القصة في هذه السورة الكريمة المباركة، وقد سبق أن وقفت في اللقاء الماضي عند مجيء عرش بلقيس عند سليمان –عليه السلام– والذي أتى به مَنْ آتاه الله –تبارك وتعالى– شيئا من العلم، هذه الآيات تقول وتخبر وتنبئ أن عرش بلقيس بعد ما استقر عند سليمان –عليه السلام– أمر أن يُغَيَّرَ ما فيه كقول الحق –تبارك وتعالى: ؟ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ؟، وهذا هو المراد بالتغير، وتنكير العرش يعني تغيير العرش، ذكر الإمام الحافظ ابن كثير –رحمه الله تبارك وتعالى– أنه أمر أن يزاد وأن ينقص، أو أن يغير ما فيه من ألوان، فما كان فيه أصفر يكون أحمر، وما كان أحمر يكون أصفر وهكذا، أو يُجعَل أسفله أعلاه، وأعلاه أسفله، وهذه كلها ألوان من ألوان التغيير.

سليمان -عليه السلام- ذكر القرآن الكريم عنه العلة التي دفعته إلى فعل هذا الأمر، إلى التغيير أو تنكير العرش، لماذا كان ذلك؟ ذكر أهل العلم أيضا أن سليمان -عليه السلام- أراد أن يختبر ذكاءها، أو أن يعرف قوة عقلها عندما يغير هذا العرش ويخفي معالمه، هل ستهتدي إليه أم أنه سيخفَى عليها؟ وفي ذلك يقول الحق -تبارك وتعالى: ؟ نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ ؟ ننظر أتهتدي إلى العرش وتعرف هل هو عرشها الذي كان عندها وهي كانت مالكة له؟ أو أنها لم تعرف ذلك؟ وقيل: ننظر أتهتدي إلى الحق والصواب وإلى صحة وصدق سليمان -عليه السلام- أم لا؟

ويُستفاد هذا القول من أنها عندما تنظر إلى عرشها وقد تركت ديارها، ثم جاءت من منطقة بعيدة عند سليمان، تركت ديارها والعرش فيه، ثم تأتي عند سليمان -عليه السلام- فتجد العرش قائما بين يديها، ولكنه غُيِّرَ فيه، هذا يعطيها شيئا من القوة تدفعها هذه القوة إلى الوقوف على قدرة الله -عز وجل- وإلى صدق سليمان -عليه السلام- ولذلك قال: ؟ نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ ؟ فلما جاءت وحضرت وأصبحت واقفة أمام عرشها بعد أن غُيِّر ونُكِّر، وقد كانت تستخدمه وتجلس عليه، وُجِّهَ إليها هذا السؤال: ؟ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ؟ كلمة "هكذا" اشتملت على ثلاثة أحرف: الحرف الأول: "الهاء" وهو للتنبيه، الحرف الثاني: "كاف التشبيه"، الحرف الثالث: "اسم الإشارة".

وهذه العبارة في غاية من الدقة، وفيها أيضا من الاستبعاد عليها أو الاستشكال الذي يدفعها إلى أن تستشكل أكثر، لم يُقَل لها: "أهذا هو هو" وإنما قيل: "أهكذا عرشك"، وهذا أيضا من باب الإبعاد عليها في معرفة هذا العرش، كانت هي حقًّا كما ذكر بعض أهل العلم أن سليمان أراد أن يعرف عقلها ووفور فهمها، كانت فعلاً لبيبة عاقلة؛ لأنها لم تجزم ولم تقطع بشيء فقالت: ؟ كَأَنَّهُ هُوَ ؟ وهذه عبارة أيضا تجعل السامع يذهب هنا وهناك، وهل هي حقا متيقنة من أن هذا هو عرشها أو أن الأمر ليس كذلك؛ لأنها لم تقطع بأمر أمام الذي سألها: ؟ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ؟، فكان جوابها أيضا ينم عن حنكة، وعن خبرة، وعن وفور عقل، وعن شدة ذكاء، عندما قالت: ؟ كَأَنَّهُ هُوَ ؟.

ثم قال رب العالمين -سبحانه وتعالى: ؟ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ؟ اختلف أهل العلم في: من قال هذه الجملة؟ ؟ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ؟؟ قيل: هذه الجملة من كلام سليمان -عليه السلام- وكأنه أراد أن يشكر نعمة الله -عز وجل- عليه، بأنه قد مَنَّ الله -عز وجل- بالإسلام قبل أن تدخل هذه الملكة فيه، وأن الله أعطاه ما أعطاه وتفضل عليه بالخير العميم، وأن إسلامه سابق على إسلامها، وقيل بأن هذا من كلام بلقيس ألا وهو: ؟ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا ؟، وأوتينا العلم بالله -عز وجل- وبالإيمان به، وبصدق سليمان -عليه السلام- قبل أن نشاهد أو نقف على هذه المعجزة، وهي معجزة إتيان العرش، الذي خرجت من قريتها وهي تاركة له، ثم أتت ووجدته بين يديها، ؟ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ؟ ثم يقول رب العالمين -سبحانه وتعالى: ؟ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ؟ قال: وصدها الشرك والكفر الذي كانت عليه، وكان عليه قومها أن تعبد الله -تبارك وتعالى- وحده دون سواه، يعني أن الدافع لها على الكفر والشرك بالله هو الشرك الذي وقع عندها وعند أقوامها وقد كانوا يعبدون ويسجدون للشمس من دون الله -تبارك وتعالى- وقيل: ؟ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللهِ ؟ يعني وصدها الله -عز وجل- أو سليمان -عليه السلام- أن تعبد غير الله -تبارك وتعالى- وذلك بعد أن كانت كافرة فصدها ما وقفت عليه من إعجاز وبيان سليمان -عليه السلام- وما كان هو عليه من أن تعبد بعد ذلك غير الله -تبارك وتعالى.

ثم بعد ذلك أمر سليمان -عليه السلام- أن يجهز له قصر عجيب في الفخامة والأبهة والعظمة وأن يكون هذا القصر من قوارير ؛أي من زجاج أمرد ناعم أملس ناعم، وأمر أن يجري الماء تحت هذا الزجاج، كل ذلك كي يدخل على هذه المرأة صدقه -عليه السلام- ويبين لها أيضا تمام قدرة رب العالمين -سبحانه وتعالى- الذي مكنه وملكه، فالذي أعطى سليمان -عليه السلام- هو رب العالمين -سبحانه وتعالى، جل في علاه- ولذلك يقول

رب العالمين سبحانه مبينا ما حصل بعد ذلك: ؟ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ؟ "قيل لها ادخلي الصرح" بعد ما شاهدت عرشها واختُبِرَت فيه، وظهر ذكاءها ووفور عقلها، أمر سليمان -عليه السلام- أن تدخل الصرح، والصرح هو القصر، ؟ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ؟ وقلت بأن هذا الصرح أمر سليمان -عليه السلام- بأن يُعَدَّ إعدادًا جيِّدًا لها، والصرح: القصر العظيم العالي، وهو أيضا المراد في قول الحق -تبارك وتعالى- عن فرعون أنه قال لهامان: ؟ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ؟ [غافر: ٣٦]؛ يعني قصرا عاليا أتمكن من خلاله أن أبلغ أسباب السماوات حتى يطلع إلى إله موسى كما زعم، هنا سليمان -عليه السلام- أمر بأن تدخل هذه المرأة القصر بالحالة التي جَهَّزَه سليمان -عليه السلام- عليها، قلت بأن القصر صُنِعَ من أمر عجيب، من زجاج فخم للغاية وأُجْرِيَ الماءُ من تحته، والناظر لذلك عندما يدخل لا يستطيع أن يفرق بين الزجاج والماء، وإنما يظن أن ما بين يديه أو ما هو كائن أمامه ماء، هذا دَفَعَ هذه المرأة إلى أن تكشف عن ساقيها؛ يعني أن ترفع ثيابها حتى لا تبتلَّ بالماء ظَنًّا منها أنها ستخوض لجةً من ماء: ؟ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً ؟ ظَنَّت أنه ماء كثيف، استدعى ذلك، وهذه حركة لا شك أنها تلقائية يمكن أن يقع فيها أي إنسان، رفعت ما تلبسه عن ساقيها حتى تتمكن من أن تَلِجَ هذه اللجة العظيمة من الماء، عندما فعلت ذلك بُيِّنَ لها أن هذا ليس ماءً، ؟قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ؟ بَيَّنُوا لها الهيئة التي صُنِعَ عليها هذا القصر، وكيف كان، وهو عبارة عن صرح ممرد؛ يعني أملس، ولذلك يقال للرجل إذا أدرك ولم تنبت لحيته "أمرد"؛ لأن الأملس هو الناعم، فهذا كان أملسَ ناعمًا صافيًا، وقيل كان من زجاج والماء يجري من تحته، لما توقعت خلاف ذلك بينوا لها الحقيقة: ؟ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ؟ حقيقةً سليمان -عليه السلام- فعل ذلك لتدرك المرأة -كما ذكرْتُ- عظمة رب العالمين -سبحانه وتعالى- وما امتنَّ الله -سبحانه وتعالى- به على سليمان -عليه السلام- وهذا دفع المرأة إلى أن تُعلن إسلامها في هذه اللحظة، وأن تعترف بالعجز والتقصير والتفريط بين يدي رب العالمين سبحانه، وأنها كانت ظالمة لنفسها لما عبدت غير الله -تبارك وتعالى.

ولذلك ذَكَرَتْ -كما ذكر عنها القرآن الكريم: ؟ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ؟ ما نوع الظلم الذي ظلمت نفسها به؟ هو الشرك بالله -سبحانه وتعالى- لأن هذا هو المنصوص عليه أولا، ولا يمنع من أن يكون أيضا هناك ألوان متعددة من الظلم وقعت فيها هذه المرأة؛ ولكن أعظم الظلم بإطلاق وأعلاه هو أن يُشرِك العبد مع ربه -سبحانه وتعالى- ومولاه، وفي الحقيقة هذا فتح من الله -عز وجل- على هذه المرأة، أن تدخل في دين الله -عز وجل- وأن تعلن إسلامها لرب العالمين سبحانه، وأن يكون هذا الموقف دافعا لها إلى أن تدخل في دين الله بعد أن تعترف على نفسها بالظلم الواقع منها.

وهنا لفتة كريمة لا بد أن أشير إليها، وهي تبين فقه أهل الإيمان، وكيف أن الله -عز وجل- إذا أراد بعبد خيرا وشرح صدره للإيمان، يفتح عليه مفاتيح عظيمة من النفع والعلم والخير العميم، هذه المرأة قالت: ؟ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ؟ ثم قالت: ؟ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ ؟ ولم تقل وأسلمت لسليمان؛ لأن الإسلام لله -تبارك وتعالى- وحده دون سواه، إسلام الوجه لله هو الدين الذي ارتضاه الله لعباده، فلا يجوز في إسلام العبد أن يُسلم لغير الله -تبارك وتعالى- ولا أن ينقاد لغير الله، ولا أن يذل أو أن يخضع لغير الله، ولا أن يدخل في حلف يخالف حلف أو دين الإسلام الذي بُعِثَ به النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وهذه امرأة كانت جاهلة، اعترفت على نفسها بالظلم، ولكنها مع كل ذلك تقول: ؟ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ؟، ونستفيد أيضا من هذه الآية أن الدين الذي جاء به جميع الأنبياء والمرسلين هو الإسلام، كل الأنبياء وجميع المرسلين أتوا بالدين الذي ارتضاه الله لعباده ألا وهو "الإسلام"، والإسلام: هو وصية الله -عز وجل- لجميع البشر أن يدخلوا في السلم كافة، وأن ينقادوا جميعا ويخضعوا لله رب العالمين -سبحانه وتعالى جل في علاه.

حقيقةً.. هنا تنبيه أود أن أشير إليه لمن يقرأ حتى كتاب الحافظ ابن كثير، وقد أشار هو إلى ذلك، أو يقرأ غيره من كتب التفسير، كتب التفسير في الحقيقة أفاضت وذكرت روايات كثيرة في صفة صرح سليمان -عليه

السلام- وهل سليمان -عليه السلام- تزوج بهذه المرأة أم لم يتزوج بها؟ وهل أرجعها أم لم يرجعها؟ بل إن بعض المفسرين أغرب وقال بأنها من سلالة الجن، وغير ذلك من الروايات التي ذُكِرَت في بعض كتب التفسير عند هذه الحادثة، ولكن هذا الكلام كله لا يعدو عن أن يكون أقوالا، ليس على واحد منها دليل من هدي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ولكن هذا يدفعنا إلى أن نقف عند حدود النص الوارد عن الله -تبارك وتعالى- أو في ما صح به الخبر عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في ذلك.

أنتقل بعد هذا إلى المحور الثاني: وهو بعنوان: إرسال صالح -عليه السلام- إلى ثمود، وذِكْر ما كان منهم، وقصة صالح هي القصة الثالثة في هذه السورة المباركة من قَصَص القرآن الكريم، نحن سبق أن تحدثنا عن قصتين ما هما؟

- قصة موسى -عليه السلام.

- قصة سليمان -عليه السلام.

- وهذه هي القصة الثالثة وهي قصة صالح، وأن الله -عز وجل- أرسله إلى قومه، وفي ذلك يقول رب العالمين -جل في علاه: ؟ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ؟، يذكر رب العالمين -سبحانه وتعالى- في هذه الآية الكريمة أنه أرسل نبيه صالحا -عليه السلام- إلى قبيلة ثمود، وتبين هذه الآية القاسم المشترك الذي بُعِثَ به جميع الأنبياء والمرسلين، الهم الأول الذي كان يَشغل بَالَ جميع الأنبياء والمرسلين ألا وهو الدعوة إلى تحقيق العبودية لله -تبارك وتعالى- وحده دون سواه، وقد سبق أن درسنا معكم سورة الشعراء وبعض سور القرآن الكريم، ووقفت عند ذلك كثيرًا مبيِّنًا، أن كل نبي وكل رسول كان يأتي إلى قومه يدعوهم أول ما يدعوهم إلى عبادة الله وحده دون سواه.

والقرآن الكريم يركز على هذا كثيرًا، وكلما تكرر القصص في القرآن الكريم يركز على هذه القضية، وهذا يدفعنا أيضا إلى أن نذكرها وأن نشير إليها: ؟ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ؟ بأي شيء جاء إليهم، بأي أمر أمرهم: ؟ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ؟؛ يعني أَخلِصُوا لله -عز وجل- الدين، اعبدوا الله وحده دون سواه، لا تتخذوا مع الله أندادا أخرى، ولا تلجؤوا بأي عبادة من العبادات، أو تتوجهوا بها لغير رب العالمين -سبحانه وتعالى.

لما جاء صالح -عليه السلام- إلى قومه وأمرهم بإخلاص الدين لله والعبودية لله وحده دون سواه، عندئذ اختلف الأقوام أو الناس فيه إلى فريقين ؟ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ؟، قال أهل العلم: يعني فريق من أهل الإيمان وفريق من أهل الكفر والشقاق والعياذ بالله -تبارك وتعالى- وحصل خصام شديد في دعوة صالح -عليه السلام- هل يقبلوا دعوته أم أنه يُكَذَّب هؤلاء الناس لدعوته -عليه السلام. الله -تبارك وتعالى- في هذه الآية أَجْمَلَ الخصومة التي وقعت بين الفريقين، وقد جاء في سورة الأعراف بيان هذه الخصومة، وأنها كانت في الإيمان والكفر، والحقيقة أن الخصومة في الإيمان والكفر أشد وأعظم ألوان الخصومة بإطلاق، ؟ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ؟.

سورة الأعراف بين رب العالمين -سبحانه وتعالى- فيها طبيعة الخصومة التي وقعت بين الفريقين، وذلك بين المستكبرين والمستضعفين: ؟ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ؟ [الأعراف: ٧٥]؛ يعني قال المستضعفون للمستكبرين، هذه الخصومة ؟ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ؟٧٥؟ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ؟ [الأعراف: ٧٥: ٧٦]، كفروا بما آمن به هؤلاء الذين صَدَّقُوا نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، بالتالي لو رددنا هذه الآية التي لم

يذكر ربنا -سبحانه وتعالى- فيها طبيعة الخصومة إلى سورة الأعراف لعرفنا -كما ذكَرْت- أن الخصومة وقعت بين الفريقين في الإيمان والكفر، وهذه أعظم ألوان وأنواع الخصومة.

في الحقيقة القرآن الكريم -وقد سبق أن أشرت إلى ذلك- يستخدم أسلوب الإيجاز كثيرا، وينتقل في سياقه الكريم المبارك من التفصيل الذي يمكن أن يعهده أو أن يعرفه أو أن يقف عليه القارئ للإيجاز، وهذا لون من بلاغة القرآن الكريم.

لا شك أن صالحا -عليه السلام- لما دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له واختصم فيه قومه واستكبر من استكبر عن عبودية الله، توعدهم صالح -عليه السلام- بالعذاب، الآيات لم تذكر ذلك أن صالحا -عليه السلام- توعدهم بعذاب الله -تبارك وتعالى- إن لم يؤمنوا به ويصدقوا برسالته، ولكن الآية التالية تفيد ذلك، ألا وهي قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ؟ هذا القول لا شك أنه مبني على أن صالحا -عليه السلام- بعدما طلب منهم عبادة الله وحده دون سواه أنهم كذبوه فهددهم بالوعيد والعذاب، فقالوا له هذا القول، طلبوا منه العذاب، وهذه في الحقيقة طلب العذاب سنة المكذبين لجميع الأنبياء والمرسلين، في سورة العنكبوت أو القصص وستأتي -إن شاء الله تعالى- أن قوم صالح هؤلاء: ؟ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ؟ [العنكبوت: ٢٩]. وهذا يدل على أن صالحا تهددهم وتوعدهم بعذاب الله -تبارك وتعالى.

وأيضا فرعون ومن معه طلبوا أيضا من موسى -عليه السلام- أن يأتيهم بالعذاب الذي يتوعدهم به، وكذلك كفار قريش أيضا استعجلوا العذاب من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ؟ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ؟ [العنكبوت: ٥٣]، ؟ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ ؟ [الرعد: ٦]؛ يعني خلا الأقوام قبلهم الذين كذبوا المرسلين فأتاهم العذاب من عند رب العالمين، وبالتالي استعجال العذاب من الأنبياء والمرسلين، فهذه سنة مطردة من هؤلاء المكذبين المشركين، وكان كفار قريش لهم نصيب وافر من ذلك، لدرجة أنهم لما استعجلوا العذاب، لم يستعجلوه بأسلوب فيه رفقٌ على أنفسهم، أو فيه لون من ألوان الطلب اليسير أو الخفيف، وإنما قالوا: ؟ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ ؟ [الأنفال: ٣٢]، فهؤلاء الناس يطلبون إن كان هذا هو الحق من عند الله -عز وجل- أن يأتيهم الله -تبارك وتعالى- بالعذاب، الصواب في هذا: "إن كان هو الحق من عندك فاهدِنا إليه أو وفقنا إلى الإيمان به" وهكذا... ولكن هذا هو ضلال هؤلاء المكذبين، وقد وقع ذلك أيضا من قوم صالح -عليه السلام- فهو يستغرب عليهم، ويستعجب من أمرهم: ؟ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ؟؛ يعني هلا تستغفرون الله -عز وجل- وتتوبون إليه، وتدخلون في دين الله -عز وجل- لعل الله -سبحانه وتعالى- يرحمكم، كي يرحمكم رب العالمين -سبحانه وتعالى- ماذا كان جواب قوم صالح عليه بعد ذلك؟

أيضا جواب المشركين -كما سنعرف- من سياق آيات القرآن الكريم: ؟ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ؟ قالوا اطَّيَّرنا بك: التطير هو التشاؤم، تشاءمنا بك، وكان قوم صالح إذا وقع بهم لونٌ من ألوان الجدب أو القحط أو الضرُّ، قالوا: هذا بسبب صالح وبسبب من آمن معه، فما كان جواب صالح -عليه السلام- إلا أن قال لهم: ؟ طَائِرُكُمْ عِندَ اللهِ ؟؛ يعني أن الأمر يرجع إلى رب العالمين -سبحانه وتعالى- وأن ما أنتم فيه من كرب أو ضنك أو شقاء أو ضر، إنما هو بسبب أعمالكم، وذنوبكم، وبعدكم عن الله -تبارك وتعالى- وأن هذا من عند الله -عز وجل- لأن الله -عز وجل- هو الذي يملك الأمر كله، وقد كان أيضا كما ذكر لنا القرآن الكريم، كان من عادة المكذبين بالأنبياء والمرسلين أنهم يتشاءمون برسلهم، والتشاؤم والتطير لا شك أنه بدعة جاهلية، وقد كان متوفرًا كثيرًا في الجاهلية، وقد قال المشركون للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ذلك وفي هذا يقول رب العالمين سبحانه: ؟ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ

وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ؟ [النساء: ٧٨]؛ يعني بسببك وهذا من شؤمك علينا: فأجاب رب العالمين سبحانه: ؟ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللهِ ؟ [النساء: ٧٨]، وهذا كقول رب العالمين -سبحانه وتعالى- هنا لصالح -عليه السلام- وما قاله صالح لقومه لما قالوا: ؟ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللهِ ؟ طائركم عند الله تساوي: ؟ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللهِ ؟ التي قالها رب العالمين -سبحانه وتعالى- جوابا على هؤلاء المشركين الذين تشاءموا وتطيروا بدعوة النبي الأمين -صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد كان التطير والتشاؤم بارزا جدًّا عند العرب قبل بعثة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فكان الرجل منهم إذا أراد أن يسافر سفرا وطار طائر عن يمينه وجاء بعد ذلك عن يساره تفاءل به ومضى في طريقه، وإن طار الطائر عن يساره ثم أتى عن يمينه تشاءم وكف عن سفره ولا يمضي فيه، بل وصل بهم الأمر إلى أمر عجيب، ونقول ذلك من قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أَقِرُّوا الطُّيُورَ على مُكَنَاتِهَا)؛ يعني على أمكنتها، قال أهل العلم: كان العربي في الجاهلية إذا أراد سفرا ولم ير طائرا يطير كي يتفاءل به أو يتشاءم، ووجد طيرا ساكنا قارًّا في مكانه ألقى عليه حجارة حتى يطير؛ لأنه لا يستطيع أن يسير في سفره ولا أن يكف عن سفره بالتطير والتشاؤم، فيضرب الطير حتى يطير ثم ينظر بعد ذلك إن طار الطير عن يمينه مضى في سبيله، وإن طار الطير عن يساره كف عن سفره، وهذا في الحقيقة من الابتلاء الذي وقع فيه هؤلاء الناس، وجاء الإسلام لينهى عن التطير، ويقول النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- وهو في الصحيحين: (لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر) والطِّيَرَة هي ما كان يتطير به أهل الجاهلية؛ أي يتطيرون بذلك في جاهليتهم، وهذا الحديث يدل على أن التطير ليس من الإسلام، وأنه من الضلال والانحراف؛ لأن فيه قطعَ التوكل على الله -تبارك وتعالى- والتعلقَ بأوهام وخرافات لا أصل لها في الحقيقة، فهذا الطير لا يملك للإنسان شيئا، ولا يعرف هل سفر الإنسان سيكون فيه سعيدًا أم شقيًّا، فكيف يقطع العبد علاقته بالله -عز وجل- وَيَكِلُ أمرَه إلى طائر لا يفقه ولا يعرف شيئا؟! هذا لا شك من الضلال المبين، ولذلك لما وقعوا في هذا التطير أو التشاؤم وقالوا لصالح -عليه السلام: ؟ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ؟ قال لهم صالح -عليه السلام- كلمة هم وقعوا فيها في الحقيقة: ؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ؟ قيل: تفتنون؛ يعني أنكم تبتلون وتختبرون، وهذا هو أرجح الأقوال في هذه الكلمة؛ لأن كلمة الفتنة جاءت في القرآن الكريم على عدة معاني:

المعنى الأول: الإحراق بالنار، وفي ذلك يقول الحق -تبارك وتعالى: ؟ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ؟ [البروج: ١٠]، في قصة أصحاب الأخدود، ؟ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ ؟؛ يعني حرقوا المؤمنين والمؤمنات بالنار، فأطلق على الإحراق فتنة.

أيضا الفتنة تُطلق ويُراد بها الاختبار كهذه الآية، وأشرح منها قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ؟ [الأنبياء: ٣٥].

وأيضا الفتنة في لغة القرآن الكريم تأتي بمعنى الحجة، وذلك كما في قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ؟ [الأنعام: ٢٣]، ثم لم تكن فتنتهم ماذا يقصد بها؟ لم تكن حجتهم.

بعد ذلك يستمر السياق ليبين أمرا آخر فعله قوم صالح بصالح -عليه السلام- وذلك في أن قوما من شرار قومه فاقوا غيرهم في الضلال والفساد والانحراف، وأرادوا بصالح -عليه السلام- أمرا عظيما ذكرته هذه الآيات، وذلك في قول الحق -تبارك وتعالى: ؟وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ ؟٤٨؟ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ؟، يُخبر رب العالمين -سبحانه وتعالى- عن طغاة تسعة من قوم ثمود، هم كلهم فسدوا وانحرفوا، ولكن الفساد والانحراف درجات، وبعضه أعلى من بعض، كما أن الهداية والخير والمعروف أيضا الناس يسلكون فيه أيضا درجات، فكان يوجد بين هؤلاء الناس تسعة رهط، قال أهل العلم تسعة نفر، هؤلاء النفر كانوا أشقى قوم صالح، وقيل كان منهم الذي

عَقَرَ الناقة، والذي ذكر القرآن عنه في قوله: ؟ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ؟ [الشمس: ١١]، وهو الذي قتلها، كان من هؤلاء التسعة.

هؤلاء التسعة وصفتهم الآية بأنهم كانوا يُفسِدون في الأرض ولا يصلحون، وهذا يدفعنا إلى أن نفكر في أمر الإصلاح في الأرض، وأن يسعى الإنسان إلى البناء والتعمير فيها، وأن يتحرك لله -عز وجل- وأن يكون سيره في الطريق إنما يريد الإصلاح، شعار الأنبياء والمرسلين: ؟ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ ؟ [هود: ٨٨]، إنما أهل الضلال والانحراف دائما يُفسِدون في الأرض، والإفساد في الأرض أيضا صفة أو علامة أو سمة لدى المنافقين، بينت الآيات بعد ذلك ما لون الفساد الذي أراده هؤلاء الناس. أرادوا فسادا عظيما، وذلك بأنهم كانوا يخططون ويُبَيِّتُون لقتل نبي الله صالح -عليه السلام- والقرآن الكريم يذكر هذا في عبارة دقيقة جدًّا: ؟ قَالُوا تَقَاسَمُوا ؟ تقاسموا: هذا فعل يدل على المستقبل، وقيل هو فعل أمر، ومعناه: احلفوا، فقد أقسم بعضهم مع بعض مُبَيِّتِين النية أن يقتلوا صالحًا -عليه السلام- وقيل: هذا فعل ماضي في معنى الحال، يعني: قالوا متقاسمين بالله، فقد تكاتفوا واتفقوا على ذلك، ماذا يفعلون؟ ؟ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ؟ أي نقتله بياتا، لأن البيات يُطلق على تَتَبُّع العدو بالليل، وأيضا دائما نجد أن المنحرفين يخططون لانحرافهم في ظلمة الليل، رب العباد -سبحانه وتعالى- ذكر عن المنافقين أن أعمالهم دائما تكون في الليل؛ لأن الليل مسرح للمجرمين، أهل الإيمان يقومون في الليل لله رب العالمين، وأهل الإجرام يتحركون في ظلام الليل للإفساد في الأرض، تأملوا ماذا قال الله عن المنافقين في سورة النساء: ؟ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ؟ لماذا؟ قال: ؟ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ ؟ [النساء: ١٠٨]، كلمة "يبيتون" تعني أنهم يحيكون مؤامراتهم بالليل، وهؤلاء أيضا: ؟ تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ؟، ويبلغ بهم الفجور مبلغًا عظيمًا جدًّا؛ يعني يدبرون للمؤامرة ويحيكون لها تماما، ثم بعد ذلك لعدم دينهم يذهبون إلى أهل صالح -عليه السلام- وأولياء دمه فيقولون: ؟ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ ؟ نحن بُرَآءُ منه لا نعرف خبره، ولا نعرف من الذي قتله، رغم أنهم دبروا ونفذوا، ومع ذلك يقسمون بالله -عز وجل- أنهم ما شاهدوا، وما وقعوا، وما دبروا، وما خانوا، ثم بعد ذلك يصل الأمر بهم إلى أنهم ينسبون إلى أنفسهم الصدق، ؟ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ؟.

حقيقةً أيضا هذه الآية فيها لفتة جميلة، وهي أن الله -سبحانه وتعالى- نَجَّى صالحا -عليه السلام- وتفيد الآية أن صالحا.. مع أن أعداد المؤمنين بالأنبياء دائما يكونون قلة أم كثرة؟ قلة، ومع ذلك هؤلاء الكثرة ما استطاعوا أن يُقْدِمُوا على صالح -عليه السلام- أثناء النهار، وإنما ينصرفون إلى الليل، وهذا في حد ذاته قوة لهذا النبي، ثم بعد ذلك أيضا منعهم رب العباد -سبحانه وتعالى- أن يقوموا بما أرادوا، ولذلك قال الله -عز وجل- معقِّبًا على ذلك: ؟ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ؟ "ومكروا مكرا"؛ يعني أنهم مكروا بهذه الحيلة، وهي أنهم يقتلون صالحًا -عليه السلام- بالليل، يبيتون له ليقتلوه، ويقول رب العالمين: ؟ وَمَكَرْنَا مَكْرًا ؟ يعني هم دبروا واحتالوا، ولكن الله -عز وجل- قوته خارقة، وهؤلاء جميعا لا يمكن لهم بحال من الأحوال أن يَقِفوا أمام تدبير رب العالمين -سبحانه وتعالى- جل في علاه، فالله -عز وجل- أعلم، وأعظم، وأجل، وأقدر من هؤلاء الناس جميعا، هم دبروا وحاكوا، وأطلق الله -سبحانه وتعالى- هذا الفعل، أطلق عليه كلمة "المكر"، قيل: هؤلاء ذهبوا إلى بيت صالح وشهروا سيوفهم وأرادوا قتله، ولكن الله -تبارك وتعالى- أعماهم عنه، فلم يستطيعوا أن يصلوا إليه، وسمى الله -عز وجل- خذلانَه لهم وإقصاءَه لهم في أن يصلوا إلى صالح -عليه السلام- سماه مكرا، من باب المشاكلة لفعلهم، وهنا مَكَرَ الله -تبارك وتعالى- بهم، ومَكْرُ الله في هذه الحالة بهم فعل جميل من أفعال الله -تبارك وتعالى- لأن مَكْرَ الله في مقابلة مكر الكافرين حسن، واستهزاء الله في مقابلة المستهزئين به وبرسله وبالمؤمنين أيضا فعل حسن، وهو كمال في هذه الحالة؛ لأنه من باب الجزاء من جنس العمل، هم يخططون ويمكرون، ولكن الله -عز وجل- يدبر، ويمكر بهم كما يمكرون هم، ولكننا -أيها الكرام- لا يجوز لنا أن نشتق من هذا الفعل اسما لله -تبارك وتعالى- فلا يجوز لنا أن نسمي الله -عز وجل- بالماكر، أو أننا نصف الله -تبارك وتعالى- بصفة المكر؛ لأن فعل الله -سبحانه وتعالى- فعل حسن في مقابلة مكرهم في هذه الحالة، أما هو بإطلاق فلا يُطلق على رب العالمين سبحانه؛ لأن أسماء الله -عز وجل- بلغت الغاية في الحسن والكمال، وهي كلها تليق برب العالمين سبحانه، ولا نَقْص فيها بأي وجه من الوجوه، ولكن الله حينما يُطلِق على نفسه المكر هنا

الذي فعله بهؤلاء المجرمين يكون فعلاً حسنا في مقابلة فعلهم، ليبين لهم رب العالمين -سبحانه- أنه أقدر عليهم، وأعلى وأعظم منهم -سبحانه وتعالى جل في علاه- ؟ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ؟، هذه تبين أيضا سفاهة عقول هؤلاء الناس، وأين هم من الكبير الحكيم العليم -سبحانه وتعالى- هم من السفه بمكان، فهؤلاء وإن خططوا وإن فعلوا إلا أنهم أيضا من الضيق، ومن ضيق الأفق، ومن العلم اليسير بمكان شديد، كل ما لديهم لا يعد شيئا، ولا يمكن أن يصلوا به إلى جزء مما يريده رب العالمين -سبحانه وتعالى جل في علاه- أو يصلوا به إلى أقل من جزء أراده رب العالمين -سبحانه وتعالى.

ورب العالمين يقول للشيء كن فيكون، ولذلك دمرهم الله -عز وجل- ودبر لهم وهم لا يشعرون: ؟ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ؟٥٠؟ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ؟ يعني انظر وتأمل، والخطاب يجب أن يفهمه كل عاقل، سياق هذه الآيات عندما يحكيها رب العالمين -سبحانه وتعالى- ويبينها للنبي -صلى الله عليه وسلم- لأنه خوطب أولا ومن معه بالقرآن الكريم، وهذا يدفع العقلاء إن كانوا يعقلون أن يتأملوا وألا يُكذِّبُوا بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لأن هذا القصص فيه تدمير من رب العالمين لهؤلاء المكذبين، وبالتالي ما كان ينبغي على هؤلاء المكذبين أن يفعلوا هذه الفِعلة القبيحة ويكذبوا بالنبي أيضا صلوات الله وسلامه عليه، ولذلك الخطاب يوجه بعد ذلك للنبي -صلى الله عليه وسلم- ولكل من يصلح له أن ينظر، ؟ فَانْظُرْ ؟ يعني تأمل، وفكر، وقف أمام هذه الأحداث، وانظر فيها، وهل ما فعله الله بهؤلاء المكذبين، يعجز عنه بعد ذلك أن يفعله بالمكذبين في عهد النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أو أن يفعله بالمكذبين اليوم، الذين كذبوا بالنبي الأمين -صلى الله عليه وآله وسلم- ؟ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ ؟ نهاية مكرهم: ؟ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ؟ سبحان ربي جل في علاه، لأنه -وكما أشرت وذكر القرآن الكريم- يقول للشيء كن فيكون، رب العالمين -سبحانه وتعالى- أهلكهم بصيحة واحدة، كما قال الله -عز وجل: ؟ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ؟ [هود: ٦٧]. أخذهم بصيحة واحدة، أصبحوا في ديارهم جاثمين فيها، قابعين فيها، ليست لهم أدنى حركة ولا يتمكنون من الانتقال هنا وهناك، وقد كانوا قبل قليل يدبرون في قتل مَن؟ صالح -عليه السلام- ويمكرون لذلك، ويحيكون المؤامرات، ويحلفون بالله أنهم سيفعلون ذلك، ولكن الله -عز وجل- يمكر بهم، ثم بعد ذلك يُهلكهم بالصيحة كما قال رب العالمين -سبحانه وتعالى- ولقد قال الله -عز وجل- في سورة الحاقة عن هؤلاء: ؟ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ؟ [الحاقة: ٥]، وقيل الطاغية هي الصيحة، وقيل الذنوب التي فعلوها أهلكهم رب العالمين -سبحانه وتعالى- بها، ويُعقّب القرآن الكريم على ذلك فيقول: ؟ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ؟ فتلك بيوتهم، انظروا إلى بيوتهم خاوية فارغة، كانوا يسكنون فيها، كانت لهم ذرية، كانت لهم حاجات، كانت عندهم مصالح، كان عندهم من الدنيا ما عندهم، لكن لما أهلكهم رب العالمين -سبحانه وتعالى- بالصيحة، بادوا وأصبحت أيضا بيوتهم فارغة، خاوية على عروشها، ليس فيها شيء يذكر، وكل ذلك بسبب ماذا؟ بسبب الظلم الذي وقعوا فيها، والظلم الذي وقعوا فيه: الشرك بالله -تبارك وتعالى- وتكذيب نبي الله صالح -عليه السلام- وإيذاء أهل الإيمان وعلى رأس المؤمنين صالح -عليه السلام- الذين أرادوا قتله، ثم يقول رب العالمين: ؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ؟، إن قَصَص القرآن الكريم يختمه رب العالمين غالبا بالإشارة إلى أهمية التدبر في هذا القَصَص، ولكن الذي يتدبر في قصص القرآن الكريم هو العاقل، هم أهل العلم، قال رب العالمين -سبحانه وتعالى: ؟ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ؟ [العنكبوت: ٤٣]، ولذلك لا عجب في أن يختم رب العالمين -سبحانه وتعالى- هذه الآية بقوله: ؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ؟ ويختم الله -تبارك وتعالى- هذا السياق القرآني الكريم ببيان فضله ورحمته ونعمته على أهل الإيمان بعد أن دمر الكفر والكافرين، وأهلك هؤلاء المجرمين، يذكر رب العالمين -سبحانه وتعالى- رحمته بعباده المؤمنين وذلك بإنجائه لهم: ؟ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ؟ ما أجمل الإيمان بالله -عز وجل- وما أحسن المؤمنين به سبحانه عندما ينجيهم من العذاب والهلاك، وقد أهلك أعداءهم أمام أعينهم، فكم من أمة أبادها الله -عز وجل- أمام أهل الإيمان، والله -سبحانه وتعالى- يُنجِي من وسط الظالمين هؤلاء المؤمنين الذين آمنوا بالأنبياء والمرسلين وخافوا ربهم -سبحانه وتعالى- واتَّقَوْه، يعني جعلوا بينه وبين عذاب الله -تبارك وتعالى- وقاية، وهذه لفتة جميلة تدفع المؤمنين إلى الثبات على الحق؛ لأن العاقبة لمن؟ للمتقين، وإذا وقع هلاك

بالمجرمين، فرب العالمين سينجي هؤلاء المؤمنين: ؟ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ؟ ورب العالمين –سبحانه وتعالى– يبين ذلك ويقول ؟ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ؟ [هود: ٦٦]، فكانت نجاة رب العالمين –سبحانه وتعالى– لصالح –عليه السلام– ومن معه برحمة الله –تبارك وتعالى– ثم يقول: ؟ وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ؟ [هود: ٦٦].

والآية هذه أفادت أن الله أخزى المجرمين المكذبين المشركين الكافرين، وأعز مَن؟ وأعز المؤمنين المتقين: ؟ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ؟، أكتفي بهذا، وصلِّ اللهم وسلِّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بالنسبة لسؤالَي الحلقة السابقة كان السؤال الأول: لماذا وصفت ملكة سبأ كتاب سليمان بأنه "كريم"؟

وكانت الإجابة:

وصفته بذلك لعدة احتمالات:

الأول: إما لأنه من عند عظيم في نفسها ونفوسهم وهو سليمان –عليه السلام– فعظمته إجلالا له.

الثاني: لأنها رأته مطبوعا عليه بالخاتم، وكَرَامة الكتاب ختمه، ورُوِيَ ذلك عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه اتخذ خاتما.

الثالث: أو لأنه بدأ فيه بـ "بسم الله الرحمن الرحيم"، وكان أول من استعمل البسملة.

الرابع: أو لأنه بدأ فيه بنفسه ولا يفعل ذلك إلا الأجِلاَّء.

الخامس: قيل لأنها توهمت أنه نزل من السماء، إذ كان الموصل لهذا الكتاب طيرًا.

السادس: قيل إنها وصفته بالحسن لما تضمن من لين القول والموعظة في الدعاء والدعوة إلى الله وحسن الاستعطاف والاستلطاف، وكلها وجوه حِسَان.

صحيح، كلها وجوه حسان، نعم.

والسؤال الثاني: ما المراد بـ ؟ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ؟، وماذا قال سليمان لما استقر العرش عنده؟ وماذا تفهم من ذلك؟

وكانت الإجابة:

المراد بالذي عنده علم من الكتاب: عند أكثر المفسرين هو رجل من بني إسرائيل واسمه "آصِف بن بُرْهِيَة" وهو من بني إسرائيل وكان يحفظ اسم الله الأعظم، وكان كاتبا لسليمان –عليه السلام– ولما رأى سليمان العرش مستقرًّا عنده قال: ؟ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ؟؛ أي هذا من نعمة الله علي وكرمه وفضله ليختبرني أأشكر نعمته أم أكفرها، ويدل هذا القول على عبودية سليمان –عليه السلام– وملازمته لها وتواضعه رغم ملكه –عليه السلام.

يقول: لي استيضاح في الدرس الماضي، عندما أرسل سليمان -عليه السلام- الهدهد أمره بالأدب، وقالت بلقيس: إن قبل الهدية سليمان فهو ملك من ملوك الدنيا، وإن لم يقبلها فهو نبي، ثم تفضلتم بأن بعض أهل العلم قال بأن سليمان أحضر العرش، لأنه لو ملكه حال كفرها كان له ولا يحق له أن يملكه على الإسلام، ترى هل يستقيم هذان الأمران؛ فالنبي الكريم الذي يؤدِّب الهدهد والذي آتاه الله من كل شيء هل ينظر إلى عرش بلقيس، والله -تبارك وتعالى- أعطاه ما يفوق ذلك مرات كثيرة، فهل يستقيم؟.

في الحقيقة هذه امرأة كانت كافرة، وتعبد غير الله -تبارك وتعالى- ومِن أسلوب المواجهة مع الملك الرسول أن يبيِّن لها عظمته، وأن تنزل عند إمكانياته وقدراته، فالإتيان بعرشها بين يديه، يعطيه هو قوة، ويلزمها أيضا بالاستسلام لسليمان -عليه السلام- ولا مانع من أن يحرص هذا الملك على أن تأتي هي وعرشها بين يديه؛ لأن في هذا دفعًا لها إلى الإيمان بالله -تبارك وتعالى- فسليمان -عليه السلام- لا يحتاج إلى عرشها ولكن هذا يعطيه قوة يحتاج إليها، يعني تَمَلُّكه لهذا العرش بما هي عليه، وقد وصف أيضا بأنه عرش عظيم، هذا أمر كونه يأتي عند سليمان -عليه السلام- تصبح هي في الحقيقة صاغرة بين يديه، ويدفعها ذلك إلى أن تُسلم مع سليمان -عليه السلام- لله رب العالمين، فكل نبي كان لا يحتاج ولا يجاهد أو يقاتل قومه لكي يأخذ غنيمة أو يحرص عليها، هذا ليس من همهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولكن هذا يعطيه شيئا من القوة، يعطيه لونا من ألوان الانتصار، كون هذه الغنائم تأتي بين يديه وتكون ملكا تحته، هذا في الحقيقة أمر يشرح النفس وييسر الخاطر، ويدفع هؤلاء الناس إلى أن يدخلوا معهم في دين الله -تبارك وتعالى- فلا يتعارض أدب الهدهد وطبيعة سليمان -عليه السلام- مع ذلك أبدًا، والله أعلم.

يقول: بالنسبة لأفعال المشاكلة والمقابلة لله -سبحانه وتعالى- هل يجوز التكبر على المتكبرين والاستهزاء بالمستهزئين بالنسبة في الدنيا إذا كان هناك مستهزئ أو متكبر، هل يجوز التكبر عليه والاستهزاء به؟ وهل حديث "التكبر على أهل الكبر صدقة" هل هو حديث أو مقولة؟.

يقول: سؤالي على وجه الإجمال: الإسرائيليات في قصة نبي الله داود وسليمان عليهما السلام، نجد الإسرائيليات فيها أشياء لا تليق لا بنبي الله داود ولا سليمان، مع أنهما من أنبياء بني إسرائيل وبلغ المُلك في ذلك الزمان ملكا عظيما، فأنا أستغرب لماذا اليهود يذكرون مثل هذه الإسرائيليات التي لا تليق لا بنبي الله داود، ولا بنبي الله سليمان خاصة؟ ما ذكر في الإسرائيليات في قصة داود وسليمان أكثر من الأشياء التي لا تليق بحقهما، هم لا يعترفون بأنهم أنبياء؟ يعترفون بأنهم ملوك، لكن مع ذلك لماذا هذه الإسرائيليات التي لا تليق، والعجب أن المفسرين ينقلونها من غير تمحيص!

هل يمكن أن يكون هناك رابط بين قصة موسى وقصة سليمان وقصة ثمود وقصة لوط في صورة ما بحيث يمكن استخلاص مقصد من هذه القصص الأربع؟.

أسئلة المراجعة.

السؤال الأول:

اشرح قول الله -تبارك وتعالى: ﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ ﴾؟ وماذا قالت بلقيس لما سُئِلَت عن العرش؟ وما الذي تفهمه من جوابها؟

السؤال الثاني:

ما المراد بمكر الله الوارد في قوله تعالى: ؟ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا ؟؟ وهل يجوز أن يسمى الله بالماكر، وضح ذلك؟

الدرس الخامس

تابع تفسير سورة النمل

" قصة لوط -عليه السلام- ووجوب الثناء على الله -عز وجل"

يسرنا أن نلتقي مجددا في هذه اللقاءات المباركة مع تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير -رحمه الله تبارك وتعالى- وما زال الحديث متصلا حول آيات من سورة النمل، وسيدور الحديث في هذا اللقاء -إن شاء الله تبارك وتعالى- حول محورين:

المحور الأول:

قصة لوط -عليه السلام- مع قومه، وذكر ما فعله الله بهم.

المحور الثاني:

وجوب الثناء على الله، وذكر البراهين الدالة على وحدانيته دون سواه.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم...

؟ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ؟٥٤؟ أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ؟٥٥؟ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ؟٥٦؟ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ؟٥٧؟ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ؟٥٨؟ قُلِ الْحَمْدُ للهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ؟٥٩؟ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ؟٦٠؟ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ؟٦١؟ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ؟ [النمل: ٥٤: ٦٢].

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، اللهم صلي وسلم وبارك وأنعم على عبدك ورسولك ومصطفاك وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين وبعد...

نفتتح هذا اللقاء بالقصة الرابعة والأخيرة في هذه السورة المباركة تحت المحور الأول: ألا وهو قصة لوط عليه السلام، وما ذكره رب العالمين -سبحانه وتعالى- من الأفعال التي فعلها بهؤلاء المكذبين، وفي ذلك يقول الله -جل ذكره: ؟ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ؟٥٤؟ أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ؟، ولوطا إذ قال لقومه: أي اذكر لوطا إذ قال لقومه، أو إذ أرسلنا لوطا، وذلك بدلالة السياق، لأنها معطوفة على إرسال الله -تبارك وتعالى- لنبيه صالح -عليه السلام- ماذا قال لوط -عليه السلام- لقومه؟ وما الفاحشة التي أتى وهم عليها؟ قال لوط -عليه السلام- وهو نبي كريم قال لقومه: ؟ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ؟ هذه الفاحشة المنكرة التي غلبت على جمهور الناس في عهد لوط -عليه السلام- يعني أنها لم

تكن حالة انفرادية قائمة في بعض الأفراد، ولكن الفطرة انتكست لدى مجموع هذه الأمة، فوقعوا في هذه الفاحشة، أو الفِعْلة القبيحة، والله -تبارك وتعالى- بَيَّن أنهم يأتون هذه الفاحشة وهم في واقع الأمر مستبصرين، وهنا اختلف أهل العلم، ما المراد بقول الحق -تبارك وتعالى: ؟ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ؟؟ قيل: وأنتم تبصرون: يعني تأتونها علانية أمام الناس جميعا؛ أي أنكم لا تتورعون من أن يرى الواحد منكم أخاه، فكانوا لا يتحاشون من إظهار هذه الفعلة المنكرة، وقيل: ؟ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ؟ بصر القلب: يعني أنتم تبصرون أنها فاحشة منكرة، ولا ينبغي أن تقع بين الرجال بحال من الأحوال، وقيل: وأنتم تعلمون أنها فاحشة، تبصرون يعني تدركون تماما وتعلمون أنها فاحشة.

ثم بعد ذلك بينت الآية التالية ما أغمضه أو أغفل ذكره القرآن الكريم، وأعرض عنه في بيان هذه الفاحشة؛ لأنه قال هكذا بإجمال: ؟ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ؟، الآية التالية جاءت لتوضح ما أجمله القرآن الكريم، ما نوع الفاحشة التي كان عليها هؤلاء القوم؟ قال الله -عز وجل: ؟ أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ؟ هذه الفاحشة فاحشة منكرة، ولم تكن قبل قوم لوط موجودة على ظهر هذه الأرض، بدليل قول الحق -تبارك وتعالى- في آية آخر في سياق القرآن الكريم عن هذه القصة: ؟ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ ؟ [الأعراف: ٨٠].

يعني لم تكن موجودة من قبل، ولذلك حُقَّ للقرآن الكريم أن يصفهم هنا بالجهل: ؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ؟ يعني لا تعرفون شيئا لا طبعا ولا شرعا؛ يعني أن نفوسهم أصبحت خبيثة، سريرتهم وطويتهم أصبحت معكوسة منقلبة؛ لأنهم لو أدركوا وكان عندهم لون من ألوان الطبع الجميل، الذي يمكن أن يعبِّر عنه بعض الناس سلوكيات حسنة، أو مِزَاج معتدل أو غير ذلك من العبارات، ما فعل هؤلاء الناس هذه الفعلة القبيحة التي يستنكف عن ذكرها الإنسان فضلا أن يقع فيها.

ولكن قد يسأل سائل هنا يقول: بأن الله -تبارك وتعالى- في الآية الأولى قال عنهم: ؟ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ؟، فأثبت لهم البصر، وفي الآية التالية: ؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ؟ فكيف يجتمع هنا البصر الذي أضيف إليهم في الآية الأولى مع الجهل الذي أثبته الله -تبارك وتعالى- لهم في الآية الثانية؟ قيل: أنهم كانوا يأتون هذه الفاحشة المنكرة وهم يعلمون نكرانها، ويبصرون الفاحشة التي هم عليها وضلالها وانحرافها، ولكنهم مع ذلك كانوا يجهلون أعمالهم ذلك ونفوسهم لا تتحرك لإنكار هذا المنكر الذي وقعوا فيه، يعني هم كانوا يبصرون أنه منكر، ولكنهم لا يعملون على إزالة هذا المنكر، وقيل: وصفهم بالبصر وهم يعملون عمل الجاهلية؛ لأنه فعل قبيح والله -تبارك وتعالى- أطلق على هذا الفعل القبيح أنه من أفعال الجاهلين رغم أنهم يعلمون ذلك، ولا يمنع ذلك أصحاب المعاصي أن يكونوا يعلمون فساد ما هم عليه، وغباوة الأفعال المنكرة التي يأتون بها، يعلمون ذلك ولكنهم أيضا يقعون فيها، فالقرآن الكريم أطلق الجهل لوقوعهم في هذه المعصية، أطلق الجهل عليهم لوقوعهم في هذه المعصية، وكأن البصر الذي أعطاهم الله إياه لم يستفيدوا منه شيئًا.

لوط -عليه السلام- جاء بتوجيه كريم لقومه، وبين لهم أن هذه فاحشة يجب أن يترفعوا عنها، وأنهم حينما يأتون بهذه الفاحشة يضعون أنفسهم في الحقيقة في أسفل سافلين، كما قال لهم: ؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ؟، فماذا رد قوم لوط -عليه السلام- على لوط -عليه السلام: ؟ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ؟، في الحقيقة هذا الجواب فيه سفه وحمق شديد، من هؤلاء الناس، فيه سفه، نبي يدعوهم إلى مكارم الأخلاق وإلى الفضائل، ويبين لهم أنهم وقعوا في فاحشة منكرة ما أتى بها من قبلهم بحال من الأحوال، فكان الواجب عليهم أن يرتدعوا، وأن يقفوا عند كلامه، وأن يتركوا هذه الفاحشة، كان الواجب ذلك، ولكنهم لم يفعلوا هذا وفعلوا ما هو أعظم من ذلك، عندما وقع في نفوسهم وأفعالهم وأقوالهم قلب للحقائق، وقلب الحقائق يظهر في أنهم أرادوا إخراج لوط -عليه السلام- من قريته؛ لأنه يحب الطُّهْرَ والعفاف، وكأن الطهر والعفاف جريمة منكرة عند من تلوثت فطرتهم، وعند القوم الذين فسدت ضمائرهم، فأصبحوا لا يميزون بين

الخير والشر، ولا بين الحسن والقبيح، بدليل أن لوطًا -عليه السلام- يدعوهم إلى الله -عز وجل- وإلى ترك هذه الفاحشة المنكرة، فيتوعَّدُوه بالإخراج من قريته بسبب شيء واحد وهو أنه يدعوهم إلى الطهر والعفاف، أدعوة الناس إلى الحق والخير والإيمان تتطلب من المقابل أن يُخرجَ هذا الداعي إلى الله -تبارك وتعالى- من قريته وأن يُشَرِّدَه وأن يحاربه في كل مكان؟! هذا في الحقيقة لا يكون إلا مع المشركين المكذبين المنكرين الكافرين، قلب الحقائق هذا لا يقع إلا عند قوم انتكست فطرتهم وتغيرت طبيعتهم، فأصبحوا لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا، ولذلك لا نَعجَب إذا قال هؤلاء لِلُوطٍ -عليه السلام- وهددوه أو يهددوه بالإخراج؛ لأنه يدعو إلى الطهر والعفاف، لا نعجب من فرعون إذن، هذا الطاغية المتكبر الذي يكثر الحديث عنه في القرآن الكريم، وقد سبق قبل حلقات وأن تحدثنا عن قصته، لا نستبعد ولا نستغرب منه حينما يقول لقومه هؤلاء السُّدَّج: ؟ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ ؟ [غافر: ٢٦].

منطق الكافرين عجيب، هذا الرجل الذي يقتل الأطفال والرجال، ويَسْبِي النساء وغير ذلك من الأفعال المنكرة القبيحة، ويكفيه أنه ادَّعَى الربوبية والألوهية، ومع ذلك يخشى على قومه من موسى -عليه السلام- ويقول: ؟ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ ؟، وأي فساد بعد فساد فرعون؟! ولكن هذا هو منطق من؟ هذا هو منطق الكافرين والمجرمين، وهذا يدل على أن هؤلاء الناس الظالمين المعتدين تنحل فطرتهم تماما، ويرتكسون في أسوأ درجات الحضيض، فالإنسان حينما يصل إلى هذه الدرجة لا يستطيع أن يفرق بين معاني يدركها الطفل بفطرته، بل إن الحيوانات العجماوات قد تدرك ذلك، وتعرف أن هذا من الفساد العظيم، هؤلاء القوم وقعوا في هذا المنكر العظيم، وظنوا أنهم أهل حق وخير، وكأنهم لم يقع منهم منكر، أو يتلبسوا بجريمة من الجرائم، وتوعدوا نبيهم -عليه السلام- أن يُخرجوه من قريته بسبب دعوته لهم إلى الطهر والعفاف، فماذا كان من رب العالمين سبحانه.

نَجَّى الله -تبارك وتعالى- لوطا -عليه السلام- وأخبر كما ذكر في كتابه: ؟ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ؟٥٧؟ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ؟، سبحان الله، ما أعدل ربي وأحكمه، رب العالمين -سبحانه وتعالى- هو الذي خلق الخلق وهو الذي أرسل الرسل، ومع هذا أمهل هؤلاء الكافرين، ولكن هؤلاء الكافرين ما استحى الواحد منهم ووقف عند عظمة رب العالمين وقدَّرَ ربه ومولاه وآمن بالنبي الذي أرسله الله إليه، بل إن الأمر لم يقف عند حد التكذيب فحسب، بل عند حد المواجهة، وربما القتل، وربما الإبعاد والإخراج من القرية التي فيها النبي، وغير من الأفعال المنكرة، ولكن الله -تبارك وتعالى- هو القوي الكبير الحكيم -سبحانه وتعالى جل في علاه- ولذلك لما هدد قوم لوطٍ لوطًا -عليه السلام- بين رب العالمين -سبحانه وتعالى- نجاته لنبيه -عليه السلام: ؟ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ؟ ثم استثنى رب العالمين -سبحانه وتعالى- امرأة لوط -عليه السلام- من الناجين، استثناها لماذا؟ ؟ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ؟؛ لأنها كانت تُشارك هؤلاء الناس في رضاها بأفعالهم القبيحة، وكانت تدل على ضيفان لوط -عليه السلام- بمعنى إذا جاءه أضياف ونزلوا عنده، ذهبت إلى قومه وأخبرتهم بأن جماعة قد أتوا إلى لوط -عليه السلام- فيحضرون عنده ويطلبون منه أن يفعلوا بهم الفاحشة والعياذ بالله -تبارك وتعالى.

ولم تكن هي في ذاتها تفعل الفاحشة؛ ليس لكرامتها على الله، ولكن تَكْرِمَة لنبي الله لوط -عليه السلام- فلا يجوز أبدًا أن تكون زوجة نبي تأتي الفاحشة بإطلاق، ولذلك قال جمهور أهل العلم: إن الخيانة التي ذكرها الله -تبارك وتعالى- لامرأة نوح وامرأة لوط الواردة في سورة التحريم، كانت مقصورة على لون معين، وذلك في قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ؟ [التحريم: ١٠]، قال أهل العلم: خيانة امرأة نوح كانت متمثلة في أنها كانت تصفه بالجنون، وخيانة امرأة لوط كانت متمثلة في أنها كانت تخبر قومها بمن يأتي للوط -عليه السلام- من ضيوف.

هذه نعمة من الله -عز وجل- ورحمة من الله -تبارك وتعالى- بعباده المؤمنين حينما ينجيهم من الظـــالمين، ويُهلك أعداءه، ؟ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ؟ وقلنا من الغابرين: يعنـــي مـــن الهـــالكين، ؟ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ؟ والله -تبارك وتعالى- قد بين في سورة هود نوع العذاب الذي أنزله بهؤلاء القوم، وذلك في قوله سبحانه: ؟ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّـــن سِـــجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ؟٨٢؟ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ؟ [هود: ٨٢: ٨٣].

وقد جاء في الأثر أن جبريل -عليه السلام- رفع قرىً لوطية على جناح واحد من أجنحته، رفعها حتى وصل بها إلى السماء، حتى سمع أهل السماء نهيق الحمير، وأيضا أصوات الكلاب وغير ذلك سمعتها الملائكـــة فـــي السماء، ثم بعد ذلك قلبها، هذا معنى ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ جَعَلْنَـــا عَالِيَهَـــا سَـــافِلَهَا ؟ ورب العالمين -سبحانه وتعالى- هنا يقول: ؟ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ؟ وهذا زيادة فـــي التنكيـــل بهؤلاء، ولذلك قال أهل التفسير: إن رب العالمين -سبحانه وتعالى- لما أمر جبريل -عليه الـــسلام- أن يرفـــع قرىً لوطية إلى السماء، ثم بعد ذلك يقلبها على وجهها حتى يصبح ما هو أعلى فيها أسفل شيء فيها، بعد ذلـــك أيضا أمطر رب العالمين -سبحانه وتعالى- عليهم حجارة من السماء زيادةً في النَّكَال والتعذيب لهؤلاء الأقـــوام الذين فعلوا هذه الفعلة المنكرة، وكأن هذا من جنس العمل، ولذلك قال بعض أهل العلم بأن الله -عز وجل- فعل بهؤلاء الناس هذه الفعلة؛ لأنهم لما كانوا مستبصرين، وكانوا يبصرون، ولا يتحاشون من فعل هذه الفاحشة على ظهر هذه الأرض جعل الله -تبارك وتعالى- مكانهم في بطن هذه الأرض، أهلكهم في بطنها مباشرة وأبادهم رب العالمين -سبحانه وتعالى- كأنه لم يكن لهؤلاء القوم ذِكر قبل ذلك، رفعهم جبريل -عليه السلام- وهم أحياء ثـــم قلبهم بعد ما رُفِعُوا إلى السماء وقلت بأن نهيق الحمير سمعها أهل السماء وصياح الدِّيَكَة أيـــضا ســـمعها أهـــل السماء، يعني قَرُبوا في مكان قريب جدًّا من السماء، ثم فَعَلَ بهم رب العالمين -سبحانه وتعالى- ما فَعَلَ، وفِعْـــلُ الله -تبارك وتعالى- هذا يُعَدّ إعجازا من وجهين:

الوجه الأول: أن قلع الأرض وإصعادها إلى قريب السماء، هذا فعل خارق للعادة، هذا وجه، وهـــذه معجـــزة وتأييد لنبي الله لوط -عليه السلام.

الوجه الآخر أو المعجزة الأخرى: أن قلع الأرض وإبقاء لوط -عليه السلام- فيها دون أن تَرْتَجَّ به ودون أن يتأثر هو ومن معه، هذا إعجاز فوق إعجاز، نحن في حياتنا البشرية الآن لو جاء إنسان يطرق بمطرقة يؤذي من بجواره أم لا؟ فما بالك بهذا الفعل العظيم وهذا الأمر الجليل، أمة بأكملها يصعد بها ربنا -سبحانه وتعالى- يصعد بهم جميعا، وبكل ما كان عندهم ثم بعد ذلك يُلقِيها إلقاءً في الأرض بعد هذا الارتفاع الشديد، ومن بجوار لوط -عليه السلام- لا تهتزّ به الأرض، ولا يقع عليه أي تأثير، ولا يكون عنده أدنى اضطراب، فهذا في الحقيقة أيضا إعجاز يضيفه إلى إعجاز الهلاك في حد ذاته.

أنتقل بعد ذلك إلى المحور الثاني في هذا اللقاء وهو بعنوان وجوب الثناء على الله وذكر البراهين الدالة على وحدانيته -سبحانه وتعالى- دون سواه، وفي ذلك يقول رب العالمين: ؟ قُلِ الْحَمْدُ للهِ وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَـــادِهِ الَّـــذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ؟ بعد أن ذكر رب العالمين -سبحانه وتعالى- ما فعلـــه بأعدائـــه مـــن النكـــال، وبأوليائه من النصرة والتأييد، أمر رسوله -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يحمده على نعمه التـــي لا تُعَـــدّ ولا تحصى، وأيضا يحمد رب العالمين سبحانه؛ لأنه اتصف بصفات الجلال والكمال، فيُحمد لمـــا هـــو عليـــه مـــن الصفات العلى والأسماء الحسنى -سبحانه وتعالى جل في علاه.

ولعلكم تلاحظون أيها الكرام أن الله -تبارك وتعالى- يُثْنِي هنا على نفسه بعد أن أهلك الظالمين، وفـــي هـــذا إرشاد أو توجيه إلى أن الله -عز وجل- عظيم، وأنه -سبحانه وتعالى- يُعلي أهل الإيمان، وأنـــه أيـــضا يُـــذل الكافرين، ويجب على العباد أن يحمدوه على ذلك، على العباد الذين نجاهم رب العالمين أن يحمـــدوا الله -عـــز

وجل- على إهلاكه لهؤلاء لظالمين؛ لأن الله -سبحانه وتعالى- بعد أن بين هلاكه لهؤلاء قال مباشرة: ؟ قُلِ الْحَمْدُ للهِ وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ؟، وهذا يُذكِّرنا في الآية الواردة في سورة الأنعام، لما أشار رب العالمين -سبحانه وتعالى- أيضا إلى إهلاكه لبعض الظالمين ماذا قال؟

قال: ؟ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ؟ [الأنعام: ٤٥]، يعني يحمد رب العالمين على هلاك هؤلاء الظالمين، وهذا يدل على عظمة رب العالمين -سبحانه وتعالى- وعلى وجوب الثناء على الله -عز وجل- يحمد الله -عز وجل- على ذلك، وقلت: على ما يتصف به أيضا من صفات الجلال والكمال، ثم بعد ذلك يجب علينا أيضا أن نسلم على العباد الذين اصطفاهم رب العالمين -سبحانه وتعالى- وقد ذكر أهل العلم في قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ قُلِ الْحَمْدُ للهِ وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ؟ من العباد الذين اصطفاهم ربنا -سبحانه وتعالى؟

قيل: إنهم سائر الأنبياء والمرسلين، وهذا كلام صحيح، فرب العالمين -سبحانه وتعالى- يصطفي من البشر ما يصطفي، ويصطفي من الملائكة ما يصطفي، وهو -سبحانه وتعالى- لا يُسأل عما يفعل، وقيل: إن العباد الذين اصطفاهم رب العالمين -سبحانه وتعالى- هم أصحاب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وفي الحقيقة الآية تشمل هذا وذاك ولا تعارض، فالأنبياء والمرسلين يصطفيهم رب العالمين وقد ذكر ذلك ربنا في كتابه، كما أن الله -عز وجل- اصطفى أصحاب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ليكونوا وزراءه وأصحابه، ولكي يتشرفوا بصحبته صلوات الله وسلامه عليه، ولقد أشار عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- إلى ذلك في قوله: "من كان منكم مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بمن قد مات، فإن الحي لا تُؤْمَن عليه الفتنة"، هؤلاء أصحاب محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- أَبَرّ هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، والاختيار اصطفاء، فيه معنى الاصطفاء، فقول الحق -تبارك وتعالى: ؟ قُلِ الْحَمْدُ للهِ وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ؟ يفيد أن نسلم أيضا على الأنبياء والمرسلين وعلى صحابة النبي الأمين -صلى الله عليه وآله وسلم- فلا نذكر واحد من هؤلاء إلا بخير الذكر، ورب العالمين -سبحانه وتعالى- قد أشار إلى ذلك أيضا في آيات أُخَر كقوله جل من قائل عليما: ؟ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ؟١٨٠؟ وَسَلاَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ؟١٨١؟ وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ؟ [الصافات: ١٨٠: ١٨٢].

وهذا يدفعنا إلى أن نتأدب وأن نتعلم كيف نتعامل مع من اصطفاهم رب العالمين -سبحانه وتعالى جل في علاه- فنسلِّم عليهم ونخاطبهم بأجمل الألفاظ، وحينما نذكرهم لا نذكرهم إلا بالذكر الحسن الجميل وغير ذلك؛ لأن الله -عز وجل- بعد ما أثنى على نفسه في هذه الآية، ذكَر سلامه على عباده الذين اصطفاهم -سبحانه وتعالى جل في علاه- ثم ختم الآية بقوله: ؟ آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ؟ هذا استفهام، ما نوع هذا الاستفهام؟ هذا في الحقيقة استفهام إنكاري وفيه تَبْكِيت وتوبيخ للمشركين، يا أيها المشركون، كيف تشركون بالله -عز وجل- وله الثناء الكامل لما هو عليه من الصفات العظيمة، كيف تعبدون غير الله وقد فعل بأعدائه ما فعل -سبحانه وتعالى جل في علاه- وهو لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وفي هذه الآية لفتة وقد ذكرتها في بداية هذا المحور ألا وهو وجوب الثناء على الله -تبارك وتعالى- يجب على المؤمنين أن يثنوا على ربهم سبحانه؛ لأن الله -عز وجل- أثنى على نفسه في كتابه، وحَمِدَ نفسه في كتابه، فقد افتتح خمس سور من سور القرآن الكريم بقوله: الحمد لله، فدل ذلك على أنه -سبحانه وتعالى- يحمد نفسه، ويجب علينا أن نفعل ذلك لله -عز وجل- قد صح الخبر في الصحيحين وغيرهما عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وأخبر أن الله -عز وجل- يحب الحمد والثناء، والثناء على الله يكون بذكر «الحمد لله رب العالمين»، أن يثني العبد على ربه، وأن يقوم هذا الثناء في قلب العبد، ثم بعد ذلك ينطق به لسانُه على نعم الله -تبارك وتعالى- الوافرة، وعلى ما هو عليه -سبحانه وتعالى كما ذكرت وأشرت- من عظيم الصفات وجليل الكمال -سبحانه وتعالى جل في علاه- والتقصير في الثناء على الله -عز وجل- لا يليق أن يصدر من مؤمن لماذا؟ لأن الثناء على الله والحمد لله -تبارك وتعالى- ترفع المؤمن درجات

عالية عند الله -عز وجل- وفي ذلك يقول النبي -صلى الله عليه وآله وسلم: «والحمد لله تملأ الميزان»، تملأ أي ميزان؟ تملأ ميزانك أنت أيها العبد، تملأ ميزانك بالحسنات.

ثم بعد ذلك تستمر الآيات بعد أن أثنى رب العالمين -سبحانه وتعالى- على نفسه لتقيم شيئا من الدلالة على وجوب وحدانية الله، وعلى أنه أحق بالثناء وأحق بالحمد -سبحانه وتعالى جل في علاه- وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ هذه الآية من الآيات الكريمة في كتاب الله -عز وجل- جاءت مباشرة عَقِبَ قول الحق -تبارك وتعالى: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ للهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾، أَمْرٌ من الله للنبي -صلى الله عليه وسلم- ومن يمكن أن يقوم بهذا الأمر من أتباع النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بالثناء على الله، بعد هذه الآية مباشرة يذكر ربنا -سبحانه وتعالى- براهين دالة على أن الحمد له، وعلى أنه -سبحانه- هو المستحق له وحده، وأنه -سبحانه- هو الذي خلق هذا الخلق وكَوَّن هذا الكون، ولذلك ما كان ينبغي بحال من الأحوال أن يعدل العباد عن عبادة الله -عز وجل- إلى عبادة غير الله -تبارك وتعالى.

أول أمر ذكره الله في هذه الآية: أَمَّن خلق السماوات والأرض، يقف الإنسان مع نفسه وينظر في هذه السماء، وما أودع الله -تبارك وتعالى- فيها من كواكب سيارة، وجعلها نافعة للناس بأشياء كثيرة قد ندرك حتى اليوم بعضها، وربما يغيب عنا في فضل الله -تبارك وتعالى- أشياء كثيرة مما تَفَضَّلَ الله -تبارك وتعالى- به على العباد، إذا نظرنا إلى هذه الأرض إلى أن الله قال: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾، وننظر ماذا أودع رب العالمين -سبحانه وتعالى- في هذه الأرض من جبال وبحار وأنهار، وماذا خلق عليها من دواب وأنعام وإنس وجان، كل ذلك على ظهر هذه الأرض، الذي خلق كل ذلك مَن؟ رب العالمين -سبحانه- الذي قدره وكونه هو الله -عزّ وجلّ- وفوق كل ذلك أن الله -عزّ وجلّ- خلق الخلق الأول، ولم يترك هذا الخلق ولكنه هداه، وأودع في السماوات والأرض وكان الأمر من الله -عزّ وجلّ- بما يستفيد مَن خلقهم الله -عزّ وجلّ- على هذه الأرض من فوائد عظيمة سخرها لهم رب العالمين -سبحانه وتعالى- ومن ذلك ما أشارت إليه هذه الآية: ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ الله -عزّ وجلّ- برحمته وبعظيم قدرته هو الذي أنزل لنا هذا المطر الذي ينزل علينا من السماء، وأذكر أننا في حلقات سابقة في هذه الأكاديمية وحلقات العلم المباركة تحدثت على عظيم قدرة الله -عزّ وجلّ- في إنزال هذا المطر الذي ينزل من السماء، وقلت بأن هذه البحار والمحيطات الشاسعة الأرجاء التي تغمر ربما ما يزيد أو يقرب من سبعين بالمائة من سطح الكرة الأرضية، يسلط رب العالمين -سبحانه وتعالى- عليها أشعة الشمس فتبخر الماء، يخرج الماء أو يصعد الماء عذبا إلى السماء، فيمكث في السماء ما يشاء الله -تبارك وتعالى- له أن يمكث، ثم يرسل رب العالمين إليه الريح تُزْجِيه وَتَرْكُمه، تحركه من مكان إلى مكان، فإذا أراد الله -سبحانه وتعالى- أن ينزل نزل بأمر الله -عزّ وجلّ- ماءً عَذْبًا فُرَاتًا سائغا للشاربين، نستفيد من هذا الماء، نشرب نحن ونأكل، طعامنا يعد من هذا الماء، قوام حياتنا يقوم على هذا الماء: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، الحيوانات والدواب التي تدب على ظهر هذه الأرض، لا تعيش إلا بالماء، النبات الذي ينبته رب العالمين -سبحانه وتعالى- لا يكون إلا بالماء، والآية تشير إلى أن المتفرد إذن بالخلق والتكوين ورعاية هذا الخلق بإنزال المطر من السماء هو رب العالمين -سبحانه وتعالى جل في علاه- ولذلك قال مباشرة بعدما ذكر:﴿ وَأَنْزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ قال: ﴿ فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾.

أولا: لو نتأمل في لفتة من لفتات القرآن الكريم: قال الله -عزّ وجلّ: ﴿ فَأَنْبَتْنَا ﴾ هنا التفات من الغيبة إلى الخطاب، ما فائدته؟ فائدته دفع شبهة يمكن أن تكون عند الناس في إنبات الزرع من الأرض؛ لأن الخلق ما ادعاه أحد لنفسه، وليس من العقل ولا من المنطق أن يدعي مخلوق سُبِقَ بعدم أنه خلق شيئا في هذه الأرض، والأعجب والأغرب أن يدعي أنه خلق السماوات والأرض، فهذا سيوصف بالجنون، لماذا؟ لأن السماوات والأرض خُلِقَتَا قبل الإنسان، فكيف يمكن لإنسان أن يزعم ويدعي أنه أوجد شيئا خلق قبله، وكان عند خلقه هو عدم، يعني الإنسان كان عدما عند خلق السماوات والأرض، ولكن لما كان الإنسان يتخذ الأسباب في إخراج الزرع من

الأرض، وذلك بحرث الأرض، وإلقاء البذر، وسقيها بالماء وغير ذلك، قد يزعم بعض الناس أو تكون في ذهنه شبهة أنه ينبت النبات هو، فالتفت الله -عزّ وجلّ- من الغَيْبَة إلى الخطاب، وأثبت ذلك لنفسه فقال: ؟ فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ؟، ذات منظر عظيم جميلة حسنة بَهيَّة تسر الناظرين، ثم يقول رب العالمين متحديا الخلق جميعا: ؟ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ؟، ثم يقول -سبحانه- بهذا الاستفهام: ؟ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ ؟ ألا يستحي هؤلاء الذين أشركوا بالله -عزّ وجلّ- وعبدوا معه غيره، ألا يستحون عندما ينظرون في خلق الله -عزّ وجلّ- وكونه، وعندما يعرفون ويعلمون أن الذي يدبر أمرهم هو الله وأن الذي يرزقهم هو وحده -سبحانه وتعالى جل في علاه- ألا يستحون بعد ذلك مِنْ أن يعبدوا معه غيره، ولذلك قال: ؟ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ ؟؛ يعني أإله مع الله يُعبد، أو أإله مع الله فَعَل ذلك؟ وفي كلا الأمرين لا يمكن أن يكون مع الله أحد، لا يُعبد مع الله غيره، وكذلك لم يفعل أحد شيئا مما فعله رب العالمين -سبحانه وتعالى- في هذا الكون، وهذا كقول الحق -تبارك وتعالى: ؟ أَفَمَن يَّخْلُقُ كَمَن لاَ يَخْلُقُ ؟ [النحل: ١٧]؛ يعني من خَلَقَ وكوَّنَ وقَدَّر وفعل وفعل، كمن لم يفعل شيئا من هذه الأشياء؟! لا يليق بعاقل عندما يتأمل هذه الآيات، وعندما يقف عندها أن يعبد مع الله -تبارك وتعالى- غيره، ولذلك نَعَى الله -عزّ وجلّ- على المشركين عبادتهم لغير الله -تبارك وتعالى- فقال: ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ؟ قيل: يعدلون يعني يسوون في عبادتهم، فيسوون الخالق بالمخلوق؛ لأنهم عبدوا مخلوقات مع رب العالمين -سبحانه وتعالى- وقيل: عدلوا عن الحق إلى الباطل، مالوا عن الحق الذي نزل من عند الله -تبارك وتعالى- ألا وهو الأمر بعبادة الله -تبارك وتعالى- وحده إلى عبادة الهوى والباطل والشيطان.

في الحقيقة أود أن أقف هنا وقفة يسيرة لأُخَاطِبَ من يتوجه بالعبادة لغير الله -تبارك وتعالى- عند حديثي عن الخلق وأقول له: ما ينبغي للإنسان ولا يصح ولا يستقيم أن يعلم أن خالقه هو الله وأن رازقه هو الله ثم بعد ذلك يلتفت إلى غير الله -تبارك وتعالى. كان المشركون السابقون يعرفون ويدركون أن خالقهم مَن؟ رب العالمين -سبحانه وتعالى- وذلك بنص التنزيل، ومع ذلك عبدوا مع الله -تبارك وتعالى- آلهة أخرى، ولجؤوا لغير الله -جل ذكره- وكانوا يعلمون ويدركون أنه ما ينبغي ذلك، وما كان عليهم أن ينصرفوا لغير الله، لماذا؟ لأننا نُلزمهم بعد إقرارهم أن الله ربهم وخالقهم ورازقهم، وأنه هو الذي يتولى أمرهم، نُلزمهم أن يعبدوا هذا الخالق الرازق المدبر -سبحانه وتعالى جل في علاه، لأن من يتصف بصفات الخلق والرزق والإحاطة والتدبير هو الذي يعبد -سبحانه وتعالى جل في علاه.

ولذلك لو نظرنا سنجد كثيرًا من آيات القرآن الكريم عندما يتحدث فيها رب العالمين -سبحانه وتعالى- عن الخلق يشير إلى أنه هو الإله الواحد -سبحانه وتعالى جل في علاه- هو الإله الواحد، وتأملوا مثلا قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ؟[الرعد: ١٦].

ثم يستمر السياق في بيان قدرة العظيم الكبير المتعالي -سبحانه- فيقول: ؟ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ؟ لو تأملنا ونظرنا في هذه الأرض سنجد أن الله -تبارك وتعالى- جعل هذه الأرض قرارا؛ يعني ثابتة لا تميل ولا تضطرب بأهلها قال -عزّ وجلّ: ؟ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ؟ [النبأ: ٦]، ولو أن الأرض تتحرك وتضطرب ما هَنَأ عيش لإنسان عليها، وما سكن ساكن عليها، طالما أنها تميد وتتحرك، ولذلك هذه نعمة من نعم الله -تبارك وتعالى- على الإنسان الذي يعيش على ظهر هذه الأرض، والله -تبارك وتعالى- جعل الأرض قرارا يستقر عليها الإنسان ويسكن، وأيضا من نعمته ورحمته أنه جعل خلالها أنهارا، جعل خلال هذه الأرض في أماكن متفرقة منها أنهارا؛ لكي يستفيد منها الإنسان، وقد قلنا بأن الماء به قوام حياة الإنسان، ولذلك لا نقف عند ذلك طويلا، ؟ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ؟ وهي الجبال التي جعلها الله -عزّ وجلّ- أوتادا في هذه الأرض، كانت سببا في هذا الصلابة والاستقرار، والمهاد التي هي عليه، ثم بعد ذلك قال: ؟ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ؟ وهذا واضح وهو حتى

مشاهد في دنيا الناس اليوم، أن البحر المالح والنهر العذب يلتقيان ولا يبغي بعضهما على بعض، كما قـال رب العالمين: ؟ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ؟١٩؟ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ؟ [الرحمن: ١٩: ٢٠].

وهنا عَبَّر بالبحر عن النهر من باب التغليب لاشتراكهما معا في صفة واحدة وهي صفة الماء كلاهما يشترك في صفة الماء، وغَلَبُ البحر على النهر هو أيضا لأن الماء المالح أكثر من الماء العذب، وهذه أيضا نعمة من نعم الله –تبارك وتعالى– على العباد، هذه الآية اشتملت على أربعة نِعَم ذكرها الله –عزّ وجلّ– في هذه الآية:

أولها: أنه جعل الأرض قرارًا.

الأمر الثاني: جعل خلالها أنهارًا.

الأمر الثالث: جعل لها رواسي، ونعني بالرواسي الجبال.

الأمر الرابع: وجعل بين البحرين حاجزا.

الآية الأخيرة التي معنا: ؟ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ؟ هذه الآية تحتاج أن نقف عندها طويلا، هذه الآية تحلل نفسيات المشركين الذين يعبدون مع الله غيره، رب العالمين يخاطبهم من خلال ما يقومون هم به: ؟ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ؟ الجواب هو «الله»، وهذا أمر مشاهد، فأي إنسان حينما يقع في كرب أو تُلمّ به مصيبة لا يفزع إلا لله –تبارك وتعالى– وحده دون سواه، ورب العالمين –سبحانه وتعالى– ذكر ذلك عن المشركين: ؟ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ؟[العنكبوت: ٦٥]، إذا ركبوا في الفلك لا يلجؤوا إلا لله –تبارك وتعالى– وهناك قَصَص كثير مذكور في كتب السير والتاريخ، بل السنن عن المشركين أنهم يلجؤون إلى الله –تبارك وتعالى– إذا نزل بهم أي لون من ألوان الضر، وهذا يدل على أنهم يعلمون أن الذي يجيب المضطر حقا هو الله –تبارك وتعالى.

في قصة عكرمة بن أبي جهل لما فتح النبي –صلى الله عليه وسلم– مكة ذهب إلى بلاد الحبشة، ذهب عن أي طريق؟ ركب البحر وهاجت الأمواج، فقال من معه من المشركين في السفينة: لن يُنْجِينَا ما نحن فيه إلا أن نخلص الدعاء لله –عزّ وجلّ– فقال عكرمة: فقلت في نفسي: إذا كان الذي ينجي في البحر هو الله فالذي ينجي في البر هو الله، قال: فعاهدت نفسي إن نجاني الله أن أذهب فأضع يدي في يد محمد –صلى الله عليه وآله وسلم– يعني مَن كان معه في السفينة من المشركين أدركوا ذلك.

وأيضا لما سَأل النبي –صلى الله عليه وسلم– حُصَيْن وقال له: «يا حصين، كم إلهًا تعبد؟ قال: ستة، خمسة في الأرض وواحدا في السماء، قال: لمن رغبتك ورهبتك –يعني إذا أردت الرغبة أو الرهبة تخاف ممن؟– قال: الذي في السماء، قال: لمن تلجأ؟ قال: الذي في السماء، قال: أتدعوه وحده وتشرك معه غيره»، هؤلاء كان المشركون، ولذلك رب العالمين يخاطبهم مِن خلال نفسياتهم التي هم عليها، ويستثير ما في بواطنهم قائلا: ؟ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ؟ هو رب العالمين وحده دون سواه، ؟ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ ؟ يعني يخلف بعضنا بعضا، كما قال في أواخر سورة الأنعام: ؟ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ؟ [الأنعام: ١٦٥].

ثم يقول لهم أيضا مستفهما منكرا عليهم إشراكهم برب العالمين –سبحانه وتعالى: ؟ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ ؟ يعني أإله مع الله –عزّ وجلّ– يعبد بعد ذلك، تدعوه وحده، وهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه وحده، ثم بعد ذلك تلجأ إلى غيره وتطلب من سواه –سبحانه وتعالى– وما ذاك إذا وقع إلا لأن الإنسان كثيرًا يَغْفَل عما يجب أن يتذكره، ؟ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ؟، وهذا الختام يدل على أن المشركين في عَمَايَة وجهالة وضلال، وأن –عزّ وجلّ– حجب عنهم

العلم والفهم والعقل، فلا يدركون ما يفعلون ولو كانوا يعقلون، مع ما قام في نفوسهم من علمهم بأن الذي يجيب المضطر إذا دعاه هو الله ما لجؤوا إلى غير الله -تبارك وتعالى جل في علاه- ولذلك حُقَّ لرب العالمين -سبحانه- أن يقول لهم: ؟ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ؟؛ أي ما أقل تذكركم إلى ما يرشدكم وإلى ما ينفعكم في مثل هذه المواقف، وأختم بهذه الكلمات وصلِّ اللهم وسلّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بالنسبة لأسئلة الحلقة الماضية، كان السؤال الأول: اشرح قول الله -تعالى: ؟ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ ؟، وماذا قالت بلقيس لما سُئِلت عن العرش؟ وماذا تفهم من ذلك؟

وكانت الإجابة: يقول الله حكاية عن سليمان -عليه السلام- إنه قال لأعوانه وطلب منهم أن يغيروا من شكل عرش بلقيس، وورد عن المفسرين كثيرًا من ألوان التغيير والتنكير، وكان سبب هذا التغيير هو إيهامها ومحاولة الإشكال عليها، حتى إذا أعلمها بالحقيقة تكون بمثابة المفاجأة التي تؤكد لها قدرة سليمان وسعة ملكه وصدق نبوته -عليه الصلاة والسلام- ولما رأت بلقيس العرش وسُئِلت عنه أجابت بقولها كأنه هو، فلم تجزم بالصواب أو الخطأ، ويفهم من ذلك ذكاؤها وحنكتها، ويشير ذلك أيضا إلى أنه حدث لها الإشكال بسبب التغيير، وهو المراد من فعل سليمان -عليه السلام.

إجابة صحيحة، ولكن أرى أن نشير إلى أن هذا دفعها أيضا إلى أن تدرك قوة رب العالمين -سبحانه- وأن تعرف صدق سليمان -عليه السلام- فتؤمن به.

السؤال الثاني: ما المراد بقول الله -تبارك وتعالى: ؟ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا ؟ وهل يجوز تسمية الله -عزّ وجلّ- ماكرا؟

وكانت الإجابة: المراد بمكر الله الوارد في قوله -تبارك وتعالى: ؟ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا ؟ هو إثبات صفة المكر لله -تبارك وتعالى- كما يليق بحقه، وأن هذه الصفة لله -تبارك وتعالى- لا يوصف بها على الإطلاق، وإنما على سبيل المقابلة والجزاء، فإن الله -تبارك وتعالى- يمكر بمن مكر ويستحق المكر، فإنَّ مكره -جل وعلا- في مقابلة مكر الكافرين والماكرين صفة مدح وحُسن؛ وذلك لأن الله -جل في علاه- يقابل مكر الماكرين والكافرين بما يستحقون بهم فالجزاء من جنس العمل، فإنهم مكروا فتركهم في غَيِّهم وضلالهم وظنهم أن الله -تبارك وتعالى- لا يعلم بمكرهم، ثم جزاهم وعاقبهم بأن مكر بهم، ولا يجوز أن يسمى الله -عزّ وجلّ- بالماكر، وذلك لأن أهل السنة والجماعة يؤمنون بأن أسماء الله الحسنى كلها توقيفية، فلا يجوز أن يسمى الله -تبارك وتعالى- إلا بما سمى به نفسه في كتابه أو على لسان نبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- وأيضا أهل السنة والجماعة لا يشتقون من صفات الله -عزّ وجلّ- العليا أسماء، إذ إن أسماء الله توقيفية، وذلك مع إيمانهم أن كل اسم من أسماء الله الحسنى له صفة، وذلك بدلالتي المطابقة والتَّضَمُّن، وذلك مما علمنا إياه الوالد الشيخ الدكتور عبد الله نفع الله بعلمه وبارك في عمره.

أسئلة المتصلين في الحلقة السابقة الأول كان يتكلم عن قول الله -عزّ وجلّ: ؟ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ؟ ويقول: هل يجوز أن يقابل تكبر الناس عليه في الدنيا بالتكبر عليهم، وقال: هناك حديث أو مقولة التكبر على أهل التكبر صدقة؟

في الحقيقة نحن أُمِرْنا أن نتعامل مع الناس بالمعروف، وألا نجادلهم أو أن نخاطبهم أو أن نحاكي أفعالهم بما يفعلون، فإن كان في أفعالهم مثلا فسق أو فجور لا نفعل فسقهم ولا نفعل فجورهم، وقد أشرت من قبل إلى أن جمهور الفقهاء أخذوا بالحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- والحديث حسن وقد ضعفه بعض أهل العلم: «أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تَخُن من خانك»، ورب العالمين في القرآن الكريم يقول: ؟ وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ؟ [فصلت: ٣٤]، ولكن ليس معنى ذلك أن يقعد الإنسان عن مواجهة هؤلاء

الظالمين، ولكن يفعل ما يتناسب مع المقام دون أن يخرج عن حد الاعتدال؛ يعني يمشي على قول الله -تعالى- مثلا: ؟ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ؟ [الشورى: ٤٠]، فلو أراد أن يواجه هؤلاء المجرمين أو المكذبين فيفعل بهم ما يمكن أن يرد بغيهم، وما يمكن أن يرد ظلمهم، ولكن لا يخرج عن حد التوسط والاعتدال، فلا يتكبر مثلا على خلق الله -تبارك وتعالى- أو أن يبغي على أحد منهم أو غير ذلك هذا شيء، الشيء الثاني: ما أشار إليه وكنا نحفظه من الصغر: الكبر على أهل الكبر صدقة، هذا لا يصح ولا يثبت عن أحد، وإنما هو كلام مرسل من كلام الناس والله -تبارك وتعالى- أعلم.

يقول: عن اليهود.. لماذا يقولون أشياء لا تليق بنبي الله داود وسليمان عليهما السلام؟

هذه في الحقيقة من طبيعة اليهود، قولهم هذا جزء من الأفعال التي فعلوها مع الأنبياء والمرسلين، رب العالمين -سبحانه وتعالى- ذكر أن هؤلاء اليهود يتبعون الهوى، وطالما أنهم يتبعون الهوى فلا تستغرب ولا تستبعد أي فعل يمكن أن يأتي منهم، الله -عزّ وجلّ- يقول عنهم: ؟ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ ؟ ماذا يفعلون بالأنبياء والمرسلين: ؟ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ؟ [البقرة: ٨٧]، يعني دار الحال بين التكذيب أو بين قتل من أرسله الله -تبارك وتعالى- إليهم، وبالتالي لا نستغرب أبدًا ولا نتعجب من أن يقولوا على الأنبياء والمرسلين ما قالوا، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على شدة كذبهم وافترائهم وبهتانهم، وقد شَهِدَ بذلك عبد الله بن سَلاَم -رضي الله تعالى عنه- لما أسلم وأخفى إسلامه أولا عن قومه وجاء للنبي -صلى الله عليه وسلم- وقال: إن اليهود قوم بُهْت، إذا علموا بإسلامي ظلموني أو كذبوا علي أو افتروا أو بَهَتُوني أو غير ذلك، والله أعلم.

سؤاله الثاني يقول: هل هناك رابط بين قصص الأنبياء في القرآن؟

لا شك أن هناك قاسم مشترك بين قصص الأنبياء والمرسلين أشار بعض العلماء إليه وممن كتبوا في السيرة، قالوا بأن الله -تبارك وتعالى- يبين في كثير من الآيات حينما يسوق الحديث عن الأنبياء والمرسلين يذكر أماكن كثير من هؤلاء الأنبياء والمرسلين؛ ليبين قدرته -سبحانه وتعالى- على كل أطراف الأرض، وأن المكذبين الظالمين الذين كانوا مثلا في مصر في عهد موسى -عليه السلام- مع فرعون، أو كانوا في ،اليمن أو كانوا في الشام مع لوط -عليه السلام- كل هؤلاء ربنا -سبحانه وتعالى- بهم محيط، وأنه يفعل بهم ما يفعل، ومن كذب منهم أخذه رب العالمين -سبحانه- وأن الله -عزّ وجلّ- أحاط بكل شيء علما، وأنه -سبحانه وتعالى- يتولى أمر مملكته حتى في أطرافها، وغير ذلك مما ذكره أهل العلم، وفيه فائدة وهو أن الله -تبارك وتعالى- أرسل إلى كل أمة من أمم الأرض رسولا يدعوهم إلى الله -تبارك وتعالى- مصداقا لقول الحق -تبارك وتعالى: ؟ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ؟ [فاطر: ٢٤].

أود أن أَلْفِت النظر إلى ما ذكرته من التفات في قول الله -تعالى: ؟ فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ؟، الحديث يا إخواني عن الغيب، والمتكلم هو الله -تبارك وتعالى- هذا المتكلم ينسب الكلام إلى نفسه حينما يقول معظما: ؟ فَأَنْبَتْنَا ؟، ولكن هذا توجيه لمن؟ للمخاطَب، هذا التوجيه التفات من الغيبة؛ لأن الله لم يُسند ذلك إلى نفسه، وإنما أسنده إلى نفسه لمن؟ لكي يلفت نظر مَن؟ يلفت نظر المخاطب بهذه الكلمات قائلا له: ؟ فَأَنْبَتْنَا ؟ فالالتفات من الغيبة والمتكلم هو الله لمن؟ للمخاطب بهذه الآيات، وسبب هذا الالتفات -كما ذكرت- استبعاد شبهة يمكن أن تقوم في نظر إنسان ما بأنه يحرث الأرض، وهو الذي يلقي البذر ويجري الماء، فكأنه هو الذي أخرج النبات، فرب العالمين يقول لا. والله أعلم.

أسئلة المراجعة

السؤال الأول:

بماذا أجاب قومُ لوطٍ لوطًا –عليه السلام؟ وما نوع العذاب الذي نزل بهم؟

والسؤال الثاني:

ما المراد بالعباد المذكورين في قوله تعالى: ؟ قُلِ الْحَمْدُ للهِ وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ؟؟ وما نوع الاستفهام في قوله تعالى: ؟ آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ؟؟

المستوى الخامس

تابع تفسير سورة النمل

البراهين الدالة على وحدانية الله تعالى

فضيلة الشيخ أهلاً ومرحبًا بكم.

أهلاً وسهلاً ومرحبًا بكم وبالمشاهدين، ويسرُّنا ويسعدنا أن نواصل حديثنا في تفسير سورة النمل، ومع بعض آيات من القرآن الكريم، وسيدور الحديث -إن شاء الله تبارك وتعالى- في هذا اللقاء حول ثلاثة محاور:

المحور الأول بعنوان: تابع البراهين الدالة على وحدانية الله تعالى.

أما المحور الثاني فهو بعنوان: الكافرون استبعدوا البعث والنشور وهو واقع لا محالة.

المحور الثالث: القرآن الكريم وما اشتمل عليه من الهدى والرحمة والحق المبين.

ولنستمع إلى آيات هذا اللقاء من الأخ الكريم فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. ؟ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ؟ ٦٣ ؟ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ؟ ٦٤ ؟ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ؟ ٦٥ ؟ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ؟ ٦٦ ؟ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ ؟ ٦٧ ؟ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ؟ ٦٨ ؟ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ؟ ٦٩ ؟ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ؟ ٧٠ ؟ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ ٧١ ؟ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ؟ ٧٢ ؟ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ ؟ ٧٣ ؟ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ؟ ٧٤ ؟ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ؟ ٧٥ ؟ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ؟ ٧٦ ؟ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ؟ ٧٧ ؟ إِن رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ؟ ٧٨ ؟ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ؟ ٧٩ ؟ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ؟ ٨٠ ؟ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُّؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ؟ [النمل: ٦٣، ٨٠].

أحسنت، وجزاك الله خيرًا.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين وبعد:

المحور الأول في هذا اللقاء -كما أشرت- وتحته آيات مطلعها قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ؟ هذه الآية ذكر رب العالمين -سبحانه وتعالى- أمرين فيها: الأمر الأول: هو ما أشار إليه في قوله: ؟ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ؟، وذلك بما سخر الله -عز وجل- في السماء من نجوم يهتدي بها السالكون في هذه الطرق، وقد ذكر قتادة -رحمه الله تبارك تعالى- كما روى الإمام البخاري عنه: "أن الله -عز وجل- خلق النجوم لثلاثة أمور

منها: أنها رجومٌ للشياطين، وكذلك أيضًا زينة للسماء، وعلامات يهتدي بها الناس"، والله -عز وجل- قد نص هنا على ذلك في كتابه، وقال في آيات أُخَر: ؟ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ؟ [الأنعام: ٩٧] وهذا أمر واضح للعيَان، فالله -عز وجل- قد سخر هذه الكواكب النيرة كي يهتدي بها الناس في البر والبحر، وهذا هو أول أمر أشارت إليه هذه الآية، وأود أن أشير هنا إلى أمر مهم، قد ذكره أهل العلم في مثل هذا الموطن، وهو أن من أراد أن يستخدم النجوم في غير ما سخرها وخلقها الله له فقد خالف الحق والصواب؛ لأن بعض الناس اليوم يحاولون أن يستدلوا -كما يزعمون- على علم الغيب من خلال الفلك، أو من خلال النجوم، ونحن نسمع بين الحين والآخر في هذه الجرائد أو المجلات السيارة تقسيم الناس إلى أبراج، وتحت كل برج يخمن أصحابه، ويتوقعون أمور، ويرجمون بالغيب، والله ما كانت النجوم لتعرف شيئًا من ذلك، وليس هذا من دين النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- والله هنا في كتابه أشار إلى فائدة هذه النجوم. هذا هو الأمر الأول الذي أشارت إليه هذه الآية.

أما الأمر الثاني فهو ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ؟؛ أي يرسل الرياح كي يشعر الناس فيها بالفأل الحسن في قدوم المطر عليهم؛ لأن الرياح حينما تتحرك هنا وهناك تُسَيِّر السحاب بأمر رب العالمين سبحانه، وتنقله من مكان إلى مكان، فإذا أراد رب العباد أن ينزل في المكان الذي قضى وقدر نزل بأمر الله -عز وجل- وكانت الرياح سببًا في أن يتحرك هذا السحاب المحمَّل بالماء، والله -عز وجل- قد أشار بتفصيل في آيات أخر إلى ذلك، منها قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ ؟ [النور: ٤٣] ومعنى "الْوَدْقَ" هو المطر ولعلنا نلاحظ أن رب العالمين -سبحانه وتعالى- أشار في هذه الآية إلى أن هذه الرياح التي يرسلها جل في علاه تكون بُشْرًا بين يدي رحمته -جل في علاه- والمراد إطلاق لفظ الرحمة على المطر، فالمطر النازل من السماء رحمة من الله -تبارك وتعالى- على عباده، فكم ترتوي به الأرض، وكم يشرب الناس، وكم نسقي منه دوابنا، وكم نستخدمه في البناء، وغير ذلك من الأعمال التي يحتاج إليها الناس، والله -عز وجل- قد أخبر في كتابه أنه جعل كل شيء حي يعتمد على هذا الماء الذي خلقه رب العالمين -سبحانه وتعالى جل في علاه- والله -عز وجل- قد أخبر عن أن المطر رحمة أيضًا في أكثر من آية في كتاب الله -عز وجل- من ذلك قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ؟ [الشورى: ٢٨].

بعدما ذكر رب العباد -سبحانه وتعالى- هذين الأمرين في هذه الآية: النجوم التي نهتدي بها، الرياح التي تكون بُشْرًا بين يدي المطر، وهو رحمة من الله -عز وجل- وَجَّهَ الخطاب بصيغة الاستفهام ؟ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ ؟ وهذا توبيخ أيضًا وتقريع وتبكيت لمن جعل مع الله إلهًا غيره، والمعنى: ألِه مع الله فعل ذلك؟ هل يستطيع أحد أن يفعل هذا مع الله؟ أو كما ذكر أهل العلم: ألِه مع الله يُعبد؟ واللهِ لم يفعل أحد مع الله ذلك، ولا يليق بمخلوق أن يعبد غير الله -تبارك وتعالى- ولذلك نزَّه رب العالمين سبحانه نفسه عن شرك المشركين، وظلم الظالمين، فبعدما قال: ؟ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ ؟ قال: ؟ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ؟ يعني تعاظم وتقدس -سبحانه وتعالى- عن شرك المشركين، وظلم الظالمين.

ثم قال سبحانه: ؟ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟. في الحقيقة استمرار هذه الآيات بذكر الأدلة على وحدانية الرب -سبحانه وتعالى- وانتقال هذه الآيات من برهان إلى برهان، ودليل إلى دليل، يجعل العبد الصادق مع نفسه إذا وقف معها يَخِرّ لله -عز وجل- ساجدًا، ولا يشرك مع الله -تبارك وتعالى- أحدًا، والإنسان يعجب من شرك المشركين، وظلم الظالمين عندما ينصرفون بعد ذلك عن هذه الآيات، وهنا يقول الله -عز وجل: ؟ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؟ من الذي يفعل ذلك بقدرته وسلطانه العظيم -سبحانه وتعالى جل في علاه- ولا شك أنه لا يمكن أن ينازع أحد اليوم في أن الله -عز وجل- هو الذي أوجده وهو الذي خلقه، كل البشر عاجزون عن أن يَنسِبوا ذلك إلى أنفسهم، أو إلى غيرهم دون رب العالمين -سبحانه وتعالى- وصدق الله في قوله: ؟ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ؟ ٣٥ ؟ أَمْ خَلَقُوا

السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ ؟ [الطور: ٣٥، ٣٦] وفي الحقيقة الإنسان لم يُخْلَق من شيء، ولم يَخْلُق نفسه، ولم يَخْلُق غيره، فما بقي إلا أن يَخِرَّ ويُذعِن ويخضع للذي خلقه، ألا وهو رب العالمين سبحانه وتعالى.

ولكن الآية هنا قالت: ؟ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؟ والخطاب -كما نعلم- أولاً وُجِهَ به المشركون، وهم ينكرون البعث والإعادة، فكيف يسلمون بهذه الآية؟ البدء ربما كان الكثير منهم يؤمن به، أن الله خلقه، وقد سبق أن أشرت إلى هذا، لم يقل أحد من بني آدم أنه قد خلق نفسه، أو إن جَحَدَ ربَّ العالمين فهو يتظاهر بالجحود والإنكار، ولكنه يقر بربوبية الله -تبارك وتعالى- ولكن إنكار المشركين -كما سيأتي بعد قليل إن شاء الله تعالى- إنكار المشركين للإعادة أمر معروف، ومع ذلك خاطبهم الله -عز وجل- بها كالمقرين لها، فكيف نوجه ذلك؟ نقول: إن الله -عز وجل- أودع فيهم الآلات التي يتمكنون بها من المعرفة لو تأملوا وتدبروا، ولكنهم هم الذين انصرفوا عن الاستجابة لها، أو كأن الأمر في غاية من الوضوح، والبراهين الدالة عليه كافية، فكان الواجب عليهم أن يؤمنوا به ويقروا لله رب العالمين سبحانه.

ثم قال جل في علاه: ؟ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ؟، من الذي يرزق العباد جميعًا وغير العباد؟ يعني خلق الله الجن، وخلق الطيور، وخلق ما يحتاج إليه الناس من المعاونات التي نشاهدها الآن في داخل هذه الأرض، هناك أشياء كثيرة تعين الناس على معاشهم، يستفيدون منها، أودعها الله -عز وجل- في البر، وأودعها رب العالمين -سبحانه وتعالى- في البحر، هذه أمور يحتاج إليها البشر، وسخر الله -عز وجل- هذه الكائنات لهذه المخلوقات التي أمرها بأن تعبده -سبحانه وتعالى جل في علاه- وهو الذي يرزق كل ذلك، يعني خلقنا لعبادته، وسخر لنا مخلوقات أخرى تعيننا على الطاعة والعبادة والسعي والكسب والوجود في هذه الأرض، وهو الذي تكفل بأرزاق الجميع -جل في علاه- ؟ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ؟ [هود: ٦] -سبحانه وتعالى جل في علاه- وهذا في الحقيقة فيه تَعدَاد لنعم الله -سبحانه وتعالى- على عباده.

ثم ختم هذه الآية بقوله: ؟ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ ؟ أي: أإله مع الله فعل ذلك؟ هل هناك من يرزق مع الله -عز وجل؟ هل هناك من يعين؟ هل هناك من يخلق مع رب العالمين سبحانه؟ ثم أفحمهم بقوله: ؟ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ ولا شك أنه ليس لديهم برهان، ؟ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ؟ [المؤمنون: ١١٧]، ولعل القوم كانوا يسخرون ويستهزئون، فقابلهم القرآن الكريم أيضًا بلون من ألوان السخرية والاستهزاء حينما قال لهم: ؟ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ وهم ليسوا بصادقين، ولكن إن كنتم صادقين فيما تقولون على فرض هاتوا الدليل، وهاتوا البرهان، وهل يوجد لدى أي مشرك أو متكبر على عبادة الله -عز وجل- أو خارج على وحدانية الله سبحانه، هل يوجد عنده دليل على الشرك الذي وقع فيه؟ حاشا وكلا أن يكون شيء من ذلك.

ثم قال سبحانه: ؟ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ؟ بعدما بيَّن رب العالمين سبحانه بعض الدلائل الدالة على قوته وعظمته وعلى وحدانيته دون سواه، وختم كل آية منها باستفهام التوبيخ والتنكير والتبكيت لهؤلاء الناس، بدأ يبين أيضًا شيئًا مما اختص الله -تبارك وتعالى- به، اختص نفسه به سبحانه، ألا وهو علم الغيب، وقد سبق أن تحدثت في مواقف متعددة عن أن علم الغيب لله -تبارك وتعالى- وحده، لا يعلمه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وهنا رب العالمين بالشمول يقول: ؟ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ؟ حتى لا يقول إنسان بأن والله في البلد الفلاني يوجد مكان، أو في القرية الفلانية فيها مكان، بل إنه وللأسف الشديد نسمع في هذه الآونة الأخيرة لَمَّا كَثُرَ الجهل وقلَّ العلم عن قوم يزعمون أن بعض القساوسة في الكنائس يعلمون الغيب، وأنهم قد يتمكنون من شفاء بعض العباد، وللأسف الشديد بعض الجهلة قد يذهبون إليهم، والله -عز وجل- في كتابه يقول: ؟ إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ؟ [لقمان: ٣٤] وفي حديث الصحيحين وغيرهما: أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: (مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله) فالذي يعلم الغيب هو رب العالمين -سبحانه وتعالى- وحده دون سواه، وقد وقفتُ في حلقات مضت في هذه الأكاديمية المباركة،

وذكرت أدلة كثيرة من كتاب ربنا، وهدي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أوضحتُ من خلالها أن الأنبياء والمرسلين مع مكانتهم عند ربهم لا يعلمون الغيب، وعلى رأسهم نبي الهدى والرحمة، نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- وإذا كان أفضل خلق الله -صلى الله عليه وسلم- لا يعلم الغيب، فغيره من باب أولى، فما بال الناس اليوم ينسبون علم الغيب إلى الكهنة، وإلى العرافين، وإلى السحرة، وإلى الدجالين، وإلى المُشَعْوِذِين، بل ربما الكافرين المنكرين الجاحدين المكذبين، بل ينسبونه إلى الجن، وكل هؤلاء لا يعلمون شيئًا من الغيب، ومما يؤكد ذلك أن الله -عز وجل- ختم هذه الآية بقوله: ؟ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ؟ وهذا أمر يتعلق بالخلق، ألا وهو البعث والنشور، البعث والنشور قضية مهمة جدًّا، وإذا كان جميع المخلوقات لا تعلم متى تُبْعَث، فمن أين لهم إذن أن يعلموا الغيب؟ البعث والنشور قضية تتعلق بالبشرية، وأن الجميع سيرجع، وإذا كانت القضية التي تتعلق بآحاد الناس لا يعرفها آحاد الناس، فما بالك بغيرها؟ ولعل ختامَ الآية جاء لهذا الأمر لتوضيح هذه الحقيقة، الغيب الذي يعنيك أن تعرفه، ويهمك أن تقف عليه أنت لا تعرفه، ألا وهو البعث والنشور، فهل يمكنك بعد ذلك أن تنسب لنفسك أو لغيرك علم الغيب؟ ؟ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ؟ لا يعرفها أحد، ولمَّا سُئل النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من جبريل عن الساعة أجابه بقوله: (ما المسؤول عنها بأعلم من السائل) ورب العالمين يقول: ؟ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً ؟ [الأعراف: ١٨٧] يعني لا تأتي الساعة إلا فجأة، ولعلي عَرَّجْتُ أيضًا فيما مضى إلى من يزعم -ربما في العصر الحاضر- إلى أنه يعرف متى تقوم الساعة، وأنه قد حددها بموعد معين أو غير ذلك، وكل هذا لم يصح فيه خبر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ثم يقول رب العالمين بعد ذلك: ؟ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ؟ "ادَّارك" وردت فيها قراءات متعددة، أوصلها بعض أهل العلم إلى أكثر من عشر قراءات، وفي الحقيقة منها المتواتر، وهذه قراءة متواترة، قرأ بها عاصم وغيره، ؟ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ ؟ ومعناها: انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها، وقيل: غاب علمهم عن الآخرة، وفي قراءة أخرى أيضًا متواترة قرأ بها ابن كثير، وأبو جعفر، وأبو عمرو وهي قراءة أيضًا صحيحة: "بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ"، ولها توجيه لطيف أليده بآية من القرآن الكريم، ؟ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ ؟ يعني انتهى علمهم، وعجز عن معرفة الآخرة، أو غاب علمهم عن الآخرة، إذن توجيه قراءة -وهي متواترة قراءة سبعية- "بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ" يعني اكتمل علمهم وأدركوا في الآخرة حقيقة أن الساعة واقعة، وأن البعث والنشور حق، أدركوا ذلك، أدركوه متى؟ لمَّا وقفوا بين يدي الله -تبارك وتعالى- لمَّا قامت الساعة، يؤيد ذلك -أيها الإخوة الكرام- أن رب العالمين -سبحانه وتعالى- ذكر آية في سورة الأعراف نستدل بها على معنى هذه القراءة التي هي "بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ" يعني اكتمل علمهم في الآخرة، ووقفوا على حقيقة الأمر في الآخرة، وهي قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ؟ [الأعراف: ٥٣] ؟ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ ؟ يعني يأتي حقيقة ما أخبر به الأنبياء والمرسلون، عندما يقفون بين يدي الله يدركون، ويقول هؤلاء المكذبون: ؟ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ؟ [الأعراف: ٤٣] ؟ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ ؟ أو: "بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ" ؟ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ؟؛ يعني هؤلاء الناس في شك وارتياب من الدار الآخرة، وهي واقعة بهم لا محالة، والأمر أعظم من ذلك عندهم ؟ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ؟ يعني هم في عَمَاية وجهالة وضلالة عن الدار الآخرة، عن أمرها، عن شأنها، ولذلك لا يستعدون لها.

المحور الثاني في هذا اللقاء بعنوان: الكافرون استبعدوا البعث والنشور، وهو واقع لا محالة.

ونفتتح هذا المحور بقول الحق -تبارك وتعالى: ؟ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ ؟ ٦٧ ؟ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ؟ حقًّا هؤلاء الناس استبعدوا البعث والنشور، والله -عز وجل- يخبر عنهم ذلك، يخبر هنا عنهم بذلك، أنهم استبعدوا البعث والنشور، وقالوا: ؟ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا ؟ بعد أن نصير عظامًا نخرة، بعد أن نتحلل، بعد أن يتفتت الناس ويصبحوا لا شيء، هل يمكن بعد ذلك أن نعود مرة أخرى؟ استبعدوا بذلك البعث والنشور، وقالوا: ؟ أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ ؟، وفي الحقيقة، قضية استبعاد

البعث والنشور عند المشركين قضية قديمة للغاية، وكانت عندهم متعمقة في معتقداتهم، ولذلك القرآن الكريم من القضايا التي ركز عليها كثيرًا الحديث عن البعث والنشور، ونحن اليوم أيضًا بحاجة إلى الحديث عن البعث والنشور، والتذكير بالبعث والنشور، لماذا؟ لأن -أيضًا- بعض الناس انصرفوا عن الدار الآخرة، ولو أيقنوا حقيقة وقام في قلوبهم اعتقاد صحيح بأنهم سيُبْعَثون، وسيألون، ويحاسبون لتغير حال الكثير منهم، وهذه أيضًا لفتة يجب أن ننتبه إليها، نحن نتحدث عن البعث والنشور لكي نَرُد الكافرين المكذبين إلى حظيرة الإيمان، ونُذكِّر بالبعث والنشور كي نُذكِّر أنفسنا بما سيكون بين يدي رب العالمين -سبحانه وتعالى.

ومن شدة اعتراض هؤلاء الناس على البعث ما ذكره الله في هذه الآيات حينما قالوا: ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ تعرفون معنى هذه الآية؟ هؤلاء الناس سمعوا أن الأنبياء والمرسلين قَبْلَ النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كانوا يتحدثون عن البعث والنشور، ولم يرون بعثًا ولا نشورًا، هذا دفعهم إلى أن يغترُّوا، قالوا: ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾ أين كلام السابقين؟ أين الأنبياء الذين حذروا أممهم من البعث والنشور والقيامة والعذاب والجحيم والجنة وغير ذلك؟ كل هذا لم يكن ولكن هذا من أساطير الأولين، يعني من حكايات الأولين، من خرافات ما عند السابقين، وهذا في الحقيقة اعتراض شديد من هؤلاء المكذبين على البعث والنشور.

بماذا ردَّ عليهم رب العالمين سبحانه؟ قال لهم بعدما استبعدوا ذلك وقالوا: ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾، وهذا فيه تكذيب لجميع الأنبياء والمرسلين، قال الله -عز وجل: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أمرهم رب العالمين سبحانه أن يسيروا في الأرض وأن يتأملوا، وأن ينظروا إلى عاقبة المكذبين الذين كذبوا الأنبياء والمرسلين، أنتم تحتجُّون بأن الأنبياء ذكروا وذكروا عن البعث والنشور، ولم يكن ولم يحدث حتى تاريخه الذي أنتم تزعمون فيه أنه لم يكن، ولكن الله -عز وجل- أخذ مَن كذَّب بالأنبياء والمرسلين، ومن كذَّب بالبعث والنشور، ولكن عليكم أن تسيروا في الأرض، وأن تنظروا نظرة تأمُّل واعتبار ترشدكم وتدلكم إلى عاقبة هؤلاء المجرمين المكذبين، ولعلنا نلاحظ هنا -وهي لفتة جميلة في الآية القرآنية- أن الله -عز وجل- ختمها بقوله لما قال: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ ولم يقل رب العالمين -سبحانه وتعالى- مثلاً: "كيف كان عاقبة الكافرين" الدلالة في هذا أو وجه الدلالة على هذا ماذا؟ لكي يُخَوِّفُ رب العالمين -سبحانه وتعالى- بالبعث والنشور كل عاصٍ، فقد يكون هناك مسلم يقر ويؤمن بالبعث والنشور، ولكنه قد يجرم في حق نفسه، أو في حق البشرية بارتكاب كثير من ألوان المعاصي والآثام، والمنكَرَات والتي يصل بعضها إلى القتل، وهذا في الحقيقة إفساد في الأرض وإجرام، فلما يقول رب العالمين -سبحانه وتعالى: ﴿ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ ليشمل الكافرين، وليشمل من كان عنده لون من ألوان الإيمان، ولكنه لم يكتمل إيمانه فوقع في المعاصي والآثام والمنكَرَات، وهؤلاء أيضًا -كما أشرت وذكرت سابقًا- يحتاجون إلى تذكرة.

ثم بعد ذلك تأتي آية عجيبة تُسَلِّي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وتدفع عنه ما يمكن أن ينزل به من تكذيب هؤلاء المكذبين، من تكذيب هؤلاء المشركين، والله -عز وجل- فيها يقول له: ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ صلوات الله وسلامه عليه.

النبي -عليه الصلاة والسلام، وأذكر أنني أشرت إلى هذا سابقًا- كان يتقطع حزنًا على كفر الكافرين، وشرك المشركين، وكان يرغب -صلى الله عليه وسلم- ويطمع في هداية الناس كافة؛ لأنه رؤوف رحيم -صلوات الله وسلامه عليه- ورب العالمين قال له: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦] أنت قاتل نفسك حُزْنًا على هؤلاء الناس، قاتل نفسك حُزْنًا على شرك المشركين، وكفر الكافرين، رب العالمين هنا يسليه وينهاه -صلى الله عليه وآله وسلم- عن أن يحزن، والآية هنا ذكرت للنبي -عليه الصلاة والسلام- أمرين: الأمر الأول: أنها نَهَتْهُ عن الحزن، الأمر الثاني: أنها أمرته بأن يرفع الغم والهم والضيق عن نفسه ﴿ وَلاَ

تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُنْ فِي ضَيْقٍ ؟ من ماذا؟ ؟ مِمَّا يَمْكُرُونَ ؟ وهذه الآية بذلك تفيد تأييد الله –عز وجل– لنبيه، ونصرة الله –تبارك وتعالى– لنبيه، وأن الله مؤيده، وناصره –صلوات الله وسلامه عليه– لأن الله قال له: ؟ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ؟ كأن الآية تذكر أن رب العالمين تَكَفَّلَ بنُصرة النبي الأمين – صلوات الله وسلامه عليه.

ويستمر السياق ليخبر باستبعاد المشركين للبعث والنشور، فيقول رب العالمين –سبحانه وتعالى– عنهم: ؟ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ ٧١ ؟ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ؟ هؤلاء القوم قد استبعدوا البعث والنشور لمَّا قالوا: ؟ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ ؟ وهنا زاد استبعادهم أكثر وقالوا: ؟ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ ؟ إن كان هناك وعد، وكان هناك صدق فيمن وعدنا بذلك متى يكون؟

واستبعاد المشركين للبعث والنشور وكلامهم هذا قد جاء كثيرًا في القرآن الكريم، كقول الحق –تبارك وتعالى: ؟ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ؟ [العنكبوت: ٥٤]، وكقول الحق –تبارك وتعالى– عنهم مستبعِدِين البعث والنشور: ؟ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا ؟ [الإسراء: ٥١]، وقد ذكر بعض أهل العلم أن الله –عز وجل– أصابهم في الدنيا بألوان من العذاب، كما حصل لهم في غزوة بدر وغيرها من الغزوات على يد النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– ولمَّا قالوا ذلك: ؟ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ ؟ ما أجابهم رب العالمين سبحانه بموعد الوعد لماذا؟ لأن الله –كما سبق أن ذكرت– أخفى علم الساعة عن خلقه، فلا يعلم أحد متى تكون الساعة، ولذلك قال الله لهم بدلاً من أن يجيبهم بموعد الساعة قال: ؟ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ؟ "ردف" بمعنى قرب، أو يقرب لكم بعض ما تستعجلونه، قد يكون قريبًا، وهو حقًّا قريب، وقد ذكر أهل العلم أن اللام دخلت في "لكم" هنا من باب التأكيد؛ لأن "ردف" فعل يتعدى بنفسه، فلا يحتاج إلى "لام"، وبعض أهل العلم ذكروا بأن هذا الفعل ضُمِّنَ معنى فِعْل يتعدى بحرف الجر، أو باللام وهو "عَجِلَ لَكُم".

ثم قال سبحانه بعد ذلك: ؟ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ ؟ نِعَمُ الله على عباده لا تُعد ولا تُحصى، نِعَمُ الله –تبارك وتعالى– من يَعُدّها؟ من يحصيها؟ من أين يبدأ الإنسان ليعد النعم؟ وإلى أين ينتهي؟ ؟ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ؟ يعني صاحب إفضال وإنعام وإحسان –سبحانه وتعالى جل في علاه– ؟ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ ؟ مَن مِن الناس يشكر نعمة الله –تبارك وتعالى– عليه؟ لا يشكر نعمة الله إلا القليل كما قال رب العالمين سبحانه: ؟ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ ؟ ولكن الآية هنا لما سيقت وهي إشارة إلى فضل الله –عز وجل– ونعمه على الخلق كافة، إلا أن فيها مغزى أيضًا آخر؛ لأنها تتعلق بالحديث عن البعث والنشور؛ لأنها أتت بعد استبعاد المشركين ليوم القيامة، فقول الله بعد ذلك: ؟ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ؟ له فضل عظيم، ومن الفضل المقصود في هذه الآية: أن الله يؤخر العقوبة عن هؤلاء المكذبين، هذا فضل، ؟ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ؟ [فاطر: ٤٥]، فلو عَجَّلَ الله العذاب وقيام الساعة، والأخذ بهؤلاء المكذبين لمات كثير من الناس دون أن يتوبوا لله رب العالمين، فكون الله –عز وجل– يؤخر الأجل لهؤلاء المكذبين المجرمين فضل من الله عليهم أم لا؟ ولذلك نحن نشاهد كم من الصحابة كانوا في غزوة بدر يواجهون النبي –صلى الله عليه وسلم– بالقتال، وكانوا على الكفر والشرك، فلم يعاجلهم رب العالمين بالعذاب، ولم يأخذهم به، وكانت نهايتهم أن أسلموا وحَسُنَ إسلامهم، ووقفوا إلى جوار النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– بل صاروا من أخص صحابته كعمر –رضي الله تعالى عنه– وكخالد بن الوليد، وقد أثنى الله –تبارك وتعالى– على جميعهم في كتابه.

ثم يقول السياق القرآني الكريم: ؟ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ؟ ٧٤ ؟ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ؟ رب العالمين سبحانه، لما يستبعد هؤلاء المكذبين المجرمين البعث والنشور والله –عز وجل– قادر عليهم، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، يسوق من خلال هذه الآيات آيات دالة على قدرته، على سلطانه، على عظمته –سبحانه وتعالى– ومن ذلك قوله جل مِن قائل عليم: ؟ وَإِنَّ رَبَّكَ

لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ؟ إذا كان هو –سبحانه وتعالى– يستوي عنده السر والجهر ؟ سَوَاءٌ مِّنْكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ؟ [الرعد: ١٠] فرب العالمين –سبحانه وتعالى– يعلم السر وأخفى مِن السر، قال أهل العلم: يعلم السر الذي ليس في الضمائر، وأخفى من السر ما في الضمائر، وقال بعضهم: وأخفى؛ يعني مما يمكن أن يطرأ بعد ذلك على الإنسان من تفكير، يعني لم يكن موجودًا عنده، والله –سبحانه وتعالى– يعلم ما الذي سيفكر فيه بعد ذلك الإنسان، ولو بعد مائة سنة، إن عاش مائة سنة، وهذا يدل على العظمة وعلى القدرة، بل على كمالها، وإذا كان الأمر كذلك فلِمَ تُنكِرون أيها العباد بعث الله –تبارك وتعالى؟ لِمَ تنكرون إعادتكم إلى الدار الآخرة للوقوف بين يديه والحساب والجزاء؟ ويؤكد ذلك ما جاء في قوله سبحانه: ؟ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ؟ يعني إلا في كتاب بيِّن واضح، والكتاب هو اللوح المحفوظ، وهذه درجة من درجات الإيمان بالقَدَر، وفيها يقول رب العباد: ؟ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ؟ [الحج: ٧٠]، فمن درجات الإيمان بالقضاء والقدر أن نؤمن بأن الله –عز وجل– كَتَبَ مقادير الخلائق قبل أن يخلق الخلائق بخمسين ألف سنة، وفي هذا صَحَّ الخبر عن النبي –صلى الله عليه وسلم– كما في حديث الصحيحين وغيرهما، عن عبد الله بن عمرو بن العاص –رضي الله تعالى عنه– أنه قال: «قضى الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء» سبحانه وتعالى جل في علاه.

المحور الثالث والأخير في هذا اللقاء بعنوان: القرآن الكريم وما اشتمل عليه من الهدى والرحمة والحق والمبين.

وتحته ما جاء في قول الحق –تبارك وتعالى: ؟ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ؟ ٧٦ ؟ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ؟ القرآن الكريم ماذا نقول عنه؟ وماذا عسانا أن نتحدث عن القرآن الكريم؟ الإشارة بـ «إن هذا القرآن» إلى كتاب الله –عز وجل– الذي نزل على النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– يقص على بني إسرائيل، ما المقصود ببني إسرائيل؟ الذين حُمِّلُوا التوراة والإنجيل، هؤلاء هم بنو إسرائيل سواء من عاش منهم في عهد موسى أو عيسى أو من تبعهم، هذا القرآن يقص على الناس اليوم جميعًا خبر ما اختلف فيه السابقون من بني إسرائيل، وأعظم اختلاف هؤلاء الناس كان في شأن عيسى –عليه السلام– فاليهود افتروا عليه، واتهموا أمه بالزنا والعياذ بالله –تبارك وتعالى– والنصارى غلو فيه، وزعموا أنه ابن الله تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا، والقرآن الكريم جاء بالقول الحق، جاء بالقول الفصل، وقال الله عن عيسى –عليه السلام– في كتابه بعدما اختلف فيه هؤلاء قال: ؟ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ؟ [آل عمران: ٥٩]، فخلق آدم ربما أبعد من خلق عيسى –عليه السلام– فَلِمَ تقولون في عيسى ما لم تقولوه في آدم –عليه السلام؟ ولكنه الشيطان الذي أغوى هؤلاء الناس، بنو إسرائيل تفرقوا من يهود ونصارى في أمر عيسى –عليه السلام– وجاء القرآن الكريم ليقضي بالحق، ليحكم بالعدل، وهذا هو قصص القرآن الكريم يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون، ومع ذلك فالقرآن رحمة، القرآن هداية، القرآن شفاء، القرآن نور، ولكن لمن؟ لمن آمن واتبع المرسلين، فالذي يؤمن بالله –عز وجل– ويتابع النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– يجد في كتاب الله –عز وجل– من الرحمة، ومن الهداية، ومن الشفاء، ومن الضياء، ومن النور ما يستقيم به حاله، ويصلح عليه أمره؛ لأن الله –عز وجل– أخبر بذلك في كتابه، وهذه الآية تُفيد، وذكرها في هذا الموطن له موقع.

بعدما ذكر الله –عز وجل– يا إخواني وانتبهوا لذلك في هذه السورة، ما ذكره من قصص السابقين، وذكر أيضًا أن القرآن الكريم يقص على بني إسرائيل ما اختلفوا فيه، قد يسأل سائل: ألا يدل ذلك على صدق النبي – صلى الله عليه وسلم؟ نعم، يدل ذلك على صدق النبي –صلى الله عليه وسلم– يعني هذه الآية إشارة على صدق النبي –عليه الصلاة والسلام– لأنه لم يكن له ليأتي بالحق، ولا بالأمر الفصل في شأن عيسى –عليه السلام– وهو لم يره، ولم يعايشه، بل هو لم يجلس –صلى الله عليه وآله وسلم– بين يدي معلم يعلمه، فمن أين له بذلك الكلام؟ ومن أين له بهذا القصص القرآني؟ ومن أين له ببيان الحق الذي اختلف فيه من تَقَدَّمَه؟ فهذا يدل على

صدق بعثة النبي -صلى الله عليه وسلم- وأن ما جاء به من عند ربه هو الحق، وأنه لم يقل ما ليس له به علم - صلوات الله وسلامه عليه.

ولذلك، ويضيق الوقت أن أستطرد بعض الاستدلالات في القرآن الكريم على هذه القضية، ولكن أكتفي بنموذج واحد:

في سورة هود، رب العالمين -سبحانه وتعالى- ذكر فيها بعض قَصَص القرآن الكريم من الأنبياء السابقين على النبي -صلى الله عليه وسلم- ولكن بعد قصة نوح ماذا قال الله لنبيه -عليه الصلاة والسلام- في سورة هود؟ قال له: ؟ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ؟ [هود: ٤٩]، فكان هذا القصص وأمر الفصل في المسائل الخلافية بين السابقين، لما يأتي في القرآن الكريم على لسان النبي -صلى الله عليه وسلم- يدل هذا على صدق نَبِيِّنا -صلوات الله وسلامه عليه- وإذا لم يقتنع هؤلاء بصدقه في الدار الدنيا فاسمعوا ماذا قال الله: ؟ إِن رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ؟، إذا لم تتابعوه على ما جاء به -صلى الله عليه وآله وسلم- وتنزلوا على القول الفصل الذي أنزله الله عليه، فالأمر مرده إلى الله -عز وجل- ؟ إِن رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ؟ سبحانه وتعالى، ؟ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ؟ هو الذي يفصل بين المختلفين، وهو العزيز في انتقامه، الذي لا يغالبه أحد، العليم بأفعال عباده، فلا يحكم -سبحانه وتعالى- إلا بالحق، وهذه فائدة ختام هذه الآية بقوله: ؟ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ؟ يعني هؤلاء الناس لا يُعْجِزُون رب العالمين؛ لأنه لا يغالبه أحد، ولا يمكن لمخلوق أن يصل ولو إلى أمر يسير مما يقول له رب العالمين -سبحانه وتعالى- كن فيكون، وهو العليم بأحوال العباد -سبحانه وتعالى- جل في علاه، وقد يسأل هنا سائل فيقول: هل في الآية تكرار لأن الله قال: ؟ إِن رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ؟ والقضاء بمعنى الحكم؟ فكأن معنى الآية: إن ربك يقضي بينهم بقضائه، أو يحكم بينهم بحكمه، فنقول: كلمة "يقضي" الأولى بمعنى يفصل، إن ربك يفصل، لأن فيه خلافًا، إذن ؟ إِن رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ؟ يعني يفصل بينهم بحكمه، ويأتي القضاء بمعنى الفصل، وكلمة "بحكمه" التي أتت بعد ذلك معناها بعدله، ؟ إِن رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ؟؛ يعني بعدله -سبحانه وتعالى جل في علاه.

ولمَّا كان هؤلاء لا يرتدعون عن غيهم، ولا يدخلون في دين النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- المرسل إليهم، قال الله -عز وجل- آمرًا له: ؟ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ؟ طالما أن هؤلاء لم يؤمنوا، ولم يتابعوا، ولم يدخلوا في دين النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فما كان إلا توجيه رب العالمين سبحانه للنبي -عليه الصلاة والسلام- أن يُسند ظهره إلى ربه ومولاه، وهذا يدل على أن العبد يجب عليه أن يدعو إلى الله -تبارك وتعالى- وأن يسلك الطريق الموصل إليه، وأن يجتهد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم بعد ذلك يَكِلُ الأمر إلى الله -تبارك وتعالى جل في علاه. ونجد هذا الملحظ في كثير من آيات القرآن الكريم، ألا وهو الأمر بالتوكل على الله في مواجهة المشركين ودعوتهم إلى الله -تبارك وتعالى- وكأن الله -عز وجل- يقول للنبي - عليه الصلاة والسلام- ليس من شأنك أن تهديهم، ؟ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ؟ [البقرة: ٢٧٢] ولكن عليك البلاغ، عليك أن تدعوهم إلى الله -تبارك وتعالى- تأملوا مثلاً في سورة المزمل، رب العالمين -سبحانه وتعالى- يأمر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم- بأن يتوكل عليه: ؟ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ؟ [المزمل: ٩]، تأتي هذه الآية بعد الأمر له -صلى الله عليه وآله وسلم- بالقيام ليبلغ دعوة الله -تبارك وتعالى- وكان أنبياء الله ورسله يخبرون أممهم بأنهم متوكلون على الله -عز وجل: ؟ وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ؟ [الرعد: ١٢]، ولفتة هنا إذن: إذا كان الأنبياء والمرسلون أمرهم رب العالمين بأن يتوكلوا على الله وحده دون سواه، فما بال غيرهم من آحاد الناس؟ هل يتوكلون على غير الله؟ هل يليق بنا إذن أن نقول: توكلت عليك؟ أو توكلت على الله وعليك؟ وأن يشرك العبد غير الله -عز وجل- في التوكيل؟! التوكل عبادة عظيمة، لا تكون إلا لله -تبارك وتعالى- والله -عز وجل- يأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- هنا أن يتوكل عليه، قائلاً له: اثبت وتوكل على الله لماذا؟ لأنك على الحق المبين.

ثم تتوجه الآيات بعد ذلك إلى هؤلاء المشركين وتسخر بهم، في سياق خطاب للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم: ؟ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ؟ ٨٠ ؟ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ؟.

؟ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى ؟ أي لا تُسمِعُهم شيئًا ينفعهم، وهؤلاء الناس كالموتى الذين لا يسمعون، هذه الآيات التي نزلت من عند الله -عز وجل- وقد تلوناها في هذه السورة، خاصة الآيات التي أخذنا شطرًا منها فيما مضى، والتي افتتحها رب العالمين سبحانه: ؟ قُلِ الْحَمْدُ للهِ وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ؟ [النمل: ٥٩]، هذه الآيات وما جاء بعدها ألا كانت تجد قلوبًا تعقل، وآذانًا تسمع، وتفقه بعد ذلك القلوب ما سمعته الأذن من كلام رب العالمين -سبحانه وتعالى- فينفر الواحد منهم ويقوم ويسلم أمره لرب العالمين سبحانه، ويعلن خضوعه لله -عز وجل- ألا تكفي هذه الآيات في هداية البشرية؟ إنها والله حقًّا كافية، ولمَّا لم يكتف بها هؤلاء الناس شَبَّهَهُم القرآن الكريم بالموتى الذين لا يسمعون، ولا ينتفعون، ولا يستفيدون، والذين لا يسمعون هم في الحقيقة بعد ما زُوِّدُوا بآلات السمع هم شر الدواب التي تَدِبّ على ظهر هذه الأرض، شر الدواب التي تدب على ظهر هذه الأرض مَن أعطاه الله عقلاً، وأعطاه وعيًا، وأعطاه قلبًا وفؤادًا، وسمعًا وبصرًا، ولكنه لم يستغل ذلك فيما خلقه الله -تبارك وتعالى- له؛ لأن العبرة بالسمع الذي يستفيد منه الإنسان، وبالبصر الذي ينفع الإنسان، وبالقلب الذي يعي الإيمان، ولذلك قال رب العالمين: ؟ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ؟ [الأنعام: ٣٦]، ولذلك أقول بأن هذه الآية فيها تبكيت لهؤلاء المشركين، ولو ذكَّرناهم بقول الحق -تبارك وتعالى: ؟ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ ؟ ٢٢ ؟ وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ؟ [الأنفال: ٢٢، ٢٣]، فيا أيها الكافرون: استمعوا إلى كلام رب العالمين، وتأملوا واجعلوا آذانكم صاغية وقلوبكم واعية لِمَا نزل من عند رب العالمين سبحانه، وإذا لم يهتد هؤلاء الناس فلا يملك أحد هدايتهم، حتى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ولذلك ختم الله -عز وجل- هذه الآيات بتوجيه الخطاب إليه قائلاً: ؟ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ ؟ أنت لا تهدي هؤلاء الناس، وإنما أمرهم ومردهم إلى رب العالمين -سبحانه وتعالى- وما عليه إلا أن يُسمع آيات الله من يؤمن بها، وهؤلاء هم المسلمون الذين يدخلون في دين الله أفواجًا، وسيظل دين محمد بن عبد الله -صلى الله عليه وآله وسلم- يدخل فيه كثير من الناس، ويؤمنون ويصدقون ببعثة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وبهذه الآيات نختم معكم هذه الكلمات. وصلِّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد.

إجابة أسئلة الحلقة السابقة.

السؤال الأول: بماذا أجاب قوم لوطٍ لوطًا -عليه السلام؟ وما نوع العذاب الذي نزل بهم؟

وكانت الإجابة:

أجاب قوم لوطٍ لوطًا -عليه السلام- بالتكذيب له، ولما جاء به، بل ونادوا فيما بينهم قائلين: ؟ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ؟ [النمل: ٥٦]، وأبوا أن يرجعوا عن فعلتهم الشنعاء الخبيثة، وجزاءً لعنادهم وتكذيبهم أخذهم الله -عز وجل- بأن قَلَبَ الله قريتهم وجعل عاليها سافلها بريشة من جناح جبريل -عليه السلام- ودمرهم تدميرًا، كذلك أمطر الله عليهم من السماء حجارة من سجيل منضود تحرق أجسادهم، وذلك زيادة في العذاب والتنكيل بهم.

جزاه الله خير المجيب.

السؤال الثاني: ما المراد بالعباد المذكورين في قول الله تعالى: ؟ قُلِ الْحَمْدُ للهِ وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ؟؟ وما نوع الاستفهام في قوله تعالى: ؟ آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ؟ [النمل: ٥٩]؟

وكانت الإجابة:

المراد بالعباد المذكورين هم: قيل هم الأنبياء والرسل الذين اصطفاهم الله –تعالى– وشرَّفهم واختارهم للرسالات، وقيل: هم أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– وأتباعه، والاستفهام في قول الله تعالى: ؟ آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ؟ استفهام استنكاري فيه معنى التوبيخ والتقريع.

صحيح، ولكن طبعًا في الجزء الأول أو الشطر الأول من السؤال قلنا: المراد بالعباد الذين اصطفاهم الله –تبارك وتعالى– ذكر المجيب –فعلاً– ما ورد فيهما من أقوال، ولكن لا يمنع أبدًا أن يكون هم الأنبياء والمرسلون، وأصحاب النبي أيضًا صلوات الله وسلامه عليه، فقد اصطفاهم الله ليكونوا خيرة خلق الله بعد الأنبياء والمرسلين، والمجاهدين مع النبي –صلى الله عليه وآله وسلم.

يقول: قال الله تعالى في الآيات التي قرأناها: ؟ وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ؟ ما المقصود بهذا الشطر من الآية؟ ما المقصود بالدعاء؟ وما المقصود بهذا الشطر؟.

الآية..؟

الأخيرة ؟ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ؟.

طبعًا الصم البكم ذكر رب العالمين –سبحانه وتعالى– عن هؤلاء المشركين أنهم صم وبكم، وأنهم لا يسمعون، وطالما أن من أصيب بالصمم لا يسمع، فلا يصل إلى فؤاده شيئًا يمكن أن يعقله، وهؤلاء الكافرين لَمَّا عطلوا حواسهم عمَّا أراد الله –تبارك وتعالى– منهم، فكأنهم أصبحوا كالصُّم، وأيضًا كالبُكم الذين لا ينطقون ولا يتكلمون، فساووهم في الدرجة، هؤلاء يسمعون وينطقون ويتكلمون، ولكنهم لَمَّا عطلوا هذه الحواس فصاروا كالصم البكم الذين لا يستفيدون من الآيات التي يتلوها المتكلم، ولا يسمعون وغير ذلك، المراد والقصد منها: تشبيه هؤلاء الناس بالبكم الذين لا يسمعون، والله أعلم.

أسئلة الدرس.

السؤال الأول: اشرح على ضوء ما سمعت معنى قول الله تعالى: ؟ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ؟.

السؤال الثاني: ما المراد ببني إسرائيل في قوله تعالى: ؟ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟؟ وما أبرز ما اختلفوا فيه؟ انتهت الأسئلة.

الدرس السابع

ختام سورة النمل

بسم الله الرحمن الرحيم.

نستمر بفضل الله -تبارك وتعالى- في لقاءاتنا ومع ختام سورة النمل التي سنتحدث عن آياتها بعد قليل -إن شاء الله تعالى- وسيكون الحديث حول محورين في هذه الآيات:

المحور الأول: ذِكْر بعض أشراط الساعة، وبعض مواقف يوم القيامة.

المحور الثاني: الجزاء من جنس العمل والإشادة بالقرآن وببلد الله الحرام.

ولنستمع إلى ختام سورة النمل من الشيخ عبد الرحمن فليتفضل...

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

؟وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ ؟٨٢؟ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ؟٨٣؟ حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؟٨٤؟ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لاَ يَنْطِقُونَ ؟٨٥؟ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ؟٨٦؟ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ؟٨٧؟ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ؟٨٨؟ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ؟٨٩؟ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؟٩٠؟ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ؟٩١؟ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ ؟٩٢؟ وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ؟[النمل: ٨٢: ٩٣].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم وسلك سبيلهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين وبعد..

أيها المشاهدون الكرام، كما أشرت سابقا إلى أن الحديث ما زال مستمرا حول آيات من سورة النمل والمحور الأول معنا في هذا اللقاء هو في ذكر بعض أشراط الساعة، وبعض مواقف من يوم القيامة، وتحته قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ ؟ هذا هو مطلع الآيات التي معنا في هذا اللقاء، وهذه الآية جاءت بعد أن بين رب العالمين -سبحانه وتعالى- شيئا من الدلائل القاهرة على قدرته وعلمه، وإمكان الحشر والجزاء، وصدق النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فيما أتى به من عند ربه، بدأ يذكر شيئا من أمارات الساعة أو علامات الساعة.

وأود أن أشير في لفتة يسيرة إلى أن أشراط الساعة متفاوتة، فمنها أشراط متقدمة أو علامات صغرى كما يذكر بعض أهل العلم، وعلامات كبرى، والبعض يقول بأن هناك علامات متقدمة، وأخرى متوسطة، وثالثة متصلة بالساعة وهي العلامات الكبرى.

والآية التي معنا هنا أشارت إلى أمارة أو علامة من علامات الساعة ألا وهي: "خروج دابة الأرض" وقد جاء ذكرها في هذه الآية في قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم ؟ ومعناها وجب غضب الله -تبارك وتعالى- عليهم، على الكافرين المكذبين بيوم القيامة، الذي سبق أن ذكرته هذه الآيات، وقيل: وإذا وقع القول عليهم؛ يعني حق عليهم أنهم لا يؤمنون أو أنهم إذا لم يأمروا بالمعروف، وينهوا عن المنكر، عندئذ تقوم القيامة، وتكون قبلها أمارات وعلامات دالة عليها.

؟ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ ؟، دابة الأرض من أشراط الساعة الكبرى، علامة عظيمة من علامات الساعة، وفيها أيضا إبراز لقدرة رب العالمين -سبحانه وتعالى- والدابة تخرج عند فساد الناس، وهنا القرآن الكريم يذكر أن الله -عزّ وجلّ- هو الذي سيتولى إخراجها؛ لأنه نسب ذلك إلى نفسه، قال: ؟ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ ؟، الحديث عن دابة الأرض سيكون في بعض النقاط التالية:

أولا: ما عمل هذه الناقة؟ ومن أين هذه الناقة؟ ومن أين تخرج؟

أولا: عمل هذه الناقة قد ذُكِرَ في هذه الآية: ؟ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ ؟ وفي رواية «تَكْلَمُهُمْ»: يعني تَجْرَحُهُم وتُعَلِّمُهُم، وقد جاء ذلك عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وذلك في حديث أبي أُمَامَة في مسند أحمد أن النبي -عليه الصلاة والسلام- "أخبر أن هذه الدابة تَسِمُ الناسَ على خَرَاطِيمِهِم"؛ أي على أنوفِهِم، وفي رواية صحيحة أخرى: "أنها تُعَلِّم أو تَسِمُ الكافر بالكفر وتُبَيِّض وجه المؤمن"، وهذا من عمل الدابة؛ يعني أنها تُجَلِّي وجه المؤمن فيكون فيه الضياء والنور، وتَسِمُ وجه الكافر والعياذ بالله -تبارك وتعالى- بالظلمة والسواد، وبيان أنه كافر، إلى جانب أنها تُكَلِّمُ الناس، وهذا لا غرابة فيه، ولعله والله -تبارك وتعالى- أعلم أن يكون ذكر دابة الأرض هنا في هذه السورة، والإشارة إلى أنها تُكلِّم الناس؛ لأنه سبق في هذه السورة شيء من الطيور والنمل، وقد تَكَلَّم فلا غرابة إذن، طالما أن الهدهد تكلم كما سبق ذكره في الآية، وأن النملة كَلَّمَت سليمان -عليه السلام- فلا غرابة أيضا إذن هنا أن تُكلِّم الدابة الناس وتخاطبهم، وقد جاء نظير ذلك في السورة التي جاء فيها ذكر ذلك.

الأمر الآخر: من أين هذه الدابة؟ قيل: إنها هي فصيل ناقة صالح -عليه السلام- وقيل: هذه الدابة إنسان فصيح يتكلم، وبعض الناس أغرب فقال بأن الدابة عبارة عن الجراثيم التي تدخل في الناس وتسبب لهم شيئا من الإيذاء، وهذا في الحقيقة لون من ألوان الإغراب الشديد في تفسير كتاب الله -تبارك وتعالى.

وفي الحقيقة الشيخ أحمد شاكر -رحمه الله تبارك وتعالى- تعرض لهذه المسألة في شرحه على مسند الإمام أحمد، وبالتحديد في الجزء الخامس عشر في الصفحة الثانية والثمانين وذكر: أنه لم يرد خبر صحيح عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في ذلك، والأولى بالمؤمن في مثل هذه الحالة أن يكون وَقَّافًا عند النصوص، وما نقوله في هذا الأمر نقوله في مكان خروج الدابة، بعضهم قال بأنها تخرج من الحرم، والبعض قال بأن لها ثلاث خرجات، والله -تبارك وتعالى- أعلم بما يكون من ذلك؛ لأنه لم يرد لنا خبر صحيح عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- نعتمد عليه في هذه المسألة.

قُصَارَى القول في هذا أن دابة الأرض علامة من علامات الساعة، وهي من العلامات الكبرى، وقد أخبر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أيضا في حديثه الصحيح، والحديث في صحيح البخاري ومسلم وغيرهما من رواية عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله تعالى عنه- لما قال: (إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربه)، ثم ذكر أن الآية التالية خروج الدابة على الناس ضحى، ولكنه تردد رضوان الله تعالى عليه فقال: وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريبة، وقد رَجَّحَ كثير من أهل العلم أن أول الآيات طلوعا أو خروجا طلوع الشمس من مغربها، وثانيها خروج الدابة، وقد جمع بعض أهل العلم بين من قال إن الدابة هي أول

الآيات خروجا، وبين من قال بأن طلوع الشمس من مغربها أول الآيات خروجا، قالوا بأن أول الآيات السماوية خروجا طلوع الشمس من مغربها، وأول الآيات الأرضية خروجا خروج الدابة، وهذا في الحقيقة جمع حسن.

وكذلك قال عبد الله بن عباس -رضي الله تعالى عنه- في عمل الدابة قال: "تُكَلِّم الناس وتُعَلِّم الناس"؛ يعني تَسِمُهُم على خراطيمهم، الحافظ ابن كثير -رحمه الله تبارك وتعالى- قال: "وهذا قولٌ حسن ولا منافاة بينهما"، يعني كلام ابن عباس الذي قال بأنها تَسِمُ الناس، وأنها تُكَلِّم الناس قال: "قول حسن، ولا منافاة بأن نجمع بين الأمرين معا"، فنقول بأنها تُكَلِّم الناس وأيضا تَسِمُ الناس يعني تُعَلِّم الناس.

ثم قال رب العالمين -سبحانه: ؟ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ؟٨٣؟ حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَم مَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ؟٨٤؟ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لاَ يَنْطِقُونَ ؟، يخبر هنا رب العالمين -سبحانه وتعالى- عن يوم القيامة، وعن حشر الظالمين المكذبين بآيات الله ورسله، ومعنى قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا ؟، يعني نحشر من كل قوم ومن كل قرن جماعة وزمرة ممن يكذبون بآيات الله؛ يعني بالقرآن الكريم، وبالدلائل والعلامات الدالة على رب العالمين وعلى صدق النبي الأمين -صلى الله عليه وآله وسلم.

ولعلكم تلاحظون أن الله -عزّ وجلّ- ذكر في هذه الآية أنه يَحْشُر يوم القيامة من كل أمة فوجا، ولم يُشر إلى حشر الناس جميعا هنا، قال بعض أهل العلم بأنه ذكر في هذه الآية أو أراد أن يشير إلى حشره لرؤساء الضلال بصورة خاصة، لرؤساء الكفر والضلال الذين تبعهم هؤلاء الناس، ولا يعني ذلك أن الحشر لا يكون للعموم، ولكن هذا من قبيل ذكر الخاص ومن باب التشنيع بهم وبيان شدة عذابهم؛ لأنهم كانوا أئمة في الضلال، وإلا فستأتي آية بعد قليل -إن شاء الله تبارك وتعالى- فيها بيان أن الله سيحشر الناس جميعا، وذلك في قول الله -عزّ وجلّ: ؟ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ؟، وأيضا في قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ؟[الأنعام: ٣٨].

فإذا كان هنا ذكر لبعض من يُحْشَر ففي آيات أخرى في القرآن الكريم أفادت وتفيد بأن الجميع سيُحْشَر، ولكن الاعتناء بذكر هؤلاء من باب التخويف لهؤلاء المكذبين المجرمين الذين حملوا راية لواء التكذيب بالأنبياء والمرسلين والله -عزّ وجلّ- يقول عنهم: ؟ فَهُمْ يُوزَعُونَ ؟، ومعنى يوزعون: يُجْمَعُون.

وقيل -كما أشرت قبل ذلك في حلقة سبقت- بأنهم يوزعون؛ يعني يرد أولهم على آخرهم وهذا هو معنى الجمع، وقال أهل العلم: "بأنهم يجمعون حتى إذا اجتمعوا جميعا كبكبوا والعياذ بالله -تبارك وتعالى- في نار جهنم".

وبعد جمعهم يوجه إليهم سؤال: ؟ حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَم مَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ؟، هنا في الحقيقة كلام جميل، هؤلاء الناس حينما يحشرون بين يدي رب العالمين -سبحانه وتعالى- يقول الله -تبارك وتعالى لهم: لماذا كذبتم بآياتي؟ لماذا كذبتم بهذه الآيات وأنتم لم تحيطوا بها علما؟ ولم تقفوا على معانيها ومعرفتها وعلمها بالتفصيل، لأنكم أعرضتم عنها دون الاستفادة منها، ما الدافع إلى هذا التكذيب؟ لماذا تكذبون بآيات الله -عزّ وجلّ- وأنتم لم تتفكروا فيها، ولم تدفعوا أنفسكم إلى الاستفادة من الآيات التي أودعها رب العالمين -سبحانه وتعالى- في كونه، وكلها تشير إليه، وتدل على وحدانيته -سبحانه وتعالى- ثم تُبَكِّتُهُمُ الآيةُ بقول الله -تبارك وتعالى: ؟ أَم مَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؟، إذا لم تنشغلوا بهذا الأمر ألا وهو التفكر في آلاء الله -عزّ وجلّ- ثم الانتقال منها إلى الإيمان به وعبادة الله -تبارك وتعالى- فأي عمل كنتم تعملون؟ وأي شُغل كنتم تشتغلون؟ وهل هناك من يستحق، أو ما يستحق أن يَشْغَل الإنسان به نفسه في دنياه دون عبادة رب العالمين -سبحانه وتعالى- والآية -أيها الكرام- أفادت أن الإنسان يوم القيامة سَيُسْأل عن الاعتقاد وعن العمل، سَيُسْأل عن الاعتقاد، وذلك في قول الله -تعالى: ؟ حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي ؟ التكذيب بالآيات، هذا سؤال عن

الاعتقاد، والسؤال عن الأعمال في قوله تعالى: ؟ أَم مَّاذَا كُنْتُمْ ؟ وقد جاء في القرآن الكريم بعض الآيات التي ترشد وتشير إلى ذلك، أن الإنسان سَيُلام على فساد معتقده في يوم القيامة وعلى تفريطه في العمل أيضا، وذلك في قول الحق مثلا: ؟ فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى ؟٣١؟ وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ؟[القيامة: ٣١: ٣٢].

فالتكذيب والتولي يرجع إلى الاعتقاد، وترك الصلاة والصيام وسائر الأعمال يرجع إلى العمل، ولفتة هنا: ؟ أَم مَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؟ تفيد إلى أن أوجب الواجبات على العباد بعد معرفة الله –عزّ وجلّ– أن يتوجهوا إليه بالطاعة والعبادة، وأن هذا هو ما يجب أن ينشغل به الإنسان، ثم يقول رب العالمين –سبحانه– بعد ذلك: ؟ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لاَ يَنْطِقُونَ ؟ وقع القول عليهم: أي وقع أيضا غضب الله –تبارك وتعالى– عليهم؛ وقع عليهم غضب الله لماذا؟

لأنهم ظلموا أنفسهم، هم لن يستطيعوا أن يوصِلُوا ظلما إلى رب العباد –سبحانه وتعالى– وأنَّى لهم ذلك، ولكن الإنسان المقصر المفرط الكافر المشرك، ضرره يعود عليه، والآية تبين ذلك، ووقع القول عليهم بسبب ظلمهم، الباء هنا للسببية، بما ظلموا: ؟ فَهُمْ لاَ يَنْطِقُونَ ؟؛ يعني لا يتكلمون بين يدي رب العالمين –سبحانه وتعالى– وظاهر ذلك أن الكفار لا ينطقون يوم القيامة، وقد قال الله –عزّ وجلّ– هذا الأمر صريحا في كتابه، قال: ؟ هَذَا يَوْمُ لاَ يَنْطِقُونَ ؟٣٥؟ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ؟[المرسلات: ٣٥: ٣٦]، وقال: ؟ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ؟[الإسراء: ٩٧]، فأفادت الآية أيضا أنهم ماذا؟ أنهم لا يتكلمون، ولكن جاءت آيات أخرى في كتاب الله –عزّ وجلّ– تفيد أنهم يتكلمون كقول الحق –تبارك وتعالى: ؟ وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ؟[الأنعام: ٢٣]، أو كقوله –سبحانه: ؟ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحً؟ هم طلبوا الرجعة وتكلموا ؟ فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ؟[السجدة: ١٢]. ؟ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ؟[الزخرف: ٧٧].

وأَوْلَى ما يقال في ذلك أن في يوم القيامة مواقفَ، ففي موقف لا يتكلمون، وفي آخر يتكلمون، وقد أشار بعض أهل العلم إلى نقطة أيضا جميلة، وهي أنهم لا ينطقون عندما ينفعهم النطق؛ أي أن الله –عزّ وجلّ– يحجبهم عن الكلام ويمنعهم عنه في الوقت الذي يمكن أن يفيدهم الكلام أو أن يستفيدوا من النطق، وينطقون عندما لا ينفعهم النطق، وفي هذا من زيادة النكال ما فيه.

ثم تنتقل الآيات بعد ذلك يقول فيها رب العباد –سبحانه: ؟ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ؟ بعد أن نبه الله –عزّ وجلّ– على يوم القيامة، وخَوَّف هؤلاء المجرمين بالنار، وأعلمهم بغضبه –سبحانه وتعالى– عليهم وأنهم لن ينطقوا نطقا يستفيدون من ورائه في يوم القيامة، أشار رب العالمين –سبحانه وتعالى– أو نبه على قدرته التامة، وعظمته –سبحانه وتعالى– في كونه، وهذه الآيات في الحقيقة تأتي في سياق التخويف بالعذاب كي تنبه الغافلين، وتوقظ الشاردين، يعني بعد أن يستمع العبد إلى أن هناك دابة ستخرج في نهاية الدنيا، وهي من علامات الساعة، وستَسِمُ الناس، يعني ستُعَلِّمُهُم، والناس يعرف بعضهم بعضا، المؤمن من الكافر أو الفاجر، ثم بعد ذلك أيضا تكلمهم، وهي من الحيوانات؛ لأن الله –عزّ وجلّ– قال عنها بأنها دابة، ثم بعد ذلك يخبر رب العباد أنه سيحشر الناس بين يديه وأنه لن يتكلموا في هذا الموطن، بعد ذلك يشير إلى شيء من آلائه –سبحانه وتعالى– في كونه لعل الناس بعد ذلك يتفكرون، ولذلك ختام الآية يجعلنا نقول ذلك، ختام الآية: ؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ؟، يجعلنا نقول بأن هذه لفتة انتباه يحشد رب العالمين –سبحانه وتعالى– أنظار العباد إلى أن يتأملوا في قدرة الله –عزّ وجلّ– ومن ذلك أنه جعل لهم الليل ليسكنوا فيه والنار مبصرا، رب العالمين –سبحانه وتعالى– جعل الليل فيه سكن وفيه هدوء وفيه طمأنينة؛ كي يسكن الإنسان فيه، وكي يستريح العبد فيه من تعب النهار ومشقة ما يناله في سعيه في الأرض، وضربه فيها لطلب المعاش والرزق، أو السعي على الأولاد وعلى ما يحتاج أو ما تحتاج إليه البشرية من منافع وفوائد، ثم جعل النهار مبصرا؛ لكي يقوم الناس فيه بأعمالهم، ويزاولون فيه سائر أنشطتهم.

والإنسان حينما يقوم للعمل يحتاج إلى الضياء والنور، ونلاحظ أيضا أن رب العباد -سبحانه وتعالى- قال في الآية: ؟ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ؟ رغم أن النهار يُبْصَرُ فيه، ولكنه جعل النهار نفسه مُبْصِرًا، قال أهل العلم: "هذا لبيان كمال الإبصار في النهار" وفعلاً.. النهار يُبْصِر فيه الإنسان بَصَرًا قَوِيًّا نَافِعًا، ولذلك لو جِئْنا وأشرنا إلى الآلات التي اخترعها المخترعون اليوم من وسائل الإضاءة الحديثة، إذا وُجِدَت أثناء الشمس هل يشعر بها إنسان؟ لا يشعر بها إنسان، وهذا يفسر معنى قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ؟.

إن في ذلك لآيات لَدِلاَلَة وعلامات يستفيد منها المؤمنون؛ لأنه قال: ؟ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ؟ هذه الآيات يستفيد منها أهل الإيمان، فيعرفون ويقفون على وحدانية رب العباد -سبحانه وتعالى- فيصرفون العبادة له وحده دون سواه، ثم يقول -سبحانه- والسياق مستمر في ذكر بعض مواقف يوم القيامة: ؟ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ؟ النفخ في الصور سيكون أيضا قبل قيام الساعة بقليل، والذي سينفخ فيه كما صح الخبر بذلك عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- هو إسرافيل، وإسرافيل منذ عهد النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- مستعد لكي ينفخ في الصور، ولما سئل -صلى الله عليه وسلم- عن الصور؟ قال: (قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ).

النفخ في الحقيقة على أرجح أقوال أهل العلم في الصور سيكون على مرحلتين، بعض أهل العلم يقول بأن النفخ سيقع ثلاث مرات، يفسرها كالتالي: "نفخة الفزع" والذي يجعلني أقول ذلك هذه الآية، استدل بهذه الآية على نفخة وسماها نفخة الفزع، ثم بعد ذلك "نفخة الصعق"، ثم بعد ذلك "نفخة القيام" لرب العالمين -سبحانه وتعالى- واستدلوا بحديث ورد في ذلك، ولكن الحديث لا يصح، وقد ذكر الإمام الحافظ ابن حجر -رحمه الله تبارك وتعالى: "أن هذا الحديث مضطرب، وأنه لا يصح".

وأما "نفخة الفزع" هذه التي ذُكِرَت في هذه الآية فهي "نفخة الصعق"، ولا يمنع أبدًا أن تكون نفخة الصعق التي يصعق الناس بها هي "نفخة الفزع"، خاصة أنه قد ورد في السنة أنهما نفختان فحسب، وذلك في حديث الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تبارك وتعالى عنه- أنه قال: "ما بين النفختين أربعون"، ذكر هنا ما بين ماذا؟ ما بين النفختين، فدل ذلك على أنهما نفختان فقط، ما بين النفختين أربعون، سُئِل.. قال: أربعون يوما؟ قال: أَبَيْت، أربعون شهرا؟ قال أَبَيْت، أربعون سنة؟ قال: أَبَيْت.

قال رب العالمين: ؟ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللهُ ؟ اختلف المفسرون في الاستثناء الوارد في هذه الآية، مَن الذين استثناهم رب العالمين -سبحانه وتعالى- من الفزع في هذه النفخة؟ وقلت بأنها هي نفخة الصعق؛ لأنهما نفختان فحسب والقرآن أيضا أشار إلى هذا: ؟ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ؟[الزمر: ٦٨].

إذن الاستثناء راجع لمن؟ اختلف أهل العلم قالوا: الاستثناء راجع إلى عموم الملائكة، وقيل: الاستثناء راجع إلى رؤساء الملائكة: وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل، وقيل الاستثناء راجع إلى هؤلاء وإلى الحور العين، حقيقة لما استعرضْتُ أقوال أهل العلم في ذلك وجدت أن معظمهم يميل إلى أن هذا أمر لا يعلمه إلا الله -تبارك وتعالى- وأن الحور العين مثلا وملائكة الجنة وخزنة النار، وقيل حملة العرش أيضا استثناهم رب العالمين -سبحانه وتعالى- من الصعق في هذه النفخة، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تبارك وتعالى- يُرَجِّح هذا الأمر، ويذكر أن الاستثناء هنا لا يعلمه أحد، وإن كنا نعرف بعض أفراده، أما أننا نحكم على الجميع فهذا أمر بعيد، واستدل على ذلك بأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- نفسه شك في موسى -عليه السلام- هل هو ممن استثناهم الله أو ممن لم يستثنهم الله، وإذا كان النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يعرف ذلك فهل يمكن لغيره أن يعرف؟ لا؛ لأن في الحديث النبي -عليه الصلاة والسلام- يقول أنه: (أول من يفيق عند النفخ في الصور)، ثم يقول: (فأجِد موسى آخذًا بقائمة من قوائم العرش) -صلوات الله وسلامه عليه- ثم يقول النبي -عليه الصلاة

والسلام: (فلا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله -تبارك وتعالى)، ولذلك وجب علينا أننا نقف عند حدود النص الوارد، ورب العالمين -سبحانه وتعالى- قال هنا: ؟ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ؟؛ يعني صاغرين كما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ؟[الإسراء: ٥٢]، لا يستطيع مخلوق أن يتخلف عن القيام لرب العالمين -سبحانه وتعالى- وفي ذلك يقول الحق -جل ذكره: ؟ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ؟[الروم: ٢٥].

ثم تستمر الآيات لتذكر أيضا موقفا آخر سيكون في يوم القيامة أو مزامنًا لها: ؟ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ؟ يخبر الله -تبارك وتعالى- أن الجبال تسير يوم القيامة، وقد يحسبها الرائي ثابتة، وذلك لعظمة هذه الجبال، مشاهد الجبال الذي يشاهد الجبال لعظمتها ولكبرها يراها بأنها لا تسير وإنما ثابتة، ولكن رب العالمين -سبحانه وتعالى- يقول: بأننا في يوم القيامة سنرى الجبال تسير، نحن نظن أنها ثابتة مستقرة، ولكنها ستسير، ورب العالمين -سبحانه وتعالى- ذكر ذلك في آيات كثيرة في كتابه كقوله: ؟ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ؟٩؟ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ؟[الطور: ٩: ١٠]، ؟ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً ؟[الكهف: ٤٧]، يقول -سبحانه- ؟ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ؟[التكوير: ٣].

وتسيير الجبال بهذه الضخامة قد يدعو بعض الناس إلى الاستغراب ولذلك يُثبِع رب العالمين ذلك بقوله: ؟ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ؟، يعني ما كان لأحد غير الله -سبحانه- أن يفعل ذلك، فلا تستغرب؛ لأن هذه الجبال بهذه العظمة الكبيرة، هناك سلاسل جبال ضخمة للغاية، يسير السائر فيها الساعات الطول حتى بالطائرات، وسلاسل جبال متصلة، هذه السلاسل المتصلة من الجبال تسير بأمر رب العالمين -سبحانه وتعالى- ولا تتردد يا أيها المؤمن ويا أيها المخاطب عموما بالإيمان بذلك والتصديق به؛ لأن هذا هو ماذا؟ صنع رب العالمين -سبحانه- والله -عزّ وجلّ- قال: ؟ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ؟ أي فقط ليس هذا الأمر مقصورا على هذه الجبال فحسب بل الله -تبارك وتعالى- أتقن كل ما صنع -سبحانه وتعالى- وهذا يجعلنا نردد قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ؟[المؤمنون: ١٤].

ثم يختم رب العالمين -سبحانه وتعالى- هذه الآية بقوله: ؟ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ؟، قوله: "خبير بما تفعلون" تؤكد أنه خبير بدقائق الأمور وتفصيلاتها، فحبات الرمل التي منها هذه الجبال تسير ويعلمها رب العالمين -سبحانه- لأنه -سبحانه وتعالى- خبير؛ لأنه -سبحانه وتعالى- بكل شيء عليم.

أنتقل بعد ذلك إلى المحور الثاني في هذا اللقاء وهو بعنوان: الجزاء من جنس العمل، والإشادة بالقرآن وببلد الله الحرام.

نحن الآن مع ختام هذه السورة المباركة، ولذلك ختامها بعد ما ذكر رب العالمين -سبحانه وتعالى- فيها ما ذكر، أشار إلى أمر مهم يجب أن يتنبه له المخاطبون، وأنهم سيحاسَبُون على أعمالهم في يوم الدين، ثم يشيد القرآن الكريم بالقرآن الكريم نفسه وببلد الله الحرام التي خرج منها النبي صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا يقول رب العالمين -سبحانه: ؟ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ؟٨٩؟ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؟، الحسنة في هذه الآية تشتمل على نوعين من الحسنات قال رب العالمين: ؟ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ ؟ ما المراد بالحسنة؟

الحسنة: الأفعال الحميدة أولا، أفعال البر والخير والمعروف، هذه من الحسنات، التي يقدمها الإنسان بين يديه عندما يلقى ربه ومولاه.

النوع الثاني، من الحسنات قول: "لا إله إلا الله"، وقيل: الإخلاص، وحينما يقول الإنسان الإخلاص، كلمة الإخلاص هي ماذا؟ هي "لا إله إلا الله"، وقد صح الخبر عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أنه سئل: أَمِنَ

الحسناتِ "لا إله إلا الله" يا رسول الله –صلى الله عليه وسلم؟ فأجاب بقوله: (بل هي أفضل الحسنات)؛ لأنها هي كلمة التوحيد، وهي كلمة التقوى، وهي كلمة الإخلاص، وهي الكلمة التي سَيُسْأل العبد عنها بين يدي رب العالمين –سبحانه– وهي الكلمة التي خلق الله الخلق من أجلها وهي الكلمة التي يجب أن يخرج العباد من هذه الدار وهم عليها، فهي حقًّا أفضل الحسنات.

رب العالمين يقول: ؟ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ ؟ سواء كانت الأعمال الصالحة أو تحقيق كلمة التوحيد فله خير منها، هذا يفيد فضل رب العالمين –سبحانه وتعالى– في أن الإنسان يعمل العمل القليل، العمل القليل جدا، ورب العالمين –سبحانه وتعالى– يعطيه على هذا العمل اليسير الخير الكثير، ؟ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ؟[الأنعام: ١٦٠]، وبعد ذلك الله يضاعف ماذا؟ والله –تبارك وتعالى– يضاعف لمن يشاء وفضل رب العالمين –سبحانه وتعالى– واسع، فيا أهل الإيمان، يا أيها المشاهدون والمستمعون احرصوا على الحسنات، احرصوا على الأعمال الصالحة، احرصوا على تحقيق كلمة التوحيد فهي أفضل الحسنات؛ لأن الأجر عند الله بغير حساب، الأجر عند الله عظيم، وفوق هذا الأجر العظيم، وفي مقابل الحسنات نعمة أخرى من رب العالمين وهي التي ختمت بها هذه الآية: ؟ وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ؟؛ أي هؤلاء الذين أتوا بالحسنات لا يحزنهم الفزع الأكبر كما قال رب العالمين –سبحانه وتعالى– فهم في أمن وأمان، وهؤلاء هم أهل التوحيد، الذين حققوا التوحيد لرب العالمين، الذين قال الله فيهم: ؟ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ؟[الأنعام: ٨٢]، ؟ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا ؟[فصلت: ٣٠]، ونفي الخوف يعطي الأمان: ؟ وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ؟.

في الطرف الآخر، وفي الكفة الأخرى، وفي مقابلة أهل الإيمان أهل الضلال والعصيان والانحراف الذين أتوا بالسيئات ما جزاؤهم؟ لأن عنوان المحور عندنا: "الجزاء من جنس العمل"، فمن أتى بالحسنة فله خير منها، ومن جاء بالسيئة قال رب العالمين –سبحانه: ؟ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؟، المراد بالسيئة هنا على أرجح أقوال أهل العلم: الشرك والعياذ بالله –تبارك وتعالى– الشرك هو أعظم السيئات والذي يأتي به لا مغفرة له أبدًا عند رب العالمين –سبحانه وتعالى– وأيضا الأعمال الفاسدة هي من السيئات، وصاحبها إن كان مسلمًا مؤمنًا مُتَوَعَّد بعذاب رب العالمين –سبحانه وتعالى– مُتَوَعَّد، إن شاء الله عذبه، وإن شاء غفر له، وإذا اجتمع مع المشرك عمل السيئات فهنا عذابه عند الله أشد وأنكى، ومن كان كذلك قال الله عنه: ؟ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ؟؛ أي ألقوا على وجوههم في نار جهنم، ثم يقول الله: ؟ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؟؛ أي هل ظلمكم رب العباد –سبحانه وتعالى– بذلك؟ هل عندما كُبِبْتُم في نار جهنم كان هذا من باب التحامل؟ أو الافتراء أو ظلمكم؟ حاشا وكلا، فرب العباد –سبحانه وتعالى– لا يظلم الناس شيئا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون، فالناس هم الذين يفترون على أنفسهم ولا يفترون في الحقيقة إلا على أنفسهم هم، فمن اقترف السيئات ومن سلك طريق المجرمين جزاؤه هذا عند رب العالمين: ؟ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؟.

ثم يقول رب العالمين –سبحانه– آمِرًا النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– بأن يعبد ربه وحده لا سواه، أمر من الله للنبي –صلى الله عليه وآله وسلم– وفيه إشادة ببلد الله الحرام: ؟ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ؟، هذا أمر من الله –عزّ وجلّ– أمر من الله لنبيه وحبيبه ومصطفاة –صلوات الله وسلامه عليه– أن يعبده وحده دون سواه ويعبد من؟ قال الله –عزّ وجلّ– بأنه في هذه الآية رب هذه البلدة، والمراد بالبلدة مكة، بلد الله الحرام، وبلد الله الحرام بلد عظيم، حَرَّمَه رب العالمين في الأزل، والنبي –عليه الصلاة والسلام– هو الذي أخبر بذلك في حديثه: "إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله" –تبارك وتعالى. بلد الله الحرام بلد عظيم، بلد الله الحرام أحب البلاد وأحب البقاع إلى الله –عزّ وجلّ– وفيها ولد النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– ونزلت الآيات الأولى من القرآن الكريم على النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– وهناك الكعبة المشرفة التي يؤمها الناس في العمرة وفي الحج قاصدين

بيت الله الحرام للتعظيم، فهي محرمة بتحريم رب العالمين -سبحانه وتعالى- لها، إضافة البلدة إلى الله -عزّ وجلّ- ماذا يفيد؟ التشريف والتكريم، ولعلي ذكرت لكم فيما مضى أن المضاف إلى الله -تبارك وتعالى- نوعان:

إضافة أعيان، قائمة بذاتها كالبلدة هنا وإضافة معاني، إضافة الأعيان من باب التكريم والتشريف والاحتفاء، وإضافة الأعيان من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، ثم أخبرت الآية بأن الله له كل شيء -سبحانه وتعالى جل في علاه- وأمر الله -عزّ وجلّ- نبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يخبر الناس بأن الله أمره أن يكون من المسلمين، -سبحانه وتعالى جل في علاه: ؟ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ؟[الأنعام: ١٤]، هكذا أُمِرَ -صلى الله عليه وآله وسلم- من قبل ربه، وقد سبق أن أشرت بأن الإسلام هو دين جميع الأنبياء والمرسلين، ثم قال الله له: ؟ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ ؟ -صلوات الله وسلامه عليه، أُمِرَ النبي -عليه الصلاة والسلام- بأن يتلو القرآن، وحقيقةً هذا الأمر أيضا يشتمل على أمرين أو على شيئين:

التلاوة والقراءة، والعمل والاتّبَاع، كلاهما مأمور به من رب العالمين -سبحانه وتعالى- وأيضا قول الحق -تبارك وتعالى- هنا ؟ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ؟ إشارة إلى أهمية ماذا؟ قراءة القرآن الكريم، وتلاوة القرآن الكريم، وأن يكون القرآن الكريم محفوظٌ في صدور العباد، والله -عزّ وجلّ- أمر بتلاوته في آيات كثيرة: ؟ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ؟[المزمل: ٤]، ؟ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ؟[العنكبوت: ٤٥]، ؟ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ؟.

كما ذكرت، الجزاء من جنس العمل، من سلك الطريق الصحيح، وتبع الأنبياء والمرسلين، وتلا كتاب رب العالمين، فأمره يعود إلى نفسه، هذا الفلاح الذي هو عليه هو الذي سيستفيد منه، ومن ضل أو من خرج بعد ذلك أو من كذب بالقرآن الكريم وردَّ دعوة النبي الأمين -صلى الله عليه وآله وسلم- فالله -عزّ وجلّ- يقول له أنت قد أخليت مسئوليتك؛ لأنك ما عليك إلا البلاغ: ؟ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ ؟ -صلوات الله وسلامه عليه- وهو ليس بمصيطر على العباد -عليه الصلاة والسلام- والله -عزّ وجلّ- قال له: ؟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ؟[الرعد: ٤٠].

ثم تُخْتَم هذه السورة بختام حسن، ما أجمله وما أروعه، ؟ وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ؟ هذا ختام في نهاية الحسن والجمال، وهو حمد لله -عزّ وجلّ- على نعمته، وعلى هدايته، وعلى توفيقه، وعلى القرآن الذي نزل من عنده، وعلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- الذي أرسله، والأمر للنبي -عليه الصلاة والسلام- أولا: ؟ وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ ؟ يحمد ربه على أي شيء؟ على أن علمه الكتاب والحكمة وأرسله -صلى الله عليه وآله وسلم- إلى الناس كافة، كما أن رب العالمين يُحمَد على آياته وآلائه التي نثرها في الكون هنا وهناك، ويشير رب العالمين -سبحانه- إلى الناس كافة إلى أن هذه الآيات: يا عباد، يا أيها المخلوقين، قد اطلعتم على بعضها وقد غاب عنكم البعض الآخر، ولكن الناس حينًا بعد حين قد يقف على بعض آيات الله -تبارك وتعالى: ؟ وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ؟[النمل: ٩٣]، وهو مع عظمته وقدرته -سبحانه- ورحمته بعباده ونعمه التي لا تعد ولا تحصى ليس بغافل عن أعمال العباد: ؟ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ؟ وبهذه الآية تنتهي هذه السورة المباركة من سور القرآن الكريم، ونحمد الله -عزّ وجلّ- في البداية والنهاية، وصلِّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بالنسبة لسؤالي الحلقة السابقة، كان السؤال الأول: اشرح على ضوء ما سمعت معنى قول الله -تبارك وتعالى: ؟ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ؟[النمل: ٦٦]؟

وكانت الإجابة: معنى قول الله -عزّ وجلّ- وردت قراءات عِدَّة في كلمة "ادَّارَكَ" واختلف معناها تبعا لذلك، فهي كما قرأها عاصم "ادَّارَكَ"؛ أي انتهى علمهم وغاب في الآخرة، وقد قرأها أبو عمرو وأبو جعفر: "أَدْرَكَ

عِلْمُهُمْ"؛ بمعنى اكتمل وتم، ويكون المعنى على هذا: أنهم بإنكارهم للبعث وحقائق الآخرة سوف يكتمل علمهم لمَّا يقفوا على الحقيقة في الآخرة، عندما يقفون أمام الله -عزّ وجلّ- للحساب، فإنهم الآن يشكون في إمكانية البعث والنشور ويُنكِرون ذلك ويستبعدونه ويستبعدون حدوثه ويكذبون بالآخرة، بل هم في الحقيقة في حكم العُمْي الذين لا يرون، فإن كانوا بعد كل هذه الآيات الدالة على ألوهية الله وقدرته يكذبون بالآخرة فلا شك أنهم إنما عَمِيَت قلوبهم عن إبصار الحقائق.

جواب سديد والحمد لله.

والسؤال الثاني: ما المراد ببني إسرائيل في قول الله -تبارك وتعالى: ؟ إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ؟[الإسراء: ٩]، وما أبرز ما اختلفوا فيه؟

وكانت الإجابة: المراد ببني إسرائيل في الآية هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وكان من أبرز ما اختلفوا فيه هو عيسى -عليه السلام- من إيذاء اليهود له ولأمه وافترائهم عليه، ومغالاة النصارى فيه، حيث قالوا: هو ابن الله، فجاء القرآن الكريم ليبين لهم الحقيقة، ويفصل بينهم فيما اختلفوا فيه حيث قال: ؟ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ؟[آل عمران: ٥٩].

هذا جواب صحيح والقرآن كما أشارت الآية يقص على بني إسرائيل، وهو يهديهم أيضا كما ذكر المجيب، ولكن نص الآية: ؟ إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟، والله أعلم.

يقول: فضيلة الشيخ -أحسن الله إليكم- نجد كثيرًا في قصص النبي -صلى الله عليه وسلم- تشابها مع قصص موسى -صلى الله عليه وسلم- فهل هناك ارتباط؟.

نعم -جزاك الله خيرا- الارتباط قائم من عدة وجوه:

أولا: موسى -عليه السلام- من أولي العزم، وأمته من أكثر الأمم، والنبي -صلى الله عليه وسلم- من أولي العزم وأمته أيضا من أكثر الأمم، ولكنها أكثر من بني إسرائيل، ففي حديث عرض الأمم على النبي -عليه الصلاة والسلام- قال: (عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط)، إلى أن قال: (فبينما أنا كذلك رأيت سوادا فظننت أنهم أمتي) فقيل للنبي -عليه الصلاة والسلام: "هذا موسى ومن معه" ثم قيل له: انظر في الأفق مرة أخرى فنظر: فإذا سواد عظيم قد سد الأفق فقيل للنبي -صلى الله عليه وسلم: "هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب"، فأمة موسى -عليه السلام- تحاول أن تقرب من أمة النبي -صلى الله عليه وسلم- ولكن أنَّى لها -أيضا- ذلك، فتشريف الله -عزّ وجلّ- بهذه الأمة المحمدية تشريف عظيم لا يقرب منه شيء، والله أعلم.

يقول: -جزاكم الله خيرا فضيلة الشيخ- كثيرا ما يأتي القرآن في التحذير من الشرك، ومن المعلوم أن الحسنات يُذهبن السيئات، أما الشرك فهو السيئة الوحيدة التي تذهب بجميع الحسنات، فكيف يكون حال المشرك إن تاب، أو تاب الله عليه، وكيف يكون حاله يوم القيامة؟.

الحقيقة.. نص القرآن الكريم على أنه لا يغفر لمشرك أبدًا، المشرك الجنة عليه حرام، إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة، أما هذا المشرك إن تاب في الدنيا وحَسُنَت توبته فهو له قبول عند رب العالمين -سبحانه وتعالى- أيضا بنص التنزيل: ؟ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ؟[الزمر: ٥٣]، ولا شك أن الشرك من الذنوب والله -عزّ وجلّ- قد أخبر هنا في كتابه بأنه يغفر الذنوب جميعا، ومن التاريخ الإسلامي نرى أن خيار الصحابة وأئمة الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم

أجمعين– كانوا على الشرك، فلما تابوا من شركهم ورجعوا إلى الله ارتفعوا إلى درجات عالية أيضا مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

يقول: –فضيلة الشيخ، جزاكم الله خيرا– آخر آية في السورة تقول: ؟ وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ؟، من المخاطب في "سيريكم آياته فتعرفونها" وما معنى "فتعرفونها"؟.

الناس جميعا مخاطبون بهذه الآيات، الناس جميعا بما فيهم المؤمن، وبما فيهم الكافر، الكافر تقيم عليه الحجة، والمؤمن تزيده استبصارًا، فكل ما نحن فيه الآن مثل ما يُعْرَف بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم، صحيح.. نحن لا نقول بأن القرآن الكريم جاء بهذه الحقائق العلمية التي ذكروها وأرادها ونص عليها.. لا، ولكن هذه الحقائق العلمية إن ثبتت وافقت ما في القرآن، وتقيم الحجة على الكافرين، وتقوي عزم المؤمنين، فالرؤية لكل من يرى ويشاهد ويتأمل في هذه الآيات، والله أعلم.

أسئلة المراجعة

السؤال الأول:

ما معنى ؟ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم ؟؟ وما عمل دابة الأرض بعد خروجها؟

والسؤال الثاني:

ما الدليل من السنة على أن الله حَرَّم البلد الحرام؟ وماذا تفهم من إضافة البلدة إلى اسم الرب –جل وعلا؟

الدَّرس الثامن

تفسير بداية سورة القصص

بسم الله الرحمن الرحيم.

يسرنا -إن شاء الله تبارك وتعالى- في هذا اللقاء بعد أن انتهينا في الدَّرس الماضي من سورة النمل، أن نفتتح الحديث -إن شاء الله تبارك وتعالى- مع سورة القصص وسيدور الحديث حول آيات مباركات من هذه السورة الكريمة، وتحت محور وحيد يتعلق بالآيات التي سنستمع إليها بعد قليل -إن شاء الله تبارك وتعالى- ومحور هذا اللقاء بعنوان:

القرآن الكريم يقص نبأ موسى وفرعون بالحق المبين.

ولنستمع من أخينا عبد الرحمن إلى آيات اللقاء فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم ؟ طسم ؟١؟ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ؟٢؟ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ؟٣؟ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ؟٤؟ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ؟٥؟ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ؟٦؟ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ؟٧؟ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ؟٨؟ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ؟٩؟ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ؟١٠؟ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ؟١١؟ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ؟١٢؟ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ؟١٣؟ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ؟[القصص: ١: ١٤].

أحسنت وجزاك الله خيرًا.

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم وبارك وأنعم على عبدك ورسولك ومصطفاك وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيلهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين وبعد...

هذه السورة الكريمة المباركة نزلت على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في مكة المكرمة، وحينما أذكر الآن بأنها نزلت في مكة، أريد من وراء ذلك أمرا مهمًّا، ألا وهو أن ألْفِتَ النظر والانتباه إلى أن قَصَصَ بني إسرائيل مع نبي الله موسى -عليه السلام- جاء في أطول سورة في القرآن، وفي أطول قصة ذُكِرَت عن موسى -عليه السلام- وأعني بذلك ما جاء في سورة البقرة، وسورة البقرة مدنية، ذلك أن اليهود كانوا يسكنون المدينة النبوية، فاقتضى الأمر أن يكشف رب العالمين للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بعد انتقاله من مكة إلى المدينة أمرَ هؤلاء وتَعَنُّتَهُم مع نبي الله موسى -عليه السلام- وما وصل بهم الحال من قتل بعض الأنبياء، والتكذيب بهم

وشدة بأسهم، وخروجهم على أنبيائهم، وتحريفهم لما نزل عليهم من عند رب العالمين -سبحانه- إلى جانب أنهم اشترطوا على نبيهم أن يروا ربهم جهرا، كما ذَكَرَ ذلك ربنا في سورة البقرة.

أما سورة القَصَص فهي سورة مكية، ويأتي الحديث فيها في قصة موسى -عليه السلام- مع فرعون من جانب آخر، تُبين المواجهة التي تمت بين موسى -عليه السلام- وما فعله فرعون بالإسرائيليين الذين كانوا يسكنون هذه الديار، وكان رجلا طاغيا ومتجبرا، وظن أنه بقوته وبما آتاه الله -تبارك وتعالى- من سلطان وخدم وجند وحشم وغير ذلك، وتسلط على رقاب العباد، أنه يمكنه أن يفعل ما يشاء، فأراه رب العالمين -سبحانه وتعالى- بعض الآيات العظيمة، التي تشهد بقوة الله -عزّ وجلّ- وأنه لا رادَّ لقضائه ولا مُعَقِّب لحكمه، وأن ما كان يحذره فرعون وقع به وألَمَّ به، وسيتبين لنا ذلك -إن شاء الله تعالى- بعد قليل من خلال سياق هذا القصص الكريم، وسأعود بعد ذلك في نهاية هذه السورة لأبين أيضا أنها تعرضت لشخصية أخرى كان قريبا لموسى -عليه السلام- ومن قومه، ولكنه طغى بماله وتكبر على عباد الله أيضًا في أرض الله؛ فخسف الله به وبداره الأرض، وبالتالي هذا القَصَص حينما يأتي في مكة كأنه رسالة موجهة إلى مشركي قريش، من كان يظن منكم أن لديه جاها أو مكانة أو سلطانا فيتجبر ويتكبر على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وعلى المؤمنين، وكان هذا حال المشركين في مكة، أو مَن كان منكم لديه مال فيطغى بماله، فليعلم أنه لن يكون أبدًا أعلى ولا أرفع من فرعون ومن قارون.

يأتي هذا القَصَص في مكة المكرمة بهذا السياق؛ لأنَّ سياق سورة القصص تختلف عن سياق سورة البقرة؛ لأنَّ سورة البقرة تعالج مواقف معينة، وسورة القصص أيضا تريد أن توجه رسالة لمشركي مكة، بعد ذلك أبدأ في سياق هذه السورة، والآيات التي استمعنا إليها قبل قليل ومفتتحها قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ طسم ؟١؟ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ؟؛ هذه أحرف مُقَطَّعَة جاءت في بعض أو في أوائل بعض سور القرآن الكريم، وقد سبق أن بينت ذلك في حديثي في أول سورة النمل، ولذلك لو أن أحدكم يُسمعنا شيئًا مما سبق أن ذكَرْناه حول ذلك فمعنا الأخ ياسر تفضل.

يقول: الحروف المقطعة المفتتح بها سور القرآن الكريم هي أربعة عشر حرفًا، مجموعة في قول القائل: "نص حكيم قاطع له سر"، وهذه الأحرف لم يتم الاتفاق عليها بين أهل العلم في معناها، فقال بعضهم: إنها من أسماء الله الحسنى، وقال بعضهم: إنها أسماء للسور، وقال بعضهم: إنها من المتشابه الذي لا يُدْرَك معناه، ولكن فضيلتكم أوضحتم أن هذا القول لا يصح؛ لأنَّ القرآن نزل بلسان عربي مبين، نزل لِتُتَدَبَّر آياته، وتُتَفَكَّر معانيه ويُتْلَى، ويُتَعَبَّد بتلاوته، ورَجَّحْتُم فضيلتكم أن هذه الأحرف المقطعة نزلت لإقامة الحجة والبراهين على مشركي قريش؛ لأنَّ هذه الأحرف هي التي يتألف منها كلام العرب، والأشعار التي كانوا يقولونها، فأنزل الله -تبارك وتعالى- هذه الأحرف للتحدِّي ولإقامة والحجة والبراهين عليه.

جزاك الله خيرًا.

هذا في الحقيقة ذكره بعض أهل العلم وقال بأن فائدة افتتاح بعض سور القرآن الكريم بهذه الحروف المقطعة إقامة الحجة على المشركين، من أن هذا القرآن هو كلام الله -عزّ وجلّ- ويتحداهم الله -عزّ وجلّ- به وأنهم لن يتمكنوا أن يأتوا بمثله، رغم أنه من جنس الكلام الذي يتكلمون به، وبالتالي يعلمون صدق القرآن الكريم، ولذلك تتمة لهذا القول قلت بأن هذه الحروف عندما تأتي في أوائل بعض سور القرآن الكريم يأتي -غالبًا- بعدها مباشرة حديث عن القرآن الكريم، أو يأتي في سياق السورة أيضًا حديث عن القرآن الكريم، وهنا نؤكد ذلك، فبعدما افتتح رب العالمين -سبحانه- هذه السورة بهذه الأحرف الثلاثة: قال: ؟ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ؟، فأشار إلى القرآن الكريم؛ لأنَّ "تلك" بمعنى هذه آيات الكتاب المبين؛ يعني القرآن الكريم.

وسُمِّيَ القرآن الكريم بأنه كتاب مبين، وقد نزل من عند رب العالمين -سبحانه- لأنه يبين بخيره وبركته الهداية والفلاح للمؤمنين، وقد بَيَّنَ رب العالمين -سبحانه وتعالى- أيضًا فيه قصص السابقين، كما بين فيه نبوة نبينا -صلوات الله وسلامه عليه- ثم قال بعد ذلك -سبحانه: ؟ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَأِ مُوسَى ؟ الخطاب هنا وُجِّهَ للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ونحن من أمته نتبعه -عليه الصلاة والسلام- فيما وَجَّهَهُ الله -تبارك وتعالى- إليه، والفائدة من قوله "نتلو" أن القرآن نزل من عند الله -عزّ وجلّ- ونزل به جبريل على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وكان يتلوه عليه، وتعلمه النبي -عليه الصلاة والسلام- من جبريل، وجبريل نزل به من عند الله، ولا أَوَدُّ أن أردد وأن أكرر مرة أخرى ما سبق أن أشرت إليه فيما مضى من معان حول مثل هذه الكلمات.

هذا الكتاب نزل من عند الله -عزّ وجلّ- ورب العالمين يتلو فيه على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كما في هذه السورة قَصَصًا معينًا، والله -عزّ وجلّ- افتتح مثلا سورة يوسف أيضًا في مقدمتها قال: ؟ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ؟[يوسف: ٣]، فرب العالمين هو الذي يُعَلِّم النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من خلال الكتاب الكريم، والكتاب المبين هذه الآيات وهذا القصص العظيم، ويتلوه على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بالحق؛ لأنه نَزَلَ من عند الحق -سبحانه وتعالى جل في علاه: ؟ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً ؟[النساء: ١٢٢]؟ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا ؟[النساء: ٨٧].

والله -عزّ وجلّ- وصف القرآن الكريم بأنه حق وبأنه نزل من عند الحق، قال: ؟ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ؟[الإسراء: ١٠٥]، هذا القَصَص الحق نزل من عند الله -عزّ وجلّ- وفي مفتتح هذه السورة؛ كي يبين نبأ موسى؛ يعني خبر موسى، وأيضا خبر فرعون، بالحق؛ يعني بالصدق ؟ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ؟.

القرآن الكريم هل هو مقصور فقط على أهل الإيمان؟ أن أنه يخاطب به غير المؤمنين؟ ونطلب من غير المؤمنين أن يؤمنوا بالقرآن الكريم؟

نحن نوجه القرآن لغير المؤمنين، ونخاطب غير المؤمنين بالقرآن الكريم، ولكن الله -عزّ وجلّ- قَصَرَ هنا هذا النبأ وهذا الخبر على أهل الإيمان؛ لأنهم هم الذين يستفيدون من القرآن الكريم؛ ولأنهم هم الذين انتفعوا بالقرآن الكريم، ولا شك أن غيرهم يَتْبَعهم في ذلك؛ أعني في توجيه الخطاب إليه.

ثم بعد ذلك تبدأ الآيات وتدخل في صلب الموضوع الذي نود أن نتحدث عنه، ألا وهو نبأ موسى مع فرعون.

تَبْتَدِئ هذه الآيات بخبر الله -عزّ وجلّ- عما كان يفعله فرعون في قومه، خاصة مع بني إسرائيل، وفي ذلك يقول رب العالمين: ؟ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ؟، هذا شيء من عمل فرعون مع هؤلاء الناس، وذكرت الآية ما السبب الذي دفعه إلى أن يفعل ذلك، ألا وهو أنه كان من المفسدين، قول الله -تبارك وتعالى: ؟ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ ؟ هذا الكلام يفيد أن فرعون طغى وتكبر وتجبر على عباد الله -عزّ وجلّ- أين؟ في الأرض، والأرض هي في الحقيقة لله -تبارك وتعالى- وهو الذي يورثها لمن يشاء من عباده، وهو الذي مَكَّن فرعون في هذه الأرض، وما كان له أن يفعل ذلك، لأنه وإن كان مَلِكًا جُزْئِيًّا في وقت من الأوقات، إلا أن المُلْكَ في الحقيقة لله -تبارك وتعالى- وحده دون سواه، فما كان ينبغي منه أن يستكبر أو يتكبر أو يتجبر على عباد الله -تبارك وتعالى.

ثم بعد ذلك فَسَّرَ رب العالمين في هذه الآية بعض ألوان هذا الكبر أو العلو الذي فعله فرعون على قومه، ما لون الاستعلاء الذي وصل إليه فرعون وقام به فرعون على عباد الله في أرض الله؟ قال: ؟ يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ ؟، ذَكَرَ أهل العلم أنه كان يطلب من الإسرائيليين بالذات الذين كانوا يسكنون معه في هذه الديار أن يعملوا أعمالا شاقّة له، وكان يسخرهم تسخيرًا شديدًا لخدمته، ويكلفهم بأعمال لا يطيقونها، هذا ما جاء في معنى قول الله -تبارك وتعالى: ؟ يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ ؟ إلى جانب ذلك: ؟ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ؟، وهذا فيه إهانة

بالغة، يُذَبِّح: تعبير يُذَبِّح هكذا بالتشديد، تفيد كسرة الذَّبح، والتوالي أيضًا في الذَّبح، وأنه كان أمرًا عظيمًا، ؟ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ؟؛ يعني يترك النساء، وكونه يترك النساء بلا رجال، معناه أَنَّهُنَّ سَيَقُمْنَ بما كان يقوم به الرجال؛ يعني سَيَقُمْنَ هؤلاء النسوة بما كان يقوم به الرجال، وفي هذا -كما ذكرت- إهانة بالغة لهؤلاء الفئة من الناس الذين كانوا يعايشون فرعون في هذه الأرض.

؟ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ؟ لماذا؟ ؟ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ؟، هذا أمر عظيم، لا يرضى عنه رب العالمين -سبحانه- ولذلك ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ ؟ يبرز ويبين أن الظلم حينما يبلغ منتهاه، وأن أهل الكبر والغرور عندما يصلون في غرورهم وكبرهم وفجورهم إلى مرحلة كبيرة، هنا يكون لرب العالمين موقف مع هؤلاء، فبعدما فعل فرعون ما فعل، مما صوره لنا القرآن الكريم، ذَكَرَ رب العالمين -سبحانه- أنه يريد أن يَمُنَّ، ومعنى يَمُنَّ يعني يتفضل، أن يتفضل على هؤلاء الناس الذين علا وتكبر وطغى عليهم وظلمهم فرعون ويجعلهم أئمة، والأئمة لها مغزى عظيم، فكلمة إمام وخاصة حينما يُطْلِقها رب العالمين -سبحانه وتعالى- ويذكرها تفيد أن هؤلاء سيصلون إلى مرحلة عالية، ولذلك قيل بأن خيار أهل الأرض في زمنهم كانوا هم بنو إسرائيل، وقد جعلهم رب العالمين -سبحانه وتعالى- أئمة على الناس في ذاك الوقت، ولكن هنا يجب أن نسأل سؤالا: بما يصير الإنسان إماما؟ وهذا موجود في كتاب الله -تبارك وتعالى.

يقول: ؟ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ؟[السجدة: ٢٤].

ولذلك قال أهل العلم: "بالصبر واليقين تُنَال الإمامة في الدين"، فجعلهم رب العالمين -سبحانه وتعالى- أئمة؛ لأنهم صبروا على هذا الطاغية، كما أنهم أيقنوا في إيمانهم بالله -تبارك وتعالى- وأيقنوا بما جاء به نبيهم عن الله -تبارك وتعالى- ولا شك أن هذا كان في فترة من الفترات، وكما أن الله -سبحانه وتعالى- جعلهم أئمة، جعلهم أيضًا هم الذين يرثون الأرض التي كان يعيش عليها فرعون.

ورب العالمين -سبحانه وتعالى- قد بَيَّنَ في كثير من آيات القرآن الكريم أن فرعون كم ترك من جنات وعيون، كم ترك من زروع وثمار يانعة مثمرة، وأورثها رب العالمين -سبحانه وتعالى- لبني إسرائيل، كان فرعون يستضعفهم بهذه الأفعال، ويسخرهم، ويقتل أبناءهم، ويترك نساءهم، وفي هذا -كما ذكرت- إهانة بالغة لهم، ولكن رب -سبحانه وتعالى- يشاء بقدرته ولا رادَّ لما يفعله -سبحانه وتعالى- جل في علاه أن يُذِلَّ فرعون، وأن يُعِزَّ هؤلاء القوم، وأن يمكن لهذه الطائفة المستضعفة بسبب أنها صبرت على ظلم هذا الرجل، ثم آمنت بعد ذلك بالنبي المرسَل إليهم من عند رب العالمين -سبحانه وتعالى- ولذلك بعدما ذَكَرَ الله -عزّ وجلّ- أنه يريد أن يمن عليهم، وأن يجعلهم أئمة، وأن يجعلهم وارثين لملك فرعون، ذَكَرَ أيضًا شيئًا آخر تفضل به عليهم، وألا وهو التمكين في الأرض، وذلك في قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ؟، مكن الله -عزّ وجلّ- لبني إسرائيل، فصاروا يملكون بلاد الشام ومصر، وهنا أود أيضًا أن أُعَرِّجَ على مسألة مهمة في مسألة التمكين في الأرض، لمن تكون؟ ونحن بحاجة إلى أن نفقه ذلك وأن نتعلمه، خاصة على أهل الإيمان في مثل هذا الزمان أن يتعلموا كيف يكونون سادة في هذه الأرض؟ كيف يقودون الدنيا بعد أن كانوا يقودونها سابقا، فخلال ربع قرن من الزمان بعد وفاة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كان أهل الإيمان في زمنهم، في زمن الخلفاء الراشدين هم سادة الدنيا بأسرها، بل إن كنوزي كسرى وقيصر كانتا توزعان في مسجد النبي -صلى الله عليه وآله وسلم.

شروط التمكين واردة في القرآن الكريم، ولا أود أن أطيل في ذلك، ولكن حسبي أن أقول: ؟ إِن تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ؟[محمد: ٧].

وكما جاء في آيات أخرى: ؟ يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ؟[النور: ٥٥]، وبالتالي أقول: يجب علينا أن نحقق الإيمان في الله –تبارك وتعالى– ولا أعني بذلك الإيمان الأجوف، وإنما الإيمان الذي ينبع من القلب أولا، ثم ينطق به اللسان، ثم بعد ذلك تطبقه الجوارح والأعضاء والأركان، أيضًا أن يُحَقِّق العباد العبودية الصحيحة لرب الأرض والسماوات، وأيضا أن يجتمعوا على منهاج النبوة، هذه من شروط النصر والتمكين، ولما توفرت هذه الشروط في بني إسرائيل وعَلِمَ ربنا –سبحانه وتعالى– منهم ذلك أخبر رب العباد –سبحانه– أنه سيمكنهم في هذه الأرض.

ومن التمكين أن يكون هلاك فرعون على يد هؤلاء الناس؛ لأنَّ الله –عزّ وجلّ– قال: ؟ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ؟ ما الذي كان يحذره فرعون؟

فرعون كان يحذر من بني إسرائيل، قيل: أَعْلَمَهُ كاهن أنه سيولد مولود في بني إسرائيل سيكون هلاك ملكه على يديه، هذا دفع فرعون إلى أن يبتدئ في قتل هؤلاء الأطفال الذكور فحسب، وفي الحقيقة لما بدأ يفعل ذلك ذَكَرَ له قومه: إن قتلت هؤلاء الناس جميعا لم يَبْقَ هناك ذكور يقومون لنا بالخدمة، فاقتلهم في عام ودعهم في عام آخر، وأرادوا من وراء ذلك أن يقل العدد، وبالتالي لا يستطيعون مواجهة فرعون لقلة عددهم، وهم لا يعرفون ما غيبه رب العباد –سبحانه– قيل: في السنة التي كانوا يتركون فيها الأطفال المواليد ولد من؟ ولد هارون أخو موسى –عليه السلام– وفي العالم الذي كانوا يقتلون فيه الأطفال وُلِدَ موسى –عليه السلام– ولكن الله –تبارك وتعالى– نَجَّاه، وَأَرَى فرعون من بأس الله –عزّ وجلّ– وشدة الله وقوته ما كان يحذره عندما واجهه موسى –عليه السلام.

شاء رب العالمين –سبحانه وتعالى– أن تحمل أم موسى بموسى –عليه السلام– في العالم الذي كان فرعون يقتل فيه الأطفال، ولكن الله –عزّ وجلّ– غَيَّبَ –كيف ذلك؟ الله أعلم– فرعون ومن معه من الجنود الذين أطلقهم فرعون يتحسسون الأخبار، وكانت القوابل التي تستقبل الأطفال الجدد كُنَّ يُعْلِمْنَ فرعون بالأولاد الذين قد خلقهم رب العباد –سبحانه وتعالى– فينصرف مباشرة رجال فرعون لقتل هؤلاء الأطفال، ولكن الله –عزّ وجلّ– أعمى عن فرعون وعن جُنده خبر موسى –عليه السلام– فلم يعرف أنه ولد، ولم يعرف أحد أنه ولد، وبدأت أمه تحتضنه، ولا شك أن الأمَّ تعرف الوضع الذي كانت فيه، فكانت تخاف غاية الخوف على موسى وليدها ولا شك من يَسمع من النسوة الآن والآباء يعرفون قيمة الأبناء عند الآباء وعند الأمهات، وعند الأمهات بصورة أَخَصّ.

خافت أم موسى –عليه السلام– على موسى؛ فماذا قال الله لها؟

؟ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ؟ ترتيب رب العالمين –سبحانه وتعالى– ترتيب حكيم، أم موسى تخاف على ابنها، فالله –عزّ وجلّ– يوحي إليها أن ترضعه، هذا أولا.

نَوَدُّ هنا أن نقف مع كلمة: ؟ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى ؟ هل هي كانت نبية؟ لا، لم تكن نبية، وجمهور أهل العلم على ذلك؛ لأنَّ الأنبياء من الذكور أو من الرجال فحسب، فلا توجد امرأة نبية بحال من الأحوال، ولم يوافق على ذلك أحد من أهل العلم، أو ممن يُعْتَدُّ به من أهل العلم، إذن لم تكن نبية، فكيف نَصْرِفُ قولَ الله –تبارك وتعالى: ؟ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى ؟ قيل هذا كان إلهاما؛ يعني أن الله أَوْدَعَ في نفسها، وقيل: لا حرج في أن يرسل الله –عزّ وجلّ– إليها ملكا يكلمها بذلك، ولا يعني بهذا أنها نبية، وقد جاء في صحيح البخاري وغيره أن الله –عزّ وجلّ– أرسل مَلَكًا إلى الرجل الأقرع والأبرص والأعمى، وأنه كَلَّمَهُم، ولكن يظهر والله –تبارك وتعالى– أعلم أن هذا من الإلهام الذي سَكَّنَ به ربنا –سبحانه وتعالى– نفسَ أم موسى –عليه السلام– وألهمها ذلك؛ أن ترضعه، في الحقيقة أقول: سَكَّنَ نفسها وطمأنها بذلك؛ لأنَّ هناك فِطرة في البشر جميعا أن الأم ترضع ابنها، فليست هناك فائدة من قول الله –تبارك وتعالى: ؟ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ؟ لأنها ستُرْضِعه، حتى ولم يقل لها أحد

ذلك، ولكن كان هذا الإلهام من باب إدخال الطمأنينة على قلبها؛ يعني قَرِّي عَيْنَيْكِ بأن تُرضعي ولـــدك الآن ولا تخافي، طيب هي خائفة، قال الله -عزّ وجلّ- أمرًا عجيبًا: ؟ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ؟ من يـــستمع هـــذه الكلمات يعجب؛ يعني امرأة ابنها بين يديها وبين أحضانها وترضعه ثديها، فإذا خافت عليه تلقيه في اليم، هذا أشد وأنكى من أن يَبْقَى معها، ولكن هذا أمر من؟ هو أمر رب العالمين -سبحانه وتعالى- وهو الذي يدبر أمر هـــذه المملكة، وهو الذي سيتولى -سبحانه وتعالى- بقدرته شأن موسى -عليه السلام.

قيل: إن أم موسى صنعت تابوتًا بناء على هذا الأمر، تابوتًا من خشب وكانت تضع فيه موسى -عليه السلام- بعد أن ترضعه، وكانت تغلق عليه التابوت، قال أهل العلم: "خوفا من أن يصرخ ويبكي فيسمع أحدٌ صوته فيُعلم فرعون به"، وقيل: "لكي تُخَبِّئ الأنظار عن من يمكن أن يدخل عليها في بيتها" كان بيتها على النيل فكانت تضعه في هذا التابوت في النيل، وكانت تربطه بحبل حتى لا يسرح ولا يمشي في النيل، ولمـــا أراد رب العـــالمين -سبحانه وتعالى- أن يأخذ فرعون موسى -عليه السلام- نسيت كما ذَكَرَ بعض أهل العلم: "أن تربط الـــصندوق ذات يوم" أو أنها خافت عليه في وقت من الأوقات خوفًا شديدًا: "فألقته هي بنفسها في اليم" واليم المراد به هنـــا: نهر النيل، الذي نحن نعيش قريبا منه الآن، وقد كان فرعون يسكن في هذه المدينة، أو على مقربة منها.

أم موسى -عليه السلام- ألقت التابوت الذي فيه ولدها في هذا النيل بعد أن قال الله لها هذا الأمر: ؟ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ ؟ ولكن الله طمأنها وهَدَّأ من روعها: ؟ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَـــلِينَ ؟.

رب العالمين -سبحانه وتعالى- هنا ذَكَرَ لها أمرين:

الأمر الأول: نفى عنها الخوف ونهاها عنه "لا تخافي"، والخوف يكون من أمر سيُقْدِم عليه الإنسان، يخـــاف الإنسان غالبًا من المجهول عن الأمر الْمُغَيَّبِ عنه، فالله -عزّ وجلّ- قال لها: ألقيه في اليم ولا تخافي مما يمكن أن يصير أمره ويؤول أمره إليه، ونهاها أيضًا عن الحزن، والحزن يكون على أمر فات، فيقول لها عندما تلقيه، ولا يبقى معك فلا تحزني على فواته من بين يديكِ الآن، لأنَّ الأمر كما قال الله: ؟ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِـــنَ الْمُرْسَلِينَ ؟، هذا وعد من الله -عزّ وجلّ- بأمرين وقد تحققا؛ لأنَّ القائل من؟ هو الله، والذي وعد بذلك؟ هو رب العالمين سبحانه، الذي يقول للشيء كن فيكون.

الوعد الأول: ؟ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ؟، ولعلكم تلاحظون أن الله -عزّ وجلّ- يُعَبِّر هنا عن نفسه بـــصيغة الجمـــع للتفخيم والتعظيم، وللإشارة إلى القدرة، وهو إن كان هو -سبحانه وتعالى- واحد أحد فرد صمد، و"إنا" هنا مـــن باب التعظيم والتفخيم، وإذا استمع المستمع إلى مثل ذلك شعر ولا شك بعظمة الله وجلال الله -تبارك وتعالى.

الأمر الأول: ؟ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ؟.

الأمر الثاني: ؟ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ؟.

مشى التابوت في الماء حتى وصل بقدرة رب العالمين -سبحانه- مُقَابِل القصر الذي يسكن فيه فرعون، فلما رآه جند فرعون، وقد وقف في هذا المكان، ولعل هناك في مثل هذه الأماكن خاصة لمن يقـــوم بخدمـــة هـــؤلاء الملوك حراسة قوية مشددة، ويمكن أن يكونوا قد خافوا أن يكون هذا التابوت فيه شيء قد يدمر فرعـــون ومـــن معه، وبالتالي لا شك أنهم لا بد أن يذهبوا وأن يتعرض لهؤلاء الخدم والحشم الذين لا قيمة لهم ولا وزن، فنزلوا وأتوا بهذا التابوت، رب العالمين -سبحانه وتعالى- يقول ذلك، لم يأت من عندي: وإنمـــا قـــال: ؟ فَالْتَقَطَـــهُ آلُ فِرْعَوْنَ ؟، ما قال فالتقطه فرعون، وإنما الذي التقط التابوت من؟ آل فرعون، هؤلاء الخدم والعبيد، ؟ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ ؟، والالتقاط: هو الحصول على الشيء من غير طلب؛ يعني هم لم يطلبوه ولكنه وُجِدَ أمامهم، وحصلوا

عليه دون طلب: ؟ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ ؟ لماذا؟ قال الله –عزّ وجلّ: ؟ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ؟ هنا أهل العلم يختلفون في نوع اللام في قوله تعالى: ؟ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ؟، البعض يقول: "بأن اللام هنا للعاقبة وللصيرورة" بمعنى: أن عاقبة أمرهم سيكون موسى في واقع الأمر عدوًّا لفرعون، وحَزَنًا على فرعون وجنده، ولكن يُرَجِّح كثير من أهل العلم وهو الصواب أن اللام هنا "للتعليل"، أنهم التقطوه ليكون لهم على الحقيقة: ؟ عَدُوًّا وَحَزَنًا ؟ وذلك في علم رب العالمين –سبحانه وتعالى– في قدر الله –عزّ وجلّ– طبعا البعض ينفر من إثبات لام التعليل في القرآن الكريم، ولا أود أن أدخل في مسألة كلامية، وقد شكا لي البعض أنني قد أتوسع في ذلك، ولكن أقول بأن بعض أهل العلم عبروا عن حكمة الله –عزّ وجلّ– بالعلة، ولما عبروا عنها بالعلة قالوا بأن العلل يجوز إطلاقها على الله –تبارك وتعالى– وبالتالي نفوا التعليل عن أفعال الله وقالوا لأنه لو كان يفعل لِعِلَّة لكان مستكملا بها ناقصا بغيرها، وبالتالي نفوها عن رب العالمين، ونحن نقول بأن الله يتصف بالحكمة، ولا نطلق عليه –سبحانه– كلمات لم يرد لها ذِكْر في التشريع، وأفعال الله –عزّ وجلّ– لا تخلو عن "حكمة" أبدًا.

؟ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ؟ لا شك أن فرعون وهامان وجنودهما كانوا ماذا؟ كانوا خاطئين؛ ورب العالمين –سبحانه وتعالى– جعله عدوا وحزنا لهم بسبب –كما ذَكَرَ هنا في كتابه– ؟ كَانُوا خَاطِئِينَ ؟، ومعنى خاطئين هنا أي: مذنبين، والخطيئة تطلق على الذنب، كما قال رب العالمين –سبحانه وتعالى: ؟ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا ؟[نوح: ٢٥]، ؟ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ؟[العلق: ١٦]؛ يعني مذنبة، فهنا أُطْلِقَت الخطيئة على الذنب، وأعظم خطئيه في الوجود هي ماذا؟ هي الشرك بالله –تبارك وتعالى– كما قال رب العالمين: ؟ بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ؟[البقرة: ٨١]، "خطيئته" قال أهل العلم من المفسرين؛ يعني الشرك بالله –تبارك وتعالى– ؟ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ؟.

بعد ذلك يقول رب العالمين: ؟ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ؟، موسى –عليه السلام– بعدما التقطه آل فرعون، أدخلوه في قصر فرعون، وفُتِحَ التابوت فرأت وشاهدت امرأة فرعون موسى –عليه السلام– فرأت منظرًا عجيبًا جميلاً ووجهًا مضيئًا، فأحبته لأول وهلة، وهذا مذكور في القرآن الكريم في سورة طه يقول رب العالمين: ؟ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ؟[طه: ٣٩]، ولذلك قال أهل العلم: كان لا يرى أحد من البشر موسى –عليه السلام– إلا أحبه، اللهم إلا إن كان من فرعون الطاغية، إنما موسى –عليه السلام– وقع حبه في قلب امرأة فرعون.

فرعون أراد أن يقتله فنهته امرأته عن ذلك وقالت له: ؟ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ؟، حقيقة وَرَدَ حديث يُسمى بحديث الفُتُون، أخذًا من قول الله تعالى: ؟ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ؟[طه: ٤٠]، وهو حديث طويل في ثلاث صفحات، وساقه الإمام الحافظ ابن كثير –رحمه الله تبارك وتعالى– في تفسيره في بعض المواطن، وذكر أو أشار إلى ضعفه، وأشار الحافظ ابن حجر إلى أنه حديث حسن.

على كل حال في هذا الحديث الطويل أن فرعون هَمَّ بقتل موسى –عليه السلام– فنهته امرأته عن أن يقتله وقالت له: ؟ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ؟، ذُكِرَ في هذا الحديث أن فرعون قال لها: وقرة عين لك أنت، أما أنا فلا؛ يعني ليس قرة عين لي؛ يعني نفى فرعون أن يكون موسى أيضًا قرة عين له، والحقيقة بعض أهل العلم ذَكَرَ أنه يمكن أن يُقْرَأ: "قرة عين لي ولك لا. تقتلوه" والحقيقة أنكر الفراء هذه القراءة وقال: "بأن هذا لحن في كتاب الله –عزّ وجلّ– وهو الصواب".

وأنا قد سمعتها وأنا أحفظ القرآن في سِنِي عمري المبكرة من بعض الناس وهذا لا يصح، الشاهد: وقالت امرأة فرعون: ؟ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ ؟؛ يعني نهت فرعون من أن يقتل موسى –عليه السلام– ثم ذكرت المبررات لعدم قتله: ؟ عَسَى أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ؟، قالت: عسى أن ينفعنا؛ لأنَّ فرعون لم

يكن له ولد، قيل: كانت له بنتٌ فقط، ولم يكن له ولد، ولذلك ينفعنا في الخدمة، فالإنسان إذا كبر يحتاج إلى البنين، ؟ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ؟؛ لأنه لم يكن لديها أولاد ؟ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ؟ ما خبأه رب العالمين سبحانه من أن موسى -عليه السلام- هو الذي سيقضي على فرعون، وسيكون هلاك ملك فرعون على يد موسى -عليه السلام- في الحقيقة من أعظم النفع الذي نال امرأة فرعون من موسى -عليه السلام- ما هو؟

أنها آمنت بالله -تبارك وتعالى- وكان هذا الإيمان من أعظم ما نَفَعَ الله به هذه المرأة، حتى ضرب الله -عزّ وجلّ- لها مثلا في القرآن الكريم، وأخبر أنه بني لها بيتا في الجنة، ولذلك العبرة ليست بـ "أين يسكن الإنسان أو أين يكون"، وإنما العبرة بما يفتح الله -عزّ وجلّ- على العبد، فهذه امرأة كانت تعيش مع رجل كافر، ومع ذلك لما تابت وآمنت وصدَّقت نفعها إيمانها بفضل الله -تبارك وتعالى.

التقط آل فرعون التابوت الذي فيه موسى -عليه السلام- ودار في قصر فرعون ما دار بخصوص موسى -عليه السلام- وأم موسى ماذا تفعل في هذه الحالة؟ القرآن الكريم ذكَرَ حالها وشأنها فقال:

؟ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ أم موسى -عليه السلام- أم ألقت بوليدها في هذا اليم، في هذا النيل، ماذا نتصور منها أن يكون؟ قال الله -عزّ وجلّ: "أصبح فؤادها فارغا"، قيل: فارغا من كل شيء إلا من موسى -عليه السلام- يعني تقوم وتصحو وتعيش بذكر موسى -عليه السلام- وقيل: كان فارغا من وعد الله -تبارك وتعالى- لها، فالله -عزّ وجلّ- وعدها بأن موسى سيرجع وسيكون من المرسلين، ولكنها لما ألقته وعلمت أن فرعون قد التقط موسى -عليه السلام- أصبح فؤادها لذلك فارغا خوفا من الحدث الذي يمكن أن يكون، ولذلك أوشكت على أن تُظْهِرَ أمرها وأمر موسى -عليه السلام- ؟ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ؟، قيل: إن كادت لتبدي به؛ يعني تخبر وتقول: ابني هو الذي عندكم، وقيل: إن كانت لتبدي به لما جاءت لترضعه، لأنَّه لما -وسيأتي الذكر- لم يلتقم موسى -عليه السلام- ثدي أي امرأة والتقم ثديها فَسُئِلَت، فكادت أن تخبر بأنها أمه، وقيل: إن كادت لتبدي به: سمعت الناس يقولون موسى بن فرعون، فأرادت أن تنفي ذلك عنه، ولكن الله -تبارك وتعالى- ثبتها فقال: ؟ لَوْلاَ أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا ؟؛ يعني صبرناها، وثبتناها، وأيدناها لتكون من المؤمنين المصدقين بوعد الله.

فأول الآية لما قال: ؟ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا ؟؛ إمَّا من وعد الله -تبارك وتعالى- أو فارغا فقط من ذكْرَ موسى -عليه السلام- فقد يُؤَثِّرُ ذلك في صدقها ودرجة إيمانها، فربط الله -عزّ وجلّ- على قلبها لتكون من المؤمنين حقًّا.

ثم بعد ذلك نَمُرُّ على السياق في قول الله -تبارك وتعالى: ؟ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ؟ أم موسى -عليه السلام- لم تهدأ رغم -وهذا يظهر في السياق- أن موسى لم يغب عنها كثيرًا ولم تطل غيبته، ولم يفارقها وقتا طويلا، يعني أكثر ما ذكره أهل العلم ربما لم يغب عنها إلا يوما وليلة فقط؛ لأنه منذ أن ذهب لم يرضع من ثدي أحد، فلو مضى عليه فترة طويلة لا يمكن أن يعيش، فدل ذلك على أنه رجع إليها بسرعة، أم موسى -عليه السلام- كَلَّفَت أخته بأن تتحسس الأخبار: ؟ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ ؟؛ يعني تتبعي أثره لتعرفي الخبر، ولكن بشيء من الدهاء والذكاء، وهذا ما يجب أن يتعلمه أهل الإيمان في المواقف التي يواجهون بها الطغاة؛ لأنه يمكن أن يأخذوهم وأن يفعلوا بهم ما يفعلوا، وقد يكون هؤلاء الناس في ضعف وغير ذلك، فأمرتها أن تتحسس الخبر ولكن من جانب بعيد، لما قالت: ؟ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ ؟ قيل: يعني عن بُعْد، وقيل: فبصرب به عن جنب: يعني من جانب ومعنى ذلك: أي أنها كانت تنظر من جانب لكي تُشعرهم أنها لا تتحسس الأخبار، وكأنها تنظر نظرا تلقائِيًّا طَبَعِيًّا، تنظر مرة هنا ومرة هناك، وكانوا في هذا الحالة لا يشعرون بها ولا يعلمون خبرها، ولكنها عرفت من خلال تحسُّسِهَا للأخبار أن موسى -عليه السلام- لم يلتقم ثدي أي امرأة حضرت لكي ترضع موسى -عليه السلام- أدركت ذلك وعرفته، والله -عزّ وجلّ- ذَكَرَ بقدرته وعظمته وقوته

أنه مَنَعَ موسى –عليه السلام– وهو طفل رضيع ربما له يوم واحد أن يلتقم ثدي أي امرأة، وذلك تأييد من رب العالمين –سبحانه وتعالى– واتخاذ الأسباب لكي يرجع موسى بعد ذلك إلى أمه، ولذلك قال رب العالمين: ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ فكانت كل امرأة تأتي، وكل النسوة كُنَّ يَسْعَيْن ويرحبن بأن يرضعن موسى –عليه السلام– لماذا؟ لقربهن من الملك، وللعطاء الجزيل الذي ستأخذه الواحدة منهن؛ لأنها في بيت الملك، ولكن الله –عزّ وجلّ– أبى ذلك بقدرته وحَرَّمَ المراضع فلم يلتقم موسى –عليه السلام– ثدي أي امرأة سوى أمه.

أخته تتحسس الأخبار وتعرف ذلك، فدخلت عليهم وأخبرتهم بأنها تعرف امرأة يمكن أن يلتقم ثديها، وقيل: لما عَجَزُوا عن أن يُرضعوا موسى وهم في البيت خرجوا به إلى السوق، في الطرقات والشوارع، لعله يلتقم ثدي أي امرأة في الطريق أو في السوق، عندئذ أخته قالت لهم: ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾، يذكر أهل العلم هنا أن فرعون ومن معه شَكَّ في أمر هذه البنت وفي هذه الفتاة، من أين لكِ بهذا البيت؟ من أين عرفتِ أنه يمكن أن يَرْضَع من أهل هذا البيت، وهم الذين يقومون بكفالته ويحرصون عليه؟ فأجابت بأن قرب هؤلاء من الملك رغبة عند الناس جميعا، فكل الناس والنساء بوجه أخص المرضعات كلهن يرغبن في أن يكن قريبات من الملك، فكان هذا الجواب مخرجا لهذه الفتاة لتخرج به من هذا المأزق؛ لأنه يمكن أن يتوصل بذلك إلى وضع موسى –عليه السلام.

بعد ذلك أخبر رب العالمين –سبحانه وتعالى– أنه حقق وعده لأم موسى، قال: ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ رب العالمين –سبحانه وتعالى– بإرادته، وقوته، رد موسى بعد ذلك مرة أخرى؛ فكانت أمه هي التي ترضعه وتتقاضى أجرا على إرضاعه، يعني فضل ونعمة منة من رب العالمين –سبحانه وتعالى– عليها، وقيل: بقي موسى معها في البيت ولم يكن في بيت فرعون أثناء الرضاعة، وقيل: كانت تذهب إلى فرعون كي ترضعه هنا، وعلى أي حال فالشاهد من ذلك أن أمه أصبحت تطمئن عليه، وتشاهده وترعاه وتربيه بلبنها: ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾، وهذه فائدة لنا نحن، يجب علينا أيضًا أن نثق في وعد الله –تبارك وتعالى– أن نثق في وعد الله –جل ذكره– وأن نطمئن إلى أن رب العباد –سبحانه وتعالى– يفعل ما يشاء؛ لأن قوله –سبحانه: ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ يفيد أن كثيرًا من الناس لا يستفيدون من ذلك، ولا يدركون أن وعد الله حق، وما كان ينبغي لهم ذلك.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾، ولما بلغ أشده؛ أي قوته، قيل: الأَشُدّ معناه الْحُلُم؛ يعني لما بلغ سن الاحتلام واستوى قيل: إنه بلغ من الفقه والعلم والمكانة شيئًا عظيما، وقيل: كان ذلك في الأربعين؛ لأنها نهاية كمال الإنسان من حيث الناحية الجسدية والنضج العقلي الشديد، هذه نعمة يذكرها رب العالمين –سبحانه وتعالى– متفضلا بها على موسى –عليه السلام– أن الله –عزّ وجلّ– رعاه وهو طفل صغير، أمه ترضعه، ونجاه من فرعون ومن بطشه، وممن كان مع فرعون، وممن كان إلى جوار فرعون، والله –عزّ وجلّ– رعاه بعنايته، وتكفله بحفظه حتى بلغ أشده واستوى، والعلة في ذلك أن موسى –عليه السلام– كان من المحسنين.

الآن كلنا طبعا نعرف ما معنى الإحسان، ولا نريد أن نقف عند ذلك ولا نطيل، الإحسان: فسره النبي –صلى الله عليه وسلم– كما في حديث جبريل، ولكن الذي أود أن أسأل عنه الآن: ما فوائد الإحسان؟

فوائد الإحسان كثيرة: أن الله يحب المحسنين: ﴿ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، كنت أود أن أقرأ الآيات الواردة في سورة آل عمران في قول الله –تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]؛ لأنها خُتِمَت بقول الحق –تبارك وتعالى: ﴿ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

أيضًا من فوائد الإحسان ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨]، فالله مع أهل الإحسان.

أيضًا فائدة ثالثة من فوائد الإحسان: رحمة الله -عزّ وجلّ: ؟ إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ؟ [الأعراف: ٥٦].

فائدة أخرى: أن الله -عزّ وجلّ- وَعَدَ المحسنين بالجنة والنظر إلى وجهه الكريم: ما الدليل؟

يقول: ؟ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ؟[يونس: ٢٦] "للذين أحسنوا الحسنى"؛ يعني للذين أحسنوا وكانوا من أهل الإحسان في الدنيا، "الحسنى" وهي الجنة، و"الزيادة" فسرها النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنها النظر إلى وجهه الكريم، وهي قمة النعيم الذي يلقاه أهل الإيمان في الدار الآخرة.

ونكتفي بهذا وصلِّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بالنسبة لأسئلة الحلقة السابقة كان السؤال الأول: ما معنى قول الله -عزّ وجلّ: ؟ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم ؟ [النمل: ٨٢]، وما فِعْل دابة الأرض بعد خروجها؟

وكانت الإجابة: معنى وَقَعَ القول عليهم وردت فيه أقوال كثيرة فقيل: وجب الغضب عليهم والسخط، وقيل: يقع بموت العلماء وذهاب العلم ورفع القرآن، وقيل: وجب العقاب عليهم، والحقيقة أن هذا الأقوال كلها ترجع إلى معنى واحد وهو نهاية قبول الإيمان من الكفار، أو حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل؛ حيث يقع وعيد الله وعقابه على المجرمين، وعندما تخرج هذه الدابة قيل: إنها تكلم الناس؛ أي تحدثهم بلسان يفهمونه وتقول: ؟ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ ؟ [النمل: ٨٢]، وقيل: تَكْلَمُهُم من الكَلْم وهو الجرح؛ يعني تصيبهم وتُعَلِّمُهُم بعلامات يُعرَفون بها، وجمع ابن عباس -رضي الله عنه- بين القولين فقال: "إنها تُكَلِّمُهُم وتَكْلَمُهُم، تُكَلِّم المؤمن، وتَكْلَم الكافر: أي تجرحه.

الجواب صحيح، والإمام الحافظ ابن كثير ساق هذا القول الأخير عن ابن عباس واستحسنه -رحمه الله تبارك وتعالى- قال: "وهذا قول حسن ولا منافاة بينهما"، وهذا هو الصحيح والصواب أن الدابة تفعل الأمرين معًا.

والسؤال الثاني: ما الدليل من السنة على أن الله -تبارك وتعالى- حَرَّمَ البلد الحرام؟ وماذا يُفهم من إضافة البلدة إلى الله -عزّ وجلّ؟

وكانت الإجابة: الدليل من السنة على أن الله تعالى حَرَّمَ البلد الحرام قوله -صلى الله عليه وسلم: (إن هذا البلد حَرَّمَه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة...) الحديث، وهو بتمامه في الصحيحين، ويفهم من إضافة البلدة إلى الله -تبارك وتعالى- التشريف والتعظيم للبلد الحرام، وعلُوّ شأنه ومكانته عند الله تعالى، فهي من إضافة الأعيان إلى الله -تبارك وتعالى.

جزاك الله خيرًا.

يقول: الآية ؟ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ؟ هل يوجد فرق بين خاطئين ومخطئين؟ من حيث اللغة؟.

لا أبدًا، خاطئين: يعني فاعلين للخطيئة، ومخطئين: يعني قد أخطؤوا في حق أنفسهم بما ارتكبوا من خطايا أو من ذنوب وسيئات، وهي مفردات تأتي في اللغة العربية على أشكال مختلفة ومتعددة.

أسئلة المراجعة.

السؤال الأول:

ما المراد بالوحي المذكور في قوله تعالى: ؟ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى ؟؟ وهل كانت نبية؟ وما نوع الـــلام فـــي قوله تعالى: ؟ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ؟؟<

السؤال الثاني:

اشرح قول الله تعالى: ؟ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ؟؟ واذكر فائدتين من فوائد الإحسان؟

الدرس التاسع

تابع سورة القصص

قصة قتل موسى للقبطي وما كان منه –عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

نواصل –إن شاء الله تبارك وتعالى– حديثا في تفسير سورة القصص، ومعنا محور أيضا وحيد في هذا اللقاء بعنوان:

قصة قتل موسى للقبطي وما كان منه –عليه السلام.

ولنستمع الآن إلى آيات اللقاء.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

؟ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ؟١٥؟ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ؟١٦؟ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ؟١٧؟ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ؟١٨؟ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ؟١٩؟ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ؟٢٠؟ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ؟٢١؟ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ؟٢٢؟ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ؟٢٣؟ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ؟٢٤؟ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ؟٢٥؟ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ؟٢٦؟ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ؟٢٧؟ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ؟ [القصص: ١٥: ٢٨].

جزاك الله خيرًا.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيلهم إلى يوم الدين، وبعد.

نواصل –إن شاء الله تبارك وتعالى– الحديث عن قصة موسى –عليه السلام– وقد وقفت في اللقاء السابق إلى أن الله –تبارك وتعالى– مَنَّ عليه وتَفَضَّلَ عليه، لما بلغ أَشُدَّه واستوى فآتاه الله –عزّ وجلّ– الحكمة والعلم، قيل بأن الله –عزّ وجلّ– أعطاه النبوة، ولكنه قبل هذه الآيات التي سنشرع فيها الآن لم يكن نبيًّا بعد، ولكنه خَبَرٌ من الله –عزّ وجلّ– بما سيؤول إليه أمر موسى –عليه السلام.

في هذه الآيات يقول رب العباد -سبحانه: ؟ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ؟ موسى -عليه السلام- في قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ؟ نستفيد من ذلك أنه عاب ما كان عليه فرعون من شرك وظلم وطغيان، فكان موسى -عليه السلام- يخرج من هذه المدينة التي يعيش فيها هذا الرجل؛ حتى لا يشاهد فساد ما هم عليه وضلال ما هم عليه، وكان يدخل المدينة في أوقات لا يشاهدونه فيها، ولا يريد هو في الوقت نفسه أن يَطَّلِعَ على شيء كبير من ضلالهم وفسادهم وشركهم وإجرامهم، ولذلك قال الله: ؟ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ ؟ هذا يدل على أنه كان خارجا عن المدينة ثم دخلها، قيل: كان يدخل على حين غفلة: كان يدخل بين المغرب والعشاء، وقيل: كان يدخل في وقت القيلولة؛ في وقت انتصاف النهار.

لما دخل موسى -عليه السلام- وجد في المدينة ماذا؟ وجد فيها رجلين يقتتلان، وجد موسى -عليه السلام- رجلين أمامه بينهما شجار ونزاع، واحد من الرجلين من جماعة موسى -عليه السلام- وموسى كان من بني إسرائيل، والآخر من جماعة فرعون، وكان يقال لفرعون ومن معه "أقباط" وهذه عبارة كانت تقال على من يسكنون ديار مصر أيًّا كانت ديانتهم، يقال لهم أقباط.

موسى -عليه السلام- وجد في المدينة حينما دخلها رجلين يقتتلان، القرآن الكريم يقول: ؟ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ؟؛ يعني أن واحدًا من جماعته والآخر من أعداء موسى -عليه السلام- يعني من جماعة فرعون، عندئذ لما شَاهَدَ أحد الرجلين الذي كان من جماعة موسى -عليه السلام- شاهد موسى فاستغاث به، طلب منه أن يُغِيثَه، القرآن الكريم هنا يقول: ؟ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ؟ أَوَدُّ أن أَلْفِتَ النظر في هذه الآية: هل الاستغاثة تجوز بغير الله -تبارك وتعالى- الاستغاثة طلب الغوث، ولا تكون إلا من الله -تبارك وتعالى- ولكن القرآن الكريم هنا ذكر هذا وسكت عنه، فدل على أن هذا من المباح، ؟ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ؟، ولم يُنكِر موسى -عليه السلام- بل وقف إلى جوار هذا الرجل المستغيث، هذا يدفعنا ويجعلنا نقول بأن الاستغاثة تنقسم إلى قسمين:

استغاثة لا تكون إلا بالله -عزّ وجلّ- وذلك فيما لا يقدر عليه إلا الله، ما لا يقدر عليه إلا الله لا يطلب إلا من الله -تبارك وتعالى- وقد تكون هناك استغاثة بالمخلوقين، وذلك فيما يقدر عليه المخلوق، فلو أن إنسانا مثلا تتلاطمه الأمواج في البحر ثم قال لمن هم على الشاطئ أو على البر أغيثوني أو أدركوني، نقول له قد أشركت؟ لا؛ لأن الإنسان إذا استطاع أن ينفع أخاه في مثل هذه الحالة فلينفعه.

موسى -عليه السلام- فَعَلَ ذلك، واستجاب لِطَلَبِ مَنْ طَلَبَ منه الغوث، وذهب إلى الرجل الذي هو عدو لموسى -عليه السلام- ولهذا الرجل -أيضًا- الذي من شيعة موسى -عليه السلام- فضربه موسى -عليه السلام- قال: ؟ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ؟، والوكز هو الضرب، وكان موسى -عليه السلام- قويًّا شديدًا، وهذا كان من طبيعته -صلوات الله وسلامه عليه- وفي صحيح البخاري وغيره أن موسى -عليه السلام- لما أتاه ملك الموت في صورة إنسان فَقَأَ عينه، والحديث صحيح، فكان شديدًا -صلوات الله وسلامه عليه- ولذلك مجرد ضربة هكذا قضى عليه، قيل بأن موسى -عليه السلام- لم يقصد قتله، وإنما أراد أن يكف شره وأن يبعده عن هذا الرجل الإسرائيلي، ولكن هذه إرادة رب العالمين -سبحانه وتعالى- موسى -عليه السلام- أدرك أن هذا خطأ منه فقال: ؟ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ؟؛ يعني ما فعله موسى -عليه السلام- لم يرضَ به موسى ولم يرضَ بهذا القتل، وإنما أدرك بأن هذا فِعْلٌ ما كان عليه أن يفعله، ولذلك نَسَبَ هذا الفعل إلى وسوسة الشيطان، وأَبَانَ بأن الشيطان عدو مضل مبين.

وأدرك موسى -عليه السلام- ظلمه في هذه الفعلة، وقتله لهذا الرجل، وما كان ينبغي له ذلك فقال متوجها إلى الله طالبا العفو من ربه ومولاه: ؟ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ؟ أدرك

موسى -عليه السلام- وهو يعلم أن الذي يجيب الدعاء ويغفر الزلات هو رب العالمين -سبحانه وتعالى- مباشرة.

موسى -عليه السلام- استَغْفَرَ ربه من هذه الفعلة الشنيعة، ولا شك أن موسى -عليه السلام- كان دائما يستغفر ربه من هذه الفعلة طيلة حياته؛ لأنه ذكرها في يوم القيامة، يعني موسى -عليه السلام- ذكر واقعة القتل هذه في يوم القيامة، وذلك في حديث الشفاعة الطويل لما ذهب الناس إليه يطلبون منه الشفاعة، وذكر ذنبا فعله -عليه السلام- رغم أنه قد تاب منه، إلا أنه ذكره، وذكر بأنه قتل نفسا بغير حق -صلوات الله وسلامه عليه- والله قد تاب عليه، ولكنه ذكره، وهذا يفيد شدة إشفاق الأنبياء من الذنوب، يعني أنهم كانوا يخافون خوفًا شديدًا من الذنوب رغم أن رب العالمين -سبحانه وتعالى- أخبر بذاته ونفسه العَلِيَّة أنه قَبِلَ توبة موسى -عليه السلام- لأنه هو الغفور الرحيم، إلا أن موسى -عليه السلام- لم يَغِبْ هذا الذنب عن بَالِهِ أبدًا، وهذا -كما ذكرت- يبين شدة خوف وإشفاق الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ثم بعد ذلك عاهد موسى -عليه السلام- ربه بعد أن نجاه الله -تبارك وتعالى- من كيد فرعون؛ لأنَّ فرعون كان يريد أن يقتل موسى، ولكن الله -عزّ وجلّ- لم يمكنه من ذلك، ثم بعد ذلك وقع موسى في الخطأ بقتله لهذا الفرعوني بلا وجه حق، ولما استغفر ربه وتاب من فعلته تاب رب العالمين -سبحانه وتعالى- عليه، هنا أدرك موسى -عليه السلام- شيئًا من نعم الله -عزّ وجلّ- فعاهد ربه أن يسير على صراط مستقيم، وألا يكون بحال من الأحوال معاونا للمجرمين فقال: ؟ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ؟ وكلمة المجرمين هنا تشمل أيضا الكافرين، نعم هؤلاء وهؤلاء، والكفر يكون في الاعتقاد، والإجرام يكون في الأعمال، والكفار يجمعون بين هذا وبين هذا.

ثم يمضي السياق فيقول فيه رب العالمين -سبحانه وتعالى: ؟ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ؟ يعني أن موسى -عليه السلام- أصبح في المدينة خائفا من فعلته التي فعلها، خشي أن يتسرب الخبر إلى فرعون، وهو يعلم بطش فرعون قيل: ؟ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ؟؛ معنى أصبح هنا يعني صار، صار في المدينة خائفا يترقب، وقيل: أصبح حقيقة؛ يعني لما أصبح اليوم التالي؛ لأنه كان على احتمال أن موسى -عليه السلام- دخل بين المغرب والعشاء وكان القتل إذن ليلا، فلما أصبح الصباح خشي موسى -عليه السلام- أن يُعْلَمَ خبره، وأن ينتشر بين الناس ما فعل، ؟ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ؟ من نصره موسى -عليه السلام- وهو الإسرائيلي من جماعة موسى، وموسى قتل بسببه الفرعوني، لما شاهد موسى في المدينة أيضًا طلب منه النصرة، والقرآن الكريم يقول: "استصرخه" والصراخ هنا بمعنى طلب الغوث؛ لأنَّ المستغيث يصرخ، فهي بمعنى طلب الغوث أيضا، موسى -عليه السلام- لما طلب منه هذا الإسرائيلي الذي كان سببا في أن يقتل موسى -عليه السلام- رجلا بغير وجه حق: ؟ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ؟، أنت بلغت من الغِوَايَةِ مبلغًا كبيرًا وقد استَحْكَمَت فيك حتى أصبحت واضحة ظاهرة، ؟ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ؟١٨؟ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا ؟، موسى -عليه السلام- مع أنه قال ذلك إلا أنه ربما شَعَرَ ولمس أن هذا الفرعوني يحتاج إلى أن يُؤَدَّب، فقام لنصرة الإسرائيلي مرة أخرى، فلما شاهده الإسرائيلي قادما خَشِيَ أو خاف على نفسه من موسى -عليه السلام- وظن أن موسى سيبطش به؛ لأنَّ موسى قال له: ؟ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ؟، فخَشِيَ هذا الإسرائيلي أن يقتله موسى أو أن يضربه موسى -عليه السلام- عندئذ وجه الكلام لموسى قائلا: ؟ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ ؟ وجمهور المفسرين قالوا بأن هذا من كلام الإسرائيلي الذي استصرخ موسى لماذا؟ لأنه لم يكن يعرف أحد بحقيقة القتل الذي دار بالأمس، الذي عرف موضوع القتل مَنْ؟ موسى والإسرائيلي؛ لأنَّ الإسرائيلي كان في مواجهة الفرعوني وموسى -عليه السلام- قتل هذا القبطي الفرعوني، ولم يشاهده إلا مَنْ؟ إلا الإسرائيلي، ولكن هذا الإسرائيلي خاف على نفسه وقال لموسى -عليه السلام: ؟ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ؟ تريد أن تكون جبارًا قيل: يعني تكون قَتَّالاً في الأرض، أو ضاربا في الأرض، ؟ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ؟،

عندئذ أخذ هذا الرجل الفرعوني خبر قتل موسى -عليه السلام- للرجل الفرعوني بالأمس، فذهب وأخبر مَنْ؟ أخبر فرعون، فصار الخبر عند فرعون، لما علم فرعون، طلب موسى -عليه السلام- ولو وقع موسى في يده لا شك أنه لن يفلت بعد ذلك منه، وهذا يدعو موسى إلى أن يخاف، وإلى أن يشتد خوفه -صلوات الله وسلامه عليه- وطار الخبر في المدينة، وعلم به الناس جميعا وسمعه رجل من آل فرعون، قيل: هذا الرجل هو مؤمن آل فرعون، سمع بخبر فرعون وبأنه يريد أن يقتل موسى -عليه السلام- وأن يقضي عليه؛ لأنه سفك دم هذا الفرعوني، فأسرع هذا الرجل وهو من قوم فرعون وأتى إلى موسى -عليه السلام- وأخبره بخبر هؤلاء الناس، ونصحه بأن يخرج من المدينة؛ لأنَّ هؤلاء القوم يرقبونه كي يقتلوه.

وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ؟ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى ؟ جاء رجل فيها تزكية للرجل؛ لأنَّ التعبير بكلمة رجل فيها تزكية، فيها شهادة، والله -عزّ وجلّ- بهذه الكلمة أثنى على قمم أهل الإيمان: ؟ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ؟[الأحزاب: ٢٣] ولما ذكر رب العالمين -سبحانه وتعالى- الطهر والعفاف وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة قال: ؟ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ؟[التوبة: ١٠٨]، فالشاهد أن هذه كلمة مدح لهذا الرجل، وانظروا القرآن الكريم: ؟ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى ؟ يعني من بعيد، وقيل بأنه أُطْلِقَ عليه لقب رجل؛ لأنه أسرع إلى موسى قبل غيره، يعني فرعون أصدر فرمانا قرارًا لحاشيته أن يأتوا بموسى، ولكن هذا الرجل سلك طريقا واشتد في السعي إلى أن وصل إلى موسى -عليه السلام- قبل أن يصل إليه جماعة فرعون، وقال لموسى هذا القول: ؟ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ ؟ الملأ: يعني أشراف الناس، إذن المسألة على مستوى عالي، وليست مسألة يقوم بها آحاد الناس أو أفراد الناس، وإنما على مستوى القمة والمسئولية، ؟ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ؟ ليس فقط أنك ستُحْبَس أو أنك سيُضَيَّق عليك، أو تُحَدَّد لك إقامة... لا، وإنما إسالة الدماء: ؟ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ؟ عندئذ خرج موسى -عليه السلام- ؟ فَخَرَجَ مِنْهَا ؟ يعني من المدينة ؟ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ؟ معنى يترقب: يعني يتلفت هنا وهناك، ولا شك أن الذي يكون في وضع موسى -عليه السلام- يفعل ذلك أم لا يفعله؟ يعني فرعون هذا طاغية ولا يوجد إلا موسى -عليه السلام- الذي يعرف ربه، وكان لم يُوحَ إليه من قبل، ولكن هذا تأييد من رب العالمين -سبحانه- وإعداد أيضًا لأنبياء الله -تبارك وتعالى- ورسله.

خرج يتلفت هنا وهناك، ولم يغب عن موسى -عليه السلام- أن ربه مُطَّلِعٌ عليه، ولذلك أيضا لجأ إلى الله -تبارك وتعالى- قائلا: ؟ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ؟ وهذا يفيد أن فرعون كان من الظالمين، وهو أمر معلوم، وكان موسى -عليه السلام- يدرك ذلك، ولما طلب هذا الطلب من ربه ومولاه نجاه الله -عزّ وجلّ- واتخذ من الأسباب أو جعله يتخذ من الأسباب ما ينجو به، ومن ذلك أنه وجهه إلى قرية مَدْيَن، أو إلى قبيلة مَدْيَن، وفي ذلك يقول رب العالمين:

؟ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ؟ قيل بأن رب العالمين -سبحانه وتعالى- أيضًا ألهمه بأن يسلُكَ هذا الطريق، ودعا ربه أيضًا أن يُيَسِّر طريقه وأن يسهل أمره، ودعا بأن يسلك أو أن يسير ربه به إلى سواء السبيل، يعني أسلم الطرق وأن يهديه إلى الطريق الذي يصل به إلى مكان آمن، وكان ذلك أيضًا مُحَقَّقًا له؛ يعني أن الله -عزّ وجلّ- حقق ذلك لموسى -عليه السلام- فسار موسى -صلوات الله وسلامه عليه- في طريقه حتى وصل إلى مَدْيَن وهداه الله -عزّ وجلّ- بذلك في الدنيا كما هداه أيضًا في الآخرة، لما أوحى رب العالمين -سبحانه وتعالى- إليه وأصبح من أولي العزم من الرسل.

موسى -عليه السلام- وَرَدَ مَدْيَن وهنا وَرَدَ على ماء مَدْيَن، وماء مَدْيَن يعني البئر، وفي ذلك يقول رب العالمين: ؟ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ؟ نمشي مع الآيات كلمة كلمة، ؟ وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ؟ قيل: بئرًا كان يشرب منه أهل مَدْيَن ؟ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاس ؟ "أُمَّة" يعني جماعة، وكلمة "أُمَّة" هنا تفيد أنهم كانوا جماعة كثيرة، وهذا المعنى سنحتاج إليه فيما بعد، لفظ "أُمَّة" بالمناسبة يا أيها الكرام يُطْلَق ويراد بها عدة معاني، وهنا "أُمَّة" بمعنى ماذا؟ الجماعة الكثيرة، وأيضا كلمة "أُمَّة"

تُطْلَق ويراد بها الإمام، كما في قول الله –تبارك وتعالى: ؟ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ؟[النحل: ١٢٠]، يعني إماما، وأيضا كلمة "أُمَّة" تُطْلَق على الزمن: ؟ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ؟[يوسف: ٤٥]، ؟ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ؟؛ يعني جماعة كثيرة تستسقي من هذا البئر وتشرب وتأخذ الماء التي تحتاج إليه، ؟ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ؟ قيل: كانتا في أسفل الناس وبعيدتان عن الناس، امرأتان واقفتان ولكنهما في مكان بعيد عن الناس، راق لهما موسى –عليه السلام– وهو رجل قوي وشَهْم، فذهب إليهما وسألهما سؤالاً فيه أدب وعِفَّة: ؟ مَا خَطْبُكُمَا ؟ لم يتعرض لهما بسوء، ولم يتكلم معهما بكلام قبيح، وإنما أراد أن يستفصل عن حالهما، لماذا يقفان بعيدان عن الناس ومعهما أغنام، لماذا لا يشاركان الناس في السقي وأخذ الماء وغير ذلك؟ ؟ مَا خَطْبُكُمَا ؟؟ فبماذا أجابتاه؟ ؟ قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ؟ أفادتا موسى –عليه السلام– أنهما لا يُشاركان الناس في هذا الزحام ولا يختلطان بالرجال؛ لأنهما ليسا من هذا القبيل، ولأنهما على خلق قويم، نحن لا نفعل ولا ندخل في وسط هذا الزحام وإنما ننتظر حتى ينتهي الرجال من أخذ الماء الذي يحتاجون إليه، ثم بعد ذلك ندخل نحن ونأخذ من الماء الذي نريد بعد ذلك.

حقيقة كان كما ذكر أهل التفسير أن أهل هذه البلدة إذا أخذوا الماء، أو في هذا اليوم بالذات بعدما أخذوا الماء وضعوا حجرا على فُوَّهَة هذا البئر، وبالتالي فهاتان البنتان من أين لهما أن تزيلا هذا الحجر؟ وقد ذَكَرَ ابن كثير وغيره، وقد جاء هذا في حديث ضعيف أن عشرة من الرجال لا يستطيعون أن يزيلوا هذا الحجر، فماذا تفعل هاتان البنتان، وقد اعْتَذَرَتَا –وهذه مسألة مهمة– عن خروجهما لهذا العمل؛ بأنَّ أباهما شيخ كبير، فقالتا لموسى –عليه السلام: ؟ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ؟ هنا ظهرت مروءة موسى –عليه السلام– وشهامة موسى –عليه السلام– تَقَدَّمَ موسى –عليه السلام– وخدمهما خدمة عالية كبيرة، وفي ذلك يقول فيها القرآن الكريم: ؟ فَسَقَى لَهُمَا ؟ حقيقةً موسى –عليه السلام– لا أقول ظني به في هذه الحالة، وإنما هذه هي الحقيقة الواقعة، أنه مع الخوف الذي كان ينتابه –صلوات الله وسلامه عليه– كان في غاية الجوع الشديد، وسنستفيد أيضًا بأن الجو كان في غاية الحرارة، موسى –عليه السلام– سقى لهما بلا مقابل، وهو في حاجة شديدة إلى المال، خرج وحيدًا من بلدته فارًّا بنفسه، قيل بأنه لم يكن في رجليه نعال يلبسها، ليس معه زاد ولا طعام، ومع ذلك لما وجد هاتين البنتين في هذا المأزق فعل معهما هذا المعروف الكريم، ولم يطلب منهما –صلوات الله وسلامه عليه– أجرًا على هذا الفعل، ولكنه بعد ما فعل وكان على هذه الحالة، الله –عزّ وجلّ– يخبرنا بما حدث منه قال: ؟ ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ؟، هذا يفيد –كما ذكرت– أن الجوَّ حارٌّ، ونحن نستفيد منه اليوم نعمة ربنا علينا –سبحانه وتعالى– نستفيد نعمة الله –عزّ وجلّ– علينا بهذا الظل، فالظل نعمة كبيرة من الله وكم لله –عزّ وجلّ– علينا من نعم، ولكننا لما أَلِفْنَاهَا نَسِينَاهَا، ولا ندرك فضل رب العالمين –سبحانه وتعالى– علينا فيها، وقد كان الناس في هذه الديار، وما زال إلى اليوم الناس في القرى يستظلون، وكم يكونون سعداء عندما يجلسون بعد عمل شاق في يوم حارٍّ شديد الحر تحت ظل شجرة.

تولى موسى –عليه السلام– ذهب وجلس تحت ظل شجرة ؟ ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ؟ وهنا لجأ إلى ربه ومولاه وتضرع إليه بذكر الحالة التي هو عليها قائلا: ؟ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ؟ موسى –عليه السلام– قلنا خرج مطارَدًا، مطلوبًا للقتل وليس معه شيء، وليس بين يديه إلا الرب الكريم –سبحانه وتعالى– فَعَلَ ما فَعَلَ وهو بحاجة إلى المال، بحاجة إلى شيء من الطعام، ولكنه لمروءته ورجولته وكرمه –صلوات الله وسلامه عليه– لم يطلب شيئًا، ولكنه طلب من ربه ومولاه.

وهنا فائدة وهي أنه يجوز للإنسان أن يتوسل إلى الله –عزّ وجلّ– بالهيئة والحالة التي هو عليها؛ بمعنى لو أن إنسانا وقع في ضيق أو مكروب أَلَمَّ به، والناس يتفاوتون فيما ينزل عليهم، فتوَسَّل إلى الله –عزّ وجلّ– ولجأ إلى ربه ومولاه ذاكرًا الهيئة والحالة التي هو عليها أمر سائغ مشروع؛ لأن موسى –عليه السلام– فعل ذلك: ؟ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ؟، وهنا لفتة كريمة ذكرها بعض أهل العلم، قالوا بأن موسى كان بحاجة شديدة إلى المال وإلى الطعام، يعني مال ليشتري به طعاما، ولذلك قبل أن يقول لربه بأنه فقير طَلَبَ المال، ؟ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ؟ ما قال أنا فقير إلى الخير، وإنما أنا أريد الخير، ثم ذكر بعد ذلك

الفقر، وكلمة من خير هنا أطلقت على الطعام، على أرجح أقوال أهل العلم وإن كان الخير يطلق أيضًا على المال، كما في قول الله -تعالى: ؟ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ؟[العاديات: ٨]، وأيضا الخير يطلق على ماذا؟ على القوة كما في قوله تعالى: ؟ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ؟[الدخان: ٣٧]، وأيضا يطلق على الطاعات، الطاعات يقال لها خيرات أيضًا، فموسى -عليه السلام- طلب الطعام من ربه وذكر أنه فقير إلى ربه ومولاه بهذه العبارة الجميلة.

بعد ذلك يَطْوِي القرآن الكريم بعض الأحداث التي تُفْهَم من السياق ويقول: ؟ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ؟، لا شك أن بنات هذا العبد الصالح، وسنتحدث ونحقق القول -إن شاء الله تبارك وتعالى- في شخصيته بعد قليل، رجعتا إليه في وقت قصير، كانتا تجلسان فترة طويلة؛ لأنهما تقومان بهذا العمل، ولكن لما ساعدهما موسى -عليه السلام- وقضى حاجتهما من الماء في وقت قصير فرجعتا مبكرتين فاستغرب أمرهما، فسألهما ما الخبر؟ لماذا أتيا في هذا الوقت؟

فأخبرتاه بخبر موسى -عليه السلام- فأرسل واحدة وطلب من إحدى بناته أن تأتي إلى موسى -عليه السلام- وتطلب منه أن يأتي إلى أبيها، وفي ذلك يقول الله -عزّ وجلّ: ؟ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ؟ انظر إلى عبارة القرآن الكريم تبين قمة العفاف لدى الصالحين؛ تمشي في عفة، تمشي وقد اشتمل الحياء عليها، ؟ تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ؟ ذَكَرَ عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- أنها قد غطت وجهها وهي قادمة لكي تطلب موسى -عليه السلام- كي يذهب إلى أبيها، ولما أتت إلى موسى -عليه السلام- وموسى رجل خائف ورجل جائع، في عبارتها إليه المقدمة إليه كانت في غاية -أيضًا- من اللطف: ؟ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ؟ يعني ذكرت له الدعوة بشيء من اللطف والبيان، ولماذا سيأتي؟ بينت له أنه سيأتي وهو مدعو لأبيها؛ كي يقدم له أجرًا على فعلته الحميدة التي فعلها ؟ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ ؟ إذن نستفيد من السياق أن موسى -عليه السلام- قام معها وذهب معها حتى دخل على والد هاتين الفتاتين، وجلسا يتحدثان وأخبره موسى -عليه السلام- بأمره وبأنه خرج فارًّا من مدينته التي كان فيها، هنا طمأنه هذا العبد الصالح: ؟ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ؟.

في الحقيقة اختلف أهل العلم اختلافًا كبيرًا: مَنْ هذا الرجل الذي دعا موسى -عليه السلام- وصار بينهما الحديث وصار بينهما عهد واتفاق كما سيأتي الحديث عنه بعد قليل -إن شاء الله تبارك وتعالى؟ أكثر الناس على أنه شعيب؛ نبي الله -تبارك وتعالى- الذي أُرْسِلَ إلى مَدْيَن، قالوا بأنه شعيب، وبعضهم قال: بأنه كان ابن عم لشعيب -عليه السلام- والحقيقة والراجح والله أعلم أنه كان من عباد الله الصالحين، ولم يكن هو نَبِيَّ اللهِ شُعَيْبًا، لماذا؟ قيل لأنَّه كان بين نبي الله شعيب وموسى -عليه السلام- .... ربما عن أربعمائة عام، والذي دفع من قال بأنه شعيب ما جاء في قصة موسى بأنه وَرَدَ ماء مَدْيَن، وأن شُعَيْبًا -عليه السلام- أُرسِلَ إلى أهل مَدْيَن، ولكن لا يمنع أن يكون هذا من أتباع شعيب -عليه السلام.

في الحقيقة المفسرون المحققون المدققون من السلف ومن أهل السنة الذين لا يُدخِلُون في تفاسيرهم شيئًا من الإسرائيليات يقفون عند حدود النصوص الواردة في ذلك، ومن هؤلاء الحافظ ابن كثير -رحمه الله- والشيخ عبد الرحمن بن ناصر السَّعْدِي، قال بأنه لم يأتِنَا في ذلك خبر صحيح، والأوْلَى في مثل هذه الحالة أن نَكُفَّ وأن نقف عند خبر القرآن الكريم وذِكْرِهِ في هذه الحال.

لما ذهب موسى -عليه السلام- وقَصَّ ما قَصَّ على هذا العبد الصالح، وطمأنه بما طمأنه به، تقدمت إحدى بنات هذا الرجل فقالت لأبيها كما ذكر القرآن الكريم: ؟ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ؟، حقيقة عبارة جميلة من هذه الفتاة، وقد قيل بأن العبد الصالح سأل ابنته: من أين لكِ هذا الخبر؟ كيف عرفتِ أنه قوي أمين؟ فذكرت له أنه -صلوات الله وسلامه عليه- سقى لهما في فترة يسيرة من الزمن، أو أنه رفع الحجر الذي كان قد وُضِعَ على هذا البئر ولا يرفعه إلا عشرة من الرجال، وأنه أمين؛ لأنه كما جاء في

الحديث الذي أشرت إليه سابقا، سار أمامها موسى -عليه السلام- وكانت هي خلفه حتى لا يرى منها شيئًا، وهذه أمانة وما أجمل أن يكون العبد قَوِيًّا أَمِينًا، القوة والأمانة صفتان يحتاج إليهما كل مسلم، ولذلك ذكرهما النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- مَعًا في حديثه القائل: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كُلٍّ خير)، وقوله: "المؤمن القوي" هي هي: ؟ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ؟ فالمؤمن تُقابِل الأمين في هذه الآية، والقوي ذكرها النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- نَصًّا في هذه الآية، موسى -عليه السلام- قوي ولكنه أمين، وكم من أقوياء في هذه الدنيا وعلى ظهر هذه الأرض ولكنهم ليسوا بأمناء، والإنسان حينما يكون قَوِيًّا ولا يكون أمينا يكون فسادُهُ عظيمًا؛ لأن عنده إمكانيات، وعنده قوة، وعنده قدرة، وعنده مؤهلات، فعندما ذكَرَت هذه البنت هذا الكلام لأبيها، وَوَجَّهَت إليه هذا التوجيه قال أبوها لموسى -عليه السلام: ؟ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ؟. حقيقةً أنا سأرجع بعد ما أنتهي من شرح معاني هذه الكلمات وبيانها لأقف -إن شاء الله تبارك وتعالى- ذاكرًا الجميل الذي فَعَلَه هذا العبد الصالح مع موسى -عليه السلام- كي يرد إليه جميله الذي فعله مع ابنتيه، وأيضا الأخلاق وهي أخلاق جميلة أَدَّبَنَا بها القرآن الكريم في قَصَصِهِ الكريم.

هنا هذا العبد الصالح يقول لموسى -عليه السلام: ؟ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ؟ في هذا الجزء من الآية فِقهٌ، وهو أنه يجوز للرجل أن يَعْرِض بنته على رجل يتزوجها، والناس في هذا الزمان يشعرون بعيب شديد وحرج وضيق من هذا الأمر، ولكن لا حرج وأنا أذكر هذا وأوجهه رغبة في نفع إخواني المسلمين، من عنده بنت ويرى أنها صالحة فلا حَرَجَ إن رأى رجلاً صالِحًا أن يعرضها عليه وأن يطلب منه أن يتزوجها، وهذا من آداب الإسلام وأخلاقه، وها هو ينص عليها القرآن الكريم، هذا العبد الصالح يقول لموسى -عليه السلام: ؟ إِنِّي أُرِيدُ ؟ يعني هو الذي يريد، ولي المرأة هو الذي يريد: ؟ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ؟، ونستفيد أيضًا من هذه الآية أن الزواج يرجع إلى الولي؛ لأنه قال: ؟ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ ؟ فالمرأة لا تفعل وإنما يُنكِحُها مَنْ؟ وليها ؟ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ؟ وترك له الخيار.

يعني يأخذ أيهما شاء، ثم أَخَّرَ المهر بعد ذلك، يعني قدم ما يستفيد به موسى -عليه السلام- على ما يجب أن يقدمه موسى -عليه السلام- وسأشير إلى ذلك -إن شاء الله- بعد قليل: ؟ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ؟؛ يعني أن يعمل عند هذا العبد الصالح ثمانية أعوام يرعى فيها الغنم، ويقوم بالخدمة التي يحتاج إليها هذا البيت، ثم بعد ذلك قال: ؟ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا ؟ هو طلب منه ثماني، ولكن إن أوصل الثماني إلى عشر فهذا خير قدمه من عنده، ؟ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ؟ قلت بأنه عبد صالح، وأَخَّرْتُ لماذا أطلقت عليه ذلك، مرجِّحًا أنه ليس شعيبًا وإنما عبد صالح من أولياء الله الصالحين؛ لأنه ذَكَرَ ذلك ونَصَّ عليه القرآن الكريم قال: ؟ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ؟ وَحَقًّا وجده موسى -عليه السلام- من الصالحين، هذا كلام مَن؟ هذا كلام العبد الصالح، أَرْجَحُ أقوال أهل العلم أن موسى هو الذي قال هذا الختام أو هذه العبارة: ؟ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ؟ هنا موسى -عليه السلام- يؤكد ويقرر ما قاله هذا العبد الصالح، ونستفيد من ذلك أن موسى -عليه السلام- وافق على أن يتزوج بنت هذا الرجل، وعلى أن يقوم بهذه الخدمة، وذكر له العبد الصالح أنه سيكون من الصالحين، وموسى -عليه السلام- تَعَهَّدَ له بالوفاء، ؟ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ؟ وسيقضي -إن شاء الله تبارك وتعالى- واستشهدَا جميعًا برب العالمين -سبحانه وتعالى- وأسندَا الأمر إليه -جل في علاه: ؟ وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ؟.

في الحقيقة انتهت هذه الآيات معي الآن، وأود أن أرجع إليها لأعمل فهرسة أو قائمة:

أولا: بالجميل الذي فعله العبد الصالح لكي يرد به على الجميل الذي قام به موسى -عليه السلام.

أول جميل قام به هذا العبد الصالح أنه طمأن موسى -عليه السلام- وهَدَّأ من روعه لما قال له: ؟ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ؟.

الجميل الثاني: أنه قَدَّمَ عند التعاقد ما يبذله على ما يأخذه، لما جاء يتعاقد مع موسى -عليه السلام- على الزواج قال له: ؟ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ؟ فقدَّمَ ما يبذله هو على ما سيأخذه أو ما سيطلبه من موسى -عليه السلام- أخَّرَ ما سيطلبه من موسى -عليه السلام- وهذا أيضًا جميل من هذا العبد الصالح، أيضًا الذي عرضه هذا العبد الصالح على موسى -عليه السلام- في قمة الجميل ألا وهو المصاهرة، وبالتالي يصبح موسى -عليه السلام- الهارب من بلده الفارّ الخائف الجائع يصبح صِهْرًا لهذا الرجل المتمكن في القرية التي يعيش فيها، وهذا أيضًا جميل قدَّمَه هذا العبد الصالح ليرد به على جميل موسى -عليه السلام- أيضًا بَلَغَ به هذا الرجل من الأدب مبلغًا عظيمًا، وذلك عندما يجعل الأجير الذي هو موسى -عليه السلام- متفضلا عليه عندما يقول له: ؟ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ؟ وهو أجير، وسيعطيه ابنته، ومع ذلك يقول له: العقد الذي بيني وبينك ثماني سنوات، وهو يرغب في أن يكون عَشْرًا، وإن أتم هذه العشر فهذا تفضل من عند الأجير.

الأمر الخامس هنا والأخير من الجميل الذي كان بينهما الرحمة واللين كانا أساس هذا التعاقد، وأيضا كلاهما لم يغفل عن ذكر الله -عزّ وجلّ- من أين كانت الرحمة واللين أساس هذا التعاقد؟ في قول العبد الصالح: ؟ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ؟، وهذا يجب أن يكون أساس التعاقد مع أهل الإيمان، رَفْعُ الحرج والكُلْفَة والمشقة فيما بين الناس، خاصة مع أهل الإيمان، العبد الصالح يقول لموسى -عليه السلام- ؟ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ؟.

أنتقل بعد ذلك لأذكر قائمة من الأخلاق الكريمة التي اشتملت عليها هذه القصة، وأنا جمعتها هنا وأحببت أن أذكرها كي أذكِّر نفسي بها وأذكِّر إخواني أيضًا؛ لأنها من الأخلاق ومن الآداب الجميلة التي اشتملت عليها هذه القصة:

أول خلق: أن المرأة لا تُزاحم الرجل في أي مكان بدليل أنهما قالتا: ؟ لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ؟؛ يعني حتى يرجعوا وينتهوا من أعمالهم، وبالتالي لا تشارك المرأة أو تزاحم الرجل في عمله.

الخلق الثاني: أن عمل المرأة ضرورة تُقَدَّر بقدرها، وبما تحتاج الضرورة إليه، وكل إنسان يعرف حاله في ذلك، والدليل على هذا أنهما قالتا من باب الاعتذار أنهما خرجتا كي يسقِيَا هذه الأغنام، فقالتا لموسى -عليه السلام: ؟ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ؟ ومعنى ذلك أنه لو كان قادرًا على الخدمة والعمل وكفاية المؤنة، وأن يقوم بما يحتاج إليه ما خَرَجَتَا.

الخلق الآخر الذي نستفيده من هذه القصة: أنه على الإنسان أن يبذل المعروف بلا مقابل، إذا عَمِلْتَ معروفا فابْذُلْهُ بلا مقابل، والدليل على ذلك: من أين نتعلم هذا الخلق في هذه القصة؟ مما فعله موسى -عليه السلام: ؟ فَسَقَى لَهُمَا ؟، وهذا عمل يمكن أن يطلب عليه أجرًا، ولكنه بَذَلَ هذا المعروف ولم يسألهما أجرًا -صلوات الله وسلامه عليه.

أيضا الآية فيها مَثَل كَريم جدًّا، وخُلُق عظيم في الطهر والعفاف مِنْ هذه البنت التي قَدِمَت على موسى -عليه السلام- وربما أتت إليه في مكان قَفْرٍ بعيد عن الناس، وربما مشت في صحراء بعيدًا عن أعين الناس، ولكن مع كل ذلك انظر إلى تصوير القرآن الكريم لهيئة وحالة هذه المرأة: ؟ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ؟ وسواء كانت هي البنت الكبرى أم الصغرى، وسواء تزوج موسى -عليه السلام- الكبرى أو الصغرى، كل ذلك لم يَرِد له ذكر في القرآن الكريم؛ لأنه ليس من أهداف القصة، وليس غرضا يُساق هنا، وإنما الغرض هو التنبيه والإعلاء من شأن الفضائل، وما يمكن أن يستفيد منه المجتمع، هنا دعوة إلى الطهر والعفاف، وإلى الحياء الذي

يجب أن تكون عليه المرأة، كذلك الحياء خلق جميل يجب أن يكون مشتملا عند الرجال وعند النساء، والنبي –صلى الله عليه وآله وسلم– أخبر بأن الحياء من الإيمان، خلق الحياء خلق كريم، ولو أن الناس يَسْتَحُون من الله –عزّ وجلّ– كما يجب وكما يكون لتغير حالهم، ولأصبح الوضع خلاف ما نحن عليه اليوم، إن المجتمعات في كثير من المؤمنين اليوم نتيجة فقد هذه الأخلاق العظيمة أصبحت يُرثَى لها والعياذ بالله –تبارك وتعالى– وأصبحت في وادٍ والآداب والأخلاق الإسلامية في وادٍ آخر، وها نحن نَذْكُر هذا القصص الكريم ونتعلم منه هذه الآداب وهذه الأخلاق الكريمة التي نَصَّ عليها ربنا في كتابه، ؟ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ؟، وبعض أهل العلم يقول: كأن القرآن الكريم جعل الحياء شيئًا يُمْشَى عليه، وكأنه تَجَسَّدَ الحياء في هذه المرأة، وكأنها عَلَتِ الحياء أيضًا؛ لأنه أتى بحرف الجر "على" الذي يدل على الاستعلاء والفوقية: ؟ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ؟؛ يعني كأن الحياء بلغت منه مبلغا عظيما حتى إنها فاقت الحياء نفسه: ؟ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ؟.

أيضًا ما تقدمت به هذه المرأة –وقد أشرت إليه– من طلب جميل رقيق لموسى –عليه السلام– في قولها: ؟ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ؟ يدل على حسن التخاطب، أهمية التخاطب بين الناس، وأن يكون بينهما الكلام حسنًا، وأن يكون الخطاب بينهما رقيقًا جميلاً، وأيضا إذا وجدنا إنسانًا مكروبًا، أو واقعًا في ضيق وهَمٍّ وغَمٍّ وما إلى ذلك، خاصَّة في وقت الشدة أو الخوف يجب أن يُنْزَع منه هذا الخوف، ويسعى مَن مَكَّنَه الله –عزّ وجلّ– وتَفَضَّلَ به عليه، فيخاطبه خطابًا رقيقًا ليخفف عنه وطأة ما وقع به، ولذلك هي أتت بتفصيل شديد لموسى –عليه السلام– وأخبرته حتى لا يقع في ريبة من أمره بأن أباها أرسلها كي يُجازِيَه على ما فعله لهما من معروف.

هذا القصص القرآني الكريم فيه توجيهات وتعليمات وآداب وأخلاق على عموم المسلمين أن يتأدبوا بأدب القرآن الكريم، وأن يتعلموا من هذا القصص ما يمكن أن يستفيدوا منه في حياتهم اليومية والعملية.

وَصَلِّ اللهم وَسَلِّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وَسَلِّم.

بارك الله فيكم يا شيخنا، وأحسن الله إليكم، بالنسبة لأسئلة الحلقة السابقة كان السؤال الأول:

ما المراد بالوحي المذكور في قول الله –تعالى: ؟ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى ؟؟ وهل كانت نبية؟ وما نوع اللام في قوله تعالى: ؟ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ؟؟

وكانت الإجابة: المراد بالوحي المذكور:

قيل كان في منامها، وقيل كان إلهاما من الله –عزّ وجلّ– وقيل أتاها مَلَكٌ في صورة بشر كما كان في قصة الأقرع والأعمى والأبرص في الحديث المشهور، والراجح أنه كان إلهاما من الله لها، وعلى ذلك أجمعوا على أنها لم تكن نبية.

واللام في قول الله –تعالى: ؟ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ؟ قيل هي للعاقبة والصيرورة، ولكن قال كثير من أهل العلم إنها لام التعليل؛ أي أنهم أخذوه ليكون لهم عدوًّا وحَزَنًا، ولكن في علم الله –تعالى– ومشيئته وهو الراجح، والله أعلم.

وهذا يُثْبِت قَدَرَ رب العالمين –سبحانه وتعالى– يعني إثبات القدر السابق لله –عزّ وجلّ.

والسؤال الثاني: اشرح قول الله –تبارك وتعالى: ؟ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ؟، اذكر فائدتين للإحسان؟

وكانت الإجابة: المعنى: لمَّا قَوِيَ عزم موسى -عليه السلام- وبلغ من القوة والشدة مبلغًا، أو بَلَغَ الْحُلُم واستوى؛ أي أصبح رشيدًا يافِعًا ذا عقل كامل سديد علَّمَه الله -عزّ وجلّ- وآتاه فقهًا واسعًا وحُكْمًا؛ أي حِكْمَةً قبل النُّبُوَّة، وقيل إنه كان له تسعة من بني إسرائيل يسمعون ويتعلمون منه قبل النبوة.

والإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ومن فوائده:

أولا: محبة الله للعبد، قال الله -تعالى: ؟ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ؟.

ثانيا: نَيْل رحمة الله -عزّ وجلّ- قال تعالى: ؟ إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ؟.

الحمد لله، الجواب سديد.

أسئلة المراجعة

السؤال الأول:

ماذا تفهم من قول موسى -عليه السلام- لربه: ؟ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ؟ ؟

والسؤال الثاني:

أيَّ الأجلين قَضَى موسى -عليه السلام؟

ونحن قلنا ثماني حجج أو عشر؛ يعني ثماني سنوات أو عشر سنوات، وقد جاء في حديث ابن عباس في البخاري أن موسى -عليه السلام- يعني ماذا فعل؟

قضى عشر سنوات أتَمَّها أو أكْمَلَهَا؟

واذكر ثلاثة من الأخلاق الحميدة التي تستفيدها من هذه القصة؟

الدرس العاشر

تابع سورة القصص

تكليم الله لموسى –عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

يَسُرُّنَا أن نواصل الحديث –إن شاء الله تبارك وتعالى– في تفسير بعض آيات القرآن الكريم في سورة القصص، وسيدور هذا اللقاء حول محورين:

المحور الأول: موسى –عليه السلام– يسير بأهله وتكليم الله له وبعثه.

المحور الثاني: فرعون يفتري على الله بادِّعاء الألوهية فينتقم الله منه.

ولنستمع إلى آيات هذا اللقاء المبارك من أخينا الأستاذ عبد الرحمن فليتفضل...

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

؟ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ؟ ٢٩ ؟ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ ٣٠ ؟ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ ؟ ٣١ ؟ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ؟ ٣٢ ؟ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ؟ ٣٣ ؟ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهِ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ؟ ٣٤ ؟ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ؟ ٣٥ ؟ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ ؟ ٣٦ ؟ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ؟ ٣٧ ؟ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ؟ ٣٨ ؟ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ ؟ ٣٩ ؟ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ؟ ٤٠ ؟ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يُنْصَرُونَ ؟ ٤١ ؟ وَأَتْبَعْنَاهُم فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ؟[القصص: ٢٩: ٤٢].

جزاك الله خيرًا.

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم وبارك وأنعم على عبدك ورسولك ومصطفاك، وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيلهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين وبعد.

الآيات التي معنا في هذا اللقاء تدخل تحت المحور الأول الذي سبق أن ذكرتُهُ وهو حديث عن موسى –عليه السلام– وعن تكليم الله له وبعثه –صلوات الله وسلامه عليه.

ويبدأ هذا الأمر بقول الحق -تبارك وتعالى: ؟ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ؟ موسى -عليه السلام- سبق أن أشرت وذكرت في اللقاء الماضي أنه قضى أتم الأجلين وأوفاهما وأتقاهما؛ يعني أنه مكث عشر سنوات -صلوات الله وسلامه عليه- وقد ذكر الإمام الحافظ ابن كثير عن مجاهد أنه قضى عشرًا وعشرًا أخرى تَفَضُّلا منه، والله -تبارك وتعالى- أعلم.

بعد قضاء موسى مدة الأجل التي أبرمها مع العبد الصالح اشتاق لأهله، وأراد أن يرجع إلى بلده، فأخذ أهله وما معه من غنم وخرج بأهله في ليلة لا شك أنها كانت باردة، وقيل كانت أيضًا مطيرة، وقولنا باردة ستأتي إشارة إلى ذلك، وقد تَحَدَّثْتُ عن هذا فيما مضى من دروس في سورة النمل، ويظهر من هذا السياق هذا الأمر، ونمشي مع هذه الكلمات والآية كلمة كلمة.

؟ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ ؟؛ يعني أنهى عهده ومدته التي اتفق فيها مع العبد الصالح، سار بأهله؛ يعني خرج بأهله، وهنا لا بد أن نقف مع هذه الكلمة أيضًا لنأخذ منها فائدة وهي أنه يجوز للرجل أن يسير بأهله في أي مكان شاء، وأن على الأهل أن يتابعوه في ذلك، اللهم إلا إذا كان هناك شرط يمنع من ذلك؛ لأنَّ الرجل قَيِّم على المرأة، وبالتالي إذا تَنَقَّل هنا أو هناك له الحق أن يأخذها، ولها أن تسير معه، وهذا نستفيده من قول الله -تبارك وتعالى: ؟ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ؟؛ يعني أن موسى -عليه السلام- يسير بأهله لا شك أنه في طريق -أيضا- لم يألفه من قبل، وكان الجو ليلا، وقيل: إنه قد ضل الطريق، ولذلك فرح موسى -عليه السلام- لما رأى من بعيد نارًا ظهرت أمامه، عندئذ أراد أن يُدخل الطمأنينة والسكينة على أهله، فلما رأى هذه النار واطمأن إليها، ولأنه إذا ذهب إليها ربما يجد أنيسًا، أو من يعينه، أو من يواصل معه رحلته، أو غير ذلك من الأمور التي يحتاج إليها من يسير في الصحراء.

لما رأى هذه النار تَرَكَ أهله قائلا: ؟ قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ؟، هنا قال لأهله امكثوا ولم يقل أقيموا؛ لأنه صلوات الله وسلامه عليه لن يُقِيم؛ لأنَّ الإقامة هي الإقامة الدائمة، أما المكث فغالبا ما يكون يسيرا، ولذلك قال لأهله ؟ امْكُثُوا ؟، وأراد أن يطمئنهم، لماذا يبقون في هذا المكان؟ لماذا سيتركهم موسى -عليه السلام- قائلا لهم ؟ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ؟، إني رأيت، إني شاهدت، إني اطَّلَعْتُ على نار أراها: ؟ لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ؟ وهذا يدل على أن موسى -عليه السلام- كان قد ضَلَّ في الطريق، تاه عنه الطريق، وأن الجو كان ليلا وكان باردا؛ لأنه بعد أن قال: ؟ لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ؟ قال: ؟ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ؟.

؟ أَوْ جَذْوَةٍ ؟ الجذوة هي القطعة، و؟ تَصْطَلُونَ ؟؛ يعني تستدفئون، وقد سبق أن أشرت إلى ذلك في سورة النمل، فلا حاجة إلى أن أُعيد ما مَرَّ، ولكني هنا أود أن أسأل أبنائي الآن في سورة النمل قال: ؟ سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ؟ [النمل: ٧]، وفي سورة القصص قال ؟ لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ؟[القصص: ٢٩].

في سورة النمل جزم بأنه سيأتي بخبر، وفي سورة القصص رجا أن يأتي بالخبر ولم يجزم، فكيف نوجه كلا الأمرين؟ ؟ سَآتِيكُم ؟ وقد سبق لعلي قد أشرت إليه.

يقول: هو حينما قال: ؟ لَّعَلِّي آتِيكُم ؟ ما كان عَلِمَ بعدُ أنه سيأتيهم بالخبر، فلما تأكد وتمكن من الخبر قال: ؟ سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ؟ [النمل: ٧].

أحسنت، الجواب صحيح، ولكن يمكن بعبارة أخرى تكون أَلْيَق: هو أنه في البداية رجا، لما شاهد النار طَمِعَ أو رجا أن يأتي بخبر، وهو سائر في الطريق، وعندما قرب وصوله أيقن أنه سيأتي من وراء النار بخبر، فهو رجا أولا ثم تَيَقَّنَ فكان الأمر: ؟ لَّعَلِّي آتِيكُم ؟ وأيضا ؟ سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ؟ ويقول الله -تبارك وتعالى- في القرآن من خلال تَكْرار القصص يذكر ما حصل في كل المواطن، ولكن يذكره مفرقا وفي أماكن مختلفة.

عندئذ موسى -عليه السلام- سار ووصل إلى هذه النار، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ؟ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِي الأيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ ٣٠ ؟ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ؟ موسى -عليه السلام- وصل إلى هذه النار وأتاها، وهناك نودي -صلوات الله وسلامه عليه- ويحدد القرآن الكريم الموطن الذي نُودِيَ منه موسى -عليه السلام- ؟ مِن شَاطِئِ الْوَادِي الأيْمَنِ ؟ شاطئ يعني جانب، إذن أفادت العبارة أنه نودي من جانب الوادي، وأيضا استفدنا من آيات القرآن الكريم -وستأتي آية أخرى- أن النداء كان موسى -عليه السلام- وقته في غربيِّ الجبل؛ لأنَّ قول الحق -تبارك وتعالى- كما سيأتي في درس قادم -إن شاء الله تبارك وتعالى: ؟ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأمْرَ ؟[القصص: ٤٤]، إذن موسى -عليه السلام- كان بجانب الجبل، وكان غربا هناك -صلوات الله وسلامه عليه.

نودي -عليه الصلاة والسلام- في البقعة المباركة، سُمِّيَتْ هذه البقعة مباركة؛ لأنَّ الله -تبارك وتعالى- نادى موسى -عليه السلام- وكَلَّمَه في هذا المكان، ولا شك أن كلام الله -تبارك وتعالى- عظيم، ولا شك أن كلام الله -عزّ وجلّ- شريف، وبالتالي البقعة أو المكان الذي حدث فيها كلام الله -تبارك وتعالى- لا شك أنها تكون مباركة، رب العالمين -سبحانه وتعالى- بأي شيء نادى موسى -عليه السلام- في هذا المكان؟ قال له: ؟ إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ هذا يُدخل الطمأنينة على موسى -عليه السلام- وقد ذكر بعض أهل العلم أن هذا القول فيه تمهيد لإرسال موسى -عليه السلام- وبعثه، وأنه مؤيد من قبل الله -تبارك وتعالى- وهذا القول أيضًا كما ذكر بعض أهل العلم، فيه تمهيد لِمَا سيواجهه موسى -عليه السلام- بعد ذلك وعلى رأس هذا قصة العصا وما حدث منها وخوف موسى -عليه السلام- وتكليف -أيضًا- موسى بأن يذهب إلى فرعون، وكل هذه أمور قد يجد فيها موسى -عليه السلام- بعض الشدائد والمشاقّ، فأراد رب العالمين -سبحانه وتعالى- أن يطمئنه، وأن يُدخل على نفسه أن ربه -سبحانه وتعالى- معه، حتى تطمَئِن نفسه، ويسكن -صلوات الله وسلامه عليه.

والمتكلم بذلك هو رب العالمين -سبحانه- ولما أخبره بأن الذي يكلمه هو الله أمره رب العالمين -سبحانه وتعالى- بأن يُلْقِيَ عصاه وقد نَفَّذَ موسى -عليه السلام- أمر ربه إليه، فألقى العصا التي كانت في يده، وهذه العصا -وقد سبق أيضًا أن ذَكَرْتُ ذلك وأشرْتُ إليه- هنا ذكر الله -سبحانه وتعالى- أنها صارت ؟ كَأَنَّهَا جَانٌّ ؟، لم يقل جان، وإنما قال: ؟ كَأَنَّهَا جَانٌّ ؟، شبهها به لخفتها وسرعتها، وقد ذكر الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله تبارك وتعالى- في تفسيره شيئًا عظيما عن عِظَمِ هذه الحية لما انقلبت بعد ما كانت عصًا إلى حية وشدتها، وكيف أنها كانت تَلْقَف كل شيء أمامها بأنياب كبيرة عظيمة وغير ذلك، وهنا ذكر: ؟ كَأَنَّهَا جَانٌّ ؟ ليبين أنها مع عظمتها كما أشارت آية أخرى أنها حية إلا أنها أيضا سريعة في حركتها، فحتى لا يفهم إنسان من أنها عظيمة أو ضخمة في الكبر أن حركتها ضعيفة.

موسى -عليه السلام- لما رأى هذا الأمر وكان غريبا عليه ولَّى مدبرًا ولم يعقب، خاف -صلوات الله وسلامه عليه- والخوف هنا كما سبق أن أشرت خوف طَبَعِيّ ينتاب الإنسان في مثل هذه الحالة، ولا يؤاخذ عليه الإنسان، ورب العالمين -سبحانه- لم يترك موسى -عليه السلام- خائفا؛ لأنَّ الله -عزّ وجلّ- ذكر أنه خاف ؟ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ؟؛ يعني لم يلتفت، هنا ناداه رب العالمين -سبحانه: ؟ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ ؟ وقوله "يا موسى أقبل ولا تخف"، وقبلها: "إني أنا الله رب العالمين" يفيد أن المتكلم رب العالمين -سبحانه وتعالى- وهذا يعطي موسى -عليه السلام- قوة، وبالتالي رجع موسى -صلوات الله وسلامه عليه- وَأَمَّنَه رب العالمين -سبحانه وتعالى- بقوله: ؟ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ ؟ ثم بعد ذلك أمره رب العالمين -سبحانه وتعالى- بأمر عظيم وهو ما جاء في قوله: ؟ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ؟.

اسلك يدك: يعني أدخل يدك في جيبك، والجيب: هي الفتحة التي تكون في القميص الذي يلبسه الإنسان، إمَّا على الجنب أو حتى من الأمام أو فوق، فيمكن أن يقال على هذا الدائر الذي يكون في بعض الثياب مثلا يقال له جيب، رب العالمين -سبحانه وتعالى- أراد أن يؤيد موسى -عليه السلام- بمعجزة أخرى عظيمة للغاية أيضًا، وقد أيده بمعجزات كثيرة سبق أيضًا أن أشرت إليها عند حديثي عن سورة النمل، وهنا ذكر القرآن الكريم معجزتين أنعم رب العالمين -سبحانه وتعالى- بهما على موسى -عليه السلام.

المعجزة الأولى: معجزة العصا.

والمعجزة الثانية: هي ما أمره رب العالمين به أن يُدخل يده في دِرْع قميصه أو في جيبه، وإذا فعل ذلك ستخرج بيضاء من غير سوء، وهذه نعمة وآية عظيمة من نِعَم الله -تبارك وتعالى- على موسى -عليه السلام- والتعبير بقوله: ؟ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ؟ تفيد أنها ستخرج بيضاء دون مَرَض، لأنَّ البَيَاض قد يأتي على بعض أطراف الإنسان نتيجة مرض "كالبرص وغيره"، ولكن هنا القرآن الكريم لأنه كلام رب العالمين -سبحانه- يقول: ؟ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ؟.

ثم يقول له: ؟ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ؟ الجناح: هي اليد، والرهب: هو الخوف، ذَكَرَ الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وغيره من المفسرين أن موسى -عليه السلام- خاف لما وجد ذلك، ولما ارتعد قيل إنه كان يدفع بيديه الخوف عن نفسه، لما رأى العصا كان يدفعها بيديه وهذا موقف ضعيف لا يحب أن يكون الإنسان عليه، ورب العالمين -سبحانه وتعالى- يؤهل موسى -عليه السلام- للرسالة، فكأنه قال له: لا ينبغي أن تدفع الخوف عن نفسك بذلك، ولكن ادفع الخوف عن نفسك بما يُظْهِرُكَ أنك شجاع أمام الآخرين، ودون أن يشعر أحد بأنك تخشى من شيء؛ لأنَّ الإنسان إذا دفع الخوف بيديه ظهر عليه أمارات الخوف، وبان ذلك واتضح أمام الآخرين، أو هو من حركته ذلك أَعْلَمَ من يشاهده أنه في غاية من الخوف، إنما لَمَّا يضع يده على صدره لا شك أنه سيسكن ولن يشعر أحد به.

وهنا لفتة قد ذكرها الإمام الحافظ ابن كثير عن بعض أهل العلم أنه قَلَّمَا، ومعنى قَلَّمَا يعني ليس بأمر سائد على الدوام، قَلَّمَا إنسان خاف ووضع يده على صدره إلا آنَسَ رشدًا وطمأنينة وذَهَبَ عنه بعض الخوف الذي يجده، حتى إلى يوم الناس هذا، وقد أمر رب العالمين -سبحانه وتعالى- موسى -عليه السلام- أن يفعل ذلك كي تسكن نفسه: ؟ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ؟ بعد ذلك قال له: ؟ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ؟، والبراهين كثيرة التي أيد الله -تبارك وتعالى- بها موسى -عليه السلام- وهذه أو هاتان الآيتان من أعظم البراهين، وكانت هي المقدمة التي أعطاها رب العالمين -سبحانه وتعالى- لموسى -عليه السلام- ولكن قوم موسى؛ أعني بهم فرعون ومن معه، كانوا قوما فاسدين خارجين عن الإيمان، خارجين عن طاعة الرحمن، لم تنفع فيهم هذه المواقف ولم يستفيدوا من هذه الآيات ولا من هذه البراهين.

بعد ذلك أود أن أقف في نهاية هذه الآية إلى أمر يتعلق به تأييد الله -عزّ وجلّ- لموسى -عليه السلام- ونداء الله -تبارك وتعالى- له، موسى -عليه السلام- لما جاء أجرى الله -سبحانه وتعالى- على يديه معجزتين عظيمتين:

المعجزة الأولى: العصا.

المعجزة الثانية: اليد.

هنا ناداه رب العالمين -سبحانه وتعالى- قبل أن يُجْرِي تلك المعجزتين على يديه، وهذا يفيد أن الله -عزّ وجلّ- يتكلم وأن موسى -عليه السلام- سَمِعَ كلام الله -تبارك وتعالى- على الحقيقة، وأن كلام الله -عزّ وجلّ-

بحرف وصوت، وقد جاء في القرآن الكريم ما يفيد نداء الله -تبارك وتعالى- لموسى -عليه السلام- كقول الحق -تبارك وتعالى: ؟ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ؟ [الشعراء: ١٠] وقد جاء في السنة أيضًا ما يفيد أن رب العالمين -سبحانه وتعالى- ينادي ويتكلم، وذلك في الحديث الذي رواه جابر عن عبد الله بن أُنَيْس -رضي الله تعالى عنهما- والحديث في البخاري وغيره أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: (يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُدَ كما يسمعه من قَرُبَ)، إذن صوت رب العالمين -سبحانه وتعالى- مسموع، ولذلك نقول ونقرِّر بأن القرآن الكريم كلام الله -تبارك وتعالى- على الحقيقة، تَكَلَّم الله -عزّ وجلّ- به وأنزله على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وَحْيًا أوحاه الله -تبارك وتعالى- إليه، ولا بد أن نعتقد ذلك كي نعظم القرآن الكريم، أعتقد لو أن الأمة أدركت وأيقنت أن القرآن الكريم هو كلام الله -تبارك وتعالى- لأقبلت عليه.

القرآن الكريم هو عبارة عن كلام الله، وليس حكايةً عن كلام الله، ولا كلام النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ولا من كلام جبريل، ولا من كلام أحد من المخلوقين بحال، وإنما هو كلام رب العالمين -سبحانه وتعالى- تَكَلَّمَ الله به، ولذلك نؤكد على هذا الأمر من خلال الآية التي ذكر الله فيها نداءه لموسى -عليه السلام- وأنه أيده بهذه المعجزات؛ لأنَّ هذا النداء كلامٌ من الله -عزّ وجلّ- له، قال: ؟ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ؟ معجزة باهرة من كلام رب العالمين -سبحانه- ولا يمكن أن يَتَكَلَّم وأن ينادي وأن يقول: ؟ إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ؟ [النمل: ٩]، أو ؟ إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ [القصص: ٣٠]، إلا مَنْ؟ إلا رب العالمين -سبحانه وتعالى- ولذلك نحن هنا نقرر، ويجب أن يعتقد المسلمون معتقد أهل السنة والجماعة في ذلك، مع التأكيد على أن الله -عزّ وجلّ- فيما وصف نفسه به من صفات ؟ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ؟[الشورى: ١١]، فرب العالمين -سبحانه وتعالى- يتعالى ويتنزه ويتقدس في أن يشابه أو يشبهه أحد من المخلوقين.

بعد ذلك يمضي السياق فيقول: ؟ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ؟ ٣٣ ؟ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهِ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ؟ ٣٤ ؟ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ؟ حقيقةً قول الله -عزّ وجلّ- فيما مضى لموسى -عليه السلام- وكلام الله -عزّ وجلّ- مع موسى يُفْهَم منه إرسال موسى -عليه السلام- يعني أن الله -عزّ وجلّ- أرسل بهذا الكلام موسى إلى فرعون، هنا موسى خارج سائر بأهله، ولا يدري أن هذا سيحدث، وهو متوجه إلى البلدة التي خرج منها خائفا يترقب، ويعرف -صلوات الله وسلامه عليه- أن هذه البلدة فيها الطاغية فرعون، فلما قال الله له في الآية السابقة: ؟ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ؟ عرف موسى -عليه السلام- أنه مرسل إلى فرعون، والقرآن الكريم يَطْوِي السياق ولا يُفَصِّل في ذلك، ولكن يُفْهِمُنَا كما أفهم موسى أنه مرسل إلى فرعون، هنا موسى -عليه السلام- يعتذر إلى ربه عن أمره وهو أمر واقع ويقول لربه: ؟ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا ؟ كيف أذهب إلى هذا الطاغية وقد تَوَعَّدَنِي من قبل بالقتل، وقد سبق معنا أن فرعون كان قد طلب موسى -عليه السلام- ليقضي عليه بعد ما حدث من موسى -عليه السلام- وقَتْلِهِ للفرعوني الذي هو من جماعة فرعون.

ولذلك موسى -عليه السلام- ذكر هذا لربه، وهذا أيضًا فيه تمهيد من موسى -عليه السلام- كي يطلب معه أخاه هارون: ؟ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ؟ ٣٣ ؟ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ؟ هارون -عليه السلام- أرسله رب العالمين مع موسى لَمَّا طلب موسى -عليه السلام- ذلك، والله -عزّ وجلّ- قد تَفَضَّلَ على موسى وأجاب طلبه وقال له كما في سورة طه: ؟ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ؟[طه: ٣٦] فهذه نعمة من الله -عزّ وجلّ- ولذلك يقولون بأن أعظم مِنَّة من مخلوق على مخلوق مِنَّة موسى على هارون، أعظم مِنَّة وقعت على ظهر الأرض من مخلوق على مخلوق كانت من موسى على هارون؛ لأنه صار بها نبيًّا، موسى -عليه السلام- طلب نبوة هارون فكان نبيًّا، وأعظم شيء للعبد أن يصطفيه رب العالمين -سبحانه وتعالى.

قيل أيضًا بأن موسى -عليه السلام- كانت عنده لثغة في لسانه، وقد جاء في حديث الفتون الذي سبق أن أشرت إليه وقلت بأنه قد ضَعَّفَه كثير من أهل العلم، وإن حسنه الحافظ ابن حجر -رحمه الله- أنَّ هذه أصابته من الجمرة التي أخذها وهو في حجر فرعون، والحاصل على كل حال أن موسى -عليه السلام- لم يكن يُبَيِّن بكلامه ما يمكن أن يبينه هارون -صلوات الله وسلامه عليه- ولذلك طلب موسى -عليه السلام- من ربه أن يكون معه هارون مُعِينًا وزيرًا، يصدقه فيما يقول ويؤيده، ولا شك أن خَبَرَ الاثنين يكون آكَد وأوقع في النفس من خَبَرِ الواحد، وموسى -عليه السلام- يعرف أنه ذاهب إلى طاغية، ولذلك طلب من ربه هذا الطلب ؟ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهِ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ؟.

رب العالمين -سبحانه وتعالى- استجاب لموسى -عليه السلام- وقال له هذه الكلمات: ؟ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ؟ العَضُد إذا شُدَّ كان قويًّا، وأين مكان العضد في اليد؟ والتقريب لكم في المسألة، أين يقع العَضُد في اليد؟ من المرفق إلى الكتف، هذا مكان العَضُد، ولذلك لعلكم تلاحظون الذين يلعبون كمال أجسام أو مصارعة أو غير ذلك تجد عَضُده قويًّا، وكان قديما إذا أراد بعض الناس أن يدعو لإنسان بخير قال: "شَدَّ الله عَضُدَك"، وإن أراد الأخرى قال له: فَتَّ الله عَضُدَك"، فقول الحق -تبارك وتعالى: ؟ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ؟ أي سنقوِّي جانبك بأخيك، سنقَوِّي يديك بأخيك، ولا شك أن الأمر -كما ذكرت- عندما يذهب هارون -عليه السلام- وهو صاحب لسان وبيان، يذهب مع موسى، وموسى قوي أمين، فتكون المسألة قد جَمَعَت ما يحتاج إليه الإنسان في مواجهة هذه الطاغية، رجل قوي يعني ذو مكانة وقوة عالية، ورجل صاحب بيان ولسان وفصاحة، فَإِذَا اجتمعا كانا من القوة بمكان، والله -عزّ وجلّ- قال لموسى -عليه السلام: ؟ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ؟ يعني أيضًا يطمئنه ؟ فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ؟.

موسى -عليه السلام- يَطْمَئِنُّ بهذه الآيات؛ لأنَّ هذه الآيات فيها وعد من الله -تبارك وتعالى- بأن الله سينصره، وأن الله سيؤيده، وأن فرعون وجنده لن يصلوا إلى موسى ولا إلى هارون -عليهما السلام- ؟ فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ؟ وبعض أهل العلم يقف عند إليكما، ويبدأ: ؟ بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ؟ وهذا الوقف في الحقيقة لا نحتاج إليه؛ لأنَّ المعنى الذي يؤديه معنى ؟ فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا ؟ إذا وقفنا عليها فهو نفس المعنى، ولن يكون هناك خلاف، والشاهد أن رب العالمين -سبحانه وتعالى- وَعَدَ موسى وهارون بالنصر، وهذا وعد من الله لعباد الله المؤمنين الصالحين ؟ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ؟[غافر: ٥١].

رب العالمين وَعَدَ عباده المؤمنين أيضًا بالتمكين في الأرض إذا عبدوه وحده، ووحدوه وقاموا بما افترض الله -تبارك وتعالى- عليهم، ونَصْرُ الله للمؤمنين قائم؛ لأنه وعد من القوي الكبير المتعال -سبحانه وتعالى جَلَّ في علاه- وما على العباد فقط إلا أن يقفوا على حقيقة مهمة ألا وهي إفراد الله بالتوحيد، وعبادة الله وحده دون سواه؛ لأنَّ الله -عزّ وجلّ- بعد أن وعد أهل الإيمان بالتمكين قال: ؟ يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ؟[النور: ٥٥]، بعد ذلك يمضي السياق ليبين أن موسى -عليه السلام- أتى إلى فرعون؛ لأنَّ الله حَمَّلَه وكَلَّفَه أن يأتي إليه، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ؟ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ ؟ ٣٦ ؟ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ؟، يخبر رب العالمين -سبحانه وتعالى- في هذه الآيات أن موسى -عليه السلام- ذهب هو وأخوه إلى فرعون، وعرضَا ما معهما من معجزات باهرة قاهرة، وهذه المعجزات تدل على أمرين:

تدل على وحدانية الله -تبارك وتعالى- وعظمته -جَلَّ في علاه- كما تدل على صدق موسى -عليه السلام- لأنها معجزات خارقة لعادة البشر، فكان الواجب على من شاهدها أن يُسَلِّم لمن أَيَّدَ بها صاحِبَهَا، ألا وهو رب العالمين -سبحانه- وأن يتابع من أجرى الله -عزّ وجلّ- على يديه هذه المعجزات، ولكن فرعون كعادته رجل طاغية، بغى واستكبر، وتكبر عن الدخول في الإيمان، وقال ومن معه: ؟ مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى ؟، وطبعا

السحر كان ظاهرًا ومعروفًا ومعلومًا في فرعون ومن معه، وكانوا يؤمنون به ويتعاملون معه، وكان قوم فرعون سَحَرَة مَهَرَة، ولذلك أيَّدَ الله -عزّ وجلّ- موسى -عليه السلام- بهذه المعجزات كي تَعْلُوَ ما عليه هؤلاء السحرة، يعني كانت معجزة موسى -عليه السلام- من جنس ما كان عند هؤلاء الناس، وفرعون يعرف السحر، بل هو ومن معه -كما ذكرت- كانوا مَهَرَة فيه، وبالتالي أرادوا أن ينسبوا لموسى -عليه السلام- ما كانوا يقومون به، فقالوا هذه الآيات التي تظن أنها معجزات وكذا وكذاك: ؟ مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى ؟ هذه مسألة نحن نعرفها ونأتي بها ونقوم بها، هذا سحر مفتعل ومخلوق أنت ومن معك أتيته، ثم قال فرعون ومن معه: ؟ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ ؟ حقيقةً هذه شبهة مردودة، يعني نحن ما سمعنا من قبل بأن هناك إله، أو بأن هناك رب، وهؤلاء لو لاحظتم أيها الإخوة الكرام رجعوا إلى تقليد من تقدمهم ومن سبقهم، وشبهة التقليد شبهة باطلة، وقد قال المشركون: ؟ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ؟، فكان التقليد دائما يَصُدّ الناس أيضًا عن الحق، يعني تقليد السابقين كان يصد الناس عن الحق، وهكذا فرعون ومن معه قالوا: ؟ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ ؟ رد موسى -عليه السلام- عليه بكلام جميل عندما أسند ظهره إلى ربه ومولاه، واستشهد برب العالمين -سبحانه وتعالى جَلَّ في عُلاه- ؟ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ ؟ الله الذي أرسلني وهو أعلم بمن جاء بالهدى، وبمن أيده رب العالمين -سبحانه- وإشارة ؟ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ ؟ أنه مُؤَيَّد ومُرسَل من قِبَلِ الله -تبارك وتعالى- ؟ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ؟ وعاقبة الدار لمن؟ لأهل الإيمان، عاقبة الدار للمتقين، وقد قال الله -عزّ وجلّ- في أصحاب الجنة: ؟ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ؟ [الرعد: ٢٢]، وقال للكافرين مهدِّدًا ومتوعِّدًا: ؟ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ؟[الرعد: ٤٢]، وطالما أن عقبى الدار الحسنة الحميدة للمؤمنين، فعقبى دار الكافرين ليست بحميدة، ولذلك خَتَمَ رب العالمين هذه الآية بقوله: ؟ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ؟؛ أي المشركون، والذين تَكَبَّروا وتجبَّروا على عباد الله في أرض الله -تبارك وتعالى- ولم يؤمنوا بالنبي المرسل إليهم.

المحور الثاني في هذا اللقاء بعنوان:

فرعون يفتري على الله بادعاء الألوهية فينتقم الله منه، وتحته قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ؟ ٣٨ ؟ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ ؟ موسى -عليه السلام- أتى إلى فرعون، وكان رد فرعون عليه كما ذكرنا، وهنا جُنَّ جُنُونُ فرعون، موسى -عليه السلام- يدعوه إلى الله ويقول له: ؟ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ ؟، وهذه عبارة ما سمعها فرعون من قبل، وما قالها له مخلوق، بل هي تقال له من أتباعه، وبالتالي أكون صادقا عندما أقول جُنَّ جُنُونُ فرعون أمام موسى -عليه السلام- ولذلك قال مباشرة لقومه: ؟ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ؟ لا أعرف أن هناك إلها، كما يدعي موسى -عليه السلام- وقد ادَّعَى لنفسه الألوهية كَذِبًا وزُورًا وبُهتَانًا، كما ادَّعَى لنفسه الربوبية أيضًا، وسَبَقَ أن قلت لكم ما ذكره القرآن الكريم عنه أنه قال: ؟ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ؟[النازعات: ٢٤].

فرعون يتوجه إلى قومه مباشرة يريد أن يقطع الطريق على موسى -عليه السلام- لا يوجد إله غيري، هكذا يقول، وظهرت منه أمارة السفه والجهل عندما قال لوزيره هامان: ابنِ لي صرحا ؟ لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ؟، هذا الرجل فَقَدَ -لا شك- كل وعي وإدراك وإحساس بما يجب أن يكون عليه، يزعم أنه يمكن أن يشاهد رب العالمين -سبحانه وتعالى- بعد أن أنكره، وأن موسى -عليه السلام- من الكاذبين، ولا يوجد هناك إله، وزعمه ذلك في طَيَّاتِهِ يحمل أمرين:

الأمر الأول: أنه ادَّعَى الألوهية لنفسه.

الأمر الثاني: أنه نفاها عن الله -تبارك وتعالى- في قوله: ؟ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ؟.

وتبجح أكثر عندما طلب من وزيره هذا؛ أن يبني له صرحا: أي بناءً أو قصرًا عظيمًا كي يعلو عليه لكي يطلع إلى إله موسى كما زعم؛ لأنَّ موسى عنده من الكاذبين، هنا إشارة أشار إليها بعض أهل العلم، وهي أنه لا شك أن موسى -عليه السلام- أخبر فرعون بأن ربه -سبحانه وتعالى- عالٍ على خلقه بائن منه -سبحانه وتعالى جل في علاه- وإلا ما طلب فرعون من وزيره هامان أن يبني له صرحا كي يطلع إلى إله موسى، فطلبه ذلك يدل على أنه سأل موسى -عليه السلام- عن ربه وإلهه الذي يزعمه فأخبره موسى -عليه السلام- بحقيقةٍ هي أن رب العالمين -سبحانه وتعالى- ليس داخلا في الخلق، وإنما هو العلي الأعلى -سبحانه وتعالى جل في علاه- كما ذكر القرآن الكريم في آيات كثيرة أن الله -عزّ وجلّ- عالٍ فوق جميع خلقه، وهذا الفعل في الحقيقة كان من السَّفَهِ بمكان، وهو الذي فعله فرعون.

وفي آية أخرى يقول رب العالمين: ؟ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ؟ ٣٦ ؟ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ؟[غافر: ٣٦]، الرجل كان من الجهل فعلاً ومن السفه بمكان عجيب، ويُذْكَر أنه أخذ معه سِكِّينًا -والله أعلم- هكذا بعض المفسرين ذَكَرَ هذا، وصَعَد فرعون إذ تم بناء القصر كما قيل، وألقاها إلى السماء، وأن الله -عزّ وجلّ- فَتَنَهُ عندما نزل هذا السكين متلطخا بشيء من الدم، حتى يزيد هذا الرجل في طغيانه -والله أعلم بذلك- ولكن في الحقيقة فِعْلُه كان من الحمق ومن السفاهة بمكان، والله -عزّ وجلّ- بين أنه كان حَقًّا من الضالين الهالكين: ؟ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ؟ استكبروا على عباد الله -عزّ وجلّ- ساروا في الأرض بالفساد وطغوا، ولكن الله -سبحانه وتعالى- ما تركهم، وفعل بهم ما ستأتي إشارة إليه في لقاء قادم -إن شاء الله تبارك وتعالى- والله -عزّ وجلّ- لهؤلاء المستكبرين بالمرصاد، وقد أخذه الله أخذ عزيز مقتدر.

لماذا يستكبر؟ ما الذي يدفعه إلى ذلك؟ هو عبد مربوب مقهور، وهو يعلم ذلك في قرارة نفسه، واستكبارُهُ هذا دَفَعَ من معه أيضًا إلى أن يستكبر، فكل من كان مع فرعون استكبر على موسى -عليه السلام- وعلى هارون، وأيقنوا في قرارة نفوسهم أنهم لن يرجعوا إلى الله -تبارك وتعالى- وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ؟ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ ؟ وهذا فيه إنكار للبعث والنشور وللقيامة، وهذا يفيد أيضًا أن موسى -عليه السلام- حاول أن يجعل فرعون يستجيب له، وأن يدخل الإيمان في قلبه، فَذَكَّرَه بالله -عزّ وجلّ- وذكَّرَه بالدار الآخرة، وأن الله -سبحانه وتعالى- سيعيده مرة أخرى بعد موته، وأنه سيقف للحساب بين يدي الله، وتفيد الآية أن فرعون ومن معه أنكروا كل ذلك، ولم يؤمنوا به ولم يصدقوا بموسى -عليه السلام- فماذا كان عقاب الله -تبارك وتعالى- لفرعون ومن معه ممن سلك طريقته ولم يستجب لدعوة موسى -عليه السلام؟

يقول رب العالمين -سبحانه: ؟ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ؟ كلمة فنبذناهم: يعني ألقيناهم أو طرحناهم، والتعبير بكلمة النبذ تفيد حقارة هؤلاء الناس، كأنهم كالحصى التي يلقيها الإنسان، ولذلك نحن نوجه كلامنا اليوم إلى كل بَشَرٍ على ظهر هذه الأرض، لن تكون لكم مكانة، ولن يكون الإنسان آدَمِيًّا حَقًّا إلا إذا عرف ربه، وآمن بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وأدى ما طلب الله -تبارك وتعالى- منه، أما إن كان على عكس ذلك فليعلم أنه لا قيمة له ولا وزن بحال من الأحوال، ولذلك رب العالمين -سبحانه وتعالى- لما يأخذ هؤلاء الظالمين يأخذهم ولا يُبقي عليهم، ويدمرهم تدميرا، وكأنهم لا شيء، كأنهم لم يكن لهم ذكر، ولم يكن لهم وجود على ظهر هذه الحياة لحقارتهم وتفاهتهم، وهم الذين كانوا سببًا فيما حَلَّ بهم أو وقع بهم، والله -عزّ وجلّ- قد ذكر في هذه الآيات ما فعله بفرعون ومن كان معه أولا:

؟ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ؟ يعني أن الله طرحهم وألقاهم في اليم، واليم هو البحر، وتعرفون أن البحر الأحمر هذا هو الذي هلك فيه من؟ هو الذي هلك فيه فرعون، والله -عزّ وجلّ- بعد ما فعل به ذلك، أراد أن يلفت النظر، يلفت نظر المشركين المكذبين بالنبي -صلى الله عليه وآله

وسلم- والخطاب موجه أولا للنبي -عليه الصلاة والسلام- ولكل من يسمع ويصلح له الخطاب من البشر: ؟ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ؟ وفي هذه لفتة لهؤلاء المشركين المكذبين بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم.

ثم يقول رب العالمين: ؟ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ؟ بعض الناس أئمة إلى الهدى والخير، وهؤلاء أئمة إلى النار، وهذا هو الأمر الثاني الذي فَعَلَه الله بهم.

إذن.. الأمر الأول: أنه ألقاهم في اليم.

الأمر الثاني: أنه جعلهم أئمة يدعون إلى النار.

الأمر الثالث: أن الله لن ينصرهم لا في الدنيا ولا في الآخرة، وفي الآخرة بالذات قال: ؟ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يُنْصَرُونَ ؟.

الأمر الرابع الذي أوقعه الله بهؤلاء ما جاء في قوله تعالى: ؟ وَأَتْبَعْنَاهُم فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ؟، فالله -عزّ وجلّ- يلعنهم في الدنيا وهم ملعونون أيضًا في الآخرة وقد سبق أيضًا أن قلت: إن اللعنة تَتْرَا وتتلاحق على هؤلاء الناس، وستتبعهم أيضًا في الدار الآخرة، وقيل: ؟ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ؟ أيضًا يعني في الآخرة، وذلك لأن وجوههم ستكون سوداء، وأعينهم ستكون زرقاء، أسأل الله -عزّ وجلّ- أن ينجينا من عذاب هؤلاء الناس وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتعبون أحسنه، وصلِّ اللهم وسلِّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بالنسبة لأسئلة الحلقة السابقة كان السؤال الأول: ماذا تفهم من قول موسى -عليه السلام- لربه: ؟ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ؟؟

وكانت الإجابة: يُفهَم من هذه الآية الكريمة جواز أن يتوسل الإنسان إلى الله -عزّ وجلّ- بالحالة والهيئة التي هو عليها، وتدل على صدق موسى -عليه السلام- لربه وتضرعه، وبيان حاجته وعبوديته مع شدة حاجته وفقره إلى الله -تبارك وتعالى.

الإجابة صحيحة.

والسؤال الثاني: أي الأجلين قضى موسى -عليه السلام- واذكر ثلاثة من الأخلاق الحميدة التي تستفيدها من هذه القصة؟

وكانت الإجابة: ذكر ابن مسعود -رضي الله عنه- أنه قضى العشر سنوات، وهذا يدل على فضل موسى -عليه السلام- حيث عامله بالفضل وزاده من عنده عرفانا له بالجميل، ويستفاد من هذه القصة من الأخلاق:

أولا: عدم مزاحمة النساء للرجال في مجالات الحياة العامة.

ثانيا: التخلق بخلق الحياء والعفة.

ثالثا: بذل المعروف وفعل الخير بلا مقابل، واحتساب الأجر عند الله -تبارك وتعالى.

وهذه من الأخلاق الحميدة حقًّا، وجزاكم الله خيرًا.

أسئلة المراجعة .

السؤال الأول:

على أي شيء يدل قول الله –تعالى: ؟ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ؟، وما معنى: ؟ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ؟؟ ولماذا قال امكثوا ولم يقل أقيموا؟

السؤال الثاني:

اذكر ألوان العقاب الذي وقع على فرعون وجنده؟ وهذه آخر كلمات قلناها الآن.

الدرس الحادي عشر

تابع سورة القصص

فضل الله على موسى –عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

نبدأ بحمد الله ونصلي على نبينا –صلوات الله وسلامه عليه– ونواصل الحديث مع بعض آيات من سورة القصص بفضل الله وتوفيقه والآيات التي سأتحدث عنها –إن شاء الله تبارك وتعالى– في هذا اللقاء سأتحدث عنها من خلال ثلاثة محاور:

المحور الأول: فضل الله على موسى وبرهان نبوة نبينا –صلى الله عليه وسلم.

المحور الثاني: إقامة الحجة على العباد بإرسال المرسلين وإنزال الحق المبين.

المحور الثالث: ثناء الله على علماء أهل الكتاب الذين آمنوا بالنبي –صلى الله عليه وآله وسلم.

ولنستمع إلى هذه الآيات الأخيرة من الشيخ عبد الرحمن فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

؟ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ؟٤٣؟ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ؟٤٤؟ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ؟٤٥؟ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ؟٤٦؟ وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ؟٤٧؟ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ؟٤٨؟ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ؟٤٩؟ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ؟٥٠؟ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ؟٥١؟ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ؟٥٢؟ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ؟٥٣؟ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ؟٥٤؟ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ؟ [القصص: ٤٣: ٥٥]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم وسلك سبيلهم إلى يوم الدين وبعد.

المحور الأول في هذا اللقاء فضل الله على موسى –عليه السلام– وبرهان نبوة نبينا محمد –صلى الله عليه وآله وسلم– وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ؟ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ؟.

يخبر الله -تبارك وتعالى- في مطلع هذه الآيات عن نعمة الله على موسى -عليه السلام- بإنزال التوراة عليه، والتوراة من عند الله -تبارك وتعالى- فهي الكتاب الذي نزل على موسى -عليه السلام- ومما أشارت إليه هذه الآية أن التوراة نزلت على موسى بعدما أهلك الله -تبارك وتعالى- فرعون، ولذلك ذكر الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله تبارك وتعالى- أن الله -عزّ وجلّ- لم يهلك أمة بعامَّة بعدما أنزلت التوراة على موسى -عليه السلام- اللهم إلا ما كان من القوم الذين مَسَخَهُم الله قردة، وقد ساق الإمام ابن كثير حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالى عنه- الذي أخرجه الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، وقال الشيخ الألباني -رحمه الله- في السلسلة الصحيحة بأنه صحيح، هذا الحديث يقول: "«ما أهلك الله قوما بعذاب من السماء ولا من الأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض غير أهل القرية الذين مُسِخُوا قردة»، ثم قرأ قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى ؟".

فَفُهِمَ من هذه الآية أن الله -عزّ وجلّ- بعدما أهلك هذه القرون السابقة لم يهلك أمة بعامة، ثم ذكرت هذه الآية أن التوراة التي نزلت على نبي الله موسى -عليه السلام- تتصف بصفات ثلاث:

الصفة الأولى:

أنها بصائر للناس من العَمَى ومن الغِوَايَة تُبَصِّرُهُم بالحق الذي جاء من عند الله -تبارك وتعالى.

الأمر الثاني:

أنها هداية في قوله تعالى: ؟ وَهُدًى ؟ تهديهم إلى الطريق الحق وإلى الطريق القويم وإلى الصراط المستقيم، وأنها أيضًا رحمة؛ لأنها من عند الله -تبارك وتعالى- فهي ترشد إلى الخير وتُدخل الجنة لمن اتبعها وسلك سبيلها، كل ذلك: ؟ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ؟.

ولا يمكن لنا أن نقول في غير التوراة التي نزلت من عند الله -عزّ وجلّ- سوى هذا القول؛ لأنها من كلام الله -تبارك وتعالى- وإن كنا نعتقد وندين الله -عزّ وجلّ- بعد ذلك أن هذا الكتاب الذي نَزَل من عند الله -وكان بصائر وهدى ورحمة كما وصفه رب العالمين سبحانه- قد غيره هؤلاء الملاعين، ولَعِبُوا به، وكتبوه بأيديهم، إلى جانب أنه نُسِخَ برسالةِ وبعثةِ وبالكتاب الذي نزل على نبينا -صلوات الله وسلامه عليه.

ثم بعد ذلك ينتقل السياق من قصة موسى -عليه السلام- إلى إقامة البراهين الدالة على نبوة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لأنَّ هذا القصص فيه عبرة، ومن أعظم العبر التي ساق القرآن الكريم هذا القصص من أجلها أن يؤمن الناس ويصدقوا بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وبرسالته وبعثته، ولذلك القرآن الكريم قَدَّمَ بمقدمات كقصة موسى وغيره في بعض المواطن، ثم بعد ذلك يشير إلى تثبيت نبوة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم.

وبالتالي السياق القرآني ينتقل من الحديث عن موسى -عليه السلام- وعن الكتاب الذي أنزله الله عليه إلى الحديث عن نبوة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ويخاطبه رب العالمين بقوله: ؟ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ؟٤٤؟ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ؟.

ينبه الله -عزّ وجلّ- في هذه الآيات على برهان نبوة نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- بتفصيل دقيق حينما يقول له: ؟ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ ؟ يعني أنت لم تكن بجانب الوادي الذي كلمنا فيه موسى -عليه السلام- أو ناديناه من هناك، ما كنت شاهدا، ومع ذلك تحدث النبي -صلى الله عليه وسلم- من خلال الوحي الذي أوحاه الله -تبارك وتعالى- إليه بهذا الحدث وكأنه حاضر، وكأنه شاهد، يعني الآيات السابقة التي ذكر القرآن الكريم فيها

ما كان من فرعون، وما تم مع موسى -عليه السلام- مع أهله، وما أَيَّدَ الله به موسى من معجزات وغير ذلك، الذي ينظر ويقف أمام هذا، كأن النبي -صلى الله عليه وسلم- يرى ويشاهد هذه الواقعة ويحكيها -صلوات الله وسلامه عليه- ومع كل ذلك لم يشاهد، ولم يحضر، ولم يجلس -صلى الله عليه وسلم- إلى من يعلمه ذلك، كما أنه نشأ بين قوم لا يعرفون ذلك، نشأ -وهذه مهمة جدًّا- أنه أيضا نشأ بين قوم لا يعرفون ذلك، فمن أين له الخبر؟ كيف عَلِمَ -صلى الله عليه وسلم- ذلك؟ دليل على أن الله هو الذي أعلمه، وأن الله هو الذي أوحى إليه، وبالتالي فهو نبي -صلوات الله وسلامه عليه.

؟ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ ؟؛ يعني ما كلفناه به من أعباء الرسالة وإرساله إلى فرعون، وما أيدناه به من معجزات قاهرة باهرة وغير ذلك، والله -عزّ وجلّ- ينفي وجود النبي -عليه الصلاة والسلام- ومشاهدته عند وجود هذا الأمْر ؟ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ؟٤٤؟ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ؟؛ يعني أن بين موسى -عليه السلام- وبين النبي -صلى الله عليه وسلم- زمانا، وهذا الزمان أو هذه المدة كانت سببا في أن يقسو قلوب هؤلاء الناس، تقسو قلوبهم ولا يستجيبون للحق، وهذه الآية كقول الحق -تبارك وتعالى: ؟ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ؟[الحديد: ١٦]، هؤلاء أيضًا طال عليهم العهد ؟ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ ؟ تباعد بهم الزمن، تطاول عليهم العمر، ويؤكد القرآن الكريم بعد ذلك أيضًا مرة أخرى صدق النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في إشارة لطيفة دقيقة ألا وهي قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ؟ "وما كنت"؛ يعني يا أيها النبي -صلى الله عليه وسلم- لم تكن موجودا مقيما في أهل مدين وقت أن كان موسى -صلوات الله وسلامه عليه- هناك، لم تعرف شيئًا من ذلك، لم تشاهد ما جرى مع موسى -عليه السلام- وبين البنتين اللتين سقى لهما موسى -عليه السلام- لم تشاهد ما جرى من عهود واتفاق بين والد هاتين البنتين وبين موسى -عليه السلام- لأنك لم تذهب إلى هناك، وأيضا قوم النبي -صلى الله عليه وسلم- يعرفون عنه ذلك؛ فهو نشأ بينهم ونشأ معهم، وبالتالي القرآن الكريم يقرر حقيقة واقعة يعرفها ويدركها المشركون تماما ؟ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ؟ إذن ما الأمْر؟ وما الشأن؟ تأكيد لنبوة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وبعثته، ؟ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ؟.

حقيقة هذه الآية -كما ذكرت- فيها برهان، والآيات الدالة التي ستأتي بعد ذلك تدل، ولكن القرآن الكريم يسوق هذه الآيات وفيها براهين عظيمة، ولا بد أن نفهم ذلك وأن نتأمله، القرآن الكريم بعدما يسوق القصص يشير دائما إلى نبوة النبي -عليه الصلاة والسلام- خاصة في المسائل الغَيْبِيَّة التي لم يشاهدها -صلى الله عليه وآله وسلم- يعني مثلا لما ذَكَرَ قصة مريم -عليها السلام- وما كان من زكريا معها، قال الله للنبي -عليه الصلاة والسلام: ؟ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ؟[آل عمران: ٤٤]، يعني أنت لم تكن هناك عندما حصل ما حصل بينهم، أو وقع ما بينهم من خلاف، كذلك أيضا يقول الله له كما في سورة طه: ؟ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ؟[طه: ٩٩] -صلوات الله وسلامه عليه.

وأيضا في سورة هود بعدما ذكر الله -عزّ وجلّ- إهلاكه لفرعون قال الله للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم: ؟ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ؟[هود: ١٠٠]، كل هذه دلالة وبراهين قاطعة على نبوة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- هنا فائدة أُحِبُّ أن أذكرها لإخواني وقفت عليها عند بعض المفسرين، وهي أنهم قالوا: يُفهم من قول الله -تبارك وتعالى: ؟ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ؟ أن الله -عزّ وجلّ- عَهِدَ إلى موسى -عليه السلام- عهودًا في النبي -صلى الله عليه وسلم- وهذا صحيح، فالتوراة بَشَّرَت بالنبي -عليه الصلاة والسلام- وفائدة هنا ؟ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا ؟ وذكرها هنا يفيد هذا الأمْرَ؛ لأنَّ ما الفائدة أو الإشارة إلى هذا الزمان، وماذا سنستفيد من ذلك؟ ما فائدة أن يقول الله -عزّ وجلّ- بأن طول الزمن جعل هؤلاء الناس لا يستجيبون لما نزل من عند الله؟ اللهم إلا إن كان فيما نزل من عند الله إشارة إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وهذه في الحقيقة فائدة جميلة أشار إليها بعض أهل العلم، ثم أيضًا يسير السياق في تأكيد وإقامة براهين

نبوة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فيقول الله له: ؟ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ؟؛ أي ما كنت يا أيها النبي -صلوات الله وسلامه عليه- ؟ بِجَانِبِ الطُّورِ ؟ أي الجبل المسمى بماذا؟ المسمى بالطور ؟ إِذْ نَادَيْنَا ؟ وقد سبق أن ذكرت كما أشار القرآن الكريم أن رب العالمين -سبحانه وتعالى- نادى موسى هناك ؟ مِن شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ؟[القصص: ٣٠]، الله -عزّ وجلّ- أيضًا يقول للنبي -عليه الصلاة والسلام- أنت لم تكن عند هذا الجبل، ولم تذهب إلى هذا المكان: ؟ إِذْ نَادَيْنَا ؟ موسى -عليه السلام، أهل العلم هنا اختلفوا يقولون: مَن المنادَى هنا؟ الله -عزّ وجلّ- هو المنادِي، ولكن مَنِ المنادَى؟ بعضهم قال: أُمَّة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ناداهم الله في أصلاب آبائهم وأخذ عليهم العهد والميثاق بالإيمان بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وهذا في الحقيقة بعيد، والصواب هو القول الثاني: أن المنادَى هو موسى -عليه السلام- الذي حَمَّلَه رب العالمين -سبحانه وتعالى- التكاليف التي كَلَّفَه بها، والآية كالآية السابقة تُبَيِّن أيضًا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يحضُر ولم يشاهِد ما تَمَّ من شيء حدث مع موسى -عليه السلام- ولكن الله -عزّ وجلّ- أعلم النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بذلك لأنه أرسله، وهذا الإعلام أيضا فيه رحمة لنا كي نؤمن ونصدق بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم.

ولذلك قال الله: ؟ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ؟ وهنا أهل العلم وَجَّهُوا معنى هذه الآية، ما معنى "ما أتاهم من نذير من قبلك"؟ والله قال: ؟ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ؟[فاطر: ٢٤]، قيل: ما أتاهم من نذير من قبلك من أنفسهم؛ فالنبي -عليه الصلاة والسلام- من أين؟ من قريش، ولم يأتِ قبل ذلك نبي من قريش، وهذه في الحقيقة مِنَّة من الله -عزّ وجلّ- على قريش ؟ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ ؟[آل عمران: ١٦٤] -صلوات الله وسلامه عليه، وقيل أيضًا بأن طول العهد جعلهم ينسون جميع الشرائع والأديان، فكانت بعثة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لتعيد الأمر من جديد، ولتُجَدِّد دعوات الأنبياء السابقين، ولذلك ختم رب العالمين الآية بقوله: ؟ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ؟.

المحور الثاني: إقامة الحجة على العباد بإرسال المرسلين، وإنزال الحق المبين، وفي ذلك يقول الله -تبارك وتعالى: ؟ وَلَوْلاَ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ "ولولا" هذه: امتناعية، وجوابها محذوف، أما "لولا" الثانية: تحضيضية، ومعنى الآية أن الله -تبارك وتعالى- يُخبر أنه قطع الحجة على العباد بإرسال الأنبياء والمرسلين، فقبل أن يصيبهم بمصيبة، وقبل أن يعاقبهم بما يُعاقَب به، أرسل رب العالمين -سبحانه وتعالى- الأنبياء والمرسلين؛ لأنه لو لم يرسل الأنبياء والمرسلين ووقع العذاب عليهم لقالوا ماذا؟ لقالوا: ؟ رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ والله -عزّ وجلّ- قد جعل بعثة الأنبياء والمرسلين هي الحجة القاطعة لجميع الناس، ؟ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ؟[النساء: ١٦٥]، وأيضا يقول رب العالمين ؟ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ؟١٥٥؟ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ؟١٥٦؟ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ ؟[الأنعام: ١٥٥: ١٥٧].

فالله -عزّ وجلّ- أنزل الكتاب حتى لا يَحْتَجَّ أحد من البشر على أن الله -تبارك وتعالى- لم يرسل إليهم رسولا، ودل ذلك على أن الحجة تقوم على العباد ببعثة الأنبياء والمرسلين، ولكن هؤلاء الذين لو أرسل إليهم من يُرْسَل من الأنبياء والمرسلين، أو لو عُوقِبُوا دون بعثة الأنبياء والمرسلين لاحتَجُّوا بذلك، ماذا فعلوا بعدما أرسل الله -عزّ وجلّ- الأنبياء والمرسلين، وأقام الله -عزّ وجلّ- الحجة على العالمين؟ في ذلك يقول الحق -تبارك وتعالى: ؟ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلاَ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ؟.

في الحقيقة هؤلاء القوم الذين واجههم أيضًا النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كانوا عندهم من الطغيان والجبروت ما شابهوا به بعض من تقدمهم من الأمم السابقة، قالوا: لو أُرْسِلَ إليهم رسول، لو أُقِيمَ عليهم العذاب

أو نزل بهم العذاب دون أن يُرْسَل إليهم رسول لاحتجوا على ذلك: لم يأتنا نذير، لم يأتنا رسول، لما جاء الرسول -صلوات الله وسلامه عليه- وَأَيِّدَ بالمعجزات أنكروا رسالته، ولم يؤمنوا به، وقالوا كلاما أيضا ما كان يليق أن يصدر من قوم يفقهون ويدركون ما يقولون: ﴿ لَوْلاَ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى ﴾ لولا أُوتِيَ: يعني هل أتى من الآيات والبراهين بمثل ما جاء به موسى -عليه السلام- رَدَّ الله عليهم بقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ ﴾ هؤلاء الناس -والراجح أن هذا الكلام لقريش- كفروا أيضًا بما أُوتِيَ به موسى -عليه السلام- وقيل بأن قريشًا كانت تُكَذِّب بجميع الأنبياء والمرسلين السابقين، ولذلك لم يَدْخُلُوا في ديانة اليهود مثلا، ولم يتبعوهم على ما هم عليه، وكانوا لا يؤمنون بما أَيَّدَ الله -تبارك وتعالى- به موسى -عليه السلام.

وقيل بأن هذا الكلام قُصِدَ به علماء اليهود الذين أَنْكَرُوا معجزات النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لأنهم أخبروا قريشًا بأن موسى كان عنده معجزات، وأن ما أتى به النبي -صلى الله عليه وسلم- أقل من معجزات موسى -عليه السلام- وقد كفروا أيضًا هؤلاء اليهود بمعجزات مَنْ؟ بمعجزات موسى -عليه السلام- فما لهم وللنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ثم بَيَّنَ رب العالمين -سبحانه وتعالى- شيئًا من ضلالهم وكفرهم بقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا ﴾ لون الكفر هنا فَسَّرَه رب العالمين -سبحانه وتعالى- في قولهم: ﴿ سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ﴾؛ يعني تعاونا، وقد قُرِئَ: «سِحْرَانِ تَظَاهَرَ»، وقُرِئَ: «سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا»، قيل: توجيه المعنى على قراءة «سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا»؛ يعني موسى وهارون، وقيل: موسى ومحمد -صلى الله عليه وآله وسلم- هذا على قراءة «سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا»، ويعني "سَاحِرَانِ" إذن تَعَاوَنَا، "سَاحِرَانِ" إمَّا موسى وهارون أو موسى والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم.

وعلى قراءة «سِحْرَانِ تَظَاهَرَا» قيل: التوراة والإنجيل، وقد رَجَّحَ ذلك الإمام ابن جرير -رحمه الله تبارك وتعالى- والصواب والراجح الذي رجحه الإمام الحافظ ابن كثير وهو أسلم -إن شاء الله تبارك وتعالى- أنهما التوراة والقرآن، قالوا ﴿ سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ﴾ يعني التوراة والقرآن، وكثيرًا ما يقرن رب العالمين -سبحانه وتعالى- القرآن والتوراة، كما في سورة الأحقاف ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى ﴾[الأحقاف: ٣٠]، وأيضًا ورقة بن نوفل قال: "هذا الناموس الذي كان يأتي موسى -عليه السلام"، ولا شك أن القرآن الكريم أشرف الكتب السماوية التي نزلت من عند الله -تبارك وتعالى- وأن التوراة تأتي بعد القرآن الكريم؛ لأنَّ الإنجيل جاء مُتَمِّمًا للتوراة، وأحل الله -عزّ وجلّ- فيه بعض ما حرمه بنو إسرائيل على أنفسهم، أما الكتاب الذي يُعَدُّ من أشرف الكتب بعد القرآن الكريم هو التوراة، ولذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾[المائدة: ٤٤]، وهي حَقًّا -كما ذكرت- من كلام الله، ولكنها بعد ذلك حُرِّفَت وغُيِّرَت وبُدِّلَت ولَعِبَت بها أيدي الأهواء.

هنا لا بد أن أقف وقفتين:

الوقفة الأولى: هل معجزات النبي -صلى الله عليه وسلم- تَقِلُّ شأنا عن معجزات موسى -عليه السلام- وأعني المعجزات الحِسِّيَّة؛ لأنَّ هؤلاء طلبوا معجزات حِسِّيَّة: ﴿ قَالُوا لَوْلاَ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى ﴾، في الحقيقة الإمام البيهقي -رحمه الله- ذكر كلاما دقيقا، وأشار إِلَى أن معجزات النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- هي أعلى وأفضل أيضا وأرفع المعجزات الحِسِّيَّة على الإطلاق، وأذكر أنه عقد مقارنة بين معجزة خروج الماء من بين يدي النبي -صلى الله عليه وسلم- وخروج الماء من الحجر الذي ضربه موسى -عليه السلام- وقال بأن أصل الحجر في طبيعته ماء؛ لأنه ما صار حجرًا إلا من التراب والماء، لما اختلط التراب بالماء صار حجرًا، فالماء من حيثيات الحجر الذي ضربه موسى -عليه السلام- إنما كون الماء يخرج من بين الجلد والدم، ويخرج بعد ذلك ماء يشرب نقي، دل ذلك على أنها فعلاً في الإعجاز أعلى وأعظم.

الوقفة الثانية: مكانة القرآن الكريم، ونحن نتحدث عن التوراة، فالقرآن الكريم له مكانة عالية، ومنزلة سامية، وهو أشرف كتب الله -تبارك وتعالى- على الإطلاق، ولذلك تولى رب العالمين -سبحانه وتعالى- حفظه بنفسه، وجعله كما جاءت النصوص في القرآن الكريم تشير إِلَى ذلك، جعله حاكما ومُهَيْمِنًا ومُصَدِّقًا لما سبقه من الكتب،

ولذلك لما أنكر هؤلاء وقالوا عن القرآن والتوراة بأنهما سحران تظاهرا، وأعلنوا كفرهما بالتوراة وبالقرآن الكريم ؟ وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ؟ خاطبهم الله -تبارك وتعالى- بقوله: ؟ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ إن لم تؤمنوا بي -النبي -عليه الصلاة والسلام- يقول لهم ذلك إن لم تؤمنوا بي- وتصدقوا برسالتي، وتوقنوا بأنني مرسل من قِبَلِ الله -عزّ وجلّ- وأنني مُؤَيَّد بهذا القرآن من عنده، أنتم تكذبون بذلك فأتوا أنتم بشيء من عند الله إن كنتم صادقين، وهل لهم في ذلك سبيل؟! ليس لهم في ذلك سبيل، ولذلك قطع الله عذرهم بالقرآن الكريم وبَيَّنَ في الآية التالية أن هؤلاء طالما أنهم لم يؤمنوا ويستجيبوا ويصدقوا بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فقد اتبعوا أهواءهم وهم من الظالمين، وفي ذلك يقول رب العالمين -سبحانه: ؟ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ؟ فإن لم يستجيبوا لك، إن لم يؤمنوا بك، إن لم يتابعوك على رسالتك، فاعلم يا أيها النبي -صلوات الله وسلامه عليه- وهذا هو بيت الداء، يعلم ماذا؟ أنما يتبعون أهواءهم، اتّباع الهوى في الحقيقة أساس وأصل كل بَلِيَّةٍ ومُصيبَةٍ، واتّباع الهوى علامة مميزة من علامات اليهود، سمة غالبة عليهم، رب العالمين -سبحانه وتعالى- أرسل إليهم كثيرًا من الأنبياء، وكان كلما يأتيهم رسول أو نبي إمَّا أن يكذبوه وإما أن يقتلوه، كان الدافع وراء التكذيب أو القتل هو الهوى: ؟ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ؟[البقرة: ٨٧]، الشاهد قال: ؟ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ ؟ ولذلك يجب على الإنسان أن يحذر الهوى، والهوى هو ما تهواه النفس دون ضابط شرعي، ولذلك أهل العلم كانوا يحذرون، وسلفنا الصالح -رحمة الله تعالى عليهم- كانوا يحذرون من اتّباع الأهواء، ومن مجالسة أهل الأهواء، وقد نهى الله -تبارك وتعالى- نبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- عن اتّباع أهواء الذين لا يعلمون فقال: ؟ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ؟[الجاثية: ١٨] ونَعَى رب العالمين على من يتخذ إلهه هواه ؟ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ؟[الفرقان: ٣٤] وفي الحديث: «والعاجز من أتْبَعَ نفسه هواها وتمنى على الله الأماني».

ولذلك يجب على الإنسان -وهذه فائدة يجب أن نتعلمها- أن يكون هواه تَبَعًا لما جاء به النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يجب أن يميل الإنسان بعقله وإحساسه ووعيه وتفكيره وتخضع جوارحه لِمَا جاء من عند الله ولِمَا تكلم به رسول الله -صلوات الله وسلامه عليه- ورب العالمين يختم هذا الحديث، وهذا المحور نختمه الآن بهذه الآية، ألا وهو المحور الثاني: ؟ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ؟ هذا تأكيد لإقامة الحجة على العباد، وَصَّلْنَا لهم القول؛ يعني فَصَّلْنَاه وبَيَّنَّاه وعَرَّفْنَاه لهم، وقد عرفوه بالفعل، فالقرآن الكريم فَصَّلَ الله -عزّ وجلّ- فيه كل شيء، بين فيه أنه الخالق، وأنه الرازق، وأنه المدبر، وأنه المحيي، وأنه المميت، بَيَّنَ فيه أخبار السابقين، بَيَّنَ فيه ما يجب أن يسلكه الناس من طريق سديد قويم، أرشد العباد إلى كل ما ينفعهم، بَيَّنَ مآلات الأحوال التي يؤول الناس إليها، وما أعده رب العالمين -سبحانه وتعالى- في الدار الآخرة وغير ذلك، كل ذلك بَيَّنَه القرآن الكريم وفَصَّلَه تفصيلاً دقيقًا، والغرض والهدف من هذا التفصيل أن يقع في مكانه السليم ؟ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ؟ ولكن أين من يتذكر، وأين من يعقل كلام رب العالمين -سبحانه وتعالى.

المحور الثالث في هذا اللقاء بعنوان: ثناء الله على علماء أهل الكتاب الذين آمنوا بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ؟ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ؟٥٢؟ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ؟ أولاً: يجب أن نعلم من خلال التاريخ وأهل الكتاب عموما يعلمون ذلك، وما زلنا إلى يومنا هذا نشاهد بعضًا من أهل الكتاب يؤمنون ويُتابعون النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وهذه الآيات يخبر الله -تبارك وتعالى- فيها خبرًا عن الموَفَّقين المهتدين من أهل الكتاب الذين آمنوا بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كما قال الله -تعالى: ؟ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ للهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ؟[آل عمران: ١٩٩] فالله -عزّ وجلّ- أثبت لبعض علماء أهل الكتاب ذلك، وأنهم بإيمانهم كانوا خاشعين لرب العالمين -سبحانه وتعالى- والآيات تذكر شيئًا جميلا عنه: ؟ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ ؟؛ يعني أن القرآن الكريم إذا تَلاه النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- على هؤلاء الناس: ؟ قَالُوا آمَنَّا بِهِ ؟ صدقناه، اتبعناه، دخلوا في الإسلام موقنين بأن هذا الذي سمعوه هو الحق الذي جاء من عند الله

-تبارك وتعالى- ولكنهم يصرحون بأمر مهم نوجهه للبشرية اليوم: ؟ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ؟؛ يعني إنا كنا من قبل هذا مسلمين، مسلمين بمن؟ مسلمين بنبيهم، ولما أسلموا حقًّا بنبيهم وآمنوا به وصدَّقوه، آمنوا بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لأنَّ نَبِيَّهُم بَشَّرَ بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ولذلك يجب على الناس هؤلاء أن يفقهوا ذلك الآن، ولذلك -أبدًا- ليس من الحرج ولا يوجد عندنا حرج حينما نقول بأن القوم الذين يزعمون أنهم يَتَّبِعُون التوراة والإنجيل اليوم ولا يتبعون النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- نقول صراحة بأنهم ما آمنوا بالتوراة، ولا آمنوا بالإنجيل، ولو آمنوا بالتوراة وآمنوا بالإنجيل وبالأنبياء الذين أرسلهم الله -تبارك وتعالى- إليهم لآمنوا بالنبي -عليه الصلاة والسلام- لأنَّ هذه الكتب بَشَّرَت بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وهؤلاء الذين وَفَّقَهُم الله -عزّ وجلّ- للإيمان ودخلوا في الإسلام ذكروا أنهم كانوا قبل ما تُتْلَى عليهم هذه الآيات كانوا مسلمين بذلك يعني موحدين، مؤمنين، مخلصين، مصدقين، مسلمين بأن النبي -عليه الصلاة والسلام- سيُرسَل وسيُبْعَث وأن التوراة بَشَّرَت به، ولما بُعِثَ آمنوا وصدقوا به -صلى الله عليه وسلم- لأنهم كانوا يؤمنون ويصدقون بالكتاب الذي نزل عليهم.

وقد ذكر سعيد بن جبير -رحمه الله- أن هذه الآية نزلت في سبعين قِسِّيسًا أرسلهم النجاشي إلى النبي -عليه الصلاة والسلام- فقرأ النبي -عليه الصلاة والسلام: ؟ يس ؟١؟ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ؟ [يس: ١-٢] فبكَوْا وآمنوا وصدقوا بالنبي -صلى الله عليه وسلم- ونزل قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا ؟ هؤلاء الناس لما فعلوا ذلك كان لهم عند الله -سبحانه وتعالى- خيرٌ عظيمٌ، ولذلك ذكر الله -عزّ وجلّ- أجرهم وفَخَّمَه -سبحانه وتعالى- فقال: ؟ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ؟ كلام جميل جدًّا عن هؤلاء الناس؛ أي هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفة، آمنوا بالكتاب الذي نزل عليهم ونبيهم السابق، وآمنوا بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يؤتون أجرهم مرتين، لأي شيء؟ بما صبروا، على أي شيء؟ قيل: صبروا على التكاليف التي حَمَلُوها، فقد آمنوا بنَبِيِّهِم والكتاب الذي نزل عليه، وطَبَّقوا ما كان فيه من تكاليف، كما آمنوا بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وقاموا بالتكاليف التي جاءت في الكتاب الذي -أيضًا- نزل على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وقيل: لِمَا صبروا من الإيذاء الذي نالهم لما دخلوا في دين النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ما زال الناس -أيضًا- إلى اليوم في هذا، إذا آمن أحد من أهل الكتاب كم يؤذى! ولكنه إذا صبر كان له عند الله من الأجر العظيم، وكان له أجرين، كما ذكر رب العالمين سبحانه، ولا شك أن الإيذاء يقع ويتكرر من قوم مجرمين على هؤلاء المصلحين والصالحين، الذين يؤمنون بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وعبد الله بن سلام -رضي الله تعالى عنه- لما آمن بالنبي -عليه الصلاة والسلام- قال اليهود فيه: "شَرُّنَا وابن شَرِّنَا" بعدما كانوا يقولون: "أَعْلَمُنَا وابن أَعْلَمِنَا، وسَيِّدُنَا وابن سَيِّدِنَا" وهكذا، وكان من أحبار اليهود، فإذا نال عبد الله بن سلام أذى من قومه وهو بهذه المكانة وبهذه المنزلة، فما بالنا بآحاد الناس! وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي موسى الأشعري أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ذكر ثلاثة "يؤتون أجرهم مرتين" ويهمنا أن نذكر ذلك:

أولهم: رجل آمن بنبيه ثم آمن بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- هذا أول شيء، أو أول رجل من الثلاثة، ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل آمن بنبيه ثم آمن بالنبي -صلى الله عليه وسلم.

الرجل الثاني: عبد مملوك أَدَّى حق الله وحق مواليه.

الثالث: رجل كانت عنده أَمَة فَأَدَّبَها فأحسن تأديبها ثم أعتَقَهَا فتَزَوَّجَهَا.

هؤلاء الثلاثة يؤتون أجرهم مرتين، وهنا لفتة جميلة للغاية ذكرها بعض أهل العلم، قالوا: يؤتون أجرهم مرتين لماذا؟ قالوا: لأنَّ هؤلاء لَمَّا استجابوا لأمرين من جهتين مختلفتين كان لهم الأجر مرتين؛ يعني الذي آمن بنبيه وآمن بالنبي -عليه الصلاة والسلام- استجاب للأمر من جهتين مختلفتين، فيكون له أجر من هذا وأجر من

ذاك، كذلك العبد المملوك يؤدي حق الله -عزّ وجلّ- ويؤدي حق سيده الذي يملكه، فسيده أيضًا يملكه في الدنيا، وإن كان المالك على الحقيقة من؟ رب العالمين، فالعبد لما يقوم بهذين الحقين يؤدي حق الله -تبارك وتعالى- ويؤدي حق سيده، فيكون الأمْر جاءه من جهتين مختلفتين وقام بهما فيأخذ -أيضًا- أجرين من تلك الجهتين، والثالثة أيضا رجل عظيم تكون عنده أَمَة، وكم من أُناسٍ الآن يُعَذِّبُون الأحرار! ويُهينُونَهم، بل يُذِلُّونَهُم ويُذِيقُونَهُم أقسى ألوان العذاب، فما بالك بإنسان تكون عنده أَمَة عبدة يملكها، ومع كل ذلك يربيها ويحسن إليها، ثم بعد ذلك يعتقها ثم يتزوجها، ويا ليت الناس اليوم... الذي يأتي ويقول: والله أنا متزوج في الأصل كانت أَمَة أو عبدة، ويكون زَعِلٌ وغضبان ونفسيته مُتْعَبَة، وللأسف الشديد لا أقول هذا من فراغ، اتَّصَلَ بي رجل قبل أسبوعين، وقال: إنني تزوجت امرأة وأنجبت منها، ثم علمت من قبل أن أجدادها كانوا عبيدًا، والآن أنا لا أنام ونفسيتي مُتْعَبَة جدًّا، وأنا داخل بيتي أمس اتَّصَلَ عَلَيَّ وذكر هذا الكلام أيضا فقلت له: يا أخي لماذا لم تَتَّصِلِ بي من قبل؟ قال: أنا لا أنام، قلت: يا أخي، الله يهديك وتنام.

فما الذي يحدث؟؟ هذا فضل من الله -تبارك وتعالى- انظر إلى هذا الرجل يُعتِق أمةً عنده ويتزوجها، يُعتِقُهَا، وهو كان سيدها ثم أعتقها وتزوَّجَها، فهذا خير عظيم، ولذلك صَدَقَ الله -تبارك وتعالى- في قوله: ﴿ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ ثم قال عنهم: ﴿ وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ يدرؤون: يعني يدفعون، بالحسنة السيئة: يعني يعفون ويصفحون عن الإجرام الذي يقع عليهم من الناس، وقد سبق أن قلت بأنهم يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا أيضًا على الأذى الذي يلحقهم من الناس لما آمنوا بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وقيل: يدرؤون بالطاعات والأعمال الصالحة السيئات؛ يعني يدفعون بالأعمال الصالحة أيضا السيئات، ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾؛ يعني أنهم يتصدقون وينفقون في سبيل الله -تبارك وتعالى- مما تَفَضَّلَ الله -تبارك وتعالى- به عليهم، وهذه الآية ذَكَرَت ثلاث خصال لهؤلاء الناس، هذه الآية ذَكَرَت ثلاث خصال لهؤلاء الناس:

الخصلة الأولى: هي الإيمان أنهم آمنوا، ودخلوا في الإسلام، وتابعوا النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- والإيمان مذكور في الآية السابقة: ﴿ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ ﴾.

الآية الثانية ذكرت خَصْلَتَيْن، الخصلة الأولى: اجتهادهم في الطاعات البدنية، والتي تعد الثانية في الترتيب بعد الإيمان، والمذكورة في هذه الآية، ونأخذها من قول الحق -تبارك وتعالى: ﴿ وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾، الخصلة الثالثة وهي الثانية المذكورة في الآية: اجتهادهم في العبادات المالية، وهي أنهم ماذا؟ ينفقون بسخاء في سبيل رب العالمين -سبحانه وتعالى.

ثم بعد ذلك يختم الله -عزّ وجلّ- الحديث عن هؤلاء بصفة جميلة، وخلق أيضًا كريم وجميل، وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ اللغو هو الكلام الباطل، وسُمِّيَ باللغو لأنَّ حقه أن يُلْغَى؛ يعني لا يكون ماذا؟ لا يكون له وجود، ولذلك قيل عنه لغو لذلك؛ لأنه كلام لا فائدة منه، هؤلاء الناس الصُّلَحَاء وهؤلاء الموَفَّقون الذين يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا إذا سمعوا الكلام الباطل، تشوقوا إليه، واشرأبت أعناقهم للنظر إليه؟ لا، أعرضوا عنه، وكلمة الإعراض تفيد أيضًا تسفيه هذا اللفظ، وأنه لا يَستَحِق أن يُنْظَر إليه، عبارات القرآن الكريم في غاية من الدقة، وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، مجرد ما يسمعون.. كم من الناس اليوم يشاهدون اللغو ويستمعون إليه، كم يبحث كثير من الناس كي يُدخل إلَى بيته اللغو والكلام الباطل وأشياء كثيرة لا داعي أن نشير إلَى شيء منها؛ لأنها معلومة في دنيا الناس اليوم، ولكن المؤمنين أو مَن آمن برب العالمين إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، ويأمرون بعد ذلك بالمعروف، يعني ليس مجرد إعراض ويسكتون لا، إنهم يقولون لهؤلاء الذين يأتون باللغو: ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾؛ يعني ما نحن عليه لا يجعلنا أبدًا ولا بأي حال من الأحوال أن نسلك طريقكم، ولا أن نكون معكم، ولا أن نستمع إلَى لغوكم، لأنَّ الباطل واللغو لا ينبغي أن يَسِير فيه أهل الإيمان على أي وضع كان، ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾، هذه كلمة يا ليتنا نضع هذه الكلمة نُصْبَ أَعْيُنِنَا، فلا نسير في ركاب الباطل، ولا

نَتَتَبَّع اللغو، الناس اليوم ليس فقط يأتيها اللغو ويُعرَض عليها، لا.. هم يَتَتَبَّعُوه، ويعرف الإنسان أو يعلم الإنسان من خلال هذه الآية أنه مسؤول عَمَّا قَدَّمَت يداه، لنا أعمالنا؛ يعني أننا سَنُحَاسَب على هذه الأعمال، سَنُسْأَل عما نحن فيه، ولكم أيضًا وِزْرُ أعمالكم، ؟ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ؟[المدثر: ٣٨].

ولذلك رب العالمين –سبحانه وتعالى– أشاد في سورة الفرقان –وقد مَرَّت معنا قبل ذلك– بعباد الرحمن في قوله سبحانه: ؟ وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ؟[الفرقان: ٧٣] قيل: وإذا مروا باللغو مروا كراما: يعني سالمين، لا يصيبهم منه أي أذى، فلا يسفهون مع السفهاء، ولا يقعون في باطل بحال من الأحوال، قالوا: ؟ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ؟ وخطابهم مع ذلك خطاب رقيق، خطابهم مع ذلك خطاب فيه أدب، فيقولون لهؤلاء الذين هم أصحاب اللغو بالباطل، وأصحاب الانحراف: ؟ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ؟، "سلام عليكم" يَخْرُجُون منهم ولا يُرِيدُونَهُم، يعني أهل الإيمان يخرجون من هؤلاء الناس ويتركون ما هم عليه، ويُعرِضون عما هم عليه، ولا يَخُوضُون في خَوْضِهِم، ولا يسيرون في ركابهم، ولكنهم يُدْرِكون ويقولون لهم أنتم جُهَّال، والجاهل حقًّا من لم يعرف ربه، ليس الجاهل من لم يحصل على شهادة فحسب، صحيح من لم يحصل على شهادة يكون عنده لون من ألوان الجهل في الشيء الذي لم يتعلمه، ولكن الجهل على الحقيقة هو عدم معرفتك لربك، ولأي شيء خلقك الله –تبارك وتعالى– هذه صفة جليلة كريمة من صفات هؤلاء الذين يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا، وهذا خُلُق كريم من أخلاق هؤلاء المؤمنين، يا ليتنا نتعلمه؛ نُعْرِض عن اللغو والباطل، نُعْرِض عن الكلام القبيح، لا نَسْفَه مع السفهاء، ولا نسير في ركاب هؤلاء المجرمين الذين ينطقون بكلمات لا ينبغي أن تخرج من فَمِ إنسان كريم مؤمن صاحب خلق ودين، ؟ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ؟. وبهذه الكلمات أختم معكم هذا اللقاء، وصلِّ اللهم وسلِّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلِّم.

بالنسبة لأسئلة الحلقة السابقة كان السؤال الأول: على أي شيء يدل قوله تعالى: ؟ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ؟وما معنى ؟ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ؟؟ ولماذا قال: ؟ امْكُثُوا ؟ ولم يقل أقيموا؟

وكانت الإجابة: يدل قوله تعالى: ؟ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ؟ على أنه يجوز للرجل أن يسير بأهله؛ أي زوجته في أي وقت شاء، وفي أي مكان أراد، وأن عليها أن تتابعه في ذلك وتسير معه؛ لأنه هو القَيِّم عليها والمسؤول عنها.

ومعنى آنس من جانب الطور نارًا؛ أي شاهد واطَّلَعَ على نار على قمة مرتفعة، حيث كان بجانب جبل الطور.

والتعبير بـ ؟ امْكُثُوا ؟ يَدُلُّ على الوقت اليسير وعلى أنه طلب من زوجته أن تنتظره قليلا حتى يتبين أمر هذه النار ويرجع إليها سريعا، لذلك لم يقل أقيموا؛ لأنَّ الإقامة تدل على الوقت الكثير الطويل.

نعم صحيح، جزاه الله خيرًا.

والسؤال الثاني: اذكر أنواع العقاب الذي وقع لفرعون وجنده؟

وكانت الإجابة: ألوان العقاب الذي نزل بفرعون وجنده هي أولاً: نبذهم الله –تعالى– في اليم وهو البحر، أغرقهم فيه عن آخرهم، ثانيا: جعلهم أئمة ودعاة إلى نار جهنم، ثالثا: أنه لم ينصرهم في الدنيا ولن ينصرهم يوم القيامة، بل سيخذلهم على رؤوس الأشهاد، رابعا: لعنهم الله –عزّ وجلّ– في الدنيا، بل وأتبعهم هذه اللعنة إلى يوم القيامة، ويوم القيامة سيكونون من المقبوحين المطرودين عن رحمة الله –عزّ وجلّ.

نعم، هذه أربعة ألوان من ألوان العقوبة التي وقعت على فرعون، وهي الأربعة التي ذُكِرَت في هــذه الآيــة، والجواب صحيح.

يقول: في تعبير الله -عزّ وجلّ: ؟ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ ؟ كلمة ؟ قَضَيْنَا إِلَــى مُوسَى الأَمْرَ ؟ تشير إلى النبوة؟ إذا كانت تشير إلى النبوة فهل كانت المدة التي أقامها موسى -عليه السلام- في هذا المكان كافية لتعليم الله -عزّ وجلّ- له حتى يصل إلى فرعون بالدعوة؟.

جزاك الله -تبارك وتعالى- خيرًا.

في الحقيقة ؟ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ ؟؛ يعني كَلَّفْنَاه وأعلمناه، والتكليف كان بالنبوة والرسالة، ونــداء الله -تبارك وتعالى- به صار موسى -عليه السلام- كَلِيم الله، ولا شك أن تأييد الله -عزّ وجلّ- كان متتابعــا علــى موسى -عليه السلام- ولكن هذا كلام منه، بداية إرسال، تكليف له إلى أن يذهب إلى فرعون، فهذا يُفْهَــم منــه التكليف والنبوة والإرسال بما أعلمه رب العالمين -سبحانه وتعالى- به، وقد ذكرت الآيات السابقة شــيئًا ممــا قضاه الله -تبارك وتعالى- إليه وخاطبه رب العالمين -سبحانه وتعالى- به، وهو أنه أمره أن يُلْقِي عصاه مــن يده، أنه يدخل يده في جيبه، وهكذا.. فهذا كله مما قضاه رب العالمين -سبحانه وتعالى- ويَدْخُل في قــضاء الله لموسى -عليه السلام.

أسئلة المراجعة؟

السؤال الأول:

اشرح قول الله -تعالى: ؟ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ؟؟

السؤال الثاني:

مَن الثلاثة الذين يؤتون أجرهم مرتين؟ والله أعلم.

الدرس الثاني عشر

تابع سورة القصص

هداية الله للمؤمنين وإهلاكه للظالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

ونواصل -إن شاء الله تبارك وتعالى- حديثنا في تفسير سورة القصص، وسيدور حديثنا في هذا اللقاء حول محورين:

المحور الأول: هداية الله للمؤمنين وإهلاكه للظالمين.

المحور الثاني: توبيخ المشركين في يوم الدين، وبيان أن المتصرف في الكون رب العالمين، ولنستمع معكم الآن إلى آيات هذا اللقاء من الأستاذ عبد الرحمن نبيل فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

؟ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ؟٥٦؟ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ؟٥٧؟ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ؟٥٨؟ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ؟٥٩؟ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ؟٦٠؟ أَفَمَن وَّعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاَقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ؟٦١؟ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ؟٦٢؟ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ؟٦٣؟ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ؟٦٤؟ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ؟٦٥؟ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لاَ يَتَسَاءَلُونَ ؟٦٦؟ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ؟٦٧؟ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ؟٦٨؟ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ؟٦٩؟ وَهُوَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ؟٧٠؟ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ؟٧١؟ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ؟٧٢؟ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ؟٧٣؟ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ؟٧٤؟ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ للهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ؟ [القصص: ٥٦: ٧٥].

أحسنت وجزاك الله خيرًا.

وإياكم يا شيخ.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين وبعد.

بعد أن استمعنا إلى آيات هذا اللقاء أبدأ وأستمد من الله العون والتوفيق بتحليل وشرح كلمات هذه الآيات المباركات، وهذه الآيات -كما ذكرت- سأتحدث عنها من خلال محورين:

المحور الأول: هداية الله للمؤمنين وإهلاكه للظالمين، وتحت هذا المحور أبدأ بقول الحق -تبارك وتعالى: ؟ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ؟ يقول الله -تعالى- للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ليس عليك الهداية، وإنما الهداية الواردة في هذه الآية بيد الله -تبارك وتعالى- وحده دون سواه، والله -عزّ وجلّ- قد صرح له في آيات كثيرة بذلك، كما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى- مثلا: ؟ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ؟[البقرة: ٢٧٢]، وكما قال له: ؟ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ؟[الغاشية: ٢٢]، ولذلك نقول -كما ذكرت الآية- الله -تبارك وتعالى- أعلم بمن يستحق الغواية، وبمن يستحق الهداية، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما أن هذه الآية نزلت في أبي طالب، وذلك أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كان يرغب في أن يؤمن هذا الرجل؛ لأنه نَصَرَ النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وأيده في دعوته إلى الله -تبارك وتعالى- فلما حضرته الوفاة ذهب إليه النبي -عليه الصلاة والسلام- وَعَرَضَ عليه الإسلام، ولكن أبا جهل، وعبد الله بن أُمَيَّة كانا بحضرة هذا الرجل وهو يموت، فَحَرَّضَاه على أن يموت على ملة عبد المطلب، فَظَلَّ النبي -عليه الصلاة والسلام- يعرض عليه الإسلام ويطلب منه أن يشهد لله بالوحدانية، إلا أن نفسه أبت أن يشهد لله بالوحدانية، وكان آخر ما قال: إنه على ملة عبد المطلب ومات على ذلك.

فقال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم: (واللهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ)، النبي -عليه الصلاة والسلام- من شدة شفقته ورحمته على عَمِّهِ، ونَظَرًا لما كان يقوم به في نصرة هذا الدين قال: (لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْ ذَلِكَ) فنهاه رب العالمين -سبحانه وتعالى- أن يستغفر له، ونزل قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى ؟[التوبة: ١١٣] ثم نزلت هذه الآية، وقد ذَكَرَ -كما ذَكَرْتُ- علماء المحدثين والمفسرين أن هذه الآية نزلت بسبب القصة أو الحادثة التي ذكرتها آنفا، ألا وهي قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ؟ أود أن أشير إلى مسألة يسيرة، وأرى أن طلاب العلم -إن شاء الله تعالى- يعرفونها وهي أنواع الهداية، أنواع الهداية بإطلاق أربعة، والذي يهمنا منها هنا اثنان:

أنواع الهداية أربعة:

النوع الأول: هو "هداية التوفيق"، وهذه هي الهداية الواردة في هذه الآية، ومعنى هداية التوفيق "خَلْقُ الإيمان في القلب المؤمن"؛ يعني أن الله -تبارك وتعالى- هو الذي يخلق الإيمان في قلب المؤمن، ويوفقه للإيمان، ويشرح صدره للإسلام وللأعمال الصالحة، وهذه لا يملكها إلا الله -تبارك وتعالى- وهي المنفية حتى عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لأنَّ الله خاطبه بقوله: ؟ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ؟ هذه هي الهداية الأولى.

الهداية الثانية: "هداية الإرشاد والدِّلالَة"، وهذه للنبي -صلى الله عليه وسلم- ثابتة، كما أنها ثابتة لغيره من العلماء والدعاة إلى الله -تبارك وتعالى- فالنبي -عليه الصلاة والسلام- كان يرشد إلى الله -عزّ وجلّ- ويدل الناس إلى صراط الله المستقيم، وقد أثبت الله -عزّ وجلّ- له هذه الهداية في قوله: ؟ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ؟[الشورى: ٥٢]، إذن الهداية المنفية هنا عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لا تتعارض مع الهداية التي أثبتها الله له؛ لأنَّ الهداية المنفية: هي هداية خَلْق الإيمان في القلب، أما الهداية الثابتة: فهي دلالة الدعوة والبلاغ والإرشاد.

وقد ذكر الإمام ابن القيم -رحمه الله تبارك وتعالى- أيضا نوعين للهداية، خلافَ النوعين السابقين فقال: (وهي النوع الثالث): "هداية كل شيء لِمَا خُلِقَ له"، فالله -عزّ وجلّ- هدى كل مخلوق لما خلقه له، فالنملة أو

الهدهد أو الأسد أو الذئب كل واحد من هؤلاء يعرف كيف يعيش، وكيف يتناسل، وكيف يأكل، وكيف يــشرب، وطريقة حياته وغير ذلك.

أيضًا النوع الرابع من الهداية التي ذكرها هي: "هداية المؤمنين إلى الجنة، وهداية الكافرين إلى النار" أعاذني الله وإياكم من هؤلاء، ثم يستمر السياق فيقول رب العالمين -سبحانه:

؟ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًــا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ؟ بعض الكفار من المشركين الذين لم يؤمنوا بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كانوا يعتذرون عن عدم الإيمان خشية أن تأتي عليهم القرى المجاورة ويمنعونهم من الطعام والــشراب والــزاد وألوان التجارات وغير ذلك، فخافوا من الضياع، وخافوا من الفقر إن دخلوا في دين الله -تبارك وتعالى- ولذلك قالوا هذا القول للنبي -عليه الصلاة والسلام: ؟ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ؟ نخشى أن يأكلنا الناس من هنا ومن هناك، أو أن تتكالب علينا القبائل المجاورة، فرد رب العالمين -سبحانه وتعالى- عليهم قائلا: ؟ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ؟، هؤلاء القوم اليوم يعيشون فــي حــرم آمــن، يعيشون في بلد الله الحرام، وهذا البلد جعل الله -عزّ وجلّ- له حرمة مــن الأزل الأول، وكــان العــرب فــي جاهليتهم أيضًا يعترفون ويعتقدون ويقومون بخدمة الحرم، ويرون حرمته كما حَرَّمَه الله رب العالمين -سبحانه وتعالى.

وكانت العرب حول مكة المكرمة أيضًا يُحَرِّمُونَ هذا البيت ويُعَظِّمُونَ هذا البيت، فما كان لهؤلاء النــاس أن يحتَجُّوا بهذه الحُجَّة أو أن يستندوا إلى شيء لا أساس له؛ لأنَّ الله -عزّ وجلّ- جَعَلَ لهم حرما آمنا، والناس من حولهم كانوا يُتَخَطَّفُون، فالذي آمَنَهُم هو رب العالمين -سبحانه وتعالى- في هذا البلد وهم على الشرك والكفــر، فكيف لو آمنوا بالله رب العالمين -سبحانه وتعالى- ولذلك صدق الله -عزّ وجلّ- في قوله: ؟ وَلَكِنَّ أَكْثَــرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ؟؛ يعني هؤلاء الناس لا يعرفون ذلك ولا يدركونه، ومن أين لهؤلاء الناس وهم مقيمين في مكــة هــذه الأرزاق التي كانت تأتي إليهم من هنا ومن هناك، والله -عزّ وجلّ- في هذه الآية قال: ؟ يُجْبَى إِلَيْهِ ؟؛ يعني إلى الحرم، ومعنى يُجْبَى: يُجْمَع، من باب قولك: جَبَيْتُ الماء في الحوض: أي جمعته، فالله -عزّ وجلّ- يُخْبِر أنــه كان يُجْمَع إلى هذا الحرم كثير من ألوان الطعوم، وغير ذلك، وسائر ألوان الأرزاق التي كان رب العــالمين -سبحانه وتعالى- يرزق بها كفار قريش، وكلمة "رزقًا" هنا مُنَكَّرَة لتفيد التفخيم والتعظيم، وكثرة ما كــان يُغْــدِق عليهم رب العالمين -سبحانه وتعالى- من الأرزاق، فكانوا يعيشون في أمن من الله -عزّ وجلّ- وكانت تُجْبَــى إليهم الأرزاق من هنا ومن هناك، فكيف يحتجون ويتعللون بعد ذلك؟ بأنهم إن آمنوا ضُيِّقَ عليهم، والأمر لا شك أنه بالعكس.

ولذلك رب العالمين -سبحانه وتعالى- عَقَّبَ على قولهم هذا بقوله: ؟ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِــرَتْ مَعِيــشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ؟ رب العالمين -سبحانه وتعالى- يريد أن يبــين لهؤلاء الناس أن إهلاك القرى بيَدِ رب العالمين -سبحانه وتعالى- والله -عزّ وجلّ- قد مَتَّعَ هؤلاء المشركين بما متعهم به، وما كان ينبغي عليهم ذلك، ومكنهم رب العالمين في بلدهم، وهناك من الأقوام الآخرين من أخذهم رب العالمين -سبحانه وتعالى- لما لم يؤمنوا بالله -عزّ وجلّ- ومعنى قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ؟ يعني أنهم تجبروا وتكبروا ولم يراعُوا حق الله -عزّ وجلّ- في النِّعَم التي أغدقها عليهم رب العالمين -سبحانه وتعالى.

وهذه الآية كقول الحق -تبارك وتعالى- في آية أخرى: ؟ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّــةً يَأْتِيهَــا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ؟ [النحل: ١١٢]، يعني أبدل الله -عزّ وجلّ- ما كانوا فيه من النعيم، أبدلهم رب العالمين -سبحانه وتعالى- جُوعًا وخوفًا، وذلك بسبب أنهم لم يؤمنوا

بالله –عزّ وجلّ– كذلك كم من قرية أهلكها الله –عزّ وجلّ– بسبب الكفر، والخطاب إذن يثير أهل مكة كي يفقهوا ويتعلموا، لماذا لم تؤمنوا بالله –عزّ وجلّ– وقد أعطاكم الله مما أعطاكم؟ وقد أهلك غيركم ممن لم يؤمن بالله –سبحانه وتعالى– حتى أصبحت هذه القرى التي أهلكها رب العالمين –سبحانه وتعالى– خاويةً على عروشها من أي شيء؟ قيل: لم يسكنها إلا المسافر، المسافر الذي كان يمر على هذه الديار هو الذي كان ينزل فيها أو يمر عليها، أما هذه الديار بعد أن أهلكها رب العالمين –سبحانه وتعالى– لم يرثها بعد ذلك من يخلف هؤلاء القوم، ولذلك قال رب العالمين سبحانه: ؟ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ؟.

ثم قال رب العالمين سبحانه: ؟ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ؟ وما كان ربك مهلك القرى: يعني القرى الكافرة، حتى يبعث في أمها رسولا: القصد أو المقصود أو المراد هنا "مكة المكرمة" شرفها رب العالمين –سبحانه وتعالى– ؟ حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ؟، يعني يؤدي ويبلغ آيات رب العالمين –سبحانه– وفي هذه الآية دلالة على أن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– المبعوث في أم القرى هو الرسول للناس كافة –صلوات الله وسلامه عليه– لأنَّ الرُّسُلَ تُبعَث في أشراف أقوامها، وتُبعَث في المدن والحواضر وليس في البوادي لماذا؟ لأنَّ البوادي والقرى تتبع المدن، ولذلك لما بُعِثَ –صلى الله عليه وآله وسلم– في أم القرى وفي المدينة كان ذلك دافعا لمن حول هذه المدينة الكبيرة أو أم القرى أن يدخلوا في دين النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– وأيضا هذه العبارة تفيد تشريف هذه البلدة العظيمة، ألا وهي أم القرى التي قال رب العالمين فيها للنبي –صلى الله عليه وآله وسلم: ؟ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ؟ [الأنعام: ٩٢].

التعبير بأم القرى يفيد أنها أم القرى كلها، وهي فعلاً تستحق ذلك، فتكريم الله –تبارك وتعالى– لها عظيم، إلى جانب أوَّلِيَّةِ البيت الذي وضعه رب العالمين –سبحانه وتعالى– في هذه البقعة الكريمة المباركة: ؟ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ؟ [آل عمران: ٩٦].

ثم يقول رب العالمين –سبحانه– مؤكِّدًا الكلام السابق، ومبيِّنًا عدله –سبحانه وتعالى: ؟ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ؟؛ يعني أن الله –سبحانه وتعالى– هو الْحَكَمُ العدل، ورب العالمين –سبحانه وتعالى– ؟ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ؟[يونس: ٤٤]، فإهلاك القرى التي يُهلكها رب العالمين –سبحانه– إنما هو بسبب العدل الذي يختص ربنا –سبحانه وتعالى– به، ولولا ظلم الناس القائمين في هذه القرى ما أهلكهم رب العالمين –سبحانه وتعالى جل في علاه– والأمر كما قال الله –جَلَّ ذِكْرُهُ: ؟ إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا ؟[يونس: ٤٤]، فرب العالمين –سبحانه وتعالى– مُنَزَّهٌ –جل في علاه– عن الظلم.

ثم بعد ذلك يبين الله –تبارك وتعالى– ويوجه الخطاب أيضا للذين يستمعون ويعقلون، هؤلاء الناس الذين يَحْرِصُونَ على المدن، يَحْرِصُونَ على الأرض، يَحْرِصُونَ على الرزق، يَحْرِصُونَ على التمتع بأنواع الخيرات، أين هم مما أَعَدَّهُ الله –عزّ وجلّ– للمؤمنين في الدار الآخرة؟ هذه الدنيا ستؤول إلى عدم، وستنتهي، وسينتهي كل ما فيها؛ ولذلك يأتي هذا الخطاب في هذا الموطن كي يوقظ الغافل الذي يهتم فقط بالحياة الدنيا، ويحرص فقط على البقاء في الدنيا، ويخشى إن آمن أن يتخطفه الناس من هنا ومن هناك، فرب العالمين –سبحانه وتعالى– يقرر في هذه الآية أن الدنيا ستفنى، ولذلك يقول: ؟ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ؟٦٠؟ أَفَمَن وَّعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاَقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ؟، رب العالمين –سبحانه وتعالى– في هذه الآيات يخبر عن حقارة الدنيا وتفاهتها، وأنها بالنسبة لما أَعَدَّه الله –عزّ وجلّ– لعباده المؤمنين من النعيم المقيم لا تُقَدَّر بشيء، ؟ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ؟، ولذلك قال رب العالمين –سبحانه وتعالى– مبينا هذا المعنى في آيات أُخَر:؟ مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ ؟ [النحل: ٩٦]، وكما قال سبحانه: ؟ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ ؟ [الرعد: ٢٦].

وفي صحيح مسلم أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: (وَاللهِ مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ كَمَا يَغْمِسُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ)، الدنيا بالنسبة للآخرة كإنسان وضع إصبعه في اليم، أو في المحيط، "وهذا هو المعنى"، بأي شيء سيرجع وبأي شيء سيأخذ؟ إذن الغافل حَقًّا من اعتنى بتعمير دنياه، وحَرِصَ على ألا يزول، واطمأن فقط إلى الحياة الدنيا تاركا ما أعده الله -تبارك وتعالى- لأهل الإيمان في الدار الآخرة، كما أنه يجب على العاقل أن يعرف أن منافع الدنيا لا شك أنه يشوبها كَدَر، فمنافعها ليست خالصة، وإنما يعتري العبد فيها ما يعتريه من الهم ومن الغم ومن الحزن وغير ذلك، أما الحياة الآخرة فنعيمها إلى جانب دوامه وبقائه لا يعتريه شيء من النقص أو الاضطراب أو الهم أو الغم أو غير ذلك، ولذلك صدق الله -تبارك وتعالى- عندما ذَكَرَ أن هذه الدنيا لا قيمة لها ولا وزن بالنسبة للحياة الآخرة، وأنها حَقًّا خير وأبقى، ولكن من الذي يعقل ذلك؟ الذي يعقل ذلك هم أهل الإيمان، ولذلك رب العالمين يَسْتَفْهِمُ اسْتِفْهَامَ إنكار وتوبيخ لمن لا يستطيع أن يُمَيِّز بين هذا النعيم المقيم، وما أعده الله -عزّ وجلّ- للمؤمنين، وبين هذه الدنيا الفانية الزائلة، ولذلك تُخْتَم الآية بعد أن قال: ﴿ وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ قال سبحانه: ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾.

ثم يقول سبحانه أيضا بعد ذلك: ﴿ أَفَمَن وَّعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاَقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ أفمن وعدناه وعدًا حسنًا فهو لاقيه: يعني المؤمن الذي وعده رب العالمين -سبحانه وتعالى- بالدار الآخرة، وبالجنة التي أعدها رب العالمين -سبحانه وتعالى- للمتقين ونعيم الجنة باق لا يزول، وفي الحديث الصحيح أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يروي عن رب العزة والجلال، قوله: (أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾)[السجدة: ١٧]، هذا الذي وَعَدَه رب العالمين -سبحانه وتعالى- بهذا الوعد الحسن: ﴿ فَهُوَ لاَقِيهِ ﴾؛ يعني لا بد أن يوفي رب العالمين -سبحانه وتعالى- له بما وعده به، هل هذا الرجل الموعود بهذه الحسنى، هل هو شأنه كشأن من مَتَّعَه الله -عزّ وجلّ- في الحياة الدنيا بما يمكن أن يمتعه به؟ وربما نأتي -إن شاء الله تعالى- في اللقاء القادم لنشير إلى ما أعطاه الله -عزّ وجلّ- لقارون، ومع ذلك ماذا استفاد منه؟ وبأي شيء خرج من هذا المال؟ أو بأي شيء استطاع أن يرفعه هذا المال إلى مكانة كان هو يريد أن يتبوأها؟ لم يحصل من هذه الدنيا على شيء، كذلك الذي يمتعه رب العالمين -سبحانه وتعالى- في هذه الدنيا الفانية، ثم يؤول أمره بعد ذلك إلى نار جهنم، والعياذ بالله -تبارك وتعالى- لا يمكن أن يُقارَن أبدًا بمن متعه أو وعده رب العالمين -سبحانه وتعالى- بالجنة التي أعدها للمتقين، ولكن بشرط أن يؤمن العبد برب العالمين -سبحانه وتعالى.

أما قول الحق -تبارك وتعالى: ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾؛ يعني مِنَ المعذَّبين، وهذا كقول الحق -تبارك وتعالى: ﴿ وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾[الصافات: ٥٧]، هذه الآية قيل بأنها نزلت في النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وفي أبي جهل، وقيل: نزلت في النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وحمزة وأبي جهل، والصواب لدى كثير من المفسرين أنها عامة.

المحور الثاني في هذا اللقاء بعنوان: توبيخ المشركين في يوم الدين، وبيان أن المتصرف في الكون رب العالمين، ونفتتح هذا المحور بقول الله -تبارك وتعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾، هذا المحور نفتتحه بهذا القول المبين، من كلام الحق -تبارك وتعالى- وهذه الآية تُبَيِّن أن الله -عزّ وجلّ- يُوَبِّخ المشركين في يوم القيامة، ويناديهم: ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾؟ لقد اتخذتم لله -عزّ وجلّ- الأنداد، ودعوتموهم من دون الله -سبحانه- وركنتم إليهم، وظننتم أن ذلك سيُنَجِّيكُم في الدنيا، ومن كان منكم يعتقد في الآخرة أنه أيضًا سينجو من عذاب الله لأنه لجأ إلى هؤلاء المشركين، وعندما يُعْرَض هؤلاء العباد ويقفون أمام يَدَيْ رب العالمين -سبحانه وتعالى- سيتخلَّى عنهم جميع الشركاء، ولن يحضر معهم واحد على الإطلاق، بل ستتقطع بينهم العلائق والأنساب، ولذلك رب العالمين يُبَكِّتُهُم ويُوَبِّخُهُم، ويُدخِل على قلوبهم الحسرة

والندامة، ؟ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ؟، أين الذين دعوتموهم من دون الله؟ أين الذين لجأتم إليهم وطلبتم منهم وسألتموهم دون رب العالمين سبحانه؟ لقد أعرضتم عن الله –عزّ وجلّ– وإن صح التعبير، استغنيتم بما عند الله –تبارك وتعالى– ونظرتم إلى هؤلاء الذين ؟ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا ؟[الرعد: ١٦]، هؤلاء الناس في هذا الموطن سيقولون قولا سَجَّله القرآن الكريم: ؟ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ؟ قال الذين حق عليهم القول: يعني أيضًا حق عليهم العذاب، قيل: القائل ذلك الشيطان، وقيل: الذي يقول ذلك هم رؤساء الضلال في كل أمة، وقد حقت عليهم كلمة العذاب، يقولون وكأنهم يعتذرون: ؟ رَبَّنَا هَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا ؟؛ يعني هؤلاء القوم الذين أغويناهم وصرفناهم عن الحق وجعلناهم يعبدون غيرك، نحن أغويناهم؛ لأننا غَوَيْنَا، ولكن كان ذلك باختيارهم، ثم يتبرأ كل واحد من هؤلاء من الآخر ويقولون: ؟ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ؟ وهنا لا شك أن هؤلاء المشركين ستَتَقَطَّع أنفسهم حسرات عند هذا الأمر، إن قلنا إن الذي حق عليه القول هو الشيطان سيكون الشيطان من أوائل المتبرئين من جميع العصاة في يوم القيامة: ؟ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ؟[الرعد: ٢٢]، ويكفي هذا إلى آخر ما جاء في هذا السياق، تَبَرُّؤ من الشيطان من أتباعه، وأيضا ستحدث براءة من الشركاء والمشركين في يوم الدين، المشرك دعا شريكا من دون الله، ولجأ إليه، وطلب أن يحميه سواء كان له وجود على ظهر الأرض، أم كان غير ذلك من الأصنام أو الأحجار، أو قوة عالمية مثلا مدمرة لجأ إليها أقوام من الناس، هؤلاء جميعا سيتبرأ كل واحد منهم من الآخر، وفي ذلك يقول رب العالمين في هذه الآية: ؟ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ؟، في سورة البقرة: ؟ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ؟١٦٦؟ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا ؟[البقرة: ١٦٦: ١٦٧] دليل على أن البراءة وقعت من الفريقين، والله –عزّ وجلّ– يبين أن هذا الوقت سيكون عليهم حسرة وندامة: ؟ كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ؟[البقرة: ١٦٧]، ويقول رب العالمين سبحانه: ؟ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ؟٨١؟ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ؟[مريم: ٨١: ٨٢]، كما قال أيضا سبحانه: ؟ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ؟٥؟ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ؟[الأحقاف: ٥: ٦].

ولا أود أن أطيل عند هذا المقطع، ففي سورة يونس جاء أيضًا تصوير في القرآن الكريم، عندما يفصل الله –عزّ وجلّ– بين الشركاء والمشركين، وكل واحد منهم واقف أمام الآخر، ويعلن البراءة من أخيه، ويستشهد برب العالمين –سبحانه وتعالى– أن كل واحد منهم ما كان يعبد الآخر، ولا يعرفه في هذه الدنيا، ولذلك نقول لهؤلاء الذين أشركوا بالله –عزّ وجلّ– ارجعوا عن قريب، فكل من اتخذتموهم من دون الله –تبارك وتعالى– لن ينفعوكم شيئًا، ولن يقفوا إلى جواركم في يوم الدين، ولذلك يقول رب العالمين بعد أن ناداهم وقال: ؟ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ؟، يأتي بعد هذا القول: ؟ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ؟٦٤؟ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ؟، أيضًا يخبر رب العالمين –سبحانه وتعالى– في هذه الآية أنه يقول للمشركين في يوم الدين على سبيل التوبيخ: ؟ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ؟ الذين كنتم تلجؤون إليهم من دون الله –عزّ وجلّ– وقد يستشكل إنسان فيقول: لماذا يقول الله –عزّ وجلّ– لهم: ؟ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ؟؟ الجواب: أن هذا على حسب معتقدهم، لأنهم كانوا يدعونهم من دون الله، والله –عزّ وجلّ– يريد أن يقيم أيضا الحجة عليهم في يوم القيامة، ويُبَكِّتَهُم ويُقَرِّعَهُم بهذا الأمر فيقول لهم: ؟ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ؟ وهو –سبحانه وتعالى– يعلم أن الشركاء لن يستجيبوا لهم، هم سيدعونهم من دون الله –تبارك وتعالى– أيضا ولكن هل من مجيب؟ هل من أحد يمكن أن يتقدم بين يدي الله –تبارك وتعالى– لكي يفعل شيئًا؟ لا يمكن بحال، ولذلك رب العالمين –سبحانه وتعالى– يقول بعد ذلك: ؟ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ؟ قوله تعالى هنا ؟ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ؟: فَسَّرَهَا أهل العلم بأنهم عندما يُعاينُون العذاب يودُّون أن لو كانوا من المهتدين ومن أهل الإيمان، فعندما يشاهد هؤلاء الناس العذاب ويرونه واقعًا لا محالة، عندئذ سَيَوَدُّ الكافر أن يكون من أهل الإيمان ومن المهتدين، وبعد أن قَرَّرَ رب العالمين –سبحانه وتعالى– نفي الشركاء حتى في يوم الدين، وبين عجز هؤلاء الشركاء عن أن ينفعوا هؤلاء المشركين في يوم الدين كما لم ينفعوهم في الدنيا، يأتي سؤال آخر عن الأنبياء والمرسلين، وفي ذلك يقول رب

العالمين: ؟ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ؟؛ يعني ماذا كان من خبركم؟ وماذا فعلتم مع هؤلاء الأنبياء والمرسلين، ولقد بين لنا نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- كما في حديث البراء بن عازب: "أن كل مقبور سيُسْأل عن ربه، وعن دينه، وعن النبي الذي بُعِثَ فيه -صلى الله عليه وآله وسلم"، وقد جاء في الحديث أن المؤمن يُوَفَّق للإجابة، رغم أن الأسئلة معلومة اليوم، ولكن لا يستطيع أن يجيب عنها إلا من كان مؤمنا برب العالمين -سبحانه وتعالى جل في علاه.

وأما الكافر فلن يستطيع أن يجيب فيقول لا أدري، هاه هاه لا أدري، ثم يقول رب العالمين مُعَقِّبًا على سؤاله عن الأنبياء والمرسلين: ؟ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ ؟ عَمِيَت عليهم الأنباء: أي لا يعرفون جوابًا، ولا يستطيعون أن يقوموا بِرَدٍّ عندما يُسْألون: ماذا أجبتم المرسلين؟ لا يجدون عندهم جوابًا، لأنَّ نفس الأنبياء والمرسلين في هذا اليوم يقولون: "اللَّهُمَّ سَلِّم اللَّهُمَّ سَلِّم" وعندما يُسْأل الأنبياء أيضا في يوم الدين يقولون: "لا علم لنا إلا ما علمتنا" ويَكِلُون أمر كل شيء إلى مَنْ؟ إلى رب العالمين -سبحانه وتعالى- فيبقى الأمْر.

هؤلاء الناس الذين كفروا ولم يؤمنوا برب العالمين -سبحانه وتعالى- لا شك أن الأنباء ستصير كالعمى عليهم جميعا فلا يستطيعون جوابًا، ؟ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ ؟.

ثم يقول رب العالمين سبحانه: ؟ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ؟ الله -عزّ وجلّ- بعدما بَيَّنَ في الآيات السابقة موقفًا من مواقف يوم القيامة، وبَيَّنَ أن هؤلاء الناس الذين كفروا بالله -عزّ وجلّ- سيؤول أمرهم إلى نار جهنم، ويكفي ؟ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لاَ يَتَسَاءَلُونَ ؟ فتح رب العالمين أيضا لهم باب التوبة، وشجعهم عليها كي يردَعَهُم عن الكفر، والله -عزّ وجلّ- لا يستفيد شيئًا من كفر الكافر: ؟ مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ؟[النساء: ١٤٧]، الله -تبارك وتعالى- يرضى لعباده الإيمان يرضاه -سبحانه وتعالى- لأنه يحب الإيمان، ويحب الحق، ويحب العدل، ويحب الإيمان بالأنبياء والمرسلين، ولكن المشركين اختاروا هذا بأنفسهم، والله -عزّ وجلّ- يُرغبهم في التوبة ويدعوهم إليها، ويُبَيِّن لهم فوائدها: ؟ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ؟ "عسى" هنا في الحقيقة من الكرام تحقيق؛ يعني لما إنسان كريم يقول: عسى أن أُتِمَّ شيئًا مثلا فهذا منه تحقيق، فما بالُنَا بأكرم الأكرمين وهو رب العالمين -سبحانه وتعالى- ولذلك قال العلماء: "عسى من الله واجبة"؛ يعني أن الله -عزّ وجلّ- يحقق ما قاله في قوله: ؟ فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ؟، وذَكَرَ بعض المفسرين أن المراد بقوله تعالى: ؟ فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ؟؛ يعني إن تاب وأصْلَحَ حَالَهُ ولم يرجع عن التوبة، يُرْجَى له الفلاح عند الاستمرار على الطاعة، هنا في الحقيقة فائدة في هذه الآية قبل أن ننتقل منها ألا وهو الإيمان والعمل الصالح أمر ضروري، ولعلنا نأتي إليه وإلى ذكره في لقاء آخر -إن شاء الله تبارك وتعالى.

أنتقل إلى قول الحق -جل ذكره: ؟ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ؟٦٨؟ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ؟ يُخبر رب العالمين -سبحانه وتعالى- أنه المتفرد بالخلق، وأنه الذي يفعل ما يشاء، وأن الخيرة ترجع إليه -سبحانه وتعالى- وحده دون سواه، وأن الأمْرَ أمرُه وأنه لا ينازعه أحد من الشركاء الذين لجأ إليهم المشركون دون الله -عزّ وجلّ- وكأن الآية تريد أن تقول لهؤلاء المشركين: كيف لجأتم إلى غير الله -عزّ وجلّ؟ لجأتم إلى قوم لم يخلق أحدهم شيئًا، ولم يقدم لكم رزقا، ولم يفعل لكم أمرًا، ولم يخرجكم إلى هذه الحياة الدنيا، ولم يُمِتْكُم، ولن يعيدكم بعد ذلك من جديد، والذي يفعل كل ذلك على الحقيقة هو رب العالمين -سبحانه وتعالى جَلَّ في علاه- ؟ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ؟ فالمشيئة مشيئته، والأمر راجع إليه وحده دون سواه، ؟ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ؟، "ما كان لهم الخيرة" قال بعض المفسرين ومنهم الإمام الحافظ ابن جرير -رحمه الله تبارك وتعالى- بأن "ما" في قوله تعالى: ؟ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ؟: اسم موصول بمعنى "الذي"، وفي الحقيقة ضَعَّفَ هذا القول الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله تبارك وتعالى- وهو الراجح -إن شاء الله- لأن "ما" هنا نافية على الراجح، وليست اسما موصولا بمعنى الذي،

ويكون المعنى: أن الله -عزّ وجلّ- نَفَى عن غير الله -تبارك وتعالى- أن يكون له مشيئة أو خيار في الخلق أو الكون، والله هو المتفرد بذلك، والذي يرجح ذلك أن الله نَزَّهَ نفسه فقال: ﴿ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾، وبالتالي لا دليل للمعتزلة في وجوب الأصلح على الله -تبارك وتعالى- لأن المعتزلة قالوا: إن الله يجب عليه أن يفعل الخير لعباده أخذًا من أن "ما" هنا اسم موصول بمعنى "الذي"، والأمر ليس كذلك.

ثم أكَّدَ رب العالمين -سبحانه- ربوبيته على خلقه، وأنه يفعل ما يشاء بإشارة إلى أنه من مقتضيات أنه خالق ورازق ومالك ومدبر، يعلم السر والنجوى، وفي ذلك يقول: ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ فالذي يعلم السر والنجوى هو رب العالمين -سبحانه وتعالى- وهذا يدل على ربوبية الله -تبارك وتعالى- على خلقه، وأن غيره لا يملك ذلك.

ثم يقول سبحانه مبينا وحدانيته -سبحانه وتعالى جل في علاه- وأنه هو الإله الحق الواحد الذي لا يُشاركه أحد في ألوهيته فيقول: ﴿ وَهُوَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾، لما ذكر رب العالمين -سبحانه وتعالى- موقف المشركين في يوم الدين، وأن آلهتهم لن تنفعهم شيئًا ذَكَرَ -سبحانه وتعالى- أنه هو الإله الحق الذي لا إله إلا هو، ويجب على العباد أن يفقهوا ذلك، وأن يُفْرِدُوه -سبحانه وتعالى- بالوحدانية والعبادة دون سواه، وطالما أنه لا إله إلا هو، فهو -سبحانه وتعالى- له الحمد في الأولى والآخرة، له الحمد في الدنيا كما -أيضًا- له الحمد في الآخرة، وقد أثنى رب العالمين على نفسه بالحمد، وأثنى عليه الأنبياء والمرسلون، وأهل الإيمان يُثنون على ربهم بالحمد، وثناؤنا على الله -عزّ وجلّ- موجود ونحن مأمورون به، وهو موجود في كتاب الله -تبارك وتعالى- ولكني أود أن ألْفِتَ النظر إلى أن -أيضا- أهل الإيمان سيثنون على الله -عزّ وجلّ- في الآخرة، لأنه هنا قال: ﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى ﴾ يعني في الدنيا ﴿ وَالآخِرَةِ ﴾، والحمد في الآخرة سيكون من أهل الإيمان أيضًا، فالله -عزّ وجلّ- عندما يُدخل المؤمنين الجنة سيقولون: ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾[الزمر: ٧٤]، ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[يونس: ١٠]، ﴿ وَلَهُ الْحُكْمُ ﴾ يعني أنه هو الذي يفصل بين العباد؛ لأنَّ العباد جميعا سيرجعون إليه: ﴿ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

وتستمر الآيات في بيان بعض الأشياء التي تتعلق أيضًا بإثبات ألوهية رب العالمين -سبحانه- وأنه هو المستحق للوحدانية وللعبادة، وأنه هو المتفرد أيضًا بالخلق والتكوين، فيقول سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أفلا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، حقيقةً هذه الآيات تحتاج منا إلى وقفات متعددة، الله -عزّ وجلّ- يَتَحَدَّى العالم أجمع: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا ﴾ سرمدا: يعني أبد الآباد، من السَّرْد وهو التتابع ﴿ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ﴾ هل أحد يستطيع؟ لو كان الليل أبد الآباد، وقائما على الناس؟ وبالتالي ستتعطل مصالحهم لذلك، ولكن مع كل هذا لا يستطيع أحد من المخلوقين الذين اتخذهم المشركون شركاء أن يُرِيَهُم يومًا واحدًا من الضياء، وكذلك لو كان العام كله والدنيا كلها كانت ضياء إلى يوم القيامة، نهارًا سرمدًا إلى يوم القيامة، مَنْ إله غير الله يأتي للعباد بليل يستريحون فيه، يسكنون فيه؟ ولذلك قال رب العالمين: ﴿ أَفلاَ تُبْصِرُونَ ﴾، وسرُّ التعبير في الآية الأولى ﴿ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ﴾، وفي الثانية بـ ﴿ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾؛ لأنَّ في الآية الأولى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا ﴾ الحاسَّة التي تعمل في الليل ماذا؟ السمع، فقال: ﴿ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ﴾، ولما قال: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ والنهار يضيء فيرى الإنسان فيه فقال: ﴿ أَفلاَ تُبْصِرُونَ ﴾، والذي يملك ذلك رب العالمين، وهذا كله برحمته وفضله، ولذلك قال: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ الآية ذكرت فوائد الليل والنهار وهي ثلاث:

لتسكنوا فيه، ولتبتغوا من فضله، ولعلكم تشكرون.

وفي هذه الآية كما قال علماء البلاغة: لفٌّ ونَشْرٌ، ؟ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ؟ فجمع بين الليل والنهار، ثم بعد ذلك ذكَرَ ما يكون من فوائد لِلَّيْل، وما يكون من فوائد للنهار وترك الأمر للمستمع ليرد كل شيء إلى أصله، فالليل يسكن فيه العباد، والنهار يتحرك فيه الناس ليبتغوا من فضل الله -تبارك وتعالى.

ثم تُخْتَم الآيات بقول الله -تبارك وتعالى: ؟ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ؟٧٤؟ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ للهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ؟ هذه الآيات تُخْتَم أيضًا بنداءٍ ثانٍ على سبيل التقريع والتوبيخ لهؤلاء الذين أشركوا مع الله -تبارك وتعالى- والله -عزّ وجلّ- يقول لهم: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون؟ هؤلاء الذين افتريتم على الله -عزّ وجلّ- الكذب، وقلتم بأنهم مع الله أين هم؟ ثم لا يكون لهم من يشهد لهم، أو من يقف إلى جوارهم، وهنا أيضا تتم عليهم الحسرة، عندما يقول رب العالمين: ؟ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ؟ قيل: الشهيد هو نبي كل أمة، ؟ فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ؟ على أن أنبياءكم لم يبلغوكم الرسالة، فتنقطع عند ذلك الأعناق، ولا يستطيع الكافر أن يجيب، ويعلم الجميع أن الحق لله، وسيغيب عن هؤلاء المشركين ما افتَرَوا على الله وهم في الدنيا من الكذب، وقد جاءت روايات كثيرة أن أُمَّة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ستشهد على من تَقَدَّمَهَا من الأمم، وصحت في ذلك الأخبار عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كما جاء عن نوح -عليه السلام- لمَّا يكذبه قومه ويقولون لربهم: ما أتانا من رسول، يقول نوح لربه: بلغتهم، من الذي يشهد لك، فيقول نوح -عليه السلام- محمد وأُمَّته، فتقوم هذه الأمة لتشهد لنوح -عليه السلام- وهكذا مع سائر الأمم التي تقدمت هذه الأمة المحمدية، ونكتفي بهذا القدر وصلِّ اللهم وسلِّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بارك الله فيكم شيخنا الحبيب بالنسبة لأسئلة الحلقة السابقة كان السؤال الأول: اشرح قوله تعالى: ؟ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ؟؟

وكانت الإجابة: ؟ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ ؟: أي وما كنت يا محمد -صلى الله عليه وسلم- بجانب الجبل الغربي، وهو المكان الذي كلم الله تعالى به موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطئ الوادي.

وقوله تعالى: ؟ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ ؟: أي حين أوحينا إلى موسى بالنبوة وأرسلناه إلى فرعون وقومه.

قوله تعالى: ؟ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ؟: أي وما كنت من الحاضرين في ذلك المكان، ولكن الله أوحى إليك ذلك ليكون حجة وبرهانا على صدقك.

قال الإمام ابن كثير: يقول تعالى منَبِّهًا على برهان نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- حيث أخبر بالغيوب الماضية خبرًا كأنه شاهده ورآه، وهو رجل أمي لا يقرأ شيئًا من الكتب، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئًا من ذلك، والمعنى: ما كنت حاضرًا لذلك ولكن الله أوحاه إليك لتخبرهم بتلك الغيوب.

الجواب صحيح، ولو أتممناه بعد أن جاء هذا الجواب -وهو سديد- بأن في هذا دلالة على صدق نبوة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم.

والسؤال الثاني: من هم الثلاثة الذين يؤتون أجرهم مرتين؟

وكانت الإجابة: الثلاثة الذين يؤتون أجرهم مرتين: عن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم: (رَجُلٌ من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي، وعبد مملوك أدَّى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت له أَمَة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجه) والله تعالى أعلم.

الجواب صحيح والحمد لله.

يقول: في قوله -تبارك وتعالى: ؟ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ ؟ الآية.. أليس في هذه الآية رد على من زعم أن كلام الله -تبارك وتعالى- نفسه قديم؟.

نعم، جزاك الله -تبارك وتعالى- خيرًا، هذا كلام صحيح، واكتفينا بما سبق أن ذكرناه في الآيات السابقة إمَّا في سورة النمل أو في سورة القصص مما جاء فيه ذكر بأن رب العالمين -سبحانه وتعالى- نادى موسى -عليه السلام- وكلمه وخاطبه، ولعل في السؤال السابق الذي سمعنا جوابه الآن أيضا ما يؤكد ذلك ويشهد لك، هذا كلام صحيح. جزاكم الله خيرًا.

يقول: في قوله -تبارك وتعالى: ؟ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً ؟ الآية.. أليس في هذه الآية دليلٌ على أن إيمان العبد الجاهل يصح، وأن من قال إن العبد عليه أن يتعرَّف على الله -تبارك وتعالى- بفطرته سواء أَرْسَلَ رسولاً أو لم يرسل رسولا، أن هذا الكلام لا يصح؟.

هو لا شك يا أخي -الله يبارك فيك- أن الله -عزّ وجلّ- فَطَرَ عباده على الإيمان بأنه -سبحانه وتعالى- خالق هذا الكون وأنه مدبره وغير ذلك، ولكن لا يتم الحساب أو الثواب والعقاب إلا على بعثة الأنبياء والمرسلين، فلا بد من أن تقوم الحجة على العباد، والله -عزّ وجلّ- ربط هذه الحجة بالبلاغ، وببعثة الأنبياء والمرسلين، فالله لا يأخذ العبد على ما عنده، وإن كانت عنده من وسائل المعرفة كالعهد أو الميثاق الأول الذي أخذه الله -عزّ وجلّ- على بني آدم من ظهر آدم -عليه السلام- وكذلك ميثاق الفطرة الذي أخذه عليهم أيضًا رب العالمين وغير ذلك، ولكن الله -عزّ وجلّ- لا يعاقب ولا يجازي بالإحسان إلا بعد بعثة الأنبياء والمرسلين.

أسئلة المراجعة.

السؤال الأول:

كيف تُوَفِّق بين قولِهِ تعالى: ؟ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ؟ وبين قوله: ؟ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ؟؟

والسؤال الثاني:

ما الأغراض التي خَلَقَ الله لأجلها الليل والنهار مع ذكر الدليل من الآيات؟

الدرس الثالث عشر

قصة قارون

يسرنا -إن شاء الله تبارك وتعالى- في هذا اللقاء أن نختم الآيات الباقية في سورة القصص بفضل الله -تبارك وتعالى- وسنتحدث في محاور متعددة حول هذه الآيات:

المحور الأول بعنوان: قصة قارون ومسلكه مع قومه وأخذ الله له.

المحور الثاني: العاقبة المحمودة لأهل الإيمان والتقوى بفضل رب العالمين.

المحور الثالث: تكريم الله لنبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- وحفظه له.

ولنستمع إلى آيات اللقاء من أخينا الشيخ عبد الرحمن فليتفضل...

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

؟ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ؟٧٦؟ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ؟٧٧؟ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ؟٧٨؟ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ؟٧٩؟ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ؟٨٠؟ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ؟٨١؟ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلاَ أَن مَّنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ؟٨٢؟ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ؟٨٣؟ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ؟٨٤؟ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ؟٨٥؟ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ؟٨٦؟ وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ؟٨٧؟ وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ؟[القصص: ٧٦: ٨٨]

أحسنت، وجزاك الله خيرًا.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين وبعد.

محورنا الأول في هذا اللقاء -كما سمعتم آنفا- حول قصة قارون، وقبل أن أدخل في الآيات الواردة في ذلك أود أن أقول بأن الله -عزّ وجلّ- افتتح سورة القصص بقصة فرعون واختتمها بقصة قارون، والسورة مكية، وكأنها خطاب موجه من الله -عزّ وجلّ- إلى أهل مكة بما يحمله هؤلاء الناس من كبر وغرور، وبما لدى بعضهم من المال وغير ذلك، وكأن الله -عزّ وجلّ- يريد أن يقول لهم: إن فرعون بلغ من العتوّ والاستكبار وكان عنده ما عنده من الجنود، وكل ذلك دفعه إلى أن يبغي على عباد الله -عزّ وجلّ- وأن يتكبر عليهم، وأن

يذيق بني إسرائيل أقسى ألوان العذاب، ولكن نهايته معلومة كما ذكرناها سابقا، والله –عزّ وجلّ– قد أغرقه وجنده في البحر، وتُختم هذه السورة أيضا –وهي مكية كما ذكرت– بقصة قارون، وقارون قد طغى أيضا وبغى وتجبر على عباد الله –عزّ وجلّ– بسبب ما أعطاه الله –عزّ وجلّ– من مال، فليستمع العالم أجمع، من كانت عنده قوة عسكرية أو قوة مالية مثلا أن كل ذلك لا ينفع شيئا، والله –سبحانه وتعالى– هو الذي ملّكَ، وهو الذي أعطى، وهو الذي يُبيد كل ذلك بقوله للشيء كن فيكون، ولذلك –كما ذكرت– كان خطابًا أولا موجه إلى أهل مكة، ويوجه اليوم إلى كل من طغى وتكبر إما بسبب جنده أو بسبب ماله على عباد الله –تبارك وتعالى.

وسيتبين لنا من خلال هذه الآيات أن العاقبة للمتقين، وأن الحق لأهل الإيمان الذين آمنوا برب العالمين –سبحانه وتعالى– فلهم الحق، هم متمسكون به في الدنيا وسيدخلون أيضا دار الحق في الدار الآخرة.

أما عن قصة قارون فافتتحها رب العالمين –سبحانه وتعالى– بقوله: ؟ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ؟ إلى آخر ما جاء في هذا السياق، ؟ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى ؟ ظاهر القرآن هنا الذي دلَّت عليه هذه الآية أن قارون كان من جماعة موسى، وقيل: كان قريبا له، ذكر بعض المفسرين أنه كان ابن عمه، وبعضهم قال بأنه أيضا كان عمًّا لموسى –عليه السلام– وقد ذكر قَتَادَة بن دَعَامَة السَّدُوسِيّ –رحمه الله– أنه كان ابن عم موسى –عليه السلام– وكان يُقال له المُنَوَّر لحسن صوته بالتوراة، ولكنه نافق كما نافق السَّامِرِيّ، وتفيد مجموع هذه الروايات أنه كان مؤمنًا، وبالتالي إشارة القرآن الكريم إلى أنه من قوم موسى يعني أنه كان قد آمن وصدَّق بموسى –عليه السلام– ولكن هذا الرجل قد أعطاه الله –عزّ وجلّ– من المال الشيء الوفير، فلما أُعطي هذا المال قال الله عنه: ؟ فَبَغَى عَلَيْهِمْ ؟ يعني تجبر وتكبر على خلق الله –تبارك وتعالى– قيل: بَغْيُهُ كان في أنه لا يعطي الفقراء حقهم من المال، وقيل: كان يتسلط بماله على عباد الله، وقيل: كان يتبختر ويخرج في ميادين عامة ومعه من الحشم ومن الخدم وبين يديه من الكنوز ومن المال الشيء الكثير يباهي به عباد الله –تبارك وتعالى– وغير ذلك من ألوان البغي، وكل هذا يدخل تحت قول الحق –تبارك وتعالى: ؟ فَبَغَى عَلَيْهِمْ ؟.

ثم يخبر رب العالمين سبحانه أن الذي أعطاه المال هو الله، وما كان ينبغي له أن يفعل ذلك، فقارون في الأصل لا يملك شيئًا، والذي مَلَّكَهُ هو رب العالمين، وفي ذلك يشير الله –عزّ وجلّ: ؟ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ ؟ كلمة "وآتيناه" تفيد أن رب العالمين –سبحانه وتعالى– هو الذي يملك الملك كله، وأن ما أُعطيه قارون إنما هو من الله –عز وجل– والله قد أعطاه من الكنوز ربما يمكن أن نقول: ما لا يعلمه إلا الله –تبارك وتعالى– وقد ذكر أهل العلم كلامًا كثيرًا فيما أعطيه هذا الرجل، وما تفضل رب العالمين –سبحانه وتعالى– به، ولكن القرآن الكريم هنا اقتصر على قول الحق –تبارك وتعالى: ؟ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ؟، العبارة القرآنية تفيد: أن مفاتيح الخزائن التي وضع فيها قارون ما لديه من مال يتمتع به كانت تَعْجَزُ العصبةُ القويةُ من الرجال عن حملها المفاتيح، قيل: كان هذه المفاتيح من جلود، وكل مفتاح على قدر إصبع كامل، ومع كل ذلك كانت العصبة القوية من الرجال تعجز عن أن تحمل هذه المفاتيح.

لو تخيلنا يعني.. إذا كان هذا مجرد المفاتيح فما بالنا بالخزائن أنفسها! إذن ملك عريض، جاه كبير، أعطاه رب العالمين –سبحانه وتعالى– لهذا الرجل، كَمٌّ عظيمٌ جدًّا من المال، والعصبة عدد كبير لا يقل عن عشرة، كما جاء في قول إخوة يوسف: ؟ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ؟ وكانوا عشرة؛ لأن يوسف وأخاه لم يكونا معهم، هم كانوا اثني عشر، فعندما يقولوا: ؟ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ؟ ونُخْرِج منهم اثنين سيصبحون عشرة.

ولذلك قال أهل العلم: العصبة تطلق ويمكن أن تبدأ من العَشرة، فالله –عزّ وجلّ– يبين أن العصبة؛ يعني العشرة الأقوياء الأشداء من الرجال كانوا يعجزون عن حمل المفاتيح التي أُغلقت عليها كنوز هذا الطاغية، ولكنه كما ذكر الله في أول الآية كان يبغي بهذا المال الذي أعطاه الله إياه، هنا انبرى له أهل الصلاح والخير من قومه،

ونصحوه بنصائح ثمينة غالية بدؤوها بقولهم له: ؟ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ؟؛ يعني لا تفرح فرح المستكبرين، لا تكن أَشِرًا بما أعطاك الله -عزّ وجلّ- من مال، لا تتخذ هذا المال وسيلة من وسائل البغي والسيطرة والتجبر والتكبر على عباد الله -تبارك وتعالى- ثم توالت النصائح على هذا الرجل وقالوا له: ؟ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ؟، "وابْتَغِ": يعني اطلب فيما أعطاك الله -عزّ وجلّ- الدار الآخرة، فرصة أن مكّنك الله وأعطاك من المال ما أعطاك ويَسَّرَ لك أمرك في هذه الحياة، فأعطاك الله -عزّ وجلّ- مالاً، والمال حقيقة هو مال الله، فهي فرصة أنك تبتغي وتطلب فيما أعطاك الله -عزّ وجلّ- ما يجعل الله -تبارك وتعالى- يرضى عنك في الدنيا والآخرة؛ لأن المال مال مَن؟ مال الله -تبارك وتعالى- فابتغ فيه ما أعده الله لعباده وأوليائه المتقين، ولم يقفوا عند هذا الحد وإنما نصحوه أيضا نصيحة غالية، ولعل الرجل كان مغترًّا غاية الغرور بماله وجاهه، وكان حريصا غاية الحرص على دنياه وعلى التمتع فيها، فقالوا له: ؟ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ؟ بعد أن نصحوه بالنصيحة الغالية: ؟ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ؟ ربما خشي هؤلاء الناصحون أن يفهم هذا الرجل أنهم يريدوا أن يوصلوا إليه رسالة وهي أنه لا يستمتع بما أعطاه الله من المال، وأن يُحرَم من ماله الذي أعطاه الله إياه، فكأنهم استدركوا على أنفسهم أن يفهم هو هذا الفهم، وبينوا له مَزِيَّة عظيمة جِدًّا من مزايا الدين عموما الذي نزل من عند رب العالمين سبحانه، وهذا فيه من التوازن ما فيه ؟ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ؟؛ يعني استمتع بما أعطاك الله -عزّ وجلّ- من الطيبات، كُلْ بالمعروف، واشرب بالمعروف، والبَس بالمعروف، استمتع مما أعطاك الله -عزّ وجلّ- ونحن في قرآننا يقول رب العالمين: ؟ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ؟[الأعراف: ٣٢]، فلا حَرَجَ أبدًا أن يستمتع الإنسان بما تفضَّل الله -تبارك وتعالى- به عليه، ولكن كل ذلك يكون بالمعروف، وهذا في الإسلام ظاهر وواضح غاية الوضوح، ويُعَدّ من خصائص الإسلام ومميزاته ألا وهو قضية التوازن بين الدنيا وبين الآخرة، فالإنسان لا يستغرق في دنياه بحيث يترك آخرته، ولا ينقطع لآخرته فقط بحيث يترك دنياه.

نحن ما عندنا محاسيب السيدة ولا محاسيب الحسين، وإنما يجب على الأمة الإسلامية أن تكون عاملة في هذه الحياة الدنيا، وأن تنتج، وأن تعبد الله -عزّ وجلّ- كما أمرها رب العالمين سبحانه، ولكن أيضا تسعى في الأرض، وتضرب في الأرض، وتبتغي الرزق الحلال الطيب من الأرض، وأن يستمتع الإنسان بما أحل الله -تبارك وتعالى- له من الطيبات.

ونستمر في نصائح هؤلاء الصالحين لهذا الرجل بَعْدَمَا قالوا له: ؟ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ؟ قالوا له: ؟ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ؟ وكأنهم يُذَكِّرُونه بشكر نعم الله -تبارك وتعالى- رب العالمين -سبحانه وتعالى- أَحْسَنَ إليك وأعطاك ما أعطاك، فأنت أَحْسِنْ في هذا المال كما أَحْسَنَ الله إليك، وإن شكرت يا أيها العبد؛ سيزيدك رب العالمين -سبحانه وتعالى- المال لن ينقصه رب العالمين إذا تصدقت وأعطيت منه الفقراء والمساكين وهو مال الله -سبحانه وتعالى- ثم بعد ذلك قالوا له كلمة عامَّة تبين ما افتتحه الله -عزّ وجلّ- عنه في مطلع القصة: ؟ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ؟ نصحوه بعدم البغي قائلين: ؟ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ؟ هذه في الحقيقة نصائح غالية، نصائح قَيِّمَة للغاية، لو أنها وَجَدَتْ قلبًا واعيًا، لو أنها وجدت رجلا يَفْقَه وقد فتح الله -تبارك وتعالى- عليه. قوم يقولون له: مَنَّ الله -تبارك وتعالى- عليك وتفضَّل عليك، وهذا المال فرصة لأنَّ تحجز لك مقعدًا عظيمًا جِدًّا في الدار الآخرة عند رب العالمين -سبحانه وتعالى- ولن يكلفك ذلك شيئًا.

ولكن هذا الرجل بغى بألوان الفساد المتعددة في الأرض، وكان من بغيه وجبروته وطغيانه أن أجاب بهذا الجواب على هؤلاء الذين نصحوه: ؟ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ؟، هذا الرجل لما سَمِعَ هذه النصائح لم يستمع إليها، وإنما أخذه الغرور والكبر وقال: كل ما لَدَيَّ ؟ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ؟، قال أهل العلم: يريد أنه كان يعرف ألوان المكاسب والتِّجَارَات، وأنه يريد أن يقول لهم: هذا "بشطارتي" وبذكائي، هذا المال الذي تقولون بأنه مال الله أنا ما حصلت عليه إلا بسبب ما لَدَيَّ من مواهب متعددة، استطعت من خلالها أن أجمع هذا المال،

وقيل: معنى ؟ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ؟ يعني أن الله -تبارك وتعالى- أعطاني هذا المال لعلمه أنني أَسْتَحِقُّ هذا المال، وللأسف الشديد هذا المفهوم موجود عند بعض الناس حتى يوم الناس هذا، نسمع بعض الناس يقول لك: غَنِيّ الدنيا هو غَنِيّ الآخرة، وأنه طالما أن رَبَّنَا وَسَّعَ عليه في الدنيا فهو كذلك أيضًا مُوَسَّع عليه في الدار الآخرة، هذا فهم مغلوط، وهو من فهم قارون في الأصل: ؟ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ؟ رَدَّ الله -تبارك وتعالى- عليه هذا القول وقال: ؟ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ ؟ هذا الرجل يعلم، والإشارة بـ ؟ أَوَلَمْ يَعْلَمْ ؟ لأنه -كما ذَكَرْتُ سابقًا- كان يقرأ التوراة، وكانت هذه الأخبار موجودة لديهم، فكان يعلم من خبر السابقين أن رب العالمين -سبحانه وتعالى- أهلك مَن هو أشد منه قوة وأكثر جمعا، وهذا واقع، وكان هذا الرجل يعلمه، والله -عزّ وجلّ- لما أشار: ؟ أَوَلَمْ يَعْلَمْ ؟ فهمنا من ذلك أنه كان يعلم ذلك، ولكن رب العالمين -سبحانه وتعالى- يُذَكِّرُهُ كَمَا ذَكَّرَهُ الصالحون، ولكنه لم يَسْتَجِبْ، ولذلك سيأتي أن رب العالمين -سبحانه وتعالى- أخذه، والله -عزّ وجلّ- قال: ؟ وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ؟ الإنسان إذا وصل إلى هذه المرحلة لا يُسْأَلُ عن ذنبه، ما معناها؟

قال أهل العلم: الله -تبارك وتعالى- إذا أَهْلَكَ هؤلاء الظالمين لا يَسْأَلُهُم عن ذنوبهم؛ لأنَّ بعض هؤلاء الظالمين لا يستحقون أن يُسألوا حتى ولو للحساب، وإنما يُجَرُّون جَرًّا إلى نار جهنم بسبب شدة البغي والطغيان، فَبَعْدَمَا يهلكهم رب العالمين -سبحانه وتعالى- لا يحتاج الأمْرُ معهم إلى مراجعة ولا إلى سؤال، وهذا الجزء من الآية لا يتعارض أيضًا مع قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ؟[الأعراف: ٦]، ظاهر الآية تفيد أن الجميع سَيُسْأَل، قال أهل العلم بأن هذا يكون في مواطن مختلفة؛ يعني قد يُسأل في موطن ولا يُسأل في موطن آخر، وقيل أيضًا كلامٌ جميلٌ: أنه لا يُسأل عندما يكون باغيًا وظالِمًا عن جرمه وظلمه لشدته وبغيه، وإنما يؤاخذ فلا يُسأل عن ذلك، والسؤال إن طُلِبَ منه فَيُمْنَع منه، سؤال ماذا؟ سؤال الاستعتاب والاعتذار، فقد يطلب الكافر، وقد يطلب المنافق، وقد يطلب المشرك، قد يطلب الكلام والاستفسار والسؤال، فيمنع من ذلك لماذا؟ إذا كان السؤال من أجل الاعتذار، وهذا وارد في قول الله -تبارك وتعالى: ؟ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ؟[المرسلات: ٣٦].

ثم يقول رب العالمين -سبحانه وتعالى- مصورًا حال هذا الرجل بعدما ذَكَرَ عنه أنه آتاه من المال ما آتاه، وأن قومه قد نصحوه بهذه النصائح الثمينة الغالية، ولو فَقِهَهَا وفَهِمَهَا وعَمِلَ بها لكان له شَأْنٌ آخر، ولكن إرادة رب العالمين -سبحانه وتعالى- سابقة.

قارون بعدما نُصِحَ بهذه النصائح لعله أخذ في نفسه من قومه، وكأنه من بغيه وطغيانه وجبروته قال: كيف يتوجه إِلَيَّ هؤلاء الفقراء الضعفاء المساكين بهذه النصائح؟ كيف يخاطبونني بهذا الأمْر؟ فَجَهَّزَ موكبًا عظيمًا وخرج به على قومه، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ؟ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ؟٧٩؟ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ؟ أولاً: يمكن أن نستفيد من هذه الآية حَقًّا أن المال فتنة؛ لأنه فَتَنَ بعض هؤلاء الناس كما سنقف على ذلك الآن، قارون خرج على قومه في زينته، وقد ذَكَرَ بعض المفسرين بعض ألوان الزينة التي خرج فيها هذا الرجل، ولم يَرِدْ إلينا فيما قرأْتُهُ وتَتَبَّعْتُه أيُّ خبر صحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- يَذْكُرُ شيئًا من ذلك، ولكن ظاهر القرآن يفيد أنه خرج معه مراكب عظيمة، وبين يديه من الحشم والزينة والخدم الشيء الكثير مما يمكن أن يظهر به الملوك، خاصَّةً إن كان هذا الرجل خرج لِيُبَيِّنَ لقومه الذين نصحوه أنه لا يقبل منهم هذا الكلام، وما كان ينبغي وهو بهذه المكانة والعظمة والأُبَّهَة والزينة أن يتطاولوا -من وجهة نظره- عليه بهذا الكلام، فكأنه أراد أن يُسْكِتَهُم بموكبه الذي ظَنَّ أنه عظيم، فخرج على قومه في زينته.

هنا انقسم الناس في شأنه إلى فريقين: قوم كفار وهؤلاء معروف أمرهم، وقيل: كان مع هؤلاء الكفار أيضًا بعضُ جَهَلَةِ وضِعافِ النفوس من المؤمنين من بني إسرائيل، وهذا هو الفريق الأول، لَمَّا شاهدوا قارون وقد

خرج عليهم في أبهى حُلَّة وأفضل زينة، قال هؤلاء الناس الذين يحبون الدنيا والحياة الدنيا: ؟ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ؟ تمنى هؤلاء الناس أن يكون لهم شَيْءٌ مما أعطاه الله –عزّ وجلّ– لهذا الرجل، هؤلاء القوم نفوسهم تطلعت إِلَى الحياة الدنيا، ركنوا إليها، أحبوها، أعرضوا –لا شك– عن الآخرة، والله –عزّ وجلّ– بَيَّنَ نوعية الفريق الآخر وماذا قالوا، وهم أُولُوا العلم: ؟ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ؟، أهل العلم، أهل الفضل، أهل الخير، أهل الإيمان ردوا على هؤلاء القوم السابقين الذين تَمَنَّوْا أن يكون عندهم ما عند قارون، ولفتوا أنظارهم إلى أن ما أعده الله –عزّ وجلّ– لأهل الإيمان في الدار الآخرة خير وأبقى: ؟ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ؟.

كلمة ؟ وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ؟ ذكَرَ بعض أهل العلم أنها من كلام هؤلاء الناس، أنهم قالوا ذلك، وقيل بأنها من كلام رب العالمين –سبحانه وتعالى– ويصبح المعنى: أن هذه الكلمة أن الله –عزّ وجلّ– يقول: هذا الكلام الذي قاله أهل العلم لا يُلَقَّاهُ إلا مَنْ؟ لا يُلَقَّاهُ إلا الصابرون.

وفي هذه الآية فائدتان لا ينبغي أن نتركها إلا بعد الإشارة إلى هاتين الفائدتين، الفائدة الأولى: فضل العلم، مكانة العلم عظيمة، وتظهر مكانة العلم من خلال هذه الآية؛ لأنَّ الله –تبارك وتعالى– قال ماذا؟ ؟ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ؟ فَدَلَّ ذلك على أن العلم يَعْصِمُ أهله عن الوقوع في الزلل والخطأ، العلم من أعظم النِّعَم التي يَمْتَنُّ رب العالمين –سبحانه وتعالى– بها على عباده، ونحن الآن في مجلس علم، وندعو إخواننا المسلمين إِلَى العلم وإلى طلب العلم، وفضل العلم ظهر أثره النافع في هذا المكان، فأهل العلم هؤلاء لم تبهرهم هذه الزينة، ولم تأخذ بِلُبِّهم أبدًا، ولم ينظروا إليها نظر إعجاب كما نظر أصحاب الحياة الدنيا، فاستفادوا هذه الفائدة العظيمة.

الفائدة الثانية في هذه الآية: أن مَعْقِدَ النجاة في الدار الآخرة يقوم على الإيمان والعمل الصالح، لأنهم قالوا ماذا؟ ؟ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ؟، وبالتالي الذي أود أن ألفت النظر إليه أن الإيمان ليست مسألة قلبية فقط أو كلمة تقال باللسان، "وإنما الإيمان اعتقاد بالجنان، وقول باللسان، وعمل بالجوارح والأركان".

وتبقى كلمة "ويل" الواردة في هذه الآية، كلمة "ويل" أصلها الدعاء بالهلاك ثم استعملت في الزجر والردع، فأهل العلم هنا أرادوا أن يزجروا الذين تمنوا أن يكون لهم ما لقارون فقالوا لهم: ؟ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ؟.

ثم تستمر الآيات لِتُبَيِّن... لأنه قد يَسْأل سائل: قارون قد خرج على قومه في زينته، ماذا كانت نهايته، وإلى أين انتهى قدمه، فرب العالمين –سبحانه وتعالى– قرر ذلك فقال: ؟ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ؟، هذا الرجل لَمَّا خرج يتبختر على عباد الله –تبارك وتعالى– يتجبر عليهم، خرج في هذه الزينة، وقد جاء في الحديث: "بينما رجل خرج يَجُرُّ رداءه إذْ خُسِفَ به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة"، وقد ذكر أهل العلم –والحديث في صحيح البخاري– أن هذا في قارون الذي خرج يتبختر في خُيَلاء بين قومه أن عاقبه رب العالمين –سبحانه وتعالى– بهذا العقاب، وتأتي "الفاء" هنا لتبين أنه بمجرد أنه خرج يتبختر في زينته عاقبه رب العالمين –سبحانه وتعالى– مباشرة بذلك؛ لأنَّ "الفاء" تفيد الترتيب والتعقيب.

والله –عزّ وجلّ– أيضًا –وهذه من مهمات تتبُّع آيات القرآن الكريم وتذوقه– قال: ؟ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ ؟ ما قال فخسفنا به فقط لماذا؟ هذا بيان للناس كافة، ولمن أُشْرِبُوا في قلوبهم حب الدنيا خاصة، أن هذه الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، لأنَّ المال والكنوز الكثيرة التي كانت عند قارون لو كانت نافعة ومهمة، أو تَلْفِتُ النظر وتسترعي الانتباه حتى لدى أهل الإيمان الذين كانوا هم أهل العلم في هذه الفترة، أو أن الله –عزّ وجلّ– بحاجة إلى شيء من هذا المال ليستكثر به، ما خسف رب العالمين –سبحانه وتعالى– به، ولكنه لا قيمة له ولا وزن، فالدنيا كلها من أولها إِلَى آخرها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، ولذلك قال رب العالمين: ؟ فَخَسَفْنَا بِهِ

وَبِدَارِهِ الأَرْضَ ؟، وقارون الذي دفعه أن يخرج متبخترًا في خُيَلاء وعظمة أمام قومه ما كان لديه من مال وما كان عنده من حشم وخدم وجنود وغير ذلك، ولكن الله -عزّ وجلّ- يقرر في هذه الآيات أن ذلك لم ينفع: ؟ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ؟، ما كان هناك أحدٌ لا مال ولا جماعة ينصرونه من دون الله، وما كان هو أيضا من المنتصرين لنفسه، ثم يقول سبحانه: ؟ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَّشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلاَ أَن مَّنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ؟.

قلت سابقًا بأن قارون لمَّا خرج يستعرض زينته أمام قومه، انقسم الناس إلَى فريقين: الفريق الأول الذي تمنى أن يكون له مثل ما لقارون لمَّا شاهد خَسْفَ الله -تبارك وتعالى- به وبداره فاقُوا واستيقظوا ورجعوا إلَى أنفسهم، ولذلك هذا دفع بعض أهل العلم إلَى أن قال: إنه كان فيهم كافرون وبعض ضِعاف النفوس من المؤمنين: ؟ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَّشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ؟ يعني أن هذه الدنيا يعطيها رب العالمين -سبحانه وتعالى- لمن يشاء من عباده، سواء آمن بالله -عزّ وجلّ- أو كفر بالله -تبارك وتعالى، لأنَّ هذه الدنيا حقيرة وضعيفة، ولا يُقاس أصحابها بما لديهم من مال، ولذلك تَنَبَّه هؤلاء الناس وذكروا هذه الحقيقة، ثم رجعوا وعادوا إلَى أنفسهم قائلين: ؟ لَوْلاَ أَن مَّنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ؟؛ يعني فضل الله -تبارك وتعالى- علينا هو الذي أبقانا، وهو الذي جعلنا نبقى بعد هذا الطاغية، رغم أنهم شاركوه نوع مشاركة عندما تمنوا أن يكون لديهم ما عند هذا الطاغية: ؟ وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ؟، وهذا يدل على أن قارون كان كافرًا؛ لأنَّ هؤلاء صرحوا بذلك: ؟ وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ؟، "ويكأن" اختلف النحاة في هذه الكلمة، ما معنى "ويكأن"؟ قيل معناها: "ويلك اعلم أن"، فَخُفِّفَت "ويلك" إلَى "ويك"، وحُذِفَت "اعلم"، وفُتِحَت نون "أن" لتدل على هذا المحذوف، فصارت: "ويكأن".

وقيل معناها: "ألم تر أن"، وقد رَجَّحَ هذا الزمخشري في "الكشاف"، أن كلمة "وَيْ" مفصولة عن "كأن"، و "وَيْ" كلمة تقال إمَّا للتنبيه أو للتعجب، و "كأن" معناها في هذا الموطن: "أظن أو أحْسِبِ" لتتمشى مع السياق؛ لأنَّ "وَيْ" عندما تكون للتنبيه أو للتعجب فكأن ظنه.. أو أنه كان يحسب أن الأمْرَ كما كان يشاهده أو يراه.

أنتقل بعد ذلك إلَى المحور الثاني في هذا اللقاء وهو بعنوان: العاقبة المحمودة لأهل الإيمان والتقوى بفضل رب العالمين، وتحته ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ؟، سبق أن ذَكَرَ رب العالمين -سبحانه وتعالى- عن أهل العلم أنهم قالوا بأن ثواب الله خير لمن آمن، وهذه الآية تؤكد ذلك، أن ثواب الله خير حقًّا لمن آمن، وأن العاقبة المحمودة هي للمؤمنين المتقين، فبعد أن خسف رب العالمين -سبحانه وتعالى- بقارون وبما كان معه من مال وحشم أو خدم تابعوه على الكفر، أبقى رب العالمين -سبحانه وتعالى- على ظهر هذه الأرض أهل الإيمان واستخلفهم فيها يستمتعون في أرض الله -عزّ وجلّ- وهم بعد ذلك في عافية أيضًا في الدار الآخرة، ولأن الدار الآخرة أهم وأحب وأولى عند مَن آمن وعمل صالحا بدأ بها رب العالمين -سبحانه وتعالى- وأشار إليها في آية مستقلة في قوله: ؟ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا ؟، هذه الدار الآخرة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت جعلها رب -سبحانه وتعالى- لقوم آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وتواضعوا ولم يستكبروا ولم يبغوا على عباد الله في أرض الله -تبارك وتعالى- وكأن هذه الآية تقول بأن من بغى كفرعون أو قارون ماذا كان حاله، وأين كان مآله؟ ثم من آمن وعمل صالحا ماذا سيكون حاله، وإلى أين سينتهي مآله؟ في جنة عرضها السماوات والأرض.

وقد وصف الله -عزّ وجلّ- هؤلاء الذين أعد لهم الدار الآخرة أنهم لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا، وبالتالي نفهم من ذلك أن من أراد الدار الآخرة يجب عليه ألا يستكبر في أرض الله بطلب العلو فيها، وألا يفسد في هذه الأرض بأي لون من ألوان الفساد، هذان شرطان مهمان لمن أراد أن تتحقق له النجاة في الدار الآخرة،

ألاَّ يتكبر، وألاَّ يبغي الفساد في الأرض، وقد يظن البعض أن من التكبر أن يتجمل أو أن يتزين الإنسان بالمعروف، هذا ليس بصحيح، فالتجمل والتطيب والتزين وغير ذلك بالمعروف أمر مشروع والنبي –صلى الله عليه وآله وسلم– كان يَلْبَس أحسن ما عنده من الثياب، خاصة عند استقباله للوفود أو في الأعياد والجُمَع وغير ذلك، ولما أتى إليه رجل –والحديث في صحيح مسلم– وقال له: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنًا فقال –صلى الله عليه وآله وسلم: (إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ)، فلا يتعارض ولا يكون هذا من العلو أبدًا، ولذلك مظهر المؤمن أيضًا يجب أن يكون مظهرا يليق بمكانته، ويجب أن يكون شَامَةً بين الناس، وليحذر بعد ذلك أن يبغي الفساد في الأرض، ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ كما قال رب العالمين –سبحانه وتعالى.

وتستمر الآيات: ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ هذه الآية تقرر فضل رب العالمين –سبحانه وتعالى جل في علاه– وتبين أن الله –سبحانه وتعالى– يتفضل على عباده المؤمنين الذين يفعلون الحسنات بأن يجزيهم خيرًا على هذه الحسنات، بل أفضل منها: ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ وقد جاء في آيات أُخَر أن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والله –تبارك وتعالى– يضاعف لمن يشاء ﴿ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ الذي يُفسر هذه الآية ما جاء في ختام سورة النمل وأواخرها في لقاءات مضت بأن من ﴿ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾[النمل: ٩٠] هذا معنى قول الحق –تبارك وتعالى: ﴿ فَلاَ يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

المحور الثالث بعنوان: تكريم الله لنبيه –صلى الله عليه وآله وسلم– وحفظه له، وتحته قول الحق –تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾، لما ذكر رب العالمين –سبحانه وتعالى– فيما مضى شيئًا مما يتعلق بيوم القيامة والدار الآخرة التي أعدها للمتقين، وأنه يجازي على الحسنات خيرًا وفيرًا وعظيمًا وَجَّهَ الخطاب إلى النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– وذلك تكريمًا له وتعظيمًا لشأنه –صلوات الله وسلامه عليه– لأنه هو الذي يقوم بتحمُّل أعباء الدعوة إلى الله ويواجه من المشركين ما واجهه قبله من الأنبياء والمرسلين، فكان فرعون وقارون يقابلان موسى –عليه السلام– وأيضا صناديد قريش يواجهون النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– فكان الخطاب معه كالتسلية للنبي –صلى الله عليه وآله وسلم– وفيه فوائد عظيمة: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ قال بعض أهل العلم: "لرادك إلى معاد" يعني يوم القيامة لماذا؟ قالوا: هذا فيه إعطاء منحة للنبي –عليه الصلاة والسلام– أنت في هذه الدنيا تُوَاجَهُ بتكذيب المشركين وغير ذلك على دعوتك، جزاؤك عند رب العالمين –سبحانه وتعالى– في يوم القيامة، سيجازيك خيرَ إحسانٍ على ما قَدَّمْتَ لهذه الأمة، لأنَّه إن كان العامل من المؤمنين له من الحسنة أضعاف أمثالها فما بالنا بنبينا –صلى الله عليه وآله وسلم! فَكَأَنَّ الله –عزّ وجلّ– يقول له: هذه الحسنات التي أعطيها لأهل الإيمان لك أكثر منها في الدار الآخرة، عندما ترجع إلى رب العالمين –سبحانه وتعالى.

وقيل: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾: يعني إلى مكة، وقد جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنه– في كتاب التفسير من صحيح البخاري –حديثٌ عنه أن الرد إلى معاد يعني إلى مكة المكرمة، الآية هذه أو السورة هذه مكية، فكأن فيها إعجازًا للنبي –عليه الصلاة والسلام– وإثباتًا لنبوته أيضًا، وإعلامًا له بأنه سيخرج، وقد أخبره بذلك ورقة بن نوفل، وسيعود بعد ذلك، وهذه مسألة غيبية من أين علمها وعرفها نبينا –صلوات الله وسلامه عليه– وهذا فيه تثبيت وتأييد أيضًا للنبي –صلى الله عليه وآله وسلم– فهو إن أخرجه قومه سيعود بعد ذلك إلى أرضه، ثم يقول الله له: ﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾، والذي جاء بالهدى هو رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ومن خالفه هم أهل الضلال المبين.

ثم يقول الله له ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلاَ يَصُدُّنُّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ "وما كنت ترجو": أي وما

كنت تظن قبل إنزال الوحي إليك أن ينزل رب العالمين -سبحانه وتعالى- هذا الوحي وهذا الكتاب، ولكنه نزل رحمةً بك وأيضا بمَنْ؟ بالمؤمنين، القرآن الكريم رحمة من الله -تبارك وتعالى- على عباده المؤمنين، وإذا تفضل الله -عزّ وجلّ- بهذه الرحمة على النبي -صلى الله عليه وسلم- وعلى عباد الله المؤمنين فيلزمهم أمور منها: ؟ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ؟ ظهيرا: يعني مُعينًا، وفي هذا قطع للولاء مع المشركين بحال، هذه آية نستدل بها على قضية البراءة من الكَفَرَة ومن المشركين، ؟ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ؟، وأيضا هؤلاء الناس الذين يجاهدون في سبيل دعوتهم الباطلة لا تَلْتَفِت إليهم حتى لا تُصَدَّ عن الدعوة التي تقوم بها لله -تبارك وتعالى- ولكن استمسك بما أوحاه الله -تبارك وتعالى- إليك، وادعُ إلى الله -تبارك وتعالى- واحذر أن تكون مع هؤلاء المشركين.

ثم يقول الله له: ؟ وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ؟، رب العالمين -سبحانه وتعالى- ينهى -عموما- في كتابه الكريم عن عبادة غير الله، ولكنه هنا خاطب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بذلك: ؟ وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ ؟، ويستحيل أن يدعو النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- إلها آخر مع ربه -سبحانه- وهو إمام الموحدين، وهو الذي أتى بكلمة التوحيد -صلوات الله وسلامه عليه- ولكن المعنى: فليحذر غيرُك يا رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يجعل لله نِدًّا أو ظهيرًا أو شريكًا، وكأن الله -عزّ وجلّ- يريد أن يقول لنا: إذا كان الله نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن ذلك، وهو لا يمكن أن يقع منه، فما بالنا بغير النبي -صلوات الله وسلامه عليه؟

والآية أيضا ترد على من يقول بأنه لا يمكن أن يقع شرك في أُمَّة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- هنا رب العالمين ينهى النبي -عليه الصلاة والسلام- عن أن يقع في الشرك والخطاب لأمته؛ لأنَّ النبي -صلى الله عليه وسلم- يستحيل أن يقع في شيء من ذلك، وقد أخبر النبي -صلوات الله وسلامه عليه- أنه (لن تقوم الساعة حتى يلحق فِئَام من أمتي بالمشركين) فِئَام: يعني جماعة كثيرة من أُمَّتِه، هكذا حدد -صلوات الله وسلامه عليه- تلحق فِئَام أو يلحق فِئَام من أمته بالمشركين، فهذا النهي قُصِدَ بتوجيهه للنبي -صلى الله عليه وسلم- أن تستفيد أمته بعد ذلك منه.

والله -عزّ وجلّ- لما نهى عباده أن يتخذوا معه آلهة أخرى، أثبت الوحدانية لنفسه في هذه الآية فقال: ؟ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ؟ ثم بَيَّنَ أنه الدائم الباقي بعد فناء ما خلق -سبحانه وتعالى جل في علاه- فيقول: ؟ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ؟ وهذه الآية كقول الحق -تبارك وتعالى: ؟ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ؟٢٦؟ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ ؟ [الرحمن: ٢٦: ٢٧].

ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- كانت تُعجبه كلمة لبيد لَمَّا قال -والحديث في البخاري: (أَصْدَق كَلِمَة قالها الشاعرُ لَبِيد: "أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلُ")، وحقًّا.. فَوَجْهُ الله هو الباقي -سبحانه وتعالى جَلَّ في عُلاه- وهذه الآية تُفيد إثبات صفة الوجه على ما يليق برب العالمين سبحانه، وأن الباقي الدائم هو رب العالمين، وقيل أيضًا في تفسيرها بأن المراد منها: ؟ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ؟: يعني يجب إخلاص العمل لله -تبارك وتعالى- وإرادة وجه الله -عزّ وجلّ- في أي عمل يقوم به الإنسان، والآية تشمل هذا وتشمل ذاك، ولا يتعارضان بحمد رب العالمين -سبحانه وتعالى.

ثم تُختم هذه السورة بقول الحق -تبارك وتعالى: ؟ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ؟ له الحكم: يعني هو المتصرف سبحانه في الملك والكون، يفعل ما يشاء ويقضي بما يشاء، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه سبحانه، والعباد جميعا سيرجعون إليه وحده دون سواه في يوم المعاد: ؟ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ؟، وصلِّ اللَّهُمَّ وسلِّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بالنسبة لأسئلة الحلقة السابقة كان السؤال الأول: كيف نُوَفِّق بين قول الله –تعالى: ؟ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ؟ وقوله تعالى: ؟ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ؟؟

وكانت الإجابة: ليس هناك تعارض بين الآيتين؛ لأنَّ مفهوم الهداية فيهما مختلف؛ لأنَّ هناك نوعان من الهداية على قول الأكثرية من أهل العلم وهما: هداية التوفيق، وهداية التبليغ والإرشاد والدلالة، والمقصود في الآية الأولى من الهداية هي هداية التوفيق وغرس الإيمان في القلوب وهذه لا يملكها إلا الله –تبارك وتعالى– وقد نفاها عن غيره حتى عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أما الهداية في الآية الثانية التي أثبتها الله –تعالى– لنبيه –صلى الله عليه وسلم– فهي هداية التبليغ والإرشاد والدلالة، وبذلك فلا تعارض بين الآيتين، والله أعلم.

الجواب صحيح وسديد والحمد لله.

والسؤال الثاني: ما الأغراض التي من أجلها خلق الله الليل والنهار، مع ذكر الدليل من الآيات على ذلك؟

وكانت الإجابة: من رحمة الله –عزّ وجلّ– بعباده أنه خلق لهم الليل والنهار، فخلق النهار ليسعى الناس فيه إلى منافعهم وأرزاقهم وليبتغوا من فضل الله –عزّ وجلّ– حيث يكون الضياء والنور، وخلق الله –تعالى– الليل ليسكن الناس فيه، ويستريحون فيه بعد عناء السعي في النهار وطلب الرزق والمنافع، وفي ذلك يقول الله –عزّ وجلّ: ؟ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ؟[القصص: ٧٣].

في الحقيقة.. الأغراض ثلاثة ذُكِرَت في الآية وباختصار شديد:

لتسكنوا فيه وهذا يتناسب مع الليل.

ولتبتغوا من فضله وهذا في النهار.

ولعلكم تشكرون؛ يعني لتشكروا رب العالمين –سبحانه وتعالى– على هذه المنافع، والله أعلم.

يقول: حضرتك عَرّفت الإيمان قلت: الإيمان اعتقاد بالجنان وقول باللسان وعمل بالجوارح والأركان، فهل هناك فرق بين تصديق بالجنان واعتقاد بالجنان؟.

ليس هناك فرق، فالجنان القصد منها القلب، والاعتقاد عندما يقوم بالقلب يكون قد صَدَّقَ به القلب، يعني هو ما اعتقد بشيء إلا وقد صَدَّقَ بهذا المعتقد الذي اعتقده القلب، والله أعلم.

يقول: في بداية الآيات: ؟ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى ؟ قال بعض أهل العلم: إنها تدل على أن قارون كان مسلما أو مؤمنا بموسى –عليه السلام– وقول فريق من قومه إنه ؟ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ؟ قلت حضرتك أنها تدل على أنه كان كافرًا، أفلا يجوز التوفيق بين الآيتين بأن هذا كفر نعمة؟.

لا.. هو في البداية لا يكون كفر نعمة؛ لأنَّ الآيات لما ذكرت عنه أنه بغى وتجبر وتكبر وطلب الفساد في الأرض دَلَّ ذلك على أن الكفر وقع منه حقيقة، والإشارة: "إن قارون كان من قوم موسى" إلى أنه كان من أهل الإيمان أيدها قول قَتَادَة بن دَعَامَة السَّدُوسِيّ –رحمه الله– على أنه كان يجيد قراءة التوراة، وكان يعرفها، ولعل الإشارة في قول الله –تعالى: ؟ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ ؟ ما يدل على أنه حَقًّا كان يعرف التوراة، ويؤكد أنه كفر بعد ذلك، ولا شك أن هناك قد تقع ردة من المؤمن، لَمَّا ذكر أهل العلم في تفسير هذه الآية أنه يتجلجل عقوبة من الله إلى يوم القيامة، والله أعلم.

أسئلة المراجعة

السؤال الأول:

هل التَّزَيُّن والتَّجَمُّل من العُلوِّ في الأرض؟ أيد ما تقول بالدليل؟

والسؤال الثاني:

ما المراد بقوله تعالى: ؟ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ؟؟ ولماذا نَكَّرَ كلمة "معاد"؟

الدرس الرابع عشر

بداية سورة العنكبوت

كشف الصادقين من الكاذبين

يسرنا -إن شاء الله تبارك وتعالى- في هذا اللقاء أن نفتتح الحديث حول سورة العنكبوت بعد أن انتهينا في اللقاء الماضي من سورة القصص، وسيدور الحديث -إن شاء الله تبارك وتعالى- حول ثلاثة محاور:

المحور الأول بعنوان: كشف الصادقين من الكاذبين بالفتنة والابتلاء، والأمْر بالإحسان إلى الوالدين.

المحور الثاني: المنافقون يرتدون عن الدين والكافرون لهم عذاب أليم.

أما المحور الثالث فهو بعنوان: رب العالمين يأخذ قوم نوح بالطوفان وينجي أهل الإيمان.

ولنستمع الآن إلى آيات هذا اللقاء من أخينا الشيخ عبد الرحمن فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

؟ الم ؟١؟ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ؟٢؟ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ؟٣؟ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ؟٤؟ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ؟٥؟ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ؟٦؟ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ؟٧؟ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؟٨؟ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ؟٩؟ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ؟١٠؟ وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ؟١١؟ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ؟١٢؟ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ؟١٣؟ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ؟١٤؟ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ؟ [العنكبوت: ١: ١٥]

أحسنت وجزاك الله خيرًا.

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلِّم وبارك وأنْعِم على عبدك ورسوله ومصطفاك، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين وبعد.

أُذكِّر مرة أخرى بالمحور الأول في هذا اللقاء الذي هو بعنوان: كشف الصادقين من الكاذبين بالفتنة والابتلاء، والأمر بالإحسان إلى الوالدين، وتحته ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ الم ؟١؟ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ؟٢؟ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ؟ أولاً:

أذكر وجه ارتباط هذه السورة بالسورة التي قبلها، في السورة التي قبلها رب العالمين –سبحانه وتعالى– أشار إلى النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– بأنه سيرده إلى معاد، وقلت بأن من الأقوال التي ذُكِرَت في ذلك أن يرده إلى موطنه الأصلي ألا وهي مكة المكرمة، وهذا يحتاج إلى ألوان من التضحية والفداء، إلى جانب أن الله –تبارك وتعالى– أمر النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– بأن يدعو إلى الله –عزّ وجلّ: ؟ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ؟ [القصص: ٨٧]، والدعوة أيضًا تحتاج إلى تضحية وفداء، وكل ذلك يحتاج إلى صبر وفيه لون من ألوان الفتنة والابتلاء، ولذلك قال رب العالمين –سبحانه– في مستهل هذه السورة بعد قوله: ؟ الم ؟، وقد سبق أن تحدثت وسألتكم فيما مضى عن معنى هذه الحروف المقطعة، ولذلك سأتجاوز ذلك للحديث عن قوله تعالى: ؟ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ؟، هذه الآية في بيان أن الله –عزّ وجلّ– يبتلي عباده بأشياء كثيرة من أنواع الابتلاء والاختبار المختلفة، "والهمزة" في قوله: ؟ أَحَسِبَ ؟ هذا الاستفهام، استفهام إنكاري، ومعناه: أن الله –تبارك وتعالى– لا بد أن يبتلي عباده المؤمنين فلا يتركهم هكذا دون ابتلاء، وإنما لا بد من الابتلاء والتمحيص، ويبين ذلك رب العالمين –سبحانه وتعالى– في هذه الآية: ؟ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ؟ يبين أن الإيمان حقيقة لها كيان، ومهمة ذات تكاليف وأعباء، فالإيمان –كما قررناه سابقًا– ليس مجرد كلمة ينطق بها الإنسان فحسب، وإنما أعمال يقوم بها العبد، ولا بد من قال بلسانه لا إلا الله محمد رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– أن يبتليه رب العباد –سبحانه وتعالى– بألوان متعددة من الابتلاء، وقد جاء في السنة النبوية المطهرة أن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، وقد ذكر النبي –عليه الصلاة والسلام– في هذا الحديث أن العبد، أو أن الرجل يُبتلى على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة وقوة ابتلي على قدر، وإن كان في دينه رخاوة ابتلي على قدر ذلك، فما يبرح البلاء بالعبد حتى ما يتركه يمشي على الأرض وما عليه من خطيئة، وهذا كله أيضا من رحمة رب العالمين –سبحانه وتعالى– بعباده، ولذلك قال الله –عزّ وجلّ– والاستفهام إنكاري –كما ذكرت– يعني أنه سبحانه ينكر على من يظن –لأنَّ حَسِبَ: بمعنى الظن أو الزعم– ينكر على من يزعم أو يظن أن الناس يُتركون هكذا دون ابتلاء ودون فتنة.

والفتنة والابتلاء متعددة في حياة المرء المسلم، فهناك فتن متعددة يلتقي بها المسلم والمؤمن هنا وهناك، منها مثلا:

فتنة الأهل، فتنة المال: ؟ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ ؟ [الأنفال: ٢٨].

فتنة الشيطان: ؟ يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ ؟ [الأعراف: ٢٧].

فتنة العلم وقد مرت معنا في قصة قارون: ؟ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ؟ [القصص: ٧٨].

الفتنة التي تقع من الناس بعضهم لبعض، وفي ذلك يقول رب العالمين سبحانه: ؟ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ؟ [الفرقان: ٢٠].

فالفتنة بالابتلاء والاختبار لا شك أنها واقعة لا محالة على أهل الإيمان، ولذلك لا بد للمؤمن أن يمحص إيمانه، وأن يعتني بنفسه حتى يواجه هذه الفتن فلا ينحرف عن الحق ولا عن الصراط المستقيم إذا أصيب بشيء منها.

ثم يبين رب العالمين –سبحانه وتعالى– في الآية التالية أن هذا الابتلاء سُنَّة ماضية فيقول: ؟ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ؟؛ يعني أن من سبق هذه الأمة قد افتتن أيضا، فالابتلاء يقع بالعباد، وهذه سنة ماضية في خلق رب العالمين –سبحانه وتعالى– والله –عزّ وجلّ– يذكر في هذه الآية: ؟ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ؟ ورب العالمين –سبحانه وتعالى– يعلم الصادقين من الكاذبين، ولكنه يريد أن يكشف معلومَهُ للبشر، فنحن من خلال هذه الفتن ومن خلال هذه الابتلاءات التي يَمِيزُ الله –تبارك وتعالى– بها الخبيث من الطيب ندرك ذلك،

والله –عزّ وجلّ– قد أشار إلى هذه العلة في مواطن كثيرة في القرآن الكريم، وذلك كقول الحق –تبارك وتعالى: ؟ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ ؟[البقرة: ٢١٤].

ثم يقول سبحانه: ؟ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ؟٤؟ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ؟ يعني لا يحسبن الذين لم يدخلوا في الإيمان أنهم لا يتخلصون من الفتنة والامتحان، بل أمامهم ما يبتليهم رب العالمين –سبحانه وتعالى– به، ولا يظن الإنسان إذا لم يقم بالتكاليف الشرعية أنه سيفوت من رب العالمين –سبحانه وتعالى: ؟ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ؟ أصحاب المنكرات والآثام هل يظنون أنهم يفوتون رب العالمين –سبحانه وتعالى– إن ظنوا ذلك، الله –عزّ وجلّ– يقول لهم: ؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ؟ يعني ساء هذا الحكم الذي قام في عقولهم وقام في قلوبهم، لأنَّ رب العالمين –سبحانه وتعالى– قادر عليهم، وهو –عزّ وجلّ– سيأتي بهم لا محالة، وأين سيذهبون، وستأتي آيات يبين رب العالمين –سبحانه وتعالى– فيها أن هؤلاء الخلق لا يُعجزونه –سبحانه وتعالى– ؟ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ؟.

ثم يتوجه الحديث بعد ذلك إلى القوم الذين يخافون من رب العالمين –سبحانه وتعالى– بعد أن أشارت الآية السابقة إلى القوم الذين لا يخافون، ولا يَوَدُّون ولا يَرجُون لقاء رب العالمين –سبحانه وتعالى– وقد يقوم في عقل الواحد منهم أنه يمكن أن يَفلت من رب العباد سبحانه، الله –عزّ وجلّ– ذكر بعد ذلك مباشرة موقف المؤمنين الذين يخافون من ربهم –سبحانه وتعالى– فيقول: ؟ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ؟ من كان يرجو لقاء الله: يعني من كان يطمع فيما عند الله –عزّ وجلّ– والآية لما تأتي هذه بعد الآية السابقة تفيد أن السابقين الذين يظنون أنهم سَيَفْلِتُون ما شأنهم؟ أنهم لا يرجون لقاء رب العالمين سبحانه، إلى جانب أنهم لا يطمعون في رحمة الله –عزّ وجلّ، أما أهل الإيمان فيرجون وجه الله –عزّ وجلّ– والدار الآخرة.

الإمام القرطبي –رحمه الله تبارك وتعالى– ذكر أن جمهور المفسرين يقولون في قول الله –تبارك وتعالى: ؟ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لآتٍ ؟: من كان يخاف من الدار الآخرة فليعمل العمل الصالح الذي يقربه من رب العباد –سبحانه وتعالى– وهذا أيضًا معنى صحيح فالذي يرجو لقاء الله –عزّ وجلّ– ويطمع فيما عند الله –تبارك وتعالى– عليه أن يتخذ الأسباب التي تدفع عنه عذاب رب العالمين –سبحانه وتعالى– والجميل في هذه الآية أن رب العباد –سبحانه وتعالى– ختمها بقوله: ؟ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ؟، وهذا ختام مناسب؛ لأنَّ الله –عزّ وجلّ– فيما مضى ذكر القول لما قال: ؟ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا ؟ والقول يُسْمَع ولذلك قال: ؟ وَهُوَ السَّمِيعُ ؟، ثم بعد ذلك ذكر أنه يَبتلي العباد ليعرف الصادق من الكاذب، والصادق من الكاذب يحتاج إلى العليم وإلى صفة العلم، ولذلك ذكر أيضا في ختام هذه الآية اسمه –سبحانه وتعالى– العليم الذي يتضمن صفة العلم الواسع لله –عزّ وجلّ– وقال: ؟ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ؟.

ثم قال رب العالمين –سبحانه وتعالى– بعد ذلك: ؟ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ؟، من جاهد في الدين وصبر على الطاعات ؟ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ؟ يعني أن مردَّ ذلك إلى نفسه، حقيقة هذه الآية جاء ما يبينها ويوضحها في القرآن الكريم أيضًا في آيات كثيرة كقول الحق –تبارك وتعالى: ؟ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ؟ [الجاثية: ١٥]، ؟ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ ؟ [الإسراء: ٧]، ولكن وضع هذه الآية عقب الآية السابقة تدفع المؤمن إلى جودة العمل وإتقانه، وذلك أن الإنسان إذا كان يعمل لِمَلِك لا شك أنه سيجتهد في أن يتقن العمل، وهذا أتى في قول الحق –تبارك وتعالى: ؟ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لآتٍ ؟، ثم بعد ذلك عندما يعلم هذا العامل أن عمله سيعود عليه هو بالنفع فسيجتهد أكثر؛ لأنه يقدم عمله لِمَلِك ثم هذا العمل سيرجع عليه بالنفع وهذا يدفعه إلى حسن إتقان العمل، ولذلك جاءت هذه الآية بعد الآية السابقة وكلاهما يفيد هذا المعنى، ؟ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ؟ يعني أن ما تفعله يا عبد الله إنما أمره يعود إليك أنت، والله –عزّ وجلّ– غني عن

العباد وعن أعمال العباد، كما جاء في الحديث القدسي أن العباد جميعا لو كانوا على أتقى قلب رجل واحد ما زاد ذلك في ملك الله -تبارك وتعالى- شيئًا، وكما أيضًا لو كانوا جميعا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملك رب العالمين -سبحانه وتعالى- شيئًا.

ثم يقول سبحانه: ؟ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ؟ يخبر تعالى في هذه الآية الكريمة أن من آمن وعمل صالحا كَفَّرَ الله -تبارك وتعالى- عنه سيئاته وأعظم له الأجر وأعظم له الثواب، ولعلكم تلاحظون أن الله -تبارك وتعالى- ذكر أمرين يفعلهما العبد في هذه الآية، وقابل هذين الأمرين فعلين أيضا من رب العالمين -سبحانه وتعالى- أما الأمران من العبد فهما في قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ؟ العبد يأتي بالإيمان، ثم بعد ذلك يُتبع ذلك بالعمل الصالح الذي يبين حقيقة الإيمان، إن فعل ذلك قابله رب العالمين -سبحانه وتعالى- بأمرين: الأمْر الأول: تكفيره السيئات، والأمر الثاني: الجزاء بالحسنة، يعني ليس بشيء قليل أو يسير، وإنما رب العالمين -سبحانه وتعالى- يعبر عن هذا الجزاء بأنه جزاء حسن، أهل العلم يقولون بأن هذه الآية تفيد أن المؤمن العاصي لا يخلد في النار، لماذا؟ لأنَّ رب العالمين -سبحانه وتعالى- يُكَفِّر عنه سيئاته؛ لأنَّ الله قال: ؟ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ؟ فأفادت أن أهل الإيمان الذين يعملون الصالحات قد يرتكبون السيئات، ولما يعملوا الصالحات ويقوموا بها لرب العباد سبحانه، فالله -تبارك وتعالى- يكفر عنهم سيئاتهم، كما ذُكِرَ أيضا في قوله -سبحانه وتعالى: ؟ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ؟ أن فيها إشارة إلَى رؤية المؤمنين لربهم في الدار الآخرة، وهذا ملحظ لأهل العلم جميل قالوا فيه: إن أحسن ما يجده العبد المؤمن في الدار الآخرة أن يَتَشَرَّفَ ربُّ العالمين -سبحانه وتعالى- عليه وأن يُشَرِّفَهُ بالنظر إلى وجه الله -تبارك وتعالى- الكريم وهذه أيضًا فائدة نستفيدها من هذه الآية الكريمة المباركة.

ثم ينتقل السياق بعد ذلك إلَى الأمْر بالوصية بالوالدين وفي ذلك يقول رب العالمين سبحانه: ؟ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؟، هذه الآية يوصي رب العباد -سبحانه وتعالى- عباده بالإحسان إلَى الوالدين وكثيرًا ما يأتي الأمْر بالإحسان إلَى الوالدين وبالبر بهما بعد الأمْر بعبادة الله -تبارك وتعالى- وذلك في آيات كثيرة في القرآن الكريم كقوله سبحانه: ؟ وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ؟ [النساء: ٣٦]، وكقوله سبحانه: ؟ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ؟ [الإسراء: ٢٣].

وقد ذكر أهل العلم أن السبب في ذلك أن الله -تبارك وتعالى- وحده هو الذي خلق الخلق، وتفضل على العباد جميعا بالإيجاد، ولكن الوالد والوالدة كانا أيضًا سببًا في إيجاد هذا المخلوق بالتزاوج والتناسل والتناكح، فاقتضى ذلك أن يأمر رب العالمين -سبحانه وتعالى- بأن يعبده وحده دون سواه؛ لأنه هو الخالق والمدبر والمالك والمتصرف، ثم بعد ذلك يأتي الأمْر بالإحسان إلَى الوالدين؛ لأنهما كانَا سببًا في وجود هذا الإنسان، ومع أن الله -عزّ وجلّ- أمر بالإحسان إلى الوالدين، وقد امتلأت السنة النبوية المطهرة بأحاديث كثيرة عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في الأمْر ببر الوالدين والإحسان إليهما إلا أن الله -تبارك وتعالى- ذكر في هذه الآية أن أحد الوالدين لو طلب من العباد أو من ابنه بالذات أن يعصي رب العالمين -سبحانه وتعالى- بالشرك، ويدخل في ذلك أيضا أي لون من ألوان العصيان، لا يطيع العبد أبدًا بحال من تَوَجَّهَ إليه بالأمر بعبادة غير الله -تبارك وتعالى- أو بالوقوع في العصيان حتى ولو كان هذا الأمْر من أحد الوالدين: ؟ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا ؟، ولذلك ذكر أهل العمل أنه لا يجوز لأحد أن يُتابع أحدًا في الكفر أو الشرك أو المعصية؛ لأنَّ أحق ما يمكن أن يطعهما الإنسان، وأن يبرهما الإنسان الوالد والوالدة، وإذا كان الله -عزّ وجلّ- نهى المسلم من أن يطيع والديه في الأمْر بالشرك أو العصيان أو غير ذلك فمن باب أولى ألا يطيع غير الوالدين.

فلا يجوز بحال من الأحوال أن يطيع عبدٌ عبدًا آخر في معصية رب العالمين –سبحانه وتعـالى– لا طاعـة لمخلوق في معصية الخالق، وهنا يذكر أهل التفسير الحديث الذي جاء في أم سعد بن أبي وقـاص –رضـي الله تعالى عنه– وذلك لما آمن سعد –رضي الله عنه– وكان سعد –رضي الله عنه– من أَبَرِّ الناس بأمه، كان يبرها برًّا شديدًا، ولما أسلم تأثرت أمه لإسلامه، ورغبت وطلبت منه أن يعود إلى الكفر فلم يفعل ذلك، وأتت إليه وقالت له: "أوليس الله قد أمرك بالبر؟!"، رب العالمين الذي أنت دخلت في دينه ألم يأمرك بالبر؟ فأمرها أو أخبرها بأن الله –تبارك وتعالى– أمر بذلك، فقالت له: فإني بناء على ذلك لن آكل شيئًا، أو لن أطْعَمَ شيئًا ولن أشرب ماءً إلا إذا رجعت إلى دين قومك، فلم يطعها –رضي الله تبارك وتعالى عنه– وظلت يومها كاملا لا تأكل حتى كـانوا يفتحون فاها بالقوة ليضعوا لها الطعام، ولم يرجع سعد –رضي الله تعالى عنه– إلى دين المشركين، فلم يُطِع أمه في ذلك رغم أنه كان في غاية البر بها، وهذا يدل على أن الطاعة في المعروف فحسب، والله –عزّ وجلّ– مـع أمره لعباده ووصيته بالوالدين أيضا ينهى العباد عن أن يطيعوا أحدًا في الكفر أو الشرك، ولو كان هذا الأحد هو أحد الوالدين.

ثم يقول رب العالمين سبحانه بأن المرجع والمصير إلى مَنْ؟ إلى الله –عزّ وجلّ: ؟ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَـا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؟ وهذا يدفع إلى أي شيء؟ يدفع إلى أن يراقب العبد ربه في كل حركاته وسكناته وتصرفاته، طالما أن المرجع إلى الله والمصير إلى رب العباد –سبحانه وتعالى– فعلى العبد أن يراقب الله –عزّ وجلّ– لأنه مُطَّلِع على خفايا النفوس وما تكنه الصدور.

ثم ننتقل بعد ذلك إلى قول الرب –سبحانه– في آية أخيرة في هذا المحور: ؟ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ؟ في الحقيقة سبق أن أشار رب العالمين –سبحانه وتعالى– إلى ذلك، ولكن هذا من باب التذكير ودفع العباد إلى الإيمان والعمل الصالح، ووعد الله –عزّ وجلّ– في هذه الآية أن من آمن وعمل صـالحا أدخله رب العالمين –سبحانه وتعالى– في الصالحين، وهذا مقام كبير يناله العبد المؤمن الذي آمن برب العباد – سبحانه وتعالى– ثم أقبل على عمل الصالحات، والله –عزّ وجلّ– حينما يذكر ذلك ويعيده ويؤكـده إنمـا يـدفع المؤمن بذلك المتأمِّل صاحب البصيرة إلى أن يؤمن بالله –عزّ وجلّ– وأن يجتهد في عمل الصالحات حتى يكون مع مَنْ؟ حتى يكون مع الصالحين.

ننتقل بعد ذلك إلى المحور الثاني في هذا اللقاء وهو بعنوان:

المنافقون يرتدون عن الدين والكافرون لهم عذاب أليم، وتحته ما جاء في قول الحق –تبارك وتعالى: ؟ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّـا كُنَّـا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ؟١٠؟ وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ؟ هذه الآية نزلت في المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، وذلك أن الناس أمام التكليف والوحي الإلهي ينقسمون إلـى ثلاثة أقسام:

مؤمن ظاهر بإيمانه، وكافر مجاهر بكفره، ومنافق يتأرجح بين هؤلاء تارة وبين هؤلاء تارة، ولكن الكفر قد ملأ قلبه، والله –عزّ وجلّ– في هذه الآية يفضح هؤلاء المنافقين، ويذكر ما تُكِنُّه صدورهم وماذا يقولون؟ وبـأي لون يفكرون؟ هؤلاء الناس يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وكلمة: ؟ وَمِنَ النَّاسِ ؟ هذا اللفظ رب العالمين – سبحانه وتعالى– افتتح به بعض آيات القرآن الكريم، كما جاء في ثنايا بعض الآيات، ولقد تَتَبَّعْتُ هذا اللفظ فـي القرآن الكريم فوجدته أنه غالبًا عندما يُذْكَر يكون فيه حديث عن المنافقين، فأول آية في القرآن الكريم ورد فيهـا قول الحق –تبارك وتعالى– ؟ وَمِنَ النَّاسِ ؟ كانت في سورة البقرة: ؟ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِـاللهِ وَبِـالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ؟ [البقرة: ٨] أيضا في نفس السورة: ؟ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ؟ [البقرة: ٢٠٤]، في سورة الحج: ؟ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ ؟

[الحجر: ١١] وهنا أيضًا: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ ﴾، والذي يقول آمنا بالله وليس بمؤمن منافق، وبالتالي لفظ: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ ﴾ غالبًا عندما يذكر في القرآن الكريم إنما يراد به مَنْ؟ يراد به أهل النفاق والعياذ بالله -تبارك وتعالى- وهؤلاء المنافقون ابتُلِيَت بهم الأمة الإسلامية منذ أن هاجر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- إلى المدينة المنورة؛ فأين ظهر النفاق إذن؟ ظهر النفاق في مدينة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم.

والعلة في ذلك أن هؤلاء عندهم ضعف شديد في نفوسهم، نفس نفوسهم الذي تتردد بين جَنَبَاتِهم فيها ذلة وفيها ضَعْف وفيها جُبن وفيها خَوَر، ولذلك يتلونون كالحرباء في كل مكان، لا يستطيع الواحد منهم أن يظهر ما عنده أمام غيره لما لديه من ضعف، ولذلك كان الأمْر في مكة لما كان أهل الشرك والكفر يتطاولون على أهل الإيمان، لم يكن هناك ما يدفع إلى وجود النفاق، ولكن لما هاجر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- إلى المدينة النبوية وهناك قَوِيَ الإيمان بدأ من كانت نفسه ضعيفة في أن يتظاهر بالإيمان وهو في حقيقة أمره على الكفر والشرك بالله -تبارك وتعالى- وخطر المنافق خاصة المنافقون نفاقًا اعتقاديًّا، خطرهم على الإسلام أشد من خطر الكافر الأصلي؛ لأنَّ الكافر الأصلي أنت تعرفه، وهو يظهر لك، وتستطيع أن تَتَبَّع أخباره، وأن تعرف أحواله، وأن تُجَهِّز العُدَّة، أو على الأقل تدفع غزوه عنك إن لم تحاول أن تقوم عليه، أما الذين يُظهر أنه في صفك، وقد يجاهد إلى جوارك، ويزعم أنه منك فهذا هو الذي تخاف منه، ولذلك رب العالمين -سبحانه وتعالى- جعل وعيد المنافقين في كتابه أشد من وعيد الكفار الأصليين: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٥] هؤلاء لما وقع منهم هذا الأمْر، وتأرجحوا أو تذبذبوا بين الإيمان والكفر، وأعلنوا للناس بألسنتهم ما ليس في قلوبهم كان عقابهم أو عذابهم عند رب العالمين -سبحانه وتعالى- شديدًا، هؤلاء يقولون آمَنَّا بالله، فَإِذَا أوذي الواحد منهم في الله -عزّ وجلّ- ﴿ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ ﴾ معنى هذه الآية ماذا؟ فسرها أهل العلم بأمرين:

قال: فَإِذَا أوذي في الله: يعني إن وقع عليه بلاء أو اختبار، وقد سبق أن قلت بأن الابتلاء والاختبار سنة ماضية، وبه يتميز أهل الإيمان من غيرهم، كما أن النار مثلا تُمَيِّز الذهب الخالص من الذهب الرخيص العالق، فهذا يختلف عن ذلك، كذلك الفتنة والابتلاء والاختبار يُمَيِّز بها رب العالمين -سبحانه وتعالى- الخبيث من الطيب، لما كانت طبيعة المنافقين طبيعة إجرامية في الأصل، إذا أصابته أي فتنة مباشرة يخرج من الدين، ويرتد على عقبيه، كما قال رب العالمين -سبحانه وتعالى- عن أمثال هؤلاء: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ﴾ [الحج: ١١] إن كانت الدنيا على ما يريد فرح واستمر على ما هو عليه، وإن كانت على غير ما يريد انقلب على عقبيه خسر الدنيا والآخرة، هذا هو التفسير الأول، فَإِذَا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله: يعني إن وقعت به نقمة لا يصبر وإنما يرتد، وقيل: ﴿ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ ﴾: يعني كانت هذه الفتنة صارفة له عن الإيمان كما أن المؤمن يصرفه عذاب الله -تبارك وتعالى- عن الكفر والعصيان، جعل فتنة الناس كعذاب الله والأمر بالعكس: ﴿ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾، هؤلاء الناس دائما ينسبون إلى أنفسهم ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، يتربصون بالمؤمنين الدوائر، ويميلون مع هؤلاء، ويسيرون مع هؤلاء، فإن كانت الدائرة مع الكافرين فرحوا، وهذا ما أرادوه، وإن كانت مع أهل الإيمان أظهروا الولاء لِمَن؟ أظهروا الولاء لأهل الإيمان، وهذا كقول الحق -تبارك وتعالى: ﴿ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ هذا كقول الله -عزّ وجلّ- في هؤلاء المنافقين: ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ولذلك رب العالمين -سبحانه وتعالى- في هذه الآية رد عليهم وبين أن هذه التصرفات لا تنطلي على رب العباد سبحانه؛ لأنه -سبحانه وتعالى- يعلم المؤمن من الكاذب، يعرف الصادق من الكاذب، يعرف المؤمن من المنافق، وإن كان المؤمنون لا يعرفون خبايا النفوس؛ لأنهم لم يَطَّلِعُوا على ذلك إلا أن رب العالمين -سبحانه وتعالى جل في علاه- يعرف ذلك ويعلمه، وبالتالي هؤلاء لن يُفْلِتُوا من رب العباد سبحانه.

قال الله -عزّ وجلّ- في أمثال هؤلاء: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: ٣١] فهؤلاء يتميزون، وهؤلاء يعرفون، ثم قال رب العالمين -سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ لما ذكَرَ رب العالمين -سبحانه وتعالى- في الآية السابقة شيئًا من أحوال النفاق ذكَرَ أمرًا يتعلق بالكافرين، وقد ذكَرَ بعض أهل العمل بأن هذه الآية نزلت في كفار مكة؛ لأنَّ الواحد منهم كان يقول لأخيه: اكفر بمحمد -صلى الله عليه وآله وسلم- وإن كان هناك عقاب تخاف منه أو وعيد قد أخبرك به فأنا سأتحمله عنك، هكذا بكل بجاحة، ولا شك أننا لو تَتَبَّعْنَا ما كان يقوله هؤلاء، وخاصة ما ذهب إليه أبو جهل في بعض المواطن لما قال بأنه سيكفي هؤلاء الكفار عشرة من الملائكة وحده، وأنه يستطيع أن يردهم وأن يقوم عليهم، فكان أهل الشرك والكفر يقول الواحد منهم لأخيه ممن آمن ارجع إلى الكفر مرة أخرى وأنا سأتحمل عنك وزرك: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا ﴾ كونوا معنا، وادخلوا في طريقتنا، أما ما كان من أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- وكلامه في الوعيد على الكفر فنحن سنحمل خطاياكم، رد رب العالمين -سبحانه وتعالى- عليهم بقوله: ﴿ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ لأنَّ كل إنسان مرهون بعمله، كل إنسان في هذه الدنيا مسؤول عن نفسه، والله -عزّ وجلّ- يحاسب العبد على ما قدمت يداه، ويكفي أن يتأملوا هؤلاء وينظروا في قول الحق -تبارك وتعالى: ﴿ وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ [المعارج: ١٠] وجئت بهذه الآية؛ لأنَّ قول الله -عزّ وجلّ- يكفي الإشارة إليه: ﴿ وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ [المعارج: ١٠]، إذا كان الحميم القريب الصديق الولي الحميد لا يستطيع أن يسأل أخاه في هذا اليوم عن شيء، ولا أن يفيده بشيء، فماذا يكون غيره؟! ولذلك كَذَّبَهُم رب العالمين -سبحانه وتعالى- في هذا القول فقال: ﴿ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾، ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ [فاطر: ١٨]؛ لأنَّ رب العالمين -سبحانه وتعالى- هو الحكم العدل الذي يضع الأمور بميزان دقيق، ورب العالمين -سبحانه- لا يظلم الناس شيئًا، ولكنه أخبر في الآية التالية أن هؤلاء الكفار الذين يُضلون غيرهم سيتحملون أوزارهم وأوزار مَنْ أضلوهم وصرفوهم عن الصراط المستقيم، وفي ذلك يقول رب العالمين: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾، هذه الآية هل تتعارض مع قول الحق -تبارك وتعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨]، أو مع الآية السابقة عليها مباشرة: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ﴾، والله قد كَذَّبَهُم في ذلك وقال: ﴿ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ هل هذه الآية التالية: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ تتعارض مع ذلك؟! لا تتعارض مع ذلك أبدًا، وبيان ذلك كالتالي: أن الله -تبارك وتعالى- أخبر بأن هذا الكافر يعاقب في يوم القيامة على أمرين:

الأمْر الأول: على كفره في ذاته هو؛ لأنه كفر بالله -عزّ وجلّ.

الأمْر الثاني: الذي يعاقب عليه: إضلاله لغيره من أهل الإيمان، أو محاولة صرف أهل الإيمان عن الإيمان بالله -تبارك وتعالى- فمن هذا المنطلق يعاقب ويحاسب على فِعْلِهِ هو، وبالتالي أقول بأن هذه الآية لا تتعارض مع قول الحق -تبارك وتعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨]؛ لأنَّ هذا من كسب هذا الكافر وعمله، فحينما أضَلَّ غيره وصرف غيره عن الحق الذي جاء من عند الله -تبارك وتعالى- فقد اقترف ظلمًا، وقد اكتسب جريرة، والله -عزّ وجلّ- هنا يعاقبه على هذه الحالة، فرؤساء الضلال في كل مِلَّة -وتنبهوا في ذلك، والآية تفيد ذلك- رؤساء الضلال في كل مِلَّة يعاقَبُون أكثر من غيرهم، كما أن أهل البر والفضل والإحسان والدعاة إلَى الله -عزّ وجلّ- يُجْرِي رب العالمين -سبحانه وتعالى- عليهم أجرًا عظيما ممن كانوا سببًا في إيمانه، ولذلك هذه الآية أفادت كما ذكر الشيخ محمد أمين الشنقيطي -رحمه الله- أفادت أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يأخذ أجر إيمان أمته، من باب: "من دعا إلَى هدى كان له مثل أجور من اتبعه" والله -عزّ وجلّ- فضله واسع لا ينقص هذا من الأجر، ولا ينقص هذا من الأجر.

ويؤكد ذلك من السنة النبوية ما جاء في الحديث الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم: (من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى اليوم القيامة)، ولذلك أُوَجِّهُ نظر إخواني المشاهدين والمستمعين إلى أن العبد يجب أن يكون إنسانًا، العبد المسلم يجب أن يكون إنسانًا فَعَّالاً في المجتمع، يؤمن بالله -عزّ وجلّ- ويعمل الصالحات ويدعو إلى الخير الذي دعا إليه رب العباد -سبحانه وتعالى- ولا يدعو إلى منكر أبدًا.

ولذلك أقول لهؤلاء الذين يلعبون هنا وهناك، ويلهون هنا وهناك، ويعرضون على الناس الفتن التي تأتي أو يُدخلونها عليهم من كل باب: كل من ضل بسبب فتنة الشهوات أو الشبهات سيتحمل من كان سببًا في ذلك ضلال هؤلاء الذين ضلُّوا، والإنسان يأتي يوم القيامة ولن يعمل، لأنَّ الدنيا هي دار العمل، وإنما يأتي بين يدي الله -عزّ وجلّ- بما عمل، حتى بعض أهل الإيمان عندما يقترف كثيرًا من الذنوب والسيئات ويظلم هنا وهنا إذا وقف بين يدي الله -عزّ وجلّ- والنبي -عليه الصلاة والسلام- قد ذكر ذلك: "يأتي بعض العباد يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، ولكنه يأتي وقد ظلم هذا، وضرب هذا، وأكل مال هذا، فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته وهذا من حسناته، حتى إذا فنيت حسناته وبقيت مظالم للعباد عنده أُخِذَ من سيئات العباد فطرحت عليه ثم طرح هو بعد ذلك في النار"، فليحذر العبد المسلم من أن يخالف طريق الله -تبارك وتعالى- أو أن يقع في فتنة الشهوات أو الشبهات، أو أن يسعى في أن يضل العباد ويصرفهم عن صراط الله وطريق الله المستقيم.

أدخل بعد ذلك في المحور الثالث وهو بعنوان:

رب العالمين يأخذ قوم نوح بالطوفان وينجِّي أهل الإيمان، وتحته ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ؟١٤؟ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ؟ لما كان المشركون يكذبون بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أتى الله -عزّ وجلّ- بمثل هذه الآيات في مثل هذا السياق، وسيأتي بعد ذلك حديث عن إبراهيم وعن لوط وغير ذلك؛ ليسلي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في مواجهة قومه له؛ لأنهم يكذبون برسالته، وخاصة بعد أن ظهر النفاق في المدينة، فبدأ عنصر جديد في مواجهة الدعوة الإسلامية، بعدما كانت الدعوة الإسلامية تُوَاجَه من الكفر ومن الشرك ومن أهل الكتاب من اليهود والنصارى، بدأت تُوَاجَه أيضًا بطابور آخر ألا وهو طابور مَنْ؟ طابور المنافقين، فالله -عزّ وجلّ- يبين للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أنه أرسل من قبله رسلاً، وهؤلاء الرسل الكرام كان أقوامهم يكذبون بدعوتهم، وبدأ بذكر نوح -عليه السلام- لماذا؟ لأنَّ نوحا -عليه السلام- كما أشارت الآية لَبِثَ في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، والتعبير بهذا، أو مجيء الاستثناء هنا يفيد ماذا؟ أنه جلس هذه المدة على هذه الحقيقة، فلو قال مثلا: تسعمائة وخمسين عامًا ربما قال الإنسان بأن العدد ربما للتكثير أو للمبالغة، أو أن العدد ليس مقصودًا، وإنما عندما يأتي الاستثناء يؤكد هذا العدد، وهذه مدة زمنية طويلة، فَإِذَا كان نوح -عليه السلام- مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، والله -عزّ وجلّ- قال بأنه لم يؤمن معه إلا قليل، فعلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- إذن أن يصبر على أذى قومه، وعلى كفر قومه؛ لأنَّ نوحا -عليه السلام- مكث مدة طويلة تفوق أضعاف أضعاف ما مكثه النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ومع ذلك لم يؤمن معه ولم يتابعه على رسالته إلا نفر قليل، كما قال ذلك رب العالمين -سبحانه وتعالى- إلى جانب أن نوحًا -عليه السلام- كان أيضًا يُقَلِّبُ ألوان الدعوة على قومه، فكان يدعوهم سرًّا وجهرًا، يدعوهم ليلاً ونهارًا، ومع ذلك ما آمن معه كان ذكر رب العالمين -سبحانه وتعالى- إلا قليل، عندئذ أتاهم عذاب رب العالمين سبحانه وفي هذا أيضًا بيان بنصرة الله -عزّ وجلّ- لأنبيائه وأوليائه وردع للمكذبين بالأنبياء والمرسلين، والله -عزّ وجلّ- قد ذكر ذلك أيضًا في آيات كثيرة للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كما جاء في قوله: ؟ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ؟ [الأنعام: ٣٤] فإذن.. أخذ الله -عزّ وجلّ- لهؤلاء الظالمين يدفع الأذى عن أهل الإيمان، إلى جانب أنه يردع هؤلاء الظالمين، ولذلك قال رب العالمين بعد أن فُهِمَ من الآيات أن هؤلاء -أعني قوم نوح عليه السلام- لم يتابعوه على رسالته قال الله

-عزّ وجلّ: ؟ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ؟ والطوفان ما أطاف وأحاط بكثرة وغلبة، والله -عزّ وجلّ- قد أخذ هؤلاء بالغرق فأغرقهم بالماء، ويصور القرآن الكريم كيفية إغراقهم وكثرة الطوفان عليهم في آيات أخرى كقوله -سبحانه وتعالى: ؟ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ؟١١؟ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ؟ [القمر: ١١: ١٢] هكذا يقول رب العالمين -سبحانه- ويبين أنه على كل شيء قدير، وهو يأخذ الظالمين يُنَجِّي عباده الصالحين، ؟ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ؟ يعني أنجينا نوحا -عليه السلام- ومن كان معه في السفينة، ؟ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ؟ قيل: الضمير هنا يعود للسفينة، ومعنى أن الآية تكون انتقلت من المحادثة أو الكلام مع الشخص إلى الجنس، فكانت الآية تتكلم عن شخص نوح -عليه السلام- ومن كان معه في السفينة، وانتقلت إلى الجنس -أعني جنس السفينة- حيث جعلها رب العالمين آية للعالمين، قيل بأنها مكثت قرونا طويلة يمر الناس عليها ويشاهدونها، وبهذه الآية أنهي معكم هذا اللقاء وصلِّ اللَّهُمَّ وسلِّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بالنسبة لسؤالي الحلقة السابقة، كان السؤال الأول: هل التزين والتجمل من العلو في الأرض أيِّد ما تقول بالدليل؟

وكانت الإجابة: التزين والتجمل لَيْسَا من العلو في الأرض إذا كَانَا بالمعروف، فالإسلام قد شرع التزين والتجمل للرجال والنساء جميعا، وقد رَخَّصَ الله -سبحانه وتعالى- للنساء الحرير والذهب بينما حَرَّمَهُمَا على الرجال، فللرجال أشياء كثيرة يتزينوا ويتجملوا بها، إذن لا حرج أن يستمتع الإنسان بما تفضل الله به عليه من الرزق الحلال الطيب، ولكن بالمعروف وبضوابطه الشرعية وليحذر أن يبغي الفساد في الأرض قال الله -تعالى: ؟ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ؟[الأعراف: ٣٢] وقال -صلى الله عليه وآله وسلم: (إن الله جميل يحب الجمال).

ما شاء الله، الجواب سديد وفيه تفصيل رائع، ما شاء الله.

السؤال الثاني: ما المراد بقول الله تعالى: ؟ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ؟ [القصص: ٨٥] ولماذا نَكَّرَ كلمة "معاد"؟

وكان الجواب: أي أن الذي أُنزل عليك يا أيها الرسول هو القرآن وفرض عليك تبليغه والتمسك به ورجوعك إلى الموضع الذي خرجت منه وهو مكة، قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين: ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ذهاب واضح عن الحق، "إن الذي فرض عليك القرآن": أي أنزله، "لرادك إلى معاد": أي إلى مكة، وقيل: مخبرًا له بأنه سَيَرُدُّه إلى معاد وهو يوم القيامة، عن ابن عباس: إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد يقول: لرادك إلى الجنة ثم سائلك عن القرآن، وكان قد اشْتَاقَهَا: ؟ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ؟ نزل جوابا لقول كفار مكة: "إنك في ضلال"؛ أي فهو الذي جاء بالهدى وهم الذين في الضلال، والله تعالى أعلم.

هو في الحقيقة فحوى الخطاب الجواب صحيح وإن كان فيه تقديم وتأخير وزيادة عن المطلوب، ولم يجب على التنكير في قوله "معاد".

لم يجب أحد يا شيخ على هذه الجزئية؟

طبعا قلنا للتفخيم والتعظيم إلى معاد عظيم وإلى شيء كبير.

يقول: هل يُحْبَط عمل شَابَهُ شَائِبَةٌ من الرياء، وهل يَدخل صاحبه تحت دائرة النفاق؟

جزاك الله خيرًا، في الحقيقة يلاحقني الأستاذ عبد الرحمن بالانتهاء، وكنت أود أن أتحدث والوقت قصير، ومدة الحلقة كذلك، أن أفصل القول في النفاق بأنه يوجد نفاق أكبر ونفاق أصغر، أو نفاق اعتقادي ونفاق عملي، النفاق الاعتقادي هو الذي يبطن صاحبه الكفر ويظهر الإيمان، أما النفاق العملي فهو الذي يبطن صاحبه الإيمان ولكنه يقع في بعض أعمال المنافقين، فهذا مؤمن داخل في دائرة الإيمان ولكنه قد ارتكب شيئًا من المعاصي والمحرمات بذلك، وبالتالي لو أن عمل الإنسان داخله شيء من الرياء فننظر إن كان رياء كاملا والعمل يعني كتلة واحدة غير منفصل فهذا العمل يُحْبَط كله، مثال على ذلك: إنسان دخل في الصلاة يرائي الناس بصلاته مثلا، الصلاة وحدها كصلاة الصبح أو ركعتي سنة المسجد أو تحية المسجد مثلا هذه جزء واحد لا يتجزأ، إن راءى بهذا العمل غير الله -تبارك وتعالى- ولاحظ الناس فيه فالله -عزّ وجلّ- يحبط هذه الصلاة، أما لو كان مثلا هذا الأمْر يُجَزَّأ؛ إنسان أراد مثلا أن يتصدق بمائة جنيه، أخرج منها خمسين خالصة صافية لله -عزّ وجلّ- ثم راءى في الجزء الثاني، فالجزء الثاني هو الذي لا يقبله رب العالمين -سبحانه وتعالى- به، هذا فيمن استقر الإيمان في قلبه، يعني مؤمن صحيح الإيمان ولكن عنده بعض هذه الآفات من أعمال المنافقين، ويدخل في هذا حديث النبي -صلى الله عليه وسلم: (آية المنافق ثلاث: إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإذا اؤْتُمِنَ خَانَ) والله أعلم.

أسئلة المراجعة.

السؤال الأول: ما نوع الاستفهام في قوله تعالى: ؟ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا ؟ وما معناه؟ وما المراد بالفتنة في قوله تعالى: ؟ أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ؟؟

السؤال الثاني: هل يحمل الكافر وزر من أضله ولماذا؟ استدل لما تقول بدليل من السنة النبوية؟

الدرس الخامس عشر

تابع تفسير سورة العنكبوت

قصة إبراهيم ولوط -عليهما السلام.

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة السلام على أشرف الخلق سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أما بعد.

يسعدنا ويشرفنا -إن شاء الله تبارك وتعالى- أن نواصل المسيرة في تفسير سورة العنكبوت التي كنا قد تحدثنا في حلقة ماضية عن بعض آياتها -وإن شاء الله تبارك وتعالى- سيدور حديثنا في هذا اللقاء عن بعض آيات أيضا من هذه السورة الكريمة وسيكون ذلك في محورين:

المحور الأول: قصة إبراهيم -عليه السلام- وموقف قومه منه.

المحور الثاني: لوط -عليه السلام- يستنصر بالله على قومه فيهلكهم الله -تعالى.

ولنستمع إلى آيات هذا اللقاء من أخينا الأستاذ عبد الرحمن فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم

؟ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟١٦؟ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ؟١٧؟ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ؟١٨؟ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ؟١٩؟ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ؟٢٠؟ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ؟٢١؟ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ؟٢٢؟ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ؟٢٣؟ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ؟٢٤؟ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ؟٢٥؟ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ؟٢٦؟ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ؟٢٧؟ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ؟٢٨؟ أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ؟٢٩؟ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ؟٣٠؟ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ؟٣١؟ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ؟٣٢؟ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ؟٣٣؟ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ؟٣٤؟ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ؟ [العنكبوت: ١٦: ٣٥]

أحسنت وجزاك الله خيرًا.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين وبعد.

فبعد أن استمعنا إلى آيات هذا اللقاء أبدأ وأستمد من الله العون والسداد والتوفيق في شرح وبيان وتفسير هذه الآيات تحت المحور الأول الذي هو بعنوان: قصة إبراهيم -عليه السلام- وموقف قومه منه، وجاء في ذلك قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ وإبراهيم: منصوب بفعل مُقَدَّر محذوف تقديره: "واذكر إبراهيم".

الله -عزّ وجلّ- يخبر في هذه الآية الأولى وفي مطلع قصة إبراهيم -عليه السلام- بأنه أرسل إبراهيم -عليه السلام- لقومه وهو إمام الحنفاء، خليل الرحمن إبراهيم -عليه السلام- وأتى إلى قومه وأمرهم بأمرين: أن اعبدوا الله واتقوه.

وأهل العلم يقولون بأن إبراهيم -عليه السلام- بأمره لقومه بهذين الأمرين أتى بالنفي والإثبات التي اشتملت عليهما كلمة "لا إله إلا الله" وبيان ذلك كالتالي:

قوله: "اعبدوا الله" يعني أخلصوا العبادة لله -عزّ وجلّ- أخلصوا التوحيد لله -تبارك وتعالى- "واتقوه" يعني اتقوا الشرك في عبادة الله -تبارك وتعالى- فيكون قد أمرهم بالتوحيد ونهاهم عن الشرك، وهذا هو خلاصة دعوة الأنبياء والمرسلين، وكان إمامهم في ذلك إمام الحنفاء -كما ذكرت- هو خليل الرحمن -صلوات الله وسلامه عليه- وقد ذَكَرَ لقومه أن هذا هو خير له: ؟ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟؛ أي أن عبادة الله -تبارك وتعالى- فيها كل الخير لكم، يا أيها الناس فاعبدوا الله -تبارك وتعالى- واحذروا أن تشركوا بالله -تبارك وتعالى- ولكنهم كانوا يشركون فبين خليل الرحمن -صلوات الله وسلامه عليه- فساد ما هم عليه: ؟ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ؟، إبراهيم -عليه السلام- يريد أن يقول بأن المعبود الذي يُعبد لا يُعبد إلا لأسباب، فالمعبود لا بد أن تكون هناك عوامل تدفع إلى عبادته؛ إما أن يكون هو أهل لأن يُعبد؛ أهل في ذاته أو يُعبد، أو أنه يملك النفع، أو أنه يدفع الضر، أو أنه يُوَصِّل إلى الذين يعبدونه أشياء كثيرة من إيجاد هذا ودفع هذا وغير ذلك، فإذا لم يكن للعابد شيء من ذلك ما استحق أن يعبد، هكذا خليل الرحمن إبراهيم يريد أن يلفت نظر هؤلاء الناس إلى ذلك، الذي يجب أن يُعبد هو الله، وما اتخذتموهم من دون الله -تبارك وتعالى- لا يخلقون شيئًا ولا يملكون شيئًا، ؟ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَوْثَانًا ؟، ما هي إلا أصنام، ما هي إلا أوثان، ما هي إلا نُصُب، ما هي إلا حجارة، عبدتموها من دون الله -تبارك وتعالى- وفي ذلك افتراء الكذب على الله -تبارك وتعالى- ؟ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ؟ قال ابن عباس وغيره: وتصنعون إفكا، والإفك هو الكذب والزور والبهتان، وهذا أمر يفعله المشركون في كل زمان ومكان.

ثم يقيم الحجة عليهم مُبَيِّنًا أن هؤلاء الذين عبدوهم من دون الله -تبارك وتعالى- لا يملكون لهم أي نفع، وعلى رأس النفع الذي ينتظره الإنسان أو المخلوق الصغير الضعيف في كل صباح هو الرزق أو ما يقتاته من الطعام وغير ذلك، خليل الرحمن إبراهيم يبين أن هذه الأصنام لا تملك شيئًا من ذلك: ؟ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا ؟، ولعلكم تلاحظون أنه هنا نَكَّرَ كلمة "رزقًا"، ليبين أنهم لا يملكون ولو شيئًا حقيرًا يرزقونكم به، نكره لهذا الأمر "رزقًا"، ثم يبين ويَلفت النظر إلى أن الذي يملك ذلك هو رب العباد سبحانه، ولذلك يقول: ؟ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ ؟ ابتغوا: يعني اطلبوا، اطلبوا عند الله الرزق، ويأتي هنا تعريف الرزق ليبين أن الرزق الواسع الكامل، الرزق الذي يحتاج إليه الإنسان في أي لحظة يجده عند مَنْ؟ عند رب العالمين سبحانه، كما قال ربنا في كتابه: ؟ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ؟ [الذاريات: ٢٢] وكما قال سبحانه: ؟ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ؟ [هود: ٦]، فالأمر كله بيد رب العالمين -سبحانه وتعالى- هذه الأصنام والأوثان التي عَبَدَهَا هؤلاء الناس من دون الله -تبارك وتعالى- لا تملك لأصحابها الذين عبدوها أي لون من ألوان الرزق، أما الرزق الذي يحتاج إليه الإنسان صباحًا ومساءً إنما هو بيد الله -تبارك وتعالى- ؟ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ ؟.

وطالما أنه يُطْلَبُ منه الرزق، وقد بين إبراهيم في آيات سابقة من خلال آيات القرآن الكريم أن الله هو الخالق، وأن الله هو المدبر إلى غير ذلك، إن كان الأمْر كذلك؛ هو الخالق وهو المتصرف وهو الذي يُمْرِض، وهو الذي يَشْفِي، وهو الذي يرزق، فعلى العباد أن يعبدوه وحده دون سواه، ولذلك بعدما قال مباشرة: ؟ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ ؟ قال: ؟ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ؟ ثم بين أن المرجع والمصير إلى رب العالمين -سبحانه وتعالى- ؟ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ؟ فيجازيكم بأعمالكم، ويحاسبكم ربكم -سبحانه وتعالى- على ما قَدَّمَت أيديكم، وهذا يدفع العبد المؤمن إلى أن يتحسس -كما ذكرت كثيرًا- مواطن أقدامه، الإنسان عندما يعلم أنه مسئول عما قدمت يداه وأن المرجع والمصير إلى الله -تبارك وتعالى- وأن كل إنسان سَيُسْأَل عما قدم بين يديه فلا بد لهذا العاقل أن يعتني بأمره وأن يُصلح عمله وأن يبيض صحيفته ووجهه إذا وقف بين يدي رب العالمين -سبحانه وتعالى.

ثم يقول الله -عزّ وجلّ: ؟ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ؟١٨؟ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ؟ اختلف أهل العلم، هذا من قول مَنْ؟ ؟ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ؟ قال بعضهم: هذا من قول إبراهيم -عليه السلام- وهو الظاهر من سياق الآيات، ورَجَّحَهُ الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله تبارك وتعالى- وبعضهم قال بأن هذا من خطاب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لقومه، ولكن هذا قول مَرْجُوح؛ لأن هذا سيكون كلامًا مُعْتَرِضًا بين قول الله -عزّ وجلّ: ؟ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ ؟ وبين قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ ؟ سيصبح كلامًا طويلاً معترضًا بين هذا وذاك، ولا داعي له.

إبراهيم -عليه السلام- في هذه الآية يهدد قومه بعد أن أمرهم بالتوحيد فيقول: إن كذبتم ولم تؤمنوا برسالتي ولم تصدقوا ببعثتي، فقد كذب أمم ممن كان قبلكم، ولقد أخبر رب العالمين -سبحانه وتعالى ولا شك- كُلَّ أمة عن مصير من تقدمها من الأمم الذين كذبوا بالأنبياء والمرسلين، وأما الرسول فلا يلحقه من تكذيبهم شيء، ولذلك قال: ؟ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ؟.

ومِنَ الواضح أن قوم إبراهيم -عليه السلام- كانوا يعبدون الكواكب ويجحدون رب الكواكب؛ يكفرون بالله -تبارك وتعالى- وبالتالي إبراهيم -عليه السلام- من خلال هذه الآيات يَلْفِت نظرهم إلى وجود رب العالمين -سبحانه- وإلى أنه هو الذي كَوَّنَ الأكوان وخلق الخلائق، ويجب عليهم إذن أن يعبدوه وحده دون سواه، وفي ذلك يقول كما ذكر القرآن الكريم عنه: ؟ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ؟، هذه لفتة من إبراهيم -عليه السلام- لهؤلاء الناس والرؤيا هنا الراجح فيها أنها رؤية تفكر واعتبار ونظر، ألاّ يتفكر هؤلاء في أنفسهم -لأنه ستأتي آية تالية فيها إشارة إلى النظر في الآفاق- ولكن ألا ينظر الإنسان في نفسه ويعلم من خلال هذا النظر أنه إنسان مخلوق مربوب بعد عدم؟! كلنا يعلم بَعْدَ النظر والتفكر من أين أتينا، وإلى أين سنصير؟ وهذا هو مقتضى هذه الآية: ؟ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؟ ولذلك صدق الله -تبارك وتعالى- في قوله: ؟ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ؟ [الذاريات: ٢١].

شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة -رحمه الله تبارك وتعالى- يقول في هذه الآية بأن هذه الآية من أحسن طرق الاستدلال في إثبات ربوبية الله -تبارك وتعالى- لأن الإنسان هو الْمُسْتَدِلُّ وهو الدَّلِيلُ والْمَدْلُولُ، الإنسان هو المستدل، يستدل بأي شيء؟! هو دليل نفسه على نفسه: ؟ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ؟ فالإنسان ينظر ويتأمل ويُفَكِّر: أين كان قبل أن يخلق؟ كان عَدَمًا، ولا شك أن العدم لا يخلق نفسه، فلا بد من أن يكون هناك خالقٌ أخرجه من حَيِّزِ العدم إلى الوجود ولا يكون ذلك إلا رب العالمين، والآية هنا أثبتت أن رب العالمين -سبحانه وتعالى- هو الذي بدأ الخلق، وكما أنه بدأ الخلق أشارت أيضا الآية إلى الإعادة، وختمها رب العالمين -سبحانه- بما يدفع به الشبهة عن عقولِ وقلوبِ نفوسٍ مريضةٍ تظن العجز وتنسبه إلى الله -عزّ وجلّ- فيقول رب العالمين رَدًّا على هؤلاء، أو ما يمكن أن يقع من تَوَهُّمٍ لدى هؤلاء: ؟ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ؟.

ولذلك أقول بأن الإلحاد بناءً على ذلك غاشية طارئة، الإيمان بأن الله –عزّ وجلّ– كَوَّنَ الأكوان، وخلق الخلائق، وأنه رب كل شيء، وأنه سيعيد العباد، وأن الجميع سيقفون بين يديه، وأنه سبحانه على كل شيء قدير، يدفعنا ذلك إلى أن نقول بأن الإلحاد الذي يتظاهر به قومه بين الحين والآخر سَلَفًا عن خلف إلى يوم الناس هذا، ما هو إلا أمر طارئ على البشرية، والأصل في العباد أنهم يُقِرُّون بفطرتهم أن الله –تبارك وتعالى– خالقهم ورازقهم، وتستمر الآيات في لفت أنظار هؤلاء المكذبين المشركين الجاحدين، وخاصة –كما ذكرت– بأن قوم إبراهيم كانوا يجحدون رب العباد –سبحانه وتعالى– ولا يؤمنون به، فتستمر الآيات في إقامة الحجة عليهم في أن الله –تبارك وتعالى– خلقهم، ولكن تأمرهم بالنظر في أشياء أخرى.

الآية الأولى: ؟ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؟، الآية التالية: ؟ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ؟ الله –عزّ وجلّ– في الآية السابقة يُشير إلى أن ينظروا، وأن يتأملوا في أنفسهم، وفي هذه الآية يأمرهم أن يضربوا في الأرض، أو أن يسيروا فيها نَظَرَ تَفَكُّرٍ وتَأَمُّلٍ لينطلقوا من خلال هذا النظر، ومن خلال هذا التأمل إلى إثبات وحدانية رب العباد –سبحانه وتعالى– فالإنسان ينظر ويتأمل كيف بدأ الخلق؟ مَن الذي بدأه؟ مَن الذي أوجده؟ هو رب العالمين وهذه الآية كقول الحق –تبارك وتعالى: ؟ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ؟ [فصلت: ٥٣].

وعلى كُلٍّ فهذه الآية كالآية السابقة، ولكن الآية السابقة أمرت الإنسان وأشارت إليه أن ينظر ويتأمل في نفسه، وهذه الآية أمرته أن ينظر فيمن حوله، وفي كلا الآيتين بيان أن الله –عزّ وجلّ– هو الذي بدأ الخلق، وهو الذي سيعيد العباد، وكما ذكر في الآية الأولى بأن ذلك على الله يسير، أشارت في الآية التالية بأن الله –سبحانه وتعالى– على كل شيء قدير.

ثم يقول سبحانه: ؟ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ؟٢١؟ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ؟، بعدما ذكر رب العالمين –سبحانه وتعالى– تكذيب المكذبين، وأشار إلى الإعادة عنده في يوم الدين، ذكر ما يترتب على هذه العادة، فبعدما يجمع رب العالمين الأولين والآخرين، سيكون هناك حُكْمٌ عَدْلٌ ورحمةٌ من رب العالمين –سبحانه وتعالى– ولكن الله هنا في هذه الآية ابتدأ بالعذاب، رغم أن رحمته سبقت غضبه، قال: ؟ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ؟ وفي الحديث يقول رب العالمين –سبحانه وتعالى– فيما أخبر به النبي –صلوات الله وسلامه عليه– وهو حديث قدسي: (سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي)، ولكنه هنا بدأ بالعذاب قال: لأن الحديث عن المشركين المكذبين، فابتدرهم رب العالمين –سبحانه وتعالى– بالعذاب، وهذا جدير في أن يجعلهم يتفكرون في أمرهم، ويُنقِذون أنفسهم من عذاب رب العالمين –سبحانه وتعالى– وفي مقابل عذاب الله للكافرين المكذبين الجاحدين رحمةُ رب العالمين –سبحانه وتعالى– بأهل الإيمان المصدقين: ؟ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ؟؛ يعني ترجعون.

ثم يتوجه السياق بعد ذلك مرة أخرى إلى المكذبين قائلا: ؟ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ ؟ بمعجزين: يعني أن الله –عزّ وجلّ– يريد أن يقول لهؤلاء قد يقوم في ذهن واحد منهم، خاصة إن كان عنده شيء من المال أو البطر أو الشجاعة أو القوة أو السؤدد على قومه مثلا وحماية وغير ذلك، أنه قد يهرب من عذاب الله –تبارك وتعالى– فالله –عزّ وجلّ– يقول لهم: إنكم لن تُعْجِزُوا الله –عزّ وجلّ– لا في الأرض.. لأن الإنسان إذا فكر في الهروب يهرب في الأرض، ولا في السماء، بمعنى: إن كانت عنده قدرة أن يهرب إلى السماء فسيهرب، ولكنه في كِلاَ الحالتين والأمرين لا يستطيع؛ لأن الله –سبحانه وتعالى– قاهر غالب عليه، ويؤكد ذلك ختام الآية: ؟ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ؟؛ يعني أنتم بين يدي الله –عزّ وجلّ– ليس معكم نصير، وليس معكم معاون، ولن تستطيعوا أن تفلِتُوا من الله –سبحانه وتعالى– لأن ربكم هو القاهر المتغلب –سبحانه وتعالى– على جميع عباده.

ثم يقول رب العالمين سبحانه: ؟ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ؟، مع الدلائل الواضحة على التوحيد التي أشار إليها إبراهيم الخليل -عليه السلام- فيما مضى، وبيان رب العالمين -سبحانه وتعالى- أن الأمْرَ إليه، وأن العباد لا مفر أو لا ملجأ ولا منجى لهم من الله إلا إلى الله، إلا أن بعض النفوس لم توقن برب العباد -سبحانه- وما زالت على الكفر؛ فيتوعدهم رب العالمين -سبحانه وتعالى- بأمرين أيضًا؛ لأنهم أتوا بأمرين، قال تعالى: ؟ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَائِهِ ؟، فهؤلاء فعلوا فعلين أو أتوا بأمرين الأمْر الأول: الكفر بآيات الله -عزّ وجلّ- والأمْر الثاني: الكفر بلقاء الله -تبارك وتعالى- والله -عزّ وجلّ- عاقبهم أيضًا بأمرين الأمْر الأول: ؟ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي ؟ فقطع عنهم الرجاء في رحمة رب العالمين -سبحانه وتعالى- والأمر الثاني: ؟ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ؟ هذه الكلمات التي وجهها إبراهيم -عليه السلام- لقومه كان الواجب أن يتأملوا فيها، وأن يتفكروا، وأن يكون الجواب بعد ذلك سديدًا ولكنه -وللأسف الشديد- عَمَّ الكفر على قلوبهم فأعماهم، طغى الكفر على أفئدتهم فأصبحوا لا يدرون جوابًا، ولا يفكرون في منطق سليم، ولذلك بعد هذه الآيات والدلائل والبَيِّنَات والتهديد الذي جاء من خليل الرحمن إبراهيم -عليه السلام- ما كان من هؤلاء إلا أن أجابوه بقولهم كما ذكر القرآن: ؟ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ؟ إبراهيم -عليه السلام- أقام الحجة على قومه، وهم لم يجدوا جوابًا يواجهوا به إبراهيم -عليه السلام- وهؤلاء الكفار عندما ينقطعون ولديهم شيء من القوة أو السلطان يفرون إلى ما لديهم من قوة وسلطان، فلجؤوا بعد ذلك إلى الأمْر بقتل إبراهيم -عليه السلام- أو إحراقه -صلوات الله وسلامه عليه- ولكن رب العالمين -سبحانه وتعالى- أخبر بأن الله -عزّ وجلّ- نجاه منهم فقال: ؟ فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ ؟، وذكر أهل العلم -وهو الصحيح- أن إنجاء خليل الرحمن إبراهيم -عليه السلام- من النار بأن جعل الله -تبارك وتعالى- النار بَرْدًا على إبراهيم -عليه السلام- ؟ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ؟ [الأنبياء: ٦٩]، وبهذا كانت نجاة خليل الرحمن إبراهيم -عليه السلام- والله -عزّ وجلّ- عندما ذكر هذه المعجزة لأن قومه أتوا بنار عظيمة جدًّا وأضرموها، وكتفوا خليل الرحمن إبراهيم -عليه السلام- ورَمَوْه بالمنجنيق في النار، نارًا جمعوا لها حَطَبًا عظيمًا جدًّا، ولكن الله -عزّ وجلّ- أذهب خاصية الإحراق التي هي في هذه النار؛ لأن النار من مخلوقات الله -عزّ وجلّ- والله يقول للشيء كن فيكون -سبحانه وتعالى- الله -عزّ وجلّ- أذاب خاصية النار في هذه الحالة حتى أصبحت بَرْدًا وَسَلاَمًا على خليل الرحمن إبراهيم، وبالتالي نجاه رب العالمين -سبحانه وتعالى- من النار والله -عزّ وجلّ- بعد هذه المعجزة يختم هذا بقوله: ؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ؟.

لو تأملتم ختام الحديث عن نوح -عليه السلام: ؟ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ؟ [العنكبوت: ١٥]، قال: ؟ آيَةً ؟ فقط، إنما هنا قال: ؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ؟ لأن السفينة تجري على البحر، أو تجري في المحيط أمر معروف ومعهود، وليس فيه كبير غرابة، أمَّا كون الله -عزّ وجلّ- يُنَجِّي إبراهيم -عليه السلام- من وسط هذه النار الشديدة فهذا ليست فيه آية واحدة وإنما فيه آيات وعلامات ودلالات كثيرة لقوم آمنوا بالله -تبارك وتعالى- وصدَّقوا المرسلين في أن رب العالمين -سبحانه وتعالى- هو الذي يملك الأمور، وهو الذي يقول للشيء كن فيكون، وأنه -سبحانه وتعالى- هو الفاعل القادر المختار لا معقب لحكمه ولا رادَّ لقضائه -سبحانه وتعالى- وهو الكبير العظيم الجليل الذي حقًّا لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، هو العزيز هو الغالب هو المنتقم -سبحانه وتعالى- جل في علاه، كل هذه آيات نستفيدها من إنجاء الله -تبارك وتعالى- لخليل الرحمن إبراهيم -عليه السلام.

من المتوقع أو المفترض بعد التهديد بالقتل، ثم بعد ذلك وضع إبراهيم -عليه السلام- في النار أن يؤجل إبراهيم -عليه السلام- على الأقل دعوة هؤلاء الناس إلى الله -عزّ وجلّ- ولكنه لم يتأخر، وقام بعد أن نَجَّاه الله من النار بالدعوة إلى الله -تبارك وتعالى- كما قام أولاً، وربما كان أكثر، ولذلك رب العالمين أتى بهذه الآية مباشرة بعد قوله: ؟ فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ ؟.

يقول سبحانه: ؟ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ؟، خليل الرحمن إبراهيم –عليه السلام– يذكر حجة أخرى على قومه يواجههم بها، يقول: إنكم أخذتم أو اتخذتم أوثانا من دون الله –عزّ وجلّ– أردتم أن تجعلوا صلة وقربى ومودة بينكم وبين هذه الأصنام، وهذه الأصنام في الحقيقة لن تنفعكم إذا وقفتم بين يدي الله –تبارك وتعالى– ولكن مآلها إذا وقفتم بين يدي الله أن تتخلى عنكم، وأن تلعنكم، بل كل واحد من هؤلاء الشركاء والمشركين سيلعن الآخر، كما جاء ذلك في التنزيل في قول رب العالمين –سبحانه وتعالى: ؟ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ؟ [الأعراف: ٣٨]، يقول –أيضًا– رب العالمين سبحانه: ؟ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ؟ [الزخرف: ٦٧] إذن هذه المودة مودة دنيوية فقط، أما أن تستمر ليوم القيامة، وأن ينقذ هؤلاء الناس إذا وقفوا بين يدي الله –تبارك وتعالى– من خلال الأصنام التي عبدوها من دون الله، فإنها لن تنفعهم شيئًا، ولذلك ختم خليل الرحمن كلامه لهم بعد أن بين هذه الحقيقة بقوله: ؟ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ؟؛ يعني أنكم إن كنتم تظنون أن هذه الآلهة ستكون أولياء لكم تنصركم في يوم الدين وتقف إلى جواركم، فاعلموا أنه لا يوجد في هذا اليوم إلا الولي الحميد –سبحانه وتعالى جل في علاه.

ثم يقول رب العباد سبحانه عن إبراهيم –عليه السلام– وعمن آمن معه: ؟ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ؟٢٦؟ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ؟، لوط –عليه السلام– هو ابن أخي إبراهيم –عليه السلام– وكان من المسارعين والداخلين في دعوة خليل الرحمن إبراهيم –عليه السلام– ولا نستشكل هذه الآية، ؟ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ؟، وهي خبر صحيح من الله –عزّ وجلّ– بأن لوطا –عليه السلام– آمن بدعوة إبراهيم –عليه السلام– لا نستشكل هذه الآية مع الحديث الذي جاء في البخاري ومسلم الذي ذَكَرَ فيه خليل الرحمن إبراهيم –عليه السلام– للملك الجبار لما كانت معه زوجه سارة وقال له بأنها أختي، وذهب إلى سارة وقال لها بأنه لا يوجد على الأرض قاطبة مؤمن إلا أنا وأنت، فدفعه ذلك إلى أن يذكر بأنها أخته، ويقصد بذلك أنها أخته في الدين، لا يتعارض ذلك مع هذا؛ لأن المعنى أنه لا يوجَد زوجين؛ (يعني رجل وامرأة) في هذه الدنيا إلا خليل الرحمن إبراهيم –عليه السلام– وأيضا زوجه التي آمنت به، ولوط –عليه السلام– كان آمن بإبراهيم –عليه السلام– ودخل في دينه.

هنا إبراهيم –عليه السلام– لَمَّا يَئِسَ من قومه ومن عبادتهم لربه –سبحانه وتعالى– ولم يستجيبوا له فأدرك إبراهيم –عليه السلام– أن البقاء وسط هؤلاء ربما لا يفيد، لأن الدعوة لن تنفع فيهم، ولن يستجيبوا له ولن يدخلوا في حزبه، فقرر إبراهيم –عليه السلام– أن يَفِرَّ بدينه إلى الله –تبارك وتعالى– ولذلك قال الله عنه: ؟ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ؟، ولم يذكر الله عنه فقط أنه قال إني مهاجر، وإنما ذكر الوجْهَة التي يهاجر لأجلها، والسبب الذي يدفعه إلى الهجرة هو أنه يريد ربه –سبحانه وتعالى– ومولاه، وعلى العبد أن يهاجر إلى الله في كل وقت وحين، بتركه للمعاصي والآثام، ورجوعه إلى رب العباد –سبحانه وتعالى– وإبراهيم –عليه السلام– يبين أن الهجرة لله وفي سبيل الله، لأن الله –سبحانه وتعالى– هو العزيز، فمن لجأ إليه أَعَزَّهُ، إن كان إبراهيم –عليه السلام– سَبَقَ أن اسْتُضْعِفَ في قومه وألقوه في النار، فهو عندما يترك هذه الأرض الكافرة ويهاجر إلى الله سَيُؤَيِّدُهُ الله –تبارك وتعالى، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله– سَيُؤَيِّدُ الله له مَنْ يؤمن بدعوته، وبالتالي يكون قد عز خليل الرحمن بعزة الله –تبارك وتعالى– ولذلك قال: ؟ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ؟؛ يعني أنه هو العدل الحكم –سبحانه وتعالى جل في علاه.

ثم تخبر الآيات ما تَفَضَّلَ الله –تبارك وتعالى– به على خليل الرحمن إبراهيم لماذا؟ لأن إبراهيم فَعَلَ الأعاجيب مع قومه من دعوتهم إلى الله –عزّ وجلّ– وكيف أنه تَصَدَّى كما جاءت آيات أخرى في القرآن الكريم تُبَيِّنُ ذلك، تَصَدَّى للأصنام التي عبدوها من دون الله –سبحانه وتعالى– بل إنه في مرة من المرات قام وكسرها –صلوات الله وسلامه عليه– ثم كانت النهاية أن ألقوه في النار ونجاه رب العالمين، ثم بعد ذلك خرج مهاجرًا إلى الله –عزّ وجلّ– فأراد الله –تبارك وتعالى– أن يكافِئَه، وأن يُعْظِمَ له الأجر والمثوبة، ولذلك قال: ؟ وَوَهَبْنَا لَهُ

إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ؟ وهذا فضل من الله -عزّ وجلّ- على إبراهيم، تعرفون هذه الآية أفادت إبراهيم -عليه السلام- بأنه سيولد له إسحاق، ثم يأتي بعد ذلك يعقوب، وأن إبراهيم -عليه السلام- سيعيش ليرى وَلَدَ وَلَدِهِ، هذه الآية أفادت ذلك؛ لأن الله قال: ؟ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ؟ ويعقوب كان مِنْ أحفاد مَنْ؟ مِنْ أحفاد إبراهيم -عليه السلام- يعني أن الله -عزّ وجلّ- أبقى إبراهيم -عليه السلام- إلى أن مَتَّعَه بأحفاد له، بعد أن كان في السابق قد بلغ من الْكِبَرِ عِتِيًّا ولم يولد له، وأيضا مِنْ فضل الله على إبراهيم -عليه السلام- ما جاء في قوله: ؟ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ؟ لم يخرج أحد من المرسلين بعد إبراهيم -عليه السلام- من سلالة إبراهيم -عليه السلام- فجميع أنبياء بني إسرائيل كانوا من سلالة يعقوب، والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من إسماعيل، وإسماعيل ابن مَنْ؟ ابن إبراهيم، فالله -عزّ وجلّ- تَفَضُّلاً منه ورحمة، ومكافأة جميلة لخليل الرحمن إبراهيم على جهاده وصبره، لأنه إمام -صلوات الله وسلامه عليه- حصر الله -عزّ وجلّ- النبوة والرسالة في أولاده وأحفاده - صلوات الله وسلامه عليه- ؟ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ؟ الله -عزّ وجلّ- آتى إبراهيم فضلاً عظيمًا جدًّا في الدنيا منها أنه نجاه من النار، منها أن الله -تبارك وتعالى- وَسَّعَ عليه، منها الذكر الحسن لخليل الرحمن إبراهيم -عليه السلام- منها أن الله -تبارك وتعالى- جعله إمامًا، منها أن الله -عزّ وجلّ- أقر عينيه برؤية أولاد له بعدما انتظر فترة طويلة من الزمن لا يولد له، هذا كله من الأجر الحاصل في الدنيا، وقد قيل بأن الله -عزّ وجلّ- قد وَسَّعَ الرزق أيضًا على خليل الرحمن إبراهيم -عليه السلام- ولم ينقطع أجرُهُ عند الدنيا فحسب، بل ما أَعَدَّه الله -عزّ وجلّ- لهؤلاء الأنبياء والمرسلين في الدار الآخرة أعظم وأعظم، ولذلك قال رب العالمين: ؟ وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ؟ [البقرة: ١٣٠]، وهذا من قبيل الثناء أيضا على خليل الرحمن إبراهيم -عليه السلام.

بعد ذلك أدخل إلى المحور الثاني في هذا اللقاء وهو بعنوان:

لوط -عليه السلام- يستنصر بالله على قومه فيهلكهم الله -تعالى- وفي ذلك يقول رب العالمين: ؟ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ؟٢٨؟ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ؟٢٩؟ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ؟ في هذه الآيات يخبر الله -تبارك وتعالى- عن سوء صنيع قوم لوط الذين ارتكبوا الفاحشة المنكرة التي ذكر القرآن الكريم أن هذه الفاحشة التي أتى بها هؤلاء الناس ما سبقهم إليها أحد من العالمين بحال، فهي فاحشة مبتدأة مبتدعة عند هؤلاء الناس، وقد فَصَّلَهَا لوط -عليه السلام- له حينما قال: ؟ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ؟ يفعلون هذه الفواحش والمنكرات؛ يأتون الرجال دون النساء، ويقطعون السبيل: يعني يقطعون طريق الناس، من يسافر منهم، أو من يقضي حاجة له، أو من يسير في الطريق ومعه مال -أيضًا- كانوا يتصدرون له ويأخذون ما لديه، أو يقتلوه أو يفسدوا أمره، وغير ذلك من ألوان الفساد التي يفعلها قُطَّاع الطريق، وأيضا كانوا يأتون في ناديهم المنكر، ناديهم: يعني مكان الاجتماع الذي يجتمعون فيه، قالوا: كانوا يأتون أيضًا فيه بألوان من الفساد من اللعب واللهو والمرح بالباطل وغير ذلك، وقيل: كانوا يحلون الإزار الذي يستر عورة الإنسان فكانوا يجلسون أيضًا بعد أن فَكُّوا أُزُرَهُم التي يلبسونها، وغير ذلك من ألوان الفساد التي كان يفعلها هؤلاء الناس.

لوط -عليه السلام- يأمر قومه بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ماذا كان جواب قوم لوط أيضًا، ماذا كان جواب هؤلاء المفسدين؟ ؟ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ؟ لو نلاحظ أن منطق الكافرين واحد، وهو الاستعلاء على الأنبياء والمرسلين، واستخدام القوة في مواجهة الحق عندما يعجزون عن مواجهة الحق، هؤلاء طلبوا عذاب رب العالمين -سبحانه وتعالى- ما استجابوا للوط -عليه السلام- وما دخلوا في دعوته، فما كان من نبي الله لوط -عليه السلام- إلا أن تَوَجَّهَ لربه ودعاه أن ينصره على هؤلاء المفسدين، ويجب أن نعلم أن جميع الأنبياء والمرسلين لا يتوجهون بذلك إلى الله -عزّ وجلّ- إلا بعد أن يصيبهم اليأس من إيمان أقوامهم، حتى يصبح الأمر أمامهم لا مفر منه في أن يتوجهوا إلى الله -تبارك وتعالى- كي يفعل

بهؤلاء المكذبين ما يفعله بمن لا يستحق أن يكون موجودًا على ظهر هذه الأرض؛ لأنه لم يحقق الأمْر الذي خلقه رب العالمين -سبحانه وتعالى.

ثم تستمر الآيات في بيان كيف أهلكهم رب العباد -سبحانه وتعالى- وفي ذلك يقول الله -عزّ وجلّ: ؟ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ؟٣١؟ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ؟ لوط -عليه السلام- لما استنصر بالله -تبارك وتعالى- نصره رب العالمين -سبحانه- بأي شيء نصره؟ أرسل ملائكة من عنده، هؤلاء الملائكة مروا أولا على إبراهيم -عليه السلام- إبراهيم -عليه السلام- أتوا إليه في صورة بشر ولم يأتوا إليه في صورة ملائكة، فقام بما يجب نحوهم من إكرام الضيف وقدم لهم الطعام فلم يقربوه، لما لم يقربوه أوجس خيفة -صلوات الله وسلامه عليه- عندئذ طمأنوه وأخبروه أنهم أُرْسِلُوا إلى قوم لوط كي ينفذوا فيهم وعيد رب العالمين -سبحانه وتعالى: ؟ إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ؟ لماذا؟ ؟ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ؟ وهذا يدل على أن رب العالمين -سبحانه وتعالى- لا يعاقب أحدًا بالهلاك والاستئصال ولا يأخذ أحدًا إلا بظلمه؛ لأنه -سبحانه وتعالى- هو الْحَكَمُ الْعَدْلُ، عندئذ تَدَخَّلَ إبراهيم -عليه السلام- لأنهم أخبروه أنهم أتوا كي يُهْلِكُوا هذه القرية؛ قرية لوط -عليه السلام- فأخبرهم خليل الرحمن إبراهيم -عليه السلام- بأن لوطا من أهل هذه القرية، وكيف يأخذون هذه القرية ويهلكونها وفيها نبي يدعو إلى الله -تبارك وتعالى- عندئذ أخبرت الملائكة إبراهيم -عليه السلام- بأنهم يعلمون أن لوطا -عليه السلام- في هذه القرية، ولكن الله -تبارك وتعالى- سينجيه، والفضل يمتد إلى أهله ممن آمن معه، ويُسْتَثْنَى في ذلك امرأته فقط؛ لأنها كانت مِنَ الغابرين، ومعنى من الغابرين: يعني من الهالكين.

ثم يستمر اللقاء فيبين ماذا كان من أمر الملائكة بعد ذلك: ؟ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ؟٣٣؟ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ؟ مَرَّت الملائكة بعد أن تركوا خليل الرحمن إبراهيم -عليه السلام- مروا على لوط -عليه السلام- لما أتوا إليه، أتوا إليه في صورة بشر ولكنهم في أَبْهَى حُلَّةٍ وأجمل صورة، وكان هؤلاء المجرمين إذا أتى أحد من الضيوف إلى لوط -عليه السلام- حاولوا أو أرادوا أن يفعلوا به الفاحشة، لما أتوا إلى لوط -عليه السلام- ضاق بهم ذرعا وأصابه من الهم والنكد والغم والكرب الشيء الكثير بسبب ما كان يفعله قومه بضيفانه، ولكنهم أيضًا لم يتركوه في قلق، ويقاسي الهم والغم أخبروه مباشرة أنهم ملائكة الله -عزّ وجلّ- وطمأنوه لا تخف ولا تحزن، وأعلموه بأنهم سيهلكون هذه القرية إلا امرأته؛ لأنها من الغابرين -كما ذكرت- من الهالكين، وأخبروه بأنهم سينزلون عليهم عذابا أليما من عند رب العالمين -سبحانه- وقد سبق معنا في آيات سابقة؛ في سورة الشعراء سابقًا، وفي سورة النمل أيضا أن رب العالمين -سبحانه وتعالى، وأشرت إلى ذلك- أمر جبريل -عليه السلام- أن يَقْتَلِعَ قرى هؤلاء اللوطية، ويرفعها إلى السماء، ثم بعد ذلك يقلبها على الأرض، وهذا بيان لعذاب الله -تبارك وتعالى- العظيم الذي ينزل بالمجرمين عندما يكذبون المرسلون ولا يؤمنون برب العالمين -سبحانه وتعالى- والله -عزّ وجلّ- يختم هذه الآيات بقوله: ؟ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ؟؛ يعني في هذه الآيات أدلة واضحة، في هذه الآيات بيان لمن يعتبر ويتذكر، ومن يعقل فيفقه، ويتخذ العبرة أو يأخذ العبرة من مواقف هؤلاء الظالمين، فلا يكون معهم، ولا يركن إليهم، ويدخل في الإيمان بالنبي المرسل إليه، وأنتهي بهذه الكلمات، وأصلّي وأسلّم على النبي المختار -صلى الله عليه وآله وسلم.

-صلى الله عليه وآله وسلم- أحسن الله إليك فضيلة الشيخ وجعله الله في موازين حسناتكم.

بالنسبة لسؤالي الحلقة السابقة كان السؤال الأول: ما نوع الاستفهام في قول الله -تعالى: ؟ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا ؟ وما معناه وما المراد بالفتنة في قوله تعالى: ؟ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ؟؟

وكانت الإجابة: الاستفهام في قوله "أحسب": استفهام استنكاري، ومعناه: أن الله -تعالى- لا بد أن يبتلي عباده المؤمنين على قدر إيمانهم، والمراد بالفتنة الابتلاء والاختبار من الله -عزّ وجلّ.

الجواب صحيح، ولم يكمله، ما الفتنة أو ما المراد بالفتنة؟ الفتنة: قلنا الابتلاء والاختبار، وهي طبعا سنة ثابتة مقررة عند رب العالمين -سبحانه وتعالى- فالله -عزّ وجلّ- ابتلى السابقين كما ابتلى اللاحقين، وألوانُ الفِتَن متعددة قد ذكر القرآن الكريم كثيرًا منها.

السؤال الثاني: هل يحمل الكافر وِزْرَ من أضله ولماذا؟ واستدل من السنة لما تقول؟

وكانت الإجابة: نعم، يحمل الكافرون وِزْرَ من أضلوهم؛ وذلك لأن هذا الإضلال من فِعْلِهم وكسبهم فهم يحاسبون مرتين على أنفسهم مرة بكفرهم ومرة بإضلالهم للناس، وكل هذا من فعل أنفسهم، ويدل على ذلك من السنة قول النبي -صلى الله عليه وسلم: (وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلاَلَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنِ اتَّبَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْءٌ.

الجواب صحيح.

يقول: ذكرتم فضيلتكم أن النار مخلوقة، فهل الجنة والنار مخلوقان الآن؟.

نعم، هذا من معتقد أهل السنة والجماعة أن الجنة والنار مخلوقتان الآن، والقرآن الكريم قد أشار إلى ذلك في آيات كثيرة، كما في قوله -تعالى- مثلا عن الجنة: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وفي النار: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤]، والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قد أكَّدَ ذلك في أحاديثَ كثيرة متعددة، منها أنه رأى الجنة وأنه رأى النار -صلوات الله وسلامه عليه.

يقول: تفضلتم بالكلام على قوم لوط، وأن الملائكة رفعت قُرَاهُم إلى السماء حتى سُمع نباح كلابهم، ألا يجعلنا ذلك ألاَّ نيأس من نصر الله -عزّ وجلّ- بأن كل من تَكَبَّرَ على الله -عزّ وجلّ- وعلى خلقه، وكل من شرع في معصية الله -عزّ وجلّ- ضد الإسلام والمسلمين أن يهزمهم الله -عزّ وجلّ؟.

أحسنت وجزاك الله خيرًا، وهذا مقرر في شريعة الإسلام، ولعلّنا نعيد أو أَلْفِتُ النظر إلى الآية التي جاءت في نهاية سورة القصص بعد أن خَسَفَ الله -عزّ وجلّ- بقارون وبزينته وبكنوزه عَقَّبَ الله -عزّ وجلّ- على هذا المشهد بقوله: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣] فالعاقبة -إن شاء الله- لأهل التقوى، ولكن على أهل الإيمان أن يقوموا بدين رب العالمين -سبحانه وتعالى- وهذه الآيات فيها آيات بَيِّنَات لهؤلاء الكافرين الظالمين الذين يستكبرون ويستعلُون ويظلِمون خلق الله -تبارك وتعالى- ويكفي أن نعلم أو أن ننظر في قول الله -تعالى- بتَأَمُّل: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ١٤]، نعم، أو ﴿ وَسَيَعْلَمْ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

يقول: سمعنا وعرفنا أن أحد الرجال قد تزوج برجل مثله في هذا العصر، ويَدَّعِي أنه من المسلمين، فما حكم الشرع فيمن يفعل هذه الفعلة؛ فعلة قوم لوط؟.

في الحقيقة هو سؤال وجيه، ولا نجد وقتًا أن نُعَرِّج على مثل هذه المسائل، وأهل العلم في الحقيقة قد اختلفوا في ذلك، ولكن من باب التعزير وقطع الفساد في الأرض يُقتل من فعل ذلك، والعلماء يختلفون هل يُلْقَى -كما ذكروا- من شاهِقٍ عالٍ، أو أنه يُوقَعُ عليه جدار؛ بمعنى أنه تُلقى عليه حجارة كالذي يُرجم وغير ذلك، ولكن درءًا للفساد يُقتَلُ هذا الفاعل لهذه الفاحشة والله أعلم.

أسئلة المراجعة.

السؤال الأول:

بماذا أَمَرَ إبراهيم -عليه السلام- قومه في الآية الأولى؟ الآية رقم ستة عشر؟ ولماذا نَكَّرَ كلمة "رزقا" أولا، ثم عَرَّفَهَا ثانيًا؟ وما معنى: ؟ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ؟؟

السؤال الثاني:

اذكر ثلاثة من نعم الله على إبراهيم -عليه السلام- في الدنيا، مع ذِكْرِ الآية التي دلَّت على أن الله أعطاه أجره فيها؟ يعني في الدنيا، والضمير يعود إلى الدنيا.

الدرس السادس عشر

تابع تفسير سورة العنكبوت

رب العالمين يُنَوِّع العذابَ على الظالمين ويَضْرِب الأمثالَ للمشرْكِين

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وبعد.

يسعدنا في هذا اللقاء أن نواصل حديثنا حول بعض آياتٍ من سورة العنكبوت، وسيدور الحديث -إن شاء الله تبارك وتعالى- في هذا اللقاء حول ثلاثة محاور:

المحور الأول بعنوان: شعيب يدعو قومه إلى الله، ورب العالمين ينوع العذاب على الظالمين.

المحور الثاني: الله -تبارك وتعالى- يضرب الأمثال للمشركين، ويأمر المؤمنين بتلاوة الكتاب والقيام بالدين.

المحور الثالث: التوجيه بمجادلة أهل الكتاب بالحسنى، وبيان فضل الله في إنزال الكتاب.

ولنستمع الآن إلى هذه الآيات من أخينا الشيخ عبد الرحمن فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

؟ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُو الْيَوْمَ الآخِرَ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ؟٣٦؟ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ؟٣٧؟ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ؟٣٨؟ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ؟٣٩؟ فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ؟٤٠؟ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ؟٤١؟ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ؟٤٢؟ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ؟٤٣؟ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ؟٤٤؟ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ؟٤٥؟ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ؟٤٦؟ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاَءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ ؟٤٧؟ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ؟٤٨؟ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَات فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ ؟٤٩؟ وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ؟٥٠؟ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ؟٥١؟ قُلْ كَفَى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ؟ [العنكبوت: ٣٦: ٥٢]

أحسنت وجزاك الله خيرًا.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين وبعد.

الآية الأولى معنا في هذا اللقاء تحت المحور الأول الذي هو بعنوان: شعيب يدعو قومه إلى الله -تبارك وتعالى- ورب العالمين ينوع العذاب على الظالمين، وفي ذلك يقول رب العالمين: ؟ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُو الْيَوْمَ الآخِرَ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ؟٣٦؟ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ؟ رب العالمين -سبحانه وتعالى- يخبر هنا عن شعيب -عليه السلام- أنه دعا قومه إلى الله -تبارك وتعالى- وأخبرهم بأن الله -عزّ وجلّ- إله واحد، ثم خَوَّفَهُم بعذاب الله والدار الآخرة، "وَارْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ" إن التخويف بعذاب الله -تبارك وتعالى- في الأصل يردع الإنسان عن أن يسير في غيه وظلمه، ولكن من طَمَسَ الله -تبارك وتعالى- على قلبه لا يستفيد شيئًا من ذلك.

هنا شعيب -عليه السلام- يدعوهم إلى عبادة الله -عزّ وجلّ- ويبين لهم أنهم سيقفون حتما بين يدي الله، وهذا يدعوهم إلى أن يخشوا عذاب الله -تبارك وتعالى- الذي أعده الله -تبارك وتعالى- للظالمين والمكذبين، ثم بعد ذلك ينهاهم عن أن يسيروا في الأرض بالفساد: ؟ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ؟، وقد كان فسادهم من نوع عظيم، ذلك أنهم أولا أشركوا برب العالمين -سبحانه- كما أنهم كانوا يبخسون الكيل والميزان، وقيل أيضًا: كانوا يظلمون بأنواع أخرى من الظلم، كقطع الطريق وبعض ألوان الإجرام وغير ذلك مما هو معهود بين سائر الأمم، وشعيب -عليه السلام- ينهاهم بعدما أمرهم بعبادة الله وحده، أن يسلكوا في الأرض بالفساد، وكانت النتيجة أن كذبوه، ولم يستجيبوا لقوله، ولم يدخلوا في الإيمان بالله -تبارك وتعالى- وكان بعد ذلك عقاب الله -تبارك وتعالى- نازل عليهم أليم، رب العالمين -سبحانه- جاء هنا فقال: ؟ فَكَذَّبُوهُ ؟ بـ "الفاء العاطفة"؛ يعني أنهم لم يستجيبوا له أبدًا، ولم يستجيبوا لقوله، ولم يتفكروا أو يكلفوا أنفسهم أن ينظروا في دعوته لهم إلى الله، ولكنه بمجرد أن دعاهم وحذرهم ونهاهم، كذبوا به مباشرة، فكان عقابُ الله -تبارك وتعالى- بهم أليمًا: ؟ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ؟، الرجفة: يعني زلزلة عظيمة أخذهم رب العالمين -سبحانه وتعالى- هذه الزلزلة، أو هذه الرجفة أهلكتهم حتى أصبحوا في دارهم جاثمين، قيل: أصبحوا في دارهم مَيِّتِين، وقيل: ألقى الله -تبارك وتعالى- بعضهم على بعض، وذكر كلمة "جاثمين" لتفيد هذا المعنى، وكل هذا لا شك صحيح ووارد ويتصوره الإنسان بعد الهلاك الذي أنزله رب العالمين -سبحانه وتعالى- بهم.

ثم يستمر السياق فيتحدث الله -تبارك وتعالى- عن بعض القُرَى والأمم المكذِّبَة أيضًا بالأنبياء والمرسلين، وقد مر بنا شَيْءٌ من ذلك، وفي هذا يقول القرآن الكريم: ؟ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ؟٣٨؟ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ؟ هذا تَعْدَاد من رب العالمين -سبحانه- لبعض القُرَى التي كذبت بأنبيائها، وبدأ بعد ذلك بقوم عاد، هؤلاء الناس الذين كانوا يَسكنون الأحقاف في قرى قريبة من حضرموت، وكذبوا نبيهم هودًا -عليه السلام- ولم يقبلوا دعوته، ولم يتابعوه على دينه الذي جاء به من عند رب العالمين، وتَبِعَ في التكذيب قوم صالح ألا وهم ثمود، وكانوا يسكنون الْحِجْر في شمال الجزيرة العربية، وقد دعاهم أيضا إلى الله -عزّ وجلّ- فكذبوا ولم يستجيبوا، والله -تبارك وتعالى- يُوَجِّه هنا أنظار المشركين الذين خوطبوا بالقرآن الكريم من قِبَلِ النبي -صلى الله عليه وسلم- قائلا: ؟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ؟.

لأن قريشًا كانوا يذهبون في الشتاء والصيف إلى الشمال وإلى الجنوب في التجارة، وكانوا يمرون على ديار هؤلاء الناس وكانت خاوية بسبب تكذيبهم لأنبيائهم ورسلهم، وكان الأحرى والأوْلَى بالمشركين أن يتابعوا النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بدلا من أن يتابعوا الشيطان الذي زين لهذه الأمم أعمالهم، وصدهم بذلك عن السبيل، وأهلكهم رب العالمين سبحانه بتكذيبهم بالأنبياء والمرسلين، ولمتابعتهم للشيطان الرجيم، وتكذيبهم بالنبي المرسل إليهم من قِبَلِ رب العالمين -سبحانه وتعالى- والآية هنا تشير أن الله -عزّ وجلّ- قد بَصَّرَ هؤلاء الناس وكانوا هم في واقع أمرهم مستبصرين، اختلف هنا أهل العلم: ما المراد بقول الحق -تبارك وتعالى- هنا ؟ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ؟؟ قال بعضهم: كانوا مستبصرين في الحياة الدنيا خاصة؛ يعني أنهم كانوا يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا وعلى فقه وعلم بالدنيا، ولم يكن لهم دراية عن الدار الآخرة، وقال بعض أهل العلم بأنهم كانوا

مستبصرين بصحة دعوة الأنبياء والمرسلين الذين دعوهم إلى رب العالمين -سبحانه- وذلك بالآيات والمعجزات التي أجراها الله -تبارك وتعالى- على يدي هؤلاء الأنبياء والمرسلين.

ومن الأمم التي كَذَّبَت أيضًا بالأنبياء والمرسلين ما جاء عن قارون: ؟ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ؟، قارون سبق الحديث عنه أيضًا، قد بَغَى وطَغَى وتَجَبَّرَ بماله فأهلكه رب العالمين، وفرعون الذي كان يملك ديار مصر، وأيضا استكبر في الأرض بغير الحق، وسعى فيها بالفساد هو ومن معه من جنده، وكان وزيرُه هامان يسعى معه في الأرض بالفساد، ولذلك نَصَّ عليه هنا القرآن الكريم، عندما ذكر فرعون أعْقَبَ الذّكْرَ بهامان بعده أيضًا، وذكر رب العالمين سبحانه أن موسى -عليه السلام- قد جاء لهؤلاء القوم بالبَيِّنَات: ؟ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ؟، وكان الأوْلَى بهم أن يتابعوا هذه الآيات البَيِّنَات، لأن الله -عزّ وجلّ- عندما يذكر البَيِّنَات يدل هذا على أنها بَيِّنَات واضحة بَيِّنَة، والأحرى بالإنسان أن يتابع الحق إذا ظهر له، ولكنهم أيضًا استكبروا عن الحق الذي بعث الله -سبحانه وتعالى- به الأنبياء والمرسلين، وقد يقول قائل هذا الاستكبار لعله كان ناتِجًا عن أنهم ظَنُّوا أنهم لما استكبروا في الأرض سَيَفُوتُون رب العالمين -سبحانه وتعالى- ولذلك خَتَمَ الله -عزّ وجلّ- هذه الآية بقوله: ؟ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ؟؛ يعني لم يكن هؤلاء لِيَفُوتَوا رب العالمين -سبحانه وتعالى- ولكن الله -عزّ وجلّ- قد أخذهم أخذ عزيز مقتدر، وسيجمعهم ربنا -سبحانه وتعالى- في يوم الدين ويُذيقهم بعد ذلك عذاب السعير، وقد ذكر الله -عزّ وجلّ- في الآية التالية مباشرة بعض ألوان العذاب الدنيوي الذي أَوْقَعَهُ على هؤلاء القوم فقال: ؟ فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ؟، صَرَّحَ الله -عزّ وجلّ- في هذه الآية بكل عذاب نَزَلَ على هؤلاء القوم الذين سبق ذكرهم، وهذا يعرف في علم البديع باللَّفِّ والنَّشْرِ الْمُرَتَّب؛ يعني أن الله -عزّ وجلّ- جمع ذكرهم أولا، ثم بعد ذلك ذكر ما وقع عليهم من عذاب، تاركًا للسامع أن يُرجِعَ كُلَّ عذاب إلى كُلِّ أمة سبق ذكرها نتيجة فهمه الذي يمكن أن يفهمه من ذلك، وهذا لون من ألوان البديع في علم اللغة، وقد امتلأ به كتاب رب العالمين -سبحانه وتعالى- وهنا بَيَّنَ الله -عزّ وجلّ- ألوان العذاب التي وقعت على هؤلاء، هو بدأ بذكر عادٍ فذكر أوَّلاً العذاب الذي أوقعه على قوم هود -عليه السلام- فقال: ؟ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ؟ حاصبًا: هي الريح الشديدة التي ساقها الله -عزّ وجلّ- على هؤلاء، وقال عنها بأنها حاصبة؛ لأنها كانت تحمل الحصباء وتلقيها عليهم، والله -عزّ وجلّ- قد صَرَّحَ في آيات أخرى في كتابه أنه أخذ قوم هود -عليه السلام- بريح صَرْصَرٍ عاتِيَة.

أما بعد ذلك قوم ثمود فقد أخذهم الله بالصيحة؛ ذلك أنهم واجهوا الآية التي أَيَّدَ الله -تبارك وتعالى- بها صالح -عليه السلام- واجهوه بالتكذيب وارتفعت أصواتهم في وجه صالح -عليه السلام- وهدَّدُوه بالإخراج والطرد وغير ذلك، فأخذتهم صيحة أسكتت أصواتهم، وقضت عليهم، وكان عقاب الله بعد ذلك لقارون بأن خسف به وبداره الأرض.

أما فرعون الذي استكبر على عباد الله -تبارك وتعالى- أيضًا، فقد أغرقه الله -عزّ وجلّ- على مَرْأى ومَسْمَع ومشاهدة من قومه له وهم يغرقون، والله -عزّ وجلّ- بعد ذلك يُبَيِّن أنه لم يظلمهم، وإنما هم الذين كانوا سببًا فيما وقع عليهم من ظلم وعذاب، ؟ وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ؟، فالعبد إذن يتحمَّل جريمة ما قدَّمت يداه، وليعلم أهل الظلم بعد ذلك أنهم سَيُعَاقَبُون على ظلمهم من الله -تبارك وتعالى- وأن الله -عزّ وجلّ- إذا أخذهم، أخذهم ربنا -سبحانه وتعالى- بعدله وحكمته وهو ليس ظالما لهم.

المحور الثاني في هذا اللقاء بعنوان: الله -تبارك وتعالى- يَضْرِب الأمثال للمشركين، ويأمر المؤمنين بتلاوة الكتاب والقيام بالدين، وفي هذا يقول رب العالمين سبحانه: ؟ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ؟ هذا مَثَلٌ ضربه الله -تبارك وتعالى- للمشركين الذين اتخذوا من دون الله -تبارك وتعالى- أولياءَ وأوثانًا وأصنامًا وأندادًا يدعونهم كما يدعون الله -

تبارك وتعالى- ويتقربون إليهم ويطلبون منهم ما لا يُطلَب إلا من الله -تبارك وتعالى- فضرب الله -عزّ وجلّ- هذا المثل لهم لعلهم يتفكرون ويرجعون، والله -تبارك وتعالى- هنا ضرب المثل بالعنكبوت، ولعَلَّ السبب في ضرب المثل بالعنكبوت أن بيت العنكبوت ضعيف وأنه من أوهن البيوت التي يمكن أن يشاهدها الإنسان، فالله -عزّ وجلّ- بَيَّنَ للمشركين أن عبادتهم لغير الله -تبارك وتعالى- لا ترجع عليهم بنفع ولا تعود عليهم بفائدة؛ كبيت العنكبوت الذي لا يقي من الحر ولا يحمي من البرد، ولا يقف أمام ريح عاصف، فالله -تبارك وتعالى- يريد أن يقول لهؤلاء المشركين إن دعاءكم لهؤلاء الأولياء أو للأصنام أو للأوثان، لن ينفعكم شيئًا، كما أن بيت العنكبوت لا ينفع العنكبوت، فعندما يمد أيُّ إنسان يده إليه سيزيله في الحال، ولو جاءت ريح عاصف كذلك، ولو اشتد حر الشمس ما وقى مَنْ فيه، وكذلك إذا أتى برد شديد ما حمى مَنْ فيه، كذلك أيضا كل من عُبِدَ من دون الله -تبارك وتعالى- لا يملك لعابده شيئًا، شأنه شأن بيت العنكبوت، وقد توصل العلم الحديث الآن أيضًا إلى أن بيت العنكبوت أيضًا أوهن البيوت ضعفا في داخل الأسرة ذاتها، فالعنكبوت ينقلب بعضه على بعض، ويقتل أيضًا بعضه بعضا، بل إن الأم بعدما تضع بيضها ويكون لها من النتاج ما يكون هي التي تنقض على نتاجها وتَقْتِكُ به قبل أن يَفْتِكَ به غيرها، وكل ذلك بيان لهؤلاء المشركين أنهم في نهايةٍ مُظلمة، وأن ما يُتْعِبُون فيه أنفسهم اليوم من شقاء أو دعاء أو عبادة أو غير ذلك أو نذر أو ذبح لغير الله لن يفيدهم شيئا، كما قال رب العالمين: ؟ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ؟ [الفرقان: ٢٣]، وكذلك بيت العنكبوت إذا جاءته شيء من الريح أصبح كالهباء المنثور، لا يقف أمام هذه الرياح بحال من الأحوال، ؟ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ؟، ثم يَلْفِتُ الله النظر إلى من يعقل: ؟ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ؟ وعلى الإنسان أن يتعلم، وأن يقف أمام هذه الأمثال ويتأمل، وبالتالي إنْ تَأَمَّل تَذَكَّر ورجع إلى رب العالمين، وترك الشرك وعبادة الله -تبارك وتعالى.

ثم يُسَفِّه رب العالمين -سبحانه وتعالى- بعد ذلك عبادتهم لهذه الأصنام أو لهذه الأوثان، ويبين أنها ليست بشيء أصلاً، وهذا يُستفاد من قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ؟ إن الله -سبحانه وتعالى- يعلم أن هذه الأصنام التي عُبِدَت من دون الله ليست شيئًا بحال؛ لأنها لا تنفع أصحابها، أما الذي ينفع ويضر، وأما الذي يحيي ويميت فهو من يَتَّصِف بصفات الجلال والكمال -سبحانه وتعالى جل في علاه- ولذلك ختم الآية بالإشارة إلى شيء من ذلك فقال: ؟ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ؟ هو العزيز الذي لا يغالبه أحد، وهو -سبحانه وتعالى- القاهر فوق خلقه، هو -سبحانه وتعالى- العزيز الذي يُعِزُّ من يشاء ويُذِلُّ من يشاء، هو العزيز؛ لأن بيده الأمْر -سبحانه وتعالى جل في علاه- الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها الصحيحة، وأفعاله كلها لا تخلو عن حكمة بها يفعل رب العالمين -سبحانه وتعالى- وكأن هنا سائلا سأل: لماذا يضرب الله -عزّ وجلّ- الأمثال بالحشرات في القرآن الكريم، كالنمل أو الذباب أو العنكبوت مثلا؟ فرد الله -سبحانه وتعالى- على ذلك وبَيَّنَهُ بقوله: ؟ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ؟؛ يعني أن رب العالمين -سبحانه وتعالى- يضرب الأمثال بما يشاء أن يضرب به، ولكن هذه الأمثال من ورائها فائدة، إذا تأملها فقط العاقل، فالعاقل، والذي يفهم، والذي يعقل، والذي يتدبر، والذي يحاول أن يتعلّم هو الذي يفهم هذه الأمثال، ويدرك لماذا ضرب رب العالمين -سبحانه وتعالى- الأمثال بهذه الحشرات، وقد ذكرت الآن بأن علة ضرب المثل ببيت العنكبوت، أنه من أوهن البيوت كما ذكر القرآن الكريم كما أن أيضا علة ضرب المثل بالذباب في آية سورة الحج: أن الذباب شيء تافه في عرف الناس، ومع ذلك، مع وجود هذا التافه لا يستطيع أحد من المخلوقات دون الحق -تبارك وتعالى- أن يوجِد هذا الذباب، فإذا كان لا يقدر أي مخلوق على أن يأتي بشيء حقير كالذباب، فمن باب أولى أنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا وراءه، وبالتالي كانت هناك حكمة عظيمة في ضرب الأمثال من رب العالمين -سبحانه وتعالى- بهذه الحشرات ولكن الذي يعقل ذلك ويفهمه هم أهل العلم الذين يستفيدون مما أودع الله -تبارك وتعالى- فيهم من القلوب ومن العقول.

ثم بعد ذلك يخبر رب العالمين -سبحانه وتعالى- عن قدرته العظيمة في خلق السماوات والأرض بالحق فيقول: ؟ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ؟ الله -تبارك وتعالى- خلق السماوات والأرض بالحق، وهذا معلوم بداهة لكل مؤمن، لأن خلق الله -عزّ وجلّ- قام وَوُجِدَ بالحق وعلى الحق، فالله -

عزّ وجلّ- مُنَزَّهٌ عن العبث في فعله، فلم يخلق رب العالمين -سبحانه وتعالى- هذا الخلق عبثا ولا سدى، وإنما خلقه لحكمة، وكل مخلوق خلقه رب العالمين -سبحانه وتعالى- لحكمة، إن أدركناها فبها ونعمت، أو عرفنا عنها شيئًا فالحمد لله، وإن لم ندرك فَلْنَكِل علمَ ذلك إلى عالِمِه -سبحانه وتعالى جل في علاه- ولكن اللافِتَ للنظر في هذه الآية أن الله قال: ؟ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ؟ رغم أن هذا الخلق فيه علامة لكل من يتأمل بعقله إن كان يعي حتى ولو كان كافرا، فلماذا ذكر الله -عزّ وجلّ- أو حصر أن خلق السماوات والأرض بالحق آية فقط للمؤمنين، رغم أنه يمكن أن يكون آية لكل من ينظر، ولكل من يتأمل؛ ذلك أن أهل الإيمان هم الذين يعرفون أن الله خلق السماوات والأرض بالحق، أهل الإيمان فحسب هم الذين يدركون ذلك ويعلمون ذلك، بدليل أن الله -تبارك وتعالى- في كتابه قال في آية أخرى: ؟ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ؟ [الدخان: ٣٩]، فأخرج أكثر الناس من علمهم بأن الله -عزّ وجلّ- خلق السماوات والأرض بالحق.

ثم بعد ذلك يأمُرُ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وآله وسلم- بأن يتلوَ الكتاب وأن يقيم الصلاة، وتلاوة الكتاب تُفيد أن يبلِّغه للناس وأن يرتله وأن يقرأه، وأن يُذَكِّر به -صلوات الله وسلامه عليه- لأن الله قال له: ؟ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ؟؛ يعني من الكتاب الذي أنزله رب العالمين -سبحانه وتعالى- إليك، وفي تلاوة الكتاب دعوة إلى هذا الكتاب، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، لأن هذا الكتاب يحمل في طياته كل هذه المعاني، ثم بعد ذلك يأمره الله -عزّ وجلّ- بعد أن أمره بتلاوة الكتاب، أن يقيم الصلاة لرب العالمين -سبحانه- فقال: ؟ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ ؟ بصيغة الأمْر وقوله سبحانه: ؟ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ ؟ يفيد أن يأتي المؤمن والمسلم بها لله -عزّ وجلّ- كما أرادها وطلبها منه رب العالمين -سبحانه وتعالى- أن يقيمها لله، لا أن يأتي بها من يأتي بالشيء وهو غير مُكْتَرِثٍ به ولا يُهِمُّه شأنُهُ، وإنما يجب على الإنسان أن يحرص على إقامة الصلاة لله -عزّ وجلّ- بهيئاتها وقيامها وركوعها وسجودها والخشوع لله -تبارك وتعالى- فيها، وأن يحضُرها مع المسلمين في المسجد، ولا تكون إقامة الصلاة إلا بهذه المعاني كلها، والله -عزّ وجلّ- قد ذكر عِلَّة إقامة الصلاة فقال: ؟ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ؟، وهذه حقيقة، فمن أقام الصلاة لله -عزّ وجلّ- كما ينبغي وأداها لله -تبارك وتعالى- خالصا لوجه الله الكريم بعد أن تَطَهَّر وتأسَّى بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أثمرت هذه الصلاة في قلبه إيمانا، وانطبع ذلك على جوارحه ولسانه تسليمًا لرب العالمين -سبحانه وتعالى- وكانت هذه الصلاة بعد إقامتها لله -عزّ وجلّ- مانعة له عن التلوث بالقاذورات وسائر أنواع المعاصي والآثام التي حرمها رب العالمين -سبحانه وتعالى.

وقد جاء في كُتُبِ التفسير عند الحديث عن هذه الآية بعضُ الأحاديث المرفوعة إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وفيها: (مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلاَتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ فَلاَ صَلاَةَ لَهُ)، وقد ساق الإمام الحافظ ابن كثير - رحمه الله تبارك وتعالى- شيئًا من ذلك، كما ذكر بعض أقوال الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم أجمعين- في هذا المعنى، وعَقَّبَ على ذلك بقوله -"يعني بعد ذكره لبعض الأحاديث المرفوعة، وبعض أقوال الصحابة الموقوفة عليهم، ومعناها تؤدي المعنى الذي أُثِرَ أو وَرَدَ أو أُضِيفَ إلى النبي -صلى الله عليه وسلم" قال -رحمه الله تبارك وتعالى: "وما ورد من الموقوف في ذلك أصح"، وهذا كلام صحيح، فقد تَتَبَّعْتُ الأحاديث الواردة في مثل ذلك كنحو: (مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلاَتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ فَلاَ صَلاَةَ لَهُ)، وما يشبهها فوجدتها أحاديث تدور بين الضعيف، أو الأحاديث الضعيفة جدًّا، وبعضها منكر لا يُعْتَدُّ به بحال، أما ما ثَبَتَ من أقوال نُسِبَت لبعض الصحابة -رضوان الله تبارك وتعالى عليهم أجمعين- فقد ثَبَتَ بعض الآثار في ذلك، وعلى كُلٍّ فهذا المعنى صحيح، يعني هذا المعنى في أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر هذا معنى صحيح نقول به، ولكني فقط أتحدث عَمَّا نُسِبَ إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وما أضيف إليه من القول: (مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلاَتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ فَلاَ صَلاَةَ لَهُ)، والله -عزّ وجلّ- قد عَلَّلَ الصلاة في هذه الآية بأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، ثم قال عقب ذلك: ؟ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ؟ تحتمل هذه الكلمة العظيمة على معنيين:

المعنى الأول:

؟ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ؟: يعني أن ذكر الله -تبارك وتعالى- من أكبر الموانع عن الفحشاء والمنكر؛ يعني أن ذكر الله -عزّ وجلّ- بالتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير، وأن يقوم هذا المعنى في قلب المؤمن فيحمل العبد عن الانقطاع عن الفحشاء والمنكر.

وقيل: المعنى الثاني:

؟ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ؟: يعني أن ذكر الله -تبارك وتعالى- لعبده الذاكر له أكبر من ذكر العبد لله -تبارك وتعالى- لأن العبد إذا ذكر الله -عزّ وجلّ- ذكره الله -تبارك وتعالى- في ملأ خير من مَلَئِهِ، وذِكْرُ الله -عزّ وجلّ- أفضل وأعلى من ذِكْرِ الذاكر لله -تبارك وتعالى- وقد اختار هذا القول الإمام الحافظ ابن جرير -رحمه الله- -تبارك وتعالى- واستحسنه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ثم ختم الله -عزّ وجلّ- هذه الآية بقوله: ؟ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ؟ يعني أن رب العالمين -سبحانه وتعالى- يعلم ما تقومون به أيها العباد، وهو الذي سيجازيكم على أعمالكم إن خَيرًا فخير، وإن شَرًّا فشر.

أما المحور الثالث والأخير في هذا اللقاء فهو بعنوان: التوجيه بمجادلة أهل الكتاب بالحسنى، وبيان فضل الله في إنزال الكتاب، وتحته ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ؟، بعد حديث القرآن الكريم عن الأمم السابقة، وبيان فساد ما هم عليه من الشرك، أمر الله -تبارك وتعالى- النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يجادل أهل الكتاب بالتي هي أحسن، وقد ذكر بعض المفسرين بأن هذه الآية نُسِخَت بآية السيف ،والقتال ولكن البعض الآخر وهو الصحيح -إن شاء الله تبارك وتعالى- أن هذه الآية محكمة وليست منسوخة، ولكنها مُوَجَّهَة إلى أهل الكتاب الذين يصلح الجدال والحجاج معهم بالحسنى، والله -عزّ وجلّ- قد أمرنا أن ندعو عموم الناس إلى الله -تبارك وتعالى- وأن نجادل الناس عمومًا عندما ندعوهم إلى الله -عزّ وجلّ- بالحكمة والموعظة الحسنة، وأهل الكتاب يدخلون في ذلك، وبالتالي هذه الآية فيها توجيه لعموم المؤمنين أن يجادلوا أهل الكتاب بالتي هي أحسن، بالخطاب اللين، بالخطاب الرقيق، الله -تبارك وتعالى- لما بَعَثَ موسى -عليه السلام- إلى فرعون، ونحن قد سبق معنا ما كان لدى فرعون من ظلم وبغي وطغيان وفساد وغير ذلك، والله -تبارك وتعالى- سبق في علمه أن فرعون لن يؤمن، ومع ذلك أمر الله -تبارك وتعالى- موسى -عليه السلام- أن يُلِينَ القول لفرعون، وأن يخاطبه بالتي هي أحسن، وهذا مأخوذ من قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ؟ [طه: ٤٤]، والله -عزّ وجلّ- يعلم أن فرعون لن يتذكر ولن يخشى، ولكن هذا فيه توجيه لنا ولمن يأتي بعد موسى -عليه السلام- عندما يحمل راية الدين ويدعو إلى الله -تبارك وتعالى- أن يدعو إلى الله -عزّ وجلّ- بالحسنى، وهذا يكون مع مَنْ يُمْكِن أن يُوَجَّهَ إليه الخطاب ولا يؤذي أهلَ الإيمان، أما مَنْ وقف في طريقهم وتَصَدَّى لهم وظَلَمَهُم فهذا هو الذي يُوَاجَهُ بما يُوَاجَهُ به من أمور أُخَر لعله يرتدع عن غَيِّهِ ويَكُفَّ عن ظلمه، ولذلك قَيَّدَ رب العالمين -سبحانه وتعالى- المجادلة بالحسنى هنا مع أهل الكتاب لمن يمكن منهم أن يستجيب، واستثنى رب العالمين -سبحانه وتعالى- منهم الذين ظلموا فقال: ؟ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ؟ هذه الآية فيها تقرير بأن نؤمن نحن معشر أهل الإيمان أصحاب محمد النبي الأُمِّيّ -صلى الله عليه وآله وسلم- أن نؤمن بما أنزله رب العالمين -سبحانه وتعالى- من كتب عن الأمم السابقة، كما نؤمن أيضًا بالكتاب الذي نَزَلَ على نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- وهذه ميزة عظيمة تَمَيَّزَ بها أهل الإيمان عن من لم يؤمن بنبوة نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- فنحن قد جمعنا الحسنيين عندما آمنا بالأنبياء السابقين وبما أنزله رب العالمين -سبحانه وتعالى- من كتب على الأنبياء والسابقين، ومع ذلك آمنا بما أُنْزِلَ أو بما أَنْزَلَ الله على النبي الأُمِّيّ -صلى الله عليه وآله وسلم- واعتقادنا أن ما بين يدي أهل الكتاب اليوم قد حُرِّفَ وغُيِّرَ وبُدِّلَ ولَعِبَت فيه عقول أهل الأهواء منهم، ونسخه رب العالمين بشريعة نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- ولكننا نؤمن بالجملة بالتوراة التي نزلت على موسى -عليه السلام- وأنها من عند الله، ونؤمن أيضًا بالجملة بالإنجيل الذي نزل على عيسى -عليه

السلام- ونعتقد أن هؤلاء حَرَّفُوا كلام رب العالمين سبحانه؛ لأن الله -عزّ وجلّ- الذي أمرنا بأن نؤمن بما أنزله من الكتب السابقة، هو الذي أخبرنا في كتابه أن هؤلاء القوم قد حَرَّفُوا وغَيَّرُوا وبَدَّلُوا ما أنزله رب العالمين -سبحانه وتعالى- من كتب على هؤلاء القوم، والله -عزّ وجلّ- وهو يتحدث مع أهل الكتاب ومجادلتهم بالحسنى ويأمرنا بأن نؤمن بما أُنْزِلَ إلينا وما أُنْزِلَ إليهم أيضا يأمرنا رب العالمين -سبحانه وتعالى- أن نرفع راية التوحيد، وأن نُعلي الوحدانية لرب العالمين -سبحانه وتعالى- فأمرنا أن نقول لهم: ؟ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ ؟ فالله -عزّ وجلّ- إله واحد لم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا -سبحانه وتعالى- تَنَزَّه وتَقَدَّس عن الصاحبة والولد والشريك والنِّد والمثيل والكفء والنظير، ؟ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدًا ؟ [الجن: ٣] ونحن في ذلك نَخْضَع ونَرْضَخ ونُسَلِّم لرب العالمين -سبحانه- ولذلك أمرنا الله -عزّ وجلّ- أن نقول لهم: ؟ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ؟.

ثم بعد ذلك يُعَدِّد الله -عزّ وجلّ- نعمه على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وعلى أمة النبي -عليه الصلاة والسلام- فيقول: ؟ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاَءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ ؟ رب العالمين يضيف إلى نفسه إنزال الكتاب من عنده على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ثم يبين موقف الناس من هذا الكتاب، فبعضٌ من الناس الذين آتاهم رب العالمين -سبحانه وتعالى- وأنزل عليهم الكتب السابقة يؤمنون بنبوة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كعبد الله بن سَلاَم، وبلال، وغير هؤلاء آمنوا وصدقوا بالنبي -عليه الصلاة والسلام- وما زلنا إلى يومنا هذا نجد بعضا من هؤلاء الذين أوتوا الكتب السابقة يدخلون ويتابعون النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فيما جاء به من عند ربه، وكذلك بعض المشركين يؤمنون أيضا بما أنزله رب العالمين على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وعلى رأس هؤلاء صحابة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فكانوا قبل الإيمان بالنبي -عليه الصلاة والسلام- على الشرك بالله -عزّ وجلّ- ولكنه لما بُعث -عليه الصلاة والسلام- آمنوا به ودخلوا في رسالته وصدقوا بنبوته ولم يجحد النبوة والرسالة عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- إلا من غطى الكفر عقله ولم يجد الإيمان سبيلا إلى قلبه، ولذلك قال رب العالمين -سبحانه وتعالى: ؟ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ ؟ ثم يُوَجِّه الخطاب إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قائلا -وفيه إقامة للحجة على العباد في وجوب الإيمان بالكتاب، فيقول الله له:

؟ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ؟٤٨؟ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ ؟ في الحقيقة، قول الله -تبارك وتعالى: ؟ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ ؟ تأكيد لصدق النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وفيه إقامة الحجة على المذبذبين المكذبين المتشككين في نبوته وبعثته وصدقه -صلى الله عليه وآله وسلم- وكأن الله -عزّ وجلّ- يقول لهؤلاء: هذا النبي -صلى الله عليه وسلم- اشْتُهِرَ بينكم بأنه أُمِّيّ، لا يقرأ ولا يكتب، ولم يسبق له أن جلس إلى عالم يتعلم منه، فلم يقرأ على يد عالم أو شيخ يأخذ عنه، وما كان هو في نفسه -صلى الله عليه وآله وسلم- قارئًا، ومع ذلك أتى بما أخبركم به، فقبل آيات قليلة ذكرنا قوم عاد وثمود وقارون وفرعون وهامان، وقبلهم شعيب، وقبلهم لوط، وقصة إبراهيم وغير ذلك من القصص.. من أتى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بذلك؟ ومن الذي أعلمه أخبار السابقين وهو لم يقرأ في كتاب ولم يجلس إلى معلم يعلمه -صلوات الله وسلامه عليه؟ فكونه أُمِّيّ -صلوات الله وسلامه عليه- معجزة عظيمة، وقد نَصَّ الله -عزّ وجلّ- في الكتب السابقة على أنه أُمِّيّ -صلى الله عليه وسلم- نحن نؤمن بأن الكتب السابقة بشرت بالنبي -عليه الصلاة والسلام- والله -عزّ وجلّ- نَصَّ في هذه الكتب على أُمِّيَّة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فمعرفة أن النبي -عليه الصلاة والسلام- أُمِّيّ أمر مقرر عند السابقين.

الحقيقة أبو الوليد الباجي -رحمه الله تبارك وتعالى- ذهب إلى أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كان يَكْتُب، وكَتَبَ واعتبر ذلك معجزة للنبي -عليه الصلاة والسلام- بمعنى أنه أُمِّيّ وكتب -صلى الله عليه وسلم- وقد أخذ هذا من مفهوم حديث ورد في البخاري في صلح الحديبية، وهو أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كتب لما جاء سهيل بن عمرو ورفض أن يُذْكَرَ محمد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وطلب أن يُكْتَب محمد بن عبد الله، أن النبي -عليه الصلاة والسلام- هو الذي كتب محمد بن عبد الله، ولكن في الحقيقة هو قد وَهِمَ في هذا

-رحمه الله- ونحن نحمل هذه الرواية على ما ورد في البخاري أيضًا من أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أَمَرَ فَكُتِبَ محمد بن عبد الله -صلى الله عليه وآله وسلم- والصحيح أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لم يكن قارئًا ولم يكن كاتبًا، وحتى على فرض أنه تَعَلَّم كتابة اسمه -صلى الله عليه وآله وسلم- فلا يرفع ذلك عنه الأُمِّيَّة -صلوات الله وسلامه عليه- وبالتالي تصبح هذه الآية حجة على المبطلين المكذبين، والله -عزّ وجلّ- قد ساقها لبيان ذلك: ؟ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ؟، ولو كان الأمْر كذلك ؟ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ؟، ربما كانت لهم حجة في أن يَكْذِبُوا أو أن يقولوا عليك بأنك أتيت بكلام من عندك، أو استقيته من كتاب سابق، أو تعلمته من معلم قرأت عليه، ولكن كل ذلك لم يكن، فما بالهم إذن لا يؤمنون بنبوته -صلى الله عليه وآله وسلم- بل هو آيات بَيِّنَات، وهكذا أيضًا يؤكد القرآن الكريم أن ما أُنْزِلَ على النبي -صلى الله عليه وسلم- آيات ولكنها آيات بَيِّنَة، آيات واضحة، في صدور الذين أوتوا العلم.

ثم بعد ذلك يقول: ؟ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ ؟ وأفادت هاتان الآيتان أن هؤلاء الجاحدين يجمعون بين الكفر وبين الظلم؛ لأن الله -عزّ وجلّ- مرة وصفهم بالكفر ومرة وصفهم بالظلم، ثم بعد ذلك يبين رب العالمين -سبحانه وتعالى- تَعَنُّت المشركين في طلبهم معجزات من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بعد القرآن الكريم، وفي ذلك يقول الله -تبارك وتعالى- ؟ وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ؟٥٠؟ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ؟٥١؟ قُلْ كَفَى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ؟ تَعَنَّتَ المشركون في طلب المعجزات الحسية من النبي -صلى الله عليه وسلم- طلبوا منه أن يأتي بمعجزات كالتي أتى بها موسى -عليه السلام- وقد كان عندهم علم وخبر بمعجزات موسى -عليه السلام- من خلال اليهود الذين كانت بينهم وبين هؤلاء المشركين مراسلات وكلام وسؤال عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- عندما طلبوا ذلك من باب التعنُّت والجدال، أمر الله -عزّ وجلّ- النبي -عليه الصلاة والسلام- أن يقول لهم: ؟ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ ؟، لأنه بشر -صلى الله عليه وسلم- لا يملك شيئًا من هذه الآيات، وإنما الذي يأتي بالآيات إليه هو رب العالمين -سبحانه وتعالى جل في علاه- وما هو -صلوات الله وسلامه عليه- إلا نذير مبين يبلغ عن رب العالمين -سبحانه وتعالى- ما أنزله الله -تبارك وتعالى- إليه.

ثم يقول الله له، والخطاب أيضًا مُوَجَّه إلى هؤلاء: ؟ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ؟ هؤلاء أَلَمْ يكن كتاب الله -عزّ وجلّ- بما فيه من رحمة وهداية، وتوجيه وإرشاد، ولطف وتوجيه في الخطاب، أَلَمْ يكفيهم كلام الله -عزّ وجلّ- الذي هو فوق كل المعجزات وقد أنزله الله -تبارك وتعالى- على النبي -صلى الله عليه وسلم- وبه شرح الصدور والقلوب، ودخل الناس بسببه في دين الله أفواجا، ولكن هؤلاء لما انغلقت قلوبهم عن قبول الحق ما اكتفوا بهذا الكتاب؛ بهذا القرآن الكريم، وفي الحقيقة القرآن الكريم فيه الكفاية، والله -عزّ وجلّ- نَصَّ عليه هنا في هذه الآية؛ لأنه أعظم معجزات النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وهو المعجزة الدائمة الباقية إلى أن تقوم الساعة، فمعجزات الأنبياء السابقين كانت معجزات وقتية وانتهت، أما لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- خاتم الأنبياء والمرسلين، ورسالته عامة لكل البشر وباقية إلى قيام الساعة فقد بقيت معجزة القرآن الكريم أيضًا كعلامة على هذا الدين، ومعجزة لهذا الإسلام إلى أن تقوم الساعة، ولا يعني ذلك أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لم يُعْطَ من المعجزات الحسِّيَّة ما قد أعطاه الله -عزّ وجلّ- لمن سبقه من الأنبياء والمرسلين، أوتي منها -صلى الله عليه وآله وسلم- الكثير، وكانت هذه المعجزات في واقع أمرها أعظم من معجزات السابقين، وقد شهد القرآن الكريم ببعض المعجزات الحسية للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كانشقاق القمر مثلاً، وبالتالي هذه الآية لا يفهم أحد منها أنها تتعارض مع ثبوت المعجزات الحسِّيَّة، القرآن الكريم فقط يريد أن يقول الله لهم بأن القرآن الكريم فيه كفاية، ولكن هذه المعجزات الحسية كانت معجزات وقتية، وتنتهي بزمن مَنْ شاهدها، أما المعجزة الحقيقية القائمة الباقية العالية فهي القرآن الكريم، والله -عزّ وجلّ- قد كان يؤيد الأنبياء والمرسلين كل نبي بما يتناسب مع عصره، وقد كانت معجزة القرآن الكريم هي المعجزة المواتية لهؤلاء المشركين والمناسبة

لهم في زمن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم، والقرآن الكريم كما ذكَرَ الله عنه المعجزة الباقية، فيه ذكرى، وفيه رحمة، وفيه هداية لمن انشرح له ؟ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ؟.

ثم بعد ذلك النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يأمره ربه بأن يلجأ إلى الله -تبارك وتعالى- وأن يسند ظهره إليه، وأن يُشْهِدَ ربَّ العالمين -سبحانه- على صدقه، فالنبي -عليه الصلاة والسلام- لم يكذب على قومه أبدًا، ولم يأت بأمر خارج عَمَّا أمره ربه -سبحانه وتعالى- عليه، وكان النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يستشهد بربه في مواطن كثيرة؛ ليبين لهؤلاء الناس أن ربه من فوقه عليم به، وأنه لم يكن لِيَكْذِبَ على الله -تبارك وتعالى: ؟ قُلْ كَفَى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ؟ الله -عزّ وجلّ- مُطَّلِعٌ عَلَيَّ وعليكم، يعرف أخباري ومدى صدقي، ويعرف أيضًا مواجهتكم بالكذب لي، وهو نبي -صلوات الله وسلامه عليه- والله -عزّ وجلّ- يعلم ما في السماوات كما يعلم -سبحانه وتعالى- ما في الأرض، وما كان لهؤلاء المكذبين أن يكذبوا بعد ذلك بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فحاشاه -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يتقوّل على الله أو يَكْذِب على الله أو يخالف الحق الذي جاء من عند الله -تبارك وتعالى- ولكن الظالمين عندما يقفون بين يدي رب العالمين سيعلمون أنهم كفروا بالله -عزّ وجلّ- بعد أن آمنوا بالباطل، أما أهل الإيمان فقد آمنوا بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ومن كفر بالله وآمن بالباطل فهو حَقًّا الذي قد خَسِرَ دنياه وآخرته، ولذلك ختم رب العالمين -سبحانه وتعالى- هذا السياق بقوله: ؟ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ ؟ آمنوا بالباطل ولم يؤمنوا بالله هؤلاء الذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون، ولا شك أنهم خاسرون في الدنيا والآخرة، أعاذنا الله -تبارك وتعالى- وإياكم من هؤلاء، ومن سبيل هؤلاء.

وصلِّ اللَّهُمَّ وسَلِّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أحسن الله إليكم يا شيخنا الحبيب، أستأذنكم قبل الإجابة على أسئلة الحلقة السابقة نأخذ اتِّصَالاً من الأخت.

تقول: عندي سؤال في سورة هود، في الآية مائة وثمانية: ؟ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ؟ [هود: ١٠٨] يعني كيف نفرق بين قوله تعالى: ؟ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ ؟ والجنة فيها خلود دائم لا خروج منها؟ فليتك يا شيخ توضِّح لنا وتفسِّر لنا.. وجزاك الله خيرً.

هذه الآية عندما جاءت بإثبات المشيئة لله -عزّ وجلّ- مع خلود أهل الإيمان في الجنة لا يعني ذلك أن هذا الاستثناء لانقطاع نعيم أهل الجنة، وإنما هو في الحقيقة لتثبيت وتحقيق هذا النعيم، ولكنه أفاد أن كل ذلك بمشيئة رب العالمين -سبحانه وتعالى- فالله -عزّ وجلّ- قد وعد النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بدخول مكة، ووَعْدُ الله حَقٌّ، ولكنه قال: ؟ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللهُ ؟ [الفتح: ٢٧] فذكر المشيئة لبيان أن كل ذلك بمشيئة رب العالمين -سبحانه وتعالى- وأن الأَمْرَ لا يخرج عن مشيئته، فنعيم أهل الجنة دائم أبد الآباد، كما قال رب العالمين -سبحانه وتعالى- بأنهم: ؟ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ ؟ ومما يؤكد أن الاستثناء هنا لا يعني أن نعيم الجنة سينقطع ما خَتَمَ رب العالمين به الآية في قوله: ؟ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ؟: يعني عطاء غير منقوص ولا منقطع، والله أعلم.

بالنسبة لأسئلة الحلقة السابقة كان السؤال الأول: بماذا أمر إبراهيم -عليه السلام- قومه في الآية الأولى؟ التي هي الآية ستة عشر، ولماذا نَكَّرَ كلمة "رزقًا" ثم عرَّفها ثانيًا، وما معنى: ؟ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ؟؟

وكانت الإجابة: إن إبراهيم -عليه السلام- دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإخلاص التقوى لله -عزّ وجلّ- والإخلاص له في التقوى، وأن يتقوا سخطه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه وطلب الرزق منه وحده، وتوحيده في الشكر فإنه المشكور على النعم.

وهنا جاءت "رزقا" في قوله تعالى: ؟ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا ؟ أي لا يقـدرون أن يرزقوكم، وإنَّ هؤلاء الذين تعبدون لا يقدرون على أن يرزقوكم، وإنَّ أوثانكم الذين تعبدونها من دون الله لا تقدر أن ترزقكم شيئًا فالتمسوا عند الله الرزق لا من عند أولئك، ومعنى ؟ فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ ؟: أي اطلبوه منـه وأخْلِصُوا له العبادة والشكر على رزقه إياكم، إلى الله تُرَدُّون من بعد مماتكم فيجازيكم على ما عملتم.

؟ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ؟: أي وتصنعون كذبا وباطلا، وتفترون كذبًا بتسميتكم إياها آلهة، قال ابن عبـاس: تَنْحِتُـون وتُصَوِّرُون إفْكً.

لا شك أن الجواب صحيح، ولكن لعلَّه لم يتضمن تنكير "رزقًا" في الأولى والتعريف في الثانية، فالتنكير فـي الأولى بسبب أنهم لا يملكون ولو شيئًا يسيرًا حقيرًا جدًّا، أما التعريف في الثانية ؟ فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ ؟ هكذا بالتعريف ليفيد الرزق الكامل التام الكثير، فهو بيد رب العالمين –سبحانه وتعالى جل في علاه.

السؤال الثاني: اذكر ثلاثة من نعم الله تعالى على إبراهيم –عليه السلام– في الدنيا مع ذكر الآية التـي دلـت على أن الله أعطاه أجره فيها؟

كانت الإجابة: من أهم النعم التي أكرم الله بها نبيه إبراهيم –عليه السلام– نعمة الإيمان؛ أهم نعمة من نعم الله والذي أخرجه من الظلمات إلى النور، وأعطاه الرسالة والنبوة، ومن النعم التي أكرم بها نبيه إبـراهيم –عليـه السلام– أن نَجَّاه الله –تعالى– من النار، وقال الله –تعالى– للنار ؟ كُونِي بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ؟ صار الجو معتدلا، وأيضا أنه تعالى أكرمه أن جعل من ذريته النبوة وجعله إماما للناس، وهذه خصلة عظيمة مع اتخـاذ الله –تعالى– إياه خليل.

الجواب صح، والله تعالى أعلم.

يقول: قال الله –تبارك وتعالى– هنا: ؟ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ ؟ وقال جل وعلا: ؟ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ ؟ وفي سورة النمل قال الله –تبارك وتعالى– مخبرًا عن فرعون وقومه ؟ وَجَحَـدُوا بِهَـا وَاسْـتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ؟ [النمل: ١٤] الآية، الشاهد شيخنا، هل نفهم من ذلك أن الجحود يكون بعد عِلْمٍ ويقين وأنـه هناك فرق بينه وبين الإعراض عن جهل؟.

أحسنت وجزاك الله خيرًا، هذا سؤال وجيه، هو في الحقيقة الجحود يكون لأمر قائم عند الإنسان، وقد بَيَّنَّا هذا مع فرعون لوضوح الأمْر عنده تماما؛ ولأن الله –عزّ وجلّ– ذكر عن فرعون أنه جحد بعد اليقين التام وليس بعد مجرد اليقين، كما في قوله: ؟ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ؟ فالجحود هنا وقع لا شك بعـد العلـم وبعد اليقين التام، والله أعلم.

أسئلة المراجعة.

السؤال الأول:

ما الحكمة في ضرب المثل بالعنكبوت في قوله تعالى: ؟ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ ؟، ولمن ضَرَبَ الله هذا المثل؟

السؤال الثاني:

اشرح قوله تعالى: ؟ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ؟، وهل يتعارض ذلـــك مـــع المعجـــزات الحسية؟ وَضِّح ذلك.

الدرس السابع عشر

تابع تفسير سورة العنكبوت

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد:

يَسُرُّنا -إن شاء الله تبارك وتعالى- أن نواصلَ الحديثَ حولَ سورةِ العنكبوت وذلك في محورين اثنين في هذا اللقاء -إن شاء الله تبارك وتعالى-.

المحور الأول بعنوان: المشركون يَستعجلون العذابَ، والموحدون يعبدون الله وعليه يتوكلون.

المحور الثاني: المشركون يقرون بالخالق، ويصرفون العبادة لسواه.

ولنستمع إلى آيات هذا اللقاء.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؟ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ؟٥٣؟ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ؟٥٤؟ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؟٥٥؟ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ؟٥٦؟ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ؟٥٧؟ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ؟٥٨؟ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ؟٥٩؟ وَكَأَيِّن مِّنْ دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ؟٦٠؟ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ؟٦١؟ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَّشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ؟٦٢؟ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ؟٦٣؟ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ؟٦٤؟ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ؟٦٥؟ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ؟٦٦؟ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ ؟٦٧؟ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ؟٦٨؟ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ؟ [العنكبوت: ٥٣: ٦٨].

إن الحمد لله؛ نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. إنه من يهدِه الله؛ فلا مضل له، ومن يضلل؛ فلا هاديَ وله. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. اللهم صلِّ وسلمْ وبارك على عبدك ورسولك ومصطفاك، وعلى آله وأصحابه ومن سَلَكَ سبيلهم، واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

وبعد:

أواصل الحديث -كما ذكرت- حول آياتٍ من سورةِ العنكبوت، وأبدأ بالمحور الأول في هذا اللقاء الذي عنونْتُه بقولي: المشركون يستعجلون العذاب، والموحدون يعبدون الله وعليه يتوكلون.

وتحته قول الحقِّ -تبارك وتعالى-: ؟ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ؟ في الآيةِ السابقةِ، وفي الدرس السابق الذي انتهينا منه قلت: قول الحق -تبارك وتعالى-: ؟

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ؟ [العنكبوت: ٥٢]، وقد كان هذا –في الحقيقة– تهديدٌ ووعيدٌ للمكذِّبينَ بالأنبياء والمرسلين، وبخاصةٍ بالنبيِّ –صلى الله عليه وآله وسلم–، تهديدٌ لهؤلاء القومِ الذين آمنوا بالباطل وكفروا بربِّ العالمين –سبحانه وتعالى–.

ولَمَّا ذكر الله –عزّ وجلّ– ذلك في هذه الآية؛ أشار إلى استعجال هؤلاء المكذبين المشركين للعذاب، وهذا يُفيد أنهم لا يؤمنون به، ولا يصدقون بوقوعه وإلا؛ فالعاقل –كما ستأتي الإشارة إلى ذلك في آية تالية أنهم –أيضا– استعجلوا العذابَ مرَّة بعد مرَّة– لا يَستعجلُ أمرًا سيُصاب من ورائه بأمرٍ عظيمٍ يقطعُه، ولكنَّهم كانوا يَستعجلون العذابَ وكأنهم في هذا يَصدُّون عنه، ولا يؤمنون به، ولا يتوقعون حدوثه، ولو كانوا –حقًّا– عندهم شيءٌ من العقلِ أو منَ الوعي؛ ما طَلَبُوا العذابَ.

وقد سبق أن قلت لكم –في لقاءات سابقة– إن المشركين كانوا يطلبون العذاب بصورة قبيحة للغاية، ويكفي أنَّ الله –عزّ وجلّ– ذكر عنهم كما في سورة الأنفال: ؟ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ؟ [الأنفال: ٣٢].

هذا يدل على سفاهةِ عقولِ هؤلاء الناس؛ لأنهم عندما يقولون إن كان هذا هو الحق من عندك، والأولى بهم أنْ يَدعوا الله –تبارك وتعالى– وأن يطلبوا من رب العالمين أن يهديَهم إليه، لا أن يأخذهم ولا أن ينزل عليهم العذاب. فَدَلَّ ذلك على أنهم –حقًّا– لا يعقلون، ولا يفقهون.

ولكنَّ الله –عزّ وجلّ– قد جَعَلَ للعذاب أجلاً يأتي عنده، وجعل له وقتا محدودا لا يقع قبله، والله –عزّ وجلّ– قد رَدَّ عليهم بذلك. فعندما كانوا يستعجلون –على سبيل التعنّت والعناد– العذابَ من النبيِّ –صلى الله عليه وآله وسلم– أخبرهم الله –عزّ وجلّ– بأنَّ للعذاب أجلاً، فقال: ؟ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ؟، لولا أنَّ الله –عزّ وجلّ– حَدَّدَ لهذا العذابِ وقتًا يقع فيه لا يَتَقَدَّمُ عنه؛ لجاءهم العذاب.

إلى جانب أنَّ العذاب ليس بيَدِ النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–، ؟ قُل لَّوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ؟ [الأنعام: ٥٨]، ولكن الأمر لله رب العالمين –سبحانه وتعالى–. وإن استعجلوا العذاب وأمهلهم ربُّ العباد وأخَّرَ العذاب شيئًا عنهم؛ فَلْيَعْلَموا أنه آتٍ وواقعٌ لا محالةَ ؟ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ؟، يعني أن عذاب رب العالمين –سبحانه وتعالى– سيأتيهم لا محالة، وعندما يأتي سيأتي فجأةً وهم لا يعلمون بوقوعه عند وقوعه. ومما يذكره القرآن الكريم عن هؤلاء أنهم عندما يُعاينون العذاب يؤمنون به ولكن الأمرَ يكون قد خَرَجَ عنِ الفائدةِ والنفع بالنسبة لهم، وإلا؛ فهم عندما يعاينون العذاب ويقع العذاب بهم يؤمنون لا مَفَرَّ، ولكنْ لا ينفعهم الإيمان عند ذلك.

ثم تستمر الآيات ويذكر فيها ربُّ العباد –سبحانه وتعالى– أنهم يَستعجلون العذابَ في الوقتِ الذي سيُحيط بهم العذابَ من كلِّ جانبٍ فيقول: ؟ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ؟٥٤؟ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؟، وهذه الآية وقد أشرتُ إليها في الآية الأولى لأنها قريبةٌ منها وشبيهةٌ بها، ولكنها أفادت أنَّ هؤلاء لماذا يستعجلون العذاب، والعذاب سيحيط بهم وسيقع بهم؟ فجهنم ستحيط بهؤلاء القوم، وستتقطع أنفاسهم في مكانهم، وهم في جهنم يَصْلَوْنَ عذاب رب العالمين –سبحانه وتعالى–، فلو كانوا عقلاء حقًّا؛ ما استعجلوا العذابَ: ؟ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ؟ وكأنَّ قائلاً منهم قال: متى يكون ذلك؟ متى ستحيط جهنم بالكافرين؟ هم اليوم في متعة، هم اليوم في نعيم، قبل أن يقع عليهم العذاب هم يأكلون ويتمتعون. فمتى ستحيط بهم هذه النار التي وعدهم بها رب العالمين سبحانه؟

قال الله –عزّ وجلّ–: ؟ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؟ نلاحظ هنا أن رب العالمين –سبحانه وتعالى– قال: ؟ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ ؟ وهذا التعبير يُفيد أنَّ جهنمَ ستحيط

بهم، وأن العذاب سيغشاهم من كلِّ مكانٍ كما قال ربُّ العالمين –سبحانه وتعالى–: ؟ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ؟ [الأعراف: ٤١]، يعني من فوقهم ومن أسفلِهم. وهنا ذكر رب العالمين –سبحانه وتعالى– من فوقهم ومن تحت أرجلهم رَغْمَ أن العذاب سيكون من الأمام ومن الخلف، وعن اليمين وعن الشمال، ولكنه لم يذكر إلا الفوق والتحت، ذلك أنَّ عادةً ما يكون العذابُ في الدنيا من هذه الجهات الأربع؛ إما من الأمام أو من الخلف، أو عن اليمين أو عن اليسار، ونادرا ما يأتي من أسفل؛ لأنه من أسفل يمكن أن تطفئه الأقدامُ، أو أن يَتَحَكَّمُوا فيه بالماء وغير ذلك، ونادرا ما يأتي من فوق أيضا، ولكن العادة أن يكون من الجهاتِ الأربع. والله –عزّ وجلّ– ذكر ما لا يأتي من العادةِ إشارةً إلى ما يأتي عادةً؛ لأنه إذا كان سيقع بهم ما لا يأتي عادةً إذن من باب أولى أنَّ من يأتي عادةً سيقع بهم.

وهذا يُفيد أنهم سيَظَلُّون في العذاب، وأنَّ هذا العذابَ محيطٌ بهم من كلِّ مكانٍ، والله –عزّ وجلّ– وهم يُعَذَّبُون عذابًا جسديًّا أيضا يُعذبهم عذابا معنويًّا. هم يتعذبون عذابا حسيًّا في نار جهنم من تحت أرجلهم ومن فوقهم، وقلنا بأنها من كلِّ الجهاتِ عليهم كما أفاد ربُّنا –سبحانه وتعالى– في آيات أُخر أشرْتُ إليها قبل قليل. هذا عذابٌ حسيٌّ. وأيضا لهم عذاب معنويٌّ ذكره القرآن الكريم في قول الله –تبارك وتعالى–: ؟ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؟، كما يقول الله لمن كان مُنَعَّمًا في الدنيا: ؟ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ؟ [الدخان: ٤٩]، وهذا في الحقيقة فيه إهانةٌ لهم، وفيه من التعذيب النفسيِّ الشديدِ، ولنتصور –مثلا– ما جاء في قولِ الحقِّ –تبارك وتعالى–: ؟ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ؟ هذا عذاب حسيٌّ، والعذاب المعنوي: ؟ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ؟ [القمر: ٤٨]. أو ما جاء في قولِ الحقِّ –تبارك وتعالى–: ؟ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ؟ [الطور: ١٣]، وهنا يقال لهم: ؟ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ؟ [الطور: ١٤]، هم يُلْقَوْن في نار جهنم، وكانوا يُكذِّبون بها، رَأَوْهَا وعاينوها، يُلْقَوْن فيها، يُدفعون إليها، ومع ذلك يقال لهم وهم يُدفعون في هذه النار: ؟ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ؟.

ثم بعد ذلك يُوجه ربُّ العالمين –سبحانه وتعالى– الخطابَ، وينادي أهلَ الإيمان بعد الحديثِ عن المكذِّبين المستعجِلين للعذاب، وبعد أن ذكر الله –عزّ وجلّ– ما ذكره في الآيات السابقة في هذه السورة عن المشركين واتخاذهم الأندادَ لله –عزّ وجلّ–، وأخبر الله أنهم لم يعبدوه ولم يُسَلِّموا له، بل اتخذوا له الأصنامَ والأندادَ والأوثانَ، أخبر الله –عزّ وجلّ– عنْ عبادِه المؤمنين الذين آمنوا به وعبدوه ودخلوا في طاعته، بل تجاوز بهم الأمر أن تَحَمَّلوا المشاقَّ في سبيل عبادتهم لرب العالمين –سبحانه وتعالى–، ولذلك كَرَّمَهم الله –عزّ وجلّ– فناداهم فقال: ؟ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُون ؟.

أولا: الإضافة هنا ما معناها؟ ؟ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ؟ الإضافة هنا للتكريم والتشريف، وقد سبق أن بَيَّنْتُ ذلك، وأعتقد أنه واضحٌ لديكم، فالإضافة إلى الله –تبارك وتعالى– تأتي بمعنييْن: إضافة أعيان قائمة بذاتها وهذه تكون للتكريم والتشريف؛ كالْعِبَاد يضيفهم ربنا إلى نفسه: ؟ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ ؟ [الفرقان: ٦٣]، أو الكعبة يُضيفها الله –عزّ وجلّ– إلى نفسِه: ؟ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ؟ [الحج: ٢٦]، فأضاف البيت إليه، أو ناقة صالح أضافها إلى نفسه فقال: ؟ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا ؟ [الشمس: ١٢]، هذه الأشياء القائمة بنفسها هذه الأعيان هذه، قد يقال لها أعيان قائمة بنفسها. هذه الإضافة تكون للتشريف. أما المعاني؛ فتكون من باب إضافة الصفة إلى الموصوف كسمْع اللهِ، وبصر الله وغير ذلك، فالإضافة هنا تقتضي التشريف.

وقول الله –عزّ وجلّ–: ؟ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ؟ هذه العبارة فيها إشارةٌ إلى الهجرةِ، وكأنَّ الله –عزّ وجلّ– يقول للعباد بأنَّ العباد الذين يعبدون الله –عز وجل– يجب عليهم أنْ لا تنقطعَ عبادتهم للهِ أبدا، فهم عابدون أَبَدَ الآبادِ للهِ –عزّ وجلّ–، ولا يَنقطعون عن العبادةِ، وإن ضُيِّقَ عليهم في مكانٍ؛ هاجروا إلى مكانٍ آخر يعبدون فيه ربَّ العالمين –سبحانه وتعالى–. ؟ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ؟ فإنْ ضُيِّقَ عليك في مكان؛ فاخرجْ إلى مكانٍ آخرَ، وقد قال الله –عزّ وجلّ– في آيات أخرى: ؟ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ

حِسَابٍ ؟ [الزمر: ١٠]، ؟ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ؟ [النساء: ٩٧]، ولذلك على العبدِ الذي آمن بالله –عزّ وجلّ– وَصَدَّقَ بالنبيِّ –صلى الله عليه وآله وسلم– أن لا ينقطعَ لأيِّ علّةٍ عن العبادة أبدا، وأن لا ينقطع عن عبادة الله –عزّ وجلّ–. والعبادة بالنسبةِ للمؤمنِ شرفٌ عظيمٌ كبيرٌ، أن يكون العبدُ عبدًا للهِ –عزّ وجلّ–، بل إنَّ سيد ولد آدم ولا فَخْرَ –صلوات الله وسلامه عليه– بَيَّنَ له ربُّه أنَّه عَبْدٌ لله –سبحانه–، وَوَصَفَه في مقامِ التشريفِ والتكريم بالعبوديَّةِ للهِ ربِّ العالمين –سبحانه وتعالى– جلَّ في علاه.

؟ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ؟، وقوله –تعالى–: ؟ وَاسِعَةٌ ؟ أيضا يفيد سعة الأرزاق، وفضل ربِّ العالمين –سبحانه– على الذي يُهاجرُ في سبيلِه، فالإنسانُ قد يَخاف منَ الهجرةِ لِمَا يمكن أن تكون لها من تَبِعَاتٍ أو عَقَبَاتٍ، ولكن في الحقيقة إذا أَخْلَصَ العبدُ وجهتَه لربه وَهَاجَرَ بنفسه ومالِه لله –عزّ وجلّ–؛ عَوَّضَه الله –عزّ وجلّ– بعيشٍ أَطْيَبَ وأَهْنَأَ مما يكون فيه. فالمهاجرون الذين هاجروا إلى الحبشة ارتفع إلى الحبشة؛ ارتفع عنهم التعذيبُ والتنكيلُ الذي كان يقع بهم من أهلِ مكة، وكذلك الذين هاجروا من مكة إلى المدينةِ وَسَّعَ الله –تبارك وتعالى– عليهم هناك وعاشوا في أحسنِ حالٍ وأهدإِ بالٍ، فأرض الله –حقًّا– واسعةٌ، والله –عزّ وجلّ– لا يَتَخَلَّى عن عبدِه الذي لجأَ إليه.

ثم بعد ذلك يُلاحظ أنَّ الله –عزّ وجلّ– أَمَرَ هؤلاء العبادَ بأنْ يَعبدوه في قوله: ؟ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ؟، وهنا قد يأتي استفسار أو سؤال: لماذا أمرهم بالعبادة بعد أن وصفهم بها سابقا وناداهم بها فقال: ؟ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ؟؟ هم عابدون لله –عزّ وجلّ– والله –عزّ وجلّ– أثبت لهم في أول الآية أنهم عباد له سبحانه فلماذا أمرهم بالعبادة مرة أخرى في قوله: ؟ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ؟؟

قيل هذا لأمرين:

الأمر الأول: وجوب الاستمرار على العبادةِ، وأن لا ينقطع العبد عن العبادة أبدا.

الأمر الثاني: وجوب إخلاص العبادة لله –تبارك وتعالى–.

ولما كان في ترك الأرض التي أشار إليها رب العالمين ؟ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ؟ في ترك الأرض ومفارقة الأهل والأوطان وغير ذلك مَظِنَّةُ أن يموت الإنسان، أو أن يضيع، أو أن يَضِلَّ الطريق، أو أن يُفْقَدَ منه ما يفقد من مال، أو متاع، أو أهل، أو ولد، أو غير ذلك إما لحادث أو طارئ أو ذئب متوحش يأكل منه شيئا، الله –عزّ وجلّ– أخبر في الآية التالية أنَّ كل إنسان سيموت، وبالتالي يا أيها المهاجر في سبيل الله –عزّ وجلّ–! لا تَخْشَ شيئًا، لا تخشَ الموت، لا تخشَ الفراق لا تخشَ أن تخرج من أرضك وبلدك؛ فإن لم تنتقل منها وأنت على حالٍ طيبةٍ؛ فستخرج على حال أخرى، والعبد لا بد له أن يموت، فليمت الإنسان على الطاعةِ خيرٌ له من أن يموتَ على المعصيةِ. ولذلك وكلام رب العالمين –سبحانه وتعالى– هو الحق والصدق وقد وضع الله كلَّ آية في مكانِها كان جميلاً للغايةِ أن يُعَقِّبَ الله –عزّ وجلّ– بهذه الآية بعد قوله: ؟ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ؟ كان من المناسب جدا أن يأتي رب العالمين بعدها بقوله: ؟ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ؟ كل نفس ستموت، كل نفس لا شك أنها ستنقطع وتنتهي، وترجع إلى ربِّ العالمين –سبحانه وتعالى–. فيا أيها المهاجر! ويا من طُلِبَ منك أن تترك هذا الدنيا بما فيها! لا تخشَ شيئًا، ولا تخفْ من شيءٍ، ولا تحذرْ من مكروه؛ لأنَّ أمرك بيد اللهِ –تبارك وتعالى–، وكلُّ من على هذه الأرض سينتقل منها لا محالة، والله –عزّ وجلّ– قال في هذه الآية: ؟ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ؟.

وقد جاء الحديث عن الموت، وأنَّ كلَّ نفسٍ ستموت في القرآن الكريم كثيرًا وتَكَرَّرَ مراتٍ ومراتٍ، وهذه الآية كقول الحق -تبارك وتعالى- مثلا: ؟ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ؟ [الرحمن: ٢٦]، كل من علـى هـذه الـدنيا سـيفنى، وسينتقل، وسيتغير، وسيتحول، والباقي الدائمُ هو ربُّ العالمين -سبحانه وتعالى- جل في علاه.

؟ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ؟، وبنفس الصيغة كَرَّرَ رب العالمين -سبحانه وتعالى- هذه الآية في آيات أخرى ؟ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ [آل عمران: ١٨٥]، والسعيدُ -حقًّا- هو الذي يُزَحْزَحُ عنِ النار، ويطلب في الدنيا أن يدخل الجنة، ولا يكون هذا إلا بالسعيِ والعبادةِ، ولذلك الآية الأولى ؟ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ؟ مع قول الله -تعالى- في الآية التالية: ؟ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ؟ بينهما ارتباطٌ وثيقٌ للغايةِ، وكلاهما يَدفعان المؤمنَ إلى أنْ يَصْدُقَ مع اللهِ -تبارك وتعالى- في العبادة وأنْ يستمرَّ فـي هـذه الحياة الدنيا على الطاعةِ، ولأجل ذلك عقَّبَ -أيضا- رب العالمين -سبحانه وتعالى- على هذه الآيات بقولـه: ؟ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَـامِلِينَ ؟٥٨؟ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ؟. بعد ما دعا ربُّ العالمين -سبحانه وتعالى- عبادَه إلى عبادتِه وحدَه دون سواه، وبيَّن أنَّ كلَّ نفسٍ ذائقة الموت، وأنَّ المرجع والمصير إلى رب العالمين -سبحانه وتعالى- وحدَه دون سواه، قد يَتَطَلَّعُ مُتَطَلِّعٌ حتى من أهل الإيمان ما لي عند الله -عزّ وجلّ- بعد الهجرة والجهاد؟ ما الـذي سـيناله العبدُ بعد عبادتِه؟ وربما يجد مشقة في هذه العبادة، وقد يُعَذَّبُ الإنسانُ في الدنيا على الطاعةِ من بعـضِ مـن لا خَلاقَ لهم، فما الذي سكون له بعد ما أفنى حياته في العبادة والطاعة لله ثم مات بعد ذلك؟ فَطَمْأَنَه ربُّ العالمين -سبحانه وتعالى- بقوله: ؟ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا ؟.

في الحقيقة دائما أَوَدُّ أن أُنَبِّه وأركز على ما يأتي في آياتِ القرآنِ الكريم من ذِكْرِ الإيمانِ مع العملِ الـصالح لنؤكدَ ونُقَرِّرَ مراتٍ ومراتٍ أنه لا بدَّ من العمل الصالح مع الإيمان. إنَّ بلية كثيرٍ من المسلمين اليوم أنهم ظنـوا أن الإيمان كلمات تنتهي عند النطق باللسان فحسب، وهذا في الحقيقة ليس هو حقيقةَ الإيمانِ مـع اعتقادنـا أنَّ أصحاب الكبائرِ لا يَخرجون بكبائرهم من الإيمان، ولكنَّ العملَ كما نَصَّ أئمة أهل السنة والجماعة ركنٌ أساسيٌّ في الإيمان، فالإيمان اعتقاد بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح والأركان.

والله -عزّ وجلّ- هنا ذكر الإيمان والعمل والصالح: ؟ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ؟ ما لهم يا رب؟ قال: ؟ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا ؟، يعني لنُسْكِنَنَّهم لَنُنْزِلَنَّهم مَنَازِلَ عاليةً، منازلَ عاليةً في الجنةِ. والجنة درجاتٌ بعضها فوق بعض، أعَدَّهَا ربُّ العالمين -سبحانه وتعالى- لمنْ آمن بالله -عزّ وجلّ- وَصَدَّقَ بالمرسلين، وفي الحـديث الذي حَسَّنَه كثير من أهل العلم، ورواه الإمام أحمد في مسنده والترمذي وغيرهما أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: (إن في الجنة غرفا يُرى ظاهرُها من باطنِها وباطنها من ظاهره) هذا يفيد ماذا؟ سعة هـذا النعـيم، ويفيد عَظَمَةَ ما أعَدَّه رب العالمين -سبحانه وتعالى- لعباده المؤمنين، (يُرى ظاهرها من باطنها وباطنهـا مـن ظاهره)، وهنا سئل النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- لمن هذه؟ هذه الغرف التي أعدها الله -عزّ وجلّ- لمن؟ قال -صلى الله عليه وسلم- (لمن أطعم الطعامَ، وألان الكلامَ، وتابع الصيامَ، وَصَلَّى والناسُ نيامٌ).

هكذا -صلى الله عليه وآله وسلم- ذكر، فهي أعمال كلها إذا عَمِلَها العبدُ؛ نال بها ما أعَـدَّه ربُّ العـالمين -سبحانه وتعالى- له في الجنان، وأفادت هذه الآية أنَّ هذه المنازل العالية هذه الغرف الجميلة تَجري مـن تحتِهـا الأنهار، وقد بَيَّنَ لنا القرآن الكريم في آياتٍ أخر أنواع أنهار الجنة: هناك أنهار من لبن، هناك أنهار من ماء غير آسن، هناك أنهار من عسل مصفى، هناك أنهار من خمر، هذه كلها أنهار يستمتع الإنسان بها وهي تجري مـن تحته، وما أجمل أن يعيش الإنسان تحت هذه الأنهار التي يستفيد منها ليس منظرا جميلا فحـسب، وإنمـا هـو يستمتع بالمنظر الجميل إلى جانبِ أنه يستمتع بما يمكن أن تشتهيه نفسُه من هذه الأنهارِ التي تجري مـن تحتـه وهو يستمتع فيها، وكل هذا النعيم -كما ذكرت هذه الآية- خالدين فيها، يعني أنَّ المؤمنين خالدون في الجنة، لا يبغون عنها حِوَلاً أبَدَ الآبادِ.

هم في النعيم والله –عزّ وجلّ– يؤكد على ما سَبَقَ أن ذَكَرَه من إشارةٍ في أوّل الآيةِ إلى الإيمانِ والعملِ الصالح فَخَتَمَ هذه الآية بقوله: ؟ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ؟ يعني هذا النعيم نعيم لمن؟ لمن عمل لرب العالمين –سبحانه وتعالى–، وجاهد في سبيل الله –عزّ وجلّ–، وسَلَّمَ للنبيِّ –صلى الله عليه وآله وسلم–، وجاهد في سبيل تمكين هذا الدين في هذه الأرض، وجاهد في رفعة هذا الدين، وجاهد في رفعة هذا الدين، وجاهد في الدعوة إلى هذا الدين، وجاهد عندما حَبَسَ نفسَه على طاعةِ اللهِ –عزّ وجلّ–، وجاهد عندما حاول أعداء الإسلام أن يَصرفوه عن هذا الدين جاهد الشيطان وأولياءه من الإنسِ الذين يحاولون أن يَصرفوا عن الله –عزّ وجلّ–، المؤمنُ المجاهدُ له عملٌ في هذه الدنيا يُؤجر عليه في الدار الآخرة قال الله –تبارك وتعالى– عنه في هذه الآية: ؟ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ؟.

وقد يقول قائل: لماذا هذا النعيم؟ ولماذا كان هذا النعيم بهذه المثابة؟ نعيما عظيما، جنات تجري من تحتها الأنهار، خالدين فيها أبدا، لماذا كل ذلك؟

بينتِ الآية التالية أنَّ هؤلاء ما استحقُّوا ذلك إلا لما قام بهم من صفات جليلة جميلة، فقال في الآية التالية: ؟ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ؟، هؤلاء الناس نالوا ما نالوه، ونسأل الله –عزّ وجلّ– أن يُمَتِّعَنا بهذه الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، وكانوا فيها دائما مقيمين، دائما مُنَعَّمِين خالدين، ما نالوا ذلك إلا بسببِ صبرهم على طاعةِ اللهِ –عزّ وجلّ–، إلا بسببِ حبسهم لأنفسهم على هذه الطاعة، إلا بسبب حبسهم لأنفسهم عن أنْ تَقَعَ في معصية ربِّ العالمين –سبحانه وتعالى–، وقد صح عن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– أنه قال: (الصبر نصفُ الإيمان). الصبر مكانته عظيمة، ويجب على المسلم أن يتسلح في هذه الدنيا بالصبر؛ لأنَّ الحياةَ لا تخلو من مُنَغِّصَاتٍ يَمُرُّ بها الإنسانُ فكما يضحك الإنسان في هذه الدنيا أحيانا يبكي فيها أحيانا أخرى، وكما يجد من المرح والسعادة أحيانا، يجد أيضا من التعب والضنك والكرب والشقاء مرات أخرى.

فعلى الإنسان أن يَتَدَرَّعَ بالصبرِ ليواجِهَ بهذا الصبرِ ما يمكن أن يقع به من شدائدَ ومن محنٍ وبلايا في هذه الأرض التي يَعيش عليها، وعاقبةُ الصابرين عند رب العالمين كبيرة؛ قال الله –عزّ وجلّ– في كتابه: ؟ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ؟ [الزمر: ١٠]، فهذا النعيم المقيم لهؤلاءِ الناسِ ما نالوه إلا بسببِ ما كان عندهم من صفاتٍ جليلةٍ حميدةٍ بعد الإيمانِ والعملِ الصالح قال رب العالمين: ؟ الَّذِينَ صَبَرُوا ؟ فكانت هذه أول صفة لهؤلاء.

الصفة الثانية: ؟ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ؟ يعني أنهم أسندوا ظهورهم لله –تبارك وتعالى– ولجؤوا إليه، وتوكلوا عليه –سبحانه– ؟ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ؟ [الطلاق: ٣].

إنَّ التوكل على الله معناه أن تَتَّخِذَ الأسبابَ المشروعةَ التي تُوَصِّلُ إلى الهدفِ المطلوبِ، ثم بعد ذلك تُوَلِّي أمرك لربك، وتعتمد عليه، وتفوض أمرك إليه بعد أن اتخذتَ من السعي ما يَجب عليك أن تتخذه فيه، وذلك بأسباب مشروعة. أما أن يتواكل الإنسان ويسمي هذا توكلاً؛ فهذا باطل. فرقٌ بين التوكُّل وبين التواكل، فهؤلاء من صفاتهم أنهم على ربهم –سبحانه وتعالى– يتوكلون.

ثم يقول رب العالمين –سبحانه وتعالى–: ؟ وَكَأَيِّن مِّنْ دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ؟، وكأين أصلها "أي" دخلت عليها كاف التشبيهِ، فصارت كَأَيِّن، ماذا أفادت؟ الكثرة والمبالغة، أي كثير من دابة، هذه الدواب التي تَدبُّ على هذه الأرضِ ومنها الإنسان؛ لأن الإنسان يدب أيضا على ظَهْرِ هذه الأرضِ، هذه الدواب متفاوتةٌ مختلفةٌ، بعضُها ربما لا يستطيع أن يَحمل رزقه. هو يسعى، ولكن قد يصعب عليه أن يحمل رزقه لضعفه ولوهنه أو لمرضه. الله –عزّ وجلّ– يخبر في هذه الآية: كم من دابة، كثير من الدواب التي تعيش على ظهر هذه الأرض لضعفها لا تستطيع أن تحمل رزقها. من أين تأكل من الذي يسوق لها الرزق؟

الله –عزّ وجلّ– قال: ؟ اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ؟، رب العالمين –سبحانه– تَكَفَّلَ برزقِ جميع المخلوقات –سبحانه وتعالى– جل في علاه. قال في سورة هود: ؟ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ؟ [هود: ٦]، ما من دابة تدبُّ على ظهر هذه الأرض إلا ورب العالمين –سبحانه وتعالى– قد تكفل وحده برزقها والرزق بيد الله –عزّ وجلّ–: ؟ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ؟ [الذاريات: ٢٢]. هذه الآية جاءت في هذه السياق ربما لعلة وهي أنَّ الله –عزّ وجلّ– لَمَّا أمر المجاهدين بالصبر ودعا إلى الإيمان والعمل الصالح، وأشار في آية سابقة إلى الهجرة في سبيله –سبحانه–: ؟ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ؟ قد يَظُنُّ الإنسان أنه إذا هاجر سيترك أولادَه وقد يكون بعضُهم ضعيفًا لا يستطيع أن يتحمل الرزق، فالطفل الرضيع هو بنفسه لا يستطيع ولا يتمكن أن يضرب في الأرض ليأتي لنفسه برزقٍ يَطْعَمُه، فالله –عزّ وجلّ– كأنه –عزّ وجلّ– كأنه يطمأن أهل الإيمان يُطَمْئِنُ هؤلاء المهاجرين الذين يقومون في سبيله: لا تحملوا هم الرزق؛ فالله –عزّ وجلّ– لا يترك دابة تدب على ظهر هذه الأرض لا تتمكن من أن تسعى هي سعيًا حسيًّا لتحصل على رزقها ربُّ العالمين –سبحانه وتعالى– ييسر أسباب الرزق لها ثم يقول: ؟ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ؟ السميع لما يدب؛ لأنه قال: ؟ وَكَأَيِّن مِّنْ دَابَّةٍ ؟، والدابة عندما تدب تحدث صوتا، فإن كانت هذه الدابة ضعيفة لا صوت لها؛ فهو أيضا العليم –سبحانه وتعالى– الذي يعلم دقائق، وهو خبير الذي يعلم بخبرته –سبحانه وتعالى– كل ما عليه من يدب على ظهر هذه الأرض.

ثم أود أن أشير إلى بعض الأحاديث التي ساقها الإمام الحافظ ابن كثير –رحمه الله– في تفسيره لهذه الآية، وقد أشار هو –رحمه الله تبارك وتعالى– ما يُفيد أنها أحاديث ضعيفة فقد ذكر ما رواه ابن أبي حاتم وغيرُه عن ابنِ عمر –رضي الله تعالى عنه– أنَّ النبي –صلى الله عليه وسلم– "دخل يوما يعني بستانا أو بعض حيطان أهل المدينة وأكل من تمره وقد اشتهاه –صلى الله عليه وسلم– وطلب من ابن عمر –رضي الله عنه– أن يأكل فقال: لا أشتهيه يا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقال النبي –صلى الله عليه وسلم– بأنه يشتهيه وأنه رزق ساقه الله –تبارك وتعالى– إليه" هذا الحديث لا تصح نسبته إلى النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–.

وإن حَسَّنَ بعضُ أهلِ العلم حديث: (سافروا؛ تصحوا وتربحو) هذا حسنه بعض أهل العلم وحسَّنه الشيخ الألباني –رحمه الله–. أما حديث وقد ساقه أيضا الحافظ ابن كثير "سافروا مع ذوي الجد والميسرة"؛ فهذا حديثٌ موضوع، ونَصَّ كثير من أهل العلم أنه ليس من كلام النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–.

ننتقل بعد ذلك إلى المحور الثاني في هذا اللقاء وهو بعنوان: المشركون يقرون بالخالق ويصرفون العبادة لسواه.

وتحته قول الحق –تبارك وتعالى–: ؟ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ؟٦١؟ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَّشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٍ ؟.

يقرر ربُّ العالمين –سبحانه وتعالى– في الآيةِ الأولى تحت هذا المحور أنَّه –سبحانه وتعالى– هو الإلهُ الواحد، وأنَّ المشركين مع شركهم وكفرهم يَعتقدون ويؤمنون ويقرون بأنَّ ربَّ العالمين –سبحانه وتعالى– هو الذي خَلَقَ السمواتِ والأرض وأنَّه هو الذي سخر الشمس والقمر، وأنه لا يوجد أحد مع الله –عزّ وجلّ– فعل شيئا من ذلك، وكان الأولى بالمشركين طالما أنهم يقرون بذلك أن لا ينصرفوا عن عبادة الله –عزّ وجلّ– ولذلك يبكتهم رب العالمين في استفهام توبيخيٍّ ؟ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ؟، طالما أنكم تقرون أنَّ الله –عزّ وجلّ– هو الذي خَلَقَ، وهو الذي رَزَقَ، وهو الذي يُسَخِّرُ لكم الشمسَ والقمرَ وغير ذلك، ويدبر أموركم في كل ما تحتاجون إليه، لماذا تصرفون العبادة إلى غير الله –سبحانه وتعالى–؟ ولكن هذه الآية لنا معها بعض الوقفات:

الوقفة الأولى: القرآن الكريم هنا يُؤكد أنَّ المشركين أقروا بأن الله هو الخالقُ الرازقُ المدبرُ؛ فلماذا إذن تَحَدَّثَ القرآن الكريم عن توحيدِ الربوبية بالذات؟

القرآن الكريم كان يسوق الآيات الدالة على الربوبية لينتقل منها إلى إثبات وحدانية الله -عزّ وجلّ- وهي في هذا السياق تُلزم المشركين الذين أقروا بهذا اللونِ أن يَعبدوا الله -تبارك وتعالى-، وتنتقل بهم من هذا الإقرار إلى الإلزام، يعني يا من تُقِرُّ وتعترفُ أنَّ ربَّك هو الذي خَلَقَكَ، وأنه هو الذي يرزقك، وهو الذي أحياك، وهو الذي يميتك، وهو الذي يفعل بك ما يفعل، لماذا تتصرف عن عبادته وحده دون سواه؟! يخلقك وتعبد غيره؟! يرزقك وتلتفت إلى سواه؟! هذا لا يليق بعاقلٍ أبدا.

فالقرآن الكريم كان يَسوق هذا التوحيد ليس لإثباتِه فهو أمر فطري في النفوس، وإنما لينتقل من خلال هذا الإقرار إلى وجوب إفرادِ الله -تبارك وتعالى- بالوحدانية دون سواه.

ولذلك سأطرح سؤالا آخر: هل توحيد الربوبية إذن يكفي العبدَ في الدخولِ في الإسلام؟ هل هذا التوحيد يكفي العبد في الدخول في الإسلام؟

الإقرار بأن الله خالق رازق دون أن تعبده وحدَه دون سواه لا يكفيك -يا أيها الإنسان!- أن تدخل في الإسلام، وإلا؛ فأهل الشرك في عهد النبيِّ -صلى الله عليه وآله وسلم- كانوا يُقرون كما ذكرتِ الآيـة بـأنَّ الله خَلَقَهم وَرَزَقَهم وَدَبَّرَ أَمْرَهم وَسَخَّرَ الشمسَ والقمرَ وغيرَ ذلك، ولكن هل صاروا بذلك من أهل الإيمان أو الإسلام؟ لا. قَطَعَ النبيُّ -عليه الصلاة والسلام- رقابَهم في بدرٍ وغيرها، وسماهم مشركين؛ لأنهم لم يؤمنوا بالنبي -صلى الله عليه وسلم- ولم يعبدوا الله -تبارك وتعالى- وحده دون سواه.

نقطة أخيرة حول هذه الآية قبل أن أنتقل منها وأنا أقول توحيد الربوبية والألوهية هل هذا التقسيم للتوحيد جاء في القرآن أو السنة؟

نقول: هذا تقسيمٌ اصطلاحيٌّ اصطلح عليه أهل العلم، وهو -في الحقيقة- تقسيم قديم نَصَّ عليه أئمة أهل العلم من السلف؛ منهم الإمام الحافظ ابن مندة وقد توفي في القرن الرابع الهجري -رحمه الله تبارك وتعالى- وغيره. والأمر في ذلك كما قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطيُّ -رحمه الله- أننا باستقرائنا للقرآن الكريم والسنة النبوية وَجَدْنَا أنَّ الحديثَ عنِ التوحيدِ يَدور حول هذه الأنواع الثلاثة: توحيد الربوبية، توحيد الألوهية، توحيد الأسماء والصفات، وإن كان تقسيمًا اصطلاحيًّا؛ فالحاجةُ لواقع الناسِ اليومَ داعيةٌ إليه، ولماذا نُنَفِّر الناسَ منه وقد ظَنَّ بعضُ الناس الذي شَهِدَ بلسانه دون أن يفهم معنى الوحدانية؟ لماذا نحارب هذا التوحيد ونجد بعض الناس الذين يعلنون التوحيد بألسنتهم دون أن يَفهموه يتوجهون إلى غير أهل -تبارك وتعالى- بألوان العبادة؟ فهؤلاء يقرون بالخالق الرازق المدبِّر المصرفِ لهذا الكون، ولكنهم في الحقيقة ما أخلصوا العبادة له، وأشركوا مع غيره في النداء والاستغاثة وطلب المدد والعون والدعاء وغير ذلك، فحريٌّ بنا يا من نقوم بالدعوة إلى الله -عزّ وجلّ- أن نُفَصِّلَ هذا التفصيلَ، وأن نُبَيِّنَ للناسِ هذا البيانَ. لماذا؟ لأننا نواجه أحيانا أُمَّةً عكفت على عبادةِ غيرِ اللهِ -تبارك وتعالى- عَكَفُوا على قبور الأولياءِ والصالحين واستغاثوا بهم، وطلبوا منهم، ونادوهم من دون ربِّ العالمين سبحانه، وإذا أتيت إليه وقلت: إن هذا من فعل المشركين ربما خَلَعَ نعاله التي في قدميه وضربك بها؛ لأنه لا يَفْقَهُ أنه بهذا وَقَعَ في لونٍ من ألوانِ الشركِ والعياذ بالله -تبارك وتعالى-.

فالحاجةُ داعيةٌ اليومَ إلى مثلِ هذا التفصيلِ، وهو -كما قلتُ- تقسيمٌ اصطلاحيٌّ، المهم أنْ يَفهمَه الناس حتى ولو اختلف معنى البعض في أن لا يقول به، ولكن يجب أن نفهمه وأن نعلِّمَه للناس بأيِّ أسلوبٍ أو بأيِّ طريقة؛ لأنه مستقى من كتاب ربنا وهدي نبينا -صلوات الله وسلامه عليه- وبعد أن بَيَّنَ الله -سبحانه وتعالى- أنه خَلَقَ السماواتِ والأرض، وأشار إلى الشمس والقمر بالتَّسْخير، وهذا يُفيد أنَّ الشمسَ والقمر تتحرك مُسَخَّرَةٌ بأمر الله لها: ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾، عَقَّبَ على ذلك بقوله: ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَّشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ رب العالمين -سبحانه وتعالى- يُوَسِّعُ على مَنْ يَشَاءُ ويُضَيِّقُ على مَنْ يَشاء والأمرُ بيده وحدَه دون سواه.

وقد يظن ظَانٌّ أنَّه لو وُسِّعَ على إنسانٍ وضُيِّقَ على آخرَ أنَّ هذا بسببِ عَدَمِ العلم، ولذلك ربُّ العالمين خَتَمَ الآية بقول ماذا: ؟ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٍ ؟، ليس عليمًا فقط، لا، بكل شيءٍ صغيرٍ أو كبيرٍ هو به عليمٌ، رب العالمين –سبحانه وتعالى–.

وهنا فائدة عندما يقول: ؟ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَّشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ؟ نقول لمن يعبدُ الأصنام: كيف تعبدون غير الله –تبارك وتعالى–؟ لماذا تدعون وتلجؤون إلى غير الله، ولا يملكون لكم شيئا من الرزق؟ فالذي ملك الرزق ربُّ العالمين –سبحانه وتعالى–، وأيضا فائدة أخرى: مَنْ وُسِّعَ عليه لا يُعَيِّرُ من لم يُوَسَّعْ عليه؛ لأن الأمر بيَدِ اللهِ، فعلى من غَنَاه الله أن لا يَغْتَرَّ بغناه، وأن لا يَظُنَّ أنَّ ذلك أمارةٌ على رضا الله –تبارك وتعالى– عنه.

ثم بعد ذلك ينتقل السياق إلى التوحيد مرة أخرى: ؟ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ؟، بعد ما ذكر رب العالمين في الآية الأولى: ؟ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَّشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ؟ ذكَرَ بعضَ أسبابِ الرزق، بعض أسباب الرزق ما هي؟

إنزال المطر من السماء، والذي يقدر على ذلك هو رب العالمين، ولو سألنا المشركين قبل اليوم واليومَ: من الذي ينزل القطر من السماء؟ لأجاب الكل: بأنه هو رب العالمين –سبحانه وتعالى–. ولذلك لما كانوا يُقِرُّون بذلك حَمِدَ ربُّ العالمين –سبحانه وتعالى– نفسَه، وأثنى على نفسِه؛ لأنهم قالوا بعد ما سئلوا من الذي ينزل القطر من السماء أجابوا أنه هو الله، فاستدعى ذلك أن يُثني رب العالمين –سبحانه وتعالى– على ذاته فقال: ؟ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ؟، يُثني على نفسه، ويُبَيِّنُ أنَّ هؤلاء كان الأولى بهم أن يَعقلوا، طالما أنك فهمت وتفهم هذا وتُقِرُّ بأن الذي يَخلقك سابقًا اعترفت به هو الله، ويرزقك هو الله –عزّ وجلّ–، وأسباب الرزق بيد الله –عزّ وجلّ–؛ فلماذا تلجأ إلى غيره دون سواه؟!

وبعد أن أشار رب العالمين إلى ذلك وإلى الغنى الذي فيه بعض الناس، والتضييق الذي قد يقع على آخرين، بَيَّنَ أنَّ الأمر في كلا الحالتيْن ما هو إلا متاعٌ قليلٌ، ودنيا محدودةٌ مؤقتةٌ ؟ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ ؟.

هذه الحياة لا معنى لها، ولا قيمة لها، ما هي إلا فترة زمنية محدودة، إنما الحياة الحقيقة هي الدار الآخرة ؟ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ؟، والحيوان مصدر حَي أيضا كالحياة، لكن فيها مبالغة، ولذلك جَاء رب العالمين –سبحانه وتعالى– بها هنا في الدار الآخرةِ لِيُبَيِّنَ أنَّ الحياةَ الحقيقة الباقية الدائمة هي الدارُ الآخرةُ، وبالتالي لو كانوا يَعْلَمُون العاقلُ يعملُ –إذن– لأيِّ حياة؟ يعمل للدنيا أم للآخرة؟! إن كانت الدنيا ستنتقل بنا، وهي فترة زمنية محدودة لا محالة؛ فما عليك إلا أنْ تَعْمَلَ إلا للدار الآخرة.

ولذلك يحضرني مثل لأحدِ أئمتِنا رحمهم الله –تبارك وتعالى– الشيخ الدكتور محمد خليل هراس –رحمة الله تعالى عليه–. سمعته مرة يتكلم حول هذه الآية، وكنت في بداية الطلب ربما لم أتجاوز خمسة عشر عاما قال ماذا؟ قال: إذا كانت الدنيا قصيرةً صغيرةً في زمنِ الحياةِ الآخرةِ، ماذا سيكون عمرُها إذن بالنسبة للآخرة؟! دقيقة دقيقتين، لا يمكن أن تقارن قال: فلنعتبرْها ساعتيْن مثلا.

فالإنسان إنْ ضُيِّقَ عليه؛ صَبَرَ. إنْ أعطاه الله فيها؛ شَكَرَ. إن كان مريضا؛ صَبَرَ. إن كان غنيًّا؛ أنفق ما لديه في سبيل الله –عزّ وجلّ– وابتغى مرضاة الله –تبارك وتعالى– لأنها فترة محدودةٌ للغاية.

والعاقل الذي يَعلم عليه أن يَنْتَقِلَ من هذه الدنيا على خيرٍ لينال الأجر والنعيم عند الله –تبارك وتعالى– في الحياة الحقيقية.

والقرآن بعد ذلك ينتقل مرة أخرى إلى الحديثِ عنِ المشركين مُوَبِّخًا لهم مُنْكِرًا عليهم بعضَ ما يفعلون ؟ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ؟ حقًّا عَجَبًا لهؤلاء المشركين؛ عقول خاوية، أفئدة خَرِبَةٌ، هم إذا ركبوا في الفلك أدركوا على وجهِ الحقيقة ما يَقوم في قلوبهم فطرةً؛ أنَّ الذي يَملك الأمرَ هو ربُّ العالمين –سبحانه وتعالى–. إذا ركبوا في الفلك هاجت عليهم الأمواج من كل جانب؛ أخلصوا الدعاء لله ؟ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ؟. وإذا رجعوا إلى حالة السعة والاختيار، وأصبحوا في نعيمٍ والذي يُنَعِّمُهم به ربُّ العالمين –سبحانه–؛ عادوا مرَّة أخرى إلى الشرك، وقد سبق –والوقت والمقام يضيق– أن ذكرت لكم قصة عكرمة بن أبي جهل، وكأنَّ هذا كان سببًا في إسلامِه. وهناك أمورٌ كثيرةٌ يَنْدى لها الجبينُ لَعَلَّنا يُمكن أنْ نُشيرَ إليها في مواقفَ أُخرى –إن شاء الله تبارك وتعالى–، ولكنَّ الله –عزّ وجلّ– قال: هذا الشرك الذي وقعوا فيه كان لكفرهم وبكفرهم لربِّ –سبحانه وتعالى–، واللامُ في قولِه –تعالى– على الراجح: ؟ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ؟ أنها لام التعليل لام كي، يعني أنَّ هذا الشرك وقع منهم بسبب كفرهم بالله –تبارك وتعالى–، وإنهم إنْ تمتعوا في هذه الحياة الدنيا فسوف يعلمون.

ومما يجب أنْ يعرفه هؤلاء المشركين أنَّ الله –تبارك وتعالى– جَعَل لهم في هذه الحياة الدنيا أمنا وسعة في الرزق، جعل لهم حَرَمًا آمنا والخطاب لمشركي مكة. وكان عليهم إذن بعد ما أصبحوا في أمن وأمان: ؟ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ؟١؟ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ؟ [قريش: ١: ٢]، وهنا ذكرتِ الآية أنَّهم في حَرَمٍ آمن، والناس من حولهم يُتَخَطَّفُون هنا وهناك. أليس الأولى بهم أنْ يَعبدوا الله –تبارك وتعالى– ويشكروا الله –عزّ وجلّ– على نِعَمِه؟! وإن لم يفعلوا؛ فلا يوجد أظلم من هؤلاء الناس، ولذلك خَتَمَ ربُّ العالمين –سبحانه وتعالى– سِيَاقَ الحديثِ عنِ المشركين بقوله: ؟ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ؟، بعد كلِّ ذلك ما كان للإنسانِ أنْ يَفْعَلَ هذا. ولذلك أقول: لا يوجد أقبحُ من إنسان يفعلُ خصلةً من هاتينِ الخصلتيْن، ولا يُوجد أظلمُ من إنسانٍ يأتي بخصلةٍ من هاتينِ الخصلتين والآية ذكرت خصلتين:

الخصلة الأولى: أن بعض الناس يَفتري على اللهِ –عزّ وجلّ– أنَّه أُوحِيَ إليه، ولم يُوحَ إليه شيءٌ، وكم – اليوم– ممن يَزعمون أنَّه يُوحى إليه.

الخصلة الأخرى: أنَّه يُكَذِّبُ بالحقِّ لَمَّا جَاءه، وكلُّ هؤلاءِ كَفَرَةٌ، رجوعهم وحسابهم على الله –عزّ وجلّ–. وبلونٍ من ألوانِ التهديدِ: ؟ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ؟ بلى يُوجد للكافرين مأوى ومثوى لهؤلاء، يُعَذَّبُون فيها وفي المقابل: ؟ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ؟. أما الذين جاهدوا بصدقٍ وإخلاصٍ، وصبروا على إيمانهم، وأخلصوا الدينَ لله –تبارك وتعالى–، وكانوا من المحسنين سيمتعهم رب العالمين –سبحانه وتعالى– في أعلى درجات النعيم.

أسأل الله –عزّ وجلّ– أن يجعلني وإياكم ممن جاهد وصبر في سبيله وكان من المحسنين، وصلِّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بالنسبة لأسئلة الحلقة الماضية كان السؤال الأول:

ما الحكمة في ضرب المثل بالعنكبوت في قول الله تعالى: ؟ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ ؟ الآية؟ ولمن ضرب الله هذا المثل؟

وكان الإجابة:

الحكمة في ضرب المثل بالعنكبوت في الآية هو التحقير والتقليل من شأن هذه الآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله، حيث شَبَّهَها ببيتِ العنكبوتِ الواهي الذي لا يَمنع ساكنه من المخاطر فكذلك آلهتهم لا تَملك لهم نفعًا ولا ضرًّا، وسيكون اعتمادهم على هذه الآلهة كالاعتماد على الصراط.

ومما يشار إليه أن العلمَ الحديث أثبت أن أنثى العنكبوت بعد أن تُنْجِبَ من الذكر، فإنها تأكله فيأكل بعضهم بعضا، وهذا هو غاية الوهن والخراب.

وقد ضَرَبَ الله هذا المثل للمشركين حتى يرجعوا عن عبادة هذه الآلهة الزائفة الواهية.

الجواب صحيح.

السؤال الثاني: اشرح قوله تعالى: ؟ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ؟، وهل يتعارض ذلك مع المعجزات الحسِّيَّة؟ وضح ذلك؟.

وكان الإجابة:

قوله تعالى: ؟ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ؟ الآية. هو رَدٌّ على هؤلاء الكفار من قريش الذين سألوا النبي –صلى الله عليه وسلم– أنْ يأتيَهم بمعجزة من ربه، فيقول لهم: أو لم يكفهم ما جئتهم به من كلام رب العالمين ينبأهم بأخبار الأمم السابقة، ويخبرهم بالأيام اللاحقة؟! تتلوه عليهم وهو مُعْجِزٌ في ذاته وفي مصدره.

وفي هذا تعظيمٌ لشأن القرآن الكريم وتذكيرٌ للكفار بإعجازه، ومع ذلك فلا تَعَارُضَ بين هذه الآيةِ وبين ثبوتِ المعجزاتِ الحسية، فلا شك أنَّ هناك معجزاتٍ حسيةً كثيرةً قد حَدَثَتْ على يَدِ النبيِّ –صلى الله عليه وسلم– قد ثَبَتَتْ في القرآنِ والسنة كانشقاق القمر وغيرها. ولكن ذكرت هنا معجزة القرآن على سبيل المثال لا الحصر، وأيضا لأنها المعجزة الباقية الخالية التي لا يستطيع أحد أن ينكرها بخلاف غيرها من المعجزات الوقتية التي تحدث وتنتهي في وقت معين، فلا يقر بها إلا مَنْ شَاهَدَهَا، ولكنَّ معجزة القرآن خالدةٌ أبد الآبدين، والله أعلم.

الجواب صحيح.

أسئلة المراجعة:

السؤال الأول:

ماذا تفهم من الإضافة في قوله تعالى: ؟ يَا عِبَادِيَ ؟ –طبعا نعني الآية: ؟ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ؟– ماذا تفهم من الإضافة في قوله تعالى ؟ يَا عِبَادِيَ ؟؟ ولماذا أمرهم بعد ذلك بالعبادة في قوله: ؟ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ؟؟

السؤال الثاني:

هل توحيد الربوبية يَكفي للدخولِ في الإسلامِ؟ ولماذا تَحَدَّثَ القرآنُ عن توحيد الربوبيةِ مع أنه فطريٌّ في النفوسِ؟

الدرس الثامن عشر

تفسير سورة الروم

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، أما بعد:

يسرنا أن نلتقي في هذا اللقاء المبارك ومع تفسير الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله تبارك وتعالى- وسيكون -إن شاء الله تعالى- لقاؤنا وحديثنا في هذا اللقاء في ثلاثة محاور:

المحور الأول بعنوان: تحقيق وعد الله بنصر الروم على الفرس، والمسلمين على المشركين.

المحور الثاني: دعوة القرآن إلى التفكر والاعتبار.

المحور الثالث: قدرة الله على الخلق والإعادة، ومواقف من يوم القيامة.

ولنستمع إلى آيات هذا اللقاء -إن شاء الله تبارك وتعالى- من أخينا الشيخ عبد الرحمن فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم،

؟ الم ؟١؟ غُلِبَتِ الرُّومُ ؟٢؟ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ؟٣؟ فِي بِضْعِ سِنِينَ للهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ؟٤؟ بِنَصْرِ اللهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ؟٥؟ وَعْدَ اللهِ لاَ يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ؟٦؟ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ؟٧؟ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ؟٨؟ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ؟٩؟ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ؟١٠؟ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ؟١١؟ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ؟١٢؟ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ؟١٣؟ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ؟١٤؟ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ؟١٥؟ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ؟ [الروم: ١: ١٦].

إن الحمد لله نحمد، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم وبارك وأنعِم على عبدك ورسوله ومصطفاك، وعلى آله وأصحابه، ومن اهتدى بهديهم، وسلك سبيلهم، واقتفى أثرهم إلى يوم الدين، وبعد:

أيها الإخوة الكرام؛ سنبدأ في هذا اللقاء -إن شاء الله تبارك وتعالى- مع سورة الروم، وهي سورة عظيمة، تذكرنا بوعد الله -عزّ وجلّ- ونصره -سبحانه وتعالى- لعباده المؤمنين بأن فتح عليهم من ألوان النصر المبين، وحتى ولو كان النصر لغير المسلمين إلا أنهم قد أحبوه واستفادوا منه، فهو أيضًا نعمة وانتصار لهم في طريقهم إلى ربهم ومولاهم.

هذه السورة افتتحها الله -عزّ وجلّ- بما افتتح به بعض سور القرآن الكريم، فقال في أولها بعد أعوذ بالله من الشيطان، الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم: ؟ الم ؟ وقد سبق أن قلتُ شيئًا عن هذا الحروف المقطعة في لقاءاتنا

السابقة، وأكتفي بما سبقت الإشارة إليه، وفيه كفاية -إن شاء الله تبارك وتعالى- بعدها قال الله -عزّ وجلّ-: ؟ غُلِبَتِ الرُّومُ ؟٢؟ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ؟٣؟ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ؟٤؟ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ؟٥؟ وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ؟.

مُفتَتَح هذه السورة يتحدث عن أمر كان وحَصَل ووقَع، وذلك أن "سابورا" ملك الفرس قد غَلَب على بلاد الروم، لدرجة أنه -كما ذُكر في بعض كتب التاريخ- أنه اضطر هرقل الذي كان موجودا أثناء بعثة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يترك بلده الذي كان يقيم فيها؛ ألا وهي بلاد الشام، أن يتركها ويذهب إلى القسطنطينية؛ لأن سابور قد غَلَب وتمكن من بلاد الروم، ونزلت هذه الآيات تُبيِّن أن الغلبة بعد ذلك ستكون للروم على الفرس، وكان أهل الإسلام، كان المسلمون يحبون أن ينتصر الرومُ على فارس، ذلك أن فارس كانوا أهل شِرك ووثنية، فكانوا يشابهون المشركين في مكة ويكونون معهم، أما الروم فكانوا أهل كتاب، وكان المتوقع والمفترض فيهم أن يؤمنوا بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ولذلك كان يحب المسلمون أن ينتصر الروم؛ لأنهم أهل كتاب، وقد ذُكِر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في كتبهم، وهم أقرب إلى الإسلام -بناء على ذلك- من هؤلاء الوثنيين المشركين؛ ولذلك أيضًا ورد في السنة أنا أبا بكر -رضي الله تعالى عنه- قد واعد المشركين إلى أجل لما نزلت هذه الآيات، وحدد لهم هذا الأجل بأن الله -عزّ وجلّ- سينصر الروم على الفرس، قيل: حدده بست سنوات، وقيل: بسبع سنوات، وقد أتت الست أو السبع ولم يأتِ نصرُ الله -عزّ وجلّ- فزاد أبو بكر -رضي الله تعالى عنه- لهم في الأجل؛ لأن الله -تبارك وتعالى- لما وعد بنصر الروم على الفرس قال: ؟ فِي بِضْعِ سِنِينَ ؟ والبضع من الثلاث إلى التسع، واعدهم أبو بكر -رضي الله تعالى عنه- وخلال هذه المدة أتى نصر الله -تبارك وتعالى- أتى نصر الروم على بلاد فارس، فرح المسلمون بذلك، وفرح أهل الإيمان بهذا النصر، كما أشرت إلى ذلك من قبل؛ لأن أهل الكتاب أقرب إلى أهل الإيمان من هؤلاء الوثنيين المشركين، إلى جانب بشرى النبي، أو التبشير بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- التي جاءت في التوراة والإنجيل، وكان المفترض -بناء على ذلك- أن يدخلوا في دين النبي -عليه الصلاة والسلام- ويتابعوه، وقد آمن بعضهم، بخلاف أهل الشرك والوثنية.

وقد جاء في بعض كتب التاريخ في انتصار الروم على فارس أن هرقل ملك الروم اتخذ حيلة في ذلك، وهو أنه سمح لملك الفرس بعد ذلك أن يذهب إليه في القسطنطينية، وطلب منه أشياء بالَغَ فيها غاية المبالغة، فقال له هرقل بعد أن حوصر في القسطنطينية: دعني اذهب إلى أرجاء مملكتي، وأنت في مكانك مقيم؛ حتى أجمع لك ما تحتاج إليه، فبقي "سابور" في مكانه، وخرج هرقل، فذهب إلى بلاد فارس، وانتصر عليهم، "وسابور" هذا ملك الفرس ينتظره في مكانه حتى يأتي إليه بما قد اتفقا عليه، والله -تبارك وتعالى- أعلم في الحقيقة بما دار في ذلك من أمور، ولكن ظاهر القرآن الكريم أفادنا أن فارس هَزَمت أولا الروم، ثم بعد ذلك أيَّد الله -تبارك وتعالى- ونصر أهل الروم على فارس.

ومما يُذْكر في أصل هؤلاء الروم أنهم من أولاد العِيص بن إسحاق بن إبراهيم -عليهم جميعا صلوات الله وسلامه عليهم- ويقال لهم: أبناء بلاد الأصفر؛ ذلك لما في وجوههم وشعورهم من شيء يميل إلى هذا اللون.

وكان هؤلاء أصل حالهم على الوثنية، على دين اليونان الذين كانوا يعبدون الكواكب السيارة من دون الله -عزّ وجلّ- ولما غَلَب عليهم رجل يقال له: "قسطنطين" في القرن الرابع الميلادي، هذا الرجل هو الذي تَنَصَّر، ولكنه أدخل ما كان عندهم في الديانة المجوسية السابقة التي كان يدين بها -أدخلها على دين النصرانية؛ ولذلك جاء في كتب الأديان أنه بدأت عبادة الصليب، ودخول الصليب على النصرانية من خلال هذا الرجل، وقد أشار إلى ذلك أيضًا الإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- -تبارك وتعالى- في تفسيره.

بعد ذِكْرِي لهذه المقدمة المتعلقة بما دار وكان بين فارس والروم، أدخُل بعد هذا في معاني مفردات وكلمات هذه الآيات؛ قال الله -عزّ وجلّ-: ؟ غُلِبَتِ الرُّومُ ؟ يعني: غُلِبت من فارس ؟ فِي أَدْنَى الأَرْضِ ؟ قيل: في بلاد الشام، وقيل: في أقاصي بلاد الروم التي تلي فارس، وقيل: هي الجزيرة التي بين دِجلة والفرات، ثم بعدما بَيَّن ربنا -سبحانه وتعالى- أن فارس غلبوا الروم ذكَر بعد هذا فقال: ؟ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ؟ يعني: بعد أن فاز فارس، أو انتصروا على بلاد الروم سيتحول ويتغير الحال، وينتصر الرومان على الفرس، وسيكون ذلك في بضع سنين، وقد قلتُ بأن البضع من الثلاث إلى التسع.

ثم قال سبحانه مسندا الأمر إلى مشيئته وإلى قدرته في هذا الكون والملكوت، وأن ما تم وحصل سواء كان من فارس أو الروم إنما هو بِمَن؟ بإذن رب العالمين -سبحانه وتعالى-وبإرادته وبقدرته، ويفيد هذا أنه لا يمكن أن يتحول العبد من حال إلى حال إلا بإرادة رب العالمين -سبحانه وتعالى جل، في علاه- وفي هذا يقول: ؟ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ؟ يعني: من قبل ذلك ومن بعد ذلك، فلما حذف هنا وقطع "قبل" و"بعد" عن الإضافة، وحذف المضاف إليه بَنَي "قبل" و"بعد" على الضم، فقيل: ؟ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ؟.

ثم ذكَر ربُّ العالمين سبحانه ما كان في نفوس أهل الإيمان عندما تنتصر بلاد الروم على بلاد فارس، بعدما بَشَّر الله -عزّ وجلّ- ووعد بأن الرومان سيفوزون وسينتصرون على فارس قال: ؟ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ؟٤؟ بِنَصْرِ اللهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ؟ فَرَدَّ الأمر أيضًا إلى مشيئته، وقد قيل بأن هذا النصر وافق انتصارَ المسلمين على أهل الشرك في غزوة بدر، وقيل: وافق صلح الحديبية، يعني انتصار الروم وافق إما في غزوة بدر وإما في صلح الحديبية.

؟ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ؟٤؟ بِنَصْرِ اللهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ؟ إذَن المراد بنصر الله يشمل أمرين: انتصار الروم على فارس فرح به المؤمنون وقلت العلة في ذلك، ثم بعد ذلك كان هناك انتصار لأهل الإيمان على أهل الشرك في غزوة بدر، وفيما تلاها بعد ذلك من غزوات.

ثم أسند رب العالمين -سبحانه وتعالى- أيضًا ما يحدث بعدما أسنده إلى مشيئته، إلى عِزَّته -سبحانه وتعالى- ورحمته بأهل الإيمان، قال: ؟ وَهُوَ الْعَزِيزُ ؟ الذي لا يُغَالَب، يفعل ما يشاء، ويحكم بما يريد.

؟ الرَّحِيمُ ؟ بعباده، الذي يَنصر الضعفاء والمستضعفين، ويقف إلى جوارهم، وينصرهم على أعدائهم، وكل ما حدث هو مِن وَعد رب العالمين، والله -عزّ وجلّ- لا يخلف وعده، كما قال في كتابه: ؟ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ؟ [آل عمران: ٩].

ونأخذ أيضًا من ذلك أن القول لا يُبَدل عند رب العالمين سبحانه لأن وعد الله كلام، وكلام الله لا يُبَدَّل ولا يُغَيَّر ولا يَختلِف؛ ولذلك مَن قال بالبَدَاء على الله -عزّ وجلّ- وهم طوائف الرافضة، قالوا بأن الله -سبحانه وتعالى- يَتَبَدَّى له الأمر بعدما يقضي شيئًا، يبدو له أمر آخر جديد، هذا كلام باطل، ورب العالمين -سبحانه وتعالى- يقول: ؟ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ؟ [ق: ٢٩] والذي يُدرك ذلك، ويعلم ذلك هم أهل الإيمان، أما أكثر الناس فهم لا يعرفون هذه الحقيقة؛ لأنهم لم يقفوا عليها، ولقد صدَق الله -عزّ وجلّ- في قوله: ؟ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ؟.

قد يتسائل سائل: بعدما قال رب العالمين: ؟ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ؟ طيب هؤلاء الأكثرية ماذا يعلمون؟ ماذا يفقهون؟ عن أي شيء يبحثون؟ قال عَقِبها مباشرة: ؟ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ؟ سبق أن قلتُ بأن أهل الضلال والانحراف والكفر أساتذة متخصصون في علوم الحياة الدنيا ؟ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا ؟ وعبارة القرآن الكريم دقيقة، نَوَد أن نتأملها بعين البصيرة ؟ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا ؟ يعني أن ما علموه من الدنيا هو ظاهرها وقشرها الخارجي فقط، أما لُبها وحققتها مِن أنها فانية، مِن أنها زائلها، مِن أنها ستنقضي لا

محالة؛ لأن العبد بعدها سينتقل إلى دار أخرى، وسيقف بين يدي الله -عزّ وجلّ- كل هذا من أمور الحياة الدنيا التي يجب على الإنسان أن يتعلمها هنا، ولكن هؤلاء الناس ما عرفوا شيئًا من ذلك، هم أذكياء، صحيح، ولكن في أمور الحياة الدنيا، يعرفون كيف يعيشون، كيف يكتسبون، كيف ينتقلون، كيف يتجارون ويصنعون، ويسارعون هنا وهناك في أقطار الأرض؛ كي يجمعوا، أما ما يفيدهم، وأما ما ينفعهم من الدار الآخرة فلا يفقهونه ولا يعرفونه، والله -عزّ وجلّ- قد نص على ذلك في قوله: ؟ وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ؟.

هنا كلمة، الحقيقة ساقها وذكَرها الإمام الحافظ ابن كثير عن الإمام الحسن البصري -رحمه الله تبارك وتعالى- وهي كلمة جميلة، قال: "الواحد من هؤلاء -الذين هم أهل الدنيا- لو وَضَع الدرهم على ظفره وَقَلَّبَه لعَرَف وزنه ومثقاله -مِن فنِّه بالحياة الدنيا، وإدراكه للحياة الدنيا- ولا يحسن أن يصلي" يعني هو في مثل هذه الأشياء فقيه، لو وضع مجرد الدرهم على ظفره فقط لاستطاع أن يخبرنا بوزنه وبمثقاله، أما هو عن الصلاة وغيرها فلا يعرف أن يقف في الصلاة بين يدي رب العالمين سبحانه وتعالى جل في علاه.

هذه الآية في الحقيقة تجعلني أن أُنَبه وأن أقف وقفة عند هذه القضية أو هذه المسألة؛ لأن هناك بعض الأمور الظاهرة على الساحة اليوم تجعل بعض ضعاف النفوس من أهل الإيمان يذوبون في أهل الكفر -والعياذ بالله تبارك وتعالى- القرآن الكريم هنا ذَكَر عن مَن أضلوا وأراد ربنا -سبحانه وتعالى- بهم الانحرافَ وعدمَ سلوك صراط الله المستقيم -أنهم يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا فقط، ومع هذا بعض الناس ينبهرون بما لدى الغرب والشرق من حضارة ومدنية زائلة زائفة لا محالة، ينظر بعض الناس إلى هذه الحضارة بانبهار عظيم شديد، وهؤلاء يشعرون في أنفسهم في الهزيمة النفسية، والإنسان لما يشعر في داخله بهزيمة نفسية ينقلب حاله، وينظر إلى الغالب أو المتغلِّب عليه بأنه فوقه، وأنه أعلى منه، والأمر ليس كذلك، فهؤلاء لا يعرفون شيئًا عن الحياة الآخرة، ولو وصلوا إلى ما وصلوا إليه في الحياة الدنيا فنحن نعلم؛ بل هم يجب عليهم أن يعلموا أن هذه الدنيا إلى فناء وزوال، وأنها لا قيمة لها، ما المانع في أنهم يَتَوصلون إلى ما يتوصلون إليه؟ ويصلون إلى ما يصلون إليه؟ ويرتفعون إلى أعلى درجات الارتفاع في مسائل الحياة الدنيا؟ كل هذا في النهاية سينتهي ويزول، كما قال رب العالمين سبحانه: ؟ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ ؟ [يونس: ٢٤] ولعل الآيات التي ستأتي بعد ذلك تشير إلى هذا المعنى؛ لأن الآيات التي ستأتي بعد ذلك ستشير إلى أمم أُبيدت، كم كان عندها ما عندها؟ ولكن هل استفادوا من ذلك شيئًا؟ لم يستفيدوا من ذلك شيئًا؛ ولذلك على أهل الإيمان ألا يغتروا بما لدى غيرهم من مدنية أو حضارة أو غير ذلك، وأنا بهذا لا أقلل من قيمة العلم وقدره، وخاصة العلوم الحديثة، فهي تقنية، نحن يجب علنيا معشر أهل الإيمان أن نسعى وأن نتفوق فيها، وإذا كنا لم نصل إلى شيء كبير فيها فعلينا أن نجتهد، وأن نتعلم مما يمكن أن نتعلمه من هذه المسائل؛ حتى نصبح نحن سادة الدنيا، وهذا أمر مشروع لا شيء فيه، ولكني أحذر فقط من أن ينبهر الناس بعلم شديد وقع فيه أهل الكفر والانحراف والضلال، حتى وُسِّعَت لهم الدنيا، وقد يكون هذا من باب الاستدراج، يعني أن الله -عزّ وجلّ- يستدرجهم بهذه النعم، وإن أمهلهم رب العالمين سبحانه، فهو لا يهملهم سبحانه، وإذا أخذهم بعد ذلك بسبب كفرهم وتكذيبهم أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

أنتقل بعد ذلك إلى المحور الثاني في هذا اللقاء، وهو بعنوان: دعوة القرآن إلى التفكر والاعتبار.

وتحته قول الحق -تبارك وتعالى- : ؟ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ؟ رب العالمين -سبحانه وتعالى- ينبه عباده، ويرشدهم إلى التفكر في خلق السموات والأرض، ويشير إلى النفس أولًا ؟ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِم ؟ وقد سبق أن قلتُ بأن نظر الإنسان في نفسه ليتوصل بعد ذلك إلى إثبات وجود رب الأرباب سبحانه، ثم ينتقل بعد ذلك إلى عبودية الله -عزّ وجلّ- من أحسن النظر والتأمل والاعتبار وطرق الاستدلال؛ لأن الإنسان يكون في هذه الحالة يكون هو دليل نفسه على نفسه، فهو المستدِل وهو أيضًا المدلول، الله -تبارك وتعالى- يدعو عباده إلى أن

يتفكروا في أنفسهم، وفيما خلق الله –عزّ وجلّ– في هذه السموات والأرض، هذه أشياء عظيمة، رب العالمين –سبحانه وتعالى– هو الذي خلقها، وخلق ما بين السماء والأرض، وهذا يشمل السحاب المسخر بين السماء والأرض، يشمل الطير، يشمل الهواء، يشمل غير ذلك مما يكون بين السماء والأرض، ورب العالمين –سبحانه وتعالى– ما خلق هذا الخلق العظيم إلا للدلالة على ربوبيته ووحدانيته، ثم بعد ذلك يَعبد هذا الخلقُ الذي خلقه الله –تبارك وتعالى– ربَّه ومولاه ممن كلفهم رب العالمين سبحانه.

الدليل على ذلك أن الله –سبحانه وتعالى– يُري عباده آياته وقدرته، ويستدل بربوبيته وألوهيته على ما خلق، وأنه خلق الخلق ليعبدوه سبحانه –أنه أشار بعد ذلك إلى الحشر فقال: ؟ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ؟ فأشار إلى أنه خلق السموات والأرض بالحق، وخلقهما إلى أجل مسمى، وهذا يدل على الحشر؛ لأن هذه السموات وهذه الأرض ستنتهي وستزول وستتغير، وسيحشر رب العالمين –سبحانه وتعالى– مَن عليها ليحاسبهم وليسألهم عما قدمت أيديهم، والله –عزّ وجلّ– في آيات كثيرة ينص على أنه "ما خلق السموات والأرض إلا بالحق" للدلالة على أن خلقه عظيم، وأنه –سبحانه وتعالى– حكيم في خلقه، وإن كان كثيرٌ من الناس لا يؤمنون بذلك، ولا يوقنون بهذا، والله –عزّ وجلّ– قد تَوَعد وهدد الكافرين الذين يعتقدون أن الله –عزّ وجلّ– خلق السموات والأرض بالباطل، وفي ذلك يقول: ؟ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ؟ [ص: ٢٧] ولذلك ختم رب العالمين هذه الآية بقوله: ؟ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ؟ وما كان ينبغي لهم ذلك بعد أن خلق الله –عزّ وجلّ– هذا الخلق وسواه وقدره وخلق العباد، وأرشدهم إلى ما أرشدهم به، وبَيَّن لهم أنه ما خلق ذلك إلا بالحق، ولحكمة عظيمة نص عليها –سبحانه وتعالى– في كتابه، كان الأولى بهم أن يرجعوا إلى ربهم، وأن يؤمنوا به، وألا يكفروا برب العالمين –سبحانه وتعالى– ثم يستمر السياق في لفت نظر الإنسان، وتنبيهه إلى النظر فيما كان من الأمم السابقة، وفي هذا لفت نظر المشركين إلى وجوب الإيمان بالنبي الأمين –صلى الله عليه وآله وسلم– يقول الله –عزّ وجلّ– في سياق هذه الآيات: ؟ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ؟.

؟ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ ؟ المراد بالسير هنا في الأرض هو: سير التأمل، سير النظر، سير الفهم، يعني يجلس الإنسان ليفهم ويتأمل وينظر ويتدبر بعقله في ملكوت السموات والأرض، وهذا النظر سيصل به إلى أن يسمع أخبار الماضيين، وأن يعرف أحوال الأمم السابقة التي كانت قبل هؤلاء الكافرين؛ لأن المقصود بالذات في هذه الآية هم كفار مكة، الذين واجهوا النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– بالكفر والتكذيب، يقول الله لهم: ؟ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ ؟ يعني يتأملوا بعقولهم، ويفهموا بأنظارهم، أي شيء يفهمونه؟ ؟ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ؟ يعني الأقوام الذين كانوا قبلهم، الأقوام هؤلاء أبادهم رب العالمين –سبحانه وتعالى– كان لديهم مال وعتاد وقوة وصنعة وغير ذلك مما ذكره القرآن الكريم عن الأمم السابقة، ولكن هذه القوة كلها وهذا المال لم ينفعهم شيئًا، أخذهم رب العالمين –سبحانه وتعالى– والله –عزّ وجلّ– قد أشار في آيات أخرى، أشار إلى المشركين ونبههم إلى هذا الأمر في آيات كثيرة من كتابه، تأملوا مثلا: ؟ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ؟ [سبأ: ٤٥] يعني الذين من قبل قريش كذبوا بالأنبياء والمرسلين، وقريش وكفار قريش ليس عندهم عُشر معشار ما كان عند هؤلاء السابقين من مال وقوة وعتاد، ولعل لهذه علة، فالقرآن الكريم كثيرًا ما يسوق أخبار الماضيين، ويُبَين ما لديهم من قوة؛ حتى يرتدع المشركون؛ لأن الله –عزّ وجلّ– يُبَيِّن أنهم أقوياء، وفي نفس الأمر يبين أنه أخذهم رب العالمين –سبحانه وتعالى– ولنتأمل شيئًا من ذلك في كتاب الله، في سورة الفجر مثلا: ؟ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ؟ بأي شيء وصفهم قال: ؟ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ؟٧؟ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ ؟ [الفجر: ٧: ٨] يعني ليس عند قريش مثلما عند هؤلاء الناس ؟ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ؟٩؟ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ؟١٠؟ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلاَدِ ؟١١؟ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ؟ [الفجر: ٩: ١١] ماذا كانت نهايتهم وأمرهم: ؟ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ؟١٣؟ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ؟ [الفجر: ١٣: ١٤].

إذن الآيات تلفت نظر هؤلاء المشركين إلى أن يتأملوا في أخبار الأمم السابقة ؟ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ؟ ولكن ما هي نهايتهم؟ ما الذي حل بهم؟ حل بهم عذاب الله، نزل بهم سخط الله، أخذهم رب العالمين –سبحانه وتعالى جل في علاه– وفي الحلقات السابقة في سورة العنكبوت وغير ذلك من سور القرآن الكريم بيَّن رب العالمين –سبحانه وتعالى– كيفية أخذه لمن؟ أخذه للظالمين، ولكن هؤلاء المشركين لم يتأملوا ذلك ويتبينوه.

أخذهم الله –عزّ وجلّ– بعد أن جاءتهم رسلهم بالبينات، وما كان الله ليظلمهم سبحانه؛ لأن الله –سبحانه وتعالى– بعدما أخبر أنه أقام الحجة عليهم وأخذهم فهو بهذا لم يظلمهم؛ ولذلك ختم الآية بقوله: ؟ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ؟ ورب العالمين –سبحانه وتعالى– حَكَم عَدْل، مُنَزه عن الظلم، لا يظلم الناس شيئًا، وقد أقام الحجة عليهم ببعثة الأنبياء والمرسلين، وهو هنا يخاطب المشركين، وما زلنا إلى يومنا هذا نوجه الخطاب إلى أعداء الدين ونقول لهم: انظروا إلى أحوال الأمم السابقة، الذين كذبوا بالأنبياء والمرسلين، وأين حالهم الآن؟ كيف كان حالهم؟ ماذا كان من شأنهم؟ ثم ندعوهم إلى أن يُسارعوا في الدخول في دين النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– قبل أن تحل عليهم العاقبة التي ذكرها ربنا –سبحانه وتعالى– في الآية التالية، وهي: ؟ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ؟.

هذه آية عظيمة، تأتي مباشرة عقب لفت أنظار المشركين إلى التدمير الإلهي الذي وقع على السابقين.

؟ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى ؟ ؟ السُّوأَى ؟ تأنيث الأسوأ، وهو الأقبح، مثل الحسنى تأنيث الأحسن، وقد ذهب الإمام الحافظ ابن جرير –رحمه الله تبارك وتعالى– إلى أن ؟ السُّوأَى ؟ خبر كان الواردة في قوله: ؟ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى ؟ ويصبح المعنى أن ؟ السُّوأَى ؟ يعني التدمير الإلهي والدمار الذي حصل للأمم السابقة في الدنيا والآخرة كان بسبب التكذيب بالأنبياء والمرسلين، وذهب البعض إلى أن ؟ السُّوأَى ؟ مفعول لقوله –سبحانه وتعالى– أساءوا، ويصح معنى الآية ؟ أساءوا السُّوأَى ؟يعني أن الله –عزّ وجلّ– أعقبهم بإساءتهم أن زادهم في السوء –والعياذ بالله تبارك وتعالى– ويصبح معنى الآية على هذا ما جاء في آيات أخر في قول الحق –تبارك وتعالى–: ؟ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ؟ [الأنعام: ١١٠] يعني أن الله –تبارك وتعالى– يذيقهم العذاب بسبب أنهم كذبوا قبل ذلك بما جاء من عند الله سبحانه، ومصداق هذا في قول الحق –تبارك وتعالى–: ؟ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ؟ [الصف: ٥] فكأن الله –تبارك وتعالى– عاقبهم على ذلك لأنهم كذبوا بآيات رب العالمين ؟ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ؟.

المحور الثالث في هذا اللقاء بعنوان: قدرة الله على الخلق والإعادة، ومواقف من يوم القيامة.

وفي ذلك يقول رب العالمين سبحانه: ؟ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ؟١١؟ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ؟١٢؟ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ؟ لما ذكر رب العالمين –سبحانه وتعالى– في الآية السابقة أن عاقبة هؤلاء الناس إلى الجحيم –أشار بعد ذلك إلى قدرته على البعث والنشور، وإخراج هؤلاء الناس من القبور؛ كي يذيقهم الجحيم الذي توعدهم به رب العالمين سبحانه فقال: ؟ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ؟ وسيأتي –إن شاء الله تعالى– معنا بعد ذلك وربما في اللقاء القادم إشارة إلى أن الله –سبحانه وتعالى– أقام براهين متعددة على البعث.

وقد سبق أن ذَكَرتُ لكم في هذه الدروس السابقة، وربما وقع ذلك في دورات سابقة في هذه الأكاديمية المباركة –ذَكَرتُ لكم شيئا من براهين البعث والنشور، وستأتي إشارة إليها أو إلى بعضها بعد قليل –إن شاء الله تبارك وتعالى–.

ولكن هذه الآية أفادتنا أن الله -سبحانه وتعالى- نَسَب إلى نفسه أنه هو الذي يبدأ الخلق بقدرته وعظمته، وهو الذي أخرج هؤلاء الناس من العدم إلى الوجود، ثم بقدرته أيضًا وكمال عظمته سبحانه هو الذي يعيدهم ويرجعهم إليه -سبحانه وتعالى جل في علاه- ثم بعد ذلك يَذْكر هنا في الآية التالية يَذْكر موقفا من مواقف يـوم القيامـة، وهذا الموقف والحديث مع المشركين لا شك أنه يحزن المشركين، ويأخذ بتلابيبهم، والأولى بهم إذَن أن يرجعوا إلى الله -عزّ وجلّ- وأن يتابعوا النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أول موقف ذكرته الآيات هنا: ؟ وَيَوْمَ تَقُـومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ؟ يوم يقوم الناس لرب العالمين يبلس المجرمون، قال الإمام الحبر عبد الله بن عباس - رضي الله تعالى عنه- معنى "يبلس" يعني ييأس المجرمون، يعني ينقطعون وييأسون من رحمة رب العالمين - سبحانه وتعالى- وستأتي إشارة إلى الشفاعة بعد قليل، ولا شك أنها لن تنال المشركين بحال، فَرَب العـالمين - سبحانه وتعالى- لن يُدخِل مشركا أبدًا الجنة، والله سبحانه قد حَرم الجنة على كل مشرك كما قال في كتابه: ؟ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ؟ [المائدة: ٧٢] ولذلك حينما يقـوم الناس من قبورهم لرب سبحانه ييأس المجرمون.

وقيل: معنى " يُبْلِس" -كما ذكر قتادة- يفتضح المجرمون، وكل هذا حاصل وواقع بهم، يعني أنهم سييأسـون من رحمة الله -تبارك وتعالى- وسيفضحون إذا وقفوا بين يدي رب العالمين -جل في علاه- وفي قول آخر أنهم يكتئبون، وهذا أيضًا سيحدث لهم.

ثم يقول الله -عزّ وجلّ-: ؟ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ؟ هذه الآية تُقَرر أمرا عظيما للغاية، هؤلاء المشركون لجأوا لغير الله -عزّ وجلّ- وطلبوا الشفاعة من سواه، من غير الحق -تبـارك وتعالى- وظنوا أن آلهتهم ستقربهم إلى الله -سبحانه وتعالى- وأنها ستنفعهم، وأنها ستدافع عنهم، ولكـن عنـد الاحتياج في يوم القيامة لن يجدوا هذه الآلهة بحال، وقد سبق أيضًا أن بَيَّنتُ أنه ستقع عداوة وبغضاء بين هؤلاء العابدين وبين المعبودين في يوم الدين، والله -عزّ وجلّ- قال هنا في كتابه: ؟ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ؟.

الذي يهمنا في هذا المضمار، في هذا الأمر، أن أُبَين أن الشافعة التي طلبها المشركون من أوليـائهم الـذين عبدوهم من دون الله -تبارك وتعالى- أو من آلهتهم وقد لجأوا إليهم من دون الله -عزّ وجلّ- لن تكون في يوم القيامة، والله -تبارك وتعالى- قد نفى الشفاعة في كتابه، وأثبتها أيضًا في كتابه، وهذا ما أود أن أوضـحه؛ لأن بعض الفرق الإسلامية وللأسف الشديد كالمعتزلة ومن نحا نحوهم أنكروا الشفاعة، واستندوا إلى بعض الآيـات التي نفى فيها رب العالمين -سبحانه وتعالى- الشافعة في يوم الدين كهذه الآية ؟ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ؟ أو استدلوا مثلا بقول الحق -تبارك وتعالى-: ؟ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ؟ [البقرة: ٤٨] نظروا إلى هذه الآيات فقالوا: الشافعة في القرآن الكريم منفية، ولكنـي أقول وأقرر: عقيدة أهل السنة في ذلك أن الشفاعة تنقسم إلى قسمين، وذلك من القرآن؛ شفاعة مثبتـة، وشـفاعة منفية، الشفاعة المنفية أولًا: هي الشافعة التي معنا هنا، التي نفاها رب العالمين سبحانه، وهي التي وقعـت مـن المشركين عندما طلبوا من آلهتهم الشفاعة من دون رب العالمين، والله -عزّ وجلّ- قال: ؟ وَلَمْ يَكُن لَّهُـم مِّـن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ ؟ ؟ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ؟ [البقرة: ٤٨] أما الـشفاعة المثبتة فهي لرب العالمين -سبحانه وتعالى جل في علاه- والله -عزّ وجلّ- هو الذي يملك الشفاعة جميعا ؟ قُل لِلّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ؟ [الزمر: ٤٤] هذه الشفاعة ثابتة بالقرآن الكريم وبالسنة النبوية المطهرة وإجماع أهل العلم من الصحابة ومَن جاء بعدهم.

فإن هناك شفاعة ثابتة مثبتة، وهذه الشفاعة تنقسم إلى أقسام متعددة، ولها شروط، وتفصيل ذلك قد يأتي فـي موطن آخر، ولكني أقرر هنا أن الشفاعة التي نفاها رب العالمين سبحانه ليست هي الشفاعة التي أثبتها القـرآن الكريم، فهناك شفاعة أثبتها رب العالمين -سبحانه وتعالى- في كتابه، وهذه الشفاعة تكون بإذن الله -عزّ وجلّ- يعني يأذن رب العالمين للشافع أن يشفع، وتكون أيضًا برضا رب العالمين -سبحانه وتعالى- عن المشفوع لـه،

ويُشتَرط فيها أن يكون المشفوع له قد مات على الإسلام والتوحيد لرب العالمين -سبحانه وتعالى- بشروط ثلاثة، لا تقع ولا تتحقق الشفاعة إلا بها، وقد قلتُ بأن هناك شفاعة الذي يملكها رب العالمين: ؟ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ؟ [البقرة: ٢٥٥] وقال سبحانه: ؟ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى ؟ [الأنبياء: ٢٨].

وبهذا ترجع الشفاعة كلها حقا إلى الله -عزّ وجلّ- لأنه هو الذي يأذن فيها، وهو الذي يرضى عن المشفوع له، يأذن للنبي -عليه الصلاة والسلام- يأذن للملائكة، يأذن لعباد الله وأولياء الله الصالحين أن يشفعوا، ويُشتَرط في العبد الذي يُشفع له أن يكون قد مات على الإسلام والتوحيد؛ لحديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- لما سأل النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- مَن أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ سؤال وجيه من أبي هريرة -رضي الله عنه- للنبي -عليه الصلاة والسلام- من أسعد الناس بشفاعتك؟ النبي -عليه الصلاة والسلام- قال له: (قد ظننتُ يا أبا هريرة ألا يسألني عن هذا الحديث أحد غيرك؟) لماذا؟ لما علمتُ من حرصك على الحديث، ثم قال: (أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة مَن قال: لا إله إلا الله مخلصا من قلبه).

إذَن الشفاعة ثابتة وواقعة، وجاءت بها آيات كثيرة في القرآن الكريم، وصح بها الخبر عن النبي الأمين -صلى الله عليه وآله وسلم- وبالتالي يجب علينا أن نؤمن بها، وأن نصدق بوقوعها، وهي أنواع وأقسام متعددة، وبعض الشفاعات خاصة بنبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- وأما من أنكر الشفاعة من الخوارج والمعتزلة بحجة أن الله -عزّ وجلّ- نفى عن الشفاعة في القرآن الكريم، فنقول بأن الشافعة المنفية ليست هي الشفاعة المثبَتة، فالله -عزّ وجلّ- ما نفاه من شفاعة نفى شفاعة الآلهة التي عُبدت من دونه في الذين طلبوها منهم من دون رب العالمين -سبحانه وتعالى- أما الشافعة التي أثبتها القرآن الكريم فالله -عزّ وجلّ- يشفع، والنبي -صلوات الله وسلامه عليه- يشفع، والملائكة كذلك، وأولياء الله الصالحين، وعباد الله المخلصين، وأهل الإيمان يشفع بعضهم في بعض، وكل ذلك تواترت به الأخبار عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-.

ثم يَذكر الله تعالى بعد ذلك موقفنا آخر من مواقف يوم القيامة، هو أيضًا يحزن المجرمين المشركين، والحديث معهم، ويفرح به أهل الإيمان والتقوى لله رب العالمين، وفي ذلك يقول الله -عزّ وجلّ-: ؟ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ؟ بَيَّن الله -عزّ وجلّ- في الآية السابقة يأس وافتضاح المشركين في يوم القيامة لما قال: ؟ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ؟ وقلنا بأن معنى "يبلس" كما قال ابن عباس: ييأس، وقال مجاهد وقتادة: يفتضح أو يكتئب هؤلاء المجرمون.

بَيَّن رب العالمين -سبحانه وتعالى- بعد ذلك أنه بعد هذا اليأس، وبعد هذه الفضيحة سيتم التميز بين أهل الإيمان وبين الكافرين، وسيكون هناك فريقان كما ذكر رب العالمين سبحانه: ؟ فَرِيقٌ فِي الجنةِ وفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ؟ وهذه الآية نصت على ذلك: ؟ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ؟ فقال قتادة -رحمه الله تبارك وتعالى-: "هي والله الفُرقة التي لا اجتماع بعدها أبدًا" وذلك عندما يرفع الله -عز وجل- المؤمنين إلى أعلى عليين، ويكون هؤلاء الكافرون والمشركون أين؟ في أسفل سافلين -والعياذ بالله تبارك وتعالى- والله -عزّ وجلّ- لا شك في يوم القيامة عندما يكون أهل الإيمان في مكانهم، في الجنة والنعيم، وعندما يكون الكافرون في مقرهم في العذاب الجحيم، سيكون الأمر لا شك شديدا على هؤلاء الكافرين والله -عزّ وجلّ- يُبَكِّتهم بعدما يميزهم إلى فريقين ويجعلهم هكذا فيقول: ؟ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ؟ [يس: ٥٩].

ثم يقول رب العالمين سبحانه: ؟ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ؟١٥؟ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ؟ لما ذكَر الله -عزّ وجلّ- في الآية السابقة انقسام الفريقين في هاتين الآيتين، وبَيَّن أنهم -ولا شك- سيتفرقون، والله -عزّ وجلّ- أخبرنا في كتابه موضع كلِّ فريق من هؤلاء، قال -عزّ وجلّ-: ؟ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ؟ يعني: مَن آمن وصَدَّق، وتابع النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وعمل الطاعات والصالحات ؟ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ؟ الروضة يعني

الجنة، والرياض هي الجنان، وكأن هذه الآية أتت لتبين لأهل الإيمان أن المقر الذي سيسعدون فيه يكون بالإيمان والعمل الصالح، ثم يذكر رب العالمين المآل الذي سيرجعون إليه ؟ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ؟١٥؟ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ ..؟ أما مَن سار على درب الكفر والشرك، وخالف المرسلين، ولم يدخل في دين النبي الأمين –صلى الله عليه وآله وسلم– فله عند الله –تبارك وتعالى– عذاب عظيم، وكأن أيضًا هذه الآية والتي تليها التي هي من قوله تعالى ؟ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا ؟ ؟ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ؟ هاتان الآيتان تُبَين منزلة كل فريق، ومكانة كل فريق، بعدما أخبرت الآية الأولى أنهم يوم القيامة سيتفرقون، بَيَّنت منزلة فريق أهل الإيمان ممن آمن وعمل الصالحات، ومنزلة فريق الكفر ممن كفر وصد عن سبيل الله، وصد غيره عن طريق محمد بن عبد الله –صلوات الله وسلامه عليه.

هؤلاء في الجنة، وهؤلاء في السعير، أعاذنا الله –تبارك وتعالى– وإياكم من هؤلاء.

هذه الآية فيها فوائد عظيمة جدًّا:

الفائدة الأولى: إن رب العالمين –سبحانه وتعالى– أشار في الآية الأولى إلى وجوب الإيمان والعمل الصالح، وَرَتَّب الجنان على الإيمان والعمل الصالح، وهذا دائما ما أُذكِّر نفسي وأخواني به.

توجد أيضًا فائدة أخرى في الآية الأولى ؟ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ؟ ويقابلها أمر مشين بالنسبة للكفار، رب العالمين –سبحانه وتعالى– في الآية الأولى ختمها بقوله: ؟ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ؟ بصيغة الفعل، وختم الآية الثانية بقوله سبحانه: ؟ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ؟ بصيغة الاسم، ما الفرق بينهما؟ قال: لأن صيغة الفعل تفيد التجدد والاستمرار، بخلاف صيغة الاسم، فأهل النعيم نعيمهم دائما متجدد، هم دائما في استمرار لا ينقطع، ومِن أعلى درجات النعيم في الجنة هي رؤية رب العالمين –سبحانه وتعالى– وزيارة رب العالمين –سبحانه وتعالى– لهم، وهذه تكون في وقت بعد وقت، فهذا من التجدد النعيمي الذي يلقاه أهل الإيمان، أما أهل الكفر والعياذ بالله –تبارك وتعالى– فالله –عزّ وجلّ– بعدما يئسوا وقنطوا ينادي عليهم، ويطلب منهم أن يبقوا في هذا السعير، يعني في عذاب جهنم، ولا يسألون رب العالمين –سبحانه وتعالى جل في علاه– فالعذاب عليهم دائم لا ينقطع، والنعيم في المقابل عند أهل الجنة لا ينقطع، ولكنه يتجدد ويتغير عليهم، بالتالي لا يُصابون بشيء من السآمة أو الملل، ويكونون في نعيم دائم مستمر، وهذا من فوائد هاتين الآتين الآن.

وأكررهما مرة أخرى: ؟ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ؟ وما أجمل هذه الكلمة ؟ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ؟ يُحبرون يعني ماذا؟ قيل: يُنَعمون، وهذا حق، فأهل الجنة يُنعمون في رياض الجنة؛ لأن معنى كلمة "روضة" جنة، وعكسهم أو الفئة الأخرى التي تقابلهم وهم الكافرون: ؟ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ؟ والآية أشارت إلى أمرين وقعا من هؤلاء الكفرة، ألا وهو التكذيب بآيات الله، والتكذيب بلقاء رب العالمين –سبحانه وتعالى جل في علاه–.

أسأل الله –عزّ وجلّ– أن يرزقنا رياض الجنة، وأن يعيذنا من عذاب النار، وصلِّ اللهم وسلِّم وبارك على نبيا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

بالنسبة لسؤالي الحلقة السابقة، كان السؤال الأول: ماذا تفهم من الإضافة في قول الله تعالى: ؟ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ؟ ولماذا أَمَرَهم بعد ذلك بالعبادة في قوله تعالى: ؟ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ؟؟

وكانت الإجابة: نفهم من الإضافة في قوله تعالى: ؟ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ؟ أنها إضافة تشريف.

وأمَرَهم الله تعالى بالعبادة في قوله تعالى: ؟ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ؟ وذلك لأمور، منها أن يخلصوا العبادة له سبحانه، يقول الله تعالى: ؟ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ؟ [البينة: ٥] والأمر الثاني: كي يستقروا على عبادتهم، ويستمروا على ما هم عليه من العبادة لله –سبحانه وتعالى– وكذلك كي يخصوه بالعبادة دون غيره، ويُؤخَذ ذلك من تقديم المعمول وهو قوله ؟ فَإِيَّايَ ؟ وتقديم المعمول يفيد الحصر والاختصاص.

الجواب صحيح سديد.

السؤال الثاني: هل توحيد الربوبية يكفي للدخول في الإسلام؟ ولماذا تَحَدَّث عنه القرآن مع أنه فطري في النفوس؟

وكانت الإجابة: توحيد الربوبية لا يكفي للدخول في الإسلام؛ وذلك لأن المشركين في شركهم كانوا يقرون به، ومن ذلك قوله تعالى: ؟ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ؟ [العنكبوت: ٦١] ومع ذلك ما نجاهم إقرارهم بذلك من العذاب، فلا بد من إفراد الله –سبحانه وتعالى– بالربوبية الألوهية والأسماء والصفات.

وذَكَر القرآن الكريم توحيد الربوبية؛ وذلك للفت نظر المشركين أن مَن خلق ورزق ودبر الأمر يلزمهم أن يوحدوا الله تعالى في العبادة، ولا يصرفوا العبادة لغيره من الأصنام، وأن الإيمان بالربوبية لا يكون مجزئا إلا إذا اقترن مع الإقرار بتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات.

الحمد له، الجواب سليم.

طيب يا شيخنا، أسئلة هذه المحاضرة

معنا سؤالان:

السؤال الأول: اشرح قوله تعالى: ؟ غُلِبَتِ الرُّومُ ؟٢؟ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ؟٣؟ فِي بِضْعِ سِنِينَ ؟.

السؤال الثاني: الشفاعة تنقسم إلى قسمين، اذكرهما مبينا حكم كل قسم، مؤيدا ما تقول بالدليل.

الدرس التاسع عشر

سورة الروم من الآية ١٧-٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين سيدِنا محمد، وعلى آله، وصحبه وسلم.

أما بعد:

ونواصل حديثَنا -إن شاء الله تبارك وتعالى- في آياتٍ من تفسيرِ الكتابِ العزيز، وسأتحدثُ في الآياتِ التي سنستمعُ إليها بعد قليلٍ -إن شاء الله تبارك وتعالى- في محاورَ ثلاثةٍ:

المحور الأول: تنزيهُ ربِّ العالمين، وذكر بعض الآياتِ الدَّالَّةِ على عَظَمَتِه وكمال قدرتِه.

المحور الثاني: المشركون لا يَرْضَوْنَ لأنفسِهم ما جعلوه لربِّ العالمين.

المحور الثالث: الله -تبارك وتعالى- فَطَرَ عبادَه على الإسلام القائم على التوحيدِ والعملِ الصالح.

ولنستمع إلى آيات هذا اللقاء.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. ؟ فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ؟١٧؟ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ؟١٨؟ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ؟١٩؟ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ؟٢٠؟ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ؟٢١؟ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ؟٢٢؟ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ؟٢٣؟ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ؟٢٤؟ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ؟٢٥؟ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ؟٢٦؟ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ؟٢٧؟ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ؟٢٨؟ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ؟٢٩؟ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ؟ [الروم: ١٧: ٣٠].

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، وعلى آله، وأصحابه، ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين، وبعد.

قلتُ إنني سأتحدث في هذه الآيات من خلال ثلاثةِ محاورَ:

المحور الأول بعنوان: تنزيه ربِّ العالمين، وذِكْر بعضِ الآيات الدَّالَّة على عَظَمَتِه وكمالِ قدرتِه، وفي ذلك يقول الله -تبارك وتعالى-: ؟ فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ؟١٧؟ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ؟١٨؟ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ؟.

الله –عزّ وجلّ– في هذه الآيةِ الأولى التي معنا –اليومَ– يُسَبِّحُ بنَفْسِه –سبحانه– فيقول: ؟ فَسُبْحَانَ اللهِ ؟، فهو الذي يُسَبِّحُ نفسه –سبحانه وتعالى جلَّ في عُلاه–، وبهذا يُرشد عبادَه إلى تسبيحِه –عزّ وجلّ–، وسآتي وأذكرُ – إن شاء الله تبارك وتعالى– شيئًا من ذلك.

وهذا التسبيح وهو بمعنى التَّنْزيهِ وَقَعَ مِنَ اللهِ –عزّ وجلّ– لنفسِه، وَأَرْشَدَ عبادَه إلى أنْ يَقوموا به للهِ –سبحانه وتعالى–؛ لِمَا هو عليه من جميلِ الصِّفَاتِ وعظيمِ الكمالِ –سبحانه وتعالى جل في عُلاه–.

والآية قد أشارتْ إلى شيءٍ من ذلك؛ لأنَّه قال: ؟ فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ؟، فهو الذي يأتي بالصباحِ والمساءِ، وهو الذي يُخالف عبادَه في الأوقاتِ، فيكون أوَّلا عندهم صباحٌ ومساءٌ وظهيرةٌ وغير ذلك. والذي يَقدِرُ على ذلك ويفعلُه بهم هو ربُّ العالمين –سبحانه وتعالى–. وقد ذَكَرَ بعضُ أهلِ العلمِ أنَّ الله –تبارك وتعالى– في هذه الآيةِ أَشَارَ إلى أَوْقَاتِ الصَّلَواتِ الخَمْسِ، واعْتَرَضَ ذلك بالحمدِ له –سبحانه وتعالى جلَّ في عُلاه– اعترض بَعْضَهَا بذِكْرِ الحمدِ له ليُبَيِّنَ أنَّ تَسْبيحَ العبادِ لربِّهم هو في حقيقةِ أمْرِه من توفيقِ اللهِ –تبارك وتعالى– لهم، ويحتاجون في ذلك إلى أنْ يَحمدوا الله –عزّ وجلّ– على هذا التسبيح.

والآية أشارت ؟ فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ؟، قال: هذا فيه إشارة إلى وقتي المغربِ والعشاءِ، وهما يكونانِ في المساءِ.

؟ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ؟؛ أي في الصباح، وفي الصباح تكون صلاةُ الصبح، ثم اعترض ذلك بقوله: ؟ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ؟، كما نَزَّهَ –سبحانه وتعالى– وهو الْمُنَزَّهُ الكامل –سبحانه وتعالى جلَّ في عُلاه– حَمِدَ أيضًا نفسه وهو المحمودُ وحده في السماوات والأرض. ثم قال: ؟ وَعَشِيًّا ؟، قيل: المرادُ بالعشيِّ هنا شدَّةُ الظَّلامِ، وبالتالي سيدخلُ فيها المغربُ والعشاءُ، وقيل: العشيُّ المرادُ بها ما يَقَعُ مِنْ صلاةِ العصرِ عندَها. و؟ وَحِينَ تُظْهِرُونَ ؟: صلاةُ الظهر، ويمكن إن لم تدخلِ العصرُ في العشيِّ تَدْخُلُ –أيضا– في قولِه –سبحانه وتعالى– ؟ وَحِينَ تُظْهِرُونَ ؟؛ لأنَّ الشمسَ أيضا تكون حارَّةً ومرتفعةً نوعًا ما في هذا الوقتِ.

ثم ذَكَرَ ربُّ العالمين –سبحانه– شيئًا من عَظَمَتِه وآلائِه وقُدْرتِه، وهو يَلفتُ نَظَرَ عبادِه إلى ذلك كي يُنَزِّهوه ويُسَبِّحُوه؛ لأنَّ التسبيحَ يجب أنْ يَقَعَ مِنَ العِبَادِ لربِّ العالمين –سبحانه وتعالى–. فملائكةُ الرَّحمن تُسَبِّحُ الله –عزّ وجلّ–، والأنبياءُ والمرسلون كانوا يُسَبِّحُون الله –تبارك وتعالى–، وما من شيءٍ في هذا الوجودِ –أيًّا كان– إلا ويُسَبِّحُ بحَمْدِ ربِّ العالمين –سبحانه وتعالى–. والدَّليل على أنَّ الملائكة تُسَبِّحُ الله –عزّ وجلّ– ما جَاءَ في قولِ الحقِّ –تبارك وتعالى–: ؟ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ ؟ [الأنبياء: ٢٠]؛ أي لا ينقطعون أبدًا عنْ تسبيح ربِّ العالمين –سبحانه وتعالى جل في عُلاه–. والله –عزّ وجلّ– قد أَمَرَ نَبِيَّه –صلى الله عليه وآله وسلم– بأنْ يُسَبِّحَه، والتسبيحُ –كما أشرْتُ– هو التنزيهُ، وفي ذلك يقول الله له: ؟ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ؟ [الحجر: ٩٨]، هذا أَمْرٌ مِنَ اللهِ –عزّ وجلّ– للنبيِّ –صلوات الله وسلامه عليه–.

والتسبيحُ على كلِّ حالٍ يُفيدُ المؤمنَ الْمُسَبِّحَ. أنت –يا عبد الله!– عندما تُنَزِّهُ الله –عزّ وجلّ– وتُسَبِّحُ بحَمْدِ اللهِ –تبارك وتعالى– أنت الذي تَستفيدُ، وفي ذلك يقول الله –عزّ وجلّ– في قصة يونس –عليه السلام– بعدما ابْتَلَعه الحوتُ في بطنِه ونَجَّاه ربُّ العالمين –سبحانه–، وذَكَرَ الله –عزّ وجلّ– من أسبابِ هذا الإنجاءِ أنَّه كان من الْمُسَبِّحِين: ؟ فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ؟١٤٣؟ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ؟ [الصافات: ١٤٣: ١٤٤].

وختاما أقولُ بأنَّه ما في الكون شيءٌ إلا ويُسَبِّحُ بحمدِ اللهِ –عزّ وجلّ–، والدليل على ذلك ما جاء في قوله –سبحانه–: ؟ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ؟ [الإسراء: ٤٤].

الآيةُ التاليةُ ذكَرَتْ بَعْضَ آلاءِ اللهِ -تبارك وتعالى- في كونِه، الدَّاعِيَةِ إلى تَنْزِيهِ ربِّ العالمين -سبحانه وتعالى- عَمَّا لا يَلِيقُ به، وبَيَّنَتْ أنَّ مَنْ يَفعل ذلك هو ربَّ العالمين -سبحانه وتعالى- وَحْدَه دون سواه، وأنَّ غيره لا يَستطيع أنْ يَفْعَلَ شيئًا من ذلك. وفي هذا يقول الحق -تبارك وتعالى-: ؟ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ؟، الله -عزّ وجلّ- يُخرج حقًّا الحيَّ من الميتِ ويُخرج الميتَ من الحيِّ؛ يُخرج البيضَ من الدجاج، والدجاجَ من البيضِ، يخرج الليلَ من النهارِ ويخرج النهار من الليل، وهكذا..

فربُّ العالمين -سبحانه وتعالى- هو وحدَه الذي يَفعل ذلك، يُخرج المؤمنَ من الكافرِ؛ قد يكون الأبُ كافرًا والابن مؤمنٌ، ويخرج الكافر من المؤمن؛ قد يكون الأبُ مؤمنًا والابنُ كافرٌ، وهذه تَدُلُّ وتُشيرُ إلى عَظَمَةِ ربِّ العالمين -سبحانه وتعالى- في الكون، ومنها ما جاء في قوله: ؟ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ؟. رب العالمين -سبحانه وتعالى- هو الذي يُحْيِي هذه الأرضَ بعد موتِها، بل إحياءُ الأرضِ بعد موتِها علامةٌ وآيةٌ على قُدْرَةِ ربِّ العالمين -سبحانه وتعالى-، ولكنَّ الآيةَ لَفَتَت الانتباهَ إلى أمرٍ مُهِمٍّ -ربما أشَرْت في الحلقةِ الماضيةِ إلى أنَّه سيأتي- وهو ما يمكن أن نذكره ببراهينِ البعثِ والنشورِ، هذا يؤخذ من قول الله -تعالى-: ؟ وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ؟. الله -عزّ وجلّ- لَمَّا أخبر عن إحيائه الأرضَ بعد موتِها يُفِيدُ ويُشير إلى أنَّ إحياءَ الأرضِ بعد موتها إشارةٌ إلى أنَّه -سبحانه وتعالى- يُحْيِي الموتى من قبورِهم. فكما أنه -سبحانه وتعالى- أحْيَى الأرضَ بعد موتِها؛ هو كذلك يُخرج الناس من قبورِهم؛ لأنه خَتَمَ هذه الآيةَ بقوله بعدما قال: ؟ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ؟ قال: ؟ وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ؟.

؟ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا ؟ [يس: ٣٣]: هذه إشارة في أنه يُحْيِي الأرضَ بعد موتِها -سبحانه وتعالى-، وإحياءُ الأرضِ بعد موتِها فيه أَمَارَةٌ وَدَلالَةٌ على أنَّه -أيضًا- رب العالمين -سبحانه وتعالى- يحيي الناسَ ويُخرجهم من قبورِهم. وهذه أمارة على البعث والنشور، وستأتي براهينُ أُخرى وأدلة أخرى -إن شاء الله- في هذا اللقاءِ على البعثِ والنشورِ.

ثم تَسْتَمِرُّ الآياتُ في بَيَانِ كَمَالِ عَظَمَةِ ربِّ العالمين -سبحانه وتعالى- وقدرته فيقول سبحانه: ؟وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ؟٢٠؟ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ؟، يستمرُّ السياقُ القرآنيُّ، ورَبُّ العالمين -سبحانه وتعالى- يُشير فيه إلى عَظَمَتِه وقدرتِه، ومن ذلك أنَّه خَلَقَ أبانا الأولَ آدمَ -عليه السلام- من تُرابٍ. يقول ربُّ العالمين -سبحانه-: ؟ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ؟ [آل عمران: ٥٩]، فالخلق الأول ألا وهو آدم -عليه السلام- خَلَقَه ربُّ العالمين -سبحانه وتعالى- من تُرابٍ ولا يَعْتَرِضُ علينا مُعْتَرِضٌ - وأعتقد أنَّ هذه مسألة واضحة- بأنَّ القرآنَ الكريم أشَارَ إلى أنَّ آدمَ خُلِقَ من طينٍ؛ فالترابُ لَمَّا يُضافُ إليه الماءُ يُصبح طينًا، وهذا الطِّينُ قد تكون له أشكالٌ مختلفةٌ كالصلصال وغير ذلك. ولكنَّ أصلَ خِلْقَةِ الإنسانِ والأصلَ الأولَ آدمَ -عليه السلام- خَلَقَه ربُّ العالمين -سبحانه وتعالى- من ترابٍ.

ثم بعد ذلك شاء الله -تبارك وتعالى- أن يكون الخلقُ بعد ذلك من خِلالِ التَّنَاسُلِ والتَّزاوُجِ، والسَّيْرِ في أطوارٍ مختلفةٍ، ربما تأتي إشارة بعد ذلك إلى شيء من ذلك -إن شاء الله عزّ وجلّ-. ولكنَّ هنا إشارةً في قوله -سبحانه وتعالى-: ؟ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ؟، أي أنَّ الناس بعد ذلك بشرٌ ينتشرون؛ منهم الأبيض، ومنهم الأحمر، ومنهم الأسود، ومنهم الخبيث، ومنهم الطيب، ومنهم اللَّيِّنُ السهل، ومنهم الشديد، وغير ذلك، فَخَلَقَهم الله -تبارك وتعالى- في أطوارٍ مختلفةٍ.

ثم يقول ربُّ العالمين -سبحانه- أيضا: ؟ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ؟، الله -تبارك وتعالى- بعدما خَلَقَ آدمَ من ترابٍ خَلَقَ حَوَّاءَ من ضِلَعِ آدمَ -عليه السلام-. والإشارةُ هنا إلى أنَّ آدمَ خُلِقَ أولا: ؟ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ؟، فحواء خلقت من آدمَ -عليه السلام-، وربُّ

العالمين -سبحانه وتعالى- شَاءَ وَأَرَادَ ذلك وأن تكونَ الزَّوجةُ من نَفْسِ جِنْسِ الإنسانِ حتى لا يكونَ هناك لــونٌ منْ ألوانِ التَّنَافُرِ، وَزَادَ هذا الأمر أنْ جَعَلَ ربُّ العالمين -سبحانه وتعالى- بين الزوجيْنِ مِنَ المودَّةِ والرَّحمةِ ما جَعَلَه ربُّ العالمين -سبحانه وتعالى- مِنْ تهيئةِ الأسبابِ التي بها يَسْتَمِرُّ البيتُ، ويَهْنَأُ البيتُ، ويعــيشُ البيــت، فالبيتُ لا يقومُ إلا على أَعْمِدَةِ المودَّةِ والرحمةِ التي تكون بين الزوجيْن، وربُّ العالمين -سبحانه وتعــالى- هــو الذي فَعَلَ ذلك جلَّ في عُلاه، وهذا أمرٌ محسوسٌ ومشاهدٌ لكلِّ مَنْ يَتَأَمَّلُه ويُعَايِشُه الأزواجُ اليومَ؛ يَشْعُرُ الرجلُ أنه من المرأةِ، والمرأةُ تشعرُ أنَّها منَ الرجلِ، وكلٌّ منهما يَحرص على الآخرِ، هذا في الحيــاةِ الطَّبَعِيَّــةِ المــستقرَّة المستمرَّة بفضل الله -تبارك وتعالى-.

ثم تَلفتُ الآية نَظَرَ العبادِ إلى أنَّ هذا الأمرَ فيه آية ولكن لمنْ؟ لمن يَعِي وَيَتَأَمَّلُ وَيَتَدَبَّرُ ويُفَكِّرُ ويــستخدمُ مــا أوْدَعَه الله -تبارك وتعالى- فيه أيضا فيما خُلِقَ لأجلِه، وفي ذلك يقول رب العالمين: ؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَــوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ؟.

ويستمرُّ السِّياقُ الكريم في ذِكْرِ وَبَيَانِ عَظَمَةِ ربِّ العالمين -سبحانه- فيقول جَلَّ في عُلاه: ؟ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْــقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ؟، هذه أيضا من آياتِ ربِّ العالمين -سبحانه- هذا الخلق العظيم نُشاهدُه في السماوات والأرض. فالله -عزّ وجلّ- رَفَعَ السَّماوات بغيرِ عَمَدٍ نشاهدها ونراها إلى يومِ النَّاسِ هذا، وَأَوْدَعَ في الأرض -سبحانه وتعالى- ما أَوْدَعَ وكلُّ هذا مــن قُــدْرَةِ وفــضْلِ ربِّ العالمين -سبحانه وتعالى جل في عُلاه-، ولا يقدر أحَدٌ -بحالٍ- أن يفعل شيئًا من ذلك إلا الله -عزّ وجلّ-.

ثم أيضا من آياته الدالَّة على قُدْرَتِه وَعَظَمَتِه -سبحانه وتعالى جل في عُلاه- هو اختلافُ الألــسن. اخــتلاف الألسن بين الناس والألوان مَيْزَةٌ عظيمةٌ للغايةِ، والله -عزّ وجلّ- ذَكَرَ اختلافَ الألسنِ أوَّلا؛ لأنَّ الألسنَ تُعَبِّرُ عنِ الكلامِ، فالإنسان يُعَبِّرُ بلسانِه عن الكلامِ الذي يَنْطِقُ به. وهذه فيها فائدةٌ عظيمةٌ جدًّا؛ فنحن -الآن- نُمَيِّــزُ بــين الأصوات، ومن فُقِدَ نِعْمَة البصرِ يَستطيع أنْ يَعْرِفَ الشخصَ من خلالِ صوتِه، كذلك ربُّ العــالمين -ســبحانه وتعالى- على كَثْرَةِ ما خَلَقَ مُنْذُ أنْ خَلَقَ الله -عزّ وجلّ- الخلقَ وقد مَايَزَ بينهم، وَفَرَّقَ بينهم، كلُّ مخلــوقٍ مــن مخلوقاتِ اللهِ -عزّ وجلّ- تستطيع أن تفرق بينهما بعلامة ما وهنا أشار إلى هذا الاختلاف: ؟ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ؟، فلا يوجد اثنان -بحالٍ من الأحوال- بينهما تشابه تامٌّ في كلِّ شيء، هناك تَمَايُزٌ بين العباد، ولا يَقْدِرُ على ذلك إلا ربُّ العبادِ -سبحانه وتعالى-، ولذلك جَعَلَ الله -عزّ وجلّ- ذلك آيةً وعلامةً تَدُلُّ وتُشيرُ وتُرشدُ إلى عظمته وكمال قدرته -سبحانه وتعالى جل في عُلاه.

ولذلك خَتَمَ هذه الآية بقوله: ؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ؟، قال بعض أهل العلم -وسيأتي معنا خِتَامٌ لــبعضِ الآياتِ سأتحدث عنه- في الآية الأولى قال: ؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ؟، وهنا قال: ؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ؟، قالوا: لأنَّ الإنسان دُعِيَ أوَّلاً إلى التفكُّرِ، فإذا تَفَكَّرَ؛ تَوَصَّلَ من خلالِ التَّأمُّلِ والفكرِ إلى العلمِ فــتعلم. فبعدما ذَكَرَ ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنَّ فيما سَبَقَ آياتٍ لمنْ يَتَفَكَّرُ ذَكَرَ بعد ذلك أنَّ الإنسان إذا تَفَكَّرَ؛ كان له -بعد ذلك- لونٌ من ألوانِ العلمِ.

ويستمرُّ السياقُ بعد ذلك ليُشيرَ إلى بعضِ قُدْرَةِ وَعَظَمَةِ اللهِ في كونِه، وفي ذلك يقول ربُّ العالمين: ؟ وَمِــنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ؟؛ أي من الآياتِ العظيمــةِ مــا جَعَلَه الله -تبارك وتعالى- من صفةِ النَّوم التي تكون في الليل وفي النهار. النوم يكون في الليل ويقع أيضا فــي النهار وهو ما يُعرف بالقيلولة، وبعض أهل العلم قال بأن في الآيةِ تقديمًا وتأخيرًا، ومعناها: ومن آياته منــامُكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار، ولكنِ الآيةُ على سياقها، ولا شكَّ أنَّ الإنسانَ يستريحُ أحيانا في النهارِ، وهذه الراحة تَدْفَعُه بَقِيَّةَ يومِه إلى الاستمرارِ في العملِ والسَّعي والانتشارِ.

والله -عزّ وجلّ- قد جَعَلَ الليلَ والنهارَ هكذا كي يَستفيدَ منهما الإنسانُ. ففي الليل يستريح الإنسان وفي النهار يَنتشرُ الإنسان فيه، ويبتغي من فضل رب العالمين -سبحانه وتعالى-، والله -عزّ وجلّ- قد أشار في آياتٍ أُخَرَ إلى هذا النعمةِ عندما قال: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾، لمــاذا؟ ﴿ لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ [الإسراء: ١٢].

إذن الليل والنهار بهذه الصفةِ التي وَضَعَها ربُّ العالمين -سبحانه وتعالى- كان فيها من فضلِ اللهِ على عبادِه الشيءُ الكثيرُ.

والآياتُ هنا خُتِمَتْ بقوله تعالى: ﴿ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾؛ لأنَّ الإنسانَ إذا تَفَكَّرَ وَعَلِمَ؛ استمع ليتعلم؛ لأنَّه سيَزدادُ منَ العلمِ، والسماعُ وسيلةٌ لتحصيلِ العلمِ.

ويستمرُّ بعد ذلك -أيضًا- السِّياقُ القرآنيُّ ليشيرَ إلى عَظَمَةِ ربِّ العالمين -سبحانه-، وفي ذلك يقول الله -عزّ وجلّ-: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِــكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾. أيضًا من الآياتِ العظيمةِ الدَّالَّةِ على كمالِ القدرةِ البرقُ الذي يُرسله رب العالمين -سبحانه وتعالى- ويَخلقه. هذا البرق يكون لبعض الناس خوفًا ويكون لبعضهم طَمَعًا ورجاءً. قال أهل العلم: الخوف هــو ما يُزعجُ الإنسانَ مما يكونُ بعده مِن سيولٍ وغير ذلك تؤثر فيه، والرجاء ما يَستفيده الإنسانُ من هذا الماءِ الذي ينزل منَ السماءِ، وقيل: يكون البرقُ خوفًا وطمعًا؛ خوفًا للمسافرين لِمَا يَتَأَذَّى به المسافرُ منْ مَشَقَّةٍ أحيانا، وَطَمَعًا للمُقيم الذي يَستفيدُ من هذا الماءِ؛ لأنَّ المسافر قد لا يَستفيد من الماءِ غالبًا، وقد يَتَأَثَّر بِسَبَبِه، وقد يُواجــه بعــضَ الصعوباتِ والمشاكلِ في طريقِه بِسَبَبِ الماءِ. فكان البرق -إذن- خوفًا وَطَمَعًا، وهذا أيــضًا تقليــبٌ مــن ربِّ العالمين -سبحانه وتعالى- على عبادِه، ولكنَّه أَشَارَ إلى أنَّ هذا البرق يَتْبَعُه المطرُ النَّازلُ منَ السماءِ، فأشار إليه بعد ذلك فقال: ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾، الإشارة بــ: ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ تــدل على أنَّ الذي يُنَزِّلُ المطرَ من السماءِ هو الله -عزّ وجلّ-، وأنَّ ذلك يكون بقدرته، كما أنَّ هذه الآية تُشيرُ إلــى علوِّ الله -تبارك وتعالى- على خلقِه؛ لأنَّه يُنَزِّلُ منَ السَّماءِ؛ إذن هو في أعلى عِلِّيين -سبحانه وتعالى جل فــي عُلاه-.

وهذا -أعني ما ينزلُ مِنَ السماءِ- رحمةٌ وفضلٌ مِنَ اللهِ -تبارك وتعالى- على عبادِه وأنَّ الأرض تحيا بهذا الماءِ الذي يَنْزِلُ منَ السَّماءِ؛ فالأرض تَنْبُتُ ومنها يأكلُ الإنسانُ من خلالِ النباتِ، وترعى الأنعامُ وغير ذلك مِمَّا أَرَادَ الله -تبارك وتعالى- أنْ يَرْزُقَه من خلالِ الماءِ أو بِسَبَبِ الماءِ النَّازلِ مِنَ السَّماءِ: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

عاد ربُّنا -سبحانه وتعالى- وَذَكَرَ هنا العقلَ؛ لأنَّ الإنسانَ بعدما يَتَفَكَّرُ وَيَتَعَلَّمُ ويَسمعُ ويَزداد في السماعِ فيَزداد العلمُ يَصِلُ بعد ذلك إلى العقلِ، ولذلك على الإنسانِ -بهذه المناسبة- أنْ ينتقلَ من فهم هذه الآياتِ إلــى وجــوبِ عبادتِه لربِّه -سبحانه وتعالى- وحدَه دون سواه؛ لأنَّ هذا هو الغرضُ من سياقِ هذه الدَّلائل البيِّناتِ، وهذه الآيات لترشد وتشيرَ إلى وجوبِ وحدانيَّة اللهِ -تبارك وتعالى- وإلى وجوبِ عبادته وحدَه دون سواه.

ويستمر السياق القرآني أيضًا فيقول فيه ربُّ العالمين -جل في عُلاه-: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾، يعني من العلاماتِ العظيمةِ الدَّالــةِ علــى قــدرةِ ربِّ العالمين -سبحانه وتعالى- أنَّ السماء والأرض أُقيمتا بأمرِ ربِّ العالمين -سبحانه وتعالى جل في عُــلاه-. وإنْ أردْت أن أُفسِّرَ لكم معنى هذه الآيةِ أذكر بعضَ الآيات الأخرى أمامكم الآن، هذه الآية معناها ما جاء في قــول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَــى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِــهِ ﴾ [الحجــر: ٦٥]، ﴿ إِنَّ اللهَ يُمْــسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ﴾ [فاطر: ٤١].

إذن السماء -كما أشرنا من قبل- رَفَعَهَا الله بغيرِ عَمَدٍ ترونها، فهو الذي أقامها -سبحانه وتعالى جل في عُلاه-، وهذه آيةٌ عظيمةٌ ودَلالة على عظمتِه -جل في عُلاه-. وكان أميرُ المؤمنين عمرُ بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- إذا اجتهد في يمينه يقول: «لا، والذي تقوم السماء والأرض بأمره» يعني إذا اجتهد في يمينِه وأراد أن يُقسم على شيء عظيم يُعظِّم ربه ومولاه ويقول: «لا، والذي تقوم السماء والأرض بأمره».

فمِنْ آياتِه أنْ تقومَ السماءُ بعظمتِها بأمره -سبحانه وتعالى- وقدرته، وكذلك الأرض ما كانت هكذا إلا بأمره -سبحانه وتعالى- وقدرته.

؟ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ؟، وهذه الآية كقوله -تعالى-: ؟ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ؟ [الإسراء: ٥٢]، رب العالمين -سبحانه وتعالى- هو الذي يُخرج الناسَ من قبورهم وإذا دَعَاهم؛ خرجوا بأمره -سبحانه- كما قال في سورة يس: ؟ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ؟ [يس: ٥٣]، وهذا من عَظَمَةِ ربِّ العالمين -سبحانه-، والآية تُفيد أنَّ هذا الخلقَ لم يخلقْه الله -عزّ وجل- عَبَسًا ولا سُدًى، ربُّنا خَلَقَ السماوات والأرض وَخَلَقَ الإنسان فيها ليَعبدَ الله -عزّ وجلّ- ولم يتركه هملاً هكذا، بل أقام السماوات والأرض بنفسه -سبحانه-، ثم بعد ذلك يَبعث الناسَ إليه كي يُحاسبَهم، ويقف الجميع بين يديه -جل في عُلاه-، وفوق كلِّ ذلك ما جاء في الآية التالية: ؟ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ؟، كلّ من في السماوات والأرض، كل هذا الكائنات التي نراها من الخلقِ كلّها قائمة بأمر الله -عزّ وجلّ-، وهي قانتةٌ خاضعةٌ ذليلةٌ لرب العالمين -سبحانه-. والله -في هذا الكون كله- لا شريكَ له في مُلكِه أصلاً، وكلّ ما في السماوات والأرض هو مُلكٌ للهِ وعبدٌ للهِ -تبارك وتعالى-: ؟ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ؟؛ أي خاضعون خاشعون طوعًا وكرهًا، وأحكام الله -تبارك وتعالى- تجري عليه.

ثم قال -سبحانه- بعد ذلك: ؟ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ؟؛ أي هو -سبحانه وتعالى- هو الذي يَبدأ ما أَرَادَ خلْقَه ثم بعد ذلك يُعيدهم ربُّنا -سبحانه وتعالى- إليه مرَّة أُخرى ثم قال: ؟ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ؟، ولعلّي قد أشرتُ إلى معنى هذه الصيغةِ فيما مضى، وعلى كلٍّ؛ فقد قال فيها ابن عباس -رضي الله تعالى عنه-: «وهو هيِّنٌ عليه».

لماذا قالها الله بصيغة أفعل التفضيل ؟ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ؟؟ قال الله -تبارك وتعالى- ذلك لأنَّه يخاطبنا، ويخاطبنا على قَدْرِ ما نَفهم، على قدر عقولِنا. والإنسان استقرَّ في نفسِه وعلى حَسَبِ ما عَايَنَه وَشَاهَدَه أنَّ الشيءَ في أوَّل أمره ربما يكون صعبًا عليه، فإذا مَارَسَه الإنسان؛ أصبح سهلاً. هذا في عُرْفِ الناس، والله -عزّ وجلّ- يُخاطبُنا على قدْرِ ما نَفْقَهُ، وإلا؛ فالأمرُ -كلُّه- عند ربِّنا -سبحانه وتعالى- هيِّنٌ ليس فيه شيءٌ من الصعوبة بمكانٍ؛ لأنَّ أمْرَه -سبحانه وتعالى- كلامٌ إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون.

هذه الآية -أيضًا- يُدخلها أهلُ العلمِ في أدِلَّةِ البعْثِ والنُّشور، ويعتبرونها من براهينِ البعثِ والنشور. لماذا؟ لأنَّه أشَارَ فيها إلى الخلقِ الأولِ، قال: ؟ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؟، فالإشارةُ إلى الخلقِ الأولِ تُفيد أنَّه -سبحانه وتعالى- حقًّا يُعيد عبادَه، وأنَّ هذا أمرٌ سهلٌ ميسورٌ على ربِّ العالمين -سبحانه وتعالى جل في عُلاه-، وأنَّ الناس الذين استعظموا البعثَ والنشورَ، وذكروا أنَّه من بابِ المستحيلاتِ ما نظروا إلى أوَّلِ خَلْقَتِه، كيف أنَّ الله -تبارك وتعالى- خَلَقَه الذي يَخلقُ من عَدَمٍ يصعب عليه أن يُعيد هذه الصورة التي سَبَقَ أنْ خَلَقَها -سبحانه وتعالى-؟! ولذلك تَأمَّلوا معي مرةً أُخرى مَنْطُوقَ الآية: ؟ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ؟.

ولذلك نُوجِّهُ الخطاب إلى الملاحدةِ المنكرين للبعثِ والنشور، وما زال كثيرُ من الناس إلى يومنا هذا يَعتقدون أنْ لا جزاءَ ولا حسابَ، وأنهم سيموتون ولن يُبعثون. وهذا كلامٌ خطيرٌ، وضلالٌ مُبينٌ. وها نحن نقولُ لهم: انظروا في أنفسِكم الله -تبارك وتعالى- خلقكم أولَ مرةٍ، وأخرجكم مِنَ العدمِ إلى الوجودِ، والذي يَفعل ذلك

يَصعب –بالعقلِ ُنخاطبهم بالعقل وهو مَنْطِقُ القرآنِ الكريم– يصعب عليه بعد ذلك أنْ يُعيدَكم مرةً أُخـــرى مـــن جديد؟!

ثم يُبَيِّنُ رب العالمين –سبحانه وتعالى– جلالَه وَعَظَمَتَه عَقِبَ قوله –سبحانه–: ؟ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ؟، وبعدها قال: ؟ وَلَهُ الْمَثَلُ الأعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ؟. هذا الجــزءُ من الآية أَخَذَ منه علماءُ الاعتقادِ قَاعِدَةً عظيمةً للغايةِ، وهي أنَّ ربَّ العالمين –سبحانه وتعالى– يُثْبَتُ له المثــلُ الأعلى، ومعنى المثل الأعلى: إثباتُ صفاتِ الجلالِ والكمالِ للهِ –تبارك وتعالى–، على نحوِ ما وَرَدَتْ في كتابِ اللهِ وفي سُنَّةِ رسولِ اللهِ –صلى الله عليه وسلم–. وَأَخَذَ منه علماء الاعتقاد أنَّ ربَّ العالمين –سبحانه وتعالى– لا يَدْخُلُ مع خَلْقِه في قياسِ الشُّمُولِ أو التَّمثيلِ، وإنما يُقال في مقامِ ربِّ العالمين أو يُستعملُ في مقامِ ربِّ العـــالمين قياسُ الأَوْلَى، ومعناه: أنَّ كلَّ كمالٍ ثَبَتَ للمخلوقِ لا نَقْصَ فيه بوجهٍ من الوجوهِ؛ فاللهُ واهبُه وهو أولى به منه.

ولذلك يقولون: قياس الأولى، وهو مأخوذ من المثلِ الأعلى. المثل الأعلى معناه: إثباتُ صفاتِ الكمالِ والجلالِ لربِّ العالمين –سبحانه وتعالى–، وقد أَثْبَتَه الله –تبارك وتعالى– لنفسِه، وفي المقابلِ أَثْبَتَ مَثَلَ السَّوْءِ لأعدائه: ؟ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلهِ الْمَثَلُ الأعْلَى ؟ [النحل: ٦٠]، وهذا المثلُ الأعلى يَتَضَمَّنُ أربعة أمور:

الأمر الأول: ثُبوت الصفاتِ لله –تبارك وتعالى–.

الأمر الثاني: وجودُها في العلمِ والشعورِ. ولذلك قال بعض العلماء: ما يجده المؤمن في قلبِه ونفسه، ما يَجدُه المؤمنُ من لَذَّةِ الإيمان أمرٌ لا يَستطيعُ أن يُعَبِّرَ عنه.

فالأمر الأول إثبات الصفات لله –عزّ وجلّ– الأمر الثاني من مقتضيات المثل الأعلى يعني أن المثل الأعلـــى يتطلب ويقتضي منا أمورا أربعة:

الأمر الأول: ثبوت الصفات لله –تبارك وتعالى–.

الأمر الثاني: وجودها في العلم والشعور.

الأمر الثالث: ذِكْرُ صفاتِ ربِّ العالمين –سبحانه وتعالى–. نذكر هذه الصفاتِ، نُخبر عـــن ربِّ العـــالمين –سبحانه وتعالى– الذي اتَّصَفَ بهذه الصفاتِ.

الأمر الرابع الذي يقتضيه ثبوت المثل الأعلى لرب العالمين –سبحانه وتعالى–:

محبةُ الموصوفِ بها وتوحيدُه. أنْ تُحِبَّ من اتصف بهذه الصفاتِ، وأنْ تُوَحِّدَه –سبحانه وتعالى–، ولعلَّ الأمرَ بِذِكْرِ المثلِ الأعلى بعد بَدْءِ الخلقِ وإعادتِه لِيَدُلَّ على أنَّ كَمَالَ القُدرةِ لربِّ العالمين –ســبحانه وتعـــالى–، وأنَّـــه يَتَّصِفُ بصِفَاتِ الجلالِ والكمالِ –سبحانه–، وَخَتَمَ هذا الآيةَ باسميْنِ كريميْنِ له –سبحانه– وهو العزيز: الـــذي لا يُغالِبه أَحَدٌ، والذي يَنْتَقِمُ من كلِّ ما سِواه –سبحانه وتعالى–، الذي يَقْدِرُ على كلِّ مخلوقٍ ولا يَقدر عليـــه أحَـــدٌ –سبحانه وتعالى–، الحكيمُ في أفعالِه وفي قَدَرِه وفي شَرْعِه –جل في عُلاه–.

أنتقلُ بعد ذلك إلى المحور الثاني في هذا اللقاءِ وهو بعنوان: المشركون لا يرضون لأنفسهم ما جعلوه لـــربِّ العالمين.

وفي ذلك يقول الله –تعالى–: ؟ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِـــي مَـــا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ؟.

هذا -أيضًا- مَثَلٌ ضَرَبَه ربُّ العالمين -سبحانه وتعالى- للمشركين الذين عبدوا غير الله -تبارك وتعالى-. ومعناه أنَّ الله -عزّ وجلّ- يقولُ لهؤلاءِ المشركين: الله -عزّ وجلّ- مَيَّزَ وَفَارَقَ بين الناس، فَجَعَلَ منهم الغنيَّ والفقيرَ، ومَنْ وُسِّعَ عليه ومن ضُيِّقَ عليه، وهؤلاء الناسُ بعضُهم يَملك غيرَه مِنَ المملوكينَ وغير ذلك، والمملوكُ يَعملُ عند مَنْ مَلَكَه؛ فهل يَرضَى أَحَدٌ أَنْ يُشَارِكَه عبدَه في مُلْكِهِ وَمَالِهِ؟! هذا الإنسانُ لو تَمَلَّكَ شيئًا مِنَ المالِ أو شيئًا مِنَ المتاعِ أو سَادَ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ، هل يَرضى لأحَدٍ من مماليكه أنْ يُشاركَه في مُلْكِه؟! لا يَرضى بذلك. وإذا كان العبدُ لا يَرضى -وهو مخلوقٌ- أنْ يُشاركَه غيرَه في شيءٍ مِنْ أُمُوره لا في مالِه ولا في شيءٍ مِنْ مملكتِه؛ فكيف رَضِيَ هؤلاءِ بأنْ يُشْرِكُوا باللهِ -تبارك وتعالى-؟! ولذلك تلاحظون أنَّ الله -عزّ وجلّ- قال: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾. هذا المَثَلُ من نفسِك أنت -يا عبد الله!- أنت لا تَرضى أن يكون لك شَرِيكٌ فيما تَفَضَّلَ الله -تبارك وتعالى- به عليك، والله هو الذي أعطاك فكيف تجعل لله -تبارك وتعالى- الشريك؟!

وللأسف الشديد وَقَعَ هذا من المشركين، وجعلوا للهِ -تبارك وتعالى- أشياءَ ما أَحَبُّوها لأنفسِهم. فهؤلاء لا يُحِبُّون لأنفسهم أن يكون لهم شريكٌ، وأيضا كانوا لا يُحِبُّون لأنفسهم البنات: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ﴾ [النحل: ٥٨: ٥٩]، لا يرضى بأن تضاف إليه بنتٌ، ومع كل ذلك يجعلون البنات ويضيفونها لله ربِّ العالمين -سبحانه- وذكروا بأن الملائكة والله -عزّ وجلّ- قال: ﴿ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ ﴾ [الزخرف: ١٩]، ذكروا عَنِ الملائكةِ بأنَّهم هم إناثٌ، وهم بناتُ ربِّ العالمين -سبحانه وتعالى جل في عُلاه-.

ما لسخافة عقول لهؤلاء المشركين! يَرضون لله -عزّ وجلّ- ما لا يَرضونه لأنفسهم، وهل يمكن لعاقلٍ أنْ يَقَعَ في ذلك؟! واللهِ هذا مَثَلٌ عظيمٌ ضَرَبَه ربُّ العالمين -سبحانه وتعالى- لمن اتَّخَذَ له شريكًا في مُلكِه. ويريد ربنا أن يقول بأنَّ الملكَ مُلكُه، وأنَّ العباد -جميعا- عَبِيدُه ولا يَنبغي لأحدٍ مِنَ العبيدِ أنْ يُشركَ آخرَ من دونِ الله -تبارك وتعالى- في هذا الملك؛ لأنكم -جميعا- في ذلك سواءٌ.

وهذا المثل فيه تفصيلٌ وبيانٌ لَعَلَّ أصحابَ الشِّرْكِ يَرجعون وَيَتَفَكَّرُون، ولذلك ختم رب العالمين -سبحانه- هذا المثل بقوله: ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

ثم بَيَّنَ ربُّنا -عزّ وجلّ- في الآيةِ التالية أنَّ ما وَقَعَ منَ المشركين منَ الشركِ، وأنَّ المشركين عندما أضَافُوا للهِ ما لا يَرْضَوْنَه لأنفسِهم كان هذا بِسَبَبِ السَّفَهِ والجهلِ والضَّلالِ واتباعهم لأهوائِهم، وقد كانوا في هذه المنزلةِ ساقطين، يعني كانوا يَتَّبِعُون أهواءهم ويَسيرون خَلْفَ مَنْ تَقَدَّمَهم. والقرآن الكريم يثبت ذلك في قوله فيقول: ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾. هذا تنبيه منَ اللهِ -تبارك وتعالى- للمشركين؛ أنَّكم ما عَبَدْتم غيرَ الله -تبارك وتعالى- إلا بِسَبَبِ الأهواءِ، والأهواءُ مُضِلَّةٌ، وعلى الإنسان أن لا يَتَّبِعَ هواه، بل يجب أن يكونَ هواك -يا عبد الله- تابعًا لمن لِمَا جَاءَ به النبيُّ -صلى الله عليه وآله وسلم-. لا يكون تابعًا للشيطان، ولا لآبائك السابقين إن كانوا على ضَلالٍ؛ لأنَّ المشركين انحرفوا وَوَقَعُوا في ضَلالٍ مُبينٍ بِسَبَبِ اتباع الأهواءِ، والله -عزّ وجلّ- قد ذَمَّ الهوى واتباع الأهواءِ في سَبِيلِه في آياتٍ متعددةٍ، ومن ذلك قولُ الحقِّ -تبارك وتعالى-: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ ﴾ [الجاثية: ٢٣]، والله -عزّ وجلّ- يقول لداود -عليه السلام-: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ [ص: ٢٦]، وينهاه بعد ذلك عن اتباع الهوى: ﴿ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى ﴾، ويُبَيِّنُ أنَّ اتباع الهوى يُضِلُّ عنْ سَبيلِ اللهِ وصراطِ اللهِ المستقيم.

فالمشركون -هنا- لَمَّا اتبعوا أهواءهم؛ وَقَعُوا في الشِّرْكِ والانحرافِ والضَّلالِ والعياذُ بالله -تبارك وتعالى-. ثم يثبت ربُّ العالمين -سبحانه- أنهم ضَلُّوا وانحرفوا، وإذا ضل هؤلاء وانحرفوا؛ فمن الذي يهديهم؟! ولذلك قال بعد ذلك مباشرة: ﴿ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ ﴾، لا يهديه أحدٌ. فهدايةُ التوفيق هي بِيَدِ رَبِّ العالمين -سبحانه

وتعالى-، وليس لهم مِنْ ناصرٍ يُمكن أن يَنصرَهم لا في الدُّنيا ولا إذا وقفوا بين يديْ ربِّ العالمين -سبحانه- ؟ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ؟.

أنتقل بعد إلى المحور الثالث في هذا اللقاءِ وهو بعنوان: الله -تبارك وتعالى- فَطَرَ عبادَه على الإسلامِ القائم على التوحيدِ والعمل الصالح، وتحته هذا الآية المباركة وهي قول الحق -تبارك وتعالى-: ؟ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ؟.

يَأمرُ الله -تعالى- نَبِيَّه -صلوات الله وسلامه عليه- أنْ يَسْتَمِرَّ على الدين الذي فَطَرَه الله عليه، وهو الحنيفيَّةُ السَّمْحَةُ، والأمرُ له -أعني النبيَّ عليه الصلاة والسلام- أَمْرٌ لأمتِه، والله -عزّ وجلّ- قد أَخْبَرَ في كتابه أنَّه فَطَرَ عبادَه على معرفتِه وتوحيدِه، وأنَّه أَخَذَ عليهم الميثاقَ وهم في صُلْبِ أبيهم آدم أن يُؤمنوا بالله -تبارك وتعالى-، وأنْ يَعرفوه، وأن يُوَحِّدُوه وَحْدَه دون سواه، والفطرةُ التي فَطَرَ الله -تبارك وتعالى- عِبَادَه عليها هي الإسلامُ. أَرْجَحُ الأقوالِ في معنى الفطرة أنَّها الإسلامُ. وقد عَقَدَ الإمامُ ابن القيم -رحمه الله تبارك وتعالى- فَصْلاً نافعًا في كتابه القَيِّم «شِفَاء العَلِيلِ فِي مَسَائِلِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ والْحِكْمَةِ وَالتَّعْلِيلِ»، وَذَكَرَ فيه -بعد التحقيق- أنَّ المرادَ بالفطرةِ الإسلامُ. والله -عزّ وجلّ- خَلَقَ العِبَادَ جَمِيعًا -حتى الملاحدة- فَطَرَهم على الإسلام، والدليل على ذلك ما جاء في حديث الصحيحين وغيرهما من روايةِ أبي هريرةَ -رضي الله تعالى عنه- وفيه يقول: يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كلُّ مولودٍ يُولدُ على الفطرةِ)، كل مولود بصيغ العموم، بعدها: (فأبواه يُهَوِّدَانِه ويُنَصِّرَانِه ويُمَجِّسَانِه؛ كما تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاء، هل تُحِسُّون فيها مِنْ جَدْعَاء)؟ يعني تُنتج البهيمة بهيمة جمعاء؛ أي مكتملة الصفات هل تجدون فيها من نقصٍ أو تَشْوِيهٍ أو قَطْعٍ لأذنٍ أو غير ذلك؟ كذلك العبدُ يُولد على الفطرةِ نَقِيًّا سَلِيمًا، ولكنَّ التغييرَ يَطْرَأ عليه بعد ذلك. ولذلك لَمَّا تَنَاوَلَ بعضُ أهلِ الإيمان في أوَّلِ عهدِهم بالإسلامِ بَعْضَ ذُرِّيَّةِ المشركين من الأطفال نهاهم النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وقال: (الله أعلم بما كانوا عاملين)؛ لأنهم فطروا على الإسلام، والتغييرُ يطرأ بعد ذلك.

وفي صحيح مسلم من حديث عِيَاضِ بن حمارٍ الْمُشَاجَعِيِّ -رضي الله تعالى عنه- وهو حديثٌ طويلٌ، وفيه أنَّ النبيَّ -صلى الله عليه وآله وسلم- قال فيما يرويه عن ربه: (وإني خلقتُ عبادي حُنَفَاءَ)، حديثٌ قدسيٌّ يَرويه النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- عن ربِّه (فأتتهم الشياطينُ فاجْتَالَتْهم عن دينهم، وَحَرَّمَتْ عليهم ما أَحْلَلْتُ لهم، وَأَمَرَتْهم أنْ يُشركوا بي ما لَمْ أُنَزِّلْ به سُلْطانًا).

وقبل أن أنتهيَ -في هذا اللقاءِ- عند هذه الآيةِ أَوَدُّ أنْ أُقَرِّرَ أَمْرًا مُهِمًّا؛ لأنَّ بعض الملاحدة خَاضُوا فيه، وَتَبِعَهم على ذلك بعضُ من لا فِقهَ عنده من أهلِ الإسلامِ. هذا الأمر ما هو؟ كل إنسان وُلِدَ على الفطرة؛ إذن الأصل في البشرية هو التوحيدُ أم الشرك؟

الأصل في البشرية هو التوحيد؛ لأنَّ الله -عزّ وجلّ- فَطَرَ عبادَه على التوحيدِ وَخَلَقَهم عليه، وَخَلَقَ الله -عزّ وجلّ- آدمَ وَبَعَثَه وَأَرْسَلَه، وآدمُ كان نَبِيًّا كما هو معلومٌ كان مُوَحِّدًا أم كان على الشركِ؟

لأن الملاحدة أو أصحاب نظرية التَّطَوُّر والنُّشوء والارتقاءِ قالوا بأنَّ الإنسان كان أصلُه جُرْثُومةً نَبَتَتْ في بعضِ المستنقعاتِ، وَبَدَأَتْ تَتَطَوَّرُ إلى أنْ وصلت في المعارفِ والْخِلْقَةِ إلى ما وَصَلَ إليه الإنسانُ.

وكان القصدُ من وراءِ ذلك أنَّه لا يوجد هناك تشريعٌ يَجمع هذه الأمَّةَ تَرْجِعُ الأمَّةُ إليه. أرادوا بهذا أنَّ الإنسانَ يُطَوِّرُ مَعَارِفَه ومُعْتَقَدَاته على حَسَبِ ما يتطور هو، وقد كذبوا في ذلك؛ فالله -تبارك وتعالى- فَطَرَ عباده على الإسلام، وعلى الدِّينِ الحقِّ.

وهنا ربُّ العالمين يَأمرُ النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- والأمرُ له أمْرٌ لأمَّتِه: ؟ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ؟. قيل لا تبديل لخلق الله: هذا خَبَرٌ في صيغةِ الأمر، يعني أنه يجب على العباد أن لا يُغَيِّرُوا الفطرةَ التي خَلَقَهم ربُّ العالمين -سبحانه وتعالى- عليها، ؟ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ؟. ونسأل الله -عزّ وجلّ- أنْ يَعلم كثيرٌ مِنَ الناسِ هذا الحقَّ الذي هَدَانا ربُّنا -سبحانه وتعالى- إليه، وصلِّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بالنسبة لسؤاليْ الحلقةِ السابقةِ كان السؤال الأول:

اشرح قوله تعالى: ؟ غُلِبَتِ الرُّومُ ؟٢؟ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ؟٣؟ فِي بِضْعِ سِنِينَ ؟.

وكانت الإجابة: بَيَّنَ الله -سبحانه- أنَّ الرومَ غُلِبَتْ من قِبَلِ الفُرْسِ، وأنَّهم سيَغلبون بعد ذلك. وقوله بعد ذلك: ؟ فِي أَدْنَى الأَرْضِ ؟، قيل: هي الجزيرة التي بين دجلة والفرات، وقيل: هي بلاد فارس. وذلك أنَّ الرومَ كانوا أهلَ كتابٍ، والفرسَ كانوا مجوسًا عبدةً للنار، فكان نصرُ الرومِ أقربَ إلى فَرَجِ المؤمنين، ولذلك قال سبحانه: ؟ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ؟، وقد وَاكَبَ نصرُ الروم نصرَ المؤمنين في بدرٍ الكبرى، وقد حدث ذلك لأنَّ الله -عزّ وجلّ- لا يُخلف الميعاد.

على كل حال الجواب صحيح وإن كان مختصرًا، ونَوَدُّ -إن شاء الله- أن يكون هناك لونٌ من ألوانِ التوسُّع بعد ذلك.

السؤال الثاني: الشفاعة تنقسم إلى قسمين. اذكرهما مُبيِّنًا كلَّ قسمٍ، واذكرهما مؤيدا ما تقول بالدليل.

وكانت الإجابة: تنقسم الشفاعة إلى قسمين:

أولها: شفاعة مُثْبَتَةٌ وشفاعة منفية الشفاعة المثبتة لا تكون إلا لأهل الإيمان والتوحيد، ودليل ذلك قوله -سبحانه وتعالى-: ؟ يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ؟ [طه: ١٠٩]، وكذلك قول اللهِ للنبيِّ -صلى الله عليه وسلم- يوم القيامة: (ارفع رأسك، واشفع تشفع، وسلْ تعطَ).

ثم الشفاعة المنفية وهي التي تنتفي عن أهل الشرك؛ ذلك أنَّ الله لم يرضَ الشركَ لقولِه سبحانه: ؟ وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ؟ [الزمر: ٧]، وكذلك قوله سبحانه: ؟ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ؟، وبعض الفرق الذين أنكروا الشفاعة استندوا إلى ذلك، ولا شكَّ أنه قول باطل وهو قول المعتزلة.

ومعهم الخوارج أيضًا، وقد أشرْنا إليه. والجوابُ صحيحٌ والحمد لله.

أسئلة المراجعة:

السؤال الأول:

ما معنى التسبيح؟ وما الدليل على أنَّ الملائكة تُسَبِّحُ الله؟ وهل الجماداتُ والحيواناتُ تُسبح الله؟ أيد ما تقوله بالدليل.

السؤال الثاني:

ما المرادُ بالمثلِ الأعلى؟ وما الأمورُ التي يَتَضَمَّنُها؟

الدرس العشرون

سورة الروم من الآية ٣١ – ٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد:

يسرنا –إن شاء الله تبارك وتعالى– أن نواصل الحديث في تفسير سورة الروم، وسيدور الحديث –إن شاء الله تبارك وتعالى– في آيات سنستمع إليها بعد قليل وذلك من خلال محورين اثنين:

المحور الأول: المؤمن يُنيب إلى الله، ويعبده في حال الاضطرار والاختيار.

المحور الثاني: الله –تبارك وتعالى– يبتلي العباد بسبب ارتكابهم للموبقات.

ولنستمع الآن إلى آيات هذه اللقاء.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. ؟ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ؟٣١؟ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ؟٣٢؟ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ؟٣٣؟ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ؟٣٤؟ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ؟٣٥؟ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ؟٣٦؟ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ؟٣٧؟ فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ؟٣٨؟ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلاَ يَرْبُو عِنْدَ اللهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ؟٣٩؟ اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ؟٤٠؟ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ؟٤١؟ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ؟٤٢؟ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ؟٤٣؟ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ؟٤٤؟ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ؟ [الروم: ٣١: ٤٥].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه، ومن اهتدى بهديهم وسلك سبيلهم إلى يوم الدين، وبعد.

الآية الأولى التي معنا في هذا اللقاء هي قول الحق –تبارك وتعالى–: ؟ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ؟٣١؟ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ؟.

ربُّ العالمين –سبحانه وتعالى– في الآية السابقة –كما ذكرْتُ في اللقاء السابق– أمَرَ عباده أن يُقيموا وجوههم للدِّين الحقِّ الذي جاء من عند ربِّ العالمين سبحانه، وبعدما أمرهم بإقامة الدين –تبارك وتعالى– أمرهم في هذه الآية ببعض الأعمال الصالحة التي يتقربون بها إلى الله –عزّ وجلّ– وهي من الدين، وذكر أمرين:

الأمر الأول: الإنابة إليه -سبحانه وتعالى- وحده دون سواه في قوله: ؟ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ؟، والإنابة تعني الخضوع، والخشوع، والرجوع إلى رب العالمين -سبحانه وتعالى-. والإنابة عمل قلبي.

وقوله -سبحانه وتعالى-: ؟ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ؟ يعني راجعين إليه بقلوبهم يفيد ذلك أن الرجوع والإنابة -وهي من الأعمال القلبية كما ذكرت- لا تكون إلا لرب العالمين -سبحانه وتعالى- وحده دون سواه.

وبعدما أمر بالإنابة ذكر عن ثمرة هذه الإنابة فقال: ؟ وَاتَّقُوهُ ؟، والتقوى من عمل القلب وتظهر أثرها بعد ذلك على الجوارح فأمر بالتقوى بعد الإنابة ليفيد أن الإنابة والرجوع إلى الله -تبارك وتعالى- من فوائدها: أن يخشى العبد ربه -سبحانه وتعالى- ومولاه. ثم ذكر بعد هذا عملا من أهم الأعمال الصالحة، وهو عمل بدني غالبا، ويدخل فيه أيضا -أعني في هذا العمل- الأعمال القلبية والأعمال القولية، وقد يدفع الإنسان شيئا من ماله حينما يقوم بالصلاة لله -عزّ وجلّ- فيسافر إلى بلد الله الحرام، وإلى مسجد النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، أو إلى المسجد الأقصى وغير ذلك، فيكون بهذا العمل الصالح -وهو عمل الصالحات- يكون قد دخل فيه كل الأعمال الصالحة التي هي الأعمال القلبية، أو أنواع العبادات المختلفة؛ العبادات القلبية، والقولية، والمالية، والحركية، أو البدنية.

والله -عزّ وجلّ- عند الصلاة ذكَرَ لفظ: ؟ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ ؟، وقد سبق أن ذكرت هذا من قبل أن لفظ الإقامة يفيد أن يأتي العبد بالصلاة لله -عزّ وجلّ- كما أمر الله -تبارك وتعالى-؛ لأن إقامة الصلاة، الإقامة ضد الاعوجاج، وبالتالي تصبح إقامة للصلاة إقامة صحيحة وإقامة سليمة كما أمر الله -تبارك وتعالى- بها وكما أداها نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم-.

ثم ينهى رب العالمين -سبحانه وتعالى- في هذا السياق مَنْ أمرهم بالإنابة إليه والخشية منه وإقامة الصلاة له وحده دون سواه أمرهم بعد ذلك أن لا يكونوا من المشركين فقال: ؟ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ؟، وهذا يفيد أن المشركين لا ينيبون إلى الله -عزّ وجلّ-، ولا يخافون من الله، ولا يؤدون العبادات لله -تبارك وتعالى- ومنها الصلاة.

ثم ذكر شيئا مهما من أمارات وعلامات هؤلاء المشركين فقال: ؟ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ؟، من الذين فرقوا: يعني بدلوا وغيروا دينهم، وقُرئ «من الذين فارقوا دينهم» يعني تركوه بالكلية؛ كاليهود والنصارى وعُباد الأوثان، وغير هؤلاء ممن خرجوا على الدين الحق الذي جاء من عند الله -تبارك وتعالى-.

إذن من الذين فرقوا أو فارقوا دينهم وكانوا شيعا يعني أحزابا، ولما تفرقوا وتشعبوا؛ أصبح كل واحد من هؤلاء يدعو إلى فرقته ويدعو إلى حزبه، ويفرح بما لديه من عدد وكثافة وجماعة وغير ذلك. والله -عزّ وجلّ- ينهى عن التفرق والاختلاف، والتحزب والاجتماع على غير الحق، ولذلك بَيّنَ أن هؤلاء في غاية من البتر بما عليه من الانحراف والضلال، فقال: ؟ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ؟.

ويُفهم إذن من تذييل هذه الآية نهيُ رب العالمين -سبحانه وتعالى- عن التفرق والاختلاف؛ لأن التفرق فيه ضياع للأمم، والله قد حذر منه في كتابه في آيات كثيرة.

والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أخبرنا في سنته أن اليهود والنصارى اختلفوا إلى فرق متعددة؛ (افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة)، ثم أخبر عن هذه الأمة بأنها ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، وأخبر بأن هذه الفرق كلها في النار إلا ما كانت على هدي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-.

ولَمَّا سُئل –عليه الصلاة والسلام– عن الفرقة الناجية؛ أجاب –عليه الصلاة والسلام– بقوله: (هي ما كانت على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي). ولذلك بهذه المناسبة ندعو عموم الأمة إلى أن يرجعوا إلى ما كان عليه النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–؛ لأن النجاة فيما كان عليه –صلى الله عليه وآله وسلم– وفيما كان عليه صَحْبُه الكرام –رضوان الله تعالى عليهم أجمعين–.

ثم يستمر بعد ذلك السياق لِيُبَيِّنَ الله –تبارك وتعالى– بعدما ذكر الأمر بالإنابة إليه وخشيته وتقواه، وإقامة الصلاة له وحده دون سواه، ونهى عن التفرق بعد ذلك والاختلاف، ذكر طبيعة بشرية عند بعض الناس لم يفقهوا أيضا الدين الحق، وفي ذلك يقول الله –تبارك وتعالى– عنهم وفيهم: ؟ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ؟.

لهؤلاء طبيعة خاصَّة تختلف عن كثير من أهل الحق والخير وأهل الصلاح الذين اتَّبعوا النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– هؤلاء طائفة من الناس إذا أصابهم رب العالمين –سبحانه وتعالى– بشيء من الضر؛ كالقحط، أو الغلاء، أو البلاء من مرض ونحو ذلك؛ دعوا ربهم منيبين إليه، لم يجدوا إلا الله –تبارك وتعالى–، لجؤوا إليه وطلبوا منه، وعرفوا أن الذي يُرجع إليه هو رب العالمين –سبحانه وتعالى–.

ثم إذا أذاقهم ربهم –سبحانه وتعالى– منه رحمة؛ رجعوا إلى حالهم الأول من الشرك والانحراف إذا هم بعد ذلك يشركون بالله –تبارك وتعالى–. في الأول لما أصيبوا بشيء من الضر؛ أخلصوا إلى لله –تبارك وتعالى– فإذا وسع الله –سبحانه وتعالى– عليهم تراهم بعد ذلك يرجعون إلى ما كانوا عليه من الشرك والانحراف.

والآية أفادت أن هؤلاء يتقلبون من حال إلى حال، ولا يثبتون على الحق الذي جاء من عند رب العالمين –سبحانه وتعالى–، والدليل على ذلك الإشارةُ في قوله تعالى: ؟ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ؟؛ لأن "إذا" هنا للمفاجئة، وهي تفيد أنهم إذا فوجئوا برحمةٍ من رب العالمين –سبحانه وتعالى– سرعان ما تغير حالهم، وانقلبوا وعادوا إلى ما كانوا عليه من الشرك والانحراف في عبادة الله –تبارك وتعالى–.

والله –عزّ وجلّ– عقَّب على ذلك بقوله: ؟ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ؟٣٤؟ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ؟.

الله –عزّ وجلّ– يقول في هذه الآية ويفتتح بحرف اللام: ؟ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ؟ قيل: اللام هنا للتعليل، وقيل: اللام هنا للعاقبة، يعني أنهم لما كانوا يرجعون إلى الله –تبارك وتعالى– إذا نزل بهم ضُرّ ثم بعد ذلك يشركون إذا أصابهم شيء من الفضل والإحسان والإنعام من رب العالمين؛ آل أمرهم وكان عاقبة أمرهم إذا وقعوا في الشرك هو الكفر برب العالمين –سبحانه وتعالى–، وبما أنزل الله –تبارك وتعالى– على أنبيائه ورسله.

ثم هدَّدهم رب العالمين –سبحانه وتعالى– على ذلك فقال: ؟ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ؟ بصيغة الأمر، والأمر هنا ليس على بابه، وإنما هو من باب التهديد والوعيد، كقول الحق –تبارك وتعالى–: ؟ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ؟ [فصلت: ٤٠]، فليس الغرض أن يفعل الإنسان ما يشاء وأن يرتكب من الموبقات ما يريد، وإنما هو تهديد من رب العالمين –سبحانه–. كأن الله –عزّ وجلّ– يقول لهم: أنتم لما فعلتم ذلك فحسابكم عند الله –عزّ وجلّ– شديد. ؟ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ؟ سوف ترون وتشاهدون وستقفون على نتيجة شرككم وكفركم برب العالمين –سبحانه وتعالى–.

ثم يستفهم الله –عزّ وجلّ– استفهاما فيه إنكار وتوبيخ على هذه الطائفة أو على هذه الفئة من الناس، هل ما يقعون فيه من شرك وضلال أو كفر وردة بعدما أذاقهم رب العالمين –سبحانه وتعالى– شيئا من فضله وإحسانه هل هذا بسبب بيانٍ عندهم أو برهان ودليل استندوا إليه في الكفر والوقوع في الشرك أم أن هذا الانحراف

والشرك الذي وقع عليهم كان بسبب بغيهم وطغيانهم، وانحرافهم وضلالهم؟ وفي ذلك يقول رب العالمين: ؟ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا ؟ يعني هل أنزلنا عليهم حجة؟ هل عندهم برهان؟ هل عندهم وجه من الدليل؟ هذا الدليل ينطق لهم ويؤيد ما هم عليه؟ ليس عندهم شيء من ذلك ولا شك، وقلت بأن الهمزة هنا للإنكار على فعلهم هذا، ولذلك رب العالمين -سبحانه وتعالى- في قوله هذا يُفيد في إنكاره عليهم لهذا الأمر أنه لا يوجد لديهم برهان، ولا حجة، ولا دليل على الوقوع في الشرك برب العالمين -سبحانه وتعالى-.

ثم تخبر الآيات بعد ذلك أيضا عن طبيعة هؤلاء الناس فيقول رب العالمين: ؟ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ؟، رب العالمين -سبحانه وتعالى- يخبر في هذه الآية عن بعض الناس الذين يكونون عبادتهم للدنيا فقط؛ إن أعطاهم الله -عزّ وجلّ- منها؛ رضوا، وإن لم يعطوا منها؛ إذا هم يسخطون. هذه أيضا طبيعة عند بعض الناس أن أُعطي ووُسع عليه؛ رضي واطمأن إلى ذلك، وإن ضيق عليه سرعان ما سخط وقنط من رحمة رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

والقرآن الكريم أشار إلى هؤلاء الناس أنَّ الله -عزّ وجلّ- إذا من عليه؛ قال: ؟ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ؟ [هود: ١٠]، فرح: بما أعطي، فخور: يعني يفتخر على غيره من الناس بذلك.

؟ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ؟ يعني إن أصابهم الله -عزّ وجلّ- بلون من ألوان العذاب بسبب ما قدمت أيديهم؛ كأن يضيق رب العالمين -سبحانه وتعالى- عليهم الأرزاق، أو يبتليهم ربهم -سبحانه وتعالى- بشيء من المصائب؛ تجدهم يقنطون وييأسون من رحمة رب العالمين -سبحانه وتعالى-، بل ربما يرتدّون بالكلية عن دين رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

ولعلنا نلاحظ أن الله -عزّ وجلّ- في ذكر الرحمة ذكرها دون إضافة؛ قال: ؟ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً ؟، وذلك ليفيد أنّ الرحمة إنما هي تفضّل من رب العالمين -سبحانه وتعالى- وحده دون سواه، ولما ذكر السيئة؛ أضافها إلى اليد قال: ؟ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ؟، وفي ذلك إشارة إلى أنّ ذلك بسبب أعمالهم وأنّ رب العالمين -سبحانه وتعالى- لم يظلم الناس شيئا.

طبيعة هؤلاء الناس أنهم يفرحون بما أوتوا، أما إذا حرموا من شيء قدّره رب العالمين -سبحانه وتعالى- بقضائه وقدره؛ سرعان ما انصرفوا عن الحق وعن النبي المرسل إليهم.

والمؤمن بعكس ذلك، فأهل الإيمان في السراء والضراء يعرفون حق رب العالمين -سبحانه وتعالى-، ويدركون أن كل شيء بقدر. ولذلك في صحيح مسلم وغيره من حديث صهيب -رضي الله تعالى عنه- أنّ النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: (عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير. إن أصابته سراء شكر؛ فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر؛ فكان خيرا، ولا يكون ذلك لأحد إلا للمؤمن).

فأهل الإيمان يختلفون عن هذه الطائفة من الناس. هم بين حالين: إن أصابهم رب العالمين -سبحانه وتعالى- بالسعة والنعمة والفضل؛ قاموا بالشّكر لرب العالمين -سبحانه وتعالى-، وإن ضيّق الله -تبارك وتعالى- عليهم، أو ابتلاهم بشيء من البلايا، وقلت -فيما مضى- بأن الابتلاء والاختبار أمر قدّره رب العالمين -سبحانه وتعالى- على العباد، فإن أصيبوا بشيء من ذلك؛ صبروا وتذرعوا بالصبر في مواجهة شدائد هذه الحياة الدنيا، فكان في ذلك الأجر العظيم لهم، ويعطيهم رب العالمين -سبحانه وتعالى- خيرا على هذا الصبر. ولذلك في حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي ذكرته آنفا يَعجب النبي -عليه الصلاة والسلام- من أمر المؤمن ويقول: (إن أمره كله له خير)، بخلاف حالة هؤلاء الناس الذين سرعان ما يقنطون وينصرفون عن رب العالمين -سبحانه وتعالى- إذا أذاقهم الله -سبحانه وتعالى- بشيء من العذاب.

الله –عزّ وجلّ– يذكر حال هؤلاء الناس، وتأتي آية تالية لعلها تردع من يسير في هذا الطريق، أو يفهم هـذا المفهوم. يخاطب رب العالمين –سبحانه وتعالى– هؤلاء الناس الذين إذا أصيبوا برحمة فرحوا بها، وإذا أصيبوا بسيئة بما قدمت أيديهم –يعني بسبب ذنوبهم–؛ قنطوا ويئسوا من رحمة رب العـالمين –سـبحانه–. الله –عـزّ وجلّ– يبين لهم أمرا لعلهم يتفكرون فيه ويرجعون فيقول: ؟ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَّشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ؟، أوَ لم يعلم هؤلاء؟ أوَ لم يعِ هؤلاء ويتفكروا أن رب العالمين –سبحانه وتعـالى– يوسع على من يشاء، يبسط الرزق على من يشاء، ويضيق –سبحانه وتعالى– على من يشاء؟ وكل ذلك بأمره –سبحانه وتعالى– وبقضائه وقدره، ولكن هذا الأمر لا يفهمه إلا أهل الإيمان، ولا يعرفه ولا يقف على حقيقته إلا العقلاء: ؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ؟.

ثم يوجه رب العالمين –سبحانه وتعالى– أهل الإيمان بعد ذلك إلى أمرٍ لهم فيه خير عميم فيقول: ؟ فَـآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ؟.

لما بين الله –تبارك وتعالى– أنه يَبسط الرزق لمن يشاء ويقدر أشار إلى من يسر له الرزق، وسهّل أسـباب الرزق له، وبسط له فيه أن يتفضّل على خلق الله –عزّ وجلّ– من المحتاجين، فقال: ؟ فَـآتِ ذَا الْقُرْبَـى حَقَّـهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ؟، ولعلنا نلاحظ أن هؤلاء من الأصناف الثمانية الذين ذكرهم الله –عزّ وجلّ– في سورة التوبة، وهذه الآية اقتصرت على هؤلاء الثلاثة فحسب. ما العلة في ذلك؟ أشار بعض أهل العلم إلى أنّ هـؤلاء يُعطون حتى ولو لم تجبِ الزكاة على الإنسان الذي وسّع الله عليه الرزق. لم تجب عليه بمعنى لم يجب عليه أن يَفعل أو أن يُعطِي، أو أن يخرج الزكاة في وقت احتياج هؤلاء الناس؛ كأن يكون الإنسان عنده مال، ولكـن لـم يحل الحول عليه بعدُ، ولكن عنده قريب فقير، أو مسكين لا يجد لقمة العيش له ولأولاده، أو ابن سبيل انقطع عليه الطريق؛ ففي هذه الحالة على أهل السعة واليسار أن يعطوا هؤلاء الناس؛ لأن التأخير يضرّ بهم ضررا شـديدا. فقريب الإنسان إذا احتاج؛ وجب على الإنسان أن يمد يد العون إليه، ولا ينتظر أن يحول الحول على ماله حتـى يُخرج له، فقد يُقضى عليه، وقد لا يَجد لأولاده ما يأكلون به.

كذلك المسكين الذي لا يجد قوت يومه يأكله؛ لأن المسكين هو الذي ليس عنده شيء من المال، أو عنده شيء لا يكفيه، فهو بحاجة إلى إضافة، ويحتاج من باب الضرورة. فعلى المسلم في هذه الحالة الذي وسع الله –تبارك وتعالى– عليه أن يمد يديه إلى هؤلاء الناس.

كذلك ابن السبيل هو مضطر في هذا الوقت، وقد يكون غنيا في بلده، فتركه في هذه الحالة فيه ضـياع لـه. وبالتالي أمر رب العالمين –سبحانه وتعالى– ونصّ على هؤلاء الثلاثة بالذات؛ لأنّ حقوقهم لا ينبغي أن يتـأخّر عنها المسلم الذي يريد وجه رب العالمين –سبحانه وتعالى–.

أيضا أقول بأن الله –سبحانه وتعالى– بدأ هنا بالقريب فقال: ؟ فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ ؟، ثم عقب عليه بالمسكين وابن السبيل، وما ذاك إلا لأنّ الصدقة على القريب هي –في الحقيقة– صلةٌ وصدقة، يعني فيها خير ونفع مـن جانبين؛ فيها صلة رحم، ومد يد العون، وبر بهذا القريب، إلى جانب أنها صدقة يريد بها وجه رب العـالمين –سبحانه وتعالى–.

ثم يعقّب ربنا على هذا بقوله: ؟ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ ؟، في هذا القول: ؟ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ ؟ نفهم منه ثلاثة أمور:

الأمر الأول: وجوب فعل الخير، والله –تبارك وتعالى– قد أمر بفعل الخير في آيات كثيرة في كتابه، وذلك –مثلا– كقوله في سورة الحج: ؟ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ؟، ثم عقب على ذلك بقوله: ؟

وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ؟ [الحج: ٧٧]، وفي آية أخرى يدعو إلى التنافس في فعل الخيرات فيقول: ؟ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ؟ [البقرة: ١٤٨].

إذن الأمر الأول الذي نستفيده من قوله تعالى: ؟ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ ؟ أن يسارع الإنسان إلى فعل الخيرات.

الأمر الثاني: وجوب إخلاص العمل لله -عزّ وجلّ-، يعني إذا قدم الإنسان وأعطى لمن سبق ذكرهم في هذه الآية، أو فعل أيّ فعل من أفعال الخير يجب عليه أن يراعي وجه رب العالمين -سبحانه وتعالى- لأن الله قال: ؟ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ ؟.

الأمر الثالث الذي نستفيده من هذا الجزء من الآية: إثبات صفة الوجه لربّ العالمين -سبحانه وتعالى-؛ لأن الله -عزّ وجلّ- ذكر وجهه الكريم في هذه الآية، ووجهُ الله -عزّ وجلّ- صفة ثابتة لله -سبحانه- على ما يليق بجلال الله وكماله؛ لأن الله -عزّ وجلّ-: ؟ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ؟ [الشورى: ١١].

ثم بعد ذلك بيّن رب العالمين -سبحانه وتعالى- أن من فعل ذلك، يعني أعطى أصحاب الحاجات من الذين ذكرهم رب العالمين، ومن غيرهم من المحتاجين وفعل الخيرات هؤلاء الناس هم المفلحون الذين يُفلحون في الدنيا وكذلك يفلحون أيضا في الآخرة.

ثم بعد ذلك يبيّن رب العالمين -سبحانه وتعالى- أمرا آخر فيقول: ؟ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلاَ يَرْبُو عِنْدَ اللهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ؟.

ذكر بعض أهل العلم في هذه الآية أن معنى قول الحق -تبارك وتعالى-: ؟ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ ؟ هي كقوله -تبارك وتعالى-: ؟ يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ؟ [البقرة: ٢٧٦]، وقالوا بأن المعنى: أن الإنسان إذا أعطى شيئا عنده من مال أو غيره لإنسان ليتعامل فيه بالربا، أو أن يُقرض إنسانا مثلا بالربا، أو أن يتعاون على عملِ وفعلِ الربا؛ فهذا لا زيادة له عند ربه -سبحانه وتعالى- ومولاه ولا يأخذ أجرا على فعله ذلك، بل هو يعاقب على ذلك.

وفي الآية وجه آخر ذكره حَبْرُ هذه الأمة عبد الله بن عباس -رضي الله تعالى عنه- وقال بأن معنى الآية: هي الهبات والعطايا التي يتناوبها الناس أو يُعطاها الناس فيما بينهم، فالإنسان إذا أعطى هدية لإنسان وطمع هذا الإنسان المهدِي في أن تُرد إليه هذه الهدية بنوعها أو بمثلها أو بأكثرَ منها لا يعطى عليها أجرا عند الله -تبارك وتعالى- وإن كان لا يُعاقب على ذلك. وهذا باب موجود بين الناس اليوم، فبين الناس من الصلات أو الهبات في المناسبات وغير ذلك عادات، يعني أنهم يجاملون بعضهم البعض، وربما ينتظر البعض أن يُرد إليه ما أعطاه. والحقيقة أن من فعل ذلك لا أجر له عند ربه ومولاه في هديته التي قدّمها.

وفي عصرنا الحاضر تحوّل هذا الأمر -بدلا من أن يكون صلة ومن باب البر وتوثيق العلاقات بين الناس- تحول هذا إلى أن يصبح سببا أو ذريعة في الخصومات التي تقع بين الناس؛ لأن بعض الناس ربما يُسجل كم أعطى ولمن أعطى، وينتظر إذا أتته نفس المناسبة أو مناسبة قريبة منها أن يُعطى ما قدم أو يعطى أكثر من ذلك، وإذا لم يقدم له فربما غضب وتأثر وقطع علاقته بهذا الإنسان.

رب العالمين -سبحانه وتعالى- ينهى عن ذلك ويقول بأن الإنسان لا أجر له على ذلك، والله -تبارك وتعالى- قد حرّم ذلك على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- خاصّة، يعني لو أنّ إنسانًا أعطى هدية ورغب أو طمع أن يُرد إليه مثلُها؛ فلا عقوبة عليه وإن كان لا أجر له، يعني لا يأخذ أجرا على ما قدّم؛ لأنه لم يفعله لله -تبارك

وتعالى-. إن كان هذا جائزا -وإن قلنا مع الكراهة بين الناس- إلا أنه يحرم على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يفعله، يعني لا يجوز للنبي -عليه الصلاة والسلام- أن يُعطي لإنسان شيئا وينتظر جزاء عليه منه، يعني أن يرد عليه شيئا من مثله أو قريبا منه أو أكثر منه، وذلك أخذا من قول الله -تبارك وتعالى-: ؟ وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ؟ [المدثر: ٦] -صلوات الله وسلامه عليه-.

؟ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلاَ يَرْبُو عِنْدَ اللهِ ؟، أما الذي يضاعف الحسنات، ويأخذ الإنسان عليه أجرا من رب العباد هو ما جاء في قوله -تبارك وتعالى-: ؟ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ ؟، وفي هذا حثّ على إخراج الزكاة والصدقات لوجهِ رب العالمين -سبحانه وتعالى- وحده دون سواه.

وهذا المقطع من الآية عندما يأتي بعد قوله تعالى: ؟ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلاَ يَرْبُو عِنْدَ اللهِ ؟ عندما يأتي قوله تعالى: ؟ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ ؟ بعدها، في هذا إشارة إلى أنّ الإنسان عليه أن يَقصِد بعمله -حتى الهدايا والهبات- أن يقصد بها وجه الله -تبارك وتعالى-، ولا يتطلع إلى أن يُرد إليه مثلها.

والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في حديثه الصحيح، والأحاديث الكثيرة الواردة عنه قد رغّب في الصدقات كثيرًا؛ كما في حديث أبي هريرة في البخاري وغيره: (من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب)، ولا يقبل الله -تبارك وتعالى- إلا الكسب الطيب (إلا تقبلها رب العالمين -سبحانه وتعالى- منه، ويربّيها الله -تبارك وتعالى- له كما يربي أحدكم فَلُوَّه)، وهذا يفيد ويدل على أنّ الشيء اليسير القليل الذي تقدّمه من صدقة أو زكاة تُريد بها وجه الله -تبارك وتعالى- أنّ الله -عزّ وجلّ- يكثّرها لك ويجعل الشيء اليسير القليل الذي ربما يَراه الإنسان حقيرا يكون عظيما، وذلك بفضل رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

ثم يقول ربنا -سبحانه وتعالى- مُنبّها عباده إلى أمر يعيشون فيه، ويجب عليهم أن يلاحظوه، ألا وهو ما جاء في قوله -سبحانه-: ؟ اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ؟.

الله -عزّ وجلّ- في هذا الآية يُخبر عن تنقل الإنسان من حالة إلى حالة، وأطوار الإنسان مختلفة في الخلق والإيجاد؛ فالإنسان يُوجد أولا من نطفة، ثم يكون علقة ويستمر هكذا. الذي أوجده وخلقه ربّ العالمين -سبحانه وتعالى-، والذي يُجري الأرزاق على العباد هو رب العالمين -سبحانه وتعالى-، الذي يُحيي العباد ويميت الناس هو رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

والله -عزّ وجلّ- عندما يذكر ذلك إنّما أراد من وراء هذا أن يُنبه المشركين إلى أمر مهم؛ لأنه -هنا- ذكر من دلائل قدرته وعظمته ما يُوجب توحيدَه -سبحانه وتعالى-، وكأنّه يقولُ للمشركين: ربكم هو الذي فعل كلّ ذلك لكم، ؟ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ ؟، هل أحد من الأصنام أو الأوثان أو من دعوتموهم من دون الله أو مع الله فعل شيئًا مع الله -تبارك وتعالى-؟ ؟ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ ؟، الجواب: لم يفعل أحد من ذلك شيئًا، والله -عزّ وجلّ- في آيات كثيرة في كتابه أشار إلى شيء من ذلك، وهذا كما جاء في قوله -مثلا-: ؟ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا ؟ [الرعد: ١٦].

تأمل لمَّا يقول لأنفسهم هم ليس لغيرهم: ؟ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا ؟، ثم يقول الله -سبحانه وتعالى- لهم: ؟ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ؟ [الرعد: ١٦]، وهذا هو الشاهد من ذكر هذه الآية، هل اشترك أحد مع الله -تبارك وتعالى- في الإيجاد والخلق، أو الإحياء والإماتة، فاشتبه علينا من اشترك مع الله -عزّ وجلّ- مع الله -تبارك وتعالى-؟! لم

يخلق أحد مع الله -سبحانه وتعالى- شيئًا، ولم يشارك أحد ربّ العالمين -سبحانه وتعالى- في الخلق والإيجاد ؟ أَمْ جَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ؟.

وفي سورة النّحل بعدما افتتحها ربّ العالمين -سبحانه- وذكر كثيرًا من الآيات الدالة على عظمته وقدرته بدأ من قوله: ؟ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ؟ [النحل: ٤]، إلى ما ذكر من إنعامه على العباد في البرّ والبحر، والثمرات التي يَرزقهم ربّ العالمين -سبحانه وتعالى- بها، والخلق والإيجاد الإحياء والإماتة؛ عَقَّبَ على ذلك بقوله: ؟ أَفَمَن يَّخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ؟١٧؟ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ؟ [النحل: ١٦: ١٧].

وهنا يقول الله -عزّ وجلّ- لهؤلاء المشركين لعلهم يفقهون: ؟ اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ ؟، لا أحد، ثم نزّه ربنا -سبحانه وتعالى- نَفْسَه على الولد، والنظير، والشريك، فقال: ؟ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ؟، يعني تعالى -سبحانه وتعالى- وَتَقَدَّسَ وَتَعَاظَمَ أن يكون له شريك في الملك؛ يخلق، أو يُرزق، أو يُحيي أو يُميت؛ لأنّ الذي يفعل كلّ ذلك هو ربّ العالمين -سبحانه وتعالى- وحده دون سواه.

ثم أنتقل بعد ذلك إلى المحور الثاني في هذا اللقاء وهو بعنوان: الله -تبارك وتعالى- يبتلي العباد بسبب ارتكابهم للموبقات.

وفي ذلك يقول ربّ العالمين -سبحانه وتعالى-: ؟ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ؟، الحقيقة هذا الآية لها تعلقٌ كبير بما قبلها ويجب أن نفهمه. ما هو وجه التعلق؟

أن الله -عزّ وجلّ- ذكر الفساد الواقع في الأرض من المشركين بشركهم، فالشرك هو أعلى وأعظم أنواع الفساد، ثم عَقَّبَ ربّ العالمين -سبحانه وتعالى- بأنّ الفساد ظهر في البر والبحر -ومن ذلك الشرك-، والله -عزّ وجلّ- ابتلى عبادَه الذين أذنبوا ووقعوا في الشرك وسائر ألوان العصيان بكثير من ألوان العقوبات، وذلك بسبب شركهم وجُرمهم في جانب ربّ العالمين -سبحانه وتعالى-: ؟ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ؟.

ما المراد بالبر؟ قيل: المراد بالبرّ الفيافي والصحراء، والبحر: القرى والأمصار.

هكذا ذكر المفسرون فيما مضى في كُتبهم حول معنى البرّ والبحر، وقيل: البر هو القرى والأمصار، والبحر هو البحر بعينه. والذي دفع بعض أهل العلم إلى أن يقولوا: المراد بالبحر القرى والأمصار، أنّه نَظَرَ إلى أنّ البحر لا يقع فيه أيّ لون من ألوان المعاصي والسيئات والموبقات، ولكنْ نقول: القرآنُ كتابٌ سماويّ، وقائم إلى يوم القيامة، واليومَ الفساد في البرّ والبحر ظاهرٌ، بل في الجوّ أيضًا. وأهل العلم لمَّا قالوا بأن المراد بالبحر القُرى والأمصار التي يَعيشها الناس؛ لأنّه لا يوجد فسادٌ في البحر وكلهم من مخلوقات الله التي تُسبح فيه. ولكنَّ الناس -اليومَ- على شواطئ البحار وفي داخل البحار يَرتكبون الموبقات والآثام والمعاصي والذنوب آناءَ الليل وأطرافَ النهار، ولذلك -حقّا- ظهر الفساد في البرّ والبحر.

ونحن بعدما توصَّل العلم الحديث من طائرات ومراكبَ فضائيَّة نقول: حتى الجو وقع فيه كثير من ألوان الانحراف والضلال، وظهر فيه الفساد، بل إنَّ أول من غزا الفضاء -كما هو معلوم- هم الملاحدة، الذين لا يُؤمنون برب العالمين -سبحانه وتعالى-، وأيُّ فساد بعد مثل هذا الفساد؟!

؟ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ؟، الله –تبارك وتعالى– يُبيّن أن هذا الفساد الذي ظهر في البر والبحر وَقَعَ بما كسبت أيدي الناس، قال: ؟ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ؟، فالناس لهم دَخْلٌ كبير في وقوع هذا الفساد. ولذلك عندما يُضيّق رب العالمين –سبحانه وتعالى– على العباد؛ فليعلمْ العباد أن ذلك بسبب ما قدّمت أيديهم: ؟ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ؟ [الشورى: ٣٠]، وربّ العالمين –سبحانه وتعالى– رحمان رحيم.

ولذلك ذَكَرَ أهلُ العلم في هذه الآية بعض الأقوال عن السلف رحمهم الله –تبارك وتعالى–، ومن ذلك ما قاله أبو العالية –رحمه الله–: «من عصى الله في الأرض؛ فقد أفسد في الأرض؛ لأنّ صلاح الأرض والسماء بالطاعة»، كما في الحديث: (حدٌّ يُقام في الأرض خيرٌ لأهل الأرض من أن يُمطروا أربعين صباح)؛ ذلك أنّ الحدّ حينما يُقام في الأرض يَدفع الناس إلى الكفّ عن المعاصي، فإذا كفّ الناس عن المعاصي؛ رزقهم ربّ العالمين –سبحانه وتعالى– بفضْله وإحسانه وإنعامه –جل في علاه–. والمعاصي والسيئات هي سبب الضنْك والبلاء الذي يقع فيه كثير من الناس اليومَ، وعندنا أدلّة نبويّة تُبين هذا الأمر.

في العصور التي كان الناس وكان أهل الإيمان يَعيشون فيها على منهج صحيح، واستقامة في الدين كانوا يجدون من الخير ما يجدون، ونحن نقرأ بأنه وُجد في خزائن السابقين في العصور السابقة أشياء كثيرة نَعجب إذا ذكرْناها اليومَ، ولذلك أنا لن أذكرها، وإنما سأذكر حديثا عن النبيّ –صلى الله عليه وآله وسلم– يُبين أنّ رجوع الناس إلى الحقّ، والتزامهم بالمنهج الصحيح، واستقامتهم على دين الله وشرْع الله –تبارك وتعالى– سببٌ في الحياة السعيدة في الدنيا وفي الآخرة، وسبب في النجاة في الدنيا وفي الآخرة، وسبب في الرفاهيَة والنعيم في الدنيا، وأيضا سينالون نعيما عند ربّ العالمين –سبحانه وتعالى–.

الدليل على ذلك أنّ النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– أخبر بأنّ عيسى –عليه السلام– سينزل في آخر الزمان حاكما بشريعة النبيّ –صلى الله عليه وسلم–. وأنا –في الحقيقة– أنصّ على ذلك لأدفع وهميْن وقع فيهما بعض الناس:

الوهم الأول: أنّ بعض الناس أنكروا نزول عيسى –عليه السلام–. لماذا؟ قالوا: لأنه لا يوجد بعد النبيِّ نبيٌّ، فكيف ينزل عيسى؟! نقول: عيسى –عليه السلام– ينزل فيحكم بشريعة النبيّ –صلى الله عليه وسلم–، لا ينزل على أنّه نبيّ رسول، وإنما ينزل تابعا لشريعة النبيّ –صلى الله عليه وآله وسلم–. هذا أمر مهم جدًّا نردّ به على من يُنكرون نزول عيسى –عليه السلام–.

الأمر الثاني: نرد على الذين قالوا من اليهود بأنهم قتلوا عيسى –عليه السلام– وصلبوه، وعيسى –عليه السلام– رفعه ربّ العالمين إليه، ولم يقتل ولم يصلب، وسيرجع في آخر الزمان ليقوم بأعمال عظيمة جدًّا، يقوم بها شرْع ربّ العالمين هي في ملّتنا وديننا؛ يَكسر الصليب –صلوات الله وسلامه عليه–، ويقتل الخنزير، وستكون راية الإسلام مرفرفة في أرجاء المعمورة بذلك.

عندئذ قال النبي –عليه الصلاة والسلام– بأن المال يفيض قال: (ويَفيض المال حتى لا يَقبله أحد)، يأتي الناس يعطون من المال أو الزكاة فلا يقبلون ولا يأخذون شيئًا من المال. لماذا عادت الدنيا هكذا؟! لماذا كثرت الأرزاق وكثر المال حتى أصبح الإنسان لا يطمع فيه ولا يتطلع إليه؟! وقد ذكر بعض أهل العلم بأنّ المال يكون في الشوارع والطرقات في دنيا الناس أمامهم وبين أيديهم وليس الإنسان بحاجةٍ إلى شيء منه. قالوا: كلّ ذلك بسبب إقامة شرع ربّ العالمين –سبحانه وتعالى–، يَفيض المال ويكثر الخير بسبب الرجوع إلى ربّ العالمين –سبحانه وتعالى–.

ولذلك جاء في الحديث الصحيح بأن الفاجر إذا مات يَستريح منه العباد أو تستريح منه البلاد أيضا، وكذلك الشجر والدواب.

ثم بيّن رب العالمين -سبحانه وتعالى- في هذه الآية أنّ ما يُصيب به الناس من بلايا بسبب ما قدّمت أيديهم له أيضًا هدف ومغزى، وهذا في قوله: ؟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ؟، لعلّ الناس إذا فقهوا ذلك وعلموه -ونحن الآن نتحدث ونتكلم عنه، ونُذكر أنفسنا وإخواننا به- يَحذر الإنسان من الوقوع في العصيان وينوب ويتوب ويرجع إلى ربّ العالمين -سبحانه-، ولذلك ختم الله -عزّ وجلّ- هذه الآية بقوله: ؟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ؟.

ثم يقول -سبحانه-: ؟ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ؟، لَمَّا بيّن ربّ العالمين -سبحانه وتعالى- للمشركين فسادَ أعمالهم؛ بيّن لهم -أيضا- فساد الأمم التي كانت قبلهم، وطلب منهم أن يسيروا في الأرض وأن ينظروا نظر تأمّل وتبصّر وتفكّر في حال الأمم السابقةِ، وكيف أنّ الله -تبارك وتعالى- أباد هذه الأمم وقضى عليها بسبب شركهم وكُفرهم، والله -عزّ وجلّ- نصّ هنا في هذه الآية على ذلك: ؟ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ؟، ماذا كان من حالهم يا رب؟ ماذا كان من أمرهم؟ قال: ؟ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ؟.

ونحن لو نظرنا إلى قوم نوح، وعاد، وثمود، وفرعون، وقارون، وإلى سائر الأمم التي كذّبت بالمرسلين ووقعت في الشرك بالله -سبحانه- أنّ الله -تبارك وتعالى- أهلكهم وأبادهم ولم يكن لهم وجود. وهذا من المصائب والبلايا التي وقع فيها هؤلاء الناس، وقعت فيها الأمم السابقة ووقع فيها أيضًا المشركون، واليومَ وقع كثير من الناس في العصيان -والعياذ بالله تبارك وتعالى-.

ثم بعدما بيّن الله -تبارك وتعالى- ذلك للمشركين؛ أمَرَ النبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم- ومن معه من المؤمنين أن يُقيموا وجوههم لربّ العالمين فقال: ؟ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ؟، يعني يجب على أهل الإيمان أن يكونوا على طريق الاستقامة: ؟ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ؟ أقم وجهك لله -عزّ وجلّ- وللدّين الذي نزل من عند رب العالمين -سبحانه وتعالى-، وذلك قبل أن يأتي يوم -ألا وهو يوم القيامة- لا مردّ له من الله؛ أي لا يرجع رب العالمين -سبحانه وتعالى- عنه، بل إذا جاء الأمر؛ فلا رادَّ له لا من الله ولا من غير الله -تبارك وتعالى-.

والآية تُذيّل أو تُختم بأمر -سبق أن أشرت إليه- وهو افتراق الناس إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السّعير، ولذلك قال: ؟ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ؟؛ أي يتفرقون، فيكون فريق في الجنة وآخر في النار -والعياذ بالله تبارك وتعالى-.

ثم تُختم هذه الآيات بقول الحقّ -تبارك وتعالى-: ؟ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ؟؛ أي من وقع في الشّرك والانحراف والكفر ولم يُؤمن بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، أو وقع في الشّرك وَجَحَدَ ربّ العالمين -سبحانه-؛ فأمره راجع إليه، هو الذي سيتأثر، وسيئته التي فعلها ستُحيط به وسيُعَذّب بسببها.

وفي المقابل: ؟ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ؟، يعني يوطئون لأنفسهم مكانا يَنزلون فيه عند رب العالمين -سبحانه وتعالى-. والآية فيها إشارة لطيفة في الضمير: ؟ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ؟، أما من آمن وعمل صالحا قال الله: ؟ فَلأَنفُسِهِمْ ؟ لماذا أتى بضمير الجمع؟ ليفيد كثرةَ رحمة ربّ العالمين -سبحانه- وأيضا أنّ إيمان المؤمن ينفع أهله، وربُّ العالمين -سبحانه وتعالى- يَرفع درجات أهله المؤمنين بإيمانه أيضا.

ثم يقول ربّ العالمين مُبيّنا أنّ هذا من فضله وجزائه: ؟ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ؟، ونعم الختام إذن. نحن نسأل رب العالمين -سبحانه وتعالى- أن يرزقنا، وأن يجزينا من فضله، وأن لا يجعلنا من المكذبين الجاحدين لنعمه، وصلِّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بالنسبة لأسئلة الحلقة السابقة كان السؤال الأول:

ما معنى التسبيح؟ وما الدليل على أنّ الملائكة تُسبّح الله –تعالى–؟ وهل الجمادات والحيوانات تسبح الله؟ أيد ما تقوله بالدليل.

وكانت الإجابة: التسبيح هو تنزيه الله –سبحانه وتعالى– عن كلّ نقص.

والدليل على أنّ الملائكة تُسبّح الله –عزّ وجلّ– قول الله –تعالى–: ؟ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ؟ [الرعد: ١٣]، وكذلك الدليل على أن الجمادات والحيوانات تُسبّح الله –تعالى– قوله –سبحانه وتعالى–: ؟ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ؟ [الإسراء: ٤٤].

جواب صحيح.

السؤال الثاني: ما المرادُ بالمثل الأعلى؟ وما الأمور التي يتضمّنُها؟

وكانت الإجابة: المراد بالمثل الأعلى إثبات صفات الكمال والجمال لله –سبحانه وتعالى–، ويتضمن أمورا؛ منها:

أولا: ثبوت الصفات لله –تعالى–.

ثانيا: وجودها في العلم والشعور.

ثالثا: محبة الموصوفِ به وتوحيده وتنزيه –سبحانه وتعالى–.

وذكْرها والإخبار عنها. نحن قلنا أربعة أمور، وَذَكَرَ المجيبُ ثلاثة وهي أربعة.

أسئلة المراجعة:

السؤال الأول:

لماذا قدّم الله –تعالى– القريب على غيره في قوله –تعالى–: ؟ فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ ؟؟ وماذا تفهم من قوله –تعالى–: ؟ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ ؟؟

السؤال الثاني:

ما المراد بالبرّ والبحر في قوله –تعالى–: ؟ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ؟؟ وما الدليل على أنّ العباد إذا استقاموا على الطاعة؛ رزقهم الله من الطيبات؟

الدرس الحادي والعشرون

نهاية سورة الروم ٤٦: ٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين سيدِنا محمدٍ، وعلى آله، وصحبه، وسلم.

أما بعد:

فنستأنف بفضل الله -تبارك وتعالى- وتوفيقه، وأستمد منه العَوْنَ والسَّداد ما بَقِيَ من سورة الروم في هذا اللقاء -إن شاء الله تبارك وتعالى- وذلك في محوريْن -أيضًا- اثنين:

المحور الأول: ذِكْرُ بعضِ نِعَمِ اللهِ على الإنسان وَبَيَانُ خَلْقِهِ له في أَطْوَارٍ.

المحور الثاني: الكافرون يُصْرَفُون مِنَ الغي إلى الباطلِ ومِنَ الصِّدْقِ إلى الكَذِبِ.

ولنستمعْ إلى آياتِ هذا اللقاءِ.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؟ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ؟٤٦؟ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ؟٤٧؟ اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ؟٤٨؟ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ؟٤٩؟ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ؟٥٠؟ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ؟٥١؟ فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ؟٥٢؟ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ؟٥٣؟ اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ؟٥٤؟ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ؟٥٥؟ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ؟٥٦؟ فَيَوْمَئِذٍ لاَ يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ؟٥٧؟ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ ؟٥٨؟ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ؟٥٩؟ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ ؟ [الروم: ٤٦: ٦٠].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد للهِ ربِّ العالمين، الرحمانِ الرحيم، مالكِ يوم الدِّين، وأشهد أن لا إلاه إلا الله وَحْدَه لا شريكَ له وليُّ الصَّالحين، وأشهد أنَّ نَبيَّنَا وإمامَنا محمدًا عبدُه ورسولُه. اللهمَّ صلِّ وَسَلِّمْ وباركْ وأَنْعِمْ على عبدِك ورسولِك ومُصْطَفَاكَ، وعلى آله، وأصحابه، وَمَنِ اهتدى بهديهم إلى يومِ الدينِ، وبعدُ.

ذكرتُ -آنفا- المحورَ الأولَ في هذا اللقاءِ، وهو بعنوان: ذِكْرُ بعضِ نِعَمِ اللهِ على الإنسانِ وبيانُ خَلْقِهِ له في أَطْوَارٍ، وتحته ما جاء في قولِ الحقِّ -تبارك وتعالى-: ؟ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ؟.

في هذه الآية الأولى يَذْكُرُ ربُّ العالمين -سبحانه وتعالى- بَعْضَ نِعَمِه على خَلْقِه، وَمِنْ ذلك إرْسَالُ الرياح مُبَشِّرَاتٍ. والله -عَزَّ وجَلَّ- يُجري الرياحَ ويَسُوقُها ويُرسلها مبشراتٍ بين يَدَيْ الغَيْثِ وهو المطرُ الذي يَنْزِلُ من عندِه -سبحانه وتعالى- وبأمْرِه رحمةً منه بعبادِه.

والله -عَزَّ وجَلَّ- يَجعل ذلك من الآياتِ الدَّالَّةِ على عَظَمَتِه وعلى قُدْرَتِه؛ فهو الذي يُنْشِئُ السَّحَابَ -سبحانه وتعالى جل في علاه -، وسيأتي تَفْصِيلٌ أَكْثَرُ لهذا -إن شاء الله تبارك وتعالى- بَعْدَ قليلٍ، ولكنه -هنا- يُشير إلى أن مُقَدِّمَاتِ الغيثِ التي يَنزل بأمرِ الله -عَزَّ وجَلَّ- تَكون رياحًا يُرسلُها الله -عَزَّ وجَلَّ- فتُبَشِّرُ بالرحمةِ التي ستَنْزِلُ من عنده -سبحانه وتعالى-. ثم ذَكَرَ أَمْرًا آخرَ -أيضًا- مِنْ دَلائِلِ عَظَمَتِه وقُدْرَتِه ونِعْمَتِه بعباده أنَّ الماءَ يَنزل عليهم فيستفيدون منه، وقد سبق أَنْ أَشَرْتُ إلى أنَّ الله -تبارك وتعالى- يَسوقُ الماءَ إلى العبادِ ويَرزقهم إيَّاه، فمنه يشربون، وكذلك تَشرب منه أنْعَامُهم، وما يَحتاجون إليه من بناءٍ وغيرِ ذلك، ويملؤون آبارَهم، والأنهار التي يَجري فيها الماءُ إنما هي بأمرِ ربِّ العالمين -سبحانه وتعالى-. وَصَدَقَ الله في قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وَمِنْ فَضْلِ اللهِ -عَزَّ وجَلَّ- في المياهِ التي تَنزلُ من عندِه أنَّ الله -تبارك وتعالى- يُجري فيها الفُلْكَ بأمره. الفلك هي السُّفن، والسُّفن في السابق كانت تَجري في البحارِ وإلى يوم الناس هذا، ولكنَّها سابقًا كانت تَجري بعاملٍ مُساعدٍ مهمٍّ للغايةِ ربما لا تَجري في السَّابق إلا به بعد رحمةِ ربِّ العالمين وَإِرَادَتِه؛ ألا وهو الريحُ التي يُرسلها ربُّ العالمين -سبحانه-. فالسفن قَبْلَ العصرِ الحاضرِ لم تكن هناك أجْهِزَةٌ حديثةٌ مُتَطَوِّرَةٌ تَدفعُ هذه السفنَ للسَّيرِ كما هو الحالُ عليه الناسُ اليومَ، ولكنَّ هذه الرياحَ التي يُرسلها ربُّ العالمين -سبحانه وتعالى- هي التي كانتْ بأمرِ اللهِ -عَزَّ وجَلَّ- تُسَيِّرُ هذه السفنَ. والناسُ يَستفيدون من سَيْرِ السُّفُنِ هنا وهناك، فهي تَنْتَقِلُ من قُطْرٍ إلى قُطْرٍ، ومن بَلَدٍ إلى آخرَ، ومن مكانٍ إلى آخرَ، والناس يَركبون فيها ويَحملون فيها كثيرًا من أَمْتِعَتِهم، واليومَ الناسُ يُتاجرون من خلال السفن تِجاراتٍ واسعةً كما هو معلومٌ. ولذلك ربُّ العالمين -سبحانه وتعالى- لَمَّا ذَكَرَ الرِّياحَ المبشرات بين يَدَيْ المطرِ، وأنَّ الفُلْكَ تَجري في البحرِ بأمرِه؛ قال ربُّ العالمين -سبحانه وتعالى- مُعَقِّبًا على ذلك: ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾، يعني أنتم تبتغون من المطرِ النَّازلِ من السماء كثيرًا من فَضْلِ ربِّ العالمين -سبحانه وتعالى-، وتبتغون من الفلك التي تسير في البحر الشيءَ الكثيرَ من فَضْلِ ربِّ العالمين. وهذا يَدفعُنا ويَدفعُ جميعَ العباد إلى أنْ يَشكروا الله -تبارك وتعالى- على هذه النِّعَمِ، ولذلك قال الله -عَزَّ وجَلَّ- عَقِبَ ذلك مباشرةً: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

ثم قال -سبحانه-: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

لو تَأَمَّلْتُم معي -أيُّها الكرام!-؛ لَوَجَدْتم أنَّ الله -عَزَّ وجَلَّ- في هذه السورة أَقَامَ البراهين الكثيرةَ على تَوحيدِه -سبحانه وتعالى- وعلى إِقَامَةِ الدَّليلِ، يعني أَقَامَ الأدِلَّةِ الكثيرةِ على البَعْثِ والنُّشور، وعلى أنَّه يُعيدُ النَّاسَ.

بَقِيَ أَصْلٌ مُهِمٌّ مِنْ أُصُولِ وَمُهِمَّاتِ مَسَائِلِ الاعتقادِ التي كثيرًا ما تَحَدَّثَ عنها القرآنُ، وهي إثباتُ النُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ. والله -عَزَّ وجَلَّ- بَعْدَمَا تَحَدَّثَ عن توحيدِه فيما مَضَى، وعن قُدْرَتِه على البَعْثِ والنُّشُور في قوله: ﴿ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ [الروم: ١١]، أيضا أَكَّدَ هنا مَرَّةً أُخرى على إرْسَالِ الأنبياءِ والمرسلين، وعلى مَوْقِفِ الأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ مِنَ الأَنْبِيَاءِ والمرسلين، وكيف كان حالُهم وَشَأْنُهم، فقال -سبحانه-: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾.

ربُّ العالمين -سبحانه وتعالى- يَسُوقُ هذه الآيةَ للنبيِّ -صلى الله عليه وآله وسلم- كي يُصَبِّرَه على أذَى قَوْمِه له، ويُسَلِّيَه، ويقول له بأنَّ الله -تبارك وتعالى- أَرْسَلَ من قبلك رُسَلاً -لأنَّ الخطابَ للنبيِّ عليه الصلاة والسلام- وأنَّ جميعَ الأنبياءِ والمرسلين أَتَوْا إلى قومِهم بآياتٍ بَيِّنَاتٍ واضحاتٍ، ولكنَّهم كَذَّبُوا بالأنبياءِ والمرسلين،

والله -عَزَّ وجَلَّ- وإن كان في هذه الآيةِ لم يَنُصَّ صرَاحَةً على تَكذيبِ الأُمَمِ لأنبيائِها إلا أنَّه أشَارَ إلى أنَّهم كَذَّبُوا بأمرٍ فَعَلَه بهم، وهذا في قوله: ؟ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ؟، فانتقامُ الله -تبارك وتعالى- مِنْ هؤلاءِ القومِ الذين بُعِثَ فيهم الأنبياءُ والمرسلون دليلٌ على أنَّهم كَذَّبُوا بالأنبياءِ والمرسلين. والقرآنُ الكريم قد فَصَّلَ ذلك في مواضعَ متعددةٍ، ولكنَّه أجْمَلَ -هنا- ذلك، وفَهِمْنا من هذه الآيةِ أنَّ هؤلاء الأقوامَ كَذَّبُوا بالأنبياءِ والمرسلين، وأَنَّ ربَّ العالمين -سبحانه وتعالى- أَخَذَهم وانْتَقَمَ منهم.

وهنا فائدةٌ في ذِكْرِ قَوْلِ الحقِّ -تبارك وتعالى- ؟ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ؟ أنه قال: من الذي أجرموا. هذا القولُ أفَادَ أنَّ هؤلاءِ الناسَ جمعوا إلى جانبِ الشركِ بالله -عَزَّ وجَلَّ- إجْرَامًا في العملِ؛ لأنَّ الإجرامَ أو كلمةَ الإجرامِ غالبًا ما تُقال على الأعمالِ التي يَعملها الناسُ فيما بينهم، فهؤلاء جمعوا بين الأمرين؛ جمعوا بين الشركِ والكفرِ باللهِ -تبارك وتعالى- وبين الفسادِ بالأعمالِ الفاسدةِ التي كانوا يَفعلونها بالأرضِ، ولذلك قال بعضُ أهلِ العلمِ في قولِ الحقِّ -تبارك وتعالى-: ؟ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ؟ [عبس: ٤٢]، قال: ذَكَرَ الفَجَرَةَ بعد الكَفَرَةِ ليُفيد أنَّهم كَفَرَةٌ في الاعتقادِ، فَجَرَةٌ في الأعمالِ.

ولذلك ربُّ العالمين سَاقَ كلمة الإجرامِ هنا ليُفيدَ أنَّهم كانوا على فُجورٍ شديدٍ في الأعمالِ الدنيويَّةِ التي يَعملونها فيما بينهم، وكانوا يَخرجون على أوامرِ ربِّ البريَّةِ -سبحانه وتعالى- إلى جانبِ الشِّرْكِ باللهِ -عَزَّ وجَلَّ-.

ثم خَتَمَ الله -تبارك وتعالى- الآية بأمْرٍ عظيمٍ للغايةِ فقال: ؟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ؟.

أولا: ؟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ؟ لا يَنْبَغِي لأحَدٍ أنْ يَستَدِلَّ به على أنَّه يَجِبُ على اللهِ أنْ يَفْعَلَ الأصلحَ لعبادِه كما ذَهَبَتْ إلى ذلك بعضُ الفِرَقِ الإسلاميَّةِ كالمعتزلة، واستدلوا بهذه الآيةِ على ذلك، قالوا بأنَّ هذه الآيةَ وغيرها من الآياتِ التي فيها مثلا: ؟ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ؟ [الأنعام: ٥٤] أنَّ الله يَجِبُ عليه أنْ يَفْعَلَ ذلك.

نقول: هذا مِنَ الباطلِ وَمِنَ المُحَالِ، ولا يَليقُ مِنَ العَبْدِ أنْ يقول بأنَّ الله -تبارك وتعالى- يَجب عليه أنْ يفعل كذا، ولكننا نقول بأنَّ هذا أمْرٌ أوْجَبَه رَبُّ العالمين -سبحانه وتعالى- على نَفْسِهِ تَفَضُّلاً منه وكَرَمًا، ولم يُوجِبْ عليه أحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ شيئًا. فالله -سبحانه وتعالى- أعْلى وَأعْظَمُ وَأجَلُّ مِنْ أنْ يُقَالَ في حقِّه أو في شَأْنِهِ شَيْءٌ من ذلك.

؟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ؟ أيضًا هذه العبارة -يا إخواني!- نَستفيدُ منها أمرين:

الأمر الأول: أنَّ الانتقامَ الواقعَ على الأُمَمِ المُكَذِّبَةِ كان بالحقِّ والعدلِ؛ لأنَّ الله قال: ؟ وَكَانَ حَقًّا ؟، فنستفيدُ من قولِه: ؟ وَكَانَ حَقًّا ؟ أنَّ الانتقامَ الذي أشَارَتْ إليه الآيةُ -هنا- كان بِعَدْلِ اللهِ -سبحانه وتعالى- ولم يكن ربُّ العالمين ظَالِمًا لهؤلاءِ المجرمين.

الأمر الثاني: بِشَارَةٌ مِنَ اللهِ -عَزَّ وجَلَّ- لأهلِ الإيمانِ بأنَّ الله سينصرهم: ؟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ؟، وهذا وَعْدٌ مِنَ الكريمِ -سبحانه وتعالى- لعبادِه المؤمنين، والناسُ أمَامَ هذا الوعدِ ربما تَضْعُفُ نفوسُهم عندما يَجِدُون أنَّ المسلمين تَمُرُّ عليهم فَتَرَاتٌ يكونون فيها في غَايةٍ مِنَ الْوَهَنِ أو الضَّعْفِ أو أنَّ الأعداءَ يَغْلِبُونهم أو غير ذلك وهم مؤمنون بربِّ العالمين -سبحانه وتعالى-؛ فيقول: أين وعد الله -عَزَّ وجَلَّ-؟!

نقول: وَعْدُ الله -تبارك وتعالى- حقٌّ لا يَتَخَلَّفُ، فَوَعْدُ الله -عَزَّ وجَلَّ- حَقٌّ لا يَتَخَلَّفُ بحالٍ، وإنما الذي يتخلف هو عَمَلُ الإنسان. فَلَمَّا تَخَلَّفَ عَمَلُ الإنسانِ؛ تَأَخَّرَ وَعْدُ الرحمانِ؛ لأنَّ وَعْدَ الله -عَزَّ وجَلَّ- مَشْرُوطٌ بِشُرُوطٍ. الله -عَزَّ وجَلَّ- قال: ؟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ؟؛ فَاشْتَرَطَ الإيمانَ للنَّصْرِ، وَنَعْنِي بالإيمان

الإيمانَ الحقيقيَّ لا الإيمان الذي يقوله الإنسان بكلمةٍ من لسانِه ثم لا يقوم -بعد ذلك- بعملٍ نافعٍ أو صالحٍ لربِّه ولمجتمعِه. والله -عَزَّ وجَلَّ- بَيَّنَ ذلك أكثرَ -وأعني به أنَّ النصرَ مشروطٌ- بَيَّنَه في آياتٍ أُخَرَ، وذلك في قوله: ؟ إِن تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ؟ [محمد: ٧].

كيف نَنْصُرُ الله -عَزَّ وجَلَّ-؟! وأين نحن حَتَّى نَنْصُرَ ربَّ العالمين -سبحانه وتعالى-؟! فالأُمَمُ كُلُّها منذ أنْ خَلَقَ الله آدمَ إلى أنْ يَرِثَ الله الأرضَ وَمَنْ عليها لو كانوا على أتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ واحدٍ؛ ما زَادَ ذلك في مُلْكِ الله شيئًا، فكيف يقول الله -عَزَّ وجَلَّ-:؟ إِن تَنْصُرُوا اللهَ ؟؟!

المعنى: إنْ تَنْصُروا دِينَ اللهِ -عَزَّ وجَلَّ-، إنْ تَنْصُروا دِينَ النَّبِيِّ الْمُرْسَلِ إليكم -صلوات الله وسلامه عليه-، إنْ تَقُومُوا بالشريعةِ كما أَمَرَ ربُّ العالمين -سبحانه وتعالى-؛ يَتَحَقَّق الجزاءُ: ؟ إِن تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ ؟، فإذن، وَعْدٌ مِنَ الله -تبارك وتعالى- لا يَتَخَلَّفُ، ولكنَّه مَشْرُوطٌ بِشَرْطِه؛ ألا وهو الإيمانُ والعملُ الصالِحُ.

وقد ذَكَرَ بعضُ أهلِ العلمِ أنَّ من شروطِ النَّصرِ والتَّمكينِ أنْ يَأْتِيَ العبدُ بحقيقةِ الإيمانِ؛ أي الإيمان الذي يَقُومَ في القلبِ ويَنْطِقُ به اللسانُ، ثم بعد ذلك تُتَرْجِمُ الجوارحُ والأعضاءُ ما قَامَ في القلبِ وَنَطَقَ به اللسانُ، بأنْ يكونَ العبدُ عَبْدًا رَبَّانِيًّا للهِ -تبارك وتعالى-. إنْ كان كذلك؛ كان هذا مِنْ شَرْطِ النَّصْرِ والتَّمْكينِ.

الأمر الثاني: أنْ يَأْتِيَ العبادُ بحقيقةِ العبوديَّةِ، فلو عَبَدَ الناسُ غَيْرَ اللهِ -عَزَّ وجَلَّ- أو تَأَخَّرُوا في عبادتِهم للهِ -تبارك وتعالى- كأن أَهْمَلُوا في الصَّلَواتِ أو في الصيامِ والزكوات، أو تركوا كثيرًا مِنَ الفرائضِ التي فَرَضَ ربُّ العالمين -سبحانه وتعالى-؛ فلا شَكَّ أنَّ هؤلاءِ سَيَتَخَلَّفُ النَّصْرُ عنهم.

وأيضًا، مِنْ شُروطِ النَّصْرِ والتَّمْكِينِ أنْ يَجْتَمِعَ أهلُ الإيمانِ على مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، فلا نَجَاةَ لنا -كما ذكرت في اللقاء الماضي- لا نَجَاةَ لأيِّ أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ، ولا نَجَاةَ لنا -أُمَّةَ محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم- بعد بعثته -عليه الصلاة والسلام- إلاَّ أنْ نَلْزَمَ هَدْيَه وَطَرِيقَه، وقد أَشَرْتُ إلى ذلك فيما مضى.

ثم بعد ذلك تَسْتَمِرُّ الآياتُ في بَيَانِ نِعَمِ ربِّ العبادِ -سبحانه وتعالى- على عباده، فيقول الله -جَلَّ ذِكْرُه-: ؟ اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ؟.

يُبَيِّنُ رَبُّ العالمين -سبحانه وتعالى- في هذه الآيةِ كيف يَخْلُقُ السَّحَابَ التي يَنْزِلُ منها المطرُ فيقول: ؟ اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ؟، هذا يُبَيِّنُ كَيْفِيَّةَ خَلْقِ السَّحاب. أولا: ربُّ العالمين يُرسل الرياحَ فتُثير سَحَابًا، وهذا هو بداية السحاب. قال بعضُ أهلِ العلمِ: بدايةُ السَّحَابِ تكون مِنَ البحرِ، وبعضهم قال: يكون حيث يَشاء ربُّ العالمين -سبحانه وتعالى-. والظاهر -والله أعلمُ- أنَّ هذا السَّحَابَ المرتفعَ في طَبَقَاتِ السَّماءِ والذي يَنْزِلُ منه الماءُ أنَّ رَبَّ العالمين -سبحانه وتعالى- يَخْلُقُه مِنَ الماءِ الذي أَنْزَلَه سابقًا على ظَهْرِ هذه الأرضِ، وذلك بِتَسْلِيطِ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ على أَرْجَاءِ هذه المعمورةِ، وفيها مِنَ البِحَارِ والمحيطات والأنهارِ ما فيها، خَاصَّةً أنَّ البحارَ والمحيطاتِ تَمْلأُ -تقريبا- ثُلُثَيْ مَوْقِعِ الكرةِ الأرضيَّةِ.

رَبُّ العالمين يُسَلِّطُ أَشِعَّةَ الشمسِ عليها، فعندما تَشْتَدُّ يَتَبَخَّرُ الماءَ ويَصْعَدُ بالرِّيَاحِ بِفَضْلِ رَبِّ العالمين -سبحانه وتعالى- وبأمره إلى طَبَقَاتِ الجوِّ العليا تَارِكًا الْمِلْحَ أسفل.

ويتكون من هذا الماءِ الذي يَتَبَخَّرُ يَتَكَوَّنُ منه السَّحابُ، وهذا هو مبدأ خلقه بأمر ربِّ العالمين -سبحانه وتعالى-.

؟ اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ؟، يبسطه في السماء يعني يَمُـدُّه كيـف يشاء، يجعله قليلاً هنا وكثيرًا هناك وغير ذلك، ويجعله مرة سائرًا ويجعلُه مرة واقفًا بأمره –عَزَّ وجَلَّ–.

ويجعله كِسَفًا، "كِسَفًا": أي قِطَعًا، وقيل متراكما بعضه فوق بعض، ولذلك عندما يَتَرَاكَمُ بعضُه فوق بعضٍ يَظُنُّ الإنسانُ أَنَّه أَسْوَدُ، هكذا يَظْهَرُ للرَّائِي.

؟ فَتَرَى الْوَدْقَ ؟ بَعْدَمَا يَصِلُ إلى هذه المرحلةِ: ؟ فَتَرَى الْوَدْقَ ؟، المرادُ بالودق المطرُ. ؟ فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ؟؛ أي من خلال هذا السحاب.

؟ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ؟، قوله: إذا أصاب به من يشاء من عباده يدل على أنَّ السَّحَابَ الذي يَخْلُقُه ربُّ العالمين –سبحانه وتعالى– لا يَنْزِلُ إلاَّ بأمْرِ اللهِ وَمَشِيئَتِهِ –سبحانه وتعالى–، وإذا نَزَلَ؛ استَبْشَرَ به العبادُ؛ لأنَّ المطرَ مِنْ ألوانِ الحياةِ الرئيسيةِ للإنسان.

وَمِمَّا يجب أنْ نُلاحِظَه في هذا المقام، وأن أُؤَكِّدَ عليه وَأَنْ أَذْكُرَه هو أنَّ الله –تبارك وتعالى– يَـرْزُقُ النَّـاسَ بالأمطار، فهذه الأمطار تَنْزِلُ على الناس، والنَّاسُ شركاءُ في ثلاثةٍ كما ذُكِرَ وقيل، ولكنَّ الله –عَزَّ وجَلَّ– يَتَفَضَّلُ على الصَّالحينَ مِنْ عِبَادِه بأنْ يَسُوقَ لهم من فَضْلِه وَخَيْرِه وَنِعَمِهِ مِنْ هذا المطرِ ما يَشَاؤُه –سبحانه وتعالى– دون غيرهم. وفي ذلك وَرَدَ حديثٌ صحيحٌ عَنِ النَّبِيِّ –صلى الله عليه وسلم– في صحيحِ مسلمٍ وفي مسندِ أحمدَ عـن أبي هريرة –رضي الله تعالى عنه– أنَّ النَّبِيَّ –عليه الصلاة والسلام– قال: (بَيْنَا رَجُلٌ يَسِيرُ فِي فَـلاةٍ إِذْ سَـمِعَ صَوْتًا في سَحابٍ: اسْقِ حَدِيقَةَ فلانٍ) رجل يسير في أرض الصحراء سمع صوتا في سحاب فوق رأسه يقـول: اسق حديقة فلان، فانتشرتْ هذه السحابةُ وَنَزَلَتْ على أَرْضٍ فيها رَجُلٌ قائمٌ يَزْرَعُ أو يَحْرُثُ أَرْضَه، فتبع الرجل الذي سَمِعَ الصوتَ في السحابِ هذا الماء حتى وَصَلَ إلى هذه الأرض، فَوَجَدَ رجلاً وَاقِفًا في في الأرض التـي نَزَلَ عليها الماء، فسأل الرجل عن اسمه فأخبره بالاسم الذي سَمِعَه في السحاب، والرجل لا شَكَّ أنَّه تَعَجَّبَ لماذا يسأله؟! فقال له الرجلُ السامعُ: إنِّي سَمِعْتُ في هذا السحاب الذي هاهنا ماؤه صوتا يقول: اسـق حديقـة فـلان باسمك الذي ذَكَرْتَ؛ فماذا تفعل؟! فذكر الرجل أمرا عجيبا يدل على أنَّ الله ساق هذا السحابَ لهذا الرجل؛ لأنـه يَعمل الصالحات، قال له هذا الرجل: أَمَا وقد قُلْتَ ما قُلْتَ؛ فإنِّي لا أزيد عن ثلاثة أشياء. ما هي الثلاثة أشـياء؟ قال: إذا رزقني الله –عَزَّ وجَلَّ– من هذه الأرض بما أزرعه، قال: أَكَلْتُ منها الثلثَ، وَتَصَدَّقْتُ بالثلـثِ، وَرَدَدْتُ فيها الثلثَ مرة أخرى كي أَزْرَعه. فعلم الرجلُ بعد ذلك لماذا أَمَرَ الله –تبارك وتعالى– هذا السَّحابَ أَنْ يُنْزِلَ ماءه في هذا المكان بالذات لهذا الرجلِ فَحَسْبُ. وقد جاء في رواياتِ الحديثِ أنَّ هذا الماءَ أصبح كثيرًا، وكان يَـسيرُ بِشِدَّةٍ في أرضِ هذا الرَّجلِ بفضْلِ رَبِّ العالمين –سبحانه وتعالى–.

والشَّاهد من ذلك أنَّ السَّحابَ يُسَخِّرُه الله لمن يَشاء، ولكنَّه يَخُصُّ به –أيضًا– أَهْلَ الإيمانِ والطاعـةِ، ولـذلك عندما نَذْكُرُ ذلك نَدْعُو عُمُومَ أَهْلِ الإيمانِ إلى طَاعَةِ ربِّ العالمين –سبحانه وتعالى–.

ثم يقول الله –عَزَّ وجَلَّ– مُبَيِّنًا حالة الناسِ قَبْلَ نُزُولِ المطرِ فيقول: ؟ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّـن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ؟ أي وإن كان هؤلاءِ الناسُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَنْزِلَ عليهم المطرُ الذي نَزَلَ مِـنْ عِنْـدِ رَبِّ العـالمين –سبحانه– كانوا في يَأْسٍ وقُنُوطٍ من رحمة الله –عَزَّ وجَلَّ–.

أهل العلم يقولون: ما معنى قوله –تعالى–: ؟ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ ؟ "من قبله" هذه مـا مَوْقِعُها إذن؟ لماذا ذَكَرَهَا ربُّ العالـمين –سبحانه وتعالى–؟!

ذَكَرَ الإمامُ الحافظُ ابنُ جريرٍ –رحمه الله تبارك وتعالى– وَرَجَّحَ أنَّ هذا من بابِ التَّأْكِيدِ، ؟ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ؟ يعني كانوا في غاية القنوط.

وقيل بأنَّ هذا المعنى تَأكِيدٌ وَتَأسِيسٌ للمعنى الأول. يعني أنهم كانوا قانطين يائسين وكانوا ينظرون إلى رحمةِ ربِّ العالمين، وكان هذا القنوطُ يَأتي عليهم مرة بعد مرة وفترة بعد فترة، يعني استمرَّ حالُهم فترةً طويلــةً مِــنَ اليأسِ والقنوطِ، وهذا ما أَفَادَه تَكْرَارُ "مِنْ قَبْلِه"، ؟ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ؟، هكذا ذكر أهل العلم.

ثم اسْتَدَلَّ ربُّ العالمين –سبحانه وتعالى– على المطرِ النَّازلِ مِنَ السَّمَاءِ وعلى فَضْلِه وإِحْسَانِه وإِنْعَامِه –جَلَّ في عُلاه– إلى أنَّه يَخْلُقُ الْخَلْقَ أو يُعِيدُ النَّاسَ بَعْدَ ذلك مِنْ جديدٍ بَعْدَ مَوْتِهم بَعْدَ أَنْ أَشَارَ إلى رحمتِــه –ســبحانه وتعالى– عليهم، وفي ذلك يقول ربُّ العباد: ؟ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ؟؛ أي انظروا إلى آثار رحمة الله –عَزَّ وجَلَّ– في إِنْزَالِ هــذا المطــرِ النَّازلِ مِنَ السَّمَاءِ، والمراد بالنظر هنا الاسْتِفْسَارُ والتَّأَمُّلُ، يعني يَنْظُرُ الإنسانُ بعقلِه ويَتَأَمَّلُ في إِنْزَالِ هذا المطرِ من السَّمَاءِ الذي يُحْيِي رَبُّ العالمين –سبحانه وتعالى– الأرضَ بعد موتِها. ولا شَكَّ أنَّ الأرضَ تَحْيَا بالماءِ النَّازلِ مِنَ السَّمَاءِ، وقد ذَكَرْتُ ذلك مِنْ قَبْلُ وَبَيَّنْتُ أنَّ في هذا دليلاً واضحًا على أنَّ الله –تبارك وتعالى– يُعِيدُ النَّاسَ مِنْ جديدٍ، وهذا ما أَكَّدَه قَوْلُ الحقِّ –تبارك وتعالى–: ؟ إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ؟؛ أي كمــا أنَّ الله –عَزَّ وجَلَّ– أَحْيَا الأرضَ الْمَيْتَةَ وَجَعَلَه آيةً وعلامةً: ؟ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا ؟ [يس: ٣٣].

فكما أَحْيَا هذه الأرضَ بَعْدَمَا مَاتَتْ كذلك يُحْيِي الموتى –سبحانه وتعالى– من قبورِهم، وهو –سبحانه وتعالى– ؟ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ؟، ولكنَّ التَّعْبيرَ بهذا المعنى فيه فائدةٌ، وهو أنَّ الله –تبارك وتعالى– اسْتَدَلَّ بالشاهدِ علــى الغائبِ.

ما هو الشاهد؟

أَنَّنا نُشَاهِدُ إِحْيَاءَ اللهِ الأرضَ بعد موتِها، فانتقل الله –عَزَّ وجَلَّ– من هذا الشاهدِ إلى إثباتِ الغائبِ وهو الأمــرِ الذي هو مُغَيَّبٌ عَنَّا؛ ألا وهو إحياءُ النَّاسِ من قُبُورِهم؛ لأنَّ هذا لم يأتِ بعدُ، وَإِنْ وَقَعَ في حالاتٍ فَرْدِيَّةٍ اسْــتَدَلَّ ربُّ العالمين –سبحانه وتعالى– بها أيضًا على أنه يُحيي الموتى؛ كقتيل بني إسرائيل الذي أَحْيَاه ربُّ العالمين –سبحانه وتعالى–. والوقتُ يَضِيقُ عَنْ أَنْ أسترسل في ذكر هذه البراهين الدَّالَّة على البعث والنشور من كتابِ ربِّ العالمين –سبحانه وتعالى– .

ولكنَّ الآيات تنتقلُ –وهي تُبَيِّنُ نعمةَ الله –تبارك وتعالى– على عبادِه– تنتقل إلى موقفٍ لبعضِ الناس، فيقول فيه ربُّ العالمين –سبحانه–: ؟ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ؟، ولئن أرسلنا ريحا أي ريحا لا تَسُرُّ هؤلاء الناسَ، الريح يأتي عقبها المطر، ولكنْ هناك ريحٌ فيها عذابٌ؛ كما ذكــر رب العــالمين –سبحانه وتعالى– ريح فيها سموم، ريح شديدة على الناس، ريح لا تبشر بخير ولا بمطر، وهذه هي الريحُ اليابسةُ التي لا تَكون مقدمةً للمطرِ النَّازلِ مِنَ السَّماءِ. إذا أرسل ربُّ العالمين –سبحانه وتعالى– ريحًا بهذا الأمر مــاذا كان حالُ الناسِ ضِعافِ الإيمان، أو حال مَنْ لم يؤمنْ بالكلية؟ رَجَعَ بعد ذلك إلى كُفْرِه وضــلالِه وانحرافِــه. إذا أرسل الله –عَزَّ وجَلَّ– بعد النعيم وبعدما تَفَضَّلَ على الناس من رحمةٍ بالمطرِ، إذا مَسَّهم بأيِّ لونٍ مــن ألــوانِ العذابِ أو أَتَتْهم ريحٌ ليس فيها مطرٌ وسحابٌ؛ رجعوا إلى الكفر والضلال والانحراف والعيــاذ بــالله –تبــارك وتعالى– كما قال الله: ؟ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا ؟، يعني رَأَوْا نباتَهم وزَرْعَهم قد فَسَدَ واصْفَرَّ ولم يَنْضُجْ من شِدَّةِ هذه الريح؛ رجعوا بعد ذلك إلى الكفرِ والعياذ بالله –تبارك وتعالى–.

ولقد ذكر الله –عَزَّ وجَلَّ– هذا الموقفَ عنِ الكافرين –أيضا– في سورة الواقعة وذلك فــي قولــه –ســبحانه وتعالى–: ؟ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ؟٦٣؟ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ؟٦٤؟ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ؟ [الواقعة: ٦٣: ٦٥]، حطاما؛ أي شيئًا يابسا يسير في الهواء هكذا، ؟ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ؟ تفكهون يعني تَتَرَدَّدُون في قولِكم وفي

كلامِكم. ما السببُ في ذلك؟ ؟ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ؟ [الواقعة: ٦٦]؛ أي معذبون أو تقولون: ؟ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ؟ [الواقعة: ٦٧]؛ أي لم يُرَدْ بنا خَيْرٌ.

هذا موقفُ بعضِ الناسِ إذا أصابهم لونٌ من الضَّرَّاءِ، وخاصَّةً بعد رحمة الله –تبارك وتعالى– في المطر.

المطر يَنزلُ فيَنبتُ به الزرع وتَخضرُّ به الأرضُ والنبات وغير ذلك، وإذا أرسل الله أمْرًا على العكس؛ بأَنْ أرْسَلَ ريحًا فيها سَمُومٌ أفْسَدَتْ هذا الزَّرْعَ وأَصبَحَ حُطَامًا تَذْرُوه الرِّيَاحُ؛ تَعِبَ هؤلاء الناسُ من ذلك وتَحَيَّرُوا وتَرَدَّدُوا ورَجَعُوا بعد ذلك إلى الكفرِ والعياذ بالله –تبارك وتعالى–.

ويَنتقل السِّيَاقُ بعد ذلك ويُوجِّهُ ربُّ العالمين –سبحانه– الخطابَ للنبيِّ –صلى الله عليه وآله وسلم– ويقول له: ؟ فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ؟٥٢؟ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلاَلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ؟.

الخطابُ هنا –كما ذكرتُ– للنبيِّ –صلى الله عليه وآله وسلم–، ومعناه: أنَّك يا رسول الله! –صلى الله عليه وآله وسلم– كما لا تَستطيعُ أنْ تُسمعَ الموتى في قبورِهم؛ لأنَّ الموتى لا يَسمعون؛ كذلك أيضًا أنت لا تَستطيعُ أنْ تُسْمِعَ هؤلاء الكفارَ الحقَّ الذي جاء مِنْ عند الله –عَزَّ وجَلَّ–. والنبيُّ –صلى الله عليه وسلم– يتلو عليهم ويُسمعهم ولكنَّهم كالموتى في الحقيقةِ الذين لا يَسمعون، فكما أنَّ الموتى لا يَسمعون ولا يَتَّعظون كذلك هؤلاءِ الكفَّار الذين كَفَرُوا بالنبيِّ –صلى الله عليه وآله وسلم–، وظَلَّ –صلوات الله وسلامه عليه– يتلو عليهم الآياتِ ويُبَيِّنُ لهم القرآنَ ولكنَّهم –أيضًا– لا يسمعون.

كذلك أيضا لا يُسمعُ النبيَّ –صلى الله عليه وآله وسلم– من به صَمَمٌ، خَاصَّةً إنْ كان يَتَوَلَّى ويَبْتَعِدُ عَنِ النبيِّ –صلى الله عليه وآله وسلم–. ولذلك ربُّ العالمين –سبحانه– وَصَفَ خاصَّةً من به صَمَمٌ أنَّه لا يَسْمَعُ خاصة إذا تَوَلَّى. لماذا؟ لأنَّ مَنْ به صَمَمٌ ولا يَسمع يُمكن إذَا أَقْبَلَ عليك أنْ تُفْهِمَه بالإشارةِ، وإن كان الفَهْمُ سيكون بَطِيئًا؛ لأنه لا يَسمع إلاَّ أنَّه يُمكن أن يفهم شيئًا قليلاً. فما بالُك إذا كان عنده عَدَمُ سمع ثم تَوَلَّى بعد ذلك يكون السمع عنده إذن في هذه الحالة أو الفهم معدومًا بالكلية. ولذلك صَدَقَ الله في قوله ؟ فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ ؟ يعني إلى الإسلام ؟ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ؟. و؟ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ؟ هذا وصف للصمِّ خاصة الذين لا يسمعون إذا تَوَلَّوْا عنك ولم يسمعوا كلامك.

والله –عَزَّ وجَلَّ– في كتابه قد بَيَّنَ أنَّ شَرَّ النَّاسِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُون، ثم قال سبحانه: ؟ وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ؟ [الأنفال: ٢٣].

ثم يقول الله –عَزَّ وجَلَّ– لنبيه –صلى الله عليه وآله وسلم–: كما أنَّك لا تُسمع هؤلاء الأمواتَ ولا تُسمع الصُّمَّ البُكْمَ أيضا؛ أنْتَ –أيضًا– لا تَستطيعُ أن تَهديَ هؤلاء الناسَ الذين ضَلُّوا عن سواءِ السبيلِ وصراط المستقيم ؟ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلاَلَتِهِمْ ؟؛ لأنهم لن يُبصروا الطريق.

إذن مَنْ يُسمعُ النبيُّ –عليه الصلاة والسلام–؟ ولِمَنْ يَصِلُ الأمرُ والكلامُ؟ ومن الذي يستفيدُ بالهدى والنور والضياء؟ ؟ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ؟؛ أي فَهِمَ حَقًّا سَلَّمُوا للنبيِّ –صلى الله عليه وآله وسلم–.

الحقيقة هذه الآية فيها اختلافٌ كبيرٌ بين أهْلِ العلم تَعَرَّضُوا له عند ذكر هذه الآية وهي: هل الموتى في قبورهم يَسمعون أم لا يسمعون؟

هذه مسألةٌ خلافيَّةٌ ومسألةٌ عَقَدِيَّةٌ مُهِمَّةٌ جدًّا. الحقيقة بعد التحقيق أنَّ الموتى لا يَسمعون في قُبورهم، والحديثُ الذي ذَكَرَه الإمامُ الحافظُ ابنُ كثيرٍ -رحمه الله تبارك وتعالى- عندكم في الكتاب حديثٌ بَعْدَ التَّدْقِيقِ والتَّحْقِيقِ ضَعِيفٌ، وقد ضَعَّفَه أيضا الشيخُ محمد ناصر الدين الألبانيُّ -رحمه الله تعالى-، والقرآنُ الكريم نَصَّ في آياتٍ كثيرةٍ أنَّ الموتى لا يَسمعون ولكنَّ كثيرًا من أهْلِ العلمِ ذَكَروا أنَّهم يَسمعون، واستدلوا على ذلك بحديثِ القليبِ الذي رواه ابن عمر عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو في صحيح البخاري وغيره، وهو في صحيح البخاري في كتابِ الجنائز، وهو أنَّ النبي -عليه الصلاة والسلام- قال لابنِ عمرَ -رضي الله تعالى عنه- كما رَوَى ابنُ عمر بأنَّهم يَسمعون وليسوا بأقلَّ من سماعِ النَّاسِ اليومَ الذين كانوا -يعني الصحابة- من النبيِّ -صلى الله عليه وسلم- أي الكفار الذين في القليبِ يَسمعون كما يَسمع هؤلاء الصحابةُ مِنَ النبيِّ -صلى الله عليه وسلم-، وذلك في قوله: (ما أنْتُم بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ منهم)؛ أي هم يسمعون كسمعكم.

والبخاري هو الذي روى هذا الحديث، أمّ المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها- رَدَّتْ على ابنِ عمر -رضي الله عنه- قولَه هذا، وقد روى أيضا الإمام البخاري -رحمه الله تبارك وتعالى- ذلك أيضًا في صحيحه، روى أيضًا قولَ أمِّ المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها- في تَوْهِيمِها لكلام ابن عمر، وقالت بأنَّ النبيَّ -عليه الصلاة والسلام- قال: (إنهم لَيَعْلَمُون أنَّ ما قُلْتُ لهم حقٌّ) يعني هم الآن بعدما وُضِعُوا في القليب ويُعَذَّبُون في قبورهم (عَلِمُوا أنَّ ما قُلْتُ لهم هو الحقُّ). أم المؤمنين عائشة رَدَّتْ على ابنِ عمرَ في قولِه بأنهم يسمعون ذلك.

وعند التحقيق قال الإمام الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى-: "لا تَعَارُضَ بين الأمرين" يعني لا تعارض بين كلام ابن عمر في أنهم سمعوا، وبين أمِّ المؤمنين عائشة أن الموتى لا يسمعون؛ لأنَّ أمَّ المؤمنين عائشة لمَّا ذَكَرَتْ أنهم لا يسمعون استدلت بهذه الآية: ؟ فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى ؟ لا يتعارض لماذا؟ قال: لأنهم في الأصل لا يسمعون، ولكن إذا شاء ربُّ العالمين -سبحانه وتعالى- أنْ يُسْمِعَهم؛ أسمعهم، فتكون هي حالة خاصة بمن؟ بأهل القليب؛ أي أنَّ الله -عَزَّ وجَلَّ- يُسمعهم وإن كانوا لا يَسمعون كما أنَّ ربَّ العالمين -سبحانه وتعالى- ذَكَرَ أشياء عن جماداتٍ تَتَحَدَّثُ أو تَتَكَلَّمُ وهي لا تتكلم؛ ؟ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ؟ [الأحزاب: ٧٢]، جماد ولكن ذكر ذلك عنهم. أو لما قال: ؟ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ؟ [فصلت: ١١]، فهم لا يَتَكَلَّمُون في الأصلِ ولكن إذا شَاءَ ربُّ العالمين -سبحانه وتعالى- أن يَتَكَلَّمُوا؛ تَكَلَّمُوا، كذلك الموتى لا يسمعون ولكنَّ الله -عَزَّ وجَلَّ- إذا أَرَادَ أنْ يُسْمِعَهم شيئًا؛ أَسْمَعَهم.

وبالتالي؛ نَجمع بين هذه الأقوالِ، وقد ذَكَرَ الحافظُ ابنُ حَجَرٍ -رحمه الله تعالى- عن بعض أهل العلم ذلك، ومنهم ابن التِّين -رحمه الله تبارك وتعالى- أنَّه قال: لا مُعَارَضَةَ بين حديثِ ابنِ عُمَرَ والآيةِ؛ لأنَّ الموتى لا يسمعون بلا شكٍّ، لكن إذا أَرَادَ الله إسْمَاعَه ما ليس من شَأْنِه السَّمَاع؛ لم يَمْتَنِعْ عليه ذلك -سبحانه وتعالى-.

ويؤكد ذلك أنَّ قَتَادَةَ -رحمه الله- وقد ذكر ذلك البخاري في صحيحه في كتاب المغازي قال: «أَحْيَاهُم الله حَتَّى أَسْمَعَهم قَوْلَه تَوْبِيخًا وَتَصْغِيرًا وَنِقْمَةً وَحَسْرَةً وَنَدَامَةً».

ثم أخبر ربُّ العالمين -كما ذكرت- أنَّ الذي يَسمعُ ويَستفيد هم الذين يَخضعون ويَستجيبون ويُسَلِّمُون للنبيِّ -صلى الله عليه وآله وسلم-.

ثم ينتقل السياقُ بعد ذلك لِيُبَيِّنَ لسائرِ الإنسانِ أمرًا مهمًّا نَشْعُرُ جميعًا به: ؟ اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ؟.

يخبر ربُّ العالمين -سبحانه وتعالى- عن حالِ الإنسانِ وَتَنَقُّلِه من طَوْرٍ إلى طَوْرٍ، فالإنسان أصلُه من تُرَابٍ ثم بعد ذلك يَكونُ من نُطْفَةٍ ثم يَخْرُجُ مِنْ بَطْنِ أمِّه في غايةٍ مِنَ الضعفِ والوهنِ كما قال الله: ؟ اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم

مِّن ضَعْفٍ ؟، إنسان يخرج في غايةٍ من الضعفِ والوهنِ من بطنِ أمِّه كما قال الله -عَزَّ وجَلَّ-: ؟ وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا ؟ [النحل: ٧٨].

والقرآنُ الكريمُ أشَارَ إلى هذا الضَّعْفِ الذي خُلِقَ منه الإنسانُ: ؟ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ؟ [المرسلات: ٢٠]، وهذا في غايةِ الضعفِ: ؟ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةٍ ؟، وهو الشبابُ والحيويَّةُ التي يَتَنَقَّلُ الإنسانُ خلالها بعد هذا الضعفِ.

والقرآن الكريم أشار إلى هذه القوة في آيات أُخَرَ، وذلك في قوله: ؟ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ؟ [النحل: ٤]، هذا يُظْهِرُ ويُبْرِزُ قوَّةَ الإنسان لدرجة أنه أصبح يُخَاصِمُ ربَّ العالمين -سبحانه وتعالى-.

ثم بعد هذه القوة يأتيه بعد ذلك الضعفُ: ؟ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ؟، والقرآن الكريم عَبَّرَ عن ذلك في آياتٍ كثيرةٍ كقولِ الحقِّ -تبارك وتعالى-: ؟ مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ؟ [الحج: ٥]، يعني بعض الناس لَمَّا يُرَدُّ إلى أرْذَلِ العُمُرِ ربما يَعودُ إلى الهيئةِ والحالةِ التي وُلِدَ عليها أولا: ؟ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ؟، يصاب بالخرفِ أو غير ذلك، وَصَدَقَ الله في قوله: ؟ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ؟ [يس: ٦٨].

والله -عَزَّ وجَلَّ- بَيَّنَ أنَّ كُلَّ ذلك بقدرتِه وإرادتِه -سبحانه- وهو أَمَارَةٌ على إرادتِه وقوَّتِه وكمالِ علمِه -سبحانه- ولذلك قال: ؟ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ؟ -سبحانه وتعالى-.

أنتقل بعد إلى المحور الثاني في هذا اللقاء وهو بعنوان: الكافرون يُصرفون من الحقِّ إلى الباطلِ ومن الصدق إلى الكذب، وفي ذلك يقول ربُّ العالمين: ؟ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ؟.

يُخبر الله -عَزَّ وجَلَّ- في هذه الآية عن جهلِ المشركين في الدنيا والآخرة، فأهل الشرك في الدنيا في جهل عظيم؛ لأنهم لم يفقهوا ويعرفوا حقيقة هذه الحياة الدنيا، ولماذا خلقوا فيها، وكذلك أيضا هم على جهل كبير بالدار الآخرة، وجهلهم يكون عندما يقسمون عندما يبعثهم رب العالمين -سبحانه وتعالى- أنهم ما لبثوا غير ساعة، يعني لم يَمْكُثوا فترةً في هذه الحياة الدنيا.

ذكر أهل العلم أنهم أرادوا من وراء ذلك أنهم لم يمكثوا فترة طويلة حتى تُقامَ عليهم الحجةُ، وكأنهم بذلك أرادوا أنْ يقدِّموا بين يديْ كفرهم شيئًا من الاعتذارِ، وأن هذا الأمر خارجٌ عن إرادتِهم، فلو أبْقَاهم ربُّ العالمين -سبحانه وتعالى-؛ لاهتدوا ودخلوا في دين الله -سبحانه وتعالى-. وهذا -في الحقيقة- ضَلالٌ من هؤلاء الناسِ. الله خَلَقَهم وَرَزَقَهم وهو الذي أحياهم ويُميتُهم؛ كيف يكذبون على الله -عَزَّ وجَلَّ؟! كيف يجرؤ الإنسان بعد أنْ يعيشَ هذه الحياة التي يَحياها على ظَهْرِ هذه الدنيا أن يقول بعد ذلك: أنا ما لبثت فيها إلا ساعة واحدة؟! قال الله -عَزَّ وجَلَّ- رَدًّا على هؤلاء: ؟ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ؟؛ أي أنهم كانوا يَكذبون في الدنيا، أيضا لَمَّا يقومون بين يَديْ ربِّ العالمين -سبحانه- سيكذبون.

هذا رَدٌّ من الله -عَزَّ وجَلَّ- عليهم. رب العالمين -سبحانه وتعالى- ذَكَرَ رَدًّا من أهلِ الإيمان أيضا على هؤلاءِ، وهو ما جاء في قولِ الحقِّ -تبارك وتعالى- في الآيةِ التاليةِ: ؟ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ؟، إذا قال الكفار يوم القيامة إنهم ما لبثوا غير ساعة؛ يقول أهل الإيمان لهم -ويدخل في أهل الإيمان هنا الذين أوتوا العلم والإيمان، يدخل فيهم الملائكة، ويدخل فيهم الأنبياء والمرسلون، ويدخل فيهم عباد الله الصالحون- يقولون للكفار: ؟ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ؟ المراد بكتاب الله -سبحانه وتعالى- هو اللوحُ المحفوظُ، يعني أنتم بَقِيتُم وَمَكَثْتُم في كتابِ اللهِ وَأَنَّ الله

-عَزَّ وجَلَّ- كَتَبَ ذلك في كتابٍ عنده -سبحانه وتعالى- أنَّكم ستقولون ذلك وستبقون في هذه الدنيا أحياءً ثم بعد ذلك تموتون وتبقون فيها في قبوركم في الدنيا إلى أنْ تقومَ الساعةُ وكلُّ ذلك بتقديرٍ سابقٍ من ربِّ العالمين - سبحانه وتعالى-.

ثم يقول أهل الصلاح من أهل الإيمان: ؟ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ ؟، هذا كُتِبَ عليكم، وألقاه إليكم الأنبياءُ والمرسلون، وهذا هو يومُ البعث ؟ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ؟ تعرفون هذا الجزء من الآية ما معناه؟

معناه كقولِ الحق -تبارك وتعالى- في سورة يس لَمَّا يقوم الناس من قبورهم يقول الكفار ماذا؟ ؟ مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هذا ؟ [يس: ٥٢]، بمجردِ ما يقوم الكافر من قبره يقول: ؟ يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا ؟؟ فيردُّ عليهم أهل الإيمان قائلين: ؟ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ؟، هذا ما وَعَدَ به ربُّ العالمين -سبحانه- وَصَدَقَ المرسلون، المرسلون بَلَّغُوكم ذلك ولكنكم لم تستجيبوا لهم.

وهنا أهل العلم والإيمان يقولون لهؤلاء الناس: ؟ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ؟، ثم يقول سبحانه: ؟ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ؟، يُقَرِّرُ الله -عَزَّ وجَلَّ- في هذه الآية أنَّ كلامَ الكفارِ وإنكارَهم السَّابِقَ لا يَنفعهم، فاعتذارهم باطلٌ، هم يعتذرون نحن ما مكثنا شيئًا في هذه الحياة، ما مكثنا إلا ساعة واحدة. هذا الاعتذارُ باطلٌ.

؟ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ؟، قيل: ولا هم يُرجعون، أو لا يطلب لهم منهم العُتْبَى وهي التَّوبةُ. ولو اعتذروا؛ لن ينفعهم أيُّ اعتذارٍ.

والله -عَزَّ وجَلَّ- قد ذَكَرَ في القرآنِ الكريم مرةً أنَّهم سيعتذرون وفي مرة أخرى أو مرات أخرى أنهم لن يعتذروا؛ فكيف نُوفق بين ذلك؟!

هم هنا قال: ؟ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ؟ يُفيد أنهم يعتذرون مثلا، وفي قوله تعالى: ؟ وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ؟ [الأنعام: ٢٣]، يُفيد أيضًا أنهم يعتذرون، إنما في سورة النحل يقول رب العالمين: ؟ ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ؟ [النحل: ٨٤]، لا يؤذن لهم في الاعتذار كيف نَجمعُ بين ذلك؟!

نقول: قد يُؤذنُ لهم أوَّلا ثم يقال لهم: ؟ اخْسَؤوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ ؟ [المؤمنون: ١٠٨]، فلا يُقبل لهم اعتذارٌ ولا كلامٌ بعد ذلك.

وقيل: الاعتذارُ المُثْبَتُ هو هو مِثْلُ الاعتذارِ المنفي، وذلك على معنى أنَّ الاعتذارَ المثبتَ هنا لهم اعتذارٌ لا يَنْفَعُ، فَكَأَنَّه لا وُجُودَ له. فإذا نفى الله الاعتذارَ وَأَثْبَتَه؛ فما أثْبَتَه اعتذارٌ لا يَنفع فهو كأنه مَنْفِيٌّ لا حقيقةَ له ولا وجودَ.

ثم يقول ربُّ العالمين: ؟ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ ؟، الله -عَزَّ وجَلَّ- في القرآن الكريم نَوَّعَ الدَّلائِلَ وَنَوَّعَ الآياتِ وَوَضَّحَها -ولَعَلِّي في لقاءٍ قادمٍ - إن شاء الله تعالى- أُبَيِّنُ كثيرًا من هِدَايَاتِ القرآنِ الكريم-، ولكنْ هنا إشَارَةٌ بِأنَّ الله -عَزَّ وجَلَّ- ضَرَبَ الأمثالَ في القرآنِ الكريم لِيَتَّعِظَ الناسُ وَلِيَفْهموا وليَرْجعوا عنِ الْغَيِّ الذي هم فيه. والله -عَزَّ وجَلَّ- ذَكَرَ هذا السياق - أيضًا- في سورةِ الزُّمر: ؟ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ؟٢٧؟ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ؟ [الزمر: ٢٧، ٢٨].

هذا وَصْفُ كتابِ ربِّ العالمين -سبحانه وتعالى- وهذا من فوائدِ القرآنِ الكريمِ. ثم يُختمُ هذا السياقُ بقولِ الحقِّ -تبارك وتعالى-: ؟ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ؟، الحقيقة هذه الآية تَحتاجُ إلى وقتٍ طويلٍ.

يَطبع: في هذا إثباتٌ أنَّ الله -عَزَّ وجَلَّ- يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وأنَّه يَختمُ على قلوبِ بعضِ العبادِ، وَأَنَّ الحقَّ لا يَصِلُ إليهم إذا طَبَعَ الله -تبارك وتعالى- عليهم.

وهذا الطبعُ قد يكون ابتداءَ فِعْلٍ مِنَ اللهِ -عَزَّ وجَلَّ-، وقد يكون مِنْ بَابِ العقوبةِ لهؤلاءِ النَّاسِ بِسَبَبِ كُفْرِهم وضلالِهم وانحرافِهم: ؟ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ؟.

ثم يَتَوَجَّهُ الخطابُ والسياقُ إلى النبيِّ -صلى الله عليه وسلم- وهي آخرُ آيةٍ في هذه السورة: ؟ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ؟، أمْرٌ للنبيِّ -عليه الصلاة والسلام- بالصبر، والصبر نصف الإيمان، والله -عَزَّ وجَلَّ- قد أَمَرَه بالصَّبْرِ في مَوَاطِنَ كثيرةٍ لِمَا كان يُلاقيه من أذَى المشركين ؟ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ؟ [المعارج: ٥]، وفيه بِشَارَةٌ بالأمرِ بالصبرِ للنبيِّ -عليه الصلاة والسلام- ألا وهو ؟ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ؟ يعني أنَّك ستنتصر وستفوز، والعقبى لك يا رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-.

؟ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ ؟، هنا وقفةٌ لا بُدَّ أنْ نَقِفَ معها مع خِتَامِ هذه الآيةِ، ما معنى ؟ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ ؟؟

هل الخطاب مُوَجَّهٌ للنبيِّ -عليه الصلاة والسلام- على حقيقتِه، وهل يُمكنُ لأحَدٍ أنْ يَسْتَخِفَّ النبيَّ -صلى الله عليه وآله وسلم-؟

قال أهل العلم من المحققين رحمهم الله -تبارك وتعالى- بأنَّ الخطابَ يُوَجَّهُ للنبيِّ -عليه الصلاة والسلام- ولا يُقْصَدُ هو -عليه الصلاة والسلام- وإنَّما هذا يكون من باب التَّشْريع لأمَّتِه؛ مثل: ؟ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا ؟ [الإسراء: ٢٣]، تَأمَّلْ النبيُّ -عليه الصلاة والسلام- مات أبواه وهو طفلٌ صغيرٌ، فلم يكبر أحد والديه عنده، ولكن قال الله ذلك له من باب التشريع لأمته، وَمَا أَقُولُه هنا أقُوله في قولِ الحقِّ -تبارك وتعالى-: ؟ لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ ؟ [الإسراء: ٢٢]؛ لأنَّه يستحيل أنْ يَجْعَلَ النبيُّ -عليه الصلاة والسلام- مع الله إلاهًا آخرَ، ولكن هذا من بابِ التشريع لأمَّةِ النبيِّ -صلى الله عليه وآله وسلم- وختاما نصلي عليه -صلوات الله وسلامه عليه.

بالنسبة إلى سؤالي الحلقة السابقة كان السؤال الأول:

لماذا قَدَّمَ الله -سبحانه وتعالى- القريبَ على غَيْرِه في قوله -تعالى-: ؟ فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ ؟؟ وماذا تفهم من قوله: ؟ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ ؟؟

وكانت الإجابة:

قَدَّمَ الله -سبحانه وتعالى- القريبَ على غيره في هذه الآيةِ؛ لأنَّ الصَّدَقَة على القريبِ تكون صَدَقَة وصلة، وكذلك يُفهم من قوله: ؟ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ ؟ وجوبُ المسارعةِ إلى فِعْلِ الخيراتِ، ووجوبُ إخلاص العملِ لله -سبحانه-، وإثبات صفة الوجه لله سبحانه كما يليق بجلاله.

الجواب سليم وسديد.

السؤال الثاني:

ما المراد بالبر والبحر في قوله –تعالى-: ؟ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ؟؟ وما الدليلُ علــى أنَّ العبــاد إذا استقاموا على الطاعة؛ رزقهم الله من الطيبات؟

المراد في البر والبحر في قوله –تعالى-: ؟ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَــرِّ وَالْبَحْــرِ ؟ أنَّ المــرادَ بــالبرِّ: الفيــافي والصحراء، والمراد بالبحر: الحضر.

وأيضا في زَمَانِنَا هذا ظَهَرَ الفسادُ فعلاً على شواطئ البحار، بل ودَاخِلَ البحار أيضًا، والدليل على أنَّ العبــادَ إذا استقاموا على طَاعَةِ اللهِ؛ رَزَقَهم من الطَّيِّبَاتِ قوله –سبحانه وتعالى-: ؟ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ؟٤٤؟ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ ؟، فهنا يُوضِحُ الله –تبارك وتعالى– أنَّ الناسَ إذا استقاموا وعملوا الصالحات؛ فإنهم يُوَطِّئون لأنفسهم حتى يُثِيبَهم الله ويَجْزِيَهم مِنْ فَضْلِه، وذلك كقوله –تعالى-: ؟ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ؟ [الأعراف: ٩٦].

الجواب سديد، ويُستدل بقوله –تعالى-: ؟ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ؟ [الجن: ١٦]؛ لكان جمــيلاً، ولــو استدل بكثرةِ المالِ وجودة الأرض في زَمَن عيسى –عليه السلام– عندما ينزل؛ لكان جميلا أيضًا، والحمد لله.

أسئلة المراجعة:

السؤال الأول:

اشرحْ قَوْله –تعالـــى-: ؟ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ؟.

السؤال الثاني:

الخطاب في قولِ اللهِ –تعالى-: ؟ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ ؟ للنبيِّ –صلى الله عليه وآله وسلم– فهل هو المقصودُ به أم ماذا؟ أيِّدْ إجابتَك بالدليل.

الدرس الثاني والعشرون

تفسير سورة لقمان من ١: ١٢

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف خلق الله وسيد المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أما بعد.

يسرنا في هذا اللقاء الكريم المبارك -إن شاء الله تبارك وتعالى- أن نبدأ الحديث حول سورة لقمان، وسيكون حديثنا -إن شاء الله تبارك وتعالى- في هذا اللقاء حول محورين اثنين:

المحور الأول بعنوان: أهل الإيمان يهتدون بالقرآن وغيرهم يسير في ركاب الشيطان.

أما المحور الثاني فهو بعنوان: لقمان الحكيم صاحب البصيرة والفقه في الدين.

ولنستمع إلى آيات هذا اللقاء من أخينا الأستاذ عبد الرحمن فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

؟ الم ؟١؟ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ؟٢؟ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ؟٣؟ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ؟٤؟ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ؟٥؟ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ؟٦؟ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ؟٧؟ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ؟٨؟ خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ؟٩؟ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ؟١٠؟ هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ؟١١؟ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ للهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ؟ [لقمان: ١: ١٢].

أحسنت وجزاك الله خيرًا.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين، وبعد.

عنونت لمطلع هذه السورة بقولي: أهل الإيمان يهتدون بالقرآن وغيرهم يسير في ركاب الشيطان، وذلك أخذًا من مطلع هذا السورة الكريمة التي قال فيها رب العالمين -سبحانه وتعالى- بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم: ؟ الم ؟١؟ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ؟٢؟ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ؟ افتتح الله -تبارك وتعالى- هذه السورة أيضا ببعض الحروف المقطَّعَة، وقد مَرَّ معنا معنى هذه الأحرف والراجح من أقوال أهل العلم فيها، ثم ذَكَرْتُ أنه ينبغي علينا أن نَفْقَهَ من خلال ذلك مكانة وعظمة وقيمة القرآن الكريم الذي أنزله رب العالمين -سبحانه- على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بلسان عربي مبين، وأن الله -تبارك وتعالى- تَحَدَّى بهذا القرآن الكريم جميع العرب الذين كَذَّبُوا به ولم يصدقوا بأنه نزل من عند رب العالمين -سبحانه وتعالى.

أما قول الله -تبارك وتعالى: ؟ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ؟ المراد بالكتاب هو القرآن الكريم، وَوَصَفَهُ الله -تبارك وتعالى- بأنه كتاب حكيم، وقد تَكَرَّرَ هذا الوصف في القرآن الكريم كثيرًا، ففي مطلع سورة يونس: ؟ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ؟ [يونس: ١] الرعد: ؟ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ؟ [الرعد: ١].

ومما يجب أن يُذكر في هذا المقام: أن القرآن الكريم كله مُحْكَم، كل القرآن الكريم من أوله إلى آخره كلماته محكمة، وفي ذلك يقول الله -عزّ وجلّ- في أول سورة هود: ؟ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ؟ [هود: ١]؛ يعني أنها ليست متضاربة، ولا مضطربة، ولا متناقضة، ولا يخالف بعضها بعضا، ولا أعني بذلك أو لا يَرُدُّ علينا أحد فيقول بأن الله -تبارك وتعالى- ذَكَرَ في القرآن الكريم أن فيه متشابهًا، نقول بأن التشابُه المذكور الذي ذُكِرَ عن القرآن الكريم فَسَّرَه أهل العلم بمعانٍ متعددة؛ إما أنه تشابُه نسبي؛ يعني بمعنى أنه يشتبه على بعض الناس ولا يشتبه على آخرين، أو أنه مُتَشَابِه؛ بمعنى أن بعضه يشبه بعضا، أو أن ما قيل عنه بأنه متشابه هو محكم في ذاته وبيانه، ولكنه مما استأثر رب العالمين -سبحانه وتعالى- بعلمه.

ولكن الذي يجب أن نفهمه في هذا المقام هو أن القرآن الكريم كله من أوله إلى آخره، كما ذكر رب العالمين وكما وصفه هنا في هذه الآية بأنه هو الكتاب الحكيم نزل من عند رب العالمين -سبحانه وتعالى جل في علاه.

ثم وَصَفَ الله -عزّ وجلّ- هذا القرآن الكريم، هذا الكتاب الحكيم الذي نزل من عنده بأنه ؟ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ؟، هدى ورحمة للمحسنين قيل: (وهذه قراءة الجمهور) بأنهما منصوبتان على الحال، وقيل: مرفوعتان على أنهما خبر لمبتدأ محذوف تقديره "هو هدى"، بعد ذلك: ما المراد بكلمة هدى المذكورة في هذه الآية؟ المراد بكلمة هدى هنا هي هداية التوفيق، فالقرآن الكريم من حيث الدِّلالة والإرشاد فيه بيان للناس جميعا ويهدي جميع الناس، ولكن مَنْ دخل الإيمانُ في قلبه وآمن بربه، وَصَدَّقَ بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- الذي نزل عليه الكتاب من عند الله -تبارك وتعالى- هو الذي اهتدى.

وهو كذلك رحمة لأهل الإيمان وهو رحمة للمحسنين، قيل في كلمة المحسنين هذه: إما أن يكون المراد بها الإنسان المحسن في عمله، وقيل بأنها تُفَسَّر بما فَسَّرَها النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بأن المحسن هنا أو المراد به هو الذي يَعْبُدُ الله -تبارك وتعالى- كأنه يرى ربه ومولاه، فإن لم يكن يراه فهو يعبد الله -عزّ وجلّ- موقِنًا معتقدًا أن رب العالمين -سبحانه وتعالى- مُطَّلِعٌ عليه ويراه.

؟ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ؟ يؤخذ من مفهوم المخالفة المعروف "بدليل الخطاب" في هذه الآية أن القرآن الكريم لا يكون هدى ولا شيء فيه من الفلاح لِمَن؟ لأهل الكفر والشرك والضلال والانحراف، كما قال رب العالمين -سبحانه وتعالى- في كتابه: ؟ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا ؟ [الإسراء: ٨٢] ؟ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ؟١٢٤؟ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ؟ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، تأمل أن الله -تبارك وتعالى- يعاقِب هؤلاء الذين ارتدُّوا على أدبارهم بأن يجعل القرآن الكريم عليهم عَمًى، فلا يستفيدون منه ولا تكون لهم هداية فيه، إذن قَصرَ رب العالمين -سبحانه وتعالى- هداية القرآن ورحمة القرآن على مَن؟ على مَن آمن بالله -عزّ وجلّ- وَصَدَّقَ بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم.

في سورة الإسراء آية جميلة عجيبة للغاية، أخبر الله -عزّ وجلّ- فيها بالنص على أن القرآن الكريم يهدي للتي هي أقوم: ؟ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ؟ [الإسراء: ٩] ونحن نذكر هذه الآية الآن ونحن نتكلم عن قوله -تعالى: ؟ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ؟ لأنني قلت بأن القرآن الكريم هو كتاب الهداية الذي نزل من عند رب العالمين، وهو كذلك حقًّا، فالقرآن الكريم يهدي إلى أقْوَم الطرق، وإلى أحسنها سبيلاً، وإلى أقومها طريقًا، ومن الأفاضل الذين تكلَّموا حول هذه الآية من أئمة أهل العلم من المفسرين الشيخ "محمد الأمين الشِّنْقِيطِيّ" -رَحِمَهُ الله تبارك وتعالى- وَبَيَّنَ من خلال هذه الآية كيف أن القرآن الكريم هداية ربانية من عند رب العالمين -سبحانه

وتعالى– في جميع ما يحتاج إليه الإنسان، بدأ بتوحيد الله –تبارك وتعالى– إلى أن تكلَّم عن هداية القرآن الكريم في الشرائع والأحكام، حتى في تفضيل الله –عزّ وجلّ– الذكر على الأنثى في الميراث، وكلّ ذلك وارد في كتاب رب العالمين –سبحانه وتعالى.

ولذلك أقول للبشرية جمعاء: طالما أن القرآن الكريم هو كتاب الهداية فلماذا لا تُقبِلُون عليه؟ ولماذا لا تَرجِعُون إليه؟ ولماذا لا تَهْتَدُون بهدي الله –تبارك وتعالى– فيه؟

ثم وَصَفَ رب العالمين –سبحانه وتعالى– وَصْفًا آخر، فقال فيه: ؟ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ؟ يصف مَن؟ يصف أهلَ الإيمان والهدى والرحمة والإحسان، يصف رب العالمين –سبحانه وتعالى– هؤلاء الناس بصفات أُخَر، بعدما أخبر أنهم هم أهل الهداية، وهم أهل الإحسان، وهم أهل الرحمة قال: ؟ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ؟.

هذه الآية ذَكَرَت ثلاث صفات لهؤلاء الناس:

الصفة الأولى: هي أنهم يقيمون الصلاة لله –عزّ وجلّ– وكثيرًا ما نتحدث عن الصلاة، وسيأتي –إن شاء الله تعالى– في لقائِنَا هذا –أيضا– الإشارة إلى شيء من ذلك، أو في اللقاء القادم، ونحن نتكلم عن وصايَا لقمان –عليه السلام– لابنه، وإقامة الصلاة تعني أن يأتي بها المسلم كما أراد رب العالمين سبحانه، وكما أداها نبينا –صلوات الله وسلامه عليه.

وكذلك يؤتون الزكاة المفروضة التي فرضها رب العالمين سبحانه، والزكاة –في الحقيقة– تحمي المجتمع من الانحراف، وأقولها بكل صراحة؛ لماذا؟ لأن الإنسان المحتاج إذا وجد من يكفله من البشر، والله –تبارك وتعالى– هو الذي يكفل الناس جميعًا، ولكن يكون الإنسان في هذه الحالة سببًا، إذا وجد من يُيَسِّر له السبيل، وإلى من يُقَدِّم له ما يحتاج إليه، لا شك أن حاله سَيُصْلَح، وأنه سينصرف إلى عبادة رب العالمين سبحانه، وسيكون ذلك سببًا لرفع الهم والغم والضنك والكرب الذي يمكن أن ينزل به، ويكون سببًا في صرفه عن رب العالمين –سبحانه وتعالى.

الوصف الثالث لأهل الإيمان والهدى والرحمة وأهل الإحسان في هذه الآية: أنهم جماعة أيقنوا بلقاء الله –تبارك وتعالى– ؟ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ؟، التعبير القرآني بأنهم يوقِنُون بالآخرة يشير إلى أن إيمانهم ليس إيمانًا سطحِيًّا، أو أن إيمانهم إيمان فيه شيء من الدَّخَن أو الغِشّ أو الغَبَش أو عدم الوضوح، وإنما إيمان يقيني راسخ قائم عن اعتقاد صحيح صادق في الله –عزّ وجلّ– المؤمن الذي يَثِقُ في وعد الله –تبارك وتعالى– ويوقِنُ حَقًّا أنه سيقف بين يدي ربه ومولاه، وأنه سيُحَاسَبُ على ما قدمت يداه، لا شك أنه سيستقيم أمره؛ لأنه يُدرك أنه مسؤول عَمَّا يُقَدِّم وعَمَّا يفعل، وبالتالي لن يكون هناك أمامه إلا أن يسعى في طريق يُخَلِّصُه من عذاب النار إذا وقف بين يدي رب العالمين –سبحانه وتعالى.

بعدما وصف الله –تبارك وتعالى– في مطلع هذه السورة، وهي شبيهة بمطلع سورة البقرة، بعدما وصف الله –عزّ وجلّ– أهل الرحمة وأهل الهدى وأهل الإحسان، وذكر عنهم أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، وأنهم أيْقَنُوا بالآخرة ولقاء رب العالمين –سبحانه– عاد الله –تبارك وتعالى– مرة أخرى ليؤكد على هِدَايَتِهم وعلى فلاحهم، على هِدَايَتِهم في الدنيا والآخرة وعلى فلاحهم في الدنيا والآخرة، فقال: ؟ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ؟، ما أجمل أن يكون الإنسان مهتديًا، إن الهداية مَطْلَب يسعى إليه كل عاقل، مَطْلَب عظيم، مَطْلَب رفيع يسعى إليه كل إنسان يَعْرِف أنَّه سَيُسْأَل بين يدي رب العالمين –سبحانه وتعالى– الهداية تُبَصِّره بالطريق، تنير أمامه الطرقات والسُّبُل التي يَوَدّ أن يسلكها فتجعله بذلك؛ أي تجعله الهداية يسلك سبيل رب العالمين –سبحانه وتعالى– لأنه قد اهتدى بنور الله –عزّ وجلّ– ونهايته هي الفلاح، والله –عزّ وجلّ– قد وَعَدَ

المؤمنين بالفلاح في الدنيا وفي الآخرة؛ أما في الدنيا فبتيسير الأمر لهم، والحياة الهنيئة السعيدة التي تشتمل على سكينة القلب، واستقرار النفس، ثم بعد ذلك يدخل هؤلاء الذين آمنوا بالله -عزّ وجلّ- يُدْخِلُهُم ربهم -سبحانه وتعالى- جنات تجري من تحتها الأنهار، وهذا وَعْدُ رب العالمين -سبحانه وتعالى- لأهل الهداية والفلاح، وستأتي الإشارة إليه بعد آيتين تقريبا -إن شاء الله تبارك وتعالى- في هذا اللقاء.

ولكن القرآن الكريم هنا ينتقل بعدما ذَكَرَ حال السعداء في مطلع هذه السورة، وأنهم هم أهل الهداية وأهل الرحمة وأصحاب التوفيق من رب العالمين -سبحانه وتعالى- وأنهم أهل الفلاح في الدنيا والآخرة، بعدما ذكر الله -عزّ وجلّ- هؤلاء عَقَّبَ عليهم بذكر الأشقياء الذين شَقُوا في الدنيا والآخرة، ولم يسعدوا في الدنيا والآخرة، ولن تنالهم رحمة رب العالمين في الدنيا وفي الآخرة، وذكر لهم أيضًا شيئًا من الصفات التي تُبَيِّن أنه ما حصل لهم ذلك من رب العالمين إلا بسبب ما قدمت أيديهم؛ لأن رب العالمين -سبحانه وتعالى- لا يظلم الناس شيئًا، وفي ذلك يقول الله -عزّ وجلّ:

؟ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ؟ هؤلاء أيضًا أُنَاس استغلهم الشيطان وسَخَّرَهُم في خدمة الباطل، فهم يشترون لهو الحديث كي يضلوا عن سبيل رب العالمين -سبحانه وتعالى- المراد بلهو الحديث هنا، كما ذكر عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- وأقسم على ذلك ثلاث مرات ذكر أنه هو "الغناء"، وحينما يُذْكَر الغناء تشمله أو تدخل فيه آلات اللهو والطرب التي تكون معه وتصاحبه، أيضًا ورد عن بعض أهل العلم أن المراد بلهو الحديث "الشرك"، واختار الإمام الحافظ ابن جرير -رحمه الله تبارك وتعالى- أنه كل كلام يصد عن آيات الله -عزّ وجلّ- ويصد عن اتِّبَاع سبيل الله - تبارك وتعالى- هذا هو لهو الحديث.

هؤلاء قوم استغلهم الشيطان، وسخرهم الشيطان كي يستفيد منهم في إغواء بني الإنسان، ولذلك عقب الله -عزّ وجلّ- على قوله: ؟ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ؟ بقوله: ؟ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ ؟ قُرِئَ ؟ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ ؟، و "لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ"، ؟ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ ؟؛ يعني أنه اشترى لهو الحديث وسار في هذا الطريق لِيَصْرِفَ الناس عن الحق، ولكي يكون هو سببًا في صدهم عن صراط الله المستقيم، فهو أصبح إذن - بناء على ذلك- مُجَنَّدًا من جنود إبليس، يعمل تحت قانونه ويساعده فيما هو عليه، أما على قراءة فتح الياء "لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ"، فيصبح المعنى: أن اللام هنا للعاقبة، ويكون الأمر أنه اشترى لهو الحديث فكانت عاقبته أن ضَلَّهُ رب العالمين -سبحانه وتعالى- عن سبيله.

ثم ذكر الله -عزّ وجلّ- لهم صفة أخرى، هو يشتري لهو الحديث ؟ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ ؟، قال أيضا بأنه يَتَّخِذُ آياتِ الله هُزُوًا، وهذا في الحقيقة منكر شديد، كيف يَلِيق بعبد خلقه الله -تبارك وتعالى- ثم بعد ذلك يأتي إلى الآيات البَيِّنَات الواضحات التي نزلت من عند الله -عزّ وجلّ- نزلت من عند رب العالمين ومولاه فيستهزئ بها، ويسخر بآيات الله -تبارك وتعالى- ولا تقع في نفسه موقع القبول، وإذا لم تقع في نفسه موقع القبول فأقل القليل أن يحترمها، وألا يتناولها بشيء من السخرية أو الاستهزاء، ولكن هذا شأن المبطلين؛ أنهم يسخرون بآيات رب العالمين -سبحانه وتعالى- بل إنهم سَخِرُوا بالأنبياء والمرسلين، واستهزؤوا من عباد الله وأولياء الله الصالحين، ولذلك تَوَعَّدَهُم رب العالمين -سبحانه وتعالى- في هذه الآية بالعذاب المهين فقال: ؟ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ؟.

ثم يقول سبحانه: ؟ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ؟ هذه الآية وَصْفٌ أيضا لِمَنْ أضله الله -عزّ وجلّ- عن سبيله أو هو رفع راية الإضلال عن سبيل الله -تبارك وتعالى- هذه الآية وَصَفَتْهُ، ولكن ينبغي أن نَلْحَظَ فيها مَلْحَظًا مُهِمًّا: الآية السابقة عليها قال الله فيها: ؟ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ؟ وهنا قال: ؟ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا ؟ تأمَّلوا..! أهل الباطل يدفعون من أموالهم كي يشتروا الباطل، قال الله -عزّ وجلّ: ؟ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ؟ أما الحق فيُقَدَّم إليهم بلا عوض ومع

هذا فلا يقبلون، لأن الله قال: ؟ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ؟ وهنا قال: ؟ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا ؟، فهو لا يشتري آيات الله -تبارك وتعالى- ولكنها تُقدَّم له وتُعْرَض عليه وتكون بين يديه دون أن يدفع في مقابلها ثمنـــا، ومع هذا لا يُقبِل على هداية رب العالمين -سبحانه وتعالى- بل إنه يقف من هذه الآيات موقفًا ما كان على إنسان أبدًا خلقه الله أن يفعل ذلك، الآية هذه ذكرت أن هذا الذي تُتْلَى عليه آيات الله -تبارك وتعالى- يقف أمامها مـــن منظور أو من خلال أربعة أمور:

الأمر الأول: أنه يُعْرِض عنها ويتولى، ؟ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى ؟ فهو يعرض عن آيات الله أولا، يتــولى عنها، يلوي عنقه مستكبرًا وهذا هو الوصف الثاني، قال: ؟ وَلَّى مُسْتَكْبِرًا ؟ لما تَوَلَّى استَكْبَرَ عن قبول آيات رب العالمين -سبحانه وتعالى جلَّ في علاه- ثم قال الله -عزّ وجلّ: ؟ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ؟؛ يعني هو يتولّى معرضا عن آيات الله مستكبرًا عنها وإذا ناداه إنسان أو تلاها عليه إنسان كأنه لا يستمع إلى قوله، وهذا من شدة إعراضه عن سماع الحق، وعن سماع آيات الله -تبارك وتعالى- ثم يأتي الأمر الرابع ويشبهه الله -عزّ وجلّ- فيه بأهل الصم الذين لا يسمعون: ؟ كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ؟ كأن في أذنيه شيئًا ثقيلا يمنع من وصول آيات الله -تبارك وتعـــالى- إليه.

ولذلك كان حقُّه الوعيد من رب العالمين -سبحانه وتعالى- وقال الله له إذن: ؟ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ؟ والبُشرى غالبًا ما تأتي في الخير ولكنها تُذكر أيضًا في الشَّرِّ وتكون من باب التهكم لأهل الباطل، طالما أنهم يتخذون آيات الله هُزُوًا، فرب العالمين -سبحانه وتعالى- أيضا يسخر منهم ويبشرهم، والإنسان عندما يسمع البـــشرى غالبًـــا ينشرح صدره، ويتمنى أن يسمع خبرًا يَسُرُّه، ولكن عندما يقال: "فبشره" ويأتي بعدها: "بعذاب أليم" يكون في هذا نكاية بهؤلاء المجرمين.

ثم ينتقل السياق بعد ذلك إلى بيان حال أهل الإيمان، بعدما ذكر رب العالمين -سبحانه وتعالى- هؤلاء الناس المجرمين، وذكر حالهم، وذكر موقِفَهُم من آيات الله -تبارك وتعالى- وذكر أنهم في عذاب أليم، ذكر مـــا أعَـــدَّه لأوليائه وعباده الصالحين، وهذا كثيرًا ما يتكرر في القرآن الكريم، أن الله -عزّ وجلّ- بعدما يذكر مثلا نعيم أهل الجنة أو ما أعَدَّه الله لأهل الإيمان يذكر عَقِبَهَا مصير أهل الكفر والضلال والانحراف والعيـــاذ بـــالله -تبـــارك وتعالى- وكذلك أيضًا إذا ذَكَرَ أولا مصير المجرمين الكافرين عَقَّبَ عليه بذكر مَن؟ بذكر أهل الإيمان.

هنا عَقَّبَ بعدما ذكر مصير وصفات المستهزئين بآيات الله، وأن لهم العذاب الأليم عَقَّبَ على ذلك بذكر نعـــيم أهل الجنان فقال: ؟ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ؟٨؟ خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ؟ الحقيقة هذه الآية تأتي بردًا وسلامًا على أهل الإيمان، وهي تشير وتؤكد إلى ما أؤكد عليه دائما: ؟ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ؟، فالإيمان ليس كلمة تُقال، وإنما أيضا اعتقاد وقول وعمل؛ لأن الله -عزّ وجلّ- عَطَفَ العمل الصالح هنا على الإيمان: ؟ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ؟ ما لهم يا رب؟ قال: ؟ لَهُمْ جَنَّـــاتُ النَّعِيمِ ؟ لم يقل "جنة واحدة" وإنما جنات، وهذه الجنات فيها من أطيب الملابس والمآكل والمشارب، وما يتمتع به الإنسان من حور عين ورؤية رب العالمين -سبحانه وتعالى- وغير ذلك من النعيم العظيم المقيم، الذي أعَدَّه رب العالمين -سبحانه وتعالى- لهؤلاء المؤمنين، ولعلكم تلاحظون أن الله -تبارك وتعالى- في نعيم أهل الجنة قال: ؟ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ؟ وجنات هذه جمع، وبالنسبة للكافرين لما ذَكَرَ العذاب قال: ؟ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِـــيمٍ ؟ بـــصيغة المفرد، وهذه فيها فائدة: أنها تشرح صدور أهل الإيمان، وهي سعة رحمة رب العالمين -سبحانه وتعالى- لأهل الإيمان، ذكر الجنات؛ يعني أن الله -عزّ وجلّ- يُوَسِّع على عباده المؤمنين ويقبل منهم الشيء القليل، ويمـــنحهم عليه الشيء الكثير، فالأعمال تكون قليلة ولكن رب العالمين -سبحانه وتعالى- يكافئ عليها بالشيء الكثير، ؟ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ؟ ثم هذا النعيم لا ينتهي ولا ينقطع، وإنما هو دائم أبد الآباد، كما قال رب العالمين -سبحانه وتعالى: ؟ لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ؟ [الكهف: ١٠٨]، لا يود من شاهد هذا النعيم مجرد مشاهدة حتى ولو لم يستمتع به لا يود بحال أن ينتقل منه إلى غيره.

ثم يبين الله -عزّ وجلّ- أن هذا هو وعد الله -سبحانه وتعالى- لأهل الإيمان، فعلى المسلم إذن أن يصبر حتى على الشدائد وغيرها؛ لأن وَعْدَ الله -تبارك وتعالى كريم، ووَعْدُ الله غالٍ ونفيس، والله إذا وَعَدَ فإنه -سبحانه وتعالى- لا يُخلف الميعاد، ولذلك قال: ﴿ وَعْدَ اللهِ حَقًّا ﴾ وأكَّد على أن الوعد قائم وأنه لا بد أن يكون من رب العالمين، أكد أو أشار إلى هذا بقوله: ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ فعندما يقول بأنه عزيز؛ يعني يُبَلِّغُنَا أنه هو القاهر الغالب الذي لا يمكن أن يمنعه أحد أبدًا، فهو يفعل ما يشاء، إذا وعد يفعل ما يشاء -سبحانه وتعالى جل في علاه- الحكيم؛ يعني أنه يقضي الأمور بحكمة، ولا مُعَقِّبَ لحكمه -سبحانه وتعالى جل في علاه.

ثم تستمر الآيات.. يبين فيها رب العالمين -سبحانه- ويخبر عباده عن كمال قدرته، وعظمته في هذا الكون والملكوت -سبحانه وتعالى جل في علاه- فيقول: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ هذا شيء أو بيان لعظمة رب العالمين -سبحانه وتعالى- في خلقه للسماوات والأرض، ودائما ما يَلْفِتِ القرآن الكريم نَظَرَ الناس عموما إلى ما بَثَّهُ الله -تبارك وتعالى- في الآفاق هنا وهناك من علامات وآيات تَدُلُّ عليه وتشير إليه -سبحانه وتعالى جل في علاه- ولكنه هنا في هذه الآية ذكر صفة للسماء وأمرًا يتعلق بالأرض فقال: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ الذي رفع السماء بغير عمد، هذا الهيكل العظيم، هذا البناء الضخم الذي قال فيه الله -تبارك وتعالى: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧] هذه السماء بما أَوْدَعَ الله -تبارك وتعالى- فيها ما أَوْدَعَ وبِمَا فيها من ملائكة رفعها الله -تبارك وتعالى- بغير عَمَد، أهل العلم قد اختلفوا ومنهم الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم أجمعين- فقد قال عبد الله بن عباس ومعه جماعة: بأن السماء رُفِعَت بِعَمَد ولكننا لا نراها؛ يعني الله -عزّ وجلّ- رفع السماء بِعَمَد، ولكننا نحن لا نرى هذه الأعمدة، وذهب آخرون وهو الراجح -إن شاء الله تبارك وتعالى- الذي تؤيده النصوص ورَجَّحَه الإمام الحافظ ابن كثير: أن رب العالمين -سبحانه وتعالى- على الحقيقة رفعها بغير عَمَد، ورجح ذلك الإمام الحافظ ابن كثير واستدل عليه بقول الله -تبارك وتعالى: ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [الحجر: ٦٥]؛ يعني هو الذي يمسكها -سبحانه وتعالى جل في علاه- بغير عَمَد، فما معنى هنا "ترونها"؟ لأن من قال بأنها رفعت بعمد قال: لأن الله -سبحانه وتعالى- قال: ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ ونحن لا نراها، فهي لها أعمدة ولكننا لا نراها، وهذا من بيان عظمة رب العالمين -سبحانه وتعالى- قال أهل العلم في هذا بأن "ترونها" هنا تأكيد، ويصبح المعنى بأنه رفعها بغير عَمَد كما ترونها، فنحن إذا شاهدنا السماء أو نظرنا إلى السماء الآن لا نرى لها أعمدة.

ثم بعد ذلك إشارة إلى الأرض وما أودع فيها من جبال راسيات ﴿ وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ إن هذه الجبال العظيمة الضخمة الشاهقة التي ارتفعت على سطح هذه الأرض، ولا شك أن تَتِمَّة هذه الجبال يسيح في باطن ماذا؟ يغوص في باطن هذه الأرض أكثر مما ارتفع على ظاهرها، الله -عزّ وجلّ- جعل هذه الجبال أوتادًا لهذه الأرض حتى لا تميل ولا تضطرب بأهلها قال الله -عزّ وجلّ: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ؟٦؟ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ [النبأ: ٦، ٧].

ونحن في عالمنا المعاصِر إذا أردنا أن نثبت شيئًا يمكن أن يلعب به الهواء ثبتناه بشيء من الأعمدة، وهذه رحمة من الله -تبارك وتعالى- أشار بعض أهل العلم قال بأن الأرض: لا بد أن تكون هكذا ثابتة لا تضطرب ولا تميل ولا تتحرك لماذا؟ قال: لأن الأحياء الذين يعيشون عليها يتحركون، فلو كانت هذه الأرض متحركة لاضطرب حال الناس وأمرهم، وربما تداخل بعضهم في بعض وضرب بعضهم بعضا دون أن يكون له دخل في ذلك، وهذه من حكمة رب العالمين -سبحانه وتعالى- ثم أشار إلى أمر آخر -جل في علاه- أنه بَثَّ فيها من كل دابة؛ يعني أَوْدَعَ في هذه الأرض بقدرته وحكمته وعلمه -سبحانه وتعالى جل في علاه- أَوْدَعَ فيها من كل دابة تَدِبُّ، وشاء رب العالمين -سبحانه وتعالى- أن تَدِبَّ على ظهر هذه الأرض، ولما أَوْدَعَ فيها من كل دابة لم يتركهم هكذا، وإنما سخر لهم أو ساق لهم أسباب الحياة التي تقوم بها حياتهم وهي الماء، ولذلك أشار إليه مباشرة فقال: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ الآية في نهايتها هنا تتحدث عن الدواب التي تَدِبُّ

على الأرض، وهذه الدواب تحتاج إلى الماء، والماء يُنْبِتُ الله -تبارك وتعالى- به الزرع، والله -عزّ وجلّ- وَصَفَ هذا النبات بأنه يخرجه من زوج كريم.

هنا لفتة كريمة أيضًا قالها الإمام الشَّعْبِيّ -رحمه الله- بناء على أن الإنسان أيضا ينمو وينبت مما يأكله على ظهر هذه الأرض، فالإنسان في الحقيقة نما جسده وترعرع وشَبَّ من الطعام أو من الأكل الذي يأكله مما أخرجته الأرض، والإنسان ينبت كما ينتب النبات، قال الله -عزّ وجلّ: ؟ وَاللهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ؟ [نوح: ١٧]، اللفتة الكريمة قالها الإمام الشَّعْبِيّ -رحمه الله تبارك وتعالى- قال: "من دخل الجنة فهو كريم" قبلها قال: "الناس من نبات الأرض، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل الناس فهو لئيم".

ثم بعدما ذكر رب العالمين -سبحانه وتعالى- وأشار إلى شيء مما يدل على عظمته وكمال حكمته -سبحانه وتعالى- وعلى قدرته في هذا الكون لَفَتَ أنظار المشركين الذين عبدوا من دون الله -تبارك وتعالى- وقال لهم: ما ذكرته آنفًا وما أشار الله -عزّ وجلّ- لهذه الآيات هذا هو خلق الله وحده: ؟ هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ؟ ما أشار رب العالمين -سبحانه وتعالى- إليه في هذه الآية السابقة، وما أشار إليه في آيات القرآن الكريم من أشياء أودعها فيه، وهذا الكون كله خَلَقَهُ رب العالمين -سبحانه- وهو الذي يدبر أمره -سبحانه وتعالى جل في علاه- وما عَبَدَهُ الناس من دون الله -تبارك وتعالى- لم يخلقوا شيئًا، فكيف سَاغَ لإنسان أن يلجأ ويعبد غير رب العالمين -سبحانه وتعالى جل في علاه.

الله -عزّ وجلّ- يُوَجِّه ويَلْفِت نظر المشركين قائلا بعدما ساق شيئًا من بيان عظمته وكمال قدرته: ما تشاهدونه وما بَيَّنَهُ لكم رب العالمين، وما ذكره لكم ربكم في القرآن الكريم هو خلق الله وحده، أين شركاؤكم الذين تزعمون أنهم مع الله -تبارك وتعالى- ولذلك قال الله -عزّ وجلّ: ؟ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ؟، والمراد بالظالمين هنا مَنْ؟ هم المشركين، والله -عزّ وجلّ- كثيرًا ما يؤاخذ هؤلاء المشركين ويبين لهم ضلالهم عندما عبدوا مِنْ دون الله -تبارك وتعالى- مَنْ لا يشارك رب العالمين -سبحانه وتعالى- في خلقه: ؟ أَفَمَن يَّخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ؟ [النحل: ١٧] وقال سبحانه: ؟ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ؟ [الفرقان: ٣].

كيف تعبدون آلهة أو تتخذون من دون الله آلهة، هذه الآلهة ما خلقت شيئًا، وهي في واقع أمرها مخلوقة خلقها رب العالمين -سبحانه وتعالى- فكيف تلجؤون إليها وتتركون الخالق المدبر الحكيم -سبحانه وتعالى جل في علاه.

أنتقل بعد ذلك إلى المحور التالي في هذا اللقاء وهو بعنوان: لقمان الحكيم صاحب البصيرة والفقه في الدين: وتحت هذا المحور ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى:

؟ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ للهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ؟، هذا السورة الكريمة سُمِّيَتْ بسورة لقمان لذكره فيها -رضي الله تعالى عنه- وذكر وصاياه الحكيمة التي ذَكَرَهَا رب العالمين -سبحانه وتعالى- عنه في كتابه، ولنا وقفات طويلة مع هذه الآية الكريمة المباركة:

أولا: نَسَبُ لقمان، من لقمان هذا؟ اختلف أهل العلم فيه، فقال بعضهم -يعني في نسبه: هو لقمان بن باعُورَاء وقالوا بأنه يصل نسبه إلى آزر ألا وهو أبو إبراهيم -عليه السلام.

وقيل: كان لقمان هذا ابن أخت أيوب، وقد رَجَّح الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى- أنه كان في زمن داود، أما الحافظ ابن كثير -رحمه الله تبارك وتعالى- فقال بأنه هو لقمان ابن عَنْقَاء بن سَدُول، وقيل: كان نوبيًّا، وقيل: كان حبشيًّا، وقد ذَكَرَ ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- بأنه كان عبدًا حبشيًّا نجارًا، هكذا قال في صفته، قال

في صفته عبد الله بن عباس بأنه كان عبدًا من العبيد، وأنه كان من بلاد الحبشة، وبعضهم قال: كان من بلاد النوبة، وأنه كان يعمل في مهنة النِّجَارة.

أيضًا هل هو نَبِيّ أم ليس بِنَبِيّ؟ اختلف أهل العلم، وقد ذكر ذلك أيضا الحافظ ابن كثير -رحمه الله تبارك وتعالى- اختلفوا في نُبُوَّتِهِ، والراجح -إن شاء الله تبارك وتعالى- أنه لم يكن نَبِيًّا؛ يعني الراجح أنه كان عبدًا صالِحًا فتح رب العالمين -سبحانه وتعالى- عليه، ولذلك الإمام الحافظ ابن كثير قال: اختلف السلف في لقمان، هل كان نَبِيًّا أو عبدًا صالِحًا من غير نُبُوَّة؟ قال على قولين: الأكثرون على الثاني؛ يعني الأكثرون من أهل العلم على أنه كان عبدًا صالِحًا.

نأتي بعد ذلك إلى بعض مفردات هذه الكلمة الواردة في هذه الآية، قال الله -عزّ وجلّ: ؟ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ ؟ فالذي يتفضل على عباده مَنْ؟ هو الله -تبارك وتعالى- لأن الله -عزّ وجلّ- نَسَبَ ما أعطاه لِلُقْمَانَ إلى نفسه فقال: ؟ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ؟ ما الحكمة؟ وما معناها؟ الحكمة في اللغة بمعنى المنع، ولذلك عندما تَكَلَّمَ أهل العلم من أهل اللغة عن هذه الكلمة قالوا بأنها تمنع من الجهل ومن الظلم أخلاق الأراذل؛ لأن هذا هو معنى الكلمة؛ أعني "حَكَمَ" الحاء والكاف والميم في اللغة العربية، أما معناها في الاصطلاح فقد وردت في القرآن الكريم على عدة معانٍ:

المعنى الأول: مواعظ القرآن، ومن ذلك ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ ؟ [البقرة: ٢٣١]، وأيضا بمعنى العلم والفهم، وذلك في قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ؟ [مريم: ١٢]، ومن معانيها أيضًا النُّبُوَّة، وهذا كما جاء في قوله تعالى: ؟ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ؟ [ص: ٢٠].

أما الإمام الحافظ ابن القيم -رحمه الله تبارك وتعالى- فقد فَصَّلَ في كلمة الحكمة تفصيلاً دقيقًا، فقال: الحكمة وردت في كتاب الله -تبارك وتعالى- على حالتين: إما أن تأتي مفردة وإما أن تأتي مقرونة، إما أن تأتي كلمة الحكمة مفردة كما -مثلا- هنا: ؟ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ؟ أو تأتي مقرونة بالكتاب، فإذا جاء لفظ الحكمة أو وَرَدَ لفظ الحكمة في القرآن الكريم مفردًا فيكون معناها العلم والفهم والنبوة؛ يعني ما سبق من معاني اصطلاحية ذكرتها، أما إذا قُرِنَت بالكتاب فيكون معناها سُنَّة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وهذا كما جاء في قول الله -تبارك وتعالى: ؟ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ ؟ [الأحزاب: ٣٤] فلما قُرِنَت الحكمة هنا بآيات الله -تبارك وتعالى- أصبح معناها السُّنَّة، ويقول أيضا ابن القيم -رحمه الله- بعدما ذكر هذا التفصيل قال: وأحسن ما قيل في الحكمة قول مجاهد ومالك: إنها معرفة الحق والعمل به، والإصابة في القول والعمل، وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن والفقه في شرائع الإسلام، وحقائق الإيمان، هذا عن الحكمة، ؟ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ؟.

الحكمة وصفها رب العالمين -سبحانه وتعالى- بِخَيْرِيَّةٍ واسعة فقال: ؟ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ؟ [البقرة: ١٦٩] إذن لقمان -عليه السلام- بناء على ذلك آتاه الله -تبارك وتعالى- خيرًا كثيرًا، وكل من وَسَّعَ رب العالمين -سبحانه وتعالى- عليه بالفهم ودقائق الأمور فهو على خير عظيم، ونقول هذا حتى يَطْمَئِنَّ أهلُ العلم، وحتى يعرف طلبة العلم أنهم على خير عميم عظيم عندما يفهمون ويتعلمون معاني القرآن الكريم والسنة النبوية، حتى يحصلوا على الفقه أو الفهم أو الحكمة منهما، وأن هذا هو الخير المراد الذي قَصَدَهُ رب العالمين -سبحانه وتعالى- لأنه لم يَقُلْ أحد بأن من معاني الحكمة الدنيا الواسعة أو الثراء الواسع أو غير ذلك مما قد يتطلع إليه بعض الناس اليوم، فالحكمة إما أنها مواعظ القرآن، أو الفهم، أو العلم، أو الفصل بين الناس، أو النبوة وغير ذلك من المعاني العظيمة التي وردت في كتاب الله أو سنة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم.

كلمة "الحكمة" في هذه الآية عَقَّبَ رب العالمين -سبحانه وتعالى- عليها بقوله: ؟ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ؟، فكأن الحكمة بكلِّ خَيْرِيَّتِهَا المذكورة في قوله تعالى: ؟ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ؟ هي شكر الله -تبارك وتعالى- وهذا يدفعنا إلى أن نفهم معنى الشكر، وأن الشكر عظيم للغاية، ومعنى جليل خاصَّة من خلال هذه الآية؛ لأن الله -عزّ وجلّ- أولا قال: ؟ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ؟؛ يعني أن الجزاء من جنس العمل، بَيَّنَ لك الله -عزّ وجلّ- أن الحكمة التي أعطاها الله -تبارك وتعالى- لِلُقْمَانَ -عليه السلام- شَمِلَت بكلِّ خَيْرِيَّتِهَا كلمة: ؟ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ؟، ومن شكر ربه ومولاه فقد عاد ذلك على نفسه، المعنى الدقيق الذي نَوَدُّ أن نفهمه من هذه الآية: أن الشكر هنا بمعنى الإيمان المقابل للكفر، والدليل على ذلك أن الله -عزّ وجلّ- بعدما قال: ؟ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ؟ عَقَّبَ عليها بقوله: ؟ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ؟ والشكر يأتي في القرآن بمعنى الإيمان، وذلك إن كان مقابلاً للكفر، ونعني به أن يكون الإنسان الذي لم يشكر الله -تبارك وتعالى- إما جاحِدًا لربه ومولاه أو مستكبرًا عن تلقي آيات الله -تبارك وتعالى- أو مُعْرِضًا عنها بالكلية، فهذا لا شك يكون غير شاكر لله -تبارك وتعالى- ويكون قد كفر بهذا الإعراض والتولي والجحود لما جاء من عند رب العالمين -سبحانه وتعالى- والدليل على أن الشكر يأتي في القرآن الكريم بمعنى الإيمان، أن بني إسرائيل طلبوا من نبيهم موسى -عليه السلام- أن يروا ربهم جهرة: ؟ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ؟ [البقرة: ٥٥] ماذا كان من شأنهم لما فعلوا ذلك أو طلبوا ذلك: أخذهم الله -تبارك وتعالى- مباشرةً، وأراد رب العالمين أن يريهم بأسه وجبروته وقوته عندما صعق جموعهم في لحظة، ثم أعادهم إلى الدنيا من جديد: ؟ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ ؟ بعدها قال ماذا: ؟ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ؟ [البقرة: ٥٦]، معنى ؟ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ؟ هنا: لعلكم تؤمنون، لأن هؤلاء لم يسبق لهم إيمان ليكون الشكر فرعًا له، بل إن كفرهم كان من أشد وأعْتَى أنواع الكفر عندما اشترطوا على نبيهم لإيمانهم رؤية ربهم جهرة، وبعدما ذكروا ذلك -وهذا كفر وعناد- وبعدما أخذهم رب العالمين -سبحانه- وبعثهم قال: ؟ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ؟، يعني لعلكم تؤمنون؛ لأن هؤلاء ليسوا على شيء من الإيمان أصلاً، فدلَّ ذلك على أن الشكر يأتي في القرآن الكريم بمعنى الإيمان، وهنا لا بد من أن أُنَبِّهَ على أمرٍ مُهِمٍّ للغاية، طالما أنني ذكرت معنى من المعاني العظيمة للشكر الواردة في القرآن وأقمت الدليل عليه، والأدلة على ذلك كثيرة كقول الحق -تبارك وتعالى: ؟ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ؟ [إبراهيم: ٧].

فلا بد أن أقول لو أن مسلمًا مؤمنًا يؤمن بالله -عزّ وجلّ- حَصَلَت له نعمة، أو جد له أمر من الله -تبارك وتعالى- ولكنه لم يشكر، أو قصر في الشكر هل يكون هنا قد كفر بالله -عزّ وجلّ-؟ أقول: لا؛ لأن أصل الإيمان موجود عنده، فهو لم يجحد رب العالمين سبحانه، ولم يعرض ولم يتولَّ أو يستكبر عن آيات الله، ولكنه قَصَّرَ في العمل، وأهل العلم يستدلون على ذلك بالآية الواردة في سورة النحل: ؟ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ؟ [النحل: ١١٢] قال هنا: فكفرت بأنعم الله ولم تكفر بالله، وهذا كفرٌ أصغرُ، فالعبد المؤمن برب العالمين -سبحانه- إذا فَرَّطَ في حق ربه ومولاه بترك الشكر الواجب عليه لله -تبارك وتعالى- يكون بذلك مقصِّرًا ومفرِّطًا ومتوعَّدًا بعذاب الله -عزّ وجلّ- ولكنه لا يخرج بذلك عن الإيمان، وأنا أردت أن أُنَبِّهَ على هذا التنبيه بعد أن ذكرت أن الشكر في القرآن الكريم يأتي بمعنى الإيمان، أرجع إلى الآية مرة أخرى لأقرأها بين أيديكم الآن: ؟ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ؟ إذن أعطى الله -عزّ وجلّ- لقمان الحكمة وهي شيء عظيم للغاية ذَكَرْتُ بعضَ معانيها فيما مضى، والحكمة التي أعطاها الله -عزّ وجلّ- للقمان -عليه السلام- تمثَّلت في قوله: ؟ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ؟ وهذا يدعونا إلى وجوب الإيمان بالله -عزّ وجلّ- وإلى عبادة ربنا -سبحانه وتعالى جل في علاه- وأن العبد إما أن يكون من الجاحدين وبذلك يكون من الكافرين، وإما أن يكون من المفرِّطين المقصِّرين وهو بذلك أيضا متوعَّد من رب العالمين -سبحانه وتعالى جل في علاه- وأكتفي بهذا، وصلِّ اللهم وسلِّم وبارك على نَبِيِّنَا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بالنسبة لسؤالي الحلقة السابقة كان السؤال الأول: اشرح قول الله -تعالى: ؟ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ؟؟

وكانت الإجابة: يُخْبِر الله –تعالى– عن حالة الخلق وأنهم مع هذه النِّعَم بإحياء الأرض بعد موتها ونشر رحمة الله –تعالى– لو أرسلنا على هذا النبات الناشئ عن المطر وعلى زُرُوعِهِم ريحا مُضِرَّة مُتْلِفَة تُتْلِفُ الزرع "فرأوه": أي الزرع "مصفرًّا" قد تداعى إلى التَّلَف "لظلوا من بعده يكفرون" فينسون النعم الماضية ويستمرون في كفرهم بالله –تبارك وتعالى.

الجواب صحيح.

السؤال الثاني: الخطاب في قول الله –تعالى: ؟ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ ؟ للنبي –صلى الله عليه وسلم– فهل هو المقصود به أم ماذا، أيِّد ما تقول بالدليل؟

وكانت الإجابة: الخطاب في قول الله –تعالى: ؟ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ ؟ يشمل أمة النبي –صلى الله عليه وسلم– لأنه ليس كل ما نُهِيَ عنه النبي –صلى الله عليه وسلم– ومن ذلك: ؟ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ؟ [القصص: ٨٧] ومن المعلوم أنه –صلى الله عليه وسلم– لم يشرك، ولن يشرك، وكذلك قول الله –تعالى: ؟ فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ ؟ [الإسراء: ٢٣] ومن المعلوم أنه –صلى الله عليه وسلم– قد مات أبويه وهو صغير قبل النبوة.

هذا جواب صحيح، ولكن يجب أن نوضح بأن هذا من باب التشريع للأمة؛ يعني عندما يوجه رب العالمين الخطاب للنبي –صلى الله عليه وسلم– بأمثال ذلك هو في هذا أراد أن يُشَرِّع لأمة النبي –صلى الله عليه وسلم– كي تتأمل وتقف ما نهى رب العالمين –سبحانه وتعالى– عنه والله أعلم.

يقول: في قول الله –عزّ وجلّ: ؟ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ؟ هل من الممكن أن يُحْمَل هذا المعنى على الغِيبَة والنَّمِيمَة؟

على كُلٍّ.. لعل الرأي الراجح –وقد ذكرته– الذي قاله الإمام ابن جرير –رحمه الله تعالى– بأن "لهو الحديث" يشمل كل كلام باطل يَصُدُّ عن سبيل الله –تبارك وتعالى– هذا هو القول الراجح في هذه المسألة، وجميع المفردات التي ذكرناها في معناها إن كانت هي الشرك، أو ذكرنا مثلا بأنها هي الغِنَاء أو غير ذلك يدخل في الكلام الباطل، ومنه ما ذكرت الآن الغِيبَة والنَّمِيمَة.

يقول: في قول الله –عزّ وجلّ: ؟ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ؟ [النمل: ٤٠] هل الشكر هنا بمعنى الإيمان؟

نعم نعم، الشكر هنا بمعنى الإيمان، وقد عَقَّبَ: ؟ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ؟ [النمل: ٤٠] أيضًا ليؤكد هذا المعنى.

يقول: بما نَرُدُّ على من لا يأخذ بقول الصحابي بتفسيره لقوله تعالى: ؟ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ ؟؟

في الحقيقة نَرُدُّ عليه بأن نعلمه أولا منزلة الصحابة، ولذلك لهذا السؤال أَوَدُّ أو أقول كلمة عن هؤلاء الصحابة تَعَلَّمْنَاهَا من أئمتنا ومشايخنا –رحمهم الله– أن الصحابة –رضوان الله تعالى عليهم أجمعين– هم أَوْلَى الناس وأفضل الناس الذين عايشوا النبي –صلى الله عليه وسلم– وشاهدوا الوحي، وعاصروا التنزيل، وفهموه فهمًا صحيحًا سليمًا من النبي –صلى الله عليه وسلم– وطبقوه تطبيقًا عمليًّا صحيحًا –رضوان الله تعالى عليهم أجمعين– ولذلك أهل العلم جميعا على تقديم قول الصحابي على غيره، يُقَدَّم قول الصحابي على قول غيره؛ لأنه

شَاهَدَ وعَاصَرَ القرآن الكريم والنبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يتكلم ويشرح معاني القرآن الكريم، فهم أفقَهُ الناس بآيات كتاب الله وبما جاء عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم.

أسئلة المراجعة

السؤال الأول:

ما المراد بلهو الحديث في قوله تعالى: ؟ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ؟ وما معنى: ؟ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ ؟ بضم الياء وفتحها؟

السؤال الثاني:

هل كان لقمان نَبيًّا؟ وما معنى الحكمة التي أعطاه الله إياها، وما معناها إذا وَرَدَت مفردة وإذا قُرِنَت بالكتاب؟

الدرس الثالث والعشرون

تفسير سورة لقمان

من الآية ١٣ إلى الآية ٢١

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أما بعد.

يسعدنا -إن شاء الله تبارك وتعالى- أن نستمر في سياق الحديث عن سورة لقمان كما جاءت في كتاب ربنا -سبحانه وتعالى الرحمن- وسأتحدث أيضًا في الآيات التي سنستمع إليها بعد قليل -إن شاء الله تبارك وتعالى- حول محورين:

المحور الأول: وصايا لقمان الحكيم لابنه.

أما المحور الثاني فهو بعنوان: رب العالمين يعدد بعض نعمه على عباده ويحذرهم من اتِّبَاع آبائهم الأقدمين، ولنستمع الآن إلى هذه الآيات من الأستاذ عبد الرحمن فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؟ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ؟١٣؟ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ؟١٤؟ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؟١٥؟ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ؟١٦؟ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ؟١٧؟ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ؟١٨؟ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ؟١٩؟ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ؟٢٠؟ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ؟ [لقمان: ١٣: ٢١]

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، اللهم صلِّ وسلِّم وبارك وأنْعِم على عبدك ورسولك ومصطفاك وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم وسلك سبيلهم إلى يوم الدين وبعد.

في اللقاء الماضي كنت تحدثت عن آخر آية جاءت في اللقاء ألا وهي قول الحق -تبارك وتعالى- ؟ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ؟ وفي هذا اللقاء -إن شاء الله تبارك وتعالى- سنبدأ بحديث عن وصايا لقمان الحكيم، فبعد أن وصفه الله -تبارك وتعالى- بالحكمة ذكر عنه وصاياه التي قالها لابنه، وفي ذلك يقول الحق -تبارك وتعالى: ؟ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ؟ الله -عزّ وجلّ- في أول هذه الآية يبدأ بِذِكْر أول وصية أَوْصَى بها لقمان ابنه، ولا شك أن الإنسان إذا أراد أن يوصي بشيء يهتم في هذه الوصية، يهتم بها ويهتم بالشيء الذي يوصي به؛ لأن عنده شفقة وعنده رحمة على من يوصي له، فما بالك إن كان هذا الذي يَوَدُّ أن يوصي إليه الإنسان هو ابنه وَفَلْذَةَ كَبِدِه، لا شك أنه سيقدم إليه أفضل ما يجب، وأنفع ما يراه مناسبا له، وهذا ما فعله لقمان -عليه السلام- قَدَّمَ لابنه وصايا عظيمة نافعة، تشتمل هذه الوصايا على جوانب ثلاثة:

الجانب الأول: الجانب العَقَدِي.

الجانب الثاني: الجانب العِبَادي.

الجانب الثالث: الجانب الأخلاقي.

وبدأ رضي الله -تعالى- عنه بأهم هذه الجوانب على الإطلاق ألا وهو الجانب العَقَدِي الذي يتعلق بإفراد رب العالمين -سبحانه وتعالى- بالوحدانية، وعدم الإشراك به -جَلَّ في عُلاه- ولذلك كانت أول وصية وَصَّى بها لقمان ابنه قائلا: ؟ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ؟ ما الشرك؟ الشرك كما فَسَّرَه أهل العلم وعلى رأسهم نبي الهدى والرحمة -صلى الله عليه وآله وسلم- كما في حديث ابن مسعود في الصحيحين وغيرهما: (أن تجعل لله نِدًّا وهو خلقك)، الشرك أن يجعل العبد لله شريكًا أو شبيهًا أو نظيرًا أو مساويًا، يعبده كما يعبد الله، أو يصرف له بعض أنواع العبادة من دون الله أو مع الله -تبارك وتعالى- الشرك خطير، وضرره خطير، وهو أخذ حق الله -عزّ وجلّ- ومنحه لمن لا يستحق من المخلوقين المربوبين لرب العالمين -سبحانه وتعالى- وهو أعظم ذنب خالف فيه العبد ربه -سبحانه وتعالى- ومولاه، أعظم ذنب على الإطلاق يقع فيه الناس هو الشرك بالله -تبارك وتعالى- لأن الشرك -كما ذكرت- هو أن تأخذ حق الله -عزّ وجلّ- الخالص الصافي الذي يجب أن يكون له وحده، ثم بعد ذلك تضعه أو تعطيه لغير الله -تبارك وتعالى- ولذلك فالشرك من أعظم الذنوب على الإطلاق، والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- هو الذي فَسَّرَ لنا أن الشرك ظلم عظيم في سياق الآيات التي جاءت في وصايا لقمان -عليه السلام- وذلك لما نَزَلَ قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ؟ [الأنعام: ٨٢]، لما نزلت هذه الآية شَقَّت على نفوس الصحابة وقالوا للنبي -عليه الصلاة والسلام: "وأَيُّنَا لم يظلم نفسه يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم" لأنك لو رفعت يدك على أخيك تكون قد ظلمته، ولو أخذت قلما من جيبه هذا تكون قد ظلمته، لو أَسَأْتَ إليه بنظرةٍ لا تليق أو بكلمة قبيحة تكون قد ظلمته، والله عندما يقول: ؟ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ؟ يشترط ألا يلبسوا إيمانهم بظلم، إذن يفهم الإنسان من ذلك أن الأمن والاهتداء منتفٍ عن الجميع بإطلاق؛ لأنه لا يوجد إنسان يَسْلَم من ظلمٍ ما، هكذا فَهِمَ الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

فلما ذكروا ذلك للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال (ليس الظلم الذي تعنون)، ليس الظلم الوارد في هذه الآية هو الظلم الذي تعنونه وتقصدونه مما أشارت إليه الآية، من ظلمك لأخيك، أو تطاولك عليه، أو أخذك حقًّا ليس لك، أو غير ذلك، إذن ما الظلم يا رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال: (ألم تقرؤوا قولَ العبد الصالح: ؟ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ؟).

بَقِيَ أن أقول من باب التحذير من الشرك:

الشرك ينقسم إلى قسمين: شرك أكبر، وشرك أصغر، الشرك الأكبر هو الشرك في العبادة، والمحبة والخوف والرجاء ودعاء غير الله -تبارك وتعالى- وغير ذلك، هذا هو الشرك الأكبر، أما الشرك الأصغر فهو: كيسير الرياء، والتَّصَنُّع للمخلوق، أو الشرك في الألفاظ، كالْحَلِف بغير الله -تبارك وتعالى- أو أن يقول القائل مثلا: ما لي إلا الله وأنت، أو غير ذلك مما يَدْرُج على ألسنة بعض الناس، هذا الشرك بنوعَيْه أكبر وأصغر نَوَدُّ أن نعرف حكم الشرك الأكبر ماذا؟

الشرك الأكبر خطير للغاية، وعاقبته أيضًا خطيرة، وعلى رأسها أنه مُخْرِج من الملة، فالمشرك شركًا أكبر ليس على ملة الإسلام، خرج من ملة الإسلام، الأمر الثاني من خطورة الشرك أن الله -تبارك وتعالى- لا يغفر لمشرك أبدًا، الأمر الثالث: أن الله -عزّ وجلّ- حَرَّمَ الجنة على كل مشرك.

الدليل على الأمر الثاني والثالث ما جاء في قول الله -تبارك وتعالى: ؟ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَّشَاءُ ؟ [النساء: ٤٨]، دل ذلك على أن الشرك لا يغفره الله البتة، أما الأمر الثالث أن الجنة مُحَرَّمة على المشركين، ما جاء في قول رب العالمين: ؟ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ؟ [المائدة: ٧٢]، أما الشرك الأصغر: فهو من أكبر الكبائر، وهو محبط للعمل الذي يصاحبه، فالرياء يُحبط العمل الذي يصاحبه وغير ذلك، وعلى المسلم أن يسعى في ألا يقع في نوعي الشرك عموما، ولكنه يحذر غاية الحذر من الوقوع في الشرك الأكبر؛ لأنه مُخْرِج من الملة، والعياذ بالله -تبارك وتعالى.

ثم يستمر السياق القرآني الكريم لِيُبَيِّنَ بقية وصايا لقمان -عليه السلام- وفي ذلك يقول الله -عزّ وجلّ: ؟ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ؟، بعد أن صَدَّرَ لقمان -رضي الله تعالى عنه- وصاياه بالأمر بالتوحيد، والتحذير من الشرك، أَتْبَعَ هذه الوصية بوصية الإحسان إلى الوالدين، الإمام القرطبي -رحمه الله تبارك وتعالى- يقول: "هاتان الآيتان؛ أعني ؟ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ ؟، والآية التالية: ؟ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي ؟ قال: هاتان الآيتان معترضتان وصايا لقمان، وهما من كلام الله -تبارك وتعالى- هاتان الآيتان من كلام الله -عزّ وجلّ- وجاءتا معترضتان وصايا لقمان -عليه السلام- لابنه، وقيل: هما من وصايا لقمان -عليه السلام- ولكن الله -عزّ وجلّ- أخبر بهما.

ولا شك أن الأمر سواء كان من كلام الله -عزّ وجلّ- أو أنهما من وصايا لقمان فالأمر بالإحسان إلى الوالدين جاء في القرآن الكريم، ولا شك أن وصايا لقمان -عليه السلام- في الجملة تشمل البر والإحسان إلى الوالدين، وفي ذلك يقول الله -عزّ وجلّ: ؟ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ؟، الله -عزّ وجلّ- وَصَّى كل إنسان بوالديه في القرآن الكريم كثيرًا، وقد أشرت إلى ذلك في سورة العنكبوت، ولذلك لن أقف عند ذلك طويلا؛ لأن الآيات التي معنا تحتاج إلى أن نُنْهِيَهَا -إن شاء الله تبارك وتعالى- في هذا اللقاء، ولكن الله -عزّ وجلّ- أشار إلى بعض الأسباب التي جعلت رب العالمين -سبحانه وتعالى- يأمر أو يُوصي بالوالدين، من ذلك ما يلاقيه الوالدان من مشقة وتَعَب خاصة الأمّ، قال الله -عزّ وجلّ- في شأنها: ؟ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا ؟، الحمل له مشاكل وله مضاعفات، ولذلك قال الله -عزّ وجلّ- وَهْنًا على وَهْن، قال أهل العلم: يعني ضعفًا على ضعف، لأنه كلما تَقَدَّمَ الحمل بالمرأة ازْدَادَت الصعوبة عليها والمشقة التي تواجهها نتيجة هذا الحمل، ومن المسائل التي أشار إليها القرآن بعد الحمل التَّرْبِيَة والرَّضَاعَة، قال تعالى: ؟ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ؟، يعني تربيته وفطامه يكون في عامين، والله -عزّ وجلّ- قد ذكر في كتابه: ؟ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ؟ وفي سورة الأحقاف قال الله -تبارك وتعالى: ؟ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا ؟ [الأحقاف: ١٥].

ومن هنا استدل حَبْر هذه الأمة الإمام ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- ومعه بعض أهل العلم إلى أنَّ أَقَلَّ مُدَّةِ حَمْلٍ ستَّةُ أشهُرٍ من هذه الآية؛ لأن الله -عزّ وجلّ- قال بأن الرضاعة تقع في سنتين، ثم جَمَعَ بَيْنَ مدة الرضاعة ومدة الحمل وقال بأنهما في ثلاثين شهرًا، فلما نأتي ونحسب أربعةً وعشرين شهرًا "وهي مدة الرضاع" من الثلاثين سنجد أنها ستة أشهُر، وهذا في الحقيقة مؤيد بالواقع اليوم كما -أيضًا- العلم الحديث أكد ذلك وبَيَّنَه.

بعد هذا قال الله -عزّ وجلّ: ؟ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ؟ الله -عزّ وجلّ- بعدما أوصى الإنسان أو بني الإنسان بإطلاق بالبر والإحسان إلى الوالِدَيْن أَمَرَ الله -عزّ وجلّ- بأن يشكره الإنسان وَأَمَرَ الإنسان أيضًا أن يشكر والِدَيْه، قال أهل العلم: شُكْرُ الله -عزّ وجلّ- على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، وعلى رأسها نعمة الإيجاد أولا، ثم الهداية والتوفيق أو إرسال الأنبياء والمرسلين لمن لم يهتدِ، فبعثة الأنبياء والمرسلين نعمة من الله -عزّ وجلّ- تستوجب الشكر، أما شُكْرُ الوالدين بسبب ما قَدَّمَاهُ لهذا الإنسان، والآية قد أشارت إلى شيء من ذلك، ويكفي التربية والإعداد والسعي على الإنسان وليتمكن أن يكسب قوت يومه، كل هذه أمور تدفع العبد دفعا إلى أن يشكر والِدَيْه على ما قَدَّمَاهُ له.

ثم يقول الله -عزّ وجلّ- مُبَيِّنًا أمرًا يقع فيه أيضًا بعض الناس، عندما يواجه الإنسان مثلا وهو مسلم أبًا أو أمًّا ليْسَا على الإسلام، قال: ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا ﴾ التعبير بكلمة "جاهداك" يفيد أن هناك أيضًا صعوبة قد تواجه الإنسان، وأن الأب أو الأم أحيانا ما يدفعان الابن أو الابنة دفعا إلى الوقوع في الانحراف والضلال والشرك بالله -عزّ وجلّ- أو الكفر، إن كان الواحد منهما على شيء من ذلك، تقع مجاهدة بين الابن وبين أبيه، أو بين البنت وبين أمها، على أي شيء؟ على الوقوع في الشرك والكفر والعياذ بالله -تبارك وتعالى.

الله -عزّ وجلّ- لما أمر بالوصية ولما أمر بشكر الوالدين، قد يفهم إنسان أن هذا الأمر على إطلاقه، وعلى العبد أو على المرء أو على الإنسان أن يُتابع والِدَيْه في كل أمر حتى ولو كان هذا الأمر يوقع الإنسان في الكفر والشرك بالله -تبارك وتعالى- ولذلك جاءت هذه الآية لتحذِّر من ذلك: ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا ﴾ لأن الطاعة في المعروف، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، الآية مع بدايتها هذه مع أنها تنهى الإنسان عن متابعة والديه في الكفر أو الشرك أو الضلال أو الانحراف تُشير أيضًا إلى البر والطاعة في غير ذلك، وقد أخذ بعض أهل العلم هذا المعنى من قول الله -تبارك وتعالى: ﴿ فَلاَ تُطِعْهُمَا ﴾ وأَخُصُّ بالذكر من هؤلاء الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السَّعْدِي -رحمه الله تبارك وتعالى- قال: قال الله -تبارك وتعالى: ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا ﴾ ما قال الله -عزّ وجلّ- فَعُقَّهُمَا؛ لأن المفروض في مثل هذه الآية ألاَّ يكون هناك وفاق، ولكنه قال: ﴿ فَلاَ تُطِعْهُمَا ﴾ يعني في هذه الحالة، على أن يبقى البر والإحسان والمعروف والطاعة في غير ذلك، وأكَّدَ على هذا بقوله: ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ نحن الآن في هذه الآية أمام مواجهة بين مؤمن وبين كافر؛ يعني بين رجل مؤمن، أو امرأة مؤمنة، أو ولد مؤمن، أو بنت مؤمنة، وبين أب كافر أو أمّ كافرة، الله -عزّ وجلّ- أَمَرَنَا في القرآن الكريم ألا نطيعهما في شيء من الشرك أو الكفر، ولَمَّا ذكر ذلك بَيَّنَ مع مَنْ يسلك الإنسان، ومع مَنْ يكون الإنسان عندما يخالف مَنْ هم على الشرك والكفر والطغيان، قال بعد ذلك: ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾؛ يعني من أناب ورجع إلى الله -تبارك وتعالى- وتاب، هذا من أهل الإيمان، فعلى المؤمن أن يكون معه، وأن يسير في رِكَابه، هذه توصية من الله -تبارك وتعالى- أو إشارة عندما ذكر رب العالمين ما يَحدث بين الابن وبين أبيه، والله -عزّ وجلّ- قد أتى بهذا المعنى في آيات أخرى من كتابه كقول الحق -تبارك وتعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥].

إذن نحن مطالبون بأي شيء؟ وبأن نَتَّبِعَ سبيل مَنْ؟ بأن نَتَّبِعَ سبيل المؤمنين، وعلى رأس المؤمنين مَنْ؟ نبينا -صلى الله عليه وسلم- ومن تَبِعَ النبيَّ وصاحب النبيَّ -صلى الله عليه وآله وسلم- من الصَّحْبِ الكرام، ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾؛ يعني أن الله -عزّ وجلّ- طلب فيه مجاهدة، هنا فيه فريقان؛ فيه مؤمن صالح أناب إلى الله -عزّ وجلّ- وكافر طالح يدعو إلى الكفر والشرك بالله -عزّ وجلّ- ورب العالمين وضع الموازين الدقيقة في ذلك، خاصة مع الوالدين، قال: لا تطعهما في الكفر والشرك والضلال والانحراف، ولكن كن معهما سائرًا بالبر والخير والمعروف، وجميعًا؛ يعني الأب والأم والولد والبنت الكل سيرجع إلى الله -تبارك وتعالى- فعلى العبد أن يوازن بين أموره في المصلحة إذن، وأن لا يجعله الشيطان يطغى فيطيع أحد والديه فيما حَرَّمَه ربه -سبحانه وتعالى- عليه من ألوان الطاعة، بل عليه أن يعرف أنه سيرجع إلى الله -عزّ وجلّ- فليحذر من الوقوع في أي أمر يخالف ما جاءنا أو ما جاء العبدَ من الله -تبارك وتعالى- أو من رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- لأن المرجع إلى الله وهو الذي سيحاسِب العباد وعندئذ سَيُنَبِّئ كل إنسان بما عمل، ولا شك أن صحائف الأعمال ستُعْرَض على العباد في يوم الدين، والله -عزّ وجلّ- لَمَّا ذَكَرَ ذلك جاء بعد هذا بِذِكْرِ وصية من لقمان الحكيم في غاية -أيضًا- من الروعة والجمال، وفي هذا يقول فيها لقمان لابنه مشيرًا إلى شيء من عظمة الله -عزّ وجلّ- لأنه يريد أن يقوم في قلب ابنه من التكريم ومن التقدير ومن المعرفة برب العالمين -سبحانه وتعالى- ما يَلِيق بجلال الله وكماله، حتى يندفع هذا الابن إلى معرفة الله سبحانه، وإلى عبادته وحده دون سواه.

يقول لقمان لابنه في هذه الوصية: ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ أراد لقمان -كما ذكرت- أن يُوقِف ابنه على شيء من قدرة رب العالمين -سبحانه وتعالى- فذكر له هذا الأمر: ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ ذكَرَ "حبة"، والحبة في عرف الناس يسير أو كبير؟ يسير، فما بالك إن كانت هذه الحبة من خردل؟! تكون أيسر وأيسر، وذكَرَ أهل العلم بأن ذِكْر الخردل هنا: لأن الخردل ربما لا يكون له أثر حِسِّيّ في الميزان، فلو أنك الآن جئت تزن بميزان في الدنيا -وربنا يخاطبنا الآن بما نحن عليه في الدنيا- خَرْدَلاً، ثم جئت ورفعت من الميزان بعدما اكْتَمَلَت كَفَّتُه ونَزَلَت في مكانها، جئت أنت ورفعت حبة خردل هل هذا سيؤثر في الوزن؟ لا، أراد لقمان أن يشير له إلى شيء دقيق لا أثر له ولا شعور للإنسان به إن أُزيح عنه أو أزيل من ميزانه، ﴿ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾، وليس هذا فحسب، هي حبة صغيرة من خردل؛ يعني أنها متناهية في الحجم والقلة، بحيث أن الإنسان لا يستطيع أن يشعر بها ولا يُحس بها، فما بالُك إن كانت كذلك وهي مع هذا كائنة في صخرة صَمَّاء، كائنة في داخل صخرة صماء، وَذِكْر الصخرة هنا مقصود أيضًا؛ لأن الصخرة ثابتة، الصخرة جامدة، الصخرة لا تتحرك؛ لأنها لو شيء يتحرك فقد يحس الإنسان بما في داخلها، يعني من خلال صوت أو غير ذلك، ولكنها صخرة مكتملة صَمَّاء لا تتحرك، ولا تفيد عَمَّا بداخلها أبدًا؛ يعني لا يستطيع الإنسان أن يفهم ما بداخل هذه الصخرة، فما بالُك إن كان هذا الذي بداخلها وصل في غاية الصِّغَر إلى حبة الخردل؟!

وليس هذا فحسب، فحبة الخردل ماذا تُشَكِّل في أرجاء المعمورة من السماء والأرض؟ ﴿ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ ﴾ ما حجم السماء وما حجم الأرض؟ السماوات سبع والأرض أيضًا سبع مثل السماوات، حبة الخردل هذه ماذا تشكل في هذه السماوات السبع مع هذه الأرضين السبع، لا تشكل شيئًا، ومع كل ذلك قال الله -عزّ وجلّ: ﴿ يَأْتِ بِهَا اللهُ ﴾، هكذا لقمان -عليه السلام- يُبَيِّنُ لابنه سِعَةَ علم رب العالمين -سبحانه- وقدرة الله -عزّ وجلّ- والإنسان حينما يقف ويتعلم صفات رب العالمين -سبحانه وتعالى- هذا الأمر يدفعه إلى أن يعرف جلالة وعظمة وقدر رب العالمين -سبحانه وتعالى- وهذا من فوائد معرفة العبد بأسماء الله الحسنى وصفات الله العُلا، أن يصف الجلال والكمال لرب الأرباب -سبحانه وتعالى- جَلَّ في عُلاه.

قال لقمان لابنه: ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ قال: لطيف؛ يعني دقيق العلم، لَطُفَ علمُه ودق -سبحانه وتعالى جَلَّ في عُلاه- خبير حتى بدبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، رب العالمين -سبحانه وتعالى- بها خبير؛ يعني رب العالمين -سبحانه وتعالى- بها عليم، وهذه في الحقيقة من الفوائد العظيمة التي نتعلمها من وصايا لقمان لابنه.

ثم يستمر السياق في ذِكْرِ وصايا لقمان الحكيم لابنه فيتحدث معه بعد ذلك في وضوح عن الجانب العبادي، وإن كان الأمر أو الوصية بالوالدين تدخل أيضا في جانب العبادات، ولكن على الخلاف هل هي من كلام الله أو من كلام لقمان؟ نقول: هي على كُلٍّ في العبادات، ولكن يأتي هنا السياق ليتحدث عن أول العبادات التي يجب أن يلتزمها الإنسان بعد النطق بالشهادتين، أول عبادة يجب أن يلزمها الإنسان وأن يأتي بها وأن يقوم بأدائها لله -عزّ وجلّ- بعدما يدخل في دين الله -تبارك وتعالى- هو أن يُقيم الصلاة، ولذلك قال لقمان لابنه: ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ هذه المسائل المذكورة في الآية كلها ألوان من ألوان العبادة، وَصَّى لقمان بها ابنه وأولها إقامة الصلاة، والقرآن الكريم قد اعتنى بالصلاة كثيرًا، وأمر بإقامتها لله -تبارك وتعالى- في آيات كثيرة، وامتدح المؤمنين الذين يقيمون الصلاة له -سبحانه وتعالى جَلَّ في عُلاه- ولذلك في أول سورة البقرة التي تتشابه مع أول سورة لقمان قال الله -عزّ وجلّ- عن صفات المؤمنين: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ ﴾ [البقرة: ٣] فإقامة الصلاة ركن أساسي في دين الله -تبارك وتعالى- وهي فرصة -ولقمان عليه السلام يُوصِي ابنه بها- أن نُذَكِّر إخواننا المسلمين بضرورة الحرص والحفاظ على الصلوات الخمس التي شَرَعَهَا رب العالمين -سبحانه- وبَيَّنَهَا لنا نبينا -صلى الله عليه

وآله وسلم- وأن يقوم العبد بأدائها لله -عزّ وجلّ- متجردًا خالصًا على وفق هدي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وأن يحذر من التهاون فيها أو التكاسل في أدائها والله -عزّ وجلّ- قد تَوَعَّدَ من يتخلف عن الصلاة، ومن لم يَقُمْ بأداء الصلاة لله -تبارك وتعالى: ؟ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ؟٤؟ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ؟ [الماعون: ٤، ٥].

والله -عز وجل- ذَكَرَ المتخلفين عن الصلاة في سياق الذَّمّ والوعيد والتهديد ؟ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ؟ [مريم: ٥٩]، أما رب العالمين -سبحانه- فقد أمر أهل الإيمان بإقامة الصلاة، وعلى رأس مَنْ أمرهم الأنبياء والمرسلين، تأملوا مثلا عندما يقول رب العالمين -سبحانه وتعالى: ؟ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي ؟ [طه: ١٤]، ويقول للنبي -صلى الله عليه وسلم: ؟ أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ؟ [الإسراء: ٧٨]، وغير ذلك من الآيات الآمرة بالصلاة، وتأمر مَنْ؟ تأمر الأنبياء والمرسلين، ويجب أن نكون نحن لهم تَبَعًا.

ثم يأتي بعد ذلك أمر آخر من ألوان العبادات أيضًا وهو مهم، وعليه تقوم الأمة الإسلامية، وينتشر الخير والفضل فيها: ؟ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ؟، عماد الدين في الدعوة إلى الله -عزّ وجلّ- هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لماذا؟ لأن المسلم حتى عندما يلتزم ويقوم لله -عزّ وجلّ- الشيطان يلعب، ويوسوس، وشياطين الإنس تقوم، وأعداء الإسلام لا يسكتون، وبالتالي توجَد الانحرافات والمنكرات، وربما تقل أو تكثر في بعض المجتمعات، فلا بد من واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد أوجبه الله -عزّ وجلّ- كما ذكر ذلك نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- في سنته على المؤمنين: (من رأى منكم منكرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بيده) بصيغة الأمر هكذا، فَلْيُغَيِّرْهُ بيده، ودرجات إنكار المنكر هكذا في حديث النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وتكون على حسب استطاعة الإنسان، ولا بد أن يتعلم العبد فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن رأيت منكرًا في بيتك مثلا وكنت قادرًا على إزالته بيديك فافعل ذلك، فإن لم تقدر كأن يكون بين عامَّة الناس وليست لك ولاية عليهم، فعندئذ تنتقل من الإنكار باليد إلى الإنكار باللسان ما استطعت، إما لِغَلَبَة الظن عليك أنك ستُؤْذَى أو سيكون لك ولك ولك... أو ضَعُفَ إيمانُك وما استطعت، فأقل القليل أن تُنكر ذلك بقلبك، ويلزمك عندئذ ألا تُشارك هؤلاء الناس فيما هم عليه، وألا تُؤَازِرَهُم، وألا تسير في ركابهم، وأن تُعْرِض وأن تتولى عن مُنْكَرِهِم، ويجب على القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنْكَر أيضًا أن يَفهم النتيجة التي سيؤول إليها أمرُه بالمعروف ونهيه عن المنكر، فإن كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سيزيل المنكر بالكلية دون ضَرَر، وَجَبَ عليه إذن وعليه أن يقوم به، وإن كان سيُزِيل المنكر بنسبةٍ فَيخِفّ المنكر أيضا يجب عليه، وإن كان المنكر لن يزول إلا بمنكر يشابهه ويساويه ويناظره هنا أهل العلم يختلفون، يقولون: لا داعي منه؛ لأن المنكر في هذه الحالة لم يَزُل ولم يَخِفّ، وإنما أُزِيلَ المنكر وأقيم مكانه مُنْكَر آخر، يختلفون في هذا.

الدرجة الرابعة هو أن يَزِيد المنكر بعد الأمر بالمعروف، ففي هذه الحالة يجب عليك أن تتوقف عن إزالة المنكر؛ لأن الأمر بالمعروف في هذه الحالة سيؤدي أو سيؤول أمره إلى ضرر أعظم مما هو قائم.

ثم تستمر الآيات بعدما تأمر بالأمر والنهي عن المنكر، يأمر لقمانُ الحكيم بعد ذلك بالصبر، وهذا كلام دقيق، ويدل أيضًا على فقه لقمان؛ لأن الآمِر بالمعروف والناهي عن المنكر سيناله من الناس أذى، كل من يتعرَّض للناس ويواجههم بخير وهم على شرّ وضلال وانحراف لا شك أنهم سيواجهونه بألوان شتى متعددة من الأذى، وهذا الأذى الذي يمكن أن ينال الإنسانَ يحتاج إلى صبر يتذرع به في مواجهة هذه الشدائد، ولذلك لقمان مباشرة عَقَّبَ على أمره لابنه في وصيته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن قال له: ؟ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ؟، ما أصابك من جراء ماذا؟ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والله -عزّ وجلّ- قد أثنَى على الصابرين في كتابه ثَنَاءً عَطِرًا، أثنَى عليهم ومَدَحَهُم رب العالمين -سبحانه وتعالى- وأَخْبَرَ عن حبه لهم، فقال سبحانه: ؟ وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ؟ [آل عمران: ١٤٦] وقال سبحانه: ؟ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ؟ [البقرة: ١٥٣] وَأَمَرَ النَّبِيَّ -صلى

الله عليه وآله وسلم- بأن يصبر أيضا في مواطنَ متعددة، ؟ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ؟، ثم بَيَّنَ الله -عزّ وجلّ- بأن ذلك ؟ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ؟.

ثم بعد ذلك يستمر السياق من لقمان -عليه السلام- فيأمر ابنه بأخلاق مهمة للغاية، وذلك عندما ينهاه عن أخلاق سيِّئَة للغاية، ومن ذلك قوله: ؟ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ؟، ؟ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ؟؛ يعني لا تُعرِض بوجهكَ عن الناس، لا تَلْوِي عُنُقَكَ عن الناس لماذا؟ لأن أصل كلمة الصَّعَر: اللَّيّ، وهي تُطْلَقُ على البعير من الإبل إذا أصابه داءٌ يجعله يَلْوِي عُنُقَه، هذا الصَّعَر داءٌ يصيب الإبلَ في الأصل، يجعل البعيرَ يَلْوِي عُنُقَه، فالقرآن الكريم يُبَيِّنُ أن هذا خُلُق لا ينبغي أن يكون عليه الإنسان المؤمن، فلا يُعْرِض، ولا يُوَلِّي وجهه عن الناس إذا كلمهم أو كلموه، من باب الاستكبار، وإنما عليه أن يأتي إليهم، وأن يستبشر بهم، وأن ينزل إليهم، وأن يلقاهم بوجه جميل طليق، النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يقول: (تَبَسُّمُكَ في وجهِ أخيك صَدَقَة).

وهذه الأخلاق الجميلة التي دعا إليها لقمان -عليه السلام- أيضًا الإسلام حَثَّ عليها ودعا إليها أو لا؟ الإسلام حَثَّ عليها ودعا إليها، فمثلا لَمَّا قال الله -عزّ وجلّ- عن لقمان أنه قال لابنه: ؟ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ؟ نفهم من ذلك ذَمّ خُلُق الكِبْر والعياذ بالله -تبارك وتعالى- والله -عزّ وجلّ- قد ذَمّ الكِبْر في مواطن كثيرة، وكذلك النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ذَمّ المستكبرين في أحاديث متعددة، فمما جاء في القرآن الكريم في ذَمّ الكِبْر مثلا قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ؟ [غافر: ٦٠]، بل إن الله -عزّ وجلّ- أخبر بأنه سيصرف وجوه وقلوب المستكبرين عن الحق، فقال جَلَّ في عُلاه: ؟ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ؟ [الأعراف: ١٤٦]، والنبي -عليه الصلاة والسلام- كما في صحيح مسلم وغيره قال: (لا يدخلُ الجنَّةَ مَن كان في قلبه مثقالُ ذرَّةٍ حَبَّةٍ مِنْ كِبْر) لا يدخل الجنة، ومعنى «لا يدخل الجنة» إن كان مسلمًا؛ يعني أنه لا يدخلها مع السابقين الأولين، وإن كان كافرًا فهو بكفره في نار الجحيم والعياذ بالله -تبارك وتعالى- ونفهم من الآية أيضا وجوب التواضع لله -تبارك وتعالى- طالما أن الإسلام يَذُمّ الكبر وينهى عنه، وهذا القرآن الكريم يقول: ؟ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ؟ فيجب إذن أن نتواضع مع الناس، وقد جاء عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: (مَنْ تواضَعَ لله رفَعَه).

؟ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا ؟، "ولا تمش في الأرض مَرَحًا"، إن الماشي مرحًا في الأرض هو في حقيقة أمره مخالف لأخلاق عباد الله المؤمنين الصالحين، الذي يمشي يَتَبَخْتَر في مِشْيَتِه، يَخْتَال في خُطْوَتِه، هذا مخالف لما عليه أهل الإيمان، الله -عزّ وجلّ- ذَكَرَ من صفات عباد الرحمن أنهم إذا مَشَوْا، مَشَوْا على الأرض هَوْنًا؛ مَشْيًا هَيِّنًا سهلاً رقيقًا، هكذا وصف رب العالمين -سبحانه وتعالى- مِشْيَةَ عباد الرحمن، مِشْيَة ليس فيها تَصَنُّع، وليس فيها خُيَلاء، مِشْيَة تُعبِّر عما في نفوسهم من الشخصية، وعَمَّا استَكَنَّ في قلوبهم من مشاعر الخير والفضل والبر والمعروف والإحسان مع الناس، لا يمشي الواحد منهم مستكبرًا على عباد الله -تبارك وتعالى- ينظر إليهم وكأنه في برج عالٍ، وإنما يمشون في سكينة وهدوء ووقار، ؟ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا ؟ [الفرقان: ٦٣]. وهنا رب العالمين -سبحانه وتعالى- يَنْهَى عبادَه عن أن يسلكوا سبيل هؤلاء المجرمين ويذكر لنا في كتابه ما قاله لقمان لابنه؛ كي نستفيد منه وكي نَتَّعِظَ منه، ؟ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا ؟ [الإسراء: ٣٧]، إذن أفضل مشية هي ماذا؟ طالما أن القرآن الكريم نَهَى عن أن يمشي الإنسان مختالاً مغرورًا مستكبرًا في مشيته؟ أفضل مِشْيَة هي مِشْيَة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- تأملوا بماذا وُصِفَ -صلى الله عليه وآله وسلم- كان إذا مشى تَكَفَّأَ تَكَفِّيًا -عليه الصلاة والسلام- وكان أَسْرَعَ الناس مِشْيَةً وأحسنها وأسكنها، يقول أبو هريرة -رضي الله تعالى عنه: «ما رأيت شيئًا أحسن من رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- كأن الشمس تجري في وجهه -صلوات الله وسلامه عليه- وما رأيت أحدًا أَسْرَعَ في مِشْيَتِه من رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- كأنما الأرضُ تُطْوَى له، وإنَّا لَنَجْهَدُ أنفُسَنَا، وإنه لَغَيْرُ مُكْتَرِث» -صلى الله عليه وآله وسلم- يعني كان يمشي بِخُطًى سريعة -صلى الله عليه

وآله وسلم– كأنه يَنْحَدِرُ مِن صَبَبٍ؛ كأنه نازل من مكان عالٍ، والإنسان عندما يكون نازلاً من مكان مرتفع تجد خطاه سريعة، كذلك كان –صلى الله عليه وسلم– لا يمشي مِشْيَةَ الموتى، ولا يمشي يختال وينظر يمينًا ويسارًا رافعًا رأسه عن الناس هنا وهناك، وإنما يمشي قاصِدًا قصدًا وسبيلاً قويمًا –صلوات الله وسلامه عليه– وهذه من أحسن صفات النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– وعلى أهل الإيمان أن يُحاكُوا رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– في مِشْيَتِهِ، وبالمناسبة هذه المِشْيَة في الحقيقة هي مِشْيَة أولي العزم والشهامة والرجولة، هكذا يمشي هؤلاء المؤمنون، يمشون هكذا مطمَئِنِّين على هذه الأرض بسكينة ووقار، ومع كل ذلك لا يُظهرون أنهم موتى وهم يسيرون في الطريق ولا ينظرون إلى الناس باشْمِئْزَازٍ عالٍ، وينظرون إلى أكتافهم هنا وهناك، وإنما يأخذ الواحد منهم طريقًا، ويمشي طريقًا سليمًا مستقيمًا كأنما ينزل من مكان مرتفع، كهيئة النبي –صلوات الله وسلامه عليه.

ثم يُعَقِّب لقمان لابنه في وصيته مُبَيِّنًا له أنه نهاه عن هذه المِشْيَة التي يختال فيها للناس، أو يمشي فيها مَرَحًا؛ يعني تُعْجِبُه نفسه، ومستكبرًا على خلق الله –تبارك وتعالى– بَيَّنَ لقمان السبب في نهي ولده عن هذه المِشْيَة بقوله: ؟ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ؟.

ثم قال له: ؟ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ؟ لعلَّنَا نكون فَهِمْنَا فيما مضى معنى: ؟ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ؟؛ يعني امشِ مَشْيًا متوسِّطًا ليس بالبطيء ولا بالسريع، بل عَدْلاً وسطًا، واغضض من صوتك؛ لأن رفع الصوت في الحقيقة أمر نهى عنه الإسلام، ومعنى: ؟ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ؟؛ يعني لا تبالغ في الكلام، ولا ترفع صوتك، ويجب على العبد أن يَغُضَّ من صوته، والأسلوب القرآني هنا يُبَيِّنُ أن هذا الفعل فعل غير مقبول، ولذلك الإمام الحافظ ابن كثير –رحمه الله تبارك وتعالى– في شرحه لهذه الآية قال: لا تبالغ في الكلام، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه؛ لأن أقبح الأصوات هو صوت الحمير، وغاية مَنْ رفع صوتَه أنه شابَهَ الحمير في أصواتها، ولذلك لقمان –عليه السلام– ينهى ابنه عن أن يرفع صوتَه فيأمره بغض الصوت: ؟ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ؟، ثم يُبَيِّنُ له العِلَّة: ؟ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ؟ ولقد جاء في هدي النبي وسنة النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– توجيهٌ لطيفٌ لنا، إذا سمعنا صوت الدِّيكَة ماذا نقول؟ نُسَبِّح رب العالمين –سبحانه وتعالى جَلَّ في عُلاه– ونسأل الله من فضله: (إذا سمعتم صوت الدِّيكَة فاسألوا الله من فضله، وإذا سمعتم نهيق الحمير فاستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم).

ثم ندخل بعد ذلك في المحور الثاني في هذا اللقاء وهو بعنوان:

رب العالمين يعدد بعض نعمه على عباده ويحذرهم من اتِّبَاع آبائهم الأقدمين، وفي ذلك يقول سبحانه: ؟أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ؟ يُنَبِّه رب العالمين –سبحانه وتعالى– في هذه الآية على بعض نعمه على عباده، بأن سخر لهم ما في السماوات وما في الأرض، سخر لهم ما في السماوات من نجوم وأبراج وأفلاك، وسخر لنا ما في الأرض مما نشاهده ونراه من بحَار، وما أودعه رب العالمين –سبحانه وتعالى– فيها، وأرض خصبة نأخذ منها من نبات وغيره، وما بين السماء والأرض من سحاب ينزل منها المطر وغير ذلك، كل هذا بتسخير رب العالمين –سبحانه وتعالى– وهذا شيء يسير من نِعَم الله –عزّ وجلّ– وإلا فَنِعَم الله لا تُعَدّ ولا تُحْصَى، ولذلك عَقَّب على ذِكْر هذا الشيء اليسير بقوله: ؟ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ؟ أسبغ رب العالمين –سبحانه وتعالى– علينا النِّعَم ظاهرة نستمتع بها ونشاهدها، ظاهرة تنزل علينا بركات السماء وتنبت لنا الأرض مما يودَع فيها، ورب العالمين –سبحانه وتعالى– هو الذي أنزل المطر، وهو الذي أنبت النبات، وهو الذي جعل الحيوان يأكل من النبات ويمتلئ ضرعه فنشرب الحليب، ثم نأكل بعد ذلك لحمه، وهو الذي أَوْدَعَ البحار أسماكًا وغير ذلك، هذه نِعَم ظاهرة من رب العالمين –سبحانه وتعالى– على عباده، ومن النِّعَم الباطنة: الهداية والتوفيق إلى الإيمان والإسلام، هذه نِعَم، والعبد قد لا يدرك معناها هو بنفسه ولكنها نعمة عظيمة عليه،

نعمة إرسال المرسلين، نعمة خلق الهداية والتوفيق في قلب العبد المؤمن هي كلها من النِّعَم الباطنة التي يقوم بها رب العالمين –سبحانه وتعالى– ويعطيها ويتفضل بها على عباده.

ومع كل ذلك فبعضُ الناس وللأسف الشديد يقابِلُون هذه النِّعَم بأن يجادلوا في الله –عزّ وجلّ– يجادلون بالباطل، كما قال الله –تعالى: ﴿ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ [الكهف: ٥٦] ﴿ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ٤] يعني: يا عبد الله، ربُّنا يخلقُكَ من شيء مهين، هو الذي خلقك وبعد ذلك تُخَاصِمِ في الله –تبارك وتعالى– والآية وصفَت هؤلاء الناس الذين يجادلون في الله بثلاث صفات: أنهم يجادلون في الله بغير علم، ولا هدى، ولا كتاب منير، وما أقبح من يواجِه ربه ومولاه بهذا الفعل أو بهذا الجُرْم العظيم.

ويَخْتِم الله –عزّ وجلّ– هذا السياق بقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ الله –عزّ وجلّ– يُوَجِّه عقول هؤلاء المشركين لعلَّهم يستجيبون، يقول: إذا قيل لهمُ ارجعوا إلى الله –عزّ وجلّ– واتَّبِعُوا ما أنزل الله –تبارك وتعالى– من كتاب ووَحْي وآيات بَيِّنَات جاءت على يَدَيْ رسولٍ كريم –صلوات الله وسلامه عليه– كان جوابهم: ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾؛ يعني يرجعون إلى التقليد، والله –عزّ وجلّ– يقول: ألا يَفْقَه هؤلاء؟! كيف يقلِّدون من لا خلاق لهم، ولا دين عندهم؟! لأن آباءهمُ الأولين كانوا على الشرك والضلال المبين، والعياذ بالله –تبارك وتعالى– وفي ذلك يقول الله: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾؛ يعني يَتَّبِعون آباءهم ولو كانوا على ضلالة وانحراف وضلال مبين وسير في ركاب الشيطان، ما كان ينبغي عليهم ذلك، وهذه الآية تفيد النهي عن التقليد؛ يعني تنهى الإنسان أن يقلد غيره، وتنهى العبد المؤمن إذن أن يُحاكِيَ الكافر في فعله، بل عليه أن يَتَّبع ما أنزله الله على النبي الأمين –صلى الله عليه وآله وسلم– وبهذه الكلمات أنْهِي معكم هذا اللقاء، والحمد لله رب العالمين.

بالنسبة لسؤالَي الحلقة السابقة، كان السؤال الأول: ما المراد بلهو الحديث في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾؟ وما معنى لِيُضِلَّ؟

وكانت الإجابة: المراد بلهو الحديث في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ الآية.. هو الغناء وآلات الطرب والمزامير، فلما سُئِلَ ابن مسعود –رضي الله عنه– عن لهو الحديث في الآية قال: «هو والله الغناء» وفي رواية قال: «إنه الغناء، والله الذي لا إله إلا هو» وأخذ يرددها ثلاث مرات، وبهذا قال ابن عباس وجابر وعكرمة وسعيد بن جُبَيْر ومجاهد وكثير من السلف، وقال الحسن البصري: أُنزِلَت هذه الآية: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ في الغناء والمزامير، ومن أهل العلم من قال: إن المقصود بلهو الحديث هو الشرك واختار ابن جرير –عليه رحمة الله تعالى– أن المقصود بلهو الحديث كل كلام يَصُدُّ عن آيات الله –عزّ وجلّ– وعن سبيل الله –تبارك وتعالى– ومعنى "لِيُضِلَّ عن سبيل الله" بضَمِّ الياء؛ أي أن من استمع للغناء والمزامير وآلات اللهو والطرب اشترى هذا اللهو لِيَصْرِف الناس عن الحق واتِّبَاع صراط الله المستقيم، ولِيَصُدَّهم عن سبيل المؤمنين، وبذلك أصبح جندًا من جنود إبليس. وبقراءة الفَتْح؛ أي "لِيَضِلَّ" يكون المعنى: أن اللام لام العاقبة، وبذلك يكون المعنى: أنه لما اشترى لهو الحديث واستمع لآلات الطرب والمزامير، واستمع للغناء كانت عاقبته أنه ضَلَّ عن سبيل الله إلى سبيل الشياطين.

الجواب صحيح والحمد لله، وفيه تفصيل طيب والحمد لله.

السؤال الثاني: هل كان لقمان نَبِيًّا، وما معنى الحكمة التي أعطاه الله –عزّ وجلّ– إياها، وما معناها إذا وردت مفردة وإذا قُرِنَت بالكتاب؟

وكانت الإجابة: اختلف السلف في لقمان –عليه السلام– على قولين:

الأول: أنه كان نَبيًّا، والثاني: أنه كان عبدًا صالحًا من غير نبوة، وهو الراجح، واختاره ابن كثير –رحمه الله تعالى– وقال الأكثرون القول الثاني.

ومعنى الحكمة التي أعطاه الله إياها هي: العلم والفهم والتعبير، ومعنى الحكمة إذا وردت مفردة: العلم والفهم والتعبير، ومنها هذه الآية، وهي: "ولقد آتينا لقمان الحكمة"؛ أي العلم والفهم والتعبير، ومعناها إذا وردت مقتَرِنة بالكتاب: أي سُنَّة النبي –صلى الله عليه وسلم– ومنها قول الله –تعالى: ؟ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ؟ [الأحزاب: ٣٤]؛ أي واذكرن ما يُتلى في بيوتكن من آيات الله وهو القرآن الكريم، والحكمة وهي سنة نبيه –صلى الله عليه وسلم– والله أعلم، وبارك الله لنا في شيخنا الحبيب.

بارك الله فيه، الجواب سديد والحمد لله.

يقول: في هذه الآيات وَصَّى الله –تبارك وتعالى– بالوالدين ونهى عن طاعتهما في المعصية، ومع ذلك أمر باتِّبَاع سبيل المؤمنين، ورغم ذلك أمر أيضًا بمصاحبتهما في الدنيا حُسْنًا ومعروفًا، فنرجو من فضيلتكم –جزاكم الله خيرًا– توضيح الفرق بين الولاء والبراء والبر؟

أحسنت.. الحقيقة هذا موضوع طويل ولكن أختصر القول فيه فأقول: إن الولاء هو الكون مع من تُوالي بقلبك وإرادتك وحبك ونصرك وغير ذلك مع من تواليه، وهذا يكون لأهل الإيمان، بخلاف العداوة، وهي الإقصاء والتخلص من الشرك والكفر والكافرين، أما البرّ فهو مد يد العون إلى المحتاجين أيًّا كان هؤلاء؛ يعني الكافر إن وجدته قد وقع في مأزق، أو كان في حاجة إلى برك ومعروفك فلا شيء عليك في أن تفعل ذلك له، والله –تبارك وتعالى– أمرك بذلك خاصة إذا لم يكن محاربًا لك رافعا السيف عليك، وهناك مسائل وإن ضاق الوقت أن أقولها: أسماء بنت أبي بكر –رضي الله عنها– قَدِمَت إليها أمها، والحديث في الصحيحين وغيرهما وهي كافرة، فجاءت للنبي –صلى الله عليه وسلم– وقالت له: إن أمي أتت إلي وهي راغبة أفَأَصِلُ أمي يا رسول الله؟ –صلى الله عليه وآله وسلم. قال لها: (صِلِي أُمَّكِ).

والله –عزّ وجلّ– في كتابه يقول: ؟ لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ؟ [الممتحنة: ٨] إذن البر هو تقديم المعروف للناس، أما الولاء فهو الكون معهم؛ مع من تواليه بنفسك وقلبك وحبك ونصرك وتأييدك وعملك وغير ذلك، هذا يُقْتَصَرَ الأمر فيه على المؤمن فحسب، ولا يجوز بحال من الأحوال أن يكون مع كافر أبدًا؛ لأن الله قَطَعَ هذا الولاء مع الكفار، والله أعلم.

أسئلة المراجعة

السؤال الأول:

عَرِّفِ الشِّرْك؟ واذكر أقسامه مع بيان حكم كل قِسْم؟ ولماذا بدأ لقمانُ وَصَايَاه بالنهي عنه؟ طبعا الضمير يعود للشرك.

السؤال الثاني:

اذكر دليلاً من القرآن وآخرَ من السُّنَّة في ذَمّ الكبر؟ وما معنى: "واقصد في مشيك"؟ وكيف كانت مِشْيَةُ رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم؟

الدرس الرابع والعشرون

تفسير سورة لقمان

من الآية ٢٢ إلى نهايتها

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أما بعد.

يسرنا أن يستمر لقاؤنا في تفسير سورة لقمان بفضل الملك العلام -سبحانه وتعالى جَلَّ في عُلاه- وسأتحدث في الآيات التي سنستمع إليها بعد قليل -إن شاء الله تبارك وتعالى- حول محورين اثنين:

المحور الأول بعنوان: المؤمن يُسْلِم وجهه لله ويعبده وحده دون سواه.

أما المحور الثاني فهو بعنوان: أَمَرَ اللهُ الناسَ بتقواه وأخبرهم أن علم الغيب له وحده دون سواه.

ولنستمع إلى آيات هذا اللقاء من أخينا الأستاذ عبد الرحمن فليتفضل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؟ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ؟٢٢؟ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ؟٢٣؟ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ ؟٢٤؟ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ؟٢٥؟ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ؟٢٦؟ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ؟٢٧؟ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ؟٢٨؟ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَهَارِ وَيُولِجُ النَهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ؟٢٩؟ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ؟٣٠؟ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ؟٣١؟ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ؟٣٢؟ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ؟٣٣؟ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ؟ [لقمان: ٢٢: ٣٤]

أحسنت وجزاك الله خيرًا.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم وسلك سبيلهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين وبعد.

أيها الإخوة الكرام سأتحدث أولا عن المحور الأول في هذا اللقاء، والذي يُبَيِّن استسلام العبد لربه ومولاه، ثم يسوق رب العالمين -سبحانه وتعالى- بعض الآيات التي تدل على أنه الخالق المدبر الذي يجب بناءً على ذلك أن يُعبد وحده دون سواه، والآية الأولى التي معنا في هذا اللقاء هي ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى: ؟ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ؟، لعلنا نتذكر في اللقاء السابق أن الآيات الأخيرة منه تَحَدَّث ربنا -سبحانه وتعالى- فيها عن حال المشرك والكافر الذي يُجادل في الله -

تبارك وتعالى- بغير علم، ثم يُتابع الآباء والأجداد في التقليد على الكفر والشرك وغير ذلك من الأمور القبيحة التي كانوا عليها، لمَّا ذكر ربنا -سبحانه وتعالى- ذلك ذكر هنا حال المسلم الخاضع الخاشع الذي أسلَمَ نفسه لله -تبارك وتعالى- فقال: ؟ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ؟ قيل: "ومن يسلم" إشارة إلى الإيمان؛ يعني أنه استسلم وآمن بربه ومولاه ودخل في دين الله -تبارك وتعالى- ثم بعد ذلك كان محسنا في هذا الدين أو في هذا الإسلام، وذلك عندما أتى بالأعمال الصالحة، والتعبير بقوله تعالى: ؟ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ؟ يفيد أن هذا الرجل الذي أسلم وجهه لله -تبارك وتعالى- كان في غاية الإخلاص لله -عزّ وجلّ- لأنه وُصِفَ بالإحسان، والإحسان كما جاء في الحديث الصحيح: (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

ثم يُبَيِّن رب العالمين -سبحانه- أن من فعل ذلك فقد استمسك بالعروة الوثقى، قيل: "العروة الوثقى" هي لا إله إلا الله، هي أعظم الكلمات، ولا شك أن العروة الوثقى الطريق الذي يَوَصِّل إلى رب العالمين -سبحانه وتعالى- وحده دون سواه، ولا توجد عروة وثقى كعروة رب العالمين -سبحانه وتعالى- لأنه بَيَّنَ الطريق، والذي يسلك الطريق المؤدي إلى الله -عزّ وجلّ- كما شرع رب العالمين سبحانه يَصِل في النهاية إلى أمر يُحْمَد عليه، وتكون عاقبته فيه خير -إن شاء الله تبارك وتعالى- ولذلك عقَّبَ رب العالمين -سبحانه وتعالى- أو ختم هذه الآية بقوله: ؟ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ؟، وهي تفيد أن ما سوى الله -عزّ وجلّ- هالك، ولا يجوز الالتفات إليه، بل يجب أن يلتفت العبد إلى الله -تبارك وتعالى- وحده، وأن يلزم طريق الله -عزّ وجلّ- لأن المرجع والمصير إلى الله، ويُفْهَم من ذلك أنه هو الذي سيحاسِب عباده وحده دون سواه.

ثم يتوجَّه السياق القرآني الكريم بعد ذلك للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فيقول الله له: ؟ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ؟؛ لأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كان يَحْزَن لكفر الكافرين وشرك المشركين، وكان يتمنى لرقة قلبه -صلى الله عليه وآله وسلم- ولما هو عليه من الرحمة والرأفة -عليه الصلاة والسلام- كان يتمنى أن يُسلم هؤلاء الناس وأن يدخلوا في دين الله -تبارك وتعالى- ولَمَّا لَمْ يفعلوا كان يتأثر لذلك -عليه الصلاة والسلام- وربُّه ومولاه يقول له: لا تحزنْ ولا تأسَ على كفر هؤلاء؛ لأنهم سيرجعون إلى الله -عزّ وجلّ- وإن واجهوك اليوم بما واجهوك به من التكذيب، أو الطرد، أو العناد، أو الضرب، أو غير ذلك.. فمرجعهم أيضا إلى الله -عزّ وجلّ- وهناك سيحاسبون على ما قدموا من سيئات.

؟ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ؟؛ يعني أن مرجعهم ومصيرهم إلى رب العالمين -سبحانه وتعالى- وهناك يُنَبِّئُهُمُ الله -عزّ وجلّ- بما كانوا يعملون، وبما قَدَّمُوا وبما واجهوا به النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لماذا؟ ؟ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ؟، رب العالمين -سبحانه وتعالى- يختم هذه الآية ببيان أنه قادر على كل شيء، وأنه يتصف بصفة العلم والتي منها أنه يعلم ما في داخل نفس الإنسان، وما استكن في صدر كل إنسان ؟ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ؟ وقد يتساءل متسائل: طالما أن المرجع إلى الله، وأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- مرسل من قبل الله، فلماذا يترك الله -تبارك وتعالى- هؤلاء الناس يفعلون ما يفعلون، ويستمرون في التكذيب والعناد؟ وكأن هذه الآية ترد على ذلك بقول الله -تبارك وتعالى: ؟ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ؟ وبيان أن الله -عزّ وجلّ- عليم بأخبارهم، ثم يقول سبحانه: ؟ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ ؟؛ يعني أنهم إن استمروا في الكفر والضلال، وأبقاهم الله -تبارك وتعالى- فهذا الإبقاء ما هو إلا استدراج من الله -عزّ وجلّ- لهم، والمسألة مسألة متاع في هذه الحياة الدنيا، ولعلي أشرت قبل ذلك في لقاءات سبقت أن هذه الحياة الدنيا مهما طالت فهي إلى زوال، وهي إلى نهاية، ومهما يبقى الإنسان فيها فلن يحصل فيها على متاع يمكن أن يستريح وأن يطمئن إليه؛ لأن أمامه المصير الذي سيرجع فيه إلى رب العالمين -سبحانه وتعالى- والله -عزّ وجلّ- إن أعطى الكافرين اليوم من الدنيا ما أعطاهم، ليس ذلك أمارة على رضا رب العالمين -سبحانه وتعالى- عنهم، وإنما هو استدراج -كما ذكرت- ومصيرهم -طالما أنهم يكذبون- إلى النار وبئس المصير، وفي ذلك يقول -أيضا- رب العالمين -سبحانه وتعالى- كما في سورة يونس: ؟ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ؟٦٩؟ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ؟ [يونس: ٦٩: ٧٠]؛ يعني أن ما هم فيه ذكرت الآية هنا أنه متاع قليل،

قال: ما هذا المتاع؟ إنه محصور أو مقصور فقط على الدار الدنيا، والعاقل يستطيع أن يفرق بين الدنيا وبين الآخرة، بين الدنيا التي ستزول وتنتهي، وبين الآخرة الدائمة الباقية التي لا تنتهي بإذن رب العالمين -سبحانه وتعالى جَلَّ في عُلاه.

ثم يُبَيِّن الله -عزّ وجلّ- في الآية التالية أن كفر الكافرين وشرك المشركين لا حجة لهم فيه؛ لأنهم يؤمنون بأن الله -تبارك وتعالى- هو الخالق الرازق المدبِّر، ولذلك يقول: ؟ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ؟ هذه الآية بعد هذا أو في هذا السياق وبهذا الترتيب تُبَيِّن أن من كفر ومن أخبر الله -عزّ وجلّ- عنهم بأنهم قد كفروا وسَلَّى النبيَّ -صلى الله عليه وآله وسلم- وأمره ألا يحزن عليهم، هؤلاء لا حجة لهم في الكفر؛ لأنهم يعتقدون ويوقنون أن الخالق وأن خالق السماوات والأرض هو رب العالمين -سبحانه وتعالى جَلَّ في عُلاه- وطالما أنهم يعترفون بذلك فهذا الأمر يحتاج إلى أن يُثني رب العالمين -سبحانه وتعالى- على نفسه لماذا؟ لأن هؤلاء الكافرين مع جحدهم لله، أو كفرهم بالله، وشركهم بالله -تبارك وتعالى- يُقِرُّون فطرةً بأن الله -عزّ وجلّ- هو الخالق، ولذلك الله -عزّ وجلّ- أثنى على نفسه بعدما أخبر أن هؤلاء المشركين يُقِرُّون ويعترفون ويؤمنون في قرارَةِ نفوسهم وقلوبهم، بل يعلنون بذلك وينطقون به بألسنتهم، أن الله خالق كل شيء، هنا يحمد رب العالمين -سبحانه وتعالى- نفسه على ذلك فيقول: ؟ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ؟، نفي العلم هنا يفيد ماذا؟ أنهم لا يتدبرون ولا يتذكرون حتى لا يشتبه الأمر على إنسان فيقول: هؤلاء عندهم أرقى الشهادات العلمية اليوم، ووصلوا إلى ذُروة مجد الدنيا، وتقنية حديثة عالية، فكيف يقول القرآن الكريم عنهم بأنهم لا يعلمون؟! نقول: معنى "لا يعلمون": يعني لا ينظرون، ولا يتأملون، ولا يفهمون، ولا يتدبرون، فكأنه لا علم عندهم.

والله -تبارك وتعالى- بعد ذلك يحصر أمر الدنيا والآخرة إليه وحده دون سواه فيقول: ؟ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ؟، الله -عزّ وجلّ- يتحدث هنا عن كمال غناه، وعن كمال قدرته -سبحانه وتعالى- وأن الملك كله بيده وحده دون سواه، ؟ لِلَّهِ ؟، وتقديم لفظ الجلالة هنا يفيد في هذا السياق الْحَصْر؛ يعني أن ما في السماوات وما في الأرض من جميع المخلوقات مِلْكٌ لِمَن؟ مِلْكٌ لله -عزّ وجلّ- وهو سبحانه وتعالى الغني عنهم، حتى لا يظن إنسان أن الله -عزّ وجلّ- لَمَّا قال هذه الآية أنه يستكثر بالسماوات والأرض، أو يستكثر بما في السماوات وما في الأرض، فعقَّب أو ختم الآية بقوله: ؟ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ؟ ليدفع ما يمكن أن تقوم شبهة في ذهن إنسان ويقول بأن رب العالمين -سبحانه وتعالى- يستكثر بهذه المخلوقات، والله -سبحانه وتعالى- غني عن العالمين: ؟ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ؟ [فاطر: ١٥] -سبحانه وتعالى جَلَّ في عُلاه.

وبعد ما ختم الآية بذلك مَجَّدَ نفسه -سبحانه وتعالى- على أمر عظيم في الآية التالية مباشرة فقال: ؟ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ؟ هذه الآية فيها تمجيد لله -عزّ وجلّ- وفيها بيان شيء من عظمة رب العالمين -سبحانه- وإلا.. فالأمور الدالة على عظمة الله -عزّ وجلّ- كثيرة، ومعنى هذه الآية: أن رب العالمين -سبحانه وتعالى- يُخْبِر أن أشجار الدنيا كلها لو صارت أقلاما، وهذه الأقلام تُغَذَّى من ماء البحار، وليس المقصود أن تُغَذَّى من بحر واحد، وإنما كما جاء الذكر في هذه الآية من سبعة أَبْحُر، لو أن أشجار الدنيا صارت أقلاما، وهذه الأقلام تُمَد وتُغَذَّى لكي تَكْتُب بماء بحار الدنيا كلها، ومن ورائها سبعة أَبْحُر، لَتَكَسَّرت الأقلام ونَفِدَت البحار وما نَفِدَت كلمات الملك الجبار -سبحانه وتعالى جَلَّ في عُلاه- هذا بيان لعظمة الله -عزّ وجلّ: ؟ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي ؟ [الكهف: ١٠٩] هكذا بإطلاق ولم يذكر هنا سبعة أَبْحُر وإنما قال شيئا آخر: ؟ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ؟ [الكهف: ١٠٩].

قال أهل العلم: ولو جئنا بمثله ثم بمثله ثم بمثله.. لانتهت الأقلام، ولانتهت البحار، وما انتهت كلمات رب العالمين -سبحانه وتعالى- ولذلك قال أهل العلم في قول الحق -تبارك وتعالى- هنا: ؟ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن

شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ؟ قالوا: لفظ "سبعة" هنا ليست مقصودة بذاتها، والمعنى أن هذا من باب التكثير، وإلا فلو كانت البحار مئات أو آلاف أو ملايين لنفذت هذه الملايين وما نفذت كلمات رب العالمين – سبحانه وتعالى جَلَّ في عُلاه– لماذا؟ ؟ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ؟ إن الله –عزّ وجلّ– عزيز غالب على أمره، قَهَر كل شيء بقدرته –سبحانه وتعالى جَلَّ في عُلاه– حكيم في فِعْله وفي تركه، لا يُسْأَل عمَّا يفعل وهم يُسْأَلون، هنا لنا وقفة مع قول رب العالمين –سبحانه وتعالى– في هذه الآية الكريمة: ؟ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ؟، ما المراد بكلمات الله –تبارك وتعالى؟

قيل: "كلمات الله" هي القرآن، وقيل: "كلمات الله" كل كلام يتكلم به رب العالمين –سبحانه وتعالى جَلَّ في عُلاه– والله –سبحانه وتعالى– يَتَّصِف بصفة الكلام، وهي صفة ثابتة لرب العالمين –سبحانه وتعالى جَلَّ في عُلاه– وصفات الله –سبحانه وتعالى– على ما يليق بجلاله وكماله، والله –عزّ وجلّ– ذَكَرَ هنا أن كلماته لا تنفد، والنبيُّ –صلى الله عليه وآله وسلم– وَصَفَ كلمات الله في حديث صحيح له بأنها تَامَّات كما في الحديث: (من نزل منزلا فقال: أعوذ بكلمات الله التَّامَّة من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك)، هنا وَصَفَ النبي –صلى الله عليه وسلم– كلمات الله بالتَّامَّة، وقيل: معنى التمام لكلمات الله –عزّ وجلّ– أنها الكلمات العظيمة التي بلغت في الحسن منتهاه، فكلمات الله –تبارك وتعالى– بالغة في العَظَمَة مبلغًا عظيمًا، وقيل: المراد بكلمات الله التَّامَّات يعني الكلمات التي لا يَلْحَقها نقص ولا عيب، وكل هذا حَقٌّ صحيح توصف به كلمات رب العالمين –سبحانه وتعالى جَلَّ في عُلاه.

أيضا بَقِيَت فائدة في حديث النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– أشير إليها هنا، وهي أن الإمام أحمد بن حنبل –رحمه الله تبارك وتعالى– استدلَّ بالحديث (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق) أن القرآن الكريم كلام الله منزل غير مخلوق، ما وجه الدليل من هذا الحديث؟ وجه الدليل من هذا الحديث: أن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– قال هذا الحديث بسبب أن المشركين كانوا إذا نزلوا واديًا من الأودية استعاذوا بعزيز الوادي؛ يعني زعيم الجن الذي يَسكن في هذا الوادي، استعاذوا من دون الله –تبارك وتعالى– فالنبي –عليه الصلاة والسلام– أبدلَ أهل الإسلام باستعاذة أخرى، ألا وهي استعاذة بكلمات الله –تبارك وتعالى– فقال الإمام أحمد بن حنبل بأن الله –عزّ وجلّ– لا يجوز أن يُستعاذ بغيره، لا يليق بحال، بل هو من الشرك: أن يستعيذ إنسان بغير الله –تبارك وتعالى– وطالما أن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– أباحَ لنا أن نستعيذ بكلمات الله سبحانه، فدَلَّ ذلك على أن كلمات الله ليست مخلوقة؛ لأنه لا يجوز الاستعاذة بمخلوق، فطالما أن النبي –عليه الصلاة والسلام– هو الذي أباح لنا أن نستعيذ بكلمات الله فهذا دليل على أن كلامَ رب العالمين –سبحانه وتعالى– غير مخلوق؛ لأن الاستعاذة بالمخلوق لا تجوز، ويصبح الحديث لا فائدة منه، لو كانت كلمات الله مخلوقة؛ لأن المشركين كانوا يستعيذون بالجن، والجن مخلوق، فلو أُحِيلُوا إلى الاستعاذة بكلمات الله وهي مخلوقة فلم تكن هناك فائدة في هذا التحويل، ولكني أَوَدُّ أن أقول وأرجع وأؤكد إلى أن هذه الآية تُبرز وتمجد رب العالمين –سبحانه وتعالى جَلَّ في عُلاه– ثم يقول الله –عَزَّ وَجَلَّ– مؤكدا هذا الجلال وهذا الكمال ومشيرًا إلى القدرة الكاملة في قوله: ؟ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ؟.

لعلنا سَبَقَ أن مَرَّت علينا بعض الآيات التي فيها بأن الله –تبارك وتعالى– هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وقلتُ في قول الحق –تبارك وتعالى: ؟ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ؟ [الروم: ٢٧] بأن "أهون" هنا ليست مرادة، فالكل عند رب العالمين –سبحانه وتعالى– هَيِّن، والله –عزّ وجلّ– هنا يقول بأن الخلق يسيرٌ عليه ولا يأتي إنسان فيقول بأن الخلق كثير وأنه صعب على رب العالمين –سبحانه وتعالى– وأنه قد يحتاج إلى شيء من المشقة أو الكُلْفَة أو غير ذلك، ولدفع كل هذا قال رب العالمين –سبحانه وتعالى: "خلق نفس واحدة كخلق الناس جميعا"، والعلة في ذلك أن أمر رب العالمين –سبحانه وتعالى– كلام، فالله –عزّ وجلّ– إذا أراد أمرًا وشاءه –سبحانه وتعالى– قال له: "كن فيكون" كما أراد رب العالمين –سبحانه وتعالى جَلَّ في عُلاه– والله –عزّ وجلّ– مُنَزَّهٌ عن أن يُقاس بخلقه، فالمخلوق عندما يأتي ليعمل عملا من الأعمال يحتاج إلى أن يُعِدَّ له، وأن يأتي

بالمواد التي يُنشئ أو يُخرج هذا العمل من خلالها، أما رب العالمين -سبحانه وتعالى جَلَّ في عُلاه- فأَمْرُهُ كلام: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]، وهذا من كمال العظمة والقدرة، وأتت هذه الآية لِتُضَاف إلى الآية السابقة الدالة على عظمة رب العالمين سبحانه: ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ يسمع كل مسموع -سبحانه وتعالى- وَسِعَ سمعُهُ جميع الأصوات -جَلَّ في عُلاه- بصير: يرى رَبُّ العالمين -سبحانه وتعالى- جميع المخلوقات، لا تحجبه سماء عن سماء، ولا تحجبه أرض عن أرض، كما هو المشاهد بين الناس اليوم، فنحن في مكاننا هذا ربما لا يرانا مَنْ هو خارج المكان، ممن ليس أمامه جهاز طبعا، ولكن رب العالمين -سبحانه وتعالى- لا يحجبه شيء عن خلقه أبدًا، فهو -عزّ وجلّ- يتصف بصفتي السمع والبصر، كسائر ما اتصف به رب العالمين سبحانه مما أَثْبَتَهُ لنفسه من صفات العظمة والجلال والكمال -جَلَّ في عُلاه.

ثم يتوجه الخطاب بعد ذلك للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قائلا: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَهَارِ وَيولِجُ النهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾، أيضا أدلة على القدرة والعظمة، وهي كلها تُوَجَّه إلى المشركين؛ كي يستفيدوا من هذه الآيات فيتوبوا ويرجعوا إلى الله -عزّ وجلّ- ولكننا نلاحظ أن الخطاب هنا مُوَجَّه للنبي -صلى الله عليه وسلم- أولاً: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النهَارِ ﴾ وقلت بأن الخطاب حينما يُوَجَّه في القرآن الكريم يُوَجَّه أيضا -إن كان صالحا للمؤمنين- يُوَجَّه أيضا لِمَن؟ للمؤمنين، ولكنَّ قَصْرَ الخطاب هنا على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فيه تشريف وتكريم لمن يَنظر ويرى ويتأمل ما أُمِر به النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يراه أو أن ينظر إليه وأن يتأمله؛ يعني قائدنا نحن -أهل الإيمان- في التأمل في ملكوت السماوات والأرض هو نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- الذي أمره ربه أولا بالنظر، أما الكافرون فقد لا يدخلون في ذلك، والعلة في هذا -إن قلنا لا يدخلون- أنهم لا يَرَوْن -وإن كانوا يشاهدون- إلا أنهم لا يرون رؤية تَفَكُّر وتَبَصُّر واعتبار، فالأمر مقصور إذن على من يستفيد من آيات رب العالمين.

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ماذا؟ ﴿ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النهَارِ وَيولِجُ النهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾، يولج في اللغة بمعنى يُدخل، والمعنى: أن الله -عزّ وجلّ- يُدخل جزءًا من النهار في الليل، كما يُدخل جزءًا من الليل في النهار، وبالتالي نَجِد تراوُحًا وتفاوُتًا بين الفصول، فمثلا في فصل الصيف يطول النهار جِدًّا ويَقْصُر الليل لماذا؟ لأن الله -عزّ وجلّ- أَدْخَلَ النهار في الليل، فطال النهار لذلك، كما أنه في الشتاء يطول الليل جِدًّا ويقْصُرُ النهار؛ وذلك لأن الله -عزّ وجلّ- أدخل الليل في النهار؛ يعني أخذ جزءًا من النهار وأدخله في الليل، هذا هو معنى الآية.

﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ سُخِّرَتَا بأمر رب العالمين -سبحانه وتعالى جَلَّ في عُلاه: ﴿ كُلٌّ يَجْرِي ﴾ يسير: ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾، قيل: "إلى أجل مسمى": يعني إلى أجل محدود، وقيل: إلى يوم القيامة، ولعل القول الأول هو الصواب أن كلاً منهما يجري إلى أجل محدود، حدَّدَه رب العالمين -سبحانه وتعالى- له، ويدل على ذلك الحديث الذي رواه أبو ذر -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لما سأل النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- ذات يوم أصحابَهُ وهو جالس بينهم: (أتدرون أين تذهب الشمس؟) قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: (إنها تأتي فَتَخِرُّ ساجدة تحت عرش ربها -سبحانه وتعالى- فيقول الله -تبارك وتعالى- لها: ارتفعي، واطلُعِي من حيث جئتِ، فترجع فتخرج مرة أخرى من مشرقه)، فإذا شاء رب العالمين -سبحانه وتعالى- نهاية هذا الكون وَألاَّ تخرج الشمس من مشرقها، أتت فسجدت تحت عرش ربها -سبحانه وتعالى- فيقول الله -عزّ وجلّ- لها: (ارتفعي واخرجي من مغربكِ، عندئذ تخرج من مغربه)، ثم ذكر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن الشمس إذا فعلت ذلك يكون هذا بداية انقلاب هذا العالم، ولو أن إنسانًا أراد أن يرجع إلى الله -تبارك وتعالى- وأن يتوبَ إلى الله -عزّ وجلّ- لا تُقبل منه توبة في مثل هذا اليوم؛ لأن أمارات الساعة الكبرى بدت ظاهرة واضحة، وقد أَكَّدَ ذلك نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- في أحاديث كثيرة.

ثم قال رب العالمين سبحانه بعد ذلك، وبعدما بَيَّنَ شيئا من هذه العظمة كلها من ناحية ما ذكره من الأقلام والبحار التي يمكن أن تُمَدّ بها هذه الأقلام، وأن خلق الناس جميعا كخلق نفس واحدة، وأنه يولج الليل في النهار، عَقَّبَ على ذلك بقوله: ؟ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ؟ الذي فعل ذلك هو رب العالمين –سبحانه وتعالى– وهو الحق –جَلَّ في عُلاه– وفَعَلَ ذلك بالحق، وهذا فيه بيان للمشركين إلى أن ما عبدوه من دون الله –تبارك وتعالى– إنما عُبِدَ بباطل، أما الذي يجب أن يُعْبَد بحق هو رب العالمين –سبحانه وتعالى– والله –عزّ وجلّ– خَتَمَ هذه الآية بإشارة –أيضا– إلى لون من ألوان العظمة والجلال عندما قال: ؟ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ ؟ رب العالمين –سبحانه وتعالى– يَتَّصِف بصفة العلو المطلق، وربما يأتي حديث عن ذلك في لقاء قادم –إن شاء الله تبارك وتعالى– وهو أيضا الكبير –سبحانه وتعالى جَلَّ في عُلاه– فالكلُّ صغير أمام الله، والجميع حقير أمام ربه ومولاه، أما الكبير المتعال، أما العلي الأعلى فهو الحق الذي قال عن نفسه –سبحانه: ؟ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ؟، أما ما دعاه الناس من دون الله –عزّ وجلّ– فقد دُعِيَ بباطل، ولا يملك لنفسه –فضلا عن غيره– لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، ولذلك يجب على الناس أن يفكروا في كلام رب العالمين، ولما كان الأمر كذلك عَقَّبَ الله –عزّ وجلّ– بدعوة أخرى جديدة إلى النظر والتأمل فقال: ؟ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ؟ الله –عزّ وجلّ– ذكر قبل آية واحدة آية سماوية التي هي: ؟ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النهَارِ ؟ وعقَّب عليها بقوله: ؟ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ؟.

بعدها ذكر آية أرضية وهي ماذا؟ ما نشاهده في هذه الأرض من الفلك التي تجري في البحر بنعمة رب العالمين –سبحانه وتعالى– وجريان الفلك في البحر آية من آيات الله –عزّ وجلّ– سبق الحديث عنها أيضا فيما مضى، وقلت بأن هذه الفلك في السابق كانت تسير بفضل الله –تبارك وتعالى– وبالريح التي يسوقها الله –تبارك وتعالى– لها، وتكون هذه السفن مع شدتها ومع حملها الثقيل راسية في البحار تَمُرّ وتَمْخُر عُبَاب هذه البحار والمحيطات حيثما تريد، وتتوجه إلى المكان الذي يحتاج الناس إلى تواجدها فيه، وكل ذلك بقدرة رب العالمين –سبحانه وتعالى– ولا يستفيد من هذه الآيات العظيمة إلا من صَبَر وشَكَر وهم أهل الإيمان: ؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ؟، وهكذا أتت كلمة "صبار" و"شكور" بصيغة المبالغة لتفيد أن المؤمن عندما ينظر ويتأمل ثم بعد ذلك يصبر على ما يمكن أن يصيبه من ابتلاءات، أو يشكر رب العالمين –سبحانه وتعالى– على ما يتفضل الله –عزّ وجلّ– به من نِعَم، يكون بهذا قد وصل إلى مرحلة عالية من الإيمان، واقتران "الصبر" هنا بـ"الشكر" يفيد أن الإنسان في هذه الحياة الدنيا لا يَسْلَم مهما كان من أشياء تدعوه إلى أن يتذرع بالصبر، كما أن نِعَم الله –تبارك وتعالى– عليه متتالية، فهو بحاجة إلى أن يشكر أيضا ربه ومولاه –سبحانه وتعالى جَلَّ في عُلاه– ولذلك يجب على المسلم أن يجمع بين الشكر وبين الصبر لله –عزّ وجلّ.

ثم بعد ذلك يتحول السياق القرآني الكريم ليتعجَّبَ من حال المشركين بعد هذه النِّعَم التي أشار إليها القرآن الكريم، ويذكر الله –عزّ وجلّ– موقفا من مواقفهم العجيبة، سبق أن ذكره رب العالمين في آيات أُخَر، وهنا يقول رب العالمين –سبحانه: ؟ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ؟، سبق الحديث عن مثل هذه الآية، وهي أن الكفار إذا رَكِبُوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين، وخاصة عندما تهيج عليهم الرياح ويدركون أنهم سيموتون وسيقضى عليهم، عندئذ يخلصون الدعاء لله –تبارك وتعالى– هذا حال المشركين وشأن المشركين، ؟ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ ؟ ومعنى "كالظلل" يعني كالجبال، موج عالٍ مرتفع كبير، وقيل: كالسحاب، ؟ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ ؟ خافوا منه لعظمته وشدته: ؟ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ ؟ لما أوصلهم إلى شاطئ الأمان بقدرته وفضله واستجابته لدعائهم، رجعوا بعد ذلك إلى الكفر، ولذلك قال: ؟ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ؟ قال بعض أهل العلم: فمنهم مقتصد: يعني كافر، وقيل: معنى "فمنهم مقتصد": أن بعضهم انْزَجَرَ بعض الانْزِجَار؛ يعني هو كافر ولكنه انْزَجَرَ عن كفره لَمَّا شاهَدَ بعينيه قوة وقدرة وعظمة رب العالمين –سبحانه وتعالى– وفي هذا أيضا إشارة إلى خِسَّة هؤلاء الناس؛ لأنه إذا نجاه رب العالمين –سبحانه– كان الأولى به أن يُسْلِم وجهه لله –تبارك وتعالى– مباشرة وألا

يقتصد هنا، بل عليه أن يُسْلِم نفسه لله -عزّ وجلّ- فكونه يَنْزَجِر بعض الانْزِجَار وهو قائم على الكفر، فهو في الحقيقة ما قابل نعمة الله -تبارك وتعالى- بما ينبغي أن يقابلها به، والله -عزّ وجلّ- أخبر بأن هؤلاء يجحدون رب العالمين ونِعَمَه: ؟ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ؟ "الْخَتْر": هو أتم الغدر وأبلغه؛ يعني هؤلاء عندهم غدر عظيم، عندهم غدر شديد، ووصلوا في الغدر مبلغا عظيما، وقد قال الشاعر وهو عمرو بن مَعْدِي كَرِب:

وَإِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ أَبَا عُمَيْرٍ *** مَلأْتَ يَدَيْكَ مِنْ غَدْرٍ وَخَتْرِ

يعني من شدة في اللؤم وغير ذلك مما يُفهم من معنى هذه الكلمة، وهؤلاء الناس مع نعمة الله -تبارك وتعالى- عليهم بالنجاة إذا تَوَجَّهُوا إليه، إلا أنهم يجحدون وينكرون ويسارعون في الكفر، بل يبالغون فيه، لأن الله -عزّ وجلّ- وَصَفَ كفرهم هنا بأن كفرهم مبالَغ فيه، وذلك حينما قال: ؟ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ؟.

أنتقل بعد ذلك إلى المحور الثاني في هذا اللقاء وهو بعنوان:

أمر الله الناس بتقواه، وأخبرهم أن عِلْمَ الغيب له وحده دون سواه، وفي ذلك يقول رب العالمين -جَلَّ في عُلاه: ؟ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ؟، هذه دعوة من رب العالمين -سبحانه وتعالى- فيها إنذار للناس جميعا بأن يتقوه سبحانه: ؟ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ؟ اتقوا الله -عزّ وجلّ- خافوه، راقبوه، احذروا عقابه، فعقاب الله -عزّ وجلّ- أليم، واتقوه: يعني اجعلوا بينكم وبين عذاب رب العالمين -سبحانه وتعالى- وِقايَة، وتقوى الله -تبارك وتعالى- تجعل المؤمن يتحسس مواطن أقدامه؛ لأنه يخاف من الله -سبحانه- فالتقوى عمل قلبي، ثم بعد ذلك يظهر أثره على الجوارح، فالذي يتقي ربه ومولاه يمشي في هذه الحياة الدنيا كما شَبَّهَهُ بعض السلف -رحمهم الله تبارك وتعالى- يمشي على ظهر هذه الحياة الدنيا كأنه يمشي على شوك، في أرض مليئة بالشوك، فهو يختار المكان الذي لا شوك فيه؛ كي يَسْلَم من الأذى، فكذلك المؤمن يسير في طريقه إلى الله -عزّ وجلّ- يتحرى مواطن أقدامه حتى يَسْلَم إذا وقف بين يدي الله -عزّ وجلّ- والآية أشارت إلى موقف عجيب: ؟ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا ؟؛ يعني اخشوا ماذا؟ المراد باليوم هنا ماذا؟ يوم القيامة، اخشوا يوم القيامة، والله -عزّ وجلّ- ذَكَرَ بأن هذا اليوم لن تجادل نفس فيه عن نفس شيئًا، ولن يتمكن إنسان في هذا اليوم أو يستطيع أن يُنَفِّسَ عن أخيه مهما كان، ؟ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ ؟ يعني أن الوالد مع شفقته على ابنه لا يستطيع أن يَمُدَّ إليه يديه بنفع أبدًا، كذلك المولود قد يكون الابن عنده شهامة وعنده حرص شديد على الرحمة بأبيه، والرأفة به أو بأمه، ولكنه في هذا اليوم ستنقطع العلائق والأنساب بين العباد، ولذلك كثيرًا ما يأمر الله -عزّ وجلّ- أهل الإيمان بالتقوى عمومًا، ولكن في هذه الآية أمر ربنا -سبحانه وتعالى- بتقواه منذرًا ومحذرًا باليوم الذي يقف فيه الناس جميعا بين يدي الله -عزّ وجلّ- ويذكر موقفا من المواقف وهو: أن كل إنسان في هذا اليوم مهما كانت قرابته، وقد ذكر الوالد والمولود، وكلاهما أقرب الإنسان إلى نفسه، وإلى أخيه، فالوالد قريب إلى ابنه ويحب لابنه ما لا يحبه هو لنفسه، فكأنه يدافع عن نفسه إن أعطى لابنه، أو دافع عن ابنه، ومع كل ذلك فهذا الوالد في يوم القيامة الذي هو بابنه رحيم ورؤوف وحريص إلا أنه لا يستطيع أن يفعل له شيئا، ولا أن يدفع عنه شيئا؛ لأن الْمُلْك لله، ورب العالمين -سبحانه وتعالى- يحاسِب الناس بالقسط والعدل على ما قدمت أيديهم.

؟ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي ؟؛ يعني لا يقدم، لا يستطيع أن يقوم فداء لا الوالد يقوم مقام المولود، ولا المولود يستطيع أن يقوم مقام الوالد: ؟ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ؟، لا يجزي عنه شيئًا، وكذلك المولود لا يستطيع أن يقوم ويعطي للوالد شيئا لماذا؟ لأن رب العالمين -سبحانه وتعالى- هو الحق: ؟ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ؟، وعد الله حق وهو الحق، ويحاسب الناس بالحق -سبحانه وتعالى جَلَّ في عُلاه- ومن الحق أن يحاسِب رب العالمين -سبحانه وتعالى- كلَّ إنسان على ما قدمت يداه، وطالما أن الأمر كذلك، وفي هذا إنذار

وتحذير من الله -عزّ وجلّ- لعباده، يوجه رب العالمين -سبحانه وتعالى- الناس الذين أمرهم بتقواه، إلى أن يحذروا الشيطان ومن يمكن أن يَغُرَّهم في هذه الحياة الدنيا: ؟ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ؟ بزينتها وزخارفها وما فيها، فالحياة الدنيا مليئة باللهو واللعب، والله -عزّ وجلّ- قد أخبر في كتابه بذلك، والعبد عليه ألا يغتر بهذه الحياة الدنيا وبما فيها، فهي لا تعدو عن كونها متاع مؤقت، يبقى فيه الإنسان فترة من الزمن، ثم يزول ويحول عنه، وهي بلا شك إلى نهاية حتمية واقعة فيها، فالدنيا ستنتهي حتما وسيرجع الناس جميعا إلى الله -عزّ وجلّ- فيا أيها المغرور لا تَغُرَّنَّك الحياة الدنيا، ولا يَغُرَّنَّك أيضا بالله الغرور، قيل: ؟ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ؟ بعد النهي عن الاغترار بالحياة الدنيا، أن المقصود بالغَرُور هنا هو الشيطان اللعين؛ لأن الشيطان، هو سبب في إغواء الإنسان، وهو الذي يغريهم بالذنوب والمعاصي والسيئات، وهو الذي يُغْرِي حتى بعض ضعاف النفوس من أهل الإيمان بالوقوع في المعصية، يغريهم بأي شيء؟ يغريهم بسعة رحمة رب العالمين، وفضل الله -تبارك وتعالى- ويَعِدُهُم ويُمَنِّيهم كما قال ربنا -سبحانه وتعالى- في كتابه وأشار إلى ذلك، فعلى العبد إذن أن يحذر الدنيا، وأن يحذر أيضا من حبائل الشيطان وعليه أن يَتَّقِي ربه ومولاه، وأن يخشى اليوم الذي سيقف فيه بين يدي الله -عزّ وجلّ- وفي هذا اليوم لا شك أن كل إنسان سيكون مشغولا بنفسه، ولن يَنْظُر أحد إلى غيره مهما كانت قرابته.

ثم يختم رب العالمين -سبحانه وتعالى- هذه السورة الكريمة المباركة ببيان شيء أيضا من سعة علمه، وعظمته، وقدرته في كونه سبحانه فيقول: ؟ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ؟ النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في سنته أَخْبَرَ عن هذه الآية بأنها هي مَفَاتِح الغيب، والله -عزّ وجلّ- في سورة الأنعام نَسَبَ هذه الْمَفَاتِح أيضا إلى نفسه فقال: ؟ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ؟ [الأنعام: ٥٩] وقال أهل العلم: مَفَاتِح جمع، إما أن تكون جمع "مَفْتَح" بفتح الميم، والمعنى مَخْزَن؛ يعني أن رب العالمين -سبحانه وتعالى- عليم بخزائن هذه الأرض وما فيها، وعليم بخزائن الغيب، وكل شيء غُيِّبَ عن الناس فهو في مستودع ومستقر لا يعلمه إلا رب العالمين -سبحانه وتعالى جَلَّ في عُلاه- وقيل: "مَفَاتِح" جمع مِفْتَح بكسر الميم والمعنى هو المِفْتَاح، وإذا كان الْمِفْتَاح بيد رب العالمين -سبحانه وتعالى- فالغيب لا يعلمه إلا الله -جَلَّ في عُلاه- ولذلك صَحَّ الخبر عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: (مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله)، ثم قرأ -صلى الله عليه وآله وسلم- هذه الآية، وقبل أن نتناول هذه الآية وما فيها من الخمس أقول بأن علم الغيب لله -تبارك وتعالى- وحده دون سواه، لا يعرفه مَلَك مُقَرَّب، ولا يعلمه نبي مرسل، فجميع الأنبياء والمرسلين لا يعلمون الغيب، ولو ابتدأنا بأول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض ألا وهو نوح -عليه السلام- ماذا قال نوح -عليه السلام- لقومه - صلوات الله وسلامه عليه؟ نوح -عليه السلام- كما أخبر الله -تبارك وتعالى- عنه في سورة هود: ؟ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ؟ [هود: ٣١]، هكذا يقول عنه القرآن الكريم، ويَنُصُّ على ذلك رب العالمين في كتابه.

كذلك النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال الله له وأمره أن يقول: ؟ قُل لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ؟ [الأعراف: ١٨٨]، فالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بناءً على ذلك لا يعلم الغيب، والله -عزّ وجلّ- لما اتُّهِمَت أم المؤمنين عائشة -رضي الله تبارك وتعالى عنها- بالفاحشة وهي بريئة، الصديقة بنت الصديق -رضي الله تعالى عنها وعن أبيها- من ذلك ما بَرَّأَهَا النبي -عليه الصلاة والسلام- لأنه لا يعلم الغيب، ولكن الذي بَرَّأَهَا رب العالمين -سبحانه- وأنزل قوله في كتابه: ؟ أُولَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ؟ [النور: ٢٦]، فَعِلْمُ الغيبِ لله - تبارك وتعالى- وحده دون سواه، وقد يقول قائل: النبي -عليه الصلاة والسلام- يَعْلَمُ الغيبَ؛ لأنه أخبرنا عن أمور ستحدث في يوم القيامة؛ أخبرنا عن علامات الساعة، أخبر -صلى الله عليه وآله وسلم- عن أمارات وأشياء حدثت ووقعت حتى بعده -صلى الله عليه وآله وسلم- وهذه أمور مستقبلية غيبية لم تحدث في وقته وعرفها -صلى الله عليه وآله وسلم- وأخبر عنها؟!

فنقول في الجواب على ذلك: عِلْمُ الغيبِ لله وحده، ولكن رب العالمين -سبحانه وتعالى- يُطْلِع أنبياءه ورسله على شيء من الغيب يحتاجون إليه في مسألة النبوة والرسالة، فما عَلِمَه النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من مسائل الغيب التي أخبر بها مَن الذي عَلَّمَهُ إياها؟ رب العالمين -سبحانه- وإلا هو في ذاته ونفسه لا يعلمُ الغيبَ -صلى الله عليه وسلم- ولا يعلمُ من الغيبِ إلا ما عَلَّمَه الله إياه، وعلمُ الله له لهذه المسائل التي عَلَّمَه إياها إنما هي لمصلحة النبوة والرسالة والدعوة إلى الله، وفي ذلك يقول الله -عزّ وجلّ- كما في سورة الجن: ؟ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ؟٢٦؟ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ؟ [الجن: ٢٦، ٢٧].

الخمس التي جاءت في هذه الآية أولها: "إن الله عنده علم الساعة"، علم الساعة لله -تبارك وتعالى- وحده دون سواه، والله -عزّ وجلّ- في كتابه يقول: ؟ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ؟ [الأعراف: ١٨٧].

أما الأمر الثاني فهو أن رب العالمين سبحانه "يعلمُ ما في الأرحام"؛ يعني من خِلْقَة هذا المولود في الرحم صورته وشكله، شقي أو سعيد، عمره وأجله، ذكر أم أنثى، وغير ذلك، ولا يُعْتَرَض على ذلك بأن الإنسان على الأجهزة الحديثة يُعْلَم أذكر هو أم أنثى، فنقول بأنه في هذه الحالة خَرَجَ من عالَم الغيبِ إلى عالَم الشهادة؛ لأنَّ المَلَك يُرسَل إلى الجنين وهو في رحم أمه، ويأمره الله -عزّ وجلّ- بأن يكتب أجله ورزقه، وشقي أم سعيد، وبعدما يعلم المَلَك وهو مخلوق من مخلوقات الله -عزّ وجلّ- لا حَرَجَ أن يعرف الإنسان شيئا من ذلك.

أما الأمر الثالث التي ذكرَته الآية وهو أن رب العالمين -سبحانه وتعالى- يقول: ؟ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ؟ وهذا حق، ولو أن إنسانًا عَرَف أين يموت ربما لا يذهب إلى البلد التي سيموت فيها، والنبي -عليه الصلاة والسلام- أَخْبَرَ بأن الله -عزّ وجلّ- إذا قضى لعبده أن يموت في أرض جَعَلَ له إليها حاجة، فيذهب لحاجته، وهناك تُقْبَض روحه بأمر رب العالمين -سبحانه- كذلك أيضا لا تَعْرِف أي نفس ماذا ستكسب غدًا فهذا أمر مُغَيَّب، مع حرص الإنسان على الكسب والسعي فيه، إلا أن رب العالمين -سبحانه- يسوق الأرزاق لمن يشاء: ؟ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ؟ [آل عمران: ٣٧]

بالنسبة لسؤالَي الحلقة السابقة: كان السؤال الأول: عَرِّفِ الشِّرْكَ واذكر أقسامه وبَيِّنْ حكم كل قسم، ولماذا بدأ لقمان بالنهي عنه؟

وكانت الإجابة: عَرَّفَ النبي -صلى الله عليه وسلم- الشرك في حديث ابن مسعود فقال: (الشركُ أن تجعل لله نِدًّا وهو خلقك).

السؤال الثاني: اذكر دليلاً من القرآن وآخر من السُّنَّة في ذم الكبر، وما معنى قول الله: ؟؛ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ؟ وكيف كانت مِشْيَة رسول الله -صلى الله عليه وسلم؟

وكانت الإجابة: الدليل من القرآن قوله تعالى: ؟ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ؟، وكذلك قول الله -سبحانه وتعالى: ؟ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ؟.

والدليل من السُّنَّة قول النبي -صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر).

ومعنى: "واقصد في مشيك"؛ أي اقصد قصدًا مستقيمًا ليس كمِشْيَة الموتى وليس متتبِّعًا للناس يمينًا ويسارًا، وكانت مِشْيَة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هي أفضل مِشْيَة؛ كان أسرع الناس مِشْيَة وأحسنها وأفضلها، كأنما الأرض تُطْوَى له وكأنما ينحدر من مكان مرتفع، وهذه مِشْيَة أولو العزم من الرسل.

أسئلة هذا اللقاء:

السؤال الأول: اشرح قوله تعالى: ؟ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ؟؟

السؤال الثاني: هل النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يعلم الغيب، فَصِّلِ القولَ في ذلك مُدَعِّمًا إجابتك بالدليل؟

الدرس الخامس والعشرون

تفسير سورة السجدة

من ١: ١٤

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد:

يسرنا -إن شاء الله تبارك وتعالى- في هذا اللقاء أن نفتتح الحديث عن سورة السجدة، وسنتكلم عن آيات كريماتٍ فيها -إن شاء الله تبارك وتعالى- وذلك في محورَيْنِ اثنَيْنِ:

المحور الأول بعنوان: تنزيل الكتاب بالحق من رب العالمين، وإخباره سبحانه بأنه في أعلى عِلِّيين.

المحور الثاني بعنوان: الله -تبارك وتعالى- يُدَبِّرُ أمر مخلوقاته، والكافرون يستبعدون البعث والنشور.

ولنستمع إلى آيات هذا اللقاء من آيات هذا اللقاء.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم

؟ الم ؟١؟ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ؟٢؟ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ؟٣؟ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ؟٤؟ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ؟٥؟ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ؟٦؟ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ؟٧؟ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ؟٨؟ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ؟٩؟ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ؟١٠؟ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ؟١١؟ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ؟١٢؟ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ؟١٣؟ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ؟ [السجدة: ١: ١٤]

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين، وبعد.

نفتتح -بحمد الله وتوفيقه- الحديثَ عن سورة السجدة، وهي سورة مكية كان النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يقرأ بها في فجر الجمعة هي والإنسان، كان يقرأ بهما -صلى الله عليه وآله وسلم-، وهو من هديه -عليه الصلاة والسلام-، ولا يعني ذلك أن هذا أمرٌ واجبٌ، وإنما -كما ذكر شيخ الإسلام ابن القيم -رحمه الله- عن شيخه ابن تَيْمِيَّة- العلة في ذلك أن في كلا السورتين تذكيرًا بخلق الإنسان، وخلق آدم، وذكر الجنة والنار، ومواقف من القيامة، وكل ذلك يُذَكِّرُ الإنسان بالله -عزّ وجلّ-.

وآدم –صلوات الله وسلامه عليه– خُلِقَ في يوم الجمعة، وربُّ العالمين –سبحانه وتعالى– أَنْهَى خَلْقَ العالم في يوم الجمعةِ، وكان هذا دافعًا من النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– بأن يُذَكِّرَ أهل الإيمان مِمَّنْ خَلْفَه في الصلاة بهذه الأمور بقراءة سورة السجدة والإنسان –صلوات الله وسلامه عليه–.

وهنا نقطةٌ أشير إليها –أيضًا– أن بعض الناس يَظُنُّ أن قراءة السجدة لعلَّة السجود في فجر يوم الجمعة، وليس هذا هو المرادَ، ولذلك نجد أن البعض يَقْتَصِرُ على قراءة آيتيْنِ أو ثلاث من الآيات التي فيها السجدة؛ ظَنًّا منه أن المقصود هو أن يسجد سجدةً في صلاة فجر يوم الجمعة، ولكن المقصود هو قراءة السورة، وهي ليست واجبةً كما ذكرت. فلو أن الإنسان لم يداوم على قراءتها؛ فلا شيء عليه، وكان أهل العلم يَسْتَحِبُّون أن لا يُداوم الإمام على قراءتها حتى لا يَظُنَّ العامة أنها من الفروض التي يجب أن يكون عليها الإمام في كل جمعة.

هذا ما أحببت أن أشير إليه في مقدمة هذه السورة الكريمة الجليلة التي فيها –أيضًا– إثباتٌ لنبوة النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–، وحديثٌ عن رب العالمين –سبحانه–، وما يكون في يوم الدّين.

والله –عزّ وجلّ– قد افتتح هذه السورة بما افتتح به بعض السّور التي مرّت معنا بالحروفِ المقطّعة، وقد سبق الحديث عنها فيما مضى.

ثم قال –سبحانه وتعالى–: ؟ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ؟: الكتاب المراد به هو القرآن الكريم، وكلمة "تنزيل" تُفيد أن القرآن الكريم نَزَلَ من عند الله –عزّ وجلّ–، وأنَّ رب العالمين –سبحانه وتعالى– في أعلى علّيين، وسيأتي حديثٌ عن ذلك –إن شاء الله تبارك وتعالى– بعد قليل، ولكن الآية أرادت أن تُثبت أن هذا القرآن الذي نزل من عند الله –عزّ وجلّ– لا رَيْبَ فيه ولا شَكَّ، فعلى أهل الشرك والكفر أن تكون لهم بصيرة في كتاب الله –عزّ وجلّ–، هذا الكتاب الذي كله حق، وكله صدق، ونزل من عند الله –سبحانه وتعالى–، والله –سبحانه وتعالى– ختم الآية بقوله: ؟ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ؟، كأن الله –عزّ وجلّ– يقول: ربكم الذي خلقكم، وخلق مَنْ قبلكم، ربكم الذي يتولى أمركم، ربكم الذي يرزقكم آناء الليل وأطراف النهار، ربكم الذي أحياكم، وهو –سبحانه وتعالى– يُمِيتُكم، هذا الربّ هو الذي أنزل عليكم هذا القرآن، فأَقْبِلُوا على الإيمان به، وتابعوا النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– فيما جاء به؛ لأنه حقّ وصدق، والذي أنزله هو رب العالمين –سبحانه وتعالى–، وفي هذا تَدْعِيمٌ وإثبات لنبوَّة النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–؛ لأنهم كانوا يُكَذِّبُونه ولا يأخذون بقوله، ويقولون –عنه– بأنه شاعر، أو ساحر، أو كاذب، أو أنه أتى بهذا القرآن من عند غير رب العالمين.

الله –عزّ وجلّ– يُؤَكِّد أنَّ القرآن الكريم كلامه، وأنه –سبحانه وتعالى– هو الذي أنزله وحيًا على النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–، وهو كامل القُدْرَةِ لأنه رب العالمين، ولذلك على كل إنسان أن يتدبر هذه الآية: ؟ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ ؟؛ يعني لا شك فيه ولا امْتِرَاءَ من رب العالمين –سبحانه وتعالى–.

ثم يقول سبحانه: ؟ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ؟، "أم" هنا بمعنى بل الإضرابية، يعني "أم" المنقطعة، كأن الله –عزّ وجلّ– يَضْرِبُ عن تَوَهُّمِهم الذي يُمْكِنُ أنْ يَتَوَهَّمُوه في القرآن الكريم، وأنه سِحْرٌ أو كَذِبٌ أو افْتَرَاءٌ من عند النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–، فيقول الله: ؟ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ؟.

ثم يُضْرِبُ رب العالمين –سبحانه وتعالى– مرة أخرى على هذا القول فيقول: ؟ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ؟، فكلمة "الحق" هنا كأنها كُرِّرَتْ مَرَّتَيْنِ؛ لأن الله –عزّ وجلّ– لَمَّا قال: ؟ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ ؟ يُفهم من قوله ؟ لَا رَيْبَ فِيهِ ؟ أنه حقٌّ وصدق.

ثم بعد ذلك ينص –سبحانه وتعالى– في الآية التالية على أنه –أيضًا– حق وصدق، وأنه –أيضًا– من رب العالمين؛ لأنه قال: ؟ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ؟.

ثم والقرآن الكريم يخاطب المشركين أولا يَلتفت السياقُ إليهم، ويُبَيِّنُ لماذا نزل القرآن الكريم علـــى النبـــي –صلى الله عليه وسلم– بالحق؟!

قال: ؟ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ؟، المراد بهؤلاء القوم المنصوص عليهم هنا هـــم قريش، فالقرآن الكريم خاطب الله –عزّ وجلّ– به المشركين أولا، وكانوا هم المعْنِيِّينَ بالخطـــاب؛ لأن النبـــي –صلى الله عليه وآله وسلم– خرج من بينهم صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يَعترض معترض بهذا فيقـــول بـــأن الإنذار الواردَ في القرآن الكريم، أو أن بعثة النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– كانت لقريش فحـــسب، أو أنهـــا مقصورة على العربِ فحسب. وللأسف الشديد بعض الكفرة وبعض النصارى ذكروا ذلـــك وأنَّ النبـــي –عليـــه الصلاة والسلام– بعث إلى العرب خاصة، بعضهم قد يستدل بهذه الآية: ؟ لِتُنذِرَ قَوْمًا ؟ يعني قومك لتنذر قومـــا بأعيانهم محدودين.

نقول: السياق هنا يريد ربُّ العالمين به أن يخاطب المشركين أولا كي يقوموا بواجبهم تُجاه النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– وأن يؤمنوا به، وأن يصدقوا برسالته، أو يَدخلوا في دين الله أفواجا، فـــإذا تـــم ذلـــك وكـــان؛ سيحملون هم دعوة الإسلام والقرآن الكريم إلى غيرهم من الأمم والشعوب، وقد حدث ذلك، فلما آمـــن العـــرب بالنبي –عليه الصلاة والسلام– وتابعوه؛ كانوا سببا في نشر الإسلام في الأرض، وإلا؛ فبعثة النبي –صـــلى الله عليه وآله وسلم– عامّة، والنبي –عليه الصلاة والسلام– أُرسل إلى الناس كافة بنص التنزيل، ولا يحتاج الأمـــر إلى أن نقف هنا طويلا، فنحن –والحمد لله– نُسَلِّمُ به ويجب على غيرنا أن يُسَلِّمُوا به.

وكل من يقول بأن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– مُرْسَلٌ إلى قريش فحسب أو إلى العرب خاصة؛ نُلْزِمُه أن يؤمن بالنبي –عليه الصلاة والسلام–؛ لأنه إن آمن وَصَدَّقَ بأنه مرسل من قِبَلِ الله –والرسول لا يكذب–، فإذا جاء الرسول –صلى الله عليه وسلم– وقال بأنني مرسل إلى الناس جميعا؛ وجب علينا –إذن– أن نُصَدِّقَه في كل ما يقول به –صلى الله عليه وآله وسلم–.

بقي هنا معنى ؟ مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ؟، ألم يأتِ لقريش نذيرٌ من قبل النبي –صلى الله عليه وســـلم–؟ وهل –إذن– لمن أشرك ووقع في الشرك مِمَّنْ كان قبل النبي –عليه الصلاة والسلام– حجة على شِرْكِه وكُفْـــره لأن الحجّة لم تقم عليه برسول أرسله رب العالمين سبحانه؟ وهل هذه الآية –بناء على ذلك– تخالف أو تعارض قول الحق –تبارك وتعالى–: ؟ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ؟ [سبأ: ٢٤]؟!

نقول: لا يَتَعَارَضُ القرآن أبدًا، وليس هناك خلاف بين ظاهر هذه الآية وبين قوله تعالى: ؟ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّـــا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ؟؛ لأننا نقول –أولا– بأنَّ الله –تبارك وتعالى– أَرْسَلَ في هذه الأمة نذير؛ فأين كان إسماعيل –عليه السلام–؟ إسماعيل بن إبراهيم –صلوات الله وسلامه عليه– كان في مكة وبُعِثَ بينهم، ولكنّ المراد ؟ مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ؟؛ يعني من قريش، فأول رسول أُرسل من قريش وآخر رسول الله بَعَثَه الله إلى أهل الأرض هـــو نبيُّنا –صلوات الله وسلامه عليه–. هذا هو المعنى، وإلا؛ فالحجة قائمة إلا مَنْ عرف ربُّ العـــالمين –ســـبحانه وتعالى– أنَّ الحجة لم تَقُمْ عليه لأيِّ سبب من الأسباب؛ كأن يكون في مكان نَاءٍ ولم يسمع عن النبـــي المرســـل وغير ذلك، ولا شك أنَّ هؤلاء سيكونون من آحاد الناس أو أفرادهم، ولن يكونوا هم جملة الناس، بمعنى أنـــه لا توجد أُمة كاملة من الأمم لم يُرْسِلْ رب العالمين –سبحانه وتعالى– إليها رسولا.

ثم بعد ذلك يَستمر السياق ليُمَجِّدَ –أيضا– ربُّ العالمين –سبحانه وتعالى– نَفْسَه بعد أن ذكر أنَّ الكتاب نـــزل من عنده بالحق، وَثَبَّتَ بذلك نُبُوَّةَ النبيِّ –صلى الله عليه وآله وسلم– قال سبحانه: ؟ اللَّهُ الَّذِي خَلَـــقَ الـــسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ؟.

الحقيقة هذه الآية من أعظم آيات كتاب الله -عزّ وجلّ-، فرب العالمين -سبحانه وتعالى- أشار فيها أولا إلى خلقه للسماوات والأرض، وكثيرا ما يَسوق القرآن الكريم ذلك ويَتَحَدَّثُ الله -عزّ وجلّ- عنه، ولكنَّ الله -تبارك وتعالى- ذكر بعد هذه الآية ما يدل على عظمته -سبحانه- وكبريائه عندما أثبت لنفسه أنَّه استوى على العرش بعد أن خلق السماوات والأرض، وفي هذا دفع لما يُمكن أن يَتَوَهَّمَه إنسان بأنَّ الله -تبارك وتعالى- حَالٌ في مخلوقاته؛ لأنه لَمَّا خلق السماوات والأرض يقول: أين يكون رب العالمين -سبحانه وتعالى- إذن؟!

فَمَجَّدَ ربُّ العالمين -سبحانه وتعالى- نفسه أولا، وذكر أنه خلق السماوات والأرض، وقد تَحَدَّثْتُ عن هذا مرارا وتكرارا، ولكن الجديد في هذه الآية هو أنَّ الله -عزّ وجلّ- أخبر عن نفسه فيها بأنّه استوى على العرش.

؟ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ؟، قال أهْلُ العلم: بدأ من الأحد وانتهى بالجمعة، وقول اليهود بأن الله -عزّ وجلّ- تَعِبَ بعدما خلق الخلْقَ فاستراح في اليوم السابع، ولذلك يأخذون راحة في يوم السبت، وهذا من اعتقادهم الفاسد الباطل في ربِّ العالمين -سبحانه وتعالى-، وفيه أيضًا تشبيه لأنفسهم بالله -عزّ وجلّ-، فكلامهم في الله -تبارك وتعالى- باطل، واعتقادهم في أن رب العالمين -سبحانه وتعالى- كآحاد المخلوقات أيضًا باطل.

والله -عزّ وجلّ- قد رَدَّ عليهم إفْكَهم، ولا داعي -أيضًا- للوقوف عند ذلك، ولكني أقول بأن الله قَرَّرَ في هذه الآية قَرَارًا وَاضِحًا أنَّه -سبحانه وتعالى- خَلَقَ السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش سبحانه وتعالى.

الاستواء له معانٍ في لغة العرب؛ يأتي بمعنى الارتفاع، وبمعنى العلو، وبمعنى القصد إلى الشيء، وقد أخبر أبو العالية ومجاهد وقد ذكر ذلك الإمام البخاريُّ -رحمه الله تبارك وتعالى- في صحيحه أن معنى ؟ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ؟ يعني علا وارتفع على العرش، وصفة الاستواء لرب العالمين -سبحانه وتعالى- من الصفات الثُّبُوتِيَّةِ؛ أعني التي أثبتها الله -تبارك وتعالى- في كتابه، وأثبتها له النبي -صلى الله عليه وسلم- في سنته، وأجمعت عليها الأمة، بل إن دليل العقل والفطرة أيضا يُمكن أن نَضُمَّهما إلى هذه الأدلة الثلاثة.

ولذلك أقول بأن الاستواء على العرش يُؤَيَّدُ بالأدلة المختلفة؛ من القرآن الكريم، ومن السنة، ومن إجماع أهل السنة والجماعة، ومن العقل، ومن الفطرة:

أما من القرآن الكريم؛ فمثل هذه الآية، وأن الاستواء حَقٌّ على حقيقتِه، ومعنى استوى: علا وارتفع، وهذا هو المعنى المقصود والمراد في لغة العرب، وهذا يكون على ما يَلِيق بجلال الله -تبارك وتعالى- وكماله.

وقد ذكر الله -عزّ وجلّ- هذه الآية في سبعة مواضع من القرآن الكريم، هذا موضع منه، في سبعة مواضع من القرآن الكريم أخبر ربنا -سبحانه وتعالى- في كتابه أنه استوى على العرش، وهناك آيات كثيرة في كتاب الله -تبارك وتعالى- تُؤَكِّدُ وتُرشد وتَدُلُّ على استواء رب العالمين -سبحانه وتعالى- على عرشه؛ كقول الحق -تبارك وتعالى- مثلا عن الملائكة: ؟ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ؟ [النحل: ٥٠]، نحن نعلم أين الملائكة؟ ملائكة في الأرض وملائكة في السماء، فحينما يقول رب العالمين سبحانه بأن الملائكة تخاف ربها من فوقها؛ دَلَّ ذلك على أن ربَّ العالمين -سبحانه وتعالى- فوق جميع المخلوقات.

كذلك -مثلا- ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى-: ؟ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ؟ [سبأ: ١٠]، الصعود يكون من أسفل إلى أعلى، كذلك -مثلا- ما جاء في قوله: ؟ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ ؟ [الملك: ١٦] و"في" هنا بمعنى "على" يعني أأمنتم من على السماء؟ ومن المعلوم أن حروف الجر يَنُوبُ بعضها عن بعض، وهذه كما قال

فرعون: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ [طه: ٧١]، فيَستحيل أن يُصلّبَ الإنسان إنسانًا في داخل جذع النخل، وإنما المراد أن يصلبه على الجذع، كذلك ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ ﴾.

وهناك آياتٌ كثيرة حول ذلك تؤيد هذا وتُرشد إليه بما فيها الآيات الستة الأُخَر التي جاء فيها استواء الله –تعالى– على عرشه.

كذلك –أيضا– من السنة: أحاديث كثيرة جدًّا وردت عن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– في ذلك، ومن أصْرَحِها دَلالَةً الحديثُ الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه عن مُعَاوِيَةَ بن الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ –رضي الله تعالى عنه–، وفيه –باختصار شديد– أنَّ النبي –صلى الله عليه وسلم– سأل الجارية فقال لها: (أين الله)؟ فقالت: في السماء، فقال –صلى الله عليه وآله وسلم–: (أعتقها؛ فإنها مؤمنة).

شَهِدَ لها النبيُّ –صلى الله عليه وسلم– بذلك لما أخبرت بأن ربها في السماء، ولو كان الأمر على غير هذا؛ ما أقَرَّها ولا سكت –صلى الله عليه وآله وسلم–، وإلا؛ سيكون قد غَشَّ أمته –صلوات الله وسلامه عليه–.

أيضا، أجمع أهل السنة على أن رب العالمين –سبحانه وتعالى– استوى على عرشه استواءً يليق بجلاله وكماله، لا نعرف حقيقته –وهذه مسألة مهمة جدًّا–، ولا نعرف كُنْهَه، ولا نعرف كيفيته؛ لأن ربِّي ليس كمثله شيء –سبحانه وتعالى–.

وهذا الإجماع قد نَصَّ عليه أئمة أهل السنة والجماعة، وكتب أهل السنة والجماعة –بحمْدِ الله وفضله– متوافرة، ولكني أُشير –فقط– إلى كتابين اثنين في هذا المقام؛ لأن كل كتاب منهما انفرد بالحديث عن هذه الصفة لرب –سبحانه وتعالى– الكتاب الأول كتاب الإمام الحافظ ابن القيم –رحمه الله– والذي عنونه بقوله «اجتماع الجيوش الإسلامية على غَزْوِ المعطِّلة والجهميَّة»، هذا الكتاب –وقد حُقِّقَ في رسالة علميَّة– أفْرَدَه وَخَصَّه الإمام ابنُ القيم بالحديث عن استواء الله على عرشه، وعن علو رب العالمين –سبحانه وتعالى– على خلقه، والإمام ابن القيم من هو في العلم؟! ففي هذا الكتاب ذكر كلام أهل التفسير، كلام أهل اللغة، ذكر أقوالاً عن السّلف من الصحابة والتابعين، حتى استدل بأقوال الطيور والحشرات على علوّ الله –تبارك وتعالى– على خلقه.

ومن طريف ما ذكر أن سليمان –عليه السلام– خرج يَستقي بقومه فوجد نملة قد وضعت ظهرها على الأرض ورفعت قوائمها إلى السماء تطلب من ربّها الغيث والمطر، فقال سليمان –عليه السلام–: «ارجعوا؛ فقد كفيتم بغيركم»، وسليمان قد عُلِّمَ منطقَ الطّير، واستدل بذلك على أنها لَمَّا وضعت ظهرها على الأرض ورفعت قوائمها إلى السماء أنها كانت تطلب بذلك الغيثَ من ربِّها، وهي تعلم أن ربها –سبحانه وتعالى– في السماء.

كذلك الإمام الحافظ الذهبيّ –رحمه الله تبارك وتعالى– ألّف كتابا نفيسا في ذلك سماه "العلوّ للعليّ الغفار"، وقد شحن فيه كثيرًا من الأحاديث والرّوايات والآثار التي تُؤيد ذلك، وقد هذّبه واختصره، وحذف أسانيده وعلق عليه تعليقا جيّدا الإمام محمد ناصر الدين الألباني –رحمه الله تبارك وتعالى– وطُبع كتابُه باسم "مختصر العلو للعلي الغفار".

كذلك –أيضًا– العقل يدل على هذه الصفة. لماذا؟ لأن رب العالمين لَمَّا خلق؛ أخبر أنه خلق السماوات والأرض، هكذا بالعقل هل الذي خلق السماوات والأرض يكون داخلَ السماوات والأرض أم خارج السماوات والأرض؟! الذي يليق بمقام رب العالمين –سبحانه– أن يكون مع مخلوقاته وعبيده أم أن يكون في أعلى عليين –سبحانه وتعالى–؟! أن يكون في أعلى عليين، ولعلّ هذا الأمر لُوحظ لَمَّا أخبر النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– وأمرنا أن نقول في السجود: «سبحان ربي الأعلى»؛ لأن الإنسان عندما يضع جبهته على الأرض وبالتالي يكون

على ظهر هذه الأرض -وهي أسفل شيء بالنسبة للإنسان يَضع قدميه عليها- عندما يكون في أسفل مكان بالنسبة له في هذه الحالة يُمَجِّدُ ربه ومولاه فيقول: «سبحان ربي الأعلى».

كذلك الفطرة تدل على أن رب العالمين -سبحانه وتعالى- في أعلى عليين، ولذلك استدل أبو العلاء الْهَمَذَانِيُّ -رحمه الله تبارك وتعالى- على الإمام الْجُوَيْنِيِّ -رحمه الله- بأن ربنا -سبحانه وتعالى- مُسْتَوٍ على عرشه استواء يليق بجلاله وكماله بالفطرة.

تناقش أبو العلاء الهمذاني وكان يثبت الاستواء مع أبي المعالي الجويني -رحمه الله تبارك وتعالى-، وكان أبو المعالي يُؤَوِّلُ الاستواء في أول عهده -رحمه الله تبارك وتعالى- فقال له الهمذاني -بعد أن قال له الجويني: دعنا من نص التنزيل، واتركنا من القرآن الذي قال: استوى على العرش، أو الأحاديث؛ لأنها تُؤول-: دَعْنَا من ذلك وأخبرنا عن الضرورة التي يجدها الإنسان في قلبه ما قال عارف قَطُّ: يا الله! إلا وجد في نفسه ضرورةَ التَّوَجُّهِ إلى جهةِ العلوِّ، لا يوجد إنسان يقول: يا الله! ويطلب من ربه ومولاه إلا ويجد في نفسه ضرورة أن يتجه إلى العلو، ولذلك الإنسان لَمَّا يدعو ربه ومولاه يفعل ماذا؟ مباشرة يَرفع يديه إلى السماء؛ لأنه يعتقد ويُوقِنُ من خلال الفطرة أنَّ رب العالمين -سبحانه وتعالى- عالٍ على عرشه، مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه -سبحانه وتعالى- في أعلى عليين.

أما من فَسَّرَ الاستواء بالاستيلاءِ؛ فقد أَخْطَأَ خَطَأً بَيِّنًا، حتى ولو كانت لغة العرب تُسْعِفُه في ذلك، وأن معنى "استوى" يأتي بمعنى "استولى"؛ لأنّ هذا المعنى وإن كان سائغًا عند الناس؛ إلا أنه لا يليق أن يُضاف وأن يُنسب إلى ربّ العالمين -سبحانه وتعالى-.

يقول الله -عزّ وجلّ- في سبعة مواضع من القرآن الكريم: ؟ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ؟، ويقصد "استولى"؟! لو قاله إنسان؛ نقول له: رب العالمين -إذن- عَمَّى على خلقه، وأصبح هذا القرآن -الذي هو بيان ورحمة وهدى وشفاء- أصبح كتاب عماية وجهالة وضلالة؛ لأن رب العالمين لو أراد أن يُعْلِمَنا أنه استولى على عرشه؛ لقال: استولى ولو في مرة واحدة، أما أن يأتي السياق في سبعة مواضعَ بلفظ واحد، فَدَلَّ ذلك على أنَّ هذه هو المرادُ، خاصة بعدما أَيَّدَتْه آيات أُخَرُ من كتاب ربنا وسنة نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم-.

والنبي -عليه الصلاة والسلام- كان يَسْتَنْطِقُ العباد بأنه بَلَّغَ الرسالة، ويُشهد ربه ومولاه في يوم عرفة ويرفع أصبعه الشريفة إلى السماء؛ لأنه يَسْتَشْهِدُ برب العالمين مُوقِنًا أن ربه -سبحانه وتعالى- في السماء.

ومعنى "استوى" لا يليق أن نقول فيه: استولى رب العالمين؛ لأننا نسأل مَنْ يقول بأن "استوى" بمعنى "استولى" وأن معنى "استوى على العرش" هو "استولى على العرش"، نسأله: من كان مُسْتَوْلِيًا على العرش قبل رب العالمين -سبحانه وتعالى-؟! هذا لا يَليق بمقامِ ربِّ العالمين -سبحانه وتعالى-؛ أن يكون غيره قد استوى على عرشه ثم جاء رب العالمين وغلبه، كما قال بعض أهل العلم إن كلمة "استولى" تُفيد المغالبة بين شخصٍ وآخرَ، والله -تبارك وتعالى- هو العزيز الحكيم لا يَليق أن يُنسب إليه شيءٌ من ذلك -سبحانه وتعالى-.

ولذلك الموقف الصحيح في مثل هذه الآية وغيرها من آيات الصفات أن نُؤمن بها كما وردت من عند رب العالمين -سبحانه وتعالى-، وأن نفهما على مُقتضى لغة العرب كما فَهِمَها صَحَابَةُ النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، فهم قد سمعوا هذه الآيات وسمعوا من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- هذه الصفات وما استشكلوها، وما أَوَّلُوها وما وُجِدَ كلامٌ لأحدِهم يقول بأن "استوى" بمعنى "استولى"، ويَسَعُنا في ذلك ما وَسِعَ سَلَفَ هذه الأمة -رضوان الله تعالى عليهم أجمعين-.

فالمهم أن نُؤمن بظواهر هذه الصفات كما وردت، دون أن نَتَدَخَّلَ فيها بتأويلٍ، أو تعطيلٍ، أو نُشَبِّهَ ربنا –سبحانه وتعالى– فيها بآحاد المخلوقين؛ لأن الله –عزّ وجلّ– فيما ثبت له من الأسماء والصفات لا يُشْبِهُ فيه أحدًا من المخلوقات ؟ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً ولَا وَلَدًا ؟ [الجن: ٣]، وقال عن نفسه سبحانه: ؟ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ؟ [مريم: ٦٥]، وقال سبحانه: ؟ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ؟ [الشورى: ١١].

وبعد أن أخبر عن علوّه سبحانه، وعن خلقه للسماوات والأرض قال للمشركين: ؟ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ؟، لا يوجد هناك ناصر لأحدٍ ولا من يقوم بالشفاعة دون رب العالمين؛ لأن الشفاعة –كما سبق ذكر ذلك فيما مضى– لرب العالمين –سبحانه وتعالى– وحده دون سواه: ؟ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ؟ [الزمر: ٤٤]، ولا يقول أحد: أين –إذن– شفاعة الملائكة، والأنبياء، والأولياء، والصالحين، وعباد الله المؤمنين؟! نقول: الشفاعة لهم ثابتةٌ، ولكنَّها بأمر ربِّ العالمين –سبحانه وتعالى–.

؟ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ؟ يا أيها القوم! فترجعون إلى الله –عزّ وجلّ– وتؤمنون بالنبي –صلى الله عليه وآله وسلم– وبما نزل عليه من عند رب العالمين؟

المحور الثاني –بعد ذلك في هذا اللقاء–:

الله –تبارك وتعالى– يُدَبِّرُ أمر المخلوقات، والكافرون يستبعدون البعث والنشور، وفي ذلك يقول الله –عز وجل–: ؟ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ؟.

؟ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ؟؛ يعني يَتَنَزَّلُ الأمر من عند رب العالمين –سبحانه– من أعلى السماوات إلى أقصى الأرض، وكل ذلك بأمر الله –عزّ وجلّ–؛ كما قال سبحانه: ؟ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ؟ [الطلاق: ١٢].

وقيل: معنى ؟ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ؟ يعني يُنَزِّلُ جبريل –عليه السلام– بالوحي على النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–.

؟ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ؟؛ يعني الأمر أو جبريل على قولٍ ؟ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ؟، هكذا ذكر رب العالمين سبحانه، وأن اليوم عندنا يختلف عن اليوم عند رب العالمين –سبحانه وتعالى–، وقد سبق أن الله –عزّ وجلّ– قال في سورة الحج: ؟ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ؟ [الحج: ٤٧]، كما في هذه الآية، وقال في سورة المعارج: ؟ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ؟ [المعارج: ٤].

فهل هنا تعارض بين هاتين الآيتين؟ بين ما أخبر أن الأمر عنده في ألف سنة وأن الملائكة –في آية أخرى– تعرج إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة؟!

لا تعارض بينهما –أبدًا–، وقال أهل العلم –في ذلك– بأن المراد بالألفِ سنة هي نزول الأمر وعروجه من عند رب العالمين –سبحانه–، يعني نزول الأمر من عند الله –عزّ وجلّ– وعروجه إليه هذا يكون في يوم كألف سنة من حساب أيامنا نحن.

أما الخمسون ألف سنة المشار إليها في سورة المعارج؛ فالمراد بها يومَ القيامة، وقيل اليوم لا يَتَغَيَّرُ ولا يَتَبَدَّلُ ولا يختلف، والألف هي الخمسون، ولكنها تَختلف أحوالها على المؤمن وعلى الكافر، فعلى المؤمن يكون خفيفا عليه سهلا ميسورا، وعلى الكافر يكون شديدا صعبا عسيرا، وقد أَشَرْتُ إلى هذا في تفسير سورة الفرقان لمن أراد أن يَرْجِعَ إلى ذلك فيما مضى عند تَعَرُّضي لقول الحق –تبارك وتعالى–: ؟ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ

مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ؟ [الفرقان: ٢٤]، وقد قلت بأنَّ حساب أهل الإيمان ينتهي في نصف نهار، أما حساب الكافر؛ فيكون في يوم عسير كما قال رب العالمين –سبحانه وتعالى– شديد؛ إذن، يطول اليوم على الكافرين ويَقِلُّ على أهل الإيمان، وبهذا نجمع بين الآيات الواردة في ذلك.

ولكمال علم الله وقدرة رب العالمين سبحانه قال في الآية التالية مباشرة: ؟ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ؟، يعني بعدما قال: ؟ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ؟، وأن الأمر يعرج إليه في ألف سنة قال هذا الذي فعل ذلك، هذا الذي خلق السماوات والأرض وأشار إليها، هذا الذي استوى على العرش ،هذا الذي يتنزل الأمر من عنده –سبحانه وتعالى– هو عالم الغيب والشهادة –سبحانه وتعالى–.

وقدم علم الغيب على الشهادة؛ لأنه أقْوَى على النفس وأدفعُ للإيمان؛ لأنه إذا كان يعلم الغيب؛ فيعلم الشهادة من باب أوْلَى، وهي تدل على كمال علم رب العالمين –سبحانه وتعالى–.

وفي اللقاء السابق في ختام سورة لقمان تَحَدَّثْتُ عن علم الغيب، وقلت بأن علم الغيب لله –عزّ وجلّ– وَحْدَه، وضاق الوقت –هناك– عن أن أشير إلى أن بناءً على أنَّ علم الغيب لله وحده لا يجوز لإنسانٍ –بحال من الأحوال– أن يذهب إلى الكهنة والعرافين ليسألهم شيئًا عمَّا غُيِّبَ عن جميع البشرية كلِّها، لا ينبغي لأحدٍ أن يذهب إلى إنسان آخر مثله يَزْعُمُ أنه يعلم الغيب فيسأله عن شيء مفقود، أو عن أمر ضاع منه، أو عمَّا يمكن أن يَتَوَقَّعَه بالنسبة لمستقبله وغير ذلك؛ لأن الذي يعلم الغيب هو رب العالمين وحده دون سواه. لذلك حَذَّرَ النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– من الإتيان والذهاب إلى الكهنة وإلى العرافين، والمقام –أيضًا– يضيق عن ذكر ذلك، وقد أشرت إلى هذا في لقاءات وندوات متعددة، وهو أمر يَجِبُ أن يعرفه عموم المسلمين والذي –فقط– أَوَدُّ أن أشير إليه هو أن أُحَذِّرَ الناس والمسلمين بصورة عامة أن يَذهبوا إلى أحَدٍ مِمَّنْ يزعم أنه يعلم الغيب؛ لأن الذي يعلم الغيب هو رب العالمين –سبحانه وتعالى– وحده دون سواه، وهي صفة اختص الله –تبارك وتعالى– بها.

وبعدما وصف نفسه سبحانه، وذكر أنه هو الذي يعلم الغيب أشار أيضًا إلى قُدْرَتِه في خلْق الكون والإنسان بصورة خاصة، وعلى الحكمة والإحكام والإتقان في خلق المخلوقات، فقال سبحانه: ؟ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ؟، يعني أتقنه –سبحانه وتعالى–، وبدأ خلق الإنسان من طين يعني آدم –عليه السلام– ، ؟ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ؟، يعني بعد ذلك أصبح الخلق يَتَنَاسلُ عن طريق التزاوج بين الرجل وبين الأنثى كما هو معلوم.

؟ ثُمَّ سَوَّاهُ ؟ عاد السياق بعد ذلك إلى آدم –عليه السلام–، ؟ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ؟.

الله –عزّ وجلّ– خَلَقَنَا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئًا كما ذكر في سورة النحل ونص عليه، ولكني أَوَدُّ أن أُشِيرَ إلى أنَّ الله –عزّ وجلّ– في كثير من آيات القرآن الكريم التي ذَكَرَ فيها تَفَضُّلَه على عبادِه بالسمع والبصر يُقَدِّمُ السمع على البصر، قال أهل العلم: لأن حاسَّة السمع في الإنسان تَعْمَلُ قبل حاسة البصر، وقالوا: إن المراد من بهذه الآلات التي زُوِّدَ بها الإنسان –هي السمع والبصر– وغير ذلك أنْ يستفيد الإنسان وأن يستغلها فيما خلق لأجْلِه، والإنسان –إذن– يسمع أولا من والدَيْه الحقَّ والخير، ومن غيرهما وأقول والديه؛ لأن الإنسان ينشأ أولا في البيت، ثم بعد ذلك يبدأ فيُبصر من خلال ما سبق.

أيضًا، يُلاحظ في هذه الآية أن الله –عز وجل– أفْرَدَ السَّمْعَ وجمع الأبصار والأفئدة، أفرد السمع لأن السمع مصدر والمصادر لا تُجمع، وإنما الأبصار والأفئدة فتُجمع، إلى جانب أن هناك أمرًا آخرَ ذكره أهل العلم أنَّ الإنسان لا تجتمع قواه على أن يسمع شيئين في زمان واحد، يعني الإنسان لا يستطيع أن يفهم تماما كلامين في وقتٍ واحدٍ، وبالتالي؛ السمع قوة واحدة، أما البصر؛ فالإنسان يمكن أن يَجُولَ ببَصَرِه ليُشَاهِدَ أشياءَ متكررةً،

وكذلك يَعِي بقلبه أشياءَ مختلفةً، ثم بعد ذلك يقول رب العالمين: اشكروا نِعَمَه على ذلك، وأخبر أن قليلاً من الناس هم الذين يشكرون الله -عزّ وجلّ- على هذه النِّعَم التي أنْعَمَ الله بها عليهم.

ولذلك قال الله -عزّ وجلّ- في سورة إبراهيم -بعد أن ذكر أيضًا بعض نعمه على خلقه-: ؟ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ؟ [إبراهيم: ٣٤]، بعدها ؟ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ؟، هذا السياق جاء في سورة إبراهيم، وهو يفيد أن غير المؤمن لا يَشكر الله -عزّ وجلّ-، بل يَكفر ويَجحد نعمة الله، وكان الأولى به أن يشكر الله -عزّ وجلّ- على فضله وإحسانه وامتنانه.

ثم يقول -سبحانه-: ؟ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ؟، يذكر الله -عزّ وجلّ- عن المشركين شبهة لا معنى لها ولا قوام لها؛ أن يقولون: نحن إذا غبنا في الأرض وتَحَلَّلَتْ أجسادُنا وأصبحنا في التراب؛ تحللنا مع التراب وأصبحنا كِيانا واحدا، هل بعد هذا -كلِّه- يُمكن أن يُرْجِعَنا ربنا -سبحانه وتعالى-؟! هؤلاء -أيضا- غاب عنهم قدرة رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

الأولى بالعبد أن يَعرف أن الله -عزّ وجلّ- على كل شيء قدير، وأن يقوم في قلبه تعظيمٌ وتقديرٌ يليقان برب العالمين -سبحانه وتعالى-. هؤلاء يستبعدون أن يُعِيدَهم الله -عزّ وجلّ- بعدما أنشأهم مرة أخرى. خلقك الله -عزّ وجلّ- وأَوْجَدَكَ من العدمِ إلى الوجود أين كنت قبل أن يُوجِدَك رب العالمين -سبحانه وتعالى-؟! كنت لا شيء، فبعدما خلقك وسَوَّاك -كما أشارت الآية السابقة- وأَمَدَّك بوسائلِ الإدراك والمعرفة تُنْكِرُ -بعد هذا- أن يُعيدك مرة أخرى؟! إنَّ الإعادة على الله -عزّ وجلّ- من منظورِ البشرِ أيسرُ وأهونُ وإلا؛ فالكل يسيرٌ هَيِّنٌ على رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

ولما استبعدوا ذلك؛ جاء الله -عزّ وجلّ- إليهم بذكرِ الموتِ مباشرةً فقال: ؟ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ؟.

أخبر الله -عزّ وجلّ- في هذه الآية أن ملك الموت هو الذي يقبض أرواح الناس جميعا؛ لأن الخطاب للناس جميعا: ؟ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ ؟، وأود -هنا- أن أنبه إلى أمر يُخطئ فيه بعضُ الناس عندما يُسمون ملك الموت بعزرائيل، وهذه التسمية ليس لها أصل في هَدْي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، والإمام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- -تبارك وتعالى- ذكر أن هذا قد يكون قد أُخذ من الإسرائيليات، وإلا؛ فملك الموت سماه ربنا -سبحانه وتعالى- هنا في كتابه بأنه ملك الموت.

هنا لا بد أن أتحدث عنه، وهو أن الله -عزّ وجلّ- في كتابه ذكر أنه هو الذي يتوفى الأنفس -سبحانه وتعالى-، ونسب ذلك إلى نفسه، وفي القرآن الكريم أيضًا نَسَبَ الوفاة والموت إلى ملائكته -سبحانه وتعالى-: ؟ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ؟ [الأنعام: ٦١]، وهنا في هذه الآية قال: ؟ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ ؟، إذن؛ مرة نسب الله -عزّ وجلّ- التَّوَفِّي الواقعَ على العبد وعلى الإنسان إليه، ومرة نسبه إلى ملك الموت كما في هذه الآية، ومرة نسبه إلى عموم الملائكة، قال ؟ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ؟، وقد جاءت آياتٌ كثيرة تُفيد أن الملائكة -أيضا- يفعلون ذلك؛ فكيف ندفع هذا الإشكال؟!

أقول أولا:

رب العالمين -سبحانه وتعالى- هو الذي أَذِنَ وأَمَرَ بالوفاة، فالنسبة إليه -هنا- حقيقية، فالمَلِكُ عندما يَأْمُرُ بِأَمْرٍ ولم يفعله هو وإنما فعله غيره مِنْ خلقه معنى هذا ينسب إليه على معنى أنه هو الآمر به -سبحانه وتعالى-.

إذن، أمر متعارف عليه بين الناس، فالناس يقولون –مثلا– أقام الملك الفلاني هذا الجسر ويُنسب إليه رغم أنه لم يأتِ هو ويأخذ حجرا وطينا ويُقيم البناء، وإنما فعله الناس ونُسب إليه لأنه هو الآمر به. فالله –عزّ وجلّ– نسب الوفاة إلى نفسه؛ لأنه هو الآمر بها –سبحانه وتعالى– ونسبها إلى ملك الموت؛ لأنه هو الذي يُباشر قَبْضَ الأرواح، ملك الموت هو الذي يُباشر نَزْعَ الروح، والملائكة يعاونون ملك الموت بعد ذلك، وهذا يوضحه حديث البراء بن عازب –رضي الله تعالى عنه–، وهو أن العبد عندما إليه ملك الموت ويجلس عند رأسه ينزع منه الروح، وتأتي الملائكة فيجلسون منه مَدَّ البصر، فإذا نزع الروح من الميِّت؛ أخذتها وتَلَقَّفَتْها منه الملائكة فوضعوها إن كان مؤمنا في كفن وحنوط من الجنة، وإن كان كافرا –أعاذني الله وإياكم من هؤلاء– وضعوه في حنوط وكفن من النار.

وبالتالي؛ حُلَّ الإشكالُ بهذا النِّسبة إلى الله لأنَّه هو الآمر، والنسبة إلى ملك الموت؛ لأن ملك الموت هو الذي يَتولَّى بنفسه قبضَ الأرواح، والنسبة إلى الملائكة؛ لأن الملائكة يعاونون ملك الموت ويأخذون منه الروح بعد أن يقبضها، وبالتالي لا إشكال في هذا، ولكن الأمر كما ذكر الله بعدما يتوفانا رب العالمين سبحانه نرجع إلى مَن؟ ونعود إلى من؟ نرجع إلى الله –عزّ وجلّ– ونعود إليه.

ثم يقول رب العالمين للناس جميعا أمرا مهما عن حال المجرمين في يوم الدين؛ لأننا نقرأ القرآن اليومَ على البشرية كلها وقد نزل على الناس جميعا، والقرآن الكريم يصور حال المجرمين في يوم الدين، وهذا يدفعنا إلى أن ننتبه وإلى أن نستيقظ، وإلى أن يرفع عن نفسه حجاب الغفلة، يقول رب العالمين: ؟ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ؟. هذا فيه ذِلَّةٌ ومهانة على هؤلاء الكافرين؛ لأنهم ينكسون رؤوسهم، وتنكيس الرأس أمارة على الذلة في يوم القيامة، وعندئذ يقولون: ؟ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ؟، لكن متى يقولون: ربنا أبصرنا وسمعنا؟! بعدما يرجعون إلى الله –عزّ وجلّ–، والله –عزّ وجلّ– أثبت لهم السمع البصر في يوم القيامة ولكنهم لا يستفيدون من ذلك: ؟ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ؟ [مريم: ٣٨]، وهنا يقولون: ؟ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ؟، ما طلبكم بعد أن سمعتم وأبصرتم وكنتم في الدنيا لا تبصرون ولا تسمعون؟!

؟ فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ؟ دخلوا الآن في يقين هكذا يقولون لرب العالمين ويذكرون أنهم لو رجعوا إلى الدنيا سيفعلون الصالحات ويعملون الأمور التي تُرضي رب العالمين العباد، والله –عزّ وجلّ– أعلم بهم، وأعلم بحالهم، وأعلم بشأنهم، والرب –سبحانه وتعالى– يعلم أنهم لو عادوا إلى الدنيا من جديد؛ لرجعوا إلى الكفر والمعاصي والسيئات كما أخبر رب العالمين بذلك في كتابه فقال: ؟ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ؟.

قال الله –عزّ وجلّ–: ؟ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ؟ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

ثم يختم ربنا –سبحانه وتعالى– هذه الآيات مبينا مشيئته وقدرته الكاملة، وأنه لو أراد؛ لهدى النَّاس جميعا، ولكنه شاء –سبحانه– أن يكون فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير، فقال: ؟ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ؟١٣؟ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ؟.

هذا –أيضًا– فيه تمجيد لرب العالمين –سبحانه وتعالى–، الله –عزّ وجلّ– بعدما ذكر موقف الكافر في يوم القيامة، وأنه في موقف الذلة والصغار وأن رأسه مُنَكَّسَةٌ ؟ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ؟، يعني ليس له قوام يرفعه بين يدي الله –عزّ وجلّ–، ويعلن أنه أصبح عنده شيء من الفهم والوعي والإدراك يسمع به ويبصر، الله –عزّ وجلّ– بعد ذلك وبعدما يطلب الرجعة يقول الله –تبارك وتعالى–: له لو شئتُ؛ لهديتك إلى الصراط المستقيم، ولو شئنا؛ لآتينا كلَّ نفسٍ هُداها، لو شاء الله –عزّ وجلّ– كما ذكر في كتابه؛ لآمن من في

الأرض كلهم جميعا، ولكنه -سبحانه وتعالى- لم يشأ ذلك أراد أن يَدخل الإيمان في قلوب بعض العباد وأن تنشرح صدورهم له، كما أراد -سبحانه وتعالى- أن يبقى بعض الناس على الشرك والكفر والعماية والجهالة والضلالة، وهو -سبحانه وتعالى- حكم عدل في ذلك، لا يُسأل عن ما يفعل، وعندما قال ذلك قال: ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ﴾ يعني لم يشأ ربنا -سبحانه وتعالى- هداية الناس جميعا. لماذا؟ لكي يَجعل أناسا في جهنم وبئس القرار، ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾.

هذا المقطع من الآية يفيد أن بعض الجن في النار وبعض الإنس في النار، ويفيد بناءً على ذلك أنَّ الجن مكلفون، منهم الصالح ومنهم الطالح، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر، وأنهم أمة، والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كما أخبرنا القرآن الكريم وأعلمنا هو في سُنَّتِه -صلوات الله وسلامه عليه- بعثه الله -تبارك وتعالى- إلى الجنِّ وإلى الإنس.

ثم يُبَكِّتُ الله -عزّ وجلّ- من أخبر أنه شاء أنهم يكونون من الجن والإنس في النار أخبر عنهم بأمر عجيب قائلا مُتَهَكِّمًا بهم: ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

يا أيها الكفرة الذين كنتم تتطاولون على خلق الله في أرض الله -عزّ وجلّ- وربما تطاول البعض منكم على الله -تبارك وتعالى-! ﴿ ذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾، نسيتم يعني تركتم ولم تعملوا لهذا اليوم، والله -عزّ وجلّ- كما تركتم الإيمان به في الدنيا وتركتم الإيمان بالنبيِّ المرسل إليكم أيضًا في الدنيا، ولم ترجعوا إلى الله -عزّ وجلّ- فالله -تبارك وتعالى- أيضًا في هذا اليوم لن يَرحمكم ولن يَغفر لكم، بل سيقابلكم بأعمالكم التي فعلتموها ﴿ إِنَّا نَسِينَاكُمْ ﴾، ويقول لهم متهكما بهم لما كفروا به سبحانه: ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعني عذاب السعير دائما أبد الآباد عليكم بما كنتم تعلمون، يعني بما كسبت أيديكم ورب العالمين -سبحانه وتعالى- لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بالنسبة لأسئلة الحلقة السابقة كان السؤال الأول:

اشرح قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾.

وكانت الإجابة:

معنى قول الله -عزّ وجلّ- أنه لو أن الشجر كله أقلام كي تكتب كلامه -سبحانه وتعالى- ثم يمد تلك الأقلام سبعة أبحر؛ ما انتهت كلماته سبحانه.

وقال العلماء: إن قوله تعالى: "سبعة أبحر" ليس المقصود ذات العدد، وإنما يقصد من ذلك العدد الكثرة؛ أي أن الأقلام لو كانت يمدها آلاف البحار بل ملايين البحار؛ ما نفذت كلماته سبحانه.

وقيل: المقصود بكلمات الله القرآن، وقيل: كل كلام تكلم به -سبحانه وتعالى-.

الجواب صحيح.

السؤال الثاني: هل النبي -صلى الله عليه وسلم- يعلم الغيب؟ فصل القول في ذلك مدعما ما تقوله بالدليل.

وكانت الإجابة:

يقول الله -سبحانه وتعالى-: ؟ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ؟، فحصر سبحانه الكلام بين "لا" النافيـــة وبين "إلا"، وذلك -كما قال أهل اللغة- أسلوب حصر وقصر، وكذلك في حديث جبريل -عليه الـــسلام- حينمـــا سأله عن الساعة فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما المسؤول عنها بأعلم من السائل)، كذلك عندما قالت أم العلاء حينما مات زوجها: "أشهد بأن الله أكرمك" فقال لها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وما يُـــدريكِ أن الله أكرمه وأنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لا أدري ما يُفعل بي)؟ فمن ذلك يُعلم أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- لا يعلم الغيب، والله -تعالى- أعلم.

الجواب صحيح.

كنت أود من المجيب أن يتعرض لشبهةِ أن النبي -عليه الصلاة والسلام- يعلم شيئًا من الغيب فيما أخبر به، وأن يستدل بآية سورة الجن وقد قلتها عندما كنت أتحدث في ذلك اللقاء الماضي.

السؤال الأول:

اذكر ثلاثة أدلة من القرآن الكريم تفيد إثبات صفة العلو لله -تعالى-.

السؤال الثاني:

كيف نُوَفِّقُ بين قوله -تعالى-: ؟ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ ؟ وبين قوله: ؟ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ؟؟ وهل ملـــك المـــوت اسمه عزرائيل؟ وضح ذلك.

الدرس السادس والعشرون

تفسير نهاية سورة السجدة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد:

فيسرنا أن يستمر لقاؤنا -بحمد الله تبارك وتعالى وفضله- في تفسير كتاب الله -تبارك وتعالى- على ضوء ما فَسَّرَ به الإمام الحافظ ابنُ كثير -رحمه الله تبارك وتعالى-، وسيدور حديثي في هذا اللقاء حول آيات من سورة السجدة، وذلك في محورين اثنين:

المحور الأول: أهل الإيمان أخلصوا للرحمن، بخلاف غيرهم من الكفار.

المحور الثاني: رب العالمين يُحذر المشركين وهم يستمرون في التكذيب والعناد.

ولنستمع الآن إلى آيات هذا اللقاء.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

؟ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ؟١٥؟ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ؟١٦؟ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ؟١٧؟ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ؟١٨؟ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ؟١٩؟ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ؟٢٠؟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ؟٢١؟ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ؟٢٢؟ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ؟٢٣؟ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ؟٢٤؟ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ؟٢٥؟ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ؟٢٦؟ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ؟٢٧؟ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ؟٢٨؟ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ؟٢٩؟ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ؟ [السجدة: ١٥: ٣٠].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين، وبعد.

الآيات الكريمات التي سأفتتح بها -إن شاء الله تبارك وتعالى- هذا اللقاء تتحدث عن أهل الإيمان الذين أخلصوا وجوههم لله -تبارك وتعالى-، وبالتالي؛ تُبْرِزُ وتُبَيِّنُ موقفَ الكافرين الذين استكبروا عن عبادة رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

وفي ذلك يقول الحق -تبارك وتعالى-: ؟ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ؟، لو تذكرتم أنني ختمت اللقاء الماضي بذكر ما ذكره رب العالمين -سبحانه وتعالى-

عن حال الأشقياء الذين لم يسجدوا لله -عزّ وجلّ- واستكبروا عن عبادته وحده دون سواه، ولمَّا ذكر رب العالمين -سبحانه وتعالى- حال الأشقياء؛ ذكر هنا حال المؤمنين المصدّقين الذين آمنوا بالنبيِّ -صلى الله عليه وآله وسلم-، وخضعت جباهُهم لله -تبارك وتعالى-.

؟ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا ؟؛ أي أن أهل الإيمان هم الذين إذا وَقَفُوا على آياتِ الله أو قرأ الواحد منهم شيئًا من كتاب الله أو ذَكَّرَ إنسان ما شخصا آخر بآيات الله -تبارك وتعالى-؛ خضع لهذه الآيات وخَرَّ لتوِّه ساجدا بوضع جبهته على الأرض لربه -سبحانه وتعالى- ومولاه. والسجود لله -عزّ وجلّ- من أفضل القُرُبَاتِ التي يَتَقَرَّبُ العبدُ بها إلى ربه ومولاه، ولذلك جاء في الحديث: (أقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد؛ فأكثروا من الدعاء)، والسجود يكون في داخل الصلاة، ويكون بسجدات متتاليةٍ يمكن أن يَفْعَلَها الإنسان؛ كسجدة التلاوة أو الشكر أو غير ذلك، ولذلك نجد أن القرآن الكريم ورب العالمين -سبحانه وتعالى- هو الذي أنزله وفرض فيه الصلاة أشار إلى السجود وحده رغم أن السجود يدخل في الصلاة وذاك لإبراز أهمية السجود لله -تبارك وتعالى- ومكانته ومن هنا يقول للنبي -صلوات الله وسلامه عليه-: ؟ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ؟ [الحجر: ٩٨].

ولما نهى أبو جهل النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يسجد لربه ومولاه ظنا منه أن المشركين قد يتابعوا النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- على ذلك فأمره ربه ومولاه ألا يلتفت إلى هذا التهديد وألا ينفذ هذا الكلام وقال له ؟ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ؟ [العلق: ١٩] ولذلك لما جاء كعب بن مالك إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وقدم له وضوءه كي يتوضأ -صلوات الله وسلامه عليه- قال له النبي -عليه الصلاة والسلام-: (سل ما شئت يا كعب) وهذا أمر عظيم نبي هذه الأمة إمامها -صلوات الله وسلامه عليه- يطلب من أحد الرعايا أن يسأل وأن يطلب ما يشاء فيسأل كعب بن مالك -رضي الله تعالى عنه- سؤالا مهما ويطلب من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- شيئًا عظيما وهو أن يرافق النبي -عليه الصلاة والسلام- في الجنة، هذا مطلب عظيم وشرف كبير في أن يكون العبد مع النبي -عليه الصلاة والسلام- في أعلى النعيم كيف يحقق هذا الأمر هذا ما أشار به النبي -صلى الله عليه وسلم- لكعب بن مالك لما قال له أعني على ذلك بكثرة السجود لله تعالى، فلم يجد إذن -صلوات الله وسلامه عليه- أفضل من السجود لله -عزّ وجلّ- كي يقوله لكعب بن مالك لما طلب أن يرافق النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في الجنة ولذلك كانت هذه الآية الكريمة فيها بيان عن هيئة أهل الإيمان وعن خضوعهم لله -عزّ وجلّ- واستسلامهم له وكثرة سجودهم لله -تبارك وتعالى- وهم مع هذا السجود والخضوع ينزهون رب العالمين العزة والجلال عما يفعله المشركون مما يتعلق بجانب رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى- كما ينزهونه سبحانه من صفات النقص والحدوث والاحتياج ولذلك بعدما أثبت رب العالمين -سبحانه وتعالى- لهم أنهم يخرون لله سجدا عندما يستمعون إلى آيات الله ذكر عنهم أيضا أنهم يسبحون بحمد رب العالمين -سبحانه وتعالى- والتسبيح بحمد الله يعني تنزيه رب العالمين -سبحانه وتعالى- عما لا يليق بجلاله وكماله وهم في ذلك خاضعون لله ولذلك قال وهم لا يستكبرون ويستمر السياق القرآني الكريم ليبين شيئًا من صفات هؤلاء بعد أن ذكر عنهم أنهم يخرون لله -تبارك وتعالى- سجدا وأنهم ينزهون ربهم -سبحانه وتعالى- عندما يسبحون بحمده وأنهم في قمة الخضوع والتواضع لرب العالمين -سبحانه وتعالى- حينما قال عنهم بأنهم لا يستكبرون تأتي الآية التالية لتذكر لهم صفة أخرى حميدة وهي أيضًا فيها مسارعة إلى فعل الخيرات قال تعالى:

؟ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ؟١٦؟ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ؟، تتجافى جنوبهم أي ترتفع وتنبوا جنوبهم عن المضاجع عن الأسرة التي ينامون عليها فلا ينامون والمقصود بذلك أنهم يقومون الليل لله -تبارك وتعالى- وإن ناموا فنومهم قليل ويقفون بين يدي الله -عزّ وجلّ- في ساعات السحر وهي ساعات القرب من رب العالمين -سبحانه وتعالى- وهي الساعات التي ينزل رب العالمين -سبحانه وتعالى- فيها إلى سماء الدنيا نزولا يليق بجلاله وكماله وقد تواتر الأحاديث عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بذلك وهو بهذا يقرب من عباده وأوليائه الصالحين وعباده

المخلصين الذين قاموا لله -تبارك وتعالى- وتوجّهوا إليه بالعبادة، وتركوا النوم والراحة والتلذّذ بالنوم وغير ذلك، مما يجد الإنسان فيه راحة أو بعض الراحة في بعض الأحيان، ولكنهم تركوا ذلك تقرّبا إلى الله -تبارك وتعالى-، وآثروا الحياة الآخرة والراحة فيها على الراحة في الدار الدنيا والنعيم فيها.

والله -عزّ وجلّ- حينما يصفهم بهذا: ؟ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ؟، قلت بأن المقصود هو قيامُ الليل، وقاموا بذلك للهِ؛ لأن الآية قالت عنهم بأنهم يريدون شيئًا من الله -تبارك وتعالى-، وقد ذُكر في هذه الآية: ؟ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ؟ ما أجمل هؤلاء القوم! الذين نصبوا أقدامهم لله -تبارك وتعالى-، وتوجهت قلوبهم إلى الله، ووجوههم إلى ربهم وخالقهم سبحانه، ورفعوا أكفّ الضراعة إليه يدعونه دون سواه وهم يَرغبون فيما عند الله -تبارك وتعالى- ويَطمعون فيه، وأيضا يخافون من عقاب رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

وقيام الليل له فضل عظيم، ولا يقدر عليه إلا أصحاب العقول السليمة، والفطر المستقيمة، وأهل الحق والإيمان الذين عَرفوا جلال رب العالمين -سبحانه وتعالى-. وقد كان النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يَقوم الليل لربّه حتى تورّمت من هذا القيام قدماه -صلوات الله وسلامه عليه-.

وتاريخنا واضح غايةَ الوضوح بذكْر سِيَرٍ كثيرة وكبيرة لأئمةٍ من أهل العلم والخير والفضل، كانوا يقفون بين يديْ الله -عزّ وجلّ- في الليل يدعون ربهم -سبحانه وتعالى-، ويتضرعون ويخضعون لرب العباد -سبحانه وتعالى-.

ولذلك لمَّا جاء معاذ بن جبل -رضي الله تعالى عنه- إلى النبي -عليه الصلاة والسلام- وقال له كلمة عظيمة: «دُلَّنِي على عَمَلٍ يُدْخِلُنِي الجنَّةَ ويُبَاعِدُنِي من النار»، هكذا كان شأن الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم أجمعين-؛ يسعون إلى تحقيق هذه الغاية، أنهم يريدون الجنة ويسألون ربهم -سبحانه وتعالى- إياها، ويخافون من النار ويستعيذون بالله -عزّ وجلّ- من القرْب منها أو الوقوع فيها، ولذلك يطلب الأعمال التي تقربه إلى الجنة وتباعده من النار. فنبي هذه الأمة -صلوات الله وسلامه عليه- بَيَّنَ حقًّا أن سؤاله عظيم قال: (لقد سألت عن عظيم)، سألت عن شيء كبير للغاية ولكنه يسير على من يسره الله عليه، ثم قال له -صلوات الله وسلامه عليه-: (تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتُقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج بين الله الحرام)، ثم قال له -صلى الله عليه وآله وسلم-: (ألا أدلك على مجامع الخير)؟ بعد هذه الفروض التي نَصَّ عليها -صلى الله عليه وآله وسلم- فطلب منه معاذٌ ذلك فأجابه -صلى الله عليه وآله وسلم- بقوله: (الصوم جنة، والصدقة تُطفئ الخطيئة، وقيامُ الرّجل في جوفِ الليل)، هذا من أعمال البر من أعمال الخير واستمر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في كلامه وحديثه يُبَيِّنُ لمعاذٍ -رضي الله تعالى عنه- كثيرًا من الصفات التي إذا اتَّصف بها الإنسانُ؛ كان -حقا- من أهل الإيمان، وكان قريبا من الله -عزّ وجلّ- وكان موعودا من ربِّ العالمين بجَنَّةٍ عرضها السموات والأرض، أهل الإيمان يقفون بين يدي الله ويدعون ربهم خوفا وطمعا.

وهنا لفتة لا بد من الوقوف عندها، وهي أن طبيعة المؤمنين يشعر أنه ذليل، أنه فقير، أنه ضعيف، أنه بحاجة إلى ربّه ومولاه، فلا يستغني عن ربه طرفة عين، ولذلك تجده دائما يطمع فيما عند الله، ويخاف من عذاب الله -تبارك وتعالى-، وبعض الناس -مع كل ذلك ومع هذه النصوص الصريحة الواضحة في كتاب الله تبارك وتعالى- بعض الناس يَذكر أنهم يَعبدون الله -تبارك وتعالى- لا طمعا في جنته، ولا خوفا من عقابه، وقد لبّس الشيطان عليهم في ذلك؛ قالوا: لو أنّ الإنسان عبد ربه ومولاه لطَمَعِه في جنته ولخوفه من عقابه؛ يكون -بهذا- قد عبد الله -تبارك وتعالى- لغاية، وقالوا: نحن ننزه أنفسنا عن غاية في عبادتنا لله -تبارك وتعالى-، فالله -عزّ وجلّ- أهْلٌ لأنْ يُعبد دون غايةٍ أو دون طلب نحتاجه من رب العالمين العزة والجلال -سبحانه وتعالى-.

ونحن نقول: رب العالمين -سبحانه وتعالى- حقا أهلٌ لأن يعبد، ولكن لا بد من أن يكون العبد ذليلا خاضعا خاشعا طالبا راجيا راغبا فيما عند رب العزة والجلال -سبحانه وتعالى-؛ لأن الرغبة والطمع والخوف من الله -سبحانه وتعالى- يُظهر فقر العبد وحاجته إلى ربه ومولاه -سبحانه وتعالى-.

والله -عزّ وجلّ- كان يصف الأنبياء والمرسلين بأنهم كانوا يدعون ربهم خوفا وطمعا، وهذا زكريا -عليه السلام- لَمَّا طلب من ربّه الولدَ تَفَضّلَ رب العالمين -سبحانه وتعالى- به عليه، وذكر عِلَّة ذلك أو شيئًا من أسباب ذلك ؟ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ؟، هكذا شأن المسلمين، هكذا شأن المؤمنين، هكذا شأن الصالحين، هكذا شأن أنبياء الله وعباده المرسلين.

وها هنا رب العالمين -سبحانه وتعالى- يقول عمَّن ابتعدت جنوبُهم عن المضاجع بأنهم يدعون ربهم خوفا وطمعا، وهذا القيام لله -عزّ وجلّ- والطلب من ربّ العالمين -سبحانه وتعالى- نَفْعُه يعود على الإنسان، ولذلك ذكرت الآية أنهم يأتون بقُرْبَةٍ أخرى فيها نفع مُتَعَدٍّ إلى غير أنفسهم، وهو ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى- : ؟ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ؟، وهم يعملون لأنفسهم ولذواتهم بعبادات يَرجع نَفْعُها أولا عليهم هم، ثم هم بعد ذلك يَتَقَرَّبُون إلى الله -تبارك وتعالى- بسائر أنواع القُرُبَاتِ، ومن ذلك القربات التي يَتَعَدَّى نَفْعُها إلى الآخرين، ومن ذلك الصّدقات والزّكوات وغير ذلك.

هؤلاء الذين فعلوا ذلك رب العالمين -سبحانه وتعالى- ذكر ما أعَدَّه لهم من جِنَانٍ في الدّار الآخرة، فقال: ؟ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ؟، يعني لا يعلم إنسان ما ولا تعلم نفس إنسان ما ما أعده الله -تبارك وتعالى- لهؤلاء المؤمنين الصادقين، الذين تجافت جنوبهم عن المضاجع، وقاموا لربّ العالمين -سبحانه وتعالى-، وتوجهوا إليه بالدعاء راغبين خائفين، وأنفقوا في سبيل رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

وهذه الآية -أيها الإخوة الكرام!- تُفيد أنّ ما أعدّه الله -عزّ وجلّ- لمن اتّصف بهذه الصّفات هو أعلى نعيم أهل الجنة، الذي أعدّه الله -تبارك وتعالى- لأصفيائه من أهل الإيمان.

؟ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ؟ هذه الآية المراد منها إشارةٌ إلى أعلى نعيم أهل الجنة، وأن هذا النعيم الذي سيناله هؤلاء هو أعلى نعيمٍ يُنَعِّمُ رب العالمين -سبحانه وتعالى- به عباده الصالحين. والدليل على ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن موسى -عليه السلام- سأل ربه: ما أدنى أهل الجنة منزلةً؟ فقال رب العالمين -سبحانه وتعالى-: (رجل يُقال له: ادخل الجنة، فيقول: يا رب! وكيف أدخل وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم)؟! يعني كل إنسان حصل على حقه في هذه الجنة وأخذ منزله ومكانه، فأين أدخل وأين سأكون في وسط هؤلاء؟ فيقول الله -تبارك وتعالى- له لهذا الرجل: (أما ترضى أن يكون لك مثل مُلْكِ مَلِكٍ من ملوك الدني) فيقول: بلى رضيت يا رب. فيقول الله له: (لك مثله، ومثله، ومثله..) إلى أن يذكر خمسة أضعاف، فيقول هذا العبد: «رضيت يا رب» رضيت بذلك، فيقول الله -عزّ وجلّ-: لك مثله وعشرة أمثاله معه، هكذا لهذا الرجل الذي سيأتي ويدخل الجنة بعدما استقر فيها أهلُها، فقال موسى -عليه السلام-: «فما هم أعلى أهل الجنة يا رب»؟! إذا كان هذا نعيمَ أدنى أهل الجنة؛ فنعيم أهل الجنة أعلاهم ماذا؟ فقال رب العالمين -سبحانه وتعالى- له: هؤلاء الذين أردت، غرزت كرامتهم بيدي وختمت عليها، ثم قرأ: ؟ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ؟.

فدل هذا الحديث على أن المراد بهذه الآية ذِكْرُ أعلى نعيم الجنة، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ولذلك جاءت أحاديث كثيرة عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن من يدخل الجنة من هؤلاء ينعم ولا ييأس، لا تَبْلَى ثيابه، ولا يفنى شبابه، يظل هكذا في نعيمٍ دائمٍ أبد الآباد؛ لأنه قام لربّه -سبحانه وتعالى-.

ثم تُقرِّر بعد ذلك الآية التالية أن هذا النعيم هو العدل والحكمة من رب العالمين سبحانه، وأن الله -عزّ وجلّ- اقتضت حكمته وعزته سبحانه وجلاله أن يُفَرِّقَ بين أهل الإيمان وأهل الكفر وأن يكون هؤلاء في منزلة وهؤلاء في منزلة، ولذلك يقول مُعَقِّبًا على هذه الآيات السابقة: ؟ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ؟١٨؟ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ؟١٩؟ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ؟.

وقد صدق رب العالمين -سبحانه وتعالى- في قوله؛ فليس من الحكمةِ ولا من العدل أن يُسَوِّيَ رب العالمين -سبحانه- بين مَنْ قام لربه ومولاه، ووقف بين يديه، وخشع وتَبَتَّلَ، وترك النوم ولذته، ووقف بين يدي الله، وأنفق في سبيله وجاهد بألوان وأنواع الجهاد في سبيل الله، يستحيل أن يكون هذا شأنه ومكانته ومنزلة كمن كفر برب العالمين -سبحانه وتعالى-.

ولذلك قال: ؟ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ؟، والله -عزّ وجلّ- قد فَرَّقَ في آيات كثيرة بين أهل الإيمان وبين أهل الكفر والشقاق والعصيان فقال -كما ذكر هنا-: ؟ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ؟، وفي آية أخرى: ؟ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ؟ [ص: ٢٨]، هذا لا يليق بملكٍ عادلٍ من ملوك الدنيا؛ فما بالنا برب العالمين -سبحانه وتعالى-؟! ولذلك هذه الآية تُقَرِّرُ حكمة رب العالمين -سبحانه وتعالى- وأن الله -عزّ وجلّ- حكم عدل.

ثم تأتي الآية التالية لتُبَيِّنَ منزلة هؤلاء الناس عند ربّ العالمين -سبحانه وتعالى-؛ لأن الله لَمَّا ذَكَرَ الفرق بينهما، وأنه لا يمكن أن يَجمع بينهما في حالة واحدة؛ أشار إلى حال الفريقين بعد ذلك فقال: ؟ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى ؟ الجنان العظيمة، وقال هنا جنات، ولعلّي سبق أن أشرت إلى الجمع في الجنة إلى جنات بأنها جنان كثيرة، وهي جنان المأوى، يعني أن أهل الإيمان يدخلون فيها ولا يتغيرون، ؟ و لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ؟، وإنما هي ؟ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ؟؛ يعني منازل أعدها رب العالمين -سبحانه وتعالى- لهم بسبب أعمالهم السابقة، وقد أشارت الآية إلى شيء من هذه الأعمال.

ثم ذكر رب العالمين -سبحانه وتعالى- الفريق المقابل، فقال: ؟ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا ؟ واستكبروا على رب العالمين -سبحانه وتعالى-، خرجوا عن طاعته؛ لأن هذا هو معنى الفُسوق، مالهم يا رب؟ قال: ؟ فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ؟، ثم يُبَيِّنُ عقابا أليما لهم في الدنيا قبل أن يُشاهدوا عذابَ الآخرة، وهي أنهم لَمَّا يدخلون النار يَوَدُّون أن يخرجوا منها، ولكنهم لا يخرجون ؟ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ؟، فهو عقاب أليم أيضًا لهم يؤلمهم رب العالمين -سبحانه وتعالى- به، ولو رجع هؤلاء الذين فسقوا وخرجوا على طاعة رب العالمين سبحانه، ووقفوا أمام هذه الآية؛ لعلموا النَّكَالَ الذي سيحيق بهم عندما يرجعون بين يدي رب العالمين سبحانه.

وهذه الآية والآية السابقة أفادتا أن نعيم الجنة وعذاب النار لا ينقطعان بحال من الأحوال، فنعيم الجنة باقٍ، وهذا أمر متفق عليه، كذلك أيضا أبدية النار، وأن النار باقية أمر متفق عليه، وما نُسب إلى بعض أهل العلم من سلف هذا الأمة أنهم قالوا بفناء النار؛ فكان قصد الواحد منهم أن يقول بأنّ أصحاب الكبائر هم الذين يَخرجون من النار بعدما يُمَحَّصُون فيها. أهل الكبائر من المؤمنين عندما يمحصون في النار إن دخلوها بمشيئة رب العالمين هؤلاء يخرجون منها، فمن قال من بعض أهل العلم من أن النار تنفى قصد وأراد بذلك نار العصاة، وقد نَصَّ على ذلك الإمام الحافظ ابن القيم -رحمه الله تبارك وتعالى- نص على ذلك وبين أن الدور ثلاثة:

- هناك دار طيبة لا يشوبها شيء من الخبث أبدًا، ألا وهي الجنة.

- وهناك دار خبيثة لا يشوبها شيء من الطيب أبدًا، وهي دار الكافرين والمنافقين والمشركين وغير هؤلاء من المجرمين.

- وهناك دار يختلط فيها الطيب مع الخبيث. قال وهذه هي نار العصاة، وهي التي تَفْنَى، ومراده بذلك أنهم يخرجون من هذه النار؛ لأن رب العالمين -سبحانه وتعالى- لا يُخَلِّدُ أصحابَ الكبائر في النار كما هو واضح وظاهر من معتقد أهل السنة في ذلك.

ثم زاد رب العالمين -سبحانه وتعالى- هؤلاء المجرمين الذين وعدهم بالنار، وقال بأن النار هي مأواهم بسبب تكذيبهم لله قال: ؟ وَلَنُذِيقَنهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ؟.

أشارت الآية السابقة إلى عذاب يوم القيامة، فقد يقول قائل بأن هؤلاء ليس لهم عذاب في الدنيا؛ فرب العالمين -سبحانه وتعالى- أشار في هذه الآية أنه سيُذيقهم -أيضا- في هذه الدنيا من ألوان العذاب وذلك من المصائب والآفات التي تأتي عليهم من هنا ومن هناك، وكذلك أيضًا ما يحدث لهم من قتل وتشريد أحيانا على يد أهل الإيمان.

والخطاب في القرآن الكريم أولا خوطب به أهل الشرك من كفار مكة، وتلاه النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- عليهم، وهم يدخلون في هذه الآيات دخولا أوليا، وقد أذاقهم الله -عزّ وجلّ- العذاب الدنيوي على يد عُصْبَةٍ من المؤمنين وذلك في غزوة بدر، لما قتل أهل الإيمان منهم سبعين رجلا وأسروا بعد ذلك أيضًا سبعين.

إذن، المراد بالعذاب الأدنى هنا هو العذاب الذي يقع على الكفار في الدنيا، أمَّا العذاب الأكبر؛ فهو بعد ذلك في الدار الآخرة.

ثم يقول رب العالمين -سبحانه وتعالى- ؟ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ؟.

ومن أظلم يعني لا أظلم ممن ذُكِّرَ بآيات رب العالمين -سبحانه وتعالى- وتُليت عليهم وأدركها ووقف عليها ثم بعد ذلك أعرض عنها، لا أظلم منه؛ لأنه ما اهتدى بآيات رب العالمين سبحانه، وآيات الله -عزّ وجلّ- فيها الهداية، وفيها الشفاء، وفيها النور، وفيها الضياء، فإذا لم يهتدِ وقد وُصفت هذه الآيات بكلّ هذه الصفات، فهو -حقا- من المجرمين، وسينتقم منه رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

ولذلك هذه الآية تُحَذِّرُ من الإعراض عن التدبر في آيات رب العالمين -سبحانه-، وتُوجب التسليم والخضوع لآيات الله -عزّ وجلّ-، وإذا ذُكِّرَ الإنسان بها؛ وجب عليه أن يتذكر، والله -عزّ وجلّ- في كتاب سمى المعرضين عن الذكر الذي يأتيهم من عنده -سبحانه وتعالى- بأنهم حميد: ؟ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ؟٤٩؟ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ؟ [المدثر: ٤٩، ٥٠].

كذلك رب العالمين -سبحانه وتعالى- توعّد مَنْ أعرض عن ذكر الله -عزّ وجلّ- بالعذاب الأليم والحياة الضنك والشقاء: ؟ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ؟ [طه: ١٢٤]، وقال سبحانه: ؟ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ؟ [الزخرف: ٣٦].

ولذلك على العبد أن يَحذر من الإعراض عن آيات الله -تبارك وتعالى-، وعلى الجميع أن يُسلِّمَ وأن يخضع لآيات الله -عزّ وجلّ- ولا يستكبر عنها بحال من الأحوال، ومن فعل ذلك؛ فهو من أهل الإجرام، وأن رب

العالمين -سبحانه وتعالى- سينتقم منه. ولذلك ختم الله -عزّ وجلّ- هذه الآية بقوله: ؟ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ؟.

ثم ينتقل السياق بعد ذلك، فيقول رب العالمين سبحانه: ؟ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ؟٢٣؟ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ؟٢٤؟ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ؟.

يخبر رب العالمين -سبحانه وتعالى- عن عبده ونبيّه ورسوله موسى -عليه السلام- أنه أتاه الكتاب، ما هو الكتاب الذي أتاه الله موسى -عليه السلام-؟ هو التوراة، ويبشر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بأنه سيَلقى موسى -عليه السلام-: ؟ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ؟.

ذكر بعض أهل العلم أنّ المراد باللقاء هنا هو لقاء النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لموسى ليلة الإسراء والمعراج، وهذا حق وقد رأى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- موسى -عليه السلام- ليلة الإسراء والمعراج، رآه قائما يُصلي ووصفه -صلى الله عليه وسلم- بأنه طوال، وأنه كرجال أزد شنوءة وهي بلدة في اليمن، وأن لونه يميل إلى الاسمرار، و هكذا وصفه نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم-.

كما أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لقي موسى -عليه السلام- وهو في السموات العلى، وحديث البخاري ومسلم الذي جاء فيه أن النبي -عليه الصلاة والسلام- كان يتردّد بين موسى وبين ربّه دليلٌ على ذلك.

وقال بعض أهل العلم بأن المراد: ؟ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ؟ يعني من لقائه في الدار الآخرة، وعلى كلٍّ؛ كلا الأمرين حقٌّ، فالنبي -عليه الصلاة والسلام- لقي موسى ليلة الإسراء والمعراج، وسيلقاه أيضًا في يوم القيامة عندما يجمع الله -تبارك وتعالى- الأولين والآخرين.

بقي أن أذكر في هذا الجزء من الآية أن بعض أهل العلم قال: لماذا ذكر الله -عزّ وجلّ- هنا موسى -عليه السلام- ولم يذكر عيسى، وعيسى -عليه السلام- بعد نبي الله موسى: ؟ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ؟؟

قيل بأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لقي موسى -عليه السلام- ليلة الإسراء والمعراج، وقيل أيضا: لأن هذا فيه إلزام لليهود، وكانوا أقرب إلى النبي -عليه الصلاة والسلام- من النصارى في الأرض؛ فاليهود كانوا يجاورون النبي -صلى الله عليه وسلم- في المدينة، وكان النبي -عليه الصلاة والسلام- في مقدمة بعثته في مكة والمدينة أقرب إلى مكة من بلاد الشام التي كان النصارى فيها. فأراد القرآن الكريم أن يلزم هؤلاء اليهود الإيمانَ بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وأن النبي -عليه الصلاة والسلام- وموسى كلاهما مبعوث من عند رب العالمين سبحانه وأن النبي -عليه الصلاة والسلام- سيلتقي بموسى -عليه الصلاة والسلام-.

قالوا أيضًا بأن اليهود لا يؤمنون بعيسى، والنصارى يؤمنون بموسى -عليه السلام-، فلما يُذكر موسى -عليه السلام-؛ فيكون الله -عزّ وجلّ- قد ذكر نبينا مجمعا من كلا الطائفتين على الإيمان به، اليهود تؤمن به والنصارى أيضا تؤمن به؛ لأنَّ اليهود تكذب بني الله عيسى -عليه السلام-.

؟ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ؟؛ أي جعلنا الكتاب هدى لبني إسرائيل، وقيل: جعلنا موسى هدى لبني إسرائيل، وكلا المعنيين حق وصحيح؛ فالتوراة أنزلها رب العالمين -سبحانه وتعالى- كما أخبر في كتابه فيها ضياء، وفيها هدى، وفيها نور، نزلت على هؤلاء القوم ولكنهم لم يُسلِّمُوا بما جاء فيها لرب العالمين -سبحانه وتعالى-، ولم يؤمن بهذه التوراة ولم يقم بها كما نزلت من عند الله

إلا بعضُ بني إسرائيل فقط، هم الذين آمنوا بالتوراة، ولذلك رفعهم رب العالمين -سبحانه وتعالى- وأعلى من قَدْرهم، وهذه الآيات أشارت إلى ذلك، وهذا في قول الحق -تبارك وتعالى- وجعلنا منهم لم يقل وجعلناهم وقال: ؟ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ؟، ما قال وجعلناهم حتى يعود الضمير على جميع بني إسرائيل ولكنه قال: ؟ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ ؟؛ لأن البعض فقط هو الذي استمرَّ على العهد، واتبع الكتاب الذي أنزله رب العالمين -سبحانه وتعالى- على موسى -عليه السلام-.

وهؤلاء جعلهم رب العالمين -سبحانه وتعالى- أئمة في الدين لسببين سبقت الإشارة إليهما، وهما الصبر واليقين، قال رب العالمين: ؟ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ؟.

وقد يسأل سائل: لماذا جعل الله -عزّ وجلّ- من بعضهم أئمة؟ وأين بقية بني إسرائيل؟ الآية التالية: ؟ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ؟ تفيد أنهم اختلفوا، وخرجوا عن تعليمات رب البرية، فعاقبهم رب العالمين -سبحانه وتعالى- بما وقع منهم وسيجتمعون بين يديْه، وسيفصل الله -عزّ وجلّ- بينهم في يوم القيامة، ولذلك هذه الآية جاءت لتُبْرِزَ أيضا هذا المعنى، ولتُبَيِّنَ أن بعض بني إسرائيل لم يُتابعوا الكتابَ الذي نزل من عند الله، ولم يُتابعوا نبيهم موسى -عليه السلام-، ولو تابعوه؛ لآمنوا ولدخلوا في دين النبي محمد بن عبد الله -صلوات الله وسلامه عليه-، وطالما أنهم لم يفعلوا ذلك؛ فسيحكم رب العالمين -سبحانه وتعالى- ويقتص منهم في يوم الدين.

أنتقل بعد ذلك إلى المحور الثاني وهو بعنوان: رب العالمين يحذر المشركين وهم يستمرون في التكذيب والعناد. وتحته ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى-: ؟ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ؟.

الخطاب هنا موجه هنا لمشركي مكة، وهم يدخلون فيه دخولا أوَّليًّا وهم موجه بعد ذلك لكلِّ مشرك وكافر لم يهتدِ بآيات -عزّ وجلّ-، ولم ينظر في الأمم السابقة التي كذَّبت الأنبياءَ والمرسلين.

الله -عزّ وجلّ- كان يُرسل الأنبياء والمرسلين إلى أقوامهم، وكان كل رسول يُرْسَلُ إلى قومِه، يدعوهم إلى الله -عزّ وجلّ-، فيكذبه الكثير منه، وكان الله -عزّ وجلّ- ينتقم من هؤلاء المجرمين بسبب تكذيبهم للأنبياء والمرسلين، ومخالفتهم أمرَ ربّ العالمين -سبحانه وتعالى-. وهذه الآية تقول: ألا يهتدي هؤلاء بما فعله رب العالمين -سبحانه وتعالى- بالأمم السابقة المكذبة؟! أليس لدى هؤلاء عقل ووعي وإدراك يفكرون به ومن خلاله إلى ما فعله الله -عزّ وجلّ- بالأمم التي كذبت بالأنبياء والمرسلين؟! ؟ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا ؟، وكم هنا للتكثير يعني أن القرى التي أهلكها رب العالمين -سبحانه وتعالى- كانت كثيرة، فأين هم من هؤلاء القرى التي أهلكها رب العالمين -سبحانه وتعالى-؟

وكثيرا ما يشير القرآن الكريم إلى القرى التي أهلكها الله -عزّ وجلّ- ويدعو المكذبين الشاردين إلى أن يتأملوا في ذلك لعلهم يرجعون فيتوب إلى الله -عزّ وجلّ-. تأملوا مثلا قول الحق -تبارك وتعالى- في أواخر سورة مريم: ؟ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ؟ [مريم: ٩٨].

يعني هؤلاء الذين أهلكهم ربّ العالمين -سبحانه وتعالى- من قَبْلِ هؤلاء المكذبين هل ترى منهم أحدا؟! هل تشاهد منهم أحدا؟! هل تسمع لأحدهم صوتا؟! ليس لأحد منهم صوتٌ ولا كلامٌ.

وتأملوا ما قال رب العالمين -سبحانه وتعالى- عن قوم شعيب كما في سورة الأعراف: ؟ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ؟ [الأعراف: ٩٢]، سبحان الله! هؤلاء قوم كان لهم وجود واستمروا وعاشوا على ظهر هذه الأرض، ولكنهم لما كذبوا بنبيِّهم -صلوات الله وسلامه عليه- أصبحوا أثَرًا بعد عين، كأنْ لم يكن لهم وجود

بالكلية، هكذا يقول رب العالمين سبحانه: ؟ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ؟، وتأملوا أيضا ما جاء في قول الرب العليِّ – سبحانه وتعالى– عن بعض الظالمين: ؟ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ؟ [النمل: ٥٢] بسبب ظلمهم أصبحت فارغة خاوية، وكم دَمَّرَ الله –عزّ وجلّ– من الأمم السابقة كما قال: ؟ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ؟ [الإسراء: ١٧]، ولكن من يعتبر؟!

ولذلك ختم الله –عزّ وجلّ– هذه الآية بقوله: ؟ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ؟ ألا يسمع هؤلاء هذا القرآن الكريم الذي فيه تفصيل، وفيه بيان لعلهم يرتدعون ويرجعون إلى رب العالمين –سبحانه وتعالى–؟!

ثم ينتقل السياق بعد ذلك ليذكر لهم نعمةً أُخرى من نِعَم ربّ العالمين –سبحانه وتعالى– عليهم لعلهم لو تأملوها؛ رجعوا إلى رب العالمين سبحانه، وآمنوا بالنبي المرسل إليهم –صلوات الله وسلامه عليه–.

؟ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ؟.

أولم يروا: الرؤية هنا تشتمل على أمرين: رؤية بصرية ورؤية علمية فكرية نظرية.

الرؤية البصرية: كل إنسان عاش يشاهد الأمطار التي تنزل من عند رب العالمين سبحانه، يسوقها الله –عزّ وجلّ– إلى الأرض الميتة ويحيي بها رب العالمين –سبحانه وتعالى– هذه الأرض، وحياة الأرض فيه حياة للبلاد والعباد بما تنبته هذه الأرض من شتى ألوان وأنواع النبات، فيأكل الناس وتأكل الدواب وغير ذلك، والله –عزّ وجلّ– يقول لنا ولهم: ؟ أَوَلَمْ يَرَوْا ؟، تفكروا وتأملوا، انظروا بأعينكم وفكروا بعقولكم بما أودع رب العالمين – سبحانه وتعالى– فيكم من العقول.

؟ أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ ؟ هنا بلفظ التعظيم والتفخيم وتقديس رب العالمين سبحانه، يعظم نفسه يقول: ؟ أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ ؟، ينسب هذا –سبحانه وتعالى– إلى نفسِه معَظّمًا إياها فهو –حقا– الذي يسوق المياه في السحاب هنا وهناك، وينزله على الأرض التي يشاؤها ربّ العالمين –سبحانه وتعالى–.

ويسوقه إلى الأرض الجرز: الأرض الجرز هي: الأرض التي لا نبات فيها، الأرض الميتة، الأرض التي كلها سواد لا يوجد عليها شيء أخضر، يسوق رب العالمين –سبحانه وتعالى– الماء إلى هذه الأرض، ثم بعد ذلك نَسَبَ الفعل إلى نفسه؛ ألا وهو فعل الإخراج فقال: ؟ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا ؟ العبد قد يظن أنه حينما يحرث الأرض ويبذر البذر، ويكون له عمل في جري الماء على الأرض بما يمكن أن يُخرجه من الآبار أو غير ذلك من الأمطار التي تنزل من السماء بأي آلة أو بيديه أو غير هذا، قد يظن لما يفعل هذا الفعل أنه هو الذي أخرج الزرع من الأرض. رب العالمين يقول متفضلا على عباده، ويبين لهم أنه هو الذي يخرج من خلال هذا الماء الذي نزل يخرج منه النبات الذي يخرج من هذه الأرض، ويتفضل مرة أخرى فيقول: هذا الزرع تأكل منه الأنعام وتأكل منه الأنفس: ؟ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ؟.

ولعنا نلاحظ أن الله –تبارك وتعالى– قدَّم ذكر الأنعام على الأنفس، ورب الأنفس طالما ذكر الأنعام فما يقابلها من الأنفس هي الأنفس البشرية، والله –عزّ وجلّ– قدم الأنعام على الأنفس. لماذا؟ قال بعض أهل العلم: لأن الأنعام تستفيد من النبات أولَ ما يخرج، أول ما يخرج النبات من الأرض تستفيد منه الأنعام، إنما الإنسان لا يستطيع أن يستفيد منه إلا إذا خرجت منه ثمرة إنما يمكن للنبات أن يخرج من الأرض فتستفيد الأنعام منه أولا، إلى جانب أن الغذاء الرئيس للأنعام هو على ما يخرج من الأرض بخلاف الإنسان؛ فالإنسان يتغذى على ما يخرج من الأرض، ويتغذى من اللحم التي تحمله الأنعام.

وهذه الآية -إذن- إشارة إلى شيء من فضل رب العالمين -سبحانه وتعالى- على عباده كدعوةٍ لهم إلى الإيمان به والتصديق بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، ولذلك ختم الآية بقوله: ؟ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ؟ أفلا يتأملون؟! أفلا ينظرون؟! أفلا يتدبرون؟! ويختم ربنا -سبحانه وتعالى- بعد ذلك هذه السورة المباركة ذاكرا -مع كل هذا- استبعاد المشركين للبعث، والجزاء، والنشور، وطلبهم سرعة عذاب رب العالمين -سبحانه وتعالى- حتى في الدنيا: ؟ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ؟٢٨؟ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ؟٢٩؟ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ؟.

ذكر بعض أهل العلم أن المراد بالفتح هنا: فتح مكة، وهذا خطأ، لماذا؟ لأن رب العالمين قال في الآية التالية: ؟ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ ؟، والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يوم فتح مكة قبل من الطلقاء إسلامهم، وكانوا قريبا من ألفين، ونفع في ذاك الوقت من آمن ورجع إلى الله -عزّ وجلّ-، فيكون المراد بالفتح هنا هو اليوم الذي يفصل فيه رب العالمين -سبحانه وتعالى-، ويحكم بين خلقه. هذا هو المراد بيوم الفتح، يوم الفصل والقضاء بين الناس.

فالمشركون يستبعدون اليوم، متى يُنصر علينا محمد -صلى الله عليه وآله وسلم-؟ متى ينتصر علينا أهل الإيمان؟ فذكر رب العالمين -سبحانه وتعالى- أن اليوم حينما يأتي ويقع بهم ؟ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ؟ هم إذا نزل بهم عذاب رب العالمين سبحانه في الدنيا، أو إذا جمعهم رب العالمين -سبحانه وتعالى- في الدار الآخرة وأتى الواحد منهم ليُعلن إيمانه وإسلامه ومتابعته للنبيّ المرسل إليه أو للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-؛ لن يتحقق له شيء من ذلك.

وإن كان هؤلاء يتربصون الدوائر بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-؛ فربُّه -سبحانه وتعالى- يأمره أن لا يلتفت إليهم، وأن لا ينظر إليهم نظرةً تفيد أنهم أناس لهم مكانة أو قيمة، وإنما يجب أن يُهْمَلُوا، وأن لا يُنظر إليهم نَظَرَ اعتبار، ولذلك يقول الله بعد ذلك مُوَجِّهًا الخطاب للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: ؟ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ؟، وهم يتربصون بك الدوائر ونحن أيضا سنجمعهم ورب العالمين -سبحانه وتعالى-، هو الذي سيبعثهم ويعاقبهم على ما قَدَّمَتْ أيديهم، وهو سبحانه القوي الكبير المتعال.

وبهذا تنهي هذه السورة الكريمة المباركة، وأصلي وأسلم على نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

بالنسبة لأسئلة الحلقة السابقة كان السؤال الأول:

اذكر ثلاثة أدلة من القرآن الكريم تفيد إثبات صفة العلو لله تعالى.

وكانت الإجابة:

الدليل الأول: قول الله -سبحانه وتعالى-: ؟ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ؟ الآية، ومن المعلوم أن الصعود يكون من أسفل إلى أعلى.

الدليل الثاني: قول -سبحانه وتعالى-: ؟ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ؟، وكذلك -أيضًا- من المعلوم أن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض: ؟ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ؟، والصلب من المحال أن يكون في الجذوع بل على الجذوع.

الدليل الثالث: قول الله -تعالى-: ؟ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ؟، فقوله سبحانه أعلى على وزن أفعل للتفضيل وتفيد أنه -سبحانه وتعالى- فوق كل شيء.

الجواب صحيح.

السؤال الثاني:

كيف نوفق بين قوله –تعالى-: ؟ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ؟، وكذلك بين قول الله –تعـالى-: ؟ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ؟، وبين قول الله –تعالى-: ؟ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ ؟؟

وكانت الإجابة:

قول الله –سبحانه وتعالى– يتوفى الأنفس؛ أي أن الله الذي يأمر بذلك فهو الآمر أولا وأخيرا، وقوله سبحانه: ؟ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ ؟؛ أي أن ملك الموت الذي يُباشر قبض الأنفس، والدليل في حديث البراء بن عـازب الذي رواه الإمام أحمد، وقول سبحانه: ؟ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ؟ يفيد أن الملائكة يعاونون ملك المـوت ولا منافـاة ولا تعارض بين الآيتين.

والحديث الذي أشار إليه حديث صحيح، وهو يحل هذا الإشكال في أن ملك الموت حينما يقبض روح الميـت بأمر رب العالمين سبحانه تتلقفه الملائكة الذين يجلسون منه مد البصر، والله أعلم.

السؤال الأول:

ما معنى ؟ تتجافى جنوبهم ؟؟ وما المقصود بذلك؟ وما رأيك فيمن يقول بأنه يعبد ربه دون خوف من عذابه، أو طمع في جنته؟ مع الدليل لما تذكر.

السؤال الثاني:

ما المراد بالفتح في قوله تعالى: ؟ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ ؟؟ وهل يصح أن يكون المراد به فتح مكة؟ ولماذا؟

الدرس السابع والعشرون

تفسير سورة الأحزاب

من الآية ١: ٨

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه وسلم.

أما بعد:

يسرنا -إن شاء الله تبارك وتعالى- أن نَفْتَتِحَ سورة أخرى جديدة بعد أن انتهيتُ في اللقاء السابق من سورة السجدة، فسنفتتح -إن شاء الله تبارك وتعالى- الحديث عن سورة الأحزاب، وذلك في محورين اثنين:

المحور الأول: الله -تبارك وتعالى- يَأمر النّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم- بتقواه ويحرم الظّهار والتّبنّي.

المحور الثاني: النّبيّ -عليه الصلاة والسلام- أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو إمام المرسلين صلى الله عليه وسلم.

ولنستمع إلى آيات هذا اللقاء.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

؟ يَا أَيُّهَا النّبيّ اتَقِ اللّهَ ولَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ؟١؟ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ؟٢؟ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلًا ؟٣؟ مَا جَعَلَ اللّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ؟٤؟ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ؟٥؟ النّبيّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ؟٦؟ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النّبيّين مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ؟٧؟ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ؟ [الأحزاب: ١: ٨]

بسم الله الرحمن الرحيم، أحمد الله -جل ذكره- وأصلي وأسلم على خير خلقه وعلى آله وصحبه، وبعد.

كما ذكرتُ في بداية اللقاء أنّ حديثي سيكون في الآيات الأولى من سورة الأحزاب، تحت المحور الذي ذكرت فيه أن ربّ العالمين -سبحانه وتعالى- يأمر النّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم- بتقواه، وفي ذلك يقول الحق -تبارك وتعالى- مُوَجِّهًا الخطابَ للنّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم-: ؟ يَا أَيُّهَا النّبيّ اتَقِ اللّهَ ولَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ؟.

أولا هذه السورة -ألا وهي سورة الأحزاب- سورة مدنية، نزلت على النّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم- في المدينة النبوية، وقد ذكر أُبَيٍّ بن كعب -رضي الله تعالى عنه- أن هذه السورة كانت تعدل سورة البقرة من حيث الحجمُ، وكانوا يقرؤون فيها: «والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم»، وقد ذكر أُبَيٌّ بهذا أنه قد نُسِخَ من هذه السورة الشيءُ الكثير حتى بقيت هكذا. والنسخ متفق عليه بين أهل العلم المدققين المحققين، وعلى وقوعه في كتاب ربّ العالمين -سبحانه وتعالى-.

أدخل بعد هذا إلى الأمر للنّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم- بالتقوى: ؟ يَا أَيُّهَا النّبيّ ؟ صلى الله عليه وآله وسلم.

أولا يُلاحظ أن ربّ العالمين -سبحانه وتعالى- هنا يكرم النّبيّ -عليه الصلاة والسلام- ويشرفه حينما يناديه بلفظ النبوة، وكأن في هذا -أيضا- رد على المكذبين به، يعني أن أهل الأرض إذا كذّبوا برسالتك، ولم يعترفوا بنبوتك؛ فها هو ربّ العالمين -سبحانه وتعالى- يناديك بلفظ النبوة ؟ يَا أَيُّهَا النّبيّ ؟.

ويوجد لون آخر من ألوان التكريم واقع في مثل هذا التعبير، وهو أن الله -تبارك وتعالى- لم ينادِ النّبيّ -صلى الله عليه وسلم- باسمه أبدا، لم يرد نداء للنّبيّ -عليه الصلاة والسلام- في القرآن باسمه مجرّدا. قد يأتي إنسان يقول ورد: ؟ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ؟ [الفتح: ٢٩]، أقول: هذا من باب الخبر، فالله -عزّ وجلّ- يخبر في مثل هذه الآية عن رسالته؛ لأنه رسول من قبل ربّ العالمين؛ كما في قوله تعالى مثلا: ؟ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ؟ [آل عمران: ١٤٤]. أما نداؤه -صلى الله عليه وآله وسلم-؛ فلم يكن إلا بلفظ النبوة والرسالة، وفي هذا تكريم وتشريف للنّبيّ -صلى الله عليه وسلم- كما معنا هنا ؟ يَا أَيُّهَا النّبيّ اتَّقِ اللَّهَ ؟، وكما قال الله له: ؟ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ؟ [المائدة: ٦٧].

وغير ذلك مما ورد في القرآن الكريم، وفيه تكريم وتشريف لنبيّنا -صلوات الله وسلامه عليه-.

؟ يَا أَيُّهَا النّبيّ اتَّقِ اللَّهَ ؟ أول أمر أُمر به النّبيّ -صلى الله عليه وسلم- في هذه الآية هو أن يتقي ربه -سبحانه وتعالى- ومولاه. قال بعض أهل العلم: هذا فيه تنبيه للأعلى على الأدنى. يعني أن النّبيّ -عليه الصلاة والسلام- هو أعلى أهل الإيمان منزلة، فلمّا يناديه ربّ العالمين -سبحانه وتعالى- ويقول له: اتق الله، يكون في هذا تنبيه للأدنى من باب أولى أن يتقي ربه -سبحانه وتعالى- ومولاه. ثم قالوا: لماذا يأمر ربّ العالمين -سبحانه وتعالى- النّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم- بأن يتقي الله وهو مُتَّقٍ صلوات الله وسلامه عليه لربه ومولاه؟!

قيل في ذلك وجهان:

الوجه الأول:

المطلوب فيه الاستمرار والمداومة على التقوى، يعني أنت مُتَّقٍ لله، وحينما يأمره ربّ العالمين -سبحانه وتعالى- مرة أخرى بالتقوى يعني استمر على تقوى ربّ العالمين -سبحانه وتعالى-، وداوم على التقوى.

الوجه الثاني: أن النّبيّ -صلى الله عليه وسلم- كان دائما يَتَجَدَّدُ الإيمان في نفسه وقلبه، وذلك بالآيات التي كانت تنزل عليه بين الحين والآخر من لدن ربّ العالمين -سبحانه وتعالى-.

فإذن؛ الأمر هنا بالتقوى من الله -عزّ وجلّ- لنبيّه -صلى الله عليه وآله وسلم- أيضا يلاحظ فيه هذا الأمر.

التقوى عمل جليل، وأمر عظيم، ومعناها -باختصار-: أن يجعل العبدُ بينه وبين عذابِ الله -تبارك وتعالى- وقايةً؛ يتخذ من الأسباب، ومن الأعمال التي تجعل بينه وبين العذاب جدارا، وحصنا، وبُعْدًا بَعِيدًا من الوقوع في عذاب الله -عزّ وجلّ-.

وقد وردت كلمات كثيرة عن سلف هذه الأمة في معنى التقوى؛ فمثلا طلق بن حبيب -رضي الله تبارك وتعالى عنه- عرف التقوى بقوله: أن تعمل في تقوى الله -عزّ وجلّ-؛ ترجو -بذلك- صواب ربّ العالمين -سبحانه وتعالى-، وأن تترك معصية الله -تبارك وتعالى-؛ تخاف عقاب ربّ العالمين -سبحانه وتعالى-.

وورد -أيضا- عن علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- أنه قال في التقوى: هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والاستعداد ليوم الرحيل قبل الرحيل.

وكثيرا ما أمر الله -عزّ وجلّ- عباده المؤمنين المتقين أن يَتَّقُوه، وهذا ليس بعجيب يأمر المؤمنين المتقين أن يَتَّقُوه، وذلك كي يستمروا على التقوى، ويستمروا على زيادة الإيمان، ويطلبوا العلم النافع فيرجع عليهم ذلك بفائدة؛ كقول الله -تعالى-: ؟ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ؟ [الحشر: ١٨]، بل إن الله -عزّ وجلّ- أمر أهل الإيمان بأن يتقوه حق التقوى ؟ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ؟ [آل عمران: ١٠٢].

يا أيها النّبيّ اتق الله -صلوات الله وسلامه عليه-، ثم بعد ذلك ينهاه الله -عزّ وجلّ- أن يُطيع الكافرين والمنافقين فيقول: ؟ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ؟؛ لأن الكافرين والمنافقين يَسْعَوْن لهدم الدعوة الإسلامية، وكانوا ربما يتظاهرون أحيانا بِحِرْصِهِم على النّبيّ -صلى الله عليه وسلم- ورغبتهم في الخير، فكما حصل من الكافرين مثلا لما أتوا إلى النّبيّ -عليه الصلاة والسلام- وطلبوا منه أن يجعل لهم يوما وأن يجعل لضعفاءِ وفقراءِ المؤمنين الذين آمنوا به أول الأمر يوما آخر. والنّبيّ -عليه الصلاة والسلام- كان يَتَمَنَّى إسلام هؤلاء الكافرين، ويتطلع إلى ذلك، فهم حينما يأتون بهذا العرض يَتَوَقَّعُ النّبيّ -عليه الصلاة والسلام- أن يدخل الإيمانُ في قلوبهم بذلك، فيمكن أن يَقْبَلَ. فالله -عزّ وجلّ- نهاه عن طاعة هؤلاء.

وكأن الآية تشير إلى أن ما يفعلونه وما يمكن أن نُعَبِّرَ عنه بلغة العصر ما هي إلا مُنَاوَرَاتٌ لصدّ الناس عن سبيل الله -تبارك وتعالى-، بل إن المناورات كانت عند المنافقين تصل إلى أبعد من ذلك، وهي عندما كانوا يعلنون دخولهم في الإسلام في أول النهار.

فإذا جاء آخر النهار؛ أعلنوا خروجهم من الإسلام؛ كي يُشَوِّشُوا على غيرهم من الكفار، فلما يدخلون الإسلام ثم يخرجون منه فيقول الذي لم يُسلم بعد: لو وجد هؤلاء في الإسلام خيرا؛ لاستمروا عليه، وكان المنافقون يفعلون ذلك، ؟ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ؟ [آل عمران: ٧٢]، كانوا يَفعلون كل هذه الخطط، وهي -لا شك- خطط فاسدة، والله -عزّ وجلّ- نهى نبيّه وحبيبَه ومُصطفاه -صلوات الله وسلامه عليه- أن يُطيع هؤلاء الكافرين والمنافقين، وبيّن له أنه عليم بأخبارهم، حكيم عدل -سبحانه وتعالى-، فلا يستمع إليهم، ولا يستشيرهم في شيء من ذلك، ولا يتخذهم -بحالٍ- بطانة معه صلوات الله وسلامه عليه؛ لأنهم ليسوا أهلا لذلك.

ولما أمره ربّ العالمين -سبحانه وتعالى- بتقواه، ونهاه عن طاعة الكافرين والمنافقين؛ أمره -بعد ذلك- أن يَتَّبِعَ ما أوحاه الله -تبارك وتعالى- إليه، يعني أن يَقْتَصِرَ في أمره على ما نزل عليه من عند ربه -سبحانه وتعالى-: ؟ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ؟٢؟ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ؟.

لمّا نهاه -كما ذكرت-؛ أمره بأن يتبع الوحي الرباني، وهذا الأمر للنّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم- وهو أمر لنا -أيضا- بأن نتبع كتاب الله وسنة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، ومَنْ يخرج أو يخالف؛ فَلْيَعْلَمْ أن الله -عزّ وجلّ- عليم خبير بحركاته، وسكناته، وأفعاله، وما يُخفيه في صدره. فعلى العبد -إذن- أن يُسلِّمَ أمْرَه لله، وأن يتبع هدي الله الذي جاءنا من عنده سبحانه والمتمثل -اليومَ- في كتاب الله وسنة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-.

آية عظيمة في كتاب الله، وعلى كل مسلم ومسلمة أن يُفَكِّرَ في هذه الآية: ؟ وَاتَّبِعْ ؟، إذا كان الأمر من الله للنّبيّ -عليه الصلاة والسلام- بأن يتبع؛ فما بالنا نحن؟! نحن أوْلَى أن نَسْلُكَ الصراط المستقيم، وأن نَتَّبِعَ الهدي القويم: ؟ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ؟. في اتباع الوحي المُنَزَّلِ من عند الله -تبارك وتعالى- فيه مَشَقَّةٌ على النفس؛ لأن الإنسانَ عندما يُلْزِم نفسه بما أوحاه الله -تبارك وتعالى- يحتاج إلى أن يُعَالِجَ هذه النفس كي تقوم بالواجبات، وتنتهي عن المنهيات. هذا أولا.

ثانيا: عندما يلتزم العبد بمنهج الله -تبارك وتعالى- لن يقف أمامه أهل الكفر والضلال والانحراف مكتوفي الأيدي، بل ربما يتطاولون عليه، وينالون منه، ويصدون الناس عنه، ولذلك بعدما أمر الله -عزّ وجلّ- النّبيّ -صلى الله عليه وسلم- والأمر له أمرٌ لنا بأن يتبع الوحي المُنَزَّلَ عليه من عند ربه؛ أمره بأن يتوكل عليه وحده دون سواه، فقال: ؟ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ؟.

إذا كان ربّ العالمين -سبحانه- يأمر النّبيّ -صلى الله عليه وسلم- بأن يَتَوَكَّلَ على الله فما بال أحاد الناس ماذا من باب أولى؟! وفرق بين التّوكل والتّواكل؛ فالتوكل على الله يجعلك -يا عبد الله!- تستفرغ الوسع والجهد والطاعة، وتتخذ الأسباب المشروعة للوصول إلى ما تريد، ثم -بعد ذلك- تَكِلُ أمرك إلى ربّك -سبحانه وتعالى- ومولاك، أما أن يَجلس الإنسان في مكانه، أو في بيته، ولا يعمل، ولا يسلك الطريق والأسباب المشروعة التي يحتاج إليها في عمل ما، ثم يقول: أنا متوكل على الله؛ فقد كذب في ذلك، وهذا متواكل وليس بمتوكلٍ.

فالتوكل على الله يقتضي منك العملَ والسعيَ الحثيث فيما تَوَدُّ أن تحققه، وأن يكون العمل مشروعا، ثم بعد ذلك تقول: توكلت على الله -تبارك وتعالى-، والتوكل على الله سمة من سمات أهل الإيمان، كان جميع الأنبياء والمرسلين يُنَبِّهُون أتباعه عليه، ويأمرونهم به؛ لأن العبد لو تركه ربّ العالمين -سبحانه وتعالى- طَرْفَةَ عين واحدة؛ لهلك، ولضل ضلالا مبينا. والنّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم- كان إذا قام من الليل يتهجد لربه ومولاه يدعو ربه ويَتَبَتَّلُ إليه، وكان من دعائه أنه يقول: (اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين)، ولا أقل من ذلك صلوات الله وسلامه عليه.

ثم يستمر السياق فيقول فيه ربّ العالمين -سبحانه وتعالى-: ؟ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ؟.

ذكر بعض المفسرين أن هذه الآية نزلت في رجل من قريش كان يقال له: ذو القلبين على أساس أن له عقلا وافرا وكبيرا، فأبطل ربّ العالمين -سبحانه وتعالى- ذلك، وقيل -والحديث ضعيف- بأن النّبيّ -صلى الله عليه وسلم- قام ذات يوم يُصلي فخطر خطرة يعني نسي شيئا، فقال بعض المنافقين: ألا ترون بأن له قلبين: قلبا معكم وقلبا معه؟ فنزل قول الحق -تبارك وتعالى- يرد على هؤلاء ويقول: ؟ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ؟.

للحافظ الإمام ابن كثير -رحمه الله تعالى- ملحظ آخر في هذه الآية، بعد أن ذكرت أن الحديث السابق ضعيف، وهو أن الله -عزّ وجلّ- أراد أن يُحَرِّمَ التبني، وهذا التحريم أمر معنوي، فانتقل من ذكر أمرٍ حسيٍّ لا يكون وغير جائز إلى تحريم أمر معنوي. ما هما الأمران الحسيان؟ قال: ؟ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي

جَوْفِهِ ؟ هذا هو الأول، والأمر الثاني: ؟ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ؟. هذان أمران حسيان: الأمر المعنوي: وما جعل أدعياءكم أبناءكم.

حقا ربّ العالمين -سبحانه وتعالى- خلق كل إنسان بقلب واحد، كل إنسان منا له قلب واحد، ولذلك نجد أن القرآن الكريم لما يُخاطب الشخص يُخاطبه بقلبه؛ كأن يقول مثلا: ؟ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ؟ [الشعراء: ٨٩]، فلم يقل بقلبين وإنما قال: بقلب، والنّبيّ -عليه الصلاة والسلام- في الحديث المتفق عليه لما قال: (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت؛ صلح الجسد كله، وإذا فسدت؛ فسد الجسد؛ ألا وهي القلب). فكل إنسان له قلب واحد. كذلك الله -تبارك وتعالى- حرم الظهار وجعل، قول من قال بأن زوجته عليه كظهر أمه من الكلام الباطل الذي لا يجوز، والحقيقة الظهار محرم، ووصفه ربّ العالمين -سبحانه وتعالى- كما في سورة المجادلة بأنه منكر من القول وزور، يعني كلام فاسد وباطل، ووقع فيه عقوبة شديدة، ولا يليق بمؤمن -إذن- يسمع هذه الآيات أن يفعله؛ لأن الإنسان في هذه الحالة يكون تَطَاوَلَ على مقام ربّ العالمين -سبحانه- فيحرم ما أحله الله -تبارك وتعالى- عليه. كيف يجعل الله الإنسان زوجه التي أباحها ربّ العالمين -سبحانه وتعالى- له كمن حرمها ربّ العالمين -سبحانه وتعالى- عليه؟!

ولذلك قال الله -تبارك وتعالى-: ؟ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ؟، ما جعل الله -أبدا- الزوجة كالأم في التحريم، بل الزوجة حلال والأم -في هذه الحالة- محرمة بنص التنزيل.

الأعجب من ذلك -يا إخواني! أننا نسمع أحيانا أن إحدى النساء هي التي تحرم، فتقول: زوجي حرام عليّ، وهذا من الانحراف، والضلال، والسلوكيات الخاطئة التي يقع فيها بعض الناس، وإن كان الظهار على الرجال محرما؛ فهو بالنسبة للنساء أشد حرمة؛ لأن المرأة لا تملك أن تُحَرِّمَ نفسها على زوجها؛ لأن الزوج يستمتع بها بكتاب الله وهدي رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-.

انتقل القرآن الكريم بعد ذلك -كما أشار الحافظ ابن كثير، وهذا فهم أراه جيدا في القرآن الكريم- إلى أمر آخر يُريد أن يُحرمه الإسلام كان واقعا في بداية الإسلام، وكان موجودا في الجاهلية واستمر في الإسلام فترة، ثم أبطله الإسلام؛ ألا وهو التبني، والذي قال الله -عزّ وجلّ- فيه: ؟ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ؟، ما جعل أدعياءكم؛ أي مَن تنسبونهم إليكم أبناءكم. فالدّعيّ ليس ابنا من الصلب، وبالتالي لا يمكن أن يُضيفه الإنسان إلى نفسه.

فيمن نزلت هذه الآية؟

في زيد بن حارثة -رضي الله تعالى عنه-، وزيد بن حارثة -رضي الله تعالى عنه- كان من الجزيرة العربية، وأرجح الأقوال أنه كان من جنوب مكّة من جهة تهامة، وكان العرب في جاهليتهم يغير بعضهم على بعض، فيقتلون، ويَسْبُون، وينهبون الأموال وغير ذلك، وفي أثناء ما كانت القبائل يغير بعضها على بعض أسروا زيد بن حارثة -رضي الله تعالى عنه- ثم باعوه في الشام، ولما كان حكيم بن خويلد -رحمه الله تبارك وتعالى- يُتاجر لأمّ المؤمنين خديجة في تجارة لها اشترى لها زيد بن ثابت ووهبه إياها، فلما تزوج النّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم- خديجة بنت خويلد؛ وهبت زيدا للنّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم- فأعتقه النّبيّ -عليه الصلاة والسلام- وأصبح هذا معروفا بين أصحابه، حتى كان الصحابة يقولون زيد بن محمد، هذا زيد بن محمد، ينسبونه للنّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم-، وكان هذا أمرا جائزا لم يختلفوا عليه في ذاك الوقت.

والنّبيّ -صلى الله عليه وسلم- قد أحسن إلى زيد غاية الإحسان، كان عبدا عنده فأعتقه، ولذلك لما جاء والد زيد وكان عمه معه مع أبيه وبحث عنه بحثا شديدا حتى ذهب إلى بلاد الشام، وكان والد زيد -رضي الله تعالى عنه- يَجوب الأراضي ويبكي على ولده زيد، وهو الذي قال:

بكيت على زيد ولم أدرِ ما فعل***أحي فيُرجى أم أتى دونه الأجل؟!

كان يمشي ويسير هنا وهناك ويبكي على ابنه، ولما ذهب إلى بلاد الشام؛ عَلِمَ أنه بيع هناك، فدلوه على أنه عند رجل في مكة، فأتى وسأل عنه، فأُعْلِمَ أنه عند النّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم- فجاء والدُه ومعه عمه يطلبان زيدا من النّبيّ -عليه الصلاة والسلام-. فالنّبيّ -عليه الصلاة والسلام- قال: (هذا هو زيد، خيروه فإن اختاركما؛ فليذهب معكما، وإن اختارني؛ فهو معي) فخُيِّرَ زيد -رضي الله عنه- فاختار أن يَبْقَى مع النّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم- ورَجَعَ والده وعمه قريريْ العين بذلك؛ لأنهما علما أنه يعيش في مكان آمن، وأن النّبيّ -صلى الله عليه وسلم- يحبه، وأنه يستمتع بهذا الدين، وبهذا الإسلام، وبمتابعة النّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم-.

فالنّبيّ -عليه الصلاة والسلام- كان يحب زيدا ويكرمه، وتبناه وأُضيف إلى النّبيّ -صلى الله عليه وسلم-.

أراد الإسلام أن يَقطع هذه الصلة التي وضعها الناس، وهي ليست بحقيقة؛ لأن الابن عندما يُضاف إلى غير أبيه؛ فهذا جرم، والنّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم- حَرَّمَه، بل إن النّبيّ -عليه الصلاة والسلام- ذكر في بعض أحاديثه أن (من انتسب إلى غير أبيه؛ فالجنة عليه حرام)، فلا يجوز للإنسان أن يَنتسب إلى غير أبيه وهو يعلم، فإن كان جاهلا وستأتي إشارة إلى ذلك. أما إذا كان يعلم فالجنة عليه حرام، وفي بعض الروايات الأحاديث التي وردت عن النّبيّ -صلى الله عليه وسلم- أنه لعن من انتسب إلى غير أبيه.

فالإسلام أبطل ذلك وأكد هذا البطلان بمواقفَ متعددةٍ؛ منها في قصة زيد -رضي الله تعالى عنه-، وذلك لما أمر الله -تبارك وتعالى- النّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يتزوج بزينبَ التي كان قد تزوجها زيد.

زيد -رضي الله تعالى عنه- تزوج زينب بنت جحش، وكان يعيش معها، وحصل بينهما ما حصل، وكانت النهاية أن يقع فراقٌ بين زيد -رضي الله تعالى عنه- وبين زينب -رضي الله تعالى عنها-. وأعلم الله -عزّ وجلّ- نبيّه -صلى الله عليه وسلم- أنه سيتزوج زينب. هنا النّبيّ -عليه الصلاة والسلام- يخشى من كلام الناس؛ كما قال الله له في هذه السورة: ؟ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ؟ [الأحزاب: ٣٩]. ما كان يرغب في ذلك، وما كان يرضاه، ولكن هذا هو تشريع ربّ العالمين -سبحانه وتعالى-. أراد الله -عزّ وجلّ- أن يضع من التشريعات ما يُبين حقيقة هذا الأمر، وأن يقول لإنسان ما إذا تَبَنَّيْتَ إنسانا؛ فهذا ليس ابنك، وليس محرما عليك، بمعنى أنه يجوز له أن يتزوج من ابنتك، ولا يجوز له أن يرث من تركتك، ولا أن يَطَّلِعَ على محارمك، فالإسلام وضع ذلك لكي يُبين القول الفصل في هذه القضية، ومن ذلك أنه أمر النّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يتزوج طليقة زيد -رضي الله تعالى عنها-.

كل ذلك ليبين هذه المسألة. وبعض -بعد هذا- ما استجابوا لهذا الأمر القرآني الكريم، ويظهر هذا جليا في مثل هذا الزمن المعاصر، ففي حياتنا المعاصرة نجد أن بعض الناس -خاصة ممن لم يُرزقوا بأولاد- فيذهب إلى مكانٍ ما، فيأتي بطفل أو طفلة ويتبنى الطفل أو الطفلة، ويعيش معه، وربما يُنجب ويكون معه أولاد، فينسب هذا الذي ليس من صلبه إليه؛ فيرث ماله، ويطلع على ما لا يجب أن يطلع عليه من عورة زوجته التي يَزعم أنها أمه، وإذا رُزق ببنين أو بنات؛ ظلَّ معهما، وعاش معهما، واطلع على ما لا ينبغي أن يطلع عليه. كل هذا منكر من القول وزور، كل هذا عمل خطير لا يجوز، ويجب على كل مسلم أن يَتَنَبَّهَ لمثل هذا الأمر، وإن أراد الإنسان أن يُحْسِنَ إلى الإنسان؛ فعليه أن يُقَدِّمَ إليه ما يَحتاجه إليه من وسائلِ البرّ والمعروف والإحسان. أما أن ينسبه إليه ويكون ابنا له؛ فهذا الذي أَبْطَلَه الإسلام في قول ربّ العالمين -سبحانه وتعالى-: ؟ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ؟؛ أي أن الدعيّ الذي نَسَبْتَه إليك ليس ابنا لك.

ولذلك لما أراد ربّ العالمين -سبحانه وتعالى- أن يُبَيِّنَ ما أحله وما حرّمه من حيث الزوجات وغير ذلك؛ قال: ؟ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ؟ [النساء: ٢٣] هذا القيد ليُؤكد على أنّ مَنْ زعم أن ابنا له ليس من الصلب أنه ابنه، أنه ليس بابنه، وأنه لا يَجري عليه هذا التحريم، بخلاف التحريم للرضاعة، فيحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب. وبالتالي؛ على أهل الإيمان أن يتنبهوا لهذا الأمر ؟ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ؟.

ذلك بأنهم كانوا يقولون عن زيد -رضي الله تعالى عنه- بأنه ابن النّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم-، فهذا قول منهم باطل، أما القول الحق؛ فما قاله ربّ العالمين، ولذلك ختم الآية بقوله: ؟ والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ؟. فالحق من ربّ العالمين سبحانه، والذي يهدي الطريق ويبين السبيل هو ربّ العالمين -سبحانه وتعالى-.

ثم تؤكد الآيات هذا التحريم ببيان أمر لا يجب علينا أن نخرج عليه، فيقول في ذلك ربّ العالمين: ؟ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ؟. قد يأتي إنسان ويقول: أنا تبنيت شخصا ما أو طفلة، ونسبتها إليّ؛ ماذا أفعل الآن؟ جاء الحل من القرآن الكريم بعدما حرم الله -عزّ وجلّ- التبني بَيَّنَ كيف يُعالج المسلمون هذه القضية؟ كيف يعالجونها؟ يعالجونها بأن ينسبوا من نسبوه إلى أنفسهم، وليس منهم إلى أبيه على وجه الحقيقة: ؟ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ؟. هذا من العدل، هذا من القسط، هذا من المعروف، هذا من البر. قد يقول قائل: نحن نود أن نفعل ذلك، وسنلتزم بكلام ربّ العالمين -سبحانه وتعالى-، ولكن ماذا نفعل إذا لم نعلم والد الدعي الذي نسبناه إلى أنفسنا؟

قال الله -عزّ وجلّ-: ؟ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ؟. إذا لم تعرفه؛ فهو أخوك في الدين، وإن كان عبدا عندك؛ فهو مولى لك من مواليك. أما أن تنسبه إلى نفسك وتُضيف اسمه إلى اسمك؛ فهذا هو الذي حَرَّمَه ربّ العالمين وبَيَّنَ أنه ليس من القسط، ثم رفع الحرج عمّا يمكن أن يقع من الناس من الألفاظ التي يقع فيها أو من التصرفات التي يخطئون فيها؛ فقال: ؟ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ؟.

هذا الجزء من الآية يضع قاعدة فقهية شرعية، وهي أن الله -تبارك وتعالى- رفع عن هذه الأمة خطأها، فمن أخطأ في أمر ليس قاصدا إياه؛ فرب العالمين -سبحانه وتعالى- يتجاوز عن هذا الخطأ، ولذلك فإن الآية الواردة في أواخر سورة البقرة: ؟ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ؟ [البقرة: ٢٨٦]، صَحَّ الخبر عن النّبيّ -صلى الله عليه وسلم- فيما قاله ربّ العالمين -سبحانه وتعالى- أنه قال: (قد فعلت)، أي قد فعل، استجاب للإنسان إذا أخطأ أن يعفو عنه ربّ العالمين -سبحانه وتعالى-، ولذلك ختم ربنا الآية بقوله: ؟ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ؟، ولكن يجب على العبد أن يحذر من أن يَتَعَمَّدَ الوقوع في الخطأ؛ لأنه إن تعمد الوقوع في الخطأ؛ فلا غفران له إلا إذا شاء ربّ العالمين -سبحانه وتعالى- ذلك.

أنتقل بعد هذا إلى المحور الثاني في هذا اللقاء وهو بعنوان: النّبيّ -عليه الصلاة والسلام- أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو إمام المرسلين -صلى الله عليه وسلم-.

وفي ذلك يقول الله -تبارك وتعالى-: ؟ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ؟.

هذه الآية أولا تُبين أن شفقة ورحمة النّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم- بأمته حتى جعله ربّ العالمين بسبب هذه الرحمة وبسبب هذه الشفقة أولى بنا من أنفسنا، وبالتالي؛ يصبح حُكمه صلى الله عليه وآله وسلم مُقدّما على حكمنا، واختياره مقدما على اختيارنا. ولذلك ذكر أهل العلم من المفسرين ذلك عند هذه الآية لينبهوا المؤمنين إذا كان النّبيّ -صلى الله عليه وسلم- من الشفقة والرحمة عليك بمكان وهو أولى بك من نفسك التي بين جنبيك؛ أفلا يليق بك -إذن- أن تنزل على حكم وأن ترضى بما يقوله -صلى الله عليه وآله وسلم-؟! وتأملوا ما جاء في هذه السورة بعينها سورة الأحزاب: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ويذكر بعض أهل العلم في هذا حديثا يطول القول بأن أذكره الآن، وفائدته أن الإنسان حتى في المسائل الشخصية، وهي مسائل الزواج في قصة جُلَيْبِيبٍ -رضي الله تعالى عنه- لما خطب له النّبيّ -صلى الله عليه وسلم- ابنة رجل من أصحابه، وكاد ألا يفعل الرجل؛ لأن جليبيبا رجلٌ فقير، فقالت المرأة: أتردون على رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- أمره؟!

والله -عزّ وجلّ- في كتابه قد نفى الإيمان عمَّن لم يحتكم إلى النّبيّ -صلى الله عليه وسلم-، ولا يقتصر على هذا فحسب؛ بل عليه أن يرضى وأن يُسلّم بحكم النّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم-: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

وبالتالي؛ ذَكَرَ النّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم- في حديثه الصحيح أنه أولى المؤمنين بأنفسهم، ثم بين نزاهته عن أموالهم حتى لا يظن إنسان أنه أولى بهم من أنفسهم أنه يطمع في ماله، فقال -صلى الله عليه وآله وسلم-: (من ترك مالا؛ فهو لورثته) بعد أن ذكر أنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم عَقَّبَ على ذلك: (من ترك مالا؛ فهو لورثته)، ومن لم يكن لديه مال فهو أولى به منه، وقضاؤه عليه -صلوات الله وسلامه عليه.

ولذلك كان النّبيّ -صلى الله عليه وسلم- في أول بعثته ورسالته، ولما لم يكن لديه مال كان لا يُصلي على من مات وعليه دين صلى الله عليه وآله وسلم، فلما فتح الله عليه الفتوح؛ كان يقضي هو الدين صلوات الله وسلامه عليه.

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾، وفي هذا أيضًا تكريم وتشريف لأمّهات المؤمنين -رضي الله تعالى عنهن-، ولذلك نحن عندما نذكر الواحدة منهن نقول: أم المؤمنين عائشة، أم المؤمنين خديجة رضي الله تعالى عن جميع أمهات المؤمنين زوجات النّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم-.

وهم من آل بيته، ولهم مكانة، ولهم منزلة عند ربّ العالمين -سبحانه وتعالى-، وهم زوجات النّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم- في الجنة، ولا يمكن لمسلم أن يؤذي من أحبه النّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم-، ومن عاش معه النّبيّ -صلى الله عليه وسلم-، ومَن يحب النّبيّ -عليه الصلاة والسلام- لا يمكن أن يكره من أحبه صلوات الله وسلامه عليه.

وأهل العلم ينصون عند تفسير هذه الآية أنه مع أن أمهات المؤمنين أمهات لنا إلا أنه لا يجب أن نَطّلِعَ منهن على شيء من العورات. فالإنسان قد يرى وجه أمه، يرى شعر أمه، يرى ساق أمه؛ لأنها أمه، وهي محرمة عليه. أما زوجات النّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم- مع أنهن أمهات لك إلا أنه يحرم عليك أن تنظر إلى واحدة منهن.

ومن تشريف الله لهن أن الله -عزّ وجلّ- منع أهل الإيمان أن يَنظروا حتى بعد وفاة النّبيّ -صلى الله عليه وسلم-، أو يَتَطَلَّعَ الواحد منهم إلى أن يَتَزَوَّجَ امرأةً من زوجاتِ رسول الله -صلوات الله وسلامه عليه-.

وأهل العلم عند تفسير هذه الآية يذكرون: هل أمهات المؤمنين هم أمهات للرجال فقط أم أمهات للرجال والنساء؟ يعني أنا أقول عن أم المؤمنين عائشة: أم المؤمنين عائشة، فهل المرأة من أهل الإيمان أيضا تقول: أم المؤمنين عائشة هي أمي؟!

اختلف أهل العلم في ذلك؛ فقالوا: هذا مقصور على الرجال، ولكن الذي رَجَّحَه الحافظ ابن كثير -وهو أولى إن شاء الله تعالى- أنهن أمهات للرجال والنساء؛ لعموم اللفظ الوارد في ذلك: ؟ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ؟.

؟ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ؟. هذا تشريع آخر من ربّ العالمين -سبحانه وتعالى-. تعرفون فائدة ذكره هنا ماذا؟ رجوع إلى قصة زيد، وإلى حادثة التّبنّي؛ لأنه قد كان من ليس بابن يَرِثُ ممن نسبه إليه. وأيضا لما آخى النّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم- بين المهاجرين والأنصار كان الواحد منهم يرث أخاه إذا مات وورثه. فنزل قول الحق -تبارك وتعالى- يقول بأن أولي الأرحام -أعني قرابات الميت- هم الذين يرثون الميت، وليس ما ورد ذكره في هذه الآية من المؤمنين والمهاجرين.

قال أهل العلم من المفسرين: المراد بالمؤمنين: الأنصار، والمهاجرين: الذين هاجروا إليهم من مكة من قريش. فهؤلاء جميعا لا يرث الواحد منهم الآخر إن لم تكن بينهما قرابة، ونعني بذلك وجود سبب من سبب الإرث.

ثم استثنى الله -تبارك وتعالى- البر والمعروف من ذلك، إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا، إلا أن يَفعل الإنسان شيئا من ألوان البرّ والمعروف مع أخيه، مع قريبه، مع صاحبه ممن لم يرث، فهذا أمر متروك إليك.

ثم يختم الله -عزّ وجلّ- هذه الآية بقوله: ؟ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ؟. المراد بالكتاب هنا اللوح المحفوظ، يعني ما حكم به ربّ العالمين -سبحانه وتعالى- هنا وما ذكره الله -عزّ وجلّ- في هذه الآيات أمر مُقَدَّرٌ أزلا، ومسطور في كتاب عند ربّ العالمين -سبحانه وتعالى- يُعرف باللوح المحفوظ.

ثم يستمر السياق بعد ذلك مشيرا إلى أهمية تكريم النّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم- وبتشريفه، ومعرفة فضله ومكانته، وفي ذلك يقول الله -عزّ وجلّ-: ؟ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ؟.

قد يسأل سائل فيقول: لماذا نقول بأن هذا استمرار في التكريم والتشريف للنّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم-؟!

أقول: هذا من هذا الآية بأمرين:

الأمر الأول: ؟ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ؟. أتدرون القولَ الراجح في أخذ الميثاق هنا؟

أخذ الميثاق هنا اختلف فيه أهل العلم؛ بعضهم قال: هذا الميثاق الذي أخذه الله -عزّ وجلّ- على الناس عموما وهم في صلب أبيهم آدم، وهو الميثاق المعروف بعالم الذرّ الوارد في سورة الأعراف: ؟ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ ؟ [الأعراف: ١٧٢]، قالوا: هذا هو المراد بالميثاق.

والراجح الذي رجحه أهل العلم: أن الله -عزّ وجلّ- أخذ العهد والميثاق على كلّ نبي أرسله، ورسول أرسله أن يؤمن، ويصدق، ويتابع النّبيّ -صلى الله عليه وسلم- إن أرسل الله -عزّ وجلّ- النّبيّ -عليه الصلاة والسلام- وهو موجود.

؟ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ؟ [آل عمران: ٨١].

هذا الراجح هو الميثاق المراد هنا؛ أن الله -عزّ وجلّ- أخذ العهد والميثاق على كل نبي ورسول أرسله أن يؤمن، وأن يتابع، وأن يصدق بالنّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم- إن بعث النّبيّ -عليه الصلاة والسلام- وهو حي موجود.

أليس في هذا من التكريم والتشريف للنّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم- ما فيه؟!

لا شك أن فيه من التكريم والتشريف للنّبيّ -عليه الصلاة والسلام- الشيءَ الكثيرَ، والله -عزّ وجلّ- قد شَرَّفَه على غيره، والوقت يَضيق أن أتحدث عن شيء من ذلك، ولكن يَكفي -ونحن أشرنا فيما مضى إلى الإسراء والمعراج في اللقاء الماضي- أن نقول إن الذي صلى بالأنبياء إماما هو النّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم-، وأول من تُفتح باب الجنة هو رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، صاحب الشفاعة العظمى هو رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، والأنبياء كلهم يتبعونه -صلوات الله وسلامه عليه-. هذا هو القول الراجح في قوله تعالى: ؟ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ؟.

وهنا لون آخر من ألوان التكريم والتشريف للنّبيّ -عليه الصلاة والسلام- وهو أن الله -عزّ وجلّ- قدّمه في الذكر على غيره، وفي هذا تفضيل له -صلى الله عليه وآله وسلم- رغم أنّ الترتيب الزمنيّ ليس كذلك، فعندما يأتي القرآن الكريم ويتكلم عن ترتيب الأنبياء والمرسلين، ويقول أنه أخذ العهد والميثاق، يقول مثلا من آدم ومن نوح وهكذا إلى أن يأتي إلى النّبيّ -صلى الله عليه وسلم-. إلاّ أنه قدّمه في الرّتبة والفضل هنا صلى الله عليه وآله وسلم. أين التقديم هنا؟ ؟ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ ؟، وهذا خاص بعد عام؛ لأنّ ؟ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ ؟ هؤلاء خمسة مذكورون في هذه الآية. فهذا من باب ذكر الخاص بعد العام؛ لأن هذا الخاص مذكور في العام الذي هو النّبيّين الذين سبق ذكرهم. فقوله: ؟ وَمِنكَ ؟ بكاف الخطاب الموجّهة للنّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم- تكريم وتشريف من الله للنّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم-.

ثم بعد ذلك ذكرت الآية أسماء خمسة من أولي العزم من الرسل، وهؤلاء ذكر أهل العلم أنهم هم أولو العزم من الرسل، ومعنى "أولو العزم" أصحاب الشدة والقوة، ولأنهم واجهوا كثيرًا من العقبات في طريق دعوتهم إلى ربّ العالمين -سبحانه وتعالى-، وهؤلاء منهم أربعة أنزل ربّ العالمين -سبحانه وتعالى- عليهم كتبه؛ فالنّبيّ -عليه الصلاة والسلام- أنزل عليه القرآن، وإبراهيم -عليه السلام- أنزل الله -تبارك وتعالى- عليه الصحف، وموسى أنزل الله عليه التوراة، وعيسى -صلوات الله وسلامه عليه- أنزل عليه الإنجيل، وهؤلاء هم أولو العزم من الرسل. وواجبنا -طالما أن الآية تَحَدَّثَتْ عن أولي العزم من الرسل- أن نذكر أنه يجب علينا أن نؤمن بجميع أنبياء الله ورسله، هذا أمر واجب مُتَحَتِّمٌ، وبكل من أرسله الله -تبارك وتعالى-، ونؤمن بهم في الجملة؛ لأننا لا نعرف أسماء جميع الأنبياء ولا أسماء جميع المرسلين. والمذكورون منهم في القرآن الكريم كم؟ لم يذكر ربّ العالمين -سبحانه وتعالى- في كتابه إلا خمسة وعشرين نبيا فحسب صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ولكن لم يقص علينا أخبار كثير من الأنبياء والمرسلين ونحن نؤمن بهم جميعا، ونؤمن تفصيلا بنبينا -صلى الله عليه وسلم-؛ لأنه يزيد عليهم درجة، فنحن نؤمن ونصدق بهؤلاء وإنما لا نتابعهم، ولا نقرأ كتبهم، ولا نحتكم إلى شريعتهم، وإنما نؤمن بأن الله أرسلهم. أما النّبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم-؛ فيزيد عليهم بأنه يجب اتباعه، وطاعته، ومحبته، والسير على منهاجه، واتباع الكتاب الذي نزل عليه، والسنة وهي الحكمة التي نطق بها -صلوات الله وسلامه عليه-.

ونختم هذا اللقاء بقول الحق –تبارك وتعالى–: ؟ يَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ؟؛ أي أن الله –عزّ وجلّ– أخذ العهد والميثاق على النّبيّين من قبل، وأخذ العهد والميثاق حتى على أولي العزم من الرسل أن يؤمنوا بالنّبيّ –صلى الله عليه وآله وسلم– فالواجب –إذن– أن تؤمنوا أنتم بالنّبيّ –صلى الله عليه وآله وسلم–، والله –تبارك وتعالى– سيسألكم يوم القيامة عن ذلك، ولذلك قال مجاهد: يسأل المبلغين المؤدين عن الرسل، وقيل: ليسأل الأنبياء عن تبليغهم الرسالة، والراجح والله –تبارك وتعالى– أعلم أن الأنبياء سيُسألون وأن كل فرد سيُسأل؛ لأن الله –عزّ وجلّ– نصّ على ذلك في كتابه كما في سورة الأعراف: ؟ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ؟ [الأعراف: ٦].

ليسأل الصادقين عن صدقهم، وذكر الصادقين هنا دعوة إلى أن يَصْدُقَ العبد في إيمانه، وأن يصدق النّبيّ –صلى الله عليه وآله وسلم–، وأن يتابعه، وأن لا يكون من الكافرين الذين تَهَدَّدَهم ربّ العالمين –سبحانه وتعالى– بالعذاب الأليم، وختم الآية فيهم بقوله: ؟ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ؟، وبهذه الكلمات أنهي معكم هذا اللقاء، وصلِّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بالنسبة لأسئلة الحلقة السابقة كان السؤال الأول:

ما معنى ؟ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ ؟؟ وما المقصود بذلك؟ وما رأيك فيمن يقول: إنه يعبد الله دون خوف من عذابه ولا رغبة في ثوابه؟ أيد ما تقول بالدليل.

وكانت الإجابة: معنى تتجافى؛ أي ترتفع وتسمو، والمقصود بذلك أن المؤمنين الصادقين المخلصين يقومون بالليل لرب العالمين تاركين المضاجع، راغبين فيما عند الله –سبحانه وتعالى– من جزيل الثواب، خائفين من سوء العذاب.

وقد وردت الأحاديث عن نزول ربّ العالمين في الثلث الأخير من الليل نزولا يليق بجلاله وكماله.

وأما من يقول: إنه يعبد الله –سبحانه وتعالى– دون خوف من عذابه ولا رغبة في ثوابه؛ فنقول: إن الله –عزّ وجلّ– أهلٌ لأن يُعبد لذاته، ولكن لا بد أن يكون العبد طامعا، راجيا، راغبا فيما عند الله –سبحانه وتعالى– من الخير الكثير؛ لأن هذا الاحتياج يُظهر فقرَ العبد وحاجته لمولاه وذله لخالقه سبحانه وتعالى.

الجواب سديد، والحمد لله.

السؤال الثاني:

ما المراد بالفتح في قوله تعالى: ؟ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ ؟؟ وهل المراد هو فتح مكة؟ ولماذا؟

وكانت الإجابة:

يوم الفتح المراد في الآية هو يوم القيامة؛ فقد الفتح بمعنى الحكم والفصل والفضل في دعاء شعيب لربه في قوله تعالى: ؟ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ؟ [الأعراف: ٨٩]، وليس المقصود بالفتح هو فتح مكة بدليل ما جاء بعد هذه الآية من قول الله –تعالى–: ؟ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ؟ [السجدة: ٢٩]، فقد ثبت إسلام أهل مكة بعد الفتح، وصار منهم صحابة أجلاء؛ كأبي سفيان –رضي الله عنه–، وتاب الله على من تاب وعفا عنهم النّبيّ –صلى الله عليه وآله وسلم–.

يقول: كيف يتم الرد على من ينادي بنسب الأبناء إلى أمهاتهم إلى عصرنا هذا؟

الحقيقة أيضا هذا من الانحراف، ومن المعلوم أن الناس توارثوا جيلا بعد جيل أن يُنسب الولد إلى أبيـــه، ولا ينسب إلى أمه، فالولد ينسب إلى صلب الرجل، وهذا معروف حتى في الجاهلية، يعني توارث -كما قلت- الناس ذلك، فنحن نقول: محمد بن عبد الله، أو: فلان بن فلان، ولم يرد -أبدًا- أن يُضاف الولد إلى أمه بحال.

والله -عزّ وجلّ- لما وضع الشريعة، وذكر المواريث وغير ذلك؛ رَتَّبَ هذه الأحكام الشرعية على الـــذكورة وعلى الأنوثة، وجعل الأب له عَصَبَةً له ما ليس للأم، فيجب أن ننتبه إلى ذلك؛ لأن هذه المسألة ليـــست مجـــرد مسميات، ولكن سيؤول الأمر بها إلى أن تَتَصَادَمَ مع أحكام شرعية جليلة.

هذا -في الحقيقة- كلام لا أصل له ولا يمكن أن يكون له اعتبار بين أهل الإيمان بحال من الأحوال، وكمـــا أشرت وتفضلت لم نسمع به إلا في هذا الوقت الراهن والله أعلم.

السؤال الأول:

ما حكم التبني في الإسلام؟ وماذا نفعل إذا لم نعرف والد المتبنَّى؟

السؤال الثاني:

من هم أولو العزم من الرسل؟ وما المراد بالميثاق الذي أخذه الله عليهم مع الدليل؟

الدرس الثامن والعشرون

بقية الربع الأول من سورة الأحزاب

بسم الله الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه، وسلم.

أما بعد:

يسرنا أن نكمل في هذا اللقاء الربع الأول من سورة الأحزاب، وسأتحدث -إن شاء الله تبارك وتعالى- من خلال محور واحد حول هذه الآيات؛ لأنها سِيقَتْ في الحديث عن غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق.

وعنوان هذا المحور -إذن-: تذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم في غزوة الأحزاب، وبيان موقف المنافقين.

هذا هو المحور الذي سأتحدث عنه -إن شاء الله- في الآيات التي سنستمع إليها.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

؟ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ؟٩؟ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ ؟١٠؟ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ؟١١؟ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ؟١٢؟ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ؟١٣؟ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ؟١٤؟ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ؟١٥؟ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ؟١٦؟ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ؟ [الأحزاب: ٩: ١٧]

أحسنت، وجزاك الله خيرًا.

بسم الله الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، وعلى آله، وأصحابه، ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين، وبعد.

أيها الإخوة الكرام! الآيات التي استمعنا إليها قبل قليل تتحدث عن نصر عظيم، وموقف جليل كريم، تَفَضَّلَ الله -تبارك وتعالى- به على المؤمنين المسلمين الصادقين؛ صحابة النبي الأمين -صلى الله عليه وآله وسلم-، وذلك في غزوة شهيرة كبيرة عظيمة تُعرف باسم غزوة الأحزاب؛ لِتَحَزُّبِ المشركين مع المنافقين واليهود على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وصحبه، وتسمى بغزوة الخندق؛ لأن الخندق حُفِرَ بأمر الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- وبإشارة سلمان الفارسي -رضي الله عنه-؛ ليكون ردْءًا بفضل الله -تبارك وتعالى- للمدينة النبوية؛ حتى لا يدخلها هؤلاء الأحزاب الذي تحزبوا وأرادوا استئصال شأفة الإسلام والمسلمين.

وأعتبر -والله تبارك وتعالى أعلم- أن مثل هذا الحديث يكون شَيِّقًا للغاية، ونرجع به إلى تاريخ مجيد لأمة الإسلام، وإلى موقف عظيم كان من الأبطال الرجال الذين صَدَقُوا ما عاهدوا الله -تبارك وتعالى- عليه. والآيات في هذه السورة التي ستأتي بعد ذلك فيها استكمال لهذا الحدث الجلل العظيم، وفيها -أيضًا- وصف لمن صدقوا

ربهم –سبحانه وتعالى– ووقفوا إلى جوار الحق مُساندين النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–، وجاء ثناء من الله –تبارك وتعالى– عليهم في هذه السورة؛ كقول الحق –تبارك وتعالى–: ؟ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ؟ [الأحزاب: ٢٣]، وفي الحقيقة يضيق المقام عن أن استرسل في مثل ذلك، كما يَضيق المقام عن الحديث حول الآيات التي تَحَدَّثَتْ عن هذه الغزوة وسيَقْتَصِرُ حديثي على الآيات التي استمعنا إليها كما أشرت قبل قليل، وأسأل الله العون والتوفيق.

أولا: يقول رب العالمين –سبحانه وتعالى– مُنَادِيًا أهلَ الإيمان مُذَكِّرًا إيَّاهم بنعمته عليهم: ؟ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ؟.

إذ جاءتكم جنود: يعني بالجنود الأحزاب من قريش ومن سار معهم، وخرج معهم، ووقف إلى جوارهم من القبائل الأخرى كغَطَفَانَ، وكذلك ما كان من بني قُرَيْظَة.

والله –عزّ وجلّ– أَيَّدَ المؤمنين بنصره وفضله –سبحانه وتعالى–، وهو الحقّ، وهو الكبير المتعال. ولأذكر الآن سبب هذه الغزوة –أولا–، وأذكر –أيضًا– شيئًا مما حدث فيها.

أقول: الراجح –والله تبارك وتعالى أعلم– أنّ هذه الغزوة وقعت في شهر شوال من السنة الخامسة من هِجْرَةِ النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–. وسبب هذه الغزوة أن المشركين بعدما رجعوا من أُحُدٍ وقد أُصيبوا بما أُصيبوا به، وكان النبي –عليه الصلاة والسلام– انتصر عليهم قبلها في غزوة بدر؛ كان هذا يؤثر في نفوسهم تأثيرا عجيبا، واليهود كانوا يعرفون ذلك ويُدركونه، وكانوا يحاولون أن ينتقموا من الإسلام ومن المسلمين، وهم –بلا شك– أهل حقد، وبغي، وحسد، وضلال، وانحراف، وغير ذلك مِمَّا هو معلوم من سِيَرِ اليهود.

هؤلاء اليهود ذهب بعضهم –وقيل أشرافهم– إلى قريش، وأَلَّبُوهم على النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–، وطلبوا منهم أن يُعيدوا الكَرَّةَ إلى المدينة النبوية كما فعلوا في غزوة أحد، واستجابت قريش لفكرة هؤلاء اليهود، وذهبوا أيضا إلى غطفان، وكان بين غطفان وبين النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– عَهْدٌ أن لا يَغدروا، وأن لا يخونوا، وأن لا يُؤَلِّبُوا، وأن لا يقفوا إلى جوار المشركين، وأن يُسالموا المؤمنين. ولكن لمَّا ذهب أشراف اليهود إليهم؛ دخلوا في رِكَابِ المشركين، وبدأ المشركون يُخَطِّطُون لغزو المدينة النبوية، وأَتَوْا بجيش كبير جَرَّارٍ قوامه عشرة آلاف جندي مُجَهَّزٍ. أتى إلى مدينة النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– ونزلوا في منطقة يُقال لها: "الْحَرَّة الْغَرْبِيَّة" مُواجهين جبلا هناك يقال له: "جبل سلع". والجبل –بحمد الله– موجود إلى يوم الناس هذا، ومكان الخندق طبعا أصبح طريقا، وبفضل الله –عزّ وجلّ– مَنَّ الله –تبارك وتعالى– عليَّ ورأيت أحد المؤرخين وكانت لديه خرائط قديمة، وقد دَرَسَ هذه المواطن وأوقفني شخصيًّا على مكان الخندق، ولو كنت هناك وأنتم معي؛ لأريتكم مكانَه. وهذه نعمة من الله –تبارك وتعالى– عليَّ.

أتى هؤلاء وعسكروا في هذا المكان، وخرج النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– ومعه من معه من أهل الإيمان. قيل: إن عددهم لا يتجاوز ثلاثة آلاف. قال البعض: أقل من هذا، وهو بعيد. ولكن هذا العدد هو ما يمكن أن نَعْتَبِرَه العدد الصحيح في ذاك الوقت لأمة الإسلام.

كان النبي –عليه الصلاة والسلام– في المدينة أَجْلَى قبيلتين من اليهود؛ بني قينقاع وبني النضير، وبقي بنو قريظة، فخرج إليهم حُيَيْ بن أَخْطَل، وهو من الذين كان قد ذهب إلى خيبر ورجع إلى بني قُريظة، وطلب منهم أن يَنْقُضُوا عهدهم مع النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–.

أقول هذا في أول الكلام؛ لنعرف ما معنى قول الحق –تبارك وتعالى– هنا: ؟ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ؟. ما هي طبيعة هؤلاء الجنود؟ ومن كانوا؟ ولماذا –كما ذكرت– أولا نقول بأن نسمي هذه الغزوة بغزوة الأحزاب؟

لما ذهب حيي بن أخطل إلى يهود بني قريظة وطلب منهم أن يقفوا إلى جوار المشركين، وألَّبَهم على المسلمين؛ وافقوا على ذلك رغم أنه كان يوجد عهد وميثاق بين النبيّ –صلى الله عليه وآله وسلم– وبين هؤلاء، ولكنّهم نقضوا العهدَ معه. وأتى هؤلاء الناس بهذه العُصْبَةِ القوية الكبيرة، وجاء النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– ووقف مواجها المشركين، وجعل جبل سَلْعٍ خَلْفَ ظهره –صلوات الله وسلامه عليه–، وهنا أشار سلمان الفارسي –رضي الله تعالى عنه– على النبي –عليه الصلاة والسلام– وصحبه أن يحفروا الخندق. العلة في ذلك ماذا؟ أن لا يَتَمَكَّنَ المشركون من الدخول إلى المدينة النبوية؛ لأن أعداد المشركين كبيرة، وأهل الإيمان عددهم أقل من هؤلاء، أقل من النصف بكثير، فكانت هذه الفكرة وهذا الاقتراح الجميل من سلمان –رضي الله تعالى عنه– اقتراحا مُوَفَّقًا وافق عليه النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–، والنبي –عليه الصلاة والسلام– عنده خُطَطٌ عسكرية حربية قوية.

بدأ حفر الخندق من عند جبل ينتهي حتى يبدأ الحفر من مكان لا يتمكن المشركون منه أن يدخلوا إلى المدينة النبوية، وانتهى إلى جبل يتصل بجبل أُحُدٍ أيضًا؛ فلا يتمكن –إذن– المشركون الذين وقفوا في مواجهة أهل الإيمان في هذه الغزوة أن يدخلوا إلى المدينة النبوية. وتم حفر الخندق وجَرَتْ فيه من الآيات العظيمة ما الله –تبارك وتعالى– به عليم، وأخبرنا به نبيُّنا –صلى الله عليه وآله وسلم–؛ من ذلك –كما في حديث جابر رضي الله تعالى عنه– أن صخرة عظيمة كما جاء في الحديث كُدْيَةٌ عظيمة وقفت أمامهم، وحاولوا وهم يحفرون الخندق إن يحركوها أو أن يكسروها؛ فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. أَتَوْا إلى النبيّ فرفع فأسه –عليه الصلاة والسلام– وكَبَّرَ فأزالها –صلى الله عليه وآله وسلم– وفَتَّتَها، وأخبر أصحابه بأنهم سيَملكون كنوزَ قيصر، والحديث حول ذلك يَطول؛ لأني أريد أن أدخل في صلب الموضوع.

وأيضا مما حدث في هذه الغزوة رحمة رب العالمين –سبحانه وتعالى– بإجراء بعض المعجزات على يدي النبي –صلى الله عليه وسلم–؛ كتكثير الطعام؛ لأن النبي –عليه الصلاة والسلام– لَمَّا مسك الفأس وضرب هذه الكدية؛ رأى جابر بن عبد الله –رضي الله تعالى عنه– ما بوجه النبي من الجوع، وكان –عليه الصلاة والسلام– قد ربط على بطنه الحجرَ من شدة الجوع –صلوات الله وسلامه عليه–. فاستأذن من النبي –عليه الصلاة والسلام– ورجع إلى زوجه، وأخبرها بحال النبي –صلى الله عليه وسلم–، وطلب منها أن تصنع طعاما، فصنعت واستأذن مرة أخرى وجدها أوشكت على الانتهاء، فطلب من النبي –صلى الله عليه وسلم– أن يأتي إلى بيته وأن يَختار معه واحدا أو اثنين لِيَطْعَمَ مع النبي –عليه الصلاة والسلام–.

فأمره النبي –عليه الصلاة والسلام– أن يعود إلى بيته، وأن يطلب من زوجته أن تُبْقِيَ ما تفعله وما تصنع من طعام على حالته هو. طبعا القصة طويلة وأنا أريد أن أختصر. ونادى –عليه الصلاة والسلام– في أهل الخندق جميعا بأنَّ جابرًا قد صنع لكم طعاما، وأخذهم النبي –عليه الصلاة والسلام– إلى بيت جابر –رضي الله تعالى عنه–.

فوجئت زوجته بذلك، وأخبرها بفعل النبي –صلى الله عليه وسلم–، وذهب النبي –عليه الصلاة والسلام– ودعا على الطعام وبَرَّكَ فيه –صلى الله عليه وآله وسلم–؛ فأكلوا جميعا وتركوا الطعام والطعام والقدور فيها الطعام كما كانت عليه كأنّ أحدا لم يأكل.

هذه من المعجزات الظاهرة البارزة ومن التأييد القوي للنبي –صلى الله عليه وآله وسلم–.

عسكر المشركون في مواجهة المؤمنين في هذه الغزوة بينهما الخندق، ولم يستطع المشركون من خلال الخطة الحربية الموضوعة من أهل الإيمان أن يصلوا إلى المؤمنين، اللهم إلا ما كان من رجل من فرسان قريش يُسمى عَمْرًا هذا الرجل ابن عبد وُدّ. هذا الرجل كان فارسا شجاعا، وأخذ معه بعض الفوارس واستطاع أن يقتحم الخندق ليصل إلى المسلمين، فتصدى له الفارس المغوار رابع الخلفاء الراشدين علي بن أبي طالب فقتله.

قال كُتَّابُ السيرة: اعتبر أهل الإيمان أن هذا نصرٌ مبدئيٌّ من رب العالمين -سبحانه وتعالى- على المشركين.

وظلّ الحال على ذلك شهرا، المشركون ما استطاعوا أن يصلوا إلى أهل الإيمان، والله -عزّ وجلّ- تَفَضَّلَ على المؤمنين بأنه نجاهم من هؤلاء المشركين، ونصرهم عليهم بأسباب مادية أوقعها بهؤلاء المشركين، على رأسها الريح التي سلطها رب العالمين -سبحانه وتعالى- عليهم.

كانت الغزوة في الشتاء، والمدينة تكون باردة في الشتاء خاصّة في الليل، فالجو بارد والليل فيها -إذن- قارص مع الخلاء، ولمَّا تأتي الريح مع شِدّةِ البرد لا شك أنّ الأمر يصعب أكثر، وكانت الريح لا تُبقي لهم خيما، ولا جدارا، ولا نارا أوقدوها. تُطفي نيرانهم، وكانت تَطيح هذه الريح بما يُمكن أن يَصنعوه وِقَاءً لأنفسهم يختبئون فيه. ولذلك نادوا على أنفسهم بالرحيل، وفي ليلة الرحيل يَذكر لنا حذيفة -رضي الله تعالى عنه- موقفا عجيبا من النبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم-، وهو:

قام النبي -صلى الله عليه وسلم- يُصلِّي من الليل في الليلة التي اشتدت الريح فيها على المشركين والكافرين، وخرجوا على أدبارهم راجعين، فلما صلى النبي -صلى الله عليه وسلم- شطرا من الليل؛ قال كما ذكر حذيفة، وأول الكلام أن رجلا من أهل الكوفة كما ذكر محمد بن إسحاق في سيرته، وأصل الحديث هذا في صحيح مسلم أن رجلا من أهل الكوفة قال لحذيفة -رضي الله عنه- وهو هناك: هل رأيتم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وصحبتموه؟! فقال له: نعم، رأيته وصحبته. قال: نحن لو رأيناه؛ ما تركناه يمشي على الأرض. فقال له حذيفة -رضي الله عنه-: والله لقد كُنّا نَجْهَدُ في اتباعه، وكنا نُتعب أنفسنا في اتباعه وطاعته -صلوات الله وسلامه عليه- . ثم ذكر موقفا لهذا الرجل الذي هو من الكوفة ليلة الخندق هذه. قال بأن النبي -عليه الصلاة والسلام- قال: (من يأتيني بخبر القوم ثم يرجع؟) يقول حذيفة: يضمن له النبي -صلى الله عليه وسلم- الرجعة. ثم يقول: (وأسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة!) قال: فلم يقم أحد من شدة البرد، وشدة الخوف، وشدة الجوع. وفي بعض روايات السيرة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قام يصلي بعدما قال ذلك وكَرَّرَ هذا الأمر مرة ثانية؛ فلم يقم أحد. حتى في الثالثة قال: (قم يا حذيفة!). قال فلم يكن لي بد من القيام، وذهب حذيفة -رضي الله عنه- بأمر النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقال: (فادخل في القوم ولا تُحْدِثَنَّ شيئًا حتى تأتيني). لا تفعل شيئا حتى تأتي. فذهب حذيفة -رضي الله تعالى عنه- وكانت الريح وقتئذ -لَمَّا ذهب حذيفة رضي الله عنه- قد اشتدت عليهم وهاجت هيجانا شديدا؛ دفعت قائد جيش المشركين أبا سفيان أن يقوم ليُصدِرَ قرارا حربيا بالرجوع إلى مكة شرفها رب العالمين سبحانه وتعالى وطهرها، بأن يرجع مهزوما بجيشه؛ لأنه لم يستطع أن يُواجه النبيّ -صلى الله عليه وسلم- وصحبه، مع الفارق الكبير في العدد، والعتاد، والعدة. وهذا نصر من رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

قام أبو سفيان وأراد أن يصدر هذا القرار ألا وهو أن يترك المدينة وأن يرجع بعد ذلك مهزوما إلى بلده. فقال أبو سفيان -وكان أيضًا رجلا ذكيا-: لِيَتَعَرَّفْ كل واحد منكم على صاحبه. يخشى أن يكون أحد قد تسلل من أهل الإيمان ودخل جيش المشركين. قال حذيفة -رضي الله تعالى عنه- فتناولت يد صاحبي الذي بجواري، وقلت له: من أنت؟! فقال: فلان بن فلان. وطالما سأله حذيفة؛ لن يسأل حذيفة -رضي الله عنه-، وهذا ذكاء منه رضي الله تعالى عنه.

ثم قام أبو سفيان، وقال للجيش: رأيتم ما أرى!. أنتم ترون الآن ما ترون؛ شدة الريح لا تُبْقِي لنـــا بنـــاء، ولا توقد لنا نارا؛ فهلموا إلى الرحيل فإني مرتحل. وقام أبو سفيان ليركب على بعيره. يقول حذيفة –رضي الله عنه– ومعه سهمه في حربته، قال: لو أردت أن أقتله؛ لفعلت، ولكني تذكرت قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: (ولا تحدثن شيئًا حتى تأتيني) فلم أفعل. ثم قام وتسلل وأتى إلى النبي –صلى الله عليه وسلم–، والنبي –عليه الـصلاة والسلام– كان قائما يصلي، وحذيفة يقول بأنه شعر بالبرد الشديد عندئذ فأدخله النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– تحت فراشه، وفي رواية أنه نام حتى الصبح، حتى ناداه النبي –صلى الله عليه وسلم– قال له: (قم يا نـــؤوم!)؛ لأنه نام بعد ذلك لكي يستدفئ –رضي الله تعالى عنه–.

ورجع المشركون القهقرى، ونصر رب العالمين –سبحانه وتعالى– أهل الإيمان على أهل الشرك والطغيان، ولا شك أن هذه الحادثة كان لها وَقْعٌ كبير عند المشركين؛ بدليل أن النبي –صلى الله عليه وآله وسـلم– قـال – عَقِبَ هذه الغزوة وبعد رجوع المشركين إلى مكة وهَمُّهم بالرجوع– قال: (الآن نغزو قريـشا فـي دارهـا، ولا يغزونا بعد ذلك)، وفعلاً لم تأت قريش إلى مدينة رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– ولم يكن بينهم قتال إلا في مكة لما خرج –صلى الله عليه وسلم– إلى الحديبية، ثم خرج بعد ذلك –صلوات الله وسلامه عليه– لفتح مكة.

أمّا قريش؛ فلم يخرجوا بعد ذلك، ولم يقصدوا مدينة رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–. وقبل أن أنتقـل من هذا الواقعة –وهي الريح التي جاءت على المشركين، وإعلان أبي سفيان بالرحيل– لا بد أن أُعَـرِّجَ علـى يهود بني قريظة، هؤلاء الناس خانوا العهد مع النبي –صلى الله عليه وسلم–، وستأتي الآيات التي ستبين أن أهل الإيمان تأثروا تأثرا بالغا، ويكفينا آية ستأتي: ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ بـسبب تَعَاضُـدِ هؤلاء اليهود مع المشركين، وتأثُّر أهل الإيمان بذلك، ولكن الله –عزّ وجلّ– رَدَّ كيد الكفار في نحـورهم، وأذاق هؤلاء اليهود جريمة أعمالهم.

كان هناك رجل من الكفار يقال له: نعيم بن مسعود، أسلم وكان صديقا لليهود، وهو من الكفار والمـشركين، وجاء إلى النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–، وقال له: يا رسول الله! –صلى الله عليه وسلم– إني آمنـت بـك، وصدقتك واتبعتك، ولا تعلم قريش ذلك، وأريد أن أخدم هذا الدين الذي دخلت فيه فمُرْنِي بشيء؛ أفعل، فقال النبي –عليه الصلاة والسلام–: (ما أنت إلا فرد واحد!)؛ يعني ماذا ستفعل؟ ولكنه قال له كلمة: (خَذِّلْ عنا؛ فإن الحرب خَدعة)، هكذا رَجَّحَ ابن الأثير –رحمه الله تعالى– في «النهاية في غريب الحديث»، قال: الصواب أن "خَدعـة" بالفتح، يعني الحرب خدعة، يعني تقوم بخدعة واحدة فتنتهي الحرب. فذهب إلى يهود بني قريظة، وقـال لهـم: تعلمون ودي لكم وصداقتي لكم –وهو مشرك– قالوا له: أنت منا بمكان. قال: إن المـشركين الآن أتـوا إلـى المدينة، وقد ينتصرون وقد لا يكون هناك انتصار، ثم بعد ذلك سيرجعون هم إلى بلادهم وديارهم، وستبقون أنتم مع النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– فماذا ستفعلون؟! أنا أرى أن تأخذوا من المشركين عهدا، وأن تأخذوا منهم أيضًا أمانا بأن يُعطوكم اثنين من رجالهم ليكونا عندكم حتى لا يَفِرَّ المشركون ويتركوكم. فقال ذلك لبني قريظة، ثم ذهب إلى المشركين، وقال لهم بأن يهود بني قريظة نَدِمُوا على ما كان منهم، ندموا علـى اتفـاقهم معكـم، وتشاوروا مع النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى أن يَرجع العهد الذي كان بينه وبينهم، ولذلك سيَطلبون منكم اثنين من رجالكم؛ فلا تعطوهم. فطلب اليهود من المشركين، فقال المشركون: لقد صدقكم نعيم.

وبالتالي؛ أوقع هنا بين اليهود وبين المشركين، وهذا كان سببا في تهدئة أوضاع هذه الغزوة بالنسبة للمؤمنين، ولكنّ الأمرَ كان كله بفضل رب العالمين –سبحانه–، ولذلك نسب ذلك إلى نفسه فقال: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَـيْهِمْ رِيحًـا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾.

الجنود هم الملائكة، وكم من غزوة أرسل رب العالمين –سبحانه وتعالى– فيها ملائكة تقف إلى جوار الحق، إلى جوار النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–، ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾.

ثم يصور القرآن الكريم شدة هذه الغزوة على أهل الإيمان، وكيف أنها كانت من المواقف الصعبة الشديدة التي مَرَّتْ بهم؛ لأن الأحزاب تَحَزَّبُوا من كل مكان للقضاء عليهم، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ؟ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ؟. قيل: إذ جاءوكم من فوقكم؛ يعني إذ جاءت قريش من فوق على المسلمين.

ومن أسفل منكم: قيل: المراد بهم بنو قريظة.

؟ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ؟: يعني شخصت الأبصار، أصبحوا ينظرون، وقيل: مالت الأبصار؛ أي تضطرب وتتحرك لاضطرابها وخوفها.

؟ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ ؟: قيل: عندما يخاف الإنسان؛ يضطرب صدره، فكأن القلب وصدره يصل إلى حلقه، القلب الذي هو في الصدر كأنه يَتَحَرَّكُ بصدره هكذا إلى حلقه. ولذلك الخائف لمَّا تطلب منه كلاما؛ ربما لا يستطيع أن يَتَكَلَّمَ من شدة الخوف، فالحركة التي تحدث في صدره، وربما التوسع الذي يحدث نتيجة هذا الخوف يُضَيِّقُ مخارج الكلام عنده. هذا هو المعنى.

؟ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ ؟:

قيل: ظن بعض المؤمنون أن الدولة ستكون للمشركين عليهم في هذه الغزوة، وقيل: المراد بذلك المنافقون. المنافقون أظهروا ما لديهم بوضوحٍ تامّ في هذه الغزوة؛ لأن المنافقين يَظهرون على حقيقتهم في مثل هذه المواقف، وسنأتي بأنّ مَنْ كان في قلبه مرض صار مع هؤلاء المنافقين. لدرجة أن بعضهم صرح وقال: كان محمد –صلى الله عليه وآله وسلم– يعدنا بكنوز كسرى وقيصر، والآن أحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الخلاء من الخوف الذي هم فيه.

هذا هو المراد بقول الله –تبارك وتعالى–: ؟ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ ؟.

ذكر رب العالمين –سبحانه وتعالى– أن الأحزاب لما تَحَزَّبُوا، وأَتَوْا من فوق ومن أسفل، وأحاطوا بالمدينة النبوية قال رب العالمين: ؟ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ؟.

هذا تصوير لواقع المؤمنين في مثل هذه الحال، ولا شك أن الله –تبارك وتعالى– يبتلي أهل الإيمان بما يبتليهم به، ومن ذلك هذه الشدة العظيمة، ولكنها كانت –في الحقيقة– محنة أَعْقَبَها رب العالمين –سبحانه وتعالى– بمنحة عظيمة؛ ألا وهي إجلاء هؤلاء المشركين –كما أشرت– ورجوعهم بعد ذلك، وعدم استطاعتهم العودةَ إلى مدينة رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–، ولم يَتَمَكَّنُوا بحالٍ من الأحوالِ أن يُواجهوا أهل الإيمان مرة أخرى. ولكن هذا الابتلاء –كما ذكرت– يُظهر حقيقةَ الإيمانِ في القلوب. فمن كان عنده إيمان صادق صحيح؛ وَقَفَ إلى جوار النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–. وأما أهل النفاق، والذين في قلوبهم مرض؛ فهؤلاء بدءوا يُثيرون الشكوك، وبدأت تثور في نفوسهم الكلمات التي لا يَنْبَغِي أن ينطق بها إنسان يَعرف جلال وقدر ربه –سبحانه وتعالى– ومولاه؛ لأن هذا الدين هو دين رب العالمين –سبحانه وتعالى–، وكان الأولى بهؤلاء المنافقين أن لا يكونوا كذلك، كان الأولى بهم أن يقفوا في صف النبي –صلوات الله وسلامه عليه–، ولكنهم لفُجُورهم ولضعف ما لديهم من إمكانيات ما استطاعوا أن يُواكبوا مسيرةَ الدعوة إلى الله –تبارك وتعالى–، فتظاهروا بالإسلام وأبطنوا الكفر والنفاق، وظهر هذا جليّا في هذه الغزوة. ورب العالمين –سبحانه وتعالى– يُصور حالهم فيقول –بعدما قال: ؟ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ؟–: ؟ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ؟.

هكذا قال المنافقون، وقال الذين في قلوبهم؛ يعني من كان في نفسه شبهة، أو عدم استقرار: هل يا ترى الدين الذي عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- هو الحق؟ أم أن غيره هو الحق؟ فعنده شبهة وما تمكن الإيمان من قلبه. هؤلاء أهل النفاق، وهم أهل فجور في كل زمان ومكان كانوا يُثيرون البَلْبَلَة بين أهل الإيمان، ومن ذلك ما كانوا يَنْطِقُون به ويَتَفَوَّهُون به من خبيث القول: ؟ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ؟، ويا ويل هؤلاء من عذاب الله -تبارك وتعالى-! كيف يَسمع إنسان ضعيف لنفسه مخلوق مربوب أن يَتَطَاوَلَ على مَقام ربّه ومولاه، فيقول بأن وعد الله -تبارك وتعالى- غرور؟!

الله -عزّ وجلّ- الذي يقول للشيء: كن فيكون، كيف يصف عبد ضعيف حقير وعد رب العالمين -سبحانه وتعالى- بأنه غرور؟! ولكن هذا النفاق إذا استولى على القلب. وقد سبق أن ذكرت بأن هؤلاء المنافقين في الدرك الأسفل من النار، والكافر الأصليّ أحسن حالا من هؤلاء.

هناك طائفة أخرى من المنافقين أيضا، فالمنافقون لهم تصرفات متعددة؛ طائفة منهم قالت: ؟ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ؟، وطائفة كانت تأتي بحججٍ باطلة، وتستند إلى مواقفَ مُفْتَعَلَةٍ، وهي مواقف مَبْتُورَةٌ في الحقيقة لا أصل لها، والقرآن الكريم فَضَحَهم فيها: ؟ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ؟. الطائفة هم: الجماعة من الناس، والمراد بذلك هم المنافقون الذين كانوا في هذه الغزوة.

قالوا: ؟ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ؟: المراد: يا أهل المدينة! لأن المدينة كان يُطلق عليها يثرب، إلى أن سماها النبي -صلى الله عليه وسلم- بأسماء متعددة كطابا وطيبة، وغير ذلك من الأسماء، وقد أشار الحافظ ابن كثير -رحمه الله تبارك وتعالى- إلى شيء من ذلك.

؟ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ؟؛ يعني لا مقام لكم في هذا المكان، ولا ضرورة تدعو إلى أن تقفوا إلى جوار النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في هذا المكان. ربما لا تكون هناك حرب كما وقع ذلك منهم في غزوة أحد، ارجعوا إلى مكانكم، ارجعوا إلى بيوتكم.

ويأتي فريق آخر كما ذكر القرآن الكريم يستأذن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في أمر لا فائدة من ورائه، ولا معنى له، ويستأذن فريق منهم النبي يقولون: ؟ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ؟؛ نخشى عليها من الضياع، نخشى عليها من السرقة. الله -عزّ وجلّ- يرد عليهم فيقول: ؟ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ؟؛ أي أن بيوتهم ليست بعورة، وليست مكشوفة، ولا يمكن أن تُسرق، وكيف تسرق؟ ومن الذي يسرقها؟ وليس في المدينة إلا مَنْ آمن وصَدَّقَ بالنبيّ -صلى الله عليه وآله وسلم-؟! وإذا خرج الرجال الغزاة للحرب والقتال؛ فمن الذي سيبقى في المدينة -إذن- ويقوم بهذه السرقة؟!

ولذلك رد رب العالمين -سبحانه وتعالى- عليهم ما قالوا، فقال: ؟ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ؟ وماذا يريدون إذن؟ وما الأمر الذي يسعون إليه؟ قال: ؟ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ؟ هو فقط يريدون أن يهربوا من موقع المعركة، يريدون أن يتركوا نصرة نبي الإسلام -صلوات الله وسلامه عليه-.

والقرآن يفضحهم غاية الفضيحة بعدما مَنَّ رب العالمين -سبحانه وتعالى- على النبي -عليه الصلاة والسلام- بالنصر المبين وما إلى ذلك يتكلم عن هؤلاء: ؟ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ؟.

المراد بالآية: أن الأعداء لو دخلوا من جانب على هؤلاء الناس دخلوا عليهم في داخل المدينة، ثم طلبوا منهم أن يكفروا بالله -عزّ وجلّ-؛ لفعلوا ذلك، وما تَرَدَّدَ الواحد منهم، ولو تَرَدَّدَ سيكون تَرَدُّدُه في زمن يسير، وسرعان ما يعود إلى الكفر.

؟ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ؟: ولو دخل هؤلاء الكفار عليهم من أي قطر أو من أي مكان في المدينة النبوية، ثم طلبوا منهم الرجوع إلى الكفر؛ لرجعوا إلى الكفر وما أمهلوا أنفسهم حتى مجرد التفكير.

والله –عزّ وجلّ– يلوم عليهم هذا الفعل ويَعيب عليهم هذا التصرف فيقول: ؟ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ؟.

قيل: معنى ذلك أن هؤلاء المنافقين كانوا تعاهدوا مع النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– أن لا يعودوا إلى الفعل الذي فعلوه في غزوة أحد؛ لأن هؤلاء المنافقين مع النبي –عليه الصلاة والسلام– في المدينة النبوية، وقصتهم في أحد أن النبي –عليه الصلاة والسلام– لمَّا خرج لمواجهة المشركين عند جبل أحد المعروف؛ انْخَذَل ثلث الجيش الذي كان مع النبي –عليه الصلاة والسلام– الجيش كان قوامه ألف رجع ثلث هذا الجيش، أكثر من ثلاثمائة، وكانوا من المنافقين. سبب رجعوهم قالوا: لا نعرف أن هناك قتالا سيحدث، ما نتوقع، ولو كنا نعرف ونَتَيَقَّنُ أن هناك قتالا؛ لحضرنا.

هذه أيضًا من الشبهة الضعيفة المبتورة التي يأتي بها هؤلاء الناس، بعدها عاهدوا النبي –صلى الله عليه وسلم– أن لا يعودوا، ولا شك أن من فعل ذلك سيأتي ويعتذر. ومن اعتذاره أنه يُبرز ويُظهر للنبي –صلى الله عليه وسلم– إن عاد الأمر مرة أخرى سأرى ما أفعل. ولا شك أن هذا أمر مُتَوَقَّعٌ ويكون قد حصل.

ما العلة في ذلك؟ أنهم يعيشون مع النبي –صلى الله عليه وسلم–، ويقفون وراءه في الصلاة، وهذه كأنهم يسيرون مع المؤمنين جَنْبًا إلى جنب، ولكنهم يختلفون تمام الاختلاف عن أهل الإيمان، ولذلك قال الله –عزّ وجلّ–: ؟ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ؟؛ يعني رب العالمين –سبحانه وتعالى– سيَسألهم يومَ القيامة عن هذا العهد، وسيسألهم ربهم: لماذا أخلفتهم ما عاهدتم عليه النبي –صلى الله عليه وسلم–؟

ثم يُبَيِّنُ الله –سبحانه وتعالى– له أن ما فعلوه، وأن التصرفات التي خرجت منه ما كانت تليق؛ لأنهم لا يملك الواحد منهم لنفسه شيئا، هم يَحتاطون لأنفسهم، يريدون الفرار، لا يريدون المواجهة، وهم لا يقع منهم فائدة لأنفسهم؛ لأن الذي يفعل ذلك هو رب العالمين –سبحانه–، ولذلك قال الله لهم: ؟ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ؟: حتى لو بقيتم إذا فررتم وبقيتم على ظهر هذه الحياة الدنيا؛ ما هي قيمة الحياة التي ستحيونها؟ إن عشتم في نعيم؛ فهو مؤقت. وإذن لا تُمَتَّعُون إلا قليلا، ومصداق ذلك في قول الحق –تبارك وتعالى–: ؟ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ؟ [النساء: ٧٧].

ثم يبين رب العالمين –سبحانه وتعالى– لهم أن الأمر مرجعه إلى رب العالمين –سبحانه وتعالى– وحده: ؟ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ؟. من يمكن أو يَقدر أن يَتَقَدَّمَ بين يدي الله –عزّ وجلّ– كي يعصمكم من الله –سبحانه– إن أراد الله بكم سوءا؟! إن أراد وقوع العذاب عليكم؟! ومن الذي يَحجب رحمة رب العالمين إذا أرادها –سبحانه وتعالى– أن تَنْزِلَ بكم؟! وفي واقع الأمر وفي كل الأحوال هم لا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا.

أحببت أن أتحدث عند ختام هذه الآية على ما حدث ليهود بني قريظة، وأنهم تآلبوا مع المشركين، وأرادوا أن ينصروا الشرك والمشركين على النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–، وأن يَجتمع الجميع لمواجهة الإسلام، ويَتَقَوَّى بعضهم ببعض، وفي الحقيقة ما حصل لهم شيء من ذلك، وما كان وما كان لهم من دون الله من ولي، وما كان لهم من دون الله من نصير، وكان العاقبة والدوائر على الكافرين. فنحن عرفنا من خلال الآيات السابقة أن المشركين رجعوا خائبين، منهزمين، صاغرين، أذلاء. أما اليهود؛ فقد حكم فيهم سعد بن معاذ –رضي الله تعالى عنه– لحكم الله –تبارك وتعالى– من فوق سبع سماوات.

جبريل -عليه السلام- نزل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وأمره أن يسير إلى بني قريظة، وقال له أنت وضعت السلاح؛ فإن الملائكة لم تضع السلاح بعدُ. الملائكة الذين كانوا يُقاتلون ويُقَوُّون وينصرون النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- وهم من جنود الله -تبارك وتعالى-. فَتَوَجَّه النبي -عليه الصلاة والسلام- إلى بني قريظة وقال -كي يُحَقِّرَ أهل الإيمان بالذهاب-: (لا يُصَلِّيَنَّ أحد منكم العصر إلا في بني قريظة)، وذهبوا إلى هناك، وحاصرهم النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وهم الذين طلبوا النزول على حُكْمِهِ، وأرادوا أن يُحَكِّمُوا فيهم سعد بن معاذ -رضي الله عنه-، وما علم هؤلاء اليهود أن الإسلام يُرَبِّي في أبنائه عقيدة الولاء والبراء، وأن المسلم الصادق في إيمانه يُوَالِي ربه ومولاه، ويقطع قراباته ولو كانت هذه القرابات من أقرب الناس إليه؛ كزوج، أو والد، أو ولد، أو غير ذلك.

كانوا حلفاء مع سعد بن معاذ في الجاهلية؛ فطلبوا أن يحكم فيهم سعد بن معاذ -رضي الله عنه- وضاق الوقت أن أتحدث عمَّا حصل لسعد -رضي الله تعالى عنه- في هذه الغزوة المباركة، وأنه جُرِحَ، وأنه مات بسبب هذه الغزوة، فمات شهيدا -رضي الله تعالى عنه-، وأنه أثرت عنه كلمة عظيمة جدا لا يَعرف اليهود أنه قالها -رضي الله عنه-. لمَّا عرف -رضي الله عنه- وشعر أنه سيموت قال: "اللهم لا تمتني حتى تَقَرَّ عيني من بني قريظة". طلب هذا من ربه؛ أن يجعل له ذلك شهادة، وأن لا يميته ربه حتى تَقَرَّ عينه من بني قريظة، هو الذي قال ذلك بينه وبين ربه.

ثم يأتي رب العالمين سبحانه ويجعل بني قريظة هي التي تطلب في أن يَحْكُمَ فيهم سعد بن معاذ -رضي الله عنه-، فيحكم بحكم الله -تبارك وتعالى- فيهم؛ أولا: بأن يُقْتَلَ الرجال، ويُسبى النساء، ويكون الأطفال بعد ذلك معهم. وبالتالي؛ انتصر الإسلام والمسلمون على الشرك وعلى اليهود في غزوة واحدة، وهي ما عرفت بغزوة الأحزاب المباركة.

وبقيت كلمات كثيرة في مثل هذه الغزوة وغيرها من آيات وَرَدَتْ في هذه السورة، ولكني كما علمت أن هذه الحلقة هي نهاية حلقات هذه الأكاديمية المباركة، ولا يفوتني بهذه المناسبة -وقد جلسنا طويلا في هذا المكان المبارك نقرأ كتاب الله -عزّ وجلّ- ونتدارس شيئًا من العلم مما فتح الله -تبارك وتعالى- علينا- أود أن أُذَكِّرَ نفسي وإخواني -أولا- بتقوى الله -تبارك وتعالى-، ولعل هذا موقع الكلام الآن، والله -عزّ وجلّ- في مفتتح هذه السورة أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يَتَّقِيه: ؟ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ؟، فمن باب أولى أن نَتَّقِيَ نحن رب العزة الجلال -سبحانه وتعالى-، ولا يظن الإنسان -منا- أن هذه الأكاديمية التي انتهت حلقاتها خلال ثلاث سنوات بهذه الحلقة التي نختم فيها بعد قليل هذا اللقاء أنَّ العلم قد خُتِمَ عليه أو قد انتهى؛ فالعلم لا يَنتهي، ولذلك لا بدَّ على طالبِ العلم أن يَحْرِصَ على طلب العلم، وأن يسلك السبلَ المؤدية إليه؛ لأن العلمَ ليس له زمانٌ وليس له مكان، وكان السلف -رضوان الله تعالى عليهم أجمعين- يرحل الواحد منهم لكي يتلقى العلم في المكان الذي يستطيع أن يرحل إليه، ولا يمنعه من طلب العلم كِبَرُ سِنٍّ أو غير ذلك.

ومن نصيحتي لطلاب العلم أن يجمع الإنسان هَمَّه على شيء واحد، بدلا من أن يشتت نفسه بين كثير من الفنون والعلوم، نحن يجب علنيا أن نتعلم من العلوم الشرعية ما يجب علينا أن نَتَعَلَّمَه ونحتاج إليه في أصول ديننا عقيدةً وفي عباداتنا التي نَتَوَجَّهُ بها إلى رب العزة والجلال، ولذلك أنا أكرر دائما أمام أبنائي من طلاب العلم: اهتموا بأمرين مهمين ضروريين: صحة الاعتقاد، وصحة العبادة؛ لأن الاعتقاد تقف به بين يدي الله -عزّ وجلّ-، والعبادة تقوم بها متعبدا لربّك ومولاك -سبحانه وتعالى-، فتجمع همك على طلب العلم لأمرٍ محددٍ معلومٍ، وتسير على نسقٍ صحيحٍ. إذا بدأت في الفقه مثلا؛ فاستمر فيه، ثم بعد ذلك انتقل إلى علم آخر؛ لكي تُؤَصِّلَ نفسك في العلوم الشريعة بعد أن تأخذ -إن أردت في البداية- من كل شيء بطرف.

ولا يسعني في هذا اللقاء وفي نهايته وقد أبلغني أخي وحبيبي ورفيق دربي في هذه الحلقات المباركة وما قبلها من حلقات بأن هذه الحلقة هي نهاية المطاف، حتى كاد الإنسان أن يبكي لفراق هذه الرفقة الصالحة الطيبة، التي ما كنت –والله– أود أن أتركها بحال، ولكن هذه سنة الله –تبارك وتعالى– في الحياة؛ فالإنسان إما أن يرحل عن رفقائه؟، أو أن يرحل رفاقه عنه. ولذلك لا يَسَعُنِي في ختام هذه الحلقات إلا أن أشكر رب العالمين العزة والجلال –سبحانه وتعالى– أولا على توفيقه وامتنانه؛ فهو الذي قدر لنا هذا الخير، ساقنا إليه، وشرح صدورنا لكتاب ربنا –سبحانه– وعلمنا ما شاء ربنا أن يُعَلِّمَنا إياه، وأسأل الله –عزّ وجلّ– أن يَجْعَلَنا من الذين يَستمعون القول فيَتَّبِعُون أحسنه، وأن يجعل ما قلناه وما تعلمناه زادا نَقِفُ به بين يديْ رب العزة والجلال –سبحانه وتعالى–.

والله إني لأرجو وأطمع أن تكون هذه الحلقات ذُخْرًا لي بين يدي رب العباد –سبحانه وتعالى–؛ فهي من أرجى الأعمال إلى قلبي وأحبّها إليّ، وأتقدم بها إلى رب العالمين –سبحانه وتعالى– لأَنَالَ الأجر منه، ثم أشكر أخي الأستاذ عبد الرحمن نبيل، وكم أتْحَفَنا في بداية كل حلقة بصوت نديٍّ شَجِيٍّ جزاه الله –تبارك وتعالى– خيرًا. ولا يفوتني أن أشكر في ختام هذا اللقاء الأستاذ الذي تَفَضَّلَ أيضا ودعانا لهذه الحلقات محمد توفيق مدير إدارة البرامج بقناة المجد في هذا الفرع المبارك، ولا يفوتنا مَنْ كان يسعى ويخرجنا على الهواء مخرجنا القدير الأستاذ أشرف فكري جزاه الله –تبارك وتعالى–.

ومسك الختام الصلاة على خير الأنام –صلى الله عليه وآله وسلم–.

بالنسبة لأسئلة الحلقة السابقة كان السؤال الأول:

ما حكم التبني في الإسلام؟ وماذا نفعل إذا لم نعرف والد الْمُتَبَنَّى؟

وكانت الإجابة:

التبني محرم شرعا؛ لأنه ليس ابنا من الصلب، وإننا إن لم نعرف والد المتبنى؛ فإننا نتخذه أخا في الإسلام كما خَصَّت الآية.

الإجابة صحيحة.

السؤال الثاني:

من هم أولو العزم من الرسل؟ وما المراد بالميثاق الذي أخذه الله عليهم؟ مع ذكر الدليل.

وكانت الإجابة:

أولو العزم ذُكروا في سورة الأحزاب، وفي الشورى في قوله تعالى: ؟ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ؟ [الأحزاب: ٧].

وفي الشورى قوله –سبحانه وتعالى–: ؟ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ؟ [الشورى: ١٣] والميثاق الذي أخذه الله على الأنبياء هو الإيمان بالنبي –صلى الله عليه وسلم– والدليل ؟ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ؟ [آل عمران: ٨١].

الجواب صحيح.